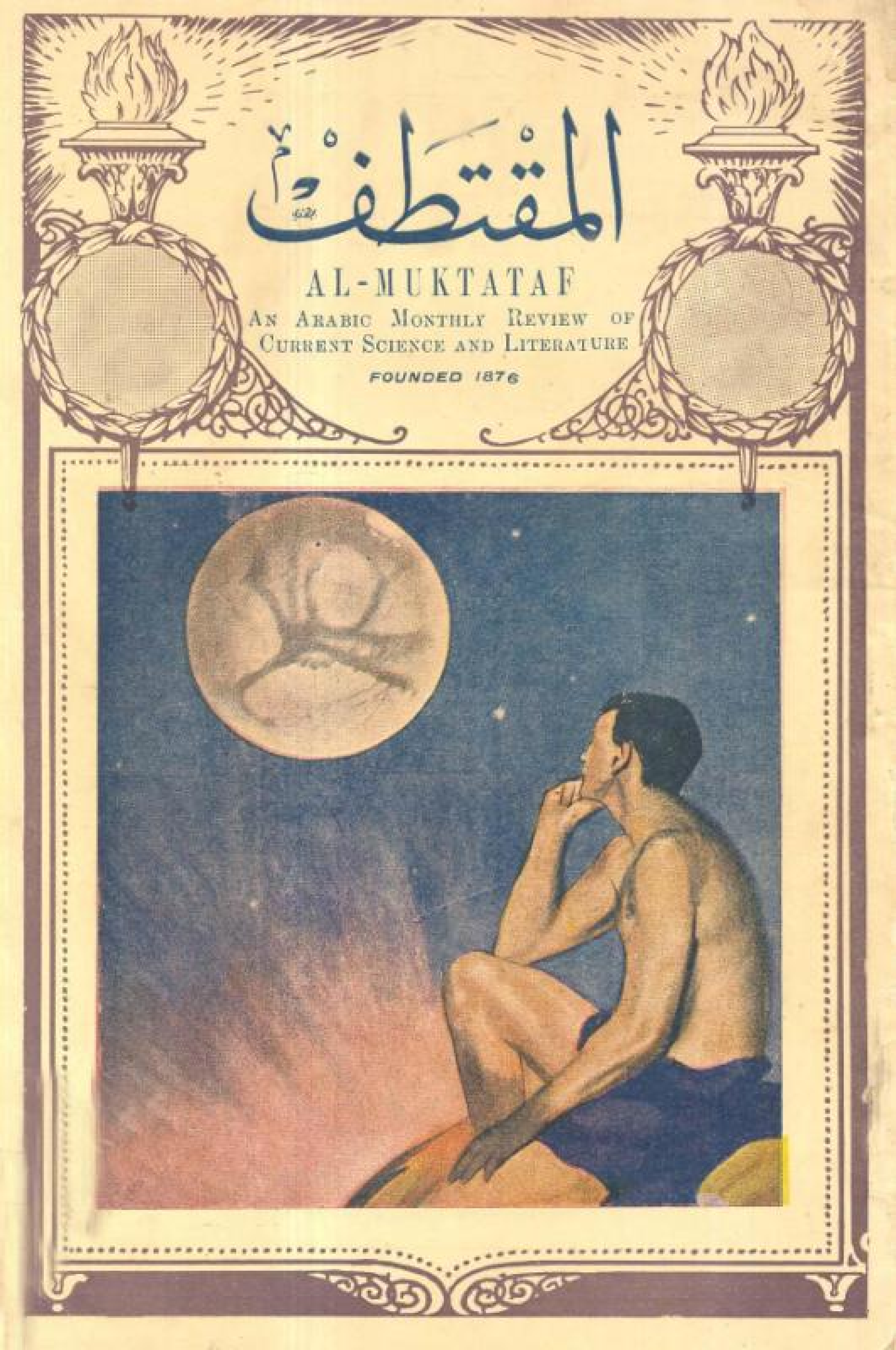
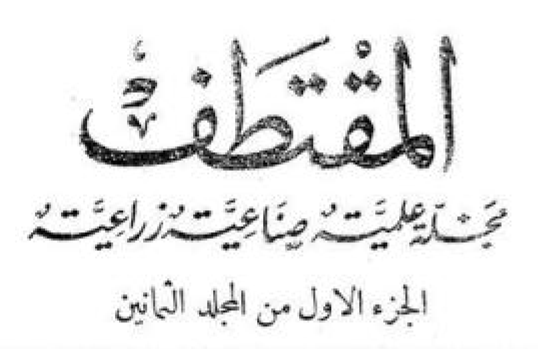

المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876





المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الاول من المجلد الثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٢ — ٢٢ شعبان سنة ١٣٥٠

رواية «الالكترون» وأبطالها

رواية « الالكترون » ايها السادة ، رواية ذاتُ اربعة فصول وملحق ، تنطوي على مشاهد من اعجب ما تستطيع ان تبدعهُ مخيَّلة الروائي اثارةً للعواطف وافتناناً في جمع الغرائب وتأديتها . وهي كذلك تدور على اشخاص يصحُّ ان نعدهم أبطال الرواية . فثمة ، مكتشف الالكترون ، ومصوّره ، ووازنهُ ، ومكتشف نسيبهِ البروتون ، وجماعة محوّليهِ من شيءٍ مادي الى شيءٍ سحريّ ، ورهطٌ كبيرٌ من الباحثين يدور حول هؤلاء ، ولكلٍ نصيبهُ من الفخر وان ضاق نطاق هذه المحاضرة عن ذكرهم جميعاً . اما الالكترون فهو اصغر ما عُرف من مقوّمات بناء المادة . فذرة الايدروجين تفوقهُ نحو الفي ضعفٍ وزناً . ولا بدَّ من احتشاد عشرات آلاف الملايين من ذرات الايدروجين حتى تكوّن دقيقة مادية نستطيع رؤيتها

— ١ —

في سنة ١٨٩٧ ، اذ كان الاستاذ كوري وزوجتهُ ، ماضيين في تنقيبهما عن عنصر الراديوم حلَّ احد اسياد البحث الطبيعي الحديث ، مشكلةً معقدة تتعلق ببناء المادة الاساسي ، او على الاقل شقَّ طريقاً جديداً قد يفضي الى الحل النهائي

ولد طمسن (J. J.) قرب منشستر سنة ١٨٥٦ وكان في نيتهِ اولاً ان يصبح مهندساً ولكنَّ هذا الاميرّ بين العلماء ، أقبل على البحث العلمي المجرّد ، لانهُ لم يفلح في بعض الموضوعات التي تقتضيها الشهادة الهندسية ! فحضر كلية اون بمنشستر ، وكانت قد خصصت فيها حينئذٍ

جائزة للبحث العلمي في احد موضوعات الكيمياء ، لذكرى جون دلتن صاحب المذهب الذري في بناء المادة . فلم يلبث ان خرج من كلية اوِن الى جامعة كمبردج ، حيث اضاف اسمهُ الى اسمي مكتشفي الذرات والجزيئات ، باكتشافهِ الالكترون — فاصبح هذا الثالوث مؤلفاً من دلتن وافوغاردو وطمسن.

في جامعة كمبردج كان لورد راليه مديراً لمعهد كافندش العلمي . وراليه كان خلفاً لذلك العالم الطبيعي العظيم — جيمز كلارك مكسول — في منصب علم الطبيعة التجريبي . ولكنهُ بعد انقضاء خمس سنوات على تعيينهِ في هذا المنصب عزم على الاستقالة (١٨٨٤). فطلب اليهِ ان يقترح اسم من يخلفهُ في هذا المنصب العلمي الخطير ، فاشار من دون اقل تردد الى الشاب الذكي ، الالمعي جون جوزف طمسن . فاحدث النبأ لغطاً في دوائر العلم ، اذ كيف يخلف فتى في الثامنة والعشرين مكسول وراليه العظيمين ؟!

كانت دلائل الالمعية قد بدت في مباحثهِ ، وكان قد نال احدى الجوائز العلمية في الجامعة وهو في الخامسة والعشرين ، على رسالة بيّن فيها مواطن الضعف في المذهب القائل بأن الذرات المادية هي زوابع او دوّامات في الاثير . ولا ريب في ان هذه الرسالة نالت اعجاب العلماء في دقتها وقوة حجتها . ولكنهُ كان حديث العهد بالطبيعة التجريبية . فكيف يشرف على اعظم معهد للطبيعة التجريبية في العالم ، مَنْ لم يمارسها ويقتلها تجربة ومرانة

واجتمع المجلس الذي عهد اليهِ في انتخاب الاستاذ الجديد — وكان مؤلفاً من لورد كلفن والسر جبرائيل ستوكس والاستاذ جورج داروِن — فتداولوا ، ووقع اختيارهم بالاجماع على الفتى القادم من منشستر . فما أعلنت نتيجة الانتخاب حتى قال احد كبار الاساتذة تهكماً «هذه ظلال كلارك مكسول ! لا بدّ ان تكون الامور على غير ما يرام في جامعة نيوتن اذ يصبح الصبيان فيها اساتذة»

وهكذا اتيح لفتى في الثامنة والعشرين ان يشغل منصبَ اثنين من اكبر اعلام الطبيعة الحديثة . ولكن معمل كافندش اصبح بزعامتهِ ، زعيم المعاهد العلمية في العالم في البحث عن اسرار الطبيعة ومحاولة النفوذ الى خفاياها . هنا كانت تحلّق عقول الباحثين الى ذرى لا تسامى . وفي «قدس» هذا الهيكل العلمي ظلّت روح الفتى طمسن ترفرف مسيطرة ، اكثر من نصف قرن

رأى طمسن ببصيرتهِ النافذة ان في الكهربائية مفتاح اسرار الكون . فاتخذها ميداناً لبحثهِ . وكان قبيل دخولهِ جامعة كمبردج قد سمع عن انبوب زجاجي استنبطهُ رجل انكليزي آخر يدعى وليم كروكس . وكان كروكس يأخذ انبوبهُ هذا ، ويفرغ منهُ الهواء على قدر ما يستطيع ، تاركاً جزيئات قليلة فيهِ ثم يختمهُ ختماً محكماً ثم يمرُّ فيهِ تياراً كهربائيًّا فيشهد تألقاً بهيًّا عند المهبط — القطب السالب — . كيف يعلل هذا الضوء الغريب ؟ ان

الجزيئات القليلة في هذا الانبوب ينبعث منها ضوء ضئيل باهت وزجاج الجدران متألقة بألق اصفر مخضر (١)

ولكن هل هذا ضوء ؟ فالضوء كما اجمع كل رجال العلم الى ذلك الحين ، كان شيئاً غير مادي . وهذه الاشعة المنطلقة تخضع لجذب قطعة من المغنطيس المكهرب اذا أُدنيت من الانبوب . فدهش كروكس وتحير . ضوء ولكنهُ في الوقت نفسهِ مادة لا غش فيها ، فكيف يوفق بين هذين المتناقضين

ولما لم يجد كروكس اسماً لائقاً بهذه الاشعة قال انها حالة رابعة من حالات المادة — فلاهي غاز ولا سائل ولا جماد — واطلق عليها اسم « المادة الشاعة » . ومع ذلك ظلت حقيقتها سراً محجوباً عن الافهام . وكان كروكس لو علم على قاب قوسين او ادنى من اكتشاف الالكترون

على ان كروكس كان قد نفح العلم باداة للاكتشاف استعملها رنتجن فكشف عن الاشعة السينية وعمل طمسن بها العجب العجاب

اخذ طمسن يبني هذه الانابيب ويفرغ منها الهواء حتى بلغت لطافة الهواء داخل بعضها عشرين الف ضعف الطف من الهواء الذي نتنفسهُ . وكان معهُ سبعة طلاب في معمل كافندش فدعى احدهم ليساعده في امرار الكهربائية في الانابيب ، فامرا تيارات عالية الضغط وجعلا يراقبان الالق الباهي البادي في الغرفة المعتمة

ثم جعل طمسن يتأمل في انحناء هذه الاشعة بفعل المغنطيس . فانهُ اذا أدنى مغنطيساً من الانبوب الذي تنطلق فيهِ هذه الاشعة ، انحرفت الاشعة نحو المغنطيس كما تنحرف برادة الحديد . ثم غير احوال تجاربهِ العديدة فاستعمل انابيب على درجات متفاوتة من الافراغ ، واستعمل مواد مختلفة في القطب السالب ، وتيارات متباينة القوة من الكهربائية . وانقضت سنون وهو يغير احوال التجارب ويدون ملاحظاتهِ

وفي سنة ١٨٩٠ تزوج وسنة ١٨٩٤ انتخب رئيساً للجمعية الفلسفية في كمبردج ثم دعي الى جامعة برنستن الاميركية فحاضر فيها في موضوع (التيارات الكهربائية في الغازات) وكان في اثناء ذلك كلهِ ينشئ نظرية جديدة — لم يحلها منزلة الاعتقاد ، لان النظرية عندهُ انما كانت خطة للعمل ودليلاً

كان بحث فاراداي في « الحل الكهربائي » قد حمله على الاشتباه في وجود ذرات من الكهربائية . وكان هلمهلتز قد تجرأ سنة ١٨٨١ وصرح امام الجمعية الملكية بان « الكهربائية مجزأة الى قطع اولية تتصرف كأنها ذرات كهربائية » وفي تلك السنة نفسها ، كان طمسن —

(١) لم يكن كروكس اول من شاهد هذه الاضواء بل سبقه اليها طبيب انكليزي يدعى وليم وطسن اذ امر تياراً كهربائياً من جرة ليدن في انبوب طوله ثلاث اقدام مفرغ بعض الافراغ من الهواء

وهو في الخامسة والعشرين قد وزن كتلة كرية من لب عود قبل كهربتها وبعدها ليعلم هل للكهربائية وزن . ثم امتحن شحنة كهربائية متحركة فوصل الى النتيجة الآتية : ان للشحنة الكهربائية ، قصوراً ذاتياً — وهذه صفة من صفات المادة

وعاد طمسن الى كمبردج من اميركا ووالى مباحثهُ . ثم في مساء ٣٠ ابريل سنة ١٨٩٧ اعلن امام الجمعية الملكية النتيجة الفاصلة بين عهدين ، في تاريخ الطبيعة الحديث اذ قال : ان اشعة المهبط هي دقائق من الكهربائية السلبية . فانكر بذلك ان الذرة هي نهاية ما تتجزأ اليهِ المادة . وقد كانت الذرة ، منذ اثبت دلتن وجودها سنة ١٨٠٠ تحسب الدقيقة الاساسية التي تبنى منها المادة ، بل كل اشكال المادة في الكون . ولكن ها هوذا طمسن يفسد هذا الاعتقاد . وكان روبرت بويل ، الكيماوي البريطاني العظيم قد قال بأن العناصر هي « حدود التحليل الكيماوي » « وان حلّها بطريقة نعرفها متعذر » ثم اضاف الى ذلك « ولكن قد توجد طريقة تبلغ من القوة والحيلة ما تمكننا من حلها الى دقائق اصغر وأبسط منها » . ولا ريب في ان بويل لم يتصوَّر قط علم الطبيعة الجديد ولا علم الكيمياء الجديد . ولكن طمسن تصورهما وكان من بناتهما . فانهُ كان شديد الثقة ببساطة الطبيعة فقال لابدَّ ان يوجد شيء ابسط من ٩٢ ذرة مختلفة من ذرات المادة مميزة احداها عن الاخرى — وهذا الشيء الذي تتألف منهُ اشعة المهبط دعاه — الالكترون

هذه الالكترونات كانت قبل انطلاقها جزءاً من الذرات التي انطلقت منها . وهي متشابهة مهما تختلف المصادر التي تنطلق منها . وهي ذرات من الكهربائية السالبة ، ولها وزن وتنطلق بسرعة ١٦٠ الف ميل في الثانية ، وكل عنصر من العناصر الاثنين والتسعين مبنيٌّ منها

هذا ملخص الحقائق التي اعلنها طمسن للعالم . فهل يصدقهُ العلماء الذين يحترمون نفوسهم؟ لم يكن طمسن مشعوذاً ، بل كان غرضهُ الحقيقة ، كما كانت غرض المرتابين المترددين . لذلك آلى على نفسهِ ان يثبت صحة وجود الالكترون بوزن كتلتهِ . لا نعرف رجلاً أخذ على عاتقهِ عملاً اصعب من هذا العمل ! ولا يُعلم عن رجل غير متصف بلباقة طمسن وألمعيتهِ وخيالهِ كان يستطيع ان يصيب النجاح

— ٢ —

قلنا ان هذه الاشعة المنطلقة في انبوب من انابيب كروكس تنحرف اذا أُدنيت قطعة مغنطيس الى الانبوب . فقاس طمسن مدى هذا الانحراف ، وقوة المغناطيس ، وفي تيهٍ من الارقام والمعادلات والاحصاءات ، وصل الى رقم قال انهُ النسبة الثابتة بين الشحنة الكهربائية على الالكترون وكتلتهِ . ثم قال ان وزن الالكترون اقلّ نحو الفي ضعف من وزن ذرة الايدروجين وهو اخف العناصر على ما نعلم

على ان العالم لم يصدق ، رغم العجائب العلمية التي توالت في مختتم القرن التاسع عشر . وظل الريب ، في نفوسهم ، يحيط بنتائج طمسن ، وحتى طمسن نفسهُ لم يكن مقتنعاً كل الاقتناع بدقة النتائج التي وصل اليها

فدعا اليهِ تلاميذه ، وتحدث اليهم في موضوع الالكترون ، ثم التفت الى احدهم وكان يدعى ولسن (C. T. R.) وقال له ، بطريقتهِ التي تثير في نفس الطالب نزعة التسامي والتفاني: هل تستطيع ان تصوّر الالكترون ؟ فلم يبق امام التلميذ الاَّ ان يحاول . وكان الفتى ولسن قد جاء من كلية اوِن — التي جاء منها طمسن نفسهُ — وكان طمسن قد لاحظهُ وهو يجرب تجاربهُ بآلة استنبطها لاحصاء دقائق المياه والغبار . فان ولسن كان قد لاحظ ان دقائق الغبار تتصرف كأنها نوى يتكثف عليها البخار في احوال معينة — إذ يبرد الهواء بغتةً بالتمدد . فدقائق الغبار اصغر من ان تصوَّر ، ولكن اذا تكثف البخار المائي عليها أصبح تصويرها ممكناً . وهكذا استنبط آلتهُ الدقيقة لاحصاء ذرات الغبار في قدر معين من الهواء

فهل يستطيع ، محصي دقائق الغبار ، ان يلقي اليد على الالكترون ولو لحظة عابرة لكي يصوره؟ انهُ عمل اشبهُ شيءٍ بالاعجاز . ولكن ليس ثمة محال على تلميذ « الاستاذ » . وبدأ ولسن يشتغل ببناء آلتهِ لتصوير الالكترون . وانقضت شهور تليها شهور . واكتشف الاستاذ كوري وزوجتهُ الراديوم ، وتلت مدام كوري رسالتها الخالدة في الاشعاع ، وسافر طمسن ثانية الى اميركا للمحاضرة في جامعة جونز هبكنز ، وعاد منها تثقله الألقاب العلمية وولسن مكبٌّ على عمله الدقيق . وفي سنة ١٩١١ — اي بعد انقضاء نحو ١٤ سنة — اتمَّهُ . انهُ آلة دقيقة غاية في الدقة . فاللوح الفوتغرافي في اطار خشبي خفيف جداً ومعلق بخيط من الحرير فوق المدخل الخاص بها الى صندوق من المعدن الخفيف . فاذا بدأت الالكترونات تنطلق انزل اللوح الى مكانهِ بواسطة ونشٍ خاص . ووضع كل هذا في صندوق زجاجي وافرغ منهُ الهواء . انها آية في احكام الصناعة ودقتها . فهل تصلح لما صنعت له ؟

هذا هو الدليل[1] الذي لا يمارى فيهِ على صحة وجود الالكترون

— ٣ —

في اثناء ذلك كان في المختبر العلمي في جامعة شيكاغو شاب اميركي — روبرت اندرو مليكن — توفر في حداثتهِ على درس الأدب اليوناني ثم علم الطبيعة ليكسب منها ما يمكنهُ من تكملة دروسهِ ففتن بها . وكان قد قرأ بعناية انباء التجارب العلمية التي اجراها طمسن وتلاميذه ، وأكبَّ على بناء آلة جديدة

(١) انظر الصورة التي صورها ولسن لاثر الالكترون

كانت هذه الآلة مؤلفة من لوحين من النحاس ، احداهما فوق الاخرى والمسافة بينهما نحو ثلث بوصة . وفي وسط اللوحة العليا نقر ملكن نقرةً قطرها قطر ابرةٍ وأضاء الفضاء بين اللوحين بمصباح كهربائي قوي ، ثم وصل اللوحين بسلكين ممتدين من بطرية كهربائية ضغطها نحو عشرة آلاف فولط . ثم اخذ رشّاشة عادية — كرشاشة ماء الكولونيا — ورش بها فوق اللوحة العليا قطرات دقيقة من الزيت لا يزيد قطر الواحدة منها على ١/٢٠٠٠٠٠ من البوصة . وكان ملكن واثقاً بأنهُ لا بدّ لقطرة من هذه القطرات ان تصل الى النقرة التي في اللوحة العليا فتمر منها الى الفضاء الكائن بين اللوحين . فكان يجلس ساعات متوالية يراقب هذا الفضاء بعين المكرسكوب حتى يرى هل دخلت هذه القطرة كما كان ينتظر . واذا بهِ فجأة يرى قطرة لامعة هابطة من فوق الى تحت . كأنها نيزك هاوٍ ببطء فأعاد التجربة مراراً ليتأكد من اتساق حركتها . فانها كانت تستغرق نصف دقيقة في هبوطها من اللوحة العليا الى السفلى ، ولو عكس استقطاب اللوحين الكهربائي

هنا عمد ملكن الى امرٍ عجيب . قال سوف احاول ان اجرّد الكتروناً من هذه القطرة الزيتية ، وذلك باستعمال الراديوم . فحمل انبوباً يحتوي على الراديوم ووجهه حتى تقع اشعتهُ على قطرة الزيت فتصدمها وتطير احد الكتروناتها . فلما فعل ذلك ، لاحظ امراً اعجب . ذلك ان القطرة الزيتية الهابطة ، ابطأت سرعة هبوطها فعلم ملكن حينئذ ان القطرة لم تعد متعادلة الكهربائية وانها خسرت بعض الكتروناتها فأصبحت كهربائيتها موجبة . ومن ملاحظة ما اصاب سرعتها من التخفيض تمكن من احصاء الكهارب التي طارت منها بفعل الراديوم . فقد لاحظ مثلاً ان سرعة القطرة لا تكون الا مضاعف سرعة معينة او ثلاثة اضعافها او اربعة اضعافها وحينئذ قرَّر ان اقل قدر تبطيء بهِ القطرة سرعتها ، ناشيء عن فقد الكترون واحد

ولم يبقَ على ملكن بعد ذلك ، الا ان يعيد التجربة مئات المرات ، ويتقن وسائلها ، ويدقق في مشاهداته ونتائجهِ — فخرج منها كلها بنتيجة ان الالكترون هو ١/١٨٣٥ من ذرَّة الايدروجين وهي نتيجة تتفق مع نتيجة طمسن النظرية اذ قال انهُ نحو ١/٢٠٠٠

فلما سمع طمسن بهذا البحث العلمي العجيب في دقتهِ لم يستغرب انهُ استغرق ثلاث سنوات كاملة . وليس من الغريب ، ان يبقى الالكترون طول هذه المدة مختفياً عن الناس . فان اصغر دقيقة مادية نستطيع رؤيتها تحتوي على نحو عشرة آلاف مليون جزيء ، والجزيء مؤلف من عدة ذرات وأخف ذرة تفوق الالكترون ١٨٥٠ ضعفاً في كتلتها !

وما معنى كل هذه التجارب وما النتائج التي نخلص اليها منها ؟ انها تعني امراً واحداً وهو ان المادة والطاقة الكهربائية شيء واحد . فالالكترون — وهو دقيقة من الكهربائية السالبة — يدخل في بناء كل ذرة . ولكنهُ جزء فقط من الذرة ، فما هو الجزء الآخر ؟

— ٥ —

لنرجع الى معمل كافندش بجامعة كمبردج ، اذ كان بين معاوني طمسن فيه ، طائفة من اكبر علماء الطبيعة المعاصرين .كان عددهم قليلاً لضيق النطاق في المعمل . ولكن طمسن لم يلبث ان فتح ابوابه للطلاب المختارين لانهُ كان يعلم ان لا بدَّ من فتح ميادين جديدة في علم الطبيعة ، ولا مندوحة في ذلك عن « دمٍ جديد » . ففي يومٍ واحدٍ من شهر اكتوبر سنة ١٨٩٤جاءه اثنان — احدهما رذرفورد من زيلندا الجديدة

كان ارنست رذرفورد قد قطع الشقة الطويلة بين زيلندا الجديدةوكمبردج ، لأنه كان قد سمع في بلاده باسم هذا المعمل الذي يرفُّ روح العلم في جوه . الى هنا كان النوابغ من الطلاب في كل انحاء العالم ، يحدون المسير ، للكفاح في ميدان النفوذ الى اسرار الطبيعة . هنا كان يجتمع ابناء الاسر الكريمة والقصور الفخمة ، يتنافسون مع ابناء الفلاحين في سبيل تلك الغاية المجيدة . هنا كنتَ تستنشق مع الهواء نفساً معطراً باجلال العلم المجرَّد

كان رذرفورد قد نال اعلى جوائز الرياضة والعلم في الكلية التي تخرج منها ، فتمكن من الحصول على جائزة فتحت امامه باب التخصص في انكلترا . فلما لمح كلية ترنتي — قفز قلبه فرحاً . في هذا الهيكل قدسُ نيوتن ومكسوِل ! واذ وقف امام النوافذ الزجاجية الملونة ، آلى على نفسه ان يكون جديراً بهما

وفي الحال اتصلت شعلة « السيد » بروح تلميذه الجديد . فقلما كنت تجده لاهياً لاعباً مع الطلاب . بل كان ينفق كل دقيقة من وقتهِ في البحث والامتحان.وظل على ذلك اربع سنوات وفي نهايتها طلب الى طمسن ان يختار من تلاميذه رجلاً يشغل منصب استاذ « الطبيعة » في جامعة « ما كجل » الكندية .ولو انه اغمض عينيه واختار ايًّا تقع عليه يده ، لكان اصاب . لأنهم كانوا كلهم جديرين بذلك . ولكن ارنست رذرفرد كان في نظره اللؤلؤة البهية في ذلك العقد النظيم .كان قد راقبه في المعمل ، لبقاً ألمعيًّا ، لا يني ، يجرِّب التجارب فكأن له اصابع العازف وخيال الشاعر . وكان طمسن يكره ان يبعده عنه ، ولكنه كان عارفاً ان المجال في « ما كجل » ينفسح امام رذرفرد فيأتي العجائب

وقبل ان يبرح رذرفورد جامعة كمبردج ،كان قد اشترك في المباحث التي دارت فيها حول مكتشفات رنتجن وبكرل ومدام كوري . هذا ، ميدان بكر ، حافل بالممكنات العظيمة فاختاره ميداناً لبحثه . وبدأ بعنصري الاورانيوم والثوريوم . فلم تنقض عليهِ سنة واحدة حتى لاحظ في عنصر الثوريوم ظاهرة غريبة . ذلك انه لاحظ ان هذا العنصر يطلق قدراً ضئيلاً جدًّا من غازٍ قويّ الاشعاع . فأجرى التجارب الدقيقة اللازمة لتقرير طبيعة هذا الغاز فدهش اذ رأى انه مادة لم تكن معروفة من قبل فدعاه انبثاثاً (Emanation)

وسار التلميذ رذرفورد في اثر استاذه طمسن فاحاط نفسه بطائفة من نوابغ الطلاّب ، وكان احدهم من جامعة اكسفرد يدعى فردرك صدي ، فاشركهُ في البحث . وفي سنة ١٩٠٢ نشر رذرفورد وصدي مقالاً في المجلة الفلسفية بسطا فيهِ رأياً جديداً في ظاهرة الاشعاع

قالا ان ذرات العناصر المشعة ليست ذرات مستقرّة . بل هي دائماً في سبيل التحوُّل والانحلال . وفي اثناء هذا التحول والانحلال ، تطلق دقائقَ موجبةَ الكهربائية دعاها رذرفورد « اشعة الفا » . وان ذرات الراديوم ، تجري على ذلك بقوة داخلية ، لا سيطرة للانسان عليها — اسراعاً وابطاءً — مهما ارتفعت درجات الحرارة ، او انخفضت درجات البرد ، او قويت درجات الضغط

واذ كان رذرفورد في حاجة الى آلة تمكنهُ من متابعة مباحثهِ الاخّاذة ، استنبط كروكس آلة بسيطة (١٩٠٣) كأنها لعبة من لعب الاطفال . وكانت آلة كروكس انبوباً من المعدن ، في احد طرفيهِ عدسةٌ ، وفي الطرف الآخر ستارٌ متألقٌ يغشاهُ ملح كبريتور الزنك ، وامام الستار حبة دقيقة من ملح الراديوم ، لا تزيد على رأس دبوس

فكان رذرفورد ، يريح عينيهُ في غرفة معتمة نحو ربع ساعة ، ثم ينظر في عدسة هذه الآلة ، فيرى وميضاً من النور . كانت كلُّ ومضة دليلا حسيًّا على انطلاق دقيقة من دقائق الفا من ذرة الراديوم . وهي كذلك رسولٌ ينبيء بانحلال عالمٍ كائن في الذرّة . فاحصى عدد الومضات في الثانية ، وكان يعرف وزن الراديوم في تلك الحبة الضئيلة ومنها استنتج رذرفورد سرعة انحلال الراديوم فوجد ان الراديوم يفقد نصف قوتهِ بعد ١٧٠٠ سنة . فعل بطيءٌ ، ولكن لا ريب فيهِ ! وكان صُدي قد عاد الى اوربا فاجرى تجارب على مثال تجارب استاذهِ ، فجاءت نتائجهُ مؤيدة لها

ثم ظهر ان هذا الانحلال بانطلاق دقائق « الفا » حادث في عنصر الاورانيوم ، ولكنهُ ابطأ جدًّا فيهِ ، منهُ في عنصر الراديوم . فغرام من الراديوم يفقد نصف قوتهِ في ١٧٠٠ سنة ولكن غراماً من الاورانيوم لا يفقد نصف قوتهِ الاّ بعد ستة آلاف مليون سنة . حقائق تبعث على الدهشة ، ونظرية جريئة ، وكلُّ ذلك من شاب لم يكد يعدو الثلاثين وفتى لا يزال في الخامسة والعشرين ! ان بناء الكيمياء القائم على استقرار الذرات اصبح بعد هذه المقالة كأنه على رمل مترجرج او جرف هار !

تقدّم معنا ، ان طمسن اكتشف ان الاشعة السلبية المنطلقة من المادة في انبوب كروكس هي دقائق سلبية من الكهربائية — دعاها الالكترونات . وهنا ساءل رذرفورد نفسه ، وما عسى هذه الدقائق الايجابية ان تكون ؟ ولماذا تنطلق من كل العناصر المشعة ؟ كان يعلم ان دقائق الفا تنطلق بسرعات عظيمة تمكنها من خرق ورقة رقيقة ، بل تمكنها من ان تخترق لوحاً رقيقاً من

الزجاج. فعزم رذرفورد ان يلقي القبض عليها ويفحصها بسبكترسكوبهِ الدقيق

وليس بالعمل اليسير أن تصنع الآلة اللازمة لذلك . فقضى رذرفورد زمناً يبني الانابيب التي ظنها تفي بحاجتهِ ويحطمها . واخيراً وفق الى صنع أنبوب داخل أنبوب . فملأ الانبوب الداخلي « بانبعاث » راديومي ثم ختمهُ ثم وضعهُ في الأنبوب الآخر وافرغ ما بينهما من الهواء وختم الثاني وهو يعلم ان لا شيء يستطيع ان يخترق جدران الانبوب الداخلي ، الاّ دقائق الفا . ولكنهُ لشدة دهشتهِ وجد حين امتحن ما تسرب من الأنبوب الداخلي الى الانبوب الخارجي ، أن الدقائق الموجودة هي ذرات عنصر الهليوم . فاعاد التجربة مراراً حتى تثبَّت من صحتها . ثم أعلن اكتشافهُ هذا قائلاً ، ان دقائق الفا المنطلقة من العناصر المشعة في أثناء انحلالها إنما هي ذرات مكهربة كهربة موجبة من عنصر الهليوم . حقيقة غريبة ! ولكن الناس صدقوا — لأنهم تعلموا ان يصدّقوه . فلما سمع طمسن بهذه التجربة البسيطة البديعة هزّ رأسهُ اعجاباً . واعترف الملك جورج الخامس بمآثر رذرفورد العلمية فنحهُ لقب « سر » — وقد منح من سنةٍ لقب « لورد »

***

ثم نشبت الحرب الكبرى وتحوّل البحث الطبيعي المجرّد ، إلى بحث علمي عملي يرتبط بوسائل الكفاح ، وانصرف اليه طمسن ورذرفورد وتلاميذهما . ولما وضعت الحرب اوزارها ، واستقال طمسن من منصبه في جامعة كمبردج عُيّن رذرفورد مكانهُ ، عميداً لكلية ترنتي ، ومديراً لمعمل كافندش

على ان الحرب لم تصرف رذرفورد عن التفكير في طبيعة بناء الذرة . فاستاذهُ طمسن كان قد كشف عن الجزء السالب فيها . فقال هو لا بدّ ان يكون في كل ذرة جانب موجب يعدل الجانب السالب . نخالفهُ في ذلك بعض من علماء العصر واشهرهم ارهينيوس الاسوجي . فعزم رذرفورد ان يحاول اثبات وجود جانب موجب الكهربائية في الذرة . . . وهنا كان لخيال رذرفورد المبدع أكبر أثر في رسم الطريق

قال : اذا شئت ان تفتتح معقل الذرة ، فعليك أن تستعمل مقذوفات تدخلهُ . ولكن هذه المقذوفات يجب أن تكون على جانب عظيم من القوة لتمزيق اوصالهِ . إن اقوى أنواع القنابل ضعيفة هزيلة ازاء المقذوفات التي يجب أن يطلقها . وكان رذرفورد يعلم كل شيء عن دقائق الفا ، والقوة العظيمة المدخرة فيها . فان سرعتها في انطلاقها تمثل ضغط سبعة ملايين فولط ! وهي تنطلق من الراديوم بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية — سرعة لو سرنا بها الى

الشمس لوصلناها في نحو ساعتين — ! قال رذرفورد هذه هي مقذوفاتي المنشودة . فلأطلقنها على غاز النتروجين

وفي يونيو سنة ١٩١٩ استعمل رذرفورد مصوّرة ولسن لتصوير مساري دقائق الفا ، التي أطلقها على غاز النتروجين . قال في نفسه ان الكترونات ذرات النتروجين لا تؤثر في مسير هذه الدقائق لانها — أي الدقائق — اكبر حجماً ومندفعة بزخم عظيم «فالالكترون لا يؤثر فيها اكثر من تأثير ذبابة في رصاصة بندقية » .وكان ينتظر ان يرى مسالك دقائق الفا خطوطاً مستقيمة . ولكنهُ لدى تظهير اللوح الفوتغرافي وتثبيته وجد واحدة منها قد انحرفت . فكأنها اصطدمت بكتلة أضخم منها واثبت ، فارتدت او حادت عن مسيرها المستقيم . فاذا في داخل الذرة كتلة صلبة تحرف هذه القذيفة المنطلقة بقوة تفوق ٤٠٠ ضعف قوة رصاصة بندقية

فما هي تلك الكتلة في قلب ذرة النتروجين ؟ هنا فحص رذرفورد الغازات بعد الاصطدام فعثر على ذرات ايدروجين لم تكن قبله . فذهب الى ان الكتلة في قلب عنصر النتروجين هي كتلة من ذرات ايدروجين مكهربة كهربة موجبة. وكان متأكداً من انه لا توجد طريقة اخرى لتعليل وجود ذرات الايدروجين . ومضى بمساعدة — شدوك — في اطلاق دقائق الفا على ذرات عناصر اخرى — كالصوديوم والالومنيوم والفصفور — وفي كل مرة كانا يجدان ذرات الايدروجين قد انطلقت من نواة الذرة التي أطلقا عليها دقائق الفا . ولم يبقَ امام رذرفورد الاّ حكمٌ واحد — وهو ان ذرة الايدروجين الموجبة ، يجب ان تكون في نوى كل ذرات العناصر

اذن صار عندنا ما يقابل الالكترون. فهو الكمية الكهربائية السالبة — وذرة الايدروجين الموجبة هي الكمية الكهربائية الموجبة . فهي تنجذب بفعل المغناطيس وتتبع كل النواميس المقررة للالكترون . وانما الفرق بين الاثنين كان فرقاً في الكتلة — فالالكترون جزء من نحو الفي جزء من الدقيقة الموجبة . وفي الاجتماع الذي عقدهُ مجمع تقدم العلوم البريطاني في صيف ١٩٢٠ — اي بعد انقضاء ٢٣ سنة على اكتشاف الالكترون — أعلن رذرفورد اكتشافه قسيم الالكترون في بناء الذرة ودعاه « البروتون »

* * *

للرواية التي بسطت لكم فصولها ملحق ، يمنعني ضيق الوقت عن ايراده ، وهو يتعلق بالتحول الحديث الذي طرأ على آراء العلماء في طبيعة الالكترون والبروتون — ولعله يكون عنوان محاضرة اخرى او موضوع مقالة ننشرها في المقتطف

فؤاد صروف



حياتنا الجديدة

يجب ان تكون مليئة بالثقافة والنشاط

للآنسة «مي»

مهداة الى المجمع المصري للثقافة العلمية
بمناسبة انعقاد مؤتمره الثالث

تتوارد الاسماء عديدة في خاطري عند ما اتوق الى التفكير في مثل عليا للحياة المليئة النبيلة . ولكني اذكر بوجه خاص يعقوب بوهمه (Bœhme) الفيلسوف الالماني الروحاني الذي عاش في القرن السادس عشر . كانت المهنة التي يتعيش منها وضيعة حقيرة ، إلاَّ انه مع ذلك عكف على الدراسة والتفكير فحصل منهما على اكبر قسط يفوز به عالم وكانت حياته النفسية زاخرة واسعة فياضة بتلك العوامل التي تخلق من الفرد العاديّ شخصاً متفوقاً هو في الواقع من ابهى الأنوار الانسانية

ان قابلية اصطناع الثقافة والانتفاع بها في تكوين افراد ممتازين لا تحصر في حرفة ولا في مرتبة . هي ارث انساني عام . نجدها باديةً بين العبيد في شخص ابكتتس العبد الروماني الذي صار بعدئذ من اعظم فلاسفة الرواق ، كما نجدها في زميله الرواقي ، ماركس اوريليوس انطونيوس ، القيصر العظيم سيد روما في القرن الثاني قبل الميلاد ، الذي خاض المعارك ورفع من شأن بلاده وحارب ضد البرابرة المهاجين امبراطوريته فانتصر . على ان نشوة النصر وأبهة الملك لم تحل دون ثقافته الفكرية ونموه النفسي . فكان هو ايضاً في طليعة فلاسفة الرواق . و «أفكاره» التي سجلها لبني جيله وللآتين بعده تعدُّ انفس صفحة خطها صاحب عرش وتاج

قد يكون المرء من اوسع الناس ثروة ونفوذاً ومن ارغدهم عيشاً ومن اوفرهم خلاناً وهو مع ذلك يعبر الحياة شبحاً ويقضي شبحاً . أما اذا كان ذا ثقافة نيرة وحياة نفسية واسعة فلكل من كلماته مغزًى ، وفي كلٍ من اعماله مثل ، ينثر النور حوله في حياته حتى اذا قضى تجمع نوره لتتسع به وراثة النور بين ظلمات بني الانسان

ومن اظهر الفروق بين الاجيال الغابرة وجيلنا الحاضر ان الثقافة والعلم حتى الطب كانوا

في الماضي محصورين في فئة خاصة من الكبراء والكهان ،لذلك كانوا يحسبون « سحراً » . ولم يكن ليقتبس العلم من الصغار وبني الشعب غير الذين كانت مواهبهم اظهر من ان تتوارى وأقدر من ان تُخذَلْ . اما اليوم فالعلم ميسور للجميع ، وانتشار الثقافة وسهولة التحصيل من أهم مميزات عصرنا

والثقافة العصرية ميزة أخرى لمن يريد اصطناعها واستغلالها . فهي ليست نظرية صرفة تسجن صاحبها في « برج من العاج » ، ولا هي عملية صرفة تهبط بصاحبها إلى دركة العمل الآلي والانتاج في غير انتباه . بل هي تتناول النظريات لتوسع بها الفكر وتصقل الملكات وتغني النفس ، ثم تطبق تلك النظريات على الواقع وتحققها في الأعمال اليومية كبيرة وصغيرة فتثبت ان أجمل صيغ الحياة وأجلّها وأنفعها هي التي يمتزج فيها نبلُ المثل الأعلى وجدوى العمل المحكم

لا رقي للمجموع إلاّ بواسطة رقي الأفراد . ولا رقيّ للأفراد إلاّ إذا تجمعت فيهم شتى العناصر الصالحة التي تنشدها الانسانية من رشاد وتفكير وعمل ونشاط وصلاح واقدام. العمل بدون ثقافة حركة بغير بصيرة ، والثقافة بدون عمل بصيرة مشلولة . فلا بدّ من امتزاج هذه بذاك لتصبح النفس مليئة بالحبّ — ذلك الحبّ الذي يرهف الذكاء ، ويولّـد الحماسة ، ويذكي النشيط ويقوي ثقة الفرد بنفسهِ ويفرض عليهِ العمل الرشيد في سبيل الخير لجماعتهِ

كثيراً ما نسمع ونقرأ كلمات المباهاة بالماضي . ولكن علينا أن نذكر إن ليس للأجيال الحاضرة في ذياك الماضي يداً . ولا نفع لذكرى الماضي إلاّ إذا كانت حافزة لاستئنافهِ في الحاضر لاعداد المستقبل . لأن الشعوب لا تعيش على ماضيها . بل الماضي يحيا في نفسه وإن هو كان لهُ صوت فليفرض على الحاضر أن يكون حقيقاً بهِ . وقد استيقظت هذه البلاد باكراً منذ فجر التاريخ فخلقت حضارة اقتبس عنها الغرب ما اقتبس فأنماه إلى حدّ بعيد . وبالشرارة التي نستردُّها اليوم من الغرب علينا ان نحيي شعلة العبقرية السحيقة لنفهم أوعب معاني الحياة وأجمل وجوه الحياة ولنهتدي إلى أحكم وأصلح ما في الحياة من أسباب ووسائل

***

هذه خطرات هي في الواقع تمنيات لنا جميعاً في مطلع العام الجديد . وهي كذلك تحية لمجمع الثقافة العلمية بمناسبة انعقاد مؤتمره الثالث . إن أعضاء هذا المجمع الكريم رجال جمعوا في حياتهم بين نبل النظرية وإحكام العمل ، كلٌ في بابه الخاص وبمواهبه الخاصة . وبمؤتمرهم السنوي إنما هم يخرجون من دائرتهم المحدودة ليذيعوا الفائدة في الجمهور . فتحية حارة لاغراضهم النبيلة ومثلهم العالي ! تحية حارة لهذه النواة الحيوية التي يخلقها مجمعهم مؤدياً فيها أجمل مثالٍ من امتزاج النظرية والعمل !

« مي »

سبيل السلام

للعلامة اينشتين

يسمع الناس صليل السيوف في حين ان المعدات لعقد مؤتمر نزع السلاح قائمة في كل البلدان . وفي هذه المقالة دعاء حار يوجهه العالم الكبير الى الامم لمعالجة مسألة نزع السلاح من وجهة ادبية

ابدأ المقال بتقرير هذه العقيدة السياسية : ان الدولة انشئت لاجل الانسان ولم ينشأ الانسان لاجل الدولة . وما يصح في ميدان السياسة يصحُّ في ميدان الاقتصاد . وهذا مبدأ قديم وضعهُ الذين يُحِلّون الشخصية الانسانية في المقام الاعلى من الاجتماع . وكنت اتردّد في اعادتهِ ، لولا خطر نسيانهِ ، في عصر بلغ مبلغاً عظيماً من التنظيم والتجانس بين الافراد . فاعتقد ان رسالة الدولة هي حماية الفرد وتمهيد السبل له لانماء شخصيتهِ المبدعة

الدولة يجب ان تكون خادماً لنا . ولا يجب ان نكون نحن عبيداً لها . فالدولة تعتدي على هذه القاعدة اذ تحتم علينا الخدمة العسكرية ، خصوصاً اذ تكون هذه الخدمة المذلّة متجهة الى الفتك بابناء البلدان الاخرى او تقييد حريّاتهم . يجب الاّ نبذل في سبيل الدولة الاّ ما يؤدي الى نماء الشخصية الانسانية نماء حرّاً . قد يسلّم بعض الناس بهذه الاقوال على انها من قبيل الحقائق المعترَف بها . ولكن جماع الاوربيين لا يسلّم بها هذا التسليم . فالامل من الذين يسلّمون بها ان يؤيدوا المساعي المبذولة لمنع الحرب

وماذا نقول في مؤتمر نزع السلاح ؟ انضحك اذ نفكر بهِ او نبكي او نؤمّل ؟ تصوّروا مدينة مأهولة بقوم مطبوعين على الحدّة وحب النزاع . فالخطر الذي تتعرض لهُ الحياة دوماً يكون حائلاً دون النمو الصحيح . فعلى اصحاب السلطة ان يعالجوا الحال . ولكن اصحاب المناصب البلدية وسكان المدينة لا يسلّمون بالتنازل عن حقهم في حمل الخناجر . وبعد سنين من الاستعداد ، يعزم اصحاب السلطة ان ينظر في الموضوع فيعيّن للمناظرة العامة الموضوع الآتي: ما طول الخنجر الذي يجب ان يسمح بتقلدهِ لكل ساكن من سكّان المدينة

ولكن ما زال اصحاب السلطة لا يعاقبون — عن طريق القانون والمحاكم ورجال البوليس — الذين يطعنون غيرهم بخناجرهم فلا امل في تحسن الاحوال . ان تعيين طول الخناجر وحدّتها وسيلة يستعملها الاشداء المشاكسون فيصبح الضعفاء رهن رحمتهم او نقمتهم

والغرض من هذه المقابلة جليّ . لدينا جمعية امم ومحكمة دولية . ولكن جمعية الأمم

لا تعدو ان تكون مجتمعاً وليس للمحكمة الدولية وسيلة تنفذ بها احكامها. ان هاتين المؤسستين لا تضمنان سلامة بلد ما اذا هوجم او اعتدي عليه. فاذا تذكرنا هذا خففنا من غلونا في نقد فرنسا من حيث رفضها نزع سلاحها قبل التأكد من ضمانة سلامتها

فاذا كنا لا نتفق على تحديد سيادة الدول، واذا كانت الدول لا تتفق على ان تقاوم مقاومة فعلية كل دولة منها تخالف خلسة او علانية حكماً من احكام المحكمة الدولية، فلا سبيل الى الخلاص من حالة تنطوي على بزور فوضى عامة. إننا لا نستطيع ان نخترع وسيلة مصطنعة ما توفق بين سيادة الدولة المطلقة وضمانة سلامتها من الاعتداء عليها. فهل نحتاج الى كوارث اخرى — بعد الحرب الكبرى — لتتعلم الدول وجوب الوعد بتنفيذ كل حكم من احكام السلطة العدلية الدولية؟ ان سير الامور في السنوات الحديثة لا يكاد يبعث على الامل في تحسن الحال في المستقبل القريب. ولكنهُ يتحتم على كل صديق من اصدقاء الثقافة والعدل ان يقنع اصحابهُ بضرورة توحُّد دولي من هذا القبيل

ويعترض بعضهم بحق على ان النظر الى المسألة هذه النظرة يعلق الشأن الاكبر فيها على مجرد التنظيم الدولي، غافلاً عن الوجهة الروحية — وخصوصاً الوجهة الادبية. فنزع السلاح العقلي يجب ان يتقدم نزع السلاح المادي. فمن اكبر الحوائل دون تحقيق النظام الدولي المنشود ذلك الغلو القومي الذي يدعى خطأ بالوطنية. فقد اصبح لهذا الوهم، في القرن الاخير، سلطان مؤذٍ

ولكي نفهم هذا الاعتراض على وجهه الصحيح، يجب ان ندرك ان كلاً من الوجهتين التنظيمية والروحية تؤثر في الأخرى وتتأثر بها. فالجماعات المنظمة من جهة رهن بالمواقف التقليدية والعاطفية التي تنشأ منها وتعتمد في بقائها عليها. وهي من جهة اخرى تؤثر في هذه المواقف نفسها وتحولها. فيبدو لي كأن النزعة القومية التي بلغت ذروة من النمو والغلو، مرتبطة اوثق ارتباط بالتجنيد الاجباري، او تنظيم — جيش الشعب — كما يُدعى. ان الدولة التي تحتم على ابنائها الانتظام في الخدمة العسكرية، مجبرةٌ ان تكون فيهم نزعة عقلية قومية تكون اعداداً نفسياً لفائدتهم الحربية. ثم عليها ان تمجد امام الاحداث في مدارسها، اداة البطش، جنباً الى جنب مع الدين

فالجري على التجنيد الاجباري، هو في رأيي، العلة الاولى، لانحطاط الشعوب البيضاء انحطاطاً ادبياً — وهو انحطاطٌ يثير شكوكاً قوية في هل يتاح الاستمرار لثقافتنا — بل لوجودنا. وقد نشأت هذه اللعنة — مع حسناتها الاجتماعية الكثيرة — في الثورة الفرنسية ثم في مدى زمن قصير ذاعت في معظم الشعوب

وعليه، فكل من يريد أن ينمي النظرة الدولية الى شؤون العمران، ويكافح الغلوّ القومي، يجب أن يكافح التجنيد الاجباري

أنْ يرفض الانسان ، على اساس من العقيدة الادبية ، تأدية الخدمة العسكرية ، قد يعرّضهُ لاضطهاد عنيف . ولكن هل يكون هذا الاضطهاد اقلَّ اخجالاً للمجتمع من اضطهاد الشهداء الدينيين في العصور القديمة . انستطيع ان نحرّم الحرب (كما حرّمت في ميثاق كلوج) وفي الوقت نفسهِ نسلّم الفرد ، تسليم اليد الى القيادة الحربية أو الدولة ؟

فاذا شئنا الاّ نتقيّد في مؤتمر نزع السلاح المقبل ، بوجود المسألة الفنية والتنظيمية واردنا ان نعنى بناحيتها النفسية ، عناية مباشرة لاسباب تهذيبية ، فعلينا ان نبحث بحثاً مشتركاً عن طريقة قانونية تتيح للفرد ان يرفض تأدية الخدمة العسكرية الاجبارية . ان عملاً كهذا ، يكون ذا أثر ادبي عظيم

وقد وضع الاستاذ هولد البرليني هذا الرأي في شكل اقتراح ، اودُّ ان اعرضهُ على القراء :

« ما زال ميثاق كلوج قد حرم الحرب تحريماً ادبيّاً وقرّرت حكومات العالم الموقعة عليهِ انها (الحرب) عمل غير شريف ووسيلة لا يعترف بها للفصل في وجوه الخلاف بين الامم فيقتضي المنطق ان نطلب — وهذا اقل ما يمكن — من كل امة او حكومة وقعت على ميثاق كلوج ان تتعهد (في مؤتمر نزع السلاح وبروح ميثاق كلوج) الاّ ترغم قط احد ابنائها على الاشتراك في حرب دفاعية

« اقتراح : كل الموقعين على ميثاق كلوج يعدون امام كل أمم العالم ، وبالنيابة عن حكوماتهم ان فرداً من الدول التي يمثلونها لن ترغمهُ حكومتهُ بطريقة القوة او التأثير الادبي او الاجتماعي ، على الاشتراك مباشرة او غير مباشرة ، في اي عمل حربيّ ، او ان يساعدهُ مباشرة او غير مباشرة اذا كان ذلك ضدّ ضميره ومعتقداتهِ الادبية والدينية . ولا يرغم كاهن من اي مذهب ، على ان يبارك ، في الحفلات الدينية التي تقام في ميدان الحرب او غيرها من الحفلات الدينية ، اسلحة الجنود ، او ان يضرع الى الله لنصر امتهِ لان هذه الاعمال (نظراً الى تحريم الحرب) يجب ان تحسب غير شريفةٍ ومناقضة لروح محبة الجار »

« فقبول اقتراح كهذا ، يمثل خطوة خطيرة يخطوها الموقعون على ميثاق كلوج . انهم بذلك يقررون على رؤوس الاشهاد الفروض الادبية التي تنشأ من التسليم بمبدإ ميثاق كلوج ، فتقل المصاعب الفنية والتنظيمية التي تقوم في سبيل نزع السلاح »

والخلاصة : ان مجرد الاتفاق على تخفيض السلاح لا يتيح للأمم وجهاً من وجوه السلامة المنشودة . ومحكمة دولية للحكم النافذ يجب ان يكون رهن امرها قوة تنفيذية تؤيدها كل الامم المشتركة فيها ، فتستطيع ان تقضي في الامر متخذة وسائل اقتصادية حربية ضد معكري صفو السلام . ولا بدَّ من مكافحة التجنيد الاجباري العام المولد للقومية الجامحة ، ثمَّ لا بدَّ من حماية المعترض بوجه خاص عليهِ

رثاء الحضارة

هنا رجلٌ يحتضر . كان مسجوناً في قفص من حجرٍ يدافع الموت بفلسٍ مستجدٍ سنينَ طويلة ، فبضع سنوات أخرى لا تقدّم ولا تؤخر . كان شابًا — وفي شبابه كان شاعراً — يرعى النجوم ، ويسائل الحياة ، ويرى رؤى الجمال . أما الآن فظلّهُ فقط يتذكر

خيرٌ منهُ الوحش الذي تلهبهُ الشهوة ويمشي الى الفتك بقدم ناعمة الجسّ . خيرٌ منهُ المتوحش الخامل في الغابة ، لا يكسبُ اجراً بعملٍ ويضحك في وجه الشمس . خيرٌ منهُ الولد العاري والمرأة القرمزية الشفتين — المرأة التي لا يُنسى نهدها

هنا رجل يحتضر . لقد انقضى عليهِ زمن طويل منذ احسّ بغضبٍ . او جذلٍ . او شهوة ، تجري حرارتها في عروقهِ . لقد فقد الجسد معناهُ واللسان احساسهُ . ولا هو يذكر متى غابت الأنهار والآكام السندسية عن ناظريهِ في غياهب الظلام . ان جذع الزهرة القرمزية قد انهصر ، ولكنهُ لا يبالي

هنا رجل يحتضر . انهُ يقضي سحابة يومهِ في قفص من الصلب مع غيره من الاسرى المحتضرين . انهُ يحشد ثروة وينظم اعماله ادق تنظيم . انهُ يبيع الجسد ويدفن تحت ركام الفسق باسم القانون جسد الحبّ . وفي قفصهِ الحديدي يجلس — سميناً بجريهِ على التقاليد — قانعاً — متمدناً !

خيرٌ منهُ الوحش المكشر عن انيابهِ . والمتوحش النحاسي يبني تعاويذه لمقاومة الأرواح الشريرة . خيرٌ منهُ الطفل يبكي خوفاً في الظلام . والمرأة تبيع جسمها لعاشق يخون

الزمن يضحك في سرّهِ . فلماذا نهتم كل هذا الاهتمام. ولكن هوذا قفص اضلاعهُ من صلبٍ — وهنا رجل يحتضر

[مترجمة]



مكان الادب في العصر الحديث

محاضرة نفيسة القيت في جمعية الشبان المسيحية

بقلم
الاستاذ الكبير
عباس محمود العقاد

حضرات الاخوان : موضوع الكلمة التي أتشرف بالقائها بين يديكم الليلة هو « مكان الادب في العصر الحديث » . وأول خاطر يوحيه الينا هذا الموضوع ان نسأل : « وهل للادب مكان في عصرنا الحديث : عصر المادة والعلم والآلات كما وصفوه ؟ »

وجوابي بالاجمال أن نعم ! للادب مكان في عصرنا هذا بل مكان كبير ، وإن خُيّل الى الكثيرين أول وهلة أن الامر على خلاف ذلك ، لان الناس في الأغلب ميالون الى غمط « الوقت الحاضر » لاسباب عديدة . فلنحاول اذن بداءة أن نتحرّى هذه الاسباب التي تدعونا الى الاجحاف بالوقت الحاضر في كل شيء لا في الادب وحده ، فان تصحيح نظرتنا الى الحقبة التي نعيش فيها لازم لكل دراسة نافعة سواء نظرنا الى الكتب او نظرنا الى الرجال او نظرنا الى الاعمال

تصحيح مقاييس الحاضر

قلنا إن تلك الاسباب عديدة ، وأهمها فيما نرى خمسة نذكرها هنا بقليل من التفصيل

(١) فأول الاسباب التي تدعونا الى بخس الحاضر والتعسر في محاسبته والحكم عليهِ اننا تعوَّدنا ان نقسم الزمن الى شطرين : الحاضر وحده شطر ، والماضي بجميع عصوره شطر آخر . فاذا قابلنا بينهما فيغلب أن نضع الحاضر في كفة والماضي كله في كفة مقابلة له تمام المقابلة وننسى ان الحاضر انما هو عصر واحد لا اكثر ، وان الماضي قد يشمل في اطوائه مئات العصور في مئات البلدان

ومن ثمَّ نسمع كثيراً من يقولون في معرض المفاضلة بين حاضرهم وماضيهم حين يذكرون الادب : أين نحن يا مولانا من أيام ينبغ فيها أمثال المتنبي والمعري والبحتري وابن الرومي وابو نواس وبشار والأخطل والفرزدق وجرير

والشريف الرضي وابن هانئ وابن حمديس ؟ أين نحن من أيام امرىء القيس والنابغة وحسان وابي تمام ؟ ولا يزالون يسردون هذه الاسماء الطنانة دفعة واحدة في نفس واحد حتى يهولوا السامع ويلقوا في رُوعه أن هذا كما يقولون زمان وذاك زمان . . . . وأن الحاضر صغير ضئيل والماضي كبير عظيم

وليس هذا كما تعلمون بالقياس الصحيح .اذ هذه الاسماء الطنانة لم تجتمع في زمن واحد ولا في وطن واحد، وانما تفرقت في أزمان شتى واوطان عدة، فالقياس الصحيح في المقابلة المعقولة ان نختار من الماضي عصراً واحداً ليس إلاّ ، نضعه الى جانب «الحاضر» الذي هو كذلك عصر واحد ليس الاّ . . . وأن نختار مثلاً خمسين سنة في عهد المتنبي وخمسين مثلها في عهدنا . ثم نأخذ في التعداد والمضاهاة على هذا الاعتبار، لا على اعتبار أن الحاضر مطالب بأن يكافىء جميع الازمان ما دامت اللغة تجمع هذه الازمان المختلفة في اسم واحد يدخل في كلمة « الماضي » المباركة !

(٢) والسبب الثاني لغمط الحاضر أننا نتلقى أحكامنا أحياناً من الشيوخ والمتقدمين في السن ، فنسمع منهم ثناء على الماضي لانه زمانهم . وانتقاصاً للحاضر لانه يوشك أن يزحزحهم عن أماكنهم ، والشيوخ اكثر الناس حنيناً الى الايام الخالية وازراء على الزمن الحديث

(٣) والسبب الثالث للخطأ في الحكم على ايامنا اننا ننظر الى الماضي بعين الخيال فنفخّمه ونجمله ، والخيال أبداً موكل بالتفخيم والتجميل

واننا ننظر الى المستقبل بعين الرجاء فنصقله ونزّينهُ ، والرجاء أبداً موكل بالصقل والتزيين

اما الحاضر فلا ننظر اليه في معظم الاحوال الاّ بعين الراغب في التبديل وان كان على رضىً بما فيه .ومتى نظرنا اليه بتلك العين بدا لنا اضطراراً في صورة الوادي الهابط بين جبلين شامخين مزخرفين: جبل الماضي المزخرف بريشة الخيال ، وجبل المستقبل المزخرف بريشة الرجاء

(٤) والسبب الرابع اننا متصلون مع ابناء الحاضر واعماله بصلات المصالح والاهواء . وهي سبيل البغض والحسد والملاحاة ، فضلاً عن أن الألفة تمحو ما لا بدّ أن تمحوه من هيبة البعد والاحتجاب

(٥) والسبب الخامس خاص بالادب العربي وما شابهه في هذا الاعتبار . فالادب العربي كما لا يخفى هو أدب العرب في أرومته ، والعرب أمة بادية ذات قبائل متعادية . ومن دأب القبائل المتعادية أن تعتز بالانساب وتنظر الى أصولها نظرة الاكبار والاعجاب . . فالماضي عندها أبداً هو مناط الفخر والعصبية والتفضيل

***

أما الاسباب الاخرى فنها ما هو أناني وهو حبنا أن نعتذر عن أنفسنا ونتنصل من

تبعة تقصيرنا . فتى فشلنا فالذنب دائماً على زماننا لا علينا ، وزماننا دائماً أقبح الازمان وناسه دائماً أقبح الناس !

ومنها ما هو شبه ديني ، وهو ظهور الانبياء والمصلحين في الازمان الماضية في جميع الاديان ، فيخطر لنا أن الماضي لابدّ أن يكون خير الازمان من أجل ذلك

مع أن ظهور الانبياء والمصلحين فيه ربما كان دليلاً على حاجته القصوى الى الاصلاح . فلو لم يكن مريضاً لما احتاج الى الطبيب

من أجل هذا جميعه نبخس الحاضر حقه ونميل الى التعسر في بحث مزاياه . وقد يعصمنا من الخطأ كل العصمة — أو بعضها — أن نستحضر تلك الاسباب في أذهاننا عند المقابلة بين أيامنا وغيرها ، وان نحسب حساب هذه الاوزان عند ما ننظر الى كفتي الميزان

فالآن لا يدهشنا كما قد كان يدهشنا من قبل أن نعلم أنّ للادب في « العصر الحديث » مكاناً ، وأن مكانه هذا كبير واسع النطاق ربما كان أكبر وأوسع مما عُهِدَ في زمن من الازمان

وأظهر ما يبدو لنا من وجوه المقارنة بين عصرنا والعصور الأخرى إنما يجيء من هذه النواحي البارزة : وهي عدد المنتجات التي تنسب الى عالم الأدب ، والقابلية الادبية ، وحالة الادباء . فأن هذه هي الاشياء التي تظهر لنا لأول نظرة ، فنقابل بين كل منها في عصرنا وبين نظائره في الماضي ونبني على النتيجة حكمنا الذي ننتهي اليه

فأما عدد المنتجات الادبية فكثرته واضحة ، وتفوقه على نظائره في الماضي لا يخفى علينا ولا يلجئنا الى طويل استقصاء ، لان المطابع لا تني كل يوم تصدر الالوف من الكتب والمجلات والصحف ، وفي كل منها مجال لمباحث الادب على تفاوت القيم والدرجات

وأما « القابلية الادبية » فنعني بها الرغبة في مطالعة الأدب والاقبال على موضوعاته ، وسبيل المقارنة ها هنا ان نسلك في قياسها كما نسلك في قياس قابلية الطعام . . . فنحن لا نقيس قابلية الامة للطعام بصنف واحد من اصنافه نقتصر عليه دون غيره ، لان الامة قد يقل فيها بعض اصناف الاغذية ولا تقلّ حاجتها الى الغذاء ولا اقبالها عليه : يقل فيها القمح مثلاً ولا تكون قلته لضعف الحاجة الى الخبز ولا لنقصان الغذاء ، بل يكون نقصه لزيادة صنف آخر يعوّض القمح في خصائصه ومزاياه

كذلك يجب ان نسلك في قياس القابلية الادبية ، وآمن سبيل الى ذلك ان نرجع الى بواعث الرغبة في الادب لنعلم هل هي باقية على نشاطها او اعتراها شيء من الكسل والركود ؟ فما هو اذن الباعث لنا على قراءة الموضوعات الادبية بالايجاز ؟ الباعث لنا على ذلك بالايجاز رغبتنا في « تغذية العاطفة وذوق الجمال » . ولسنا نرى ان هذه الرغبة قد فترت أو هدأت في نفوس العصريين . بل يجوز لنا ان نحسب انها نشطت حتى الجماح وثارت حتى العُرام . فبين الطوائف

التي كانت لا تُشغَل بالادب في الزمن الماضي اناس لا ينقطعون اليوم عن قراءة الصحف ومطالعة الروايات وشهود المسارح وأندية المحاضرات ودور الصور المتحركة. وما دمنا قد اصطلحنا على قياس القابلية الادبية بالرغبة في «تغذية العاطفة وذوق الجمال» فلابدَّ أن نُدخل في حسابنا كلَّ هذه المنتجات، نعم كل هذه المنتجات حتى الصور المتحركة وما اليها من الموضوعات التي تدور على محور الرغبة في تغذية العاطفة وذوق الجمال. اذ لا ننسَ ان الباعث الى قراءة وصف رحلة أو منظر أو صورة هو بعينهِ الباعث لبعض الناس الى شهود الصور المتحركة ومطالعة الصحف والروايات. وما دمنا قد اصطلحنا أيضاً على أن نقيس القابلية الادبية بحاجة النفس لا بالصنف الذي يشبع هذه الحاجة فلا يعزب عنا اذن ان القابلية لا تنقص اذا نقص الشعر وزادت القصة، أو نقص نوع من المقروءات وزادت المسرحيات، او نقص الانشاء وزادت الخطابة، فهذا تغير في مواد الغذاء الادبي لا تغير في قابلية الغذاء

***

أما حالة الادباء — وهي من أهم ما تنعقد عليهِ المقارنة — فالبون فيها بين عصرنا الحاضر والعصور الغابرة جد بعيد

نعم إن الوهم العارض يخيل الينا ان الادباء الغابرين كانوا أرفع حالاً من زملائهم العصريين لكنهُ في الحقيقة وهمٌ عارضٌ لا اكثر ولا أقل. والصواب هو عكس ذلك بلا مراء

والاَّ فمن هو أشهر الادباء الاقدمين في جميع الامم والعصور ؟ ؟

أشهرهم هو «هوميروس» صاحب الالياذة وموحي معاني الشعر الى الوف الشعراء، فكيف كان هذا العبقري الفذ في مرتبته ومعاشهِ ؟ كان متسولاً لا يطمع في غير القليل !! واليوم تدرس «الهومريات» للطلاب ويتولى شرحها الاساتذة والمفسرون وعلماء اللغات، ويتعلم ابناء العلية لغة الاغريق ليطلعوا على كلام «هوميروس» كما كان ينشده ويرويه، ويعيش الالوف من طبع ما قاله وما قيل فيهِ. ولو عاش في ايام هوميروس افقر هؤلاء المعنيين بهِ الآن لاستطاع ان ينعم على المسكين بأكلة يملأ بها جوفهُ الخاوي، ليسمع منهُ أبلغ ما نظمهُ ورواه ويتركه وهو يعد نفسه من السعداء

افكان ذلك لان هوميروس لم يبلغ مرتبة الشهرة والحظوة عند أبناء جيله ؟ كلاَّ ! بل كان الرجل أشهر من نبغ في صناعته، وكان في الذروة التي يتسنمها الشاعر من مجد الشاعرية بين قومه، ومع هذا لم يبلغ من شأنه عندهم الاَّ ان يعيش متسولاً ويحشر في طبقة المساكين . . . . وقد يقال إن الادباء اليوم لا يبلغون كل ما يرومون . . . نعم. وليس في الدنيا أحد يبلغ كل ما يروم. وقد يقال إن الاديب اليوم يشقى في طريق النجاح. نعم. ولكنه يشقى لانَّ المورد كثير الزحام، لا لأنه مهمل مهجور

معدن الادب

تلك هي أظهر وجوه المقارنة، وهي عدد المنتجات وقابلية الادب وحالة الادباء . وهي كما رأينا في جانب العصر الحديث وليست في جانب العصور الماضية

وقد قلنا إنها أظهر وجوه المقارنة لان هناك وجهاً آخر يتعدى هذه الظواهر الى ما وراءها من معدن الادب في جوهره ، لا في كثرة المنتجات وقلتها ولا في الاقبال على الادب والاعراض عنهُ : ولا في حالة الادباء من عزة أو مهانة . فأين يقع أدب العصر الحاضر اذا نظرنا اليه من جانب المعدن والجوهر بعد أن نظرنا اليه على الجملة من هذه الوجوه

لا ريب ان لعصرنا هذا سمات غير سمات العصور الماضية ، فنحن في زمن تستولى فيه السرعة الآلية على كل شيء ، وتغلب فيه اذواق الجماهير ، ويكثر فيه الشك والتحليل ، ويستعصي فيه على الفرد أن يستقل عن الشركات بالاعمال الاقتصادية

ولكل عامل من هذه العوامل أثره البيّن في معدن الادب وعناية الادباء والقراء فالسرعة أولعت الناس بالموضوعات التي يلم بها القارىء على عجل ولا تضطره الى التعمّق والتمحيص

وتغلّب اذواق الجماهير جعل الربح الأجزل والشهرة الأعم من نصيب الكتابة التي تألفها جمهرة القراء دون النخبة من الفضلاء

وكثرة الشك والتحليل جارت على العواطف الفخمة والعقائد الجازمة التي تملك النفوس وتغريها بالامثلة العليا والآمال القدسية الرفيعة . فأصبح كل معنى رفيع مهيب قابلاً للتجزء والتبضيع على مائدة التشريح . أما استعصاء الاعمال الاقتصادية على الافراد فقد رجح الناحية النفعية على الناحية الفنية الخالصة في تقدير شركات الطبع والتوزيع

وهذه العوامل جميعها قسمت الادب الى قسمين متفاوتين : احدهما الأروج الأشيع وهو أدب التسلية والمنفعة ، وثانيهما أدب الجمال والفن الخالص وهو قليل النصيب من الرواج والشيوع

فالمعدن النفيس في الأدب قليل بالنسبة الى المعدن الرخيص . ومن شأن هذه الحقيقة ان تسوقنا الى خطأ نجتنب الوقوع فيه ونبادر الى تصحيحه . فنحن اذا قلنا إن المعدن النفيس قليل في الادب الحاضر فانما نعني بذلك انه قليل بالنسبة الى المعدن الرخيص الذي يُربي عليه ويُظهر ضآلته بالقياس اليه ، ولكننا لا نعني انه قليل بالنسبة الى الآثار التي كتب لها الخلود في أي عصر ، فاذا كان أدباء المعدن النفيس اقل من أدباء المعدن الرخيص في الامم العصرية فالواقع انهم أكثر من أندادهم في اي عهد مذكور . ويحسن بنا هنا ان نستثني اصحاب العبقريات الخارقة في جميع الازمان ، فان هؤلاء ينسبون الى الزمن كله ولا ينسبون الى عهد محدود

الأدب العربي

والى هنا تلاحظون حضراتكم اننا نتكلم عن الأدب عامة في الأمم الحديثة ولا نخص الأدب العربيّ وحده بالكلام . وانما آثرنا التعميم لأننا نعتقد ان الرأي الذي لخصناه فيما تقدم يصدق على الأدب العربي كما يصدق على سائر الآداب : فاللغة العربية قد استفادت في ايامنا هذه ما لم تستفده في عهد قديم على اطلاق العهود ، فاتسعت اليوم لما لم تتسع له في دور الجاهلية ولا في دور المخضرمة ولا في ابان الحضارة العباسية او الاندلسية ؛ وأيًّا كان الميزان الذي نزن به اللغة فالرجحان في جانب العصر الحديث . الرجحان في جانب العصر الحديث اذا وزنا اللغة بتعدد الموضوعات وسهولة التعبير عن الدقائق والمعضلات ، والرجحان في جانب العصر الحديث اذا وزنا اللغة بوفرة المصطلحات العلمية والفنية المساعدة على التعيين والاحصاء ، والرجحان في جانب العصر الحديث اذا وزنا اللغة بصحة التركيب وسلامة الاساليب ، والرجحان في جانب العصر الحديث اذا وزنا اللغة باجتماع العدد الاكبر من آثار العصور كافةً او بكثرة الشعراء والكتاب والباحثين من ابناء هذه الأيام . ومن شاء فليعدد اسماء الأدباء وأسماء الآثار الادبية في ازهى العهود العباسية او الاندلسية وليضعها الى جانب امثالها في العهد الحاضر ليتبين الفرق بين ما كانت عليه اللغة وما صارت اليه . . . . انه يستنفد جميع الاسماء القديمة قبل ان يستنفد رُبعَ أمثالها في «العصر الحديث» . ويبقى الفرق في الجوهر والمعدن عظيماً ملموساً بعد ذلك في معظم الاحوال

الخلاصة

والخلاصة من جميع ما تقدم ان العلوم والآلات التي تَوسمها الحضارة الحديثة لن تجور على نصيب الأدب الا اذا هي جارت على الحياة — لان الأدب هو «تعبير ناطق جميل» . . . وإذا قلنا ان الانسان لا يعيش بغير تعبير ولا جمال فكأننا نقول ان الحياة لا تعيش بغير حياة

وقد يقال إن الأدب كمالي لا تلح علينا الحاجة اليه في كل حين . فيجب ان يقال مع هذا إن التقدم انما يقاس بأكمل الكماليات ولا يقاس بألزم الضروريات . فالطعام اللازم ضرورة وهو قسط مشترك بين الانسان وأحقر الحيوان ، والتصوير العالي كمال وهو مزية ينفرد بها ارقى بني الانسان

وإن الآلة في صميمها لهي بنت الضرورة ، وإن الأدب في صميمه لهو ابن الجمال ، وخير لنا — اذا تعذر الجمع بين الاثنين — ان نكون آدميين أصحاب فنٍّ من أن نكون آلات أصحاب آلات

بنت شيخ القبيلة

تقصُّ قصة هواها وتذكر سعادتها بزواجها من «حَسَن»
الذي احبّتهُ وآثرتهُ على حبيب آخر يدعى «عمر»

لخليل مطران

بُلِّغتُ من عيشي اعزَّ مرامِ ... وحَلَمتُ لي اليقظات كالأحلامِ
يا غبطتي دومي فما تعدوكِ لي ... أمنيّةٌ إن تسمحي بدوامِ
في كل مطلعِ كوكبٍ ومغيبهِ ... ذكرى تجدّدُ لي عهود غرامي

* * *

ما عشتُ لا أسلو صباي ومربعاً ... منهُ درجتُ وفيهِ طاب مقامي
ومحبَّباتٍ من بنات قبيلتي ... خفِرات ايماء فصاح كلامِ
من كل غانيةٍ بغاليةِ الحلى ... في النفسِ عمّا يُقتنى بحُطامِ
بدويّةٍ خلاّبةٍ بجمالها ... قرنت حصانتها الى الإقدامِ
تغدو على الرزقِ العسيرِ فتنثني ... مجهودةً وتعود في الإظلامِ
وعلى القذى في عيشها تزكو بها ... شيمٌ كورد الدمنة البسّامِ
إذ كنت أشهدُ وِردهنّ وربما ... جاريتهنّ ولم اعج بملامِ
او كنت اشهد لهوهنّ وهل يرى ... غيرُ العفاف ملاهيَ الآرامِ
واذا الرجال القافلون قد التقوا ... نادينَ بينَ مضاربٍ وخيامِ
يتحدثون بما اتوا أو ما وعوا ... من كل امرٍ في الأمور جُسامِ
ويقلُّ ان يتندروا لعظيم ما ... يلقونَ من كُربٍ ومن آلامِ
هذي الفيافي كنَّ ملكاً هامداً ... احيوهُ بالأوساق والانعامِ
قومي السُراة الباسلونَ ووالدي ... فيهم وليُّ الرأي والأحكامِ
سبّاقُ غاياتٍ الى العمران قد ... شمِلَ المزارعَ ملكهُ المترامي
شاد البناء الفخمَ بين حدائقٍ ... غنّاء يرويها العقيق الطامي

يا حبذا غيطانها ومشارفٌ منها على القطن الجنيّ النامي
تزهو دوارتهُ على عذباتهِ حيناً وتنطف بالنضار الهامي

***

ما كنت أسلو العيشَ بين كرائمٍ في الحيّ من أهلي وبين كرام
لو لم يزدني الله من إنعامهِ فوق الذي امليت من إنعام
يممتُ فيها البئرُ والاتراب قد نثرت حواليها بغير نظام
وردت وآبت بالجرار مليئةً يوشكنَ ان يقطرن فوق الهام
فاذا كميٌّ لاح لي مترجلاً وأوامهُ بادٍ فهاج أوامي
لاحظتهُ للمرة الاولى فما لاحظت منهُ غير بدر تمام
وسقيتهُ وسقيت منهُ نواظري حتى تملينا وكلٌّ ظامي
ما خلت رؤيتهُ ببهجتها سوى رؤيا بَدَتْ لي في لذيذ منام
ألوى يسائل مَن ابي ويطيل في ما شاء عن اهلي من استفهام
يبغي التبسط في الحديث وما بهِ انسابُ اخوالي ولا أعمامي
ثم انثنى وبمهجتي في ليلتي ما لم أذقْ من لاعج وضرام
ولّى وفي الغد عاد يعتام الحمى أكرمْ بهِ من عائدٍ معتام
يسعى على هَدْيِ الهوى متسللاً والله يعلم ما سعى لحرام
ما زالَ يرقبُني وعلاَّ سمعهُ مما أثار الوجدُ من أنغامي
حتى التفتُّ ولم يربني امرهُ فإذا فتى الأمس النبيلُ أمامي
آنستُ في «حسَن» المحاسنَ كلها وعددتُ في أعوامهِ أعوامي
ومذ التقينا باح لي بهيامهِ وكتمتُ سرّي فاستشفَّ هيامي

***

هي ساعةٌ كشفَ الرجاء ظلامَها عن مقلتي بالطالع المستام
يا طيبها لو لم يفاجئني بها «عمَرٌ» بلحظٍ مرسَلٍ كسهام
عُمَرٌ معاذَ الله ان أرضى بهِ بَعلاً وما أرضاهُ في خدّامي
أأبيع خيرَ فتى بشرّ فتى وفي خَلْقي وفي خُلُقي إباءُ الذام
حسَداً لمن يهوى حبيبي قد قضى وطري وأعلى في النساء مقامي
عُمَرٌ جديدٌ بالقرانِ صفا لنا لا كدّرتهُ طوارئُ الأيام



« الفضاء – الزمن »

بحث علمي فلسفي

« الفضاء — الزمن » بدعة من بدع التفكير الحديث تتصل بهذا النظام الطبيعي الشامل الذي يكتنفنا من كل ناحية فنتحرك وننمو ونوجد فيه . وهذا النظام ، او بعبارة اخرى هذا الكون ، فضلاً عن قيامه بوظيفة مرسح عام لحركتنا ووجودنا ، يعين كثيراً من خصائصنا ومزايانا ، فنحن لسنا ذاتاً مستقلة عنهُ غير منفعلة بهِ ، بل ان اقرب نظرة الى الصواب هي ان نعتبر انفسنا والكونَ نظاماً واحداً — لا نظامين — متداخلة اجزاؤه بعضها بالبعض الآخر تداخلاً وثيقاً بحيث يحدث الانتقال من اي جزء فيهِ الى اي جزء آخر باسلوب متواصل لا يشوبهُ ايُّ وثوب او تقطع

ولذلك فان هذه البدعة الجديدة بانطباقها على الكون تنطبق علينا كذلك ، فيكون بحثنا فيها بحثاً في جوهر كياننا ، خصوصاً وانك لا تستطيع ان تتصور ذاتاً اعمَّ واشمل في انطباقها على الكون من الفضاء ومن الزمن ، فاي شيء طبيعي لا يشغل فضاء ولابد له من ان يستمر في زمن ؟ قد يختلف بعضنا عن البعض الآخر في عديد الخصائص الطبيعية ولكنا جميعاً متفقون في اننا نشغل حيزاً من الفضاء مستمراً في زمن طال او قصر . فالبحث في الفضاء وفي الزمن بحث في اعمّ ما يوجد بيننا وفي اشدّه اطلاقاً

و« الفضاء — الزمن » ليس بالنظرة التجريدية وكفى ، انما هو نظرية علمية بادق ما لهذه الكلمة من معنىً ، فالايمان بحقيقتهِ ، كما سنشرحها في هذا المقال ، مبني على تجارب طبيعية موجبة . فثمة حقيقة علمية توافرت الادلة التجريبية عليها توافرها على اية حقيقة علمية اخرى . هذه الحقيقة هي ان النور يسير في فضاء متجانس بسرعة ثابتة مستقلة عن حركة الآلة التي تقيسها . ولقد برهنت التجارب العلمية هذه الحقيقة المرة تلو المرة وآخر تجربة اثرتها أجريت في اواخر الصيف الماضي . فبافتراض هذه الحقيقة وباستنتاج ما تتضمنهُ من الحقائق الحتمية يمكننا ان نثبت ان الفضاء بحد ذاتهِ نسبيّ والزمن بحد ذاتهِ نسبي كذلك ، لكنك تستطيع ان تخلص من توحيد الذاتين باسلوب رياضي خاص الى صفة فذة لا سبيل للنسبية اليها . هذه الصفة الفذة هي ما اسمينا « الفضاء — الزمن » فيكون لذلك « الفضاء — الزمن » ذاتاً مطلقة في الوجود

هذا الافتراض وهذا الاستنتاج هما بعينهما ما قام بهما العلامة اينشتين في رسالتهِ الشهيرة

التي نشرها عام ١٩٠٥ عن النسبية المقيدة . وغرضنا في هذا المقال ان نحاول رسم صورة واضحة للمعنى الجديد الذي يودُّ العلم الحديث ان يرتسم في ذهننا عن الفضاء وعن الزمن

لا يستطيع احدٌ ان يشرع شروعاً في تفهم النظرة الطبيعية الحديثة الاّ اذا روَّض نفسهُ قبل محاولة تفهمها على عادة ذهنية هامة . هذه العادة تطلب الينا ان نتجرد عن معظم ما نجزم بهِ جزماً ، وهي لا تطلب ذلك منا الاّ يقيناً منها اننا مخطئون في غالب هذا الذي نجزم بهِ ، فنحن نجزم بانا نختبر هذا الورق وذاك الرجل وتلك الشجرة وفي ذهننا على ما يخيل الينا، فكرة عن هذه الموجودات لا سبيل لاي لبس او ابهام اليها . وعلى ذلك نحتم بان هذا الورق وذاك الرجل وتلك الشجرة موجودة جميعها ، بل انا نعتقد ان هذه جميعها ابسط ما نختبره من هذا الوجود . اما العادة الذهنية التي اشرنا اليها في اعلى فتطعن في صحة عقيدتنا هذه وتدعونا الى ان نحلل حتى هذه الموجودات البسيطة الى موجودات ابسط فابسط ، اذ تلفت نظرنا الى اننا لا نختبر ذاك الرجل بالفعل بل نشاهد مجموعة من الالوان ذات تنسيق خاص ونرى خطوطاً ورسوماً فضائية خاصة ونسمع صوتاً خاصًّا. واذا كان ما نسميهِ « ذاك الرجل » على مسافة قريبة منا فانَّا نستطيع ان نختبر نعومةً او خشونةً معينة . « وذاك الرجل » ليس باحد هذه الاختبارات ولا بمجرد جمعها بعضها الى البعض . انما هو مركب ذهني نقوم بهِ عفو انفسنا . وعلى ذلك تقول لنا العادة الذهنية التي نحن بصددها إنَّ معظم ما نؤمن باننا نختبره مباشرة ليس بالفعل سوى مركب ذهني مما نختبره مباشرة ، ولذا يساوره الشك بقدر ما يبعد عن خبرتنا المباشرة وبقدر ما تعتور عملية تركيبه الذهنية الشكوك والاخطار

يجب اذن ان ننتبه الى ابسط اختباراتنا اذ الى هذه ترجع في النهاية جميع الموجودات التي نؤمن بوجودها . ولأبسط اختباراتنا هذه لفظة علمية هي لفظة «حوادث» ، فتكون العادة الذهنية التي يجب ان نرتاض عليها توطئة لقيامنا بالتفكير العلمي الحديث ، ان ننتبه الى ان وحدات هذا الكون القصوى هي هذه الحوادث البسيطة التي تطرق وعينا وان كل ما في هذا الكون الطبيعي مركب في نهايته من هذه الحوادث . وأقلُّ رجوع فكريّ الى هذه الحوادث يرينا انها كلها تتصف بصفتين فذَّتين لا سبيل لأية زيادة تحليل اليهما ، وهاتان الصفتان هما ان كل حادثة تشغل فضاء وتستمرُّ في زمن . فالكون اذن مبني على الحوادث الفضائية الزمنية[1]

قد سقنا هذا كله ايضاحاً للغة التي سوف نصوغ فكرنا فيها في هذا المقال . فنحن لن نرجع في امثالنا وشواهدنا واستناداتنا الاّ الى هذه الحوادث النهائية . فلن نقول مثلاً ان امامنا رجلاً يقيس مقداراً طبيعيًّا ، وان ثمة جرماً سماويًّا ، بل سنقول ان حدثت حادثة من صنف معين سواء استمرت ثانية واحدة ام مليوناً من السنين

(١) راجع مقتطف مايو سنة ١٩٣٠ حيث نجد مقالاً ضافياً عن الحادثة وفلسفتها

نتساءل الآن ماذا يقصد العلم بالفضاء وما يقصد بالزمن ؟ لقد حددنا ما نعني بلفظة «الحادثة الفضائية الزمانية» تحديداً كاملاً وقلنا انها ابسط ما نختبره. اما الآن فأمامنا لفظتان مختلفتان جداً عن ابسط ما نختبره ، أعني الفضاء والزمن ، فما هو المعنى العلمي لكلٍ منهما؟

قد نستضيء لهذا السؤال اذا بحثنا مايقصد العرف العامي بهما ، اذ هما لاشك من مفردات التفكير فهو اذن لا بد يرمي الى معنىً خصوصي بهما. ونحن لا نحتاج الى اجهاد نفسي الوصول الى المعنى العامي لهذين اللفظين اذ يتكشف هذا المعنى امامنا بسرعة وسهولة فائقتين . ان الفضاء هو هذا الخلو الشاسع الذي يحوي المادة وما اليها ، والزمان هو استمرار المادة وتغيرها في هذا الفضاء . فالفضاء وعاء للموجودات كما ان الزمان امكان استمرار هذه الموجودات واستحالتها . هذا هو المعنى العامي للفضاء وللزمن . وبودنا الآن اولاً ان ننبذ هذا المعنى لعدم استقامته مع عادة التفكير بالحوادث وثانياً ان نستبدله بمعنى آخر يستقيم وهذه العادة. اما انه لا يستقيم مع التفكير بالحوادث من جهة ، ومع ان الكون في اقصى تركيبه انْ هو سوى حوادث بحوادث من جهة اخرى ، فذلك يجب ان يكون واضحاً ، اذ ماذا نعني بوعاء للمادة ومظاهرها او — اذا استبدلنا «المادة ومظاهرها» بعبارة «الحوادث» الجديدة التي عولنا على استعمالها — ماذا نقصد بوعاء الحوادث ؟ هل نعني ان هذا الوعاء خارج عن هذه الحوادث مستقل عنها بحيث نستطيع ان نلحق به معنى لا يتوقف في شيء على معنى هذه الحوادث ؟ هذا ما لا سبيل اليه البتة ، اذ نحن في كل ما نعمل ونفكر ونولد محصورون ضمن هذا الخضم الحوادثي الزاخر ليس بمقدورنا الخروج عنه قيد انملة . فلم يتبقَّ لنا اذن الآن ان نشيد المعنى الجديد على هذه الحوادث ومعناها اذ لا محل لأيِّ « وعاء » خارج هذه الحوادث . وهذا هو عين ما سنفعله عند ما نحدد المعنى العلمي للفضاء

ولكن لا نستطيع ان ننبذ النظرة العامية للزمن بهذه السهولة التي نبذنا بها النظرة العامية للفضاء . اذ ما قلنا عن الزمن في العرف العامي هو انه «امكان استمرار الموجودات واستحالتها» وبقليل من الروية نرى ان لا بأس شديداً على هذا التحديد. والعلة في هذا الفارق بين الفضاء والزمن هي ان الزمن يدخل في وعينا ويفعل في شعورنا بأسلوب فذ ممتاز عما يفعله الفضاء. نحن نشعر بالفعل بهذا الامكان عند ما نعين استمرارنا واستحالتنا من طور الى طور . ونحن نشعر بالفعل بحركة الحوادث الفكرية والعضوية فينا من لحظة الى لحظة وتتخذ هذه الحركة معياراً لهذه اللحظات . فالتغير والاستحالة والاستمرار — كل هذه اختبارات نعيها في داخل وجداننا باستقلال ظاهري عن اية صفات فضائية . فباستطاعتنا ان نغمض اعيننا ونستقلّ عن المؤثرات الفضائية ولو الى برهة ونعي هذا الاستمرار الفذ وتلك الاستحالة الخالصة اللذين هما كنه ما نرمي اليه بلفظة « الزمن » . واذن ان النظرة العامية للزمن قريبة من طبيعته لانه

يدخل في وجداننا دخولاً مباشراً وطيداً ، ولذلك فباستطاعتنا ان نجرّد الزمن عن الفضاء في خبرتنا لكننا لا نستطيع بحال من الاحوال ان نجرّد الفضاء عن الزمن

مع كل هذا نجد ان ثمة نقصاً علميًّا في حدّ الزمن يشوب حدّ الفضاء ايضاً ، وهذا النقص يقوم على ان الحدّ لا يتضمن امكان قياس الزمن باسلوب موضوعي مجرّد عن الخبرة البشرية . فمعلومٌ ان العلم لا يتساهل في ذات او صفة لا تنقاد انقياداً تامًّا الى القياس الموضوعي واذا جابهته صفة او ذات هذه حالها يدأب يعالجها من هذه الناحية ويحتال عليها من تلك الناحية حتى يغزوها غزواً قياسيًّا خالصاً وعندها تصبح ذاتاً علمية بالمعنى الصحيح . فالحدّ العامي للفضاء كما للزمن لا يسمح بقياس هذا الذي نسمّيه فضاء وزمناً بل يعيّنهما تعييناً اجماليًّا صوفيًّا يداخله كثير من الغموض ويجعل امراً شاقًّا ، ان لم يكن متعذراً ، ان نقابل زمناً وفضاء معينين بزمن وفضاء آخرين. لهذا كله نزمع على ترك المعنى العامي للفضاء والزمن جانباً ونتقدم الى اشادة معنى جديد يتفق ومقتضيات التفكير الحديث

لنعتبرْ عدداً معيناً من الحوادث النهائية — صوتاً تسمعهُ ولوناً تراه وضغطاً تحسُّ به ولوناً آخر تراه وصوتاً آخر تسمعهُ — ولنتساءل بالنسبة اليها التساؤل الآتي : كيف تنتظم بعضها مع بعض ؟ هل ثمة علاقات طبيعية تربط بعضها بالبعض الآخر ؟ هل هذه الحوادث منفصلةٌ بعضها عن بعض انفصالاً مطلقاً بحيث تحدث الواحدة في كون خاص بها والاخرى في كون آخر لا يلمس كون الاولى من اية ناحية من نواحيه ، ام هل يستقرّ بين هذه الحوادث نظام ، أو انظمة ، توحد بينها جميعاً وتجعلها تحدث في كون واحد وتحت رعاية واحدة من الربط والتوحيد ؟

اظن السواد من الناس على هذه السيّارة يرى معي ان هذه الحوادث النهائية التي تطرق وعيهُ تربطها وتوحّدها على الاقل علاقتان بديهيتان معطاتان اعطاء مباشراً مع هذه الحوادث ،ولكل من هاتين العلاقتين وجهتان الواحدة وصفية او كيفية والاخرى كمية او عددية

العلاقة الفذة الاولى التي تستقرُّ بين اية مجموعة من الحوادث هي ان هذه الحوادث تنتشر انتشاراً خصوصيًّا يُعرض على وعينا مع الحوادث ذاتها . وهذا الانتشار يسمح بانتقال نهائي من اية حادثة الى اية حادثة اخرى . وهذا الانتقال يحدث في ثلاثة اوساط مستقلة بحيث نستطيع ان نقول بالكلام العاميّ ان الحادثة الواحدة على يمين او شمال الحادثة الثانية وفوق او تحت الحادثة الثالثة وامام او وراء الحادثة الرابعة . هذا القول عن علاقة الحوادث بعضها بالبعض الآخر هو ما عبرنا عنه بالوجهة الوصفية للعلاقه الاولى، اي اننا هنا نعيّن مجرّد العلاقات الانتشارية للحوادث . ولكنّا ، علاوة على هذا التعيين المجرّد ، نستطيع ان نقابل هذه الانتقالات بعضها بالبعض الآخر فنقول ان الانتقال الواحد عشرة اضعاف الانتقال

الثاني ونصف الانتقال الثالث . وهكذا ينشأ معنا امكان قياس هذه الانتقالات الثلاثة ومقابلتها مقابلةً كميةً . وهكذا تنشأ معنا الوجهة الكمية من العلاقة الاولى للحوادث

والعلاقة الفذة الثانية التي تستقر بين اية مجموعة من الحوادث هي ان هذه الحوادث تتعاقب باسلوب نهائي يعرض على وعينا مع الحوادث ذاتها . ونلحظ ان تعاقب الحوادث يقع في خط واحد لا في ثلاثة خطوط كما هي الحال في العلاقة الاولى . ويسمح هذا التعاقب بالقول ان الحادثة الواحدة قَبل او بَعد الحادثة الاخرى ، فتنشأ معنا من ذلك الوجهة الوصفية للعلاقة الثانية للحوادث ، اي اننا هنا نكتفي بالتصريح بتمييزين لا غير في تعاقب الحوادث ، اعني تمييز « البَعد » وتمييز « القَبل » ولكن نستطيع علاوة على هذا ان نقيس كمية هذا « البَعد » وكمية هذا « القَبل » ونقول مثلاً ان الكمية الواحدة ثلاثة اضعاف او جزء من خمسين من الكمية الاخرى . وهكذا تنشأ معنا الوجهة الكمية من العلاقة الثانية للحوادث

العلاقة الانتشارية والعلاقة التعاقبية هما العلاقتان اللتان نلمحهما في اية مجموعة من الحوادث، وفيها يتركز تصريح علمي هام هو : ان الحوادث تنتشر وتتعاقب

ولكمية الانتشار ، كما لكمية التعاقب ، لفظ علمي هو « الفاصلة » ، فبين اية حادثتين توجد فاصلتان الواحدة هي الفاصلة الانتشارية والاخرى هي الفاصلة التعاقبية

على هذا الاساس نستطيع الآن ان نحدد ما نقصد بالفضاء وبالزمن . ان الفضاء هو الفواصل الانتشارية بين الحوادث ، والزمن هو الفواصل التعاقبية . ولما كنا قد انتهينا من تعريف كل من الفضاء والزمن فيصح لنا ان نسمي الفاصلة الانتشارية بالفاصلة الفضائية والفاصلة التعاقبية بالفاصلة الزمنية . فيصبح الزمن مجرد الفواصل الزمنية والفضاء مجرد الفواصل الفضائية

تعترض العالم مجموعة خاصة من الحوادث فيتساءل ما هو فضاؤها وما هو زمانها ويجيب ان فضاءها هو مجموعة فواصلها الفضائية وزمانها مجموعة فواصلها الزمانية . انك ترى لوناً وتسمع صوتاً ، ففضاء هاتين الحادثتين ليس سوى بعدها الفضائي ، وزمنهما ليس سوى البرهة الزمنية التي تفصلهما ، اما ان تقول ان ثمة وعاء عامًّا يشمل الحادثتين وزمناً عامًّا تقعان فيه فلا يرى العلم في هذا القول الا لبساً وتصوفاً

الحادثة والفاصلة[1] هاتان هما دعامتا اللغة الطبيعية في العلم الحديث . فمهما صرف المرء على استيعاب معنييهما من وقت وعناء فانه ربح خالص لتفكيره وتعويد لنفسه روح الجو العلمي القائم

الحادثة هي ابسط ما نختبره ، والفاصلة هي اهم ما تنتظم به الحوادث . والفاصلة على نوعين فضائية وزمنية . والجملة الواحدة التي تمخض عنها بحثنا لهذه النقطة هي : إن الكون مؤلف من حوادث تنتظم في فواصل فضائية وفي فواصل زمنية [لها تتمة] شارل مالك

(١) الحادثة هي ما يقصد به بالانكليزية بلفظة Event ، والفاصلة ما يقصد به بلفظة Interval



الدكتور لوتسي النباتي

بقلم الدكتور اليفر استاذ علم النبات في كلية العلوم [1]

ان نبأ وفاة الدكتور لوتسي التي حدثت في ١٧ نوفبر ١٩٣١ وقعت في دوائر مصر العلمية وقعاً أليماً . لانهُ ظلّ في هذه البلاد الى شهر ابريل الماضي يقوم بمهام منصبهِ في الجامعة المصرية كاستاذ زائر لعلم التناسليات على اوفى وجهٍ . فخلقهُ الكريم ، وعنايتهُ الكبيرة بالمسائل النباتية الخاصة بمصر جعلا مقامهُ القصير هنا ذا أثر خطير ، واحكما اواصر الصداقة بينهُ وبين طائفة كبيرة من ابناء البلاد وسكانها

وُلد جون بول لوتسي سنة ١٨٦٧ من اسرة هولاندية شهيرة فلما اتمّ دراستهُ توجّه الى المانيا لدرس النبات وفي مدينة ستراسبورغ تتلمذ لدوباري ولنباخ وكانا حينئذٍ من اعظم علماء النبات. ثم رحل الى جاوى حيث توفر على درس نباتي « الجنيتوم » والطفيلي المعروف « بالانوفورا » في الدور الجنيني . فلما عاد الى هولندا عين مدرساً في النبات في جامعة ليدن ثم سكرتيراً عاماً لاكادمية العلوم الهولندية . ولما كان على جانب من الثروة ، استقال من هذين المنصبين من نحو عشرين سنة وانشأ في بلدة «فلب» على مقربة من «ارنهم» حديقة ومحطة للمباحث التجريبية في تناسل النباتات. وعناية لوتسي —كعناية باتسون وغيره— بهذا الموضوع نشأت من اكتشاف مباحث مندل من نحو ثلاثين سنة ووصف تجاربهِ ، وعلى هذا البحث وقف لوتسي ما بقي من حياتهِ ، فبلغ فيهِ مقاماً علمياً عالمياً وانشأ كذلك المجلة الهولندية المعروفة بـ « جنتيكا » (اي التناسليات)

واهم ما اضافهُ لوتسي لعلم التناسليات مذهبهُ القائل بان انواعاً جديدة تنشأ من مناسلة الاشكال القائمة ، فهي اذا تناسلت اجتمعت منها مجموعات مختلفة من الصفات في النسل الاول ، لا تلبث في الاجيال التالية ان تنفصل وتبدو في اشكال جديدة مميزة . وهذا الفعل جارٍ الآن ، وكان الدكتور لوتسي يعتقد انهُ كان فعالاً من عصور متطاولة ، وبهِ يعلل تنوع النباتات والحيوانات في الماضي وفي الحاضر

هذه الآراء حملتهُ على تجشم مشاق اسفار واسعة النطاق لدرس الاحوال التي تنشأ فيها النباتات المهجنة في الطبيعة . فزار استراليا وزيلندا الجديدة وافريقية الجنوبية . واحدث

(١) الدكتور اليفر من رجال العلم العالميين فهو عضو في الجمعية الملكية بلندن وقد كان استاذاً لعلم النبات في جامعة لندن مدة اربعين سنة . فلما استقال رأت كلية العلوم في القاهرة ان تستفيد من علمه الواسع فاستدعته استاذاً للنبات فيها

مباحثهِ في هذا الموضوع (مهجَّنات البرميولا) وهو من النباتات الربيعية قام بها سنين عديدة في منطقة البحيرات الايطالية . ولما غادر مصر في الربيع الماضي قضى شهرين في ايطاليا مشرفاً على عمله هذا

وكان لوتسي خصب الانتاج . فاذا صرفنا النظر عن مؤلفاتهِ العلمية الفنية نذكر له « تاريخ نشوء المملكة النباتية » وهو مؤلف ضخم يشمل تسلسل النباتات وتطورها . وله مؤلف آخر يضم محاضراتهُ في « نظريات التسلسل » وآخر موضوعهُ « النشوء » بسط فيهِ آراءهُ الخاصة . وقد كانت مؤلفاتهِ موضوعاً للبحث والجدل ، وانما كان مؤلفها صاحب ملكة نقّادة ممحصة فكانت آراؤهُ ، كما يبسطها ، تحفز العلماء الى البحث والانتاج

ولهُ أثر خاص في تنظيم ما ينشر من المباحث النباتية العالمية . كما انهُ قضى عدة سنين يحرر مجلة « بوتانتش سنترابلت » . ثم انهُ انشأ في هولانده محطة خاصة لتوزيع مزدرعات البكتيريا والفطريات على دوائر البحث النباتي في انحاء العالم

وكان كذلك لغويًّا بارعاً ، ناضج الفكر ، تجد في كل ما يفوه بهِ عبرة وفائدة . لذلك لا نعجب ان نجد تهافت الطلبات عليهِ للمحاضرة في جامعات العالم من اميركا الى جنوب افريقية الى زيلندا الجديدة الى استراليا واخيراً الى القاهرة . ومن الطبيعي ان يكون لوتسي في المؤتمرات النباتية الدولية عالماً يشار اليهِ بالبنان

وقد علمتُ ان السر وليم تسلتن دير وهو عالم نباتي كبير وصاحب نظر صائب في اقدار الرجال قال للوتسي انهُ لو كان (لوتسي) انكليزيًّا لاقترح اسمهُ مديراً « للحدائق النباتية الملكية في كيو » خلفاً له . وفي هذا دليل على مقامهِ العلمي الكبير

وقد كان الدكتور لوتسي في حياتهِ الخاصة صاحباً انيساً يحفظ عدداً لا يحصى من النوادر جمعها في رحلاتهِ الواسعة فيرويها بظرف كثير عليهِ سمة السخرية من الحياة

وكان يحب الاطفال حبًّا جمًّا . فاذكر انهُ قال لي مرة ، اذ فقد صوتهُ لادمانهِ التدخين ، انهُ لا يدري ما يقولهُ الاطفال عنهُ اذ يقابلهم في الطريق ولا يردُّ لهم تحياتهم . وكنا مرة في الواحة الخارجة نستكشف البلدة فعثر على دكان فابتاع منهُ اقة من الحلوى ووزعها على الاطفال الذين كانوا يتبعوننا

قلنا ان لوتسي كان في المقام الاول عالماً من علماء التناسليّات — عالماً مجرّباً في ميدان تناسل النباتات وانتقال الصفات من جيل الى آخر . وقد تحقق ان مصر ، بجوها الدافىء وسمائها الصافية ، تمهد للباحث في « التناسليات » فرصاً لا تماثل ، لذلك كان يعتقد ان انشاء منصب استاذ لعلم التناسليات في كلية العلوم ، تلحق بهِ حدائق للتجارب العلمية ، يكون ذا أثر خطير في مصر ، البلد الزراعي ، وفي تقدم العلم بوجهٍ عام

الثلج الملون

الاحمر والاصفر والبنفسجي والازرق

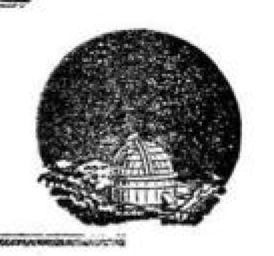
يضرب المثل ببياض الثلج الناصع ، ولكنّ بعض الرحالين عثروا حديثاً على نجود شاسعة في جبال ايران الشرقية الغربية ، يغطيها ثلج احمر . وكان السر جون رُس الرحالة البريطاني قد وجد سنة ١٨١٨ جُرُفاً على الشاطئ الشمالي الغربي من جزيرة جرينلندا يغطيها ثلجٌ قرمزي فدعاها « الجُرُف القرمزية » . فكان وصفها في رحلتهِ باعثاً على عناية العلماء بدرس هذه الظاهرة الغريبة

ولما عاد رسّ من رحلتهِ الى جرينلندا جاء بنماذج من هذا الثلج ، فاستخلص منه بعد ذوبانهِ راسباً رملياً احمر اللون فلما فحصت دقائق هذا الراسب بالمكرسكوب ثبت انهُ هيا كل حيوانات دقيقة دعاها احد علماء النبات الاسوجيين « پروتوكوكس نيفالِس » ثم تقلبت الاسماء عليها بعدهُ وهي تعرف الآن باسم « سفيرلاَ نيفالِسْ » . وهي احد الاحياء التي تكسب الثلج لونهُ الاحمر . اذ توجد احياء اخرى تلوّنهُ بالوانٍ اخرى

وقد كان العلماء يحسبون ان هذه الاحياء كلها من قبيل « الالجي » (وهي نباتات بحرية عديمة الفلقة) واذن فهي من المملكة النباتية . على انّ بعض العلماء المحدثين يحسبونها — أو يحسبون بعضها على الاقل — من المملكة الحيوانية . ومن هذه الحيوانات الدوّاريات Rotifers الحمراء التي وجدت في ثلوج جبال الالب سنة ١٨٤٠ والحشرات الدقيقة الحمراء التي عثر عليها رجال بعثة شاركو في ثلوج القارة المتجمدة الجنوبية سنة ١٩١٠ — والظاهر ان بعض هذه الاحياء تحمرُّ اذ تعيش في الثلج فقط ، ولكنّ الوانها تتباين اذ تعيش في غيره

فقد وجدت مثلاً بقاع شاسعة تغطيها ثلوج صفراء فوق جليد بحر كارا ، عثر عليها رجال بعثة دوق اورليانس في المناطق المتجمدة الشمالية . فلما فحص الاستاذ مونيه نماذج من هذا الثلج الاصفر عثر على اصناف مختلفة من الحيوانات الدقيقة دعا الطائفة الغالبة فيها « دياميلون نيفالي » . ثم ان مونيه نفسهُ فحص ثلجاً اصفر ضارباً الى الخضرة فوجد فيهِ طائفة « دياميلون نيفال » اقلّ فيهِ منها في الثلج الاصفر . ثم ان هناك ثلج بني ضارب الى البنفسجي شوهد في جزيرة جرينلندا وجبال الاندس في غرب اميركا الجنوبية . وهذا اللون ناشيء كذلك عن حيوانات دقيقة مختلفة عن الحيوانات السابقة . ويقول بعض الرحالين انهم شاهدوا ثلجاً ازرق

ثم ان الثلج يلوّن احياناً بغبار يرسب عليهِ في طبقات كثيفة . فلا يندر ان ترى في جبال الالب ثلجاً محمرّاً سببهُ غبار تحملهُ الرياح من الصحراء الكبرى



ما وراء المجرة

عوالم لا تحصى خارج المجموعة النجمية المعروفة بالمجرة



ملخص خطبة للسر جيمز جينز

الارض احد سيارات تسعة وملايين من الاجسام الصغيرة — كالنجيمات والمذنبات والرجُم — تدور حول الشمس. وشمسنا احدى النجوم في مجموعة من الوف الوف النجوم يدور بعضها حول البعض الآخر. وهذه المجموعة النجمية هي احدى ملايين المجموعات النجمية المنثورة في فضاء الكون. هنا تنقطع السلسلة، على ما نعلم. وكلٌ من هذه المجموعات النجمية اكبر الاجسام التي توصّل العلم الى معرفتها لا يفوقها في حجمها واتساعها الا الكون نفسهُ. ومن هنا نشأ مقامها في نظر العالِم والفيلسوف الطبيعي

النظام المجرّي

اما المجموعة النجمية الخاصة بنا — اي المجموعة التي منها نظامنا الشمسي — فتعرَف بالنظام المجرّي لان المجرّة تحدُّه. وهي تشبَّهُ عادة بقرص او قطعة نقدٍ او عجلة عربة. ولعلَّ التشبيه الاخير افضلها جميعاً، لانهُ ثبت حديثاً ان المجموعة كلها تدور. وكان الباحثون الأوَل، والسر وليم هرشل بوجهٍ خاص، يعتقدون لاسباب غير وافيةٍ، ان مركز العجلة المجرّية قريب من شمسنا. ولكننا نعلم الآن انهُ بعيد عنها بعداً شاسعاً، حتى لا نستطيع ان نتبيَّن بالعيون المجردة ألمع النجوم في ذلك المركز. فالعيون المجردة لا تستطيع ان تتبين نجوماً يزيد بعدها على ٣٠٠٠ سنة ضوئية، ولكن مركز النظام المجري يبعد عنا نحو ٤٠٠٠٠ سنة ضوئية. وحتى الآن لا نعلم حجم العجلة — اي النظام المجري — معرفة دقيقة او قريبة من الدقة، ولكن المرجح ان قطرها من رتبة ٢٠٠٠٠٠ سنة ضوئية

والقوة التي تحفظ هذه العجلة من الانتثار في اثناء دورانها هي قوة التجاذب بين النجوم التي تتألف منها. وعليه نرى ان النجوم التي على اطاره بطيئة الحركة، في حين ان النجوم قرب مركزه سريعتها. وهذا يشابه ما نجده في النظام الشمسي ذاته. فأبعد السيارات عن الشمس ابطؤها واما اقرب السيارات الى الشمس فاسرعها في السير حولها. والمرجح ان الشمس نفسها تتحرك حول مركز العجلة بسرعة مائتي ميل في الثانية ويستغرق اتمامها لدورة كاملة حوله مائتي مليون سنة

ونستطيع ان نقدر كتلة «العجلة» بقياس قوة جذبها للشمس لمنعها من الانتثار في الفضاء. والمؤكد ان قوة الجذب هذه تفوق قوة جذب ١٠٠٠٠٠ مليون شمس، وقد تكون ضعف

ذلك او ضعفيهِ . والمرجَّح ان معظم المادة التي تجذب هذا الجذب ، نجوم وقليل منها مادة غازية لطيفة منتشرة في الفضاء . ولما كانت كتلة النجم المتوسط أقل من كتلة الشمس . فالمرجح ان عدد النجوم في النظام المجرّي — بناء على تقدير كتلة المادة التي فيهِ — يبلغ مائة الف مليون (١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) نجم . واحصاء النجوم المباشر يؤيد هذا

نظام المجرّات الخارجية

كان يُظنُّ اولاً ان «النظام المجري» هو المجموعة النجمية الفردة في الكون . ثم ذهب كانط وهرشل — تخيلاً — الى انها احدى مجموعات كثيرة . والبحث الحديث قد ايَّد تخيلهما كل التأييد . فانك اذا نظرت الى شمال النجم بيتا في كوكبة المرأة المسلسلة رأيت اذا كنت حاد البصر ، لطخة سحابية ضئيلة — هي السديم الكبير في المرأة المسلسلة . فانك اذا راقبتها حسبتها لأول وهلة ضوءا منتشراً . وقد وصفها الفلكيُّ ماريوس بقوله « كأنك تنظر الى نور شمعة من خلال بوقٍ » ولكن اذا صوَّبت الى هذه اللطخة تلسكوباً قويًّا رأيت فيها تفصيلات لا تتبينها بالعين المجردة . أما اذا شئت ان تدرسها درساً علميًّا دقيقاً فيجب تصويرها بتعريضها عدة ساعات للوح فوتغرافي . وحينئذ تتبين انها اكبر جدًّا مما بدت للعين المجردة او لعين التلسكوب . فانها تحجب من وجهِ السماء رقعة سعتها عشرين ضعفاً سعة وجه القمر . وما نراه منها بالعين المجردة انما هو جانب من منطقتها المركزية — وهي كتلة اكثر لمعاناً من سائر السديم . وحول هذه الكتلة جانب دقيق البناء يظل محتجباً عنا حتى تتبينهُ عين الآلة الفوتغرافية

وكما تبدَّت المجرة لتلسكوب غليليو الصغير سنة ١٦٠٩ نجوماً بعد ما كانت تبدو لطخة سحابية منتشرة ، هكذا تمكنت التلسكوبات القوية الحديثة والآلات الفوتغرافية ، من ان تتبيَّن في المناطق الخارجية في سديم المرأة المسلسلة نقطاً من النور نستطيع ان نثبت انها نجوم ، وقد قدَّر الدكتور هبل (Hubble) انها تبعد عنا نحو ٨٠٠ الف سنة ضوئية

هذا السديم شبيه بمجرتنا كما وصفناها . فهو مشبَّه «بعجلة» مثلها ، وفي وسط العجلة المركز الهبائي اللامع . والبحث السبكترسكوبي يدلُّ على ان العجلة — اي السديم — تدور مثل دوران المجرَّة . ولكن سرعة دورانها اعظم . فمجرتنا تستغرق ٢٠٠ مليون سنة لتتمَّ دورة كاملة ، وأما سديم المرأة المسلسلة فيتمها في ١٧ مليون سنة . وسبب سرعتهِ في الغالب ناشيء من صغر حجمهِ — فقطرهُ هو ربع قطر مجرتنا — اي ٥٠ الف سنة ضوئية بدلاً من ٢٠٠ الف سنة ضوئية . ويمكنك ان تقيس وزنه بتقدير القوة الجاذبة التي تسلّطها كتلتهُ على اجزائه الخارجية لتمنعها من الانطلاق في الفضاء في خطٍّ مماسٍ للمحيط . وبذلك

نجد ان وزنهُ صغير اذا قيس بوزن مجرتنا — فهو نحو ٥٠٠٠ مليون شمس يقابله وزن مجرتنا وهو نحو ٢٠٠٠٠٠ مليون شمس

وهذان السديمان ، او هاتان المجرتان ليستا الوحيدتين من نوعهما في الفضاء. فقد تمكن الباحثون من مراقبة مليوني سديم وينتظر ان يمتدّ بصرهم الى نحو ١٦ مليوناً متى تمّ بناء التلسكوب الضخم في اميركا ، الذي قطر مرآته ٢٠٠ بوصة

واذا اخذنا مجموعة من هذه السدم الخارجية (نسبة الى خارج المجرة التي نحن منها) وجدنا فيها وجوهاً عديدة من الاختلاف من حيث الجسم والشكل واللمعان والبناء. ولكن البحث العلمي لا يلبث ان ينظمها في نظام معقول . فاذا صرفنا النظر عن السدُم التي ترى من الجانب، وجدنا اننا نستطيع ان نرتب الباقي في سلسلة محكمة الحلقات تبدأ في السدم الكروية وتنتهي في السدم المسطحة كالاقراص . ولما كانت سرعة دوران جسمه تزداد بازدياد تقلصه ، فيصح ان نفهم ان الاشكال المختلفة بين الشكل الكروي والشكل المسطح هي درجات تطور السدُم . فاذا صحّ هذا الرأي ، قلنا ان السدمَ تبدأ حياتها كروية بطيئة الدوران ثم تأخذ في التقلّص فتزداد سرعة دورانها وتأخذ في التسطح شيئاً فشيئاً

والطريقة التي نستطيع ان نمتحن بها هذا الرأي هي البحث في تغيرات الشكل التي تطرأ على كتلة غازية دائرة اذا بردت وتقلصت . ومع ان التحليل الرياضي لعملية كهذه ، ليس بسيطاً ولا يمكن ان يكون على جانب حاسم من الدقة ، الاّ انهُ وافٍ الحكم . وهذا البحث يثبت لنا ان كتلة من الغاز الدائر الآخذ في البرودة والتقلص يمرّ في الاشكال التي تبدو فيها السدم بين الشكلين الكروي والمسطح

كيف تكونت هذه السدُم اولاً ؟ الرأي الذي يخطر للعقل هو انها تكونت من مادة الكون الغازية اللطيفة المنتشرة في الفضاء كما تكونت النجوم بتقلص الغاز اللطيف المنتشر عند اطراف السدم الخارجية . ولا مندوحة عن ان يبقى هذا الرأي فرضاً ، ولكن ثمة ادلة قوية تؤيدهُ

صفات السدم الخارجية

اما الفروق في الحجم واللمعان بين السُدُم من شكلٍ واحد ، فيغلب ان يكون منشؤها الاختلاف في بعد السدُم عنا . وهذا يمكننا من تقدير اعمار السدم كلها ، حتى اضألها نوراً بدقة لا بأس بها . فأضأل السدم التي تمكن مشاهدتها بتلسكوب جبل ولسن الذي قطر مرآته مائة بوصة تبعد عنا ١٤٠ مليون سنة ضوئية . ويرى الدكتور هبل ان نحو مليوني سديم موزعة داخل هذه المسافة في كل الانحاء على نحو ١٨٠٠٠٠٠ سنة ضوئية بين السديم والآخر. ويمكننا ان نمثل على توزيع السدم في الفضاء بأخذ كرة مفرغة قطرها ميل ونوزع فيها ٣٠٠

طن من التفاح جاعلين المسافة بين التفاحة والاخرى عشرة يردات . فالكرة المفرغة تمثل الكرة من الفضاء التي نستطيع رؤيتها بتلسكوب مرصد ولسن . وكل تفاحة تمثل سديماً يحتوي على مادة كافية لخلق بضعة آلاف مليون شمس كشمسنا . واذا كبرنا كل تفاحة حتى تصبح سديماً ، اصبحت كل ذرّة فيها من حجم منكب الجوزاء (وهو اكبر النجوم التي قيست اقطارها ، اذا وضع مركزه فوق مركز الشمس امتدت اطرافهُ الى فلك المريخ)

فتوزع السدم توزعاً متماثلاً في الكون يؤيد الفرض بانها نشأت من الغاز البدائي المنشور في الفضاء . ثم اننا نستطيع ان نثبت ان غازاً كهذا لا يمكن ان يستقرّ على حالهِ طويلاً بل يتفكك بالتقلص الى اجزاء حجم كل جزء من رتبة حجم السدم التي رصدت حتى الآن

وعملية التفكك التي يبدأ بها تكوين السدم ، عامة في الكون . إنما يبدو لاول وهلة ان فعل التجاذب بين دقائق الكون يجذب جميع الاجزاء المفككة ، ولكن الواقع هو على الضدّ من ذلك . وليس الكون آخذاً في التفكك فقط بل ان الاجزاء الناشئة عن هذا التفكك آخذة في التشتت كذلك . فكل شعاعة من اشعة الضوء التي تدخل عيوننا تحمل معها شيئاً من الكتلة . وهذه الكتلة كانت قبل ثماني دقائق — أي قبل ان تنطلق الشعاعة من الشمس — جزءا من كتلة الشمس . وعليهِ فالشمس تفقد من كتلتها كلّ ثانية اربعة ملايين طن ، ضوءا وحرارة . فينشأ عن هذه الخسارة ان سيطرتها الجاذبية على اعضاء اسرتها تضعف رويداً رويداً ، وبضعفها تبعد عنها السيارات رويداً رويداً . ففلك الارض حول الشمس ليس دائرة أو اهليلجاً مقفلاً بل هو اشبه شيء بزنبلك ساعة لولبيّ الشكل متجهٍ الى اعماق الكون المظلمة الباردة . وهذا الاتجاه بادٍ في اعضاء النظام المجرّي فكأن الاجزاء الصغيرة التي تنفصل من الكتل الكبيرة — سواء كانت اقماراً أو سيارات أو نجوماً — آخذة في التفرق ، مضادة في ذلك نواميس التجاذب في الظاهر على الاقل

التشتت والاتساع

ومن ابعث المكتشفات الحديثة على الدهشة ان السدم الخارجية نفسها آخذة في التفرّق على ما يظهر . فكأنها تفرّ منا ، ويفرّ احدها من الآخر . فقد كنا نظنّ ، الى عهد قريب ، ان السدم القريبة من مجرتنا ، آخذة في الاقتراب منها ، وان السدم البعيدة عنها ، آخذة في الابتعاد عنها . ولكننا نعلم الآن ان السدم القريبة التي بدت لنا مقتربة منا ، انما بدت كذلك لأنها واقعة في خط دوران النظام الشمسي حول مركز المجرّة . فاذا عملنا حساباً لسرعة سير الشمس حول مركز المجرّة ، في تقدير اقتراب السدم وبعدها وجدناها كلها تبتعد عنها على ما يظهر . فالسدم القريبة سرعتها قليلة ، والبعيدة سرعتها عظيمة جداً . فالسرعة تماشي البعد بوجهٍ عام .

وهذا الناموس ينطبق على ابعد السدم . وقد وجد هبل انهُ كلما بعد سديم عنا مليون سنة ضوئية زادت سرعتهُ البادية ١٠٥ اميال في الثانية . وآخر سديم قيست سرعتهُ في مرصد جبل ولسن ، وجد انهُ يبعد عنا ١٠٥ ملايين سنة ضوئية وان سرعتهُ ١٢٣٠٠ ميل في الثانية

فيبدو لنا كأن الكون باسره اخذ في الاتساع ، ومحتوياته في التشتت ، فكأنهُ فقاعة من الصابون كلما مضيت في نفخها مضت في الانتفاخ حتى تنفجر — وسرعة هذا الانتفاخ تجعل الكون يضاعف قطره مرة كل ١٤٠٠ مليون سنة

وثمة ادلة نظرية تؤيد القول بان سرعة ابتعاد السدم عنا هي سرعة واقعية . فالكون في نظر اينشتين اولاً كان حافلاً بالمادة ولكنهُ كان في حالة استقرار . ثم اثبت الاب لميتر من علماء لوفان ان كوناً من هذا القبيل لا يمكن ان يكون مستقراً . فان تقلص الغاز الاصلي الى سدم وحصر جانب كبير من طاقة الكون في هذه السدم يدفعها الى الاتساع حتى تنتهي الكون الى حالة توصف بالعبارة التالية « مادة لا نهاية منتشرة في كون لانهاية لهُ » . والنظرية — نظرية لميتر — تقتضي ابتعاد السدم وتعين سرعة ابتعادها . وهذا يتفق مع ما هو مشاهد . وقد سلم اينشتين بذلك

ولكن ثمة ايضاً ما يحملنا على الحذر . فعظم هذه السرعة يلقي ظلاً من الريب على صحتها . فانها اذا صحت تجعل تاريخ الكون لمحة عين ، ازاء العصر المتطاولة التي يقتضيها نشوء وتطوره . فقد قدر ادنغتون المادة التي في الكون وقال ان الكون بدأ في الاتساع لما كان قطره ١٢٠٠ مليون سنة ضوئية ويؤخذ من المباحث الحديثة ان قطره الآن ١٣٢٠٠ مليون سنة ضوئية اي احد عشر ضعف قطره الاصلي . فاذا كانت سرع السدم صحيحة فالكون يضاعف قطره مرة كل ١٤٠٠ مليون سنة واذاً فتضاعفهُ ١١ مرة يستغرق نحو ١٠ آلاف مليون سنة

على ان هذه المدة قصيرة جداً لا تكفي للنشوء الكوني . فمجرد عملية تقلص سديم قد يستغرق مئات الالوف من ملايين السنين . ولكننا نستطيع التغلب على هذا الاعتراض بقولنا ان هذه المدة انقضت قبلما بدأ الكون يضاعف قطره . ولكن الصعوبة الكبيرة هي اننا نجد في النجوم ادلة تثبت ان عمرها اطول من المدة المقترحة . ثم ان المباحث في النجوم المزدوجة تؤيد ذلك . فدرس هذه النجوم يدلُّ على ان النجم المزدوج كان اصلاً نجماً فرداً كبيراً انشطر بازدياد سرعة دورانه الى نجمين . وتقدير كتلة النجمين يدل انهما اقل كثيراً من كتلة النجم الاصلي الذي انشطرا منهُ . فكأن الفرق ضاع اشعاعاً في الكون . وهذا يقتضي وقتاً طويلاً جداً

هذه الاعتبارات تحملنا على الاعتقاد بان الكون ليس شيئاً سريع الزوال كما تدل عليه سرعة ابتعاد السدم اللولبية عنا



علاقة التاريخ باللهجات العربية

صورة محاضرة تلاها بالافرنسية الامير شكيب ارسلان

في مؤتمر المستشرقين المنعقد في ليدن في اوائل سبتمبر الماضي

ان موضوع بحثي هذا هو العلاقة بين التاريخ واللهجات العربية . وهو بحث مهم يكاد يكون طريفاً ولم اجد علماء العرب ولا علماء المشرقيات اولوه العناية التي هو لائق بها ولا احلوه من التنقيب المحل الذي كان يستحقهُ . وغاية ما علمت ان اول من تنبه لهذا الموضوع هو صديقي المرحوم حفني ناصف من اكبر ادباء المصريين في عصرنا وذلك في رسالة ألفها تحت عنوان « مميزات لغات العرب » وقدمها الى مؤتمر المستشرقين المنعقد في فينا سنة ١٨٨٦

فيكون هذا البحث قد استؤنف من بعد ٤٥ سنة من البدء بهِ وذلك في مؤتمر هو حلقة من سلسلة المؤتمرات التي احدها كان مؤتمر فينا المذكور . وهكذا العلم في كل عصر وفي كل مقام ليس الاّ سلسلة تأخذ بالطول بما يتجدد من الحوادث وما يتكشف من الحقائق التي كانت كامنة تحت حجب الغموض . ويجوز ان لا يكون حفني ناصف هو ابا عذرة هذا البحث وان لا اكون انا التالي فيهِ . ولكني اعترف باني لم اطلع فيهِ على كلام لاحد سوى هذه الرسالة التي اخرجها صديقي المرحوم حفني ناصف في ٤٨ صفحة وضمّنها تحقيقات لم اجدها سبقت لغيره

ان علاقة اللهجات بالتاريخ هي اثبات وحدة الاصول من وراء وحدة اللهجات. ولا ينبغي ان تكون هذه الوحدة عامة ليقوم منها برهان تاريخي بحيث ان وجدت الوحدة في اشياء وتخلفت في اشياء بطلت قيمة ذلك البرهان . كلا . فان الوحدة لا يجب ان تكون مطردة حتى يتجرد من جزئياتها كلية . وذلك انهُ يتأتى غالباً عوامل غريبة كالتشبه والمحاكاة والاستعداد الخلقي والامتداد الصوتي والاستعارة من اللغات الاخرى، وتأثير البيئة والزمن وغير ذلك من الاسباب التي قد تؤثر في اللهجات الاصلية فتحولها عن اصلها . فليس في الدنيا لغة بقيت على ما كانت عليهِ في البدء . وعليهِ فان لم يتحقق التشابه على طول الخط وكان قاصراً على بعض الفاظ او منحصراً في بعض نغمات فلا يؤخذ من ذلك ان البحث لا يستحق العناء او انهُ لا يفيد حقيقة تاريخية . فاننا نجد احياناً بلداناً عربية متباعدة جداً بعضها عن بعض من جهة العروض والاطوال ونجد اهلها مع ذلك غير متباعدين في اللهجات بل نجدهم يتلفظون بعض الكلمات

على صورة واحدة . فلا يمكن ان يكون ذلك مجرد تصادف لان التصادف بمعناه الحقيقي شيء غير موجود في الدنيا . وانما الموجود هو حوادث واعراض قد تمكن الناس من تعليل بعضها واظهار اسبابه وهذا ما يقال له العلم . وبقي البعض الآخر مجهولاً الى اليوم متعززاً وراء استار الغيب وهذا ما يحاول العلم التوصل اليه . فالتاريخ من جهة والمنطق من جهة اخرى يريدان انهُ متى وجد قطران احدهما في الشرق والآخر في الغرب او صقعان كل منهما ناء عن الآخر وكان بين اهليهما وحدة في اللفظ او تقارب مستجلب للنظر في اخراج بعض الحروف ومخارجها يكون بين أهالي هذين القطرين وحدة في النسب من عهد قديم قد يجوز ان لا يكون تاريخها واضحاً احياناً او يجوز ان يكون ممرزها زيادة جلاء ولكن لا يجوز ان يستخف بقيمتها التاريخية اصلاً . فلو كانت هذه الوحدة اللفظية او هذا التشابه المستجلب النظر بين قطرين متقاربين من الوجهة الجغرافية لم يكن ثمة ما يقتضي العجب وكان الامر طبيعيًّا (القياس في النسبة الى الطبيعة ان يقال طَبَعيّ ولكن ليس بخطأ ان يقال طبيعي ولقد جاء في كلام الاوائل : ولكن سليقي أقول فأعربُ) معتاداً ولكن لا يمكن ان يقال انهُ طبيعي او معتاد اذا كان القطران منفصلين بمسافات طوال وابحر وجبال عالية وصحاري غير متناهية والوف من الكيلو مترات وكنت برغم هذا كلهِ تتبيَّن الوحدة او التقارب الشديد في كيفية اللفظ . فهذه المسئلة لا تعرض في تاريخ امة من الامم كما تعرض في تاريخ الامة العربية المشتتة في قارتي آسية وافريقية بل في قارة اوربة قبل قرون خلت . فمن المعلوم انهُ لما خرجت قبائل العرب من جزيرة العرب لاجل الفتوحات الاسلامية التي اتسق جلها على ايدي العرب كان بعضها في كاشغر الصين والبعض الآخر في بروفانس فرنسة وذلك في وقت واحد . بل تقدم منها اناس الى بلاد البيامون وسويسرة . وكانت كل قبيلة تأتي الى وطنها الجديد بعاداتها واوابدها ومنازعها ولهجاتها . ولو ان القبائل التي بلغت هذه القواصي في سبيل الفتح الاسلامي لم تختلط باقوام اخرى من غير العرب لكانت اللهجات العربية التي انتقلت بها الى تلك الاقطار البعيدة انقى واصفى مما كانت ولكانت اقرب الى الوحدة .ويمكنك ان تتحقق ذلك بدليل انهُ عندما كانت تقع هجرة غير مشوبة بغيرها نظير هجرة بني هلال من جزيرة العرب الى افريقية او عند ما كان المهاجرون من عرب الجزيرة يقعون من تلك القواصي في اصقاع منزوية منفصلة عن سائر البلاد بحواجز طبيعية كانت لغة هؤلاء المهاجرين تبقى من نقاوة العروبة على ما كانت عليهِ في قلب الجزيرة . فاهالي شنقيط اليوم وهم في غربي صحراء افريقية الى جهة السنيغال يتكلمون بعربية لا تقل فصاحة عن عربية اهل نجد او اهل اليمن ولا تجد في كلامهم النغمة البربرية التي تجدها في الاحايين عند عرب المغرب

ولنضرب لك مثالاً آخر وهو قبائل عرب برقة التي وقع جلاؤها عن نجد الى مصر

ومنها الى برقة وطرابلس بين القرن التاسع والقرن العاشر للمسيح بسبب حروب داخلية والتي اكثرها من بني سليم بن منصور فانك اذا سمعت نغية هذه القبائل لم تجدها تفترق عن نغية القبائل النجدية . ولما كنت قد عرفت برقة في اوائل الحرب الطرابلسية الايطالية فلقد تحققت هذه المشابهة بنفسي . ولم نكن هنا لنستقصي جميع الامثال التي تؤيد هذه القاعدة ولا لندعي الاحاطة بالمبحث الذي نحن بصدده وانما نورد بعض الشواهد التي تزيد القضية جلاء فنقول :

لنأخذ مثلاً « الامالة » وهي لفظ الالف مائلة الى الياء . فهذه قد وجدت عند العرب من زمن الجاهلية ومن اول وجود اللفظ العربي . وكانت الامالة لغة قيس وتميم واسد ونجد على وجه الاجمال . وقرىء كثير من آيات القرآن الكريم بالامالة وان كان الاصل هو عدم قراءته بالامالة بناء على ان اول من تلفظ بالقرآن هو النبي (ص) ثم اصحابه وكلهم كانوا قرشيين ليست عندهم الامالة . ومما قرىء في القرآن بالامالة نورده على سبيل التمثيل (انا خلقناكم من ذكر وانثى) فقرىء « أنثي » تقريباً بميل شديد الى الياء . وقرىء (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) بامالة « اتقاكم » حتى تكاد تظنها « أتقيكم » وقرىء (وتوفنا مع الابرار) بامالة « الابرار » حتى تخالها « الابرير » وقرىء (باسم الله مجراها ومرساها) بامالة « مجراها ومرساها » يكاد يظن السامع انهما « مجراهي ومرساهي » ومثل ذلك (نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة) فوقفوا في « الموقده » و « الافئده » على الهاء وكسروا الدال قبلها ومن هذا القبيل آي كثيرة قرئت الفاتها الممدودة والمقصورة بالامالة . فالقرآن الكريم أصبح نبياً بعد كتاباً جميع العرب فكان لا بد من ان يقرأ بجميع لهجات العرب وان توجد فيه الامالة التي كانت لغة نجد ولغة قبيلة تميم المضروب المثل بكثرة عديدها . ولما كان لنجد من العلاقة مع الشام ما ليست لها مع غيرها كانت لغة نجد بدون نزاع هي التي كان لها التأثير الأعظم في لغات القبائل العربية التي انتجعت الشام . وقد طالما فكرت في هذه المسئلة فلم اجد سبباً لفشو الامالة في لغة الشام غير التأثير النجدي وطن الامالة الأصلي . فانك تحار عندما ترى جميع الشام تقريباً تلفظ بالامالة واكثر مصر تلفظ بدون امالة الا قليلاً في بعض ارياف

ولا نقول ان جميع قبائل العرب التي نزلت الشام صدر الملة كانت من نجد بل كان منها قبائل حجازية ويمانية تقل في الفاظها الامالة الا ان هذا لم يكن سبباً لعدم غلبة لفظ الامالة عليها فانهُ من سنّة الاجتماع اقتداء الاقل بالاكثر وعليهِ اتبعت هذه القبائل لهجة الاكثرية . فالدروز في لبنان والشيعة في جبل عاملة هم جميعاً يمانيون كما هو ثابت تاريخاً . ومع هذا فان الامالة اليوم غالبة على لفظ الفريقين

على ان الامالة لم تكن على درجة واحدة بل اللفظ بها منهُ ماهو مفرط ومنهُ ما هو معتدل فلنأخذ مثلاً لفظة «مدينه» بفتح النون Madina فهي بهذا الشكل ملفوظة بحسب القاعدة

التدريسية . فاذا امَلتَها ميلاً معتدلاً قلت « مدينِه » بكسر النون . Midineh وهذه هي امالة النجديين . وان امَلتَها ميلاً شديداً قلت « مديني » Midini كأنك تلفظها بالياء . وهذه هي امالة اكثر السوريين اليوم

ولا نقول ان الامالة في سورية قاعدة مطَّردة ليس فيها تخلف اصلاً بل قد سمعت اهالي غزة لا يميلون فلا يقولون مثلاً لاسم بلدتهم « غزِه » بالكسر او « غزي » بلفظ الياء كما يلفظها سائر السوريين بل يقولونها « غزة » بفتح از اي المشددة كما يقولها المصري والحجازي واليماني والعراقي

وهناك اقاليم اخرى شذت عن القاعدة : مثلاً اهالي اقليم الخروب من جنوبي لبنان يلفظون بدون ادنى امالة . وهذا الاقليم لا يزيد على عشرين قرية اهلها مسلمون سنيون بين قرائم قرى اهلها نصارى لا يلفظون بالامالة . وجميعهم تابعون لقضاء الشوف وليس فيه احد الاَّ يلفظ بالامالة . والدروز وهم يسكنون الى الشمال من اقليم الخروب يميلون بأجمعهم . والشيعة او المتاولة الساكنون الى الجنوب من اقليم الخروب اشد امالة من الدروز . واهالي صيدا وهم مسلمون ونصارى بلدهم في طرف الساحل الذي يسمى باقليم الخروب يميلون كسائر اهل سورية . وبرغم ان كل هذه البلاد المحيطة باقليم الخروب تنطق بالامالة نجد اهل هذه البقعة يتكلمون بدون امالة اصلاً نظير المصريين والحجازيين والعراقيين واليمانيين والمراكشيين والتونسيين والجزائريين الخ

لماذا هذه البقعة الصغيرة من لبنان اشبه بالجزيرة في بحر تنطق بلا امالة في وسط بلاد تنطق كلها بالامالة ؟ الجواب يظهر لنا لذلك سببان . واذا لم تتيسر الأدلة التاريخية لم يبقَ أمام الباحث سوى الافتراضات . فإما ان يكون اهالي اقليم الخروب اصلهم من قبيلة واحدة لم يختلطوا بقبائل اخرى وقد كان اجدادهم يلفظون بدون امالة فحفظوا لفظة اجدادهم بقوة ثبات غريزية فيهم منذ قرون كثيرة الى الآن . او ان يكون مجيئهم الى جبل لبنان تأخر كثيراً عن مجيء غيرهم وكان اصلهم من قطر لا يعرف الامالة الاَّ نادراً كمصر او الحجاز مثلاً ولما اقاموا بجبل لبنان اجتمعوا في كورة واحدة وجدوا على لغتهم الاصلية فلم تتغلب عليهم جاذبية الامالة المحيطة بهم من جميع الاطراف . وقد كان عرب الاندلس يلفظون بالامالة في كثير من كلامهم نعلم ذلك من منبعين احدهما التواتر اي الشهادات التي يرويها الخلف عن السلف . والثاني الالفاظ العربية التي دخلت في اللغة الاسبانيولية والتي لفظها الى الآن يُشعر بالامالة

فالمهاجرون الاندلسيون الذين خرجوا الى المغرب والجزائر وتونس منذ اربعة قرون وان كانوا في اوطانهم الجديدة هذه قد تركوا الامالة اقتداء بأهالي هذه البلدان التي اوطنوها لم يزالوا يروون عن سلفهم ان لغتهم كانت ايام مقامهم بالاندلس ذات امالة بليغة . مثال ذلك ان

اهالي غرناطة مثلاً كانوا يقولون «كتيب» بدلاً من «كتاب» والفاظاً كثيرة في ضرب «كتيب». وأما الالفاظ الاسبانيولية التي اصلها عربي سواء كانت اعلاماً او كلمات معتادة ولا تزال كيفية لفظها تشعر بالامالة فهي مستفيضة . مثالها «البيب» اي «الباب» فان عرب الاندلس كانوا يميلون الف « باب » الى ان تخالها ياء . وفي قرطبة واشبيلية وغرناطه ابواب كثيرة كان يقال لها بيب كذا وبيب كذا . وذهب العرب من تلك الارض وبقيت الاسماء على ما كانوا يلفظونها به وتجد الاسبانيول اليوم يقلدون العرب في لفظها . وأنا عرفت سوقاً في غرناطه اسمها «بيب الرملة» Bib-erramla وهذه الامالة واردة على الاندلس من سورية اذ كان اكثر العرب الذين فتحوا اسبانيا هم من عرب الشام كما لا يخفى . ولقد سمعت اناساً من اهالي قرى بعلبك يقولون للباب «بيب» كما في الاندلس . وكانوا يقولون في الاندلس « عبد المِلِيك » بكسر الميم واللام معاً كما نحن نقول الآن في لبنان . بيت « عبد المِلِيك » بكسر اللام والميم معاً . ولما كان الاسبان ينقلون الكلمات العربية لا سيما الاعلام حسبما سمعوها من العرب تجدهم يكتبون مثلاً : Walid ben Abdelmélic . ويظهر ان عرب الاندلس كانوا يميلون ايضاً الف «هشام» فنجد مؤرخي الاسبانيول مثل «كوند» مثلاً يكتب « هشام » هكذا Hixem ولا يكتبها Hixam وكذلك كانوا يقولون «الحكيم» بكسر الكاف. ولذلك تجد كثيراً من الاسبانيول يكتبونها Alhakem ولا يكتبونها Alhakam الا من يريد مراعاة القاعدة العربية . ثم لحظت بعض مؤرخي الاسبانيول يكتب اسم «بني عباد» ملوك اشبيلية هكذا Abbed ولحظت بعضهم يكتبها Abbad فالذي يكتبها بالامالة فانما يراعي لفظ الاندلسيين لها . والذي يكتبها بالالف المطلقة فانما يراعي اللفظ الاصلي فيها . وكذلك كتبوا اسم « ابن عثمان» هكذا Iben Osmin لا Iben Osman وقد وجد ايضاً لفظ «Othman» بدون امالة فيظهر ان بعض الجهات كانت تميل وبعضها كانت لا تميل . ووجدتهم يميلون في لفظة «الاوزاعي» فيلفظونها كأنها «الاوزيعي» ويقولون «ابراهيم المرادي» كأنها «ابراهيم المريدي» و «القاضي ابو جعفر القلاعي» كأنها «القليعي» ولفظة «الجهاد» كانها «الجهيد» وعرفت ذلك من كيفية كتابتها بالاحرف اللاتينية مع التكرار الذي يفيد انه ليس بغلط نسخ ولا طبع . والمؤرخ «دوزي» اشهر اوربي كتب في تاريخ الاندلس يذكر كثيراً من هذه الالفاظ بالامالة ولا يقول عن مجاهد العامري صاحب دانية الا Moujéhid وكان حقها بدون امالة ان تكتب Moujahid كما لا يخفى ولكن الاندلسيين كانوا يميلون الف «مجاهد» والف «دانية» ولا يزال الاسبانيول يلفظون «دانية» بالامالة ويكتبونها هكذا Dénia ولما كنت في السنة الفائتة في الاندلس ذهبت من مرسية الى القنت ودانية فلما كنت في القنت وأردت ان اقطع ورقة السفر بسكة الحديد الى «دانية» قلت لهم : اقطعوا لي ورقة الى دانية وتلفظت بها كأنها Dania فلم يفهموا

مني . ثم لحظ احدهم ما اريد فقال لي هي Dania لا Dénia ولا اريد ان اقول ان الاندلسيين كانوا يميلون كل الف بل هذا في كلامهم مستفيض اكثر من كلام غيرهم تقليداً للشاميين الذين اكثرهم منهم . وفي سورية لا سيما في بعض القرى وفي البلاد التي تغلب عليها الأمية تسمعهم يقولون « كتيب » بدل كتاب و« جهيد » مكان «جهاد» ومن سمع اهالي بلاد ريشيا يتكلمون لم يقدر ان يفرق بين ألفهم ويائهم فتسمعهم يقولون مثلاً «اعطه اياهي» بدلاً من «اعطه اياها» و « حاملهي » بدلاً من « حاملها »وهلم جرًّا

فالسواد الاعظم من عرب الاندلس كان من القطر الشامي . وهذه هي حقيقة تاريخية ثابتة لم يقع فيها خلاف . وكانوا يسمون غرناطة دمشق لا لشبهها الجغرافي الشديد بدمشق — وهي بالفعل اشبه البلاد بدمشق — بل لان العنصر الدمشقي كان فيها غالباً . وكذلك اشبيلية كان يقال لها حمص لأن اكثر من نزلوا فيها كانوا من عرب حمص . وكان يقال لشريش فلسطين لان معظم من نزلها كان من فلسطين . ولما كانت اوريولة أو تدمير مجمعاً لجالية المصريين اطلقوا على هذه البلدة وما يليها من عمل مرسية اسم مصر . وكان باقي اسبانية العربية غالباً عليه مسحة عربية شامية بلا مراء . وكانت لهجات سورية متمثلة في تلك الاقطار ومن غريب ما لحظته ان صاحب كتاب « اخبار مجموعة » في فتح الاندلس وذكر امرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم وهو مصنف قديم وصل صاحبه الى ايام عبد الرحمن الناصر الاموي — قد ذكر عند قتل الشاميين لعبدالملك بن قطن الفهري أمير الاندلس في خبر يطول شرحه هنا انهم اخرجوه وهو شيخ « كأنه فرخ نعامة وهو ابن تسعين سنة أو اكثر حضر الحرة مع اهل المدينة ومنها فلّ الى افريقية فأخرجوه وهم ينادونه يا فالّ فلت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا اكل الكلاب والجلود طلباً بنار الحرة ثم بعث جند أمير المؤمنين » فأخرجوه الى رأس القنطرة فقتلوه الخ

ولا يخفى ان وقعة الحرّة كانت في المدينة بين أهل المدينة الثائرين على بني أمية وبين جندهم من أهل الشام وفتك فيها هؤلاء باولئك وبقيت ثاراتها وذحولها فيما بين الفريقين الى ما بعد جلائهم الى الاندلس . وشاهد كلامي هنا فعل « فلّ » بمعنى انهزم وانصرف واسم الفاعل منه « فالّ » بمعنى « منهزم » و « منصرف » فهذه لفظة خاصة باهل قطرنا الشامي لا يستعملها غيرهم . ولقد سمعت بيروتيًّا يقول امام مصريين « خلّيه يفلّ » أي دعه ينصرف فكان المصريون يتضاحكون من هذه الجملة كثيراً . والصواب في هذا الفعل من جهة اللغة انه فعل متعدٍّ بمعنى كسر . يقال هذا الجيش فلّ ذلك الجيش أي هزمه وذلك الجيش مفلول . والفلّ بفتح اوله هو الرجل المنهزم وقد يكون للجمع فيقال جمع فلّ أي منهزمون يستوي فيه المفرد والجمع لانه في الاصل مصدر والجمع فلول وفُلّال . جاء في لسان العرب :

«قال أبو الحسن لا يخلو من أن يكون اسم جمع أو مصدراً فان كان اسم جمع فقياس واحده أن يكون « فالاً » كشارب وشرب ويكون « فال » فاعلاً بمعنى مفعول لانه هو الذي فُلَّ (وبضم أوله) ولا يلزم ان يكون فلول جمع فل بل هو جمع فال لأن جمع اسم الجمع نادر كجمع الجمع . واما فُلّال فجمع فال لا محالة لان فعلاً (اي فلاً) ليس مما يكسّر على فعّال (أي فلّال) اه

فقول أهل الشام فَلّ (بالفتح) بمعنى هرب أو انصرف هو من لحن العوام والاصل فيه فُلّ (بالضم) ولكن قولهم « فالّ » كما قالوه في قرطبة لعبد الملك بن قطن وهم يعيّرونه « يا فال فللت من سيوفنا يوم الحرة » فيه من الصواب قولهم « يا فالّ » لأنه فاعل بمعنى مفعول أي يامفلول ولكن قولهم « فللت من سيوفنا يوم الحرة » ان كان فعل « فللت » فعلاً معلوماً فغير صحيح هنا . لانه ليس المراد انه هزمهم بل انه انهزم وان كان فعلاً مبنيًّا للمجهول اي فللت (بالضم) فصحيح لكن غير فصيح لأنه ليس من جيد الكلام ان يقال كسر فلان من سيوف فلان كما لا يخفى . وانما قد جاء في كلامهم بمعنى « انصرف » او « هرب » كما نحن نستعملها اليوم . وعلى كل حال « فل » شامية لا يقولها الاّ اهل بلادنا . وقد انتقلت مع اجدادنا الى الاندلس ونقلها عنهم صاحب كتاب « اخبار مجموعة » اقدم تاريخ لفتح الاندلس . فلفظة « فلّ » هي حجر من بناء تاريخ الفتح الشامي للاندلس . ولهذا كان بناء محاضرتي هذه على علاقة اللهجات العربية بالتاريخ

وليس بضروري لاثبات وحدة الاصل وقوع التشابه في جميع الالفاظ وجميع النغمات كما تقدم الكلام عليه . فإن اهل الاقليم الواحد الذين لم يظعنوا من بلادهم قد يقع التحول في كلامهم بتوالي الاعصر فما ظنك اذا هاجروا من بلد الى بلد او من الشرق الى الغرب، واختلطوا بمهاجرين آخرين من عرب الحجاز وعرب اليمن وعرب نجد وعرب مصر وعرب افريقية وبرابر المغرب ومستعربة الاسبان والافرنج وغيرهم لا جرم ان الحال تزداد تحولاً وان الفروع تبعد عن الاصول بمختلف الطوارىء . ولقد ذكرنا ان الامالة غالبة على لغة عرب الشام وان عرب الأندلس اخذوها من هناك . ولكن الامالة لم تكن مطردة في كلام اهل الأندلس كما انها لم تكن مطردة في كلام اهل الشام . وان ٢٠ في المائة من اللغة الاسبانيولية هي الفاظ عربية وسمعناهم يلفظونها بالاسبانيولي فلم نجدهم نطقوا بها نطق اهل الشام فلا يقول الاسبانيولي « زيتوني » اي « زيتونة » كما يقولها اهل الشام بل يقولها **Zeitouna** كما يقولها اهل مصر او المغرب مثلاً . وشاهدت في قرمونة من عمل اشبيلية امرأة تستقي من حوض فقلت لها: الجبُّ ؟ لان الاسبان يقولون للبير الجب اخذوها من العرب . فقالت لي : هكذا : non, al-bourka : أي : لا وانما هي البركة . ولم تقل « البركة » بكسر الكاف كما تقول نحن في الشامات

(ستأتي البقية)

الجراحة عند الشعوب القديمة

قبل عهد التاريخ المدوّن

وفي مصر وبلاد الكلدان والهند والصين

الجراحة احدى الفروع الطبية التي مارسها البشر منذ أبعد ازمنة التاريخ.
وقد مرّت عليها ادوار مختلفة وعصور كثيرة وهي تارةً في تأخر وانحطاط وطوراً في ترق وازدهار حتى هذا العصر اذ خرجت فيه منتصرة ظافرة بفضل المكتشفات العلمية الحديثة فأصبحت لها تلك المكانة السامية بين طرق العلاج المختلفة

وكلمة «جراح» (Cheirourgos) مستعارة من اليوناني القديم ومعناها (الذي يعمل عملاً يدويًا) كانت تطلق غالباً عند الكتاب اليونانيين بلا تمييز سواء على الطاهي، أو ضارب القيثارة، أو الطبيب الذي يقوم بعملية، حتى اوائل التاريخ المسيحي اذ فقدت تدريجيًا معناها هذا المبهم العام واضحت حينئذٍ محصورة في الطبيب الذي يمارس شغلاً يدويًا يقضي باستعمال الآلات الجراحية (كخياطة الجروح او تضميدها، او جبر العظم المكسور او ردّ المخلوع منه الى مكانه)

ومما يجدر ذكره هنا ان التمييز الآن بين طبيب وجراح، الذي يبدو لنا اليوم طبيعيًا واضحاً لم يكن موجوداً قديماً عندما تأسست العلوم الطبية في اليونان بين القرن الخامس والرابع ق.م. فالمجموعة الابقراطية لا تشير في اي مكان لهذا الفرق بين مَن يداوي الامراض بالحمية والادوية والذي يعتني بالجرحى بيديه وآلاته. لكن ازاء تقدم الجراحة الفني والصعوبة في معرفة تطبيقاتها التمرينية بالاختبار الشخصي من جهة، وازاء استعداد الشخص واميالهِ الخاصة لاجراء العمليات الدقيقة منها من جهة اخرى، جعل من هذا الاختلاط الحاصل حدًّا فاصلاً بين الطبيب و الجراح وحصر كلمة «اخصائي» بهذا الاخير على ما نراه اليوم

وكما كان علم الطب وليد التجربة في أدواره الاولى كذلك كانت حالة ممارسة الجراحة التي ما لبثت إن بلغت عند اليونان في القرن الخامس ق. م. أعلى ما يمكن بلوغهُ من درجات الرقي والاتقان بانضمامها الى بقية العلوم الطبية. ويغلب على الظن ايضاً ان الجراحة قد كان لها شأنٌ خطير في ذلك العهد بتوحيد هذه الممارسات الطبية فاضافوا بذلك مجداً الى امجادهم الخالدة

ولا ينكر ان الباثولوجيا الجراحية كانت عندهم في اغلب الاحيان بسيطة ساذجة في شرح

اسباب العلل والامراض لكنها مع ذلك كانت دقيقة ممتازة من جهة وصف الجروح والكسور والخلع وموضوعة بقالب من اللغة بديع نقي. كما ان ممارستهم الجراحية بما فيها من دقة الملاحظة تركت آثاراً لا تمحى

ولكي ندرس تاريخ الجراحة في الماضي لا يوجد لدينا سوى قطع تشريحية او آلات محفوظة او كتابات صورية عدا بعض مصنفات فنية مختلفة القيمة والمصدر. وأثمن الآثار المحفوظة بل النادرة لسوء الحظ هي تلك القطع التشريحية من الجماجم التي ترجع الى ما قبل التاريخ ، لاسيما الادوات القديمة التي وُجدت في مصر وبمباي وهركولانوم

اما الكتابات الصورية (كبعض النقوش المصرية واليونانية) فتبدو غريبة في اشكالها اكثر مما هي مفيدة. إمّا لأنها كانت تمثل بعض عمليات جراحية بسيطة كالختان أو الفصاد مثلاً ، أو لأنها كانت قليلة الدقة في صنعها ومعرّضة غالباً للتأويل والانتقاد

فلم يبقَ والحالة هذه سوى التصانيف الكتابية التي تمثل لنا كيفية ممارسة الجراحة عند القدماء وحتى عهد قريب منا . لكنها مع الأسف قليلة الوضوح في الوصف وناقصة الشروح في أكثر الاحيان لأن مؤلفيها يذكرون أحياناً تحت اسم واحد أشياء كثيرة متنوعة كان الأولى التمييز بينها . كما انهم يصفون بايجاز بعض العمليات التي كان يقتضي التفصيل فيها ، وينقلون الواحد عن الآخر من دون ان يذكرَ صاحب التأليف المنقول عنهُ مما أصبح متعذراً اعطاء كلاًّ منهم ما يستحقهُ من الاهلية ، والاختراع أو الطريقة التي تنسب الى الواحد دون الآخر

١ — ممارسة الجراحة قبل فجر التاريخ وعند الشعوب الأقدمين

إن الحفريات التي أُجريت في لوزير (Lozère) بفرنسا من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٨٤ قد اماطت اللثام للعالمين الفرنسيين برونيير وبروكا (Prunières & Broka) عن وجود ١٦٧ مثلاً من الجماجم البشرية المثقوبة التي يرجع تاريخها الى العصر الحجري. ولدى الفحص الدقيق تبين انها كانت على نوعين : منها ما كانت عملية الثقب فيها أُجريت بعد الوفاة (وهذه لا تفيدنا من الوجهة الجراحية) ، وأُخرى ما كانت قد أُجريت قبل الوفاة كما ظهر من التئام جوانب عظم الجمجمة المثقوب (وقد عاش المريض بعدها مدة طويلة) : وأُخرى أيضاً ما كانت قد أُجريت لهُ في الحياة وشفي حتى اذا لاقى حتفهُ عادوا فاقامو من مكان العملية قطعاً صغيرة مستديرة لتكون لهُ بعد موته « عوذةً وحرزاً » ! . وقد دامت هذه الممارسة حتى العصر النحاسي اذ أخذت تقلّ تدريجياً ثم زالت بزوال العصر التالي — الروماني

وفي سنة ١٨٩٤ كشفوا أيضاً في البيرو جماجم بشرية اخرى يرجع تاريخها الى ذلك العهد : منها ما كانت عملية الثقب فيها على النمط المتقدم ذكرهُ ، وأُخرى ما كان عليها آثار ندوب عظمية بشكل (T) في الرقبة او قحف الرأس ناتجة عن كيّ بليغ بالنار . وحتى اليوم

لا تزال بعض القبائل من تلك البلاد محتفظة بعادات اجدادها الاقدمين كما ان هذه العادة (الكي بالنار) لا تزال دارجة ايضاً في بعض انحاء الشرق وغيره .

اما طريقة اجراء عملية الثقب عندهم فكانت سواء بحك تدريجي للعظم بواسطة قطعة من حجر الصوان الحادّ تستخدم كمقص ، او بضرب على المكان المقصود بحجر صوان خاص لهذه الغاية . وفي كلتا الحالتين ، كانت تنجح عملياتهم هذه كثيراً اذا بقيت السحايا الدماغية سليمة

وقد تضاربت آراء العلماء في معرفة ما كان يرمي اليه الاقدمون من ممارستهم لهذه العمليات فنهم من عزاها الى ازالة الالتهابات الموجودة في عظم الرأس ، وآخرون عزوها الى الشفاء من بعض امراض الجهاز العصبي كالصرع مثلاً ، وآخرون ايضاً زعموا انها للحصول على قوة سحرية جذابة . وفريق آخر رأى فيها آثار تنكيل وعذاب او تضحية للآلهة في بعض طقوسهم الدينية

٢ — ممارستها في مصر وبلاد الكلدان والهند والصين

لم تختلف ممارسة الجراحة في هذه البلدان الاّ قليلاً عمّا كانت عليه عند الشعوب المتقدم ذكرها (قبل اتصال اهلها بسكان الغرب) — ماعدا الهند التي امتازت في ذلك العصر بجراحين كان يشار اليهم بالبنان والذين أبلغوا هذا الفن أعلى درجات الرقي والاتقان خلافاً للمصريين والكلدانيين الذين لم تكن عندهم جراحة بالمعنى الحقيقي اعني مجموعة منظمة من الباثولوجيا وفن معالجة الامراض لا سيا الكسور العظمية والمخلوعة ، أو الجروح باسلحة الحرب اسوةً بأهل اليونان والهند

﴿ ففي مصر ﴾ : كل ما لدينا من المستندات والدلائل المعروفة عن حالة الجراحة في ذلك العصر هو وجود بعض كتابات صورية وهيروغليفية ورسوم على الحجر والعاج ترجع الى خمسة وعشرين قرناً ق . م . وهي تمثل مناظر الختان وشقوقاً معمولة في العنق والاعضاء ، ثم ادوات يُرجح انها كانت جراحية . وممارسة التحنيط والموميات التي لا يزال اكثرها محفوظاً والتي يرجع تاريخ اقدمها الى الدولة الثانية عشرة . وهي بلا شك ذات شأن خطير من الوجهة التاريخية وتدلنا على حالة الجراحة في ذلك العهد . والختان في مصر كان اجبارياً عامًّا وكان يمارس عند الجنسين في السن الرابعة عشر اي أنهُ كان فرضاً دينيًّا موروثاً من ماضٍ بعيد خلافاً لما اعتقده بعضهم من أنهُ عادة صحية . ويغلب على الظن حسب قول هيرودوتس المؤرخ بأن المصريين هم الذين نقلوا عادة الختان لليهود والعرب ولو أنها اقتصرت عند هؤلاء على ذكورهم

وأقدم صورة كتابية معروفة حتى اليوم عما يختص بحالة الطب هي التي اكتشفت في طيبة بواسطة مستر أيبرز (Ebers) سنة ١٨٧٢ والتي ترجع الى خمسة عشر قرناً ق . م . وهي مجموعة مختلطة من وصفات كثيرة لمعالجة الامراض لكن هذا لم يرفع وقتئذٍ مستوى الطب عند المصريين الى الدرجة المتوخاة رغماً عن اختصاص كثير من اطبائهم بفروعهِ المختلفة

اما الادوات الجراحية والآثار التي اكتشفت في مصر سنة ١٩٠٩ فأبانت للعيان وجود

سكاكين متنوعة الشكل والحجم ، منها ما هو نحاسي محدَّب واخرى ذات نصال بشكل حسام ؛ وقسماً آخر من حجر الصوان الحاد كان يستعملهُ قدماء المصريين لفتح البطن وقت التحنيط ، ثم كلاليب من حديد لسحب النخاع من الأنف وأجهزة خاصة من خشب النخل لتثبيت العظام المكسورة عند جبرها. وعملية التحنيط كانت هكذا : يستأصل الطبيب اولاً المادة النخاعية من الأنف بواسطة كلاَّب خاص لهذه الغاية. ثم يشرط البطن فالصدر بسكين من حجر الصوان الحاد. وبعد ان يقيم ما في هذين الجوفين من الاعضاء يُغسَلان ثم يملأ الجوف البطني من المرّ والشنبر والطيوب المختلفة. وأخيراً يخاط البطن والصدر باعتناء تام وتنقع الجثة مدة سبعين يوماً في مزيج من الملح وكربونات الصوديوم وتلفُّ نهائيًّا بلفائف مطلية بالصمغ

والذي يدعو الى الدهشة والاستغراب هو أن يوجد على كثير من هذه الجثث المحنطة المحفوظة من عهد الدول الأولى حتى العهد البيزنطي آثار جروح وقروح والتهابات لا تزال بادية للعيان (كتدرن الفقرات مثلاً ، والتحام ذات الجنب والصفاق ، والروماتزم المشوه الخ . .) مما يدلنا على أن البشرية لا تزال هي هي من الوجهة الطبيعية رغماً عن انقضاء ثلاثين أو اربعين قرناً بيننا وبين عصر الفراعنة ، كما أنها لم تتغير كثيراً من الوجهة العقلية والأدبية رغماً عن مدنيتنا الحالية ومظاهرها الخداعة

﴿ في بلاد الكلدانيين ﴾ : المعروف عن حالة الجراحة والطبابة عند سكان هذه البلاد انها كانت بسيطة ساذجة ان لم نقل متأخرة جداً لانها كانت مشبعة بالمعلومات الفلكية ، والتفاؤل ، والاعتقادات بما فوق الطبيعة والسحر والطلاسم . واليك ما قاله فيهم المؤرخ هيرودوتس وفي مستواهم العقلي من جهة الطب : « يعرضون مرضاهم في الساحات العمومية لافتقارهم الى وجود اطباء فالناس الذين يمرون بالطريق يسألون المريض عن دائه ليعرفوا اذا كانوا هم ايضاً مصابين بنفس الداء ، او إذا كانوا قد رأوا اشخاصاً آخرين مبتلين بهِ . وهكذا يتحادثون مع المريض ويشيرون عليهِ ان يتبع العلاج الذي نفعهم هم او الذي يعرفون انهُ افاد غيرهم . وليس مسموحاً ان يمرّ احد بمريض ويبقى ساكتاً . . بل عليهِ ان يسأله بعض المعلومات عن مرضهِ ». وأهم سندٍ تاريخي عُرف حتى اليوم مما يختصُّ بتمدن الشعوب السامية القديمة هو اكتشاف شريعة حمورابي في قرية «السوس» بالعراق (شوسن القصر في التوراة) سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ بواسطة مستر مورغن والتي يرجع تاريخها الى نحو عشرين قرناً ق . م. واليك نص بعض بنودها عن ممارسة الجراحة في ذلك العصر حسب ترجمة الاب شايل (Scheil) سنة ١٩٠٤ : ١ — اذا عالج الطبيب رجلاً مصاباً بجرح بليغ بواسطة مخرز نحاسي وشفي ، او اذا ازال غشاوةً عن عين المريض بذات الآلة وشُفيت عينهُ يتقاضى اجرة عشرة (سيكل) فضية ٢ — اذا داوى الطبيب جريحاً بمخرز نحاسي ومات الجريح ، او اذا فتح لأحدهم غشاوة العين

وأفقده بصره تقطع يديه! ٣١ — اذا شفى الطبيب عضواً مكسوراً او ابرأ احد الاعضاء الداخلية المريضة، يدفع المريض الى الطبيب خمسة سيكل فضية. اما اذا كان المريض فقيراً او مستعبداً فالأجرة تكون اقل فيما لو نجحت العملية. وبخلاف ذلك يدفع الى المريض تعويضاً مالياً »

ومن هذا يتضح لنا قدر المسؤولية الطبية في نص مهم كهذا خلافاً لاطباء وجراحي اليونان والرومان في ذلك العهد الذين لم يكونوا مقيدين بأية مسؤولية من هذه الوجهة. والويل للطبيب اذا مات المريض فالسيد الحرّ المطاق لا يُعوّض فلذلك كان جزاء الطبيب الموت العاجل كيلا يرحل المريض وحده الى الابدية!

﴿ في الهند ﴾ : ارتقت الجراحة في القدم عند سكان هذه البلاد ارتقاء باهراً فنافس الهنود اليونانيين في كثير من العلوم الطبية كالتشريح والفيزياء (الطبيعة) ، وعرفوا مفاعيل بعض المخدرات واستعملوها في بعض عملياتهم الجراحية. كما انهم اوجدوا كثيراً من الادوات الجراحية : مشارط ومناشير ومقصات ومجسات الخ وأجروا عمليات الفتق والقيصرية وعمليات العيون والأنف واستئصال الأورام السطحية. وثمة أمرٌ واحد مجادَل عليه ولم يبت فيه حتى الآن وهو ايهما أثر في الآخر من الوجهة الطبية العامة الهنود أم اليونان؟ ان كتاب سوسراتا (Susrata) الذي هو عبارة عن مجموعة طبية والذي يذكرنا بالمجموعة الابقراطية لم يرجع تاريخهُ حسب قول المؤرخين الا الى القرن الرابع او الخامس ق. م. وبما ان غزوة اسكندر الكبير التي أنشأت علاقة متينة بين التمدن الهندي والتمدن اليوناني ليست الا من سنة ٣٢٧ ق. م. فيغلب على الظن اذ ذاك ان الجراحة اليونانية التي كانت متقدمة على عهد اسكندر الكبير قد أثرت على الجراحة الهندية. وربما ايضاً تكون هذه النظرية بالعكس

﴿ في الصين ﴾ : كانت الجراحة في هذه البلاد معدومة تماماً قبل دخول الاوربيين اليها وكتب الصينيين الطبية كانت خليطاً من الاوهام الغريبة الشاذة والتعاويذ والاغلاط الفادحة: مثلاً الحنجرة تفتح في القلب ! والنخاع الشوكي ينتهي في الخصية!! والكبد له سبعة فصوص....

كذلك الباثولوجيا : يوجد عشرة آلاف نوع من الحمّى.. و١٤ نوعاً من الدوسنطاريا!!...

ومن هذا نستنتج مدى تأخر الجراحة والعلوم التشريحية عندهم ، لا سيما عند شعب لا يحب ان يرى منظر الدم او ان تُبتر احد الأعضاء او يجدع الجسم الحي. وما عدا هذا فالصينيون لم يكونوا يستعملون الا الدلك والحجامة والكي بالنار لا سيما الوشم الذي من شأنه على زعمهم ان يشفي انواع الامراض فكانوا يستعملون لذلك إبراً رفيعة طويلة يدخلونها في الجسم حتى في العنق والصدر والبطن. ولا يخفى ما في اجراء عمليات كهذه من الخطر

القورنه — العراق الدكتور عبده رزق



العمران : في خلال ثمانين سنة

الانقلابات والاتجاهات العالمية الخطيرة

١٨٥١ — ١٩٣١

في سنة ١٨٥١ لم يكن احد قد قرأ تلغرافاً بحرياً ، ولا رأى طيارة ، ولا سمع بفولاذ بسمر ، ولا تخاطب بالتلفون ، ولا خطر على باله أن يوم العمل يجب ان يكون ثماني ساعات ، ولا عرف ما هو البنزين ، ولا طرق سمعهُ مذهب النشوء والارتقاء . كان يعرف قليلاً عن الجراثيم ، ولكنهُ لم يكن قد سمع « بعبء الرجل الابيض » . كان يتحدث عن السلام ويستعدّ للحرب ، ولكنهُ لم يتصوَّر حرباً يشترك فيها ستون مليوناً في حمل السلاح . لم يفكر قط في الشؤون السياسية على انها شؤون اقتصادية ، ولا كان يتحدث في الرخاء على انهُ انتاج واسع النطاق حتى يعمّ العالمَ . فالسنون التي انقضت بين ١٨٥١ و ١٩٣١ كانت سنين حافلة بالحوادث الخطيرة . فهل نستطيع ان نجمع في طوائف مميزة اخطر هذه الانقلابات ونعيّن الاعلام التي مرّ بها التاريخ العالميّ في هذه الحقبة ؟

ميدان السياسة

لدى البحث تتبين اربعة اتجاهات اساسية في ميدان السياسة . فاولها نحو القومية او الوطنية والثاني نحو التوسع الامبراطوري (الامبريالزم) والثالث نحو النظام العالمي والرابع نحو الدمقراطية

الروح القومية

كانت الوطنية من ثمانين سنة قوة كامنة في اوربا . فقد كانت ايطاليا حينئذٍ مجموعة من الممالك والولايات والدوقيات تسيطر عليها في الغالب الجيوش النمسوية وتستبدّ بها السياسة النمسوية . وكانت المانيا اتحاداً مفكك الاوصال من ولايات مستقلة يحكمها ملوك مستقلون يغار كلٌّ منهم على استقلاله . اما تركيا فكانت تبسط ظلها على جانب كبير من دول البلقان . واما بولونيا التي قطعت اوصالها في مؤتمر فينا ، للمرة الثانية ، فلم يكن لها وجود مستقلٌ في خريطة العالم

ففي الثمانين السنة المنصرمة ، شهد التاريخ نمواً عظيماً في الاتجاه نحو الاستقلال القومي ، في اوربا ، بل وفي سائر انحاء العالم . ففي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٥١ و ١٨٧١ اتحدت كل من دويلات المانيا وايطاليا على أثر حروب دامية » . فاصبحت كلٌّ منها دولة متحدة مستقلة

وخرجت دول البلقان من عثير الحروب امماً مستقلة وفازت بولونيا باستقلالها في الحرب الكبرى وعلى اثرها . وفي هذه الحرب نفسها تفككت الامبراطورية النمسوية المجرية الى الاجزاء القومية التي كانت تتألف منها

اما اليابان ، التي طرق الكومندور پري بابها سنة ١٨٥٢ ، فبنت نموها وتقدمها على مثال متخذ من دول اوربا . ولم تلبث الاحزاب القومية التي تطالب بالاستقلال القومي حتى ظهرت في مختلف بلدان العالم ، ففي الصين بزعامة صن يت سن وفي الهند بقيادة غندي وفي تركيا تحت لواء مصطفى كمال . وكذلك في مصر وسوريا وغيرهما من بلدان الشرق الادنى . اجل طرفك من ارلندا الى ايران ، ومن ايران الى انام ، فلا تلق بقعة واحدة من بقاع الارض لم تشهد في الثمانين السنة المنقضية انبثاق روح القومية فيها متحمساً طموحاً

التوسع الامبراطوري

وفي المدة عينها شهد التاريخ توسعاً امبراطورياً هو في الوقت نفسه نتيجة للروح القومية ونقض لها . ومن اغرب المفارقات في التاريخ الحديث ان تكون تلك الامم التي تراها اشد الامم تمسكاً باستقلالها ورعاية لقوميتها ، اكثرها عنتاً في ارهاق الشعوب الاخرى للخضوع لها

كان روح التوسع الاستعماري لا يزال في مهده ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر فندر من الدول الاوربية من كان له موطئ قدم في اسيا . اما افريقية فكانت بلاداً محجوبة بالاسرار والجهل ، الا مصر ، وبعض المستعمرات المنثورة على شاطئيها الغربي والشرقي

كان في وسع بريطانيا ان تحتفظ بالممتلكات التي احتلتها في اثناء توسعها الاستعماري ولم تلبث ان اضافت اليها الهند وزيلندا الجديدة وسنغافورة وهُنغ كُنغ . ولكن الدول الاخرى لم تكن حسنة الطالع في الاستعمار مثل بريطانيا . ففرنسا واسبانيا والبورتغال شهدت قبل منتصف القرن الماضي مستعمراتها الشاسعة في اميركا الشمالية والمتوسطة والجنوبية تتفلت من ايديها . حتى بريطانيا نفسها ، لم تكن تحس بدافع قوي يدفعها الى الاستعمار قبل سنة ١٨٥٠ ففي سنة ١٨٥٢ قال دزرائيلي « ان هذه المستعمرات البائسة حجر رحى في اعناقنا »

اما عصر التوسع الاستعماري الحديث فبدأ حوالي سنة ١٨٧٠ ولم يلبث أن احدث انقلاباً خطيراً في سياسات الدول وخريطة الدنيا . فروسيا اخذت تتوسع شرقاً وجنوباً في اسيا ، فاستولت استيلاء مباشراً او غير مباشر ، على منشوريا ومنغوليا وايران . والمانيا اختصت نفسها بارض مساحتها ١٠٠ الف ميل مربع في افريقية وجزائر الهند الشرقية . وفرنسا غزت تونس سنة ١٨٨١ وتونكين سنة ١٨٨٣ ثم اضافت الى امبراطوريتها الاستعمارية ٩٠ الف ميل مربع في اسيا و (٢٦٠٠٠٠٠) ميل مربع في افريقية في خلال نصف قرن من (١٨٧٠ —

١٩٦٠) وفي المدة عينها اضافت بريطانيا الى امبراطوريتها ما مساحتهُ ٤٠٠٠٠٠٠ ميل مربع. ولم تلبث اليابان حتى اقتدت بمن قلدتهم من امم اوربا فضمّت جزيرة فورموسا وجانباً من منشوريا وكوريا . اما في العالم الجديد فالولايات المتحدة الاميركية بعد ما نزعت من بلاد المكسيك اربعةً من ولاياتها الغربية الحالية ، غنمت ممتلكاتها الاول خارج بلادها سنة ١٨٩٨ لما ضمت جزائر هواي وارغمت اسبانيا على اخلاء بورتوريكو وغوا وجزائر الفيلبين

اما النتائج التي نتجت من هذه الرغبة في التوسع الاستعماري فاولاً ارتياد المناطق المجهولة وتخطيطها. وثانياً وقوع الخلاف بين الدول بسبب المستعمرات. فحروب العالم بين سنة ١٨٥١ — ١٨٨٠ كانت حروباً قومية في الغالب — الحرب الفرنسية النمسوية سنة ١٨٥١ . والحرب الاهلية الاميركية سنة ١٨٦١ — ١٨٦٥ والحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ اما بعد سنة ١٨٨٠ فترى مبدأ التوسع الاستعماري قد أصبح عاملاً فعّالاً في مجامع الدول واحداث الخلاف بينها . ولا سبيل للباحث الاّ ان يعزو الحرب الصينية اليابانية سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٥ والحرب الاسبانية الاميركية ١٨٩٨ وحرب البوير سنة ١٨٩٩ والحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ والحرب الكبرى الى النزعة الاستعمارية في دولة او طائفة من الدول

التنظيم العالمي

شهد التاريخ في السنين الواقعة بين (١٨٥١ — ١٩٣١) سلسلة من الحروب الدامية نشب معظمها لتعيين مسير النزعة الامبراطورية ، ولكنهُ شهد كذلك سلسلة من المحاولات لخلق قانون دولي ووضع اساس يقوم عليهِ صرح السلام العالمي

ففي سنة ١٨٥٦ امضت كل الدول البحرية الكبيرة — ما عدا الولايات المتحدة واسبانيا — تصريح باريس وغرضهم فيهِ ان يتعهدوا بالمحافظة على تجارة المحايدين في اثناء الحرب . وفي سنة ١٨٦٤ ، لما كانت الولايات المتحدة الاميركية في غمار حربها الاهلية ، امضت الدول الاوربية الكبيرة « عهد جنيف » الذي تأسست بموجبهِ « جمعية الصليب الاحمر الدولية » . وفي سنة ١٨٧٨ اجتمع مؤتمر برلين لمحاولة التوفيق بين مصالح روسيا وبريطانيا وامبراطورية النمسا والمجر في جنوب اوربا الشرقي (البلقان) فاصاب المؤتمر فلاحاً مؤقتاً. وفي سنة ١٨٨٤ ابرمت الولايات المتحدة « عهد جنيف » . وفي سنة ١٨٩٩ اجتمع مؤتمر السلم في لاهاي بدعوة من عاهل روسيا القيصر نقولا الثاني . وفي سنة ١٩٠٧ اجتمع ثانية بدعوة من الرئيس روزفلت فحضر جلساتهِ ممثلو ٤٤ دولة . ومع ان المؤتمرين المذكورين خابا في الوصول الى اتفاق على مسألة التسليح الا انهما اضافا تعديلات خطيرة الى القانون الدولي المعترف بهِ حينئذٍ

وفي اثناء ذلك رأت حكومات الدول الكبيرة ان المصلحة العامة تقضي بالتعاون الفعال

بينها لتمهيد سبل المواصلات والتجارة. فبين سنة ١٨٦٥ — ١٨٨٣ انشىء الاتحاد الدولي للبريد وانضمت اليه ستون امة . وامضت اثنتا عشرة دولة « عهد برن » للمحافظة على حقوق الطبع . وابرمت عشرون دولة عهداً آخر غرضهُ توحيد القوانين الخاصة بامتيازات المخترعين. وانشأت ثلاثون دولة الاتحاد التلغرافي الدولي

وعلى اساس هذه الخبرة في التعاون الدولي — سياسيًّا واقتصاديًّا — انشئت جمعية الامم بعد الحرب الكبرى . فانضم اليها ٥٤ دولة وقد بذلت معظم جهدها في حلّ المسألة المعقدة التي استعصى حلها على مؤتمري لاهاي — نعني مسألة التسليح وتحديده . ثم ان هناك تجربة اخرى في التنظيم الدولي ، نريد محكمة العدل الدولية الدائمة في لاهاي التي انشئت على اثر اقتراح من الولايات المتحدة الاميركية بعد مؤتمر لاهاي الاول سنة ١٨٩٩ واحدث التجارب من هذا القبيل بنك التعويضات الدولي في بال الذي انشىء لمراقبة التعويضات الالمانية ولفتح حسابات للدول الاوربية المدينة للولايات المتحدة الا ان دستوره يأذن لهُ في توسيع نطاق اعماله

الدمقراطية

كان ابناء الامم الخائضة معترك التوسع الامبراطوري شديدي التردد والنفور من منح امتيازات الحكم الدمقراطي للشعوب التي يحكمونها . ولكنهم كانوا قد آلوا على انفسهم ان يفوزوا بهذه الامتيازات ويتمتعوا بها

من الطرق المألوفة في تتبع سير الدمقراطية وضع جدول بالرؤوس المتوّجة التي سقطت في الميدان . واذا شئنا ان يشمل الجدول كل الممالك التي اصبحت جمهوريات من سنة ١٨٥١ الى الآن كان جدولاً طويلاً مملاً ولكنهُ على كل حال يشمل فرنسا وألمانيا وروسيا والصين والبرازيل والنمسا والمجر واسبانيا . وهذا الجدول يشير الى الانقلاب الذي حصل ولكنه لا يقيس خطورتهُ . ففي بعض البلدان — التي ما زالت ممالك الى الآن — تقدمت الدمقراطية من سنة ١٨٥١ تقدماً عظيماً يفوق تقدمها في بعض البلدان التي تخلت عن ملوكها وأصبحت جمهوريات . ففي انكلترا مثلاً سن البرلمان تشريعاً يقضي بحذف « الملكية » من مؤهلات الرجل لدخول مجلس النواب . وفي سنة ١٨٦٧ ضوعف نطاق الذين يحقّ لهم ان يقترعوا في الانتخابات العامة. وما زال نطاق الدمقراطية يتسع فيها حتى اصبحت الآن وكل الرجال والنساء فوق سن الحادية والعشرين لهم الحق في ان ينتخِبوا ويُنتخَبوا ، وحتى صار لمجلس النواب دون مجلس اللوردات السيطرة الفعلية على اخطر شؤون الدولة

وما تمّ في انكلترا — يمثل الى حد بعيد — ما تم في كل مملكة او جمهورية في الثمانين سنة الماضية . فاليابان التي كانت في منتصف القرن الماضي دولة على مثال الدول الاقطاعية في

القرون الوسطى ، اصبحت ملكية دستورية سنة ١٨٨٦

وقد انبثّ الايمان بالدمقراطية في كل طبقات الشعوب . وما زال نطاقه يتسع حتى العقد الاخير ، إذ قامت الحركة الفاشستية في ايطاليا والشيوعية في روسيا ، واذا انبياؤهما يرتابون في ان الدمقراطية تصلح نظاماً للعالم الحديث، وان طرق الدمقراطية ومبادئها جديرة بالاحتفاظ. ففي احداها يحلُّ الدكتاتور في الدولة محل المجلس الدمقراطي ، وفي الأخرى سيطرة العمال » . ولا نستطيع الحكم عليهما الآن وقد مضى على تطبيقهما سنوات قد تحصى على اصابع اليدين

ميدان الاقتصاد

العلم والصناعة

اما في ميدان الاقتصاد فأخطر الحوادث التي تمت في خلال ثمانين سنة نشأت عن تقدم العلم وتطبيقه . كانت الثورة الصناعية قد قاربت اوجها في منتصف القرن الماضي . كان وط قد استنبط الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ ولكن لما افتتح المعرض العام في القصر البلوري بلندن سنة ١٨٥١ كانت الامم الغربية قد اخذت تستعمل — ولو كان الاستعمال ضيق النطاق — المغزل المدار بقوة بخارية والتلغراف ومكينة الخياطة والباخرة والقاطرة البخارية ورغم ذلك فمعظم الارتقاء في الناحية الآلية من العمران تمَّ بعد سنة ١٨٥١ فكان أساس النهضة الصناعية الحديثة

فحوالي سنة ١٨٥٠ استنبط بسمر (Bessemer) طريقتهُ في صنع الفولاذ فكانت مفتتح عصر الفولاذ الحديث . وحوالي ١٨٦٠ استنبط نور القوس الكهربائي ، وطريقة الاتون المفتوح لصنع الحديد ، والحاصدة التي تربط الحزم من تلقاء ذاتها ، والآلة الكاتبة — تيب ريتر — والفرملة الهوائية ، والمحراث الفولاذي ، وطريقة طبع المنسوجات طبعاً متواصلاً ، وافتتاح المواصلات التلغرافية بين اوربا وأميركا

وحوالي ١٨٧٠ استنبطت آلة الغاز ، والتلفون ، والمصباح الكهربائي اللامع ، والتلغراف المزدوج ، وغيرها من آلات الطحن والزرع . وحوالي ١٨٨٠ استعمل المولد الكهربائي استعمالا تجاريًّا ، واستنبطت منضدة الحروف (اللينوتيب) ، واللاحمة الكهربائية وطريقة كهربائية لاستخراج الالومنيوم من تبره واستعماله في الصناعة ، واول السيارات المزعجة . أما في السنوات الحديثة فنجد كل المكتشفات والمستنبطات التي جهزتنا بطرق المواصلات والمخاطبات الحديثة ومكنتنا من غزو الجواء

اما النتيجة المباشرة التي نُتجت من هذا الارتقاء في تطبيق العلم فصنع آلات خالقة للثروة ، مبدعة لوسائل رفاهة الحياة . وأثر ذلك منبثٌّ في الاتجاهات السياسية الاربعة التي اشرنا اليها . فانتشار الروح القومية في أميركا — وهي تكاد تكون قارة باسرها لسعتها—

يعزى الفضل فيهِ الى السكك الحديدية ومطبعة الصحف والتلفون والتلغراف وغيرها . اما النزعة الامبراطورية فنتجت من مصانع تبحث عن مواد اولية واطعمة واسواق . وفي الوقت نفسهِ مكنت الثورة في طرق المواصلات الدول الاستعمارية الحديثة من المحافظة على اجزاء امبراطورياتها في وجه قوى تحاول ان تنثرها وتفرقها . ثم ان التقدم في وسائل المخاطبات والمواصلات قد حطم كل الحواجز التي تعزل كل امة عن جارتها ، ولذلك كان عاملاً فعّالاً في توجيه الامم الى العناية بالتنظيم الدولي في سبيل السلام

تنظيم الاموال وتحريرها

اما الاتجاه الثاني الخطير في ميدان الاقتصاد فتنظيم رؤوس الاموال تنظيماً واسعاً لم يسبق لهُ مثيل في التاريخ . وهذا الاتجاه جاء نتيجة منطقية للثورة الصناعية . فلما كان الانتاج قائماً في الغالب على الاساليب القديمة التي اساسها العامل اليدوي الفرد، كان المعمل صغيراً . ودائرتهُ لا تتعدى منطقتهُ الضيقة . فلما ادخلت الآلات الحديثة ، اتسع نطاق الملك الصناعي باتساع نطاق الانتاج

وهذا الميل الى المُلْك الصناعي المندمج [1] باد في كل ممالك الارض الصناعية ولكنهُ على اظهره في الولايات المتحدة الاميركية . ففي ربع القرن الواقع بين ١٨٥١ و ١٨٧٦ انشئت شركة ستندرد اويل وتركزت صناعة الطحن في مدينة منيابوليس وغيرُها في غيرِها وانشئت الشركات الضخمة في مختلف نواحي الصناعة

وبدلاً من معامل صغيرة منثورة هنا وهناك يتزاحم اصحابها على الفوز في السوق المحلي، ظهرت شركات كبيرة منظمة ذات رؤوس اموال ضخمة تملك معامل عظيمة ومصادر للمواد في كل انحاء البلاد . ولما كان انشاء شركات ضخمة يقتضي اصدار سندات واسهم كثيرة ، اصبح للبنوك اثر كبير في ادارة الصناعات . وما تم في الولايات المتحدة الاميركية حدث في غيرها من البلدان التي اخذت بأسباب الثورة الصناعية

وقد بلغ من اثر تنظيم الاموال هذا التنظيم الدقيق ان حذفت الحدود الجغرافية والسياسية من خطط المموِّلين ورؤساء الشركات . ففي اوربا شركات دولية غرضها تنظيم صناعة الفولاذ وما اليهِ في كل بلدان اوربا . وفي انكلترا شركات نظمت زراعة القطن في السودان وزراعة اشجار المطاط في ملقا . وفي اميركا شركات وافراد ارسلوا من اموالهم ١٥٠٠ بليون ريال (٣٠٠٠ مليون جنيه) لتثميرها في اوربا واسيا . وقد بلغ من شأن الشبكة التي بسطها رجال المال فوق الخريطة العالمية ، ان ازمة في التعويضات الالمانية تقتضي في الحال اجتماع رجال المال من طوكيو ونيويورك ولندن وباريس للاشتراك في حلها

(١) المندمج (incorporatid) اي الشركات التي تندمج كلها في شركة ، احدة كبيرة

تنظيم العمال

وتنظيم العمال اقل ظهوراً من تنظيم الاموال ولكنهُ ليس اقل خطراً . ومعظم تاريخ العمال كقوة سياسية منظمة كتب بعد سنة ١٨٥١ فؤتمر نقابات العمال البريطاني الذي عقد سنة ١٨٥١ كان تجربة مضطربة ، فناضل زعماؤهُ نضالاً عنيفاً في سبيل الاعتراف بهِ ، وكان عدد الاعضاء الممثلين فيهِ مائة الف عامل . أما في اميركا فاتحاد العمال القومي السابق لـ«اتحاد العمال الاميركي» لم ينظم الاّ سنة ١٨٦٦ وليس ثمة بلد على جانبي الاتلنتيكي نهض فيهِ مقام نقابات العمال قبل سنة ١٨٥٠ فوق أساس واهٍ مضطرب

ولكن هذه الحركة اتسعت وقويت في الثمانين السنة الاخيرة . فاتحاد نقابات العمال الدولي يبلغ عدد اعضائهِ ١٤ مليوناً من الرجال والنساء منضوين تحت نقاباتهم الخاصة في ٢٧ بلاداً. يضاف الى ذلك الاتحاد الاميركي وعدد اعضائهِ ثلاثة ملايين ، والحزب الشيوعي في روسيا ، ونقابات قوية للعمال في البلدان الصناعية في اميركا الجنوبية

وصحب هذا النمو في نقابات العمال زيادة اشتراكهم في ادارة الصناعات المختلفة ، ونمو شركات التعاون وانشاء بنوك خاصة للتوفير ، وتشريع خاص بالصحة العامة في المعامل

ومع ذلك ، يبدو كأن مجالس الأمم ، ومجالس ادارات الشركات لا تزال عاجزة عن منع الازمات الاقتصادية وما يسير معها في زيادة العمال العاطلين

ميدان الاجتماع

في خلال الثمانين السنة الماضية شهدنا ارتفاعاً مطرداً في مستوى المعيشة، وتقليلاً لساعات العمل ، وظهور مشكلة الانتفاع باوقات الفراغ ، وتداعي الجدران الثقافية الفاصلة بين الامم. فقال موجز لا يكفي لتعداد هذه التحولات ، دع عنك تحليلها وتقدير اثرها في جزء من مقال . وانما نستطيع ان نشير الى بعض التحولات التي كان لها اثر في عادات الناس ومعيشتهم

التعليم العام

ففي المقام الاول ، ليس علينا ،الاّ ان ننظر الى منتصف القرن الماضي لكي ندرك التقدم الذي اصبناه في ميدان التعليم . ففي سنة ١٨٥١ كان البرلمان البريطاني ينفق اقل من مليون جنيه على المدارس العامة في كل البلاد . وهذا المبلغ جانب صغير مما تنفقهُ مدينة لندن وحدها على مدارسها الآن . وبلغ من تقصير امم اوربا في ميدان التعليم العام ان كارل ماركس جعلهُ من مبادىء « البيان الشيوعي » الذي اصدره حينئذٍ . اما الولايات المتحدة فلم يكن

فيها سوى ١٠٠ مدرسة عالية مع انها كانت تحصي ٣٠ مليوناً من النفوس

وفي خلال هذه المدة كثرت المدارس المجانية في كل الامم ، وانشئت الجامعات والكليات واوقفت لها الاموال الطائلة من المصادر العامة والخاصة ، وتعددت دور الكتب [١] . اما التعليم العلمي فقد كتب معظم تاريخه بعد سنة ١٨٥٠ ولا ننسى ان الصحافة نشرت امام ملايين من الناس صورة مضيئة ودقيقة الى حد كبير ، للعالم الذي نعيش فيه . وفتح الراديو مسالك جديدة لاذاعة الحقائق والآراء

وقد القيت مقاليد الزعامة في هذه النهضة التعليمية لدول الغرب التي أثرت بالصناعة . اما معظم الامم الشرقية ، الفقيرة بوجه عام ، والمحافظة على تقاليدها القديمة ، فظلت الى عهد قريب ، تحسب المعرفة امتيازاً للاقلين ، والامية تراثاً محتوماً للاكثرين . وفي هذه الامم نشهد انقلاباً لا خطأ في وجهته ومعناه . فمن مصر الى الصين ، يروج الوطنيون لنشر التعليم العام كاساس للاستقلال والدمقراطية

مقام النساء الجديد

وثم تحول اجتماعي آخر تم في العهد المذكور — نعني مقام النساء . كان النساء قد بدأن في منتصف القرن الماضي السعي لمنحهن حق التصويت في غرب اوربا والولايات المتحدة الاميركية . في اجتماع عقدته النساء الاميركيات سنة ١٨٤٨ ، وضعن وثيقة استقلالهن وطلبن فيها منحهن حقوقاً وامتيازات سياسية واجتماعية كحقوق الرجال

اما الحقوق السياسية فكانت بطيئة التحقيق . لانهن لم يفزن بحق التصويت والانتخاب في اميركا وبريطانيا والمانيا والنمسا ومعظم الدول الجديدة في اوربا الوسطى الا في العقد الثاني من هذا القرن . ولكن الاعتراف بكانتهن الاجتماعية جاء قبل ذلك

ففي الولايات المتحدة كانت الفتيات يمنعن من الانتظام في الجامعات والكليات الا اقلها . ولكن في سنة ١٨٧٥ كانت طائفة كبيرة من جامعات الولايات (العامة) قد بدأت تجاربها في التعليم « المشترك » ثم تبعتها في ذلك الجامعات الخاصة . وفي سنة ١٨٦٩ حكمت النقابة الدولية الطبوغرافية بقبول النساء فيها على قدم المساواة مع الرجال . وفي سنة ١٨٧٠ بلغ عدد النساء الاميركيات المسترزقات ١٥ في المائة من جميع المسترزقين وفي سنة ١٩٠٠ بلغن ٢٠ في المائة . اما في السنوات الحديثة فقد وسعت النساء نطاق اعمالهن افراداً وجماعات في الحرف والصناعات المختلفة

وما تم للنساء الاميركيات تم بوجه عام للنساء الاوربيات — مع اختلاف ضئيل او كبير . حتى في الشرق حيث المحافظة على التقاليد اشد استحكاماً في النفوس ، كسبت النساء نصيباً

(١) كان في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٨٧٠ ست دور للكتب مجموع مجلداتها ٦٠٠ الف نسخة فقط

كبيراً من الاستقلال وطائفة كبيرة من الحقوق . ففي اليابان والصين ترى النساء المتعلمات ذوات مقام محترم في الصناعات المختلفة . اما في تركيا وبلاد العرب ومصر فالنساء المسلمات يشتركن مع الرجال في الشؤون السياسية والاجتماعية ، اشتراكاً يذهل له مسلمو القرن التاسع عشر

تقدم الطب

ان قصة الطب الحديث من باستور الى لستر الى نغوشي الى بانتنغ تقع حوادثها في المدة الواقعة بين سنة ١٨٥١ و ١٩٣١

لم يدخل لستر طريقة الجراحة المعقمة الا سنة ١٨٦٣ ولم يكشف باستور عن علاقة البكتريا بالمرض الا سنة ١٨٧٧ ولم يعزل كوخ باشلس الدرن الا سنة ١٨٩٢ . وقد جاء في أثر هؤلاء الروّاد جيش من العلماء الممتازين يكشفون طرقاً جديدة للعلاج والوقاية . وبفضل هذا التقدم ، قضي على الحمى الصفراء في البلدان الموبوءة ، وخفض متوسط الوفيات بالسلّ ، وسيطرت المصالح الصحية في الحكومات على الطاعون الدملي ، والحمى التيفوسية والتيفويدية والدفثيريا والكوليرا ، والانكلستوما والملاريا . لقد جهزتنا العلوم الطبيعية بما يخفف الآلام ، ويطيل الحياة . فتوسط الوفيات في الولايات المتحدة نقص من ١٩٫٨ في الالف الى ١٢ في الالف في خلال نصف قرن

آفاق جديدة

ولست تجد في كل هذه الانقلابات شيئاً اعظم خطراً من الآفاق العقلية الجديدة التي نشأت عنها . واذا كانت السنون التي تلت سنة ١٨٥١ هي سني باستور ولستر ، وبسمارك وجاريبالدي ، وبسمر وركفلر وفورد ، فقد كانت كذلك هي السنين التي نشر فيها كتاب « اصل الانواع » لداروِن و « الفلسفة التركيبية » لسبنسر ، واكتشاف رنتجن لاشعة اكس ، ومدام كوري للراديوم ، واذاعة اينشتين لنظرية النسبية

وفي خلال هذه السنين ، تتبع علماء الاحياء الحياة من منشإها ، ونفذ علماء الطبيعة الى الذرة ، وتغلغل علماء الجيولوجيا في طبقات الارض ، وبحث علماء النفس في طبيعة العقل الباطن ووصل علماء الفلك بعيون التلسكوبات الى « المدن النجمية » الكائنة من وراء المجرة . وبدلاً من الآراء المبنية على التحكم جعل الفلاسفة والعلماء يقترحون نظريات لا تلبث ان تتحول بارتقاء العلم واتساع نطاق البحث

الشقة من سنة ١٨٥١ الى ١٩٣١ طويلة وعرة . ولكن اين تقودنا الطرق التي نسير عليها فلا ريب في ان آفاق العقل الانساني آخذة في الاتساع

أريد

أريد وما عسى تُجدي أريد على مَن ليس يملك ما يريد

أريد أفي الدنيا فأعطي لها الثمنَ الذي يبغي الوجود

أريد العيشَ مثل الطير حرّاً طليقاً لا تُغلّلهُ القيود

أريد افكُّ عن نفسي قيوداً يُقاد بها على الخسفِ العبيد

أريد من الغرائز أن تَسامى فلا طمعٌ يُذِلُّ ولا حقود

أريد من الغنى حظّاً كنفسي كفاء ليس ينقص أو يزيد

أريد لهذه الدنيا سلاماً أريد الحبَّ في الدنيا يسود

* * *

أريد لهذه الأنهار تجري هنا وهناك ليس لها حدود

أريد لهذه الأطيار تشدو كما يبغي لها الصوت المديد

أريد لهذه الآمال تسمو وتزهو في الحياة كما أريد

. . . . . .

أريد وما عسى تجدي أريد على من ليس يملك ما يريد

محمود ابو الوفا

أسس الوراثة

في الحكمة المأثورة أيها الانسان اعرف نفسك وفي معرفة النفس لذة لا تبارى . فالوراثة من الموضوعات الاخاذة التي تمكننا من ان نبصر ما في أنفسنا ونتحقق قول الشاعر

وتزعم انك الجرم الصغير وفيك انطوى العالم الاكبر

فهي المسيطرة على حياة الفرد الجسدية والعقلية والروحية وهل أفيد والذ من معرفة تلك القوة المسيطرة علينا والتي نحن مسيرون بمشيئتها ؟ لماذا يشبه الابناء آباءهم ولماذا يختلفون عنهم ؟ لماذا يختلف الاخوان المنحدران من نفس الابوين فهذا ذكي وذاك بليد وذاك ضعيف وهذا قوي ؟ ما سبب تباين الافراد فنهم النابغ ومنهم المنحط وفيهم النشيط وفيهم الخامل ؟ وما هي تلك الخواص الطبيعية التي تخلق الرياضي والفنان والموسيقي والشاعر والاديب والمصور ؟ ما هو السر في تكوين الذكر والانثى وما هو منشأ التوأمين وما هو أثر المحيط في حياة الفرد وما قيمة التهذيب والتعليم في التأثير في حياته ؟ هذا وشل من بحر مما يختص به علم الوراثة فهو من أهم المباحث الثقافية التي يجب ان يعنى بها المرء ولا يعد المرء مثقفاً ثقافة صحيحة ما لم يكن ملماً الماماً صحيحاً بعلم الوراثة

***

ان علم اصلاح النسل الذي اخذت تدعو اليه الشعوب المتمدنة وتهتم به الاهتمام العظيم يقوم على علم الوراثة ولا يستطيع المرء ان يفهمه فهماً مجرداً عن المبالغات والخيالات اذا لم يكن له نصيب من علم الوراثة. وللوراثة تأثير كبير في علاقات البشر الاجتماعية وفي سير مدنيتهم فاختلاط الاجناس وزواج الاقارب واصلاح النسل من الموضوعات التي تنضم تحت لوائها

وفي الوراثة الدليل الساطع على ثبوت مذهب النشوء والارتقاء كما سيمر بنا في خلال البحث فالوراثة هي التي تهدينا سواء السبيل في حياتنا العقلية والجسدية وتنير لنا ظلمات الحياة

وقد اعتمدت في ابحاثي على أوثق المصادر الحديثة المعترف بها في دوائر العلم والمعززة بالشواهد والتجارب الكثيرة وفضلت تأجيل ذكرها الى نهاية البحث لانها كثيرة . وقد جعلت لكل منها عنواناً مستقلاً تجمعها جميعاً الوراثة

فلنبدأ بتدرج هذا العلم منذ نشأته حتى اليوم لتنشأ في أذهاننا فكرة صحيحة عنه

نشأة علم الوراثة

لم يرتكز علم الوراثة على اساس علمي صحيح قبل القرن التاسع عشر . وكل ما نعرفه عنه قبل هذا التاريخ مجرد ظنون واستنتاجات لا تعليل لها ولا رابط. وقد استرعت ظواهره انظار مربي الحيوانات والنباتات فعلموا الكثير منها دون ان يعرفوا لها سبباً . في الاصحاح الثلاثين من سفر التكوين ان يعقوب قال للابان خاله اصرفني لاذهب الى مكاني والى اراضيَّ فقال لابان ماذا اعطيك فقال يعقوب لا تعطني شيئاً . ان صنعت لي هذا الامر اعود ارعى غنمك واحفظها . اجتاز بين غنمك كلها اليوم واعزل انت منها كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزى فيكون مثل ذلك اجرتي فقال لابان هوذا ليكن بحسب كلامك فعزل في ذلك اليوم التيوس المخططة والبلقاء وكل العناز الرقطاء والبلقاء كل ما فيه بياض وكل اسود بين الخرفان ودفعها الى ايدي بنيه وجعل مسيرة ثلثة ايام بينه وبين يعقوب وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية

فأخذ يعقوب لنفسهِ قضباناً خضراً من لبن ولوز ودلب وقشر فيها خطوطاً بيضاء كاشطاً عن البياض الذي على القضبان واوقف القضبان التي قشرها في الاجران في مساقي الماء حيث كانت الغنم تجيء لتشرب تجاه الغنم لتتوحم عند مجيئها لتشرب فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطاء وبلقاء وافرز يعقوب الخرفان وجعل وجوه الغنم الى المخطط وكل اسود بين غنم لابان وجعل له قطعاناً وحده ولم يجعلها مع غنم لابان وحدث كلما توحمت الغنم القوية ان يعقوب وضع القضبان امام عيون الغنم في الاجران لتتوحم بين القضبان وحين استضعفت الغنم لم يضعها فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب فاتسع الرجل كثيراً وكان له غنم كثير . هذه فكرة ساذجة عن الوراثة ولكن وراءها حقيقة علمية وهي ان للون ميزة خاصة من وجهة الحسن والقبح والجودة وعدمها ولاهتمام العرب بانسابهم وانساب خيلهم فكرة اساسية للوراثة وتأثيرها في النسل

واول من صبغ هذا الموضوع بالصبغة العلمية هو شارلس داروِنْ المشهور مؤلف كتابي « اصل الانواع » و« تسلسل الانسان » والذي ينسب اليه مذهب النشوء والارتقاء. فنشر سنة ١٨٦٨ مقالاً بين فيه نظريته في الوراثة وسماها التولد الكلي (Pangenesi) وخلاصتها ان كل اجزاء الجسم تشترك في تكوين نطفة الذكر ونطفة الانثى فكل عضو من أعضاء الجسم يبعث من مادته الى الدم باوقات مستمرة أو فترات معينة ذرات متناهية في الصغر سماها بزيرات (Gemmules) فتسرى هذه الذرات في الدم الى ان تصل الخصية أو المبيض وبعد التلقيح تنمو هذه البزيرات وتولد كل منها عين النسيج الذي اشتقت منه

وعقب هذه النظرية نظرية استمرار تأثير الخلية التناسلية وزعيم هذه النظرية اوغست ويزمن

August Weismann سنة (١٨٣٤ — ١٩١٤) الالماني المشهور واستاذ علم الحيوان في فريبورغ (Freiburg) . وقد نشر بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧٦ سلسلة مقالات عن تنوع المخلوقات وهو اول من تنبأ عن نقص عدد الكروموسوم لدى انقسام الخلية وانكر انتقال الصفات المكتسبة وخلاصة نظريته كما يلي :

حينما تتلقح نطفة الانثى بنطفة الذكر وتنشأ منهما الخلية الاولى التي تشتق منها كل خلايا الجسم فتختص كل منها بتكوين جزء خاص من اجزاء الجنين ، تحافظ بعض الخلايا على حالتها الاصلية دون ان يطرأ عليها تغير فينشأ من هذه الخلايا نطفة الذكر ونطفة الانثى دون ان يكون لها علاقة بسائر الخلايا التي تكوّن منها الجنين الاّ علاقة الاشتقاق من ارومة واحدة أي إن هذه الخلايا هي منشأ الخلايا التناسلية وهي تحتفظ باخراج نوعها فقط . فالخلايا التي تكوّن منها الجسم متولدة من الخلية الاولى التي هي نتيجة اتحاد الذكر بالانثى واما الخلية التناسلية فلم تتولد من خلايا الجسم بل من خلية تناسلية سلفتها

وفي سنة ١٨٦٩ طبع السير فرانسيس غلتُن الذي يمتُّ الى داروِن بنسب كتاباً نفيساً سماه النبوغ الوراثي Hereditary Genius تتبع فيهِ تاريخ عدة عائلات معروفة بانكلترا من سياسيين وعلماء وادباء وقواد وشعراء وموسيقيين وغيرهم خلل شجرة أسرهم وقصده من ذلك ان يثبت ان المواهب الطبيعية وراثية

﴿ مندل والوراثة ﴾

والنظرية التي لها قيمتها ولا تزال حتى اليوم احدى الاسس التي ترتكز عليها الوراثة هي نظرية مندل. ولما كانت عاملاً قويًّا في كثير من الصفات الوراثية يجدر بنا ان نتوسع قليلاً في البحث عن مكتشف هذه النظرية الاب يوهان غريغور مندل وهو راهب من رهبان النمسا ولد سنة ١٨٢٢ وتوفي سنة ١٨٨٤ وفي حياتهِ عظة كبيرة ترينا كيف يولد الفقر عظماء الرجال. فقد ولد هذا النابغة من احدى عائلات الفلاحين في النمسا وحال الفقر الذي طالما طمس مواهب الرجال بينهُ وبين امانيهِ الى ان قيض الله له شقيقتهُ التي نفحته بمهرها الضئيل ليستعين بهِ على قضاء حقوق للعلى رقبَلهُ فتخرج من المدرسة وهو في سن الحادية والعشرين من العمر فعلم العلوم الطبيعية مدة خمس عشر سنة في Prunn من بلاد النمسا ثم دخل دير Konigenplester في مدينة برن فصار راهباً ثم اباً وانعكف على درس انواع الحمص التي في حديقة الدير واخذ يجري التجارب المتعددة عليها وعلى غيرها من النباتات الموجودة في تلك الحديقة فشغف بهذا العمل شغفاً لا مزيد عليهِ وجعل يناسل اصناف الحمص ويراقبها ويدوّن النتائج التي يحصل عليها. وقد استرعت مقدرته انظار رؤسائهِ فمكنوه من ان يدرس سنتين في جامعة فينا ثم رجع بعدها الى الدير وانعكف على ابحاثه انعكاف العابد على عبادتهِ . وفي سنة ١٨٦٦ بسط اكتشافه امام

جمعية العلوم الطبيعية في برن التي لم تعبأ به فأماتت هذا الفشل في عضد نابغتنا بل تلقى الصدمة بعقل الفيلسوف وقال لبعض اصدقائه ان زمني سيأتي سريعاً . وبالحقيقة اتى زمانه وكان بعد موته بخمس عشرة سنة ففي سنة ١٨٩٩ ايد نظريته ثلاثة من اساطين العلماء وهم De Vries الهولاندي وكورنس Correns الالماني وشيرماك Tschermak النمسوي

ونأتي الآن على خلاصة نظريته . قلنا ان اكثر تجارب مندل كانت في الحمص فقد وجد مندل ان بعض نبت الحمص طويل وبعضه قصير ومنه ما هو متجعد الورق وغيره ناعمه وقسم اخضر وآخر غير ذلك فاخذ يناسل هذه الاصناف المختلفة ويراقب نسلها بدقة فبذر بزوراً من نبت يبلغ طوله عدة اقدام واخرى لا يتجاوز نبتها بضع بوصات ولما نمت تلك البزور زاوجها واخذ البزور المتولدة من هذا التزاوج وغرسها في السنة الثانية وبدلاً من ان تكون هذه البزور متوسطة بين الطول والقصر انبتت كلها نبتاً طويلاً فجعل هذا النسل الطويل يلقح بعضه بعضاً فدهش لما رأى النتيجة مختلفة فقد نمى بعضها طويلاً وبعضها قصيراً ولكن بنسبة معينة وهي ثلاث نبتات طويلة الى نبتة واحدة قصيرة . فاستنتج مندل ان صفة القصر التي لم تظهر اولاً كانت كامنة فاطلق على الصفة التي ظهرت اولاً وهي صفة الطول الصفة الغالبة Dominant لانها تغلبت على صفة القصر وظهرت في النسل واطلق على صفة القصر الصفة الكامنة Recessive لانها بقيت كامنة في النسل الاول وظهرت في النسل الثاني . ثم تابع التناسل وتوصل الى النتيجة الآتية : — ان الصنف الصرف الذي ليس فيه خليط يولد صرفاً فاذا ناسلنا قصيراً صرفاً بقصير صرف كان النسل قصيراً صرفاً اي لا يولد غير القصير وكذلك اذا زاوجنا صنفاً طويلاً صرفاً بصنف مثله فان النسل ينشأ طويلاً صرفاً لا اثر للقصر فيه . ولكن اذا زاوجنا النسل الناشىء من تزاوج طويل بقصير بصنف آخر طويل لم يظهر النسل كله طويلاً بل ظهر منه ثلاثة انسال طوال ونسل قصير . ومن هذه الثلاثة الطوال نجد واحداً طويلاً صرفاً اي لو زاوجناه بطويل مثله ينشأ النسل طويلاً والطويلان الآخران فيهما اثر كامن من القصر فلو زاوجنا احدهما بصنف طويل يظهر النسل خليطاً من طويل وقصير بنسبة ٣ طويل الى واحد قصير فتكون النسبة المائوية هكذا

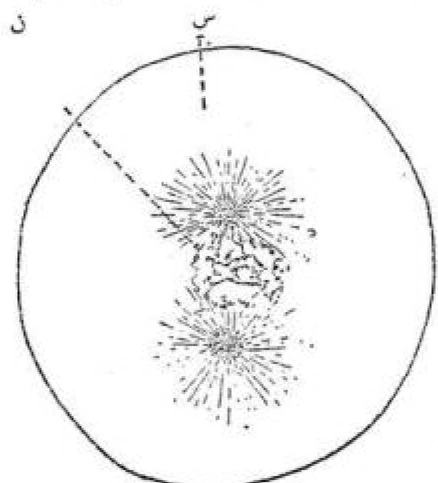
القصير الصرف	٢٥ بالمائة
الطويل «	٢٥ «
الطويل الذي فيه قصر كامن	٥٠ «

فنسبة الطويل ٧٥ بالمائة والقصير ٢٥ بالمائة او ٣ : ١ ولكن من هذه الثلاثة الطوال طويل واحد صرف فقط والطويلان الآخران تكمن فيهما صفة القصر

هذه خلاصة قانون مندل الذي له شأن خطير في الوراثة وقد اجرى تجاربه من وجهة اللون

ايضاً فتوصل الى نفس النتيجة فدرس ما يربي على عشرة آلاف نبتة وكانت النتيجة واحدة في كل تجاربه . وقد افاد اكتشافه فائدة عظيمة خاصة ، مربي النباتات والحيوانات فهداهم الى كيفية الحصول على الصفات المرغوبة وتعزيزها فاستفاد منه مربو الماشية والخيل والطيور وما اشبه ومنهُ نشأت فكرة تحسين النسل . ومن الغريب ان مندل اكتشف نظريتهُ قبل اكتشاف الكروموسوم الذي هو العامل الأساسي في نقل الصفات الوراثية وقد جاء اكتشاف الكروموسوم مؤيداً لاكتشافهِ كما سوف يمرُّ بنا

وندخل الآن في صلب الموضوع محاولين تعريف الوراثة . لقد وضِعَتْ لها تعاريف كثيرة لا نرى حاجة الى ذكرها لانها لا تغنينا عن البحث عنها بل نجرب ان نحللها تحليلاً كافياً يمكننا من وضع تعريف لانفسنا بعد ان نتعرف كلَّ نواحيها . تتركب المواد غير العضوية من جزيئات (Molecules) والجزيئات من ذرات (Atoms) والذرات من الالكترونات (او الكهارب) والبروتونات . فوحدة المواد غير العضوية الكهرب (الالكترون) . وبالمقابلة تتركب المواد العضوية من انسجة واعضاء وهذه تتركب من خلايا والخلية تتألف من مادة مغذية تسمى السيتوبلازم (Cytoplasm) ومادة مولدة اسمها النواة . والنواة تحتوي على اجسام متناهية في الصغر تسمى الكروموسومات (Chromosome) فوحدة المادة العضوية هو الكروموسوم . والكروموسومات هي العامل في نقل الصفات الوراثية من السلف الى الخلف ولهذا بدأنا في البحث بها لانها حجر الزاوية في بحث الوراثة



تمثل هذا الرسم بيضة نجمة البحر Starfish
(س) السيتوبلازم أو المادة المغذية
(ن) النواة وفيها اجسام صغيرة سوداء التي تمثل الكروموسومات

ما هي الكروموسومات ؟ الكروموسومات اجسام متناهية في الصغر لا ترى بالعين المجردة بل بواسطة المجهر وهي الاجزاء التي تتشكل منها نواة الخلية انظر الرسم [1] وسميت كذلك بسبب تأثرها ببعض الاصباغ اكتشفها سنة ١٨٨٣ Anton Shneide و Flemming و Butschli وغيرهم وأول من استعمل هذه اللفظة Waldeyer سنة ١٨٨٨

(١) ان اكثر الرسوم التي نوضح بها مقالاتنا مأخوذة عن كتاب جنز H. S. Jennings استاذ علم الحيوان ومدير مختبر هذا العلم في جامعة Johns Hopkins بأميركا وموضوعه «الطبيعة البشرية من الوجهة البيولوجية» وسنشير الى الرسوم التي تكون مأخوذة من مصدر آخر

وكما قلنا سابقاً انها هي العامل المهم في نقل الصفات الوراثية وقد ساعد اكتشافها مساعدة كبيرة في تعليل نظرية مندل بنقل الصفات بنسبة ٣ غالب الى واحد كامن . ولما اكتشف مندل هذا القانون لم يكن عارفاً شيئاً عن الكروموسومات بل توصل الى نسبته بطريقة الاستقراء فجاءت نظرية الكروموسومات مؤيدة لها

يوجد في كل نوع من انواع المخلوقات عدد معين او مجموعة (Set) من هذه الكروموسومات فعددها في النوع الانساني ٤٨ كروموسوم او ٢٤ زوجاً (سنذكر الفرق بين الذكر والانثى فيما بعد) وفي ذباب الفواكه ثمانية وفي البط ٧٠ وفي الحرذون ٢٤ وفي الخيل ٣٨ وفي الجبن ٦٤—٦٦ وفي الزنبق ٣٤ وهلم جرًّا . فيختلف عددها باختلاف انواع النباتات او الحيوانات ولكن العدد محدود في النوع كما بيّنا فلو فحصنا كل خلية من خلايا الجسم البشري نجد فيها ٤٨ كروموسوماً الا الخلايا التناسلية ففيها نصف العدد اي ٢٤ لانها تفقد نصفاً ويبقى لها نصف كما سيجيء في البحث عن التناسل . وكذلك نجد ٨ كروموسومات في كل خلية من خلايا ذباب الفواكه و٢٤ في الحرذون وهلم جرًّا

يمثل هذا الرسم خلية رجل أبيض كما ترى تحت المجهر وفيها ٤٨ كروموسوماً وهو العدد النوعي للصنف البشري

ينشأ الفرد في المخلوقات العليا من شطرين شطر الذكر وشطر الانثى او خلية الذكر وخلية الانثى فتتحد الخليتان ويتكوّن منهما خلية تنقسم الى ملايين الخلايا التي يتكون منها الفرد الكامل (ولا نبحث هنا عن كيفية التناسل لأننا سنفرد له فصلاً خاصًّا) . قلنا ان كل خلية تحمل مجموعة الكروموسومات المعينة للنوع وان نطفة الذكر ونطفة الانثى تحمل نصف هذه المجموعة فالخلية التي تتكوّن منها تحمل المجموعة الكاملة فينال الابن نصف عدد الكروموسومات من الاب ونصفاً من الام كما ان كلاًّ من الام والاب نال نصفاً من امهِ ونصفاً من والدهِ . ويتفاعل هذه الكروموسومات بعضها مع بعض ومع سائر اجزاء الخلية المحيطة بها تنشأ صفات الفرد . فاتحاد هذه العوامل بصورة معينة يولد شخصاً نابغاً او ذكيًّا واتحادها بصورة اخرى ينتج أبله او خاملاً . فاختلاف الافراد جسداً وعقلاً يتوقف على هذه الكروموسومات التي لها نظام خاص تتمشى عليهِ كالنظام الهضمي والعصبي الخ . ويقال له النظام التناسلي او الوراثي genetic system وكما ان المرء لا يستطيع تعلم الكتابة والقراءة من دون تعلم الاحرف الهجائية هكذا لا يستطيع فهم الوراثة فهماً صحيحاً اذا لم يلم بهذا النظام فهو احرف هجاء الوراثة فلنبحث في هذا النظام . . .

العراق الدكتور شريف عسيران

الكشف عن الجرائم بالاشعة

نوادر تبين مقام العلم في دوائر البوليس

حدث من عهد قريب في مدينة نيويورك أن غشاشي الروائح العطرية استنبطوا وسيلة لترويج سلعهم المزجاة ، وخيّل اليهم انها مستوفاة الشروط ، ولن يتاح لامرىء كشف سرها ذلك ان تلك العصابة الشريرة سوّلت لها نفسها ، فأوعزت الى مصنع صغير من مصانع الزجاج ان يقلدَ لها ، زجاجات صغيرة للروائح العطرية ، تشبه كل الشبه زجاجات تباع الأوقية الواحدة منها بعشرين جنيهاً . فأجاب الصانع سؤلهم . وما تسلموا الزجاجات المطلوبة حتى عمدوا الى ملئها بعطور رخيصة . وقد فعلوا فعلتهم وهم موقنون انها ستجوز على الفحاصين ، ولاسيما اذا كانت الزجاجات المقلدة موسومة بالبطاقات التي يلصقها التاجر المشار اليه على قواريره الاصلية . وآثروا ، تفادياً من الوقوع في جريمة تزوير البطاقات ، الالتجاء الى الطباع نفسه الذي يطبع البطاقات الاصلية لذلك التاجر ، فأغروه بالمال ، فطبع لهم المقادير التي عينوها له فلما تم ذلك ، غدت الحيلة محكمة الأطراف ، بحيث لا يستطاع استجلاؤها من الظاهر ، ولو استخدم في فحصها اقوى المجاهر ، لأنها كانت لا تختلف اقل اختلاف عن الزجاجات الاصلية المحتوية على الرائحة الزكية النفيسة

وظلت الجماعة المحتالة مطمئنة الخواطر ، لايخامرها ادنى ريب في وقوعها في شرك الكشّافين الذين يتوسلون الى اماطة اللثام عن المخبآت ، بالاسلحة العلميــة الحديثة ، وما فطنت الى ان الدكتور هرمان جودمان ، بالمرصاد لها ولأمثالها وكان الدكتور جودمان مشهوراً في مدينة نيويورك ، ببراعتهِ في علاج الامراض الجلدية ، ثم ذاع صيتهُ ايضاً من وقت قريب لنبوغهِ في كشف الجرائم بالطرق العلمية الحديثــة المدهشة . وقد نيط بهِ فحص بعض زجاجات من العطر المغشوش ، فتناولها ثم نقلها الى حجرة معتّمة حيث أدنى منها قبة من معدن صقيل وأوصلها بالمجرى الـكهربائي فانبعث من القبة أشعة عجيبة ذات لون ضارب الى الأرجواني ، وهي الأشــعة التي فوق البنفسجي ، فوضع تجاهها زجاجتين ، احداها ملآى بالعطر الخالص والأخرى بالعطر المغشوش ، فظهرت البطاقتان الملصقتان عليهما وقد اكتسبت

الأولى لوناً مائلاً الى الزرقة واكتسبت الأخرى لوناً اصفر

وكانت العصبة قد استعملت في طبع البطاقات مداداً يبدو للعين المجردة كأنهُ المداد الاصلي بيد انهُ حينما أُطلقت عليهِ الاشعة التي فوق البنفسجي ظهر ان تركيبهُ الكيماوي يختلف عن ذلك. وهذا ما جعله يكتسب اللون الأصفر وهو تحت الأشعة . وحينئذ جاء العطّار بمصباح من مصابيح الأشعة التي فوق البنفسجي وفحص بهِ كلّ ماكان لديهِ في المخزن من قوارير الطيب المغشوش التي كانت مدسوسة بين القوارير الأصلية ، فجردها منها كما تجرد الحنطة من الزوان، دون اضطرار الى فتح كل قارورة على حدتها للتحقق من جودة محتوياتها . ولا يخفى ما تقتضيه هذه العملية من النفقات . ففاز العطّار بتلك الطريقة العلمية، على العصبة المحتالة السالفة الذكر.

ولا جرم ان الحادثة المتقدم وصفها ، انما هي واحدة من عشرات من مثيلاتها المدهشة ، التي كشفت غوامضها حديثاً بالوسائط العلمية الكشافة التي مصدرها المعامل العلمية — وقد أصبح استخدام الأشعة على اختلافها احدث نبراس يهتدى بهِ الى اقتفاء آثار المجرمين

قال الكاتب : « عرّجت في خلال رحلتي الحديثة ، التي طويت بها الفيْ ميل ، على بعض المعامل العلميـة ، حيث يستخدم اقطاب الجواسيس تلك الامواج الاثيرية الغامضة في حل معضلات الجنايات ، فشاهدت في غرفهم المعتمة اول اسلحة الهجوم الهائلة التي يكافحون بها الجناة . وهذه الاشعة كلها تؤلف من اهتزازات المغناطيس الكهربائي . وانما تختلف قوتها باختلاف اطوال امواجها . والنور المستقطب الجليّ العيـان ، هو أطولها امواجاً . واشعة رنتجن هي اقصرها ، اما الأشعة التي فوق البنفسجية فذات أمواج متوسطة بين هذا وذاك

وقد أبلغني احد اعلام البوليس السري ان عدد زملائه الذين حذقوا استخدام ذلك السلاح العلمي الحديث في القبض على الجناة لا يزيد على الخمسين في المسكونة بأسرها—ولابدّ ان يصبح استخدام الاشعة من وسائل التحقيق وأركان العدالة في العالم المتمدين . وضمن حوادثهما ما يحاكى في غرابتهِ الف ليلة وليلة المشهورة

***

ولنبدأ بحادثة القتيل المعروفة بحادثة المنديل الحريري الملوّن وكيف أظهر خفاياها رجال البوليس السري ، وهي كما يلي : —

وقف جماعة من ساقة السيارات على جانب الطريق لتغيير إطار انفجر من أطر عجلات سيارتهم ، فعثروا على جثة قتيل ملقاة في خندق ، وقد اخترقت رأسه رصاصة . وفحصوا الجثة فرأوا فيها آثار شجار وقع بين القتيل والجاني . وشاهدوا ايضاً دليلاً فريداً محسوساً، وهو منديل احمر من الحرير كان عالقاً بالعشب حيث فرّ السفاح ، وعرفوا ان المجنى عليهِ رجل اشتهر بالبخل ، وانهُ كان قد أوقع الحجز على بعض الضياع المحيطة بمزرعتهِ ، لقاء دين كان

ارتضيا به، فخنق عليه أناس كثيرون ممن حرموا الارتفاق، وعقدوا النية على الايقاع به، فجاءته كتب التهديد تترى. ولما ذاعت حادثة قتله اعتقل ولاة الأمور هناك كل من حامت حولهم الشبهة في اغتياله. وظهر في اثناء ذلك دليل آخر محسوس، وهو تلوث ذلك المنديل الحريري بخطوط ذات لون مائل الى الرمادي، مكوَّنة من غبار متجمد من العرق الذي جفف بالمنديل؛ وأيقن رئيس الجواسيس ان سمعة كثيرين من رجال الناحية أصبحت رهن النتيجة التي يسفر عنها التحقيق. فأرسل المنديل الحريري المضبوط الى مدينة اخرى لكي يفحصهُ احد الخبراء. ولم يلبث ان توجه بنفسه الى ذلك الخبير لكي يطلع في معمله العلمي على الوسائل التي ترشده الى الاستدلال فشاهده يضع المنديل تحت ضياء مصباح من مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجية ثم يوصل المجرى الكهربائي؛ فدهش إذ رأى الخطوط الرمادية اللون التي كان المنديل ملوثاً بها تبرق بتأثير الاشعة بريقاً نيلياً. وراقب الخبير ذلك البريق هنيهة ثم التفت الى الضابط وقال «إنهُ فلسبار»(١). فجاءه ضابط البوليس بنماذج من تربة مزارع اولئك الجيران الاعيان المشتبه فيهم ففحصت بالأشعة ايضاً فشعت منها اشعة مختلفة الالوان يدل اكثرها على وجود الفلسبار فيها، ولكنها لم تشبهْ تمام الشبه لون الاشعاع الناشيء من ذرات الرماد العالقة بالمنديل الحريري الملوث. وكان على مقربة من موضع الحادثة حفرة كبيرة للصلصال. وكان العمال ينقلون منها الطين الى مصنع من مصانع الخزف، فعرضت نماذج من ذلك الصلصال تحت المصابيح فبرقت بريقاً كالذي انبثق من غبار المنديل تماماً، فجُمع العمال كلهم على الفور، فوُجدَ الجاني بينهم فاعتقل. ثم اتضح من التحقيق ان المجني عليه ثم بمنع القاتل من استخراج الطين من الحفرة ذلك بكثرته له، فاحتدم الجدال بينهما، فأطلق الشرير على القتيل عياراً نارياً فأرداه قتيلاً. ولما حاول الفرار، مزقت الاعشاب الكوفية التي كان متنكراً بها، ولما عرضت للأشعة الخفية اثبتت عليه الجناية بطريقة كالسحر في غرابتها. واليك البيان:—

اذا اصابت الأشعة التي فوق البنفسجية أية مادة، رأيت تلك المادة نفسها تتأجج بلون خاص. ولقد شاهدت بعيني في المعمل العلمي الخاص باظهار الجرائم بالوسائل العلمية، في مدينة شيكاغو، مساحيق بيضاء تنقلب برتقالية فاقعة، وأرجوانية زاهية، وحمراء قانئة، حينما مستها تلك الأشعة الخفية

ومما يخلق بي ذكرهُ أن الدكتور جردمان الذي ضبط غشاشي الطيوب تفضل فأراني في مكتبه في مدينة نيويورك عشرين الفاً من النماذج التي خصها بالطريقة المتقدم وصفها — ومتى أثرت الأشعة التي فوق البنفسجية في الاشياء التي تسلط عليها أكسبتها جميع ألوان

(١) عنصر معدني من المواد المكونة للصخور النارية والمتبلورة

قوس قزح المختلفة باختلاف المادة ، ولكن اللون الأزرق هو الغالب . ورب سائل يسأل « وما سبب تألق الاشياء بتأثير الأشعة فيها ؟ ؟ ؟ » فيقول العلماء « إن السبب ما زال غامضاً عليهم » ولكن هذا التألق يؤدي خدمات تفوق الحصر للعلماء الذين يقتفون آثار الاشرار

وحسب الباحث أن يعثر في مكان من أماكن وقوع الجنايات على قدة من الجلد أو قصاصة من الورق أو شعرة واحدة من الشعور البشرية ، فتصبح دليلاً لأظهار معالم الجناية باستخدام « الضياء الخفي » كما تسمى الأشعة التي فوق البنفسجية . ذلك ان الجلود المختلفة في طرق دباغتها — تبدو تحت الأشعة بألوان يغاير بعضها بعضاً . والورق الذي يقضي ردحاً من الدهر مخزوناً في مستودعاته في أحوال مختلفة قبيل استعماله يتألق تألقاً مختلف الألوان !! والشعور المختلفة الاجناس التي يراها الناس في النور العادي كأنها نوع واحد ، تتألق تحت الأشعة التي فوق البنفسجية بألوان شتى

واستطرد المحرر الأمريكي حديثه فقال : — روت الجرائد منذ أسابيع قلائل حادثة تستفز العواطف، وفحواها أن المجرم المدعو الكابوني [1] قد أستأجر لمياً [2] له ليحل محله في السجن ويتجشم العقوبة فيبقى هو طليقاً مختفياً عن أعين الرقباء . قال المحرر « وقد أبلغني العليمون أنه لو صحت مزاعم تلك الصحف وعرض اللِم للأشعة التي فوق البنفسجية لكشفت عن الخدعة في هنيهة من الزمان . لأن آثار التشويه القديمة كالتي في وجه الكابوني تلمع وهي تحت الأشعة التي فوق البنفسجية بلون أزرق قاتم، على حين أن الآثار الحديثة لا تلمع على الاطلاق. وكذلك شظايا الزجاج التي تبدو من معدن واحد في ضوء النهار تتألق أحياناً باضواء مختلفة اذا عرضت للأشعة فيثبت اختلاف مصادرها . فقد عثر لبان في غداة ذات يوم، على جثة قتيل ملقاة على طوار [3] الطريق . فعنّ له أن سائقاً من ساقة السيارات صدم الرجل ليلاً فقتله ثم هرب

وسبب ذلك الاستنتاج أن اللبّان عثر بجوار الجثة على قطع من الزجاج مبعثرة شذر مذر فظنها ألواح فانوس أمامي كان في السيارة التي قتلت الرجل . وقد عثر البوليس السري فعلاً ، بقرب ذلك المكان ، على مستودع فيه سيارة ذات فانوس أمامي محطم ، فكانت قطع الزجاج التي التقطت من الطريق مشابهة في الظاهر للشظايا التي بقيت عالقة في اطار فانوس السيارة المشتبه فيها ولا سيما أن البوليس علم بالبحث أن صاحبها كان يسوقها البارحة في الهزيع الأخير من الليل ، فسئل صاحب السيارة فأجاب « إنه كان يسوق سيارته في الريف في طريق محصبة فاتفق أن مرت به سيارة مسرعة فأثارت الحصباء عليه فحطمت الفانوس الامامي لسيارته » وصدق بعض الناس ذلك التعليل حتى عُرِضَتْ شظايا الزجاج التي وجدت في الطريق بقرب الجثة والتي

---

(١) زعيم مهربي الخمور في أمريكا وقد أحرز من جرائمه ثروة عظيمة (٢) لِم الرجل — شبهه في قده وشكله وخلقه
(٣) الطوار — ما كان بحذاء الشيء أو على حافته

بقيت دالتة في اطار الفانوس للأشعة التي فوق البنفسجية فتلونت القطع التي وجدت بقرب الجثة بلون ضارب الى الخضرة ، ولم يظهر هذا اللون في القطع الأخرى ، فسقطت التهمة عن ذلك الرجل الطاهر الذيل إذ ثبت حقيقة أن القطع التي كانت مبعثرة على الارض كانت قد تناثرت من فانوس سيارة اخرى

وبهذه الوسيلة نفسها يستطيع البحاثون معرفة المرمر الحقيقي من المقلد ، وتمييز الحرير الطبيعي من الصناعي . وكذلك معرفة المصدر الحقيقي لأنواع دقيق القمح . فقد وجدت آثار دقيق على ثياب احد اللصوص فزعم أنها من المطحنة الفلانية فأثبتت الأشعة كذبه بفحص مقدار من الدقيق الذي يطحن في المطحنة التي عيَّنها

وكذلك للأشعة أعظم شأن في المثل القديم المشهور « فتش عن المرأة » إذ ظهر أن الشعر الذي يُنتَتف من سيدة شقراء طبيعةً يتلون تحت تأثير الأشعة باثني عشر لوناً مختلفاً ، بينما شعر المتجملة يتلون بلون واحد وهو الضارب الى الزرقة

هَبْكَ وجدت جثة قتيل في غرفة مضطربة النظام ، ثم خطر في بالك أن تفحص تفقة[1] اظفاره لكي تهتدي الى آثار القاتل، فوجدت فيها ذرات من جلد اسمر مزقها المجني عليه باظفاره من الجاني حين مهاجمته إياه ، فكيف يتسنى لك التوسل بتلك الذرات الدقيقة ، الى معرفة القاتل ؟ ؟ ودونك الجواب في الحادثة التالية التي صادفت رجال البوليس السري فنجحوا في القبض على القاتل وذلك بالأشعة التي فوق البنفسجية ، اذ بحثوا أولاً : هل كان الجاني زنجياً أو أبيض لوحته الشمس تلويحاً شديداً ؟؟ وكان الخبراء قد عرفوا حقيقة مدهشة وهي إن جلد الرجل الابيض لا يتألق الاَّ إذا كان غير ملوَّح (مدبوغ) بالشمس بينما جلد الزنجي لا يتألق الاَّ إذا كان مدبوغاً

وما عرضت الذرات المشار اليها للأشعة التي فوق البنفسجية حتى أخذت تبرق بريقاً دل على أن القاتل زنجي قد لوحته الشمس . ولما كان وقوع ذلك الحادث في فصل الشتاء ، فقد رجح الباحثون ان الجاني لا بدَّ ان يكون قد جاء من الجنوب في العهد الأخير . وبناء على هذا الدليل ، شرع الشرطة يعتقلون جميع الذين وفدوا حديثاً الى تلك المدينة . وكان بينهم رجل مخدوش الوجه فاعترف فيما بعد أنه القاتل

وليست هذه الأفعال المدهشة التي تؤديها الأشعة ، تتمُّ اتفاقاً ، بل هي حقائق علمية ثابتة يقوم العلماء، من رجال التحري في معامل الأشعة في المدن المختلفة ، بتدوين أخبارها يوماً فيوماً حتى تصبح قريبة المنال من رجال البوليس السري في المستقبل القريب ولا سيما العالم الدكتور ادمون لوكار الجاسوس الفني الفرنسي بمدينة ليون، ذاك الذي درس ، بالأشعة التي

(١) التف وسخ الظفر وجمعه تفقة

فوق البنفسجية ، جميع أنواع الدقيق والغبار التي تتولد من المصانع الفرنسية المعروفة

ثم الدكتور أوغست باسيني الموظف بمعمل ادارة كشف الجرائم بالوسائط العلمية في شيكاغو ، الذي يقوم بفحص ريش الطيور والمعادن في تلك المنطقة . وقد أعلن عن قيامه بأعمال باهرة في حل معضلات الجرائم ، وأنه قد أخذ في تصنيف مؤلف على السموم التي درسها بالأشعة . هذا وقد تمكن أيضاً بالأشعة التي فوق البنفسجية وبمجهر ذي عدسة من البلور الصخري ، من فحص الأمعاء حيث عثر على ذرات من المورفين والمركبات الزئبقية . وبناء على ما تقدم يرى ان المخدرات الثلاثة الشائعة الاستعمال يتاح تمييز كل منها على حدته في الحال بالاشعة التي تنعكس عنها اذا سلطت عليها الاشعة التي فوق البنفسجية، فترى المورفين يشع شعاعة زرقاء، والكوكايين شعاعة بيضاء، والهروين شعاعة صفراء

وكذلك يقوم الدكتو (جودمن) في مختبره العلمي بمدينة نيويورك بدراسة خاصة تشمل أدوات تجمل النساء ، من دمام ودهان للوجه والشعر . وقد فحص ما يربي على ٢٠٠ صنف منها فكانت تشع منها شعاعات تكشف مخبآت الجنايات بلا خطأ . وقد كشف الدكتور جودمن عن شيء آخر سوف يكون له شأن عظيم . فهو يرى ان الاظفار المدرّمة اذا سلطت عليها الاشعة التي فوق البنفسجية دلّت على الزمن الذي انقضى على حدوث التدريم »

***

ثم قال الكاتب الاميركي « ولعل اعجب قصة سمعتها في معمل الاشعة ما روى لي متعلقاً بالقبض على (اللص اللثّام كسنر) بجوار مدينة شيكاغو فان هذا الشرير جعل دأبهُ اغتيال النساء اللواتي يرجعن الى دورهن بعد ما يرخي الليل سدوله فيهدد المرأة التي يصادفها باطلاق الرصاص عليها حتى يجردها مما يوجد معها من الدراهم ثم يغلق سريعاً فم فريسته بكفه المقفز ليمنعها من الاستغاثة (اولاً) ولكيلا يترك أثر كفه على فيها (ثانياً) ثم يقبل وجنة فريسته ايذاناً لها بالانطلاق

وظل ذلك اللص يفلت من قبضة الشرطة حقبة تزيد على شهر . وكانت ادارة البوليس قد عينت شرذمة خاصة من رجالها للقبض عليهِ فاعتقلت ذات ليلة شاباً حسن البزة في الطريق بقرب المكان الذي وقعت فيه آخر حادثة من هذا القبيل . فاحتج على اعتقاله وحاول اثبات براءته زاعماً انه لم يك في مكان الجريمة عند وقوعها . وأوشك ان يضلل رجال البوليس فيخلوا سبيله غير ان احدهم فطن في آخر الامر للحيلة فاقترح القيام ببحث لم يألفوه من قبل . وهو فحص القفازين اللذين ضبطا مع ذلك المتهم بمصباح من مصابيح الاشعة التي فوق البنفسجية في احد المعامل الخاصة بها حيث شاهد المراقبون في احد ذينك القفازين بقعة مستطيلة غريبة الشكل بعرض الكف تنعكس عنها اشعة غريبة فلم يسعهم حينئذ الا ان جاءوا بالفتاة

المجني عليها في آخر حادثة من حوادث السرقة بالاكراه حيث فحصت بالمصباح عينه فتألق الدمام الذي كانت شفتاها مصبوغتين بهِ تألقاً مطابقاً كل المطابقة له في البقعة التي كان القفاز ملوثاً بها . فألقي القبض نهائياً على المتهم فاستدلوا على جرائمه ، ثم حكم عليه بالسجن مدة طويلة

وقد أعلنت السنة الماضية معامل باسيني الكيماوية « انه يتسنى تمييز الاجناس البشرية بعضها من بعض وذلك بالاشعة التي تشع من الاسنان والعظام » ويقول باسيني « إن اسنان الجنس القوقازي اذا سحقت وعرض مسحوقها للأشعة التي فوق البنفسجية شعت منها شعاعة مائلة الى الخضرة ، اما اسنان الاجناس الشرقية فتصدر منها شعاعة صفراء، والزنوج تشع منهم شعاعة حمراء برتقالية

ثم أتيحت الفرصة له لاثبات رأيه في هذا الصدد ، وذلك ان شرطياً مرشداً انتشل من أحد مجاري المواد البرازية في مدينة شيكاغو جثة رجل منتفخة انتفاخاً يتعذر معه معرفة شخصيته . وكانت جمجمتهُ محطمة فرغب ولاة الامور في الوقوف على سبب القتل ، أكان نتيجة عراك دارت رحاه بين افراد عصابة لصوص أم من ثورة شبّت في الحي الصيني ؟ ؟

وازاء ذلك قدمت سن واحدة من اسنان القتيل الى الدكتور باسيني ليفحصها فعرض مسحوقها لجهازه الخاص بالاشعة التي فوق البنفسجية فانبثقت منها شعاعة صفراء، فاستدل على ان القتيل شرقي الجنس . ومن ثم تبين لولاة الامور ان المجني عليهِ قتل حقيقة في الحي الصيني ثم القيت جثته في مجرى المواد البرازية

ومما هو حري بالذكر أن صانعاً حاذقاً من صناع شيكاغو قد عرض في السوق آلة للأشعة البنفسجية لتُركب في المصارف المالية (البنوك) لفحص الصكوك والكمبيالات بها . ولهذه الآلة فائدة عظيمة وهي ارشاد الفاحص تواً الى مكان التغيير الذي يحدثه أي غشاش في صك مزيف يوضع في مجال أشعتها وان لم يظهر الغش في رابعة النهار

واذا عرضت الوثيقة المزوّرة لأشعتها صدرت منها شعاعة خضراء ضئيلة بدلاً من الشعاعة الزرقاء الباهرة التي تشع من الوثائق (الكمبيالات) الأصلية

ويرى السائح الآن في ممالك أوربا فئة من بنوكها قد ركبت فيها مصابيح الأشعة التي فوق البنفسجية حيث تعتبر عدة ضرورية من معدات كشف التزويرات المالية . والمعروف حتى اليوم أن الأشعة التي فوق البنفسجية هي اقوى الأشعة التي تساعد رجال البوليس السري في أعمالهم . أما الأشعة الاخرى فاقل شأناً من تلك مع كونها ذات منافع أيضاً

***

فالنور المستقطب مثلاً — ونعني بهِ الاشعة التي تخترق مواشير بلورية وتنتشر تموجاتها في اتجاه واحد — قد ثبتت فوائده في بعض الحوادث الخطيرة وذلك باستعماله مصحوباً بالمجهر البتروغرافي

امتطى فلاح من فلاحي أميركا هو وصهره متن سيارة الى مكان معين فأصيبت السيارة في اثناء سيرها بعطل وتركت مقلوبة رأساً على عقب في طريق غير مطروق حيث وجد الرجل الهرم محطم الجمجمة وذلك عند سفح صخرة مضرجة بالدماء

ووجد الصهر سليماً من الأذى، فسئل عن سبب نجاته من انقلاب السيارة فقال إنهُ قفز منها عند شروعها في الانقلاب . أما الرجل العجوز فلم يقوَ على الوثب فطوحت بهِ السيارة على الصخرة حيث تحطم رأسهُ . فسلّم الشرطة بذلك الاعتراف ريثما تستكشف بواطن الجريمة . وما انقضت أيام قليلة حتى ظهر لهم ان الرجل الهرم كان قد قبض اخيراً مبلغاً جسيماً من المال من احدى شركات التأمين تعويضاً عن اصابة كانت لحقتهُ . فأخذ ولاة الامور في استجلاء غوامض الجريمة فجاؤوا اخيراً بخبير يحمل فانوساً ، من فوانيس النور المستقطب مشفوعاً بمجهر بتروغرافي ، فاظهر لهم ان السيارة المقلوبة والصخرة التي كانت ملطخة بالدماء انما هما حلقتان مختلفتان من سلسلة جريمة فظيعة مدبرة . ثم استخرجت قطع الاحجار من رأس القتيل وعرِّضت للأشعة فصدرت منها شعاعة تختلف اختلافاً كليًّا عنها في القطع التي قطعت من الصخرة الملوثة بالدماء فلم يجد الصهر ، حيال تلك الأدلة القاطعة على اقترافه الجريمة ، بدًّا من اعترافه بها

واليك حادثة أخرى تبين فوائد أشعة اكس وهي : —

عثر قريباً رجال البوليس بجوار مدينة كوبنهاجن في خندق محيط بحصن حربي قديم على جثة امرأة قتيل ، مبتورة الساقين، فجعل ينقب عنها في سجلات الغائبين والمفقودين من الجمهور، فلم يوفق لتحقق شخصيتها ، فصمم رجال البوليس على رسمها بأشعة رنتجن ، فاتضح لهم ان احدى رئتيها كانت مصابة بالتدرن اصابة شديدة ،فاستدلوا من ذلك انها كانت بلا شك تعالج في مصحة من مصحات السل . وعندئذ اخذوا يفحصون جميع صور المصابين بالسل في المستشفيات فعثروا بينها على صورة رئة تشبه كل الشبه رئة المرأة القتيل المجهولة الشخصية ، وعرفوا بالاطلاع على سجل العناوين المحفوظ بالمستشفى ، عنوان المريضة السابقة الذكر ، التي كانت تعالج فيه ثم غادرته منذ اسبوعين فذهبوا الى مسكنها وفتشوا ما كان فيهِ من رياش وأمتعة تفتيشاً مدققاً حيث عثروا على بصمات قديمة لاصابع شخص مجهول ، فقابلوها ببصمات اصابعها فتحققوا انها هي نفسها القتيل. ثم واصل رجال البوليس مباحثهم السرية حتى قبضوا على القاتل ، وهو رجل كان صديقاً لها ،فأقر بجرمه ولقي قصاصه العدل

فلفت أنظار رجال البوليس والنيابة والقضاء ومصلحة الأنتاج والجمارك والبنوك المحلية الى هذه المستنبطات المدهشة لعلهم يستفيدون منها الفوائد المنشودة

[عن مجلة العلم العام الشهرية] عوض جندي

نضال

فصل من رواية طرطوف لموليير

ترجمة احمد الصاوي محمد

طرطوف Tartuffe هي رواية موليير الخالدة التي كتبها عام ١٦٦٤. وهي أصدق روايات شاعر فرنسا العظيم اذ مثل رياء الاتقياء الزائفين في أبشع الاشكال. وبعد ما كان «طرطوف» اسم رجل صار علماً على كل من يتظاهر با لصلاح او الفضل وليس من اهله

وهذه القطعة المختارة من الفصل الثالث تقفنا على ضرب من ضروب النزاع الابدي بين الخير والشر، بين الفضيلة والرذيلة، وفيها صفحة مجيدة لامرأة عفيفة تصمد لرجل جبار وتذود عن شرفها

الفصل الثالث — المنظر الاول

داميس — دورين

داميس : ألا فلتعجل الصاعقة أجلي، وليجرؤ الناس على وصفي بأحط العاطلين إذا كانت في الورى قوة أو حرمة تعوقني عن إنفاذ ما يجول برأسي

دورين : ترفق بنفسك وخفف من حدتك، فأن أباك لم يزد على أن أشار الى ذلك، وليس كل ما يُقال يُقضى وما أبعد ما بين الرسم والإنفاذ

داميس : عليَّ أن أقف دسائس هذا المغرور، وأن أصكَّ مسمعهُ بكلمتين

دورين : ها .. رويداً ! .. دع الامر يسوّى بينهُ وبين أبيك بفضل سيدتي حماتك فلها عند هذا الطرطوف مكانة خاصة، وهو يرضى بكل ما تقوله ولعله يُسكنُ لها حناناً، وليت هذا يكون صحيحاً فيصبح الموقف بديعاً، ثم أن عنايتها بأمركم تحملها كذلك على استدعائهِ فتسبر غوره في أمر هذا القران الذي يشغل بالكم وتتبيّن عاطفتهُ، وتُفهمهُ ما يسببهُ من المشاكل إذا بدا منهُ ما يشجع الامل فيهِ . . . يقول خادمه أنهُ الآن يصلي فتعذرت عليَّ رؤيته وهو لايلبث أن ينزل، فأرجوك أن تخرج وتدعني في انتظاره

داميس : لي أن أشهد كل هذا الحديث !

دورين : ألبتة ! .. لابدَّ أن ينفردا

داميس : ولكنني لن أقول شيئاً

دورين : أنت تمزح ، ونحن نعلم أن الحدة من طبعك .. وهذه حقاً هي الوسيلة إلى إفساد الامر علينا .. فاخرج !

داميس : كلاّ ! .. إنني أريد أن أرى دون أن أثور

دورين : يا لك من فضولي ! .. ها هو ذا أقبل !.. فاذهب !

المنظر الثاني

طرطوف — لوران — دورين

طرطوف : (يلمح دورين) لوران ! ..هيء لي مسوحي الخشنة وسوط التعذيب واسأل السماء أن تنير قلبك دائماً وإذا جاء أحد للقائي فأني ذاهب الى المسجونين لتوزيع ما رزقنا من الصدقات عليهم

دورين : يا للتظاهر والرياء !

طرطوف : ماذا تريدين ؟

دورين : أن أقول لك ...

طرطوف : (يخرج منديلاً من جيبه) آه ! ..رباه !..أسألك أن تأخذي هذا المنديل قبل أن تتكلمي !

دورين : ماذا ؟ ..

طرطوف : أستري هذا الصدر الذي ليس لي أن أراه .. فتلك أشياء تجرح النفوس وتبعث الافكار الخاطئة

دورين : أنت إذن سهل الغواية ، وللجسمانيات تأثير كبير في حواسك !.. وتالله ما أدري ما هذه الحرارة التي تتمشى فيك . أما أنا فلست سريعة الاشتهاء مثلك ولو أنني رأيتك عارياً من فرع الى قدم لما تحركت في جسدي شعرة !

طرطوف : تواضعي قليلاً في كلامك ، وإلاّ تركتُ لكِ مجالكِ من فوري

دورين : لا ! لا ! أنا التي تدع لك صفوك ، وليس لي غير كلمتين أقولها لك. سيدتي ستأتي الى هذا البهو ، وهي تتمنى عليك الحديث برهة

طرطوف : أسفاً ... بكل ارتياح !

دورين : (لنفسها) سرعان ما عاد الى التلطف ! ..وذمتي انني باقية على رأيي!

طرطوف : أهي على وشك الحضور ؟

دورين : إنني أسمعها ، على ما يخيل اليّ ، أجل إنها هي بعينها القادمة والآن أدعكما وحدكما

المنظر الثالث المير — طرطوف

طرطوف : ليت السماء الرحيمة تهبك دائماً قوة الروح وصحة الجسد فتبارك أيامك بقدر ما يتمناه لك أخضع العبيد الملهمين بحبها ...

المير : لشد ما أنا شاكرة لهذا الدعاء الصالح ، ولكن لنجلس فيكون حديثنا أروح

طرطوف : أتُرينك شفيت تماماً من علتك ؟

المير : إني بخير . . فما وفدت الحمى حتى زالت

طرطوف : لا يبلغ من صلواتي أن تكون قد استنزلت هذه النعمة العلوية . بيد أني لم أرفع إلى الله دعاء واحداً حاراً إلاّ كان القصد منهُ شفاءك !

المير : لقد أسرفت على نفسك في الضراعة من أجلي !

طرطوف : لا إسراف في إعزاز صحتك الغالية.. ولكي تَوَدُّ اليك كنت أبذل صحتي فداها!

المير : لقد تغاليت في المحبة المسيحية.. واني لمدينة لك ديناً كبيراً من اجل هذه الحسنات

طرطوف : إن عملي دون ما أنت به جديرة

المير : أردت أن أحدثك سراً في أمر ، واني مرتاحة الى أنهُ ما من أحد هنا يسرق السمع والنظر

طرطوف : وافرحتي بهذا أيضاً ! وإني يقيناً ليطيب لي كذلك يا سيدتي أن اخلو بك فهذه فرصة طالما ترقبتها من السماء فلم تتحها لي إلاّ الساعة !

المير : إن ما أطلبهُ هو حديث تفتح لي فيه قلبك ولا تخفي عني شيئاً

(يوارب داميس باب الغرفة المتصلة التي كان قد دخلها ليسمع الحديث)

طرطوف : ولست أريد كذلك من نعمة خاصة إلا أن أكشف لك عن روحي بأكملها، وأن أقسم أن التململ الذي بدا مني لكثرة توارد الزوار الذين تجذبهم محاسنك، ليس سببهُ حقداً ما ، وإنما هي حمية تهيجني ، وبادرة نقية

المير : إنني أحمل ذلك أيضاً محملاً حسناً ، وأعتقد أن خلاص نفسي يشغلك بهذا القدر

طرطوف : (يضغط على أطراف أناملها) أجل يا سيدتي ، بلا ريب ، وإن ما يضطرم في قلبي ليبلغُ . . . .

المير : أف ! . . إنك لتبالغ في ضغط يدي

طرطوف : هذا من فرط حميَّتي ، وما أردت قط لك إيلاماً ، بل بالأحرى أردت . . . .

(يضع يده على ركبتها)

المير : وما لديك هنا ؟

طرطوف : أجسُّ ثوبك . . فإن نسيجه ناعم

المير : آه ! . . ترفق ! . . فإن الغمز يثيرني ! (وتنأى بكرسيها فيدنو بكرسيه)

طرطوف : لله ما أبدع صنع هذه «الدنتلة» ! . . الناس الآن يشتغلون بحذق عجيب . . ولم نرَ قط في شيء مثل هذا الاتقان

الميرَ : صدقت . . ولكن لنتكلم قليلاً في شأننا . . يقال أن زوجي سينقض عهده ويعطيك يد ابنته . . أفهذا صحيح ؟ قل لي !

طرطوف : إنه قال لي في ذلك كلمتين ولكن الحق يا سيدتي أنهُ ليست هذه هي السعادة التي أمني النفس بها . . وأرى في ناحية اخرى جواذب الهناء الرائعة مطمحاً لآمالي

المير : ذلك انك لا تحب شيئاً من متاع هذه الدنيا !

طرطوف : ليس صدري منطوياً على قلب من حجر ؟

الميرَ : أما أنا فأعتقد أن كل تنهداتك ابتغاء وجه الله وليست بين رغباتك ومادة هذه الأرض صلة . . .

طرطوف : هيهات للحب الذي يعلقنا بالجمال الأبدي أن يخمد فينا الحب الدنيوي . . وما اسهل ما تسحر جوارحنا بجميل صنع الباري الذي تتجلى آياته فيمن كان على مثالك ! . . انه قد اظهر فيك كل نادر من بدائع صنعه وأنزل على محياك آيات الحسن تحار فيها العيون وتشغف بها القلوب . . وما اسطعت أن أراك أيتها الانسانة الكاملة دون أن امجد فيك مبدع الكائنات ، وان يختلج قلبي بحب مستعر من رؤية أفتن الصور التي تمثل بجلاله فيها . وكنت بدءة اشفق ان يكون هذا اللاعج الدفين مفاجأة حاذقة يدهمني بها الشيطان حتى أنني أضمرت الفرار من عينيك زعماً مني انك عقبة في سبيل خلاصي ، ثم انتهيت إلى أن عرفت ، يا ذات الجمال الذي يعشق كل ما فيه ، أن هذا الهيام قد لا يكون خاطئاً ، وأنه يمكنني أن اوفق بينه وبين الحياء ، ولذلك اسلمت اليه قلبي وأعترف أنها جرأة عظيمة مني أن اجسر على تقديمي قلبي لك قرباناً . . ولكني أتوقع من سماحتك لا من جهودي الضعيفة الضائعة ، ما يحقق أماني . فيك خيري وطمأنينتي ورجائي ، وفيك ألمي أو هنائي ، وبين يديك سعادتي او شقائي

المير : هذه المكاشفة غاية في الظرف . . ولكنها والحق يقال تدهش نوعاً ما . . ويلوح لي أنهُ كان عليك أن تسلح بأحسن من هذا فؤادك ، وأن تزن قليلاً مثل هذا الغرض . . فتيٌ مثلك في كل مكان يوصف . . . .

طرطوف : آه ! . . إن تقواي لا تنقص من رجولتي . . وعند ما يرى المرء محاسنك

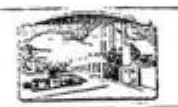
السماوية يعلق القلب منهُ ولا يعقل . . . واعلم أن مثل هذا الكلام مني يبدو غريباً ولكنني يا سيدتي على هذا لستُ ملكاً . . وإن كنتِ لا بدّ مؤاخذة على اعترافي هذا فآخذي سحر جمالك . . فما سطع بهاؤك الذي ليس من بهاء البشر حتى أصبحت مليكة سرائري . . . فتنة لواحظك الالهية التي لا توصف عذوبتها قد غلبت على المقاومة التي كان يصرُّ عليها قلبي . . وطغت على كل شيء من صوم وصلاة ودموع .وحولت كل تضرعاتي وجهة جواذبك. لقد حدثتك بذلك عيناي وتنهداتي ألف مرة ولأزيدذلك بياناً ، أتكلم اليوم بلساني . . فاذا كنت تنظرين بعين العطف الى الشدائد التي يكابدها عبدك المحروم ، واذا شاءت مكارمك أن تعزيني فترضى بالنزول الى حضيضي فسأحمل لك دائماً ، ايتها الحسناء الشائقة في نفسي عبادة لامثيل لها ... وليس من خطر على سمعتك معي ، فلا تخشى سوءاً من قبلي . . فأن اولئك المتظرفين للنساء من رجال البلاط وهن بهم هائمات، اعمالهم ضجيج واحاديثهم هراء . . وإنك لترينهم يفخرون دواماً بنجاحهم عند النساء فما يلقون من حظوة الا افشوها ، ولسانهم الطويل الذي يثقن به يدنس الهيكل الذي يُضحى عليه بالقلب. أما الذين على شاكلتنا فيحترقون بالنار الخفيّة والسر لديهم مصون.. فالعناية التي نتخذها حفظاً لسمعتنا تشمل المحبوب وتضمن له كل شيء . . فاذا ما تقبلن قلوبنا وجدن منا حباً بلا فضيحة ولذةً بلا خوف

ألمير : اسمعك تتكلم ، وبلاغتك تتبيّن لي بما فيهِ الكفاية.. أفلا تخشى أن يبدو لي أن انبيء زوجي نبأ هذه الصبْوة فتكون بادرة الأثر من إعلان مثل هذا الحب له مُغيّرةً من صداقته لك ؟ . .

طرطوف : إني اعرف مبلغ ما انطوت عليهِ نفسك من الخير .. وأنك سترحمين جرْأتي الطائشة ، رعاية للضعف الانساني ، وتعذرين هذه الثورة الجامحة من حب يجرحك ، وتقدرين ناظرةً الى صورتك ، أن الانسان ليس كفيف البصر وأن الرجل من لحم ودم !

ألمير : قد يقع هذا من نفس غيري ما لا يقع من نفسي ...ولكني اريد أن ابين لك كتماني ، فلن أعيد حديثك على مسمع زوجي .. غير أني أريد لقاء ذلك منك أن تعجل مخلصاً ومن غير أي كيد مضمر زواج فالير بماريان .. وأن تنزل بنفسك عن تلك السلطة الظالمة التي تريد أن تغني أملك من مال غيرك و ....

(يخرج داميس من مخدعهِ)



ازدهار صناعة النحاس وانحطاطها

في مصر في العصر الاسلامي

بقلم يوسف احمد مفتش الآثار العربية سابقاً

(١) النحاس معدن احمر ذو طعم ورائحة كريهين قابل جداً للطرق والانسحاب وهو اقل متانة من الحديد يصهر على درجة (١٢٠٠) س والحوامض الدسمة تسهل استحالتهُ الى املاح

(٢) والبرونز (النحاس الاصفر) مخلوط من النحاس والقصدير ويضاف اليهِ احياناً معادن اخرى . والقصدير باضافتهِ للنحاس يكسبهُ لوناً اقل حمرة وصلابة ورنيناً لم يكونا فيهِ من قبل ، ولكنهُ يجعله سهل التكسر ، ومقدار هذين المعدنين في المخلوط يختلفان باختلاف ما يراد صنعهُ بهما

(٣) استعمل النحاس بنوعيهِ (الاحمر والاصفر) بعد الفتح الاسلامي بمصر في العمائر الدينية وفي الدور والقصور والاسبلة وغيرها وذلك لشدة مقاومتهِ للتأثيرات الجوية ، ولانهُ احسن رونقاً وابهج منظراً من الحديد . وقد استعمل على ثلاثة انواع

(ا) كسوة وزخرفة للمصاريع (الابواب) (ب) تغشية للنوافذ (ج) للاواني والادوات المنزلية ولادوات الزينة

(٤) اما النوع الاول فاقدم ما عثر عليهِ منهُ للآن كسوة مصراعي باب جامع الصالح طلائع المنشأ سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) . وهذا الباب من الخشب وارتفاعه ٤٫٣٧ متر مغشى بقطع صغيرة من نحاس مخرمة (مثل الدانتلا) ومثبتة على صفيحة رقيقة من نحاس . وتبدو هذه القطع على هيئة نجمة ثمانية الزوايا . ثم كسوة مصراعي باب قبة الامام محمد بن ادريس الشافعي احد الائمة الاربعة المشهورين المنشأ سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م). (انظر الرسم رقم ١)

ثم كسوة باب الخانقاه البيبرسية الجاشنكيرية المنشأة سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) بالجمالية ، وهي قائمة للآن بشارع الجمالية تجاه الدرب الاصفر ، واسمها جامع بيبرس. (انظر الرسم رقم ٢)

ثم باب قبة مسجد السلطان حسن المنشأة سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨م) وقد كُفِّتت حشواتهُ بالفضة والذهب . وسيأتي وصف التكفيت في موضعهِ من هذا المقال بعد

وقد عبث الزمن بهذا الباب فاباد اغلب ما كان عليهِ من التغشية حتى جاءت لجنة حفظ الآثار العربية في سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) فاصلحتهُ واعادتهُ الى ما كان عليهِ ، ونقشت

تاريخ عملها على صفيحة من الفضة بالخط النسخ المملوكي بقلم كاتب هذا المقال كما يرى في الرسم رقم (٣) . وهذا الرسم لا يجوز نقله عن المقتطف الا باذن خاص لانهُ خاص بكتاب المؤلف جار طبعه عن هذا المسجد

على ان كسوة الابواب لم تستمرّ على حالة واحدة فقد ادخل على صناعة تغشية الابواب بالنحاس تغييرات متنوعة ، فتارة كانت تعم التنشية الباب جميعهُ ؛ وتارة كانت تغشى اجزاء منهُ فقط كما يرى في الرسم رقم (٤) الخاص بباب مسجد الاشرف بالاشرفية المنشأ سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤م) وهو قائم للآن بشارع الاشرفية بمصر

***

(٥) والنوع الثاني ينقسم الى قسمين :

(ا) تغشية النوافذ بقطعة واحدة من النحاس المسبوك مخرمة تخريماً هندسيًّا

(ب) تغشية النوافذ بعصبعات رماح وعقد مشتبكة كرقعة الشطرنج من حديد مكسوة بالنحاس . او تغشية هذه النوافذ برماح وعقد مشتبكة ايضاً ولكنها من نحاس خالص

فن الاول شبابيك قبة الصالح نجم الدين ايوب المنشأة سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) وهي قائمة الى الآن تجاه مسجد قلاون بشارع النحاسين بمصر وتعرف بقبة الصالح وهي اقدم ما عثر عليهِ من نوعها للآن

ثم شبابيك المدرسة الطيبرسية بداخل الجامع الازهر المنشأة سنة ٧٠٩ هجرية (١٣٠٩ م) وهي قائمة الى الآن على يمين الداخل للجامع المذكور من بابهِ الشهير بباب المزينين وقد اشتهر الباب بهذا الاسم لجلوس الحلاقين بجواره لحلق رؤس طلبة الازهر قديماً وقد علقت هذه التسمية به للآن مع فقدان المسبب لها والحمد لله

ثم شبابيك كثير من الاسبلة التي عملت قطعة واحدة بعد الالف من الهجرة ، ومنها وجد على سبيل السيدة رقية دودو بنت بدوية شاهين المنشأ سنة ١١٧٤ هجرية (١٧٦٠م) بشارع سوق السلاح بمصر حيث يرى في الرسم رقم (٥)

وقد لوحظ ان ببعض الاسبلة شكلاً يمثل نهدين متباعدين بينهما نهدان مجتمعان كانهما داخل (مشد) وبالاستقراء قد لوحظ إن هذا الشكل لايوجد الا في الاسبلة النسوية ، ولعل المهتمين بالبحث في شؤن المرأة يرون في هذا ما يثبت ان المرأة الاسلامية في تلك العصور لم تقل اشتراكاً في الاعمال العامة عن الرجال

ولم تقتصر هذه الصناعة على تغشية نوافذ الاسبلة والمساجد بل تعدتها الى المقاصير ، ومن ذلك المقصورة التي وضعت على ضريح المغفور لهُ ساكن الجنان محمد علي باشا بداخل مسجده بالقلعة كما يرى في الرسم رق (٦)

ومن الثاني مصبعات شبابيك جامع المارداني المنشأ سنة ٧٤٠ هجرية (١٣٣٩ م) وجامع اق سُنْقُر المنشأ سنة ٧٤٦ هجرية (١٣٤٥ م) وهو قائم للآن بشارع باب الوزير ومشهور باسم مسجد ابراهيم أغامستحفظان ، وعند سياح الاجانب مشهور باسم «الجامع الازرق»

وكل هذه المصبَّعات من حديد مكسوّ بالنحاس . ويلاحظ ان هذا الاستعمال كان لا يرادمنهُ إلا الاقتصاد في النفقات ، فيرى المصبع كأنه نحاس خالص وهو ليس من النحاس الخالص

أما المصبَّعات المكونة من نحاس خالص فتوجد بكثرة في المساجد والاسبلة ، وقد كانت صناعتها محل عناية كبيرة أنظر الرسم رقم (٧) الخاص بشبابيك قبة خانقاه بيبرس الجاشنكير السالفة الذكر . ولعلَّ الشباك الاوسط من الشبابيك الثلاثة هو الذي قال عنهُ المقريزي انهُ الشباك الكبير الذي حملهُ الامير أبو الحارث البساسيري من بغداد لما غلب الخليفة القائم العباسي وأرسل بعمامتهِ وشباكهِ الذي كان بدار الخلافة في بغداد وتجلس الخلفاء فيهِ . فلما ورد هذا الشباك جعل بدار الوزارة الى ان عمّر الامير بيبرس الخانقاه المذكورة فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه وهو بها الى يومنا هذا

قال المقريزي : وانهُ لشباك جليل القدر يكاد يتبين عليهِ ابهة الخلافة

(٦) اما القسم الثالث وهو الخاص بالاواني والادوات المنزلية وادوات الزينة فربما كان أقدم ما عثر عليهِ منها هو رقعة نحاسية تمثل ربع دائرة فلكية عملت سنة ٢٤٤ من الهجرة (٨٥٨ م) . ثم دواة ومقلمة حجة الاسلام الغزالي في أواخر القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) . ثم شمعدان عمل سنة ٦٦٨ هجرية (١٢٦٩ م) بالموصل وآخر عمل سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) باسم الملك لاجين المنصوري خصيصاً لجامع ابن طولون فكرسي للملك الناصر محمد بن قلاون انشيء سنة ٧٢٨ هجرية (١٣٢٨ م) انظر الرسم رقم (٧ و ٩) وهذا الكرسي مكفت بالفضة كما ترى

وكل هذه التحف محفوظة بدار الآثار العربية بمصر

(٨) والكفت هو ما تطعّم بهِ أواني النحاس من الذهب والفضة ، وكان للنحاس المكفّت رواج عظيم في مصر

قال المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) في الفصل الذي عقده لاسواق القاهرة في خططه تحت ذكر «سوق الكفتيين ما نصه : « . . . وللناس في النحاس المكفّت رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شيئاً لا يبلغ وصفهُ واصف لكثرته ، فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفّت ولابد أن يكون في شوار العروس دكة نحاس مكفت ، والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والابنوس أو بخشب

مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبراها ما يسع نحو الاردب من القمح . وطول الاكفات التي نقشت بظاهرها نحو ثلث ذراع في عرض أصبعين ، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها في جوف بعض ، واتساع أكبرها نحو ذراعين وأكثر وغير ذلك من المنائر والسرج واحقاق الاشنان والطشت والابريق والمبخرة ، فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتي دينار ذهباً — إلى أن قال — وقد قل استعمال الناس في زمننا للنحاس المكفت وعز وجوده ، فان قوماً لهم عدة سنين قد تصدّوا لشراء ما يباع منهُ وتنحية الكفت عنهُ طلباً للفائدة . اه . وهكذا تلاشى امر هذه الصناعة تدريجيًا في القرن العاشر الهجري وما بعده حتى كاد يعدم من مصر . وقد استعيض عنهُ بأوانٍ من النحاس خالية الزخرف والنقش وقد كان لاستعمال الصحون الصيني والصاج المطلي بالمينا اكبر سبب في اهمال الاواني النحاسية

ومن عوامل تلاشي هذه الصناعة ايضاً انعدام طائفة المكفتين من مصر بسبب ما يعزى الى السلطان سليم حين دخل مصر فاتحاً وقضائهِ على المماليك الجراكسة واخذه لابناء هذه الصناعة (التكفيت) ضمن ما اخذ من تحف وصناع مصر ونقلهم الى القسطنطينية

ومن هنا انتقلت هذه الصناعة الى الارمن حتى انها كادت تعد الآن ارمينية صرفة

ولقد ظلت مصر خالية من صناعة النحاس بتاتاً حتى زمن الفتح المحمدي العلوي واستتباب ملك مصر في يد المغفور له جد هذه الاسرة المالكة فانشأ فيما انشأ من مصانع مصنعاً لسبك النحاس بالقلعة تحت ادارة توماس جالوى الانكليزي. ويشتغل معهُ اربعة رؤساء ماهرين من الانكليز اثنان للاسطوانة وواحد للآلة البخارية، والرابع للسبك وتخليص النحاس من المواد الغريبة

أما العمال المصريون فعشرون موزعون على الاعمال المختلفة ، وفي كل عملية سبك يستعمل ٣٥ قنطاراً من النحاس ، وتخرج الاسطوانات كل يوم ٧٠ لوحاً الى ١٠٠ لوح ذات مقاسات مختلفة والنحاس المصنوع جزء منهُ من داخلية البلاد (القطر المصري) والباقي يجلب من تركيا وتريستا وليفورن بعضها على شكل الواح ومحطمة على شكل قوالب

ويلزم لكل عملية سبك ٢٥ قنطاراً من الفحم وقد يصل الى ٤٠ قنطاراً حسب اختلاف سمك الالواح المصنوعة . اه نقلاً عن المقتطف مجلد ٦٤ من مقال لحضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون. فعمل في مدتهِ الاسبلة الشهيرة بمصر وهي سبيل العقادين، والنحاسين، والسلحدار وغيرها ، وعملت بعد وفاتهِ المقاصير النحاسية وتشاهد بمدفنهِ بالقلعة ، وفي مشاهد آل البيت الكرام. وقد تخرب هذا المصنع ولا تزال اطلاله باقية الى الآن بالقلعة تدل عليهِ والآن جميع النحاس المستعمل بمصر يجلب اليها من الخارج

البترول

مقامه في معارك السلام

الذهب الاسود يسيطر على العالم

لا يخفى ان السفن الجديدة — تجارية كانت او حربية — اصبحت تسير بالبترول لا بالفحم الحجري. وكثير من السفن القديمة ابدلت آلاته حتى يستعمل فيها البترول بدلاً من الفحم الحجري . فاذا كانت دولة من الدول الكبيرة لا تملك منابع غزيرة منه ، لم تستطع مناظرة نداتها في التجارة والحروب . فالطيارات والسيارات والغواصات عدا البوارج الضخمة والسفن التجارية تسيركلها به . فهو من الزم اللوازم في الحروب البرية والبحرية والجوية والتجارية . يدلك على ذلك التلغراف الذي بعث به كلنصو في خلال الحرب الكبرى الى ولسن ، اذ كاد النفط ينفد من مستودعات فرنسا ، فلخصته الصحف يومها بقولها « كل قطرة بترول تعادل قطرة دم ». لذلك رأينا ان نتحف قراء المقتطف بفصول متوالية في هذا الموضوع الخطير . فحول حاجة الامم الى البترول نسجت دسائس السياسة الكبرى في العهد الحديث . وحول السعي للسيطرة على منابعه، كتب تاريخ الشركات المالية الكبرى بحروف خطها نار الثورات آناً وقلم المال في المؤتمرات الدولية آناً آخر. فقوة البترول في مجامع الدول قوة لا نحسها لانها خفية ، ولكننا ندرك مكانتها اذا ازيح اللثام عنها قليلاً

ملك النفط القديم

النفط ملكُ العالم الحديث ، صاحبُ جلالةٍ عتيقة . رفع في بعض العصور القديمة ، كمعظم الملوك الاقدمين إلى مصاف الآلهة. ولكن عهد « الملك الالهي » قد انقضى ، حتى الميكادو قد تخلى عن الوهيته . فصاحب الجلالة « النفط » اصبح مليكاً تخضع لهُ رعيتهُ لأنها تؤمن بوجوب خدمتهِ لها ، أكثر من ايمانها باجلالهِ . وهذا هو مبدأ الملك الدستوري . ولكنهُ رغم فقدهِ ، لصفتهِ الدينية ، اصبح حكمهُ الآنَ اشدَّ استبداداً واكثر ميلاً الى الغزو والفتح ، منهُ في العصور المطوية

وقد عرف ، النفط ، كما عرف الفحم ، من أقدم العصور

جاء ذكرهُ في سفر التكوين . فلما حاول الناس « ان يبنوا مدينةً وبرجاً رأسهُ في السماء »

استعملوا « الحمر مكان الطين » والحمر هو ما يبقى من النفط بعد تبخر السوائل الطيارة التي فيهِ. والظاهر ان هذا « الحمر » كان يجلب من منابع العراق — المنابع التي كادت تفضي الى حرب، بين انكلترا واميركا من بضع سنوات

ثم إن التوراة تشير إلى تدمير سدوم وعمورة : « فامطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ». فلعلها كانت انفجار نبع نفطي أصابتهُ النار، فدمَّر المدينتين حرقاً. وعلماء الجيولوجيا يقولون ، إن سهل الأردن ، قبل أن يدمر الربُّ مدينتي سدوم وعمورة ، كانت تكثر فيهِ آبار النفط تغطيهما طبقة رقيقة من القشرة الارضية . ومع ارتقاء الوسائل العلمية في استنباط النفط من منابعهِ، لا تزال هذه النيران المدمرة كثيرة الشبوب الآن ، ومن المتعذر كبح جماحها بعيد شبوبها في غالب الاحيان

أما كيف شبت النار في نبع النفط المنفجر فكانت سبباً في تدمير سدوم وعمورة ، فيرجح أنَّ صاعقة أنقضت حينئذٍ فالهبت السائل المنفجر، أو ان بعض الغاز المنبعث مع السائل التهب لدى اتصالهِ باوكسجين الهواء ، كما يحدث في بعض منابع النفط الحديثة ، رغم الاحتياطات العلمية الواقية

معجم لغوي

حقق العلامة الدكتور امين معلوف صحة الالفاظ العربية التي تتصل بموضوع البترول فرأينا ان نجري عليها في هذه المقالات

***

النفط (البترول)	Petroleum
القار والقير	Bitumen
الحمر (زفت معدني)	Asphalt
الزفت	Pitch
الغاز الحلق	Netural Gas
القطران	Tar

فلما اشتعلت النار بمنابع النفط التي تحت الارض تفجرت الارض تحت المدينتين فسقطتا في الهاوية المشتعلة

وكانت مياه الاردن الى ان حلت النازلة ، تجري في ألوف الجداول والاقنية ، فتروي السهل الباسم ، فاتجهت بعد حلولها الى الهوة التي أحدثها الانفجار في الارض ، وملأتها — وهذا هو البحر الميت . فمياه البحر الميت ثقيلة، يكثر فيها الحمر والكبريت والملح ، وعلماء الجيولوجيا يقولون ان الكبريت والملح يجتمعان في كل نبعٍ نفطي. وعلى سطح هذا الماء الكثيف حيث لا يستطيع حي ان يعيش ، ينشر الاردن ماءه العذب ، كانما فوق صفحة صقيلة من الزجاج ، وتنصبُّ عليهِ أشعة الشمس فتبخرهُ. ففي البحر الميت نجد شهادة ناطقة ، نتبين منها كيف دمَّر سدوم وعمورة

[هذا رأي صاحب الكتاب الذي ننقل عنهُ ولكن الرأيَ الجيولوجيَّ الارجح هو ان تكون البحر الميت والمنخسف الذي حولهُ لهُ علاقة بتكوين خليج العقبة ووادي « الرفت » الذي يمتد من شرق افريقية الى اواسطها كأنها امتداد لمنخسف البحر الميت وخليج العقبة]

***

ويشير هيرودوتوس، الى ان القار استعمل في بناء مدينة بابل، التي قامت مبانيها وابراجها ،

في وسط الحقول النفطية التي تتنازع عليها الامم اليوم

وقد استعمل قار وادي بابل في تحنيط الموتى وكان المصريون يستوردونهُ لهذا الغرض . كما استعمل في بناء المراكب ، حتى لا يتسرب الماء بين الالواح الخشبية الى الداخل . وقد جاء في التوراة ان نوحاً استعملهُ في بناء فلكهِ كما جاء ان السلّ الذي وضع فيهِ موسى — وهو طفل — على شاطئ النيل كان مطليّاً بهِ

ثمّ ان معتقد زرادشت ، وهو معتقد عبادة النار ، قد نشأ في شبه جزيرة ابسخرون ، حيث توجد منابع باكو ، ومنها امتدّ الى بلاد فارس والهند . وفي الاساطير ان نهراً من النار يجري هناك ، وهذا النهر ليس الاّ الغاز الخلقي الذي يشتعل عند اتصاله بالهواء كما يحدث في عصرنا. وهذه المنابع كانت مشهورة في العالم في عصر الاسكندر ، وفي احد اطراف شبه الجزيرة المذكورة ، تمثل اثار هيكل لعبادة النار الخالدة يرجع تاريخهُ الى نحو ثلاثة آلاف سنة

***

وقد اشار المؤرخ الروماني ، بلينيوس ، في غير مكان من مؤلفاتهِ الى ينابيع عديدة من البترول عرفها الرومان منها ينابيع « اغريغنتي » بصقلية . واشار فلوطرخس في استطراد لهُ في « حياة الاسكندر » الى ان هذا القائد المغوار أخذ اذ شاهد في مقاطعة ابكتانيا كهفاً يخرج منهُ جدول من النار لا ينقطع . ثم بين فلوطرخس ان النفط يشبه القار ، ويشتعل مثلهُ اذا اتصل بهِ لهيب . ثم وصف ما فعلهُ البرابرة — اي البابليون وهم في عرف فلوطرخس برابرة لانهم غير يونانيين — ليبينوا للاسكندر فعل هذه المادة المشتعلة . فانهم رشّوا طريق القصر بها عن جانبيهِ فلما اسدل الليل ستارهُ اشعلوا النفط من طرف الطريق البعيد فامتدت على جانبيهِ الى القصر باسرع من لمح البصر فبدا الطريق ملتهباً . ثم روى حادثة فتى صُبَّ عليهِ النفط واشعل فكاد يموت حريقاً لولا دلاء الماء

كلُّ هذا يبين ان الامم القديمة من مصر الى فلسطين الى جزيرة العرب الى العراق الى بلاد ايران عرفت النفط من اقدم الازمنة . وكانت اول من استعملهُ

وفي عهد النهضة عرف الناس القار بزيت الصخر وهو باللاتينية « بتري اوليوم » ومنها اسمهُ الحديث « بترول »

***

وفي العصور المتوسطة — وبوجه خاص في عهد النهضة — استعمل النفط دواءً ، وكان يستعمل بلسماً في تضميد الجروح . وقد أشار فرنسوى كلوه طبيب الملك الذي عهد اليهِ في تحنيط جثة الملك فرنسوى الاول سنة ١٥٤٧ ، الى انهُ استعملهُ لتلوين وجه

من الشمع صنعهُ على مثال المومياء وهو استعمالٌ غريبٌ

وفي بدء القرن الرابع عشر ، شرع سكان اوربا يستعملون البترول في الاضاءة : على مثال ما استعملهُ اهل الصين من ازمان عريقة في القدم

اما في اميركا فكان الهنود الحمر يعرفون البترول ، وقد وجده اوائل المهاجرين اليها متجمعاً في برك حفرها الهنود ليتسرب اليها البترول مما يجاورها

هذا هو ملك البترول العريق النسب ، المتغلغل في القدم ، الراجع إلى فجر التاريخ

* * *

على ان صناعة استنباط البترول لم تنشأ الاّ في العصور الحديثة . وكانت في الواقع وليدة الصدفة

ذلك ان الكولونل ادوار درايك ، حفر بئراً في بلدة تيتوسفيل بولاية بنسلفانيا من اعمال الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٨٥٨ ،وغرضه منها تبخير الماء للحصول على رواسب الملح . فاذا بالبئر قد انشقت وانبثق منها سائل زيتيُّ القوام في عمود بلغ عنان السماء بقوة عظيمة ، حتى كاد درايك واعوانهُ يموتون اختناقاً بهِ

وهكذا فتحت منابع البترول الاولى ، وهناك وجد الانسان — كما يحدث غالباً — ما لم يكن يبحث عنهُ .وما كان المكتشف يدرك حينئذٍ ان ما وجدهُ سوف يكون سبباً في أثراء امةٍ ، وذا أثر في احداث خلل في توازن القوى الدولية

* * *

وظلت بئر تيتوسفيل منبثقة بقوتها العظيمة بضعة ايام ، يخرج منها كل يوم الوف من اللترات . فبدا لمكتشفها كأنها لن تنفد . فجزع درايك لذلك ، وأخيراً عمد إلى تحليل ذلك السائل فعرف أنهُ اذا نقاه قليلاً تمكن من وضعهِ في مصباح والاستضاءة بهِ بضوء أكثر تألقاً من ضوء الزيت النباتي المستعمل حينئذٍ

فذاعت انباء هذا الاكتشاف العظيم بين الوف المغامرين من المهاجرين الى العالم الجديد فشرعت جموعهم تتجه إلى سهول بنسلفانيا ، حيث اكتشفت البئر الاولى . هكذا فشت حمى البحث عن البترول ، وهكذا انبلج فجر صناعة جديدة عظيمة

وكان ذلك مفتتح عصر جديد في التاريخ ، يصحُّ ان ندعوه عصر البترول ، ولما ينته بعد

(الفصل الثاني موضوعهُ — من اقامك ملكاً — أو جلالة النفط لحماً وعظماً)

تقاليد الزواج واصولها النفسية

(١)

ماهية التقاليد وأثرها — التربية الجنسية — معنى الزواج

الزواج عند الحيوان والطيور — العائلة والزواج

لكل شعب أو جماعة ، متأخرةً كانت أو متقفة ، مذاهب اجتماعية مختلفة يجرون عليها في معاملاتهم وفي علاقاتهم الاجتماعية ، هذه المذاهب تحدد سلوكهم وتثبت في تكوينهم العقلي حتى تصبح طبيعة ثانية يكون تحويلها أو استئصالها ضرباً من العبث ، وهذا ما يعرف بالتقاليد

ولا تشمل التقاليد المراسيم والطقوس الدينية والاجتماعية المختلفة فقط ، بل هي كذلك تشمل نزعة الشعب العامة ومنتحى تفكير افراده ، فالمرأة الرجعية في لباسها وافكارها في بلد كامريكا مثلاً ، تُعَدُّ بلا شك معتدية على نزعة تقليدية شعبية

وقد ترمي التقاليد عادة الى غاية يسعى المحتفظون بها الى تحقيقها ؛ ولكن هذه الفائدة المرجوة منها تضيع بلا شك مع مرّ الزمن فينقل التقليد من جيل الى جيل ، ومن جماعة الى جماعة فاقداً في أثناء انتقاله وتطوره أسباب [illegible] و[illegible] التي تسعى الجماعة الى تحقيقه ، فتمارسهُ الاجيال الناشئة جاهلة بهذه الأسباب التي تكون قد تحولت أو اندثرت منذ زمن بعيد . بينما ترى في الوقت نفسه ان الفرد يرهب الاعتداء على هذه المعتقدات التقليدية خوفاً من تهجُّم المجتمع عليهِ لاسيا تلك الطبقات غير المتقفة من الشعب التي تؤمن بها دون أن تبني أعمالها على نظرية أو فكرة

ولعل لغريزة التقليد اثر كبير في ذلك ، اذ ان جانباً كبيراً مما يتعلمهُ الطفل ويعمل على صوغ حياته العقلية يرجع الى استعداد الطفل للتقليد اللاقصدي . فاللغة والدين والقوانين العرفية يأخذها الطفل عن أبويه أو يتعلمها من البيئة التي يعيش فيها ، ويدافع عنها فيما بعد بحرارة وحمية لا لأنها معتقدات مبنية على التدقيق والاستقصاء ولكن لانها انتقلت اليه في سنيه الاولى فرسبت في قرارة نفسه[1]

---

(١) راجع W. Mcdougall, Introduction to Social Psychology

ان أزياء الملابس بلا شك تقاليد موروثة ، وهذه الازياء قد تكون وضعت أصلاً لتتناسب مع بيئة معينة أو مهنة خاصة ، لذلك كان يجب ان تتبدل او تندثر جملةً اذا فقدنا هذه الاغراض . ولكن ماذا يحدث لو اعتدينا عليها ؟ لنتصور سيدة ارتأت — ولها الحق ان ترتأي — ان تستعيض عن ردائها الفضفاض بزي من ازياء الرجال ، او قل بزي من ازياء القرن الماضي النسوية !

ليس أيسر من ان ينتج هذا الحادث لغطاً شديداً واحاديث وابحاث ومناظرات ومحاضرات بين الشعب . واذا سلمنا بعدم احتمال نشوب ثورة اجتماعية ، فليس اقل من ان يتدخل القضاء او الشرطة في الامر (كما حدث في انجلترا منذ عامين) [١] لا لجناية ارتكبت ، بل لاعتداء احد افراد الجماعة على التقاليد المتعارفة بينها

فلا عجب اذا قررنا بان جانباً كبيراً من سلوكنا الاجتماعي مقيد بهذه القيود الثقيلة العتيقة التي مع اعتراف الكثيرين منا بسخف بعضها او بتفاهته نجد انفسنا مكرهين على اتباع ما سنته وملاحظة ما اختطته

ان الديانات على اختلافها مغمورة بهذه التقاليد ، ورجال الدين في حمى هذه التقاليد ابعد الناس من ان يوجّه اليهم نقد او تقريع — لذلك نراهم في كل العصور وفي كل الاديان يفعلون ما يفعلون وهم مستندون على اذرع الجماهير التي تأخذ لهم قوة واقتداراً من كل معتدٍ اثيم في نظرهم

لذلك كان لزاماً على كلّ من يقف نفسه على دراسة ناحيةٍ ما من نواحي الحياة الاجتماعية ان ينزع عن عنقه هذا القيد الثقيل ، باحثاً ومنقباً في ضوء علمي بحثاً بعيداً عن عبث الاهواء والنزعات التقليدية

ولعل القارئ يتفق معي على ان ابرز ظاهرة لهذه التقاليد هي تلك التي تتصل بحياتنا الجنسية ، حتى لقد ثبت في الاذهان ان « علم الجنسيات » والتربية الجنسية سر من الاسرار التي لا يرى ان تباح او تبتذل . حتى في الدوائر العلمية [٢] لقد صار ما ندعوه Taboo اي « التحريم » على التعاليم الجنسية يشملنا منذ نشأة الطفل الى حياة الرجولة او الامومة

* * *

ينشأ الطفل ويعتقد منذ ايامهِ الاولى اعتقاداً ثابتاً ان ثمة جانباً من حياته يجب الاّ يعرف منهُ الاّ طرفاً فاذا ما سأل عن بعض هذا انتهره ابواه وزجراه بعنف وغلظة — لن ينسى اثرها

(١) Captain Parkers 'Case

(٢) فمن ذلك ان كثيراً من الكتب العلمية الموضوعة في هذه الفروع لا يسمح ببيعها في المكاتب الانجليزية الشهيرة الا لرجال الطب او غيرهم من الاخصائيين

العميق في نفسه فيما بعد — حتى يؤمن بان كل ما يختص بالجنس عليه ان يسرّه ولا يبوح به.
ولست هنا في مقام تبيان اضرار ذلك بل يكفي ان اذكر ان الشذوذ الخلقي عند كثير من الصبيان والفتيات قد يرجع الى هذه الاسباب

ولا ينتهي الامر كذلك، بل ترقى هذه النزعة الى دور الرجولة او الامومة حتى في بعض الحالات الخاصة التي يكون فيها السكوت والاضمار منتجاً لاوخم العواقب

***

في الزواج تتحكم فينا التقاليد. بل انها قد تكون المعول الاساسي لهدم الزواج او لفشله، فالفتاة قبل الزواج او بعده قد تكتم ما يدور في خاطرها حتى عن اقرب الناس اليها، لكي لا تعتبر في نظرهم وقحة جريئة، بينما الرجل يمثل الدور نفسهُ حذراً من ان يدوس على هذه التقاليد او ان يخترق سياجها

وليس ادل على اصطناع هذه التقاليد اصطناعاً محلياً من تعارضها وتنافرها عند الشعوب المختلفة او عند الشعب الواحد من درجات الحضارة المختلفة . فارتداء ملابس الرأس داخل الدار مثلاً دليل في الشرق على احترام الجماعة التي تكون بينها ، بينما هو في الغرب دليل على سقم الذوق واعتداء على العرف، وهكذا اذا قابلنا بين لباس المرأة منذ عشرين سنة وبينهُ الآن

« الزواج » ولنتناولهُ من الناحية الاجتماعية متعرضين للنواحي النفسية والاقتصادية والقانونية له اذا دعت المناسبة

[illegible] علاقة جنسية منظمة [illegible] وموضوعة وتقاليد وواجبات وحقوق ضرورية لاتمام الزواج . وهي تجري على الزوج والزوجة بل والعائلة التي يتصلان بها او يمتّان اليها والجماعة التي يعيشان في جوارها

ولابدّ للمجتمع من ان يعترف بهذا التعاقد والاّ كان ضائع الاثر او لاغياً ، ولذلك كان لابد ان تجري مراسيم الزواج علانية ، وما اقامة الزينات والحفلات والولائم واطلاق النيران ودق الطبول والزغاريد الاّ رامية الى هذه الغاية . بل قد لا يكفي ذلك اذ ان هذا التعاقد يجب ان تقيده جماعة خاصة يعينها المجتمع لهذا الغرض كرجال الدين او مكاتب التسجيل او رئيس القبيلة

كما ان الاعتراف لن يتمّ الاّ اذا تبع قوانين خاصة وشروطاً معينة يحددها العرف او رجال القانون . ومثال ذلك وجوب ان يكون هذا التعاقد بين افراد معينين كافراد العائلة الاقربين او البعيدين كما سأبينهُ في المقالات التالية

ثم هنالك حقوق وواجبات يقوم بها الزوج وترعاها الزوجة ، كتعهد الاول بحماية الثاني

واعالته وعند بعض الشعوب الفطرية تقام شبه اختبارات الغرض منها ان يتأكد اهل الفتاة او شيخ القبيلة من ان الرجل قادر على اعالة زوجه وحمايتها

ففي السودان تقام حفلات خاصة لهذا الغرض وفيها يؤتى بالزوج المقبل ويلتوى على وجهه ويتناوبه بعض فتيان القبيلة الاشداء بالضرب بالسوط . او يطبعون على جسمه مسامير محماة فاذا اظهر تململاً أو جزعاً عدَّ غير اهل للزواج وهذه العادة منتشرة بين شعوب مختلفة ، ففي شرق افريقيا يطلب من الزوج أن يقتل تمساحاً ويطعم خطيبته منهُ ، او ان يوضع في حجرة ممتلئة ببعض الحشرات ليلة كاملة كما في أمريكا الوسطى ، أو ان يطلب منهُ أن يقتلع جانباً من نباتات الغابة . وفي بعض نواحي آسيا (الجنوبية الشرقية) لا يتمُّ التعاقد إلا بعد أن يثبت الرجل انتصاره على آخر بتقديم رأس غريمه رمزاً لشجاعته (١)

وكما ان هنالك شروط على الزوج ، فلهُ حقوق كطاعة زوجه ورعيها لحرمته . وإن كان بعض هذه الحقوق ضائعاً عند بعض الشعوب ، فالطفل يدعى لأمهِ لا لأبيهِ ، ولخال الطفل حقوق عليهِ أكثر من حقوق والده . كما إن الوالد في بعض الاحيان ليس لهُ الحق في أخذ زوجتهِ إلى منزلهِ الخاص بل هو عليهِ أن يذهب الى دار أبيها ، يزورها هنالك الفينة بعد الفينة ، كما هي الحال في أسام

وليست هذه غريبة علينا في مصر ، ففي بعض بلاد الوجه القبلي (كأسنا) يجرون على مثل هذه التقاليد ، فليس للزوج أن يزور عائلته إلا في دار أبيها ليلاً فقط حتى إذا وضح النهار عليهِ أن يهرب قبل أن يراه احد

***

﴿ هل الزواج فطرة ﴾ وهنا يجدر بنا أن نسأل هل الزواج وهو كما رأينا علاقة جنسية منظمة طبيعة او فطرة ؟ أو دعنا نضع السؤال في قالب آخر وهو : هل الزواج(٢) ضروري لأنهُ عمل فطري تدفعنا اليهِ الطبيعة ؟ انني قد أجيب عن هذا السؤال بالنفي والايجاب في وقت واحد . وإذا أردنا ان نستقصي الامر بدقة وجب علينا درس هذه الظاهرة الاجتماعية كما تبدو بين الشعوب المنحطة التي لم تنل قسطاً وفيراً من الحضارة ، وقد يكون درسنا أعمق لو تناولنا اولاً الزواج بين الحيوانات

هل هنالك زواج بالمعنى الذي نفهمهُ بين الحيوانات ؟ لا ولكن هذا لا يمنع أن تكون

---

(١) Westermark, History of Human Marriage.

(٢) لا العلاقة الجنسية المطلقة

الطبيعة الجنسية منظمة ليس إلاّ ، عند بعض الحيوانات الراقية ، مدفوعة الى ذلك بعوامل بيولوجية كطول مدة الحمل عند الأنثى وعجزها في أثناء ذلك عن القيام بالعمل العادي ، وكذلك طول مدة الطفولة وعدم قدرة الطفل على الاعتماد على نفسه فيها ، فكل هذا يستلزم تعاون الأنثى والذكر من الحيوان تعاوناً مستمراً يحدو بهم إلى تكوين رابطة أشبه بالأسرة عند الانسان

فالقردة الراقية كالغورلا والشمبانزي تكوّن عائلات من الأب وانثى واحدة أو أكثر وطائفة من الصغار يعيشون في ناحية مستقلة بهم في الغابة لا تتعدى حدودَها الأسر الاخرى ، فكأن هنالك حقوق عائلية عرفية تعترف بها القردة . والقرد الذكر هو العائل لهذه الجماعة والحامي لها عند الاغارات يساعده فتيانه الصغار

ولا تنفرد القردة في ذلك بل كثير من الحيوانات لاسيا الطيور تجاريها فيه . فالطيور في نظر أحد علماء طبائع الحيوان ، المثل الاعلى للعلاقة السامية التي يُحكمها الزواج بين فردين ، ولا شك أننا نتفق معهُ في ذلك من مشاهداتنا ، وليس أدل عليهِ من الحمام الذي يعيش ذكره وأنثاه معاً ويتعاونان تعاوناً صادقاً في رعاية الاسرة ومساعدة الصغار . وقد يحدث إذا فقد الواحد رفيقه أن يطير منفرداً لا يقرّ لهُ قرار ، كأنه بذلك مصرٌّ على الاضراب عن الزواج . هذا ما فعلتهُ الطبيعة مع بعض أبنائها فماذا فعل الانسان بثقافتهِ وحضارتهِ ؟

***

والزواج كما رأينا ضروري لتكوين الأسرة لذلك لا عجب إذا رأينا آثاره وكثيراً من نظمهِ السائدة معروفة بين الشعوب الهمجية . فالفوضى الجنسية كما يقرر داروِنْ غير موجودة عند الانسان الهمجي ، لأن الغيرة الجنسية نزعة فطرية في الانسان

ووجود الاطفال لهُ شأن خاص في ثبات أساس الزواج وحمايته من التهدم على مرّ الزمن بين أبويهِ فالطفل يجمع بينهما جمعاً غير مباشر ، حتى إن الزواج لا ينظر اليهِ نظرة جدية عند بعض الشعوب الاّ بعد ولادة الطفل ، أو التأكد من ولادتهِ وحينئذ فقط تستكمل المراسيم التي لم تجر سابقاً في حين ان العقم عامل كبير على تقويض أساس الاسرة ، وعلى عدم الاكتراث للعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة . ومما يساعد على تكوين الاسرة قلة نسبة التناسل عند الانسان والحيوانات الراقية ، فيتاح للأبوين تركيز العناية بصغارهما في دائرة ضيقة

احمد عطية الله
مدرس التربية بمعلمات حلوان

وحي المصباح

الى توماس اديسن

— ١ —

أيُّهذا المصباحُ يا أثرَ العقلِ ورُوحَ الجبّارِ في الإنسان
جُمّعَ النورَ صافياً ونقيّاً فيكَ صفوَ الوجدان بالايمان
ثم فاضت أنوارهُ فتوارت ظلماتٌ طالت على الأزمان
مثل ما جَمّعَ الإله شتيتاً من بديع الجمال في الأكوان
في فتاةٍ تنسى القلوبُ لديها ذكريات الآلام والأشجان
أيُّهذا المصباح ما أنت إلاّ ومضةُ الله في حجى إنسان !

— ٢ —

أيُّهذا المصباح قصَّ علينا بلسانٍ من الضياء الماسي
كيف يأبى الخيال الاّ ظهوراً وجلاءً نحسّه بالحواس !؟
كنتَ قولاً وفكرةً وظنوناً وشعاعاً في موجة الاقواس(١)
فأتاحت لكَ الطبيعة عقلاً عبقريَّ التفكيرِ صلبَ المراس
فإذا انت لؤلؤة العصر وحقٌّ — أن يسمّى هذا بعصر (توماس)

— ٣ —

أظلمَ الليلُ فاعتليتَ عروشاً وسما النورُ فانتظمتَ جلالا
ومضى الناس في رحابك والأمـــنُ عليهم يمتدُّ منك ظلالا
حقق العقل تحت ضوئك ما كا ن عصيّاً في بحثهِ ومحالا
جُبْتَ في الأرض كالسلام نواحيها وجُزْتَ منها بحارَها والجبالا
فإذا النور في الكهوف تدانى واذا النور في الجواء تعالى
في مهبِّ الانواء تنظر للريـــح كما تنظر الحسانُ دلالا
أيهذا المصباح هل انت تدري اي نورٍ في الكون ذاب وزالا؟!

— ٤ —

أي نور ذاك الذي أطفأ الموتُ وفكرٍ ذاك الذي قد طواهُ !!

(١) الاقواس الكهربائية : هي الاستنباط الذي سبق المصباح الكهربائي

قد حواه المجهول في ظلمات كلُّ بحثٍ فيها يضلُّ نُهاه
يخرس الموتُ مُنطقَ الشمعِ أغانيَّ — ويحيي ما أنتَ منه سناه ! ! [1]
يوقف الموت من يحرك في الكو ن حديداً مستهزئاً بقواه ! !
ليت شعري أفي الأثير تلاشى ذلك الفكر واختفى في علاه !؟
أم تفانى والجسم في كنف القبر — وغاب النبوغ تحت ثراه ! !

— ٥ —

فوق جسر الحياة مرت خلائـــق شتى من عهد بدء الحياةِ
فتناساهم الذاكرون هواناً وتلاشت آثارهم في الغداةِ
وقليلٌ منهم يخلده الدهـــرُ خلود الحياةِ طيَّ النواةِ
بين عصرٍ وآخرٍ ينبت الـــبذرة نبتاً يسمو الى المعجزاتِ
تلك روحٌ تلقي على الأرض نوراً وظلالاً من عالم الجناتِ
قد تقاصى تفكيرها فتدانت في حماها غرائب الآياتِ
لم تعاون يوماً أبالسةَ الشرِّ — وتبدع آلاتها للاذاةِ
كلُّ ما تبتغي خلاصٌ وهَدْيٌ لبني الارض من مغاور الظلماتِ

— ٦ —

هي روح المفكر الذي انتصر الموت عليه وكان بالامس قوة
هو شيخٌ جاز الثمانين لكن رغم هذا تفكيره في الفتوه
عاش للعلم في الحياة يضحي بهدوء الاعصاب لا للثروه
هو في الناس مثلهم آدميٌّ ونبيٌّ في البحث سامي النبوه

— ٧ —

باعث النور [2] لامعاً كالدراري حافظ الصوت [3] ان يضيع ويمضي !
موقظ الحلم والخيال من الوهم — ومحييهما من الكرى والغمض [4] !
فوق شاش نرى الحياة فصولاً عرضتها الافلام ابدع عرض !
هل سيبقى الفكر الذي اخترق الـــغيبَ زماناً أم بعد ذلك يقضي ؟
هل سيبقى في الموت يكتشف الـــمجهول . يفضي عنه بما ليس يفضي

حسن كامل الصيرفي

---

(١) اشارة الى اسطوانات الفونوغراف لان المعروف انها كانت تصنع من الشمع (٢) المناجاة لتوماس اديصن (٣) اشارة الى استنباطه الفونوغراف (٤) اشارة الى استنباط السينماتوغراف



الزواج

تلخيص قصة للروائي الانكليزي « ولز »

بقلم يوسف حنا

ان قصة الزواج من اروع آثار ولز القصصية ؛ فان سألتني وما سرُّ هذه الروعة اجبتك ان سر ذلك هو هذه الدقة التي يعالج بها الكاتب تحليل مشكلات الحياة

ومرجريت بوب فتاة في العشرين من العمر مستوفاة شرائط الانوثة الحقة من بهاء طلعة وفتوة جسم وتلهب عاطفة وتوثب شعور

هي انثى في كل مسقط نظر فيها ، وانثى في كل ما تختلج به عواطفها المشبوبة — يقابل هذه الانوثة الوافرة فيها تربية علمية متينة آخذة باوفر حظ من حب الاستطلاع والميل الى المغامرة ، ووعي الشخصية . وكانت فتاتنا تلك طالبة في احدى جامعات انجلترا

رآها « ما جنت » الروائي الذائع الصيت الوافر الثروة ، فاحبَّها وعرض عليها الزواج فرفضت

ولم يكن ذلك الرفض يروق اسرة مرجريت ، فلقد كان ابوها رقيق الحال ، كثير العيال، فتدخلت عمتها في الامر واغرت الفتاة بثروة الطالب وشهرته العالمية ،فرضيت ، على ان تكون الخطبة تجربة . . . لا اكثر

اسرف الخطيب في الترضي والبذخ ،واسرفت عائلة الفتاة في الملاحظة والعناية ، ووقفت مرجريت بين الطرفين موقف الحيرة والتردد

كانت الانثى في مرجريت تجد في ثروة الخطيب ونباهة اسمه : ما يرضي ناحية من نواحي الانوثة فيها ، الا ان تربيتها العلمية وتطلعها الى المغامرة ، ووعيها لشخصيتها ، لم تكن تجد في هذا الخطيب : ما يكفي لارضاء ما يثور في نفسها من منازع واشواق اخرى ، على انها مضت في الخطبة قانعة،وسمحت للخطيب ان يقبلها اكثر من مرة . . . .

في عصر يوم رق نسيمهُ وصفت شمسهُ ، اجتمعت اسرة بوب في حديقة المنزل يتناولون الشاي فاسترعى اسماعهم هدير طيارة مقبلة نحوهم وابصروها تترنح كالسكران ثم ما لبثت ان

سقطت بين الاشجار هناك ، فاسرع القوم يتحرون خبرها ، وكانت مرجريت أسبق الجميع اليها

كان الطيار واسمهُ « ترافورد » شاباً في السادسة والعشرين من العمر ، جميل الطلعة ، قوي الجسم ، بادي معارف طيب العنصر ونبل الاصل ، نالهُ شيء من الرضوض بسيط لم يعقهُ عن الحركة ، فوثب من داخل الطيارة خفيفاً وطلب الى مرجريت بلهجة ودية بسيطة ان تعينهُ على اخراج الراكب الآخر ، فلبت الطلب بغبطة زائدة ، وعزم وقوة لا يعهدان في امرأة



﴿ ولز ﴾
H. G. WELLS

نُقل الراكب المرضوض ، واسمهُ السر سلمون من كبار رجال المال ، الى اقرب مستشفى ، وتخلف ترافورد ليشرب الشاي مع افراد الاسرة وليخاطب مكتب السر سلمون لكي يرسلوا من يتولى نقل الطيارة المحطمة

كانت نزعة ترافورد العلمية ونفسيتهُ الحرة البسيطة بحكم تلك النزعة عينها ، كافية لتمهد لهُ سبيل الاختلاط بالاسرة كانهُ واحد منها . فلما انتهوا من الشاي ذهب الى اقرب فندق هناك وهو مشغول بخيال مرجريت ، كما خلفَ مرجريت مشغولة بخياله هو

واضطر ترافورد ان يقضي مدةً ما في الفندق حتى يستردَّ قوتهُ وكان يتردد في تلك الفترة على منزل بوب ، وقد فهمت الاسرة من ترافورد انهُ استاذ في العلوم ينحصر عملهُ في بحث

القوى الكامنة في المادة ، وانهُ كان يسوق طيارة السر سلمون على سبيل المغامرة ، وقد ذكر لمرجريت مرة انهُ كان احد ممتحنيها في الجامعة ، فتذكرتهُ وزادت تنبهاً لهُ وتعلقاً بهِ

على هذا الاساس من توافق السن والتربية العلمية والنزعات النفسية ، قام التعارف بين ترافورد ومرجريت . الاّ انهُ لم يتعدَّ تعارف الازواج دون ان تتاح للمحبين فرصة يتفاهمان فيها ، ويكشف الواحد منهما للآخر عن سريرة نفسهِ وذات صدره . واخيراً سنحت تلك الفرصة السعيدة في حديقة المنزل ، ولم يكد يختلي المحبان حتى انجذب الواحد منهما الى الاخر بكل نفسهِ ، وبكل جسمهِ . . . . ايضاً ،وقد تصادف دخول المستر بوب الى الحديقة في حين كان فيهِ ترافورد ومرجريت متعانقين . . .

ثار المستر بوب لهذا الحادث وأهان ترافورد وطلب اليهِ ان يخرج من البيت الذي احسن له فأساء هواليه. اما الفتاة فلم تجد في هذا الحب غضاضة ما . . . أليست انها قبلت خطبة «ماجنت» على انها تجربة . . . فما الذي يمنعها ان تحبَّ من تشاء والزواج منه ؟

اشتد الجدل بين المستر بوب وبين ترافورد ، وعبثاً حاول الاخير ان يستقر معه على اساس من التفاهم ، وأخيراً انقذت الفتاة حراجة الموقف بأن اعلنت انها تبلغ الحادية والعشرين بعد شهرين ، وانها حين تبلغ ذلك السن تكون مطلقة الحرية في التصرف بشؤونها الخاصة كما ترغب . . .

عاد ترافورد الى معمله وانهمك في بحث القوى الكامنة في ذرات المادة ، وكان خيال مرجريت يرجعه بين كل حين وآخر من عالم البحث والاستقراء ، الى عالم العاطفة والحب . وفي صباح احد الأيام أُوقظ ترافورد من انكبابه الكلي على ميكروسكوبه بدعوة تليفونية . . . فترك معمله ساخطاً . ولما اخذ السماعة لم يستطع ان يتبين صوت المتكلم فطلب اليهِ بتأفف ان يفصح عن اسمه وعما يريد حتى ينتهي ويعود الى عمله . . . وأخيراً اتضح له ان المتكلم مرجريت لتعلن له انها بلغت الحادية والعشرين صباح ذلك اليوم

كانت هذه هي المرة الاولى التي الهت فيها المرأةُ في مرجريت ، الباحثَ . . . في ترافورد عن عمله ، وصرفته عن ميكروسكوبه كي يفكر بها وبمستقبل حياتها

قطعت مرجريت ما كان موصولاً بينها وبين « ماجنت » وانصرفت الى حبيبها وانتهت الامور بزواج ترافورد من مرجريت ، كما افلحت المسز بوب في تزويج ماجنت من ابنتها الصغرى « دافني »

كان ترافورد يتقاضى بحكم استاذيته مبلغ ٣٠٠ جنيه سنويًّا ، وكان له دخل آخر من ماله الخاص يبلغ ٣٠٠ جنيه اخرى . وليست الستمائة جنيه ، بالمبلغ الذي يتسع لحياة البذخ والاسراف . وقضى العروسان شهر العسل في ايطاليا فكانا هناك محط انظار الناس ، فحيثما نزلا يسترعيان الابصار بجمال شبابهما وتوافق امزجتهما

وكانت الانثى في مرجريت مجموعة نوازع غير واعية لاخطر لها في قيادة حياتها الظاهرة ، اما الشخصية الواعية فيها اكبر الوعي فكانت تلك الناحية المثقفة الميالة الى المغامرة والتنعم بالحرية والعمل المنتج، ونشدان الجمال اينما وجد ، فلما تولت مرجريت ادارة منزلها وماليته اظهرت من العجز ما كاد يودي بالقليل الذي كان يملكه ترافورد

وكان الرجل في ترافورد مجموعة نوازع غير واعية هي الاخرى ، اما شخصيته الواعية فهي تلك النفس الميالة الى البحث وافناء العمر في المعمل للكشف والاستقراء واستكناه اسرار قوى الطبيعة الكامنة في المادة وذراتها ، فهل يتساوق هذا التخصص وحياة الزوجية؟ ومسؤولية العائلة ؟ . . .

او حال الحياة او هي حقائقها الواقعة ، اخذت تجذب مرجريت وترافورد من عالمهما الشخصي ، الى عالم ضروريات الحياة وتكاليفها . كان كلا الزوجين محبًّا للآخر اشد الحب الاّ ان تكاليف الحياة الزوجية كانت تقيم حائلاً بين حياة الواحد منهما وبين حياة شخصيته الواعية ، فكان كلا الزوجين يسعى لازالة هذا الحائل . لم يكن البيت وتكاليفه ليرضي نوازع مرجريت نحو الحرية والمغامرة ، فساهمت في حركة النساء المطالبات بحق الاشتراك في التمثيل النيابي ، الاّ ان تلك الحركة الكلامية لم تكف حاجة مرجريت النفسية فظلت تشعر بشيء ينقصها وليست تعلم ما هو

اما ترافورد فقد وجد ان مسؤولية البيت وتكاليف الحياة العائلية لا يتفق والانقطاع للبحث العلمي لوجه العلم . ثم انه رأى ان ثروته القليلة تتضاءل امام مطالب حياته الجديدة فاضطر الى ترك المعمل والانصراف عن البحث العلمي الخالص ، واشترك مع السر سلمون في احد مشروعات الكاوتشوك واستغل مواهبه العلمية فنجح وصار ذا ثروة طيبة لا يُخشى معها اسراف مرجريت ، وقلة تدبيرها . فتوافر لترافورد ومرجريت اسباب السعادة الزوجية ، الروحية منها والمادية ، فهل تمت لهما السعادة الشخصية ؟

واقبل ترافورد على مختلف الاعمال المالية والصناعية ففاز بالنجاح في كل ما عمل ، واشتركت مرجريت في المطالبة بحقوق المرأة النيابية وبغير ذلك من الاعمال ، فهل وجدت نوازع الزوجين سعادتها المنشودة في هذا كله؟ هل ساعفت الحياة الزوجية الشخص الواعي في ترافورد والشخص الواعي في مرجريت ليتقابلا وجهاً لوجه ، ويسيرا في طريق ممهد خال من الغموض وعثرات التنافر ؟

كان كلا الزوجين يحسُّ ، بالرغم من شدة حب الواحد منهما للآخر ، ان هناك ستاراً ما يزال يفصل بين شخصيتيهما ، فهل من سبيل الى رفع ذلك الستار ؟

الحياة الزوجية اقصت ترافورد عن معمله وعن عالمه العلمي الصغير الذي كان يستجيب

لمنازعه الغريزية خير استجابة ، وحرمت مرجريت الشيء الوافر من حريتها الشخصية ، ولكن كلا الزوجين محب للآخر ، راغب في أن يكتشف رفيقه الاكتشاف الحق ، فهل من سبيل الى ذلك ؟

ليست حياة لندن مما يساعد على ذلك الاكتشاف العظيم ، فاين ينشدانه ؟

اين ينشدان الله ؟ بلى الله ! وهل تتعارف الروح الى الروح ، في عالم خال من اوحال الحياة وأدرانها الا مقابلة لله وجهاً لوجه ؟

تحمل ترافورد ومرجريت الى الاصقاع النائية في لبرادور ، وتركا الاولاد في عهدة والدة ترافورد ، وودعا لندن وحياتها الصاخبة لينعما في تلك الاصقاع النائية بالخلوة التامة وليتفرغا للتفكير ، وكم قد كانت حاجة ترافورد شديدة الى التفكير والى نفض حياة الكلام عنهُ ؟

على بعد ٢٠٠ ميل من آخر أثر من آثار العمران في لبرادور ، اقام ترافورد ومرجريت « كوخاً » ليقضيا فيهِ سنة بعيدين عن الناس وعن كلامهم . . . وما أكثر ما يتكلم الناس

هناك في تلك العزلة النائية والتفرغ للتفكير ،وفي رحلة مغامرة ، كان الواحد من الزوجين يزداد قرباً من الآخر في كل يوم يمرُّ بهما ، وكان الله — وهو الفكرة المتمثلة في التعارف الروحي ،والتملي من الجمال ،والسلام في العيش — يتكشف لهما اكثر فأكثر ، وكان هذا الشعور يبعث في نفسيهما غبطة عميقة الأثر

ولما اقبل الشتاء بثلوجه وبرده ،كان ترافورد ومرجريت كثيراً ما يقضيان اياماً طويلة لا يخرجان فيها من الكوخ

وفي صباح احد الايام خرج ترافورد للصيد على ان يعود عند الظهر ، واشتغلت مرجريت بتهيئة الطعام — ثم جاء الظهر ومضت ساعة بعده ولم يعد ترافورد

قلقت مرجريت اي قلق ، فلما طال بها الانتظار اخذت بندقيتها وشيئاً من الطعام والشراب وحوائج اخرى وخرجت تفتش عن زوجها

جهدت في البحث على غير طائل ، وقد اقلقها اشد القلق ان الجو كان ينذر بكل سوء ، الا ان عزيمتها لم تضعف ومضت تبحث في جهد وعناء وتطلق عياراً نارياً هنا وآخر هناك على أمل ان يسمعها ترافورد فيجيب بطلق مثلهُ ، وبعد طول البحث والجهد والسعي ، اطلقت عياراً نارياً فما لبثت ان سمعت الجواب فتابعت السير نحو مصدر الصوت حتى وصلت الى حيث كان زوجها مطروحاً بين الثلوج والدم يسيل منهُ وامامهُ وحش مقتول

كان صراع ترافورد مع ذلك الوحش ، والدم الذي سال منهُ ، والكسر الذي اصابهُ في رجله ، وشدة البرد ، قد اضعفت قواه اي ضعف ، فأنى لمرجريت ان تعود به الى الكوخ

اسعفت مرجريت زوجها بكل الوسائل الممكنة ، فغسلت جروحهُ بالكونياك ، وربطتها بقطع من قيصها الذي مزقتهُ وضمدت به جروح زوجها وهو ما يزال حاراً من حرارة جسمها . . . ولكن كل هذا لم يكن لينقذ الموقف ، فلقد كان ترافورد ضعيفاً لا يقوى على السير ، والكوخ بعيد ، فهل من سبيل الى الخلاص ؟

بلغ اليأس في نفس ترافورد مبلغاً عميقاً فألحَّ على مرجريت ان تتركه يموت لوحده وتعود هي الى الكوخ حتى تنجو من الموت برداً ؛ ولكن تلك النفس القوية ابت ان تترك زوجها فتكشفت عن صلابة وعزم وجرأة ، لا تعهد في غير الابطال من الرجال

حملت مرجريت زوجها الى صخرة هناك ووضعته في مأمن من الرياح والثلوج ثم جمعت بعض الاحطاب واشعلتها حتى يتدفأ بها ثم تركته وعادت الى الكوخ لتحضر ما يلزم للمبيت في العراء

ضلت مرجريت طريقها الى ترافورد في عودتها من الكوخ بسبب الظلام ، ولكنها ثابرت على اللف والدوران . . . والسعي والتيقظ . . . حتى اهتدت بعد عناء طويل ، فدثرت زوجها بالغطاء الثاني وقضيا الليلة في مأمن من عناصر الطبيعة

***

وفي الصباح صنعت شبه مزلقة من الاغطية والاغصان جرّت عليها ترافورد الى الكوخ وهناك قضى زمناً فاقد الوعي من أثر الحمى التي انتابته ، وكثيراً ما كان يهذي ويبوح باشياء كانت تجهلها مرجريت ، الا انها ساعدتها على تفهم نقاط الضعف التي كان يشكوها ترافورد في زوجته

شفي المريض بعد طول المرض ، وعادت الى الزوجين طمأنينة الحياة ، وشرعا يدركان مبلغ التغير الروحي ، الذي دخل على نفسيهما من جراء هذه الرحلة المغامرة في سبيل اكتشاف الله ، فكان يجلس الاثنان يتكلمان . . . ويتطيلان . . . اطراف الحديث ، ولكنهُ لم يكن كلاماً فارغاً لا طائل تحتهُ ، من طراز كلام الناس في لندن ... وانما كان كلاماً ينظمان بهِ درر مكتشفاتهم الروحية التي وقعا عليها في تلك الرحلة المباركة فهل من مزيد يتطلبانه ؟

ارضى كلا الزوجين منازع نفسيهما من تطلب المغامرة ونشدان الله في عالم ناءٍ عن الصخب والضوضاء ، فحصلا على ما يبتغيان ، فهل من رغبة جديدة بعد ذلك ؟

بلى — هناك الاولاد ! ولم تكد مرجريت تصل الى اول مدينة في عودتهما من الاصقاع الثلجية حتى ابرقت تسأل عن الاولاد

لك الله ايتها الحياة ! كم تغرين الناس بالاولاد في سبيل قضاء مأربك من حفظ النوع



رسالة من باريس بقلم بشر فارس

كتب شرقية باللغة الفرنسية

Le Monde Musulman jusqu'aux Croisades Editions Boccard, Paris.

العالم الاسلامي حتى الحروب الصليبية

ان الاستاذ (دومامبين) من اعلام المستشرقين الفرنسيين ومن فحولهم . وهو عندي امامهم في فن فلسفة التاريخ وكتابهُ في الحج نفيس جليل ومحاضراته في السوربون وفي مدرسة العلوم الشرقية جديرة بأن تُنقش في صفحات الاذهان . على أنهُ ألّف اليوم كتاباً بحث فيه عن الاسلام . فذكر بادىء بدىء ما كان عليهِ العرب في جاهليتهم فأشار الى اهالهم امر الدين ثم تبسط في البحث عن اخلاقهم فقال ان العربي كان اانانيًا همهُ نفسهُ . ثم ذكر بعثة النبي وكان حديثهُ عنها طيباً حلواً. ثم تطرق الى ايام الخلفاء الراشدين ثم أطال النظر في عصر الامويين وبسط اطراف بحثه على السياسة والاقتصاد والزراعة والبيئة والأدب . ثم اقبل على عهد العباسيين ففحص عن سياستهم الداخلية وعن سياستهم الخارجية وعن رعايتهم الامة ومراقبتهم القرى وضربهم الضرائب وتنظيمهم الجيش واعتمادهم على الوزراء وانشائهم الدواوين. ثم اشار في الختام الى اعداء الخلفاء السنيين فتكلم عن الخوارج ونقمهم على تحول الدين الاسلامي ، وعن الشيعة وتعصبهم لعلي وآله ، وعن الفاطميين وغيرهم ثم ذكر ثورة الزنج وما احدثت من اضطراب في النظام الاجتماعي ومن فساد في الحالة الاقتصادية

ثم ان الاستاذ لم ينثنِ عن ان يعيب بعض المستشرقين الذين يركبون الشطط فيما يقولون. ودعني اخبرك بأن الاستاذ سخر من الاب شيخو الذي ردّ شعراء الجاهلية كافةً نصارى ، ثم اخذ الاستاذ على الأب لامنس قوله ان لغة القرآن تشف عن عقلية همها جمع المال والحرص عليه

غير اني استأذن الاستاذ في مناظرته مع علمي بأني ممن يستضيء بمشكاته بل ممن يتخرج عليهِ . فان اذن لي رعاه الله حاججتهُ في ثلاثة . اما الامر الاول فقوله ان همّ العربي الجاهلي

نفسه — فان العربي وان كان انانياً لمرتبط بقبيلته ولربما ضحى في سبيلها (راجع حكاية تزويج لكيز ابنته من ملك اليمن) او دافع عنها (قال هدبة بن خشرم: اني من قضاعة من يكدها أكده وهي مني في امان) او افتخر بها (راجع معلقة عمرو بن كلثوم وقصيدة السموءل وقصيدة عبد الله بن رواحه المنشورة في جمهرة اشعار العرب لأبي زيد القرشي) او ابى ان تُسب (راجع حكاية دريد بن الصمة واطلاقه سبيل زوجه: الاغاني ج ٩ ص ٦) او شارك اعضاءها في الاجارة (الالوسي ج ٢ ص ٥٠) وفي الاخذ بالثأر (الاغاني ج ١٥ ص ١٥١) وفي العقائد (قال دريد بن الصمة: وهل انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد)

وأما الأمر الثاني فقول الاستاذ ان العربي الموتور كان يغتال القاتل ليأخذ منه ثأره. ولا شك عندي في ذلك (راجع الاغاني ج ٢ ص ١٥٩ وج ١٥١) الا اذا كان القاتل نائماً (الاغاني ج ١٣ ص ١٢٠)

وأما الامر الثالث فزعم الاستاذ ان العربي لم يكن على وجه عام ليحسن الصناعة الفنية. فبالله من نقش ومن حفر ومن بنى ومن افتن في صناعة الفسيفساء والزجاج والنحاس ومن اجاد نسيج الحرير والصوف. أكان القوم كلهم اعاجم؟ وفي الختام مهما يكن في امر كتاب الاستاذ فانه لعمرك محكم الوضع مشبع الفصول متناسق الاجزاء بريء من وصمة التعصب

ذيل: نشر الاستاذ دومامبين لاسبوع مضى مؤلفاً صغير الحجم بحث فيه عن الاوضاع الاسلامية Les Tnstitutions Musulmanes. وقد انتهى الى نتيجة جليلة اذ ذم بعض اعمال الفرنجة كمثل الدعاية النصرانية في البلاد الاسلامية والاستيلاء على المناطق العربية من دون وقوف على عقلية اهلها كما انه عابنا في امور منها اعتماد ادبائنا على الذاكرة دون التفكير، واغفالنا التربية الاخلاقية، وخلطنا الامر الروحاني بالامر الزمني ... وينبغي لنا ان نعترف بأن الاستاذ اصاب فيما عابنا فيه وان شق علينا ذلك

مدح الخمر

L'éloge du Vin. Edition Vega, Paris.

ما اظنُّ شعراً سار في السنين المتأخرة سير شعر عمر بن الفارض. فرواة عمر في مصر وفي المغرب وفي الشام وفي لبنان. وقد وقع لي ان نساء حلب وشبانها يحلفون بابن الفارض ولم اعجب والله للأمر فأية امرأة عاشق لا تتمثل بقوله:

هو الحب فاسلم بالحشى ما الهوى سهل فما اختاره مضنى بهِ وله عقل

واي فتى اقامهُ الحب واقعده لا يردد هذا البيت

يا قلب انت وعدتني في حبهم صبراً فحاذر ان تضيق وتضجرا

ولكنَّ لابن الفارض مقاماً في قلوب المتصوِّفة ! أليس لهُ تائيتان مقفلتان اقفالاً لابدَّ منهُ . أليس له شعر يتغزل فيه بالله وان كان فريق من مشايخنا في مصر في شك من ولع الرجل بربهِ ! أليس له خمرية يعدها الناس من عيون الشعر العربي ومطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

تلك الخمرية التي ترجمها احد المستشرقين الفرنسيين درمنغهم Dermenghem فجاءت الترجمة منزهة عن التعقيد مطابقة للاصل حسنة الانسجام . وقد رجع المترجم في تعليقاتهِ الى شرح النابلسي ثم انهُ تبسط في البحث عن التصوف الاسلامي فذكر ان من الخطإ ان يخلط العلماء تصوف المسلمين بتصوف الهنود او بتصوف الفرس . ثم ساق تحول التصوف الاسلامي من ازهد الى النسك ومنهُ الى الاقبال على الروحانيات والالهيات ومنهُ الى طلب الاتحاد بالله عن طريق المعرفة والمحبة والاعراض عما بين ايدي الخلق في سبيل الوصول الى الحقائق

اتصال بلاد العجم بالمغرب

La Perse au contact de l'Occident — Editions Lerous, Paris.

ان صاحب هذا الكتاب اراد ان يؤلف في الفلسفة وفي علم الجماعة فلم يصنع شيئاً لانهُ قصر بحثهُ على التاريخ ثم انهُ استخلص منهُ نتائج لا تكشف عن الغوامض واليك مجمل ما قال :

ان الغرب أثر في العجم ثلاث مرات : اما المرة الاولى فستهلها القرن الثالث عشر للمسيح أيام تنصَّر قوم من المغول فعني بهم اساقفة اوربا وارسلوا اليهم دعاة ولم يكن التأثير حينئذٍ الا ضعيفاً جداً . ثم كانت المرة الثانية حينما تنازعت انجلترا وفرنسا وروسيا في التحبب الى فارس . وقد بلغ التأثير في ذلك العهد مبلغاً شديداً اذ تقدمت البلاد من الناحية الادارية . فاصبح لها دستور وشرطة ثم ضربت فيها الضرائب على اختلاف انواعها ثم عظم شأن الجيش ثم انتشرت المعارف وارتقى التعليم

واما المرة الثالثة فلا تزال جارية وتأثيرها في الفارسيين لا غاية لهُ . الا ان القوم يشعرون بأن الشقاق مستحكم بينهم وبين الفرنجة من عدة وجوه . ذلك بأنهم ان أرادوا ان يستحدثوا في أدبهم وفي موسيقاهم وفي فنهم مستندين في ذلك الى ادب الغرب وموسيقاه وفنه او ارادوا ان يكفوا عن عاداتهم التقليدية لينهجوا منهج الافرنج لا بد لهم ان يركبوا مركباً صعباً . . . مثلهم في ذلك مثلنا

حول الازهر

L'Université d'El Azhar Edition Geuthner, Paris.

يقع هذا المؤلف في جزئين . اما الجزء الاول فيبحث عن تاريخ جامعة الازهر في اختصار واما الجزء الثاني فيبسط ما طرأ على الجامعة في السنين الماضية . وقد ذكر الاستاذ صقلي صاحب هذا المؤلف قوانين سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٦ وسنة ١٩٢٠ وغيرها . ومن يتتبع هذه القوانين يرَ كيف تحول نظام جامعة الازهر وكيف ارتقى التعليم فيها

الاَّ اننا كنا نود ان يطيل الاستاذ النظر في تاريخ جامعة الازهر ويرجع الى العصور الخوالي ويمثل لنا ارتقاء الجامعة قرناً قرناً ويشير الى جلالها الضافي والى رجالها المتفوقين وينوّه بالايادي التي اتخذتها عند طلبة العلم . ثم اننا كنا نود ان يفحص الاستاذ صقلي عن تحول نظام الازهر فحصاً غير الذي عمد اليهِ . فانهُ وقفهُ على نصوص قانونية جامدة واكتفى بذكرها من دون ان يؤولها ومن دون ان يشير الى ما ترمي اليهِ من هدم ومن بنيان . وشأنهُ في هذا شأنهُ في البحث عن برامج التعليم فانهُ لم ينصرف فيهِ الى التعليل والتحليل

كتب في الادب الفرنسي

Un jardin sur l'Oronte Edition Rédier, Paris.

حديقة على نهر العاصي

ان حوادث هذه القصة تجري بين حمص وحماه في القرن الثالث في حصن من حصون المسلمين يُقال لأطلاله اليوم قلعة العابدين

وموضوع القصة أن اميراً مسلماً كان يعيش في مخلافهِ في رغد من العيش وسعة . يسالم جيرانه ويتمتع بجواريه ويميل اذنه الى الغناء ويستروح ورود حديقته . ثم انهُ قدم عليهِ وفد من الصليبيين ليجعلوا بينهم وبينهُ عهداً وميثاقاً . وكان رأس الوفد شابًّا يسيل الظرف من اعطافه . فأنس به الامير وطاف به في جنبات حديقته . فلمح الشاب حظيّة الامير ولمحته فصبا اليها وصبت اليه وما عتما ان تلاقيا فعقدا عقدة الوصل بينهما . وكانت الحظيّة من أجمل النساء ومن اعظمهن كيداً . وكانت تطمح الى العلى وتميل الى الرياسة ولم يكن الحب عندها الا في المحل الثاني . ثم ان جماعة من الصليبيين نصبوا للامير الحرب فحرضت الحظيّة عشيقها على قتل الامير ففعل فوكلت اليه شؤون المخلاف ولكن العدو انتصر عليهِ فحث عشيقتهُ على ان تفر معهُ فقالت اني خارجة الى دمشق لساعتي فالحق بي في مكان كذا ولكنها لم تبرح الحصن بل فتحت ابوابه وتلقت العدو بصدر مشروح ومكنت قائدهم من اموال الدولة

ووهبت لهُ نفسها على ان يشركها في الولاية . إلاّ ان عشيقها الأول عاد اليها مخلوع القلب ولما علم بما كان من غدرها وقع فيها وسب صاحب الحصن في محفل من الناس فوثب عليهِ فريق منهم وعلوه بالسيوف فخرت عليهِ عشيقتهُ ونفسها تتساقط غمّاً ولهفاً

تلك القصة التي يعجب بها جمٌّ غفير من الفرنسيين وان كانت خيالية غريبة عن البحث النفساني البعيد الغور . غير ان فيها وصفاً بارعاً كأنهُ الوشي الفارسي ثم ان لها ديباجة مشرقة شعرية . واما تمثيلها للحياة العربية فما يخلب الألباب

قصتان

Les Beaux Livres, Edition Marnay, Paris

حديثنا هنا عن قصتين احداهما من الاخرى بمنزلة الضد من الضد . ان القصة الاولى عنوانها المتمدنون Les Civilisés وهي فريدة في نوعها من حيث ان صاحبها (فارير) C. Farrere عزم على ان يحدث فيها عن فريق من الناس يطلقون لأنفسهم أعنة أهوائها فأجرى القصة في (سيغون) وجعل ابطالها ثلاثة نفر احدهم طبيب والثاني مهندس والثالث ضابط بحري

فطن هؤلاء النفر الى ان الخلق تواطئوا على تمويه الحياة وتزويقها معتمدين في جميع شؤونهم على الكذب بعد ما بدلوا من نزعاتهم الفطرية وزادوا في عواطفهم وانتقصوها وشرعوا الشرائع وابتدعوا البدع وقيدوا انفسهم بسلاسل السنن والعادات . فقام في اعتقاد هؤلاء النفر الثلاثة ان العاقل يركب هواه ويفعل ما يبدو له معوّلاً في ذلك على غريزته فليس يقيم للشرائع وزناً ولا يعبأ بالسنن ولا يقلد الناس ولا ينقاد لكذبهم إلا أنه يدين بالنشوء الجبري ويعتقد ان الخير والشر يتنازعان الحياة ويؤمن بأن الرجل المتمدن من عاش انانيًّا وطلب اللذات على اختلاف انواعها وهزأ بالناس . الا ان هؤلاء النفر الثلاثة انتهوا الى سوء العاقبة اذ مات الطبيب غمًّا وتخلف المهندس عن الجند ساعة القتال وعشق الضابط فتاةً فأعرضت عنه لفسقهِ فحزن حزناً شديداً وعرض نفسه للهلاك فمات شهيداً

واما القصة الثانية وعنوانها الفرار L'Escapade فحسبي ان اشير اليها لان موضوعها غاية في السذاجة واليك خلاصته : عشقت فتاة شريفة لصاً وفرت من منزلها لتلحق به . فلما اتته رحب بها فقضيا ليلتهما بأنعم حال . الا ان الرجل افرط في الشرب حتى استرخت مفاصلهُ وانه لكذلك اذ اقبل رجال الشرطة لتتمكن منه فأيقنت الفتاة ان عشيقها ميت فأبت أن يظفر به الشرط فطعنتهُ بخنجر فمات

وانك لترى سذاجة هذه القصة الاخيرة . الا اني بسطتها لك حتى تقارن بينها وبين القصة الاولى وتستخلص ان للفرنسيين كتّاباً تتباين مذاهبهم وقراء تتعارض اهواؤهم

قصص فولتير

Romans et Contes de Voltaire—Editions Cyral, Paris.

اني حدثتك عن فولتير لعدة اشهر مضت وشرحت لك كيف يدسُّ الرجل السم في الدسم فدعني اليوم ابسط اليك كيف يدس الفلسفة في قصصهِ . على ان بعض النقاد لا يفطنون لها ظناً منهم ان الفلسفة تقتضي المقدمات والنتائج . فهل غاب عنهم ان الآراء اذا انتشرت خفيةً في كتاب ردَّته كتاب حكمة مهما تكن عبارتهُ بليغة وديباجتهُ مشرقة . فان فولتير جعل في قصصهِ على خفة ظلها وأنيق وشيها خلاصة اختباره كنه الحياة . ولربما كانت قصتهُ مختلة السبك من حيث التأليف الروائي (مثل اميرة بابل) على ان يتخللها حكم لا ترى فيها غثاثة ولا سخافة . وكثيراً ما ترمي القصة الى المجادلة عن رأي او الى القدح فيهِ . فتارةً يشير فولتير الى ان الأمر المطلق لا يقع تحت الحس وطوراً يذهب الى ان الاتفاق مالك عنان الدهر وطوراً يبرز لنا الحياة في جلبابها البالي ثم ينزعه عنها فيعرض علينا ما تضمَّنه بين جوانبها من الوان الشر

ثم ان فولتير جعل قصصه في بيئات مختلفة فطاف قلمه البلدان وأعاد لها هيئاتها . فان قص علينا قصة شرقية غرس نخلاً ووصف اغصاناً يتقلها الورود وانطق ببغاء اخضر وبسط طنافس وسجادات وجعل على الرؤوس عمائم وفي الاصابع لآلىء ثم صيَّر ابطال قصته من اشد الناس ميلاً الى غضارة العيش ومن اكثرهم استسلاماً الى الشهوات . على ان الذي نشر قصص فولتير التي بين يدينا الآن قد اشار على رسَّام حاذق ان يفرغ وصف فولتير في قالب التصوير . فأتى الكتاب آية في الفن الجميل ولو اطلع عليه فولتير اليوم لكبر وللاح له ان قصصه قطع الرياض

باريس بشر فارس

لمحة الى تاريخ الامة المصرية

تأليف يوسف قطاوي باشا — ٤٤٧ صفحة فرنسية — نشرته مكتبة بلون بباريس

Coup d'oeil sur la Chronologie de la Nation Egyptienne

Libraire Plon Paris.

من المألوف في بعض الأمم ان يكون احد الرجال من كبار رجال المال والاعمال ومن كبار رجال السياسة في آنٍ واحدٍ . ومن اشهرهم في هذا العصر ملون وزير المالية الاميركية، وراتنو الوزير والمتمول الصناعي الالماني الذي اغتيل من نحو تسع سنوات ، وبلدوين زعيم المحافظين

في انكلترا وغيرهم. اما ان يكون الرجل جامعاً بين المقام المالي الكبير والمكانة السياسية العالية والقدم الراسخة في العلم والادب فنادر. ويلوح لنا ان سعادة قطاوي باشا احد هؤلاء. فهو من اكبر المشتغلين بشؤون مصر المالية وله صلة وثيقة بطائفة من اكبر شركاتها. وقد كان وزيراً للمالية وهو عضو في مجلس الشيوخ الآن. وهذا مؤلفهُ دليل على علمهِ الراسخ وأدبهِ الجم

الكتاب مجمل لاشهر الحوادث والتواريخ في مدونات الامة المصرية. على ان الاجمال فيهِ لا يعكر صفاء الصور التي يرسمها. فالخطوط الرئيسية المكونة لها هنا، ينقصها بحكم الطبع ما يجلو الدقائق فيها. وهذا لا مندوحة عنهُ في كل موجز لكل تاريخ مجيد يمتدُّ من ناحية الى جوف التاريخ المتغلغل في الغموض ويتصل من الناحية الاخرى بتيارات الحياة العصرية الزاخرة المضطربة لشدة تعارضها — كتاريخ الامة المصرية

يدلك على شدة الايجاز فيهِ ان الكلام على طبيعة البلاد لا يكاد يستغرق اكثر من نصف صفحة، مع اننا نذكر ان الدكتور حسن صادق بك مدير ادارة المناجم والمحاجر التي محاضرة في المجمع المصري للثقافة العلمية من اسبوعين ألمَّ فيها الماماً بسيطاً فقط بطبيعة البلاد المصرية من الوجهة الجيولوجية الطبوغرافية فاستغرقت اكثر من ساعة. ثم ان مجال البحث فيما لطبيعة البلاد ولاقليمها من اثر في ابنائها وتطور تاريخها اوسع من ان يحيط بهِ مجلد ضخم. او خذ مثلاً آخر كلام سعادة المؤلف على تاريخ مصر في العهد السابق للاسر المصرية. فانك لا تجد كلمة واحدة فيهِ عن المباحث الحديثة — والتي ما تزال جارية حتى الساعة — في ناحية البداري وغيرها حيث وُجدت آثار قديمة جداً من فخار وجماجم وغيرها. او خذ الكلام على الملك زوسر باني الهرم المدرج في سقارة فان الكلام عليهِ في هذا الكتاب لم يملأ اكثر من خمسة سطور. مع ان وصف الآثار التي عثر عليها المستر فرث في بحثهِ الحديث عند قاعدة ذلك الهرم قد يملأ مجلداً كبيراً من النواحي الفنية والصناعية والدينية وغيرها. فمنها مثلاً ان العمود الدوري Doric المضلع، كان يظن الى عهد حديث انهُ من استنباط اليونانيين، ولكن الاعمدة المضلعة التي وجدت عند سفح الهرم المدرج بسقارة تفسد هذا وتدلُّ على ان المصريين اخترعوه قبل اليونان بمئات السنين على الاقل

على ان كلمة «كرونولوجيا» التي استعملها المؤلف عنواناً لكتابهِ لا تعتبر في الواقع بحثاً في تاريخ كلّ عصرٍ من العصور، وانما تفيد تعاقب العصور وأهم مقوماتها. وفي ترتيب هذا التعاقب من مينا الى جلالة الملك فؤاد نقول ان قطاوي باشا قد اتى عملاً جليل الفائدة. وقد عني عناية خاصة باستخراج جداول تري القارىء في لمحة نظر واحدة تعاقب العصور وتتابع الحوادث الكبرى في وادي النيل. فلكلِّ عصرٍ من العصور الكبرى جدول من هذا القبيل. وأمام الصفحة الأولى من الفصل الأول جدول عام جدير بأن يترجم او يصنع جدول

على مثاله ويعلق في كل غرفة مدرسية في مصر يدرس فيها تاريخ البلاد

في وسط الجدول مقياس يبتدأ سنة ٦٥٠٠ ق. م. وينتهي في العهد الأخير . والى يمين المقياس اشهر الاسر التي وليت الحكم في وادي النيل من الاسرة الفرعونية الأولى الى الاسرة العلوية المالكة الآن ثم الى يمين ذلك كتب بأحرف كبيرة الحوادث التي حدثت في العصور المختلفة مثل تأسيس منف وخروج الاسرائيليين وفتوحات الفرس وفتح الاسكندرية والفتح الروماني والفتح العربي وتأسيس القاهرة والفتح العثماني وافتتاح قنال السويس وغيرها. ثم الى يسار المقياس كتبت اشهر الحوادث العالمية ازاء ما يقابلها من الحوادث في وادي النيل. مثل عهد الحضارة الايجية (نسبة الى بحر ايجه) وعهد الملك سارغون في الامبراطورية الشمرية الاكادية وتأسيس رومية وميلاد المسيح وهجرة محمد والثورة الفرنسية والحرب الكبرى وما حدث بينها من الحوادث الكبرى

وفي الزاوية اليمنى العليا مقياس نسبيٌّ للعهود المختلفة التي تعاقبت على الأمة المصرية . فالعهد الفرعوني وطوله نحو ثلاثة آلاف سنة يمثله خط طوله اربعة سنتمترات . والعهد اليوناني وطوله ١٦٠٤ يمثله خطٌ طولهُ سنتمتران وهكذا في العهد الاسرائيلي والروماني والعربيّ . وفي نهاية الكتاب جدول فيه اشهر الحوادث في تاريخ مصر ووقت حدوثها يملأ ٢٢ صفحة . ثم لا يفوتنا ان نذكر الخرائط المتقنة ، والصورة الملونة التي صدّر بها ، ففيها تمثّل مصر القديمة في هيكل مصري قديم امامهُ تمثال لابي الهول وصورة الهٍ، وفي الثانية تمثل مصر العربية في مسجدٍ اسلامي وأمامهُ فارس ، وفي الثالثة تمثّل مصر الحديثة في صورة سدٍ تتدفق منهُ المياه للري ، وفوقهُ طيارة وأمامهُ زارع يحرث الأرض بمحراث حديث (كمحراث فوردسن مثلاً)

والكتاب مرفوع الى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فاروق ولي عرش المملكة المصرية حفظهُ الله

جران العود النميري

هو الذي يسميه ابو العلاء المعري في رسالة الغفران الشاعر المحسن . وقال الاستاذ كامل كيلاني في شرح رسالة الغفران عند الكلام على هذا الشاعر — واذا استشهد بعض الادباء ببضع أبيات قلائل لعمر ابن أبي ربيعة وجميل وغيرهما على وجود شيء من محاولة العرب للشعر القصصي فإن في هذه القصيدة (التي استشهد ابو العلاء بثلاثة ابيات منها) وحدها دليلٌ واضحاً على تلك المحاولة قد لا نذكر لهُ شبهاً في كل ما قرأناهُ من شعر العرب . والحق انك تقرأ جران العود فتدهش لمقدرة هذا الشاعر على التصوير ولبراعتهِ في اختيار وتأليف الالوان

واذا كان الاستاذ كيلاني يؤكد ان محاولة جران العود هي اصدق المحاولات القصصية في الشعر العربي فاني استطيع ان ازعم أن اسلوب جران العود في وصفهِ لزوجتهِ هو اول محاولة للاسلوب الكاريكاتوري الذي يزعم بعض الناس أنهُ من مآثر هذا العصر الذي نعيش فيهِ واي ريشة كاريكاتورية ادق من ريشة جران وهو يقول في وصف خناقهِ مع امرأتهِ

اذا ما انتصينا فانتزعت خمارها بدا كاهل منها ورأس صمحمح
تداورني في البيت حتى تكبّني وعينيَ من نحو الهراوة تلمح
وقد علمتني الوقذ ثم تجرني الى الماء مغشياً علي أرنح
أقول لنفسي أين كنت وقد أرى رجالاً قياماً والنساء تسبّح

وأي انسان يسعهُ أن لا يرق لجران العود وهو يقول في ألمهِ من زوجتهِ

أأترك صبياني واهلي وابتغي معاشاً سواهم أم اقرُّ فأذبح
ألاقي الخنا والبرح من ام حازم وماكنت ألقى من رزينة ابرح

ومن ذا الذي لا يستعيذ بالله من شر هذه الزوجة بل من شر كل زوجة — عندما يقرأ قوله

تصبر عينيها وتعصب رأسها وتغدو غدو الذئب والبوم يضبح

ان شعر جران العود بمثابة الحجة قذفت بها ادارة دار الكتب المصرية في وجه هؤلاء الذين يتهمون الشعر العربي بقلة الصدق بل هو تهمة صريحة توجهها دار الكتب لهؤلاء الادباء الذين يتقولون هذه الاقاويل وخلاصة هذا الاتهام انهم قليلو الاطلاع

وبعد فليس فيما قرأناه من هذا الديوان من طبع دار الكتب من الهفوات المطبعية الا قوله في صفحة ٣ في السطر الثامن — وهو اي الظليم اسمج ما يكون اذا نفر. ولسنا ندري احداً وصف ذكر النعام (الظليم) بالسماجة في اي حال من احواله ونرجح ان الكلمة اسمح بالحاء لا بالجيم اما لان الظليم سهل الترضي بعد النفار وهذا المعنى يسأل عنهُ علماء الحيوان واما من قولهم سمحة للقوس المواتية او من التسميح الذي يأتي من معانيه السرعة والهَرب . اما انها تحريف من اسهج والاساهج ضروب مختلفة من السير ومسهج كمنبر الذي ينطلق في حق وباطل ثم قوله في صفحة ٩

خذا حذراً يا خلتيَّ فأنني رأيت جران العود قد كان يصلح

فالمفهوم كاد بدل كان يقول لضرتيه خذا حذراً فأنني رأيت السوط قد قارب صلاحه

وعلاوة على ما في الديوان من جمال الطبع فان دار الكتب خدمة للعلم والادب جعلت ثمنهُ ٢٥ مليماً النسخة الواحدة للافراد وعشرين مليماً لباعة الكتب او لمن يشتري عشر نسخ فما فوق

محمود ابو الوفا

مصر الاسلامية

وتاريخ الخطط المصرية — تأليف محمد عبدالله عنان المحامي — مطبعة دار الكتب المصرية
صفحاته ١٨٤ قطع المقتطف وثمنه ١٥ غرشاً

تضمُّ دارجريدة السياسة ثلاثة من خيرة الكتّاب والمفكرين المعاصرين هم الدكتور هيكل والاستاذ المازني والاستاذ محمد عبد الله عنان، فاذا سنحت لهم فرصة الراحة من خوض معامع السياسة ،انصرفوا الى الادب والتاريخ والفلسفة السياسية يبدعون فيها ماشاءه العقل المثقف والقلم السيّال . وقد تحدثنا الى القرّاء في بضعة الشهور الماضية عن كتاب « ولدي » تأليف الدكتور هيكل وعن قصة « ابراهيم الكاتب » تأليف الاستاذ المازني . وهذا كتاب ثالثٌ لثالثهم الاستاذ محمد عبد الله عنان

ليس الكتاب تاريخاً لمصر الاسلامية بالمعنى العلمي الصحيح ، فهو لا يتناول مصر في العهد الاسلامي تناولاً منتظماً من وجوهها السياسية والعمرانية المختلفة ، وانما هو ينقسم الى قسمين على ما بيَّن المؤلف في مقدمة الكتاب — : الاول « تصوير لفن من فنون التاريخ الاسلامي ، أبدعهُ وسما به المؤرخون المصريون ، اعني تاريخ الخطط والآثار ، وهو في رأينا فن مستقلٌ بذاتهِ (Sui Generis) من فنون التاريخ ،كان لمؤرخي مصر فضل ابتكارهِ ، ثم فضل تقدمهِ وازدهارهِ ، حتى غدت آثارهُ تكوّن وحدها ثبتاً حافلاً في ميراثنا التاريخي . . . . » والثاني « بعض مواقف لم تلقَ حقها من التعريف ، وعنيتُ بالاخص بان اعرض منهُ بعض الصور والظواهر السياسية والاجتماعية والنفسية التي قلما يعني بعرضها ، التي تمتاز بطرافتها وقوة أثرها في حياة مصر العامة . . . »

فالقسم الاول وعنوانهُ «الخطط في تاريخ مصر» تناول المؤلف فيهِ نشأة الفسطاط والتحول من الفسطاط الى القاهرة في ايام المُعز الى القاهرة في عصرنا الحديث . ثم بحث تاريخي ادبي عام في مؤرخي الخطط يليهِ فصل في المقريزي وخططهِ ، فآخر في مؤرخي الخطط بعد المقريزي الى ايام علي مبارك باشا واضع الخطط التوفيقية

والقسم الثاني يشتمل على فصول مفرقة يجمع بينها انها مصرية اسلامية نذكر منها «اسطورة تنصُّر المعز لدين الله »و«مصر في فاتحة القرن الثالث عشر كما يصوّرها عبد اللطيف البغدادي» « والدبلوماسية في الاسلام وكيف حاولت مصر انقاذ الاندلس » و « الفتح العثماني في رواية ابن اياس »

والفصول كلها مخدومة بهوامش واسانيد وافية رجع فيها المؤلف الى اشهر المؤلفات التاريخية العربية ويجب ان تكون حافزاً قويًّا « لاستقراء التاريخ القومي واستيحائهِ »

والكتاب مذيَّل بفهارس وملاحق لا شك في انها عون كبير في تسهيل قراءتهِ

كتاب التمريض

تأليف الدكتور جورجي صبحي

هو كتاب جامع لكل ما يجب على الممرضة العصرية معرفتهُ ليس فقط في اثناء العناية بالمريض تحت اشراف الطبيب المعالج بل في غيابهِ أيضاً . فهو يحتوي على بعض دروس طبية تؤهل الممرضة الى اجراء الاسعافات الاولية من جنائية وغيرها حتى حضور الطبيب نخص بالذكر منها فصلاً في السموم واعراضها وعلاجها ومضاداتها ورد بشكل جدول يسهل الرجوع اليهِ في حالات التسممات الفجائية المزعجة . وهذه الدروس تسهّل على الممرضة فهم ما يبغيه الطبيب في تحديد أو تعديل خطة العلاج بدون ان يوضح لها ذلك مطولاً كلما طرأ على المريض طارىء . وكفى هذا الكتاب وصفاً ان مؤلفهُ هو استاذ فن التمريض في مدرسة القوابل والممرضات وقد تقرر تدريسه في هذه المدرسة بالجامعة المصرية

***

استهل المؤلف كتابهِ بفصل في واجبات الممرضة عدد فيهِ الصفات الادبية والاخلاقية التي يجب أن تتحلى الممرضة بها فتكون عوناً متيناً لها في اتمام مهمة الاحسان الشاقة التي عهد اليها فيها او المهنة الشريفة التي سعت اليها . وقد خطر لنا بعد مطالعة هذا الفصل ملحوظتين : الاولى . شدة الايجاز حتى ان هذا الشرح لم يتجاوز عشرين سطراً بل اقتصر على تعداد هذه الصفات دون ذكر ما يساعد على التخلق بها تدريجيًّا من تمرين نفساني وغيره . والثانية . دمج ما يختص بلباس الممرضة والمريض وحجرتهُ ونظافتهُ وفراشهُ في فصل واجبات الممرضة وصفاتها الادبية والاخلاقية مع عدم وجود رابطة بين هذين الموضوعين . ولكننا نفترض للمؤلف عذراً في هذا الايجاز وهو ان كتابه مدرسي يخضع لبرنامج محدود وان طالبات الممرضات قد سبق اختيارهن قبل الدراسة . وحبذا لو جعل المؤلف عنوان هذا الفصل المزدوج « مبادي اولية عامة » او ما اشبه

وما خلا ذلك فان الكتاب كله هو مما تلذ مطالعته للطبيب والممرضة وغيرهما ناهيك عن الفوائد الجمة التي تجنيها الامهات من درس هذا الكتاب النفيس السهل الفهم المنسجم العبارة الجزيل النفع . ولذا فاننا ننصحهن باقتنائه والاستعاضة بمطالعته اثناء ساعات الفراغ عن بعض الروايات والقصص الهزلية وغيرها . بل نحضهن على تحديد اوقات معينة لمطالعتهِ فيجدن فيهِ عند اللزوم مرشداً قويماً ومعيناً قويًّا في تمريض اطفالهن وذويهن

تغذية الاطفال

اصدر حضرة الدكتور الفاضل نجيب قناوي كتاباً نفيساً في موضوع تغذية الاطفال جمع فيه فوائد كثيرة تعاون الام في تربية طفلها على قاعدة صحية معاونة ثمينة ولا سيما في احوال الاضطرابات المعوية وهي كثيرة الحدوث وخصوصاً في فصل الصيف وفي وقت يكون الطفل يتغذى بلبن صناعي. وانت تعلم مقدار ما يتعرض له اللبن في مصر من الشوائب ليس في اشهر الصيف فقط بل في الصيف والشتاء وسائر الايام جميعاً وان تلك الشوائب تحول اللبن من وسيلة للتغذية الى اداة مهلكة تذهب بحياة عدد كبير من الاطفال وهم دون السنة من العمر لا لذنب فعلوه وانما لجهل الامهات لطرق تغذيتهم الصحيحة ولعدم عنايتهن في حفظ اللبن سليماً او بعيداً من الشوائب والتلوّث بالاقذار والجراثيم المرضية . وما من طبيب الا ويشارك الدكتور قناوي في قوله في مقدمة الكتاب « ان نسبة وفيات الاطفال في القطر المصري كانت ولا تزال كبيرة جداً تدعو الى التفكير العميق وتبدو لنا هائلة وتظهر بشكل اوضح اذا قارناها بنسبة وفيات الاطفال في البلاد الاجنبية او بنسبة وفيات اطفال مواطنينا من الأجانب ويكفي ان نذكر ان ثلث المواليد تقريباً يموت في السنة الاولى من العمر وان خمسين في المئة او اكثر من هذه الوفيات سببها امراض سوء التغذية والباقي من الاطفال الذي لا يموت يصاب غالباً بهذه الامراض فتترك في جسمهِ آثار ضعف تجعله عرضة للاصابة بأمراض اخرى. واذا احصينا وفيات اطفالنا المصريين نجد انها تكثر في الاشهر الاول من عمرهم وتستمر على هذه الكثرة الى تمام العام ومما لا شك فيهِ ان معظم امراض سوء التغذية ناشئة عن الارضاع الصناعي او من جهل قواعد الارضاع الطبيعي فصحَّ عزمي على ان اضع هذا الكتاب الذي توخيت فيهِ الاسهاب في قواعد التغذية المختلفة بوجه عام وما يصح ان يطبق منها على اطفالنا المصريين بوجه خاص للوصول بهم الى احسن حالات الصحة لان تربية الاطفال الصحية من اهم الواجبات الملقاة على عاتق الامة وفي سبيل ذلك نهضت الجمعيات الخيرية المنظمة في البلاد الاوربية والاميركية

ومن هذا القول البليغ نرى ان الدكتور المؤلف يصور لنا حالة الطفل في ايامه الاولى مهدداً بعوامل خطيرة اهمها سوء التغذية الناشيء عن جهل الامهات للاصول القويمة في تغذية الاطفال واهمالهن حفظ اللبن في آنية نظيفة وصيانته من الشوائب والتلوث بالجراثيم المهلكة ويشرح في ثمان وثلثمائة صفحة طرق ملافاتها وكيفية معالجتها وليس على الأم الفاضلة الا ان تطالع هذه الصفحات المنيرة وتقتبس منها ما تشعر بحاجة اليهِ وسوف تجد في كل صفحة من تلك المجموعة النفيسة فائدة حرية بالدرس والعناية ولا اغالي اذا قلت ان كتاب تغذية الاطفال جدير بأن يدرس للبنات او يقرأه كل طبيب يود ان يكون له في نشر الثقافة الصحية سهم ليس بضئيل

المطالعة والثقافة

كتب الدكتور زكي مبارك في جريدة البلاغ بتاريخ ٢٠ نوفمبر مقالاً موضوعهُ « عقول الطلبة المصريين في المدارس الثانوية » وجه فيه النقد الى حصر تعليم الطلاب في كتب الدراسة المقررة ، فكتب اليه محرر هذه المجلة الرسالة التالية :—

دلّت في مقالك ، على موطن من اكبر مواطن الضعف في محاولتنا نشر الثقافة الصحيحة بين جماعات الطلاب والمتعلمين . فحقائق اليوم قد تصبح سخافات الغد . ولكن الشيء الثمين ، الاساسي في العلم والتعلم انما هو الانطباع بروح العلم وأسلوبه ، وتشرب حب البحث عن الحقائق والاستزادة منها ، وحفز ملكات العقل الى النشاط الذي يمكن الرجل من تكوين رأي مستقل او ابداع شيء جديد . وواضح ان الاكتفاء بالكتب الدراسية ، ليس السبيل القويم ، المفضي الى هذه الغاية النبيلة ، التي لا مندوحة منها في كل ارتقاء صحيح

ومقالك في هذا الصدد ، كنا في أمس الحاجة اليه ، فلا تكتف بواحد ولا باثنين ، فالموضوع خطير ، والتنبيه اليه — بل واقامة الثورة من حوله — واجب على كل من تهمهُ الناحية العقلية من الحياة

وكأن مقالك امس اهاب بي ، الى ان أكتب اليك ، باصول اقتراح ما زال يجول في خاطري من أكثر من سنة ، وقد قلبته على وجوهه فلم الفه إلا مفيداً ، وتحدثت فيه مع اصدقاء يزورون المقتطف ، ويهمهم كل ما يهمني ويهمك . . . فرأوا رأيي فيه . ذلك ان تكوَّن لجنة في وزارة المعارف من رجالها وبعض الادباء والنقاد المعروفين المستقلين ، لاختيار ١٦ كتاباً كل سنة ، من المطبوعات الحديثة ، تفرض مطالعة ثمانية منها مدرسي المدارس باشراف الناظر ، والثمانية الاخر تفرض مطالعتها ، على طلبة الفرق المتقدمة ، باشراف المدرسين

إذ لا يخفى عليك ان حلقات المناقشة في الكتب المختارة من الوسائل العملية الفعالة التي جرت عليها جامعات الغرب — وخصوصاً جامعات الولايات المتحدة الاميركية على ما اعلم — لاحكام الصلة بين المدرسين وتيارات الفكر الحديث من ناحية ، ولتثبيت عادة المطالعة في الموضوعات الخارجة عن نظام الدراسة المحصور ، في نفوس الطلبة ، من ناحية اخرى . ولنفرض ان الحلقة عشر من المدرّسين — او الطلاب — تجتمع مرة كل شهر . فيفرض على احد المدرسين ان يقرأ في اثناء الشهر السابق للاجتماع ، كتاباً معيناً ، فيقرأه ويلخصهُ في رسالة يتلوها على على رفاقه ثم يتناقشون فيها ويتحاورون . وفي الشهر التالي يتلو عليهم مدرس آخر ملخص كتاب آخر وهكذا . وهذه الطريقة لا تصرف المدرسين عن مطالعاتهم الخاصة ، وفي الوقت نفسه تحفز ملكات التفكير ، والنقد والجدل العلمي المفيد فيهم ، إذ تصطدم الآراء في الاجتماع

الشهري . ثمَّ هي تغنيهم عن وجوب الانفاق — منفردين — على بعض الكتب التي لا بد لهم من مطالعاتها، ولكن غلاء ثمنها يحول دون اقتنائها. فاذا تمكنت وزارة المعارف من وضع نظام مبني على مثل هذه المبادىء ، فانها تؤدي لنشر الثقافة الصحيحة خدمة جلَّى . فأولاً — تحكم الصلة بين المدرسين ومؤلفي اللغة العربية المعاصرين الذين يجب ان تعرف آراؤهم واساليبهم في المدارس . وثانياً — تخلق في نفوس الطلاب رغبة في المطالعة المفيدة، التي لا معنى للثقافة من دونها. وثالثاً — يشجع المؤلفون والمترجمون على اتقان ما يكتبون وينشرون ، اذ يعرفون ان كتبهم قد تختار للمطالعة والمناقشة في الاجتماعات المدرسية المذكورة. ورابعاً — تخلق لنا جيلاً يتوق الى المطالعة المفيدة ويقبل عليها، وهذا التوق والاقبال اعظم الحوافز للمفكر على التفكير وللمؤلف على التأليف وللناشر على النشر . وكل هذا لا يكلف الوزارة اكثر من خمسة آلاف جنيه في السنة، اذا فرضنا انها ابتاعت من كل كتاب الفي نسخة وان متوسط ثمن النسخة لا يقل عن ١٥ قرشاً

هذا هو المبدأ . ولا ريب في ان الاقتراح يحتاج الى كثير من البحث لاخراجهِ في شكل صالح للتنفيذ فاذا شئت ان تجعله موضوع عناية منك، فثق ان وقتك لا يذهب سدًى، لان الغاية التي يرمي الى تحقيقها جديرة بالعناية والبذل

فتح العرب للشام

بحث تاريخي انتقادي تحليلي

لمؤلفهِ جورج مرعي حداد خريج الجامعة الاميركية ببيروت سورية. عدد صفحاته ١١٣ صفحة كبيرة لكنهُ غزير المادة وفير الفائدة على صغر حجمهِ . وهو نوع جديد من التأليف التاريخي عنيت الجامعة الاميركية بتلقينهِ لطلابها . تبدو فيهِ الاحاطة مع الاختصار والنزاهة مع التدقيق ، والاشارة الى المراجع والمآخذ التي منها استمد المؤلف ، في كل عبارة من عباراتهِ ، مع نقد كل رواية ، وتمحيص كل حقيقة ، فهو بحث علمي فني انتقادي ، لم يجرِ عليهِ المؤرخون فيما سلف . وسيضع التاريخ والمؤرخين في مستوًى اعلى كثيراً مما الفهُ آباؤنا واجدادنا . قالوا : ان الفلاسفة يجب ان يؤرخوا ، او المؤرخون يجب ان يتفلسفوا. وهو قول على جانب كبير من الحق ، وهذا النسق النقدي التحليلي كفيل باحراز الغاية المرجوة منهُ

وممن ذكرهم مؤلف هذا الكتاب ابن اسحق وابن هشام وابن خلكان وابن الاثير والطبري والبلاذري والواقدي وابن عساكر وابن خلدون وابن دحلان وياقوت وابن عبد ربه وابن الجوزي وابن طباطبا وابو الفداء. ومن مؤلفي الافرنج اشهرهم ولاسيما المستشرقين ده غويي وبيكر وجبن ومرجليوث وجونيل والدكتور فيليب حتي المعروف . ولا يمكن تقريظ الكتاب بافضل من حث القوم على مطالعتهِ والسلام

حنا خبَّاز مصر

باب الأخبار العلمية

حفلة لاسلكية عالمية

لتكريم مركوني

في يوم ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ فاز مركوني بارسال اول رسالة لاسلكية من اوربا الى اميركا وكان الرسالة ثلاث نبضات تمثل في شفرة مورس الحرف S الفرنجي . ويقال انهُ لما نشرت الصحف نبأ هذا العمل العجيب قوبل بما لا مزيد عليهِ من الريبة حتى ان اديصن نفسهُ قال « لا اصدق ما يروى » والمخترع ده فرست كان كذلك شديد الشك في صحتهِ مع انهُ كان يعالج المسائل اللاسلكية حينئذٍ . فعاد مركوني ونشر بامضائهِ رسالة موجزة ايّد فيها ماروتهُ الصحف فلما اطلع عليها اديصن قال : « اصدق الآن . ولاشك في ان مركوني سوف ينجح في توسيع نطاق ابتكاره لعمل عظيم ومركوني مستنبط مبدع »

كان هذا من ثلاثين سنة . اما الآن فان وزارة التجارة الاميركية تقدّر الذين يصغون الى ما يذاع من المحطات اللاسلكية في انحاء العالم بما يزيد على مائة مليون نفس . وقراء المقتطف يعرفون ان التلفون اللاسلكي البعيد المدى قد صار امراً واقعاً يسير في أثره نقل الصور الفوتغرافية والرؤية عن بعدٍ (التلفزة) والرؤية في الظلام (النكترفيزيون) ونقل القوة الكهربائية نقلا لاسلكيًّا . ومع ذلك يقول العارفون اننا لا نزال في فاتحة عصر جديد تتناول فيهِ الكهربائية اللاسلكية كل فرع من فروع العمران

لذلك كان جديراً بالعالم ان يحتفل في ١٢ دسمبر الماضي بانقضاء ٣٠ سنة على تجربة مركوني المشار اليها آنفاً فأذيع كلام مركوني وكلام خمسة عشر متكلماً من خمسة عشر امةً — تكلم كل منهم من بلدهِ — على اجنحة الامواج اللاسلكية فطوّق كلامُهم الارض وطرق مسامع مائة مليون من البشر على الاقل . فتكلم اولاً رئيس « الراديو كوربوريشن » فتكلم من نيويورك وقدم بعده رئيس شركة الاذاعة البريطانية فتكلم من لندن وتلاه مركوني وهكذا تعاقب الخطباء في بروكسل وباريس ورومية وبرلين ووارسو وريوده جانير وبونس ايرس وطوكيو ومانلا عاصمة جزائر الفيلبين واوتوى بكندا وهونولو بجزائر هواي وغيرها

وكانت مناظرة خطابية قبيل ذلك قد جرت بين طلاب جامعتي اكسفرد وهارفرد مع ان كل فئة من المتناظرين ظلت في جامعتها وانما كانت الأمواج اللاسلكية واسطة التبادل بينهما

كان العلماء قد قالوا لماركوني قبل اجراء تجربته المشهورة بأن الامواج اللاسلكية تسير في خطوط مستقيمة وعليه فاستعمالها للتخاطب متعذّر الاّ على مسافات قصيرة لتحدب الارض فأثبتت تجربتهُ في نقل حرف (S) بها من انكلترا الى اميركا ان قول العلماء خاطئ. فيجب اذاً ان يشترك في تكريم مركوني علماء الطبيعة لما ابداه من البراعة والركن في تحقيق مسألة علمية مجردة

ابن يونس الفلكي المصري

في ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٩ اهدى الدكتور نوبل (Knobei) الى الجمعية الفلكية الملكية نسخة نادرة من الزيج الحاكمي الذي وضعهُ ابن يونس ، مترجمة الى الفرنسية بقلم كوسان (Caussin) استاذ اللغة العربية في كلية فرنسا سنة ١٨٠٤ ميلادية . وهذا الكتاب يبين لنا الدرجة العالية في دقة الارصاد التي بلغها علماء الهيئة من العرب والمصريين . ففي الوقت الذي جمع فيهِ هذا الزيج كانت امم اوربا لا تزال في دور اقرب الى الهمجية منهُ الى المدنية ، وكانت في كفاح وقتال دائمين، فخسر العلم بذلك خسارة كبيرة . على ان علم الهيئة والرياضيات كانا يحسبان في الشرق الادنى من العناصر الخطيرة في ثقافة كل امير مسلم ، ولذلك كنت تجد علماء الفلك في بلاط الامراء . ومع ان الباعث على هذه العناية بعلم الهيئة كان في الغالب لمعرفة الطوالع برصد النجوم ، الاّ ان ذلك لا ينتقص قط ، قيمة الارصاد العلمية التي قام بها فلكيّو العرب

والمخطوطة التي ترجم منها كوسان محفوظة في مكتبة جامعة ليدن بهولانده ، اعارتها حكومة هولانده ، وقت ترجمتها ، الى معهد فرنسا (انستيتو ده فرانس). وليس ثمة ما يثبت كيف اتصلت بجامعة ليدن ، ولكن لا ريب في انها من النسخ التي نقلت من نحو سبعمائة سنة . وكان يوجد اصلاً بضع نسخ منها في مكتبة جامعة الازهر ، والممكن ان تكون مخطوطة ليدن جانباً من احدى النسخ الازهرية ، التي تفرقت او دمرت في العصور الوسطى اذ توالى حصار القاهرة وافتتاحها على ايدي الغزاة . وكان كوسان يعتقد ان مخطوطة ليدن تحتوي على نصف الارصاد الاصلية التي قام بها ابن يونس

والظاهر ان هذا الزيج كان يشتمل اصلاً على مقدمة طويلة و ٨١ فصلا ، ذكر موضوع كل منها في المقدمة . اما مخطوطة ليدن فتنتهي عند الفصل الثاني والعشرين، وعليهِ فالجانب الاكبر من كتاب ابن يونس الاصلي قد فقد. وموضوعات بعض الفصول عليها مسحة من المباحث الفلكية المصرية « مثل انحراف دائرة البروج ومقاييس ظل الارض والجداول المتصلة بذلك » وهو الفصل الحادي عشر . والفصل السابع والسبعون موضوعهُ « الاشعاع

من النجوم بحسب الرأي العام » . وبعضها يتناول مباحث لا تهمنا اليوم. فمجال العمل في هذه الناحية امام العلماء العرب المعاصرين واسع جدًّا

وابن يونس من أسرة عربية مصرية قديمة وقد كان مثل طائفة كبيرة من معاصريه شاعراً وموسيقيًّا وفلكيًّا، اما تاريخ ولادتهِ فمجهول وأما تاريخ وفاتهِ فهو ٣١ مايو سنة ١٠٠٨ ميلادية. والظاهر ان مؤلفاتهِ كتبت مرتين مرةً حوالي سنة ٩٩٠ في خلافة العزيز وقد رفعت اليهِ ، والثانية كتبت بعد تنقيحها والتوسع في فصولها وأرصادها في عهد ابنهِ «الحاكم» ورفعت اليهِ ولذلك تعرف « بالزيج الحاكمي »

وكان مرصد ابن يونس على صخرة في جبل المقطم قرب الفسطاط في مكان يقال لهُ بركة الحبش كان حوضاً من الماء على ضفة النيل الشرقية ثم صار حديقة . والراجح ان موقعهُ كان قرب سبيل الماء القديم الذي بناه الناصر الى القلعة ، ولا تزال بعض آثاره ماثلة الى يومنا هذا

وفي احد النصوص العربية جاء ذكر ارصاد اجريت في مكان دعي « حلون » وقد وصفهُ كوسان بانهُ على بضع فراسخ تحت القاهرة على ضفة النيل الشرقية وهو بلا شك بلدة حلوان التي شيد فيها المرصد الحديث سنة ١٩٠٤ تحت اشراف السر هنري ليونز

هذا ملخص مما جاء في مجلة نايتشر عن جداول ابن يونس بقلم المستر رينلدز. وقد اضاف اليهِ كثيراً من الحقائق التي جاءت في الفصول التي ترجها كوسان . والصفحات الفرنسية في ترجمة كوسان تقابل الصفحات العربية التي ترجمت عنها ،وقد خدمت بحواش وأسانيد عن علماء الهيئة عند العرب وأدواتهم الفلكية وطرقهم في الرصد ، يستدلُّ منها ان كوسان كان مالكاً لناصية اللغة العربية واسع الاطلاع جدًّا على ما كتب فيها

وليس بغريب على قوم وقفوا نفسهم على خدمة العلم ان يبذلوا ما يبذلونهُ لخدمة العلوم العربية هذه الخدمة النادرة وانما الغريب ان لا يكون هذا حافزاً لنا لمجاراتهم فيما يخصّنا

المخاطبات اللاسلكية والسلكية

القى السر اوليفر لدج خطبة في معهد المهندسين الكهربائيين موضوعها «المخاطبات» بيّن فيها الفرق الاساسيّ بين المخاطبات السلكية والمخاطبات اللاسلكية . فقال ان نظرية الاشارة السلكية اكثر تعقيداً من نظرية الاشارة اللاسلكية . فالمخاطبات السلكية سبقت اللاسلكية ولكنها لو كانت قد تلتها لكانت حسبت شكلاً جديداً للمخاطبات واكثر اتقاناً من الاول ، لانها تمكن المخاطبين من كتمان ما يقولون. والمخاطبات بها مركّزة لا تذاع

اما الجواب عن السؤال ، «كيف يفعل السلك الكهربائي كانبوب للتخاطب» فليس بالامر السهل . فمعظم الناس يعتقد ان السلك ينقل الفعل الكهربائي . ولكن السلك المعدني ليس الاَّ قطعة من المادة ولا يستطيع ان ينقل امواج الاثير . فان الامواج اذ تدخل السلك من احد اطرافهِ ، تتفرق وتتحول طاقتها الى

حرارة . ولكن مجرد دخول بعض الطاقة الى السلك يمكن السلك من ان يفعل كرشد لما بقي منها . فالطاقة لا تنتقل في السلك ولكنها تنتقل في الاثير خارج السلك . ثم بسط النواميس التي تخضع لها في انتقالها كذلك، وبيّن ان بعض الامواج في التخاطب السلكي تتشوه في اثناء انتقالها ، فبعضها يسبق البعض الآخر ، مما يغير شكل الموجة المركبة المنتقلة تغييراً يزداد بازدياد المسافة واما في التخاطب اللاسلكي فالامواج تنتقل حرّة في الاثير من غير ان يصيبها تشويهٌ ما . ولذلك نجد التخاطب التلفوني السلكي بين اوربا واميركا متعذراً واما التخاطب اللاسلكي فسهل

جائزة نوبل الكيماوية

منحت جائزة نوبل الكيماوية عن سنة ١٩٣١ للعالمين الالمانيين بوش وبرغيوس (Bosch - Bergius) كممثلين لارتقاء الكيمياء الصناعية في المانيا . اما للاول فلانهُ اشترك مع الاستاذ هابر في استنباط طريقة لتثبيت نتروجين الهواء وصنع السماد الزراعي بطريق صناعية (سماد نترات الجير الالماني وسلفات النشادر مصنوع بهذه الطريقة). واما للثاني فلمباحثهِ في استخراج موادهدروكربونية طيارة باطلاق الهدروجين على المواد العضوية تحت ضغط شديد . وقد صيغ لهذا الفعل الكيماوي الصناعي فعل افرنجي جديد ينسب الى اسم برغيوس ويمكن تعريبهُ بفعل « البرغَسَة » « Beginisation »

المجمع المصري للثقافة العلمية

عقد المجمع المصري للثقافة العلمية مؤتمره السنوي الثالث برآسة الدكتور محمد شاهين باشا وكيل الداخلية للشؤون الصحية في الاسبوع الواقع بين ١٨ و ٢٤ من دسمبر الماضي فالقيت فيهِ اثنتا عشرة محاضرة بيانها فيما يلي :

١ — محاضرة الرآسة وموضوعها «رسالة رجل الصحة للعالم» للدكتور شاهين باشا . ٢ — ما هو النوع لاسماعيل مظهر . ٣ — العلاج في خلال العصور للدكتور جورجي صبحي . ٤ — العلوم والصناعات للدكتور احمد زكي الاستاذ المساعد للكيمياء في كلية العلوم . ٥ — التأمين على صحة الطفل للدكتور شخاشيري . ٦ — التفسير العلمي للمشاهد الطبيعية في القطر المصري للدكتور حسن بك صادق مدير ادارة المناجم والمحاجر . ٧ — الإعداد العلمي ومستقبل النشء للدكتور مشرَّفة وكيل كلية العلوم . ٨ — التعليم الطبي في مصر في العصر الحديث للدكتور علي باشا ابرهيم عميد كلية الطب . ٩ — رواية الالكترون وابطالها لفؤاد صروف . (وقد صدّر بها هذا الجزء) ١٠ — الخبز للدكتور علي حسن الاستاذ المساعد للفسيولوجيا في كلية الطب . ١١ — الابحاث الحديثة الخاصة بالسديم للدكتور محمد رضا مدوّر الفلكي المقيم بمرصد حلوان . ١٢ — المشاركة بين اعضاء الجسم واتساقها في العمل للدكتور محمد شرف

وسوف ننشر للقراء خلاصات وافية من هذه المحاضرات او نجعل مجموعتها احدى هديتي هذه السنة للمشتركين

اطلاق قوة الذرة

اجرى الدكتور ولتر بوث (Bothe) الالماني تجربة طبيعية خطيرة قد تكون اذا صحت مقدمة لامكان اطلاق القوة من الذرّات وتغيير آرائنا في تعليل اشعاع الشمس حرارةً وضوءا . فقد تمكن الدكتور بوث من توليد اشعة غمًا — وهي احد الاشعة المنطلقة من ذرة الراديوم وأقصرها امواجاً وأشدها نفوذاً — باطلاق دقائق الفا على ذرات معدن البريليوم وهو معدن خفيف كالالومونيوم تقريباً. فكانت النتيجة ان الدكتور بوث حصل في هذه التجربة على طاقة — في شكل اشعة غما — تفوق طاقة دقائق الفا التي اطلقها على ذرات البريليوم . وهذا يعلّل بان دقائق الفا لم تحل ذرات البريليوم بل ركبت منها فعلاً ذرّات عنصر اثقل وزناً من البريليوم — وهو عنصر الكربون ، وانهُ في اثناء تكوُّن ذرات الكربون انطلقت طاقة في شكل اشعة كونية لطيفة . ولا يخفى ان مِليكن يعلّل الاشعة الكونية بتكون العناصر الثقيلة في الفضاء من العناصر الخفيفة . فاذا صح هذا وجب ان تجدد العناية بمحاولة اطلاق طاقة الذرّات بهذه الطريقة الجديدة . ولكن الحائل العملي دون تحقيقها هو ان دقيقة واحدة من خمسين الفاً من الدقائق التي اطلقت على ذرات البريليوم اصابت هدفها . ومع انهُ قد يوجد امكنة في الكون حيث يجري هذا الفعل في احوال طبيعية لا يميل العلماء الى التفاؤل بامكان جعل الطريقة الجديدة مزاحماً للفحم والبترول والماء المنحدر

واذا كانت الاحوال في الشمس مواتية لها فيمكن تعليل حرارة الشمس وضوئها بتركيب العناصر الثقيلة من العناصر الخفيفة بدلاً من التعليل المسلّم بهِ الآن وهو تحوّل المادة الى اشعاع

الاكسجين والفروق الجنسية

يؤخذ من تجارب الدكتور اوسكار ردل (Riddle) احد علماء معهد كارنيجي بوشنطن ان احد الفروق بين الذكر والانثى في الحمام المطوق هو فرق في حاجة انسجة الجسم الى الاكسجين . فقد وجد ان الهيموغلوبين وكريات الدم الحمراء في دم الانثى اقلُّ منها في دم الذكر . ثم ان كمية الكريات والهيموغلوبين ليست ثابتة بل تتغير في الفصول المختلفة ، وكذلك يتغير مقدار ما يولده الجسم من الحرارة . وقد ثبت لهُ ان التغير في كمية الهيموغلوبين والكريات الحمراء يقابل دائماً التغير في توليد الحرارة . فاذا زادت الكريات زادت الحرارة المولدة ، واذا نقصت الكريات نقصت الحرارة . واذاً فكمية الكريات الحمراء — وهي ناقلة الاكسجين الى الاعضاء — تبين حاجة الانسجة الى هذا العنصر . ولما كانت كمية هذه الكريات في دم الذكر تفوق دائماً كميتها في دم الانثى ، فكأنَّ الفرق بين الاثنين هو كذلك فرق في شدة حاجة كل منهما الى الاكسجين . وهذا يؤيد القول بان تحولات الطاقة في الانثى ابطأ منها في الذكر

تمدد الكون وتقلصه

بسطنا في غير مكانٍ من هذا الجزء الرأي الحديث في تمدد الكون او اتساعهِ كما يستدلُّ عليهِ من سرعة ابتعاد السدم الخارجية عنا (راجع مقال ما وراء المجرة صفحة ٣٣) وقد اقترح الدكتور رتشرد طولمن الاستاذ في معهد كاليفورنيا الفني امام اكادمية العلوم الوطنية المجتمعة في جامعة يايل ، ان الكون قد يكون كالبلون الذي ينفخهُ الطفل فيتمدد ثم اذا توقف عن نفخهِ تقلص بخروج الهواء منهُ . اي ان الكون يتمدد ويتقلص في ادوار طول الدور منها الوف الالوف من السنين . ويظنُّ ، ان هذا الرأي الذي يراه الدكتور طولمن ، قد يكون مخرجاً من المأزق الذي وصل اليهِ العلماء بأخذهم باتساع الكون

الكبد تحفظ حرارة الجسم

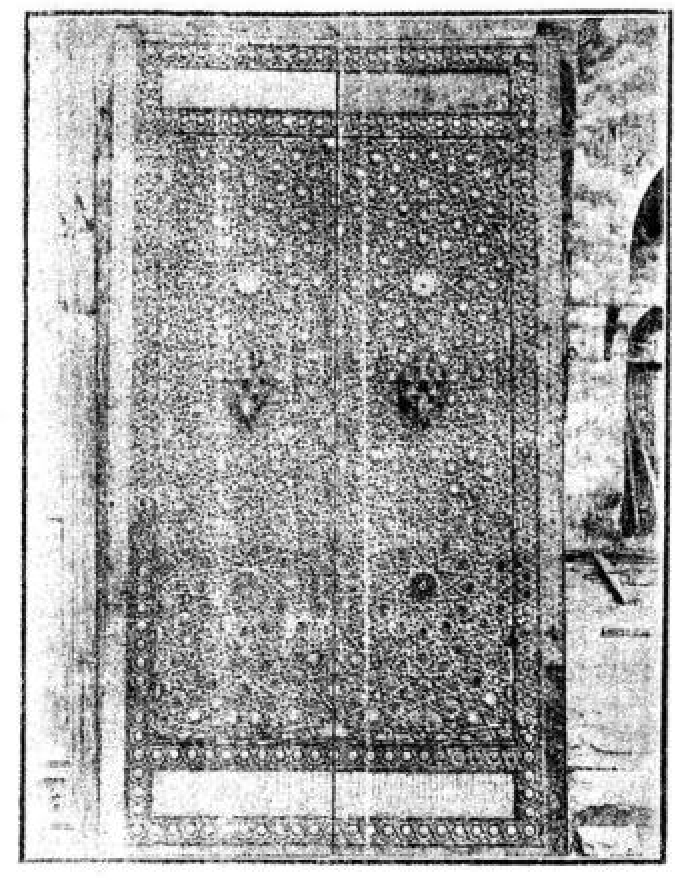
تلا الدكتور هنري باربر الاميركي امام اكادمية العلوم الوطنية رسالة قال فيها ان للكبد وظيفة لم تعرف قبل الآن وهي خزنها للحرارة اذ يبرد الجسم او يكون على وشك الاصابة بالحمى . «فبدء اصابة الحمى يشبهُ رد فعل الجسم اذ يبرد . ذلك ان قشعريرة البرد تولد قدراً من الحرارة يفوق القدر السوي والحرارة الزائدة تحفظ بتقلص جدران الاوعية في الجلد وقلة جريان الدم فيها » . وقد وجد الدكتور باربر انهُ اذا اصيب الجسم بالحمى تركز الدم بفقد جانب كبير من محتوياتهِ المائية . وفي الوقت عينهِ يزيد مقدار المحتويات المائية في الكبد.

ولما كانت الطريقة الفعالة التي يفقد بها الجسم جانباً من حرارته هي تبخر الماء — كتصبب العرق — فقد استنتج ان الكبد يخزن الماء الذي يفقده الدم في بدء الاصابة بالحمى فتحفظ حرارة الجسم بمنع الماء من التبخر

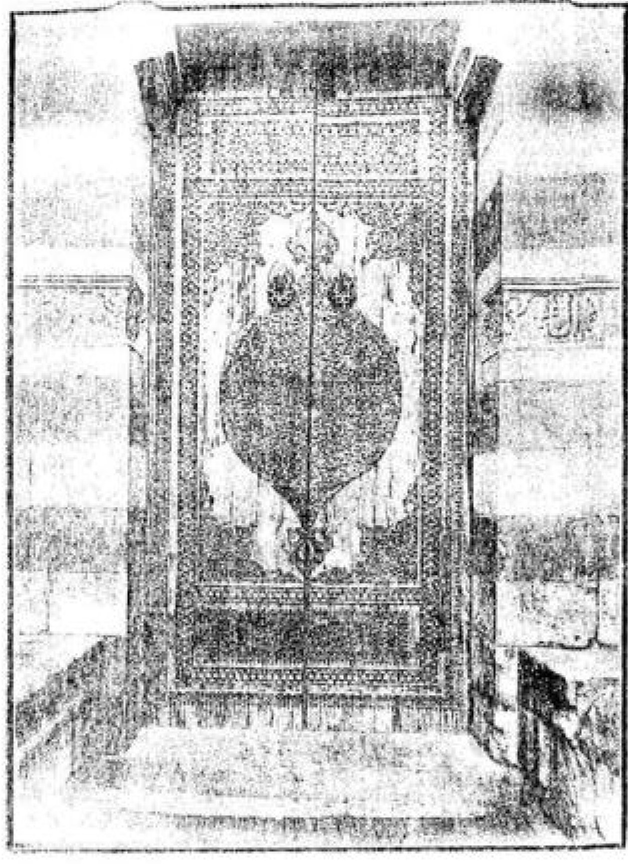
اعطونا ثمن طراد واحد

اذا انفق ثمن طراد واحد على البحث في اسباب السرطان ومكافحته فقل قد قضي على السرطان . هذه هي العبارة التي فاه بها الدكتور مكدونلد الطبيب بمعامل البحث في السرطان في جامعة بنسلفانيا امام الجمعية الكيماوية الاميركية . وقد اعرب في كلمتهِ عن كبير ثقتهِ باكتشاف علاج ناجع للسرطان ولكن اكبر حائل دون ذلك هو قلة المال المخصص لهذا البحث الخطير

ثم قال ان عدد الذين يموتون بالسرطان كل سنة يبلغ ١٣٠ الفاً وان نحو ثلاثة ارباع المليون مصابون بهِ الآن في الولايات المتحدة وحدها ، وقد زاد معدَّل الوفيات بهِ زيادة فاحشة في الخمس والعشرين سنة الماضية ، فاذا اطَّردت الزيادة بلغ عدد النساء اللواتي يمتن بهِ سنة ١٩٩١ مائة واثنتين وتسعين في ١٠٠٠٠٠ بدلاً من ١١٧ في ١٠٠ الف الآن . ثم وجّه النقد الى ما تطلبهُ العصبة البحرية الاميركية من الاموال الطائلة لبناء الطرادات والبوارج وقال ان ثمن طرَّاد واحد يكفي معامل البحث السرطاني في الولايات المتحدة الاميركية مائة سنة

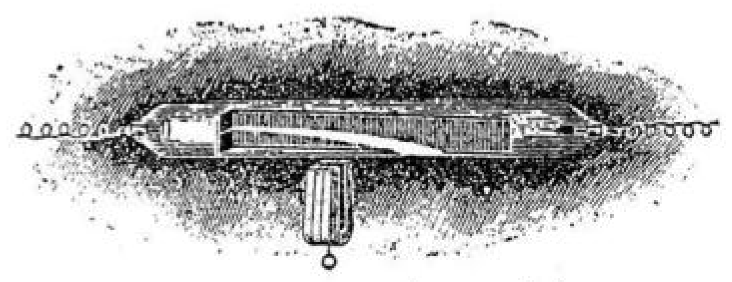


شكل (٣)

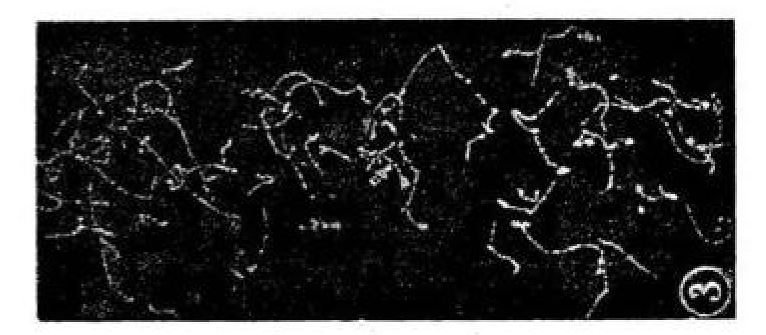


شكل (٤)

آيتان من آيات الفن الاسلامي المصري — راجع مقالة «صناعة النحاس» صفحة ٧٩



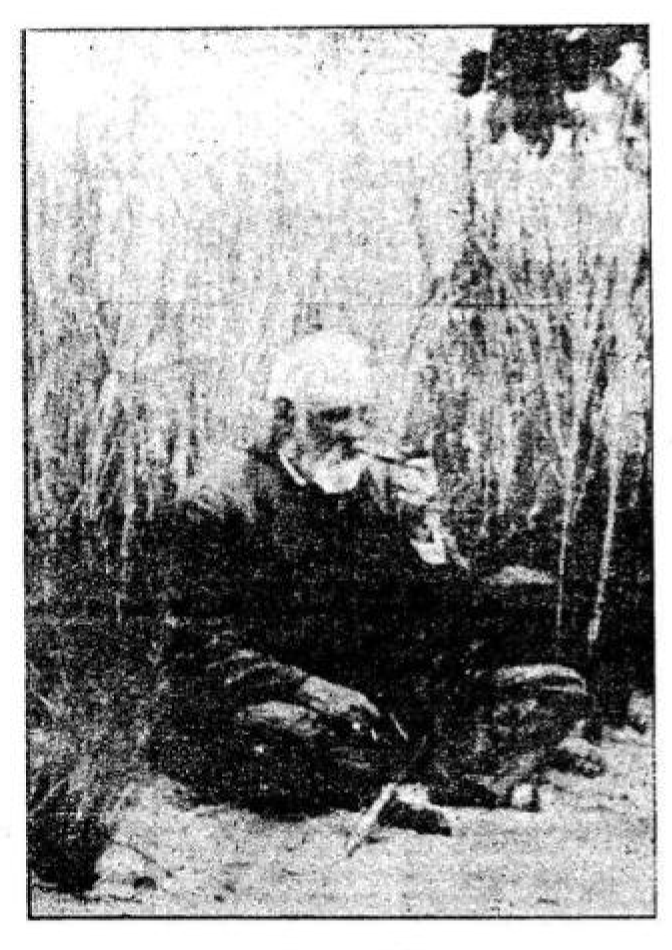
رسم يمثل انجذاب اشعة المهبط بادناء مغنطيس من الانبوب



صورة فوتغرافية تمثل آثار الالكترونات بحسب طريقة ولسن

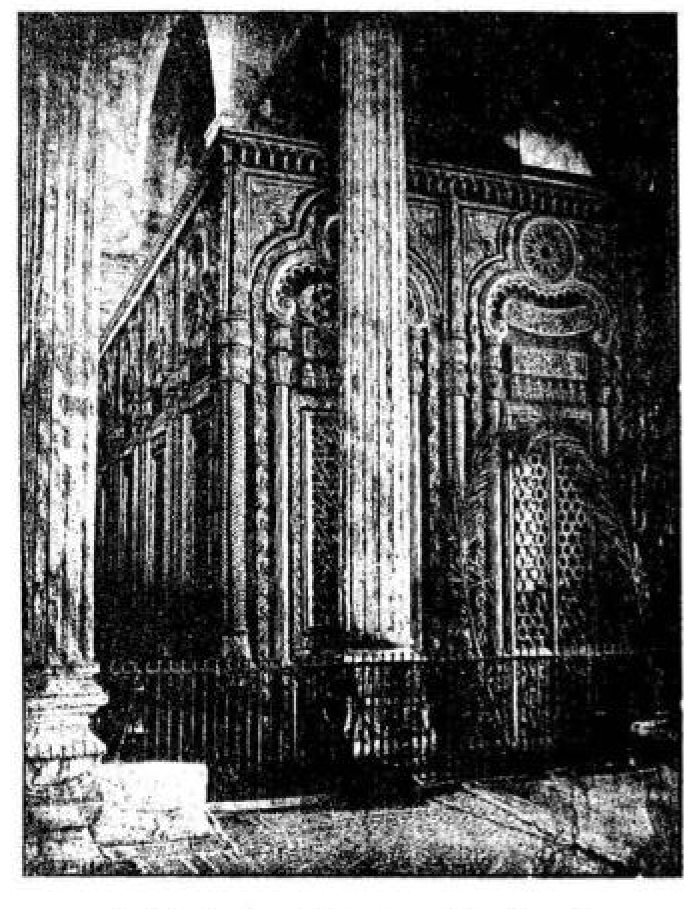


صورة فوتوغرافية تمثل انحراف دقيقتين من دقائق « الفا » لدى اصطدامها
بكتلة في قلب ذرة النتروجين



الدكتور لوتسي

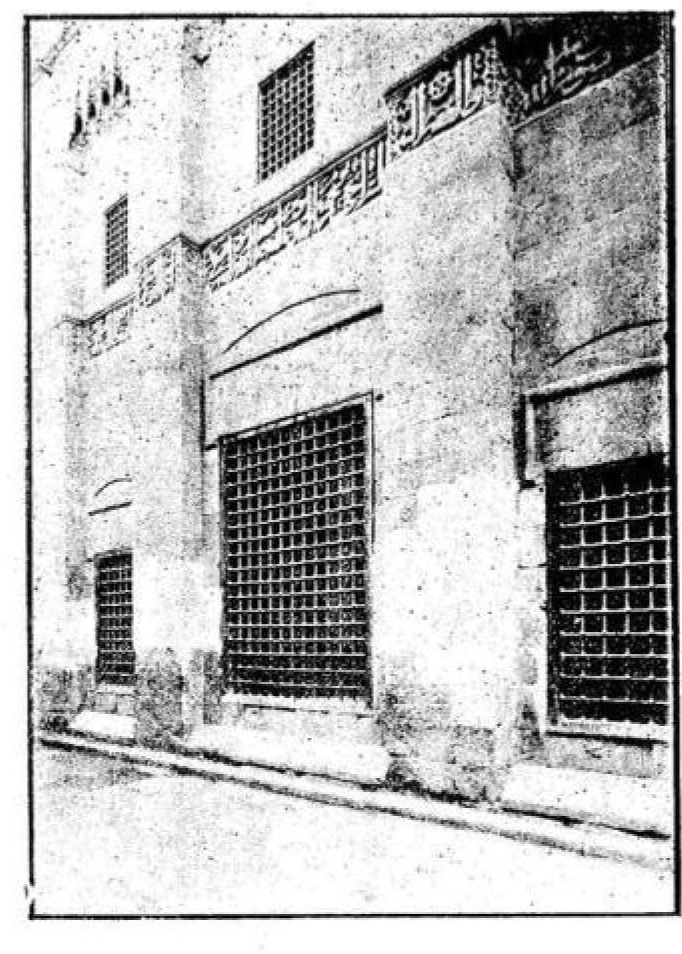
صوّرها الدكتور اوليڤر في الواحة الخارجة في فبراير الماضي



(ش ٥) — وجهة سبيل رقية دودو بشارع سوق السلاح

(ش ٦) — مقصورة ضريح محمد علي باشا بالقلعة

امام صفحة ٧٩



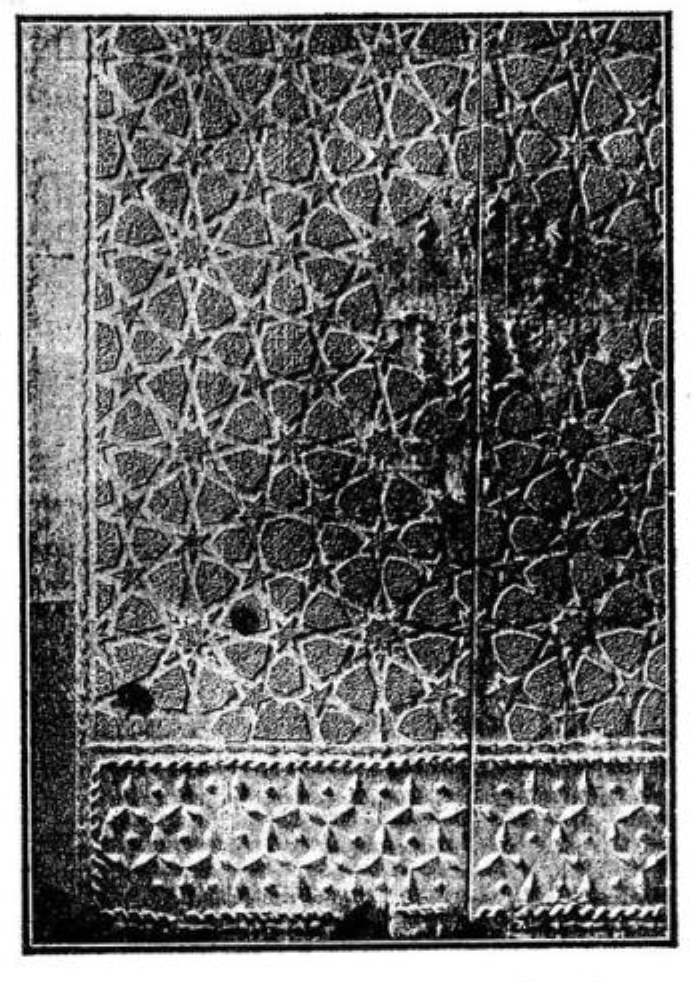
(ش ٧) — وجهة القبة بمسجد بيبرس الجاشنكير

(ش ٨) — كرسي الملك الناصر محمد بن قلاون

امام صفحة ٧٩



(شكل ٩) — غطاء الكرسي الناصر محمد بن قلاون



(ش ١) — جانب من باب قبة الامام الشافعي

(ش ٢) — باب مسجد بيبرس الجاشنكير

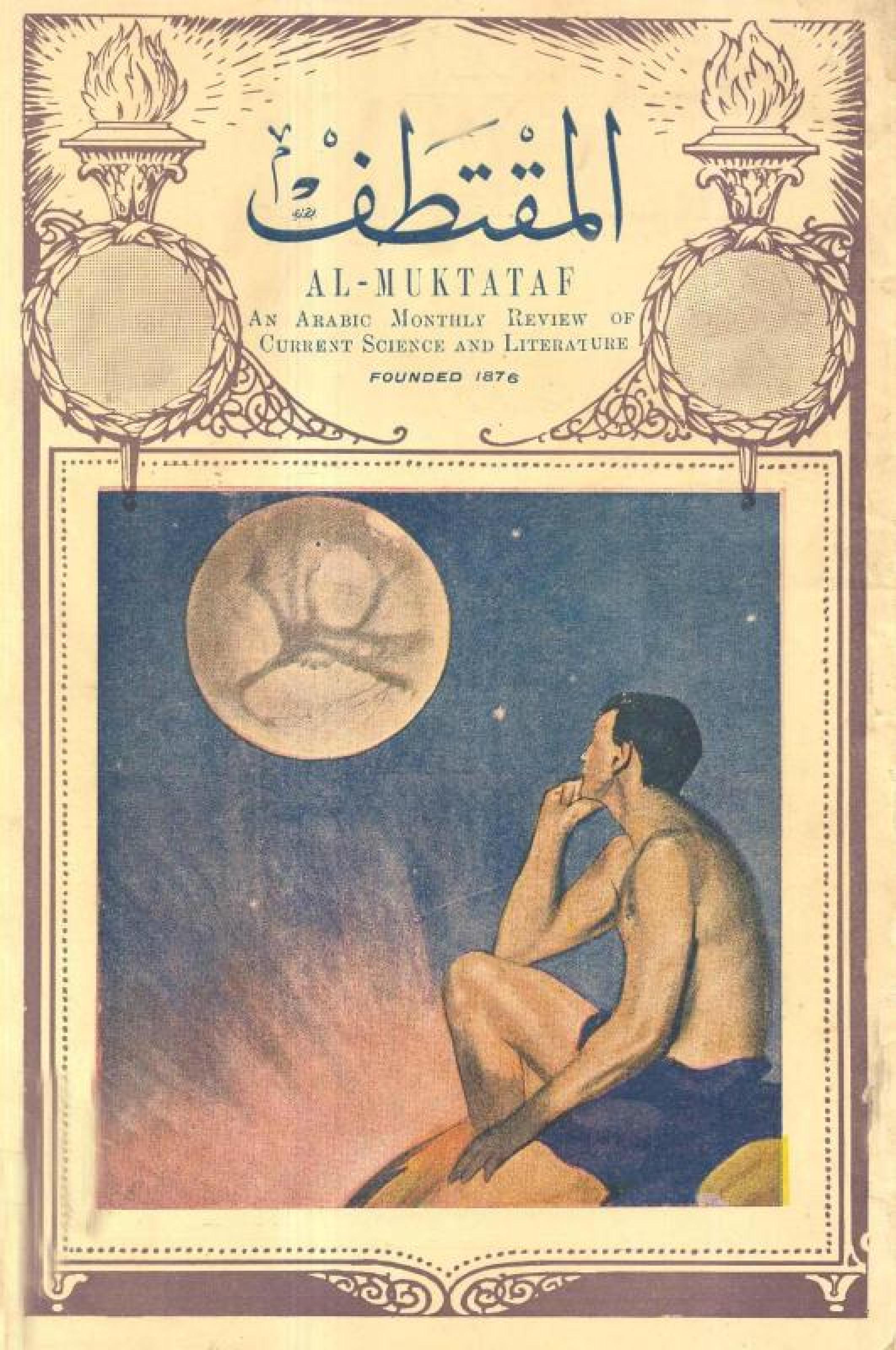


صورة اسرة من سكان جزيرة بورنيو الاصليين

مقتطف يناير ١٩٣٢

امام صفحة ٨٩

الجزء الاول من المجلد الثمانين


المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876



مرکونی

Marconi



المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد الثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٢ — ٢٤ رمضان سنة ١٣٥٠

رواية الكلمات المجنحة

حرف واحدٌ يبدأ عهداً جديداً

المخاطبات التلفونية بين القارات وفوق المحيطات، والاذاعة الدولية اللاسلكية، والتخاطب اللاسلكي بين بلدان نائية — كل هذه جاءت نتيجة مباشرة للتجربة الخطيرة التي قام بها مركوني يوم ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ — أي من نحو ثلاثين سنة

كان مستقبل المخاطبات اللاسلكية حينئذ معلقاً في الميزان . وكان بعض الكتّاب من أصحاب الخيال الوثّاب ، قد تنبأوا بحلول يوم يستطيع فيهِ رجل يقيم في ضيعة من ضياع جبال الاندس أن يتكلم بصوت كهربائي مغناطيسي فيسمعهُ في أية بقعة من بقاع الأرض مَنْ يملك أذناً كهربائية مغناطيسية . اما المهندسون وعلماء الطبيعة الذين كانوا يتناولون حقائق الاذاعة والالتقاط تناولاً عمليًّا فكانوا أضعف إيماناً بتحقيق هذا من الكتّاب الخياليين . كان علماء الطبيعة قد قالوا ان الامواج اللاسلكية هي أمواج ضوئية لا ترى . وانها كأمواج الضوء تسير في خطوطٍ مستقيمةٍ ، وان نقل الرسائل بها بين شاطئَي المحيط الاتلنتيكي متعذرٌ تعذُّرَ ارسال شعاعة من الضوء بينهما . وذلك لشدة تحدُّب الأرض فيرتفع حاجز علوُّهُ نحو مائة ميل بين اوربا وأميركا لا تستطيع الأشعة أن تنحني حولهُ

على ان العالِم يسلّم بالنظرية — مهما تكن معقولةً — بشيء من التحفُّظ . لانها قد تمكِّنهُ

من تعليل ظاهرات غريبة تعليلاً مقنعاً ، ولكنها يجب أن تخضع للامتحان العملي . هذا هو مصير كل النظريات العلمية من نظرية نيوتن الى هذا القول الخاص بالامواج اللاسلكية . فاذا صحَّ ما يقال ان الأمواج اللاسلكية تنبعث من مصدرها في خطوط مستقيمة ، لا تنحني، فهذه نهاية حلم جيل قوامهُ المخاطبات اللاسلكية الدولية العامة ! وقدكان من نصيب مركوني أن يبدع التجربة العملية لامتحان هذا القول النظري

التجربة !

المشهد في جزيرة نيوفوندلند والتاريخ يوم ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ هوذا مركوني جالسٌ في غرفة قاعة جافية ، على أكمة تدعى أكمة سِغنَنل ، وعلى اذنيهِ سماعة تلفونية شديدة الاحساس ، ووجههُ يفيض بشراً وبشاشة على مساعديْه . وكان احدها — كمب — متقلداً سماعة تلفونية كرئيسهِ

تِيكْ . تِيكْ . تِيكْ

فقال مركوني لكمب — هل سمعتَ ؟

فقال كمبْ — نعم سمعتُ

ما أروع موسيقى هذه النبضات في أذنيهما ! ثلاث نبضات لا أكثر ولا أقل ! ..

وماذا تعني هذه النبضات ؟ انها تمثل حرف « S » المتفق عليهِ مع رجال محطة الارسال في انكلترا ليبعثوا بهِ فوق ١٨٠٠ ميل من المحيط الاتلنتيكي . هنا رغماً عن تحدُّب الأرض، سمع مركوني ومساعدهُ ، النبضات الثلاث ، المتفق عليها ، المرسلة من انكلترا ، فثبت لهم ان الأمواج اللاسلكية تنحني فتجاري بانحنائها تحدُّب الأرض

كان مركوني قد ارهق نفسهُ قبل هذا، سنين طوالاً، للوصول الى هذه النتيجة. فيوم ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ ، يوم خالد في تاريخهِ ، لانهُ يوم النصر . اعطهِ القوة اللازمة بعد الآن ، وثق ان لا شيء يصدُّهُ عن ان يرسل رسائل مفهومة فوق القارات والمحيطات ، الى أقصى البلدان ! امواج تسير حول الارض بسرعة الضوء ، تحمل في طيّاتها ، او تنقل على اجنحتها ، معاني خطيرة اوسخيفة ، وتمرُّ في التلال والمباني كما تخترق اشعة الشمس ألواح الزجاج — أية رؤيا هذه !

ولا يفوز في مثل هذه الأحوال المثبطة للهمم ، إلاَّ من كان مدفوعاً بشعلة القديسين المستشهدين . فالفصل فصل الشتاء . وبولدهو — المحطة الانكليزية — تكتسحها عاصفة ، لا تقلُّ عنها العاصفة التي تكتسح «سِغنَنل هِل»— المحطة في نيوفوندلند . والأمواج يجب ان تذيعها وتلتقطها اسلاك قائمة على أعمدة مرتفعة . فأقام مركوني في بولدهو اعمدة علوها

١٣٠ قدماً . فبلغت نفقة كل منها ٢٤٠ جنيهاً وهو في حاجة الى نحو عشرين عموداً منها . ولكن الرياح العاتية تهدم مايبني . وعبثٌ بذل المجهود والمال . على ان مركوني يمضي في عمله، فيبني أعمدة نقالة في بولدهو ويقيم عليها الأسلاك الهوائية ويمتحنها في التقاط رسائل مرسلة من مكان قريب ، فيفوز بالتقاط اشارات شديدة الوضوح فيسرع في سفره الى نيوفوندلند

ان اقامة الأعمدة هنا متعذّر، لقلة المال والصعوبات الفنية التي لابدَّ من تذليلها . ولكن الذكاء يفتق الحيلة . ولا بدَّ من رفع الاسلاك في الجوّ . فاستعمل مركوني الطيارات والبالونات التي يطيرها الأولاد . ولكن الرياح كانت عنيدة في مقاومته ، فكانت تمزق الطيارات او تقطع اوصالها. فظلَّ يطير واحدةً اثر أخرى، حتى ثبتت إحداها لمحة في الجوّ تمكنت في اثنائها من التقاط النبضات الثلاث ، وفي اللمحة التالية مزقتها الريح وقطعت حبلها

وفي اليوم التالي ، صدرت صحف الصباح ، حاملة في صفحاتها الاولى انباء التقاط الاشارات اللاسلكية الاولى ، المرسلة من اوربا الى اميركا . وهكذا افتتح عهد جديد في تاريخ الارتقاء الانساني وسرت هزة كهربائية في شعوب اوربا وأميركا

* * *

لم يكن مركوني ، قد فاز ، قبل ذلك بارسال الاشارات اللاسلكية مسافة تزيد على اربعمائة ميل ، ومع ذلك بعث نجاحهُ في ارسالها هذه المسافة (٤٠٠ ميل) الدهشة في أذهان الناس. على ان نجاحهُ في ارسال الاشارة اللاسلكية فوق المحيط الاتلنتيكي لا يرجع إلى اقدامه وثقته بنفسه الفنية فقط ، بل يرجع إلى نظرية كانت عنده بمثابة العقيدة . فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً ان الأمواج اللاسلكية تتحدَّب حول الأرض ، ولو خطَّأهُ في ذلك جمهور العلماء . وهذه تجربة نيوفوندلند ، تثبت أنهُ على صواب . فهي من اعظم التجارب في تاريخ العلم ، دع عنك مقامها وأثرها في نشوء المخاطبات الكهربائية

ولم يبطىء العلماء في استخراج النتائج من النبضات الكهربائية الثلاث التي تلقاها مركوني في نيوفوندلند . فعني بها لورد راليه ثم اكمل هيفيسيد النظرية العلمية الخاصة بتعليل سيرها من الوجهة الرياضية . فقال ان فوق سطح الأرض، على ارتفاع معين طبقةً من الهواء المكهرب. تبعث الشمس بأشعتها ، فتنزع بعض الالكترونات من ذرات الغازات في الهواء — فتتكهرب الذرات وتصبح ايونات . وهذه الطبقة المؤيّنة (ionozed) تفعل كعاكس . فبدلاً من ان تنطلق الأمواج اللاسلكية وتتبعثر في الفضاء تردّها هذه الطبقة الى سطح البحر وهذا يردها الى طبقة هيفيسيد وهكذا تروح الأمواج اللاسلكية بين طبقة هيفيسيد وسطح البحر وهي تتقدم دائماً الى الأمام حتى تصل الى حيث تلتقطها سماعة حسّاسة . وعليه فطبقة هيفيسيد — وقد أصبحت الآن حقيقة علمية مسلماً بها — نتيجة مباشرة لتجربة مركوني المذكورة

قبل مركوني

أما ما سبق ذلك فتلمُّس النور في دياجي الجهل، وهو سبيل الاكتشاف والاختراع الطبيعي

كان جوزف هنري العالم الطبيعي الاميركي قد لاحظ سنة ١٨٤٢ ان شرارة كهربائية صغيرة تبعث شيئاً في الفضاء. ثم جاء العالم المجرب الألمعي دافيد هيوز، مستنبط الميكروفون، فجرَّب بعض تجاربهِ بالشرارات الكهربائية، فتمكن من استعمال ميكروفونهِ لالتقاط بعضها. ثم وجد اديصن انهُ يستطيع ان يقدح شرراً كهربائيًّا في مادة معزولة اذا كان على مقربة منها مادة تنطلق منها كهربائية

على ان العقل الانساني، وعلى الاخص العقل العلمي، لا يلبث ان يقيم العراقيل، ويبدع الاعتراضات على كل فكر جديد وهكذا نجد انَّ السر جبرائيل ستوكس، وهو من اكبر علماء الطبيعة الرياضية في عصرهِ يقول، ان ما لاحظهُ هيوز سبَبَهُ ارتشاح الكهربائية. واجرى سلفانوس طمسن تجربة فعل اديصن وعلّلهُ بمبادئ معروفة. وذلك لانَّ العلماء كانوا ينفرون من القول بان الكهربائية تقفز من نقطة الى نقطة من غير موصل بين النقطتين. وهكذا ظلّت مباحث هنري وهيوز واديصن في زوايا الاهمال. وليس ثمة سبب فني كان يمنع استنباط التلغراف اللاسلكي حينئذٍ — اي في العقد السابع من القرن الماضي. ولكن العالم، لم يكن مستعدًّا، من الوجهة النفسية، لاستنباطٍ طريفٍ كهذا. فقد كانت تعاليم فراداي الكهربائية لا تزال موضوع عناية محصورة في افراد قلائل، وتلغراف مورس نفسهُ كان لا يزال ضيق النطاق

والرجل الذي كان لهُ اجلُّ أثرٍ في تهيئة الذهن العالمي للنظرية اللاسلكية هو جيمز كلارك مكسوِل — خالق الاثير الحديث. كان بعض العلماء قبلهُ قد فرضوا الاثير لتعليل انتقال الضوء من كوكب ما الى عين الرائي مثلاً. ولكن اثير مكسوِل كان وسطاً لانتقال اشعة كهربائية مغنطيسية، بعضها قصير الامواج كاشعة النور فنراهُ، وبعضها اطول قليلاً كاشعة الحرارة فنحسهُ ولا نراهُ وبعضها اطول جدًّا يتراوح طولهُ من بوصة الى ميل او اكثر، فلا نراه ولا نحسهُ، وهو الاشعة اللاسلكية

وكانت اشعة النور والحرارة معروفة. ولكن ماذا يقال في الاشعة طويلة الامواج التي لا ترى ولا تحسّ. ان اكتشافها كان المشكلة الكبرى التي اعترضت علماء الطبيعة في العقد الثامن من القرن الماضي. وجاء هرتز Hertz سنة ١٨٨٦ بكشافهِ الكهربائي وهو حلقة من المعدن غير متصلة الطرفين بل لها طرفان يكادان يتماسان. فاستعملها في معملهِ بعد تعتيمهِ، فلاحظ ان شرارةً كهربائية صغيرة تمرُّ بين طرفي الحلقة اذا اطلقت شرارة اكبر في طرف المعمل الاقصى فبعثت في الفضاء امواجاً كهربائية. فهذا دليل لا يمارَى فيهِ على وجود تلك الامواج الطويلة التي لا ترى — وهي الامواج التي تنبأ بها مكسوِل. واجرى هرتز امتحانهُ على

هذه الامواج فعكسها ، وامرّها في موشور — اي كسّرها — وجرّب بها كلّ تجربة ليتأكد من مشابهتها او قرابتها لامواج الضوء . واذاً فهذا شكل جديدٌ من اشكال الطاقة لم يكن معروفاً قبل مكسول . اكتشفهُ مكسول نظريًّا واثبت هرتز وجوده بالدليل التجريبي

اذاً نستطيع ان نرى الآن ، لماذا ظلت مباحث هنري وهيوز واديصن عقيمة لم تسفر عن استنباط التلغراف اللاسلكي في حينها . ذلك لانهم كانوا يجهلون طبيعة القوى التي يتناولونها . ولم يتمكن احد منهم ان يوحّد بينها وبين معادلات مكسول الرياضية . ولكن لما بدأ هرتز تجاربهُ بدأها من ناحية جديدة ولا يبعد انهُ كان عارفاً بمباحث هنري وهيوز واديصن . فهم كانوا باحثين عمليين . ولكنهُ كان قد وعى المباحث النظرية ، ففهم الشيء الذي يبحث عنهُ ووجده

***

هنا دخل مركوني الميدان . ها هو ذا تلميذ فتيٌّ في مدينة بولونا والاستاذ ريغي Righi احد الاساتذة الذين يتلقى عليهم ، يحاضر الطلاّب متحمساً عن هرتز ومباحثهِ ويشهدهم كيف تطلق الامواج وكيف تلتقط فيفتن البحث لبَّ مركوني . ان خياله المتصل من ناحية ابيهِ بخيال الايطاليين ومن ناحية امهِ بخيال الكلتيين Celts حفزتهُ الرؤى والاحلام . فصمّم على ان يتعلم كلَّ ما يعرف عن الامواج . وأكبَّ على البحث والتجربة في حديقة ابيهِ وفي العشرين من العمر اصبح ثقة في موضوع الامواج ، لا يفوقهُ فيهِ احد . ثم انهُ يفوقُ كلَّ الثقاة الآخرين بخاطر لم يطرأ لمكسول ولا لهرتز ولا لريغي . انهُ يستطيع أن يطلق الامواج ويوقفها بحسب رغبتهِ وهو الى ذلك يستطيع ان يرسل سلسلة طويلة من الامواج أو سلسلة قصيرة . فالسلسلة الطويلة تمثل خطًّا والسلسلة القصيرة تمثّل نقطة — وهذا هو اساس شفرة التلغراف السلكي ! ولكن تنفيذ فكرة مركوني لا تقتضي سلكاً بين المرسل واللاقط

وكان مركوني متصلاً من ناحيتي امهِ وابيهِ بكبار القوم في ايطاليا وانكلترا فاخذ كتاب توصيةٍ الى السر وليم پريس احد زعماء المهندسين التلغرافيين حينئذٍ والرئيس الفني لمصلحة البريد البريطانية . ثم ان پريس كان قد اشتهر بتجاربهِ في محاولة اختراع تلغراف تقوم فيهِ الارض مقام السلك . فلما وصل مركوني الى لندن سنة ١٨٩٦ احسن پريس وفادتهُ واصغى اليهِ فاقنعهُ مركوني — وهو في الثانية والعشرين — بأن التلغراف القائم على أمواج هرتز أفضل من التلغراف الارضي

ولم تكن آلة مركوني التي عرضها في انكلترا حينئذٍ آلة طريفة كل الطرافة . ففي الجهاز المرسل مفتاح مورس المعروف . وفي الجهاز اللاقط كشاف استنبطهُ برانلي الفرنسي وحسّنهُ لودج الانكليزي . والامواج ترسل من سلك مرتفع — وهو جهاز يعيد الى الذهن تجارب تسلا Tesla . ولكن السلك مغروس في الارض — وهو من ابتداع مركوني

ومع ذلك فهو اختراعٌ عظيم — انهُ تنظيم لاجزاء قديمة معروفة على منوال جديد . كذلك

كان تلغراف مورس وحاصدة مكورمك وطيارة ريط ! يمضي الباحثون يتلمسون طريقهم عشرات السنين ، ثم تنجب امٌّ عقلاً جبّاراً يميل الى نظم الحقائق في سمط جديد . فيختار حقيقة من هنا وعنصراً من هناك ثم يركبها معاً — واذا نحن امام اكتشاف جديد او اختراع طريف او فن مستحدث ! فكَّ الآلة الجديدة الى اجزائها فلا ترَ فيها سوى اجزاء معروفة مشهورة . ولكن ركبها معاً كما ركّبها المخترع واذا انت امام آلة جديدة تنتج لك نتائج جديدة — وهذا هو سرّ الاختراع ! كلّ هذا ينطبق على الجهاز الذي عرضهُ مركوني على پريس

وفي نهاية سنة ١٨٩٧ كان مركوني قد فاز بارسال اشارات لاسلكية مسافة عشرة اميال والتقاطها . مع ان ارسالها مسافة نصف ميل كان من وراء تصوّر المهندسين الكهربائيين كما قال پريس بعدئذٍ في حديث لهُ عن نشأة اللاسلكي . ولا ريب في ان پريس جدير بالذكر في تنشيط اللاسلكي وهو في مهدهِ ، لأنهُ حمل مصلحة البريد البريطانيـة على تمهيد سبيل التجارب لمركوني واعوانهِ — فاقبل الماليون على الاختراع الجديد فتألفت شركة جعل خبيرها العلمي السر امبروز فلمنغ وابتاعت من السر الفر لودج امتيازاتهُ في « دوزنة » الآلات اللاسلكية . وهكذا مُهِّدت الطريق للتجربة الفاصلة في ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١

بعد التجربة

اما حديث ارتقاء المخاطبات اللاسلكية بعد تجربة مركوني الحاسمة فحديث زيادة القوة المولّدة في الاجهزة المرسلة واتقان الاجهزة اللاقطة حتى يدقّ شعورها بالامواج. فلما استنبط ده فرست الانبوب المفرغ سنة ١٩٠٦ كان استنباطهُ حافزاً قويًّا لترقية المخاطبات اللاسلكية. وهذا الانبوب يفعل فعل الكبّاس في مدفع فانك تسحب الكباس فتنطلق من المدفع قوة تخرق درع بارجة مصفحة بالفولاذ . فالقوة المنطلقة من المدفع تفوق الوف الاضعاف القوة الضاغطة على الكباس. والواقع ان الانبوب المفرغ هو آلة دقيقة الاحساس تمكن قدراً ضئيلاً من الطاقة ان يتحكم بقدرٍ عظيمٍ منها

وكان فلمنغ — مهندس شركة مركوني الاولى وخبيرها العلمي — اول من أدرك أثر الانبوب المفرغ في الاذاعات اللاسلكية — ولكنّ ده فرست هو الذي استنبط الانبوب وجعلهُ ما هو عليهِ الآن — وهو ادقّ الآلات التي استنبطها الانسان احساساً . فالانبوب المفرغ يستطيع ان يحسّ بامواج تعجز عن الاحساس بها الادوات العادية كسماعة التلفون . ويستطيع ان يقوي الاصوات الوف الوف الاضعاف فصوت دبيب ذبابة مثلاً يقوّى بهِ حتى يصبح وكأنهُ صوتُ فرقةٍ عسكرية ، وتكة ساعة تضخّم بهِ حتى تصبح وكأنها صوت مطرقة كبيرة . ولولا الانبوب المفرغ لتعذّر علينا المخاطبات التلفونية فوق الاتلنتيكي والاذاعة اللاسلكية والتلفزة ونقل الصور السلكي واللاسلكي

وباستنباط الانبوب المفرغ بدأ العصر اللاسلكي ، حقيقة . فانفتحت عيون المهندسين ورأوا أنْ ليس ثمة فرقٌ خاصٌ بين «التخاطب التلفوني والتخاطب التلغرافي »، بين استعمال السلك او استعمال الاثير لارسال اشارة والتقاطها . بل انهم تمكنوا من ارسال الامواج من دورة كهربائية سلكية في الاثير ثم التقاطها وارسالها ثانية على الاسلاك — اي انهم يجمعون الآن — حيث تقتضي الحال ذلك — بين المخاطبات اللاسلكية والسلكية . فلما تحقق ذلك اصبح التخاطب التلفوني من باخرة في عرض المحيط واليابسة ممكناً — فتوالت التجارب وفي امكان اي مسافر في عرض المحيط الاتلنتيكي الآن ان يخاطب ايةَ بلدة في اوربا أو اميركا . وفي سنة ١٩٢٧ افتتحت المخاطبات التلفونية اللاسلكية بين اوربا واميركا كما بيّناهُ في حينهِ

على ان الامواج الكهربائية لا تسير في الاثير اسرع من سيرها في الاسلاك او حولها . والنتيجة الخطيرة التي نتجت من تجربة مركوني وما تلاها ، هو تمهيد سبيل التخاطب بين جماعتين لا يمكن مدّ السلك التلغرافي او التلفوني بينهما . والتخاطب بين السفن في عرض البحر — او بين السفن والمنائر على الشواطىء من هذا القبيل . فلو أنَّ مركوني وجدَ ان علماء الطبيعة على صواب ، وان الامواج اللاسلكية لا تنحني بانحناء الارض، لظل لاستنباط التخاطب اللاسلكي شأنٌ خطيرٌ بين السفن الماخرة عباب اليمّ

ولكن ثمة حوائل اقتصادية كانت تحول دون مدّ الاسلاك التلغرافية لان مدّها فوق رحاب شاسعة من اليابسة وبحار فسيحة لوصل البلدان النائية بالبلدان العامرة ، لا يتمُّ الاَّ اذا ثبت للشركة ان مدّها يعود عليها بربح مالي ولو كان ضئيلاً . فمدُّ الاسلاك الى جرينلندا او الى جزيرة من الجزائر القاصية في المحيط الهادىء متعذرٌ لهذا السبب . على ان اقامة محطة لاسلكية صغيرة في بقعة نائية ، لا تكلف نفقة كبيرة ، ولكنها تمكن اهلها من الاتصال بالبلدان العامرة في كل آنٍ . وهذه المحطات تمكن الحكومة الهولاندية الآن من التخاطب مع مستعمراتها في الشرق الاقصى ، والحكومة الفرنسية مع الهند الصينية وبريطانيا مع بلدان امبراطوريتها المنتشرة فوق سطح الكرة ، وتمهد للرائد القطبي أو التاجر الاستوائي سبيل الاتصال بعواصم البلدان المختلفة ، على اهون سبيل

فالمخاطبات اللاسلكية من هذه الناحية تكمل عمل المخاطبات التلغرافية والتلفونية وشركات التلغرافات التي تصل بين نقطتين معينتين ، والنتيجة هي اتصال وثيق بين شعوب الارض ، على منوال جديد . على أن المحطة اللاسلكية كالشمس تشرق بضوئها على الصالحين والطالحين . وهذا منشأ مقامها في الاجتماع الحديث . فالامواج اللاسلكية تنطلق منها في كل الجهات ، وكل من يملك الجهاز الوافي يستطيع ان يلتقطها . وكان المهندسون اللاسلكيون قد ندت عنهم فائدة هذه الخاصة المميزة في المخاطبات اللاسلكية ، فجعلوا يعتذرون عنها

على ان رسل الاذاعة اللاسلكية الحديثة ، كانوا في الواقع ، هواة اللاسلكي في كل انحاء الأرض . فالصبيان في اسكتلندا يتبادلون المزاح مع صبيان في اميركا . كان هذا تخاطباً بين نقطتين معينتين بحصر المعنى . ولكنهُ كان كذلك اذاعة لاسلكية . نظر المهندسون الى عمل الهواة فسخروا منهُ ولكن الهاوي الاسكتلندي كان يطلق تحيتهُ في الفضاء الرحب ، فيلتقطها من يلتقطها ويرد عليهِ بأطيب منها . وكلما بعُد الملتقط وشط دار التحية المردودة زاد سرور المرسل . فلما اتقن الأنبوب المفرغ ، ولماتقدمت المخاطبة التلفونية اللاسلكية اصبح هؤلاء الهواة جمهوراً يصح الاعتماد عليهِ في الاصغاء الى اذاعة الموسيقى من محطة مركزية في نطاق معين

وفي سنة ١٩٢٠ اغتنم مدير مخزن في مدينة بتسبرغ الاميركية هذه الفرصة السانحة . قال ان هؤلاء الهواة يبنون اجهزتهم اللاسلكية لأنهم لا يستطيعون ان يبتاعوها او يبتاعوا اجزاءها ، او لانهم يميلون الى الاعمال اليدوية ، فلماذا لا يعلن عن بيع اجزاء جاهزة ؟ وكان هاردنغ وكوكس حينئذ مرشحيْ الجمهوريين والدمقراطيين للرآسة فأقنع هذا التاجر محطة وستنغهوس بأعلان نتائج الانتخاب لاسلكيًا ، وأعلن في الصحف الاعلان الآتي :

« ابن آلتك اللاسلكية الخاصة واسمع نتائج الانتخاب وأنت في دارك » ! ومن يستطيع ان يقاوم رغبتهُ في تحقيق ذلك

فعل هذا الاعلان في الجمهور الاميركي فعل السحر . وازدحمت الجماهير . على مخازن الادوات اللاسلكية تبتاع الاجزاء لبناء الاجهزة . فلما انتهت الانتخابات كانت الاذاعة اللاسلكية — بمعناها الحديث — قد وُلدَتْ ، ومعها وُلدَتْ الشركات لصنع الاجزاء والاجهزة ، وأنشئت المخازن لبيعها وفي زمن قصير اصبحت الصناعات المرتبطة باللاسلكي في مقدمة الصناعات الحديثة

اللاسلكي وأثره الاجتماعي

ان جانباً كبيراً من التعديل الذي يصيب المجتمع يعود الى المخاطبات . فلما استنبط التلغراف والتلفون ومُدَّ السلك البحري بين اوربا وأميركا ، صارت الحوادث العالمية ذات شأن في نظر الفلاح الاميركي . ولقد قال لورد برِنس انهُ لولا التقدم السريع في المخاطبات الكهربائية لما انفجرت مراجل الحرب في اوربا بمثل هذه السرعة وهذا العنف . وفي هذا تأييد لقول الفيلسوف الاميركي جون ديوي : « يصح القول بأن الاجتماع يقوم على المخاطبات والمواصلات » ويؤخذ من جداول مصلحة الاحصاء الاميركية انهُ كان يوجد في الولايات المتحدة الاميركية في أول ابريل سنة ١٩٣٠ اثنا عشر مليوناً ونصف مليون من الآلات اللاسلكية اللاقطة . ما معنى هذا العدد الضخم ؟ الق نظرةً على خريطة البلاد . هنا وهناك مئات من القرى

والوف من الحقول والجداول والاودية فيها بيوت منعزلة عن العالم لا يصلها به سلكٌ تلغرافيٌّ ولا تلفونيٌّ . ولكن رئيسَ الجمهورية في نظر سكانها لم يعد تجريداً لسلطة الامة بل اصبح رجلاً يسمعون صوتهُ بواسطة الآلة اللاسلكية . ان برد الرائد القطبي يجلس في خيمتهِ في الليل القطبي الطويل ويصغي الى موسيقى تحملها الامواج من نيويورك ؟ لقد مضى عهد الوحدة والانفراد سواءٌ في الحقل النائي أو في عرض البحر او على مفاوز الجليد القطبي

وما الدليل على أن هؤلاء الناس يصغون إلى ما يذاع ؟ ان شركة واحدة من الشركات الاميركية التي تملك محطة للاذاعة ، تسلمت في سنة ١٩٣٠ مليوني رسالة من الناس الذين يصغون الى ما تذيع ! اية رواية ، بل أي كتاب ، بل أية عظة ، كان لها في نفوس قرائها أثرٌ هذا مداهُ ؟ ان خطبةً دينية واحدة اذيعت من إحدى المحطات الاميركية اسفرت عن ٤٣٨٠٠٠ جواب أُرسِلَتْ الى ملقيها . ايرتاب احد في أن الذين كتبوا هذه الرسائل كانوا مدفوعين بدافع الاعراب عن رأيهم في موضوع خطير ؟ وهل يشكُّ أحد في ان أثر الاذاعة اللاسلكية في حياة الامم ابعد مدى وأعمق أثراً من التلغراف والتلفون ؟

غاندي يتكلم في لندن فيصغي اليهِ ١٥ مليوناً في اميركا . وروايات « الاوبرا » تذاع من سلزبرغ في النمسا فتسمع في فيافي الولايات الزراعية في أميركا . وموسيقى الجاز الاميركية تذاع من أميركا فيرقصون على توقيعها في اوربا . لقد انكمشت الكرة فاصبح الالمان والكنديون والارجنتيون والنروجيون واليابانيون بفضل اللاسلكي جيراناً — واصبح الناس من مختلف النحل والملل — كأنهم امة واحد . وقد جمع بعضهم الادلة على ان هذه الاذاعة قد كان من أثرها توحيد الثقافات ودكّ الحواجز الاجتماعية بين الامم والطبقات

* * *

وها هي التلفزة على الابواب — انها لا تزال في دورها البدائي ولكنها «عجيبة» لا ريب فيها . يجزَّأ الوجه الى بقع يتراوح عددُها بين ٢٥ الفاً و٣٥ الفاً — ثم تنقل البقع لاسلكيًّا في الفضاء الرحب الى مكان معين في ثانية أو أقل من ثانية من الزمان — واذا الوجه البعيد امامك تراهُ بعيني رأسك . ان استنباط التلغراف أو التلفون ازاء هذه « العجيبة » يصبح كأنهُ لعبة من لعب الاطفال . ومع ذلك فالتلفزة ، كالتخاطب التلغرافي أو التلفوني — ليست الاَّ طريقة من طرق ارسال الاشارات اللاسلكية والتقاطها ! ومع انها لم تنتشر انتشار الاذاعة اللاسلكية الاَّ اننا نستطيع ان تتنبأ بأثرها . كانت الاذاعة اللاسلكية الى ان استنبط التلفزة عمياء وبالتلفزة ابصرت . ولا ريب في انها سوف تكون — مثلها — اداة فعالة في توحيد الثقافات ونشرها

مستقبل اللاسلكي

كان اتقان الاذاعة اللاسلكية سبيلاً لاذاعة الروايات كلاماً . اما والتلفزة على الابواب فسوف تحلُّ الرواية كاملة — كلاماً ومشاهدَ — محلَّ الرواية الكلامية . تصوَّر مسرحاً عظيماً من مسارح هليوود او نيويورك او برلين او باريس او لندن ، يفوق اي مسرح محليّ خاص وتصور على خشبتهِ اعظم الممثلين وارخم المنشدين واشهر المديرين لاجواق الموسيقى ، وتصور كل هؤلاء يمثلون اخلد الروايات التي ابدعها الشعراء والكتّاب ، وتصور نفسك في مسرحك المحلي تراقب — انت والوفُ مثلك — هذه الروايات وقد نقلت اليها اصواتها ومشاهدها على اجنحة الامواج اللاسلكية ! . انك تنظر الممثلين امامك — وانت تبعد عنهم مئات الاميال والوفها — لحماً ودماً . ما ارخم هذا الغناء ! ما اروع التمثيل ! كل دور يمثله ممثل مشهور ، وكل مشهد اعده فنان عظيم ! وكل فرد في الجوق الموسيقي ممتاز بالايقاع على آلتهِ الخاصة

ثم ان اللاسلكيّ ليس طريقاً من طرق التخاطب ونقل الصور والمرئيات فقط بل قد يكون وسيلة من وسائل اذاعة الطاقة والتقاطها . ففي سنة ١٨٩٦ ارسل نقولا تسلا — وهو من اصل صربي ولا يزال حيًّا — امواجاً لاسلكيًّا تمكن من ان يدمر بها مثالاً مصغراً لغوّاصة . ولعلّ تجربتهُ هذه كانت اول محاولة لسيطرة اللاسلكية عن بُعدٍ . ولقد ارتقى هذا الفن فارسلت بوارج ضخمة لا تحمل قبطاناً ولا بحارة فاديرت بالامواج اللاسلكية عن بُعد . وهي تستجيب لكل ما يطلب منها ، فتارة تسرع او تبطئ ، وتارة تدور او تتقدم وهي لا تعبأ بما تمطر بهِ من القنابل

هنا نلمح ما قد يتم في الحرب القادمة — متى وقعت . فالطيارات في الحرب الماضية كانت تطير فوق بلدان الاعداء تمطرها بوابل من قنابلها . فاذا كنا نستطيع ان نسيطر على طيارة من بُعدٍ كما نسيطر على بارجة ضخمة — وقد حقق هذا الاستاذ لو A. M. Low اولاً وغيره بعده — فقد زال كل باعث لارسال الطيارات والدبابات ملأى بالرجال وتعريض حياتهم للخطر . تصور في الحرب المقبلة طيارة تحمل ما زنتهُ طنَّان من المواد المتفجرة ، وهي تسير بسرعة فوق صفوف الاعداء تحمل في جوفها هذا الموت الاحمر . واذ هي طائرة يُبعث من مكان ادارتها بثلاث نبضات كهربائية فتتجهُ الطيارة شمالاً ، وبوسائل المساحة العلمية يستطيع مديروها ان يعرفوا مكانها معرفة مضبوطة . ولا تصل الطيارة مثلاً فوق المستودع الذي فيهِ ذخيرة الاعداء . حتى ترسَل نبضتان لاسلكيتان من محطة الادارة فتنفتح جهنم في الجوّ وتنقضُّ على المستودع من ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم شياطين الدمار

اضف الى هذا امكان ارسال الطاقة الكهربائية لاسلكيًّا ، وما يتلوها من الطبخ لاسلكي وادارة المصانع لاسلكيًّا ، وانارة المصابيح لاسلكيًّا ، واستعمال الاشعة اللاسلكية في مكافحة بعض الامراض واحداث الألم — وكل ذلك من انبوب قد يزيد طوله على قدمين !

لاريب في ان المستقبل لا يزال ينطوي على مدهشات لا تحصى من العجائب اللاسلكية !

المناخ ونشاط الانسان

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا
وكيل وزارة الداخلية للشؤون الصحية

« لماذا لا تنهض مصر وتستعيد مجدها السالف . وهل قدر لنا ان نعيش طيلة حياتنا نتغنى بمفاخر ماضينا . وهل لمناخ بلادنا أثر في اضعاف نشاطنا القديم» . لقد تبين لي بالبحث ان هناك عوامل عدة أخذت تفعل فعلها على ممر الايام في قتل ما اشتهر به اسلافنا من الهمة والنشاط . ولكني كطبيب لم أستصوب التعرض للعوامل التي لا مساس لها بالطب وفروعه فتركتها لمن هم متوفرون على بحثها . على انني لو أردت التحدث عن كافة العوامل الصحية والطبية لما انتهيت منها في مقال واحد ، ولذا فقد اخترت منها أثر المناخ في نشاط الانسان بصفة عامة . والذي دعاني الى اختيار هذا الموضوع هو ما لاحظته من ان المشاهدات والاحصاءات الخاصة بمناخ مصر قليلة جداً لانهُ لم يلتفت اليها الاَّ في عهد نهضتنا العلمية الحديثة . وأملي كثير في ان يقتدي العلماء من شبابنا بعلماء الغرب فيما يبذلون من العناية والاهتمام بهذه المشاهدات والاحصاءات لعلهم يصلون الى رأي حاسم في هذا الموضوع لان شقة الخلاف بين العلماء في أثر المناخ في المدنيات لا تزال متسعة ويسرني جداً ان يتوصل علماؤنا بأبحاثهم الى حقائق شافية في هذا الموضوع فيرفعوا رأس مصر عالياً بين البلدان الراقية

١ — المناخ والصحة

ان هناك عوامل كثيرة تحدُّ من نشاط الانسان ولها تأثير كبير في وظائف الجسم ومن هذه العوامل الموقع الجغرافي للمنطقة التي يعيش فيها الانسان ومناخ هذه المنطقة . ولهذا يلاحظ ان الخمول يزداد كلما اقتربنا من خط الاستواء وان النشاط يظهر اثره جلياً كلما ابتعدنا عنهُ الى الشمال . ولكن قد يُعترض على هذا بان المدنيات القديمة قد بلغت أقصى مدًى في حوض البحر الابيض المتوسط وهذه منطقة أقرب الى خط الاستواء من مناطق المدنية الحديثة فما هو سبب ذلك ؟ وهذا ما سنحاول بحثهُ هنا

المناخ — كما تعلمون — هو متوسط مجموع الحالات الجوية والطقس هو التغيرات الجوية

التي تحدث من يوم الى آخر والعناصر الهامة التي يتألف منها المناخ هي الحرارة والرطوبة والريح وضوء الشمس والضغط الجوي والكهرباء ولكل من هذه العناصر أثره في الانسان وفي كل ما له علاقة بالانسان كالصحة والزراعة وغيرهما سواء بمفرده او متحداً مع عنصر آخر او مع باقي العناصر. ولكن في حالة الصحة تؤثر فيها جميع هذه العناصر معاً تقريباً. ولمعرفة أثر المناخ في النشاط نذكر فعل هذه العناصر في الجسم ووظائفه فنقول: —

تستمد حرارة الجو على الاخص من الشمس ومن الارض عند ما تنتشر منها الحرارة في الفضاء بالاشعاع وللانسان قدرة عظيمة على تكييف نفسه بحسب اختلافات درجة الحرارة صعوداً أو هبوطاً. فقد يطيق الانسان الحرارة العالية حتى درجة ١٢٠ سنتجراد ولو لفترة قصيرة كما تصادفهُ في المصانع ويطيق الحرارة المنخفضة حتى درجة ٢٥ سنتجراد تحت الصفر كما يصادفهُ رواد القطبين ولا يمكن القول بان تحمل الانسان لهذه الدرجات المختلفة من الحرارة انما يُعزى فقط الى نظام الجسم الفسيولوجي الذي ينظم توليد الحرارة داخل الجسم واخراجها الى ظاهره بل ان لطبقات الهواء التي تحيط بجسم الانسان دخلاً كبيراً في هذا التنظيم لان الانسان — كما يرتدي الثياب لاتقاء الحر والبرد — فهو يرتدي أيضاً الهواء لنفس هذا الغرض وهذا يفسر لنا سبب تحمله الجو الحار عند ما يكون الهواء متحركاً لان حركة الهواء تسهل التبخير من سطح الجلد فيشعر الانسان بالبرودة التي تصحبُ التبخر. وكذلك البرد القارس يستطيع الانسان ان يتحمله اذا كان الهواء ساكناً وذلك للدفء الناشيء من احاطة الجسم بطبقة الهواء وما تحدثهُ من حفظ حرارة الجسم

ولكن للرطوبة التي يحملها الهواء أثراً كبيراً في كل هذا لان الرطوبة المفرطة تزيد شعور الانسان بالحرارة أو البرودة في حالتي الجو الحار أو البارد ذلك ان الرطوبة في حالة الحر تعوق عملية التبخر وفي حالة البرد تساعد على توصيل الحرارة من الجسم الى الجو ولهذا كان الجو البارد الرطب داعياً للشعور بقرس البرد والقشعريرة بينما الجو الدافيء الرطب يكون مثبطاً للقوى

وقد قيل ان نسبة الرطوبة الجوية الباعثة على الصحة والنشاط تتراوح بين ٥٠ و ٧٥ في المائة من الرطوبة النسبية ويقصد بالرطوبة النسبية نسبة ما يحملهُ الجو من بخار الماء الى مقدار ما يمكن ان يحملهُ حتى التشبع على درجة حرارة معلومة. وقد وضعت جداول بُيّنت فيها نسب الرطوبة المختلفة باختلاف درجات الحرارة غير ان هذه الرطوبة النسبية لا يمكن اتخاذها مقياساً لدرجة رطوبة جو اي منطقة من المناطق لانها خاضعة للتغير من وقت لآخر في اثناء النهار والليل وقد جرت العادة بان تقاس درجاتها في اوقات معلومة ففي القطر المصري مثلاً يعطي متوسط درجات الرطوبة النسبية منخفضاً جداً بينما المعروف ان مناخ القطر رَطْب وذلك لان درجات الرطوبة تؤخذ في اوقات محدودة فهي تختلف ما بين ٣٠،٥ في اسوان و ٥١،٧ في المائة في

مينا هاوس وبينما تكون في الفجر ١٠٠ اذ بها تنزل الى ٢٢ ظهراً وقد تصل الى ٥٠ في المائة بفعل الريح الدافئة

ولكن لا يوجد في الواقع شيء يسمى الرطوبة الطبيعية للانسان لان مقدار الرطوبة من حيث موافقتها للصحة يتوقف على عوامل عديدة كدرجة الحرارة ونوع الكساء وحركة الهواء ومقدار الغذاء والنشاط العضلي وغير ذلك . وعلى كل حال فالانسان يتعبهُ كثيراً الحر الشديد أو البرد الشديد اذا كانت درجة الرطوبة عالية والتعرض للحرارة العالية ينشأ عنهُ تركيز الدم بسبب تبخر الجسم وكذلك ينشأ عنهُ زيادة طفيفة في مقدار اكسجين الدم وتنقص نسبة حامض الكربون لازدياد التهوية فترتفع نسبة قلويته وكل هذه منذرات او ملازمات لفتور الحرارة — أي الضعف الذي ينشأ بسببها — غير انه لا تظهر اعراض مرضية بسبب تركيز الدم الاّ اذا وصلت درجة هذا التركيز الى خمس وعشرين في المائة

وتأثير الهواء البارد الجاف في الجسم يماثل تأثير الحمام البارد حيث يزداد فقد الجسم للحرارة فيتبعهُ طلب المزيد منها ويُوَفَّى هذا الطلب بتزايد التأكسد في الانسجة وفي نشاط عمليات التمثيل الغذائي بما يحدثهُ هذا التأثير من التنبيه للميكانيكية الكيماوية التي تنظم الحرارة الجثمانية

وقد اثبتت التجارب ان الجسم لا يشعر بالراحة والهناءة اذا كان الجو المحيط بهِ ساكناً بل يلزم ان يكون على شيء من الحركة وقد يكون ذلك بما يحدث التيار الهوائي من تنبيه اعصاب الحس الجلدية (للضغط وللحرارة) او من تأثيره في الجهاز المحرك للاوعية الدموية بما يحدثهُ فيها من انقباض او انبساط وما يتبع ذلك من الاحساس بمختلف درجات الحرارة هذا بخلاف ما تحدثهُ تيارات الهواء من تبديد الحرارة بالتبخير والتخلل متحداً مع تأثير الرطوبة ودرجة حرارة الجو في هاتين العمليتين . ويوجد تعليل ظريف للشعور بالراحة عند ملامسة تيار الهواء الخفيف للجسم وهو انهُ يثير احساساً جلديًّا لذيذاً

والهواء المتحرك ضروري لحفظ الصحة فضلاً عن اهميته العظمى للتهوية لانهُ يمد الانسان ومجاوراتهِ بالهواء النقي ويبعد الهواء الفاسد ويسهل عملية التبخير كما يمنع ركود الحرارة بأن يجعلها دائماً في دائرة نهاياتها الطبيعية فضلاً عن مساعدتهِ ايضاً في تنظيم الحرارة الجثمانية لان الانسان يكون في الجو الساكن محاطاً بطبقة من الهواء الراكد الساخن . ويُعزى الى نسيم البر والبحر ما يشعر بهِ الانسان من الارتياح في المصايف البحرية بسبب دوام حركة هذا النسيم العليل ولذلك كانت سكنى الجبال والموانىء اصح من سكنى المدن الداخلية . وكذلك شعورنا بالارتياح اثناء سير عربة او سيارة او غيرها او اثناء اعتلاء كرسي او مضجع هزاز او اثناء الترويح باية طريقة كانت انما هو ناشىء عن تحرك الهواء . ولكن يوجد حد اذا وصلت اليهِ

سرعة الهواء يبدأ الجسم بعدها لا يشعر بالارتياح اذا تعرض لتيار هواء بهذه السرعة بصفة مستديمة. ويختلف ذلك بحسب حالة الجو من حيث الحرارة والرطوبة وثمة أجهزة خاصة لقياسها ليس هنا مجال الكلام عنها ولا عن الرياح واسباب هبوبها بصفة عامة

***

اما فيما يتعلق بتأثير ضغط الجو على الانسان فالانسان عندما يكون في محاذاة سطح البحر يكون معرضاً لمجموع ضغط يقرب من ١٥ طناً لان كل بوصة مربعة عند شاطىء البحر معرضة لضغط يساوي ١٥ رطلاً وليس من شك في أن ضغطاً كهذا لا بد ان يكون لهُ اثرٌ في وظائف الجسم لان جميع أنسجة الجسم وسوائله معرضة لهذا الضغط ولا بد ان تتعادل معهُ — هذا وتبادل الغازات الذي تتوقف عليه حياة الانسان ما هو الاَّ ظاهرة من ظواهر الضغط كما ان الضغط الجوي يبقي رؤوس العظام في حقاقها بغير حاجة الى فعل عضلي. وكذلك انخفاض الضغط الجوي في الجبال اذا بلغ حدًّا كبيراً كانت نتيجتهُ قلة مقدار الاكسجين الذي يتنفسهُ الانسان وما يتبع هذه الحالة من التأثير في الدم . اما ازدياد هذا الضغط فلا يتعرض لهُ الانسان الاَّ بعوامل صناعية لا محل لذكرها هنا

اما ضوء الشمس فأهميتهُ للانسان لا تنحصر في علاقتهِ بشعورنا بالدفء بل تتناول ما لهذا الضوء من التأثيرات في مختلف افراد الناس وهذه التأثيرات تختلف عن عوامل المناخ الاخرى. فاذا احتجبت اشعة الشمس عنا شعرنا بالبرودة ولكن التأثير الكامل لضوء الشمس يتوقف على مقدار الاشعاع الذي يصلنا من الطرف الاحمر من الطيف الشمسي ذي موجات الحرارة الطويلة ومقدار ما يصلنا من الطرف الازرق ذي الموجات القصيرة ومن الضوء الفوق البنفسجي الفعال والذي اكتشف فعله مؤخراً في الكساح وغيره . والحياة على سطح الارض تتوقف على الطاقة المُشِعَّة من الشمس فالضوء يحدث عدة تفاعلات كياوية ويُعَجِّل إحداثها كما تفعل الحرارة تماماً. وأغلب بسائط الخليات هي عديمة اللون ولذلك فهي لا تمتص اشعة الضوء المرئي غير ان الكثير منها يمتص الاشعة الفوق البنفسجية ولهذا كان فعل هذه الاشعة في الخلايا عظيماً . ولهذه الاشعة القصيرة الموجات قوة كياوية وقوة ضوئية عظيمتان فهي التي تُسبب حرق الشمس للجلد أو دبغهُ أو تسبب الكلف الشمسي (النمش) وتقتل جرثومة السل والاشعة الطويلة الموجات قد تقتل بعض الجراثيم أيضاً

والطاقة المشعة ضرورية للانتفاع بالكلسيوم والفصفور الموجودين في الغذاء . ولضوء الشمس تأثير في مقاومة الجسم لبعض الامراض أو تهيئته لها كالكساح والكُزاز (تتاني) والدرن وغيرها من الامراض الجلدية ولهُ فوائد اخرى

واما فعل كهرباء الجو في وظائف جسم الانسان فانهُ لا يزال قيد البحث ولكن مما لا

شك فيه أن له تأثيراً عليها وقد لوحظ ان الانسان يشعر عادة بتنبيه عام ونشاط عقب الصواعق والبروق والرعود

٢ — تأثير الاجواء المختلفة في الانسان

أما وقد عرفنا الآن تأثير كل عامل من عوامل المناخ في صحة الانسان ووظائف اعضائه فيمكننا ان نلخص تأثير الاجواء المختلفة على الانسان وعلى نشاطه فيما يلي :

(ا) — الجو الحار الرطب

في مناخ كهذا تندفع كمية من الدم اكثر من اللازم الى سطح الجسم ويقل النشاط الجثماني والذهني فيشعر الانسان بفتور وترتفع درجة حرارة الجسم فيحدث توتر في الجهازين العصبي والدوري ويبدو على الانسان عدم الميل الى بذل اي مجهود جثماني أو عقلي . وعندما ترتفع حرارة الهواء الى أكثر من ٣١ درجة سنتجراد ويكون الهواء مشبعاً بالرطوبة يمتنع حلول التبخير محل التشعع ولذا ترتفع درجة حرارة الجسم وينشأ عن ذلك ضربة الحرارة وليس من شك في ان خطر حرارة الصيف ناجم عن اجتماع الحرارة والرطوبة معاً في الهواء — ومما ينبغي ذكره ان الانسان المعرض لدرجة حرارة ٢٤ سنتجراد مع نسبة ٨٠ في المائة للرطوبة لا يستطيع الاستمرار على تحمل هذا الطقس مالم يكن قد تعوّده مع انهُ يستطيع تحمل الطقس في درجة حرارة من ٢٤ الى ٢٩ سنتجراد اذا كان الهواء جافاً . وكثيراً ما يكون طقس القطر المصري على هذه الحال اثناء الصيف . ففي اغسطس سنة ١٩٣١ بلغت الحرارة في الازبكية متوسطاً كانت اقصى درجاته ٣٨٫٦ سنتجراد وادناها ٢١ وفي هليوبوليس بلغت ١٦ و٤٠ درجة في اقصاها وادناها وكانت اقصى درجات الرطوبة ٧٤ و ٧٧ في كل من البلدين وذلك في الساعة الثامنة صباحاً ومع ذلك كان في طاقة الاغلبية العظمى من السكان تحمل الطقس

هذا والعمل في جو حار مشبع بالرطوبة لهُ ضرر آخر وهو تشبع الثياب بالعرق فينشأ عن ذلك مضيقة لمن يشتغل في هذا الجو فضلاً عن القذارة التي يحدثها العرق وهذا يدعو دائماً الى تلمس الفرص للوجود في الهواء الطلق فراراً من هذه الحالة

وليس يغيب عن البال ان تأثير الطقس الحار الرطب ليس معناه اخماد قوة الانسان أو اضعافها بل فقد رغبة الانسان في العمل فقد وجد ان العمل يزيد بنسبة ٣٧ في المائة في درجة حرارة ١٩ عنه في درجة حرارة ٣٠ سنتجراد كما ان ذلك يضعف شهوة الاكل

(ب) — الجو البارد الرطب

واما تأثير الجو البارد الرطب فانه يسبب استنفاد الحرارة بسرعة واقشعرار الجسم بفعل البرد وهواء كهذا يضر الاشخاص الضعاف الصحة الرقيقي الحال أو الذين لا يعيشون الا داخل المساكن

ولكن هذا الجو ضارٌّ على كل حال عندما تكون القوى الحيوية في هبوط وتكون الكفاية لتوليد الحرارة محدودة كما يحدث في سن الطفولة أو سن الشيخوخة أو مرض الكلى أو غير ذلك . ويمكن التغلب على تأثير الهواء الرطب بالاستعانة بالثياب الكافية وبممارسة الرياضة أو العمل المؤدي الى النشاط العضلي وبالغذاء لدرجة ما وهذا النوع من الجو قد يَضُرُّ بما يلقيه من العبء الزائد على الاعضاء والافعال التي تولد الحرارة في الجسم وخصوصاً على جهاز الهضم والتمثيل وكذلك على الدورة الدموية والكلى وبطريق غير مباشر على الجهاز العصبي

ويمكن للانسان الصحيح البنية ان يعمل ويتنفس في الجو البارد الرطب من دون ان يلحقهُ اي ضرر ولو انهُ من المسلم به ان هذا الجو يعد الانسان لامراض الجهاز التنفسي والروماتزم والآلام العصبية (النفرالجيا)

(ج) — تأثير الجو الدافئ الجاف

ان تأثير الهواء الدافئ الجاف في صحة الانسان احسن من تأثير الهواء البارد فهو منبه وباعث على السرور والانشراح ولكن الهواء الدافئ والجاف جدًّا قد يسبب فقد الرطوبة لدرجة زائدة وتركيز السوائل في الانسجة والاحشاء . ومعلوم ان جسم الانسان يحتوي على ٧٠٪ من الماء فأقل نسبة يفقدها من هذا المقدار هي ذات خطورة بالغة حتى انهُ عند مايصل المقدار المفقود الى ٢١ في المائة فان الموت يكون محققاً للانسان. ولذلك فان المنازل اذا دفئت الى درجة زائدة كان ذلك مؤدياً الى الشعور بالقشعريرة بسبب التبخر الشديد وهذه الحال تؤدي الى تهيج واصابة الجهاز التنفسي

(د) — الجو البارد الجاف

ولكن الهواء البارد الجاف منعش لانهُ يسبب ازدياد نشاط جميع وظائف الجسم ويجعل التنفس عميقاً وبذلك يُنَشِّط الدورة الدموية وينبه جهاز الهضم والتمثيل وبالجملة فهو يبعث النشاط في عامة اجزاء الجسم

وهنا يعرض لنا سؤال هام جدًّا وهو: — « ما هو أنسب مناخ لنشاط الانسان »

فى الجانب التالى من المقال

يتناول سعادة الباشا — انسب مناخ لنشاط الانسان — هل كل الاجناس تتأثر بالمناخ على السواء — المناخ والمدنية — المناخ والمميزات الجنسية

غرناطة

لا عينَ غرناطةٌ ولا أثرُ — دُلَّتِ فيهات تنفعُ الذِّكَرُ

أهكذا النسرُ بعد رفعتهِ — إلى حضيض الهوان ينحدرُ

تالله والدهر دارَ دورتهُ — هل مستتبٌ لأمةٍ ظفرُ

مابوكِ لمّا عدَتْ محمحمةً — فيكِ جيادُ الاعاربِ ضُمّرُ

كلُّ الحضارات في بداءتها — بدوٌ وفي أوج عزّها حضَرُ

تُورقُ بين الرماح غرستُها — وفي ظلال السيوف تزدهرُ

لله بدوٌ أورت عزائمهم — نارٌ بقلب الصحراء تستعرُ

ربيعةٌ زوّدتهمُ أسلاً — وأوفدتهمْ خلفَ العلا مضرُ

يا سائل البدو عن حضارتهمْ — ينبيكَ عنها الصوّان والحجرُ

فاستنبِ أشبيليا وقرطبةً — تجبكَ تلكَ المعاهد الزهرُ

لهم حديثٌ لدى طليطلةٍ — وعند غرناطةٍ لهم خبَرُ

***

تالله قصرَ الحمراء لا برحتْ — ترويكَ منّا المدامع الحُمُرُ

أنت على الشرق عَبرة بقيتْ — في مقلة الغرب كلّها عِبرُ

كلُّ فخارٍ لديك مدّخرٍ — صنع الألى خلّدوك واندثروا

أبوابك الزهرُ من فتوحهمِ — خُطّتْ عليها الآيات والسُّوَرُ

حروف مجدٍ في روقك اعتنقت — كأنهنَّ الرماح تشتجرُ

من فنهم رفّهوكَ في بُردٍ — بها تتيه السقوف والجدرُ

فسيفساءٌ بالوشيِ حاليةٌ يكاد يشتفُّ لونَها البصرُ
لم يخلعوها عليكِ من خزفٍ كلاّ ولا شابَ أصلَها مَدَرُ
لكنّها من قلوبهم قطعٌ ومن بقايا سيوفهم كِسَرُ

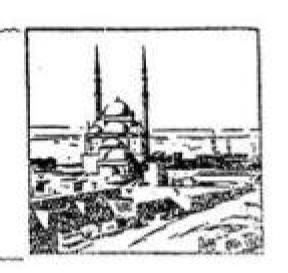
* * *

ياساحةَ الأُسدِ ليس من أُسُدٍ فيكِ فيحمي حياضكِ الذُّعُرُ
أصنامُها هذه فأين هُمُ أُسدٌ إذا ديس ذيلهم زأروا
أيُّ عويلٍ في القصر منبعثٌ والليلُ فوق القباب معتكرُ
ما تلك جنٌّ في الدار عازفةٌ ولا شكاةٌ يبثُّها الشجرُ
لكنّ في ساحها صراخَ دمٍ أبرُّ أبنائهِ بهِ كفروا
ما زال يبلو بالشرّ بعضهمُ بعضاً إلى أن عراهمُ خوَرُ
ما نفعُ باعٍ تطولُ حاملَها إن كان فيها عن غيرهِ قصرُ
جسرٌ إلى الغرب مدَّهُ نفرٌ وهدَّهُ عن جهالةٍ نفرُ
كذاك تنهارُ كلُّ مملكةٍ ينوءُ بالتاج عرشها النخِرُ

* * *

أراكِ غرناطةً مروّعةً تُنعى إليكِ المدائنُ الأُخَرُ
لآلئٌ ينفرطنَ واحدةً من بعد أُخرى والعقد ينتثرُ
حتى إذا ما وقفتِ خائرةً وحدكِ لا نبلةٌ ولا وترُ
هويتِ والمجدُ قبل مصرعهِ ودّعَ قوماً من حولك اندحروا
ذلك مجدٌ حضنتِهِ زمناً واغتالهُ فوق حضنكِ القدَرُ
فكنتِ غرناطةً على فمهِ آخرَ ما قال وهو يحتضرُ ...

سان باولو **شفيق معلوف**



علاقة التاريخ باللهجات العربية

صورة محاضرة تلاها بالافرنسية الامير شكيب ارسلان

في مؤتمر المستشرقين المنعقد في لندن في اوائل سبتمبر الماضي

— ٢ —

الامالة وعدمها في سورية

وفي سورية الفاظ لا يأخذها الاحصاء غير خاضعة لقاعدة الامالة لا سيما ما كان على وزن فعالة وفعيلة وفعلة ومفعولة وفعولة وفاعلة وافعلة وافعلية وجاء قبل آخره احد الحروف الآتية : الرآء والعين والغين والقاف والضاد والظاء والخاء والحاء والطاء والهاء فإن العادة في مثل هذه الالفاظ عند السوريين ان يلفظوها بالفتح فيقولون « بشارة » و « عطارة » و « نشارة » و « بصيرة » و « صخرة » و « طفرة » و « فقرة » و « مطمورة » و « منظورة » و « مجرورة » و « عثورة » و « صابرة » و « شاطرة » و « حاضرة » وهلمّ جرّا . وقد تشذ عن هذه القاعدة الفاظ بحسب البلدان فيجيء قولهم من باب فعيلة مثلاً « يده قصيره » بكسر الرآء و « ناس كثيره » بكسر الرآء ايضاً و « كبيره » و « صغيره » بالكسر ايضاً . وتشذ الفاظ من باب فاعلة مثل « يده جابره » وقد سمعت اناساً يقولون « امرأة طاهرة » بفتح الراء وآخرين يلفظونها « طاهره » بكسر الرآء . وسمعت « سافرة عن وجهها » بفتح راء سافرة وبكسرها . ولم اسمع فعالة وفعولة ومفعولة مما يسبق آخره رآء الا مفتوح الرآء . وكذلك في حرف العين يقولون « رقاعة » و « رضاعة » و « جماعة » ولم يرد في هذا الضرب امالة . ثم يقولون « رفيعة » و « بديعة » و « شنيعة » وما اشبه ذلك بلا امالة ايضاً . ويقولون « نبعة » و « ضبعة » و « شنعة » و « رقعة » الخ بدون امالة ايضاً . ويقولون « مرفوعة » و « مصنوعة » و « مرقوعة » و « مسموعة » « واربعة » وما ماثلها كل هذا بفتح ما قبل آخره . ومثله « رافعة » و « صانعة » و « الشمس طالعة » الخ بدون ادنى امالة . وسمعت في حرف العين من يميل « الاربعاء » فيقولها كأنها « الاربعي » ولكن الاكثرين لا يميلونها . وحكم الغين هو حكم العين فيقولون « صياغة » و « صباغة » و « اصبغة » و « بلغة » و « نابغة » و « فارغة » و « ممضوغة » كل ذلك بفتح الغين . ويقولون في حرف القاف « رقاقة » و « علاقة » و « زرقة » و « فرقة »

و« سرقة » و« محروقة » و« مطروقة » و« صاعقة » و« باعقة » و« غيمة مارقة » و« الشمس شارقة » و« حقيقة » و« دقيقة » و« رفيقة » و« منمقة » وهلمَّ جرًّا وكلهُ بالفتح ايضاً . وحرف الضاد تقل الامالة فيما ينتهي بهِ من الصيغ فيقولون بالفتح « قراضة » و« عراضة » و« ربضة » و« نهضة » و« عريضة » و« فريضة » و« مريضة » و« ممرضة » و« ناهضة » و« غامضة » و« بضاعة معروضة » و« زبدة ممخوضة » و« غميضاء » وهلمَّ جرًّا . ومثلها حرف الظاء فمنها « لماظة » و « لحظة » و« لفظة » و« غاظة » و « غليظة » و« ملحوظة » و« ملاحظة » و« حافظة » وما هو في ضربها . ولا يميلون في الصيغ التي قبل آخرها حرف الخاء بل يقولون « صارخة » و« نفاخة » بالتشديد و« شيخة » و« فرخة » و«منسوخة» و« ممسوخة » .وكذلك حرف الحاء يقولون فيهِ « صباحة » و« سماحة » و« عين نضاحة » و« فضيحة » و«واضحة» و« صفحة » و« نفحة » و« نصوحة » و« اطروحة » و«مشروحة» و« اضرحة » وهلمَّ جرًّا وكله بفتح الحاء . وتجري مجراها الطاء فتسمعهم يقولون «خراطة» و« خريطة » و« منقوطة » و« اغلوطة » و« مغالطة » و« ساقطة » و« لاقطة »و«لقطة» وغير ذلك وكلهُ بالفتح . وحرف الهاء ايضاً قلما يميلون بعده فتسمعهم يقولون « فهاهة » و«نباهة » و« نبيهة » و« سفيهة » و «والهة » و« مشافهة » وغيرها . وتجري مجرى هذه الحروف الصاد فتجد الشاميين يقولون « حمصة » و« رقصة » و«وبصة» و« اعين شاخصة» و«مخصوصة » و«حريصة » «ومناقصة »الخ اما بعد حرف الباء فيميلون ويقولون «شربه» اي « شربة » « وضربة » اي «ضربه» وبقرةحلا به» و«غالبه »و«مغلوبه» وهلمَّ جرًّا. وكذلك يميلون بعد الجيم فيقولون«ضجّـِه» و«عجّـِه» و«معالجـِه » و«حجـِه» و«اعضاؤه مشنجـِه »و«حالتهمرجوجـِه»وكل هذا بكسرما قبل الآخر .ويميلون بعد التاء والثاء فيقولون « شماتـِه و« ثابتـِه» و« نابتـِه» و«مبتوتـِه» و«حتـِه»بمعنىقطعة و« وارثـِه»و«ثياب رثـِه» و «افكار مبثوثـِه » و« حمى خبيثـِه» وهلمجرًّا وكله بكسر التام والثاء قبل الوقف . ومن الحروف التي يمال فيها الدال فانهم يقولون «الحدِه » بكسر الدال و« الشدّه » و« المهده » و« اقوالمردوده»و« ايامعدوده»«والفائده » و« الجريده»و«المعانده» و«الانشوده» وما اشبه ذاك وكله بالكسر . وحرف الدال اقرب الحروف الى الميل الى الكسر ومنهُ قراءة (نار الله الموقده التي تطلع على الافئده)في كتاب الله . ثم حرف الذال وهو يجري مجرى الدال في الميل فيقولون في البلاد الشامية « نبذِه » اي « نبذة » و« لذّه » و« شاذِه » و« اكلة لذيذِه » و« تعويذِه » وكل ما جرى هذا المجرى بكسر الذال . ومثل ذلك حرف الزاي فانهم يقولون « حمزِه » و« غمزِه » و« فائزِه » و « فيروزه » و« اختنا العزيزه » و« قطعة مفروزِه » و« عصا مركوزه » و« هـذه المسئلة غير محرزِه » اي ليست ذات بال

و« النحيزه » وكل هذه الاوزان اذا جاءت على حرف ازاي نطق بها الشاميون بالامالة. ومثل ذلك حرف السين فانه مما ينطق به الشاميون مع الامالة فيقولون « خميسه » و« ليلة مأنوسه » و« امتعة مكردسه » و« وجوه عابسه » و« امور محسوسه » و« اسطر مطموسه » وهلم جرا. ومثله حرف الشين فيقولون مثلاً « من نكش هذه النكشه » و« مناظر منعشه » و« حوادث مدهشه » و« آنية منقوشه » و « دار مفروشه » وما اشبه ذلك . ومما يلفظه الشاميون بالامالة حرف الفاء فيقولون « غرف غرفيه » و« دراهم مصروفه » و« سيدة شريفه » و« قصة لها سالفه » و« الغرفه » و« الحرفه » و« العاطفه » و« وصف الطبيب له وصفه » و« كتب مصنفه » وما شاكلها . ومثله حرف الكاف فيقولون « ملكه » و« تكيه » و« ارض مملوكه » و« هالكه » و « طريق سالكه » و« البركه » اي الحوض و« البركه » اي الزيادة وهي محركة و« حرب مشتبكه » و« معركه » الخ. ومنها حرف اللام وامثلته « مسئله » و« مائله » و« عائله » و« محموله » و« معلوله » و« حصة قليله » و« مقاصد نبيله » و « مظلّه » و« مجلّه » و« الكلّه » و« القلّه » و « الغلّه » و« الدنيا زائله » و« ثياب مبتلّه » ومالا يحصى من الالفاظ التي تهوي نزولاً بمجرد ما يتلفظ بها اهالي الشامات . ومنها حرف الميم وشواهده « الامّه » و« العمامه » و« السلامه » و« يوم القيامه » و« خيل ملجمه » و« اظفار مقلمه » و« حربة مسمومه » و« قضية معلومه » « والناعمه » و« الحروف الجازمه » و« يتيمه » و« حليمه » و« العزيمه » و« اسود مثل الفحمه » و« الرحمه » وما اشبه ذلك . ثم حرف النون فيقولون « الجنّه » و« الانّه » و« حنّه » ويلفظون الحنّاء الممدودة بالامالة ايضاً فيقولون « الحنّي » و« المعاينه » و« السخنه » و« المصونه » و« الصوانه » و« الخزانه » وهلم جرا. ومن هذه الحروف الواو والياء فيقولون فيها « العلوه » و« النعوه » و« الكنيه » و« المنيه » و« المنيّه » بتشديد الياء و« الحلوه » و« الجلوه » و« الخلوه » و« العبايه » و« العنايه » و« المشويّة » و« المقليّة » ومن العدد « ميّه » و« الالفيه » و« الجاهليه » و« الامة العربية » وكل ما جاء بالواو او بالياء قبل الوقف في وزن من هذه الاوزان فهو عند اهل الشامات بالكسر

وكذلك يميلون في المقصور والممدود ولكن بدون اطراد فتجد بلداً مثل بيروت يقول اهلها للهواء « هوا » بامالة الالف و« نجا » و« مجوى » و« سوا » و« ظما » و« ندى » وما اشبه ذلك كأنما هي بين الالف والياء . وبجانبها لبنان يقول اهله جميع هذه الالفاظ المنتهية بالالف المقصورة او الممدودة كما يقولها أهل الحجاز او مصر . ومن السوريين من يقول « انا » بدون امالة ومنهم من يقول « أني » اي بامالة زائدة. فانت ترى من هذه الامثال ان اللفظ يختلف في سورية من صقع الى صقع وان الامالة ليست عند السوريين عامة للحروف كلها. فلا

عجب ان لا تكون الاندلس قد امالت في كل لفظ . ثم هي قد ضمت من العرب شماطيط ومن غير العرب تخاليط فليس كل الاندلسيين شاميين

تحريف غريب !

ومن اغرب ما لحظتهُ من الفاظ الاسبانيول العربية النازعة الى عرق قديم في لغة الناطقين بالضاد لفظة « رَبَال » Rabal ومعناها ضاحية البلد او الربض . وفي كتب اللغة عندهم انها لفظة عربية محرفة اي ان ضادها انقلبت لاماً . وقد كنت اظن ان قلب الضاد لاماً في هذه اللفظة انما جاء من الاسبانيول كما هي عادة كل امة في تحريف ما تنقله عن امة اخرى . لكني لما كنت في الحجاز من سنتين وصعدت الى جبال الطائف النزهة سمعت قبيلة هذيل وطائفة من ثقيف في جبال الشفا ينطقون بالضاد لاماً مفخمة فيقولون للضيف «ليف» وللضيق «ليق» وللاخضر « اخلر » وكذلك الظاء يلفظون منها كثيراً كاللام فيقولون « صلاة اللهر » اي صلاة الظهر . فتذكرت هذا الامر وعلمت ان الاسبانيول لم يحرفوا الربض من عند انفسهم بل سمعوا اضاده لاماً منذ جاء العرب الى ديارهم

ومن مميزات لهجات العرب شين الكشكشة وقد كانت لغة ربيعة في نجد . ولهذا نجدها في اكثر بادية الشام لان اكثر قبائل الشام مثل الرولا وولد علي والمحجل والسبعة والفدعان هم من عنزة . ولا يخفى ان عنزة هي من ربيعة لان عنزة هي من اسد واسد من ربيعة فقد نقلوا شين الكشكشة معهم من نجد الى الشام

ومثلها سين الكسكسة سمعت اناساً من بني صخر في البلقاء ينطقون بها فيقولون للكعابنة « السعابنة » وسمعت اناساً من العارض في نجد ينطقون بها ويقولون « يبسي » اي يبكي وغير ذلك من الالفاظ التي فيها حرف الكاف والتي يلفظونها بالسين . ومما لا نزاع فيه ان اصل عرب بيروت من اليمانية ولذلك لما كانت المناظرة بين القيسية واليمانية في بر الشام كان اهل بيروت من الفئة اليمنية وحدثت بينهم وبين القيسية معركة في « الغلغول » على باب بيروت . وليس الدليل على كون اهل بيروت يمانيين في الاصل منحصراً في التاريخ بل نجد اصطلاحات يمانية في الفاظهم مثل قولهم « امبارح » اي البارح وهي لغة حمير وعليها الحديث الشريف (من امبر صيامٌ في امسفر) اي من البر صيام في السفر . ويقول اهل بيروت « ناهي » بمعنى طيب كما يقول ذلك اهل اليمن. وكذلك مدينة حمص هي بلدة غلبت عليها اليمانية حتى جاء في الامثال « اذلُّ من قيسيٍّ بحمص » ولما هاجر كثير من الشاميين الى الاندلس كان اكثر نزول الحمصيين بأشبيلية فسميت ايضاً بحمص . وغلب على اهل حمص الاندلسية العرق اليماني ايضاً مثل اللخميين والبلويين والجذاميين وبني خلدون وبني حجاج . فحمص الغربية كانت مثل امها حمص الشرقية بلدة يمانية وكلتاهما

نقلت الفاظ اليمن. ولما فتح العرب الشام اتى اليمانيون الى حمص بصناعتهم النسيج وباسمائها فهم الى الآن يقولون للثوب « برد » كما يقولونهُ في اليمن

ومن هذا القبيل استعمال الدروز للفظة « عقلاء » بمعنى الوجوه والرؤساء فهذا الاصطلاح آتٍ من اليمن ولا يزال في اليمن . ومثله « منصب » يقولون « بنو فلان مناصب » او « عائلة مناصب » فهذا من اصطلاح اليمن وحضرموت ومن اصطلاح الدروز وشيعة جبل عاملة . وهاتان الطائفتان متوالية جبل عاملة ودروز جبل لبنان جيرانهم اصلهما من عرب اليمن الدروز من لخم وجذام والشيعة من عاملة وكانتا من قبل فرقة واحدة كلها مشيعة لآل البيت ثم اخذ بعضهم بمذهب الشيعة الاثنا عشرية والبعض الآخر بمذهب الشيعة السبعية الذين منهم الاسماعيلية فالدروز .ولا تزال بطون كثيرة منها حافظة اسماءها قبل الانشقاق واصحابها يعرفون انهم من ارومة واحدة

لفظ القاف في مصر

هذا ومن المناسبات الواقعة بين التاريخ واللهجات كيفية لفظ القاف فإن القاف المقلقلة كانت في القديم لفظ قريش واهل مكة ام القرى كما ان القاف المعقودة اي التي بين القاف والكاف كانت لفظ البادية . وانك لتجد الحالة بعينها الى يوم الناس هذا . فاهل الحواضر والعلماء والادباء والمترفون يلفظون القاف النحوية . واهل القرى والصحاري سواء في الشام أو مصر أو جزيرة العرب أو العراق أو شمالي افريقية يلفظون القاف المعقودة

وانظر الآن الى ما قالهُ كبير ادباء وقته حفني ناصف رحمهُ الله في موضوع الاستدلال التاريخي من اختلاف اللهجات فقد فرى في هذا البحث فرياً لم يسبقهُ اليهِ احد فيما اعلم وبلغ من الاجادة ما ليس وراءه متطلع لغايةٍ فكراً وتعبيراً فقال « واول ما انقدح في ضميري هذا الخاطر رأيت في احد الاندية قوماً يتحاورون بعضهم من مديرية المنيا وبعضهم من مديرية بني سويف فسمعت كلامهم فاذا هم على تقارب ديارهم وتجاور مواطنهم متباعدون في اللهجة متباينون في طريقة الكلام أيّ تباين .فقلت ياسبحان الله كيف يكون هذا التباين والاختلاط موجود والتقارب حاصل . فلابد ان يكون لذلك سر خفي وسبب واقعي انبنى عليهِ هذا التخالف العجيب رغماً من مصادمة الاختلاط والتجاور . ثم قلت : لا شك ان هذا الجيل القائم لم يأت بدعاً في اللغة ولم ينطق بشيء غير ما سمعهُ من الجيل الذي قبلهُ كما هو مشاهد في تساوي لهجة الشيوخ والصبيان فبالضرورة هذا الجيل ورث طريقة الكلام عن سلفه . ثم نقلت النظر الى الجيل السابق المتصل بالجيل القائم وبحثت عن سبب اختلافهِ أيضاً فتبين لي بقياس الغائب على المشاهد ان سببهُ ارث اللغة عن الجيل الذي قبلهُ أيضاً ولم ازل انقل النظر

من جيل الى جيل راجعاً الى جهة الماضي حتى انتهيت الى الجيل الذي دخلت في العربية ارض مصر وذلك في ايام ما فتحها المسلمون في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ . فقلت ههنا تنحلُّ المسألة ويظهر السر الخفي ويتجلى للعيان السبب في اختلاف طريقة الكلام في الاجيال المتتالية من ذلك العهد الى الوقت الحاضر .فاخذت مادة من مواد الاختلاف والقيتها تحت منظار البحث ووضعتها موضع التأمل حتى اذا ظهر خافيها تكون نموذجاً لباقي المواد .

وتلك المادة هي طريقة النطق بالقاف .فبعض اهل بني سويف ينطقون بها قافاً صريحة كالقاف التي ينطق بها القرّاء والعلماء . واهل المنيا ينطقون بها مشوبة بالكاف كما ينطق بالجيم عوام اهل القاهرة. ثم عرضت هذا الاختلاف في تلك المادة على المنقول عن قبائل العرب فوجدتهُ موافقاً حذو النعل بالنعل للاختلاف بين قريش وغيرهم حيث كانت قريش تنطق بها قافاً خالصة وغيرها يشوبها بالكاف. فاوقفتني تلك المقارنة على ان العرب الذين استوطنوا ارض بني سويف مدة الفتح وبعده كانوا قرشيين والذين استوطنوا ارض المنيا كانوا من غير قريش . وعلى هذا فيمكن ان ننسب الى قريش اما بالنسب او بالولاء او بالمخالطة كل من ينطق من اهل مصر بالقاف الصريحة كسكان مديرية الفيوم وبعض مديرية الجيزة واهل ابيار ورشيد وضواحيها والمحلة الكبرى والبرلس وبلبيس من الشرقية والخصوص من القليوبية وان نحكم على كل من يتكلم بالقاف المشوبة بأنهُ ليس من قريش كاهل الصعيد ومديريتي الشرقية والبحيرة الا قليلا وبعض مديرية المنوفية وجميع سكان بوادي مصر

«واكد لي صحة ذلك الحكم ما كان ولا يزال كائناً من عموم الخصب والنماء على جميع الاراضي التي يسكنها المتكلمون بالقاف الصريحة دون الاراضي التي يسكنها المتكلمون بالقاف المشوبة فان منها ما هو صحار قحلاء لا ترى العين فيها الا الرمل والحصى ومنها ما هو سهول سبخة لا تصلح الا لزراعة بعض الاصناف ويتوقف استنباتها على مشاق زائدة وتكاليف باهظة ومنها ما لا يزرع في العام الا مرة واحدة . وانت تعلم انهُ مركوز في طباع الامم الفاتحة حب الاستئثار بالمنافع والميل الى الاختصاص باحسن ما يمكن وضع اليد عليهِ من الارض التي يفتحونها سنة الله التي فطر الناس عليها . وقريش ايام فتوح مصر كانت اشرف العرب نسباً واوفرها قوة واعزّها نفراً وكان لها في الدولة الاسلامية النفوذ الاقوى والسطوة العليا لقرابتها من صاحب الدين عليهِ الصلاة والسلام فلا جرم ان سكنت احسن البقاع وامتازت بأحسن الاصقاع »

الى ان يقول رحمهُ الله :

« وههنا وقفت على الضالة المنشودة وتيقنت امكان فتح الكنوز المرصودة بان تطبق جميع مواد الاختلاف الشائعة في اللغات العامية على ما يماثلها من لغات العرب الصحيحة

وينسب كل من يتكلم بطريقة الى اصحابها . وحينئذ يمكن اصحاب الانساب المجهولة في مصر والشام والغرب والسودان والعراق وسائر المالك التي افتتحتها العرب ان يعلموا الى من ينتسبون وبمن يرتبطون سواء في ذلك ارتباط النسب وارتباط الولاء والمحالفة . ويمكن ايضاً القبائل المتفرقة في اقطار مختلفة اذا كانت طريقة كلامهم متحدة ان يعلموا ان لهم اصلاً واحداً يجمعهم ويؤول اليه انتماؤهم »

ثم يقول برّد الله ثراه

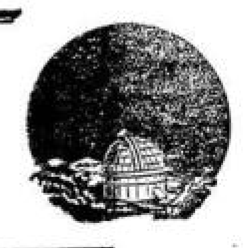
« ولعمرك ليس هذا بقليل عند من يقدر الامور حق قدرها ويعنيه استخراج الدقائق التاريخية بل هو امر يتنافس فيه المتنافسون . وما الاستدلال بهذه الطريقة طريقة الكلام بادنى خطورة ولا اقل اعتباراً من الاستدلال بالاحجار الصامتة والدفائن العتيقة واني لاعجب كيف لم يتناول هذا الموضوع جهابذة العلماء ومشاهير المتقدمين مع ما لهم من سعة الاطلاع ورسوخ القدم وكيف لم يهتم المتأخرون باذاعة ما كتب والحذو عليه ان كان قد كتب شيء في هذا المعنى »

ويقول في محل آخر :

« ويتفرع على ما تقدم امكان معرفة انتساب اقوام متفرقين في جهات عديدة الى قبيلة واحدة . فاذا اشترك قوم في الشام وقوم في المغرب في جملة خواص لقبيلة واحدة بحيث تكفي تلك الخواص للتمييز حكم بأنهم من اصل واحد ولسبب من الاسباب الكونية قضى الزمان بتفرقهم وتشتتهم في النواحي وههنا تتنبه الخواطر للسؤال عن علة تلك الحادثة وتستشعر بنقص التاريخ من هذه الجهة فتتشوّف الى تكميله بالبحث عن اسباب هذا التبدد ولا بد ان تعثر ولو بعد حين على مطلبها » انتهى

جمع حفني ناصف كل هذا العلم الجليل في هذه الاسطر التي تقدمت . وحق له ان يعجب من تأخر العلماء والجهابذة عن اعطاء هذه المباحث حقها من الجهد خدمةً للتاريخ على حين انهم انفقوا الاعمار الطويلة والاموال الطائلة في التنقيب في الاحجار وتحت الارضين لاجل هذه الخدمة . فأما تفرق القبائل العربية في الاقطار المتنائية فاكثره وقع بسبب الفتح الاسلامي الذي كانت هذه القبائل هي القائمة به الى ان خلا كثير من اصقاع الجزيرة من اهله . ثم وقع منهُ شيء كثير بسبب حروب القبائل بعضها مع بعض وذلك نظير حروب بني عقيل وبني تغلب في البحرين مع بني سليم بن منصور مما ادى الى خروج هؤلاء الى مصر ثم الى برقة ايام المعز بن باديس

[التتمة في الجزء القادم]



سر حرارة الكواكب

نظرية جديدة

مقدار الطاقة المنطلقة

الشمس ، وكل النجوم ، آلات مولدة للحرارة ، تستمد الطاقة من مصدر داخلي ثم تحولها حرارة وتطلقها في الفضاء فتذهب بلا رجعة على مانعلم او على ما نستطيع ان نتصور . وسرعة هذا الفعل اشد من ان يدركها عقل تعوّد المقاييس والمعايير الكبيرة . واذا حاولنا ان نصفها بألفاظهندسية ، نبتْ محاولتنا عن القصد . ولكن اذا تذكرنا ان نظرية النسبية تقضي بأن الحرارة ، ككل شكل من اشكال الطاقة ، لها وزن نستطيع قياسهُ ، صحَّ ان نقول رطل من الحرارة كما نقول رطل من اللحم . ولكنّ رطل الحرارة قدر عظيم جداً يكفي لتحويل ٣٠ مليون طن من الصخر البارد الى لابةمتوهجة اذا استطعنا استعماله كلهُ ، او هو كاف لتجهيزنا بقوة مليوني حصان مدة سنة تقريباً . ومع ذلك فالشمس تشع ٤٢٠٠ ٠٠٠ طن من الحرارة كل ثانية ، وما زالت تفعل ذلك من الف مليون سنة او اكثر . فما هو المصدر الذي تستمدّ منهُ الشمس هذه الطاقة العظيمة التي لا تكاد تنفد ؟ والمقرّر عند العلماء اننا لا نعرف فعلاً كيماويًّا على الارض يستطيع ان يولد جزءًا من مليون جزء من هذه الطاقة ، وان الطاقة الجاذبية التي تنطلق من الشمس بانكماشها ، لاتعلل الاّ بضعة اجزاء في المائة منها . فلابدّ من حدوث شيء في مادة الشمس — في الذرات التي تتركب منها — يجعلها تفقد من مجموع كتلتها ٤ ٢٠٠ ٠٠٠ طن في الثانية . فاما ان الذرات تتلاشى او ان طوائف كبيرة منها تتحوّل تحوُّلاً ينقص مجموع كتلتها

فعلا البناء والانحلال

وكلا الفعلين ممكن بحسب قواعد علم الطبيعة الحديث . فمن المستطاع ، في أحوال معينة وان كانت نادرة ، ان يلتقي بروتون والكترون فيلاشي احدهما الآخر ، تاركين شرارة من الاشعاع حاملة الطاقة التي تمثل مجموع كتلتيهما المتلاشيتين . وهكذا تستطيع النجوم ان تمضي في تلألئها المتناقص بفناء مادتها . واما الفعل الآخر فهو نقيض ذلك — وهو البناء والتركيب . فذرة الايدروجين ، وهي أخف ذرات العناصر وأبسطها تركيباً مبنية من بروتون واحد

والكترون واحد . وأما ذرات العناصر الاخرى — وهي اثقل منها وزناً — فبنية من نواة والكترونين او اكثر ، والنواة مؤلفة من بروتونات والكترونات متحدة على وجهٍ لم يُفهَم بعدُ . وعدد الالكترونات في النواة وحولها يعادل عدد البروتونات في النواة ، فكأنَّ ذرات العناصر الثقيلة مبنية من ذرات ايدروجين . ولكن وزن النواة في العناصر الثقيلة يفوق دائماً وزن العدد المقابل من ذرات الايدروجين . اي انهُ في اثناء اتحاد بضع ذرات ايدروجين لتكوين ذرة عنصر ثقيل يضيع جانب من وزنها في الاتحاد . فأين ذهب ؟ المنتظر انهُ تحوَّل اشعاعاً !

فاذا كنا نستطيع ان نحوّل رطلاً من الايدروجين الى ذرات عناصر ثقيلة ، انطلقت في اثناء العمل طاقة قدرها مائة الف حصان مدة ستة اسابيع . واذا كانت الشمس مركبة اصلاً من الايدروجين فتحوّله المستمر الى ذرات عناصر ثقيلة يكفي ان يجعل ضوء الشمس ما هو الآن مائة الف مليون سنة . واذا كان احد هذين الفعلين — فعل التلاشي وفعل بناء الذرات الثقيلة من ذرات الايدروجين — جارياً في الشمس فالمنتظر ان كتلتها وضياءها لا ينقصان إلاَّ قليلاً جداً في مدى الزمن الجيولوجي — اي من حين جمدت سيَّاراً — وعلماء الطبيعة الفلكية يسلمون باحتمال احد هذين الفعلين او كليهما معاً

ولكن تفصيل ذلك ظلَّ غامضاً الى عهدٍ قريب . فنحن نعلم ان الذرات ، في احوال عادية ، هي اشياء مستقرة البناء ، صعبة التحويل . نعم ان ذرات العناصر المشعة تتفتت من تلقاء ذاتها ، فتطلق طاقة كبيرة في حد ذاتها ، الاَّ انها ضئيلة جداً ازاء الطاقة التي تتولد من بناء ذرات عناصر ثقيلة من ذرات الايدروجين . ولكن العناصر المشعة قليلة على الارض ونادرة في الشمس حتى لا تظهر خطوطها في طيفها . فالحرارة التي يمكن استخراجها من كل المصادر التي في داخل الارض ضئيلة جداً والاَّ كان ما يشعّ منها كافياً لجعل الارض تتألق حمرة

استطراد

....

وكل الباحثين متفقون على ان فعل انطلاق الحرارة من داخل الشمس وغيرها من النجوم اسرع في قلب نجم حيث تكون الحرارة عالية منهُ في مادة باردة جامدة من نفس التركيب . فيبدو لاول وهلةٍ كأن هذا الفعل يجعل تركيب النجم عديم الاستقرار ، مضطرباً كل الاضطراب لان الحرارة التي تتولد في قلبهِ تستغرق وقتاً طويلاً في الوصول الى سطحهِ . وما يتولد من الحرارة داخلهُ يجب ان يعدَّل تعديلاً مستمراً مع ما يشعّ منهُ ، فاذا زادت حرارة قلب النجم عُشراً ، صارت الحرارة المولّدة فيهِ ، اعظم من الحرارة المنطلقة من سطحه ، فتطّرد زيادة الحرارة في قلبهِ الى ان تنتهي بانفجار عظيم

ولا بدَّ من حدوث فعل كهذا لو انهُ تقضي على النجم أن لا يغيّر حجمهُ قط . والواقع ان النجم يتمدد ، إذا زادت حرارتهُ الداخليـة وضغطهُ الداخلي . وعند ما يتمدد يزيد ما يشعُّ منهُ من الحرارة . وقد دلّت الحسابات الرياضية الدقيقة ان الابتراد الناشىء عن التمدُّد ، يترك النجم اقلَّ حرارةً مما كان عليهِ قبل زيادة حرارتهِ الداخلية ، وهكذا يفعل التمدد فعل صمّام يتصرّف فيهِ خطر الانفجار. على ان التمدّد الاول يكون عظيماً فيعقبهُ تقلّص وهذا يجعل هذا الطراز من النجم كأنهُ بلون يتمدَّد ويتقلّص بالنفخ ، والنجوم المتغيرة — المعروفة بالنجوم القيفاوية — تتصرف ، او يبدو كأنها تتصرف على هذا المنوال

ويرى السير جيمز جينز ان تولُّد الحرارة يجب ان يسنَد الى انحلال ذرات عناصر ثقيلة معقدة البناء على نحو انحلال ذرات الراديوم وغيرهِ من العناصر المشعّة في الارض ، فتنطلق طاقة منها في اثناء انحلالها . ولم يحاول احدٌ من العلماء المحدثين ان يعلّل حرارة الشمس — والنجوم — بفعل بناء الذرات الثقيلة من الذرات الخفيفة ، قبل الاستاذ اتكنسن احد علماء جامعة رتجرز الاميركية في رسالة حديثة لهُ

نظرية اتكنسن

القاعدة التي تقوم عليها نظرية اتكنسن هي مبادىء الميكانيكيات الموجيّة [١] في بناء الذرات ونواها . فقد وجد بالحساب الرياضي العالي انهُ في حرارة تبلغ ١٠ ملايين درجة بميزان سنتغراد ، قد يصطدم بروتون طائر بنواة ذرة خفيفة (اي ذرة عنصر خفيف) اصطداماً يجعلهُ ان يلصق بها . فتتولد كذلك نواة ذريّة جديدة ، اكبر وزناً واعظم شحنة كهربائية . وهكذا تبنى ذرات عناصر ثقيلة من ذرات عناصر خفيفة . ففي احوال — كالاحوال التي في داخل الشمس — لا تلبث ذرة من الهليوم اكثر من بضع ثوانٍ قبل ان يصدم نواتها بروتون تائهٌ فيلصق بها ، فتتولد كذلك ذرة ليثيوم (وزن الليثيوم الذري ٥) ثم تتولد بالطريقة نفسها ذرات من عنصري البريليوم والبورون وغيرهما. فاذا بلغ البناء درجة ذرة الاكسجين طالت المدة قبل بناء عنصر اثقل منهُ الى ملايين السنين — في حين انها بين الهليوم والليثيوم بضع ثوانٍ فقط — وهكذا يصبح بناء ذرات العناصر الثقيلة عملاً بطيئاً جدَّ البطء

ولكن اذا كان هذا كل ما هنالك في المسألة ، فلا بدَّ ان يأتي يوم في حياة كل نجم ، تتحول فيهِ ذرات الهليوم وغيره من العناصر الخفيفة الى كربون ونتروجين واكسجين وغيرها ولكن ثمة ما يحملنا على الاقتناع بان ذرة احد نظائر البريليوم (وزنهُ الذريّ ٨) غير مستقرّة البناء وتنحلُّ نواتها الى نواتين من ذرات الهليوم . وهكذا يتكوّن قدر جديد من الهليوم تبنى منهُ العناصر التي اثقل منهُ . والمفروض ان المادة الاصلية هي — او معظمها —

---

(١) راجع المقتطف

ايدروجين ومنهُ يبنى الهليوم ومن الهليوم العناصر الاخرى. وفي اثناء البناء تنطلق الطاقة التي تقابل مقدار المادة الذي يتلاشى فيهِ . اما العناصر الثقيلة كالصوديوم وما هو اثقل منهُ فلا تكون مقادير كبيرة منها قد تكوَّنت بهذا الاسلوب ، لطول الفترة التي تنقضي قبلما يصطدم بروتون طائر بنواة ذرة من العنصر السابق له . لأنهُ مرَّ بنا انهُ كلما ثقل العنصر طالت هذه الفترة حتى بالنسبة الى حياة النجم الطويلة . وعليهِ فلا بدَّ من تعليل ، وجود العناصر الثقيلة في الشمس — والكواكب — بفعل طبيعي آخر . وما تحتمهُ هذه النظرية تحتيماً نظريًّا يتفق مع ما هو مشاهد في النجوم مما لا يتسع المقام للتبسط فيهِ . ويقدّر الاستاذ اتكنسن ان الحرارة اللازمة في داخل اي شمس لتبقى متألقة مشعّة بفعل بناء الذرات هي درجة ٢٠ مليون وهذا يتفق مع تقدير ادنغتون . ولابد ان تسلخ سنون عديدة قبل الوصول الى معرفة النتائج التي تسفر عنها هذه النظرية الجديدة . والمرجح انها سوف تعدّل ومع ذلك تظلّ من اهم الخطوات التي خطاها العلم في محاولة تعليل تولّد الحرارة في قلب الشمس والنجوم بوجهٍ عام ، تعليلاً يفسّر كثيراً من الامور التي لم يدرك لها وجه من قبل

عملية اطلاق طاقة الذرة

وعلى ذكر هذه النظرية الجديدة نشير الى التجربة الخطيرة التي اجراها الدكتور ولتر بوث (Bothe) الالماني . فانها تتفق ومعظم ما جاء في نظرية اتكنسن. ذلك انهُ تمكن من توليد اشعة غمَّا — وهي احد الاشعة المنطلقة من ذرة الراديوم واقصرها امواجاً واشدها نفوذاً — باطلاق دقائق الفا على ذرات معدن البريليوم وهو معدن خفيف كالالومونيوم تقريباً. فكانت النتيجة ان الدكتور بوث حصل في هذه التجربة على طاقة — في شكل اشعة غمَّا — تفوق طاقة دقائق الفا التي اطلقها على ذرات البريليوم . وهذا يعلّل بان دقائق الفا لم تحلّ ذرات البريليوم بل ركبت منها فعلاً ذرّات عنصر اثقل وزناً من البريليوم — وهو عنصر الكربون، وانهُ في اثناء تكوُّن ذرات الكربون انطلقت طاقة في شكل اشعة كونية لطيفة . ولا يخفى ان مليكن يعلّل الاشعة الكونية بتكون العناصر الثقيلة في الفضاء من العناصر الخفيفة . فاذا صحَّ هذا وجب ان تجدّد العناية بمحاولة اطلاق طاقة الذّرات بهذه الطريقة الجديدة . ولكن الحائل العملي دون تحقيقها هو ان دقيقة واحدة من خمسين الفاً من الدقائق التي اطلقت على ذرات البريليوم اصابت هدفها . ومع انهُ قد يوجد امكنة في الكون حيث يجري هذا الفعل في احوال طبيعية لا يميل العلماء الى التفاؤل بامكان جعل الطريقة الجديدة مزاحماً للفحم والبترول والماء المنحدر

واذا كانت الاحوال في الشمس مواتية لها فيمكن تعليل حرارة الشمس وضوئها بتركيب العناصر الثقيلة من العناصر الخفيفة بدلاً من التعليل المسلّم بهِ الآن وهو تحوّل المادة الى اشعاع

صفحة من الادب الايطالي

محاورة بين روح الهواء وروح الارض

للشاعر الايطالي الكبير جياكومو ليوباردي
Giacomo Leopardi

روح الهواء

ما هذا ! انتِ هنا ؟ والى اين تقفزين ؟

روح الارض

ارسلني والدي لابذل الجهد في الوقوف على ما يكيده لنا هؤلاء الآدميون الفجرة. وهو يرى بثاقب فطنته انهم يبيتون لنا الشر فقد غبر عليهم زمان طويل وهم في سكون مطبق مما أثار دهشتنا . ولم يظهر احد منهم في العالم السفلي . ووالدي يستريب بهم ويرى انهم عاكفون على ابتداع حيلة ضده الا اذا كانوا قد عادوا الى عادتهم القديمة في المقايضة بالسائمة بدلاً من الذهب والفضة. او ربما اكتفى المتحضرون الآن بالحوالات والسندات مكان النقود كما كانوا يفعلوا واعتاضوا عنها بحبات الخرز كما هي الحال عند المستوحشين

روح الهواء

عبثاً تحاولين البحث عنهم فقد هلكوا وبادوا

روح الارض

بالله ماذا تعنين بذلك ؟

روح الهواء

أعني انهم انقرضوا وبادوا عن بكرة ابيهم

روح الارض

هذا هراء . ولو حدث شيء مثل هذا لذكرتهُ الجرائد واني لم اسمع على الاطلاق شيئاً بخصوص هذا الحادث

روح الهواء

الجرائد ! أأنت غبية الى حد انك لا تعرفين ان الجرائد لن تظهر ما دام الانسان قد هلك

روح الارض

نعم هذا حق . ولكن كيف نقف الآن على اخبار الدنيا

روح الهواء

اي اخبار تريدين سماعها الآن ؟ اغربت الشمس ام اشرقت وهل الجو حار او بارد وهل امطرت السماء وتساقطت الثلوج وهبت العواصف الشديدة؟ والآن وقد انقرضت السلالة البشرية استراح الحظ وأزاح العصابة عن عينيهِ واستعاض عنها بنظارات وربط عجلته الى احد الابواب وجلس مضموم الذراعين يتأمل احوال الدنيا دون ان يشترك فيها فليس الآن ثمة من ممالك ودول تنتفخ وتتضخم ثم تختفي اختفاء فقاقيع الصابون ولقد اندثر أثرها وطمست معالمها فلا حروب ولا جهاد . وكل سنة الآن تشبه سابقتها مثلما تشبه البيضة البيضة

روح الارض

ولكننا لا نستطيع ان نعرف ايام الشهر إذ لا تقاويم الآن

روح الهواء

ولكن ما خطر ذلك ؟ ان القمر سيتابع سيره دون ان يعوقهُ عائق

روح الارض

ولكن الايام ستفقد اسماءها

روح الهواء

ماذا ! أتظنين ان الايام تقف عن دورتها اذا نحن لم ندعها بأسمائها ؟ وربما دار في خلدك انها اذا مرت مرة يمكن ارجاعها بالنداء

روح الارض

ولكننا لن نستطيع عد السنين

روح الهواء

في هذه الحالة يمكننا ان نعد انفسنا صغيرات السن بعد اذ طال عمرنا . وفوق ذلك فانهُ عند ما لا نستطيع حساب الماضي يقل اهتمامنا بهِ . واذا بلغنا الشيخوخة لا نترقب الموت من يوم لآخر

روح الارض

ولكن كيف كانت خاتمة هؤلاء المناكيد ؟

روح الهواء

لقد ابادتهم الحروب المتتابعة . وبعضهم غرق في الاسفار البحرية والرحلات البعيدة وفريق آخر هلكوا بأكلهم بعضهم البعض . وجماعة منهم انتحروا وبعضهم انهكوا

اذهانهم بادمان المطالعة . والبعض اودت بهم البطنة . وقصارى القول انهم هلكوا باتيانهم كل ما في طاقتهم لاغضاب الطبيعة وجلب الهلاك

روح الارض

لم استطع ان افهم من مضمون كلامك كيف ان شعباً من الحيوانات ينساق برمته الى الهلاك والانقراض على هذه الصورة العجيبة

روح الهواء

لقد كنت اظن ان من كان مثلك « جيولوجيًّا » محنكاً لا يرى في هذا شيئاً غير مألوف . وان انواعاً كثيرة من المخلوقات التي غشيت الارض غير موجودة الآن . ولا يوجدلها أثر الا في حفريات الارض . وهذا رغم ان هذه المخلوقات التاعسة لم تلجأ الى حيلة من الحيل المدعة الحصر التي كان يلجأ اليها الانسان لجلب الهلاك

روح الارض

اظنك على الحق . ولكن اريد ان اقول انني اود لو انهُ اتيح لحشرة او لحشرتين من هؤلاء الآدميين ان تعود الحياة ولو لم يكن ذلك الا لنعرف ماذا يقولون عند ما يجدون انهُ بالرغم من هلاك النوع البشري فان كل شيء لا يزال سائراً في مجراه كما كان الامر من قبل في هذه الدنيا التي كانوا يظنون انها خلقت من اجلهم

روح الهواء

انهم لا يستطيعون ان يتصوروا ان الدنيا خلقت في الحقيقة لاجل هوام الهواء

روح الارض

اسمحي لي ان الاحظ عليك الخلط في الكلام اذا كنت تجدّين

روح الهواء

ماذا تعنين بذلك ؟ انا اجدُّ في كلامي

روح الارض

اصلح الله حالك ايتها الهازلة الصغيرة ! ان صبية المكاتب يعلمون ان الدنيا لم تخلق الاّ لحشرات الارض

روح الهواء

حقيقة لحشرات الارض ! لحشرات الارض التي تعيش على الدوام تحت الارض ! هذا هزل . ماذا تستفيد حشرات الارض من الشمس والقمر والهواء والبحر والسهول

روح الارض

وانا اريد ان اعرف ما الذي تستفيده حشرات الهواء من مناجم الذهب والفضة وسائر محتويات باطن الارض ؟

روح الهواء

سواء استفادت او لم تستفد فلنترك الخلاف في هذا . واني متأكدة ان الضب والبعوض وسائر الحشرات تتصور ان الدنيا باسرها خلقت من اجلها . فلندع كل مخلوق يستمسك برأيهِ اذ لا يستطيع احد ان ينتزعهُ من رأسهِ . وانا اقول بالاصالة عن نفسي انني لو لم اولد من حشرات الهواء لانفطر قلبي

روح الارض

وانا كذلك لو لم اولد من حشرات الارض . لوددت ان اعرف ماذا عسى ان يقولوا الآن في ادعائهم ملكية الاشياء . ذلك الادعاء الذي كان يستحثهم على بسط ايديهم في كنوز الارض وانتهابها زاعمين انها من فيئهم وان الطبيعة انما خبأتها في باطن الارض لتختبر قدرتهم في التنقيب عنها واخراجها

روح الهواء

هذا حالهم . ولست ادري لماذا بلغت بهم القحة الى حد انهم لم يكتفوا بان يتصوروا ان كل شيء على الارض انما جاء لمنفعتهم فحسب بل توهموا ايضاً ان الخليقة باسرها ليست الا سفاسف اذا قيست بهم . ولقد كانوا يسمون الانقلابات الضئيلة التي تنتاب احوالهم ثورات عالمية واطلقوا على تاريخ اقوامهم واممهم تاريخ الدنيا مع وجود انواع كثيرة اخرى من الحيوان على الارض — بغض النظر عن الحشرات — تعادلهم في الكثرة . ومع كل هذا فان هذه الحيوانات التي كانوا يظنون انها لم تخلق الا لمنفعتهم لم تحس بهذه الثورات العالمية

روح الارض

وهل استيقنوا ان البعوض والبراغيث خلقا لمنفعتهم

روح الهواء

اي نعم .لاجل ان يتعلموا الصبر

روح الارض

فكأنهم لولا وجود البراغيث لما وجدوا شيئاً يجربون بهِ صبرهم

روح الهواء

ولقد وصلت الغلطة باحدهم — وهو المدعو كريسبس — الى حد ان يقول ان الخنازير ليست الا بضعة من اللحم جهزتها الطبيعة ليلتهمها الانسان وان الحياة لم تمنح لها الا لحفظها من التلف مثلما نضع البهارات والتوابل في الطعام خشية العفن والفساد

روح الارض

لو كان في ذهن كريسبس المذكور ذرة من الملح بدلاً من هذا الخيال اليقظ لما فاه بمثل هذا الكلام

روح الهواء

وهناك فكرة اخرى لذيذة . وذلك انهُ يوجد عدد لا نهائي من المخلوقات الحية لم ينظرها هؤلاء الذين ادعوا السيادة وظهروا بمظهرها بل ان نفس وجودها كان مجهولاً عندهم اما لأن هذه المخلوقات تعيش في اماكن لم يطرقها الانسان واما لانها من الضؤولة بحيث لا تراها العين العارية . والآلاف المؤلفة من هذه المخلوقات لم تستكشف الاّ في الازمنة الحديثة . ويصدق هذا القول على النباتات . وليس هذا كل ما في الامر لانهُ بعد ان مرّت اجيال واخترع المنظار المكبر واطرد رقيه فاهتدوا بهِ الى مواقع عدد قليل من النجوم والاجرام التي كانوا يجهلونها منذ آلاف السنين اسرعوا فأدرجوها في قائمة ممتلكاتهم متوهمين ان هذه الاجرام السماوية ليست سوى مصابيح وشموع قد زينت بها السماء لترسل الضوء الى حضراتهم اذ من الضروري لهم ان يشغلوا انفسهم حتى في اثناء الليل

روح الارض

هذا حق . ومن هذا القبيل ايضاً انهُ عند ما يبصرون في ليالي الصيف النيازك تمرق عرض السماء اظنهم يقولون انها ارواح صاعدة الى السماء لتصلح الشموع حرصاً على راحتهم

روح الهواء

صحيح . ولكن الآن وقد عفا اثرهم فان الكون لم يكترث لهم ولم يشعر بحاجة اليهم فالانهار لا تزال تجري كعادتها والبحر وان لم يعد يستخدم لملاحتهم فان مياهه لم تغض وهذا لعمري مما يدهش

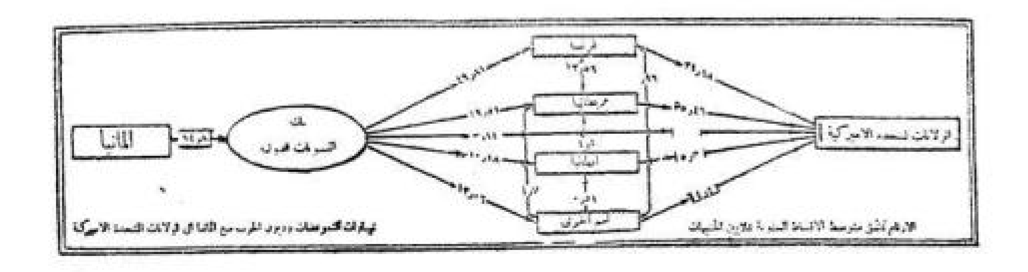
روح الارض

ولا تزال النجوم والافلاك كدأبها تشرق وتغرب ولم تلبس عليهم ثياب الحداد

روح الهواء

والشمس لم يعل صفحتها الصدأ كما فعلت يوم مات قيصر في زعم فرجل . ومن رأيي انها لم تحفل بهِ مثقال ذرّة اكثر مما حفلته بتمثال بومباي

علي ادهم



مال التعويض والديون الدولية

وحالة العالم الاقتصادية

اعلنت المانيا ما معناه انها لا تستطيع ان تسدّد ديونها السياسية . فوقع هذا الاعلان وقع القنبلة ، في دوائر فرنسا السياسية والمالية . لان ذلك يعني — اذا سلّم بهِ — انهيار البناء الذي شيد عليهِ نظام التعويضات على قواعد من معاهدة فرساي وتقريري دوز ويونغ . فهل تلغى التعويضات وديون الحرب ؟ وهل تقدَّم ديون المانيا التجارية على ديونها السياسية ؟ وما موقف اميركا ازاء هذا كلهِ ؟ مسائل متغلغلة في صميم مشكلات العصر وضائقتهِ المالية . وغرضنا في هذه المقالة فحص المسألة من وجهتها الاقتصادية لنجلو للقراء علاقة التعويضات بالديون الدولية وعلاقة هذه بحالة المانيا الاقتصادية ، واثر ذلك كلهِ في العالم

في الرسم البياني الذي توجنا به هذه الصفحة ، تظهر المانيا بمظهر النبع الذي تجري منهُ تيارات مال التعويض عن طريق بنك التسويات الدولي الى دول الحلفاء وفي وسطهِ رسم يبيّن ما يبقى منهُ في اوربا وما يتسرَّب منهُ الى الولايات المتحدة الاميركية . فالاركان التي تقوم عليها مشكلة الديون الدولية ثلاثة — هي التعويضات التي تدفعها المانيا لدول الحلفاء ، واتفاقات الديون التي ابرمتها دول الحلفاء نفسها ، وتسوية الديون التي استدانها الحلفاء من الولايات المتحدة في اثناء الحرب

التعويضات

لما عقد الحلفاء مؤتمر السلام في قصر فرساي ووضعوا معاهدة السلم مع المانيا ، لم يعيّنوا فيها المبالغ المطلوبة من المانيا لتعويض الحلفاء مما فقدوهُ وخسروهُ في الحرب ، بل تركوا امر تعيينها للجنة انشأوها ودعوها « لجنة التعويضات » . فجعلت هذه اللجنة مبلغ ١٣٢ بليوناً من الماركات الذهبية — اي ٦٦٠٠ مليون جنيه . وطُلِب الى المانيا ان تدفع مائة مليون جنيه

كلَّ سنة علاوة على تعويضـات تدفع عيناً — فحماً وحديداً وغيرهما . كان هذا سنة ١٩٢١ ولكن هذا القرار لم يقوَ على الثبات اكثر من ستة اشهر ، ثم ازدادت المصاعب في سبيل تنفيذه في سنة ١٩٢٣ حتى افضت الحال اخيراً الى احتلال الجيش الفرنسي لمنطقة الرور المشهورة بمناجمها ومصانعها. فلما اقتنعت حكومات دول الحلفاء ان الاحتلال العسكري لا يجدي نفعاً ماليًّا، انشئت لجنة دوز ووضعت تقريرها المشهور واهم مبادئه الابتداء بدفعات قليلة ثم تدرجها ارتفاعاً

ووضع تقرير دوز موضع التنفيذ مدة خمس سنوات فنجح بمعنى ان دول الحلفاء وغيرها اقرضت المانيا مالاً دفعت به المانيا ما عليها من التعويضات للحلفاء . وفي سنة ١٩٣٠ انشئت لجنة يونغ فوضعت تقريرها الذي أُسس بموجبه بنك التسويات الدوليـة . واهم ما يختلف به تقرير يونغ عن تقرير دوز ان تقرير يونغ يفرض على المانيا مبلغاً — هو ثلث ما يُطلب منها — غير قابل للتأجيل ، واما الباقي فيمكن تأجيله مدة سنتين . وقد وُضع جدول الدفعات السنوية — القابلة للتأجيل وغير القابلة له — فاذا مجموعها ٥٥٢٨ مليون جنيه ذهب يدفع منها ٤٠٠٠٠٠ ٣٥ جنيه سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ثم تزداد رويداً رويداً الى ان يبلغ القسط السنوي ١١٥ مليوناً سنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦ ثم تنقص رويداً رويداً الى ان تسدّد المانيا آخر مليم من مال التعويضات سنة ١٩٨٧ — ١٩٨٨

واذا رجعنا الى الجدول وجدنا ان المبلغ الخارج من المانيا ٠٠٠ ٧٠٠ ٩٤ جنيه، لأن هذا هو متوسط القسط السنوي من ١٩٢٩ — ١٩٦٩ اذ تبلغ الاقساط السنوية اوجها . وهذا التيار الخارج من المانيا اوقف الآن بموجب موراتوريوم هوفر الذي اصدرهُ في يونيو الماضي اذ اقترح تأجيل كل الديون الدولية وفائدتها سنة كاملة . فتلا تصريحهُ مؤتمرات ومحادثات اسفرت عن الموافقة عليهِ في المبدإ الا ان الفرنسيين اصرّوا على الاحتفاظ بشكل برنامج يونغ ففازوا بحمل الدول على الاعتراف بوجوب دفع المبلغ غير القابل للتأجيل في برنامج يونغ الى بنك التسويات الدولية ، ثم لم يعارضوا في اعارته لالمانيا

ديون الحلفاء

وفي وسط الرسم البياني يتمثل الترتيب الذي اتفقت عليهِ دول الحلفاء في تصفية ديونها فيرى القارئ ان فرنسا وايطاليا تسددان مبالغ كبيرة لبريطانيا ، وهي تمثل تسوية الاموال التي اداتها بريطانيا لهما في اثناء الحرب. ثم ان فرنسا وايطاليا تتسلمان مبالغ قليلة من امم اخرى — مثل البلجيك ورومانيا وبولونيا — وان بريطانيا تتسلم منها مبالغ اكبر قليلاً

ففي نظام ديون الحلفاء نرى ان المفتاح في يد انكلترا لانها دائنة كلّ حلفائها . فهي في الرسم البياني ملتقى كل الخطوط التي تمثل تيارات المال من حلفائها اليها

وكانت انكلترا قد اقترحت ، عند نهاية الحرب ، اقتراحاً جريئاً قالت فيه انها مستعدةٌ ان تتنازل عن نصيبها في التعويضات الالمانية ازاء شطب كل ديون الحرب وديون الحلفاء لاميركا ولكن هذا الاقتراح ، قوبل مقابلة فاترة في الولايات المتحدة ، التي تنتهي اليها معظم اموال التعويضات والديون فاصدر لورد بلفور — وهو وزير خارجية بريطانيا حينئذٍ — مذكرتهُ المشهورة سنة ١٩٢٢ وفيها ان بريطانيا لا تطلب من مدينيها — المانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها — اكثر مما عليها لدائنيها ، اي الولايات المتحدة الاميركية . وهذه هي الخطة التي جرت عليها حكومة انكلترا بعد الحرب . فاننا اذا جمعنا المبالغ التي تصل الى انكلترا من الدول الاخرى كان مجموعها مساوياً تقريباً للمبلغ الذي تسدّده للولايات المتحدة الاميركية

ديون الحلفاء للولايات المتحدة الاميركية

ثم بعد ان تتوزع مبالغ التعويضات الالمانية على الحلفاء ، وبعد ان يسدّد المدينون منهم الى الدائنين (انكلترا) تتجهُ خطوط التسديد الى الولايات المتحدة الاميركية . وديون الحلفاء للولايات المتحدة الاميركية اصلها مال دفعتهُ خزينة الحكومة الاميركية لدول الحلفاء بعد ما جمعتهُ من شعبها بواسطة سندات دعتها « سندات دين الحرية » ، في سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ . ثم ان حكومات الحلفاء مدينة للولايات المتحدة الاميركية بمبالغ تمثل ما ابتاعتهُ من المعدات والذخائر الحربية او الحنطة او الاعتمادات التي فتحها لها « مجلس الملاحة » ومجموع هذه المبالغ كلها كان الفي مليون جنيه عدا الفائدة

أُدينت هذه الاموال لعشرين امةً ، وقد عقَدت كلها — الاَّ ثلاث امم هي روسيا وارمينيا ونيكاراغواى — مع حكومة الولايات المتحدة اتفاقات لتسوية هذه الديون وتسديدها . وقد دارت المفاوضات على تسديد هذه الديون بين ممثلي الامم المختلفة ولجنة الديون الخارجية الاميركية واعضاؤها اصلاً كانوا المستر هوفر (هو الرئيس الآن وكان وزيراً للتجارة) والمستر ملون (وزير المالية) والمستر هيوز (وزير الخارجية حينئذٍ) والشيخ سموت والنائب برتون

وكان مجلس الامة الاميركية قد اصدر التعليمات الى هذه اللجنة بالاَّ تسوّي ديناً ما بفائدة اقل من ٤½ في المائة ، وان لا تمدّ دفعاتهِ الى اكثر من خمس وعشرين سنة . ولكن اللجنة ، لم تستطع في حالٍ من الاحوال ان تنفذ تعليمات المجلس . فالفائدة في كل التسويات اقل من ٤½ في المائة والمدة فيها كلها اطول من ٢٥ سنة . ومجموع ما تعهدت الدول المختلفة بدفعهِ للولايات المتحدة الاميركية يبلغ ٤٤٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه وهو نحو ثلاثة اخماس ما فرض على المانيا من مال التعويضات في برنامج يونغ . فمعظم الاموال التي تخرج من خزينة المانيا وتوزَّع على دول الحلفاء يتسرَّب اخيراً الى خزينة الولايات المتحدة الاميركية

خطة الحكومة الاميركية

يتضح مما تقدَّم ان لموقف الحكومة الاميركية ازاء مسألة التعويضات والديون الدولية شأناً خطيراً في الوصول الى حل عمليّ موفَّق . وموقف الحكومة الاميركية يقوم على ثلاثة مبادىء — هي مبادئ « المقدرة على التسديد » و«مدى استعدادها للتنازل عما لها من الديون » و «علاقة الديون التي لها بالتعويضات الالمانية»

﴿ المقدرة على الدفع ﴾ قلنا ان لجنة تسوية الديون التي عينتها الحكومة الاميركية لم تتمكن من الاحتفاظ بنصّ التعليمات التي وجهها اليها مجلس الامة من حيث قيمة الفائدة ومدى الاقساط . ولكنها في الاتفاقات التي عقدتها اولاً مع بريطانيا وبولونيا والمجر ولتفيا ولتوانيا وفنلندا اقتربت بعض الاقتراب من الحدود التي رسمها المجلس . اما في ما يتعلق بدين البلجيك فانها رضيت بفائدة قدرها ١٫٧٩ في المائة يقابلها ٣٫٣٠ في المائة في اتفاقات البلدان المذكورة آنفاً . فلما جاء مندوبو فرنسا وايطاليا الى وشنطن لتسوية ديونهما ، وذكروا اضطراب الحالة الاقتصادية في بلاديهم واختلال ميزانيتيهما جرت اللجنة الاميركية على ما وصفتهُ بقولها « معاملة كل امة على اساس مقدرتها على التسديد »

ولكن كيف تعيَّن هذه المقدرة ؟ قال الشيخ سموت احد اعضاء اللجنة ان اللجنة نظرت في حالة كل امة على حدةٍ وفي « التزاماتها الداخلية والخارجية وما يقتضيهُ اطراد نموّها القومي » وجعلت هذا اساساً لتقديرها . فلما حاولت اللجنة ان تقدر « ما يقتضيه النموّ القومي في كل امة بعد خمسين او ستين سنة » دخل عملها في حيز التكهن . وقد ثبت ان تكهنها كان في معظم الاحوال خاطئاً . فقد قرّرت اللجنة مثلاً ان مقدرة بريطانيا على تسديد الفائدة على دينها ضعف مقدرة فرنسا . فلم تنقض ست سنوات على قرارها هذا حتى رأينا بريطانيا مضطرة الى الخروج عن قاعدة الذهب ، بسبب اختلال التوازن التجاري في بلادها وتسرّب الذهب منها ، في حين ان فرنسا اصبحت اقوى الامم الاوربية من الوجهة الاقتصادية

﴿ حذف الديون وانقاصها ﴾ هذه مسألة مضطربة كلَّ الاضطراب . فقد قلنا ان الاموال التي اداتها حكومة الولايات المتحدة الاميركية لحلفائها بلغت نحو بليوني جنيه . ولكنها تملك الآن صكوكاً مبرمة — بحسب التسويات المختلفة — قيمتها اربعة بلايين و٤٠٠ مليون جنيه (٤٫٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) يجب ان تسدَّد قبل سنة ١٩٨٨ واذاً فحكومة الولايات المتحدة الاميركية لم تحذف شيئاً مما لها من الديون ، وانما هي سوف تستدُّ ريالين ازاء كل ريال اداتهُ

ولكن النظر الى هذه المسألة من هذه الناحية يغفل مسألة الفائدة على الديون . فكل الاموال التي اداتها اميركا لحلفائها كانت اصلاً بفائدة ٥ في المائة ، فلو ان هذه الديون سدّدت

بهذه الفائدة لكانت ضعف ما ينتظر تسديده الآن واذاً فالولايات المتحدة قد تنازلت عن نصف ما لها من المال عن مدينيها

فتقدير ما تنازلت عنهُ الولايات المتحدة الاميركية لمدينيها يختلف باختلاف الفائدة التي تمّ الاتفاق عليها. فهي في التسوية البريطانية الاميركية اعلى منها في التسوية الايطالية الاميركية او الايطالية الفرنسية واذاً فقدار ما تنازلت عنهُ اميركا لبريطانيا اقلّ مما تنازلت عنهُ لايطاليا او لفرنسا

﴿ الديون والتعويضات الالمانية ﴾ لابدَّ في فهم العلاقة بين الديون لاميركا والتعويضات الالمانية من التفريق بين الاتفاقات التي سوّيت بها ديون الحلفاء لاميركا وما يقال عنها. ففي التسوية الاميركية الفرنسية رتّبت الاقساط التي تدفعها فرنسا لاميركا لتتفق اتفاقاً نسبيًّا مع الاقساط التي تنالها فرنسا من مال التعويضات الالمانية. ولكن الحكومة الاميركية لم تنِ قط في التصريح بان لا علاقة قط — نظرية او عملية — بين مقدرة المانيا على دفع مال التعويضات وبين مقدرة مديني اميركا — وهم في الوقت عينهِ دائنو المانيا — على تسديد ما عليهم. وهذه الخطة ليست حديثة. ففي سنة ١٩٢٠ قبل ان تسوّى مسألة ديون الحلفاء لاميركا كتب الرئيس ولسن رسالة الى المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية حينئذٍ قال فيها: ان الولايات المتحدة الاميركية لا ترى صحة المنطق في الاقتراح بأن تدفع الحكومة الاميركية جانباً من التعويضات الالمانية ولا ان تهب حكومات الحلفاء ما يحملها على تعيين التعويضات المطلوبة من المانيا في حدود مقدرتها. وقد حاولت هذه الحكومة (حكومة ولسن) ان توضح بروح الصداقة انها لا ترضى عن ربط التعويضات الالمانية بمسألة الديون التي بين حكومات الحلفاء». وقد جرت الحكومات الاميركية المتعاقبة على هذه الخطة الى ان كان موراتوريوم هوفر والمحادثات التي دارت بين هوفر ولافال وفيها اتفق الاثنان على ما يأتي: «من حيث الديون التي بين الحكومات نعترف بأنهُ قبل انتهاء موراتوريوم هوفر لابدَّ من عقد اتفاق يشمل مدة الكساد المالي التجاري. والخطوة الاولى في هذا العمل يجب ان تخطوها الدول الاوربية المرتبطة بالاتفاقات التي وضعت قبل اول يوليو سنة ١٩٣١» اي معاهدة فرسايل ومشروع يونغ وغيرها. وهذا يعني ان الحكومة الاميركية بلسان رئيسها هوفر قد رضيت ان تربط بين التعويضات الالمانيـة والديون الدولية في اثناء مدة الكساد المالي والتجاري على الاقل، وهو خروج على خطتها المعهودة

وقد تلا ذلك ان المانيا طلبت الى دائنيها اعادة النظر في مقدرتها على الدفع فعين بنك التسويات الدولية لجنة لهذا الغرض جاء في تقريرها ان المانيا عاجزة الآن عن مواصلة تسديد ما عليها. ولهذا الغرض يجتمع مؤتمر لوزان في ٢٥ يناير

الديون السياسية والديون التجارية

على المانيا طائفتان من الديون . الاولى ديونها السياسية التي تدفعها بموجب خذلانها في الحرب وابرامها لمعاهدة فرساي وقبولها تقرير دوز اولاً ثم برنامج يونغ . وبموجب هذا البرنامج يبلغ متوسط القسط السنوي من هذه الديون نحو ٩٥ مليوناً من الجنيهات الذهب. والطائفة من الديون الاخرى ديونها الخاصة — او الديون التجارية — ومجموعها نحو ٨٠٠ مليون جنيه . اما موراتوريوم هوفر فيعفيها هذه السنة من دفع قسط التعويضات السنوي وهو ينتهي في أول يوليو سنة ١٩٣٢ . ثم ان الاتفاق تمَّ بين رجال البنوك المختلفة التي ادانت المانيا ديوناً خاصة على عدم سحب الديون القصيرة الآجال منها مدة ستة اشهر وهذا الاتفاق ينتهي في ٢٩ فبراير سنة ١٩٣٢

فالمسألة الآن ماذا يحدث بعد انتهاء موراتوريوم هوفر ، واتفاق الديون الخاصة ؟ هنا الآراء تختلف. فالمستر بلدون يحتم تقديم الديون الخاصة على الديون السياسية . والفرنسيون يرون نقيض ذلك . والوطنيون الالمانيون بزعامة هتلر يذهبون الى وجوب الغاء التعويضات دفعة واحدة . والاميركيون لا يزالون الى حدبعيد يعارضون، مبدئيًّا، في ربط الديون الدولية بمال التعويضات . ولكي تفهم هذه المسألة على حقيقتها يجب ان تدرك ان ديون المانيا الخاصة (ومجموعها نحو ٨٠٠ مليون جنيه) قسمان : قسمٌ ديون طويلة الآجال (قيمتها نحو ٤٥٤ مليون جنيه) معظمها لا يستحق الا بين سنتي ١٩٤٩ و ١٩٦٥ والقسم الثاني ديون قصيرة الآجال (ومجموعها نحو ٤٠٠ مليون جنيه) عقدت لتسديد ما تقتضيه الحال في الحال

﴿ الديون الطويلة الآجال ﴾ في الجدول التالي تتبين التوزيع الجغرافي لمصادر الاموال التي استدانتها المانيا (ديوناً طويلة الآجال)

اسماء البلاد	اميركا	انكلترا	هولنده	سويسرا	اسوج	فرنسا	البلجيك	ايطاليا	أمم أخرى	المجموع
المبلغ بملايين الجنيهات	٢٥٠٫٦	٥٢٫٤	٥٥٫٨	٢٤٫٣	٣٧٫٩	٢٢٫٦	٢٫٤	٢٫٤	٦	٤٥٤
النسبة المئوية	٥٥٫٢	١١٫٥	١٢٫٣	٥٫٤	٨٫٣	٫٥	٠٫٥	٠٫٥	١٫٣	١٠٠/١٠٠

يتضح من هذا الجدول ان الولايات المتحدة الاميركية هي البلاد التي استمدت منها المانيا الجانب الاكبر من ديونها الخاصة الطويلة الآجال . فالاميركيون ابتاعوا اكثر من ثلث سندات دوز وسندات يونغ . وأدانوا المانيا اكثر من نصف ما استدانتهُ حكومات البلدان الالمانية وبلديات مدنها . وهم كذلك مصدر ثلاثة ارباع الديون التي استدانتها المانيا باسم مرافقها

العامة كسكك الحديد وغيرها . ومجموع ما اداتهُ الاميركيون للالمان ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات ويلي الاميركيين ، الهولنديون والبريطانيون . ومجموع ما اداتهُ الاولون للالمان نحو ٥٦ مليوناً من الجنيهات ومجموع ما اداتهُ الثانون ٥٢ مليوناً و ٤٠٠ الف جنيه . ويليهم الاسوجيون وهكذا الى آخر الجدول . ومما يجدر ذكره هنا ان دين فرنسا لا يزيد على ٥ في المائة من ديون المانيا الطويلة الآجال وكلهُ من سندات دوز ويونغ وهو أقل من عُشر دين اميركا . وأما دين ايطاليا فأقل من عشر دين فرنسا

﴿ الديون القصيرة الآجال ﴾ من المتعذر على الباحث الوصول الى مستندات وافية عن الديون الالمانية القصيرة الآجال ولكن تقرير لجنة وجن (التي عينت في الصيف الماضي لفحص مقدرة المانيا على الدفع) يشمل ٨٥ في المائة من ديون البنوك الالمانية القصيرة الآجال ونصف ديون الشركات والمصانع والمصالح الاخرى وهي كما يلي تقريباً :

	جنيه	النسبة المئوية
للولايات المتحدة الاميركية	٧٧ ٥٤٠ ٠٠٠	٣٧٫١
لبريطانيا	٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٣٫٩
لهولندا	١٦ ٠٠٠ ٠٠٠	٧٫٦
لفرنسا	١٤ ١٤٠ ٠٠٠	٦٫٨
لسويسرا	٢٥ ٦٦٠ ٠٠٠	١٣٫٢
لاسوج	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	٢٫٣
لأمم اخرى	١٨ ٩٤٠ ٠٠٠	٩٫١
المجموع	٢٠٧ ٠٨٠ ٠٠٠	١٠٠

هذه الارقام ، تبين كما قلنا ، نحو نصف ديون المانيا القصيرة الآجال في اول يوليو سنة ١٩٣١ ولو ان هذه الديون احصيت في اول يناير ١٩٣١ لكانت مبالغها اكبر مما كانت في يوليو . والواقع ان لجنة «وجن» قدرت ان مبلغ ١٣٦ مليوناً من الجنيهات — من الديون القصيرة الآجال — سحبت من المانيا في الفترة الواقعة بين اول يناير وأول يوليو سنة ١٩٣١ وهذا السحب نشأ مباشرة عن افلاس بنك النمسا والاضطراب السياسي في المانيا الناشىء عن نجاح الشيوعيين والهتلريين في الانتخابات الالمانية التي وقعت في ٣٠ سبتمبر ١٩٣٠ ، وكساد التجارة في المانيا بوجه خاص وفي كل بلدان العالم بوجه عام ، وازدياد حذر مديري البنوك في البلدان الدائنة لالمانيا

فلما بدأ اصحاب الديون القصيرة الآجال يسحبون اموالهم من المانيا لدى استحقاقها

جاراهم غيرهم من اصحاب سندات الديون الطويلة الآجال فجعلوا يبيعونها ، وكل هذا افضى الى سحب الاموال من المانيا حتى بلغ ماسحب منها ١٦٠ مليوناً من الجنيهات فكاد الذعر المالي يستولي على الناس (وهو استولى حقيقة). في هذه الحال اقترح المستر هوفر الموراتوريوم المنسوب اليهِ فيما يتعلق بالديون السياسية ، وأساسهُ كما عدّل بعدئذٍ ، تأجيل اقساط التعويضات — القابلة للتأجيل سنةً كاملة — ودفع القسط غير القابل للتأجيل الى بنك التسويات الدولي ثم اعارتهُ الى المانيا كدين جديد . اما اصحاب الديون القصيرة الآجال فاتفقوا على التوقف عن سحب اموالهم ستة اشهر تنتهي في آخر فبراير ١٩٣٢

التعويضات او الديون التجارية

لفرنسا وغيرها من الحلفاء حق عرفيّ لا ينازَع في الحصول على مال التعويضات ، وله في ميزانياتها مكان واستعمال . فهل يقدَّم دفع مال التعويضات على الديون التجارية ؟ او تقدم هذه على ذاك ؟ وماموقف الدول المختلفة ازاء هذه المسألة ؟ اما المانيا فترى انها لم تسدّد ما عليها من اقساط التعويضات الاّ بالاموال الخصوصية التي استدانتها ، فالحكومة الالمانية ترى انها لن تستطيع ان تمضي في تسديد اقساط التعويضات ، بعد نهاية موراتوريوم هوفر الاّ بديون خاصة جديدة . لذلك رأينا الحكومة الالمانية تحثُّ لجنة بنك التسويات الدولية على فحص مقدرتها على الدفع ، وهي بحكم الطبع تفضل ان تقدَّم الديون الخاصة على الديون السياسية لكي تحتفظ بثقة العالم بحكومتها وبنوكها وبلدياتها وغيرها من مرافقها العامة

على ان فرنسا تعارض في هذا اشدَّ المعارضة وليس السبب ببعيد المنال . فنصيبها في الديون الالمانية التجارية — سواء اكانت طويلة الاجل أو قصيرتهُ — نصيب ضئيل ، كما تقدَّم ولكن نصيبها من مال التعويضات يبلغ ٥٢٫٧ في المائة من مجموعهِ . فدينها الخاص في المانيا لا يزيد على خمسين مليوناً من الجنيهات ، وأما ما ينتظر ان تناله من مال التعويضات فيبلغ متى تمّ تسديده نحو ٢٦٥٠ مليوناً من الجنيهات . فلا ينتظر والحالة هذه ان تسلم فرنسا بتقديم تسديد الديون الخاصة على تسديد مال التعويضات ، ولذلك نراها تصرُّ على ان كل بحث في المسألة يجب ان يكون في حدود مشروع يونغ

وتنال بريطانيا ٢٠٫٦ في المائة من مال التعويضات الالمانية ازاء ٥٢٫٧ تنالها فرنسا . فاذا مضت المانيا في تسديد ما عليها من مال التعويضات بحسب مشروع يونغ بلغ ما تناله بريطانيا نحو ١١٠٠ مليون جنيه . ولكن الحكومات البريطانية المتعاقبة بعد الحرب ، لم تخفِ ريبها في امكان استمرار اي اتفاق خاص بالتعويضات ولذلك صرّحت بانها لا تطلب من المانيا والدول الاخرى الاّ ما هي مدينةٌ بهِ لاميركا

ولكن نصيب بريطانيا من الديون الخاصة كبير ، فهو يبلغ نحو ٥٢ مليوناً من الجنيهات

في الديون الطويلة الآجال وقد يزيد على ٨٠ مليوناً من الديون القصيرة الآجال . لذلك صرّح المستر بلدون في مجلس النواب البريطاني « ان سلامة الديون الخاصة يجب ان لا تهدّد بالاصرار على تسديد الديون السياسية . لانهُ اذا وقع ذلك فقدت الثقة في المانيا وتعذّر عليها الاستمرار في الاستدانة لكي تستمرّ في تسديد مال التعويضات » . اي انهُ اذا لم تضمن الديون الخاصة استحال على المانيا ان تدفع شيئاً من مال التعويضات

والرأي الاميركي يهتمّ اشدّ الاهتمام بضمانة الديون الخاصة . اما اولاً فلأن نصيب اميركا من هذه الديون اكبر نصيب — فهو يزيد على نصف الديون الخاصة الطويلة الآجال ويبلغ ٣٧ في المائة من الديون القصيرة الآجال — في حين ان نصيبها من التعويضات الالمانية لا يزيد على ٣٫٣ في المائة فدينها الخاص لالمانيا ضعف اي مبلغ نظريّ تتوقع تسديده من التعويضات الالمانية . واما ثانياً فلأن مبدأ الحكومات الاميركية المتعاقبة كان — ولا يزال — الفصل التام بين تسديد التعويضات الالمانية وتسديد ما لها من الديون على دول الحلفاء

أما الدول الاخرى فموقفها ازاء هذه المسألة يختلف باختلاف الدولة نفسها — هل خرجت ظافرة من الحرب او كانت محايدة في اثنائها . فالاولى — ومثلها بلاد البلجيك — تقدّم دفع التعويضات على دفع الديون الخاصة لان نصيبها من التعويضات كبير ازاء ما لها من الديون الخاصة الالمانية . واما الاخرى ومثلها — هولندا واسوج — فلا نصيب لها في التعويضات الالمانية ولكن نصيبها في الديون الخاصة كبيرٌ وهي لذلك تقدم الديون الخاصة على الديون السياسية

الغاء الديون

ان امر الغاء الديون في يد الولايات المتحدة الاميركية . وامر الغاء التعويضات في يد فرنسا على الغالب . وقد كانت الولايات المتحدة الاميركية معارضة حتى الآن في امر الالغاء ، لانها بذلك تكون قد تحمّلت الجانب الاكبر من نفقات حرب لاناقة لها فيها ولا جمل . فمعظم الاموال التي اقرضتها لحلفائها استدانتها من اهلها . وفي ميزانيتها عجز ماليّ كبير . ثم هي لا تدرك الحكمة في الغاء ديون بلدان تنفق النفقات الطائلة على اعداد معدات الحرب !

ولكنّ جانباً كبيراً من المفكرين في الولايات المتحدة الاميركية . اخذ يرى ، ويجاهر برأيه ، ان الغاء الديون او تخفيضها تخفيضاً كبيراً ، يكون ذا اثر كبير في اصلاح توزيع الذهب ، وينشط تجارة الصادر الاميركية ، فيربح الاميركيون بذلك ما يخسرونهُ بالغاء الديون او تخفيضها ويضع مسألة التعويضات الالمانية وضعاً معقولاً . ثم ان تسويات الديون الاميركية لم يراعَ فيها الانصاف فقد ظلمت انكلترا مثلاً وروعيت فرنسا وبلجيكا وايطاليا فيها فلابدّ من اعادة النظر في ذلك . وينشأ عن ذلك كلهِ ان الاثر النفسي الذي يتركهُ الالغاء او التخفيض الكبير ، يكون اقوى باعث على الخروج من ظلمات الضائقة المالية الحاضرة

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

المدنية

المدنية هي حالة من الثقافة الاجتماعية تمتاز بارتقاء نسبيّ في الفنون والعلوم وتدبير الممالك. وتكفي كلمة «نسبي» الواردة في هذا التعريف للدلالة على ان التدرج الذي تم ليس تدرجاً مقطع الاوصال بل متصل الحلقات تبتدىء الدرجة اللاحقة منهُ حيث تنتهي السابقة. واذا كانت المدنية في التحليل النهائي هي عبارة عن حاصل الاعمال التي انجزها الانسان فلا جناح علينا ان نصف بعض المنجزات التي تمت في عالم الحيوان بانها مدنية ايضاً وندونها في سجل الحضارة. فالذئاب مثلاً تؤلف العصابات للصيد، والنمل يخوض غمار الحرب، والنحل يزاول الصناعة، والوعل يقيم الحرس عندما يرعى، والتنظيم «العائلي» بشكليه من ضرّ ومتعدد الزوجات موجود في بعض الحيوانات العليا وقد تربي هذه الحيوانات صغارها بما يُلقى عليها من دروس عملية وأمثلة حسّية، وتكون علاقة الكلب بسيده في بعض الاحيان علاقة اخلاقية سداها الاخلاص ولحمتها المحبة. ولبعض القردة من الاعمال المستغربة والحيل المستنبطة ما يدعو الى العجب العجاب، وقد صار ذكاء الفيلة مثلاً من الامثال. وقد تتعذّر كثيراً رؤية الحد الفاصل في هذا الموضوع بين الحيوانات العليا وأحط المتوحشين وربما ادت المقارنة في ذلك كما يقول احد العلماء الى تفضيل الحيوان على الانسان

بيد ان هنالك فرقاً واضحاً بين عمل الانسان وعمل الحيوان. فما يعمله هذا هو بالاجمال غريزة عمياء لا تدل على غاية ذهنية ولا احاطة بالوسائل المتخذة في حين ان ما يعمله الانسان ولو قام في بعض الاحوال على الغريزة هو عمل متصل بالادراك وله غاية موضوعة نصب العين

وجرت عادة الكتاب المتأخرين انهم اذا اطلقوا كلمة «المدنية» ارادوا بها المدنية الحاضرة في مقابل الهمجية التي كان عليها البشر في الازمنة الخالية او التي لا تزال بعض الاقوام المنحطة تعيش في كنفها. والانسان لم يبلغ مدنيته هذه الا بعد ما جاز ادواراً خطيرة اندثرت معالمها

وغابت معظم اخبارها عن اعين التاريخ . وقد قسمها الاستاذ (جدنجز)[1] الى ثلاثة ادوار فالدور الاول منها او دور التأسيس تمثله المدنيات القديمة على عهد الفراعنة والبابليين وهو يتصف بضعف التوادد ودقة اواصر الصفاء بين المجتمع الواحد وما يماثله من المجتمعات الاخرى او بفقد هذا الاتصال بتاتاً. ويكون اصحاب هذا المجتمع مجبرين على الدفاع عن انفسهم بصورة مستديمة في وجه ما يحيط بهم من العالم المتوحش او في وجه مجتمع آخر يزاحمهم ويهددهم، يعني ان قوى الشعب تنصرف اولاً الى التضامن السياسي بين الافراد وتأسيس النظم العسكرية لدفع العوادي ولضمان السلامة

ثم متى تحققت هذه الاهداف يبتدىء الدور الثاني وهو يمتاز بالتغلب على سياسة الحصر والتضييق التي اقامتها النظم العسكرية فيتحرر الشعب عقليًا وشخصيًا . ويتجه الانتقاد من رجاله شطرَ التنظيم الاجتماعي وما فيه من مواطن الضعف . ويمثل هذا الدور المدنية اليونانية والمدنية الرومانية على عهدي اثينا ورومية . بيد ان هاتين المدنيتين وقفتا دون الوصول الى الدور الثالث لانهما لم تكونا ثابتتين مستقرتين وكانت ثروتهما الخارقة مطمح الانظار ومثار الاطماع في الاقوام المتوحشة الى ان تغلبوا عليهما كلتيهما وسحقوا حضارتهما

اما الدور الثالث وهو ما وصلت اليهِ الدول الغربية الحاضرة فهو اقتصادي واخلاقي يعني ان هذه الدول منهمكة اليوم في الشؤون الصناعية وفي جمع الثروة واستكشاف طرق استخدامها وفي التربية العامة ونشر الثقافة

وغني عن البيان ان الدول الاوربية ما بلغت الدور الثالث هذا الاّ بعد ان مرّت في اختبارات الدور الثاني وانصهرت في بوتقة الانقلابات الادبية والثورات الاجتماعية منذ «النهضة» الادبية في القرن الخامس عشر الى الثورة الفرنسوية وما تبعها من ثورات ، وان الضجة القائمة في اطراف العالم اليوم حول الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ان هي الاّ ضجة من لوازم النهضة الاقتصادية والاخلاقية الخاصة بالتطور الحاضر

وقد فضلنا هذا التقسيم الذي قال بهِ الاستاذ (جدنجز) على غيره لما اشتمل عليهِ من ذكر التغيير الذهني في الشعوب من جهة والتبدل البنائي في المجتمع من جهة اخرى فهو معنوي حسي في آن واحد

هذا هو تقسيم المدنيات ففي اي دور نحن يا ترى من هذه الادوار الثلاثة ؟ سؤال يختلف الجواب عنهُ باختلاف القطر العربي المقصود فسورية مثلاً تصرف الجهود الغالية في سبيل تكاملها السياسي واستقلالها وقد دخلت في دور من ادوار النشوء الصناعي الاقتصادي يعَد فاتحة خير وعنايتها بالتربية والتثقيف تسير سيراً مضطرداً في حين ان بعض القبائل في الجزيرة

(١) The Principles of Saciology IV. P. 299

العربية هي في حالة حرب مستمرة مع القبائل الاخرى او مع المحيط الطبيعي فكأنها لا تزال في الدور الاول . وهنالك اقطار اخرى في هذا العالم العربي تعيش من بعض الوجوه تحت السلطة الاكليركية التي كانت منتشرة في القرون الوسطى

والواجب على قادة الفكر في هذه الاقطار المترامية الاطراف ان يحفزوا من لا يزالون يلخون في الادوار المدنية الابتدائية من ابناء العرب ويدفعوهم الى الامام توطئة لتكاملهم السياسي واستقرارهم الدولي وتنظيم شؤونهم الاقتصادية والمعنوية

ويحسن بنا تنويراً للاذهان ان نشير هنا الى ما ذهب اليهِ (اوغست كونت) الحكيم الفرنسوي المتوفي سنة ١٨٥٧ في فلسفته الحسية من ان الدستور الذي يسير بمقتضاه التاريخ البشري هو تدرج الانسانية في دورين استعداديين سابقين توطئة للدخول في الدور النهائي الثالث[1] . فالدور الاول عنده هو الدور «اللاهوتي» يوم كان العقل البشري يفسر الاسباب ومسبباتها بتدخل مباشر من الآلهة بطريق الخلق او العناية . وما دام الانسان على هذه الذهنية في فهم العالم فلا سبيل الى ادراك العلم الصحيح لان العلم انما هو معرفة العلاقة بين الاسباب ومسبباتها ، ولا الى الارتقاء المادي او المعنوي لان الشرط الجوهري في هذا الارتقاء انما هو الحصول على العلم الصحيح . وقد كان الانسان خرافياً في هذا الدور ذا عقلية صبيانية ومنهمكاً في عبادة الابطال. اما الدور الثاني فهو دور البحث في ما وراء الطبيعة اي ان الانسان لما لم يعد موقناً بأن الخوارق هي سبب الحوادث المحيطة بهِ فاخذ يفسر الدنيا بالقواعد والنظريات المجردة فأضاع نفسه في تيه من نظر عقيم . وغير نكير ان العقل تحرر في هذا الدور من عبودية الخوارق الا انهُ اضاع قواه في السؤال عما هو مجهول في كنهِهِ ومحجوب في جوهره. واما الدور الثالث فهو الدور الحسي او العلمي يوم زالت النظريات خلّت محلها الملاحظة والتجربة والاستقراء والقواعد الكلية الشاملة . وقد وجد الناس ان عالم الحقيقة التي يمكن الوصول اليها هو عالم متسع الى درجة تكفي لاشغال جميع اوقاتهم واستنزاف جميع قواهم . وباتخاذهم الحقائق اساساً مكيناً للبناء اتيح لهم ان يعرفوا من الطبيعة اسراراً مكنتهم من التغلب على الاحوال المادية وعلى شطر كبير من الاحوال المعنوية للحياة الانسانية فسار العالم في سبيل التقدم والارتقاء

وقصارى القول ان لدينا بعض العلامات الوثيقة لتعيين درجة المدنية التي عليها الشعوب. فحينما يكون الفرد خالياً من فكرة الاسباب ومسبباتها قانعاً بانهُ خيال الظل تسيّره الارواح بيدها كما تشاء كانهُ ريشة في مهب الريح طائرة لا حول له ولا طول — حينما يكون الفرد على هذه الذهنية عبداً لاوهامهِ الباطلة وعقائده السخيفة واحلامه الطليقة فالمدنية ابتدائية . وحينما

(١) Cours de philosophie positive vol. IV. P. 653

يكون الفرد قانعاً بان ما يصيبهُ هو من نفسه او من عمل الناس حواليهِ — الاّ في الكوارث الطبيعية الكبرى كالزلازل وتفجر الحمم من البراكين — وحينما يعلم انهُ لا يتغير مالم يغير ما بنفسهِ فالمدنية مدنية العصر الحاضر. قال الاستاذ (بايندر) « والفرق بين المدنية والهمجية هو في امر جوهري واحد وهو ان الانسان المتمدن لا يكل حماية روحه الى احدٍ في حين ان الهمجي لا يكاد يعدّها ملكاً له »[١] وضرب على ذلك مثلين من اليونانيين القدماء ومن اليهود العبريين فقال عن هؤلاء ، ان مدوّناتهم تدل على فقدهم الحرية . فان (يَهْوَه) قد ادار دفة حياة اليهود وسيّرها من الاصحاح الاول في سفر التكوين وهو اول التوراة الى الاصحاح الاخير من سفر ملاخي وهو آخرها . وهو معبود قاهر متغلب حكم بعصاً من حديد وسحق على عجل جميع من عصوا امره ، حتى ان (قورش) ملك الفرس العظيم لم يكن سوى آلة بيده يسخرها لغاياته الذاتية كما يسخر الخزّافُ الصلصال . وكان النصر بيده يعطيه شعبه اذا هم اطاعوا وسلموا . وايضاحاً لهذا الامر بصورة جلية امر نبيّهُ (جِدْعُون) ان يصرف اثنين وعشرين الفاً من رجاله (لئلاّ يفتخر اسرائيل على الرب قائلاً ان يدي خلصتني) . لكن الآلاف العشرة الباقية معهُ لا تزال كثيرة لذلك امره ان ينتقي ثلاثمائة رجل فقط ففعل ، والى يد هذه الشرذمة الضئيلة سلّم (يهوه) المِدْيَنيين جميعاً

«وبيد (يهوه) كل شيء الحصاد والصحة والحياة والموت ، فاذا ما اصاب الشعب خيرٌ فمن (يهوه) واذا ما اصابهم شر فما اقترفوه من المعصية والوثنية، ولم يكن في طاقة الرجل العبري ان يتحرك حركة ما لم ترشده يد (يهوه) ، فهو الذي كان يمن عليه حتى بالنوم اللذيذ . وقد دام هذا الرأي الى عصرنا هذا في الفرقة البروتستنتية المتشددة المعروفة بطائفة «البيوريتان» . وتدل القائمة الطويلة باسماء الشرور المذكورة في الاوراد الكنسية مع المعروض المرفوع الى السماء وهو «انقذنا ايها المولى الرحيم » على ان هذا الموقف الابتدائي لا يزال حيًّا في اوساط اخرى ايضاً » وبديهي ان مثل هذا الاتجاه التوكلي المطلق والاستسلام للعوامل الخارجية ولو كانت طافحة بالخير لا ينشيء الرجل المنشود — الرجل الحرّ المستقل المعتمد على النفس والشاعر بالحرمة الذاتية والذي يتحمل التبعة على عمله ويصيبه اللوم على فشله كما يصيبه السرور على نجاحه. وما هدف الجمعية الاّ انشاء مثل هذا النوع من الرجال . وحينما لا يوضع هذا الهدف الاسمى نصب العيون بصورة دائمة فهناك فشل مسجل . ولم يخلق المجتمع في الاصل لجعلنا اكثر ثروة او ليوفر علينا الجهد والكدّ او ليزودنا بالبهجة والحبور بل هو حادث لانشاء الرجل المستعد لان ينتصب على قدميهِ الاثنتين والعالم بانهُ محاسب على عمله والشاعر بالسرور من هذه المسؤولية. وقوة المرء على تعيين مصيره بيده هي قوة يعجب بها الرجل الحرّ ويبالغ في قيمتها اكثر من

(١) "Major Saciol Problems". Chap I.

كل شيء آخر . هذه هي القوة التي تميزه عن الآلة الميكانيكية وتفرقه عن خشبة طافية على وجه النهر ، فتلك تنفذ ارادة غيرها واما هذه فلعبة بيد القوى الطبيعية الجامدة ، وكلتاهما يستولي عليها محيطها في حين يستولي الانسان على محيطه ؛ بل ان الحيوان نفسه قليل التأثير في بيئته وما انقراض الانواع بقضها وقضيضها الا شاهد عدل على ذلك » اه

هذا هو الدليل الناطق الذي اتخذه الاستاذ (بايندر) فيصلاً للتفرقة بين الهمجية والمدنية. ومن العجيب ان تحدث الازمات المعقدة المتنوعة في اوربا في ايامنا هذه ردّ فعل يكاد يعود ببعض الجماعات الى هذه الحالة الابتدائية . فقد زار مصر في صيف السنة الماضية بعثة من خريجي جامعتي اكسفورد وكامبردج في بلاد الانكليز وقد عرفت ان اعضاءها ينتمون الى تنظيم حديث ينتشر في انكلترا انتشاراً سريعاً واساسهُ ان يستسلم المرء للسماء استسلاماً مطلقاً من كل قيد بحيث لا يفكر في غده وان يطهر قلبه من ادران الشرور . وعند اصحاب هذا التنظيم الروحي ان عملهم هو العلاج الشافي من الارتباكات التي تسود العالم اليوم سياسية كانت ام اقتصادية. وقد قلت في نفسي ان الشرق الذي ينفض غبار الهرم عن مساعيهِ الجديدة طافح بعقائد الاستسلام على هذا النمط مما كان هدفاً لحملات رجال الاصلاح الديني في العالم الاسلامي منذ ايام السيد جمال الدين الافغاني الى اليوم ، وكلهم مجمعون على ايقاظ المسلمين وتحذيرهم من الوقوع في براثن التوكل الاعمى . والظاهر ان تعقد هذه الازمات الحاضرة والاخطار التي قد تنشأ عنها والانقلابات الاجتماعية التي قد تتصل بها كل ذلك ادّى بهذه الجماعات الى شيء من الكلل والانهيار العصبي حتى اصبحوا يرون السلامة في عدم المقاومة والفلاح في ترك الكفاح . ويزيد في غرابة هذا الموقف ان يكون مهده جامعتي اكسفورد وكامبردج حيث التقاليد الانكليزية التوسعية على اتمها. ولو نصحنا النابهين في الشرق بترك الكفاح وبالاستسلام للقضاء والقدر لاتهمونا بالرجعى وبتسهيل الانتحار

ويحسن بنا الآن ان نمرّ على كلام الاستاذ (بايندر) من غير تعليق وابداء ملاحظة ، فالاستسلام الى الارواح المسيطرة يكون علامة على الهمجية متى كان المستسلم كلاً لا يسعى الى شيء وخرافياً يعلل الطوارىء والظواهر بفعل هذه الارواح المباشر — فالبرق والرعد والمطر والبركان والموت والحياة والهواء والنور والحرارة كل ذلك في نظره ارواح مستقلة . فمثل هذه النظرة الهمجية تحول دون كل تفكير وارتقاء ، ولكن متى تعددت المسالك وتعقدت الامور وتعذرت الاحكام ووصلت العقول الى منتهى ما تصل اليهِ من السعي والاستقراء والاستنتاج ثم وقف المرء حائراً لا يدري ماذا يعمل — متى بلغت الحال بالساعي المجد هذا المبلغ فلا اخاله همجياً اذا هو سار في الطريق التي وقع اختياره عليها اخيراً متوكلاً ومستسلماً . ومثل هذا التوكل والاستسلام الصوفي هو الموقف النهائي الذي لا مفر لنا منهُ في كثير من المدلهمات

لكن الويل ثم الويل للامم التي اذا رأت الخطر الداهم وقفت مكتوفة الايدي كأنها غنم تساق الى المسلخ ، فالرضاء هنا هو الموت والقبول هو المذلة

وفي الحق ان الارتقاء يكون في اكثر الاحيان محاطاً بالمغامرات محفوفاً بالاخطار لا يتم من غير اقتحام جريء للمناطق المجهولة . ومن ظن ان الطريق معبدة الى الذروة فهو جاهل بتسلق الجبال ، ولا يقدم على المخاطرة التي لا مفرَّ منها الا من كان قويًّا في عزيمته صادقاً في ارادته . قال (بايندر) «والمستقبل اقتراع صائب وخائب فالجبان لا يغامر فيه . بل هو ينظر اليه بعين بعيدة مرقبية ، وقد يرى هناك نعماً سابغة لكنها سحيقة يحتاج في الوصول اليها الى عناء واما القريبة فقد تكون اقلَّ منها ولكنها قريبة التناول يستطيع ان يضمها الى صدره ضمًّا محكماً . واستبدال الاشياء الحسنة بالآمال التي هي احسن منها عمل يحتاج الى الرجل القدير كما ان تحويل هذه الآمال الى اشياء حسنة يحتاج الى الرجل المدبر » اهـ

والمِرة — او صفة الاستمرار على الحالة التي وجد عليها الشيء — هي الاصل في الجوامد وعليها يبني الطبيعيون كثيراً من التعليلات المتعلقة بحركة الاجرام وسكونها يعني يفرضون ان الجسم اذا بدأ متحركاً يبقى متحركاً الى الابد واذا بدأ بالعكس ساكناً يبقى كذلك الى الابد على شرط الا تعتوره العوامل المعاكسة . وهنالك مرّة حيوية اجتماعية في بعض الاقوام تشبه هذه المرة الجامدة يعني ان بعض هذه الاقوام قد تبقى على وضعها التقليدية الجامدة التي وجدت عليها لا تنزاح عنها قيد أنملة في وجه التطورات العالمية الكبرى كأنها مائشة على سطح غير هذه السيارة في حين ان غيرها لا يزال في حركة وانقلاب لا يثبت على شكل من الاشكال ولو كان في اشد حاجة الى الراحة واستجماع القوى . وكلا الموقفين من تفريط وافراط يضر بالجماعة ضرراً بالغاً فالجمود من الوجهة الحيوية الاجتماعية معناه الموت والتقلب معناه عدم الاستقرار لتثبيت الصفات المكتسبة — تلك وضعة هرمة اخنى عليها الدهر وهذه وضعة طائشة لا تأتي بخير

واذا اردنا ان نصف الموقف في العالم العربي اجمالاً فهو موقف تفريط وجمود وصفته البارزة هي التمسك بالقديم لقدمه وانقياد الى سنن الآباء والجدود انقياداً اعمى حتى كادت بعض اقطاره تعد من عالم القرون الوسطى . ولا يتهم صقع من اصقاعه بالثورة الاجتماعية كما يفهمها العلم ، وان كان هناك اضطراب سياسي لا شك فيه ؛ والنفخ في ابواق المحافظة في مثل هذه الحال ليس الا تشجيعاً على اطفاء جذوة الحياة وروح التقدم والقضاء المبرم على فكرة الاصلاح . وما ينفع في روسيا المندفعة قد يكون ضارًّا في الحجاز الجامد وما ينفع في الحجاز قد يكون ضارًّا في روسيا لان طعام زيد كما يقول الافرنج في امثالهم قد يكون سمًّا لعمرو . والعلاج الذي ينفعنا في طورنا الحاضر هو من حيث الاساس التجديد لاننا لا نشكو عدم

الاستقرار بل نشكو المرّة الساكنة وليس احد منا مصاباً بالسرعة بل كلنا بطيء . ولا نرى خطأً منطقياً مثل الجدل النظري في ايهما اصلح التجديد ام المحافظة من غير التفات الى احوال البلاد التي يتناولها الجدل . وقد نجا الاطباء من هذه السفسطة منذ صار الطب علماً فهم لا يبحثون في فائدة العلاج من غير نظر الى المرض اولاً والى المريض ثانياً والى درجة المرض ثالثاً ، واعطاء المنبهات عند هجوم الحميات مثلاً هو بالاجمال خطأ فادح مثل اعطاء المسكنات في ختامها . فلكل مرض ولكل مريض ولكل درجة مرضية علاج خاص ، وهكذا شأن الامم فانني ناصح امين اذا ما قلت للصين ان تتناول المنبهات وللروسيا ان تجرع المسكنات

وقد وصف الاستاذ (بايندر) الامم الخالية بقلة الحيلة وفقد الشجاعة الادبية اللازمة وفي نظره أن تدخل مطرقة الارباب في شؤون البشر المادية تدخلاً مستمرًّا جعل الانسان جباناً لا يجرؤ على شيء ومع ذلك فقد حصل الارتقاء وان كان في أول الامر بطيئاً جدًّا . وقال ان الدواعي التي ادت الى هذا الارتقاء ثلاثة ، (الاول) منها ان الانسان كشف مواطن الضعف في هذه الارباب من تناقضها بعضها مع بعض ومن فشل الاخيار الطائعين ونجاح الاشرار العاصين في كثير من الاحوال حتى كاد يتمثل بقول الشاعر العربي

كم عالم عامل اعيت مذاهبهُ وجاهل غافل في الارض مرزوقا
هذا الذي ترك الافهام حائرة وصيّر العالم النحرير زنديقا

(الثاني) ان الدين اصبح اكثر رحمة بالناس واقل ضغطاً عليهم . (الثالث) ان الانسان تعلم الاعتماد على النفس في تدبير اموره وعرف صحة مثلنا العربي

ما حك جلدك مثل ظفرك فتولَّ انت جميع امرك

اسباب الاضطراب السياسي في العالم العربي : كان اهل العالم العربي اسياداً في بلادهم ولهم تاريخ حافل بسير الابطال وما فعلوه في ابان الفتوحات الاولى ، وقد نشأوا وهم لا يعرفون من الدنيا الاّ بيئتهم الخاصة وقد اصيبوا بالشيء الكثير من الغرور فلم يتنزلوا الى الالتفات الى غيرهم من اهل المدنيات التي تحيط بهم ، وقد استعزوا بقوتهم حتى ظنوا الآخرين كمية مهملة لا يؤبه لها لذلك لم يماشوا الانقلابات الخطيرة التي استجدت في العالم حولهم ولم يتسلحوا بالسلاح المستكشف على انواعه مادياً كان ام معنوياً لانهم اكتفوا بالتأييد الازلي الذي حسبوه ملازماً لهم كما لازم آباءهم واجدادهم فما عتموا ان صاروا فريسة بيد الاطماع الاستعمارية وهدفاً للبسطة الاجنبية . الاّ ان المدنية التي ازدانت بها بلدانهم في القرون الوسطى تركت في ذاكرتهم اثراً جلياً من عزة النفس حال حتى الآن دون اندثارهم ، والسلطان الذي تمتع به جدودهم احقاباً متعاقبة جعل الحرية هدفاً اسمى نصب عيونهم ، وولدت اعمال الابطال العرب فيهم فخراً كما يفتخر الفرنسوي بنابوليونه ، لكن هذه الانطباعات النفسانية لم تظهر على اتمها الاّ في النشء الحديث ممن تربى

على الطريقة الغربية ونال قسطاً من الانتباه القومي الحاضر ، فلما صاح صيحته العالية وجد في سواد الناس مستمعين متحفزين فدبت في المجتمع العربي روح جديدة . ولا نكون قد وفّينا هذا الموضوع حقّهُ اذا نحن لم نشر الى الأثر البليغ الذي تركتهُ مدارس الاستانة في شباب العرب لأن الترك كانوا قد سبقونا الى تفهم النهضة السياسية الحاضرة والاحاطة بمعنى الجامعة القومية فاحتكاك شبابنا بهم ولّد في نفوسهم غيرة على القومية العربية وحرمة للتقاليد المتوارثة . لا جرم ان خريجي جامعة الاستانة من ابناء العرب كانوا السابقين في هذا المضمار. فكانوا يعودون من العاصمة العثمانية وفي نفوسهم ما فيها من الحماسة المشتعلة للنهضة العربية

وقصارى القول ان سبب الاضطراب السياسي الحاضر في العالم العربي هو العلم — والأصح هو العلم بالشؤون العامة الحاضرة ، فلو لبثنا على الخمول والاكتفاء بمجد الآباء والجدود التاريخي وحافظنا على طريقة الكتاتيب التي كانت منهل التعليم عندنا وتجنبنا الاختلاط والسياحة والاطلاع على مدنيات الامم الاخرى لبقينا راضين بما قسم لنا . اما وقد انجلت منا الاذهان وتنبهت المشاعر وتمثلت امامنا عظمة تاريخنا فلا بدع ان نبدأ حياتنا من جديد — ان نبدأ حيث ابتدأت الامم الحية اي بقلة القناعة وعدم الرضا ، ومن كان هذا حاله كان طلبه للعلاج امراً طبيعيًّا . كان المتأخرون من أسلافنا يجهلون ما في طاقتهم من القوة على العمل لانقاذ موقفهم وما في ارادتهم من العزم لتذليل الصعاب واما نحن فاقل ما يقال فينا أننا خلصنا من هذا الجهل المطبق اذ أخذنا نشعر بما في مجتمعنا من القوة الكامنة المادية والمعنوية وعرفنا ان فكرة الجبر التي كانت مستولية على هذا السلف هي فكرة بالية تليق بالاقوام الابتدائية وان مصيرنا مربوط بعزمنا ؛ بيد اننا ويا للأسف عند ما جربنا مساعينا رأيناها تذهب سدى لوجود اليد الغاصبة فوق رؤوسنا واستيلائها على مرافق حياتنا ، وما فتئت هذه اليد تحوّل هذه المساعي لمصلحتها المادية حتى انها تحمّل مدننا وقرانا الغرامات الباهظة كلما حاولنا ان نزيح كابوسها عن صدورنا فكأننا والحالة هذه عالقون بمصيدة فاذا ما حاولنا الخلاص ازددنا وقوعاً في التهلكة

واذا حللنا عللنا تحليلاً دقيقاً وأرجعناها الى علةٍ كبرى شاملة وجدنا هذه العلة تنطبق على العلة الكبرى التي يشكوها المجتمع الاوربي ايضاً . فسواد الشعب هناك امسى على عقلية تختلف كل الاختلاف عن عقلية المتأخرين من سلفهِ وايقن ان الواجب ان تكون لمساعيهِ علاقة وثيقة بالحالة التي يتطلبها ولكنهُ هو مثل سواد الشعب عندنا خاضع لاوضاع بالية قد نشأت عن احوال تغيرت فلم تعد تلك الاوضاع مناسبة للظروف التي هو عليها. لاجرم ان مساعيه ايضاً اما ان تذهب سدى كصيحة في واد أو ان تظهر بشكل انقلابات سياسية واضطرابات اقتصادية خطيرة . وما لم تكن الاوضاع على تناسب مع الذهنية العامة وعلى ائتلاف

مع المساعي المشتركة فالسلام المنشود بعيد الاحتمال . وعلى كل حال فالتغير العظيم الذي رسخ في ذهنية الاقطار العربية النابهة هو ان اصلاح نفسها بيدها وان الارتقاء الغائي المتحرك القائم على ارادة الشعب هو الارتقاء الذي ينقذها من محنتها العارضة لا الارتقاء الخلقيّ الجامد المبني على التجربة الطبيعية العمياء البطيئة

ولا جدال في ان قضايا الغرب هي غير قضايا الشرق اجمالاً وما يشكوه الغربيون من الشكوى قد لا يكون له الا اثر ضئيل بيننا . فقضية الاشتراكية والشيوعية في اوربا هي قضية كبرى تنازع الرأسمالية وتصادمها صداماً عنيفاً وتهدد كيان النظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية وهي لا تتولد عادة الا في الاوساط الصناعية الحافلة بالعمال . اما صناعتنا فلا تزال في بدء تكوّنها والعمال فينا لا يؤلفون تلك الطبقة المريعة الموجودة في وسط اوربا مثلاً . لذلك لم تجد الشيوعية في الشرق اجمالاً ارضاً خصبة مع كل تلك الجهود العظيمة التي صرفتها ولا تزال تصرفها حكومة السوفيت الروسية

واول قضايانا — وهي اهمها على التحقيق — قضية تحرير بلادنا من ايدي الاجنبي حتى لا تذهب مساعينا سدى وحتى لا تتنافر ذهنيتنا مع الاوضاع التي نحن عليها ، فنظرة سطحية الى الخريطة تدل على ان جلّ الاقطار العربية تحت النير الاجنبي اما بالحماية او بالاحتلال او بالالحاق المباشر . ومن حسن الحظ — وقد يكون في بعض الاحوال من سوئه — ان الخطر الناتج عن زوال الاستقلال هو خطر بديهي الى حد انهُ طغى على سائر الاخطار حتى اصبحت البلدان العربية لا تفكر إلاّ في حريتها ولا تهدس إلاّ في استقلالها مما صرف نظرها إلى درجة بعيدة عن حاجاتها الاجتماعية الاخرى وجعل فكرة الاستقلال فيها شبيهة بما يسمى في علم النفس بالفكرة الثابتة او بالهوى . على ان ارتقاء الفكر من ناحية واحدة وطلب الاصلاح من جهة واحدة مع اغفال الجهات الاخرى هو عمل في نظر العلم اعرج لا يؤدي الى نتيجة ثابتة. فنحن مع حاجتنا القصوى الى الحرية نحتاج كذلك الى اصلاحات اجتماعية من الطراز الاول ، لاننا نعتقد ان الحرية من غير هذه الاصلاحات مهددة بالخطر . وليس التنازع بين الشعوب مقتصراً على ناحية واحدة من نواحي الحياة بل هو صراع عام شامل يتناول المجتمع من جميع نواحيه المادية والمعنوية . فلا غرو اننا في جهادنا مضطرون الى اصلاحات جمة تتعلق بالاسرة والدين والاخلاق والوطنية والحكومة والعلم والاقتصاد وغير ذلك من الشؤون الحيوية مما يتطلب بحوثاً خاصة سنعرض لها في سلسلة من مقالات مستقلة . وكنا نود ان يكون تأثير انتباهنا السياسي الوطني في هذه الموضوعات الاجتماعية الخطيرة اكثر عملاً واشد نفوذاً ، ولكن جهودنا السياسية ويا للأسف تستنزف معظم قوانا

جلالة البترول : اصله ونشأته

ما هو البترول ؟

البترول في حالته الطبيعية (الخام) سائلٌ لزجٌ يختلف لونهُ من اخضر قاتم الى اسود. وهو من الوجهة الكيمائية مركّب ايدروكربوني — اي انهُ مركّب من عنصري الايدروجين والكربون . ولكنهُ يحتوى دائماً على مقادير ضئيلة جداً من الاكسجين والكبريت والنتروجين . على ان العنصر الغالب في تركيبهِ هو الكربون فمقدارهُ فيهِ يتباين من ٨٠ في المائة الى ٨٨ في المائة . والبترول يوجد في الطبيعة في اشكال متنوعة . فهو آناً سائل طيار يتبخر على درجات عادية من الحرارة ويُعرف بالنفط (Naphte) . وآناً يحتفظ بعناصره الطيارة لدى ملامسة الهواء ولا يتخلى عنها الاّ على درجات عالية من الحرارة أو في اثناء التكرير . فيدعى حينئذٍ بترولاً . ثم تجدهُ احياناً متجمداً بعض التجمد فهو القار والزفت المعدني . ذلك ان العناصر الطيارة فيهِ تتبخر منهُ فتبقى المواد الجامدة

والبترول لا يوجد في الارض في طبقات ولا في جيوبٍ ولا انهار تجري تحت الارض كما يقال احياناً . فانك لا تجد في القشرة الارضية بحيرات يتجمع فيها البترول كأنها احواض كبيرة خلقت لتمتلئ بهِ. ولكن في مواقع معيّنة من القشرة الارضية اماكن رملية أو جيرية مشبعة بالبترول كأنها قطعة كبيرة من الاسفنج اشبعت بالماء . على انّ البترول لا يبقى في هذه الارض الاسفنجية الاّ اذا كانت مغطاة بطبقة لا يخترقها البترول السائل . فاذا لم توجد هذه الطبقة ، اندفع البترول بفعل ضغط الغازات التي يحتوى عليها محلولة فيهِ ، فيتبخر بعضها ويتأكسد الباقي متحولاً الى زفت طبيعي اذا لم يجرِ سائلاً لزجاً . وهذا ما وقع فعلاً — وما يزال يقع — في كل العصور في بابل واليهودية وايران وغيرها من مواقع البترول العالمية

وعلماء الجيولوجيا يقولون ان البترول لم يتكون في الاماكن التي يوجد فيها الآن ، بل في اغوار القشرة الارضية . وانما ارتفع من تلك الاغوار الى الطبقات العليا بفعل ضغط الغازات المحلولة فيهِ . وهم يفرقون بين التربة المولدة حيث تكوّن البترول والتربة الخازنة حيث تجمع على مرّ العصور

واذا حفرتَ في ارض بترولية بئراً عميقة مررت بثلاث طبقاتٍ متعدّدة اولاها طبقة من الغاز ينطلق فجأة في الجوّ فيميت احياناً الذين يحاولون استخراج البترول ، كما حصل من عهد

قريب لمهندسين في العراق . والطبقة الثانية هي التي تحتوي على البترول الصحيح ، والثالثة تحتوي على ماء اجاج رسب لشدة كثافتهِ . وقد يحدث احياناً ان ينبثق البترول بقوة عظيمة من البئر ، فيرتفع عشرات الامتار فوق سطح الارض ، وذلك بفعل الغازات المنحلة فيهِ ، فيشبه الغياسر وهي ينابيع الماء الحار المنبثقة كذلك . ولذلك قد استعير من علم الجغرافية الطبيعية لفظ « الغيسر » ليطلق على بئر البترول المنبثقة في الجوّ بقوة . وقد جاء في بعض الكتّاب ان احد هذه الغياسر انبثق في جبال القوقاس فبلغ علوُّهُ ٨٠ متراً

ولكن يغلب ان يعجز ضغط الغازات عن رفع البترول الى سطح الارض فتستعمل الطلمبات تحركها الآلات البخارية أو الكهربائية . فلا يبقى على اصحاب البئر بعد ذلك ، الاّ جمع البترول في احواض ونقلهِ في انابيب الى حيث يكرَّر وينقى ، او الى المرفإِ الذي ينقل منهُ الى مدن العالم . وقد ينقل البترول ، احياناً ، من آباره الى معامل تصفيتهِ مئات الكيلومترات في هذه الانابيب، كما ينتظر ان ينقل من الموصل الى طرابلس وحيفا

على ان الذهب الاسود ، المتحكم في الامم الآن ، يختلف عن الذهب الاصفر ، في انك يجب ان تتلفهُ (تحرقهُ) لكي تجنى فائدةً منهُ . وهذا يقضي على الامم بمواصلة البحث عن ينابيع جديدة ، بحثاً يزداد عنفاً وحرارةً بازدياد المستعمل منهُ في الصناعات والمواصلات والحروب

والواقع ان آبار البترول تنفد وسرعة نفادها تختلف . ولم تكتشف حتى الآن وسيلة تمكن الباحث من معرفة مدى حياة « البئر » . فقد تستمرّ البئر الواحدة تخرج البترول سبعة اعوام ، كما حصل في احدى آبار شركة « النسر المكسيكي » فانها اخرجت بترولاً في السنة التي اكتشفت فيها يوازي كلّ ما استخرج من آبار بنسلفانيا . وقد تنفد في بضعة اسابيع وهو الغالب

ولكن آبار البترول كلها تنفد عاجلاً أو آجلاً ، واذ ينفد البترول ، يخرج الماء الاجاج

وقد ذهب العلماء مذهبين في تعليل اصل البترول :

فطائفة منهم تقول ان البترول من اصل عضويّ ، اي انهُ نشأ من انحلال الاحياء — النباتات والحيوانات — او باختمارها ، بمعزل عن اكسجين الهواء . وقد يتمُّ هذا الفعل بطغيان مياه البحار (لذلك توجد المياه المالحة تحت البترول) او بهرب الاحياء لدى حدوث كارثة جيولوجية وانطمارها . والطائفة الاخرى تذهب الى ان البترول تولّد من التفاعل الكيمائي بين الماء وكربورات المعادن التي في داخل القشرة الارضية

واذا ذهب العلماء مذهباً حاولوا ان يؤيدوه بالتجارب العملية . لذلك ترى اصحاب هذين الرأيين يحاولون ان يصنعوا البترول في المعامل ، وقد تمكن اصحاب الرأي الاول من توليده من بقايا الحيوانات والنباتات ، كما تمكن اصحاب الرأي الثاني من صنعهِ بالتفاعل الكيمائي بين الماء وكربورات المعادن . فالترجيح بين المذهبين متعذر الآن ، وان كان خطرهُ لا يتعدّى دائرة البحث النظرية

البترول بين ايدي الناس

يتعذّر على الانسان ان يستعمل البترول الخام . ولابدّ من ان يعالَج صناعيًّا وكيمائيًّا معالجة تعرف «بالتنقية او التصفية» حتى تستخرج منهُ المواد المستعملة في الصناعة . واهمها ما يأتي :

بنزين من اصناف متباينة	زيوت ديزل
الكروسين او بترول الاضاءة (الغاز الابيض)	كوك البترول وبقاياه
الزيوت والشحوم (لتزييت الآلات)	البرافين والفازلين واشباههما

والبترول الخام ليس صنفاً واحداً ، بل هو اصناف مختلفة تركيباً ، اذا كرّرت خرجت منها مقادير متباينة من مقوماتها العديدة . ففي بعض اصناف البترول لا تجد شيئاً من البرافين ولا الفازلين ، وفي بعضها لا تجد المواد الطيارة ، فهذا الصنف لا يستخرج منهُ بنزين نقي عند التكرير . وبعضها مركّب من مواد طيّارة على الاكثر كبعض اصناف البترول الروسي والاميركي ، ولكنها مع ذلك لا تقرب من بترول بلدة مونتشينو الايطالية فان نسبة البنزين والكروسين في البترول الخام تبلغ ٨٥ في المائة . فثمة بترول وبترول !

ولكن البترول المستخرج من منطقة واحدة ، يكون عادة متماثلاً وان بعدت الآبار بعضها عن بعض . وعليهِ فقيمة البترول الخام من الوجهة التجارية تختلف باختلاف المنطقة التي يستخرج منها . وقيمتهُ التجارية رهن بمقادير المواد التي يحتوي عليها مما يقبل عليهِ اصحاب الصناعات المختلفة . فبعد ما اتسعت صناعة السيارات والطيارات . اصبح البترول الثمين هو المحتوي على قدر كبير من البنزين . ولكن قبل عصر السيارة والطيارة ، كان البترول الثمين هو المحتوي على قدر كبير من غاز الاضاءة (الغاز الابيض) . لان قيمة البنزين حينئذٍ كانت قليلة . وكان البنزين في كثير من المعامل يحرق لانهم لم يعلموا ما يفعلون بهِ ، او كانوا يجرونهُ في جداول

واذن فقبل ان يُسلم البترول للناس ، ليستعملوه ، يجب ان يكرَّر ، وهذه العملية تشتمل على فصل مقوماتهِ المختلفة بعضها عن بعض بواسطة التقطير (distillation) وهو عمل سهلٌ مبدأه ان مقومات البترول المختلفة تتبخر على درجات مختلفة من الحرارة ، تتراوح بين درجتي ٤٥ و٦٠٠ بميزان سنتغراد . يحمى البترول الخام تدريجاً فتستخرج اولاً المواد الطيارة فتمر في انابيب الى احواض خاصة حيث تبرد وتتكثف وتجمع سائلاً — وهذا السائل هو البنزين المصفى المستعمل في الطيران . ثم تزاد حرارتهُ ببطء فتخرج مواد اخرى ابطأ تبخراً وأكثف من بنزين الطيران وهذا هو بنزين السيارات . ثم يستخرج بنزين اكثف من هذين وهكذا . والتحكم بدرجات الحرارة تحكماً لبقاً يمكن الصانع من تفريق المواد الى المستخرجة من البترول الى اصناف كثيرة مختلفة نقاوة وقواماً . والصنف الذي يفوق كل الاصناف نقاوة هو الذي يخرج على اوطىء درجة من الحرارة . وبعد استخراج اصناف البنزين والغاز

الابيض تستخرج الزيوت والشحوم بالطريقة نفسها . وهكذا يمضي الصانع في استخلاص المواد من البترول الخام حتى لا يبقى في المرجل إلاَّ بقايا تختلف باختلاف البترول نفسهِ

اما كثافة المواد المستخرجة فتختلف . فأقلها كثافة وأخفها وزناً هو البنزين وهو سائل طيَّار شفاف ويشبهِ الغاز الابيض ولونهُ عنبري ثم الزيت المستعمل في تزييت الآلات وهو بنّي والمازوت (زيت ديزل) وهو اسود

هذه هي الطريقة التي كانت تستعمل قبل الحرب في تكرير البترول واستخراج عناصره المختلفة من دون احداث اي تغيير في بناء جزيئاتها . ولكن في اثناء الحرب وبعدها ازداد الطلب على البنزين المستعمل في الطيارات والسيارات ، فجعل الكيمائيون والمهندسون يبحثون عن الوسائل التي تمكنهم من استخراج اعظم قدر من البنزين من البترول الخام ولوخسروا في ذلك بعض المواد الاخرى مثل الزيوت والشحوم وغيرها . فاستعملوا ما يعرف الآن بفعل التحطيم « Cracking » اي تحطيم جزيئات المواد الثقيلة لتوليد المواد الطيَّارة

كان اصحاب شركات البترول يقطّرون البترول اولاً بفعل الحرارة ترفع درجتها تدريجاً ، ولكن فعل « التحطيم » يقضي باستعمال الحرارة والضغط معاً ، فتنحلُّ جزيئات المواد الايدركوبونية الثقيلة الى مواد طيَّارة وهكذا يحصلون على قدر اكبر من البنزين بخسارة قدر كبير من غاز الاضاءة والزيوت . والفائدة العظمى التي تجنى من هذا الفعل انهم يستطيعون ان يستخرجوا البنزين من البترول الخام وغاز الاضاءة والزيوت وزيت ديزل على السواء

وقد كشف هذا الفعل اتفاقاً . في يوم باردٍ من شتاء سنة ١٨٦١ كان مهاجر اميركي في معمل من معامل تكرير البترول ، يلاحظ مرجلاً من المراجل التي يغلي فيها وكانت الحرارة قد ارتفعت كثيراً فاستخرجت المواد الثمينة منهُ ولم يبقَ في المرجل الاَّ النفاية . وهي كثيفة قاتمة. ولعلَّهُ كان زوجاً شديدة الغيرة ، او عاشقاً على ميعادٍ ، فغطى المرجل ، واشعل النار حتى لا تنطفيء في اثناء غيابهِ وترك المصنع هنيهة . فلما عاد الى عملهِ بعد بضع ساعات ، لاحظ ان ما يحتوي عليهِ المرجل مادة صافية ، فاتحة اللون ، شديدة الشبهِ بالبنزين . فاسرَّ الى بعض رفاقهِ بما اكتشفهُ فاتصل النبأ بمسامع رئيسهِ ، وكان رجلاً يحبُّ الاطلاع ويميل الى التحقيق ، فسألهُ عما وقع ، واعداً اياهُ باغضاء النظر عن خطاءه في ترك عملهِ بضع ساعات متوالية . ثم حملهُ على اعادة التجربة ، فثبت ان زيادة الضغط الحاصلة من تغطية المرجل وزيادة الحرارة تحتهُ تفضي الى توليد البنزين من النفاية . فأمر صاحب المعمل عمَّالهُ ان يسهروا على المراجل التي بين ايديهم ، لئلا يفضي الخطأ الى توليد البنزين ، وهو في ذلك العصر ، مما يحرقهُ اصحاب المعامل أو يجرونهُ انهاراً تخلصاً منهُ . كان ذلك سنة ١٨٦١ ولكن الامتياز الاول لم يطلب الاَّ سنة ١٩١٠ ولم يشع استعمالهُ الاَّ في اثناء الحرب لما اشتدت حاجة الدول المتحاربة الى البنزين

رحلتـــان

رحلة الى القاهرة	انطاكية وآثارها الفخمة
للامير مصطفى الشهابي	لنقولا شكري

— ١ —

رحلة الى القاهرة[1]

اذا ركبت قطار السكة الحجازية في محطة القنوات بدمشق فانطلق بك صاخباً ينساب بين حدائق الغوطة الغناء تحت باسقات الأدواح وبين قصيرات الجنبات وطويلات الأنجم وخلال مخضرات البقول على انواعها سيراً مع فني بردى وسواقيه التي لا تحصى ، وقد آذنت تباشير الربيع بتفتق البراعم والعيون عن افانين الزهر ومخضلّ الورق،وبدت عن يمينك بلاس وداريا وغيرها من القرى فذكرتك بقول الصنوبري :

ونعم الدار داريا ففيها — صفا لي العيش حتى صار ريا
ولي في باب جيرون ظباء — اعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها — فلست اريد غير دمشق دنيا

ثم طلع بك الجبل المانع وهو يلهث تعباً فاستقبلتك اللجاة بحرّتها السوداء فطواها على عجل الى حوران حيث تذكر قول جرير في صفاتها

هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم — عند الصفاة التي شرقيّ حورانا
هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً — عيشاً بها طال ما احلولى وما لانا

حتى اذا بلغ بك وادي اليرموك فانحدر اليه قلقاً حذراً يتئد في سيره وانت تذكر روعة التاريخ في وقعة ذلك الوادي الشهير وتمتع ناظريك بأزهاره الفتانة التي تنبتها الطبيعة على انواع وأصناف لا تعد ، ثم استقبلك نهر الاردن وبدت امامك بحيرة طبريا فقف هنالك واذكر دمشق وقل مع اليزيدي :

---

(١) من محاضرة القاها الامير الشهابي في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق على اثر زيارته القاهرة في السنة الماضية

ماذا بقلبي من دوام الخفق اذا رأيت لمعان البرق
من قبل الاردن او دمشق لأن من اهوى بذاك الأفق
ذاك الذي يملك مني رقي ولست ابغي ما حييت عتقي

وتبدو لك بعد قليل بيوتُ بيسان وأشجارها وهي تنظر من علٍ غور الاردن كأنها تدفع عنهُ صروف الدهر . ومن العجيب انك لا تشاهد حولها كرْماً مع ان خمورها كانت مضرب الامثال فيما مضى . ولا ازال اذكر البيت الذي قاله عبد الرحمن بن سيحان بن ارطاة في سبيئة بيسان اي خمرها وهو :

سبيئة من قرى بيروت صافية عذراء او سبئت من ارض بيسان

وليس في مرج بن عامر ما يلفت نظرك سوى كثرة الصهيونيين فيهِ وفي السهول التي تقطعها في اليوم الثاني الواقعة جنوبي حيفا إلا طولَ كرم وقلقيلة ورملة ولُدّ فانها خمت نفسها منهم ولا يزال يصح فيها قول كُثيّر :

حموا منزل الأملاك من مرج راهط ورملة لُدّ ان تباح سهولها

وكأني بك ذاكر وقد بلغ بك القطار غزة قول الامام الشافعي فيها :

واني مشتاق الى ارض غـزة وان خانني بعد التفرقِ كتماني
سقى الله ارضاً لو ظفرت بتربها كحلت بهِ من شدة الشوق اجفاني

ثم يضرب القطار بمن فيهِ صحراء التيه دون ان يتيه لأن السكة امامهُ ممدودة تتلوى كالارقط وهو كما قال الحافظ حديد ينساب فوق حديد فلا خوف في دخوله التيه ان يضل كما ضل قوم موسى او يجازف مجازفة المتنبيء في قوله :

ضربتُ بها التيه ضرب القمـــار إما لهذا وإما لذا

وإذا ما جزت قناة السويس في القنطرة وركبت قطار مصر فانطلق بك في دساكر القطر ومستغلاته فلا تطمع بأن تمتع نظرك في الليل البهيم إلا بمصابيح البلدان والمدن التي يمرُّ بها القطار حثيثاً او يقف بها هنيهة وقفة القلِق الذي لم يبلغ الغاية في سيره حتى اذا بدت لك مصابيح القاهرة المشرقة حق عليك ان تحيي مصر بصرخة شبيهة بالتي خرجت من فؤاد شاعرنا الياس فياض:

سلام على مصر ولو عشت ادهراً لما كنت الأطول عمري مسلما
على موطن لو خيّر المرء موطناً من الارض لم يختر ابرّ واكرما
سرت في اهاليهِ عـذوبة نيله وسال فما إن تعرف الماء منهما

ولا تعجبن بعد خروجك من المحطة ليلاً لوفرة الانوار المتألقة في ساحتها وفي شارع الملكة نازلي الطويل البديع ولا لروعة تمثال نهضة مصر الذي يجب ان تحييه تحية من يعشق الحرية اينما كانت فكيف في عاصمة الفاطميين والايوبيين ولا لازدحام السيارات والعجلات

وفخامة الابنيـة وكثرة المارة ونظافة ارض الشوارع المصقولة صقلاً فأنت في مدينة اوربية في عظمتها شرقية في روعتها وهذا المزيج هو ما يستخفك ويستهويك فلست في الاسكندرية ولا في بور سعيد حيث رطانات الاجانب بمختلف الالسن الاعجمية تجعلك تتمنى ان تصم اذناك الى حين وحيث يظهر هؤلاء امامك بمظاهر تود منها لو كان لك عينا المصري ريثما تنسل من بينهما بسرعة الكهرباء

إنك اينما سرت في القاهرة تجد شوارع نظيفة واسعة وأبنيةً كبيرة شاهقة وحدائق مزدانة بأجمل اشجار البلاد الحارة وتجد ايضاً جوامع قديمة وحديثة وقصوراً مبنية على الطراز العربي تأخذ نقوشها وزخارفها وتطاريزها بمجامع القلوب. فحدائق الازبكية والنباتات والقناطر الخيرية والحيوانات والاسماك والمعادي وغيرها وهي كثر ثم جوامع السلطان حسن والرفاعي وابن طولون وسيدنا الحسين والازهر ومحمد علي وعشرات غيرها من آيات الفن المنبثة في انحاء المدينة كلها تحملك على الاعتقاد بأن القاهرة هي اروع مدينة لا في الشرق العربي وحده بل في الشرق الادنى بلا جدال . وأجمل من المدينة سكانها فانك لا ترتطم فيها بعدد كبير من حلفاء الاجانب بل الجمهور الذي تقع عليه عينك احد اثنين مصري اسمر بشوش مرح محتفظ بطربوشهِ القصير او مصرية سمراء كحلاء هيفاء في الغالب لفاء الا في الاقل تختال في الحرير الاسود سافرة الوجه او مسبلة عليهِ نقاباً ارق من دين صاحب البيت الآتي في الخمرة وأخاله أبا نواس :

عتقت في الدن حولاً   فهي في رقة ديني

نعم لقد رقت النقب على وجهِ السيدات المصريات حتى طار نصفها لدى نصفهن وأوشك النصف الثاني ان يلحق بأخيهِ وصرت ترى السيدة المصرية تجلس بجوانب الرجل في مجالس الادب وابهاء المحاضرات والحدائق والمسارح وغيرها دون ان يُعَدَّ ذلك منها خروجاً على المألوف من العادات. وقد ولدت المدنية الاوربية هذه الحال تدريجيًا . فالمرأة المصرية اسلمَ فيها عاقبة من المرأة التركية التي حملوها قسراً على اخبث ما في السفور من امور مستقبحة . ومن المعروف ان القرويات في مصر كالقرويات في الشام لا يتخذن النقاب على اوجههن. وأنت اذا اردت شبهاً لصور المصريات في المتاحف وعلى الستائر بتدودهن الهيف وعيونهن السود التي يشبهونها بفلقة اللوزة وما اوجدتهُ الطبيعة في الاهداب من كثافة وكحل وفي الحواجب من استقامة وقصر الى غير ذلك من الصفات التي تسترعي نظرك في صور المرأة المصرية القديمة فانك واجد هذا الشبه في فتيات القرى المصرية لا في فتيات المدن

ومتى رحت تبحث في القاهرة عن كل ما يجب عليك ان تراه وتدرس بامعان كل ما يحتاج الى درس حق عليك ان تسلخ فيها اشهراً بل سنوات . ولو جشمت نفسك التأليف في ذلك لما

خرجت بسفر بل بأسفار . وبعد ماذا تراني محدثك عما شاهدتهُ فيها خلال ايام معدودات أأذكر دار الآثار المصرية وفيها تتجلى عظمة المصريين الاقدمين فيما خلفوه من هيا كل وتماثيل ونصب مصنوعة من الحجر الصلد وأثاث ورياش وحلي مذهبة قرأتم عنها فيما كتب عن توت عنخ آمون خاصة الى غير ذلك مما يجعل تلك الدار لا تقل في عظمتها وغناها عما شاهدناه في اكبر المتاحف الاوربية . ام أذكر دار الآثار العربية وهي ان لم تستثر دهشتك من حيث عظمة ما فيها من مخلفات الاجداد فتنتك بما تحويه من دقيق النقش والوشي والزخرف واعادت الى نفسك ذكرى روعة الممالك العربية في إبانها . ام أتحدث عن اهرام الجيزة وسقارة وابوصير وغيرها او اكتفي بهرم خوفو الاكبر في الجيزة وهو من اقدم ما بنتهُ يد الانسان رسا اصلهُ على ٢٣٣ متراً من الارض وعلا جرمهُ فوقها حتى بلغ ١٤٧ متراً . وهنالك يربض ابو الهول الجبار الذي هزأ بالدهر كالهرم وصارع احداثه مثله حتى ناجاه امير الشعراء بقوله :

ابا الهول طال عليك العُصُر وبلغت في الارض اقصى العُمُر

فيا لدة الدهر لا الدهر شبَّ ولا انت جاوزت حد الصغر

ومتى ذكر ابو الهول وجب ان يتصور الانسان اسداً رابضاً من حجر طوله ٥٧ متراً وعلوه ٢٠ متراً وله رأس آدمي تبلغ اذنهُ ١٫٣٧ متر ويبلغ فمه ٢٫٣٢ ولو وقف رجل على فرع اذنهِ ومد يده لما بلغت قمة رأسهِ . ام انتقل بك طفراً الى مصر الجديدة حيث ترى الآيات البينات في بناء المدن الحديثة من قصور شاهقة وشوارع نظيفة واسعة وحدائق هي بهجة للناظرين . ولو شاهدت اجمل الاحياء في المدن الأوربية لما تركت في نفسك اثراً يفوق الاثر الذي تطبعهُ فيها رؤية مصر الجديدة . ام اسير بك الى حي الزيتون والمطرية وواحة عين شمس فتتذكر هنالك قول امير الشعراء في قصيدتهِ « المطرية تتكلم » :

لولا حلى زيتوني النضر ما اقسم بالزيتون ربّ العباد

الواحة الزهراء ذات الغنى تربي التي ما مثلها في البلاد

تريك بالصبح وجنح الدجى بدور حسن وشموس اتقاد

وبين الزيتون وواحة عين شمس ترى بيت الامام محمد عبده رحمهُ الله وقد اوشك يتداعى فتنقبض لذلك نفسك وتودُّ لو ان الحكومة المصرية على غناها رممته وجعلتهُ بيتاً من بيوت الأمة يحج اليهِ ابناء الشرق العربي كافة . وكنت ادليت بهذا الرأي الى معالي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاستصوبهُ

ام نصعد الى القلعة التي كان قد امر ببنائها السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب على احد منحدرات المقطم فنحظى بمنظر لا تقع العين على اجمل منهُ لبيوت القاهرة الجميلة وجوامعها البارزة ومآذنها الشاهقة وقبابها الكروية وجنانها الفردوسية ونيلها الهادي تنساب مياهه

بجلال وعظمة . وهنالك ندخل قصر محمد علي الكبير فنتذكر ايامه الغر وايقاعه بظلاّم المماليك واستئصاله شأفتهم . وندخل الجامع الذي بناه ذلك الرجل العظيم وأتمه الخديوي سعيد باشا على طراز جامع نور عثمانية في فروق بقبته البيزنطية العظيمة ومآذنه الرشيقة العالية فنحيي فيهِ ضريح مؤسس النهضة الحديثة باحترام وخشوع . ام نمتطي السيارة فنطلقها شمالاً الى شبرا فالقناطر الخيرية حيث نشاهد ذلك السد العظيم الذي بدأ بهِ محمد علي فأقامهُ في وجهِ النيل وأتمه بعده خلفاؤه وحيث تقع في الجزيرة التي ولدتها الترع على حديقة غناء من اجمل حدائق العالم تتسابق فيها بالجمال اشجار الفصيلة الصنوبرية وهن ملوك دوحة النبات وأشجار الفصيلة النخلية وهن امراؤها . دع انواع السنط والجميز ومختلف الأزهار . وأعجب لارض الحديقة كيف اوجدوا فيها تلك المنعطفات والمنحدرات والتلال الصنمية وكيف زينوها بتراويق الزهر وتعاريجه . فاذا ما اضفت الى خضرة الحديقة وزرقة النيل حمرة وجوه الحسان المرحات فأنت اذن في الجنة التي فضلها امير الشعراء على جنة الخلد عندما هتف بسينيتهِ المشهورة في الاندلس:

وطني لو شغلت بالخلد عنهُ نازعتني اليهِ بالخلد نفسي

ام نيمم الجنوب في القطار الى حلوان بلدة عبد العزيز بن مروان فنعيد إلى الخاطر ما كان بنى الأمير فيها من دور وقصور وما زرع من بساتين وكروم ثم نزورْ حمامها الكبريتي الشهير فنرى بناء عربيًّا ضخماً بنته الحكومة يحتوي على عشرات من الغرف والمقاصير النظيفة فيها مغاطس تُملأ بالمياه الكبريتية أو المياه العادية وقاذفات البخار أو الهواء الحار . وكأني أراك امام هذه الوسائل الحديثة ذاكراً حالة حماماتنا الكبريتية في طبريا والحمَّة وضُمير والسُّخنة وتدمرَ وغيرها وهي كما أوجدتها الطبيعة لم تعمل بها يد إنسان ولم ينفق فيها دانق واحد .

أم ترانا نترك الجد إلى حين فنفلت بضع ليال في عماد الدين وماعهدنا عماد الدين الكاتب الذي جعله صلاح الدين في خاصتهِ اخا لهو وطرب بل عهدناه على حد وصف الجاحظ لأمثاله « الفَ تفكيرٍ وتنقيرٍ ودراسة كتبٍ وحلفَ تبيين » ولو لم يكن كذلك لما الف « خريدة القصر وجريدة العصر » في عشر مجلدات و« البرق الشامي » وهو سبع مجلدات في التاريخ وديوان شعر وديوان رسائل وغيرها . فاذا صحت نسبة الشارع المذكور اليهِ — ولست أعلم عماداً للدين غيره تصح فيهِ هذه النسبة — كان من عبث الدهر وهزله أن تجتمع أنواع الملاهي في شارعهِ حتى صار يعرف بها وصارت تعرف بهِ. فهنالك تشاهد يوسف وهبي أشهر ممثل انجبتهُ مصر ومسرحهُ يعرف بالجد سواء من حيث التمثيل أم من حيث الآداب التي يشترط على المتفرجين أن يتحلوا بها . فأنت لا تجد هنالك إخلافاً بالمواعيد أو قهقهة أو مسامرة أو شرب ماء أو تدخين تبغ في أثناء قيام الممثلين بعملهم. ومتى فرغ الممثلون من تمثيل أحد الفصول جعلوا لك بينه وبين تاليهِ وقتاً تدخل فيهِ بهواً واسعاً فتأكل وتشرب وتدخن وتطلق لسانك

الميناء . ويكاد يكون مسرح فاطمة رشدي متحلياً بالصفات المذكورة. وهو يمتاز بصاحبته التي تحلت برشاقة القد وجمال الصورة وجودة التمثيل فكانت اشهر ممثلات مصر على الاطلاق. ولقد ابدعت في رواية مجنون ليلى تلك الرواية التي تعد من فرائد شوقي شاعر العرب الاكبر كما أبدع زميلها احمد علام . ولا شك ان التمثيل العربي لم يبلغ بعد مستوى التمثيل في دار الاوبرا الملكية حيث تمثل فرق أجنبية في الغالب وهو لا يزال بعيداً عما شاهدناه من الروايات في أوربا . ولكن القصور على ما أرى ليس في غواة التمثيل المصريين ولا في مؤلفي الروايات التمثيلية بل في ضيق ذات يدهم جميعاً فلو امدتهم الحكومة بالمال الكافي لبرهن كل منهم على انهُ أخو عبقر في عمله ولنهضوا بالتمثيل العربي إلى المستوى الذي تتوق اليهِ

وفي ذلك الشارع تسمع صوت عبد الوهاب يزينهُ تفنن صاحب الصوت بالغناء وانتقاؤه قصائد شوقي المتينة الحوك والجميلة المعنى ولو أعطيت أم كلثوم صناعة عبد الوهاب ثم لو انتقت على الأقل قصائدها الغزلية من نظم فحول الشعراء المتقدمين أو المتأخرين لبلغت سدرة المنتهى ولتضاعف تأثير صوتها العذب الذي ما حاكاه صوت رجل أو امرأة في البلاد العربية على ما نعلم . ولا شك ان لحوك القصائد ومعانيها تأثيراً كبيراً في نفس المستمعين فشتان من حيث المعنى ما بين قولك

متى يا جميل المحيا أرى رضاك ويذهب عنا الغضب
واني محب كما قد عهدت ولكن حبك شيء عجب

وبين قول الثاني :

ليلى تردد في سمعي وفي خلدي كما تردَّد في الآيك الأغاريد
أغير ليلاي نادوا أم بها هتفوا فداء ليلى الليالي الخرد الغيد

والقصيدتان اصبحتا اشهر من نار على علم الأولى تنشدها ام كلثوم والثانية عبد الوهاب. واما من حيث الفن فلا يزال ينقصنا الشيء الكثير من التنويع والتشكيل والمفاجئات فقد مللنا من الأنغام المحزنة وما فيها من نُواح وعويل . ولست أقصد بذلك تقليد الفرنجة بأنغام باردة كالتي اخذ بعضها يلحنها في هذه الايام ليست بشرقية ولا غربية وهي جديرة بثقب طبلة الأذن قبحاً وسماجة . وبعد هذا ما تراك ملاقياً في شارع عماد الدين ؟ انك ملاق فيهِ ممثلين للروايات السينمية وفرقاً للرقص والخلاعة مما يجعل عماد الدين الكاتب رحمهُ الله يتمنى لو كان سمي بأي سم آخر أو لو أنصفهُ الذين احبوا تخليد اسمهُ فخلدوه في غير هذا الشارع

* * *

ولنعد بعد هذه الجولات الليلية الى حياة الجد في النهار ولنزر على عجل مايتاح لنا زيارتهُ ركضاً في أيامنا المعدودات . ولنبدأ بدار الكتب المصرية فهنا لك يلقاك مديرها العالم الاستاذ

اسعد برادة بوجهه البشوش ويعرفك ببعض مساعديه وكل منهم استاذ فاضل بحّاث عن الكتب نقار خلال سطورها يدرك منها بالعين المجردة مالا يراه غيره بالمجهر . ولله ما حوته تلك الدار من نفائس الرقوق والمصاحف القديمة وغالي المخطوطات والكتب فانها ثروة في البلاد أي ثروة ومرحى لجهود الذين يطبعون الكتب في مطبعة تلك الدار فيخرجونها في تلك الحلل القشيبة التي أكتسى بها كتاب الأغاني وكتاب الأصنام وديوان مهيار الديلمي وعيون الأخبار للدينوري ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وأشباهها

وهل يجوز ان نعود من مصر دون أن نزور رجال الأدب والصحافة فيها (١)

***

وحقٌ علينا ونحن الذين ما برحنا منذ عشرين سنة نعالج الشئون الزراعية والأقتصادية ان لا نعود الى دمشق قبل ان نزور المعرض الزراعي الصناعي الذي اقيم في السنة الحاضرة في ارض الجمعية الزراعية الملكية في الجزيرة وقبل ان نلقي نظرة على مدرسة الزراعة العليا في الجيزة وعلى مؤسسات وزارة الزراعة المهمة .ولقد يممت لبلوغ هذه الغاية معالي وزير الزراعة حافظ حسن باشا فاذا استقبالهُ لي يدل على وفرة ادبه وشدة عطفهِ واذا بهِ ممن زاروا الشام في الأيام الخالية ومن النادر أن يزورها مصري كريم دون أن تترك في نفسهِ أثراً جميلاً

وتقدم الوزير المشار اليهِ الى السيد حلمي احد مفتشي الوزارة بان يكون دليلنا غير مكره فكان مثالاً للرجل الوديع من جهة وللمهندس الزراعي الخبير ببلاده من جهة ثانية. فاما المعرض الزراعي الصناعي فقد تجلت فيهِ جهود المصريين حكومة وشعباً في سبيل الأنتاج الزراعي والصناعي فكان اجمل صورة لذلك الشعب الشيخ الفتى والنائم المستيقظ فهنالك اجود مجموعة للأقطان في دار الجمعية الملكية الزراعية وهنالك مصنوعات مصلحة السجون من مفروشات ومناشف ومنسوجات حريرية وصابون وسجاد واحذية وكراسي ومماسح الخ كلها متقنة الصنع ومصنوعات المدارس الصناعية في انحاء القطر من نسج حريرية وآلات زراعية واثاث ورياش ومنتوجات المدارس الزراعية ومعروضات اقسام وزارة الزراعة كقسم الحشرات وقسم النباتات وقسم الاقطان وقسم البساتين وغيرها . وهنالك اجود محاصيل القطر الزراعية على انواعها من حبوب وفواكه وخضر ونباتات صناعية وهنالك ايضاً مصنوعات الشركات التي اسسها بنك مصر والغرف المختصة بمصلحة الصحة والاسعاف وهي جديرة بأن تسمى مدرسة لحفظ

(١) وهنا ذكر طائفة كبيرة من اعلام الفكر والادب والشعر والصحافة في مصر واشهر آثارهم ومميزاتهم الفكرية

الصحة . واذا اضفنا الى ذلك معروضات معامل الجلود والتبغ والصناعات الصغيرة المختلفة نكون قد اوجزنا في كلمتين ما احتجنا في زيارته الى اربعة ايام وما نحتاج في درسه الى شهر على الاقل وليس الخبر كالمعاينة

***

ومما لا شك فيه ان اخواننا المصريين لم يلحقوا الشاميين بالصناعات الوطنية الحديثة وليس لديهم اليوم امثال ما لدينا من معامل الدباغة والجوخ و« الكريب » وسائر النسج الحريرية و« التريكو » والجوارب وقمصان الكتان وسراويله وانواع الحلويات وعود الكبريت والسمنت وغيرها مما لا أثر فيه لرؤوس المال الاجنبية لكنهُ ليس ثمة ما يمنعهم من اللحاق بنا ومن تخطينا بمراحل . ولا شك ان السبّاق في هذا المضمار سيكون بنك مصر بمعامله . ومن البديهي ان مصر كالشام لا يمكن ان يكون فيها صناعات كبيرة لخلوّها من الفحم الحجري والحديد لكن بوسعها ان تنسج كل ما يلزم لسكانها من الالبسة القديمة والحديثة وان تصنع كل ما قلنا إنهُ يصنع اليوم في الشام فتستغني عن دفع ملايين من الجنيهات سنويًّا الى البلاد الاجنبية

واما مدرسة الجيزة الزراعية العليا فهي لا تقل بمخابرها ومعداتها ووسائل التعليم فيها عما خبرناه في المدارس الأوربية الشبيهة بها . ومن بواعث السرور ان جميع الدروس تلقى فيها باللغة العربية دون غيرها . وكذا في مدارس الزراعة المتوسطة الواقعة في مشتهر والمنيا ودمنهور وفي مدارس التجهيز كافة . وقد اخذت العربية تحل محل الأنكليزية والفرنسية في سائر المدارس العليا كالطب والحقوق والهندسة وغيرها

وبعد هذه صورة جد صغيرة لما شاهدتهُ في رحلتي القصيرة الى القاهرة . ونحن اذا رُحنا نلخصها في بضعة اسطر حصلنا على النتيجة الآتية وهي ان تلك المدينة الرائعة اصبحت اليوم رأس مدن الشرق العربي بعمرانها وبروعة آثارها الشرقية وان فيها نهضة علمية تتجلى في جماعة المجمع المصري للثقافة العلمية وفي عديد من الاخصائيين بمختلف العلوم ونهضةً ادبية واسعة النطاق تسطع في جماعة دار الكتب المصرية ورجال لجنة التأليف والترجمة ونوابغ الشعراء وفحول الأدباء من اساتذة ومؤلفين ، ونهضةً وطنية وسياسية لم نتعرض لها ولكنكم تلمسونها كل يوم في ما تقرأونهُ في الصحف المصرية ، ونهضةً صحافية كبيرة لا عهد لمصر بمثلها من قبل وهي قائمة بجهود عدد لا يستهان بهِ من حملة الأقلام المصريين والشاميين ، ونهضةً مالية واقتصادية لها في حياة القطر المصري الشأن الأكبر ومبعثها بنك مصر خاصة . فاذا اضفتم الى ذلك ان القاهرة عاصمة بلاد غنية يبلغ عدد سكانها ١٥ مليوناً من الناطقين بالضاد ادركتم الأسباب التي تجعل مصر زعيمة الشرق العربي بلا منازع

— ٢ —

انطاكية وآثارها الفخمة

قال بعد تمهيد : — وبعد ان اقمنا في الاسكندرونة زهاء خمس ساعات ، غادرناها قاصدين الى انطاكية في ركب فخم من الاهل والاصدقاء جاءوا لاستقبالنا ، وقد بهرنا وسحر اعيننا ، وملك علينا البابنا ، ما رأيناه في طريقنا من استبحار العمران في تلك الاقطار ، فقد كنا نمر بالقرى قائمة في الاودية ورؤوس الجبال ، وكنا نتعثر تعثراً بالجداول والانهار ، تحفها البساتين وصنوف الزرع والاشجار حتى لظننا انهُ ليس في هذه البلاد صحراء مقفرة ، او ارض غامرة ، وتذكرنا ابيات الشاعر الاندلسي اذ يقول : —

يا اهل اندلس لله دركمُ ماء وظل وانهار واشجار
ما جنة الخلد الا في دياركمُ ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تختشوا بعدذا ان تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وما لبثنا بعد ساعة وكسر ان انحدرنا في سهل فسيح مشرفين من الروابي النضرة في ابعد حدود البصر على بحيرة انطاكية الزرقاء المتصاغرة ، كالقطرة المرتجفة المتحيرة في راحة الطفل الغرير والعشب الاخضر ، المزهر يحف بساحلها الصلد ، تحجبها قايلاً عنا سنديانات مائلة الاعناق ذابلتها ، حتى اذا الممنا على ذلك السهل الفسيح المخضر لحنا مدينة انطاكية رابضة في سفح جبل «سلبيوس» متوهجة تحت قرص الشمس ، واذ ذاك طار لبي في عالم التفكير ، ومسارح الخاطر ،

وها انذا ابسط بايجاز تاريخ هذه المدينة الفاتنة العجيبة التي كأنها قطعة انتزعت من الفردوس ، وسربت من السماء الى الارض وقرت عيناً بهذا المكان فاستقرت ، وكانت لاهليهِ روحاً وريحاناً وجنة نعيم

كانت انطاكية عاصمة الرومان في الشرق بعد القسطنطينية ، وقد ظلت اكثر ٦٠٠ سنة حقيقة باللقب الذي لقبها بهِ «بلينيوس» وهو : مملكة الشرق : وكذلك ظلت عاصمة السلوقيين من القرن الرابع الى الاول قبل المسيح

ولعل أروع ما في آثارها القديمة الجسر الروماني الممتد فوق نهر العاصي ، وهذا الجسر من اكبر الجسور الرومانية الباقية حتى الآن في سوريا ، وقد جرفت السيول جسوراً حديثة

بناها المهندسون الفرنسيون في كثير من انحاء سوريا ولبنان وهذا الجسر القديم ثابت على مقاومة العناصر الطبيعية هذه القرون الطوال ، ولا يسع كل منصف الاّ ان يثني الثناء الطيب على المهندسين الرومانيين ، ويطأطىء رأسهُ امام اشباحهم اجلالاً لقدمهم واعترافاً بتفوقهم في صناعتهم . وتحيط بالمدينة بقايا سور قديم يرجع تاريخهُ الى اواسط القرن السادس للميلاد فقد اشار اليهِ المؤرخون وقالوا ان الرومان احتموا باسوار المدينة عندما هاجمها جيش كسرى ملك فارس وكانت نتيجة ذلك دخول الجيوش الفارسية مدينة انطاكية بعد حصار دام ثمانية ايام ، ثم تصالحت الدولتان واتفقتا على ان يؤدي القيصر الى ملك فارس مبلغاً معيناً من المال . وللمدينة ابواب اثرية قديمة لا يزال بعضها قائماً الى الآن . منها باب يدعى باب مسلم ويرجح ان تسميتهُ بهذا الاسم نسبة الى مسلم بن عبدالله جد عبدالله بن حبيب النعمان بن مسلم الانطاكي وكان قد جاءها في عهد ابي عبيدة بن الجراح الذي فتحها في ايام الخليفة عمر بن الخطاب فقتل على باب من ابوابها فهو يعرف لذلك بباب مسلم . وفي شرق المدينة باب آخر يدعى باب بولس ويروى ان بولس الرسول دخل انطاكية من هذا الباب فدعي باسمهِ واستشهد المؤرخون على ذلك بما ورد في اعمال الرسل (ص ١ : ٢٢ — ٢٦) وعلى بعد ١٥٠ متراً من باب بولس باب آخر يدعى باب بطرس وفي التقاليد ان بطرس الرسول سيم اسقفاً على انطاكية وكان اول اسقف لكنيستها وذلك سنة ٣٨ وفي رواية اخرى سنة ٤٤ بعد المسيح فاقام فيها مدة سبع سنوات ثم عين « افوديوس » خليفة وسافر الى رومية

***

وبما اتفق عليهِ المؤرخون ان الامبراطور يوليانوس مد اهالي انطاكية بالمال على اثر زلازل كثيرة حدثت فيها وهدمت معظم ابنيتها ، فبنوا حمامات جميلة وقصوراً وكنيستين كبيرتين احداهما للعذراء والاخرى للقديس ميخائيل وحولوا مجرى النهر بحيث صار اوسع وبلطوا اسواق المدينة تبليطاً حسناً وجعلوا ما كان معوجاً على استقامة واحدة لتسهيل المرور فيها وجروا المياه الى المدينة بالقنوات وغيرها . وفي شرق المدينة وعلى رابية من روابيها هيكل قديم الصنع عالي البنيان تجري المياه المعدنية الحارة من بين جدرانهِ فيقصده السكان للاستحمام والاستشفاء من شتى الامراض وقد أقام الآباء الكبوشيون هناك كنيسة باسم القديسين بطرس وبولس . وفي هذا الهيكل اعمدة جميلة وتماثيل متقنة . ومن الغريب ان ابوابهُ تظل مقفلة وقد تسلط الآباء الكبوشيون عليهِ فلا يسمحون بزيارتهِ في كل الاوقات . وبعض الهياكل القديمة لا ابواب لها يدخلها من يشاء ويقال ان القديس ديمتريوس دفن في احدها ولذلك ترى المسيحيين الارثوذكس يزورون هذا الهيكل ويأخذون معهم طعامهم وشرابهم فيأكلون ويشربون ويذبحون الذبائح وينذرون النذور

واذا هبط السائح وادي العاصي الخصيب حول انطاكية رأى سلسلة غير منتظمة من الآكام الكلسية (الجيرية) ومتوسط علو هذه الآكام ١٥٠٠ قدم ومنها ما علوه ٣٠٠٠ قدم الى ٣٥٠٠ فوق سطح البحر . وهي آكام خضراء نضرة . واذا صعد السائح اليها رأى في كل منعطف منها أثر يد الانسان من طرق مرصوفة وجدران تفصل الحقول بعضها عن بعض وأرصفة هائلة الكبر . ثم يشاهد خرائب مدن وضياع صغيرة مهجورة فيها ابنية قديمة مبنية من حجارة كلسية بديعة النحت . واذا صعد الى مرتفع هناك رأى حواليهِ خرائب مثل هذه الخرائب ممتدة في كل جهة، واذا كان بعيداً عنها لا يكاد يصدق انها خرائب مهجورة. وبعض هذه المباني لا يزال قائماً ولكن سقوفه منزوعة عنها على مرّ الزمن . وقد يسير المرء اميالاً كثيرة في تلك البقاع ولا يرى فيها انساناً ولا خضرة ما سوى بعض شجر العفص والبطم هنا وهناك ولا ارضاً ترابية صالحة للزرع الا في اماكن بين الصخور حيث لم تستطع السيول جرف التراب ايام الامطار . اما البناء في هذه الخرائب فيمثل كل طراز معروف عند الامم العريقة في الحضارة ، من ذلك ابنية تدل الدلائل على انها قديمة وان لم يكن عليها كتابة وهي على شكل كثير الاضلاع ولها افاريز غليظة حول سطوحها وابوابها . ومنها ابنية بنيت في القرن الاول والثاني للمسيح بينها هيا كل بديعة البناء ومعظمها خرائب لان الناس جعلوا يسطون عليها لاخذ حجارة البناء منها . واذا اجتاز السائح هذه التلال شرقاً انحدر الى اودية خصيبة طمست آثار ما كان فيها من المباني لطول تداول الناس حجارتها في العصور الخالية ، وفيها بعض الخرائب مثل جدران قائمة أو ابراج أو قناطر أو اعمدة . والباحث فيها عن كثب يجد انها كانت اكثر ازدحاماً بالسكان في غابر الازمان من المناطق الجبلية التي مر الكلام عليها. ويستدل من أقدم الكتابات التي وجدت فيها ان العمران بلغ فيها شأواً رفيعاً في اوائل التاريخ المسيحي ، كذلك تدل الآثار والتاريخ دلالة قاطعة على ان ذلك العمران بدأ هناك قبل التاريخ المسيحي بنحو مائتي سنة أو ثلاث مائة سنة على القليل ولكن هناك آثار أخرى يؤخذ منها ان مدنية تلك البقعة اقدم عهداً ولو لم نعرف الا القليل عن تلك المدنية القديمة

***

وفي المدينة تماثيل كثيرة عثر عليها عند البحث والتنقيب منها تمثال الامبراطورة افدوكيا زوجة الامبراطور ثيودوسيوس . وهذا التمثال من اغرب التماثيل وقد روى المؤرخون عنهُ قصصاً كثيرة تدل على السبب الذي حمل الانطاكيين على نصبه للامبراطورة افدوكيا وأشهرها ان الامبراطورة كانت مولعة بالشعر وقد زارت انطاكية وكان ابوها من معلمي المعاني والبيان فلما وصلت الى المدينة راقتها مناظرها الطبيعية الجميلة وتذكرت ما فيها فجلست على سرير من

الذهب مرصع بالجواهر والقت خطاباً موضوعهُ مديح انطاكية واشارت في ختامهِ الى ان اصل هذه المدينة يوناني لان الذي اختطها هو الجنرال سلوقس احد قواد الاسكندر وانها هي يونانية الاصل ولذلك تحبها كل المحبة . ثم انشدت شعراً من الياذة هوميروس فتحمس السامعون كثيراً ودعوا لها بالنصر ونصبوا لها تمثالين فغمرت المدينة بعطاياها . وفي ظاهر المدينة كثير من القبور الرخامية الجميلة الصنع والاتقان بعضها مربع وبعضها مستطيل

وعلى مسافة قريبة من المدينة غابة مجاورة لها كانت تدعى قديماً « دفنة » ومعناها «غار» كان فيها هيكل عظيم لابلون زالت معالمه واندرست آثاره الا القليل منها وقد اشتهرت دفنة بمياهها الغزيزة وشلالاتها التي شهد كثيرون من السياح ان لا نظير لها حتى في سويسرا . والمياه هنا لك تنحدر من قمم الجبال والآكام مارة بين الصخور الدهرية وعند بلوغها سفوح الجبال تجري على الحصباء كأنها قطع بلورية ، وحولها اشجار الصنوبر والتفاح، وغابات السرو والشربين ، وكروم التين والعنب والزيتون ، وحقول التوت والكستناء ، والآكام والهضاب ، والجبال الشامخة مغطاة كلها بالانجم الزهرية ، ونهر العاصي يتمعج بينها كالافعوان بل كسيف يسل على نجاد اخضر

***

والخلاصة ان آثار انطاكية من اعظم الآثار الدالة على مدنية سوريا القديمة وقد امتاز سكانها القدماء بميلهم الى اللهو والطرب وكانوا كلفين بالعاب التياترو والميادين كغيرهم من السوريين فكانت اللاذقية ترسل الى تلك الالعاب سائقي المركبات ، وصور وبيروت ممثلي الروايات ، وقيصرية لاعبي الحكم ، وبعلبك المغنين ، وغزة ابطالاً يقاتلون الوحوش في الميادين العمومية ، وعسقلان المصارعين ، وقسطابلا لاعبي البهلوان ، وكان اهلها على حبهم الشديد للملاهي يميلون الى العلم الالهي وعلم الهيئة ، واستمرت ٦٠٠ سنة حقيقة باللقب الذي لقبها بهِ بلينوس وهو : مملكة الشرق اذ كانت محوراً لتجارة اسيا الغربية وملجأً لفنون اليونانيين وعلومهم ، وكان اليونان يسمونها انطاكية الجميلة وكانت فيها ابنية عمومية شائقة منها قصر الملوك الذي لا تزال آثاره ظاهرة وهيكل المشتري الذي لا تزال آثاره بادية في «دفنه» والتياترو والامفيتياتر ودار القياصرة وعدة حمامات واقنية للمياه وما الى ذلك من الابنية العامة الكبيرة التي تدل على عظمة سكان سوريا القدماء وما بلغوه من العز ورفعة الشأن في سالف العصور

الغريزة الجنسية في العمران

إلى عهد قريب كان اول ما يتبادر الى الذهن من لفظ الغريزة حينما ترد في بحث او حديث هذه الصفات الحيوانية الدنيا : كالشهوانية والاندفاع المطلق من كل قيد والتنكيب عن التفكير وترجيح الحاجات الجسمانية على الحاجات الروحية وما الى هذا مما يكثر الآن في كلام المرشدين . وهذا يشير الى نسق التفكير الذي كان ولا يزال شائعاً قبل ان يدرك تماماً عمق الأثر الذي تتركه الغرائز في حياتنا

وهذه النظرة العدائية الى الغرائز ليست حديثة العهد أو مقتصرة على فئة دون أخرى او اقليم دون اقليم بل هي نظرة عامة شاملة لا تكاد تخطئها في قوم يفكرون في غير حاجات الجسم الأولية . وأقل ما كان يلحق بهذه الغرائز من عيب وأخفّ ما تحمله من وزر انها محدودة الفعل ضئيلة الأثر في حياتنا . وإذا وجد من يقرّ لها بشيء ما لا يعترف لها الا بالجانب المظلم من سلسلة الحوادث التي تتعاقب على مسرح الحياة . فالحروب المهلكة والرذائل المميتة والشرور الملازمة والحيوانية البشعة — هذه وغيرها من نتاج الغريزة وثمار الشهوة والمعارف الصحيحة والاعمال الفخمة والمآتي الجليلة هبة العقل وحده وثمرته . وهكذا تكون مهمة العقل البناء والترميم ويبقى للغريزة الهدم والتدمير

ذلك هو حظّ الغرائز من انصاف القدماء وتقديرهم . ومما لا شبهة فيه ان اوفر هذه الغرائز نصيباً من سخرية القدماء وزرايتهم هذه الغريزة الجنسية التي تهبنا الكثير مما في الحياة من جليل خالد ولكننا نأنف ان نقر لها بشيء من ذلك . واللغات القديمة والحديثة طافحة بالاشارات المقتضبة والمستفيضة في التشنيع على هذه الغريزة والنيل منها

ولكن ما عتم ان تنبهت الافكار الى خطل هذه الفكرة التي تحاول ان تضع حداً فاصلاً بين اعمال العقل وأعمال الغريزة . وأدرك جمهور الفلاسفة والباحثين ان جميع الغرائز على مستوى واحد من حيث النفع العام إذا لم يسأ استعمالها . وأشد ما لاقته هذه الفلسفة القديمة كان على يد فرويد (Freud) وأشياعه العديدين . وهم اليوم يملأون مشارق الارض ومغاربها ويحتلون مركزاً عالياً من ثقافة هذا العصر وتفكيره

أرانا فرويد ان اكثر ما ندعي اننا نعمله في هدي العقل وارشاده لم يكن ليتم لولا زخم العاطفة ودفع الغريزة — والغريزة الجنسية على الاخص . ومذ قذف فرويد اول قنبلة من قنابله اخذت بطاريات العلم تهاجم تلك الصروح التي بنتها اوهام الماضي حول الغريزة الجنسية مهاجمة لا لين فيها ولا هوادة . ويخيل الينا أنهُ لا يصمد في وجهِ هذه المعركة العنيفة إلاّ كل

ذي اساس متين . على أن هذا الجبن والرياء اللذين كانا يلازمان كل حديث أو بحث في موضوع الغريزة الجنسية قد اهابا بالباحثين الى التطرف في النظر والمغالاة في الحكم والتقدير . شأنهم في هذا شأن الجواد الجموح يندفع وراء طريدته فيدركها ويخلفها وراءه لشدة جريه وقوة اندفاعه فتراهم اليوم ينسبون الى هذه الغريزة كل لون من الوان الحضارة بلا استثناء ضاربين صفحاً عن الغرائز الاخرى — كغريزة حب التسوُّد — مثلاً وهي لا تقلُّ أثراً في توجيه الحضارة عن الغريزة الجنسية . اذاً من الخطإِ الفاحش والتحكم المكروه ان يعزى كل أثر من آثار الحضارة وكل لون من الوان العمران الى هذه الغريزة وحدها . ومن الخطإِ ايضاً ان يظنَّ ان الغريزة الجنسية كانت تسير دائماً وراء عوامل الحضارة توجيها الى حيث تشاء دون ان يكون لهذه العوامل اي أثر في تلوين هذه الغريزة وتنويعِ وسائلها وتعديل مجراها

هذه الغريزة في الحيوانات العليا هي وسيلة الحياة وأداة البقاء . هذا يحسب لها ولا يستطيع أن ينكره منكرٌ . فكل كائن من الكائنات الحية من العناكب التي تلتهمها اناثها بعد التلاقح الى الرجل الذي ينصب ما ينصب ويعاني ما يعاني في توفير القوت لزوجهِ وبنيهِ — هؤلاء وغيرهم تسخرهم الحياة في قضاء لباناتها وتنفيذ ارادتها . حتى الفلاسفة — كما يقول شوبنهور — لا يعدمون نسلاً يخلفونهُ بالرغم عن كل تفكير ومعرفة

ولكن ألم يكن بوسع الحياة أن تخترع اسلوباً غير هذا الأسلوب للبقاء أقل كلفة وأضمن للنجاح من هذه الوسيلة المعقدة ؟ اليس الواقع أن الحياة استمرت ملايين السنين دون ان تتوسل بهذه الغريزة في تنفيذ مآربها ؟ ان الغريزة الجنسية حديثة العهد في تاريخ النشوء . والحياة كائنة قبل الغريزة الجنسية تعمل عملها في الأحياء دون انقطاع ، وتكثر النسل لا بطريق التزاوج والاتحاد بين الخلايا الحية بل بطريق الانقسام المستمر . اذاً لم يكن ثمة حاجة الى هذه الغريزة إذا كان الغرض منها البقاء والاستمرار فحسب . واذاً ما قيمة هذه الغريزة وما غرض الطبيعة في تكوينها ؟ قيمتها أنه لما تقررت صفات الانوثة والذكورة في الجنسين — وذلك بانفصال عوامل التذكير عن عوامل التأنيث — أصبحت الغريزة الجنسية وسيلة ناجحة في يد الحياة لتقرير الصفات المستمدة وتثبيتها في النسل الجديد . والانتخاب الطبيعي كان لا يتم ولا ينجح لو لم تكن المواد التي تقدمها الحياة متباينة . وذلك أن الانتخاب الطبيعي يرتكز على أن الجيل الواحد يجيء وله من الصفات المستجدة ما ليس للجيل السابق . وهذه الصفات كانت لا توجد لو أن الحياة استمرَّت على أسلوبها القديم في التكاثر والتوالد — أسلوب الانقسام الذاتي المعهود

وغير هذا فان للتباين الجنسي اكبر أثر في إنشاء العائلة وإحكام بنائها . فهذا التجاذب القوي بين الجنسين ، وهو الاصل في بقائهما قريبين احدهما من الآخر ، يرجع إلى استقرار

التباين في كلا الجنسين . فالرجل إذ يشعر أن حياته لا تتم ولا تؤدي غرض الحياة الأسمى على أكمل وجه إلاّ إذا استقل بامرأة ووطن النفس على المكث إلى جانبها مدة طويلة من الزمن ريثما يشتدُّ ساعد البنين ويقوون على دفع المخاطر ورد المهالك ، لا يجد له مندوحة عن البقاء إلى جانب زوجته يدفع عنها وعن بنيها . وهذا الاستمرار على الولاء للمرأة والقيام على خدمتها مكَّن الروابط بين الرجل والمرأة مما كان أساساً لنشوء العائلة — نواة الاجتماع . وكثيرٌ من الفضائل والعواطف الاجتماعية كالعفة والغيرة والرحمة وعاطفة الأبوة مردّها هذا التباين الجنسي وما يستتبعهُ من انجذاب وتعاطف . والذي يساعد على بلورة هذه العواطف وتصفيتها ولادة الاطفال ضعافاً لا يملكون نفعاً لأنفسهم . واستمرار هذا الضعف مدة طويلة في صغار الاناسي يجعل بقاء الوالدين قريبين منهم أجلاً طويلاً ، امراً محتوماً ، بعكس اصناف الحيوانات الأخرى التي يولد صغارها قادرين على السعي وتحصيل القوت مما يسهل على الوالدين الانفصال عن صغارهم والضرب في منا كب الأرض دون أن يلتفتوا إلى ما خلفوه من نسل

بيد أننا لا نحب أن يذهب بنا التحمُّس لهذه الفروق الجنسية مذهب القائلين بأن كل فضائلنا ومؤسساتنا الاجتماعية كانت وليدة لهذا الانجذاب المستمر بين الجنسين ، ونهمل الغرائز والدوافع الأخرى وهي لا تقلُّ في فعلها عن الغريزة الجنسية . وفي سلوكنا الجنسي ذاته قد يكون لهذه الغرائز والدوافع الأخرى أثرٌ كبير في توجيه هذه الغريزة. فالشاب الذي يقتحم ما يقتحم من أخطار ويتخطى من صعاب ليفوز برضى فتاته، قد لا يكون دفع الغريزة الجنسية له أقوى من دفع غريزة حب التسلط والسيادة ، لا سيما إذا كان له مزاحمون اقوياء يجد لذة في تنحيتهم عن الطريق واقناع نفسهِ انهُ أهل للجهاد والغلبة. ونعتقد أن دون جوان ولورد بيرون وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم ممن اشتهروا بالتنقل في الحب لم يكن كل الدافع لهم في مغامراتهم الغرامية ارواء الغريزة الجنسية وحدها ، بل يشترك معها في ذلك غريزة حب السيادة والدفاع عن النفس باقناع هذه النفس انها تستطيع ان تعشق وتتغلب إلى هذا الحد الذي يقاس بكثرة المعشوقات. وهذه الفتاة الاميركية التي كانت تستدرج عشاقها إلى مشاطرتها فراشها ثم الوقوف عند ذلك الحد متوسلة اليهم بعواطف النخوة والشرف تمثل لنا هذا الصنف من الفتيات والفتيان الذين يحبون أن يثبتوا لأنفسهم وللناس انهم في هذا الحد من المقدرة على التسلط على عواطف الغير . أما ممارسة الحب لأجل الحب فقد تكون عندهم في الاعتبار الثاني

هذه امور ندوِّنها للغريزة الجنسية دون أن يداخلنا طيف من الشك في قيمتها وأثرها في احتثات التطوُّر العضوي والاجتماعي وايصاله هذا الحد من النجاح . ولكن هذا ليس كل ما للغريزة الجنسية من أثر في مظاهر الحياة المختلفة . فالواقع ان هذه الغريزة يمتد تأثيرها الى غير عنصر من عناصر العمران . وتعقُّب آثار هذه الغريزة في عوامل الحضارة جميعها

ليس من غرضنا الآن ، لأن المجال لا يتسع لمثل هذا البحث المتشعب فنكتفي باظهار الأثر الذي كان لهذه الغريزة في عاملين اثنين من عوامل الحضارة — الدين والفنون على اختلافها

أما الذين تشبعت أفكارهم بالسخط على الغريزة الجنسية وتحميلها كل الخطيآت الاجتماعية والدينية فيشق عليهم أن يصدقوا أن هناك علاقة بين هذه الغريزة والدين. ونحسبهم يعتقدون ان مثل هذا النظر من قبيل الكفر والزندقة . وهم معذورون لأنهُ ، بحسب الظاهر ، ليس ما هو أكثر تضاداً من الدين والمسائل الجنسية . فالاختلاف بين هاتين الناحيتين من نواحي الحياة — عندهم هو كالاختلاف بين الايمان بالله والكفر بهِ . ولكن الواقع انك إذا رجعت إلى الأديان القديمة كديانات الفينيقيين والآراميين والبابليين وإلى الديانات الحديثة عند اكثر الشعوب المتوحشة وجدتَ فكرة الجنس تحتل من هذه الديانات محلاً رفيعاً . فهيا كل القدماء وشعائرهم الدينية ورسومهم على جدران الهياكل وأغانيهم وما كانوا يمارسون في معابدهم تدلنا دلالة واضحة على أن هذا العداء بين الغريزة الجنسية والدين هو عداء حديث طارىء بدأ مع المسيحية وبلغ غايتهُ في قرونها الأولى

ولا يعد هذا التمازج بين عناصر الغريزة الجنسية والعناصر الدينية دليلاً على التقهقر بالنسبة إلى حضارة اولئك الأقوام وطراز تفكيرهم . ذلك لأن غرض الدين عند القدماء لم يكن — في معظم الاوقات — تفسير الحياة وتعيين هدفها وترسيم الطريق التي يسار فيها للوصول إلى هذا الهدف ، انما كان غرضُ الدين حفظَ هذه الحياة والابقاء عليها . ومن هنا التقى الدين والغريزة الجنسية عند هذا الغرض الواحد . ومعظم الشعوب المتوحشة يشيع بينها الاعتقاد بأن الاخصاب في الأرض يجب أن يصحبهُ اخصاب بالنسل . ومن هنا ما يمارسهُ أكثرهم من شعائر ومراسيم دينية عند زراعة الحبوب والاثمار ووقت الحصاد والقطاف

على انهُ وان يكن للغريزة الجنسية هذا الأثر في الدين ، فان مظاهرها المختلفة لم تنج من تأثير الدين فيها ، لاسيما في القرون الاخيرة من الحضارة . واعظم الحركات الاجتماعية التي تركت أثرها الخالد في مسائل الجنس هي الديانة المسيحية . وذلك الصدام الذي استمرَّ حوالي خمسة قرون بين المسيحية الاولى والوثنية يمثل لنا حقبة خطيرة في تاريخ العمران . وكثير من مثلنا العليا الراهنة في مسائل الجنس يُعدُّ بحق ثمرة من ثمار هذا النضال المستمرّ

***

وفي الناحية الاقتصادية يرجع أثر الغريزة الجنسية الى الوقت الذي اصبحت المرأة فيه تباع وتشترى بعد ان كانت تؤخذ عنوة وغصباً. في هذا اصبح لا مندوحة للرجل عن توفير الثروة والاحتيال لها بكل الوسائل ليتسنى لهُ ان يبتاع المرأة التي يشتهيها واصبح لزاماً عليهِ ان يخترع لها وييسّر لها جميع الاشياء التي كان اختراعها وتيسيرها بحوزته . وهكذا ارتقى ذوقهُ الفني

وتنوّع واصبحت مقدرته على الانتاج تتمشّى — الى حدٍّ بعيد — مع رغائب المرأة الفنية والمادية الى هذا الحد كان تأثير المرأة ملموساً في توجيه سير الانتاج الاقتصادي ، ولكن ما عتم ان عكس الامر وأخذ دفع العوامل الاقتصادية يسيّر المرأة طرقاً شتى تتراوح بين السلامة والخطر . وقصة هذا النضال بين هاتين القوتين : قوة الانوثة المرنة وقوة الاقتصاد التي لا ترحم من اشوق القصص واكثرها امتاعاً . واليكها باختصار

اما المكان فهو — على الاجمال — عالمنا كله وبالحصر اوربا . والزمان هو اواخر القرون الوسطى وهو الزمن الذي اخذت فيه هذه المعركة الصامتة شكلاً جديًّا . فعقيب انصرام عهد الاقطاع وانتقال مركز الثقل الاقتصادي من الطبقات الارستقراطية الى الطبقات الاخرى التي شرعت ترقى سلم الارتقاء الاقتصادي بجهودها المتواصلة وتضحياتها العديدة آخى القانون الاخلاقي قانونين : القانون الذي يُرضي زمرة الارستقراطيين ورغائبهم الوثنية مطلية بطلاء المسيحية والقانون الذي يُرضي هذه الطبقة الناشئة — طبقة المتموّلين — ويساعدها على الاحتفاظ بثروتها المكتسبة بطريق الجد والاقتصاد وحرمان النفس شتى اللذائذ . فالزواج بامرأة واحدة وهو ما كان كالخرافة بين الطبقات الارستقراطية ، اصبح عند هذه الطبقة المتموّلة حقيقة راهنة وقانوناً نافذاً يأخذون انفسهم به اخذاً شديداً . والاسراف عند اولئك حلّ محله الاقتصاد والتوفير عند هؤلاء

وقد قوي هذا القانون الاخير واشتد ساعده بجماعة المطهرين الذين قصروا كل جهودهم على محاربة كل نزعة من نزعات الاسراف والتبذير متوسلين الى ذلك بالدين علماً منهم بما للدين من أثر في انجاح الدعايات الاجتماعية على انواعها . فالحق ان حركة المطهرين هي حركة اقتصادية مطلية بطلاء الدين . وقد تأثرت فنون المطهرين وآدابهم تأثراً قويًّا بهذه الفلسفة الاخلاقية التي سنوها لانفسهم . فشعرهم ونثرهم كانا مجردين من الاشارات الى المسائل الجنسية . وكنائسهم كانت غفلاً من الرسوم والصور ومراسحهم التمثيلية كانت والعدم سواء . وموسيقاهم حُصرت ضمن حدود ضيقة جدًّا لا تتعدى المواضيع الدينية . ومن هنا معنى عبارة تروتسكي اذ يقول : أن الفن الخالص النقي كان عَلَم المتموّلين في هذا العصر

لنا مما تقدم ان هذا التباين التاريخي في البعد عن الرغائب الجنسية بين الطبقة الارستقراطية وطبقة المتمولين كان ناجماً من التباين الاقتصادي بين هاتين الطبقتين فطبقة الارستقراطية كان لها من احوالها المتضعضعة وخروج الامر من يدها ما يشجعها على الانغماس في الملذات والاسترسال الى الشهوات . وحالة المتمولين وانتقالهم الفجائي من الادقاع الى الثراء صيرهم شديدي الحرص على هذا السلاح الجديد الذي انتهى اليهم والذي كانوا يدركون

جيداً قيمته وخطره فعملوا على كبت كل ما من شأنه ان يضعف هذا السلاح من شهوات النفس وعلى رأسها الشهوة الجنسية . ونستطيع ان نكرر — مع شيء كثير من التأكيد — ان الفلسفة التطهيرية انشئت لتبرير الحالة الاقتصادية التي انتهى اليها المطهرون وللدفاع عن هذه الثروة التي جمعوها بتضحية جانب عظيم من رغباتهم الجنسية ومن هنا ما كان يعتقده سواد المطهرين من ان مهنة جمع الدراهم هي مهنة مقدسة يهدى اليها من هداه الله

وتطورت العوامل الاقتصادية وتطورت معها مسائل الجنس علوًّا وسفلاً الى ان كانت الثورة الاقتصادية وكان من نتائجها في العصر الأخير استقلال المرأة هذا الاستقلال الاقتصادي الذي اعطى المرأة أكثر مما كانت تحلم بهِ من حرية شخصية ، لا سيما ما يمتُّ منها الى المسائل الجنسية . وقد اصبح للمرأة في اميركا واكثر بلدان اوروبا من الحرية في الاختيار والتنويع ما للرجل . وأثر هذا في نظام العائلة والزواج وفي قواعد الاخلاق قد اخذ يظهر ظهوراً جليًّا في اميركا وروسيا وفرنسا وغيرها . والذي يبدو لنا ان العالم الصناعي كله صائر الى هذا عاجلاً او آجلاً . اما الفن فلا نرغب ان نعزوه بحذافيره الى الغريزة الجنسية كما يريد اصحاب التحليل النفسي اذ يقولون بكل صفة من التأكيد والجزم : ان كل أثر من آثار الفنون والآداب من نحت وتصوير وموسيقى وشعر ونثر أثر من آثار كبت الغريزة الجنسية والتسامي بقوتها الكامنة في ناحية التوليد الفني . واذا صح هذا الزعم فمعناه ان ليس ثمة من دافع أو حافز يدفع المرء ويحفزه الاَّ دافع الجنس . وحسبنا ان ننظر في آداب الاقوام القديمة والحديثة لنرى ان عامل الجنس هو عامل واحد من شتى العوامل التي كانت تحفز الانسان ولا تزال تحفزه الى الانتاج الفني والادبي . فالغضب والخوف وحب الاستطلاع وحب السيادة لها من حياتنا الحسية والعقلية في بعض اطوار الحياة ما للغريزة الجنسية . على ان هذا لا يمنعنا من القول بان الغريزة الجنسية هي اقوى البواعث — في الاجمال — على التوليد الفني والادبي لا سيما في اطوار الدعة والاطمئنان حيث يتسنى للناس ان يفكروا في غير حاجات الجسم الاولية من مشرب ومطعم وملبس وقد يقال : ان تأثير هذه الغريزة مقصور على الامم المتمدنة حيث يشتد الكبت وتشيع المحرمات الجنسية شيوعاً كبيراً وحيث يتسامى الشباب بهذه الغريزة عن مستواها الحيواني تصبح دافعاً قويًّا للأبداع الفني . ويصدق هذا القول لو خلت هذه الشعوب من المحرمات الجنسية . ولكن الواقع ان أكثر هذه الشعوب لها من المحرمات مثل ما للأقوام المتحضرة . ولهذا كان لكبت هذه الغريزة عين الأثر الذي لهذا الكبت بين الأمم المتحضرة (البقية في الاخبار العلمية)

شرق الاردن اديب عباسي



« الفضاء – الزمن »

بحث علمي فلسفي

— ٢ —

الفرق بين نظام نيوتن ونظام اينشتين

منذ ساعة تقريباً كنت جالساً الى مائدة الطعام حيث شربت كوبة ماء . وانا جالس الآن على مقعد يبعد حوالى سبعة امتار عن مائدة الطعام ويقع الى شمالها . وها اني اسمع صوت سيارة يقلق اعصابي . فلدينا حادثتان منفصلتان فضاء وزمناً هما حادثتا شرب الماء وسمع صوت السيارة . فدعنا نشير الى حادثة شرب الماء بالحادثة الاولى والى حادثة سمع صوت السيارة بالحادثة الثانية ولنرَ ما يقوله بشأنهما النظام النيوتوني وما يقوله كذلك النظام الاينشتيني .

اما النظام النيوتوني للطبيعة فيصرّح بشأن هاتين الحادثتين اربعة تصريحات :

١ — إنّ الحادثة الاولى تقع جنوب الحادثة الثانية

٢ — إنّ الحادثة الاولى تسبق الحادثة الثانية

٣ — الفاصلة الزمنية بين الحادثتين هي ساعة

٤ — الفاصلة الفضائية بين الحادثتين هي سبعة امتار

اما النظام الاينشتيني للطبيعة فيصرّح بشأنهما ما يأتي :

اذا اسندنا هاتين الحادثتين الى مُشاهدٍ معيَّن هو كاتب هذه السطور فعندئذٍ فقط امكننا الاعتقاد بصحة التصريحات النيوتونية الاربعة . اما اذا اسندناهما الى مُشاهد آخر يختلف في حركتهِ وسكونهِ عن كاتب هذه السطور ، اي اذا كان مشاهدٌ آخر هو الذي يشاهد ويقيس هاتين الحادثتين ، فقد لاتكون هذه التصريحات النيوتونية صحيحة . وعلى الاخص ، يمكن البرهان رياضياً على انهُ اذا كان مشاهد هاتين الحادثتين يسير بسرعة معينة بالنسبة لكاتب هذه السطور فانهُ يصرّح بعد ادق الحساب واضبطهِ بما يأتي :

١ — ان الحادثة الاولى تقع شمال الحادثة الثانية

٢ — ان الحادثة الثانية تسبق الحادثة الاولى

٣ — الفاصلة ازمنية بين الحادثتين هي سنة

٤ — الفاصلة الفضائية بين الحادثتين هي مليون ميل

ويكون التصريحان مضبوطين ضبطاً متساوياً بحيث لا سبيل لاية مفاضلة علمية بينهما على الاطلاق

هذه هي الثورة الفكرية العظمى التي تتضمنها نسبية اينشتين . فهي تقول ان لا اطلاق في علاقات الحوادث الفضائية ولا اطلاق في علاقاتها الزمنية ايضاً . انني ولدتُ قبل ان اموت ولكن هذا بحسابي انا ، فقد يوجد مشاهد آخر في ثنايا الكون يجد انني متُّ قبل ان اولد !

ولا تستطيع ان تهزأ بهذا القول لانهُ مبنيٌّ على ادق الرياضيات ولانك تضطر الى الاقرار بصحتهِ اذا تعرفت الى منطقهِ . فقد قلت قبلاً ، والآن اكرّر القول ، ان هذه النسبية في علاقات الحوادث مبنية على حقيقة تجريبية ، هي ثبات سرعة النور ، مستخرجة من هذه الحقيقة بادق العمليات الرياضية فصوابها صواب هذه الحقيقة وصواب هذا الاستخراج

من هنا يتضح الفرق الشاسع بين النظرة النيوتونية والنظرة الاينشتينية . وهذا الفرق من خطورة الشأن بحيث لا استطيع المبالغة فيهِ أو الاكثار من التحريج عليهِ فهو يتصل باعمق خصائص الحوادث ، بتتابعها وبانفصالها . النظرة النيوتونية تقول بان تتابع الحوادث مطلق بحيث اذا سبقت حادثةٌ ما حادثةً اخرى فان هذا السبق في علاقة الحادثتين حقيقة مطلقة لا يمكن ان تتغير من مُشاهدٍ الى آخر . اما النظرة الاينشتينية فتقول ان هذا التتابع متوقف على المشاهد الذي يصرح بهِ وهو يختلف باختلاف المشاهد بحيث ان الحادثة السابقة لدى مشاهد معين قد تكون لاحقة لدى مشاهد ثان . كذلك الامر في الفاصلتين الفضائية والزمانية . النظام النيوتوني يقول ان هاتين الفاصلتين مطلقتان في اي نظام قياسيٍ تسندان اليهِ ، فلو انتقلت من نظام قياسيٍ الى اي نظام آخر وجدت ان الفاصلتين لم يطرأ عليهما ايُّ تغير . اما النظام الاينشتيني فيقول انهما متوقفتان على النظام القياسيّ الذي تحسبان فيهِ ، فاذا اتخذ المشاهد وضعاً خاصّاً من حيث الحركة والسكون بالنسبة للحوادث التي يقيسها وعيَّن من هذا الوضع فواصل هذه الحوادث ، ومن ثم اتخذ وضعاً آخر يختلف في حركتهِ وسكونهِ عن الوضع الاول وعين من هذا المحور فواصل الحوادث نفسها فانهُ يجد ان تعيينيهِ لا يتفقان ، اي ان قياسهُ لفواصل الحوادث في الوضع الواحد يُسفر عن قيم غير القيم التي يسفر عنها قياسهُ في الوضع الآخر . ولا سبيل لاية مفاضلة بين الوضعين . فاذن لم يتبقَّ لنا الاّ ان نقرَّ بانّ الحوادث من حيث تتابعها وانفصالها الزمني والفضائي نسبية للمُشاهد الذي يشاهدها ويقيسها

***

خذ مثلاً القطار الذي يصل مصر بالاسكندرية . لنزعم ان مرادنا تعيين المسافة التي يقطعها والوقت الذي يستغرقهُ في قطعها . واذا ترجمنا مرادنا هذا الى لغة الحوادث التي زعمنا انها لغة العلم الطبيعي الفريدة اصبح على الشكل الآتي : لدينا حادثتان ، حادثة بداية حركة قطار معين

وحادثة وقوف هذا القطار ، فما هو تتابع هاتين الحادثتين وما هي قيمة كل من فاصلتيهما الفضائية والزمنية ؟ لنفترض انني عوّلت انا وقارىء هذه الكلمات على ان يقوم كل منا على حدة بتعيين تتابع الحادثتين وفاصلتيهما . ولنفرض ان عِددي وآلاتي من ساعات ومرايا ونظارات وامتار الخ هي نسخة طبق الاصل لعِددَ صديقي قارىءهذه الكلمات وآلاتهِ . ولنفرض ايضاً انني بقيت على هذه الارض بينما صديقي امتطى بلوناً سريعاً وحلّق بهِ في هذا الفضاءنحو جرم سماوي آخر ، وفي اثناء رحلتهِ السريعة هذه حدثت الحادثتان اللتان اتفقنا على ان نعينهما معاً ، اي ان القطار قام من مصر ووصل الاسكندرية ، فقام كل منّا بمشاهداتهِ وحساباتهِ واخيراً قفل صاحبي راجعاً الى امه الارض والتقينا لمقابلة نتائجنا . فلو كانت لصاحبي سرعة خاصة بالنسبة للقطار المتحرك لامكنه ان يصل بحسابه الى ان وصول القطار الى الاسكندريةحدث قبل قيامه من مصر وان المسافة بين الحادثتين ثلاثة امتار اما الزمن الذي يفصل الحادثتين فثلاث وخمسون ساعة . وانا بالطبع ارى لاول وهلة في هذه الارقام جنوناً ولغواً ولكن لا البث ان اضطر الى الاعتراف بصحتها متى اطلعت على مشاهداته وحساباته . فهو شاهد بنفس العدد التي شاهدت بها ودوّن مشاهداته بنفس الطريقة التي دونت بها مشاهداتي واستخرج نتائجهُ بنفس العملية الرياضية التي استعملتها انا ، ولعمري لا ادري من منّا هو المخطىء

***

من حق القارىء ان يسألني هنا سؤالين: السؤال الاول هو هذا :لماذا يحصل هذا الفرق بين تعييني وتعيين صديقي نفس الحادثتين ؟ يحصل ذلك لان سرعة النور بالنسبة لكلينا واحدة ، فهو لو قاسها في بلونهِ لوجدها نفس ما اجدها على سطح الارض . هذه ادهش حقيقة معروفة عن هذا الكون . ومتى أدركنا ان النور يدخل في جميع مشاهداتنا الطبيعية عرفنا ان لاية خاصة شاذة فيه تأثيرها الشاذ في جميع مشاهداتنا . فانا قست المسافة والوقت اللذين قطعهما القطار من مصر الى الاسكندرية باستعمال موجات النور لانني في كل لحظة نظرت الى متري وساعتي وعددي كنت اشاهد واحكم بفضل موجات النور ، واذا كنت قد التجأت الى عدد كهربائية كالتليفون او اللاسلكي او غيرهما فاكون هنا أيضاً قد استعملت موجات كهربائية لها نفس خواص موجات النور . وكذلك صديقي قد ادخل النور في جميع حساباته ،فهو شاهد كلتا الحادثتين من بلونه بواسطة تلسكوبات خصوصية فيكونقد تعرف الى وقوع الحادثتين عن طريق النور . وهكذا بتسرُّب النور الى جميع تعييناتنا للحوادث يؤثر في هذه التعيينات تأثيراً اكيداً

والسؤال الثاني الذي من حق القارىء ان يجابهني به هو هذا : سلمنا ان سرعة النور

ثابتة وسلمنا انها تؤثر في تعييناتنا للحوادث ولكن من يكفل لنا ان تأثيرها هذا هو عين ما ذكرت في اعلى ؟ وهذا السؤال هو علمي بكامل معنى الكلمة فهو يرمي الى التأكد المضبوط الدقيق من ان ما رتبناه على ثبات سرعة النور هو بالفعل ما يترتب عليها منطقياً . واجابةً عليه احيل القارىء الى أي مؤلف عال عن النسبية حيث يجد ان ما قلناه في اعلى مبرهنٌ برهاناً رياضياً قاطعاً في الثلث الأول من الكتاب

***

قلنا ان للحوادث وجهتين ، وجهة كيفية ووجهة كمية ، وقلنا ان الوجهة الكيفية منوطة بتتابع الحوادث وانتشارها المجرد اما الوجهة الكمية فتتعلق بفواصل الحوادث الفضائية والزمنية وكلتا الوجهتين نسبيتان للمشاهد الذي يعينهما . فلا اطلاق في تعاقب الحوادث ولا في انتشارها ولا في انفصالها الكمي . وبما اننا حصرنا معنى الفضاء ومعنى الزمن بانتشار الحوادث وتعاقبها وانفصالها فيصح لنا التصريح بان الفضاء نسبي والزمن نسبي كذلك وانهما يتوقفان على حال المشاهد من حيث الحركة والسكون

وهنا يقوم سؤال من اهمّ الاسئلة في العلم الحديث . العلاقات الفضائية بحدّ ذاتها تتغير بتغير سرعة مشاهدها وكذلك العلاقات الزمنية بحد ذاتها . زمن الحوادث وفضاؤها متوقف على سرعة المشاهد الذي يقيس هذه الحوادث . ولكن بالرغم من كل هذا ألا توجد علاقة ، ما مطلقة بين الحوادث ؟ ألا توجد صفة ما ثابتة مطلقة مستقلة عن حركة المشاهد؟ اذا تغيرت الاوضاع الفضائية والاوضاع الزمنية بتغير سرعة المشاهد ألا يوجد وضع فريد للحوادث لا تتوقف قيمته على حركة المشاهد ؟

أجل ان للحوادث علاقة فذة لا سبيل للنسبية والتغير اليها . ولكنها ليست مجرد الانتشار الفضائي ولا مجرد التعاقب الزمني ولا المسافة الفضائية الفاصلة للحوادث ولا البرهة الزمنية المستمرة بين الحوادث . وليسمح لي القارىء ان اضعها بشكلها الرياضي لأنه اكمل شكل في التعبير عن كنهها

لنفرض ان لدينا حادثتين نود دراستهما . ولنشر الى الحادثة الاولى بالعلامة ح ١ والى الحادثة الثانية بالعلامة ح ٢ . ولنزعم ان الفاصلة الزمنية بين الحادثتين هي ز ١ ، اي ان ز ١ هي عدد الثواني أو الساعات أو السنين التي تفصل ح ٢ عن ح ١ . ولنرمز الى الفاصلة الفضائية بالحرف ف ١ ، اي ان ف ١ هي عدد الامتار أو الاميال التي تفصل ح ٢ عن ح ١ . ولنفرض اخيراً ان ز ١ و ف ١ قيستا بالنسبة لمشاهد أول هو م ١

ثم لنفرض ان ثمة مشاهداً ثانياً ، م ٢ ، ذا حركة بالنسبة للحادثتين مختلفة عن حركة م ١ .

ولنفرض انه عيّن الفاصلة الفضائية فوجدها $ف_٢$ والفاصلة الزمنية فوجدها $ز_٢$. فماهي العلاقة الثابتة بين الحادثتين في كلا التعيينين ؟ النظام النيوتوني يقول ان

$$ز_١ = ز_٢ \dots\dots (١)$$

$$ف_١ = ف_٢ \dots\dots (٢)$$

ولكنا رأينا قبلاً ان النظام الاينشتيني الحديث يخطىء هذا الزعم ويقول ان الفواصل الفضائية بين الحوادث تتغير من مشاهد الى آخر وكذلك الفواصل الزمنية . وهذا لان سرعة النور ثابتة لكل من المشاهدين ، الامر الذي لم يكن معلوماً لدى النظام النيوتوني

مع كل هذا يتبقى وجه مطلق لا نسبي للحوادث . وهذا الوجه نعبّر عنهُ رياضيًّا على المنوال الآتي : —

$$ف_١^٢ - ث\, ز_١^٢ = ف_٢^٢ - ث\, ز_٢^٢ \dots\dots (٣)$$

حيث تكون ث سرعة النور الثابتة

اي ان العلاقة الثابتة اللانسبية بين الحوادث (هي الفرق بين مربع الفاصلة الفضائية وحاصل ضرب سرعة النور بمربع الفلصلة الزمنية) . وبعبارة اخرى ، ان الفاصلة الفضائية بحد ذاتها نسبية ايضاً ، لكن مزيجاً رياضيًّا معيناً (هو $ف^٢ - ث\, ز^٢$) من كلتا الفاصلتين هو الصلة اللانسبية بين الحوادث ولهذا المزيج اسم علمي خاص هو « الفاصلة الفضائية — الزمنية » بضم كلمتي الفضاء والزمن احداهما الى الاخرى

« الفاصلة الفضائية — الزمنية » هي العلاقة الثابتة بين الحوادث بصرف النظر عن المُشاهد الذي يقيس هذه الحوادث . هي الحقيقة المطلقة الوحيدة التي تربط الحوادث بعضها ببعض . هي وجهة خصوصية ممتازة تؤلف من الحوادث نظاماً واحداً ممتازاً . هي خاصة ازلية تستقر بين الحوادث فتستحيلها الى كون مطلق واحد . هي الصفة المطلقة الوحيدة بين الحوادث اما الفاصلة الفضائية والفاصلة الزمنية فكلتاها نسبية

وكما انا حصرنا الفضاء بالعلاقات الفضائية بين الحوادث والزمن بالعلاقات الزمنية هكذا نعرّف الآن « الفضاء — الزمن » بانهُ مجموعة العلاقات الفضائية — الزمنية بين الحوادث « فالفضاء — الزمن » بهذا المعنى الرياضي يكون الذات المطلقة الوحيدة في الكون

***

والمهم في كل هذا ان يستقر في ذهننا ان الفضاء لم يعد مطلقاً والزمن لم يعد مطلقاً كذلك ، بل انّنا كي نتوصل الى صفة مطلقة للحوادث يجب ان نجمع بين الفضاء والزمن

في شكل خصوصي هو الشكل الرياضي الذي حددناه في أعلى وأطلقنا عليهِ عبارة « الفضاء — الزمن »

فنحن اذا انتقلنا من وضع مُشاهِد الى وضع مشاهد آخر تغيرت معنا العلاقات الزمنية والعلاقات الفضائية . لكن ثمة وجهة للحوادث لا يمكن ان تتغير في جميع الاوضاع ، هي الوجهة الرياضية التي عبرنا عنها بالمعادلة (٣) في اعلى . ولا يندهشنَّ القارىء من ان الوجهة الثابتة النهائية للحوادث هي في نهاية تركيبها وجهة رياضية ، اذ اصبح العلم الحديث يرجع بكل شيء الى اصول ومبادىء رياضية . ولو انعم القارىء النظر قليلاً لألفى المسافات الفضائية بين الحوادث ، والمسافات الزمنية ايضاً ، رياضية التركيب ، اذ ليست المسافة التي تفصل حادثتين ، او البرهة التي تستمر بينهما ، سوى مجموعة الامتار التي قيست المسافة بها ، او عدد الثواني التي مرَّت بين الحادثتين . وهذا الجمع للامتار والثواني هو عملية رياضية . وكما قلنا في بدء هذا المقال ان ما نختبره مباشرة هو الحوادث البسيطة هكذا نلحظ ان العلاقات الفضائية والعلاقات الزمنية للحوادث ليست في نطاق ما نختبره مباشرة بل هي مركبات ذهنية من هذه الحوادث النهائية . ولذلك فلا غرابة قط في ان تكون « الفواصل الفضائية — الزمنية » هي الاخرى مركبة من هذه الحوادث النهائية ، اي لا غرابة قط في أن تكون صفة رياضية محضة

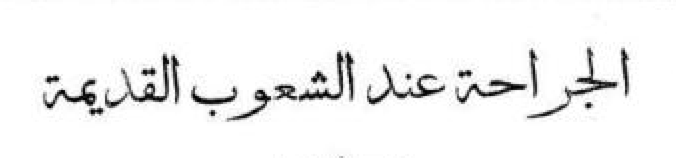
***

« الفضاء — الزمن » نظرة رياضية خاصة الى علاقات الحوادث ، قوامها توحيد الفضاء والزمن وتشكيلهما نظاماً واحداً فذّاً . والحوادث تنتظم انتظاماً نسبيًّا في كل من الفضاء والزمن ، اما الفضاء — الزمن فانما ينتظم انتظاماً مطلقاً . وفي تفكيرنا الحديث يجب ان نرتاض على التنبه الى الحوادث وعلى ادغام الزمن بالفضاء والفضاء بالزمن حتى يتولد معنا ذاك الكون المطلق الحقيقي ، كون « الفضاء — الزمن »

في هذا الكون الموحد ينشأ الاطلاق ويزول التغير وتنتفي النسبية ، وهكذا يصبح الاطلاق وليد التوحيد . فما اشبه هذه الحقيقة الطبيعية بما نعرفهُ من خصائص الجهود البشرية ، فإن اردتَ اطلاقاً واكتساحاً وفوزاً فاجمع بين النزعات والقوى ووحِّد بين الصفوف . . .

شارل مالك





الجراحة عند الشعوب القديمة

— ٢ —

الجراحة عند اليونان وفي القرون الوسطى

أهم مستند يصح الاعتماد عليهِ في درس تاريخ الجراحة عند ما ابتدأت ان تصبح علماً بالمعنى الحقيقي هو بلا شك «المجموعة الابقراطية» . واسم ابقراط كما هو معلوم لا يقل قيمةً عن اسم هوميروس وأنهُ ليصعب جداً التمييز بين ما يعزى الى هذا او ذاك من التصانيف العديدة المختلفة . والثابت اليوم لدى المؤرخين الباحثين ان المؤلفات الكتابية التي وصلت الى مكاتب الاسكندرية تحت اسم (مؤلفات ابقراط) بين منتصف القرن الخامس والقرن الرابع ق. م. كانت من كل نوع ومن كل صوب وبينها الكتب الفنية الخصوصية . فالتي منها كانت شعراً ترجع الى هوميروس والتي تتعلق منها بالطب سميت « المجموعة الابقراطية » وفي الواقع ان كل ما يتعلق بالجراحة الابقراطية هو شيء مجهول حقيقة اذ لا يوجد سبب ما يحملنا على الجزم في ان التآليف الجراحية هي كلها لابقراط نفسهِ دون غيره من المؤلفين

وعلى كل حال فالجراحة الابقراطية في ادوارها الاولى بين الجيل الخامس والرابع ق. م. رغماً عن وجود كتب الجراحة المنظمة والتصانيف الممتازة البديعة الوصف (كوصف جروح الرأس وكسور العظام او انخلاعها) لم تكن تعرف الاختصاص بأي فرع من الفروع ، والجرَّاح الابقراطي لم يكن سوى طبيب يمارس العمليات الجراحية فقط عند الضرورة القصوى وفي احرج حالات المرض . . اي ان اعتناء اليونانيين بممارسة الجراحة في ذلك العهد كان قليلاً بل نادراً ، مفضلين بالعكس استعمال مواهبهم العقلية لمعرفة الطب في كافة مجموعهِ ولم يقدموا على اجراء عملية ما إلاَّ بعد درس دقيق لحالة المريض والتأكد من النجاح بها حتى لا يعرضوا انفسهم للعار والفشل ويسيئوا الى سمعتهم فيصبحوا والدجالين المشعبذين الذين امتلأت البلاد بهم في مقام واحد

وفي عصر سلسوس (Celsus) اي في أوائل التاريخ المسيحي تطوَّرت الجراحة اليونانية تطوراً محسوساً فأصبحت فرعاً جليًّا مستقلاً مال اليهِ فريق كبير من الاطباء فسعوا لترقيتهِ والاختصاص بهِ . ويرجع الفضل في ذلك الى انشاء المدارس الطبية اليونانية التي ارتقت ارتقاء باهراً اولاً في الاسكندرية بمصر ثم في آسيا الصغرى حتى ان اغلب سراة الاطباء والجراحين اليونانيين الذين اتوا ومارسوا مهنتهم في رومية في اوائل التاريخ المسيحي حتى سقوط المملكة الرومانية كانوا كلهم تقريباً من آسيا الصغرى . فهم الذين جلبوا الى رومية العلوم التشريحية والطبية والجراحية وعملوا على ترقيتها ، وهم الذين ألفوا الكتب التي ترجمت الى السريانية في اوائل الحكم اليوناني ومنها الى العربية والعبرانية واللاتينية في ابتداء القرون الوسطى . وبهذه الطريقة وصل كثير من مؤلفاتهم الطبية الى ايدي الاطباء الغربيين في ذلك العهد . ويجب ألّا ننسى في هذه العجالة فضل جالينوس (١٣١ — ٢٠١) على الجراحة وعلم التشريح والباثولوجيا ، ثم تجاربهُ الفسيولوجية المهمة التي يضيق المجال هنا عن سردها

حالة الجراحة في العصر البيزنطي والعربي والقرون الوسطى حتى اوائل القرن التاسع عشر

لم يعترِ الجراحة تبديل ما في العصر البيزنطي عما كانت قد وصلت اليهِ وقتئذٍ ولم يترك لنا ذلك العصر أثراً جديداً سوى محافظة البيزنطيين على مؤلفات اليونان الاولين ومنعها تماماً من التلف والاندثار . ففي خلال العشرة قرون من حكم (٣٩٥ — ١٤٥٣) الامبراطورية البيزنطية كانت الامبراطورية اشبه بمكتبة حفظت فيها اعظم مآثر الفكر القديم حتى الوقت الذي اصبحت فيهِ اوربا الغربية جديرة بفهمها او استعمالها [١]

كذلك المستشفيات العمومية العديدة التي يرجع الفضل الأكبر في تأسيسها الى القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين مدفوعة معاً بالعاطفة الدينية والدراية السياسية — هذا عدا المستشفيات الأُخرى الخصوصية للمقعدين والملاجيء الخيرية للاطفال والمسنين

اما العرب خلافاً لما قاله عنهم بعض المؤرخين من انهم لم يكن لهم شأن يذكر في تقدم الجراحة وعلم التشريح ، فنقول ان علماءهم لم ينالوا قسطاً وافراً من الفوز بهذين العلمين

(١) ومن آثار اليونان القيمة ومخطوطاتهم الطبية التي حافظ عليها البيزنطيون بنوع خاص رسالة شهيرة مزينة بالرسوم لـ (Apollonius de Kition) الذي عاش في القرن الاول للمسيح في شرح كتاب ابقراط عن اسباب انخلاع العظام وهي محفوظة في مكتبة لورانت بفلورنسا . ويظهر من الرسوم التي تزين تلك الرسالة انها نقلت من صور قديمة جداً ترجع للقرن الاول قبل المسيح وهي تمثل كافة حالات الخلع وهيآته واشكاله مع كيفية صنع الضمائد المختلفة . وقد نقلت هذه الرسوم مراراً كثيرة الى معظم الكتب الجراحية الحديثة نظراً لدقتها وجمال صنعها

ونقلوا ببراعة كلية من الشرق الى الغرب علوم اليونان ، وأوقدوا نورها ونشروها بين الغربيين في اسبانيا وفرنسا وايطاليا فحسب : بل علاوة على ذلك ادخلوا الى هذه البلاد اصول الطب والجراحة وفن التداوي والكيمياء الطبية مما أثر تأثيراً راجحاً في كثير من الاختراعات الحديثة والتطورات الطبية الهامة في بلاد الغرب فأضاءوا بذلك سبل الهدى وفتحوا للغربيين باب العلم على مصراعيه

ان فضل العرب على الطب والجراحة مما لا تنكره اوربا نفسها التي لا تزال تستنير به حتى هذا اليوم رغم ارتقائها الباهر ، وتسترشد بما خلّفهُ العرب من آثار وتصانيف وكتب طبية لا سيما قانون ابن سينا الذي كان يُدرّس في كليات اوربا حتى عهد قريب منا

وفي القرون الوسطى انحطت الجراحة انحطاطاً عظيماً فافترقت عن الطب وأصبحت مهنة يدوية لا معارف عامة لها ولا قواعد ، واقتصرت على بعض عمليات : كالفصاد والكيّ وفتح المثانة لاستئصال حصى المجاري البولية منها — عمليات أُجريت بأمر بعض الاطباء او تحت إشرافهم بواسطة جراحين متنقلين او بالاحرى دجالين مشعبذين . لكن لا يجب احتقار هؤلاء لهذا الحدّ لانهم رغماً عن جهلهم كانوا يعرفون جيداً ممارسة صنعتهم ويُعدّون على كل حال افضل من اطباء عصرهم الخاملين الجاحدين المرتبكة عقولهم بالنظريات والآراء

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر ظهر رجال محنكون قديرون ، وجراحون ممتازون كامثال Pierre Franco و Ambroise Paré في فرنسا و Zambeccari و Tagliacozzi في ايطاليا ، و Wurtz في سويسرا وغيرهم ايضاً فنهضوا بالجراحة من كبوتها واخرجوها من ايدي اولئك « الحلاقين — الجراحين » ورفعوها الى المستوى اللائق بها الذي نزلت عنهُ قبل مضي عشرة قرون . وقد ساعد على ذلك اتقان علم التشريح والتوسع بهِ ، وتنشيط المعارف ، والتفات الملكين لويس الرابع عشر والخامس عشر ، واجراء العمليات الجراحية التجريبية على الحيوانات (الكلاب) لقطع الطحال والكلية والمرارة وجانب من الكبد والمعى والبنكرياس التي نجحت كلها نجاحاً تامًّا . كذلك عمليات ثقب الجمجمة ، والربط الشرياني في حالة توسع الأوعية الدموية ، وخياطة الامعاء والناسور ، وتضييق مجرى البول عند الانسان

***

وأهم حادث كان لهُ أثر عظيم في تقدم الجراحة في فرنسا في القرن السابع عشر هو اجراء « عملية الناسور » المشهورة للملك لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٦ بواسطة الجراح فليكس والتي نجحت نجاحاً باهراً جدًّا بل انها جعلت للجراحين في ذلك الزمن مقاماً ممتازاً واعتباراً فائقاً بعد اذ كانت تسلقهم ألسنة السوء بكل فرية وترشقهم بسهامها . وقد كوفئ الجراح

فليكس عن هذه العملية بثلاثمائة الف ليرة اي ثلاثة اضعاف ما كان يتقاضاهُ الطبيب الاول للملك . وقد منحهُ هذا ثقتهُ هو وخلفهُ مارشال حتى موت الملك سنة ١٧١٥

* * *

وامتاز القرن الثامن عشر بتأسيس الاكاديمية الملكية الجراحية في باريس ، وارتقاء علم التشريح الباثولوجي والباثولوجيا الجراحية ، ودرس التشريح المقابل لاول مرة بواسطة الطبيب الفرنسي (Vicq d'Azyr) الذي كان سكرتيراً دائماً للمجمع الطبي (١٧٩٤ — ١٨٤٨) ودرس الاقنية اللمفاوية بفضل الحقن الزئبقية بواسطة الطبيب الايطالي Mascagni . ثم ظهور جراحين مشهورين كـ Jean Louis Petit و Anel و Daniel و Moreau في فرنسا. و Cheselden و Pott و John Hunter في انكلترا و Antonio Scarpa في ايطاليا وغيرهم الذين وطدوا دعائم الجراحة في ذلك العصر وجعلوا معالمها اكثر وضوحاً وصيتها اوسع انتشاراً . فأجروا عمليات الفتق واتقنوها ، وعمليات التجويف الحلمي الصدغي المملوء بالصديد واستئصال غدد العنق اللمفاوية في حالة سرطان الثدي ، وربط شريان العضد فوق توسُّع هذا الشريان ثم استنباط المجسَّات المعدنية لتمديد المجرى البولي والمجسات الصمغية لابقائها فيهِ وغير ذلك

وقد زاد في تقدم الجراحة وانتشارها تأليف الجمعيات العلمية وانشاء الصحف الطبية والمجلات الجراحية الخاصة التي كانت اكبر عامل لنشر التقدم الفني في كل البلاد ونقله من بلاد الى اخرى. ثم ارتقت مكانة الجراحين الاجتماعية وارتفع مقامهم في اعين الناس . لكن جراحي ذلك الزمن مازالوا مع الاسف مفترقين تماماً عن الاطباء ومتنازعين معاً ، وقد دامت هذه الحال حتى نهاية الثورة الفرنسية اذ رتق الفتق اخيراً بين الطب والجراحة فاتحدا واصبح لقب « دكتور » يشمل الطب والجراحة ثم يتبع كل واحد ذوقهُ الشخصي كما في زمن الابقراطيين . اي ان الجراح يجب ان يعرف كافة العلوم الطبية المعروفة في زمانهِ وفوق ذلك يتعمق في درس الباثولوجيا الجراحية والممارسة الجراحية

الدكتور عبده رزق — القورنه — العراق

في الشهر القادم : مميزات الجراحة الحديثة

اسس الوراثة

— ٢ —

قلنا ان الكروموسومات موجودة في خلايا الجسم وهي تصطف في الخلايا زوجاً زوجاً اصطفافاً مستطيلاً كالسمط او خرز العقد (ش ١) فعدد الكروموسومات في النوع ٤٨ فانها تشكل في الخلايا ٢٤ زوجاً فنجد في كل خلية ٢٤ زوجاً تمثل الأب و ٢٤ اخرى تمثل الأم وفي دور من ادوار الخلية ينتثر هذا العقد وتظهر تحت المجهر الذرات التي تتركب منها وتعرف «بالعوامل» ولكل زوج من العوامل وظيفة خاصة فللزوج الاول مثلاً وظيفة تكوين لون العينين والثاني تكوين شكل الانف والثالث القامة والرابع الدماغ وهلمَّ جرًّا. فلكل زوج من زوجي الام والاب وظيفة معينة . فاذا



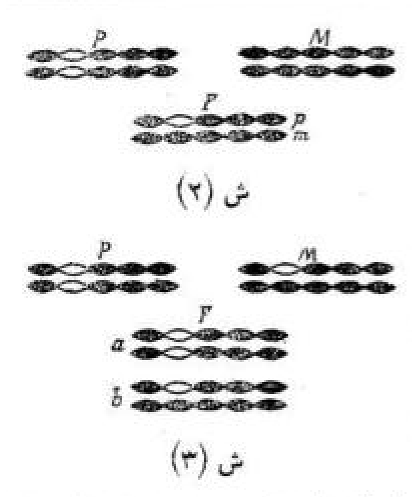
ش (١)

اختل او تلف ذلك الزوج اختلت او تلفت تلك الوظيفة . وقد قلنا ان كلاً من الابوين الذكر والانثى يعطي اولاده مجموعة كاملة (Set) من هذه الكروموسومات بعد انشطارها فينال الولد نصفاً من الأب ونصفاً من الأم فهو نتيجة شخصيتين مختلفتين هما شخصيتا الأم والأب اشتركتا في اخراج العدد الكامل الخاص بالنوع . فكروموسومات الأم تحمل الصفات الخاصة بها وكذلك كروموسومات الأب كما حمل الام والأب صفات ابويهما. وللشخصية المضاعفة فائدة عظمى ذلك ان «العوامل» الوراثية في كروموسومات الأب والأم تصطف زوجاً زوجاً ولكل زوج وظيفة خاصة بهِ ومن العجيب ان للزوجين المتقابلين في العدد في الذكر والانثى نفس الوظيفة اي لكل من الزوج الأول في الذكر والزوج الاول في الانثى الوظيفة فاذا كانت وظيفة الزوج الاول في الذكر لون العين فتكون وظيفته كذلك في الانثى واذا كانت وظيفة الزوج الثاني في الذكر تعيين نوع القامة فتكون كذلك في الزوج الثاني بالانثى وهكذا قل في بقية الازواج. ولكن من الممكن ان يؤدي زوج الأب وظيفته كاملة لا شائبة فيها والزوج المقابل له في

الام يؤديها ناقصة والعكس بالعكس.فاذا كانت وظيفة زوج ما تجهيز الاصبغة اللازمة لتلوين العينين والجلد والشعر وكان ذلك الزوج معيوباً فيخلق الولد اشقر اي عديم اللون كما نرى في بعض الاشخاص الشقر .ولكن يوجد شرط لازب لظهور لون كهذا وهو ان يكون كلا الزوجين المتقابلين في الذكر والانثى معيوبين.فاذا كان زوج الاب معيوباً وزوج الام صحيحاً فلا يظهر العيب لأن الصحيح يغطي العيب.اما اذا كان كلا الزوجين المتقابلين في الذكر والانثى معيوبين فيظهر العيب في النسل . وهنا تتضح لنا حكمة تولد الفرد من شخصيتين مختلفتين . فلو كان من شخصية واحدة وكان فيها عيب لانتقل العيب الى النسل . بينما الشخصيتان المختلفتان تسدُّ الواحدة عيب الاخرى.ومن محاسن الصدف انهُ من النادر ان نجد في المخلوقات التي تتولد من ذكر وانثى نفس التأثير للزوجين المتقابلين.وحينما ينشأ الولد من عاملين مختلفين واحد صحيح وآخر معيوب فالصفة الاولى هي التي تتغلب وتسمى الصفة الغالبة والصفة الاخرى تبقى غيرظاهرة وتسمى الصفة الكامنة. فالشيء الطبيعي ظهور اللون في الجلدوالشعر والعينين فهذه صفة غالبة وغير الطبيعي عدم ظهوره كما نرى في الشقر (Albinos) فهذه الصفة كامنة . ومن حسن الحظ ان الصفة الغالبة تظهر اكثر من الكامنة بنسبة ٣ : ١ وهذا ما اكتشفه مندل . ومما يسرُّ ان الصفة الغالبة تكون على الارجح هي الصفة النافعة وهذه هي حكمة تولد الابن من ابوين او من عاملين فاذا كانت العوامل المتغلبة والكامنة كثيرة في الابوين وترك امرها الى الصدف اربى عدد الصفات المتغلبة على الكامنة وليست كل صفة كامنة عاطلة. فزرقة العينين من الصفات الكامنة ولم يثبت ان هذه الصفة غير نافعة او مضرة . فمن الممكن وهو نادر جداً ان تكون الصفة الكامنة هي النافعة ولكن الظواهر التناسلية تدل ان الصفة التي تسير بالنسل الى الامام وتحسنهُ هي المتغلبة لا الكامنة . ويوجد صفات متغلبة هي مصدر عيب في النسل ويظهر العيب في صفات كهذه رغماً عن سلامة الزوج المقابل له بيدَ ان سلامة الزوج المقابل تخفف تأثير العيب . فقصر الاصابع Brachydactyly من العلل الوراثية التي يكون فيها للاصبع الواحد (ما عدا الباهم عقدتان بدلاً من ثلاث عقد او مفاصل او يندمج اصبعان او اكثر كما في البط.فان هذه الصفة وراثية متغلبة مع انها غير نافعة

﴿ تأثير النظام التناسلي بالوراثة ﴾ يمكننا استناداً الى ما مرَّ ان نعرِّف الوراثة بتعلق صفات الخلف على العوامل او الكروموسومات التي يتلقاها من السلف.فمن الممكن ان يكون الأب صحيحاً ويظهر عيب في نسله.فربَّ أب ذكي نشيط فيهِ عوامل بلادة وخمول مستورة فأب أو ام كهذين رغماً عن سلامتهما من العيوب الظاهرة ينقلان الى اولادهما العيوب الكامنة فيها. والاعتقاد الشائع ان الولد يشابهُ ابويهِ ولكن يحصل احياناً نقيض ذلك فيشبه الولد الصفات الحسنة في امه والقبيحة في ابيه والعكس بالعكس.انظر رسم (٢) و (٣) فان العيب الموجود

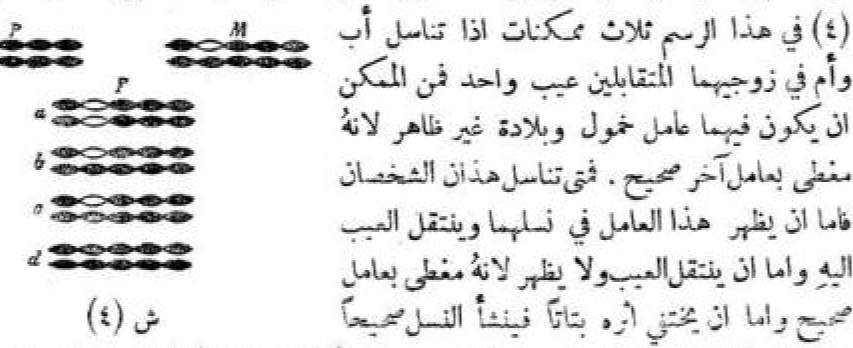
في زوج الأب لم يظهر في الولد لان زوج الام المقابل له صحيح فغطى ذلك العيب وفي الرسم (٣) نرى العيب موجوداً في الزوج الثاني من الاب وفي فرد فقط من الأم ولهذا ينشأ نوعان من الأولاد الاولون فيهم ذلك العيب والآخرون سالمون منهُ (اقرأ شرح رسم ٣) واجتناباً لاعادة الكلام نوجّه نظر القارىء الكريم الى الرسوم وشروحها فهي تمثل المقصود احسن تمثيل



ش (٢)

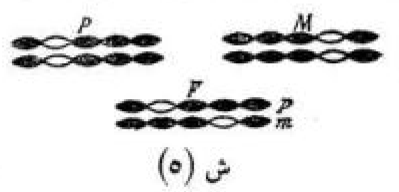
ش (٣)

من الممكن ان لا يكون في الوالدين عيب ظاهر ولكن في احد ازواجهما المتقابلة واحد محيوب في كليهما فيصدف حين التناسل وانفصال هذه العوامل ان يتحد العاملان المعيوبان من الأم والأب في نسلهما فيظهر ذلك العيب الذي كان في الاب والأم في النسل انظر الرسم (٤) في هذا الرسم ثلاث ممكنات اذا تناسل أب وأم في زوجيهما المتقابلين عيب واحد فن الممكن ان يكون فيهما عامل خمول وبلادة غير ظاهر لانهُ مغطى بعامل آخر صحيح . فمتى تناسل هذان الشخصان فاما ان يظهر هذا العامل في نسلهما وينتقل العيب اليهِ واما ان ينتقل العيب ولا يظهر لانهُ مغطى بعامل صحيح واما ان يختفي أثره بتاتاً فينشأ النسل صحيحاً



ش (٤)

وليس فيهِ آثار ظاهرة اوكامنة للعيب كما في الرسوم. فالذكيان يولدان ذكيًا او بليداً وهذا هو سر اختلاف الاخوة المنحدرين من نفس الابوين. ومن الممكن ان يكون في الاب والام عيبان بارزان ولا ينتقلان الى نسلهما لان هذين العيبين ليسا في الزوجين المتقابلين بل كل منهما في زوج مختلف كما في الرسم (٥) ففي الاب والام عيبان ليسا في نفس الزوجين المتقابلين عدداً وعليهِ لم يظهر العيب في نسلهما فقد يكون الاب غير ذكي والام خاملة ولا تظهر هاتان الصفتان في نسلهما لان عيبهما ليس في نفس الزوجين . وقد يولد ولد صحيح العقل من ابوين ضعيفين وهذا امر من الاهمية بمكان في الوراثة لم ينتبه اليهِ الكثيرون. فالعوامل تتفاعل بعضها مع بعض في احداث الصفات كما تتفاعل المواد



ش (٥)

الكيماوية وقد تلاشت العقيدة القائلة بان لكل صفة ممثلاً واحداً او عاملاً مفرداً بل تكون الصفة نتيجة عدة عوامل . وهنا امر مهم نرى الضرورة تدعونا الى بسطهِ في هذا المقام وسنفيض البحث عنهُ حين نأتي على بحث الجنس : قلنا ان النواة تتألف من الكروموسومات وان وحدة الخلية هو الكروموسوم ولكن هذا الكروموسوم مركّب من عوامل Genes وهذه العوامل لا ترى بالمجهر بل نعرفها بطريقة الاستنتاج بالتناسل . فكل كروموسوم فيهِ مجموعة من هذه العوامل واصل لفظة Genes اوعامل (معناها المعيّن) يعني هو الذي يعين صفة الفرد ذكيًّا او غبيًّا، قويًّا او ضعيفاً؛ نبيهاً او خاملا الى غير ذلك من الصفات. فالخلية مؤلفة من نواة ومواد اخرى والنواة من كروموسومات ومواد اخرى والكروموسومات من العوامل وقد وجدنا ان لفظة عامل اقرب ترجمة الى لفظة Genes

ان اكثر تجارب الوراثة اجريت على ذباب الفواكه Fruitfly او Drosophila لانها سريعة التولد وتركيبها التشريحي سهل جدًّا وتنقاد للتجارب الوراثيـة فدرسوا فيها نظام الوراثة احسن درس ووجدوا ان خمسين عاملاً على الاقل تشترك في توليد لون العينين الطبيعي لهذا الذباب وهو اللون الاحمر فبعضها يبني الاساس الذي يشاد عليهِ اللون ولا يظهر اللون قبل وجود هذا الاساس وغيرها يهيئ قاعدة اللون واخرى تخرج الاصباغ الخاصة بتكييفه فاذا نقص احد هذه العوامل فلا تنشأ العين كاملة بل ربما ظهرت عديمة اللون او فيها لون غير اللون الطبيعي او غيرها من النواقص التي تتوقف على نقص العامل المختص بها . وما ينطبق على الذباب ينطبق على البشر ايضاً فمن الممكن تغيير صفة سواء كانت جسدية او عقلية بتغيير العامل المختص بها وقد تمكنوا من تعيين مواقع تلك العوامل في كروموسوم X من ذباب الفواكه وهو الكروموسوم الذي يميز الذكر من الانثى وعملوا لها مصوراً (خريطة) خاصًّا فوضع العامل الذي يجعل العين بيضاء في النقطة ١٢٥ والعين القضيبية الشكل في النقطة ٥٧ وهلم جرًّا كما تعين مواقع البلدان على المصوَّر بتعيين خطي الطول والعرض. وهذا المصور مبني على المشاهدة والاختبار في ذباب الفواكه الآنف الذكر . قلنا ان لون العين الطبيعي في ذباب الفواكه احمر فاذا غيرنا العامل عند ٥٢،٢ في الكروموسوم الثاني صارت العين ارجوانية بدلاً من حمراء وتغيير عامل آخر عند النقطة ٤٣ في الكروموسوم الثالث يجعلها ارجوانية ايضاً واذا غيرنا العامل عند النقطة ٤،٤ في الكروموسوم الاول نشأ لون قرمزي ايضاً

***

فاذا زاوجنا ذكراً ذا عينين قرمزيتين بانثى مثله نشأ النسل قرمزي الاعين فالعيب الذي يكون في نفس الزوجين المتقابلين في الاب والام يظهر في النسل انظر الرسم (٦) وقد تاسلوا

في ذباب الفواكه ذباباً ذا اجنحة أثرية بذباب آخر عديم الاجنحة فجاء النسل ذا اجنحة طبيعية مما يدل على ان العيب لم يكن في الزوجين المتقابلين عدداً في الذكر والانثى وحصل الشيء نفسُهُ لما زاوجوا ذباباً عديم

ش (٦)

لون العينين بآخر اعمى فجاء نسل صحيح العينين . ونفس الشيء يحدث في البشر فقد يكون في الآباء عيوب كثيرة ولكنها لا تنتقل الى الابناء لانها ليست في الزوجين المتقابلين عدداً فالعيب الموجود في احد الازواج يمحيه الصحيح في الزوج المقابل لهُ فالأب يغطي عيوب الأم والعكس بالعكس انظر الرسم (٧) فرغماً عن وجود عدة عيوب في الاب والام لا تظهر تلك العيوب بسبب عدم وجودها في الزوجين المتقابلين عدداً . فالآباء الخاملون الاغبياء البليدون يولدون ابناء فيهم عكس تلك الصفات ويحصل عكس ذلك

ش (٧)

أيضاً فن الممكن ان ينقل ابوان صحيحان عيوباً كثيرة الى ابنائهم لان العيوب التي فيهما لم تكن في الزواج متقابلة ولكن حين التناسل اخذ النسل شطراً من عيب الأب وشطراً من عيب الأم في الازواج المتقابلة فظهر فيه العيب انظر الرسم (٨) وقد اجروا كثيراً من التجارب على الحيوانات والنباتات فايدت هذه الحقائق . فرب أبوين غبيين يولدان ولداً عبقرياً ورب أبوين عبقريين يولدان ولداً غبياً . وقد درسوا ٣٠٠ مثات العيوب في ذباب الفواكه وناسلوها فانتجت نسلاً صحيحاً . واخذوا صنفين مختلفين من الاذرة كلاهما قصير وضعيف

ش (٨)

وقليل الانتاج ولما زاوجوهما نشأ نسل طويل وقوي وكثير الانتاج . وقد رأى بعض الثقاة ان جودة النسل في حالات كهذه لا تتوقف على سد العيب فقط بل ان لمجرد الاختلاط دخلاً قوياً في الجودة . وحينما يكون الابوان شديدي القربى فالارجح أن يكون العيب في الزوجين المتقابلين عدداً لان عوامل الابوين من سلف واحد ولا بد ان تكون بعض العوامل التي ورثوها من اسلافهما معيوبة . اما المنحدرون من اسلاف مختلفين فلا تكون عيوبهم على الاغلب في الازواج المتقابلة عدداً وعليه لا تورّث . وهذا هو السبب الذي يجعل الابناء المنحدرين من اباء بعيدين بعضهم عن بعض أكثر تفوقاً من القريبين فزواج الاقربين يكشف العيوب المستورة وزواج البعيدين يسترها وهذا هو سر تحريم الشرائع والقوانين زواج

الاقارب كالاخ باخته والاب بابنته وهلم جرًّا . لان زواجاً كهذا يقلل جودة النسل ويكشف العيوب التي كانت مستورة في السلف فالصفات في الفرد تتوقف على اتحاد العوامل المنقولة اليه فاتحاد الجيد منها ينتج عبقرياً والردي ينتج منحطاً وقد تقسم الهيئة الاجتماعية الى ثلاث طبقات (١) الطبقة المتفوقة التي اتحدت فيها العوامل الجيدة فنشأ فيها افلاطون وارسطاطاليس وغليليو والمعري والاسكندر ونابوليون (٢) الطبقة المنحطة التي تشكلت من العوامل الرديئة فخرج منها المجرمون والخاملون والكسالى وأمثالهم (٣) الطبقة المتوسطة ونسبتها ٩٥ بالمائة

* * *

ان طرق نقل العوامل التي ذكرناها هي مباشرة من الآباء الى الابناء ولكن هناك طرق اخرى غير مباشرة يتنوع فيها اتحاد العوامل . فالآباء يرثون من امهم وأبيهم نصف عواملهم ويحملونها الى ابنائهم فتظهر في الاولاد بعض العوامل المنقولة من اجدادهم وبعض العوامل المنقولة من آبائهم مباشرة فتظهر في النسل صفات منوعة من الاصلاب الاربعة صلب الجد وصلب الجدة وصلب الأب وصلب الأم انظر الرسم (٩)

ان مشابهة الابناء للآباء مشابهة تامة غير موجودة في النوع الانساني والحيوانات العليا ولامكان حدوثها يجب ان تكون عوامل والام متماثلة تماماً عدداً وصفة فيكون كل شطر منها نسخة طبق الاصل من الشطر الآخر ويحصل هذا في التوأمين المنشقين من خلية واحدة ولكن بما ان التوأمين من جنس واحد اما ذكر او انثى لا يشتركان في ابوة واحدة فمن المحال الحصول على المشابهة الكلية في الانسان والحيوانات العليا ومشابهة كهذه ممكنة الحصول في النباتات فقط

P p m M p m F

ش (٩)

ولو كانت هذه المشابهة ممكنة في الانسان فالحكيم يولد حكيماً والذكي ذكياً والقوي قوياً لتخلصنا من متاعب الوراثة وما تجره من المشاكل الاجتماعية

العراق الدكتور شريف عسيران

في الجزء التالي مقال نفيس موضوعه « الجنس »

حضارة الهند القديمة

الآثار القديمة في البنجاب والسند وقيمتها التاريخية

ملخص مقالين للسر ارثر كيث والسر جون مارشال

قبل ان نبدأ وصف المكتشفات الأثرية المدهشة التي اكتشفتها مصلحة المساحة الهندية باشراف مديرها السر جون مارشال، نودُّ ان نذكر ما كنا نعتقدهُ عن نشأة الحضارة في الهند. فقد كنا نعتقد ان سكان الهند الداروفيديين السمر، ظلوا الى نحو ١٢٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح همجاً يعيشون على مثال سكان الادغال من المتوحشين . فاستيقظوا من سباتهم حينئذٍ بواسطة طوائف من سكان النجود والجبال هبطوا عليهم من مرتفعات افغانستان وما وراءها . وكان الفاتحون من السلالات البيضاء المعروفة بالشعوب الهندية الجرمانية او بالشعوب الناطقة باللغات الآرية . ففرض هؤلاء على سكان الهند شرائعهم وطرق معيشتهم ودياناتهم ولغتهم . وهكذا اخذت الهند اولاً بأسباب الحضارة على ما كنا نعتقد

قدم الحضارة الهندية

على ان المكتشفات التي اكتشفت في شمال الهند الغربي ، وبوجهٍ خاص المكتشفات التي عثر عليها في وادي السند، قد قلبت آراءنا في بدء الحضارة الهندية رأساً على عقب. فعلى الضفة الغربية من نهر السند كشف السر جون مارشال عن طبقات متراكمة من الآثار ، مدفونة في الطمي الهابط من اعالي حملايا ، تمثل كل طبقة منها مدينة عريقة في القدم ، يرتد تاريخ اقدمها الى الالف الرابعة قبل المسيح — والتقدير الرسمي لتاريخ هذه المدينة هو ٣٣٠٠ ق.م. وهو التاريخ الذي انشئت فيهِ الدولة المصرية الاولى

ومما يحملنا على الاستغراب ان نجد في الهند آثار مدن يرتدُّ تاريخها الى خمسة آلاف سنة ثم ندهش اذ نتبين من آثار هذه المدن الاساليب التي كانوا يجرون عليها وبوجه خاص اذ نتحقق انها لا تختلف كبير اختلاف عن اساليب الحياة في المدن في هذا العصر . فاننا لم نكن نتصور قط : قبل مكتشفات موهنجودارو ، ان بيوتاً مبنية بالحجارة ، ومنظومة على جانبي شوارع مخططة عريضة واخرى ضيقة ، يمكن ان تبلغ في ذلك العصر النائي ما بلغتهُ هذه المباني ، من الدقة والاحكام والفخامة . ومما لا مرية فيهِ ان الباحثين لم يعثروا في مصر ولا في العراق على ما يماثلها

قيمة الآثار المكتشفة

وقيمة اي اكتشاف من هذا القبيل يقاس بمقدار ما يدخل على آرائنا من التبديل. وهذه المكتشفات في شمال الهند الغربي ، تحملنا ، نحن الباحثين عن نشأة الحضارة ، على تبديل موقفنا نحو ماضي الانسان المتغلغل في القدم . فلما كنا معنيين بتتبع تاريخ الانسان الى الالف الرابعة قبل المسيح . كنا نعنى ، الى ان تمّ هذا الاكتشاف ، بموقعين فقط هما مصر والعراق

وهذه المكتشفات على ضفاف الهند تضيف مرة واحدة ، الفي سنة الى تاريخ الهند . وهذا في حد نفسهِ امر ثانوي . ولكن الامر الخطير ، هو النور الذي تشيعهُ هذه المكتشفات في نواحي البحث عن الحضارة الانسانية من خمسة آلاف سنة . فانها لم تكن محصورة ، كما كنا نعتقد الى عهد قريب ، في بقعتين من بقاع العالم القديم ، بل كانت تمتد من الهند الى مصر ، فوق شقة من سطح الارض عرضها لا يقل عن ١٨٠٠ ميل وامتدادها من الشمال الى الجنوب ، قد لا يقلّ عن ذلك كثيراً . فالحضارة الانسانية — حضارة المدن — اقدم جداً مما كنا نظنّ . فاذا كانت الحضارة الانسانية قد بلغت هذا الشأو ، وهذا الامتداد في القرن الرابع ، فالبحث عن نشأتها وأصولها يجب ان يمتدّ بنا الى الالف السادسة قبل المسيح او الى ما هو قبلها . حينئذ كان الانسان — على ما نرجح الآن — قد بدأ يخطو الخطوات الاولى نحو الحياة المدنية . ومما لا يداخله الريب ، ان الباحث الاثري لن يلقي معوله ورفشهُ قبل ان يبلغ بهما الى ما يمكنهُ من فهم نشأة الحضارة وأصولها

حلقة بين حضارتين

وفي الوقت نفسهِ اكتشف السر جون مارشال ومساعدهُ السر اورل ستين Aurel Stein في النجود الواقعة بين الهند والعراق (نجود بلوخستان وفارس) سلسلة من الآثار تصل بين حضارة بابل وحضارة السند . وهذا يحقق بعض ما كان يذهب اليهِ نفر من الانثربولوجيين (السر ارثر كيث احدهم) من ان رواد الحضارة البشرية كانوا يقطنون النجد الواقع بين الفرات والسند

ولكي ندرك قيمة اكتشاف هذه الآثار المبعثرة بين الهند والعراق لا بد من الرجوع الى خريطة فارس وبلوخستان وافغانستان . فهذه البلدان الجبلية تقوم حاجز ، بين دال العراق التي بناها نهرا الفرات ودجلة وبين دال السند التي رسبها نهر السند العظيم والمسافة بينهما طولها نحو ١٤٠٠ ميل . فبلوخستان بوجه عام ، وكذلك معظم افغانستان وفارس بلدان صخرية جافة الآن . ولكن ثمة من الادلة ما يؤيد القول بأن هذه البلدان كانت غزيرة الامطار ،

وظلت كذلك الى مطلع الالف الرابعة قبل المسيح ، إذ أخذ متوسط هطول المطر يقلُ وبدأ عهد الجفاف الذي نشهده الآن

رواد الزراعة

فاذا فرضنا — والبواعث متوافرة لهذا الفرض — ان الشعوب التي كانت تقطن في هذه البلدان كانوا روّاد الزراعة ، فذلك يعلل لنا ، هجرتهم نحو سهل الرافدين الممرع . ومما لا يستطاع تصديقهُ ، ان الاساليب التي كان الناس يجرون عليها في العراق ومصر ، تمثل اول محاولات الانسان الزراعية . والمكتشفات الحديثة في اور الكلدانيين تثبت ان طوائف من الزراع والتجار ، كانوا قد انشأوا مستعمراتهم في سهول العراق في بداءة الالف الرابعة قبل المسيح

اما مكتشفات السر جون مارشال في السند، فتبين الآن، انما كان حادثاً في دلتا الرافدين في مطلع الالف الرابعة ق. م. كان حادثاً كذلك ، في بلدان دلتا السند على الجانب الشرقي من النجد الفاصل بين المكانين . ولا نزال في حاجة الى كثير من البحث والتدقيق لنعرف هل الاتصال بين الغرب (العراق) والشرق (السند) تمَّ عن طريق البرّ او عن طريق البحر

***

فلما يوفق الباحثون الأثريون الى اماطة اللثام عن حضارة كاملة مدفونة في التراب كما وُفق شيلمان الالماني في بلاد اليونان وافانس الانكليزي في جزيرة كريت ولكن في شتاء سنتي ١٩٢٢—١٩٢٣ اتفق ان احد موظفي مصلحة المساحة الأثرية الهندية—واسمه بانرجي— كان مارًّا في الناحية التي وجدت الآثار فيها فعزم ان يبحث في تاريخ صومعة هناك ليعين تاريخها . فعثر على نقود مكنتهُ من تحقيق مايبغي ، اذ ثبت له ان بعض النساك البوذيين كانوا يقطنونها في القرن الثاني بعد الميلاد

فلما مضى في البحث عن أُسس الصومعة دهش، اذ عثر على بناء متين بطوب شبيه بطوب الجدران في الصومعة . ثم تبين له ان هذه المباني المدفونة قديمة جداً، ذلك انهُ عثر هو ورجاله على اشياء عرف بانرجي في الحال انها اختام لم توجد قبلاً إلاَّ في مدن العراق . وكان السر جون مارشال قد عثر على مثل هذه الاختام في مكان يدعى هاربا في السنة السابقة . وهو على نحو ٤٠٠ ميل من موهنجو دارو . فاقتنع ان بقايا حضارة قديمة مطمورة في الشمال الغربي من الهند . وهكذا بدأ البحث المنظم في هذين الموقعين ، فأسفر عن كشف اصول الحضارة الهندية القديمة

الآثار ودلائلها

﴿ الحمّام الكبير ﴾ وقد جرى النقب في موضعين اولهما يدعى هاربًا في البنجاب والثاني موهنجودارو في السند والمسافة بينهما نحو اربعمائة ميل فعثروا على آثار مدن في طبقات متراكم بعضها فوق بعض يظهر منها ان تلك البلاد كانت آهلة عامرة منذ أكثر من ٤٧٠٠ سنة . ومكان البحث في موهنجودارو يشغل ارضاً مساحتها اكثر من ثلاثة عشر فدانًا وجدت فيها آثار ثلاث من أحدث المدن التي بنيت هناك في ثلاث طبقات متراكمة. ومن اغرب المباني التي كشفوها بناية فخمة تحتوي على حوض كبير كان يستعمل حمّاماً جرياً على بعض الطقوس الدينية أو لحفظ بعض التماسيح أو الاسماك المقدسة . وطول هذا الحوض ٣٩ قدماً وعرضهُ ٢٣ قدماً وعمقهُ تحت مستوى ارض البناية ثماني اقدام . وعلى كل من جانبي الحوض سلّم للنزول بهِ الى الماء . وارضهُ وجدرانهُ مرصوفة ببلاط دقيق الصنع وعلى جانب كبير من الاتقان . وقد بنيت الجدران بالطوب ولصقت بطين جيري وطلي الجدار الداخلي من خارجهِ بالقطران منعاً لتسرب الماء . ويتصل بهذا الحوض مصرف كبير مسقوف بقنطرة ارتفاعهُ ست اقدام يُصرَّفُ بهِ ماءُ الحوض الى خارج المدينة . وعلى مقربة من هذا الحمام الفخم حمام آخر شبيه بهِ ولكنهُ لم يحفظ سليماً من الاذى

وقد عثروا ايضاً على آثار مبانٍ صغيرة للسكن ومخازن للبيع مما يدلّ على ان ما بلغهُ الفرد في تلك العصر من الحرية والتقدم يفوق ما بلغهُ من هذا القبيل على ضفاف دجلة والفرات والنيل ومع ان المستر ولي كشف مؤخراً في اور الكلدانيين مباني من هذا القبيل الاَّ انها لا تقارن بالمباني التي كشفت في موهنجودارو من حيث الاتقان وينقصها نظام المصارف الذي بهِ كانت تجمع المياه القذرة من الحمامات المختلفة في احواض كبيرة في الشوارع ثم تنقل الى خارج البلدة

ولما كان هناك شبه كبير بين آثار هذه الحضارة وآثار الحضارة السومرية (الشمرية) القديمة فقد كنا اطلقنا على الحضارة التي كشفت آثارها في موهنجودارو وهاربا اسم الحضارة الهندية — السومرية . ولكن بعدما توغلنا في البحث ثبت لنا ان سبب هذا التشابه ليس وحدة الحضارتين بل التبادل التجاري بين البلادين . فعدلنا الى « حضارة السند »

﴿ تاريخها ﴾ كشفت اختام هندية في سوسا ببلاد فارس تشير الى هذه الحضارة ومن الموقع الذي وجدت فيهِ يستدلّ على انها تعود الى قبل عهد سارغون الاول اي قبل سنة ٢٧٠٠ ق.م. وقد وجد حديثاً ختم في اور عليهِ ما على بعض هذه الاختام ولكنهُ منقوش بالخط المسماري الذي يعود الى العهد المذكور . وعليهِ نستطيع ان نستنتج ان هذا النوع من الاختام خاص

بالنصف الاول من الالف الثالثة قبل المسيح أو قبل ذلك . ولما كانت هذه الاختام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمدن التي كشفت في موهنجودارو لكثرة ما كشفناهُ منها فيحقُّ لنا ان نجعل تاريخ هذه المدن يتراوح بين سنة ٣٥٠٠ و ٢٥٠٠ ق . م ولا يعلم على وجه من الدقة الزمن الذي انقضى على قيام هذه المدن وسقوطها ولكننا نرجح اننا لا نكون بعيدين عن محجة الصواب اذا جعلنا تاريخ المدينة العليا ٢٧٠٠ ق . م . وتاريخ التي تحتها ٣٠٠٠ ق . م . وتاريخ الثالثة التي تحتهما سنة ٣٣٠٠ ق . م . اما مدن هاربا فالعليا منها معاصرة لهذه المدن واما المدن التي تحتها فاسبق عهداً ولكننا لا نستطيع تعيين تاريخ هذا العهد

﴿ اجناس السكان ﴾ وما هو جنس هؤلاء الناس الذين خلقوا حضارة السند ؟

لا نستطيع الاجابة عن هذا السؤال اجابة صحيحة لان مباحثنا لم تتقدم تقدماً يكفي لذلك . وقد وجدنا كما كنا ننتظر ان اكثر الهياكل العظيمة التي عثرنا عليها تدلُّ على ان اصحابها من شعب مصفح الرأس (Dolechoceqhalic) (١) أي يصح ان ننسبهم الى الاجناس المستطيلة الرؤوس التي كانت تقطن جنوب اسيا واوربا والتي يطلق عليها اسم شعوب البحر الابيض المتوسط . ولم نعثر الاَّ على جمجمة واحدة من نوع الجماجم المدوَّرة (٢) (Brachycephalic) واما التماثيل التي عثرنا عليها فتمثل اناساً رؤوسهم مدوَّرة مثلها . ولكن ما لدينا من المعلومات حتى الآن لا يكفي للوصول الى نتائج مقرَّرة في هذا الموضوع

﴿ النسيج واللبس ﴾ ان وجود مغازل كثيرة وقطع من القطن المنسوج نسجاً دقيقاً في اطلال المدن التي كُشفَ عنها يدلُّ دلالة قاطعة على ان سكانها كانوا يغزلون وينسجون ولا يخفى ان اسم القطن في اللغة البابلية « سندهو » وباللغة اليونانية « سندن » وكلا اللفظين يشيران الى وادي نهر السند كموطن القطن الاصلي . ولكن بعض الباحثين كانوا مرتابين في ذلك وقال بعضهم ان القطن الذي استعمله البابليون واليونان جنوهُ من اشجار قطن غير شجيراته المعروفة الآن . فجاءت مكتشفاتنا بالقول الفصل وقطعت جهيزة قول كل خطيب . لان القطن الذي وجد في موهنجودارو من النوع الثاني ولهُ كل مميزاته

وكان لباس الرجال منهم يشتمل على قطعتين من الثياب رداء يربط حول الوسط وشال عاطل او مزخرف يرفع الى الكتف الايسر مارًّا من تحت الابط الايمن فتحفظ الذراع اليمنى مطلقة . وكان الرجل يطلق ذقنهُ وعارضيهِ احياناً واما شعر الشاربين فكان يحلقهُ احياناً ويحفظهُ اخرى . وكان شعر الرأس يجمع ويعقص في مؤخر الرأس . وقد عثرنا على رأس تمثال لامرأة مثّل فيها شعرها مسترسلاً على كتفيها وظهرها . ولا نعلم من ذلك هل كان هذا

(١) ترجمة العلامة فهد الجابري . انظر مقتطف اغسطس ١٩٢٦ ص ١٧٤ (٢) ترجمته ايضاً

الزيّ فاشياً حينئذٍ . وكان الرجال من طبقات الدنيا يذهبون عراة والنساء تلبسن ما يستر عوراتهن فقط مع اننا عثرنا على تمثال فتاة راقصة عارية كل العري . وكان كل الناس على اختلاف طبقاتهم رجالاً ونساء يتحلون بالحلى المختلفة — عقود وخواتم وزنانير . وانفردت النساء بلبس الخلاخل

﴿ حيواناتهم الداجنة والبرية ﴾ وكان من حيواناتهم الداجنة الثور والجاموس والضأن والخنزير والكلب والحصان والفيل ولم نعثر على أثر ما للجمل ولا للهر . اما الحيوانات البرية فنها الفهد والفيل ووحيد القرن . ولم نعثر على أثر ما يشير الى وجود الاسد

﴿ زراعتهم ﴾ لم يكن في الامكان ان تنهض مدن كبيرة زاهرة كمدينتي موهنجودارو وهاربا في ذلك العصر الا في بلاد زراعية اتقن اهلها الزراعة الى حدّ بعيد .ومع ان ما كُشفَ حتى الآن عن اساليب الزراعة والري المستعملة حينئذٍ لا يزال ضئيلاً جدّاً فلا بدّ من الاشارة الى ان انواع الحنطة التي وجدت في موهنجودارو هي هي انواع الحنطة التي في بلاد البنجاب الآن. وقد ثبت لنا من اعتبارات مختلفة ان مقدار ما كان يهطل من المطر سنويًا في السند وغرب البنجاب كان اعظم مما هو الآن . وان السند كانت تروى حينئذٍ من نهرين لا من نهر واحد وانها كانت كذلك اخصب مما هي الآن واقل عرضة لآثار الفيضانات وما تتركه في أثرها من الخراب

﴿ طعامهم ﴾ وكان سكان هاتين المدينتين يشربون اللبن ويأكلون الخبز ولحم الضأن والبقر والخنازير والسلاحف وسمك نهر السند الطازج والسمك المقدّد مجلوباً من شواطيء البحر . والادلة على ذلك وجود أنواع مختلفة من العظام في بيوت مختلفة ساعدنا في تحقيق الحيوانات الخاصة بها الماجور سول مدير قسم الحيوانات في حكومة الهند ومعاونوهُ

﴿ الحلي ﴾ كانت الحلي التي يتحلى بها الاغنياء من الذهب والفضة أو النحاس المطلي بالذهب والقيشاني الازرق والعاج والعقيق واليشم وحجارة ملونة مختلفة .أما الفقراء فكانوا يستعملون الصدف والتراكوتا.وقد عثرنا على أمثلة كثيرة مختلفة من هذه الحلي وتلك أخص بالذكر منها عقداً من العقيق والنحاس المطلي بالذهب ومنها اقراط وابر من الذهب الخالص مصقولة صقلاً يفتخر بهِ امهر الصاغة في هذا الزمان

﴿ المعادن ﴾ ومن المعادن التي كانوا يستعملونها عدا الذهب والفضة والنحاس القصدير والرصاص فقد كانوا يستعملون النحاس بكثرة في صنع اسلحتهم وادواتهم البيتية فيصنعون منهُ الخناجر والسكاكين والفؤوس والمناجل والازاميل والآنية وادوات الزينة على اختلافها كالاساور وما اليها . وكانوا يأتون بهِ من بلوخستان غرباً وراجبوتانا شرقاً وافغانستان شمالاً .

أما القصدير فكان يصعب الحصول عليهِ والمرجح انهم كانوا يستوردونهُ من خراسان او من الغرب عن طريق سوس في ما بين النهرين

ولم يستعملوا القصدير صرفاً بل مزجوهُ بالنحاس وصنعوا منهُ البرونز واستعملوهُ في صنع ادوات القطع الحادة كالازاميل والمناشير وفي صنع التماثيل الصغيرة والازرار والخرز الدقيقة وغيرها من الحلي ورغماً عن تفوق البرونز على النحاس الصرف من حيث ملاءمتهِ لصنع الادوات المذكورة فان ما صنع منهُ قليل جداً لصعوبة تناولهِ وغلاء ثمن القصدير

﴿ الاسلحة والسكاكين ﴾ ومن الغريب اننا لم نعثر حتى الآن إلاَّ على بضع فؤوس وخناجر ورؤوس سهام ورماح. فيظهر ان سكان هذه المدن لم يكونوا رجال حرب. ومع انهم اكثروا من استعمال النحاس في صنع ادواتهم عثرنا على كثير من الادوات الحجرية مما يدل على ان آثار العصر الحجري الحديث كانت لا تزال فاشية بينهم. فقد كانوا يصنعون من حجر صلد من نوع اليصب ادوات الصقل واوزاناً لها نظام هندي خاص يختلف عن نظام البابليين والعيلاميين. وكانوا يجلبون كثيراً من الصدف من شواطىء البحر لتقطع وتنظم في عقود وتصنع منها حلي مختلفة وتستعمل في صناعة تنزيل الخشب. ولهم قيشاني ازرق يماثل قيشاني ما بين النهرين ومصر استعملوهُ كثيراً في صنع الحلي والكؤوس الصغيرة والعقود وما اليها

﴿ الخزف ﴾ اما ادوات البيت العادية فمن خزف عادي. واشكالها مختلفة ودقيقة الصنع مما يدل على ان صناعة الخزف كانت قديمة جداً وانهُ كان قد انقضى عليهم زمن يمارسونها حتى اتقنوها. ولكن من الغريب ان اكثر الآنية الخزفية لم يكن لها حلقات تستعمل كمقابض واكثرها احمر اللون غير مزخرف وبينها ما هو مزخرف ومدهون بالوان مختلفة ولكنهُ قليل وأكثر الرسوم سوداء وهي رسوم هندسية وبعضها رسوم حيوانات. وقد عثرنا على آنية في موهنجودارو مزخرفة برسوم حمراء وبيضاء وسوداء. وبعض هذه الرسوم يدل على اتصالهم بعيلام وما بين النهرين وبلوخستان

﴿ الكتابة ﴾ ان وجود الاختام المنقوشة في كل بناية كشفناها تقريباً يدل على ان سكانها كانوا عارفين بفن الكتابة ويرجح لدينا انهم كانوا يستعملونها في التجارة وغيرها مع اننا لا ندري حتى الآن ما هي المواد التي كانوا يستعملونها مكان الصلصال الذي كانت تصنع منهُ الاختام. وربما استعملوا لذلك الخشب او لحاء بعض الاشجار مما يشبه البردي المصري

والراجح ان هذه المدن طمرت تحت طبقات من الطمي كانت مياه السند تحملهُ في ابان فيضانهِ بعد ذوبان الثلوج على جبال حملايا في اول الصيف. وهكذا ارتفع سطح السهل الذي بنيت فيهِ المدينة ارتفاعاً مطرداً يرجح ان متوسطهُ نحو ٩ بوصات في القرن الواحد. فمدينة موهنجو دارو مطمورة تحت ثلاثين قدماً من هذا الطمي الراسب

من قصيدة لابن زيدون

[يعنى الاديبان كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة بضبط ديوان ابن زيدون وشرحه وطبعه . وقد اخترنا من ملازمه الاولى هذه القصيدة]

إن عيل صبري من فرا ... قك ، فالعذاب به أليم
أو أتبعتك حنينها ... نفسي ، فأنت لها قسيم
ذكرى لعهدك كالسها ... د سرى فبرّح بالسليم

***

مهما ذممت فما زما ... ني ـ في ذمامك ـ بالذميم
زمن — كمألوف الرضا ... ع — يشوق ذكراه الفطيم
أيام أعقد ناظريّ ... بذلك المرأى الوسيم
فأرى الفتوّة غضة ... في ثوب أوّاه حليم

***

الله يعلم أن حبـ ... ـك من فؤادي بالصميم
ولئن تحمل عنك لي ... جسم ، فعن قلبي مقيم
قل لي ، بأي خلال سر ... وك ـ قبل ـ أفتن أو أهيم
أبمجدك العمم الذي ... نسق الحديث مع القديم
أم ظرفك الحلو الجني ... أم عرضك الصافي الأديم
أم برك العذب الجما ... م ، وبشرك الغض الجميم
وبلاغة إن عدّ أهـ ... ـلوها فأنت لهم زعيم
فقر تسوغ بها المدا ... م إذا تكررها النديم

***

إن الذي قسم الحظو ... ظ حباك بالخلق العظيم
لا أستزيد الله نعـ ... ـمى فيك ، لا بل أستديم
حسبي الثناء لحسن بر ... ك ما بدا برق فشيم
ثم الدعاء بأن تهنـ ... ـأ ـ طول عيشك ـ في نعيم
ثم السلام تبلغنـ ... ـه فغيب مهديه سليم

تقاليد الزواج واصولها النفسية

لاحمد عطية الله

٢

انتشار الزواج وتقاليده بين الشعوب المحافظة — الديانات والزواج — الآثار النفسية للزواج — ازمة الزواج وارتفاع سن الزوجين — تحريم الزواج بين افراد الجماعة الواحدة — تحريمه مع الغرباء

ان الزواج وتقاليده منتشرة انتشاراً كبيراً بين الشعوب الفطرية ، إذ من المفروض أن كل فتاة وفتى من فتيان القبيلة لا بد لهما من ازواج إذا ما بلغا دور المراهقة . ولعل ذلك يرجع إلى أسباب اقتصادية او إلى معتقدات دينية . فالصيني يعتقد انهُ إذا مات ولم يترك ذرية سوف لا يجد من يخلد من بعده ذكرى الاسرة ولا من يقوم بالطقوس الدينية لهُ ولاجداده كما أن أكبر سبة للصيني أن تبلغ فتاتهُ دور المراهقة من دون أن تتزوج

وكذلك الحال عند الهندوكيين الذين يعتقدون أن أكبر لعنة تنزل على الرجل إذا مات ولم يترك ذرّية فلا تقوم لهُ بمراسيم الوفاة

ولا ينفرد بذلك الوثنيون . بل ان التعاليم اليهودية تحتم بان لا بد من الزواج لكل من الفتى والفتاة إذا ما بلغا دور المراهقة وهو (١٨) للصبي و (١٣) للفتاة . وهذا التقليد يحافظ عليه إلى اليوم ، لذا كان من النادر أن نجد من اليهود الشرقيين أو الغربيين على حد سواء من تجاوز هذا الحد كثيراً ولم يتزوج . ثم جاءت المسيحية ونظرت إلى الزواج بغير هذه العين ، وحط بعض رسلها الاولين كالقديس بولس من القيمة الروحية للزواج فما هو إلاّ ضرورة نأخذ بها لغرض المحافظة على النوع الانساني . حتى غدت الرهبنة مقياساً للزهد والصلاح . لذلك حرم على رجال الدين الزواج لاسيما في القرون الاولى ، لما كانت للكنيسة السطوة والهيبة

ثم جاء الاسلام فشجع على الزواج كثيراً لاسيما في بدء نشأتهِ ، لكي يساعد ذلك على نشر مبادئهِ ، بل وسمح بتعدد الزوجات

أما في البلاد الزراعية أو التي تعتمد على رعاية الحيوان حيث الحاجة الى الايدي العاملة كبيرة فقد ساعد هذا النوع من المعيشة على سرعة الزواج بل وعلى تعدد الزوجات لكي يتسنى لرب الاسرة أن يجد عوناً لهُ في عملهِ ، فتقوم النساء والفتيات بما تتطلبه الحياة المنزلية من رعاية أو حياكة أو طهي بينما يقوم الابناء بالعمل خارج المنزل من رعي أو فلاحة

وللزواج عدا ذلك آثار نفسية جليلة الشأن وليس لي ان ادلل عليها إذ يكفي أن نلاحظ

الفرق الكبير بين سلوك الفتى قبل زواجه وبعده، والتغيير الفجائي الذي يطرأ على الفتاة قبيل زواجها او عند خطبتها فنراها تميل الى الادخار، وإلى ملاحظة ما يدور حولها في المنزل، وإلى مساعدة أمها مساعدة جدية في ادارة شؤون البيت وإلى العناية باخيها الصغير وإلى الاستقرار والهدوء في حجرتها. ويفقد سلوك الفتى الصبيانية في افكاره وحركاته وتهبط آماله من سماء الخيال المطلق الشعري، الى عالم الحقيقة، كما ان الشعور بالمسؤولية يصبغ حركاته ويصقل افكاره. فهو لم يعد بعد ذلك الوكل الذي يترك حبل الامور على غاربه[1]

هذا إذا أضفنا أن التردد في الاعمال وفي اختيار المهن يقف بعد الزواج فتنصرف قوى الشاب لا إلى التفكير في مهنة أخرى إذا فشل في الأولى بل إلى ابتكار أسباب النجاح بالمثابرة في عمله

ان صبغ التشجيع على الزواج بصبغة دينية كان من شأنه الاسراع فيه، وانتشاره انتشاراً كبيراً بين الشعوب

فعند الشعوب الفطرية كما بينت، يتزوج الفتى والفتاة عند المراهقة مباشرة. ومما يساعد على ذلك بالطبع، العوامل الاقتصادية التي اهمها وفرة المواد الغذائية، وبساطة الحياة إذ ليس هنالك ما يدعو الى تكوين منزل كامل كما هي الحال في عصرنا الحاضر. بل أن بعض الشعوب تتغالى في ذلك بأن تفرض على الآباء اتمام عقود الزواج بين ابنائهم وهم بعد في دور الطفولة. فيختار الاب لطفله زوجة من فتيات العائلة، أو القبيلة عند ولادتها مباشرة أو في خلال أعوامها الأولى وهي لا تزال تدرج على الارض، فيعقد بينهما اتفاق صوري كما هو الحال في الهند إلى عهد قريب جداً حتى تدخلت السلطات الانجليزية في الامر

ومما ساعد على ذلك سرعة نمو جسم الفتيات لا سيما في البلاد الدافئة، فتتخذ الظواهر الجسمية دليلاً على المراهقة، وضرر هذا بليغ على الزوجة كاصابتها باضطرابات عصبية أو بالعقم. وكم من فتيات صرن امهات في مراكش والهند بل وفي مصر ولم يبلغن بعد العاشرة[2]

وانتشار الحضارة وما ترتب عليها من تغيير النظم الاجتماعية المختلفة ساعد كثيراً

(أولاً) على رفع مستوى سن الزواج عند المرأة والرجل

(ثانياً) على انخفاض نسبة عدد عقود الزواج

---

(١) وليس أدل على ذلك من أن الحكومة التركية اصدرت حديثاً قانوناً يشترط فيه ان سائقي السيارات او القطارات لا بد وان يكونوا من المتزوجين. لان الاحصائيات قد دلت على ان حوادث الاصطدام سببها العازبون من السائقين فهؤلاء يشعرون شعور غيرهم بالمسؤولية الخطرة الملقاة على عاتقهم

(٢) في احصائية سنة ١٩٢٧ (وذلك قبل اصدار قانون الزواج) كان عدد الفتيات اللاتي تزوجن قبل بلوغهن العاشرة ٤ فتيات

ولعل الاسباب التي ساعدت على رفع مستوى سن الزواج مطالب الحياة المتحضرة ومستلزماتها . اذ انهُ لا يتطلب فقط من الرجل ان يقتل تمساحاً أو ان يحتمل تجربة جسدية عنيفة ليكون كفءاً للزواج ، بل يجب عليهِ ان يكون قادراً على اعالة اسرتهِ ورعاية صغاره

ثم هنا لك حرية المرأة ودخولها في ميدان الحياة العملية ، فالأب الذي كان عاملاً على زواج ابنتهِ لكي يقوم غيره بمطالبها ، والفتاة التي كانت تنظر الى الزوج كعائل لها ، صارت الوجهة الاقتصادية لديها ضعيفة الأثر لا تكفي كباعث للاقبال على الحياة الزوجية بما فيها من تبعات ومتاعب ، لامكانها أعالة نفسها . كما أن تنوع أسباب الحضارة ومسراتها ، واتساع دائرة الدراسات العلمية المختلفة وجّها انظار الشباب الى غير ناحية الزواج ، وتحمل مسئولية تكوين الاسرة. والاحصائيات التي اجريت في اميركا واوربا تدل على ان سن الزواج ارتفع كثيراً لا سيما بين الطبقات المثقفة ، ويختلف باختلاف المهنة التي يشتغلها كل من الزوجين. ومثال ذلك: ٣١ للرجل الموظف ، ٢٦ للمرأة — ٢٧ للتاجر ، ٢٤ للمرأة — ثم ٢٥ للعامل ، ٢٤ للمرأة

ومما نشاهده في كل هذه الاحصائيات ان سن الرجل اكبر من المرأة . وأن هذا الفرق يجب الاّ يتعدى سنتين او ثلاثاً . لانهُ كلما بعدت الشقة في السن بعد التوفيق بين الزوجين، لا كما يظن البعض ان الفتاة دون العشرين اكبر عون على السعادة الزوجية

كما ان نسبة عقود الزواج سقطت سقوطاً هائلاً بسبب تعدد مطالب الحضارة الراهنة ،وسوء الحالة الاقتصادية العامة . فقد قال بعضهم ان نسبة الزواج تتناسب تناسباً عكسياً مع ارتفاع أثمان الغذاء الرئيسي كالقمح والذرة والارز

***

هل الرجل او المرأة حرٌّ في اختيار رفيقهِ كما يشاء ؟ نعم ان الحرية حق مكتسب للجميع ولكن يجب ألا يتعدى ذلك الحدود التي وضعتها التقاليد او القوانين وهي نتيجة للتقاليد في الغالب .اي ثورة تتملكك واي فزع يسيطر عليك اذا سمعت بأن شخصاً ما قد تزوج اخته واي شعور تحس بهِ نحوه ؟ يستحيل في نظرك هذا الرجل مجرماً متوحشاً خالياً من كل نزعة انسانية. لماذا ؟ انهُ لم يأتِ ما يعود على المجتمع بضرر ولكن لانهُ تعدى على تقاليده الموضوعة فزواج الاخت عند القدماء لم ينظر اليه بهذه النظرة المجرمة ، وان لم يكن منتشراً بين عامة الشعب، الاّ انهُ قد كان عادة متبعة بين الأُسر المالكة

فهذه التقاليد والقوانين التي قيدت حرية اختيار الزوج او الزوجة على نوعين : احدهما

(١) حسب تعداد سنة ١٩٠٠ كانت نسبة عقود الزواج لكل ١٠٠٠٠ رجل او امرأة في دور الزواج في بعض جهات اوربا نحواً من ١٣٨٦ هبطت الى حوالي ٤١١ في انجلترا قبل الحرب — ولا شك ان هذه النسبة هبطت أكثر بعد الحرب العظمى التي قلبت النظم الاجتماعية العائلية قلبة هائلة

يتناف مع الآخر. فالقانون التقليدي الاول هو الذي يحرّم الزواج خارجاً عن دائرة مخصوصة كالقبيلة اما الثاني فهو الذي يحرم عكس ذلك اي انهُ يمنع الزواج بين افراد رابطة خاصة. فالزواج ممتنع في كثير من الحالات جرياً على هذه التقاليد داخل الدائرة وخارجها

***

(١) ولنبحث في النوع الاول من هذه التقاليد. ان هنالك شعوباً لا تزال الى الوقت الحاضر تحرم على افرادها الزواج من غيرها من الشعوب الاخرى، وأظهر ما نرى ذلك في الدول الفاتحة او المستعمرة، فالاسبانيون عند فتح اميركا الوسطى اصدروا مثل هذا القانون الذي كان يحرم على الاسباني او الاسبانية الزواج من الوطنيين — وكذلك الحال مع الانجليز في مستعمراتهم الشرقية بل حتى التي تسكنها سلالة انجليزية كجنوب افريقيا واستراليا . وكذلك الحال مع الاتراك حتى عهد ليس ببعيد في مصر حيث كانوا يحرصون على عدم الزواج من الفلاحين. ولكن الشعوب تختلف بحسب تقاليدها وثقافتها في ذلك. فالفرنسيون مثلاً يشجعون الزواج بالوطنيين في شمال افريقيا لتقوية الصلة بينهم وبينها. ولا تشمل فقط هذه التقاليد الشعوب بل نراها بين بطون الشعب الواحد او القبيلة الواحدة حيث يسعى رؤساء هذه القبائل الى الاحتفاظ بسلالتهم من الاختلاط والفوضى ولا ينتهي الامر عند ذلك بل ان الدائرة تضيق حتى لا تتسع الاَّ لافراد الطائفة او العائلة الواحدة من القبيلة كما هي الحال في الهند او عند سكان استراليا الاصليين

ولعل كل ذلك يرجع الى أسباب سيكلوجية وهو التنافر الذي يجده فردان من طائفتين مختلفتين في العادات والتقاليد، واللغة، ووسائل المعيشة والنزعة الشعبية

ثم هنالك حاجزان كبيران تقيمهما التقاليد في سبيل حرية الزواج. الاول الفروق الدينية والآخر الفروق الاجتماعية ولو بين افراد الشعب الواحد

تشمل الفروق الدينية ايضاً الفروق المذهبية والطائفية بين افراد الدين الواحد ويرجع قيام هذه التقاليد الى خوف افراد الدين الواحد من زعزعة اركانه بالاختلاط بديانات اخرى لاسيما في العهود الماضية التي كان فيها لرجال الدين سطوة وسلطة وكانت الجماهير جاهلة لا تعرف ما لها وما عليها، ممتلئة الرأس بالمعتقدات التي يبثها رجال الاديان لتعزيز سلطانهم

وقد يكون السبب الآخر حقداً بين طائفتين او مذهبين انبتتهُ هذه الاختلافات الدينية فتدفعهما الى سن مثل هذه القوانين. فالكنيسة كانت تحرم التزاوج بين افراد المذاهب المسيحية المختلفة لاسيما في القرون الوسطى لما كانت المنازعات على أشدها — أو كتحريم التزاوج بين المسيحيين وبين اليهود[١]

(١) في سنة ١٥٦٣ اصدر مجمع ترنت Council of Trent قانوناً يقضي بان كل تزاوج بين الكاثوليك واية طائفة من الطوائف المسيحية الاخرى يعد لاغياً . بينما صدر في عام ١٨٤٤ قانون من المؤتمر اليهودي بان تزاوج اليهود من الطوائف الموحدة Monotheistic غير محرم

اما الاختلافات بين الطبقات فكان أشدها في عهود الاقطاع حيث كانت هذه الفروق على اشدها ، فهذه التقاليد تحرم تزاوج افراد الطبقة الواحدة من افراد اخرى ، وهنالك الى الآن شبه قوانين تحرم على افراد العائلات المالكة التزاوج من غير هذه الطبقة ، وان اختلفت المذاهب والشعوب، فكأنَّ الاعتداء على الفروق الشعبية أيسر من انتهاك حرمة الفروق الاجتماعية

وهذا التحريم لا يرجع بنا الى القرون المتوسطة فقط ، بل كان اكثر وضوحاً في عهد الامبراطورية الرومانية ، لما كانت الدولة مقسمة الى طبقات ثلاث ،وكان محرماً على افراد الطبقة الواحدة الزواج الا من بين افراد طبقتهم

ولكن النهضة العلمية الحالية وانتشار الروح الديمقراطية قضى الى حد كبير على هذه الفروق فضاعت آثارها او كادت تضيع ، ولكن يجب الا ننسى انهذه التقاليد مبنية على بعض اسس نفسية واجتماعية لها شأنها وأثرها

***

(ب)ثم هنالك تقاليد ترمي الى نقيض ذلك .فتحرم التزواج بين افراد الجماعة الواحدة بينما تسعى وتشجع التزاوج من الغرباء عنها

والمقصود بالجماعة في هذه الحالة هي الجماعة التي يرتبط افرادها «برابطة الدم» وكلما كانت هذه الرابطة وثيقة متمكنة تشددت هذه التقاليد في تحريمها : كامتناع تزاوج الابناء والامهات والآباء والبنات، ثم الاخوة والاخوات، وان كان هذا يتجاوز عنهُ في بعض الحالات كما بينت عند القدماء . فابراهيم مثلاً تزوج اخته وبطليموس كليوبتره . ثم هنالك من الشعوب من تحرم الزواج بين ابناء الأعمام او الاخوال كما في بعض المقاطعات الاوربية الشمالية . اما عن الاسلام فقد ورد في القرآن ذكر هؤلاء الذين يحل او يحرم التزاوج فيما بينهم

ولا تشمل دائرة التحريم رابطة الدم ، بل انها لتتعدى بعض انواع اخرى من العلاقات كالتعارف الوثيق :كأخت الرضاعة عند المسلمين ، او تحريم زواج الرجل بأخت زوجته المتوفاة عند الكاثوليك

ولقد قسم الاستراليون القدماء القبيلة الواحدة الى جماعات ، من حيث تحريم الزواج ، فلا يحل لافراد الجماعة الواحدة ان تتزوج الا من بين افراد جماعة اخرى او جماعة معينة ، وكل من يتعدى هذه التقاليد يعاقب عقاباً صارماً قد يكون الموت

وقبل ان نفسر اصول هذه التقاليد من الناحيتين البيولوجية والنفسية ، يستحسن ان اورد بعض المعتقدات التي تدفع هذه الشعوب للاخذ بهذه التقاليد . فنهم من يعتقد ان

الزوجة لا بد وان تسلَب وتسبي ، وهذا لا يتأتى الا اذا هاجت قبيلة اخرى ، فرجوع الرجل بفتاة من قبيلة اخرى دليل على قوته وعلى شجاعته ، وقد يكون هذا اساساً لما سنعرفه بعد بزواج الاغتصاب ومنهم من يعتقد ان الزواج تبادل تجاري وهذا يستلزم ان يكون مع قبيلة غريبة . كما ان بعض هذه القبائل تعتقد ان الزواج بالاقرباء يرجع عليهم باوخم النتائج فتهلك مزارعهم وحيواناتهم بل وتعقم نساؤهم

ولكن لعل تحريم الزواج بالاقارب نتيجة لاسباب بيولوجية ثم سيكلوجية . فمن السبب الاول لقد تحقق ان النسل الناتج من فردين من ذوي قربى ينشأ ضعيفاً هزيلاً ، وهذا واضح بيّن بين النباتات ، فالتلقيح بين نباتين مختلفين من فصيلة واحدة ينتج نتاجاً حسناً بينما العكس يساعد على اضمحلال النوع باسره كما قرر ذلك دارون[1]

ثم هنالك السبب السيكلوجي وهو ان قرب فردين احدهما من الآخر مدة طويلة لاسيما في دور الطفولة من شأنهِ ان يخمد كل ميل جنسي او اعجاب او تقدير يكون مصدره هذا الميل ، فلذلك دللوا على اهمية التربية المزدوجة Co-Education التي تتيح اختلاط الفتيات والصبيان في المدرسة ، فهذا الاختلاط من شأنهِ ان يخمد كل ميل جنسي بين افراد هذه الجماعة

وليس هذا مقتصراً على الانسان بل هو كذلك مشاهد في المملكة الحيوانية فهناك من الباحثين في طبائع الحيوان من يقرر ان بعض الطيور كالحمام مثلاً ترفض بتاتاً اتخاذ الرفقاء من افراد العش الواحد بينما نرى الفرخ يسعى لاتخاذ الاليف من الاعشاش البعيدة . وكذلك الحال مع بعض الحشرات كالنمل والنحل

فهذا الرأي اذا كان صحيحاً يناقض ما يقول بهِ العلامة فرويد من ان الميل موجود حقيقة فينا ولكنهُ مكبوت بتأثير التقاليد الاجتماعية ولكن لا بد لنا ان نتساءل ما الداعي لكبت هذا الميل اذا لم يكن هنالك خطر حيوي يعود من جرائهِ . لماذا مثلاً نشعر باشمئزاز شبه طبيعي (لا اقول طبيعي) اذا تزوج الاب فتاتهُ أو الام فتاها ؟

هل هنالك من جواب علمي جازم ؟

(للبحث بقية)

موضوع المقالة القادمة

[كيف يختار الرجل زوجته — زواج الاغتصاب عند الشعوب الفطرية — آثاره الراهنة في الشرق والغرب — أسسه السيكلوجية — زواج الموافقة — المساومة وكيفية تطور المهر]

احمد عطية الله
مدرس التربية بمعلمات حلوان

(١) راجع مقالة « اسس الوراثة » في هذا الجزء صفحة ٢٠٥

باب شؤون المرأة

وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة واهل البيت معرفته
من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة
وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

كيف نعيش في صحة جيدة

للدكتور لبيب شحاته

الدنيا كما يشبهها عمر الخيام خيمة لها بابان تدفع اليها من أحد بابيها وبعد مدة طالت أو قصرت نرغم على الخروج من الباب الآخر. فهي في الواقع حياة ارغام ولكن كلاً منا في وقت من الاوقات يساوره شعور داخلي يحدثه بطيبة هذه الحياة ولذة العيش فيها — وقد يأتي هذا الشعور للتلميذ عند نجاحه في شهادة أو للعامل في وقت راحته بعد ان يقوم بعمل شاق قياماً موفقاً أو للشخص وهو مستلق على شاطىء البحر في فسحته بعد عناء عام كامل. وقد تشعر به بعد سباق طويل وانت تمسح جسمك فتشعر بحرارة الدم يجري فيه هو شعور الصحة والنشاط والاقدام. ولكن ما معنى الصحة وما هي علاماتها — إن أول ما تسأل عنه صديقك أو قريبك هو السؤال عن صحته فقبل أن تبادره بشيء تسأله عن صحته

في هذه الحياة التي غلبت فيها الماديات كل اعتبار آخر يشعر الانسان وهو في وسط حركتها التي لا تنقطع أن الصحة لها المقام الاول. ومهما كان عملك سواء ا كنت عاملاً بسيطاً أو رئيساً كبيراً تجد أن آمالك وأعمالك ونجاحك تتوقف كلها على صحتك بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. وانه حتى من الوجهة الاقتصادية أوفر لك كثيراً أن تكون بصحة جيدة من أن تكون عليلاً — وانَّ يوماً واحداً تقضيه في فراشك بسبب المرض تشعر فيه بذلة وضعف جسمك وتعرف معنى الصحة

وقد كثرت في السنوات الاخيرة الاكتشافات — فكل يوم أفكار جديدة ومخترعات حديثة والشخص العادي في حيرة لا يعرف ما يعمل. كيف يأكل وأي شيء يأكل — كيف ينام وكم يقضي في النوم — كيف يقضي يومهُ بطريقة صحية — ما معنى الفيتامينات

وأين يجدها وما هي فائدتها وكيف ينتفع بها — ما هو السرطان وكيف يتقيه — كيف يمنع عنهُ عدوى الامراض — هل من فائدة في الحقن ضد الامراض — هل من طريقة تمنع عني عدوى السل ـ هل من طريقة أقضي بها حياتي بصحة ـ هل ما يشيعهُ الاطباء عن الامراض وعدواها وعلاجها حقيقيٌّ ـ هل من فائدة في عرض نفسي للفحص وأنا أشعر أني بصحة جيدة

هذه أمثلة من بعض الخواطر التي تجول في الذهن ـ وسأجتهد أن أوضح بعضها فيما يلي

وقد حاول الانسان من قديم الزمان ان يستمتع بالحياة الى أقصى مداها ـ وحاول ولا يزال يسعى لكي يطيل أيامهُ على الارض ولـكن حياتهُ لم تتعدى مدة محدودة ـ وقليل جداً من جاوزوها . وأغلب ما يروى حكايات قابلة للشك وهي على كل حال ليست عادية

من ذلك حكاية رجل انكليزي في القرون الوسطى يقال انهُ تزوج لاول مرة وهو في سن ٨٨ ثم تزوج أرملة وهو في سن ١٢٢ ويقال انهُ ولد لهُ خمسة أطفال بعد أن بلغ سن المائة وتوفي بعد أن بلغ ١٥٢ سنة ولـكن معظم هذه الامثلة خيالية وليست حقيقة

ومن الغريب أن النساء اللواتي يصلن الى سن المائة أكثر من الرجال ـ فمن بين ٧٩١ شخصاً جاوزوا سن المائة وجد بينهم ٥٠٤ امرأة أو ٧٣ ٪ و ١٨٧ رجلاً أو ٢٧ ٪

والغالب أن الاشخاص الذين يعمرون طويلاً هم سلالة عائلات اشتهرت بطول العمر أي أن هذه الخاصة وراثية الى حد ما . والاعتقاد الغالب أن الشخص الذي يعمر طويلاً لهُ عادات شاذة خصوصاً من جهة التدخين أو المشروبات أو ما أشبه ذلك. ولـكن وجد أن ٥٤ ٪ من هؤلاء الرجال يشربون الخمر والباقي لم يستعملها مطلقاً . وبين ٢٦ رجلاً جاوزوا سن التسعين وجد ستة يدخنون وخمسة يمضغون الدخان واثنان يمضغون ويدخنون والثلاثة العشر الباقون لا يدخنون مطلقاً

والواقع أن هذه العادات ليس لها تأثير كبير في اطالة العمر اذا كانت معتدلة . وأهم عامل يؤثر في اطالة العمر هو الوراثة ـ فبين ١٨٤ شخصاً عاش آباؤهم أكثر من ٨٠ سنة وجد أن متوسط عمرهم عند الوفاة ٥٢،٧ سنة ـ وبين ١٢٨ آخرين مات آباؤهم قبل سن الستين وجد أن متوسط عمرهم عند الوفاة ٣٢،٨ سنة. فان أول ما ينظر اليه في تحسين صحة الفرد ان نضمن لهُ مولداً صحيحاً. ولـكن بكل اسف ليس لنا ان نختار والدينا فنحن ندفع الى هذا العالم رغماً عنا وأقل ما يجب عمله ان نصلح ما فسد وان نحافظ على ما بنا من صحة لا ان نزيدها سوءاً اذا لم يكن لفائدتنا الشخصية فرحمة بمن سيلينا

— ١ —

الغذاء والهضم

الغذاء من اهم ما ينظر اليه الطب الآن في تحسين صحة الانسان حتى ان احدى جامعات اميركا انشأت قسماً خاصاً لتدريس فن الطهي لطلبة الطب وهو كسائر الموضوعات الصحية قد

دخله التطرف من جملة نواح فمن الناس من يعتقد ان اللحوم هي سبب كل امراض الانسان ويدلل على ذلك بان القرود والنسانيس الذين يمتون الينا بصلة بعيدة يعيشون على الفواكه والبزور فقط. ويقولون ان الحيوانات التي لا تأكل اللحوم قوية وسلسة المراس ولكن الحيوانات التي تأكل اللحوم دائماً مفترسة ويقول احد العلماء ان اشرس شخص وجدتهُ في حياتي هو شخص لا يأكل اللحم وقد وجد مرة فراشة في طعامهِ

وفي الواقع يمكنك أن تدلل على أي رأيٍ من الآراء بأدلة كثيرة تثبتهُ أو تنفيه اذا رجعت الى التاريخ . وعادات الاكل غالباً ترجع الى الاديان وقل أن تجد ديناً أو عقيدة الا وتنطوي على محظورات تتعلق بأنواع الاكل وهي من الوجهة الفلسفية بصرف النظر عن أي وجهة أخرى كما يقولون تذكر الانسان دائماً بعقيدتهِ أو دينهِ نظراً لاحتياج الانسان اليها باستمرار فتضمن الى حد ما نجاح هذه العقيدة . ولا شك أن الامتناع عن أكل اللحوم كعقيدة دينية يساعد كثيراً على اذلال النفس وانكارها وعلى زيادة قوة عزيمة الشخص . ولكن نلاحظ أن القرود التي يدللون بها على عدم أكل اللحوم تجري لتطارد الحشرات والهوام ثم تأكلها بلذة كبيرة . كذلك يقولون ان اللحوم تحمل جراثيم أمراض كثيرة ولكن طريقة فحصها قبل الذبح وبعدهُ وطريقة طبخها تجعلها خالية من كل ذلك ومضمونة كأي نوع من أنواع المأكولات الاخرى .ومن الادلة التي انتشرت ضد اللحوم انها تحتوي على مواد عند هضمها تولّد الحمض البوليك وهو يؤذي الجسم — ولكن هذا الحمض يكونه الجسم نتيجة عمله ويفرزه مع البول ولا بد من وجوده فيه وفضلاً عن ذلك فان كثيراً من الخضروات تحتوي على مواد يتولد منها هذا الحمض

لا توجد بيانات صحيحة عن متوسط أعمار الاشخاص الذين يأكلون اللحوم والذين لا يأكلونها أو عن مقدار اصابتهم بالامراض حتى يمكن الحكم بينهم بصفة قاطعة ولكن من عاش بينهم يقول انهم لا يختلفون من هذه الوجهة والميزة التي تجدها في آكل اللحوم هي انهُ أنيس المعشر وأقرب من غيره الى الانشراح . وقد توصل الطب حديثاً الى اكتشاف أدوية حيوانيّة لها أكبر اثر في الامراض — فقد وجد أن خلاصة الكبد تشفي من الانيميا والانسولين وهو محضّر من البانكرياس يمكن المريض بالبول السكري من أن يعيش كبقية الافراد وفي بعض الاحيان قد يمنع عنهُ الموت. ولست أشك مطلقاً أن المتعصب ضد اللحوم لن يتردد لحظة في الانتفاع بهذه المواد اذا كانت مسألة حياة أو موت

وفي وقت من الاوقات توصل عالم الى فكرة أن مضغ الطعام مضغاً جيداً هو أهم عامل في الهضم وفي التغذية ولم يكتف بذلك بل أعتقد ان فكرتهُ هذه سوف يكون لها تأثير في العالم كله .ومن غريب أمر هؤلاء العلماء انهم يختارون لانفسهم من علومهم قواعد شاذة ويتبعونها

اتباعاً دقيقاً ويجتهدون في اقناع كل من يحتك بهم باتباعها . وبعد مدة وجد هذا العالم انهُ باتباع طريقتهِ قلَّ مقدار ما يأكلهُ فتوصل الى القول بأن قليلاً من الطعام يكفي حاجات الانسان وأن كل مادة لا يمكن اذابتها في الفم لا تؤكل فكان من نتيجة ذلك قلبٌ لحركة الهضم وضعف عام لكل من اتبع هذه الخطة

وقد ظهرت فكرة لا تزال سارية الى الآن أن الخبز الابيض يسبب السرطان وهذه الافكار منشؤها غالباً أغراض تجارية واصحابها يتشبثون بالامراض المزعجة التي لا يعرف سببها تماماً الى الآن كالسرطان ليضمنوا نجاح فكرتهم — ويقولون ان الانسان المتوحش لا يصاب كثيراً بالسرطان (وهذا ليس لهُ أساس قط) — ولما كان الانسان المتمدن هو الذي يصاب بهِ وانهُ يأكل الخبز الابيض فلا بد أن يكون هذا هو السبب . وعلى هذا القياس فان السيارات قد تكون سبباً في السرطان فانها ازدادت معهُ

كذلك قالوا ان الالومونيوم سبب للسرطان وانهُ سبب معظم الامراض التي تصيب الجسم فهم يقاومون فكرة الطبخ في الاواني المصنوعة من الالومونيوم على هذا الاعتبار مع ان جميع التجارب العلمية الدقيقة التي عملت أثبتت أن الالومونيوم ليس لهُ علاقة بهذه الامراض وان المقادير التي تدخل الطعام عند الطبخ في الاواني المصنوعة منهُ والتي تدخل جسم الانسان لا تؤثر مطلقاً في صحته

كذلك وجدت فكرة الآن عند مروجي الالعاب الرياضية بان الصوم مدداً طويلة مفيد للجسم وشاف لجميع الامراض. وان الامتناع عن الاكل مدداً قصيرة وفي احوال خاصة مفيد للجسم ولكن الصوم مدة طويلة من دون مسوّغ لهُ هادم للصحة ومضعفٌ لجهاز الهضم

ان الغذاء من لزوميات الحياة ومن اشد الاشياء لزوماً للجسم فكل نغوة فيه سواء لها فائدتها او ضررها ولها اتباع . ثم لما ازداد الامساك بسبب كثرة اكل المواد المطبوخة قال بعضهم بضرورة اكل المواد التي تترك مقداراً كبيراً من الفضلات غير المهضومة لتساعد على ازالة الامساك — وصاروا يروجون لاكل الخبز الاسن والاكثار من الخضروات والفاكهة

هذا حسن — ولكن الامساك ليس سببهُ فقط نوع الاكل بل لهُ اسباب كثيرة فبينما بعض الامعاء تتحمل هذه الانواع من المأكولات بسهولة تجد البعض الآخر يزداد بها سوءا . والاكل المعتاد يحتوي على مواد كافية غير قابلة للهضم تساعد على زوال الامساك اذا لم يكن هناك سبب آخر لهُ . وكذا يقول البعض بعدم جواز اكل مواد حامضية كعصير الليمون او البرتقال او الشليك مع اللبن مثلاً لانها تسبب تجمده مع أن جميع الاخصائيين في امراض الاطفال يحتمون ضرورة اعطاء الطفل الذي يغذى بالرضاعة الصناعية عصير الليمون او البرتقال بعد اللبن لتمنع اصابته بالكساح

ان كل ما يحتاجه الجسم من الغذاء هو المواد البروتينية والدهنية والنشوية ومقدار من

الاملاح والفيتامينات — فالمواد البروتينية يبني بها الجسم نفسهُ ويعوض ما يفقد منهُ — والمواد النشوية تحترق في الجسم وبحرارتها تمنح الجسم قوتهُ على العمل والنشاط — والمواد الدهنية تكمل عمل المواد النشوية وتساعد في بناء الاعصاب والجهاز العصبي — والاملاح ضرورية لحفظ تركيز السوائل الموجودة بالجسم ومفرزاتهِ المختلفة وبعضها لهُ فعل خاص كالحديد لعمل الدم والجير للعظام — والفيتامينات ضرورية لنمو الجسم ولمنع امراض كثيرة يسببها نقصها. وجميع هذه المواد موجودة في الطبيعة بكثرة ويحتوي عليها غذاؤنا العادي المختلط

وتختلف حاجة الجسم الى هذه المواد باختلاف العمر ونوع العمل والجو الخ

وقد عملت عمليات دقيقة لمعرفة مقدار ما يحتاج اليهِ الجسم من المواد الغذائية المختلفة

فالواقع ان غذائنا اكثر بكثير من احتياجنا والى هذا يرجع اكبر سبب في كثرة ما نشكو من عسر الهضم والتلبك المعدي — فالمعدة اذا كان ما بها اقل مما تسعهُ أمكنها أن تقوم بعملها بسهولة — ويلاحظ ان بعض المواد الغذائية يحتاج الى مدد طويلة في هضمه والبعض الى مدة قصيرة وبعضها يحتاج الى افراز كثير من عصير المعدة والبعض إلى أفراز قليل فالمواد البروتينية تحتاج إلى أفراز كثير كما أنها تحتاج الى أربع أو خمس ساعات للهضم في المعدة بينما الخبز مثلاً يحتاج الى افراز قليل ويمكث ساعة ونصف ساعة فقط في المعدة. وعلى هذا يتوقف طول مدة الشعور الشبع بعد الاكل — فبعد أكل اللحوم نستمر مدة طويلة لا نشعر فيها بالجوع لان هذا يتوقف على مقدار ما يمكثهُ الاكل في المعدة — ثم ان بعض المواد صعبة الهضم وتترك فضلات كثيرة غير مهضومة كالخضروات والبعض الآخر كاللحوم يهضم جميعهُ ولا يترك فضلات

فاللبن والشاي والقهوة والشوربة والبيض (نصف مستوي) تحتاج لهضمها من ساعة إلى اثنتين

والبيض المستوي والعجه والبطاطس والخبز الابيض والسمك تحتاج لهضمها من ساعتين الى ثلاثة

واللحم والدجاج والبطاطس والخبز السن والخيار والجزر تحتاج من ثلاث الى اربع ساعات لهضمها

والحمام واللحمة المحمرة واللسان والقلب والاوز والبط والبسلة والعدس تحتاج لهضمها الى أكثر من اربع ساعات

ومن الغريب ان الاكل الساخن اسرع هضماً من الاكل البارد

فكل ما تحتاج اليهِ في الغذاء أن تأكل باعتدال وأن تجعل غذاءك متنوعاً حتى يحتوي على نوع من اللحم والخضروات والفواكه ومواد نشوية وان تراعي الانتظام في مواعيد الاكل وأن تترك الاكل قبل أن تشبع تماماً وتتجنب المناقشات عن العمل أو أي مواضيع أخرى في أثناء الاكل — واذا جاء وقت الاكل ولم تكن تشعر بميل الى الاكل فالاحسن أن تستغني عن هذه الاكلة مطلقاً وان تجعل بين كل اكلة والثانية مدة خمس ساعات لتعطي فرصة للهضم ويحسن ان تكتفي بأكل اللحم مرة واحدة في اليوم وان لا تأكل لحوماً يوماً كل اسبوع



سقي النيل

The Nile Basin [1]

« يسمّي الكتّاب العصريون ما يسقيهِ النهر من الارضين « حوضاً » وهم ينقلون نقلاً معنوياً كلمة Basin الانكليزية او Bassin الفرنسية . والعرب لا تعرف هذا المعنى لهذا الحرف . فان الحوض في عرفهم « مجمع الماء والجمع احواض وحياض »(اللسان) ولم يرو عندهم بمعنى آخر. نعم قد يقال : هذا من باب تسمية الكل باسم الجزء ،او من باب التوسع في المعنى. اجل كل هذا حسن ، لو لم يكن عن الناطقين بالضاد حرف آخر .ولما كان لهم لفظ يؤدي عندهم هذا المؤدّى ، فنحن في مندوحة عمّا ليس من كلامهم او استعمالهم

« اما الحرف الذي استعملوه في هذا المعنى فهو السقي (بفتح السين وكسرها)قال المطرزي في شرح هذه السجعة من المقامة الثانية والعشرين من مقامات الحريري المعروفة بالفراتية : « او اويت في بعض الفترات الى سقي الفرات » ما هذا نصهُ« سقي الفرات هو مايسقيهِ الفرات من القرى تسمية بالمصدر او على حذف المضاف . ومن روى سقي (بالكسر) فهو فعل بمعنى مفعول : الا ان الفتح هو المذكور قال قرأت في كتاب قدامة : هذا ما عهد امير المؤمنين الى فلان بن فلان حين ولاَّهُ تقسيط الطساسيج وامره ان يفعل كذا وكذا وان يسير الى طساسيج سقي الفرات حتى يستقريها طسوجاً طسوجاً . ويخط الحريري : سقي بكسر السين. آه « بحرفهِ عن المطرزي » والجملة للعلامة الاب انستاس ماري الكرملي في مقتطف اغسطس ١٩٢٦ صفحة ١٧٥ و١٧٦

نقول وكلمة Basin بمعناها العلمي —في الجغرافية الطبيعية— لا تعني فقط « ما يسقيهِ النهر من الارضين » او « ما يسقيهِ الفرات من القرى» وانما يعني كل البلدان التي يستمدُّ النهر وروافدهُ الماء من المطر الهاطل على سطحها.وغالباً ما يكون بعضها منحدرات لا يسقيها

(1) By H. G. Hurst, Director General Physical Department and P. Phillips, Director Hydrological Service, Physical Department-Ministry of Public Works Cairo.

النهر وانما تستمدُّ روافده الماء من جداولها . ومع ذلك نفضل كلمة سقي التي اشار اليها العلامة الكرملي لانها ادلُّ على المعنى ونؤثرها على الترجمة الحرفية (حوض) لان العرب استعملتها

بعدهذه المقدمة اللغوية في ترجمة لفظة Basin نقول ان هذا الكتاب اكمل كتاب علمي وضع عن سقي النيل على ما نعلم . فالمجلد الاول الذي بين ايدينا يحتوي على ثمانية فصول — اولها يتناول بايجاز تاريخ استكشاف سقي النيل في العصور الحديثة . وفي الثاني وصف عام لسقي النيل ثم وصفهُ من الوجهة الطبوغرافية (شكل سطح الارض) فمن الوجهة الهيدرولوجية (اي توزع الماء على سطحها) فمن وجهة الريّ . والفصل الثالث يشتمل على بحث وافٍ في الوجهة المتيورولوجية (حركة الهواء وضغطهُ والرطوبة والحرارة والغيوم والمطر والتبخر وتقلب الطقس واثر الاقليم في حياة النباتات والحيوانات) . ثم وصف طبوغرافي — في الفصل الرابع — لنجد البحيرات . وفي الفصل السادس وصف لبحر الجبل وبحر الزراف ومنطقة السدود . ثم بحث في بحر الغزال فآخر في سقي سوبات واخيراً في النيل الابيض

وقد طبع الكتاب في مطبعة الحكومة المصرية ، وطبعت كلُّ صوره — ومعظمها مما صوَّرها المؤلفان ولم تنشر قبلاً — بالروتوغرافور . ثم انهُ يحتوي على خرائط كثيرة مطبوعة في مطبعة المساحة المصرية طبعاً بالغاً الغاية من الاتقان . وجملة ما يحتوي عليهِ الكتاب من الخرائط والصور والرسوم ١١٩ صفحة . وسوف نعنى في اعداد المقتطف المقبلة بترجمة بعض فصوله او تلخيصها ، لان الحقائق التي يشتمل عليها من الامور التي تهمُّ القراء في مصر ، من الوجهتين العلمية والعملية ، وقد وصلت النسخة المهداة الينا والمقتطف وشيك النجاز فاكتفينا بما تقدم

ديوان علم الدين أيدمر المحيوي

وفقت دار الكتب المصرية توفيقاً مشكوراً في اخراج ما عثرت عليهِ من ديوان ايدمر المحيوي . فان هذا الشاعر كان حريًّا أن يعد شاعر عصره بلا نزاع ولا شك انه كان صادقاً في شكاته حين قال يخاطب مليكه

اشكو الخمول الى علاك فانني	فيما اقول لمحسن ومجود
ان القريض وان تكاثر ساكنو	افيائهِ — للعبد فيهِ الأوحد
لكنه ادناهموا قدراً اذا	وردوا واعلاهم اذا ما اوردوا

لذلك فان مؤرخي الادب جديرون ان يرحبوا بهذا الديوان ترحيباً بليغاً فهو و لحق ضوء قوي يلقى على تاريخ الادب في عصر الايوبيين. واذا كان طلبة المدرسة الحديثة لا يجدون في شعر ايدمر شيئاً من المعاني غير تلك المعاني المكررة في دواوين شعراء الديباجة الكثيرين، فان العلماء من مؤرخي الأدب سيجدون في هذا الاسلوب المكرر اعظم مميزات الشاعر عند هؤلاء السادة

العلماء ولا شك انهم في ضوء هذا التكرار يظهرون بسهولة على الفروق التي تمتاز بها العصور ويختلف بعضها عن بعض في التعابير. وما التعابير الاَّ قوالب (بلورية) للميول الانسانية والنزعات على مدى الاجيال والعصور. وبعد فقد اتفق لنا في ذات اليوم الذي وصلنا فيه ديوان ايدمر ان ننظر في قاموس فهرس مجموعة الآثار العربية فوقعنا فيه على اسم مسجد ايدمر البهلوان بشارع ام الغلام ووجدنا هذا الاسم (ايدمر) مضبوطاً بفتح الميم وضم الدال لا بضم الميم كما فعلت دار الكتب في ايدمر الشاعر

وقد جاء في حاشية هذه الصحيفة من فهرس المجموعة — إنه من المحتمل جداً ان تكون صحة هذا الاسم (أيدمر) بكسر الميم وتحريك الدال بالفتح اعتباراً أن الاسم تركي وأن لفظ أيدمر مركب من كلمة (أي) وتعني قمر او شعاع وكلمة (دمر) وتعني الحديد وحينئذ فيكون التركيب كله يعني الحديد الساطع أو شعاع الحديد. ونحن لا نريد بهذا تشككاً في فضل الاساتذة الافاضل في تلك الدار المحترمة وإنما ذلك تحقيق وتحرٍّ للحقائق بقدر المستطاع. كذلك وقعنا في القصيدة اللامية التي مطلعها « نصرت بالرعب قبل البيض والأسلِ » على قول الشاعر

هل تسلبون اياب الشمس بهجتها وتصرفون عباب العارض الهطل

وجاء الاستاذ المصحح الفاضل في الهامش فقال في الاصل (ايات) بدل (اياب) قال وهو اي (ايات) تصحيف. وفي الأصل (عنان) بدل عباب قال ايضاً وهو تصحيف. ونحن نرى ان الحق هو ما جاء في الأصل ونكاد نقول أن التصحيح هو التصحيف فان لفظ (ايات) هو ضوء الشمس او هو الشمس (راجع قاموس الفيروزبادي مادة أيا) وحينئذٍ فالشاعر يريد ان الصفة التي يمدحها في ممدوحه طبيعية فيه لا يمكن سلبها منه ولا انصرافها عنه كضوء الشمس في الشمس. كذلك يقول الشاعر ان ممدوحه كالعارض الهطل الذي لا يتصرف في عنانه الا الله الذي بيده زمام كل شيء. ولا شكَّ ان استعارة عنان للمطر او للسيل احسن في استعمالات العرب من استعارة عباب والبلغاء يقولون عباب البحر وعنان المطر او السيل. ولم يُرَ العكس في كلام بليغ قط الا في هذا التصحيح وقد يؤيد ما نذهب اليه قول الشاعر ذاته في البيت التالي

ام يحجبون شموس الافق رفعتها

فأنت ترى أن هذا نظير قوله : هل يسلبون آيات الشمس بهجتها . ولا شك ان هذا موضع ذوق والاذواق مختلفة . ولكن لا شك ايضاً ان هناك الفاظاً ومعاني شعرية عبّدها الشعراء حتى صارت كالطرق السلطانية متى سار فيها اي شاعر عرف في اي محطاتها يريد ان يقف واي غرض منها يريد ان يقول . وبعد في الديوان جهد علمي ادبي جدير من كل قارىء بالشكر والاعجاب والتقدير وجدير منا على الاخص بالاطراء والتنويه

محمود ابو الوفا

المتمردون

قصص مصرية — بقلم محمود كامل المحامي — طبعت بدار الترقي على نفقتها

للقصة القصيرة — وتفضل الاكتفاء بالقصة تمييزاً عن الرواية اي القصة الطويلة Novel — عند الغربيين مقام رفيع. فقد اصبحت فناً من فنون الأدب المستقلة كالشعر والنقد والدرامة. وأقبل عليها كبار الكتاب — وصغارهم — في مختلف اللغات فكبلنغ وبورجه وموم وولز وسنكلر لويس وغيرهم يعالجونها ويبدعون فيها احياناً. والقصة القصيرة في رأيهم أداة ادبية فعّالة لرسم صورٍ موجزة من حياة الاقوام او حياة الافراد. وهي تختلف عن الرواية في انها تعنى غالباً بحالة نفسية خاصة او حادثة فردة تصفها او ترويها او تحللها، في حين ان الروايات تعنى بخلق الشخصيات وتتابُع الحالات النفسية المتعددة والحوادث المتوالية التي تستغرق ردحاً من الزمن يكون طويلاً في الغالب — وقد يكون قصيراً

وقد سبق لنا ان قلنا في هذا الباب ان الأدب العربي لا مندوحة له عن ادب القصة — طويلة وقصيرة — لأنها سبيل الاديب الى التوليد والوصف البارع والنقد الاجتماعي الحصيف والتسامي بالنزعات العادية — وهي امور لا يكون الادب حياً ولا كاملاً ان لم يحتويها. وقد رحبنا بقصص محمود تيمور، ورواية ابرهيم الكاتب التي وضعها المازني لاننا رأينا فيها طلائع هذه العناية الجدية. وقد ظهرت قصص وروايات اخرى لم يُتَح لنا الاطلاع عليها، وانما اتيحت لنا مطالعة طائفة كبيرة من القصص التي تحتوي عليها مجموعة الاستاذ محمود كامل، فاذا نحن نقرأ قصصاً تمثل الجوّ المصري في صفات اشخاصها وعبارات حوارها، وان كانت حوادث معظمها مما يصحُّ ان يقع في اية عاصمة من العواصم. وقد سررنا بنوع خاص بقصة «الدرجة السادسة» فانها تحتوي على وصف بارع لطبقة من سكان العاصمة وطائفة من موظفي الحكومة وعاداتهم المنزلية لا يمكن ان تكون في مدينة اخرى غير القاهرة او ما يماثلها من المدن المصرية. وحبذا لو زاد عنايتهُ بالقصة القروية التي يتجلى فيها خلق الفلاحين وحكمتهم ومآتمهم وتقاليدهم. وفي القصص الاخرى تقع على لمحات من حياة بعض الاطباء المصريين والمحامين المصريين والسيدات المصريات تقنعك بان في المجتمع المصري تحوّلاً كبيراً واسع النطاق بعيد القرار، ولعلّ ذلك مما حمل الاستاذ كامل على وسم مؤلفهِ بـ «المتمردون»

والمؤلف ينزع في طائفة كبيرة من قصصهِ نزعة رومانطيقية مسرحية في اختتامها. فبطل القصة الاولى يشعل النار في ثيابهِ ويموت حرقاً بعدما يكتب رسالتهُ الاخيرة الى محبوبةٍ خانتهُ. ويبعث بآخر الى مستشفى المجانين لانهُ ارتكب اثماً دفعتهُ اليهِ ثورة عواطفهِ. ويميت ثالثاً بمكروبات تسري الى دمهِ في اثناء عملية جراحية اجراها، رافضاً ايَّ علاج او عناية لانَّ شقيقهُ فاز بزواجهِ من الفتاة التي احبَّها واحبّتهُ. والواقع ان القصص التي تنتهي على هذا الوجه اقل ارضاء

للذوق الفني من غيرها . فلو ان كل غرام مخيب يجب ان ينتهي بانتحار او استشهاد او جنون لقلنا على الناس العفاء . ولكن الحياة تضمد الجراح التي تفتحها وتصبّر القلوب التي تفطرها وما قيمة الحياة والخلق لولا شيم الشجاعة والصبر وضبط النفس . فالى خلق هذا النوع من المثل الاعلى — للرجل والمرأة — ندعو الاستاذ كامل وغيره ممن يعالجون القصة ان يتجهوا في تصوير ابطال قصصهم ، اذ يغلب ان يكون ابطال القصص السارية مثلاً يطبع النشء المطالع على غرارها

ذكرى فوزي المعلوف

« ذكرى فوزي المعلوف » كتاب تحمل كل صفحة منهُ إحساسات عميقة من قلوب مكلومة تحس فيها ذلك الاثر العميق الذي خلَّفهُ فوزي معلوف ، وذلك الصدى الجميل من رنات قلب يتلاشى كالشمع — كي يعطي النور — على هيكل الخلود وقدسه

وفوزي شاعر لهُ أثره ليس في ما استحدثهُ مع المجددين في الشعر العربي من معانٍ جديدة ، وصور مبتكرة سامية ، وليس في تلك الخطوات الثابتة الواسعة التي قادوا بها أدبنا الى حيث يبسم لهُ الأمل كما بسم لصنوهِ الغربي ، وانما الاثر العميق الذي نلمسهُ في شعر فوزي هو بلّهُ صدى الروح بخمر معصورة من القلوب السامية بعد ظمئنا مدى اجيال طويلة الى مثل هذه الخمر القدسية . وهذا الاثر هو هو الشعر نفسه

ومن هنا لا نعجب اذا ما قلبنا صفحات كتاب الذكرى فألفيناهُ أفقاً واسعاً تتعالى فيهِ تسبيحات التمجيد . وترنيمات التخليد . وأصداء الحسرة على فقد عبقرية علوية في شباب كان ينتظر منهُ ان يملأ العالم أضعاف أضعاف ما ملأه من مجد وخلود

على ان هذا الكتاب الضخم — وقد ضمَّ كل ما قيل في هذا الشاعر الخالد من مرثيات ، وما أقيم له من حفلات التأبين ، وما ورد على والده الشيخ من برقيات ورسائل معزية ، وكتب عنهُ في الصحف والمجلات في كل بلد ناطق بالضاد في العالم الشرقي وفي المهجر — فيهِ نقص كان يجب استدراكه حتى يكون اكبر خدمة للأدب العصري ، وأجلَّ فائدة للقراء ، وأعظم اجراً للفقيد لو أنهُ ضمَّ الكثير من أشعار فوزي أو على الاقل لو كان ألحق بهِ ديوانه حتى يرشف القراء هذه العصارة القدسية من شعر خالدٍ

هو مثل الانفاس لفحاً ونفحاً   وهو مثل الشعاع نشراً وطيا

ولكن لعل هذا الامل يتحقق قريباً فتطبع آثار فوزي جميعها ، ولعلني أوفق الى دراسة هذا الشاعر في فرصة قريبة دراسة أؤدي بها ما تركه في نفسي من أثر عميق

حسن كامل الصيرفي

كتب شرقية باللغة الفرنسية

لبشر فارس

الفرس في الفن

Le Cheval dans l'Art — Edition Le Goupy, Paris.

إن في هذا الكتاب فصلاً عن تمثيل الفرس عند قدماء المصريين ودونك شيئاً من هذا الفصل:

(١) كان المصري يركب فرسه كلما خرج الى الصيد أو نفر الى القتال وكان يركب عربة يجرها فرسان . واستنادنا في ذلك الى التماثيل التي بين ايدينا . إلاّ ان هيئة الفرس فيها لهي هي ذلك بأن النحاتين لزموا شكلاً واحداً . فكأن المصريين جعلوا انموذجاً لتصوير الفرس كما انهم جعلوا انموذجاً لتصوير الرجل والويل كل الويل لمن يخالف ذلك الانموذج

ثم ان اعضاء الفرس بعيدة عما تبدو لنا في الواقع . فاما جسمهُ فستدير الجوانب . واما ظهره فمعتدل ليس بالمرتفع ولا بالغائر . واما اقدامهُ فنحيلة

ومن المأسوف عليهِ ان المثالين لم يعنوا بتصوير تفاصيل الجسم ولا بابرازها في هيئاتها المختلفة ، وأنهم صوروا لنا القواد الذين يحاربون في العربات في اشكال عجيبة خارجة عن قوانين النسبة ، فإن القائد يبدو للناظر اعظم من الفرس

(٢) ان جماعة من علماء الآثار استدلوا ببعض النقوش التي عثروا عليها في معبد خنس في الكرنك ان المصريين كانوا يستخدمون الخيل في حرث الارض وزرعها . والصواب ان النقوش التي عولوا عليها انما تمثل دواباً اقرب الى البغال منها الى الخيل

مدينة نابلس وضواحيها

Naplouse et son district — Edition Geuthner

اشتهر القسيس (جوسين) Jaussen بمصنفٍ بحث فيهِ عن عرب مواب وها هو اليوم يؤلف كتاباً ضخماً في احوال اهل نابلس واخلاقهم فيستوضح حياة المرأة منذ مولدها حتى مماتها ويشير الى نشأتها وزواجها وعملها المنزلي ومصادر هنائها وشقائها ثم يفحص عن الاسرة فيذكر كيفية كيانها وسبب تضامنها ، ثم يتفهم عقلية النابلسيين ويتعرف اخلاقهم من وراء اعمالهم واحوالهم

ولا بد لي ايها القارئ ان اخبرك ان أهل نابلس لم يكونوا ليعلموا ما الوطن . على انهم

فطنوا اليه اليوم والتفوا حول معانيهِ وتمسكوا بأسبابها . بيد ان النابلسي الجاهل يعد وطنهُ الارض الاسلامية فيأبى أن يقيم بها غير المسلمين حالة ان النابلسي المستنير لا يلبس الوطن بالدين ثم انهُ يخشى سفه مواطنه الجاهل . ومن اجل هذا قد الف النابلسيون المستنيرون جمعيةً يعنى اعضاؤها بتلقين العامة المبادئ الوطنية . الا أن هؤلاء الاعضاء من اشد الناس عداوة لليهود الذين يسعون في اقامة الملك الصهيوني في ارض فلسطين

أزياده

Aziyadé ; Edition Cyral, Paris

ان صاحب هذه القصة في مقدمة الكتّاب الفرنسيين المتأخرين ولقبه (لوتي) Loti ولقد تفوّق في فن من فنون القصص هو التحدث عن بلاد غريبة نائية موقعها في الغالب في الشرق

وقصتنا هذه تجري حوادثها في تركيا سنة ستٍ وسبعين وثمانمائة وألف وعنوانها اسم الفتاة الشركسية التي علقها (لوتي) وهام بها ما شاء الله وان قسا قلبه عليها الحين بعدالحين. والذي يجلبنا في هذه القصة ثلاثة . اما الامر الاول فاستطرادات المؤلف في السياسة فهي تصدقنا الخبر عن بعض ما حدث في تركيا في ذلك العهد وعما كان بين تركيا وبين الدول الاوربية . وأما الامر الثاني فوصف المؤلف لمشاهداتهِ في اسلوب واضح سهلٍ لم تعلق بهِ ركاكة فيهِ من صنوف المجاز ما يسترق الافهام ومن ضروب التشبيه ما يفتن الابصار من غير تكلف ولا تصنع . واما الامر الثالث فتتبعنا فِقَر قصص ينشأ فيها الحب مرتبةً مرتبةً عاقداً عقدة الوصل بين فتى افرنجي وبين جارية شرقية . فنرى كيف تكون الصدمة بادىء بدء ثم كيف يكون الاتفاق بسبب الحب مع شيء من التنافر الخفي لتباين نزعات المحبين

الاّ ان المؤلف يبدو في قصتهِ وهو ابن سبع وعشرين سنة مريض الذات منقبض الصدر يأساً وتشاؤماً كمثل الكتاب المبتدعين (فئة الرومانتيك) ثم يبدو مختالاً شديد الكبر من غير قحة، انانيًّا يطيل الحديث عن نفسهِ راضياً مغتبطاً حساساً يرغب في الحب ويفرق منهُ، خياليًّا يتمثل عالماً يستحيل عليهِ وجوده فيتزوي مغموماً متمرداً على الدنيا ناقماً على الحياة متوعداً للقدر فتارة يشمئز قلبه من الخلق وطوراً تعاف نفسه العيش

اليك (لوتي) إلاّ انك ان تقرأ قصة ازيادة يسحرك بيانها ويملك على قلبك انيق ديباجتها فتغيب عنك آراء (لوتي) المعوجة ويخفي عليك احساسه السقيم . وان تفطن لها جميعاً تدق كبدك لفتى تتساقط نفسه جزعاً وتنقضُ ضلوعه غمًّا كأنهُ لم يظفر قط بسبب من اسباب السعادة

بحث عن أهل مراكش

Essai de Folklore Marocain — Edition Geuthner, Paris.

شُغل الناس بالقرن الماضي عن معتقدات الامم وسننها وجعلوا هذا الفحص علماً منظماً متلائم الاطراف وسموه folklore (معرفة : Folk—lore : امة) . واتسعت دائرة هذا العلم فضمت بين جوانبها نقد الأدب والتفقه في اللغة والتضلع من الموسيقى والتبصر في الفن . غير ان هذا العلم لا يعرض الاَّ للبحث عن الاساطير واللغة الدارجة والالحان القديمة والفن الأولي ذلك بأن همهُ الفحص عما بين ايدي الشعب من غابر الزمان كمثل الاغاني العربية القديمة المنتشرة في مصر والشام والعراق والمغرب وغيرها

وبين يدينا اليوم كتاب يبحث عن معتقدات اهل مراكش وسننهم وأساطيرهم وأساليب فنهم العامي ونغمات الحانهم المتداولة . وللمعتقدات والسنن في هذا الكتاب شأن عظيم (على ان لا صلة بينها وبين العقائد الدينية والعبادات) . اما المعتقدات فترجع الى اقوال الناس في خلق العالم وشكل الارض وصفة السماء ومصدر الماء ، ثم اقوالهم في النبات الساحر والحيوانات العجيبة ، ثم اقوالهم في ولادة الانسان وفي انتقاله من عهد الى عهد ، ثم اقوالهم في الحب والزواج و المرض والموت . ثم ان هذه المعتقدات المختلفة اورثت سنناً . فانصرف اهل مراكش الى اعمال في الغالب عجيبة

تقويم الهلال

مجموعة مفيدة من المقالات والحقائق في موضوعات تهمُّ كلَّ مثقف عصريّ . ففي مطلعهِ جدول بالمواسم والاعياد السنوية ويليهِ (نتيجة) تقويم لسنة ١٩٣٢ ثم فصل مصوّر لاهم الحوادث التي حدثت في العام الماضي ويليهِ فصولٌ موضوعها « السينما في عام » « والتمثيل في عام » « والرياضة في عام » . ثم مقالات عامة مفيدة جدّاً تتناول الازمة الاقتصادية وآراء كبار الاقتصاديين في مصر فيها وحديث تنازل الخديو عباس عن العرش وتصفية المسائل المعلقة بينهُ وبين الحكومة المصرية وموضوع الطيران في مصر ووصف الانقلاب في اسبانيا وتأليف الحكومة الجمهورية فيها والعملة المصرية في مختلفة العصور وبحث في « الرمد في مصر » ومشكلة « الذهب في العالم » وبحث في « تأثير الكحول » و« مقارنة بين دستوري سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٠ في مصر » وغيرها من الموضوعات العامة التي يتعذر الوقوف على حقائقها في غير هذا التقويم الاَّ بشق النفس . وغنيٌّ عن البيان ان التقويم حافل بالصور الكثيرة وهو مطبوع كلهُ بطريقة الروتوغرافور وقد جعل الهدية السنوية الاولى الى مشتركي الهلال

كتب اهديت الى ادارة المقتطف

﴿سيّد قريش﴾ رواية تاريخية اجتماعية في ثلاثة اجزاء مجموع صفحاتها ٩٢٠ صفحة قطع المقتطف ، تتناول حياة العرب السياسية والاجتماعية في العصر الجاهلي الى ظهور سيد قريش . تأليف معروف الارناؤوط عضو المجمع العلمي العربي في دمشق . وسوف نعود اليها

﴿يسوع ابن الانسان﴾ اقواله وأفعاله كما سردها ودوّنها الذين عرفوهُ . وضعهُ بالانكليزية جبران خليل جبران . ونقله الى العربيـة الارشمندريت انطونيوس بشير صاحب مجلة الخالدات

﴿آلهة الارض﴾ وضعهُ جبران بالانكليزية ونقله الارشمندريت انطونيوس بشير . وقد طبعهما كليهما الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر

﴿كتاب الدروس العربية﴾ لتلاميذ المدارس الابتدائية في القواعد والتطبيق . ثلاثة اجزاء للسنوات الثانية والثالثة والرابعة وهو على منهج الخطة الجديدة الذي اقرتهُ وزارة المعارف في سبتمبر سنة ١٩٣٠ وضعهُ الاستاذ ابو بكر السيد شاهين المتخرج في دار العلوم والمدرس بمدرسة خليل اغا

﴿دليل المهاجرين﴾ سجلّ الحوادث والتطورات السياسية الهامة في البلاد العربية وشؤون الجاليات السورية في ديار المهجر . تأليف قاسم الهيماني صاحب جريدة الفيحاء

﴿التعليم المنزلي﴾ نكتفي الآن بالاشارة الى هذا السفر المفيد الذي وضعتهُ الآنسة فاطمة فهمي خريجة مدارس انكلترا وناظرة مدرسة المعلمات في حلوان . وهو في ثلاثة اجزاء مجموع صفحاته ٦٢٤ صفحة حافلة بالفوائد العملية — مزدانة بالرسوم والصور . وقد طبع بمطبعة مصر وثمنهُ ٦٥ غرشاً صاغاً

﴿جوكاست﴾ تأليف اناطول فرانس وترجمة عبد المنعم حسن . طبع بمطبعة عطايا بباب الخلق بمصر وثمن النسخة ٥ غروش صاغ

﴿العمال﴾ رواية ادبية اجتماعية ذات فصل واحد تأليف الشاعر الفرنسي اوجين مانويل وترجمة نقولا امين فرح مدرس اللغة العربية في مدارس الاليانس الاسرائيلية ببغداد ثمن النسخة نصف روبية

﴿الاميرة الروسية﴾ رواية ادبية غرامية اجتماعية حدثت وقائعها في اثناء الثورة الروسية ، وضعها الاديب سابا نقولا طيون وطبعت بمطبعة الفيحاء في سان باولو بالبرازيل

﴿طرائف المجلات والصحف﴾ كتاب جمع محرّر مجلة الناشئة البيروتية نبذهُ المفيدة والمسلية من الصحف والمجلات وبعض الكتب العربية ، وقدمهُ هدية الى مشتركي مجلتهِ . ذاكراً المصادر التي نقل عنها في الفهرس

باب الأخبار العلمية

اتقاء حفر الاسنان

اصبح اتقاء حفر الاسنان ومايصحبهُ من ألم مستطاعاً. وقد امتحنت طريقة اتقائهِ في الحيوانات فنجحت، فلم يبقَ الاَّ تطبيقها على اسنان الانسان. هذه هي النتيجة التي وصل اليها الدكتور مكُّلُم استاذ الكيمياء الحيوية في جامعة جونز هبكنز الاميركية ومعاوناه الدكتوران كلينن وكروز بعد بحث استغرق عشر سنوات وتناول مئات من الحيوانات

ويرى الدكتور مكُّلُم ان طبيعة اللعاب هي العامل الحاسم في تقرير حفر الاسنان أو عدمهِ وهي تختلف باختلاف تركيب الدم الكيماوي. فقد وجد ان اللعاب يفعل فعل محلول متوسط يمنع الاحماض من التجمع واضعاف عاج الاسنان. فاذا اصيب العاج بخدش او حفرة تمهّد السبيل للجراثيم التي تكون دائماً في الفم فتدخل الاسنان ويبدأ الحفر. ولكن اللعاب لا يستطيع أن يقوم بعملهِ هذا الاَّ اذا كان محتوياً على قدر معيّن من الفصفور فيحفظهُ متوسطاً بين الحامض والقلوي. ثم يجب ان يحتوي اللعاب على نسبة خاصة من ايونات الفصفور والجير ملاصقة لعاج الاسنان لمنع انحلال الجزيئات التي في طبقتهِ السطحية

والفصفور يتصل باللعاب من الدم، والدم يتناولهُ من الطعام وبوجهٍ خاص من اطعمةٍ كاللبن والبيض، ولحم البقر الاحمر، والفاصوليا والفول والبازلاَّ والحمّص. ولكن مهما تكن الاطعمة التي تأكلها غنية بالفصفور لا يصل من فصفورها الى الدم فاللعاب قدر كافٍ الاَّ اذا تناول الجسم مع الطعام قدراً وافياً من الجير وفيتامين د. فكل ما يلزم اذاً لمنع الحفر هو تناول الاطعمة المذكورة والتعرض للشمس أو تناول زيت كبد القد للحصول على قدر كافٍ من فيتامين د. واذاً فالناس الذين يميلون الى أكل الحلويات يستطيعون ان يشبعوا نهمهم منها من دون خوف الحفر، اذا حفظوا مقدار الفصفور والجير وفيتامين د في الدم في المستوى اللازم. ولكن يجب ان يذكروا ان تناول الطعام الغنيّ بالسكر والنشاء يقصي الاطعمة التي من شأنها ان تمنع الحفر ولذلك يجب ان تكون بقية الطعام مما يعيد الاتزان الطبيعي. اما الاطعمة الغنية بالجير فهي اللبن والبيض والخضروات المائية وخصوصاً الاسبانخ والخس والكرنب (الملفوف)، ثم يلي ذلك الفاكهة. واما فيتامين د فهو الفيتامين الذي يولّدهُ ضوء

الشمس أو الاشعة التي فوق البنفسجي . وهذا الفيتامين يكثر في زيوت السمك وصفار البيض والزبدة واللبن الكامل . ويوجد كذلك في بعض اطعمة صناعية ولد فيها بفعل الاشعة

علم الفلك في العام الماضي

قيست سرعة احد السدُم المبتعدة عن المجرّة ، في مرصد جبل ولسن فبلغت ١١ الف ميل في الثانية . راجع مقال «ما وراء المجرّة» في مقتطف دسمبر ١٩٣١

دلّ البحث في مرصد جامعة هارفرد ان الغيمة المجلانية الكبيرة تحتوي على ٢١٤٠٠٠ نجمة اشراق كل منها يفوق اشراق الشمس ومائة ضعفٍ على الاقل ، وتحتوي كذلك على سدم غازية يفوق لمعانها لمعان ١٥ مليون شمس

اقتربت النجيمة اروس من الارض حتى اصبحت على ١٦٢٠٠٠٠٠ ميل منها فثبت من رصدها بمرصد الاتحاد في مدينة جوهانسبرج بجنوب افريقية انها مغزلية الشكل

اكتشف لويس برمن احد علماء مرصد لِك ان النجمة XI في كوكبة الدب الكبير ليست جرماً فرداً وانما هي زوجان من الاجرام

اكتشف الاستاذ فانجنت احد علماء مرصد ليدن بهولنده في اثناء بحثهِ في مرصد الاتحاد بجوهانسبرج نجماً متغيّراً يشرق ويخبو بسرعة كبيرة والفترة بين اشراقٍ واشراقٍ مائة دقيقة فقط

عنيت طائفة من علماء مرصد جبل ولسن بتقديرِ وزن قمر نبتون فثبت انهُ لا يزيد على عُشر كتلة الارض ولا يقلّ عن $\frac{1}{3}$ منها

قاس الدكتور مكلنن استاذ الطبيعة بجامعة ترنتو الكندية ارتفاع الشفق القطبي الشمالي فوجد انهُ يتباين من ٥٠ الى ٧٥ ميلاً فوق سطح الارض

كانت الكلف الشمسية في السنة الماضية قليلة لان الشمس تقترب من نهاية الدورة الخاصة بالكلف وطولها ١١ سنة

اكتشف احد هواة الفلك — ماساكي نغاتا — وهو في الوقت نفسهِ عامل في حقل بطيخ بكاليفورنيا مذنباً بتلسكوبهِ الصغير فدعي باسمهِ . واكتشف هاوٍ فلكيٌّ انكليزي في زراجوزا باسبانيا مذنباً مشرقاً يكاد يرى بالعين المجرّدة

خسف القمر في اثناء السنة الماضية مرتين وكسفت الشمس ثلاثاً

مادة الجزَر الملونة

في انباء اميركا العلمية التي نقلتها نايتشر ان باحثين في جامعة ولاية أيُوَى يدعيان ألكُت (Olcott) ومكان (McCann) قد وجدا ان الكروتين وهو المادة الملونة الصفراء في الجزر تتحول الى فيتامين (ا) اذا فعل بها انزيم معين في الكبد . وقد اثبتا ذلك بوضعهما الكروتين في مستنبتٍ فيه قطع من الكبد النيئة من جرذان ينقصها فيتامين (ا) وقد اقترحا لهذا الانزيم اسم «كاروتيناز» (Carotenase)

الطيران في العام الماضي

تم صنع البلون ا كرون الاميركي وسعتهُ من الغاز ٦٥٠٠٠٠٠ قدم مكعبة وهو يكاد يكون ضعف البلون الالماني غراف تسبلين

حلق الاستاذ بيكار ومساعده بول كيفر ببلون الى علو ٥١٧٧٥ قدماً وذلك في ٢٧ مايو الماضي . وهو اعلى ما وصل اليهِ انسان

استعمل الدكتور ارفنغ لنغميور Langmuir احد علماء الشركة الكهربائية العامة بأميركا بطرية كهرنورية لكي يرشد الطيارين بالضباب بأشعة من الامواج تخترق الضباب فتحسُّ بها البطرية ولا تراها عين السائق

اجتاز الطياران الاميركيان رسل بوردمن وجون بولاندو المسافة بين نيويورك والاستانة في مرحلة واحدة وطولها ٥٠١٢ ميلاً وذلك في ٢٨ — ٣٠ يوليو الماضي

طار الطياران الفرنسيان لبري Le Brix ودوره Doret مسافة طولها ٦٤٤٥ ميلاً من دون ان تملأ احواض طيارتهما في اثناء الطيران . وكان طيرانهما نحوعاً فوق بقعة معينة اي لم يكن طيراناً في خط واحد بين بلدين

حلق الطياران الاميركيان ليز Lees وبروسي Brossy بطيارتهما فظلاّ في الجوّ يروحان ويجيئان بها ٨٤ ساعة و ٣٢ دقيقة من دون ان تملأ احواض الطيارة في الجو وذلك بين ٢٥ و ٢٨ مايو الماضي

بدأ الاميركيون يبنون بلوناً مسيَّراً آخر ينتظران يكون حجمهُ كحجم البلون اكرون على الأقل

اما السيدات فكان لهنَّ شأن يذكر في الطيران في السنة الماضية . فحلقت مدام ماريز باستي الفرنسية بطيارتها وظلت محلقة ٣٧ ساعة و ٥٥ دقيقة . وحلقت الفتاتان الاميركيتان اڤلين تروت وادنا كوبر بطيارتهما فظلتا محلقتين بها ١٢٣ ساعة وانما كانت احواض الطيارة تملأ بالبنزين في اثناء الطيران اذ يوشك البنزين ان ينفد . وحلقت مس روث نكولز الى ارتفاع ٢٨٧٤٣ قدماً وطارت بسرعة ٢١١ ميلاً في الساعة وبلغت اطول مسافة طارتها ١٩٧٨ ميلاً . وكلها افعال تدعو الى الاعجاب

البيولوجيا والطب في العام الماضي

فاز الدكتور ارثر كندل بتحويل المكروبات التي تبدو على شريحة المكرسكوب الى مكروبات خافية بواسطة مستنبت جديد استنبطهُ . ثم تمكن من تحويل المكروبات الخافية الى ظاهرة . راجع المقال الوافي في هذا الموضوع في مقتطف نوفمبر ١٩٣١

تمكن الدكتوران ايبرسن وموسمن في مستشفى جبل صهيون بسان فرنسسكو من انماء مكروب في معمل البحث يحدث في الجسم حمى تشفي من الشلل العام على نحو ما تفعل طفيليات الملاريا ، ولكن هذا المكروب لا يحدث في الجسم مرضاً ما

وقد نجح الدكتور ايبرسن كذلك بانماء ستة اجيال من مكروب شلل الاطفال خارج الجسم

اكتشف الدكتوران كرزروك Kurzrok وليب (Lieb) وهما من اساتذة جامعة كولومبيا

انهُ يوجد احياناً تنافر فسيولوجي بين عناصر الذكر التناسلية وانسجة الانثى التناسلية مما يفضي الى العقم مع ان كلا الزوج والزوجة غير عقيم

اثبت الدكتور ريموند برل من اساتذة قسم البيولوجيا في مدرسة الهيجين أو الصحة العامة بجامعة جونز هبكنز ان الميل الى التعمير (طول العمر) يورَّث

ثبت من مباحث طائفة من العلماء في مصلحة الصحة العامة بوشنطن ان البراغيث تنقل الحمى التيفوسية وقد كان المظنون حتى الآن ان القمل ينفرد بذلك

ثبت للدكتور مكلُّم احد اساتذة مدرسة الهيجين والصحة العامة في جامعة جونز هبكنز ان الوفاة قد تنشأ عن نقص المغنيزيوم في الجسم فيحدث اضطراباً في الغدة الكلوية (التاجية) وثبت لهُ كذلك ان تولّد هرمون معيّن في الغدة النخمية لهُ سيطرة على الوظائف التناسلية مرتبط بما في الطعام من عنصر المنغنيس

اكتشف الدكتور جريجور يوبا في الكلية الجامعة بلندن ان ثمة دورة دموية خاصة ينقل بها الدم مباشرة من الغدة النخمية الى وسط الدماغ Mid—Brain

اعلن الدكتور مكنلي من اساتذة مدرسة الطب بجامعة جورج وشنطن والدكتور سول احد اساتذة جامعة مشيغن انهما استفردا الكائن الذي يظن انهُ سبب الجذام وانمياهُ خارج الجسم

صرَّح الدكتور لدنغهام مدير معهد لستر بلندن انهُ اكتشف مكروب الجدري

اكتشف الدكتور كانن Cannon احد اساتذة مدرسة الطب بجامعة هارفرد هرموناً جديداً دعاهُ سمپاتين (Sympathin) قوي الفعل كالادرنالين ويذهب الى انهُ يتكون في خلايا العضلات بفعل عصبي

صنع في « معمل البحث في السرطان » بجامعة بنسلفانيا مصل جديد قد يفضي الى التغلب على مرض اللوكيميا الذي تشبُّ فيهِ كريات الدم البيضاء عن الطوق وتكثر كثرةً لا ضابط لها

ثبت ان الفيوسترول وهو يحتوي على الاجسترول الذي عرّض للاشعة التي فوق البنفسجي ، ويعطى للاطفال محل زيت كبد القدّ لمنع الكساح ، يفيد كذلك في معالجة التسمم بالراديوم ، الذي يصاب بهِ بعض الصنَّاع في معامل الساعات التي على موانيها ارقام تحتوي على سلفور الراديوم

ثبت ان خلاصة الغدة المجاورة للدرقية (Parathyroid) تمدُّ نمو الانسجة من غير ان تضعف الصحة . وقد تكون ذات اثر في معالجة السرطان

ظاهرة معدنية غريبة

كيف تنتقل الكهربائية في سلك معدني ؟

كان يظن اولاً ان طوائف من الالكترونات — وهي ذرات الكهربائية السالبة — تملأ السلك كأنها ذبان متجمع حول قطع من الحلوى في قفص اسطواني طويل — وقطع الحلوى في قفص الذبان تقابل ذرات المعادن او نوى

الذرات في السلك . اما الالكترونات فطلقة الحرية في الفضاء الكائن بين الذرات فتتحرك بفعل القوة الكهربائية اذا اتصل السلك ببطرية ، كأنها ذبان هبت عليه ريح من جهة فدفعتهُ الى الجهة المقابلة

هذا كان الرأي من الوجهة العامة، ولكن لدى تناول تفصيلاتهِ ثبت ان هذه النظرية لا تكفي لتعليل انتقال الكهربائية في الاسلاك فحلت محلها نظريات اخرى معقدة ، ولكنها مع ذلك غير وافية . وقد اكتشفت حديثاً ظاهرة جديدة تزيد المسألة تعقيداً وغموضاً

فقد ثبت انهُ اذا برد سلك معدني برداً شديداً زادت مقدرتهُ على نقل الكهربائية زيادة عظيمة . وتعرف هذه الظاهرة بلفظ انكليزي يعني الايصال الكهربائي الذي يفوق المعتاد (Superconductivity) . والنظرية تقضي بأن يزداد ايصال المعدن للكهربائية اذا برد . فليس ثمة ما يبعث على الدهشة ، من الوجهة النظرية ، ان تجد ايصال سلك رصاصي للكهربائية قد زاد ستين ضعفاً اذ بلغت درجة حرارتهِ ٢٦٨ تحت الصفر اي خمس درجات فوق الصفر المطلق . ولكن المدهش ان التجارب اثبتت انهُ اذا هبطت حرارتهُ الى هذا الحد زاد ايصاله للكهربائية ٨٠٠ مليون ضعف اي اذا كان عندك سلك رصاصيّ طولهُ الف ميل وأمررت فيهِ تياراً كهربائياً بعد تبريده الى ٢٦٨ تحت الصفر لم تجد الكهربائية مقاومة فيهِ اكثر مما تجده في بوصة واحدة من سلك نحاسيّ يماثلهُ قطراً وتختلف عنهُ في انهُ على حرارة عادية . وقد ثبتت هذه الظاهرة في بعض المعادن . وحتى الآن لم يتقدم احد من العلماء برأي وافٍ لتعليلها

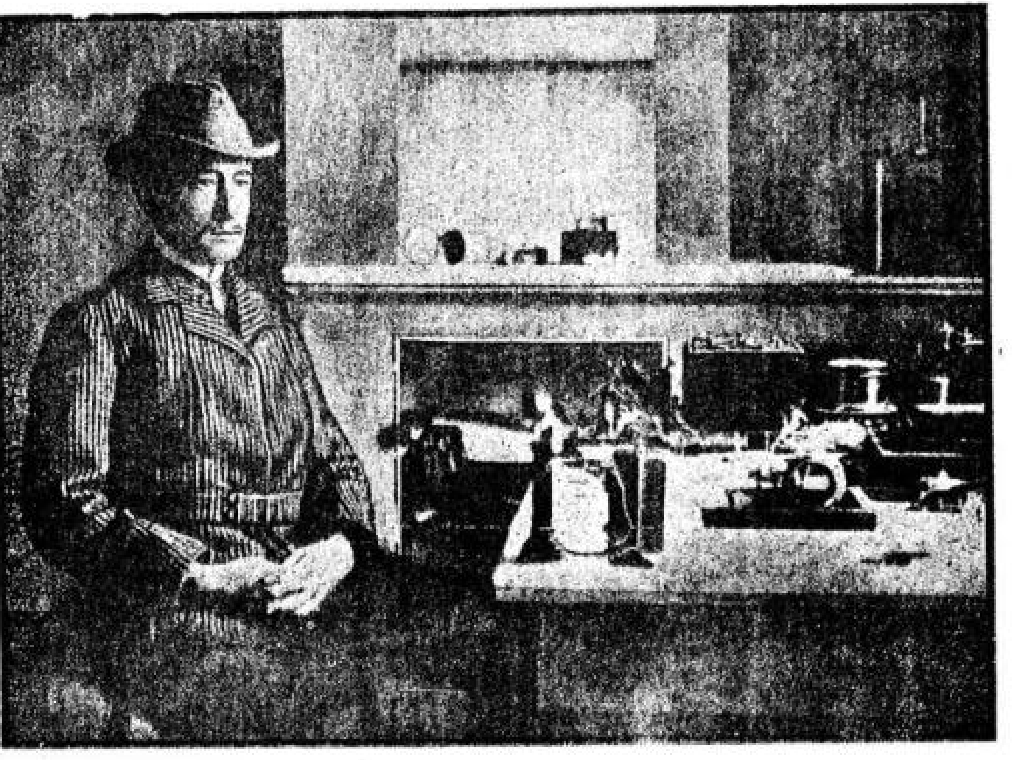
والفائدة الصناعية الكبرى التي تجنى من هذا التعليل اننا قد نتمكن في المستقبل من صنع اخلاط معدنية تكون شديدة الايصال للكهربائية على درجات عادية من الحرارة ، وهذا له شأن كبير في صنع الاسلاك لنقل الكهربائية من مكان الى آخر لاغراض الاضاءة والصناعة والمواصلات

الغريزة الجنسية في العمران

(تابع ص ١٩٤)

وقد ابانت مباحث الدكتور ملنوسكي ان هذه الغريزة لها في انشاء آداب الاقوام المتقهقرة وفنونهم مثل ما لها من اثر في فنون الاقوام المتحضرة وآدابها

واخيراً كلمة واحدة الى الذين لا يزالون منا ينظرون الى الغريزة الجنسية نظر الريبة والاحتقار نأخذها عن فيلسوف الحياة هفلوك الس — اذ يقول : «هي نار دائمة الاشتعال ولا يقوى شيءٌ على اخمادها . هي كالنار التي رآها موسى في جبل حوريب تتأجج في العليقة دون ان تلتهمها . ولنذكر ان موسى حينما أشرف على هذه العليقة سمع قائلاً يقول . اخلع نعليك من رجليك لان الارض التي تقف عليها مقدسة » هذه هي الغريزة الجنسية ايها القارىء . فاذا كنت تود ان يعلن اليك سرها فاخلع نعليك الذين ألبسكهما التقليد وتقدم بقلب حر وفكر نقي



مركوني في نيوفوندلاند ينتظر الاشارة اللاسلكية المتفق عليها

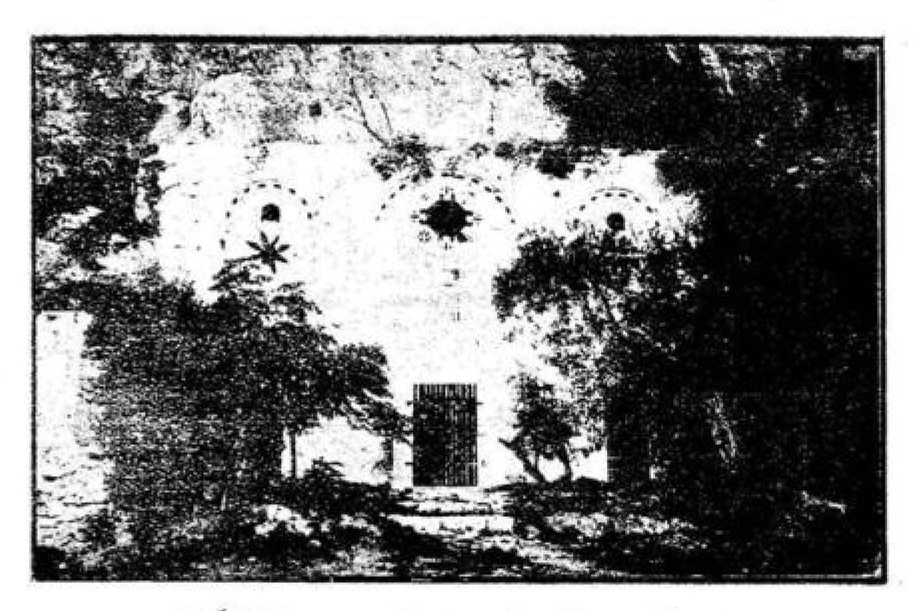
امام صفحة ١٢٥



مركوني ومساعداه كمب (اليسار) وبايجت (اليمين) سنة ١٩٠١



الثلاثة سنة ١٩٣١

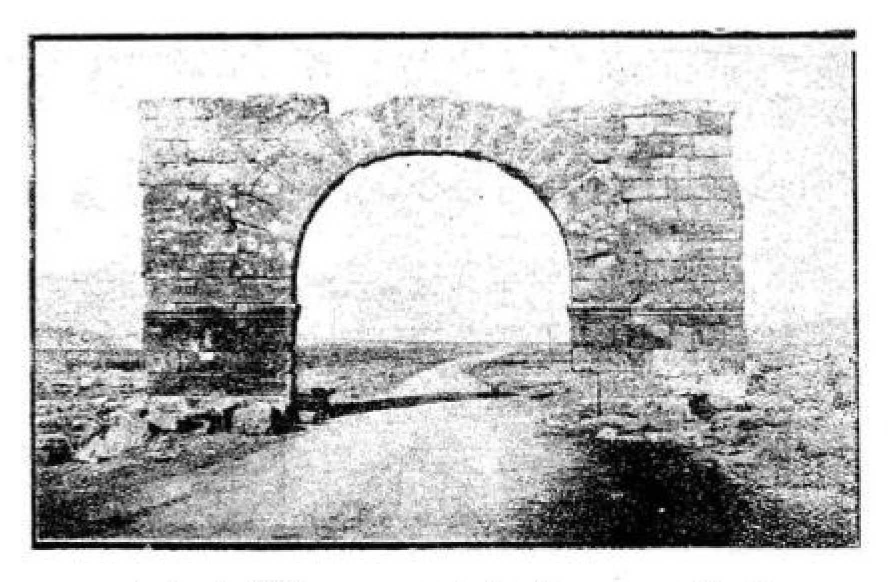


مثوى القديس بطرس في جبل سلبيوس بمدينة انطاكية



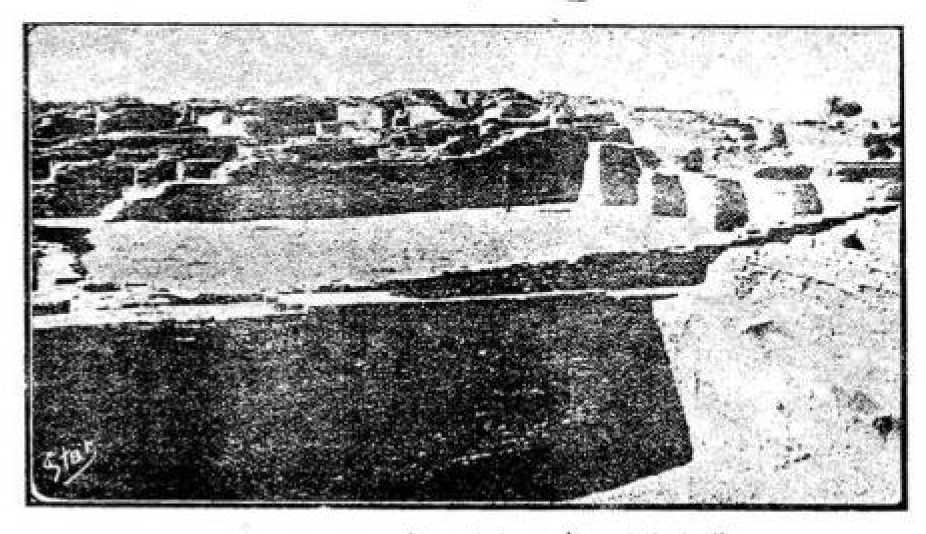
منظر عام لمدينة انطاكية

بقايا هيكل ابللون في « دفنه » بجوار انطاكية

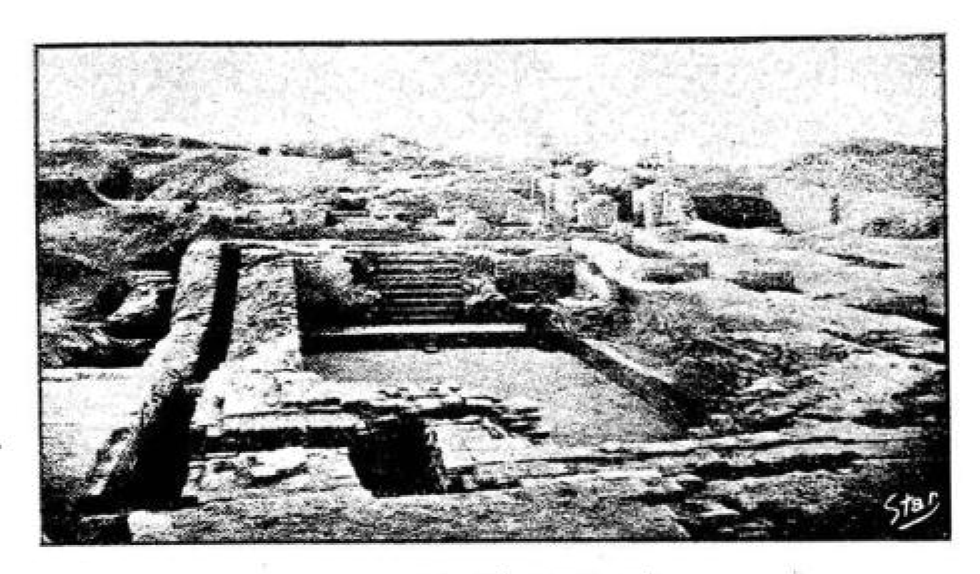


باب أثري يدعى « باب الهواء » وهو من الآثار الرومانية

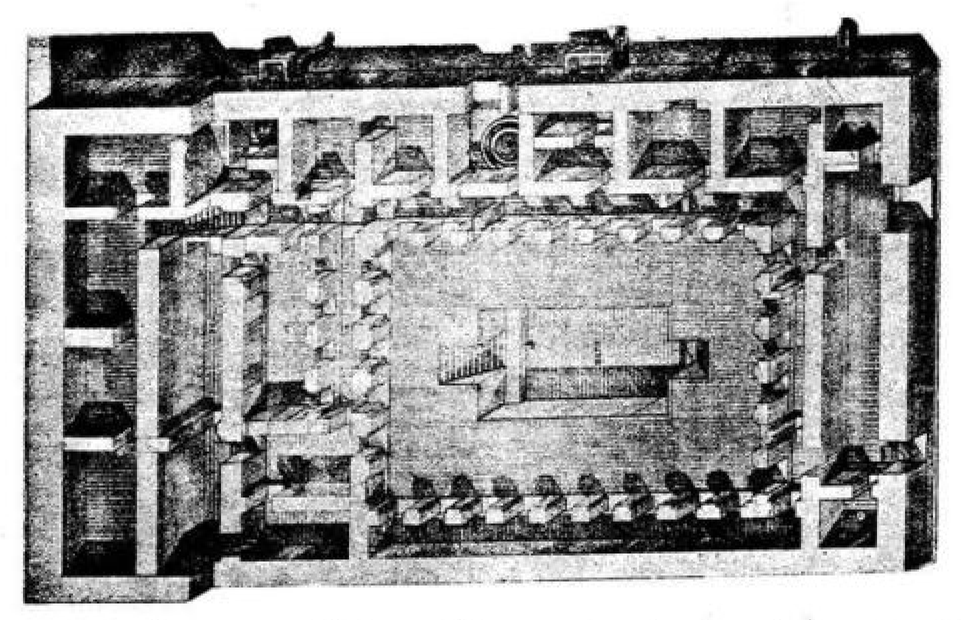
الشارع الاول في موهنجودارو



الفناء الواسع المرتفع في احد الدور بموهنجودارو

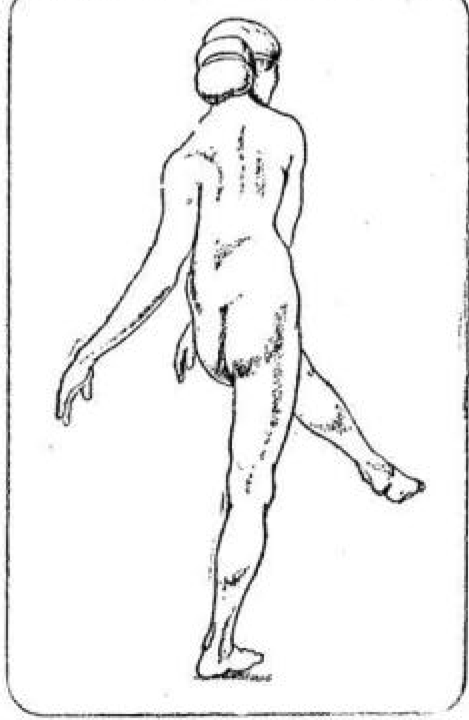


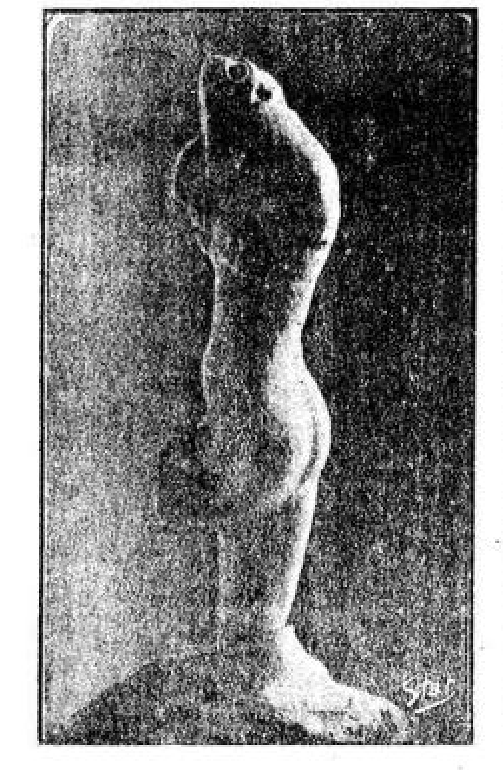
آثار الحمام الكبير كما عثر عليها



ترميم للحمام الكبير يشاهد في وسطهِ حوض الاستحمام ينزل اليهِ بسلم وحولهُ فناء واسع تحيط بهِ غرف كثيرة . والظاهر انهُ كان يستعمل لاغراضٍ دينية



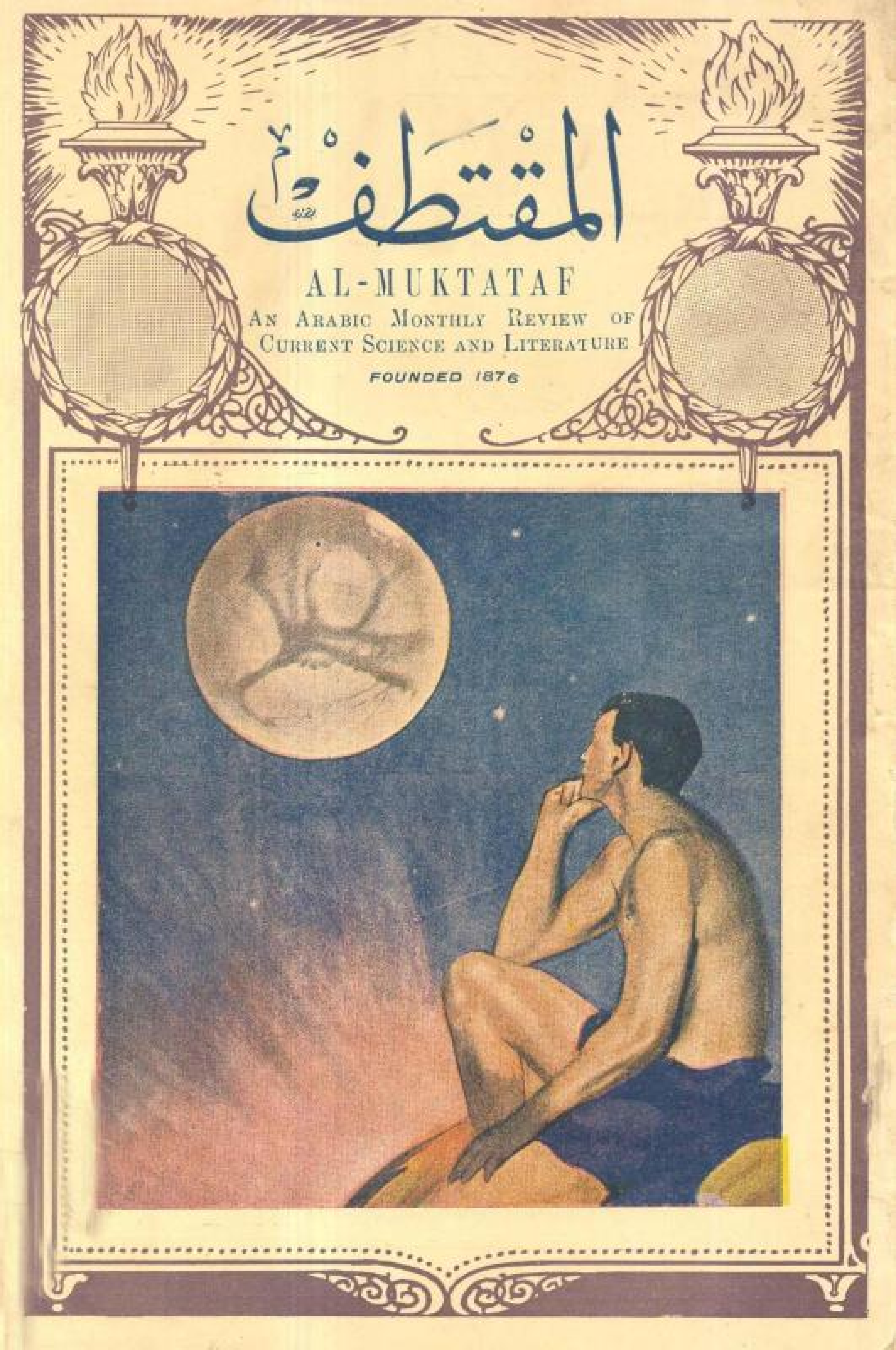




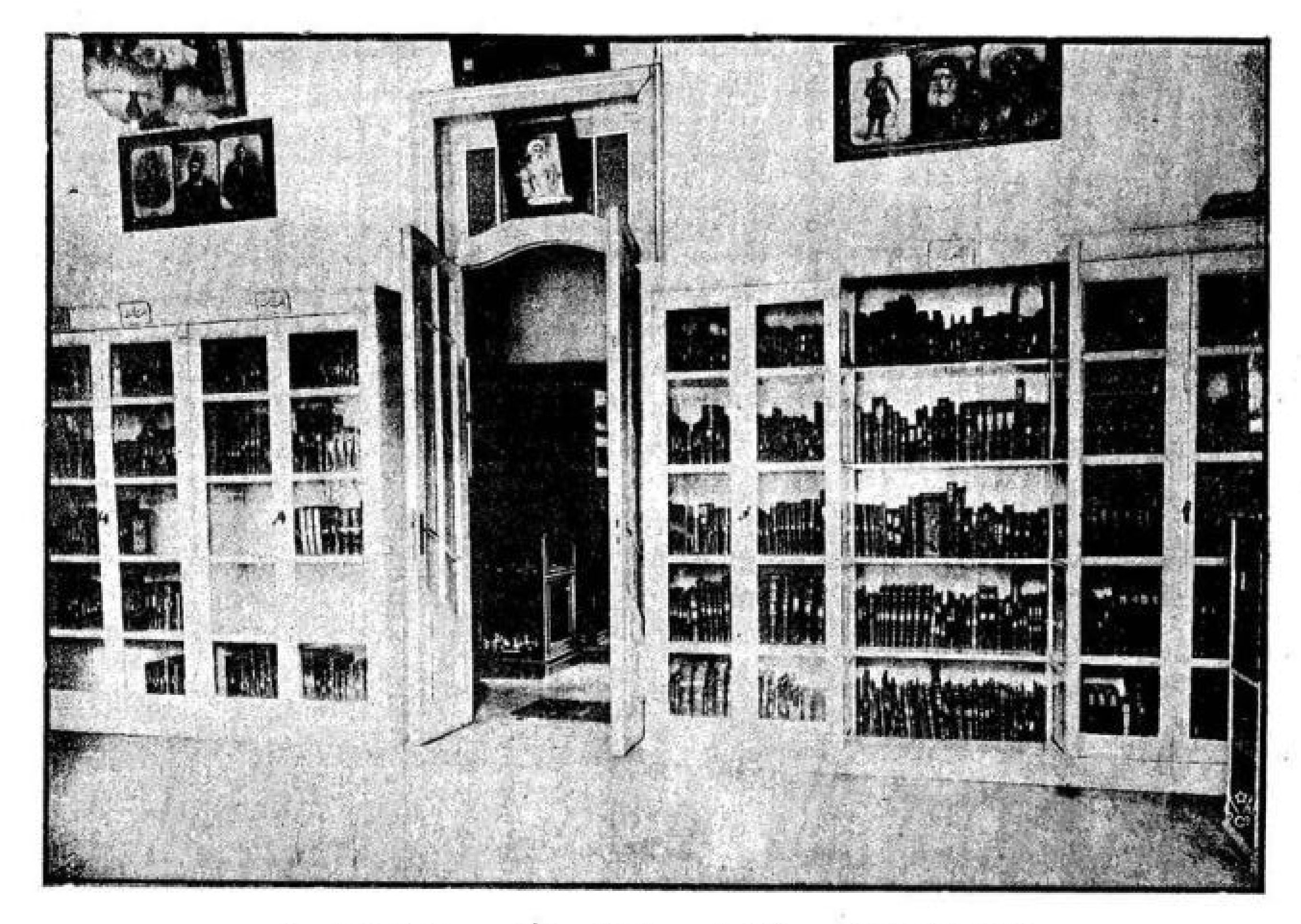
ثلاثة مشاهد لتمثال شخص راقص وجد في هاربّا. احدها كما يرى من الوراء والثاني من الجانب الايسر والثالث (الاوسط) ترميم للتمثال نفسه

امام صفحة ٢١٧

الجزء الثاني من المجلد الثمانين



المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876



غرفة في المكتبة التيمورية التي اوصى بها المغفور له تيمور باشا للامة المصرية

انظر صفحة ٣٤٢

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد الثمانين

١ مارس سنة ١٩٣٢ — ٢٣ شوال سنة ١٣٥٠

امور يجهلها العلم

غوامض علوم الاحياء

كثيراً ما يطرق سمعنا اقوال يفوه بها المتعلمون وطلاّب العلم ، تنطوي على ان « العلم الحديث عارف بكلّ شيء قادرٌ على كل شيء » بل اننا نحن نقول هذا في بعض الاحيان

ومما لاريب فيهِ ان فتوحات العلم في ميادين العلوم الطبيعية والكيمائية والحيوية (البيولوجية) فتوحات عظيمة . فهذا عصر الآلات والالكترونات ، عصر الغرويات والكروموسومات . لقد امتدَّ بصر الفلكيين بضعة ملايين اخرى الى رحاب الفضاء ، واتصلوا بالوف اخرى من الشموس والسدم ، فعرفوا بناءها وتصرُّفها . ونفذ علماء الطبيعة الى معاقل الذرات الدقيقة فوجدوا ان كل ذرَّة مؤلفة من نواة تحيط بها سحابة من الالكترونات (كانوا الى عهد قريب يقولون ان الالكترونات تدور حول النواة كسيارات الشمس حولها) وكشف الكيمائيون عن مواد فعالة اذا استعملت مقادير مكرسكوبية منها كان من اثرها احداث افعال كيمائية عنيفة في مقادير هائلة من المادة (هذه المواد الدقيقة تعرف باسم Catalysers) . ثم ان علماء الاحياء ادّوا نصيبهم من التقدم العلمي في هذا العصر ، بتوسيع نطاق معرفتهم بالوراثة وأساليبها توسيعاً يفوق في الربع القرن الاخير كل ماسبقهُ في القرون السابقة . وجاء في اثرهم طائفة من العلماء والفلاسفة الذين يجمعون في اشخاصهم بين علوم الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا

فقالوا ان الافعال الحيوية لا تخرج عن كونها افعالاً طبيعية معقدة ، اي انهم لا يحتاجون في تفسيرها الى قوة خارجة عن القوى الطبيعية المعروفة «كقوة الحياة»

حقاً ان فتوحات العلم عظيمة ! هذا عصر العلم والاكتشاف . عصر «الانسان العلمي» ونحن فخورون بأننا من ابنائهِ . فخورون بما أتى العلماء والباحثين . وانما يخطر لنا ، ونحن نعدد مآثرهم اننا نغفل طوائف من الظاهرات الطبيعية ، وبوجهٍ خاص طائفة من صفات الحياة ، ما زالت مستسرَّة عن فهم العلماء . فنحن لا نستطيع ان ندرجها في جدول الغوامض التي جلوها بضوء العلم الكشاف . وسوف نحصر النظر في هذا المقال في غوامض علوم الاحياء

لغز التطور العضوي

ونبدأ الكلام على لغز «التطور العضوي» . نقول «لغز» التطور ، لأنهُ رغم جميع المباحث التي قام بها علماء الاحياء لا يزال «التطور» لغزاً . لا ريب في حقيقة التطوُّر . والعلماء يعرفون جانباً كبيراً من السبيل الذي سار فيهِ التطوُّر من اقدم العصور الى الآن . ولكن المسألة الاساسية ، هي فهم سبب التطور وطريقتهِ . فنحن اليوم ، اضعف ثقة بما قيل في سبب «اصل الانواع» وطريقة تطورها حتى تتلاءم والبيئة التي تعيش فيها ، مما كنا من نحو ستين سنة

ففي الستين السنة او السبعين التي انقضت على نشر كتاب اصل الانواع ، جمع الباحثون من الادلة على ثبوت حقيقة التطوُّر ما يجعلها في حرز حريز من سهام الانتقاد التي توجَّهُ اليها . ولكنهم جمعوا كذلك من الحقائق الجديدة عن الوراثة والتباين العضوي ، ما يثبت لنا ان النظريات القديمة التي اقترحت لتعليل التطور لم تعلّلهُ قط . فنظرية لامارك في توريث الصفات التي يكتسبها الوالدون في اثناء حياتهم لا تقوم على اساس ثابت . واذاً فالصفات المكتسبة ، كما وصفها لامارك لا تورَّث . وعليهِ فالانواع الجديدة ، المتصفة بصفات تمكنها من ملاءمة نفسها للبيئة الجديدة لا تنشأ كذلك . اما مذهب دارون المنطقي القائم على ان لكل صفة من صفات الجسم الحيّ مقاماً من حيث أثرها في النزاع العنيف القائم بين الاحياء ، وان الصفات التي تمكن الكائن من الفوز في هذا النزاع تورَّث للاجيال التالية ، فاقرب الى الاستنتاج المنطقي منهُ الى الحقيقة الواقعة . ومعظم التباينات الداروينية لا قيمة لها في هذا النزاع ولا هي تورَّث انما هي في الواقع اختلاف طبيعي طفيف عن المتوسط السويّ يقتضيه ناموس الارجحية ، وانها اضعف من ان يكون لها هذا الاثر الخطير في تقرير مصير صاحبها ، وانها تورَّث اذا كانت قريبة من المتوسط السويّ ثم كلما بعدت عنهُ ضعفت قوة توريثها

على اننا في هذا العهد الذي هدمت فيهِ نظريتا لامارك ودارون في تعليل التطور ، لم يخرج احد العلماء تعليلا جديداً كاملاً يحل محل التعليلين القديمين . ولعل رأي ده فريز في «التحول

الفجائي « mutation theory » اسمها . وده فريز عالم نباتي هولندي . فقد لاحظ حدوث تباينات وراثية في نسل نبات « زهر الربيع » الناشيء من اصول نامية في بقعة واحدة ، وتحيط به بيئة متجانسة ، وان هذه التباينات ليست الاختلافات التي قال بها داروِن . وانما هي اكثر تبايناً منها عن المتوسط السويّ ، وانها تورّث مباشرة توريثاً متواصلاً . وقد وجد علماء النبات والحيوان من بعده تباينات متعددة في نباتات وحيوانات مختلفة الاصناف . ويكاد يكون من الثابت الآن ، ان هذا الفعل — فعل التحوُّل الفجائي اي ظهور التباينات المتوارثة ظهوراً فجائيًّا — ينشيء انواعاً جديدة . ولكن الباحثين لم يروا حتى الآن انها كثيرة الحدوث كثرة تجعل «التحول الفجائي» تعليلاً وافياً كافياً «لاصل الانواع» وتطورها . فاذا كان « التحول الفجائي » المنشأ الوحيد لتباين الانواع وجب ان نرى من التباينات الفجائية في الوف من اصناف الحيوان والنبات اضعاف اضعاف ما نراه الآن . وهذا غير الواقع

تعليل التكيف والملاءمة

ثم اذا حاولنا ان نعلّل التكيّف — وهو جانب خطير من جوانب مسألة التطور — وجدنا كذلك اننا نسير في ظلام حالك . فالتحولات الفجائية لا تحدث التكيُّف المتدرج الذي ينتهي الى التكيُّف التام ، الاّ اذا سارت في الاتجاه الصحيح ، اي يجب ان يوجد ما يعين حدوث التحول الفجائي في ناحية معينة ثم بتجمع التحولات الفجائية وتواليها، يحدث التكيف التام . واذا ذكر البيولوجي الحوادث التي تمَّ فيها تكيُّف الاحياء الدقيق ملاءمة لبيئتها تحقق ان التحول الفجائي ، سواءٌ كان مستقلاً عن الانتخاب الطبيعي او مشتركاً معهُ ، لم يكفِ لتعليل هذا التكيف الدقيق . ولنضرب على ذلك مثلاً ، بالتفاعل الدقيق بين بعض النباتات الزهرية والحشرات التي تلاقحها ، او بالملاءمة بين الاحياء التي تثوي فيها الحيوانات الطفيلية والطفيليات ذاتها . دع عنك الامثلة الاخرى التي تبين الملاءمة التامة بين الحيوان ووسائل معيشته وتغذيتهِ ودفاعهِ عن نفسهِ وتناسله . وحينئذٍ يثبت للباحث ان لا بدَّ من فرض عامل موجِّهٍ لتعليل اسباب التكيف البيولوجي . واذ أدرك علماء الاحياء هذا العجز عن تعليل اصل الانواع ، او التكيف البيولوجي ، بتوارث الصفات المكتسبة ، او الانتخاب الطبيعي ، او التحول الفجائي ، عمد بعضهم والفلاسفة معهم ، الى الفرض والتصوُّر . وبعض فروضهم تفوق البعض الآخر في سمتها العلمية . فعلماء الآثار المتحجرة، الذين يروعهم ما يشهدونهُ في آثار النباتات والحيوانات المستخرجة من طبقات جيولوجية متعاقبة الارتقاء المتجه في خط مستقيم ، يميلون — او اكثرهم يميل — الى فرض تكيُّف صحيح الاتجاه ، بفعل مؤثرات داخلية او خارجية ، فعلت في اجيال متعاقبة من الاحياء الى ان انتهت الى اظهار

التكيف المطلوب . ولكنه يتعذر عليهم ان يوفقوا بين احجامهم عن الايمان بتوارث الصفات المكتسبة من ناحية ، وبين مقدرة المؤثرات الخارجية ، او عوامل البيئة ، على احداث هذا التكيف . لأن العوامل الخارجية لا تستطيع ان تحدث هذا التكيف الاَّ عن طريق الوراثة وهذا هو توارث الصفات المكتسبة بعينهِ الذي ينكرونهُ

ثم ان طائفة من علماء البيولوجيا المحدثين ، تسلّم بتكيف او تغير صحيح الاتجاه ولكنها تحاول ان تجد له سبباً لا يضعها في مأزقٍ يحتم عليها التسليم كذلك بقوة داخلية في الكائن الحيّ يوجّه هذا التكيف ، لان هذا التسليم من ناحيتها بهذه القوة انما يعني فرض سرٍّ او شيء خفي وليس هذا بالتعليل العلمي الوافي

على ان بعضهم ، وبعض الفلاسفة ، اقدموا في شجاعة ، على التسليم بقوة داخلية توجه التطور الى الامام ، في سبل معينة ، الى اشكال حية اكثر تعقيداً في البناء وأشد تخصصاً وكمالاً . والواقع ان من يشهد فعل التكيف الواسع النطاق ، المعقد الفعل ، الدقيق التأثير ، واستحالة حدوثه من سبيل تغيرات حدثت اعتباطاً فانتخب منها ما كان ملائماً ، يضطر اضطراراً ، الى القول بأن قوة خفيةً ، قد احدثت هذا التكيف ووجهتهُ

اما الباحث العلميّ المدقق — كدت اقول المتعنت — فلا ترضيهِ لفظة قوة « خفية » أو « سرّ » لانها تعني في اذهان الناس ، العجز عن فهمها عجزاً مطلقاً — اي انها من وراء قوة الادراك البشري . ولكن اذا قصد بها شيء رهن البحث والتحقيق ، وقد يدخل ضمن دائرة الامور التي يكشفُ العلم النقاب عنها يوماً ما ، فهو يسلّم في هذا المقام باستعمال هذه اللفظة . فاصل الحياة « سرٌّ » الآن ولكن علماء الاحياء الميكانيكيين الذين يتناولون الحياة من ناحيتها الطبيعية الكيمائية ، يأملون ان يزاح الستار عن هذا « السرّ » يوماً ما — قد يفوزون في تحقيق املهم ، وقد يبقى هذا السرّ من وراء العقل البشري . ولكن محاولات الناس لفهمهِ لن تنبتّ سلسلتها

فعلماء الاحياء اذاً يواجهون « سرّين » عظيمين « سرّ » اصل الحياة و « سرّ » اسباب التطوّر . فهم يعرفون ما الحياة وما التطوّر ، ولكنهم لا يعلمون ، وعلمهم لا يستطيع ان يفسّر ، كيف بدأت الحياة ، ولا الباعث أو المحدث للتطوّر . يضاف الى ذلك تعيين ما للوراثة وما للبيئة من أثر في الكائن وينطوي تحت هذا تعيين أثر كل منهما في توجيه مصير الانسان فرداً واجتماعاً ، تعييناً حاسماً

***

على ان علماء الاحياء يواجهون مشاكل اخرى خطيرة ، تتصل بموضوع الحياة ، وبوجهة خاصة تتصل بالحياة الانسانية . فوعيُ الانسان (Consciousness) ، وانفعالاتهُ وافعالهُ

التي يقصد منها خير الآخرين والتي لا فائدة بيولوجية تجنى منها ، وخيالهُ ، وفوق كل هذه روحهُ أو نفسهُ — كل هذه «اسرار» من اسرار البيولوجيا الانسانية . لا بدَّ من التسليم بالوحدة الكائنة بين بناء الجسم الانساني وبناء الجسم الحيواني ، وبين وظائف اعضاء هذا ووظائف اعضاء ذاك ، وبين غرائز الاثنين ، أو على الاقل لا بدَّ من التسليم بشدة الشبه بينهما . فالمؤمن بمذهب التطوُّر يرى الناس نتيجة لافعال طبيعية اوجدت اصنافاً منوَّعة من الحيوانات والنباتات ، ولكنهُ يرى في الناس صفات ومميزات ، لا يستطيع ان يدَّعي لها تفسيراً علميًّا وجهد ما يستطيعُ ان يقولهُ ان التفسيرَ العلميَّ لها سوف يكشف عنهُ ! وهذا رأي — لا حقيقة — قد يناقضهُ رأي آخر !

مميزات الانسان

لننظر الى البيولوجي في معمل بحثهِ وفي دارهِ أو في المجتمع . فهو في المعمل روح العلم مجسماً ، اذا كان عالماً بالمعنى الصحيح ، اما في دارهِ فهو مجموعة من المتناقضات ، تكاد لا تمس أثراً للروح العلمي في سلوكهِ الاجتماعي . انهُ يسترشد في سلوكهِ ، بقواعد وتقاليد ، لا يستطيع العلم ان يفسّرها ولا ان يسيغها . فهو لا يتزوج لاخلاف النسل فقط . ولكنهُ يبحث عن امرأةٍ يهواها . وهو يحب اولادهُ ، محبةً ، تفوق في مظهرها العناية بالاولاد التي تقتضيها الغريزة البيولوجية ، المتجهة الى حفظ النوع فقط . وهو يضيف الى غريزة التجمُّع : انظمة للاسرة والجماعة والامة ، والى السرور الغريزي بالاصوات السارَّة ، فنَّا دقيقاً من الموسيقى . ثم هو لا يقف عند حدّ الفائدة البيولوجية في انماء قوتهِ على النطق والكتابة والتصوير ، بل ينتج ادباً غنيًّا بالنظم والنثر ، ومتاحف لا تنتهي من الصور والتماثيل . ويعدو في ما يطلبهُ النوع من الدفاع عن النفس في بناء البيوت ، الى تشييد الكاتدرائيات والتذكارات الفخمة ، ليكفي رغبة مسيطرة عليهِ ، هي عبادة الله في السماء وتمجيد انصاف الآلهة على الارض

ما اضيق نطاق المذاهب التي يخرج علينا بها علماء البيولوجيا الميكانيكية ، وعلماء السيكولوجيا السلوكية ، فانها اذا فازت بتفسير بعض المظاهر البسيطة في فسيولوجية الانسان وسيكولوجيتهِ ، عجزت عجزاً تامًّا اذا تواجه ظاهرات الحياة المعقدة ، في ميادين التنظيم الاجتماعي ، في الفنون والآداب ، في الرياضيات والمنطق والدين . ففي نطاق ما يجهلهُ العلم من هذه القوى الانسانية ، نجد أخص ما يميز الانسانية عن الحيوانية . اننا لا نستطيع ان نعرّف الانسان بكونهِ حيواناً فقاريًّا أو ثدييًّا ، أو من فصيلة « البريمات » ولا بصفاتهِ الحيوانية التي نستطيع تبويبها — فان هذه التعريفات تدلت على النشأة التي نشأها من ابناء عمومتهِ في مملكة الحيوان — ولكن الصفات التي تجعل الانسان انساناً انما هي الصفات التي يجهلها العلم الآن

وليس القصد من هذا انتقاص ما يعرفهُ العلم عن الانسان — من الوجهات التشريحية والفسيولوجية والسيكولوجية. وليس القصد كذلك الامساك عن الاعتراف بما كشفهُ علماء البيولوجيا الميكانيكية عن اثر الافعال الطبيعية والكيمائية في الافعال الحيوية. ولا ان نضعف من شأن المباحث التي قام بها البيولوجيون في ميادين التباين والنمو والوراثة واثر البيئة والانتخاب وغيرها. فكل هذه عوامل اساسية في حياة النباتات والحيوان على السواء. وقد تمّ في ثلاثة ارباع القرن الاخيرة — وفي الربع الاخير بوجهٍ خاص — تقدم كبير في كل هذه النواحي. ثم ان العلم تقدّم كذلك تقدماً كبيراً في تطبيق المبادئ البيولوجية على اصلاح الاجتماع. ويكفي ان نذكر اسماء العلوم التي ارتقت عن طريقهِ — كالطب والصحة العامة، والزراعة والتجريح، وعلم الجنايات واختيار الصناعات وغيرها — لنقدر اثر العلم البيولوجي في ترقية العمران

ما فعله العلم

في مقالة ظهرت حديثاً لاحد الكتّاب، أتى الكاتب بعنوان «ما فعله العلم» بالعبارة الآتية: لقد مكننا العلم من الانتقال بسرعة تفوق خمسين ضعفاً سرعة انتقالنا قبلاً، ومن القيام بعمل يفوق مائة ضعف ما كنا نقوم بهِ في يوم واحد، ومن رفع ثقل يزيد الف ضعف على اي ثقل كنا نرفعهُ، ومن ارسال صوتنا مسافة تفوق عشرة آلاف ضعف المسافة التي كنا نستطيعها قبلاً

كل هذا حسنٌ ولكننا نستطيع ان ننظر الى المسألة من الوجهة الاخرى فنقول: ان العلم لم يوضح لي توضيحاً وافياً شعوري وضميري. ولم يفهمني لماذا استطيع ان اؤلف في الموسيقى ولا لماذا استطيع ان اوقعها او اتمتع بها — الاّ قوله انني ارث ذلك من والدي واسلافهما. والعلم لم يبين لي لماذا احبّ ابنتي هذا الحب الجمّ. ولا لماذا استطيع ان انظم شعراً — اذا كنت استطيع ذلك — او هل لي نفس خالدة؟

ما عند العلم، او عند العالم المختص بالبيولوجيا الانسانية، عن الخلود؟ الواقع ان ليس عنده شيء. فالعلم يصف لنا، موت الجسد، ويتتبع ما يصيبهُ بعد الموت، ولكن هل هذا الموت نهاية الشخصية — سواء كانت نباتية او حيوانية —؟ انهُ لا يعلم. ومع ان بعض العلماء يدّعون انهم يعلمون، الاّ ان مجملهم يتخذ موقفاً لاادريًّا

والواقع ان العلماء لا يدرون مع ان بعضهم يسلّم بما يقدم الروحانيون من الادلة على بقاء الروح بعد الموت. ومع ان العلم لا يستطيع ان يقيم الادلة على بقاء الروح بعد الموت، فهو كذلك لا يستطيع ان ينكر امكان هذا البقاء. والعالم الذي ينكر هذا الامكان، ينكر كذلك قواعد العلم — لان هذا الانكار يعني انهُ عرف كل نظام الطبيعة وان الخلود ليس جزءًا منهُ

والعلم لا يدعي انهُ يعرف — رغم الاشياء الكثيرة التي حققها العلماء — الاَّ جانباً ضئيلاً من نظام الطبيعة . ولكنهُ يحاول محاولة مستمرة ان يوسع نطاق معرفتهِ . فالبحث العلمي ، في الجامعات : والمعاهد ، والجمعيات ، والشركات الصناعية الكبيرة وما ينفق عليهِ من الحكومات والمحسنين، اعتراف من رجال العلم ومن الجمهور كذلك بقيمة المعرفة العلمية ، وهو كذلك اعتراف ، بحدود هذه المعرفة . انهُ اشارة الى كثرة الامور التي نجهلها رغم رغبتنا في معرفتها على وجهها الاوفى

وللبحث العلمي فتوحات عظيمة . فالحقائق تجمع من كل حدب وصوب ،وتبوَّب،و يربط بعضها ببعض،ثم تورَّث للاجيال التالية .فلا عجب ان تجد رجال العلم ،وقد احصوا انتصاراتهم على المجهولات العديدة ، يدعون ، ان النصر النهائي وشيك التحقيق

ولكنني كرجل عني بالبحث العلمي ، وادرك انتصاراتهِ الرائعة ، اريد ان اعرب عن ريبي في امكان العلم معرفة كل شيء

وخارج نطاق العلم يوجد ميدان العقيدة الدينية . وقد ذهب بعضهم الى ان العلم مناقض للدين ، متعصب عليهِ . ولكن هذا يجب ان لايكون . فثمة متعصبون من رجال العلم ومن رجال الدين . وهؤلاء المتعصبون يقولون اقوالاً مبنية على التحكم مثيرة للنفوس .وقديكون رجال العلم من اكثر رسل المسيح او محمد حماسةً . وبعضهم كذلك . وقد يكون بعض زعماء الدين من اول الذين يرحبون بكل تقدم علمي . وبعضهم يفعل . قد يكون العلم محقّاً، وكذلك قد يكون الدين. فالعلم والدين حقيقتان من حقائق الحياة. ويجب علينا ألاَّ نحسب احدهما نائياً للآخر بل ان كلاًّ منهما مكملٌ لصاحبهِ . والحياة الكاملة تشتمل على الاثنين وتعتمد على الاثنين

ادعُ سبب الاشياء والحوادث « الله » . وادع طريقة حدوثها « العلم » . فالعلم لم يفسر قط الاسباب النهائية . ولا هو يدركها . انما هو يعنى بسير الحوادث التي يسلّم بها لانهُ يختبرها باسلوب من اساليبهِ . ومن بواعث السرور ان نطاق المعارف العلمية قد اتسع هذا الاتساع ومن بواعث الاسف ان بعض الضيقي العقول من اتباعهِ يدَّعون انهُ يعرف اكثر مما يعرف حقيقة . ان هذا غير لازم لتمجيد العلم

> **صاحب هذا المقال**
>
> هو المستر فرنن كلوغ سكرتير مجلس البحث القومي بأميركا واحد علماء الاحياء المشهورين

لقد ارتقى العلم ارتقاء عظيماً من عهد الحضارات الاولى الى الآن . ولكننا لا نعرف الآن عن الاسباب الطبيعية النهائية اكثر مما كان اليونان يعرفون او المصريون او رجال العصر النيندرتالي . فالسبب الاولي، والمصير النهائي خارجان عن نطاقهِ

اموال التعويض وديون الحرب

بيان توزيعها السنوي

	البيان		بالجنيه الذهب
المانيا	ما تدفعهُ الى حكومات الحلفاء بموجب برنامج يونغ		٨٢ ٧٢٠ ٠٠٠
فرنسا	الوارد من المانيا		٤١ ٩٠٠ ٠٠٠
	الوارد من دول اخرى		٣٦٠ ٠٠٠
	مجموع الوارد		٤٢ ٢٦٠ ٠٠٠
	الخارج الى الولايات المتحدة الاميركية	١٢٠٠٠٠٠٠	
	الخارج الى انكلترا	١٢١٦٠٠٠٠	
	مجموع الخارج	٢٤١٦٠٠٠٠	٢٤ ١٦٠ ٠٠٠
	الباقي في فرنسا		١٨ر١٠٠ ٠٠٠
انكلترا	الوارد من المانيا		١٧ ٣٦٠ ٠٠٠
	الوارد من فرنسا		١٢ ١٦٠ ٠٠٠
	الوارد من ايطاليا		٤ ٠٠٠ ٠٠٠
	الوارد من امم اخرى		١ ٣٨٠ ٠٠٠
	مجموع الوارد		٣٤ ٩٠٠ ٠٠٠
	الخارج للولايات المتحدة الاميركية	٣٤ ٣٠٠ر٠٠٠	٣٤ ٣٠٠ر٠٠٠
	الباقي في انكلترا		٦٠٠ر٠٠٠
ايطاليا	الوارد من المانيا		٩ر٣٦٠ ٠٠٠
	الوارد من امم اخرى		٢٤٠ ٠٠٠
	مجموع الوارد		٩ر٦٠٠ ٠٠٠
	الخارج الى الولايات المتحدة الاميركية	٢٩٦٠ر٠٠٠	
	الخارج الى انكلترا	٦ر٩٦٠ ٠٠٠	
	مجموع الخارج	٦ر٩٦٠ ٠٠٠	٦ر٩٦٠ ٠٠٠
	الباقي في ايطاليا		٢ر٦٤٠ ٠٠٠
الولايات المتحدة الاميركية	الوارد من انكلترا وفرنسا وايطاليا		٤٩ ٢٦٠ ٠٠٠
	الوارد من المانيا		٣ ١٤٠ ٠٠٠
	الوارد من امم اخرى		٤ ٧٢٠ ٠٠٠
	المجموع وكلهُ يبقى فيها		٥٧ ١٢٠ ٠٠٠

العلم وطبيعة الالوهية

النظرة العلمية التوحيدية

إن كان للعلم رسالةٌ عامة غير شتى رسالاته الخاصة التي تتكشف عنها مختلف طرقه ومباحثه فهي هذه — اننا في كون محدود في اجزائه ومداه مغلق في ناحيتيهِ الفضائية والزمنية، واننا، على ما نعلم، الموجودات الوحيدة في طول هذا الكون وعرضه التي تستطيع ان تعرف شيئاً عن كلياته وجزئياته، واننا لذلك يجب ان نسلط هذه القدرة الفريدة التي حبانا بها الكون، اي قدرتنا على معرفتهِ، على كل ما فيه من دون اي استثناء، والاَّ نكون قد قصرنا عما ينتظره منا الكون اذ سمح ببزوغ هذه الصفة فينا، فنصبح ونحن لسنا اهلاً للتمتع بهذه المنحة الكونية الغالية

ونحن اذا ما نظرنا الى الانسان وهو ثمرة خالصة من ثمار هذا الكون فانا لا نعدو عن ان نعبر بذلك عن عقيدة علمية صرفة، اذ العلم يؤمن بوحدة كل ما في هذا الكون ولا يسمح بتجزئته الى اكوان مستقلة منفصلة بعضها ببعض. فالعلم اذا ما رادَ الكونَ زمناً وفضاءً، أجزاءً وسنناً، الفاه وحدةً متراصة تسبب الحوادث فيهِ بعضها بعضاً وتتداخل في علاقات متبادلة عديدة وعندما يصل الى الانسان لا يعتبره متمرداً على هذا التداخل والتسبب بل يراه تربطه بالكون اوثق الروابط وهو عند ما لفظه الكون وقال له كن فكان لفظَه من لحمِهِ ودمِهِ وامتعهُ بخصائصهِ وسننهِ

هذه النظرة التوحيدية لكل ما يملأُ هذا الكون هي كنه ما تتسم بهِ الحركة العلمية الحديثة. فأنت اذا طرقت ببحثك العلمي ناحية جديدة من هذا الكون فأول مايطلبهُ العلم منك ان لا تلجأ الى فروض ومبادىء جديدة في تحليل هذه الناحية وتعليلها بل ان تجرب فيها المبادىء والفروض المألوفة التي محصها العلم في نواحي الكون الأخرى والفاها تنطبق عليها. وبعدَ ان تستنفد مبادىء العلم المعروفة ولا تجد مع ذلك واحدة منها تصلح لتحليل ما يعترضك من المظاهر الجديدة عندئذ فقط يسمح لك العلم بأن تبدع مبادىء معللة جديدة. وكثيراً ما يخيل الى عالِم انهُ مضطرٌ الى هذا الابداع لتعليل مشاهدات معينة لكنهُ لا يلبث ان يخلفهُ عالِمٌ آخر يثبت خطأه وانهُ لا يحتاج في التعليل المنشود الاَّ الى تنسيق خاص لنخبة خاصة من المبادىء العلمية المعروفة. على هذا النحو يقتصد العلمُ ايما اقتصاد في عدد مبادئهِ وطرق تطبيقها

واذا رسم العلمُ هذه الحدودَ للتعليل فهو برغم ذلك لا يعرف حدوداً لمادة بحثهِ ، او هو على الاقل يزعم بادىء ذي بدء ان مادته تشمل كل ما في الوجود ويسيّر بحثه على هذا الزعم . فاذا وجد في سياق البحث او في نهايتهِ ان طريقته تسقط من تلقاء نفسها ومبادئه لم تعد تصلح للمراحل الجديدة من البحث عندئذٍ يلقي بسلاحه الى الارض ويرتدُّ خائباً عن تلك الناحية من الكون التي انتهى اليها بحثه . والمهم في هذا التصرف ان العلم لا يقرُّ بالهزيمة في بدء بحثه بل قد يُقسَر على هذا الاقرار في سياق البحث او في نهايته ، شأنهُ في ذلك شأن المقاتل الشجاع الذي لا يجبن امام اية قوة ولا يلين لهُ عودٌ في ايّ نزال ، فإمّا ان يَقهر ويَنتصر او ان يخرّ صريعاً في ميدان الوغى مستنفداً جميع حيله غيرَ مدّخرٍ ذرةً واحدة من قدرته

العلم وكنه الله

لذلك لا استطيع ان ارى كيف يمكن ان يؤخذ العلم في شيء اذا حاول تحليل فكرة «الله» ووصف ما يعتبره مضمونها الصحيح . إنّ العلم سعي نزيه لا يتوخى الاّ الحقيقة الصرفة فاذا كان له ما يقوله في شأن من الشؤون فاعلى الحرّ ، بعد ان يتحقق نزاهته واخلاصه ، الاّ ان يصغي لما يقوله بعطف وورع . والغريب ليس ان يكون للعلم قولٌ خاص في طبيعة الله بل ان لا يكون له هذا القول ، لأن الله اخطر موجودات الكون ، والعلم كسعي نزيه لتعرُّف الحقيقة عن جميع موجودات الكون لا يسعهُ الاّ ان يعرض لهذا الموجود الخطير الذي نعبّر عنهُ بلفظة الله ، بل حريٌّ بالمرء ان ينحي باللائمة على العلم اذا هو وقف صامتاً اخبل ليس له ما يصرحه بشأن الله

والحقيقة ان العلم في نزعته الاخيرة اخذ يدلي بصراحة تامة بما سبق الى اعتقاده عن «الله» وطبيعته . ولا يقتصر هذا النشاط في البحث الحرّ عن الله على العلماء بل هو يشمل التيار الفكريّ الحاليّ على اطلاقه ، اذ انّ الفلاسفة والمفكرين يبدون بدورهم ، تحت تأثير العلم وابحاثهِ وتصريحاته ، نشاطاً فريداً في هذا الباب من التفكير . ومرادي في هذا المقال وما يتلوه من المقالات التي تتناول نفس الموضوع ان اجمل آراء اهم الفلاسفة والعلماء المعاصرين في الله وطبيعته او بالاحرى في تلك النواحي من الكون التي لا نعرف انسب من لفظة «الله» ، بما تتضمنه من غنى المعنى وقوة الدلالة ، تعبيراً عنها ووصفاً لها

رأي ادنجتن

احب ان ابدأ برأي الفلكي الانجليزي الشهير ادنجتن استاذ الفلك في جامعة كامبردج بانجلترا لان هذا العالِم يعد ثقة في الفلك والرياضيات والطبيعيات معاً وهو لذلك يستخلص رأيهُ

من هذه الفروع العلمية التي يجيدها كل الإجادة . فانت لا تراه يبني عقيدته وايمانه «بالله» على تعاليم دينية صرفة او على تقاليد بشرية تلقنها من امه وبيئته ومدرسته بل هو توصل الى نقطة في دراسته للطبيعة شعر امامها بوجوب الايمان بشيء له بعض خواص الله وهو لهذا السبب يؤمن به الآن . واذن يستحق ان يعتبر احد روّاد «الله» العلميين في هذا العصر لانهُ استكشف بعض صفاته ببحثه العلمي الخاص

فما هي هذه الصفات الإلهية التي رأى ادنجتن ان ابحاثه العلمية تنتهي اليها ؟

معلومٌ ان المادة في اقصى تركيبها ليست سوى شحنات كهربائية خالصة يطلق عليها اسماء البروتون والالكترون اشارة الى ما هو موجب وما هو سالب منها

ومعلومٌ ايضاً ان ايّ جوهر فرد من الجواهر الفردة الاثنين والتسعين يستطيع ان يشع نوراً او اي اشعاع اثيري آخر بشرط ان يكون الجوهر الفرد في حال خصوصية من حيث الحركة والبيئة الطبيعية التي تتفاعل معهُ . وعملية الاشعاع هذه تدمغ الجوهر الفرد بعلامة خاصة بحيث اذا جرى اشعاع استطعنا ان نتأكد من حدوث هذه العلامة الفارقة في تركيب الجوهر الفرد . وإذا شاهدنا او استنتجنا حدوث هذه العلامة استطعنا ان نثق ان ثمة اشعاعاً معيناً وقع ، اي ان الصلة بين الاشعاع والعلامة الفارقة صلة تبادلية حتمية . وهذه العلامة الفارقة هي ان يسقط الالكترون من احد افلاكه حول النواة الى فلك اصغر فيقترب بذلك منها . ويستطيع الالكترون كذلك ان يسقط الى فلك اقرب فاقرب من النواة حتى يلصق بها اخيراً . وفي كل من هذه السقطات او الوثبات ينبعث من الجوهر الفرد اشعاع معيَّنٌ تتوقف موجته على مقدار الوثبة ومركزها. وعند ما يندغم الالكترون في الوثبة الاخيرة بالنواة يكون الجوهر الفرد قد استنفد جميع الطاقة الممثلة بوجود هذا الالكترون داخل نظامه وتكون قد استحالت هذه الطاقة المخزونة الى طاقة اشعاعية خالصة . على هذا الشكل التدريجي تزول المادة وتستحيل الى اشعاع

وهنا يقوم التساؤل الهام الآتي : متى يثب الالكترون والى اي مدًى يثب ؟ وعلى هذا التساؤل لم يحظ العلم للآن بالجواب المرضي ، فلا هو يعرف متى يشرع الالكترون في السقوط[1] ولا الى ايّ مدًى يصل في سقطته . لكنهُ — اي العلم — يعرف انهُ متى يشرع الالكترون يسقط نحو النواة توجد عدة احتمالات للمدى الذي يستطيع ان يقطعه ، تمتاز بعضها عن بعض باحتمال حدوثها ، اي انهُ بالرغم من عدم امكاننا القطع في وجوب وقوع احد هذه الاحتمالات

(١) بامكان الالكترون ايضاً ان يصعد في جو الجوهر الفرد اي ان يبتعد عن البروتون ، ويحدث هذا متى امتص الجوهر الفرد اشعاعاً وقع عليه . والعلم يجهل سبب الصعود كما يجهل سبب السقوط ، لذلك نكتفي في بحثنا بالرجوع الى السقوط فقط اذ ما يطلق عليه يطلق على الصعود كذلك

وعدم وقوع سواها نستطيع الجزم بأن احدها مرجح على ما عداه . كذلك نستطيع ان نحسب بالضبط مقدار الاشعاع الذي ينطلق من اي هذه الاحتمالات . وبالجملة فانهُ ليس باستطاعة العلم التنبؤ عن وثوب الالكترون ولا عن مدى هذا الوثوب لكنهُ يستطيع متى وقع الوثوب ان يعين النتائج الطبيعية المرتبة عليهِ تعييناً علمياً مضبوطاً . مثلهُ في هذا مثل امرء لا يستطيع التنبؤ بحدوث حرب عالمية لكنه يعرف تمام المعرفة ان هذه الحرب متى وقعت ستبيد المدنية الاوروبية الحاضرة

نلحظ من كل هذا ان للعلم حدوداً لا يستطيع تخطيها اذ يجدُّ في نشر لواء معرفته على جميع اسرار هذا الكون . ومتى ادركنا طبيعة هذه الحدود ومعناها الفلسفي رأينا انها للعلم بمثابة نقص معيب لا تمكن ازالته بسهولة . فما طبيعة هذه الحدود ومعناها الفلسفي ، الاَّ ان العلم لا يستطيع ان يشمل بطريقتهِ ومبادئه جميع تصرفات هذا الكون ، وان ثمة تصرفاً خطيراً كل الخطورة بمنجاة تامة عن الاسلوب العلمي ، هو تصرف الالكترون قبيل انبثاق اشعاع منهُ . والاشعاع هو الوسيلة الوحيدة التي نعرف بواسطتها ما يجري داخل الجوهر الفرد والأثر الوحيد الذي يربط حوادث الجوهر الفرد الداخلية بحوادث الكون الاكبر الذي يكتنفهُ . واذاً ان عدم استطاعة العلم الاحاطة بسر هذا المفتاح الوحيد للجوهر الفرد من الخطورة والعيب بما لا يستطيع احدٌ ان يبالغ في التحريج عليهِ

من كل هذا تبرز حقيقة ناصعة عن تصرف الكون في نهاية تركيبه هي ان ثمة وجهة نهائية من هذا الكون تتصرف وكأنها مطلقة الحرية في تصرفها ، فلا سنن طبيعية تطلق عليها ولا قوانين رياضية تضبطها . اخذ العلم يحلل الكون بأسلوبهِ القدري الى ان توصل في نهاية تحليله الى ناحية خارجة في تصرفها ، على ما يلوح ، عن هذا الاسلوب ، فلا حيلة لديهِ للاحاطة بأسرارها . ولو كان العيب مقتصراً على مجرد نقص في المعرفة لما نجم عنه شيء ذو بال اذ ما اكثر ما عجز العلم عن تفهم مكنوناته بعد ، لكن الامر تعدَّى مجرد هذا النقص السلبي في المعرفة الى ادراك ان الابداع والحرية من اخص خصائص الكون . فالكون تعلوه وتستقر في كنههِ مسحةٌ خالصة من الحرية والابداع لا سبيل للآلية العلمية اليها

من هنا ينشأ ايمان ادنجتن بالله اذ هو يرى في هذه الحرية القصوى التي يتمتع بها الالكترون في تصرفهِ خاصة من اهم خصائص الله . الخلق والحرية والابداع : هذه صفات اقترنت بالله منذ ان وعى الانسان الله . فاذا تكشف البحث العلمي عن تفشي هذه الصفات في تصرف الكون النهائي فما اجدر ان يقر العالم النزيه أنَّ ما كان التقليد الديني يوحي بهِ كصفة هامة من صفات الله هو بالفعل شائع في ادق حوادث الكون

هذا هو نوع المنطق الذي حدا بأدنجتن الى اليقين الشخصي بالله . يعرف ادنجتن ان أيَّ

تغيّر في وعيهِ وادراكه مرتبط اوثق الارتباط بتغير خاص في تركيب جسمهِ وهذا التغير الاخير يمكن الوصول بهِ تحليلاً الى مركبات جسمهِ القصوى ، اي الى الكتروناتهِ فتصبح بين وعي ادنجتن وبين الكتروناته صلة وطيدة . بحيث اذا حصل تغير في حال الكتروناتهِ عقبهُ تغير في وعيهِ ناجمٌ عنهُ . ويعرف ادنجتن ايضاً ان الكترونات جسمه وخصوصاً جهازه العصبي، تشارك جميع الكترونات الكون في تصرفها الحر الطلق . واخيراً يعرف ان هذه الحرية التي تمخض عنها العلم الطبيعي تستوي في مصدر الحرية والخلق ، اي في الله . لذلك كلما فكر في شيء او اختبر امراً شعر ان هذا التفكير والاختبار مشروط بالله متوقف عليهِ منبّث فيهِ . اذا مرت بذهنهِ فكرة أو إذا جنح الى حال نفسية خاصة قام في جسمهِ ، وخصوصاً في جهازهِ العصبي تغير الكتروني حرٌّ في انبثاقهِ مضبوط في نتائجهِ . ولما كانت هذه الحرية تتوحد بين جميع الكترونات الكون في مبدإ واحد هو الله جاز ان يقوم بذهن ادنجتن كلما فكر او اختبر انهُ انما يفكر ويختبر لان « الله » في اقصى تركيبه الطبيعي قد لمسهُ

نقد رأي ادنجتن

هذا ملخص ما يرتكن عليهِ ادنجتن في رأيه في «الله» . ونحن اذا اقتصرنا على هذا العرض الايجابي للرأي دون ان ننقده ونبين اوجه الضعف فيهِ لا نكون قد ادينا واجبنا العلمي الذي يقتضي ان نلم بأي موضوع من جميع نواحيه ، السلبية منها والايجابية . فاتباعاً لهذا الداعي العلمي المقدس نبحث الآن الاوجه التي يؤخذ بها على رأي ادنجتن في الله

علمنا ان ادنجتن يستنتج الله من دراستهِ لتصرف الالكترون اذ يلمح في هذا التصرف مزية خالصة في الحرية والسلوك الذاتي فلا يرى انسب من لفظة الله تعبيراً لهذه الحرية والذاتية . وأول ما يعاب على هذا الاستنتاج انهُ مبنيٌّ على نظرية علمية قد ينقضها غداً البحث العلمي المقبل لأن لنا من تاريخ العلم الحديث اكبر رادع عن الاسترسال في ترتيب أية نتائج فلسفية قصوى على أية نظرية علمية موجبة . ليست النظريات العلمية الموجبة سوى حيل ذهنية يلجأ اليها العقل البشري إذ يحاول تنسيق مشاهدات تسفر عنها التجارب العلمية . ومن ابسط البديهيات العلمية ان أية مجموعة من المشاهدات لا يمكن في حال من الاحوال ان تظل منيعة النقد مستقلة العدد ، بل قد تتسرب الى قدسها غداً حقائق جديدة تعصف بها وبالنظم التي صيغت فيها وتضطر العقل البشري الى اعادة عملية الصوغ هذه من جديد حتى تبرز جميع الحقائق ، القديمة منها والجديدة ، في تنسيق تعليلي جديدٍ انسب ضماً وتعليلاً لجميع الحقائق المعروفة ، من التنسيق المنسوخ . فما ادرانا ما تضمره الابحاث العلمية المقبلة لهذه النظرية عن التصرف الحر للالكترون ؟ قد يأتينا بور او دي برولي أو كمطن غداً بمشاهدات جديدة تقتضي قلب

النظرية القائمة رأساً على عقب واشادة هيكل تعليلي جديد لا محل فيه لفكرة الحرية في التصرف . اذاً من الحكمة الغالية التي يمليها علينا تاريخ العلم الحديث الاّ تتسرع في الاخذ بأية فلسفة عامة تلوح انها مترتبة على أية نظرية علمية خصوصية

هذا لا يفيد انهُ لا يجوز لنا التفلسف في العلم وأبحاثهِ ونتائجه إذ ليس ابعد من هذا القول عن رأينا في الفلسفة وفي العلم . لكن اذا جاز التفلسف في العلم فهو لا يجوز حقاً على النظريات العلمية الخصوصية التي قيامها وسقوطها رهن حقائق تجريبية جديدة ، بل هو يجوز على (١) الروح العلمية العامة ، (٢) وعلى الاسلوب العلمي في البحث والكشف عن الحقيقة ، (٣) وعلى الفروض العلمية العامة التي يقوم عليها أي علم واية نظرية ، (٤) وعلى النزعة العلمية التي تُجمع عليها ، ان كانت ثمة نزعة من هذا القبيل ، جميع العلوم . امَّا ان تجعل موضوعاً خطيراً كالله رهن صحة نظرية علمية معينة او خطإِها، فمجازفة خطيرة، اقل ما يقال فيها انها لا تمثل الروح الفلسفية تمثيلاً صحيحاً

وهناك موطن ضعف آخر في نظرية ادنجتن . نحن كما قلنا لا نعرف متى يشرع الالكترون في الوثوب ولا الى اي مدى يثب بالضبط ، ولكن هل هذا الجهل منا يسوّغ لنا ان ننفي امكان وجود سبب لسقوطه ؟ هل اذا جهلنا امراً جاز لنا ان نتصوره فوضى لا يخضع لقاعدة ولا لحساب ؟ قد يكون ثمة سبب طبيعي خالص لتصرف الالكترون لا تمكننا معرفته لان طبيعة هذه المعرفة تتنافى وامكان معرفتنا هذا السبب . في هذه الحال لا يكون الالكترون حرًّا في تصرفهِ بل نكون نحن مركبين بحيث لا نستطيع ان ننفذ الى علة تصرفه . العلة موجودة تفعل فعلها المنتظم لكنها تظل خافية علينا لان طبيعة العملية الذهنية التي نطلق عليها عبارة « المعرفة » من التركيب بحيث لا تشمل هذه العلة من ضمن ما تشمله . وليس في هذا الامكان شيء من الغرابة أو بعد الاحتمال لاني قرأت مؤخراً في مجلة انجليزية راقية وفي كتاب لفيلسوف انجليزي يشير الى نفس ما قرأت في هذه المجلة ان هذه الحرية الظاهرية في تصرف الالكترون لا تعزى إلى انهُ حرٌّ حقيقة في تصرفهِ لا يخضع لقاعدة ولا لسلطان بل الى احد امرين او الى كليهما . (١) امَّا ان تصرفه يضبط بقواعد علم الاحصاء الحديث الذي يتناول عدداً كبيراً من الموجودات المتشابهة ويحاول تعيين متوسط فعلها المشترك بصرف النظر عن تصرف كل فرد على حدةٍ ، أو (٢) ان هذه الحرية الظاهرية لا تنشأ عن عدم وجود سبب خاص لتصرف الالكترون بل عن طريقة قياسنا حركته ، اي انها ناجمة عن طبيعة هذا القياس ، فاذا امكننا في المستقبل استعمال طريقة قياس اخرى فقد نجد انفسنا امام نظام محكم الضبط لا أثر فيه للحرية الذاتية

وهناك ناحية ثالثة يؤخذ بها على نظرية ادنجتن لا تقل خطورة عن الناحيتين الآنفتين .

اذا كنا نلمح «الله» في حرية تصرف الالكترون فما الفرق في حركة الالكترون بين الخير والشر؟ اذا كان كل من تفكير نيرون في حرق رومية وتفكير لنكلن في الغاء الرق ناجماً عن تصرف الكترونات نيرون ولنكلن فما الفرق من حيث الصفة الادبية بين كلا التصرفين؟ هلاّ تمايز الحركة الالكترونية التي تسبب خيراً عن تلك التي تسبب شراً؟ ام ان الخير والشر عند هذه الحركة سواء؟ واذا كان الامر كذلك افيجوز ان نحشر «الله» في هذا الذي يستوي لديه السلوك الحسن والسلوك القبيح؟ قد كان لهذا الاعتراض ردٌّ لو ان العلم يعرف فرقاً بين تصرف الالكترون في حالة الشر وتصرفه في حالة الخير، اذ في هذه الحال يُردُّ على هذا الاعتراض بافتراض ان «الله» يمسُّ تصرف الالكترون بقدر ما ينزغ عن هذا التصرف خيرٌ ويحرمه منه بقدر ما يترتب عليه شرٌّ. لكننا، على ما نعلم، لا نعرف اقلَّ فرقٍ بين تصرفات جميع الكترونات هذا الكون. الحرية في جميعها من حيث الدرجة واحدة، وسنن الاشعاع والتفاعل واحدة بين جميعها، فالعلم لا يستطيع ان يشير في الوقت الحاضر الى أي فرق من حيث الحرية بين تصرف الكترونات نيرون والكترونات لنكلن. ولهذا يسقط التميز الديني بين الخير والشر في السلوك مع ان هذا التميز لا يقل ضرورة في وصف الله عن الحرية والخلق والابداع

اما الاعتراض الرابع والاخير على نظرية ادنجتن فنكتفي بالاشارة اليه اشارة لانه يتناول بحثاً فلسفيًّا عويصاً لا نعتقد ان هنا مجال الخوض فيه. وهو يقوم على عدم تحليل ادنجتن لما يقصد بالحرية. الحرية فكرة صعبة التحليل لا يمكننا ان نزعم باديءَ ذي بدء انها واضحة من حيث المعنى والدلالة لا تحتاج الى زيادة حدٍّ أو تعيين. وجلُّ ما نستطيع ان نستخلصه من قول ادنجتن عن الحرية انها ليست ما يخضع للقوانين والسنن الطبيعية وهذا قول سلبي عنها لا يفيدنا شيئاً عن طبيعة الحرية الموجبة. اذ من القواعد المنطقية الاولية ان مجرَّد المنع في التحديد لا يفيد كثيراً أو قليلاً عن خواص الشيء المحدَّد. فمثلاً ماذا نفهم من طبيعة الانسان عند ما نقول انه ليس بالحجر الصواني. لهذا يجب الاَّ نهلل كثيراً لقول ادنجتن ان الحرية من خواص الكون القصوى واننا بها نلمح «الله» منبثًّا في الكون الاَّ اذا عيَّن لنا ما يرمي اليه بالحرية تعييناً كاملاً

إنَّ «الله» اخطر الكائنات، ومن خصائصه التمتع بالخلق والحرية والابداع والكمال الادبي، فاية فلسفة بشأنه يجب ان تشمل فيما تشمله هذه الصفات، وان تحدد ما تقصد بها تحديداً لا يداخله لبس ولا ابهام. ومع ان نظرية ادنجتن في «الله» تحرج على اهمية اسناد الحرية الى الله الاَّ انها تعجز عن تبيان اي تميز ادبي في تصرف الكون، هذا فضلاً عن انها مشيَّدة على نظرية علمية خاصة قد ينسخها البحث العلمي المقبل. لذلك نكون قد اعتصمنا بغالي الحكمة اذا نحن صددنا انفسنا عن التفلسف بشأن «الله» برعونة وتسرع واذا نحن حاولنا ان ننسج فكرة «الله» من اعم وادق واعمق ما تحيط به خبرتنا البشرية

شارل مالك

الشعر والعلم

« رأينا في مجلة الشعر مقالة تنعش النفوس لاوليفر ده الس
فقضى فيها على سخافة بعض القائلين بوجود التناقض بين الشعر والعلم.
وكان حقه ان يزيد على ذلك ويقول ان اسمى مواهب الشعر ملتحمة
باسمى ما بلغه العلم ، بل هي نفس ما يتوخاه العلم . فالبعض من اعظم
الشعراء مثل دانتي كان من علماء عصرهم . وقد تاق الشاعر وردزورث
في ما كتبه في مقدمة ديوانه « القصائد الغنائية » الى الزمن الذي
يصير فيه العلم العصري من مقومات الفئة الناهضة وعناصر ثقافتها ،
فيبث في الشعر روحاً جديدة كما بثت الفلسفة في اشعار لقريطيوس
وفرجيلوس وكما بثت علوم العصور الوسطى في اشعار دانتي . والعالم
والشاعر ينظران الى نواميس الكون على حد سوى، والفرق بينهما
ان العالم ينظر اليها من حيث تحقيقها واستخدامها،والشاعر ينظر اليها
من حيث علاقتها بنفس الانسان .فنظر العالم خارجي مرتبط بالحوادث.
ونظر الشاعر داخلي ادبي يتوقف ادراكه على حالة النفس .ولقد احسن
وردزورث اذ قال : « ان الشعر هو التعبير النفسي عما في ضمير العلم».
ويمكن ان يزاد على ذلك ان غرض العلم الوصول الى الحقيقة مجردة ،
وغرض الشعر الوصول اليها مشفوعة بالمسرة » [عن نايتشر]

المناخ ونشاط الانسان

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا
وكيل وزارة الداخلية للشؤون الصحية

٦ — أنسب مناخ لنشاط الانسان

يوجد حد اقصى وحد ادنى لكل عنصر من عناصر المناخ لا يمكن للكائن الحي ان يعيش فيه من غير ان يتعرض للخطر وقد يكون ذلك سبباً في انقراض نوعه فلو بلغت درجة الحرارة على سطح الارض المائة فهرنهيت واستمرت على هذه الدرجة لانعدمت كل الكائنات اما اذا بلغت درجة الجليد فان الكثير من الاحياء الدنيا تموت غير ان الحيوانات الفقرية الباردة الدم تتحمل الانخفاض الشديد في درجة الحرارة وقتاً طويلاً ولكن اذا تحملته بعض النباتات فانها لا تتناسل . وهذا يصدق ايضاً على الانسان والحيوانات ذوات الدم الحار ان لم تتق البرد بالتدفئة الصناعية . ومن المشكوك فيه ايضاً انها تتناسل في الجو الشديد الرطوبة اذا انعدم التبخر . وقد لوحظ في اليابان انه عقب الصيف الحار المشبع بالرطوبة تكثر ولادة الاطفال الموتى . ولا يوجد ما يثبت ان الرطوبة اذا انخفضت الى حدها الادنى تسبب فناء الانسان ولكنها اذا انعدمت فان تأثير ذلك في موارد المياه والنبات يسبب هذا الفناء لان جفاف الهواء الشديد في المناطق الحارة يضايق الانسان جداً بسبب ما يشعر به من العطش فيضطر الى الافراط في شرب الماء ومع ذلك فانه لا يرتوي . واما في المناطق الباردة فلا يسبب الجفاف جدباً تاماً ويمكن للانسان ان يعيش في مناخ كهذا ما دام الغذاء والماء متوافرين . ومن العناصر التي لا غنى عنها للحياة ضوء الشمس الذي لو انعدم لما عاش مخلوق على الارض . واذا سكنت حركة الريح فان سكونها يسبب تلوث الهواء بمفرزات النبات والحيوان والانسان وفضلات الصناعات كما يسبب التبخر تشبع الجزء المجاور لسطح الارض من الجو بالبخار والغازات فيزيد في مضايقة الانسان وتصبح الحياة غير محتملة . ويشاهد ذلك في الازقة القذرة في فصل الصيف وقت سكون الريح وكذلك لا يمكن للانسان او اي كائن حي آخر ان يعيش في المناطق التي تتوالى فيها الانواء والزوابع لانها تهلك الحرث والنسل وتكون هذه المناطق غير صالحة لسكنى المخلوقات

فمن هذا يرى ان الانسان لا يمكنه ان يعمل بنشاط جثماني وذهني في المناطق التي يكون جوها بالحالة التي ذكرناها وقد يستطيع بعض الناس ان يعيشوا في الجهات التي يبلغ الطقس فيها

حدوده القصوى او الدنيا ولكن هؤلاء يكونون عادة عديمي الهمة متأخرين من حيث الاخذ باسباب المدنية وهذا ليس ناشئاً عن ضعف بنيتهم فهم عادة اقوياء ولكن لانهم مضطرون ان يصرفوا جل قوتهم الى مقاومة البيئة الرديئة التي يعيشون فيها . وكذلك ندرة لوازم الحياة لديهم من الغذاء ونحوه تعوقهم عن ابتكار وسائل ومرافق جديدة للحياة لانهم لا يجدون من همتهم بقية يصرفونها في هذه الغاية اي في سبيل العمل على تقدم المدنية عندهم كما يفعل سكان المناطق المعتدلة .فهم دائماً في حاجة الى استنفاد همتهم فى حفظ الدم في حدود الدرجة الطبيعية من الحرارة وهذه الطوائف من الناس تقطن الجهات كغابات الامازون بأمريكا الجنوبية وسيبيريا . اما انسب درجات الحرارة لنمو النبات فهي ٣٠ سنتجراد واقلها ١٠ واذا بلغت درجة الحرارة ٣٨ او ٣٩ ليل نهار تعرض النبات للفناء،هذا اذا ظلت عناصر المناخ الاخرى غير متغيرة لان للرطوبة كما أسلفنا أثراً في المناخ. وقد وجد ان الجو المشبع بها نوعاً تكون الوفيات فيه اقل نسبة مما تكون في الجو الجاف جداً حتى ولو كانت درجة الحرارة في كلا الجوين هي انسب الدرجات للانسان. غير ان الجو الحار او الجو البارد المشبع بالرطوبة يكون ضرره للانسان اكثر من ضرر الجو المعتدل المشبع بها ايضاً ولذلك ترتفع نسبة الوفيات في الجو الحار المشبع بالرطوبة .ويتضح من الرسم البياني عن الوفيات بمصر ان زيادة الوفيات بها ولاسيا بين الاطفال تتبع ارتفاع درجة الحرارة في الصيف في اثناء شهري يوليو واغسطس اللذين تزداد فيهما ايضاً نسبة رطوبة الجو . ويمكن القول اجمالاً ان الرطوبة الزائدة تدعو الى الخمول والضعف واذا وصلت الى درجة التشبع اصبحت غير محتملة. وقد دلت التجارب التي عملت على ان انسب الاجواء لنشاط الانسان ما كانت حرارتهُ حوالي ١٩ او ٢٠ سنتجراد مع درجة رطوبة بنسبة ٨٠ في المائة وحركة هواء لا يكاد يُشعَر بها. ويَشعُر الانسان بالمضايقة اذا كان الهواء ساخناً وشديد الحركة لانهُ لا يترك الفرصة للهواء الملامس للجسم لكي يبرد بل يجعله دائماً تحت تأثير طقس ساخن ولا مشاحة في ان هذا يقلل من كفاية الجسم للعمل

ولا يقصد مما ذكر ان انسب الاجواء هو المعتدل في درجة حرارته او المتناهي في التقلب وانما احسن مناخ هو المعتدل التقلب في جميع عناصره سواء كان في درجة الحرارة او الرطوبة او ضوء الشمس او حركة الريح. وقد لوحظ ان انسب ضغط جوي هو الذي يكون على ارتفاع يتراوح بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر وأنسب ضوء شمسي هو ما كان مناسباً لالوان جلد الانسان في خطوط العرض المختلفة

ويتضح من الاطلاع على الرسم التخطيطي ان درجة الحرارة السابق ذكرها (وهي ما كانت حوالي ١٩ و ٢٠ سنتجراد) هي اوفق درجة للصحة ولجميع انواع النشاط في الانسان والحيوان والنبات

٧ — شرح الرسم البياني رقم ١

(١) لقد روعي في حساب هذه الخطوط البيانية معدل الرطوبة وحركة الهواء وضوء الشمس التي تتوازن بعضها مع بعض بطبيعة الحال ولذلك فان الخط الناتج عن هذه الموازنة يدل على الحرارة وكذلك مدلول باقي الخطوط. ويلاحظ في خط نمو النبات انه على درجة ٥٠ فرنهيت (١٠ سنتجراد) لا ينمو النبات العادي وعلى درجة ٥٥ ينمو قليلاً وعلى درجة ٦٠ ينمو ببطء ثم يستمر النمو في الزيادة حتى درجة ٨٥ فرنهيت (٢٩٫٥ سنتجراد) تقريباً . واذا ارتفعت عن ذلك بدأ النبات في الذبول حتى درجة ١٠٠ فرنهيت (٣٧٫٨ سنتجراد)وهذه اذا استمرت نهاراً وليلاً مات النبات

(٢) واذا تتبعنا الخط الثاني من اسفل تبين لنا سرعة الانقسام في النقاعيات ذات الخلية الواحدة ففي درجة ٤٠ فرنهيت لا يحصل اي انقسام وبالتالي لا يحصل تكاثر وكلما ارتفعت درجة الحرارة ازداد الانقسام حتى يصل الى الدرجة الانسب وهي من ٨٠—٨٥ ثم يقل حتى درجة ٩٠ حيث يقف النمو

(٣) اما الخط الثالث فهو قياس لنشاط حيوان كسرطان البحر الذي يقاس نشاطهُ بمقدار امتصاصه للاوكسجين ونرى ان الحالة تشبه الحالتين السابقتين والدرجة الانسب للنشاط هي ٧٤

(٤) اما الخطوط الاربعة الباقية فتوضح نشاط الانسان. فخط الصحة يبين الوفيات اليومية في نيويورك من سن خمس سنوات فصاعداً في درجات الحرارة الموضحة به (وهو مأخوذ عن لجنة مجلس الابحاث في موضوع الجو والانسان) ويلاحظ انه يماثل خط النبات والحيوان. والخلاف الوحيد بين هذه الخطوط هو أن هذا الخط اكثر استقامة من جهة اليسار لان الانسان يقي نفسه في الجو البارد بطريقة لا تتيسر لغيره من الكائنات بينما في درجة الحرارة العالية لا يحتاج الى هذه الوقاية . وبناء عليه يكون تأثيرها فيه كما هو في سائر الكائنات وانسب الاوقات عنده للحياة هو ما بين درجة ٦٦ و ٧٠ فرنهيت ليلاً ونهاراً (١٩ و٢١ سنتجراد تقريباً) ويقرر بحاث آخرون ان الدرجة الانسب هي ما بين ٦٤ و ٦٥ لليوم كله (١٧ $\frac{٧}{٩}$ و ١٨ $\frac{٣}{٩}$ سنتجراد) . اما خط النشاط الجثماني فيوضح مقدار العمل الذي قام به ٥٠٠ رجل وامرأة في بعض المصانع في ايام مختلفة في متوسط درجة حرارة معلومة ويماثل خط الصحة. ويلاحظ استقامة الخط في اليسار وانحرافه في اليمين عند ارتفاع الحرارة والفرق بينهما في المقدرة على العمل عند متوسط حرارة الجو الخارجي بدرجة ٦٠ فرنهيت (١٥ $\frac{٥}{٩}$ سنتجراد) وليس من شك في ان العمل يحدث دفئاً وبناء عليه تلائم العامل درجة حرارة اقل مما يحتاج اليه الشخص في حالة سكونه وراحته أو مما يحتاج اليه المريض

اما الخط الخاص بالنشاط الذهني فهو يمثل نتيجة مسابقة حصلت بين ١٦٠ طالباً بأمريكا

وهو يشبه خط الصحة وخط العمل الجثماني الاَّ في دلالته على ان انسب وقت لهذا النشاط هو في درجة ٣٨ فرنهيت أي (⅓٣ سنتجراد) ثم تلي هذه الدرجة هضبة ترتفع حتى تصل الى انسب درجة للنشاط الجثماني وهي ٦٥ (⅓١٨ سنتجراد). ومما ينبغي ذكره انه بالرغم من ضعف الثقة بصحة هذا الخط فانهُ من المجمع عليه بين بحاث عديدين ان الحرارة اللازمة للعمل الذهني مع ما تتمتع به من ملبس ومسكن وغذاء هي اقل مما يلزم للعمل الجثماني

ويستخلص من مجموع هذه الخطوط ان انسب الاجواء للانسان صيفاً ما كان معدل حرارته ٦٥ درجة فرنهيت مع نهاية قصوى نهارية تتراوح بين ٧٠ و ٧٥ (٢١—٩ر٢٣ سنتجراد) وليلاً بين ٥٥ و ٦٠ (٨ر١٢—٥ر١٥ سنتجراد) وفي الشتاء ما يقرب من اللازم للنشاط الذهني اي ما بين ٤٥ و ٥٠ في منتصف النهار وبالليل ما يقرب من درجة الصقيع وهي ١٠ سنتجراد

وهنا لا بد ان يرد على الخاطر سؤال ارى من اللازم الاجابة عنهُ قبل الاسترسال في البحث وهو:

٨ — هل كل الاجناس تتأثر بالمناخ على السواء

ليس من شك في ان المناخ الذي يناسب احد الاجناس البشرية قد لا يكون مناسباً للجنس الآخر بل قد يختلف ذلك حتى في نفس الجنس الواحد بالنسبة لمختلف الافراد عند ما يتعرضون لمناخات مختلفة ولكن الفروق طفيفة للغاية لانه وجد ان انسب مناخ العمل والنشاط في اليابان والولايات المتحدة والقطر المصري مثلاً متساوٍ تقريباً. وقد جمع الهولانديون احصاءات دقيقة عن جنس من الناس عاشوا قرب خط الاستواء فوجدوا ان انسب درجة حرارة للعمل والنشاط لهذا الجنس لاتزيد الاَّ ٥ درجات فرنهيت (اي ٨ر٢ درجة سنتجراد) عما يحتاج اليه الجنس الابيض. هذا وانسب درجة رطوبة للجنسين متساوية. وكذلك في الولايات المتحدة وجد ان انسب مناخ للسود فيها معادل تقريباً لانسب مناخ للبيض لانه لا يختلف الاَّ في درجة الحرارة حيث تزيد عند السود ٤ درجات فرنهيت (اي ٢ر٢ درجة سنتجراد) وتزيد درجة الرطوبة بمقدار غير محسوس. فمن هذا نرى ان انسب مناخ للانسان واحد تقريباً لكل من سكان المناطق الحارة والمعتدلة على السواء

وقد وصلنا الآن الى الدرجة التي تمكننا من تعيين المناطق التي يغلب فيها الجو الانسب لبني الانسان او بعبارة اخرى يمكننا ان نعين المناطق التي يصل الانسان فيها الى اقصى غايته من النشاط — والخريطة التي تصحب هذه الرسالة قد رسمت على اساس نتائج واحصاءات عديدة وهي تبين المناطق التي يمكن ان يتمتع فيها الانسان بأنسب مناخ وهو الملائم لارقى درجات النشاط. على ان البيانات المشتملة عليها هذه الخريطة لا يصح اعتبارها بمثابة حقائق قاطعة وانما يمكن اعتبارها تجريبية وان كانت المبادئ العلمية التي رسمت هذه الخريطة على ضوئها لا ينتظر تغييرها

ويشاهد الناظر الى هذه الخريطة ان المناطق التي يقرب مناخها من الانسب هي الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة والمناطق المحيطة بالبحر الشمالي في اوربا وبعض المناطق الواقعة على شاطئ المحيط الهادي في الولايات المتحدة وزيلاندة الجديدة واليابان وشيلي. هذا بالنسبة للجنس الابيض واما سكان المناطق الحارة فالمناطق الانسب مناخاً لهم كما اسلفنا هي الاقرب الى خط الاستواء قليلاً وكذلك المناطق القارية اي الواقعة في اواسط القارات

واذا نظرنا الى اواسط القارات وجدنا ان الحالة الصحية منحطة فيها وان النشاط يكاد يكون معدوماً بين سكانها حتى عند خطوط العرض الملائمة للحياة وسبب ذلك هو الجفاف الشديد والتغير الزائد في درجة الحرارة في بعض الاوقات مقروناً بفترات يكون فيها التغير من يوم الى يوم غير محسوس كما هو حاصل في آسيا الوسطى. فلذلك تفتقر هذه المناطق الى زوابع دورية كالتي تحصل في المناطق ذات الجو الانسب كاليابان والولايات المتحدة لان هذه الزوابع تهيئ الفرصة لتغير أو تقلب جوي دائم من يوم الى يوم طوال السنة

وهذه الخريطة لا تقتصر على بيان النشاط بل تبين ايضاً حالة الصحة ودرجة التمدن وذلك واضح مما شرحناه عند الكلام على تأثير عناصر المناخ المختلفة في الصحة

وبديهي ان عاملي الصحة والمدنية لا يغيران المناخ بل المناخ هو الذي يؤثر فيهما وقد يكون هو العامل الاول في تقدم المدنية والتمتع بالصحة. ولزيادة الايضاح نلقي نظرة اخرى على الخريطة ونطبق عليها كل ما ذكرناه فنجد اننا كلما قربنا من منطقة المناخ الانسب ارتفعت درجة النشاط والصحة وبالتالي تزداد وسائل تقدم المدنية وينشأ عن ذلك تحسن الصحة بسبب ما تنشره المدنية من العرفان والنور. وكلما تحسنت الصحة ساعد تحسنها بدوره على تقدم المدنية وهلم جراً. ويزداد الفرق وضوحاً من حيث الصحة والمدنية كلما قربنا من النهايات الملائمة للحياة

ولكننا عند التأمل في هذه النتائج وفحصها يعترضنا السؤال الآتي وهو : —

٩ — لماذا بلغت المدنية في العصور القديمة منتهاها في أقاليم غير متمتعة بالمناخ الانسب ؟

لقد اختلف الثقاة في هذا الموضوع وكان مثاراً للجدل بينهم ولكنهم مع ذلك اجمعوا على ان النشاط موزع في العالم وفقاً لتأثير المناخ في وظائف اعضاء الانسان

ولقد اتفق الجيولوجيون على انهُ قد أتى على العالم حين من الدهر في العصور المترامية في القدم اي منذ ٢٥ الى ٣٠ الف سنة خلت كان الثلج فيهِ يغطي مناطق شاسعة من اميركا الشمالية واوربا الحديثة حيث تقدمت المدنية الآن تقدماً عظيماً ثم انحسر الثلج عن ارجائها بسبب التغيرات الجوية التي حدثت بطريقة غير منتظمة فأحياناً بالتدريج وأحياناً طفرة واحدة وغطيت مناطق اخرى بالثلج بينما المناطق الجافة كآسيا الغربية والولايات المتحدة الغربية الجنوبية قد اشتد جفافها في الالف او الالفي سنة الاخيرة. وقد طرأ على درجة الحرارة ايضاً

شيء من التغيير وان كان طفيفاً حيث لم يقل متوسط درجة الحرارة بالنسبة للزمن الحاضر حتى في اشد اوقات الجليد عن ٣ر٨—١ر١١ درجة سنتجراد ولم تتذبذب درجة الحرارة من فجر المدنية حتى العصر الحاضر اكثر من ½ الى ⅓ من هذا المقدار . هذا بينما تتغير المواسم كثيراً من جيل الى جيل . ويستدل على ذلك بما شوهد في الخرائب ومجاري الري وآثار المزارع القديمة في المناطق الخالية من المياه الآن وكذلك آثار الطرق والاشجار المعمرة التي توجد في المناطق الجافة مع ان قليلاً من المطر كان يكفي لتغيير الحالة في هذه الجهات والمطر الغزير المتكرر يستدل منه على وفرة الرطوبة والضباب الكثيف والاعاصير والزوابع وينشأ هذا عن التغير المستمر في درجة الحرارة

ومع ان متوسط درجة الحرارة في العالم لم يتغير الاَّ قليلاً منذ القدم الاَّ انهُ يظهر ان ما اصاب العالم من التغير في درجة الرطوبة والتقلب في الريح كبير ولذلك فان المناخ الانسب لنشاط الانسان كان اقرب الى خط الاستواء والصحاري مما هو عليهِ الآن ثم انتقل بطريقة غير منتظمة الى المناطق القريبة من القطبين والى شواطىء القارات ولذلك ازدهرت المدنية في عصور التاريخ حتى زمن المسيح عليهِ السلام في البلاد المحيطة بحوض البحر الابيض المتوسط وفي آسيا الغربية فان هذه البلاد كانت تتمتع بالمناخ الانسب ثم انتقل هذا المناخ الى المناطق الشمالية حيث يكثر الضباب والزوابع . ولهذا التعليل انصار ومعارضون والمعارضون يقولون ان الاحصاءات التي امكن جمعها حتى الآن غير كافية للتدليل على النتائج السابقة الذكر

ومع ان هناك تغيراً في المناخ الاَّ ان هذا التغير قليل جدًّا ولانتشار المدنية في قطر وانعدامها في آخر اسباب اخرى غير المناخ غير اني من الذين يقولون بأن للمناخ اثراً كبيراً في انتشار المدنية بما يحدثهُ من النشاط في وظائف الاعضاء في سكان منطقة المناخ الانسب للانسان . فالمناخ بلا نزاع يؤثر في تقدم المدنية اما المدنية فلا تؤثر في المناخ نفسهُ وان كانت تتغلب على بعض آثاره كما يحصل بواسطة التدفئة او التهوية او التبريد

بقي الآن سؤَال اخير لابدَّ من الاجابة عنهُ تتمة للموضوع وهو : —

١٠ — هل للمناخ اثر في المميزات الجنسية

ان اثر المناخ في المميزات الخارجية واضح كما يشاهد في لون الجلد وهذا اللون يختلف باختلاف درجة قوة ضوء الشمس لأن المادة الملونة التي في الجلد تقي الجسم من تأثير الاشعة الفوق البنفسجية ولذلك تبيضُ الجلود حيث يكون الضوء خفيفاً وتسودُّ عند خطوط العرض المنخفضة اي قرب خط الاستواء . وطلب الرزق يلجيء الناس على اختلاف الوانهم الى المهاجرة الى بلدان قد تخالف بلادهم الاصلية في مناخها وطقسها وقد شوهد ان الوانهم لا تتغير بتأثير مناخ هذه البلدان من الابيض الى الاسود او بالعكس الاَّ بعد مضي زمن طويل جدًّا

ومن المميزات الخاصة بالمناخ ان غدد العرق تكون قليلة جداً عند السمر والسود ولدى البيض تكون كثيرة العدد وأقل نشاطاً من مثيلاتها عند السود وينفرز العرق منها عند السود في نقط صغيرة لتلطيف حرارة الجسم على الدوام فيحصل التبخر الذي يعقبهُ بعض الانتعاش بينما ينصبُّ العرق من الغدد انصباباً عند البيض

ولا ننسى كذلك شكل الانف ففي سكان الشمال يكون عادة صغيراً ومستديراً بينما في السود يكون قصيراً وواسعاً والحكمة في صغره واستدارتهِ في الحالة الاولى هي لكي لا يسمح بمرور مقدار كبير من الهواء دفعة واحدة بل يجعله يمر في قناة طويلة ببطء ليَسْخُنَ وفي الحالة الثانية يسمح بمرور مقدار كبير من الهواء لان التنفس يكون سريعاً في المناطق الحارة فلو كانت الحالة كذلك مع سكان المناطق الشمالية فلا شك انهم كانوا يتعرضون لخطر جسيم عند ما تكون درجة الحرارة دون الصفر ولعل هذا احد اسباب عجز السود عن المعيشة في الجهات الشمالية

ويعتقد البعض ان هناك مميزات عقلية تابعة للمناخ ولكن البعض الآخر يقول انهُ وان كان هناك اختلاف في حجم المخ وفي تعقيد تركيبهِ ولكن من حيث القوى العقلية يعتقد الكثير من علماء النفس ان هذه القوى تتبع الوراثة الاجتماعية والمرانة. ولكن على كل حال لا يحيى جنس في اي جهة من الجهات الا اذا كان لديهِ من القوى العقلية ما يعينهُ على تدبير وتوفير اسباب معيشتهِ فيها. والجنس الذي يفقد هذه القوى ينقرض لانهُ لا بدَّ لهُ مثلاً من ان يدبر في الصيف ما يحتاج اليهِ من غذاء يتعذر الحصول عليهِ في الشتاء. وعلى اي حال فان وظيفة المخ واحدة في المناطق جميعها وغاية ما في الامر ان السكان يختلفون من حيث كيفية الانتفاع بهذه الوظيفة او بتكييفها وفقاً لاختلاف المناخ في المناطق والبلاد المختلفة

من هذا نرى ان مصرنا في مناخ يقرب من الانسب ولا يوجد ما يمنعها من السير في مدارج التقدم التي بدأت ترقاها بعزم ثابت ومهما قيل عن اشتداد حرارة الصيف في بعض جهاتها فانهُ يمكن التغلب على هذه الحرارة بكل الوسائط الممكنة. اما شواطئها الجميلة فهي خير اماكن يلتجيء اليها سكان مصر في حَمارَّة القيظ. وشتاء مصر يمكن اعتباره المثل الاعلى من حيث المناخ في استنهاض الهمة واستفزاز النشاط مما يعوض علينا ما نكون قد فقدناه في الصيف. فاذا قسمنا السنة الى قسمين قسم حار وقسم معتدل كان الاخير ضعف الاول ولو اننا بذلنا ما يجب علينا بذله من الهمة والنشاط اللذين يتولدان في هذه الفترة فيما يعود على وطننا المحبوب بالنفع والخير لبلغنا بهِ الدرجة التي نتمناها لهُ جميعاً وأصبحنا جديرين بأن ننتسب بحق الى اجدادنا العظماء الذين يشيب الدهر ولا تشيب فنونهم الناطقة بعظمتهم فيما تركوه من آثار تُبْلِي جدة الايام

مهاتما غاندي

تلخيص تاريخه كما رواه بنفسه

بقلم اسماعيل مظهر

— ١ —

صورة للملخص

امبراطورية لا تغيب الشمس عن املاكها. فكرة الارض تحمل من الوانها الجغرافية زناراً يحوطها مع خطوط الطول وخطوط العرض ولسلطانها يخضع الابيض والاسمر والاصفر والنحاسي والاسود من سلالات البشر . وفي داخل املاكها تدين اقوام بصور من الاديان والوان من العقائد لا يحصرها العد ، وينطق بلغات وألسنة تمثل ما بلبل الله من لهجات اهل الارض في بابل القديمة . امبراطورية تسود البحار ، ومن ساد البحار ، فقد حاصر اليابسة او اذلها في عصر كعصرنا قوام الحياة فيه الاتصال لا الانفصال . امبراطورية تقدر ثروتها بالملايين وآلاف الملايين من الاصفر الرنان ، وتحصى مواردها بارقام يكاد يخيل اليك انها موهومة . وخير للحساب ان يخترعوا طريقة حسابية لحصر تلك الموارد ، شبيهة بطريقة الفلكيين اذ يقيسون ابعاد الشموس والسيارات بالسنين النورية لا بالاميال الارضية .



هذه الامبراطورية يقيمها اليوم ويقعدها هيكل بشري من الدم واللحم والعظام، لا يزيد وزنه على وزن كرة مدفع من اصغر مدافع بريطانيا العظمى . واما هذا الهيكل البشري الضئيل فغاندي العظيم

كم من مرة في بضعة السنوات الاخيرة تحركت هذه الامبراطورية ; وأعدت عدتها

برّاً وبحراً ، كما يتحرك «أمفبيان» لا تصوره الاّ الميثولوجيا القديمة ، استعداداً للقبض على غاندي لتضعهُ بين اربعة جدران من اللبنات المرصوصة . ولعمري ان هذا لايبلغ ما يصل اليهِ الوهم الدنيوي . فان جسم غاندي الضئيل ليس بشيء اذا هو حبس بين اربعة جدران من الحجارة او اربعة جدران من الفولاذ ، ما دامت روحهُ تظل محلقة في سماء الحرية الفسيحة فتكهرب جو الشرق، بل جوّ الكرة الارضية ، لا جوّ الهند وحدها

انما تكون الامبراطورية البريطانية جديرة بعظمتها ، اذا هي استطاعت أن تسجن روح غاندي في «قمقم» كما كان يسجن سليمان الجن والشياطين في خرافات الف ليلة وليلة ، ويمحو أثرها من الوجود فاما وروح غاندي تسبح في فضاء الحرية، وتغذي الارواح الاخرى بمبادئها، فاي أثر يمكن ان يحدثهُ سجن الهيكل الترابي، في حجرة عرض جدرانها نصف قيراط او نصف ميل من حجارة او فولاذ ؟

على ان لهذا الهيكل الضئيل تاريخاً تكوّنت خلاله عناصر القوة والعظمة التي يمتاز بها غاندي

واكبر ميزة لهذا التاريخ انهُ يظهرك على غاندي في اطواره ، ويكشف لك عن كمالاته ونقائصهِ في صباه، ثم تحوله في شبابه ، ثم قنوته ونسكه في شيخوخته . ومن هذا التاريخ تعرف كيف تكونت مع عناصر قوتهِ وعظمتهِ ، عناصر مبادئهِ السياسية التي استخلصها من عمليات ووقائع مشهورة ، لا من نظريات خاوية فارغة كَثُرَ ما خطها غيره من الزعماء على الورق او استخلصوها من التاريخ ، وكَثُرَ ما خاب حدسهم وغشهم التاريخ

فاذا انت استوعبت تاريخ غاندي العظيم امكنك ان تعرف كيف يكون أثر المبدإ من القوة اذ يتكوّن على مدى الدهر بعد ان تصقله الحوادث والكوارث ، وكيف يكون أثر المبدإ من الضعف والفساد اذ يعمد الى النظريات دون العمليات

اما هذا التاريخ فنلخصهُ تلخيصاً من كلمات غاندي نفسه ومن كتاب نشره رجل انجليزي من المعجبين بشخصهِ يدعى مستر «أندروز» . وقد كتبهُ وراجعهُ غاندي بنفسهِ وسوف نتوخى في التلخيص

طريقة الترجمة الحرفية لمقطوعات ننتخبها من الكتاب ، بحيث تظهر تاريخ الرجل مفصلاً مطرداً ، بقدر ما تسمح بذلك الاحوال . فاذا اتسع المجال وتتالت صفحات هذا التلخيص ، او تعاقبت في اعداد متتالية من المقتطف ، فعذرنا اننا نترجم عن حياة رجل هزَّ اعظم امبراطوريات الارض ، بعد ان افلتت روحه من اقفاص الفولاذ والحجارة ، التي حاكتها من حوله أوهام القرن العشرين

المولد والسكن

الغانديون من طائفة « البانيا » — Bania — والظاهر انهم كانوا في الاصل تجاراً يتعاطون التجارة في بيع السلع نجوماً ، لا جملة. ولكنهم ظلوا منذ ثلاثة اجيال وزراء في كثير من مقاطعات « كاثياور » Kathiawar وكان جدي «أوتا غاندي» من الرجال الذين يقدرون المبادىء وقد اضطرتهُ الدسائس السياسية ان يغادر « بورباندر » — Porbander — حيث كان « ديواناً » او رئيس وزراء ، وان يلجأ هارباً الى « جوناجاد » .فلما قابل «نواب» هذه المقاطعة حيَّاه بيده اليسرى . ولما سئل عن سبب هذا ، قال — « ان يدي اليمنى قد قطعت لنواب « بوربائدر » عهداً غير مخلوف »

وتزوج « أوتا غاندي » مرتين ، فكان له اربعة اولاد من زوجه الاول واثنين من الثانية. ولما كنت صغيراً لم اشعر مطلقاً بان اولاد « أوتا » كانوا غير اشقاء . اما خامس اولاده فكان كرَمشاند غاندي ، وسمي « كابا غاندي » كما كان سادسهم يدعى تولسيدُس غاندي ، وكلاهما كان رئيس وزراء احدهما تلو الآخر. اما ابي « كابا غاندي» فكان رئيس وزراء « راجكوت» لعهد ما ، ثم رئيساً لوزراء « فانكانار » ولما مات كان يتناول معاشاً من حكومة«راجكوت»

وتزوج كابا غاندي اربع مرات على التوالي ، اذ كان يفقده الموت من يتزوجها في كل مرة. وكان له من زوجتيهِ الاوليين فتاتين من كلٍ واحدة ، وأما زوجتهُ الثالثة « بوتلباي » فقد اعقبت بنتاً وثلاثة صبية . كنت انا اصغرهم

كان والدي محبّاً لطائفتهِ صادق القول شجاعاً كريماً ، ولكنهُ كان ضيق الخلق.ولم يكن زاهداً في الغرائز الحيوانية ، لأنهُ تزوج الرابعة وقد تجاوز الاربعين من عمره ، غير انهُ كان مستقيماً جداً طاهر اليد ، وكان معروفاً باستقلال رأيهِ وعدم تحيُّزهِ ، سواء بين اسرته، ام بين الناس . اما خضوعهُ للحكومة فأمر معروف ذائع . تكلم احد رجال السياسة مرة فسبَّ اميره ، ولكن كابا غاندي ردَّ السباب بمثله ، ولما طلب منهُ ان يعتذر رفض الاعتذار ، فسُجن بضع ساعات ، ولم يفرج عنهُ الا بعد ان رُؤي انهُ من العبث ان يثنى «غاندي» عن عزمه

لم يحاول ابي ان يثري ، ولم يترك لنا من الحطام الاّ النزر اليسير . لم يتلقَّ العلم ولم يتعلم، اللهم الاّ ما تجود به تجربة الحياة على الناس . كان جاهلاً بالتاريخ وبالجغرافية غير ان تجاربه كانت كفيلة بأن تجعله قادراً على ان يحل اعوص المشكلات وان يسوس مئات من الرجال . لم يتفقه في الدين الاّ قليلاً ، غير انهُ استوعب تلك الثقافة التي تستوعب من كثرة التردد على الهياكل والمعابدوسماع المناقشاتالتي كانت تدور حول الدين الهندوكي . وفي اواخر ايامه بدأ يقرأ «الغيتا» — The Gita — على برهمي مثقف من اصدقاء الاسرة ، واعتاد ان يردد بعض مقطوعات دينية جهراً خلال صلاته

***

اما الاثر الذي تركتهُ امي مطبوعاً في مخيلتي فأثر الزهد والقداسة . كانت متدينةشديدة التدين ، حتى انها لم تكن تأكل وجباتها اليومية من غير ان تؤدي صلاة حارة كلها تعبد وقنوت . اما زيارتها للمعبد فكانت من الواجبات اليومية الضرورية . ولا اذكر ، على قدر ما تصل اليه ذاكرتي ، انها اهملت يوماً صيامها الديني ، حتى ان المرض لم يكن سبباً في ان تفرط في هذا الواجب المقدس . مرضت مرة مع حلول الصوم ، غير ان المرض لم يكن ليخل بالنظام ، او يؤثر في القيام بالواجب الابدي . ولم يكن ذا بال لديها ان توالي الصيام اياماً ، بل كانت تكتفي بوجبة واحدة في اليوم ، ما دامت صائمة . وكانت تنذر في بعض الاحيان ان لا تأكل الا اذا طلعت الشمس من خلال الغيوم ورأتها بعينها . وكنا ونحن اطفال نقف في مثل تلك الايام متطلعين الى السماء ، وكلنا شغوف بأن يكون اول من يبشر امه ببزوغ الشمس من خلال السحب الثقيلة . وبلاد الهند خلال فصل الامطار ، لا ترى الشمس الاّ غراراً . ولا ازال اذكر اياماً كنت اهرع فيها الى امي حالما تظهر الشمس بعد هطول الامطار لأبشرها بالنبأ العظيم . فكانت تخرج لتراها بعينيها ، ولكن الشمس الطريدة تكون قد توارت وراء الغيوم قبل ان تكتحل عيناها بمرآها ، فتطوى صائمة وقد تقول — « غير مهم : ان الله لا يريدني ان آكل » . ثم تمضي الى شؤونها وواجباتها كأن لم يكن شيء

وكانت امي ذات قدرة في الحكم على حقائق الاشياء . وكانت محيطة بأحوال الحكومة حتى ان نساء الحاشية كنَّ يقدرن فيها الذكاء . كنتاصاحبها في زيارتها متخذاً من طفولتي عذراً ، ولا ازال اذكر مناقشات كلها فطنة وادراك تدور بينها وبين ارملة « ثاقور صاحب »

من هذين الابوين ولدتفي «بورباندار» فياليوم الثانيمن اكتوبر سنة ١٨٦٩.وهنالك قطعت طفولتي وذهبت الى المدرسة . لم احفظ جدول الضرب الاّ بكل صعوبة . والحقيقة اني لم اتعلم في هذا الدور انا والصبية الذين كانوا يتعلمون معي من شيء ، اللهم الاّ ذم المعلم. والظاهر ان عقلي فيذلك العهد كان ضعيفاً ، كما كانت ذاكرتي فجّة غير ناضجة

كان عمري سبع سنوات لما ترك ابي «پورباندار» الى «راجكوت» ليكون عضواً في الحاشية. فألحقني بمدرسة ابتدائية ، فكنت فيها كما كنت في الاولى تلميذاً عاديًّا متوسط القوة . غير اني لم اصل الى الثانية عشرة حتى كنت في مدرسة عليا ولا اذكر خلال هذه الاثنى عشر عاماً من عمري ، على طفولتي ، اني كذبت مرة واحدة ، سواء على معلمي او على اخواني في التلمذة . وكنت خجولاً جدًّا ، متباعداً عن مرافقة الناس . وكانت عادتي ان اكون بباب المدرسة عند ما تدق ساعة البدء في الدرس ، وأعود الى المنزل توًّا بعد الانصراف . وكنت اقطع المسافة من المدرسة الى البيت عدْواً ، لاني لم اكن احتمل ان اتكلم مع اي انسان كما كنت اخاف ان يهزأ بي اي شخص كان

***

وقعت حادثة خلال دراستي لا بأس بذكرها . كان مستر « جيلز » — Mr. Giles — مفتش التعليم قد وفد مرة ليفتش . فأملى علينا خمس كلمات ليعرف مقدار علمنا بالهجاء (في اللغة الانكليزية) فأخطأت في تهجية احداها وأراد المعلم ان ينبهني الى ذلك بطرف حذائه ولكني تعمدت أن لا انتبه ، لاني شعرت بأنه ليس في مقدوري ان اغش التهجية من صحيفة جاري ، ولان من واجب المعلم ان يحول دون الغش في الامتحان . وكانت النتيجة ان جميع التلاميذ استطاعوا ان يكتبوا كل الكلمات صحيحة ما عداي . انا وحدي كنت بليداً . وكثيراً ما حاول المعلم ان يصرفني عن هذه البلادة ولكن عبثاً . لان الغش شيء لم يكن في مستطاعي أن آلفه

على أن هذا الحادث لم يكن من شأنه ان ينزل قدر معلمي في عيني أو يقلل من احترامه في قلبي . فقد كنت بطبعي اعمى عن ان اعد نقائص الذين هم اكبر مني سنا . ولقد علمت بعد ذلك كثيراً من نقائص هذا المعلم . غير ان احترامي له ظلَّ كما كان . لاني شببت على ان اطيع اوامر من هم اكبر مني ، لا ان اعدَّ معايبهم

حادثتان أخريان في ذلك العهد لا تزالان عالقتان بذاكرتي . كانت عادتي ان انصرف عن قراءة اي شيء خارج عن مجال درسي . وكنت انجز درسي اليومي دائماً . لاني كنت امتعض من ان يكلفني استاذي بواجب عملي ، كما كنت اكره ان اغشه . كنت انجز دروسي، ولكن عقلي كان دائماً بعيداً عنها . كنت انجزها غائب العقل ذاهلاً عنها . ولكن ما دمت قد انجزتها كيفما كانت الحال ، فلا عقاب بتكليف بواجبات اخرى . غير اني بصدفة ما وقعت عيني على كتاب اشتراه ابي . كانت رواية تدور حوادثها على ولاء «شراڤانا» لابويه، فقرأتهُ بمنتهى ما يصل اليهِ الاعجاب وتذهب اليهِ اللذة . وفي ذلك الحين هبط منزلنا بعض

البائعين المتجولين ؛ فرأيت فيما رأيت معهم صورة تمثل «شرافانا» يحمل في حمالة معلقة في كتفيه ابويه الاعميين في هجرة طويلة ازمعاها . ولقد ترك الكتاب والصورة في ذهني أثراً لا يمحى — قلت في نفسي — «هوذا مثال تحتذيه» ولا يزال حياً في ذهني رثاء ابويه على موته ولوعتهما على فقده . ولقد هزني النغم من اعماق لخفظته ، واخذت اعزفه على «كونشرتينا» Concertina [١] اشتراها لي أبي

والحادثة الثانية تتعلق كهذه برواية : حصلت من ابي على اذن بان اشهد رواية تمثيلية يدعى بطلها «هاريشاندرا» . ولقد ملكت مني هذه الرواية كل نواحي قلبي ، وسكنت معانيها في قرارة نفسي ، حتى لقد اخذت أتساءل «لماذا لا يكون كل الناس صادقين مثل هاريشاندرا»؟ إتباع الحق والبحث عن الحقيقة مع احتمال كل المحن والآلام التي تحملها «هاريشاندرا» ، كان الوحي الوحيد الذي بعثتهُ هذه الرواية في نفسي . ولقد اخذت اعتقد في حقيقة «هاريشاندرا» كما لو كان شخصاً حياً لا شخصاً خيالياً ، كما ايقنت بحقيقة وقوع الحوادث التي حاكها المؤلف من حولهِ

وكثيراً ما كنت ابكي كلما ذكرت هذا البطل وحوادث حياتهِ السامية . هاريشاندرا وشرافانا لا يمكن الاّ ان يكونا بطلين تاريخيين لا خياليين . ولا اشك مطلقاً في انني لو قرأت هاتين الروايتين اليوم لهزتا عواطفي بالقدر الذي هزتاها بهِ في أيامي الاولى

لا بد لي في سياق كلامي هذا من أن اجرع بضعة جرعات مريرة ، اذا ما كنت من عباد الحق على الوجه الاكمل . وأول ما أبدأ بهِ هو أمر زواجي وانا في الثالثة عشرة من عمري . ولا جرم اني اغبط الشبان الذين اراهم اليوم من حولي وقد استطاعوا بحكم الزمان ان يفرّوا مما وقعت فيهِ وأنا في سنهم

كنا ثلاثة اخوة . تزوج الاول . ثم صمم كبراء الاسرة على أن يتم زواج أخي وزواجي وأحد أولاد اعمامي معاً في يوم واحد . لم يفكروا في مصالحنا ولا اعاروا رغباتنا اهتماماً ، كأنَّ الامر لا يتعلق الاّ بمرضاتهم وبمقدرتهم المالية على اتمام الزواج . وزواج الهندوكيين ليس بالامر السهل ، بل معناه ان اسرتين قد يعانيان في سبيله الخراب . ضياع في المال والوقت ، واشهر تقضى في اعداد الملابس وادوات الزينة وتهيئة «ميزانيات» من الاموال لاقامة الولائم . وكل من الاسرتين تحاول ان تبزَّ الاخرى اسرافاً وتنويعاً في مظاهر الفرح والسرور . وكان ابي وعمي كلاهما كبير السن ، وكنا آخر من يزوجان من أولادهم ، فامعنا في الاسراف بفكرة ان هذا آخر افراحهما

---

(١) آلة موسيقية يعزف عليها مصري واحد على ما اعرف

لم نعرف نحن من الامر شيئاً الاّ أن هنالك افراحاً تقام وزينات وغناء ورقص وملابس جديدة وولائم فخمة وبنات غريبات عنا أتين لنلهو بهنّ

قلت من قبل اني كنت تلميذاً ، وظللت تلميذاً بعد زواجي . كنت انا وأخوي ندرس في مدرسة واحدة . فلم يكن للزواج من اثر في حياتنا المدرسية الاّ ضياع سنة من اعمارنا ذهبت بدداً . وكم من شباب الهند يقاسون نفس هذه الخسائر الفادحة . على اني مضيت بعد ذلك في الدرس ، وكنت متوسط الذكاء والقوة، غير اني كنت حائزاً على الدوام لرضى اساتذتي وعطفهم . وكنت لا احتمل اللوم ولا التوبيخ . عوقبت مرة عقاباً بذنب ، فبكيت بمرارة، لا اذكر اني بكيت بمثلها في كل اطوار حياتي

***

كنت امقت الالعاب الرياضية ، وكنت لا أذهب اليها الاّ مرغماً لانها اجبارية . غير اني اعتقد الآن ان من الواجب ان تكون من المواد الاساسية في برامج التعليم . اما سبب مقتي لها ، فيرجع الى رغبتي الشديدة في ان اقوم بتمريض ابي ، وكان على فراش المرض وقد قربت نهايته . فكنت ارقب انقضاء الدروس لاهرع الى المنزل وابقى بجانبهِ اعنى بهِ وامرضهُ وانفذ اوامره بكل دقة وعناية . فكانت الالعاب الرياضية تحول دون هذه الرغبة ، ولذلك توسلت الى مستر « جيمي » ان يعفيني منها ، لاقوم بواجبي نحو أبي ، غير انهُ لم يعبأ بتوسلاتي. وكان من الواجب ان نذهب في الساعة الرابعة من كل سبت الى المدرسة لنقوم بتمريناتنا الرياضية، ولم يكن معي ساعة اضبط بها الوقت ، وغشتني السحب واضطراب الطقس

وكان التلاميذ قد تركوا المدرسة قبل ان اصل اليها . في اليوم الثاني لاحظ مستر « جيمي » اني كنت غائباً ، ولما اعتذرت اليهِ عما حدث تماماً ، رفض ان يصدقني ، وفرض عليّ غرامة صغيرة كعقاب لي

لقد اتهمت بالكذب ! فآلمني هذا الاتهام كل الألم ؟ وكيف استطيع ان اثبت براءتي ؟ لم يكن من سبيل الى ذلك . فبكيت بحزن عميق . ولكن لم يلبث أن طرأ على ذهني ان الرجل الصادق يجب ان يكون ذا عناية باموره . وكان هذا الحادث آخر عهدي باهمال اي شيء يتعلق بمدرستي ودرسي . ولكني لم يهدأ لي بال الاّ بعد ان رفعت عني الغرامة التي فرضت عليّ تلقاء اهمالي ، لا تلقاء كذبي

« البقية تأتي »

مآثر العرب

في علم الطبيعيات « الفيزيكس »

لم يوضع مع الاسف في اللغة العربية كلمة تقابل كلمة Physics فالبعض يترجمها بعلم الطبيعيات وآخرون بكلمة علم الطبيعة وغيرهم يستعمل اللفظة الافرنجية بعينها ويقول فيزيكس التي رأيت ان استعملها في هذا المقال

لقد اصبح علم الطبيعيات من العلوم التي لها اتصال وثيق بالحياة البشرية وشأن عظيم في تقدم المدنية الحديثة القائمة على الاختراعات والاستنباطات . ولقد اعتنى علماء هذا العصر عناية كبرى بهِ فأنشأوا المختبرات وصرفوا عليها المبالغ الطائلة ، وهو لم يتقدم تقدماً محسوساً الاّ في القرن الاخير مع انهُ كان موجوداً في زمن اليونان واليهم يرجع الفضل في اكتشاف كثير من مبادئهِ الاولية ، ولهم فيهِ مؤلفات عديدة . ومن حسن الحظ ان العرب ترجموا اكثر هذه المؤلفات ولم يكتفوا بنقلها بل توسعوا فيها وأضافوا اليها اضافات هامة تعتبر اساساً لبعض المباحث الطبيعية ، وكانوا مبتكرين مخترعين اكثر منهم ناقلين ليس في علم الطبيعيات فقط بل في الكيمياء ايضاً. فلقد اخذ العرب مبادئها عن اليونان وتوسعوا في كثير من ابحاثها ولا تزال بعض الطرق التي استعملها العرب في استخراج الحامض الكبريتيك وغيره متبعة الى الآن ، وقد عرفوا عمليات التقطير وتحضير الكحول واكتشفوا بعض الحوامض المعدنية والقلويات النباتية والمعدنية ويقال انهم ركبوا البارود وألفوا في ابطال الكيمياء القديمة كما انهم بعد ان نقلوا علم الطب عن اليونان والهند والكلدان اضافوا اليهِ كثيراً من اختباراتهم فهم اول من استخدم المرقّد — البنج — « وقد وجد محققو الافرنج ان العرب اول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم . . . . ووضعوا علاج اليرقان والهواء الاصفر واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون . . . . » [1] ومما ساعدهم على ذلك انهم كانوا عمليين اكثر منهم نظريين وهذا هو الذي خلق لحضارتهم ميزتها وجعلهم يتفوّقون ويبتكرون في كثير من العلوم

﴿ كتب العرب في الحيل ﴾ وأشهر من كتب في هذا البحث محمد وأحمد وحسن ابناء موسى

---

(١) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي — ج ٣ ص ١٨٠

ابن شاكر « ولهم (اي لابناء موسى) في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة ولقد وقفت عليهِ فوجدته من احسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد[١] » وأبناء موسى كانوا مقربين من المأمون العباسي وكثيراً ما رجع اليهم في حلّ ما يعسر عليهِ فهمه من آراء الحكماء . وقد ترجم العرب بعض كتب اليونان التي تبحث في الفيزيكس ككتاب الفيزيكس لارسطوطاليس[٢] وكتاب الحيل الروحانية وكتاب شيل الاثقال لايرن وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلا لمورطس[٣] . وكذلك لهم فضل في علم السوائل ولهم فيهِ بعض المؤلفات ، وقد استنبطوا طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الوزن النوعي . ويقال انهم اول من عمل فيهِ الجداول الدقيقة فقد حسبوا كثافة الرصاص فوجدوها ٣٣ر١١ بينما هي ٣٥ر١١ والفرق بين المقدارين ضئيل جداً . وعمل البيروني تجربة لحساب الوزن النوعي واستعمل لذلك وعاء مصبهُ متجه الى اسفل ومن وزن الجسم بالهواء وبالماء تمكن من معرفة مقدار الماء المزاح ومن هذا الأخير وزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعي[٤] . واستعمل العرب موازين دقيقة للغاية وثبت ان فرق الخطأ في الوزن كان اقل من ٤ اجزاء من الف جزء من الغرام ، ويقال انهُ كان لديهم موازين ادق من ذلك . وللخازن كتاب في الموازين كتبه سنة ١١٣٧ م[٥] وفيهِ وصف دقيق منفصل للموازين التي كان يستعملها العرب في تجاربهم ، وفيهِ ايضاً وصف لميزان غريب التركيب لوزن الاجسام بالهواء والماء[٦] ، وقد بيّن الخازن ان الهواء (كالماء) يحدث ضغطاً من اسفل الى اعلى على أي جسم مغمور فيهِ ومن هذا استنتج ان وزن الجسم بالهواء ينقص عن وزنهِ الحقيقي[٧] . كذلك بحث العرب في الاجسام الساقطة ووضعوا قوانين لذلك ولهم في الجاذبية ابحاث بسيطة ويقال ان موسى بن شاكر الذي ظهر في اوائل القرن الثالث للهجرة انتبه لها . وقد قال العلامة صروف في هذا الصدد في كتابهِ بسائط علم الفلك ما يلي « وهذا التفاعل بين الاجرام السموية التي يطلق عليهِ اسم الجاذبية العمومية انتبه لهُ بعض العلماء من قديم الزمان فاشار اليهِ بطلميوس صاحب كتاب المجسطي حاسباً انهُ هو الذي يجعل الاجسام تقع على الأرض متجهة نحو مركزها وهو الذي يربط السماء بعضها ببعض . ويقال ان موسى بن شاكر المهندس الذي نشأ في اوائل القرن الثالث الهجري انتبه لهُ

---

(١) ابن خلكان — وفيات الاعيان — ج٢ ص٧٠ (٢) اسماعيل مظهر — تاريخ الفكر العربي — ص٥٢
(٣) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي — ج ٣ ص ١٥٤
(٤) كاجورى — تاريخ الفيزيكس — ص ٢٣
(٥) » » » »
(٦) » » » »
(٧) » » » »

ايضاً وقال به ...» وقيل ان احد علماء العرب وهو البوزجاني [١] اكتشف احدى المعادلات الضرورية لتقويم مواقع القمر سميت معادلة السرعة [٢]

وظهر في اوائل القرن الخامس الهجري رجل لهُ فضل كبير في تقدم بحث الضوء ولا يخلو اسمهُ من كتاب يبحث في تاريخ الفيزيكس فهو في مقدمة الذين اضافوا اليها ويدعى الحسن ابن الحسن بن الهيثم ابو علي المهندس نزيل مصر « وكان عالماً بهذا الشأن (اي بعلم الهندسة) متقناً لهُ متفنناً فيهِ قيماً بغوامضهِ ومعانيهِ مشاركاً في علوم الاوائل اخذ الناس عنهُ واستفادوا منهُ . . . . » [٣] وتقول دائرة المعارف البريطانية انهُ كان أول مكتشف ظهر بعد بطلميوس في علم البصريات ، وهو الذي اضاف القسم الثاني من قانون الانعكاس القائل بان زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوٍ واحد [٤] . اما القسم الاول من هذا القانون (وقد وضعهُ اليونان) فهو — زاويتا السقوط والانعكاس متساويتان — . وفي كتابهِ عن « البصريات » يقول انهُ اذا سقطت حزمة من الاشعة الضوئية على المرآة الكرية وكانت موازية للمحور الاصلي فانها تتجمع بعد انعكاسها في نقطة معينة على المحور [٥] . ولهُ كتاب في المرايا المحرقة التي كتب فيها كثيرون . وعلى ذكر المرايا المحرقة يقول كشف الظنون في الجزء الثاني ص ٤١٦ ما يلي : « قال ابو الخير هو علم يتعرَّف منهُ احوال الخطوط الشعاعية والمنعطفة والمنعكسة والمنكسرة ومواقعها وزواياها ومراجعها وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس اشعة الشمس عنهم ونصبها ومحاذاتها ومنفعته بليغة في محاصرات المدن والقلاع » . وقد ادخل في كتابه عن البصريات بعض المسائل المهمة عرف بعضها باسم — مسائل ابن الهيثم — فمثلاً اذا علم بوضع نقطة مضيئة فكيف تجد على المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية النقطة التي تتجمع فيها الاشعة بعد انعكاسها . ويقال انهُ صنع مرآة مكونة من بعض حلقات كرية ولكل منها نصف قطر معلوم ومركز معلوم انتقاها بحيث ان جميع الحلقات تعكس الاشعة الساقطة عليها في نقطة واحدة . وقاس كلاً من زاويتي السقوط والانكسار وبيَّن ان بطلميوس كان مخطئاً في نظريتهِ القائلة بأن النسبة بين زاوية السقوط وزاوية الانكسار ثابتة ولكنهُ هو ايضاً لم يتوفق الى ايجاد القانون الحقيقي [٦] للانكسار [٧] واستعمل لقياس زاويتي السقوط والانكسار آلة تشبه

(١) انظر مقالي في مقتطف نوفمبر سنة ١٩٣٠ (٢) فانديك — القبة الزرقاء — ص ٨
(٣) ابن القفطي — كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء — ص ١١٤
(٤) كاجورى — تاريخ الفيزيكس — ص ٢٢
(٥) « « « «
(٦) القانون الحقيقي هو جيب زاوية السقوط : جيب زاوية الانكسار : جيب مقدار ثابت
(٧) كاجورى — تاريخ الفيزيكس — ص ٢٢

الآلة المستعملة الآن في تركيباتها الاولية وله جداول ادق من جداول بطلميوس في معاملات الانكسار لبعض المواد[١] وهو من الذين لم يأخذوا برأي اقليدس واتباع بطلميوس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين الى الجسم المرئي بل اخذ برأي ديموقراطيس وأرسطوطاليس القائل بأن شعاع النور يأتي من الجسم المرئي الى العين[٢] وبحث في كتابه ايضاً في قوى تكبير العدسات وقد تكون كتاباته هذه التي اوحت اختراع النظارات[٣] . ويقال ان ابن الهيثم بحث في تعليل الشفق، وبيّن ان الزيادة الظاهرية في قطري الشمس والقمر حينما يكونان قريبين من الافق وهمية[٤] ، وقد علل هذا الوهم تعليلاً علمياً صحيحاً لم يسبق اليه مما يدل على تضلعه من الرياضيات والفلك . ولولا الخوف من ان التعليل قد يخرجنا عن دائرة بحثنا لأتينا على ذكره . والغريب ان البعض نسب هذا التعليل (اي تعليل ابن الهيثم الى بطلميوس ولم يدرِ ان بطلميوس قال ان الزيادة حقيقية اي انها غير وهمية . وهو اول من كتب عن اقسام العين ورسمها بوضوح تام وقد اعتمد في بحثه عن العين على كتب التشريح التي كانت موجودة في ايامه وقد وضع اسماء لبعض اقسام العين وأخذها عنه الافرنج وترجموها الى لغاتهم[٥] فمن الاسماء التي وضعها « الشبكية — Retina » و« القرنية — Cornea » و « السائل الزجاجي — Vitreous (glassy) humor » و« السائل المائي — aqueus humor » . وتقول دائرة المعارف البريطانية ان ابن الهيثم كتب في تشريح العين وفي وظيفة كل قسم منها وانه بيّن كيف ننظر الى الاشياء بالعينين في آن واحد ، وان الاشعة من النور تسير من الجسم المرئي الى العينين ومن ذلك تقع صورتان متماثلتان على الشبكية في محلين متماثلين بينما اليونان قالوا بأن الاشعة تخرج من العينين الى الجسم المرئي . وابن الهيثم اول من بيّن بان الصور التي تنشأ من وقوع صورة المرئي على شبكية العين تتكوّن بنفس الطريقة التي تتكوّن بها صورة جسم مرئي تمر اشعتهُ الضوئية من ثقب في محل مظلم ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذي دخل منهُ النور، والسطح يقابله في العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء فاذا ما وقع الضوء حدث تأثير انتقل الى المخ ومن ذلك تتكوّن صورة المرئي في الدماغ . وله ايضاً معرفة بخاصيات العدسات اللامّة والمفرقة والمرايا في تكوين الصور[٦] . واول رسالة كتبت في اوربا في البصريات سنة ١٢٧٠ م اعتمد مؤلفها على كتب بطلميوس وابن الهيثم ، وقد ظهر ايضاً كتاب البصريات لابن الهيثم في اللغة اللاتينية في بال سنة ١٥٧٢ م

وكان ابن الهيثم فوق كل ذلك من الذين بحثوا في الرياضيات والفلك وله فيهما مؤلفات

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة Light (٢) كاجورى — تاريخ الفيزيكس — ص ٢٣
(٣) دائرة المعارف البريطانية مادة Light، (٤) » » » » »
(٥) كاجورى — تاريخ الفيزيكس — ص ٢٣
(٦) دائرة المعارف البريطانية مادة Comera

عديدة ولقد بحث في حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط [١] وتمكن من ايجاد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محور السينات اومحور الصادات[٢]. وتنسب له بعض رسائل في المربعات السحرية [٣] واستعمل نظرية افناء الفرق [٤] وقد كنا تكلمنا عنها في مقالة لنا سابقةعن ثابت بن قرة . وله ابحاث في الهندسة تدل على سعة اطلاعه وتعمقه في علوم زمانهِ ولقد طبق الهندسة على المنطق [٥] ومن تآليفه : تهذيب المجسطي، مصادرات اقليدس، مساحة الجسم المتكافئ، اختلاف منظر القمر ، تربيع الدائرة ، اعداد الوفق ، عمل المسبع في الدائرة ، الكرة المحرقة ، الهالة ، قوس قزح ، المرايا المحرقة ، ضوء القمر ، تعليق في الجبر ، المناظر — وغيرها كثير . ولا يتسع المجال لذكر جميع مؤلفاته وانما احيل القارئ الى كتاب «أخبار الحكماء بأخبار العلماء ص ١١٦ » حيث يجد اسماء مؤلفات ابن الهيثم التي تعطي صورة عن ذكائهِ الممتاز

وبحث العرب في (الصوت) ولا سيما فيما يتعلق بالموسيقي وبآلاتها ويقال انهم زادو « وتراً خامساً زاده زرياب بالاندلس وكان للعود اربعة اوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الاربع فزاد عليها وتراً خامساً احمر متوسط ولوّن الاوتار وطبقها على الطبائع»[٦] واستنبطوا الآلة المعروفة بالقانون فقد اخترعها الفارابي الفيلسوف وهو أول من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه الى الآن [٧] ويقال ايضاً ان الفارابي اخترع آلة غريبة في بابها مؤلفة من عيدان يركبها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ويقال انهُ تمكن من تركيبها والضرب عليها بحضرة سيف الدولة بصورة تجعل السامع يبكي أو يضحك أو ينام [٨]

وعلى العموم فان للعرب فضلاً كبيراً (اولاً) في نقل علوم الاقدمين من يونان وهنود وفرس وكلدان والتوسع فيها (وثانياً) في الاضافات الهامة التي اضافوها اليها ، ولولا حضارة العرب التي اخذ عنها الافرنج الشيء الكثير لما وصلت المدنية الحديثة الى ما وصلت اليهِ ولما تقدمت العلوم تقدمها الحاضر

نابلس — فلسطين قدري حافظ طوقان

---

(١) سمث — تاريخ الرياضيات — ج٢ ص ٤٥٦
(٢) كاجوري — تاريخ الرياضيات ص ١٠٩
(٣) كاجوري — تاريخ الرياضيات ص١٠٤
(٤) كاجوري — تاريخ الرياضيات — ص ١٠٩
(٥) زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٩٢
(٦) « « « « « ص ١٩٥
(٧) « « « « « ص ١٩٥
(٨) ابن خلكان — وفيات الاعيان ج ٢ ص٧٧

الجنس

تعيين الذكر والانثى

للدكتور شريف عسيران

الجنس لغة اعم من النوع فنقول جنس الذكر وجنس الانثى او جنس الرجال وجنس النساء وهو مقابل للفظة Sex باللغة الانكليزية . وقبل ان نبين حقيقة تعيين الجنس نذكر نبذة عن تطور البحث في هذا الموضوع لنتبين غثه من سمينه

يتكون الفرد في الحيوانات العليا ومنها الانسان من ذكر وانثى[١] وقد ظهرت مذاهب عديدة في سبب نشوء الذكر والانثى. فمنهم من قال ان نطفة الرجل هي العامل وآخرون قالوا ان كل جانب من مركز التناسل مختص بجنس فاليمين للذكر واليسار للانثى . وادعى بعضهم انهُ نتيجة صراع بين نطفة الذكر ونطفة الانثى فالاقوى يفوز في تعيين جنس المولود وقال غيرهم ان الأب الارق يولد عكس جنسه . ومن رأي آخرين ان الجنس يتوقف على وقت الجماع فالجماع قبل الطمث يولد ذكوراً وبعده اناثاً. وقال آخرون انهُ يتوقف على المواد الغذائية في بويضة الأم وعلى عمر الابوين الى غير ذلك من المذاهب التي لا تستند الى اساس علمي متين وقد حلت محلها حقائق علمية ثابتة في تعيين سبب الجنس

ابتدأ اول درس علمي لهذه النظرية بعمل احصاءات فأحصوا في اوربا ٥٩٣٥٠٠٠٠ ولادة ووجدوا نسبة الذكور الى الاناث ذ/١٠٦ : ث/١٠٠ اي يربي عدد الذكور على الاناث ثلاثة في المائة وقد ايدت احصاءات غيرها من الامصار هذا القول ولكن وفيات الذكور اكثر من الاناث فنسبة سكان اوربا اليوم ذ/١٠٠٠ : ث/١٠٢٤ اي يزيد الاناث على الذكور ١٢ في الالف. وقد انتجت هذه الاحصاءات عمل قانون خاص اسمهُ قانون (Hofacker and Sadler) نسبة الى موجديه وخلاصته كما يلي : (١) حينما يكون الرجل اكبر سناً من المرأة تزيد نسبة الذكور (ذ/١١٠ — ث/١٠٠) . (٢) حينما يكون الابوان متساويين عمراً تزيد نسبة الاناث (ذ/٩٣٫٠٥ — ث/١٠٠) . (٣) حينما تكون المرأة اكبر سناً من الرجل تزداد نسبة الاناث (ذ/٨٨٫٠٢ — ث/١٠٠) وقد ايد هذه النتائج بعض الاخصائيين ونفاها غيرهم . قال بلص Ploss ان قلة الغذاء خاصة في الام تجعل

---

(١) سنأتي على تفاصيل هذا الموضوع حين بحثنا في التناسل

الاولية للذكور وبعد ان وازن دوسنغ Dusing بين كل هذه الآراء ادلى برأي مآلهُ اذا حدث نقص في احد الجنسين فالطبيعة تعوض هذا النقص بزيادة الجنس الآخر. فحينما يقل عدد الذكور بسبب الحرب تربي ولادتهم على ولادة الاناث بعدها . وحينما يزداد عدد الذكور يتزوجون باكراً فيزداد عدد الاناث. ولا اساس علمي لهذه النظرية وقد أصبحت تعدُّ اليوم من الخرافات فقد بينت الاحصاءات في اثناء الحرب العامة ان مواليد الاناث تزداد بنسبة ضئيلة قدروها باقل من واحد بالمائة وليس سببها تعويض الطبيعة او قلة عدد الذكور لانها لم تحصل عند الامم المحايدة رغماً عن الحصار الذي كان ماسكاً بخناقها . وقد عللوا ذلك بأن اكثر الرجال يكونون بعيدين عن زوجاتهن فلا يحملن كثيراً . والذكور كما ثبت اكثر تعرضاً للموت قبل الولادة من الاناث فمتى قل عدد حمل الأم تكون الاحوال اكثر ملاءمة للذكور فلا يموت منهم كثيراً قبل الولادة لانهم بسبب عوامل طبيعية اكثر تعرضاً للموت من الاناث. وقالوا في سبب ذلك ان في كروموسوم الذكر عاملاً واحداً اسمه X (اكس) ويكون هذا الكروموسوم مفرداً في الذكر ومضاعفاً في الانثى التي تحتوي على اثنين منه وهذا الكروموسوم يحمل صفات كثيرة كما سنبين فيما بعد . ويتفق ان يكون معيوباً وفيهِ عوامل مميتة فاذا كان هذا العامل مفرداً وكان من النوع المميت فان الفرد يهلك . وفي الذكر X واحد اما في الانثى فيوجد اثنان فاذا كان احدهما معيوباً والآخر صحيحاً فان الصحيح يتغلب على المعيوب ويعيش الفرد . ولهذا تكون ظروف الانثى اكثر ملاءمة للعيش من الذكر. وكلما تكرر الحمل تكون الظروف اقل ملاءمة لحياة فالاناث لا يحبلن كثيراً ابان الحروب لانهن بعيدات عن ازواجهن فتسنح الظروف لولادة الذكور وكلما تقدمت الام في السن كانت الظروف اقل ملاءمة للعيش . وقد وجدوا بالاستقراء ان الذكور اكثر تعرضاً للموت قبل الولادة وفي ادوار الحياة الاولى وعزوا ذلك الى الكروموسوم X الذي هو العامل في تقرير الجنس فتحدث فيهِ عيوب مهلكة تؤول الى النتيجة التي ذكرناها

ان كل ما ذكرناه لا يعلل حقيقة الجنس واليك الخبر اليقين في سبب نشوء الجنس ويرجع الفضل الكبير في هذا البحث الى الاستاذ مورغن البحاثة الاميركي المعروف (Thomas Hunt Morgan) وهو عالم لا يزال حيّاً وله القدح المعلى في انارة ظلمات هذا البحث ويأتي بعده بردجز C.B. Bridges وسترتفانت Sturtvant وغيرهم

* * *

قلنا في بدء بحثنا ان في كل نوع من انواع الحيوانات عدداً معيناً او سلسلة (Set.) من الكروموسومات خاصة بالنوع. وقد اكتشفوا انهُ في اكثر الحيوانات العليا ومنها الانسان

تختلف خلية الذكر عن خلية الانثى في بدء تكونها وهنا مفتاح السر في نشوء الذكر والانثى. فعدد الكروموسومات في الانثى شفع وفي الذكر وتر . وقد بينا ان عددها في النوع البشري ٤٨ تصطف ٢٤ زوجاً ولكنها تختلف في الذكر فتكون ٤٧ كروموسوماً او ٢٣ زوجاً وفرد وهذا الكروموسوم المفرد يسمى X (اكس) وهو الذي يعين الجنس. وفي الانثى يكون عدد الكروموسومات ٢٣ زوجاً و « أكسان» اي ان الكروموسوم X الموجود مفرداً في الذكر يكون مضاعفاً في الانثى. وبعبارة اوضح ان عدد الكروموسومات في الذكر ٢٣ زوجاً وا كس واحد وعددها في الانثى ٢٣ زوجاً وا كسان. فالذكر هو الذي يعين الجنس. وهذه هي الحالة في ا كثر الحيوانات ويشذ عن ذلك العصافير والفراش. فان الانثى في هاتين الطائفتين هي التي تبت في امر الجنس ويكون فيها الكروموسوم X مفرداً وفي الذكر مضاعفاً . فالانثى في العصافير والفراش تحمل ا كساً واحداً والذكر ا كسين وعلى وجود ا كس واحد او ا كسين يتوقف نشوء الذكر والانثى. فالذي فيهِ اكس واحد يصير ذكراً والذي فيهِ ا كسان انثى ويتقرر تعيين احد الجنسين حين تلقيح نطفة الانثى بنطفة الذكر . هذه هي الحقيقة الحديثة التي اتفق عليها جلّ الثقاة في هذا الموضوع وقد دحضت كل النظريات التي سبقتها في تعيين الجنس

***

وللكروموسوم « ا كس» شأن كبير في عالم الوراثة لأن له نظاماً خاصًّا في نقل الصفات الوراثية غير نظام مندل الذي نوهنا بهِ وهو مفتاح الى حل لغز عظيم من الغاز الوراثة . قلنا في مقالنا الاول ان الخلية تتألف من نواة والنواة من الكروموسومات ومواد اخرى ولكن تبين ان الكروموسوم كالجوهر الفرد ليس جزءاً لا يتجزأ بل هو مركب من عوامل genes ومعناها المعين اي هي التي تعين صفة الفرد . ففي كل كروموسوم طائفة من العوامل كل منها يحمل صفة مخصوصة فالكروموسومات ترى تحت المجهر ولكن العوامل لا ترى بل عرفوها استنتاجاً كما عرفوا الالكترونات . وقد توصلوا الى كشفها بالتناسل كما سيمرُّ بنا. فالكروموسومات ترى تحت المجهر بتلوينها ببعض الاصباغ او بدون تلوين انظر الرسم (١) واما العوامل فلا ترى كما بينا . وكل زوج من ازواج الكروموسومات متشابه تأثيراً وهيئة وحجماً . وفي كثير من الانواع ومنها الانسان رفيق آخر للكروموسوم X يدعى Y وهو على الاغلب أري لا وظيفة له . ولكن يكون احياناً كبيراً بحجم اكس ويختلف عنهُ شكلاً وتكون له وظيفة في احوال شاذة وهو لا يوجد في الاناث ايضاً بل يلازم الكروموسوم X في الذكور. انظر الرسم (٢)

ولنبحث الآن عن الطريقة التي ينشأ بها الذكر والانثى . حينما تنشطر الخلية اثناء تكوُّن

الجسم ينشطر معها الكروموسوم فتنال كل خلية منشطرة نفس عدد الكروموسومات الموجود في الخلية الاولى وعليهِ نرى خلية الذكر تختلف عن خلية الانثى في بدء التكون بوجود اكس واحد او اكسين . ووجود هذا الفارق مكن الباحثين من ملاحظة سير هذا الكروموسوم في الذكور وتأثيره في نسله كما سيمرُّ بنا ومنهُ قد توصلوا الى معرفة العوامل (genes)

قلنا ان في انشطار خلايا الجسم تنشطر معها الكروموسومات وتنال كل خلية منشطرة نفس عدد الكروموسومات الموجود في الاولى . اما في الخلايا التناسلية فالانقسام غير ذلك . فحين تنقسم الخلية تنال كل خلية منقسمة نصف عدد الكروموسومات الموجودة في الخلية الاصلية . ففي الذكور يكون نصيب بعض الخلايا الكروموسوم X وبعضها لا تنال منهُ نصيباً فينشأ في الذكر نوعان من الخلايا احدها فيهِ X والآخر عديمها . اما في الانثى فلا ينشأ غير نوع واحد لان خلايا الانثى تحمل «اكسين» فتى انقسمت ينال كل شطر X فاذا اتحدت نطفة ذكر عديم الاكس بنطفة انثى [1] يتولد ذكر . واذا اتحدت نطفة ذكر ذي اكس بنطفة انثى يتولد انثى . [انظر الرسم (٣) و(٤)] فنرى مما تقدم ومن الرسم ان X الاب تنتقل دائماً الى البنات ولا تنتقل الى الابناء لان البنت او الانثى تنال اكساً من والدها واكساً من امها والذكر يحصل على الاكس المختصة بهِ من امهِ وليس من ابيهِ . وهاتان حقيقتان اساسيتان في بحثنا عن العوامل وستكونان بيت القصيد في الاختبارات والتجارب التي سنثبتها بهذا الصدد . فاذا تحققنا ان X الاب او الذكر ينتقل الى البنات او الاناث واذا كان هذا الكروموسوم يحمل صفات خاصة فيجب ان تظهر تلك الصفات في بناتهِ واذا كانت X الام تنتقل الى الذكور فيجب ان تظهر الصفات التي تحملها في الذكور كما سنوضح

* * *

قلنا سابقاً ان اكثر الاختبارات اجريت على ذباب الفواكه لان تركيبهُ التشريحي ملائم كل الملاءمة للاختبارات الوراثية . فاعين هذه الذباب الطبيعية مؤلفة من سطوح مستديرة (Facets) وقد حسبوا انهُ يوجد ثمانمائة من هذه السطوح في العين الواحدة ولا تظهر عين الذبابة بشكلها الطبيعي ما لم تكن كل تلك السطوح كاملة لا عيب فيها . فاذا اعتل احدها تغير شكل العين . وفي بعض انواع هذا الذباب تكون هذه السطوح غير كاملة الاستدارة فتظهر العين قضيبية الشكل ويعدُّ هذا عيباً فيها . فاذا زاوجنا احد الذكور الموجود فيهِ هذا العيب وهو الناشئ عن اعتلال الكروموسوم X فان العيب يظهر في الاناث ولا يظهر في

(١) يتولد الفرد في المخلوقات من اتحاد نطفة الذكر بنطفة الانثى وكل منها يحمل نصف عدد الكروموسومات المعين للنوع فيحصل من اتحادهما العدد الكامل الى النوع وسنوفي هذا الموضوع حقه حين بحثنا عن التناسل

الذكور لان الاناث يأخذن اكساً من امهم واكساً من ابيهم ولما كان الاكس الذي يأخذنهُ من الاب معيوباً فيظهر العيب فيهم بصورة كامنة لان الاكس الثاني الذي يأخذنهُ من امهنَّ صحيح فيغطي العيب. ولكن هذا العيب الكامن ينتقل الى اعقابهن فيما بعد. واذا زاوجنا انثى ذات عينين قضيبتي السطوح بذكر صحيح العينين نشأ العيب في الذكور والاناث معاً لان الذكور يأخذون ال X المختص بهم من امهاتهم وهو معيوب فيظهر العيب فيهم والاناث يأخذن اكساً من امهنَّ وهو معيوب وآخر من والدهم وهو صحيح فينشأ العيب فيهم كامناً لان ال X الصحيح من والدهم يغطي العيب ولا يظهر. واذا زاوجنا اناثاً فيها العيب الكامن بذكور صحيحة نشأ العيب في نصف الاناث وفي نصف الذكور والنصف الآخر ينشأ صحيحاً لان بعض الذكور ينالون ال X المعيوب فينشأ فيهم العيب وبعضهم لا ينالهُ فلا يظهر وكذلك الاناث

***

ان هذه العيوب من الصفات الغالبة وهذا شذوذ عن القاعدة العامة التي تقرر ان الصفات الغالبة تكون على الاغلب هي النافعة فالصفات المذكورة في ذباب الفواكه ليست نافعة مع انها غالبة

ونذكر الآن نوعاً من العيوب الذي يعد صفة كامنة. ان لون العين الطبيعي في ذباب الفواكه احمر ولكن يوجد افراد اعينها بيضاء فاذا زاوجنا افراداً كهذه اي ذكراً ذي عينين بيضاوين بانثى مثله نشأ النسل ابيض العينين. ولكن اذا زاوجنا انثى ذات عين بيضاء بذكر احمر العينين ظهر العيب في الذكور ولم يظهر في الاناث لانهنَّ تلن شطراً صحيحاً من الاب فغطى عيب الام. ولكي نتأكد ان بياض العين ناشئ عن الكروموسوم X نجري الاختبار الآتي: اذا زاوجنا نسل البنات الناشئ بذكر احمر العينين نشأ نصف الذكور بيض العينين والنصف الآخر حمرها. فمن اين جاء البياض ؟ من البديهي انهُ جاء من الام لان الاب صحيح العينين (احمرها) وفي الام بياض كامن والاولاد يأخذون ال X من امهم فمن اخذ منهم المعيوب ظهر فيهِ العيب. واذا زاوجنا احدى الاناث التي فيها عيب كامن (ابيض) بذكر فيهِ ذلك العيب ايضاً فان العيب ينشأ في كل البنات ولكنهُ يكون ظاهراً في النصف وكامناً في النصف الآخر فالنسل الذي ينال اكس الاب واكس الام المعيوب يظهر فيهِ العيب والذي يأخذ المعيوب من الاب والصحيح من الام لا يظهر فيهِ بل يبقى كامناً وكذلك يظهر العيب في نصف الذكور والنصف الآخر ينشأ صحيحاً

فهذه التجارب تثبت لنا ان X الام يحمل صفات خاصة بهِ واكس الأب يحمل صفات خاصة بهِ. وقد اجريت فعلاً على ذباب الفواكه وانتجت النتائج المذكورة فوراثة الصفات بهذه الطريقة يسمى انتقال الصفات بالاتصال الجنسي (Sex linked characters) ويوجد كثير من الصفات تنتقل بهذه الطريقة أي بالاتصال الجنسي كالهيموفيليا (haemophilia)

وهي نزف الدم المستمر . فحينما يجرح الانسان يوجد في الدم مادة مخثرة تجعلهُ أن يتخثر فينقطع النزف ولكن المصابين بهذا المرض الوراثي تكون هذه المادة مفقودة من دمهم فينزفون حتى الموت احياناً اذا اصيبوا بجرح بسيط أو رعاف يسير. وهذا المرض وراثي ينتقل بواسطة الاناث الى الذكور. فالاناث بمثابة حملة الامراض الذين لا يصبن بها ولكن ينقلنها الى غيرهن ومن النادر ان يصاب الاناث بمرض الهموفيليا. ويوجد غير هذا من الامراض الوراثية مما ينتقل بنفس الطريقة كعمى اللون وضماد العضلات وغيرها

ان في الكروموسوم الجنسي أو X مجموعة من الصفات تنتقل بتنقله وقد تمكنوا من اظهار ما يربي على الخمسين صفة من هذه الصفات في ذباب الفواكه تورث بطريقة الاتصال الجنسي

ان الاختبارات التي ذكرناها بينت لنا ان الكروموسوم الجنسي يحمل صفة من الصفات ولكن نحن قلنا ان الكروموسوم الواحد يحمل مجموعة من الصفات كل منها مستقل عن الآخر فاهو دليلنا على ذلك. الدليل انهم تمكنوا من جمع تلك الصفات وتفريقها في الكروموسوم الواحد واجروا اختبارات عديدة على ذباب الفواكه تثبت هذه الحقيقة . ففي نوع من انواع اناث هذا الذباب تكون العين حمراء والجسم ابرش وفي الذكور تكون العين بيضاء والجسم اصفر فاذا زاوجنا فردين كهذين نشأ نوعان من الصفات في البنات احدها فيهِ أعين حمراء وجسم ابرش والآخر اعين بيضاء وجسم اصفر. ولا نرسم الرسوم التي تثبت ذلك خشية ملل القارىء من كثرتها . ومما لا ريب فيهِ ان الكروموسوم الواحد يحمل مجموعة صفات يمكن تجزئتها فاذا اتلفت الجزء الذي يحمل تلك الصفة لم تظهر الصفة في النسل

ودلت التجارب التي اجريت على ذباب الفواكه انهُ يوجد في كل زوج من ازواج الكروموسومات مجموعة صفات ففي ذباب الفواكه اربع مجموعات اي بقدر ازواج الكروموسومات ويوجد في الانسان ٢٤ زوج كروموسوم في كل زوج منها مجموعة من الصفات وقد سموا الاجزاء التي يتركب منها الكروموسوم العوامل Genes كما بينا ومعناها المعيّن اي الذي يعين الصفات. وقد تمكنوا من درس تلك العوامل وتعيين مواقعها كما تعين مواقع البلدان بواسطة خطوط الطول وخطوط العرض وجعلوا لها مصوراً خاصًّا فتقول مثلاً ان العامل الفلاني المختص بتلوين العين موجود في الكروموسوم الرابع والنقطة ٤٢

* * *

ان ما ينطبق على الكروموسوم اكس بانه مركب من عدة عوامل ينطبق على غيره من الكروموسومات . انما الكروموسوم X هو الكروموسوم الجنسي اي الذي يميز الذكر عن الانثى. وقد اطلقوا على سائر الكروموسومات التي لا دخل لها بتعيين الجسم اسم اوتوسومات

Autosomes تمييزاً لها عن الكروموسوم الجنسي. فالاتوسومات تتبع نظاماً خاصًّا في وراثتها وهو نظام مندل الذي ذكرناهُ في مقالنا الاول اي نسبة ٣ غالب الى واحد كامن. واما الكروموسوم الجنسي فيتبع نظام الاتصال الجنسي اي ان صفات الآباء تنتقل الى البنات وصفات الامهات الى البنين كما شرحنا ذلك مفصلاً . وقد يحدث احياناً عكس ذلك فان صفات الام تنتقل الى البنات لا الى البنين وهو من النوع الشاذ الذي لا ينشطر فيهِ اكسا الأم بل ينفصلان انفصالاً ويلتصقان ببيضة من البويضات. فحينما تتحد بويضة كهذه وفيها اكسان عوض الاكس الواحدة بنطفة ذكر ينشأ الاناث وفيهم صفة امهم لا ابيهم . وحينما تتحد بويضة عديمة الاكسين بذكر فيهِ X ينشأ في الذكور صفات الاب ففي الحالة الاولى اذا كان في اكس الام عيب يظهر في البنات وفي الثانية لا يظهر في الذكور لان البويضة التي اتحدت بنطفة الذكر خالية من الاكس المعيوبة

***

وثمة طريقة ثالثة للوراثة وهي نادرة وهي طريقة الكروموسوم Y الذي قلنا ان لاوظيفة لهُ فأحياناً يكون هذا الكروموسوم كبيراً بحجم X ويحمل صفات خاصة تتبع نظاماً خاصًّا. فالصفات تنتقل من الاب الى الابن دائماً ولا تظهر في الاناث ولا تنتقل بواسطتهن وتوجد هذه الطريقة في بعض ذباب الفواكه وكثير من الاسماك

ان طريقة الوراثة تتوقف على مركز العامل في الكروموسوم . فقد قلنا ان الكروموسوم الجنسي يتبع نظام الاتصال الجنسي والاتوسومات تتبع نظام مندل والكروموسوم Y يتبع نظامهُ الخاص . وقد تمكنوا بواسطة أشعة اكس من فصل جزء من الكروموسوم الجنسي ووصلهِ بالاوتوسوم فالصفة التي يحملها العامل لا تورث عندئذٍ بطريقة الاتصال الجنسي بل بطريقة مندل وهكذا اذا نقلنا جزءًا من اجزاء الاتوسومات الى الكروموسوم الجنسي فانها لا تورث بنظام مندل بل بالاتصال الجنسي

فالصفات لا تتبع نظاماً خاصًّا بل يتوقف نظامها على مراكز الكروموسومات فالمختصة منها بالكروموسوم الجنسي تتبع نظامهُ والموجودة في الاوتوسوم تتبع قانون مندل والموجودة في ال Y تتبع نظامهُ الخاص بانتقال الصفات رأساً من الذكور الى الذكور دون واسطة الاناث . وفيما ذكرنا كفاية لارشادنا الى حقيقة تعيين الذكر والانثى بواسطة الكروموسوم الجنسي وما يحملهُ من مجموعة الصفات

العراق — الدكتور شريف عسيران



الشرق الاقصى

حقائقه واوهامه

الصين الجديدة ومركزها العالمي بين الدول العظمى (١)

عن الفيلسوف برتراند رسل

تمتاز الصين في العصر الحاضر بمركز يكاد يكون فريداً بين امم القارات الخمس . فهي من حيث التعداد اعظم امم الارض ، ولكنها من حيث القوة المادية في مؤخرة الدول . ظلت الصين اربعين قرناً وعلى رأسها امبراطور مقدس يستمد سلطتهُ من السماء . ولكنها بمعجزة غريبة غيرت نهجها هذا في فاتحة العقد الثاني من القرن العشرين ، فأصبحت جمهورية ديمقراطية على النسق الحديث . غير ان هذه المعجزة الغريبة لها اسباب واقعية . فاننا اذا قطعنا بجرة قلم واحدة ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة من تاريخ الصين ووصلنا الى سنة ١٦٤٤ صادفنا في ذلك الطريق غزو « المانشو » — Manchu — اذ افلح غازٍ من عظام الغزاة هبط على الصين من الشمال فأذلها وتربع على عرش « التنين » ملكاً حاكماً بأمره . ولقد حاول هذا المستبد ان يبث في الصين عادات جديدة ويقضي على عادات قديمة . فقبل اهل الصين كل جديد ولكنهم رفضوا ان ينسوا اي قديم من عاداتهم الموروثة . وفي هذا دليل واضح على روح المحافظة التي امتاز بها هذا الشعب الفذّ بين شعوب الارض قاطبة

غير انهُ لم يمضِ على اسرة « المانشو » غير قليل حتى اصبحوا صينيين روحاً وتقاليد بيد ان اختلاف الزيّ والعادات حفظ عليهم طابعاً جعلهم بعيدين بعض الشيء عن الامة التي غزوها والتي هي اعرق منهم مدنية وأعمق في الحضارة منهم اصلاً . فظل اهل الصين منهم على حذر وفي قلوبهم ريبة من امبراطرتهم . ومن سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩٠٠ تتابعت الحروب على الصين حتى انتهت بثورة « البوكسر » ، فكان ذلك سبباً في الاساءة الى سمعة الاسرة الامبراطورية

---

(١) تلخيص من الفصل الرابع من كتاب « مشكلة الصين » للفيلسوف الانجليزي الكبير « برتراند رسل » وربما تابعنا بعض فصول الكتاب حتى يقف القراء على شيء من حقائق الشرق التي تغيب عنهم ، لاسيما وان هذا الكتاب قد ظهر بعد ان قضى مؤلفه في الصين ردحاً من الزمان ، وفيه من الاعتدال وروح التسامح ما يخلق بنا الاشارة اليه

وضياع هيبتها ، وحفزت كثيرين من مفكري البلاد الى مجاراة الاوربيين في خططهم المدنية وحضارتهم الحديثة . ولا يدلك على مقدار ما انتاب الصين من الاحداث العظام في خلال ذلك العهد الاَّ اذا علمت ان الثورة التي قامت في سنة ١٨٤٩ واستمرت حتى سنة ١٨٦٤ قد اودت بأرواح ما لا يقل عن ١٥٠ مليوناً من اهل الصين كما يقول المؤلف بنتام ويل Puntam Weale وان خسائرها لا تقل عن خسائر الحرب العظمى شيئاً. ولقد ساد الاعتقاد أنهُ ليس في مقدور الامبراطور « المانشوي » ان يخضعها ، ولكنهُ افلح بمساعدة القائد غوردون ان يتغلب على الثورة. غير انهُ لم يكد يتغلب عليها حتى كانت قد استنزفت كل قواه وانهكت موارده وأضاعت هيبته وهيبة الحكومة التي يرأسها معاً . كذلك كانت هزيمة الصين في حربها مع اليابان (١٨٩٤ — ٩٥) وانتقام الدول العظمى من الصين عقب ثورة البوكسر (١٩٠٠) سبباً في ان يفتح اهل الصين اعينهم والمفكرون منهم على الاخص ، فيروا ان الصين في حاجة الى حكومة اكثر ملاءمة لضرورات العصر الحديث من حكومة الامبراطور السماوي او بالاحرى حكومة « ابن السماء » كما يقولون . غير ان الحوادث تتحرك ببطء في بلاد الصين فلم تندلع ألسنة الثورة الاَّ بعد احد عشر عاماً من قمع ثورة البوكسر

كانت ثورة الصين في سنة ١٩١١ ثورة معتدلة شبيهة كل الشبه بثورة انكلترا سنة ١٦٨٨ ولقد ايد الجمهوريون « سن يات سن » قوام الثورة وعمادها ، فانتخب بعد ان نجحت الثورة رئيساً لاول حكومة جمهورية في « امبراطورية السماء » . غير ان جيش الشمال ظلَّ موالياً للاسرة الامبراطورية ، وكان من الجائز ان يتمكن من هزيمة جيوش الجمهورية . غير ان قائد جيش الشمال « يوان شي كاي » اختصر الطريق فصالح الثوار واعترف بالجمهورية ، على قاعدة ان يكون اول رئيس لها بدل «سن يات سن» . ولقد ايدت السفارات الاجنبية « يوان شي كاي » ظنًّا منها انهُ رجل قوي الشكيمة يؤمن بالحديد والنار ، وانهُ بعيد عن ان يؤخذ بمرئيات الحرية ومغريات الديمقراطية وما اليها من المثاليَّات ! ولقد ظل شمال الصين اكثر ايماناً بالقوة الحربية واقل ايماناً بالحرية من الجنوب ، وبهذا استطاع أن يخلق « يوان شي كاي » من العدم جيشاً من اهل الشمال يضارع اي جيش في أية دولة من الدول العظمى . وكان طمعه ، كما كانت قسوته ، سبباً في ان ينال عطف رجال السلك السياسي من الاجانب ويفوز بشيء من ثقتهم. على أن ما انتاب الصين من المصائب والاحداث العظام بعد موته ، يحملنا على ان ننظر الى سياسته واساليبه في الحكم بشيء من العطف له ما يسوّغهُ

اجتمع البرلمان الصيني لاول مرة في ابريل سنة ١٩١٣ بعد انتخاب حر ليضع قواعد الدستور . غير ان « يوان شي كاي » بدأ يناوئ البرلمان ويصارعه . ودارت المعركة حول حقوق رئيس الجمهورية وامتيازاته التي حاول البرلمان أن يجعلها محدودة غير مطلقة بيّنةً غير

غامضة . وكانت الاغلبية ضد « يوان » داخل البرلمان ، ولكن كان من ورائه الجيش وقوة الحراب . فما لبث أن اظهر بحادث فعلي انهُ مستقل في المسائل المالية عن البرلمان اذ عقد قرضاً مع البيوت المالية الاجنبية ، من غير ان يفكر في مصادقة البرلمان ، ومن غير ان يعبأ بانهُ سوف يحاسب على ما فعل . وقامت الثورة في الجنوب لوّاحة محطمة ، ولكنهُ بادر الى قمعها ومن ثمّ اخذ يعمل على ان يصبح الحاكم بأمره في امبراطورية السماء حتى تمّ لهُ ما أراد ، فاستبد بالسلطة وأخذ يعين قواد الجيوش وحكام الاقاليم حسب هواه ، وارسل بجنود الشمال لتحتل ارض الجنوب . وكان من الممكن ان ينجح في خطته وان يصبح امبراطوراً سنة ١٩١٥ ، لولا ثورة ناجحة عاجلته فمات في سنة ١٩١٦ بسكتة قلبية ، على ما يقال

ومنذ ذلك الحين بدأ عهد الفوضى الشاملة في الصين فان القواد الحربيين الذين نصّبهم « يوان شي كاي » رفضوا ان يذعنوا للحكومة المركزية بعد ان رفعت يده القوية عن دولاب الحكم ، واخذ الجنود ينتشرون في عرض البلاد وطولها حكم ارهاب لم ترَ الصين اسوأ منهُ خلال كل ادوار تاريخها الطويل . وظهرت بوادر الحروب الاهلية التي استمرت منذ ذلك الوقت قائمة على قدم وساق . ومما زاد الطين بلة ، ان هذه الحروب الاهلية كانت بلا غرض معين ولا مبدإ معروف ولا ضابط محدود . بل قامت لصالح القواد ، مَنْ منهم يحكم اكثر من مقاطعة من مقاطعات الصين الواسعة ، ومَنْ منهم يفوز باعظم سلطة واكبر غنيمة . ولا تزال حتى اليوم آثار الخلاف بين الشمال والجنوب ظاهرة الأثر ، ولكنها اقل حدّة مما كانت من قبل وعلى الاخص على المسائل الدستورية

***

يحكم مديرو الاقاليم مستبدين بأمرهم من غير ان يفكروا ان في « بكين » حكومة يصح الرجوع اليها ، ويرتكبون في حكمهم هذا كل ما يخيل الى شخص ذي خيال من صنوف العسف والجور ، ولا يأنفون من ان يتردوا في اشنع دركات العماية ، تقودهم الاطماع ولا يردعهم وازع ما عن ارتكاب المحرمات والمفاسد . وهؤلاء تنصبهم حكومة « بكين » ولكن اسماً ، وهم في الحقيقة لا يعتمدون على غير الجنود ، ولا يعترفون بقانون الاّ قانون الحديد والنار ، تسلطهُ الاهواء والاغراض والمطامع على اهل البلاد . هذا والحكومة المركزية في افلاس ، وكثيراً ما تعجز عن ان تدفع اجور رجال الجيش ، فيعمد هؤلاء الى البلاد الآمنة يوسعونها سلباً ونهباً او يقتسمون ما يمكن ان يصل الى ايديهم من اسلاب حكام الاقاليم فاذا ظهر ان اي حزب من الاحزاب قد قارب الانتصار وان نجمه اخذ في التألق في سماء الصين المظلمة ، مدت حكومة اليابان رجاله بالمال والعقار وادوات الحرب من ميرة وذخيرة ليطول امد الفوضى المدنية ويمتد

عمر الخلاف الداخلي والحروب القومية . ولقد حدث مرة ان اجتمع ثلاثة من حكام الاقاليم في الصين وفي جوف العاصمة الكبرى وعلى مقربة من الحكومة المركزية ، بل بين سمع الحكومة المركزية وبصرها ، لا لشيء الا ليتفقوا على طريقة اقتسام الاسلاب . وكانوا فوق ذلك غير موالين لرئيس الجمهورية ولا لرئيس الوزارة . ولكنهم فضلاً عن هذا كله استطاعوا ان ينالوا من خزينة الحكومة المفلسة مبلغاً من المال ذكرت الجرائد حينذاك — بعيد الحرب العظمى بقليل — انهُ لا يقل عن تسعة ملايين من الدولارات ، تلقاء أن يظلوا في العاصمة لا يبرحونها الى مراكز اعمالهم فينشرون الفوضى ويقيمون الثورة في انحاء البلاد ويلقوا بها في بحر من الدماء . ولقد أصاب « شانج تسولن » حاكم منشوريا اكبر نصيب من هذا الغنم ، على الرغم من انهُ معروف بانهُ من صنائع اليابان . وتحت اي عنوان اعطى هذا القدر العظيم ؟ قيل اذ ذاك ان السبب فيهِ أن يقمع ثورة اندلعت ألسنتها النيرانية في « مونغوليا » . ولكن لم يشك أحد في انهُ سوف يبتلع هذا المال ، فابتلعهُ ، وظل مقيماً في مدينة « مكدن » من غير أن يحرك ساكناً

***

في أقصى الجنوب قامت حكومة من طابع آخر ، فكانت جديرة بان تنال بعض الاحترام من الذين احتكوا بها . لقد نجحت « كانتون » وهي مباءة الديمقراطية في الصين ، في أن ترفع عن كاهلها ضغط الشمال بان هزمت جنوده في ربيع سنة ١٩٢٠ واقامت جمهورية قوية فيها كل عناصر التقدم والارتقاء تحت رئاسة « سن يات سن » . وتكونت هذه الجمهورية من مقاطعتين احداهما « كوانج تونج » وعاصمتها « كانتون » والاخرى « كوانجسي » . ودلت البوادر على انها سوف تغزو الجنوب كلهُ ، غير أن القائد الشمالي « ووبي فو » صدها عن الانبعاث في طريقها المرسوم بعدة انتصارات نالها على جيوشها في مقاطعة « هونان » . ولقد اتهمها اعداؤها بأنها كانت تحاول غزو الصين كلها وان تضم اطرافها تحت لواء جمهورية واحدة . ومهما يكن من هذا الامر فانها كانت حكومة تستحق معاضدة كل الامم التي تؤمن بالارتقاء في عصرنا هذا . ولقد عدد الاستاذ الفيلسوف « ديوي » فضائلها في مقالات نشرها في جريدة « الجمهورية الجديدة » مبيّناً مقدار ما أظهرهُ الانجليز وسلطات « هونغ كونغ » من العداء لها ، وما حملا لها من الحفيظة والبغضاء . بيد أن كل هذا لم يكن عبثاً ، بل كان جرياً على قواعد وضعناها — اي الانجليز — ومبادئ انتحيناها . فاننا نبغض كل اصلاح متطرف يقوم بهِ شعب ما في الشرق من ناحية ، وكنا نخشى على اتفاق « كاسل » — Cassel — أن يتقوض من ناحية أخرى . اما هذا الاتفاق فليس بغريب ان يعقد مثلهُ مع الصين . فقد كان من شأنه أن تحتكر به الطرق الحديدية كلها والمناجم باجمعها في مقاطعة « كوانج تونج » .

وتمَّ امره على يد الحكومة السابقة لحكومة « كانتون » هذه ولم يكن ينقصه ليصبح نافذاً الاَّ المصادقة عليهِ ، ولكن تغيير الحكومة جعل المصادقة على هذا الاتفاق ضرباً من المحال. وكانت الحكومة الجديدة تعتمد على صداقة امريكا ، فاستطاع امريكي هو مستر « شانك » — Shank — ان يعقد اتفاقاً معها مقارباً للاتفاق الذي عقدناهُ مع الحكومة القديمة .غير ان الحكومة الامريكية لم تؤيد مستر « شانك » في حين اننا أيدنا اتفاق « كاسل » وعملنا على تنفيذه بكل الوسائل . فكانت سياستنا في الصين عمياء تؤيد ما هو فاسد لتقضي بهِ على ما هو حسن . أيدنا حكومة ساقطة لتسقط حكومة قوية شديدة رشيدة

***

ان الفوضى في الصين لما يحزن اصدقاءها ، الذين يودون من صميم قلوبهم أن يروا عهدها قد انقضى وحل محلها النظام . ولكن من اكبر الخطأ ان نبالغ في تصوير الشر ، أو نزعم بانهُ شر لا مثيل لهُ في أوروبا. واذا أردنا الموازنة فلا يجب ان نوازن بين الصين وبين دولة بعينها من ممالك أوروبا ، بل يجب ان تكون الموازنة بين الصين من ناحية وأوروبا كلها من ناحية أخرى . فقد قرأت في جريدة التيمس الصادرة في ١١ نوفبر سنة ١٩٣١ مقالاً ملئ تشاؤماً عنوانهُ « الخطر في الصين : احدى عشرة حكومة تتنازع » . غير أننا نجد اذ ننظر في أوروبا اكثر من احدى عشرة دولة ، ان العداء بينها اشدّ كثيراً مما هو بين حكومات الصين . وعدد الجنود في أوروبا أكبر منهُ في الصين بما لا يقدر من الاضعاف ، وجنود أوروبا أكثر استعداداً للتخريب والهدم بما أوتوا من معدات الحروب المهلكة . وعدد المصادمات الحربية في أوروبا منذ الهدنة اكثر مما وقع في بلاد الصين في خلال العهد ذاته . وانك لتخترق بلاد الصين من طرف الى الآخر ، فلا تقع عينك على مظهر ما من مظاهر الاستعداد للحرب، كما ان المعارك في الصين قلما تكون دموية ، لان المحاربين أجراء لا يهمهم انتصار ولا هزيمة . وانهُ ليخيل اليَّ أن اهل الصين في الوقت الحاضر لاسعد حظاً وأرضى بالاً في المجموع من اهل اوربا في جملتهم

من الواضح على ما اظن ان الاصلاح سوف يبدأ في الصين بتكوين اتحاد برلماني يمنح الاقاليم قدراً عظيماً من الاستقلال الذاتي . فان تقسيم الصين الى مقاطعات نظام من اقدم الانظمة والشعور الاقليمي شديد ثابت الاثر في نفسية اهل الصين

بعد ان قامت الثورة حاول الصينيون ان يقيموا برلماناً على دستور تقلُّ مشابهتهُ لدستور انكلترا او تشتدُّ ، مع فارق واحد هو انهُ كان تحت امرة رئيس جمهورية بدلاً من ملك. غير انهُ لا يغيب عنا انهُ من اجل ان ننجح في تكوين حكومة مركزية غير متحدة ، يجب

ان نحاول التجربة في شعب متجانس قليل الاعتداد بروح الاقليم والشعور الموضعي . وان تجربتنا في ارلندا لاكبر شاهد على صحة ما نذهب اليهِ . وكل المجددين من اهل الصين يميلون الى تكوين حكومة اتحاد لا يترك للحكومة المركزية الاَّ السلطة على الجيش والتسليح والعلاقات الخارجية والجمارك . غير ان الصعوبة في التخلص من الفوضى العسكرية القائمة اليوم عظيمة . فان الحكومة المركزية لا تستطيع تسريح الجنود ، لانها لا تجد لديها من المال ما يكفي لدفع اجورهم . ولهذا يجب ان تقترض الحكومة من الخارج ما يكفي من المال لتدفع للجند ما لهم من الاجور وتوجههم الى اعمال حرة منتجة . ولكنه من المشكوك فيه كثيراً ان تقرض دولة او دولات بلاد الصين قرضاً من غير ان تحاول ان يكون ثمن القرض القضاء الاخير على البقية الباقية من استقلال البلاد. لهذا نؤمل ان يجد الصينيون طريقاً آخر يقضون بهِ على متاعبهم من غير ان يلجأُوا الى المساعدة الاجنبية بحال من الاحوال

***

اذا تركنا الحرب جانباً، وجدنا ان الحضارة الاوربية تؤثر في الصين من طريقين : الاول طريق التجارة : والثاني الطريق العقلي . على ان كلا الطريقين انما يعمد الى السلاح ليطبع أثره على جبين الصين . فلو اننا لم نستطع ان نهزم الصينيين في الحرب المسلحة ، لما فتحوا لنا ثغراً واحداً من ثغورهم لتجارتنا ، ولا حاول ذهن واحد من اذهانهم ان يستوعب شيئاً من افكارنا وتأملاتنا . غير ان الفاتحة الحربية التي بدأنا بها علاقتنا مع الامبراطورية كادت تزول الآن من الاذهان ويمحى أثرها . فانهُ يصعب عليك الآن ان تقع على حالة واحدة من حالات كثيرة تقوم كل يوم في انحاء الحياة الصينية يمكن ان تستدل بها على أنهم يظنون ان الاحتكاك بالامم البيضاء كان نكبة على الصين، اللهم الاَّ حيث تجد ان روح المحافظة التقليدية قد تغلبت على كل الاعتبارات الاخرى . ولاهل الصين سليقة تجارية ممتازة بل موروثة ، مصحوبة بقدر عظيم من حب الاطلاع والاستطلاع . وكلا الامرين من الاشياء التي يمتاز بها اهل أوروبا على غيرهم من الامم . وان قليلاً من الاعتدال وليونة الطبع يكفيانك لان تنال صداقتهم ، سواء في العلاقات الخاصة ام العلاقات السياسية . وانهُ ليخيَّل اليَّ ان أفكارهم وتأملاتهم كفيلة بان تغذي ثقافتنا بمستحدثات فذة نادرة ، بقدر ما تكفل لنا تجارتهم من عمار الجيوب

[ابن طفيل]



العلم والازمة العالمية

هل تقع تبعتها عليه ؟ (1)

[ان مغامرة الانسانية العجيبة ، التي خاضت غمارها من نحو جيل على الاكثر ، ويكاد ينبلج منها فجر عصر جديد من عصور الحضارة لم تتم ، ولم تزدد سرعة وعنفاً الا بارتقاء العلم السريع المتواصل]

هذه العبارة مقتطفة من مقدمة كتاب للعلاّمة الفرنسي پران « Perrin » ، وبها يعرب العالم الفرنسي الكبير عن اثر العلم المفيد في نشوء الحضارة . وقد ظلّ هذا الاثر الى الآن غير معرّض للشك ، ولا للطعن عليه . ولم ينفرد العلماء في اجلالهم لمقام العلم والمكتشفات العلمية في نشوء الصناعة التي يمتاز بها عصرنا هذا ، بل ان ارتقاء الصناعة ، الناشيء عن المكتشفات العلمية ، كان في نظر المفكرين ، والجمهور كذلك ، مسوغاً لما تبذله الحكومات والاغنياء من المال في سبيل تشجيع البحث العلمي المجرّد

على ان الازمة الاقتصادية المنيخة بكلكلها على كل الامم حملت بعض المفكرين على الشك في فائدة هذا الارتقاء الصناعي . فبعض الاصوات التي كانت الى عهد قريب ، ترتفع منفردة هنا وهناك اخذت تبدو ، حاملة في طياتها معاني الانذار . أليست هذه الازمة العالمية ناشئة عن التطرف في الارتقاء الصناعي ؟ وهل ثمة املٌ في الخروج من هذا المأزق ؟

واذا كان اتقان الآلات ، وزيادة استعمالها في الانتاج ، هو سبب هذه الازمة ، كما يقال لم نجد مسوغاً لحسبان هذه الازمة من الازمات الدورية التي كانت تنتاب الاجتماع البشري في الماضي ، اذ كانت تتعاقب فترات الرخاء والكساد ، تعاقبُ الحوادث الطبيعية . بل يجب ان ندرك ان نمو الصناعة واتقان صنع الآلات من الامور التي لا تقف عند حدٍ معين . بل ان الاسباب التي احدثت الازمة العالمية — اذا كان هذا هو سببها — سوف تظلُّ فعالة ، بل وسوف يشتدُّ أثرها سنةً فأخرى ، واذاً فلا سبيل الا اشتداد الازمة واستفحالها حتى يكشف لها علاج — وهو ما حارت الالباب فيهِ الآن

اذا صحت هذه الآراء التي تبعث على التشاؤم ، فالعلم نفسه وهو مصدر الارتقاء الصناعي يحمل تبعة الازمة ، واذاً فلا بدّ من حصول انقلاب نفسيّ عالميّ من شأنهِ تبديل بعض المبادىء الادبية الراسخة في النفوس ، وحسبان البحث عن الحقيقة العلمية ، والتفتيش عن الحق الذي ما زال يحسب غاية للانسانية النبيلة ، امراً ينطوي على ضرر كبير

(1) لاميل بوريه عضو اكادمية العلوم بباريس نشرت في مجلة سينسيا الدولية

والواقع اننا نستطيع ان نتجاهل كل البواعث والحوادث السياسية والاقتصادية في محاولتنا تعليل الازمة الحالية وشدة استحكامها من دون ان نهمل او ننكر أثر الاقتصاد في الحوادث السياسية الكبرى، كالحرب والثورات. يجب ان ندرك ان سير التاريخ، يثبت لنا ان خطر هذه الحوادث في توجيه الحضارة اقل شأناً من المكتشفات العلمية والصناعية. وهذا لا ينقض ان للحروب والثورات أثراً بادياً في يسر شعب معيَّن او عسره في اثناء مدة قصيرة من التاريخ. ولكن هذا الأثر موضعي في الغالب، ولا يقف حائلاً دون الارتقاء العام في امم الارض باعتبار مجموعها. فرغماً عن الحروب والثورات التي نشبت في القرن التاسع عشر، في كل انحاء العالم تقريباً، نشهد اتساعاً عظيماً في شبكة السكك الحديدية، وهذا الاتساع التدريجي من اخطر الحوادث التي شهدها القرن التاسع عشر، وهو اشد خطراً من اي حادث سياسي بمفرده

فاذا نحن حاولنا الكشف عن البواعث الاولية للازمة العالمية الحاضرة، بصرف النظر عن البواعث الثانوية، وصلنا الى فكرة بسيطة، يدعوها بعضهم «زيادة الانتاج» والبعض الآخر «قلة الاستهلاك» والواقع انها شيء واحدٌ. وبكلمة اخرى، يتجمع في بعض انحاء العالم، مقادير كبيرة من المواد الصناعية الاولية او المحاصيل الزراعية فتتكدس لقلة المشترين. ففي بلدان نجد نحاساً. وفي اخرى قمحاً، وفي ثالثةٍ مطاطاً او سيارات. وهذه الزيادة تجلب في أثرها ازدياد العاطلين في كل البلدان، وهؤلاء لا سبيل لهم لابتياع ما يحتاجون اليه لضيق ذات يدهم، فتزداد العقبات التي تحول دون تصريف المنتجات الصناعية والزراعية. وهكذا تولد الازمة ازمةً، «فكثرة الانتاج» تجلب في أثرها «قلة الاستهلاك»

فاذا بحثنا الآن عن السر في «زيادة الانتاج» اتفق المفكرون على انها نتيجة الاتقان في صنع الآلات واستعمالها. ولا يغرب عن الذهن، انها نتيجة، كذلك، التضخيم النقدي وتوسيع نطاق الاعتمادات المالية التي يراها بعض علماء الاقتصاد النظريين — ولا سيما في الولايات المتحدة الاميركية — من مستلزمات الارتقاء الاقتصادي. فانهم يعتقدون اننا اذا اقنعنا كل عامل، بان يبتاع علاوةً على ما تمكنه وسائل دخله، وان يجري على طريقة التقسيط، برهن جانب من مرتبه او اجرته، لتسديد ما عليهِ، زادت ثروة البلاد باتساع الحركة الاقتصادية الصناعية وعنفها. والحق ان هذا الرأي قد افلس الافلاس كلهُ، والامل ان يحل محلهُ الرأي الحكيم، وهو ان لا يشتري الانسان الا ما يحتاج اليهِ وما كان في نطاق دخله

ولا اطيل الوقوف بهذه الناحية الاقتصادية والنقدية من نواحي المسألة، وانما اكتفي بالاشارة اليها كاحد الاسباب التي زادت استحكام الضائقة. ولكن يجب ان نعترف، انهُ اذا كان لهذا السبب اي أثر في احكام الضائقة، فزيادة الانتاج الصناعي — الذي مهَّد السبيل لهُ — نشأ عن اتقان صنع الآلات واستعمالها

ولا اتناول في البحث مسألة هل يستطاع وضع حد مصطنع للتقدم الصناعي والارتقاء العلمي . فبعض الكتّاب في نهاية القرن الماضي ، تصوروا ان الانسانية سوف تملّ الحضارة الميكانيكية ، فتثور على الآلة وقد اصبحت سيدة الانسان ، فتحطم كلّ الآلات في ثورانها العنيف، رغبة منها في العودة الى حياة اسلافنا البسيطة . وانني لااعتقد قط ، ان حلماً كهذا ، يمكن ان يتحقق ، وان سكان العالم ، يمكن ان يتفقوا على التخلي عن كل المميزات التي نالوها عن طريق الصناعة والعلم . ان الرغبة في المعرفة ، وفي ابلاغ المعرفة حدود الكمال ، راسخة في الطبيعة البشرية رسوخاً ، فلا يحلمنّ احد بانتزاعها، او كبتها . ثم اننا لا نرى كيف يمكن لاية امة ، ان تتخلى عن رغبتها في استعمال كل ما هو كامن في ارضها وطبيعة اهلها، الى اقصى حدود الاستعمال، لانها اذا اقدمت على ذلك، وجدت نفسها وقد اصبحت ضعيفة ومستضعفة في الزحام الدولي

واذاً فيجب ان نسلّم بان التقدم الصناعي حقيقة لا بدّ من عمل حساب لها ، واننا لا نستطيع ان نتجاهلها ولا ان ننكرها . وانما يجب ان نعلم ، هل الشرور التي تسند اليها ، هي شرور لا مندوحة عنها ، وهل لا يستطيع العلم نفسهُ ان يجهزنا بوسائل للخروج من مأزق ، تقع بعض تبعتهِ على الاقل عليهِ ؟

واول ما نشهده في هذا الصدد ان ارتقاء العلم والصناعة يسفر عنهُ قلة العاملين في الصناعات التي تأخذ بالمبادىء العلمية الجديدة وتستعمل الآلات المستحدثة ، ولكنهُ في الوقت نفسهِ ، يخلق حاجات انسانية جديدة ، تمهد السبيل الى خلق صناعات جديدة ، فتكون بدورها منفذاً للعمال الذين استغني عنهم أو عن بعضهم ، في الصناعات القديمة . ففي بلاد صناعية كالولايات المتحدة الاميركية ، نجد ان جانباً كبيراً من عمّالها يشتغلون الآن في صناعات ، لم يكن لها أثر من نحو ثلاثين سنة ، مثل صناعة السيارات وصناعة الادوات اللاسلكية والصناعات السينمية

واذا حسبنا حساب الصناعات الكهربائية على اختلافها ، وسكك الحديد ، التي لم تكن قد نشأت من نحو قرن او كانت في مهدها ، بلغ عدد العمال العاملين في صناعات جديدة في اميركا ، ثلاثة ارباع كل العمال فيها . واذاً فينشأ توازن ، بين عطلة العمال في بعض الصناعات التي يدخلها التقدم العلمي والاتقان الصناعي ، وبين الحاجة الى العمال في صناعات جديدة يخلقها العلم والصناعة . ولكن هذا التوازن لا يكون دقيقاً في كل عصر من العصور ، فيحدث من حين الى آخر ، اذ يختلّ هذا التوازن ، ازمة ، يقلّ فيهِ عدد العاطلين اذ يكثر الطلب عليهم ، أو يكثر عدد العاطلين لقلة الطلب

ومن الحقائق التي يجب ان نذكرها ، لانها من الاسباب التي تزيد استحكام الازمة الحالية ، ان الانسان اسرع اكتفاء بالمنتجات الحديثة (او الكمالية) منهُ بالاشياء التي لا مندوحة لهُ عنها للاحتفاظ بكيانهِ ، كالغذاء واللباس . فاذا حدثت أزمة بدا أثرها حالاً في

الصناعات الكمالية ، وهي التي تخرج للناس ما يسدُّ حاجاتهم المستحدثة والمصطنعة في غالب الاحيان . ولما كان مقام هذه الصناعات في الولايات المتحدة الاميركية ، عالياً ، فالركود الذي اصابها ،كان من البواعث التي جعلت امتداد الازمة واستفحالها في اميركا سريعاً . ولكن ازاء هذا ، يجب ان نذكر ، ان الانسان يتعوَّد ، سريعاً ، اكتفاء حاجاتهِ الجديدة بالوسائل الجديدة. فيصبح يحسبها ضرورية لا غنى لهُ عنها ، فهو يحسب الآن ان لا غنى لهُ عن بعض وسائل اللهو والتسلية والنقل والاضاءة والتخاطب كالسنما وسكك الحديد والسيارات والمصابيح الكهربائية والتلفونات والتلغرافات ، مع ان هذه الوسائل او معظمها كانت من بضع سنوات كمالات لا يقبل عليها الاَّ الاقلون

واذا نظرنا الى المسألة هذه النظرة التفاؤلية،وجب التسليم بان الازمة الناشئة عن الارتقاء العلمي ، انما هي ازمة خلل في توزيع العمال ، وان هذا الخلل يجب ان لا يكون سريعاً ،حتى لايحدث انقلاباً في عادات عدد كبير من العمال ولا في اخلاقهم وآدابهم . ومما لايداخلهُ الريب ، انهُ اذا تمكنت الانسانية من ان تجهز العامل براتب ، يكفل لهُ غذاءه وسكنهُ ولهوهُ — لهُ ولعائلتهِ — لقاء عمل اقصر مدى واهون من عملهِ في العصور السابقة (أي اذا قلت ساعات عملهِ وايامهُ لم يقلّ مرتبهُ عن شراء ما يحتاج اليهِ) فان ساعات فراغهِ من العمل تمهد لهُ ولاسرتهِ اسباب اللهو والثقافة والرفاهة . وانما يجب الوصول باسرع ما يمكن الى احكام التوازن ، بين العمال الذين اخرجوا من صناعات قديمة لادخال المستحدثات العلمية والصناعية اليها ، والعمال الذين تحتاج اليهم الصناعات الجديدة التي خلقها التقدم العلمي والصناعي .وهذه مسألة سياسية اجتماعية ، لكل امة ان تحلها بالطريقة التي توافقها

ولكننا لا يمكننا التسليم بهذه النظرة التفائلية رغم انطباقها على الحقيقة ، الاَّ بشيء من التحفُّظ . والاعتراض الاول الذي يوجَّه اليها ، هو ان الحاجات الجديدة التي يخلقها العلم ، لا تنتشر الاَّ انتشاراً بطيئاً ، حتى في البلدان المتمدنة .واما في البلدان المتأخرة، فانها لاتنتشر قط . فاننا اذا اخذنا اكتشافاً من اهم الاكتشافات واقدمها اي المطبعة، مثلاً على ذلك ، ثبت لنا انه لا يزال يوجد حتى الساعة بلدانٌ عدد الاميين فيها اغلبية ساحقة ،وانهُ في بعض البلدان التي يكثر فيها عدد المتعلمين ، يندر من يقرأُ فيها اكثر من صحيفتهِ اليومية . فالكتاب ، وما يصحبهُ من الثقافة ، لا يزال قليل الانتشار حتى في اعلى البلدان كعباً في الثقافة العامة . وما يقال عن الكتاب يقال عن انتشار الوسائل الحديثة للثقافة الادبية والفنية

واذاً لا مندوحة عن ان يصحب الارتقاء العلميَّ والصناعيَّ ، ارتفاع مستوى الثقافة في جماهير الامم . وسبب فقد التوازن الذي نشأت عنهُ الازمة الحالية ، ليس ارتقاء العلم ، وانما هو ان ارتقاء العلم لم يصحبهُ ارتفاع مستوى الثقافة الانسانية .على ان ارتفاع هذا المستوى

واقع في بعض الامم ، التي نحسبها في مقدمة موكب الحضارة ، ولكن ابناء هذه الامم ، لا يبلغون ثلث سكان العالم ، واما بين الثلثين الباقيين فالحضارة متأخرة قروناً

ولولا هذا ، لكان تقدم العلم والصناعة ينطوي على خطر عظيم ، اذ تصبح الآلة التي خلقها الانسان سيّدة للانسان الذي لا يفهمها . ولا ريب في ان نطاق الارتقاء الآلي الناشئ عن تقدم العلم اسرع اتساعاً من انتشار العلم نفسهِ ، وهذه الآلات المستحدثة يستعملها في الغالب رجال لا يفهمون اصولها العلمية ومبادئها الميكانيكية

بل يساورنا الخوف ، من ان يصبح جمهور الناس الذي لم ينل نصيباً وافياً من العلم ، مكتفياً بما تعلمهُ في عملهِ اليومي من تسيير الآلات ، يعتقد ان لا حكمة لوجود الخاصة التي ابدعت هذه الآلات واتقنتها . وهكذا لا تنقضي قرون كثيرة حتى يزول الذين يفهمون الآلات من ناحيتها العلمية الفنية ولا يبقى الا العامة التي تسيّرها ، وتصنع الآلات جرياً على الاساليب التي ابدعت قبلاً جرياً تقليدياً لا ابداع فيهِ ، ولا ادراك لكنهها . وقد يشبهُ هذا التطوُّر ما اصاب الحشرات في العصور السابقة ، فانها في بدء تطوُّرها ، ابدعت معظم ما تمتاز بهِ من قوة وبناء وذكاء ، للتغلب على ما يعترضها في بيئتها ، فجاء خلفها يعمل ما تعمل من دون ابداع فظلّت حيث هي في سلّم الارتقاء

واذاً نخرج من هذا البحث بانهُ لا يحقُّ لنا ان نلقي تبعة الازمة الحالية على العلم ، او على الاقل ، ان تبعتهُ غير مباشرة . ولا ريب ، في انهُ لولا التقدم العلمي الذي تمَّ في القرن الماضي ، لاختلفت الانسانية عما هي عليهِ الآن ، وانهُ لو وجدت ازمة ، لاختلفت عن الازمة الحالية . ولكننا نعلم شيئاً عن شدة الازمات التي كانت تصيب العالم ، وفتك المجاعات ، لما كانت وسائل المواصلات الحديثة لا تزال سرًّا من اسرار الغيب . بل ان العلم ، يستطيع ان يأتي بالعلاج ، الناجع ، او على الاقل بالعلاج السريع ، لمعالجة الازمة الاقتصادية ، وذلك من طريقين اولاً : بابداع وسائل صناعية جديدة ، لسدّ الحاجات الانسانية الجديدة . وثانياً : بزيادة ساعات فراغ الجمهور فتمهد لهُ سبيل التثقف ، فيصبح من هذه الناحية اوعب فهماً وحكمةً في استعمال المستحدثات الجديدة التي ابدعتها العبقرية العلمية والصناعية

والمهم في كلّ ذلك الاحتفاظ بمقام الروح فوق مقام المادة . فاذا سمحنا للمادة ان تسيطر على الروح ، كان ذلك ضربة قاضية على حضارتنا وعلى كل حضارة مقبلة . فالمباحث النظرية العلمية ، تمكن الروح الانسانية من الاحتفاظ بسيطرتها على التقدم الآلي المادي

لقد علمتنا خبرة الاجيال الماضية ، ان تقدم العلم ، يبعث في النفس تلك النشوة العقلية الناشئة عن المعرفة والفهم ، ثم يتبع هذه النشوة مكتشفات صناعية ومخترعات فنية ، يجني ثمارها بنو الانسان على السواء . وما صحَّ في العصور الماضية يصح في القرن العشرين

الاتجاهات الحديثة

في الفنون والآداب المعاصرة

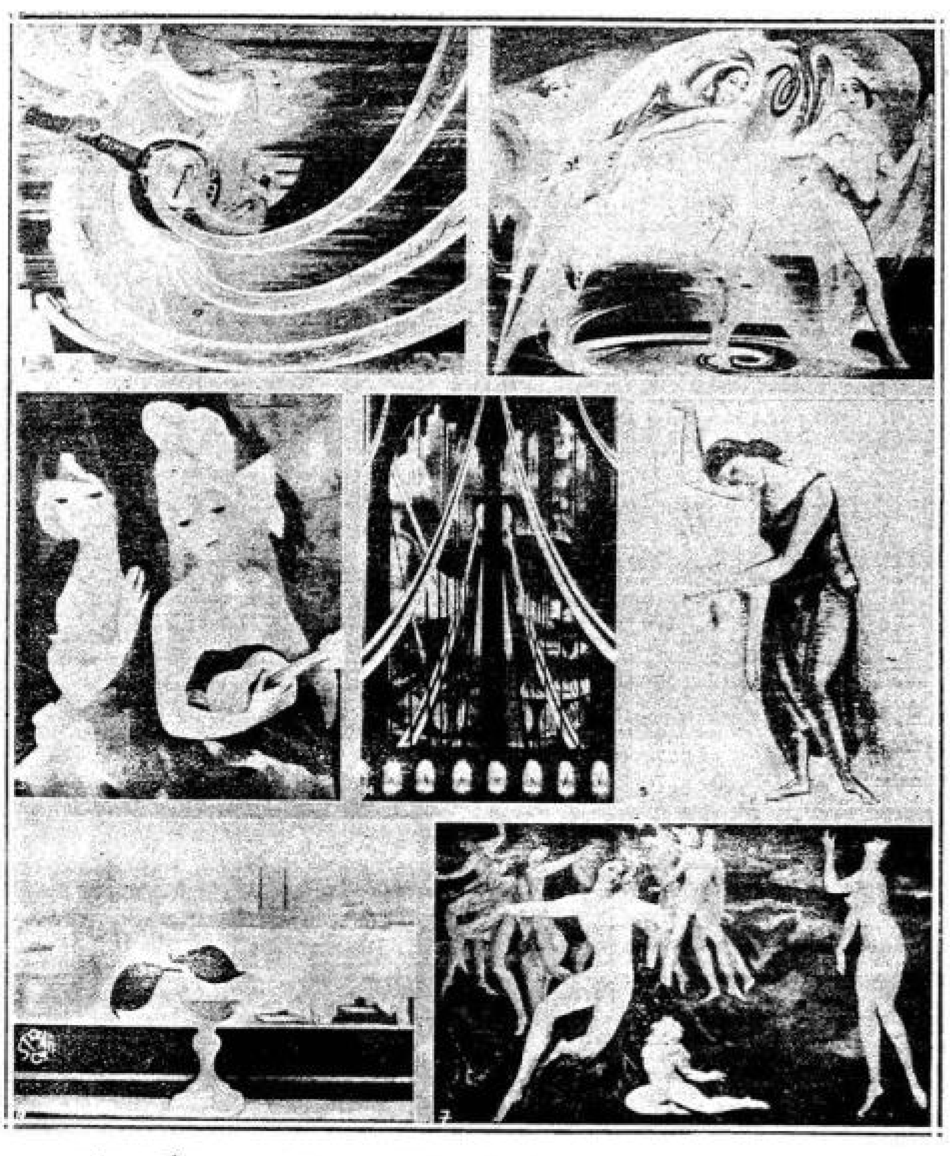
من اغرب ظواهر عصرنا الحالي ان تيارات التفكير فيه متناقضة متباينة . وان الباحث الناقد لا يسعهُ الا ان يلاحظ ان الآداب والفنون الحديثة في جملتها تحاول التنصل من القيم الروحية والنغم الانساني العاطفي ، الذي كان يشير في الماضي الى اميز خواصها ، واخص ميزاتها ، وان يلاحظ في هذا الوقت الذي يهيمن فيه التفكير الحسابي على منتجات الفنون والآداب — ان هنالك موجة قوية في سير العلوم الطبيعية الحديثة ، وفي الفلسفات المعاصرة نحو عالم الروح ، ونحو نوع من القيم الانسانية التي لا ترجع الى عمليات المنطق ومكتشفات الذهن الرياضي . هنا يقف الانسان ليرى تفسير كل ذلك وتعليله ان كان لذلك التفسير والتعليل من سبيل !

فالفلسفة بعد أن أصبحت في اخريات القرن التاسع عشر ترتكز اشد ما ترتكز على الحقائق المطلقة والمبادئ الذهنية المنطقية عادت في هذا القرن العشرين تتلمس وجوهاً وقيماً غير الوجوه والقيم الاولى ، وكان من نتائج ذلك التلمس أن جاء وليم جيمز ومن تبعهُ من فلاسفة الامريكان بالفلسفة العملية (براجماتزم). وجاء برجسون بفلسفة البصيرة وقوله ان الذهن البشري وحده يستطيع فهم حقائق الحياة . كما ان وجهة النظر الميكانيكية المادية في العلم لم تعد تقوى على الوقوف أمام ابحاث اينشتين وادنجتون وجينز ولودج وانداده من اقطاب العلم الحديث

في هذا الوقت نجد اتجاهات فكرية محضة ، وعناية بالقالب والشكل على حساب الموضوع والعاطفة في منتجات الآداب والفنون الحديثة تكاد تعم معظم ما يخرجه الجيل الجديد في النحت والتصوير والموسيقى والقصة

ففي الفنون الشكلية عناية بالقالب بلغت حد التطرف والهوس وجارت على مكان الشعور والتمثيل الصادق المألوف في منتجاتهم . ونشأت على اثر ذلك المدرسة التكعيبية ومدرسة « الغموض » وخلافهما من المدارس الفنية . ثم جاء « ابشتين » في النحت بقوالب وايماءات ينكرها الانسان ولا يعرف اين يستقر الجمال فيها ولا الشبه الذي يود ابرازه . فقد أصبح فن هؤلاء الفنانين فناً فكرياً رياضياً خالصاً لا يهتم بالقيم الادبية وتمثيل المشاعر ، وحكاية الاصل حكاية واقعية ، وانما جل همهم محصور في الاغراب الفني والابداع في القالب ، حتى أن الانسان ليصعب عليه في كثير من الاحيان تمييز الموضوع المرسوم ، اهو انسان ام شجرة ام آلة من الآلات ؟ !

« وجكوب ابشتين » هذا لا يرضخ في عالم النحت لفكرة الجمال « الرومانطيقية » المألوفة



ناحية من طرائق التصوير الحديث تمثل العناية بالاتساق والانسجام في الحركة والشكل
(عن دائرة المعارف البريطانية)

جبن وضعف . وهو يحمل حملتهُ هذه على ارباب الفنون الشكلية من الجيل الجديد ويقول عنهم انهم قد اوجدوا « رومانطيقية » جديدة تعبد الآلة وتنكر الروح والحرية الفردية على نقيض الحركة الرومانطيقية في اوائل القرن التاسع عشر . وليست هذه الرومانطيقية باحسن من تلك ! ويعلل هكسلي هذه الظاهرة الجديدة بان رجال الفنون الحديثة قد اعتراهم الخوف من مجابهة الحقائق الانسانية الكبرى لانهم رأوا تلك الحقائق في معرض لا يسر ولا يغري بالاعجاب بعد ان شوَّهتها أيدي رجال الفنون الشعبية ، واظهرت تلك العواطف والمشاعر في معرض مبتذل سخيف . فلجأ الجيل الجديد الى انكارها والقول بانها غير موجودة، وارتاحوا الى التفنن في القوالب الفنية مع ان الشجاعة الفنية تحتم عليهم اذ كانوا صادقين مهاجة تلك الحقائق الواضحة وعرضها في نور جديد وان يستطيعوا رياضة ذلك الوحش « التبذل » الى منهج الفن الصادق ، ودقة القالب الرفيع . ذلك ما يقوله هكسلي ويحاول انتاجه ولكنهُ لم يستطع الى الآن !

فالتيارات التي تعمل في ادب الجيل الجديد في اوربا كثيرة ومتعددة ، وفي بعض الاحيان متناقضة غير ان هنالك روحاً واحداً — لا يخطئهُ القارئ — يصدر عنهُ كل ادباء الجيل الجديد ، وسمات خاصة تميز فنهم عن فن ما قبل الحرب وتشير الى اهم خصائصه واتجاهاته

ذلك الروح هو روح النفي والشك في معظم الحقائق السابقة والقيم الماضية !

فهذا الشاب — الدس هكسلي — يمثل « النفي » والتمرد على الماضي اتم تمثيل وهو يتناول المسائل المقررة والقضايا المقبولة وينقدها على ضوء السيكولوجية الحديثة . وهو لا يفتأ منقباً عن اجرام الماضي وغلطاته وسخافاته ونفاقه واكاذيبه ثم يعرضها بما تستحقهُ من النقد والسخرية الضاحكة ، ولا يعتمد في كل قصصهِ وكتاباتهِ على غير التجربة والملاحظة ، ولا ينظر الى الانسان الاَّ كما ينظر الى بقية المخلوقات ،نظرة فيها من الارتياب والشك والفحص — ما يغضب بعض القراء ويثير اشمئزازهم — وعلى نقيض هكسلي في هذه الصفة « د.ه . لورنس » الكاتب الانجليزي المعروف . فهو قد اقتنع بسخافة الماضي وأكاذيبهِ وبطلان قيمهِ ، وهو يحاول بناء فلسفة جديدة ترجع الى غريزة الجنس او « قوة الحياة » كما يسميها . فهو مبشر يدعو الى الحياة الطبيعية وتلبية نداء الجنس الطبيعي . ويعتقد ان الكمال الانساني انما يجيء اذا رجعنا الى غريزة الحياة التي لا تعرف الكذب والنفاق. وهكسلي انما يؤمن بالذهن البشري ولا ينكر الغريزة . بل يرى ان الاثنين لا بد منهما للحياة المليئة وعصور الخلق الزاهية

بعد هذا العرض المقتضب لاتجاهات الفنون والآداب في أهم خصائصها وميزاتها نرى لزاماً علينا ان نعرض للاسباب التي تعمل وراء تلك الاتجاهات والنزعات فنقول :

انهُ لمن الصعب جداً أن نرجع باتجاهات تكاد تكيف عصراً بأ كمله الى سبب واحد ، كما أشار هكسلي مثلاً الى الخوف من الحقائق الواضحة بعد ان عرضها رجال الفنون الشعبية بتلك

الصورة المبتذلة الكاذبة المتزيدة في العاطفة والشعور حتى وصل الامر بالجيل الجديد الى نكران وجودها مطلقاً ، والايمان بالفكر والقالب فقط . كما ان الرجوع بكل هذه الاتجاهات الى أثر الحرب الكبرى — جملة وتفصيلاً — لامر سهل رخيص يريحنا من التفكير والتفصيل ولكنهُ لا يقنعنا بشموله وعمقه . وليس من شك ان السبب الذي اتى بهِ الدُس هكسلي صحيح صائب. ولكنهُ ليس كل الصحة والصواب وليس شك ان أثر الحرب العظمى في هذه الاتجاهات الفنية أثر واسع عظيم . فهذا الجيل الذي يحترف الفن او يكتب القصة قد اكتوى بنار الحرب الكبرى وشهد افظع مجزرة بشرية يهيؤها « الساسة » باسم الشجاعة والنجدة والوطنية والامانة وما ماثلها من الالفاظ الرنانة ، حيث كان الدافع الصحيح بعيداً عن هذه الاشياء بل هو اقرب الى الاغراض الوضيعة والمشاكسات الصغيرة والاكاذيب الضخمة التي كان يذيعها المتحاربون بعضهم عن البعض ويدفعون باولئك الشبان الابرياء الى اشنع صور الوحشية وتحجر الشعور والعاطفة . فلما وضعت الحرب اوزارها وحان الوقت للتفكير المنطقي الهادئ وعلم الشبان بحقيقة تلك الحرب الكبرى تشككوا في كل القيم و المبادئ التي تلقوها في المدارس من آبائهم واجدادهم ورجعوا يفحصون الماضي بكل دقة وارتياب ، وتبدلت نظرتهم للحياة وللطبيعة البشرية ، وابتدأوا يدرسون من جديد !

واذا كانت الامور على هذا النهج من الكذب والنفاق فمن اين لهم ان يطمئنوا الى اي حقيقة في أدب أو فن ؟ ! . وظهر هذا الشك وذلك النفي وعدم الايمان في منتجاتهم الفنية ولجأوا الى اللعب « بالقالب » اذ أنهم لا يعرفون الحقيقة واللباب ولا يمكنهم ان يطمئنوا الى حق قديم اذا لم يلاحظوه ويجربوه مراراً على النسق العلمي !

واذا اضاف الانسان الاكتشافات التي تلت الحرب الكبرى وانتشرت في كتب « السيكولوجية » الحديثة مثل « التحليل النفساني » و « السلوكية » وخلافهما ، والتي اظهرت حقائق جديدة عن النفس البشرية — مريرة في بعض الاحيان — لا تمت الى ذلك النبل والصدق المزعومين ، سهل عليهِ تعليل هذا التشاؤم وذلك الشك وتحليل كل عمل الى بواعثهِ الاصلية ، والالحاح في ذلك التحليل والتعليل !

ونرى أيضاً ان هذا الدور في تطور الآداب والفنون — الى جانب كل هذه الحقائق — قد استلزمتهُ مقتضيات التطور في تاريخ الفنون . فالمصور او الفنان في هذه الايام يرى ان من سبقوه من الفنانين قد حكوا الاصل حكاية تامة ليس من زيادة بعدها لمستزيد . وان هذه الدائرة من الواقعية الفنية قد بلغت دور كمالها وشيخوختها . واذاً فلابد للفنان الحديث ان يكتشف ناحية لم يُعيرها القدماء عنايتهم ، فيبرزها ، فوقع اختياره «على القالب» والابداع في اغاطه والقول بأنهُ هو « المسألة » كلها في الفن واتخذ «الفكر» واسطة لذلك الفن

كما انه يغلب في ظننا ان لانتشار الفنون الرخيصة مثل التصوير الشمسي والسينما دخلاً كبيراً في هذه الاتجاهات نحو القالب الفني والاغراب فيه . فآلة التصوير الشمسي — بعد الاصلاحات الحديثة — تحكي الاصل تماماً وتعطي كل الالوان والظلال المبتغاة. واذاً فالتصوير الفني لا يمكن ان يجاريها في هذا المضمار. والقصة يمكن سردها باسلوب شائق جذاب على لوحة السينما بنجاح اكبر من سردها في غضون كتاب . واذاً فلابدَّ من الاتجاه الجديد في الفن القصصي وبقية الفنون التي زاحمتها الفنون الرخيصة !! . ذلك امر طبيعي وهو الدفاع عن الكيان الذاتي وتوكيد النوع

ونعتقد ان هذا الدور في تطور الآداب والفنون سوف يعقبه دور آخر يجمع بين جلال الموضوع الانساني وبين الابتكار في القالب والابداع فيهِ . ولن يكون ذلك الطور الا بعد انجلاء هذه الشكوك وانتهاء عصر «النفي» والنقد . ذلك لان الفن يتأخر في تطوره وكماله لانهُ ارفع درجات الوعي البشري . وهو يمر الآن بهذا الطور الذي مرت بهِ الفلسفة ومرت بهِ العلوم

ونرى بوادر هذا الطور عند الكاتبة الانجليزية النابهة «فرجينا ولف» — اعظم فنانة تكتب في الوقت الحاضر — فهذه المرأة مفكرة عنيفة التفكير ، وقالبها الادبي يصعب تتبعه للقارىء الحدث وهي لا تخاطب مشاعرنا المعروفة . ولكنها في واقع الامر تتناول اكبر مسائل الحياة الشعورية وتعرضها في اسلوب كله الدقة والشعر والتفنن . فهي تتناول مثل مشكلة عواطف الانسان وتغيُّرها واستمرار الوقت وعدم تغيره ، وتؤلف من كل ذلك قوالب جديدة ، بارعة الرمز ، شديدة الايحاء . وهي لا تؤثر في قارئها — مع انها تستعمل الكلام — عن طريق المنطق والتفكير . ولا تحكي قصتها كما يحكيها القصاصون بالطريقة الزمنية المكانية. وانما قصصها تترك جوًّا خاصًّا في وعي القارىء الدقيق الشعور ، يحمل اليهِ كل ما تريد التعبير عنهُ ، جوًّا هو مزيج من الاصوات والالوان والروائح والانوار المختلفة ، جوًّا يقرب في فعله وأثره من فعل الموسيقى وأثرها . فهذه المرأة هي اقدر النساء اللاتي كتبن في الادب على وجه الاطلاق وعمق احساسها بالحياة ليس له من قرار . وخيالها القوي النشيط لا يتتبعه الا من كان قوي الخيال نشيطه . وايحاؤها الفني يترك حلقات من الموج في وعي القارىء تنفذ رويداً رويداً الى مناطق من الروح غير مكتشفة ، غامضة مليئة بالحقائق المجهولة

نرى اذاً ان «فرجينا ولف» بادرة طيبة من بوادر الطور القادم الذي سوف يجمع الى صرامة التفكير ودقة القالب ، مشاعر الانسانية الكبرى وقيم الروح العليا في الفنون الادبية. بل نذهب الى ابعد من ذلك ، فنقول ، ان سيجيء اليوم الذي تزول فيهِ الفلسفة كما نعرفها الآن. وان الفن سوف يبتلع كل صنوف التفكير والشعور والدين والعلم الرياضي ليخرج بذلك «فنًّا» يحمل ميزة كل هؤلاء ولا يفقد طابعه الخالق وقالبه الدقيق . اذ ان الفن — كما بينا — هو اعلى دور في تطور « الوعي » البشري

معاوية نور



اصل النظام الشمسي

وانتشار الحياة في الكون

نظرية فلكية جديدة

كيف نشأ النظام الشمسي ؟ كيف انفصلت السيارات عن الشمس ؟ وكيف انفصلت الاقمار عن السيارات ؟ هل نشوؤهُ مثالٌ لنشوء الاجرام السموية نشوءاً منتظماً ؟ ام هو فلتة احتمال حدوث مايماثلها بعيدٌ جداً ؟ وهل ثمة انظمة اخرى في رحاب الكون تماثله ؟ وهل توجد احياء على بعض الاجرام من قبيل الاحياء الارضية ؟

اسئلة حار الانسان في الاجابة عنها من اقدم العصور ، ولكنها كانت حافزاً للبحث والاكتشاف ، فبلغ علماء الفلك بعلمهم في محاولة الرد عليها ، مرتبةً عالية من الدقة والارتقاء

واذا رجع القارىء الى ما كتبناه في هذه المجلة تحت عنوان «مقام الانسان في الكون (١)» و « اصل النظام الشمسي ونشوئهِ (٢) » عرف ان احدث المذاهب العلمية التي تتناول هذه الناحية من علم الفلك هو مذهب السر جيمز جينز ، وهو يقضي بأن نشوء النظام الشمسي بعيد الاحتمال او هو نادر كل الندرة ، ولذلك فالسيارات التي تصلح ان تكون مثوى لاحياء كالاحياء الارضية ليست مما يزحم الفضاء . ولكن عالماً اميركياً يدعى رُس جَن (Ross Gunn) وهو من علماء معهد المباحث في المدرسة البحرية الاميركية جاء برأي جديد ، تلاهُ في رسالة على الجمعية الفلكية الاميركية ، يخالف رأي جينز اذ يقول ان نشوء النظام الشمسي عمل طبيعيٌّ منتظم ، واذاً فالانظمة الشمسية المماثلة له كثيرة ، وعليهِ فاحتمال وجود احياء على سيارات هذه الانظمة الشمسية كثير الاحتمال

***

في القرن الثامن عشر تصوَّر سويدنبرغ وكانط قطعة سديمية عظيمة في طور التقلص ، وقالا بأن السيارات نشأت منها بالانفصال فبقيت كتلتها المركزية وهي الشمس. على ان بوفون العالم الفرنسي الشهير رأى ان النظام الشمسي نشأ من اصطدام حدث اتفاقاً بين الشمس ومذنب كبير . فخالفهُ لابلاس العالم والرياضي الفرنسي المشهور في ذلك ، لانهُ حسب ان وقوع اصطدام من قبيل ما يقول بهِ بوفون بعيد الاحتمال جداً ، ومن البحث في هذا الخلاف ، أخرج لابلاس في آخر القرن الثامن عشر ، اول تعليل علمي للنظام الشمسي وهو مايعرف «برأي لابلاس السديمي» . وقد بنى رأيهُ على نفس المبدإ الذي قال بهِ كانط وسويدنبرغ — قطعة سديمية

(١) مقتطف ابريل ١٩٣١ (٢) مقتطف نوفبر ودسمبر ١٩٣١

عظيمة — ولكنهُ لم ينقل عنهما ، بل انهُ شآهما في تناول تفصيلات الرأي بالحساب الرياضي. فانهُ تصور ان هذه القطعة السديمية آخذة في الدوران ، وانها في اثناء دورانها تتسطح عند قطبيها ، ثم تأخذ في التقلص ، وتقلصها يزيد سرعة دورانها . واذ تبلغ سرعة دورانها حدًّا معيناً ، يتعذر التماسك بين اجزائها ، فتنطلق منها حلقات من مادتها،وهذه الحلقات تتقلص بدورها فتنشأ منها السيارات

ولما كان لابلاس مطبوعاً بروح العلم الصحيح ، كان شديد التردد والاحجام عن اظهار رأيهِ هذا ولكنهُ لما كان الرأي العلمي الوحيد الذي يعلل نشوء النظام الشمسي في ذلك العهد، كثر الاقبال على الاخذ بهِ . على ان الاعتراضات عليهِ لم تلبث حتى ظهرت . فعلماء الرياضة اثبتوا ان السديم الدائر لا يمكن ان يطلق حلقات من مادتهِ اولاً ، ثم ان الحلقة الواحدة من هذه الحلقات لا يمكن ان تتقلص كتلة واحدة تكوّن سياراً فرداً ، ثم ان رأي لابلاس عجز عن تعليل الفرق بين اقمار المشتري وزحل . فللمشتري قمران ولزحل قمر وثلاثتها تدور في جهة مناقضة لجهة دوران الاقمار الاخرى حول سياراتها . وكذلك لم يستطع هذا الرأي ان يدرك السر في ان احد اقمار المريخ يدور حول المريخ ثلاث مرات كل يوم !

فلما ظهرت هذه الاعتراضات ، وادرك العلماء مقامها ، جعلوا يفكرون في تعليلٍ آخر للنظام الشمسي . فأخرج تشمبرلين ومولتن رأياً جديداً يقوم في اساسهِ على فكرة بوفون، وهذا يعرف بالرأي المدّي ، ومؤداهُ ان الشمس صادفت في سيرها الفضائي طوائف من الاجرام الصغيرة كالنيازك والسيارات الدقيقة الحجم Planetoids فأحدثت فيها مدًّا انفصل عنها وتقلص فنشأت منهُ السيارات . ثم عدّل فيهِ بعدئذٍ .على ان جينز قال باقتراب شمس ثانية من شمسنا الى بُعدٍ مكنها من احداث مدٍّ في سطح شمسنا ما زال يعلو حتى انطلق في شكل ذراع كالطوربيد ثم تقلصت دقائقها كتلاً كتلاً وهكذا نشأت السيارات . وكان جفريز اولاً من اتباع مذهب جينز ولكنهُ تحول حديثاً الى القول بأنهُ لا بد من ان تكون الشمس الثانية قد اقتربت من شمسنا حتى تماس سطحاها ، ثم لما اخذت تبتعد عن شمسنا سحبت وراءها ذراعاً من مادة شمسنا ، لم تلبث حتى تقلصت كما في مذهب جينز فتكوّنت السيّارات

هذه النظرية الجديدة ، علّلت ما عجزت نظرية لابلاس عن تعليلهِ ، من خواص النظام الشمسي ، ولم تظهر اعتراضات خطيرة عليها ، فقبلها العلماء على انها اوفى الآراء التي ظهرت لتعليل نشوئهِ ومميزات سياراتهِ واقمارها ، بوجه عام . فلما عني العلماء بالنظر في تفاصيل ما تقتضيهِ النظرية ، بدت مصاعب ، ما زالت تكبر ، حتى بلغت مرتبة الامور المستحيلة[١]

---

(١) القول للمستر نيوتن مدير مرصد هارفرد في نيويورك تيمس عدد ٣ يناير ١٩٣٢

والرأي الجديد الذي يقول به الاستاذ رُس جن يجمع فضائل الآراء القديمة ، ويجتنب — على قدر ما يستطاع الحكم الآن — اكبر اخطائها . فهو يبدأ بنجم دائر على محوره ، ولكن النجم الدائر على محوره ، ليس من الامور التي يسهل تصورها ، لان النجم كتلة من الغاز المتوهج ، تبلغ حرارة سطحه بضعة آلاف درجة ، وحرارة باطنه بضعة ملايين ، ولا قوة للاحتفاظ بدقائقه متماسكة ، الاَّ قوة تجاذبها . ولكن ثمة قوى كهربائية تقاوم قوة التجاذب وتدفع النجم الى زيادة سرعة دورانه ، فيمضي في هذا السبيل الى ان يظهر فيه على سطحه انتفاخ ما يزال يكبر حتى ينشطر النجم الى اثنين على مثال ما يحدث في الحمار

في رأي جن حساب لقوة جديدة ، تعرف بقوة ضغط الاشعاع . فقد اثبتت الآراء الطبيعية الحديثة ان للاشعاع سواء اكان ضوءًا او غير ضوء ، ضغطاً . وهذا الضغط يبدو في المذنب مثلاً . فان الاشعاع المنطلق من نواة المذنب يضغط على الدقائق التي يتألف منها الذنب فيبعدها عن النواة . وقد قال ادنجتن ، اننا نستطيع ان نوجه شعاعة ضوء الى رجل فنطرحهُ على الارض بشدة ضغطها . وانما يجب ان تكون قوة الضوء عظيمة جدًّا ، وانها اذا بلغت درجة القوة اللازمة لطرح الانسان على الارض بضغطها، بخرته اولاً بحرارتها

فلننظر الآن في شطري النجم . ان سطحي الشطرين البعيدين احدهما عن الآخر ، اقل حرارة من سطحي الشطرين القريبين احدهما من الآخر ، لان السطحين البعيدين هما في الواقع سطح النجم قبل انشطاره ، وحرارتهُ تقدَّر بآلاف الدرجات . واما سطحا الشطرين القريبين فهما قلب النجم قبل انشطاره ، وحرارة باطن النجوم تقدر بنحو ٤٠ مليون درجة. ولما كان سحطا الشطرين القريبين اشد حرارة فالاشعاع المنبعث منهما اقوى من الاشعاع المنبعث من السطحين البعدين . واذاً توجد بين شطري النجم قوة تدفع احدها عن الآخر . ومن الممكن ان تقوى قوة الدفع بفعل « ضغط الاشعاع » على قوة التجاذب بين الجرمين ، فيبعد احدها عن الآخر . ونقول « من الممكن » قصداً لان مسألة الغلبة لقوة الدفع على قوة الجذب ، او لقوة الجذب على قوة الدفع ، تتوقف على بناء النجم الاصلي قبل انشطاره والاحوال التي وقع فيها الانشطار . فقد تقوى قوة الجذب على قوة الدفع فيبقى النجمان متجاورين يدوران حول نقطة واحدة وحينئذٍ يصبح النجم المنشطر، نجماً مزدوجاً donble star . اما اذا تفوقت قوة الدفع على قوة الجذب، فيبتعد احد النجمين عن الآخر ويسير كلٌّ في سبيله . ولعل الاشراق القوي الذي شوهد في « نوفا بكتورس » سنة ١٩٢٥ وعقبه انشطار النجم او انتثاره ، تمَّ بالطريقة التي يصفها جن . هذه هي الاصول التي يقوم عليها المذهب الجديد . اما ما يلي انشطار الشمس وتباعد الشطرين فيمكن تعليله بنظرية جينز وصحبه . ومتى اطلعنا على بسط علمي وافٍ لهُ لم نتأخر عن نشره

المذاهب الاجتماعية الحديثة

للمستر كليلند

مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الامريكية بالقاهرة

الاجتماع علم او فن

ما هو المجتمع؟ اللفظ الفرنجي Society مشتق من اصل لاتيني «سوسيوس» Socius ومعناه رفيق، وهذا اللفظ رفيق وهو (Companion) مشتق بدوره من اصلين لاتينيين هما Con و Pains ومعناهما الاكل معاً او «المؤاكلة» فلفظ Society يعني اصلاً جماعة بينهم شركة او لهم مصلحة عامة، وفي معناها المحدث الواسع يقصد به اولئك الافراد الذين يعيشون معاً على سطح هذه الكرة ويشتركون في تلك المصلحة. والسؤال الذي يعترضنا بعد هذا البيان هو ما يأتي: اذا كان الاجتماع يعني المعيشة معاً، واقتسام الارض (بين الناس) فهل هو «فن» يمثله كل فرد اعماله مستقلاً في اثناء اتصاله بالآخرين من الجماعة التي ينتمي اليها فبعضهم يحسن الاعمال وبعضهم يسيئه — او نحن نستطيع ان نستخرج بعض احكامه العامة التي تجعله «علماً» للاجتماع البشري؟ هنا يستحكم الجدال. فبعضهم يقول ان كل انسان ينظم علاقاته، في دائرة هذا العيش المشترك، وفقاً لذوقه الخاص، الذي يلذ له الاعراب عنه بطرقه الخاصة، وان استخراج الاحكام العامة التي تصح ويمكن تطبيقها على كل الفراد وسلوكهم، امر متعذر. وعلى الضد من ذلك تقول طائفة اخرى، ان الناس يتصرفون وفقاً لنواميس طبيعية معينة، مهما تختلف البلدان التي يقطنونها، فاذا كشفنا عن هذه النواميس، فزنا بانشاء «علم الاجتماع». وبعض علماء الاجتماع يتطرفون في تبسيط المسألة اذ يذهبون الى ان النواميس التي تسيطر على المادة الجامدة، تسيطر على الانسان كذلك وانه لذلك لا يعدو ان يكون آلة معقدة التركيب. ويقابل هؤلاء طائفة ترى انه رغماً عن الاثر البالغ الذي تتركه نواميس العالم الطبيعي في الانسان، لا يمكن ان تكون وافية، لانها تتجاهل فعل ذلك العامل القوي الخفي الذي يصح ان نشير اليه باسم «مبدإ الحياة» او «عنصر الحياة». فالحياة ولا ريب تحدث اختلافاً ما في اية مادة تمسها، ولكن اذا نظرنا الى الرتبة

العليا من الحياة التي نشهدها في « العقل الانساني » وجدنا ان هذا الاختلاف كبير جداً. وعليهِ فاذا رغبنا في وضع « علم للمجتمع » وجب علينا ان نتبع الاسلوب العلمي في محاولتنا وهو يقوم ، على جمع كل الحقائق الممكن جمعها ، ثم تبويبها ، ثم وصفها ثم استعمالها في « العمل والحياة والبحث عن الحق ». لذلك نرى الاجتماعي الحديث يدرس الرياضيات عن طريق « علم الاحصاء » ويدرس الناس عن سبيل جمع كل الحقائق التي يستطيع جمعها ، غير معرض عن حقيقة واحدة ، سواء احبها ام كرهها ، ثم يجلس وامامهُ الجداول والمذاهب ، محاولاً ان يجد كيف تتشابهُ هذه الحقائق ، وكيف ترتبط طائفة من الحقائق باخرى ، وما نشأة هذا الارتباط وهلم جراً . عليهِ أن لا يعرض عن شيء مهما يكن طفيفاً ، بل عليهِ ان يحسب حساباً لكل ناحية من نواحي السلوك الانساني ، حتى آراء الناس وعاداتهم الخاصة ، من طرق التحية الى المعتقدات والتقاليد الدينية . فاذا اعرض ، قصداً ، عن عامل من العوامل — كعامل الدين مثلاً — فهو اذاً ليس عالماً صميماً وانما هو متحزب لرأي خاص او فكرة معينة . فعمل العالم الاجتماعي الحديث ، هو استكشاف الحقائق الانسانية ، واستخراج الاحكام العامة التي يمكن استخراجها من هذه الحقائق . العلم — قال كارل بيرصن العالم الاحصائي البريطاني — فهرست مبوب لكتاب الحياة يمكننا من العثور على ما نريد بسهولة ، وانما لا يعلل لنا كل محتويات الكتاب

***

فلننظر الآن في بعض الاحكام الاجتماعية العامة ، وخصوصاً ما كان منها متصلاً بالمكتشفات الحديثة في العلوم التي تمت الى الاجتماع بصلة ، كعلوم الإحياء وعلم الاقتصاد ، وادب النفس والسنة الاولى التي نبدأ بها تبدو كأنها اولية نسلم بصحتها . وهي من وضع لوبلي Le Play المهندس والاجتماعي الفرنسي الشهير ، صاحب السهم الوفير في انشاء علم الاجتماع في القرن التاسع عشر . فقد ذهب الى ان اية جمعية بشرية هي نتيجة التفاعل بين ثلاثة عوامل — المكان والعمل والشعب . فبالمكان يقصد البيئة الطبيعية ، وبالعمل النظام الاقتصادي ، وبالشعب الناس واوضاعهم الاجتماعية والسياسية . فيبدو كأن هذه السنة تشمل كل ما يجب ان تشمله من عناصر الاجتماع لانها تضم في كنفها الانسان كما هو وبيئته

اما الآن فنرى المدارس الاجتماعية المختلفة تقدم احد هذه العوامل على الباقي وسبب ذلك نظر اصحابها الى الموضوع من نواح مختلفة . فثمة في علم الاجتماع المدرسة الجغرافية والمدرسة البيولوجية (الحيوية) والمدرسة السيكولوجية (النفسية) والمدرسة السسيولوجية (الاجتماعية) فنعاً لتعقيد المسألة نكتفي بالنظر الى الناحيتين الاساسيتين وهما — اولاً — البيئة ونقصد بها (المكان والعمل او النظام الاقتصادي) — وثانياً — الوراثة (ويراد بها طبيعة الناس) فنعرض الى ما كشفهُ البحث الحديث من حيث طبيعة الاجتماع البشري ونموه

البيئة

اثبتت المباحث الحديثة ان للبيئة الطبيعية أثراً يفوق الاثر الذي كنا نتصوره. ففي علوم الاحياء نعلم ان لا بدّ من توافر اربع مواد لحياة البروتوبلازما وهي الهواء والحرارة والرطوبة والغذاء. وعلماء الاحياء يستطيعون بتنويع المقادير التي يبيحونها من هذه المواد للحيوانات الدنيئة، ان يغيروا من نظامها وتكوينها فيخلقون طبقاً لمرامهم عظايات ذوات رأسين، واسماكاً ذات عين واحدة، وذباناً غير سويّ التركيب، كما يستطيعون ان يزيدوا سرعة الافعال الحيوية فيحولون بعض الحيوانات التي تقطن الماء الى حيوانات تقطن اليابسة. وبتوجيه اشعة اكس الى جراثيم التناسل والخلايا الاولى التي يتكون منها الجسم، يحدثون تغييرات بعيدة الأثر في النسل، وخصوصاً من ناحية اظهار الصفات الكامنة عن طريق الفتك بالعوامل التي تحمل الصفات المتغلبة (راجع مقالَي الوراثة في مقتطف يناير وفبراير ١٩٣٢)

وهذه التجارب لم تسفر عن اي فائدة عملية في النوع البشري، الاّ من سبيل غير مباشر فاذا ظهر في بعض الناس صفات غير سوية، امكن التغلب عليها واعادة الجسم الى نظامهِ السويّ بتغيير احد العوامل الاربعة المذكورة آنفاً. فالبلهُ (Certiinsm) في الاطفال يشفى بتناول خلاصة الغدة الدرقية، ومرض البول السكري بالانسولين. أما من حيث ما يرتبط بالحرارة فقد ثبت من مباحث ارلند بجامعة ايلينوي الاميركية ان مقدرة اعضاء الهضم على تعقيم الطعام تضعف في الجوّ الحار، لان العصارة الهضمية تفقد حموضتها، واذاً فالانسان اشدُّ تعرضاً للمرض في الاقاليم الحارة الرطبة. وهذا التباين في الحرارة والرطوبة عن المستوى المتوسط، يمكن تعديله بتغيير الطعام اذا عرفنا كيف نفعل ذلك. وفي كلا الحالين، يتأثر الانسان بما يحيط بهِ من عناصر الطبيعة. وثمة مثل آخر. اثبت بواس Boas (العالم الانثربولوجي الاميركي) بمقاييس انثربولوجية ان بناء الجسم في سلالة من السلالات يتغير اذا انتقلت السلالة من اقليم الى آخر متباين عن الاول. فالسلالات الاوربية المستديرة الرؤوس تتجه الآن في اميركا الى استطالة الرؤوس. وقد طعن بعضهم في النتائج التي وصل اليها — وأخص بالذكر كارل بيرسن — وانما البحث في هذا الموضوع لا يزال موصول الحلقات. ومن الطرق الخفية التي تنتحيها البيئة في تغيير الفرد (من دون ان تؤثر في جراثيمهِ التناسلية واذاً فهو تغيير لا يورّث) الغدد الصماء. فقد تكون الارض في بلد ما ناقصة عنصراً من العناصر الحيوية فيتأثر بناء الجسم بهذا النقص والعقل كذلك. وقد تتأثر على مرّ الاجيال جراثيم التناسل (المقتطف — والمثل على ذلك نقص اليود من بلاد سويسرا وما يصاب بهِ اهلها من مرض الغواتر كما بينا في المقتطف. ويعالج بخلاصة الغدة الدرقية لان افرازها يحتوي على قدر كبير

من اليود) وقد كانت وجوه التقدم العلمي في الحضارة الحديثة خير معوانٍ على مقاومة هذه القيود او النقائص الطبيعية . فنحن نستطيع ان تتدفأ في المناطق المتجمدة ونتبرد في المناطق الاستوائية ، ونحن نستطيع ان نستورد الاطعمة لسد ماينقصنا منها في منطقة معينة، ونستطيع كذلك ان نرحل من اقليم غير مواتٍ الى آخر يواتي الصحة مدداً تقصر او تطول — وبكلمة موجزة، قد مكنتنا وسائل المواصلات الحديثة من توسيع نطاق البيئة حتى تشمل العالم بأسره

الوراثة

وثمة وجوه اخرى لمسألة البيئة سوف نعود اليها بعدُ ، وانما نريد ان نذكر بعض ما يبدو لنا عن الناحية الاخرى من سنّة له بلي (Le Play) وهي الشعب والوراثة. لقد اتسع نطاق معرفتنا بالعوامل الخارجية التي تفعل في الجسم البشري وتبدل من علاقة افراده بعضها ببعض وفي الوقت نفسه زادتنا المباحث الحديثة ثقة باستقرار « الجرثومة التناسلية » التي ينشأ منها الجسم الحيّ . فقد اجريت تجارب متنوعة غرضها احداث تغيير في الجرثومة التناسلية وكروموسوماتها الناقلة للصفات الوراثية. والكروموسومات ينظر اليها كسلاسل من العوامل (genes) والعامل هو الجزء من الكروموسوم الحامل لصفة واحدة معيّنة كلون العيون مثلاً . وقد ثبت انهُ توجد وسائل لاحداث تبديل في « العوامل » بفعل البيئة ، كاستعمال اشعة اكس مثلاً . ولكن تبين كذلك ان هذه الوسائل المصطنعة لاتحدث تغييراً دائماً في المادة التناسلية . بل ان النسل المقبل يرتدُّ الى ما كان عليهِ السلف قبل احداث التغيير بالوسيلة المصطنعة . والطريقة الوحيدة لتغيير هي «التناسل الانتخابي» وهذا اذا طبق على الناس كان عملاً بطيئاً كل البطء (علاوة على معارضة التقاليد الاجتماعية لهُ) ولعل تعذّرهُ في الناس عمل ربانيّ . فالانسان كائن يحب الاستطلاع فيقدم حيث تخشى الملائكة ان تقدم ، ولذلك اراد الخالق ان يجعلنا غير معرضين للخطإ من هذه الناحية، فجعل تغيير الطراز الانساني وفقاً لوهم عارض او زي فاش في جيل من الاجيال ، امراً متعذراً . وقد اشار ماكفر « Maciver » الى علاقة البيئة بطبيعة الكائن الاساسية فقال (ان البيئة « عامل سلبي » يتفاعل معهُ كائن حيّ بحسب استعداده الخاص. في احوال مماثلة من البيئة الطبيعية نجد اختلافات كبيرة في العادات والاوضاع والطبائع ، في طوائف مختلفة من الناس . فالبيئة لا تكيف تكييفاً ايجابيًّا خلق الانسان ، وانما تمهد الطريق لنمو هذه القوة الكامنة في الانسان او تقيم حائلاً في سبيلها . وهذه القوى الكامنة هي سرّ الحياة ، ولن نستطيع ان نطلع عليها كاملة من مشاهدة مظاهر البيئة المتقطعة ». وقولهُ ينطوي على جانب كبير من الصحة ، الاَّ ان المباحث البيولوجية الحديثة اثبتت ان للبيئة اثراً اكبر من الأثر الذي اشار اليهِ

البيئة الاجتماعية

وهذا يقودنا الى البحث في عامل خطير هو عامل البيئة الاجتماعية . وفي هذا الميدان ينشأ علم الاجتماع ويترعرع

ماذا يقال في طبيعة القوة التي تجمع الفراد وتكوّن منهم مجتمعاً ؟ هنا تواجهنا مسألة — ما هي الصلة بين الفرد والمجتمع ؟ ايهما أهمّ ، الفرد أو المجموع . ومن منهما يتقدّم على الآخر ؟ وفي الجواب عن هذه الاسئلة لا بدّ من النظر المشارف . كلاهما يساوي الآخر في خطره ، وكلاهما نصف من كلّ ، لا يتمّ الاّ بالنصف الآخر . بل نستطيع ان نذهب في التدليل على هذه الوحدة الى حدّ القول بان كلّ الاحياء تعتمد بعضها على بعض وان اختلفت درجات الاعتماد . ولكي نتمكن من هذا النظر المشارف الى علاقة الفرد بالمجتمع أريد ان اضرب المثل الآتي :

على سطح الارض مادة ، حار العلماء في تحليلها ، تدعى البروتوبلازم . وهي اصناف منوّعة ، وانما اساسها واحد . فصنف منها يدعى « نباتاً » وآخر يدعى « حيواناً » . فبروتوبلازم الحيوان يختلف اختلافاً ظاهراً عن بروتوبلازم النبات في مسألة الحركة . فوحدات البروتوبلازم الحيواني تنتقل من مكان الى مكان بحسب ارادتها . وكل وحدة من هذه الوحدات الحيوانية طائفة أو مجموعة من وحدات البروتوبلازم — وقد دعيت وحدة البروتوبلازم خلية — وكل وحدة حية تختلف عن الاخرى من وجوه كثيرة ، وانما يمكن تحويلها كلها ، تحويلاً غير مباشر ، من حيوان الى نبات أو من نبات الى حيوان . فالحيوان يتغذى بالنبات ، فيبني جسمهُ من عناصر جسم النبات الذي يأكلهُ ، والنبات يتغذى احياناً ببقايا حيوان منحلّ . وبعض طوائف هذه الخلايا ندعوهُ « الاجسام البشرية » ولكن مادة الجسم البشري تمتاز على مادة الكائنات الحية الاخرى ، بما يجعلها اسهل انتقالاً واقدر على ملاءمة نفسها للبيئات المنوّعة . ثم ان اجتماع الخلايا صفة اساسية من صفات البروتوبلازم . فليس ثمة خلايا مفردة تستطيع ان تحيا مفردة مدة طويلة ، ولكن الخلايا التي تجتمع وتشترك ، لها اوفى نصيب من طول الحياة . وقد اثبتت المباحث الحديثة ان حياة البكتيريا ، تكون اخصب ، اذا كانت تعيش في جماعة ، منها اذا كانت تعيش منفردة . فالاشتراك ، ذو فائدة في التغلب على عوادي الحياة ، سواء كانت هذه الفائدة ناجمة ، عن زيادة مقدرة الجماعة على الدفاع عن نفسها ، أو عن تأثيرها بعضها في بعض . وقد اشار الى ذلك الاستاذ ألي Allee احد اساتذة شيكاغو ، في مقالة نشرها في جزء نوفمبر ١٩٣١ من مجلة الاجتماع الاميركية مثبتاً ان للتجمع في الحيوانات المختلفة من البكتيريا الى البروتوزوى الى الهيدرا الى الديدان المسطحة الى العلق الى دعاميص الضفادع الى الحلازين الى الحيوانات المفصلية الى نجوم البحر الى الحشرات الى الاسماك ، فائدة

في سرعة النمو ودفع عوادي الحياة المختلفة. واذاً نخلص من هذا بحقيقة خطيرة: وهي ان الاشتراك، أو المعيشة معاً، او الاجتماع، أمر اساسي تمتاز بهِ المادة التي بنينا منها — أي البروتوبلازم

***

ويجدر بنا ان نلاحظ هنا ان الاشكال البروتوبلازمية التي تمتاز بارقى حظ من حرية التنقل، والقدرة على ملاءمة نفسها للبيئة، هي اكثرها تعرضاً لانفراد وحداتها، عن المجموع، وفقدانها للفوائد التي تنجم عن الاشتراك. وهذا اصدق ما يكون على الانسان. وكلما ازداد استقلال الفرد، زادت الصعوبة في الاحتفاظ بالتجانس في الطائفة، بل بالاحتفاظ بالحياة نفسها. ان بقعة من الطحالب، اكثر تجانساً بالنسبة الى نوعها الخاص، واكثر استقراراً من الشعب الانجلسكسوني. ولكنني لا ارتاب في اننا نفضل المغامرة والمجازفة التي تكون نصيبنا كافراد في الشعب الانجلسكسوني، على ان نكون طحالب. ومهما يكن من أثر الحرية الانسانية في حلّ الاجتماع الانساني، فانها لا تقوى قط على التغلب على هذه النزعة الاساسية، نزعة الاجتماع. فالاجتماع أو التجمع، جزء لا يتجزأ من بنائنا. وسوف نعرض بعدُ الى علاقة الفرد بالمجموع، وانما ذكرنا ما يكفي لاقامة الدليل على التواكل المطلق بين الاحياء. وقد اشار عولس من قديم الزمان الى اعتمادهِ على اخوانهِ فقال « انا جزء من كل ما لقيتهُ »

***

وتوطئةً لما سوف اقولهُ، لا بدّ ان اذكركم ان علماء الاجتماع يقسمون اشكال « المعيشة المشتركة » الى ثلاثة هي — الاقوام أو الجماعات كبرت أو صغرت. والجمعيات وهي طوائف خاصة من الجماعة لها اغراض خاصة. والاوضاع أو المنشآت وهي صُوَر من تصرُّف الجماعات والجمعيات. فسكان القاهرة جماعة والاسرة فيها جمعية والتعليم أو القانون من اوضاعها. هذه الاشكال الثلاثة خاضعة لناموس التغيُّر والتبدُّل المستمرّ كالبروتوبلازم نفسهِ. والمشكلة الخطيرة التي تواجهها هي الملاءمة فيما بينها وحفظ التوازن. وهذا يصدق على الجماعة صدقه على الفرد. فالفرد دائماً معرَّض للمسألة: ماذا افعل في اللحظة الآتية ببيئتي؟ ولحسن الحظ ان شؤون الحياة العادية لا تقتضي جواباً عنها الاّ في الاحوال الشاذة — اذ يفقد الرجل عملهُ، او يموت صديقه، او تنشب حرب، او يشب قتال. وهذه الاحوال الشاذة، دليل على التغير المستمر في احوال الاجتماع. والفرد — او الجماعة — مطالب في كل آن بحفظ التوازن الذي لا مندوحة عنهُ للحياة الهنيّة. ولكن التوازن غير مستقرّ، وفي حاجة مستمرة الى محاولة اعادتهِ اذ يختلّ، فكأنك تمشي على ارض زلجة او كأنك على متن سفينة في بحر هائج مضطرب، فكل خطوة تخطوها ليست ثابتة بل حافلة بالخطر العظيم

[التتمة في العدد القادم]

سياسة التربية والتعليم في الخارج

من محاضرة عامة للدكتور مظهر سعيد

استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية اصول الدين

القاها بمنتدى جامعة القاهرة الاميركية

لو قيس حظ المشتغل بالعلم والشؤون العامة في مصر بما يناله من تشجيع جمهرة المثقفين من جهة ونقد الناقدين ومنافسة المتنافسين من جهة أخرى لكنت أسعد الناس حظاً وأكثرهم توفيقاً

ولقد ارتفع هذا الصوت الضعيف بينكم في العام الماضي مدافعاً عن الطفل المسكين باسطاً قضيته للرأي العام فوجدت من حسن تشجيعكم لي قوة ساعدتني على المضي في سبيلي ومن روحكم الطيبة روحاً قوتني على الدفاع عن الحق. ولكم كان بودي أن أعيد الكرة هذا العام لولا أن صديقي الرئيس الجالس على يميني أبى إلا أن يخرجني من دائرة الطفل الضيقة إلى دائرة المجتمع الواسع دائرة التربية والتعليم العام. وبالرغم من علمي بما يلابس هذا الموضوع الواسع المتشعب الأطراف من جفاف شأن كل الموضوعات العلمية لم أتردد في قبوله وسأحاول أن أبسطه لحضراتكم بما يتفق مع جفافه وجلاله. وقد رأيت أن أقدم الموضوع لحضراتكم باستعراض بسيط لسياسة التربية ونظم التعليم في مختلف البلدان لا لنتبعها كما هي ونطبقها بحذافيرها وإنما لندرس ما فيها من ضعف نتركه وشأنه وحسن نقتبسه بعد أن نعدله تعديلاً يلائم حالنا ويجعله صالحاً لبلادنا

ونحن أيها السادة عند بحثنا للمسائل العامة والموضوعات العلمية ننقسم عادة إلى فريقين فريق المحبذين لكل ما هو جديد المتحفزين للأخذ بكل غربي وهدم كل قديم والخروج على التقاليد طفرة واحدة، الذين يجهلون أن لكل بلد عادات وتقاليد تجعل تطبيق كل جديد كما هو مستحيلاً — وفريق الجامدين المتعصبين الذين لا يرون في الجديد منفعة ولا خيراً مهما عظم شأنه وكبرت قيمته. يتقدم العالم بخطى واسعة إلى الأمام وهم يسيرون ورؤوسهم إلى الوراء لا ترى في العالم شيئاً غير المياكل المخربة والآثار المهدمة والجثث المحفوظة في دور الآثار. فإلى الأولين اقول تريثوا وإلى الآخرين أقول تقدموا وإليهم جميعاً أقول لندرس أحوال العالم لتكون لنا هذه الدراسة مصباحاً نستضيء به ونموذجاً نسير عليه ولنأخذ بكل ما هو حسن

لم يكن للتربية في كل عصور الانسانية وأدوار المدنية منذ أن عرف الانسان معنى التربية نظام خاص يصح أن يسمى سياسة. على الرغم من النظم المختلفة التي كانت ترمي الى تربية فريق من الناس أو طبقة من طبقات الأمة تربية خاصة من نظام اسبرطة في عهد اليونان إلى نظام

التربية الألمانية أيام حكومة القيصر . وبالرغم من نظريات التربية ذاتها وآراء الفلاسفة وعلماء الأجتماع أمثال روسو وبستالوتزي وكومينيوس وفروبل — فقد كان العامل والصانع يعلم ابنهُ أصول الصناعة وسر المهنة ويوجههُ في الطريق الذي يختاره لهُ . وكذلك كان أبناء الأشراف يتعلمون الفروسية والأدب الذي ينبغي أن يتحلوا بهِ كأبناء أشراف في مدارس حرة تعلم من تشاء ما تشاء بغير نظام — نعم لم تكن هناك سياسة عامة محدودة بتشريع خاص تسنّهُ الدولة وتضبط أصولهُ وترسمهُ كما ترسم سياستها الحربية والمالية والسياسية — وانجلترا ذاتها لم تكن لها سياسة عامة للتربية قبل القرن التاسع عشر . فقد صدر أول قانون برلماني بتنظيم التعليم الابتدائي وتعميمهِ على أسس ثابتة سنة ١٨٧٦ . أما التعليم الثانوي فقد صدر بهِ تشريع سنة ١٩٠٢ ولم يكن هناك قبل ذلك التاريخ سوى بضع مدارس قديمة لأولاد الأشراف مثل هارو وايتون لا تعنى بغير حشو أدمغة التلاميذ باللغة اليونانية والشعر اللاتيني وآداب المائدة وحمل السلاح والصيد والقنص وكل ما يجعل التلميذ « جنتلماناً » قبل أن يكون عاملاً نافعاً يكسب قوتهُ بعرق جبينهِ . ثم صدر أول تشريع لتنظيم التعليم الثانوي سنة ١٩٠٢ أي حوالي الوقت الذي قام فيهِ التعليم الثانوي في مصر ولكن شتانَ بين ما وصل إليهِ هناك وبين ما انحط إليهِ هنا . فهناك يخرج شباناً نافعين لأنفسهم ولبلادهم يعرفون دخائل الحياة الجدية حياة العمل الصالح المثمر . أما هنا فيقتل ذكاء الشاب ويقبر عقله ويضطرب فكرهُ ويمتلئ ذهنهُ بالأمور النظرية التافهة التي لا تغني ولا تثمر في حياتهِ المقبلة

وأراني مضطراً للاكثار من الاقتباس وضرب الامثال من النظم الانجليزية لا لأنها في نظري أفضل من غيرها . ولكن لأن انجلترا قد استطاعت في ربع قرن من الزمان أن تتغلب على جمود رجال الدين واهواء السياسيين واعتراضات الاقتصاديين فاخرجت للعالم نظاماً ديموقراطياً يتساوى فيهِ — كما يقول كروازيه الفرنسي ابن الامير مع ابن الحقير — ذلك لأن التشريع هناك لا تقوم بهِ هيئة وزارية معينة وإنما هو هيئات تختلف من حيث مميزاتها وتتحد من حيث العمل وتعمل مستقلة بعيدة عن الاهواء السياسية والنزعات الحزبية ولا تتأثر برأي فيلسوف ولا عالم ولا وزير وتدرس ما يوكل إليها من الموضوعات في ضوء الحقيقة وحدها ثم تتعاون جميعها لتحقيق غرضها الأسمى . ولنتناول الآن العوامل التي ساعدتهم على وضع تشريع صحيح وسياسة قويمة

أولاً : من الذي يضع سياسة التعليم ؟ قد تدهشون اذا قلت لكم أن الطفل الصغير يؤخذ رأيهُ في السياسة التي ستفرض عليهِ في تربيتهِ وتعليمهِ . ذلك لأن علماء النفس يمثلون رأيهُ ويدافعون عنهُ لأنهم أدرى بنفسيتهِ ومزاجهِ . وهؤلاء لهم الرأي الأعلى — لان الرجل العادي كما يقول زعيم رجال التربية السير جون آدمس مهما أوتي من رجاحة العقل وقوة الملاحظة ودقة التفكير لا يعرف حاجات طفلهِ ولا ما يوافق نفسيتهُ ومزاجهُ وكل ما يستطيع أن يفعلهُ هو

أن يفرض عليهِ نظاماً لا يصلح لهُ وإنما يصلح لمخلوق غريب لهُ جسم طفل وعقل رجل

ويلي هؤلاء آباء التلاميذ أنفسهم لان سياسية التربية سوف تفرض على أولادهم ولهم لجان أو اتحاد يعبر عن آرائهم ويلزم البرلمان بالخضوع لها والاستماع لمشورتها وإنهُ ليسرني سيداتي المصريات ان أقول ان اتحاد الآباء في انجلترا لم يؤسسهُ رجل من كبار رجالاتها ولا زعيم من عظماء زعمائها وإنما أسستهُ سيدة هي الآنسة شارلوت ماسون . وكذلك يشترك المدرس في التشريع . ذلك المدرس المسكين الذي ينظر اليهِ في بلادنا نظرتنا إلى الآلة تقوم بما يفرض عليها من عمل من غير أن يكون لها رأى يحترم أو فكرة تقدر . أما في انجلترا فكل مدرس عظم مركزه أوصغر كبر مرتبةً أو ضؤل عضو في اتحاد المدرسين وهذا الاتحاد يدافع عن حقوقهم فلا يسمح لكائن من كان أن يمارس المهنة بغير إجازة والكل في نظره سواء . فالمدرس لهُ رأي في سياسة التعليم ولا يطالب بتنفيذ ما يملي عليهِ تنفيذاً أعمى

وهناك لجان استشارية تضم أرباب الأعمال وأصحاب المتاجر والمصانع الكبيرة يؤخذ رأيها في كل نظام جديد قبل إدخاله لان الظروف الاقتصادية والاحوال الصناعية تتحكم حتماً في سياسة التعليم. وإلى هؤلاء يرجع الفضل في نشر المدارس الصناعية في مناطق الانتاج والتجارية في مناطق التوزيع . وهم كذلك يحددون مبلغ حاجة كل فرع من فروع الحياة العامة الى المتعلمين بحيث لا يكون في البلاد يوماً ما عدد كبير يزيد عن الحاجة في أية مهنة أو صناعة . وفوق هذه اللجان لجان الوزارة الاستشارية ولجنة رئيس الوزراء ثم اللجان البرلمانية وهي تتألف عادة من كبار رجال التربية والاعمال الذين يوثق بكفائتهم ويطمئن إلى تشريعهم لان طائفة كبيرة من رجال البرلمان هناك يصلون الى كراسي النيابة من كراسي الجامعات ومعامل العلم ودور الصناعة ولذلك لا يخلو برلمان واحد في انجلترا من خمسة عشر عالماً من علماء التربية وللجامعات خمسة كراسي خاصة بها . وهذه اللجنة تقرر آراء سائر اللجان فلا يجتمع اعضاؤها وفي أيديهم أقلام حمراء عرضها عرض السموات والارض يشطبون بها ما لا يوافقهم ويستبدلونها بما يشاؤون وإنما هم يوفقون بين مختلف الآراء وبعدئذٍ يصدر المرسوم . ولا يفهم من هذا النظام الدقيق الذي يبدو جامداً لا يفلت منهُ إنسان أن السياسة العامة ستكون حتماً متناهية في الدقة الى درجة الجمود فهي على العكس مرنة ، والمشرعون يقدرون ما يعترضهم من الصعوبات وما يمكن أن يحصل من التعديل في المستقبل . في سنة ١٨٥٢ صاح ماتيو آرنلد صيحتهُ الهائلة ونادى بان التعليم في المدارس الثانوية القديمة عن طريق الكتب وحدها يفصل بين المتعلم والحياة العملية ومن ثم وجب على الحكومة أن تقضي على هذه المدارس او تضع تشريعاً جديداً يجعل برامج التعليم مرنة مرونة تجعلها صالحة لكل متعلم وأن تخفف المنهج وتكثر من الاختيار في المواد حتى لا يرهق المتعلم . فاسرعت مقاطعة وست ريدنغ الى إدخال الكثير من

التعديل في مدارسها حتى اصبح للمدرسة الواحدة منهجان او ثلاثة وقسمت العلوم الى مجاميع يختار التلميذ منها ما يوافقهُ ويتفق واستعداده . وانتشرت الفكرة وأخذت ولايات كثيرة بها واخيراً صدر التشريع بإنشاء المدارس المتوسطة التي تمتاز على المدارس الثانوية القديمة بمرونتها. ورددت الامم المتمدنة صدى هذه الصيحة فأدخلت النمسا تعديل اوبركيرش وايطاليا تعديل لمباردو راديش واصبحت البرامج مرنة يرتاح اليها كل طالب . أما أمريكا فقد بذتهم جميعاً في مرونتها سعياً في تحقيق فكرة الرئيس إيليوت في أن تعطي التربية للاميركيين حرية لم يعرف العالم لها مثيلاً من قبل. ووضعت جامعات كثيرة درجات لكل علم وما على الطالب إلا أن يختار من مجموعة العلوم المائتين او تزيد مجموعة توافق رغباته بحيث يكون مجموع نقطها الرقم المطلوب

أما هنا فالتلميذ مطالب بتحصيل العلوم جميعها وقد يفشل المرة بعد المرة في امتحان عام ويضيع مستقبله لرسوبه في الخط كأنهُ قدر لكل الناس ان يكونوا خطاطين او يفشل لسقوطه في الالعاب الرياضية . وهم كذلك حريصون على التريث في إدخال كل نظام جديد فلا يغيرون المنهج في سبتمبر ثم يعيدونهُ في اكتوبر فيحار المدرس في نوفبر لانهُ لا يعرف ماسوف يدرسهُ في ديسمبر. فهم قبل إقرارهم لمشروع جديد يجربونهُ في مدرسة او عدد من المدارس فاذا صلح وظهرت نتائجه بعد ثلاث سنوات إلى خمس طبقوه بالتدريج في جميع المدارس وقد أشارت اللجنة الوزارية الاستشارية سنة ١٩٢٥ بأن يستثنى من نظام التعليم العام عدد من المدارس في كل مقاطعة تسمى مدارس التجارب فهم مثلاً لما رأوا فساد نظام النقل من فرقة إلى فرقة أخرى كل عام لصعوبة اعادة التلميذ الراسب المقرر كلهُ بعد أن اهمل شأنهُ عاماً كاملاً فيرسب عاماً بعد عام وينتهي بهِ الامر الى الطرد من ذلك النوع من التعليم بعد ان يضيع من عمره جانب كبير ويصبح عضواً عاطلاً اشل في جسم المجتمع فكروا في ادخال نظام النقل كل ثلاثة اشهر من ثلث المقرر الى الثلث الآخر فمن رسب في ثلث المقرر ثلاث دفعات متتالية حول الى نوع آخر من التعليم ولم يضع عليه من عمره إلاّ عام واحد . ولكنهم لم يبادروا الى ادخال هذا النظام المعقول دفعة واحدة وانما جربوه في اربع مدارس من مدارس بلدية لندرة خمس سنوات ونجح نجاحاً باهراً وهم آخذون الآن في تعميمهِ

ثانياً — ما هي التربية وما هو الغرض منها ؟

الجواب عن هذا السؤال يحتم عليّ استعراض تاريخ التربية من قديم الزمان وبيان الاختلاف بين وجهات نظر العلماء والمربين من حيث اغراض التربية في كل عصر . ولكن لن ارهقكم وارهق نفسي معكم بالخوض في هذا الموضوع الواسع فأكتفي ببيان احدث الآراء — ذلك لان آراء العلماء القدماء كانت مبنية على مشاهدتهم وقوة تفكيرهم وهذه كلها لا تصلح لاستخلاص نتائج عامة يصح ان تطبق على كل انسان في كل زمان ومكان. فتعريف هاملتون الذي

يقول بأن الغرض من التربية اعداد الفرد لأن يكون مهندساً ماهراً او طبيباً حاذقاً او معلماً قديراً ثم بعدئذ يتعلم كيف يكون انساناً مهذباً راقياً، يتناسى الناحية الانسانية . وتعريف جماعة الانسانيين بأن التربية تجعل الفرد انساناً مهذباً ذا شخصية قوية تجذب اليها النفوس وتحبب فيها الناس ثم بعدئذ يتعلم كيف يكسب قوته بعرق جبينه عن طريق العمل المادي ، يتناسى الناحية المادية . وقول جماعة النفعيين الذين يرون ان يندفع المتعلم في تيار الحياة العملية دفعة واحدة من غير حاجة الى مدارس فيكون صانعاً او عاملاً لا يعرف الأكل ما يتصل بحياته العملية اتصالا مباشراً ثم بعدئذ يصير شاباً مهذباً متعلماً، يتناسى ناحيتي الثقافة والانسانية معاً . هذا كله كلام قديم لا يتمشى مع روح العصر الحاضر ونتائج المباحث العلمية

اما النزعة الحديثة فتخالف كل هذا . ولاجل ان نفهمها على حقيقتها يجب ان ندرسها في جو صاف هادىء بعد ان نتجرد من نزعاتنا وتأثير النظام الذي نشأنا عليه وألفناه فأصبحنا نعتقد انهُ صالح لكل زمان ومكان ما دام قد صلح لنا من قبل . وقديماً كان ضيق النظر والتأثر بالمألوف سبباً في فشل مشروع «شاتلورث» القائل بادخال العلوم العملية والاشغال اليدوية في المدارس كلها لأن اعضاء لجان التشريع وقتئذ كانوا من العلماء خريجي الجامعات الذين لم يألفوا غير نظام دراسة العلوم والآداب . فالنزعة الحديثة ترمي الى الديموقراطية في التعليم والحرية في النظام — كلمات خلابة تجذب انظار الناس اليها فتعميهم عن تفهم حقيقتها — اي شيء نعني بالحرية ؟ — اهي ان يفعل الانسان كل ما يريده ،كما يقول عامة الناس — كلاَّ ؟ فهذه هي الفوضى بعينها . اذ ليس هناك شيء اسمهُ الحرية المطلقة — ام هي كما يقول منتسكيو: ان يفعل الانسان بمحض ارادته ما يجب عليهِ فعله ؟ فمن الذي يحدد الواجب للتلميذ الصغير ؟ ان كان ابوه او معلمه وهؤلاء كما قلنا لا يرون بعيني الطفل ، فأين هي الحرية ؟ وان كان الطفل بذاته . فهو لا يدري ما يجب وما لا يجب فعله ؟ ام هي على رأي روسو السلبي ان لا يرغم الانسان على فعل شيء لا يريده هو . هذا حق . فالحرية في التعليم هي ان لا يرغم التلميذ على فعل شيء لا يريده او تعلم علم لا يميل اليهِ . لان في ارغامه قتلا لمواهبه وتحريفاً لميوله وخلقاً لروح الثورة ضد الحياة والنظم القائمة في نفسه — الحرية هي ان يربي الطفل نفسه بنفسه — او كما يقول دكرولي — بالحياة للحياة ذاتها .وفي هذا يقول الدكتور سيريل نوروود — اننا بارغامنا الطفل على فعل ما لا يريده نسيء اليه فنجعله آلة جامدة اوعضواً مشلولاً او ثائراً متمرداً . هذه هي نزعة المدرسة الحديثة مدرسة منتسوري ولوزنزتو في ايطاليا ودكرولي في سويسرا وبلجيكا وهربارت — زيلر في المانيا وأودنوالت في النمسا ودالتون في انكلترا وأميركا.

كل هذه المدارس مهما اختلفت طرائقها وتعددت نظمها ما هي الا صور متعددة للمدرسة الحديثة — مدرسة الحياة — وليست المدرسة الحديثة بناء يضم افراداً يتعلمون بها بطريقة مخصوصة ونظام

موضوع ولا طريقة خاصة للتدريس وإنما هي فكرة سامية تتلخص في الاحتكاك بين الطفل والمجتمع ، بين التفكير الفردي والتفكير العام — وموادها التي تدرسها الحقيقة والذوق السليم — هي فكرة تخدم الحقيقة وليس لها من غرض سوى مصلحة الطفل وتنمية قواه النفسية . لا قواه العقلية وحدها . المدرسة التي تخرج على نظام المواعيد المقررة ونظام التعليم الجمعي وشبكة الامتحانات . هي كما يقول أدامز . كيفما كان نوعها ديموقراطياً أو ارستقراطياً ترمي الى اظهار شخصية الفرد الحقيقية — وانها لن تصل بالتعليم الى طريق الكمال الا اذا هدمت الحواجز التي تقام بينهُ وبين الحياة العملية . ولذلك ترمي النزعة الحديثة الى التحرير بأوسع معانيهِ . بمعنى أن يهيأ لكل فرد في المجتمع فرصة عادلة تمكنهُ من تعلم ما يريد وما يتجه اليهِ باستعداده وينتفع بمواهبهِ فتسعد حياتهُ ويسعد الناس معهُ

هذه النزعة ستقضي بالتدريج على المدارس النظرية التي نعرفها . وتستبدلها بمدارس متوسطة مرنة . وقد كانت نسبة تلاميذ هذه المدارس الى مجموع التلاميذ في كل أنواع التعليم الثانوي (بعد الابتدائي) في انجلترا ٣ ٪ فقط ولكنها تزداد بالتدريج عاماً بعد عام . وهاهي مقاطعة نوتنجهام ترسل الآن كل عام ١٠ ٪ من خريجي المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية النظرية و ٤٠ ٪ الى المدارس المتوسطة . وهذا دليل كاف على ان هذه المدارس اكثر ملاءمة لابناء الطبقات الوسطى والفقيرة الذين يجب ان توضع سياسة التعليم لفائدتهم لا لابناء الاشراف والاغنياء

ثالثاً : مراعاة الاحوال الاقتصادية للبلاد — لان علماء التربية ينشدون مُثُلاً عليا للتربية قد يستحيل تطبيقها أو قد يتعذر اخراجها الى حيز العمل لكثرة ما تتطلبهُ من النفقات اوغير ذلك مما يعترض السبيل من العقبات — فمراعاة الاحوال الاقتصادية والمالية تخفف من غلوائهم في مطالبهم . ومما يجب ملاحظته ان سياسة التعليم كيفما كانت ترسم ليتم تنفيذها في عدة اعوام قد تبلغ العشرة احياناً لا في عام أو في شهر واحد . فهم عند التشريع الآن لا يغيب المستقبل عن نظرهم . فلا تفتح كل ابواب التعليم على مصاريعها بحيث يخشى من كثرة العاطلين في ناحية معينة يوماً ما . فاذا رأى المشرعون ان مهنة معينة ستكون مكتظة بمن يزيد عن الحاجة يوماً ما لجأوا الى اقفال هذا النوع من المدارس ليخف الضغط عن تلك المهنة في المستقبل كما فعلت ايطاليا، أو تركوها كما هي لمن لا ينفع استعداده الطبيعي في غيرها وانما شجعوا غيرها بمختلف الوسائل حتى يكثر الاقبال عليها

كذلك ينظر المشرعون الى سياسة التعليم جملة واحدة كوحدة مرتبطة الاجزاء بحيث تسير المناهج جنباً لجنب ولا تكون هناك حدود فاصلة بين طبقات التعليم . فلا يوضع برنامج التعليم الابتدائي على حدة ثم يترك على الرف ويشرع في فحص برنامج التعليم الثانوي ويهمل كذلك حتى يهيئ الله له من يبعث بهِ من مرقده . في وقت يكون العلم الحديث قد سبق ما فيهِ بمراحل

«البقية في باب الاخبار العلمية»

الارستقراطية والديمقراطية وتأثيرهما

في المجتمع والادب والتاريخ

عند ما نستعرض مختلف الشخصيات التي عملت على تقدم الفكر واثراء الحضارة وكان لها شأن خطير في تطورات التاريخ واستحالات المجتمع تبهرنا قدرة الطبيعة على التنويع وافتنانها العجيب في خلق الصور المختلفة وايجاد الخصائص المتغايرة . فهي لا تخرج بدائعها كالآلة الصماء ولا تكرر انتاجها تكرير المعامل . ومن معجزها ان ابتكارها لا ينفد وتجديدها لا تهمد حركته . وهذا التنويع الدائم في حدود السلالات والانواع من حوافز التطور التي اختلف في تعليلها العلماء وان كانوا قد اتفقوا على ان هذا التنويع من اقوى البواعث على تنازع البقاء ، واثره في ترقي الحضارة لا ينكر .

ولكننا اذا امعنا النظر حريون ان نلمح خلال هذا التجديد الدائب قوالب خاصة من الخلائق متناقضة اشد التناقض تتشابه في الجوهر والاصل وان كانت تختلف في التفاصيل والنسب . ففي كل زمان ومكان وجد في الدنيا القديس الزاهد في الحياة والدنيوي المتهافت عليها والشهيد الذي يجود بنفسه لمصلحة شاملة وغاية عامة والاناني الذي يجعل نفسه غرض الاجيال وقطب الوجود كما وجد في الحياة الفكرية المثالي والواقعي وانصار العقل ودعاة الارادة والمتفائلون والمتشائمون . ومن القوالب النفسية الهامة التي وجدت في متباين الامم ومتعاقب الاجيال واثرت تأثيراً بعيد المدى في تكوين التاريخ وبناء المجتمع الطراز الديمقراطي والطراز الارستقراطي . ولكل طراز من هذين الطرازين عالم خاص من الآداب والافكار والمشاعر تجاه الحياة والمجتمع والعلاقة المتبادلة بينهما تتكرر وتتجدد بتتابع الامم وتوالي الايام

ويمتاز الطراز الارستقراطي بفرديته المعتزة بنفسها المغالية بقيمتها وبالجرأة النادرة والتسور على العظائم والاستهانة بالكبائر واستسهال الصعاب وشدة التوق الى الكفاح والمناخة والرغبة في اقتحام المجاهل والاتيان بالخوارق ، تحدوه الى ذلك طبيعته السليمة وفطرته القوية وحيويته الجائشة

وهو يجنح بطبيعته الى الراحة والبطالة ويتجنب العمل المنتظم والمجهود المرهق . والبطالة هي حالته الطبيعية كما كانت حالة الانسان في فجر التاريخ وباكورة الاجتماع . والحقيقة ان كثيراً من صفات الانسان الاول ابن الغابات المتأبدة والخلوات الابكار الطليق من القيود الخالي من الهموم بادية في الطراز الارستقراطي . وشخصية الارستقراطي القوية التي لا يستقر تطلعها القلق ولا يرتوي ظمؤها الى الاحاسيس تجعله قليل الصبر على احتمال مشاق العمل ثائراً على كل ما يستدعى

متين الجلد ودائم المثابرة ، متجه الميول الى الحياة العضوية لانها مناط عزماته وميدان كفاحه

ومما يزيد الارستقراطي كراهة للعمل ونفوراً منهُ ان كل حرفة او مهنة تستلزم اعمالاً خاصة ومجهوداً معيناً ولا يتوفر للانسان اجادتها الاَّ بعد طول المرانة عليها ومصابرة شدائدها وتعويد النفس مراعاة مقتضيات اي ضرب من ضروب العمل واخذها بمعالجة مشكلاته يستثير في الانسان خواطر واحساسات ملائمة لطبيعة هذا العمل ويخلق جوًّا فكريًّا مناسباً له يشوه الشخصية ويحد مدى التفكير . ومن السهل ان تتعرف العمل الذي يتعاطاه الانسان من ملامح وجههِ واسلوب حديثهِ وطريقة ايماءاتهِ . ولكن الطراز الارستقراطي مع عجزه عن الخضوع لمستلزمات العمل المنتظم والمجهود المتواصل يملك قوة كبيرة وكفاءة خاصة للتوجيه والزعامة وضم متناثر الصفوف . وقد ظلت هذه القوة فيهِ سليمة لم ترنق صفوها العمل ولم تفل شوكتها مطالب المهنة . وقد نبغ من صفوف الطراز الارستقراطي مشاهير الحكام وكبار القواد والزعماء وابطال المخاطرين المعروفين في التاريخ وهم مؤسسو اشهر الاسر التاريخية وصناع الدول الكبيرة

واظهر صفات الرجال من الطراز الارستقراطي القسوة البالغة والضراوة الفاتكة والانانية الصريحة والرغبة في فرض ارادتهم وتغليب آرائهم ولكن هذه الانانية الضخمة والاباء المر والخلق الوعر يكمن وراء ستار شفاف من حسن السلوك وجمال المظهر والتهذيب الذي لا يشوبه تكلف. ومما يزيدهم مهابة في الصدور واجلالاً في العيون ترفعهم عن الصغائر ومغامرتهم بالحياة في سبيل المجد والشهرة وايثارهم الموت على الهوان والعار . وهم لا تحجزهم رهبة عن الصمد للغاية المرتسمة في اذهانهم والمطلب الذي حامت عليهِ اطماعهم وقلَّ ان يخطئهم التوفيق لان الحياة في حاجة الى هذه البسالة الهوجاء التي لا يرقى اليها التردد ولا تدنو منها الوساوس

والطراز الديمقراطي عميق الاحساس جم الانسانية . وفرط الاحساس يستدعي مراقبة النفس وضعف الثقة بها وكثرة التردد والعجز عن انتهاب اللذات واقتناص الفرص . وهو بطبيعته شديد التعلق بفكرة الواجب كثير الاحترام للآداب والعرف قادر على امتلاك نفسه وقمع ميوله لا يبرم بالعمل المنتظم ولا يسأم الحيطة والمثابرة . ومن خواص الطراز الديمقراطي القدرة على التجديد والابتكار . اما الطراز الارستقراطي فهو شديد المحافظة عدو للتغيير حريص على ابقاء القديم فهو شديد الميل الى الرجعية . ومن متناقضات الحياة ان من يسمونهم الضعفاء والمرضى المسترسلين مع الاحلام والمنحطين وامثالهم من ممثلي الروح الديمقراطية هم اكبر عوامل الرقي ودوافع التقدم . ومن التواء الرأي وقصور التفكير العمل على ابادة الضعفاء مجاراةً لسنن التطور وتبرعاً بمساعدة الانتخاب الطبيعي بدلاً من ان نتركهُ يسير سيره ويؤدي رسالته . ومما هو جدير بالملاحظة ان القرن التاسع عشر الذي ازدهرت فيهِ الروح الديمقراطية من احفل عصور التاريخ بالاختراعات والاستكشافات العلمية . وكل جلائل الحضارة

وبراعات الاختراع ومعجزات الصناعة انما تم على يد المرضى والضعفاء . وذلك لان كل اختراع هو ابن الضرورة والضعة وسليل الحاجة والفقر ومبعثهُ الشعور بالنقص وذل الحاجة . والضرورة كما يقولون هي ام الاختراع ومن ثمَّ كان الاختراع وليد الروح الديمقراطية . وقد قضت سخرية القدر ان يكون اشد الناس مقاومة للمخترعات في اول امرها هم الذين يحسنون استثمارها عند ما تثبت للتجربة ويذيع نفعها . وللارستقراطية مواهب ممتازة في استغلال الظروف وانتهاب الفرص واستدرار النفع من مجهود الغير وانك لترى ذلك واضحاً كل الوضوح في اوائل تاريخ الاسلام. فقد كان الامويون هم ارستقراطية قريش وسادة مكة فلما ظهر الاسلام خافوه على نفوذهم فقاوموه مقاومة عنيفة فلما باءوا بالخذلان وانتصر الاسلام وتوطد مركزه وقويت مرته صانعوا الظروف وداروا مع الايام حتى عنت لهم الفرصة أو عملوا هم على خلق هذه الفرصة وانتزعوا السلطة انتزاعاً بالحيلة الواسعة والدهاء البعيد القرار واستغلوا الحركة الاسلامية اشد استغلال وهي حركة ديمقراطية في صميمها

وهناك مشابهة بين الطراز الارستقراطي والطراز الاجرامي الذي ينبغ من صفوفه قطاع الطرق وقادة المناسر ورؤساء العصابات ومشاهير السفاحين . ومصدر هذه المشابهة هو ان الغرائز الحيوانية الاولى — غرائز الانسان قبل ان تصقله الحضارة وتقلم وحشيته القوانين — لا تزال في كليهما على قديم عنفوانها وشديد عرامها . وان كان الطراز الارستقراطي عامل بناء على حين ان الطراز الاجرامي من شر عوامل الهدم . ومن الطراز الديمقراطي يظهر النبي والبطل والزاهد لان هذا الطراز دأبه ان ينكر فرديتهُ وينبذ انانيتهِ ويضحي بلذاتهِ

وقد استلزم وجود هذين الطرازين المختلفين نشوء نوعين من الآداب سارا متحاذيين في التاريخ وتجاورا في كل مجتمع . وهما آداب الارستقراطية وآداب الديمقراطية . فالطموح وترامي الآمال وجموح المطامع والكبرياء والاحتقار وطبيعة العدوان والقسوة والولوع ببسط النفوذ هي آداب الارستقراطية ومثلها العليا . اما الديمقراطية فمن شمائلها التواضع والقناعة والحلم والاعتدال وحب العدالة والشفقة والميل الى التضحية ونكران الذات

وليست هناك حدود فاصلة بين هذين النوعين من الآداب فمن الناس من تغلب عليه الآداب الارستقراطية ومنهم من للآداب الديمقراطية في نفسه النصيب الاوفر ومنهم من يلتقي في نفسهِ الضدان . وفي بعض الازمنة تنتصر آداب الارستقراطية وفي ازمنة اخرى تسود آداب الديمقراطية . ومن الشعوب شعوب آداب الارستقراطية اشد تأصلاً في نفسها ومنها شعوب آداب الديمقراطية ابين في اخلاقها. وقد كان نيتشه في القرن التاسع عشر اقوى المدافعين عن آداب الارستقراطية عارضة وأعظمهم شاعرية وفي سبيل ذلك حمل على المسيحية حملته الشعواء واستنزل عليها صواعق غضبه . كما كان طولسطوي اعف المدافعين عن آداب الديمقراطية

مقصداً وأعمقهم احساساً وأصحهم ادراكاً لجمال الديانة المسيحية وسمو تعاليمها

وكما أثر هذان الطرازان في الآداب كذلك احدثا تأثيراً بعيد المدى في عالم السياسة وأنظمة الحكم إذ انبعثت منهما نظريتان طال بينهما الصراع . وهما نظرية عدم المساواة في الحكم وهي النظرية الارستقراطية . ونظرية المساواة وهي النظرية الديمقراطية

وسمة التفوق والنبالة البادية في الطراز الارستقراطي هي التي قام عليها احترام طبقات الفلاحين والفقراء لهم واعتقادهم انهم سادتهم بلا منازع وانهم يختلفون عنهم دماً . وهذه العقيدة مكنت الارستقراطية من تقرير سلطتها والاحتفاظ بمكانتها مدة طويلة . ومن ثمّ نشأت فكرة السلطة المستبدة من جهة والطاعة العمياء من جهة اخرى ورسخ في النفوس الاعتقاد الذي لاحظه توكفيل وهو اعتبار ان الذين يستبدّون بنا لا بدّ ان يكونوا افضل منا.

وقد وجه عظماء الانبياء مثل بوذا والمسيح ومحمد اكبر نقد للنظرية الارستقراطية وأدركوا بخواطرهم الملهمة ونظراتهم النافذة ووقوفهم على اسرار القلوب وخفايا النفوس ان هذا الاختلاف والتفاوت مقصور على النسب والمقادير وانه لا يمس الجوهر فهو يتضاءل ويفنى ازاء الوحدة الروحية التي تضم الجميع

وعلى الاعتراف بالعجز من جانب الديمقراطية وحرص الارستقراطية على السيطرة والاستعلاء قامت السلطة الارستقراطية وتوطدت واستخلظ امرها وثقلت على النفوس وطأتها وكبلت العقل واسرفت في الظلم والتعسف ومسخت في النفوس الحاسة الاخلاقية لأن احتقار فكرة المساواة يقلب الاحترام ذلة ومسكنة ويحيل الاجلال والتقديس عبودية وضيعة ويغري النبلاء بالافراط في الكبرياء والطغيان والاسترسال مع جامح الشهوة وساقط النزوات ويمهد السبيل لانماء فكرة ان الشعب وسيلة وليس غاية وانهُ سلم لمآرب الارستقراطي وآلة للتسخير

وأشد ما يؤخذ على الاستقراطية حرصها على استبقاء جهل الجماهير وحرمان الشعب من نور الفكر والعرفان وقد قاومت الارستقراطية في اغلب العصور تسامي الشعب الفكري ونزوعه الروحي وتطلعه الى الحقيقة . ففي اميركا كان من المحرم تعليم العبيد معرفة القراءة والكتابة . وكثيراً ما حاولت الارستقراطية ان توقف نزوع البشر وطموحهم وتهبط بالروح الانسانية . والحقيقة انهُ لا ينتظر من الارستقراطية ان تعمل على تهذيب مدارك الشعب وشحذ ذكائه ورياضة أخلاقه ورفع مستواه الفكري لأنها لم تقم في الاصل على التفوق الفكري وانما قامت على القوة العضوية والغرائز الارضية . وأحفاد الارستقراطي وذراريه الذين يرثون عنهُ المجد والشهرة انما يتفوقون على سائر الناس بالقوة العضوية لنشأتهم في بيئة اكثر ملاءمة للصحة ولتيسر الغذاء الصالح . وبالخلق المتين لان حرصهم على مكانة الاسرة والمحافظة على تقاليدها يشعرهم باتصال حياتهم بحياة اجدادهم السالفين وأبنائهم القادمين.

وهذا الشعور يجعلهم يخشون العار ويحسون بدوافع المجد ويقدرون المسؤولية الملقاة على عواتقهم . ولكن الذكاء والقدرة على التفكير لا تتطلب سمو المنشأ ونبالة الاصل والعبقرية لا تورث . والارستقراطية تقدر قوة الفكر وتخشاها ، لانها لا تملك السيطرة عليها وهذا الخوف من سطوة الفكر انشأ للارستقراطية الكثير من المصاعب وصيرها غير قابلة لمستحدث الافكار قليلة الفطنة لنوازع الروح لا تعلم متى تضع حدًّا لاستبدادها وهذا هو سر الثورات الخطيرة التي سجلها التاريخ ومن اشهرها الثورة الفرنسية

ولا نزاع في ان الارستقراطية تقدم للعالم نماذج جذابة من السمو والبهاء ونبالة الاخلاق والشجاعة وهي خير من يضع الاساس لابتناء مجد الامم ولكنها سرعان ما تصبح حجر عثرة في سبيل التقدم وحرية الفكر

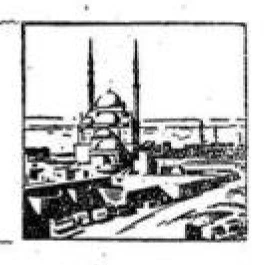
والنظام الديمقراطي اكثر ملاءمة لحياة الفكر وحفز الهمة . لان الحياة بين النظراء توسع الروح وتستحث المواهب وترد على الانسان ثقته بنفسه . أما الحياة في الانظمة الارستقراطية فانها تغري النفس بالتراجع والانكماش وتوهن الملكات وتعطل المواهب وتمحو الشعور بالكرامة البشرية . ووقوف الانسان في متكاثف الظلال يفت في عضده ويحلل من بأسه ولا خلاف في ان هناك افراداً ممتازين يستطيعون اكتساح هذه العقبات ولكن المسألة ليست مسألة افراد معدودين وانما مسألة العدد الاكبر من البشرية الذين لم يتفوقوا في المواهب والهمم والذين يتطلبون سماحة الظروف ومساعفة الاقدار.فان امثال هؤلاء عند ما يبصرون امامهم بناء مشمخراً وعظمة باسقة يرتد طرفهم حسيراً وتضؤل نفوسهم وتنثلم عزيمتهم وتستولي عليهم الرهبة واليأس . وقد لاحظ توكفيل ان جمهرة الشعب في الامم الارستقراطية اكثر تخلفاً في مدارج الحضارة من غيرهم في الامم الاخرى والسر في ذلك شعورهم الشديد بالتفاوت بينهم وبين الاشراف ويأسهم من ادراك العلى وتنسم المجد

ويرى المفكر في سير التاريخ ان هذين الطرازين لازمان لاطراد الحضارة ورقي المجتمع. لان بقاء الحضارة يقوم على عاملين لامفر من المحافظة على التوازن بينهما . وهما العامل الانساني الذي تتكفل به الديمقراطية والعامل الحيواني الذي تقوم به الارستقراطية . وهذا الصراع الطويل المضني بين فكرة المساواة وفكرة عدم المساواة هو الذي يميط عن المجتمع من الحين الى الحين وخامة الركود وغبار الجمود ويعمر القلوب بالامل ويدفعها الى الاقدام والعمل

القاهرة — علي ادهم

اهم المصادر التي رجعت اليها عند كتابة هذا المقال : —

(1) On the Tracks of Life. By Sera.
(2) The Conventional Lies of Our Civilization. By M. Nordau.
(3) Civilization & Progress. By Crozier.



علاقة التاريخ باللهجات العربية

صورة محاضرة تلاها بالافرنسية الامير شكيب ارسلان

في مؤتمر المستشرقين المنعقد في لندن في اوائل سبتمبر الماضي

— ٣ —

نعود الى الموضوع فنقول :

ان اهالي حلب والشام وسورية الداخلية اذا ارادوا ان يسألوا احداً كيف حاله قالوا لهُ : ايش لونك ؟ وهو قول صحيح لطيف لان لون الانسان هو اول دليل على صحته وعدمها

وهذا الاصطلاح غير معروف في مصر والسودان . وبعكس ذلك تجده في برقة والحال انها ابعد عن الشام من مصر . فلو كان الجوار هو العامل الوحيد في تشابه طرق الكلام لكان الاولى باهل مصر ان يقولوا : ايش لونك ؟ لان مصر مصاقبة لبر الشام وبين هذين القطرين من العلاقات ما لا يوجد بين قطرين آخرين . وكان الاولى باهالي بر الشام ان يقولوا في سؤال الانسان عن صحته : زيَّك ؟ كما يقول اهل مصر والحال ان شيئاً من هذا غير موجود. فلزم ان يكون هناك اسباب اخرى وهي ان قبائل برقة التي اكثرها من سليم بن منصور هي قبائل نجدية — لان سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان هي اكبر قبائل قيس — وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر . ومنهم من هلال بن عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان وهم من جبال الطائف. ولاشك ان قبائل نجد وجبال الحجاز كما ان قسماً منها هاجر الى برقة فان القسم الآخر نزل بوادي الشام ومنهم من تحضّر بمرور الايام . فمن هنا جاء التشابه في بعض اللهجات والاصطلاحات بين اهل سورية واهل برقة ووجدت جمل خاصة يقولها هؤلاء واولئك وهي ليست من الاصطلاحات العامة لكلام العرب حتى يقال انها مما يقولهُ العرب في كل مكان

ثم ان اهل كسروان من جبل لبنان يضعون الشين في حال النفي في آخر الجملة فيقولون مثلاً : ما هو من لبنانش اي « ما هو من لبنان » واذا كان النفي مقروناً بالاستفهام : « ما انت من بيروتش ؟ » اي ما انت من بيروت ؟ وجميع كلامهم هو على هذا النمط على حين ان هذا الاصطلاح في الشين لا يوجد عند مجاوريهم لا اهل المتن ولا اهل الشوف ولا اهل زحلة ولا اهل البترون . واهالي هذه الاقسام الاخرى من لبنان تضع هذه الشين في وسط الجملة فتقول: « ما هوش من لبنان » او « موش من لبنان » و « ما انتش من بيروت » ولكن اهالي برقة يضعون هذه الشين في آخر الجملة فكنت اسمعهم يقولون ذلك دائماً مثل اهل كسروان . ومرة كنت ذاهباً الى « شحات » او سيرنا » القديمة فضللت الطريق واخذت في شعب ظننت

نفسي بهِ ذاهباً الى شحات فصادفني احد شيوخ العرب فقال لي. الى اين ؟ فقلت : الى شحات فقال لي : « هذه الطريق ما تأخذ الى شحاتش » اي بالاصطلاح الكسرواني المعروف بلبنان بعينهِ. وكان السوّاس يقولون : « الخيل ما عندها شعيرش » اي ما عندها شعير. وهلمَّ جرًّا. ويقال ان في دمياط من بر مصر شيئاً من هذه الشين. ومن المعلوم انهُ ليس بين اهالي كسروان في لبنان وبين اهالي برقة في افريقية ادنى علاقة لا في القديم ولا في الحديث. فكيف اجتمع هذان القطران في لغةٍ كهذه ؟ الجواب لا يمكن تفسير ذلك الاَّ بكون القبائل التي نزلت برقة متحدة الاصل مع بعض القبائل التي نزلت بعلبك وشمالي لبنان. ولا يقدح في ذلك كون اكثر كسروان موارنة مستعربين من اصل آرامي كان آباؤهم يتكلمون قبل الفتح العربي بالسريانية فان هؤلاء المستعربين قد تلقوا العربية عن عرب اقحاح نزلوا في سهول بعلبك وفي لبنان الغربي مما يليها وهؤلاء العرب هم آباء المسلمين الشيعة الساكنين مع الموارنة في وطن واحد

ولقد لحظت اذ انا في الاندلس اسماء عربية كثيرة مبدوءة بلفظة « بني » لكنها في بلاد بلنسية ودانية والقنت تلفظ بفتح الباء مع امالة قليلة ودليل ذلك كتابة الاسبانيول لها هكذا: Beni فيقولون : بني قاسم Beni Kassim وبني غفار Beni Gefar وبني سالم Beni Salem. اما في جزيرة ميورقة وفيها ايضاً اسماء كثيرة مبدوّة بلفظة « بني » فيلفظونها بامالة شديدة ويكتبونها بالاسبانيولي هكذا Bini فيقولون Bini Aly و Bini Kassim وقد اخطرت ببالي هذه القصة الاختلاف نفسهُ في سورية

ففي فلسطين مثلاً يقولون « بني صعب » و« بني مالك » و« بني مرة » بفتح الباء . وفي جبل لبنان يقولون « بني يزبك » و« بني احمد » و« بني ركين » و« بني قعيق » و« بني خميس » بكسر الباء

ومن العرب من يبدل التاء هاء في الوقف وتنسب هذه اللغة الى طيّء وقالوا : « دفن البناه من المكرماه » اي دفن البنات من المكرمات . ويقول حفني ناصف ان هذه اللغة منها أثر في المنوفية فيقولون : « يابه » اي يا بنت . ومن العرب من يعكس القضية فيبدل الهاء تاء في الوقف كما يفعلون في الوصل سمع بعضهم يقول : « يا اهل سورة البقرتْ » . فقال مجيب: « ما احفظ منها ولا آيتْ » . ولقد سمعت هاتين اللغتين . من عرب البادية واهل نجد . فالمثال على الاولى قولهم « ذرعاه » اي « اذرعات » هذه البلدة التي في حوران . وعلى الثانية لغة اهل حائل واهل القصيم يقولون « مكت » و« المدينت » وكان معي واحد منهم يوم كنت في الطائف فكان يقول « الشجرت » و« السدرت » الخ

ومن العرب مثل بلحوث وخثعم وكنانة من يقلب الياء الفاً بعد اتصالها بالضمير وذلك في مثل « عليهِ » و« اليهِ » و« عليك » و« اليك » فهؤلاء يقولون فيها « علاه » و« الاه » و« علاك » و« الاك » ولاشك ان في النازلين الاولين في طرابلس الشام من العرب قوماً من

كنانة وخثعم وبلحوث لانهم الى الآن يقولون في « عليه » « علاه » وفي « عليك » « علاك » وهلم جراً . والمشهور في اللغة تحقيق الهمزة الساكنة في مثل بئر ورأس وفأس وثأر ولؤم وظئر ونؤي وغيرها . وانما كانت تميم من الاصل تقلبها من جنس حركة ما قبلها فتقول بير وفاس وراس وثار الخ . ومن الغريب ان لغة تميم هذه هي الغالبة على الكلام العامي اليوم في جميع الاقطار العربية مصر والشام والمغرب والعراق الخ

وعند طي لغة اسمها القطعة وهي حذف آخر حرف من الاسم ومثاله « ابو الحكا » في « ابو الحكم » وعليها كلام اهل قرية نيحا الشوف في جبل لبنان كانوا يقولون « ابو حسا » في « ابو حسن » ويقال ان اهل المحلة الكبرى وابيار وغيرها بمصر عندهم هذه اللغة وقد ورد عن العرب « لم يسما » اي لم يسمع . وانا سمعت كثيراً بعض شيوخ من بيروت يقولون « نهارك سا » اي نهارك سعيد

والترخيم هو حذف الحرف الاخير من المنادى وهذا مستفيض في كل بلاد العرب ولغة بلحوث حذف اللام والالف من على الجارة فيقولون « علماء » اي « على الماء » . وطلع « عسطح » اي « على السطح » . وهذه اللغة نظراً لما فيها من الاختزال غلبت على عامي الاقطار العربية بأسرها

ومثلها في الاختصار لغة خثعم وزبيد في حذف نون « من » اذا وليها ساكن فيقولون : « خرجت مِالدّار » اي « من الدار » وقد جاء فيها شعر . وهي معروفة عند بعض العامة اليوم لكنها لم توفق توفيق حذف اللام والالف من « على »

ومن العرب من يبنى « مَعْ » على الفتح وهو المشهور (ياليتني كنت مَعَهُمْ) الا ان ربيعة تبنيها على السكون فتقول « كنت مَعْهُم » وهاتان اللغتان موجودتان عند عامة العرب اليوم . وفي جبل لبنان من يفتح ويمد الفتحة حتى تصير الفاً فيقول « كنت معاهم » ومنهم من يسكن . وهكذا في الديار المصرية . وفي كل البلدان اناس تكسر ميم مع . ومن غرائب اتحاد اللغة لفظة يقولها العامة للحمار اذا ارادوا ان يهيجوه وهي « ازعر » وهي لفظة ذات اصل في اللغة جاء في القاموس : وزعّر بالجحش تزعيراً دعاه للسفاد . وقد كان معروف الرصافي الشاعر العراقي المشهور اطلعني اذ كنا في استانبول على بعض اصطلاحات لعامة اهل العراق منها لفظة « ازعر » التي تقال للجحش وقال ان لها اصلاً في اللغة . فقلت له ان ازعر هذه معروفة عندنا في سورية ايضاً . وكان في مجلسنا ساعتئذٍ المرحوم الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش فسألته : اهذا معروف عندكم بمصر كما هو معروف بالعراق والشام فقال : نعم هذا معروف بمصر . وكان في المجلس المرحوم الاستاذ الشيخ صالح الشريف التونسي فقال : ومعروف في تونس ايضاً . وكان في المجلس الاستاذ الشيخ محمد العتابي المراكشي حفظهُ الله فقال : ومعروف في المغرب ايضاً

فأنت ترى ان لفظة سخيفة كهذه يهاج بها الحمار للسفاد معروفة في جميع الاقطار العربية
وانا لنجتزئ بهذه الامثال لاعطاء صورة ذهنية عن البحث الذي نتوخاه ونتدب الباحثين ان يكملوه لما فيهِ من الحجج بين يدي التاريخ . فانهُ اذا كان الكلام متشابهاً بين سكان بلدان مصاقبة بعضها لبعض لم يكن ثمة الاّ الشيء الطبيعي وكان الناس عللوا هذه المشابهة بالجوار الذي يحدث اصناف العلاقات بين المتجاورين . واما اذا كانت المشابهة او حذو النعل بالنعل بين بلدان متباعدة هذا في الشرق وهذا في الغرب كما بين الشام والاندلس مثلاً او نجد وشنقيط فلا يكون لذلك سبب الاّ وحدة الاصل

ان هذا الفصل ليس الاّ عجالة . وامام الباحثين والمنقبين عمل كبير اذا ارادوا ان يعرفوا القبائل العربية المختلفة التي طارت الى القواصي في الفتح الاسلامي وان يعينوا مختلف الاتجاهات التي اتجهت بها هذه القبائل في هذا المعمور الفسيح بين الحلايا والالب

ملحق

ومن آثار التشابه بين لهجة الشاميين والاندلسيين ما كان عليهِ لفظ عرب غرناطة في عصر سقوط تلك البلدة انهم كانوا في غرناطة يقولون مثلاً « والدنا » فيميلون الواو والالف امالة شديدة حتى تسمعها كأنها « ويلدينا » Wildina وانهم كانوا يقولون « كل سنة » بكسر السين والنون، والوقوف على الهاء اي « كل سنه » . وهذا كما يقال في سوريا اليوم « كل زعين » « أي كل زمان » . وكانوا يقولون مثلاً « خمس ميه » بكسر الميم والياء ويقفون على الهاء وذلك كما نقول نحن اليوم في الشام . ومن آثار النسب اللغوي الذي بيننا وبينهم استعمالهم « القد » بمعنى المقدار وهو استعمال فصيح في ذاته يقال هذا على قدّ هذا ولكن يكاد يكون خاصًّا بأهل سوريا . غير ان الغرناطيين كانوا يقولون « قد دي » في مكان « بقدر هذا » فتجد في هذه الجملة اصطلاحاً مصريًّا أيضاً لان « دي » ليس من اصطلاح أهل الشام بل من اصطلاح اهل مصر . وكانوا يقولون ايضاً على لغة مصر « بعد دي » اي « بعد هذه » وكانوا يقولون « قد هؤلاين» اي بقدر هؤلاء وكانوا يقولون الفاظاً كثيرةً بامالة شديدة كاهل سورية . فاذا ارادوا ان يقولون مثلاً « بَرّي » قالوا « بِري » بكسر الباء مع اننا نحن في الشام نلفظ هذه الباء هنا بالفتح نسبة الى البر فنقول مثلاً « بَرّي » غير انني سمعت العوام في شمال سوريا يلفظونها كاهل غرناطة اي « بِري » بالكسر فيقولون « حيوان بِرّي » مثلاً وكان الغرناطيون يفكون الادغام في كثير من الكلمات فيقولون « مننا » بدلاً من قولنا نحن « منّا» غير اني سمعت ايضاً كثيرين في سوريا يقولون « مننا » بفك الادغام . ومن المعلوم ان الادغام كان لغة نجد وان فك الادغام كان لغة الحجاز وكلتاهما سقطتا الى سورية . وقد جاء القرآن الكريم بكلتا اللغتين . ولكن من اصطلاحات الغرناطيين اشياء لم اطلع عليها في لغة

الشام ويجوز ان تكون موجودة واكون غير مطلع عليها لان من يتحرى التاريخ من منابع اللهجات ينبغي لهُ ان يثافن ويشافه جميع اهالي الاقطار العوام منهم اكثر من الخواص وان يستمع الى احاديث اهالي القرى خاصة لأن المتعلمين والمتأدبين يتوخون متابعة الكتب المدرسية بخلاف العامة . وقلما تيسر لبحاثة لغوي ان يجوب في الحواضر وفي القرى وفي البوادي حتى يأخذ لغات اهلها في العربية ويقيد لهجاتهم ويقايس بعضها الى بعض ويستنبط اصولها ومآخذها من العربية الاولى ايام كانت القبائل ساكنة في جزيرة العرب قبل الفتوحات . فمن اصطلاح الغرناطيين انهم كانوا يقولون «كل عامي» «وكل يومي» بدلاً من كل عامين وكل يومين وهذا على اسقاط الحرف الآخر مما ورد مثله في كلام العرب وتقدم لنا امثلة على هذا الاصطلاح من كلام اهل سورية وغيرهم

وكان اهل غرناطة يقولون «ابن آدِم» بكسر الدال كما يقول كثير من العامة في لبنان . وكانوا يقولون «بعد الغدِي» اي بعد الغد . وهذا كما يقال ايضاً في سورية . وكانوا يقولون «نِفس» بكسر النون اي «نفس» ويقولون «بلا شِك» بكسر الشين في «شك» وهي مفتوحة . وكل هذا من باب الامالة . وكانوا يقولون «عقب النفيس» اي «عقب النفاس» للمرأة وهذا من الامالة الزائدة مثل قولهم «الجهيد» للجهاد و«الكتيب» للكتاب و«الامام الاوزيعي» للامام الاوزاعي . ومن الدلائل على كون السواد الاعظم من العرب الذين فتحوا اسبانية كانوا من اهل الشام انهم جميعاً على مذهب الامام الاوزاعي امام اهل الشام ولم يتبدلوا مذهب مالك منهُ الاَّ في زمان بني أمية في قرطبة

وكان اهل قرطبة يقولون عن بلدتهم «المدينه» بكسر النون كما يقول اليوم اهالي سورية الاَّ النادر منهم . وتجد الاسبانيول يكتبونها في كتبهم Almédine ولا يكتبونها Almadina ولو كان الاندلسيون يلفظون «المدينة» كأهل مصر او اهل الحجاز او اهل المغرب مثلاً لكان الاسبانيول نقلوها عنهم بهذا الشكل Almadina اي بحرف a لا بحرف e الذي يتلفظون بهِ كأنهُ الياء . وكان اهل غرناطة يقولون لمدينة «اشبيلية» حمص ولا يقولون اشبيلية الاَّ نادراً وهكذا سماها صالح بن شريف الرندي في رثائهِ المشهور للاندلس

وأين حمص وما تحويهِ من نُزَهٍ ونهرها العذب فياضٌ وملآنُ

وقد كنت اتذاكر هذه المرثية انا وصاحبنا الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش روَّح الله روحه فقال لي: كيف يكون الوادي الكبير فياضاً ثم يعود ملآن والفيض بعد الامتلاء لا قبله

وكان من رأيي ان مراد الشاعر كون الوادي تارة فياضاً وطوراً ملآن بحسب فصول السنة فتسمية الاندلسيين لاشبيلية حمصاً هي من باب ولوعهم بأسماء البلاد الشامية

(اختصرنا من الاصل الذي تلوناه بالافرنسية في مؤتمر المستشرقين كثيراً من الامثال)

مرهم الجرح

من قصيدة لمحمود ابو الوفا في شكر اصدقائه المحتفين به

صيغ من قلبه ومن وجدانه ... ليس من علمه ولا من بيانه
ليس من زخرف النظيم الموشى ... بعقيق البيان او عقيانه
بل هو الشعر — لا — هو الشكر يهدي ... شاعر شاكر الى اخوانه

ودّ لو ينظم القوافي مما ... غرّد الطير في صبا الحانه
ودّ لو ينظم القوافي وشياً ... من نسيج الربيع في نيسانه

ليتني كالحمام جسماً وروحاً ... ليت لي سجعه وصدق حنانه
كي اري الناس في اغاريد نوحي ... رجع قلب يذوب في خفقانه

مرهم الاصدقاء جرحاً بقلبي ... حار طب الأساة في أسيانه
يا لهذا الجميل عندي لولا ... عرفه قد طغى على عرفانه
لست قلبي — يا قلب ان لم تكافئ ... محسناً، او تزد على احسانه

طاب في روضه جنى الشكر حتى ... كاد يذوي الجنى على اغصانه
صنع الله خير صحبة خير ... من وجوه الزمان من اعيانه
ورعى الله كاملاً من صديق ... لفّ منه الوفاء في صولجانه
قال يا قوم ان للروض شأناً ... غير ما بان من تفاهة شانه
انظروا كيف فاح طيب شذاه ... رغم ان ميث في رغام امتهانه

لعجيب ان يطرب الناس عود ... شبّ يسقى السموم من احزانه

وقفوا ينتشون في الزهر معنى ... كشذا الحق جاء قبل أوانه
يعرف الراح في نداماه عرفاً ... وهو لما يزل وراء دنانه
زمن من عشية وضحاها ... وغدا الزهر خائلاً فوق بانه
أزهر الروض وازدهى فكأن لم ... يك ما كان من صروف هوانه

قصة الروض قصة الشرق طرّا ... لم يعق حرّه سوى خذلانه
ليس إلا على التعاون قامت ... قوة الغرب أو قوى عمرانه
بارك الله فيك يا مصر داراً ... ليس فيك الغريب عن أوطانه
وطن — كله هدى فسلام ... جرس ناقوسه وصوت أذانه

البترول في معارك السلام

من اقامك ملكا ؟

او سر مقام البترول العالمي

الحضارة الحديثة قائمة على الصناعة الآلية. ولابدّ للصناعة الآلية من الوقود وهذا سرُّ مقام البترول العالمي. ذلك ان البترول يفوق كلَّ اصناف الوقود التي استعملت في الصناعة حتى الآن فاستنباطهُ سهل كلَّ السهولة كما قدمنا في الرسالة السابقة. ونقلهُ اسهل. فما على الشركة التي تملك منابع بترولية الاَّ ان تمدّ الانابيب من منطقة المنابع الى معامل التقطير او الى اقرب المرافىء فينقل منها في سفن صنعت خاصةً لنقلهِ. وهكذا تقلُّ نفقات العمال الذين يتولون استنباطهُ وتصفيتهُ ونقلهُ الى ادنى حدّ ممكن وخصوصاً اذا قابلنا بينهُ وبين الفحم الذي حل البترول محلّهُ. ومع ذلك فالحرارة التي يولّدها مقدار معيّن منهُ ضعف الحرارة التي يولّدها مثل ذلك المقدار من اخر انواع الفحم. وهذا يضمن لهُ سعراً ارخص من سعر الفحم ويجعل صناعتهُ بمعزل عن القلاقل الصناعية التي تستولي على المعدنين وغيرهم من طوائف العمال. ولذلك نرى استعمال هذا الوقود السائل، يتسع نطاقهُ رويداً رويداً، في السفن الحربية والتجارية، وسكك الحديد، والصناعات على اختلافها. ففي الولايات المتحدة، التي بلغت ارقى مستوى من التقدم الصناعي، يستعمل البترول في معظم مصانعها. وشركات السكك الحديدية في اميركا وروسيا ورومانيا تستعملهُ في قاطراتها مؤثرة اياهُ على الفحم. على ان فوائدهُ تتجلى في السفن الحربية والتجارية، التي تستعمل «المازوت» في الغالب

واليك المثل. لنفرض اننا نريد الموازنة بين سفينتين متماثلتين، احداهما بخارية، يسيّرها الفحم، والاخرى يسيّرها البترول. وان قوة كلٍ منهما ٢١ الف حصان. فالآلة البخارية التي تولّد ٢١ الف حصان يجب ان يكون وزنها نحو ٣٤٠٠ طن واما الآلة البترولية التي تولّد القوة نفسها فوزنها الف طن فقط. كذلك تستهلك الاولى نحو ٣٦٠ طناً من الفحم كلّ يوم واما الثانية فتستهلك مائة طن من البترول لتوليد القوة نفسها. فاذا استعدت السفينتان لرحلة طولها خمسة عشر يوماً، وجب على الاولى ان تتمون ٥٤٠٠ طن من الفحم تملأ ٧٠٠٠ متر مكعب واما الثانية فتكتفي بـ ١٥٠٠ طن من البترول، تملأ ١٧٠٠ متر مكعب

فينجم عن ذلك، ان الباخرة (اي السفينة التي تسير بالبخار مولداً من حرارة الفحم) لا تستطيع بما تتمونهُ من الوقود ان تسير اكثر من خمسة عشر يوماً من دون الدخول في مرفإٍ لتجديد تموينها. مع انها لو استعملت مخازن الفحم فيها لخزن البترول، وأبدلت آلتها

البخارية بآلةٍ بترولية لتمكنت من السير ٥٧ يوماً من دون ان تضطر الى دخول مرفاء ما

اما السفن الحربية فتفوُّق البترول على الفحم فيها اجلى منهُ في السفن التجارية . فداخن السفن الحربية المسيَّرة بالفحم ، والدخان المنطلق منها ينمّ على السفن نفسها من بُعد عشرة كيلومترات . لكنَّ السفن التي تسير بالبترول ،لاينطلق منها دخان، ولاحاجة بها الى المداخن، فلا تبدو السفينة في منظار العدوّ ، الاَّ خطاً رمادياً دقيقاً عند الافق

ثم ان الاسطول الذي يسير بالبترول ليس مضطراً ، الى دخول المرافىء لتموُّن الوقود اضطرار الاسطول المسيَّر بالفحم . وهو الى ذلك ، اخفُّ وزناً ، وأعظم سرعةً . فاذا قلَّ ما يحملهُ من الوقود ، لتوليد قوة معينة في آلاتهِ ، تمكن صانعوهُ من استعمال فرق الوزن في زيادة كثافة دروعهِ وضخامة مدافعهِ . وهذا هو الغرض الذي ينشده المهندسون البحريون الحربيون في كل الامم — وهو الجمع بين قوة الدروع والمدافع وخفة الوزن . ثم ان زوال المداخن يجعل السفينة الحربية هدفاً ابعد منالاً على مدافع العدوّ

ومما يمتاز بهِ الاسطول المسيَّر بالبترول ، سرعة حركتهِ . فاشعال النار في الفحم، وتوليد الضغط الكافي في المراجل حتى يتمكن البخار من تسيير الآلات ، يستغرق ساعات طويلة . اما اذا استعمل البترول ، فلا يمضي نصف ساعة على تلقي الامر، حتى تكون السفينة مستعدة للقيام . ثم لا تمضي ٣٥ دقيقة على ذلك حتى تكون قد بلغت سرعتها العادية ثم في ست دقائق اخرى تنتقل من سرعتها العادية الى اقصى سرعتها المستطاعة . يضاف الى ذلك ان الاضطرار الى مواصلة السير ، لا ينهك الرجال الذين في يدهم ادارة الآلات بل ان السفينة الحربية البترولية تستطيع ان تمضي في سيرها الى ان ينفد بترولها من دون ان ترهق عمال آلاتها، مع ان هؤلاء العمال لا يزيدون على اصابع اليدين عدًّا . اما في السفن الحربية الفحمية فعدد العمال الذين يلقمون الفحم في الاتاتين كبيراً جدًّا ،ومواصلة السير ترهقهم لانهم يعملون في احوال يضيق الجسم الانساني بها ذرعاً . وعلاوة على ذلك ان تموين السفن البترولية بوقودها ، يتمّ بسرعة ومن دون ضوضاء . فاذا اخذنا «الاولمبك» مثلاً عرفنا ان تموينها بالفحم يستغرق خمسة ايام ويقتضي عمل خمسمائة رجل . واما تموينها بترولاً فلا يستغرق اكثر من ١٢ ساعة ولا يقتضي اكثر من عمل ١٢ رجلاً . ثم ان تموين السفن بالبترول يمكن ان يتمّ في عرض البحر ، ولو كان البحر مضطرباً ، بواسطة نقالات البترول، والسفينة منها حوض كبير قائم في هيكل سفينة . وهذا متعذّر اذا اريد تموينها فحماً

هذه الاعتبارات ، حملت انكلترا واميركا سنة ١٩١٢ على استعمال البترول في معظم سفن اسطوليهما ، والمانيا في ٢٩ طراداً من طراداتها وروسيا في جميع سفنها الحربية في بحر بلطيق . اما فرنسا ، فكانت متأخرةً ، عن مزاحماتها ، عند نشوب الحرب الكبرى ، فلم تكن تملك في اسطولها الحربي ، سفينة واحدة من السفن الكبيرة ، تسير بالبترول . ولكنها اصلحت

هذا الخطأ بعد الحرب ، اذ وضعت خطتها البحرية الجديدة . فقد جاء في تقرير المسيو فلانداذ سنة ١٩٢٨ قوله « في المستقبل القريب يعفو أثر الفحم كوسيلة من وسائل الوقود في سفننا الحربية ، وكل سفننا الجديدة سوف تسيَّر بالبترول » . ويصحُّ القول الآن بان كل الاساطيل الحربية التي لها شأن دولي ما ، قد عمدت الى استعمال البترول في وحداتها الجديدة . وقد لا تمضي بضع سنوات حتى نودّع آخر السفن البخارية ، بنفس البسمة الساخرة ، التي ودع بها اسلافنا من قبل ، السفن الحربية الشراعية التي حاربت في طرف الغار ونافارين

ومن الغريب ان تتأخر فرنسا عن غيرها في الاخذ بوسيلة الوقود الجديدة ، مع ان فرنسيًّا ابدع اولاً فكرة استعمال البترول في الملاحة ، وبنى اول سفينة تحرق البترول بدلاً من الفحم . هذا الفرنسي هو الملازم « فارسي « Farcy » ، في عصر الامبراطورية الثانية . فانهُ ادرك بزكنهِ الفوائد العظيمة التي تجنى من استعمال البترول في السفن التجارية والحربية ، وبنى على حسابهِ الخاص سفينةً دعاها « البويبلا » Puebla فاصابت نجاحاً كبيراً وعني بها الامبراطور نفسهُ واحبَّ ان يشجّع صاحبها بمنحهِ هبة من اموال الدولة . ولكن اصحاب مناجم الفحم ، اقدموا وهم في عز سطوتهم ، على مناوأة فارسي فبذلوا المساعي — والاموال — في كل ناحية تملك الحكم في الموضوع ، فاسفرت مساعيهم عن خنق وليد « فارسي » في مهدهِ . ولو لم تكن انكلترا واميركا من حلفاء فرنسا في الحرب العالمية ، لكان هذا الخذلان الذي اصابهُ « فارسي » سبباً في خذلان فرنسا وهزيمتها

لذلك صرّح السر اليُتْ الفز (Alves) مدير احدى شركات البترول البريطانية الكبيرة : « ان الامة التي تسيطر على البترول تتقلد زمام التجارة العالمية . فلا الجيوش ولا الاساطيل ولا المال ولا كثرة السكان نفسها ، تغني عن البترول فتيلاً »

وقال المسيو هنري برنجه المفوض السامي « للبترول » في وزارة كلمانصو سنة ١٩١٩ ما ترجمتهُ : « من يحز البترول يحز المُلك — ملك البحر بالبترول الكثيف ، وملك الجوّ بالبترول المصفّى ، ومُلكَ اليابسة بالبنزين والغازولين ، ومُلكَ العالم بالقوة المالية المرتبطة بمادة هي اثمن واقوى واتمُّ سيطرة على الارض من الذهب نفسه

« ان الامة التي تصبح سيّدة لتموين البترول ، تشهد تيارات الملايين من اموال الناس متدفقة نحوها تنفق عندها ثمناً لهُ . ان سفن الامم الاخرى لا تستطيع ان تسافر الاَّ اذا دخلت مرافئها وتموّنت من احواضها . لتبني اسطولاً تجاريًّا قويًّا وليس ثمة ما يحول دون سيطرتها الكاملة على تجارة العالم البحرية . ثم لا تلبث الصناعات ان تنشأ وتترعرع حول مرافئها هذه ، فتصبح بنوكها اسواق العالم ، وفي يد مديريها السيطرة التامة على الاعتمادات المالية الدولية ، فتسيطر كذلك على الصناعة والتجارة ، حتى وعلى السياسة نفسها » !

تقاليد الزواج واصولها النفسية

لاحمد عطية الله

— ٣ —

زواج الاغتصاب — اثاره الراهنة في مصر والعالم — الاساس النفسي لذلك — اغتصاب الزوج — زواج المساومة — زواج الموافقة — حقوق العائلة — الاختيار الفردي —

على اية قاعدة تؤسس علاقة الزواج ؟ او بالاحرى كيف يختار الرجل رفيقتهُ ؟ ابرضائها الشخصي ام بعد موافقة ذويها او من بيدهم امرها ؟ ان هذا على صحتــهِ ليس الاّ نصف الحقيقة . فثمة زواج بالموافقة ، وزواج بعدم الموافقة او زواج بالاغتصاب ، وهو زواج لا يتطلب الزوج فيهِ موافقة من الفتاة ولا من ابويها . وهذا بالطبع نجده اكثر شيوعاً بين الشعوب الفطرية ، او المنزوية عن الاختلاط العالمي ، كما هي الحال في اواسط آسيا او شرق اوربا او بين سكان استراليا الاصليين وفي جزائر المحيط الجنوبي

ليس الزواج بالاغتصاب في تلك الانحاء حالات شاذة ، بل هو معتبر بين سكانها وسيلة طبيعية للزواج. ومع ذلك يجب الاّ يتطرق الى الذهن بأن زواج الاغتصاب هو العرف السائد الذي لا محيص منهُ في تلك البقاع، لانهُ وان كانت هنالك بواعث تدفع الى الاخذ بهِ كما سأورد بعضها بعد، إلاّ ان هذه لا يمكن ان تحطم الأسس الطبيعية التي يجب ان تقوم اركان الزواج عليها

فسكان استراليا الاصليون يكونون شبه عصابات تغير على غيرها من القبائل الاخرى لاغتصاب فتاة او اكثر للزواج . وقد تنقلب هذه الغارات الى حروب تسيل فيها الدماء ، حتى ان الفتاة اذا امتنعت عن اطاعة المغير لا تنجو من عقاب بدني . وكان زواج الاغتصاب معروفاً في بلاد الاغريق ، وظلّ الى القرن الماضي منتشراً بين الامم الصقلبية ، بل ولا يزال باقياً الى اليوم في بعض مناطق البانيا الجبلية .وقد تكون هذه الغارات نتيجة لضرورة طارئة اذا كانت الفتيات في احدى القبائل اقل من الفتيان الذين في دور الزواج . كما انهُ يحدث غالباً ان هذه الغارات العنيفة تنتهي بتعاقد في جو من الرضاء والموافقة الصحيحة . وقد اندثرت هذه الطريقة ولاسيما في الشعوب المتحضرة الاّ ان هنالك بعض تقاليد تقام في خلال الزواج، هي بمثابة آثار لزواج الاغتصاب الذي اصبح لا يتفق مع روح العصور الحديثة

فعند كثير من الشعوب الحاضرة ينشب قتال تمثيلي بين اسرة الزوج واسرة العروس ، فتهاجم الاولى دار العروس محاولةً اغتصاب الزوجة

ففي بعض الجهات في مصر ، يقام مثل هذا في حفلة الزفاف ، فيمتطي الزوج في جمع من اسرته ظهور الخيل او الجمال ويهاجمون اسرة الفتاة التي تقابلهم وتمنعهم من الاقتراب من دار العروس ، فتنشب بين الجمعين معركة صورية تطلق فيها بعض المقذوفات النارية ، او تستلُّ العصي والاسواط . او يحدث ان تركب الفتاة مع احد اقاربها الشبان فرساً ويهربان الى جهة نائية فتتبعها قافلة من اسرة الزوج لاغتصاب العروس . وقد لا ينتهي هذا القتال التمثيلي على هذا النحو بل قد ينقلب عنيفاً يتبادل فيهِ الفريقان الضربات كما يحدث في بعض جهات الهند وفي مراكش يرجم الزوج بصوب من الاحجار من اسرة الزوجة اذا جاء في طلبها

وقد تكون آثار زواج الاغتصاب اقل وضوحاً في بعض الحالات كما في انكلترا ، الاَّ أن هذه التقاليد التي يراعونها بدقة تدل على ان الاساس الذي بُنِيَت عليهِ هذه التقاليد معروف الى حد ما . فقد يحدث ان الزوج حين قدومه لاخذ زوجته ، تقف في سبيله جماعة من اسرة العروس في الطريق وتسدّهُ بأكوام من الاحجار او الخشب لمنع عربته من التقدم، الاَّ بعد مفاوضات صورية بين الفريقين تنتهي بعد ان يدفع الزوج ضريبة خاصة

ولعل دفع الضريبة معروف في مصر ولكن بصورة اخرى وهو ان الفتاة ليلة الزفاف تمتنع عن مخاطبة رفيقها الجديد عند تقديمها اليها الاَّ بعد دفع ضريبة مالية او هدية ذات قيمة !

وهنالك مظاهر اخرى قد نرجعها الى هذا الاساس مثال ذلك قضاء شهر العسل بعيداً عن بلد الاسرة فهذا يمثل فكرة هرب الزوج بعروسه في زواج الاغتصاب

* * *

وهنا يجدر بنا ان نتساءل عن الاساس السيكولوجي لذلك ثم عن غيرهِ من الاسس. وقد يكون تمنع الفتاة او العائلة مظهراً للطبيعة النسوية القوية التي نعرفها « بالدلال » او « التمنع » لان موقف الانثى في العلاقات الجنسية سلبيّ دائماً ، بمعنى انهُ ليس عليها ان تبحث عن الرفيق مهما كانت احوالها الخاصة ، بل يكفي ان تهيء الظروف المناسبة للبحث والطلب . وهذا ما نراه في المملكة الحيوانية . ولا ينقلب هذا الموقف السلبي عند المرأة الى ضدّهِ (كما يقرر علماء النفس) الا في حالتي الانحطاط أو الشذوذ العقلي ، ومع ذلك فاننا نجد ان روح التمنع أو الدلال تبدو كذلك حتى في البغايا [1]

والتمنع من جانب العروس قد تتخذه الفتاة أو اسرتها دليلاً على عفتها وطهارتها ، لان هنالك شعور بشيء من التقزز الى العلاقة الجنسية لكثرة ما أحيطت بهِ من الاسرار والنظم التقليدية . اذ قد يحدث عن بعض الشعوب ، ان يحضر الزوج الجديد الى دار الفتاة

(١) راجع Waytt Tilly, The Evolution of Consciousness

طالباً اياها فترفض أو تهرب الى بعض نواحي البيت فيبحث عنها ،حتى اذا وجدها اخذها من شعرها وجرها قسراً الى داره على مرأى من اهلها الذين يفرض عليهم بحكم التقاليد عدم التداخل في امر لا يخصهم

وهنالك ظاهرة اخرى توضح هذه الطبيعة النسوية ، طبيعة التمنع ، وهي بكاء العروس ليلة الزفاف. وبعض الجماعات تعلق شأناً كبيراً بهذا البكاء . فكلما كان نحيب العروس شديداً ، دل ذلك على عفافها ، وعلى اخلاصها وحبها لعائلتها . ولكنني اعتقد ايضاً ان البكاء دليل الخوف، خوف الفتاة وفزعها من الحياة الجديدة التي يحوطها في نظرها ، شيء من الغموض ، فهي مع شوقها السابق لان تكون زوجة وان تكون اماً، تشعر حينما تخطو آخر خطوة لتوديع حياتها السابقة ، بالرهبة والقلق فلا تمالك عن البكاء . ويعتقد بعضهم ان شدة بكاء الفتاة في ليلة زفافها مقياس لسعادتها في حياتها الزوجية

وهنالك اسباب اخرى لاتخاذ الاغتصاب وسيله للزواج وهو ان العروس وعائلتها تتعرف بهذه الطريقة مبلغ شجاعة الزوج وقوة عائلته . وقد يحدث ايضاً ان والد العروس يهرب في كثير من الاحيان يوم زفاف ابنته ، وقد رأيت بنفسي بعض هؤلاء الآباء الهاربين مختبئين في زوايا غير مطروقة بضعة ايام ممتنعين فيها عن رؤية احد من اهليهم أو معارفهم

***

وثمة زواج باغتصاب الزوج على مثال الزواج باغتصاب الزوجة وان كان هذا نادراً . ففي أسام مثلاً يخرج جماعة من اقارب العروس الى بيت الزوج طالبين اياه ولكنه يتمنع ويهرب الى احد زوايا المنزل حيث يتبعونه فيجدُّ في الهرب الى الغابة أو إلى الجبال حتى يعييه التعب ، محاولين أثناء ذلك اقناعه بالذهاب معهم واغراءه بالوعود والهدايا فاذا امعن في الرفض ، اطبقوا عليهِ وأتوا بهِ الى بركة ماء فيلقونهُ فيها مراراً حتى يعلن موافقته فيأخذونه ظافرين الى بيت العروس

***

وهنا نرجع الى الوسيلة الاخرى للزواج ونعني التعاقد بعد رضاء الطرفين . وفي استعمال لفظة « الطرفين » نوع من الابهام، فقد تقصد بذلك الرجل والفتاة اللذين يرغبان في الزواج وقد تقصد بعض افراد اسرة كل منهما ، وكذلك لا تنسى ما لرضاء المجتمع من الشأن في اتمام هذا العقد

والزواج بالموافقة وهو السائد بيننا يتطلب موافقة كل هؤلاء او الجانب الاكبر منهم . فرضاء الاب عن زواج ابنته يكاد يكون محتماً عند جميع الشعوب وان كان شأن هذا الرضاء يختلف باختلاف هذه الشعوب ، ففي الهند حيث يتم هذا التعاقد والزوجان في طور الطفولة نجد الاب مسيطراً على هذا التعاقد ، فهو يختار لفتاته من يريد بلا منازع . وقد تكون سلطة الاب كبيرة حتى انهُ في بعض الشعوب يملك الحق في بيع ابنته

وقد حدثني صديق زار اعالي السودان بان الزواج هنالك بالمبادلة والمساومة المادية، فالزوج او الاب يقدر قيمة الفتاة التي يرغب في تزويجها ، ويكون هذا الثمن عادة عدداً من الحراب او الادوات ذات الفائدة يقدمها الزوج لحميه . ومن المتفق عليه انهُ اذا ما توفيت الزوجة بعد ذلك فللزوج الحق في ان يسترجع هذا الثمن او بعضه من والد الفتاة

فالاساس في الزواج بين هذه الشعوب اقتصادي محض، ذلك ان الاب يفقد بالزواج فرداً من افراد أسرته وهو الفتاة التي قد تكون عوناً لهُ في عمله بمشاطرتها الام في القيام بأعباء المنزل او غير ذلك فلا عجب ان يعوضه الزوج شيئاً في سبيل خسارته

وأخذُ رأي الفتاة في الزواج قد يكون معروفاً عند الشعوب المنحطة اكثر منهُ بين الشعوب التي أخذت قسطاً ضئيلاً من الحضارة

أما الاساس النفسي الذي تبنى عليه حقوق الاب ، فهو واجب البنوة ، الذي يثبت في نفس الصبي أو الفتاة بتكرار اطاعة رب الاسرة ومحبته وتقديره ، والايمان بحسن سعيه

* * *

ومجمل القول ان الفتاة تكون عادة تحت تصرف والدها حتى الزواج، عند كثير من الشعوب او الى سن محددة كما هي الحال في الوقت الحاضر ، وهذه السن وهي سن الرشد تختلف باختلاف الشعوب ، والقانون يحددها في جميع الحالات . فاذا تمّ تعاقد بعد ذلك فالقانون او الشرع يجيزانه ، وان كان ينظر اليه في بعض الحالات نظرة مريبة من جانب الجماعة ، فيتطلب حينئذ رضاء الاب ولو في الظاهر فقط . وعند بعض الطوائف المسيحية يمتنع رجال الدين عن اتمام العقد في الكنيسة اذا أصرّ الأب على المعارضة

إلاّ انهُ بانتشار تعليم المرأة صار للرضاء الفردي بين الزوج والزوجة شأن اكبر تتلاشى عنده ارادة العائلة . ولا مغالطة في ذلك فالزواج نوع من الصداقة . ومن الواجب ان يكون حق الاختيار لمكوّنيّ هذه الرابطة . ولكن يجب الاّ نتناسى ان احكام الشباب اقرب الى التهور لا سيما للذين لم تتح لهم فرصة الاختلاط . فالفتى قد يقع في هوى كل فتاة تصادفه بلا تدقيق مدفوعاً بغريزته الجنسية ، التي تكون في بادىء الامر غامضة الغرض غير محددة . ولذلك قد لا يكون اختياره موفقاً سعيداً

احمد عطية الله

مدرس التربية بمعلمات حلوان

« للبحث بقية »

محتويات المقال التالي

الزواج الفردي — الحب والزواج — تعدد الزوجات — الاسباب الداعية اليه — تعدد الازواج — الزواج الجمعي — زواج المبادلة — المهر وتطوره — حفلات الزفاف

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

موقع فينيقية

يفهم بفينيقية عند فريق من علماء الجغرافية البقعة الخصيبة الممتدة على ساحل البحر المتوسط او بحر الروم من النهر الكبير «اليتروس» الفاصل بين جبال النصيرية وجبال لبنان في الشمال الى ما وراء جبل الكرمل في الجنوب ومن شاطئ البحر في الغرب الى قرية تل القاضي « لاليس او بالايس او دان » في الشرق . وفي اعتبار فريق آخر منهم كانت فينيقية تبتدئ في الشمال من نهر بلنياس « بالانيا » عند قلعة المرقب وتمتد طولاً الى جهة الجنوب من وراء الكرمل الى الطنطورة « دورا أو قلعة الغرباء » في بلاد نابلس وعرضاً من شاطئ البحر على خط منحرف نحو الجنوب الشرقي من وراء جبل لبنان ودمشق الى بادية الشام . وكانت قسمين فينيقية البحرية وتشمل حيفا وعكاء وصور وصيداء وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وعمريت « ماراتوس » واللاذقية وقاعدة هذا القسم مدينة صور . وفينيقية اللبنانية او الجبلية وتشمل دمشق وبعلبك وعرقه وبانياس « قيصرية فيلبس » وعكار . ومن المؤرخين من ذكر في جملة المدن الفينيقية اسبرتا وصرفت « صرفند » وارواد وجبلة وزمره «سيميرا» وارتوسيا أو شمرون وطرطوس وقلموس « القلمون » وجيفارتوس « انفه » وترياريس وبالي بيبلوس « جبيل القديمة » وخلدوا « خلدة » وبورفيريون « الجيّة » وناذانا « قيصرية » وافاقا أو عدلون وسرعة واوس « اسكندرونه » وكيكنا « ام العواميد » واكديبا «الزيب» . واقدم هذه المدن صيدون وهو مذهب هوميروس وسواه

اسم فينيقية

اما اسم فينيقية ففي تفسيره اقوال واول من اطلقه على هذه البلاد اليونان واللاتين ويذهب مسبرو الى انه مأخوذ من لفظة فون أو بون المراد بها في الآثار المصرية بلاد العرب الشرقية وشاطئ خليج العجم موطن الكنعانيين الاصلي ثم الحق العرب بهذه اللفظة حرفي النسب فاصبحت « فونيقي » أو « بونيقي » . غير ان هنالك من العلماء من يرتاب في صحة هذا الرأي

اصل الفينيقيين

والفينيقيون من الشعوب الكنعانية الاولى التي جاءت الى بلاد سام من جهة الجنوب واقامت فيها واختلطت بالآراميين ولهذا كانوا يعرفون ايضاً بالكنعانيين ومن ثمَّ كانوا من اقرب انسباء العبرانيين يتفاهمون بلغة واحدة

هجرة الفينيقيين وانتشارهم

كان للفينيقيين نزعة فطرية الى الاعمال المثمرة وميل طبيعي الى المضي في اعمالهم الى اقصى حد مستطاع حتى ان جرأتهم على اقتحام الاخطار في سبيل الكسب والاستعمار جرت مجرى الامثال عند الشعوب القديمة واتصل تأثيرها الى اعقابهم السوريين واللبنانيين فكانوا قدوة الامم الشرقية فيها. وكان من اخص مميزاتهم الحذق والاقدام والصبر والثبات والاقتدار على الاستنباط والمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم الوطنية والدينية والاستمساك بعروة الجامعة القومية ولاسيما في مستعمراتهم فكانوا في كل بقعة استوطنوها عصبة واحدة. وقد انصرفوا اولاً الى احراز الثروة عن طريق التجارة مسوقين اليها بما كانت عليهِ بلادهم من ضيق المساحة وقلة الخصب فلم يكن محصولها يفي بحاجتهم ولا سيما بعد استيلاء بني اسرائيل على ما صلح من ارضها للزراعة واكراههم لهم على الازواء في المدن الساحلية وهضاب لبنان. ومما مهد لهم السبيل الى ذلك توسُّط بلادهم بين آسيا واوربا من جهة وبين مصر وفلسطين وسورية وبلاد العرب من جهة اخرى فكان لهم من مركزهم هذا ما مكنهم من انشاء صلات تجارية وثيقة بهذه البلدان والتذرع بذلك الى التوسع في استثمار مواهبهم الفطرية فطمحت ابصارهم الى البلدان السحيقة فجابوها واختلطوا بشعوبها وانشأوا فيها مستعمراتهم ونشروا الوية نفوذهم وتمدنهم في اقصى الاقطار وكانوا صلة التعارف والقربى بين الشعوب الاسيوية والاوربية والافريقية. وقد انشأوا على ساحل البحر المتوسط كثيراً من المستعمرات واموا قبرس ورودس واكريت والجزر اليونانية وصقلية وايريكس ومالطة وكورفو ولاسيادوسا وكورسكا وماجوركا وترشيش في اسبانيا وقرطجنه وسواها. وجاوزوا البحر المتوسط الى ما وراء جبل طارق فحلوا في جزر بريطانيا وشمال فرنسا وبلجكا. ووجدوا بين سكان اميركا الاقدمين قوماً منهم. واتجروا مع البلاد المتاخمة للبحر الاحمر وكانت مدينة العريش محطة لقوافل بلاد العرب وبابل ولسائر واردات الخليج الفارسي والهند وما جاورها من ممالك الشرق الاقصى فتنقلها سفن الفينيقيين الى مختلف الاقطار. وعلى الجملة كانت تجارتهم منتشرة بين سورية ومصر وبلاد اليونان ومابين النهرين وارمينيا وبلدان الكلدان والهند وافريقية واسبانيا وبريطانيا وغيرها من ممالك اوربا الشمالية ولاسيما في ابان سيادة صور. واخص ما كانوا يتجرون بهِ في تلك الممالك الحجارة الكريمة

والمعادن على انواعها والآنية الزجاجية والاقمشة الثمينة والارجوان والآلات الدقيقة وغيرها

ومع ان هجرة الفينيقيين الى خارج فلسطين وسورية كانت نتيجة طبيعية لما حل بالديار الشامية من الضيق وانتابها من الفتن أو الفتح الاسرائيلي فان ذلك لم يكن أول عهدهم بالمهاجرة فقد كانوا يرتادون منذ عهد الرعاة في مصر السواحل الافريقية والاوربية . وانقسموا في هجرتهم الاولى هذه إلى ثلاث نحل . فالنحلة الأولى كانت مؤلفة من الجرجسيين واليبوسيين وقد اجتازت فلسطين الى مصر السفلى ومنها الى ليبية حيث تفرقت في انحاء أفريقية الشمالية والغربية واستعمرت تونس وقرطجنة وكان للفينيقيين هناك من قبل ذلك مستعمرة تجارية فحل اولئك المهاجرون فيها واختلطوا على توالي الأيام بسكان البلاد الاصليين وأدمجوهم فيهم فاتخذوا اسمهم كالافريين والليبيين أو البانيين ولقنوهم آدابهم ومدنيتهم وحكموهم . وعقدوا مع الليبيين اليافثيين خاصة عقود زواج نشأ منها الشعب إلليبي الفينيقي وهو الذي بث الحضارة القديمة في تلك الاصقاع وانشأ المستعمرات على ما روى الحجري وغيره من العلماء وابتنى قرطجنة المشهورة في حروبها مع الرومان واتخذ البونية لغة له وهي فرع من اللغة الفينيقية . وقد وجدوا اخبار اولئك المهاجرين منقوشة في احجار هناك منها عمودان كتب عليهما بالقلم الفينيقي ما ترجمته :

« نحن اناس هاربون من امام ذلك اللص يشوع بن نون » وقد ذكر ذلك بروكوب وغيره من العلماء . وسكان افريقية القدماء كانوا يسمون أنفسهم كنعانيين . ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير ان أفريقية سميت باسمها هذا من أوفران الذي جاء إلى ليبيه مع قومهِ الفينيقيين واستولى عليها فنسبت اليهِ وما دخل على اسمها من التحريف إنما هو من قبيل مايقع في أسماء البلدان من الابدال في حروفها الاصلية بحسب اللغات التي تكتب بها هذه الاسماء. وقال ابن خلدون ان تقليد شعوب افريقية الاسلامية ينبيء بأن هؤلاء القوم من نسل العمالقة الذين جاءوا اليها من ارض كنعان

والنحلة الثانية سارت شمالاً وملأت بمستعمراتها وآثارها القسم الغربي من آسيا العليا وجنوب اوربا وأقامت في طريقها كثيراً من الابنية في سوريا العليا وآسيا الصغرى وانبثت في بلاد اليونان وايتاليا وعدة جزر منتشرة بين ثغورها وثغور آسيا مقتفية آثار شعوب آسيا الوسطى التي ملأت تلك الجهات باسم الاذجيين أو بلاذج وشادوا هناك أقدم مدن أوربا وأحصنها وعرفوا بأسماء مختلفة فامتزج الفينيقيون المهاجرون بهؤلاء البلاذج في كثير من تلك الانحاء ونسبت اماكن كثيرة اليهم لانهم عمروها ونقلوا اليها حضارتهم القديمة

وأما النحلة الثالثة فركبت السفن الصيداوية إلى تاب في بلاد اليونان متبعة الشواطيء بقيادة قدم الذي يُظن أنهُ قدموس بن أجينور ملك فينيقية . وأنشأت في طريقها عدة مستعمرات كهنوتية في جهات مختلفة نظير رودس وجزر سيكلاد وجزيرة سموتراس وعلى

سواحل بيوتسيا في بلادالمورة تجاه جزيرة اوبه حيث شيد قدم قلعة قدمية ومدينة تيبايس قاعدةاقاليم بيوتسيا . والى قدم او قدموس هذا يعزى تعليم اهل المورة غرس الكرمة. واليه يعزى ايضاً وضع الحروف اليونانية في ما يقول بوكرت وبوصويت وسواهما من العلماء . وقيل ان اصل الاسم حتموس اي حثي وان هذا الزعيم ادخل الى اليونان الحروف الحثية وليس الفينيقية . غير ان الرأي المعول عليه هو ان الحروف التي تلقنها اليونان منه هي الحروف الفينيقية بعينها وانه لو كانت الخطوط الحثية اصلاً لحروف الهجاء عند اليونان ما تعذر حتى الآن حل رموزها . وقد تغلب قدموس على هاتيك الاصقاع وحكمها حقبة من الزمان وخلفه على ولايتها احد السبرتيين من ذوي قرباه ثم استرد الفينيقيون الولاية لهم فانبرى لهم السبرتيون الوطنيون واستمرت سلالتان احداهما كنعانية والاخرى اسبرتية تتنازعان ولاية تاب زهاء ثلاثة قرون . وذهب بعض العلماء الى ان قدموس ارتحل بقومه الكنعانيين أو الفينيقيين الى بلاد اليونان قبل غارة يشوع على فلسطين بعدة قرون . ومما لا ريب فيه انه كان للفينيقيين مستعمرات تجارية خارج فينيقية قبل مجيء بني اسرائيل الى ارض الميعاد بحقبة طويلة من الدهر . ومن الثابت في اعتبار العلماء ان هذه النحلة نشرت علوم الفينيقيين وحضارتهم وصناعاتهم في بلاد اليونان ونقلت اليها كثيراً من عبادات فينيقية وبلاد السريان. وتاريخ اليونان نفسه يقف عند هذا الحد فلا يرتقي الى اقدم منه . وفي هاتيك البلاد آثار كثيرة للفينيقيين تستجلى على الخصوص في اسماء شعوبها ومدنها وابطالها القدماء ودينها ومبادىء فلسفتها وتمدنها ولا سيما في بلاد المورة

على ان الفينيقيين لم ينفردوا في تحضير اليونان بل انه كان للمصريين شأن خطير في ذلك وقد جاؤوها قبل الميلاد لنحو الفي سنة . امّها اولاً انتيكوس بنحلة من مواطنيه وأنشأ مدينة ارغوس . وتلاه شيكروبوس المصري بنحلة اخرى وأنشأ هناك اثنتي عشرة دسكرة أو عشر دساكر على زعم بعضهم كانت اساساً لمدينة اثينا . وعلى هذا النحو يكون مرجع التمدن اليوناني الى النحل التى هاجرت الى بلاد اليونان من مصر ثم من فينيقية وادخلت اليها عادات بلادها وتمدنها واخلاق اهلها وعبادتها

مستعمراتهم وتجارتهم

ومن المستعمرات الفينيقية الاولى قبرس واول من استعمرها اهل جبيل ثم خضعت لصيدون واصبحت على توالي الايام بلداً فينيقيًا .وقيل بل اول من افتتحها الحثيون والحماتيون وبنوا اهم مدنها نظير ثيتيوم وحماتونة « حماسيا نسبة الى حماة» ثم استحوذ عليها الصيدونيون في عهد ملكهم بالوس . ثمّ استعمر الفينيقيون رودس واموا كريت فشادوا فيها مدينة اتيانوس.واستعمروا جزيرة نارهوقيشاره وأنشأوا لهم مستعمرات في اوليا روس وانتيباروس

ويوس وسيروس او سيرا وسيفنوس وسيمولوس من جزر الارخبيل ثم جزيرة ثاسوس. وقد بلغوا الدردنيل وبحر مرمرا والبوسفور والبحر الاسود ووصلوا الى جنوب جبل قاف وكانوا يأتون منهُ بالمعادن ولاسيما الذهب والقصدير والرصاص والفضة. وامو شواطىء الايبر وهي البانيا الجنوبية ووصلوا الى ايتاليا وصقلية. وكان لهم في مصر وعلى شواطئ افريقية مستعمرات مهمة ولاسيما في مصر السفلى وعلى الخصوص في منف على عهد ملوك الرعاة السوريي الاصل وكان نقل تجارة مصر الى الخارج محتكراً لهم ولكن لما طرد الرعاة من مصر تصدت الدولة الثامنة عشرة من دول الفراعنة للفينيقيين ووقفت حاجزاً منيعاً دون نموهم وتوسعهم في الاستعمار وسدت عليهم منافذ الكسب في افريقية. اما مستعمراتهم في جزر الارخبيل وما يليها وجاورها من الجزر والسواحل البحرية فظلت زاهرة الى ان انبرى لهم البلاسج وضايقوهم ولاسيما الكفتوريون وهم الفلسطينيون ومحالفوهم فاضطروا من ثمَّ الى التخلي عنها واهمالها

وما يقال عن مستعمرات الفينيقيين في جزر البحر المتوسط وعلى شواطئه يقال مثله عن تجارتهم في يابسة آسيا حيث بلغت شأواً بعيداً. وكان لها في تلك القارة ثلاثة فروع رئيسية: فرع الجنوب وفرع الشمال وفرع الشرق

فرع الجنوب — كانت قوافل الفينيقيين تصل جنوباً الى اليمن والخليج الفارسي وحضرموت وعمان ومكة ويثرب وعدن فتأتي منها بالذهب والحجارة الكريمة والبخور والمرّ والعاج والاخشاب العطرية والأبنوس وريش النعام

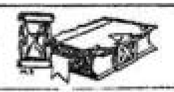
فرع الشمال — وكانت هذه القوافل تصل شمالاً الى توبل وماشك وهي من الاقاليم المجاورة للبحر الاسود وبحر قزوين وتعرف ببلاد الكرج وارمينية وجبل قاف. وكانوا يجلبون منها الرقيق وآنية النحاس والخيل والبغال

فرع الشرق — وكانت تصل شرقاً الى بابل ونينوى مارة بلبنان وبعلبك وحمص وحماة وحلب والرها ونصيبين حتى تبلغ بلاد اشور. ومنها قوافل كانت تجتاز بادية الشام الى تدمر ومنها الى تبسك على الفرات وتأتي من هناك بالانسجة القطنية والصوفية الفاخرة والحلى والاثاث والعطور والحجارة الكريمة. وتأتي من بابل بحاصلات آسيا الداخلية المجلوبة اليها من بخارى وفي جملتها الحرير. وكان لهم في طريق هذه القوافل مستعمرات زاهرة اخصها في حماة وفي تبساك على الفرات وفي نصيبين بقرب منبع دجلة. وكانت سفنهم ترتاد خليج العرب والخليج العجمي والاوقيانوس الهندي فتجلب الذهب والفضة وخشب الصندل والحجارة الكريمة والعاج والقردة والطواويس وتجوب شواطىء افريقية حتى قرطجنة. وقد بنوا هناك مدينة هيبون ومدينة كمباه التي اقيمت مكانها فيما بعد قرطجنة. وكانوا يتبعون في الاتجار مع الامم البربرية المنحطة طريقة المقايضة وهي متبعة الى اليوم في كثير من انحاء افريقية.

وأما المماثلون لهم في الحضارة فكانوا يتجرون معهم بالثمن كما هي الحال اليوم بين تجار العصر

ذلك كان شأن المستعمرات الفينيقية في ابان سيادة صيداء . ولما سقطت صيداء وأفضت السيادة الى صور تقلص نفوذ فينيقية من الانحاء الاسيوية والافريقية ردحاً من الزمن . على انهُ منذ ارتفع شأن صور بالتفاف المدن الفينيقية حولها طمحت الى الاستعمار والفتح السلمي وكانت افريقية مطمح ابصار الفينيقيين منذ القدم فامها قوم منهم في سنة ١١٥٨ ق . م . وبنوا هناك على شاطىء البحر في الشمال الغربي من قرطجنة مدينة اوتيك وجاءوا الى نوميديه المعروفة اليوم بمملكة فاس او المغرب وأنشأوا في انحائها ثلاثمائة مدينة استولى عليها البربر في عهد الاشوريين . ثم اتصلوا الى اسبانيا وشيدوا فيها مدينة قادس وسموا هذه البلاد ترشيش وبنوا عدة مدن منها ملاكا وساكس او مرتيل وابدار او بلمارياق في الجنوب الشرقي من مدريد. وأنشأوا مستعمرة كرتايا المعروفة اليوم بالجزيرة غرب جبل طارق . وبنوا مدناً اخرى في جهات مختلفة من تلك البلاد حتى بلغوا اجبال البيرنيه الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا. ولم يمرَّ قرن واحد على مجيئهم الى تلك البلاد حتى افضت اليهم ولاية باتيك في جنوب اسبانيا وهي الاندلس ونشروا هناك عاداتهم وآدابهم ولغتهم . ورسخت لغتهم في تلك الارجاء وظلت لغة الاهلين الى أيام الرومان ولا سيما في قادس وملاكا وساكس وابدار . واتخذ الفينيقيون جزيرة مالطة محطة متوسطة بين فينيقية ومستعمراتهم في اسبانيا وأفريقيا فأقامت جالية منهم هناك في آخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد واختلطت بأهلها الليبيين . ثمَّ الحقوا بمالطة جزيرة كولوس ونزلوا جزيرة صقلية بعد خروجها من حلقة البلاسج والليبيين واستعمروها وظلوا فيها اصحاب الكلمة النافذة ثلاثة قرون الى ان جاءها اليونان. واستعمروا جزيرة قشورة « بباتلريا » بقرب صقلية وجعلوها مستودعاً للذخائر والمواد التجارية. وكذلك سردينيا وأنشأوا فيها مدينة كراليس « كلياري » ونورا . وأموا جزيرة كورسكا وشواطىء ايتاليا الجنوبية وتوسكانا فأنشأوا هناك مستعمرات زاهرة . وأوغلوا في فرنسا وألمانيا ووصلوا الى بحر البلطيك براً والى جزر بريطانيا بحراً . وفي القرن السادس قبل الميلاد انفذوا الى شواطىء افريقية الغربية ستين سفينة فتحتها واستعمرتها. وعلى الجملة فان تجارة الفينيقيين بلغت في ابان سيادة صور ما بلغتهُ في ولاية صيداء من الخطر والمكانة العليا وربما فاقتها توسعاً وانتشاراً . على ان شهرة الفينيقيين في الاستعمار طوحت بهم الى التغافل عن بعض الاعتبارات الجوهرية فكان هذا التغافل من بواعث فشلهم في ما يلي من الزمن فان اهل صيداء وصور وبيروت وجبيل استقلوا في مستعمراتهم عن مواطنيهم فلم يشاركهم فيها احد من هؤلاء فانحط شأنهم ولا سيما صيداء فانها انفردت في شؤونها الداخلية والخارجية انفراداً جعلها في عزلة تامة عن سائر المدن الفينيقية استئثاراً بالمنفعة واستبداداً بالسيادة والنفوذ وهذا ما احرج موقفها وعجل في انحطاطها وتقلص سلطانها

[لها بقية]



« مكتبة فريدة »

« وصاحبها ايضاً فريد »

من اسابيع معدودة ارسل الاستاذ اسماعيل تيموربك الامين بالسراي الملكية وشقيقهُ الاستاذ محمود تيموربك الاديب والقصصي المعروف كتاباً الى وزير المعارف يذكران فيه لمعاليه ان والدهما فقيد الادب والعلم والحجا المغفور له احمد تيمور باشا لم يشأ ان يستأثر اهله وذووه من ورثته بمكتبتهِ التي خلفها ضمن تركتهِ انما شاء — شأن الاديب المخلص لادبهِ — ان ينتفع بها الادباء من اهل وطنهِ فأوصى بأن يخصص لها مكان في دار الكتب الملكية المصرية تنقل من مكانها اليه حتى يتذوقوا ما تحويه بطون كتبها من علم وأدب . وزاد الاستاذان فطلبا الى معالي الوزير ان يعاونهما في تنفيذ وصية ابيهما البار بمصر وبنيها فيأمر بنقل المكتبة النفيسة الى دار الكتب، فشكر لهما الوزير عملهما الحميد وود لو يكون كل اديب مخلص للادب وأنصاره كأبيهما المبرور . ونحن نكتب هذه العجالة وتنفيذ الوصية في سبيلها المنشود . ولقد اذكرنا كتاب الشابين الاديبين بما كان للباشا الوالد من ادب جم وعلم غزير ، وعاد بنا الى ما نعرفهُ له من حرص على اللغة العربية ان تموت وتفشو العامية فتحتل المكان ، ولا خير في امة تضيع لغة الآباء والاجداد فتستبدل بها لغة كسيحة لا تقوى هي نفسها على السير فما بالك بأن تنهض بسواها

وهنا قد يدهشك ويثير عجبك ان (ينحرف) الابن عن (جادة) ابيهِ فبينا يتعشق الاول لغة الضاد ويروج لها ويعمل على انتشارها ، اذ الابن يعزف عنها الى لغة العامة والبسطاء ويجهد نفسه في التدليل على استعمالها في الكتابة تمشياً مع روح العصر الجديد

اما ذلك الابن فهو المرحوم محمد تيمور الكاتب المسرحي المشهور والروائي الذي ظهرت له روايات عدة على مسرحنا المصري الناشىء منها « عبد الستار افندي » و « الهاوية » و « العصفور في القفص » وغيرها ، فقد كان شديد الدأب على الدعوة للعامية مدللاً بأنها لغة الشعب فهي انفذ الى عقله وقلبه من العربية الفصحى ، فكتب رواياته كلها — وقد نجحت جميعاً — بالعامية ، ولكنهُ نسي — كما حدث زميل ظريف — ان يكتب كتابه « المسرح المصري » بها فألفه بالعربية الفصحى

اما حجة فقيد العربية تيمور باشا في الترويج للفصحى ، فهي انها لغة القرآن الشريف ، ولغة اجدادنا العرب، فيجب صونها من العبث ، اذ في صيانتها صيانة للكرامة العربية القومية وللارث العربي في الادب والعلم والاجتماع ، فاذا كان الشعب قد عوّد لسنه اللغة العامية

فيجب على قادته واولي امره — وهم الادباء — ان لا ينزلوا الى مستواه بل على الضد حتم عليهم ان يرفعوه الى مستواهم فيزيدوا في تثقيفه وتهذيبه ويحيوا فيه العزة العربية

ولسنا في مقام المفاضلة بين الرأيين ، ولكنا نعرض هذا الحديث لنبين لك كيف كان تيمور الكبير يربي بنيه في مدى واسع من الحرية يختارون ما يشاؤون من الاساليب وما يستسيغونهُ من الوان الادب ، فمن عاف شيئاً لم يحمله على قبوله ، بل اقنعهُ بالحسنى بالقبول مرة وثانية وثالثة ، فان اهتدى فنعمت والاّ تركهُ وشأنهُ والايام كفيلة باقناعهِ

وأعتقد عن يقين ان محمداً تأثر في اخريات ايامه بحجة ابيه فلم يجنح الى العامية في تأليف « المسرح المصري » بل عطف منها الى العربية ، وسواء اكان هذا « نسياناً » منهُ كما قال الزميل او يقيناً وحقاً الاّ انهُ — ولا شك — اثر مما كان يدور بينه وبين والده العظيم

أما الاستاذ محمود تيمور بك فهو وسط بين اخيه وأبيه المرحومين ، فهو يكتب قصصه بأسلوب هو مزيج بين هذي وتلك ، فلم يغرق في العربية الفصحى الى عمق الحذلقة فيها واختيار معميات الفاظها ، ولم يطف على وجه العامية مستحسناً منها المبتذل الممجوج . فان شئت القرب من الاب العربي ، فانشده في ولده الاستاذ اسماعيل تيمور بك ، ولئن كان لم ينزل الى ميدان الكتابة الاّ انهُ شديد الكلف بالكتب العربية القديمة ومصنفات آداب اللغة يستوعب ما فيها فلا يدع كلمة تشكل عليهِ الاّ بحث عن اصلها وفصلها حتى وقف على كل ما يشبع رغبته في البحث والدرس

وهذه امور يرجع فيها الى البيئة التي ربي فيها الواحد منهم وعلى من تعلم ودرس ، فتيمور الكبير ، صاحب المكتبة الفريدة ، تعلم اول ما تعلم على اخته عائشة التيمورية في الوقت الذي كان يطلب العلم في مدرسة « مارسيل » الفرنسوية وكان لا يدخلها الاّ اولاد الاعيان وفيها تخرج دولة عدلي يكن باشا . وعائشة هي من يعرفها كل متأدب في الشرق ، الاديبة ، قويمة اللسان ، فصيحة البيان ، الحريصة على لغة الآباء والاجداد

ثم درس على المرحومين المشايخ حسن الطويل ورضوان المخللاتي وابي خطوة علوم الاسلام وادب اللغة وفقهها وكذلك شب احمد تيمور ، على حب اللغة العربية والانتصار لها والسعي في لم شعثها ؛ وكان مجلسهُ لا يضم الاّ خيرة رجال الادب في مصر ايام شبابه كالمرحومين الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده واسماعيل صبري باشا ومحمود سامي البارودي باشا

ومما يجب الالماع اليهِ ان تيموراً درس على الاستاذ الشنقيطي المعلقات السبع فوقف على شروحها وغريب الفاظها وعقد اعرابها حتى اضحى الوحيد في القطر في هاته المعلقات ، اليهِ يرجع في درسها وتحصيلها . وكان اصفى الاصدقاء لديه الاستاذ الامام والشيخ حسن منصور رحمهما الله

اما ولداه محمد ومحمود فقد تعلما تعلماً اوربيًّا فاختار كل منهما ما حلا له ولكن اسماعيل مع انهُ تعلم مثلهما الاّ انهُ ورث حب العربية عن ابيهِ فلم يعد يحب الاّ سماعها والاّ التحدث بها وقراءة كتبها النادرة

اعود الى حديث المكتبة فاقول انني اخترت لمقالي هذا العنوان السابق ، لا لانهُ من عفو خاطري ، ولكن لانهُ كان شهادة طيبة سامية من جلالة مليك البلاد قرأتها في مجلة « الزهراء » الغراء انقلها بحرفها هي : —

« كان فضيلة السيد محمد البيلاوي مرة بين يدي جلالة الملك يذكر له شيئاً عن خزائن الكتب المصرية ، فقال يصف الخزانة التيمورية ، وكان ذلك في حياة صاحبها رحمه الله : —

— ان مكتبة تيمور باشا فريدة في مصر لا مثيل لها بعد دار الكتب المصرية

— فاجابه جلالته : —

— وصاحبها ايضاً فريد » . اه

ما اجلها شهادة من ملك مصر المعظم . ووالله انهُ لخارق للعادة ان يؤلف رجل مكتبة تحوي نحو ثلاثة عشر الف مجلد نفيس يؤمن ملك فريد في الملوك على انها « فريدة » ويزيد على صاحبها بانهُ « فريد »

فهل كان جمع الكتب دأبه وعمله في الحياة ؟؟

نعم دون عجب . فانهُ بعدما رزئ بانتقال قرينته الى الرفيق الاعلى ازداد ميله الى الادب والعلم فبدأ يجمع الكتب ، لا ليتفرج عليها ويزهو بين الخلان والصحاب بان عنده مكتبة نادرة ولكن ليتزود بما فيها ، فلا يضع كتاباً جديداً يقع عليهِ في مكانه الذي يختاره له بين زملائه الاَّ بعد ما يأتي على آخر حرف فيه ، ويعلق على هوامش صحائفه بما يعن لهُ ، وكان أمتع وقت عنده للاستفادة من الكتاب ، وقت الليل والناس نيام ، فاتخذ الكتاب قريناً وعزاء له في وحدتهِ بعد زوجه فكان خير قرين . واما أحب الالوان اليه فكان اللغة والتاريخ والحديث الشريف . كان حجة لا يبارى واماماً لا يجارى في الغزارة والاطلاع والعرفان فيها جميعاً

واكثر كتب هذه المكتبة الفريدة مخطوط قديم لا يقدر بثمن لنفاسته وندرته ، يشتري الواحد منها بما يطلب صاحبه من دون مساومة ولا جدل ، ذلك لانه كان يقول : لا مساومة في الادب كما لا مساومة في الدين . وحبه للقديم دفع بهِ الى ايثاره كتب طبع بولاق أو المطابع الاوربية القديمة ، وليس معنى هذا انه كان يكره الكتب الحديثة ولكنه كان لا يسمح لواحد منها ان ينال شرف الانتساب الى مكتبته الاَّ اذا كان نفيساً مفيداً . وليست المكتبة مقتصرة على كتب اللغة والتاريخ والحديث لشغفه بها ، بل هي حافلة بكتب النحو والصرف وتاريخ الاسلام والعرب ، ولم يقتنِ من الكتب الفرنجية الا ما كان يبحث منها في الاسلام أو العرب

وهو وان كان غير ميال الى القصص — على ضدّ ابنيه — الاَّ انه كان يحوز منها القديم المشهور كقصة « عنتر » وزميلتها « الف ليلة وليلة » وغيرها

ولعل من أكبر البواعث على اجلالهِ انه كان لا يعهد في ترتيب مكتبته إلاَّ الى نفسه ،

فكان يسهر طويلاً في تبويبها ووضع الفهارس لمحتوياتها وتعليق اللوحات الصغيرة على كل فن من الفنون

ولما ضخمت المكتبة وعز شأنها ابتنى لها داراً خاصة بازمالك حيث الهدوء والسكون واحاطها بروضة مزهرة ، ووقف عليها اطياناً لرعايتها وصيانتها ، وجعلها من ثلاث غرف : الاولى للمطالعة ووضع بها مجموعة اللغة : آدابها وفقهها ونحوها وصرفها وزينها بجلود نفيسة كانت تستعمل قديماً للكتابة وجمل جدرانها بمجموعة من الصور لمشهوري رجال العلم في مقدمتهم حكام مصر وابطال تاريخها الحديث والقديم. والثانية نضد فيها كتب تاريخ العرب والاسلام والحضارة الاسلامية وجغرافية بلدان العرب. والثالثة لمختلف العلوم والفنون

ولم يرد الآن يصون الكتب المخطوطة المذهبة والمصورة بآلة التصوير، في خزانة جميلة صنعت خصيصاً لها

وطبيعي ان لا بد لاديب علاّمة هذا شأنه ان يكون قد ترك وراءه تراثاً ادبياً ينمّ على مبلغ ادبه وعلمه ، مؤلفات تنبئ بان تيموراً كان من الرجال الافذاذ الذين يعملون في صمت من دون جلبة ولا ضوضاء

واظهر مؤلفاته « معجم اللغة العامية» وضع فيه كل لفظ عامي يعرفه وسمعه وقرأهُ ورده الى اصله وبين مم اشتق ثم أتى له بمرادف عربي ليدحض قول الذين يقولون ان هناك الفاظاً عامية لا توجد لها الفاظ تؤدي معناها بالعربية

ثم « مفتاح الخزانة » وهو بمثابة فهرس لخزانة الادب التي صنفها البغدادي ، ليسهل على قارئها مراجعتها

ثم « ابو العلاء وعقيدته » وفيهِ يعتقد ان ابا العلاء المعري لم يكن من الملاحدة بل كان على الضد من ذلك مؤمناً طائعاً سليم العقيدة الدينية

ثم « الآثار النبوية » وقد تناول فيهِ المؤلف الفقيد الآثار المنسوبة الى النبي محمد صلى الله عليهِ وسلم فحققها وابان مبلغ الحق فيها من الكذب

ثم « تصحيح لسان العرب» وفي عنوانه مايغني عن الشرح وكذلك « تصحيح القاموس المحيط»

هذا بعض من كل ، ويغلبنا الاسف ان اكثر مؤلفاته النفيسة لم تطبع وما زالت محفوظة بالمكتبة الفريدة بخط يده

ومما يسر ويبهج ان الاستاذين اسماعيل بك ومحمود بك افضيا اليّ بانهما سوف ينشران ترجمة وافية لابيهما متضمنة اعماله ومؤلفاته وكل ما قيل فيهِ امدّ الله في حياتيهما

محمد علي رفاعي

حياة الفنان

صَحِبنا ظلام الليل لا هو كارهٌ حديثاً لنا ، او نحن ننتظر الفجرا

ومَنْ يفقد الآمالَ يلقَ عزاءهُ لدى الليل ان يُظلمْ ،وان يفقد البدرا

وما هي الاّ فتنةٌ ليلة السُّرى تصبُّ لنا خمراً ،وقدشربت مُرّاً

وتكتم في القلب الاسى ،وعذابها يبين كخافي الحب لا يعرف الاسرا

* * *

كأنْ النجومَ الساهراتِ حياتَها تحنُّ الى نومٍ ، وقدفقدت صبرا

فلا هي في النوّام ، اوهي مثلنا ولكنها كالطفل قد ملئت ذعرا

فأخفتْ سناها بين استار قبةٍ تستّر فيها ما جهلنا له سرًّا

* * *

وما نحن الاّ كالليالي لقومنا نساقيهم خمراً ، ونحتمل المُرّا

فغن بشعري للخليين برهةً وخل دموعي تستدرُّ لك الشعرا

وما رنة الاوتار الا حديثها وقلبك ... لو يدري الذي جهل الامرا !

حسن كامل الصيرفي

باب شؤون المرأة

وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة واهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

المرأة الالمانية في ميدان السياسة

للكاتبة الاميركية جنڤيف باركهرست

استرعت المرأة الالمانية انتباهي اولاً في الاتحاد النسوي الاممي ، الذي عقد منذ بضع سنوات في السوربون بباريس . ففي آخر اجتماع عقده الاتحاد ، كانت النساء الالمانيات يمثلن فيه بلاداً قد نالت منها المسغبة والهزيمة شر منال ، وكن آتيات الى بلد لايحمل لبلادهن سوى العداء ، الا انهن اقبلن على المؤتمر برؤوس مرفوعة ، ونفوس مشتغلة عن العالم وما فيه ، بالغاية التي يسعين اليها مصممات على التعاون مع ممثلات ٥٦ امة اخرى حتى يظهرن للعالم مكانة المرأة في عالم السياسة حين يفسح لها المكان اللائق بها

ومنذ الدقيقة الاولى التي دخلت فيها المرأة الالمانية دار المؤتمر اثبتت تفوقها ، وبذت اختها الاميركية في كل شيء . فبينما كانت النائبات الاميركيات منتخبات كلهن من هيئة واحدة ، اذ النائبات الالمانيات كن يمثلن مختلف الهيئات النسوية في المانيا ، فكان منهن المتشرعة والاستاذة في علوم الاقتصاد او العلوم الاخرى ، والطبيبة ، والعاملة ، وغير ذلك ، وبالجملة فقد كن على خبرة تامة بجميع نواحي المشكلات التي اتين الى المؤتمر لمعالجتها ، وقد تناولن مواضيعهن بما تستحق من العناية الخاصة من الوجهة الالمانية ، والعامة من الوجهة العالمية ، في حين ان الممثلات الاميركيات كن ينقصن عن اخواتهن الالمانيات خبرة وحصافة

ولما اتى دور النائبات الالمانيات للكلام ، وقفت الواحدة بعد الاخرى ، تخاطب جمهور المستمعين بلغة افرنسية صحيحة ، وتكشف في سياق حديثها عن استيعاب تام لنواحي الموضوعات التي تتناولها في كلامها ، وأخيراً وقفت « فرو سرترود » النائبة في الرخستاغ ، وكانت ردهة السوربون مزدحمة بالمستمعين ، فقابلها الجمهور بتصفيق خافت متقطع ، اما تلك

السيدة ذات العينين السوداوين ، والملبس الانيق ، فأدارت نظرها في الحضور ثم انحنت لهم وشرعت تتكلم بلغة افرنسية عذبة اشد العذوبة وقبلما اتمت الجملة الاولى من خطابها، انبعث سحر كلامها في الكتلة المستمعة فوقف الجمهور متأثراً اشد التأثر ، وصفق صائحاً مهللاً تهليل الطرب والاستحسان ، واندفعت الخطيبة تكشف عن آرائها باجلى بيان ، وافصح لغة ، حتى اذا انتهت من كلامها ، كان الجمهور قد اخذ بهزة عميقة الأثر من ثورة العاطفة وفيضانها ، فال الرجال الفرنسيون بعضهم على بعض يتعانقون لشدة ما نالهم من أثر الانفعال ، وسالت دموع السيدات غزيرة ، ودامت تلك الهزة العنيفة نحو عشر دقائق اختل في اثنائها نظام الاجتماع . وكانت خطبتها موضع عناية كبيرة من الصحف الفرنسية

* * *

وقد وقفت عقب « فرو سرترود » نائبة امريكا فقابلها الجمهور بعاصفة من التصفيق وحسبك بمن تمثل المرأة الامريكية في مجتمع مثل ذلك. فلما همت بالكلام توترت الاعصاب ، وشخصت الاعين ،وارهفت الآذان لتتلقى الدرر . . . حين تنتثر من بين تينك الشفتين . . . واخيراً تكلمت الخطيبة المحترمة باضطراب ملحوظ وارتباك بيّن باللغة . . . الانجليزية في حين ان جميع النائبات الاخريات حتى اولئك الآتيات من الصين . . . وايسلندا . . . تكلمن بالفرنسية . . . وليتها بعد هذا كله قالت شيئاً . . .فلقد اكتفت بان تلاحظ بانها لا تقول شيئاً . . . لانهُ ليس عندها ما تقول . . .

وقد سمعتُ بعض الامريكيات الجالسات خلفي ، يقلن بعد ان جلست الخطيبة المحترمة :

« واذاً فهذا هو كل ما استطعنا نحن الامريكيات ان نعمله في مؤتمر كان ينتظر العالمَ كله ان نكون نحن فيهِ القدوة الحسنة والمثل الاعلى للمرأة . . . »

* * *

ولما زرت المانيا لكي ادرس مكان المرأة السياسي هناك ،كنتُ على شيء من الخبرة بهمة المرأة الالمانية — والحق ان هذا الذي فعلتهُ المرأة هناك قد حقق جميع الآمال التي كانت معقودة على المرأة حين ينفسح لها مكان في عالم السياسة

ولقد كانت المرأة الالمانية تمتاز قبل الحرب بالخضوع الكلي لسلطان الرجل ، فلم تكن تعمل خارج بيتها الا اذا كانت ارملة ، او كانت من طبقة المزارعين او العاملات

الا انهُ وجد في ذلك الوقت القليلات ممن اسعدتهن الاحوال بالالتحاق بالجامعات والتخرج منها في مختلف فروع العلوم والآداب والفلسفة ، على انهن لم يتعدين دائرة العمل تحت اشراف الرجل ، ولم تسنح لهن الفرص للاستقلال بالعمل واظهار مواهبهن في

سعة من الحرية فلما نشبت الحرب العظمى اشتركن في اعمال الرجال كما اشترك غيرهن من نساء الدول المتحاربة ، فكنّ في اعمالهنّ مثلاً للتضحية والجلد ، فلما سرت روح الثورة في الامة الالمانية كانت اصوات نسائها تختلط مع اصوات الرجال فيها ، فلما انتهت تلك المأساة بالهزيمة ، بعثت في المانيا امرأة جديدة تطلب حق التصويت والنيابة والمساواة مع الرجل في كل شيء ، وقد نالت المرأة هناك كل مطالبها في المجتمع الوطني الذي عقد في «ڤيمر» لوضع دستور الجمهورية ، ومنذ ذلك الحين لم تتوان المرأة الالمانية عن العمل للمصلحة العامة

تقدمت النساء الالمانيات الى ميادين السياسة والشؤون العامة بعد حرمان طويل ، الا انهن لم يؤلفن هيئات نسائية لمقاومة الرجال والتصادم معهم ، وانما انتمت كل امرأة الى الحزب الذي مالت اليه ، وعملت معه في سبيل المانيا والمصلحة العامة ، لا في سبيل المصلحة الشخصية والمطامع الحزبية . ولما انجلت غمرة الفوضى الاولى عقب الحرب واستقر الامر للحكم الجمهوري، كانت غاية النساء ان تحتفظ المانيا بثباتها الاقتصادي ، وان تبعد عن كل ما من شأنه ان يؤدي الى انقسام البلاد الى احزاب متطاحنة ، ولقد زاد عدد النساء في الاحزاب السياسية زيادة اضطرت الرجال ان ينتخبوا منهن عدداً كبيراً لمجلس الرخستاغ ، وقد اضطلعن بالشؤون العامة والنيابة احسن اضطلاع ، وهن حائزات على اوفر قسط من الثقافة والخبرة والعلم الصحيح ، مما يجعلهن اهلاً للتبعات الملقاة عليهن

***

وحين قيل لي ان المرأة الالمانية هي التي انتخبت هندنبرج لرآسة الجمهورية لم اكد اصدق الخبر ، واخيراً اثبت بحثي صحة هذا القول

ففي تلك الفترة التي سادت فيها الفوضى في البلاد الالمانية وخيف عليها من تسرب سموم البولشفية اليها ، خشيت المرأة سوء العاقبة وأدركت شدة الحاجة الى قائد حاكم شديد الارادة يتولى شؤونها في تلك الفترة الحرجة ، فاجتمعت مندوبات من مختلف الهيئات النسائية واتفقن على الترويج لهندنبرج ، نظراً لمواقفه الشريفة والجريئة ، ولعمله الصامت في سبيل مصلحة البلاد ، وقد سعت النساء لهذه الغاية بهمة حتى نجحن في ذلك . ومع ان عدد النساء اللواتي اعطين اصواتهن لهندنبرج لا يزيد على عدد اصوات الرجال ، الاّ انهُ قد ثبت ان آلافاً من المنتخبات اقترعن لهندنبرج بالرغم من انهن تابعات لاحزاب اخرى مضادة له

***

ولما زادت خبرتي بالمرأة الالمانية ادركت ان مرجع نجاحها هو ذلك العزم الذي تبديه في كل ما تضطلع بهِ من الاعمال واليك المثل

كانت « فرو مند » المرأة الوحيدة بين اعضاء مجتمع « فيمر » سنة ١٩١٩ ، وهي التي ساعدت ستريزمان على انشاء حزب الشعب عقب الثورة . وكان بين اولئك الاعضاء رجل له ماضٍ حافل في خدمة الحكومة الملكية ، وكان من خصوم المرأة ، فقال «لفرو مند» في احدى جلسات المجتمع . « انا لا استطيع ان ارى ما الفائدة من وجود امرأة في مجلس تشريعي ؟ » فردت عليهِ « فرومند » بقولها : —

«وأنا لا استطيع ان ارى ما فائدة وجود وزير من طراز الماضي ... في مثل هذا المجلس... وعليك ان تنتظر حتى ترى ... »

والواقع انهُ لم يحتج الى طويل انتظار حتى يرى... ذلك انهُ حين رشح « ايبرت » للرآسة، اجتمع مجلس حزب الشعب وحزب الوطنيين للبحث في هذا الترشيح ، اذ كان كلا الحزبين خصوماً لايبرت هذا ، وكان الحزبان يريدان ترشيح رجل آخر إلاّ ان « فرو مند » لاحظت على ذلك بأن مرشح الحزبين سوف لا ينال من الاصوات ما يكفل له النجاح ، فارتأت اعطاء كافة الاصوات « لايبرت » حتى يفوز اذ كان الرجل ، بالرغم من الخصومة السياسية ، معترفاً له بالفضل والمقدرة . ولقد قابل رئيس المجلس اقتراح المرأة . . بشيء من التهكم : — كيف يصحُّ لامرأة ان تؤخر قراراً نهائيًّا من قرارات الحزب ... الا ان « فرو مند » انتظرت حتى جلسة بعد الظهر فلما حضر اثنان من كبار انصارها طرحت اقتراحها وعززتهُ وفازت بالتأييد وانتخبت « ايبرت » . ثم ذهبت الى ذلك الرجل وقالت له « هل طال بك انتظارك ؟ وهل رأيت فائدة المرأة في المجالس التشريعية ؟ »

* * *

واسم الدكتورة ماري اليصابات ملء الاسماع في المانيا ، فلقد ادخلت على تشريع البلاد من القوانين اكثر مما ادخلهُ اي رجل في الرخستاغ وهي التي دافعت عن حقوق النساء المتزوجات في خدمة الحكومة لما اقترح الاستغناء عنهن بحجة زيادة عدد الرجال العاطلين ، مستندة في دفاعها الى مبدأ التساوي التام بين المرأة والرجل في المانيا . وقد كادت ماري ان تنجح في مشروع قانونها لولا انه رؤي اخيراً ضرورة افساح المجال للرجال بطريقة لا تؤذي النساء المستخدمات في تلك الحكومة ، فاقترحت ماري ضمان تقاعد لكل من يستغنى عنها حتى تجد عملاً أو باباً آخر للرزق ، وقد أثار هذا الاقتراح الاخير زوبعة في الرخستاغ ، فاختلى وزير المالية بصاحبة الاقتراح وقال لها انه سوف يستعفي من منصبه اذا هي لم تسحب اقتراحها أو ان هو قُبِلَ في المجلس ، فاجابته ماري : —

يسؤني استعفاءك ولكن هذا لا ينفي انه يوجد كثيرون غيرك يستطيعون القيام بما تقوم به انت في منصبك . . .

وقد طرح اقتراح ماري امام المجلس وقبل . . . واستعفى وزير المالية وحلّ غيره محلّهُ

ومن ضمن القوانين الاخرى التي ادخلتها هذه النائبة ، قانون يختص بتعديل الجزاء المنصوص عليه في حوادث منع الحمل ، وبالرغم من صرامة هذا القانون الذي ايدتها فيه جميع الهيئات النسوية ، فقد قبل في المجلس بشيء من التعديل

وهي مقترحة قانون « لبن الامهات » . فلقد ارتفعت نسبة الوفيات بين الاطفال في المانيا بعد الحرب ارتفاعاً مروعاً بسبب الحاجة الى الغذاء ، فوضع هذا القانون لمنح الامهات الفقيرات حق تناول اعانة لشراء اللبن الكافي لاطفالهن ، وبهذا العمل النبيل والخطة الفاضلة ، نقصت نسبة الوفيات بين الاطفال هناك نقصاً ملحوظاً وتحسنت صحتهم ايما تحسن

***

وهناك « فرو الديكا شيدل » وهي تمثل قدرة المرأة الالمانية على الاعمال الشاقة . . . فهي نائبة بالرخستاغ ورئيسة مدرسة عالية من مدارس البنات ، وقد كانت الاولى بين نساء المانيا ممن حزنَ مثل هذا المنصب الخطير

وفي فصل انعقاد الرخستاغ ، تنهض من فراشها الساعة ٦ صباحاً وتشرع ترسم برنامج اليوم ، ثم تقرأ رسائل البريد وترد عليها ، وتتباحث مع موظفيها ، ثم تدرس درسين في العلوم الرياضية العالية ، وتذهب لحضور جلسات لجان الرخستاغ الساعة ١٠ صباحاً ، وعند الظهر تسرع لتناول طعاماً ثم تذهب لاعطاء درس آخر في الرياضيات العالية ، واخيراً تعود الى جلسات الرخستاغ المسائية

***

وفي الجملة أن المرأة الالمانية قد اثبتت مقدرتها ، وبرهنت على جدارة تامة لنيل جميع حقوقها التي فازت بها والتي وضعتها مع الرجل في مستوى واحد . وليس من ينكر عليها ذلك غير جماعة الرجعية . وقد ذكر لي احد اولئك الرجعيين ان المرأة الالمانية كانت تستطيع القيام بنصيبها من الشؤون السياسية العامة وهي في منزلها دون حاجة الى هذا التبذل الملحوظ عليها اليوم ... ولاحظ ان المرأة الاسبانية الحكيمة . . . تؤثر في سياسة بلادها وهي في منزلها عن طريق على ما لها من المكانة عند رجلها . . . اكثر من اية امرأة اخرى . . .

فقلتُ لهُ ان صحّ هذا الذي تقول فن واجب الالمان ان يحمدوا الله على عدم حكمة . . . نسائهم وما جلبت من خير على بلادهن اذا هي قيست بحكمة . . . نساء اسبانيا وما جلبت على بلادهن من فوضى واضطراب ... !

كيف نعيش في صحة جيدة

للدكتور لبيب شحاته

— ٢ —

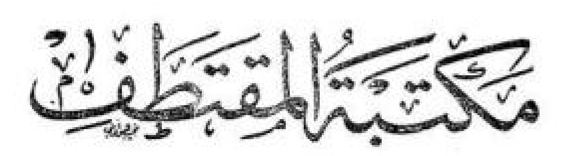
الراحة والنوم

يتكون في العضلات حامض يدعى الحامض اللبنيك وافرازات اخرى نتيجة عمل الخلايا وهذه تتجمع في اثناء العمل وتفرز تدريجيًا ولكن مع المجهود اليومي لا يمكن للجسم افرازها بمجرد تكوينها طول اليوم فتتجمع بين الخلايا وفي الدم فاذا جاء نهاية اليوم شعر الشخص بميل الى الراحة والنوم نتيجة وجود هذه الافرازات. وما التثاؤب الا محاولة من الجسم لاخذ مقدار كبير من الهواء (ومعهُ الاوكسجين) لكي يساعد على احتراق هذه الفضلات والتخلص منها. وفي جميع الامراض الراحة اهم وأول ما يصفهُ الطبيب واذا ضمنت للمريض النوم الهادىء فقد ضمنت له نصف الشفاء. فالنوم ضروري للجسم لاعادة نشاطه. والنوم غريزة طبيعية في الانسان ورثها عن اجداده الذين كانوا يسعون طول اليوم للحصول على غذائهم فاذا جاء الليل كمنوا في كهوفهم اتقاء الحيوانات المفترسة ولما لم يكن عندهم عمل يشغلون بهِ ذلك الوقت اضطروا الى النوم. ويوجد اصناف كثيرة من الناس والحيوانات تختلف عاداتهم في النوم اختلافاً كثيراً فبعضها ينام طول اليوم ويسعى في الليل وبعضها لا ينام تقريباً مدة فصل الصيف وينام طول مدة الشتاء. وتختلف حاجة الانسان الى النوم باختلاف سنه وعمله وحرارة الجو الذي يعيش فيهِ فالطفل من ٤ — ٦ سنوات ينام ١٢ ساعة في الليل وساعة في النهار ومن ١٢ — ١٤ سنة ينام ١٠ ساعات تقريباً بالليل ولا ينام نهاراً ومن ١٤ الى ١٨ سنة يكفيهِ نوم ٩ او ١٠ ساعات من الساعة العاشرة الى السابعة صباحاً وليس بين الساعة الواحدة صباحاً والحادية عشرة

وفي سن الثامنة عشر يكفيهِ ثماني ساعات للنوم ولكن بعض الناس يكتفي بأقل من ذلك بكثير. ويقال ان جلادستون لم ينم اكثر من اربع ساعات مدة سنوات ويوجد مثل قديم يقول ٦ ساعات للرجل وسبعة للمرأة وثمانية للابله. والشخص النشط عادة لا يقضي وقتاً كبيراً في النوم ولكن من الغلط تطبيق هذه القاعدة على الاطفال وهم في سن النمو فكثرة السهر وقلة ساعات النوم أو النوم المضطرب لا يدل على اجتهادهم وكثيراً ما يكون سبباً في سقوطهم وتأخرهم في الدراسة. ويختلف الناس كثيراً في نومهم فالبعض ينام نوماً هادئاً بمجرد اضطجاعه والبعض يأرق كثيراً وينام نوماً مضطرباً ويرجع اضطراب النوم غالباً الى شدة التعب اثناء النهار وخصوصاً قبل النوم فيحسن جداً تعويد الطفل النوم في ساعة خاصة فيمكنهُ اذا جاء وقت راحته ان ينام نوماً هادئاً ويجب ان تكون الغرفة حسنة التهوية وان يكون الفراش مريحاً وبعيداً عن الضوضاء

والارق ثلاثة أنواع (١) يقضي فيهِ الشخص مدة طويلة في الفراش حتى يغلب عليهِ النوم (٢) يكون النوم فيهِ مضطرباً تكثر الاحلام المزعجة (٣) ونوع يبتدىء فيهِ النوم هادئاً ولكنهُ لايستمر ويصحو الشخص مبكراً جداً ولا يمكنهُ النوم ثانياً. والارق غالباً نتيجة عوامل مرضية او نفسية فبين العوامل المرضية التي تسبب الارق والالم وضيق التنفس والسعال والحكة نتيجة احدى الامراض الجلدية او بسبب لدع حشرات او ارتفاع في درجة الحرارة او عسر الهضم او تغيير في الدورة الدموية . ومن العوامل النفسية شدة التعب او التخيلات العقلية او الجنون او الهم او الخوف او الحزن . ولكن شدة التعب لا تسبب بمفردها الارق غالباً ولكن دائماً يتبعها الهم وشدة الانتباه التي تسبب الارق . وقلة النوم مع التعب تجعل الشخص في حالة عصبية سيئة وقد عملت بعض تجارب على حيوانات في احدى جامعات اميركا لمعرفة تأثير عدم النوم عليها فوجد انها بعد مدة تختلف باختلاف الحيوان يحدث لها اعياء ينتهي بالموت وقد وجد ان اقل مدة سبعة ايام وأقصاها ٣١ يوماً وقبل حدوث الاعياء تنزل درجة الحرارة ويرتفع فجأة عدد النبض ثم يهبط فجأة ايضاً وتقل حركة التنفس وتنتهي الحالة بالموت وقد وجدت ايضاً تغيرات بينة في خلايا الجهاز العصبي

ولتضمن نوماً هادئاً مريحاً (١) حول وجهك دائماً عن النور (٢) واجعل هواء الغرفة بارداً واذا كان بالغرفة جهاز للتدفئة انقله قبل النوم واتركها مفتوحة مدة حتى يتجدد هواؤها ولا تجعل سريرك ملاصقاً للحائط أو في احد زوايا الغرفة (٣) ولاحظ دائماً ان يكون عليك غطاء كاف — فالدفء ضروري للنوم واذا كانت قدماك باردتين فاغمرهما بماء ساخن قبل النوم أو ضع في فراشك زجاجة ماء ساخن فبهذه الطريقة يتجمع مقدار كبير من الدم في الرجلين والاقدام فيقل مقدارهُ من الرأس فتشعر بميل الى النوم (٤) نم دائماً في ميعاد ثابت وقم في ميعاد ثابت ايضاً ومن الخطاء ان تنم بعد ميعادك حتى في ايام راحتك وأحسن بكثير ان تقوم في ميعادك وبعد الفطور نم ثانياً اذا اردت (٥) اجعل فراشك مسطحاً فان الفراش المقوس لايريح الجسم من تعب النهار (٦) القراءة أو المطالعة في الفراش عادة سيئة فانها تتعب عضلات العين ويجب ان لا تعمل شيئاً قبل النوم مباشرة خصوصاً اذا كان عملك عقلياً فبذلك يقل الدم الموجود بالمخ وتقل الاحلام التي تزعج نومك. والراحة الزائدة خصوصاً في احوال الاشخاص المتقدمي السن خطرة وقد تعجل موتهم فرجل الاعمال اذا تقدم في السن واضطرتهُ الى ترك عمله والاستكانة والمعيشة عيشة البذخ والراحة يذبل سريعاً كما في احوال الاشخاص الذين يحالون على المعاش فكل الم او مرض بسيط يصيبه يسبب انتباهه الشديد اليهِ ويثير همهُ وخوفه فحالة نفسه دائماً في توتر شديد تزيد ما بهِ من مرض ولو كان بسيطاً



رسالة باريس — لبشر فارس

تآليف المستشرقين

في الفن الاسلامي

Manuel d'Art Musulman — Editions Picard

اني حدثتك لخمسة اشهر خَلَوْنَ عن البنايات في الفن الاسلامي وبسطت لك ما انتهى اليهِ واحد من المستشرقين في فحصه عنها، ودعني اليوم احدثك عن جانب آخر من الفن الاسلامي

ان المسيو ميجون Migeon مدير المتاحف الوطنية في فرنسا ألَّف كتاباً بحث فيهِ عن التصوير الزَّيتي في الاسلام وعن النحت والحفر وضرب السكك وصناعة السلاح والصياغة وصناعة النحاس والزجاج والعاج والفسيفساء والفخار ونسج الحرير وتطريزه وحياكة الطنافس والسجادات . وقد بسط الرجل اطراف بحثه على جميع الاقطار الاسلامية منذ الهجرة حتى القرن التاسع عشر . فعمل كتاباً جامعاً غزير المادة . ولقد قرَّب مناله بصور زيَّنهُ بها تبرز الفن الاسلاميَّ رافلاً في حللهِ : فمن رسوم دقيقة (Miniatures) تمثل احداها مقامة من مقامات الحريري واخرى مشهداً من مشاهد شاه نامي وغيرها فصلاً من سيرة النبي ، ومن صورٍ تدل على صناعة النحت في مختلف اشكالها فهنا محراب جامع قرطبة وهناك باب جامع برجوان في القاهرة ، ومن ادوات مصنوعة من العاج مثل أسفاطٍ ومقابض سيوف ، ومن تماثيل برنز وحديد ، ومن دراهم ودنانير من فضة وذهب ، ومن انواع السلاح بين صوارم اندلسية وخوذات تركية الى غير ذلك من رسوم ما لحسنها غاية

ثم اني لأعجز ان اسوق لك كل ما يضمه الكتاب بين دفَّتيه الا اني ارغب في ان اقفك على باب من ابوابه موضوعه تأثير الفن الاسلامي في مناحي فن الغرب واليك خلاصته

ظل همُّ الافرنج في العصور المتوسطة اقتباس فن التزيين (l'art décoratif) عن العرب. فأول ما اقتبسوا أنهم صوروا تلك الشجرة التي مثَّلها العجم والكلدانيون غير مرة وجعلوها رمزاً للمعرفة والحق قديماً حتى اخذها عنهم المسلمون ورأوا فيها شجرة الجنَّة . ثم اقتبس

الافرنج هيئات الحيوانات فصوّروا الفيل على دعائم بِيَعِهم وعلى جدرانها صوّروا الطير ذات الرأس النسائية وعلى ابوابها مثلوا الباز ذا الجانحين المبسوطين والباز ذا الرأسين. ثم اقتبسوا الوردة المنمّقة(la fleur stylisée) .ثم قلدوا المسلمين في كتابتهم فعلَّوا الجدران والابواب بخطوط كوفية مشوهة . وكان الافرنج لا يقبلون على اساليب الفن الاسلامي لجمالها بل لعجزهم عن ان يمثلوا الطبيعة فاستسهلوا الاقتباس والتقليد. واما نقل زجاجات الكنائس الغريبة عن الاسلام فمن الراجح في الرأي أن موضوعاتها اخذت عن اشكال السجادات وعن قطع الحرير المطرّزة

ولم يكن تأثير الفن الاسلامي في الفن الغربي مقتصراً على العصور المتوسطة فانهُ تجاوزها حتى ايام النهضة ولاسيما في ايطاليا الجنوبية فان في بيعها منابر ومراقي قريبة من فن المحارب المصرية وفي مدافنها قبباً تشاكل الترب المراكشية . وبالجملة ان الافرنج دسّوا في فنهم وهم قوم تأمل حينذاك ما بين اطواء الفن الاسلامي من اسرار واحلام ومخيّلات ممثلة في براعة وحذق

كتاب في آداب الحسبة لابن السقطي

Un Manuel hispanique de Hisba — Editions Ernest Leroux.

كانت الحسبة أول الأمر وضعاً دينيًا . وكان المحتسب يراقب الاخلاق العامة وكان فقيهاً في الدين عالي الهمة عدلاً . ولما انتقلت الجمعية الاسلامية من دور البساطة الى دور التعقيد انشأت النظام الاجتماعي وهيأت له منازل ومراتب فاتسع نطاق حياتها وانفسحت رقعة اعمالها فاحتاجت الى ما لم تكن في حاجة اليه من قبل ففرقت بين الكبائر الدينية والجنايات المدنية والجنح التجارية فاتفق للحسبة على هذه الحال أن تنصرف الى الحياة العملية

ومن يرجع الى بعض تآليف العرب في الحسبة مثل الاحكام السلطانية للماوردي ومقدمة ابن خلدون ير ان الحسبة على قسمين احدهما ديني والآخر عملي . واما القسم الديني فقائم على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واما القسم العملي فموقوف على مراقبة الباعة ومنعهم من الغش في الكيل والميزان وردهم عن مخادعة الناس في معاملتهم ، وعلى مقاومة النقابات واضعاف شأنها وتثبيط امنائها عن عزمهم ، وعلى تفقد شؤون الصناع وزجرهم عن مماطلة الناس في حوائجهم

والكتاب الذي بين يدينا الآن يتبسط في القسم العملي واليك ابوابه منقولة من غير تحريف : « في الكيل والكيّالين . في الوزانين والموازين . في عملة الدقيق والخبز وباعتهما . في ذابحي الجزور وبائعي اللحم والحوت وانواع المطبوخات . في العطارين والصيادلة . في باعة العبيد والخدم . في الجلاسين . في الصناع وصنائعهم »

على أن هذا الكتاب غزير المادة مع صغر حجمه يخبرنا عن الحال الاقتصادية في الاندلس ويطلعنا على شيء من تاريخها فيضيف الى غرر التمدن الاسلامي غرةً اخرى . وصاحب هذا الكتاب يدعى ابا عبد الله محمد بن ابي محمد السقطي المالقي وكان محتسباً في مدينة مالقة في زوال القرن الحادي عشر

ولا بدَّ لنا ان نخبرك بان معلمين فرنسيين عنيا بنشر هذا الكتاب فأحكما ابرازه وتعهدا بالتبصر والاستقصاء ثم اضافا الى النص العربي بحثاً مسهباً عن لغة الكتاب فبسطا كيف حرَّف ابن السقطي كلمات فصيحةً اذ يمر حرفاً من حروفها (مثل طيحال بدلاً من طحال) ويقصر آخر (مفاتح بدلاً من مفاتيح) وكيف يشتق كلمات على اوزان مختلفة (مثل طنزيَّة بمعنى المزاح وخدَّامه بمعنى خدَّامين) وكيف يؤنث المذكر (السقيف التي . . .) ويذكر المؤنث (الفخذ الثاني) وكيف يخلط بين حروف الجر وكيف يعرب كلمات رومانية (مثل بلاجه واقليلال) وبربرية (مثل مليلس)

ولما فرغ المعلمان (Coliu et Lévi-Provençal) من فقة اللغة عمدا إلى شرح الكلمات والعبارات التي استعملها ابن السقطي على غير وجهها

وفي النهاية لا يسعنا إلاَّ أن نشكر للمعلمين همهما وان نرغب اليهما في نقل الكتاب الى الفرنسية حتى يقف عليه اصحاب علم الاقتصاد فيفسحوا في بحوثهم مكاناً للحضارة العربية

مراكبي النيل

Le batalier du Nil — Editions Grasset, Paris.

إن الاستاذ (اليان فنبير) Elian J. Finbert اسكندري المنشأ ذائع الصيت في الاندية الادبية بمصر . على انهُ في مقدمة الكتَّاب الفرنسيين ولتآليفه مكان عظيم عند القراء هنا. ولهُ قصتان مصريتان احداهما عنوانها حسين والاخرى عنوانها مراكبي النيل. وقد نقدت الاولى في مجلتنا هذه لسنةٍ مضت . واما الثانية فاني عازم على نقدها لساعتي :

اني والله لم اقرأ قصة مصرية باللغة الفرنسية تذهب الى ذلك التحليل الدقيق ففيها من التتبع للعادات ومن البحث عن الاخلاق ما يسحر العقول . ثم فيها من الوصف للطبيعة المصرية بين مدنٍ وقرى وعزب ما يَقِف الانظار ساعات

ثم انهُ يزين هذه القصة تلاؤم اطرافها وحسن انسجامها واما عباراتها فجزلة واما الفاظها فخفيفة المحمل على السمع . ولاشك عندي ان الفقرة الاخيرة من القصة عنوان البيان وحقيق بصاحبها ان يعدَّه الناس من نخبة القصاصين في فرنسا

غير اني وددتُ لو أمعن الاستاذ (فينبير) في البحث احياناً فبينما الاوربي يظن انهُ ذهب

في التحليل الى الغاية اذ المصري يفطن لنقص فيه . واليك مثلاً : ان الاستاذ فنبير يصف لنا مجلس حشاشين . فانهُ وان حدثنا عن « الجوزة »وعن « الصطله » وعن « الأفيـه » ليعجز عن ان يمثل لنا « غرزة » مصرية ماثلة الاغراض كاملتها لانهُ لم يتعرَّف تأثير الحشيش في أصحابه « من الداخل » على قول الفلاسفة . ثم ان في تلك القصة موضعاً آخر للنكير ذلك أن الاستاذ فنبير ينطق المصريين ما لا يدور على ألسنتهم كمثل « ان شا الله فليفل الحسد يحرقك » او كنتَ تختشي « زيّ تلميذ» وهذه العبارة الاخيرة فرنسية ونحن نقول في مصر « فلان يختشي زيّ البنت »

كتب فى الادب الفرنسى

انتصار الطب

Knock — Editions du Sagittaire, Paris.

هذه قصة تمثيلية اتيح لي ان اشاهدها قبل ان اقرأها وهي على جنبات المسرح خير منها في صفحات كتاب لان مؤلفها عوَّل على هيئات اشخاصها ليخلب الباب المشاهدين

وموضوع القصة ان طبيباً شيخاً استخلف في قرية يزاول فيها صناعته طبيباً شاباً . وكان اهل القرية من اشد الناس بغضاً للطب ومن اقلهم اقبالاً عليه . فلما استقرَّ الطبيب الشاب في القرية اخذ يجلب أهلها اليه بالرغم منهم اذ جعل في كل اسبوع يوماً يستطبه المرضى فيه مجاناً .فكان يأتيه الاصحاء ويشكون ادواء ليست بهم .فكان الطبيب يهوِّلها عندهم دهاء. فأمسى الناس كلهم مرضى وهماً . والذي زاد في وهمهم ان الطبيب عهد الى بعضهم أن يحدثهم في مجتمعات عامة عن الميكروبات واهوالها فنال الناس من ذلك روعة شديدة وقام في انفسهم ان الميكروبات جميعها أو بعضها بين جوانبهم وما زالوا كذلك حتى اصبحوا من اكثر الناس استسلاماً الى الطب ومن اسبقهم اليه. ثم انه اتفق أن عاد الطبيب الشيخ الى القرية فعجب مما رأى فيها وانكر اهليها فلقيه الطبيب الشاب وبسط له كيف ردَّ الناس مرضى ليعالجهم في سبيل نشر الطب ونصره ولم يكتمهُ انهُ ربح في ذلك كثيراً . فاستطير الشيخ غضباً واتهم الطبيب بالسرقة فسخر منهُ الطبيب وقال له ليس في الناس صحيح وما زال بهِ حتى اوهمهُ أن بهِ داء فركن اليهِ الشيخ واستوصفهُ لدائهِ فوعده الطبيب بتمريضهِ والقيام عليهِ

ذلك مجمل القصة وانك لترى انها ليس فيها مرمى فلسفي ولا مرمى ادبي وأن قيامها على ابسط اساليب الدجْل « أو البَلف والتهويش » في الطب ومن اجل ذلك لا يسع الذي

يشاهدها إلاَّ ان يضحك ولاسيما ان المؤلف يبرز اشخاصاً يهزأ بهم حين يطلعون على المشاهدين فن فلاح عريض القفا بطيء الحس ، ومن عجوز شريفة ذاهبة بنفسها قابضة بيدها ، ومن أشخاص آخرين من الميسور ان يلتمسهم كاتب في بيئة قروية

وختاماً انا نرى نكتة القصة فيما ذهب اليهِ المؤلف من التعريض بفنّ الاطباء والتصريح بكرمهِ بالخلق

قصص لافونتين

Contes de la Fantaine — La Princesse de Clèves
Editions le Trianon, Paris.

اشتهر (لافونتين) بأشعار جعلها على السنة الحيوانات ومثله فيها مثل ابن المقفع في كليلة ودمنة . إلاَّ ان للافونتين قصصاً منظومة بعيدة عن تلك الاشعار التي اذاعت اسمه . وموضوع قصصه هذه المجون والفجور . وكأن الرجل اراد ان يتهكم بالرجال فكاد ان يقف تأليفه على لهو النساء وخيانتهم بعولتهن فأخذ يعرض كيف يتحولن عن الحلال ابتغاء الحرام وكيف يخادعن ويداجين وكيف يخفين امرهن على ازواجهن

على ان تلك القصص وان كانت على فسق عظيم لهي من درر الشعر الفرنسي ذلك ان عليها ميسم الفصاحة مع سذاجة في اسلوبها ولين وبعد عن التكلف والتأنق . ثم ان (لافونتين) يقص في حذق يخلطهِ اسلوب الرواية بأسلوب النقد فتارة يجعل ابطال قصصه يتحدثون ويعملون وطوراً يتأملهم فيضحك منهم لاهياً او ساخراً . على ان (لافونتين) ذهب في مبنى قصصه الى مذهبين اختص بهما : فأما المذهب الاول فنظم القصة الواحدة من بحور من الشعر شتى والغرض من ذلك ان يخرج القارىء من وزن الى وزن فلا تمل أذنه . وأما المذهب الثاني فاستعمال عبارات مهجورة وألفاظ مماته ابتغاء تزيين القصة وتنميقها

ثم انهُ ليعارض مثل هذا الابتداع في المبنى ابتداع آخر في المعنى جاءت بهِ كاتبة بارعة معاصرة للافونتين (اي القرن السابع عشر) يقال لها (لافاييت) Madame de la Fayette. وقد الفت المرأة قصة عنوانها (اميرة كليف) La Princesse de Clèves اقامتها على البحث النفساني الذي عمد اليهِ جلّ القصاصين الفرنسيين من بعد . ولقد والله اصابت في فحصها عن الشعور الدقيق والاحساسات الخفية في اسلوب لطيف المداخل والمخارج صحيح الديباجة . والغريب في امر تلك الكاتبة انها لم تقتبس قليلاً ولا كثيراً ممن سبقها ولم تعول على احد قط ، ولكن وحياً نزل عليها بعثها على الاستحداث في فن القصة . وما هذا الوحي إلاَّ العبقرية نفسها ومن اجل ذلك يجعلها النقاد بمنزلة فحول الادب الفرنسي مثل (راسين وموليير ولافونتين) وان كانت دونهم في بعد المعاني واحكام السبك باريس بشر فارس

مجلة الدجاج

بعد مجلة « مملكة النحل »

أصدر العالم الفاضل الدكتور احمد زكي ابي شادي مجلة جديدة باسم « الدجاج » وقفها على خدمة صناعة زراعية هي صناعة تربية الدجاج . وأنشأ لهذا الغرض اتحاداً دعاه « الاتحاد المصري لتربية الدجاج » ووضع لهُ دستوراً نشر في العدد الاول من المجلة . وفي هذا العدد علاوة على ذلك فصول نفيسة عن هذه الصناعة

ولا يخفى ان صناعة تربية الدجاج اذا وجدت نظاماً وعناية فانها تصبح من أعظم موارد الربح للفلاحين ولغيرهم ممن يشتغلون بها وهي لا تحتاج الى رؤوس أموال كبيرة ولا الى جهود فوق الطاقة بل ان اقل الجهود والاموال مع النظام والعناية يكفلان رزقاً حسناً للمشتغل بها

ويتفرع على تربية الدجاج تجارة اصدار البيض الى الخارج بعد تحسين نوعه وهناك الوف من الناس يعيشون من هذه التجارة فاذا نظمت وروعي فيها الصدق والامانة اتسع نطاقها وكثر الصادر من البيض وتضاعف مصدر من مصادر الثروة العامة

هذه هي الخدمة الجديدة التي قصد الدكتور ابو شادي أن يؤديها لبلاده أو بالحري هذا هو الباب الجديد الذي فتحه من أبواب الانتاج بعد ما وقف همته وعلمه وغيرته على البحث عن كنوز الانتاج التي لم يكشف النقاب عنها بعد

والقراء يعرفون ان الدكتور أبا شادي هو صاحب الجهود الناجحة في ترقية صناعة النحالة فهو الذي وجه الانظار اليها وحرك اهتمام الكثيرين بها وأنشأ رابطة مملكة النحل ومجلة « مملكة النحل » باللغتين العربية والانكليزية وعقد مؤتمر النحل الاخير في القاهرة وهي جهود كللت كلها بالتوفيق

ومع ان الدكتور أبا شادي تخرج طبيباً يعالج امراض الاجسام فقد رأى ان مصر بحاجة الى علمه وذكائه في ميدان الاقتصاد ، وبرهن على انه طبيب ماهر ونطاسي حاذق ليس في الامراض البدنية فقط بل في الامراض الاقتصادية ايضاً وكما انه نجح نجاحاً باهراً في دعوته الى ترقية النحالة وانهاضها فانه لا شك ناجح في الدعوة الى تربية الدجاج وتحسين نوعه وسيجد لهُ أنصار كثيرين يعاونونه في خدمته هذه كما وجد في خدمته الاولى فيصبح اسم الدكتور ابي شادي مقترناً بنهضة موفقة في توسيع نطاق الانتاج واحياء الصناعات الزراعية وابلاغها الى ذروة الاجادة لتكون من الموارد التي تعتمد عليها البلاد في تحسين حالتها الاقتصادية وتوفير أسباب الثروة واليسر لالوف من أهلها

ولا نثني على الدكتور أبي شادي الاّ باعماله ونتائجها التي تبعث على الاغتباط والسرور فاعماله هي التي تمدحه وتثني على فضله واجتهاده وتعلن عن اهتمامه بشؤون البلاد الزراعية وهناء فلاحيها كافأه الله على خدماته الجليلة بما هو اهله

في الحياة والحب

قصص احداها موضوعة والباقية ملخصة عن الفرنسية — بقلم احمد الصاوي محمد — طبعت بمطبعة سكر صفحاتها ٢٢٢ قطع وسط

احمد الصاوي محمد مزيج طيب من الصحافة الراقية والادب الصحيح تعلوه مسحة من الشعر. اما الصحافة فلعلهُ الوحيد بين الصحافيين المصريين العاملين، الذي تعلم اصول الصحافة في مدرسة. وأما مزج الصحافة بالادب فدليلك عليه خروجهُ من الطريق المعبد مثلاً في وصف الحفلات العادية بألفاظ اصبحنا نمل رؤيتها لكثرة ترديدها في كل مقام، الى نوع من الوصف تختلط فيه الحقيقة بالخيال، في قالب أخاذ من الرواء يستدرجك ويقسرك على الاطلاع على الحوادث العادية المملولة — كحفلات التكريم مثلاً! ولو ان في مصر جائزة صحفية تمنح للمتفوق من المقالات التي تنشرها الصحف في وصف الحفلات العامة — كاحدى جوائز بلتزر الاميركية — لنالت مقالة الصاوي التي كتبها في وصف الحفلة التي اقامها الدكتور محمد شرف بك في يناير سنة ١٩٣١ — لتكريم الدكتور علي باشا ابرهيم باسم المجمع المصري للثقافة العلمية — هذه الجائزة. ولا ريب عندي انها لا تقل عن أية مقالة من نوعها في صحف الغرب

اما الشعر فن ادل دلائله الكآبة التي تلمسها في حديثه وتتبينها في كل سطر من سطور القصة «عائدة» التي افتتح بها هذا الكتاب بل ان جوَّ القصة من اولها الى آخرها هو جوٌّ شعري: «احببتها لذلك الحزن الكظيم ... نعم. هو حزنها الذي ربطني بها. هو ذلك البكاء بلا دموع الذي كان ينسكب من جفونها قد جعلني اتعلقها. هو ذلك النقاب الشفاف من الالم الذي كانت تطالع الناس به فلا تفهمهُ الا النفوس المعذبة والارواح الحائرة.. كان ألمها الاخرس يناديني» وقولهُ: «ثم تعانقنا عناقاً لذيذاً كنوم السحر، هنيئاً كالحلم بالمجد والغنى شديداً لأن فيه من السخر ومن الغل والشماتة بالحياة.. وفيه من الانتقام لوحشة سابقة وفرقة لاحقة.... وسقطت عائدة بعدها على البساط وراحت في اغماء.. وكشف ذيل قميصها عن لحمها الوردي العطري وأقبلت الشياطين فجلست في دائرة حولي تحرق البخور وتضرب الناي. وأشاحت الملائكة بوجوهها وولت الادبار جزعاً... » ولكن الضمير الوازع عصاه وقام كالحائط امامهُ فناداها ان انهضي فقامت «كالغصن المنكسر» ... وخرج «وكانت جنتي وخرجتُ منها..». اما بقية قصص الكتاب فيقول فيها خليل مطران في المقدمة «في حسن اختيارها، وبراعة تلخيصها وقوة التدبر لانتزاع اللباب منها، ولطف الاسلوب في الاداء، ومحاكاة المؤلف حتى في طريقته البيانية ما يجيز لي القول بلا خشية المغالاة. ان «الصاوي» بعد ان اهدى الى اللغة العربية تحفة بأقصوصته الموضوعة اهدى اليها تحفاً من الكتب الملخصة». ومما يسر ان مطبعة سكر قد تعاقدت مع الاستاذ الصاوي على ان يقدم لها اربعة كتب كل سنة. فنتمنى لهذه المكتبة الناشئة النجاح، لعل نجاحها يكون مقدمة لصناعة النشر كانفهم في اوربا وأميركا

منابت الصهيونية

تأليف توفيق قربان — ويليها قصص اجتماعية منقولة — صفحاتها ٩٨ قطع وسط طبعت في البرازيل والثمن ١٠٠٠ برازيلي او دولار في الخارج

القصة الاولى التي عنوانها «منابت الصهيونية» قصة تاريخية مقتبسة من التوراة «لتحليل الغريزة الصهيونية الموروثة من اقدم العصور» كما يقول المؤلف. وهي في الغالب قصة خروج بني اسرائيل من مصر، كما يفهمها مؤلف عصري وعى اغراض الصهيونيين واساليبها ولم يسغها. وفي القصة قطع من التهكم اللاذع والوصف البليغ والملاحظة الدقيقة: خذ مثلاً قولهُ صفحة ٢٠. «سرقة؟ كلاّ يا اخي فعليك ان تميز بين اخذ مال ابن جنسك واخذ مال الغريب. فاخذك لمال العبراني سرقة ولكن اخذك لمال المصري حلال. هذا اسمهُ سياسة. ولا اعني مال المصري وانتهينا بل مال كل غير اسرائيلي». وهو تهكم لاذع على حرص الاسرائيليين في جمع المال وسخرية من لفظ «سياسة». اوخذ قول هرون لبني اسرائيل مثلاً على الثاني «ان قرون الاستعباد اخمدت جذوة الحرية فيكم والخنوع الدائم جعل طلوع شمس الحرية جريمة في عيونكم. حتى لو انكم احببتم ان تحلموا بالحرية ما كانت لكم من دمكم قوة تساعدكم على التمتع بالحلم اللذيذ... اما نار الاستقلال التي كانت تتأجج في صدر كبارنا وهم في البادية لا تزال في صدوركم بقية لا تحسونها لان رماد العصور يغطيها. على انكم متى عدتم الى البادية، متى تنشقتم هواء الحرية، متى ذقتم ثمارها، متى استراحت اذانكم من تلقي الاوامر من غريب الجنس، عندئذ يعود الدم الحر الى الدوران في عروقكم وتصبح شرارة الحرية ناراً ذات ضرام....»

ولكن المؤلف جعل من موسى في قصتهِ هذه رجلاً لا يتفق وصورتهُ التي رسمت في التوراة. فانهُ اسند معظم أعماله الى بواعث دنيئة، فهو يريد ان يجعل السيطرة للاويين سبطهِ الخاص، وان يجمع ذهب الاسرائيليين لهُ ولذويهِ باساليب من الشعوذة والدجل، تفلح في شعب ساذج، ولكنها لا تتفق مع روح الرجل الذي يطمح الى ان يحرر قوماً باسرهم. ثم ان المؤلف يذكر «الغريزة الصهيونية الموروثة» ونحن نظن انهُ لا يجد عالماً يقره على ان ثمة «غريزة صهيونية موروثة» بالمعنى البيولوجي، اي ان عواملها مستقرة في كروموسومات اليهود دون غيرهم. وانما لا جدال في ان هذا الذي يدعوه المؤلف غريزة صهيونية هو بمثابة تقليد اجتماعي ينقل من جيل الى جيل بالاقتباس والتلقين وغيرها من عوامل الوراثة الاجتماعية. يضاف الى ذلك ان العبارة الاخيرة في القصة شوهت محاسنها الفنية، فانها اخرجت القصة من كونها قطعة فنية كاملة بذاتها الى دعاية صريحة ضد الصهيونية. وهذا ما لا تجيزه اصول الفن القصصي

وقد اجتهد المؤلف في وضع الفاظ جديدة نعرضها من غير ابداء رأي فيها على جهور القراء والادباء. فقد استعمل «الاستضمام» لـ Concentration والوفادة لـ Diplomacy والنُشرة لـ Propoganda والانهياء لـ Genii أو Genios

باب الأخبار العلمية

ما يجب ان نعرفه عن

مؤتمر نزع السلاح بجنيف

جوّ المؤتمر

من مفارقات الحياة ان تحمل الينا البرقيات في آنٍ واحد انباء الحرب في الشرق الاقصى واعمالَ مؤتمر نزع السلاح الملتئم في جنيف. اما بواعث الحرب في الشرق الاقصى فعديدة معقدة ، اشرنا الى طرفٍ منها في المقال المنشور في هذا العدد نقلاً عن الفيلسوف برتراند رسل وسوف نوفي الباقي حقهُ في اعداد تالية

اما مؤتمر جنيف فالبواعث عليهِ بيّنة جلية . لقد اصبح التزاحم في التسلُّح بين الدول عملاً كبير النفقات وينطوي على اخطار تهدّد العمران . فجيوش الامم العاملة الآن تبلغ نحو اربعة ملايين ونصف مليون جندي يضاف اليها نحو مليوني جندي خاضعة لقواد الصين وحكوماتها . والطيارات الحربية التي تملكها الدول العشر الكبيرة ١٢٠٠٠ طيارة او تزيد . والبوارج الحربية اربعة آلاف بارجة مجموع محمولها نحو ٣٠٥٠٠٠٠ طن . ويقدر ما ينفق على الاسلحة الحربية والجيوش المختلفة بثمانمائة مليون جنيه يقابلها ٥٠٠ مليون جنيه

قبيل نشوب الحرب الكبرى

وقد اجتمع في جنيف مندوبو ستين امة ليحاولوا الوصول الى اتفاق على تحديد قوى الجيوش والاساطيل البحرية والجوية. اجتمعوا في ازمة مالية آخذة بخناق العالم ، لا يخفف وقعها الاّ العمل الدولي المشترك . لقد انهار نظام التعويضات — انهياراً وقتيًّا على الاقل — واشتدت سواعد هتلر وانصارهُ في المانيا اشتداداً اقلق فرنسا ، وتطاير شرر الحرب من الشرق الاقصى لوقوع الواقعة بين الصين واليابان

ما أثر كل هذه العوامل في مؤتمر جنيف ؟ هل تحمل الضائقة المالية حكومات الدول المختلفة على الاقبال على الاقتصاد بنقص اسلحتها البرية والبحرية والجوية ، او يحملها اضطراب الاحوال السياسية في اوربا الوسطى والشرق الاقصى على التظاهر والمساومة وهي لا تنوي فعلاً ايَّ نقص او ايَّ تحديد ؟ هل تؤخذ مجازفة اليابان في منشوريا والصين دليلاً على انهُ لا بدَّ من عقد معاهدات جديدة

ضمانة سلامة الامم المتعاقدة ، او تؤخذ تسويغاً للمضي في زيادة التسلح لتحقيق هذا الغرض ؟ هل التسلح ومال التعويض مسألتان مختلفتان ، او هما وجهان لمسألة واحدة ؟

فالمشكلة كما ترى معقدة كلّ التعقيد . ولذلك لا ينتظر ان يأتي المؤتمر بنتائج سريعة تبهر الانظار وتستولي على صفحات الجرائد الاولى

اما المسألة الاساسية التي تدور حولها مباحث المؤتمر فهي مسألة « السلامة » Security اي ضمان سلامة كل امة من الاعتداء عليها . واما المسائل الثانوية — على خطورتها — فمحورها طرق نقص الاسلحة البرية والبحرية والجوية أو تحديدها . والبحث في هذه المسائل لن يجدي نفعاً الاّ اذا اتفقت حكومات الامم الممثلة فيه على المسألة الاولى

فموقف الحكومة الفرنسية يتلخص في ان فرنسا قد نقصت « اسلحتها » الى ادنى حدّ يتفق وما يقتضيهُ الاحتفاظ بسلامتها في حالة اوربا الحاضرة . وهي لا تستطيع ان تمضي في هذا النقص الاّ اذا اشتركت معها الدول الاخرى في حمل تبعات السلام اي في ضمان سلامة الدول المشتركة . وهي اذاً لا تكتفي بنقص نسبيّ في السلاح الدولي . والواقع ان الحكومة الفرنسية ترى ان التحوّل يجب ان يتناول النظام الدوليّ قاطبةً . واذاً فالحلّ الاساسي يجب ان يكون حلاّ سياسيًّا شاملاً لا حلاً فنيًّا ، ضيق النطاق

وقد وقفت فرنسا هذا الموقف من نحو ١٢ سنة فصرّحت ان نقص السلاح لا يستطاع الاّ اذا زادت ضمانات « السلامة » . ولما كان هذا هو المبدأ الذي تجري عليهِ معظم دول اوربا ، فمن الواضح ان مؤتمر جنيف ، لا يستطيع ان ينظر في وسائل نقص السلاح الاّ اذا اتفقت اعضاؤهُ على ان هذا النقص ممكن اولاً . فما صحة مسألة « السلامة » التي يصرّ الفرنسيّون على جعلها اساساً لكل نقص في التسلح ؟ وما الوسائل التي اقترحت لحلها ؟ وما المسائل الثانوية التي سوف يواجهها المؤتمر في اثناء انعقادهِ ؟

مسألة « السلامة »

ترى الحكومة الفرنسية انهُ لا بدَّ من « تنظيم السلام » على اساس راسخ توطئة لاي بحث مجدٍ في نقص السلاح . وقد حاول بعض المشتغلين بالشؤون العامة مراراً « تنظيم السلام » على هذا الاساس في السنوات التي تلت الحرب الكبرى ومعاهدة فرساي . فذكرُها وذكر الاعتراضات التي وجهتها اليها حكومة فرنسا يكفيان لبيان ما تقصده فرنسا « بضمان سلامتها » الذي تجعلهُ اساساً لكل اتفاق على نقص سلاحها

﴿ فرساي ﴾ ان في عهد جمعية الامم ، الذي كتب في مؤتمر الصلح ، ما يضمن مساعدة فرنسا أو غيرها من اعضاء الجمعية في حالة الاعتداء عليها أو تهديد سلامتها . وهذا الضمان منصوص عليهِ في البندين ١١ و ٢٠ من عهد جمعية الامم وخصوصاً في البند

١٦ الذي ينصُّ على ما يأتي : « اذا عمد احد اعضاء الجمعية الى الحرب متجاهلاً عهوده ، اصبح بحكم الطبع كأنهُ اتى عملاً حربيًّا ضدّ بقية اعضائها » . وفي هذه الحالة يقاطعهُ الاعضاء جميعهم ويصبح من حق « مجلس الجمعية » ان يقترح على حكومات الدول المختلفة الوسائل الحربية والبحرية والجوية التي تقدمها كل منها الى قوى الجمعية للمحافظة على عهودها »

على ان هذا لم يرضِ فرنسا . لان حكومتي روسيا والولايات المتحدة الاميركية خارجتان عن نطاق جمعية الامم . ثم ان في هذه البنود موضعاً للتأويل لا يرضى بهِ العقل الفرنسي الدقيق . فقد يختلف اعضاء مجلس الجمعية على تعيين المعتدي ، فيتعذر على الجمعية ان تفعل ما يكفل المحافظة على عهودها . أو قد يتفق اعضاء المجلس ويقدمون مقترحاتهم الى اعضاء الجمعية ، ولكن هذا لا يحتم على الحكومات تنفيذ مقترحاتهم

﴿ وشنطن ﴾ وفي سنة ١٩٢١ انتقل مركز العناية « بالتسلح » و « ضمان السلامة » من اوربا الى وشنطن حيث عقد مؤتمر خاص بتحديد السلاح البحري فاسفر عنه معاهدتين احداها رباعية ابرمتها حكومات الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا واليابان ، تعهدت فيها انها تتفاوض معاً مفاوضةً صريحة شاملة اذا اعتدى على حقوقها في الباسيفيكي معتدٍ . ولكن الفرنسيين يرون ان هذا التعهد مقتصر على ناحية خاصة من سطح الكرة ، وانهُ لا يتعدى حق « المفاوضة الصريحة الشاملة »

﴿ جنيف ﴾ وفي السنة التالية لمؤتمر وشنطن (١٩٢٢) تلقت جمعية الامم من اللورد روبرت سسل اقتراحاً غرضهُ ربط « نزع السلاح » بمسألة « ضمان السلامة » ، وهو يشتمل (اولاً) على عقد معاهدة دفاعية تشترك فيها الدول التي تختار ذلك وفيها تتعهد كل منها بتقديم المعاونة الفعالة اللازمة ، وفقاً لنظام موضوع ، اذا اعتدي على احدها . و (ثانياً) على تعهد لنقص عام للسلاح اما باتفاق عام — وهو المفضل — أو باتفاقات خاصة يصح توسيع نطاقها حتى تضم كل البلدان

هذا الاقتراح لقي من الفرنسيين قبولاً لانهم كما قدمنا يقولون بان « ضمان السلامة » توطئة لا بد منها لنزع السلاح أو نقصه . فايد مندوبو فرنسا في جمعية الامم اقتراح اللورد سسل . ووضعت صور مختلفة لتنفيذ الاقتراح المذكور . ولكنهُ اهمل لمعارضة حكومة العمال الاولى في بريطانيا لهُ

﴿ جنيف ايضاً ﴾ وبعد ما اهمل اقتراح سسل المعروف (بمعاهدة الضمان المتبادل) اشتركت وزارة العمال البريطانية م وزارة هريو الفرنسية في وضع ما يعرف ببروتوكول سنة ١٩٢٤ وهو لا يختلف اختلافاً كبيراً عن اقتراح سسل وانما يعلق شأناً كبيراً « بالتحكيم » لفض الخلافات التي قد تفضي الى اعتداء امة على اخرى وخرق سلامتها .

ولما كان « ضمان السلامة » اساساً في هذا البروتوكول ايضاً ايدتهُ فرنسا ولكن حكومة المحافظين التي تلت حكومة العمال في بريطانيا عارضتهُ فاهمل نصهُ ولم تهمل مبادئهُ

﴿ لوكارنو ﴾ ذلك ان حكومة المحافظين التي رفضت بروتوكول ١٩٢٤ شرعت في سنة ١٩٢٥ تدمج بعض مبادئهِ في معاهدات لوكارنو . وهذه المعاهدات من وجهة النظر الفرنسية ، تتلخص في ان المانيا تعهدت فيها باحترام حدودها الغربية الحالية واتفاق فرنسا والمانيا وبلجيكا على الامتناع عن اعتداء احداها على الاخرى او غزو بلادها وان بريطانيا وايطاليا تضمنان تنفيذ هذا العهد وتساعدان من يكون منها من موقعيهِ ضحية اعتداء لا مسوغ له

﴿ اعتراض الفرنسيين ﴾ وما تنطوي عليه معاهدات لوكارنو هو نفس ما تفهمهُ فرنسا وتريده اذ تطلب « ضمان سلامتها » ولكن معاهدات لوكارنو في نظرها غير كافية ، لان العهود التي قطعتها المانيا لبولونيا باحترام حدودها الشرقية ليست وافية كالعهود التي قطعتها لفرنسا وبلجيكا — ثم ان نطاق هذه المعاهدات ضيق ، لا يتعدى ناحيةً معينة من اوربا

﴿ باريس ﴾ واحدث المحاولات لحل « مسألة ضمان السلامة » يعرف بعهدة كلوغ وبريان وهي التي عقدت في باريس سنة ١٩٢٨ وبموجبها تعهدت خمسون امة « ان تتنازل عن الحرب كاداة من ادوات السياسة القومية » وان تفض بطرق سلمية كل نزاع يثور بينها. ولكن الفرنسيين يرون انها لا تضمن شيئاً ما لامة ذهبت ضحية عهد منكوث ، ولذلك لم نشهد فرنسا — ولا حلفاءها — تسرّح جيوشها وتجرّد حصونها ، اعتماداً على نصوص هذه العهدة

الحلول الممكنة

هذا موقف فرنسا وهو جدير بالعناية ، لما لفرنسا من المكانة الحربية ، ولما لها من المقام في تيار السياسة الاوربية بعد الحرب ، ولما ينتظر ان تناله من التأييد في مؤتمر جنيف من حلفائها في اوربا وهم كثر

وثمة ثلاث طرق للخروج من مأزق اصرار فرنسا على ان « ضمان السلامة يجب ان يتقدم نقص السلاح » . الاول هو التسليم برأي فرنسا والعمل بما يقتضيهِ .(الثاني) اقناع فرنسا بالتخلي عن رأيها الذي ما زالت مصرة عليهِ من سنة ١٩١٨ و(الثالث) الاستقلال عنها واشتراك الامم التي لا تصرُّ على تقديم « السلامة » على نقص سلاحها

(الحلُّ الاول) ان تسليم الولايات المتحدة الاميركية برأي فرنسا ، يقتضي قبول الامة الاميركية جانباً كبيراً من التبعة في المحافظة على السلام العالمي .ولا لبسَ في ان هذا القبول ينطوي على امكان اشتراك الحكومة الاميركية في حرب قريبة او بعيدة ، براً بعهودها وهذا يخرج باميركا عن سياسة العزلة isolation وعدم الاشتباك في شؤون اوربا

السياسية . التي ما زالت جارية عليها الى الآن

وقد تكون فرنسا منتظرة وقوع هذا التحول في سياسة اميركا ولكنها تعلم فيما نظنُّ ان احتمال وقوعهِ بعيد، ولذلك فالمرجح انها تنتظر اقبال انكلترا على الاخذ به وتكتفي بذلك . فقد كانت فرنسا مستعدة ان توقع البروتوكول الذي أُعد سنة ١٩٢٤ من غير ان تنضم اليهِ الولايات المتحدة الاميركية. ولكن مصير البروتوكول كان مصير اقتراح سسل . فان الحكومة البريطانية لم تصرَّ عليهِ — رغم ان حكومة بريطانية سابقة اقترحتهُ — لان الولايات المتحدة الاميركية قابلتهُ بريبة شديدة. وقد تكتفي فرنسا الآن بعناية انكلترا وعدم معارضة اميركا

﴿ الحل الثاني ﴾ ومحوره « نزع السلاح قبل ضمان السلامة » وهو مناقض للرأي الفرنسي ، وقد اخذت بهِ اميركا وانضمت اليها ايطاليا من عهد قريب. فالسنيور غراندي، وزير خارجية ايطاليا ، صرح في اثناء زيارتهِ الى اميركا في خريف السنة الماضية ان « السلامة » فكرة نفسية لا تعالَجُ الاَّ اذا اقنعت امم الارض بقبول مبدأي نزع السلاح والتحكيم. ولو زال امكان حسم اي نزاع دولي بالسلاح والقوة ، لما فكر احد بمسألة « كيف تضمن سلامتي » . فضمان السلامة مشكلة لان تسلُّح الامم جارٍ على غير قاعدة او نظام. وبكلام آخر ، يقول غراندي « اذا شئنا ان نتقدم نحو « تنظيم السلام العالمي » وجب ان ننظر الى سلامة كل امة، كنتيجة لنزع السلاح لا كتوطئة له

وقد يتعذر اقناع الحكومة الفرنسية بسلامة المنطق في هذا الموقف المخالف لرأيها. ولكن ثمة الضائقة المالية العالمية ورغبة الحكومة الفرنسية في الاقتصاد واحجامها عن وقوف موقف المنعزل في السياسة الدولية والامل في ربط مسألة التسلُّح بالمسائل الدولية الاخرى التي تهم فرنسا — كل هذه الاعتبارات قد تقنع فرنسا بالتحول عن موقفها وليس ثمة ما يحول دون عقد اتفاق في مؤتمر جنيف يشمل التسلُّح والتعويضات وديون الحرب والممر البولوني

﴿ الحل الثالث ﴾ ولنفرض انهُ تعذر وجود حل لمشكلة « السلامة » وان فرنسا لم تتحول عن موقفها مصرة على ان ضمان سلامتها يجب ان يتقدم كل نقص في سلاحها — فكيف يخرج المؤتمر من هذا المأزق ؟ واذا تعذر الاتفاق مع فرنسا ، فهل يستطاع الاستقلال عنها في العمل ؟

خطب المستر هوتون الاميركي (سفير اميركا سابقاً في برلين ولندن) من عهد قريب فقال : « يجب الاَّ يتحطم المؤتمر على صخرة الخلاف مع فرنسا . . . فاذا كانت الدول الكبرى او على الاقل اقربها الينا واوثقها صلةً بنا — تتفق على انقاص اسلحتها نقصاً محسوساً فأنا ارجو واتضرع ان تشترك اميركا معها» . وهذا حلٌّ ممكن . ولكننا نراه غير محتمَل ، لانهُ لا يتمُّ الاَّ اذا اقنعت دول اوربا ، التي ينقص سلاحها عن سلاح فرنسا بزيادة هذا الفرق بينها وبين فرنسا ، فيزيد

تفوق فرنسا الحربي عليها . ومن العجيب ان تجد امة تسلم بهذا

طرق تحديد السلاح

واذا فرضنا ان المسألة التي هي محور مباحث المؤتمر قد حلّت باحدى الطرق المذكورة ، او بطريقة اخرى، وان الامم اتفقت على نقص سلاحها فيجب حينئذٍ ان ينظر المؤتمر في طرق النقص او التحديد . وهذه الناحية من عمل المؤتمر تدور حول ثلاثة امور او اربعة

١ — ﴿ الجيش العامل والاحتياطي ﴾ اذا اجلنا النظر في دول اوربا وجدنا ان المانيا والنمسا والمجر وبلغاريا — وهي الدول التي هزمت في الحرب الكبرى — الغت التجنيد الاجباري ، بمقتضى معاهدات الصلح . اما الدول الاخرى — ومنها الدول الجديدة التي انشئت بمقتضى هذه المعاهدات — فقدجرت على خطة التجنيد الاجباري وانشأت كل منها احتياطيًا مدربًا . ولما دارت المناقشات في اجتماعات اللجنة التمهيدية التي اعدت شؤون المؤتمر اختلف الاعضاء في هل يحسب هذا الاحتياطي المدرّب من الجيش العامل لدى النظرفي تحديد السلاح او لا يحسب ؟ فقال مندوبو اميركا وبريطانيا والمانيا — وهي دول لا احتياطي مدرب عندها — انهُ يحسب . اما مندوبو فرنسا وايطاليا وبولونيا فقالوا «لا» وقد فاز هؤلاء ومشروع المعاهدة الذي اعدة لنظر المؤتمر لا ينص على اي طريقة لتحديد الاحتياطي المدرب وانما المشروع غير نهائي وقد تفتح المسألة من جديد في جلسات المؤتمر ولجانهِ

٢ — ﴿ محمول البوارج ﴾ يظن البعض ان مؤتمر جنيف سوف ينظر في الاسلحة البرية فقط لان الاسلحة البحرية قد حددت بموجب معاهدة وشنطن سنة ١٩٢٢ ومعاهدة لندن البحرية سنة ١٩٣٠ ولكن هذا خطأ فمعاهدة وشنطن حددت البوارج الكبيرة وهي تشمل بريطانيا واميركا واليابان وفرنسا وايطاليا ومعاهدة لندن حددت السفن الصغيرة Auxiliary وهي تشمل بريطانيا وأميركا واليابان فقط . ولكن ثمة مزاحمة شديدة بين الدول في بناء الطرادات والغواصات . ثم ان دول اوربا القوية بجيوشها الضعيفة بأساطيلها تميل الى مساومة الدول البحرية الكبيرة على نقص جيوشها لقاء نقص آخر في السلاح البحري . وهذا كلهُ مما سوف يعرض على مؤتمر جنيف

والاختلاف في مسألة تحديد السلاح البحري واقع بين طائفتين من الدول: الاولى تقول بتحديد مجموع محمول الاسطول ، ثم تكل دولة الحق في استعمال هذا المجموع كما تشاء فتبني السفن التي توافقها — غواصات او طرادات اوغيرذلك — من دون ان يتعدى مجموع محمولها الحد المعين . والطائفة الاخرى تقول بوجوب تحديد محمول كل طائفة من السفن الحربية . فمحمول الغواصات لدولة كذا يجب الاّ يزيد عن كذا وهلمّ جرًّا . ففي

الطائفة الاولى نرى ايطاليا وفرنسا وفي الثانية بريطانيا والولايات المتحدة

والاقتراح الذي اتفقت اللجنة التمهيدية على تقديمهِ الى المؤتمر يجمع بين مزايا الرأيين فثمة تحديدٌ لمجموع محمول السفن . وتحديد آخر مرن لكل طائفة منها . والتحديد المرن يقصد بهِ إذا حدِّد لدولة ما ١٠٠ الف طن لطائفة الطرادات حقَّ لها ان تجعل محمول طراداتها ٨٠ الفاً وتستعمل الـ ٢٠ الفاً الباقية في بناء غواصات مثلاً . وهذا ايضاً قرار غير نهائي

٣ — ﴿ تحديد الميزانية الحربية ﴾ ثم هناك مسألة تحديد المعدات الحربية كالمدافع والبندقيات والدبَّابات والذخيرة . وهنا ايضاً نجد اختلافاً بين الدول : فالطائفة الاولى — بزعامة فرنسا — تحبّذ هذا التحديد عن طريق تحديد الاموال المرصودة لهذه المعدات في ميزانية الدولة وحجتها في ذلك ان هذا اقتراح عملي . فقد تقصر الحكومات في تقديم تقارير وافية عمَّا تملكهُ من المعدات الحربية ولكنها لا تستطيع ان تخفي الاموال المرصودة لها في ميزانيتها في البلدان البرلمانية

اما الطائفة الاخرى — بزعامة الولايات المتحدة — فتعارض في ذلك لان مقدرة المال على الشراء تختلف باختلاف البلدان

وقد فضلت اللجنة التمهيدية طريقة « تحديد الميزانية » على ان تكون المقابلة بين ما تنفقهُ الدولة الواحدة في سنوات متعاقبة، بدلاً من ان تكون المقابلة بين دولتين تختلف فيهما مقدرة المال على الشراء . ولا يعلم هل تسلّم الولايات المتحدة الاميركية بهذا التعديل او لا

هذه هي اهم المسائل التي تدور في المؤتمر ، اجملناها في هذا العدد من المقتطف تلخيصاً عن مقالات في « نيويورك تيمز » لتكون معواناً لقرائهِ على فهم الانباء الواردة من مؤتمر نزع السلاح

حرارة الارض والصحاري

في باطن الارض مصدر للحرارة لاينفد ، ولابدَّ من ان نتمكن يوماً ما من استعمال الحرارة التي تحدث ينابيع المياه الساخنة ، بحفر آبار حتى نصل الى اعماق نجد عندها بخاراً ذا ضغط كافٍ لاستعمالهِ في الآلات

ومتى ارتفع سعر الفحم ارتفاعاً فاحشاً تخترع آلات شمسية تجعل البلدان الصحراوية القاحلة مصدراً من مصادر الثروة العالمية . وحيث توجد منخفضات كبيرة على مقربة من البحر، كما تجد في الصحراء الكبرى، ومنخفض البحر الميت يسهل حفر ترع لجر مياه البحر اليها واستعمال سقوطها في توليد الكهربائية . والتبخر الشديد في بلاد صافية الاديم من سطح البحيرة التي تكوَّن في المنخفض تحفظ مقدار هبوط الماء من الترعة اليها كافياً لتوليد القوة اللازمة . وينتج عن ذلك استخراج الملح وغيره من المواد والعناصر التي في ماء البحر مثل اليود والبروم والپوتاسيوم . وهذا هو الاساس الذي يقوم عليهِ مشروع منخفض القطارة الذي وضعهُ حسين بك سري

باب معرض يفتح بضوء كوكب

السماك الرامح ، نجم اصفر من القدر الاول في كوكبة العوّاء وهي من الصور الشمالية

وقد رأى علماء الكهربائية في الولايات المتحدة تسخير شعاع من نوره لفتح باب المعرض الاميركي العالمي المزمع اقامته في مدينة شيكاغو سنة ١٩٣٣ القادمة . والمعروف عند علماء الفلك ان السماك الرامح يبعد عنا مسافة تقدر باحدى واربعين سنة نورية وقد جرب تلسكوب مرصد يركيز الكاسر الذي قطر عدسته اربعون بوصة بولاية وسكنسن لرصد ذلك الكوكب فجعلوا في قاعدة المرقب بطارية كهرنورية حتى اذا مر طيف الكوكب امام عدسة المرقب المنتهي بالبطارية آنفة الذكر التقطت نوره حالاً فيولد فيها تياراً كهربائياً يقوى ثم ينقل بالاسلاك الارضية الى مدينة شيكاغو حيث يستخدم لفتح باب المعرض واضاءة المصابيح الكهربائية التي فيه

الاشعة الكونية

جمع الاستاذ كمطن الاميركي استاذ الطبيعة في جامعة شيكاغو وأحد نائلي جائزة نوبل الطبيعية المال اللازم لرحلة علمية عالمية الغرض منها قياس قوة الاشعة الكونية في احوال مختلفة من الارتفاع والهبوط . والحر والبرد والليل والنهار ، لعلّهُ يستطيع الوصول الى حقائق تمكن العلماء من معرفة طبيعتها : هل هي امواج كالضوء او ذرات دقيقة من قبيل الالكترونات وهل هي نتيجة لتكوّن العناصر أو لانحلال المادة في رحاب الفضاء

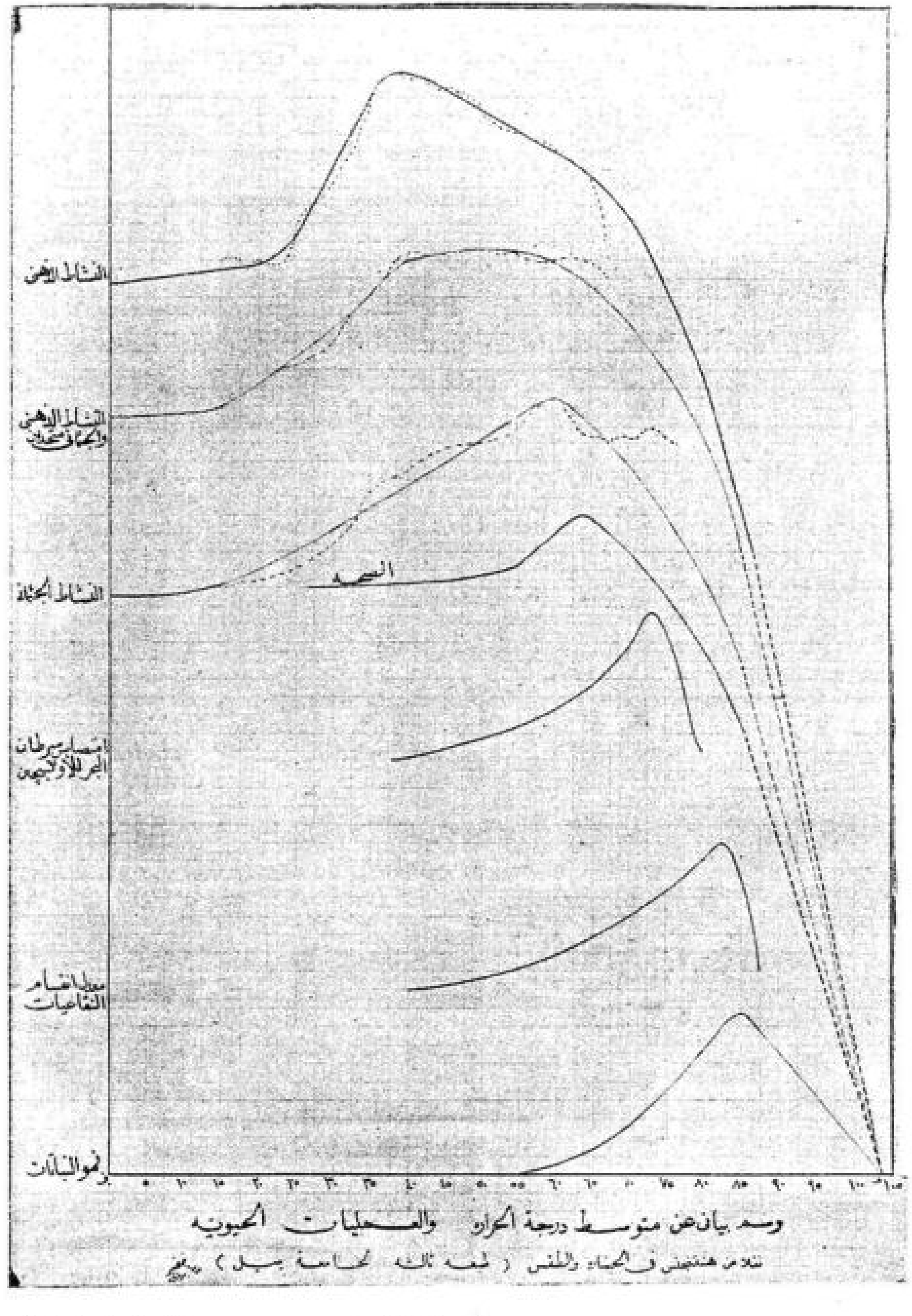
سياسة التربية والتعلم

(تابع المنشور في ص ٣١٧)

بقي ان نعرف من هو المتعلم . ولمن توضع له سياسة التعليم ؟ جوابنا على هذا — المتعلم هو التلميذ ما دام في المدرسة — اما جوابهم فالمتعلم هو الذي يتمتع بنصيبه في التعليم هو كل فرد من افراد الامة صبيها وشيخها . كبيرها وصغيرها . غنيها وفقيرها . كل من هؤلاء ينال نصيبهُ من التعليم بمختلف الوسائل التي تشرف عليها الحكومات أو تساعد على نشرها — فهناك لجان لالقاء المحاضرات للعمال تحت اشراف معهد الثقافة الدولية التابع لعصبة الامم . وهناك المعارض الدولية لعرض اعمال العمال الفنية فتمنحهم الجوائز المالية الثمينة وتشجعهم بكل وسائل التشجيع . كذلك طلبة الجامعات ينتشرون بين طبقات الشعب في المدن والقرى فيرشدونهم الى طرق الحياة الصحيحة الصحية . مستعينين بالسينما والصور والمكتبات المتنقلة والكتب والنشرات . كذلك في الحفلات العامة يعلمونهم الغناء والنظام والآداب العامة ودروس الوطنية ثم هناك الدراسة الليلية الجامعة المنظمة التي تقوم بها جمعية تعليم العمال والدروس التي يلقيها العلماء للناس في بيوتهم بالراديو ببرامج موضوعة بمنتهى النظام والاحكام فمن درس في التدبير المنزلي من ١٠—١١ صباحاً الى درس في اللغات من ٦—٧ مساء وهكذا — كل هذا غير الكتب والنشرات التي تقوم الحكومات بطبعها ونشرها بين الناس بلا مقابل . وتذاع خطب الامراء والساسة والمناظرات والمحاضرات العامة بالراديو ومكبرات الصوت في الاسواق والطرقات

الرقيات درجة الحرارة بالقطر المصرى

٣٢ ٣١ ٣٠ ٢٩ ٢٨ ٢٧ ٢٦ ٢٥ ٢٤ ٢٣ ٢٢ ٢١ ٢٠ ١٩ ١٨ ١٧ ١٦ ١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١



رسم بياني عن متوسط درجة الحرارة والعمليات الحيوية

نقلا عن هنتنجتن في الحضارة والطقس (طبعة ثالثة لجامعة ييل)

رسم بياني رقم واحد

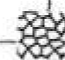
امام الصفحة ٢٦٣

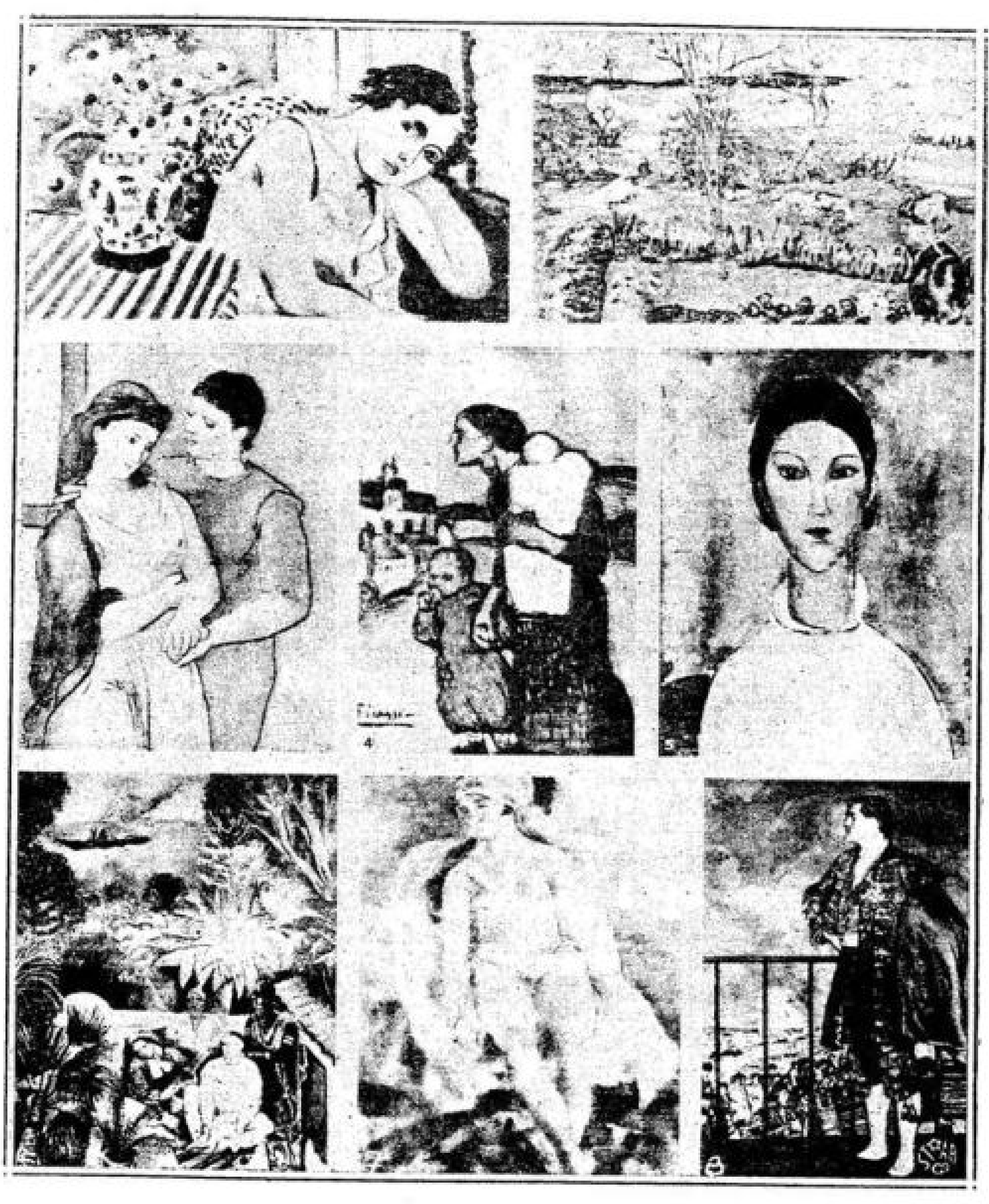
خريطة عالمية تبين درجتي النشاط والحرارة





الاستاذ توماس هنت مورغن
Thomas Hunt Morgan





امثلة من التصوير الحديث

المغفور لهما

احمد تيمور باشا — محمد تيمور

مقتطف مارس ١٩٣٢

امام صفحة ٣٤٣

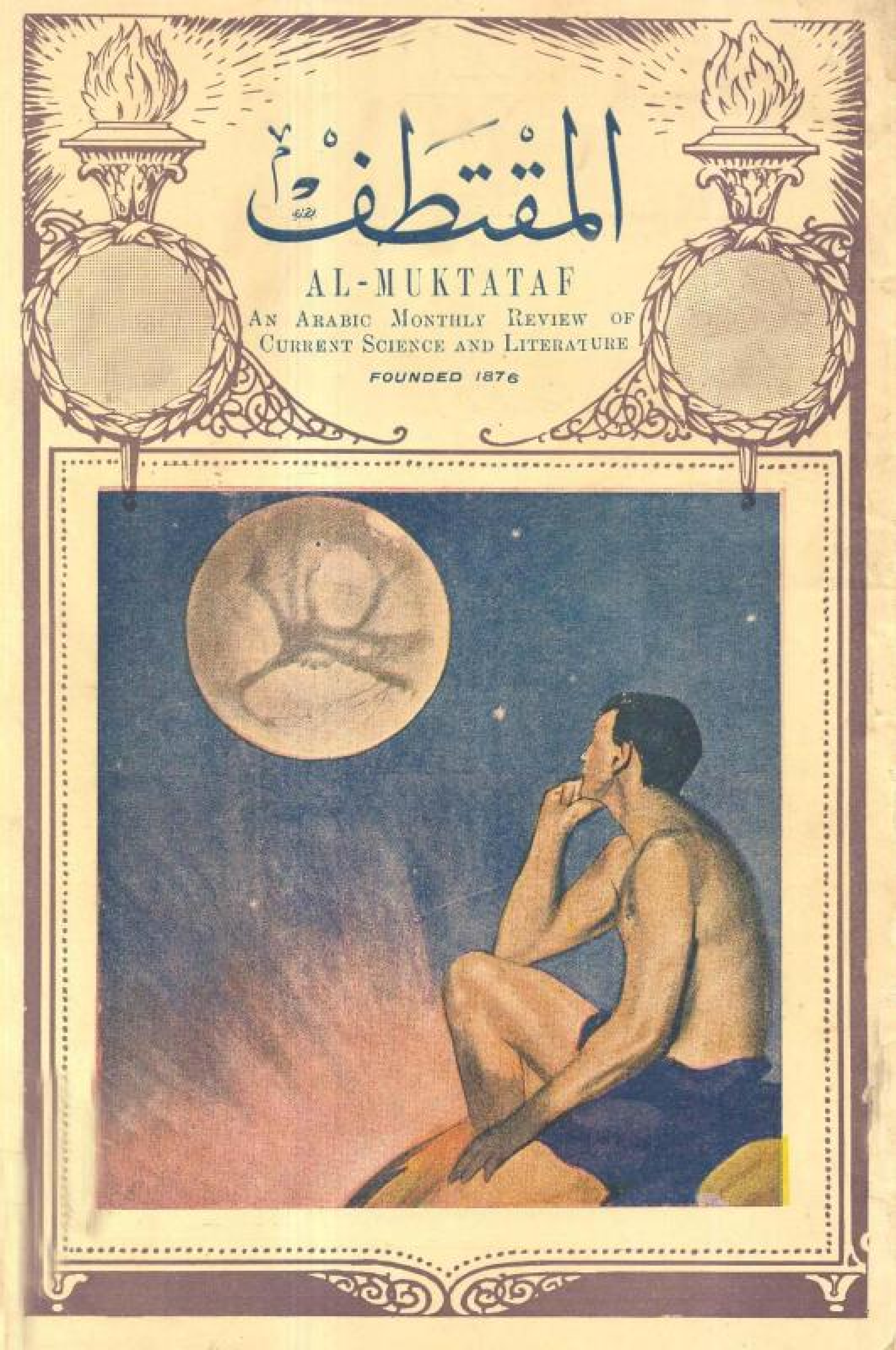


محمود تيمور بك



اسماعيل تيمور بك

الجزء الثالث من المجلد الثمانين


المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876



جوته

GOETHE

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٢ — ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٥٠

من الخلايا الحية الى السدم اللولبية

العلماء واسرار الكون

حديث لطائفة من كبار العلماء عن مشكلات العلم الحديث

ليس ثمة ناحيةٌ من نواحي الكون والحياة ، لا تجدُ فيها أثراً للعلماء او للبحث العلمي . فعلماء الفلك والطبيعة يرودون رحابَ الفضاء ويقيسون سرعة العوالم الجزرية التي تبعد عنا عشرات الالوف من سني الضوء وتبتعد عنا بسرعة تفوق تصوُّر البشر — نحو ١٢٠٠٠ ميل في الثانية — وينفذون من ناحية اخرى الى قلب الذرَّة فيعدُّون الآلات الكهربائية الضخمة لتحطيم النواة ومعرفة اسرارها . وعلماء الاحياء يستطلعون سرَّ الحياة في بناء البروتوبلازم وخفايا التطوُّر والنشوء وأثر مفرزات الغدد الصمَّاء في افعال الجسم الحيوية . وعلماء الكيمياء يرودون الشقة الكائنة بين الكيمياء العضوية والبيولوجيا فيرون في المواد الغروية صلة ، تستحقُّ البحث ، بين الحيّ وغير الحيّ . والمشتغلون بالعلوم الارضية همُّهم فهمُ تاريخ الارض الجيولوجي على وجهه الصحيح ومعرفة اسرار الزلازل وخفايا التقلبات الجوية . وعلماء السيكولوجيا يحاولون النفوذ الى دخائل العقل والنفس والغريزة والسلوك لاقامتها على اساس متسق معقول . بل ان العلماء لم يكتفوا بذلك فتعدوا حدودهم الى ميدان الفلسفة فأدنغتن وجينز وهويتهد واينشتين يجمعون في اشخاصهم بين العلم والفلسفة . فما هي اعظم المسائل التي يعنى العلماء بحلها الآن في مختلف هذه النواحي ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تصحّ

ان تكون فصلاً في «اغراض العلم الحديث ووسائلهِ» ، وتقتضي زيارة طائفة كبيرة من العلماء في معاملهم لاستطلاع آرائهم والاطلاع على مباحثهم . وقد ندبت جريدة نيويورك تيمز احد كتّابها العلميين لهذه المهمة فكتب مقالة نلخصها فيما يلي : —

قال الدكتور هوِتني مدير معامل البحث في الشركة الكهربائية العامة : (تذكر ان الباحثين — او جمهور الناس — قلما يدركون قيمة مسألة علمية تحت البحث . فمباحث فاراداي في الكهربائية المغنطيسية كانت اعظم المباحث العلمية في عصرهِ ومن اعظمها في كل العصور . ولكنها لم تسترع العناية ، ولا فاراداي نفسهُ ادرك قيمة بحثهِ . فالعناية كانت حينئذٍ متجهة الى المواصلات المائية وشعار العصر كان استنباط الوسائل لاستعمال اشرعة اكبر واقوى مما كان مستعملاً حينئذٍ ، وشق الترع لوصل المدن التي في داخلية البلدان بالبحر . فالمشكلات التي كانت تشغلهم هي مشكلات المواصلات المائية—وهذا صرف اذهانهم عن فاراداي ومباحثهِ الخطيرة . وعلى مثال ذلك قد نقول اليوم ان مسائل «النسبية» و«الكونتم» و«الميكانيكيات الموجية» هي اخطر المشكلات التي يعنى بها علم الطبيعة . ولكن قد يثبت في المستقبل ان خطرها « نسبيٌّ » فقط ، وان ثمة مسائل لا نلتفت اليها تفوقها شأناً . «من ثمارهم تعرفونهم»)

على انهُ لا بدَّ لنا من الاعتماد على حكم العلماء المعاصرين في معرفة قيمة المباحث العلمية الجارية الآن ، راجين ان يكون اتساع خبرتهم ، وطول عهد الناس بقيمة المباحث العلمية ، وكثرة الحقائق المقابلة مما يمهد لهم سبيل الوصول الى حكم صائب

علوم الاحياء

اخفى اسرار العلوم من الوجهة الانسانية ، سرُّ اصل الحياة وطبيعتها . هل البروتوبلازم (المادة الحية) ترتيب خاص من الكهارب والبروتونات ، والذرات والدقائق ؟ او هل تجد فيهِ شعلةً لا ارتباط بينها وبين الالكترونات ، مستقلة عن حركتها ، قائمة من وراء مقاييس الكيمياء والطبيعة ، شعلةً سمّها مبدأ الحياة او قوة الحياة ؟

ان هذه المسألة من صميم المشكلات التي تعالجها علوم الاحياء . فاذا عرفنا كيف تنشأ الخلايا وكيف تحيا ، فقد نتمكن من السيطرة على الخلايا الناشزة التي تحدث السرطان . واذا نفذنا الى سرّ النمو الخلوي فقد نكشف عن خفايا اعادة الشباب ، وتأخير الشيخوخة والتحكم بالوفاة . واذا عرفنا كيف تتوارث الخلايا الصفات المتباينة فقد نتمكن من استنباط الوسائل لرفع مستوى المواليد صحة وعقلاً ، ووضع اساس لتحسين النوع البشري

وبعض الباحثين مكبّون على جلو ما يتعلق بالمادة الجامدة ومجاراة تصرفها لتصرف المادة الحية . وقد اسفرت هذه المباحث عن حقائق تبعث على الدهشة . فقد صنعت « خلايا

صناعية» في بعض معامل البحث ، لها بعض صفات الخلايا الحية . فهي تتناسل انشطاراً وتتغذى امتصاصاً وتتصرف اذا سمّمت او اثيرت بمثير ما ، تصرّف الخلايا الحية والحيوانات الدنيا (البروتوزوى) ولكن لم يدّعِ احدٌ من هؤلاء الباحثين انهُ خلق الحياة في المعمل . وجلُّ ما يدعونهُ يبدو في تصريح الدكتور د . ت . مكدوغل احد اعضاء معهد كارنجي في قولهِ : انها تبين الطريق الذي يجب ان نسلكهُ لفهم طبيعة المادة الحية فهماً أوفى

اما المذاهب العلمية لتعليل الحياة تعليلاً طبيعيًّا فاهمها مذهبان . الاول يرى الحياة ظاهرة كهربائية او ظاهرة تصحبها افعال كهربائية . فبعض اصحاب هذا المذهب تتبعوا الجسم بمقاييسهم يقيسون قوتهُ الكهربائية ومقاومتهُ للتيار الكهربائي من لدن تدرك الوفاة الجسم الى ان يعفو اثر هذه الظاهرات الكهربائية فيهِ . وغيرهم عني بالخلية الحية فقاس قوتها الكهربائية وخرج من بحثهِ بان كل خلية انما هي بطرية كهربائية صغيرة . وغيرهم وجد ارتباطاً بين الكهربائية والنمو فالخلية تنمو عادة في جهة التيار الكهربائي الموجب الذي تولدهُ هي ، فلما صوّب اليها الباحث تياراً كهربائيًّا قويًّا متجهاً في جهة مقابلة لجهة التيار الذاتي الدقيق اتجهَ نموُّ الخلية اليها . وما زالت هذه المباحث في كهربائية الخلية موصولة الحلقات

اما المذهب الآخر فيرى اصحابهُ ان التوازن الحيوي الكيماوي في الجسم لا يحفظ الاَّ بواسطة تلك السوائل الخفية التي تفرزها الغدد الصماء وتعرف بالهرمونات . فالمظنون انها الوسائل المستعملة لتمكين الاعضاء في الجسم الواحد من المشاركة والاتساق وانها تسيطر على حالات النمو الشاذة كالضخامة والقزامة والسمنة والغواتر . ثم يقال ان لها اثراً في بعض الصفات العقلية ، فالبلادة أثر من آثارها وشدة الاحساس وتوتر الاعصاب اثر آخر . وقد صرّح احد العلماء مؤخراً امام اكادمية العلوم الاميركية بما يؤيد هذا القول الاخير ، فذكر انهُ وجد ان فقد عنصر المنغنيس من طعام الجرذان يتبعهُ تحوُّل في تصرُّف الوالدات من الجرذان . فانها لا تبني اوجاراً ولا تعنى بصغارها ، وتنصرف عن ارضاعها ، فتموت الصغار اما من هذا الاهمال او من فقد المنغنيس في جسم الام . ثم ثبت ان الهرمونات التي تفرزها الغدة النخمية لها اثر في الافعال العقلية ، وانهُ لا مندوحة عن المنغنيس في هذه الغدة لكي تفرز هرموناتها — افلا يمكن ان يؤخذ هذا على انهُ اساس او تعليل كيمائي للخلق الانساني ؟

وازاء هذين المذهبين اللذين يحاول اصحابهما تعليل الحياة تعليلاً ميكانيكيًّا نرى مدرسة «حيوية» Vitalist من زعمائها الجنرال سمطس رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني في سنة ١٩٣١ فانهُ في خطبة الرآسة التي خطبها حينئذٍ وصف هذا المذهب الكلي Holism بقولهِ «ليست الحياة وحدة مادية او غير مادية ، بل هي نوع من الانتظام . فاذا اختل هذا الانتظام في كائن ما لم يبقَ لدينا قطع حية بل كائن ميت » . وشبه ذلك بالكونتم وهو وحدة الطاقة التي قال بها العلامة الالماني

بلانك ، فانهُ يتعذر عليك ان تجد نصف كونتم او ثلث كونتم . ثم ان دقيقة الماء مثال بسيط على هذا الانتظام . فانك اذا حللت جزيء الماء الى مقوماتهِ لم تحصل على دقيقتين من الماء كل منها نصف جزيء وانما تحصل على غازين هما الاكسجين والايدروجين

ولما سألت الدكتور فرانك للي (Lillie) مدير المعمل البيولوجي البحري وعميد قسم علوم الاحياء بجامعة شيكاغو عن رأيهِ في مشكلات هذه العلوم أبان لي ان هذه العلوم متجهة الآن اتجاهين رئيسيين . فثمة اولاً بيولوجيا الفرد وتشتمل على علم الاجنة ، وعلم وظائف الاعضاء، وغيرهما من المباحث التي ترتبط بالفرد وحالهِ كالعلوم التي يقوم عليها الطب والعلوم التي تستند اليها الزراعة. وثمة ثانياً بيولوجيا السلالة البشرية وهي تنصرف الى الشعوب والسيطرة على الاتجاهات التاريخية، مثل الوراثة والتناسل من الوجهة العامة . فالمسألة التي لها المقام الاول عند طائفة كبيرة من علماء الاحياء هي التوفيق بين الاتجاهين. فالبيولوجيا الفردية الآن لها المقام الاول في المعاهد ومعظم ما ينفق من الاموال لتوسيع نطاق البيولوجيا انما ينفق في هذه الناحية الخاصة لان من غارها تقدم الطب وارتقاء الزراعة . ولكن اذا نظرنا الى المسألة من ناحيتها القومية والدولية، وجدنا ان بيولوجيا السلالة، لا تقل مقاماً عنها ويجب ان يوقف عليها من الاموال ما يتفق ومكانتها

العلوم الارضية

ان بناء الارض وحركتها موضوع العلوم الارضية . فاذا عرفنا ممَّ بنيت الارض في داخلها وخارجها ومتى تكونت سهل علينا حل كثير من غوامض الجغرافيا والجيولوجيا والظواهر الجوية والاوقيانوغرافيا والمساحة الجيولوجية واستنباط المعادن بالطرق الجيوفيزيكية وغيرها من المسائل العلمية المجردة والاقتصادية الخطيرة

ان هذه المسائل لا تحصى . فما الاصل في منخفضات سطح الارض ومرتفعاتهِ ، وما سبب تجعُّد سلاسل الجبال ؟ هل القارات طافية سابحة — كركام الجليد في البحار القطبية — على سطح محيط من الصخور الثقيلة المائعة تحت القشرة الارضية ؟ هل كانت قارة اميركا الشمالية والجنوبية متصلتين بقارتي اوربا وافريقيا ؟ وكيف نشأ المحيط الاطلنطي ؟ هل احوال الجوّ ظواهر ارضية بحتة أو هي تتأثر بتقلب الافعال الكونية ؟ ما مصدر المغناطيسية الارضية ، ولماذا تختلف اختلافاً لا ضابط له ؟ وما هو الشفق القطبي والضوء البرجي ؟ وما اسباب البراكين والزلازل ؟

اذا استطعنا ان نعرف اسباب الزلازل الحقيقية قال الدكتور وليم بوي Bowie — وهو الجيودسي [١] الاول في مصلحة المساحة الساحلية والجيودسية بالولايات المتحدة — هانت علينا اكثر المسائل الجيولوجية الاخرى

فملاوة على الارصاد التي تدونها المحطات السزمية [٢] نجد العلماء مكبين على البحث

---

(١) Geodesy علم يتناول شكل سطح الارض ومساحة بعض بقاعه (٢) السزمية Seismological

في انتقال الاهتزازات الارضية في الصخور باحداث اهتزازات مصطنعة بتفجير الديناميت في مكان عرف بناؤه الجيولوجي ثم درس انتقال الاهتزازات في الجهات المختلفة . وغيرهم معنيٌّ بدرس « التحوُّل الرَّدي » كما يبدو في الصخور العميقة التي تظهر على أثر تفتت الطبقات التي تغطيها . وغيرهم منصرف الى البحث في كتل الصخور النارية — التي من اصل لابي — المدفونة في الاعماق وكانت المباحث السابقة فيها قد انحصرت في ما وجد منها عند سطح الارض . ويأمل علماء الجيولوجيا ان تسفر هذه المباحث عن توسيع نطاق معرفتهم ببناء قشرة الارض وما ينتابها من الحركات . وفي فبراير الماضي قامت البعثة الجيولوجية الدولية الى جزائر الهند الغربية — وهي بعثة اعدتها جامعة برنستن الاميركية وأيدتها وزارة البحرية الاميركية ومصلحة المساحة الجيولوجية الاميركية والجمعية الملكية بلندن . ومن معدات هذه البعثة غواصة جهّزت تجهيزاً خاصّاً لمسح بقعة من قعر البحر حوالي تلك الجزائر مساحتها ٥٠٠٠ ميل مربع واعداد خريطة لها . ثم فيها آلات خاصة كالتي تستعمل في تقدير وزن الارض لتقدير وزن الجزائر المختلفة . ومما سوف تعنى به هذه البعثة حفر آبار عميقة في احدى جزائر بهاما لمعرفة بنائها الجيولوجي

وفي سنة ١٩٣٢ كذلك يحتفل « بالسنة القطبية الدولية » فتنشأ ٤٣ محطة في المنطقة القطبية الشمالية وخمس محطات في المنطقة القطبية الجنوبية عدا محطة دائمة في جزائر اوركني الجنوبية . ثم هنالك ٢٦ محطة اخرى يشترك مديروها والمشتغلون فيها برصد تقلب الرياح واختلاف درجات الحرارة ، والمغنطيسية الارضية ، والشفق القطبي ، وارتفاع طبقة هيفيسيدكنلي[١] ، وتكوّن الجليد والصقيع وغيرها من مقوّمات الجو الارضي

الكيمياء

قال الاستاذ تريت جنصن احد علماء جامعة يابل « لست تجد اليوم حدًّا فاصلاً بين الكيمياء والطبيعة » . وقال الدكتور سدجوك الاستاذ بجامعة اكسفرد : « ان كان الحد الفاصل بين الرياضة والطبيعة قد اصبح غامضاً ، فالحد الفاصل بين الطبيعة والكيمياء قد زال . وكلا العلمين يُعنى الآن بدرس مسائل واحدة » ولكي ادل على نوع هذه المسائل التي تعنى الكيمياء بدرسها اسوة بعلم الطبيعة اذكر الموضوعات الكيميائية التي هي رهن البحث الآن في معمل من اشهر معامل البحث الحديث : — الغرويات ، الكيمياء الكهربائية ، فعل الضوء الكيميائي ، امتصاص الضوء — الاشعة التي ترى منهُ والاشعة التي فوق البنفسجي وهي لا ترى — واستعمال اشعة اكس في معرفة بناء البلورات ، والمواد التي

(١) طبقة هيفيسيدكنلي هي طبقة فوق سطح الارض من الهواء المكهرب تفعل كما كس للامواج اللاسلكية فتمنعها عن الانطلاق في رحاب الفضاء

تسرع الاستعمال الكيمائية من دون ان تنفد فيها [١] والاثر الكيمائي للانبعاثات الكهربائية في الغازات ، وامتصاص الاشعة التي تحت الاحمر وعلاقته ببناء الجزيئات وتشتت الضوء في السوائل وغيرها . ويندر ان تجد مبحثاً من هذه المباحث الكيمائية مهملاً عند العلماء الذين يبحثون في معامل البحث الطبيعي

ثم ان الفاصل بين الكيمياء العضوية وعلوم الاحياء اصبح رقيقاً و لكنهُ يزول في الكيمياء الحيوية Biochemisty ففي معامل البحث التابعة للشركة الكهربائية العامة حيث يشترك علماء الطبيعة وعلماء الكيمياء في استكشاف مجاهل الكهربائية ، لقيت عالماً يجرب تجاربهُ باطلاق الاشعة اللاسلكية القصيرة على ذباب الفاكهة والصراصير لمعرفة اثر هذه الامواج في الاحياء . وفي معمل البحث البيولوجي بجامعة تكساس يقيم الدكتور مُلر الذي اثبت ان اشعة اكس تحدث تحولاً فجائياً mutation في ذباب الفاكهة وقد اعدُّوا لذلك مصباحاً قوياً لتوليد اشعة اكس واستعمالها في سبيل هذا البحث . ورغم ما نشهد من الاشتراك بين علماء الطبيعة وعلماء الكيمياء في معالجة موضوعات واحدة نستطيع ان نتبين ثلاث مباحث رئيسية يغلب فيها الاتجاه الكيمائيّ البحت على الاتجاه الطبيعي البحت وهي فيما يلي :

١ — المادة في الحالة الغروية . فحوالي عام ١٨٦٠ جرّب جراهَم الانكليزي تجارب كثيرة الغَرضُ منها درس انتشار المواد المذابة فثبت لهُ ان دقائق الاملاح والمركّبات المذابة تنتشر في السائل اي تنتقل من مكان الى آخر بسرعات متفاوتة . ثم ان بعض هذه المواد في استطاعتها ان تنفذ من خلال مسام الرق والاغشية الحيوانية ، وبعضها لا يستطيع ذلك رغم كونهِ مذاباً في محلول رائق شفاف . فاطلق على الاولى اسم بلوريات Crystalloids لانهُ وجد معظمها من المواد القابلة للتبلور مثل السكر والملح واطلق على الثانية اسم غرويات Colloid- وهي مشتقة من الكلمة اليونانية Kolla ومعناها غراء لانهُ وجد اغلبها من المواد الغروية كالغراء والنشاء والجلاتين وجلها ينتفخ اذا بُلَّ بالماء ولا تظهر عليهِ علامة من علامات التبلور . فهذا الفرع من الكيمياء اصبح ذا شأن عظيم في الصناعة التركيبية [٢] . ثم ان له شأناً خطيراً جداً في معرفة طبيعة المادة الحية اذ وُجد ان المادة الحياة مركبة من مواد غروية ومستحلبات . فالاحياء من الاميبا الى الانسان لا تخرج عن كونها مجموعة من المواد الغروية وخاضعة للكيمياء الغروية

٢ — الوسيط الكيمائي Catalyst لبعض المواد اثر في الافعال الكيمائية كاثر الوسيط بين متخاصمين. فهي تمهد السبيل لاتحاد عنصر بآخر او مادة بأخرى او هي تسرع هذا الفعل وهي مع ذلك لا تدخل في الفعل ذاتهِ ، اي لا تتحد بالمواد المشتركة فيهِ . وتراها بعد تمام الفعل الكيماوي هي هي لم يصبها تغيرٌ قط . ولا تزال طبيعة هذه المواد الكيمائية

(١) تعرف هذه المواد بالانكليزية باسم Catalyst (٢) راجع مقالة الغرويات في مقتطف دسمبر ١٩٣٠ صفحة ٥٠٠

الغريبة غامضة . ولما كان علماء الاحياء والكيمياء الحيوية قد اخذوا يظنون ان الهرمونات (مفرزات الغدد الصماء) والفيتامينات هي في افعال الجسم الحيوية «كالكاتالست» في الافعال الكيمائية ، فالنفوذ الى سرّ هذه المواد يصبح ذا شأن كبير الخطر

٣ — فهم التفاعل الكيمائي من وجهته الميكانيكية . كيف تتوازن السوائل ، وما يحدث للجزيئات في التغيرات الكيمائية ، وما حقيقة الالفة الكيمائية ، وكيف تفعل فعلها — ان هذه المسائل القديمة التي لم تفهم على حقيقتها بعد ، تنتظر من يطبق نظرية « الكونتم » والميكانيكيات الموجية على جزيئات المادة لعلهُ يمكننا من فهم ما خفي من امرها

الطبيعة

بين المسائل التي تشغل اذهان علماء الطبيعة ترى في المقام الاول استنباط وسائل لتوليد قوى كهربائية كبيرة (اي ذات ضغط عال جدًّا يسمو الى نحو ١٠٠ مليون ڤولط واعظم ما ولد حتى الآن مليونا ڤولط) واستعمالها . ثم تحديد طبيعة القوى التي تربط بين الذرات في الجزيئات والبلورات . فسألت الدكتور كارل كمطن رئيس معهد مستشوستس الهندسي الفني عن رأيه في أعظم المشروعات العلمية التي اعدّها علماء الطبيعة لسنة ١٩٣٢ فقال: توليد القوة الكهربائية ذات الضغط العالي لانها تجهزنا بوسيلة تمكننا من معالجة مسألتين من اعوص مسائل الطبيعة الحديثة وهما — ما هي الاشعة الكونية ؟ وكيف نستطيع اطلاق طاقة الذرّة ؟

فقد اقترحت آراء مختلفة لتفسير سرّ الاشعة الكونية ولكن الحقائق اللازمة لبناء الآراء الصحيحة قليلة . ثم ان بين الاشعة الكونية التي تأتينا من رحاب الفضاء والاشعة التي نستطيع توليدها في المعمل الطبيعي (كاشعة غما) هوة بعيدة . فالاشعة الكونية اقصر امواجاً واشد نفوذاً من اشعة غمَّا . واذاً فلا يمكن تكوين رأي قريب من الصواب عن الاشعة الكونية من مقابلتها باشعة غمَّا . فاذا بني انبوب من انابيب اشعة اكس ، يولد كهربائية ضغطها يتراوح بين ٥٠ مليون ڤولط و١٠٠ مليون ڤولط استطعنا ان نولد اشعة تقرب في قصر امواجها من قصر امواج الاشعة الكونية . وهكذا نستطيع من درس كل الاشعة — من الاشعة اللاسلكية الى الاشعة التي تحت الاحمر الى الاشعة المرئية الى الاشعة التي فوق البنفسجي الى اشعة اكس واشعة غمَّا والاشعة التي تتوسط بينها وبين الاشعة الكونية . واذا عرفنا طول الموجة تمكنا بتطبيق معادلة اينشتين ان نحسب الطاقة التي تحتوي عليها الموجة . هذه المعارف تمكننا من الاختيار بين قول جينز بان الكون سائر الى النفاد والموت وقول مليكن بان الكون في سبيل التكون بتولُّد العناصر فيه وان الاشعة الكونية رُسُل حاملة لنا هذا النبأ

وقد اثبت السر ارنست رذرفورد امكان تحويل العناصر باطلاق دقائق الفا على ذرات

النتروجين تحوّلهُ الى ايدروجين ، مع ان المقادير ضئيلة جداً ولا يمكن الآن استعمال طريقتهُ لاخراج قدر كافٍ للتحليل الكيمائي . فاذا تمكنا من بناء آلات مولدة لكهربائية عالية الضغط — كما تقدم — استطعنا ان نطلق بعض الايونات بسرعة تتباين من ٥٠ الى ٦٠ الف ميل في الثانية، واطلاقها بهذه السرعة يوسع نطاق معرفتنا بتحويل المادة واطلاق القوة المدخرة في الذرّة

اما المسألة الثانية فهي استكشاف داخل الذرة والبلورة ، وذلك يمكننا من توسيع نطاق معرفتنا ببناء الجوامد — وهو ضيق جداً اذا قيس بنطاق معرفتنا ببناء السوائل والغازات

فالبحث في الجوامد يقوم الآن بتعريض المواد التي قيد البحث لدرجة حرارة واطئة — ٣٠٠ تحت الصفر بميزان سنتغراد — وحركة الجزيئات عند هذه الدرجة من البرد تبطىء كثيراً . فالذرّتان اللتان يتكوَّن منهما جزيء الايدروجين تهتزان وتدوران اذا كان الجزيء على درجة من الحرارة العادية . فاذا هبطت حرارتهُ الى درجة الهواء السائل وقفت الذرّتان عن الدوران فالاهتزاز ، ولكن اهتزاز الالكترونات داخل الذرتين يستمرُّ . فاذا «تجمد» الجزيء كذلك اطلق عليهِ الباحث الكترونات فيحدث اشعاع يحلَّل بالسبكترسكوب ويستخرج منهُ كيفية بناء الجزيء . وهذه الطرق نفسها التي اسفر تطبيقها عن نتائج خطيرة في بناء الذرات تطبق الآن لمحاولة معرفة بناء الجزيئات والبلورات في الجوامد

الفلك وبناء الكون

المسألة الجامعة لعناية الفلكيين هي الوصول الى معرفة حاسمة فيما يتعلق بحجم الكون وبنائهِ والعناصر التي يتألف منها . وهذه المسألة العظيمة ككل المسائل العلمية الكبيرة تتشعب الى مسائل اخرى لا تحصى

واحدث هذه الفروع واقواها اثراً في اتجاه علم الفلك الحديث هو البحث في ابتعاد السدم اللولبية عنا بسرعات عظيمة تبلغ نحو ١٢ الف ميل في الثانية . ونتائج هذا البحث حملت اينشتين نفسهُ على ان يغير رأيهُ في السنة الماضية في نظرتهِ الى بناء الكون [١] . فهو يسلّم الآن بالرأي الذي اقترحهُ فريدمن اولاً سنة ١٩٢٢ ثم ذكره الاب لميتر على حدة سنة ١٩٢٧ وهو ان الكون آخذ في التمدُّد كفقاعة صابون تنفخ فيها

وقد قال لي هارلو شابلي مدير مرصد جامعة هارفرد واحد اعلام الفلكيين المعاصرين ان اعظم مشكلة يواجهها الانسان في هذه الناحية هي استنباط وسيلة جديدة لحل هذا اللغز الكوني . فهذه المجموعة الغروية الغريبة التي ندعوها الانسان يجب ان تخلق ادوات رياضية جديدة ونظاماً جديداً من الميكانيكا لفهم هذه المفارقة الغريبة والتوفيق بين طرفيها — كون نهائي ولكنهُ مع ذلك آخذ في الاتساع !

(١) راجع تفاصيل هذا الموضوع في مقتطف دسمبر ١٩٣١ تحت عنوان «ما وراء المجرة»



الاعداد العلمي ومستقبل النشء

للدكتور علي مصطفى مشرفة

وكيل كلية العلوم واستاذ الرياضة التطبيقية فيها

شرع المجمع المصري للثقافة العلمية في طبع كتابه السنوي الذي يشتمل على المحاضرات التي القيت في المؤتمر السنوي الثالث برآسة الدكتور شاهين باشا . ولما كان موضوع التعليم ومستقبل المتعلمين من أعقد المشكلات التي نواجهها رأينا ان ننشر جانباً كبيراً من محاضرة الدكتور مشرفه

لنفرض أن رجلاً من أهل القرون الوسطى بُعث من مرقده اليوم فقلب نظره في مظاهر حياتنا واسباب عمراننا ثم لنفرض أننا وجهنا اليه هذا السؤال « ما الفرق بين أحوال أهل الارض في القرن العشرين وبين أحوالهم في حياتك الاولى ؟ »

أظن انهُ إذا حاول الإجابة عن هذا السؤال لاول وهلة فإن جوابه يكون على النحو الآتي « إنني اجد أحوالكم تختلف عما كانت عليهِ حياتنا في كثرة الآلات التي تستخدمونها وفي تنوع الادوات التي تصنعونها وفي عظم الابنية التي تشيدونها والمبتدعات التي قد توصلتم إلى انشائها مما تغلبتم بهِ على الطبيعة إلى حد يحار فيهِ لُبّي ». ولاشك في أن هذا الجواب يمثل إلى حد ما حقيقة الفرق بين حياتنا في القرن العشرين وحياتنا يوم أن كنا نمتطي الانعام ونستنير بالزيوت. فمدنيتنا الحديثة في ظاهرها مدنية عُدَدٍ وآلات، مدنية قاطرات وسيارات، مدنية ناطحات السحاب وانفاق في جوف الارض، مدنية طيارات وغواصات، ومن منا لا يفتخر بمحونا للمسافات الشاسعة باللاسلكي وانتصارنا على الظلام بالانوار الكهربائية الساطعة وقهرنا للجراثيم بالامصال الواقية والعقاقير الشافية ؟ أقول إن جواب صاحبنا يمثل الحقيقة الى حدٍ ما لانهُ لا يمثل الحقيقة كلها بل هو يمثل سطح الحقيقة — إن جاز لي أن استعمل هذا التعبير — أما قلب الحقيقة فأعمق مما عنّ لصاحبنا لاول وهلة . فوراء هذه المظاهر التي تدركها حواسنا لمدنيتنا الحديثة يوجد العامل المحدث لها جميعاً والسبب الاوليّ الذي اليهِ مرجع وجودها. هذا العامل المحدث والسبب الاوليّ هو العقل البشري . والفرق الحقيقي أيها السادة بين القرن العشرين وبين القرون الوسطى هو الفرق بين العقل البشري في القرن العشرين والعقل البشري في القرون الوسطى . وإذا أردنا أن نفهم سر مدنيتنا الحديثة فهماً حقيقياً

فعلينا أن نفهم التطور الذي حدث في تفكير البشر . أما القاطرات والسيارات واللاسلكي والامصال والاصباغ فهذه إن هي الا نتائج لتطور العقل البشري وصنائع استحدثتها عقولنا فالعقل هو الصانع وهذه الاشياء هي المصنوع، العقل هو المكيف وهي للتكيف

بمَ إذن يمتاز العقل الحديث ؟ وما هي المزايا التي اكتسبها والتي مكنتهُ من تشييد هذه المدنية التي نفخر بها ؟ الجواب على هذا أن العقل الحديث يمتاز بصفتين أساسيتين هما الاعتماد على النفس وتنظيم التفكير . هاتان هما الصفتان اللتان مكنتانا من بناء سفننا وطياراتنا ومن التخاطب مع اقاصي الارض دون اتصال ظاهر ومن كل ما إلى ذلك من مظاهر حضارتنا . فأما الاعتماد على النفس فمعناه أن يؤسس العقل معارفهُ وسائر مجهوداته على ما يتوصل العقل اليهِ بنفسهِ من الخبرة البشرية دون التسليم بما عداه . فَمَثَلُهُ مثل الرجل يشرف على اموره بنفسه ولا ينقاد إلى غيره . وأما تنظيم التفكير فمعناه ترتيب المجهودات الفكرية اولاً في حالة الفرد بأن يُجْعَلَ لها نظام واضح متناسق فينشأ عقل الفرد مهذباً متفقاً والمنطق الصحيح . وثانياً في حالة المجموعة البشرية بأن تتعاون عقول الافراد على تنظيم مجهوداتها المتعددة وبذلك تنشأ وحدة متماسكة منها جميعاً يصحُّ ان يطلق عليها اسم عقل المجموعة أو العقل البشري المنظم

أيها السادة : إذا شئتم أن ينشأ اولادكم وإخوتكم وبناتكم واخواتكم بحيث يضطلعون بمسئولياتهم في الحياة الحديثة إذا شئتم أن يواصلوا مجهودات الجيل الذي سلفهم في تقدم الحضارة وأن يتسلموا منهم علم مدنيتنا فيرفعوه ويعلوا من شأنهِ إذا شئتم ان يحافظوا على التراث الذي سيرثونهُ وأن يزيدوا عليهِ وينموه ، اذا شئتم هذا كله فعليكم قبل كل شيء آخر أن تعلموهم كيف ينظمون تفكيرهم وكيف يتعاونون بينهم ويتعاونون مع غيرهم من نشء الامم الاخرى في هذا التفكير المنظم . أو بعبارة اخرى عليكم بإعداد نشئكم إعداداً علمياً صحيحاً

ومصر على وجه الخصوص في اشد الحاجة إلى هذا الإعداد العلمي لنشئها . فنحن كما تعلمون وإن كان اجدادنا قد قاموا بقسطهم وزيادة في تقدم العمران ورفع لواء الحضارة إلا أن أهل جيلنا يشعرون شعوراً حقاً بانهم مقصرون في تأدية هذا الواجب الاسمى نحو الاسرة البشرية ولذا فهم جادون في تداركهِ ما فاتهم عاملون على زيادة مجهوداتهم وأنا كواحد من هذه الامة مستبشر خيراً بما عساه ان يكون في المستقبل القريب رغم ما يعتورنا في طريقنا من العقبات فليست ثمة عقبة لا تتغلب عليها العزيمة الحقة المقرونة بالصبر والاناة

لذلك أردت أن أتحدث اليكم الليلة عن هذا الموضوع الحيوي وارتباطه بمستقبل النشء لعل بعض ما اثيره من البحث وما اتعرض لهُ من النقد والتحليل يساعد بعض المساعدة في التغلب على العقبات التي تقف اليوم في سبيلنا نحو تحقيق اغراضنا

اولاً كيف نعد نشئنا إعداداً علمياً صحيحاً . أو بعبارة اخرى كيف نعوّدهم التفكير

الحر المنظم ونحيطهم علماً في الوقت ذاته بنتائج تفكير الاجيال السالفة لكي يقفوا على ما قام بهِ السلف وتتكوَّن عندهم الملكة على مواصلة مجهوداتهم . لا شك في ان التربية المدرسية والتربية الجامعية التي تليها هما — إذا صحتا — من اهم وسائل هذا الاعداد العلمي.

ولست اريد في محاضرتي هذه ان اتعرض لنظم التربية الحديثة او ان ابحث في عيوب المدارس المصرية. لست اريد التعرض لشيء من هذا أولاً لأن كثيرين غيري قد وقفوا انفسهم لخدمة هذا الغرض وثانياً لسبب ربما ادهشكم ان تسمعوه من معلم احتكَّ بالمدارس المصرية والجامعات الاجنبية طول حياته. هذا السبب هو انني لا اعتقد ان نظمنا المدرسية والجامعية تنطوي على عيوب اساسية تستحق اثارة الرأي العام في شأنها . ربما ادهشكم ان تسمعوا هذا مني ولكن مع ذلك اقوله كرأي قد كونتهُ بعد خبرة طويلة وتمهل كثير في ابدائه. فمدارسنا وجامعاتنا في نظري والحمد لله بخير وعافية . ليس معنى هذا انها قد جمعت صفات الكمال ولكني اعتقد ان ما بها من عيوب كلها امور ثانوية تستطيع الامة ان تترك مداواتها للقائمين على ادارتها وان تثق بمقدرتهم على زيادة تحسينها وتنميتها بما يتفق والوظيفة التي تؤديها للامة. وفي رأيي ان المساعدة الحقة التي تستطيع الامة ان تسديها الى دور التعليم في مصر تكون عن طريق آخر غير طريق النقد الفني . فاذا نحن قارنا مركز دور العلم في مصر بمركزه في الامم الاخرى فإن الفرق الظاهر والمحسوس بينها انما هو النقص الواضح في مجهودات افراد الامة المصرية نحو مساعدة هذه الدور المساعدة الكافية. فكم من المصريين قد وقف جانباً من ماله على انشاء المدارس او معاهد التربية العالية أو على البحث العلمي ؟ كم من اساتذتنا ومعلمينا تدفع لهم مرتباتهم أو مكافآتهم من اموال وقفت على هذا الغرض ؟ هل يوجد في مصر قرش واحد خصص ريعه للبحث العلمي؟ هل تقدم احد من المشتغلين بالزراعة في مصر بهبة ينفق ريعها على البحث الزراعي العلمي أو ممول صناعي بانشاء معهد لتعليم صناعي أو هندسي ؟ أو محسن بانشاء كرسي في الجامعة لدراسة الكيمياء والعلوم الطبية أو علوم النبات ؟

ولننتقل إلى غير دور التعليم من وسائل الاعداد العلمي . تعلمون حضراتكم ان الجمعيات العلمية هي من انجع الوسائل في تثقيف الامة نشئها وكهلها وذلك بما تنظمهُ من المحاضرات العلمية وما تنشره من الصحف والمجلات التي تتداولها ايدي الشبيبة فتعمل على رفع مداركهم وزيادة ثروتهم الفكرية وتعويدهم اساليب التفكير الصحيح . كما ان المجلات العلمية الصبغة تؤدي مثل هذا الغرض . ومصر الى الآن مفتقرة الى كثير من مثل هذه الجمعيات وهذه المجلات، يُنشأ لا في القاهرة وحدها ولكن في سائر مدن القطر المصري بل وفي القرى

والمجهود الذي اقوم بهِ الآن من القاء هذه المحاضرة عليكم هو نتيجة من نتائج تأليف جمعية علمية من هذه الجمعيات لم يمضِ بعد على تأليفها ثلاث سنوات ومع ذلك فقد

قامت بخدمات تذكر نحو نشر الثقافة العلمية في مصر

وهناك اداة اخرى للاعداد العلمي لا تقل شأناً عن سابقتيها ألا وهي المكاتب العامة . فقديماً قيل ان الكتاب خير صديق وأنا اصارحكم القول بأن عادة الاستفادة من المكاتب العامة عادة غير مألوفة في مصر حتى ولا بين خيرة المتعلمين من المصريين . فكثيراً ما يدهشني ان اتحدث الى صديق متعلم فأجد انهُ لا يكاد يقرأ شيئاً سوى جريدته اليومية وبعض المجلات الخفيفة الروح ولا شك في ان هذا راجع إلى حد ما الى قلة ما يكتب باللغة العربية من الادب العصري والعلم المتبسط في شرحه . ومع هذا فانني أرى ان انشاء المكاتب العامة في مختلف انحاء القطر سيعمل على ترغيب الجمهور في القراءة والاستفادة من الكتب لا سيما اذا اختيرت الكتب التي من شأنها ان تستثير اهتمام الناس وترغيبهم في قراءتها

الى هنا انتهى كلامي عن الاعداد العلمي ووسائله وبقي ان اتعرض للشطر الثاني من عنوان محاضرتي وهو المرتبط بمستقبل النشء بعد ان يُعدُّوا هذا الاعداد العلمي . لنفرض إذن انهُ اتيح لنا ان نجهز دور تعليمنا ومكاتبنا العامة بسائر وسائل الاعداد العلمي واننا انشأنا الجمعيات العلمية وأصدرنا المجلات لنشر الثقافة العلمية في طول البلاد وعرضها بل واننا نجحنا فعلاً في تخريج شبان قد تثقفت عقولهم وتدربوا على التفكير العلمي الصحيح وعرفوا ما وصل اليهِ الجيل الحاضر في مختلف العلوم البحت منها والتطبيقي فكان منهم الاخصائيون كل في فرعه فن كيمائي الى طبيعي الى رياضي الى مهندس الى طبيب وهكذا . هل نعتبر حينئذ نحن ابناء الجيل الحاضر اننا قمنا بواجبنا نحو نشئنا ؟ وبعبارة اخرى هل يكفي ان نفكر في اعداد النشء دون ان نفكر في مستقبلهم ؟ ان واجب الجيل الحاضر نحو الجيل القادم ايها السادة ليس مقصوراً على تدريبهم في الادوار الاولى من حياتهم بل يجب ان يشمل قيادتهم في ميدان الحياة ذاتها والا لكان مثلنا مثل قائد الجيش يشرف عليه في تمرينهِ ثم يتخلى عنهُ حين يشتبك في المعركة . هذا مثلٌ على نقصه — وكل مثل يقف عند حد من الحدود — يمثل لنا الموقف تمثيلاً يساعدنا على فهمهِ . فعقلاء الامة ومفكروها الذين يجب ان يكونوا قادتها عليهم واجب التفكير في مستقبل ابنائهم ومن يقومون على ارشادهم وذلك بتوجيههم في مرافق الحياة توجيهاً يتفق مع مصلحة الامة والاقتصاد في مجهوداتها . فعليهم ان ينشطوا المجهودات التي من شأنها أن تعمل على تقدم الامة وزيادة فلاحها وأن يهيئوا اسباب توافر هذه المجهودات وتوافر وسائلها حتى اذا خرج النشء من دور التدريب والتعليم مكوَّنين تكويناً علمياً صالحاً وجدوا امامهم سبلاً يسلكونها في خدمة أمتهم وفي خدمة الانسانية ولم يلفوا انفسهم في مآزق تتحرج بهم فتنزل في نفوسهم اليأس وتحلُّ القنوط والتخاذل مكان الأمل والنشاط

وربما كان من اهم المشاكل التي تواجهنا اليوم في مصر هذه المشكلة مشكلة ابنائنا المتعلمين.

تحدث الي احد الاخوان الذين يتعرضون لمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية — وكثيرما هم — فقال انه يرى ان التعليم في مصر قد زاد عن الحد بحيث اصبح خطراً يخشى منه على نظام المجتمع . هذا مثال من الآراء التي نسمعها كل يوم ، مثال من المغالطات التي تنطلي على كثير ممن لا يكلفون انفسهم مؤونة درس ما يلقى عليهم . أيتكلم عن خطر التعليم في بلد لا يزال أربعة اخماس سكانها أميين ، بلد بها ١٤ مليون نسمة فيها جامعة واحدة ومدرسة واحدة للهندسة . بلد زراعية ليس فيها إلاّ مدرسة واحدة عليا للزراعة ؟ انني أؤكد لحضراتكم أن لا خطر على مصر من زيادة تعليم ابنائها تعليماً أوليًا أو ثانويًا أو متوسطاً أو جامعيًا إنما الخطر في ان لا نضطلع بمسئولياتنا نحن ابناء الجيل الحاضر فنهمل امر مستقبل شبابنا ونتركهم وشأنهم، حبلهم على غاربهم . وبعبارة اخرى ان لا يتمشى تنظيمنا لأعمالنا الاقتصادية والزراعية والفنية مع سياستنا في التعليم .فكما أن علينا ان ننشيء المدارس ونفتح ابواب الجامعات كذلك علينا في الوقت ذاته أن نوجد المصانع والمعامل والمراصد والمستشفيات وسائر الأعمال الفنية وعلينا بعد هذا كله أن نوجه النشء في إعدادهم العلمي توجيهاً يتناسب مع الحاجة إليهم في هذه المصانع وهذه المراصد وهذه الأعمال الفنية . إن المهمة أيها السادة مهمة ليست بالسهلة تحتاج الى امعان الفكر والروية كما تحتاج إلى الخبرة والحكمة والبعد عن كل مؤثر إلاّ مصلحة الامة ذاتها .ومن سوء الحظ أن تطوُّر مصر في السنوات الاخيرة كان تطوّراً متقلباً لا يسمح بوجود سياسة داخلية ثابتة تعمل سنين متوالية حتى يظهر اثرها . وقد نشأ عن ذلك تضارب بين المشروعات التي ترمي إلى اعداد النشء والمشروعات التي تحتاج الى خدماتهم .مثال ذلك انني سألت صديقاً لي يشرف على مصلحة فنية من مصالح الحكومة هل هو بحاجة الى خدمات بعض خريجي كلية العلوم بالجامعة المصرية ممن تخصصوا في علوم مصلحته فقال إنه يأسف لأنهم أرسلوا إلى أوروبا عدداً من المصريين ليتخصصوا في نفس هذه العلوم وهم إذا عادوا سيسدون حاجة هذه المصلحة تماماً بحيث لا يكون هناك مكان لخريجي جامعتنا . ألا ترون حضراتكم ان مثل هذا التضارب كان يمكن تلافيه لو أننا فكرنا في سياسة مشتركة بين من يعدون النشء من ناحية ومن يحتاجون إلى خدماتهم من ناحية أخرى بحيث يمكن التوفيق بين مجهودات الطرفين بما يتفق ومصلحة البلاد ؟

أريد أن يكون مفهوماً في حديثي إليكم الليلة انني لا ألقي لوماً على أحد ولا أتعرض للماضي على أنه مضى . وإن كان هناك لوم فهو ولا شك موزع علينا جميعاً بحيث لا يخص الفرد منا منهُ إلاّ نصيب ضئيل لا يستحق الذكر . إلا أن الماضي يجب ان يكون عبرة للمستقبل وأملي ان أكون بالقائي كلمتي هذه الليلة قد قمت بخدمة ضئيلة ايضاً لا تستحق الذكر لعلها خدمة موجبة — لا لوم سلبي — نحو خدمة قضية التعليم في مصر وأثره في تقدم الامة ورفاهيتها



قصة رفيق الشعرى

ليس « رفيق الشعرى » موضوع هذه القصة من رجال الحبّ المشهورين كابن ابي ربيعة ودون جوان ولا هو من ابطال اصحاب الخيال في الآداب العالمية كهملت والملك لير وغيرهما في مآسي شكسبير، وكجان ڤلجان وداڤيد كوپرفيلد واندره كورنليس وَبَبِتْ في روايات هوغو ودكنز وبورجو وسنكلير لويس . بل ان رفيق الشعرى لا يمتُّ الى الانسانية الا بحبل ضئيل من الضوء لا تتبيّنهُ الا عدسة التلسكوب، لانهُ نجم صغير لا تراهُ العين المجرّدة على مقربة من الشعرى اليمانية في كوكبة الكلب الاكبر . ومع ذلك لهُ قصة تجتمع فيها نواحي بعض القصص البوليسية من بحث عن «غامض» والمكر والدهاء في استجلائهِ . والشعرى ابهى الكواكب في القبة الزرقاء، ولذلك رصدها علماء الهيئة من اقدم العصور واستعملوها كما استعملوا غيرها من الكواكب المتألقة لضبط الوقت . ولكن ثبت لدى مراقبتها وموالاة رصدها انها لا تصلح لضبط الوقت قط، لأنها تتقدم في شروقها وغروبها رويداً رويداً في بعض السنين ثم تتأخر في الاخرى . وفي سنة ١٨٤٤ فسّر بسل (Bessel) سبب هذا الاختلاف بقولهِ ان الشعرى تسير في فلك اهليلجي . واذا كانت تسير فعلاً في فلك اهليلجي فلا بدَّ من وجود جسم في احد محترقي هذا الفلك تدور حوله . وعليهِ قال العلماء بوجود كوكب مظلم داخل ذلك الفلك لم يرَهُ احدٌ من قبل ومن المشكوك ان احداً في اواسط القرن الماضي كان يظنُّ ان رؤيتهُ مستطاعة . ودعي هذا الكوكب برفيق الشعرى . ويظن السر ارثر ادنجتون انهُ اول كوكب خفيّ عن الابصار اعترف العلماء بوجودهِ . ومع ذلك لا يصح ان يحسب وجود كوكب كهذا من قبيل الافتراض . فخواص المادة الميكانيكية اهم جداً من مجرّد كونها ظاهرة لعين الانسان — اي ان عدم ظهورها لعين الانسان لا يمكن ان يؤخذ دليلاً على وجودها او عدمهِ . فاننا مثلاً لا نستطيع ان نحسب وجود لوح زجاجي صافي الاديم وجوداً مفترضاً لاننا لا نستطيع ان نرى الزجاج . واذاً سلّم العلماء بوجود شيء على مقربة من الشعرى لهُ صفة من اخصّ صفات المادة وهي صفة جذب المادة المجاورة لهُ . وهذا الجذب ابعد اثراً في اثبات وجود جسم من مجرّد المقدرة على رؤيتهِ

ومع ذلك لم تنقض ثماني عشرة سنة على افتراض وجود رفيق الشعرى حتى رآهُ الفن كلارك صانع التلسكوبات الاميركي المشهور . واكتشافهُ لهذا الكوكب كان غريباً في بابهِ . فان الفن كلارك كان يرصد الشعرى لا لشدة عنايتهِ بها ولكن لانها نقطة لامعة من الضوء في كبد السماء يستطيع ان يضبط بها اتقان الصقل في عدسةٍ جديدة كان في سبيل صنعها . ولعلّهُ

لما رأى نقطة ضئيلة من الضوء قرب الشعرى تأسف شديد الاسف حاسباً ان وجودها سببهُ خطأ او خلل في صقل العدسة. فاعاد الكرة على عدستهِ مدققاً في صقلها ولكن النقطة الجديدة من الضوء على مقربة من الشعرى لم تزل . وقد ثبت بعدئذٍ انها تمثل رفيق الشعرى المذكور

ان رؤية رفيق الشعرى الآن بالتلسكوبات الحديثة امرٌ ميسور ، وقد اتسع نطاق معرفتنا بهِ في العهد الاخير ، فثبت انهُ كوكب لا تقل كتلتهُ عن كتلة الشمس ، وعند التدقيق ان كتلتهُ تبلغ ⅘ كتلة الشمس . ومع ذلك فانهُ يبعث بضوء لا يبلغ الا جزءا من ٣٦٠ جزءا من ضوء الشمس . وضآلة ضوئهِ هذه لم تدهش الباحثين في اول عهدهم بهِ لانهم لم يكونوا قد توصلوا الى معرفة علاقة الكتلة بمقدار الضوء فحسبوا انهُ من النجوم التي لم تبلغ في نموّها الا اول درجة الحمرة ، ولذلك فضوءها ضئيل

ولكن في سنة ١٩١٤ وجد الاستاذ ادمز من علماء مرصد جبل ولسن — وهو مديرهُ الآن — ان رفيق الشعرى ليس نجماً احمر ، بل انهُ بلغ درجة البياض لشدة حرارتهِ . وهذا مدهش . اذا كانت كتلة هذا النجم مقاربة لكتلة الشمس ، فلماذا لا يشرق بضوء قريب من ضوئها ؟ لا بدَّ ان يكون حجم النجم اذاً صغيراً جدًّا . لانهُ اذا كانت كتلتهُ من رتبة كتلة الشمس ، ولمعان ضوئهِ من طبقة لمعان ضوئها ، فلا بدَّ ان تكون مساحة سطحهِ صغيرة ازاء مساحة سطحها ، ولذلك لا ينبعث من هذا السطح ضوء يتفق وكتلة النجم وشدة حرارتهِ. وحسِب قطر النجم فاذا نصف قطره يجب ان يكون $\frac{1}{34}$ من نصف قطر الشمس واذا كرتهُ صغيرة قريبة من كرة سيَّار لا من كرة شمس . ولما دقق العلماء في تعيين مقاييسهِ وجدوا انهُ متوسط في حجمهِ بين الارض واورانوس ولكن... ولكن اذا شئت ان تضع مادة وزنها من قبيل وزن الشمس ، في كرة لا تفوق حجم الارض كثيراً ، وجب ان تحشكها حشكاً . والواقع ان كثافة المادة في كرة رفيق الشعرى تبلغ ٦٠ الف ضعف كثافة الماء اي ان كل بوصة مكعبة من مادتهِ تزن طنّا ! . وعلماء الفلك لا يستطيعون ان يعلموا شيئاً عن النجوم الا بالتقاطهم الاشعة الواصلة منها وتفسير ما تحتوي عليهِ من الانباء . وهم اذا حلوا رموز الانباء الواردة الى الارض من رفيق الشعرى كان مؤداها : « انا رفيق الشعرى مبني من مادة تفوق ثلاثة آلاف ضعف اكثف مادة عندكم . ان طنّا من مادتي لا يزيد على سبيكة صغيرة تستطيعون وضعها في علبة من علب عيدان الكبريت » وأي جواب يستطيع العلماء ان يجيبوا بهِ على هذه الرسالة ؟ ان جوابهم في سنة ١٩١٤ كان : « هذا كلام لغو »

ولكن في سنة ١٩٢٤ اخرجت النظرية القائلة بأن ذرات المادة في الاوساط التي بلغت حرارتها درجة عالية جدا — كحرارة قلب نجم — تتجرد الكتروناتها عن النوى وحينئذ تحت ضغط كتلة النجم يمكن حشك الالكترونات والنوى حشكاً يجعل مادة قلب النجم شديدة

الكثافة، شدة لا عهد لنا بمثلها على الارض. فلما اخرجت هذه النظرية استعاد العلماء ذكر الرسالة الواردة من رفيق الشعرى بعد ما صدفوا عنها حاسبين انها كلام لغو . ولكن لم يسلموا في الحال بصحة ما تنطوي عليهِ . انما هموا بالانصراف الى امتحانها والتدقيق في تطبيق النظرية على محتوى الرسالة . وهو ما لا تفعله عادة « بكلام لغوٍ »

ولا بدَّ من القول هنا ، بأنهُ كان متعذراً على العلماء ان يهملوا مؤدى الرسالة كل الاهمال. فلا ريب قط في ان كتلة رفيق الشعرى تبلغ ⅘ كتلة الشمس ، لانها قيست بأبرع الوسائل المستعملة في قياس كتل النجوم . ثم انهُ بديهي ان تكون كثافتهُ كبيرة جدًّا ، لانهُ استطاع ان يحرف الشعرى عند مسيرها . اما قياس قطره فتمَّ بطريقة غير مباشرة ولكنها مع ذلك دقيقة جدًّا . وقد امتحنت قبلاً وصحّت . فقد قيس بها قطر منكب الجوزاء ، ولما استنبط ميكلصن آلتهُ المعروفة « بالانترفرومتر » وقاس بها قطر منكب الجوزاء قياساً مباشراً تطابق القياسان . ثم ان رفيق الشعرى ليس النجم الوحيد الذي يمتاز بهذه الكثافة في مادتهِ . فثمة نجمان معروفان يشبهانهِ في هذا. واذا حسبنا حساباً لضعف وسائل الرصد التي نملكها لم نستبعد ان تكون هذه «الاقزام البيضاء[1] » كثيرة بين النجوم

ولكن يجب الاَّ نكتفي بأول تعليل يخطر لنا ، لئلا يقودنا الى الخطإ . لذلك عني الاستاذ ادمز في سنة ١٩٢٤ بامتحان هذا التعليل بطريقة جديدة . ذلك ان نظرية اينشتين في الجاذبية تقتضي ، اذا حُلَّ ضوء نجم بالسبكترسكوب، حدوث انحراف في خطوط طيفهِ الى جهة اللون الاحمر ، اذ قوبلت بالخطوط الممثلة للعناصر الارضية . وهذا الانحراف في خطوط الطيف الشمسي ضئيل جدًّا ، يكاد يتعذر قياسهُ . ولكن الباحثين اجمعوا على ان هذا واقعٌ ، مع ان بعضهم ظن اولاً ان لديهِ ادلة تنافيهِ . الى هنا كانت نظرية اينشتين عند الفلكي ، شيئاً يحتاج الى امتحان بالطرق الفلكية ، ولكنهُ في هذه الحالة يستطيع ان يثبت صحتها في حالة غير منتظرة اذا خرجت مقتضياتها النظرية مطابقة للنتائج المشاهدة. فانحراف الخطوط الطيفية نحو اللون الاحمر (وهو ما يعرف بفعل اينشتين) يختلف باختلاف كتلة النجم مقسومة على نصف قطره. ولما كان نصف قطر رفيق الشعري صغيراً جدًّا ازاء كتلتهِ فالانحراف يجب أن يكون كبيراً . وهذا يجعلهُ قابلاً للمشاهدة. على ان المشاهدة شديدة الصعوبة لان رفيق الشعري ضئيل الضوء كامد، ولان ضوء الشعرى يكاد يخفيهِ لشدة لمعانهِ . على ان الاستاذ ادمز صرف سنة في حلّ ضوء رفيق الشعرى وقياس انحراف الخطوط الطيفية فيهِ فخرج بنتيجة متوسطها ١٩ في حين ان نظرية اينشتين تقتضي ٢٠ فاصاب الاستاذ ادمز بقياسهِ هذا عصفورين بحجر واحد . ففي الناحية الواحدة امتحن نظرية النسبية العامة امتحاناً جديداً ثم انهُ اثبت ان في العالم النجمي مادة كثافتها ٢٠٠٠ ضعف كثافة البلاتين

(١) دعيت اقزاماً لصغر حجمها وبيضاء لشدة تألقها ونحوها البالغ درجة البياض

المذاهب الحديثة في بناء المادة

للمستر فندرسل

استاذ الطبيعة في الجامعة الاميركية بالقاهرة

بشعور يختلط فيهِ الاقدام بالاحجام اقف اليوم امامكم لبسط بعض نواحي هذا الموضوع . فانا مقتنع كلَّ الاقتناع بانهُ بحث فتّان ، وانما يقعدني ، عجزي عن الاحاطة بنواحيهِ في اربعين دقيقة ، يقعدني ، سعة نطاق البحث والعجز عن تفسير الا جانب ضيّق منهُ . ثم اني لا اعرف مدى معرفة السامعين بالطبيعة والرياضة ، فليعذرني بعضكم اذا اطلت الوقوف قليلاً ببعض النواحي ، لتفسير امور يعرفونها

لما اشرف القرن التاسع عشر على ختامهِ ، كان علم الطبيعة علماً كاملا تقريباً . كان العلماء قد استخرجوا بعض الاحكام العامة الخطيرة ، في اثناء ذلك القرن او قبلهُ ، اشهرها « ثبات الكتلة أو الجرم » و«حفظ الطاقة» و«ناموس الجاذبية» و«نظرية الضوء الكهرمغنطيسية» و«ناموس حفظ المادة» . فلم يبق حينئذٍ الا التدقيق في القياس والوزن للحصول على ادق ما يمكن الحصول عليهِ من درجات «الحرارة النوعية» و«عامل التمدد» . ولكن لم يكد القرن التاسع عشر يشرف على ختامهِ حتى اخذت تدبُّ اليهِ عوامل التحوُّل . وقد انقضت الآن ستٌّ وثلاثون سنة ، مذ بدت طلائع هذا التحوُّل ، اجيبت في اثنائها مسائل كثيرة غامضة ، ووجهت مسائل اخرى . وافتن ما حدث في هذه الحقبة يدور حول بناء المادة . وفي الوقت الذي عيّن لي لا استطيع الا الاشارة الى اعظم الحوادث التي وقعت . فالاستاذ ملكن يذكر ٢١ حادثاً خطيراً في هذه الناحية تمت بين (١٨٩٦ — ١٩٢٦) ولكن بعض الحوادث التي وقعت بعد ١٩٢٦ لا تقلُّ في خطورتها عن اخطر ما ذكره مِيلِكن . وعليهِ فسوف أدير الحديث حول سبع مسائل هي مصدر حيرة لبعض الناس ، وصعوبة لاولئك الذين يحاولون التعمق في درسها

والمسائل التي سوف نعرض لها على عجل هي : (١) — نظرية الكونتم لبلانك (٢) — الترابط بين الكتلة والطاقة (٣) — تحويل العناصر والمادة (٤) — بناء الذرة بحسب رذرفورد وبور (٥) — الميكانيكيات الموجية لشرويدنغر (٦) — مبدأ هيزنبرج في «عدم التثبّت» وعلاقته « بالسبب والمسبّب » أو « بالعلّة والمعلول » (٧) — الناموس الثاني في علم « الثرموديناميكس » ومستقبل الكون وبوجهٍ خاص الارض

في سنة ١٨٩٥ كشف رنتجن عن اشعة أكس (الاشعة السينية) وهي ضوء لا يرى بالعين يخترق المواد الكثيفة . وفي سنة ١٨٩٦ اكتشف بكرل فعل الاشعاع الذي فسّر بعدئذٍ بانهُ ناشئ عن انحلال المادة انحلالاً ذاتيًّا — اي من دون تسليط اي عامل خارجي عليها . ومن غريب ما يذكر في هذا الصدد ان فعل الاشعاع لا يمكن إسراعهُ ولا إبطاؤهُ في معمل البحث الطبيعي بوسيلة من الوسائل . فلا اعلى درجات الحرارة التي يمكن الحصول عليها من الضوء الكهربائي القوسي ، ولا ادنى درجات البرد في الهواء السائل ولا درجات الضغط العظيم أو الفراغ الشديد ، لها اي أثرٍ ظاهرٍ في سرعة انحلال الراديوم مثلاً . ومع ذلك فنحن نعلم ان هذا لا يصدق قط على الافعال الكيمائية العادية

كان الباحثون قد عرفوا اشعة المهبط (السالبة) والاشعة الموجبة ، ولكن طمسن (J. J.) قال في سنة ١٨٩٧ ان اشعة المهبط مؤلفة من دقائق تحمل كل دقيقةٍ منهما شحنة كهربائية سالبة . فهذه الاشعة تنحرف بفعل مجال كهرمغنطيسي (ويعرف هذا بفعل زيمن) ثم حسبت النسبة بين شحنة الذرة وكتلتها . ثم اثبت لورنتز (العالم الهولندي) ان الدقائق المتموجة التي تقتضيها نظرية مكسول الكهرمغنطيسية (التي نشرت سنة ١٨٦٤) تتصرف تصرفاً يقتضي النسبة التي اثبتها طمسن لدقائقه (اي نسبة الشحنة الى الكتلة) ثم اطلق لورنتز على دقائق طمسن الاسم الذي اقترحهُ « ستوني » Stoney وهو « الالكترون »

فلما انبلج فجر القرن العشرين كان علم الطبيعة على طريق الانقلاب والحوادث تسير سراعاً آخذ بعضها برقاب بعض ، ففي سنة ١٨٩٨ اكتشفت مدام كوري الراديوم ثم تلا ذلك اكتشاف العناصر المشعة من الاورانيوم الى الرصاص . هذا هو فاتحة العصر الجديد في علم الطبيعة

بلانك ونظرية الكونتم

لم تكتشف ظاهرات طبيعية جديدة فقط ، وانما شرع بعضهم يعلّلها تعليلاً فيهِ خروج على مبادىء الطبيعة المستقرة . وابعثها على العجب ، وامعنها في الثورة على القديم ، تعليلات ماكس بلانك التي نشرها سنة ١٩٠٠ اذ قال ان اشعاع طاقة الحرارة ليس عملاً متصلاً ، ولكنهُ يحدث حدوثاً متقطعاً . فالطاقة التي تحتوي عليها موجة من الضوء تعادل عدد اهتزازتها مضروباً في مقدارٍ دقيق محدود يرمز اليهِ بحرف (h) وهذا المقدار على دقتهِ ثابت لا يتغير . بحيث تجد اشعاعاً فقوتهُ من اضعاف هذا المقدار (h) . ان وحدة القوة العادية هي «وط» . والمصابيح الكهربائية العادية تستعمل الطاقة بمتوسط ٤٠ وطاً . و« الوط » ١٠ ملايين « ارغ » في الثانية . و« الارغ » هو وحدة « العمل » أو « الطاقة » وهو قدر صغير جداً لذلك لا يستعمل الا « الجول » في الشؤون الصناعية وهو عشرة ملايين « ارغ » . ولكن «الارغ» على دقتهِ صغير جداً اذا قوبل بمقدار بلانك (h) . انهُ كقطرة

ماء ازاء مقدار كبير من الماء . تصوَّروا الماء المتصرِّف من خزان اسوان في فصل الفيضان فانهُ يبلغ نحو ٧٧٠٠ طن من الماء في الثانية. فاذا حسبنا ان هذا المقدار من الماء مضى يتصرَّف من الخزان ثانية فاخرى مدة ٠٠٠ ٠٠٠ ١،٣٣٣،٠٠٠ — وهو نحو نصف الزمان الذي انقضى على الارض منذ تكونت سيَّاراً مستقلاً — فلا ريب في ان مقداراً كبيراً جدًّا يتصرف منهُ . ان نسبة قطرة واحدة من هذا المقدار الى كلّ قطراتهِ هي كنسبة مقدار پلانك الى « الارغ » . ومع ذلك فكل مصباح من هذه المصابيح الكهربائية ينفق الف مليون « ارغ » في الثانية

فقدار پلانك وحدة « عمل » دقيقة ولذلك دعاه « Quantum » ومعناهُ اصلاً مقدار فلما قال پلانك بانفصال الطبيعة قلق الفلاسفة، وتحيّر علماء الطبيعة في صحة قولهِ وما يسفر عنهُ من المفارقات، وظلوا كذلك حتى جاء بور النابغة الدنمركي سنة ١٩١٣ وفسّر الضوء، وبناء الذرات، بمقتضى نظرية پلانك . وسوف نعود الى هذا ، اذ نتكلم عن «بناء الذرة بحسب رذرفورد وبور »

الكتلة والطاقة

يتعذر ان نذكر اينشتين من دون ان نطيل المكث معهُ . وانما اريد ان اوجّه عنايتكم الى نقطة واحدة جلّتها « نظرية النسبية » — وهي العلاقة بين سرعة الضوء وسرعة جسم متحرّك وكتلة ذلك الجسم وطوله . فلا ريب في ان كتلة الاجسام التي تستطاع رؤيتها بالعين او بالمكرسكوب ثابتة وكذلك مقاييس اي جسم جامد فهي ثابتة اذا كان الجسم بمعزل عن قوى مشوّهة . ثم ان اينشتين اثبت ضرورة حسبان سرعة الضوء سرعة ثابتة لا علاقة لها بالمشاهد، او بحركة المشاهد والمشاهَد . ثم انهُ علّل التقلص الحادث في الاجسام المتحركة ، الذي قال بهِ لورنتز وفتزجرالد[1]

ومن الواضح انهُ اذا كان سرعة الاجسام نحو ١/٢٠٠٠ من سرعة الضوء فالتعديلات التي ادخلها اينشتين لا يمكن ان تدرك بآلة او بحسٍ ، ولا اثر لها في الحسابات العملية . ولكن اذا كان جسم من الاجسام يسير بسرعة تعدل ٨/١٠ سرعة الضوء او تسعة اعشارها فتعديلات اينشتين كبيرة الاثر

ويؤخذ من معادلات اينشتين انهُ اذا كان جسم من الاجسام سائراً بسرعة الضوء فانهُ يتقلص الى ان يصبح طوله صفراً وكتلتهُ لا حدَّ لها (اي ان كتلتهُ تزيد بزيادة سرعتهِ وطولهُ ينقص وفقاً لهذه الزيادة) فاذا سار الجسم بسرعة تزيد على سرعة الضوء اصبح طولهُ كمية سالبة (اي اقل من صفر) وكتلتهُ اقل من اللانهاية (infinity) وكلاهما مما لا يتصوَّرهُ العقل فينتج من ذلك انهُ يتعذر على اي جسم ان يسير بسرعة معادلة لسرعة الضوء او تفوقها

---

(١) يقول هذان العالمان ان طول جسم متحرك ينقص وان نقصه يعدل طوله وهو مستقر مضروباً بجذر التالي (١ — مربع سرعته / مربع سرعة الضوء) وان كتلة جسم متحرك تعدل كتلته وهو مستقر مقسومة على الجذر التالي (١ — مربع سرعته / مربع سرعة الضوء)

ولكن هل ثمة اجسام تسير بسرعة تضاهي سرعة الضوء؟ نعم. فاشعة المهبط والالكترونات تسير بسرعات تضاهي سرعة النور الثابتة. فان اشعة المهبط اذا مرت في حقل كهربائي انحرفت عن سيرها المستقيم انحرافاً يختلف باختلاف كتلتها وسرعتها. وكتلتها تزداد بازدياد سرعتها وبازدياد كتلتيها يقل انحرافها بالجذب الكهربائي. على ان انحرافها يختلف كذلك باختلاف شحنتها الكهربائية. وقد قاس طمسن انحراف هذه الاشعة فوجد ما اثبت صحة رأي اينشتين في التقلص الذي قال به لورنتز وفتزجرالد

ان طاقة الحركة في دقيقة متحركة تعدل ½ كتلتها مضروبة في مربع سرعتها. فمبدأ «حفظ الطاقة» لا يمكن ان يكون له كيان مستقل بعد التطور الحديث، بل هو متصل بثبات الكتلة. وافعال الاشعاع تبين ان المادة ليست مستقرة على حال واحدة وان ذراتها تتفتت وتتحطم وتتحول الى طاقة — والراديوم اشهر الامثلة على ذلك — ففي هذا العصر زال من علم الطبيعة القول «بحفظ المادة» واعيد القول «بثبات الكتلة» في شكل جديد وتحدد معنى «حفظ الطاقة»

تحوُّل المادة

في القرن التاسع عشر، اقتنع علماء الكيمياء والطبيعة بان ما تصوَّره اصحاب الكيمياء القديمة، من تحويل عنصر الى آخر، فعل مستحيل. فلما اكتشف الراديوم، وانحلال ذراته وتحولها بعد تفاد اشعاعها الى رصاص، دبَّت الحياة في ذلك التصوُّر القديم. والواقع ان الحلم باستخراج الذهب من الزئبق لم يتمّ. اما العلماء الذين يبحثون عن الحقيقة اكثر من بحثهم عن الذهب، فقد كشفوا عن حقائق كثيرة ذات بال. فانهُ على أثر مباحث رذرفورد وموزلي وبور، صنع مثال لبناء «الذرة». ولا يتسع المقام هنا الاّ لبعض نواحيهِ. فرذرفورد تصوَّر الذرَّة مبنية من نواة صغيرة ثقيلة فيها تستقرّ الكهربائية الايجابية، وتحيط بها دقائق من الكهربائية السالبة. ثم جاء بور وجعل هذه الدقائق السالبة في افلاك حول النواة (لنا عود الى هذا الموضوع) وتلاه موزلي فأبدع وهو لا يزال في ميعة الشباب، ناموس الاعداد الذرية وبحسبها رتب العناصر من الايدروجين الى الاورانيوم ترتيباً مشابهاً لترتيبها في جدول مندليف الدوري، وانما جعل لها ارقاماً كل رقم يمثل عنصراً — فالايدروجين (١) والاورانيوم (٩٢) — وكل رقم يمثل كذلك عدد الشحنات الموجبة في النواة الفائضة عن الشحنات السالبة. كما يمثل عدد الالكترونات حول النواة في ذرة كل عنصر واليك المثل:

	الايدروجين	الهليوم	الكروم	الزئبق
الوزن الذري	١	٤	٥٢	٢٠٠
العدد الذري	١	٢	٢٤	٨٠
البروتونات في النواة	١	٤	٥٢	٢٠٠
الشحنات الموجبة الفائضة في النواة	١	٢	٢٤	٨٠
الالكترونات في النواة	٠	٢	٢٨	١٢٠
الالكترونات حول النواة	١	٢	٢٤	٨٠

اذ لا يخفى ان نواة الذرة مؤلفة من عدد من الالكترونات وعددمن البروتونات. ولكن عدد البروتونات اكبر فشحنة النواة اذاً موجبة فتعدلها الالكترونات السالبة التي خارج النواة

وقد أثبت رذرفورد ان أشعة الفا ما هي الا ذرات هليوم بمكهربة (او هي ايونات هليوم) وايون الهليوم هو ذرة هليوم فقدت الكترونيها اللذين حول نواتها، فظلت نواة فيها اربعة بروتونات والكترونان واذاً فشحنتها الكهربائية «موجبة مزدوجة». فاذا اطلقت ذرة دقيقة من دقائق الفا، فهذه الدقيقة يجب ان تكون قد انبعثت من النواة لان النواة هي المكان الوحيد في الذرة الذي فيه كهربائية موجبة. ويجب ان تنبعث من النواة اضعف مما كانت فيه. وهكذا تتحول الذرة من ذرة عنصر معين الى ذرة عنصر آخر. كذلك اذا انبعثت اشعة بيتا من ذرة ما تحولت تلك الذرة، لانهُ ثبت بالتجربة ان دقائق بيتا لا يمكن ان تنبعث الا من النواة وذلك بترك النواة وفيها شحنة موجبة زائدة. وبوجهٍ عام اذا انطلقت دقيقة الفا من ذرة عنصر كان الوزن الذري للعنصر الجديد اقل (٤) من العنصر الذي نشأ منهُ وكان عددهُ الذري اقل (٢) من الاول. واذا انطلقت دقيقة بيتا كان الوزن الذري للعنصر الجديد مساوياً للعنصر الذي نشأ منهُ واما عددهُ الذري فيزيد (١) عن الاول. فتحوُّل الزئبق الى ذهب مستحيل واما تحوُّل الذهب الى زئبق فممكن — نظريًّا على الاقل

والراديوم يتحوَّل فعلاً الى رصاص. فاذا كان اصل الراديوم من الثوريوم (عددهُ الذري ٩٠) انحلَّ الى رصاص له وزن ذري معين. واذا كان اصله من الاكتينيوم (٩١) انحل الى رصاصٍ كذلك ولكن الوزن الذري لهذا الرصاص يختلف عن الوزن الذري للرصاص الاول. واذا كان اصله من الاورانيوم (٩٢) انحلَّ الى رصاصٍ من صنفٍ ثالث ذي وزن ذري يختلف عن الاثنين السابقين. ولكنها كلها رصاص وتحتوي على ٨٢ شحنة ايجابية في نواتها. وانما عدد البروتونات في الذرَّة الواحدة من الرصاص الاول ١٢٤ وفي الثاني ١٢٦ وفي الثالث ١٢٨، اي ان الاوزان الذرية في الاصناف الثلاثة مختلفة ولكن الخواص الكيمائية واحدة. هذه الاصناف المختلفة من الرصاص تعرف بالنظائر (Isotopes وكلمة ايسوتوب مؤلفة من لفظين يونانيين معناهما مكان واحد) فهي على اختلاف اوزانها الذرية تشغل محلا واحداً في جدول العناصر

والاستاذ استن الانكليزي هو ابو «النظائر». وقد أبان ان فرض بروت، الذي مضى عليهِ اكثر من مائة سنةٍ، جدير بالعناية والاحترام. فبروت يقول بأن الاوزان الذرية في كل العناصر يجب ان تكون اعداداً صحيحة. وهذا يصح على كثير من العناصر، ولا يمكن تعليله بالاتفاق او الارجحية. وانما يعلله استن بأن طائفة من ذرات الكلور التي وزنها الذري ٣٥ تكون في الاحوال العادية مختلطة بطائفة من ذرات الكلور ايضاً التي وزنها الذري ٣٦ فيخرج وزن الكلور الذري ٣٥ر٤٦ ولما كان علماء الكيمياء يتناولون عدداً كبيراً من جزيئات الكلور وذراته في اثناء التجارب التي يجرونها لتحديد الوزن الذري، فالوزن الذري يخرج دائماً ٣٥ر٤٦

[لها بقية]

حول مؤتمر الموسيقى

إنّ في مصر اليوم مؤتمراً للموسيقى العربية . والناس عندنا يأبون الاّ ان يقال لها الموسيقى الشرقية حالة أن هذه شتى الانواع متباينتها : فالموسيقى الهندية وان كان لها طبلنا ومزمارنا غير موسيقانا ، والصينية أشبه شيء بالصراخ على حين أن موسيقانا الى الانين أقرب . هذا وان من المتبادر الى ذهني ان فئة من الناس يحتالون في ان يقال لموسيقانا الموسيقى المصرية ولا يخلو ما يحتالون فيهِ من الشطط . ذلك بأن الموسيقى المصرية حلقة أضيفت الى حلقات الموسيقى العربية منذ العهد الذي فيهِ اخذت مصر بأسباب الرقيّ

على أن الغرض من المؤتمر المشار اليهِ الاستحداث في موسيقانا والانتقال بها من طور قديم الى طور جديد . ولا شك أن بعض الناس غير مطمئنين الى ذلك الغرض لانهم يظنون ان في تهذيب الموسيقى العربية القضاء عليها . ثم انهم يعدّون الاستحداث فيها امراً فوق الامكان فيجعلونها وراء سنّة التحول . ولا يخفى على البصير وجه الخطإ فيما يذهبون اليهِ . والدليل على ذلك ان الموسيقى العربية تحولت منذ منشئها وداخلها من العناصر الغريبة عنها ما داخلها . ودونك تفاصيل ذلك :

كلنا يعلم — اللهم الاّ اذا ركنّا الى نظريات المتصوفة — أن التقاليد العربية تجعل الحداء أصل الغناء أيام الجاهلية . وما الحداء الاّ لحن بسيط متشابه الاصوات وزنه الرجز فيما يقول ابو الفرج الاصفهاني . وربما ناسب اهل ذلك العهد بين النغمات مناسبة بسيطة فأتوا بالسناد على قول ابن رشيق . ثم ان الابشيهي يسوق في المستطرف [1] ان للعرب الأُلى نوعاً آخر من الغناء يقال له النصب وقد كان يعمد اليهِ الفتيان والركبان

ولما اشرق الاسلام ازوى اهل الله عن الرفاهية وشغلوا ساعات فراغهم عن وجوه اللذات بالعبادات . فكان الاذان وترجيع القراءة . ولما انقلبت الامة العربية الى حالة اقرب الى الجاهلية منها الى الاسلام وهى امر الدين وهبط الترف قصور بني امية حاملاً بين اعطافه كماليات الحياة . جلّ قدر الموسيقى ولكنها أمست وشأنها غير ما كان بالامس . افلم يروِ لنا صاحب كتاب الاغاني [2] ان أبا محرز اقبل على تلاحين الروم والفرس واخذ منها ما تستريح

---

(١) ص ٢٠٤ ج ٢ (٢) (طبعة دار الكتب) ص ٢٥٠ ج اول

اليهِ الآذان العربية ثم مزج هذه التلاحين بعضها ببعض فجاء بشيء حسن . ثم ان الموسيقى الفارسية أثرت في الغناء العربي الى حدٍّ بعيد : فهذا سائب خاثر اول من عمل العود بالمدينة واول من تغنى بصوت عربي متقن الصنعة حذا فيهِ حذو نشيط الفارسي [٣] ، وهذا ابن سُرَيج قد رأى مع العجم الذين اتى بهم ابن الزبير لبناء الكعبة عوداً من صنعة عيدان الفرس فضرب بهِ على طريقة الغناء العربي ضرباً اهتزَّ له اهل مكة وطربوا [٤]

وقد وُقِف فن الموسيقى في عهد بني امية على غناء القصائد والمساوقة بالعود والطنبور وبالدُّفّ وغيرها . ولكن المغنّين افتنّوا في صناعاتهم من طول ما تنافسوا فيها وتناقضوا وتنافروا [٥] . فأحدثوا في النوح ومالوا عن الوزن الثقيل بعض الميل إذ جاؤا بالهزج والرمل فقصروا بهما الغناء .وما زالوا بالالحان حتى انتهوا بها الى جودة أوشك الخلفاء أن يُجَنّوا بها وكاد الناس يدركهم الغشي من أجلها

ثم كان عهد بني العباس فنزلت الموسيقى منزل العلوم وانتظمت بسلكها . فدوَّن رواة الالحان الاغاني وألّف الحكماء في اساليب الغناء والعزف . فكان من المدوّنين يونس واحمد ابن المكي وعمرو بن بانه وبذل المغنية واسحق الموْصلي وابو الفرج وتصانيفهم من الاصول التي عول عليها الناس واليها رجعوا . وكان من المؤلفين ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي وابو نصر الفارابي وابو علي الحسين بن عبدالله بن سينا وصفي الدين واخوان الصفا

الاَّ ان تقدم الموسيقى لم يكن مقصوراً على العلم دون العمل . فهذا اللحن الرقصي التمثيلي، وهذه آلات الرقص وهذه الكُرَّج التي يذكرها ابن خلدون في مقدمتهِ ثم يشرحها فيقول: انها تماثيل خيل من الخشب يمتطيها النساء ويقلدن بها الكرّ والفر والطعن والضرب . . . والغالب على الظن ان الكُرَّج يرجع عهدها الى الامويين . افلم يقل جرير :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة   عليها وشاحا كُرَّجٍ وجلاجله

وان ننسَ لا ننسَ ونحن بين ايدي بني العباس ان نذكر ما طرأ على الموسيقى العربية من وراء ما صنع ابرهيم بن المهدي حين خرج على الغناء القديم فأنشأ مدرسة جديدة عبثت بقواعد الفن وحذفت منه الكثير إذ غنت غناء قليل الصنعة سهل المأخذ . ثم قامت تناضل مدرسة اسحق الموصلي وتعيِّرها باستمساكها بالقديم [٦] . ثم لنرَ كيف استقام فن القراءة على أيدي الاباضي وسعيد العلاف وغيرهما وكيف دَسَّ القوم في تلك القراءة بعض الحان الغناء

(٣) الاغاني (طبعة بولاق) ص ١٨٨ ج ٧
(٤) الاغاني (طبعة دار الكتب) ص ٢٥٠ ج اول
(٥) الاغاني («) ص ٢٧٤ وما يليها ج اول
(٦) الاغاني ص ٣٥ وما يليها ج ٩

والحداء والرهبانية (٧) . ثم لنذكر ما ابتكره زرياب في منهج التعليم اذ كان يبدأ بالصوت البسيط حتى يتدرج الى الصوت المركب ثم يجزىء الصوت نفسه فيأخذ يطارح تلاميذه الوزن ثم اللحن مجرداً ثم ما يلحق باللحن من المدات والليات والعطفات

ثم لنخبر كيف عمد الاندلسيون الى الموشحات فابتدعوا فيها ما شاء الله ان يبتدعوا ثم جمدوا في مكانهم فلم تتقدم موسيقاهم شيئاً . وفي الامر ما فيه من غرابة . والتاريخ يسوق لنا أن موسيقى نصارى الاسبان ارتقت ارتقاء حسناً قبل سقوط غرناطة اذ لحّن القوم قداديس ذوات اربعة اصوات مختلفة . وكان هذا النوع من التلحين بادىء امر التأليف الموسيقي Harmonie . فكيف تغافل العرب عن هذه الموسيقى الرائعة مع رقيهم واستعداد عقولهم للفهم والاقتباس ومع لطف آذانهم ؟ اما ولسنا نجد جواباً عن هذا السؤال فحسبنا ان نثبت الامر وملء جوانحنا الدهش . الاّ ان مستشرقاً فرنسياً يعلل اعراض العرب عن الموسيقى المؤلفة بعجزهم عن التأليف الجمعي (Multiplicité) . وهيهات ان نرى رأيه لان فلاسفة العرب نظروا الى مناحي الحكمة نظرة شاملة والشمول اس التأليف الجمعي . ثم ان الاخباريين والمؤرخين يروون لنا ان الخلفاء كانوا يقيمون حفلات موسيقية يشترك فيها مائة من العازفين والمغنين فلا سبيل لنا ان نتهم العرب بأنهم لم يعمدوا الى الموسيقى المؤلّفة حتى تقع الينا اصواتهم وتلاحينهم مدونة فنتبصر فيها . ومما يؤسف عليه أن العرب — فيما يلوح لنا — لم يدونوا تلاحينهم وفي هذا الامر الآخر ما يجعلنا ندهش دهشنا الاول ولا سيما اذا علمنا ان الفرس كانوا يدونون ترانيمهم وان حكماء الاغريق اثبتوا ضبطاً موسيقياً (notes) في مؤلفاتهم التي اعتمد عليها المعلم الثاني وابن سينا . ولقد حاول بعض المستشرقين ان يعلل ذلك النقص بأقوال لا نراها سديدة منها ان العرب كانوا يعدون صناعة الغناء منقصة فلم يُحملوا على ضبط تلاحينهم . وكيف لهذا القول ان يثبت على النقد اذا ادّكرنا لطف مكان المغنين عند الخلفاء والوزراء والعمال

على أنا ذكرنا ان الموسيقى العربية جمدت عند اواخر القرن السابع فظلت تلك حالها حتى قيّض الله لها ان تنتقل الى بلاد الترك فافتنّ فيها القوم وعملوا البشرف . ثم ما زالت الموسيقى تتقدم قليلاً قليلاً حتى بلغت الغاية في الرقي ايام سليم الثالث . ثم ان الشاميين ولاسيما اهل حلب اقبلوا عليها فأعادوا اليها شيئاً من اغانيها الماضية . ثم ان المصريين انصرفوا اليها فاستحدثوا فيها التقاسيم والرقصات والاناشيد الى غير ذلك مما ننشط له اليوم ، والفضل في ذلك راجع الى عبده الحمولي خاصةً لانهُ نزع عن الموسيقى العربية جفوتها ودسّ فيها ترانيم تركية دساً رقيقاً فألحق بها النهاوند والحجاز كار والعجم تلك النغمات الخفيفة المحمل على السمع

(٧) كتاب المعارف لابن قتيبة طبعة اوربا ص ٢٦٥

تلك حال الموسيقى العربية منذ منشئها حتى اليوم. وانك لترى انها صُبغت بصبغات غريبة عن جوهرها مراراً وانتقلت من طور الى طور وزيد فيها وحذف منها . فكيف لا يرضى الناس بأن تظلّ مطردة السعي في طريقها وكيف لاولئك الذين حدثتك عنهم في صدر هذا المقال ان يطمئنوا الى جمودها

* * *

واذا سلمنا بوجوب تحوُّل الموسيقى العربية ورضينا بغرض المؤتمر فانهُ ينبغي لنا ان نعلم كيف يكون هذا التحول وما يصنع المؤتمر . على ان المعلوم ان رجالنا عاهدون الى علماء الفرنجة في معالجة موسيقانا من حيث ضبط تلاحينها وتقويم نواحيها . ولا شكّ عندي ان مثل هذه المعالجة تكاد تستحيل على اولئك العلماء ذلك بأنهم لا يستطيعون أن يستريحوا الى الموسيقى العربية وهيهات ان يكون السبب في ذلك قول بعض الانكليز ان الشرق شرق والغرب غرب ولكنما السبب ما في سلّم موسيقانا من ارباع المقامات (quarts de tons)

فلا ريب ان ربع المقام العربي عدل بالغربيين عن الحاننا أيام خفّوا الى اقتباس علوم العرب وفنونهم . لان الاذن الغربية لم تكن لتستخف ربع المقام اذ كان ناشزاً على ما الفت سماعه. على انهُ ما يزال ناشزاً عندها حتى اليوم، والبرهان على ذلك ما روى لي موسيقي مصري حاذق يقيم بباريس ويدعى نجاراً قال : اتيت استاذي (سان سانس) Saint Saens ذات يوم فأخذت أعزف على المضرَّب (البيانو) اصواتاً عربية فدهش استاذي وقال لي : نحن معشر الافرنج لا نستطيع ان نرتاح الى هذه الاصوات ولا نقوى الاّ على ان نقتلها بحثاً وتحليلاً . ومن اجل ربع المقام هذا قال لي السكرتير العام لمعهد الموسيقى في باريس يوم عزف الأستاذ الشوّا على كمانهِ : لم يكن والله في امكاني ان اقيم لموسيقاكم الوزن اللائق بها وكأني بها هابطة الى اذني من موضع لم اره قط ولم يسبق الى وهمي فبسطت له من شأن ارباع المقامات ما جعله يعلل انقباض اذنه عن عزف الشوا

ذلك ما يميل اليهِ آذاننا وما يميل اليهِ آذان القوم . ومن اجل هذا لا ارى لهم كفاية في امر معالجة الموسيقى العربية [1] ولأتبسط في القول

ان الموسيقى تنقسم الى قسمين احدهما فني والآخر ابتداعي . أما القسم الفني فعلم يشمل

(١) اني لاستثني من العلماء المستشرقين احدهما يدعى d'Erlanger والآخر Collangette اما هذا فقد حاول فيما مضى ان يستوضح اصطلاحات كتاب الاغاني مثل خفيف رمل بالبنصر وثقيل اول بالسبابة في مجرى الوسطى. وأما ذاك فقد نقل الى اللغة الفرنسية كتاب الفارابي (La Musique Arabe, Edition Geuthner) واظنه عاكفاً على الفحص عن مؤلفات العرب الموسيقيين ، عازماً على تدبرها جيماً . ثم ان لبعض المستشرقين امثال Marrignon الفرنسي و Ribera الاسباني معرفة بموسيقانا

قياس الأبعاد والمسافات والمقادير، وتحديد طبقات الآلات، وتعيين طريقة العزف عليها او النفخ فيها او النقر بها . وأما القسم الابتداعي فخاص بالتلحين بين تأليف الاصوات بعضها الى بعض وبين تركيب النغمات بعضها في بعض

واعلم ان من واجب الموسيقي الفني ان يبدأ باثبات السلم حسابيًّا ذلك السلّم المعروف عند الفارابي بانواع الجماعات . ولقد اثبتنا السلم العربي نحن اعضاء لجنة المعهد منذ سنة ونصف سنة في مصر وليس فينا افرنجي . ولا كُلفة في ان نستخلص من حساب مقامات السلم قياس الابعاد والمسافات والمقادير مستندين في ذلك الى مناهج الافرنج استنادنا اليها عندما اثبتنا السلم . واما تحديد طبقات الآلات وتعيين الضرب بها والنفخ فيها والنقر بها فأمران يرجعان جميعاً الى النظر والى العمل . فالناحية النظرية في ايدي الحاسبين عندنا وبين اطواء كتب الفارابي وصفيّ الدين وغيرها ، واما الناحية العملية ففي أنامل الضاربين والنافخين والناقرين . وفي وسعنا ان نجمع لهاتين الناحيتين ناهجين في الجمع لهما منهجاً افرنجيًّا حديثاً

واما القسم الابتداعي فن اين حظ الافرنج منهُ ولا سبيل لهم ان يستبطنوا كنه موسيقانا فان هم شرعوا في التأليف فيها عدلوا عنها الى ما يلحق بموسيقاهم عدول (سان سانس) عندما عمل رقصة شمشوم ودليله

ولا يسبقنّ الى ظنك اني حامل على القوم لانهم اعاجم ، فلربّ اعجمي تفوّق علينا . أو لم يكن معبد خلاسيًّا وابن سُرَيج تركي العِرق وابن محرز فارسي الأب والغريض من البربر (راجع الاغاني) . كانوا ولكنهم استعربوا الاستعراب كله . ومَثَلهم في الموسيقى مَثَل زياد الأعجم واسماعيل بن يسار وبشار بن برد وابن الرومي في الشعر

ومهما يكنِ من الامر فلا بدّ للتأليف من الرواية . فأي رجل يستطيع ان يلحن توشيحاً ان لم يكن حاملاً عدة تواشيح على ظهر قلبهِ . واي رجل يقدر على « التقسيم » ان لم تكن اذنه واعية الشيء الكثير منهُ . فن لي بمن يدلني على ذلك العالم الفرنجي الذي يروي من انغامنا ما يرده اهلاً للتلحين فيجعلنا نحسّ بمختلف الاصوات من رخو وشديد ومن مقلقل ومضغوط ومن مهموس ومجهور ومن غيرها

على انهُ يتضح لك بعد ذلك اننا في غنى عن الافرنج وكأني بك تصدّ عنهم وتتحامل عليهم وتأبى إلاّ ان يعرضوا عن العناية بموسيقانا إلاّ أن الامر غير ذلك . فانا في حاجة الى القوم سواء أمن ناحية الفن أم من ناحية الابتداع . وقد بسطت لك كيف نستطيع ان نعول عليهم في الفن اذ نستند الى طرقهم العلمية الجلية المستقيمة في تحديد طبقات الآلات وقياس المسافات وغيرها ثم في تعليم الغناء والعزف . ثم انهُ ينبغي لنا ان نرجع في الابتداع الى قواعد التأليف التي بين ايديهم من Harmonie و Contrepoint و Fugue

وهنا مطلب آخر : كيف نستفيد من طرقهم في الفن ومن قواعدهم في التأليف ؟ اما من حيث الفن فلأضرب لك مثلاً تعليم الضرب بالعود : ان من الجاري عندنا ان طالب الضرب بالعود يبدأ بالعزف على الاوتار مطلقة ثم يرسل انامله شيئاً فشيئاً متعهداً انامل استاذه بنظره حتى تثبت يده وتستقيم انامله فيطارحه استاذه النغمات واحدة فواحدة وعندما تدور النغمات للطالب وتستوي في اذنه يأخذ استاذه يطارحه الدولاب ثم الطقطوقة ثم البشرف ثم السماعي الى ما بعد ذلك

ولربما رأيت في هذا الضرب من التعليم بالتلقي والسماع طريقة قويمة كافية . فدعني انقل اليك كيف يتعلم الافرنج العزف على المضرب مثلاً . ان طالب العزف لا ينفك يروّض انامله بتوقيع السلالم ويقوّم اذنه بالغناء الصامت (solfége) ثم يجعل يخرج من مؤلف في الترويض الى مؤلف آخر دون ان يعرض الى عزف التلاحين حتى يستسهل بعد خمس سنوات كل صعب

فانك ترى الشطح الذي بين المنهجين ولا بد لك من ان تتعجب منهُ وكأني بك تقول في نفسك . فيمَ لا نذهب مذهب الافرنج . فاعلم ان الاخذ بمنهج القوم كل الاخذ امر يفوتنا لان آلاتنا بسيطة اولية وألحاننا اقرب الى السليقة من الحانهم وبضاعتنا الموسيقية ليست بشيء عند بضاعتهم . فعلينا اذا عزمنا ان نجاريهم ان نبدأ بالافتنان في آلاتنا فنعدد مراكز الانامل ونذهب الى ما وراء جواب « النواه » ثم نلحق الاساليب التعليمية بهذه الآلات فيكون للعود مؤلف منهجي méthode وللقانون آخر وهلم جرًّا

واما الرجوع الى قواعد الافرنج في التأليف فانما هو رجوع الى الاصول دون الفروع بحيث اننا نتعلم قواعد التأليف بين الاصوات على هيئة حديثة والمزج بين النغمات في اسلوب فوق الاسلوب الذي نمزج به الآن . ثم لِنَحْذَر ان نؤول بهذا التأليف وبهذا المزج الى تلاحين منافرة لآذاننا . ولا ريب في ان الامر صعب المركب لان العمد الى الاصول ينتهي في الغالب الى فروعها . ولكننا اذا عالجنا التأليف في حذر ودقة غير متهورين ولا متعجلين فسنأتي بموسيقى عربية محدثة ليس الاّ

***

وهنا يتبيّن لنا ما يجب على المعهد . فانه ليس عليه ان يدفع موسيقانا الى علماء الفرنجة قائلاً لهم : ماذا ترون فيها ان خيراً فافتنّوا فيها وان شرًّا فهذبوها ما شئتم ان تهذبوها ، بل عليه ان يرجع الى مناهجهم في الفن والابتداع وحذو حذوهم فيها حتى حين يرسل فيه الى اوربا رهطاً من تلامذته يريدون من موسيقى الغرب اساليبها في الفن وطرقها في التأليف ويتضلعون منها الى ان يبلغوا فيها مبلغ الافرنج ، ثم ينقلبون الى الموسيقى العربية فيهذبونها

التهذيب الحق اذ يتممون اعمال المعهد الفنية من جانب ثم يعالجون الابتداع من جانب آخر فيعيدون الى موسيقانا الصوت الشديد ويخلصونها من النواح واللين المقيمين فيها ثم يلحقون بها المساوقة l'accompagnement فيخرجون بها من النغم القائم على لحن واحد monomélodie الى النغم الجامع لالحان بعضها مؤلف الى بعض على نسب منتظمة .harmonie etc فيضيفون الى الاصوات العربية الصنعة الفرنجية بعد ان يسقطوا منها ما ينشز على آذاننا اسقاط ابن محرز ما استقبح من تلاحين الروم والفرس . فيكون شأنهم بعض شأن السيد درويش ذلك العبقري الذي مزج باغانينا القليل من التناغيم الفرنجية فجننا بادواره حتى عشقنا عشقه وهوينا هواه ولم ننتبه

بيد انهُ لا بدَّ لاولئك التلامذة ان يكونوا بارعين في الموسيقى العربية قبل ان يلتمسوا الموسيقى الغربية والاّ علقوا هذه واعرضوا عن تلك . وليكن مثلهم مثل المجددين من الشعراء عندنا. واليك خليل مطران فلقد أصاب من أدب العرب ما شاء الله ان يصيب ثم تبسط في الادب الغربي فراح على قول شوقي ينهج منهج الافرنج في اساليب العرب

وختاماً فعلى الناس أن يعقدوا آمالهم باولئك التلامذة وان كانوا الآن بين جنبات عالم الخيال . ثم على المعهد ان يحقق آمال الناس فينحدر بهؤلاء التلامذة الى عالم الحقيقة

***

ذيل : ان اصحاب المؤتمر يتساءلون هل من خير في تأليف كتاب يبحث في تاريخ الموسيقى العربية . وجوابنا على ما يتساءلون عنهُ ان الفن لا ينهض بالعلم دون الادب . واليك الفرنجة فانهم يعنون بتاريخ الموسيقى الغربية عنايتهم بترقيتها وبالتأليف فيها . ولهم في ذلك مصنفات جليلة منها بحث مسهب جم الفوائد عنوانه Histoire de la Musique; Edition-Armand Colin. Paris وضعه استاذ من اساتذة جامعة باريس يقال لهُ كومباريو Combarieu

واما المخطوطات التي يفتش عنها اصحاب المؤتمر في سبيل نشرها والمطبوعات التي يلتمسونها رجاء ان يرجعوا اليها في اعمالهم فجلُّها محكيٌّ عنه في تاريخ الادب العربي لبروكلمان Brockelmann وفي تاريخ الآداب العربية لجرجي زيدان

بشر فارس

ليسانسيه في الآداب من السوربون
ومن اعضاء اللجنة التنفيذية لمعهد الموسيقى الشرقي بمصر

باريس



هواجس في الانسان وحياته (١)

للامير مصطفى الشهابي

عاش الانسان بالاوهام آلافاً من السنين وسيظل عبداً لهذه الأوهام حتى يتكامل عقله بعد آلاف اخرى ويصير قادراً على ان يحيط بشيء من اسرار هذا الكون الذي لا يعرفُ لهُ حد ولا مبدأ ولا نهاية

نقرأ في بعض كتب الدين ان الانسان لم يُخلق الاّ منذ سبعة آلاف او ثمانية آلاف سنة فيجيب علماء الجيولوجيا بانهم عثروا على جماجم الانسان وعظامه وعلى ادوات كان يستعملها لا في حقبة الراسبات وحدها بل في حقبة ما قبل الطوفان حتى في اواخر الزمن الثالثي اي منذ مئات الوف من السنين . ومع هذا لا يُعد هذا التاريخ الواغل في القدم شيئاً مذكوراً اذا قيس بعمر طبقات الارض السائرة وما كرّ في تكونها من ملايين السنين

ما هي ثمانية آلاف السنة . انها هنيهة من هذا الزمن بل هي تبدو اذا قيست بهِ اصغر من اللحظة التي تبرق فيها اماضة كهربائية . فقد حفر اناس الارض في الوجه البحري من وادي النيل في القرن الماضي فوجدوا في عمق ستين الى سبعين قدماً قطعاً خزفية واشياء اخرى من صنع الانسان . فاذا ما بلغ غلظ الراسبات من مياه النيل هنالك خمس عقد في كل مائة سنة وفاقاً لرأي احد العلماء يكون عمر هذه المصنوعات ١٤٤٠٠ الى ١٦٨٠٠ سنة . وعثر آخرون هنالك على قطع من الآجرّ الاحمر في عمق ٧٢ قدماً وحسبوا ان الرواسب تعلو عقدتين ونصفاً في كل مائة سنة فبلغ عمر تلك القطع ثلاثين الف سنة ونيفاً . وذكر عالم آخر ان ارض الوجه البحري تعلو ثلاث عقد ونصفاً في كل قرن وان ارتفاعها بلغ ٢٠٠ قدم منذ ما وجد الانسان عليها فيكون ذلك الانسان عائشاً في مصر منذ نحو سبعين الف سنة

اما في اميركا فبينما هم يحفرون في ارض نشأت مما رسب من نهر المسيسبي لبناء معمل للغاز عثروا في اعماق الارض على عظام بشرية وعلى جمجمة لها كل الصفات التي تتميز بها جماجم سكان اميركا الجنوبية وقد قدروا عمر هذه الجمجمة بخمسة عشر الف سنة على اقل تقدير ومنهم

---

(١) كتبت بعد تلاوة « اصل الانواع » لداروين و « احاجي الكون » لهيكل و « الانسان بنظر العالم » لبوخنر و « الفلسفة المادية » لاوغست كونت وغيرها

من حسب لها خمسين الف سنة . ووجدوا ايضاً قطعاً من الخزف يرجع عهدها الى ١٢٠٠٠ سنة او اكثر

وليست هذه السنون المتطاولة (وكلها ترجع الى حقبة الراسبات) بالشيء الذي يعبأ بهِ اذا ما قارناها بعمر الانسان الذي وجدت جماجمهُ وعظامه ومصنوعاته في اماكن من حقبة ما قبل الطوفان كما في مغارة اورينياك في جبال البرانس وكما في مغاور كثيرة في البرازيل وبلجيكا وانكلترا وفرنسا واوستراليا وغيرها من انحاء الارض . أترى ماذا كان عقل الرجل في ذلك العهد البعيد اذ هو لا يملك من وسائل الحضارة شيئاً واذ لهُ سحنة حيوانية وحواليهِ وحوش مفترسة انقرض معظمها كدب المغاور والمموت وفيل ما قبل الطوفان والكركدن وغيرها. ولعل ارفقها بهِ الفرس الوحشي على ما فيهِ من حران وجماح . وكيف كان يتقي شرها وكل ما فتقت لهُ قريحته البهيمية ان يضرب صوانة بصوانة حتى اذا صقل إحداها اعتمدها في طعن اعدائه الكُثُر دفاعاً عن نفسهِ او تلمساً للقوت

وتقرأ في كتب دينية اخرى ان الانسان خلق في احسن تقويم فيجيب علماء التشريح والحياة (بيولوجيا) بان ذلك صحيح في يومنا هذا . لكن المرء لم يكن كذلك في سالف الاحقاب الجيولوجية عند ما اخذ نوعه يتحدرمن حلقات حيوانية معروفة او مفقودة واخذ ينفصل عنها ويستقلُّ في نوعه . ثم اي فخر في هذا التقويم وهو لا يتعدى في كل مظاهره تركيب حيوان من ذوات الفقرات وذوات الاثداء. وكيف يصعر الانسان خده واقرب الاحياء اليهِ القردة وهو واياها من اصل حيواني واحد . واذا كانت هذه الحقائق تستثير غضب الانسان وتصيبه في كبريائه وجبروته فليفكر من حيث علم التشريح في جميع خلايا جسمه ونسجه المختلفة أتراه يرى في اسسها ما يميزها عن مثلها في الحيوانات المذكورة . وليتأمل من حيث الفسيولوجيا اي علم وظائف الاعضاء فيما تأتيه اعضاؤه واعضاؤها من عمل. فهل يرى فرقاً في العملين؟ اليست سنن الحياة تسير على وتيرة لا تبدل فيها ولا تمييز . لاشك ان الانسان قد نما وتكامل مع الزمن لكن الاسس واحدة سواء في تكون الجنين من نطفة ام في تركيب الاعضاء ام في عملها . ثم ان الانسان لا يزال محتفظاً ببعض ما ابقاه فيهِ اسلافه من الاعضاء الحيوانية كالذنب التي تكون ظاهرة في الجنين وتختفي فيما بعد لكن اثرها لا يخفى على المتلمس لها . وكعظمة ما بين الفكين واسنان الحليب وشعر الجنين الصوفي ولحى النساء وشعور الرجل المفرطة وعضلة الاذن التي يروضها بعضهم فيحركون بها آذانهم الى غيرها وهي كثيرة

وليس للصفات التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان شأن كبير اذا فُحصت بمجهر العالم المحقق البعيد عن الخرافات وعن اوهام المعتقدات المختلفة . يمتاز الانسان بعقله وتفكيره ونطقه وسحنته البشرية ووقوفهِ على رجلين واستعمال يده للقبض وبعض صفات اخرى . فأما

العقل والتفكير فهما يكادان يكونان مفقودين في الانسان الوحشي الذي يعيش في اواسط افريقية في ايامنا هذه . فاذا كان تفكير الانسان الذي كان يعيش في اواخر العهد الثالثي مثلاً والذي لم يتعلم صنع الفئوس من الصوان الأبعد لأي . ولعل هذا الاختراع كان في نظره اهم من اختراع أديصن للمصباح الكهربائي والسينما في نظرنا . واذا كان انسان اليوم المتمدين يتزوج ويعيش في اسرة مجتمعاً مع ابناء جنسه ويشتغل بالزراعة والصناعة والعلوم المختلفة افتراه كان كذلك في فجر حياته ؟ لا يختلف دماغ الانسان (وهو مركز العقل والتفكير) عن دماغ الحيوانات القريبة منهُ الأ بكبره وبنمو خلايا تلافيفه ولاسيما بكبر الجهاز العصبي المختص بتقوية المدارك . ومع هذا نرى لكل هذه المميزات اساساً في دماغ القردة حتى حكم الفلاسفة الماديون بأن مدارك الانسان ليست في الحقيقة سوى تكامل ما هو كامن منها في الحيوان الاعجم القريب من الانسان

واما النطق فهو ايضاً نتيجة حلقات بطيئة من التكامل في حركة اللسان . وهو اليوم جدُّ سقيم لدى بعض الشعوب المتوحشة حتى نكاد نُحجم عن تسميته نطقاً . ولا جرم ان الانسان كان في فجر حياته اخرس اللسان ثم اخذ رويداً رويداً يُسمع صوته في تلمس حاجاته كالاطفال والمتوحشين والصُمّ . ثم تكامل نطقهُ مع كرّ الايام وتعاقب العصور الى ان بلغ ما هو عليه اليوم . وقد كتب العلماء كتباً عديدة في إثبات هذه الحقائق إثباتاً علميًا بالحسّ والاستقراء

واما سحنته البشرية فلقد كانت اقرب الى الحيوان منها الى الانسان بدليل شكل عدد من الجماجم التي وُجدت في حقبة ما قبل الطوفان . واما وقوفه على رجلين وقبضه باليدين فهما من الامور التي يسهل على العلماء تعليلها وليس لهما شأن كبير في تمييز الانسان عن الحيوان

يستنتج الفلاسفة الماديون مما ذكر ان الانسان لم يخلق من طين منذ بضعة الوف من السنين بل هو حي من جملة الاحياء على هذه الارض كان أسلافه حلقات حيوانية منذ مئات عديدة من القرون فتطورت تدريجيًا وتكاملت وفقاً للسنن الطبيعية الثابتة حتى صار الانسان على شكله الحاضر اي صار اتمّ الحيوانات واعلاها خلقاً

ويقولون لك اذا سألتنا لماذا وجد الانسان فأنك لن تظفر بطائل لان معرفة ذلك فوق طاقة البشر . وكذا لو سألت لماذا وُجدت الارض أو وُجد الكون أو وُجد الوجود . ولما كان العقل البشري غير قادر على الوصول الى جواب هذا السؤال بأساليب علمية يقينية تركوا الاجابة عنه لاصحاب الفلسفة الغيبية فراح كلٌّ منهم يعلل سبب الوجود بما تفتق له قريحته تعليلاً فلسفيًا لا علميًا . ومتى قلنا « تعليلاً فلسفيًا » معناه ان هذا التعليل لا يرتكز على الحقائق العلمية التي يتناولها الحس فهو اذن قد يكون تعليلاً صحيحاً وقد يكون غير صحيح

ويلخص اصحاب الفلسفة المادية عقائدهم أو نلخصها نحن بما يلي وهو :

اولاً — يجب ان يؤمن الانسان بالحقائق العلمية التي تقع تحت الحس وان لا يعلل الاشياء الاَّ بالطرائق العلمية وأن لا يشتغل عبثاً بالبحث عن اسباب وجود هذا الكون لان عقله لا يدركها وليتمثل ببيت المعري

اما الالهُ فأمرٌ لستُ مدركَهُ فاحذر لجيلك فوق الارض إسخاطا

ثانياً — لما كان كثير من العقائد الدينية لا ترتكز على حقائق علمية اصبح الاعتقاد بها أو عدمه سيين . ويمكن تعليم الناس وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة دون ما حاجة الى اضافة العقائد الدينية اليها كما يمكن تأسيس حكومات لا دينية تسير في شعوبها سيراً عادلاً

ثالثاً — على الانسان ان يعمل الخير لنفسه ولابناء نوعه وان يوفق بينما ينفعه وما ينفعهم حتى تخفَّ وطئة تنازع البقاء

رابعاً — عليه بأن يسعى في توسيع مداركه وفي تذليل قوى الطبيعة والاستفادة منها مع علمه بأنها طالما آذته وفتكت به ولا سيما في سالف الاحقاب

***

ومما لا ريب فيه ان معظم الفلاسفة الماديين ملحدون ولكن الالحاد ليس شيئاً تستلزمه عقائدهم استلزاماً . وكثير منهم يسعون للتوفيق بين الدين والعلم كما يسعى اليه المستنيرون من رجال الدين

وبعد ماذا يتزود الانسان من تلاوة كتب فلاسفة اليونان والعرب والاوربيين على اختلاف أبحاثها ، أتظن انه يتوصل الى معرفة اسباب وجود الانسان أو وجود الكون أو الغاية من الوجود أو المبدأ أو النهاية . انهُ لا يخطو في هذه الموضوعات خطوة واحدة كما أن كل من تصدَّوا للبحث فيها لم يخطوا الاَّ بأوهامهم

ولعلَّ أثمن أمنية للانسان ان يأتي الى هذا العالم بعد الوف من السنين فلربما يكون تقدُّم العقل البشري عند ذلك كافياً لادراك شيء من اسرار هذا الكون

فأما ونحن اليوم على ما نحن عليه من الجهل فان من اكبر لذائذ الحياة ان يعتقد الانسان بأن الجنة تنتظره في عالمٍ ثانٍ . والسعيد اذن ذاك الذي يؤمن بالله وباليوم الآخر ويعمل في حياته القصيرة عملاً صالحاً ينتفع منه ابناء نوعه . ولو لم يكن للاديان من فضيلة سوى انها تزيل من قلب الانسان ذلك الشك القاتل في مصيره بعد الممات لكانت هذه الفضيلة وحدها كافية لاحلال الاديان في النفس موضع التجلة والاحترام

دمشق

القضايا الاجتماعية الكبرى

في الشرق العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

المرأة والرجل

اطلق الغربيون كلمة « سكس » — Sex — على الخصائص التي تميز كلاً من الذكر والانثى في الاعضاء والوظائف والوجهات النفسية ، وهذه كلمة مشتقة من فعل (سكار) اللاتيني غالباً ومعناه « قطع » اشارة الى ان المرأة مقطوعة من ضلع الرجل . وهم يعالجون قضايا الرجل والمرأة تحت عنوانها وقد احسنوا في ذلك لانها تشير الى الجنسين في آن واحد. وخير كلمة تترجم بها الى العربية كلمة « شق » ومعناها في معاجم اللغة « الجانب الواحد من الانسان » ومنها الشقيق بمعنى الاخ كأنهُ شق نسبه أو جسمه من اخيهِ . وذهب بعض الفضلاء الى أن الكلمة الافرنجية مأخوذة من العربية لفظاً ومعنىً . وفي وسعنا ان تفسر « الشق » أو الخصائص التي تميز الذكورة والانوثة من وجهة علم الحياة بقولنا ان التلقيح — وأي اتحاد يفضي فردين مختلفين ذكر وأنثى — هو عمل كبير الشأن في تخليد معظم الاحياء لا جرم ان يكون تمسك الطبيعة بهِ هو السبب الذي أدى الى التفريق بين الذكر والانثى والاحتفاظ بميزات كل منهما وفقاً لما تتطلبهُ الحياة من البقاء او الاستمرار . والتلقيح هو الطريقة التي يتم بها التوالد في الحيوانات اجمالاً فتكون اعضاء التناسل اما في حيوان واحد كما هو الحال في بعض الديدان او تكون في حيوانين مختلفين من ذكر وانثى كما هو الحال في معظم الحيوانات العليا، وطريقة التلقيح هذه تدعى في كتب الحياة « الطريقة الشقية » في حين تتوالد معظم الحيوانات الدنيا كذات الخلية الواحدة بطريقة غير شقية ليس فيها ذكر ولا أنثى بل بمجرد انقسام الحيوان الواحد الى نصفين مثلاً بحيث يصبح كلٌّ منهما فرداً مستقلاً

ولم ينل موضوع الشق في البشر حقه من العناية الاّ في ابحاث المتأخرين لان المتقدمين وجّهوا جل عنايتهم للرجل وجعلوا المرأة ذيلاً له ، وقد تساوى في هذا الاهمال اهل الشرق والغرب معاً وربما كان الشرقيون (على خلاف الشائع) اقرب الى الانصاف ، الاّ ان هذا الافراط في شأن الرجل اخذ يعقبه تفريط الى درجة بعيدة ، حتى ان بعض علماء الحياة ممن

عالجوا قضية التلقيح الاصطناعي في كثير من الحيوانات قال ان الذكر من الوجهة الفنية يكاد يكون فضلة يجوز الاستغناء عنها . بيد اننا اذا تركنا التطرف جانباً فلم نقع في اهمال المتقدمين ولا حفلنا بسفسطة الحيويين المتأخرين ونظرنا الى الذكر والانثى جزئين يتم الواحد منهما الآخر — وهذا هو المعنى المقصود من كلمة الشق — كانت معالجتنا لهذا الموضوع الاجتماعي الخطير متمشية مع العلم الصحيح وبعيدة عن الاغراض والانفعالات. وتزداد حاجتنا الى الاسترشاد بنور العلم بسبب ما ابتلينا بهِ من طغمات المتعصبين ممن استمرأوا الحملة على الشرق وعاداته في الزواج فأدخلوا في الاذهان بعض الآراء العتيقة العنيفة التي تحول دون تفهم الحقيقة مع أن هذا الشرق النابه هو أحوج البلدان في نهضتهِ الحاضرة الى بناء اصلاحه على الاسس الثابتة التي لا دخل للاوهام فيها

تعقد الموضوع وصعوبة الحل

ولا ادل على خطإِ المتسرعين في وضع القواعد العامة من النظر الى الموقف الحاضر في امر الزواج وبناء الاسرة وتشعب الآراء والتطبيقات فيها. فقد اخذت ورقاً وقلماً وجهزت قوائم متعددة بعضها بأسماء اهلي وأصحابي وجيراني وهم ممن عرفتهم من المسلمين وبعضها الآخر بأمثالهم من المسيحيين واليهود وغيرهم من اهل الاديان الاخرى . ووضعت بجانب كل اسم ما يدل على سعادة زواج صاحبه او شقائهِ وهل الطلاق يحل الاشكال أو يزيد في الارتباك وغير ذلك من الملاحظات ومنها ما يتعلق بالضر والتسري والمتعة واتخاذ الخلائل على الطريقة الاوربية فلم تكن النتيجة بجانب قائمة من تلك القوائم اجمالاً ، حتى ان الاستشهاد ببعض الاساتذة من المبشرين ممن ملأُوا الدنيا تشهيراً بوضع الزواج في الشرق لايغير النتيجة كثيراً

والى القارىء بعض الامثلة التي اخذتها لانني عرفتها بنفسي أو سعيت في اصلاحها :

فقد حدث ان كاتباً في محلّ تجاري معروف في البرازيل استولى على قلب ابنة صاحب هذا المحل وهي فتاة اديبة سليمة في نحو العشرين من العمر فمازال يستهويها بازخارف ويستميلها بالتزويق حتى قبلته بعلاً لها فكان الزفاف وكان شهر العسل ثم كانت العودة بالعروس الى الوطن ومعها البائنة التي تزوج بها من اجلها فلما صار في بلده وبين اهله قلب لها ظهر المجن وحول الزخارف الى مكاره والتزويق الى منغصات مما انتهى بفرار العروس الى خارج القطر السوري وهي من زينتها وحليها بجلدها فقط وها هي اليوم تحرق الارَم على ما فرط منها وتطلب الخلاص ولا خلاص

اما الحوادث التي تكون فيها المرأة هي المزخرفة والمزوقة على عكس المثال المتقدم الى ان يتم العرس وينتهي شهر العسل قبل ان تكشر عن نابها فاكثر من ان تحصى. واحصاء سطحي

في الحي وبين الاهل والعشيرة فيه المقنع الكافي. ولاشك في ان مثل هذا الزواج المتنافر حمل طائفة كبيرة من الدول المسيحية حتى العريقة في البروتستنتية منها كالدولة الاميركية على اباحة الطلاق والخروج عن قاعدة « فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان » .

اما المثال الآتي فيتطلب خطة غير الخطة المتقدمة . فقد حدث ان سيدة تزوّجت برجل طاعن في السن فأقام معها على اتم وفاق عشرين سنة كاملة كانت له في خلالها حارساً اميناً وقريناً صادقاً الى ان اقعدته الشيخوخة واضعفت مداركه الايام فطمع اهله في اقصائها عنه ليستقلوا بثروته دونها فما كان من بناته من زوجته السابقة واولادهن الا ان تألبوا عليه فعقدوا حوله مجلساً مصطنعاً من موظفين شرعيين وعلى رأسهم مفتي الديار الشامية وهنالك بشيء من الاستفزاز والاغواء حملوه على طلاقها ، فلا الزوج المقعد المسكين كان راضياً بهذا الفراق وهو في شيخوخته ولا الزوجة التي كانت في زيارة اهلها حيث فوجئت في مساء العيد بهذا النبأ المجرم . وغني عن البيان انه لولا سهولة الطلاق ما حدثت مثل هذا الفعل المنكر

واعرف رجلاً من بيت مشهور في مدينة سورية كبيرة وهو الآن في نحو العقد السادس من العمر قد تزوج باكثر من خمسين امرأة ثيبات وابكاراً فكانت عادته ان يبث العيون والارصاد لاستكشاف زوجة من البيوت المتوسطة او الفقيرة ليصرف معها ردحاً من الزمن فاذا قضى منها لبانته طلقها ونقدها متأخرها بعد ما نقدها الصداق المقدم المتفق عليه. وقد قص عليّ كيف كان يحصل على التقارير التي تهمه في هذا الشأن فانهُ كان يستأجر نساء اخصائيات في فحص الابدان كما يفحص القصّاب الغنم السمينة فينتشرن في الاحياء ويدخلن البيوت خاطبات حتى اذا رأين من اعجبتهن بهيئتها وطولها وعرضها ملن اليها فكشفن عن عنقها وصدرها وساقها الى اخمص قدمها ثم رفعن اليه التقرير عنها شفهيّاً فاذا صادفت هذه الصورة هوى من نفسه عقد وبنى ثم طلق ليعقد من جديد من غير توان كأنه آلة ميكانيكية

ومما هو جدير بالالتفات ان تلك المدينة وقد اظهرت عناية كبيرة بالشؤون الدينية واقامت الارض واقعدتها لكل حادثة لم تطمئن اليها نفسها لم نسمع لها صوتاً واحداً بالاحتجاج على هذا الانحراف مما يدل على ان الذين يعنون بالشؤون الشرعية في تلك الاصقاع لم يجدوا شيئاً من الشذوذ في عمل هذا الرجل المطلاق «المزواج » الذي سخّر بنات الناس لارادته واستثمر ماله فيهن ربحاً فاحش جداً

ان مثل هذه الحوادث التي تتكرر بين سمعنا وبصرنا كل يوم تتطلب من المصلح الاجتماعي ان يعالج هذا الموضوع الخطير بالروح العلمية النزيهة خصوصاً من بعد ما انتشرت الآراء الشيوعية المتطرفة واصبحت بعض البلدان كبلدان الاتحاد السوفيتي الروسية شبيهة بالاباحية لولا بقية عادات دينية وتقاليد متوارثة لا تزال تجاهد جهاد الجبابرة في الدفاع عن الاسرة المهددة

الروابط الاجتماعية الاولى في الاعصر الخالية

نريد بالاعصر الخالية تلك الايام السحيقة التي سبقت عصر التاريخ اذ كان الانسان على حالة من الهمجية هي اقرب الى حالة القردة منها الى حالة البشر . وقد اختلفت انظار الباحثين على البواعث التي ادّت بالافراد الى اجتماعهم عُصَباً كطوائف القردة تجوب الغابات وكيف تحولت هذه العصب بالتدريج حتى صارت جماهير منظمة . ولكن هناك شبه اتفاق على ان من اوائل هذه البواعث واهمها الباعث الشقي الطبيعي بين الذكر والانثى ولذة المصاحبة الناشئة عنهُ ثم ما يحدث بسبب الاقتران فالحمل فالولادة من التآلف بين الام واولادها وما يتخلل ذلك من حنان وعطف وتعاون . لا جرم ان تكون الاسس « العائلية » والحالة هذه سبب الاجتماع الابتدائي الذي تحول فصار اجتماعاً عتريّاً — نسبة الى عترة الرجل وهي ولد الرجل وذريته — ثم قبليّاً وانتهى بشكله المدني الحاضر وحمل كثيراً من الكتاب المتقدمين امثال ابن خلدون على القول ان الانسان مدني بالطبع

الاسرة الاولى باعتبارها وحدة اجتماعية

مهما تغير التنظيم الاجتماعي وتبدل بناؤه فالاسرة لا تزال وحدة ثابتة حتى في البلاد المهددة بالبلشفة ، وهي اصغر انضمام اجتماعي واقواه وقد بقيت الى اجل قريب مصدر الثروة في المجتمع واداة توزيعها واستهلاكها . ونحن في الاسرة كما قال « الموجز في علم الاجتماع » نتعلم ابلغ الدروس الاجتماعية العملية فنمارس فيها حقوقنا الشخصية وننشأ على قاعدة التملك التي تحاربها الاشتراكية المتطرفة ونتعلم كبح جماح النفس وحسن السلوك والانقياد والخدمة والمعروف والواجبات المتبادلة . وفي الاسرة نرى بوادر الدين والاخلاق والتهذيب وكل منا مطبوع بطابعها الدائم

ولئن كان من المستحيل تعيين شكل الاسرة الاولى بالنص وذلك لان التنظيم «العائلي» امر سابق للتاريخ فليس من المستحيل الوصول الى هذا الشكل بالظن والتخمين والقياس . وعلينا بادىء ذي بدء ان نذكر في تعليل وظيفة الاسرة الاساس الآتي دائماً وهو ان تعاون الوالدين على تربية الاولاد أمرٌ ذو قيمة حيوية كبرى في بقاء الجنس . وهذا وحده كاف من الوجهة الطبيعية للاحتفاظ بهذا التعاون وعض النواجذ عليهِ لان الطبيعة حريصة على كل ما من شأنهِ بقاء الاحياء

اماطة اللثام عن الاسرة الاولى

يرجع الفضل الاكبر الى مباحث العلاّمة (جي . جي اتكنسن) في اماطة اللثام عن حالة

الاسرة الاولى وذلك فيما كتبه بعنوان «الاصول الاجتماعية والسنّة الاولى»[١] وتعدُّ آراؤه في المقام الاول وان دخل عليها شيء من التعديل لم يغيّر جوهرها

وقد بدأ (اتكنسن) اساس نظريته بما هو معروف في المجتمع الانساني عامة من تحريم الزواج بين المحارم كالاخ والاخت اولاً ثم بما هو منتشر من عادة خطف النساء ثانياً وهي عادة لا تزال آثارها ماثلة في كثير من المجتمعات البشرية . فقال ان العصبة الاجتماعية الاولى كانت شبيهةً بالسرب الاجتماعي عند القردة في الوقت الحاضر — يعني ان تلك العصبة كانت كناية عن عترة يقودها ذكر كبير . وكان هذا القائد يطارد جميع الذكور ممن يبلغون سن الادراك في العترة لما يشعر بهِ من مزاحمتهم له ولكنهُ كان يحتفظ بمعظم الاناث ويستولدهن . ولا يمنع هذا الحال اثنين او ثلاثة ممن طردوا ان يجوبوا الاصقاع متحدين بل ان يصيدوا امرأة قد شردت من عترتها . ومثل هذه الشرذمة المطرودة التي لا قائد لها كثيرة الوقوع في اصناف القردة ولكنها نادرة في العترة البشرية . وتكون الغيرة الملتهبة في الذكر على اناثه والمكان الذي يعيش فيهِ سبباً كفيلاً بتثبيت الشكل الذي تبنى عليهِ هذه العصبة الاجتماعية الابتدائية وان شئت هذه الاسرة الاولى وباعادة تنظيمها كلما طرأ عليها خلل ، وهذا النوع من التجمع والانضمام عمل يصلح للمعيشة في الغابات حيث الطعام مبعثر ولا يكفي غير القليل من الافراد . ولا عجب ان يستمر هذا النوع من الانضمام الاجتماعي الشكلَ النموذجي لقردة الغابات وان انتظم البغام وهو الشمبانزي في بعض الاحيان بشكل اجواق اوسع من ذلك

ولما كان الانسان الاول في تركيبه اقل صلاحاً للمعيشة في الغابات واكثر ميلاً للاطعمة اللحمية واكثر تكيفاً للمعيشة في الاصقاع الصخرية التي تنبت فيها الحشائش والاعشاب وحيث تكون الفواكه والجذور اقل من الفريسة تصطادها الجماعة بالتعاون فهو يستفيد من كل تكيف عقلي او مزاجي يأذن للاسر الاولى بالنمو والانضمام بشكل وحداتٍ اجتماعية اكبر . وقد صار هذا التكيف ممكناً بسبب التفاعل المتولد من بعض الميول الطبيعية الموجودة بين النساء والاحداث من الذكور

وقصارى القول ان الامهات مثل معظم ذوات الثدي تميل الى حضانة الذكر من نسلها ومراعاتهِ كما تميل الى حضانة الانثى ومراعاتها . الاَّ ان الذكر البالغ يكون في فصل الولادة — وجميع فصول السنة هي فصول الولادة في الحيوانات الصدور — قليل التسامح مع من يزاحمهُ من الذكور وميالاً الى الشدة . ولكي يحفظ الامهات ابناءهن عندهن فهن مضطرات الى ادخال الرهبة في قلب الصغير منهم من الكبير خصوصاً من الشيخ الزعيم في العترة والى تحذير هذا الصغير من التجاوز عن حقوقهِ واثارة الغيرة في نفسهِ ، وبالامثلة الحسية والاوامر والنواهي

(١) Social-Origins & Primal Law.

الابتدائية اتخذت الرهبة الطبيعية في قلب الصغير من قوة والده والخوف من غضبه شكلا محدداً واتجاهاً معيناً، فقد نشأ الصغار على اعتبار ما يمتلكه هذا الشيخ ولاسيما النساء في العترة من المحرمات عليهم وانهم لا يجوز لهم مباشرة بعض الاعمال في حضرته او بالقرب منه . وكان الخوف من الشيخ الكبير «رأس الحكمة» . واستمرت هذه الميول الصبيانية الطبيعية في كثير منهم الى سن المراهقة وما بعده فكان الاحداث من الرجال يذعنون للشيوخ وهكذا تعلم الرجال مبادئ كبح جماح النفس وتولدت في المجتمع الخالي فكرة الخطايا ولاسيما خطيئة التزوج بالمحارم . ومن هنا نشأت تلك المشاعر المخنوقة والمستورة بالضغط التي اتخذها علماء النفس اخيراً بارشاد البحاثة النمسوي (سيجموند فرويد) اساساً لنظرية التحليل النفسي [١]

وخلاصتها ان الامراض العصبية المبنية على الخلل في الوظيفة تنشأ عن صدمة شقية في الجهاز التناسلي في غضون الطفولة، ويستطيع الاخصائي بواسطة ما كشفتهُ هذه النظرية من الحقائق ان يحلل البواعث الخفية والمشاعر المخنوقة التي تسيّر الناس وتتحكم في مجموعتهم العصبية من غير ان يشعروا بها وهذا هو « الوعي المستتر » او « العقل الباطن »

والمجتمع مدين في وجوده الى هذا الكبح لجماح النفس الذي ذكرنا منشأه ومن المتعذر ان نرى امكان حدوثه بطريق آخر . ونحن لا نعرف حيواناً من الحيوانات يبدي اقل تردد او اعتراض على الاقتران بالمحارم . واما كون هذا الاعتراض عملاً تقليدياً متوارثاً لا عملاً غريزياً فظاهر كما قال اصحاب كتاب «علم الحياة» [٢] الذين اعتمدنا عليهم في نقل هذه الخلاصة من سجلات اية محكمة جنائية في الارياف . وثمت بعض الاجتماعيين المشهورين امثال الدكتور (هوبهوس) ممن يخالفون هذا الرأي ويذهبون الى ان الامتناع عن المحارم هو امتناع غريزي ولكن جميع الدلائل المستقاة من الحقائق الثابتة تدل على ان العادة الموضوعة هي السبب المانع من هذا الاتصال

وهنا نبلغ الخطوة الثانية من تاريخ الاوضاع الانسانية الاساسية . فالشاب وقد نمت قوته ونشطت رغبته يرود حدود المنطقة التي تعيش فيها اسرته أو عترته وهو متململ ساخط فيرى ان هنالك نساء اخرى في العالم غير نساء الشيخ الزعيم وهن لا ينالهن التحريم المذكور فيجري في أثر واحدة منهن ويدركها كما سنحت له الفرصة

ولنا ان نقول عن هذه المرأة انها لو كانت شاردةً أو فضلةً زائدة في سرب « عائلي » آخر او كانت امرأة في عترة زعيمها ذبح أو اقعده المرض لكان خروجها ايضاً من باب البحث عن الشاب الشارد . ثم اذا فرضنا ان من عادة الشيوخ المتقدمين في السن ان يفتكوا

(١) Freud's Theory of Psychoanalysis.

(٢) The Science of Life, p. 948.

بالاحداث من الذكور لازدادت ارجحية هذه الفضلة الزائدة من النساء . وقد لاحظ (ولز) واخوانه ان (اتكنسن) كتب هذه الآراء الاستنتاجية منذ نحو ربع قرن فلا غرو انهُ مثّل الذكر في حالة الهجوم القاهر على المرأة الشاردة دائماً والعمل على اختطافها لان ستاراً من الحياء كان يومئذ مسدولاً عند الكتاب على رغائب المرأة الغرزية ومشروعاتها الطبيعية. لذلك قد لا تكون ثمة حاجة الى الهجوم اذ يأتي الشاب بالمرأة الغريبة الى بيته في العشيرة أو في اطرافها أو ربما جاءت هي معه امرأةً له باختيارها من غير ارغام . وقد تضله في بعض الاحيان الطريق فلا تزال تلهيه حتى توصله الى منازل اهلها — الى حي الرجل الشيخ الذي كانت في حوزته . فلو كانت هي الغريبة وقد قدمت معه الى اهله فن الطبيعي ان تعلق عليه املها وتجعله معتمدها فتكون والحالة هذه قد اختارته برضائها فلا تسلم نفسها للشيخ الزعيم. اما النساء الاخرى في العترة فلا يردنها ضرّةً لهن ولا مزاحمة بل يلتزمن جانب الشاب في مقاومة كل تدخل من قبل هذا الشيخ في شأن هذا الكسب اللطيف الذي انضم الى العشيرة. وكنّ حريصات على اقامة حدّ من التحريم بينها وبينهُ . اما اذا انتقل الشاب الى اهل الشاردة فاقامة حدود من التحريم مقابلة لهذه الحدود تصبح ضرورية

***

هذه خلاصة النظرية التي قال بها (اتكنسن) عن الزواج الخالي وهي نتيجة تفكير عميق من جهة وتطابق للوقائع في الحيوانات العليا وللعادات الانسانية المتعلقة بالمحارم من جهة أخرى . وهي عادات لا توجد نظرية تفسرها خير من هذه النظرية . وفي وسعنا ان نتصور تكرار هذا الشكل من الزواج كما قال اصحاب « علم الحياة » ملايين ملايين المرات في غضون عشرات الالوف من السنين الى ان استقرت عادة « الزواج الخارجي » (exogamy) على مهل وتولدت معها فكرة المحارم في الزواج بين الحماة وصهرها وبين الكنة وحميها — وهذا التحريم فذ في علم الحياة خاص بالانسان وعام في مجتمعه لان سائر الحيوانات تتزاوج من غير ان تقيم حدّاً من حدود المحارم

لكن هذا الاطلاق عن منع زواج المحرم يحتاج الى شيء من الايضاح لان الناس في القرون الاولى لم يكونوا يأنفون من التزوج بالمحارم من الاقارب اللحِ كما نأنف نحن وخصوصاً ملوكهم فاننا نرى في تاريخ البطالسة في مصر مثلاً ان الواحد منهم كان يتزوج اخته وفي تاريخ الفراعنة ان رعمسيس الثاني فعل ما فعله قورش ملك الفرس فتزوج اثنتين من بناته واما ساماتيخوس الاول فتزوج ابنة واحدة فقط وذكر (وسترمارك)(١) عن بعض السياح ان ملوك

(١) The History of Human Marriage, Vol. II. p. 5

(الأنكا) في بلاد (البيرو) في اميركا الجنوبية استنوا سنة واجبة الاتباع وهي ان ولي العهد في المملكة مرغم على التزوج بشقيقته الكبرى . والظاهر ان هذا العمل كان خاصاً بالملوك . وجاء في التوراة ان ابرهيم تزوج ساره اخته لابيهِ [١] وفي الاصحاح الثالث عشر من صموئيل الثاني ان (أمنون) راود اخته (ثامار) عن نفسها فقالت له « لا يا اخي لا تذلني » ومما يدل على ان الملوك كانوا يبيحون هذا الطلب قولها فيما بعد « والآن كلّم الملك لانهُ لا يمنعني منك »

وذكر (مالو) في كتابه « آثار جزيرة هاواي » في المحيط الهادي ان خير خليلة لاكبر امير هي اخته الشقيقة .وكان مثل هـذا الزواج يدعى (بيو) اي قوساً للدلالة على الانحناء والتقاء الطرفين فاذا ما أثمر ثمرة من الابناء الصالحين دعي الولد « نيناوبيو » اي اميراً من الطبقة الاولى ويبلغ من التقديس انّ كل من دخل عليهِ سجد له تعظيماً واجلالاً

وأباحت الشريعة لليهودي ان يتزوج ابنة اخته وابنة اخيه ولكنها لم تبح للعمة ان تتزوج ابن اخيها ولا للخالة ابن اختها على ان الشريعة في جرمانيا وفي ولاية نيويورك اباحتهما كليهما . وفيما عدا زواج الخال بابنة اخته والعم بابنة اخيه عند اليهود (وهم يتشاءمون منهُ في الشرق) ومسألة الرضاع عند المسلمين فالاختلاف بينهما بسيط . وهذا نص المحارم في الاسلام: « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف انه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلا . حرّمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم التي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الاّ ما قد سلف ان الله كان غفوراً رحيماً [٢] »

ويدل القسم الاول من هذا النص على تلك العادة المنكرة التي كانت منتشرة في الجاهلية من اباحة تزوج الرجل بامرأة ابيه لانها حسبت من جملة مخلفاته الى ان ابطلها الاسلام ودعاها بحق فحشاً ومقتاً . ومن اغرب ما ذكر عن الحلائل وزواجهن قول (وسترمارك) عن الفلاحين الروسيين ان الوالد منهم وهو حريص جداً على تزويج ابنه صغيراً كي يستعين بامرأة اخرى تساعده في زراعتهِ يضطجع معها اي مع الكنة الى ان يبلغ ابنه وهو زوجها الشرعي سن الرشد ، وان هذا النوع من الزواج المشترك الى حين بين الوالد وولده لا يزال معمولاً بهِ في سيبيريا [٣]

---

(١) الاصحاح العشرون من سفر التكوين في التوراة

(٢) سورة النساء الآية الثانية والعشرون

(٣) The History of Human Marriage Vol. III. p. 131

ذكرنا المحارم في الاسلام وهي بالاجمال محارم العرب في الجاهلية إلاّ مسألة امرأة الاب التي اشار اليها الكتاب العزيز، ولاحاجة بنا بعد الاختبارات المستقاة من علم الحياة الى القول ان الاقتصار في الزواج على الحلقات الاهلية القريبة يؤول بالنسل الى الانحلال وهذا هو تعليل قضية المحارم من الوجهة الحيوية اجمالاً فثل هذه الاختبارات القيمة عرفها الزراع ايضاً اذ لاحظوا الاضرار البليغة التي تصيب بيادرهم من الاقتصار في انتخاب التقاوي على المحصولات الموضعية

***

هذه هي خلاصة الرأي الشائع عندعلماء الحياة والاجتماع في أصل الاسرة الاولى ونظريتهم في المحارم وخطف النساء فاذا ما تذكرناها ونزعنا من انفسنا الاوهام العالقة بها عن الزواج في سن الصغر ومن روايات العجائز وعنعنات المقلدين وخصوصاً بعض الغربيين الذين جعلوا دأبهم الطعن في الشرق وأوضاعه كان في طاقتنا ان نعالج في المقال الآتي الطلاق والزواج وحرمة الاسرة والدواعي التي تهدد روابطها بالانحلال وغير ذلك بالروح العلمية اللائقة

***

على ان تسرب الاخبار الكاذبة بواسطة السياح المصدقين والملفقين إلى أوربا لم يخل من تأثير قبيح انطبع حتى في ابعد العلماء عن التعصب الديني كما حدث لرودلف بايندر مثلاً وهو أستاذ الاجتماع في أكبر معهد علي في نيويورك فقد ذكر في كتابه «القضايا الاجتماعية الكبرى» ان العرب والبربر في شمال افريقيا «يقرون الضيف بتقديمهم نساءهم وبناتهم للاضطجاع معه وان من عادة (عرب الحسنية) ان يزوجوا المرأة من نسائهم لمدة اربعة أيام في الاسبوع وان يتركوا لها الحبل على الغارب في الايام الثلاثة الباقية» Major Social Problems, p. 48. ولايجوز لمثل هذه السخافات ان تبقى في كتب العلم والتحقيق في امرها لا يحتاج الى اكثر من زيارة لمضارب البدو على بعد كيلومترات من حواضر الشام والعراق يزورها الكاتب فيرى بعينيه قيمة العِرض في نظر العرب والفرق في ذلك بينهم وبين الافرنج

« شلال تيجوكا »

هو شلال كبير ينحدر من أعالي جبال « ألتوبوافيستا » ويصب في وادي « تيجوكا » ووهادها المرعة الخضراء، وتيجوكا هذه حي جبل الموقع مرتفع عن أحياء عاصمة الاتحاد البرازيلي وعلى مسافة قريبة من الشلال حدائق فتانة ساحرة ينقطع فيها عشاق العزلة الى أحلامهم وتأملاتهم ويزورها سكان العاصمة للنزهة والتمتع بمنظر الشلال المتفجر المهيب وهو يقذف من شدقه الزبد على تلك الصخور الرمادية المتراكمة في غياض ملتفة الحواشي تكاد لا تلمحها الشمس حتى تحتجب وراء سلسلة من الآكام والغابات المتشابكة الغضة

أشلال تيجوكا — ماذا النواحُ ... أتبكي نظيري نعياً عبرْ
ترى أنت عين الزمان تثرُّ الد ... موع أم أنك صوت القدرْ
تفيض بما لا تفيض العيون ... وتشدو بما ليس يشدو البشرْ
فهلاّ مللت الغناء الشجيّ ... وهلاّ اجتويت البكا والوجيب
فقد كدت تبكي عليك الصدى ... لهذا الغناء وهذا النحيب

وفتّت تحتك صم الحجرْ

* * *

غسلتُ بمائك عيني وعدت ... فأبصرت ما الناسُ لا تبصرُ..
فبالله قلْ لي — الامَ تظلّ — كذلك تجتاحك الأعصر ؟
وأنت تكرّ كرور الزمان ... فلا تستقرُّ ولا تفترُ
وهذا الوجود كما كان قبل ... شعوبٌ تجيء وأخرى تروحْ
ودنيا تضجّ بسكانها ... فهذا يغني وهذا ينوحْ

وذلك مستسلم للقدَرْ

* * *

فديتك قيثارةً للطبيعة ... من مقلتيها نسلت الوترَ
فطهّر بدمعك وجه الدجى ... وشنّف بلحنك أذن القمرْ
وعسّلْ بكأسك ثغر الورود ... فترقص سكرانة في السَحرْ
وخلِّ فؤاديَ يقضي ظما ... لدى برد سلسالك الدافق
فلست تروّي قلوبَ العطاش ... الى نهلات الهوى الصادق

ولو سال من جفنك الكوثرْ

* * *

أشلال هذي الربى والوهاد ... يخمّش فيها الظلامَ الصباحْ
أتذكر من أمسنا ليلة ... تحلّت سماها بزهر الأقاحْ
و « ليلى » تغني الى جانبي ... غناءً كترجيع ذات الجناحْ

فأصغى النسيم الى شدوها وأنصت في عشه البلبلُ
فكانت كعصفورة في الربيع تضنُّ بعصفورها يرحلُ
وقد يُفجع المرء ما يحذر . .

* * *

وشجوكَ ، سيّان أضحى لديَّ — اخترام العهود وحفظ الوداد
وإما استحال النهارُ ظلاماً وإما استحالت ذكاء رماد
وهذا الوجود اذا ما أتى عليهِ بشرخ الشباب النفاد
فما زال من قد تعشقت فيها جمال الحياة ، احتواها الفناء
فلست أبالي ابتسامَ الربيع وحزنَ الخريف ودمعَ الشتاء
وغصنَ شبابي إذ يقصفُ

* * *

احقّاً أتتك بجنح الدجى من الغاب جنّية ساحرَة
وكنت قديماً سحابة صيفٍ تمرُّ بغاباتها عابرة
لذا حولتك الى جدولٍ لكي تستحمَّ بك الماكرة
فصرت وساماً بصدر الربيع وصرت حليّاً بجيد الحقول
تردد منذ قديم الدهور صدى نغماتك كل الفصول
كأنك من صدرها المعزفُ

* * *

تفجرَ ولوّنْ خدودَ الرياض فيبتهج الوردُ في كمّهِ
فإنك إما جفاه الغمام الحبيب الوفي — على زعمهِ
تبرد حرّا وتنعش نفسَا
وتنبت زهراً وتنضج غرسَا
فتدخل قسراً على القلب حسّا
وان كان أولع فيه الجفاف

* * *

يرفرف حولك سرب الحسان كسرب الحمام على ضفتيك
وكم تتلاقى أماني الشباب وأحلامهن على جانبيك
فيخفق صدرٌ ويحمر خد
ويرشف ثغرٌ ويهصر قدُّ
ويهتك سترٌ وينثر وردُ
فتبكي لهذا عيون العفاف

« البرازيل » شكر الله الجر

مهاتما غاندي

سيرته بقلمه

ايام المدرسة

عقدت اواصر الصداقة بيني وبين أحد اقراني في التلمذة ، وكان معروفاً عنهُ انهُ غير مستقيم الاخلاق فحذرتني والدتي منهُ وحذرتني زوجي . ولكني كنت من الكبر بحيث لا اخضع لنصائح زوجي ، وحاولت لاول مرة ان اعمل على الضد من ميول امي . كثيراً ما قالتا لي اني مع قرين سوء . ولكن اجبتهما « اني اعرف صديقي فيهِ المعايب التي تذكرانها ولكنكما لا تعرفان فضائله . وانه على ذلك لا يستطيع ان يفسد اخلاقي ويقودني في طريق الرذيلة، لاني انما اقصد بصداقتهِ ان أقوّم معوجه على اعتقاد انهُ اذا استقام اصبح من احسن الرجال . واني لأرجو ان لا تشفقا من مصاحبتي اياه » . وكان هذا الحادث اول ما حاولت ان اكون مصلحاً في ناحية من نواحي الحياة

لم تقنعا بما قلت ، ولكنهما تركتاني اقطع شوطي . فلم البث غير قليل حتى استبان لي ان حسابي قد طاش ، وعرفت ان من يريد ان يقوّم اعوجاج شخص لا يجب ان يكون على علاقة حبية بهِ ، ولأن الصداقة الحقيقية صفة نفسية قلما توجد في هذه الدنيا . ان الصداقة لن تكون ذات قيمة ولن تدوم الاّ بين الطبائع المؤتلفة . والاصدقاء يؤثر بعضهم في بعض تأثيراً عكسيًّا . ولذا لا يكون من مجال لان يصلح صديق من معايب صديقه او يؤثر في اصلاح نقائصه. ورأيي ان الانسان يجب ان يبتعد عن الارتباط بعلاقات عاطفية مع الناس، لانهُ بذلك انما يكون اقرب الى التطوح مع الرذيلة منهُ الى اتباع الفضائل . وان الذي يريد ان يعقد صداقة مع الله ، يجب اما ان يظلّ وحيداً ، واما ان يعقد صداقتهُ مع الدنيا كلها. وقد اكون مخطئاً، ولكن التجربة دلتني على ان محاولتي في عقد صداقة اخلاص، كانت فشلاً مؤلماً

كانت تجتاح « راجكوت » في ذلك العهد عاصفة من « الاصلاح » ! ! ! — فقال لي صديقي يوماً ان كثيراً من مدرّسي مدرستنا يأكلون اللحم ويعاقرون الخمور. ولم يكتف بهذا بل ذكر اسماء رجال معروفين من « راجكوت » قال انهم يفعلون ذلك . فعجبت من الامر وسألتهُ السبب في هذا : فقال لي ما يأتي : — « نحن امة ضعيفة لاننا لا نأكل اللحم،

والانجليز قادرون على حكمنا واخضاعنا لانهم من اكلة اللحوم . وخذني مثلاً . فانك تعرف مقدار اصطباري وتجلدي واحتمالي المشقات فوق اني عدّاء معروف . والسبب في هذا اني آكل اللحوم. والذين يأكلون اللحوم لايصابون بفساد الدم، واذا جرحوا التأمت جروحهم سريعاً . ولا يمكن ان نتهم مدرسينا وغيرهم من الرجال النابهين ممن يأكلون اللحم بأنهم مغفلون. انهم يعرفون ما لهذه العادة من فضائل . وانهُ لواجب عليك ان تقتص أثرهم. فليس في الدنيا مثل التجربة . جرّب وأنت تعرف مقدار العافية الذي يلابس جسمك »

كان اخي الاكبر قد وقع في الخطيئة ، فأيده وحاول اقناعي ، بأني ضعيف الجسم وهو قوي . وكان صديقي متفوقاً في العدو الى مسافات بعيدة وقادراً على الوثب العالي الى درجة مدهشة . فكان هذا سبباً في ان اميل الى تصديق ما يقول . ولماذا لا اصبح قويًا مثله؟

كنت جباناً . كان يغشاني الخوف من اللصوص والاشباح والافاعي . ولم اكن اجرؤ على ان اخرج من البيت اذا اظلمت الدنيا وناء الليل على الوجود . كانت الظلمة تفزعني. وكان من المستحيل عليَّ ان انام في الظلام ، لاني كنت اتصور اذا اظلمت الدنيا من حولي ان اللصوص آتون من ناحية والاشباح من اخرى والافاعي من ثالثة . فكان لا بد من ضوء في حجرتي. وكانت زوجي اكثر شجاعة مني ، فكان هذا يخجلني . لم تكن تعرف خوفاً من اشباح او افاعٍ ، وكانت تذهب حيثما شاءت في الظلام . وكان صاحبي يعرف فيَّ هذا الضعف، فكان يقول لي انهُ يستطيع ان يمسك في يده أفاعي حية ، وان يقارع اللصوص ، وانهُ لايعتقد وجود الاشباح . وان كل هذا راجع الى انهُ من أكلة اللحوم

كان لكل هذا اثره في نفسي فهزمت . وبدأت نفسي تحدثني بأن أكل اللحوم خير، وانهُ سوف يجعلني قويًا شجاعاً وان اهل الهند اذا اعتادوا اكل اللحم استطاعوا ان يستقووا على الانكليز ويطردوهم من بلادهم

حددنا يوماً للبدء في هذه التجربة . وعزمنا على ان نبدأ بها في الخفاء. فان «الغانديين» من الفايشنافا — Vaishnavas — وأبواي من اشد الناس استمساكاً بعرى العقيدة . ومما يدل على هذا ان للاسرة معابدها الخاصة بها ، وكانت العقيدة « الجانيّة » Jainism [1] عظيمة الاثر في «جوجرات» ، والامتناع عن اكل اللحوم كعقيدة دينية يستمسك بها اهل الجانية والفايشنافية لم تظهر في طرف من اطراف الهند بما ظهرت بهِ من قوة الاثر في «جوجرات» . وهذه هي العقيدة التي شببت في احضانها وتحت سلطانها . أضف إلى ذلك

(١) ظهرت العقيدة الجانية في الهند في نفس الوقت الذي ظهرت فيه البوذية . ومن مبادئها الاساسية عدم الاعتداء على الارواح وسلب اشخاص نعمة الحياة . وكانت هذه العقيدة من اشد العقائد اثراً في نفوس ابنا تدين منذ ازمان طويلة

اني كنت شديد الاحترام لأبويَّ كثير الخضوع والولاء لهما . وكنت على يقين من انهما يموتان توًّا اذا علما اني آكل اللحوم واني انتهك حرمة العقيدة المقدسة . وكان حبي للصدق والحق يجعلني شديد الاباء . ولم يكن في وسعي ان انكر على نفسي واغالطها في حقيقة اني بأكل اللحوم اغش والديَّ واني اموّه عليهما . ولكن عقلي كان يتجه الى «الاصلاح» . لم يكن الامر عندي راجعاً الى ارضاء شهوة البطن . بل كنت اريد ان اصبح قويًّا شجاعاً متين العضلات مشدود الاصلاب، وان يصبح بقية اهل الهند على هذه الصورة فنستطيع ان نهزم الانكليز وان نحرر الهند . ولم اكن حتى ذلك العهد قد سمعت كلمة « سواراج » (الحكم الذاتي) ولكن كنت اعرف ما معنى الحرية . ولقد اعماني حب «الاصلاح » كما كان احتياطي في ان آكل اللحم سرًّا ، سبباً في ان اطوح مع الوهم فأقول في نفسي ان اخفاء الفعل عن ابويَّ كاف في ذاته لان يجعل فعل الشر بعيداً عن ان يكون تناقضاً مع الصدق وحب الحق

وآذنت الساعة. وانهُ ليصعب عليَّ ان اصف حالتي وصفاً صحيحاً . اكتنفني من ناحية حب « الاصلاح » ، ومن ناحية اخرى جدة امر ،ارى في فعله استدباراً لعهد واستقبالاً لعهد آخر في الحياة ، ثم التخفي لاتيان فعل ٍ شأن اللصوص . ولكننا ذهبنا معاً نفتش عن مكان منفرد بجوار النهر ، وهنالك رأيت اللحم لاول مرة في حياتي . وكان معنا خبز صنع على الطريقة الانكليزية . فلم استذوق شيئاً منهما . فاللحم كان في فمي كانهُ جلد شديد التماسك، فلم استسغهُ ، وشعرت بأني مريض فتركت المكان في الحال

امضيت بعد ذلك ليلة شديدة الوطأة . اعتراني كابوس مخيف فكنت كلما هممت بأن انام خيل اليَّ ان عنزاً مذبوحاً ينزف دمهُ يتخبط بجواري فأهبُّ مرعوباً فزعاً وفي قلبي اشد ما يمكن ان يتصور من الم الضمير

ولكن كنت اذكر نفسي بان ما فعلت كان واجباً ، فتروّح هذه الفكرة عني بعض الشيء، واستعيد شيئاً من صفاء النفس . ولم يكن صديقي من الذين ينثنون عن عزمهم بسهولة . فأخذ يطهي الواناً من الطعام يجعل ظهور اللحم فيه اقلَّ تعرضاً للنظر . ثم تدرجنا من ذلك الى الأكل في مطعم فاخر الرياش ، كان صديقي على معرفة بطاهيه ، بدل أن نعتزل على بقعة مهجورة من شاطىء النهر

وقلَّ بعد ذلك ان اتناول طعامي في البيت ، فكنت اعتذر لأمي كلما جهزت لي طعاماً باني مضطرب المعدة واني مريض . وكنت اشعر باني اكذب واني اكذب على اميّ ! وكنت اعلم ان ما من شيء في الحياة يؤثر في نفس والديَّ ما يؤثر فيهما معرفتهما باني اصبحت من أكلة اللحوم . فكانت هذه الفكرة تنهش قلبي ولا تريح ضميري ساعة واحدة . وما بلغت

هذه الحالة حتى اخذت نفسي تحدثني قائلة — « انه وان يكن من الواجب ان آكل اللحوم، وان اتناول هذا الطعام ابتغاء « الاصلاح » ، فان الكذب على الابوين وغشهما أنكر من الامتناع عن اكل اللحوم . فيجب اذن ان لا اعود الى هذا العمل ما دام ابواي على قيد الحياة ، فاذا طواهما التراب ، فهنالك اكون حرًّا ، فآكل اللحم علناً بدون خشية . ولكن قبل ان تحل تلك الساعة ، فلامتنع عن اكل اللحوم » . ومنذ تلك الساعة لم اذق اللحم ابداً . ولكن العظة الصحيحة هي اني حاولت ان اصلح فاسداً ، ففسد صلاحي، من غير ان اشعر باني كنت سائراً نحو التردي في هذه الحمأة الدنيئة

وتعدى تأثير هذه الصداقة الى علاقتي الزوجية وأمانتي لزوجي . اخذني صديقي يوماً الى ماخورة من مواخير المومسات، ودفع عني الاجر المطلوب . ولقد زودني بالنصائح اللازمة واحكم الترتيب كل احكام . هأنذا اخذت اردى بين انياب الرذيلة ، ولكن الله الرحيم رحمني من نفسي وصانني من غوايتها فردني اعمى اصم في تلك الماخورة وخرجت منها من غير أن اتلوث بخطيئة الفعل . شعرت بان رجولتي قد جرحت وان الارض تميد بي لتبتلعني ، غمًّا وخجلاً . ومنذ تلك الساعة لا اذكر الحادثة الاّ ارسلت من قلبي بشكران حار الى الله جزاء ما صرفني عن هذا الفعل الشنيع . واني لاذكر اربع حوادث من هذا النوع في حياتي، خدمني الحظ لا قوة الارادة في الفرار من الوقوع في خطيئتها . اما اذا نظرنا في مثل هذه الحوادث من الوجهة الاخلاقية الصرفة ، فلا يمكن ان نعتبرها اكثر من غيبوبة ادبية ، تموت فيها المشاعر والعقائد . ذلك لاني اعتقد ان تحرك الشهوة البدنية لا تقل نقصاً عن اتيان الفعل نفسه . اما اذا نظرنا فيها من وجهة الحياة العادية فان الرجل الذي يفر من ارتكاب خطيئة يعتبر ناجياً، ولا اشك في اني لم اعندُ هذه القاعدة في تجاريبي التي جرت هذا المجرى. وفي الحياة افعال يعتبر الفرار من اتيانها عناية الهية تنجي الشخص والذين هم حوله من الناس. وبمجرد ان يرتد الانسان الى مشاعره ويستيقظ ضميره ، فانه لا يتوجه في الحياة الى شيء اللهم الاّ الى المراحم القدسية يشكرها على فراره من العصيان . واني لاعلم ان الانسان قد يخضع للغواية وقد يستقوى عليه الايحاء والاغواء فيخطىء ، ولكن كثيراً ما تتدخل العناية العليا في شؤون الكثيرين فتنقذهم رغم انوفهم . اما كيف يحدث ذلك ؟ والى اي حد تذهب حرية الانسان ؟ والى اي حد يخضع الانسان لحكم ما هو قائم من حوله ؟ واما كيف يتغلغل القدر في مسارح الحياة الانسانية، فذلك سر غامض ، وسيبقى سرًّا الى الابد

كل هذا لم يكن كافياً لان يفتح عيني على شيء من رذائل صديقي وخطر مصاحبته . وكان هذا العمى النفسي سبباً في ان اجرع بضع جرعات مريرة قبل ان تتفتح عيني على شيء من نقائصه ، عبرت عنها افعال جاءت عرضاً وعلى غير انتظار . كان صديقي احد الاسباب

الاساسية التي قامت لاشعال نار الخلاف بيني وبين زوجي. فقدكنت زوجاً محبّاً غيوراً، وعرف في صديقي هذه الصفات ، فاخذ يزكي النار الكامنة ليشعلها ويرسل بلهبها في صفاء الاسرة قويّاً محطماً . ولم اكن اشك في صدقه . غير اني حتى اليوم لا استطيع ان اغفر لنفسي ما ارتكبت من قسوة ازاء زوجي، وجرائمي التي تحملتها صابرة ، ولم يكن لها من سبب الاَّ اخبار صديقي هذا . وليس في العالم من يحتمل ما فعلتُ مع زوجي الاَّ الزوجة الهندوكية ، وهذا هو السبب في اني اعتبر المرأة معنىً مجسماً من التسامح . فخادمك يترك خدمتك ، وولدك يفر من تحت سقفك ، وصديقك يقطع معك علاقتهُ . اما الزوجة ، حتى اذا شكّت في زوجها وملأتها الريبة ، فانها تظل هادئة . ولكن اذا شك فيها الرجل ، فهدمها ثمن الشك ، وسقوطها وتشردها عربون الريبة . الى أين تذهب ؟ ان الزوجة الهندوكية لاتستطيع ان تطلب الطلاق في محكمة . ان القانون لا يحميها . ولن اسامح نفسي او اغفر لها خطيئة اني كنت سبباً فيما تصل الحال بزوجي الى هذا المآل مآل اليأس والقنوط

ان سرطان الشك لم تقتلع جذوره من نفسي الاَّ بعد أن فهمت « الاهمسا » Ahimsa. (١) مع كل ما يرتبط بها من العلاقات والاعتبارات . هنالك رأيت عظمة البراهماشاريا (٢) —Barahmacharya— وتحققت ان الزوجة ليست رقيقة للزوج ، بل رفيقة ومعينة في الحياة ، وان لها حق ان تقتسم مسراته واحزانه ، وانها حرة كالرجل في ان تختار ما يلذ لها في الحياة من سبل الحياة . واني كلما ذكرت تلك الايام السوداء ، ايام الشك والريبة ، ملأني الحزن العميق والالم المحض تلقاء ما كنت فيه من الغفلة والتهاب الشهوة والقسوة ، واحتقر تلك الثقة العمياء التي وضعتها في صديقي

حدث في ايامي المدرسية وقبلها بقليل اني اخذت واحد اقاربي نعكف على عادة التدخين . لم نكن ندري ما هو التدخين ، ولكني واياه تصورنا انهُ في ان نرسل بالدخان فيخرج حلقات كالسحاب في الهواء لذة . وكان عمي من كبار المدخنين . وكنا كلما رأيناه يدخن ، حاولنا ان نحتذي حذوهُ . ولكن لم يكن لدينا نقود . فاخذنا نلتقط اعقاب السجاير وندخنها . لم يتيسر لنا ان نجد الاعقاب دوماً ولم يكن فيها من الدخان ما يكفي لتحقيق غرضنا . فبدأنا نسرق بضعة دريهمات من جيب الخادم لنشتري بها سجاير هندية . واين نخبئها ؟ كانت هذه المشكلة سبباً في

---

(١) الاهمسا بالمعنى الحرفي البراءة وعدم استعمال العنف . وهي في هذه المعنى تعادل معنى الحب. والذي يظهر من هذه الفكرة ان عدم التعاون والعصيان المدني مع الامتناع عن استعمال العنف ، وهي الوسائل الاساسية التي يستخدمها غاندي لمقاومة الاستعمار الانجليزي في الهند ، متحدة اصلا من مبادىء دينية صرفة

(٢) البراهماشاريا بالمعنى الحرفي الخلق الذي يؤدي الى الاتصال بالاله . ومن أركانه ضبط النفس والعفة والتقشف

ان ندخن بعض اوراق الاشجار التي سمعنا انها يمكن ان ترسل الدخان كما يرسل التبغ ، فجمعنا منها قدراً واخذنا ندخنهُ . غير ان حب الاستقلال اخذ يأكل في قلبينا ، لان خوفنا من ان ندخن امام من هم اكبر منا سناً ، جعلنا نشعر بان هذه الحياة لا قيمة لها من غير ان يكون الانسان حراً مستقلاً بذاته . وفي النهاية وكرهاً لهذه الحياة صممت وقريبي هذا على ان ننتحر

ولكن كيف ننتحر ؟ ومن اين نحصل على السم ؟ سمعنا ان بزور الداتورة سم ناقع . فذهبنا الى الغابة نبحث عن حبها وجمعنا شيئاً منهُ ، وحددنا المساء لارتكاب جريمة الانتحار . فذهبنا الى معبد «كيدا رجي مندير» ووضعنا زبداً سائلاً في مصباح المعبد ، وزرنا المقام الاقدس ، ومن ثم اخذنا نبحث عن زاوية منعزلة . غير ان الشجاعة خانتنا . قلنا لنفرض اننا لم نمت تواً ؟ وما هو الخير الذي نجنيه من ان ننتحر ؟ لماذا لانستقل بانفسنا ونكفيها شر الموت ؟ ومع كل هذا ازدرد كل منا حبتين او ثلاثاً ، ولم نجرؤ ان نزدرد اكثر من هذا العدد . ولم نكد نزدرد الحبات حتى تملكنا شعور الخوف من الموت . فهرعنا الى المقام الاقدس ، وعاهدناه على أن لا نرجع الى تنفيذ فكرة الانتحار وان نقلع عنها . والحق ان تنفيذ الانتحار ليس سهلاً كتصوره . وما سمعت منذ تلك الساعة شخصاً يهدد بالانتحار ، الا واعتقدت انهُ بعيد عن الجد وانهُ الى الهزل اقرب

لقد صرفتنا فكرة الانتحار عن تدخين اعقاب السجاير وعن سرقة نقود الخادم . لم أدخن بعد ذلك قط . واخذت هذه العادة تلوح لي كأنها ضرر وقذارة . وكلما فكرت في الامر لا استطيع ان اعرف السبب في انتشار عادة التدخين هذا الانتشار المريع في كافة انحاء العالم . واني لاختنق اذا سافرت في قطار عبق جوه بدخان التبغ واشعر شعوراً عجيباً بحاجتي الى الهواء الطلق النقي

لم تكن جريمة سرقة الخادم آخر سرقة ارتكبتها . اما السرقة الثانية فحدثت ولي من العمر خمس عشرة سنة . فان اخي الذي اغواني وصديقي على اكل اللحم كان قد استدان خمسة وعشرين روبية وكان بيده حلية تتدلى منها قطع من الذهب ، فسرقت قطعة منها وبعتها ودفعت عنهُ الدين . ولكن هذا لم يكن مما يمكن احتماله على نفسي . فصممت على ان لا اسرق مرة اخرى . وحاولت ان اعترف لابي ، ولكن لم اجرؤ على الكلام . لم امتنع خوف ان يضربني ابي ، فاني لا اذكر انهُ ضرب واحداً منا طول حياته ، ولكنني خشيت الألم الذي احدثه في نفسه باعترافي . واخيراً صممت على ان اكتب الاعتراف بيدي ، وارسل به الى ابي طالباً منهُ العفو والغفران . فكتبتهُ على قصاصة صغيرة وسلمته اليه يداً بيد . ولم اعترف بجريمتي فقط ، بل طلبت منهُ ان يعاقبني عليها ، ورجوته ان لا يعاقب هو نفسه بالاسترسال مع الحزن والالم ، ووعدته بان لا اسرق مرة اخرى

كنت اهتز رعدة من مفرق رأسي الى اخمص قدمي لما قدمت له الاعتراف ، وكان يشكو ناسوراً حاداً وكان مستلقياً على فراشه الذي لم يكن سوى دكة من الخشب الصلب . فلما قرأ الورقة تساقطت الدموع من عينيه كاللآلئ البيضاء حتى بللت الورقة ، ثم اغمض عينيه برهة مستغرقاً في لجة من الافكار ثم مزق الورقة . فبكيت لبكائه ولألمه . ولو كنت فناناً اذن لرسمت صورة رائعة من هذا المنظر ، فانهُ لا يزال حيّاً في خاطري كما وقع تماماً . ولقد طهرت تلك الدموع البريئة قلبي وغسلت خطيئاتي . ولن يدرك هذا الحب الا من يكابده

كان هذا الدرس بمثابة وضع قواعد « الاهمسا » موضع التطبيق . لم استذوق من هذا الدرس في ذلك العهد الا انهُ عطف أبوي اما اليوم فاني اعتقد انهُ « الاهمسا » في براءته وطهره . فان الاهمسا اذا احاط وتغلب ، فانه يغير كل شيء يمسه . لاحدَّ لقوته ، ولا نهاية لأثره . ان ابي لم يكن من التسامح بحيث يذهب به حب المغفرة الى الحد الذي وصل اليه . ظننت انه سوف يغضب وانما غضبه سوف يلتهب ، فيرسل بكلمات جارحة ،وانه سوف يضرب جبينه بيده . ولكنه كان هادئاً . واني لاعتقد أن هدوءه كان راجعاً الى صراحة اعترافي . وان اعترافاً بريئاً مصحوباً بوعد صريح بعدم العودة الى ارتكاب الجرم ، اذا تقدم به المجرم الى الشخص الذي يحق له ان يتقبل هذا الاعتراف ، لانه صورة من صور التوبة . ولقد شعرت بأن اعترافي قد طيب نفس ابي وانه اصبح واثقاً بي وزاد حبه لي وعطفه عليَّ

كنت اذ ذاك في السادسة عشرة من عمري . وكان ابي مريضاً طريح الفراش ، يقوم على تمريضه خادم عجوز وأمي وأنا . وقت له بعمل الممرضة ، فكنت اغسل جرحه واضمده واعطيه الادوية كلما حان وقت تناولها .وكنت اكبُّ كل ليلة على تدليك قدميه ورجليه ولا اذهب الى فراشي الاَّ بعد ان يأذن لي ، او بعد ان يأخذه النعاس . وكانت هذه الخدمة عزيزة عندي شيقة لديَّ . ولا اتذكر مطلقاً اني اهملتها ، بل كنت اصرف كل وقتي بعد المدرسة في العناية بتمريض ابي . وما كنت اخرج الى النزهة قليلاً الا اذا اذن لي ، او شعر بانه احسن حالاً

وأذنت الساعة الرهيبة . وكان عمي في « راجكوت » واذكر انه اتى على عجل عند ما علم باشتداد العلة على اخيه ، وكان ينام بجواره ويمرضهُ بنفسه

كانت الساعة الحادية عشر ، وكنت ادلك قدمي والدي ، ثم آويت الى حجرتي ، ولكن الخادم طرق الباب بعد بضعة دقائق معلناً ان ابي كان في شدة المرض . ولكني شعرت شعوراً عميقاً عما يختفي وراء هذه الجملة من المعاني . وسرعان ما صدق حدسي ، فان والدي كان قد فارق الحياة

موسيقى المصريين القدماء

الموسيقى فن من فنون الجمال كالشعر والتصوير ينبغ فيهِ افراد قلائل ويمتاز بهِ قوم دون غيرهم . وقد وجد الباحثون في آثار الامم ان المصريين القدماء اول من وضع اساس الموسيقى وتفنن في آلاتها . وكان مقامها عندهم رفيعاً وتأثيرها في نفوسهم شديداً حتى جعلوها من فرائض دياناتهم ومن لوازم افراحهم وأتراحهم .وكان كهنتهم يشاركون المغنين ويجلسون في حلقاتهم مع نسائهم وأولادهم . وأخذ الاسرائيليون هذه الصناعة عنهم وجعلوها من شعائر عبادتهم وجرى اليونان هذا المجرى فتفننوا فيها تفننهم في سائر الصناعات وأحلوها محلاً رفيعاً من التجلة والاكرام حتى قيل ان سقراط الحكيم كان يغني ندماءه بنفسهِ ليطربهم. ثم تقلص ظلها بعد اليونان والرومان ولم تنل من عناية العرب ما نالتهُ العلوم الرياضية والفلسفية لان بعض الائمة حرَّموها [١] . وظلت في غفلات الخمول الى ان احياها الاوربيون ثانية مع ما احيوا من الصناعات



ويظهر من عناية فيثاغورس بفن الموسيقى ان المصريين الاولين كانوا يحسبونه من العلوم الرياضية لان ذلك الحكيم اخذ العلم عنهم . ويؤيد ذلك ما قاله افلاطون الحكيم من انهُ كان للموسيقى عند المصريين شأن كبير جداً لما لها من التأثير في عقول الاحداث . وما قاله استرابون المؤرخ من ان المصريين كانوا يعلمون احداثهم فنون الادب والغناء. وقال ديودروس ان الشعراء والمغنين كانوا يفدون من بلاد اليونان الى القطر المصري لكي يتقنوا صناعتهم فيهِ

ومعلوم ان افلاطون الحكيم اقام في القطر المصري ثلاثة عشر عاماً وقال في كتاب الشرائع افضل كتبهِ ما يأتي « ان الاسلوب الذي مهدناه لتعليم الاحداث كان معروفاً عند

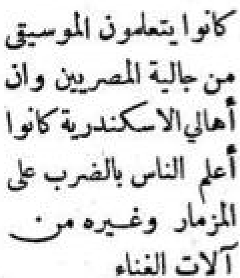
---

(١) راجع ملخص تاريخ الموسيقى العربية في مستهل مقال « حول مؤتمر الموسيقى » المنشور في صفحة ٣٩٢ من هذا الجزء

المصريين من قديم الزمان وهو انهُ لا يجوز للاحداث ان يروا الاَّ الصور الجميلة ولا ان يسمعوا الاَّ الغناء الموقع . وأقروا على تلك الصور وذلك الغناء وعرضوهما في هيا كلهم ولم يبيحوا للمصريين ان يبتدعوا بدعة جديدة تخالف ما تقرر ولا للمغنين ان يغيروا اسلوب الغناء والعزف ولذلك تجد صورهم وتماثيلهم المصنوعة منذ عشرة آلاف سنة مثل صورهم وتماثيلهم المصنوعة الآن لا هذه تفضل تلك ولا تلك تفضل هذه وغرضهم من ذلك المصلحة العامة ولقد اصابوا في ما قرروهُ عن الموسيقى وأفلحوا في وضع قواعدها وجعلها آلة لدفع الضيم . . . ولا بدَّ من ان الواضع لها كان الهاً أو انساناً مخصوصاً بالوحي الالهي »

ويظهر من الصور والآثار المصرية ان المصريين القدماء كانوا مغرمين بالموسيقى متفننين في آلاتها مكثرين من رسومها تزييناً لمنازلهم ومدافنهم وأمتعتهم وانهم كانوا يدرسونها درساً علميًّا ويعرفون قواعدها وروابطها ويؤيد ذلك شهادة اثينيوس الذي قال ان اليونان والبربر كانوا يتعلمون الموسيقى من جالية المصريين وان أهالي الاسكندرية كانوا أعلم الناس بالضرب على المزمار وغيره من آلات الغناء





ولابدَّ من ان تكون هذه الصناعة نشأت عندهم على صورة بسيطة فكانت آلتهم اولاً مثل ابسط آلات الزنوج والبرابرة ثم ارتقت رويداً في الاتقان والتركيب الى ان اكتشفوا قواعد الصوت العلمية وحينئذ سهل عليهم ان ينوعوا آلاتهم بحسب مقتضى الحال . وكان لصناعة الموسيقى مقام رفيع عندهم لاننا نراهم ينسبون وضعها الى أحد معبوداتهم ولذلك كان كهّانهم شديدي الحرص على اتقانها علماً وعملاً

وصورة القيثارة التي صدَّرنا بها هذه المقالة وجدت في قبور الملوك بطيبة وهي في الاصل ملونة بألوان بديعة جدًّا فوجه الملك اصفر وكذلك كل الاجزاء البيضاء في الصورة فانها في الاصل صفراء اللون والاجزاء السوداء منها مصبوغة باللون الازرق وبعضها باللون الاخضر والاجزاء المخططة مصبوغة باللون الاحمر ومجموع ذلك جميل جدًّا يروق العين كما يروق صوت القيثار

الاذن . قال العالم بروس في وصف هذا القيثار وغيره من القيائير المصورة هناك « انها لو قوبلت بكل ما قيل عن الموسيقى الشرقية وآلاتها من أقدم عهدها إلى الآن لـكانت دليلاً اقطع من الف شهادة يونانية على ان علوم الهندسة والرسم والموسيقى كانت بالغة اوج ارتقائها حينما صنعت هذه القيائير . وان الوقت الذي نحسبهُ مبتدأ استنباط هذه الصناعة انما هو مبتدأ احيائها بعد موتها » . وقد وجدت صورة هذا القيثار في قبر الملك رعمسيس الثالث الذي تولى مصر سنة ١٢٠٠ قبل المسيح

ويظهر من الصور المصرية القديمة انهم كانوا يعرفون ما يسمى باتفاق الانغام ويجمعون بين آلات مختلفة في وقت واحد فترى في الشكل الثاني صورة خمس من القينات اثنتين منهن تنقران آلتين مختلفتين من نوع العود وواحدة تنفخ في المزمار وواحدة تصفق بيديها وواحدة ممسكة آلة اخرى لا يظهر إلاَّ زاوية منها . وكثيراً ما كانوا يجمعون بين القيثار أو العود والمزمار والقيثار وقد يضيفون اليها الدف والصفارة . وأعوادهم كلها من المثالث أي انها ذات ثلاثة اوتار فقط ولـكنهم كانوا يقصرونها بأصابعهم عند النقر حتى تتمثل في العود جميع الاصوات على اختلاف ابراجها ويصح فيهِ قول كشاجم حيث قال

فكأنما شخص القريض ممثلٌ　　في العود أو سكنتهُ روح الموصلي

وفي بعض القيائير ثلاثة أوتار وفي بعضها أكثر من ذلك إلى أربعة وعشرين وتراً . وكان عندهم دفوف وطبول ومزاهر ولذلك كان يكثر عدد العازفين في الحفلات الـكبيرة فقد ذكر اثينيوس ان عددهم بلغ أحياناً ستمائة وكان ثلثمائة منهم ينقرون على القيائير

وكانوا يخرجون الى القتال بالابواق والطبول كما تفعل الجنود في هذه الايام والمبوقون والمطبلون من آحاد الجند ولـكنهم مختصون بهذه الصناعة فلا يتقلدون سيفاً ولا رمحاً على الغالب

والغرض الأول من الموسيقى اقامة الشعائر الدينية على اسلوب يؤثر في النفوس ولكنهم كانوا يستعملونها ايضاً في افراحهم واتراحهم وولائمهم . وكان الـكهنة وعظماء الشعب يتعلمونها ويمارسونها ولـكنَّ جمهور المغنين والعازفين في المحافل والملاهي كان غالباً من عامة الشعب وكانوا يستخدمون هذه الصناعة للارتزاق

والظاهر ان الرومان اهملوا الموسيقى ولم يهتموا بها فضعف شأنها في هذا القطر مدة استيلائهم عليهِ . ثم لما انتشرت فيهِ الديانة المسيحية وزال الملك منهُ أُهملت الفنون كلها وعكف الناس على التدين والزهد في الحياة الدنيا . ولم تعد الفنون بعد ذلك الى شأنها الاول . وأخذ العرب الموسيقى عن اليونان والفرس وتفننوا فيها وحسبوها من العلوم الرياضية

ويظن البعض ان الصينيين سبقوا المصريين الى استنباط الآلات الموسيقية ووضع علم الايقاع كما فصلنا ذلك في المجلد التاسع من المقتطف

ابو تمام[1]

للاستاذ انيس المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

ترجمة تاريخية

يؤخذ من المصادر التاريخية ان ابا تمام ولد حوالي ١٩١ هـ . في قرية يقال لها جاسم وهي على ما ذكر ياقوت قرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الاعظم الى طبريا. ولا يعرف عن حداثته فيها شيء يذكر الاَّ انهُ قد يلاحظ مما نقله ابن خلكان وابن عساكر انهُ كان في صغره يعمل عند حائك او قزاز في دمشق[2] . وكل ما يمكن استخلاصه من شتى الروايات انَّ والده رجل مسيحي اسمهُ تدوس العطار حُرِّف بعد اسلام الشاعر الى اوس . ويرجعون نسبه الى قبيلة طيّ ولذلك لقب بالطائي .وفي ديوانه مواقف يفاخر فيها بهذا النسب نذكر منها هنا قصيدته التي مطلعها — « تصدَّت وحبل البين مستحصد شزرُ » ومنها

وهل خاب من جذماه في اصل طيِّئٍ   عديُّ العديّين القلمّس او عمرُو

لنا جوهر لو خالط الارض اصبحت   وبطنانها منهُ وظهرانها تبرُ

مقاماتنا وقفٌ على العلم والحجى   فامردنا كهلٌ واشيبنا حبرُ

ويأخذ فيها بذكر كرام الطائيين وابطالهم وماكان لهم من غرر الوقائع ويختمها بقوله :

مساعٍ يضلُّ الشعر في كنه وصفها   فما يهتدي الاَّ لاصغرها الشعر

والمجمع عليهِ انهُ انتقل وهو فتى الى مصر وكان يلازم مسجدها يخدم فيهِ اهل العلم والادب . فنشأ هناك ثم جاب الاقطار فزار بغداد وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل والحجاز وارمينيا والموصل وسواها . وشعره مفعم بما يدل على كثرة تجواله في الاقطار ، وتحمله للمشاق والاخطار . واذا دققنا في ديوانه وسيرته ترجح لدينا انهُ هبط مصر يافعاً ففي قصيدته التي قالها في مصر مادحاً آل الرسول ومطلعها «اظبية حيث استنت الكتب العفر» مايشير الى انهُ قالها وهو في السابعة عشرة واليك هذه الابيات منها

---

(١) يعني الاستاذ انيس المقدسي بوضع كتاب موضوعه (امراء الشعر العربي) جرى في كتابة فصوله على الطريقة الحديثة في استنباط سيرة الرجل من معارضة المصادر والتدقيق في نقلها وتحليل قصائده وارجاعها الى العوامل النفسية واحوال البيئة التي يعيش فيها . ويسرنا ان نقدم لقراء المقتطف فصلا من هذا الكتاب النفيس الذي ينتظر ظهوره قريباً (٢) وفيات الاعيان ١ — ٥٣ وتهذيب التاريخ الكبير ٤ — ١٨

وان نكيراً ان يضيق بمن لهُ عشيرة مثلي او وسيلته مصر
وما لامرىء من قائل يوم عثرة لعاً وخديناه الحداثة والفقر
وان الذي احذاني الشيب—للتي رأيت ولم تكمل لهُ السبع والعشر

فاذا تأملت البيت الاول شعرت ان قائله حديث العهد بمصر وانهُ انما امَّها وسيلة للارتزاق. ويثبت لنا ذلك ما جاء في حسن المحاضرة للسيوطي من انهُ هبط مصر «وهو في شبيبتهِ» [١]. وكذلك ما اشار اليهِ عرضاً ابن خلكان وابن عساكر انهُ كان في دمشق يعمل عند حايك. وفي شعره ما يدل على ان حياته في مصر لم تكن على ما يرام فاكثر شعره فيها نفثات متبرّم يستثقل الاقامة في وادي النيل. وهذه قصيدتهُ اللامية شاهدة بذلك نظمها وقد مرَّ عليهِ خمسة احوال في مصر فقال فيها —

بنفسي ارض الشام لا ايمن الحمى ولا ايسر الدهنا ولا اوسط الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطرٌ في ان تمرَّ ولا تحلي

الى ان يقول:

اخمسة احوال مضت لمغيبه وشهران بل يومان ثكل من الثكل
وعنعهُ من ان يبيت زماعه على عجلٍ ان القضاء على رسل
لقد طلعتْ في وجه مصرٍ بوجههِ بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همة مخيّمة بين المطيّة والرحل
نأيتُ فلا مالاً حويت ولم اقمْ فامتع اذ فجعت بالمال والاهل
وكان ورائي من صريمة طيء ومعن ووهب عن امامي ما يسلي
فلم يك ماجرَّعتْ نفسي من الاسى ولم يك ماجرّعت قومي من الثكل

والذي يحصّل من هذه الابيات انهُ كان قبل خمسة احوال ترك قومهُ وجاء مصر منتجعاً الرزق فلم يلق ما كان يتوخّاه. ولم يحمله على البقاء فيها حتى الآن الاَّ القضاء المعاكس ويفهم من ذلك ضمناً انه ترك اهله وفيه مطامع ولا تكون المطامع عادةً قبل ان يشرف المرء على البلوغ. فشاعرنا على ما يظهر حسن اليه الاسلام وهو في الشام ففعل ذلك مندفعاً بما فيه من الطموح وطلب العلى [٢]. وظن انه ينال غايته في مصر فأمها ولضيق ذات يده وميله الى الادب لزم المسجد يخدم أهل العلم ويأخذ عنهم. وما زال كذلك حتى نبغ واشتهر فهجر مصر قاصداً كبار الرجال في العالم الاسلامي. وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه الى سامّرا (سرّ من رأى) فلزمه ومدحه وكان في زمانه أمير الشعراء وحامل رايتهم.

(١) حسن المحاضرة ١ — ٢٤٠
(٢) وقد فعل ذلك بعض من كبار النصارى في عصره وبعده كآل الفيض وآل نوابة . وآل وهب وكانوا من رؤساء اناس وكانت دولتهم ناضرة وايامهم مشرقة . الفخري ١٨٢ و١٣٧ والفهرست ١٣٥

ثم عينه الحسن بن وهب على بريد الموصل فقضى في هذا المنصب السنتين الاخيرتين من حياته وتوفي هناك[١]

شخصيته في شعره

لابي تمام مزيتان بارزتان . صبره على المشاق لبلوغ المنى وشدة عنفوانه واعجابه بنفسه. يضاف الى ذلك ميله الى الاسراف في المال والقوى . فاذا قرأت ديوانه رأيته مفعماً بما يدل على انه نشأ مغامراً في سبيل الجاه والمال . وقد زادته كثرة اسفاره عزماً ومضاء فليس اذن من الغريب ان تسمعه يقول

ذريني على اخلاقي الصمِّ للتي هي الوفر أو سرب ترنُّ نوادبه

اي دعيني — على ما فيَّ من خلق شديد — اخوض غمرات الحياة فاما الغنى أو الموت. وقوله من نفس القصيدة

ولكنني لم احو وفراً مجمّعا ففزت به الاّ بشملٍ مبدّد

ولم تعطني الايام نوماً مسكّنا الذّ به الاّ بنوم مشرّد

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

نزعة في نفس الشاعر تعبّر لنا عمّا يختلج في نفوس البسلاء المغامرين الذين يأبون حياة الخمول فيقتحمون الاهوال ويخوضون الغمار طلباً للعلى والمجد

أليس باكناف الجرير وفارس وقمّ واصطخر قرار لروّد

بلى ان ارض الله فيها ندوحة ومضطرب للفاتك المتجرّد

تلك روح قلقة كثيرة المطامع . وهي التي حملت شاعرنا على ترك قومه في الشام . ثم على ترك مصر والضرب في اجواز الارض . وقد صدق في وصف حاله اذ قال

ذات الثنايا الغر لا تتعرّضي عند الفراق بمقلتين وجيد

ما ابيضّ وجه المرء في طلب العلى حتى يسوّد وجهه في البيد

وانك لتكاد تلمس صلابة نفسه في ابياته التالية —

لا افقر الطربَ القلاص ولا أرى مع زير نسوان اشد قيودي

شوق ضرحت قذاته عن مشربي وهوى اطرت لحاءهُ عن عودي

عامي وعام العيس بين وديقةٍ مسجورة وتنوفة صيخود

حتى اغادر كلَّ يوم بالفلا للطير عيداً من بنات العيد

وملخص هذه الابيات انني لست من الذين يركبون العيس توصلاً الى طرب أو الى ملهى

(١) بعد هذه التوطئة احصى الاستاذ المقدسي اهم ممدوحي ابي تمام وعدد ما قاله فيهم من القصائد

غرامي ولكنني رجل اسفار متمرس بقطع الفلوات المحرقة وكم تركت لطيورها نصيباً وافراً من نياقي . يشير بذلك الى صلابته واحتماله وشوقه الى العظائم . والكثير في شعره ينضح بهذه الروح المغامرة . حتى شعره في مصر وهو في اول عهده وقد قيده الدهر بقيود الفقر — تراه برغم ذلك ينم على نفس مرّة طماعة . ومن قوله في ذلك

وطال قطوني ارض مصر لحاجة يقال لها أقبح بهاتي وأسمج
اقلب في اقطارها الطرف كي ارى ولست براء ذاك عصمة ملتجي
فقنّعني بأسي واعلم انني مقود بحبل للمقادير مدمج

اما عنفوانه فظاهر مما رووه عنه يوم قصد عبد الله بن طاهر امير خراسان . قالوا لما فرغ من انشاده بائيته التي مطلعها « اهنّ عوادي يوسف وصواحبه » نثر عليه الف درهم فاستقلها الشاعر ولم يمس منها شيئاً بل تركها للغلمان يلتقطونها . فوجد عليه الامير وقال يترفع عن برّي ويتهاون بما اكرمته فلم يبلغ ما اراده منه بعد ذلك . واي عنفوان اشد من ان يقصد شاعر اميراً جليلاً كابن طاهر فيمدحه ثم هو يرى هبة الامير أقلّ من قدره فيترفع عن ان يمسها بيده ، وهذه الظاهرة الخلقية في شاعرنا تتجلى لنا ايضاً في خلق ابي الطيب المتنبي كما سنرى عند درسنا هذا الشاعر . وهي قد تهيب بالشاعر الى وزن نفسه بميزان ممدوحيه او الى التفاخر والتعاظم على زملائهِ ومناوئيه . خذ قصيدته التي قالها يمدح قاضي الدولة العباسية احمد بن ابي دؤاد ويعتذر اليهِ عن اساءة . واولها

ارأيت ايّ سوالف وخدود عنت لنا بين اللوى فزرود

وفيها يذكر فضل الممدوح وفضل قومه (اياد) ويقرن ذلك بمدح طيّ (قبيلة الشاعر) ويجعل اياداً وطيّاً متساويين في المحامد فيقول

كعب وحاتمٌ اللذان تقاسما خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الحمد ميتة خضرم صنديدِ

ثم يتقدم الى الاعتذار بأبيات تدل على شدة نفسه ومنها

فاسمع مقالة زائر لم تشتبه آراؤه عند اشتباه البيدِ
اسرى طريداً للحياء من التي زعموا وليس لرهبة بطريد
كنت الربيعَ امامهُ ووراءه قمرُ القبائل خالد بن يزيد
ما خالدٌ لي دون ايوبٍ ولا عبد العزيز ولست دون يزيد

والمتأمل في هذه الابيات يعجب من هذه العواطف التي تملي عليهِ ان يقول لممدوح عظيم يعتذر اليهِ . لم آتك رهبةً منك بل خجلاً مما اتهمت بهِ . وان مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بأيوب بن سليمان بن عبد الملك وبعبد العزيز

ابن الوليد فشفعا له وما خالد الذي يشفع لي بأقل منهما ولا انا بأقل من يزيد بن المهلب

ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف —

وكنت اذا ما زرتُ يوماً مسوّداً سرحت رجائي في مسارح سؤدد

فان يجزل النعمى تثبه قصائدي وان يأب لم اقنع بأصوات معبد

اليس بأكناف الجرير وفارس وقمٍّ واصطخر قرار لروّد

فكأنهُ يقول اني شاعر كبير النفس اقصد الامير العظيم فان كافأني بما يستحق مقالي كافأته بما يستحقهُ من القصائد والاّ فاني اتحول عنهُ الى الضرب في آفاق الارض

اما تعاظمهُ بشعره فهو كثير في شعره كقوله

وسيارة في الارض ليس بنازحٍ على وخدها حَزنٌ سحيق ولا سهبُ

تذرُّ ذرور الشمس في كل بلدة وتمسي جموحاً ما يردّ لها غرب

اذا أنشدت في القوم ظلت كأنها مسرة كبرٍ او تداخلها عُجب

مفصلة باللؤلؤ المنتقى لها من الشعر الاّ انهُ اللؤلؤ الرّطب

***

وقوله: خذها مغرّبة في الارض آنسةً بكل فهم غريب حين تغترب

لا يستقي من حفير الكتب رونقها ولم تزل تستقي من بحرها الكتب

حسيبة من صميم المدح منصبها اذ اكثر الشعر ملقى ماله حسب

وقس على ذلك ما لا يسعه هذا المقام

على ان ابا تمام كان — على صلابة نفسه — موصوفاً بكرم النفس وحسن الاخلاق [١] وكان محبّباً للشراب والغناء لا يكاد يحصل على المال حتى ينفقهُ في سبيل المسرات . فهو في ذلك كاكثر شعراء عصره . وبرغم ما تجده في شعره من الشدة الدينية (ولا سيما عند ذكره للروم) لا تجد في سيرته أو في شعره تمسكاً شديداً بفروض الدين . قال المسعودي كان أبو تمام ماجناً خليعاً وربما أداه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجناً لا اعتقاداً [٢] وبكلمة اخرى كان مستهتراً قليل المبالاة بما يتطلبهُ حسن الاعتقاد

خصائصه الفنية

قال ابن رشيق القيرواني لا بدّ لكل شاعر من طريقة تغلب عليه كأبي نواس في الخمر وأبي تمام في التصنيع والبحتري في الطيف الخ [٣] وقال الجرجاني في الوساطة كانت الشعراء

---

(١) نزهة الالباء للانباري ٢١٤ وابن عساكر ٤—١٨ الى ٢٦ (٢) مروج الذهب ٢ - ٢٥٣

(٣) العمدة ١ ١٩٤

يجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة فأخرجه الى التعدي وتبعه اكثر المحدثين [١] . وقال ابو الفرج الاصفهاني . وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء . وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منهُ فان له فضل الاكثار والسلوك في جميع طرقه [٢] . ووصفه الامدي بقوله وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات والمعاني المولدة . ثم يقول فان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة فلا تلوي على غير ذلك فأبو تمام اشعر [٢]

هذا هو رأي جمهرة العلماء النقادين في شعر ابي تمام . والذي يطالع ديوانه ويدقق في تفهيم معانيه يرى فيه ثلاث مزايا ظاهرة وهي : —

١ — تأنقه البديعي (وأكثر ما يظهر ذلك في الاستعارة والطباق والجناس)

٢ — تفننهُ المعنوي وهو ما يسميه البعض بالاختراع

٣ — شغفه بالاغراب — أو الغوص على ما يستصعب من الالفاظ والمعاني ولنبسط لك هذه المزايا واحدة واحدة

التأنق البديعي

لم يخل الشعر العربي في عصر من العصور من الأخذ بأسباب البديع او الصناعة اللفظية والمعنوية . كان ذلك منذ ايام الجاهلية . فقد عرف امرؤ القيس بسبقهِ الى الكثير من لطائف الوصف والتشبيه . وعرف زهير بتثقيف قصائده وتكرير النظر فيها وتنقيحها « وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله » . ولذلك سميت الحوليات مبالغة في تأنقه وتصنعه . ومثله الحطيئة . وإذا راجعت شعر النابغة والاعشى وجرير والاخطل والفرزدق وأبي نواس وبشار ومروان ومسلم وسواهم من امراء الشعر الذين تقدموا ابا تمام وجدت في جميعهم أثر الميل الى الصناعة يتفاوت فيهم تفاوتاً يختلف باختلاف الشاعر وأحواله . قال ابن رشيق عن صناع الشعر القدماء «واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت او البيتين في القصيدة بين القصائد يستدل بذلك على جود شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره . فاذا ما كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة وليس يتجه البتة ان يأتي من الشاعر قصيدة كلها أو اكثرها متصنع من غير قصد كالذي يأتي من اشعار حبيب والبحتري وغيرهما وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها [٣] »

وقد كادوا يجمعون على ان مسلم بن الوليد هو اول من توسع في البديع وتبعه فيه جماعة

(١) الوساطة الاغاني ١٥ — ١٠٢ (٢) الموازنة ٣ (٣) العمدة ١ — ٨٤

منهم ابو تمام روى ذلك الاصفهاني في سيرة مسلم بن الوليد وقال ان ابا تمام جعل شعره كله مذهباً واحداً فيهِ ونقل عن محمد بن يزيد قوله كان مسلم أول من عقد هذه المعاني الطريفة واستخرجها . وعن القاسم بن مهرويه أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الفن الذي سمَّاه الناس البديع ثم جاء الطائي بعده فتفنن فيهِ (١)

والحقيقة ما ذكرنا من ان انواع البديع منشورة متفرقة في اشعار المتقدمين ولكن مسلماً أكثر منها وكان يحتذي حذو العتابي وكان هذا يحتذي حذو بشار (٢) ثم قام ابو تمام فزاد على مسلم . وكان العصر الذي نشأ فيهِ شاعرنا (أعني صدر الدولة العباسية) عصر انتقال في الادب من الطريقة البدوية القديمة التي عرف بها صدر الاسلام إلى الطريقة الحضرية المولدة طريقة التبسط والتأنق . والظاهر ان ابا تمام كان من الشعراء الذين تأثروا بهذه الطريقة فاختط لنفسهِ مسلكاً خاصًّا وصار على ما يرى بعضهم امام هذه الصناعة . وفي شعره من الشواهد على ذلك ما لا يحتمل المقام الاسهاب بهِ فنكتفي هنا بالقليل منها — قال من قصيدة

تلومين ان لم اطو منشور همة ... طوت عن لساني مدح كل مزبَّد (٣)
لبزَّتك اثواب البصائر عزَّة ... كستك ثياب الزجر من كل مرشد
كانك لا تدرين طعم معيشة ... تمجّ دماً من طعم ذل التعبد
فصوني قناع الصبر اني لراحل ... الى بحر جود غامر الفضل مزبد
امات حياة الوعد منهُ نوافل ... من الجود اضحت للعفاة بمرصد

وقال مادحاً احمد ابن ابي دؤاد

ما زلت ارقب تحت افياء المنى ... يوماً بوجهٍ مثل وجهك ابيضا
لولاك عزَّ لقاؤه (٤) فيما بقي ... اضعاف ما قد عزَّني فيما مضى
قد كان صوّح نبت كل قرارة ... حتى تروّح في ثراك وروضا
اوردتني العِدَّ الخسيف وقد أرى ... اتبرض الثمد البكيّ تبرُّضا (٥)
اما القريض فقد جذبت بضبعه ... جذب الرشاء مصرحاً ومعرِّضا
احببتهُ اذ كان فيك محبَّباً ... وازددت حبًّا حين صار مبغَّضا
قد كانت الحال اشتكت فاسوتها ... اسواً ابى امراره ان ينقضا
ما عذرها ألاَّ تفيق ولم تزل ... لمريضها بالمكرمات ممرِّضا

ولهُ متغزلاً :

(١) مهذب الاغاني ٨ — ٢٠ (٢) البيان والتبيين ١ — ٢٤
(٣) المزبد اللئيم (٤) الضمير يرجع الى الخليفة (٥) العد الخسيف اى النبع الوافر الماء . اتبرض الثمد البكي اي اطلب الماء القليل هنا وهناك

لا انت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتولّت الاوطار
كانت مجاورة الطلول واهلها زمناً عذاب الورد فهي بحار
ايام تدمي عينه تلك الدمى فيها وتقمر لبّه الاقمار
اذ لا صَدوف ولا كنود اسماها كالمعنيين ولا نوار نوار[1]
بيض فهن اذا رمقن سوافراً صور . وهنّ اذا رمقن صوار

وقال من قصيدة في ابي دلف العجلي

تكاد مغانيه تهشُّ عراصها فتركب من شوق الى كل راكب
اذا ما غدا اغدى كريمة ماله هدياً ولو زفت لالأم خاطب
يرى اقبح الاشياء اوبة آمل كسته يد المأمول حلة خائب
واحسن من نَور تفتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب
اذا الجمت يوماً لجيم وحولها بنو الحصن نجل المحصنات النجائب
فان المنايا والصوارم والقنا اقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركن ذا جبرية سليماً ولا يحربن من لم يحارب
يمدون من ايد عواص عواصم تصول باسياف قواض قواضب

وامثال ذلك كثيرة في شعره بل هي مذهبه العام وقد قاده شغفه بذلك الى الاسراف والخروج عن جادة المعقول حتى رماه الكثيرون باسهم النقد الحادة . قال الجرجاني ان ابا تمام اسلم نفسه للتكلف يرى انهُ ان مرَّ على اسم موضع يحتاج الى ذكره او يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون ان يشتق منهُ تجنيساً او يعمل فيهِ بديعاً فقد باء باثم واخل بفرض حتم[2] .
وقال الآمدي في الموازنة بعد ان ذكر آراء المنحرفين عن ابي تمام «كانهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها حتى صار كثير مما اتى من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها الاَّ مع الكد والفكر وطول التأمل ومنهُ ما لا يعرف معناه الاَّ بالظن ولو كان اخذ عفو هذه الاشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الالفاظ والمعاني مجاذبة ويقتسرها مكارهة، وتناول ما يسمح بهِ خاطره وهو بجهامه غير متعب ولا مكدود وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش. واقتصر من القول على ما كان محذوّاً حذو الشعراء المحسنين ليسلم من هذه الاشياء التي تهجن الشعر وتذهب ماءه ورونقه – ولعل ذلك ان يكون ثلث شعره او اكثر — لظننتهُ كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر اكثر الشعراء المتأخرين[3]»

« لها تتمة »

(١) صدوف وكنود ونوار اسماء (٢) اسرار البلاغة ١٠ (٣) الموازنة ٥٥ — ٥٦

الحضارة الفينيقية
وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

صناعاتهم

لقد تفوّق الفينيقيون في الصناعة وأدركوا شأواً بعيداً فيها وبرعوا في كثير من فروعها ولاسيما في صناعة البرفير أو الارجوان المنسوب الى صور فهم اول من صبغوا بلونه واحرزوا شهرة واسعة فيه وقد اكتشفوا مادة صباغه في حيوانات بحرية من ذوات الصدف على شاطىء صور وصيداء ولونه احمر بنفسجي وكانوا يصبغون به الحرير والقطن والصوف الناعم ولا تزال آثار مصانعه حول صور ماثلة للعيان الى اليوم . غير ان اقتناء الملابس التي كانت تُصبغ به كان مقتصراً على الملوك والامراء في اشور وبابل وارام وفارس ومدين فلا يجسر العامة على استعمالها . واستخدموا في الصباغ الفوّه والحنّاء والدودة وكانوا ينسجون الصوف والكتان واشتهروا بتربية دود القز واستخراج خيوط الحرير منه ونسجها وصبغها وقد جاءوا ببزره من بلاد فارس وكان لمنسوجاتهم الحريرية رواج لايبارى على رغم مصادرة قياصرة الرومان لها وحصرها في فئة قليلة من التجار الفينيقيين خوفاً على النسيج الروماني من الكساد

وهم اول من اصطنع الزجاج ولا سيما الشفاف منه وأنشأوا معامل مهمة لصنعه ولا سيما في صيداء وصرفند وكانوا يستعملون في صنعه رملاً من نهر بالوس « نهر النعمان » . وفي متاحف اوربا كثير من مصنوعاتهم الزجاجية علاوة على ما وجد حديثاً من هذه المصنوعات في مدافن جبيل الملكية وفي المدافن التي عثر عليها بين صور وصيداء . ولهذه المصنوعات قيمة كبيرة عند علماء الآثار ليست لسواها من مصنوعات الرومان وغيرهم

وبرعوا في صنع الآنية الخزفية فكانت من اخص اصناف تجارتهم وكانت معاملها في سواحل فينيقية من ارواد الى صور وهم اول من نقل هذه الصناعة الى بلاد اليونان . وتفوقوا في صناعة الحفر والنقش وصبّ الذهب والفضة وفي كثير من المصنوعات المعدنية وامتازوا بالمصنوعات النحاسية فكانت متناهية في الزخرف ودقة الصنعة . وهم اول من صنع الاسلحة والكؤوس من نحاس بعد ان كانت تصنع من الحجر وقد وجدوا منها في قبرس وتوسكانا وفي متحفي اللوفر والفاتيكان شيء كثير منها . ووجدوا في طرطوس وعمريت قطعاً من

الحلي مرصعة بالجواهر اجمع علماء الآثار على انها من صنعهم . وربما كانت المجوهرات التي عثروا عليها حديثاً في جبيل انفس ما خلف الفينيقيون من التحف الأثرية والمصنوعات النفيسة الدالة على الشأو البعيد الذي بلغوا اليه في الصنائع والفنون

وقد برعوا في صنع العاج وكانوا يجلبونه من الهند وافريقية الشمالية ووجد المنقبون من مصنوعاتهم العاجية شيئاً كثيراً في اطلال قصور الاشوريين . وبرعوا في زرع الكرم وفي استخراج الخمر وكان للخمر الفينيقي اللبناني شهرة كبيرة ولا سيما في رومية وفي بلاد اليونان. وامتازوا في تقديد الاسماك وفي صنع آلات الحراثة وهندسة البناء واعمال التحصين ومزيتهم في ذلك ضخامة الحجارة وحسن تنضيدها . وهم اول من عنى بتبليط الشوارع كما يستدل من تاريخ صور وقرطجنة . واخترعوا السفن واحرزوا في صناعتها نصيباً وفيراً من المجد والشهرة وهم اسبق الامم الى ركوب البحر فقد سخروه لارادتهم بما بنوا من السفن وطافوا حول القارة الافريقية بامر فرعون نخو واستغرقت رحلتهم هذه ثلاث سنين وكان لهم سفن معدة لاختطاف العبيد والاماء وحملهم الى البلدان القاصية والاتجار بهم ولعلهم اول من تعاطى الاتجار بالنخاسة بين الامم القديمة

وقد دفعهم حب الكسب والاتجار الى حمل مصنوعاتهم ومتاجرهم الى اطراف المعمور ولئن كانت المصنوعات التي نقلوها الى الغرب مجردة من الزخرف خالية من التفنن والخيال ولم تظهر براعتهم فيها الا من الوجهة الوضعية العملية الا انها كانت متينة تتفق مع حاجة العصر الذي اخترعوها فيه

على ان ما احرزته فينيقية من الثروة الطائلة بتجارتها وصناعاتها كان سبباً في سقوطها وضعفها لانه افضى باهلها الى البذخ والاسراف وافسد آدابهم فانحط شأنهم وتطرق اليهم الانحلال وهاج غناهم من جهة اخرى مطامع الفاتحين من ملوك اشور وبابل وبلاد فارس فاكتسحوا بلادهم واخضعوها لسلطانهم ردحاً طويلاً من الدهر

حضارتهم

ان حضارة الفينيقيين ترتقي الى عصور عريقة في القدم. فقد اتفق رأي العلماء على انهُ قبل ان يتألف الشعب السوري الفينيقي كانت الكتابة والصنائع معروفة في بلاد كنعان اي في زمن يرجع الى ما قبل عصر يشوع بوقت غير قصير . وكان لهم اسفار نفيسة تتناول شرائعهم وقواعد دينهم وقانون احكامهم وكانت هذه الاسفار مقدسة عندهم كما لو كانت منزلة لانهم كانوا يعدونها بمثابة وصايا الهية انزلها عليهم الاله « تاوت » او « طوت » . وكان لهم سجلات يدونون فيها تاريخ المملكة وحوادثها وكتب عملية في الزراعة والصنائع والحرف . واشهر

مؤلفيهم سنكنياتون البيروتي وقد عاش في العصر الذي عقب فتح الاسكندر وهو يقارب عصر موسى . وكان هذا المؤلف اول من دوّن القصص الوثنية وما كتبهُ العلماء في حضارة الفينيقيين وتمدنهم القديم نقلاً عن فيلون الجبيلي واوساب وبرفير والدمشقي وفلاف يوسف انما هو مأخوذ عن الفقرات التي عثر عليها اولئك المؤلفون من تاريخ فينيقية الذي انشأه سنكنياتون نفسه . ولهذا العالم كتاب مشهور ترجمه فيلون الجبيلي من الفينيقية الى اليونانية وقد وضعه في اصل العالم القديم ومنشأ الآلهة وجعله تقدمة لابيبعل ملك بيروت او ملك الصيدونيين . وله كتاب آخر في تاريخ فينيقية وحضارتها وآداب لغتها فقد معظمه

واذا لم يكن الفينيقيون في اعتبار بعض العلماء مستنبطي الكتابة السامية التي هي مبدأ واصل حروف الهجاء لسائر اللغات فانهم بلا ريب اول من نشر هذه الكتابة في انحاء العالم . واليهم يُعزى نقل الصنائع والفنون والديانة البابلية والعلوم الرياضية وعلم الموازين والمقاييس وغيرها من العلوم التي نشأت في كلديا الى الشعوب الاخرى فهم اذن رسل المدنية القديمة لانهم كانوا في طليعة الشعوب الشرقية الحية التي كان لها شأنها في انشاء الرقي العقلي وتكوين الثورة الفكرية الاولى عند الغربيين . اما في الشرق فانهم يأتون في المرتبة الثانية بعد الكلدان والمصريين في التمدن القديم ويليهم الحثيون في سوريا وفي آسيا الصغرى ثم الفرس والصينيون والهنود وغيرهم . ومن العلماء من يضع الفينيقيين في الحضارة القديمة في المرتبة الاولى لان الامم الشرقية التي سبقتهم في المدنية اكتنزت علومها وصنائعها وجعلتها اسراراً لها فلم تستطع الشعوب المجاورة لها ان تتلقنها منها وتنتفع بها . واما فينيقية فان ابناءها كانوا رسل الحضارة البابلية او الكلدانية ودعاتها وقد نشروا العلوم والصنائع التي تلقنوها من كلديا في العالم اجمع فتناولتها الشعوب القديمة واستفادت بها فكانت اساساً لحضارة الشعوب التي جاءت بعدها . وقلما خلا بلد في العالم القديم من آثار تمدنهم . وحسب الفينيقيين ان تكون الملاحة وفن الكتابة من اخص مميزاتهم ليشغلوا المكانة الاولى بين الامم التي اسست الحضارة الشرقية ونشرت الوية العرفان في العالم اجمع

شكل حكومتهم

كان الحكم في فينيقية ديمقراطيًّا محضاً . فمع ان ملوكها كانوا يدعون انهم من سلالة الآلهة على مثال ملوك مصر وسواها من الممالك الشرقية فان السيادة الفعلية كانت للشعب في الشؤون العامة والمسائل الهامة . وكان للمملكة مجلس شيوخ مؤلف من مئة نائب يمثلون طبقة الاشراف . ولهذا المجلس رأي قاطع في كثير من الامور المهمة . وكان لكل بلد ملك مستقل يسود قومه ويحكمهم بمقتضى الشرائع الوطنية . وكان الملك عندهم وراثيًّا . غير ان العرش لم يكن مستطاعاً

الا لمن توافرت فيه شرائط الحكم وأجمعت الرعية على موالاته . واذا لم يكن من وارث فللامة ان تنتخب ملكها بمقتضى نظام محكم لاسبيل الى الخروج عنه فكان نظام الحكم عندهم ملكيًّا مقيداً بمجالس عامة مؤلفة من الاشراف ومرتبطة بمشورة الكهنة والقضاة . وكانت نظامات جبيل دستوراً لحكومات فينيقية جميعاً تنسج على منواله وتجري في الشئون التي تعرض لها على احكامه . وهذا اجمل واتم ما عرفناه عن انظمة الحكم عند الاقدمين لما فيه من مراعاة الاهلية والكفاءة في تولية المناصب الرفيعة في الدولة واعتماد رأي الامة في وضع القوانين والشرائع والرجوع اليها في كل ما يتعلق بها من الامور الخطيرة بحيث تكون سيدة نفسها ويكون السائد فيها خادماً حقيقيًّا لمصلحتها مقيداً بمشيئتها ومنفذاً لارادتها

على ان تعدّد الملوك في فينيقية وانقسام ممالك الفينيقيين في مقدمة البواعث على قعودهم عن التوسع في الملك وعجزهم عن رد الغزاة عن بلادهم . ولولا تدقيقهم في اختيار ملوكهم ومواصلة الفتح التجاري السلمي الذي اشتهروا به واستمساكهم بالجد والثبات ومحافظتهم على الصفات التي امتازوا بها اجمالاً لانحط شأنهم عاجلاً وما قامت لهم قائمة بعد انحطاط صيدون وانتقال السيادة منها الى صور في القرن الثالث عشر قبل الميلاد

بعد انقضاء عهد الفتن التي افضت الى سقوط صيدون قبضت صور على ازمة الحكم في فينيقية ولمّت شعث الفينيقيين واعترف ملوك البلاد لصاحبها بالسيادة وصار يلقب بملك الصيدونيين واستعادت فينيقية على يدها مكانتها الاولى وأنشأت كثيراً من المستعمرات خارج سورية . وقد استمر عصر سيادة صور خمسة قرون اي الى ان حاصرها سرغون ملك اشور . وفي هذا العصر استحكمت حلقات الالفة بين الكنعانيين فاتحد اهل صور وعكاء ومن بقي من اهل صيدون وكذلك العرقيون والصماريون والارواديون وتألّف منهم شعب واحد وعصبة واحدة تحت اسم فينيقيين . واما بيروت وجبيل وسيميرا وغيرها فاحتفظت كل منها باستقلالها الداخلي . وكانت هذه الحكومات ترسل كل سنة وفداً دينيًّا الى صور ليشهد الجهاد الذي كان يقام فيها تكرمة للاله ملكرث في هيكله المشهور . ولما صارت السيادة السياسية الى هذه المدينة اتخذ الوفد الديني صفة سياسية واصبح في منزلة المستشار لدى ملك صور في المسائل العمومية المتعلقة بممالك البلاد عموماً كالتجارة والمهاجرة والنظر في ما يحسن عقده او رفضه من المحالفات ونحو ذلك . على ان مملكة ارواد ابت الاعتراف بسيادة صور وتنحت عن الممالك الاخرى فلم تشأ الاشتراك معها الاّ في تبادل الآراء في الامور العمومية والتآزر لدرء المخاطر الداهمة ورد غزوات الفاتحين وجعل موقع طرابلس لاجتماع المجلس مراعاة لارواد وحملاً لها على تعضيد بقية الممالك وكان اجتماع هؤلاء المندوبين هناك مدعاة لتسمية هذه المدينة « تريبوليس » اي المدن الثلاث اشارة الى المدن الفينيقية الكبرى وهي صور وصيداء وارواد

فانها كانت تؤلف ولايات متحدة قاعدة مجلسها طرابلس . وكان تأليف هذا المجلس في ولاية الفرس . وقد بلغت هذه المدن في ذلك العهد اوج مجدها وابعد مراحل رقيها وعمرانها . وكان الفينيقيون وقتئذٍ ينشئون لملوك الفرس الاساطيل الضخمة الاّ انهم كانوا مع ما بلغوا اليهِ من الرقي في ولايتهم ينزعون الى الاستقلال

اما جيش الفينيقيين فكان مأجوراً لان الشعب كان منصرفاً الى الاعمال التجارية يأنف العيشة العسكرية . وكان معظمهُ من الاروادين ومن العنصر الليبي الفينيقي ومن اهل ليديا في آسيا الصغرى. وكانت الارض ملكاً للملك ينعم بقطع منها على من شاء من مريديه واشياعه. ولم يكن الفلاح الاّ قيماً عليها يحرثها ويؤدي خمس الريع الى مولاه . ولم تكن ارض فينيقية واسعة فكان الملوك يعتمدون في تغذية خزائنهم على ما كانوا يفرضون من الضرائب والرسوم على التجارة ولا سيما بعد ان ضربت المكوس الفادحة على واردات بلاد بني اسرائيل

الآثار الفينيقية

لقد تعاقب على فينيقية كثير من الدول الفاتحة حتى انهُ لا تكاد تخلو بقعة فيها من آثار لعدة دول منها ولا ادل على ذلك من الكتابات والرسوم المنقوشة في الصخور القائمة على ضفتي نهر الكلب بقرب بيروت تذكاراً لمرور الفاتحين عليهِ نظير رعمسيس الثاني « سيزوستريس » وسنحاريب وسلمنصر والامبراطور انطونيوس الروماني وسواهم

اما الفينيقيون انفسهم فقد خلفوا كثيراً من الآثار بين كتابات ومسكوكات ومصنوعات معدنية وخزفية وحجرية وبقايا ابنية عظيمة . غير ان ما وجد من آثارهم في فينيقية ذاتها اقل بكثير مما وجد في مستعمراتها وذلك لانصراف القوم في وطنهم الى التجارة والصناعة. ويغلب على الظن انهم اقاموا كثيراً من المباني الفخمة فعبثت الايدي فيها . ولا غرو فالامم الفاتحة التي تداولت البلاد السورية ولاسيما الصليبيون لم تجد خيراً من هذه الابنية الفينيقية لاقامة ابنيتها بانقاضها فضاعت بذلك آثار الفينيقيين واندثر كثير من اخبارهم ومعالم حضارتهم وهذا ما يشاهد في معظم الابنية القديمة في طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعكاء وخصوصاً في الحصون والاسوار والكنائس القديمة . ولم يبقَ من آثار الفينيقيين الظاهرة الاّ ابنية عمريتا الواقعة في جنوب جزيرة ارواد وفي جملتها مسكن مؤلف من عدة غرف منقورة في صخر واحد. ومن هذه الآثار ابنية ام العواميد جنوب صور وبقايا اسوار ارواد وما بقي من اسس هيكل سليمان واسواره في القدس والطبقة السفلى من قلعة بعلبك الشهيرة ودير ماري مارون بقرب منبع العاصي

وأما آثار لبنان وهو من صميم فينيقية فعلى ثلاثة انواع : آثار فينيقية محضة نظير آثار

عمريتا وآثار جامعة بين الهندسة اليونانية والهندسة الرومانية وقد وجد امثلة منها في جبيل وآثار يونانية رومانية بحث نظير اخربة المسرح الذي عثر عليهِ في البترون وقد وجد امثلة منها في بيروت. على ان الحفريات التي جرت في جبيل في السنوات الاخيرة كشفت الحجاب عن مدافن وهيا كل وابنية تعد في اعتبار علماء الآثار في جملة الآثار الفينيقية

ومن مميزات الفينيقيين في هندسة البناء انهم كانوا يسقفون ابنيتهم بحجارة طويلة فلا يعقدونها عقداً كما كان يفعل الرومان . ولم يستعملوا الاعمدة في وسط الابنية الا نادراً على خلاف المصريين والفرس واليونان . وتمتاز مبانيهم بضخامة الحجارة ومتانة البناء

والآثار الفينيقية المكتوبة كثيرة ولكنها مقتصرة على كتابات منقوشة على الاضرحة والتماثيل وهي تشير اما الى ملك فينيقي او سواه او الى اله من الآلهة . وقد وجدوا صحيفة ليهو قيل جبيل الذي عاش في عصرٍ تلا عهد قورش الفارسي وتقدم عهد الاسكندر . وعثروا على مدفن في صيداء استدلوا من كتابة نقشت عليهِ انهُ مدفن تبنيت وابنهِ اشمون عازر ملكي هذه المدينة ووجدوا فيهِ قطعة من النحاس نقش عليها اسم حيرام ملك صور وقد نقلت الى متحف اللوفر في باريس . ووجد أثر لعبدليم ابن ماتان ملك هذه المدينة ورد فيهِ ذكر تقدمته لبعل شمائيم وهو عصر متأخر عن عصر الاسكندر . ووجدوا في قبرس كثيراً من الآثار الفينيقية المكتوبة ولكنها لا ترتقي الى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد منها ٣٣ اثراً وجدوها في لارنكا وثلاثة اخرى في جوارها ومعظمها يتعلق بتقادم للآلهة وحساب نفقات بعض الهياكل . ووجدوا في مصر آثاراً فينيقية مكتوبة وكذلك في اثينا وفي جزيرة والوس ومالطة وصقلية وبالرمو وسردينيا وقرطاجنة وفي اماكن اخرى في افريقيا واوربا . وفي سنة ١٨٤٥ وجدوا في مرسيليا اثراً فينيقيًّا نفيساً يرتقي الى القرن الخامس قبل المسيح وينطوي على حساب نفقات هيكل بعل صافون في قرطاجنة وفيهِ ذكر المحرقات والذبائح التي كان يقدمها الفينيقيون وما يجوز استبدالها بهِ

أما مدافنهم فقد وجدوا منها شيئاً كثيراً في جبيل وبيروت وصيداء وصور وعمريت وعدلون وأكثرها مؤلف من عدة اضرحة منقورة في الصخر الاصمّ على مثال المدافن المصرية تنفتح في جوانبها ألحادٌ توضع فيها الجثث محنطة في نعش . وكثيراً ما ينحدر الى هذه المدافن بسلم او ببئر وهي اقدمها عهداً وفي اسفلها عرصة تنفتح في جوانبها الحاد الموتى . وكان لكل اسرة عندهم موطن خاص وللعظماء نواويس خاصة بهم تدفن معهم فيها انفس كنوزهم وحلاهم . الا ان اكثر هذه المدافن خال من الكتابات ، وكانوا يضعون في مدافن موتاهم قارورات صغيرة من زجاج او خزف وأصناماً من خزف ويدرجون الجثة بلفائف ويسترون الوجه بغشاء رقيق من الذهب والموسرون يلفون الجثة كلها بمثل هذا الغشاء وهي

مادة درج عليها المصريون ايضاً . وقد استنتج بعض العلماء مما شهدوا في مدافن الفينيقيين انهم كانوا يعتقدون بخلود النفس وبالبعث فيعتبرون الموت رقاداً لا موتاً . وقد رأينا بنفسنا نماذج من مدافنهم وأضرحتهم في جبيل بعد ان رفع المنقبون الحجاب عنها في السنوات الاخيرة

وقد ضاعت انساب الفينيقيين على توالي الاحقاب لأنهم اندمجوا في الشعوب التي جاءت بلادهم فاتحة او لاجئة اندماجاً ضاع معهُ الدم الفينيقي القديم من قرون عديدة ولو ان اللبنانيين اليوم يعدّون خلفاءهم الحقيقيين لاعتبارات ليس هذا مقام التبسط فيها

تاريخ فينيقية

لم يبقَ من تاريخ فينيقية القديم سوى ما ورد على السنة بعض المؤرخين من الاقوال والروايات المسندة الى القصص والحكايات الخرافية وهو ما لا يركن اليهِ ولا يصح الاخذ بهِ كحجة تاريخية يرجع اليها فيهِ . وكل ما يستجلى من هذه الروايات ان فينيقية كانت من زمن عريق في القدم مطمحاً لابصار الفاتحين . ولئن سلمت في بدء امرها من غزواتهم فانها لم تستطع الثبات على مقاومتهم دهراً طويلاً ولا سيما انها كانت ممالك صغيرة مستقلة احداها عن الاخرى لا قوة لها في ذاتها فاجتاحها غير فاتح منهم وتناوبت دولهم السيادة العليا عليها كدولة الاشوريين والبابليين وملوك فارس ومادي ومصر واليونان والرومان والعرب والصليبيون والتتر ودول الاتراك وسواهم . وكان الفينيقيون في خلال ذلك يجاهدون في سبيل الاستقلال ويستميتون في الدفاع عن ذمارهم حتى ان ملوك بابل وأشور وفارس قاسوا الاهوال قبل ان يتمكنوا من ضم فينيقية الى ممالكهم وأفضى ذلك الى نشوب فتن وثورات صرفت الفينيقيين عن متاجرهم حقبة من الدهر

وبعد ان دانت فينيقية للاسكندر ظلت المدن الفينيقية على شيء من عمرانها ولكن بعد ان نشأت مدينة الاسكندرية اتخذت تجارة العالم وجهة جديدة فضعفت التجارة الفينيقية وانحط معها شأن الفينيقين . وقد ازهرت في ولاية السلوقيين خلفاء الاسكندر وهكذا كان شأنها في عهد الرومان . وتنازعها العرب المسلمون والصليبيون ردحاً طويلاً من الزمن . وغزاها تيمور لنك التتري في بدء القرن الخامس عشر فازدادت ضعفاً وانحطاطاً . ثم دخلت في حيازة الدولة العثمانية في اوائل القرن السادس عشر (١٥١٦) وما لبثت ان استقرت امورها في بدء ولاية العثمانيين حتى عادت فساءت احوالها ورجعت القهقرى . وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٣٢) دخلت في حكم محمد علي باشا والي مصر وذاقت طعم العدالة بعد ان كانت فقدتهُ دهراً طويلاً . ثم استرجعتها الدولة العثمانية (١٨٤٠) وظلت في حيازتها الى سنة ١٩١٨ حيث استقلت في شؤونها الداخلية بعد ان خضعت لحكم الانتداب على أثر الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨)

مائة سنة على جوته

لما توفي جوته في ٢٢ مارس سنة ١٨٣٢ التفت كارليل الى مجموعة مؤلفاته وهي نحو مائة وخمسين مجلداً وقال «لم يحن الوقت بعد لوزن هذه المجلدات واصدار حكم فيها . قد يصبح هذا مستطاعاً بعد مائة سنة » !

ولكي يفهم القارىء مؤلفات جوته وفلسفتهُ وأُصول فنهِ لا بدَّ له من الالمام بعصره الحافل بالحوادث الجسام . فقد كان جوته معاصراً لحرب استقلال اميركا ، وللثورة الفرنسية ، ولنبوليون جمهوريًّا وامبراطوراً ، ولعودة البوربون وسقوطهم ، وللفتن وحوادث الشغب التي وقعت في انكلترا قبل الاصلاح العظيم (١٨٣٢) . لما ولد سنة ١٧٤٩ كان الدكتور صموئيل جنصن قد شرع يجمع معجمتهُ الانكليزية العظيمة ، وكان غراي الشاعر الانكليزي على وشك نشر مرثاتهِ المشهورة في الادب الانكليزي . ولما مات سنة ١٨٢٢ كان نجم فكتور هوغو قد بلغ السمت بعيد اخراج روايتهِ هرناني — وبين الولادة والموت مرَّت سير بيتهوفن وموزار وكيتس وشلي وبيرون وغيرهم

مدارس في الادب سادت في اثناء حياتهِ ودالت ، ودول في السياسة اشرق نجمها وأفل . وجوته من حداثتهِ الى يوم مماتهِ لم ينزوِ عن الحياة في مكتبٍ ، ولم يصدف عن شؤونها في ذهول الشاعر وشرود الفيلسوف ، بل كان يرقبها مستوعباً مجاريها ، وكثيراً ما اشترك في توجيه مقدَّراتها . ولعله اذا استثنينا ، ليونارد ده فنشي ، اشمل العبقريين لنواحي الحياة . «ان شكسبير اعظم منهُ شاعراً ، ولكن جوته يجمع في شخصهِ نصف شكسبير وكل فرنسيس باكون وغيرهما من مختلف الرجال والكتّاب » . كان متفوقاً كشاعر غنائي متفوقاً كشاعر درامي ، اميراً من امراء النثر ، عالماً — اكتشف عظمة ما بين الفكين واشتغل بالجيولوجيا فاشتهر فيها ، وكتب في تطوُّر النباتات ، واخرج نظرية لتعليل الضوء واللون — وكان سياسيًّا موفقاً تقلد في بلاط قيمار وزارة الحربية والمعادن والمالية والفنون في آن واحد . وقد قيل انهُ لما رأى الفتور العام الذي بدا في استقبال احد مجلداتهِ في التاريخ الطبيعي قال : لا افخر بما فعلتهُ كشاعر . ما اكثر الشعراء الكبار في عصري وفي العصور السابقة . اما ان اكون الوحيد في عصري الذي يعرف الحقيقة في علم عويص فلست قليل الفخر بهِ » . وقد اقاض العالم هيكل في حسبانهِ من روَّاد مذهب التطوُّر . ثم انهُ كان يشرف بنفسهِ على مسرح قيمار واخراج روايات شار فيهِ

هذا الشمول في حياة الرجل وفكره يجعله موضوع عناية كبيرة عند ابناء هذا العصر . ثم اذا كان قادراً ان يعمل كل شيء فانهُ كان قادراً ان يجعل عاطفته ميداناً لكل الانفعالات . ان حوادث غرامهِ التي كان يندفع فيها بحماسة الفتى الناشيء جانب مضيء من الآداب الالمانية ، لان الفتيات اللائي كنَّ موضوع حبه كنَّ كذلك امثلة يخلق منهن بنات خياله . ومع ذلك كان متزناً رزيناً مالكاً لعنان نفسهِ سواء كان مع اسكافي او في مجلس نبوليون . قيل ان نبوليون مرَّ في ارفرت بعد انخذالهِ في معركة يابنا فطلب ان يرى جوته ، فلما وقف هذا امامهُ في هيبة ووقار صاح نبوليون «انت رجل» ولما عاد نبوليون فاراً من روسيا بعد ما تبدد شمل جيشه فيها لم ينسَ ان يبعث بتحيتهِ الى جوته اذ مرَّ في فيمار

لجوته يحسب بحق آخر العقول العالمية التي استطاعت ان تتخذ كل افعال البشر وفروع معرفتهم ميداناً لها فتبرز فيهِ . لأن حياته وموته كانا على عتبة عصر اتسع فيهِ نطاق المعرفة اتساعاً جعل الاحاطة بفروعها امراً متعذراً على ذهن انساني

اما « فوست » روايتهُ الخالدة فرواية شعرية تمثيلية اشخاصها ليسوا من البشر ، بل من عالم خيالي . بطلها « فوست » عالم مفكر شديد التعطش الى ادراك ما لا يدرك يحاول بالعلم ان يطلع على اسرار الوجود فيرتدّ خائباً شديد التشاؤم ويشتدّ بهِ ذلك حتى يصبح فريسة الشك والجحود ويرمز الى هذه الروح بالشيطان مفستوفيلس . وكاد فوست ينتحر فظهرت له الروح وقالت مالك وللعلم والفلسفة . كل هذا باطل لاخير فيهِ ، تعال اتبعني فأخوض بك غمرات الحياة تبلو حلوها ومرها فيقبل فيتخبط في عالم الشهوات اولاً ثم يخوض معترك السياسة للقيام بخدمة عامة ثم ينقلب داعية للفن اليوناني ولكن مفستوفيلس لا يزال قرينهُ يدفعهُ الى التحوُّل والتنقل حتى يبلغ المائة فلا يرى امامهُ الاَّ القبر فيقف على حافتهِ ولسان حاله يقول «لا يستحق الحياة والحرية الاَّ من يسعى ابداً في الحصول عليهما » وقد كانت حياة جوته ابلغ مثل على هذا القول حتى لقد قالت الانسكلوبيذيا البريطانية « ان آيتهُ الخالدة هي حياتهُ »

هذا هو الرجل الذي تحتفل المانيا بانقضاء مائة عام على وفاتهِ . وقد رأينا من حق القراء علينا ان نوفي هذا الرجل حقّهُ من البحث فطلبنا الى الدكتور محمد عوض محمد أستاذ الجغرافية في كلية الآداب ومترجم «فوست» بالعربية ان يجعل جوته موضوع مقالٍ يتحف بهِ المقتطف ففعل . وكذلك اتحفنا الدكتور علي مظهر احد خريجي جامعات المانيا برسالة مسهبة سوف ننشرها في ثلاث اعدادٍ متتالية

جوته

GOETHE.

نشأته وحداثته ١٧٤٩ — ١٧٧٥

ولد يوهان فولفجانج جوته في اليوم الثامن والعشرين من شهر اغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة فرنكفورت الواقعة على نهر الماين . وكان ابوه (يوهان كاسپار) رجلاً موسراً انعم عليهِ بلقب مستشار قيصري وتوفي في سنة ١٧٨٢ فورث جوته عنهُ قامته وحبهُ للنظام وميله الى السكينة والجد وذلك عماد الفن واساسه . وكانت امه (كاترينا اليزابت) ابنة شيخ بلد تكستور وقد توفيت سنة ١٨٠٨ فورث عنها ولدها ما كان لهُ من خيال رائع واستعداد كبير للقصص . اما مدينة فرنكفورت التي ولد فيها فمعروفة بتجارتها المنتشرة ومواسمها التجارية السنوية يقصدها الناس من جهات بعيدة للعرض والطلب فتكثر بها الحركة والاخذ والعطاء . وقد اشتهرت بما بها من تماثيل وآثار تاريخية . ولابد ان يكون كل ذلك مما ساعد جوته في حداثة سنه على الاستفادة العلمية والدرس خلال مشاهدته لما يجري حوله فبعث في نفسهِ ما كمن فيها من نبوغ في قرض الشعر . وكان مما رأى وشاهد مادة لاتنفد اعتمد عليها في مستقبل حياته . وحدث حينئذٍ حادث هام كان لهُ كبير الاثر في جوته وذلك ما كان من حرب السبع سنوات المعروفة التي ادت الى احتلال الفرنسيين لمدينة فرنكفورت في اثنائها فاقام احد ضباط فرنسا (الكونت توراناك) في جانب من منزل جوته . وقد اتى الشاعر على ذكر ذلك الضابط في مؤلفهِ القيم الكبير (الشعر والحقيقة) وكان الكونت مولعاً بالفنون فاخذ يتخير صوراً عديدة من مهرة المصورين ويصدرها الى بلده فسنحت الفرص للفتى جوته ان يكون على مقربة من الفن ومن اولئك الفنانين وان يعلم عن التصوير ما قد علم

ولما جاء الفرنسيون الى تلك المدينة (فرنكفورت) إقيمت فيها دار تمثيل فرنسي كان يمثل فيها خير ما كتب مشاهير كتاب المآسي الفرنسيين . ورأى جوته ذلك فعلق بفن التمثيل ومال اليهِ وعرف تلك المؤلفات الخالدة كما ألمَّ بقواعد كتابة الروايات التمثيلية عند الفرنسيين . واسترعى انظاره ما كان اثناء الحرب فألمَّ بالاحوال السياسية بالمانيا . وقد سرَّ وانشرح صدره لانتصار ملك البروس اذ كان ابوه من شيعة فريدرك الكبير وكان ممن يميلون اليهِ . ولما كانت سنة ١٧٦٤ انتخب يوسف الثاني ليضع تاج الملك فوق رأسهِ فاتسعت مدارك الغلام وانفسحت دائرتها عما قبل . وكان ابوه هو الذي يتولى تعليمه بنفسه وغرضهُ ان يبعث في نفسهِ حب

الاعتماد على النفس والاستقلال في البحث والعمل . ولم يكن يرى ان يحشو رأسه حشواً لا يسيغهُ فهمه وادراكه . وحاول جوته ان يكتب قصته في خطابات وقد فعل وكتبها في سبع لغات هي اللاتينية والاغريقية والفرنسية والانجليزية والايطالية والالمانية وبلهجة يهود فرنكفورت فكان ذلك بمثابة تمرين له على اساليب تلك اللغات واصطلاحاتها . وقد ادت معرفته للهجة يهود المانيا الى دراسة العبرية وجد في الاشتغال بالتوراة والانجيل وعني بقراءة كتبهُ شعراء الالمان ولاسيما مؤلفات الشاعر كلوبشتوك . وكان لقصة المسيح الذي نظمها هذا الشاعر المذكور اثر كبير في نفس الغلام . وقد نظم جوته وهو في حداثته بعض الاناشيد والاغاني الدينية نذكر لهُ اقدم ما يعرف لهُ من مؤلفاته كلها المسماة (سياحة المسيح بجهنم) . ولما درس العبرية وآدابها نظم قصيدة اعتمد في مادتها على التوراة وهي قصة يوسف واخوته

ولما كان ابوا جوته في يسر وغناء فقد كانت العناية بولدهما كبيرة فنشأ مرعيَّ الجانب ملحوظاً بعين رعايتهما . وفي سنة ١٧٦٥ انتظم في سلك جامعة ليبتزج ليدرس القوانين ولكنهُ سرعان ما ملَّ دراسة الحقوق ونبا عن محاضرات التشريع التي لم يمل اليها ابداً . على ان المحاضرات الفلسفية كان لها حظ كبير من نفسه . ولم تستطع دروس جلرت في الاخلاق ان تجذب انظاره اليها لكي يداوم على سماعها . ولكنهُ رأى في مجالس ليبتزج وفي اوساطها من عادات طيبة ورقة اهل الحضر بها وانس في اهلها الذين تعرف اليهم من اللطف ما حبب اليهِ تلك البيئات . وعدا ذلك شرع يدرس الفنون بهمة وعزم وجلد وقد ذكرنا ان الفرص كانت قد سنحت لهُ للالمام باصول الفن وهو لا يزال في منزله الذي رأى فيهِ نور الحياة

وكان معلمهُ فريدريش ادم اوزر مدير مدرسة الفنون بليبتزج تحضر عليهِ جوته دروسهُ في تاريخ الفنون — فأفهمهُ ما احتوت عليهِ مؤلفات فنكلمان و (لاكون) لسنج . ثم انهُ زار متحف الصور بمدينة درسدن فازداد فهمه للفن كثيراً . وقد كتب جوته في ليبتزج مأساتيهِ الاولين نشرت اولاها سنة ١٧٦٧ واسمها (مزاح المحبين) ونشر الثانية في السنة التالية واسمها (الشركاء في الذنب) . والاولى قطعة تمثيلية منظومة في فصل واحد اشخاصها رعاة وفيها يسرد الاسباب التي جعلت حبال مودته وحبه لانا كارينا Schoenkopf شونكوبف تصرَم غيرة . وكان جوته قد احب (كيتشن) هذه وهي ابنة خمار . اما المأساة الثانية ففي ثلاثة فصول وقد كتبها لما فطن لفساد العادات في حياة الاسر التي عرف بعضاً منها وهو في مسقط رأسهِ وبعضها في مدينة دراسته هذه . وقد غلب الذوق الفرنسي والشكل الفرنسي على القطعتين ومع انك ترى جوته يحافظ على الاوضاع المنقولة فانت تلحظ منهُ الكياسة والفطنة في شعر صباه وترى ما اختُصت بهِ طبيعتهُ الشعرية من لطف وانهُ يمتح من نبع صاف غزير . وتلحظ من هاتين المأساتين خير دليل على ما كانت بعض الدوافع الداخليـة تحرك في نفسه ان يعرب

عمـا يشعر بهِ من سرور وألم في قالب شعري ليخلص مما كان بنفسه كما لو انهُ رفع عن عاتقهِ حملاً ثقيلاً . وقد اطلق هو على تلك القصائد والمقطعات اسم (قصائد المناسبات) او (اجزاء اعتراف كبير) . ولم يدخل هذه القصائد او الاجزاء الصغيرة في ديوانه الذي ظهر تحت عنوان (انتا) سنة ١٧٦٧ وكان قد نظمه في مدينة ليبتزج وقدمهُ لصاحبتهِ (كيتشن شونكوبف) ، وهو مجموعة قصائد غرامية قصيرة نحا في بعضها منحى الفرنسيين والايطاليين وكانت حافلة بأمور شهوانية ولـكنها رقيقة لطيفة . ولما طبع مجموعته المسماة (ميخائيلس) سنة ١٧٦٩ لم يدخلها في عدادها

وفي سبتمبر سنة ١٧٦٨ عاد جوته من ليبتزج الى فرنكفورت لانهُ كان مريضاً أثر نزيف دموي حدث له فعاد الى بيت والديه ليستعيد فيهِ قوته . ولما برأ من مرضه تعرف بصديقة لوالدته تدعى الآنسة فون كلتنبرج كانت على تقوى وصلاح مزيف غريب الشكل كما اتصل بطبيبهِ ايضاً اتصالاً قويًا وكان لهذا الطبيب كتب من كتب الكاباليين المشحونة بالاسرار كما كانت له كتب في الـكيمياء القديمة . فأجرى بعض التجارب في هذا الباب ترى آثارها في مأساتهِ (فوست) . ولما استردَّ قواه وعادت اليه عافيته وجدة شبابه عاد في ربيع سنة ١٧٧٠ الى شتراسبورج ليتم دراسة الحقوق والقوانين بناء على رغبة ابيه لحضر محاضرات الطب والعلوم الطبيعية الى جانب المحاضرات القانونية وقد كان جلُّ زملائه على المائدة من طلاب الطب

ويجب ان لا نغفل ذكر اسم رجل عظيم كان له اكبر أثر في جوته فيمدينة شتراسبورج . ونعني بذلك هردر (Herder) وكان اكبر منهُ بخمس سنوات الا انهُ امتاز بخبرته ومعارفه واستقلال الرأي ونضوجه . وقد قال جوته عن علاقته بهردر أنها كانت اهم حادث له اكبر الأثر في نشوء افـكاره وروحه وطباعه . وهنا عرف ان النظم انما هو لغة الدنيا والشعوب وانهُ ليس بميراث خاص لبعض الرجال المهذبين . وقد اشار عليهِ هردر بمطالعة شعر الشعوب الاخرى كشعر العبرانيين وهوميروس واوسيان وبالاطلاع على درر شكسبير وقصة واعظ ويكفيلد التي كتبها اوليفر جولد سميث سنة ١٧٦٦ وهي من ابدع القصص باللغة الانجليزية . ونرى جوته تعلق هناك بحب (فريدريكه) ابنة احد الوعاظ المدعو بريون فون سيفنهايم وهناك نسمعهُ يتغنى وينشد نخبة من أرق اغانيه العذبة الجميلة

وقد كان لبيعة شتراسبورج في نفسه كبير الأثر فقد كان لا يزال متأثراً بما يقال ضد طراز القوط في العمارة ولـكنه لما رأى البيعة اعجبَ بها أي اعجاب وعرف روح فن البناء الالماني القديم . ونرى ذلك الأثر في نفسهِ في مقالته التي كتبها على فن البناء الالماني . ولما أتم دراسة القوانين وحصل على اجازة العالمية في الحقوق سافر الى فرانكفورت ولبث فيها قليلاً

وهناك قابل صديقه شلوسر وكان قد تعرف بهِ في ليبتزج وهو الذي اصبح فيما بعد حماه . فقدمه الى المستشار الحربي (مرك) بمدينة دار مشتادت وكان لهذا اثر كبير في نفسهِ

ثم ذهب الى فتزلر سنة ١٧٧٢ واشتغل في محكمتها مدة اربعة شهور ثم عاد الى فرنكفورت وبقي في دار ابويه الى سنة ١٧٧٥ . وكانت هذه المدة المحصورة بين سنة ١٧٧٢ وسنة ١٧٧٥ هي ما يعرف (بزمن العواصف والاندفاع) لتآليف جوته ويرى البعض ان هذا الزمن هو خير الازمنة لما انشده من شعر . فترى الافكار العظيمة تتزاحم في رأسه . ولما كان الهدوء الداخلي ينقصهُ فانك تراه يبدأ النظم او الكتابة في موضوع ثم لا يتعدى ما كتبه إلاَّ الجزء الاول فيهِ كما حدث له كثيراً فانهُ لم يتم (پرومتيوس) و (محمد) و (اليهودي الابدي) كما انهُ قيد جزءا يذكر في خير ما اخرج للناس ونعني بهِ (فوست) كما انهُ كتب اجزاء من (اجمونت) . إلاَّ أنه مع هذا قد اتم مؤلفين عظيمين فأصبحت له زعامة الشعر وإمارة القريض . ذلك انهُ انتهى في سنة ١٧٧٣ من مسرحيتهِ (جتزفون برليشنجن) وانتهى من كتابة جزء كبير من قصة (آلام الشاب فرتر) سنة ١٧٧٤

أما (جتزفون برلشنجن) فرواية مسرحية على طريقة مقلدي القدماء المدرسيين في عصر العواصف والاندفاع اعتمد جوته في مادتها على ما كتبهُ أحد قدماء فرسان الفرنجه عن تاريخ حياته اثناء القرن السادس عشر . وقد مات ذلك الفارس سنة ١٥٦٢ . وحذا جوته حذو شكسبير فكان مبدعاً في الشكل . وقد بدأ عمله فيها لما كان في شتراسبورج ولو ان قصة ذلك الفارس ذي اليد الحديدية لم تطبع إلاَّ بعد ذلك بكثير . ثم عاد جوته فغير وبدل فيها وأطلق عليها اسم (جتزفون برلشنجن : رواية مسرحية) وطبعها سنة ١٧٧٣ . ولما ذهب إلى ڤيمار بعدئذ أحدث بها بعض التعديل لتلائم المسرح . وموضوع القصة يوضح معارضة قدماء فرسان الدولة المستقلين للنظام الحديث

وتلحظ في جتز بطل الرواية أنهُ يمثل العصور الوسطى الذاهبة بما كان فيها من فرسان ذوي عزم صادق وحب للفضيلة . وترى صدد هذا بلاط قساوسة بامبرج وما كان بهِ من القاب تتمشى مع ما يدعوه الناس بالمدنية تلك المدنية الكاذبة المضللة . وكان جتز فارساً من الطراز القديم فلم يكن يعبأ بما انشىء من محاكم بل كان يحمي الضعفاء بنفسه ويثور ويثأر لكل فعل فاضح بكل ما أُوتي من قوة وبأس شديد . ولكن كان ذلك العهد — عهد القوة — قد مضى ولبث جتز هو الفذ الذي يسير في خطته الاولى ولم يخضع للنظم الجديدة فكان في ذلك القضاء عليه . ولما ذهب اليه جنود الدولة حاصروهُ في حصنهِ وتمكنوا من اسره . ولما وعد بالتزام السكينة اعيد الى حصنهِ ثانيةً واقسم على ذلك واصبح حراً طليقاً مرة اخرى . ثم قامت اضطرابات المزارعين ولكي يكبح من جماح الثائرين ويؤدي خدمة للحكومة اخذ على عاتقه قيادة

الامور فثارت عليهِ الثائرة وترك في يد اعدائه فرصة ضده فأصدروا امراً بحرمانه من كل الحقوق المكتسبة للقضاء عليه . وقد تم ذلك وجرح جتز واخذ اسيراً وقضى بقية ايامه في المطبق وهو واثق كل الثقة انه انقذ شرفه ولكنهُ كان يتألم كل الالم لعلمه بان عهد الفروسية قد انتهى وانقضى زمانه

والى جانب جتز ترى زوجه اليزابت وكانت امرأة مخلصة شريفة تعرف منها ام جوته نفسه فكأنما هو اراد ان تكون هي . ثم ترى اخت جتز المسماة ماريا وفيها شبه بفريدريكه صديقته السابقة . وفي مكان آخر تلمح (فايز لنجن) وكان احد رفقاء جتز في شبابه وكان قد ذهب يبغي خدمة اسقف بامبرج مشمولاً برعاية القيصر اراحة لضميره ولاستقامته . ولما شجر الخلاف بين جتز وذلك الاسقف سنحت لجتز الفرصة بان يأسر (فايز لنجن) وعرف كيف يملك عليه حواسه ومشاعره وان يجذبه اليه حتى انه ترك خدمة الاسقف . ولقد اشتدت اواصر الصداقة المجددة وقويت عراها بينهما فخطب فايز لنجن اخت جتز المسماة (ماريا) . ولكنهُ عاد الى بلاط الاسقف وقد استغوته الدنيا وزخرفها وهجر خطيبته وخان صديقه . فكان جزاء تلك الخيانة وذلك التذبذب والتقلب نهاية مخزية كلها عار . فان عشيق زوجه (ادلهايد) المدعو (فرانز) دفعها لان تدسّ السم لزوجها . ويريك جوته من تلك القصة امثلة من بعض رجال الدين الذين انكبّوا على شهوات الدنيا كاسقف بامبرج ورئيس دير (فولدا) وكان لا ينفك يشرب ويعربد . وترى القيصر رئيساً لا حول له ولا قوة يرغب في الخير والطيبات وما كان بقادر ان يقيم نظاماً

وفي الجملة ترى كل اشخاص الرواية قد ابدع تصويرها في صور حية كما اجاد تصوير ذلك العصر وما كان عليه . وقد اقبل الناس على تلك المسرحية بحماسة

اما (آلام الشاب فرتر) فقصة من قصص ذلك العهد (عصر العواصف والاندفاع) المعروف في الادب الالماني ينتابها احساس مريض . وهي قصة اعتمد في مادتها وخيالها على حياة شاب كان يدعى (يوروسالم) ابن احد كبار رجال الدين واللاهوت ورئيس احدى الاديرة بالقرب من براونشفايج عرفه جوته لما كان في (فتزلار) وهو امين سرّ المفوض لبراونشفايج لونبرج . ومال الشاب لزوج احد اصدقائه واحبها ولكنه كان في حبه شقيّاً — حب كله اليأس والموت ختامهُ — ولما كان جوته في تلك المدينة (فتزلار) حدث له مع (شارلوتي بوف) مثل ماحدث لصاحبنا الشاب السالف الذكر . اما شارلوتي فكانت زوج امين سر مفوض (برم) المدعو (كستنر) .وكان هذا الرجل وزوجه قد أحبّا شاعر المانيا الاكبر ولكن حب شارلوتي ملك عليه كل حواسه الاّ انهُ كان ميلاً عقيماً من دون ثمرة وحبّاً من غير أمل فتركه قوي الاحساس مريضه . وقد وصف في تلك القصة أو في (اعترافاته العامة) كما كان يدعوها هو ما كان من

امره وما كان من ميوله المصابة، بطريقة شعرية على انهُ غيّر وبدّل في بعض الاسماء كما هي عادة الكتاب فاسمى (كستنر) بـ (البرت) ودعا زوجه (لوتي) . ولما رأى اليأس حليفه في ميله وحبه كان ما تراه في نهاية امره من انتحار بطله باطلاق الرصاص على نفسه . ومجمل القصة سهل غير معقد وقد كتبها جوته باسلوب محبوب كأنك تسمع الموسيقى من الفاظه وعبارته. وقد صوّر عواطفه تصويراً مطابقاً للحقيقة

واذا رغبت ان تعرف أثر تلك القصة في معاصريه فلك ان تعلم ما كتب من قصص على نحوها وما دار حولها من اطالة وترجمة ونقد وتهكم وسخرية حتى ان بعضهم كتب قصة دعاها (اصدقاء الشاب فرتر) استرعى ما فيها من قدح لاذع نظرَ جوته . ويمكن ان يقال ان كل ما كتب في ذلك يصحّ ان يكون مراجع كبرى لحياة (فرتر ونهايته) . الا ان جوته قد اصبح عند معاصريه شاعر فرتر . وتشبه كل من المأساتين (كلافيجو) و (ستلا) (جتز) و(فرتر) . وبطل المأساة الاولى رجل مخنث الطباع لاوفاء له على غرار (فايز لنجن) السالف الذكر. اما المأساة الثانية فكأنها هي تكملة لبعض اجزاء قصة فرتر ولكنها اضعف منها لاتدانيها ترى العواطف تتجه فيها اتجاهاً غير خلقي

وانك ترى قدرة الشاعر الفكاهية في عدة من آثاره الصغيرة التي كتبها في ذلك العهد. ومن هذا القبيل روايته الفكاهية المسماة (آلهة وأبطال وفيلاند) و(السوق السنوية لبُلِنـدرز) فايلن وهي اضحوكة اخرى على غرار ما خلفه هانز ساكس من آثار ومؤلفات. ثم اخرى اسماها (ساتيروس) . وفي سنة ١٧٧٤ كتب رواية كلها تهكم وسخرية على احد رجال اللاهوت المدعو كارل فريدريش باردت وما كان له من آراء في المسيحية وجعلها موافقة لروح العصر . ولم ينس الشاعر ان ينشد بعض اغانيه في ليلي (اسمها اليزابت شونمان) وكان قد خطبها الشاعر زمناً

***

وطار اسم الشاعر في الآفاق فزاره بعض الافراد المعروفين في منزله بفرنكفورت ونزلوا في داره ضيوفاً معززين مكرمين مثل كلوبشتوك ولافاتز الذي كان واعظاً في تزيورش .كما زاره اثنان من جرافات (الجراف كونت) شتولبرج وقد ذهب جوته في صحبتهما الى سويسرا لاول مرة في مايوسنة ١٧٧٥ . وردّ الزيارة للافاتز وتعرف هناك بصديقته بربارا شولتهس وبقيا على الصداقة ما شاء الله. وهي التي حفظت لنا اصول أثر من آثاره الذي اسماه (المعلم الاول) ثم تعرف بولي عهد ڤيمار (كارل اوجست) وكان قد رآه قبل ذلك في فرنكفورت وفي كارلسروه .ولما تولى ذلك الامير زمام الحكومة في بلاده دعا جوته لڤيمار فسافر اليها ملبياً دعوته

(ستأتي البقية) الدكتور علي مظهر

المذاهب الاجتماعية الحديثة

للمستر كليلند

مدير قسم الخدمة العامة في الجامعة الاميركية بالقاهرة



— ٢ —

سير التحول الاجتماعي

لننظر الآن في فعل التحوُّل الاجتماعي . كل مَنْ في هذه الغرفة رأى في اثناء حياته تحوُّلاً في الاوضاع الاجتماعية عميق الأثر . ففي الناحية الصناعية شهدنا استعمال المصباح الكهربائي ، والتلفون ، والاتوموبيل ، والطيَّارة ، والراديو ، والصور المتحركة ، ولمسنا أثرها كلها في طريقة تعاطينا للاعمال ، وتمتعنا بالدين ، وملاهينا وحياتنا البيتية ، وقيام الدولة بما عليها . وقد استخرج علماء الاجتماع سنّة التحوُّل الاجتماعي كما تنطبق على امم الغرب فاذا هي : اذا بدأنا بجمعية مستقرّة متزنة ، فادخال استنباط او اكتشاف ، يقلب اوضاعها ، لتعذر مماشاة هذه الاوضاع للاحوال الجديدة الناشئة عن هذا الاختراع ، ثم تحصل الملاءمة بين الاوضاع والاحوال الجديدة ويلي ذلك تحوُّل في افكار الجمعية مجاراة للاساليب الجديدة . فالسنّة اذاً تشتمل على المراحل التالية : — الاستنباط او اقتباس شيء جديد — فاضطراب الاوضاع الاجتماعية — فملاءمتها — فالتحوُّل الفكري . ويطلق على هذا التأخر في تحوُّل الافكار « البطء الفكري » .

واليك المثل . ففي اواخر القرن الثامن عشر وضع جورج وشنطن خطة سياسية قومية للولايات المتحدة الاميركية مآلها ان تجتنب هذه الولايات الاشتباك في شؤون اوربا السياسية . وكان يفصلنا عن اوربا حينئذٍ محيط عرضهُ نحو ثلاثة آلاف ميل ، فلم يكن ثمة ما يبعثنا على العناية بشؤون اوربا . فلاءمت اميركا نفسها لهذه الخطة وجرت عليها بضع سنوات . ولكن المكتشفات والمخترعات المتتالية قصَّرت المسافة بين اوربا واميركا ، فهي الآن بالمخاطبات التلفونية اللاسلكية لاشيء ، وبالطيَّارة لا تعدو ثلاثين ساعةً او اقل . ثم ان اصحاب المعامل من الاميركيين قد صنعوا بضائع تفيض عن حاجة السوق الاميركية ، فهم مضطرون ان يبيعوها

في اسواق خارج بلادهم . وهذا درَّ على الاميركيين ثروة ، لم يدروا ما يفعلون بها في بلادهم فهم يثمّرونها في الخارج . وبازدياد هذه الروابط الاقتصادية والثقافية، تعظم عنايتهم ، ويشتد ارتباط مصالحهم بشؤون اوربا السياسية والاجتماعية، بل بشؤون العالم . ولما كانت اميركا دائنةً لمعظم الدول الكبيرة ، وامة ذات انتاج واسع النطاق فانها استرعت عناية امم اوربا كلها واشتبكت معها . ولم يكن في امكان جورج وشنطن ان يتصوَّر كلَّ هذا او شيئاً منهُ . وقد لاءمت منشآتنا الاجتماعية والعلمية هذه الحالة الجديدة ، والاوضاع السياسية آخذة في هذه الملاءمة أخذاً بطيئاً . ولكننا من الناحية الفكرية لا نزال متأخرين عن مجاراة التحوُّل المذكور ، ونحن الآن لا نسلّم باننا مرتبطون ارتباطاً وثيقاً ببقية العالم . ولا بدَّ ان يلحق التحوُّل الفكري بالتحوُّل الاجتماعي السياسي

هذا هو سير التطوُّر الاجتماعي السويّ في بيئة محافظة ، او في جماعات مستقرّة حيث تكون

عكس التطور الصحيح

ولكن اذا نظرنا الى سير التحوُّل الاجتماعي الجاري الآن في بعض البلدان رأيناهُ يختلف عما تقدَّم . فاذا كانت امة متأخرة في ناحية اوضاعها ومنشآتها الصناعية ، كالصين او روسيا ، ثم اخذت فجأة باسباب انقلاب فكري سريع ، مبتدئة في المرحلة الاخيرة من مراحل التحوُّل الاجتماعي — اي التحوُّل الفكري — قبل ان تقطع المراحل السابقة لهُ من الاستنباط وملاءمة الاوضاع الاجتماعية للمستنبطات الجديدة — فالنتيجة انفجار واضطراب . وما يحدث هو اقتباس الآراء الحديثة من الامم الغربية التي اصبحت تلائمها بمقتضى سنّة التحوُّل المذكورة ، فتطبَّق على الاوضاع القديمة في البلاد المقتبسة فلا تنطبق ، وبدلا من الحصول على ملاءمة تدريجية تكون النتيجة ثورة عنيفة كما حدث في العهد الحديث في روسيا والصين واسبانيا والهند وجنوب اميركا . أفنستطيع ان نرى في هذا بعض تعليل للقلق الحالي في مصر . ان شعباً عددهُ ١٥ مليوناً — ٩٠ في المائة منهُ ، يعيش على مستوى من الثقافة ، قد ثبت واستقرَّ من مئات بل من الوف السنين ، بما في ذلك وسائلهم الميكانيكية ، وعاداتهم الاجتماعية والسياسية وآراؤهم العقلية والدينية ، كلها كوّنت واستقرت بما يلائم معيشتهم احسن ملاءمة — يقطن بلاداً هي طريق عالمية ، يجتازها الاوربيون ، وللاوربيين ثقافة مختلفة ، اكثر تعقيداً في بعض نواحيها واشد بساطة من نواحٍ اخرى . واذ تلمس هذه الثقافة المختلفة اللماعة (وسر قوتها يغلب ان يكون في مستنبطاتها) مصرَ تجذب اليها ١٠ في المائة من ابنائها فيقتبسون طائفة من اساليبها :— لاحظ التغيير في الملبس ، ووسائل المواصلات والمخاطبات ، واللغة

وطرق المعيشة ، وانفاق الوقت الفراغ ، بين المصريين الذين اخذوا بالحضارة الاوربية

فاذا عبرنا عن هذا الفعل بالفاظ اجتماعية قلنا ان هذا الجانب الصغير من الامة المصرية قد اقتبس بعض المميزات الفنية والصناعية المتطرفة بعض التطرف ولاءموا ملاءمة سريعة بينها وبين طبائعهم وافكارهم . ولكنهم اذا حاولوا ان يطبقوا بعض هذه الافكار على سواد الامة لقوا من التباين في الافكار ما يفضي الى النزاع ، لان السواد لم يتبع في تحوّله طريق التطور المادي اولاً فالتحول الفكري

اتجاه التحول أو التقدم

لنعد الآن الى موضوع التحوُّل الاجتماعي ولنعالجهُ من ناحية التحوُّل وغايتهِ . هنا ندخل ميدان « ادب النفس » الذي يعالج العلاقات الاجتماعية كما يجب ان تكون ، وكيف نحقق ذلك . هنا نجد اختلافاً في الآراء والمذاهب ، الدينية وغيرها ، ولكل جماعة اقتراح أو طريقة تعتقد ان فيها العلاج الناجع . وقد دعا بعضهم اتجاه التحول الاجتماعي -بالتقدم- اذا كان هذا الاتجاه متفقاً مع آرائهم الادبية — وبالانحطاط — اذا كان مخالفاً لها . ولكن هل يمكن ان نتفق على تحديد معنى « التقدم » ؟ اني اشك في امكان ذلك الآن أو في المستقبل القريب : فاننا متفقون ان ثمة تحوُّل ، ولكننا لسنا على يقين هل هذا التحوُّل « تقدم او لا . ونحن في حاجة الى التفريق بين « الحضارة » و« التقدم » . فانهما ليسا شيئاً واحداً . ان الحضارة تشير الى التقدم في اساليب الصناعة على الاكثر ، في كثرة الالآت الجديدة ، وزيادة البراعة في استعمالها

اما القول بان الحضارة تحسّن بحكم الطبع العلاقات بين الانسان وتمهّد سبيل التقدُّم الاجتماعي فقول لم يقم عليهِ دليل بعدُ . والواقع ان الحرب العالمية ، اثبتت نقيض ذلك ، والضائقة المالية والصناعية الآخذة بخناق العالم الآن ، جلت لنا الضعف المستحكم في علاقات الناس اذا قيس بارتقائهم الصناعي والفكري . وقد حاول احد اساتذتي السابقين — الاستاذ سنغر استاذ الفلسفة في جامعة بنسلفانيا — ان يوفق بين التقدم والارتقاء الصناعي في كتابهِ « المفكرون المحدثون والمشكلات الحالية » فقال « ان التقدم يقاس بدرجة تعاون الانسان في غزو الطبيعة » فهو يشير الى علاقات الناس بعضهم ببعض في قولهِ « تعاون الانسان » والى « الارتقاء الصناعي » في قولهِ « غزو الطبيعة » وهو حدّ جامع اذا شمل لفظ « الطبيعة» الانسانَ كذلك واظن انهُ يقصد بها ذلك

مسألة السكان

ورغماً عن الصعوبة التي نكابدها في تحديد معنى « التقدم » اريد ان اذكر بعض نواحٍ من علاقات الناس بعضهم ببعض ، يستطاع تحقيق التقدم فيها ، بانياً أفكاري على بعض الحقائق الحديثة المكتشفة في علم الاجتماع

فاولاً ما يرتبط بعدد الناس أو ما يعرف « بمسألة السكان » . لنفرض وجود جزيرة صغيرة مساحتها ميل مربع ينمو عليها قدر سويّ من النباتات المنوّعة وتعيش فيها طوائف من الحيوانات . ولكن ليس ثمة على سطحها ناس . انقل اليها رجلين فيتاح لهما الحياة عليها ردحاً من الزمن . ولكن اذا كانا طموحين ويرغبان في ترقية حالهما لقيا في ذلك اشدّ المصاعب لعجزهما عن الحصول على من يساعدهما في سعيهما ، فهما اذاً يتوقان الى طائفة من الناس تساعدهم في استثمار الجزيرة . فسكان الجزيرة في هذه الحال اقلّ مما يجب ان يكونوا . ثمّ لنفترض ان سفينة حملت الى الجزيرة طائفة من المهاجرين ، عددها بضع مئات ، فنزلوا في الجزيرة واستقروا على سطحها ، فتمّ للرجلين المساعدة اللازمة — ولكنها في هذه الحال قد تزيد عمّا يلزمهما ، لان استهلاك السكان الجدد لموارد الجزيرة الغذائية اسرع من تجديدهم لها ، وحينئذٍ نرى الرجلين الاولين يندبان سوء الحال وكثرة السكان وشح الموارد . فسكان الجزيرة في هذه الحال اكثر مما تكفي لهم مواردها . واخيراً يجد الرجلان الاولان وسيلة لارجاع معظم المهاجرين وابقاء نحو مائتين منهم فقط ، لانهم يحسبون ان موارد الجزيرة تكفي معيشة هذا العدد من الناس على احسن حال ، ولان هذا العدد يكفي للقيام بكل الاعمال اللازمة . فسكان الجزيرة في هذه الحال يبلغون « العدد » الأمثل أو المستوى الامثل (optimum)

ويبدو كأن هذا المثل يمكن تطبيقهُ على اي بلاد . فثمة عدد من السكان في كل بلاد ، اذا قل تأخر تثمير مواردها الطبيعية فيخسر الاهلون ، واذا زاد تعذر على البلاد تزويدهُ بكل ما يلزم من ادوات المعيشة على مستوى معيـن فيهبط المستوى العام . وعلى كل امة ان تبحث عن العدد الامثل من السكان الصالح لبلادها وهذا البحث يقوم على اساس « مستوى المعيشة » و « درجة الثقافة » التي تودّ ان يتمتع بها ابناؤها . ومن الواضح انهُ اذا هبط مستوى المعيشة زاد عدد السكان الى ان يبلغ هبوطهُ درجة يفتك عندها الجوع أو المرض بجانب كبير من الامة . واذاً فعدد السكان الامثل في اي بلاد يختلف باختلاف وجهة النظر. فالحكومة الامبريالستية التي تتطلب عدداً كبيراً من الجنود لا يكلفونها نفقة كبيرة ترغب في شعب كبير يعيش على مستوى واطٍ جداً . ومن ناحية الدين ترغب الكنيسة مثلاً في طائفة كبيرة من المؤمنين لتزخم المؤمنين وتخرجهم . واذا نظرنا الى المسألة من الناحية الاقتصادية

وجدنا ما يسوّغ تحديد السكان لكي يتمتع الباقون بدخل ٍ وافٍ . ثم اذا نظرنا من الوجهة الادبية وجب ان يكون السكان بحيث يضطر كل فرد الى العمل الشاق ويكون دخلهُ كافياً لحاجاتهِ الضرورية فلا يفيض منهُ ما يبذره في التمتع بالملاهي والمفاسد . والمقرر ان الميل المربع في بلاد زراعية يكفي عدداً من السكان اقل من العدد الذي يكفيه الميل المربع في بلاد صناعية . وقد يحسن بجماعة من الجماعات اذا استطاعت ، ان تعين مستوى معيشة ابنائها والحد الادنى لحاجاتهم الاجتماعية ودرجة ثقافتهم وهلمَّ جرًّا ثم تسعى الى تعليم الناس المعيشة على هذا المستوى . فخطة « اطلاق حرية العمل » وما نجم عنها من السير على غير هدى ، ضارة كالخطة العمياء التي ترغب في زيادة السكان على اي حال ومن دون اي نظر الى مستوى معيشتهم ، وهذا في الوقت نفسه ضار كالدعاية الى تحديد السكان وضبط التناسل المطلقين من كل قيد

الزيادة والنقص والتحديد

والباحثون الآن عاكفون على درس مسألة السكان، وقد اسفرت مباحثهم عن حقائق كثيرة، قد تفضي اخيراً الى استخراج احكام اجتماعية . فنحن نسمع مثلاً ، ان سكان الارض يزيدون زيادة سريعة تجعل الجماعة العامة امراً لا ندحة عنهُ بعد بضع سنوات . ويرى « نبز » Knibbs أن سكان الارض وعددهم ١٩٥٠ مليوناً اذا مضوا يزيدون بمتوسط زيادتهم في القرن التاسع عشر (اي ٨٦٤ر٠ في المائة) (متوسط الزيادة في مصر في العشرين السنة الاخيرة بلغت ١ر١ في المائة) بلغ عددهم بعد ٢٤٠ سنة ١٥٦٠٠ مليون ولكن هذا متعذر لأنهُ يعني ان ازدحام السكان في كل بقعة من بقاع الارض يكون حينئذٍ مثل ازدحامهم في حي العباسية بالقاهرة الآن او ٦٣٠٠ نسمة في الميل المربع الواحد وهو ستة اضعاف متوسط ازدحامهم في القطر المصري . ولا بدَّ من حدوث حادث قبل بلوغ هذا العدد . وبفضل تقدم المواصلات والسيطرة على الاوبئة والتنظيم الصناعي ، زاد سكان العالم في القرن الماضي زيادة تحمل على التفكر في ما قد يحدث اذا اطردت هذه الزيادة . فبعضهم يعزينا بقولهم انهُ بارتقاء الحضارة يقل متوسط المواليد ، وانهُ باتساع نطاق التعليم تكثر المستنبطات التي تجعل الحياة اكثر رفاهية واقل نفقة، او تحدث كارثة طبيعية او تنشب حرب ، فيقل عدد السكان

قد يكون ذلك . . .

لننظر في مسألة قلة المواليد . فانها قد تعني ضعف الخصب الانساني ، او السيطرة على التناسل الناشىء عن ارتفاع مستوى المعيشة . او قد تكون نتيجة مماشية لانخفاض متوسط المواليد القائم على ترقية وسائل الصحة . فلنفرض وجود جماعة عددها ٣٠٠ الف نسمة . في سنة ما يولد فيها ٣٠٠٠ مولود ويحدث ١٠٠٠ وفاة . فهذا يعني ان متوسط المواليد فيها ٣٠

في الالف ومتوسط الوفيات ١٠ في الالف فعدد الجماعة يكون في آخر السنة ١٠٢٠٠ نسمة. ولنفرض ان عدد المواليد والوفيات في السنة التالية مثله في السنة السابقة فالمتوسط السنوي في السنة التالية اقل منهُ في الاول فيبلغ للمواليد ٢٨٫٤ وللوفيات ٩٫٨ وقلتهُ تزيد بزيادة العدد الاصلي ، والعدد الاصلي يزيد بزيادة طول الحياة . ذلك ان زيادة طولها تفضي الى بقاء كثيرين على قيد الحياة فوق السن الذي يخلف فيهِ النسل . وقد بلغ من اضطراب الطرق المستعملة لتحديد متوسط الوفيات والمواليد ان مال بعض الباحثين الى اهمالها والبحث عن وسائل ادق . فالاستاذ كوزنسكي يجعل اساس طريقتهِ النساء اللواتي في سن التوليد اي من سن ١٥ الى سن ٥٠ ويقابل عددهنَّ بالبنات اللواتي يخلفن ويتعهدن الى ان يبلغن سن التوليد فاذا كانت كل انثى تخلف بنتاً تحمل اولاداً او ولدين ليحلاَّ محل الام وزوجها فعدد السكان مستقر على حالٍ واحدة لا يزيد ولا يقل مع ان تقدم وسائل الصحة العامة تجعله يزيد زيادة ظاهرة. لان هذه الزيادة اذ تبلغ حدها الطبيعي تقف عند حدٍّ وتستقر. وقد اثبت كوزنسكي ان هذه « الزيادة » اقل من واحد صحيح في غرب اوربا وشمالها اي ان شعوب هذه البلدان آخذة في النقص . ومعظم هذا النقص في بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا وتشكوسلوفاكيا واستونيا ولتفيا . اما البلدان الاخرى كايطاليا وبلغاريا والمجر واسوج ودنمارك وفنلندا فاما مستقرة بلا زيادة ولا نقص او ان زيادتها قليلة جداً . اما البلدان الصقلبية كروسيا فآخذة في الزيادة زيادة ظاهرة . ويقدر ان النقص يبدأ فعلاً في فرنسا سنة ١٩٣٧ وفي انكلترا سنة ١٩٤٢ وفي المانيا سنة ١٩٤٦ والاحصاءات التي يمكن الاعتماد عليها في الولايات المتحدة الاميركية تدلُّ على ان عدد السكان فيها مستقرٌّ فاذا نقص متوسط المواليد عما هو عليهِ الآن افضى الى نقص في عدد السكان . فيظهر مما تقدَّم ان الامم التي منيت بمشكلات العمال العاطلين الناشئة عن زيادة السكان على العدد الامثل مقبلة على حلٍّ بيولوجي لهذه المشكلات بنقص طبيعي في عدد السكان

* * *

لم يجرِ احد مثل هذه المباحث في القطر المصري . وقد تصبح ممكنةً بارتقاء فن الاحصاء فيهِ . وانما عملت حسابات وضحت في اطلس مصر وبعض مطبوعات الحكومة . وجدير بالذكر ان مصر من اكثف البلدان سكاناً يقطنها نحو ١١٠٠ نسمة في كل ميل مربَّع من الارض المنتجة ويقابل ذلك نحو ٧٠٠ في انكلترا و ٦٥٠ في بلجيكا ونحو ٧٠٠ في جاوى . ويذهب بعض علماء الاقتصاد الى ان وجود ٨٠٠ نسمة في ميل مربع من البلاد الزراعية هو الحدُّ الاقصى فاذا زاد عددهم عن ذلك اصبحوا في خطر من الجوع . وكذلك اقترح بعضهم ان تحل هذه العقدة في

مصر باستيراد الآلات الزراعية . فاذا استعملنا الآلات الزراعية هنا مدى استعمالها في الحقول الاميركية اكتفينا بنحو ½ من عدد الفلاحين المشتغلين بالزراعة وعددهم نحو ٣٤٨٠٠٠٠ — اي اكتفينا بعمل ١٨٠٠٠٠ فلاح — والباقون — اي نحو ٣٫٣٠٠٠٠٠ يتفرغون لاعمال اخرى في الصناعة اذا اتيحت لهم الفرصة أو يصبحون عاطلين . فمن الوجهة العملية نرى ان المشكلات المرتبطة بحالة الفلاحين الاقتصادية والثقافية والصحية ، هي في مقدمة المشكلات التي تستدعي عناية مصر الحديثة

السيطرة الاجتماعية

لم يبقَ عليَّ الاَّ ان ابدي بعض ملاحظات تدور حول موضوع « السيطرة الاجتماعية » . فمن الواضح ان اتساع نطاق الجماعة الناشيء عن كثرة المستنبطات ، حتى يشمل جماعات اخرى ، وكثرة السكان التي تفضي الى اشتباك المصالح ، يقتضيان نظاماً من السيطرة . كانت القوة اولاً اساس هذا النظام اذ يُخضِع القويُّ الضعيفَ لارادتهِ . ولكن هذه الوسيلة اصبحت صعبة التطبيق لزيادة التعقيد في علاقات الناس بعضهم ببعض . وكأن البشر ملزمون الآن ان يتخذوا من النظام الادبي اساساً بدل هذا الاساس المضطرب . فاتساع نطاق التعاون بين الفراد ، في بلاد واحدة أو بين سكان الارض — بين التجار والعمال والمشتغلين بالشؤون العقلية — اخذ يصبح امراً لا مندوحة عنهُ . فلا بدَّ للجماعة ان تتنازل عن بعض آرائها الخاصة ، ولا بدَّ للافراد من التنازل عن بعض ما يعرَف « بحقوقهم » . ولكي يكون النجاح نصيب هذه السيطرة الادبية ، فلا بد ان يكون بمحض ارادة الناس . ولا بد من التعليم الذي يلقّن « طرائق التفكير » بدلاً من « موضوعات التفكير » . ولا نستطيع قبل اتساع هذا النوع من التعليم ان نطبق ما نعرفهُ عن نظام السيطرة الادبية . وحينئذٍ نصبح معنيين بتقدم النوع الانساني قاطبة عنايتنا بتحسين صنف القطن . فنحن نعلم اننا نستطيع تحسين الناس من ناحيتين — ناحية عوامل الوراثة بالتأصيل وناحية البيئة وهي تشمل احوال الحياة من التلقيح الى ساعة الوفاة . وقد يظهر لبعض الناس ان القول بالسيطرة على الوراثة سابق لاوانهِ الآن . ولعله كذلك . فقد لا نكون على جانب كاف من الحكمة يؤهلنا للعبث بأساس الحياة — العوامل الوراثية . ولكن محاولة تحسين البيئة اذا اخطأت لا تضر الانسان ضرراً باقياً . فنحن نستطيع ان نحوّل المجتمع ، بحسب فهمنا لمعنى التقدُّم ، اذا تمكنا من اقناع عدد كافٍ من الناس بصحة ما نقول وهذا هو عمل المعلم والمهذب

الشاعر

كنتُ خمراً معصورةً من قلوبٍ ... أنبتَتْها إلـهة العشاقِ
عرَشتْ كَرْمتي زماناً على الحبِّ ... وغطَّتْ جدرانهُ أوراقي
وتلاقت فوقي عصافيرُ تشدو ... وتغني أُنشودة الأشواقِ
وتلاقى في الليل تحت ظلالي ... من تساموْا في الحبِّ خيرَ تلاقِ
ما سَقَتْني جداولُ الارض لكن ... كنتُ أُسقى بفائض من ماقِ
كنتُ أُسقى فيضَ الجمالِ نقيًّا ... لم تَشُبْهُ كدارةٌ من نفاقِ
يغسل الفجرُ بالندى أعنابي ... وهو لاهٍ مستغرقٌ في عناقِ
فاذا سار ردَّدَ الصبحُ فوقي ... ذكرياتي في جَلْوَةِ الإشراقِ

* * *

وأَتَتْني الأيامُ تقطف مني ... كلَّ غضٍّ من كَرْمتي رقراقِ
عصرتني من بعد ذلك خمراً ... ودَعَتْني للشعرِ أعظمَ ساقي
فتولّى فضْ الدنانِ غرامي ... واحتساني في غمْرَةِ الأشواقِ
فتمشّتْ في الحال فيهِ حُمَيّا ... يَ فغنى أُغْنِيَّةَ الإطلاقِ
أنصتَ الفجرُ للصدى فارتقاهُ ... خاشعَ النفسِ ، صامتاً وهو راقِ
فتلاشيتُ في الأثير بقايا ... لغناء يرنُّ في الآفاقِ
فاسمعوني في رنَّةِ العود لحناً ... واسمعوني في صرخةِ الأبواقِ
واسمعوني في ثورة الرعد التي ... تمتماتِ السلامِ في الإبراقِ
واسمعوني في صدحة الطير اشدو ... في حفيف الأغصان والأوراقِ
في النسيم العليل يهمس للبحـ ... ـرِ حديثاً ، وفي أنين السواقي
في حديث الأطفال ، في صبواتِ ... للشباب المرنّح الخفاقِ
نغماتي : همْسٌ من الروح سامٍ ... وحديثي : شعرٌ من الاعماقِ

حسن كامل الصيرفي

توزيعه في بلدان الارض

وأثره في سياسات الامم

من نكد الدنيا، ان البترول، وهو المادة الثمينة التي يقوم عليها الصرح الصناعي الاقتصادي الحديث، ليس موزعاً توزيعاً عادلاً في كل بلدان العالم. وهذا مصدر من مصادر الشقاق بين الامم فثمة بلدان غنية بمنابعهِ وثمة بلدان محرومة منهُ. ومن هنا نشأ النضال بين الامم الكبيرة والسباق الى امتلاك البلدان التي يكثر فيها امتلاكاً مباشراً او بسط السيطرة عليها، مالية كانت او سياسية. فالويل للأمم التي لا تملك منابع للبترول في هذا العصر. والويل ثم الويل للبلدان التي تملكها ولكنها لا تستطيع ان تدافع بالقوة دون استقلالها، لانها محكوم عليها حينئذ ان تصبح معتركاً للفاتحين من الطراز الحديث!

وأشهر المنابع المعروفة الآن موزعٌ في ثلاث مناطق رئيسية — المنطقة الاميركية — والمنطقة التي حول الطرف الشرقي للبحر الابيض المتوسط — ومنطقة جزائر الهند الشرقية

اما منابع المنطقة الاميركية فلم تستنبط الا في الولايات المتحدة الاميركية وأميركا المتوسطة، ولكن ثبت للباحثين ان ثمة منابع بترول في قارتي اميركا الشمالية والجنوبية من كندا الى طرف الارجنتين الجنوبي. بل يبدو كأن القارتين الاميركيتين حوضٌ متسع من البترول. اما المنطقة الثانية فتشتمل على شرق اوربا كرومانيا وغرب آسيا كتركيا وشواطىء البحر الاسود والعراق. ثم هناك جزائر الهند الشرقية وأشهرها جاوى وسومطرا وبورنيو. في هذه المناطق الثلاث فقط يمكن استخراج مقادير كبيرة من البترول تجعل استخراجهُ عملاً تجاريًا رابحاً

فيظهر اذاً كأن بلدان اوربا التي كانت تمتاز بمناجم الفحم، محرومة من منابع البترول. على ان شعوبها كانت في مقدمة الشعوب التي ادركت قيمة البترول وأثره في الحياة الاقتصادية فأخذت تتجارى الى امتلاك منابع الثروة التي تنقصها. وقد شهد التاريخ مثل هذا الزحام في السعي وراء الذهب والفحم وغيرهما من قبل

ففي عصور التاريخ الاولى، كان الذهب مليكاً. وامتلاك اغنى مناجمهِ جعل الامم الاسيوية ذات صولة وسلطان، بل جعلها مهداً للحضارة. فلما نخر فيها سوس الفساد، غزتها الشعوب المتوحشة، وقد استهواها بريق الذهب، فجاءت تنهبهُ. ثم وقع مثل هذا للأمبراطورية الرومانية، التي انتزعت زمام السيادة من آسيا، وتلتها في ذلك الامبراطورية البيزنطية. فالاولى انهار صرحها امام هجمات البرابرة من الشمال، والثانية امام حملات البدو المنطلقين من البادية. وهكذا

انتقل الذهب ، على مرّ العصور من يد الى يد ، ومعهُ الصولة والسلطان . ولكن حدث من نحو قرنين ونصف قرن ، حادث لم يكن ذا شأن في نظر الناس حينئذٍ ، ولكنهُ غيّر وجه الارض

ذلك انهُ في مطلع القرن الثامن عشر ، اذ كان لويس الرابع عشر يقضي شيخوختهُ في فرساي ، مثقلة بالمجد ، وأعداؤه ينتظرون وفاتهُ ، لكي يثأروا لنفوسهم من خلفهِ ، كان عالم فرنسي متواضعٌ ، قد طرد من فرنسا بموجب « منشور نانت » فذهب الى المانيا حيث والى تجاربهُ رغم فقرهِ ، في قوة بخار الماء ، بل انهُ بنى مركباً صغيراً شبيهاً بعربة تدور عجلاتهُ الاربع بقوة البخار . فحطمهُ بحارة مُنْدِن ، خوفاً من ان يسدَّ في وجوههم سبيل الرزق

وظلت فكرة — دنيس بابان — مطوية نحو قرن وفي اوائل القرن التاسع عشر صنعت الآلة البخارية وشاع استعمالها في الصناعة ومن ثم اصبحت ثروة الامة رهناً بما تملكهُ من مناجم الفحم ، لا مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة . وهكذا تمَّ للامم التي اخذت بالآلة البخارية في صناعتها الوف من العبيد — الآلات التي اغنت عن العبيد — تشتغل لها . فكان عصر الفحم

واخذت السفن البخارية تتجارى لغزو البحار ، والسكك الحديدية لافتتاح القارات . واتسع نطاق الصناعة الآلية ، فتغلبت على الصناعة اليدوية ، وسيطرت على الاسواق البعيدة ، فاتجهت تيارات الثروة نحو البلدان الصناعية الغنية بمناجم الفحم ، لان الامم التي تملك الذهب لم تتأخر عن ان تستبدل بذهبها ما تخرجُ المصانع من البضائع . فاثرت الولايات المتحدة والمانيا وانكلترا من هذا الطريق . بل يصحُّ القول بان بريطانيا بنت امبراطوريتها على الفحم

ومن البلدان التي فقدت مقامها في عصر الفحم والبخار ، لقلة الفحم في ارضها ، ايطاليا . فانها لما حاولت ان تجاري الامم الصناعية ، اضطرت ان تستورد الفحم الضروري لمصانعها ، فاضطرت من ناحية اخرى ان تنقص اجور عمالها وتخفض مستوى معيشتهم ، لتتمكن من مباراة الامم الصناعية الاخرى ، بعض المباراة في اثمان مصنوعاتها ، وهكذا اصبحت ايطاليا — وقد كانت الغنية في عصر الذهب — فقيرةً في عصر الفحم : انها لمن المفارقات

وما لبث العلماء ان اخذوا يبدون قلقهم من مجيءِ يوم ينفد فيهِ الفحم المخزون في بطن الارض ، وجعلوا يحسبون بالارقام ميعاد ذلك اليوم وصوّروا العالم فيهِ بصورة قاتمة تنقبض لها النفوس ، اذ تقف الآلات في كل المصانع عن العمل . اما الامم الصناعية ، فمضت في استخراج الفحم من المناجم غير عابئة بما ينطوي عليهِ الغد

ولكن في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر كان عالم مكبّ في سكون معمله على البحث في موضوع لم يعرهُ الجمهور حينئذٍ عناية ما . وكان اسم هذا العالم « بو ده روشا » . فانهُ استعار فكر الاب هوتفيل الذي حاول سنة ١٦٧٨ ان يصنع محركاً يدور باحداث انفجارات صغيرة متتالية ، مستعملاً البارود لاحداث هذه الانفجارات . ثم طالع مباحث المهندس النابغة

لونوار الذي تصوّر سنة ١٨٦٠ امكان توليد قوة متحركة من مزيج من الغاز والهواء المضغوط وهكذا استنبط المحرك الذي يدور بالانفجار على مثال محرك السيّارة فكان ذلك ايذاناً بانقلاب جديد في الصناعة بعيد الاثر واسع النطاق ، فثلّ عرش الفحم ، ونصب البترول ملكاً

وكأن الطبيعة تحبُّ التوازن ، فحرمت الامم التي امتازت بمناجم الفحم من منابع البترول واذا انكلترا والمانيا وفرنسا وبلجيكا لا تجد في ارضها من هذه المادة الثمينة ما يشفي غليلاً

وكان الانكليز اسبق هؤلاء الى ادراك فداحة الخطر . وزاد قلقها لما اكتشفت طريقة لتكرير البترول باحمائهِ في مرجل ، وفهمت انهُ اذا لم تملك من منابع البترول ما يكفي سفنها التجارية والحربية ، اصبحت تحت رحمة الولايات المتحدة الاميركية . واذا ضاعت صولة اسطولها فقل على ارتقائها الصناعي ، وتجارتها ، وسلامتها ، ومكانتها العالمية ، السلام

فهل تسمح للقدر ان ينزع منها القوة التي منحتها اياها مناجم الفحم ؟ هل تفقد سيادتها للبحار ، وسيطرتها على الاسواق العالمية ، وامبراطوريتها المنثورة في مشارق الارض ومغاربها وهي واقفة مكتوفة اليدين ؟ لانهُ رغماً عن كثرة مناجم الفحم فيها لست تجد في كل امبراطوريتها الاّ نحو ٤ في المائة من منابع البترول العالمية . فعزمت ، طائفة من رجالها الممتازين ببعد النظر وصدق الوطنية ان تخرجها من هذا المأزق . فدبروا الامر بينهم ، بمعزل عن الشعب والبرلمان ، والولايات المتحدة الاميركية قانعة بسيطرتها الظاهرة ، لانها كانت تخرج ٨٥ في المائة من مقدار البترول المستهلك في العالم . فلم تنقضي بضع سنوات حتى كان الانكليز قد بسطوا سيطرتهم على منابع البترول اللازمة لحياتهم الاقتصادية وسيادتهم البحرية ، فلما تنبهت الولايات المتحدة الى ذلك ، وعرفت ان احتكارها للبترول بات في خبر كان ، كان قد سبق السيف العذل

من هنا يتبيّن للقارىء كيف تسيطر مسائل البترول على سياسات الامم . ففي كل بقعة وجد فيها نبع بترول ، أو يظنّ ان فيها نبعاً ، ترى النزاع قائماً فيها بين الامم ، آناً في وضح النهار ، وآناً تحت ستر الخفاء ، ولكنهُ نزاع على كل حال ، هدّد السلام العالميّ غير مرة ، ولا يزال يهدّدهُ . ولكن ، لعل عالماً يقوم ، ونحن نكتب هذه السطور ، بتجارب من شأنها ان تحدث انقلاباً في الصناعة كما احدث استنباط الآلة البخارية وآلة الاحتراق الداخلي . فيضطرب التوازن الدولي مرة اخرى ، ويعود الفقير غنيًّا والغنيُّ فقيراً . وليس هذا من بنات الخيال . فالعالم الفرنسي جورج كلود ، يقيم من سنوات في احدى الجزائر النائية ، محاولاً ان يبدع طريقة عملية تجارية لاستعمال القوة التي لا تحدُّ ، الكامنة في حركة مياه البحار

هذه هي السنّة التي تجري عليها حضارتنا ، القائمة على الآلة وتطبيق العلم واستعمال القوة . فربَّ استنباط يخرجهُ عالم مجهول ، او اكتشاف بسيط يقوم به باحث منزوٍ ، يكون من شأنهِ ان يقلب التوازن الكائن بين الامم ، فيضع العالي ، ويرفع الوضيع . هكذا تتحول امجاد العالم !

تقاليد الزواج واصولها النفسية

لاحمد عطية الله

— ٤ —

الزواج الفردي — الحب والزواج — تعدد الزوجات — الاسباب الداعية اليه — تعدد الازواج — الزواج الجمعي — زواج المبادلة — المهر وتطوره
احصائيات عن تعدد الزوجات وسن التزاوج في مصر

بين من يحصل هذا التعاقد ، او بمعنى آخر من هما الطرفان في الزواج ؟ لان الزواج كأي تعاقد لا بد له من طرفين . ولعل اسرع ما يتطرق الى الذهن ان الطرفين رجل وامرأة، أو إذا توسعنا قلنا رجل واحد واكثر من زوجة ، وهذا ما نعرفهُ بتعدد الزوجات . ولكن هل هذا كل ما هنالك ؟ كلا ! فكما أن هنالك تعدد للزوجات . فهنالك أيضاً تعدد للازواج . أي انهُ قد يكون لعدة رجال زوجة واحدة ، كما ان هنالك زواج جمعي اي ان مجموعة من الازواج واخرى من الزوجات تتضامن وتشترك في عقد الزواج . والتقاليد الدينية التي تحرم هذا او تحلل ذلك ، تعتمد كثيراً على أسس سيكلوجية ، واقتصادية في وقت واحد لذلك نرى ان خروج الفرد على هذه النصوص كثير ، ومنتشر ، لانهُ ليس من الميسور أن تطبق الحالات او النظريات العامة على الافراد او الشعوب المختلفة، دون مراعاة لمؤثرات البيئة

فاذا نظرنا الى الشعوب الهمجية. وجدنا أن الزواج الفردي ، وتعدد الازواج منتشر بينها لما للبيئة وللحالة الاقتصادية من أثر في نظمها

فالشعوب التي تعتمد على الصيد ، أو ذات البيئة الجبلية ، او التي تعتمد على الصناعة ، او التجارة او البلاد الفقيرة ينتشر عادة بين اعضائها الزواج الفردي،ولو كانت في دور الهمجية

ففي مثل هذه الشعوب حيث تكون تكاليف المعيشة باهظة ، لا يتسنى لكل فرد ان يعول فيها من الزوجات اكثر مما يلزمهُ . لهذا نجد ان الزواج الفردي كان منتشراً في اكثر انحاء القارة الاوربية منذ اقدم الازمنة ، وان كان قد تحدد منذ عهد الرومان ، ثم عند انتشار المسيحية . ولا ريب في أن الزواج الفردي اقرب الى الطبيعة لان علاقة الصداقة لا تتوثق ولان تبادل الحب لا ينمو عادة إلا بين فردين فقط

أما عند كثير من الشعوب كالتي تعتمد على رعاية الاغنام ، او على الزراعة والتي تتطلب بحكم بيئتها كثرة الايدي العاملة ، نجد ان تعدد الزوجات هو التقليد المتعارف بينهم ، لاسيا وان كثرة النسل وازدياد عدد افراد العائلة مظهر من مظاهر القوة والسيادة ، كما هو الحال

عند الشعوب التي تعيش متفرقة كالعشائر او القبائل التي تقطن البادية . ومما يساعد على تعدد الزوجات قلة مطالب المعيشة او وفرة الحاصلات الغذائية

بل ان بين الشعوب المنتشر فيها الزواج الفردي ، نرى ان تعدد الزوجات معروف بين الطبقات الثرية ، كالامراء والملوك . ففي القرن السادس نقرأ عن ملوك ارلندا ، ان المتعارف بينهم ان يكون لكل منهم زوجتان ، وكذلك الحال في الممالك السلافية (الصقلبية) المختلفة

ثم ان في بعض الحالات الشاذة كالحروب مثلاً التي تنتهي عادة بفقد عدد كبير من الرجال ينتشر تعدد الزوجات بطبيعة الحال ، كما حصل ذلك بعد حرب الثلاثين سنة لما صدر قانون في بعض مناطقات المانيا يحتم على كل رجل الزواج باثنتين على الاقل

ويجب ألاّ نغض النظر عن الصعوبات التي تعترض الشعوب او الديانات عند تطبيق قوانين الزواج الفردي ، وذلك لأن هذه القوانين مبنية على اساس ان نسبة عدد الرجال الى عدد النساء في العالم متقاربة ، ولكن كيف يمكن تطبيق هذا على بعض الشعوب التي يزيد فيها عدد النساء كثيراً عن عدد الرجال ؟ كما حدث نتيجة للحرب العالمية الاخيرة في اوربا

ونتيجة ذلك كما يقرر الفيلسوف الانكليزي برتراند رسل — « ان فوضى اخلاقية كبيرة عمت اوربا ، يندر ان نجد رجلاً متزوجاً من دون ان تكون له علاقات جنسية باخرى » . ولكن العلاقة الزوجية يجب ان تكون اوثق اساس للمحافظة على الزواج الفردي لاننا نجد حتى بين تلك الشعوب التي تسمح التقاليد فيها للملوك ومن في مقامهم بتعدد الزوجات انهم يميزون عادة واحدة من بين نسائهم العديدات ويدعونها « بالزوجة الاولى »

وكتب علم حضارة الانسان ممتلئة بذكر امثال هذا . فسليمان الحكيم مع ما نسمهُ بهِ من الحكمة نعرف عنهُ انهُ قد كانت له الف زوجة . ولكن من المشاهد لا سيما بين الشعوب الهمجية كما في غرب افريقيا ان لبعض امراء الزنوج نحو ٣٣٣٣ زوجة !

ثم هنالك النوع الثالث من العلاقات الزوجية وهو تعدد الازواج : بمعنى ان تكون هنالك زوجة واحدة لمجموع من الازواج في وقت واحد . وهذه التقاليد وان لم تكن عامة الانتشار كالنوعين الاولين الاّ انها معروفة بين كثير من الشعوب ، بل هي شائعة الى الآن في بلاد التبت . والعادة هنالك ان يكون الازواج اشقاء او اقارب ، فاذا تزوج رجل بفتاة فبحكم العرف تصبح هذه الفتاة زوجة ايضاً لاشقائهِ ، ويعرف اكبر الاشقاء سناً « بالزوج الاول » واليهِ ينسب الابناء . والاسباب التي حدت الى ايجاد مثل هذه التقاليد عديدة : اهمها عدم التناسب بين عدد الفتيات والرجال في القبيلة في حين ان التقاليد تمنع التزاوج من خارج هذه القبيلة . ثم فقر البلاد وقلة الموارد الاقتصادية التي تضطر افرادها الى الاقلال من عدد النسل ، لكي يمكن رعايته — او قد يكون السبب فقر العائلة بمعنى ان الرجل يكون عاجزاً عن

اقتناء زوجة اذا كان التبادل التجاري هو اساس الزواج — وكذلك كثرة غياب الازواج سواء في القنص في الغابات ام في الحروب والغارات التي تنشب دواماً بين هذه القبائل . وهذا النوع من الزواج يكون عادة سبباً لظاهرة اجتماعية اخرى وهو الزواج الجمعي . ومعناه ان مجموعاً من الازواج والزوجات يشتركون معاً في تكوين اسرة واحدة . وهذا يحدث نتيجة لتعدد الازواج . فالاقرباء الذين يتضامنون مع واحد منهم في زواجه بفتاة ، يصبح له هذا الحق اذا تزوج احد اشقائه او اقاربه. وقد ذكر يوليوس قيصر وصفاً لمثل هذا النوع من الزواج في انكلترا عند غزوه لها .اما الاطفال فينسبون الى الزوج الاول

ولا يحصل الاتفاق أو التعاقد في غالب الاحيان مجاناً ، إذ أنه لا بد من دفع ثمن لهذه الموافقة لا سيما لوالد العروس الذي يفقد بزواج فتاته فرداً من افراد عائلته كان له عوناً في الأعمال المنزلية — لهذا السبب نرى تبادل الزوجات شائعاً في كثير من الشعوب الهمجية، بمعنى أن الزوجين يتبادلان اختيهما . فالفتى الذي لديه أخت أسعد حظاً في العثور على زوجة له ، لاسيما عند القبائل التي تحظر التزاوج باجنبيات عنها

فاذا تعذر التبادل وجب دفع ضريبة أو دية أو ثمن للزوجة، وهذا الثمن يدفع للأب ويكون عادةً من بين الادوات ذات الفائدة له . وإذا تعذر ايضاً دفع ثمن للزوجة فقد يستعاض عنهُ بخدمة يؤديها الرجل لعائلة الزوجة — ومن المعروف لدينا ان موسى قد تزوج ابنة شعيب بان استخدمه هذا في عمله وعاونه فيه سنين

وهذه المدة لا تقل عادةً عن عام واحد وقد تبلغ خمسة عشر عاماً أو حتى ولادة الطفل الاول وقد لا يكون الغرض من هذه الخدمة دفع ثمن للزوجة ، ولكنه يتخذ دليلاً على قدرة الزوج على العمل وعلى إعالة زوجته . لذلك نرى ان الزوج الجديد كثيراً ما تطلب منه أشق الاعمال ، ثم انه لا يعامل من افراد اسرة زوجته الجديدة إلاّ بكل قسوة، فلا يعطى إلا أحقر الاطعمة ولا ينام الاّ على الارض في أقذر مكان كما هي الحال في بعض جزائر الهند الشرقية

وهذا المبلغ الذي يدفعهُ الزوج لوالد الفتاة يأخذ اوضاعاً مختلفة ، فقد يكون هدايا يبعثها الزوج الى الفتاة ، لا كثمن ولكن كرمز لتقديره لها واعجابه بها. فارسال الخطيب هدية في وقتنا الحاضر الى فتاته دليل ايضاً على تقديره واثبات لهذه العلاقة الجديدة — وقد يكون المهر الذي يدفعه الزوج معناه شراء حقوق زوجته من أبيها — كما انه في بعض الاحيان قد يدفع الزوج أيضاً مبلغاً من المال لوالد الفتاة بعد ولادة الاطفال كثمن لشراء حقوق هؤلاء الصغار

ففي البلاد التي صار ارسال الهدايا أو تقديم المهور شائعاً بين افرادها ، تقدر قيمة الفتاة بمقدار هذا الثمن فقيمتها بين اهلها تتناسب مع القدر الذي دفع في سبيلها

لذلك كان التفاخر بدفع المهور تفاخراً بقيمة هذه الزوجة ، إلا أن هذه التقاليد أخذت

في الاضمحلال ، لا سيما عند دخول عوامل جديدة مثل حرية المرأة في الموافقة على الزواج والعوامل الاقتصادية الاخرى . وقد يحدث في بعض البلاد ان التغالي في دفع هذه المهور يحدو بالسلطات القائمة — كما حدث في بعض انحاء روسيا القديمة أو حديثاً على ما اظن في بلاد فارس — ان تحدد مقداراً من المال لا تتعداه المهور لكي يساعد هذا على اقدام الفتيان على الزواج

ومن المتعارف أن جزءاً من هذا المهر الذي يدفعه الزوج يكون حقاً للفتاة . وهذا بدوره يرجع حقاً للزوج يتصرف فيه . فالنتيجة التي قد تتدرج اليها هي ان الزوج بينا نراه يقدم بعض الهدايا اذا بالزوجة تدفع مهراً للرجل كدليل على ان عائلة الزوجة لا تسعى الى ثمن مادي من الزوج كقيمة لفتاتهم . ويحدث ان الزوج عند مقابلة زوجه للمرة الاولى ان يقدم لها هدية أو مبلغاً من المال . ففي بعض انحاء مصر تمتنع الفتاة (كما رأينا) عن التكلم الى زوجها الجديد — تحت تأثير التعاليم التي تلقتها اياها أمها — حتى يقدم لها جعلاً أو ضريبة

وقد يتأخر ذلك الى الصباح ، فيقدم الزوج الى الفتاة ما نعرفه بهدية الصباح التي ليست في الحقيقة مهراً جديداً ولكنها دليل يقدمه الزوج اعترافاً بعفاف زوجته وطهرها

جدول يبين العلاقة بين التزاوج وبين سن المتزوجين والمتزوجات في مصر

السن	الذكور			الأناث		
	التعداد	غير المتزوجين	المتزوجون	التعداد	غير المتزوجات	المتزوجات
١٥—١٩	٦٦٩،٨٠٠	٦٤٢،٠٩٨	٢٤،٥١٤	٦٠٢،٨٩٢	٣٧٤،٤٦٦	٢١٣ر١٤٥
٢٠—٢٩	١،٠٧٦،٥٣٠	٥٠٤،٥١٣	٥٤٠،٠٠١	١،٢٠٧،٣٤٦	٩٣،٤٦٠	١،٠٣٤،٣١٧
٣٠—٣٩	٩٦٩،٠٣٣	٧١،٣٢٢	٧٦١،٧١٠	٩٩٤،١١٧	١٥،٩٧٩	٨٥٩،٦٨٢
٦٠ ومافوق	٤٢٣،٢٨٤	٤،٩٩٥	٣٦٠،٦٥١	٩٤١،٠٥٨	٣،٨٤٣	١٠٤،٤٧٣
المجموع	٦،٩٤٥،٨٥٧			٧،٠٠٦،٤٠٧		

النتائج (١) ان عدد الاناث من المصريين يزيد بنحو ٥٢ الف عن عدد الذكور

(٢) النسبة المئوية لغير المتزوجين بعد سن الستين هي ١ر٢ ٪

(٣) النسبة المئوية لغير المتزوجات بعد سن الستين ⅖ ٪

وهذا يؤيد انتشار الزواج (في مصر)

(٤) السن الذي يكثر فيهِ تزوج الفتيات هو بين ٢٠،٢٩

(٥) السن الذي يكثر فيهِ عدد المتزوجين هو بين ٣٠،٣٩

(٦) عدد المتزوجين من (الشبان) بين ٢٠،٢٩ يقدّر بنصف عددهم في بند (٥)

جدول يبين احصاء المتزوجين (المسلمين) في مصر، مع بيان المتزوجين بزوجة واحدة او اكثر، ثم النسبة المئوية لتعدد الزوجات

المحافظة او المديرية	عدد المتزوجين	ذوو زوجة واحدة	المتزوجون باكثر من زوجة	النسبة المئوية لتعدد الزوجات
جرجا	١٦١٬١٥٧	١٥٦٬٩٨٩	٤١٦٨	٢٫٥٨
القنال	٢١٬٦٥٨	٢١٬٠٩٥	٥٦٣	٢٫٥٩
اسيوط	١٧٦٬٨١٩	١٧٢٬٢١٠	٤٦٠٩	٢٫٦٠
اسكندرية	٨٩٬٧٧٢	٨٦٬٩٤٦	٢٨٢٦	٣٫١٤
المنيا	١٣٩٬٥٨٦	١٣٤٬٩٧٣	٤٬٦١٣	٣٫٣١
اقسام الحدود	٣٬٥٧٨	٣٬٤٤١	١٣٧	٣٫٨٢
القاهرة	١٨١٬٤٨٦	١٧٤٬٥٣٠	٦٬٩٥٦	٣٫٨٣
قنا	١٦٣٬٠٤٠	١٥٦٬٧٦٩	٦٢٧١	٣٫٨٤
بني سويف	٩٧٬٢٥٩	٩٣٬٢٤٢	٤٠١٧	٤٫١٣
اسوان	٤٥٬٣٠٩	٤٣٬٣٨٤	١٩٢٥	٤٫٢٥
الصحراء الجنوبية	٥٬٠٤٨	٤٬٨٣٣	٢١٥	٤٫٢٥
الجيزة	١٢١٬٢٥٣	١١٥٬٨٢٧	٥٤٢٦	٤٫٤٧
المنوفية	٢١٧٬٤٨٨	٢٠٧٬٥٤٣	٥٩٤٥	٤٫٥٧
القليوبية	١١٣٬٤٩٦	١٠٨٬٠٠٣	٥٤٩٣	٤٫٨٤
الفيوم	١٠٨٬٨٨١	١٠٢٬٩٥٩	٥٩١٢	٥٫٤٣
الغربية	٣٢٠٬١٦٠	٢٩٩٬٥٤٨	٢٠٬٦١٢	٦٫٤٣
الدقهلية	١٩٦٬٥٢٦	١٨٥٬٠٤٨	١١٬٤٧٨	٦٫٨٦
الشرقية	١٨٦٬٢٥٨	١٧٢٬٩٠٧	١٣٬٣٥١	٧٫١٦
الصحراء الغربية	١٠٬٠٦٠	٩٬٣٢٨	٧٣٢	٧٫٢٧
البحيرة	١٦٨٬٨٤٨	١٥٥٬٩٨١	١٢٬٨٦٧	٧٫٦٢
جملة عمومية	٢٬٥٤٢٬٨١٨	٢٬٤٢٠٬٣٦٢	١٢٢٬٤٥٦	٤٫٨١

(نتائج) ١ — نسبة تعدد الزوجات اقل في المدن لاسيما الساحلية وكذلك في المناطق الفقيرة

٢ — « « « اكبر في المناطق الصحراوية

(وهذه النتائج تؤيد النظريات التي ذكرت بالمقال) مأخوذ عن احصاء سنة ١٩٢٧

« للبحث بقية »

احمد عطية الله
مدرس التربية بمعلمات حلوان

على ذكر الانتخابات الالمانية

هندنبرج

عملاق الحرب والسلام

خطب مسيو كايو منذ أسابيع ، وهو كما تعلم وزير فرنسا المالي ، فقال بان فرنسا في مركز مالي خطير وان ميزانية الدولة الفرنسوية ستصادف في آخر السنة الحالية عجزاً عظيماً . فاذا كانت هذه هي حالة فرنسا التي تعتبر خزانة الذهب في العالم بعد الولايات المتحدة الاميركية ، فكيف ببقية الدول ، وعلى الاخص المانيا ، بعد ان توقفت عن دفع التعويضات وبعد أن نشطت فيها روح الاشتراكية نشاطاً استطاع بهِ زعيمها «هتلر» ان ينافس رجل المانيا العظيم المارشال « پول فون هندنبرج». لعل الناس لايعرفون عن هذا الرجل العظيم الاَّ انهُ رسول الحرب والجلاد ، ولعلهم فوق ذلك يرون فيهِ رجلاً لم يمرَّن على مواجهة الحكم المدني في بلاد كالمانيا أكلت الحرب فيها الاخضر واليابس ، واحتلبتها الدول بمعاهدة « ڤرساي » خمسة عشر عاماً وتركت اهلها في احط دركات الفقر والخصاصة

انتخب الفيلد مارشال هندنبرج رئيساً للجمهورية الالمانية في ٢٦ أبريل ١٩٢٥ . واليوم وهو في الخامسة بعد الثمانين من عمره ، لا يكتفي بان يكون رئيساً للجمهورية ، بل يأخذ بضلع كبير في معالجة أمور المانيا الداخلية والخارجية . وعلى الرغم من ان الهرم قد كتب على جبهة ذلك الرجل العظيم بعض آياته ، كانحناء قليل في اعلى كتفيه ، وتقوُّس في رجليه لايكاد يراهُ الاَّ المدقق ، فانه لا يزال عملاقاً كما كان ايام الحرب ، طويل القامة ، عظيم الهامة ، عبوساً لا يبتسم . وعلى الرغم من انه لم يُرَ مرة منذ أن وضعت الحرب العظمى اوزارها في بزته الحربية ، فانه لا يزال يلوح في كل جزء من اجزاء جسمه ، وكل لمحة من لمحات خلقه ونفسيته ، هندنبرج القائد العام لجيوش المانيا أيام الحرب ، ويد القيصر اليمنى . ثم انه لا يزال هو بذاته هندنبرج الهرم العجوز . لم يتغير فيهِ شيء ، منذ عقد الهدنة سنة ١٩١٨ حتى الآن . عقد ونصف عقد من السنين المثقلة بالهموم ، المليئة بالاحزان والمخاوف ، المحفوفة بالمخاطر والاوهام ليست كافية لان تغير في هندنبرج شيئاً ما . فهو اليوم ، وقد كاد يختتم منتصف العقد التاسع من العمر ، كما كان في ختام العقد السابع من حياته

نعم لم يتغير هندنبرج . ولكن العالم كله قد تغير . حتى الفكرة التي قامت من حوله في اذهان اهل أوروبا قد تغيرت تغيراً كليًّا . فقد خيل الى اوروبا لما انتخب عملاق الحرب ، ورجل الامبراطورية العسكرية ، رئيساً للجمهورية ، ان الحرب لا بد واقعة ، وان انتخاب الرجل انتصار للحزب العسكري الامبراطوري . ولكن هندنبرج لم يكن ليعرف القيصر على انهُ غليوم هوهنزلرن بل كان يعرفهُ اولاً على انهُ قيصر المانيا . اما وقد زال القيصر وزالت القيصرية ، فان المانيا باقية لا تزول . والمانيا دائماً فوق الجميع

اذا قلت هندنبرج ، فكأنك كنت تقول العسكرية الالمانية . كان اسمه علمٌ على الروح العسكرية وعلى الولاء المفرط لملاك الحرب غليوم الثاني . فلما وضعت الحرب العالمية أوزارها بعد أن تغلب الحزب الاشتراكي الالماني مغترًّا بوعود ولسن ، ظهر اسم هندنبرج بعد اسم الامبراطور مباشرة في الجدول الاسود المحتوي على اسماء مجرمي الحرب الذين اراد الحلفاء ان يحاكموهم . لم يسبقه في الترتيب الاَّ صاحب الجلالة الامبراطورية

في ختام سنة ١٩١٤ كان هندنبرج في الاستيداع مقيماً في بيته بهانوفر . فلما اعلنت الحرب اخذ على عاتقهِ قتال الروسيين في الميدان الشرقي . ولقد ظن العالم بعدئذٍ ان حياته الحربية قد اختتمت في سنة ١٩١٨ ، بعد ان قاد جيوش المانيا مقاوماً بها اكثر من خمسٍ وعشرين دولة من دولات الارض بما لديها من معدات ومستعمرات وموارد . في حين ان المانيا كانت محصورة من جميع جهاتها برًّا وبحراً وجوًّا ، واحاط بها الاعداء من كل جانب كما يحيط السوار بالمعصم

فلا عجب اذا تلبدت سحب الشك والخوف في سماء اوروبا عند ما رُشّح عملاق الحرب ليكون رئيساً للجمهورية الالمانية . فقد رأوا في المانيا الجمهورية وعلى رأسها هندنبرج ان خطراً يهدد سلام اوربا المنهوكة المكدودة ، وتخيلوا ان صولجان العسكرية الالمانية اخذ يرفع رأسهُ المخوف في جو الدنيا مرة اخرى . ورأى آخرون ان المانيا التي عمدت الى النظام الجمهوري زهداً في العسكرية والحرب وبغضاً في من كانوا سبباً في بثّ هذه الروح ، سوف تنسى مشقاتها دراكاً وتجنح بعد قليل الى فكرة الانتقام من الحلفاء ، فتدق الساعة ، وتأكل المدنيةَ نارُ الحروب

وكان من اول المؤيدين لهندنبرج في الانتخاب الاول الاميرال فون « ترپتز » منظم حرب الغواصات ، ورمز الروح العسكرية الالمانية ، فوق البحار ، كما كان هندنبرج رمزها فوق الارض . ولا شبهة في ان « هندنبرج » يؤيده « ترپتز » لا بد من ان يتركا في نفسية الشعب الالماني اثراً ، يملأ شعوب الاحلاف وهماً وشكاً . حتى لقد اعتقد كل المشتغلين بالسياسة الدولية في انجلترا وفرنسا وايطاليا واميركا ، أن ترشيح هندنبرج خطوة اولى لرجوع

آل هوهنزلرن الى اعتلاء عرش المانيا، او على الاقل لتنصيب اسرة اخرى من اسر المانيا الملوكية

ولقد اتفق الرأي على هذا . ففاضت بهِ صفحات الجرائد والمجلات ، وترددت بهِ اعواد المنابر وجنبات المجالس النيابية. ولما اخذ العالم الذهول بعد ان هزم المارشال هندنبرج منافسهُ الدكتور «ولهلم مركس» وهو احد غلاة الجمهوريين ، وواجه العالم كلّهُ رئيساً ثانياً للجمهورية الالمانية ، اخذ الناس في جميع اقطار الارض وعلى رأسهم جمهوريو المانيا نفسها ينعون الحرية ومضوا في رثاء طويل يندبون بهِ آخر ظل للديمقراطية فوق الارض

اما اذا قارنت بين النغمة التي ضربت عليها الصحف والمجلات في ذلك الحين ، بما تكتبهُ الآن ، لأخذك العجب. لم تؤيد صحيفة واحدة من صحف الدنيا المارشال هندنبرج سنة ١٩٢٥ ولا تكاد تجد الآن صحيفة واحدة في ركن من اركان الدنيا الاربعة ، لا تؤيد المارشال هندنبرج سنة ١٩٣٢ . والواقع ان انتصار هندنبرج على الدنيا في ميدان السياسة المدنية ، يطفئ لمعان ذلك النجم الذي تألق في سمائهِ ابان حياته الحربية

كتبت احدى صحف امريكا العظمى عند ما اعلن انتصاره سنة ١٩٢٥ ما يأتي:

« نجح هندنبرج ، وهزم العسكريون الالمانيون ، جمهوريي المانيا . لقد تركت المانيا الجديد لتنظر الى القديم ». وكان هذا احسن تعبير عما انطوت عليهِ قلوب الجمهوريين في المانيا وكل محنك بالسياسة الدولية في روما وباريس ونيويورك ولندن

وقالت جريدة اميركية اخرى : « لقد قالت المانيا كلمتها . وبعد ان خيل للعالم ان المانيا قد انتفعت بالدرس الذي تلقتهُ بالهزيمة في ميدان الحرب وبعدت عن فكرة اخضاع العالم بالقوة أخذ رأس التنين المزعج يرتفع مرة اخرى بعد ان فاز في المانيا زعيمها الحربي واوسع رجال العالم مطامعَ ، ليكون رئيساً لجمهورية المانيا »

ولم يكن الشعور في اوربا ازاء فوزه أقل منهُ في امريكا . فان مسيو « بريان» وزير فرنسا المعروف — وكان لما بلغته اخبار انتصار هندنبرج، وكان قد اخذ يعمل في نطاق واسع ليعيد السلام الى أوروبا ويقيمه على قواعد ثابتة — هز رأسه في تشاؤم قائلاً ان أوروبا سوف تضطر الى الرجوع مرة اخرى الى السياسة القديمة ، سياسة السلم المسلح ، الذي لا يخرج في مدلوله عن الاستعداد للحرب بأوسع ما يمكن ان يصل اليه جهد الدول ، لتكون على اهبة لها تخوض غمراتها في طرفة عين

وقالت جريدة فرنسية شبه رسمية — ان انتخاب هندنبرج رئيساً للجمهورية في المانيا ، ليس الاَّ تحدياً صريحاً للحلفاء ، بل ولامريكا وأوروبا كلها » — « والحقيقة ان ليس نبوغ هذا الشيخ الذي عاد الى الميدان من عزلته في «هنوفر» هو الذي يزعجنا . انها قوى الرجعية والانتقام الوحشيّ ، هي التي نراها مختفية وراءه ، تعمل على تعجيل الساعة التي تصبح فيها المانيا قادرة على حمل السلاح وخوض غمرات الحرب مرة اخرى ». وكذلك كان الحال في ايطاليا .

فان فوز هندنبرج للرآسة ، ومن ورائه شبح فون «ترپتز» ملأ ايطاليا غمّاً وفزعاً . اما كيف انقلبت آية الافكار في أوروبا على اثر انتخابه من امل في السلام العالمي ، الى عقيدة راسخة في احتمال وقوع الحرب في كل أزمة دولية ، فلا ادل عليه من كلمات تضمنها مقال لجريدة التيمس :

« نريد ان نذكر المعجبين بشخصية هندنبرج أن هزيمة الدكتور ماركس ، ليس معناها ان المارشال « فوش » قد خرج من الميدان »

مع هذا ، وفي أول دورة رآسة هندنبرج ، لم ترتفع الاّ بضعة اصوات ظهرت خافتة ضعيفة في المانيا وممالك اخرى ، تحاول ان تخفف من وطأة الحادث وتهدىء شعور الفزع والخوف وقلة الثقة الذي سيطر على النفوس بعد فوز عملاق الحرب ليكون على رأس جمهورية السلام . ولقد دلّوا بهذا على انهم اعرف بطبيعة المارشال على رأس جمهورية المانيا ، من كل اهل اوروبا وامريكا ، وانهم كانوا اصحّ حكماً على ما سوف يتمخض عنه انتخاب هندنبرج رئيساً للجمهورية الالمانية

قالوا ان الشيخ العظيم قد اقسم يمين الاخلاص للجمهورية فاهماً ما يقول ، عارفاً بما يحوم حوله من الشكوك والاوهام قانعاً بان الحرب لا يعقبها الاّ السلام ، لتعمر المانيا ويعمر العالم . اما وانه اقسم فانه لا يحنث بقسمه . وانه سوف يخدم الجمهورية بولاء لا يقل عن ولائه للامبراطورية تحت لواء هوهنزلرن . اعتقدوا بان هندنبرج لن يعمل على اعادة الملكية في المانيا . قالوا احترسوا للذين اخذهم الفزع . وقالوا انتظروا للذين شكوا . ومضت اوروبا وامريكا على حذر واحتراس ، وانتظر الناس ما سوف تنجلي عنه الايام

ولم يتوان المارشال الكبير في ان يحقق نظر الذين حاولوا ان يطمئنوا ويعيدوا الثقة بالمانيا . على ان متطرفي الحزب الملكي في المانيا قد اظهروا الغضب والحزن . ذلك لانهم رأوا ان هندنبرج اخذ يعمل على تثبيت قواعد الجمهورية ، بدل ان يضع تحت اساسها الالغام ، كما ظنوا انه سوف يفعل . لم يظهر بمظهر الملكي المتطرف ولا المعتدل . بل لم يظهر على تصرفاته اقل ظاهرة تدل على تأثره بالروح الملكية ، وهو على رأس الجمهورية . وأخذت اسود الحرب تزأر من حول سيدها ، حتى قال الكونت « رفنتلو » الناري الروح الملتهب المزاج ، ان موقف هندنبرج غير مفهوم وغير محبوب من متطرفي الوطنيين . كل هذا والاسد الاعظم رابض في مكانه لا يتحرك ، عبوس كما كان ، ثابت كما عرف في ميدان القتال ، لا يفترّ ثغره عن ابتسامة ، ولا ترسل عيناه بنظرة غضب الكل امامه سواء والمانيا فوق الجميع

قال الكونت «وستارب» يوماً للمارشال هندنبرج ان مما يملؤه حزناً ان يراهُ يضحي بآمال الحزب الملكي الذي يدين هندنبرج بتأييده في الانتخاب لرآسة الجمهورية ، وان يقضي على كل الآمال التي عقدها متطرفو الوطنيين على انتخابه . وظل هندنبرج في عبوسه ، وفي

وصمته ايضاً . وانصرف الكونت من غير ان يحظى من عملاق الحرب بكلمة ولا بنظرة لم يعر « رڤنتلو » التفاتاً ولا اقام لكونت « وستارب » وزناً ، ولا حفل بما التف حولهما من رجال الحرب والرجعية . ظل صامتاً حتى قيل له في صراحة انهُ اذا لم يعمل وهو رئيس للجمهورية على اعادة الملكية الى المانيا فانهُ سوف يعتبر اكثر من خائن لوطنهِ ، وللآلاف المؤلفة من الالمانيين الذين اقترعوا له في الانتخاب. ولكن اسد المانيا ان احتمل كل شيء ، ان احتمل عبء الشيخوخة وآلام الهرم وان واجه شك العالم فيهِ وريبتهم في صحة ما اقسم بهِ على ملأ من الدنيا ، فانهُ لا يحتمل الاهانة تنال من كرامتهِ . فلما رمي بالخيانة تحركت فيهِ نخوة العسكرية ، فعاقب الذين رموه بها وفيهم الكونت والبرنس والمركيز ، وفيهم الشريف والوضيع ، كما يعاقب المارشال هندنبرج اصغر ضابط في احقر فرقة من فرقهِ ، لا في ميدان القتال ، بل في ميدان الاستعراض . فلم يكن في ذلك رحيماً ، ولكنهُ كان عظيماً في عقابهِ ، كما كان عظيماً في صمتهِ وتسامحه ، ولكن في كل ما بعد عن كرامتهِ ، وانفصل عن شرفهِ . اذا اقسم هندنبرج ، فقد اقسم . أما وقد اقسم فلا بدَّ له من ان يقدس القسم. لهذا مضى في سبيله يعمل الواجب ويؤيد الحق في منصب لم يسع هو اليهِ مؤيداً من المانيا كلها. لم يقل ان رآسة الجمهورية لي ، بل قيل له هي لك . فقبلها عالماً ما ينطوي وراءها من هموم وآلام . ولكن الواجب كان امامهُ ، والمانيا على حافة الهاوية يهددها الخراب والفقر ، وفرنسا تحتلُّ اغنى بقاعها، وكل مواردها في يد الاحلاف ، الذين غرروا بالاشتراكيين من اهلها فضربوا الجيش من الخلف في ساعة كان هندنبرج لا يفكر إلاَّ في المقاومة والهجوم، ان لم يكن في الانتصار ! مضى في سبيله من غير ان يفكر إلاَّ في المانيا ، أما في شخصهِ فلا. لأن هندنبرج ليس فرداً بل هو قطعة من المانيا ، وجزء منها لا يتجزأ

* * *

لم يحدث في اوربا من حدثٍ بعد الحرب ، وكان من أثره ان يحيي الامل في السلام ، بقدر ما يقضي على شبح الحرب ،مثل عهد « لوكارنو » . ولقد عمل على نجاحه ثلاثة رجال من افذاذ هذا العصر . بريان في فرنسا ، واستن تشمبرلين في انكلترا ، وجوستاف شترزمان في المانيا . ولكن الانسان قد يتخيل ان هندنبرج كان يحفر من وراء العهد هوة يقبره فيها . لان الناس لم يستطيعوا ان يدركوا ان آله الحرب ، يمكن ان ينقلب بين عشية وضحاها من اكبر المؤيدين للروح التي املت على اوربا ، بل وعلى العالم كله ، عهد لوكارنو.

لقد خرج هندنبرج من ميدان الحرب ، الى ميدان السلام . واقسم على ان يكون اميناً للجمهورية . اذن فليؤيد رجل المانيا السياسي ، وليعقد عليهِ كل امل في تقرير مصير المانيا . لذا أيد « شترزمان » في سياستهِ التي دعى فيها الى السلام. والحقيقة انهُ في خلال تلك المعارك

السياسية الكبيرة التي ادارها شترزمان داخل المانيا وخارجها ليعيد حسن التفاهم والسلام في اوربا ، تلك المعارك التي اذوت غصن حياتهِ رطباً ، كان يعمل معتمداً على الشيخ الكبير والمحارب القديم وهو على رأس الجمهورية الالمانية . لقد رأى بعين السياسي الماهر ان السياسة التي رسمها شترزمان ، خير وسيلة يمكن ان تخدم بها مصالح المانيا الجمهورية . لقد اقتنع هندنبرج بهذا . وما دام قد اقتنع فلا بد من ان ينفذ في ميدان السياسة بنفس الروح التي كان ينفذ بها في ميدان الحرب . رماه « جنكرز » بالخيانة ، فصمت . واتهمه « رفنلو » بمالأة اوربا ، فصابر وصبر . وقال « وستارب » انهُ شيخ ابله ، فما زاد قطوبه ، ولا تحرك في جسمهِ عرق واحد بحب الدفاع عن نفسه او الانتقام من اعدائهِ . ولا عجب في ان يقول « شترزمان » بعد ان فاز في سياسته فدخلت المانيا عصبة الامم ، وعقد عهد لوكارنو ، وعادت الثقة بنيات المانيا المسالمة نحو اوربا والعالم ، ان هندنبرج هو الرمز القائم اليوم على تجديد المانيا المنهوكة

لما قال شترزمان قولته هذه كان المارشال في حدود الثمانين من عمره . وبعد عامين مات شترزمان ، الذي ضحى بحياته وأمنه وهدوئه في سبيل الاحتفاظ بالسلام يرفرف على ربوع اوربا ، وسئل هندنبرج وهو في الثانية بعد الثمانين من عمره هل ينوي ان يشيّع رفاة السياسي العظيم .قال سائله « سنهيء لك سيارة » . اما المحارب القديم فقال « سأمشي على قدمي » . ومشى عملاق الحرب ليودع رسول السلام الوداع الاخير . اخترق شارع وهلم حيث كان يعمل شترزمان ليل نهار لنجدة المانيا ؛ وقبعتهُ في يده ، محدقاً بعينيه الحزينتين في النعش الذي يضم الجثمان العزيز الطاهر ، وأمر بحمله على الاعناق . لقد اخرست هذه الفعلة مئات من السنة النقاد ،وأسكتت مئات اخرى من الحساد والشامتين . ولانهم عرفوا أخيراً أية وقفة يقف هندنبرج من الديمقراطية والملوكية معاً

بعد ان شيع هندنبرج نعش شترزمان الى مقره الاخير ، تصرف في حادثتين تصرفاً قضى على كل شك كان يمكن ان يكون باقياً في نفوس بعض المتريبين

كانت احداهما هتك الاسرار التي اختفت وراء الدعوة التي دعاها الرجعي « هوجنبرج » ضد مشروع « يونغ » في الاستفتاء العام . فقد اغضب تصرّف هذا الرجعي رئيس المانيا الجمهورية ، ففضح اسراراً اخرجت من يد هوجنبرج وحزبه آلافاً من الاصوات في الاستفتاء العام ،وزاد هذا العمل الجمهورية الالمانية التي حاولوا ان يلغموا اساسها ثباتاً واحتراماً .ثم وقع هندنبرج الوثيقة التي اعتبر بها مشروع يونغ قانوناً في المانيا ، وشفع هذا بتصريح جاء في نهايتهِ :« لقد قمت بواجبي نحو وطني ،من غير ان افكر في نفسي » . هنا عرف العالم هندنبرج على حقيقتهِ . هنا عرف الناس من هو عملاق الحرب والسلام

[ابن طفيل]

التعاون والاقتصاد الزراعي

لما رأينا ما للحركة التعاونية من الشأن الخطير في مصر وما ينتظر لها من عظيم الاثر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية العامة افردنا هذا الباب لنشر مقالات ورسائل عن كل ما يهم الجمعيات التعاونية واعضاءها ويساعد على نشر التعاون وتقدمه . وقلم التحرير ينتهز هذه الفرصة ليعرب عن ترحيبه بنشر ما يرسله اليه اعضاء الجمعيات التعاونية من رسائل واخبار . وخير الكلام ما قل ودل

الضائقة الاقتصادية والتعاون والعام الجديد

بقلم السيد احمد مراد البكري

هنـاك تشابهٌ في كثير من النواحي ، بالرغم من اختـلاف الاحوال ، بين ضائقة سنة ١٩٠٧ والضـائقة الحالية . فكما ان ضائقة سنة ١٩٠٧ أدّت الى التفكير في مشاريع اقتصادية كان يقصَّد بها تخفيف الضيق والارتباك العامين فان الضائقة الحالية كانت ولم تزل مصدراً خصباً لمجموعة لا يستهان بها من المشروعات العامة التي عادت على البلاد بأجل الفوائد وأعظم المزايا في وقت عصيب فقدت فيهِ الثقة بين الناس واظلمّ المستقبل للجميع وتهدّدت زراعة البلاد بالكساد والبوار من جراء هبوط الاسعار وتدهور النقد وتضخم الانتاج . فاذا ذكرنا التعاون فانما نذكر المشروع القومي الذي جاء وليداً لأزمة سنة ١٩٠٧ ونبتت فكرته وترعرعت الى أن وضع حجر اساسه بتشريع سنة ١٩٢٣ وهو أول تشريع تعاوني عرفته مصر . وقد صحب هذا التشريع انشاء قسم خاص للتعاون بوزارة الزراعة لتعهد هذه الحركة والاشراف عليها . وفي سنة ١٩٢٧ صدر التشريع الثاني الذي بمقتضاه عُدِّلَت أنظمة الجمعيات التي كانت مؤسسة بحسب قانون سنة ١٩٢٣ وقد كان تدرّج عدد الجمعيات التعاونية كالآتي : —

في سنة	١٩٢٥	٩٣١	جمعية
»	١٩٢٦	١٥٠	»
»	١٩٢٧	١٤٧	»
»	١٩٢٨	١٦٢	»
في سنة	١٩٢٩	٢١٧	جمعية
»	١٩٣٠	٥١٤	»
»	١٩٣١	٥٣٩	»

وبمقارنة عدد الجمعيات في كل من السنوات الثلاث الاخيرة نرى ان سنة ١٩٣٠ امتازت بعدد من الجمعيات يكاد يكون ضعف عددها في سنة ١٩٢٩ وتعليل ذلك أن سنة ١٩٣٠ كانت مشبّعة ببوادر الضائقة الاقتصادية ولما شعر بها الفلاح وبما تخبئه له من الضيق والشقاء كان أول من هرع الى التعاون ليدرأ عنه شر غائلة الازمة فتطوّرت الحركة التعاونية بفضل

الضائقة تطوراً لم يعهد له مثيل كما يتبيّن من الجدول الآتي : —

السنة	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١
عدد الجمعيات	٢١٧	٥١٤	٥٣٩
عدد الاعضاء	٢٢٣٣٦	٤٤٠٠٠	٥٤٠٠٠
رأس المال المدفوع	٨٠٩٨٥ ج . م .	١٣٣٠٠٠ ج . م .	١٥٤٠٠٠ ج . م .
الاحتياطي	٩٥٥٨ ج . م .	١٣٠٠٠ ج . م .	١٨٠٠٠ ج . م .
ارباح	١١٦٨٠ ج . م .	—	. . .
القروض التعاونية	١٢٧٦٩٤ ج . م .	٢٧٣٨٠٥ ج . م .	. . .

وان ما رأيناه من ضعف الحركة في سنة ١٩٣١ كان نتيجة مباشرة لاشتداد وطأة الازمة وفقدان الثقة العام ، الاّ أنه بالرغم من كل ذلك فان عدد الجمعيات زاد بمقدار ٢٥ جمعية وعدد الاعضاء بمقدار ١٠٠٠٠ عضواً ورأس المال المدفوع بمقدار ٢١٠٠٠ ج.م. والاحتياطي بمقدار ٥٠٠٠ ج.م. (وهذه الزيادة أكبر من زيادة الاحتياطي في سنة ١٩٣٠ عما كان عليه في سنة ١٩٢٩) ، كذلك طرأت على الحركة التعاونية في سنة ١٩٣١ تطورات ذات صبغة لم تكن معروفة في السنين السابقة وأهم هذه المظاهر الآتي : —

أولاً : اظهر كثير من الجمعيات ميلاً الى الاخذ بالمشروعات الجديدة الخاصة بالصناعات الزراعية مثل صناعة الالبان وتربية النحل ودودة القز كما ان عدداً كبيراً من الجمعيات أظهر اهتماماً جديّاً باقتناء الآلات الخاصة بدراسة الارز وتبييضه وبتصريف المحصولات الزراعية المختلفة تصريفاً تعاونيّاً . ثانياً : أوجدت الضائقة الاقتصادية بواعث قوية لاشتراك الجمعيات بعضها مع بعض في الاعمال التي تعود عليها بالنفع المشترك . ثالثاً : من بين تلك المظاهر التي اوجدتها الضائقة تقوية الرغبة في الاطلاع والدراسة لدى اعضاء الجمعيات مما حدا بقسم التعاون الى حثّ الجمعيات على اقتناء مكاتب تضمُّ عدداً كبيراً من المؤلفات النافعة

﴿ اثر الضائقة في اعمال الجمعيات المالية ﴾ ظهر هذا الاثر بأجلى مظهر في حركة التحصيل والتسديد فانهُ لم يمضِ النصف الاول من سنة ١٩٣١ الاّ وكانت ١٥٤ جمعية قد سدّدت قروضها عن سنة ١٩٣٠ تسديداً كاملاً و٨٥ جمعية سدّدت تسديداً جزئيّاً من بين ٢٥١ جمعية مقترضة . وقد بلغ ما سدّد ٨٦٠ ٢٠٣ جنيهاً مصريّاً من اصل قدره ٦٨٣ ٢٨٢ جنيهاً مصريّاً . وقد صرّح لبنك مصر في خلال سنة ١٩٣١ باقراض الجمعيات التي سدّدت أكثر من نصف ما عليها فأنعشت هذه القروض الحركة التعاونية خلال تلك السنة العصيبة وبلغ مقدار الاعتمادات التي صرّح بها البنك ١٨٨ ١٨٦ جنيهاً مصريّاً موزّعة على ٢٨٥ جمعية . وقد اوقفت حركة الاقراض في شهر يوليو سنة ١٩٣١ بتأسيس بنك التسليف الزراعي المصري . (عن

مقال الدكتور ابراهيم رشاد مدير قسم التعاون في صحيفة التعاون عدد يناير سنة ١٩٣٢)

﴿ بنك التسليف الزراعي المصري ﴾ تنتج مصر سنويًا من المحاصيل الزراعية ما قيمتهُ على وجه التقريب ١٢٠ مليونًا من الجنيهات المصرية لذلك كانت نفقات الانتاج وكيفية الحصول عليها من اهم المسائل الحيوية التي اولتها الحكومة دائمًا شطرًا عظيمًا من عنايتها. فقد قامت منذ سنة ١٨٩٤ بسلسلة طويلة من التجارب لتنظيم كيفية حصول الفلاح على نفقات زراعتهِ بقصد انتشاله من براثن المرابين والتجار الجشعين الذين يرهقونهُ اما ارهاق بما يفرضون عليهِ من الفوائد الباهظة والاسعار التي تكاد لا تفي بتغطية نفقات الزراعة. فتارة كانت تقوم الحكومة مباشرة بتسليف الزراع وتارة كانت تكلف البنوك بالقيام بهذه العملية — بالنيابة عنها وفي كثير من الاحيان كانت تتبع كلتا الطريقتين ، الاَّ ان تلك الجهود التي بذلت ليحصل الفلاح على ربح معقول من زراعته لم تتعدَّ كونها مجموعة من التجارب الدقيقة — كان الغرض منها تعرُّف مواطن الضعف فيما يفشل من الانظمة ومواطن القوة فيما ينجح منها بقصد الوصول الى نظام مدعَّم يستند الى أساس متين يضمن للفلاح بصفة مستمرة الحصول على ما يلزمه من مال بأقل الفوائد واحسن الشروط سواء أكان لنفقات زراعته او مقابل رهن محاصيله حتى تحين الفرص لبيعها بأثمان معقولة

وقد استمرت الحكومة في اتباع خطة التجارب المشار اليها حتى انضجت اخيرًا النظام المنشود فاسس بنك التسليف الزراعي المصري برأس مال قدره مليون جنيه اكتتبت الحكومة بنصفهِ وضمنت لهُ فيما عدا ذلك الحصول على قروض مجموع قيمتها ستة ملايين من الجنيهات فتقدم لهُ ثلاثة ملايين جنيه في السنة الاولى ومليون جنيه في كل من السنة الثانية والسنة الثالثة والسنة الرابعة من تاريخ تأسيسه ولا تتقاضى فائدة تزيد عن ½ ٢ ٪ عن هذه القروض

اما النصف الباقي من رأس مال البنك فقد اكتتبت بهِ معظم البنوك الكبيرة التي بالقطر وفي مقدمتها البنك الاهلي الذي اكتتب بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ جنيه وبنك مصر بمبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه والبنك العقاري المبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه وبنك درسدنر بمبلغ ٢٣٥٠٠ جنيه

ولقد اوضحت المادة الثانية من العقد الابتدائي للبنك الغرض من انشائهِ وهذا نصها

« يكون غرض الشركة التسليف الزراعي وعلى وجه الخصوص العمليات الآتي ذكرها »

اولاً — عمليات لاجل قصير لا يتجاوز اربعة عشر شهرًا بضمانة حق الامتياز الوارد في المرسوم بقانون رقم ٥٠ لسنة ١٩٣٠ وبالشروط المقررة فيهِ . (ا) تقديم سلفيات للجمعيات التعاونية الخاضعة للقانون رقم ٢٣ لسنة ١٩٢٧ ولصغار ملاَّك الاراضي الزراعية لنفقات الزراعة والحصاد . (ب) تقديم سلفيات على الحاصلات للجمعيات التعاونية سالفة الذكر ولصغار المزارعين (ج) بيع الاسمدة والبزور لاجل لجميع المزارعين على السواء

ثانياً — عمليات لمدة لا تتجاوز عشر سنين (ا) تقديم سلفيات لشراء الآلات الزراعية والماشية (ب) تقديم سلفيات لاصلاح الاراضي الزراعية بواسطة حفر المساقي والترع والمصارف. وفيما عدا الاحوال الاستثنائية ، يكون هذان النوعان من التسليف مقصورين على صغار الملاك او جماعاتهم وعلى الجمعيات التعاونية المشار اليها ، للمساعدة على تكوينها وانتشارها

ثالثاً — عمليات لمدة لا تتجاوز عشرين سنة. تقديم تسليف لاستغلال ولاصلاح الاراضي التي يمكن ان تفيدها اعمال الري والصرف العامة

رابعاً — تمويل المنشآت التي تعمل لمنفعة الزراعة — بقصد المساعدة على ايجاد هذه المنشآت وانتشارها وتكون السلفيات لأجل يزيد على اربعة عشر شهراً — عدا ما يتعلق من هذه السلفيات بجماعات صغار ملاك الاراضي الزراعية وبالجمعيات التعاونية — مضمونة بتسجيل رهن عقاري له الدرجة الاولى الاّ اذا قرر مجلس الادارة بصفة استثنائية غير ذلك وكان الفرق بين قيمة العقار المرهون ومبلغ الرهن الاول يسمح بتسجيل رهن ثان

هذا وقد صرّح رئيس مجلس الوزراء في جلسة مجلس النواب المنعقدة في ٧ يوليه سنة ١٩٣١ بأن بنك التسليف الزراعي سيصبح البنك التعاوني الرئيسي متى انتشرت الجمعيات التعاونية وقويت . وتمهيداً لذلك خص البنك هذه الجمعيات بمزايا عديدة تتلخص فيما يأتي :

اولاً — ليس هناك الآن حد معين للاعتماد التعاوني الحكومي كما كان من قبل عند ما كانت الجمعيات تصرف سلفيات من بنك مصر وكان الاعتماد المذكور ٣٥٠٠٠٠ جنيه

ثانياً — يتقاضى البنك فائدة قدرها ٥ ./. من الجمعيات التعاونية بخلاف الافراد فانهُ يتقاضى منهم فائدة قدرها ٧ ./.

ثالثاً — يمد البنك الجمعيات بأربعة انواع من السلفيات

(١) سلفيات لجني الاقطان وهي اذا اعطيت للجمعيات تشمل المستأجرين والملاك بخلاف ما اذا اعطيت للافراد فانها مقصورة على الملاك منهم فقط . (٢) سلفيات برهن اقطان وهي من حيث المقدار المقدم من اية جمعية تعاونية لا حد لها بينما هي محدودة للافراد بمائة قنطار . (٣) سلفيات لنفقات الزراعة وتوريد التقاوي والبزور والاسمدة بالاجل . (٤) سلفيات لمدة سنتين بضمان شخص لشراء مواشي وهي ميزة تتمتع بها الجمعيات التعاونية دون الافراد

رابعاً — يقبل البنك انشاء شون بمقار الجمعيات التعاونية متى توافرت الشروط الاتية :

(١) ان تقدم الجمعية — الشونة بلا اجر (٢) ان يكون مقر الجمعية على مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات من أي شونة أصلية للبنك (٣) ان تتعهد الجمعية بتشوين ما لا يقل عن الالف كيس من القطن

خامساً — يقدم البنك للجمعيات التعاونية سلفيات على السمسم والفول السوداني والمحاصيل

المماثلة القابلة للتخزين بواقع ٧٥ ٪ من قيمتها وقت التسليف

ومما سبق ذكره عن بنك التسليف الزراعي يتضح ان هذا البنك وقد اصبح له ١٣ فرعاً و٦٣ توكيلا قد ملأ فراغاً حقيقيًا كان يشعر به الجميع وهو لا بدّ ان يصبح عما قريب قوة يرتكز عليها صرح البلاد الاقتصادي (من مقال للمؤلف نشر له بصحيفة التعاون عدد نوفمبر سنة ١٩٣١)

﴿ بعض المظاهر التعاونية التي تخلّلت سنة ١٩٣١ ﴾ حفلت سنة ١٩٣١ بالمعارض والمؤتمرات والاجتماعات التي كان لها شأن عظيم في رفع مستوى الثقافة وحب الاطلاع لدى التعاونيين منها المعرض الزراعي الصناعي الذي كان في مجموعه مدرسة عملية علمية لكل من تاقت نفسه الى الاستزادة من الاطلاع على الاساليب الحديثة زراعية كانت أو صناعية ثم كان الاجتماع التعاوني بسينما جوزي بلاس حيث عرضت اشرطة سينماتوغرافية فيها نواحٍ كثيرة من حركة التعاون في بريطانيا العظمى ثم بعد ذلك كان اجتماع الجامعة الاميركية حيث ألقى كل من حضرة صاحب المعالي وزير الزراعة وسعادة وزير امريكا المفوض خطبة ضافية في موضوعي الزراعة والتعاون وعرضت اشرطة سينماتوغرافية جيء بها خصيصاً للعرض في هذا الاجتماع من مصلحة الزراعة الاميركية وهي تبين الاساليب التعاونية المعمول بها في أميركا لتصريف القطن تصريفاً تعاونيًا لمصلحة منتجيه . كذلك قامت رابطة مملكة النحل بتنظيم وعقد مؤتمر ومعرض للنحالة في اوائل نوفمبر سنة ١٩٣١ وحضر اجتماعات هذا المؤتمر جمع غفير من اعضاء الجمعيات التعاونية فتعلموا الشيء الكثير عن هذه الصناعة الزراعية واقبلوا على تربية النحل الامر الذي يبشر بانهاض هذه الصناعة الزراعية وجعلها مصدراً عظيماً للثروة العامة على أيدي التعاونيين

﴿ المشروعات التعاونية ﴾ كان من بين النتائج المباشرة للمعرض الزراعي الصناعي أن اتجه نظر الجمعيات التعاونية الى نواحٍ عديدة من الانتاج لم تكن من قبل موضع اية عناية مثل صناعات الالبان والمربيات والمحفوظات ووسائل تحضير وتصريف المحصولات الزراعية الامر الذي جعل روح النشاط تدب في الجمعيات مذ درست مشروعات جديدة من هذا النوع وفعلاً اقدم عدد من الجمعيات على تنفيذ بعضها ومن بين تلك المشروعات صناعة الالبان ودراسة الارز وتبييضه وتصريف المحاصيل. وهناك جمعية تعاونية مركزية في سبيل التأسيس الآن في مديرية الشرقية كما ان الوزارة جادة في انشاء جمعية تعاونية مركزية للاتجار بالجملة اغراضها توريد حاجات الجمعيات زراعية كانت أو منزلية وتصريف حاصلاتهم والاهتمام بالصناعات الزراعية. وهذه الجمعية تضم ٤٣١ جمعية مكتتبة برأس مال قدره ٢٣٢٥٢ جنيهاً مصرياً

﴿ نظرة الى المستقبل ﴾ أقبلت سنة ١٩٣٢ والازمة العالمية لم تزل بين ظهر انينا طاحنة

شديدة الوطأة الاّ ان بالرغم من هذا الضيق الشامل فان حركة التعاون وهي كما وصفنا تدلّنا حقيقة على ان التعاون هو الملجأ الوحيد للفلاح في هذا الوقت العصيب اذ برهنت الاختبارات القاسية على ان الجمعيات التعاونية دون غيرها من الهيئات على اختلاف نحلها من اثبت المنشآت واضمنها لا يعرف الافلاس اليها باباً فهي خلاص الفلاح ومطمح امله ، فان لم تعلمنا الضائقة شيئاً آخر فهي قد علمتنا ان المستقبل للتعاون

مقتطفات تعاونية

١ — عن صحيفة التعاون — عدد يناير سنة ١٩٣٢ : —

(١) — الحركة التعاونية في آخر سنة ١٩٣١ بقلم حضرة الدكتور ابراهيم رشاد مدير قسم التعاون : تضمن هذا المقال النفيس شرحاً موجزاً لأعمال الجمعيات التعاونية وكيفية تأثرها بالازمة وخدمات بنك التسليف الزراعي لها وما ينتظر من تقسيط دفع القروض التعاونية على مدة خمسة سنوات

(ب) — حركة التعاون المنزلي في سويسرا بقلم حضرة عبد اللطيف فهمي عامر افندي بقسم التعاون : استهل الكاتب مقاله بنبذة تاريخية عن حركة التعاون المنزلي بسويسرا وكيف انها ترجع الى النصف الاول من القرن التاسع عشر فتأسست اول جمعية منزلية في زيورخ سنة ١٨٥١ وتكوَّن اول اتحاد لجمعيات التعاون المنزلي في سويسرا سنة ١٨٩٠ وجعل مركزه بال وكانت اغراضه في بادىء الامر اجتماعية محض الاّ انهُ في سنة ١٨٩٣ ادرجت الاعمال التجارية ضمن هذه الاغراض . ويشير الكاتب الى انهُ من مظاهر الحركة التعاونية المنزلية في سويسرا ان البضائع تباع بأثمان تنقص في الغالب عن الاثمان الجارية في السوق وينص عقد تأسيس الجمعيات المنزلية في سويسرا على وجوب اتباع مبدأ البيع نقداً، ويقوم عدد كبير من هذه الجمعيات بأعمال انتاجية تقدر قيمتها السنوية بحوالي ٦٠ مليون فرنك معظمها منتجات مخابز وتورّد الجمعيات ما يقرب من ١٤ ٪ من مجموع ما تستنفده سويسرا من الحاجيات المنزلية

(ج) — الحركة التعاونية والازمة الاقتصادية العالمية بقلم انتون ديتل سكرتير اتحاد الجمعيات الاقتصادية الالمانية ببراج : في رأي الكاتب ان الازمة الحالية بما تجره من العواقب السيئة على الانتاج وعلى تبادل البضائع وتوازن العرض والطلب اظهرت وجود اختلال في نظام الحياة الاقتصادية ويرى ان تدفق الذهب الى الولايات المتحدة الاميركية في سنة ١٩٢٨ ادى الى زيادة المضاربة والى ارتفاع اثمان البضائع حتى اذا كان دسمبر سنة ١٩٣٠ هبطت

السندات الاميركية الى مستوى لا تتحمله اغنى البلاد فقامت البطالة وما يتبعها من مضار.
ويرى الكاتب ان الاسباب الاساسية للازمة هي الحرب العالمية ونتائجها من تغيير جغرافية اوربا وقيام الحواجز الجمركية، ونشوب الحروب الجمركية وانتشار البطالة حتى ان عدد العاطلين الذي بلغ خمسة وعشرين مليوناً داخل اوربا وخارجها ليهدم قوة الشراء لما يقرب من مائة مليون شخص وقد زاد الى جانب هذا المنتج في العالم من المواد الخام بقدر ٦٠ ٪ عما كان عليه في سنة ١٩٢٩ فأدى ذلك الى نزول عام في الاسعار وأتى الكاتب في ختام مقاله على مجموعة من الارشادات التي يحسن ان تتبعها الجمعيات التعاونية حتى لا تتأثر اعمالها بعوامل الازمة بقدر المستطاع

٢ — عن المجلة الزراعية المصرية — عدد فبراير سنة ١٩٣٢ : —

(ا) — بحث في حشرات الحبوب المخزونة لحضرة رزق عطيه افندي : جاء هذا المقال جزءاً من تتمة بحث شرح الكاتب فيه الطرق الشائعة الآن في القطر في تخزين الحبوب وهي لا تختلف كثيراً عما كان متبعاً في غابر الازمان وهي تنحصر في الآتي :

(١) طمر الحبوب في جوف الارض (٢) التخزين في العراء (٣) التخزين في زكايب مرصوصة يتخللها ويغطيها التبن والقش (٤) تخزين الذرة بأغلفته (٥) تخزين الحبوب في عنابر كثيرة النفقة (٦) التخزين في غرف عادية بالقرى (٧) التخزين في صوامع طينية

ثم تكلم الكاتب عن الاشتراطات الواجب توافرها في تخزين الحبوب وهذا البحث في نظرنا يستوجب عناية مجالس ادارة الجمعيات التعاونية الذين عليهم تقع تبعة اذاعة مثل هذه المعلومات والارشادات بين اعضاء جمعياتهم بصفتهم مزارعين

(ب) — بحث في زراعة الغابات والاشجار بمصر، وهو ملخص المذكرة التي رفعها حضرة الاستاذ محمد صالح سليمان افندي لحضرة صاحب المعالي وزير الزراعة

بدأ الكاتب مقاله بلمحة تاريخية عن زراعة الغابات في مصر في عصور الفراعنة والبطالسة ثم في عصور الفاطميين حيث كانت الغابات لها ادارات خاصة وكانت تبلغ مساحاتها ما يربي على الثلاثين الفاً من الافدنة وكانوا لا يقدمون على قطع شجرة الا بقيود وعند ما تمسُّ الحاجة الى ذلك — ثم بيَّن ان الاعتناء بالاشجار الخشبية استمر على ايام الاتراك المماليك وفي عصر محمد علي باشا الكبير حتى انهُ كانت هناك في عهد العائلة المحمدية مدرسة لتعليم صناعة السفن وتعميرها يشتغل بها نحو ٨٠٠٠ عامل من الاهلين الذين تربوا على يد المعلمين الافرنج مما دعا الى استغناء الحكومة عن شراء المراكب من الخارج وقد بلغ ما بُني وعمر في اول مدة للمدرسة ٤٥ سفينة حربية لم يستورد لها خشب من الخارج مطلقاً، هذا ولم يكن اسماعيل باشا اقل عناية من محمد علي باشا الكبير وابراهيم باشا بالغابات فانهُ بانشائه شركة البواخر المعروفة بالقومبانية العزيزية اتسعت تجارة مصر في البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر

مما دعا الى انشاء المدارس البحرية واعادة دار صناعة المراكب . وذيل مقاله بذكر الاشجار التي تزكو في مصر وتصلح لان تزرع منها غابات وهي السنط والعبل (الاتل او الطرفاء) والجازورينا والفرفاج واللبخ والبلوط والسرو والكافور والنبق والتوت

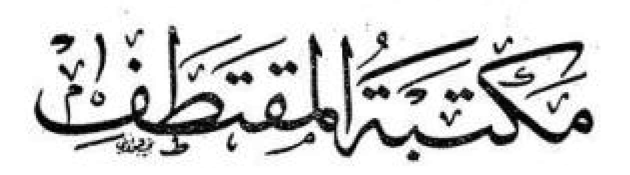
٣ — عن تذكار التعاون الذي اعده قسم التعاون بوزارة الزراعة بمناسبة المعرض الزراعي الصناعي لسنة ١٩٣١: تصفحنا هذا التذكار الجميل فوجدناه كتيباً صغير الحجم عظيم القيمة تصدَّر بصورة جميلة لحضرة صاحب الجلالة الملك الذي بفضله العظيم وبتشجيعهِ ورعايتهِ الساميتين تقدم التعاون هذا التقدم السريع الذي يبشر بمستقبل باهر لهذه الحركة المباركة ، ويحتوي الكتيب على صور ملوَّنة عديدة ما هي الأَ مزايا التعاون مجسمة وعناوينها كالآتي

(١) الى الامام تحت لواء التعاون (٢) التعاون قوة (٣) يدفع التعاون عن الناس شر المرابي والوسيط (٤) يمحق الله الربا ويربي الصدقات (٥) كم سهل التعاون من عسير الامور (٦) القرية قبل التعاون (٧) القرية بعد التعاون (٨) في خزائن التعاون كنوز لا تفنى (٩) للناس في التعاون آي من الخير والنعم (١٠) تقدم الحركة التعاونية المصرية (احصائيات) (١١) التعاون للمستهلك والمنتج زارعاً كان أم صانعاً . كذلك يشمل التذكار بجانب هذه الرموز المشار اليها كلمات عن الحركة التعاونية في مصر والمبادىء التعاونية والخدمات الاجتماعية التي تؤديها الجمعيات التعاونية لاعضائها ، ونقتطف من بين هذه الكلمات ما ذكر عن علم التعاون وشعاره ويومه:

« للتعاون مظاهر عالمية يؤدي كل منها معنىً سامياً من المعاني التي يدين بها التعاونيون في كل بقعة في بقاع الارض. فللتعاون علمه ، وللتعاون شعاره ، وللتعاون يومه

« يستظل التعاونيون بعلمهم الدولي أيًّا كانت حكومتهم أو عقيدتهم ، وهو مجموعة الوان قوس قزح المتحدة التي ألف الناس ظهورها في كبد السماء عقب العواصف والامطار تدعو الناس الى الطمأنينة وتبشرهم بالخير في جو من الهدوء والسكينة ، فيالهُ من خيال دقيق المعنى جميل التصوير ، ينبيء بما في التعاون من معنى السلام العام والانتقال من الظلمات الى النور

وشعارهم الخالد الذي يرمز به الى مذهبهم ويميزه عما عداه من المذاهب الاقتصادية الاجتماعية الاخرى هو « الفرد للمجموع والمجموع للفرد » أو بعبارة أوضح وأجلى أن يسعى الفرد لمصلحة المجموع في غيرة واخلاص ، كما يسعى المجموع من جانبه لمصلحة الفرد بنفس هذه الروح . تكاتف وتساند في أخاء ومساواة ، أو ليس هذا شعار الديمقراطية التي طالما نشدتها الشعوب لتحرير بنيها والنهوض بهم ؟ أما يومهم فالسبت الاول من شهر يوليه في كل عام . وهو اليوم الذي قرر الاتحاد التعاوني الدولي منذ ثماني سنوات الاحتفال به في المشرق والمغرب وجعله عيداً تعاونيًّا عامًّا تقام فيهِ الحفلات وتعقد الاجتماعات وتلقى الخطب ليسمع العالم صوت التعاونيين عالياً يدعو الى التضامن في العمل لخير الانسان في ظل الحرية والاخاء والمساواة



المجلد الثامن من الاكليل

مؤلف هذا الكتاب هو العلاَّمة ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود المشهور بالهمداني والمتوفي في سجن صنعاء سنة ٣٣٤ هجرية (٩٤٥ م) وهو كتاب في محامد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات. واصل الكتاب عشرة مجلدات لم يحفظ منها على ما يعلم الآن الا المجلد الثامن والمجلد العاشر. والثامن يشتمل على ذكر قصور حمير ومدنها ودواوينها وما حفظ من شعر علقمة والمراثي والمساند

اما كتب الهمداني الاخرى فاشهرها في وصف بلاد العرب واسمهُ «صفة جزيرة العرب» وكتاب «الحيوان المفترس» وسماهُ السيوطي في بغية الوعاة كتاب «الحيوان». ولهُ كتاب «اليعسوب» في القسي والرمي والسهام والنصال وسماهُ السيوطي «القوس» ولهُ كذلك «زيج» معتمد في اليمن

وقد عني العلامة الأب انستاس ماري الكرملي باخراج نسخة مصححة من الجزء الثامن من الاكليل بعد معارضة اربع نسخ مخطوطة، اولاها كتبت في صنعاء سنة ٥٢١ هجرية، والثانية كانت محفوظة في القسطنطينية والثالثة في خوي بفارس والرابعة اتصلت بالناشر من الكاظمية ثم انهُ عهد الى الاستاذ الدكتور كرنكو في معارضة الصفحات الخمسين الاولى بما يقابلها في نسخة لندن

ومما لا ريب فيهِ ان معظم النسَّاخ كان غير متوفر على الجغرافية والتاريخ والمصطلحات العلمية، فاخطأ في النسخ كثيراً. ولذلك اعتمد الاب انستاس على اقدم المخطوطات — وهي مخطوطة صنعاء — فاتخذها اساساً للمقابلة، وقد ابى تواضعهُ الا ان يقول بانهُ يعتقد انهُ وصل الى نص على جانب من الصواب

ولا تعرف سنة ولادة الهمداني مؤلف الاكليل وانما يعرف انهُ ولد في صنعاء وفيها نشأ وغدا من اعلم علماء زمانهِ فقبض على اعنة اللغة والفلك والرياضيات وقرض الشعر ومعرفة الانساب والحديث والتفسير والفقه والفرائض الى نحوها من العلوم الشائعة في عصرهِ (ملحق الاكليل ص ٢٩٨ و ٢٩٩) وكانت وفاتهُ في سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ — ٩٤٦ م) على ما يروى في سجن صنعاء

ومنزلة كتاب الاكليل من الآداب العربية قائمة على انهُ يردُّ زعم الزاعمين من الغربيين ومن اتبعهم من الناطقين بالضاد ان العرب لم يكن لهم قبل الاسلام علوم وفنون وصنائع وآداب. « فهو يكشف لنا ان قدماء اليمانيين بلغوا اقصى الغاية من الرياضيات وجرّ الاثقال لانهم عرفوا كيف يشيّدون قصوراً فنية ، متعددة الطباق ، حتى بلغت عشرين سقفاً ويقاوم بناؤها مرّ الايام ، وطوارىء الحدثان لانك تعلم ان فن البناء والريازة (فن المعمارين) لا يتقن الاّ بعد الوقوف على الرياضيات وقوفاً صادقاً » . (ملحق الاكليل ص ٣٠٥) ثم انهُ يبين لنا كيف كانوا ينحتون تماثيل البشر والحيوانات والطيور ، ويطلعنا على إحكامهم عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة بالقطارات . فقد جاء عن قصر غمدان قولهُ :

يسمو الى كبد السماء مصعداً عشرين سقفاً سمكها لا يقصر

وبكل ركن رأس نسرٍ طائر او رأس ليث من نحاس يزأر

متضمناً في صدره قطارة لحساب اجزاء النهار تقطر

وحبذا الحال لو اتسع المقام لبيان كلّ الفوائد التي يجلوها لنا الاكليل ولعلّنا نعود اليها

وهذا المجلد مخدوم بملحق في بيان نسب المؤلف ومؤلفاتهِ ومقام الاكليل ونقدهِ وذكر مخطوطاتهِ المعروفة . ثم يلي ذلك فهرس او مجموعة فهارس تملأ نحو ١٥٠ صفحة ، على مثال الفهارس الشائعة التي يعنى بوضعها علماء المشرقيات في ذيل ما ينشرونهُ من الكتب القديمة ، فثمة فهرس للفصول وثانٍ للقواعد العربية وثالث للمعمرين من العرب ورابع للشعراء وخامس للقوافي وسادس للمحدثين والرواة وسابع عمراني يتعلق بحضارة العرب في جزيرتهم وثامن للاسداد وتاسع للمدافن والقبور وعاشر للجبال وحادي عشر للحصون والقلاع وثاني عشر للقصور وحدها وثالث عشر للالفاظ العربية وما يقابلها عند الفرنسيين مما يصعب الحصول عليهِ في المعاجم العربية الفرنسية . ورابع عشر للتآليف والمطبوعات الوارد ذكرها في المتن والحاشية ثم مفتاح لمغلق الالفاظ وآخر للمواضع على اختلاف انواعها . واخيراً فهرس لاسماء الرجال وآبائهم واجدادهم خلافاً لما في سائر الفهارس التي لا تحوي الاّ اسماء الابناء من الرجال

وقد اسهبنا في بيان موضوعات هذه الفهارس ، لندل على الجهد العظيم الذي بذلهُ العلاّمة الكرملي في اخراج هذا الجزء من الاكليل على اتمّ واوفى ما يستطيعهُ عالمٌ راسخ العلم ، بعيد الهمة ، لا يضنُّ بصحةٍ او وقتٍ في سبيل التحقيق العلمي . فنهنئهُ ، ونطلب ان يمدّ الله في عمرهِ لينفعنا بعلمهِ ، ونهنىء انفسنا بان عالماً شرقيّاً اخرج مثل هذا السفر النفيس على هذا الوجه من الكمال

الرسالة النباتية

الامير مصطفى الشهابي عالم راسخ القدم في العلم ، ولكنهُ لا يقتصر على النظري منهُ فيتعداهُ الى العمليّ . لذلك تراهُ مديراً لاملاك الدولة في دمشق ومؤلفاً لكتب عملية في الزراعة مثل كتاب « الزراعة العملية الحديثة » و« زراعة الاشجار والانجم المثمرة » و« كتاب البقول » و «كتاب الدواجن » وغيرها . ثم انهُ يمتاز بصفة ثالثة . ذلك ان لكتابتهِ رواء الادب ورزانة التحقيق اللغوي . فهو لا ينفكّ عن التنقيب في امهات الكتب اللغوية للعثور على ما استعمله كبار الكتاب الاقدمين من الالفاظ لمدلولات معينة نوعية كانت او معنوية

وقد عني الآن بوضع « رسالة نباتية » تشتمل على بعض نباتات زراعية لم ترد في معجم اسماء النبات للدكتور احمد عيسى ولا في معجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد شرف. فانهُ بعد ما اشار الى معجمي شرف وعيسى بما يستحقانهِ قال « من البديهي ان المعجمين المذكورين لم يتناولا سوى بعض المهم من النباتات مما جاء في الكتب التي مرّ ذكرها او في بعض المعاجم الادبية . وهما ابعد من ان يتناولا كلّ ما نراهُ في كتب النبات الواسعة من مختلف الاسماء اللاتينية لنباتات شتى مفيدة او غير مفيدة تنبتها الطبيعة في انحاء العالم ولا يوجد لكثير منها اسماء حتى في اللغات الاوربية المشهورة . ومن البديهي انني لا ابغي في هذا البحث الموجز التعرض لتلك النباتات وعددها عظيم وانا اجهل معظمها الاّ في الكتب . بل غايتي ذكر بعض نباتات زراعية لم يوردها شرف ولا عيسى في معجميهما كبعض الازهار والرياحين واشجار التزيين وجنباتها واشجار الحراج والفواكه ، وهي نباتات زرعتها او رأيتها في حدائق النبات وقليل منها لم ازرعهُ ولم اره ، لكن قرأت عنهُ في الكتب والمجلات الفرنسية . ولا نعرف لهذه النباتات اسماء عربية (لان اجدادنا كانوا يجهلونها) لكنّ لاسمائها العلمية (معظمها مأخوذ عن اليونانية) معانيَ وصفوا بها بعض اعضاء النباتات او بعض مميزاتها فيسهل علينا ترجمة تلك الاسماء بمدلولاتها . ثم انهم ينسبون بعض النباتات الى العلماء الذين كشفوها فيسمونها باسمائهم او يطلقون عليها اسم احد الملوك والامراء او آلهة الاقدمين وجميع هذه الاسماء تترك على حالها عند تعريبها[1] او تجعل بصيغة النسبة » ثم مضى يبين انهُ عني باثبات اسم الجنس Genus فقط لان الكلام يطول اذا توخى ذكر اسماء الانواع (Species) والاصناف (Varieties) ثم انهُ لم يذكر الاّ الاسم لانهُ الغاية من المعجم والمعجم لا يحتمل تحلية انواع النباتات وذكر منابتها وفوائدها وغير ذلك مما لا تستوعبهُ الاّ الكتب . واكتفى بالاسم الاشهر ضارباً عن الاسماء المترادفة صفحاً

ونورد الآن بضعة امثلة على الاسماء التي ذكرها

الرشيقة Abronia (من اليونانية لرشاقة ازهارها)

الشائكة Acoena (من اليونانية للشوك الدقيق في الكأس والثمرة)

المنحنية الرأس Acroclinium (لانحناء ازهارها الانتهائية قبل تفتحها)
الشجرة العشرية Decumaria (اشارة الى اجزاء الزهرة العشرة)
الجوزة المجنحة Caryopteris (لثمارها المجنحة)
اخت الزيتون Olearis (لان اوراق بعض انواعها تشبه اوراق الزيتون)
وهي اسماء ازهار واشجار لاسمائها العلمية معانٍ وصفوا بها بعض اعضاء النباتات او بعض مميزاتها وقد ترجمها بمعانيها
الدارونية Darwinia (منسوبة الى دارون الشهير)
ديارويلا Diervilla (منسوبة الى الجراح الفرنسي Dieruille) وهي من اشهر جنبات التزيين
لاجروستروميا Lagerstroemia (باسم النباتي السويدي لاجرستروم)
هوميا Humia (باسم قرينة السر ابرهيم هيوم)
وهي اسماء منسوبة الى اعلام ولا يصحُّ الا تعريبها

قصص اجتماعية

ونماذج من ادب الغرب

مترجمة بقلم محمد عبد الله عنان من مؤلفات بول بورجه. واناتول فرانس. واندريه تيرييه وفرانسوى كوپيه . وجي دي موپاسان. ودهباڤيل .ومارسل بريڤو .وجان لوران — ومقرونة بتراجم نقدية —طبع بمطبعة دار الكتب المصرية — الثمن ١٠ قروش

انترجم ام نؤلف ؟ مسألة تتغلغل في صميم نهضتنا الفكرية الحديثة .والاستاذ محمد عبدالله عنان يجيب عنها في الفاظ لا تحتمل التأويل ، اذ يقول « اننا في عصر ترجمة ونقل . ومازلنا بالاخص فيما يتعلق بفن القصص واتخاذه وسيلة لتصوير مناحي الحياة والمجتمع والاخلاق والعواطف في بداية البداية . وكل ما يخرجه كتّابنا اليوم من ادب القصة ،تافهٌ غثٌّ ، عاطل من كل فنّ وخيالٍ وبيانٍ وابتكار حقيقي . ومن الواجب ان نتزوّد في هذا الميدان قبل كل شيء بالنقل الصادق الجلد ، عن اساتذة الفن ، وبالدرس العميق المتزن لنواحيهِ واساليبهِ وصورهِ المختلفة . اما التلخيص الطائر لآثار الادب الغربي ، والدراسة السطحية لبعض مذاهبهِ ، والتعلق ببعض نظرياتهِ ونواحيهِ ، على نحو ما يفعل الكتّاب الفتيان اليوم ... فعبث واضح واستباق لنظام التقدم الطبيعي »

ونحن نعرف غير واحد من زعماء الادب المعاصرين يرون رأي الاستاذ عنان في وجوب الاخذ بالترجمة الصادقة عن ارباب الادب الاوربي ، لان آداب الامم تتلاقح ولاشك . « والنقل

الطائر » كما يقول المؤلف لا يكفي لاحداث التلقيح . لانهُ في الواقع ليس الاّ صورة مجملة — وكثيراً ما تكون مشوّهة — لما يراهُ الناقل او الملخص في المؤلف الذي بين يديهِ .
اما اساليب المؤلف ، وتفاصيل تصويره للحياة في نواحيها المختلفة ، او تحليله للشعور والانفعال والتأثر في الحالات النفسية المتباينة فتضيع بالتلخيص ، وتفوّت بضياعها الغاية من القيام بهِ

على ان وجوب الترجمة الصادقة ، يجب الاَّ يحول دون محاولة الابداع . لان النزعة القصصية في الكتابة ، قد يصقلها الاطلاع ويهذّبها ولكنهُ لا يخلقها . وكم استاذ للادب في الغرب ، واسع الاطلاع على الآداب القديمة والحديثة ، عارف بمذاهب النقد ومواطن القوة والضعف في المؤلفات الروائية ، ولكنهُ يعجز عن كتابة رواية أو قصة . واذاً فيجب ان لا نكتفي بالترجمة الآن ، بل يجب ان نستعين بها على توجيه اصحاب النزعات الروائية ، في السبل المجدية ، وتدريب الناقدين على احسان النقد الذي يرمي الى الاصلاح والاتقان والاجادة

لذلك نرحب بهذه الصفحات التي اختارها من مؤلفات زعماء الادب الفرنسي ، رجل بصير بادب الغرب ، شديد الغيرة على الادب العربيّ . بارع في الترجمة الجامعة « بين الحرص على الروح والاساليب الغربية ، والبيان العربيّ المتين »

وان في اسماء الادباء الفرنسيين ، المنقول عنهم ، وفي حسن اختيار الاستاذ عنان لصفحات من مؤلفاتهم ، وفي الفائدة الكبيرة التي تجنى من الترجمة الصادقة ، لاكبر كفيل لذيوع هذه المجموعة النفيسة بين جمهور الادباء والمتأدبين

مصر وفلسطين

Egypte. Palestine — Edition Arthaud Grenoble—

ان الافرنج مايزالون ينظرون الى الشرق نظرة المتعجب . فانهم يودون لو يظفرون بسمائنا الصافية وشمسنا الساطعة . وكثيراً ما يتحدثون عنهما وهاهم الآن يصورونهما ويكتبون عنهما الشيء الكثير ويضيفون الى وصفها وصف حقولنا وسهولنا وقصورنا ودورنا ثم يشيرون الى قديم تاريخنا في اجلال عظيم وإن ذكروا حاضرنا رثوا لهُ أو تنبأوا من ورائهِ تقدماً وفلاحاً

على ان الكتاب الذي نحن بصدده الآن مجموعة صور بديعة تمثل ابهى مناظر مصر وفلسطين واجل مبانيهما واجل آثارهما . ولنذكر ان صاحبة هذا الكتاب Mme Gadala من اشد الناس اعجاباً بمصر فهي تذكر الضيافة المصرية في عبارات جميلة وتتحدث عن ذكاء المصريين كأنها مدفوعة الى ذلك وما هي بمدفوعة واما ذكرها تاريخ الفراعنة ففي دقة وبراعة واما بحثها في الفن المصري القديم فليس بشيء فانها وان حاولت أن تذيع آراء المستمصرين لعاجزة عن أن تدل على خصائص الفن المصري في اسلوب واضح لا مطعن فيهِ

الجزء الرابع من المجلد الثمانين

جوته

١٧٤٩ – ١٨٣٢

JOHANN WOLFGANG VON GOETHE

للدكتور محمد عوض محمد

الاستاذ بكلية الآداب ومعرب فوست

اليوم يحتفل الناس بذكرى جوته ، ولا نرى الاحتفال بذكراه قاصراً على المانيا ، بل قد تجاوزها الى غيرها من اقطار العالم ، فلقد كانت روح جوته روحاً عالمية ، وكانت نظراته متجهة أبداً الى العالم بأسره ، لاتبالي ما اختلاف المكان والزمان ، وتستمد روحه الوحي من حضارة الشرق والغرب ، ومن الثقافات القديمة والحديثة ، وكان أكبر أركان الايمان في نفس جوته هو وحدة العالم من غير تقيد بموضع أو زمن

ولقد نقف اليوم هنيهة لنذكر جوته وآثاره ، ونستعرض في خيالنا مؤلفاته وأعماله، ثم نتساءل أيها أجل شأناً وأعظم خطراً : أأشعاره الغنائية ،أم قصصه ورواياته، أما كتاب فاوست الأول والثاني ، أم رسائله وأبحاثه العلمية ، أم أعماله الادارية كوزير في ڤيمار ... لقد كتب جوته أشعاراً غنائية لايعادلها في عذوبة اللفظ ودقة المعنى أشعار . وكتب قصصاً مسرحية ان لم تبلغ مستوى شكسبير ، فانها لم تقصر عنه كثيراً . وكتب مؤلفه الهائل فاوست الذي يشغل فى الأدب العالمي مكاناً فذاً . وكتب «ديوان الشرق والغرب» فجمع بين روح الحضارتين الشرقية والغربية ، ثم ان له بعد هذا كله أبحاثاً علمية قيمة واستكشافات خطيرة. وكانت ادارته للأعمال التي اضطلع بها وهو وزير ڤيمار إدارة حازمة موفقة . ولكن أكبر أثر خلفه جوته هو سيرته وحياته . لا كتبه ومؤلفاته . وقد عبّر مرك Merck عن هذا المعنى فقال ان الحياة التي عاشها جوته أبدع من الاشعار التي كتبها .. فالقارىء الذي يريد أن يطالع أجل آثار جوته وأعظمها يجب أن يدرس حياته من مبتداها الى منتهاها .. وللأسف لايسمح المقام هنا بالالمام بهذه السيرة الحافلة الا إلماماً يسيراً .. دون الاشارة الى كتبه ومؤلفاته إلا عرضاً

* * *

ولد يوهان ڤولفجانج جوته في اليوم الثامن والعشرين من مارس سنة ١٧٤٩ ، في مدينة فرانكفورت على الماين . وهي من أقدم المدن الالمانية ومركز عظيم للتجارة وللمال . وبالرغم من ان والده من ذوي اليسار ، فان الاسرة لم تكن تمت إلى أصل أرستقراطي . فقد كان جده

حائكاً نزل بمدينة فرانكفورت ، وزاول فيها مهنته ، حتى جاءه الطالع السعيد في صورة زوجة نصَف تملك فندقاً يدرُّ عليها رزقاً حسناً . فانقلب الحائك الماهر الى مدير فندق ، ومن هذه الزوجة وُلِدَ له ولدان ، أصغرهما يوهان كاسپار جوته وهو والد الشاعر

اذاً فان جد جوته كان حائكاً ، في وقت كانت الحياكة معدودة من أحقر المهن . ومن لطيف المصادفات أن تكون هذه المهنة قد انجبت لالمانيا اثنين من أكبر رجالها . أولهما شاعرنا والثاني الرئيس إيبرت أول رئيس للجمهورية الالمانية ، الذي كان يدير دفتها في أشد الاوقات في تاريخها حرجاً . ومن المهم أن نذكر هذه الحقيقة ، أي أن جوته من أصل وضيع لانها تفسر لنا أن طبقة الاشراف في ڤيار لم تكن راضية عن الحظوة التي نالها الشاعر لدى دوق ڤيار . ولم تزل مصرة على عدم رضاها عن هـذا الدخيل حتى منح الزائدة المعروفة von فصار الشاعر يدعى von Goethe

أما والد جوته فقد تَعَمَّدَ أبواه أن يحسنا تأديبه وتثقيفه حتى يستطيع أن يعوض في ناحية التعلم ما كان يعوزه من ناحية الوراثة . وقد درس الحقوق والشريعة ونجح في دراسته النجاح كله . ثم لم يزل يرتقي في السلم الاجتماعي حتى أصبح يعدُّ من أرقى الطبقة الوسطى في فرانكفورت ، واستطاع أن يتزوج من أسرة شريفة . وقد تم هذا الزواج عام ١٧٤٨ ، وكان شاعرنا أول ثمرة من ثمراته

نستخلص من هذا كله ان جوته قد ولد وسط شيء كثير من الرخاء واليسار . حقيقةً ان أباه لم يكن من كبار ذوي المال . ولـكنه كان في رخاء جعله دائماً بعيداً عن الحاجة ، فعاش الشاعر حياته الطويلة لم يعرف الفقر يوماً ولم يمارس الشدة .. واذا كانت هذه الشدة مُعَلِّماً لابدَّ منه للنبوغ ، فان جوته قد حرم هذا التعليم ، ولـكنا نبحث عن أثر هذا الحرمان في حياته وأشعاره فلا نجد له أثراً .. فلقد كان محسناً يكتم إحسانه ، وكان شديد الألم لما قد ينزل بغيره من المحن والشدائد ، وفي أشعاره في غير موضع رنات حزن عميق ومواقف تستدرُّ الدمع . فان طبعه الحسَّاس أغناه عن تجربة الشقاء تجربة فعلية

كذلك من الغريب أن هذا الفتى ، ربيب الغنى ، وأليف النعمة ، القادر على أن يعيش عيش النعومة والرخاء ، قضى حياته في جد ودأب ، يعمل بهمة لا تعرف السآمة ، وهو أغنى الناس عن الدأب والسعي .. تلك أيضاً ظاهرة قد تبدو غريبة في الشخصيات المألوفة ، ولكن ليس فيها غرابة في شخص تدفعه روحه أبداً الى العمل وفي صدره شهوةٌ الى الجد والسعي أقوى من شهوة النهم الى الطعام والشراب فكان طول حياته يرهق نفسه بالعمل حبًّا في هذا الارهاق لا من أجل ثمرة يجنيها ، أو فائدة يستفيدها ، بل كان دينه الذي يدين به السعي من أجل لذة السعي ، والدأب حبًّا في الدأب

على أن سعة العيش التى نشأ فيها جوته قد كان لها أثرها الطيب في حياته . فقد لقي وهو صبي كل عناية ورعاية ، وتلقى دروسه الأولى في منزل أبيه حيث لقنه المعلمون اللغات اللاتينية واليونانية والايطالية والفرنسية ، وهذا كله تحت اشراف والده .. وقد ألف الناس أن يسمعوا أن طفولة النوابغ من الرجال كانت طفولة عادية ، لا تنم على ما سيئول اليه الطفل فيما بعد من العظمة والنبوغ . ولكن جوته من غير شك قد خرج على هذه القاعدة — على فرض أنها قاعدة — فقد كان طفلاً نابغاً استطاع أن يكتب أربع لغات أجنبية عدا لغته الأصلية ولم يتجاوز الثامنة من عمره . وكان في التاسعة يكتب قصصاً صغيرة ليسلي بها أخاه الصغير يعقوب ولما بلغ العاشرة احتلت فرانكفورت جنود فرنسية ، وأنشىء فيها مسرح تمثل فيه الروايات الفرنسية . وكان جوته يختلف الى هذا المسرح وانتهى به الاعجاب بالروايات الفرنسية الى دراسة الأدب الفرنسي دراسة مطولة ، والى كتابة قطعة ضعيفة خيل اليه انها تشابه تلك التآليف المسرحية

انجلى الفرنسيون عن فرانكفوت في سنة ١٧٦١ وعاد جوته الى الدراسة المنتظمة في دار أبيه . وأخذ يتلقى دروساً في الرياضة والموسيقى والرسم . فأما الرياضة فلم يستطع أن يسير فيها خطوة ، وكذا لم يستطع أن يتقن الموسيقى رغم ما بذله في سبيل ذلك من جهود . وأما الرسم فقد تقدم فيه خطوات حسنة وبقي طول حياته يمارسه من آن لآن ، ولا تزال آثاره في هذا باقية محفوظة ، وإن لم تصل الى مرتبة عالية من الاتقان . وكذلك عاد الى دراسة اللغات فتعلم الانكليزية . وكان في مدينة فرانكفورت عددٌ عظيم من اليهود لهم لهجتهم الخاصة فحاول جوته أن يتعلمها، وهي لهجة تشتمل على مزيج من اللغة الالمانية المحرفة واللغة العبرية . فألحّ جوته على والده أن يساعده على تعلم العبرية فسمح ابوه بذلك فقطع فى دراستها شوطاً حسناً بحيث استطاع ان يدرس التوراة باللغة الاصلية .وقد تركت هذه الدراسة أثراً عميقاً فى نفسه

كان فى طبع جوته ناحية تختلف تماماً عما ألفنا أن نراه أو نسمعه عن الألمان . فان الخلق الالماني مشهور بأنه ميّال الى الجلد والصبر ، والتمعق فى دراسة ناحية واحدة من النواحي العلمية أو العملية ، والانقطاع الى فهم موضوع واحد ، ولهذا كان التخصص من الميزات الكبرى للالمان . فيحصر الرجل منهم نفسه فى دائرة محدودة يقتلها بحثاً واستقصاء، حتى يكون لهفيها الكلمة العليا والرأي السديد . والى هذا الطبع يرجع الفضل فى نبوغ الألمان فى مختلف نواحي الحياة .. كان فى طبع جوته على العكس شيء كثير من القلق ، يأبى عليه الاستقرار على شرعة واحدة ينهل منها، ومورد واحد يعكف عليه . كان طبعه القلق يدفعه أبداً الى ورود مناهل جديدة والتماس جهة أخرى تتجه اليها نفسه الحائرة وقلبه الهائم ثم لا يكاد يتجه هذا الاتجاه الجديد حتى يتركه الى غيره. وهذا كان ديدنه طول عمره . ولهذا قلما انقطع الى مؤلف واحد إلا زمناً يسيراً ، ثم يتركه ويأخذ فى معالجة غيره ثم يترك الادب والشعر فجأة وينصرف الى العلوم

الطبيعية أو اللهو واللعب والملذات ولهذا كله نرى أن مؤلفات جوته اما أن تكون قصيرة كتبها وفرغ منها في زمن وجيز ، أو كتب طويلة قضى في كتابتها سنين عديدة يتركها ثم يعود اليها أو قطع (Fragments) ابتدأها ثم تركها دون أن يعود اليها

ورغبة جوته هذه في الانصراف الى أمر جديد قد كان من آثارها معالجته موضوعات كثيرة سواء أثناء تعليمه في منزل أبيه أو دراسته في الجامعة أو في الحياة نفسها ، ولقد يرى بعض الناس أن جوته لو قصر همه على الشعر وحده أو الادب وحده لنبغ فيه نبوغاً أجلى وأسمى مما وصل اليه فعلاً .. وهذا القول له وجاهته. على أن من أكبر مميزات شعر جوته أنه يتناول نواحي شتى من الحياة وكان من المستحيل عليه اخراج هذه الصور المتعددة لولا ان عبقريته متعددة النواحي مختلفة المشارب

***

نعود الى سيرة شاعرنا . فقد أخذ يكتب الشعر بشكل جدي وهو في الرابعة عشرة ، وفي تلك السن بدأت الحلقة الاولى من صلاته الغرامية وكان غرامه بفتاة طاهرة صالحة ذات قلب مملوء تقوى وايماناً قد تركت في نفسه أثراً حسناً . وفي شهر اكتوبر سنة ١٧٦٥ أرسله أبوه الى ليبتسك ليدرس في جامعتها وهو بعد فتىً في السادسة عشرة من عمره . وصل الى هذه البلدة وصدره ملتهب شوقاً لتعرُّف جميع نواحي الحياة . وقلبه توّاق لورود مناهل العلم. وجيبه ممتلىء بما يحتاج اليه من مال ، بل وبأكثر مما تدعو اليه الحاجة . وكانت هذه المرة الاولى التى استنشق فيها نسيم الحرية بملء رئتيه . ولم تكن الرقابة الوالدية في وطنه فرانكفورت رقابة شديدة ولا قاسية . ولكن الحرية التي وجدها في ليبتسك حرية كاملة لاتشوبها شائبة، فأخذ يمرح في بحبوحتها ماشاء له المرح والصبي

وكان والده مصرًّا على أن يدرس ولده القانون قبل كل شيء وأن يحرز في دراسة القانون تفوقاً ، وله بعد هذا أن يجول جولانه في أية دراسة أخرى . فحين وصل جوته الى ليبتسك قابل أستاذ القانون وتلقى منه النصائح التى يجود بها الأساتذة في مثل تلك المواقف . ولكن الفتى جوته قال لاستاذه في شيء من الحياء انه مولع بالأدب واستأذن في أن يسمح له بارواء غليله هذا بدلاً من الانصراف التام الى القانون ، غير أن الاستاذ أفهمهُ أن الأدب شيء تافه يجب ألا يأبه له طالب جادٌّ في دراسته . وقد حاول جوته اولاً أن يُخلص في التفرغ للدرس ، فكان في الفترة الاولى مقبلاً على المحاضرات التى أوجبتها عليه دراسة القانون . غير أنه مالبث ان ادركه السأم وفترت همته وعاد لا يواظب على الدرس . ولعل تجاربه هذه هي التي أملت عليه فيما بعد ذلك الحوار البديع بين الطالب وابليس كما يراه القارىء في كتاب فوست

لم يلبث جوته أن انصرف عن دراسة القانون الى دراسات أخرى استطابها ، وأضاف الى

حبه للأدب غراماً جديداً بالتاريخ الطبيعي وبالطب . وقد ظهر ولعه بهما فيما بعد بأجلى مظاهره . على أن جامعة ليبتسك لم تحظ من جوته الا بشطر يسير من زمنه، وأما الشطر الاكبر فكان يصرفه في معهد الفنون الجميلة حيناً . وفي اجتياز سبل الحياة المختلفة خيرها وشرها ، وفي التشبيب بأبنة صاحب الفندق الذى كان يتناول فيه طعامه واسمها أنيت شونكوبف (Anent Schoenkopf) وفي كتابة الاشعار والقطع التمثيلية . ففي أيام ليبتسك هذه نظم روايتين : Die Laune des Verliebten (مزاج العاشق) و Die Mitschuldigeu (زملاء في الجريمة) وهاتان القطعتان هما أقدم شيء لدينا مما كتبه جوته . لأن كل ما كتبهُ قبل ذلك فقد . . وأكثره حرّقه هو بيديه . ولهاتين القطعتين منزلة خاصة في حياة الشاعر اذ نرى منهما الى أي علوٍّ قد حلق طائر شعره وهو بعد فتى في السابعة عشرة من عمره

وفي صيف سنة ١٧٦٨ أصاب جوته مرض شديد اضطره الى أن يعود الى فرانكفورت بعد أن قضى في ليبتسك ثلاثة أعوام أحرز فيها الشيء الكثير من تجارب الحياة ، والشيء القليل من الدراسة الجامعية . دام مرضه هذا زمناً فلم يتم شفاؤه إلاّ في أوائل سنة ١٧٧٠، وعندها رأى والده أن قد آن له أن يعود الى دراسة القانون دراسة جدية ، وان يعكف على هذه الدراسة حتي يحصل فيها شهادة عالية ولعل هذا الاصرار من جانب الوالد على ان يتعلم جوته القانون مع قلة رغبته فيه هو الامر الوحيد في تربية جوته الذى يصح أن يكون موضعاً للنقد. ولكن يجب ألا ننسى أن الوالد مع اعجابه بأشعار ولده أراد أن يعُده لمناصب الحكم قبل كل شيء ولهذا كانت الدراسة القانونية واجبة . ففي شهر ابريل من تلك السنة أرسل الفتى وقد جاوز العشرين إلى الجامعة مرة أخرى . وفي هذه المرة اختار له أبوه جامعة ستراسبورج . وقد أوجدته الصدفة وسط جماعة من طلبة الطب والعلوم . فأثار حديثهم كامن رغباته في دراسة المباحث المتعلقة بهذه العلوم . ورغم مثابرته على دراسة الحقوق كان يصرف جزءاً عظيماً من وقته في دراسة التشريح والنبات والكيميا ... وبالطبع لم ينس نصيبه من دراسة الأدب .وهكذا نرى جوته في درسه شأنه في جميع أطوار حياته ، لاينقطع الى دراسةٍ واحدة ، ولايصبر على طعام واحد. وإن نتعجب فعجبُنا من فتى يجد من وقته متسعاً لكل هذه الدراسات المتباينة ، التي استطاع أن يضرب فيها جميعاً بسهم ، ويبلغ في كثير منها مرتبة حسنة وهو مع هذا كله لايعدم وقتاً يقضيه لدى معلم الرقص ليتقن هذا الفن من جهة ، وليشبب بابنتي المعلم في الوقت نفسه

وللمدة التى قضاها جوته في ستراسبورج شأن خاص في سيرته فهنا استطاع بعد لأيٍ ان يحصل على شهادة دكتور في الحقوق أوشهادة تقرب منها وامكنه بهذا أن يُقِر عين والده ويزيح عن عاتقه عبئاً ثقيلاً . وفي ستراسبورج التقى جوته بهردر « Herder » ولازمه ملازمة

التلميذ المخلص . وكان هردر قد اشتهر بمؤلفاتٍ في أصول الأدب وأخذ يَبُثّ في جوته تعاليمه التي يدين بها ، وتنحصر هذه الجهود في توجيه جوته نحو الأدب القومي والشعر القومي، كما يبدو في التوراة وأشعار هوميروس وأوسيان وشاكسبير وأراه أن أولَ واجب على الشاعر الألماني أن يلتمس الالهام من الروح الجرمانية ممثلة في تاريخ ألمانيا. وفي الميتولوجيا التيوتونية. وكان جوته مستعدًّا لهذه الآراء ، لأنه قد تأثر حتى من قبل التقائه بهردر بتلك الروح القومية وكان مصدر هـذا التأثير دراسته لفن البناء القوطي ، مُمَثّلاً أبدع تمثيل في كاتدرائية ستراسبورج فقد كان يتأمل هذا البناء الشامخ طويلاً ، ويمعن في التأمل فيه ، حتى انتهى الى تفضيل الفن الجرماني في البناء على الفن اليوناني واللاتيني . وقد يَعْجب القارىء المصري من أن شاعراً عظيماً يتأثر فكره بتأمله لبناء من الابنية وقد يصعب علينا أن نتصور أن أحد شعرائنا قد يتأثر اذا أطال التأمل في مسجد السلطان حسن أو الهرم الأكبر ، ومع ذلك فقد كان لدراسة الفن القوطي مُمَثّلاً في بناء تلك الكنيسة أثرٌ عظيمٌ في تفكير جوته . وقد ترتب على هذا كله قيام نهضة في ألمانيا جرمانية الصبغة تنفر كل النفور من القيود الثقيلة التي مبعثها الاعجاب بالأدب القديم ، والفن القديم . وهذه الحركةَ هي التي أطلق عليها اسم Sturm und Drang وهما لفظان تصعب ترجمتهما . ومعناهما بالتقريب «الثوران والاندفاع». اذاً فان من أكبر ثمار المدة التي قضاها في ستراسبورج ، ان بعثت في جوته هـذه الروح الجرمانية التي نرى أثرها فيما بعد في روايتهِ المسرحية الجليلة جوتس Gotz

كذلك في اثناء دراستهِ في ستراسبورج تعرف جوته بأسرة رجل قسيس من خيار الناس يسكن قرية صغيرة قريبة من المدينة اسمها سيزنهايم Sesenheim ولم يكد يعود مرة اخرى الى زيارة تلك الأسرة حتى شغفتهُ فريدريكا بريون ابنة القسيس حبًّا . في تلك الآونة كانت علاقاته بعلم الرقص وابنتي المعلم قد انتهت. وكان قلبه فارغاً من كل علاقة غرامية. فلم يكن بد من ان يهيم بتلك الفتاة الطاهرة ، وتحوَّل الهيام سريعاً الى التفكير في الزواج ، وحين وصل الامر الى هذه الغاية التي لا بدَّ ان ينتهي اليها ، اذا الصلة قد انقطعت ، والتقدم السريع قد انقلب الى تقهقر بانتظام . هذه الظاهرة : التردد في التقيد بقيود الزواج سنراها المرة بعد المرة في حياة جوته ولهذا يحسن بنا ان نقف قليلاً لنلخصها هنا :

الحقيقة ان جوته لم يكن في يوم من الايام عاشقاً متيماً . حقيقةَ انهُ كانت تبدو عليهِ كل علائم العشق المبرح ، فكان يكثر من الزيارة الى سيزنهايم ، ويقضي الساعات الطوال في منزل فردريكا ، وتظهر عواطفه في اشعار بديعة لا يشك قارئها في ان قد أثارها الحب الصحيح الخالص من كل شائبة ، ولكننا نراه حين يبلغ الامر الى نتيجته الطبيعية وحين توشك شجرة الحب ان تؤتي ثمرها ، يصوب نحوها رياح جفاء وابتعاد لا تلبث ان تذويها وتقتلها . والحقيقة التي

لا مناص من استنباطها ان جوته لم يكن يحب حبًّا مبرحاً . بل كان يحب ان يرى نفسه محبًّا متيماً او مغرماً بأن يرى نفسه مغرماً . فاذا جاءت الساعة العصيبة تذكر ان قيد الزواج قد يعوقه عن المعالي . وان تجارب الحياة المقبلة قد تهديه الى علاقة خير من هذه العلاقة . فيلتمس في البعد شفاء من جراحه . فلا يلبث البعد والشباب والغنى واللهو ان تنسيه لوعته وتشفيه من كل سقم . . وهكذا كان. وعاد في اغسطس سنة ١٧٧١ الى وطنه فرانكفورت ، وهو الآن الدكتور ڤولفجانج جوته المحامي الناشىء

وعقب وصوله الى موطنه اخذ يشتغل بجد في رواية « جوتس » . وانتهى من كتابتها في اوائل العام التالي . هذه الرواية المسرحية التي أثارت ضجة كبرى عند ما نشرت في سنة ١٧٧٣ قد تبدو لنا اليوم اقل من مستوى الشاعر الذي كتب ڤاوست وولهلم مايستر. ولكنهُ كتبها وهو في الثالثة والعشرين ، وأخرجها في طراز جديد أثار اهتمام الامة الالمانية . وقد تعمد ان يسبغ على هذه الرواية الثوب الجرماني ويبث فيها روح الثورة على التقاليد القديمة، والوحدات الكلاسيكية المعلومة . ولهذا كان لها صدًى عظيم في عالم الادب . ونحن قد نتوهم اليوم انهُ من العجيب ان تحدث ضجة في المانيا لأن شاعراً من شعرائها اراد ان تسود الروح الجرمانية ، وجاهد مجاهدة الابطال في هذا السبيل . هذا يبدو غريباً لأول وهلة . ولكن لنذكر ان ملك بروسيا فردريك الأكبر المعاصر لجوته كان يحتقر الادب الجرماني والفن الجرماني ، ولا يتكلم في بلاطه بغير اللغة الفرنسية ولا يسود في بيئتهِ غير الادب الفرنسي . فاذا كان الناس على دين ملوكهم فأي جهاد هائل كان محتماً على امثال جوته وشيلر حتى يبثوا الروح الجرمانية في الادب الالماني ؟

لم ينشر كتاب جوتس للناس الاَّ عام ١٧٧٣ . وقبل ذلك بسنة ذهب جوته الى وتسلار وهي مقر محكمة الاستئناف العليا ، للتمرن على الاعمال القضائية . وهذا الجزء من حياة جوته معروف للقارىء المصري فلا حاجة للاطالة فيهِ . فهناك تعرف جوته بكستنر خطيب شرلوت بوف وهام بهذه الخطيبة اشد الهيام ، وما كان هيامه بها شديداً الى هذا الحد إلاَّ لأنها مخطوبة بعيدة المنال . ولو كانت حرةً وقبلت الزواج منهُ لولّى الادبار ، ولاذ بالفرار ، كما فرَّ من فردريكا بريون من قبل وكما فرَّ من ليلي شوئمان من بعد

وعاد بعد شهور الى فرانكفورت وأخرج في عام ١٧٧٤ ثمرة عشقه لشرلوت بوف : وهذه الثمرة هي كتاب « آلام ڤرتر » الذي يعرفهُ الجميع والذي بلغ في سرعة الذيوع والانتشار ما لم يبلغهُ كتاب آخر لجوته، ولو ان حماسة الناس قد فترت بعد ذلك ، وأصبح كتاب « ڤرتر » وليس له ذلك المقام الكبير في الادب الالمـاني . على ان أثره في حياة الشاعر كان عظيماً فقد ذاع بهِ صيته وحلقت رايته في سماء الشهرة وكان لهذا شأنهُ في حياة الشاعر بعد ذلك

من النواحي الطيبة في اخلاق جوته انهُ كان يتلمس الهداية ابداً على يد المرشدين الذين يسوقه حظه الى صحبتهم . وقد وفقه طالعه الحسن الى صحبة ثلاثة رجال في فترات مختلفة في حياتهِ ، وهؤلاء الثلاثة هم هردر ومِرْك وشلر . وقد سبق لنا ان ذكرنا مقابلته لهردر في ستراسبوج وأما شلر فسنعود الى ذكره فيما بعد ، أما مرك هذا فرجل اديب ناقد من النوع الذي يَشْحَذُ ولا يكاد يقطع ! وكان له اتصال متين بكثير من كبار الكتّاب والشعراء ، وكانت نصائحه لهم عامة ولجوته خاصة باعثة على زيادة الانتاج واحسانهِ . وقد تعرف اليه جوته عقب عودته من ستراسبورج وكانت بينهما مودة متينة ولو انها فترت قليلاً فيما بعد

كان هردر ومرك كلاهما اكبر من جوته سنّاً . ونظراً لانقطاعهما الى دراسة النقد الأدبي، كانا من غير شك اعلم منه بهذا الموضوع . وكانا يبذلان له النصح في شيء من غطرسة المعلم، وكان يقبل هذا كله منهما رغم ما جبل عليهِ من الكبرياء والغرور . وكان يتقبله احياناً بشيء من المضض واحياناً لا يذعن اليه. ولكن لا شك في ان رغبته في تثقيف نفسه من جهة وحبه لهما من جهة اخرى ، واخلاصهما له من ناحية ثالثة . كل هذا جعله ينتفع بما بذلاه لهُ من النصائح

بعد ان اخرج جوته كتاب ڤرتر بزمن يسير ساقه القدر وهو في فرانكفورت الى صداقة فتاة في السادسة عشرة من عمرها اسمها انا شونمان Anna Schonemann وأطلق هو عليها اسم ليلي Lili . وهي ابنة رجل من ذوي اليسار ومن كبار اصحاب المصارف في فرانكفورت. ولا نريد ان نطيل شرح علاقة جوته بليلي ، فحسبنا ان نذكر انها كانت تكراراً لما حدث له مع فردريكا، ولو انهُ في هذه المرة قد اضاف عنصراً جديداً وهو الخطبة الرسمية التي تمت رغم معارضة اهل الخطيبة والخطيب ، ولكن هذا العنصر الجديد لم يغير كثيراً من سير القصة سيرتها الاولى . فقد احجم جوته في الساعة الاخيرة ثم سافر في رحلة يصحبه الاخوان المستهتران ستولبرج الى سويسره . وهو يزعم انهُ مسافر ليرى هل يستطيع الصبر على فراقها . وعاد من سفره وقد خمدت الجذوة المستعرة وهان عليهِ فسخ الخطبة

***

في عام ١٧٧٥ كان جوته قد بلغ الستة والعشرين ، وقد اصبح اسمه بفضل ما اخرجهُ من الشعر الغنائي البديع ، وبفضل كتابيهِ «جوتس» و«ڤرتر» ، حديث الاندية الادبية في المانيا بل وفي كثير من الاقطار الاوربية الاخرى واجمع الناس على انهُ قد نبغ في فرانكفورت شاعر مبدع ، بلغ على حداثتهِ شأواً بعيداً في عالم الادب . ففي تلك السنة حدث لجوته حادث غير مجرى حياته . وهذا الحادث الخطير هو التقاؤه بكارل أوجست دوق ڤيمار . كانت المقابلة الاولى بينهما في كارلسروهي Karlsruhe في ولاية بادن في اثناء رحلة

جوته الى سويسرة ، وهناك تعارفا ، ودعا الدوق جوته لزيارة ڤيمار ، ثم مرّ كارل اوجست بعد ذلك بفرانكفورت وهو عائد مع زوجته الشابة الى ڤيمار ، فقابل جوته مرة ثانية . واعاد الكرة بأن دعاه بالحاح لزيارته . وقد نصح مرك تلميذه بالقبول ، ولكن الوالد كان ممانعاً ، ونصح لجوته بأن الاقتراب من الامراء غير محمود العاقبة ومثّل لهُ بما جرى بين ڤلتير وفردريك الاكبر وكيف انتهت علاقتهما الى الشقاق والخصام .. وبعد تحريض والحاح قبل الوالد كارهاً ان يزور جوته ڤيمار ويقضي فيها « بضعة اسابيع » .. هذا ما اراده الوالد الشيخ ، ولكن المقادير ارادت ان يذهب جوته الى ڤيمار فيجعل منها وطنهُ الدائم طول الحياة ومثواه بعد الوفاة

* * *

كانت دوقية ساكس ڤيمار قسماً صغيراً من تلك الاقسام السياسية المستقلة التي كانت المانيا منقسمة اليها . وهي الآن جزء من جمهورية تورنجيا ، وڤيمار ، عاصمة الدوقية ، بلدة صغيرة على نهر الايلم ، احد روافد الإلب ، من البلدان القديمة في المانيا ذات طرقات ضيقة ، من بقايا بلدان العصور الوسطى — وكان سكان الدوقية قليلين يعيش اكثرهم من الزراعة ، وحالتهم لا تختلف عن حالة الفلاحين في اوربا في العصر السابق للثورة الفرنسية . ومع ان موارد الدوقية ضئيلة جدًّا فانها اصبحت بفضل همة اميرها مجتمع كثير من العلماء والادباء والفنانين ، فكان بلاط ڤيمار لا يضارعهُ في هذا الاَّ بلاط بوتسدام مع الفارق العظيم بينهما ، وهو انهُ بينما فريتس (فردريك الاكبر) لم يكن يرحب الاَّ بالثقافة اللاتينية ، ولا يتكلم في بلاطه الاَّ بالفرنسية ، فان الثقافة المنتشرة في بلاط ڤيمار المانية بحتة ورجالها جميعاً من الالمان . ومع ان بلاط ڤيمار فقير جدًّا اذا قورن ببلاط بوتسدام ، فانهُ مع هذا لم يكن دونهُ بكثير بل لقد كانت شمس العبقرية فيهِ من غيرشك أسطع ، واثره في الادب الالماني والثقافة الالمانية خيراً وابقى

كانت بلدة ڤيمار على صغرها جذابة لمن يرغب في عيشة الهدوء والطمأنينة ، والمناظر الطبيعية التي تحدق بها على درجة عظيمة من الجمال ، فمن جدولها المتدفق ومروجها اليانعة الى غاباتها المنتشرة وحديقتها الكبرى التي عني جوته بامرها عناية خاصة ، حتى جعلها من خير الحدائق واحسنها . وفوق هذا فانهُ على مقربة منها مدن شهيرة مثل يينا ذات الجامعة وإرفورت ، وكذلك جبال تورنجيا ليست بعيدة منها . والى هذه الجبال كان جوته كثيراً ما يذهب هو وكارل اوجست للتنزه والرياضة ، وقد بنى لهما كوخاً صغيراً بالقرب من إلمناو لكي يبيتا فيه على اعالي الجبال

وعلى صغر هذه الدوقية وبساطتها ، فانها كانت عالماً قائماً بذاته ، فكان بها امارة وعرش وحاشية وحكومة ، وكان يؤمها من آن لآن كثير من الاشخاص ذوي الشأن . واستطاع اميرها الصغير ان يجتذب اليها عدداً كبيراً من اعلام الادب والفن والعلم وكان اهل القصر انفسهم على جانب عظيم من الثقافة . ومن اهم الافراد البارزين في هذه البيئة الدوقة الوالدة أماليا أم

كارل أوجست وصديقة فيلاند الذي تعلمت منهُ اليونانية ودرست عليهِ الادب القديم. وكانت تحسن الموسيقى والتأليف الموسيقي عدا حبها للهو والمسرات — وقد رحبت بمقدم جوته وكانت تكاتب امه تباعاً. ومن اكبر المقربين اليها ويلاند Wieland من متوسطي شعراء المانيا ومن كبار أدبائها . وهو الذي تولى تعليم كارل اوجست وتأديبه. ومن اهم نساء حاشيتها الآنسة كروتر ، قينةُ القصر Hoff sangerin التي كانت تمثل الادوار الغنائية في القطع التمثيلية التي يقوم بها بعض كبار الحاشية، وكذلك كان هنالك ادباء كثيرون نذكر من بينهم سكِنندُرف مترجم آلام ڤرتر الى الفرنسية وبَرتوخ مترجم سِرفَانتس ، وأما هِردر صديق جوته واستاذه في الادب فجاء الى ڤيمار بعد جوته بقليل ، وقد استدعاه الدوق بناء على رجاء جوته ليكون إمامَ القصر وواعظه

اما الاميرة لويز دوقة ساكس ڤيمار وزوجة كارل اوجست ، فكانت تختلف عن أماليا بانها على حداثة سنها ذات طبع يميل الى الجد ، والمحافظة على التقاليد ، والبعد عن اللهو والترف . ولا تعمل الا كل ما يليق بمقامها ومركزها. وهذا بخلاف زوجها الدوق الفتى ، الذي كان ينفر من التقاليد ، ويحب اللهو والمرح وقد كان هذا احياناً سبباً في شيء من الفتور بينهما لكنهما كانا عادةً على صداقة ووئام

الى هذه البيئة جاء جوته في نوفمبر سنة ١٧٧٥ وهو شاب في السادسة والعشرين وكارل اوجست فتىً في الثامنة عشرة ، لكن كان الامير على حداثة سنه نافذ البصر ، يعرف كيف يقدر النبوغ وكيف يجتذب النابغين اليهِ . ولم يمضِ الا قليل حتى اصبح هو وجوته صديقين حميمين وبقيا كذلك مدى خمسين عاماً . وكان يتخاطبان من غير كلفة ، وقد يبيتان في دار واحدة ، وفي حجرة واحدة ، ويقضيان معاً ساعات طوالاً ، يتجاذبان فيها الحديث لا عن الفن والادب فحسب ، بل وعن شؤون ڤيمار ووسائل اصلاحها . وقد كان كلاهما مولعاً باللهو والمرح والمجون . فكانت الاسابيع الاولى لجوته في ڤيمار ممتلئة بأنواع العربدة واللهو البريء وغير البريء ، والفكاهات اللفظية والعملية ، يمارس كل هذا هو والدوق بروح لا تعرف المسئولية ولا التقاليد ، وكانا كثيراً ما يختلطان بالعامة من مزارعين وعمال ، وقد يقضيان الليلة في وسط مناجم إلمناو يرقصان مع بنات العمال الى سويعات الفجر

على ان هذا اللهو وان شغل جزءًا عظيماً من وقتهما فانهُ لم ينسهما العناية بالشؤون العامة . والنشاط الهائل الذي امتاز بهِ كل منهما كان مساعداً لهما على ممارسة ناحيتي الجد واللهو على السواء. وويلاند مع اعجابه بجوته وبالدوق ، أبدى اسفه الشديد على ان يصرف جوته وقته في هذه الترهات ، بينما الواجب يقضي بصرفه في جلائل الاعمال. والحقيقة ان جوته لم يُخرج في السنين الاولى بڤيمار مؤلفاً يستحق الذكر. ولكن يجب الا ننسى انهُ قد اكتسب تجارب كثيرة كان

لها من غير شك أثرها فيما اخرجه من الآثار فيما بعد ، وفي الغالب ان كثيراً من كتبهِ التي ظهرت بعد ذلك كان في هذه المدة في دور « التفريخ » فانهُ يقول في احدى رسائله انهُ رغم اعماله الكثيرة في خدمة الدوق كان لا يعدم الوقت اللازم لمتابعة دراساته الادبية والعلمية، عدا انهُ بالطبع لم ينسَ نصيبه من الدنيا

وقد عرض عليهِ دوق ڤيمار منصباً يعتبر في ڤيمار من ارفع المناصب ، بمرتب ١٢٠٠ دولار اي نحو ٢٠٠ جنيه من نقود هذا الزمان . وكان هـذا مبلغاً لا يستهان به في تلك الازمنة وفي دوقية فقيرة كامارة ڤيمار

وتعيين جوته في هذا المنصب وجعله عضواً في المجلس الاعلى ، والحظوة الكبرى التي نالها عند كارل اوجست — كل هذا حرّك ألسنة الحاشية بالشكوى المرة ، من هذا الدخيل الذي لم يتدرج مثلهم من أصغر المناصب الى ماهو أرقى منها والذي حرمهم بلوغ المرتبة التي يطمحون اليها . ولكن كارل أوجست ردّ على احتجاجهم بأن وجود مثل جوته عنده شيء يحسد عليهِ . وبأن كفايته وعبقريته أمر معلوم للناس جميعاً ، وانه لا يعلم في جميع المتطلعين الى هذا المنصب من يدانيه في تلك الكفاية ، وانهُ (أي الدوق) احزم وأعقل من ان يجعل مجرد الاقدمية سبباً لحرمانه من خدمات مثل الدكتور جوته

بهذا الرد الحاسم أخرست الألسنة ، وازدادت المودة والالفة بين الدوق وبين جوته ، الذي أصبح ساعده الايمن والقيت اليهِ الآن مقاليد الكثير من الاعمال الادارية في الدوقية ومنح الدوق جوته داراً صغيرة ذات حديقة غناء على نهر الإلم (اسمها جارتنهاوس Gartenhaus) وبات بديهيًّا أن جوته قد جاء الى ڤيمار ليقيم بها وما دام كارل أوجست حاكما فهيهات ان يسمح له بالابتعاد عنها طويلاً

وهنا لا بد لنا ان نقرر ان المنصب الذي أسند الى جوته لم يكن مجرد وسيلة لابقائه في ڤيمار ومنحهُ مرتباً يتمكن بواسطته من متابعة دراسته وتآليفه ، لم يكن بعبارة اخرى منصباً فارغاً من غير واجبات ولا أعمال مرهقة . بل كان منصباً يقوم شاغله بأعمال جدية في الدوقية . وتأبى على جوته همته إلاّ أن يضطلع بأضعاف الاعباء التي يقوم بها صاحب ذلك المنصب عادة . فان اخلاصه لكارل أوجست وثقة كارل اوجست بهِ ، كل هذا كان من شأنه ان يجعل جوته يتولى شطراً عظيماً من مهام الدوقية ، وان يرهق نفسه بالعمل من اجل صديقه ومولاه . فنراه مثلاً يقوم بادارة الفنون وبالاخص المسرح والتمثيل ، وبادارة الحربية والمالية حيث كان يضطر لان يقف في وجهِ الامير الذي يحب التبذير شأن الامراء . وبتنظيم المدينة وحدائقها ، وكثير من المشروعات التي ترمي الى اصلاح حالة الاهالي ، وبادارة مناجم إلميناو (Ilmenau) التي كانت معطلة ، وكان هو سبب افتتاحها مرة اخرى . ويظهر ان اضطلاعه

بكل هذه الاعباء وبغيرها مما لا يمكن حصره من اعمال الدولة ، ومضافاً اليهِ مشاغله الادبية والعلمية والقلبية — كل هذا قد آدَهُ حمله بحيث رثى له حتى كارل اوجست وكان يقترح عليهِ من آن لآن ان يأخذ له قسطاً من الراحة ، لكن جوته لم يلتمس الراحة الا في سنة ١٧٨٦ حين سافر الى ايطاليا بعد ان قضى عشر سنوات في هذا الجد والدأب

قلنا ان جوته في هذه السنوات العشر ، كانت له عدا أعماله الادارية ، مشاغله الادبية والعلمية والقلبية . فأما اعماله الادبية ، فقد كان لا يفتأ ينظم الشعر الغنائي ويؤلف قطعاً تمثيلية من اجل مسرح فيمار . ونذكر من بين هذه القطع رواية ايفجنيا مكتوبة نثراً وقد نظمها شعراً بعد ذلك وهو في ايطاليا — وكذلك رواية « انتصار الحساسية » « Triumph der Empfindsamkeit » . وهذه القطعة مهزلة الغرض منها السخرية بالعواطف السخيفة ، وقد اضطر جوته لكتابتها لكي يقلل تأثير كتابه آلام فرتر الذي كان سبباً في حلول مصائب بكثير من ضعاف الاحلام ، وكانت تبلغ جوته أخبارهم فتتألم نفسه لذلك . واضطر أخيراً لكتابة تلك القطعة لعلها تحدث اثراً يذهب بأثر كتابه الاول

وعدا هذه القطع فان جوته من غير شك كان يعمل أو يفكر في مؤلفات اخرى مما ظهر فيما بعد

واما مشاغله العلمية فانهُ في هذه الفترة كان يشتغل كثيراً بالعلوم الطبيعية حتى اهتدى الى كشف عظيم في التشريح ، وهو الاهتداء الى عظم ما بين الفكين (Os Intermaxillare) وكذلك كان يدرس شيئاً عن فن البناء وتنظيم المدن وهندسة الحدائق ليطبق هذا في اصلاح فيمار وتجميلها

اما مشاغله القلبية في هذه السنين العشر فتدور حول شخص مدام فون شتاين . وهي من كبار سيدات قصر فيمار وزوجة احد كبار ضباط الحرس ولم تصبح بينها وبين زوجها صلة بعد ما ولدت له سبعة اولاد . كانت شارلوت فون شتاين حين رآها جوته امرأة في الثالثة والثلاثين قد مارست الحياة حلوها ومرها . وفهمت طبائع الرجال وخصالهم . وكانت فوق هذا على جانب عظيم من الادب والثقافة العالية . وفي شخصها لقي جوته امرأة لم يرَ مثلها من قبل ، فان صلاته الى وقت نزوله فيمار كانت دائماً بفتيات لم يتجاوزن العشرين كان يجتذبه اليهن ما هنَّ عليهِ من صباحة وطلاوة وبهاء وشباب غض . لكنهن كنَّ دونهُ ثقافة وتربية وعقلاً وعلماً . أما مدام فون شتاين فكانت اكبر منهُ بسبعة اعوام ، ولكنها كانت امرأة ناضجة عقلاً وذكاء وأدباً . قادرة على ان تشاطره احلامه مهما بعدت ، وافكاره مهما سمت ، وتواسي جروحه ، وتعجب بقوته وترثي لضعفه ، فكانت له بمثابة الصديقة والشقيقة والحبيبة ، وبالرغم من انها لم تكن على شيء كثير من الجمال فقد اولع بها جوته ولم يفتر حبهُ لها طول هذه السنوات العشر ، وقد علمت — وهي سيدة العارفين — انها ان سلمت لهذا الفتى النزق بكل ما يشتهي فسرعان ما يسأمها ويفقدها وتفقده ، لكنها عرفت كيف

تبقي جذوته مستعرة ملتهبة ، وكيف تستبقي حبه واجلاله لها عشر سنين طوال. وبليتوفسكي يقول ان علاقتهما بقيت طاهرة نقية ، ولو ان غيره يزعم غير ذلك . وعلى كل حال فقد كان نفوذها على جوته عظيماً وصالحاً ولم يتلاشَ هذا النفوذ الاّ بعد عودته من ايطاليا

***

كان جوته دائماً يتوق الى رؤية ايطاليا ، ولم يتحقق حلمه هذا الاّ في سبتمبر ١٧٨٦ حيث غادر الدوق وحاشيته وسافر متخفياً الى تلك البلاد الجميلة حيث الشمس لا تحجبها السحب وحيث الآثار الرومانية تنطق بالعظمة الخالدة . وقد اخذ يتنقل بين مدن ايطاليا المختلفة من اقصاها شمالاً الى صقلية جنوباً . وكل منها مفعم بالذكريات وبدائع الفن الخالد . لكنه كان مغرماً بروما بنوع خاص ، والذين يعرفون المدينة الابدية يفهمون سرّ هذا الغرام ، فهنا الفى جوته نفسه امام عظمة تلك الحضارة الهائلة التي لم ينقص مرّ السنين من رونقها وبهائها ووجد فيها مثيراً لوحي جديد . وكذلك وجد فرصة لأن يتعلم الدروس التي تلقنها الاسفار في بلاد تختلف عن بلاده الاختلاف كله . وعدا هذا فانهُ اصاب في ايطاليا فراغاً وسكوناً وهدوءاً وما كان اشد احتياجه اليه بعد تلك السنين المضنية

دامت هذه الرحلة نحو العشرين شهراً ، عاوده في اثنائها غرامه بالفن والتصوير ، فأضاع وقتاً كثيراً في محاولات غير مجدية ، فانهُ ما كان ولن يكون رساماً ماهراً . ولكن بجانب هذا قد اتم نظم ايفجنيا وإيجمونت. وشرع في نظم تاسو وهذه الثلاث من احسن رواياته التمثيلية

اجمع الكتّاب على ان رحلة ايطاليا تعتبر نقطة هامة في حياة جوته. فانها بصرف النظر عما تعلم منها اعطته فرصة طويلة لان يتبصر في امر نفسه وان يفكر في مآله وحياته ، وكان نزق الشباب قد اخذ في الزوال وحلّ محله شيء من الوقار والرزانة والنضوج ، ورأى وهو في ايطاليا انه لن يستطيع ان يعود الى تلك الحياة التي كان يحياها في ڤيمار ، حيث كان جانب عظيم من وقته ضائعاً في تافه الاعمال . ولهذا كتب الى كارل آوجست من ايطاليا قبيل العودة يلتمس منهُ ان يعفيه من الواجبات الصغيرة التي كانت تقيد يديه ، وتلتهم جزءاً عظيماً من وقتهِ ، حتى يستطيع ان يفرغ للناحية الجدية من جهوده العلمية والادبية . وكان كارل اوجست عند حسن ظن جوته به ، فأعطاه سؤله ، واعفاه من رآسة المجلس الاعلى ، ومن الادارة الحربية ، واستبقى جوته بمحض رغبته ادارة الاعمال العلمية والفنية بما في ذلك ادارة المسرح

عاد جوته الى ڤيمار في يونيه سنة ١٧٨٨ ، وقد لاحظ الجميع في خلقه شيئاً من التغير فقد الفوه الآن جادًّا وجافًّا في طبعه، متحفظاً في شيء من الفتور او البرود. لاحظت هذا التغير مدام فون شتاين ، ورأت انهُ لم يبقَ في قلبه نحوها تلك الحرارة وذلك الشغف اللذين الفتهما منهُ. وقد خاطبتهُ في ذلك فلم تجدِ المخاطبة ، ثم لامتهُ وانبتهُ فما اصلح هذا اللوم من الموقف

شيئاً . والحقيقة ان جوته ، الذي عاد من ايطاليا ، غير جوته الذي عرفته هذه السيدة ، ولو انصفت لأدركت الموقف الجديد ، وعلمت ان امامها اليوم جوته الرجل لا جوته الفتى ، وان عليها ان تعامله معاملة جديدة تتفق والموقف الجديد ، لكنها اصرّت على اتهامه بالتقصير والاهمال ، وانكر هو هذه التهمة ، وبعد قليل انقلب الجفاء بينهما الى قطيعة وهجران حينما تعرف جوته الى كرستيانا ڤولبيوس التي صارت زوجاً له فيما بعد

* * *

في يوليو سنة ١٧٨٨ كان جوته يتمشى في حديقة ڤيمار فتصدت له فتاة حسناء وناولتهُ كتاباً تلتمس فيهِ مساعدة اخٍ لها اديب بائس في بلدة يينا القريبة..هذه الفتاة هي كرستيان ڤولپيوس ، التي صارت اولاً خليلة جوته ثم حليلة لهُ. وكانت فتاة من طبقة فقيرة . والبون شاسع بين مركزها ومركزه الاجتماعي . لكنها على جانب عظيم من حسن الخَلق والخُلق ولا يعوزها الادب والتربية ، ولو انها لم تكن في هذا لتدنو الى مدام فون شتاين او غيرها من نساء البلاط . ويقال ان جوته اراد ان يتخذها زوجاً فأبت لعلمها ان هذا يحرج مركزه ، فان الحاشية لم ترضَ عن علاقة جوته بها ، وحسبت هذه العلاقة عاراً عظيماً . وقاطعتها حاشية البلاط مقاطعة تامة . ولم يقبلوا ان يروها بينهم ، فكانت لا تصحب جوته الى القصر ولا ترافقه في الحفلات ، ومع انها كانت تصاحبهُ الى يينا . فيقدمها الى اصدقائهِ وعارفيهِ ،كانت ابواب ڤيمار ابداً موصدة امامها . وكانت صداقتهما موضع نقدٍ مرٍ وطعن شديد في جوته لخروجهِ ، هذا الخروج الشنيع ، على العرف والتقاليد

ولم يلق جوته نقداً لأي عمل من أعمال حياته مثل الذي لقيه من حبه لكرستيانة ويقول شيفر أحد مؤرخي جوته : ان الأمة لم تغفر لأكبر شعرائها هذا الخروج على العرف والعادة ، وهذه العلاقة النصف الزوجية كانت سبباً كبيراً في قلة تقدير الناس لأخلاق جوته، وفي الحكم بأحكام قاسية عليه وعلى تآليفه . » .. الى هذا الغلو يذهب المجتمع في استهجان من يخرج على تقاليده!

وبالطبع أمام هذا النقد المر لم يستطع جوته أن يعقد زواجه رسمياً . ولكنه أعلن غير مرة أن كرستيان زوجه في كل شيء ماعدا الرسميات . وفي أول عام ١٧٨٩ ولدت له ولده الأول أوجست . فبعد ذلك أسكنها وأمها في الدار التي يسكنها وأصبح الجميع ينظرون اليها كزوجته

لم يزل الكتّاب الذين ألّفوا في سيرة جوته — وكثير ماهم — بين مستهجنٍ وناقدٍ ومتسامح في نقدهِ لهذا الحادث الخطير في حياة هذا الرجل الخطير . كانت كرستيانة مليحة الصورة ، جذابة جداً . وعاقلة ومدبرة ومغرمة به . ولكنها كانت ازاءهُ وضيعة النشأة قليلة التعليم . ومما يؤسف له ، من غير شك ، أن جوته لم يوفق الى زوجةٍ تناسبه من جميع

الوجوه بحيث لايستحي من مصاحبتها له في المجتمع الذي يعيش فيه .. ولـكنه ان لم يجدفيها ضالته كلها ،فأنه من غير شك وجد فيها كثيراً مما تهواهنفسه من الجمال والبساطةوطيب الخلق وسرعة الفهم . ولم يكن — وهو الذي احتقر العرف والتقاليد طول حياته — بالذي يبالي بمايقوله البلاط وأهله . وقد بقي جوته سعيداً جداً بعلاقته بها زمناً طويلاً . وكانت مساعدة له على انتاجهِ العلمي والادبي.فاليها يرجع الفضل في إخراجه القصائدالمعروفة بأسم «المنظومات الرومانية » وهي من أبدع مانظم .. حقيقة أنها ساءت حالها فيما بعد . ولـكن لم يكن معقولاً ان يتنبأ جوته بهذا

***

في السنين التي عقبت «زواج» جوته هذا انصرف برغبة وحماسة تكادان تشبهان الجنون الى الابحاث العلمية . فأخرج رسالته الفذة في تطور النبات Metamorphosis der Pflanzen وهي من غير شك كشفٌ جديد في هذا العلم .. وأعقبها برسائل أخرى دونها في المنزلة العلمية كرسائله في البصريات والرياضيات والالوان وغيرها .وقد بقي جوته منغمساً في هذه الشهوات حتى انتشله منها شلر ووجههُ بعنف نحو الادب . وقبل ان نتدرج الى ذكر اجتماعه بشلر يجب ان نشير الى الحوادث التي شغلته قبيل ذلك . في عام ١٧٩٠ سافر جوته للمرة الثانية الى ايطاليا لـكي يصحب الدوقة أماليا ويرافقها في عودتها . ولم يكن لزيارته الثانية لايطاليا في نفس جوته من الأثر ما كان للزيارة الاولى . فان الرحلة كانت محدودة المدى . والاحوال مختلفة عما كانت عليه من قبل ، وعقب عودته الى ڤيمار كان العالم السياسي في اوروبا يموج بعضه في بعض، فقد ثارت فرنسا ثورتها وزعزع عرش البربون ، فثار ثائر ملوك اوروبا اذ رأوا العرش تنتهك حرمته والصولجان يحطم ، والحقوق الملكية المقدسة تداس وتمتهن . عزّ هـذا على أصحاب العروش . فجرد هؤلاء « الحلفاء » جيشاً ليدافع عن الحق الملكي المشروع ، تلقاء هذه الاعتداءات البذيئة من العامة والسوقة

وقد يتساءل القارىء وما لجوته وهـذا كله ؟ لم يكن جوته بالرجل الذي يأبه للحقوق الملكية المقدسة ، ولم يكن يعطف على الثائرين بعد ما رأى من انتهاكهم للحرمات ، وكان أحب اليه ان يجلس في داره ليفند آراء نيوتن الرياضية ، ويحلل الألوان . ولـكن لسوء حظه كان ملك بروسيا أحد الحلفاء واختار كارل أوجست قائداً لفيلق من فيالق بروسيا، ولدوق ڤيمار ولع عظيم بالجيش ، كما له ولع عظيم بجوته . فطلب من جوته ان يصاحبه . وما كان جوته ليرد لـكارل أوجست سؤلاً . فصاحبه في تلك الحرب وكان يقضي أكثروقته في تجاربه العلمية يفحص العظام ويراقب الألوان ، ويدرس النبات . وكان سروره عظيماً حين تمت هزيمة « الحلفاء ».لاحبًا في انتصار الثائرين . ولـكن حبًا في العودة الى درسه وعمله ،وكتب إثر

عودته الى أحد اصدقائه يقول : « أعود الآن الى منزلي لكي ارسم من حولي دائرة محكمة لايدخلها غير الحب والصداقة والعلم والفن . ولست أشكو من الماضي فقد تعلمت منه الشيء الكثير النافع » وهكذا صمم جوته ان يعكف على اعماله الأبدية العالمية ، غير مكترث بتلك الزوابع السياسية التي تجتاح وجه اوروبا

كانت عودة جوته الى ڤيمار في اواخر سنة ١٧٩٤ ، وفي مايو من السنة التالية كان جوته في ڤينا ليسمع محاضرة عن النبات في دار جمعية التاريخ الطبيعي . فالتقى بعد المحاضرة بشلر ، وهو إذ ذاك استاذ التاريخ بها ، ثم تحادثا قليلاً بعد المحاضرة . ومن ذلك العهد توثقت الرابطة بينهما وازدادت صداقتهما قوة على مر السنين

ان صداقة جوته وشلر فريدة في بابها يكاد لايكون لها نظير في تاريخ الأدب لأية امة في أي عصر . ويصعب على الانسان ان يتصور شاعري المانيا العظيمين المتنافسين . وقد ارتبط قلباهما برباط الحب والإخلاص ، حتى لقد كان جوته يقول ان اسعد ظروف حياته هي التي مكنته من مقابلة شلر . ولأول وهلة يخيل للمرء ان تلك الصداقة متعذرة لما بين الرجلين من الفروق: كان جوته في الخامسة والاربعين وشلر دونه بعشر سنوات . وكان جوته ربيب النعمة حليف الغنى، قد بسم له الحظ طول عمره . بينما شلر قد نشأ في فقر وعاش في فاقة وكان دائماً في ضنك وضيق . كان جوته صحيح الجسم قوي البنية وشلر بعكس . ذلك وكان جوته يعشق الطبيعة والحقيقة أي انه ريالست (واقعي)، بينما شلر كان يرمي بخياله بعيداً يلتمس المثل العليا اي انه ايديالست (كمالي) . وكان جوته يشتغل في اول النهار. وشلر يعمل في الظلام الى ما بعد منتصف الليل .. ثم أليس المعقول ان تتنازع شلر عواطف الحسد حين يقارن بين حال جوته وما هو فيه من بسطة في الرزق وحالته هو إذ يضطر لان يجتزي بالشيء اليسير وبينما جوته يسكن في منزلين رحيبين في ڤيمار ، يكتفي شلر بغرفتين في احدى الدور الصغيرة ؟

على أن هذه الاختلافات بين الشاعرين لم تقم حائلاً دون التأليف بين قلبيهما برباط من الصداقة النادرة .. وذلك لأن كلاهما كان يقدر ما للآخر من المزايا ويعجب بمواهبه ، ويجد منه فهماً وتقديراً لكل فكر وكل حس وكل بادرة تبدر منه، ثم بعد هذا كله فقد كان يعتقدان ان لديهما رسالة جليلة يؤديانها الى العالم فهل مثل هذين يجدان من وقتهما فراغاً للتفكير في الحسد والبغضاء ؟.

في عام ١٨٠٠ جاء شلر الى ڤيمار واقام بها .. وقد حاول الكثير ان يبذر شيئاً من النفور بينهما ، فأخذ الناس يتعصبون : فريق لجوته وفريق لشلر . وقد ردّ عليهم جوته بأنه اولى بهم ان يحمدوا الله ان لديهم شاعرين لا شاعراً واحداً. وقد حاول اهل حاشية ڤيمار بتمجيد شلر والاحتفال به ان يوغروا صدر جوته عليه . فلم يتم لهم شيء مما ارادوا . ان صداقة هذين

الرجلين قلعة حصينة لم تؤثر فيها قنابل الدسائس ولا اغارات النميمة

كانت هذه الصداقة بين الشاعرين أهم شيء في تاريخ كل منهما . فكانت تلك السنين من أسعد سني حياتهما .وكان انتاجهما عظيماً ، ليس له نظير في أي جزء آخر من عمرهما ،لا من حيث المقدار ولا من حيث الجودة . وقد كان كل منهما يقبل نصح الآخر ، فيكمل كل منهما نقص صاحبه . وعاد الى جوته نشاطه الادبي،على ما صرح بذلك في كتاب الى شلر يقول فيه : « لقد خلقتَ لي شباباً جديداً وأرجعتني مرة أخرى الى القريض بعد ان باعدتُ بيني وبينه »

بدأ هذا التعاون الادبي باصدار مجلة ادبية Die Horen ، وبعدذلك أخذا ينشران مئات من الرباعيات في نقد معاصريهم واسمها Xenia . وفي سنة ١٧٩٧ أخذا يتنافسان في تأليف قصائد قصصية من النوع المعروف باسم Ballade : وجوته ولو انه يعترف بأسبقية شلر في هذا النوع من التأليف ، قد اخرج في تلك السنة تلك القصائد البديعة « عروس كورنت» والإرل كونج. في هذه الفترة أخرج شلر خير رواياته التمثيلية مثل «والنستاين »و «ماريا ستوارت» ، و «وِلهلم تل» .واخرج جوته «وِلهلم مايستر »، و «فاوست الأولى»، وهرمان ودوروتيا. عدا كثيراً من القصائد والمقطوعات

هذا التعاون الفكري الجليل بين الشاعرين قد رفع صداقتهما الى مستوى قل أن تسمو اليه صداقة . وأصبح جوته يعتقد ان وجود شلر أمر لازم لوجوده هو . لهذا لانعجب اذا علمنا ان قد خانه جلده ، واستولى عليه جزع شديد حينما علم بوفاة شلر في مايو سنة ١٨٠٥ وهو لم يتجاوز السادسة والاربعين .. وكتب جوته الى تسلتر يقول : « ان نصف حياتي قد بان عني » . ولم يعرف عن جوته أنهُ حزن لفقد عزيز أو موت ولد او قريب حزنه على فقد شلر : وقد بكى من اجله مُرّ البكاء ، وهو الذي كانت تأبى عليه كبرياؤه ان يبدي جزعاً او حزناً بين ايدي الناس . وعبثاً حاول ان يجد سلواناً في الدراسة او التأليف .فأن فكره قد خمد وجذوة ذكائه قد انطفأت على أثر هذه الكارثة

في شهر اكتوبر التالي لوفاة شلر . دارت المعركة المعروفة بين نابليون واعدائه بالقرب من يينا وجاءت فرقة من الجنود الفرنسية فاحتلت فيمار انتقاماً من كارل أوجست لأنه ، وان لم يحارب ضد نابليون ، عاون أحد القواد بأن اقرضهُ نقوداً في وقت الحاجة وآوى بعض الجرحى من الضباط البروسيين .. وقد تصدّت لنابليون الدوقة لويز ، وبررت موقف زوجها والتمست من نابليون ان يرأف بأهل الدوقية ولم تزل به حتى لان ، وانجلى العسكر عن فيمار

وقد غضب جوته أشد الغضب إذ رأى هذا الظلم موجهاً الى صديقه وسيده مع انهُ لم يقم الأ بما يوجبهُ الشرف ويحتمهُ الواجب. أحسَّ جوته بأن الحال عصيبة وانه أولى به ان يضم اليه جميع اقربائه والمخلصين له . فقرر ان يعقد قرانه على كرستيانه . وتمّ ذلك بعد معركة

بينا ببضعة أيام، بعد ان عاشرها معاشرة الزوجة سبعة عشر عاماً. وبعدما ولد له منها ولده أوجست وكان عمره وقت الزواج الرسمي ستة عشرة سنة وكان جوته يخشى انه اذا حدث له شيء في تلك الازمنة الخطيرة، فالاولى ان يترك زوجته وابنه في حال طبيعية. وبالطبع قد أثار هذا الزواج عاصفة انتقاد بين بعض أهل ڤيمار. ولكن أكثر اصدقائه هنأوه على هذه الخطوة الحميدة التي نظم بها حاله المنزلية. وقد هنأته امه التي كانت دائماً معجبة بكرستيانه وقد احبتها منذ البداية

بعد ذلك حسنت علاقة دوق ڤيمار بنابليون. وفي خريف سنة ١٨٠٨ كان نابليون في إرفورت على مقربة من ڤيمار. وفي يوم ٢ اكتوبر استدعى جوته اليه. ولما وصل اليه كان الامبراطور يتناول فطوره. ومعه تاليران ودارو وبعض حاشيته. فسأل جوته عن سنه وكان قد بلغ الستين فقال الامبراطور انك احسنت الاحتفاظ بقوتك. ثم اخذ يتحدث عن الأدب فانتقد كتاب محمد لڤلتير ومدح آلام ڤرتر وقال انه قرأها سبع مرات ثم انتقد بعض اجزائها. وانتهى الحديث بعد ان استمر ما يقرب من الساعة. وبعد ان خرج جوته التفت نابليون الى من معه وقال تلك العبارة المشهورة. « Voila' un homme ! »

بعد هذه المقابلة بأيام كان نابليون في ڤيمار في حفلة اقيمت له. وتحدث طويلاً الى جوته وڤيلاند. واقترح على جوته ان يؤلف شيئاً يمثل فيه يوليوس قيصر وعظمته والخيرات الهائلة التي كان منتظراً ان يغمر بها العالم لو لم يقض عليه. وكذلك دعاه لان يزور باريس. فاظهر رغبته في ذلك ولولا تقدم سنه لنفذ هذه الرغبة من غير شك. وقبل سفر نابليون من ارفورت أنعم بنيشان اللجيون دونير على كل من ڤيلاند وجوته

في سنة ١٨٠٩ اخرج جوته قصة جديدة يصعب ترجمة عنوانها Wahlverwandschaftean (قرابة الاختيار) وقد نشأت هذه القصة عن حادث جديد في حياة جوته. وهو حبه لفتاة اسمها مِنّا هرتسليب، متبنّاة احد اصدقائه، وقد رآها وهي طفلة ونمت وكبرت امام عينيه ثم انتهى حب الطفلة الى حب الفتاة. ولكنهُ امسك نفسه وكظم حبه، واعيدت الفتاة الى المدرسة برهة لكي تنجلي عمايته. ومقدرة جوته على ان يحب وان يبعث الحب في غيره قد لازمته طول حياته. ففي مارينباد التقى بفتاة احبها وأحبته في سنة ١٨٢١ وهو اذ ذاك قد جاوز السبعين. وقد اراد ان يتزوج منها لولا ان خشي العنت والسخرية

وفي سنة ١٨١٠ اخذ يؤلف كتابه «الحقيقة والخيال» Dichtung and Wahrheit الذي اخرجهُ في ثلاثة اجزاء وضمنه سيرة حياته من اولها. واتمام هذا الكتاب الخطير كان من اهم الاعمال التي شغلتهُ في السنين الاخيرة من عمره. في سنة ١٨١٣ حزن جوته حزناً شديداً لوفاة ڤيلاند، ورأى عقد اصدقائهِ وأحبائهِ ينفرط جوهرة اثر جوهرة فبعد هردر قضى شلر ثم الدوقة أماليا ثم امه. والآن يذهب ڤيلاند فيزداد شعوره بالوَحدة والوحشة

في عام ١٨١٣ تحالفت دول اوروبا على نابليون ، وفي اواخر السنة انهزمت الجيوش الفرنسية في معركة ليبتسك وفي العام الثاني كان نابليون سجيناً في جزيرة إلبا ، وقد خسر العرش والدولة بأسرع مما احرزهما .. هذه الحوادث الجليلة التي ارتجت من اجلها اوروبا ، قد كان لها أثرها في نفس جوته وفي حياته ، لكنها اثرت فيه تأثيراً خاصاً . لم يكن في صدر جوته لنابليون بغض ، بل كان يجله ويتوقع له النصر . ولم يشارك كثيرين من الألمان في بغضهم له وحقدهم عليه . فكانت نظرة جوته الى هذه الحوادث نظرة فلسفية عالمية لا نظرة الوطني مدفوعاً بشعوره لوطنه . . ولهذا هاله ان يرى هذا النجم المتلألىء يسقط هذا السقوط الفجائي وهذا الطود الشامخ تتداعى اركانه وتنقض جوانبه

وهنا لابدَّ لنا ان نشير الى التهمة التي اتهم بها جوته ، وهي انه كان مارقاً من دين الوطنية وانه لم يكن في قلبه عطف على المانيا . وانصافاً لجوته يجب ان نذكر القارىء بأنه كان مخلصاً اشد الاخلاص لوطنه المختار «فيمار» ، وكان حنقه شديداً على نابليون من اجل غضبه على كارل اوجست الذي كان جوته يتفانى في الاخلاص له والذود عن حوضه .. اما انه لم يكن ذا شعور وطني الماني ، فليذكر القارىء ان المانيا في عصر نابليون كانت عبارة جغرافية ليس لها مغزى سياسي ، وكانت مقسمة الى مائة جزء كل منها مستقل عن الآخر ، وكان نابليون هو العامل الاكبر في ايجاد فكرة الوحدة الالمانية . فقد وحَّد الالمان بغضه ، والرغبة في التخلص من نير استعباده . فهل من العدل ان يلام جوته وهو في الستين من عمره على انه لم يستشعر البغض لمن لم يلحقه منه اذى ، ولم يظهر العطف على فكرة اوجدها هذا البغض؟ ان جوته الذي كانت روحه عالمية ، والذي قضى حياته في تأديب نفسه على ان تنظر الى الامور من ناحية عالمية ، لا يجوز ان يطلب منه وهو كهل ان يثور كما يثور طلبة المدارس من اجل فكرة كان يرى ان تحقيقها بعيد

ولهذا لم يكن غريباً انه في تلك السنين العصيبة : سنين إلبا ووترلو ومؤتمر فينا تحوّل جوته عن اوروبا تماماً وتركها وراءه ظهرياً . والتفت يلتمس وحياً جديداً ومناراً جديداً للخيال والشعر بأن اخذ يدرس أدب الشرق ، وبنوع خاص الادب الفارسي والعربي . اخذ يدرس شعر حافظ الشيرازي مترجماً الى الالمانية واخذ يستعين ببعض المستشرقين على الاستزادة من هذا البحر الفياض

وهكذا نرى جوته وهو شيخ في السادسة والستين من عمره يقبل على الدرس اقبال التلميذ ، بحماسة وحرارة تتمنى مثلهما لكل تلميذ . واخذ يدرس القرآن وكان إعجابه به لا حد له . ولسوء الحظ لم يكن جوته قد درس العربية أو الفارسية . واذا كان هذا مبلغ اعجابه بالادب الفارسي والعربي مترجمين — والترجمة تشويه لا مفرَّ منهُ — فكيف يكون تأثره لو اتيح له قراءة تلك النصوص في اصولها ؟

كانت ثمرة هذه الجهود كتاب بديع سماه ديوان الشرق والغرب . ضمنهُ كثيراً من الصور الشرقية مرسومة بريشة غربية .وقد اضاف الى الاشعار شروحاً يصف بها حالة الشرق وتاريخه مما يعين القارئ على تفهم ما جاء في الديوان . وهذا الكتاب ، ولو انهُ يشتمل على قصائد من ابلغ ما جادت به قريحة جوته ، فانهُ ليس من كتبه الشائعة المتداولة ، نظراً لان معانيه يحيط بها عادة غشاء من الغموض ، فالكتاب اذن للخاصة لا للعامة شأنه في هذا كشأن الجزء الثاني من فوست

***

ولقد متع الله جوته بعمر طويل . وكانت السنين الاخيرة كلها هدوء وسكون. فقد خففت عنهُ اعباء اعماله الرسمية . وكان يقضي معظم وقته في منزله ، الذي اصبح حقيقة كعبة القاصدين يحج اليها الراغبون في رؤية الشيخ الوقور ، ولقد كان جوته في كهولته على شيء كثير من الهيبة وهنري هاينه بظرفه المعهود يقول لنا انهُ كان يؤلف الجمل التي يريد ان يقولها ! حتى اذا كان في حضرة المشترى (جوته) لم يحر كلاماً ، اللهم الأ عبارة ، قالها في ارتباك وحياء ، عن شجيرات البرقوق التي رآها في طريقه بين يينا وفيمار . . .

وكان الزائرون من جميع الطبقات . فنهم الامراء والوزراء ألمان وغير المان، كانوا يحضرون في صحبة دوق فيمار. ومنهم الادباء والشعراء امثال هاينه وتاكرى . ومنهم ايضاً الفضوليون الذين لا تخلو ديار كبار الناس منهم . على ان حياة جوته اذ ذاك لم تكن مجرد زيارات وحفلات بل لقد كانت حافلةً بنشاط كثير . فقد اتم في هذه السنين الاخيرة الجزء الثاني من كتاب ولهلم مايستر وكتاب الحقيقة والخيال .والكتاب الثاني من فوست. وهذا الاخير لم يتم تأليفه الأ في سنة ١٨٣١ .. وهو معتبر عند الخاصة اجل شيء كتبهُ جوته . وقد اوصى الشاعر بألاَّ ينشر الاَّ بعد وفاته ، ولهذا بقي في يده الى آخر لحظة يزيد فيه ويعدل فيه ما شاء . والى الاسبوع الاخير من حياته كان جوته يكتب او يملي الرسائل الادبية والعلمية ويتعقب سير التفكير العلمي في المانيا وفي اوربا بكل يقظة وانتباه

وكان حافظاً لكل قواه الى النهاية ، وبرغم ضعف سمعه قد بقي نظره صحيحاً سليماً

***

كانت دار جوته في شيء من الوحدة ، ولكن تحسنت هذه الحال في عام ١٨١٧ اذ تزوج ولده أوجست من فتاة من اذكى فتيات فيمار اسمها أوتليا. ولكن السرور بهذا الزواج قد شابه وفاة زوجه كرستيانه في العام التالي . وقد كان حزنه عليها شديداً . ومن رزق عمراً طويلاً كعمر جوته لا بد ان يعاني مرارة فقد الاصدقاء والاحباب . ففي عام ١٨٢٧ ماتت مدام فون شتاين ، وفي يونيو ١٨٢٨ مات الصديق الاكبر كارل أوجست ، وصاح جوته





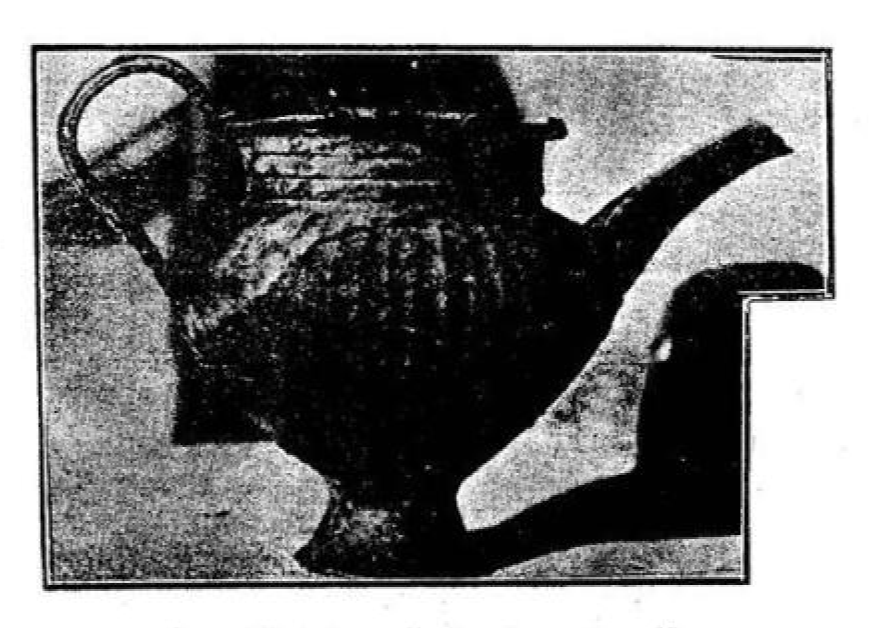
عود　　　　　　　　　　زمر

موسيقيون اندلسيون من القرنين العاشر والحادي عشر والصورتان منقولتان عن علبة عاجيه محفوظة بمتحف فكتوريا والبرت بلندن

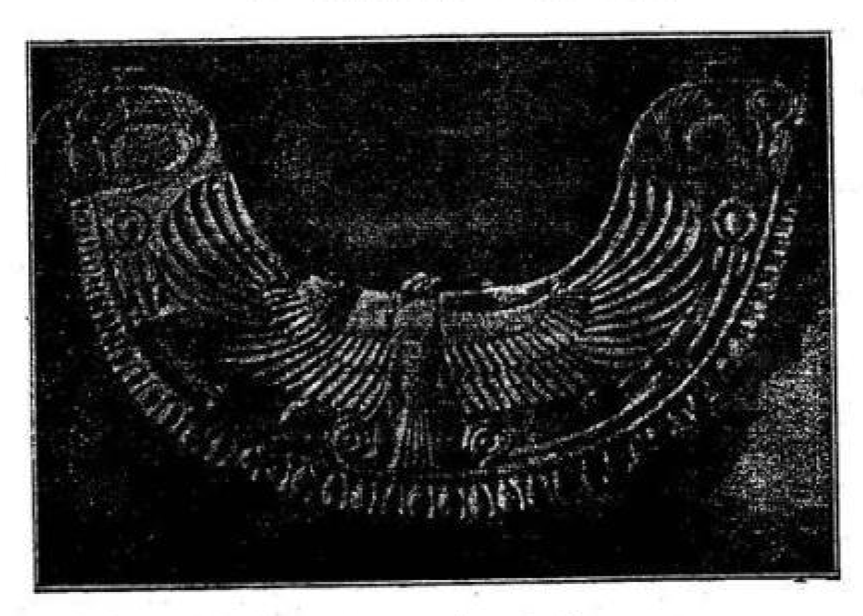


بوق　　　　　　نقاره　　　　طبل　　　　كاسه

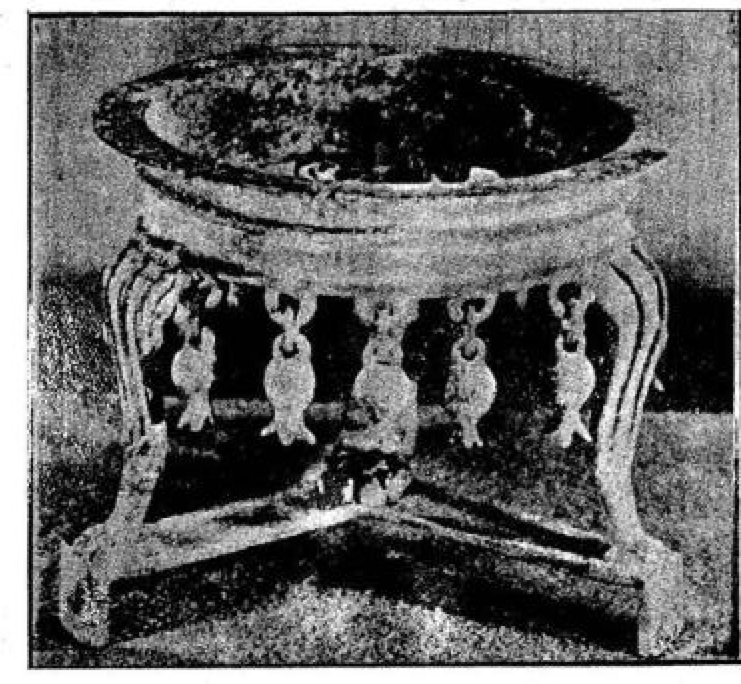
جوق مصري للموسيقى الحربية من القرن الرابع عشر والصورة منقولة من مخطوطة الجزري المحفوظة بمتحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن



ابريق فضي عثر عليهِ في جبيل سنة ١٩٢٤



طوق من الذهب وجد في جبيل سنة ١٩٢٤

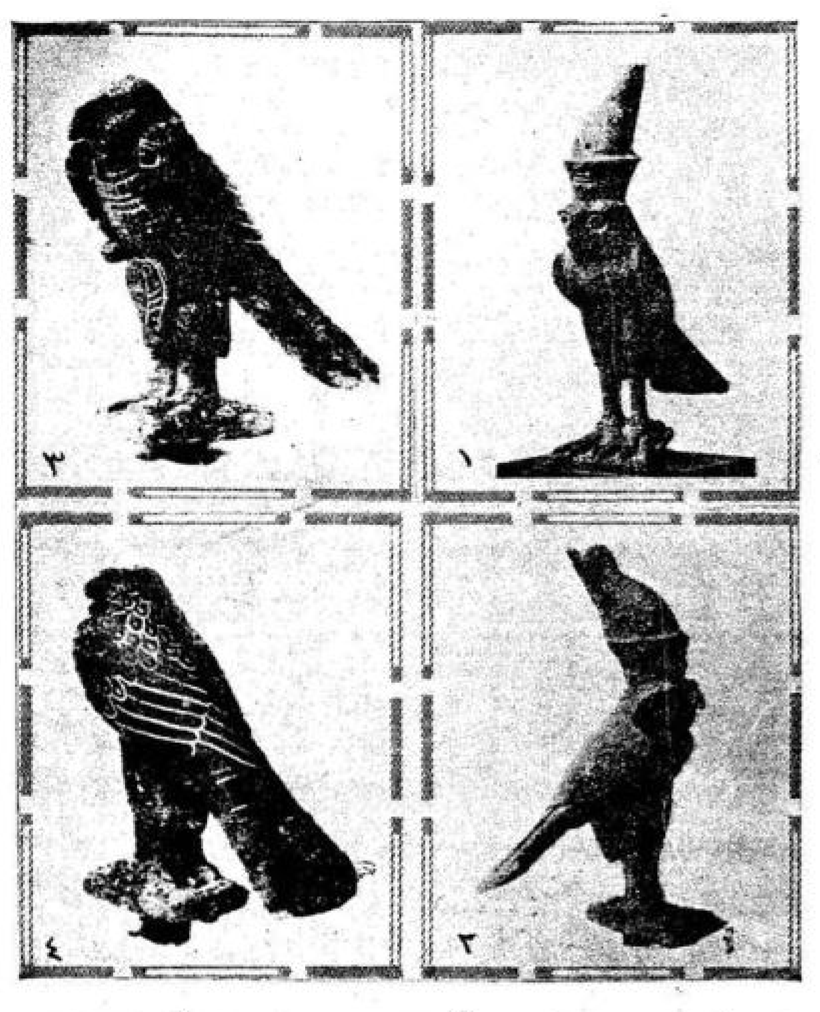


مائدة مثلثة الدعائم مصنوعة من البرونز وجدت في رأس الشمرا

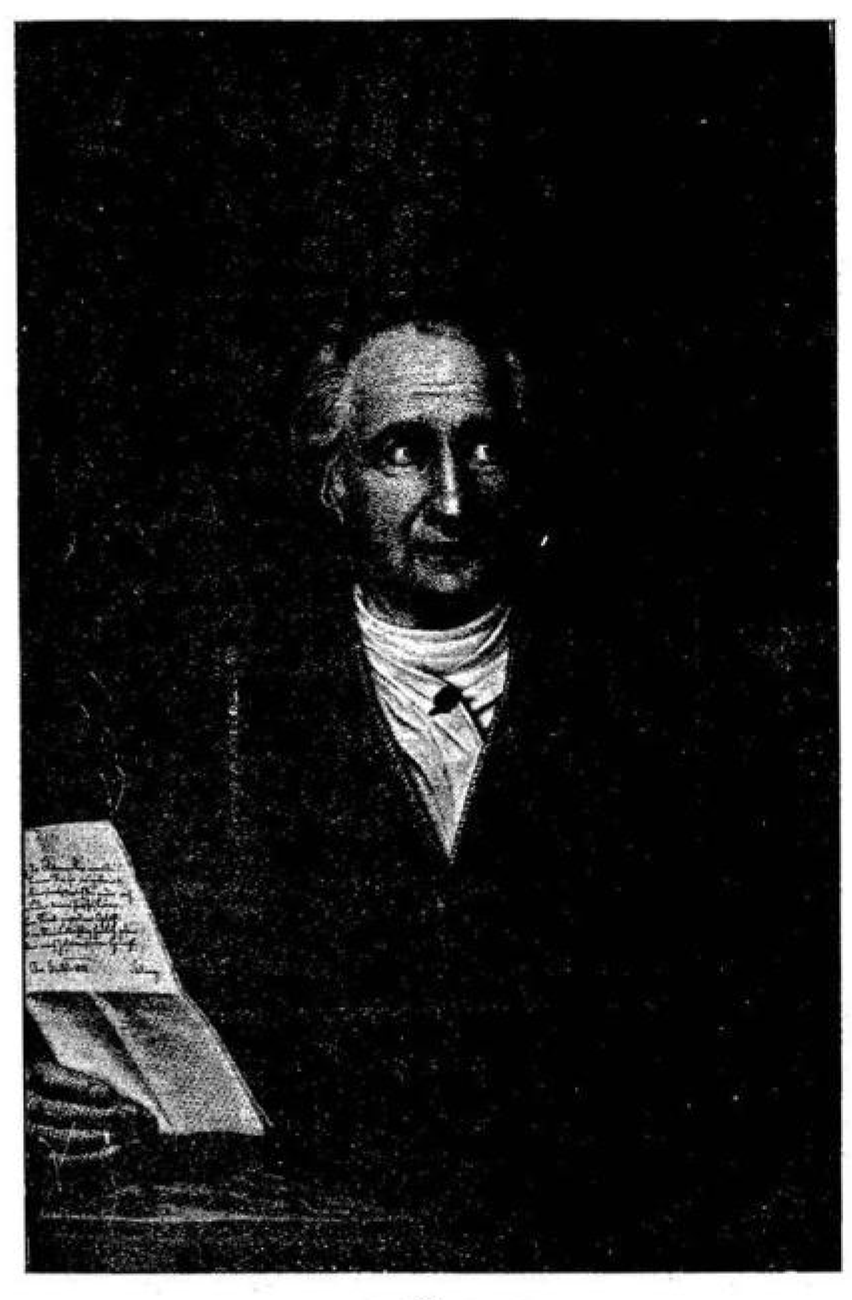


لوح وجد في رأس الشمرا مكتوب بلغة فينيقية عليها مسحة ارامية ويظن انهُ قطعة من ملحمة نظمها الشاعر الفينيقي سانكونياتون

امام صفحة ٤٣٥



(١ و ٢) تمثال من البرونز وعلى رأسهِ تاج مزدوج وجد في رأس الشمرا قرب اللاذقية في شمال سورية وفيهِ أثر من الفن المصري . (٣ و ٤) باشق مصفح بالذهب مصنوع على الاسلوب المصري



جوته في كهولته



جوته وصويكباته وزى الى
يسار الكلام زوجته



هندنبرج
عملاق الحرب والسلام

اذ بلغه نعيه : الآن قد ضاع كل شيء « Nun ist alles vorbe » وفي فبراير سنة ١٨٣٠ ماتت دوقة ڤيمار وفي اكتوبر توفي ولده أوجست وهو في ايطاليا . وكان موته ضربة أليمة . وبعد وفاته جاءت زوجته أوتليا بأطفالها وأقامت في دار جوته . فكان له من وجودهم بعض السلوان . في وقت بات فيه حقيقة وحيداً بعد ان درج أصدقاؤه واقرانه

* * *

في اغسطس سنة ١٨٣١ كانت الحفلات قد اعدت من اجل عيد ميلاد رجل ألمانيا الاكبر وفراراً من هذه الحفلات ذهب جوته الى الميناو ليقضي مدة يسيرة ريثما تنتهي الضجة . وحين وصل الى تلك البلدة صعد الى المرتفعات المجاورة ونزل بالكوخ الصغير الذي قضى فيه مع اصدقائه اياماً سعيدة . وحين دخل الى الكوخ رأى مكتوباً على جدرانه سطوراً قد خطها هو بقلمه منذ سنين عديدة وهي :

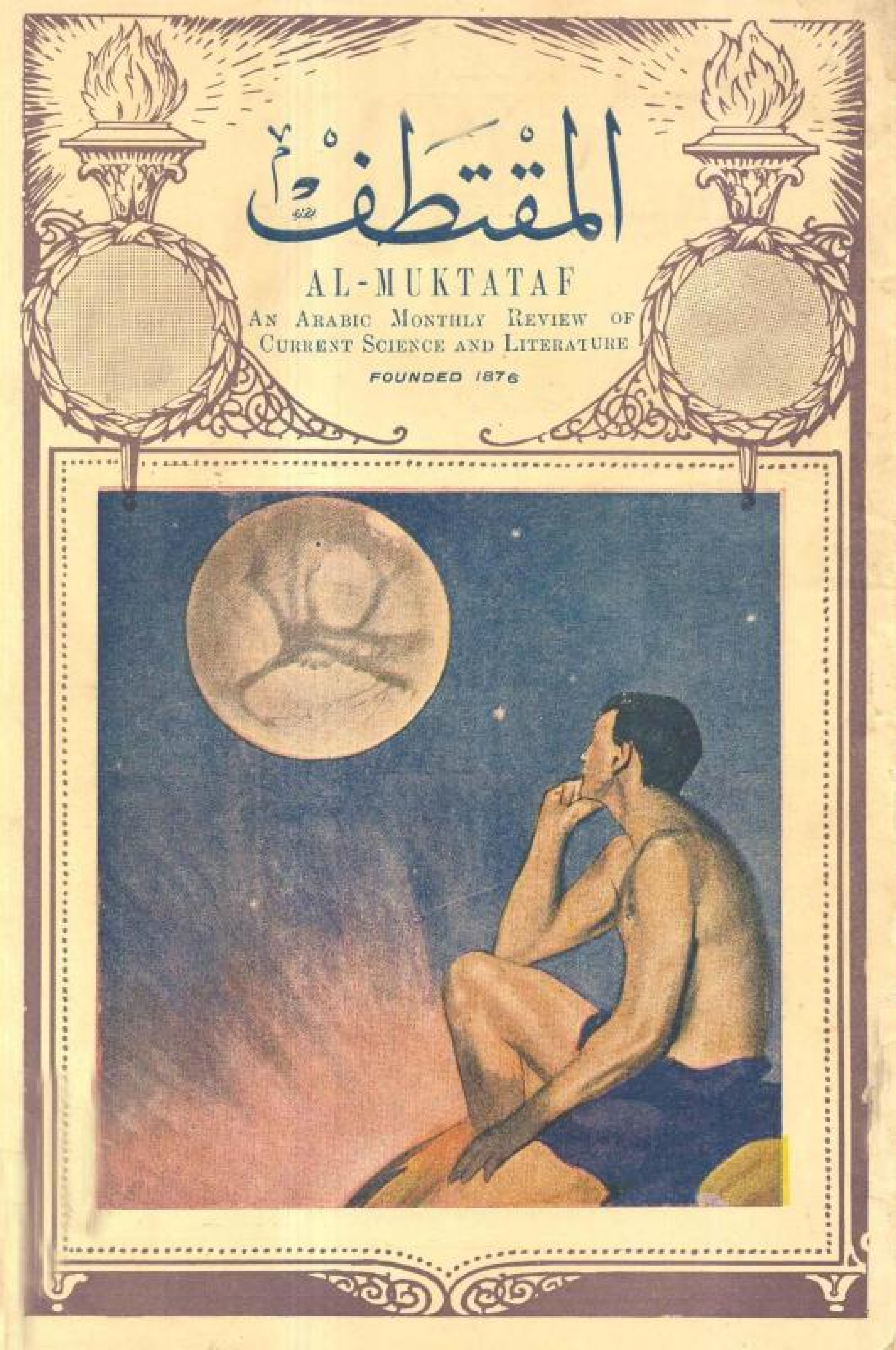
Ueber alle Gipfeln
Ist Ruh,
In allen Wipfeln
Spùrest Du
Kaum einen Hauch;
Die Vögelein schweigen im Walde·
Warte nur, balde
Ruhest du auch.

وهي ابيات لا بد ان تقرأ وتفهم في لغتها الاصلية ، ومع ذلك فانا نعالج ترجمتها في شيء كثير من التردد

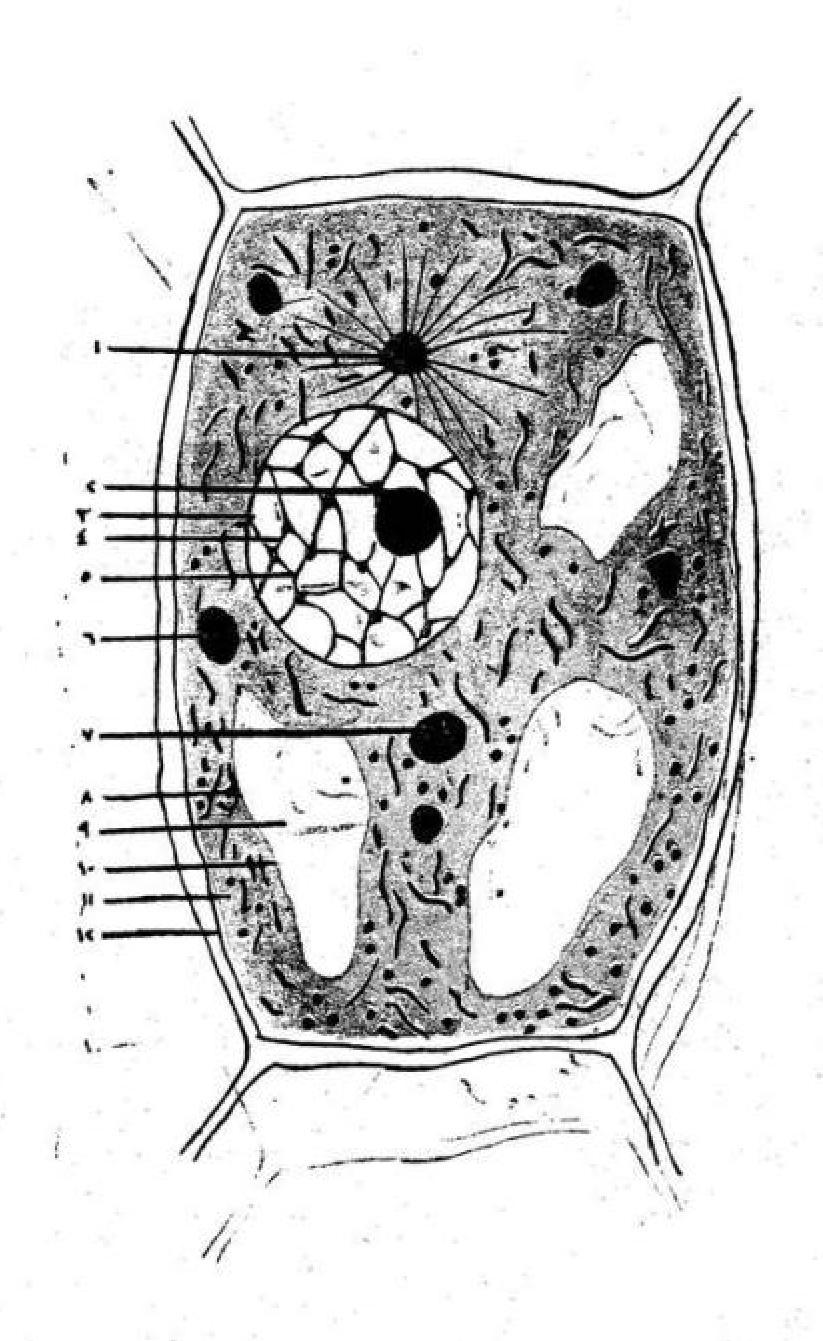
في ذُرى الأطوادِ صمتٌ شاملٌ
وسكون غشيَ الكون الفسيحْ ..
خيّمَ الصّمت على الغاب ، فلا
صوتُ طيرٍ فيهِ او نسمةُ ريحْ .
كلُّ شيء مستريحٌ هادىءٌ
وقريباً انت ايضاً تستريحْ

طالع جوته هذه السطور ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، دموع أثارتها ذكراه لاحبابهِ واصحابهِ : ولايام فتوتهِ وشبابهِ ، فأطرق مليّاً وردّد السطر الاخير «وقريباً انت ايضاً تستريح»

وحقيقة كانت النهاية قد اقتربت ففي ظهر اليوم الثاني والعشرين من مارس ١٨٣٢ قضى نحبه في داره بڤيمار بعد ان لازم الفراش أياماً قلائل : وقد دفن الى جنب صديقه الخالد شلر



المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876



١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٢ — ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٥٠

النيوترون

The NEUTRON

كنا الى عهد قريب نحسب الذرة (Atom) وحدة المادة الاساسية . وانها لا تتجزأ . ثم اكتشف السر جوزف طمسن الالكترون والسر ارنست رذرفورد البروتون وقيل ان الاول يحمل شحنة كهربائية سالبة وان الثاني يحمل شحنة كهربائية موجبة وان الذرة مؤلفة من نواة مركبة من بروتونات والكترونات انما يزيد عدد الشحنات الموجبة فيها على الشحنات السالبة ، وحول النواة الكترونات تعدل شحناتها السالبة الشحنات الموجبة التي في النواة . ثم قيل ان الالكترون يتصرف تصرف كتلة من الامواج أو تصرف كتلة تسير في أثرها قافلة من الامواج . وأثبت ذلك فعلاً بتجارب داڤسن وجرمر وطمسن (ابن السر جوزف طمسن) . وجاء بعد ذلك دمستر الاميركي فاثبت ان البروتون وهو اعظم وزناً من الالكترون يتصرف كذلك . فزال بذلك اساس المادة المادي ، واصبحت لبنات المادة كتلاً من الامواج هي والكهربائية من معدن واحد أو هما شيء واحد

ولكن الدكتور شدوك (Chadwick) مساعد السر ارنست رذرفورد في معمل كاڤندش بجامعة كمبردج اعلن الآن ان بعض الافعال الطبيعية يستطاع تعليلها بفرض وجود دقيقة مادية لا تحمل شحنة كهربائية . ولذلك دعاها النيوترون . وهي عبارة عن بروتون واحد والكترون واحد . ولكن ذرة الايدروجين بروتون واحد والكترون واحد كذلك . فما الفرق بين النيوترون وذرة الايدروجين ؟ الفرق ان البروتون والالكترون في النيوترون قريب احدهما الى الآخر جد القرب وهو ما يعرف عند علماء الطبيعة بالحشك [1] ولكنهما في ذرة

---

(١) الحشك Closely Packed وحشك الوعاء في اللغة أفعمه افعاماً عنيفاً . يذكر القراء في الكلام على رفيق الشعرى انه في داخل النجوم الشديدة الحرارة تتجرد الالكترونات من البروتونات ثم بفعل الضغط الشديد تقترب جداً بعضها من بعض وهذا يعلل ان السنتمتر المكعب من رفيق الشعرى يزن ٦٠ الف ضعف وزن سنتمتر مكعب من الماء

الايدروجين بعيد احدهما عن الآخر . فاذاً يصحُّ ان نحسب النيوترون ذرة الايدروجين في دورها الجنيني . ليحدث لهُ حادث يبعد بين بروتونهِ والكترونهِ فاذا هو ذرة ايدروجين لا اكثر ولا اقل

ومن الصفات المسندة الى النيوترون انهُ يمرق خلال المادة في شكلها العادي من دون ان يحدث اثراً مغنطيسيًّا او كهربائيًّا . واذن فتتعذَّر اقامة الدليل التجريبيّ على وجوده . انما يظن ان ثمة وسيلة لذلك وهي التأثير الجاذبي الذي يحدثهُ لدى مرورهِ على مقربة من نواة ذرةٍ ما

وفكرة وجود دقيقة معادلة الكهربائية مركبة من الكترون وبروتون ذات شأن في بناء المادة ترجع الى نحو ١٥ سنة خلت على ما جاء في « رسالة انباء العلم » (عدد ٥ مارس ١٩٣٢)

وفي العدد الصادر من المجلة الطبيعية في ١٥ يونيو ١٩٣١ ظهر مقال للدكتور لانجر (R. M. Langer) والدكتور روزن (N. Rosen) من اساتذة معهد ماستشوستس الصناعي اثبتا فيه ان النيوترون « افتراض جذاب » . ولما خطب الاستاذ بولي Pauli احد اساتذة معهد زوريخ الصناعي امام الجمعية الطبيعية الاميركية في جامعة كاليفورنيا في السنة الماضية ابان الفائدة التي تجنى من تحقيق فكرة النيوترون . وفي عدد نايتشر الصادر في ٢٧ فبراير الماضي نشرت رسالة للاستاذ شدوِك وصف فيها بعض التجارب التي قام بها فأفضت الى ترجيح فكرة النيوترون لتعليل ظاهراتها ، ولا يمكن تعليل تلك الظاهرات الاَّ بالنيوترون وهو « دقيقة لها كتلة (واحد) وشحنة (صفر) »

ان اكتشاف النيوترون هذا قد يكون سبيلنا الى حل العقدة المرتبطة بأصل الكون ونهايته . فالعالم الاميركي « مِلِكن » يرى ان الايدروجين يتكوَّن في رحاب الفضاء من الطاقة وان تكوُّن ذرات العناصر الثقيلة من ذرات الايدروجين هو منشأ الاشعة الكونية (راجع مقال نهاية الكون صفحة ٥١٩ هذا العدد) وقد قلنا ان النيوترون لا يختلف عن ذرة الايدروجين الاَّ في المسافة بين الكترونهِ وبروتونهِ — واذن فهو ايدروجين في دوره الجنينيّ . وقد يتضح بعد قليل ان النيوترون هو الحلقة التي تصل بين الطاقة والايدروجين

ثم ان العلماء مختلفون في طبيعة الاشعة الكونية نفسها . فملكن يقول انها امواج كهربائية مغنطيسية من قبيل امواج الضوء واشعة اكس . وغيره يقول انها تيارات من الالكترونات . فردَّ على ذلك ملكن بأن اثبت انها لا تتأثر بفعل القطب المغنطيسي للارض ولو كانت الكترونات لوجب ان تشتد على مقربة منهُ لانهُ يجمعها ، وهي لا تفعل ذلك . فلعل النيوترون يحسم هذا النزاع . فاذا قلنا ان الاشعة الكونية تيارات من النيوترونات صدق عليها قول ملكن من انها لا تشتد حول القطب المغناطيسي بفعله الجاذب لانها لا تجذب ، وصدق عليها قول بعض الباحثين الآخرين من انها لا تتصف تماماً بصفات التموجات الكهربائية المغناطيسية

وعدا هاتين المسألتين مسائل قد يكون « النيوترون » سبيل العلماء الى جلائها

سيرة روبرت كوخ (١)

١٨٤٣ — ١٩١٠

تذكاراً لانقضاء خمسين سنة على اكتشافه باشلس الدرن

للدكتور علي توفيق شوشه بك
مدير معامل الصحة العمومية

في ٢٤ مارس سنة ١٨٨٢ — اي من خمسين سنة تماماً — اعلن روبرت كوخ للعالم اكتشافهُ الخطير لباشلّس الدرن . فالجمعية المصرية البكتيريولوجية ترى من الواجب عليها ان تغتنم هذه الفرصة للاحتفال بذكرى هذا الاكتشاف وان تجدّد في اذهان اعضائها سيرة هذا الرجل العظيم . والواقع ان اضافات كوخ الى مجموعة المعارف الانسانية اعظم من ان تحتاج الى احتفال . فكلٌّ منكم ، ايها السادة والسيدات ، وارث من ورثة كوخ وباستور . فالباعث الاول على احتفالنا هو التأمل بدعةٍ في عظمة عقل متفوّق ، وثانياً استيحاء المعارك التي خاضها كبطل وانتصر فيها انتصاراً باهراً

***

ولد كوخ في ١١ ديسمبر سنة ١٨٤٣ في كلوستهال احدى مدن مقاطعة هارتز . وكان الابن الثالث من اسرة مؤلفةٍ من احد عشر ولداً مات اثنان منهم في حداثتهما . فكان صعباً على والديهم ان توجه الى ابنائها التسعة وابنتيها العناية اللازمة ، فاضطرت ان تتركهم يعتني بعضهم ببعض . على ان روبرت ، ابدى من نعومة اظفارهِ ، ميولاً وعادات نمّت على العالِم العظيم الذي اصبح بعدُ . كان يشترك في العاب اخوتهِ ونزاعاتهم الصبيانية ، الاّ انه كان ينفق معظم وقتهِ في جمع النباتات والحشرات والفراش والمعادن من سفوح الجبال والاودية التي على مقربة من دارهِ . ثم انهُ كان يشرّح النباتات والحيوانات أو يفحص المعادن لكي يدرك اسرار بنائها وتركيبها . وكان ابوه ، ينوي اولاً ، لضيق ذات يده ، ان يقلّده عملاً تجارياً ولكن اذ استغنى عن العون الماليّ المقصود اطلق لهُ الحرية في اختيار العمل الذي ينقطع لهُ. فاختار كوخ الطب ، منتظراً ان يجد في المباحث الطبية ، ما يشبع ميولهُ العلمية ، وكان يرغب ان يصبح طبيب سفينة لكي تتاح لهُ فرصة رؤية البلدان التي وراء البحار

(١) ترجمة مقالة القيت بالانكليزية على الجمعية البكتيريولوجية المصرية في جلستها المنعقدة بتاريخ ٢٤ مارس ١٩٣٢

وفي ابريل سنة ١٨٦٢ انتظم في جامعة غوتنجن . فاكبَّ على الدرس فيها بحمية وبعد انقضاء ثلاث سنوات ونصف سنة عرض عليهِ ان يكون مساعداً في متحف الجامعة الخاص بالباثولوجيا وبعيدها منح جائزة جامعية كبيرة . وفي ينايرسنة ١٨٦٦ اجتاز امتحان الدكتوراه وبعد ما درس مدة قصيرة في برلين اجتاز في السنة نفسها الامتحان الطبي في هانوفر . ثم قضى شهوراً في منصب مساعد بمستشفى همبرج وتقلد في شهر اكتوبر من السنة ذاتها منصب طبيب بمستشفى المجاذيب في لانجناهاجن على مقربة من هانوفر مع حق ممارسة صناعتهِ في ساعات الفراغ . وبعد بضع سنوات نقل الى راكفتز في بوزن كطبيب ممارس . ورغم اتساع نطاق عملهِ ، وجد وقتاً لكي يستعد لامتحان الصحة العامة فجازهُ . وفي سنة ١٨٧٢ عيّن طبيب الصحة في مقاطعة فولشتين

كان كوخ في كل مراحل حياتهِ يجد وقتاً للبحث المكرسكوبي رغم مصاعب جمة كانت تعتور سبيلهُ . ولكن اتساع نطاق عملهِ في فولشتين وزيادة دخلهِ ، مكّناهُ من ان يبتاع ميكرسكوباً جيداً وميكروتوماً (آلة تستعمل لعمل قطع من الانسجة وغيرها لدرسها على شريحة المكرسكوب) وافرد في عيادتهِ ناحية اقام فيها معملاً صغيراً مجهزاً بالادوات اللازمة ، ولم ينسَ ان يصنع غرفة مظلمة للتصوير المكرسكوبي . في هذه الغرفة ، كشف هذا الطبيب الناشئ مكتشفات جعلتهُ من اساطين العلم . فانهُ في هذه المرحلة من حياتهِ ، صبّ غرضهُ على فهم اسرار الامراض المعدية ، ووضع مذهب « العدوى الحيوية » على اساس علمي ، وتوضيح الوسائل لمنع الامراض المعدية ومكافحتها

كانت الاحياء الدقيقة قد استرعت عنايتهُ وفتنت لبه . ولكن وسائل درسها والبحث عنها كانت ناقصة . كان « كون » Cohn قد ابان انها تابعة لمملكة النبات فوصفها وبوّبها . وكان مذهب « العدوى الحيوية » قد نال تأييداً قويّاً من مباحث لستر ، على الضدّ من مذهب « التولّد الذاتي » الذي كان في سبيل الزوال — فان لستر تأثر بمباحث باستور في التعفن والاختمار اللذين تحدثهما الاحياء الدقيقة وطبق هذه الافكار على التهاب الجروح فاخرج طريقتهُ في معالجة الجروح بقتل البكتيريا التي قد تتصل بها من الهواء فتحدث فيها الالتهاب

وحاول الجرّاح النمسوي الكبير بلرث « Billroth » ان يبرهن على ان « الكوكو بكتيريا سبتيكا » هي العوامل الفعالة في التهاب الجروح . ثم ان كلبز (Klebs) اكتشف « الميكروسپورون سپتكوم » في الجروح المقيحة والمتعفنة ، ولكن تعذر عليهما ان يثبتا اثباتاً قاطعاً سبب هذه الالتهابات . وصحيح ان الباحثين كانوا قد جمعوا حقائق ووصفوا مشاهدات كثيرة ، ولكن مفتاح ذلك اللغز كان لا يزال خفيّاً . هنا ظهر كوخ في الميدان . فقد كان متصفاً بتلك الصفة التي جعلتهُ عظيماً — وهي القدرة على معرفة الامر المهم في كل مسألة يعالجها . فانهُ

ادرك ، بزكنهِ وقوة ملاحظتهِ ، نقص الوسائل الوافية التي يستطيع الباحث ان يتعرف بها الاجسام التي يجدها في الجروح الملتهبة وهل هي مواد كيمائية أو احياء دقيقة

وليس ثمة من طريقة لاستيضاح سبب الامراض الاَّ التجارب . فاقبل ، كوخ من دون تردُّدٍ على اجراء التجارب بالحيوانات ، وحقن الارانب والفئران بمواد عفنة وجعل يشاهد آثار الحقن فاسفرت تجربتهُ في الحيوانات عن جواب واضح دقيق ، لانهُ وجد ان بعض الاجسام ذات الشكل الخاص الموجودة مع اجسام كثيرة اخرى في دم متعفن ، والتي امكنهُ ان يعرفها باختبارات اخرى ، هي السبب في امراض خصوصية في الحيوانات

وهذه الامراض تنتقل انتقالاً منتظماً من حيوان الى آخر بالتلقيح. وهكذا اتيح لكوخ ان يكون اول من يثبت ان اصنافاً معينة من البكتيريا المرضية هي العوامل الفعالة في نقل امراض معينة. والرسالة الموجزة المعنونة (مباحث في اسباب التهاب الجروح) التي نشرها سنة ١٨٧٨ كانت فاتحة عصر جديد ، قوامهُ البحث المبني على التجارب الدقيقة . وبهذا الاكتشاف اصبح الطبيب الشاب ، بين ليلة وضحاها ، في مقدمة صفوف العلماء . واتجهت عيون العالم العلمي ، الى هذا الموظف الصحي العادي ، المقيم في فولشتين . وادرك كوخ ان كلَّ شيء يتوقف على الوسائل المستعملة في التجارب ، وانهُ لا بدَّ من ابتداع وسائل جديدة تطلق الضوء في الظلمات التي تكتنفهُ

في سنة ١٨٤٩ كان بلندر Pollender قد وجد في دم حيوانات مصابة بالجمرة الخبيثة Anthrax اجساماً غريبة عصوية الشكل . ثم ايدهُ في ذلك داڤين Davain سنة ١٨٥٠ وبرول Brauell سنة ١٨٥٧ وعلى اساس التجارب في الحيوانات وجد داڤين وبرول ان هذه الاجسام العصوية (وقد عرفت بانها من نوع الباشلس) لها علاقة سببية بالحمى الطحالية . وخالفهما في ذلك بعض الباحثين بل ذهبت طائفة من المخالفين الى ان الباشلسات هذه ليست الاَّ اجساماً مبلورة . اما كوخ فعرف كيف يحل المعضل ويحسم النزاع . قال : — اذا كانت الباشلسات عوامل المرض فيجب ان يكون في امكاننا تتبع نموّها ونشوئها . فاخذ قطرات من دم مصاب بالانثركس وحقن بها فئراناً فاحدث فيها اصابة انثركس مميتة . ثم اخذ من هذه الفئران دماً وحقن بهِ فئراناً سليمة وهكذا في ادوار متتابعة . وكان في كل دور منها يثبت ان هذا الصنف من الباشلس (الذي عليهِ الاختلاف) موجود في طحال الفئران المصابة . ثم اخذ قطعةً دقيقة جدًّا من طحال فأر مصابةٍ ووضعها في قطرةٍ من مصل دم بقرةٍ او قطرة من الرطوبة المائية من عين بقرةٍ وفحص هذه القطرة بالمكرسكوب على شريحة ساخنة . فوجد ان كائناً عصويّ الشكل قد اخذ ينمو ثم لم يلبث ان تكوَّنت منهُ حزمة ملأَت القطرة التي تحت المكرسكوب ثم ابتدأَت هذه العصي او الخيوط تتخذ شكلاً حبيبيًّا على ابعاد منتظمة في الخيوط نفسها

ثم تكوّنت جسيمات تعكس الضوء بقوة ، ثم انطلقت هذه الجسيمات في السائل بعد انحلال الخيوط . فلما حقن هذه الجسيمات في رطوبة عين سليمة، انتفخت الجسيمات اولاً ثم تولّدت منها خيوط مرّت في اطوار النمو المذكورة آنفاً . ولما حقن فأراً بقليل من السائل المحتوي على هذه الجسيمات ماتت وعليها اعراض الانثركس المميزة لهُ

وهكذا ثبت لاول مرة في تاريخ الطب ان كائناً معيناً مرتبط بمرض معيّن

فلما اجتمعت نتائج هذه التجارب بين يديهِ ، رحل الى برسلو ، ليجرب تجاربهُ امام كبار العلماء واخذمعهُ المواد اللازمة، حتى ميكرسكوبهُ وفئرانه البيض وفاز باقناعهم بصحة مشاهداتهِ

ولو ان « كوخ » اكتفى باحد هذين الاكتشافين لكفاه ذلك فخراً على مدى الدهور ولكنهما كانا طليعة سلسلة من المكتشفات حملته الى المقام الاعلى الخاص باعظم العلماء على الاطلاق

وفي ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٠ عيّن عضواً في « المعهد الصحي الامبراطوري » الجديد . فوجد ان معمل « الهيجين » و« الكيمياء » هما دون غيرها كاملا العدة للبحث . ولكن اعضاء المعهد المشتغلين بهذين العلمين كان يشغلان غرف المعملين . فاضطرّ كوخ ان يبدأ مباحثهُ في غرفة ضيقة ذات كوة واحدة . فادرك هنا — كما ادرك من قبل — ان نقص الوسائل الجديدة هو الحائل دون تقدم علم البكتيريا . ولذلك اكبّ على اتقان الاساليب الفنية التي ابدعها وهو موظف صحي بفولشتين ، مثل اساليب فحص المفرزات في حالتها الطبيعية واساليب تلوينها على شرائح مكرسكوبية وتصويرها بالفوتغرافيا المكرسكوبية

ولعلّ اهم هذه المستنبطات استعماله المستنبتات الصلبة لاستنبات الاحياء الدقيقة وفصلها بعضها عن بعض

وفي سنة ١٨٨١ نشر في المجلّد الاول من « تقارير مصلحة الصحة العامة » مقالة تدور على « البحث في الاحياء المرضية » وضع فيها القواعد التي يجب ان يقوم عليها هذا البحث ، وما زالت هذه القواعد الى الآن معتمد البكتيريولوجيين . فانهُ وصف فيها ما يستعملهُ من الوسائل للحصول على مستنبت نقي ، مبيناً ان الحصول عليهِ من مكروب ما لا مندوحة عنهُ في زيادة معرفتنا بالاجسام المسببة للامراض . ثم بسط كيف انساق الى استعمال المستنبتات الصلبة لمّا لاحظ رأساً من البطاطس سُلقت وقطعت وعرض سطحاها المقطوعان للهواء بضع ساعات ثم وضع الشطران في غرفة رطبة لمنع جفافهما ، فلما تناولهما في اليوم الثاني او الثالث من وضعهما في الغرفة الرطبة وجد عليهما قطيرات عديدة تختلف احداها عن الاخرى . فاخذ واحدة من هذه القطيرات وبسطها على سطح مقطوعة رأس من البطاطس سلقت قبيل ذلك ووضعها في غرفة رطبة فحصل بذلك على مستنبَت نقي . وبعد القيام بتجارب مختلفة توصل الى الهلام فوجده اصلح المواد لذلك ووصف طريقة تحضيرهِ وتعقيمهِ واستعماله . ثم وجّه

النظر الى ان الباحث يحتاج الى مستنبتات مختلفة لاستنبات مكروبات مختلفة ثم اثبت ان افضل الاوساط هو عصيدة غذائية مصنوعة من هلام ومصل

ولا ريب في ان ادخال هذه الطريقة لصنع المستنبتات المكروبية في اوساط صلبة اعظم خطوة تمت في وسائل العلم البكتريولوجي على الاطلاق ، وكان من شأنها ترقية هذا العلم اذ اقامته على اساس من الدقة كان في حاجة اليها من قبل . وقد قام كوخ بعرض هذه الاساليب في معمل لستر بلندن في اثناء انعقاد المؤتمر الطبي الدولي سنة ١٨٨١ فتبع الحاضرون تجاربهُ بمزيج من الدهشة والاعجاب ولم يتمالك باستور العظيم نفسهُ فقال « هذا تقدم عظيم »

***

على ان البحث الذي اذاع اسم كوخ في جمهور الناس ، وكان اعظم اعماله اذا قيس بنتائجهِ في الصحة العامة ، فهو البحث الذي اسفر عن اكتشاف باشلس السُّل (الدرن) . كان الاعتقاد السائد حينئذٍ في بلدان كثيرة ، ان السل الرئوي مرض معدٍ وأيد ذلك ڤيلمن Villemin سنة ١٨٦٥ لما اثبت ان خنازير الهند المطعمة ببصاق مسلولٍ ماتت بالسل العام . ثم تلاهُ كوهنهيم (Cohnheim) سنة ١٨٧٧ فبين ان سل القزحية (النسيج الملوَّن في العين) يمكن استحداثه بادخال مادة درنية الى مؤخر العين . وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٨٢ اعلن كوخ امام الجمعية الفسيولوجية ان باشلساً ذا كيان خاص ومتصف بصفات معينة وجد في حالات السل . ثم بين ان هذا الكائن الدقيق تنطبق عليهِ القواعد الاربع التي وضعها لاثبات علاقة مكروب بمرض ما . ولعله يصعب عليكم ، وقد انقضى عليكم زمن وانتم تعتقدون ان السل مرض معدٍ ان تضعوا انفسكم موضع الاطباء المارسين في الاجيال الماضية الذين كانوا يعتقدون في الغالب انهُ مرض غير معدٍ

واكتشاف كوخ هذا اصبح اساساً للحملة العالمية التي غرضها مكافحة السل

***

في سنة ١٨٨٣ عين كوخ مستشاراً خصوصيًّا وفي السنة نفسها انتخب رئيساً للجنة الالمانية للكوليرا التي زارت مصر والهند للبحث في هذا المرض فلم ينقضِ على وصولها مصر شهر حتى ارسل كوخ تقريراً الى الحكومة الالمانية معلناً فيهِ وجود مكروب يعتقد انهُ « نوعيّ » وقد ايدت التجارب التي جرت في الهند رأيهُ هذا ، اذ ثبت ان هذا المكروب تنطبق عليهِ القواعد الاساسية ، ولما اجتمع مؤتمر الكوليرا في برلين سنة ١٨٨٤ بسط كوخ كل ذلك

ولما كان في مصر اكتشف اميبا الدوسنطاريا والباشلس المحدث لنوع من الرمد الصديدي الواسع الانتشار . وفي سنة ١٨٨٥ عين استاذاً للهيجين في كلية الطب بجامعة برلين ومديراً لمعهد الهيجين

الذي كان قد انشىءحديثاً في تلك الجامعة . في هذا المعهد فاز كوخ بمساعدة تلاميذه — وقد اصبح معظمهم فيما بعد بكتيريولوجيين مشهورين — الذين تعلموا اساليبهُ وأخذوا قبساً من شعلتهِ، بالكشف عن الاسباب المحدثة لامراض كثيرة في اثناء بضع سنوات . واليك قائمة بها :—

السقاوه (١٨٨٢) دفتيريا (١٨٨٣) حمرة الخنازير (١٨٨٦) المكتشف لوفلر

التيفوئيد (١٨٨٤) المكتشف جافكي — الكزاز (١٨٨٥) المكتشف نيكولاير — مكروب التهاب السحائي (١٨٨٧) المكتشف فكسلبوم — الطاعون (١٨٩٤) المكتشف كيتاساتو — ذات الرئة (١٨٨٦) فرنكل — الانفلونزا (١٨٩٢) المكتشف فيفر

لما صدر الامر الى كوخ بالرحيل الى مصر ، كان يشتغل محاولاً اكتشاف طريقة تمكنهُ من احداث تغيير في عدوى باشلس السل في جسم الحيوان . فانهُ بدأ بحثهُ مفترضاً ان باشلس السل يحدث تأثيره المرضي عن طريق سم يذوب ، ولذلك عني بدرس فعل المواد التي تخرجها المكروبات في الحيوانات السليمة والمصابة بها. وهذا حداه الى الاعتقاد بأن خنزير الهند يمكن ان يصبح منيعاً على باشلس الدرن بحقنهِ حقناً متوالية من مفرزات هذا الباشلس ، وانهُ كذلك يمكن ان يقف سير المرض عند حدّه، بهذه الطريقة . وفي سنة ١٨٩٠ نشر نتائج بحثهِ في « التوبركلين » الذي يمكن الطبيب من تشخيص المرض ، ومن شفائهِ في مراحله الاولى . فدهش الناس ، واعتقدوا ، انهُ العلاج الناجع للسل . والواقع ان ما توقعهُ الناس من التوبركلين كان اعظم مما توقعه كوخ نفسه . فانهم توقعوا منه فوق ما يستطيعه . وجعل يستعمله البارع في استعماله ، والجاهل ، واسيء استعماله في كثير من الحوادث التي لا ينجع فيها العلاج. فلما ظهر للناس ، ما كان يعرفه كوخ ويقوله ، وهو ان التوبركلين ليس علاجاً عامًّا ناجعاً للسل ، انقلبوا عليهِ (ومنهم جانب من الاطباء) وتهجموا جوراً على العلاج ومخترعهِ . على ان الانقلاب كان عنيفاً ، فكان لا بدّ من حصول ردّ فعل بعد سكون الثورة في الخواطر . والتوبركلين يستعمل الآن ، وسيلة لتشخيص المرض وعلاجاً له . اما فعله العلاجي ، فالذين احسنوا استعماله يشهدون بفائدتهِ . ولكن يجب ان نسلم بأن العلاج الامثل للسل لا يزال طي الخفاء ، مع ان رجال الطب لم يسلموا بعد بالاخفاق

وفي سنة ١٨٩١ استقال كوخ من منصبهِ في كلية الطب لكي يتفرغ للبحث العلمي ، فعين مديراً للمعهد الملكي الجديد للامراض المعدية ، واستاذاً فخريًا في الجامعة . وهذا المعهد هو جزء مما يعرف الآن بمعهد روبرت كوخ

اما السنوات التي تلت ذلك الى ختام القرن التاسع عشر (١٨٩١ — ١٨٩٩) فاشتغل كوخ فيها بالبحث في طائفة كبيرة من امراض الناس والحيوانات ، وقضى جانباً كبيراً منها خارج موطنهِ . ففي سنة ١٨٩٧ ذهب الى الهند لدرس الطاعون وهو المرض الذي كشف عن جرثومتهِ

تلميذه الياباني كيتاساتو سنة ١٨٩٤ (وقد كشفه في السنة نفسها يرسن Yersen) وبعدها سافر الى رومية لتتبع المكتشفات الحديثة في اسباب الملاريا وأثر البعوض في نشوء هذا الداء. ثم رحل الى جزيرة غينيا الجديدة وغرضه الخاص البحث في نوع حاد من الملاريا يفشو فيها. ثم دعي الى جنوب افريقية حيث الطاعون البقري يفتك بالماشية فتكاً ذريعاً. ولكنهُ لم يتمكن من العثور على المكروب النوعي المسبب لهذا المرض. ونحن نعلم الآن انهُ جرثومة راشحة (اي يمرق من ادق المرشحات مسامٌ) وهو حتى الساعة لم يشاهد ولم يستنبت. واذكان في جنوب افريقية عني بالنظر في حمى شرق افريقية التي كانت تفتك بالماشية كذلك. فاتجهت مباحثهُ الى أثر القراد في نشر الطفيلي الخاص بهذا المرض. ولما زار شرق افريقية الالماني استرعى عنايتهُ مرض النوم. فسافر الى اوغندا حيث يكثر تفشي المرض لشدة رغبتهِ في درسهِ. فاقام في خيمتهِ على احدى جزائر سس (Sesse) معنيًّا بدرس تاريخ حياة ذبابة تسه تسه الناقلة لطفيليات هذا المرض (التريبانوسوم). ان هذا السرد المختصر لحوادث حياتهِ في هذه السنوات، يبيّن ما بذلهُ كوخ من وقتهِ في المناطق الاستوائية باحثاً في امراضها. ومع ان الاجيال المقبلة، سوف تذكرهُ بمكتشفاتهِ البكتيريولوجية، فانهُ كان يشغل مقاماً سامياً في الطب الاستوائي وعلم الطفيليات. وفي اخريات ايامه حصر نطاق أعماله الرسمية ولكنهُ كان مستعداً للاشتراك في اي بحث خاص بمرض معدٍ، يضاف الى ذلك انهُ كان يؤدي نصيبهُ في الاندية العلمية الطبية في برلين، عندما يتفق وجوده فيها. وانهالت عليهِ القاب الشرف من الجامعات والجمعيات العلمية. ومنح جائزة نوبل الطبية سنة ١٩٠٥

* * *

في ٢٧ مايو سنة ١٩١٠ روّع العالم العلمي بنبإ وفاة كوخ في السنة الثامنة والستين من حياتهِ. وقد اعرب الامبراطور غليوم يومئذٍ عن حزن الامة الالمانية اذ قال في برقية ارسلها الى ارملة الفقيد: « انني اندب فقد اعظم باحث طبي الماني في عصرنا، واشترك مع الامة الالمانية في توجيه افكارنا الى حياته النافعة »

سيداتي سادتي: لا ريب ان ثمة مكتشفون يضاهون كوخ في عظمتهِ، ولكن يندر ان تجد بينهم مكتشفاً يختلط اسمه باسم علم كامل، من مهد العلم الى بلوغهِ — مثل اختلاط اسم كوخ بالبكتيريولوجيا — فهو يستحق ان يعرف بالاسم الذي اطلقه عليه البكتيريولوجيون اي « ابو البكتيريولوجيا ». ولقد تبين لكم أثر مباحث كوخ في تقدم العلوم الطبية والصحة العامة. فذكراهُ جديرة بالتكريم تقدمه نحن البكتيريولوجيين لما له من أثر في توسيع نطاق معارفنا، وتقدمه الانسانية بأسرها، لما جنته من الفائدة — مباشرة وغير مباشرة — من مكتشفاتهِ

أنا والبؤس

نسجَ البؤسُ حياتي ووشاها بالألم
جعلَ الذيلَ بكاه مــدّهُ طولُ سأمْ

***

فطن البؤسُ لبّي فمشى فيه الندم
فجفاني بعد ما هدّ د جنبيه الهرمْ

***

انا راضٍ بك يا بؤ سُ وان قلبي انهدم
كيف تجفونى مهلا بيننا تلك الذممْ

باريس بشر فارس

التناسل : بحث بيولوجي

للدكتور شريف عسيران

التناسل هو الطريقة التي بواسطتها تخرج الكائنات الحية امثالها فتحفظ نوعها وهو ميزة من ميزاتها وحلقة الاتصال فيما بينها

ان معظم الحيوانات يتناسل في اوقات معينة مسيَّراً بعاملي المحيط والغذاء فضلاً عن العوامل الداخلية . فمن المعروف ان العصافير والحشرات وغيرها تتناسل في فصلي الربيع والصيف . وارتفاع درجتي الحرارة والبرودة تسرعان التناسل او تعيقانه . وقد نسبوا للغذاء تأثيراً غير يسير. وحيث يكون المناخ والغذاء واحدين طول السنة في اقليم ما تفقد الحيوانات ميزة التناسل في فصول معينة . وقد ذكر سمبر ان التناسل في فصول خاصة غير معروف في الحشرات وغيرها من الحيوانات الارضية في جزائر الفيلبين وعلى الضد من ذلك الطيور فانها لا تتأثر بعاملي المناخ والغذاء بل تكون غريزة التناسل هي الباعث لهجرتها على الاغلب

﴿ طرق التناسل ﴾ للتناسل طريقتان رئيسيتان . الاولى التناسل «اللاجنسي» . والثانية التناسل «الجنسي» . ففي الاولى لا يوجد نطفة ذكر ونطفة انثى بل يحدث التناسل بالطرق الآتية

(١) الانقسام البسيط كما تتناسل البروتزوى (الحيوانات ذات الخلية الواحدة) التي ليس لها جهاز تناسلي خاص فتنشطر الخلية شطرين متساويين او غير متساويين فتنشطر النواة اولاً ثم السيتبلازم ويشكل الجزء المنشطر الفرد الكامل

(٢) التلامس وهو ان يتلامس فردان متشابهان حتى يلتصق احدهما بالآخر ويبقيا متحدين مدة يتبادلان في خلالها المواد التي في نواتيهما ثم ينفصلان ويستقل كل بنفسه وينقسم بالطريقة الاولى اي الانقسام البسيط

(٣) التبرعم Budding وهو ان ينشأ في احد جوانب الحيوان نمو دقيق او برعم يكبر رويداً رويداً ثم ينفصل ويصير حيواناً مستقلاً كالاسفنج وغيره وبعض الحيوانات تجمع بين التناسل الجنسي واللاجنسي كالهيدرا Hydra فتستطيع ان تتناسل بطريق الانقسام البسيط وبالطريقة الجنسية فيوجد في الحيوان الواحد نطفة الذكر ونطفة الانثى ولكن لا يوجد ذكر وانثى بل الحيوان الواحد يجمع بين النطفتين . فالهيدرا يضع بيوضه على سطح جسمه وتخرج منهُ الى الماء الحيوانات المنوية فتسبح حتى تهتدي الى البويضات التي على جسم ذلك الفرد نفسه فتلقحها . وانها لميزة من ميزات نطفة الذكر في كل الحيوانات من اعلاها الى اسفلها ان تكون هي الساعية الى الانثى لانها تستطيع الحركة ونطفة الانثى لا تستطيعها

﴿التناسل الجنسي﴾ يحصل بواسطة اعضاء مخصصة لهذه الوظيفة في الذكر والانثى تسمى الجهاز التناسلي وقد يجمع الحيوان الواحد بين النطفتين نطفة الذكر ونطفة الانثى فيتناسل من تلقاء نفسه اذ لا ذكر ولا انثى ويقال لهذا النوع الخنثى Hermaphrodite وطريقة تناسله تسمى التناسل الذاتي وهي مشاهدة في الدودة الوحيدة وغيرها من الحيوانات

وبيت القصيد من بحثنا هو طريقة التناسل العادية في الحيوانات العليا ومنها الانسان . فالنطفتان موجودتان في فردين مختلفين الذكر والانثى . فأعضاء التناسل الرئيسية في الذكر هي الخصيتان والقناتان والحويصلتان المنويتان والموثة (البروستات) وغدتا كوبر والقضيب ويقابلها في الانثى اعضاء التناسل الداخلية وهي المبيضان وقناتا فالوب والرحم والمهبل . فالخصيتان في الذكر تفرزان نطفة الذكر التي تحملها القناة المنوية الى الاحليل الذي يدفعها الى الخارج والحويصلات المنوية وغدتا كوبر والبروستات تفرز سائلاً تسبح فيه هذه الحيوانات ويساعدها على ان تحيي طويلاً . والمبيضان يفرزان نطفة الانثى وتسمى البيضة فبيضة الدجاجة خلية واحدة وبيضة النعام اكبر خلية معروفة

ان الذكر يفرز افرازه او نطفه حين يشاء اما الانثى فلا تفرزه الا في اوقات معينة ويكون على الاغلب قبل الحيض باسبوعين فاذا تلقحت احدى البيضات ونجح التلقيح لم يظهر الحيض واذا لم ينجح ظهر الحيض الذي من اهم علاماته نزول الدم الى خارج الرحم ويقابله في الحيوانات دور الحرارة فتهيج في خلاله حاسة الحيوانات الجنسية مرة او اكثر في السنة وسوف لا ندخل في تفصيل هذه الامور بل نقتصر منها على ما له علاقة بموضوع الوراثة

***

يفرز الذكر السائل المنوي الذي تسبح فيه الحيوانات المنوية ويقدر عددها بـ ٥٠—٦٠ مليوناً في السنتمتر المكعب لا يشترك منها في التلقيح الا واحد على الاغلب . ويقدر عدد البيضات التي في المبيض باثنين وسبعين الفاً لا ينضج منها سوى اربعمائة على رأي بعض الثقاة . ففي وقت التبويض Ovulation يتمزق غشاء البيض وتنتشر البيضات في فسحة البريطون وقناة فلوب التي من وظيفتها نقل هذه البيضات ولها فتحة الى الرحم وفتحة اخرى للبريطون وفي الفتحة الاخيرة اهداب دقيقة تتموج تموجات متوالية فتجذب اليها البيضات التي تدخل القناة وتبقى ماكثة فيها منتظرة نطفة الذكر . اما الحيوانات المنوية فتفرز من الخصيتين الى من القناة المنوية وبعد ان تتجهز بالسائل المنوي الكافي من الغدد التي ذكرناها تدخل الاحليل الذي يجري فيه البول وتندفع اثناء الجماع الى المهبل ومنه الى عنق الرحم ثم الى الرحم ثم الى مضيق فلوب حيث تتلاقى بنطفة الانثى . فالبيضة تتألف من نواة وسيتبلازم[1] والحيوان المنوي يتألف

(١) راجع مقالة اسس الوراثة في عدد يناير من هذه السنة ص ٦٤ وفيه رسم بيضة نجمة البحر

من رأس وجسم وذنب فالرأس يمثل النواة والجسم فيهِ قدرٌ يسير من المادة المغذية ويقال ان فيه الجسم المركزي Centrosome كما سيمر بنا. والذنب يمكن الحيوان من الحركة أو السباحة فحينما تفرز هذه الحيوانات الى المهبل تسبح في السائل المنوي متلمسة طريقها الى البيضة وتبقى هذه الحيوانات عائشة مدة طويلة اذا كانت الظروف ملائمة لها ومن الممكن ان تبقى حيـة في البشر في الرحم أو قناة فلوب عدة ايام وتعيش في المهبل بضع ساعات. ومن اغرب الامور طول حياتها في الخفافيش التي تتزاوج في الخريف فتبقى الحيوانات المنوية في رحم الانثى حية نشيطة الى الربيع اذ يأتي وقت التبويض فتلقح البيضة . وفي عنق الرحم اهداب دقيقة تتموج تموجات متوالية فتسترشد الحيوانات المنوية بالمجرى العكسي التي تنشئه هذه التموجات (تتموج الاهداب الى الامام والى الوراء) فتدخل من المهبل الى عنق الرحم ثم الى الرحم ومنه الى مضيق فالوب. فاول حيوان يلتقي باول بيضة يلقحها ومتى اتحدت النطفتان تتولد حالاً مادة صلبة تمنع دخول حيوان آخر الى البيضة. اما بقية البييضات والحيوانات التي تكون قد وصلت الى القناة فتتلاشى ولا يبقى لها اثر. ويقال ان بين نطفة الانثى والذكر نوعاً من الالفة الكيماوية تجذب بواسطتها نطفةُ الانثى نطفةَ الذكر . وقد بينا ان من مميزات نطفة الذكر الحركة أو السعي ومن مميزات نطفة الانثى تجهيز الغذاء . وحري بنا ان نتخذ من هذه الحقيقة البيولوجية درساً اجتماعيًّا نطبقه في حياتنا اليومية لتنتظم اعمالنا ونسعد في حياتنا

وبعد ان تلقح نطفة الذكر نطفة الانثى في مضيق فالوب ويصيران خلية واحدة تنتقل هذه الخلية الى جسم الرحم حيث تنمو وتكوّن الجنين . ولا تتمكن نطفة الذكر أو نطفة الانثى من النمو قبل ان تتحد النطفتان . فالبيضة تحتوي على النواة والسيتبلازم ولكن ليس فيها الجسم المركزي (Centrosome) الذي يولّد حركة النمو. ونطفة الذكر تحتوي على النواة والجسم المركزي ولكنها خلو من السيتبلازم . فهل لو جهزنا نطفة الذكر بالسيتبلازم الكافي تولّد جنيناً دون مساعدة البيضة؟ هذا ما تحققه العلامة الشهير بوفري Boveri فاخذ بيضات توتياء البحر (ارتسا) وخضها خضًّا عنيفاً حتى تجزأت فلو دخل حيوان منوي احد هذه الاجزاء التي ليس فيها الاّ السيتبلازم فان ذلك الجزء ينمو ويولّد الدعموص (Larva) وكذلك نتوقع ان تنمو البيضة من تلقاء نفسها اذا ادخلنا اليها الجسم المركزي (Centrosome) وقد فعل ذلك جاك لوب Loeb من جامعة كالفورنيا فلقح بيض توتياء البحر بوسائط كيماوية فيزكية فعالج البيض المذكور دقيقة أو دقيقتين باحد الحوامض كالحامض الخلي أو النملي حتى نشأ فيهِ غشاء ثم وضعه في ماء البحر المشبَع بالملح وبعد ذلك نقله الى ماء البحر العادي وعقب ساعة أو ما يقرب من ذلك اخذ ينمو ويولّد دعاميص عادية

وقبل ان تتحد نطفتا الذكر والانثى تمرا بدورين اساسيين للتلقيح وهما دور النضوج ودور

التنقيص. ولما كانت العملية واحدة في النطفتين نقتصر على دور النضوج في البيضة وما يصدق عليها يصدق على الحيوان المنوي مع مراعاة الفروق التي سنذكرها : فحينما تخرج البيضة من الحويصلة الاصلية تكون خلية واحدة مؤلفة من نواة وسيتبلازم ويحيط بالخلية كلها غشاء يسمى المنطقة الشعاعية (Zona Radiate) فتظهر النواة شبكية الشكل اولاً انظر الرسم ١ (a) ويكون في وسط السيتبلازم جسم متناهٍ في الصغر يسمى الجسم المركزي أو (Centrosome) فينقسم هذا الجسم الى جسمين يتجه كل منهما الى الجهة المعاكسة للنواة الرسم ١ (b) وتحيط بهذين الجسمين خيوط دقيقة فيظهر الجسمان كالنجم ثم تتجمع المادة الشبكية التي هي الكروموسومات وتكوّن خيوطاً غليظة نسبة للخيوط الاولى الرسم ١ (c) ثم يتلاشى الغشاء الذي يحيط بالنواة الرسم ١ (d) وتصطف الكروموسومات بشكل مستطيل (e) ثم تنشطر طولاً الى شطرين تتصل كل فئة منها بالجسم المركزي الذي بجانبها (g h) ويعقب ذلك انشطار السيتبلازم الى شطرين (i) ثم تتجمع الكروموسومات كما كانت وتكون طبقة شبكية هي النواة ويصير كل شطر خلية مستقلة . وهذا الرسم من مستنبطات بوفري وهو المعول عليه في اكثر الكتب العلمية لتمثيل دور النضوج أو الاستعداد للتلقيح. وسوف نتبسط قليلاً في وصف هذا المظهر ونبين علاقته بموضوع الوراثة فنزيده وضوحاً

لما بحثنا في الخلية والكروموسومات علقنا الشأن الاكبر في نقل الصفات الوراثية بالكروموسومات وسنأتي الآن على ناحية اخرى من نواحي البحث ترينا علاقة السيتبلازم بالكروموسومات والعكس بالعكس . ان السيتبلازم مركب من عدة عناصر اهمها الايدروجين والكربون والاكسجين والفصفور والكبريت والحديد وغيرها مما لا مجال لذكره هنا ويختلف عن الكروموسومات بانه لا يتركب من ذرات مختلفة لكل منها وظيفة خاصة بل هو مادة واحدة بتركيبها وعملها فالفروق التي تحصل بين الافراد لا تسند اليهِ بل الى العوامل الوراثية . ومع ان له شأناً خطيراً في تجهيز الغذاء فان الاختلافات الوراثية لا تتوقف عليهِ الاّ في بعض انواع النباتات التي تختلف باختلافه خاصة فيما يتعلق بالمادة الملونة (الكلوروفيل) ولا يسري هذا الحكم على اكثر النباتات والحيوانات

بينا ان كروموسومات البيضة تكون قبل انقسامها متجمعة فتمتص قبل الانقسام السيتبلازم فتنتفخ وتزداد حجماً ويصير الكروموسوم الواحد كالحويصلة ويكبر حجم تلك الحويصلات التي هي عين الكروموسومات ثم تقترب بعضها من بعض وتمتزج وتشكل النواة انظر الرسم (٢) . . . وبعد ان تختلط تعيد الى السيتبلازم ما امتصتهُ منهُ وعلى الاغلب ان هذا هو سبب اختلاف السيتبلازم كيماويًّا وفيزكيًّا في ادواره الاولى عن ادواره الثانية

ان الخلية الاولى التي تنشق منها البيضة تنفث في السيتبلازم ذرات دقيقة تُرى بتلوينها

باصباغ خاصة فتنتشر هذه الذرات في السيتبلازم وتجعله يزداد حجماً وكذلك الخلية حتى تصير حويصلة كبيرة بشكل البيضة انظر الرسم . ثم يتلاشى الغشاء الذي يحيط بهذه الحويصلة ويمتزج السائل الذي فيه بالسيتبلازم إي ان السيتبلازم يسترد ما امتصتهُ منهُ الكروموسومات وهذه اول درجة في الاستعداد لتكوين الشخصية الجديدة

ومن الممكن مشاهدة هذه التغييرات في بعض الحيوانات ففي سيتبلازم بيضة توتياء البحر ذرات حمراء تقسم السيتبلازم الى ثلاث مناطق المنطقة العليا مادة سنجابية اللون والمنطقة الوسطى هي الذرات الحمراء الآتية الذكر والمنطقة السفلى صافية لا لون فيها انظر الرسم (٣) فالمنطقة العليا السنجابية (g) هي محل اتصال البيضة بالام الاصلية وهذه المناطق الثلاث هي الاساس في تكوين الشخصية الجديدة — والمنطقة السنجابية — يتولد منها غطاء الجسم الخارجي اي الجلد والحواس الخمس والمنطقة الحمراء او المتوسطة (r) يتولد منها غشاء القناة الهضمية ويتكون من المنطقة السفلى (٢) الهيكل العظمي وسائر اجزاء الجسم التي بين القسم الداخلي والخارجي. فاذا حصل نقص في اي من هذه الاقسام نشأ الفرد مشوهاً واول من لاحظ هذا التقسيم العلامتان Theodore Boverie وكونكلن E. G. Conklin وينشأ في بعض الحيوانات خمس طبقات بدل الثلاث ويختلف انقسام الطبقات باختلاف الحيوانات وقد اتينا على نموذج منها فقط اجتناباً للتطويل وبسطنا وصف التغيرات التي تحدث في البيضة قبل انقسامها فوصفنا دور النضوج ولكن قبل ان تنقسم البيضة الانقسام الاول تصطف الكروموسومات زوجاً زوجاً. ويعقب هذا التزاوج دور التنقيص اي تنقيص عدد الكروموسومات المخصص للنوع الى النصف. فعدد الكروموسومات في الصنف البشري ٤٨ تشكل ٢٤ زوجاً فتنقص ١٢ زوجاً ويبقى في البيضة ١٢ زوجاً تنشطر البيضة بواسطة الانقسام المذكور الى شطرين مختلفين حجماً يقال للاصغر منهما الجسم القطبي الاول الذي يتلاشى والشطر الاكبر هو البيضة التي تحوي الآن نصف المادة الغذائية ونصف عدد الكروموسومات المخصصة للنوع . وبعد ان يتشكل الجسم القطبي الاول تنقسم البيضة انقساماً ثانياً يتعادل فيه انقسام الكروموسومات دون تنقيص ولكن يتفاوت القسمان حجماً فيدعى الشطر الاصغر الجسم القطبي الثاني الذي يتلاشى ايضاً والجسم القطبي الاول ينقسم ثانية الى شطرين فالبيضة تنقسم اربع مرات المرة الاولى الى شطرين غير متساويين يقال للاصغر منهما الجسم القطبي الاول وينقسم هذا الجسم الى شطرين ايضاً والشطر الاكبر الناشيء عن الانقسام الاول ينشطر ايضاً الى شطرين غير متساويين يقال للاصغر منهما الجسم القطبي الثاني فالجسم القطبي الاول مع تفرعاته والجسم القطبي الثاني يتلاشيان ويمثل الشطر الاخير الذي يحمل نصف عدد الكروموسومات المعين للنوع البيضة في دورها الاخير استعداداً للتلقيح

ان نطفة الذكر تمر بنفس الادوار التي مرت بها نطفة الانثى فتفقد النواة شكلها الشبكي وتبرز الكروموسومات بصورة واضحة ثم تصطف ازواجاً وينقص نصف عددها الكامل وتنقسم اربعة اقسام متوالية ولكن لا يتلاشى شيء من اقسامها بل كل شطر يشكل حيواناً منوياً كاملاً . وهنا يختلف انقسام نطفة الذكر عن نطفة الانثى لان الاخيرة تنقسم اربع مرات تفقد ثلاثة من اشطرها وتحتفظ بالرابع اما نطفة الذكر فتنقسم اربعة انقسامات يشكل كل منها حيواناً منوياً كاملاً وبعد ان يمر الحيوان المنوي بهذه الادوار الاستعدادية يدخل رأسهُ نطفة الانثى وهو يحمل نصف عدد الكروموسومات المخصصة للنوع فتمتزج النطفتان ويكونان الخلية التي يتولد منها الجنين وفيها الآن عدد الكروموسومات الكامل للنوع نصف من الذكر ونصف من الانثى . ومتى اتحدتا يقفلان الباب في وجه كل داخل غيرهما كما بينا وتتكون الخلية الاولى التي يتولد منها الجنين فتنقسم هذه الخلية بكل ما فيها من سيتبلازم وكروموسومات وعوامل الى شطرين متساويين في الشطر الواحد ما في الآخر . واذا تتبعنا سير هاتين الخليتين اللتين يتكون منهما الفرد رأينا ان كلاً منهما تكون جانباً من جانبي الجسم فواحدة الايمن واخرى الايسر . فهل هناك خواص تجعل بعض الخلايا تشكل الجانب الايمن وغيرها الجانب الايسر ؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال تفصل الخليتين الاوليين المنشطرتين احداهما عن الاخرى ونتركهما تنميان نمواً مستقلاً ثم نراقب النتيجة فاذا فعلنا ذلك رأينا امراً عجيباً وهو ان الخلية التي قدر لها تكوين الجانب الايمن فقط تصير خلية كاملة وتكوّن الايمن والايسر معاً وكذلك الخلية الثانية تكوّن الايسر والايمن فما تكوّنه الخلية في هذا الدور من التكوين لا يتوقف على العوامل التي بها فقط بل على علاقتها بالخلية الاخرى فيما اذا كانت متصلة بها او منفصلة عنها . فما هو السر الذي يجعل الخليتين يكوّنان نصف الفرد اذا كانتا متلاصقتين وكله اذا كانتا منفصلتين ؟ لقد درسوا هذا المشهد في توتياء البحر فرأوا ان الخلية تكون في حالة الانفصال ملامسة لماء البحر من كل جهاتها وفي حالة الاتصال وهي ملتصقة بالخلية الاخرى لا يصل ماء البحر الى جانب منها فيحدث فرق في تنفس الخلية اي في أخذ الاكسجين وافراز الحامض الكربونيك وغير ذلك من العوامل الكياوية . ويمكن مشاهدة هذه الفروق بصورة واضحة في نجمة البحر Starfish فحينما تكون الخليتان ملتصقتين نرى على سطحهما قشرة بروتوبلازم لا تكون موجودة في داخل الخلية وحينما تفصلهما تكوّن الطبقة القشرية سريعاً وتنمو كل منها نمواً مستقلاً كأنها خلية واحدة . وقد بينا ان السيتبلازم ينقسم في الحيوانات التي كتوتياء البحر الى مناطق لكل منها وظائف خاصة فاذا فصلنا احدى هذه المناطق فان وظائف تلك المنطقة تتعطل وقد فصلوا فعلاً بعض مناطق السيتبلازم بسكين رفيعة فالخلية التي لم ينفصل شيء منها نمت نمواً كاملاً والتي فصل منها نشأت مشوهة . فما تولده الخلية يتوقف على شرطين اساسيين الاول نوع السيتبلازم الموجود فيها والثاني علاقتها بمحيطها

نهاية الكون

هل « الموت الدافىء » نهاية الكون ؟ او هل الاشعة
الكونية رُسُل تنبئنا بتولُّد العناصر في رحابه ؟

علماء الطبيعة في النظر الى نهاية الكون فريقان . ففريق — وزعيمهُ السرجيمز جينز — يذهب الى ان نهاية الكون تأتي — مهما تبعد — اذ تتحول آخر ذرة في الكون الى طاقة ، وتنحدر الطاقة من طاقة قصيرة الامواج قادرة على احداث الافعال الكونية الى طاقة طويلة الامواج لاقدرة لها على ذلك. وتدعَى هذه النهاية «بالموت الدافىء» . واما الفريق الثاني — وزعيمه الاستاذ مِلِكن الاميركي — فيرى ان الاشعة الكونية دليل على تولد العناصر الثقيلة في رحاب الفضاء من عنصر الايدروجين. وان معين الايدروجين هناك قد لا ينضب بتحول الطاقة الى ايدروجين. واذاً فلا نهاية للكون . وفي المقالين التاليين اهم ادلة الفريقين من فصلين لزعيميهما

مقال السر جيمز جينز

من الامور المعروفة عند علماء الطبيعة والفلك ان مادة الكون الصلدة آخذة في الانحلال والتلاشي في اثناء تحولها الى اشعاع . فقد كان وزن الشمس امس يزيد ٣٦٠ الف مليون طن على وزنها اليوم . اي ان هذا القدر من مادتها يتلاشى لكي تشعَّ كلَّ ما تشعُّهُ يوميًّا . وهذه الاشعة التي تنطلق منها تسير في الكون وستظلُّ سائرة فيهِ الى نهاية الزمن . وتحوُّل المادة الى اشعاع عملٌ جارٍ الآن في كل النجوم والى حدٍّ ما في الارض على ما نراهُ في بعض العناصر المشعة كالراديوم والاورانيوم والبروتكتينيوم وغيرها . ولكن الارض لا تخسر من وزنها بالاشعاع الاَّ نحو تسعين رطلاً كل يوم آزاء ٣٦٠ الف مليون طن تخسرها الشمس

ومن الطبيعي ان نسأل هل درس الكون يثبت لنا ان لهذا التحوُّل ما يقابلهُ من تحوُّل الاشعاع الى مادة ؟ اي هل ما تفقدهُ الارض والشمس والنجوم في ناحية من نواحي الكون يعوَّض في ناحية اخرى بتحول الاشعاع الى مادة ؟ نقف على ضفة نهرٍ نراقب تيارهُ المائي جارياً الى البحر ونحن نعلم ان هذا الماء يتحوَّل بعدئذٍ الى بخار وغيوم ثم يهطل مطراً ويتجمع

انهراً تجري الى البحر . فهل افعال الانحلال والتحوُّل والبناء في الكون تجري مجرى ماء النهر . ام هي تشبه نهراً ليس لهُ مصدرٌ يمدُّ تيارهُ بالماء فيظلُّ يجري حتى يجفَّ ؟

اذا سألنا ما هو سبب مظاهر الحياة التي نراها في العالم الذي يحيط بنا كان الجواب — الطاقة Energy . الطاقة الكيمائية في الوقود التي تسيّر سفننا وقطاراتنا وسياراتنا وفي الطعام الذي يحفظ حياتنا ويمدُّ عضلاتنا بنشاطها . والطاقة الميكانيكية وهي قوة حركة الارض التي ينشأ عنها تحوُّل الليل والنهار والصيف والشتاء والمدّ والجزر . وطاقة نور الشمس التي تنمي نباتاتنا وتنضج ثمارنا وتجهزنا بتيارات الهواء ومياه الامطار

والناموس الاول من نواميس « علم الحركة الحرارية » (ثرمودينامكس) ينصُّ على عدم تلاشي الطاقة . قد تتحول الطاقة من شكل الى آخر ولكن مجموع اقدارها في اشكالها المختلفة يظلُّ ثابتاً لا يتغيّر . فمقدار الطاقة في الكون اذن ثابت على حدّ معين لا يحول . وقد يبنى على هذا المبدإ القولُ بان الحياة تستطيع ان تظلّ حياة الى ما شاء الله لان الطاقة التي منها تنشأ وبها تستمرُّ ثابتة لا تتلاشى

ولكن الناموس الثاني من علم الحركة الحرارية يزيل كلّ وهم من هذا القبيل . نعم ان الطاقة لا تتلاشى في مقدارها ولكنها تتحول من شكل الى شكل واتجاهُ هذا التحول قد يكون الى تحت كما قد يكون الى فوق . اما التحول من شكل اعلى الى شكل ادنى ، فسهل واما التحول من شكل ادنى الى شكل اعلى فصعب او متعذر . ويبنى على ذلك ان تحوُّل المادة الى اشعاع اسهل من تحول الطاقة الى مادة . خذ مثلاً النور والحرارة . كلاهما شكل من اشكال الطاقة . فالف وحدة من طاقة النور يسهل تحويلها الى الف وحدة من طاقة الحرارة وذلك بتوجيه مقدار من النور الى سطح بارد اسود . ولكن تحويل الف وحدة من الحرارة الى الف وحدة من النور مستحيل . ان مقداراً من النور بعد تحوله حرارة يستحيل تحوله ثانية الى نور . وهذا مثل واحد بسيط على ان الطاقة المشعة تميل الى التحول من شكل طاقة يكون طول امواجها كذا الى شكل آخر تكون امواجهُ اطول من امواج الشكل الاول . فالنور يتحول الى حرارة لان امواجهُ اقصر من امواج الحرارة . ولكن الحرارة لا تتحول نوراً لان امواجها اطول من امواجه . والطاقة لا تتحول غالباً الاّ من موجة قصيرة الى موجة اطول منها

قد يعترَض على هذا القول بان اختبارنا اليومي في اشعال الحطب او الفحم يدحض هذه المزاعم . الم تخزَن حرارة الشمس في الفحم والحطب ؟ ألا تتحول هذه الحرارة نوراً حين حرقها ؟ فحرارة الشمس اذاً تتحول نوراً ! والردُّ على هذا الاعتراض هو ان ما تشعهُ الشمس مزيجٌ من الحرارة والنور بل هو خليط من اشعة امواجها من اطوال مختلفة . فما يخزن في الفحم والحطب انما هو نور الشمس وغيرهُ من الاشعة قصيرة الأمواج فاذا حرقنا الحطب او الفحم

حصلنا على قليل من النور ولكنهُ اضعف جداً واقل من النور الشمسي الذي خُزن فيهِ اولاً . كذلك نحصل على مقدار من الحرارة. وهذا المقدار اكبر من المقدار الذي خزن في الفحم اولاً . والخلاصة ان حرق الفحم يدلُّ على ان جانباً من النور الذي خزن فيهِ اولاً تحول الى حرارة

وهذا يشير الى وجوب اعتبار « المقدار » و « النوع » حين التفكير « بالطاقة » والتكلم عنها . ان مقدار الطاقة الاساسي في الكون لا يتغيَّر . هذا هو ناموس « الثرموديناميكس » الأول . ولكن نوع الطاقة يتغيَّر ويميل الى التغير في جهة واحدة كما يميل الماء الى الانحدار من قمة جبل الى سفحهِ . هذا هو ناموس « الثرموديناميكس » الثاني

وبعض هذا التحوُّل هو تحول الاشعاع من امواج قصيرة الى امواج طويلة . فاذا بسطنا ذلك بألفاظ الطبيعيات الجديدة قلنا ان التحول هو تحول عدد قليل من « مقادير » عظيمة الطاقة الى عدد اكبر من « مقادير » ضعيفة الطاقة . وفي كلا الحالين لا يتغير مجموع الطاقة بل يتنوَّع . ان المقادير تجزأت الى مقادير اصغر . ومتى حصل هذا التجزؤ تعذر حصول الفعل المناقض لهُ وهو التوحيد بين « المقادير » الصغيرة الضعيفة لتأليف « مقدار » كبير قوي . فالقوة تتحول اذاً من شكل تصلح فيهِ للاستعمال الى شكل يتعذر فيهِ استعمالها . وهذا ما يطلقون عليهِ باللغة الانكليزية لفظة Availability

فاذا رجعنا الى سؤالنا الاول : « ما المصدر الذي تنبع منهُ مظاهر الكون وتقوم بهِ افعال الحياة » عدنا لا نكتفي بقولنا انهُ « الطاقة » بل وجب ان نقول « انما هو الطاقة التي تتحول من شكل يتسنى فيهِ استعمالها الى شكل يتعذر فيهِ استعمالها . هو تحوُّل الطاقة وانحطاطها في اثناء تحوُّلها » . فالتدليل على ان مقدار الطاقة في الكون لا يتغير وان الكون لذلك لا بدَّ ان يظل سائراً الى الأبد هو كالتدليل بأن وزن الرقاص في ساعة دقاقة لا يتغير ولذلك فلا بد ان تمضي الساعة في دورانها الى ما شاء الله

على ان مقدار الطاقة التي تصلح للاستعمال ينقص ومقدار الطاقة التي يتعذر استعمالها لضعفها يزيد

وهذا الانحطاط — هذا التحول — في الطاقة لا يمكن ان يمضي كذلك الى الابد . اذ لابد ان يجيء وقت تتحول فيهِ آخر وحدة من الطاقة الصالحة للعمل الى طاقة غير صالحة للعمل وعندئذ تجيء نهاية الكون . ان الطاقة التي لا تزال فيهِ لم يتغير مقدارها ولكنها قد نزلت سلَّم التحول من شكل الى شكل حتى بلغت درجة اصبحت فيها لا تستطيع ان تتحول. ومتى وقفت القوة عن التحول عجزت عن احداث مظاهر الكون والحياة . فكأنها مياه ما زالت تنحدر من قمة الجبل وهي في اثناء انحدارها تدير المطاحن وتولد الكهربائية حتى بلغت بركة ركدت فيها فعجزت عن كل عمل

هذه هي تعاليم علم « الثرموديناميكس » الجديدة . ولا نعلم سبباً واحداً يحملنا على الريبة

فيها ؛ بل ان كل اختباراتنا الارضية تؤيدها . فلا أدري اية نقطة منها اكثر تعرضاً من غيرها للنقض . انها تهدم في الحال كل قول بأن قوى الكون تسير في دائرة — اي ان المادة تتحول اشعاعاً والاشعاع يتشكل اشكالاً مختلفة ثم يعود فيتحول مادة وهكذا . اي ان القول بان الكون شبيه بالنهر الذي يجري الى البحر بمائه ثم يتبخر ماؤه وينعقد غيوماً ويهطل مطراً يمدُّ النهر من جديد ، قول لا يؤيده العلم . ان مياه النهر تستطيع ان تمرَّ في الادوار المذكورة لان النهر جزء من الكون . وفي الكون قوة خارجية عن النهر تحفظ دورته هذه . على ان قوة الكون سائرة في سبيل الانحطاط كما بينا وما لم نقل بوجود قوة خارجية عن الكون — مهما تكن تلك القوة — فالكون لا شك خاسر يوماً ما كل الطاقة الصالحة للاستعمال التي فيه . والكون الذي لا تجد فيه طاقة صالحة للاستعمال كون ميت

حتى النهر الذي اتخذناه مثلاً لما نريد بيانه يجري مجرى الكون اذا حسبنا حساب كل العوامل التي لها اثر في جريانه . فان مياه النهر في جريانها الى البحر تنحدر فوق الشلالات فتولد حرارة تنطلق في الفضاء اشعة حرارة . ولكن القوة التي تُجري مياه النهر مصدرها الاول هو نور الشمس . أُحجبنه عن الارض يقف النهر عن الجريان

وهذه المبادىء تنطبق كل الانطباق على الكون وأفعاله . اذ لا لبس مطلقاً في ان القوة فيه آخذة في الانحطاط على المنوال الذي بيّناه . فانها تنطلق اولاً من قلب نجم حامٍ في « مقادير » او « كوَنتات » عظيمة الطاقة في امواج قصيرة جدًّا وفي سيرها من قلب النجم الى سطحه تتحوّل وفقاً لحرارة الطبقات التي تمرُّ فيها وهي اقل من حرارة قلب النجم . ولما كانت الامواج الطويلة مرتبطة بالحرارة الضعيفة فطول امواج هذه المقادير المنطلقة من قلب النجم تزداد رويداً رويداً . اي ان طائفة معينة من « المقادير » القوية تتحول الى عدد اكبر من « المقادير » الضعيفة . ومتى بلغت هذه الامواج الفضاء المحيط بجسم النجم تنطلق فيه من دون ان يصيبها تحوّل ما حتى تصطدم بذرات الغبار أو بالجواهر أو بالكهارب التائهة وغيرها من ذرات المادة التي تملأ الفضاء بين النجوم . وهذا الاصطدام يطيل في الغالب موجتها . يستثنى من ذلك الاصطدام بمادة تكون حرارتها أعلى من حرارة المادة التي على سطح النجم وهذا غير مرجَّح . والنتيجة النهائية لاصطدامات من هذا القبيل هي اطالة الامواج فتكثر المقادير عدداً وتضعف قوة كلٍّ منها . ولكن مجموع قوتها لا يزال على حاله

والمرجح ان « المقادير » القوية التي تنطلق من قلب النجوم انما تنطلق عند انحلال المادة وتلاشيها اي ان القوة المستقرة في الكهارب والبروتونات تفلت منها بتلاشيها وتظلُّ تتغيَّر وتتحول من شكل الى آخر ، وموجتها في كل حال اطول منها في الحال التي تسبقها ، حتى يصير طولها طول امواج الحرارة التي قلما تفيد شيئاً في افعال الكون

وقد اطلق بعض الباحثين لخيالهم العنان فقالوا ان الطاقة التي تبلغ هذا المستوى من الضعف تعود وتتحول على مرّ الزمان الى كهارب وبروتونات. كأنهم يرون بعيون مخيلاتهم اكواناً جديدة تنشأ من رماد الاكوان المنحلة! ولكن العلم الآن لا يؤيد هذه المزاعم. فنهاية الكون تحين متى انحلَّ كل جوهر من جواهر المادة وانطلق في الفضاء اشعاعاً قويّاً قصير الامواج ثم يتحول هذا الاشعاع رويداً رويداً حتى يصير حرارة تطوف ارجاء الكون بامواج طويلة ضعيفة

هذه هي نهاية الكون — على ما يراه العلم الحديث — لا بدَّ ان تأتي في المستقبل البعيد ان لم ينقلب مجرى الطبيعة

مقال الاستاذ ملكن

قبل منتصف القرن التاسع عشر، كانت الادلة التجريبية المتصلة بهذا البحث نادرة. ولذلك كان معظم البحث فيهِ يدور في اندية الفلاسفة واللاهوتيين. ثم جاء اكتشاف العلاقة بين الحرارة والعمل فأفضى الى اخراج مبدإ حفظ الطاقة ولعله اوسع المبادىء الطبيعية نطاقاً. وتبع هذا استخراج الناموس الثاني في علم «الثرموديناميكس» الذي فسر حينئذٍ، ولا يزال يفسر الآن بأنهُ يفضي الى نهاية الكون بتحوُّل الطاقة القصيرة الامواج التي فيهِ الى طاقة طويلة الامواج، لا يمكن ان تكون مصدراً من مصادر النشاط الطبيعي. اذ من المشاهد ان كل الاجسام تشع حرارة، وهذه الحرارة تنطلق في الكون متدرجة هبوطاً في قوتها، وليس في مكنة انسان ان يستعيدها ولا ان يحولها الى طاقة قصيرة الامواج. لذلك قيل ان الكون كالساعة التي شُدَّ زنبلكها فهو يرتخي بدوران عقاربها وليس ثمة ما يعيد شدَّهُ

وتلا ذلك اكتشاف آخر جاء من ناحية علم طبقات الارض (الجيولوجيا) وعلوم الاحياء (البيولوجيا) مثبتاً حقائق التطوُّر، التي بينت ان فعل الخلق — في ميدان الحياة — او نشوء الاحياء العالية من الاحياء الدنيا فعل ما زال متصل الحلقات من ملايين السنين، وانهُ لا يزال جارياً الى الآن. وهذه النزعة صرفت الذهن عن «آلية» الكون رامية الى تبيُّن الخالق في كونهِ، فعززت النزعة اللاهوتية القائلة بالانبثاق، وهي نزعة تمثل في جملتها موقف ليوناردو دي فنشي وغليليو ونيوتن وفرنسيس باكون ومعظم كبار المفكرين الى اينشتين

فلا التطور ولا القائلون بهِ يميلون الى الالحاد — وداروين نفسه ابعدهم عنهُ — ولكن كان من اثر تعاليمهم تعزيز الريبة في صحة مذهب القائلين بان للكون مَنْ شدَّ زنبلكهُ وما يتصل بهِ من القول «بنهاية الكون» كما تقدم — وهو يعرف «بالموت الدافىء». على ان هذا القول الاخير مبنيٌّ على فرض اننا — نحن الحشرات الدقيقة الكائنة على سطح عالم لا يعدو ان يكون ذرة تدور في فضاء الكون الرحيب — ندرك تصرُّف الكون في كل

نواحيه ، وان النواميس التي تصدق على الاشعاع عندنا يجب ان تصدق عليهِ في كل نواحي الكون ، مع اننا نعلم ان هذا التعميم الشامل افضى كثيراً الى الخطاءِ ، ومع اننا ندرك ان خارج سيارنا احوالاً لانستطيع ان نوجدها على سطح الارض ولا ان نوجد ما يقاربها . فالقول «بالموت الدافىء» لم يلقَ من المفكرين بين رجال البحث العلمي الاّ تحفظاً شديداً في التسليم بهِ

والاكتشاف الرابع هو ظهور فساد القول بأن العناصر ثابتة على حالها لا تتحول . ففي سنة ١٩٠٠ كان عنصر الراديوم قد اكتشف وثبت ان متوسط عمر كل ذرة من ذراتهِ لا يزيد على الفي سنة . وهذا يعني ان ذرات الراديوم التي بين ايدينا الآن تكونت في اثناء هذه المدة ثم ثبت بعد سنة او سنتين ان عنصر الهليوم يخرج من الراديوم بين سمعنا وبصرنا . وهذا حمل الباحثين على توجيه السؤال الآتي : — هل خلق العناصر او تكونها من شيء آخر فعلٌ موصول الحلقات ؟ ان توجيه هذا السؤال بحد ذاتهِ دليل على التحول الذي احدثهُ اكتشاف الاشعاع وهو كذلك درسٌ في الدعة يلقى على العالم الطبيعي ! ثم بعد سنتين او ثلاث ضبط الباحثون عنصري الثوريوم والاورانيوم يولدان راديوماً وغيره من المواد الناشئة عن انحلالهما . ولما كان عمر ذرة الاورانيوم التي تتولد منها ذرة الراديوم يقدر بنحو الف مليون سنة ، فنحن الآن لا نسأل متى نشأت . وانما نظن انها ليست في سبيل التكون على الارض الآن . بل ثمة من الادلة ما يقنعنا بأن فعل الاشعاع محصور في بعض العناصر الثقيلة . فهي تطلق الآن طاقة خزنت فيها قديماً بطريقة لا نعلمها . وكان بعضهم قد ظن اولاً ان فعل الاشعاع يناقض القول «بالموت الدافىء» فلما ثبتت حقائقهُ ظهر ان الاشعاع طريقة تطلق بها الطاقة المخزونة وتبعثر بتحولها الى امواج حرارة طويلة لا يمكن استردادها

اما الاكتشاف الخامس في هذه السلسلة فهو اقامة الدليل على طول عمر الارض — ان تقدير عمر الارض بواسطة المواد المشعة في الصخور وتحولها يجعل عمرها في مرتبة ١٥٠٠ مليون سنة على الاقل — والشموس . على ان عمر الشموس الطويل الذي قدر لها كان اطول جداً مما تستطيعه كرات من الغاز الملتهب آخذة في الابتراد . وعليهِ وَجَبَ البحث عن مصادر لطاقة الحرارة تكفي لجعل هذه الشموس تمضي في اشعاعها الوف الملايين من السنين

ويلي ذلك اكتشاف ان الطاقة تتحول مادة والمادة تتحول طاقة وهو يعرف « بتحول الطاقة والمادة المتبادل » ومن وجوه كثيرة هو من اخطر المكتشفات الحديثة المرتبطة بموضوعنا . ففي سنة ١٩٠١ اثبت كوبفمن Kaupfman اثباتاً تجريبيًّا ان كتلة الالكترون تزداد اذا زيدت سرعته زيادة كافية . وفي نحو ذلك الزمن كان بعض العلماء (مثل نكولز وهَل في كلية دارتموث ولبدو في موسكو) قد اثبتوا تجريبيًّا ان للاشعاع ضغطاً وهذا يعني ان للاشعاع الصفة التي تمتاز بها الكتلة (mass) المعروفة بالقصور الذاتي او قوة الاستمرار

(inertia) وهكذا زال الفرق الاساسي بين المادة والاشعاع . ثم في سنة ١٩٠٥ قال اينشتين ان « تحول المادة والطاقة المتبادل » نتيجة تقتضيها نظريته في النسبية الخاصة . واذن فاذا كانت كتلة الشمس تتحول الى طاقة حرارة بحسب هذا المبدإ ففي جرمها مادة كافية لأن تمدّها عصوراً متطاولة بالحرارة التي تشعها . وعليهِ فليس في طول اعمار الشموس ما يستغرب ولكن كيف تتحول المادة الى طاقة

ثم جاء الاكتشاف السابع وهو ان كل العناصر مبنية من عنصر الايدروجين . ذلك انهُ وُجِد ابتداءً من سنة ١٩١٢ ان اوزان العناصر الاثنين والتسعين ليست الاَّ اضعافاً لوزن الايدروجين مع فروق طفيفة . وهذه الحقيقة تحملنا على السؤال : — الا يجوز ان العناصر تبنى الآن في ناحية ما من نواحي الكون من عنصر الايدروجين؟ لا ريب في انها بنيت كذلك من قبل ، وبعضها اي العناصر الثقيلة المشعة — تتحطم الآن الى ما بنيت منهُ . افلا يحتمل ان فعل البناء من الايدروجين قائم الآن ؟ وخصوصاً ان هذا الفعل لا يناقض مبدأ « تحوُّل المادة والطاقة المتبادل » ولا « المبدأ الثاني في علم الترمودينامكس » . ذلك ان وزن الايدروجين ليس واحداً تماماً بل اكثر من واحدٍ قليلاً . واذا اجتمعت اربع ذرَّات منهُ لتكوين ذرة هليوم مثلاً — ووزنها الذري اربعة — بادت الكتلة الزائدة من مجموع اربع ذرَّات ايدروجين بتحولها الى طاقة في اثناء الاتحاد

فلما طبق مكملان وهاركنز وغيرهما هذه الحقيقة على تحوُّل مادة الشموس الى طاقة (في سنة ١٩١٤ — ١٩١٥) ظهر لعلماء الطبيعة ان بناء العناصر الثقيلة من الايدروجين في الشمس وغيرها من النجوم امرٌ مثبت بالدليل العلمي واذاً « فالموت الدافئ » الناشئ عن تحوُّل الطاقة القصيرة الامواج الى طاقة طويلة يتأخر حلولهُ حتى تبيد مادة النجوم متحولة الى طاقة بالطريقة المذكورة وهذا يستغرق عصوراً متطاولة

ولكن اذا كان مصدر اشعاع النجوم هو فناء بعض مادتها بتحوُّل جانب من ايدروجينها الى اشعاع في اثناء تولُّد عناصر اخرى من اتحاد ذراتهِ — فان جزءًا من مائة جزء من مادتها على اكبر تقدير يتحول طاقة والباقي — وهو ٩٩ في المائة — يبقى رماداً بارداً ... ! والوصول الى هذه الدرجة لا يجب ان يكون بعيداً وخصوصاً ان اجرام النجوم ليست ايدروجيناً صرفاً . فاخذ علماء الفلك يبحثون عن تعليل آخر وفي سنة ١٩١٧ وجد ان مدى هذا التحوُّل يطول مئات الاضعاف اذا فرض ان في قلب ذرة من العناصر الثقيلة يلتقي الكترون ببروتون فيتحدان فيفنيان باتحادهما ولكن كتلتهما تتحول الى نبضةٍ اثيرية — اي الى طاقة — وهذه الطاقة تمثلها المادة التي تحيط بهما ، وهذا هو مصدر الحرارة العالية في داخل النجوم

وفي سنة ١٩٢٧ قام الاستاذ استُن الانكليزي بقياس كتل الذرَّات النسبية فايدت قياساتهُ

معادلة اينشتين في علاقة الكتلة بالطاقة (اي ان الطاقة تعادل الكتلة مضروبة بمربع سرعة الضوء)
على ان فعل انطلاق الطاقة من الذرات بانحلالها (كانطلاق دقائق الفا من الراديوم مثلاً) محصور في بضعة العناصر الثقيلة الوزن واما ذرات العناصر الاخرى — ماعدا الايدروجين — ففي حالة مستقرّة فاذا شئنا ان نحلّها وجب ان تنفق طاقة في ذلك بدلاً من الحصول على طاقة بانحلالها

وعليهِ فمصدر الطاقة احد اثنين اما بناء العناصر الثقيلة من الايدروجين والهليوم أو فناء الالكترونات والبروتونات باتحادها وتحوّلها الى طاقة

واذا كان هذا الفعل جارياً في مكان ما من رحاب الكون فالاشعاع الناتج عن تحوُّل الايدروجين الى هليوم يجب ان يفوق اقوى اشعة غمّا عشرة اضعاف . اما الاشعاع الناتج من تكوُّن الاكسجين والسلكون والحديد وما اليها فيجب ان يكون اقوى من «اشعة الهليوم» اربعة اضعاف وسبعة اضعاف واربعة عشر ضعفاً على الترتيب . واما الاشعاع الناتج من اتحاد الالكترون بالبروتون وفنائهما فيفوق اقوى اشعة غمّا خمسين ضعفاً

وتلا ذلك اكتشاف الاشعة الكونية وقياس قوتها فاذا قوتها تفوق اقوى اشعة غمّا عشرة اضعاف اي ان الاشعة الكونية تشبه الاشعاع الناتج من تحول الايدروجين الى هليوم. ولم يعثر في الاشعة الكونية على طائفة من الاشعة تماثل قوتها القوة الناجمة عن فناء الالكترون والبروتون باتحادها. مما يدلّ على ان نحو ٩٥ في المائة من الاشعة الكونية ناشئ عن فعل اقل عنفاً من فناء الالكترون بالبروتون

ثم ان الاشعة الكونية لا تتأثر بالشمس ولا بالمجرّة ولا باقرب السدم اللولبية الينا (وهي خارج المجرّة) مثل سديم المرأة المسلسلة ، وتأتي من كل الجهات على السواء ، ولا تتغير بتغير مكان الراصد من حيث الطول والعرض والارتفاع والانخفاض . فلهذه الاسباب ولغيرها مما يتعذر بسطه هنا يستنتج انها آتية من الرحاب الكائنة بين السدم

واذاً فيرى مِلِكن ان هذه الاشعة الكونية دليل على ان بعض العناصر الثقيلة تتكون في الفضاء بين السدم من الايدروجين . وقد اثبت الحلُّ الطيفيُّ ان الايدروجين واسع الانتشار في تلك الرحاب . ثم ان الحلّ الطيفي يبين ان في هذه الرحاب يوجد هليوم ونتروجين وكربون . . وكبريت كذلك . وفعل البناء هذا لا يمكن ان يتمّ في داخل النجوم لان استمرار حرارتها يستدعي انحلال الذرات بحسب ما بيّنهُ جينز وادنجتن

ولكن ما علاقة كل هذا بنهاية الكون . الرأي هنا مجرّد خاطر . ان الايدروجين الذي يتحول الى عناصر ثقيلة ، وتأتينا الاشعة الكونية بأنبائه، قد يتولّد بدوره ، من الطاقة المشعة التي في رحاب الفضاء .وهكذا نستطيع ان نقول — اذ حقق هذا الخاطر بالبحث العلمي — ان لا نهاية للكون



آراء كبار الاطباء

في المبادرة الى العلاج

وأثرها في سير المرض وشفائه

أصيب ابن سينا في آخر حياتهِ بأحد الامراض المستعصية ، فحاول ان يعالجه بما أدَّت اليهِ معرفته في علم الطب فلم يفلح ، ويئس من شفاء هذا المرض . فأهمل مداواة نفسه واخذ يقول : « المدبر الذي كان يدبر بدني قد عجز عن التدبير . والآن فلا تنفع المعالجة »

وفي كلام ابن سينا ما يدل على ان في جسم الانسان قوة تتولى شفاءه من الامراض . وحينما كانت هذه القوة موجودة فان شفاءه لا بد حاصل . اما اذا تلاشت أو عجزت فان المعالجة لا تجدي والدواء لاينفع . ويؤيد ذلك ان كثيراً من المرضى يشفون يوميًّا بلا مساعدة الطب ، وان الجسم من تلقاء نفسه وبواسطة فعل هذه القوة الشافية يطرد المواد المضرة ، وان بعض هذه المواد المضرة تدخل جسم الانسان ، وتخرج من تلقاء نفسها او بما يحدث من التفاعلات الطبيعية داخل الجسم

وهنا نسأل هذا السؤال : هل تجب المبادرة الى معالجة الامراض من اول ظهورها أو تهمل هذه المعالجة ويترك الشأن للطبيعة ؟

وقد أردنا ان نستفتي بعض كبار الاطباء في هذا الموضوع ، وهم :حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا وكيل وزارة الداخلية للشئون الصحية ، والدكتور علي باشا ابراهيم عميد كلية الطب والدكتور محمد بك عبد الحميد مدير مستشفى الملك وكبير جراحيه، وحضرة المفضال الدكتور عبد الرحمن شهبندر الطبيب والزعيم السوري ، والدكتور سليمان بك عزمي طبيب الامراض الباطنية بمستشفى قصر العيني . فتفضلوا واجابوا بما يلي :

الدكتور محمد شاهين باشا

« غير خاف ان جسم الانسان آلة معقدة التركيب اعدَّت لتحتمل وتقاوم ما يحيط بها من عوامل الطبيعة السائدة في الكون — وصحة الانسان تتوقف على سير منتظم لعدة عمليات

مطردة ووظائف لو تعطل أداؤها او اضطرب نظامها لاصاب هذه الآلة الاختلال وافضى ذلك الى تنكب جادة الصحة وهذا ما اصطلح على تسميته بالمرض — ومن مستلزمات ظهوره وجود البيئة المهيئة لانباته من تربة ينمو فيها وبزور توضع في هذه التربة واستسلام من جانب الجسم — فالتربة هي الجسم والبزور هي الجراثيم او العوامل التي تفعل في الجسم فعلاً ضاراً ، واستسلام الجسم يحصل بسبب ضعف مقاومته — وبتوافر هذه العوامل الثلاثة يحدث تفاعل ورد فعل ينشأ عنهما المرض. اما هذه العوامل المُمْرِضة فتتأثر الى حدٍّ بعيد بعدة مؤثرات اجتماعية وشخصية وخارجية وحتى اقتصادية

« وبناء على ما تقدم ارى وجوب معالجة المرض منذ اول ظهوره سواء بالعلاج النوعي ان كان معروفاً او بعلاج اعراضه او بمعاونة الجسم على مقاومة المرض واستئصال شأفة المؤثرات التي ألمعنا اليها وذلك لدواع اجتماعية وطبيعية . ففي الحالة الاولى يتيسر بتشخيص المرض عند بدء ظهوره درء خطر انتشاره في المجتمع لو كان معدياً — وفي الحالة الثانية يمكن مساعدة الطبيعة على القيام بفعلها الشافي اما بتوليد اجسام مقاومة للمرض في جسم المريض او باخراج المواد الضارة منه سواء كانت غريبة عنه او متولدة فيه ذاتياً — هذا ودراسة المرض او اصلاح الانحراف عن الحالة الطبيعية او بذل النصح بما يجب اتباعه في كل خطوة من خطوات سير المرض هو من الوسائل المعينة على الشفاء ان لم تكن معجلة به فضلاً عن ان الاستعانة بها توفر على الجسم استنفاد مقادير وافرة من قواه التي هو في اشد الحاجة اليها في احوال شذوذه عن الحالة الطبيعية

« وغني عن البيان ان اغفال هذه الوسائل قد يأتي بمضاعفات للمرض لا تحمد عقباها فالعلاج في الواقع هو من قبيل تقليد الطبيعة في فعلها الشافي وامتلاك ناصيتها وأثارة قواها الكامنة للقيام بمهمتها العلاجية »

الدكتور علي باشا ابراهيم

ان الطبيعة حارس ساهر امين ولهذا الحارس في الدفاع عن حرمه معجزات في كثير من الاحيان . لكن هذا الحارس قد يؤخذ احياناً على غرة وقد يشيخ ويهرم وقد يشتط في الدفاع عن حرمه شططاً يضنيه في النهاية فلا يكاد يظهر له في الميدان عدو جديد حتى يلقي تحت قدميه السلاح . . . . . . ووظيفة الطب والطبيب في هذه الاحوال جميعاً ان يشرف على هذا الحارس حتى يستجمع قواه ويحشد جنوده وان ينظم له خطط الدفاع ووسائل الهجوم وان يمده بالقوى ان خارت قواه

فاذا كان كثيرون من المرضى يشفون كل يوم بغير معونة الطبيب فكم من المرضى يتألمون

كل يوم في وحدتهم بلا مبرد وكم منهم يموت كل يوم وكانت حياتهم يتوقف خيطها الاخير على اصبع مؤاس يمتد له فيشده قبل ان يقطعه القضاء . واخيراً كم من الامراض كانت تهب على الدنيا عواصف عواصف فاتكة بالارواح فتك النار بالهشيم — وما زالت تنتظر غفلة الرعاة لتعيد تاريخها من جديد — فوقفت منها الطبيعة وقفة المتفرج ان انقذت من براثنها مريضاً تركت ألوفاً سواه جثثاً واشلاء واستطاع الطب والطبيب وحدهما إن يجعلا هذه الامراض مجرد ذكرى بشعة لتاريخ فظيع . أتُرى اك لو عشت يومئذٍ او قام اليوم مرض من هذه الامراض يأخذ بثأره أ كنت تختار للدفاع عنك قواك العادية الطبيعية ام هذه القوى نفسها تعينها وتشد ازرها قوى الطبيب ؟

انه من السهل ان تسمي نفسك مريضاً حينما يصيبك زكام او جرح بسيط او حمى طارئة تلزمك الفراش بضعة ايام — واحياناً بلا مرض ! — واسهل من هذا ان تبرأ من مرضك بغير مساعدة احد فتنهض من فراشك لتضفر اكاليل المجد للطبيعة وتتقبل ببشاشة تهاني المهنئين . . . لكن في الدنيا امراضاً اخرى ان لم ترغم على التوسل فيها بالطب ليبرئك منها — وكثيراً ما يفعل — فلا اقل من ان ترغم على التوسل به ليخفف عنك عذابها وآلامها ويرد عنك غائلة ما وراءها من مضاعفات

ثم ما هذه الطائفة الكثيرة من الاجسام التي تدخل الجسم وتتركه من تلقاء نفسها ؟ ان القول بان جرثومة مرض تدخل الجسم وتغزوه ثم تتركه كما كان نظرية ان كان الطب القديم والاطباء القدماء قد أخذوا بها يوماً ما فجعلوا الامراض ارواحاً خبيثة تستضيفنا احياناً ثم ترحل فان تقدم العلم الحديث يرغمنا اليوم على ان لا نأخذ بها ولا نراها او نصدق ان بين جراثيم المرض جرثومة واحدة تنزل بيننا منزل الضيف الخفيف الظل ثم ترحل عنا كما نزلت بسلام

هذه الجراثيم كما يراها العلم اليوم اما ان تعصف بحياة مضيفها او تتركه لا حيًّا فينعم بحياته ولا ميتاً فينجو من عذابه او تمنحه القوة على ان يكون لعنة الناس واما ان تفارقه يوم تفارقه بعاهة مستديمة او عضو أشل أو قوى ناقصة يعييها في المستقبل الحرب والكفاح فلأية غاية من هذه الغايات يرفع الطب والطبيب راية التسليم ؟ !

***

ان الطب يعجز احياناً كما تعجز الطبيعة نفسها حينما يبلغ الكتاب اجله لكن ليس معنى هذا ان يترك المريض للطبيعة وحدها تقرر مصيره كما تشاء . انها كما قلنا حارس ماهر لكن هذا الحارس يحتاج في اوقاته الحرجة الى قائد يرد جماحه ان جمح ويشد قواه ان خارت قواه وهذا القائد هو — وسوف يكون دائماً — الطبيب

الدكتور محمد بك عبد الحميد

« سئلت : هل تجب المبادرة الى معالجة الامراض من اول ظهورها بعلاج ناجع او يترك امرها للطبيعة تعمل عملها دون اعتراض سيرها ؟

«ولاشك انهذا الاستفتاء من انسب ماتكتب فيهِ الجرائد والمجلات في الاحوال الحاضرة. في هذه الازمة الطاحنة الآخذة بخناق جميع الطبقات ، سواء أكانوا اغنياء ام فقراء ، افراد ام جماعات ، شركات ام حكومات ، يجب ان يفكر الانسان في وسائل الاقتصاد والتوفير . وليس بعيداً ان يكون مما يفكر فيهِ الاستغناء عن الطبيب في احوال المرض اعتماداً على : —

١ — ان كثيرين من المرضى يشفون يومياً بلا مساعدة الطب

٢ — وان طائفة كبيرة من الاجسام تدخل انسجة الجسم الانساني وتخرج من تلقاء نفسها

٣ — وان الجسم من تلقاء نفسهِ يطرد المواد المضرة

« ولست ادري اي الفريقين اولى بالاهتمام بهذا الموضوع ؟ أفريق المرضى ام فريق الاطباء ؟ ذلك لان امر التداوي يكاد يكون ميسراً لكل مريض في مصر كيفما كانت حالتهُ . في عصر حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فؤاد المعظم حفظهُ الله تعالى وبهمة حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد باشا شاهين وكيل الداخلية للشؤون الصحية قد كثرت المستشفيات وتعددت انواعها . فمن مستشفيات قروية في كثير من القرى ، الى مستشفيات مركزية في عدد عظيم من المراكز ، الى مستشفيات في بنادر المديريات ، الى مستشفيات في ثغور البلد ، الى المستشفيات الكبيرة التي في عاصمة القطر ، الى مستشفيات الرمد ، والانكيلوستوما والبلهارسية ، الى مستشفيات رعاية الاطفال ، الى مستوصفات للامراض الصدرية والسرية ، الى مستشفيات وزارة الاوقاف ومستوصفاتها . فهذه كلها مفتوحة الابواب يدخلها المرضى بسلام آمنين . ويتولى علاجهم فيها الاطباء بكل لطف ورفق وعناية لا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً . فان الحث الضائقة المالية على انسان وآلمتهُ في نواحي المعيشة المختلفة من مسكن وملبس ومأكل وغير ذلك فامرها هين يسير من ناحية التداوي والمعالجة بفضل المستشفيات وكثرتها والعناية فيها . اما الاطباء في هذه الازمة فيخيل الي انهم ادنى تأثراً بها من غيرهم بسبب اقبال المرضى على المستشفيات . ومما زاد في الطين بلة ارتفاع اثمان الادوية ارتفاعاً يشق على النفس في اوقات الرخاء فكيف بهِ في هذا الزمن العصيب . ولذلك ترى اعمال الاطباء في عياداتهم الخصوصية في كساد . ولولا انهم يشاهدون المرضى في المستشفيات زعموا ان المرضى قد قاطعوهم او ان الامراض قد قطع دابرها . ولاتكلم على الاركان التي بني عليها الاستفتاء واحداً فواحداً

« فاما الركن الاول وهو شفاء كثير من المرضى يوميًا بغير مساعدة الطب فلا انكره وهب كما يقول بعضهم ان نسبة الامراض التي قد تشفى شفاء ذاتيًا من تلقاء نفسها بغير مساعدة الطب تصل الى تسعين في المائة من جملة الامراض . بل هبها تصل الى اكثر من ذلك أفتظن ان التطبيب يقل شأنهُ اذا كان سبباً في انقاذ ما يمكن انقاذه من البقية الباقية ؟ واني لاذكر اني قرأت في احدى المجلات الطبية ما يزيد كلامي في هذه المسألة وضوحاً . ذلك ان القوم في امريكا ينادون بضرورة الرقابة الفنية لمنع انتشار السل في طلبة الجامعات اي في سن الشباب وهي السن المعرضة للسل مما يتم باختبار الطلبة قبل دخولهم الجامعة بالتيوبركلين (وهو طعم السل) والنتيجة السلبية لهذا الاختبار تدل على سلامة الطالب من السل وانهُ مأمون الجانب . اما اذا كانت النتيجة ايجابية فلا بد من التمادي في الاستقصاء حتى يتبين ان تلوث الطالب بميكروب السل لم يصل الى درجة الخطر على نفسهِ او على غيره من مخالطيهِ . وقيل إن نفقات هذه الطريقة لا تكلف اكثر من دولارين لكل طالب .وقدوجدوا انهم بها يتمكنون من انقاذ طالب من كل ٥٠٠ طالب . واذكر ان الكاتب قال ما معناه اذا كان انقاذ الطالب لا يتجاوز نحو الالف من الدولارات فليس من العبث الاستمرار على هذه الطريقة

«ولعل ادنى الامراض الى الشفاء شفاء ذاتيًا هي الامراض المعدية التي أتى عليها حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً لان الاطباء يومئذٍ لم تيأس [1] طرق انتشارها ، ولا سبيل اتقائها ، فكان اذا حلَّ الوباء وافداً في بلد من البلاد تعادى القوم وتقادعوا ، ومات بعضهم إثر بعض ، وكنت تراهم لا يفرغون متدافنين . اما الآن فقد تبدلت الحال غير الحال ، واصبح بفضل تقدم الطب ، في وسع الطبيب ، لو ادرك المريض وهو في الدور الاول من المرض ان يدرأ عنهُ مختلف المضاعفات التي قد تطرأ عليهِ وتكون سبباً في هلاكه ، وان يعطل امتداد المرض الى اقاربه وذويه ، وأن يمنع انتشاره في قريته وبلدته . نعم اصبح الآن في وسع الطبيب ان يفعل ذلك كله فيدفع همًّا واغلاً وخطراً داهماً يحصد النفوس ويترك البلاد قاعاً صفصفاً كما كانت تفعل الاوبئة الى عهد ليس ببعيد . ولو لم يكن للطبيب غير هذه النتيجة الباهرة من اعتراضه سير هذه الامراض في اول امرها لكفتهُ شأناً وفخراً

« وهناك فئة من الامراض المستعصية ، وقاك الله شرها ، تجعل صاحبها في الم شديد مستمر مما يدفعهُ الى طلب الموت او استقباله بكل سرور وهنا يكون عمل الطبيب تخفيف الآلام ، وتسكين الاوجاع . ولا ادري ماذا تكون حالته لو ترك امره للطبيعة تفني حياته (بالقطاعي) تدريجاً فناء بطيئاً قاسياً يفتت الاكباد

(١) اي تعلم

« واني وان كنت لا انسى فضل الطبيعة فيما تساعد بهِ الجراح في وقف النزف ولأم الجرح وغير ذلك الاَّ اني لا ادري كيف تهيّء الشفاء بغير ان يماشيها الجراح في سيرها بفتح الاخرجة وربط الاوعية وخياطة الجرح مما يسهل على الطبيعة عملها ويكمله . وربما كانت الامراض الجراحية المختلفة كالتشوهات والاورام والكسور والخلوع والالتهابات والجروح والقروحات والحصيَّات الكبدية والبولية وغيرها من احوج الامراض الى رشاقة يد الجراحين من الاطباء وأقلها استقلالاً عنهم فلا يمكن ترك امرها للطبيعة

«وأما الركن الثاني فصحيح فكم من طفل بلع جسماً غريباً صغيراً وخرج من تلقاء نفسهِ، وكم من مادة غريبة دخلت او ادخلت في الانسجة فتخلص منها الجسم اما بامتصاصها ، واما بطردها واما بتكيسها .على ان النقيض صحيح ايضاً فكم من ابرة او دبوس دخل في الجسم واقتضى عناء شديداً لاستخراجه وكم من رصاصة دخلت فأتلفت فكان لا بد من الجراح في التوسط

« وأما الركن الثالث فصحيح ايضاً كما اذا تناول الانسان شيئاً مضرّاً كمادة سامة فان الجسم يطردها من تلقاء نفسه بما يحدث عنها من القيء والاسهال ، لكن الاغلب ان يمتص الجسم جانباً منها قبل طردها . ولذلك يحسن ان يبادر الطبيب بغسل المعدة مثلاً لاستخراج المادة السامة قبل ان تمتص ويفوت الاوان

***

«بقيت لي كلمة ارجو ان يسمح لي حضرة الاستاذ المستفتي ان اهمس بها في اذنهِ مداعباً اومعاتباً:

« الم يكف الاطباء انهم مهضومو الحقوق من الامة شعباً وحكومة الم يكفهم ان مصلحة الصحة قد ضيقت عليهم ارزاقهم بالاكثار من المستشفيات المختلفة قبل الازمة ، ثم حلت الازمة فزادت في الطنبور نغمة

«الم يكفهم انهم بالرغم من ذلك كله لا يألون جهداً في اداء ما عليهم من الواجبات بقلوب صابرة مطمئنة ونفوس فرحة مستبشرة

«الم يكفهم ذلك حتى زدتهم غمّهم تستفتيهم في امر الاستغناء عنهم ? ! بترك الامراض وشأنها ! !

« ولكن حسبهم ان يكون من اسرتهم مثل جنر مكتشف التطعيم بالمادة الجدرية فأفاد الانسانية حتى لقد قال بعضهم ان مبضع جنر انقذ من النفوس اكثر مما اهلك سيف نابليون وحسبهم ان يكون منهم مثل لورد لستر الذي ابتدع مبادىء الطهر والتطهير — العقم والتعقيم — ونشر هذه المبادىء فعمَّ بها الخير على الانسانية المعذبة حتى ليمكن ان يقال ان بهذه المبادىء انقذ من الناس اكثر مما اهلكت الآلات المدمرة في الحروب من المدافع والقنابل والطيارات والغواصات لكن حسبهم الله ونعم الوكيل»

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

«افهم من كلمة «علاج ناجع» في سؤالكم انهُ علاج متى اعطي للمريض ازال المرض منهُ . فبديهي والحالة هذه ان يكون الواجب الاول على الطبيب (او الجراح) ان يعالج مرضاه من الساعة الاولى بمثل هذا العلاج اذا تيسر وجوده لان انتظار الطبيعة لتعمل عملها يكون اضاعة للوقت في اكثر الاحيان واعتماداً على قوة عمياء قد تحوّل الشيء البسيط الى مركب والطفيف الى خطير . والطبيب الذي ينتظر الطبيعة لتشفي مريضه من البرداء — الملاريا — مثلاً بدلاً من اعطائه الجرع الكافية من الكينا لقتل الجرثومة وهي في المهد قبل ان تحدث تغيراً في انسجة الجسم مثلهُ كمثل ذاك المهندس الزراعي الذي فتح ثغرة من نهر دجلة في بغداد في وقت الفيضان منذ خمس سنين لري بعض الحدائق توفيراً لبضعة جالونات من البترول يحرك بها مضخته فكانت النتيجة ان حدث طوفان في عاصمة العراق كلفها مئات الالوف من الجنيهات ولولا السدود الصناعية التي احاطت بمدخل المدينة ما تركت الطبيعة داراً قائمة هناك

« ولكن من سوء الحظ كثيراً ان ليس لجميع الامراض علاج ناجع . ويمكننا ان نقيس تدرج المدنية بما اوجدتهُ من العلاجات الناجعة منذ اتخذ الانسان الهمجي منقوع الشيح مقيئاً في عسر الهضم والكي مبرداً للآلام الموضعية والسمن المغلي مطهراً للجروح الى ان اهتدت كونتس شنشون في بلاد البيرو الى فائدة شجر السنكونا في علاج البرداء واللورد لستر الى المطهرات في محاربة الجراثيم واستكشف باستور تلقيح الكلب وبهرنج امام مصل الدفثيريا وارليخ مركب الزرنيخ المشهور في علاج الزهري وبانتنج الانسولين في الديابيطس وهويبل فعل التغذية بالكبد في فقر الدم وغير ذلك من الوسائل الناجعة التي لا يتسع لها هذا المقال والتي يعد اغفالها في ساعة الحاجة اليها جناية فنية لا تغتفر

« انني لا انكر ابداً ان علاجاتنا الناجعة محدودة وهي تدعى في الاصطلاح علاجات نوعية يعني انها خاصة بشفاء امراض معينة وهي ويا للاسف ليست على نسبة ما استكشف من الامراض حتى الآن . فقائمة هذه الامراض طويلة عريضة قد تحدث قراءتها التخمة العقلية وقائمتها قصيرة ناقصة تترك كل زيادة للمستزيد . وهذا الفرق الجلي كان اشد ظهوراً في القرن التاسع عشر منذ البحوث التي اجراها (لينيك) في مرض السل الى ان قام (فرخو) وأبان علائق الامراض بالتغيرات النسيجية في الاعضاء ثم ما ظهر بعد ذلك من علم الجراثيم وفتكها فكانت الامراض بحراً خضماً وكانت ادويتها وشلاً تافهاً . لا جرم ان يقف الطبيب يومئذ مبهوتاً خائر القوى فيعترف بملء قلبه بأن الامراض — الاّ النذر القليل منها — لا علاج لها وان يعتمد على الطبيعة في جميع مواقفه شأن (جون ستوارت مل) وزملائه من الاقتصاديين

والاجتماعيين الذين رأوا تعقد الموضوعات التي طرقوها وسعتها التي لا حد لها وعمقها الذي لا قرار له ورأوا من الجهة الاخرى بلادة المجتمع واستسلامه ومرّته وتعلقه بالقديم لانهُ قديم فقالوا كما قال بعض من سبقهم بمذهب Laissez faire بأوسع معانيه وهو « دع المقادير تجري في اعنتها » ولا تتدخلن بها فتفسدنها برأيك المعكوس . ولكن الذي حدث في غضون الستين أو السبعين سنة الاخيرة من الاصلاحات الغائية الاختيارية في ميدان الاقتصاد والاجتماع يجعل مثل هذا الرأي في التعليل كما قالت دائرة المعارف البريطانية ناقصاً الى درجة مضحكة . وهذا الحكم القاسي على جميع نظرية « دعها سماوية » ليس باقل انطباقاً منهُ على نظرية العدميين او النهلست في الطب والعلاج

***

« لقد انقرض مذهب الجبريين في الاقتصاد والاجتماع وحلّت محله تجارب العلاج الاقتصادي الاجتماعي وكذلك انقرض مذهب العدميين في الطب والجراحة وحلت محله تجارب العلاج النوعي والطبيب الذي ينتظر الطبيعة لتقضي على جرثومة الدفثيريا وطردها قبل ان يسعف مريضه بالمصل هو جانٍ في نظر العلم مثل الجراح الذي ينتظر ظهور الحد الفاصل في الغرغرينا المعدية المنتشرة الحادة قبل ان يبتر العضو الميت

***

«لكن هذا الكلام لا يقلل من قيمة الطبيعة ولا يعني بوجه من الوجوه اننا لا نعتمد عليها في اتمام اعمالنا خصوصاً في الامراض التي لم نهتد بعد الى استكشاف علاج ناجع لها وقد تكون الطبيعة معوّلنا الاساسي في بعض الامراض كالسل مثلاً على رغم جميع الاعلانات التجارية عن ادويته النوعية بما فيها التيوبركلين واملاح الذهب الوهّاج من السانكريسين الى السولجونال فالالـوكريسين ولا تزال القواعد الثلاث التي يرتكز عليها علاجه الى هذه الساعة قواعد طبيعية من هواء طلق وراحةٍ مسكنة وغذاءٍ مشبع

***

« الاّ اننا اذا عملنا قائمة بالادوية النوعية وتاريخ استكشافها وجدنا السير بطيئاً في اول الامر وسريعاً سرعة خارقة في الآخر بما يتمشى مع سائر ابواب العلم التجريبي. وتلاحظ هذه السرعة خاصّة في علم الجراثيم ولا نبالغ اذا قلنا ان الطبيب القادم سيكون مسلحاً بالعلاجات الناجعة لمعظم الامراض مما يغنيه عن انتظار الطبيعة كثيراً ويحقق امنية العلماء اليوم من جعل الاصلاحات الجسدية والعقلية والاخلاقية والاقتصادية والاجتماعية غائية تخضع لارادة العلم لا خِلقية تتوقف على القوى الشاذة التي لا ضابط لها

الدكتور سليمان عزمي

« انني من الذين يقولون بأنهُ لا بدَّ من علاج الامراض من اول ظهورها . لان الطبيب لا ينسى ان واجبه حسب المثل الانكليزي : « اجتهد ان تمنع المرض ، وان لم تستطع فاشفه والاَّ تخفف آلام المريض او واسهِ » . ثم انهُ لا يخفى ان المرض اذا قام الطبيب بمعالجته منذ اول ظهوره قد يدرأ بذلك خطراً يتعرض له المريض اذا اهملت معالجته من اول الامر ، ويدفع ما قد يصيب المجتمع من جراء هذا المرض اذا كان معدياً

« ومن جهة اخرى فان ارشادات الطبيب ومراقبته لسير المرض يجعله يسير سيراً طبيعياً حميد العاقبة لان المشاهد دائماً ان الامراض التي يبادر بعلاجها تنتهي الى الشفاء بسرعة دون غيرها مما يهمل علاجها وتؤدي الى حدوث مضاعفات او عواقب سيئة

« واذا سلمنا بأن كثيراً من المرضى يشفون يومياً بلا مساعدة الطب ، فان شفاءهم في اعتقادي يكون ظاهراً كما يبدو لغير الاطباء . والغالب ان الامراض تترك عندهم مضاعفات تحتم ان تتخذ الاجراءات الفعالة لمداواتها

« وان نسبة الذين تحدث لهم مضاعفات ممن يعرضون انفسهم على الاطباء من اول اصابتهم اقل بكثير من نسبة الذين لا يعرضون انفسهم الاَّ في منتصف المرض او الذين يهملون انفسهم اهمالاً

« اما ان الجسم من تلقاء نفسه يطرد المواد المضرة . فذلك ما يسمى بقوة المقاومة في جسم الانسان ولكن قد لا تكون قوة المقاومة كافية . ويحتاج الجسم الى مساعدة الطبيب وحينئذٍ اذا اهمل استدعاء الطبيب ادى الى وقوع المريض في الخطر . ولما كانت قوة مقاومة الامراض مجهولة للمريض فيجب عليهِ من اول ظهور اعراض المرض ان يسرع الى استدعاء احد الاطباء

« ولا اتوسع في هذا الموضوع ، واقول لك ان بعض الامراض كالدفتريا او التيفوس اذا لم تتخذ لها الاجراءات الواقية من اول ظهور اعراضها ، فانها تصبح كالطاعون والكوليرا . هذا مع تسليمي بأن الانسان طبعاً يتخذ من قوة مقاومة الجسم سلاحاً لمقاومة الامراض في بعض الاحيان ، ولا يركن الى الادوية الاَّ عند الضرورة

« واما ان بعض المواد المضرَّة تدخل جسم الانسان وتخرج من تلقاء نفسها او بتفاعل طبيعي داخل الجسم ، فهذا جائز ، ولكن لو صادف ان هذه المواد كانت ملوثة بميكروبات عدوى شديدة فماذا تكون الحال ؟ تكون إما التسمم الصديدي او التتنوس أو غير ذلك

« ومن هذا ترى انهُ لا بد من عرض المريض على الطبيب من اول ظهور اعراض المرض حتى يأخذ احتياطاته وينقذ المريض من المرض ، بل يدفع عن المجتمع خطراً قد يصيبه اذا كان من الامراض المعدية »

مهاتما غاندي

تلخيص تاريخه كما رواه بنفسه

— ٣ —

باكورة الشباب

كنت في المدرسة منذ السادسة او السابعة الى السادسة عشرة من عمري ، حيث تعلمت كثيراً من الاشياء ، ما عدا الدين . ولقد اخفقت في ان اتلقى من اساتذتي مايمكن انيعدوني بهِ من معلومات ، من غير ان اكدهم واجهدهم . ومع هذا استطعت ان التقط مبادىء دينية استمعتها من بيئتي تسقطاً من هنا وهناك . واعني «بالدين» ، اصطلاحاً في اوسع ما يحتمل من المعاني ، انهُ عبارة عن «تحقيق الذات»

ولدت في ظلال معتقد «الفايشناڤا» Vaishnava — ولذلك كثيراً ما كنت اغشى معبد الاسرة . ولكن العبادة في المعابد لم تكن لتلائم مزاجي . فاني اكره فيها مظاهرها وفخامتها المصطنعة ، وكذلك سمعت ان كثيراً ما يقع في المعابد من الاعمال ما لا يتفق والآداب ، فزهدت فيها زهداً تاماً

ولكن ما فاتني من العلم بزهدي في المعابد تلقيتهُ من مربيتي ، وهي خادمة عجوز من الاسرة،لاازال اذكرعطفها وحنوها عليّ الى الآن. اقترحت عليّ يوماً ان اكرر اسم «راما[1]» كعلاج اتخلص بهِ من خوفي من الاشباح . ولكن كان لي من الثقة بها ، اكثر مما كان لي بحقيقة العلاج الذي وصفتهُ ، غير ان سني سمحت لعقلي ان يتأثر بما وضعت من علاج اذ يذهب مما احس من خوف . والبزرة الصالحة اذا غرست في سني الشباب فلا بد من ان تترك أثرها الثابت في النفس . واتخيل ان ما غرست هذه المرأة الصالحة في نفسي من الالتجاء الى ذكر « راما » لاطرد الخوف ، قد ثبت في نفسي ، حتى اني كثيراً ما الجأ الى الاسم اكرره في ايام محني ، فيروح عني ، ويزيح ما يثقل على صدري من الهموم

---

(١) « راماناما Ramanama » كلمة تكرر تعبداً وتقرباً الى الله . « وراما » عبارة عن تجسد الله في الذات البشرية وحلولها فيها كما وصفت في قصيدة «راماناما» الايقاعية التي وضعها تولاسيدس Tulasidas وهذه القصيدة في الهندية مقتبسة من الاصل السنسكريتي الذي وضعه «فلميكي » Valmiki

في ذلك الوقت حاول احد اعمامي ، وكان من اتباع « الرامايانا » — Ramayana — ان يلقنني وأخي الثاني مبادىء «راما را كشا» — Rama Raksha — فأخذنا نصم المبادىء صمًا ، واتخذنا تلاوتها عن ظهر قلب عادة عكفنا عليها كل صباح بعد الاستحمام . وظللنا نتلو ما حفظناه طيلة ما بقينا في « پوربندار » ولكننا نسينا كل شيء بمجرد ان حللنا في « راجكوت » ذلك لانني لم اكن اعتقد بهذه المبادىء ، وكنت اتلوها لازهو فقط بأني استطيع ان اتلو «راماراكشا» من غير خطاء في تخريج الحروف والكلمات . واما الذي ترك أثراً في نفسي لا يزول ، فقراءة «الرامانااما» تأليف «تولاسيداس» مع ابي . وكان ابي خلال مرض وفاته قد امضى بعض الزمن في «پوربندار» ، وتعود ان يسمع تلاوة « الرامانااما » كل ليلة وكان الذي يتلوها « لاوا مهاراج » من اخص اتباع « راما » وأكثرهم تأثراً به . وكان يقول بأنهُ استطاع ان يشفي نفسهُ من مرض الجذام بغير عقاقير ، بل بأنهُ لف على الاعضاء المصابة اوراق شجرة مقدسة في معبد « بولشفار» وهبت للاله الكبير ، وبأن اخذ يكرر اسم « راما ».وقد يكون هذا صحيحاً او غير صحيح. غير انا صدقنا صحة الرواية على كل حال، لان جسم الرجل كان في ذلك الوقت سليماً من الجذام . وكان ذا صوت شجي ونبرات حزينة، وكان يرتل ثنائيات او رباعيات ، مستغرقاً كل استغراق ، حتى انهُ يجرف معهُ كل سامعيه. وكنت في الثالثة عشرة من عمري اذ ذاك . ولكني اتذكر ان تراتيله اختبلتني وأوقعتني في شراكه . وكان هذا سبباً في افتتاني « بالرامانااما » . واني لاعتقد الآن هذا الكتاب اعظم كتاب تعبدي ظهر في العالم

تعلمت في «راجكوت» كيف اكون متسامحاً ازاء كل فروع المذهب الهندوكي والديانات الاخرى . وكنت مع ابي وامي كثيراً ما نزور معابد شيفا وراما ، وكثيراً ما كان يزورنا رجال من مختلف المذاهب ويتناولون بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكان يزورنا مسلمون يحدثوننا عن حقيقة معتقدهم . وكنت اسمع هذه الاحاديث وما يدور حولها من المناقشات بجانب سرير ابي وانا امرضه . وكان هذا سبباً في ان لا اشعر بأثر للتعصب لمذهب او ضد مذهب ما

شذت النصرانية وحدها عن هذه القاعدة عندي . فقد تكون في عقلي نوع من الكراهية لها . ولذلك سبب ، فقد اعتاد مبشرو هذه الديانة ان يقفوا على مقربة من المدرسة العليا وهنالك يمطرون الهندوكيين سبًا ولعناً ويوسعون آلهتهم تحقيراً. ولم اكن استطيع ان اهضم هذا . وقفت مرة استمع اليهم . وكانت الاولى والاخيرة فلم احاول ان أعيد التجربة مرة اخرى . وسمعت في ذلك الحين عن هندوكي معروف انتحل الديانه المسيحية . وكان حديث المدينة كلها يدور حول تعميده وكيف انهُ اكل لحم العجل وشرب النبيذ ، وانهُ ابدل زيه

فبدأ يلبس الملابس الاوربية ويغطي رأسه بقبعة . ولقد أثر كل هذا في اعصابي ايما تأثير. حتى لقد حدثتني نفسي بأن ديناً يرغم معتنقيه على اكل اللحم وتعاطي المشروبات الروحية وتغيير زيهم ، ليس جديراً بأن يكون ديناً ، وليس خليقاً بأن يسمى ديناً . وطرق سمعي ان ذلك المؤمن الجديد أخذ يهزأ بدين اسلافه وعاداتهم ووطنهم وكانت كل هذه الاشياء سبباً في اني شعرت بكراهية نحو النصرانية

على الرغم من اني رضت نفسي على ان اكون متسامحاً نحو الاديان الاخرى ، فان ذلك لم يكن معناه اني كنت اعتقد في وجود الله . وحدث اني قرأت في ذلك الحين كتاباً دينياً (١) كان بين مقتنيات ابي ، ولم تترك قراءتي لما تضمن من اقاصيص الخلق وأصل الانسان اي اثر في نفسي ، بل على الضد من ذلك احدثت في نفسي نزعة الى الالحاد وانكار وجود الله

وكان لي ابن عم احترم فيه الكفاءة العقلية وقوة الحكم . فلجأت اليه اثير شكوكي واستعين به عليها ، فلم يستطع ان يذلل مصاعبي او يحل مشكلة من مشاكلي العقلية. واخيراً تركني قائلاً «عند ما تكبر يمكنك ان تحل هذه المشكلات بنفسك وهذه مسائل لا يجب ان تكون من مشاغل من هم في مثل عمرك » فسكت ولكن لم يهدأ بالي

على اية حال لم يستطع هذا الكتاب بشرائعه وأقاصيصه ان يعلمني «الاهمسا (٢)» Ahimsa ولكن شيئاً واحداً ثبتت اصوله في نفسي اذ ذاك . هو الاعتقاد بأن الاحساس الادبي اساس كل الاشياء ، وان الحق هو المادة الاولية التي تتكوّن منها شريعة الآداب العليا . ولقد اصبح الحق غايتي الوحيدة في الحياة . فأخذ يعظم في نفسي ويزيد قدره في يقيني يوماً بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت اخذ ادراكي لمعنى الحق يعظم ويترامى اطرافه

شغفت بعد ذلك بقطعة شعرية باللغة الجوجراتية ملكت مني عقلي وكل قلبي . وكان عنوانها « قابل الاساءة بالاحسان » فأصبح مبدئي الاول الذي يقود خطواتي ، بل امسى شهوة محتدة جامحة ، حتى اني اخذت اطبقها في الحياة العملية

* * *

بعد ان اجتزت امتحان القبول ، أشار عليّ من هم اكبر مني سناً ان اتابع درسي في الكلية . وكان امامي جامعتان احدها في «باقنجار» والاخرى في بومباي . وكانت اولاها اقل نفقة فاخترتها ، على ان التحق بكلية « سامَلْداس » . فذهبت ، ولكن لم البث ان وجدت نفسي في بحر لجيّ . كل شيء كان صعباً . وكل شيء كان عميقاً . ولم استطع ان استوعب

(١) المانوسمريتي — Manusmriti — شريعة هندوكية قديمة جداً تحدد نظام الطائفة المسماة بهذا الاسم . والكتاب يحتوي على اساطير في اصل الخلق واصل الانسان

(٢) راجع ما علقنا به على هذه الكلمة في المقال الثاني الذي نشر في مقتطف أبريل الماضي

محاضرات الاساتذة . ولم يكن ذلك براجع اليهم . فان اساتذة هذه الكلية كانوا يعتبرون من الطراز الاول . ولكني كنت فجًّا غير ناضج . وفي نهاية الدورة الدراسية الاولى عدت الى البيت

وكان «ماڤجي واڤي» وهو برهمي اريب واسع الاطلاع، مرجع الاسرة ومحل استرشادها. فزارنا خلال الاجازة المدرسية ، وسأل امي واخي الاكبر عن دراستي وكيف اسير فيها ، فلما علم اني من كلية « ساملداس » اقترح ان اسافر الى انجلترا لاتخرج في القانون . وكانت هذه امنيتي فافعم الاقتراح قلبي سروراً لأمرين . الاول اني كنت الاقي صعوبات جمة في الكلية ، والثاني اني اردت ان ارى بلاداً جديدة . غير اني اردت ان التحق بكلية ادرس فيها الطب فاعترض اخي قائلاً ان ابي كان يبغض هذه المهنة ،وكان يقصدك بقوله ان « الڤايشناڤا » لا شأن لهم بتشريح الجثث ، بل اراد ان تكون محامياً . وكان الاعتراض الثاني على درس الطب ان هذه المهنة لا تهيئني لان اكون « ديواناً » كما كان ابي . واني اذا اصبحت « ديواناً» او اكثر من ديوان استطعت أن اقوم باعباء اسرتي

***

وما تم هذا الحديث وانصرف البرهمي ، حتى اخذت ابني العلالي والقصور ، ولكن في الهواء . وبدأ اخي يفكر الى اين يرسل بي ، وهل من الحصافة ان يرسل بشاب مثلي وحيداً في بلاد اجنبية ؟ اما امي فقد اضطرب فكرها واختلط عليها الامر ، لانها كانت تمقت فكرة اني مفارقها ومبتعد عنها. وحاولت ان تقيم العقبات في سبيل سفري فقالت « ان عمك أسن من في الاسرة الآن ،فيجب اولاً ان نشاوره في الامر ، فاذا وافق امكننا ان تنظر في الامر»

فلما قابلت عمي واطلعتهُ على جلية الامر فكّر قليلاً ثم قال ولست ادري ان كان هذا العمل يتفق ومبادىء ديننا . وكل ما يصل اليهِ علمي في هذا الموضوع لا يخلو من شكوك فاني عندما اقابل كبار المحامين لاارى فارقاً بين حياتهم وحياة الاوربيين . أنهم لايتقيدون بقيد فيما يأكلون . ولفائف التبغ لا تفارق شفاههم . ويلبسون بلا خجل كما يلبس الانجليز .وكل هذا مناقض لتقاليد اسرتنا . واني لمزمع حجًّا ، ولم يبق لي في الحياة الا سنوات معدودات وكيف تتصور وانا على حافة القبر ان آذن لك ان تذهب الى انجلترا وان تقطع بيننا وبينك البحار ولكني لن اقف في طريقك فالامر اذن يرجع الى موافقة امك . فاذا وافقت فسارع بالسفر قل لها اني لن اتدخل في الامر . اما اذا سافرتَ فاني اباركك »

فلما رجعت الى « راجكوت » ونقلت الى امي ما قال عمي ، ترددت ونفرت . فقد قيل لها ان الذين يذهبون الى انجلترا يبيعون الفضائل بالرذائل . وقيل لها انهم يأكلون اللحوم

وانهم لا يستطيعون ان يعيشوا من غير ان يتعاطوا المشروبات الروحية . وسألتني كيف اتصرف ازاء هذا ؟ فقلت لها « يا امي العزيزة . ألا تثقين بي . فاني لن اكذبك شيئاً . واني لأُقسم لك باني لن اقرب شيئاً من هذه الاشياء » فقالت : استطيع ان اثق بك واعتمد عليك . ولكن كيف تكون هذه الثقة وانت في بلاد نازحة وديار بارحة . اني مرتبكة ولست ادري ماذا افعل ؟ سوف اسأل « سوامي » Swami

وكان « سوامي » بالمولد والدم في طائفة « البانيا » كالغانديين . ولكنهُ انقلب كاهناً من طائفة « الجانيين » Jani . وكان من مستشاري الاسرة كالبرهمي الذي مرّ ذكرهُ . فامدني بمساعدته وقال سآخذ عليهِ العهود الثلاثة واقيده بالمواثيق وبعدها يستطيع ان يذهب حيث شاء . فاقسمت وتعهدت بان اعيش في انجلترا عيش الفردية الصرفة وان لا امس الخمر او اللحم . فلما انتهيت من قسمي ، ، باركتني امي وسمحت لي بمغادرة بلادي

وسارعت الى « بومباي » تاركاً زوجي ومعها طفل لا يتجاوز عمره بضعة اشهر . ولكني لم اصل الى هذا الثغر حتى التفَّ باخي الاصدقاء وقالوا له ان المحيط الهندي يكون ثائراً خلال شهري يونيه ويوليه . ولما كانت هذه سفرتي الاولى ، وجب ان ارجئ سفري الى نوفبر . وقال آخر ان باخرة غرقت خلال عاصفة . وكان هذا سبباً في ان يتململ اخي ؛ ورفض ان يتحمل مسؤولية السماح لي بالسفر توًّا . فتركني في « بومباي » مع صديق وعاد هو الى « راجكوت » ليؤدي اعماله ، وترك نفقات السفر مع احد اقاربه ، واوصى بي الاصدقاء ان يقدموا اليَّ ما احتاج اليهِ من المساعدات ومرت بي الايام والساعات طويلة متثاقلة في « بومباي » لاني كنت احلم بانجلترا وما فيها

***

واخذ رجال طائفتي الدينية يبدون اعتراضاتهم على سفري الى الخارج ، بل بلغ بهم الامر الى اظهار مقتهم وغضبهم . فانهُ حتى ساعة عزمي على السفر لم يغادر واحد من طائفتنا شواطئ الهند ، فاذا اقدمت على السفر وصممت عليهِ ، وجب ان يحتكموا معي الى الكتاب . فقعدت جمهرة من رجال الطائفة ودعوني الى الظهور امامها لاجيب عما يوجه اليَّ من اسئلة . ولست ادري كيف استجمعت قدراً كافياً من الشجاعة حملني على الذهاب الى جمهرتهم . على اية حال لم أتوان عن الذهاب اليهم ، فاخذ رئيس الطائفة ، وكان من اقاربي البعيدين ، ولكنهُ كان على صفاء مع ابي ، يلقي هذه الكلمات :

« من رأي الطائفة ان عزمك على السفر الى انجلترا امر لا يتفق وعقائدنا . ثم ان ديننا يمنعنا عن السفر الى خارج بلادنا باي حال من الاحوال . وكذلك وصل الى مسامعنا انهُ من

المستحيل ان يعيش الانسان هناك من غير ان يحلّ ما حرّمَ ديننا فان المرء يضطر اضطراراً ان يأكل ويشرب على طريقة الاوربيين » . فكان جوابي — « لا اظن مطلقاً ان الذهاب الى انجلترا يكون فيهِ اي تناقض مع مبادئ ديننا . وغرضي من الذهاب الى هناك ان اكمل دراستي . هذا فضلاً عن اني وعدت امس ان ابتعد عن ثلاثة اشياء هي اخوف ما تخافون . واني لعلى يقين من ان قسمي سوف يحفظني من السقوط »

قال الرئيس « ولكن نؤكد لك انك سوف لا يمكنك ان تقوم بفروض الدين هناك . وانت تعلم علاقتي بابيك وغيرتي عليك . ولذا ارغب في ان تسمع نصحي وترضخ لارشادي» فكان جوابي — « اني لاعرف علاقتك بأبي ، ولكن لا حيلة لي في الامر .لاني لا استطيع ان ارجع عن عزمي على الذهاب لانجلترا . فان احد اصدقاء ابي ذوي العلم والمعرفة ، وهو برهمي ذو وزن وقيمة ، لايرى مانعاً يحول دون ذهابي ، وعلى رأيه وافق أخي ووافقت أمي »

« ولكنك ستخالف نظام الطائفة »

« لا حيلة لي ولا مخرج.وان الطائفة سوف لا تتدخل في هذا الشأن» . ولقد اسكتت هذه الكلمات الرئيس ، فاخذ يحدجني بنظراتهِ وانا جالس لا اتحرك ، ثم أعلن ما يأتي :

« سوف يعامل هذا الغلام على انه خارج على الطائفة مطرود من حظيرتها منذ اليوم . وكل من يذهب ليودعه على الميناء سوف يعاقب بغرامة مقدارها روبية وأربعة انات »

فلم يؤثر فيَّ هذا الامر أقل تأثير وتركت الرئيس توًّا . ولكن اشفقت من ان يكون للامر أثر في نفس أخي . ومن حسن حظه ان الامر لم يهزه ولم يغير رأيه، بل كتب يؤكد لي انه يأذن لي في السفر على الرغم من معارضة رئيس الطائفة واعضائها في « بومباي »

***

وبينما كنت في هذه اللجة المضطربة سمعت ان محامياً من المعروفين سيسافر الى انجلترا على سفينة ستغادر الميناء في اليوم الرابع من شهر سبتمبر . فبادرت الى الاصدقاء الذين اوصاهم بي أخي ، فوافقوا على ان انتهزفرصة السفر مع هذا المحامي ولم يكن لديّ من الوقت ما اسمح بضياعه . فأبرقت الى أخي استأذن فاذن . وسألت قريبي ان يعطيني المال الذي تركه أخي معهُ . ولكنهُ استمسك بالامر الذي أصدره رئيس الطائفة وقال انهُ لا يريد ان يطرد كما طردت . وبعد لأي استطعت ان اسوي الامر بعد الالتجاء الى صديق لولاه لما استطعت ان آخذ مالي واحصل على نفقات سفري.ووصلت الى سوثمبتون حوالي آخر شهر سبتمبر ١٨٨٨

الربيع الاخير

لمياء هذا جبين الفجر قد سفرا ... وموسم الحب عنا مزمع سفرا

وأضيع الناس من يمضي الشباب ولا ... يقضي من الحب في ايامه وطرا

طيري نزوّد قليلاً من لذائذه ... ماذا يفينا بخيل زوّد العمرا ؟!

إن يرمنا برفات من ازاهره ... فقد خلعنا عليه الريّق النضرا

طيري ننقر مع الاسراب في فرص ... ان طرن لن تجدي حبًا ولا ثمرا

غداً نذوب الى الاعناب من ظمإ ... ونهبط الكرم لا نلقى لها اثرا

لنا من الشفق السحري اجنحة ... فما التفاعك في جنحي دجى وكرى

عيب علينا نكون البلبلين ولا ... نشارك الطير في اعيادها سحرا !

أما ترين الدجى لمّت غدائره ... سوداً فنشّرها رأد الضحى شقرا

وقد فشا بين اضلاع النوافذ من ... عطر الخمائل سرّ حرّك الشررا

والغاب ألّف جوقاً من عشيرته ... الريح والنهر والاطيار والشجرا

والبدر كالناشئ العصري عاد ضحى ... من مرقص النجم يشكو الضعف والخورا

يمشي الى الساحل الغربي متئداً ... كالشيخ في سفح تل الافق منحدرا

والارض حارت أتلقى الفجر ضاحكة ... لأمها الشمس أم تبكي ابنها القمرا

والليل فرّ فرار العبد حين رأى ... مستودع النور في آفاقها انفجرا

والصبح أرخى نقاباً من اشعته ... أخفى به الزهر لما أعلن الزهرا

سبحان من أبدع الانوار معجزة ... ان شاء ابدى بها الاشياء او سترا

والريح تنفخ نايات الغصون على ... سمع العقيق فيجري دمعه غدرا

ناحت على أرزها المهجور شارحة ... ما رجّع الشاعر المنفي مختصرا

حتى اذا لطفت بالبث لوعتها ... وصدعت بمراثي حبها الحجرا

راحت تفلّي نواصي الدوح ساكبة ... من قمم الفجر اذكى ما الندى قطرا

والنهر ساح كأن البحر مدّ يداً ... بين المزارع تهدي الماء والدررا

طوراً له زأرة الدرزي ثار على ... جلاده والى استقلاله نفرا

وتارة يملأ الوادي تنهده ... كأن لبنان في اغلاله زفرا

وللجداول أنات مرجّعة ... كأنها فجّرت من اكبد الشعرا

ينصب سلسالها خمراً معتقة ... كادت تشعشع منها القطرة النهرا

فالغصن من طيب رياها ترنحهُ والطير مما حسا من طلّها هذرا
وللسحاب ثنيات مصففة بيض كأنّ عجوزاً جعّدت شعرا
تذهّب الشمس اطراف اللجين بها كما توشي يد الزوقية (١) الحبرا
وللغمامة اذيال معطرة مثل البخور علا في السفح وانتشرا
كانما التل أمّ النهر مبترداً ثم استحى من عيون الفجر فاتزرا
والطود حصن وراء السحب ممتنع والشرح قامت على اسواره خفرا
كأنّ دارعة يوم الوغى ضربت دخانها دون ابصار العدى سترا

***

هيا الى الغاب اني قد بنيت لنا من الرياحين عشاً لينا عطرا
تحنو علينا ظلال الأيك رقطها من الأشعة كف ترسم الزهرا
اذا سئمنا ذرى أفنانها سرراً مدت لنا الارض من اعشابها حصرا
فرّي اليه معي عند المساء ولا تروي الى بشر من امرنا خبرا
اني كريم احب المال مشتركاً لكن غيور اريد الحسن محتكرا
إياكِ ! لا تجعلي في الحب خمرتنا خلا ولا تمسخي فردوسنا سقرا
لا تأملي من جوار الناس منفعة فلنبتعد عن حماهم نأمن الضررا
لم يعمروا من بقاع الارض عامرة إلاّ وقد غمروا بالشر ما عمرا
لا تعبري السوق إلاّ بعد بسملة فالبحر اسلم من سوق لمن عبرا
تلك الصفائح في ابوابهم مثلثت —مما به ملأوا أجوافهم— قذرا...
غضي الطرف عنها واحذري خطراً من كل درب به عزريلهم خطرا
وحش المدينة ما ذئب الفلاة عوى حول الخباء وما ليث الشرى زأرا
وما فحيح افاعي الغاب محنقة اشد وقراً على الاسماع ان جأرا
تدهي السوابل منهُ كل داهية دم الأنام بها هدر لمن هدرا
حطمُ الاضالع إن وافاهم قبلا وخانق الغاز إن ولاّهم دبرا
كاللص ينتعل المطاط من حذر ولا يحذر حتى يبطل الحذرا
(فورد)، وهل راكب رجليه يجهل ما (فورد) وزمرته؟ ألثيم بها زمرا !!
كأنهن دواليب المنون جرت تغتال كل بريء في الطريق جرى ...

***

حسّونتي حسبنا في دورهم جزعاً وحسبنا ما لقينا بينهم عبرا

(١) نسبة الى « الزوق » من قرى لبنان وقد اشتهر اهلها بالتطريز بخيوط الذهب والفضة

الطير منهم الى أوكارها لجأت فلنجتنبْ في زوايا عشّنا الخطرا
ما أبهج القفر عنهم سوف يُبعدنا وما أحنّ علينا الباز والصقرا ! !
لا ! لا ! دعيني وحدي لا اريد معي إلاّ الكتاب وإلاّ العود والوترا
خُلِقت للشعر في الغابات انشده حرّاً، وما أضيع الأحرار في الأُسرا ! !
وأسمع الروض منهُ كل مبتكرٍ لم يُبق للبلبل الصدّاح مبتكرا
فرفرفي أنتِ في القضبان ناعمةً وأطربي السقف بالالحان والجُدُرا . . .
لا تبرحي قفصاً عوّدتِ زخرفهُ ولا تقولي حبيب القلب بي مكرا !
ماذا تلاقين من حليٍ ومن حُللٍ في الغاب تفتن منك السمع والبصرا ؟؟؟
ومن غرائب أفلام اذا نطقت اشباحها خلت يوم البعث قد حضرا ؟؟؟
وكهرباء اذا انوارها سطعت توارت الشمس من لألائها خفرا ؟؟؟
ووجهاتٍ كأرماس الملوك حوت ما عزّ من تحف الدنيا وما ندرا ؟؟؟
ما في الحقول سوى درّ الندى وسوى ماس الشعاع حليٌ تبهر النظرا . . .
كأنما القبة الزهراء شعشعها وهج الضحى فهوى بلورها شذرا . . .
ولن ترى صوَراً فيها مشبّحةً الاّ السماء والاّ الانجم الزُهُرا . . .
ولا محافل الاّ الطير شاديةً ولا منابر إلاّ الميّس الخضرا . . .
ولا معارض أزياء سوى قِطَعٍ من الرياض عليها اللؤلؤ انتثرا . . .
على ضفاف السواقي مُدّ مخملها وفوق هام الربى ديباجها نُشرا . . .
هيف الغصون تماثيلٌ لها ودُمى ويانع الزهر ازرارٌ لها وعُرى . . .

***

هذي سخافات اهل الفنّ ينشدها من رهطهم كل من غنى ومن شعرا !
وأنتِ من فئة الجدّ التي زعمت ان السعادة بيعٌ دائم وشرا !
حتى كرائمهم في شرعهم سلعٌ لن تبرح الخدر حتى تنقد المهرا !!!

***

يا ساكن القصر لا تهجر مشارفه أأنت من اجل كوخ تترك القصرا ؟ ! !
وهل لسكنى بُيَيتٍ فرشهُ حجرٌ تفارق الغُرف القوراء والحجَرا ؟! !
من ذا يبدّل بالأبهاء مزرعةً وبالطنافس طين الحقل والمدرا ؟ ! !
ومن يميلُ عن الغزلان آنسةً أسرابهنّ ليرعى الشاه والبقرا ؟
ما بالخيام لارباب القصور غنىً وليس للبدوشي لا يعجب الحضرا . . .

خلِّ الهيام بجنات مزخرفة لشاعرٍ يعشق الاوهام والصوَرا
نحن الفلاسفة الحمق . . . لنا ولَعٌ بالغاب حتى غدونا نكره البشرا
لاننشقُ الريح هبت عن حواضرهم حتى تجوز حقولاً رُصِّعت بقرى
ولا نشم الصبا إلاّ وقد قطرت اذيالها من ندى اسحارنا عطرا
للجن عبقرُ من كتّابنا صحبٌ وللشياطين من شعّارنا عُشَرا
تُسري بنا من سماء الوحي في حُبُكٍ خضراء تُطلق في اجوازها الفكرا
تنحل فيها طيوف النور صائغةً روضاً من السحر باللألاء مزدهرا
وينشر الحب في ارجائها أرجاً لو شمَّ جبريل منهُ نفحةً سكرا
اذا شرعنا له اقلامنا نفثت سحراً أ ألم تقرإ الآيات والسُّوَرا؟!

***

لا يُنبتُ الدين بغضاً في مزارعنا مهما اخو الجهل من اشواكه بذرا
الكل فينا جنودٌ للاخاء فما في دولة الشعر نوابٌ ولا وُزرا
أمّا الطغاةُ : فلا نخشى صوالجةً وكم نصبنا لها هاماتنا أُكَرا
نستعذب الموت من اجل الحياة فما يجني الورى الشهد حتى نجنيَ الإبرا
عفنا القشور وهمنا باللباب فلا يزرِ الجهول علينا أننا فقرا
لا نقدر الناسَ إلاّ بالعقول ولا نقيم للمال وزناً قلَّ او كثرا
ولا نساوي بفردٍ من نوابغنا كل الأُولى اشتهروا فوق الثرى بشرا
نور المسيح تجلّى من مذاودنا وسيف احمد من صحرائنا شهرا

***

وهل سمعت بغندي ؟ انه حمَلٌ في الهند ثار على الضرغام وانتصرا
ان كان عاب عليهِ العريَ مستترٌ فانَّ آدم لولا الإثم ما استترا . . .
هذا الضعيف الذي لو هزَّه ولدٌ لاندقَّ كالعود في كفّيه مندثرا
هزّوا الحسام فلم يحفل وهزَّ لهم غصن السلام فهزَّ البحر والجزُرا
وغادر السيف يحكي غمده فلَلاً فاعجب لغصنٍ يفلّ الصارم الذكرا

***

قل للذي تاه بالاسطول مفتخراً البغيُ لؤمٌ فتهْ بالعدل مفتخرا
لا بدَّ للضعف من ظلمٍ يثور بهِ والويل للظلم من ضعفٍ اذا ثأرا
يا صاحب الحق قد حالفت مقتدراً فلا تخف، ماصحبت الحق ، مقتدرا

سان باولو اول اذار (مارس) سنة ١٩٣٢ الشاعر القروي

الله والرياضيات

لشارل مالك

شمول الرياضيات ونفوذها

من اروع المظاهر التي تتجلى عنها الحركة العلمية الحديثة شيوع الاسلوب الرياضي للبحث في العلوم جميعاً . فالتقدم العلمي الحديث ليس بالفعل سوى أثر لغزو الرياضيات جميعَ نواحي التفكير . ولايقتصر هذا الغزو الرياضي على العلوم الطبيعية كالفلك والطبيعيات والكيمياء التي اظهرت منذ بدايتها انقياداً فريداً للاسلوب الرياضي والصبغة الرياضية بل تعداها الى سائر العلوم والابحاث . فعلوم الاحياء والعلوم الاجتماعية اصبح مثلها الأعلى ان تمكّن الاسلوب الرياضي من بحثها فان هي فشلت في ذلك شعرت انها بالقدر الذي فشلت به لايجوز لها ان تحسب نفسها علماً بالمعنى الصحيح . فالاسلوب الرياضي اصبح لذلك وهو عبارة اخرى للاسلوب العلمي

وسرٌ هذا كله تتضمنهُ طبيعة الاسلوب الرياضي اذ ليس من المعقول ان يطغى امرٌ ما على حقل واسع طغيان الرياضيات على العلوم دون ان تكون علة هذا الطغيان مستقرة في طبيعة ذلك الامر . ومع اننا لسنا في هذا المقال بصدد بحث ماهية الرياضيات لكننا نلاحظ ان العلة الاولى لهذا النجاح الباهر الذي صادفتهُ الرياضيات في تطبيقها على الكون تستفاد من جنوح الرياضيات الى العد والقياس والمقابلة الكمية . فالصفة الكمية للموجودات تبز سواها من الصفات اطلاقاً وتجريداً . فالعدد « خمسة » مثلاً يطلق على مجموعات من الموجودات لا نهاية لعددها مهما تباينت خصائصها الاخرى وتناقضت، فاذا كان لديك مثلاً مجموعتان من الموجودات احداها خمسة شياطين والاخرى خمسة آلهة فتستطيع ان تجرد من صفات كلٍّ من هاتين المجموعتين ، على تناقضهما الصريح ، صفة فذة هي ان كلاً منهما «خمسة» . ومع ان المجموعة الاولى مستقلة غاية الاستقلال عن المجموعة الثانية ومع انها لذلك تشكل نظاماً خاصاً بها منفصلاً عن النظام الخاص بالمجموعة الثانية ، لكن هذا الاستقلال والانفصال للواحدة عن الاخرى كاملٌ في كل شيء الا في جانب واحد هو الجانب الرياضي ، لان كليهما خمسة . فترى من هذا ان الرياضيات عامل موحدٌ بين الموجودات اذ بحكمها اصبح النظامان المستقلان نظاماً واحداً ذا سنن طبيعية يسري مفعولها على كليهما على السواء . فاذا انفصل شيطانان عن المجموعة الاولى والهان عن المجموعة الثانية استطعت ان تقرر قراراً مطلقاً ان ماتبقّى من كل من المجموعتين هو «ثلاثة» . فلهذا نصرح بأن الجانب العددي من الموجودات هو اكثر جوانبها اطلاقاً وتجريداً وتوحيداً

ولهذا الجانب العددي صيغة خاصة هي المعادلة الرياضية . فكل بحث رياضي ينتهي ، او باستطاعتنا ان نثبت انهُ انما ينتهي ، الى تصريح أن مجموعة معينة من الموجودات تعادل من حيث الوجهة الكمية مجموعة اخرى . ولذلك فان اهم ما يشغل الرياضيات اذ تكتسح مختلف العلوم ان تستخرج المعادلات الرياضية التي تنطبق على الكون ، اي ان ترسم الكون وهو معادلٌ بعضه لبعض . وليست جميع هذه المعادلات من نفس الصنف بل هي تختلف باختلاف اوجه الموجودات التي تنطبق عليها . فمن بديهيات العلم العامة ان للحوادث اوجهاً عديدة يختلف بعضها عن بعض من حيث النوع والثبات والاطلاق والاهمية التعليلية وما اليها . ولكل من هذه الاوجه جانبهُ الرياضي اي معادلته الرياضية . ولذلك فالمعادلات الرياضية التي تصف الكون تنقسم اقساماً وصفوفاً واجناساً منها ما ينطبق على الاوجه الثابتة للحوادث ومنها ما يمسُّ نوعاً من الحوادث معيناً ومنها ما يقوم بوظيفة تعليل وجود الحوادث العلمي وتاريخها ومصيرها ومنها ما يتناول اوجه الحوادث المستحيلة فيضبط هذه الاستحالة مهما كانت مستدقة ومنها ما يعرض لتصرف الموجودات المتشابهة التركيب الكثيرة العدد. وهكذا

ومع ان الرياضيات تتمثل في العلوم الاجتماعية والعضوية بما لا يقل عن تمثلها في العلوم الطبيعية لكن تمثل قوتهـا في الوصف والتعليل اكملُ في العلوم الطبيعية منه في العلوم الاخرى . ويرجع هذا الفرق الى سببين جوهريين اولهما ان مادة العلوم الطبيعية ابسط بكثير من مادة العلوم الاجتماعية والعضوية ، فالمعادلات التي تصف تصرف الموجودات الطبيعية، على تعقدها وصعوبة تركيبها ، اقرب منالاً واهون استكشافاً من مثيلاتها في العلوم الحيوية . وثانياً اننا في العلوم الطبيعية نتناول مادة لا تمتُّ الى عاطفتنا بسبب مباشر بينا نحن في العلوم الحيوية كثيراً ما نعرض لامور تثور لها عاطفتنا فتأخذ علينا لذلك كل سبيل للتفكير الحر الطلق . فمن منا يطيق ان يقال له انه انما يؤمن بدينهِ دون سواه ويعطف على ابنه دون غيره من بني البشر لانه تتمثل في ايمانه وعطفه معادلة رياضية خصوصية هي : ا = د (م)

حيث نرمز بـ ا الى شدة عطفه او ايمانه وبـ د الى دالة رياضية خصوصية وبـ م الى عدد المرات التى تعرَّض بها للاحتكاك بابنه او بثقافة دينه

ومهما يكن من امرٍ فانـا امام حقيقة خالصة لا سبيل لنكرانها البتة . وهي ان الرياضيات اينما سعت في هذا الكون للوصف والتعليل نجحت في سعيها ، هذا اذا استثنينا تلك الناحية الهامة من الجوهر الفرد التي تتعلق باستحالة طاقته ، ولـكن حتى في هذا الذي نستثنيه لا نستطيع ان نقطع في ان الرياضيات فشلت فشلاً لا قيام لها بعده اذ لا يستبعد ان يكون هذا الفشل الظاهري مترتباً على استعمال نوع خاص من الرياضيات في ناحية انما تتطلب نوعاً آخر . فمتى قام العبقري المنتظر واستنبط هذا النوع الجديد قد نرى أن ما حسبناه فشلاً

للطريقة الرياضية لم يكن في الواقع سوى قصور منّا نحن . ومع انا لانستطيع الجزم حتى في احتمال تحقيق هذا الامل يمكننا ان نلمح في تفشي الرياضيات هذا التفشي المدهش في جميع جوانب الكون ظاهرة غريبة تدعونا على الاقلّ الى التأمل والتساؤل . ولقد تأمل وتساءل بشأنها العلماء والفلاسفة منذ ان بزغ هذا الصنف من البشر، واخيراً نقرأ تأمّل وتساؤل العلامة الانجليزي جيمس جينز الذي لخص له المقتطف للآن عدة فصول ونظريات. وغرضي من هذا المقال ان اعرض للقارىء نتيجة تساؤل هذا العالم وتأمله فيما يختصّ بالدين وبطبيعة الله وان اسمح لنفسي ان تنتقده

***

يجد الوعي البشري نفسه في كون اشبه ما يكون بالمرجل الدائم الغليان المستديم الحركة المملوء بضروب من الموجودات لا يحصيها الحصر ولا يحيط بها التعداد ، ويلمح الحوادث فيه تتعاقب بانتظام وهدوء واستقلال ظاهريّ عنهُ . تجاه هذه الصورة المرعبة لاول وهلة المتفانية حقّا في الجلال والجمال والمعنى ، يتساءل الوعي البشري بخشوع ما بعده خشوع : كيف انفذ الى سرّ هذا الكون، كيف افهم علّة كونيته ، اي تلك الخاصة التي تطبعهُ كوناً لا اكواناً ؟ كيف اعلل تصرّفه ؟ . ومع ان السواد الاعظم من البشر يولد ويعيش ويفنى ولا يحاول ان يعرف من الحياة والكون سوى ما يتصل ببطونهِ وشهواتهِ الاّ ان التاريخ يكشف عن وجود قوم يقرأون في الحياة رسالة تفنى لدن جمالها وسموها البطون والشهوات . رسالة الحياة هذه ان تستشف جمال الكون وحقيقته وحسنه ، وان تشيد بأدوات تفكيرك ورموز لغتك نظرة تعليلية عامة تتسق فيها جميع حوادث الكون وجوانبه

النظرات الكونية المتعاقبة

ولقد تعاقبت في التاريخ بضع نظرات كونية نذكر منها على سبيل المثال ثلاثاً . فهناك اولاً النظرة التي تطبع تصرف الكون بالصفات البشرية فترى الغضب والحب والحكمة وما الى هذه الصفات التي نتعرفها في الانسان متغلغلة في جميع حركات الكون . فالعصفور المذبوح انما يرقص من الألم والمه هذا لا يختلف عن الم الانسان في شيء جوهري ، والعاصفة الهوجاء انما تشف عن غضبة الطبيعة ، والرومان انما سقطوا في القرن الخامس للميلاد لأنّ الكون انزل بهم عقاباً استحقوه لظلمهم وفسادهم وقبح سلوكهم ، والانكليز يسودون الارض ، او كانوا يسودونها الى عهد قريب ، لان الكون اذ قابلهم بسواهم من الاجناس البشرية الفاهم يستأهلون هذه السيادة لعدلهم وسموّ ثقافتهم ومتانة تنظيمهم فمنحها اياهم . والماء يجري والارض تدور والطفل ينمو والريشة تطير والحبيب يقبل حبيبتهُ والحرُّ ينادي بسقوط الاستبداد والاستعمار ، كلُّ هذه مظاهرُ وان تباينت لكنها في الحقيقة تستمد لبابها من مصدر واحد

ذي ارادة كونية واحدة نستطيع ان نعرفها مما هو معروف عن خصائص ارادة الانسان . هذه هي النظرة البشرية للكون فهي تطبع الكون وتصرفهُ بالصفات البشرية المألوفة

وهناك نظرة كونية ثانية سادت وتوطدت في القرن التاسع عشر اعني النظرة الميكانيكية للكون . هذه النظرة ترمي الى وصف كل شيء بالسنن التي تضبط حركة الاجسام الصلبة اي بالسنن الميكانيكية . فالتفكير في الانسان ليس سوى ظل للحركة الميكانيكية التي تحدث بين دقائق دماغه ان لم يكن مجرّد هذه الحركة بعينها، والحب والعاطفة ليسا هما الآخران سوى اثر لهذه السنن الميكانيكية في جسم الانسان . وبالجملة ان كل تصرف في هذا الكون ، في الفلك وفي المادة وفي الحياة ، تتحكم فيه وتعينهُ السنن الميكانيكية المعروفة لدى علماء الطبيعيات

وقد بزغت في القرن العشرين نظرة كونية ثالثة هي النظرة الرياضية التي يأخذ بها السر جيمس جينز والتي يبني عليها فكرته في الله وطبيعته وخلاصتها ان الرياضيات اظهرت من النجاح الشامل في ضبطها تصرّف الكون ما يسوّغ لنا الاعتقاد بانها اقرب الى كنهه من سواها من الوسائل الذهنية . فقد زال الاثير المادي بمعناه العتيق وحلّ محلّه نظام محوري رياضي تسند اليه جميع الحوادث وتتغير مزاياه بتغير المشاهد الذي يسند الحوادث اليه .والالكترون الذي تتركب منهُ المادة لم يعد تلك الكرة الصلبة الشبيهة ببلية الاولاد فضاء وتصرفاً بل صار دالة رياضية يعبر عنها الرياضيون بعبارة « دالّة بْسي » .وهذا النور ليس بتلك التموجات الاثيرية التي تصورها علماء القرن التاسع عشر بل هو ذاك التركيب في صلب الكون الذي تعنيه معادلات مكسول الشهيرة بما ادخل عليها حديثاً من تعديل واضافة . والطاقة او القوة إنْ هي بالفعل سوى تلك الكمية الثابتة التكاملية التي يعرفها جيداً جميع تلاميذ علم التكامل أُدخلت على معادلة تكاملية معينة . وهكذا نستطيع ان نثبت ان جميع الفكرات الطبيعية ليست سوى معادلات رياضية او اوجه خصوصية لمعادلات رياضية . ولكن ما قولنا في العلوم الاجتماعية والحيوية ؟ هل بامكاننا التصريح بشأنها ما صرّحنا بشأن العلوم الطبيعية ؟ لا احسب اننا نستطيع ذلك تماماً الآن ، لكن بامكاننا ان نقرر الشأن الخطير الذي اصبح للرياضيات مؤخراً فيها والذي تُجمع جميع البوادر للآن على انهُ سيزداد خطراً وبروزاً

لا اخال في العالم الآن عالماً اجتماعيًّا يؤبه لكلامه لا يبني ابحاثه واستنتاجاته على الطريقة العلمية الرياضية . ان عصر سبنسر وكونت وغوستاف لبون ودركهيم قد زال الى غير رجعة وطريقتهم في استقصاء الحقيقة الاجتماعية لم يعد يلجأ اليها واحدٌ من العلماء المستحدثين ، ذلك لان طريقة هؤلاء كانت الطريقة التجريدية الخيالية التي يتوقف خطأها وصحتها على شطر كبير من الصدفة اي على مقدار ما صادف فكرهم وكان مخطئاً او مصيباً ،لا على معيار موضوعي للحقيقة الواقعية . ولذلك فنظرياتهم ليست بالنظريات المبرهنة بل هي آراء لا تزال تحتاج ،

على جمال رونقها وحسن وقعها ، الى البرهان العلمي بانها هي الحقيقة الواقعية . والعلم الآن لا يقدر ان يطيق الصدفة تتسرب الى صواب تصريحاته وخطإها . ولذلك فانك تراه يعكف على انتهاج الخبرة والمشاهدة والاستنتاج وهذه كلها لا نعرف قالباً انسب لصوغها من القالب الرياضي . من هنا نشأ علم الاحصاء الحديث بما يتفرع عنهُ من الفروع الرياضية العالية كعلم الاحتمال وما اليه . وفي هذا العلم يوجد مقدار رياضي يدعى « الخطاء الاحتمالي » يلصق باية مشاهدة او استنتاج او مجموعة من المشاهدات والاستنتاجات على الاطلاق سواء اكانت في الحب او الاستقلال او الكهرباء او النسيم العليل . وقد قال لي عالم معروف في الاوساط الطفيلية العامية في العالم كله ان اية مشاهدة لا تقرن بخطإها الاحتمالي يمر عليها العلماء الآن دون ان يعيروها اقل التفات الا ملاحظة ان مؤلفها من صف العلماء العتيقين . وهذا الخطأ الاحتمالي رياضي بفكرته وبطريقة استخراجه وتطبيقه

واذن لدينا ثلاث نظرات كونية شاملة ، النظرة البشرية والنظرة الميكانيكية والنظرة الرياضية . فهل ثمة سبيل الى المفاضلة بينها والى الاخذ بواحدة دون سواها ؟

المفاضلة بين النظرات

هذا ما نخاله سهلاً اذا وقرنا الشروط التي يجب ان تتحق في اية نظرة صائبة للكون . واهم هذه الشروط ثلاثة ، التوحيد والتعليل والتنبوء . فيجب على النظرة اولاً ان توحّد بين كل ما تستطيع الى توحيده سبيلاً من مظاهر الكون فتجعل هذه المظاهر تلوح كلها وهي حالٌ خصوصية لحقيقة عامة واحدة . وثانياً ان تعلل مظاهر الكون بأن تحكها جميعاً في نظام منطقي تظهر كل ظاهرة فيه وهي معقولة طبيعية لا تصدر عن هوى وشذوذ ونفور . وثالثاً ان تمكن العالم من التنبوء بوقوع حوادث معينة يتحقق وقوعها في حينه . ومغزى هذا الشرط الثالث ان النظرة به تشمل المستقبل وتوحّده بالحاضر والماضي فاذا تحقق في نظرة خاصة شعرنا بازائها انها اقرب الى سرّ الكون من سواها من النظرات التي يتحقق فيها الشرطان الأولان فقط، لانها علاوة على ما هو معروف تضمّ مالم يعرف بعد

بهذه المعايير الثلاثة نستطيع ان نقنع انفسنا بان النظرة الرياضية للكون اقرب الى حقيقته من النظرتين البشرية والميكانيكية . فالنظرة البشرية مع انها تنجح نجاحاً باهراً في تحقيق الشرط الاول اذ توحّد جميع تصرفات الكون في تصويرها اياها تصدر عن ارادة وعاطفة لا تختلفان في شيء جوهري عن الارادة والعاطفة البشريتين لكنها تعجز عجزاً بيناً في تحقيقها الشرطين الاخيرين ، فهي لا تعلل الكون لانها لا تدلنا على سبب تصرفه ، فلماذا غضبت الطبيعة ولماذا تحرك الماء ولماذا تكامل خلق البريطانيين حتى نالوا جزاء حسناً من الكون ،

هذه اسئلة اذا ما حاولت هذه النظرة ان تجيب عليها فانها تفعل ذلك بشيء كثير من التكلف والتصنع وتظهر تعليلاتها نافرة مفتعلة غير معقولة . ويزداد عجز هذه النظرة فضيحة اذ تحاول التنبوء عن الحوادث ، فهي بكامل الصراحة لا تملك من هذه القدرة شيئاً . اما النظرة الميكانيكية فصيبتها مصيبة النظرة البشرية ولكن بقدر اخف وطأة منها . فهي تنجح في التوحيد الا فيما يختص بالاشعاع والجاذبية والصفات الاجتماعية والحيوية لكنها تعجز كذلك في بعض التعليل وبعض التنبؤ . فتصرف الجوهر الفرد لا يقع بكامله ضمن نطاق تعليلها ولا تستطيع ان تتنبأ بشأنه كثيراً . كذلك هي فشلت في تعليل بعض التجارب كتجربة ميكلصن ومورلي وغيرها

والآن اذا قسنا النظرة الرياضية بهاتين النظرتين العاجزتين الفيناها اكمل ، ولذلك اقرب الى طبيعة الكون منهما . فهي توحد الكون في صيغة المعادلة الرياضية وقد نجحت في تعليل كل ما تناولته للآن تقريباً تعليلاً منطقياً معقولاً وجميع نبوءاتها صائبة . من اجل كل هذا يقول جينز ان مهندس الكون يتقن جيداً هذه اللغة التي يتكلم بها العلم الحالي ، اعني لغة الرياضيات ، وهو عند ما خلق الكون هندسه على الطراز الرياضي ، فالله اذاً رياضي خالص

اننا نرى الكون مشبعاً بالرموز والالغاز وعند ما نحاول حل هذه الرموز وفك هذه الالغاز نجدها تنفك وتنحل بالوسيلة الرياضية اكثر منها بأية وسيلة اخرى . ولذلك هذه الوسيلة الناجحة تنفذ الى لباب الكون اكثر من سواها . افنكون مغالين اذا استنتجنا ان منظم هذا الكون وقع اختياره في تنظيمه الكون على المعادلة الرياضية من بين جميع ماعداها من الوسائل ؟ واين الخطأ في اليقين بأنه في هذا الاختيار اثبت ان طبيعته انما تنسجم الانسجام التام مع الرياضيات الخالصة وانه لذلك الرياضي الخالص للكون اجمع ؟

عيوب رأى جينز

هذا ما يعده جينز رسالة العلم الحديث عن طبيعة الله . وبودنا الآن ان نكشف عن بعض القصور الذي يشوب هذه النظرية . اذا بحثنا قليلاً طبيعة الرياضيات تكشفت لدينا عدة عيوب لنظرية جينز . فمن المعروف جيداً لدى علماء الطبيعة والرياضيات معاً ان الرياضيات ليست نظرية للحقيقة الواقعية بل نظاماً ذهنياً بحتاً ، وحتى لو كانت غير متصلة بالحقيقة الطبيعية لما نقصها شيء من الروعة والجمال والحق . واتصالها هذا بالطبيعة وسننها جاءها بالصدفة دون ان نرغب فيه أو عنه . خذ مثلاً نظرية اينشتين في نسبية الحوادث . هذه النظرية لا تنطبق على الكون الا لان سرعة النور ثابتة ولكن حتى ولو كانت هذه السرعة غير ثابتة فان النسبية لا تفقد شيئاً من مزاياها الرياضية بل تستمر بناء رياضياً خالصاً لا يعتريه اقل نقص . وغاية ما يكون قد حل بها عندئذٍ اننا لا يمكننا التصريح بانها تنطبق على الكون وهذا ليس بالكارثة الكبرى

للنظريات الرياضية لان قيامها كنظريات رياضية لا يتوقف بحال من الاحوال على الحقيقة الواقعية. من اجل ذلك يعرف العلماء جيداً انه توجد ثمة عدة نظريات رياضية لا نعرف سبيلاً لتطبيقها على الكون وليس من الضرورة ان نعرف لذلك سبيلاً وان ما طبق بالفعل على الكون من النظريات الرياضية ليس سوى نخبة صغيرة من مجموعة ما عرف وسيعرف من النظريات الرياضية. فالكون ينتظم بنفسه والرياضيات تنتظم بنفسها وتلامس الاثنين في بعض نقطها انما هو عرضي لا يفيد كثيراً عن طبيعة ايٍّ منهما

اذا طبقنا هذا على نظرية جينز امكننا تمييز ثلاثة انواع من الموجودات : الله والكون والرياضيات. والصورة الكونية التي يود جينز ان يرسمها لنا هي هذه : عند ماخلق الله الكون اختار بعض النظريات الرياضية نموذجاً لخلقه وترك جانباً البعض الآخر . وبودنا ان نوجّه الاسئلة التالية الى (١) لماذا وقع اختيار الله على النظريات التي وقع اختياره عليها ؟ (٢) اذا كان الله رياضيًّا خالصاً فلماذا رغب في ابراز رياضيته الى شكل كوني خارجي ؟ لماذا لم يكتف ، كما يكتفي الانسان الرياضي ، بالتفكير الرياضي المجرد دون ان يلبسه حلة من الكيان المادي ؟ وبالجملة ، لماذا خلق الله الكون ؟ الكي يتمتع برؤية بعض المبادئ الرياضية متمثلة فيه ؟ اذا كان الامر كذلك فان تمثل الرياضيات في الكون لا يزيدها جمالاً ورونقاً وكمالاً بل انها في حالها الصرفة المجردة ، كما يعرف ذلك كل من له المام بالرياضيات الخالصة ، اكمل واروع منها في حال انطباقها على الكون

ان اهم ما تتضمنه عبارة « الكون » أن ثمة ميزة خصوصية تحمل ما نحن بصدده على ان يكون كوناً واحداً . هذه هي الميزة الكونية للكون. واي كون على الاطلاق له ميزته الكونية اي ما يوحد بين جميع اجزائه . والرياضيات بانطباقها على الكون انما تقيس هذه الوحدة وتضبطها لانها ليست سوى ذلك النظام الذهني القائم على قاعدة العلاقة والوحدة . فاية علاقة واية وحدة على الاطلاق يمكن ان تضبط بالرياضيات . وبعبارة اخرى إن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع ، والواقع يتضمنه الممكن ولذلك فهو حال خصوصية منه. من كل هذا يتضح لدينا أن لا غرابة في انطباق الرياضيات على الكون الذي نألفه بل الغرابة كل الغرابة في ان لا تنطبق عليه لان اي كون على الاطلاق له رياضيته الخصوصية . فكون أحد الاكوان ، اي كوننا هذا مثلاً ، مضبوطاً بالرياضيات شرط ضروري لكونه كوناً على الاطلاق ، لا دلالة على ان خالق الكون رياضي في جوهر طبيعته

هذه الطائفة من الانتقادات نستخرجها جميعاً من دراستنا طبيعة الرياضيات . وثمة وجهة نقص اخرى لنظرية جينز . ان الرياضيات بانطباقها على الكون لا تنطبق على طبيعته بل على تصرفه ومع ان تصرف الشيء قد يفيدنا قليلاً او كثيراً عن طبيعته لكنه يتميز عن هذه الطبيعة تميزاً واضحاً . ولذلك فالماهية الداخلية لاية حادثة تظل في حرز حريز عن ان تصل

الرياضيات اليها . اي ان الرياضيات مهما نجحت في ربطها حوادث الكون وتفسيرها تصرفها وتنبؤها وقوعها لايمكن ان تنفذ الى كنه هذه الحوادث . مثلها في ذلك مثل مُضارب يستطيع ربط حوادث القطن وتفسير تصرفه والتنبؤ عن تقلبات سعره وهو قابع في زاوية من زوايا البورصة لا يعرف شيئاً عن القطن وطبيعته بل قد لا يكون قد شاهد القطن في حياته . وليس بامكاني ان ارى كيف تمكنهُ معرفته هذه من استنتاج شيء عن ماهية تلك العوامل الطبيعية التي بتساندها وتآزرها خلقت القطن . هكذا الحال في الكون، فان تصرفه متوقف على طبيعته لا طبيعته على تصرفه وقد تكون هذه الطبيعة ، بل هي بالفعل ، اوسع واكبر جداً من تصرفه الظاهري . ولذلك فان اي استنتاج لله من مجرّد هذا التصرف انما يستند الى الجزء الظاهري الصغير من مجموعة صفات الكائنات

والعيب الثالث الذي نلمحهُ في نظرية جينز هو انها لا توضح مركز الله من القيم والمعاني البشرية . فاين الحب الخالص واين الفن والاستمتاع ؟ اين التقدم والحق والابداع في السلوك؟ اين المثل العليا والكرامة الانسانية والغضبة للحق والصواب ؟ اين الخير والشر في الحياة؟ اين كل ما يُجمّل هذه الحياة ويسبغ عليها بهاء وجلالاً يجعلان امراً يسيراً كل تعب وكل شقاء في سبيل استكمالها واغنائها والتسامي بها ؟ هل يخدعنا الكون اذ يسمح لهذه القيم والمعاني ان تنمو فينا وتبدو اهم ماتضمره الحياة ؟ ام ان هذه القيم والمعاني مركزة في الله صادرة عنه؟ يقيننا نحن ان جينز بتشديده على الناحية الذهنية الرياضية انما يشدد على جانب هام من الكون لكنه ليس بجميع جوانبه . فلكي تنسجم نظريته مع كل حقائق الحياة وخبرتها يجب ان تشدد كذلك على مرارة العيش وحلوه ، على الاختبار المباشر الواقعي للحوادث ، على النفس تسمو بمثُلها وتتكامل بمجهودها وتستعذب المضض والشقاء في سبيل الحق والخير والحرية والجمال ؟

ورابعة ملاحظاتنا على نظرية جينز في الله انها تشط كثيراً عما يخرّج عليه التقليد الديني . فنحن لا يسعنا الاعتقاد بان كل ما في هذا التقليد خطأ بخطإ ، وكل فلسفة بشأن الله لا تشمل ما يجمع عليه هذا التقليد نراها في حل عن ان نشكك في صحتها او على الاقل في كمالها . الانبياء والصوفيون وقادة الروح البشرية في الاديان جميعاً يقولون برسالة في الله روحية، وانا نتصرف الى طبيعته مباشرةً بالحب والعفة والطهارة . ونحسبهم على حق اكيد فيما يقولون

***

الكون اعوص من ان تحيط به نظرة ذهنية خاصة والحياة اوفر من ان يستنفدها نظام تجريدي كالرياضيات ، وكل فلسفة بشأن الله لا تستمد الهامها من الحياة الصاخبة ، من المكر والحب والغباوة والتضحية الصامتة ، ينقصها غنى الخبرة الواقعية، وفلسفة الله يجب ان تتوّج خبرة الله لا أن تنوب عنها . ومن لم يختبر الله في قرارة نفسه لم يختبر شيئاً

ابو تمام

للاستاذ انيس المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

— ٢ —

قال الباقلاني بعد أن ذكر بضعة امثال على تصنع ابي تمام « فهذا وما اشبههُ انما يحدث من غلوه في الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب وربما اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه وكان التكلف بارداً والتصرف جامداً [1] » والذي يطالع ديوانه تحرياً لهذه التهم يتضح له ان اكثر ما ذكروه حق وان ابا تمام كثيراً ما يأتي بالاستعارة او الكناية دون ان يراعي التناسب بين الحقيقة والمجاز كقوله:

وركب يساقون الركاب زجاجة   من السير لم تقصد لها كف قاطب

يقصد بذلك أن المسافرين يشاركون ركائبهم في السير الشديد الذي لالين فيهِ ولا تؤدة . فاستعار السير الشديد للخمر التي لم تمزج بماء وجعل تشارك الركب والركائب فيهِ عبارة عن تساقيهم تلك الخمر الصرف. وانت لا تحتاج إلى تأمل كثير لترى شدة التعسف في هذه الاستعارة ومثل ذلك قوله : ضاحي المحيّا للهجير وللقنا   تحت العجاج تخاله محراثا

فالشطر الاول جميل جعل الممدوح من ذوي الاقدام والتعرض للمشاق ، لكنهُ الخش في الشطر الثاني إذ جعله محراثاً يشق غبار الحرب وأفسد جمال البيت . وقوله

آونى إذ جعلتهُ سنداً   كل امرىء لاجىء إلى سنده

ايثار شزر القوي رأى جسد   المعروف اولى بالطب من جسده

والشاهد في البيت الثاني وهو يريد أن يقول آوني ايثار القوي وقد غار للمعروف وقام يناصره فتأمل استعارته الجسد للمعروف . وايثار القوي له بالتطبيب . وقوله

لعمري لقد حرّرت يوم لقيته   لو ان القضاء وحده لم يبرّد

وانك لتشعر بقشعريرة البرد في هذا البيت . وهو يقصد ان يقول ان حميّتك قد ثارت يوم لقيت العدو وكدت تفتك بهِ لولا ان القضاء حال دون ذلك فكدّ نفسه حتى جاء بالطباق ولكنه جاء غثّاً بارداً . وانظر الى تعسفهِ اذ يقول

نوى كانقضاض النجم كانت نتيجةً   من الهزل يوماً ان هزل النوى جد

(١) اعجاز القرآن ٥٣

اي ان النوى فاجأته مفاجأة فلم يصدق اولاً ولكن ألم وقوعها اراه الحقيقة وعلمهُ ان هزل الحبيب جد . وقوله

فكأن افئدة النوى مصدوعة حتى تصدع بالفراق فؤادي
فاذا فضضت من الليالي فرجة خالفنها فسددنها ببعاد

ومعناها ان فؤاد النوى بقي مصدوعاً حتى صدع بفراق الاحبة فكلما فتحت لنفسي منفرجاً خالفتني الايام فسدَّت ذلك المنفرج بالبعاد . فانظر كيف تكلف تصديع افئدة النوى وكيف استعمل البعاد كحجر يسدُّ بهِ ثغرة الفرج . وقوله

اهيس اليس لجَّاء الى همم تغرَّق الاسد في آذيِّها الليسا

انظر الى هذه الهمم التي ترى الاسود غرقى في غمارها وكل ما يريد ان يقوله ان الممدوح شجاع همته تفوق همة الاسود الشديدة . وقوله

هدأت على تأميل احمد همتي وأطاف تقليدي بهِ وقياسي

معناه رأيت الناس يسعون الى الممدوح فقلدتهم ووجدته بالقياس افضلهم فهدأت همتي المضطربة عنده . قابل هذا المعنى بما استعاره له من هدوء الهمة وطواف التقليد والقياس فترى شدة اسرافه في الصناعة . ومثل ذلك قوله

لو لم تفتْ مسن المجد مذ زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا

ومعناه ان المجد قد هرم ولولا ان ارجعت اليهِ فتوَّته بجودك وبأسك لكان قد ادركه الخرف ومن الاسراف الممقوت قوله

فلويت بالمعروف اعناق الورى وحطمت بالانجاز ظهر الموعد
قرَّت بقرَّان عين الدين وانشترت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

قال العسكري وهذا مع غثاثة لفظه وسوء التجنيس فيه يشتمل على عيب آخر وهو ان انشتار العين لا يوجب الاصطلام . واليك هذه الابيات يصف سفينة حملته الى الممدوح وانظر كيف يتعسف في تشبيهها بالجمال وكيف يخرج بهِ التكلف عن حدود الجمال

حملتْ رجاي اليك بنت حديقة غلباء لم تلقح لفحل مقرف
فنجت وقدحوت المنيدة وابتنت في شطرها وتبوعت في النيف

في البيت الاول يريد بابنة الحديقة الغلباء السفينة لانها تصنع من خشب الحديقة وشبه السماء بالفحل ولم يلقحها اي لم يصبها بمطر . فتأمل هذه السماجة الصناعية . وفي البيت الثاني — اسرعت هذه السفينة وهي بنت مئة ولكنها في نشاط الخمسين وسارت غايتها في بحر كالصحراء الى ان يقول : فاعتامها ذو خبرة بفحولها ندس بنحيلة خلقها متلطف

اي فاختارها فحول من الشجر خبير حاذق ببنائها

ثم اجتنت شِلوي فصرت جنينها   متمكناً بقرار بطن مُسدف

اي ثم حملتني فكنت في بطنها كما يكون الجنين في بطن امه

واني ارجع القارىء الى هذه القصيدة ليراجعها ويحكم بنفسه على هذه المجازات . وامثال ذلك كثير في شعر ابي تمام فانك لا تكاد تقرأ له قصيدة حتى تمر بيت او بضعة ابيات من هذا الشعر المكدود الذي ينفر منه الذوق السليم . لما فيه من تكلف الصناعة والاهتمام بالقشور دون اللباب

تفنن المعنوي

على ان لابي تمام مع كل اسرافه في الشعر الصناعي مكانة عالية في الشعر العربي وما ذلك الاَّ لدقة تصوره وحسن اختراعه ففي شعره كثير من الصور البليغة التي تشهد له بجودة الخيال وبعد مرامي النظر . والذي يراجع ديوانه بروية ويصبر على تحليل معانيه يجد من بدائعه الشعرية ما يشغفه . ويراد بالبدائع الشعرية ما لطف من وصف أو مجاز أو حكمة أو لبس لباساً قشيباً من البلاغة واليك امثلة ذلك من شعره

واذا اراد الله نشر فضيلة   طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يعرف طيب عرف العود

وجودة البيتين في جمال الصورة التي نرى فيها الحسود ناشراً فضل المحسود وفي التمثيل على ذلك من العالم الطبيعي تمثيلاً يوضحها ويقررها في الذهن . وقد قرن كل ذلك برقة العبارة وجودة الالفاظ . ومثل ذلك قوله متقرباً من امير اقام الحجاب على بابه وهو في غاية البلاغة

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي املاً   ان السماء ترجَّى حين تحتجب

وقوله يصف عدم اجتماع المال والكرم في شخصه

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي

ومن اجمل صوره الشعرية قولهُ يرثي ولدين صغيرين لاحد الامراء والبلاغة ناطقة فيهِ

لهفي على تلك الشواهد منهما   لو امهلت حتى تكون شمائلا

لغدا سكونهما حجى وصباهما   حلماً وتلك الاريحية نائلا

ان الهلال اذا رأيت نموه   ايقنت ان سيصير بدراً كاملا

وهذا البيت الاخير الذي اتى بهِ تمثيلاً لما كان يرجى من ذينك الولدين هو من ابدع الامثال وابلغها . ومثله بلاغة وجمالاً قوله المشهور يصف بلوغ الارب عن سبيل المشقات

ولكنني لم احو وفراً مجمَّعاً   ففزت بهِ الاَّ بشملٍ مبدَّد

ولم تعطني الايام نوماً مسكناً   الذُّ بهِ الاَّ بنوم مشرَّد

وطول مقام المرء في الحي مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد

فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقد اجاد في هذه الابيات كل الاجادة وابرز هذه المعاني البديعة بقالب يأخذ بمجامع القلوب . ومن حسن اختراعه قوله يصف مشيبه الباكر

ستٌّ وعشرون تدعوني فاتبعها الى المشيب فلم تظلم ولم تَحُب

فاصغري ان شيباً لاح بي حدثاً واكبري انني في المهد لم اشب

يعذر المشيب ويقول ليس الغريب انني شبت في السادسة والعشرين ولكن الغريب انني لم اشب وانا طفل يشير بذلك الى ما في نفسهِ من عزم وهمة والى ما اصابهُ منذ طفولتهِ من مقارعة الاهوال والخطوب وقال يصف كرم الممدوح وازدحام الشعراء على بابه

ولو كان يفنى الشعر افناه ما قرت حياضك منهُ في القصور الذواهب

ولكنهُ صوب العقول اذا انجلت سحائب منهُ اعقبت بسحائب

والصور الشعرية في البيت الثاني خلاَّبة لاحكام التشبيه وجمال التركيب ومن هذه الصور الخلاَّبة قوله من مرثاته المشهورة

وقد كان فوت الموت سهلاً فردَّه اليهِ الحفاظ المرُّ والخلق الوعرُ

ونفس تخاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع اودونه الكفر

فاثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر

وقوله يصف اميراً انعم الله عليه بنعم عظيمة ولكنهُ كفرها ونقض عهد الولاء والوفاء

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها في غربة واسار

كسيت سبائب لومه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الاطمار

وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك . قال ابن الاثير في كلامه عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال « ان لابكارها سرًّا لا يهجم على مكامنه الاَّ جنان الشهم ولا يفوز بمحاسنهِ الاَّ من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم » ثم يقول « قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني وقد عددت معانيه المبتدعة (اي التي لم يسبق اليها) فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى واهل هذه الصناعة يكبرون ذلك وما هذا من مثل ابي تمام بكبير »[1] وقد اصاب الاستاذ ضومط اذ قال — « الحق يقال ان ابا تمام هو كما قال فيهِ واصفوه شاعر واسع الخيال دقيق التصور بعيد مرامي النظر واقدّر انهُ لو عاش فوق الاربعين ولم يمنعهُ الانهماك في الشهوات من ترتيب محفوظاته ومدركاته بل عاد عليها بالتهذيب والتشذيب فاطَّرح منها ما حقهُ ان يطرح وابقى منها ما هو جدير بالبقاء ثم جمع الاشباه والنظائر — لو عاش حتى فعل كل ذلك لكان شعره بعدها لا يتعلق به متعلق ولبذ على الارجح الشعراء قاطبة حتى ابا

(١) المثل السائر ١٩٣

الطيب المتنبي في كثير من حكمه وامثاله وبُعد مطارح نظره »[١]

وكما اننا نَنعى على ابي تمام ميله الى تكلف البديع نمدحه لما نجد في شعره من نفَس عال في النظم يؤثر في النفس فيحملها الى الطبقات العليا . اقرأ ايًّا شئت من عيون قصائده وانظر الى تلك الهزة التي تعتريك لقراءتها فاذا حللتها وجدتها مزيجاً من جمال النظم ومتانة التركيب وسمو الفكر ونجتزىء هنا بمثلين أو ثلاثة

راجع قصيدته المشهورة في فتح عمورية وتأمل مقدمتها — تلك الوقفة الشعرية العالية التي يرينا فيها الشاعر « المذنب الغربي » ويسمعنا احاديث الجمهور عنه ثم يستخلص من كل ذلك تمهيداً ساحراً للتوصل الى الممدوح ووصف الواقعة العظيمة التي فتح فيها حصون الاعداء كل ذلك باسلوب شديد الاسر بديع الخيال يملأ الاسماع ويحرك اوتار القلوب .واذا استثنيت بعض ما ذكرناه من تصنعه فان معظم القصيدة من هذا النمط العالي . اسمعه يصف فشل قائد الروم ومحاولته اغراء المنتصرين بالمال وترفع الخليفة عن ذلك —

لما رأى الحرب رأي العين توفلسٌ … والحرب مشتقة المعنى من الحرَب
غدا يصرّف بالاموال جريتها … فعزه البحر ذو التيّار والحدب
هيهات زعزعت الارض الوقور به … عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربي بكثرته … على الحصا وبه فقر الى الذهب
ان الاسود اسود الغاب همتها … يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

الى ان يقول: خليفة الله جازى الله سعيك عن … جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها … تنال الاّ على جسر من التعب

ومن هذا النمط العالي قوله

لا يطرد الهمَّ الاّ الهمُّ من رجل … مقلقل لبنات القفرة النُّعُب
ستصبح العيس في ذا الليل عند فتى … كثير ذكر الرضى في ساعة الغضب
صدفت عنه فلم تصدف مودته … عني وعاوده ظني ولم يخب
كالغيث ان جئته وافاك ريقهُ … وان ترحلت عنه لجَّ في الطلب
كانما هو في اخلاقه ابداً … وان ثوى وحده في جحفل لجب

وقوله : ويوم امام الموت دحض وقفته … ولو خرّ فيه الدين لانهال كاثبه
جلوت به وجه الخليفة والقنا … قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه
فلو نطقت حرب لقالت محققة … ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه

فانت ترى في كل ذلك نزعته الفنية الشديدة . ولو قلبت ديوانه لوجدتها في اكثر شعره

(١) مجلة الكلية ج ٥

وهذه النزعة وما فيها من عنف وشدة اسر هي التي حدت بمريديه الى التغالي بمدحه وعدّه امام هذه الصناعة . حتى قال ابو الفرج الاصفهاني « وفي عصرنا هذا (القرن الرابع الهجري) من تعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف »[١] بل هي التي دفعت ابا دلف العجلي ان يصيح وقد انشده ابو تمام قصيدته التي مطلعها

على مثلها من اربع وملاعب اذيلت مصونات الدموع السواكب

يا معشر ربيعة . ما مدحتم قط بمثل هذا الشعر فما عندكم لقائله؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها اليه . فقال ابو دلف قد قبلها منكم واعاركم لبسها . وسأنوب عنكم في ثوابه . ثم امر له بخمسين الف درهم .وقال والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا[٢] ولم يكن مجرد اهتزاز للمديح ولكن الرجل تأثر بنفس الشاعر وجلال اسلوبه . ونلحظ ذلك في مجلس عبد الله بن طاهر أمير خراسان فانهُ لما قصده وانشده قصيدته « اهن عوادي يوسف وصواحبه » لم يتمالك الشعراء الحاضرون من ان يصيحوا ما يستحق هذا الشعر غير الامير حفظهُ الله . وبلغ التأثر باحدهم ان قال لي عند الامير اعزهُ الله جائزة وعدني بها وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء على قوله للامير[٣] ومثل ذلك ما جاء في الاغاني عن محمد بن سعد كاتب الحسن بن رجاء ان ابا تمام مدح الحسن بلاميته التي يقول فيها

أنا من عرفت فان عرتك جهالة فانا المقيم قيامة العذّال

فلما وصل الى قوله

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وتنظري حيث الركاب ينصُّها محيي القريض الى مميت المال

صاح الممدوح متأثراً والله لا اتممتها الاَّ وأنا قائم . فلما انتهى من انشادها عانقه . قال محمد بن سعد وأخذ منهُ على يدي عشرة آلاف درهم واخذ غير ذلك مما لم اعلم به على بخل كان في الحسن بن رجاء[٤]

ولا شك ان في شعر شاعرنا روعة خاصة فهو يجمع بين الفخامة اللفظية وجزالة المعنى جمعاً يهزُّ النفس ويفعل بها ما فعل بمعاصره ومناوئه دعبل يوم سمع بعضهم ينشد بيتي ابي تمام

شهدت لقد اقوت مغانيكم بعدي ومحّت كما محت وشائع من برد

وانجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع انجدني على ساكني نجد

فتأثر دعبل على كرهه لابي تمام وصاح احسن والله وجعل يردّد « فيا دمع انجدني على ساكني نجد[٥] » .ولولا كثرة تصنعه وما سنذكره له من التعقيد والاغراب لأحلته هذه الروعة الفنية أعلى محل في الشعر العربي

(١) و(٢)و(٣) الاغاني ١٥—١٠٠ و ١٠٣ (٤) الاغاني ١٥—١٠٤ (٥) الاغاني ١٥—١٠٧

شغفه بالاغراب

« يذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منهُ من التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً . يأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة[1] » ذلك رأي ابن رشيق القيرواني فيهِ وقد اصاب كل الاصابة ولا سيما في قوله « يأتي للأشياء من بعد »

ويراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقة . تراه يغطي مقاصده بشيء من الابهام فاذا كشفته بان لك جمال خلاب يستهويك الى مراجعتها ويزيدك تولعاً بها . ومن هنا هذه الصعوبة التي يعانيها من يطالع ديوانه فانه قد يقف حائراً امام طلاسمه وغموض معانيه حتى اذا راضت له بالدرس والتفكر رأى فيها ما يلذّه من صور جميلة ومعانٍ رشيقة . وقد وصف الشاعر قصائده بقوله

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب
وغرائب تأتيك الا انها لصنيعك الحسن الجميل اقارب

تقبل على شعره فتصدمك وعورته فتحاول التغلب عليها وتكدّ نفسك في تذليل عقباتها ولكنك لا تلبث ان تشعر بتعب قد يحملك على النكوص . على انك اذا صبرت وتابعت الشاعر في اساليبه وغرائبه واخذت تجلو لنفسك معانيه حمدت عاقبة هذا العمل وشعرت بما يستهويك من بديع تخيلاته وجزالة الفاظه . ولأضرب لك بعض الامثلة على ذلك . قال من مطلع قصيدة يمدح عبدالله بن طاهر

اهنّ عوادي يوسف وصواحبه فعزماً فقدماً ادرك السؤل طالبه
اعاذلتي ما اخشن الليل مركباً واخشن منه في الملمات راكبه
دعيني على اخلاقي الصم للتي هي الوفر أو سربٌ ترنّ نوادبه
فانّ الحسام الهندواني انما خشونته ما لم تفلّل مضاربه

ذكروا انه لما بدأ في انشاد هذه القصيدة في مجلس الامير قيل له لم تقول ما لا يفهم. فاجاب السائل لم لا تفهم ما يقال. نكتة بارعة ولكنها تبين ما نقصد اليه . ومعنى هذه الابيات عموماً: هل تريد الغواني ان تشغلني وتثني عزيمتي عن السفر وان تخدعني كما حاولت ان تخدع يوسف ابن يعقوب . فلا تدرع بالعزم . لابد لكل طالب مواظب من ادراك طلبه . ويا أيتها العاذلة . ان الليل مركب خشن ولكن الذي يركبه اشد منه واخشن فاتركيني على اخلاقي الشديدة اسعى في طلب العلى فاما ان انالها او اموت وتندبني النوادب . فان الحسام الهندواني القاطع انما خشونته (عدم مضائه) ما لم تستعمل اي انما مضاء الرجل بالعمل والاقدام

---

(١) العمدة ١ — ٨٥

وقوله يصف اماني الروم واعتمادهم على مناعة حصونهم

وقال ذو امرهم لا مرتع صدد للسارحين وليس الورد من كثب
ان الحامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

اي قال قادتهم لانفسهم لا مرتع قريب للاعداء (اذ راموا الحصار) ولا ماء فلا يمكنهم البقاء طويلا . على ان امانيهم هذه قد فشلت لان السيوف والرماح (الحامين) هي سبيلنا الى الماء والعشب . وقوله يصف كيد الممدوح للاعداء وحسن رأيه

قد رأوه وهو القريب بعيداً ورأوه وهو البعيد قريبا
سكن الكيد فيهم ان من اعظم إرب ان لا تكون اريبا
مكرهم عنده فصيح وان هم خاطبوا مكره رأوه جليبا
لقد انصعتَ والشتاء له وجه يراه الرجال جهماً قطوبا
طاعناً منحر الشمال متيحاً لبلاد العدوّ موتاً جنوبا
فضربت الشتاء في اخدعيه ضربةً غادرته قَوداً ركوبا

اي ان الاعداء رأوا الممدوح على قربه منهم بعيداً بمناعته . ورأوه على بعده قريباً منهم لعزمه وهجومه الشديد . وقد خفيت سياسته عليهم — وان من اعظم فنون السياسة ان لا يظهر الدهاء للاعداء — فلم يدركوا خططه مع ان خططهم كانت لديه واضحة . ولقد عدت اليهم والشتاء في ابانه فطعنت منحر الشمال (يكني بذلك عن العدو لانه من جهة الشمال) حاملاً اليهم الموت من الجنوب وضربت الشتاء فأذللته حتى اصبح لديك كالجمل الركوب، ومن هذا القبيل :

يقولون ان الليث ليث خفيّة نواجذه مطرورةٌ ومخالبه
وما الليث كلُّ الليث الا ابن عثرٍ يعيش فواقَ ناقة وهو راهبه

ويُحَلُّ هذا الطلسم بقولنا ليس الاسد سبع الغاب ولكن الاسد الحقيقي هو الذي يحتمل بأس الممدوح ولو قليلاً (فواق ناقة) . وقوله للعاذل الخليّ وهو بين الطلول

وما صار في ذا اليوم عذلك كله عدوّي حتى صار جهلك صاحبي
وما بك اركابي من الرشد مركباً ألا انما حاولت رشد الركائب

لم يصر عذلك عدواً لي حتى صار جهلك صاحبي اي كرهتك لعذلك اياي ولكني ما لبثت ان رضيت عنك لجهلك لوعة الحب اذ انت بجهلك تستطيع مساعدتي فتمنعني مثلاً من شدة الوجد وكثرة البكاء . ولكن مالك تحملني على اتباع سبل الرشاد وترك الوقوف بين الطلول ليس ذلك رشادي بل رشاد ركائبي التي ترغب في متابعة السير

ومن اسباب اغرابه وغموضه شغفه الزائد بالطباق والجناس كقوله :

فالشمس طالعة من ذا وقد افلت والشمس واجبة في ذا ولم تجب

* * *

غربت خلائقه واغرب شاعر فيه فاحسن مغرب في مغرب

ومن طلاسمه في ذلك قوله —

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب

فقد اكلوا منها الغوارب بالسرى وصارت لها اشباحهم كالغوارب

يصرّف مسراها جذيل مشارق اذا آبه همٌّ عذيقُ مغارب

يرى بالكعاب الرّود طلعةَ ثائر وبالعرمس الوجناء غرة آيب

ومعناها — ورب ركب شاركوا نياقهم بالسير الشديد حتى اذابوا اسنمتها وكواهلها ويقود هؤلاء الركب رجل خبير بالاسفار شرقاً وغرباً شغوف بالسفر على النياق حتى انه ليرى في وجه الناقة جمالاً ويكره المكوث في المنازل فلا يرى في وجوه الحسان ما يغريه بذلك

ومن دواعي غموضه اغراقه في استعمال الغريب من الالفاظ . جاء في كتاب الصناعتين — «كان ابو تمام يتتبع وحشي الكلام ويتعمد ادخاله في شعره » .[1] ولعل ذلك راجع بالاكثر الى كثرة محفوظه ودرسه لاشعار الاقدمين . قال الآمدي «كان ابو تمام مشغوفاً بالشعر مشغولاً مدة عمره بتخميره ودراسته وله كتب اختيارات فيه مشهورة . منها الاختيار القبائلي الاكبر وقد مرّ على يدي هذا الاختيار ومنها اختيار آخر ترجمته القبائلي ومنها الاختيار الذي تلقط فيه محاسن شعر الجاهلية والاسلام واخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى الى ابرهيم بن هرمة وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول ومنها اختيار تلقط فيه اشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين ويلقب بالحماسة وهو اشهر اختياراته ومنها اختيارات المقطعات يذكر فيه اشعار المشهورين وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر وانهُ اشتغل به وجعله وكده واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه فانه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الاّ قرأه واطلع عليه » [2] . وقيل انه كان يحفظ اربع عشرة الف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع وقال هو عن نفسه لم انظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال[3] . ولا ريب ان للحفظ أثراً في اسلوب الشاعر أو الناثر ولا سيما في ابَّان قوة الحافظة . ويظهر ذلك في ميل شاعرنا الى استعمال غير المألوف من الاوصاف والعبارات . انظر الى هذا البيت

اهيس اليس لجّاء الى همم تغرّق الاسد في آذيّها الليسا

اي شجاع تغرق بحور همته الاسود الجريئة وقوله

الواردين حياض الموت مُتأقةً ثباتُباً وكراديساً كراديسا

وريد بمتأقة مترعة . وثبا ثُبا اي جماعات جماعات . وقوله وهو مطلع قصيدة

اما انه لولا الهوى ومعاهده مواعيسه قد اقفرت واجالده

(١) الصناعتين ٢٦١ (٢) الموازنة ٢٣ (بتصرف) (٣) ابن خلكان ١ — ١٢٠

لاعطيت هذا الصبر مني طاعة ليعلم دهري اي قرن يكايده

اي لولا ان نأي الاحباب عن الديار قد افقدني صبري لعلمت الدهر بثباتي على مصائبه اي رجل انا

وقوله : غل المروراة الصحاصح عزمه بالعيس ان قصدت وان لم تقصد

اي طوى السهول والقفار عزمه : وقوله

تقلق بي أدم المهاري وشؤمها على كل نشز متلئب وفدفد

اي تضطرب بي النياق الرمادية والسوداء على كل فلاة سوداء الحجارة. وفي قوله

صهصلق في الصهيل تحسبهُ أشرج حلقومه على جرس

يصف حصانه بشدة الصوت حتى كأنما حلقومه شدّ الى جرس . ومن هذا القبيل

كأن بابك بالبذين بعدهم نؤي اقام خلاف الحي او وتد

بكل منعرج من فارس بطل جناجنٌ فُلق فيها قنا قصد

والمعنى كأنّ بابك وقد فني جيشه أثر نؤي او وتد باق في الحي — فأنت لا ترى الا اشلاء جيشه مبعثرة . وفي كل ناحية وكل منعطف آثار الرماح المتكسرة

واختم هذه الامثلة [المقتطف — حذفنا بعض هذه الامثلة لضيق المقام] على ميله لاستعمال المتوعر من الالفاظ ببيتين من همزيته المعروفة . قال في مطلعها

قدك اتئب اربيت في الغلواء كم تعذلون وانتم سجرائي

اي استح يا لائمي يكفيك غلواً في تعنيفي . وكيف تلومونني وانتم مثلي مصابون بالغرام

ومنها يصف البيد والنياق

بيد لنسل الصيد في امليدها ما ارتيد من هيد ومن عُدَواء

اي قفار قطعتها على نياق ذلول فيها كل ما يتطلبه الراكب من عزم ومضاء ومن تفريج للهموم

وامثال هذه الالفاظ في شعر ابي تمام كثيرة فاشية . وقد انكر المنتقدون الاقدمون ذلك عليه وقالوا اذا جاز للاعرابي القح فهو مستهجن من المحدث الذي ليس هو لغته ولا من كلامه الذي تجري عادته به . [1] ولقد ذكرنا ان اكثر ذلك راجع الى شغفه بالقديم وكثرة محفوظه منهُ . على ان هناك سبباً آخر وهو شدة اعجابه بشعره حتى لم يكن ليرضى ان يمسه بأدنى تهذيب . قال ابو هلال العسكري كان ابو تمام يرضى باول خاطر فنعي عليه عيب كثير.

وعن الاغاني — روي عن بعض الشعراء ان ابا تمام انشده قصيدة له احسن في جميعها الا في بيت واحد فقال له يا ابا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب . فقال له أنا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده . فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه [2] . فكان شاعرنا كما وصفه الامدي شرهاً الى ايراد كل ما جاش به خاطره ولجلجة فكره فخلط الجيد بالرديء والعين النادر بالرذل الساقط والصواب بالخطإ [3]

---

(١) الموازنة ١٢١ (٢) الاغاني ١٥ — ١٠٠ (٣) الموازنة ٥٦

اتجاهات النهضة العلمية الاوربية

بعد الفيلسوف اوغست كونت

للاستاذ كافيناك من جامعة ستراسبورغ

كلما امعن المؤرخ البصر في حضارة اوربا التي ازدهرت في القرون الاربعة او الخمسة الاخيرة وفي الحضارات الاخرى الغابرة ، زاد اقتناعاً ان مفاخر حضارتنا الحقة انما تتجلى في الناحية العلمية.لقد ساوتها في الفنون اقطار اخرى وازمنة سابقة بل فاقتها فيها الا ان علماء اوربا في القرون الاربعة الاخيرة قد نهضوا باستكشاف ظواهر العالم المادي نهضة عظيمة وطفرت المعرفة على ايديهم طفرة واسعة . وهذا الحادث الذي لم تتأثر به الجماهير التي لا شأن لها بالعلم الا قليلاً ، هو الذي يفسر الرأي القائل بحتمية الارتقاء العام

منذ مائة عام وضع أوغست كونت نظامه العلمي الذي صنف به العلوم الاوربية وكان لتصنيفه هذا فضل السبق . وهو تصنيف موضوعي قائم على طبيعة الظواهر العلمية المستقصاة . جرت عليه دوائر التعليم في انحاء العالم المتمدن . على انه ليس صواباً كله بل هو ليس مطابقاً للافكار التي اوحت به من كل الوجوه. فالرياضيات ولا جدال لها المكانة الاولى دائماً . وان كان احد الاذكياء قد قال : « ليس الرياضيون بعلماء ولكنهم شعراء ». والجدير بالعناية هو ترتيب العلوم الحقيقية اي التي تتناول الظواهر الواقعية . وههنا يظهر ان تقسيم اوغست كونت في حاجة الى التنقيح بمقتضى المبدأ نفسه الذي سنهُ ذلك الفيلسوف الكبير

من ضمن الاحداث التي تسترعي عناية الناس وتبعث على تفكر العلماء فيها اهمها ما ينجلي لنا في مجاميع الاجرام السماوية وتسمية العلم الذي يتناولها بكلمة كوسمولوجيا (علم الكون) الصق بها واليق من التعبير عنها بكلمة استرونوميا (علم الفلك) . ثم تليها الظواهر الخاصة بالارض وتصلح لها كلمة جيولوجيا لو لم تكن قد تخصصت لطبقات الارض فقط . وكلمة بيولوجيا التي وضعها كونت هي حقاً التسمية الصادقة للظواهر الخاصة بالكائنات الحية . اما كلمة (سوسولوجيا) المعبرة عن الظواهر الخاصة بالانسان من حيث انهُ يمتاز عن الكائنات الاخرى الحية ، فهي فضلاً عن اشتقاقها من اصل بربري ، قد يفهم منها خطأ ان ميل الانسان للاجتماع هو الذي يميزه عن سائر الحيوان تمييزاً قاطعاً. وكلمة (انثروبولوجيا) قد بولغ ايضاً في تخصيصها انقياداً لنفوذ كونت فهي غير صالحة . احب ان لا يحسبني احد اني اريد بهذا الانتقاد جدلاً نحوياً . وانما ارجو ان ابين ان الحركة العلمية منذ مائة عام تتجه حقاً الى هذا التصنيف الذي فصلناه اي (الرياضيات والكوسمولوجيا والجيولوجيا والبيولوجيا والانثروبولوجيا) . ولعلَّ هذا البيان التاريخي لا يخلو من فائدة للعالم والفيلسوف . ولتفصيل هذا قد افردنا هذا المقال

بقي علما الطبيعة والكيمياء في نظام كونت كأنهما معلقان بين السماء والارض . فمن جهة لا نرى وجه وضعهما بعد علم الفلك مع ما لهما من الصفة العامة . ومن جهة (وهذا يتضح من حالة المعارف في زمن كونت) كان لهما في نظامه صبغة ارضية وجاوزا ما كان ينبغي ان يكون حقاً نطاق الجيولوجيا وحدَّها. منذ ذلك كان لتقدم الابحاث الخاصة بالضوء والكهربائية وعلم الذرات أثرٌ في ازالة الفروق القائمة بين العلمين من جهة ومن جهة اخرى انحاز كل منهما الى جانب الميكانيكا والرياضيات كدراسات في خصائص المادة العامة . فهل علماء الطبيعة والكيمياء موشكون هم ايضاً اللحاق بجماعة الشعراء ؟ وعلى اية حال فقد أمدوا درس الظواهر السماوية والارضية اعظم الامداد ومهدوا السبيل لتقدم ما تفرع على هذه الابحاث وتشعب منها

ان الفلكي اليوم لم يعد يجد في تقصي حركة الكواكب مقنعاً . فانهُ بما جدَّ من الاتقان العجيب في آلات النظر واستخدام التحليل الطيفي قد صار في امكانهِ توجيه مباحثه على الخصوص الى درس تركيب الاجرام السماوية واختلافاتها والقوى التي تنبعث منها او تتلاقى عندها . وهذا العالم الجبَّار الذي كان كلَّ الكون في نظر الانسان منذ مائة عام لم يعد في نظره الآن الاَّ جزءاً من هذا الفضاء الرحب الذي تمور فيهِ السدم اللولبية

ولم تعد ابحاث ظواهر الكوكب الارضي جديرة باحتقار كونت . فان تقلبات الجو والقوى المشكلة لقشرة الارض بل القوى المحركة لنواتها المركزية كل ذلك له نصيب موفور من عناية العلماء . وقد اضحت الجيولوجيا علماً من اهم العلوم والجغرافية الطبيعية نفسها ما ابقاها الى اليوم للتاريخ تبعاً وملحقاً قليل الشأن الاَّ سخافة من سخافات الانظمة التعليمية قلَّ مايجيزها

وكذلك البيولوجيا فقد افادت من تقدم المعارف الطبيعية والكيمائية فائدة كاد يفقدها استقلالها . ومن مأثور قول احد رجالها في الكيمائي باستور : « إن باستور لا يشتغل بالطب ولكنه يخلق الطب » ولكن علماء البيولوجيا لم يبد منهم استعداد للتضحية بالاعتبارات الشكلية من اجل آرائهم في البروتوبلاسما وهم يدافعون عن استقلال انظمتهم اشد الدفاع. وعبثاً نذكر ان ما تفيده العلوم الطبية من البيولوجيا يكفل لهامكانة سامية

ومن ضمن الظواهر الانسانية البحتة الظواهر الاقتصادية . فقد نالت من الدرس والبحث الدقيق بفضل تقدم علم الاحصاء حظاً وافراً شبيهاً على الاقل بما لقيت ابحاث المادة ان لم يعادلها. اما الظواهر التي ترتبط بالنفسية البشرية فالبحث التصنيفي فيها يزول رويداً رويداً ليحل محلهُ البحث من ناحية التطوُّر التاريخي وهذا يؤدي بنا الى عرض وجهة اخرى اتجه اليها البحث العلمي منذ مائة عام. فقد قيل ان « العلم صائر الى الانتقال من وجهته التصنيفية الى الوجهة النشوئية » وبعبارة اوضح ان العالِم وان كان لا يُغفل تحليل الظواهر الطارئة والجارية وتبويبها بمقتضى قوانين وصيغ رياضية اذا امكن ، فقد صار يشتد اهتمامه بالكيفية التي جرت بها هذه النواميس بالفعل والآثار التي احدثتها حتى بلغتنا . ولم يعد العلماء يقتنعون اذ يقررون ان سبباً ما وقع فان

نتيجته معينة تتبعهُ . بل هم يسألون أوقع السبب ، وهل حدثت النتيجة ؟ واين نحن من هذا التسلسل والسببية ؟ وبالجملة فان عامل الزمن قد صار له من الخطر في جميع النواحي ما لم يكن له من قبل . حتى فيما يتعلق بالظواهر الكونية حيث النظر المشارف صعب لضعف وسائل البحث البشرية فقد وصل العلم الى نتائج طيبة . ان افتراضاً كافتراض لابلاس كان لا يكاد يسترعي عناية احد في عصر كونت . اما اليوم فان ترتيب العوالم الفلكية بحسب ماضيها وتقدير عمر الشمس والنجوم هما شغل العلماء الشاغل . اما في الابحاث الخاصة بالارض حيث للنظر المشارف مقام كبير، فقد تمكن العلماء من تقليب النظر في المسائل تقليباً لم يعهد من قبل .وكان علم الباليتنولوجيا لا يزال في مهده في زمن كونت . ولكن من ذاك العهد اصبح درس الماضي على ضوء الحاضر والحاضر على ضوء الماضي من مقاصد الجيولوجيا بل هو روحها . ويظهر ان مكتشفات الاشعاع ستفتح امام العقل البشري الى ماضي كوكبنا ومستقبله سبلاً جديدة

وحسبنا ايراد اسمَي لامارك وداروين في البيولوجيا للتدليل على مبلغ ما وصلت اليهِ من المقام العلمي ، مباحث العلماء في ماضي الطبيعة الحية ومنها الانسان . وكثيراً ما افسد النتائج العلمية بعض التعميمات المرتجلة على عجل الصادرة في اغلب الاحيان عن رغبات لا تمت الى العلم بسبب ولا يزال على علمي الباليتنولوجيا والاركيولوجيا السابقة للتاريخ ان يقولا كلتهما الاخيرة الاّ ان نشوء الاشكال الحية لم يعد في نظر احد من الناس السر الغامض الذي كان منذ خمسين ومائة عام

وقد سادت الناحية التاريخية بوجهٍ خاص في الابحاث الخاصة بالانسان المتحضر . ان شعور الانسان بالحرية ، وهمية كانت ام حقيقية ، انما يحفزه دائماً للاحتفال بالحوادث وتتابعها اكثر من احتفاله بالفروض والقياس . فلا يستطيع احد الآن ان يسن قانوناً كقانون الاطوار الثلاثة [١] متجاهلاً تاريخ ثلاثة ارباع البشرية منذ وجدت وهو مطمئن رابط الجأش . ولا احد يقبل في هذا الموضوع آراء ليست الوثائق التاريخية المثبتة بسندٍ لها . ومن ههنا نهضة الدراسات التاريخية وهي من مزايا القرن التاسع عشر ولكنها ليست سوى حالة خاصة من اتجاه في التفكير العام كما بيناه .وهنا يجب التنويه بفتوحات العلماء المستشرقين التي كشفت عن الحضارات غير الاوربية ووسعت مجال الاختبار التاريخي ومواضع النظر للعقل البشري توسيعاً كبيراً

ان هذه النظرة العاجلة كافية لتدلنا على ان علماء اوربا في القرن الماضي لم يكونوا اقل من سلفائهم عملاً وبحثاً .لقد كان يخشى من ان افراط التخصص الذي بدت اعراضهُ في زمن كونت يؤدي الى عجز اهل العلم ووهن حالهم ، وكان يخشى خصوصاً ان ينوء العلم تحت ضغط التطبيقات العملية المطابقة لاتساع نطاق الدمقراطية فيتدانى العلم الى قضاء مآرب البشر .وليس هذان الخطران من الاوهام. على اننا نستطيع التأكيد بانهما لم يبلغا بعد الى اماتة حب الاستطلاع المجرد الذي بدونهِ لا تقوم للعلم قائمة

(١) قانون كونت في تطور المعرفة الانسانية — الطور اللاهوتي — ما وراء الطبيعة — فاليقيني

اما اذا نحن قوّمنا الحضارة الاوربية من الناحية الفنية فاننا ولا ريب نكون اقل رضاء بها من تلك ، بل اذا نحن اتخذنا من هذه الناحية اداة المقارنة القرن الثامن عشر بدت لنا ردّة وانقلاب ظاهران ، بعض بواعثهما الغلو في البحث العلمي . وحتى لمن يحكم حكماً عامّاً فان المقارنة بالحضارات الكبرى الماضية لا تكون في مصلحة اوربا العصرية (ويستثنى من ذلك الموسيقى) على ان غلونا في اعظام تلك الحضارة التي كانت ام حضارتنا والاصل الذي منهُ نبتت والمثال الذي عليهِ تحتذي ، لدليل على صدق عزيمة قد استمسكت بعراها الجماعات الاوربية ان لا تدع سبيلاً الى فقد توازن ينذر بخطر حتى من الوجهة العلمية

ولا يمكن ان نتجاهل هنا في ان نقول كلمة عن الروح الدينية ، ما دام قد قيل ان كل حضارة كبيرة تتسامى الى لاهوت اذ تبلغ ذروتها سواء كان مدركاً او غير مدرك . فالايمان بالرقي وعقيدة السوبرمان هما من نوع العقائد الدينية . ولقد كان الخطر من هذه الناحية مؤكداً منذ مائة سنة . فالنهضة العلمية اذ ذكت شعور الانسان بقدرته اوجدت طبعاً غناه وادعاء بكفايتهِ وهو شعور اذا وجدنا ما يسوغه في امثال ڤولتير او اوجست كونت فانه لا يحتمَل في الرجل العادي . ولكن وقع ما يوازن ذلك . فان رجلاً من اهل الزمن الغابر كان يعتقد بأن الانسان مركز الكون . ذلك موضوع قد اصارته الاكتشافات العلمية مما لا يقام له وزن عند من يعلم الحيز الضئيل الذي يغله في الفضاء موطن البشر والحادث الزائل الذي تم بهِ تطور النوع الانساني في هذا الموطن نفسه . فالعلم اذن قد قوّى شعور الانسان بعجزه وذلك احد اصول الاعتقاد الديني ومقاومة الشر هي الاصل الآخر . فلقد حدث ولا ريب عند الصفوة من اهل اوربا بالنسبة للقرن الثامن عشر تقويم ديني صحيح

لا توجد حضارة حقيقية بهذا الاسم اذا تجردت من التناسب والائتلاف . ان تقدم العلم التجريبي كان يكون خطراً شديداً لو انهُ زعزع ركنيْ البنيان الاوربي الآخرين : ثقافة الجمال اليونانية اللاتينية والديانة المسيحية

ومهما يكن من الامر ومهما تكن النقائص التي ترمى بها الحضارة الحديثة فستبقى مآثر علماء اوربا منذ القرن الخامس عشر الى القرن العشرين حادثاً تاريخيّاً من الطراز الاول . ان مستقبل الجماعات الاوربية مضطرب . فان اعتلال النظام الملكي يعرضها لمنازعات احزاب وطبقات لا يقيم ميزانها (واي اقامة مزعجة تلك !) إلاّ اثارة الانانية في انفس الاهالي . ولئن قضي الامر فذهبت هذه الاعاصير بقوة اوربا وغناها وهما اساس تفوّق اوربا العقلي وما امتازت به منذ خمسمائة عام من السلطان والبأس والسعة ، فستبقى فتوحات علمائها ما بقي في الناس من يتذكر وتنفعه الذكرى ، ولعل تعلقهم بالحقيقة واخلاصهم لها يكسبهم بين الشعوب التي تليهم تسامحاً في الحكم عليهم لا نستطيعهُ نحن الآن

« عن سينشا »

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

قضية المرأة والرجل

— ٢ —

انواع الزواج.(اولاً) الاقتران الموقت :لقد تكلمنا عن العصبة الاجتماعية الاولى بشكل عترة مؤلفة من الشيخ الزعيم الذي يقودها ومن اهله وذويه من النساء والرجال واوضحنا سلطته على النساء واستقلاله بهن دون هؤلاء الرجال الذين كانوا خاضعين لهُ خضوعاً اعمى نظراً للرهبة المزروعة في قلوبهم منهُ منذ الصغر . بيد اننا نعتقد ان هنالك وحدة اجتماعية اسبق من هذه العترة غالباً وهي اساسها وهذه الوحدة هي نوع من الزواج الابتدائي يدعى «الاقتران الموقت» وهو كما يلوح لنا اقدم وحدة اجتماعية وخلاصته كما هو مطبق الى يومنا هذا عند (المنكوبيين) من سكان جزائر (اندامن) في المحيط الهندي ان الرجل يعلق بالمرأة فيقترن بها لكن مدة اقامته معها لا تتجاوز سن فطام المولود الذي تلده ومن ثم يتركها وشأنها ليقترن بغيرها .وقد لاحظ السياح شيئاً شبيهاً بهذا الازدواج ولكن الى اجل اطول عند الاستراليين الاصليين وعند الهنود البرازيليين وفي شمال (جرينلند)

وبديهي ان هذا النوع من الاقتران هو اقرب شيء الى ازدواج الحيوانات المفترسة الكبرى كالاسد مثلاً فالذكر منهُ يصحب اللبوة في فصل النزاء فلا تكون لغيره ويقيم معها الى ان يستطيع الشبل او الاشبال الاعتماد على النفس

وليس من الصعب ان نتخيل سهولة التدرج من هذا الاقتران الموقت عند البشر الى العترة التي اشار اليها (اتكنسن) فالوالد الموقت يصبح بسبب ما ينمو فيهِ من العاطفة الزوجية والابوية وينطبع في نفسه من اعتياد الحياة الاجتماعية المؤتلفة اباً دائماً ثم شيخاً زعيماً في عترة كثيرة الاعضاء . ومتى تمت لهُ هذه الزعامة فمعناها انهُ صار (مُضِراً) اي متعدد الزوجات وذلك لما له من حرية التصرف في نساء العترة

(ثانياً) الزواج الجمهوري : هو زواج وصفه الكابتن (كوك) كما وجده في جزائر (هاواي) لما اكتشفها في سنة ١٧٧٨ وصفاً دقيقاً خلاصته ان يتزوج جوق من الاخوة جوقاً من الاخوات بحيث تكون كل اخت زوجة لكل اخ وكل اخ زوجاً لكل اخت. واسم هذا النوع من الزواج في اصطلاح هاتيك البلاد (بونالوان) وله مثيل يطبق حتى اليوم بين القبائل (التودية) النازلة على آكام (نلجيري) في بلاد الهند. وذكر (احمد شاه) في رحلته الى بلاد (التبت) عن بعض الاهلين هناك ان الرجل الواحد منهم واخويه الاثنين اذا كان لهم زوجات ثلاث بالاشتراك الشيوعي ولم يكن لهم جميعاً ولد يفرحون بهِ فلا يجوز لهم ان يتزوجوا امرأة رابعة للحصول عليهِ ولكنهم يجوز لهم ان يضيفوا الى مجموعهم زوجاً رابعاً للاسعاف فاذا فشل هذا المشروع الاستيلادي فزوج خامس[1]. واشار المستر (هوايت) المندوب البريطاني في (سكّم) من بلاد التبت ايضاً الى هذا الزواج وطريقة انتساب الاولاد فيهِ الى آبائهم فقال « وفي مثل هذه الحال ينتسب اولاد اكبر الاخوات الزوجات سنًّا الى اكبر الاخوة الازواج واولاد التي تليها الى الذي يليهِ واولاد الثالثة الى الثالث ، هذا اذا كانت كل واحدة منهن تحمل وتلد ، واما اذا كان منهن من هي عاقر فالاولاد حينئذٍ يوزعون بالاتفاق »

هذا هو الزواج « البونالواني » او الجمهوري ، ويظن بعض الباحثين انهُ بقية الزواج الشيوعي المختلط في ازمان ما قبل التاريخ . ولوحظ ان الاوساط التي يطبق فيها لايتحلى رجالها بالشجاعة ولا بالكفاءة الحربية. على ان هنالك بعض الحدود للحيلولة دون ما يتبادر الى الذهن انهُ اختلاط طليق كاختلاط الهررة والكلاب فالاباحة فيهِ لا تتجاوز الطائفة التي تمارسهُ الى غيرها من الطوائف الاخرى المجاورة بل تكون محصورة فيها

مذهب النشوء وشكل الاسرة : ثم ان اظهار العلاقة النشوئية التدرجية بين العصبة العترية والزواج الجمهوري ليس متعذراً ولكنهُ ليس ضرورياً ويستطيع الباحث ان ينتحل الاسباب التي ادت اليهِ بالطريقة التي تروقهُ ، ولكن ما لنا ولانتحال الاسباب ما دمنا نعلم ان شكل الاسرة متوقف في الاكثر على مقدار التكيف المطلوب منها بمقتضى سنة البقاء . وقد يكون هذا الشكل قائماً من اساسهِ على الحاجة الاقتصادية باوسع معانيها خصوصاً في المجتمع الخالي اذ كان الطعام عزيزاً ووقاية الابدان من صبارَّة البرد وحمارَّة القيظ بواسطة المسكن والملبس ضئيلة . ولم يكن الانسان قد اهتدى بعد كما قال « الموجز في علم الاجتماع » الى استخدام الآلات واستثمار قوة الطبيعة . وكان التنظيم السياسي لا يزال ابتدائيًّا ، بل لو كانت بوادر التنظيم الاجتماعي ظاهرة يومئذٍ فالسياسة والدولة بالمعنى المتعارف اليوم لم تكن موجودة ، وكان الدين في معظم الاحيان مجموعة خرافات مبعثرة ليس فيها اثر من الاخلاق . لا جرم ان

(1) Four Years in Thibet, by Ahmed Shah, p. 54.

شكل الاسرة في مثل هاتيك الاحوال كان متوقفاً على تكيفها بحسب المقتضيات التي تقتضيها سنة البقاء ومتعلقاً بالاحوال الاقتصادية وبالعادات والتقاليد المتوارثة . وهذا كله يعني ان هذا الشكل كان نتيجة القوى الطبيعية العمياء[١] . وعلاوة على ذلك فلا يعني النشوء ارتقاء مضطرداً بل كما يحدث في السيول والانهار تراجع المياه على الجوانب الى الوراء في حين يكون التيار في الوسط مندفعاً الى الامام كذلك النشوء قد يصاحبه تراجع موضعي وان كان التيار العام مندفعاً الى الامام . فلا حاجة بنا والحالة هذه الى التقيد بالتسلسل وجعل التفاضل في اشكال الزواج قائماً على ان الشكل اللاحق هو بالضرورة الشكل الارقى

(ثالثاً) الضَمَد[٢] او الزواج المتعدد الازواج: وهو تنظيم اجتماعي تبنى فيهِ الاسرة على اساس زوجة واحدة لازواج متعددين. ويظن انهُ تدرج من الاختلاط الشيوعي الطليق حدث من تناقص النساء بسبب السبي في الحروب وبقلة الطعام. ولاحظه السياح في كثير من انحاء الارض بين القبائل التي انتقلت من الهمجية الى البربرية خصوصاً من كان منها خائر العزيمة او مصاباً بالفقر المدقع . وقد وصفه الذين امّوا بلاد التبت والهند احسن وصف ، وهو على نوعين النوع الهندي ويدعى « ناير » نسبة الى جماعة بهذا الاسم يقيمون على شطوط (مالابار) في جنوب الهند حيث تكون المرأة حرة طليقة لها ان تعقد اواصر الزواج باي رجل كفء لها خارج القبيلة التي تعيش فيها او البطن الذي تنتسب اليه ، يعني انهُ يسوغ لها ان تقترن بازواج عديدين في وقت واحد من غير ان يكونوا اخوة ، اما الاولاد فيتبعون اخوالهم او البطن الذي تنتسب اليهِ امهم وينتقل الارث بطريق المرأة فقط . وأما النوع الثاني فهو التبتي والواجب أن يكون الازواج فيهِ اخوة . وذكر الاستاذ (جدنجز) ان هذا النوع من الزواج معروف عند السابوروجيين من القوزاق في روسيا، وانهُ كان منتشراً بين الارلنديين والبكتيين على التحقيق. ونقل عن البحاثة (مكلنان) ان هذا الزواج كان شائعاً كذلك بين جميع الاقوام السامية والحامية وذكر (سترابو) في جغرافيته في الفصل السادس عشر ان سُنَّة تعدد الازواج كانت منتشرة في زمانه في بلاد « العربية السعيدة » وهي بلاد اليمن « فكان جميع الاهل من ذوي القربى مشتركين في املاكهم اشتراكاً شيوعيًّا ، واكبرهم سنًّا ارفعهم مقاماً ، وهم جميعاً يتمتعون بزوجة واحدة فمن جاء منهم اولاً حظي اولاً ، والرجل الذي يدخل عليها يترك على الباب العصا التي يحملها كل واحد منهم عادة ، الاّ انها تقضي الليلة مع الرجل الاسن » . ويظن (جلازر) و (ونكلر) انهما عثرا في الخطوط السبأية على ما يؤيد ذلك

(1) Outline of Sociology, p. 123.

(٢) في كتاب المخصص لابن سيدة ان الضمد هو ان يكون للمرأة خليلان ومنه قول الشاعر

تريدين كيما تضمديني وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك في غمد ؟

وقد استعملنا الضمد هنا بمعنى الزواج المتعدد الازواج

وفي صحيح البخاري انه كان من عادة العرب في الجاهلية ان ينكح عدد من الرجال زوجة واحدة وان هذه الزوجة تعين للولد الذي تلده اباه . وذكر البخاري ايضاً نوعاً من الزواج اطلق عليه اسم « نكاح الاستبضاع » يعني ان يعرض الرجل زوجته على شخص شريف ليستولد من صلبه ولداً شريفاً . لكن (ثيودور نولدكه) المستشرق الالماني المشهور يشك في صحة الاحكام التي يصدرها الفقهاء على عادات الجاهلية ويرى في عادة تعدد الازواج في وسط الجزيرة العربية نوعاً من البغاء لازواجاً مشروعاً[1]

(رابعاً) الزواج المتعدد الزوجات او « الضِرُّ » — الضر في معاجم اللغة هو تزوج المرأة على ضَرَّة ، وقد اطلقناه هنا على الزواج المتعدد الزوجات في مقابل الضمد او الزواج المتعدد الازواج ، واذا كانت ضَرَّةُ المرأة بالتأنيث هي امرأة زوجها فلم لا يطلق علماء الاجتماع عندنا « ضَرّ » الرجل بالتذكير على الزميل الآخر في الزواج المتعدد الازواج ؟

ومن عادة الضِرّ ان تكون الضرائر فيه اما على مرتبة واحدة او تكون ثمة زوجة كبرى واحدة لها المقام الاول ويتبعها ضرائر اقل منها مقاماً وربما كنَّ من نوع السراري والاماء . ويظن بعض الباحثين ان هذا النوع من الزواج نشأ هو وتعدد الازواج في آن واحد ، لان النساء التي كانت تسرق او تؤسر من القبيلة الواحدة فتنقص عدد الاناث فيها تصبح ضرائر في القبيلة الغالبة بما تحدثه من الزيادة في اناثها . ويدل الضرُّ على تغير في الاوضاع الاجتماعية الاولى والانتقال من الشيوعية الهمجية الخالية الى عصر التملك الخاص ونظام التخصص والطبقات الاجتماعية ، فالزوجات كانت تحسب في القديم كما تحسب اليوم في كثير من الاوساط الابتدائية متاعاً وكسباً . لا جرم انها تباع بيع السلع فيشتريها ويكثر من اقتنائها اما الاقوياء بأموالهم او الاقوياء بأبدانهم او بسلاحهم وهم الطبقة الجندية

والأَمة التي تباع اليوم في اسواق النخاسة هي من بقايا هذه النظرية الخالية . والضر منتشر في انحاء الارض وهو مباح عند المسلمين الا في تركيا الحديثة ومطبق من غير ان يكون مشروعاً كما يقول (وسترمارك) في اوربا واميركا وقد بقي في اليابان باعتباره نوعاً من الزواج الموقت حتى السنين الاخيرة

ومع ان فكرة الزواج في الشرق ولا سيما في العالم الاسلامي قد تغيرت تغيراً كلياً عما كانت عليه في القرون الوسطى فان حال المرأة في بعض الاوساط العربية تدعو الى الانتباه والتفكير العميق وتتطلب تعاون الرجال المسؤولين جميعاً . فقد اجمع الرواة على ان الجارية — ولو كانت بيضاء من لب بلاد القفقاس — تباع في اسواق اقدس بقعة بيع السلع فينزل الطالب الى السوق ليشتري مقعداً وحلة وخزانة وامرأة ! ولا يكون في تقليبه جاريته اقل عناية منه

(١) The History of Human Marriage, vol III p. 154

في تقليبهِ حلته فيفحص هذه المرأة فحصاً ماديًّا دقيقاً بوسائط الحواس الخمس وقد يعرض عليه النخاس ان يجرب الجارية بضعة ايام! كما يعرض عليه النجار ان يجرب المقعد والخزانة، فاذا وجدها صالحة فبها ونعمت والاَّ اعادها ليجربها رجل آخر، ولا يشعر احد من المسؤولين وغير المسؤولين بمس كرامة احد في هذا العمل الذي يليق بعصر الانسان النيندرتالي

ومع ان الاسرة في الطبقة المختارة في بعض هذا العالم العربي الشاسع قد تكون اهلاً للاحتذاء والايتمام حتى في ارق الاوساط المدنية الغربية فما لا ريب فيهِ ايضاً انها قد تكون — في غير ذلك من الطبقات — على غرار العترة الخالية التي جعلها (اتكنسن) اساس نظريته في الزواج وتأليف الاسرة . حدثنا الرواة الصادقون ان كبيراً من كبراء العرب افتخر امامهم بثلاث خصال يتحلى بها (الاولى) انه اعرف الناس بطبائع البدو (الثانية) انهُ اشغف الناس بالطيب اذ يصرف عليهِ مسانهة ما لا يقال عن اثني عشر الف جنيه (الثالثة) انهُ اكثر الناس زواجاً فقد بنى على مائة وست وثلاثين عذراء بكراً ودخل على الف ثيِّب !

وبديهي ان مثل هذه الطلاقة في الزواج تفسح المجال لكتاب الفرنجة وللمطاعن التي يصوبونها الى صميم الاسرة الاسلامية. وانني لاخشى كثيراً ان تسرب مثل هذه الاخبار الوثيقة الى الاوساط العلمية حمل بحاثة مثل (هربرت سبنسر) واستاذاً مثل (رودلف بايندر) على اتخاذ حرية الزواج عند البدو شاهداً على ما يدعى « استرخاء في العلائق الشقية » كما هو الحال عند قوم يدعون (المونتريين) « فهم يتزوجون على غير معرفة ، ويطلقون لاسباب تافهة ، وقد يتزوج الرجل منهم اربعين او خمسين مرة »(١)

ومع ان موضوعاً علميًّا مثل هذا الموضوع لا شأن له في المجادلات الدينية الاَّ ان كاتبه لا يحجم عن التعرض للتهم الشنعاء التي يلصقها بالاسلام جيش من ادعياء الدين الذين اتخذوا التعصب سلماً لتحقيق مصالحهم المادية الحقيرة بطريق الطعن ، وشأن هؤلاء شأن السفهاء في الاحزاب السياسية ممن دنسوا سمعة احزابهم بما استعملوه من هجر الكلام والتهجم على عظماء الرجال وقادة الافكار

واذا صحَّ ان الاصلاح الحقيقي في المجتمع البشري لا يتم الاَّ تدريجاً وان الحكم على المصلح العظيم انما يبنى على مقدار الحدث الذي يحدثه في المحيط الذي يعيش فيه فلا مفر حتى لألد الخصوم من الاعتراف بأن صاحب الشريعة الاسلامية رفع مستوى المرأة عما كانت عليه واليك حجته التي يدلي بها في محكمة التاريخ :

لقد كانت البنت في العصر الذي نشأ فيه توأد او تدفن في التراب حية للخلاص من عارها والفرار من اعالتها فنزلت في القرآن آية قطعت دابر هذه العادة الهمجية ومسحتها

(١) H. Spencer, Principles of Sociology, vol. I pp. 644 & 680

مسحاً وهذا نصها (واذا بشر احدهم بالانثى ظلّ وجههُ مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر بهِ ايمسكه على هون ام يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون، للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء، ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم» [1]

وكانت المرأة في العصر الذي عاش فيه تعد متاعاً يورثهُ الميت لابنائهِ كما يورثهم الابسطة والقدور وسائر انواع الماعون بحيث كان يحق للابن ان يتزوج امرأة ابيه من بعده فنزلت الآية «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الاّ ما قد سلف انهُ كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلا» [2]. وكان انبياء الكتاب المقدس ممن سبقوه يتمتعون بزواج لاحدّ له ويباح لهم من التسري ما شاءوا، والذي يزيد في المنكر ان الرجل منهم اذا تسرى كان يحق له — بخلاف الاسلام واعتداده بعصمة الاطفال وبراءتهم — ان ينكر الاولاد الذين يولدون من هذا السبيل وان يعامل الزوجة معاملة العبدة الرقيقة (راجع سفر التكوين الاصحاحين الحادي والعشرين والخامس والعشرين وفيهما كيف صرف ابراهيم هاجر المصرية وابنه منها وكيف ابعد عن اسحق ابناء السرارى التي كانت له). وقد نص الكتاب المقدس على ان نبياً عظيماً وهو مضرب الامثال في الحكمة—سليمان الحكيم—كان له سبعمائة زوجة وثلاثمائة سرية» فأين هذا من تعدد الزوجات في الاسلام والحد الموضوع له والشروط المطلوبة فيهِ. فقد نزلت آية تعدد الزوجات في مناسبات خاصة لا تفسر الاّ بها لان المغازي كانت قد افنت الرجال وتركت النساء ايامى والاطفال يتامى مما أدى الى ضيق المعيشة وشعور الزعماء بالتبعة الناشئة عن تلك المغازي فنزل النص في الآية الثالثة من سورة النساء «وان خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى ألاّ تعولوا»

ولم يكن للمرأة في الجاهلية من الحقوق ما يذكر بل انها لم يكن لها الحق في ميراث ابيها وزوجها وقد اعطاها القرآن من الحقوق ما لم تحصل على مثله المرأة في اوربا الاّ في الاجيال الاخيرة. وكتب الفقه طافحة بحقها في الميراث، وادارة المال، والنظر والوصاية وغير ذلك من الشؤون المهمة، واحسن رد على من زعم من نافخي ابواق التعصب ان الاسلام ينكر على المرأة روحها الآية السابعة والستون من سورة النحل وهي «من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينهُ حياة طيبة ولنجزينّهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون». وحسب الاسلام ان يعتبر الزواج عقداً مدنيًّا بين متعاقدين اثنين يحق للمرأة فيهِ ان تكون عصمتها بيدها

ومتى تذكر القارىء ان من اهم الغايات التي ننشدها في معالجة هذه القضايا الاجتماعية الكبرى هي الاصلاح الاجتماعي في العالم العربي فهو ولا شك يعذرنا على الافاضة في بيان الروح الاسلامية

(١) القرآن، سورة النحل الاية ٥٨ وما بعدها (٢) سورة النساء الاية ٢٢

في هذا الموضوع الخطير وتمشيها مع الحاجة الزمنية ، وهذا ما يحدو بنا الى الاستشهاد هنا بكاتب غربي معروف لم يكن صديقاً خاصاً للنبي الذي اسس مجد العرب وهذا الكاتب هو (روبرت روبرتس) فقد جاء في اطروحته ما يأتي « انه ليعجز القلم عن بيان الشرور الخطيرة المتنوعة التي تنشأ عن الضر بما يجلبهُ على الشقين الذكر والانثى من العواقب الوخيمة . على اننا بمعالجتنا مسألة الضر بين المسلمين علينا ان نذكر دائماً ان هنالك فرقاً عظيماً بين اباحة الشيء وبين احداثه واستنانه لاول مرة . وواجب العدل يقضي بان نقول ان النبي قد وضع لهذه العادة حدًّا بدلاً من ان نقول انه ادخلها بين العرب. فقد كان الضر السنَّة المنتشرة بين الشعوب الشرقية قبل ظهوره وكان هذا حال العرب ايضاً وقد وجدها مطبقة تطبيقاً طليقاً من كل قيد منذ الاجيال السحيقة . ولم يكن هو وحده متمتعاً بزوجات عديدة بل جميع اصحابه واتباعه ايضاً . وبناء عليه فاباحته للضر انما كانت اتباعاً للعادة العربية العامة ، وكذلك وجد النبي لهذه العادة سابقة في اليهودية ففي « العهد القديم » امثلة كثيرة عليها موجودة في تاريخ الانبياء والملوك وغيرهم من دون ان تقابل بشيء من غضب الله . وعلاوة على ذلك فنحن نشك هل كان في طاقتهِ ان يمنعها منعاً باتًّا لو اراد ، ونذكر بهذه المناسبة كلمات (صولون) اذ قال للاغريقيين ليست شرائعي خير ما استطيع ان اضع لكم ولكنها خير ما يمكن ان تتقبلوا لانفسكم . ومع كل ما كان يتمتع به النبي من النفوذ العظيم فعيقدتنا انه كان يستحيل عليه ان يبطل شرعة الضر بين قومه . وقد عمل المستطاع فلئن لم يبطل فقد تمكن من التحديد . وفي نص الآية الثالثة من السورة الرابعة انهُ لا يجوز للرجل ان يتزوج من النساء اكثر مما في طاقتهِ ان يعول ، وقد روعيت هذه السنة اجمالاً لان الزوجة الواحدة هي القاعدة في الطبقات الفقيرة بل ليس ذلك محصوراً فيها ابداً »[1]

وسيل الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي العرم الذي طغى على المجتمع لم يقف دون الامم الاسلامية بل قد شملها ايضاً واكتسحها فيما اكتسح ، وقد احسَّ العرب كما احسَّ الافرنج من قبلهم بضرورة تخفيف الاسرة وضبط المواليد ووضع حد لها ،وهذا كله من تأثير الحاجة الاقتصادية فهي تعمل عملها من غير التفات الى العنعنات والتقاليد . وكنت اقرأُ للكتّاب وانا تلميذ في المدرسة انواعاً من الدفاع الضافي عن عادة الضر مبناها كلها حاجتنا الى اكثار النسل . اما اليوم فالدفاع صار قاصراً على تبرير ما حدث في الماضي بناء على قلة الناس يومئذٍ وعوز الآباء الى الابناء ، والمثل الاعلى الذي ينشده المجتمع الحاضر في استيلاد الاولاد يتعلق بنوعهم لا بمقدارهم لان الارقام صارت عبئاً على المدنية

(١) The Social Laws of The Quoran, p. 8.

على ان هذه الضرورة الاقتصادية الملموسة لم تمنع الكثيرين من الاغنياء في العالم العربي ان يستفيدوا — او ان يخسروا — من اباحة الضرّ فيمارسونهُ بصورة علنية محللة كما يمارسه زملاؤهم من الاوربيين والاميركيين بصورة سرية محرمة

الزواج الموحد

(خامساً) الزواج الموحد وهو الزواج المقصور على زوجة واحدة وزوج واحد ولا تعرف قيمته الاَّ بمقارنة النتائج المتولدة عنهُ بالنتائج المتولدة عن انواع الزواج الاخرى. ويعتبر الزواج من حيث الاساس اشتراكاً حيويًّا وتنظيماً اجتماعيًّا فهو والحالة هذه وحدة مستجدة ذات كيان منفرد تخضع لدستور تنازع البقاء وبقاء الانسب مثل سائر الوحدات المشتركة. وقد استعرضنا فيما تقدم انواع الزواج فما هو النوع الذي سيصمد للحوادث وتكتب له الغلبة في هذا الصراع المستفحل ؟ سؤال نجيب عنهُ بقواعد عامة لا سبيل الى جحدها . فكل اقتران او اتحاد تكون من ورائه قوة جديدة للداخلين فيهِ من حيث نوع الانتاج ومقداره ومن حيث البناء وصلابته وتماسكه في المادة والمعنى ومن حيث القواعد الاقتصادية التي يبنى عليها هو الاقتران الذي يكتب له البقاء. ففي العترة الاولى لا سبيل للذكور — ما عدا الشيخ الزعيم — ان يقوموا بوظيفتهم الحيوية واشتراكهم الجوهري وذلك للطريقة الاستبدادية الحيوانية التي يخضعون لها. وفي الاقتران الموقت على طريقة السباع لا توجد الروابط « العائلية » وان وجدت فهي ابتدائية والى زمن الفطام، وفي الزواج المتعدد الازواج يكون الرجل « الضرّ » مثل المرأة الضرَّة على تنازع دائم مع زملائه ناهيك ان الولد لا يعرف اباه الاَّ تخميناً او اصطلاحاً مما يجعل الروابط بينهما ضعيفة

وفي الزواج المتعدد الزوجات تكيد الضرائر بعضهن لبعض ولو على حساب البيت وخراب الزوج وهدم الاسرة، وتحول غيرتهن دون التضافر المطلوب بين الاب وزوجاته وبينهم وبين الاولاد بل بين الاولاد انفسهم لأَنَّ ابن الضرة هو ايضاً « ضرة » الى درجة بعيدة. وعرفنا الايم من الرجال الذي يراعي شعور اولاده انهُ لا يتزوج من بعد وفاة والدتهم حتى لا يعرضهم لشيء من المنغصات. ولا يقدر مصائب تعدد الزوجات مثل اهل الشرق لانهم عرفوا بالاختبار المؤلم ان البيت الذي تدخل فيهِ الضرة تخرج منهُ السعادة

ولا حاجة بنا بعد هذه التوطئة الى القول ان التوحد هو الشكل الذي سيحافظ عليهِ المجتمع، وذلك للمزايا التي يكتسبها الداخلون فيهِ فالمرأة تعرف ان البيت الذي تبنيه بحسن

سلوكها وتوفير مصروفها وترفع عماده بما تبث من الاخلاق في نشئه هو بيتها وبيت زوجها واولادها من غير منازع

وكذلك التوحد هو اقرب لان تكون الاسرة المؤلفة منه صغيرة تتمشى مع مطالب الزمن، وهو الشكل الفذ بين انواع الزواج من حيث انه نظام مباح عند الشعوب كافة وحيثما وجدنا الضر أو الضمد أو الزواج الجمهوري أو الاقتران الموقت وجدنا الى جانبه الزواج الموحد . وقد يكون هذا الزواج في بعض الاوساط الشكل الوحيد الذي تسمح به العادة أو الشريعة

واذا قسنا قيمة الزواج بمقدار العناية التي تصرف على الاولاد وجدنا الزواج الموحد أثمن انواع الزواج وذلك لان العناية بالنسل تبلغ فيه اوجها فنرى الابوين في عهده يشتركان بلهفة واحدة وعناية متشابهة في خدمة الابناء « وربما امتدت هذه العناية الى ان يبلغ الولد الخامسة والعشرين من عمره فيكون صاحب شهادة عالية بفن من الفنون قبل ان يحرم من مساعدة ابويه في حين ان الطفل في الاسرة الاولى كان يترك وشأنه من بعد الفطام »

وقد زالت اسباب كثيرة كانت من العوامل في تثبيت الضر وانتشاره في الازمنة الماضية منها العقائد الخرافية التي كانت تمنع الرجل من امرأته في إبان الحمل والى اجل بعيد بعد الولادة وهي عقائد قائمة على اعتبار المرأة ممسوسة بالشياطين متى كانت حاملاً ، ومنها ان ثروة الرجل ومكانته أو قوته لم تعد تحسب بعدد زوجاته واولاده واخوالهم : خصوصاً لان المرأة «بطلت ان تكون عاملاً من العمال فقط ، وقد زال العمل اليدوي الى درجة بعيدة خل محله عمل الحيوانات الداجنة والادوات والآلات . وقد تلطف شعور الحب وارتقى فاصبح اطول امداً . ولم يعد الصبا والجمال في نظر الرجل المثقف العامل الجذاب الوحيد . ثم ان المدنية نفخت في الجمال النساني روحاً جديدة . واصبح الرجل اكثر احتراماً لشعور المرأة »

وغني عن البيان اننا التزمنا في هذا المقال جانب التوحد وقلنا انه هو الزواج الذي سيصمد للحوادث وانه هو الشكل النهائي وكل تغيرات نتوقعها في هذا الباب انما تكون كما قال هربرت سبنسر من حيث اكماله وتوسيع نطاقه [١] لكن هذا الكلام يجب الاّ يغمض اعيننا عن التطورات الخطيرة التي جلبتها على الاسرة المدنية الصناعية الحاضرة مما سنعرض له في المقال التالي ولا عن آراء بعض الاعلام ممن قالوا بالضر فقد ظن الدكتور (جستاف له بون) في كتابه « مدنية العرب » ان الشرائع الاوربية ستبيح الضر في المستقبل [٢] وقال (لتورنو) « ليس لنا ان نعتبر الزواج الموحد غاية الغايات في نشوء وضع الزواج وارتقائه » وان كنا نراه مفضلاً على سائر انواع الزواج المعروفة حتى اليوم [٣] وذهب الاستاذ (فون اهرنفلس) الالماني المعروف الى ان ادخال سنة تعدد الزوجات ضرورية لحفظ السلالة الآرية

(١) H. Spencer, Principles of Sociology, Vol. I. p. 725

(٢) La Civilization des Arabes p. 424 (٣) Letourneau, Sociologie, p. 378

ولا يكون هذا الفصل من قضية الشق كاملاً من الوجهة التاريخية اذا نحن لم نختمه بالقطعة الآتية التي ننقلها عن الاستاذ (وسترمارك) تنويراً للاذهان وهي : « وبالنظر الى ان الزواج الموحد كان الزواج المشروع الوحيد المنتشر عند الاغريق والرومان فلا يجوز ان يقال ان النصرانية ادخلت هذا الشكل الاجباري من الزواج الى العالم الغربي . وانهُ وان كان «العهد الجديد» يفرض ان التوحد هو الزواج الطبيعي او الكمالي الا انهُ لا ينص على تحريم تعدد الزوجات الا عند الاسقف والشماس (راجع رسالة يوحنا الاولى الى تيموثاوس ، الآية الثانية والآية الثانية عشرة من الاصحاح الثالث ، وهذا التخصيص بهما حري بالالتفات) . . . . . ونحن لا نعرف مجلساً كنسيًّا في القرون الاولى قاوم الضر ، ولم توضع اية عقبة دون ممارسته لدى ملوك البلدان التي كان منتشراً فيها على عهد الوثنية . ففي منتصف القرن السادس كان (لديارميت) ملك (ارلنده) ملكتان اثنتان وسريتان . وكثيراً ما مارس الضر الملوك المروفنجيون . وكان لشارلمان زوجتـان اثنتان وعدد عديد من السراري . وتدل احدى شرائعه على ان الضر لم يكن مجهولاً حتى عند القسيسين . ثم ان (فيليب الهسّي) و (فردريك وليم) البروسي الثاني كل منهما عقد على زوجتين اثنتين بمعرفة رجال الاكليروس اللوثريين . وقد استصوب (لوثر) نفسه هذا الزواج المثنى . . . . وتكلم عن الضر في احوال متنوعة بالتسامح الكثير ، فقد ذهب الى ان الزواج لم يكن محرماً عند الله ، حتى ان ابراهيم وهو مسيحي كامل كانت له زوجتان . ولا ينكر ان الله اباح مثل هذا الزواج لبعض رجال العهد القديم في احوال خاصة فقط . واذا اراد مسيحي ان يحذو حذوهم فما عليه الا ان يظهر ان هذه الاحوال تنطبق عليهِ . ولكن الضر كان ولا شك مفضلاً على الطلاق (راجع تاريخ حياة مارتن لوثر لمؤلفه كوستلين ، الجزء الاول والجزء الثاني) وفي سنة ١٦٥٠ وذلك عقيب معاهدة (وستفاليا) لما نقص عدد الاهلين كثيراً من جراء حرب الثلاثين سنة اصدر مجلس (الكريستاج) في في مدينة (نورمبرج) قراراً قال فيه انهُ من ذلك الحين فصاعداً يسمح لكل رجل ان يتزوج امرأتين . بل ان بعض المذاهب النصرانية ايدت شرعة تعدد الزوجات بحماسة شديدة وصرح جماعة (زوينجلي) المصلح الديني السويسري المشهور المعروفون باسم (انا بابتست) في سنة ١٥٣١ في مدينة (منصتر) بأن الرجل الذي يرغب في ان يكون مسيحيًّا حقيقيًّا يجب ان يكون له زوجات متعددة . اما طائفة (المورمون) في ولاية (يوتا) من الولايات المتحدة — وهم اتباع السيد المسيح على طريقة القديسين المتأخرين — فقد عدوا الضر وضعاً الهيًّا»[١]

(١) The History of Human Marriage, vol III, p. 50

قلبان ...

قلبانِ ينسحقانِ بين عقائدٍ صمّاء لم تسمع صدى الأنّاتِ
قلبانِ ينسحقانِ والأنواءُ في ثوراتها تأتي على الآهاتِ

***

مرّا بأنحاء الصبابةِ مثلما مرّ النسيمُ بطيّبِ الزهراتِ
فاستنشقا أعطارها واستروحا ألوانها في أهنإِ اللحظاتِ
وتفتّحا والفجرُ في أكمامهِ واستيقظا والصبحُ في الغفواتِ
وتناشدا شعرَ الحياةِ ، وطيرُها في الغابِ يمرحُ دائم النزواتِ
وتساقيا فإذا الجداولُ خمرةٌ معصورةٌ من كرمةِ المهجاتِ

***

قلبانِ : كالأنغامِ رددها على قيثارةِ الإبداعِ والآياتِ
ربُّ الجمالِ ... وأيُّ سمعٍ مرهفٍ في الكونِ يلقى الشدوَ بالانصاتِ !!
قلبانِ : مثل النورِ لاحا برهةً في ساحةٍ مشتدةِ الظلماتِ
نزلا بأرضٍ لا يقدّرُ أهلُها معنى الحياةِ ، وأنبل الغاياتِ
فتحطّما ، والموجُ ينقل عنهما للشطِّ قافلةً من الآهاتِ

***

قلبانِ ينسحقانِ بين عقائدٍ صمّاء لم تسمع صدى الأنّاتِ
حملا الى الدنيا رسالةَ عالمٍ حيّ القلوبِ لعالمِ الأمواتِ

حسن كامل الصيرفي

بريان[1]

يرى من يزور مقاطعة بريتاني في شمال فرنسا الغربي ، سياجاً عالياً يفصل مزرعة كل فلاح عن مزرعة جاره . فالقوم هناك يميلون الى العزلة تشهد آثارها في رغبة الصيادين عن المباسطة في الحديث ، حتى اصطخاب الآلات وضوضاؤها في بلد صناعي كبلد نانت، لم يخرجا بهم عن رغبتهم المشهورة في الصمت . انهم سلتيون[2] ويمتون الى البريطانيين بصلة السلالة

لما ولد بريان سنة ١٨٦٢ — من سبعين سنة — ورث دماً خليطاً من والديهِ . كانت أمهُ غسالة وأسرتهُ فلاحة من الطبقة المتوسطة . ولكن بين اسلافه رجل نبيل المحتد من الأسر الارستقراطية في تلك الناحية . ففيهِ اتحدت عناصر ثلاثة — الفلاح والارستقراطي والبريتاني . والرجل السياسي الذي خرج من اتحاد هذه العناصر ، كان غريب الاطوار ، يختلف كل الاختلاف عن معاصريه من رجال السياسة في اوربا . انهُ يفوقهم على الاقل في طول الزمن الذي ولي فيهِ الحكم ، ولعله يفوقهم حزماً كذلك !

ورث من اصله السلتي ، تينك العينين الزرقاوين اللتين تراودها الاحلام ، كعيون البحارة من ابناء مقاطعته ، وذلك الميل الى العزلة والرغبة في الابتعاد عن الاجتماع والاقبال على الحياة الخشنة القشفة والنزوع الى الفوضى . ومن اسلافهِ الفلاحين ورث انحناءه وشعره الكث وبعض دهائهِ . ومن منبته البورجوزي — الطبقة المتوسطة — اخذ ترهله وخموله . ومن صلتهِ بالعمال تناول رغبته العامة في تحسين الحالة العامة وثقته الكبيرة بالجماهير . ولكن يديهِ يدا ارستقراطي صميم ، وصوته موسيقي رخيم ، شبهه بعضهم بصوت « الفيولنشلّو » وهو كذلك يتصرف تصرف الرجل المجرب الممارس لحياة الاجتماع ، ويمتاز بدهاء رجال السياسة من زعماء المدرسة القديمة كتاليران ودزرائيلي

ان تحليلاً موجزاً كهذا التحليل لمناقبهِ وصفاتهِ ابعد ما يكون عن بيان الرجل على حقيقته ولكنهُ يدفع شيئاً من الدهشة التي يثيرها النظر في صفاتهِ المتباينة المتناقضة . اذ قلّ من ادرك ان بريان شخصية معقدة النواحي . وكلما ارتفعت شخصية من هذا القبيل في سلم المقام الاجتماعي زادت دهشتنا لدى تقليب النظر في ما نشهده فيها من تناقض

ان بريان بطبعهِ رجل خمول ، لا شيء احب لديه من عيشة الكسل ، والقذف في زورق

---

(١) من مقال لاميل لدوغ الكاتب الالماني الشهير (٢) السلتيون او الكلتيون Celts سلالة قديمة كانت تقطن بلدان غرب اوربا وبعض بلدانها المتوسطة

صغير ، والاكل والشرب والمباسطة في الحديث ، والنظر الى الحسان ، ومكالمة الكلاب .
وليس ثمة الاّ الطموح دافعاً بهذا الرجل الكسول ، الراغب في الراحة والطمأنينة ، الى تحقيق ما يحسبهُ عدلاً في وجه مقاومة شديدة من رجال البرلمان الفرنسي ، عن طريق ذلك الفن الفرنسي — الفصاحة الخلاّبة ! فقد كان في حداثته متحمساً لبعض الآراء ، ثم انصرف ذهنه عنها في كهولته ، ولكنهُ عاد اليها في شيخوخته وهو اشد تحمساً لها وتعلقاً بها . ان لفظة «التسامح» اجمع الالفاظ لمناقبهِ ، لان كل ما تم على يديهِ انما تمَّ عن طريق صبرهِ وتسامحهِ . وقد كان غرضهُ ان يبثَّ مبدأ التسامح في الغير ، وفي كل نزاع خاص ، بين الطبقات او بين السلالات او بين الامم والعقائد . كان يعمد الى التوفيق بين النزعات والمطالب المتباينة في حسم النزاع . ولقد سعى الى ازالة اسباب الخصام القومي المعاصر ، بتطبيق روح القرن الثامن عشر ، وهو الروح المطبوع بطابع الانسانية العامة

ان اسلوبهُ في تحقيق اغراضه لم يكن اسلوب الرجل القائل «انا اريد . وأنت يجب عليك» لكن طبعه الموسيقي كان ينزع بهِ الى ان يقول «يجب على الانسان» او «ألا يستطيع الانسان ان يفعل كذا وكذا ؟» . ان اعتداله وهدوء نفسهِ جعلاه من القلائل في ميدان السياسة الذين لا يحقدون ولا يحفظون اذا خذلوا في معركة ما ، فهو اذا طلب الحكم وتقلده ، لم يتمسك بأذياله ، وقد اشتهر في حياته السياسية الطويلة بأنه كان يستقيل قبلما يضطر الى الاستقالة اضطراراً . اضف الى ذلك انه من النادرين الذين اذا انتصروا لم يشمخوا ، لانه كان شديد العطف على المخذول ، نافذ البصر الى نفسهِ ، والى الخير العام . فقد عرف كيف ينتصر من غير ان يدمي كما تعلمَّ ان يهزم من دون ان يتهشم تهشماً يحمله على الخروج من الميدان

هذا الرجل الذي قلما عدا او اسرع في حياته ، وقلما وجّه لفظاً حادّاً الى انسان ايًّا كان ، هذا الرجل الذي اعفته الاقدار من وجوب اصدار حكم فاصل مفاجىء في موقف حرج ، كان لشدة تساهله وصدق عطفه ضعيفاً ، وكثيراً ما رجع ، كتابةً ، عما وعد بهِ محادثةً او مفاوضة . ولكنه اذا خطب في جمهور ، احرز النصر ، بشجاعتهِ وعبقريته الخطابية — لان بريان مهما يقل فيهِ فنان ، يصغي ويتعلم ويفعل — كالاطفال والنساء — لا نظام له في ذلك ، معتمداً على الفطرة . وهو يفضل — كما تفضل كل امرأة بارعة — ان تدور حول عقبة تقوم في سبيله بدلاً من ازالتها . ولما كانت معظم الآراء التي قرن اسمه بها من وحي الخاطر ، اعتقاداً منه بصدق بداهتهِ ، اشتهر بأنه مرتجل يلقي الكلام على عواهنهِ من دون درس او تحقيق . وهذا طراز من الرجل لا يسلم بهِ الذهن الفرنسي الدقيق المنطق . ومع ذلك لا اعرف بلاداً غير فرنسا في امكانها ان تجعل بريان في عداد زعمائها وترفعهُ الى المقام الاعلى

قال بريان لاناطول فرانس يوم اجتمعا اولاً «انت رجل طيب» . فقال فرانس «لست بطبيب

على الاطلاق . لانني لا املك الاّ العطف . ولذلك اخدع كثيراً . انت رجل طيب »

فقال الرجل الثالث الذي جمع بينهما « وبريان رجل طيب كذلك . انه انسان لا اكثر ولا اقلّ » فابتسم بريان موافقاً وخرج متمماً لانه قلما يرغب في سماع المديح الموجه الى انتصاراته ولكنهُ لا يمانع في توجيه المديح الى « طيبة قلبهِ »

اذا نظرت الى صورة بريان في صباه — في السادسة عشرة من العمر — وجدته وسيم الطلعة طويل الشعر ضيق الحدقتين، فتحسبه شاعراً شديد الاحساس او ارستقراطيًّا مؤصلاً لا من ابناء الاسر الفقيرة . وكان في المدرسة بليد الذهن ، فكان يخرج مع معلمه كل احد للنزهة وكان المعلم يقول لتلميذه « انظر الى النباتات والازهار ، وتعلم من الطبيعة . فقلما تجد حكيماً اصبح حكيماً بالمطالعة » . قال بريان : « فتلقيت الدرس ولذلك لم اقرأ في حياتي »

ولا ريب انه يغالي فيما يقول . ولكن لا ريب كذلك في ان معظم معارفه ملتقط من احاديثه مع الناس . ولما كان ذكي الذهن ، مطبوعاً على الابداع ، فانه كان يلتقط ما يهمه او يفيده . وهكذا قضى حياته السياسية الطويلة من دون ان يوصم بالجهل المطبق . وقد تعرف جول فرن الروائي الفرنسي المشهور الى الفتى بريان عن طريق معلمهِ المذكور فوصفه في احدى رواياته باسم « بريانت » فقال في وصفه

« لم يكن مجتهداً، بل كان ذكيًّا . كان غالباً فى مؤخر الفرقة ولكنه كان يستطيع ان يشق طريقه الى الامام اذا اجتهد . كان مغامراً مقداماً محبًّا للقتال ، ولكنه كان مع ذلك حلو المعشر دمثاً يبشر بالتسامح والمسالمة . قال يوماً لزملائهِ على الجزيرة وهو زعيمهم « لن امنع عنكم شيئاً . ولكن إذا سعى كل منكم ونصب عينيه الخير العام ، لن يضطر احدكم ان يستأذن الزعيم اذا رغب فى عمل معقول »

وقضى بريان ثلاث سنوات فى الحي اللاتيني ينقل رسائلَ بخطه ليعيش في اثناء تلقي العلم . فكان يقول لما اشتهر اذا طلبه احد لاخذ توقيعه او عبارة بخطه « تجدون جملة كبيرة من الاوراق التى كتبتها ، في ذلك الدكان » . واخيراً فاز بلقب دكتور في القانون وأصبح محامياً . وفي ميدان المحاماة اكتشف ما اغدقته عليهِ الطبيعة من هبة الفصاحة . وهذا الاكتشاف حدا بهِ الى خوض ميدان السياسة واتجهت اليه الانظار اولاً ، اذ كان في الثلاثين ، بعد خطبة بليغة خطبها في مؤتمر الاشتراكيين في مرسيليا .

ولماذا اخذ بريان بالاشتراكية ؟ ان جوريس — وهو خطيب عظيم كذلك — اقبل على الاشتراكية عن طريق البحث والتنقيب والاقتناع بأن مبادئها خير ما تحتاج اليه الامم . اما بريان فتوصل الى العقيدة نفسها لانه اتفق انه منحدر من اسرة فقيرة ، ولأنه خبر بنفسه سوء الحال في مدينة صناعية . وكذلك حمله نفوره من الظلم ان ينضم الى صفوف الثوريين

برهة ،على أثر منعه من المرافعة زمناً لخطاء ارتكبه . ولكنه مع ذلك قال في مقالة كتبها وهو في الثانية والعشرين : — «هل تكون ثورة المستقبل دموية ، مثل كل الثورات التي سبقت ؟ انا لا اعتقد ذلك . بل سوف تقع كما تسقط ثمرة ناضجة من الشجرة »

لذلك لا تراه في حداثته مشاغباً في سبيل الثورة حتى وهو واقف لابساً قيصاً يخطب في جمهور من العمال بل على الضدّ من ذلك كان يدعو دائماً الى الاضراب العام كاداة لانصاف العمال وزيادة شعور العامل بمكانته

وكان بريان في حداثته شديد الحماسة في الدعوة الى السلام. ان طبعهُ المتسامح المحبّ للانسانية الميّال الى الطبيعة والحيوانات والنباتات بغّض اليهِ رجال الحرب والقوّاد بوجهٍ خاص

ولذلك انضمّ الى صفوفّ المقاومين للنزعة القومية المكتسحة ، وحدا بهِ نفوره من الحرب الى الايمان بوحدة الامم . هذه العقيدة — لا ايمانهُ بحرب الطبقات — حفظتهُ في صفوف الاشتراكيين كلّ حياته. فلما دعا صديقه هرڤه في سنة ١٨٩٤ الى وجوب الفرار من الجندية — مع انهُ كان في اوائل المتطوعين سنة ١٩١٤ — ودعي بريان للدفاع عنهُ قال في دفاعهِ : « اذا صدرت الينا الاوامر باطلاق النار على عدوّ ، لا نعترف بهِ عدوّاً ، حولنا اسلحتنا الى الجهة المقابلة » !

واشتغل بالمحاماة بضع سنوات ثم انتخب عضواً في مجلس النوّاب وعني بكتابة مقالات في صحيفتي « المصباح » (لانترن) و« الانسانية » (اومانيته) على انهُ لم ينصرف الى المطالعة والدرس كبعض معاصريهِ (بوانكاره) وكان اذا حجزه اصدقاؤه في غرفةٍ وطلبوا اليهِ ان يكتب مقالاً افتتاحيًا وعادوا اليهِ بعد ساعة وجدوه جالساً في سحاب من دخان التبغ وليس امامهُ على الورق سطر واحد . فقد كان يؤجل ما يستطيع الى التأجيل سبيلاً

كانت فرنسا لما دخل بريان مجلس النواب وهو في نحو الاربعين معنيّة اشدّ العناية بالنزاع بين الكنيسة والدولة . وكان النزاع يدور حول المسألة الآتية : من يعين الاساقفة ومن يحدّد سيطرتهم التعليمية؟ وكان قد انقضى ثلاثون سنة ورجال الاحزاب المتطرفة يطلبون فصل الدولة عن الكنيسة . فلو ان ملكاً حاول ان يحلّ هذه المسألة قبل ١٣٠٠ سنة لكان حلها بجرة قلم. ولكن علاقة الكنيسة بالدولة مسألة ما زالت مسيطرة على التاريخ الفرنسي من نحو الف سنة. حتى نبوليون اضطرّ ان يخضع لها ويسلّم بعقد « كونكوردا »(معاهدة بين البابا والدولة) وها نحن في سنة ١٩٠٣ تثير مسألة تعيين اسقف هذا النزاع القديم

اما بريان فادرك المكانة التي ينالها السياسي الذي يحلّ هذه العقدة . وقد قال لي « انهُ عرض للموضوع صدفة . فقد كان يظن ان علاقة الدولة بالكنيسة من مواطن الضعف في بناء الجمهورية وقد كان يريد طبعاً ان يضع قانوناً من شأنه تدعيم الجمهورية »

هل رجع الى كتب التاريخ والمنشورات والوثائق الرسمية ؟ هل كان يتجاهل كاهناً اذا مرّ بهِ في الطريق حقداً ومرارة ؟ ماذا فعل هذا الرجل الذي كان يبغي ان يخرج السلطة الزمنية من يد الكنيسة في فرنسا ؟ ذهب الى الكهنة في الارياف وشرب معهم خمر « برغندي » المعتق وزار البروتستانت واليهود ، وجمع منهم جماعات حول مائدة واحدة ثم جعلهم يتناقشون في الموضوع — قال : — « ان الانسان يتعلم في مدى اربعة اسابيع تقضى في الريف اكثر مما يتعلم في مدى اربع سنوات تقضى في البرلمان » . وهكذا وصل الى حكم لا يجرح اي فريق جرحاً دامياً فتم لهُ الاتفاق الذي يبغيهِ كل محام كبير

بهذا الحل الموفق لهذه المسألة المعقدة تحول بريان من رجل حزبي الى سياسيٍ فوق الاحزاب. ولما عين وزيراً للمعارف والعبادة لكي يتمكن من تنفيذ قانونهِ وجب عليهِ وهو اشتراكي ان يقبل الانضمام الى وزارة بورجوازية . هل يفعل ذلك ؟ على هذا الحكم يدور مستقبل حياته. هل يفضل حزبهُ ومعارضة الحكومة على تحقيق فكرة اقتنع بصوابها ؟ هذه هي نفس المسألة التي عرضت للمستر مكدونلد في شهر اغسطس ١٩٣١ لما الف الوزارة البريطانية القومية

اما عقيدة بريان الاشتراكية فلم تكن قائمة على مبدإ حرب الطبقات (اي النزاع بين طبقة العمال والبورجوزي) ولذلك لم يجد عائقاً في الاحتفاظ بعقيدتهِ الاشتراكية الخاصة والاشتراك في وزارة من طبقة يناهضها الحزب الاشتراكي . كان قبل سبع سنوات قد خطب خطبة نارية اذ انتظم ملران الاشتراكي في وزارة بورجوازية وها هو الآن يفعل الفعل نفسه !

ولما سألتهُ عن النزاع النفسي الذي ساوره في تلك الايام قال لي : — « اتعلم ما فعلت ؟ لم استطع البقاء في الحزب، ولم اشأ ان انفصل عنه. فاخذت اجازة وقد امتدت بي الاجازة الى الآن »

على ان الخطوة الجريئة التي خطاها ، فانتقل بها الى الوزارة بين خصومهِ السابقين لم تلبث حتى افضت بهِ الى مأزق حرج . ألم يدعُ وهو في الحزب الاشتراكي الى وجوب تأليف نقابات للعمال ، ضد القانون ؟ ومع ذلك يجب عليهِ الآن وهو وزير ان يهاجم زعماء هذه الدعوة نفسها

فلما تفاقم الاضطراب في دوائر العمال ، وحدث اضراب عمال سكة الحديد سنة ١٩١٠ استعمل سلطته السياسية لاعادة المضربين الى ورشهم . وقرأ في صحيفة « الاومانيته » كيف قبض على زعماء الاتحاد حيث كان هو يقف خطيباً داعياً الى استعمال الاضراب وسيلة لتحقيق مطالب العمال ! في تلك الايام القاتمة، انفضَّ من حولهِ الاصدقاء وبقي باناته ، وكان من اشد مؤيديهِ سنوات لا يكلمه . ولكن لما فشل الاضراب بحزم بريان وقف على منبر المجلس ومدَّ ذراعيه قائلاً « انظروا يديَّ ليس عليهما دم »

كان قد مضى على هذا التحول في اتجاهه السياسيّ سنوات وهو في دور الاختبار .. الأ تسمع صوت ضميرهِ يحاول تسويغهُ في خطبة خطبها في مجلس النواب لما تولى رآسة مجلس الوزراء اولاً فقال :

لايطلب مني ان اتخلى عن الآراء التي ادعو اليها واتمسك بها لان الحياة والتبعة الحكومية علمتاني ما يناقضها . فلبُّ كل رأي عندي هو الى اي مدى تستطيع تنفيذه . اننا نريد ان نحكم — اي اننا نريد ان نحتفظ بمزايا الحكومة كاملة غير منقوصة ، نريد كل شيء وكل انسان ان يكون في مكانهِ ». . . ثم انقضى على ذلك اثنتا عشرة سنة فخطب قائلاً : — « في كل حكومة وزراء تستطيع ان تتخذ من خطبهم ومقالاتهم السابقة اقوالاً تناقض افعالهم. وانا كانت لي احلامي الحسان ولكنني اشعر بتبعة الحكم . فأنا كالحجر الذي لبث زمناً في مجرى النهر . لقد تكسرت نواشزهُ وفقد خشونتهُ ولكنهُ لا يزال محتفظاً بشكلهِ الاصلي »

ولما سألت احد اصدقائهِ ، وهو لا يزال من زعماء الاشتراكيين الى يومنا هذا ، عن رأيهِ في تحوُّل بريان هذا قال : — لما كان السلاح الالماني يهدّد سلامتنا كان الاضراب العام سبيلنا الى فقد حريتنا . ولو انّي علمت حينئذٍ ما علمهُ بريان في منصبهِ الرسمي ، لكنت فعلت ما فعل »

بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩٣٠ تولى بريان منصب رئيس الوزراء احدى عشرة مرة وتولى مناصب وزارية اخرى ، اشهرها في وزارة الخارجية ووزارة الحقانية — نحو اثنتي عشرة مرة . فهو مثل بسمارك قد ولي الحكم مع احزاب اليسار واليمين على السواء . بل ان ولاية الحكم مع الفريقين كان سهلاً عليهِ ، لان في مجلس النواب الفرنسي احزاباً كثيرة يمكن ترتيبها في اشكال مختلفة . على انهُ لم يكوّن حزباً خاصاً بهِ بل ظلّ منفصلاً عن اي حزب بعينهِ . وهذا هو سرّ الاحتفاظ بمقامهِ طول هذه السنين وهو في الذروة

انهُ شبيهٌ بالموسيقيّ المبدع اذا شاء غنى أو وقع منفرداً . ولكنهُ يستطيع ان يوقع في اية فرقة يقودها اي مدير ، بل انهُ يستطيع ان يتولى ادارتها بنفسهِ ويجيد ذلك . ولا يستطيع ان يلي الحكم في بلادٍ ، احزابها السياسية ، في تبديل مستمرّ من حيث علاقتها بعضها ببعض ، الاّ رجل ذو خيال وثاب ، لهُ من دقة الحس ما يقيه عواقب العثرة والسقوط

ولما كان بريان لا يجيد المفاوضة لانهُ لا يملك عنان الموضوع الذي يفاوض فيهِ ، فهو يستمد نجاحهُ من بلاغتهِ وفصاحتهِ . لقد سمعتهُ يخطب في جنيف وفي مجلس النواب الفرنسي ، وفي مأدبة لا يزيد حضورها على مائة ، فدهشتُ في كل ذلك للبساطة والسهولة اللتين يبدأ بهما الكلام . انهُ لا يعمد الى الحيل المسرحية في استرعاء عناية الحاضرين ، ومع ذلك فهو ممثل مبدع . باشارة بسيطة واحدة ، من الذراع أو الرأس أو العينين ، يستولي على الجمهور

ولما قال بوانكاره ان بريان « قائد عظيم من قواد الالفاظ » عنى ان بريان يستطيع ان يعبئ جنوده في امنع مواقع خصمهِ أو اضعفها . ان براعتهُ الخطابية كانت قائمة على عدم اعداد خطبهِ ، لانهُ كان من الخطباء القلائل الذين يستطيعون ان يعتمدوا على شعورهم ومشاهدتهم واحساسهم ما يجول في نفس الجمهور وذهنهِ ، فيطبق خطابتهُ على وحي الساعة . انهُ لا يعمد قط الى

احداث التأثير الذي يتوخاهُ « بالفاظ رنانة » يعدّها قبل ارتقاء المنبر . كان يخطب في جمعية الامم بجنيف خطابة تختلف عن خطابتهِ في مجلس النواب الفرنسي ، وكلتاهما تختلفان عن خطابتهِ في خمسة آلاف فرنسي متجمهرين في الشارع . ولكنهُ لا يتكلم الفرنسية الصافية العريقة . وقد حاول احد زملائهِ المشهورين بصفاء الاسلوب ، ان يبين لي ، الاغاليط النحوية والصرفية الكثيرة التي تحتوي عليها خطب بريان . ومما لا ريب فيهِ ان خطبه اشدُّ وقعاً في النفس وهو يلقيها منها وهي تقرأ على صفحات الجرائد . وليس سبب كل هذا صوته الرخيم . فقد قلت له يوماً « يشاع عنك انك تخطب من دون ان تعد خطبتك . ولكن ألا ترتب شيئاً في فكرك قبل ارتقاء المنبر » فقال « لا » . فقلت ألا تعد العبارة التي تفتتح بها الخطبة على الاقل فقال « لا » فقلت « ماذا تعرف اذاً قبل ان تبدأ في الخطابة » قال « النتيجة والادلة . اسمع . ان معظم السياسيين يسيئون الى خطبهم لأن افكارهم متجهة اما الى التاريخ ليأثر عنهم اقوالاً او الى الصحف . والواقع ان احداً لا يستطيع ان يعد خطبةً ما . كل شيء يتوقف على وحي الساعة . اني انظر في وجوه الحاضرين دائماً فاذا رأيت انساناً يتثاءب ، غيرت مجرى الكلام ، فاذا ابدى عناية بالاتجاه الجديد ، رأيت ذلك في عينيهِ . واذا كنت مالكاً عنان الموضوع ، تمكنت من تغيير اتجاه الكلام في اثناء الخطابة كثيراً ؛ فاذا لم يؤثر اتجاه معين في كل الحاضرين اثر الاتجاه التالي في بعضهم وهكذا . السر في كل ذلك ان لا تسمح للضجر بالتسرُّب الى الحضور . والاَّ ضعت »

ولما ولي رآسة الوزارة الفرنسية سنة ١٩١٥ ابدى ما طبع عليه من رباطة الجأش في تلك الايام العصيبة . ومع انه كان من اشداء اعداء الحرب ، اعترض على نقل العاصمة الفرنسية من باريس الى بوردو في اثناء معركة المارن ، وكان اول العائدين الى باريس بعد الفوز فيها . وفي منصبه الجديد اخرج خطة جديدة للحرب . قال : — لما كانت المانيا اقوى اعدائنا فلنهاجم اضعف هؤلاء الاعداء ولنغلبه على امره . وهكذا خطر له ان يجمع جيشاً يبعث بهِ الى سالونيك بعد الفشل في مغامرة الدردنيل ، لمهاجمة تركيا وبلغاريا والنمسا من ناحية بلاد اليونان . فعارضهُ في ذلك اركان الجيش الفرنسي ودعا كتشنر هذه الخطة « مغامرة البلقان » فاندفع بريان بعقتهِ للقواد ، الى تنفيذ خطتهِ فهزأ بهِ الخبراء . فلما فشل الهجوم الذي قام بهِ الجيش الفرنسي في سنة ١٩١٦ سقطت وزارتهُ . ولكن خطة « المغامرة البلقانية » نفذت بعد خروجهِ من الوزارة ، وهو بعيد عن اي عمل رسمي ، فكان تنفيذها من العوامل المباشرة التي افضت الى نهاية الحرب الكبرى . ولما علم كلمنصو ان بريان يسعى لتقصير امد الحرب بمفاوضات غير مباشرة مع الاعداء هدده بتهمة الخيانة الكبرى . ولكن بريان كان حذراً . فاصدقاء السلام حينئذ ينعون عليهِ فتور تأييده لهم ، كما فعل كايو فكان السجن من نصيبهِ

وكان لبريان عدوان احدهما يوانكاره . ومن الاقوال الشائعة في شوارع باريس « ان

بوانكاره يعرف كل شيء ولا يفهم شيئاً . واما بريان فيجهل كل شيء ويفهم كل شيء »
قال لي احد اعضاء وزارة بريان في اثناء الحرب : « كان بوانكاره يمتعض اذ يرى جهل رئيس وزارته باحدى البرقيات الخطيرة . ولكن بريان كان يحتفظ برباطة جأشهِ ، ويقرأ البرقية ويغير رأيهُ » . لان الفرق بين بوانكاره وبريان انما هو الفرق بين موطنيّ الرجلين — لورين وبريتاني — فبوانكاره دقيق ، واسع الاطلاع، متعالم ، خال من الخيال . اما بريان فلا يسري على نظام ، تراوده الاحلام ، ولا يعتمد الاَّ على قوة خيالهِ وشعورهِ

اما النزاع بين كلمنصو وبريان فكان نزاعاً بين مبغض بطبعهِ وهو كلمنصو ، ومحب بطبعهِ وهو بريان، بين هدَّام وصديق للانسانية . ولكن الرجلين اشتركا على الاقل في صفة واحدة. فالتاريخ يشهد ان كلمنصو نفخ في الفرنسيين روح الشجاعة حتى الاستماتة في الحرب . اما بريان ، وهو عدو الحرب اللدود فلم يقصر عنهُ . فانهُ حمل تبعة معركة فردون برباطة جأش نادرة ، وانقذ مَنْ حولهُ من الهبوط الى دركات اليأس والقنوط

ولكن النتائج التي وصلا اليها تختلف . فكلمنصو كان من دعاة القوة الوحشية — وُلد ليحارب . كان يبغي ان يشرب كأس الثأر الى الثمالة ، وقد بنى خطتهُ في وضع معاهدة السلام على ان الطبيعة البشرية لن تتحوَّل ، وان السلام في اوربا سراب . واما بريان فنهج منهجاً جديداً . فانهُ اشار الى نفسهِ اذ خطب في مجلس النواب بعد انقضاء عشر سنوات على معركة فردون فقال : — « ان الرجل الذي حمل شرف تلك المعركة وتبعتها ملأه مشهد المجزرة هلعاً ، فاقسم امام ضميره ، اذ احرز النصر ، واتيحت الفرصة ، ان يستعمل كل مقدرتهِ وسلطتهِ وحياتهِ لتأييد قضية السلام ومنع تكرُّر مجزرة كهذه »

فلما شهد بريان الحرب بعينيه وزار الجنود في الصفوف المتقدمة اصبح اشدَّ مقاومة لها مما كان . وكان من نصيب اوربا — او سوء نصيبها — ان يشرف كلمنصو ، لا بريان ، على وضع معاهدة السلام . وكان بريان حينئذٍ في باريس لا يكاد يجرؤ على الظهور

قال لي يوماً « انني احسب ولسن مثالياً كريماً ولكنه غير عمليّ . فانه صرف جانباً كبيراً من عنايته الى الحدود الاثنوغرافية (الاثنوغرافيا علم توزيع السلالات البشرية) والواقع ان الامة المؤلفة من سلالات مختلفة لها من تاريخها العام رابط اقوى من رابط القربى . فنحن الفرنسيين خليط من خمس سلالات او ست ، ولكن المخاطر التي تعرضنا لها والاشتراك في الذب عن حياضنا قد وحَّدت بيننا . فقلت « ومع ذلك ايَّدت ولسن كل التأييد » . فقال « لا ريب في ذلك . لانني لو اشتركت معه لكنا افلحنا في انشاء الوسائل اللازمة لتحقيق السلام الذي اراده لجمعية الامم وهو السلام الذي ينقصنا اليوم نقصاً معيباً . ولكن من الجور ان نوجه اللوم دائماً الى جمعية الامم . الم تمنع وقوع حرب في ثلاث ازمات على الاقل ؟ » « لها تتمة »

صفحتان من تاريخ الملاحة

قدماء المصريين والعرب

ان ضابطاً بحرياً من الضباط الفرنسيين يدّعى ان تحول السفن السبب في المدنية الغربية فيقول ان الانسان كان أول الامر راعياً متنقلاً حتى استقرّ في مكان فأقبل على الزراعة. ولكن الحضارة قديماً لم تنشأ الا عند ما وطّدت الملاحة السبل الى التجارة والصناعة

ويقسم ذلك الضابط التاريخ الى ثلاثة اقسام : العهد القديم وعهد العصور المتوسطة والعهد الحديث وبعبارة اخرى : طور الملاحة في البحر المتوسط وطور الملاحة في المحيط الاطلنطي وطور الملاحة في المحيط الباسيفيكي . ولكل من هذه الاطوار نوع من الملاحة ففي الطور الاول كانت المقاذيف وفي الثاني كانت القلاع وفي الثالث الوثبات الميكانيكية

ولو اكتفى ذلك الضابط بهذه النظرية لما حدثناك عنه ولكنهُ ألف كتاباً ضخماً (١) أورد فيه صوراً عديدة للملاحة جمع فيها كل ما وقع منذ العهد القديم حتى اليوم فمدّ بحثه على ما قبل التاريخ ثم انحدر الى الفينيقيين والاشوريين والمصريين واليونانيين والرومان والروم والدول الاوربية منذ ايام النهضة حتى اليوم وضمّ اليها اميركا واليابان في العهد المتأخر . وليس في وسعنا ان نذكر لك كل ما يضمه هذا الكتاب فلنجعل كلامنا على المصريين القدماء ولنستطرد الى تأثير العرب في ملاحة الغرب

(١) كانت السفن في المحل الاول عند المصريين لانها كانت ضمن المتاع الذي كان يزجّ في قبر الميت والمعلوم ان الميت كان في حاجة اليه لسفره الى ابيدوس . وكانت السفن الاولى من اغصان يشد بعضها بعضاً لها مقاذيف ومرساة وعليها حظيرة وقد انشئت السفن الخشبية واستعملت القلاع قبيل الاسرة الاولى . ومنذ العهد المنفيسي نشأت الرحلات والغزوات البحرية . وكانت بعض السفن في ذلك الحين موقوفة على المشاعر الدينية وبعضها على صيد السمك . ومما يحسن ذكره ان فن القذف (قذف الملاّح ساق القارب بالمقذاف) بلغ الغاية في عهد الاسرة الخامسة إذ شُدَّ المقذاف الى المركب ثم ارسل في الماء على حسب ما نعرفه الآن.

---

(١) Navires et Marins (chez Duchartre, Paris)

وقد قدم هذا النوع من القذف الملاحة ورمى بالمراكب الى البحر وجعل سيرها سريعاً

الأ ان المصريين لم يكونوا على وجه الصواب في صناعتهم السفن لانهم كانوا يميلون الهيكل من الخارج الى الداخل امالة مفرطة فيضطرون الى ان يضيفوا الى اطرافه حبالاً مبرومة تمكنها وتثبتها لئلاّ تفقد السفينة توازنها . ومثل هذه الاضافة لا تجدي شيئاً بل تصيب مكاناً يذهب سدى . ولا شك ان المصريين فطنوا الى ذلك ولكن اتباعهم للتقاليد تغلّب عليهم

(٢) لما انقطعت الصلة بين تقاليد الملاحة القديمة وبين الامم الاوربية بعد غزوة الفندال لم تكن ملاحة ما الاّ عند الروم . فكان للبيزنطيين سفن عديدة ومعرفة بشؤون البحر . وكانت السفن حين ذاك قائمة على القذف وكان رجالها بين قذافين وجنود وملاحين وكانت تحمل شبه قلعة يسكنها القواد والجنود ليرسلوا منها القنابل . ولم تكن عناية البيزنطيين باسطولهم قليلة الشأن . والسبب في ذلك ما كان بينهم وبين المسلمين من الحروب الدائمة . وكان لقرصان المسلمين ديار لصناعة السفن في تونس وفي مصر

وكانوا يمتازون بالنظام في المحاربة وبالفن . وقد كانوا جعلوا ارسال القنابل عن بعد بدلاً من الضرب بالسيوف عن قرب . وكانوا ذهبوا في ذلك الى اساليب حربية دقيقة كمثل عرض السفن على شكل يسيء بالعدو ومثل التفاهم بين القواد باشارات يراها العدو ولا يفهمها بواسطة الرايات في النهار والقنديل في الليل

ولم تكن الدول الاوربية على شيء من الملاحة . فكان لشارلمان بعض مراكب بعيدة عن السفن الحربية حتى اذا كان القرن العاشر نهضت دولة ايطاليـا فعهدت الى الروم في صناعة الاساطيل ثم استقدمت بعض العرب وفوضت اليهم قيادة السفن . ومن ذلك اليوم قيل لرب السفينة أميرال . وجرى في اسبانيا ما جرى في ايطاليا اذ عهد امراؤها الى العرب في العناية بأمر سفنهم . ثم حذا حذوهم سائر الدول الاوربية فنهم من عوّل على الروم ومنهم عوّل على العرب ومنهم من عوّل على الايطاليين الى ان بلغت سفينة القذف في تلك الايام مبلغاً عظيماً

***

(المقتطف) وقد قال محمد بن منكلي وهو احد مقدمي الجند بمصر في دولة المماليك في كتابه « الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر » : — وكانوا (المسلمون) يرسلون النفط من انابيب تجعل في السفن وتعرف باليونانية باسم (سيفونيه) وتسمى عند العرب بالزراقات تنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان شديد فتحرق السفن » . من مقال للاستاذ امين الخولي في مقتطف دسمبر ١٩٢٣ موضوعه « الاسلحة النارية في الجيوش الاسلامية » وجانب منه خاص بالاسلحة النارية المستعملة في السفن الحربية

جوته

حياتهُ وتحليل مؤلفاتهِ

للدكتور علي مظهر

— ٢ —

سياحة جوته وتطوُّره ١٨٧٥ — ١٧٩٤

وصل جوته الى ڤيمار في اليوم السابع من شهر نوفمبر سنة ١٧٧٥ وسرعان ما اصبح مركزاً لدائرة نابهة ضمت اليها ام الهرتزوج (الدوق) السيدة اماليا التي كانت تميل للفنون وتجيد فهمها (وقدتوفيت سنة ١٨٠٧) ثم الامير الحاكم الهرتزوج كارل اوجوست (ولد سنة ١٧٥٧ وتوفى سنة ١٨٢٨) وزوجة الامير الهرتزوجين لويزه (توفيت سنة ١٨٣٠). وضمت الدائرة في من ضمت اليها (ڤيلا ند) الذي كانت الاميرة اماليا قد استدعتهُ سنة ١٧٧٢ ليكون معلماً لولي عهد ارفورت والمايور (البكباشي) كارل لودفيج فون كنيبل مؤدب الامير الصغير كونستنتين وكان رجلاً مهذباً ويتذوق الشعر وحاجب الامير هلد براند فون اينزيدل ورئيس بلاط الاميرة اماليا وكان يميل للموسيقى ويعزف على بعض آلاتها وقد لحن بعض الاغاني وكتب بعض الفكاهات والقطع المسرحية لاحد الملاهي في ڤيمار كما كان شاعراً ومترجماً ايضاً. ويشابههُ حاجب الامير سيجموند فون زكندورف وهو اول من ترجم فرتر الى الفرنسية ثم موزاوس وكان قصّاصاً للاقاصيص و(الحكايات) ووزير مالية الامير برتوخ وقد نقل بعض القصائد وترجم دون كيشوت عن الاسبانية وبوده وقد اشتهر بترجمته مؤلفات انجليزية وبمعرفته للادب الانجليزي ومطربة البلاط (كورونا شروتر) ثم وصيفة الاميرة (اماليا) السيدة شارلوتي فون شتاين (توفيت سنة ١٨٢٧ زوج (فون شتاين رئيس اصطبلات الامير) وكانت سيدة رقيقة ذكية وسرعان ما جعلت الشاعر يهيم بها ويعلق بذاتها فكان لها اثر يذكر في نفس الشاعر وطباعه. ثم (هردر) وكان جوته قد اشار باستدعائهِ الى ڤيمار سنة ١٧٧٦ كما حط شلر الشاعر الفيلسوف رحاله في ڤيمار سنة ١٧٩٩

ولبث جوته حيناً ضيفاً على الامير في ڤيمار ينعم بما في البلاط من اسباب المسرات والنعيم في صحبة الامير الشاب البالغ من العمر ثماني عشرة سنة وقد خلع عن نفسه كل تكاليف الامارة وما يحوطها من رسوم وواجبات. وما لبث جوته ان حدثته نفسه وشعر في داخليتها

ان من الواجب عليهِ ان يكون الناصح الامين والمرشد الصادق للامير الى طريق الحكمة والصواب . ومن ذلك الحين تباعدت الشقة بينه وبين كلوبشتوك الذي كان يجلهُ ويحترمهُ لاسباب يطول بنا شرحها . وما لبث الامير كارل اوجوست ان ضم صديقه الشاعر اليهِ ماعاش وجعلهُ مستشاراً سريّاً للوزارة في شهر يونيه سنة ١٧٧٦ ثم جعلهُ عضواً في مجلس شورى الدولة. ولبث جوته في رياسة حكومة ڤيمار عقداً كاملاً من الاعوام وكان يشرف على الامور المالية والطرق والتعدين والغابات بل وعلى المسائل العسكرية ايضاً وقد تطلب كل ذلك مجهوداً كبيراً . ولما كان ميالاً بفطرتهِ الى دراسة العلوم الطبيعية فقدكان في عمله اكبر مشجع لهُ ومغذٍ لميوله العلمية كما ان العناية بالغابات وزراعتها في ارض الامارة والتعدين في منطقة (إيلمناو) زادا في ايرادات الامارة زيادة ثابتة واشتد تعلقه بالطبيعة وجمالها وكبر اثر ذلك في نفسه عند ما صحب الامير في سياحته ببلاد سويسرا وتسلقا الجبل الابيض وصعدا الى (شامونكس) وكانت تلك السياحة سنة ١٧٧٩ . ثم انهُ ما زالت وجهة نظره تقرب من آراء سبينوزا الفيلسوف المعروف وقد ساعده (هردر) على فهم فلسفتهِ فهماً جيداً متعمقاً في عويصها . واصبح يرى ان الله والطبيعة وحدة لا انفصام بينهما كما ان قلبهُ اصبح لا يشعر بعدئذٍ بان الانسان صورة مشابهة للاله كما يفهم ذلك من الانجيل وانما اصبح يعتقد ان الانسان ليس الا العضو الاخير والاعلى من سلسلة النشوء في عالم الحياة . وانك اذا ما كنت فاضلاً خيّراً ميالاً لمساعدة الغير فذلك هو الذي يقربك من الله جل وعلا وهاته الميول الطيبة من فعل الخير وهي التي تميزه من كل المخلوقات التي نعرفها (سنة ١٧٨٢) . ولما عاد الامير من سياحته في سويسرا عرج على بلاط اشتوتجارت وكان معهُ جوته يوم ١٥ دسمبر سنة ١٧٧٩ عند ما كانت الجوائز توزع على طلبة الكلية الحربية وفيها اعطى فريدريش شلر جائزة ايضاً .وقد جعلت هذه السياحةالتي دامت اربعة شهور الود متبادلاً ووثقت عرى الصداقة بين جوته وكارل اوجوست وعرف الامير قدر رفيقهِ في السفر ومقدار ما استفاده من صحبته وارشاده من معرفتهِ بالدنيا وبالناس وما تزوده من تلك المعرفة حين رجوعهِ الى وطنهِ . وفي سنة ١٧٨٢ عيّنهُ الامير رئيساً لمجلس وزرائهِ وبذلك كان له الاشراف الاعلى على امور الدولة . وفي نفس تلك السنة انعم القيصر يوسف الثاني على جوته بلقب التشريف بناء على ايعاز الامير فصار يعرَف بـ «فون جوته» . وأكبر شاهد على ما بلغت اليه صداقته بالامير انهُ وصفهُ في قصيدتهِ (ايلمناو) التي نظمها سنة ١٧٨٣ احتفاء بيوم ميلاد الأمير بأن قال عنهُ انهُ حكيم معتدل . ولم يعتور تلك الصداقة اي فتور بل ظلّت ثابتة . وكان الأمير يسعى الى التقرب من بروسيا تقرباً كبيراً في سياسته الخارجية . وكان جوته قد تعلم في صغره حب فريدريش الأكبر ملك البروس مع ان اعمال بروسيا ما كانت تجتذب اعجابه الا قليلاً

جداً في الواقع . ولم يكن يميل الى النمسا وانما كان يعنى بوجهة نظر الامارات الالمانية في الجنوب والوسط وكان يود ان يرى تلك الدول والامارات الجنوبية والوسطى محافظةً على استقلالها لانهُ كان يعتقد أنها هي اسس هامة في بناء الحضارة الالمانية . ولذا جدّ منذ سنة ١٧٧٨ في امر توحيد تلك الولايات وتمثيلها في مجلس النواب الالماني فترجح كفتها اثناء النظر في مصالحها الخاصة على كفة الدولتين الكبيرتين في الشمال والجنوب (يقصد بروسيا والنمسا). ولما ادرك فرتز (فريدريش الاكبر) الشيخ تلك المسائل وفهم تلك الآراء وحدث ذلك الاتحاد بين الامراء فرجحت كفتهم ضد النمسا لم يعد جوته يمانع او يحول دون انضمام اميره الى ذلك الاتحاد . وحدث اتفاق خاص زاد في تقربه وأصبح في زمرة العسكرية البروسية ومن ضمن جيوشها تخضع جوته لما احدثتهُ الظروف ولكنهُ لم يعدل عن رأيهِ الخاص وقد اعلن اعجابه بنابليون فيما بعد . ولما حدث الانقسام في بروسيا سنة ١٨٠٦ كان يعتبر ارض الرين مما يحقق له مثاله الأعلى من ايجاد اتحاد بين ولايات المانيا الوسطى وكان يرى في نابليون ساعتئذٍ حامياً للحضارة الالمانية !!!

ورغم مشاغل عمله الذي اتسع نطاقه وما حاط حياته في تيار من لهو ومتعة فان الشعر لم ينفك عن الشاعر الكبير بل لازمهُ .فقد قرض كثيراً من قصائدهِ الغر اثناء المدة المحصورة بين سنة ١٧٧٥ وسنة ١٧٨٦ لما علقت روحه بالسيدة (فون شتاين) . نذكر من تلك القصائد والاناشيد «السماك» و « ملك الحور » و «المُغنّى» وأغنية « الى القمر » وأغانيه الرقيقة التي بثّ بها شوقه (منيون Mignon) اى الصغيرة و (العوّاد في فلهلم ميستر) وأنشودة المساء (على كل القمم تجد السكون) انشدها في ٦ سبتمبرسنة ١٧٨٣ في (جيكلبان) بالقرب من (ايلمناو) وأنشودته التي يقول فيها (يا من اتيت من السماء سكّن الآلام والاوجاع . تعال ايها السلام . تعال . تعال الى صدري واسكنهُ) وعدة قصائد وأناشيد اخرى ومآسي كتبها في سياحاتهِ في ايطاليا وسويسرا كما كتب بعض التهكميات وكتب بعض قطعه الخالدة الشهيرة مثل (ايفيجينيا) و (تاسو) و(ڤيلهلم ميستر) و (اجمونت)

***

ولما طال بهِ الزمن بالبلاط شعر جوته بعبء اعمال منصبه الكثيرة وتشتت مجهوداتهِ واضطراره الى الانقطاع عن اخراج دفين شاعريته وكمين قدرته على الكتابة والتحرير والتفكير فيها لكثرة ما بالبلاط من اعياد وأفراح وحضور التمثيل ولم تطمئن نفسه في داخليتها الى ذلك وعكر ذلك صفو راحته وسكون روحه . ولم تواتهِ تلك النفس الحائرة على الاشتغال بعلوم المعادن والفلك والتشريح والنبات التي كان بدأ بالبحث فيها كما لم تساعده تلك الظروف

التي اشرنا اليها الى اشتغاله بالرسم والتصوير . فرأى ان الخير كل الخير لاراحة نفسه ولكي يستعيد طبيعته الشعرية ان يعزم على ترك ڤيمار زمناً طويلاً يقضيه في سياحةٍ في ايطاليا وكان شوقهُ الى تلك البلاد كل يوم في ازدياد حتى اصبح لا يمكنهُ مقاومته او التغلب عليهِ

فذهب الى كارلسباد في صيف عام ١٧٨٦ مستشفياً ومن هناك عبر بافاريا والتيرول الى ايطاليا وذهب الى روما وأقام بها اقامة طويلة على دفعتين وزار نابولي وصقلية وعاد الى ڤيمار سنة ١٧٨٨ . وقد وصف كل ما حدث له في تلك السياحة في (سياحة ايطاليا) . وقد كانت تلك السياحة الايطالية اكبر باعث على تغيير مجرى الحوادث في حياة الشاعر الكبير وقد قال هو عنها ان مدى اقامته تحت سماء الجنوب هو الزمن الذي ولد فيهِ مرة اخرى في تلك الحياة. فقد رجحت كفة هوميروس وصفوقل على كفة اوسيان وشكسبير في نظره كما اصبحت تعاليم فنكلمان ولسنج في رأيه في مستوى الآداب القديمة المرعية الجانب عنده . بدأ يدرس الفن الاغريقي الذي كان من خصائصه وعلاماته اتباع المقياس والنموذج والتحديد في حيّز لا يتعداه فبدأ الشاعر يفقد اعجابهُ بفن العمارة القوطية المسيحية التي تعنى بتصوير اللانهاية والابدية واذ ازداد تذوقهُ لطرق الاغريق المتسقة الواضحة ازداد احتقاره لما انتجهُ عصر «العواصف والاندفاع» من آثار لا شكل لها ولا قوام . ورأى ان خير طريق للفن يسلكه هو في اتباع المثُل العليا للقدماء لا في تقليد الطبيعة لان تلك المثل كانت تحوي كل نبل في ادق واتم شكل . ولهذا أخذ في تغيير ما كان قد بدأ بهِ من المؤلفات قبل سفره اذ اصبح شكلها لا يقنعهُ الآن وعزم على تأليف مؤلفات جديدة تبينت له اصولها لما كان في صقلية اذ رأى في الاوديسيه حديثاً طليّاً كلهُ حياة فعزم على ان يجعل من قصيدة هوميروس مأساة يسميها (ناوزيكا) ولكن لم يتح له ان يتمم ذلك العمل

***

وبدأ الشاعر بأفيجينيا وكان قد اتمها من قبل نثراً ومثالهُ الاعلى في تأليفها قطعة لاوربيديس اسمها (افيجينيا من ارض طاوريس) اي انها مستمدة من حياة الاغريق القدماء بما فيها من آلهة واشخاص غيرهم. وقد تباينت اخلاق البطلة عند شاعر الاغريق القديم وشاعر الالمان الحديث تبايناً تامّاً فقد جعل جوته محور مأساته (ان كل نقص انساني تكفر عنهُ الانسانية النقية الطاهرة)

وقد قال بعضهم في هذا الصدد ان اخلاق افيجينيا التي تصوّرها جوته وجعلها في مأساتهِ لم تكن اغريقية ولكنها كانت مسيحية المانية. وقد اختار الشاعر السذاجة القديمة والهدوء الذي يرعاه القدماء في آدابهم مثالاً احتذاهُ في كتابة تلك المأساة كما انهُ حافظ على وحدة

الزمن بها فكل حوادثها تمت في بضع ساعات في اثناء النهار كما حافظ على وحدة المكان اذ حدثت كل فصولها في الحديقة الكائنة امام معبد ديانا ثم انه حافظ على وحدة العمل لان كل حوادثها مستمدة من اخلاق افرادها

***

وفي سنة ١٧٨٧ التي ظهرت فيها افيجينيا خط جوته آخر ما كتبه في (اجمونت) وكان قد بدأها قبل ذلك بنحو عشر سنوات في فرنكفورت حيث وضع (تصميماً) لفصولها الاولى وكاد يتمها في ڤيمار قبل سياحته ثم اعاد كتابتها وتنقيحها في ايطاليا محافظاً على شكلها النثري الذي كان اختاره لها منذ بدأ بها . وقد اختار الكاتب العظيم ان يكون البطل اجمونت هولنديًا قحًا يميل الى السرور والملذات وأسباب البهجة والانشراح حرًا مستقيماً صريحاً وهو بطل معدود وفارس مغوار يمارس كل اعمال الابطال مقدام في الهيجاء وساعة الطعن والضرب لطيف المحضر والمعشر ساعة السلام وفي الاوساط الاجتماعية رجل اي رجل يعطف على من دونه لهذا عظمه الناس وبجلوه وحلت هيبتهُ الجندَ وغير الجند وأراد ان يعيش حرًا طليقاً من كل القيود مع ان احوال العصر الذي عاش فيه لم تكن تسمح له بذلك . فقد ارسل فيليب الثاني مندوباً من قبله الى تلك البلاد الواطئة فأدرك اورانيار (Oranier) الخطر وكان سياسيًا حازماً كثير الحذر وعرف انى ينبعث ذلك الاتون وما وقود ذاك اللهب فحذر صديقه ولم يكن هياباً مما سمع بل تقدم الى الهرتزوج البا (Alba) ذلك المندوب العظيم والسفير الخطير وبين له امام صديق كريم عاقل مفكر حالة البلاد بصراحته المعروفة وجسارته المعدودة وذكر امامه حقوق البلاد والاقاليم المهضومة التى ارسل الهرتزوج البا لسحقها والقضاء عليها وعند مافاه بتلك التصريحات امامه عُدَّ خارجاً عن حدود الطاعة والنظام. وان كلامهُ يُعدُّ كأنهُ موجّه للملك نفسه . ولما كان ذلك اخلالاً بالنظام قبض عليهِ عقب حديثه وزج في اعماق السجون مكبلاً بالاغلال والقيود . ولما كان في المطبق والحبس الضيق كان يعتمد على ميل الملك للعدالة واقامة القسطاس المستقيم وعلى صداقة عقيلة ذلك المقيم العام والمندوب الكبير وعلى ذلك السياسي اورانيار وكان يعتقد ان الشعب سيسعى جهده لفك اغلاله وتحطيمها ولكن اعتقاده في الشعب كان كمن اعتمد على سور يكاد ينهد لفقده التماسك القوي بين افراده اذ فقد افراد الشعب كل شجاعة واستولى على نفوسهم الجبن والخور في العزيمة ليفكوا اسار من قام بالدفاع عن مطالبهم وحقوقهم المقدسة. وترى كليرشن Klaerchen صاحبة اجمونت تسعى كل السعي لتثير الجماهير والناس وتحرك الشعب للثورة وتخليص اجمونت وعبثاً كان سعيها في شعب ميت الاحساس والشعور واصبح اجمونت ضحية معارضته وقيامه وكان عظة وتبصرة

لمن جاء بعده ان يتدبر الامر ويطيل التفكير ويحتال احتيال الساسة ويحتاط في امره لبلوغ امانيه ومطالبه

ورأى اجمونت صاحبته في المنام مثالاً لطلاب الحرية وفذة فريدة من طلابها وهي تتنبأ له وتقول ان في موته استقلال بلاده وحريتها وهي تضع له اكليل النصر على جبينه . وقد اجاد جوته في تصوير كليرشن ايما اجادة وجعل لها شخصية محبوبة ورسمها فتاة ساذجة من فتيات الشعب طاهرة نقية طروباً . وقد حذا جوته في وصفها حذو شكسبير ونجح في ذلك واجاد في اظهار طباعها واخلاقها وما كان لها من عزم وقوة عزيمة حتى جعلها في مصاف الابطال . فانها عندما سمعت بالقبض على اجمونت والحكم عليهِ بالقتل تناولت السم وسبقته في مفارقة الحياة . وقد اراد جوته ان يصور لنا شخصية تأسف على فقدها وانساناً لطيف المعشر نأسى لحاله وتأخذنا الشفقة من مصيره وممثلاً للانسانية سقط ضحية ظروفهِ وعصره القاسي

اما (توركاتو تاسو) فهي رواية تمثيلية لحقها ما لحق (افيجينيا) من تبديل وتغيير فقد كان الشاعر قد عزم على ان تكون نثرية ثم رجع عن رأيه وجعلها منظومة وتم ذلك بمدينة فيمار سنة ١٧٨٩ وهي عبارة عن صورة نفسية ولا يرجع ما بها من جمال الى ما في حوادثها من حياة وسرعة في النشوء ولكن الى ذلك الرسم الدقيق الجلي الواضح في تبيان اخلاق افرادها وملخص حوادثها : ان تاسو نظم ملحمته الكبرى التي اسماها (اورشليم الطليقة) وقدمها للامير هرتزوج الفونس فون فرارا وكان عنده في بلاطه فجعل الامير اختهُ (ليونورا) تضع اكليل الغار فوق هامته وعندئذ يدخل الوزير (انطونيو) الذي رجع من روما وقد نجح في مهمتهِ السياسية العسيرة التي ذهب من اجلها والسياسي المحنك لا يعجز عن القيام بتنفيذ الصعاب . وكانت المقابلة جافة بين الشاعر تاسو والوزير انطونيو الذي بدأ يسخر منهُ لحصوله على ذلك التشريف وعلى اكاليل الغار ومن وضعه في مصاف كبار الشعراء السابقين فأهاج كلامه تاسو ورفع في وجههِ حسامه غير آبه انه في قصر الامير فرأى هذا ان يكون عقاب الشاعر ضئيلاً لتعكيره صفو الراحة والسكون الذي يجب ان يكون في دار الامارة وضآلة العقاب راجعة الى انه لم يكن هو الآخر راضياً عن الوزير . وامر الامير تاسو ان يغمد حسامه وان يصالح الذي اهانه . ومع هذا فان حكم الامير عليهِ بذلك العقاب اغاظهُ وأهاجهُ واراد ترك البلاط ورغب في البعد عنهُ ولم يرَ الامير مندوحة ان يقبل مفارقة الشاعر رغم انفه لانهُ عرف ان ذلك هو العلاج الناجع للحالة والحادثة . وكان الفراق على نفس تاسو عسيراً شاقاً مؤلماً اذ كيف يترك قوماً احبوه وعطفوا عليهِ كل العطف وقد رفعوا من قدره ما قد رأينا وكاد يفقد كل ما بقرارة نفسه من عزيمة واسرع الى الاميرة يستأذنها في الانصراف والوداع . وحاول ان يجعلها تتمسك بهِ بأسباب الحب والهيام ولما اعرضت عنهُ رأى ان خيراً

له ان يدبر مؤامرة عامة في البلاط فكانت المؤامرة ضده ولم يفلح فيها ونفر الناس كلهم منهُ وخلفوه ولم يرَ امامه الا انطونيو الرزين نير الفكر والتفكير وكان يعلم ما بهِ من ضعف مع ما قد رأينا وما كان يظنهُ فيهِ من عدو لدود ولكنهُ عرف ان نجاته في يد ذلك الرجل . وعرف الشاعر ذو النفس الثائرة الحائرة ان عند ذلك السياسي شفاء روحه وغذاء نفسه وانهُ يجب عليهِ ان يتمالك عواطفه وان يحكم نفسه لما عراها من غرور . واشخاص تلك الرواية التمثيلية خمسة فقط اولهما تاسو ثم (انطونيو) ويريك جوته من (تاسو) شاعراً قديراً واسع مدى الخيال لطيف المعشر ولكنهُ لا يتمالك نفسه اذا ما ثار لسبب ما . وهو الى جانب هذا كثير الغرور بنفسه والاعتزاز بها لاسيما عند ما افسد البلاط اخلاقه بتمليقه وتعظيمهِ اكثر مما يجب وفوق ما يستحق فازداد بهِ الغرور ونما في قرارات نفسه . اما انطونيو فتراه عاقلاً حسن التصرف في الامور حذراً من الناس هادئاً ساكناً يتمالك عواطفهُ ولا تهيج نفسه للسفاسف ولتافه الامور . وبينا ترى تاسو لا يرى من الامور الا قشورها دون لبابها يعيش في عالم الخيال والوجدان ترى انطونيو ينظر الى الاشياء والحوادث نظرة جدية عملية بعد ان يتفهمها . وبعد ان وصف جوته تلك الطباع والاخلاق المتباينة اظهر تاسو راغباً في معالجة حاله وجملهُ يدرك في آخر الامر جهله التام بامور العالم المحيط بهِ والذي يسكن فيهِ . وقد جاء على لسان (ليونورا) المغزى الذي وضعت الرواية التمثيلية من اجله اذ تقول : (هما رجلان وقد عرفت من زمن بعيد سبب عداوتهما لان الطبيعة لم تكوّن رجلاً واحداً من مجموع الاثنين) — ونرى جوته في تصويره لطباع الاثنين قد اوضح موقفه اذ كان شاعراً ورجل سياسة فأبان التنازع في نفسهِ بين الخيال والحقيقة كما ابان تكافئهما في النهاية . وقد حدثت حوادث المأساة في بلاط الهرتزوج فرارا وقد قال جوته اظهاراً لفضله (ان فرارا قد اصبح عظيماً بمعونة امرأتهِ لان الانسان الفاضل يجذب الفضلاء اليهِ ويعلم جيداً كيف يجعلهم يلصقون بهِ لا يفارقونه» . ويظهر انهُ لم يكن يقصد ايجاد وجه شبه بين الهرتزوج الفونس والامير كارل اوجست بقيمار ولو انك تلحظ بعض وجوه الشبه بين الاميرة ليونورا فون استا وشارلوتي فون شتاين والاميرة لوزا

***

وعاد جوته الى قيمار في ١٨ يونيه سنة ١٧٨٨ وهو شديد الاعجاب بجمال الفنون القديمة وفنون عصر النهضة والاحياء وقد شاهد ذلك في ايطاليا ثم انهُ رأى ان يعتكف اصدقاءه الاولين ليتم ما كان قد بدأ بكتابته وتأليفه من المؤلفات وقد سهل له الامير تحقيق رغبتهِ بتخفيف العبء الثقيل من اعمال الحكومة عن عاتقه . وهجرتهُ اعز صديقاته شارلوتي فون شتاين وقد حقدت عليهِ في نفسها لما التقى بكريستيانه بولپيوس Christiana Bulpius التى بلغت

الثالثة والعشرين من عمرها في منزله عقب رجوعه الى وطنه . وقد وصف ما تركتهُ سياحتهُ في ايطاليا من أثر في نفسه وما يشعر بهِ من حنين الى ايام قضاها في ربوعها ويذكر ردحاً من الدهر كانت نفسه قد سعدت في اثنائهِ

وقد انشد الاشعار ونظّم القصائد والاغاني في حب كريستيانه. والغريب انها كانت ساذجة في العلم والمعرفة ولكنهُ مال اليها وأحبها لانها كانت ثابتة في حبها ولم تشب مسراتها في الحياة شائبة ولم تدنسها جريمة او اثم وكانت تجهد ان تلبث على اخلاصها له وان تبعد عنهُ الاحزان الداخلية والسأم وان تحول دون الاكدار والغموم ودونهُ ولذلك نراه قد علق بها قلبه ثماني وعشرين سنة . وقد ماتت كريستيانه سنة ١٨١٦

***

ولما اتم جوته تاسو اراد ان يتم (فوست) التي كان قد اشتغل بكتابة بعض مناظرها في ايطاليا ولكنهُ عدل عن ذلك لحسن الحظ وأراد ان ينشر اثره الذي لم يكن قد اكمله فأخرج (قطعة من فوست) سنة ١٧٩٠ لاول مرة . كما انهُ كتب هجائيات البندقية في تلك السنة عينها وكان جوته قد قابل الهر تزوجين (الدوقة) امالي (Amalie) عند عودتها من سياحتها في ايطاليا وذكر في تلك القصائد حبه لكريستانه . كما انهُ اتى على ذكر الاحوال الفرنسية فيها في بضعة مواضع . وبعد تجواله في ايطاليا رغب عن كل ما يشتم منهُ العنف والجبروت لهذا نجده ينأى بنفسهِ عن الثورة الفرنسية ولو ان حوادثها لم تمر عليهِ دون ان تترك في نفسهِ اثراً ما . ولما كان من عادته ان يصف في شعره كل ما يحرك شاعريته فان الحادث العالمي الخطير ترك في نفسه اثراً بليغاً فصاغ فيه القوافي والاوزان . وكتب في ذلك بعض المآسي التي لم يذع ذكرها كثيراً ومن ذلك مأساة (المغضبين) و« القائد الوطني » وغيرهما وقد لبثت الاولى من دون ان يتمها

وفي اثناء تلك المدة ترجم جوته (الثعلب راينكه Reinecke Fuchs) ويمكن القول اجمالاً بان الثورة الفرنسية لم تكن محلىً باهراً لشاعريته لهذا عاد جوته الى العلوم الطبيعية فبحث في نظرية الالوان وعلم البصريات وامثالها . كما ان حوادث الحرب لم تتركه يطمئن في داره ويرتاح الى سكنه فقد سار مع الهرتزوج الى شليزين (سيليزيا) لكي يعد معسكراً مع ملك بروسيا كما انهُ اشترك سنة ١٧٩٢ وهو في معية الهرتزوج في حملة الجيش البروسي على فرنسا وقد وصف ذلك تحت عنوان (حملة في فرنسا) ودعاه الهرتزوج في السنة التالية عدة مرات للجيش وقد حضر الشاعر حصار ماينز

ديانة الفينيقيين وطقوسهم

للشيخ بولس مسعد

ديانة الفينيقيين

كان الفينيقيون في بدء امرهم يؤمنون بوحدانية الله على مثال الامم القديمة التي كان مبدأ وحدة الالوهية راسخاً عندها قبل ان تفسد الوثنية ديانتها وتتطرق الى الاشتراك وتأليه الكائنات السامية واعتبار انها مظهر من مظاهر الاله الحقيقي . ومبدأ الالوهية هذا انما هو في اعتبار العلماء اساس القواعد الادبية التي تجلت في تاريخ الممالك القديمة في سورية وسر اطراد النجاح فيها حقبة طويلة من الدهر . ثم استطرد الفينيقيون على توالي الايام الى عبادة صفات الاله الواحد اقتداء بتلك الامم فمثلوها بأشكال متنوعة وعبدوها فتنوعت لذلك المعبودات والطقوس ولكن قلما اختلف موضوع العبادة. ثم سدل الستار على مبدأ الوحدانية ومنشأ الدين وأوغل القوم في التعاليم والاعتقادات الوثنية الى ابعد مدى . وبلغ من تماديهم في ذلك انهم كانوا ينسبون الى آلهتهم كل ما كان يصادفهم في حياتهم من خير او شر ففسدت آدابهم وطبع تمدنهم بطابع مادي بحت حط من قدرهم وأفقدهم شيئاً كثيراً من مكانتهم السامية عند الامم التي اقتبست حضارتهم ولا سيما اليونان والرومان

وهم اول من استنبط الحكايات الخرافية وأنزلوها منزلة الحقائق التاريخية الثابتة ولا سيما ما يتعلق منها بالآلهة والابطال . وقد جعلت اولاً في مرتبة التعاليم الدينية . ثم صيغت منها مادة التاريخ القديم فجاء مشوهاً مبهماً حافلاً بالغرائب والوقائع الخارقة . ولما اتصلوا باليونان لقنوهم اكثر حكاياتهم الخرافية فأفرغها هؤلاء في قالب جديد واتخذوها اساساً لاستنباط قصص خيالية اخرى نقلت الى فينيقية فتقبلها الفينيقيون بهوس على مسحتها اليونانية وهذا هو منشأ ما يرى من التباين بين الحكايات الوثنية بين الشعبين. والى هذا التباين على الخصوص يرجع تعدد الآلهة عند الشعوب القديمة فكانت آلهة فينيقية غير آلهة اليونان او آلهة اشور وبابل وهذه غير آلهة المستعمرات الفينيقية او آلهة العرب او سواهم مع ان مصدرها جميعها واحد

ولا يخفى ان اسماء الآلهة عند القبائل الارامية حتى عند الكنعانيين والعرب والساميين تدل على حقيقة اوصاف الالوهية ووحدانيتها وهذا ما يثبت تقدم معرفة الاله الحقيقي عند الفينيقيين وسواهم من مجاوريهم على تعدد الآلهة ولذلك قلما نجد فرقاً بين اديان هذه الامم وكأنها واديان البابليين والاشوريين سواء فهي صادرة عن مبدأ واحد وهو تصور اله واحد

قدير سماه كل فريق منهم باسم يدل على صفة من صفاته . ثم تدرجت هذه الامم من معرفة الاله الحقيقي الى عبادة الآلهة الكذبة حيث كانت الفت الحكم على الله بحسب الحواس وأدى بها الامر الى ان هذه التسميات المتعددة محت على توالي الايام من اذهان العامة الخاصة الاولية للمعبود وهي مبدأ الوحدانية ولم تترك له عند الاقدمين الا تصوراً مشوَّهاً

وليس من شعب بين الساميين حفظ للاسماء الالهية معناها الحقيقي المطلق الا الشعب اليهودي وأما الآخرون فانهم افسدوا معناها وأطلقوها على المخلوقات حتى جعلوا منها آلهة متعددة وأفضى بهم الحال ولا سيما بالفينيقيين الى الاعتقاد بأن الاسم الواحد يدل على عدة آلهة بحسب تعدد الامكنة التي تعبد فيها هذه الآلهة لا بحسب تعدد الصفات ولكل اله حقوق معينة في العبادة فكان بعل صور عند الفينيقيين غير بعل صيداء وبعل هذه غير بعل لبنان وحرمون وغيرها . وكان لكل مدينة ولكل معبد ولكل مكان اله مخصوص له عبادة محصورة وصفة وطنية محضة . على ان هذا الذي نعيب الاقدمين عليه ونعده وصمة في جبين حضارتهم نرى له امثلة اليوم حتى عند اعرق الشعوب العصرية تمدناً وأشدها استنكاراً للخرافات والحكايات الوثنية

والوحدانية عند الفينيقيين كانت ممثلة بملكارث اله صور الاعظم. وقد توسعوا في تأويل معنى الالوهية فعبدوها في اخص مناظر الطبيعة وآل بهم الامر الى تأليه الانسان فعبدوا ملوكهم بعد موتهم باعتبار ان الانسان ولد من الابطال « نصف الآلهة » وان الابطال ولدوا من الآلهة . وهذا الاعتقاد انما هو منشأ تأليه اليونان لابطالهم . واذا نحن اخذنا بنظرية عبد الرحمن الكواكبي فان تأليه الامم الغابرة لملوكها وابطالها يرجع في الاصل الى ما بين الاستبدادين الديني والسياسي من التشاكل الذي يؤدي بعامة البشر الى عدم التمييز بين الاله المعبود والحاكم المتسلط عليهم فهما في اعتبارهم مشتركان في كثير من الحالات والاسماء والصفات وهذا ما بعث بالملوك المستبدين على اتخاذ بطانتهم من رجال الدين المستبدين ليعينوهم على استعباد الناس باسم الله . على ان منشأ هذا كله في نظرنا ايغال الاقدمين في تأويل معنى الالوهية تأويلاً ساقهم من حيث لا يدرون الى عقيدة الاشتراك على نحو ما رأينا في ما تقدم

وعبد الفينيقيون اكثر الكائنات التي تدل على الالوهية بنوع اتم ووجهوا عبادتهم الى اعجب مظاهر الطبيعة ولا سيما مظاهر الموت والحياة والانحلال والتجدد . وكثيرون منهم كانوا يتوهمون ان الاصنام آلهة حقيقية فكانوا يقدمون اليها الذبائح والقرابين البشرية على وجه تقشعر منه الابدان على ضد فلاسفتهم فانهم كانوا يعرفون ان هذه الاصنام ليست بآلهة لكنها تمثل الآلهة ولم يكونوا يعبدونها الا لأن شريعتهم الوثنية تقتضي ذلك . على ان من الخاصة من كانوا يعتقدون ان الصنم يمثل الله وانهُ جسمه وهيكله وان الله مشابه له وان له

اعضاء نظيره او انهُ موطن الله ومأواه وهذا ما كان يؤدي بهم الى ان يعبدوه

وقد ذهب فريق من المؤرخين الى ان الفينيقيين اخذوا معبوداتهم عن الكلدان وألبسوها لباساً مصرياً لانهم كانوا خاضعين لمصر . غير ان الثقاة يجزمون بأن آلهة فينيقية غير آلهة مصر وان الفينيقيين والاراميين لم يعبدوا آلهة اشور وآلهة الفرس ولكن بعد استيلاء ملوك اشور ومصر على فينيقية اصبح لمعتقدات الاشوريين والمصريين بعض التأثير في الفينيقيين . على ان هذا التأثير لم يحل دون استمرار الفينيقيين على ممارسة ديانتهم القائمة على تقاليد دينية وطنية حقيقية ليس عليها اقل مسحة اجنبية . ومما لا نزاع فيه انهم لقنوا الشعوب التي مازجوها او احتكوا بها من حكاياتهم الوثنية وطقوسهم الدينية اكثر مما اخذوا عنها وقد تركوا في كل مكان نزلوه من الاقطار الاسيوية والاوربية والافريقية طابع دينهم ونزعتهم الوطنية لان بلادهم كانت قطب العبادات الوثنية

وعبادة الفينيقيين مماثلة لعبادة العبرانيين من وجوه شتى وخصوصاً في ما يتعلق بالذبائح والقرابين وما يقال عن العبادة يقال مثله عن اللغة وهذا ما يدل على ان الشعبين تجاورا عن رضى تام وعاشا حقبة من الزمان في سلام ووئام بعد ان تخاصما واقتتلا ردحاً طويلاً من الدهر

وقد طال اجل الديانة الفينيقية حتى اوائل القرن الرابع حيث جلس على عرش المملكة الشرقية قسطنطين الكبير الملقب بحامي النصرانية وراعهُ ما اقترن بهذه العبادة من ضروب المنكرات فامر بهدم الهياكل الوثنية في انحاء لبنان وسورية وفي جملتها هياكل الزهرة في افقا وبعلبك . وحذا طيباريوس قيصر حذوه وشنق عدداً كبيراً من الكهنة الوثنيين فكان ذلك من اكبر العوامل لبطلان الطقوس المنكرة من عبادة الفينيقيين ومهد السبيل الى انتعاش النصرانية وانتشارها السلمي وحلولها على توالي الايام محل الديانة الفينيقية بحيث لم تكد الصفحات الاخيرة من القرن الخامس تطوى من سفر الوجود حتى كانت قدم الدولة البيزنطية قد رسخت في الديار السورية فاجهزت على تلك الديانة فيها وقضت عليها قضاء مبرماً

اما معبودات الفينيقيين فمن اشهرها الاجرام السموية فهم والمصريون اول من عبدها وكانت عندهم بمنزلة علل لابراز الاشياء جميعاً الى الوجود وللاشائها ولاسيما الشمس حيث اتخذوها بمنزلة الاله الاكبر لهم باعتبار انها مصدر النور والحرارة والحياة ولانها مقياس الزمن وهذا ما جعلهم يعتقدون ان مرجع جميع الآلهة الى الشمس وهكذا تطرقوا الى عبادة الدولة الفلكية باسرها . واكثر الهياكل في فينيقية بني تكرمةً للاله الشمسي العظيم ثم انتقلت عبادة هذه الاجرام الى الامم الاخرى . وقد جعلوا السيارات السبعة بعولاً اي آلهة ومنهم من جعلها ثمانية وثامنها اشمون . وكانت الحية عندهم مثالاً لهذه الكواكب فكانوا يربون في هياكل اشمون حيات تلحس جراح المؤمنين فيبرأون في زعمهم لان اشمون في اعتبارهم اوجد عقاقير الطب

ولهذا كانوا يلقبونه باله الشفاء والحياة. واليونان يسمونهُ اسكليبوس. وعبدوا الحجارة النارية ولاسيما حجارة الرجوم فيسمونها بيت ايل اي مسكن الله وقد ذكر في الكتابات المسمارية سبعة من تلك الاحجار كانت تعبد في هيكل « ادك » في بلاد الكلدان . وكان في حمص حجر آخر عبدوه حتى عهد الرومان ووجدت صورتهُ منقوشة على مسكوكات ضربت في سورية وحمص وسلوقية والرها . وفي جملة معبوداتهم عشتروت وهي عندهم « الاهة السماء الكبرى » وكان مقامها في صيداء ويمثلونها بسيدة برأس بقرة وقرون على مثال شعاع الشمس . ومن آلهتهم داجون وكانوا يمثلون نصفهُ الاعلى بصورة انسان والنصف الادنى بصورة سمكة وهو في ما يزعمون الاله الذي سقط امام تابوت العهد اذ كان في حيازة الفلسطينيين . وعبدوا بعل ملكرث اله صور الاكبر ويمثلونهُ بصورة حجر منير . وبعل ملوك اله النار ويسمونهُ بعل حمون اي الاله المحرق وراسف اي النار السموية وكانوا يقدمون الضحايا اليهِ في افران تشيد على شكل اصنام وعبادتهم لاله النار هذا مبنية على اعتقادهم انها مبدأ الحياة ومصدر كل ولادة وابادة

واشهر آلهة الفينيقيين ادونيس (من ادوناي بالعبرانية اي رب او اله التوجع) المعروف بتموز الجبيلي ويمثلونهُ بشاب جميل الطلعة وهو عندهم ابن عشتروت الاهة الحسن ويسمونهُ بلغتهم عليون او عل اي العالي . وكان مقامه في بيبلوس « جبيل » وانتقلت عبادته الى اليونان وآسية الصغرى . وهو عندهم اله شمسي يموت في الخريف فتلبس النساء ملابس الحداد عليهِ وينحنَ لموتهِ باعتبار انهُ موت الطبيعة ويحيا في الربيع مع الطبيعة فيحتفلون بقيامته . وكانت نساء العبرانيين يشاركنَ الفينيقيات في النواح عليهِ في موته والابتهاج بهِ في بعثه وكذلك المصريون فانهم كانوا يحتفلون بهذا التذكار . وبعد انقضاء ايام الحزن كانوا يكتسون اوراقاً ايذاناً بانتهاء المناحة ويضعونها في صناديق من خشب البردي ويطرحونها في البحر اعتقاداً منهم بانها تصل الى جبيل فيعلم اهلها ان المصريين احتفلوا بالعيد وشاركوهم في حزنهم على موت ادونيس وفي ابتهاجهم ببعثه . واجمل فيلون الجبيلي احد المؤرخين الفينيقيين قصته نقلاً عن سنكنياتن البيروتي قال

ان الـ او ايل كبير الآلهة طاف في الدنيا وسلم بيبلوس الى زوجته بعل تيس ملكة قبرس. وكان لبعل تيس عاشق يسمى عليون « ادونيس » ففتك به ايل . وفي رواية اخرى ان ادونيس كان في ولاية اليونان صياداً وهام بحب امه عشتروت وبينما هو يصطاد يوماً في غابات لبنان حسده الاله اراس اليوناني فتقمص بخنزير بري وقاتله وصرعه . وقيل ان الخنزير هو الاله ايل بعينه . وروى آخرون قصته على الوجه الآتي :

ان بعل تيس او بعلتي ملكة قبرس عشقت تموز بن كوثر « قينار » ملك فينيقية وانتقلت الى جبيل لتستوطنها بعد ان تخلت للملك كوثر عن ممالكها لكنها قبل ان عشقت تموز كانت قد احبت اورس « مارس » فغضب زوجها هوفست « فلكان » لعملها هذا وقصد الى تموز

في جبل لبنان وهو منصرف الى قنص الخنازير البرية وقتله وقيل بل مسخه خنزيراً ثم قتله ودفن في افقا من اعمال كسروان لحزنت عشيقته عليهِ وماتت لفرط الحزن ودفنت هناك على ضفة نهر ابرهيم . وكان البكاء والانتحاب على موت ادونيس من الطقوس الدينية الكبرى عند الجبليين اهل بيبلوس . ذلك انهم قسموا المسافة بين جبيل والمكان الذي قتل فيهِ ادونيس الى سبع مراحل واقاموا في كل مرحلة منها معبداً عظيماً . واول هذه المعابد بني في المكان القائم عليهِ اليوم دير البنات في جوار جبيل وآخرها في مكان يقال لهُ المشنقة في وادي علمات وهو اعظم هذه المعابد . وجعلت المعابد الاخرى في الامكنة القائمة عليها اليوم قرى ستيتا وقرطبون وعينات وبلاط وحورانا ومهرين وحبوب وكفر صيادا وادّه . فكانت بنات جبيل يخرجن من معبد ادونيس فيها بموكب عظيم نائحات باكيات الى معبد المشنقة مارات على المراحل السبع فيصرفن سبعة ايام بين هذه المراحل ثم يعدنا الى جبيل مع جمهور المحتفلين بسبعة ايام اخرى ثملات بنشوة الفرح ويمررن على المراحل السبع فيستسلمن فيها الى المنكرات على انواعها ابتهاجاً ببعث الاله تموز واحياء لذكراه . وحكاية اقتتال ادونيس والوحش الذي افترسه ونوح الزهرة أو بعل تيس عليه منقوشة على صخر في قرية الغينة بالقرب من جبل رأس الكنيسة في فتوح كسروان . ومن ذلك قرية قبعل المعروفة هناك ومعناها قبر عل « ال » أو قبة عل وهي في جوار الغينة ، واسم الغينة نفسه يرمز الى حكاية ادونيس لان معناه في اليونانية امرأة وتأويله نواح وبكاء اشارة الى نواح الزهرة . ورجوع ادونيس الى الحياة بواسطة عشيقته الزهرة منقوش في المشنقة . وبين الغينة والمشنقة نهر ابرهيم وكان يعرف قديماً بنهر ادونيس أو تموز . والشهر الذي قتل فيهِ ادونيس سمي تموز الى ايامنا هذه . وقيل ان تموز مختزل تمزوز من مزز أو مسس اي ذوب وحلل وتأويله نظير ادوني اي المختفي

وكان للتثنية والتثليث شأن كبير في عبادة الفينيقيين وحكاياتهم وكذلك عند الآراميين والاشوريين والمصريين حتى ان العدد الوتر عند الفينيقيين ولا سيما العدد المؤلف من ثلاثة هو الهي . ولم يكن التثليث في اعتبارهم تصوراً دينياً مجرداً بل كانوا يمثلونهُ على آثارهم . وفي ابنيتهم القديمة امثلة عديدة من هذا التثليث ظاهرة في النقوش وفي تقسيم الابنية من الداخل وغيرها حتى ان عدد الثلاثة كان من اخص مميزاتهم . اما التثنية فناشئة عن تصور الاله الوحيد الخالق كأنه زوج ذكر وانثى ثم ولد من هذا الزوج اله آخر متمم للتثليث وهذا مبدأ المصريين . وليس لهذا التصور في فينيقية ولبنان مثل هذا الشأن . والفينيقيون والاشوريون يجعلون الآلهة الثلاثة في طليعة المملكة الالهية . ويندر عندهم ان يكون الثالث ولداً للاولين . واشهر التثليثات الفينيقية اربعة : ثالوث جبيل وثالوث صور وثالوث صيدون وثالوث قرطاجنة ويطول بنا المجال لو جئنا سرد اقوال العلماء في هذه التثليثات وحسبنا ان نشير الى ما دلت

عليه اعمال الحفريات الاخيرة في جبيل وهو انه كان فيها اله شمسي والهان آخران يحرسونها وان فرعون مصر اعترف جهراً « بانه صديق وابن هذه الآلهة » ومغزى ذلك ان هذا الفرعون لم يكن يستطيع ان يطأ ارض سورية من غير ان يعترف بالاله . والمعروف عند الثقاة ان ثالوث جبيل كان مؤلفاً من ايل أو عليون كبير الآلهة وتموز أو ادوني وعولم « الازلي » أو كرون « الزمن غير المحدود » . ولجبيل ثالوث آخر مؤلف من اوران « السماء » وملك وتوت « هومش أو حرمش وهو عطارد رفيق كرون » . وقيل ان ثالوث جبيل مؤلف من ايل وانثاه بعلة جبيل « زهرة لبنان » وتموز أو ادوني وهو الاشهر والاقرب الى الصواب

اما مصر فانه كان لكل مدينة كبيرة فيها ثالوث من الآلهة . وهذه الآلهة انما هي اسماء مختلفة لمسمى واحد في التثليثات القديمة. فكانوا يعدون الثالوث الهاً واحداً ذا ثلاثة اقانيم اي ان مبدأ التثليث موجود عند المصريين والفينيقيين على السواء وان اختلفت صوره عند الفريقين وهذا ما دعا فرعون الى الاعتراف جهاراً بانه صديق وابن ثالوث جبيل الفينيقي . وثالوث مصر مؤلف من اب وابن وام . واسماؤها في العاديات المصرية هورس واسيس واوسيرس أو حوريس واسيس واوسورس . وفي مذهب بعض علماء العاديات ان ثالوث مصر كان مؤلفاً من ثلاثة آلهة كل منها مستقل عن الآخر في الذات والا لما جعلوه مؤلفاً من اب وابن وام وهو من هذا القبيل يشبه ثالوث الهنود . واوسيرس عند المصريين هو كبير الآلهة وزفس عند اليونان . واما الرومان فالاله الاعظم عندهم جوبيتر أو المشتري. على ان هذا المذهب لا يعارض ما اتفق عليه رأي العلماء من اجماع الشعوب القديمة وفي جملتها مصر على الاعتقاد بوحدانية الله وتطرقها مع الزمن الى عبادة صفات الاله الواحد حتى جعلوا من كل منها الهاً مستقلاً عن الآخر . وهذا ما يعلل قولهم في ثالوث مصر ان لكل من الآلهة المؤلف منها شخصية قائمة بذاتها

الضحايا والطقوس

ولقد امتاز الفينيقيون بتقدمة الضحايا البشرية ولا سيما الى بعل ملوك اله النار فكان الآباء يقذفون باولادهم في النار الآكلة ارضاء لهذا الاله الناري . ويغلب ان يضحوا ببكر اولادهم أو احدثهم سناً . وكثيراً ما كانوا يستبدلون الضحية البشرية بحيوان من غير فصيلة البقر أو باقامة نصب تكرمة للآلهة أو بالخدمة في احد الهيا كل مدة من الزمن . ونسج العبرانيون على منوالهم في ذلك وامتدت هذه الطقوس الى الجزر وبلاد اليونان وحيثما نزل الفينيقيون . وكان كهنتهم يلبسون في الاعياد ملابس مماثلة لملابس الشتاء ويخضبون وجوههم بالحمرة ويكحلون عيونهم ويتقلدون سيوفاً أو غير ذلك ويتأبطون دفوفاً أو معازف يضربون عليها ويرقصون ويمرغون شعورهم بالوحول ويعضون اذرعهم ويخدشون اجسامهم بالسيوف والحراب حتى اذا سال دمهم قدموه ضحية الى آلهتهم الدموية . وكانوا اصحاب الكلمة العليا يملون ارادتهم

على الحكام. وما زالوا كذلك حتى ايام اخاب ملك اسرائيل فاخزاهم ايليا النبي وذبح منهم ٤٥٠ نبيًّا او كاهناً من كهنة بعل و٤٠٠ من كهنة عشتروت في جوار نهر قيسون وجبل الكرمل. وكانوا يتوسلون بالدين الى ارتكاب افظع المنكرات واستباحة اقبح ضروب الشهوات البدنية

هياكلهم وأصنامهم

كانت العشائر الكنعانية تعبد آلهتها على قمم الجبال ومشارفها فتقيم عليها نصباً تسميه بيت ايل وتعبده واقتفى أثرها بنو اسرائيل . وأما المدن الكبيرة فكان فيها هياكل منذ ازمنة عريقة في القدم نظير هيكل ملكرث في صور . والظاهر انهم اقتبسوا صناعة بناء الهياكل من المصريين لانهُ لم يعثر في فينيقية على اثر لهذه الهياكل يرتقي عهده الى ما قبل اتصالهم بالمصريين في عهد ولاية الفراعنة عليهم او في عهد الرعاة بمصر . ومن المعلوم انهم اكثروا في زمن الرعاة من التردد الى مصر فاقتبسوا منها هذه الصناعة . ولم يبقَ من اطلال معابدهم المهمة في فينيقية سوى خرائب معبد عمريت بقرب طرسوس وهو يشبه الهياكل المصرية . وكان هيكل بعلة جبيل مشابهاً له وقد رفعت الانقاض عنه في سنة ١٩٢٢ وما يليها فاذا بهِ من اعظم هياكل فينيقية وقد ازدان مدخله بالتماثيل الضخمة ولكن منها ما هو محطم او مشوَّه وهذه التماثيل صنعها النحاتون المصريون . ووجد في غرفة داخلية تمثال بديع الصنع وبجانبه بقايا تماثيل اخرى وآنية متقنة بينها حوض مقدس . وبالقرب من هذا الهيكل المصري هيكل وطني لم يبق منهُ سوى البلاط وقواعد الاعمدة وهو الهيكل الذي وجد فوق المدافن الملكية الذي عثر عليها في ذلك الحين . وقد تفقدنا الهيكلين والمدافن بنفسنا وابصرنا هناك ستة اعمدة من حجر الغرانيت المصري وهي متقنة الصنع جميلة النقوش وكانت مبعثرة في ساحة الهيكل فاعيدت الى مكانها في الرواق الغربي. واما الصور والاصنام الكبيرة فلم يجد المنقبون حتى الآن شيئاً يذكر منها في مدافن الفينيقيين ولكنهم وجدوا كثيراً من الاصنام الصغيرة مصنوعة من حجر أو من خزف أو نحاس تمثل آلهتهم وبعضها متقن للغاية . والسبب في كثرة هذه الاصنام انه كان محتماً على كل كنعاني أو فينيقي ان يكون عنده صنم في بيتهِ وهي عادة انتقلت على التمادي الى المسيحيين فهم يزينون بيوتهم بالصور والتماثيل التي تمثل القديسين ويكرمها الشعب الساذج كما كان الوثنيون يكرمون تماثيلهم

ولما كانت المودة المتبادلة اليوم بين مصر ولبنان الذي هو وريث فينيقية الحقيقي تقتضي التبسط في هذا الموضوع ليكون القراء على بينة من العلاقات القديمة التي كانت تجمع بين القطرين فقد رأينا ان نلحق هذه النبذة بفصل مخصوص لنبسط فيهِ تاريخ هذه العلاقات من اقدم أزمنة التاريخ الى الآن متوخين من وراء ذلك متابعة العمل مع العاملين على ما فيهِ خير هذين القطرين الشقيقين وسعادتهما

الخلية النباتية وتركيبها السيتولوجي

للدكتور سيد خربوش

مدرس علم النبات في مدرسة الزراعة العليا

(البلاستيدوم) : Plastidome . وجد النباتيون منذ ابحاث شميتز Schmitz وشمبر Schimper ومن خلفهما من الباحثين ان البلاستيدات تكون طائفة مستقلة لسيتوبلازما الخلية الراقية ومستديمة كالنواة . وقد اثبتت فعلا ابحاث دانجار P.A. Dangeard الحديثة في نبات السيلاجينل « Selaginelle » ذلك الرأي حيث شاهد في الخلية الاولية النامية (المريستيمية) لهذا النبات الكريبتوجامي الوعائي بلاستيدة واحدة نشأت منها جميع البلاستيدات الاخرى بطريقة الانقسام المباشر

وقد شوهد في نبات الاسبيروجيرا « Spirogyra » ان البلاستيدات المؤنثة فقط هي التي تنتقل انتقالا وراثيا بواسطة البيضة من جيل الى آخر في هذا الطحلب الاخضر المائي

يتضح اذن مما ذكر ان بلاستيدوم الخلية النباتية يكون جزءا مهما مستديماً لسيتوبلازمها قائم بذاته ومستقل عن باقي اجزائها الاخرى . وقد حققت ذلك ابحاث Sapehin و Scherrer و Mottier في الميوسيني Muscineae . وكلنا يعلم وجودها باستمرار في الطحالب حتى في اعضاء التناسل كما في الفوشيريا سيسيل Vancheriasessile وفي النباتات الزهرية مما يؤكد صحة رأي Schimper الخاص بدوامها في الخلية النباتية الراقية . وقد اطلق على مجموعها العالم الفرنسي angeard اصطلاحاً يعرف بالبلاستيدوم يندرج تحته كثير من البلاستيدات المنوعة التي نشأت جميعها من اخرى مثلها وجدت من قبل وعليه فهي كالنواة لا يمكن ان تنشأ من جديد بل مصدرها وجود اصلا من نوعها

وللبلاستيدات اشكال مختلفة فنها ما تكون كروية الشكل Spheroplasts ومنها ما هو مستطيل Mitoplasts كما في نبات الاسبيروجيرا اذ تأخذ شكلا شريطيا مستطيلا يحمل جسماً كرويا يسمى Pyrenoide يتولد منه النشا . وقد تكون ناقوسية الشكل كما في الطحلب الاخضر المسمى Clamydomonas أو مغزلية كما في الانثوسيروس Anthoceros

كذا تختلف انواعها باختلاف تركيبها فقد تكون خضراء كلورية [1] تنسب اليها العملية المهمة

---

(١) Chloroplasts

المعروفة بالتمثيل او تكون كرومية [١] يغلب وجودها في خلايا الفواكه والازهار الملونة أو تكون عديمة اللون [٢] وهذه توجد بكثرة في خلايا الجذور والدرنات الارضية للنباتات المختلفة ولها قوة تكوين حبوب النشا من السكر وفي هذه الحالة تتحول الى پلاستيدات نشوية [٣] ومنها ما يكتنز بداخله موادَّ كيميائية أخرى كالمواد الزيتية [٤] والكاروتين [٥] والاكساتوفيل [٦] وفي بعض الاحيان البروتيد [٧] والليبيد [٨]

(الكوندريوم) Chondriome : توجد طائفة اخرى مستقلة في سيتوپلازما الخلية النباتية تعرف بالكوندريوم اوالسيتوم Cytome ولاجزائها اصطلاحات مختلفة بحسب اشكالها فالمستدير منها يسمى ميتوكوندرى Mitochondries او سيتوزوم Cytosomes بينما العصوي الباسيلي يعرف بالميتوزوم Mitosomes اما النوع الخيطي الملتوي فيطلق عليه كوندريوكونت Chondriocontes . ولا يزال بعض السيتولوجيين يعتبر هذا النوع الاخير كمصدر تنجت عنهُ جميع الپلاستيدات على اختلاف انواعها لكن الفحص السيتولوجي لنبات السيلاجينل Selaginelle اظهر استقلال هاتين المجموعتين احداهما عن الاخرى استقلالاً تامًّا حيث شوهدت پلاستيدة خضراء واحدة في الخلية المريستيمية الاولية نشأت عنها جميع الپلاستيدات الاخرى بخلاف اجزاء الكوندريوم فانها كانت وقتئذ متعددة

ويلاحظ ان الخواص المورفولوجية والهيستوكيمائية للكوندريوم تقرب كثيراً من خواص الپلاستيدوم في ان افراد الاول قد تأخذ شكل افراد الثاني من جهة وان كليهما يُصبغ تماماً بصبغة الهياتوكسلين من جهة اخرى وذلك مما يدعو الى الالتباس عند التفريق بينهما احياناً

واجزاء الكوندريوم اجسام كروماتينية للغاية تتكاثر غالباً بالانقسام وتنتقل وراثيًّا بواسطة اعضاء التناسل من جيل الى جيل كما اثبتت ابحاث Kin Chou Tsang الحديثة في نباتات العائلة البرونسپوراسية Peronosporaceae حيث لوحظ انها تمر من اعضاء التناسل المذكرة Antheridia الى المؤنثة Oogonia وقت الاخصاب ثم تنتقل بواسطة الاخيرة عند النمو الى الجيل التالي لنفس النبات وهكذا

اما وظائفها فلا تزال مجهولة وللآن لم تدرك تماماً غير انهُ يغلب على الظن انها قد تساعد النواة المنقسمة فتمدها بما فيها من الكروماتين الذي يدخل في تكوين الكروموسومات اذ يصعب صبغها ومشاهدتها تحت المجهر اثناء انقسام النواة وهذا ما قد لاحظناهُ مراراً

وعلى الجملة يوجد الكوندريوم في جميع الخلايا النباتية دائماً فهو اذن من طوائفها المستديمة اما شأنه الفسيولوجي فلا يزال غامضاً وغير واضح تماماً للآن

---

(١) Chromoplasts (٢) Leucoplasts (٣) Amyloplasts (٤) Oleoplasts
(٥) Carotinoplasts (٦) Xantoplaste (٧) Proteoplasts (٨) Lipidoplasts

(الفاكيوم) : Vacuome ننتقل اخيراً الى طائفة رابعة مستديمة في الخلية النباتية تشمل جميع الفجوات الخلوية المنوعة وقد سماها السيتولوجي الفرنسي المشهور دانجار P.A. Dangeard فاكيوما وهو لفظ تتداوله الآن معظم مجلات السيتولوجيا الحديثة

كانت نظرية نشأة الفاكيوم وتكوينه قديما أنه ينشأ في الخلايا نشأة جديدة وأنه ليس من الطوائف المستديمة للخلية وذلك بأن تنقبض البروتوبلازما في مواضع معينة تاركة فراغات تزداد حجماً وتتسع كلما تقدمت الخلية سناً فينتهي الامر باندماج الفجوات بعضها في بعض فتتكون فراغاً مركزياً او اكثر في الخلايا المسنة وانها لا تلبث ان تتلاشى فتنشأ من جديد في الانسجة الحديثة للجيل التالي للنبات نفسه. وكان الاعتقاد حينئذ ايضاً ان تلك الفجوات خالية وليس بداخلها شيء مطلقاً

لكن النظرية الحديثة المبنية على أدق واحدث الطرق الفنية أثبتت ان الفاكيوم لا ينشأ نشأة جديدة بل هو جزء دائم في الخلية كالنواة والبلاستيدوم والكوندريوم وأنه معتبر كمخزن غذاء ملآن بسائل مائي يسمى العصير الخلوي (او الفاكيومي) "Suc Vacuolaire" أطلق عليه فانتيجم [1] بادىء ذي بدء هيدرولوسيت [2] وبعدئذ سماه ديفرز [3] تونوبلاست [4] ثم سماه حديثاً النباتي العصري دانجار [5] بعد أن أجرى عليه ابحاثاً قيمة اذ كان له السبق الأول في ابتكار الصبغات الحية له كروميديوم [6] والكروميديوم اما أن يكون متجانساً (هموجينياً) او في شكل راسب غروي (كللويدي) بحبيبات كروماتينية تختلف شكلاً وحجماً تسمى اندوكروميدي [7] وعلى الجملة فان طبيعة الفاكيوم ونشوءه قد اصبحا امراً ثابتاً ثبوتاً علمياً الآن والفضل راجع فيه الى اكتشاف صبغات حية خاصة به دون غيره من الطوائف الاخرى المستقلة المستديمة في الخلية النباتية تلك الطوائف التي لا تتأثر بالصبغات الاخيرة ما دامت الخلية حية

وللفاكيوم الخلية النباتية أشكال مختلفة منها الخيطي والشبكي والكروي الخ . . .

﴿ الشكل الخيطي ﴾ : يلاحظ هذا في برعم وردة حمراء حديثة في شكل خيوط حمراء متموجة تمثل الطور الأول لفاكيوم برعم الوردة اعتبرها بعض السيتولوجيين في أول الأمر نوعاً من انواع الكوندريوم وسماها وقتئذ كوندريوكونت [8] لكن ابحاث دانجار [9] أثبتت أنها في الحقيقة تمثل طوراً من تطورات الفاكيوم التابعة له دون غيره اذ انها مركبة من مادة الانتوسيان [10] التي لا توجد الا في الفجوات الخلوية ولا تصبغ الا بالصبغات الحية الخاصة بالفاكيوم. ووجد ايضاً ان الخيوط لا تلبث حتى تكبر حجماً وثخانة لامتصاصها للماء اي بعد حدوث عملية تناول الماء Hydratation فتأخذ حينئذ شكلاً كروياً

---

(1) Van Teighem (2) Hydrolocytes (3) De Vries (4) Tonoplastes
(5) Dangeard (6) Chromidium (7) Endochromidies
(8) Chondriocontes (9) Dangeard (10) Anthocyane

(الشكل الكروي): وهناك طريقة اخرى عكس الاولى يبدأ فيها الفاكيوم تطوره بأن يأخذ شكل كرات صغيرة الحجم تشبه كريات البلياردو وهذه بعد تطورها تطورات متتالية تتحول ثانية الى خيوط طويلة متموجة تتقابل بعضها مع بعض اخيراً فتكون شكلاً شبكياً جذاباً

هذه الحالة تنطبق على بذرة الخروع قبل النبت وبعده اذ تظهر فيها حال سكونها اجزاء الفاكيوم في شكل كروي وعند النبت تأخذ الاجزاء في الانقسام الى فجوات خيطية عديدة ناتجة عن حدوث عملية « فقد الماء » Dèhydratation وبعدئذ تتحول الخيوط الى حبيبات اليرونية « Grains d'Aleurons » متجانسة تركيباً (هموجينية) قد يكون بداخلها حبيبات ميتاكروماتينية (اندوكروميدية) راسبة

والحبيبات الاليرونية طور اول لفاكيوم بزرة الخروع حال سكونها وعند النبت تنتج فجوات خيطية فشبكية فأليرونية ثانية . وبهذه الطريقة تنتقل هذه الحبيبات بطريقتي التناسل والوراثة من جيل الى جيل في نفس النبات

ولا يخفى ان هناك مباحث قيمة عديدة يطول شرحها تؤيد نظرية دوام الفاكيوم في النباتات. جميعاً ذلك بان الفاكيوم لا يتكون فيها من جديد Néoformation كما يزعم بعض الباحثين بل انهُ ينشأ عن انقسام فاكيوم آخر وجد في الاصل : فمثلاً في نبات خميرة الجعة (البيرة) Saccharomyces cerevisiae الذي يتكاثر بالتبرعم نجد أنهُ عندما تبدأ احدى خلاياه في النمو يرسل فاكيولها انبوبة رفيعة شفافة بداخلها مواد غروية (كلويدية) التركيب مصدرها الفاكيول مخترقة منطقة التبرعم حتى اذا ما وصلت الى الخلية البنوية الناتجة من انقسام الخلية الامية (انتفخت) في طرفها وكبر حجمها فتكون فاكيولاً آخر حديثاً يشبه الفاكيول الاصلي الناشيء عنهُ على هذا النحو . وبانفصال الخليتين المتكونتين احداهما عن الاخرى يزول كل اتصال بين فاكيوليها بطبيعة الحال. اما وظيفة الفاكيوم فلم تعرف تماماً كما ذكرنا لكن الراجح أنهُ يعد بمثابة جهاز لاكتناز العصير الغذائي الموجود بهِ وتوزيعهِ على اجزاء النبات المختلفة . ويستدل على رجحان هذه النظرية بان الفاكيوم اذا وضع في حمام ايزوتونيكي Solution isotonique لاحدى صبغاته الحية فانه يمتص وحده تلك الصبغة تدريجاً دون غيره من اجزاء الخلية فيأخذ لونها ومن اجل ذلك استنتج علماء البيولوجيا انه من المرجح جداً ان يكون للفاكيوم القدرة على امتصاص المحاليل الغذائية النباتية وحفظها ثم توزيعها على اعضاء النبات وقت الحاجة كذلك

[المقتطف] اعدَّ الدكتور خربوش جدولاً مطولاً باسماء المراجع الانكليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية والايطالية التي اعتمد عليها في كتابة هذا الموضوع . وقد تعذَّر علينا نشرها هنا لطولها ، ولكنهُ مستعدٌّ ان يوافي بها من يهمهُ التوسع في هذه المباحث الحديثة

بيان الصور

الخلية النباتية ومحتوياتها : (راجع الصورة الملونة التي في صدر العدد)

١ سنتروزوم بسنتروسفيرها وتشععها النجمي Asters
٢ نوية النواة — ٣ جدار النواة — ٤ عصير نووي « Karyolymph »
٥ شبكة النواة المكونة من اللنين والكروماتين — ٦ بلاستيدة — ٧ مادة ميتابلازمية راسبة — ٨ كوندريوم — ٩ فجوة — ١٠ غشاء فاكيولي — ١١ سيتو بلازما — ١٢ جدار الخلية

انقسام النواة الغير مباشر

(شكل ٢) ١ — النواة في طور السكون ٢ — النواة في المرحلة المسماة سپيرم (ظهر الكروماتين على شكل حبل ثخين ملتو على نفسه) ٤،٣ — النواة المرحلة المسماة استرويد (انقسم الحبل الكروماتيني انقساماً عرضياً الى وحدات كروموسومية) وهاتان المرحلتان يعبر عنهما بالطور الاول (Prophase)

٦،٥ — النواة في الطور الثاني المسمى — Metaphase — (انشقاق الكروموسومات طولياً بعد ترتيبها على خط استواء الانقسام فيتضاعف عددها)

٨،٧ — النواة في الطور المسمى Anaphase (حيث يتجه كل نصف من الكتلة الكروموسومية الى احد القطبين)

٩ — النواة في الطور الاسپيرمي المزدوج (حيث تتصل كروموسومات كل قطب بعضها ببعض ابان تكون النواتين البنويتين : « Telophase »

رسم تخطيطي لانقسام الكروموسومة انقساماً طولياً (اسفل الصفحة)

ا — كروموسوم ابتدأ في الانشقاق طولياً . ب — اصبح الكروموسوم الاصلي كروموسومين ك ١ — ك ١١ ج — اخذ الكروموسومان في الانفراد والتباعد احدهما عن الآخر مع اتصالهما دائماً بالالياف المغزلية م . د — اتجه كل منهما في اتجاهين متقابلين قاصدين قطبي المغزل

(شكل ٣) ا — يمثل شكل وتركيب البلاستيدة في نبات الاسپيروجيرا Spirogyra شريطة حلزونية الشكل

ب — يمثل الشكل المغزلي لبلاستيدة الانثوسيروس
ج — يمثل الشكل الاسطواني ذا الاطراف غير المنتظمة لبلاستيدة الطحلب المسمى درابرنالديا Draparnaldia الخ

(شكل ٤) يمثل الطور التزاوجي لفطر الصدا الابيض على نباتات الفصيلة الصليبية — Cystopus Candidus — يلاحظ مرور اعضاء الكوندريوم. من الجاميطة المذكرة . Anth الى الجاميطة المؤنثة . Oog مما يثبت وجودها باستمرار في جميع اطوار حياة النبات وانها لا تنشأ من جديد . كذلك نشاهد اندماج نواتي الجاميطتين احداهما في الاخرى ابان تكوين البيضة

(شكل ٥)١ — جملة حالات تبين طريقة الانقسام التبرعمي في نبات الخميرة المسمى Saccharomyces cerevisiae وكيفية تكوين الفاكيول البنوي — ب — من الفاكيول الأبوي — ا — وانفصاله عنهُ اخيراً وذلك بانقسام الاخير

٢ — جزء من هيفا الفطر المسمى Penicillium glaucum محتوياً على عدد من الفجوات

٣ — جرثومة الفطر مستنبتة — يلاحظ انقسام الفاكيوم الأصلي ومرور الفاكيول الناتج عن هذا الانقسام الى الانبوبة الانباتية

٤ و٥ — طريقة تكوين الكونيديا وكيفية انقسام الفاكيوم الاصلي ووصول الفاكيول البنوي اليها

كل هذا دليل قاطع على ان الفاكيوم من الطوائف المستديمة في الخلية النباتية وذلك بانتقاله هكذا من طور الى آخر في نفس النبات اي انهُ لا ينشأ من جديد بل ينشأ من آخر وجد قبلهُ اصلاً

(شكل ٦) برهان على استقلال طائفة البلاستيدوم عن طائفة الكوندريوم في نبات السيلاجينل Selginelle

١ — خليتان اوليتان لهذا الطحلب : يلاحظ وجود بلاستيدة خضراء واحدة (ب) في كل منها حول النواة (ن) بينما عدد اعضاء الكوندريوم (كو) كبير اما اعضاء الفاكيوم (ق) فقليلة بداخلها اندوكروميدي(ند)

٢ — طور تال لاحدى هاتين الخليتين حيث انقسمت البلاستيدة الاولية الى اثنتين بنويتين ٣ — طور آخر يبين اربع بلاستيدات نتجت عن الانقسام الثاني

للبلاستيدتين المنوه عنهما في طور ٢

٤ — طور رابع يوضح الانقسام الثالث للبلاستيدات الاربع السالفة وهلم جراً.

اذن يتضح من ذلك ان البلاستيدوم قد نشأ والحالة هذه من بلاستيدة واحدة وجدت اصلاً بخلاف الكوندريوم

٥و٦ — احدى الخلايا الجنينية لجذير حبة الشعير فيها اعضاء الكوندريوم (كو) مصبوغة بالهيماتوكسلين بينما اعضاء الفاكيوم (ق) شفافة

٧ — بعض خلايا جنينية لجذير بزرة الخروع حيث توجد رواسب ميتا كروماتينية في الفجوات «ند» بينما يوجد الكوندريوم «كو» على حالة عصوية وحبيبية معاً

(شكل ٧) تكوين الاليرون (حبوب اليرونية) في البيومين ثمرة الخروع بعد الفحص الحيوي مستعيناً على ذلك باستعمال احدى الصبغات الحية للفاكيوم ولكن في هذه الحالة الاحمر المعادل Rouge Neutre — وهو جانب من الصفحة الملونة بالاحمر والاسود

من ١ الى ٦ تطورات خلايا الطبقة الخارجية للالبيومين ومن ٧ الى ٩ خلايا من الطبقة البرنشيمية (الداخلية) للالبيومين واطوارها المتتالية اثناء نضج الثمرة : ١ — خلية من ثمرة حديثة التكون جداً بها فاكيول كبير واحد مصطبغاً بالاحمر المعادل — يلاحظ بدء تكوين بعض حبيبات زيتية في السيتوبلازما — ٢ خلية من ثمرة اكبر سناً فيها نرى ان الفاكيوم السالف الذكر قد انقسم وتجزأ الى عدة تجوات وان الحبيبات الزيتية (الشفافة) كثر عددها — ٣ خلية من ثمرة ابيضّ غلافها وابتدأ ان يتخشب، فيها تحول العصير الفاكيومي الى مادة غروية (كللويدية) التركيب كذا المادة الزيتية آخذة في الانتشار — ٤ و ٥ في هذا الطور قد اسودّ غلاف الثمرة وتخشب فعلاً — نلاحظ ان الفجوات قد اتصلت واندمجت بعضها ببعض وكونت شكلاً شبكياً احمر بينما السيتوبلازما اصبحت مكتظة بالحبيبات الزيتية غير المصطبغة الشفافة — ٦ تجزأ الفاكيوم الشبكي الى عدة تجوات كرية الشكل لا تثبت طويلاً فتتحول الى حبوب اليرونية في الثمرة التي تم نضجها كما في طور ٩ — ٧ خلية من الطبقة الالبيومينية الداخلية حديثة جداً تحتوي على فاكيوم مائي التركيب — ٨ خلية من نفس الطبقة لثمرة كاد يسود غلافها بها عدة تجوات نشأت من انقسام الفاكيوم الكبير السالف الذكر — ٩ خلية اكبر سناً من ثمرة

ثم نضجها واسودَّ غلافها واصبح صلباً للغاية وتكونت فيها الحبوب الاليرونية

(شكل ٨) — وهو الجانب الثاني من الصفحة الملونة بالاحمر والاسود — تطور الاليرون (الحبوب الاليرونية) وتحويله الى فجوات اثناء انبات ثمرة الخروع :

من ١:٦ خلايا الطبقة الخارجية لالبيومين ثمرة الخروع مبينة التطورات المتتالية للاليرون اثناء عملية الانبات

١ — احدى خلايا ثمرة الخروع الناضجة ابان الانبات : يلاحظ انها تحتوي على كثير من الحبوب الاليرونية المصبوغة باللون الاحمر المبعثرة بين السيتوبلازما المكتظة بالحبيبات الزيتية ٢ — احدى خلايا الثمرة بعد مضي ستة ايام من عملية الانبات : يشاهد حدوث تغيير محسوس في شكل الحبوب الاليرونية حيث تأخذ شكلاً غير منتظم deformation . ٣ — يلاحظ بعد خروج الجذير ان الحبوب الاليرونية اندمجت بعضها ببعض وكونت فاكيوماً شبكياً ٤ — الطور التالي للسالف حيث يشاهد الفاكيوم على حالة سائل تقريباً آخذاً شكل حبل ثخين (طول الجذير نصف س.م تقريباً) ٥ — تجزأ الفاكيوم السابق الى عدة فجوات كروية الشكل ومختلفة الحجم (اصبح طول الجذير سنتيمتراً واحداً) ٦ — بعد ان بلغ طول الجذير ٣ س.م. نلاحظ ان تلك الفجوات قد اندمجت بعضها ببعض فكونت فاكيوماً كبيراً في وسط الخلية ٧ — خلية برانشيمية البيومينية فيها الفاكيوم مكون من حبوب اليرونية منتفخة نوعاً ٨ — حالات متعاقبة لاستحالة الحبوب الاليرونية الى فجوات (ا) فاكيول متغير قليلاً (ب) يلاحظ ان محتويات الفاكيول المتجزئة قد تجمعت فوق الجدار الفاكيولي (ج) يلاحظ حدوث راسب على سطح محتويات الفاكيول وكذا في نقطتين من جداره (د) يشاهد اندماج فاكيولين احدهما بالآخر

(شكل ٩) يوجد الكوندريوم في خلايا الحيوان والنبات دائماً فمثلاً في شكل (١) يظهر بجميع اشكاله في خلايا احدى كليتي الضفدعة وكذا في (٢) الذي يمثل بعضاً من خلايا كبدها ثم (٣) يمثل خليتين من الغدة اللعابية في فم الانسان بينما الرابع يبين احدى الخلايا العصبية للخنزير الهندي . اما ٥ و٦ فالاول يمثل كوندريوم احدى اسكوسات الباستولاريا فسكيولوزا Pastularia Vesiculosa والثاني هيفات الطفيل المسمى سابروليجنيا Saprolegnia مع كثير من الحبيبات الزيتية (ز)

التعاون والاقتصاد الزراعي

لما رأينا ما للحركة التعاونية من الشأن الخطير في مصر وما ينتظر لها من عظيم الاثر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية العامة افردنا هذا الباب لنشر مقالات ورسائل عن كل ما يهم الجمعيات التعاونية واعضاءها ويساعد على نشر التعاون وتقدمه . وقلم التحرير ينتهز هذه الفرصة ليعرب عن ترحيبه بنشر ما يرسله اليه اعضاء الجمعيات التعاونية من رسائل واخبار . وخير الكلام ما قل ودل

نجاح بعد فشل وغنى بعد فقر

المسيو احمد مراد البكري

« تبدأ في هذه الصفحات سلسلة قصص صحيحة الوقائع الاّ ان اسماء اعلامها واماكنها مغيّرة ، والغرض منها استخلاص دروس عملية تلقيها علينا اختبارات الآخرين — التحرير »

كانت قرية ميت فضيلة كباقي القرى الصغيرة المنتشرة في ريف مصر الجميل لا يميزها عن غيرها الاّ فقر اهلها المدقع وقذارة حواريها وبيوتها وقلة سكانها — الذين لا يربون على الالف — وصغر زمامها الذي لا يزيد عن المائتي فدان الاّ انهُ بالرغم من كل هذا فان هذه القرية تعد بحق من اجمل بقع الريف المصري ويحيط بها سياج كثيف من اشجار الكافور الباسقة التي تطل من عاليها على ترعة جميلة على شكل نصف دائرة تحتضن بينها قرية ميت فضيلة كأنها طفل صغير تربيه وترمقه بعنايتها . . . . وكان في القرية شيخ وقور يدعى الشيخ نجم الدين فضيلة رئيس اسرة فضيلة العريقة النسب والتي اليها تنسب القرية وهو بحكم شرف محتده وعريق نسبه يسيطر سيطرة روحية على جميع اهالي القرية الذين يعتبرونه بمثابة اب شفوق يركنون اليه ايام الشدائد والمحن . وكان كذلك بالقرية عند بدء هذا التاريخ شخص يدعى فريد افندي مجهول من الجميع الاّ لدى افراد قلائل من الاهالي الذين لم يزالوا يذكرون انهُ كان له اكبر نصيب في فشل شركة تجارية كان الغرض منها تموين اهالي القرية بحاجاتهم المنزلية ولهذا كان الشيخ نجم الدين يرمقه دائماً بعين الشك والحذر ولا يرتاح ابداً الى احاديثه الطلية الظاهر الجوفاء الجوهر

لم تمض مدة وجيزة على ظهور فريد افندي بين ظهراني القوم ثانياً الاّ واتضح غرضه وهو الدعاية لتأسيس جمعية تعاونية تقوم على اساس قانون التعاون ، ولما كان الشيخ نجم

الدين يقرأ باستمرار صحيفة التعاون التي تصدرها وزارة الزراعة ويلم بالشيء الكثير من تلك الحركة المباركة التي تقوم على اساس شعار « المجموع للفرد والفرد للمجموع » فقد استفزته حميته وتغلبت على شكه في اقوال فريد افندي وقويت رغبته في الاخذ بناصر القرية وأهلها فرحب بالمشروع ووطد عزمه على انجاحه فدخل ضمن مؤسسي الجمعية العشرة ودفع قسطه من رأس المال الذي لم يبلغ الخمسة والعشرين جنيهاً لشدة فقر الاهالي ، وفعلا تسجلت الجمعية وطلب اليها البدء بالعمل فلم تكد تبدأ حياتها الا واتضح لمعظم اعضائها ان فريد افندي لا يبتغي من عمله هذا الا مصلحته الشخصية دون الآخرين وتتغلب فيه نزعة تجارية هي ابعد الاشياء عن التعاون وهي كلها امور استدل منها مؤسسو الجمعية على ان فريد افندي يعتقد انه يمكنه اتخاذ التعاون طريقاً لمنفعته الخاصة .... وما انتشر هذا الاعتقاد الا انبرى الشيخ نجم الدين — الذي كان يؤمن بالتعاون ومزاياه ويبعده عن كل ما يدنسه — لانقاذ الموقف فلم تمض برهة من الزمن الا وكانت الجمعية العمومية قد انعقدت وفصلت فريد افندي من عضوية الجمعية ولم يلبث أن هجر القرية ولم يعد يسمع بهِ احد

مضت سنتان كاملتان على هذه الحوادث حصر خلالها الشيخ نجم الدين جهده في انهاض جمعيته التعاونيـة التي أصبح يحظى برآسة مجلس ادارتها وبفضل همته وغيرته انضمَّ الى الجمعية ما يربي على المائة شخص وزاد رأس مالها الى مائتي وخمسين جنيهاً ولم يَحُل فقر الاهالي المدقع دون الاقبـال على المساهمة في الجمعية (حتى انهُ يقال أن صبيًّا رغب في الانضمام الى الجمعية فطلب اليهِ دفع خمسين قرشاً ثمن سهم واحد ولما لم يكن لديهِ كل هذا المال أقدم على بيع « معزتهِ » العزيزة الوحيدة حتى يمكنهُ ان يصبح عضواً !!) حتى يحصلوا على كل ما يحتاجون اليهِ من أسمدة وتقاوي وقروض لشراء المواشي والآلات الزراعية

عمَّ نفع الجمعية جميع اهالي القرية واصبح جميع عائلاتها بمثابة عائلة واحدة كبيرة يعمل أفرادها لصالح مجموعها ويعمل مجموعها لصالح افرادها يرفرف عليهم جميعاً شعار التعاون هادياً اياهم الى السعادة والهناء

ونحن نرى انهُ لا شك في أن هذه النتيجة السارة كانت من غرس وعمل الشيخ نجم الدين هذا الشيخ الوقور العامل الذي اصبح بفضل جده وتفانيه في خدمة الكل يملك ثلاثة افدنة من اجود اراضي القرية وذلك بعد خمسة سنوات . ولما كانت سعة الاطلاع قد علَّمت الشيخ نجم الدين الاقلاع عن طرق الزراعة العتيقة التي تنحصر في زراعة القطن والمحاصيل العادية سنة بعد اخرى فقد عمل منذ البداية على غرس أرضهِ باشجار الفاكهة حتى اصبحت الثلاثة الافدنة حديقة غناء يباع محصولها سنويًّا بمبلغ لا يقل عن المائتي جنيهاً وذلك بفضل اتباعه ارشادات قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة . وان من يزور الآن الشيخ نجم الدين ليعجب

بنشاط هذا الرجل وولديه اللذين يحذوان حذوه فأحدهما يهتم بتربية النحل داخل البستان ويملك منهُ عشرين خلية والآخر يربي الدجاج ودودة القز وكلاهما ناجح في عمله مستقل فيه يجدفيهِ غبطة وتسلية وسعادة لاحدلها وهكذا يبدّل التعاون الاشياء والاشخاص من حال لحال

ومن بواعث غبطتنا أن نعلم أن الشيخ نجم الدين قدَّم لجمعيتهِ على سبيل الاهداء ثلاثة قراريط من ارضه لتقيم عليها الجمعية مخازنها ومكاتبها اقراراً منهُ بما كان للجمعية التعاونية عليهِ من أيادي بيضاء

وانك الآن اذا زرت قرية ميت فضيلة تلقى فيها من المعالم الجديدة ما لم تكن تعهده من قبل فلا ترى حولك الا بيوتاً وحارات نظيفة واناساً طبعت السعادة والهناء على وجوههم طابعها ، فاذا تمشيت في اراضي القرية وجدتها تموج بالمحاصيل الوفيرة تتبختر فيها هنا وهناك المواشي التي يدل ظاهرها على ما تلقاه من عناية الزراع بها ، وانك اذا سألت وبحثت وجدت الجميع خالين من الديون حريصين على القيام بتعهداتهم والمحافظة على سمعتهم فلا يسعك وهذه الحال الا ان تتمنى للتعاون ومن يلتجئ اليهِ كل خير

تقرير المراجعة العام عن التعاون في سنة ١٩٣٠

قُدّم هذا التقرير اخيراً من حضرة احمد فؤاد افندي رئيس قلم المراجعة والاحصاء بقسم التعاون بوزارة الزراعة وهو يشتمل على تحليل دقيق للحركة التعاونية المصرية خلال سنة ١٩٣٠ وقد أُلحِقت به مجموعة كبيرة من الاحصاءات التي يمكن الرجوع اليها، وهو مصدّر بمقدمة لحضرة الدكتور ابراهيم رشاد مدير التعاون وفيها يستعرض حالة التعاون في السنتين الاخيرتين ويورد حقائق عديدة من شأنها القضاء على كثير من سوء الفهم للحركة التعاونية ويبرهن على ان التعاون قد خطا تاركاً عهد المهد وعلى ان المصالح اشتبكت فيهِ وصار معقد آمال كثيرة الى ان قال « ولا يخلو التعاون المصري من خصائصهِ الذاتية ومواضع الافتخار فاننا نجد بين الجمعيات المتفرقة في البلاد ١٤ جمعية زاد عدد الاعضاء في كل منها على ٣٠٠ ووصلت العضوية في احداها الى ما يقرب من ٧٠٠ — وتوجد ١٨ جمعية يزيد رأس مال الواحدة منها على ١٠٠٠ جنيه ويبلغ مال احداها ٤٩٠٣ جنيهات خلا مالها الاحتياطي الذي يبلغ الآن ١٣٢٦ جنيهاً . كذلك توجد ٢٥ جمعية يخص العضو الواحد فيها من الخدمات ما قيمته ٣٠ جنيهاً فأ كثر وبلغ مجموع أعمال احدى الجمعيات ١٨٣١٥ جنيهاً ولم يصرف على القيام بها من النفقات سوى ١١٥ جنيهاً — اما القروض التي سحبتها الجمعيات من اموال الحكومة فلم تتعدّ ثلاثة أمثال اموالها الخاصة . وتوجد ٥٤ جمعية زاد ما ربحته على ٢٥٪ من رأس المال المدفوع رغم اعتدال اسعارها »

وترحب المقدمة بالعنصر الجديد الذي دخل في أنظمة البلاد المالية وهو بنك التسليف الزراعي وتنوه بما سيكون له من شأن في المستقبل كبنك التعاون المركزي وبذلك تنطوي صفحة الاعتمادات التعاونية المحدودة . وقد أعرب عن امله في :—

١ — ان توجّه الازمة المالية الحالية البلادَ نحو التعاون المنزلي لانه خير معين على تخفيض نفقات المعيشة ٢ — ان تنبه الجمعيات الى ضرورة عدم قصر كل اموالها على المعاملات الآجلة فتقعد عاطلة حتى تسترد ديونها ٣ — ان تزيد الجمعيات ما تخصصه للمعونة الاجتماعية حتى يمكنها ان تقوم بعمل نافع جدي في هذا السبيل ٤—ان تزيد الجمعيات اهتمامها باستخدام الآلات الزراعية كوسيلة لتخفيض تكاليف الانتاج

وقد اشار التقرير في مستهله الى ان الحركة التعاونية تضاعفت في سنة ١٩٣٠ في جميع نواحيها بالرغم من حلول الضائقة الاقتصادية وهي تحتاج الى جهد كبير لأخراجها منها سالمة

	سنة ١٩٢٩	سنة ١٩٣٠
عدد الجمعيات	٢١٧	٥١٤
عدد الاعضاء	٢٢٠٠٠ عضو	٥٠٠٠٠ عضو
رأس المال المدفوع	٨٠٠٠٠ جنيه	١٤٠٠٠٠ جنيه
المال الاحتياطي	٩٠٠٠ »	١٣٠٠٠ »
قروض تعاونية	١٢٧٠٠٠ »	٢٧٥٠٠٠ »
قيمة الخدمات	٢٥٠٠٠٠ »	٥٠٠٠٠٠ »
متوفر السنة (ارباح)	١٢٠٠٠ »	٢٠٠٠٠ »

ولم يقتصر هذا الاطراد في الحركة على عدد الجمعيات بل تعداهُ الى زيادة متوسط العضوية في الجمعيات القديمة فاننا نجد ان هذا المتوسط زاد بوجه من ١١٤ عضواً الى ١٦٥ عضواً وقد كانت الزيادة ضئيلة في الوجه القبلي (من ٧٣ الى ٧٩ عضواً) وكبيرة في الوجه البحري (من ١١٣ الى ١٤٠ عضواً) والآتي بيان تقسيم الجمعيات بحسب عدد الاعضاء: —

فئة العضوية	عدد الجمعيات
٣٠٠ عضو فأكثر	١٤
٣٠٠ — ٢٠٠ عضو	٤١
٢٠٠ — ١٠٠ »	١١٩
١٠٠ — ٥٠ عضواً	١٤٥
اقل من ٥٠ »	١٩٥

﴿خدمات الجمعيات وتحليلها﴾ — بلغت قيمة خدمات الجمعيات لاعضائها ٤٧٥٤٨٠ جنيهاً في سنة ١٩٣٠ و٢٤٨٦٦٧ جنيهاً في سنة ١٩٢٩ والآتي انواعها :

	سنة ١٩٣٠	سنة ١٩٢٩
خدمات قدمت عيناً (مبيعات)	١٩٨٦٤١ جنيه	١٢١٧٥٦ جنيه
خدمات آلية عيناً (تشغيل)	٩١٠ »	٤٢٧ جنيهاً
خدمات قدمت نقداً (سلف)	٢٧٥٩٢٨ »	١٢٦٤٨٤ »
المجموع	٤٧٥٤٧٩	٢٤٨٦٦٧

ومما يدل على نشاط العمل في الجمعيات ان حركة التعامل زادت بمعدل ٥٦ ٪ عن سنة ١٩٢٩ وهي نسبة تفوق كثيراً نسبة الزيادة في كل من العضوية ورأس المال وقد كان توزيع العمل في الجمعيات في سنة ١٩٢٩ مناصفة بين البيع والتسليف . اما في سنة ١٩٣٠ فقد كانت النسبة ٥٨ ٪ للتسليف و٤٢ ٪ للبيع وهو الشيء الذي يستلزم العمل على أنماء الاحتياطي

﴿المبيعات أو اعمال التوريد﴾ — تقسم هذه المبيعات الى سماد وبزرة قطن ولوازم زراعية متنوعة (الفول والقمح والبرسيم والشعير والذرة والركايب والفحم والاخشاب والسواقي والغاز والزيوت) وحاجات منزلية . ونرى ان عملية بيع السماد نشطت في الوجه القبلي حتى ان ما خصه من هذه العملية بلغ ٤١ ٪ بخلاف قسطه من العمليات الاخرى فقد كان فقط ١٥٫٥ ٪ وما يلي جدول للعمليات المختلفة التي قامت بها الجمعيات في سنة ١٩٣٠ : —

نوع العمليات	النسبة	مبيعات سنة ١٩٣٠	ربح اجمالي
سماد	٤٥ ٪	٨٨٩٢١ جنيه	٦٣٢٨ جنيه
بذرة قطن	١٨½ ٪	٣٧١٤١ »	٥٠٢٥ »
لوازم زراعية متنوعة	٢٤ ٪	٤٧٤٩٠ »	٤٤٥٤ »
حاجات منزلية	١٢½ ٪	٢٥٠٨٩ »	١٧٩٦ »
المجموع		١٩٨٦٤١	١٧٦٠٣

﴿تشغيل الآلات﴾ — لم تتعدَّ قيمة هذا النوع من الخدمات ٩١٠ جنيهاً في سنة ١٩٣٠ منها ٧٠٦ جنيه للحرث و ١٢٥ جنيه لتدخين الاشجار و٧٩ جنيه لخدمات متنوعة لهذا كان من الواجب ان تزيد الجمعيات خدماتها من هذا النوع زيادة كبيرة لان هذه الواسطة تكاد تكون الوحيدة لدى صغار الزراع لانقاص تكاليف انتاجهم

﴿التسليف وحركة القروض﴾ — بلغت السلفيات التي استولى عليها اعضاء الجمعيات خلال سنة ١٩٣٠ — ٢٧٥٩٢٨ جنيهاً مكونة من أصل قدره ٢٦٣٢٩٦ جنيهاً وفوائد قدرها ١٢٦٣٢

جنيهاً وهي موزعة على ٣١٤ جمعية منها ٢٥٩ جمعية في وجه بحري و٥٥ جمعية في وجه قبلي وقد بلغت سلف وجه بحري ٢٥٦٦٣٧٩ جنيهاً بينما خص وجه قبلي ١٩٥٥١ جنيهاً فقط والآتي بيان عن حركة الاقراض والاقتراض في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ : —

	١٩٣٠			١٩٢٩		
	الجمعيات	المبلغ	المتوسط	الجمعيات	المبلغ	المتوسط
	عدد	جنيه	جنيه	عدد	جنيه	جنيه
القروض المصرح بها — اصل المطلوب	٣١٥	٤٩٩٠٠٧	١٥٨٤	١٤٢	٢١٩٩٧٦	١٥٤٩
القروض المصرح بها — المصرح به		٣٧٠١٩٣	١١٧٥		١٧٤١٤٣	١٢٢٩
الاعتمادات التي فتحها البنك	٢٨٧	٣٠٦٥٩٥	١٠٦٩	١٣٨	١٤٩٦٠٣	١٠٨٤
القروض المصروفة . . .	٢٥١	٢٧٥٤٦١	١٠٩٧	١١١	١٢٧٤٥٣	١١٤٨

﴿ النفقات الادارية ﴾ — مما يسترعي النظر ان النفقات الادارية في الجمعيات في سنة ١٩٣٠ بلغت ٤٥٤٦ جنيه (وللموازنة يجب أن تتذكر أن هذه المصاريف الضئيلة هي لحركة توريد وتسليف قيمتها تقرب من النصف مليون من الجنيهات) وهي تشمل ثمن ادوات كتابية وتنقلات ومرتبات ومكافآت اذ انهُ فيما عدا ذلك تُوزّع البضائع عند ورودها او تخزن لدى احد الاعضاء بدون أجر كما أن أعضاء مجلس الادارة يقومون بسائر الاعمال بدون اجر وقد اظهر كثير منهم حماسة وغيرة عظيمتين وهذا ما ينتظر من النظام التعاوني

﴿ الميزانية العامة في آخر سنة ١٩٣٠ ﴾ — بلغت جملة ميزانية سنة ١٩٣٠ — ٣٢٧٣٧٠ جنيهاً كانت نسبة توزيعها في كل من بندي المطلوبات والموجودات كالآتي : —

المطلوبات	رأس المال والاحتياطي	٤٩٫٩ ٪
	باقي قرض الحكومة ومطلوبات متنوعة	٤٢ ٪
	متوفرات لم تصرف وارباح تحت التجزئة	٨٫١ ٪
الموجودات	نقد بالصندوق والبنك	٢٢٫٩ ٪
	ذمم باقية طرف الاعضاء	٧٢٫٩ ٪
	بضائع وممتلكات وعجز	٤٫٢ ٪

وقد زاد رأس المال المسهَم المكتتب به ٦٢١٠٧ جنيه عن العام السابق (١٩٢٩) منهُ ٧٢٤٣ جنيه رهن الدفع فيكون رأس المال المدفوع فعلاً هو ١٤٣١٣٠ جنيهاً

والآتي بيان الجمعيات مقسمة حسب متوسط رأس المال المدفوع في كل منها : —

فئة رأس المال	عدد الجمعيات عامة	جمعيات قديمة	جمعيات مستجدة
١٠٠٠ جنيه فاكثر	١٨	١٦	٢
٥٠٠ « وأقل من ١٠٠٠ جنيه	٥١	٤٣	٨
٢٥٠ جنيهاً وأقل من ٥٠٠ جنيهاً	١٢٥	٨٤	٤١
١٠٠ جنيه وأقل من ٢٥٠ «	١٨٥	٦٠	١٢٥
أقل من ١٠٠ جنيه	١٣٥	١٤	١٢١

هذا وهناك زيادة واضحة في الاحتياطي تقدر بـ ٢٧ر٨ ٪ عن سنة ١٩٢٩

﴿ حركة التسديد ﴾ — كان الباقي في ميزانية سنة ١٩٣٠ بحسب دفاتر الجمعيات ١٢١٧٦٧ جنيهاً بما فيه الفوائد وهذا يعادل ٣٧ ٪ من مجموع الميزانية أو الاموال التي في حيازة الجمعيات في آخر السنة وهي زيادة ناشئة عن تأثير الازمة في الاعضاء فلم يتمكنوا من تسديد ما عليهم في مواعيد استحقاقه ، الاَّ ان هذه الزيادة تسددت فيما بعد حتى انه لم يبق لآخر يونيو سنة ١٩٣١ الاَّ ٧٣٤٧٧ جنيهاً متأخرات تعادل ٢٦ ٪ من مجموع القروض وفوائدها

﴿ ارباح سنة ١٩٣٠ ﴾ — جاء متوفر سنة ١٩٣٠ من ٣٧٥ جمعية كانت نتيجة اعمالها ربحاً (منها ١٩٥ جمعية قديمة و ١٨٠ جمعية مستجدة) واذا طرحنا منهُ عجز السنة وقدره ٢٨٩ جنيهاً وذلك في الجمعيات التي حصل فيها عجز لكان صافي متوفر الجمعيات عموماً ٢٠١٢٧ جنيهاً وهو يعادل ١٤ ٪ من رأس المال المدفوع

كتب فلاحة الرز والدنيبه والذرة النجرو

احمد الالفي مؤلف هذا الكتاب خبير زراعي معروف لدى قرّاء المقتطف بمقالاتهِ العملية النفيسة في شؤون الزراعة المصرية . ومما يمتاز بهِ انهُ يورد المبادىء الفنية ونتائج تطبيقها كما خبرها بنفسهِ . فكتاباتهُ ترضي اهل الفن وتفيد اهل العمل في آنٍ واحد

وزراعة الرز من الزراعات الرئيسية في هذا القطر ، مع ان اتساع نطاقها أو ضيقهُ رهن الآن بعلو الفيضان أو انخفاضهِ . فكتابهُ هذا يجب ان يكون معواناً للمعنيين بشؤون هذه الزراعة على اتقان العناية بزراعتهم. وكان المؤلف قد عني في حداثتهِ بالاطلاع على مؤلفات العرب لاستخراج الالفاظ الفنية العربية المستعملة في الزراعة والفلاحة ، وكان يواصل المقتطف بمقالاتهِ حينئذٍ فاشار عليهِ المرحوم الدكتور صرّوف بان يأخذ هذه الالفاظ من ألسنة الفلاحين لان ذلك اضمن للفائدة المطلوبة من الكتابة في هذه الموضوعات . وبعد انقضاء سنوات على ذلك كان يراجع مؤلفاً للجاحظ فعثر على الرأي نفسهِ فاخذ بهما. لذلك نجد كتابتهُ الزراعية اسهل ماتكون تناولاً لدى معشر الفلاحين والزرّاع وهم الجمهور المقصود بها. وقد طبع الكتاب بمطبعة المجلة الجديدة ويطلب من مكاتب الهلال وهندية وسكر والعرب وغيرها

مكتبة المقتطف

الكون والفساد

«من تأليف المعلم الاول ارسطوطاليس الفيلسوف اليوناني يتلوه كتاب «في ميليسوس وفي اكسينوفان وفي غرغياس» ترجمت جميعها من الاغريقية الى الفرنسية وصدرت بمقدمة في تاريخ الفلسفة الاغريقية وعلق عليها بقلم بارتلمي سانتهلير استاذ الفلسفة الاغريقية في كليج دي فرنس سابقاً ونقلت الى العربية بقلم العلامة الاستاذ احمد بك لطفي السيد. طبع بدار الكتب المصرية بالقاهرة في ٣٣٧ صفحة»

يجتاز العالم العربي الآن طوراً اجتازه منذ نيف واثني عشر قرناً من الزمان . يجتاز عصر الترجمة ليدلف بقدمهِ مرة اخرى في عصر التأليف والابتكار . ولا ريبة مطلقاً في ان بين الطور الذي نجتازه الآن والطور الذي اجتازه آباؤنا من قبل وجوهاً من التشابه ، ووجوهاً من الاختلاف . اما التشابه ففي اننا ننقل فلسفة اليونان مرة اخرى الى العربية بعد ان نقلها اسلافنا . وننقلها عن اللغات الاوروبية لا عن اليونانية القديمة كما نقلها اوائلنا عن السريانية . اما الاختلاف ففي اننا ننقل عن اساتذة ترجموا الفلسفة اليونانية بأمانة عرفت فيهم واستقلال في الرأي لم تؤثر فيهِ نزعة من النزعات ولا عقيدة من العقائد ولا مذهب من المذاهب . في حين ان العرب ترجموا عن السريانية كتباً يونانية اتخذت وسيلة لنشر مذاهب بعينها ضد مذاهب النصرانية التي انفصلت عن الكنيسة بعد مجمع نيقية ، مثل مذهب نسطوريوس الذي غلب على مدارس نصيبين والرها وحرّان ومذهب يعقوب السروجي واتباعه الذي غلب في مدرسة الاسكندرية

وكنت اعتقد ان الغموض والابهام امران اختصت بهما الفلسفة اليونانية عند أول اكبابي على درس بعض مذاهبها في الكتب التي نقلها المترجمون في بيت الحكمة ببغداد ، حتى لقد كدت اعتقد بصحة ذلك القول الذي نقل عن ارسطوطاليس اذ قال لمعلمه افلاطون انني ان كنت قد بسطت الحكمة الاّ اني الغزتها لتغرب عن افهام العامة . والراجح عندي ان هذا القول منحول على ارسطوطاليس وما نحله عليهِ الاّ المترجمون في العصر العباسي عندما تعذر عليهم فهم بعض فقرات وقعوا عليها في التراجم السريانية التي نقلوا عنها . ما الغز الحكمة لدى الواقع الاّ الذين ترجموا الى السريانية إمّا ليخفوا رأياً يعاند مذهبهم ، وإمّا ليؤيدوه برأيٍ فلسفي . فالامانة كانت تنقص التراجم التي نقل عنها العرب ، وهي على كل حال تراجم مدخولة بالتحيز لفكرة ما ولمذهب بعينهِ ، فهي اذن ليست تراجم علمية ، بل تراجم

قصد بها نشر الدعوة للمذاهب التي انفصلت عن الكنيسة بعد عصر المجمع النيقاوي ومجمع افسوس ، فترجم عنها العرب بحسن نية ولوجه العلم ، فالخطأ ليس منهم ولا هو محسوب عليهم بحال . هذا ما جال بخاطري بعد ان طالعت كتاب « الكون والفساد » وهو من اصعب ما كتب ارسطوطاليس ومن اغمض ما نقل عن فلسفة القدماء . ولا أكاد ارى في الكتاب ناحية انفردت بالغموض واخرى اتصفت بالبيان والجلاء ، ولا يشعر بضد هذا الرأي الاَّ الذي يقرأ الكتاب تصفحاً لا تمعناً ودرساً لان الكتاب يفسر بعضه ببعض وكل موضوعاته متصلة وقائم بعضها على بعض ، فالذي يغيب عنهُ فهم موضوع من الكتاب يغيب عنهُ بالضرورة كثير من الموضوعات التي يتوقف فهمها عليهِ ، وتكون في الوقت ذاته في علاقة وآصرة بهِ . فلا غموض اذن في الكتاب ولا الغاز في موضوعاته . ولكن هذا يرجع الى القدرة على فهم موضوعات فيما بعد الطبيعة التي لا تزال بعيدة عن اذهاننا وعن مداركنا لاننا لم نعالجها ولم نحاول ان نعالجها . ولا اظن ان متعلماً او استاذاً لم يقرأ شيئاً فيما بعد الطبيعة الاَّ ويرى الالغاز والغموض في كتاب مثل كتاب الاستاذ برنارد نيوفريسكو « اعرف نفسك » او كتاب الاستاذ أربان في « القيم والتقييم » او كتاب الاستاذ « استوت » في علم النفس التحليلي او غيرها من الكتب . ذلك لان الحكم على الغموض والالغاز في المسائل الادبية ، شأنه كشأن الالغاز والغموض في المسائل الفنية الصرفة ، التي تغيب بالضرورة عن الذين لم يدرسوا الفن ولم يحتكوا بأصوله

ولقد عاب بعض الادباء على الاستاذ لطفي بك ان يشتغل بترجمة ارسطوطاليس ، وانهُ بذلك انما يحاول ان يحيي من الفلسفة ما امات الزمان . والحقيقة على النقيض من ذلك . فان الفلسفة عند الذين يعالجونها لا تحيا الاَّ باصولها ولا تعرف الاَّ في منابتها الاصلية . وما قولهم هذا الاَّ اشبه بقول من يقول ان درس التاريخ القديم لا يفيدنا شيئاً لا من ناحية العلم بهِ ولا من ناحية وجوه اتصاله بالتاريخ الحديث . ولا اظن ان مثل هذا القول يمكن ان يكون ذا وزن او قيمة عند الذين يعرفون ان بدايات الاشياء اصول لنهاياتها وان تاريخ الشيء جزء من كيانهِ

والحقيقة اننا لا نستطيع ان نقيم أدباً صحيحاً او فلسفة قيمة او علماً منتجاً من غير ان نلم كل الالمام بالاصول القديمة التي نبع منها الادب ونشأت منها الفلسفة ومتح منها العلم . ونحن في احتياجنا الى الادب الحديث مجبرون على ان نعني بالادب القديم ، وكثيراً ما كنت افكر في ان يقوم الادباء والمشتغلون بالفلسفة والعلم بأداء هذا الواجب فيعكفون على الآداب القديمة ينقلونها الى لغتنا بما فيها من روائع المُثل وبما فيها من بالغ المثلات . وانك لن تكون اشد اقتناعاً بهذا الرأي منك اذا قرأت مقالات ماكولي او تاريخ غبون في سقوط الدولة الرومانية او ما كتب « اكي » في حرية الفكر في اوربا او تاريخ ايرلاندا فانك تستشعر في كتب هؤلاء ريح الكلاسيك وما فيهِ من روعة وجمال ، وتعرف الى اي حد تأثر هؤلاء بالادب القديم

فأمدَّهم بتلك الروح التي تصبغ الادب بصبغة جديدة وان كانت في اصلها مستمدة من ينابيع قديمة. وهكذا يصقل الجديد القديم، ويحيي القديم الجديد . وما التجديد لدى الواقع الاَّ هذا. ولا تجديد بالمعنى الصحيح ما لم نكب على الادب القديم ندرسه ونتعرف اصوله ، غير مقصرين في ناحية من نواحيه. وانت اذ تسأل نفسك عمن برز منا في آداب اليونان والرومان او آداب عصر النهضة في اوربا ، وحتى اذا ساءلت نفسك عمن برز منا في آداب العرب نفسها ، لا تلبث ان تتريث طويلاً قبل ان تذكر اسماً واحداً بغير تحفظ . فهل هذا هو التجديد وهل هذه هي نهضة الادب في مصر والشرق؟ اننا ولاشك نظلم انفسنا ونظلم الادب اذا ادعينا بأننا اصبحنا في غنى عن الادب القديم ، وهي دعوى عريضة لم تستطع جامعة واحدة من الجامعات التي يمكن ان يكون لها احترام علمي ان تدّعيها. ولكن في مصر من يدّعيها اعتباطاً . اما الذين يدّعونها في مصر فرجال غير مسؤولين ولله الحمد . على انني لا اتلكأ في القول بأن ظهور كتاب لارسطوطاليس يترجمه استاذنا لطفي بك وهو على رأس الجامعة حادث تاريخي قلَّ منا من يقدره قدره . على ان تقدير مثل هذا العمل لن يكون الاَّ للاجيال لا لجيل واحد . وكفى بنا ان نقول انهُ دليل على نهضة وبرهان على نزعة حديثة سوف تكمل اساس التجديد في ناحية من نواحيه التي نشعر بحاجتنا اليها ، بل نشعر بأننا محتاجون اليها كل الاحتياج. ولا شك مطلقاً في ان ترجمة هذا الكتاب وظهوره في الثوب الذي ظهر به عمل خالد ، وعصر برأسه من عصور الادب في الشرق

اسماعيل مظهر

تذكار جيتي

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد — صفحاته ٢١٩ قطع صغير — مزدان بصور كثيرة

بعد المقالات المتفرقة التي نشرت في الصحف والمجلات العربية على ذكر الاحتفال بانقضاء مائة عام على وفاة جوته ، يحسن بالقارىء ان يطالع كتاب الاستاذ العقاد ليلم اطراف الموضوع ويصوغ في ذهنه صورة عامة لهذا العبقري المتعدد النواحي . فالكلام على الجيني والموازنة بينها وبين رواية اوربيديس حسنٌ لمن الم بحياة جوته ومؤلفاته، ولكنه قليل الجدوى لغيره. وهذا الالمام من الصفات الظاهرة في كتاب الاستاذ العقاد . فهو يهيىء القارىء للخوض في حياة جوته ، بوصف النفس الالمانية وخصائصها وعندها ان «الباطنية» تعلل كثيراً من «النقائص التي تظهر في روح الشعب الالماني ولا سيما في فهمهِ للحرية والوطن » ومن اقواله البليغة في هذا الفصل : — « الباحث عن ظواهر الاشياء ان مشى اليها من طريقها القويم انتهى الى العلم وان مشى اليها من طريقها الاعوج انتهى الى السحر والشعوذة» . وقوله : — «الشعوب

التي تستغرقها « الدنيا الظاهرة » يحرجها الظلم . . فيدفعها الى التمرّد . ولكن الالمان شعب لم تستغرقهُ الدنيا الظاهرة فكانت له مندوحة من حياة الروح يطلب عندها العزاء الصادق او الكاذب . وهنا وجه المقابلة بين الالمان والفرنسيين فان الفرنسيين هرعوا الى الدمقراطية ولكنهم لبثوا مع الكنيسة التي دان لها اجدادهم وآباء اجدادهم ، والالمان خرجوا على كنيسة الاجداد وابطأوا في تلبية الدمقراطية وهذا هو الفرق البين بين روح الشعبين »

ويلي ذلك فصل مصدَّر بقول الفيلسوف هيجل « لا تخلو الدنيا من فكرتين تتصارعان. وانما الغلبة الكاملة في هذا الصراع مستحيلة . فكل فكره غالبة تفقد بعض الشيء وكل فكرة مغلوبة تغنم بعض الشيء . ثم ينتهي المطاف وفي الدنيا آثارٌ مختلفات لجميع الافكار غالبها ومغلوبها على السواء». وموضوع هذا الفصل النزاع بين المدارس الادبية في عصر جوته وعلى الاخص بين مدرستين او اسلوبين هما الاسلوب اليوناني البسيط (الكلاسيكي) والاسلوب المجازي المركب (الرومانتيكي) . وقد اجاد الاستاذ العقاد بوضع هذا الفصل، والاسناد اليه في الفصل الذي عالج فيه مؤلفات جوته لان التحول في حياة جوته الادبية لا يفهم على صحته من دونه

ثمَّ سردٌ بليغ موجز لحوادث حياة المترجم ومن بليغ قوله فيه « لقد عاش في عصر الثورة الفرنسية ولقي نابليون اعظم رجال الدول في ذلك الزمان، ولكنك اذا سطرت تاريخه استطعت ان تحذف ذكر الثورة بأسرها دون ان تختلَّ معك قواعد ذلك التاريخ . واستطعت ان تلغي لقاءه لنابليون ولكنك لا تستطيع ان تلغي لقاءه للاديب هردر او الشاعر شلر ، بل لا تستطيع ان تلغي لقاءه لحسناء من اولئك الحسان اللواتي غذينهُ من نور العيون ووهج القلوب. فكل حسناء عرفها كان لها شأن في آثار اجل من شأن نابليون » . وفي الفصل الذي يلي اتى على لمحات من اولئك الحسان وكلهن « افدنَهُ رجلاً وشاعراً وصاحب منصب في الحكومة ، فمن لم يدخلهنَّ في روايته وأغانيه فقد عرف منهن طوية نفس المرأة ودخيلة الطبيعة الانسانية »

ثم اختار طائفة من اشهر مؤلفاته مثل آلام فرتر وفوست وفلهلم ميستر والديوان الشرقي ووصفها وصفاً تحليليًّا تقديًّا في نحو ٧٠ صفحة وختم الكتاب بثلاثة فصول بليغة احدها في « شخصية جيته » والثاني في « عبقريته وآرائه » والثالث في « تقديره »

***

قال نبوليون في جوته « هوذا رجل » او « انت رجل » وهذه الكلمة كما يقول الاستاذ العقاد صفحة ١٩٢ « لا تزيد على وسام يمنحهُ من يرضى عنه .... ان كلمة من هيني في هذا الصدد لترجح بكل ما يقوله نابليون » — وقد قال هيني. . «وبعد فان جوته ماهل آدابنا »

وفي ختام الكتاب اقوال مختارة نقلها عن جوته الاديب عبد الرحمن صدقي

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١

بحث تاريخي تحقيقي لشفيق غربال افندي ، استاذ التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب في الجامعة المصرية ، عني فيه بدراسة شخصيتين غريبتين هما : المعلم يعقوب حنا او الجنرال يعقوب المصري والفارس لاسكاريس الايطالي

والجنرال يعقوب ، هو ذاك المصري الذي حضر عهد الفرنسيين في مصر . ودخل في خدمتهم . واشار اليهِ الجبرتي في تاريخه غير مرة ذاكراً علاقاته بالفرنسيين ومساعدته لهم بتأليف فرقة من الاقباط وانشاء قلعة لها في الازبكية (خلف الجامع الاحمر) بمدينة القاهرة

اما الفارس لاسكاريس فنبيل ايطالي تتصل اسرته بقياصرة بيزنطية . دخل هو واخوه في سلك فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون جزيرة مالطا . وتبع بونابرت الى مصر . وتقلد بعض المناصب الادارية . وكان لاسكاريس اول من فكر في اقامة قناطر حاجزة عند تفرع النيل في رأس الدلتا . ورأى « ان مصر جديرة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها»

فلما سلمت الحامية المصرية المرابطة في القاهرة وقررت الجلاء تبعها الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس . وركبا مع السفينة الحربية الانجليزية « پلاس » التي كان يقودها الربان ادموندس

وتوفي يعقوب في الطريق بين مصر واوربا وحفظ ادموندس جثته في الباخرة وسلمها الى الاقباط الذين كانوا يرافقون يعقوب فدفنوها في مارسليا . وفي الباخرة كتب لاسكاريس مذكرة طويلة عن غرض المعلم من رحلته مع بعض الاقباط الى اوربا وهو ينحصر في السعي لدى الحكومات الاوربية لتحقيق استقلال مصر . وسلم هذه المذكرة الى الربان ادموندس . فارسلها هذا الى حكومته

ولم يكتف الفارس بهذه المذكرة . بل سافر الى باريس وقدم الى القنصل الاول بونابرت مذكرة ثانية بطلب استقلال مصر ، بتوقيع « نمر افندي » بالنيابة عن الوفد المصري الذي كان يرأسهُ الجنرال يعقوب . فكان نصيب هاتين الاهمال . وعاد نفر من اصحاب يعقوب الى مصر . وظل الباقون في اوربا . ووقع اكثرهم في فاقة ، فاجرت عليهم الحكومة الفرنسية معاشاً مدة طويلة . وانتهى امرهم بالاندماج في الفرنسيين . وتجول الفارس لاسكاريس زمناً في القوقاز ولبنان ثم عاد الى مصر واشتغل بتعليم اللغة الفرنسوية لاولاد محمد علي (حاكم مصر) وتوفي سنة ١٨١٧

ولم يكتف الاستاذ غربال بتمحيص كل ما كتب قديماً وحديثاً عن الرجلين وترجمة الوثائق التي كتبها لاسكاريس وادموندس . بل تولى الدفاع عن الجنرال واثبت رغبته في استقلال مصر منذ بدأ بخدمة الفرنسيين . فقال : « ان وجود الفرقة القبطية كان اول شرط اساسي يمكن رجلاً من افراد الامة المصرية يتبعهُ جند من اهل الفلاحة والصناعة من ان يكون لهُ اثر في احوال هذه الامة اذا تركها الفرنسيون وعادت الى العثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فساداً »

ومهما يكن رأي البعض في هذا التدليل، فلا جدال في ان الاستاذ غربال قد خدم التاريخ المصري برسالتهِ والتي شعاعاً على اول نهضة للاستقلال. وما احسن قوله في وصف هذه الحركة « يحق لنا بعد هذا ان نقرر ان كلمة الوفد المصري (المعلم يعقوب ورجاله) والادلة التاريخية والفلسفية من افكار لاسكاريس. وان يعقوب لم يقرر الاَّ الفكرة الاستقلالية » توفيق حبيب

دائرة المعارف

مرجع هجائي يبحث في علوم التربية وتاريخها والتعليم وعلم النفس والاخلاق والمنطق والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم تاريخ الانسان واللغات والحضارات والخرافات ووظائف الاعضاء والصحة — يعنى بوضعه واخراجه في اجزاء شهرية احمد عطية الله — مدرس التربية بمدرسة المعلمات في حلوان

نحن في حاجة شديدة الى هذه الدائرة ، بل الى كل دائرة معارف عامة او خاصة . فمراجع العلوم عندنا نادرة وهي لا مندوحة عنها كوطاب للعلم ومرشد للتفكير

لذلك اجللنا جرأة المؤلف واقدامهُ مفرداً على وضع دائرة معارف تجمع كل العلوم المتقدمة . ووددنا لو ان جماعة من المتوفرين على هذه العلوم اشتركت في وضعها . فاذا قيل ان هذا الاشتراك شاقٌ او متعذر لاختلاف وجهات النظر وتفاوت حماسة المشتركين في القيام بنصيبهم من العمل قلنا كان يفضل على الاقل ان يجمع المؤلف من حوله جماعة يمدونهُ في الرأي ويناقشونهُ في النتائج التي يصل اليها كما فعل ولز في كتابهِ « ملخص التاريخ » ونحن لولا رغبتنا في ان تكون الدائرة مرجعاً دقيقاً منزَّهاً عما يشينه لما اشرنا الى هذا ، وليس فيهِ ما يغض من فضل صاحبها . فالمباحث التي تتناولها اوسع نطاقاً من ان يحيط بها ذهن واحد دع عنك الاجادة في اختيار الحقائق التي يحق لها ان تتقدم على غيرها . ووضع المصطلحات الوافية لها

اما الجزء الذي بين ايدينا فيشتمل على مقدمة في نشأة المعاجم والموسوعات . ثم مقالات حسنة التبويب غزيرة المادة في موضوعات الدائرة مرتبة بحسب الحروف الهجائية ، لاتخلو من هنات قد تغتفر في صحيفة تسابق الوقت لاخراجها في ميعادها ولكنها يجب الاَّ تتطرق الى مرجع علمي . فقد فتحنا مقالة « الآباء اليسوعيين في الشرق » فرأينا الكلام جامعاً لأهم الحقائق ولكن المؤلف وهم اذ حسب الأب انستاس ماري الكرملي والشيخ سعيد الشرتوني مؤلف « اقرب الموارد » يسوعيين . ثم ان الأب شيخو ليس عراقيًّا الاَّ اذا شمل العراق ماردين مسقط رأسه . ومجلة الاب الكرملي ليست « لسان العرب » بل « لغة العرب »

وقاية الاسنان وصحة الابدان

وضع الدكتور ادورد غرزوزي طبيب الاسنان المعروف في القاهرة كتاباً صغير الحجم عظيم الفائدة في هذا الموضوع يحسن ان يكون في كل بيت ومدرسة دستوراً من دساتير حفظ الصحة . وقد عني بجعل الكلام فيهِ موجزاً قريب التناول في اسلوب عربي سليم خال من التعقيد . وطبعهُ في مطبعة ابو فاضل ٢ بشارع كامل بمصر

الادب الحديث

مجموعة ابحاث وقصص — بقلم ابراهيم المصري — في ١٦٦ صحيفة قطع المقتطف — طبع بمطبعة المجلة الجديدة بمصر

ابراهيم المصري ، قبسٌ من نور بهيٍّ يطلع علينا من خلال أعمدة الصحافة اليومية فيسكب جمالاً وانساً يتلاشى وراءهما ما نحسّهُ من سآمة المنازعات والمشاكل المختلفة المحيطة بحياتنا الاجتماعية . فمقالاته ابتسامات عذبة تنسينا عبوسة ما تحوي سطور صحافتنا كل يوم ...

وأسلوب المصري أخّاذ لهُ رقته ، وله جماله . . وبهذا الاسلوب الجميل، والرقة الساحرة صدرَ كتابهُ الجديد (الادب الحديث) وهو مجموعة ابحاث وقصص إحداها مصرية والاخرى ملخصة عن كبار القصصيين الغربيين ، أمثال : « جي دي موباسان » و« بلاسكو إيبانيز » و« اميل زولا » و« بول بورجيه » وغيرهم

والحق ان المؤلف قد أجاد كل الإجادة في تلخيص ما اختار من القصص حتى اني لأحسب ان صاحب القصة ما كتبها الاّ ليلخصها المصري، فكان مجيداً في الاختيار، مجيداً في التلخيص كذلك كان حاذقاً فيما عرضهُ على قرّائهِ من آراء جوستاف لوبون ولوسيان بروميه وبول ڤاليري وغيرهم، وفي تعليقهِ عليها فأعطى قارئهُ صوراً سريعة لبعض التيارات الفكرية في الادب الغربي

أما قصتهُ المصرية (الخريف) فانها تمثل ضمن إطار من الملاحظات النفسية الدقيقة ، حرص المرأة اللعوب على الاحتفاظ بالسر الذي يقضُّ مضجعها ، وذلك هو سر عمرها الذي تعمل جَهْدَ ما تستطيع على ان تكون حقيقتهُ نهب الشكوك ، وان تحول ، بل تطمس على كل ما يكون من شأنهِ كشف هذا السر ولو كان أعزّ مالديها . . . . ولو كان فلذة كبدها فهي ترجو هلاكهُ حتى لا يكون دليلاً قاطعاً على كبر سنها ! !

هذه هي القصة المصرية التي وضعها الاستاذ المصري ، وإني لآخذ عليهِ فيها كثيراً من التعبيرات الفرنسية التي لا يألفها ذوقنا ولا يتسع لها صدر لغتنا ... ومن رأيي ان بعض التعبيرات والتشبيهات اذا صلح في لغة فليس من الواجب ان يصلح في غيرها ... مثل ذلك قوله : « فتحت النافذة بيد مرتعشة فدخل منها الهواء كرجل » . . . « تجلد بالماء البارد أعصابها » ... « أصابع عمياء » الخ ...

وقد كنا نتسامح لو انّ هذه التعبيرات جرت منه في سياق تلخيصه للقصص الغربية . اما انها تردفي قصتهِ المصرية فلا يمكننا التسامح معه فيها، وكان واجباً ان تكون قصته في كل ألوانها مصرية

هذا وإنا لنشكر لهُ مجهوده الطيب وننتظر منه ان يظل جواداً على الادب العربي بما ينقل اليهِ من صور جميلة ، وما يقدم من أزهار غضّة ...

الصيرفي

مؤلفات طلبة دار العلوم

قامت في دار العلوم نهضة ادبية كان عمادها فريقاً من الطلبة وكان يشجع هذه النهضة فيهم أساتذتهم . فخرجوا من السكون الذي كانوا يتيهون فيهِ الى الحركة المباركة

ولقدكنا نعيب على طلبة هذا المعهد الجليل انزواءهم حتى طالعتنا من آثارهم ستة مؤلفات يخرج بعضها اثر بعض . ولا تكاد تنسكب منها قطرة حتى تنهل منها قطرات . فهذا الطالب جوده الطحلاوي وضع رسالة في اللغات السامية وهي فرع من المواد المقررة في دار العلوم . ولم تمنعه مشاغل الدرس عن ان يتوفر على هذا المبحث وهو وان لم يأت فيه بجديد الا انهُ قرأ كثيراً عن هذه اللغات ثم لاءم بين ما قرأ وجمع ما تفرق ووافق بين ما تناقض . ولم يمنعه ذلك ان يستقل بالرأي حيناً

اما الزميل محمد قابيل فقد وضع رسالة في العزلة لم يرجع فيها — كما يقول — الى كتاب بعينه أو مبحث بنفسه . وانما هي مشاهدات وملاحظات ومطالعات. ورأيه في العزلة ما تحدث به عن نفسهِ قال (ان في نفسي رغبة متغلغلة في العزلة عن أولئك الذين حرموا رقة الشعور ولطف المجاملة ... وانني لا زلت متمسكاً بالعزلة راغباً فيها». وللزميل محمد احمد عتيق كتاب النماذج التطبيقية في علوم البلاغة وهو يجمع طائفة من التطبيقات على علوم المعاني والبيان والبديع ويتعرض للاجابة عنها . اما « الباكورة» . فديوان شعر للزميل حسن طنطاوي سليم جمع فيهِ شيئاً من اغراض الشعر بين المدح والرثاء (وطلب الاجازات !! ....) . وللزميل عبد العزيز عتيق ديوان باسمه كتب مقدمتهُ زميلنا سيد قطب. وهذان الشاعران لا يعجبهما الى الآن شاعر ظهر في العربية وانما هما يعجب احدهما الآخر !! — فالمتنبي عندهما ليس بشاعر . وشوقي ليس بشاعر. ولا احب هنا ان اتعرض بما يحمله بعض الناس على محمل لا أحبه لنفسي . وانما أسمع هذه الالفاظ «عاطفة. حنان . عمق الشاعرية واتساعها . واسمع سخطاً على شعراء المديح ». فاسأل اين هذه العاطفة ؟ ان صح ان التكلف في الحنان والتعمل في العواطف والتصنع في الحب يسمى عاطفة فلا كانت هذه العواطف السقيمة . وما بال هؤلاء الناس يعيبون المدح وهم غارقون فيهِ الى نواصيهم ؟ ولقد يَمْدَحُ الشاعر الذي يعيبون لانهُ وجد في الممدوح صفة تنطق الجماد بله الانسان المحسّ ... ولقد يتكلف — بعضهم — المدح الشخصي حتى يصل الى نوع من الملق . فمن قال ان المدح ينافي الشاعرية ؟ ومن قال ان الرثاء يناقضها ؟ أليس المدح والرثاء صورتين من صور الحياة التي يجب ان يحسَّ بها الشاعر ؟ أليس الشاعر اسرع الناس حساً بعظم المصيبة في الوفاة . وادق الناس حساً باليد التي توجب المدح ؟؟

وقد ترجم الاستاذ احمد زكي صفوت مدرس الادب بدار العلوم لعلي ابن ابي طالب. وسوف نكتب عن هذا الكتاب وعن كتاب « الفرق الاسلامية» للاستاذ البشبيشي في عدد تال محمد عبد الغني حسن

الحسين عليه السلام

تأليف علي جلال الحسيني بك — طبع في المطبعة السلفية — صفحاته ٤٤٨ بقطع المقتطف
ثمنه ١٥ قرشاً — يباع في المكتبة السلفية بشارع الاستئناف بمصر

مؤلف هذا الكتاب علي جلال الحسيني بك من خيرة رجال القضاء والنزاهة وله منزلة ممتازة في مصر وضع كتابه هذا معتمداً على خير المؤلفات واوثقها مما ألفهُ عظماء رجال السنة واجلاء الشيعة بعد ما حكم عقله الراجح وعلمه الغزير واستنجد بأبحاث العلماء الثقاة والاعلام الاثبات . واسند الى كل باحث ما ذهب اليه ولم يحفل بتحريف المحبين المغالين ولا بانتحال المبغضين المبطلين وأما اسلوبه في الكتاب فهو بليغ ورشيق

والكتاب يقع في جزءين بحث فيهما سيرة الحسين عليه السلام واخباره من عهد جده عليه السلام الى وفاته وصفاته من عهد الطفولة الى آخر ايامه وكلامه وخطبه وكتبه ودعاءه وشعره وخروجه للحرب ومقتله والذين قتلوا معه والذين قتلوه وقتلهم انتقاماً بيد المختار ابن ابي عبيد . واخيهِ الحسن ونسائهِ واولاده وشعرائهِ وعاشوراء في الجاهليـة . اساس ملك بني امية ما ترتب على مقتل الحسين . سبب زوال دولة بني امية . دولة بني العباس . الائمة الاثنا عشر وغير ذلك من المباحث التي لها صلة بتاريخ الحسين عليه السلام والكتاب مزدان بصور لمشهد الحسين ومكان بيت فاطمة عليها السلام والمسقط الافقي لمشهد الحسين بالقاهرة وجامع الصالح وفي آخر الكتاب خارطة يحتاج اليها قارىء التاريخ . والكتاب تحفة تاريخية تستحق تقدير القراء والمؤرخين فنلفت اليهِ الانظار

امير الشعر في العصر القديم

يذكر القرّاء سلسلة من المقالات نشرناها في السنة الماضية تحت هذا العنوان للاديب الناشىء محمد صالح سمك خريج دار العلوم ، والمقدمة البليغة التي كتبها لهُ الاستاذ مصطفى صادق الرافعي . وقد عني المؤلف بطبع الكتاب الذي اخترنا منهُ تلك المقالات فجاء سفراً ادبيًّا نفيساً قال فيهِ الاستاذ الرافعي « وبعد فقد قرأت رسالة امرئ القيس التي وضعها الاديب محمد صالح سمك فرأيت كاتبها — مع انهُ ناشىء — قد ادرك حقيقة الفن في هذا الوضع من تجديد الادب فاستقام على طريقة غير ملتوية ومضى في المنهج السديد ، ولم يدع التثبت وانعام النظر وتقليب الفكر وتحصين الرأي ، ولا قصر في التحصيل والاطلاع والاستقصاء ولا اراهُ قد فاتهُ الآ ما لا بدّ ان يفوت غيره مما ذهب في اهمال الرواة المتقدمين واصبح الكلام فيهِ من بعدهم رجماً بالغيب »

باب الأخبار العلمية

اينشتين يرتد الى اقليدس

ليس الاستقرار سمة يتسم بها علم الطبيعة الحديث. فالالكترون والبروتون كذلك تحول في بضع سنوات من دقيقة مادية تحمل شحنة كهربائية الى حزمة من الامواج. والكون المستقرّ في نظرية اينشتين اصبح بعدما قيست سرعة السدم اللولبية المبتعدة عن المجرة كوناً آخذاً في الاتساع كأنهُ فقاعة صابون تنفخ فيها. والدقة الرياضية في قياس الافعال الطبيعية انتهت الى « مبدأ عدم التثبت » الذي يقول بهِ هيزنبرج الالماني ومؤداه انك لا تستطيع ان تعرف سرعة الكترون وموقعهُ معاً في وقت واحد. والذرة التي كانت تحسب من عشر سنوات مبنية على مثال النظام الشمسي لها نواة كالشمس والكترونات تدور حولها كالسيارات اصبحت نواة تحيط بها سحابة من الالكترونات. وكنا الى آخر فبراير الماضي نظن ان الالكترون والبروتون هما وحدتا المادة النهائيتان فطلع علينا شدوك قائلاً ان ثمة دقيقة اخرى متعادلة الكهربائية لا بد من افتراض وجودها لتعليل بعض الافعال الطبيعية (راجع المقال الاول في هذا الجزء) وكذلك نجد ان المبادىء الاساسية في الطبيعة الحديثة غير مستقرة على حال واحدة، بل تنالها دائماً يد التحول والتنقيح

وأحدث ما اطلعنا عليه في هذا الصدد هو ارتداد اينشتين صاحب القول بتحدُّب الفضاء الى نفي التحدُّب من الكون. وقد اشترك معهُ في ذلك العالم الهولندي « ده ستر » قسيم الاب لميتر في مذهب « الكون الآخذ في الاتساع » Expanding Universe. فقد نشر اينشتين وده ستر في « اعمال اكادمية العلوم الاميركية » رسالة مؤداها ان الكون الذي كان يحسبهُ اينشتين نهائيًّا ولكنهُ غير محدود finite but unbounded اصبح بعد اجتماع القياسات المنبئة بابتعاد السدم عنا غير نهائي وغير محدود. فقد كان اينشتين يقول ان شعاعة من الضوء اذا انطلقت في كونهِ المحدود من نقطة معينة وسارت في الفضاء زمناً طويلاً عادت الى مصدرها. وأما في كون اقليدسيّ — اي لا تحدُّب فيه — فتسير اشعة الضوء في خطوط مستقيمة الى ما لا نهاية له، وهذا هو الكون الذي عاد اينشتين وده ستر فأخذا به الآن. فكأنهما — على حد قول رسالة العلم الاسبوعية — « قد نفيا التحدُّب من الكون » وعبارتهما الخاصة بذلك هي:

« يجب ان نستنتج الآن انه في الامكان تعليل كل الحقائق من دون افتراض تحدُّب الفضاء ذي الابعاد الثلاثة »

الاصباغ والسرطان

في مجلة السرطان الاميركية نبأ يسترعي النظر. ذلك ان الدكتورة مرغريت ريد لويس وابنها الدكتور ورن ريد لويس — وكلاهما من معمل كارنجي بجامعة جونز هبكنز الاميركية — كانا يشتغلان بدرس النوامي السرطانية التي تصيب الفراخ لعلهما يجدان ما يكشف عن اسرار السرطان الانساني، فثبت لهما ان بعض الاصباغ تبطل فعل العوامل المكونة للسرطان في الفراخ

والنوامي السرطانية في الفراخ يحدثها ڤيروس راشح — وقد دعي راشحاً لانهُ يمرق من ادق المرشحات مسامَّ — والعلماء مختلفون في طبيعة الڤيروس، هل هو جسم حيٌّ او مادة كيمائية. ولكن الامر المحقق ان البحث الى اسس في خواص الڤيروس اسفر عن ان الاصباغ لا تبطل فعلهُ كما تبطل فعل الاحياء المكرسكوبية

فاستخرجت الدكتورة لويس وابنها ڤيروس نموٍّ سرطانيّ اصاب فرخةً ووضعاه في انبوب الاستنبات. ثم جزآه الى ثمانين قدر ووضعا كل قدر في انبوب على حدة. ثم اخذا ثمانين صبغاً ومزجا كل صبغ منها بقدر من الڤيروس. وبعد المزج كانا يحقنان بالمزيج فرخة سليمة ليعلما هل الڤيروس بعد مزجه بالصبغ يستطيع ان يولد نموًّا سرطانيًّا. فثبت لهما ان صبغين من الاصباغ الثمانين ابطلا فعل الڤيروس في توليد النوامي السرطانية. ولكنهما لاحظا ان نسبة مقدار الصبغ الى مقدار الڤيروس كبيرة جدًّا، يتعذر معها استعمال الصبغ حقناً في الحيوان لابطال فعل الڤيروس في جسمهِ. على ان عدد الاصباغ التي جرَّبا تجاربهما بها قليلة ازاء الاصباغ الكثيرة التي تستخرج بالصناعة من قطران الفحم الحجري وهما يظنان انهُ اذا توفر الباحثون على امتحان كل الاصباغ المعروفة فقد يجدون اكثر من صبغين يفعلان هذا الفعل بڤيروس النوامي السرطانية. وهما يعدّان الآن المعدات لتجربة فعل الصبغين اذا حقنا رأساً في جسم الفراخ

قدم مناشف الحمام

عثرت البعثة المصرية لمتحف متروبوليتان الفني بنيويورك على ثلاث مناشف كتانية في مدفن بطيبة يرتد عهدهُ الى الفي سنة قبل المسيح. وقد اشار مدير المتحف في التقرير الذي وضعهُ لاعمال البعثة الى هذه المناشف فوصفها بانها شديدة الشبه بالمناشف المستعملة الآن

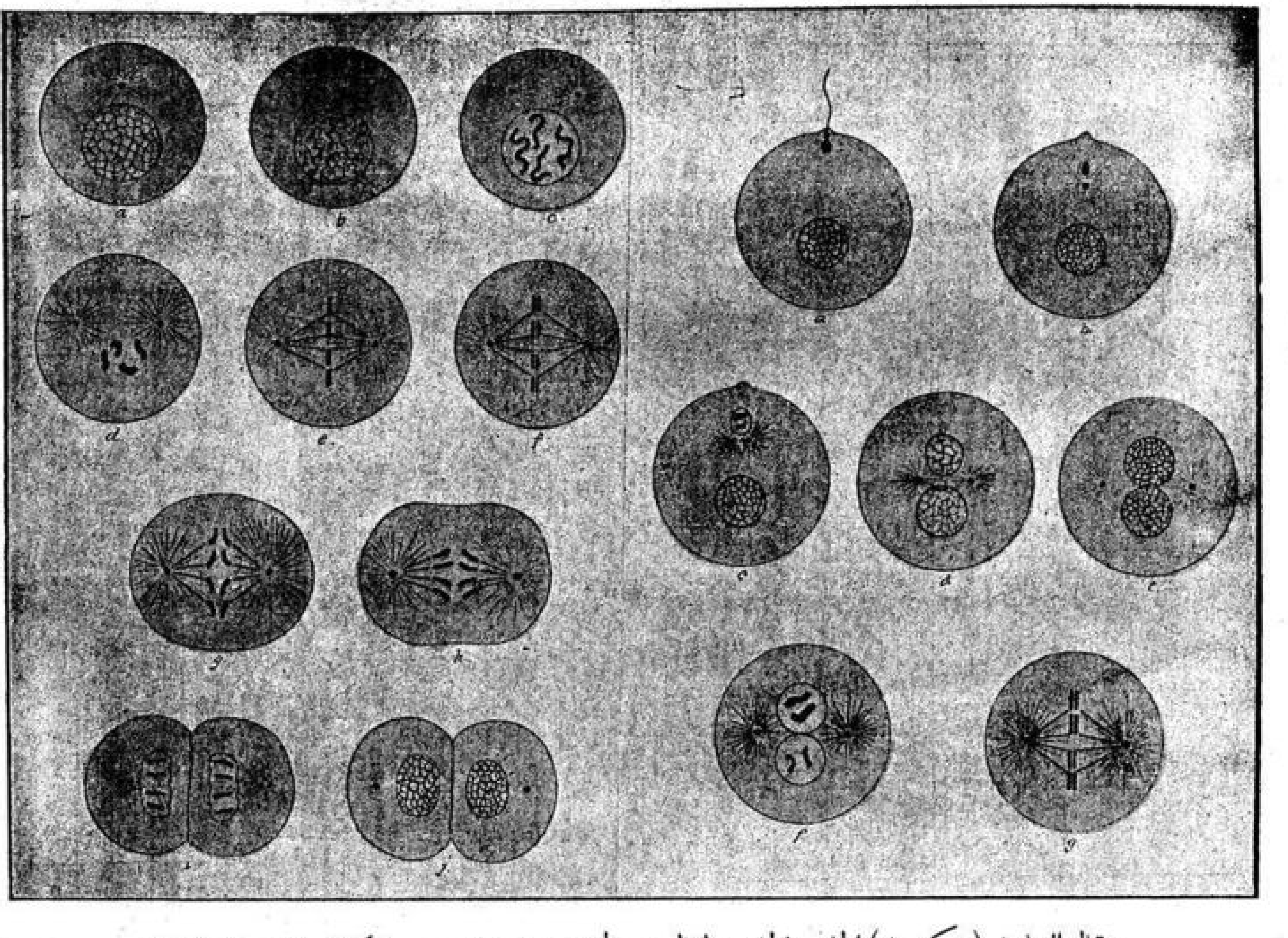
قدم ادوات التبرج

عثر الدكتور سبيزر مدير البعثة التي ارسلها متحف جامعة بنسلڤانيا للتنقيب في العراق على مجموعة من ادوات الزينة مؤلفة من مرآة برونزية وقمقم للعطر مصنوع من البرونز ومرود وادوات اخرى في مدفن ببلدة تل بلة يرتد تاريخهُ الى نحو ٥٠٠ قبل المسيح

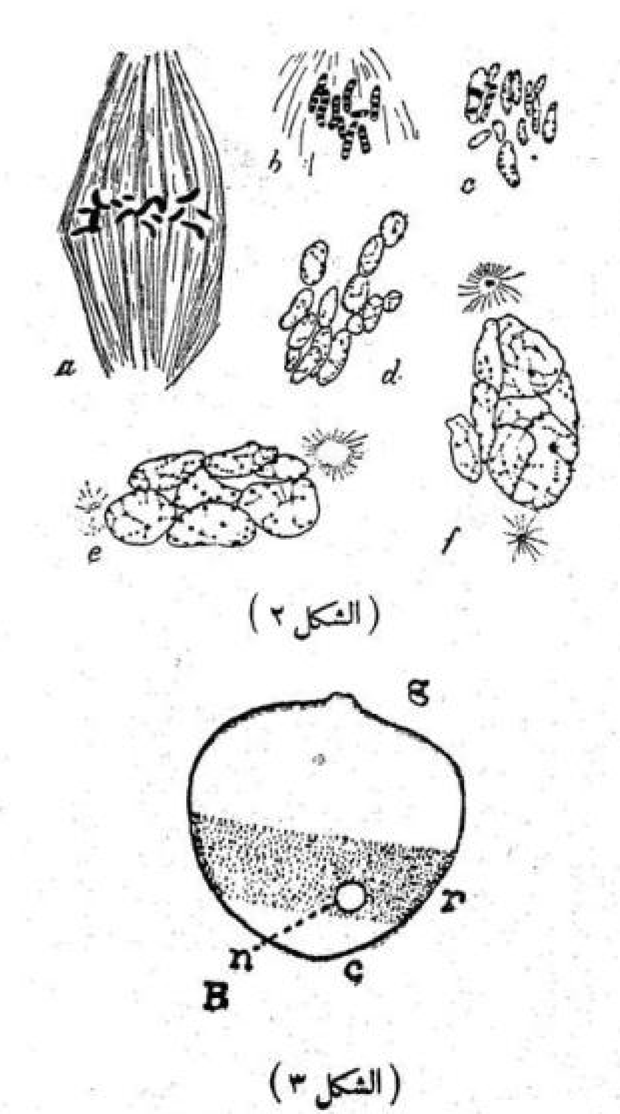
الجزء الخامس من المجلد الثمانين

صفحة

فهرس المجلد الثامن من المقتطف



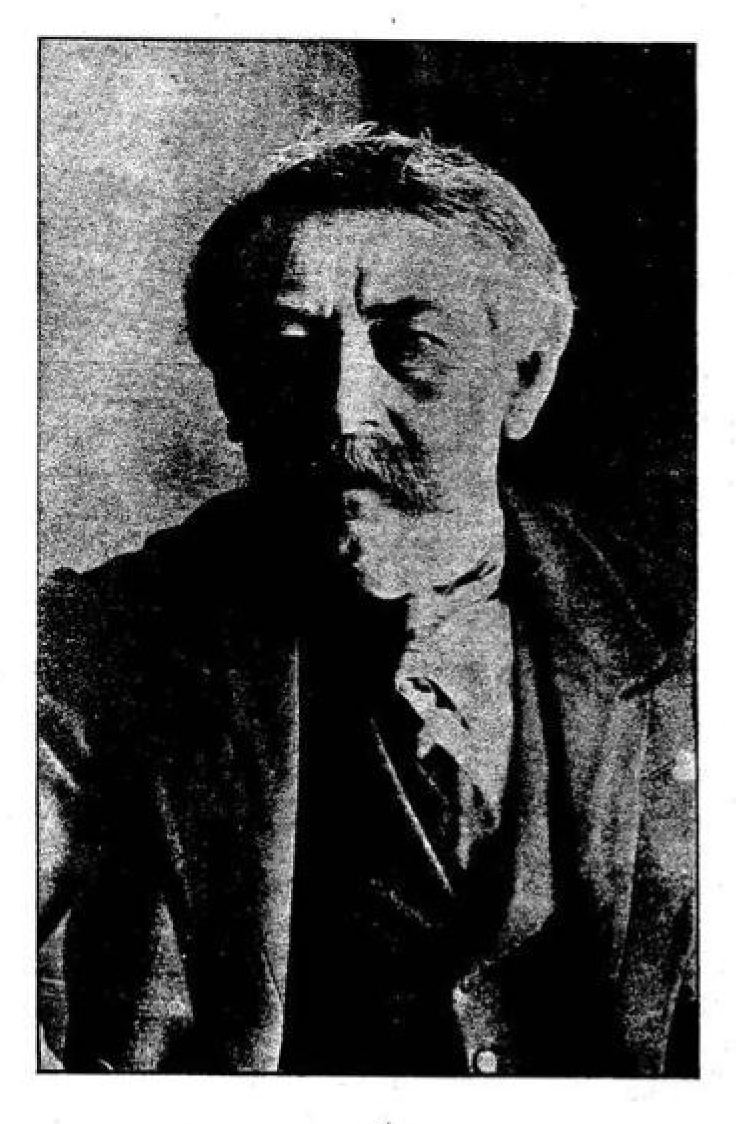
مقال التناسل (شكل ١) الجانب الخاص بالمقال هو المحتوي على ١٠ رسوم والكلام عليهِ صفحة ٥١٦



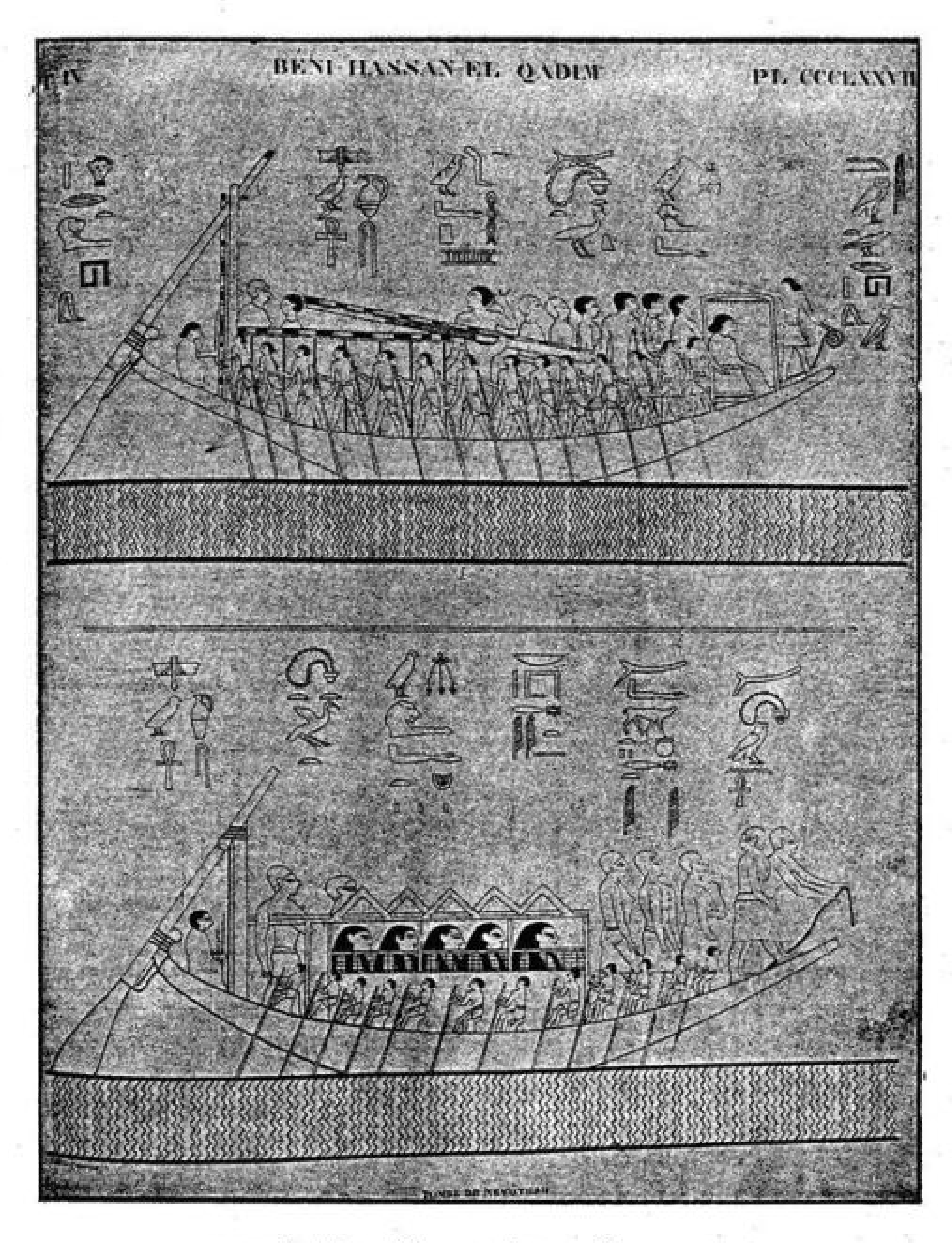
(الشكل ٢)

(الشكل ٣)

مقال التناسل — مقتطف مايو ١٩٣٢

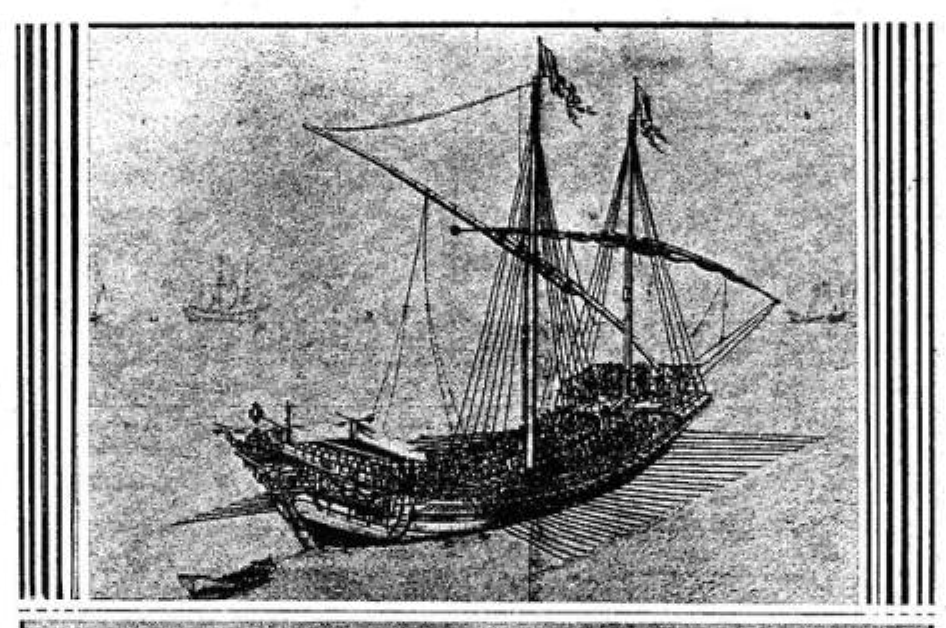


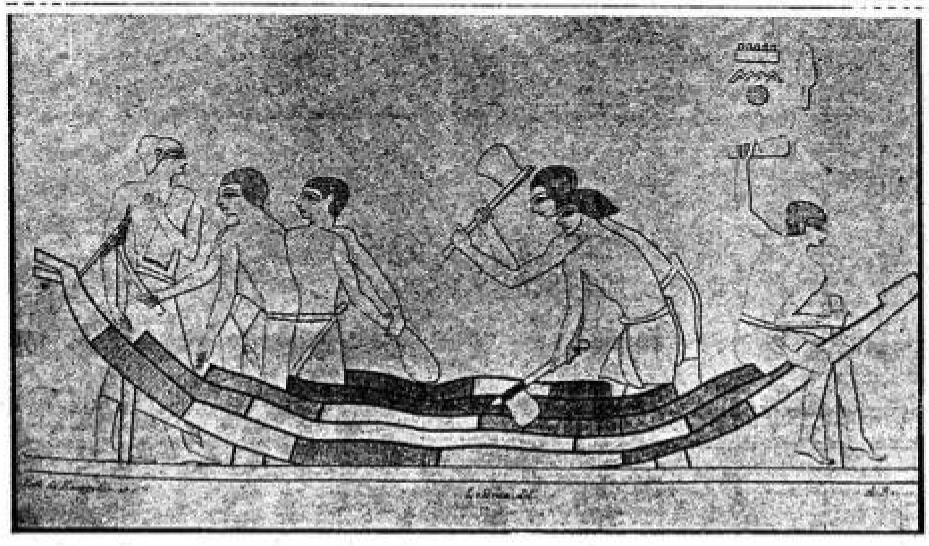
بريان



سفن مصرية صنعت في عهد الاسرة الثانية عشرة

مقتطف مايو ١٩٣٢ امام صفحة ٥٨٧





صناعة السفن في عهد الاسرة الثانية عشرة

مقتطف مايو ١٩٣٢

والد جوته

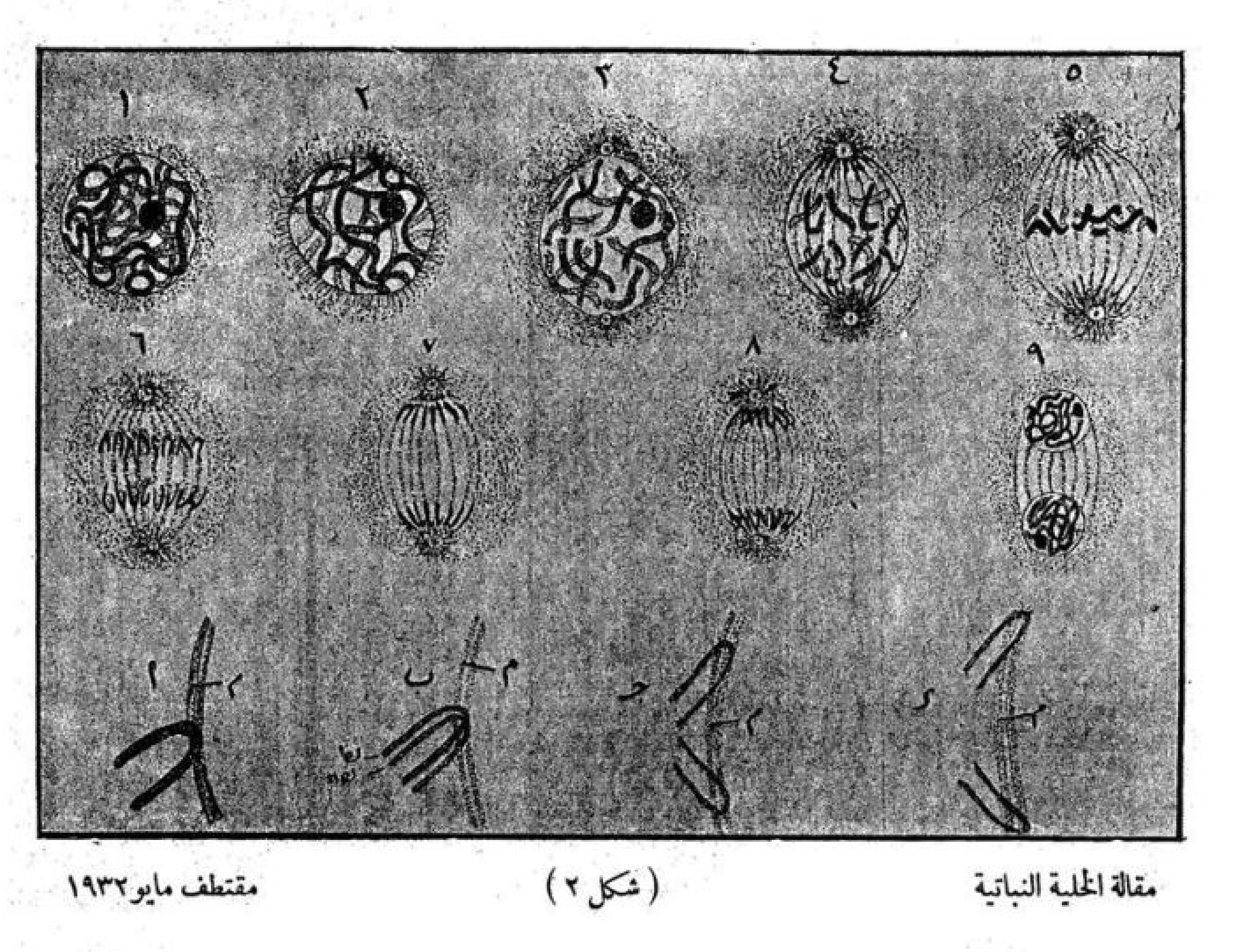


شقيقته



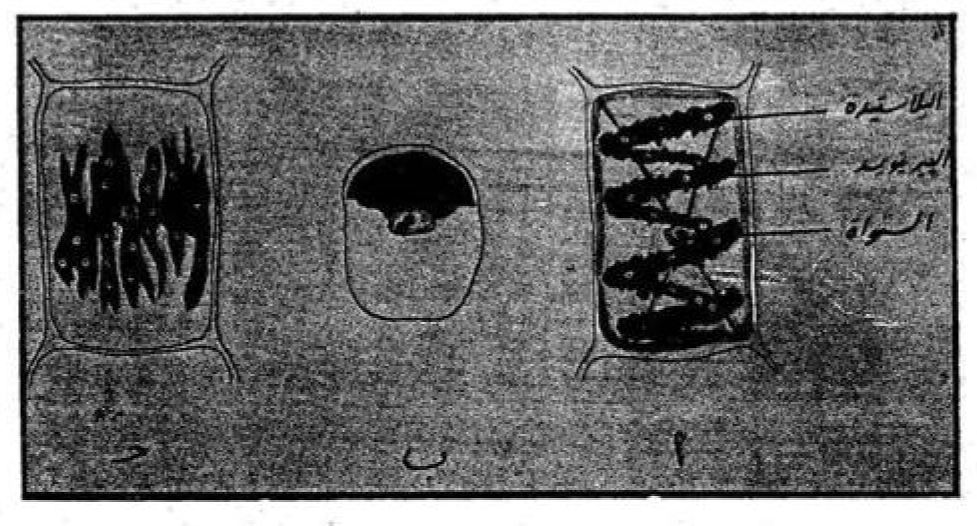
زوجته وابنه

امام صفحة ٥٩١

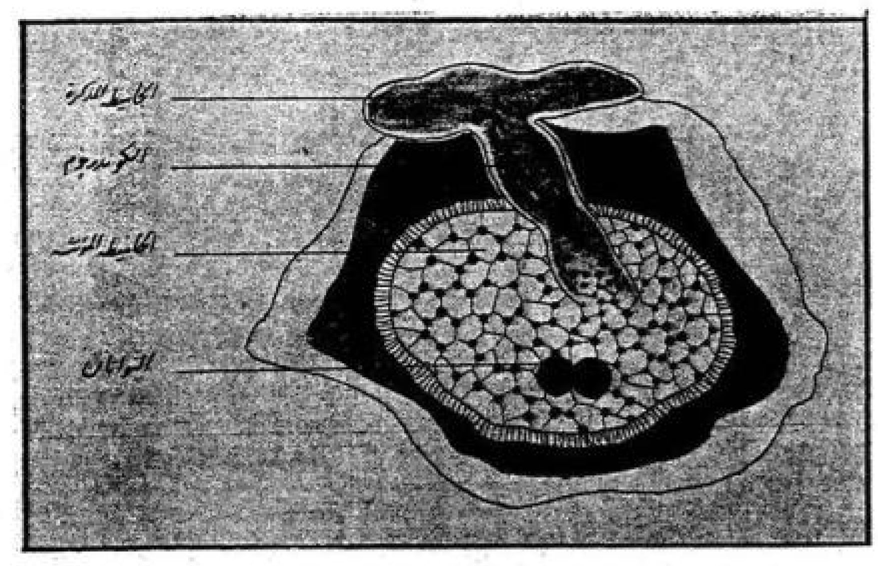


مقالة الخلية النباتية (شكل ٢) مقتطف مايو ١٩٣٢

(شكل ٩)



(شكل ٣)



(شكل ٤)

٥

خميرة الجعة

Saccharomyces. Cerevisiae.

فطر رمي

Penicillium. glaucum

ب
ا

١ ٢ ٣ ٤ ٥

مقال الخلية النباتية

(شكل ٥)

مقتطف مايو ١٩٣٢

مقال الخلية النباتية

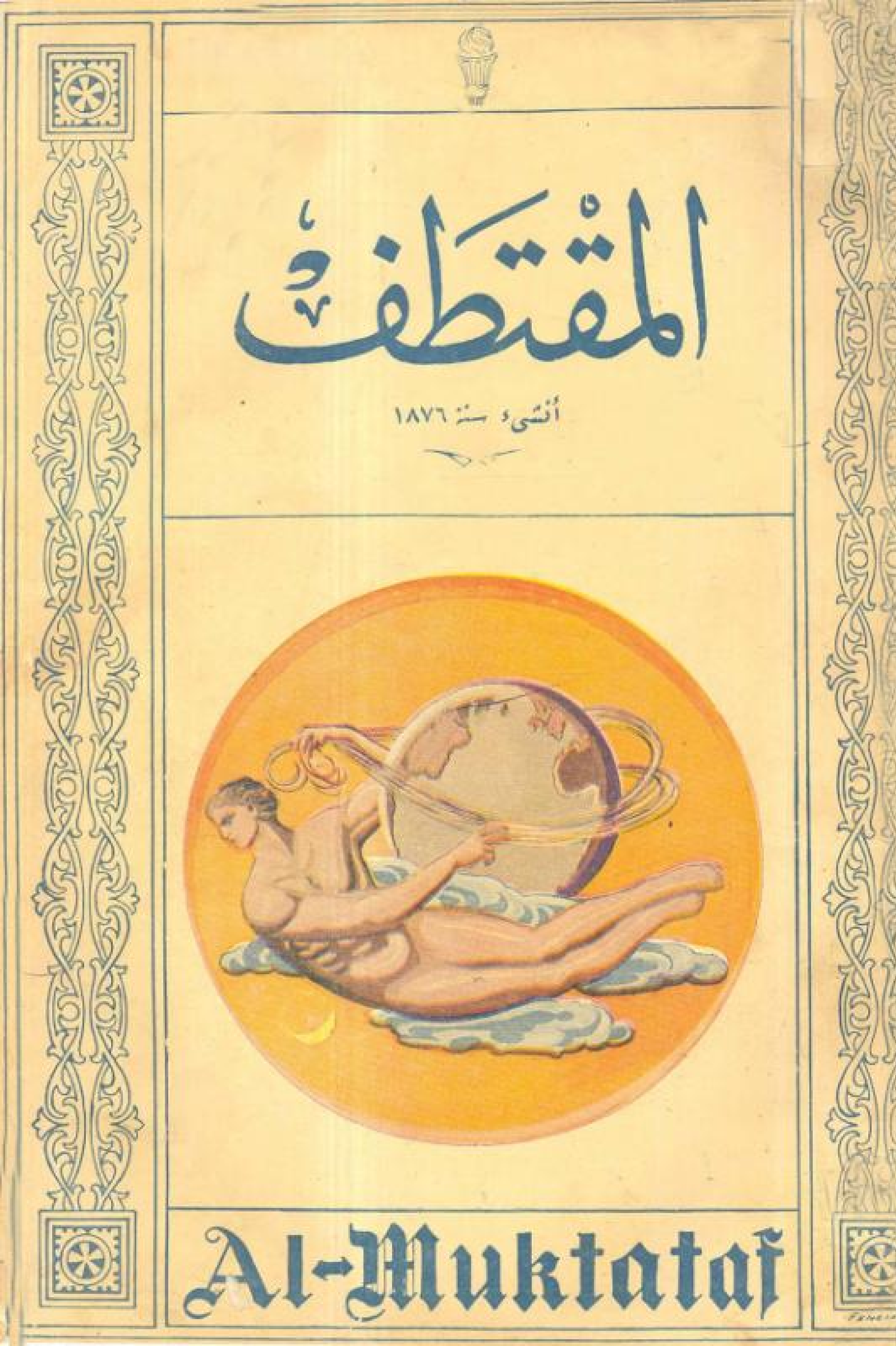
(شكل ٦)

مقتطف مايو ١٩٣٢



ركنان من اعظم اركان الطب الحديث

امام صفحة ٥٠٧


المقتطف
أنشئ سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الاول من المجلد الحادي والثمانين
١ يونيو سنة ١٩٣٢ — ٢٥ محرم سنة ١٣٥١

دارون ومذهبه

بعد خمسين سنة

تحول المذهب واتجاهاته الحديثة

في ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ مات تشارلز دارون ، الذي قال فيه الاستاذ وليم باتسن « ان دارون لم يخلّف نظريةً بل علماً » والسر فرنسيس غلتن احد مؤسسي علم الوراثة الحديث وعلم اليوجنية : « ان كتاب اصل الانواع دستور (Magna Carta) الحريات الفكرية » . والاستاذ هنري فرفيلد اوزبورن « حلقات تحرير العقل من قيود الاوهام ثلاث : الاولى لكوبرنكس الفلكي . والثانية كتاب اصل الانواع لدارون . والثالثة كتاب تسلسل الانسان لدارون كذلك . فهو في تاريخ المعارف ثاني ارسطوطاليس» . فيجدر بنا ان نقف هنيهة عند ذكرى وفاتهِ سائلين : اين نحن الآن من آراء دارون كما بسطها في اشهر كتبهِ «اصل الانواع» و «تسلسل الانسان » ؟

ان مقام «نظرية التطور العضوي» — وهي في رأي طائفة كبيرة من العلماء اعظم ما اضيف الى مجموعة الفكر الانساني في القرن التاسع عشر — لا يزال يحوطهُ كثير من الابهام في اذهان العامة ، لكثرة الحقائق التي كشف عنها الباحثون في ميدان علوم الاحياء بعد وفاة دارون وتشعُّب مدلولاتها ، واضطراب ما يكتبه الكتاب المعارضون عن انهيار نظريته من دون ان يجشموا انفسهم مؤونة البحث العلمي في حقيقة ما يقال في تفسير الحقائق الجديدة ومعرفة صلتها بنظرية دارون الاصلية

ما اضافه دارون

ان ما اضافهُ دارون الى البحث في هذا الموضوع ذو ناحيتين . (فأولاً) جمع من الادلة المؤيدة لحدوث التطوُّر العضوي طائفة تفوق ما جمعه غيرهُ من الباحثين . ويكفينا ان نعلم في هذه الناحية ان رحلتهُ على السفينة «بيغل» استغرقت خمس سنوات لم ين في خلالها عن جمع المشاهدات الطبيعية وتدوينها ، وانهُ قضى ثماني سنوات وهو يبحث في السريبديا (Cirripedia) وهي طائفة من الحيوانات الدنيا فكشف له البحث القناع عن ناموس الانتخاب الطبيعي . ثمَّ ان اعداد كتابهِ « اصل الانواع » وتمحيصه استغرق احدى وعشرين سنة ولو لم يتفق للعالم ولس Wallace ان اهتدى حينئذٍ الى تعليل تحوُّل الانواع بالانتخاب الطبيعي وعزم على نشر ذلك ، لما نشر دارون كتابهُ سنة ١٨٥٩ كما فعل

و(ثانياً) انهُ اول من اخرج مذهباً علميًّا معقولاً لتعليل الطريقة التي تمَّ بها التطوُّر . كان بعض العلماء الفلاسفة قد تناولوا هذا الموضوع قبل دارون ، ولكن احداً منهم لم يوفَّق الى نظرية توضح اسلوبه . فظل زعماء الفكر العلمي معرضين عن تأييد «حقيقة التطور» حتى اخرج دارون اصل الانواع وكتبه الاخرى . ولا بدَّ من ان نقول هنا ان العالِم «الفرد رسل ولس» يحسب حقًّا قسيم دارون في فخر اكتشاف مبدإ « الانتخاب الطبيعي » . ولكن كلاً منهما اكتشفه على حدة . فدارون استخلصهُ من مشاهداته الواسعة النطاق لتغيُّر الاحياء . ثم قرأ كتاب ملثوس (الذي ذهب فيهِ الى ان عدد السكان اسرع زيادة من موارد الغذاء) فخطر على باله ان ثمة تنازع بين الاحياء وان التباينات الموافقة للبيئة تبقى وغير الموافقة تندثر فينجم عن ذلك نوع جديد من الاحياء. اما ولس فاكتشف هذا المبدأ في ومضة وحي اذ كان يعاني سكرات الحمى سنة ١٨٥٧ ، وكان قد قرأ كتاب «رحلة البيغل» الذي وضعهُ دارون فبعث بخلاصة فكرته في رسالة موجزة الى دارون جاء فيها «واذا كان هذا الرأي على جانب كافٍ من الخطر فأرجو عرضه على السر تشارلز ليل » (الجيولوجي الكبير)

ماذا يفعل دارون ؟ كان قد قضى عشرين سنة وهو يعالج هذا الاكتشاف محاولاً تأييده بألوف الادلة الطبيعية ، فهل يضرب ببحثهِ عرض الحائط مؤثراً نشر رسالة ولس على كتابهِ او يخفي رسالة ولس الى ان تظهر آراؤه ؟ ولو انهُ فعل هذا لقلنا استولى عليهِ ضعف الطبيعة البشرية واشفق على عشرين سنة من حياتهِ تذهب هباء . ولكنهُ عزم في الحال ان ينشر رسالة ولس ، التي اؤتمن عليها. ولولا اصرار العالمِيْن هوكر (النباتي) وليل (الجيولوجي) — وكان قد تناقش معهما في مذهبهِ من قبل — على وجوب تلخيص آرائهِ في رسالة تتلى مع رسالة ولس في آنٍ واحد لما فعل

اما عن ثبوت وقوع التطور فأمر لا ريبة فيه . وما زال العلماء يجمعون الادلة حتى اصبح

التطور في نظر كل عالم يؤبه له «حقيقة» لا جدال فيها . وأما عن طريقة التطور فثمة اختلاف . فقد كان الاتجاه من نحو ثلاثين سنة الى اهمال «نظرية الانتخاب الطبيعي» ورفض حسبانها كافية لتعليل التحوُّل المشهود في الاحياء . فاذ يطلع القارىء على قول احد الكتاب المبسطين للعلم بأن «المذهب الداروني قد قضى عليهِ» فالغالب ان الكاتب يشير الى هذا الاتجاه الخاص ، اي عدم التسليم بكفاية «الانتخاب الطبيعي» لتعليل التطوُّر . «ولكن الاعتراض على «الانتخاب الطبيعي» قد ضعفت وطأتهُ الآن — على حد قول الاستاذ جوليان هكسلي — وفي الحقائق الجديدة التي كشفت في العقد الاخير ، والآراء التي بنيت عليها ما يحمل علماء الاحياء على التسليم بأن الانتخاب الطبيعي — هو كما قال دارون نفسهُ — اهم العوامل المحدثة للتباينات في الحيوان والنبات التي تجمعها لفظة تطور» . فلنعمد الآن الى تلخيص ما اصاب «مذهب التطور» من التحول بعد وفاة دارون

اولاً التطوُّر

نلتفت اولاً الى الادلة المثبتة لحقيقة النشوء . في هذا الميدان ارتقت علوم الاحياء ارتقاءً عظيماً ، فكشف الباحثون عن تاريخ تطور الحياة كما يبدو في آثار الحيوانات والنباتات المتحجرة . فلما كتب دارون كتابه «اصل الانواع» لم يعرف الباحثون سلسلة كاملة من الآثار المتحجرة تبين ارتقاء نوع واحد من انواع الحيوان . ونظرة واحدة الى ذلك الكتاب تبين ما كان يشعر بهِ دارون من الغصة والحسرة لوجود هذه الهوة بين الرأي والواقع . ولكن الهوة قد ردمت الآن . وفي استطاعة الباحثين ان يتابعوا تطور الحياة كما يبدو في الآثار المتحجرة التي خلفتها طائفة كبيرة من الحيوانات والنباتات . والمثل الاشهر الذي يضرب في هذا الصدد هو «تطوُّر الفرس» . ولكن ثمة مجموعات كاملة تبين تطوُّر الفيل والرتسا والببر وغيرها . والخلاصة انهُ حيث نجد مجموعة وافية من آثار متحجرة لحيوان معين او لنبات معين ، نجد دليلاً قاطعاً على حدوث تطور متدرج من البسيط الى المختص المعقد وهو اساس النشوء

وقد كان الانسان البدائي والقردة يعيشون في احوال لا تؤاتي حفظ هيا كلهم آثاراً متحجرةً في بطن الارض . ومع ذلك لدى علماء الاحياء وعلماء تاريخ الانسان ادلة جلية على حدوث التطوُّر . فبين الطراز الذي يمثله قرد من القرود العليا ذو دماغ متوسط الحجم وفكين بارزين وذقن مرتدة ، وبين الانسان الحديث ذي الدماغ الكبير والفكين الصغيرين والاسنان الدقيقة والذقن البارزة ، نجد آثار ستة امثلة او سبعة من الاحياء متوسطة بينهما متدرجة في صفاتها كانت بمثابة مراحل قطعها الثاني في تطوُّرهِ من الطراز الاول . ولا يمرُّ عقد من السنين الا ويأتي بامثلة جديدة . ففي السنوات العشر الاخيرة كشفت جمجمة الجليل في كهف تبغا بفلسطين ،

وجمجمة جنوب افريقية في تونغز بالترنسفال، وجمجمة بكين بالصين

اما الادلة الاخرى فليس هنا مقام بسطها وانما نكتفي بالاشارة اليها اشارة موجزة. فدليل التفرّق الجغرافي من اوضحها دلالةً واكثرها استرعاء للعناية . واذا كانت الحال الحاضرة لم تنشأ بفعل التطوُّر ، فكيف نستطيع ان نعلّل ان حيوانات الجزائر المنثورة في المحيطات محصورة في نطاق يشمل الحيوانات التي تقطع البحار على اجنحة التيارات الهوائية او عالقة بارجل الطيور . اوخذ جزائر ارخبيل غالباغوس ، التي يقال انها قمم براكين كانت قائمة على سطح شبه جزيرة ، فلما حدث لشبه الجزيرة ما اغرقها ظلّت قمم البراكين جزائر منثورة على سطح الماء . فمن الحيوانات الخاصة بهذه الجزائر «السلاحف الضخمة او الجبارة » .وهذا النوع من الحيوان عشرة اصناف مختلفة موزعة على جزائر الارخبيل العشر . والاصناف التي على الجزائر النائية اشدُّ تبايناً من الاصناف التي على الجزائر المتجاورة . ثم انك تجد خمسة اصناف مختلفة في نواحٍ مختلفة من جزيرة واحدة هي اكبر الجزائر مساحة وتعرف بجزيرة «البمرل » .فاذا نحن انعمنا النظر في هذه الحقائق لم نجد سبيلاً الى تعليلها الا اذا فرضنا ان هذه الاصناف المتباينة نشأت من اصل واحد كان يقطن شبه الجزيرة ، وانها تغيرت تغيراً طفيفاً متدرجاً بحسب احوال الجزيرة ، وان الحواجز المائية منعت التزاوج المفضي الى اشتراك الطائفة كلها في ما اصابهُ بعضها من التغاير —لا يخفى ان هذه السلاحف الجبارة لا تستطيع السباحة— اما اختلاف الاصناف على جزيرة واحدة فلعل سببهُ تكوين سطح الجزيرة نفسها وقيام حواجز بين البقاع التي تقطنها الطوائف المختلفة فتمنع اتصالها ، لان الجزيرة اصلها بركاني وسبل السير فيها وعرة . ويقال ان داروِن زار هذه الجزائر اذ جاءها في رحلة « البيغل » فلحظ ان لكل جزيرة منها صنفاً خاصًّا بها من هذه السلاحف فقال ان هذه المشاهدة « قربتهُ من عمل الخلق نفسهِ »

ثم هناك الادلة المستمدة من البناء التشريحي . فذراع الانسان، وجناح الخفاش، وزعنف الحوت ، وقائمة الحصان الامامية ، وجناح الطائر ، وذراع الزرافة كلها اعضاء مختلفة الشكل والمظهر . ولكنها مع ذلك تحتوي على نفس العظام الاساسية والعضلات والاوعية الدموية والاعصاب . ما اصعب تعليل هذا التشابه الكائن بين هذه الاعضاء بمذهب الخلق المستقل ! على ان فكرة النشوء تطلق الضوء في طريق فهم هذا التشابه العميق رغم الاختلاف السطحي .

ثم هناك الدليل المستمد من علم الاجنة ، ومؤداه ان نموّ الفرد يلخص لنا تطور السلالة التي يمتُّ اليها، والدليل المبني على درس الاعضاء الاثرية وتعليلها بعدم الاستعمال فتضمر ولكنها لا تضمحلّ ، والدليل المستخرج من تجارب مؤصلي الحيوانات والنباتات، فالحمامة البيتية نشأت تحت رعاية الانسان من الحمامة الجبلية

اضف الى ذلك ما عثر عليهِ الباحثون في انحاء الارض من الحقائق الجديدة عن تحوُّل

الانواع . فقد وجدوا مثلاً انهُ يندر ان تجد نوعاً واحداً من النبات او الحيوان وقد جد من دون تحوُّل في بقاع واسعة . ومعظم الانواع يمكن تقسيمها الى اقسام اصغر تعرف « بارداف الانواع » (شرف Sub - species) وهي تعرف كذلك بالسلالات الجغرافية. والفروق بين ارداف الانواع هذه دقيقة جدًّا ، ولكن اذا قام بين ردفيْ نوع فاصل جغرافي يصعب عليهما اجتيازهُ انبتّت الصلة بين الردفين واصبح كلٌّ منهما طرازاً جديداً Type . وهذا يبين لنا فعل التطور كما هو جارٍ الآن. فالنوع يتحوّل الى سلالات جغرافية جديدة يشتدّ الاختلاف بينها باشتداد الفواصل . ثم ان بين كل الطوائف التي يتكون منها نوع معيّن فروقاً طفيفة جدًّا تجعل اسم « النوع » مجرّد اصطلاح تصنيفي لان تيار الحياة لا يعرف الجمود فهو دائم التجزؤ الى جداول وسواقٍ ، ودرس هذه التحولات الجغرافية يرينا مراحل التجزؤ

هذا فيما يتعلق « بحقيقة » التطور . فان الادلة المتجمعة من ميادين البحث الحيوي تثبتها اثباتاً قاطعاً للشك وليس ثمة عالم يؤبه لهُ ينكر وقوعها

طريقة التطور

وليست الحال كذلك فيما يتعلق بالطريقة أو الاسلوب الذي جرى عليهِ التطوّر . فثمة بين العلماء تضارب في الاراء . ويمكننا تلخيص رأي دارون بقولنا : — كل الحيوانات والنباتات تخلف من النسل اكثر مما يحتمل بلوغهُ مدى الحياة . واذاً نجد بينها نزاعاً على البقاء . ولما كان التغاير أو التباين (Variation) حقيقة شاملة لا ريبة فيها فلا بد ان تجد اختلافاً أو تغايراً — مهما يكن طفيفاً — بين افراد النسل . ففي النزاع على البقاء يكون بقاء الافراد الذين يتصفون بتغايرات موافقة تعدّهم للحياة الجديدة ، اكثر احتمالاً من بقاء الافراد الذين لم يتصفوا بهذه الصفات أو ما يشبهها ، فيعجزون عن مجاراة عوامل البيئة فيقضى عليهم قبل نموهم واخلافهم نسلاً . ثم ان طائفة ليست قليلة من هذه التغايرات تورّث ، فينتقل بعض التحسين في النسلِ ، الذي تمّ بهذا الانتقاء أو الانتخاب ، الى الجيل الثاني ، فيبدأ الحياة على مستوى اعلى قليلاً من الجيل السابق . فاذا تواتر هذا الفعل في اجيال متتابعة حدث ارتقاء مطرد. وقد دعاه دارون بالانتخاب الطبيعي . ولتأييد هذا الرأي اشار الى ما يفعلهُ مربو الحيوانات الداجنة ، « بالانتخاب الصناعي » فيغيرون شكلها وطبائعها

والفرق الاساسي الوحيد بين رأي دارون هذا وبين الرأي الحديث في الموضوع دائر حول « توريث التغايرات » التي تحدث في الاحياء . ففي القرن التاسع ، وعلوم الاحياء لا تزال ضيقة النطاق ، كان يتعذر على دارون ان يفرق بين طائفتين من التغايرات — الاولى التغايرات التي تحدث بفعل البيئة وتغيّر عادات الحيوانات وسلوكه وهي لا تورّث . والثانية التغايرات

التي تنشأ من تحول في بناء الكائن الحي ذاته ، وهذه تورّث . ومن الواضح ان التغايرات التي من النوع الثاني — وتعرف الآن عادة بالتحولات الفجائية Mutations — هي التغايرات التي ينطبق عليها فعل الانتخاب الطبيعي فينتخب منها ما يصلح وينبذ منها ما لا يصلح

والعقبة الكبيرة التي حالت دون تسليم العلماء بعد وفاة داروِن بصلاح مبدإ الانتخاب الطبيعي لتعليل التطور ان التحولات الفجائية لم تسد مسدّ التغايرات التي تقتضيها النظرية . فمعظم التحولات الفجائية التي تناولها البحث اولاً ظهر انها اختلافات كبيرة في صفات الحي الذي تظهر فيهِ ، فقالوا اذا كانت هذه التحولات اساس التطور وجب القول بأنهُ يتم قفزاً ، بدلاً من ان يتم تدريجاً على نحو ما هو ثابت في سلاسل الآثار المتحجرة لحيوانات ونباتات مختلفة . ثم ظهر ان بعض هذه التحولات الفجائية قد لا يناسب الحي الذي يظهر فيهِ بدلاً من ان يناسبهُ ، وعليهِ فلا يصح حسبانها اساساً للنشوء عن طريق الملاءمة

على ان المضي في البحث اثبت ان الى جنب التحولات الفجائية الكبيرة ، تقع تحولات فجائية صغيرة . والواقع ان هذه التحولات هي الغالبة ، وانما يصعب اكتشافها . ثم ثبت ان التحولات الفجائية الكبيرة تُفقِد الحي الذي تظهر فيهِ التوازن ومن هنا ضررها . اما التحولات الصغيرة فأكثرها مفيد او غير ضار . ومعظم علماء الاحياء الآن متفقون على ان الانتخاب الطبيعي هو افعل عوامل التطور . وانهُ يتم بانتخاب ما يلائم البيئة الجديدة من التحولات الفجائية الصغيرة

فصل جديد

وقد فتح الاستاذ ملر الاميركي في العقد الاخير فصلاً جديداً من فصول « التطور » باكتشافهِ طريقة تصطنع هذه التحولات الضئيلة . ففي الاحوال الطبيعية السائدة نرى التحولات الفجائية نادرة الوقوع ، ولعلها لا تزيد على تحوُّلٍ واحد في ١٠ آلاف فرد من صنف ما . ولكن الاستاذ ملر اثبت ان تصويب اشعة اكس من امواج ذات طول معين الى ذبان الفاكهة مثلاً يسرع ظهور التحولات الفجائية فيهِ . وخطر اكتشافهِ من الوجهة النظرية افساد القول بأن حدوث التحولات الفجائية في الاحياء يقع من تلقاء نفسهِ ، واننا نعجز عن السيطرة عليهِ او التأثير فيهِ ، كما عجزنا عن التأثير في انحلال العناصر المشعة اسراعاً أو ابطاءً . ثم ان له خطراً عمليًّا ، لأنهُ قد يمكننا من استعمال هذه الطريقة ، بعد فهمها كلَّ الفهم ، في احداث التحولات في النباتات والحيوانات ، مما يمهد السبيل الى اسراع الانتخاب الصناعي ، بدلاً من انتظار التحولات الطبيعية ، وهي بطيئة كما قدمنا

وقد تلا الاستاذ ملر استاذ اميركي آخر يدعى الاستاذ جود سپيد (من اساتذة جامعة كاليفورنيا) فعالج صنفاً من نبات التبغ بأشعة اكس فاستحدث منهُ صنفاً جديداً . ثم تناول بابكُك وكلنز (من جامعة كاليفورنيا) تجربة الاستاذ مُلر وحوّلاها قليلاً . ذلك انهما وضعا

طائفة من ذبان الفاكهة في نفق محفور تحت مدينة سان فرنسسكو حيث اشعاع الصخور شديد جداً . فتعرضت لبعض الاشعة المنطلقة من الراديوم او الصخور المشعة التي تحتوي على مركباته فنشأت منها اصناف جديدة لها صفات لا عهد للطائفة الاولى بها قبل تعريضها لهذه الاشعة — كلون الاجنحة وطولها وقصرها ولون العيون وغير ذلك

ويرى الاستاذ جولي استاذ الجيولوجيا في جامعة دبلن — ويجاريه بعض الفلاسفة — ان الاشعة الكونية هي التي بعثت الحياة على سلّم النشوء . فالمعلوم في علوم الاحياء ان النشوء سار سيراً بطيئاً جداً بعد ظهور الحياة على الارض ثم اسرع قبيل العصر الكمبري وفي اثنائهِ ظهرت الوف من الانواع الجديدة . وهذا يمكن تعليله بأن الاشعة الكونية لا تأتينا من كل انحاء الفضاء على السواء ، وان النظام الشمسي في سيره السريع في الفضاء يخترق آناً منطقة تكثر فيها الاشعة الكونية فتفعل في الاحياء فعل اشعة اكس في ذبان الفاكهة فتكثر فيها التحولات الفجائية فيسرع التطور وتكثر الانواع . ثم يخترق منطقة اخرى — بعد عصور طويلة — تضعف فيها الاشعة فيبطؤ النشوء وهكذا دواليك

مدى الحياة على الارض

من الاتجاهات التي جدت في هذا الميدان بعد دارون ما يرتبط بطول الزمن الذي استغرقهُ تطور الاحياء . ففي القرن الماضي حسب لورد كلفن ان عمر الارض لا يزيد على ٤٠ مليوناً من السنين . فكان ذلك في نظر البيولوجيين قصيراً جداً لا يكفي لتطوّر الاحياء وبلوغها في تنوعها وتخصصها المرتبة التي بلغتها . فلما كشف عن الراديوم ، انقلبت المسألة وتنقّح علماء الطبيعة رأيهم في عمر الارض ، فاذا هو اطول جداً مما ذهب اليهِ كلفن ، فاغتبط بذلك علماء الاحياء لان ذلك يفسح المجال لفعل التطوّر البطيء

فالعناصر المشعة تمكّن علماء الطبيعة من تقدير عمر الصخور التي في قشرة الارض تقديراً لا يحتمل كثيراً من الخطاء . فالراديوم يفقد قوتهُ فقداً بطيئاً بانحلال ذراتهِ ، فاذا مضى عليهِ ١٦٠٠ سنة اصبحت قوتهُ في نهايتها نصف ما كانت في بدايتها . والسبب ان الراديوم يتحوَّل الى شيء ليس راديوماً — سمّهِ نفاية الراديوم — فجرام من الراديوم يتحول نصفهُ في اثناء ١٦٠٠ سنة من راديوم صاف الى نفاية الراديوم واذن فقوة الراديوم قد نقصت نصفها لان قدر الراديوم قد نقص نصفهُ . فاذا أعطينا مزيجاً من الراديوم ونفايتهِ كان في الامكان أن نعلم مدى تحوُّل الراديوم حتى أصبح لهُ هذا القدر من النفاية . وما يعلم عن الراديوم يعلم عن العناصر المشعة المختلفة . فقد قاس العلماء مدى انحلالها وتحولها من شكل الى آخر فعنصر الاورانيوم يستغرق نحو ٤٥٠٠ مليون سنة ليتم فيهِ هذا الفعل

وفي قشرة الارض يعثر الجيولوجيون على قدر من الاورانيوم ونفايتهِ في صخر من الصخور .

وقد ثبت ان مقدار النفاية في كل ما وجد اقل من مقدار الاورانيوم نفسهِ، أي أنهُ لم يمضِ على الاورانيوم ٤٥٠٠ مليون سنة وهي المدة التي يستغرقها لتحول نصفهِ الى نفاية. على هذا الاساس يقدر العلماء عمر الارض بنحو ٣٠٠٠ مليون سنة وعمر الصخور الرسوبية بما لا يقل عن ١٥٠٠ مليون سنة

والمرجح ان الحياة ظهرت على الارض من نحو الف مليون سنة . ولما كانت الصخور الاولى قد تعرضت لضغط شديد وحرارة عالية في اثناء تكون القشرة الارضية فمعظم آثار الاحياء الاولى قد زالت ، أو هي لشدة الضغط والحرارة لا تمكن معرفتها الآن . واقدم الصخور الرسوبية التي توجد فيها آثار متحجرة للاحياء يرجع تكوينها الى نحو ٥٠٠ مليون سنة ، وكانت اشهر طوائف الحيوانات قد ظهرت حينئذ مثل الديدان ، والاحياء السرطانية ، والاسفنج

اما الحيوانات الفقارية فلم تظهر الا من نحو ٤٠٠ مليون سنة. ولم تستعمر الاحياء اليابسة الآ من نحو ٣٠٠ مليون سنة وفي ذلك تقدمت النباتات على الحيوانات. اما الحيوانات الفقارية التي استعمرت اليابسة اولاً فهي الامفيبيات (مثل السلمندر) وظهرت الزحافات من نحو ٢٥٠ مليون سنة ثم الطيور ، واما الحيوانات الثديية فمن نحو ١٥ مليون سنة . على ان الطيور والحيوانات الثديية الاولى كانت تختلف كل الاختلاف عن مثيلاتها في هذا العصر . فالطيور والثدييات التي من الطراز الحديث ترتد الى فترة تتباين من ٥٠ الى ١٠٠ مليون سنة. وهذا يصح كذلك على النباتات الزهرية واعلى انواع الحشرات

ان زمن وجود الانسان على الارض ، ازاء هذه العصور المتطاولة يكاد يكون كطرفة عين. فاقدم آثار الانسان وادواتهِ ترجع الى مدة لا تزيد على مليون سنة . وليس ثمة شك في ان انفصال الانسان عن اصله المشترك مع القرد تمّ من نحو خمسة ملايين سنة الى عشرة ملايين. وكان الانسان الاول اشد شبهاً بالقرود منا . فالانسان العصري من الوجهة البيولوجية حديث العهد لان معظم الآثار التي خلفها لا ترتدُّ الى ما قبل ١٠٠ الف سنة

بهذه الروح يجب ان ينظر الانسان الى مستقبله . فعلماء الطبيعة والفلك يقولون بان امامنا عصوراً متطاولة لا تقل عن العصور التي وراءنا ، وقد تنقضي ١٠٠٠ مليون سنة اخرى قبلما تبرد الارض حتى تصبح الحياة على سطحها متعذرة وهي طول المدة التي استغرقها نشوء الجنس البشري من النطفة الحية الاولى . فليس ثمة سبب يحملنا على الاعتقاد باننا القمة التي يمكن ان تبلغها الحياة . وباتساع نطاق المعارف يجب ان يتمكن الانسان من الاكباب على ترقية جنسهِ . فالزمن امامهُ ممتد الى ثنايا المستقبل البعيد ، وهو الكائن الوحيد ، على ما نعلم ، المتصف بصفة الشعور (Consciousness) بها يستطيع ان يتجرد عن نفسهِ هنيهة ليرى علاقتهُ بالكون الذي يحيط بهِ ومصير السيار الذي يقطنهُ . بها يستطيع ، اذا شاء ، ان يكون الامين على فعل التطور فيسير بهِ الى غاياتهِ المجيدة !

فؤاد صروف

مصير العالم الاقتصادي

الغيوم المتلبدة في الجو واشعة الامل الضئيلة

— ١ —

ان المشكلة التي يعانيها العالم الآن وتشتدُّ حاجتهُ الى حلّها تختلف عن المشكلة التي كان يعانيها من سنة. فمن سنةٍ كنا نسأل كيف نستطيع ان نخرج من الازمة الصناعية والتجارية بزيادة ما ينتج من البضائع حتى يعود الى مستواه الطبيعيّ . اما الآن فالمشكلة الاساسية هي « كيف نجتنب انهيار النظام المالي» . فليس ثمة املٌ في اعادة الانتاج الى مستواهُ الطبيعي في المستقبل القريب . وجهودنا متجهة الآن الى تحقيق آمالٍ اضيق نطاقاً من ذلك تدور حول استطاعتنا ان نمنع انهيار البناء الذي يقوم عليهِ النظام الرأسماليّ ؟ واذ نرى افلاس الزعامة المالية في بلدان العالم والاخطاء المستولية على اذهان اولي الامر من حيث اسباب الازمة وعلاجها ، يأخذنا العجب ويستولي علينا الشك في امكان ذلك . على كل حال لا يختلف اثنان في ان اجتناب الانهيار المالي مشكلة اجدر بالعناية الآن من محاولة انعاش الصناعة وانتشالها من ركودها

ان الاسباب المباشرة للذعر المالي العالمي — والازمة الحاضرة ليست الاَّ ذعراً — واضحة. فهي ترتدُّ الى هبوط القيمة النقدية للبضائع وغيرها من السندات المتباينة . فزالت بذلك الثقة التي يقوم عليها نظام المعاملة الحالي القائم على « الكريدي » . وفي كثير من البلدان اصبحت ممتلكات البنوك ، اذا قدرت قيمتها تقديراً محافظاً، لا تعادل ما عليها من الديون لاصحاب الودائع فيها . وامسى المدينون يرون ان ودائعهم لا توازي ديونهم . وقلَّ بين الحكومات حكومة تجد في دخلها ما يكفي لسداد ديونها

ثم ان انهياراً كهذا يغتذي بنفسهِ . فنحن الآن في طور من اطوار الازمة يمتاز بان خطر الخسارة الذي يعرّضلهُ اصحاب الودائع يحملهم على الذعر فالتسابق الى تصفيتها . وكل من ينجح في تصفية ودائعهِ يخفض بعملهِ ثمن الودائع الاخرى التي في دور التصفية ، فيشتدُّ الذعر وفقد الثقة والزحام على التصفية مهما تبلغ الخسارة . والزحام على التصفية قد تعدى الآن الافراد والشركات الى الامم والحكومات . فكل حكومة تحاول الآن ان توازن دخلها وخرجها بتحديد الواردات وبذل السعي لزيادة الصادرات. ونجاح اية حكومة منها في مسعاها معناهُ خيبة حكومةٍ اخرى تسعى السعيَ نفسهُ . ثم ان كل امة تنبط من همة اصحاب الاموال الاجانب

الذين يريدون تثمير اموالهم فيها خوفاً من زيادة جانب الدين في موازنتها العالمية . ومع ذلك فان مدى نجاحها يتوقف على بذّها لجاراتها في منع كلٍّ منها الاموال الاجنبية من ان تثمر فيها

فلنا في هذا مثل بليغ على « التنافر » بين الافراد والامم . ان كلَّ امة في محاولتها تحسين حالتها بالنسبة الى حالة جاراتها ، تسلك سبلاً تضرُّ برخاء جاراتها . ولما كان عملها غير مقتصرٍ عليها ، فانها تخسر بما تفعلهُ جاراتها من هذا القبيل اكثر مما تجنيهِ بعملها هي . والواقع ان معظم الملاجات المقترحة الآن هي من هذا النوع الفتاك . فالمسابقة الى نقص اجور العمال ، وتعلية الحواجز الجمركية ، وتصفية الممتلكات والودائع الخارجية ، وتخفيض قيمة العملة ، وحث الناس على التوفير ، كلها من هذا القبيل . ولا يخفى ان خرج الانسان الواحد دخل الآخر . فاذا امتنعنا عن الانفاق وفرنا ولا ريب مبلغاً من المال ، ولكننا ننقص بعملنا هذا ثروة آخر . فاذا فعل كل الناس الفعل نفسهُ نقصت الثروة العامة . فقد يضطرّ احد الناس ان ينقص نفقاتهِ اضطراراً فيفعل وليس ثمة من يلومهُ . ولكن عمله هذا ، يجب الاّ يحسب عملاً وطنياً نبيلاً اذا لم يفعلهُ مضطراً . فالمتمول العصري اشبهُ شيءٍ بربان لا يحب السفر الاّ في البحر الرهو . فاذا هبت العاصفة تخلّى عما يجب عليه من تبعة الملاحة ، بل هو ، في محاولتهُ تخليص نفسهِ باغراق جاره ، كأنه يحرق المركب الذي قد يعود بهِ سالماً الى البرّ

ومن نكد الدنيا ان الذهن العام قد ترَبى تربيةً بعيدة عن الحقيقة والمنطق السليم . فالانسان المتوسط قد تعلّم ، بما يكتب ويقال ، ان ما يقضي بهِ عقلهُ السليم ، من ان التبادل اساس الفلاح ، قول باطل . ولقد فقد الناس ثقتهم بالعلاجات الناجعة ، لان تطبيقها كان يعوزه الجرأة والحزم . ولعل الاختبار القاسي علمنا فاصبحنا اميل الى الاخذ بنواصي الحكمة . ولكن زعماء الامم السياسيين كانت تعوزهم البصيرة والجرأة والحزم في تطبيق العلاجات الناجعة تطبيقاً حاسماً . فاستفحلت الازمة حتى لقد يفقد النظام الماليُّ العالمي مرونتهُ ومقدرتهُ على الانتعاش

وفي الوقت نفسه نرى مشكلة التعويضات وديون الحرب غيمة قاتمة يكفهرُّ بها الجو . ونحن نعلم ان ليس ثمة امل في تسديد مبالغ كبيرة منها . ومشكلتها ليست مشكلة مالية ، بل سياسية ونفسية معاً . فاذا اقترح الفرنسيون ، في المستقبل القريب ، اقتراحاً معتدلاً معقولاً ، لتصفية المسألة تصفية نهائية فالراجح ان الالمان يقبلون ، رغم اعتراضهم بعجزهم عن الدفع ، وعندي انهم يحسنون فعلاً بالقبول . ولكن الظواهر تدلُّ على ان الفرنسيين مصممون على رفض اي حلٍّ من هذا القبيل مؤثرين خلق حالةٍ تحمل المانيا على اعلان عجزها رسمياً عن التسديد . فرجال السياسة الفرنسيون (ومثلهم رجال السياسة الاميركيون اذ يعربون صراحة عن رأيهم) يفضّلون ، بسبب المناورات الحزبية في بلادهم ان يخسروا كلَّ شيءٍ بعجز المانيا ، على التسليم بقبول مبلغ معتدل منها . ثم انهم يرون ان عدم التسليم بنقص التعويضات وتوقف المانيا عن الدفع ، حجج يمكن استعمالها

> لا نجد موضوعاً اجمع لعناية الناس في هذا العهد من موضوع «الازمة الاقتصادية العالمية» وبواعثها ووسائل علاجها. لذلك عنينا بنواحي هذا البحث فنشرنا «رواية الازمات الاقتصادية» «وقصة الجنيه الاسترليني» وبحثاً في «مال التعويض وديون الحرب». وها نحن اليوم نلخص فصلاً لعالم من اكبر علماء الاقتصاد المعاصرين «جون مينرد كينز» الذي كان الممثل الاول للخزينة البريطانية في مؤتمر فرساي ومؤلف «رسالة في الاحتمال» و«نظرية النقد: مجرّدة ومطبقة» و«النتائج الاقتصادية لمعاهدات السلام»

ضدّ المانيا في حلّ المسائل المعلقة بين البلدين التي خلقتها معاهدة فرساي. وعليهِ فلست ارى شعاعة امل في هذه الناحية من الاقتصاد الدولي

— ٢ —

لقد رسمت الصورة بأقتم الالوان. فهل للصورة وجهة اخرى؟ وما هي عناصر الامل التي يمكن تبينها في هذا القتام؟ واي عمل مفيد نستطيع القيام بهِ لاجتناب الكارثة؟

الباعث الاول على الامل ان النظام المالي ابدى حتى الآن قدرة غريبة على احتمال العبء الذي اناختهُ عليهِ الازمة الحالية. ولو ان احد تنبأ من سنة ان الحالة سوف تبلغ ما بلغت اليهِ الآن، لما كان احد يستطيع ان يتصور ان الامور تسير في اعنتها الطبيعية كما هي سائرة الآن. وإن مقدرة النظام الرأسمالي على تحمل تبعة اخطائهِ من دون ان ينهار اقوى بواعث الامل على امكان تألّب القوى المعمرة لانتزاع الفوز من انياب الفشل

ثم انني ارى ان خروج بريطانيا عن قاعدة الذهب حادث خطير لم يتح لنا بعد ان نقدر الفائدة العظيمة التي تجنى منهُ. فانا اعتقد انهُ ينطوي على مغزًى مفيد في دائرة واسعة النطاق.

ولو ان بريطانيا تمكنت من الاحتفاظ بالذهب اساساً لعملتها، لكانت حالة العالم ابعث على اليأس، والافلاس اوسع انتشاراً. ذلك ان عمل بريطانيا اسفر عن نتيجتين خطيرتين. الاولى انهُ وضع حدًّا لهبوط اثمان العروض بالعملات المحلية المختلفة، في بلدان مترامية فوق سطح الكرة. اذكر اسماء البلدان المرتبطة بالجنيه الاسترليني بدلاً من الذهب تجد بينها استراليا والجزائر التي حولها والهند وسيلان ومالايا وافريقية الشرقية والغربية، ومصر والبلدان السكنديناوية — ثم هناك جنوب اميركا وكندا واليابان فانها مرتبطة بالاسترليني فعلاً ان لم يكن اسماً. وانك لا تجد في خارج اوربا الاّ الولايات المتحدة وجنوب افريقية بلاداً لا تزال عملتها على اساس الذهب. وليس بين الامم الكبيرة الاّ فرنسا والولايات المتحدة الاميركية حيث العيار الذهبي اساسٌ حرٌّ للمعاملات

والخروج عن قاعدة الذهب افضى الى تخفيف الضغط الناشيء عن ارتفاع سعر العملة وانخفاض سعر البضائع. ففي بلدان مترامية يحصل المنتج الآن على اسعار لبضاعتهِ — بعملتهِ

الخاصة ببلادهِ — اذا قيست بديونهِ ونفقات انتاجها لم تكن باعثة على السخط . وهذه الحوادث قريبة العهد لم تفز بالعناية الوافية بها بعدُ . وثمة بلدان كثيرة ، يصح ان نقول عنها ، انها من الوجهة المالية والاقتصادية قد اخذت ترتفع من الحضيض ، بعد خروج بريطانيا عن قاعدة الذهب . وهذا قول يصح على استراليا مثلاً . وعندي انهُ قد يصدق على الارجنتين والبرازيل . وقد تحسنت الحال في الهند تحسناً بادياً ، حيث خرج الذهب ، الذي كان مخبوءًا قبلاً بسبب غلاء الجنيه الاسترليني ، فساعد خروجه على حل المشكلة المالية فيها

اما بريطانيا نفسها فاننا ننسى غالباً التحول الكبير الذي تمَّ فيها بعد سبتمبر الماضي . وهذا التحول ان لم يكن تحسناً مطلقاً فانه نسبيٌّ على الاقل . فعمالها العاطلون عن العمل يقلّون الآن ٢٠٠٠٠٠ عامل عما كانوا عليه في سبتمبر الماضي — وليس هذا مما يصدق على اي بلد صناعي آخر . وقد تمَّ هذا رغماً من ارتفاع الاجور الفعلية وهو من بواعث التشجيع للمستقبل . فبريطانيا في الاعمال التي تمتاز بها اصبحت الآن ارخص منتج في العالم ، والقوى التي أُطلقت بخروج بريطانيا عن قاعدة الذهب جعلتها اكثر البلدان فلاحاً

ولكن ثمة نتيجة ثانية من انقسام امم الارض الى فريقين — الفريق الذي خرج عن قاعدة الذهب والآخر الذي لا يزال محتفظاً بها — فالفريق الثاني بما لهُ من الديون جعل يضغط على اسعار السندات فانخفضت فاتجه تيار الذهب اليه تسديداً لما لهُ من الديون . واما الفريق الاول فهو الذي كان متأثراً بهذا الضغط وكان الذهب يخرج منهُ متجهاً الى الاول . فخروج هذا الفريق عن قاعدة الذهب خطوة في سبيل اعادة التوازن الاقتصادي . وسوف يظهر أثره المباشر في فرنسا ، التي ينتظر ان تضعف مكانتها كأمة دائنة قبل آخر سنة ١٩٣٢ . واهم البواعث عليهِ هو — توقف المانيا عن دفع مال التعويضات ، وخسارة فرنسا من اموال السياح الذين كانوا يؤمونها من اميركا وانكلترا وغيرها ، وضعف تجارة الصادرات فيها ازاء البلدان التي خرجت عن قاعدة الذهب (لان بقاء فرنسا على قاعدة الذهب يجعل ثمن بضائعها في بلدٍ ما اغلى من ثمن البضائع الانكليزية) وازدياد مقادير الذهب في خزائنها

وقد لا يتمُّ الأثر نفسهُ في الولايات المتحدة الاميركية بمثل السرعة التي يتمُّ بها في فرنسا ، لان اموال السياح الاميركيين التي تخسرها فرنسا هي وفر في حساب اميركا . ولكن الاتجاه واحدٌ ، تمَّ عاجلاً او آجلا . ولا بدَّ ان يأتي يوم يعدل فيهِ الذهب الخارج من الهند والمستخرج من المناجم الذهب المخزون في فرنسا واميركا . وهكذا بدأت حركة قد تنتهي الى تعديل فعل « التقلص المالي » . والمسألة الآن « هل يتم ذلك قبل انهيار النظام المالي العالمي ؟ » فاذا تمَّ فالراجح ان السبيل يمهَّد لعمل مشترك ، وارجح ان يكون بزعامة بريطانيا ، غرضهُ توسيع نطاق رؤوس الاموال ورفع اثمان العروض في بلدان العالم . واذا لم يتمَّ فانني لا ارى الاَّ زوال نظام

« الكريدي » القائم الآن فيتلوهُ نظام جديد يقوم على اسس جديدة

وما يلي هو في رأيي تسلسل الحوادث التي قد تفضي الى الخروج من المأزق الذي نحن فيهِ — اسوقها من دون ان ابدي رأيي في احتمال حدوثها . قد تتلاشى الازمة قبل حدوث الانهيار ولعلَّ ذلك واقع الآن . ولعلنا اجتزنا اوعر الحوائل في بضعة الشهور التي انقضت . وفي الوقت نفسه يخفُّ الضغط التقلصي الذي تحدثه فرنسا والولايات المتحدة الاميركية بفعل ما لهما من الديون الخارجية ، اذ تقلُّ ديونهما بفعل القوى التي وصفتُ . وحينئذ ندخل طوراً تكون فيه النقود رخيصة . وهذه هي المرحلة التي كان يبدأ عندها الانتعاش في الازمات السابقة . على اني لست واثقاً من ان رخص النقود يكفي الآن ، لان صاحب المال ، وقد تبددت اوهامه في اثناء الازمة ، قد لا يرضى باقراضها الاَّ اذا أُعطي فائدة كبيرة لا يرجو المقترض ان يجني ربحاً يوازيها . فاذا حدث هذا فلا مناص من ان تطول الازمة وقد لا تنتهي الاَّ بتدخل الحكومات لتشجيع تثمير الاموال وتأييده

— ٣ —

ويجب ان نذكر أن الازمة التي نعانيها ليست ازمة « فقر » بل ازمة « كثرة وفيض » . ان ما نشكوه ليس سببهُ بخل الطبيعة وإنما كما بل هو ضعفنا وخطأنا في جني ثمار العلم والطبيعة التي تغدق علينا ثمارها . ان الاصوات التي تدعو الى ان سبيل الخلاص هو سبيل التوفير الدقيق والامتناع عن الانفاق لهي اصوات الحمق

ومن الواضح ان حل المشكلة الاقتصادية العالمية اليوم اصعب منهُ في السنة الماضية . ولكنني اعتقد اننا نستطيع الآن — كما كنت اعتقد حينئذٍ — الخروج من المأزق اذا اخذنا زمامنا بايدينا . فالحوائل دون الانتعاش ليست حوائل مادية . بل هي قائمة في معرفة اولي الحل والربط وأحكامهم ، ومن نكد الحياة ان معتقداتهم نشأت من خبرتهم في احوال ماضية لا تماثل قط احوالنا الآن . ففي فرنسا نجد اتجاه الشعب والحكومة مناقضاً لمنطق الآراء والحوادث الذي بسطتُ . وفي الولايات المتحدة يتحتم على المشتغل بالشؤون العامة ان يقول لغواً كثيراً للاحتفاظ بمكانته العامة . اما في بريطانيا فعندي ان آراء رجال البنوك اسلم وانما الامر الذي نخافهُ في لندن هو الاحجام عن التصرف تصرفاً جريئاً

وليس اجدى على حسن المصير الاقتصادي من ان تتقدم الولايات المتحدة الاميركية صفوف الامم بحلّ مشكلاتها الخاصة فيكون ذلك باعثاً ومثلاً للامم الاخرى . ولكنني والحق يقال لست ارى في المستقبل القريب ما يجعل انتعاش الصناعة الاميركية محتملاً . بل ارى ان الولايات المتحدة سوف تقتفي اثر غيرها . ولذلك أجرؤ فآمل أن الانتعاش سوف يبدأ في بريطانيا والبلدان التي ترى في بريطانيا مركزاً للزعامة المالية . انهُ شعاع ضئيل من الامل . ولكن النور الذي أتبينهُ في النواحي الاخرى أضأل



القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

مصير الاسرة الشرقية

﴿ الاسرة ﴾ : يطلق الغربيون كلمة (فاميليا) على الاسرة وهي كلمة رومانية انتقلت الى اللغات الاوربية الحاضرة بلفظها ، واصل اشتقاقها من كلمة (فامل) بمعنى الرقيق او المتملك الذليل الذي يمتلكه السيد ، ويدل هذا الاشتقاق الوضيع على معناها في الازمنة الخالية ، ثم شملت فيما بعد غير ذلك من الممتلكات المنزلية في الاشياء والاشخاص ، ففي الشريعة الخامسة من شرائع الالواح الاثني عشر الرومانية التي وضعت في القرن الخامس قبل المسيح ان الرجل اذا مات من غير وصية يوصي بها ولم يكن له وارث شرعي فان اقرب المتصلين به باواصر القرابة العصبية — من جهة الذكور فقط — يرث (الفاميليا) التي يخلفها من بعده وهي الثروة «العائلية» بانواعها في الاشخاص والاشياء

وقد لا تختلف هذه النظرة كثيراً عن نظرة العرب في الجاهلية اذ كان الميت يورّث من بعده الاشياء والاشخاص معاً حتى امرأته فيحل لابنائه من غيرها ان يتزوجوها كما اسلفنا

وان لهذه النظرة الابتدائية الى المرأة بانها سلعة اقتصادية اشباهاً ونظائر في الاقوام المتوحشة ، وعندنا ان المساومة على المهور في الشعوب التي قطعت شوطاً في المدنية بعيداً هي من بقايا هذه النظرة الابتدائية الحقيرة . ويمكننا ان نضع قاعدة عامة فحواها ان الوسط الذي يبنى فيه الزواج من الاساس على مقياس الفائدة الاقتصادية هو وسط ابتدائي في الروح المخيمة عليه ولو كان في حواضر البلدان الغربية في اوربا واميركا

ومما نورده في هذا الباب عن القبائل المتوحشة ونظرتها الى المرأة والزواج نظرة اقتصادية بحتاً ما حدثنا به صديقنا الفاضل الدكتور راجي خباز عن قبيلة (الدنكا) — وهي قبيلة منتشرة في الاصقاع من اعالي النيل الى بحر الغزال — فقد قال ان الزواج بين افرادها يجري من غير شيء من الشعائر سوى الرقص والغناء ويتم باتفاق اهل المخطوبة مع الخاطب على المهر وهو من البقر دائماً ، لان البقرة هي مقياس النقد عندهم . والاساس في الزواج هو استيلاد الاولاد لاستخدامهم في مصالح الزوج الاقتصادية . وكثيراً ما استولد الرجل العاقر امرأته من رجل آخر على طريقة زواج الاستبضاع في الجاهلية فان لم تلد بهذه العارية حق له ان يعيدها

الى اهلها ويسترد مهرها من البقر ولو بعد عشرين سنة . والبقرة المؤداة مهراً تبقى في مثل هذه الحال وقفاً على الزوج ينتفع بها فما ولدته يكون لهُ وما مات يكون عليهِ . لكن هذا الحق الموقوف يسقط حالما تلد الزوجة ولداً ، كأن المولود الجديد يعادل البقرة في الاعتبار الاقتصادي

ومن عادة (الدنكا) ان الزوجة اذا ماتت في اثناء الولادة وهي بكرية تعد زانية زنى بها احد اهلها ، وتذكر وهي تلد جميع من اتصلوا بها فمن صادف اسمه نزول المولود يكون اباه حتماً ، ولكن مع ذلك لا يحق له ان يدعيه بل يبقى للزوج صاحب البقر فكأن الزوج والحالة هذه قد ادى قيمة البضاعة — (على بوليصة الشحن) — فصارت ملكه ولا عبرة بالذي صنعها. واذا كان لرجل ابنة غير متزوجة فولدت ولداً فان هذا المولود يكون ملكاً لهُ — لا لأنهُ جده لامه بل لانهُ امهر جدته بقراً حين تزوجها ، فالحفيد مملوك بحق البقر لا بحق القرابة ! واذا اشتكى زوج من زوجة انها زنت برجل حق له ان يقاضيه ويأخذ منهُ بقرة ثمن الزنا ، ويتكرر هذا الحق بتكرر العمل المنكر مرتين او ثلاثاً ثم يزول اذ تصبح المرأة مومساً . والدنكيون مقتيون — يتزوجون نساء آبائهم من بعدهم — ولكن مع كل هذه الاوضاع الاقتصادية الابتدائية فهنالك من حين الى آخر زواج قائم على الحب المتبادل والهرب الى الاقطار البعيدة فراراً من ضريبة البقر

﴿ الانقلابات الاقتصادية الحديثة وتأثيرها في الاسرة ﴾ : ذكرنا بشيء من التفصيل العامل الاقتصادي في الشؤون الزوجية وعرضنا للمتوحشين لان مجتمعهم بسيط وذو فائدة في فهم المجتمع المدني المعقد ونزيد على ذلك ان الاسرة بقيت الى زمن قريب في جميع انحاء العالم وحدة اقتصادية من الطراز الاول ففيها كانت تصنع الغزول والانوال وانواع الحياكة والادوات الزراعية وغير ذلك من الآلات . هذا كان حال اوربا واميركا في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ولا يزال في كثير من أنحاء الشرق . بل ان المصنوعات البيتية في يومنا هذا ربما بلغت ملايين الريالات في الولايات المتحدة، الا ان التطورات الخطيرة التي اصابت الغربيين في شؤونهم في السنين الخمسين الاخيرة احدثت انقلاباً عظيماً في حياتهم « العائلية » وتهدد هذه التطورات الوحدة البيتية من اساسها على الرغم من جميع المواعظ والخطب والعقائد التي استحكمت في نفوس البشر الوف السنين ، لان اشتراك المرأة الغربية في الصناعة وسعيها لاكتساب المال بالاعمال ونزولها الى حلقة الصراع في المشروعات الخاصة والعامة وطرقها ابواب الحكومات والشركات للتوظف كل ذلك اعطاها من قوة الاستغناء ما جعل ارتباطها بالاسرة اختيارياً وتعلقها بالرجل « كيفياً » حتى اصبحت البيوت كما قال احد الاساتذة عبارة عن مساكن او (بنسيونات) يؤمها الناس فيؤدي كل واحد منهم قسطه من المصروف ويحيا حياة مستقلة . واذا كانت المرأة من الوجهة الحيوية مخلوقاً يحمل ويلد الاولاد ومن الوجهة النفسية والاجتماعية معلماً في روضة الاطفال ومعلماً في الدروس الابتدائية فمن ادعى دواعي الاسف

ان تصبح هذه الوظائف الكبيرة في اوربا وأمريكا مهددة من الاساس لان المنازل هناك لم تعد مساكن السواد من النساء بل مساكنهن المعامل والمصانع والمكاتب والحوانيت ودوائر الحكومات . فهل تبلغ الحاجة الاقتصادية في العالم العربي يا ترى مبلغاً تضطر معهُ المرأة الى هجر بيتها في طلب الرزق كما تفعل زميلتها الغربية ام يبقى لديها متسع تحافظ فيه على القيام بوظائفها الطبيعية التي خلقت في بدنها منذ ظهر هذا المخلوق الذي ندعوه بشراً على ظهر الارض ؟ هذا سؤال يتوقف الجواب عنهُ على سير المدنية في العالم العربي في المستقبل وهل يكون هذا السير طبق المدنية الغربية ام سيراً خاصاً له ميزاته القومية وتقاليده الوطنية . ولا مراء ان السيدة الشرقية ستبقى الى زمن بعيدٍ امرأة وان كثرت بيننا النساء المترجلات او المحترفات وصاحبات المهن ذلك لان نتيجة الصدام بين الحضارتين الشرقية والغربية هي مثل سائر انواع الصدام بين القديم والحديث حضارة معتدلة بين الاثنتين او تسوية وسط في الشؤون التي تتناول جواهر الحياة — اما اذا كانت هذه الشؤون جوهرية فالتقليد والمجاراة امر لا مفرَّ منهُ . يعني ان الانقلاب الاقتصادي الحاضر اذا كان من لوازمه الضرورية المبرمة نزول المرأة الى حلبة العمل الخارجية وهذا ما لا نؤمن بهِ — فلا مفرَّ لنسائنا من المجاراة وتكييف النفس والاَّ فالحكم قاس يتعلق بالبقاء او الانقراض ولا ثالث لهما

وقد دل الاحصاء في العالم الغربي على العمل العظيم الذي تضطلع بهِ المرأة في الاقتصاديات ففي الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٠ مثلاً كان اكثر من خمسة عشر في المائة ممن يتناولون الاجور في المصانع والاعمال الميكانيكية نساء فوق العاشرة من العمر . اما نحن وقد نشأنا في بلاد وسيعة لم تبلغ المزاحمة الاقتصادية فيها ما بلغته في ديار الغرب فنشك كثيراً في الربح الذي يجنيه المجتمع من خروج المرأة عما خلقت له ، واذا كنا من اكبر انصار تحرير المرأة — وقد حررناها في بيوتنا فعلاً في اعصب الاوقات وحاربنا استعبادها كما نحارب اقسى انواع الظلم والاستعمار — فهذا لا يمنع ان نكون من القائلين بأن الطبيعة حكمت على المرأة وعلى الرجل بتقسيم الاعمال ووسمت كل منهما بوسم خاص للدلالة على هذا التقسيم ، لذلك ترى في موقفنا الحاضر الميسور ان قطرة من اللبن تدرّ مع الحنان من ثدي المرأة في فم رضيعها خير من كومة من الابريز تجمعها لتثبت بها احتقارها للاسرة واستغناءها عن الرجل . وارجو الاَّ يستنتج القارىء من كلامي هذا انني عدو عمل النساء في جميع الاحوال بل ارى ان العمل الذي يقوم بأود البنت فيحول دون تهافتها على اول عريس تلقاه خير من بقائها كلاًّ على عاتق اهلها بحيث تعرض في سوق الزواج بأرخص الاسعار

اننا نريد ان يعمل النساء ولكن في الحدود المستبانة من روح كلامنا وفي المنطقة التي تميها لهن الخلقة والطبيعة . والقاعدة التي يمكن الركون اليها في هذا الصدد هي ان يكون

عمل المرأة الخارجي هو لدفع الحاجة اكثر منهُ لجلب الثروة . ولا مراء في ان اشتراك النساء في كثير من الاعمال التي اختصت بالرجل قد خيّب آمال اشد الناس اندفاعاً في تأييد هذا الاشتراك والدعوة اليهِ ، فقد يخضن غمار السياسة ويمارسن حقوق الانتخاب مثلاً ولكن رأي معظمهن عند التصويت قد يبنى على مظاهر لا تهم الدولة ولا تروق الرجال المدربين . ومن افظع الكوارث التي تنصبُّ على رأس المجتمع البشري ان يتخنث الرجل وتترجل المرأة

﴿ تولد الميزات العقلية الاجتماعية في الاسرة ﴾ : من اعظم الحجج التي يدلي بها علماء الاجتماع على وجوب الاحتفاظ بالاسرة ونظامها هي الميزات العقلية الاجتماعية التي يكتسبها الابناء في حجر ابويهم وبين اخوتهم واخواتهم . فالبيت مدرسة نفسية من الطراز الاول يتعلم فيها النشء الحب والتعاون والايثار والصبر وكبح جماح النفس بالطرق العملية فتتولد في افراده الارادة ورباطة الحزم وهذه كلها صفات عقلية يبنى عليها المجتمع وزوالها يذهب بجميع تلك الخصائص التي ميزت الجمعية البشرية عن قطيع من السائمة « وفن المعيشة المشتركة بالوئام والاستفادة هو فن اساسه الحب الناشيء عن الوحدة العائلية »

﴿ تحرير الافكار واثره في الروابط العائلية ﴾ : لقد انسابت عوامل تحرير الافكار الى جميع الطبقات ودخلت معظم البيوت حتى البيوت التي تنقاد للطريقة القديمة حيث يطبع الابناء بطابع الوالد المبجّل عادة ويسيرون على سننهِ في كل شيء فغيرت هذه العوامل هذا الطابع العقلي او القالب الروحي ولم يعد الشذوذ عن سيرة الوالد في السياسة والافكار انشقاقاً يستحق صاحبه الجزاء والاضطهاد . ولا سلطة اليوم في ديار الغرب لوالد على ولده في النحلة والفكرة والمذهب السياسي الا ما كان بسبيل البرهان والاقناع والاتفاق

وغني عن البيان ان مثل هذا التحول يقوي الفردية الاجتماعية الغالية متى كان سليماً ومبنيًّا على قواعد التربية الحرة ، ولا خوف منهُ على كيان الاسرة بل الواجب ان يشجع الى درجة معقولة ، ذلك لان الجمود مرض عضال والسير في الحياة اجيالاً متتابعة على نمط واحد يحول دون الارتقاء . وقد تغيرت نظرات الناس في السياسة والعقيدة والتهذيب منذ جيل الى اليوم تغيراً كليًّا حتى صارت الصدمات القاسية التي كان يلاقيها بعض زعماء الاصلاح امثال الشيخ طاهر الجزائري في سورية وشكري افندي الالوسي في العراق والشيخ محمد عبده او قاسم بك امين في مصر اشبه في نظرنا بمداعبات ومهاترات منها بمواقف جدية ذلك لان الرأي العام اخذ في الاختمار وصار الطعن في الرجال للعقائد التي يدينون بها عن اخلاص سمجاً تأنفه النفوس . بل لا نخطيء اذا قلنا ان القضية انعكست وصار الاستسلام الاعمى للعقائد والنظريات التي درج عليها الآباء والجدود من غير تمحيص علمي عيباً يتجنبهُ النابهون . ومن اهم التطورات الفكرية التي استجدت في ميدان العلم الا يقبل الباحث رأياً من غير ان يعرضه لمطارق الشك

واذا نام المتقدمون على راحة اليقين فقد صحونا نحن على تعب الشك لكن هذا الشك قد ادى الى ما نراه من الانقلاب الخطير في العلوم المادية والمعنوية

﴿هل نتبع الغرب في تصغير الاسرة﴾ : ان الضرورات الاقتصادية الحديثة حكمت على الغربيين بتصغير اسرتهم اذ عرفوا ان الاولاد الكثيرين الذين ينشأون في بيت معوز وينحشرون في غرف ضيقة ولا يحصلون على غير الكفاف من العيش والراحة والنزهة هم اضعف من ولد واحد او ولدين اثنين يترعرعان في رخاء ويتمتعان من عناية الابوين بالقسط الوافر مادة ومعنى . واذا نحن لم ننكر ان العادات الاجتماعية الطبيعية تُضْمن الضمان الكافي في الاسرة الكبيرة حيث ينمو الاطفال في بيئة تتناسب مع مداركهم وتدرجهم في المشاعر والعواطف والاختيار وهم بعيدون عن الاختلاط الدائم بالمراهقين والبالغين الا ان الاضرار التي تصيبهم من العسر وقلة ذات اليد تربي كثيراً على هذه الفضائل الاجتماعية . وقد لاحظ اهل التتبع ان الميل الى تصغير الاسرة في ديار الغرب سار كتفاً الى كتف مع تناقص الاراضي الزراعية وضيق ميادين العمل . اما الناس في عالمنا العربي فلا تزال هذه الاراضي متسعة امامهم في كثير من الاقطار كبلاد العراق مثلاً حيث يوجد نحو ١٣ مليون فدان لاربعة ملايين من السكان والديار الشامية حيث عشر الارض فقط (او نحو ستة آلاف ميل مربع) يستثمر بالطرق الزراعية . اما مصر ففيها نحو سبعة ملايين فدان لخمسة عشر مليوناً من الاهلين وهذا يقضي بشيء من الاشراف على المواليد وضبطها وتحديدها في القريب العاجل هذا اذا شاء ابناء وادي النيل ان يحسنوا النسل في النوع لا في المقدار

وقد لوحظ ان هنالك عوامل متعددة هي السبب في صغر الاسرة في بلدان الغرب منها التأخر في سن الزواج وتحديد المواليد وانتشار الامراض المعقمة وغير ذلك من العوامل . ففي كتاب للدكتور (مورو) عنوانه « الامراض الاجتماعية والاسرة » ان خمساً وسبعين في المائة من العمليات الجراحية التي تعمل للنساء وثمانين في المائة من جميع الوفيات الناشئة عن الالتهابات الخاصة بهن هي مسببة عن العدوى التناسلية . وعنده ان خمسين في المائة من النساء المصابة بالامراض التناسلية تصبح عقيمة وان معظم الزواج العاقر ليس اختياراً بل اضطراراً بسبب الامراض . وعلاوة على ذلك فالمشروبات الروحية — عند كثير من علماء الطب — متى استحكمت في الآباء اضعفت النسل وانقصته ، يدلنا على ذلك ما قام به الدكتور (هدج) من التجارب التي اجراها على الكلاب اذ وجد أن ثلاثة وعشرين جرواً نزلت من صلب كلبين ابوين اسقيا الخمر لم يعش منها غير سبعة عشر في المائة في حين عاش تسعون في المائة من خمسة واربعين جرواً من ابوين لم يذوقا طعم الراح

ثم اننا لا يهمنا عدد المواليد بقدر ما تهمنا الطاقة على تربيتهم والعناية بهم . وقد ثبت ان اشتغال المرأة المتزوجة في المعامل يقلل من هذه العناية ويدعو الى هلاك الكثير منهم .

وقد اجرى الدكتور (جورج ريد) وهو طبيب مقاطعة (ستفوردشير) في انكلترا احصاء في هذا الصدد فتبيّن له ان الوفيات في الاطفال دون السنة الواحدة من العمر في ست مدن من مدن الخزافين هي ١٤٦ في كل الف من مواليد النساء اللاتي تلازمن بيوتهن في حين ان الوفيات تبلغ ٢٠٩ عند النساء المشتغلات في المعامل واللاتي تغادرن دورهن في النهار . لكن الدكتور (جورج روبرتس) طبيب الصحة في (برمنجهام) وجد ان سوء الحال الناتج عن الفقر في الاسرة هو اشد فتكاً في الاطفال من اشتغال الامهات خارج الدور . واما في اميركا فقد دلّ الاحصاء في مقاطعة (فول ريفر) من ولاية (ماساشوستس) على ان وفيات الاطفال بسبب الاسهال والتهاب المعدة والامعاء في البيوت التي تشتغل نساؤها في المعامل تزيد ثمانين في المائة على الوفيات في البيوت التي تلازمها نساؤها ، اضف الى ذلك ان هذه البيوت هي اقوم نظاماً ورجالها اعدل مزاجاً وابناؤها اقوى بنية وعلائقها الزوجية احكم ارتباطاً

على ان واجب الاحاطة بالموضوع يقضي علينا بالاشارة الى ان انصار اشتراك المرأة في الاعمال يدّعون ان الضرر اللاحق بالاطفال ليس ناشئاً عن اشتغال المرأة بل عن سبب آخر هو الفقر وان المرأة لولا فقر زوجها ما اضطرت الى الخروج من بيتها في طلب الرزق ، وخلاصة مذهبهم « ان النساء يستطعن العمل في جميع الميادين الصناعية الحاضرة مع الاحتفاظ ليس بمقياس صحتهن فقط بل برفع هذا المقياس ايضاً ، غير ان الواجب يقضي بأن تكون العمارات التي يشتغلن فيها صحية ومبنية على الاصول الفنية وان يعلّمن هن ومن يستخدمهن في الاعمال قواعد الصحة العملية البسيطة »

ولا مراء ان اهم الاسباب في نقص المواليد هي ارادة الآباء والامهات اما لعجزهم عن اعالة الاولاد او لانصراف الوالد الى المناصب والاعمال ورغبة الوالدة في تحقيق اللذائذ والمسرات بحيث يريان الاولاد عقبة في سبيلهما وان توفر المال لديهما وهذا الامر شائع في الغرب دون الشرق — حتى الآن

واما ما يقال عن ضعف بعض الاقوام وانحلال قوتهم الايلادية وسيرهم في طريق العقم كما هو حال الفرنسيين مثلاً فهو موضوع دقيق يتطلب بحثاً احصائياً لا يتسع له هذا المقال ، ومما هو ثابت ان الوسائل الصحية الحاضرة والعناية بالمرضى والمتعبين واصحاب العاهات كل ذلك مكّن الملايين من البشر ان يعيشوا ويتزاوجوا ويتوالدوا مع انهم لو تركوا وشأنهم لقضى عليهم الموت من غير شفقة ولا رحمة . وهكذا نرى ان وسائل المجتمع العلمية قد حالت دون تنفيذ قانون الانتخاب الطبيعي وتطبيق بقاء الانسب . ومن يدري ان بعض الاقوام قد صرفت من قواها الحيوية واستنزفت من مخزوناتها الاستنتاجية ورأس مالها القومي ما اوصلها الى درجة التوقف والانحلال شأن تلك الاجناس البيولوجية الاثرية الكبرى التي انقرضت ولم تترك من عظمتها الا هياكلها العظيمة بين طبقات الغبراء وتحت سطح الماء

ميزة الحضارة الغربية

للاستاذ سامي الجريديني

ميزة المدنية الغربية النظام والحرية — النظام المستمد من القانون او من الشريعة ، والخضوع لهذا النظام او لهذه الشريعة باعتبار انها تمثل ارادة الهيئة الاجتماعية وضميرها وباعتبار ان في الخضوع لها مصلحة الفرد والجمعية . ويفقد النظام مزيته وتفقد الشريعة قيمتها اذا كان الخضوع لها على اعتبار انها ارادة قوة لا ترد ارضية كانت هذه القوة ام سماوية

فالشريعة وهو ما يعبرون عنه بكلمة (Loi أو Law) ليست مشيئة القوي بل محاولة الوصول الى العدل ولذا كان من اركان بنيانها أن تنشأ وتنمو وتتكيف وتتغير حتى تبلغ اسمى مطامح الانسان الادبية

ولم تكن الحضارة الغربية قبل خضوعها لمدنية اليونان والرومان واتخاذها هذه الحضارة طعاماً تمثلته ثم هذبته ورقته على هذا المبدأ في تفهم الشريعة بل كانت مثل الحضارات الشرقية تقدس الشريعة على انها ارادة واحد قهار لا على انها عدل وعلى انها لا تتغير الا بمشيئة السيد وما مشيئته الا حاجة في نفسه إن كان ارضياً أو احجية لا تفسر ان كان سماوياً

ومن صفات الشريعة أو النظام انها وليدة الخلق وليس الخلق ناشئاً عنها . فالقانون — أو الشريعة — أو النظام أو الناموس يجب أن يكون معبراً عما في ضمير الجمعية من خلق رفيع . فالخطيئة ليست في انتهاك القانون بل في انتهاك المبدإ الادبي الذي نشأ القانون منهُ . ولذا وجب أن يكون الناموس متغيراً متبدلاً مترقياً ماشياً وراء رقي الاخلاق السامية . لأن اخلاق البشر ابتدأت سافلة وأخذت ترتقي مع الزمن والتكيف بالوسط

إذا نظرنا الى الشريعة بهذا المنظار تبين لنا السر في ان الرجل الكريم هو الرجل الذي يخضع للقانون ويساعد على اطاعتهِ ليس لأن تنفيذه منوط بالشرطة بل لأنه يرى في تنفيذه كرامته فيملكه الشرط أو الوعد سواء أكان مكتوباً أم نطقت بهِ شفتاه . فالعهد الادبي يجب أن يسبق العهد المادي

ويترتب على هذا المبدإ مبدأ آخر هو النظر الى الشريعة كوسيلة للخير العام لا كأمر من ذي سلطان . ومن ثمَّ يتعين على كل أحد أن يحوطها بعنايته ويحافظ على تنفيذها لا أن يتملص من قيودها وينظر اليها نظر عدو

فالمدنية الغربية في أرقى مظاهرها تفرض في شعب متمدين أن يعم كل أفراده شعور لا بإطاعة القانون فحسب بل بالرضا به وبالمساعدة على تنفيذه واحترامه بحيث صار يُعَدّ الشعب متمديناً متى كانت افراده ينظرون الى القانون نظرهم الى أداة وضعوها هم لفائدتهم وان في احترامها وفي المساعدة على تنفيذها عائدة خير للفرد وللجمعية . فقياس المدنية الحقة في الفرد هو في تضامنه مع الحكومة في العمل بالقانون لا بالمساعدة على التملص من قيوده . فمن ساعد مجرماً على الافلات من حكم القانون ليس خليقاً بأن يكون عضواً في جمعية ذات حضارة حقيقية ، وواجبهُ ازاء القانون واجب الشرطي حذوك النعل بالنعل. ولذا ترى في الشعوب التي لم تضرب بقسط وافر في الحضارة ميلاً الى الهروب من القانون وسروراً بل اعجاباً اذا رأوا المجرم يقاوم الحكومة ولا تجدهم يطيعون القانون الا رهبة من عقاب او طمعاً في ثواب

وهناك مبدأ آخر يستمَدّ من مركز النظام في الحضارة هو أن الجمعية التي يجب أن يكون النظام لفائدتها الحق في أن تضعهُ هي لنفسها

لأنه اذا كان الاصل في الناموس أن يتكيف حتى يطابق ضمير الجمعية وأن يكون لفائدة الجمعية فلقد صار لافراد هذه الجمعية أو لخيارهم الحق كل الحق في أن يتولوا أمره بأيديهم ، وها نحن نرى الآن كل أعضاء اسرة الحضارة الغربية يقدسون هذا الحق ويستعملونه على اختلاف فى الشكل افضى الى اختلاف في أنواع الحكومات

وقد يختلف رأي بعض الناس فى صحة هذه النظرية ويشكّون في هل كان من الاصلح والاجدر أن يتولى الشعب امر التقنين أو أن يتركه لسواه ولكن ما لا شك فيهِ هو ان الحضارة الغربية قد اقرّت المبدأ وأخذت بهِ إن خيراً أو شرًّا فصار ميزة من ميزاتها

* * *

فالنظام أو الشريعة أو القانون الذي جعلناه ركناً من أركان الحضارة الغربية جُعِل لفائدة المجموع لا لفائدة الفرد . وانه في أرقى درجاته محاولة تطبيق المبادىء الخلقية السامية فيكون نتيجة الاخلاق لا سببها . وانه آلة متغيرة متكيفة غرضها مطمح أدبي عالٍ . وانه على كل أحد أن يطيع هذا النظام وأن يساعد على تنفيذه . وأن حقّ وضعهِ وتغييره من حقوق المجموع لا من حقوق الفرد مهما كانت سلطتهُ

هذا معنى النظام في عرف الحضارة الغربية وهو أول ميزات هذه الحضارة

* * *

أما الركن الثاني فهو الحرية وهو ثانٍ فى الترتيب ولكنه أول فى خطورة الشأن

الايمان بالحرية فخر من مفاخر الحضارة الغربية لم تشاركها فيهِ الحضارات الاخرى ما تقدم منها وما تأخر

وما هي الحرية ؟ إنها تستعصى على التفسير وتكبر عن أن تحد فهي روح حية لا كلمة أو حرف ميتٌ ولذا استحال على الناس تعريفها ويستحيل علينا تحديدها فنكتفي بأن نذكرها ونقول إنها عقيدة ترسخ في نفس الفرد او الجماعة على أن لا تهتدى الا بهدى النور الداخلي المنبعث من وجدانها فتكيف عقلها وضميرها وكل طرق معايشها على هدى هذا النور

على اننا اذا بحثنا في تفسير هدى هذا النور فقد نستطيع القول بأن آثار الحرية تظهر في امور ثلاثة :

اول هذه المظاهر حرية الضمير او حرية العقيدة وهي هذا الحق الذي يجعلك تحكّم مبادئك الادبية السامية في أعمالك ضارباً صفحاً عما يفرضهُ القانون أو ينص عليهِ العرف او يقضي بهِ الرأي العام

هذه هي الحرية التي خلقت الانبياء فجعلتهم وهم بشرٌ يعيشون في وسطٍ يخالفهم، أن يقوموا على هذا الوسط فغيروا من عقيدته وبدلوا من افكاره وفكوا عنهُ ربط القديم. وهي هي التي جعلت من جاء بعدهم يشكون فيما وضع للعالم من تعليم ونظام فحادوا عما رسم وساروا طريقاً يختلف عما عبّده لهم هؤلاء الانبياء .ولكنهُ دليل على انهم يهتدون بهدى الانبياء نفسه هدى الحرية اذ يحكمون الضمير لا التعليم والروح لا الحرف

فلو اكتفى البشر بحرية رجل عظيم قام ووضع لهم نظاماً وظلّوا دهرهم عليه لما كانت للحرية معنى اذ تقف وتجمد ويصبح النظام الذي كان نافعاً في بدء وضعه عقيماً ميتاً اذا لم تتعهده حريات أخرى بتبديل وتغيير وتكييف . فعلى حرية الضمير قامت عبادة الاصنام وعبادة الحيوان . وعبادة أرباب متفرقين الى عبادة واحد قهار أو رحيم. وحرية الضمير هي التى تمكن بعض الناس ألا يعبدوا لا أولئك ولا هؤلاء وألا يرضوا أن يبيّن لهم غيرهم ما يعبدون وما لا يعبدون

لقد اطلقت المدنية الغربية هذه الحرية من عقالها بعد جهاد طويل ملأ التاريخ ناراً ودماً فصرنا الآن وهي ركن من اعظم اركانها

***

وثاني هذه المظاهر حرية الفكر وهي هذا الحق الذي يجعلك تحكم عقلك فيما يقع تحت حواسك أو فوق حواسك فلا تعبأ بما قررته التقاليد أو ما سار عليهِ الجمهور . فحرية الفكر خلقت العلم وما اوجده العلم من نور وما هيأهُ من سعادة عقلية ومادية. وحرية الفكر أطلقت العقل من عقاله فاستكشف اسرار الطبيعة وسخرها لخدمته ولهنائته . وحرية الفكر تسيّر ابن آدم في طريق جديد لا يعرف له اول ولا يدرك له آخر

ولا نستطيع أن نميز تمييزاً قاطعاً محدوداً بين حرية الفكر وحرية الضمير فإننا لا نعرف اين تنتهي الواحدة وتبتدىء الاخرى لاننا نراهما متصلتين ابداً آخذة هذه برقبة تلك

* * *

وثالث هذه المظاهر الحرية السياسية وهي وليدة الظاهرتين السابقتين ولكنها اكثر منهما أثراً للعين لارتباطها بحياة الانسان الاجتماعية من كل وجوهها

فالحرية السياسية هي خلعُ نير السلطة المستبدة والحقُّ في التشريع . هذان الاساسان كوناها وعليهما قامت ونمت وظهرت بمظهرها الرائع في الحضارة الغربية في هذه الايام

أجل الطرف في تاريخ الشرق واقرأ بانعام فلسفة حضاراته تجدها بعيدة عن الحرية التي فسرناها لك بعداً شاسعاً . فكأن الروح الشرقية موحدة لا غير والتوحيد يفرض اجتماع كل الصفات في شيء واحد ومنها السلطة المدنية ومتى تم لكائن واحد ان يجمع السلطان في شخصه سار حتماً الى الاستبداد فالى انتزاع الحرية من الجمهور

وان الحضارة التي لا تقوم على الحرية لحضارة مادية يابسة لا تلبث ان تموت عاقراً . فقد تزهو في وقت معلوم لغرض معلوم ثم تنظر فاذا بها كأن لم تغن بالامس . فالحضارات في الشرق — دع عنك الحضارات الاسلامية في أرق مظاهرها — تركت لنا الاهرام وتركت الابراج وخلفت الهياكل والمقابر وقد تكون قد وضعت مبادىء الهندسة أو الفلك ولكنها لم تترك لنا روحاً حية ميراثاً للابناء عن الآباء . انها ابقت آثاراً مادية قد تبقى على الدهور ولكنها تركت شعوباً يتلقفها الفاتحون غاز في أثر غاز . ذلك ان المادة شيء والروح شيء آخر

وان الحضارة التي لا تخلف في تركتها روحاً حية وتجمع كل ثروة العالم المادية لحضارة فقيرة جد الفقر

* * *

قد يرى القارىء تضارباً في وصفنا المدنية الغربية بالنظام والحرية وهما ركنان يتناقضان كثيراً اما نحن فنقول ان سر هذه الحضارة هو في اجتماع هذين النقيضين . فان الجهاد لنيل الحرية يجعل النظام حيًّا متغيراً متكيفاً كما ان حب النظام يحفظ هذه الحرية من التدهور الى الفوضى . على انهما ليسا بنقيضين بالمعنى الصحيح بل حالتي نفس متمدينة متمكنة من شعب اخذ امره بيده

وإننا نرى أن للمدنية الغربية ميزة أخرى قد تكون وليدة الركنين اللذين شرحنا ظاهراتهما ولكنها بارزة بروزاً جديرٌ بان نحلها محلاً منفصلاً عن ذينك الركنين ، تلك ميزة الاندماج والتكيف

فالمدنية الغربية لم تنتبذ لها مكاناً قصيًّا عن بقية المدنيات بل اخذت عن سواها وامتصت وتمثلت ما اخذته وهي لا تزال تتطور شأن كل مخلوق حي

والشعوب المتحضرة بالحضارة الغربية ليست إلا نسلاً خليطاً قوام نسبه الاندماج بسواه

والتطور مع هذا السوى . وانهُ ليجدر بنا أن نتفهم هذا الخلق تفهماً حقاً . فرحابة الصدر في الشعوب وحب الاختلاط وازالة ما يمنع الاندماج خير ما يتاح لشعب يرغب في حياة خليقة بهذا التمدن

هذه الروح خلقت الامة الانكليزية وخلقت امة اعظم هي الامة الاميركية بل هي ام القوميات الاوربية كلها

ولكننا لم نعبأ بها في الشرق . فالترك مثلاً حكموا دهوراً على غير هذه القاعدة وكم يكون ملكهم عظيماً لو أدمجوا الارمن أو العرب أو الروم واندمجوا بهم اذاً لكانت هناك قومية تركية ولكنهم كانوا إلى العصبية أميل : الدينية ساعة والجنسية ساعة أخرى

بل انظر الى تلاميذهم من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين وعراقيين ومصريين تر روح الانزواء ظاهرة ظهوراً فاضحاً . فاللبناني يغضب اذا جاوره ارمني وأحب أن يدخل قوميته والفلسطيني تقوم قيامته اذ يرى الحضارة الحالية تنصف اليهود وتعدهم بشراً لهم ما لجميع البشر من حقوق في آمال ومطامح

كل هذه آيات تدلك على ان الشرقي بعيد عن الفكرة السخية في تكوين القوميات القائمة عليها الحضارة الحالية

ولهذا الخلق الذي نحن بهِ متخلقون اسباب شتى ليس في المقام متسع لبحثها ولكنها مهما تعددت الاسباب فالاشياء بنتائجها والنتيجة المتحصلة من تاريخ حياتنا السياسية والاجتماعية لا تتفق مع ما قدمنا من ميزات الحضارة الغربية

وليس معنى ذلك اننا اقوام لا نليق بشخصيات دولة مستقلة . لا ، وليس معنى ذلك اننا لن نكون اصحاب سطوة ونفوذ دولي او اصحاب حكومات توافق اخلاقنا فنعيش دنيانا عيشة راضية . لا ، بل معنى ذلك اننا بعيدون بعداً غير شاسع في بعض الاحيان وشاسعاً في بعضها عن الحضارة الغربية الحقيقية المتسلطة على العالم الآن

وقد يكون في هذا البعد السعادة عند بعضنا او الشقاء عند البعض الآخر فهذا ليس في بحثنا وليس الذي نقصد اليهِ . انما نقصد ان نبين اننا قد أخذنا كثيراً من اساليب الحضارة الغربية فنقلنا الكثير من قوانينها ومن طرق معايشها ومن دساتير حكوماتها فهل نقلنا مثل ذلك من الاسس التي قامت عليها عندهم هذه الدساتير والقوانين وطرق المعايش ، وأهمها أساس القومية كما شرحناه في كل ما تقدم ؟ هذه هي النكتة ، أو على رأي شكسبير هذا هو السؤال

إننا نخشى أن نكون قد شرعنا في البناء على غير أساس متين فأخذنا في هندسة البناء الظاهر وفي زخرفة الجدران والابواب وأهملنا الاساس . وليس ذلك تعمداً منا ولا جهلاً بل ميراثاً ورثناه عن آبائنا أو عن الارض التي أنبتتنا (عن كتاب « الرسائل الضائعة »)

الدمقراطية في الازمات

للدكتور وليم مونرو

استاذ التاريخ وعلم السياسة في معهد كاليفورنيا

ورئيس قسم التاريخ في مجمع تقدم العلوم الاميركي

ليس مثل الازمات كاشفاً لمواطن الضعف في النظام الدمقراطي . ان حسناته تبدو جلية بهية في ايام السلم والرخاء ، اذ يسهل حفظ الشعب مكتفياً بحكومتهِ راضياً عن حاله . ذلك ان الرخاء يفحم النقاد ، ويحمل المنتخبين على تأييد أية زعامة او القناعة بغير زعامة على الاطلاق . ولكن اذا وقفت امة وظهرها الى الجدار تدافع عن كيانها في حرب ، او اذا ارتجَّ نظامها الصناعي فأصبح على شفا الانهيار ، بدت مواطن الضعف في النظام الدمقراطي كأساسٍ للحكم ، فتعصف بالشعب ريح القلق والانقلاب

وانت اذا وجهت النظر الى بلدان اوربا رأيت النظام الدمقراطي في السنوات العشر الاخيرة قد اخذ يفقد ما له من الثقة في نفوس الجماهير ، فزال جانب كبير من الحماسة له ، التي فاضت بها النفوس على اثر الحرب الكبرى . فمن ناحية اليسار تهاجمهُ الشيوعية ، ومن ناحية اليمين تطغى عليهِ الفاشستية . نعم ان اعداءه في غير روسيا وايطاليا ، لم يفوزوا بالنصر الكامل عليهِ ، ولكنهم يتقدمون الى النصر بقدم ثابتة . وليس ثمة مجال للدهشة ، أنْ نرى المانيا تنقلب فاشستية واسبانيا شيوعية ، اذا لم تداو الازمة الاقتصادية — وهي مصدر القلق فيهما — وتخفف وطأتها . حتى في انكلترا ، لقد اصيب النظام التقليدي القائم على الحكومة الوزارية المستندة الى حزب معين ، بصدمة قوية اذ تألفت حكومة ائتلافية ، وسلِّم بحق بعض الوزراء في معارضة زملائهم في الوزارة ، فأصبحت الحكومة الانكليزية وكأنها بيت منقسم على نفسهِ . ومن المتعذر ان نتصور كيف يتم لنظام التبعة الوزارية في انكلترا العمل في ظلّ النظام الجديد . ولسنا نرى النظام الدمقراطي قد سلم من التقهقر الاّ في فرنسا . على ان فرنسا جمهورية ذات روح امبراطورية والضائقة الاقتصادية كانت فيها اخفّ وطأة منها في البلدان الاخرى

***

ان النظام الدمقراطي هو احدث المراتب التي وصل اليها تطورنا السياسي . ولكنهُ ليس آخرها . وهو بوجهٍ عام نتيجة التطور السياسي في المائة — بل الخمسين — سنة الماضية .

حتى اشدّ انصاره ايماناً بهِ لم ينتظر منهُ ان يكون نظاماً دائماً للحكم . فتوماس جفرسن مثلاً — الرئيس الدمقراطي الاميركي — لم ينتظر منهُ ذلك . ولقد كان جفرسن انفذ بصيرة من سائر رجال السياسة في عصره ، الى مواطن القوة والضعف في نظام تسوده وتسيطر عليهِ رغبات شعب شتيت العناصر . لذلك ذهب الى ان ارتقاء الصناعة وتجمُّع الناس في المدن ، قد يحمّل الحكومة الشعبية، عبئاً تنوء بهِ

وقد كان جفرسن على صواب في تفسيره للتاريخ السياسي . فقد ادرك ان شكل الحكومة يجب ان يكون ذا صلة بأحوال المعيشة ، وان هذه الاحوال قد تتبدل تبدلاً كبيراً في اثناء قرن كامل . لذلك انذر ابناء قومه ، بوجوب استعدادهم لتعديل اوضاعهم السياسية ، عصراً عصراً ، لئلاً تنبتّ الصلة بين الحكومة وآمال الشعب ، التي وجدت الحكومة لتخدمها . وقد كان جفرسن مؤمناً بالحكومة الدمقراطية لانهُ كان يعتقد انها افضل اشكال الحكومات التي تلبي حاجات عصره ، ذلك ان عصره كان عصر حياة بسيطة ، يخرج فيهِ الناس رزقهم من الارض، والصناعات قليلة ضيقة النطاق، والمدن صغيرة ، والمساواة الاقتصادية بين افراد الامة تكاد تكون في قربها الى الغاية ، ابعد ما وصل اليهِ الناس

ولكنهُ لم يكن يؤمن بأن نظاماً حكومياً قائماً على سيطرة العامة ، يفي بحاجات كل الامم في كل العصور . بل ان الرجوع الى كتاباتهِ يجلو لنا اصراره في حثّ الاجيال المقبلة على تقليب النظر في الانظمة القديمة ونبذ ما يتنافر منها مع حقائق الحياة في العصر الجديد . ومن اقواله البليغة « هذا العالم يجب ان يكون مُلك الجيل الحالي لا مُلك الاجيال السابقة »

***

حلّت الحكومات الشعبية الجديدة محل الحكومات الاستبدادية (الاوتقراطية) في الفترة الواقعة بين الثورة الفرنسية ومعاهدة فرسايل (١٩١٩) ولكن النظام الاوتقراطي لم يضعف ويهِن لانهُ ينطوي على خلل اساسيّ فيهِ . ففي عصر الفدنية (الاقطاع) كان النظام الحكومي الوحيد الملائم لاحوال العصر . ومضت قرون لا عمل للحكومة اهم من عمل الدفاع عن سلامة البلاد وحفظ الامن والنظام فيها ، فاستغرق هذان العملان كل وقت الحكومة وقواها. فالملوك والامراء حكموا البلدان حينئذٍ لانهم كانوا الاشخاص الوحيدين الذين يستطيعون ان يجمعوا قوى البلاد تحت امرتهم في الازمات المتعاقبة تعاقباً سريعاً

ورويداً رويداً ضاقت رقعة العمل الدفاعي الذي تقوم بهِ الحكومة ، اذ زادت تبعاتها الايجابية . ثم قضت الحال بزيادة الدخل فاتسع نطاق الضرائب التي تجبى من الشعب ، فجعل دافعو الضرائب يطالبون بحق اشتراكهم في تقرير خطة الحكومة العامة . وهكذا حلّت « حكومة دافع الضرائب » محل « حكومة ملك يملك بحق الهي » . على ان حكومة ملاك

الارض ودافعي الضرائب لم تعن حكومة دمقراطية كما نفهمها الآن . فانها منعت حق الاقتراع عن طائفة كبيرة من ابناء الامة البالغين سنّ الرشد . اما المذهب القائل بان كل الرجال لهم حقٌ في الاشتراك في السيطرة على الحكومة ، بصرف النظر عما يملكون أو يدفعون من الضرائب ، فوليد الثورة العظيمة التي اكتسحت فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر ، فرددت اصداءها بلدان العالم الغربيّ

ان الدمقراطية بمعناها العصري جاءت بعد اعلان حقوق الانسان وشيوع فلسفة المساواة . ولما كانت قائمة على اساس المساواة بين الانسان ، كان لا بدَّ لنجاحها ، من بيئة تحققت فيها المساواة الاجتماعية والاقتصادية بعض التحقيق . ثم هي تتطلب ان تكون مسائل الحكومة بسيطة يستطيع الذهن العام ان يدركها ويبتَّ فيها . وقد تحققت هذه الاحوال الى حدّ ما ، في اوربا واميركا في الجانب الاكبر من القرن التاسع عشر . فقد كانت المشكلات الكبرى في ذلك العصر مشكلات سياسية . اما المشكلات الاقتصادية القليلة التي عرضت للحكومات حينئذ ، فكانت غير معقدة تعقيداً يخرج عن طوق الذهن العام

***

وكلُّ هذا قد تحوَّل الآن . فالسياسة والاقتصاد متداخلان تداخلاً لا انفصام لعراه . فليس ثمة مشكلة سياسية لا تنطوي على اعتبارات اقتصادية . وليس ثمة مشكلة اقتصادية لا تراها مشتبكة بمسائل السياسة المعقدة . والعامة لا تدرك عادة ، الى ايّ مدى اتسع نطاق الاعمال الحكومية في الخمسين السنة الماضية ، وبوجه خاص في ربع القرن المنصرم . فيد الحكومة تصل اليوم الى كل صغيرة من صغائر الحياة الاقتصادية العالمية . ان اقامة الحواجز الجمركية يحوّل تيارات التجارة الدولية . ونظام الضرائب يبعث الحياة في النهضة الصناعية أو يخنقها في المهد . وسيطرة الحكومة على البنوك والعملة ونظام الاعتمادات المالية ، يمكنها من رفع مستوى الاسعار أو خفضه . ثم ان قوانينها المختلفة تمكنها من السيطرة على اسباب المواصلات والمخاطبات ، وقد تبلغ هذه السيطرة في بعض الاحيان حدًّا ، لا يختلف كثيراً عن مُلك الحكومة لهذه الاسباب المختلفة . اضف الى ذلك ان انتشار التأمين الاجتماعي — وبوجه خاص التأمين ضدَّ العطلة عن العمل — قد جلب في اثره طائفة من المشكلات الاقتصادية ، عجزت الحكومات الاوربية عن حلها حتى الساعة

لقد انقضى « عهد الفردية » وعصر « دع الامور تجري في اعنتها » (Liassez-Faire) والراجح ان لا رجعة لها . ان الدمقراطية جاءت مع الفلسفة الفردية ، واقترنت بالمذهب القائل ان افضل الحكومات اقلها تدخلاً في شؤون رعاياها . وقد زال هذا المذهب وحلَّ محلهُ القول بان « الحكومة يجب الاَّ تمتنع عن شيء اذا كانت تستطيع ان تتفوق في اجادته

على الافراد أو الشركات » . وليس ثمة مطعن في هذا القول اذا سُمِح للحكومات ان تعتمد على احكام الخبراء في معالجة المشكلات التي تعرض لها . ولكن هذا لا يسمَح بهِ للحكومات المؤلفة بحسب اصول النظام الدمقراطي الحديث . اذاً لا بدّ للحكومات الدمقراطية من ان تسير بحسب رغبات الشعب ، لانها تقوم على قول روسو بان « الاكثرية دائماً في جانب الصواب ، ولو ثبت بكل دليل عملي انها على خطاءٍ » . فعرض المسائل الاقتصادية المعقدة على الجماهير نصف الامية لا يعدو ان يكون عرضاً لها على محكمة الجهل العليا . واذن يصحُّ ان نتساءل ، تساؤلاً جديًّا ، كيف يرضى العالم ، وتعقد مسائلهِ ومشكلاتهِ آخذ في الازدياد ، ان تدار دفةُ سفينتهِ بهذه الطريقة ؟

انظر الى مشكلات العالم في هذا العصر : فمعظمها ناشىء عن قصر باع رجال السياسة . فالمعاهدات التي وضعت بعد الحرب الكبرى ، مبنية على اساس « تقرير المصير » وقد رسمت فيها حدود البلدان المختلفة وفقاً لانتشار السلالات والاقوام المختلفة . فلم يعنَ احد من واضعي هذه المعاهدات بدرس الاضطراب الاقتصادي الذي قد يورثهُ هذا التخطيط السياسي الجديد . فقد انشأوا مثلاً جمهورية النمسا الجديدة من دون ان يمنحوها المصادر الاقتصادية التي تعيش بها . فحملوا بذلك حكومة النمسا على عقد — او محاولة عقد — معاهدة جمركية مع المانيا ، فكانت تلك المحاولة حائلاً آخر دون التفاهم بين المانيا وفرنسا

ثم ان هذا التخطيط الجديد حمل البلدان المستقلة الجديدة على انشاء الحواجز الجمركية ، فاضطربت مسالك التجارة القديمة ، وانقطعت الصناعات المختلفة عن اسواقها الطبيعية ، وانشئت صناعات جديدة انشاء مفتعلاً . وهذه الصناعات الجديدة « المحمية بالحواجز الجمركية » استدانت اموالاً بالقناطير ، واخذت على نفسها تعهدات مالية لا تسوغها حالتها المالية — وهكذا امتدت سلسلة الاخطاء ، حدود جديدة ، فحواجز جمركية جديدة ، فصناعات جديدة ، فتعهد فافلاس ، حلقات آخذة بعضها بعناق بعض

ثم ان انشاء الدساتير الدمقراطية الجديدة في بلدان اوربا على أثر الحرب الكبرى كان ذا صلة باشتداد الضائقة الاقتصادية . فالمانيا والنمسا والمجر وبولونيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا اسرعنَ جميعاً الى اقتباس النظام الدمقراطي في الحكم وجميع ملابساتهِ مثل الاقتراع العام ، والتمثيل النسبي ، والتبعة الوزارية ، والاستفتاء وما اليها . والنصُّ على التمثيل النسبي في هذه الدساتير كان خطاء فاضحاً ، لانهُ مهّد السبيل الى انحلال الاحزاب الى طوائف صغيرة ثم استناد الحكومات المختلفة الى كتل متباينة من هذه الطوائف . وهذا بدورهِ افضى الى الجمود الحكومي لسهولة قيام معارضة قوية في وجه الحكومة المتقلدة زمام الاحكام . ان احوال اوربا في العشر السنوات الماضية كانت تقتضي زعامة قوية وتأييداً لهذه الزعامة من المجالس النيابية . ولكن

الدساتير الدمقراطية الحديثة في اوربا جعلت كلا الامرين مستحيلاً

ثم ان الدمقراطية الجديدة اتجهت في شؤون الاجتماع اتجاهاً طريفاً . فالسلطة السياسية انتقلت الى ايدي اولئك الذين يرغبون في تأييد الحكومة لمصالحهم الخاصة . لذلك ترى الحكومات الدمقراطية الحديثة وقد اقبلت على تحسين الحال الاجتماعية بمشروعاتها المختلفة كالتأمين ضدّ العطلة عن العمل والتأمين الصحي وتوسيع نطاق التعليم المجاني والمعالجة المجانية والانفاق على هذه المشروعات كان من وراء مقدرة تلك الحكومات من الناحية المالية المجرّدة. فلما تعذّر عليها جبي الضرائب اللازمة لسدّ هذه النفقات حدث في الميزانيات المختلفة عجز سدّت ثغرتهُ بطرق صدّعت اركان الثقة بالحكومة ، والمصارف والمنشآت المالية بوجهٍ عام . حتى في انكلترا ، سرى ذعر مالي عام لارباء النفقات على الايرادات — وسببهُ في الغالب الاموال التي كانت تنفق عادة على العمال العاطلين تلبية لمطالب المقترعين الذين منحوا حكومة العمال اصواتهم في الانتخاب السابق

وهذا الذعر المالي افضى الى حشد الذهب وهروب رؤوس الاموال فنقصت الاموال المودعة في البنوك نقصاً سريعاً وسحبت الاموال الاجنبية من النمسا والمانيا وانكلترا . واضطر اكبر بنك في النمسا ان يقفل ابوابهُ . وطلبت المانيا موراتوريوم . وخرجت انكلترا عن قاعدة الذهب . ان سلسلة الحوادث التي افضت الى هذه الحوادث الخطيرة سلسلة معقدة . ولكن لا ريب في ان السبب الاساسي هو الخلل في تدبير اموال الحكومات والتبذير في انفاقهِ في المصالح العامة ، والاختلال في موازنة الدخل والخرج ، فافضى ذلك الى العجز واحتمال التضخيم المالي ، وكل هذا يجب ان نسنده الى الدمقراطية الجديدة

***

ان التبرم العام بالاوضاع الدمقراطية الذي يساور الجماعات الاوربية اشدُّ الآن منهُ في اي عهدٍ سابقٍ . فاذا شئنا للدمقراطية النجاة من الزوال وجب على الولايات المتحدة الاميركية ان تفعل ذلك ، والسنتان المقبلتان يثبتان لنا مكاننا من المقدرة والعجز . اننا لا نستطيع ان تنجي الدمقراطية ، بالغاء ديون اوربا لنا ، ولا باقراضها ديوناً جديدة ، بل بتدبير شؤوننا اولاً ، بنقص النفقات العامة في حكومتنا ، وزيادة ابواب الدخل من دون ارهاق الصناعات ، ورفضنا المشروعات الاجتماعية المرهقة للخزينة والتي قد تنقلب فتضرّ الذين عملت لنفعهم ، واعادة الثقة العامة بمنشآتنا المالية. وبكلمة يمكن تنجية الدمقراطية باقامة البرهان على ان امة دمقراطية واحدة تستطيع الاحتفاظ برباطة جأشها في عالمَ قد جُنَّ

العوامل الوراثية والغدد الصماء

للدكتور شريف عسيران

بينا في مقالاتنا السالفة ان تنوع الصفات يتوقف على تنوع العوامل وشرحنا كيفية التنوع ولكننا لم نبين في اي دور من ادوار الحياة يحصل هذا التنوع . وهو ما نتناوله الآن:

من المعلوم ان لتكوين الجنين ادواراً مختلفة والعوامل الوراثية لا تقوم بوظائفها دفعة واحدة بل توزعها على مختلف ادوار التكوين فمنها ما تعمل في الدور الاول ومنها في الدور الثاني وغيرها في الدور المتأخر وقد يكون ثمة نقص في بعض العوامل فمتى جاء دور تلك العوامل تتلاشى الصفة المختصة بها لانها ناقصة

ذكرنا في بحثنا عن الجنس انه يوجد نوع من العوامل المميتة تؤول الى موت الجنين وبينا كيف يزيد عدد وفيات الذكور عن الاناث قبل الولادة لان في الاولى اكساً واحداً وفي الثانية اكسين فاذا كان الاكس معيوباً في الذكر فصيره الموت واما الانثى فتحمل اكسين فاذا اعتل احدهما فالآخر يسد مسده . فعوامل كهذه تقوم بوظيفتها في ادوار التكوين الاولى ولكن غيرها تقوم بوظيفتها في الدور الذي بعده وهذا ما اختبروه في الفئران الصفر . فقد احدثوا نقصاً في احد العوامل المختص به اخراج هذا اللون فاذا كان في الفرد عاملان عاديان او عامل عادي وعامل معيوب نشأ صحيحاً واذا كان العاملان معيوبين مات ذلك الجنين وقد وجدوا بالفعل بعض الاجنة الصفراء ميتة في بطن الام . والشيء نفسهُ ينطبق على النباتات فان المادة الخضراء (الكلوروفيل) ضرورية لحياتها فالنباتات التي فيها نقص هذا العامل تنمو نمواً طبيعياً الى ان يأتي دور الكلوروفيل فلا تخضر بل تموت بسبب فقد هذه المادة فاذا لقحنا النبتة المفقود منها الكلورفيل في هذا الدور بهذه المادة فانها تخضرُّ وتعيش

وفي الكروموسوم الرابع من عوامل ذباب الفواكه عامل وظيفته تهيئة الالوان الاساسية لتكوين مادة العين فاذا نزعنا مادة هذا العامل فان الذبابة تنمو نمواً طبيعياً الى ان يصل دور هذا العامل المعيوب فتنشأ الذبابة عمياء بسبب فقد اللون المذكور . والسبب نفسهُ يعزى الى ضعف العقل في البشر (Feeblemindedness) . يشترك في تكوين الدماغ عدة عوامل فاذا كان ثمة عيب في بعضها نشأ الدماغ ناقصاً ولا يقوم بوظيفته الطبيعية حق القيام وهذا النقص او الضعف يورَّث بطريقة مندل

ان لبعض العوامل تأثيراً خاصًا كالعوامل التي ذكرناها فتؤثر في العين او الدماغ او اعضاء التناسل الخ، ولغيرها تأثير عام وقد درس برل (Raymond Pearl) هذه الحقيقة في ذباب الفواكه فوجد بعضها يعيش عمراً طويلاً تامّ النشاط والقوة والبعض الآخر يحيي حياة قصيرة يعيش في خلالها نحيفاً ضعيفاً خاملاً ونسب طول الحياة وقصرها الى العوامل العامة التي لها سيطرة على كل الجسم وهذه الصفة ناشئة عن وجود عامل واحد له تأثير عام وهي تورث اما بقانون مندل او بالاتصال الجنسي. ومن رأي مورغن ان العوامل التي لها تأثير خاص تؤثر في عامة الجسم ايضاً . فيكون طول الحياة وقصرها وراثيًا بحسب هذا التعليل

﴿ سبب اختلاف الصفات باختلاف العوامل ﴾ بينا قبلاً ان خلايا ذوات الثدي وغيرها تختلف في بدء تكونها اختلافاً بيّناً ففي خلايا الذكر مجموعة من الكروموسومات وا كس واحد وفي خلايا الانثى ا كسان وتختلف تطور البيضة التي فيها ا كس واحد عن التي فيها ا كسان . كذلك تختلف التفاعلات الكيماوية في الاثنتين ولكن في ادوار التكوين الاولى لا يمكن التمييز بين الجنسين في ذوات الثدي وقد وجدوا انه ينشأ في القسم الظهري من الجرذان او الارانب بقعة خاصة تتألف من عدة خلايا تتكوّن منها فيما بعد نطفة الذكر ونطفة الانثى وتسمى هذه البقعة الغدة الجرثومية (Germgland) فتكبر بعض خلاياها وينشق من هذا البعض نطفة الذكر ونطفة الانثى وتدعى تلك الخلايا حينئذ الخلايا التناسلية (Genital Cells) وتكون الغدة الجرثومية في بادىء الامر واحدة في الجنسين وبعد ذلك يظهر اول فرق بين خلايا الذكر وخلايا الانثى فالاولى تنقسم وتصغر وتتكون منها نطفة الذكر الاولى مع الصفات التي ترافقها اما خلايا الانثى فتظل كما هي في الوقت الذي تتنوع فيه خلايا الذكر التناسلية فهذه تتنوع قبل تنوع خلايا الانثى التناسلية وبعد مضي وقت من نشوء خلايا الذكر تأخذ خلايا الانثى بالتنوع وبدلاً من ان تنقسم وتصغر تكبر رويداً رويداً وتكوّن البيضة او نطفة الانثى

ان صفات الذكورة والانوثة نوعان الصفات الجنسية الاولية وهي الفروق بين اعضاء التناسل الرئيسية والصفات الجنسية الثانوية واهمها خشونة الصوت ونعومته ونمو الشعر او عدمه وشكل الجسم وتناسب اعضائه كعرض الكتفين وضيق الخصرين في الذكور وعكسهما في الاناث ونشوء قرن او عدم نشوئه الى غير ذلك من الفروق الثانوية بين الجنسين. ونذكر الآن بعض التجارب التي ترشدنا الى سر هذه الفروق الجنسية. فلو نزعنا من ذكر صغير جداً الغدة التناسلية او الخصيتين لم تظهر في هذا الذكر صفات الذكورة الثانوية كخشونة الصوت وعرض الكتفين ونمو اللحية والشارب الى غير ذلك . والشيء نفسهُ يحدث في الانثى اذا استأصلنا المبيضين فلا تظهر فيها نعومة الصوت وضيق الكتفين وفقدان اللحية او القرن الى غير ذلك

ومن هنا نستدل ان للصفات الجنسية الثانوية علاقة بالغدد التناسلية لان هذه الصفات ليست ناشئة عن الكروموسومات . فخلايا الانثى فيها عدد الكروموسومات الكامل للنوع ولكن فقدان الخلايا التناسلية لا يفسح مجالاً لظهور الصفات الجنسية الثانوية فيها ونفس الشيء يصدق على خلايا الذكر . فكيف تحدث الغدد التناسلية هذه التغيرات . ان نقل هذه الغدد من جنس الى آخر يكشف لنا الستار عن مخبآت هذا التأثير وهذا ما فعله شتيناخ Steinach ومورز C. Moores وغيرهما فانهم نزعوا المبيضين من صغار الاناث ووضعوا الخصيتين مكانهما فنمت تلك الاناث دون ان تظهر فيها الصفات الجنسية الثانوية بل ظهرت فيها صفات الذكر وكذلك نزعوا خصيتي الذكر ولقحوا مكانهما مبيضي انثى فظهرت فيه صفات الانثى الثانوية عوضاً عن صفات الذكر فينبغي ان يكون في الخصيتين والمبيضين عامل خاص غير العوامل الوراثية يؤثر في نشوء الصفات الجنسية الثانوية لاننا اذا استأصلنا هذين العضوين فلا تظهر تلك الصفات مع ان عدد الكروموسومات المخصص للنوع موجود. فلابد من وجود افراز داخلي في هذه الاعضاء يفعل الفعل المذكور . واذا صحت نظرية الافراز الداخلي لذَّ لنا ان نجعل دم الذكر يسري في الانثى فتظهر فيها صفات الذكورة وهذا ما فعلتهُ الطبيعة . فقد وجد للي F. R. Lillie ان الماشية كالبقر والغنم وما اشبه تلد احياناً توأمين احدهما ذكر والآخر خليط من ذكر وانثى ورأى هذا البحاثة ان الجهاز الدموي يكون متصلاً في حالات كهذه . وقد بينا ان مميزات الذكر الجنسية تظهر قبل مميزات الانثى ففي دور من ادوار النمو يسري دم الذكر وهو في بدء تكونهِ الى دم الانثى التي لم تتميز خلاياها التناسلية بعد فينشأ فيها مزيج من صفات الانثى وصفات الذكر فالصفات الجنسية الثانوية تتوقف على وجود الافراز الداخلي ولكنها تتوقف ايضاً على اكثرية الخلايا الموجودة فان كانت من نوع الانوثة تتغلب هذه الصفات والعكس بالعكس. فصفات الذكورة والانوثة تتوقف على الافرازات الداخلية التي تذهب رأساً الى الدم ويقال لها الهرمون (Hormone) وهي كلمة يونانية معناها «يهيج» ويسمونها ايضاً الافراز الداخلي. ففي الانثى نوع خاص من الافرازات الداخلية تولد صفات الانوثة وفي الذكر افرازات مثلها تولد صفات الذكورة ، ولكن الانوثة والذكورة تتوقفان على الكروموسومات فالتي فيها اكس واحد تكون ذكراً والتي فيها اكسان انثى والكروموسومات تولد الصفات الجنسية بواسطة الافرازات الداخلية . فالصفات الجنسية تتوقف في ذوات الثدي على هذه الافرازات وتأثيرها الجنسي محدود في الطيور وفي الحشرات لا تتوقف الصفات الجنسية عليها

﴿ الغدد الصماء او العديمة الاقنية ﴾ — ان لافرازات هذه الغدد شأناً لا يقل عن العوامل الوراثية وقد عزوا اليها طول المرء وقصره واخلاقه وسلوكه وقالوا انها هي المسيطرة على شخصيته باجمعها فالشباب والشيخوخة منوطان بها والجبن والشجاعة اثر من آثارها وقد اثارت

ضجة في عالم الطب والعلم واستغلّ النفعيون هذه الفكرة فبالغوا وحرّفوا حبًّا بالكسب وخبط غيرهم خبط عشواء فنسبوا اليها المعجزات . ولهذا رأينا ان نبحث فيها باختصار متوخين الحقيقة ومقتصرين على ماهو ثابت علميًّا وطبيًّا ، ولكي لا نشوش ذهن القارىء الكريم نبحث عنها بانتظام . ففي الجسم ثلاثة انواع من الغدد الاولى التي لها اقنية خاصة تحمل افرازها الى الخارج كغدد اللعاب وغدد المعدة والامعاء والمرارة وغيرها والثانية الغدد التي ليس لها اقنية تحمل افرازها الى الخارج بل تفرزه الى الدم او السائل اللمفاوي رأساً وهي بيت القصيد من بحثنا . والثالثة الغدد المشتركة اي التي فيها نوعان من الافراز الاول تحمله اقنية خاصة والثاني يذهب الى الدم رأساً كافراز الغدد العديمة الاقنية ومثلها الخصيتان والمبيضان . فالغدد الصماء الرئيسية خمسة

(١) الغدة الدرقية والغدد المجاورة لها (The Thyroid and Parathyroid Glands)

(٢) الغدة الصعترية (Thymus Gland)

(٣) الغدتان اللتان فوق الكلية (Superarenal Glands)

(٤) الغدة النخمية (Pituitary glands)

(٥) الغدة الصنوبرية (Pineal body) ونبحث عن كل منها باختصار مبينين اهميتها الحقيقية

***

﴿ الغدة الدرقية ﴾ — تتألف هذه الغدة من فصّين كل منهما على جانب من جانبي القصبة Trachea عند اتحاده بالحنجرة وطولها نحو ٥ — ٦ سنتيمترات . لقد درسوا هذه الغدة في الضفادع درساً مدققاً ففي جميع الحيوانات البرمائية (الامفيبية) ما عدا النزر اليسير يتولّد فرخ صغير لهُ ذنب وخياشيم ولكنهُ خلو من الاطراف وهو يستطيع السباحة ويسمى هذا الفرخ Tadpole في دور من ادوار حياته تتلاشى الخياشيم والذنب وينشأ له ساقاً فيحدث فيه تبدلات داخلية وخارجية تصيره ضفدعاً . فما هو سبب هذا التطور Metamorphosis ؟

وجد جودرنّاتش J. F. Gudernatch اننا لو اطعمنا فروخ ضفادع صغيرة جدًّا قطعاً من هذه الغدة فانها تتبدل الى ضفادع سريعاً اي تتلاشى خياشيمها وذنبها ويظهر لها ساقان ولكنها تكون صغيرة كالذبابة فيحصل التبدل بسبب اطعامها هذه الغدة وهي صغيرة بعد . وبالواسطة نفسها جعلوا فرخ الضفدع من النوع الضخم Bull - frog الذي لا يتطور عادة قبل السنة الثانية أو الثالثة من عمره ان يتطور في السنة الاولى فبعد اسبوعين من اطعامه هذه الغدة يتطور ويصير ضفدعاً . ويحدث عكس ذلك اذا استأصلنا الغدة الدرقية من هذه الحيوانات فانها تنمو وتكبر ولكنها لا تتطور اي لا تتلاشى خياشيمها ويظهر لها ساقان .

وقد اكتشف Kendall سنة ١٩١٤ خلاصة هذه الغدة أو الافراز الداخلي الذي تفرزه واسمه ثيروكسين Thyroxin فالملغرام منه يزيد الاستحالات الغذائية Metabolism في الشخص ٢ بالمائة عن معدلها ولهذا الافراز تأثير فعال في نمو الجسم والعقل كما سنرى ويعزى فعله الى وجود معدن اليود Iodine فيهِ . واول من اكتشف هذه الحقيقة W. W. Swinge وقد قدروا انه يوجد ١ — ٢ ملغرام من معدن اليود في كل غرام من وزن الغدة

تنمو الغدة الدرقية تدريجاً كسائر اجزاء الجسم ولا تفرز افرازها الاَّ في دور معين من ادوار الحياة فتى جاء ذلك الدور تفرز الافراز الداخلي وتحدث تأثيرها الخاص فيتطور فرخ الضفدع الى ضفدع . ومما يجب ملاحظته ان تأثير هذه الافرازات الداخلية يختلف باختلاف اجزاء الجسم وباختلاف الانواع والاصناف وقد درسوا هذه الحقيقة في الحيوانات البرمائية فوجدوا ان تأثير افراز هذه الغدة ناجم عن اسراعه استحالة الغذاء (ماتابوزم) فاذا افرطنا في إطعام فرخ الضفدع الغدة الدرقية خفَّ وزنه كثيراً فتتلف انسجة جسمه ويموت واذا استمررنا على اطعامه تنشأ فيه علامات تشبه الموت جوعاً ونفس الشيء يحدث في الحالة الطبيعية في اثناء تطوره فان افراز الغدة الدرقية يتلف الخياشيم والذنب وبعض اجزاء الامعاء فيتلاشى مايتلف بالامتصاص ولا يبقى من الامعاء الاَّ جزء قصير ولكن هذا الافراز لا يفعل بالاطراف ما فعله بغيرها بل على الضدّ يجعلها تنمو وتتنوع الى اصابع وعقد ومفاصل . واعضاء التناسل لا تتأثر به فلا تتلاشى ولا تزداد سرعة نموها بل تظل سائرة بحالتها الطبيعية كأن لم يكن ذلك الافراز . وقد عزوا تنوع فعله الى تنوع السيتوبلازم ولا تزال الحقيقة امره مجهولة . وفي بعض انواع الحيوانات البرمائية تؤثر بالزعانف ولا تؤثر بالذنب فتأثيرها يختلف باختلاف نوع الحيوان فالـ Axolotl حرذون كبير ذو خياشيم خارجية حمراء بارزة وذنب صالح للسباحة وغيرها من الاوصاف التي تؤهله للعيش في الماء فاذا اطعمناه الغدة الدرقية تطور سريعاً كما تتطور فرخ الضفدع فتتلاشى خياشيمه ويتغير شكل جسمه ويعود غير صالح للعيش في الماء فيزحف على اليابسة ويصير Amblystoma اي نوع الحرذون الذي يعيش على اليابسة . وليس عدم تطوره في الماء ناشئاً عن فقدان خلاصة هذه الغدة بل الغدة موجودة بحالتها الطبيعية ولكن عدم تأثيرها في حالة كهذه لا يزال مجهولاً . وللغدة الدرقية تأثير كبيراً في نمو الانسان الجسدي والعقلي فالاشخاص الذين تكون هذه الغدة ضعيفة فيهم أو معدومة ينشؤن فداماً أو بلهاً ويدعى هذا المرض الفدم [1] Cretinism وهو يحدث في الاطفال والاولاد والبالغين ويقال له في الكبار مكسديما Myxoedema واهم علاماته ضعف شديد وتوقف نمو

(١) الفدم لغة العي عن الكلام في رخاوة وقلة فهم

الجسم وهزال وفقر دم وخشونة الشعر وسقوطه احياناً وانحطاط في القوى العقلية الى غير ذلك مما لاحاجة الى الاطالة فيه لان البحث عنه من المواضيع الطبية . والاقزام هم الاقوام القصار القامة وهذا القصر ناشيء عن نقص في الغدة الدرقية والقصر ينتقل فيهم بالوراثة واشهر قزم في التاريخ جفري هدسن Jeffrey Hudson الذي ولد في انكلترا سنة ١٦١٩ من ابوين معتدلي القامة ولما كان عمره ثمان سنوات وطوله قدم ونصف قدمه والده هدية الى دوقة بوكنهامشير ودعت الدوقة يوماً ما الملك شارلس الاول الى قصرها احتفالاً به وقدمت له هذا القزم كقطعة حلوى فابتهج بهِ الملك وابقاه في بلاطه ومنحهُ لقب « فارس » لاجل السخرية وبقي طوله ١٨ بوصة (انتش) من سن الثامنة حتى بلغ الثلاثين ولما مات كان عمره ٦٣ سنة وطوله ٣ اقدام وتسع بوصات . وكان له شأن في حياته فاختطفتهُ بحارة الداغارك ثم باعه قرصان البرابرة عبداً فهرب ورجع الى انكلترا وصار زعيماً في الجيش الملكي وقد قتل رجلاً صحيحاً لأنهُ سخر منه وأخيراً سجن لانهُ قام بحركة ضد رجال الدين

وتضخم هذه الغدة يسبب مرض الغوتر Exopthalmic Goiter وكثيراً ما نشاهد في القسم الامامي من عنق النساء على الاخص تضخماً ناشئاً عن تضخم الغدة المذكورة ومتى ازداد التضخم يسبب جحوظاً في العينين وخفقاناً في القلب وبطئاً في ضرباته ورعشة واضطراباً في العقل وضعف في القوى الى غير ذلك . وقد نسبوا هذا التضخم الى قلة الايودين في الغدة فالساكنون قرب البحر حيث يتوفر هذا المعدن لا يصيبهم هذا المرض اما الساكنون على شواطيء البحيرات فيعرضون له . والخلاصة ان لافراز هذه الغدة تأثيراً في نمو الجسم والعقل فضعفها او تلاشيها يعرض المرء للموت وتضخمها يسبب امراضاً فتاكة فاذا اعطي المصابين بمرض من امراضها خلاصة هذه الغدة فأنهم يشفون من مرضهم

﴿ الغدد المجاورة للغدة الدرقية ﴾ — ان هذه غدد صغيرة طول الواحدة منها نحو ٦—٧ مليمترات وعددها اربعة وموقعها في الوجه الخلفي من فصي الغدة الدرقية حيث يوجد غدتان وراء كل فص . وقد وجدوا ان استئصالها في الحيوانات يؤدي الى الموت . ويرجح الباحثون ان وظيفتها تنظيم المواد الكلسية (الجيرية) والسيطرة عليها فافرازها الداخلي منوط به تمثيل المواد الكلسية فاذا كانت ضعيفة تقل المواد الكلسية في الدم ويتعرض الفرد لحالات عصبية قتالة . وكثيراً ما يصاب الاطفال بتشنجات عصبية يرافقها هزات عنيفة يسميها الناس « هزة الحائط » ويعزون هذا المرض الى قلة المواد الكلسية الناشئة عن ضعف هذه الغـدة واعطاء المريض خلاصتها يزيل هذا المرض وقد نسبوا اليها مقاومة السموم التي تنشأ في الجسم وملاشاة تأثيرها . هذا ما هو معروف عنها حتى الآن

« لها تتمة »

مملكة الخيال

منى ان تكن حقاً تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

أهنيهةً قطع الضحى ام جيلا يوم العفاة لقد خلقت طويلا
ما ضرّ فجرك لو تلألأ وانياً فلعلها تغني العيون قليلا
عاجلت أحلام الدجى فطويتها والروح ترشف جامها المعسولا
ما كان اهنأها . يلوّن سحرُها صورَ المنى ويزفها تدليلا
ويثير فيهن الحياة شهية والحب أرعن والشباب منيلا
راض الشفاه الشامسات على الهوى فضحكن يهمسن الحوار عليلا
وحنا على بؤس العفاة فما رأوا من عثرة الاّ رأوه مقيلا
خلع النضارة والشباب عليهم والحب والمُتع العذاب الاولى
نِعمّ وان كانت تحول مع الضحى ايُّ المباهج لم تكن لتحولا

***

كفروا بقدرته . واومن أنها تحوي الوجود وتملك التحويلا
تحنو على القلب الجريح فينثني ريانَ من رحماتها مطلولا
وترف إن حمي الهجير غمامةً وندى وظلاً في الهجير ظليلا
وتحوّل البيد الظماء خمائلاً سكرى وربعاً ضاحكاً مأهولا
فكأنها — فيما تزخرف من منى — آس تحاول كفّه التجميلا

***

ان الذي خلق « الحقيقة » علقماً خلق « المنى » للواردين شمولا
تتصارعان — ولا ترى إحداهما ظفراً — لتبسط حكمها وتطولا
تدعو (المنى) زمرَ القلوب (واختُها) تدعو بصائرَ في الوغى وعقولا
والكون بين الضرتين مقسم فأشهد قبيلاً يستبيح قبيلا
واعذر على البغي القلوب فطالما قيدت وذلّل صعبها تذليلا
اما الدجى — والفجر من اعدائه — فلقد بصرت بِهِ يخر جديلا

***

قل للحقيقة : ان قسوت فربما فكّ الزمانُ أسيرك المكبولا
ان تملكي الدنيا وسر كنوزها لم تملكي الاحلام والتأميلا

افق المنى احنى وأرحب عالماً وأحنُّ افياءً وأزين سولا
صوني الكنوز عن العفاة فلا ترى عين إلى تلك الكنوز سبيلا
وتخيريها للقويّ سلافة وغنىً وطرفاً ناعساً مكحولا
واذا شكا العاني فسوطك واسمعي نغم الالوهة زفرة وعويلا
وتنكري للنائمين على الطوى الله قد خلق « المنى » لتذيلا
ماكان جودك للسعادة ضامناً صدقاً وبخلك بالشقاء كفيلا

* * *

هذي الحياة عنت لبأسك رهبةً فتسمعي لجباً بها وصهيلا
وزماجراً قامت على غمّائها من حكمك العاتي القوي دليلا
ملكت يداك هواءها وبحارها والكون اجمع عرضه والطولا
العلم يحكم وحده متعسفاً لا قلب في سلطانها وميولا
والعلم ان ملك القلوب فَسمّهِ وحشيةً وادع الحضارة غيلا
والعلم ان ملك القلوب فسمها حجراً تنوءُ بعبثهِ محمولا
لا نبض ما خفقت بهِ لكنهُ صوت الحديد غدا يصلُ صليلا
اما الاكف فخيرها ذو جنة حطم الرباب وعالج الازميلا
العلم سخرها وحسب العلم ان تزنَ الامور جميعها وتكيلا
عفى على حرم الخيال وقدسه او ما ترى حرم الخيال أزيلا
ولقد وقفت بهِ أناشد غائباً قفل الخليط وما اطاق قفولا
وبكيت ـ أجزيه ـ وربَّ مدامع خففنَ كرباً او شفينَ غليلا

* * *

عهدي بهِ والشعر في ادواحه يغشى القلوب اغانياً وهديلا
خضل المروج ترف انداء المنى فيه السرائر بكرةً واصيلا
وجلا لك الدنيا — على ما تشتهي منها — يملّقُ حِسّك المختولا
وأعاد مطويَّ العصور — وآدماً يحنو بأدمعهِ على هابيلا
مُنسح الخلود ولاميول ولا هوًى فأبى وآثر غربةً ورحيلا
غزل يحاور من احبَّ وسرّه ان فارق التكبير والتهليلا
تتغير الالوان . تغمر نفسه بالحسن . لا نزراً ولا مملولا

وتبدُّل الالوان . نعمة خالد لم يدرِ في فردوسه التبديلا

* * *

وترى بأفياء الخمائل عزة تحنو لتحتضن النهود جميلا

فانعم برؤية عاشقين تلاقيا سحراً وقد هوت النجوم افولا

واعذر جميلاً حين جنَّ جنونه فسطا .... ولا غزلاً ولا تأهيلا

نشوان يجذبها إليهِ — ولا يرى إثماً — ويلهب عريها تقبيلا

يترشف الثغر الشهيَّ سلافةً ويرفه كالاقحوان بليلا

* * *

ودمى وردنَ على الغدير وما اتقت حسناؤهن الشاعر الضلّيلا[1]

حتى اذا أخفى البرود وسامها أمراً رأتهُ من الحياء جليلا

عطفت تناشده العفاف وأتلعت جيداً — كلألاء الصباح — اسيلا

فأبى وتسرع نحوه عريانة خجلى — لقد حبَّ الجمال خجولا

* * *

وتطالع المجنون في اسماله شلواً بأنياب السقام أكيلا

خذلته نعماء العيون وسخرت للعبقرية ذلك المخذولا

فهوى صريعاً : بالرمال مكفناً بمدامع الصبح البليل غسيلا

* * *

وفتى قريش[2] وهو يقتل طرفه ليرى الثريا والهاً مخبولا

عبثت لتشهد منهُ أية لوعة تجزى وايُّ هوى ملحٍ تولى

* * *

وسكينة[3] والشعر في ابوابها والحسن يبعث شجوه فيقولا

نشوى الدلال . تعب من خمر الهوى سكراً ويمنعها الحياء تميلا

---

(١) امرؤ القيس بن حجر ويشير الشاعر هنا الى حكايته مع ابنة عمه — وكانت هوى له — حين أخفى بردها وبرود رفيقات لها — وكن يسبحن في غدير — فلما انتهين من الماء لهواً وابترادا . أبى عليهن البرود . الا ان يأخذنها منه واحدة فواحدة عاريات . وقد نزلن عند هواه الا ابنة عمه فقد تعللت وسوفت . ثم رضيت واذعنت

(٢) جاء في الاغاني ان عمر بن ابي ربيعة كان مدنفاً بالثريا وكانت عرضة ذلك جمالا وتماماً وكانت تصيف بالطائف وكان عمر يغدو عليها كل غداة اذا كانت بالطائف فيسئل الركبان من الطائف عن الاخبار قبلهم . فلقي يوماً بعضهم فسأله عن اخبارهم فقال ما استطرفنا خبراً الا اني سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريش اسمها اسم نجم في السماء فقال عمر الثريا قال نعم فوجه فرسه الطائف يركضه ملء فروجه وسلك طريق كدا وهي اخشن الطرق واقربها حتى انتهى الى الثريا وقد توقعته وهي تتشوف له وتشرف فوجدها سليمة عميمة فاخبرها الخبر فضحكت . وقالت والله أنا أمرتهم لاختبر مالي عندك . والى هذه القصة يشير الشاعر في ابياته هذه (٣) سكينة بنت الحسين وهي من اظرف نساء التاريخ العربي القديم

ملؤ العيون مفاتناً لكنها ملؤ القلوب عُلاً اعزّ أثيلا
وقف العفاف يذود عن ذاك اللمى ـ الا المنى ـ شرس الذياد بخيلا
وتذيع جمتها عبيراً ربما اخذ الشذا القدسيُّ عن جبريلا

* * *

وأبا نواس في مجالس لهوه قسم الليالي سكرة وذهولا
حالي الدعاب هفا وعلل ذنبه للاثمين فأحسن التعليلا
حسب الحياة سلافة ومهفهفاً والباقيات من الحياة فضولا
لم يهوَ غير الحسن في خفراته وأحبه عند القيان ذليلا
من كل نافرة فان جشتها ألفيت عقد نطاقها محلولا

* * *

وترى ابن برد[1] وهو في نزواته كالليث مرهوب السطا معزولا
هتك الفضائح بعد صون وانتضى للمالكين بيانه المصقولا
فرموه بالاشراك ثم تلمسوا من حاسديه شاهداً مقبولا
حتى اذا عزّ الشهود تمحلوا فرأوا شهوداً في القريض عدولا
زعمته أهواء السياسة كافراً تالله ما بالكفر راح قتيلا

* * *

متجاورين . ترى بكل بليلة عند الغدير خليلةً وخليلا
متنادمين على الخمائل انشدوا غرر النسيب ورتلوا التنزيلا

* * *

سقيا لنعماء الخيال ولا رأت عيناي ربعاً من هواه محيلا
أمحت بزينته الحضارة واقتضت شر التقاضي دينها المطولا
شوهاء تحلم بالقبور ولا ترى الا الاسى والثكل والترميلا
ويعيدُ منطقها الضجيجَ تناسقاً والحب علماً قد أُعدّ فصولا
فاذا اردت الحب . فابغ نعيمه عند الكتاب وحاذر التأويلا
وتعلم الحرقات من صفحاته والدمع كيف تروضه فيسيلا
واحذق معاتبة النجوم ولومها متوجعاً وتعمد التطويلا

---

(١) بشار بن برد وقد قتلته السياسة باسم الدين

فن الكياسة في كتابك ان ترى بين النجوم على هواك عذولا

***

حرم الخيال فدى رؤاك حضارةً قد مثلتك لتخطأ التمثيلا
هيهات حسنك من جمال خادع غشَّ العيون وأحكم التضليلا

***

إني لألمح في الغيوب رسالةً وأرى وراء الغيب منك رسولا
وكتاب حق لا يبالي في الهدى ان خالف المعقول والمنقولا
انجيل عيسى في الحنان وان يكن في غير ذاك — يخالف الانجيلا
وبيان أحمد قوةً وعذوبةً ونهى ورأياً في الحياة جميلا
عفّى على مدنية صخّابة يذر الخليُّ ضجيجها مشغولا
جبارة لا عطف في أقدارها عجلى وما خلق الزمان عجولا
يمنى تعدُّ لك المتاع واختها تلد الشقاء وتخلق التنكيلا
تبني وتهدم كالحياة وربما غزلت لتنكث خيطها المغزولا
لاعطفَ يخفق في الصدور ولا هوى كذبتك عينك بل رأيت طلولا
والعلم . ويل العلم يوم حسابه . ان كان عن نزواتها مسؤولا

***

هذا كتاب الغيب فيه رحمةٌ تسع البرية مترفاً ومعيلا
غسل الوجود من الضغائن والهوى لتحل روح الله فيه حلولا
ودعا « الضمير » محاسباً متأنقاً فكأنه من آل اسرائيلا
وتلاقت الانساب . يغمر عطفه منها فروعاً سمحةً وأصولا
ساوت بساطتهُ الشعوب فما ترى فيها هجيناً او تعد أصيلا
وحنت على النفس الاثيم . فأبصرت إثم النفوس على النفوس دخيلا
ولدتهُ أخيلة الشرائع فكرةً فنما بأحضان الحضارة غولا
خلقت له الاسماء وهو كنايةٌ وتخيلت ألوانهُ تخييلا
ورمت به الانسان في نعمائهِ فتصيدتهُ مكبلاً مغلولا
لم ترض تعذيب الحياة فسخرت بعد الردى لعقابه « المجهولا »
فكأنما تلك الشرائع تقتضي عند النفوس ضغائناً وذحولا

٢٢ مارس ١٩٣٢ بدوي الجبل

رسالة من رومية الى بغداد

في اوائل العصر العاشر

للاستاذ بارتولد عضو اكاديمية بطرسبرج

ظهرت سنة ١٩١٢ في مجلة المستشرقين الايطالية مقالة صغيرة في اللغة الفرنساوية لاستاذ جامعة بطرسبرج ق . انسترانتسف (C. Inostrancev) تحت عنوان « من علاقات رومية بالخلافة العباسية في اوائل العصر العاشر »[١] اتى فيها صاحبها على ذكر الهدايا التي بعثت بها سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٥ — ٩٠٦ م) « ملكة الفرنك » الى الخليفة المكتفي (٩٠٢ — ٩٠٨) واشار الى ما قد يكون لهذا الحادث من الشأن التاريخي

ومما جاء في الرسالة قولها « واني اعلم ما بينك وبين ملك القسطنطينية من المحالفة على اني اقوى منهُ وعندي من معدات الحرب اكثر مما عنده وتحت سلطتي ٢٤ [٢] مملكة لا يشبه لسان احداها لسان الاخرى ورومية الكبرى باجمها تخضع لي »

يظهر ان ادلّة الاستاذ التي اوردها ليدل بها على ان « ملكة الفرنك » هي تيودورا امرأة تيوفيلكت قنصل وسناطور (عضو في مجلس الشيوخ ب . ج) الرومانيين التي كانت يومئذٍ ترأس حكومة رومية فعلاً متينة لا غبار عليها اذ من المعلوم ان تيوفيلكت وامرأته كانا حقيقة يرأسان رومية في ايام البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤ — ٩١١) ولقد اصاب ايضاً الاستاذ حين قال انهم بالغوا كثيراً في المكانة السياسية التي نسبوها الى تيودورا في الرسالة التي بعثوا بها باسمها

اخذ صاحب المقالة خبر الرسالة من مجموعة آداب عربية (مُلح ادبية) لكاتب من اصل بربري كان يقيم في دمشق ويدعى علاء الدين البهائي الغزولي[٣] الدمشقي (توفي سنة ٨١٥ هـ)[٤] وهذا — على قدر ما نعلمَ — المصدر الوحيد الذي كان يومئذٍ معروفاً ولهذا لم يكن لصاحب المقالة الاّ ان يفترض أن الغزولي (وهو من الكتبة المقلّدين) استقى هذا الخبر من مصدر اقدم»

(١) C. Inostrancev, Note sur les rapports de Rome et du Califat Abbasside au commencement du X Siécle. Rivista degli Studi Orientali IV, 1911—1912, 81—86

(٢) راجع كلام ياقوت الحموي ٢ : ٦٨٩ عن ٢٤ كنيسة من اهم كنائس رومية وياقوت اخذ روايته هذه عن ابن الفقيه التي وقع فيها تحريف عند اختصارها (انظر Bibl. Geogr. Arab. V, 150, 10 والتنبيه g)

(٣) راجع عنه كتاب Brockelmann « تاريخ الآداب العربية » ٢ : ٥٥ وعن الرواية التي اوردها الاستاذ تاريخ الغزولي المطبوع في القاهرة ج ٢ : ١٣٥

(٤) يظهر ان صاحب المقالة سهى حين قال ان الغزولي « كان من كتبة العصر الثالث والرابع عشر »

واني انا ايضاً كنت ذكرت في مقالتي عن « العلاقات بين الفرنك والمسلمين » التي نشرتها سنة ١٩١٥ في مجلة « الشرق المسيحي » الروسية ان خبر هذه الرسالة لم يرد الاَّ في مجموعة آداب عربية يرجع عهدها الى العصر الرابع عشر او الخامس عشر[1] وما ذلك الاَّ لاننا كلانا لم ننتبه الى ان الرسالة ذكرت لاول مرة في مصدر قديم — من العصر العاشر — يعرفهُ كل من يشتغل بالعلوم العربية وهو كتاب الفهرست لابن النديم (في باب حروف الهجاء)[2] حيث قيل عن حروف الهجاء عند الفرنك اي عن الحروف اللاتينية ما نصهُ « وحروفهم تشبه حروف اليونان الاَّ انها احسن منها لانها اكثر استواء فقد رأيناها احياناً على سيوف الفرنك وكَتَبَتْ ملكة الفرنك كتاباً الى (الخليفة) المكتفي على حرير ابيض وارسلتهُ مع خادم (اي خصي) قَدِم الى املاكها من الغرب (من افريقية الشمالية) تطلب من المكتفي مهراً (صداقاً) وتعرب فيهِ عن رغبتها في زواجه واسم هذا الخادم ألبا — (?) Alba وهو من خدام ابن الاغلب»[3]

ظاهر من اول نظرة ان الغزولي لم يأخذ عبارته عن الفهرست بل — وهذا هو الارجح — عن مصدر آخر اقدم وأصح في ما يتعلق على الاقل بهذا الخبر لان تيودورا كانت — على قدر ما نعلم ونستطيع ان نحكم — في هذا الوقت امرأة السناطور تيوفيلكت وعليهِ يصعب ان نفرض انها عرضت نفسها على المكتفي كما يصعب ان يكون بلغها شيء اكيد عن الخليفة وانهُ كان شابّاً وجيل المنظر[4] (توفي المكتفي سنة ٩٠٨ وله من العمر ٣١ او ٣٢ سنة)

يؤخذ من عبارات الغزولي ان في رسالة «ملكة الفرنك» مضادة بين بزنطية « ورومية الكبرى» القديمة وهذا محتمل لانهُ يتفق مع وجدان رجال ذلك العصر وميولهم السياسية والى ذلك اشار العالم غريغوروفيوس في كلامه عن النقود التي صكّها البابا سرجيوس الثالث وكتب عليها salus patriae (سلامة الوطن) وانها هاجت ذكرى رومية القديمة[5] وعزها السالف . اما ما جاء في الرسالة عن المحالفة (او « الصلة » كما في الرسالة) بين بزنطية والخليفة فهو غير صحيح ولا هو يتفق مع التاريخ في شيء . نعم ان المكتفي وملك الروم ليون السادس تراسلا وتهاديا سنة ٩٠٣ (٢٩١ هـ)[6] الاَّ ان الحرب عادت فشبَّت بينهما حتى ان فداء الاسرى الذي كانوا شرعوا فيهِ في ايلول من سنة ٩٠٥ (٢٩٣ هـ) لم يتم لان الروم انصرفوا بغتةً بمن كان معهم من اسرى المسلمين فحسب ذلك المسلمون غدراً[7] منهم ولم تتجدد المكاتبة بين

---

(١) مجلد ٣ ص ٢٦٤ (٢) كتاب الفهرست ص ٢٠ من طبعة اوربا (٣) المراد هنا زيادة الله الثالث آخر امراء الاغلبيين (٩٠٣—٩٠٩) (٤) الطبري ١١: ٤٠٤ « وكان ربعة جبلا رقيق السكون حسن الشعر وافر اللحية واقر اللحية » و (كتاب الصلة لعريب ص ١٢ ب . ج)

(٥) راجع كتابه Kleine Schriften ١: ١٦٢ (٦) طالع عن ذلك تأليف الاستاذ . فاسيليف « بزنطية والعرب » ٢ : ١٣٧ — (في الروسية) وهناك تجد المصادر

(٧) وقد ذكر ذلك الطبري (١١ : ٣٩٣) والمسعودي في مروجه بعبارات واحدة

الطرفين عن الصلح والفداء الا في سنة ٩٠٧ اما الفداء فلم يقع فعلاً الا في سنة ٩٠٨ وذلك في خلافة المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢)

يصعب علينا ان نبتّ في هل كان الغرضُ من رسالة تيودورا الحصول على منافع سياسية معلومة اي انها ارادت كما يفترض الاستاذ صاحب المقالة ان تفوز بمساعدة من الخليفة ضد عرب افريقا الذين كانوا يسطون وقتئذٍ من مستعمرتهم على شاطىء نهر غاريليانو Gariliano [١] على مقاطعتها الرومانية وينهبون ويقتلون اهاليها وذلك في قبيل مساعدة تقدمها له ضد بزنطية. على انهُ يظهر من رواية الفهرست ان اصحاب رومية لم يكونوا يفكرون في ارسال شخص ذي منصب يتفق مع خطورة مهمته السياسية وانما انتهزت الملكة تيودورا فرصة سفر احد الخدم (الخصيان) الآتين من بلاد الاغلبيين [٢] الى الشرق لترسل معهُ رسالة الى خليفة بغداد الا اننا لا نعلم هل كان هذا الخادم اسر في احدى المناوشات التي وقعت بين الرومانيين وعرب المستعمرة المذكورة او انهُ هجر اراضي الاغلبيين لما اصابه من ولاة الامر فيها كما اننا لا نعلم هل كان يومئذ في بغداد من كان يحسن قراءة وفهم رسالة كتبت باللاتينية او ان الخادم المذكور تولى هذا الامر بنفسه

يدخل في سنة ٢٩٣ الهجرية جميع الوقت الذي يبتدىء من نوفمبر (تشرين ثانٍ) من سنة ٩٠٥ م وينتهي في اكتوبر (تشرين اول) من سنة ٩٠٦ والذي نعلمهُ عن هذه السنة ان المكتفي قضاها كلها في بغداد ففي ٢١ ايار [٣] (مايو) من سنة ٩٠٦ اخرجت مضاربه من بغداد وضربت في باب الشماسية وهو الباب الشمالي الواقع على الجانب الايسر في بغداد الشرقية ومن هذا الباب كانت تبتدىء الطريق الى العراق وسوريا وقد كان الداعي الى اخراج مضارب الخليفة ان المكتفي كان ينوي الخروج الى سوريا ليقمع الثورة التي ظهرت وقتئذ في مصر الا انهُ ورد في اليوم الثاني خبر انقماع الثورة وان قائد السلطان واصحابه ظفروا بالخليجي زعيم الخارجين على الدولة نهار الاثنين في ٥ ايار (مايو) [٤] فعدل الخليفة عن الزحف وردّت المضارب الى مكانها ثم صدر الامر بارسال

---

(١) راجع عن بنائها سنة ٨٨٣ تأليف الاستاذ فاسيليف المذكور ٢ : ١٣١ وعن تدميرها من طرف الروم والايطاليين في سنه ٩١٦ الكتاب نفسه ص ٢٠٦

(٢) كان بين هدايا « ملكة الفرنك » التي بعثت بها الى الخليفة عشرون خصياً من اجمل خصيان صقلية (وفي الاصل استعملت كلمة خادم وهي الكلمة التي استعملها ايضاً صاحب الفهرست وقد كانت تستعمل في اغلب الاحيان بمعنى الخصي على انها وردت في العصر العاشر بمعناها الاصلي ايضاً (راجع قاموس بعض المفردات الواردة في تاريخ الطبري ص ٢١٥ اما الاستاذ Inostrancev فقد ترجمها بكلمة esclave) (وقد استعملت كلمة خصي بدلا لخادم كقول صاحب كتاب الفخري ص ٢٣٤ : « كان في داره (دار الخليفة المقتدر بالله) احد عشر الف خادم خصي من الروم والسودان » ب . ج)

(٣) « لسبع بقين من رجب » كما يقول الطبري ١١:٢٩٨ (٤) الكندي (طبع Guest) ص ٢٦٢

الخليجي الى مدينة السلام فأرسل . ولما وصل اليها ادخلوه من باب الشماسية للنصف من شهر رمضان (نهار الخميس في ١٠ تموز (يوليو) أما خروج الاسراء من مصر فقد كان نهار الاثنين في ٢ حزيران (يونيو) ومن هذا الباب دخل ولا شك رسول تيودورا كما كانت تدخل قبله وبعده رسل ملوك الروم

يحتمل ان يكون ورد ذكر رسالة «ملكة الفرنك» في كتاب الوزراء (تأليف ابي عبد الله محمد بن عبدوس — ب. ج.) الجهشياري (توفي في سنة ٣٣١ ﻫ ٩٤٢ — ٩٤٣ م) الذي وقف فيه — كما يستفاد من كتاب الوزراء لهلال الصابىء — عند سيرة العباس بن الحسن [١] (وزير المكتفي والمقتدر) من سنة ٩٠٤ [٢] الا ان المخطوطة الوحيدة التي وصلت الينا من كتاب الجهشياري والتي نشرت حديثاً [٣] تنتهي بذكر وزراء المأمون (٨١٣—٨٣٣) كما وقد ختمها صاحبها بهذه العبارة : « هذا آخر ما اردناه والله اعلم » مما ينتج عنه ان المخطوطة تحتوي على جميع الكتاب

نرجح ان سيكون لعبارة الفهرست « وقد كتبت الرسالة على حرير ابيض » [٤] اشأن خاص بمعرفة حالة الثقافة المادية في ذلك العصر

لم يذكر ابن النديم بصراحة ان كان رأى الرسالة بعينه ام لا ولكنه على كل حال لم يكن في وسعه ان يقرأها لان معرفة اللغة اللاتينية لم تكن شائعة في العالم الاسلامي ما عدا اسبانيا والقسم الجنوبي من ايطاليا حتى ان العرب كانوا — كما تفيدنا بعض الاخبار — يخلطون بين الحروف اللاتينية والحروف اليونانية [٥] الا في اسبانيا كما قلنا فانهُ كان بين العرب من كان يحسن قراءة الحروف اللاتينية نذكر منهم البكري احد جغرافيي الاندلس في العصر الحادي عشر فانهُ كان يقرأ اسماء « الجزائر السعيدة » (او الخالدة ب . ج .) Fortunatal [٦] — باللاتينية وقد شهد له النزولي بأن كتابه خير التآليف العربية في الجغرافية [٧]

وليس ايضاً بواضح ان كان « تاريخ الفرنك » الذي قدمه غودمار (Godmar) اسقف مدينة جيرونا (في كاتالونيه هي Gerona في خارطات هذا اليوم و Gerunda القديمة) الى

---

(١) راجع The Historical Remains of Hilal Sabi, ed. Anedros, Leyden 1904, p ?
(٢) طالع عن وفاة مؤلف الكتاب المذكور سابقاً ص ٣٦٠ من المتن . ولد العباس بن الحسن سنة ٢٥٠ ﻫ (٨٠٤ — ٨٠٥ م) ص ٣١٣ من الاصل
(٣) راجع Bibliothek arabischer Historiker und Geographen, ed von H. Mzik, Bd. I, 1926
(٤) لم اقف على اخبار اخرى عن رسائل كتبت في ذلك الوقت على حرير ابيض
(٥) راجع مجلة Der Islam م ١٦ ص ٨٥
(٦) راجع كتاب Abu-Obeid-el-Becri, Description de l'Afrique Septentrionale texte arabe par le Bon de Glane, Alger, صفحة ١٠٩ من الاصل و ٢٤٩ من الترجمة
(٧) النزولي ٢ : ١٧٧ من الطبعة المصرية سنة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ اما تآليف البكري فلم ينشر حتى اليوم

الحكم (٩٦١—٩٧٦) يوم كان ولي العهد ، مكتوباً بالعربية ام باللاتينية اذ لم يذكر هذا الكتاب الا المسعودي [١] وقد رآه في القاهرة سنة ٣٣٦ (٩٤٧—٩٤٨) في اللغة العربية على ما يظهر ان كان الاهم الاصل وضع في اللاتينية وقد نبه [٢] Reinaud الى ان كاتالونيه كانت من عهد شارل الكبير داخلة في حكم الفرنك وعليه يكون غودمار الذي ترأس البعثة الى الخليفة المذكور من تبعة الملك لويس (ليودفيك) الرابع المعروف بلويس « ما وراء البحر » (d,outre - mer — ٩٣٦ — ٩٥٤)

ثم لا شك في ان للرسالة شأناً لمعرفة تاريخ رومية في ذلك الوقت اذ نستطيع ان نستنتج منها ان تيودورا كانت سيدة « المدينة الخالدة » بلا نزاع وصاحبة السلطة فيها ليس فقط في نظر معاصريها بل وفي نظر الجيل التالي . زد الى ذلك ان هذه الرسالة التي بعثتها « ملكة الفرنك » الى بغداد في اوائل العهد المعروف بعهد « حكم العهارة » Pornocratie — (العبارة لبارونيوس من اهل العصر السادس عشر) في رومية تؤكد مرة اخرى رأي بعض المؤرخين في ان النساء اللواتي كنّ يحكمن وفتنذر في رومية ويُخالِلنَ بلا حياء ولا خجل مما تقتضيه الآداب المسيحية لم يكنّ من النساء اللاتي لا قيمة ولا شأن لهن كما يصورهن المؤرخون الكنائسيون الذين لم يكونوا يرون فيهن الا بؤرة عُهر ودعارة

***

ولا بأس ان ننبه اخيراً الى ان كتاب تيودورا أرسل من رومية الى بغداد في زمن لم يكن ظهر فيه بعد نمو مدينة أمالفي [٣] او ان العرب لم ينتبهوا الى ذلك وهذا الزمن يُعَدُّ احدى الصفحات الاولى من تاريخ علاقات اوربا الغربية مع العالم الاسلامي مباشرةً اي بدون وساطة الدولة البزنطية تلك العلاقات التي مهّدت للبلاد الغربية في اوربا اسباب التفوق على غيرها في ميدان الثقافة والاقتصاد

باكو — نقلها عن الروسية بامانة

ب . ج

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٦٩ (من الطبعة الاوروبية)

(٢) راجع كتابه Invasions des Sarrazins en France Paris 1856, XV, 39 p.

(٣) لم يرد ذكر امالفي في كتب العرب قبل النصف الثاني من العصر العاشر (طالع Bibl. Geogr. Arab. II, 135) وراجع عن مستعمرة امالفي التجارية في القاهرة تاليف الاستاذ بارون روزن « فاسيليوس قتال البلغار » (بالروسية) بطرسبرج ١٨٨٣ ص ٢٩٥

القبة والطير

او

مثال من رسوم المُلك وآلاته في دولة المماليك

بمصر كما وردت في صورة فارسية

بقلم مدام ر . ل . ديفونشير : تعريب محمود عكوش

لقد زاد الاهتمام في العهد الاخير زيادة لم تعهد من قبل بالصور التي تتحلى بها المخطوطات الفارسية وظهرت عنها مطبوعات لطيفة كالتي اصدرها السير توماس ارنولد والدكتور مارتن والمستر لورنس بينيون والمسيو بلوشيه والدكتور كوبهنل وغيرهم فاصبح السبيل ممهداً امام الجمهور للاستفادة من هذه الطرف المصوَّرة

وعادت هذه التسهيلات على المشتغلين بدراسة التاريخ الاسلامي بالنفع الجزيل لكثرة المعلومات التي اصبح من الممكن الحصول عليها بامعان النظر في هذه الطرف . وليس الامر في ذلك قاصراً على الصور النادرة التي تمثل بعض المسلمين بهيئاتهم وملامحهم بل لان هذه الطرف تجمع ايضاً كثيراً من التفاصيل النفيسة من زخرفة البيوت وادواتها وزينتها والازياء وغير ذلك

وقد تملكني الفرح بينما كنت اقلب بعض الصور الجميلة التي طبعت في مجلة «ذي ستوديو» من ديوان النظامي المحفوظة اصولها في المتحف البريطاني وعني المستر لورنس بالكلام عليها اذ عثرت بينها على صورة تمثل احد ملوك فارس من القرن الثاني عشر الميلادي فيها بعض رسوم المُلك التي كان يتخذها بعض سلاطين المماليك وكنت اتلهف للاطلاع عليها من زمن طويل وهي صورة « القبة والطير » المتعدد ذكرها في وصف مواكبهم الملوكية اثناء حكمهم على مصر والشام

وفي الشكل رقم ١ صورة سمح لي بنقلها من الاصل المحفوظ بالمتحف البريطاني يرى فيها السلطان سَنجر وهو على فرسهِ يستمع لامرأة عجوز وقفت تحتج عليهِ بسبب اطلاقه عنان الحرية لجنوده وعلى رأس السلطان المظلة الملوكية وفوقها الطير الذهبي يحملها احد الفرسان وهو في زيه الجميل

---

(١) نشرت هذه المقالة في مجلة « ابوللو » الانكليزية في الجزء الرابع عشر في العدد رقم ٨٣ شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ بعنوان An Egyptian Mameluke Feature in a Persian Miniature, by Mrs. R. L. Devonshire.

ونشر مسيو بلوشيه في كتابه « صور المخطوطات الفارسية والتركية بالمكتبة الاهلية » طبع باريس سنة ١٩١١ صورة اخرى تمثل هذه الواقعة نفسها وهي من عمل محمود المزوق المشهور في سنة ٩٥٢ هجرية الا ان المظلة المرفوعة على رأس السلطان كانت تعلوها « كرة » بدلاً من الطير . وهناك صور اخرى فيها مظلات محمولة على رأس السلطان ولكني لم اعثر بينها على مظلة واحدة عليها الطير

ويوجد في المناظر الموضوعة عن بلاد الشرق وافريقية وفي بعض المؤلفات امثلة عديدة من المظلات التي كانت تعد من شعار المُلك[1]

ومن أقدم هذه الامثلة صورة من النقوش البارزة في مدينة پيرسيپوليس (تشهيل منار) بالقصر الاخيميني تمثل الملك اكزرسيس ماشياً وبعض حجّابه يحمل المظلة على رأسهِ (لوحة ١٥ من كتاب « الفن ببلاد فارس القديمة تأليف سار ») . وقد ارشدني مسيو بلوشيه الذي تلطف وساعدني مساعدة قيمة في هذا البحث الموجز الى ان المظلات الصينية والانامية كانت حمراء اللون ولها حاشية يختلف لونها عن اللونين الاصفر والذهبي المستعملين في مصر

واورد كاترمير عدة نصوص عن المظلات الملوكية في بلاد الاسلام في ترجمة السلوك للمقريزي المسماة « سلاطين المماليك » وفي ترجمة « سلاطين المغل » لرشيد الدين

وذكر ابن بطوطه عن بعض حكام القسطنطينية — ممن لم تعرف شخصيتهم للآن — انه اكرمه برفع « الجتر » على رأسهِ . وقد اطلعت في كتاب مختصر التاريخ للمفضل بن ابي الفضائل (پاترولوجيا اورينتالي) طبع بلوشيه ص ٥٢٦ على قصة لاحد الامراء وكان معجباً بحمل الجتر على رأسهِ . ونقل كاترمير من « كتاب تاريخ دولة آل سلجوق » للفتح بن علي ابن محمد البنداري الاصفهاني ان السلطان سنجر في حربه مع الخطا بقى في عدد قليل فقال له الامير ابو الفضل صاحب سجستان « قد احدقت بنا العساكر ودارت علينا الدوائر فانج بنفسك لاقف مكانك تحت الجتر » . وقال الكولونيل ز . ب . جنتيل في كتابه «مختصر تاريخ ملوك هندستان أو مملكة المغل » على ما رواه عنه بلوشيه انّ محمد شاه . . . توفي في ٢٢ ربيع الثاني . . . واخفت زوجته المعروفة باسم « ملك زماني » موته خشية من حصول اضطراب وكتبت الى كبير الوزراء تخبره بذلك وتطلب اليه الحضور بابن السلطان وكان صغيراً الى دهلي على جناح السرعة فاعد له الوزير جتراً وفي اليوم التالي حُمِل الجتر على رأس الامير في مقدمة الجيش اعلاناً بارتقائهِ عرش السلطنة

وما ورد في هذه النصوص وسواها لايعدو الكلام فيه الجتر او المظلة التي على هيئة قبة

(١) قال ابن خلكان في كلامه عن فتح الاندلس : وحمل لذريق (رودريك) على سريره وقد رفع على رأسه رواق ديباج يظله (ج ٢ ص ١٧٨) المعرب

ولا ذكر فيها للطير . وفي سيرة صلاح الدين ومن خلفه من الملوك من بني ايوب في مصر والشام لم يرد ذكر شيء من آلات المُلْك . وربما كان السبب في ذلك تنحيهم عن هذه المظاهر لخليفة بغداد . اما الخلفاء الفاطميون في مصر فانهم اتخذوا المظلة في مواكبهم الرسمية وقد ذكرها المؤرخون بلفظها العربي « المظلة » ومعناه الشيء الذي يستظل به . وقد وصف ناصر خسرو موكب الخليفة المستنصر وكان قد شاهده وعلى رأسه المظلة وذكر المقريزي عن المسيحي المظلة المذهبة التي كانت للخليفة العزيز والظاهر انهُ لم يكن عليها طير بدليل ان القلقشندي ايضاً لم يذكره ضمن وصف الآلات الملوكية في « المواكب العظام » على ايام الفاطميين . وكذلك ذكر المقريزي المظلات والقضب من الفضة والذهب في تعداد ما كان في خزائن المستنصر من الذخائر . ولم يذكر طيوراً من الذهب ولو كانت موجودة وقتئذ لما اغفل ذكرها

***

ويظهر ان احد ارباب الوظائف في العهد الفاطمي كان مكلفاً حمل المظلة لان زيدان الذي قُتِل برجوان الوزير على يده بأمر الحاكم في سنة ٩٩٩ ميلادية كان يلقب « بصاحب المظلة » وفي عهد المماليك كان الذي يقوم بهذه الخدمة امير لهُ المقام الاول بين الامراء ويلي السلطان في المرتبة ويكون في اغلب الاحيان « اتابك العسكر » وكثيراً ما كان السلطان يقتل ويخلفه في الحكم من كان يقوم له بهذه الخدمة[1] . وفي عهد المماليك اصبح الطير ملازماً للقبة لان جميع المؤرخين المعاصرين لهم كانوا اذا وصفوا موكباً من المواكب المصرية ذكروا « القبة والطير » (شكل رقم ٢) وقد اتى ابن اياس على ذكر ما لا يقل عن اثنين وعشرين سلطاناً اتخذوا القبة والطير لهم شعاراً واكثر هؤلاء السلاطين من الدولة الثانية للمماليك الجراكسة ويكادون يكونون معاصرين له . ومما يحسن بنا الاشارة اليه ان مَن لم يذكر ابن اياس في كلامه عنهم القبة والطير ذكره غيره من المؤرخين فنراه مثلاً لم يذكرها في كلامه عن لاجين سنة ١٢٩٦م ولكن المقريزي على ما ذكره عنه لين بول في تاريخ مصر ص ٢٩١ يقول ان الامير بيسري حمل له القبة الملوكية فوق رأسه . وقال المفضل (طبع بلوشيه ص ٤٧٧) ان « بيسري » حمل القبة ايضاً على رأس بركة ابن بيبرس الكبير وقد فات ابن اياس ان يذكر ذلك في كلامه عن هذا الاخير ، وفيما بعد نرى ابا المحاسن يستوفي ما اغفله ابن اياس كما فعل في كلامه عن الملك الظاهر ططر سنة ١٤٢١م ولقد بحث المؤرخون في امر « القبة والطير » فقال لين بول انها مظلة تعمل من حرير

---

(١) جاء في كلام المقريزي عما كان يعمل بعد صلاة العيدين (ج ٢ ص ٢٢٩) على عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون قوله : ويخلع على حامل القبة والطير وعلى حامل السلاح والاستادار والجاشنكير وكثير من ارباب الوظائف . ويؤخذ من ذكر صاحب هذه الوظيفة قبل غيره من الامراء انه كان مقدماً عليهم

اصفر يطرز بالذهب وتتوج بطير من ذهب جاثم على قبة من ذهب وهو وصف لم اعثر على ما يؤيده وقد يكون مصدره خطأ في ترجمة قول القلقشندي ان المظلة على هيئة قبة . وقد شرح المقريزي وابن خلدون وغيرهما كيف اهملت كلمة مظلة العربية واستعمل بدلاً منها اللفظ الهندي القديم « جتر » الذي له المعنى نفسه[1] . وجاء في رحلة ابن بطوطه وهي رحلة مسلية رغم ما يتخللها من اللغو النص الآتي وهو على جانب من الاهمية : « والسلطان هناك (دهلي سنة ١٣٢٠ م) يعرف بالشطر (جتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمى بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد واما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر »

***

وقد اطلق ابن بطوطه على المظلة اسم القبة والطير وذلك في كلامه عن مصر خاصة ولكنه سماها جتراً في الكلام عن غيرها فقال عن « منسي سليمان » سلطان « مالي » الواقعة على النيجر سنة ١٣٥٣م : و « يرفع له (فوق مجلس السلطان بالمشوَر) الشطر وهو يشبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي » . ويؤيد هذا الخبر مؤلف آخر وهو العُمَري الذي ترجم كتابه اخيراً بمعرفة مسيو جود فروا دومومبين احد مشاهير المشتغلين بدراسة ذلك العهد من التاريخ الاسلامي فقال في بعض تعليقاته انه يظن ان هذه العادة نشأت في مصر . وفي الواقع نجد في قول العُمَري وفي كلام المقريزي ان موسى بن ابي بكر الذي كان متولياً الحكم قبل منسي بن سليمان سافر الى مصر والحجاز في سنة ١٣٢٣ م اثناء حكم الملك الناصر محمد بن قلاون . وقد تجددت الآن الفكرة القائلة بان اتخاذ الطير او الباز كشعار يرجع في الاصل الى المغل بدلالة ما يرى في الصور الفارسية . وفي المكتبة الاهلية صورة على جانب عظيم من الاهمية ضمن مانشره مسيو بلوشيه بعنوان « الصور والكتب الخطية الشرقية الموجودة في المكتبة الاهلية » ، وقد نشرتها الجمعية الفرنسية لنقل الكتب الخطية والصور (سنة ١٩١٤ — ٢٠ ، لوحة ١٩) وهي تحتوي على صورة محفة للسلطان محمود غازان ملك المغل بفارس (١٣٠٤ م) . وهي اذا وقع النظر عليها بدت قريبة الشبه بالمظلة وقد علاها طير من الذهب او المعدن المموه بالذهب . ويظهر انهُ باز او صقر وفي الصورة مظلتان لا طير عليهما مطويتان ومربوطتان من اعلاهما اشارة الى وقت الصباح وفيها ايضاً ذيل فرس . وكان المغل والترك يتخذانهِ علَماً وفي صورة اخرى (شكل رقم ٣) ذيول من هذا القبيل ولكنها بيضاء لا سوداء . وقد نقلت في كتاب

---

[1] وقد ذكر المقريزي الجتر مراراً في كلامه عن السلطان محمد بن طغلق شاه (ج ٢ ص ١٧٤) وقال في كلامه عنه ايضاً : واذا خرج في قصره من موضع الى آخر يمر راكباً وعلى رأسه الجتر والسلاح دارية ورامه بايديهم السلاح وحوله نحو اثنى عشر الف مملوك مشاة لا يركب منهم الا حامل الجتر (ج ٢ ص ١٧٥)

« الصور » لمسيو بلوشيه المتقدم ذكره . ويشاهد في هذه الصورة تيمورتكين (الذي صار فيما بعد جنكيز خان) جالساً على عرش صيني وفوقه الطير الذهبي جاثماً على ظهر العرش لا على مظلة كشعار الملك . وهذه الصورة والتي قبلها منقولتان من المكتبة الاهلية عن نسخة من تاريخ المغل لرشيد الدين كتبت في تبريز في اوائل القرن الرابع عشر . ولم تنفرد هذه الصورة بوجود طير من ذهب جاثم فيها على ظهر عرش الملك بل هناك صورة ثانية في الصفحة ٩١ من النسخة الخطية تمثل ايضاً جنكيزخان (شكل رقم ٤) وصورة ثالثة تمثل ارغون خان (سنة ١٢٨٤ — ٩١) — وكل من هؤلاء جالس على العرش بتلك الهيئة . والصورة الاخيرة (شكل رقم ٥) على غاية من الحسن وهي من المستندات القيمة التي تمثل الملابس وغيرها وقد ظهر الطير فيها بشكل واضح . واذا اعتبرنا الباز من شعار الملك عند المغل فيكون وضعه على المظلة من عمل المماليك التركمان الذين يرجع الى عهدهم دخول كثير من التقاليد المغلية في مصر وذلك بالمصاهرة بين ملوك البلدين والتجاء كثير من المهاجرين الى مصر قبل الاغارة على بلادهم . وقد عرفني مسيو جان ديني من كبار العلماء المشتغلين بتاريخ قدماء الترك ان طائفة كبيرة من مؤرخي الترك في العهد الحاضر ممن وقفوا على مصادر كثيرة مجهولة يذهبون الى ان الباز كان من شعار خاقان قبائل أويغور الكبرى المتحالفة وهم اجداد السلجوقيين والعثمانيين . وقد كان هذا التحالف يجمع اربع طوائف من ست قبائل على رأس كل طائفة منهم خان شعاره طائر اي باز (طغرل طغان طغرى وغير ذلك). ولهذا الطائر على ما يظهر اساطير عديدة ومع ان مسيو جود فروا دومومبين لم يسلم بتلك الاقوال فقد نقل عن مسيو مينورسكي انهُ يجد في هذا الطائر « توتم » قدماء السلجوقيين فهل يكون هذا الطائر من تقاليد عصر الحيثيين القديم ؟

* * *

وكانت القبة والطير في مصر تحفظان في الزردخانة الملوكية ويستحضر ان منها كلما قضت بذلك شؤون المملكة فلما حاول المستعين بالله الخليفة العباسي ان ينادى به كسلطان على دمشق في سنة ١٤١٢ م لم يذكر ابن اياس القبة والطير في وصف الموكب الذي عمل له ولكن لما وصل الى مقر الحكم بالقاهرة الاتابك شيخو الذي تولى السلطنة بعد بضعة شهور عوضاً عنه باسم الملك المؤيد حملت المظلة الملوكية فوق رأسه وربما كانت قد استحضرت خصيصاً لهذه الغاية

واذا انتهينا الى آخر سلطان من المماليك بمصر وهو السيء الحظ طومان باي سنة ١٥١٦ م نجد ابن اياس يقول انهم لم يجدوا له في الزردخانات قبة ولا طيراً بل ولا سرجاً من ذهب لفرسه

والظاهر ان القبة والطير لم يكونا موجودين عند مبايعة قايتباي بالسلطنة لان ابن اياس لما روى خبر الباسه شعار الملك غصباً وهو يتمنع قال ان هذا السلطان الذي كان ممتنعاً اذن

للامير جاني بك قلقسير امير سلاح بأن يفرد السنجق السلطاني على رأسه لعدم حضور القبة والطير من الزردخانة

***

وفي اثناء تعريب هذه النبذة طلبت مني حضرة السيدة ديڤونشير ان الحقها بالكلمة الآتية:

قالت: بعد مضي عدة شهور من كتابة هذا البحث اتفق لي كما يقع كثيراً أن عثرت على مثال آخر ذي شأن في فقرة اوردها ابن اياس الذي تصفحت كتابه مراراً جاء فيها: ان القبة والطير حملا على رأس امرأة وهي خوند زينب زوجة السلطان اينال في طلوعها الى قلعة القاهرة بعد عودتها من الحج في سنة ٨٦١

وفي الوقت الذي عثرت فيه على هذا الخبر وجدت صورة اخرى للقبة السلطانية وفوقها الطير في كتاب تاريخ المغل لرشيد الدين الذي نشره جناب مسيو بلوشيه

وقد ظهر الآن الجزء الرابع من تاريخ ابن اياس الذي عني بطبعهِ مسيو پول كاهل ومحمد مصطفى بالاستانة، مشتملاً على حوادث المدة من سنة ٩٠٦ الى سنة ٩٢١ اي خلال حكم الغوري والفتح العثماني بقلم هذا المؤرخ الذي كان معاصراً لهذه الحوادث وشاهد اكثرها ودوّن عنها معلوماته

وقد تفضل جناب الدكتور مكس ميرهوف وكلٌّ يعرف ميله لمساعدة المشتغلين بمثل هذه المباحث فاستخرج من هذا الجزء تكملة لهذا البحث ويسرني جداً ان اقدمها للقراء وهي:

« جمادي الاولى سنة ٩١٧ »

« وفي يوم السبت نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قبة الامير يشبك التي « بالمطرية . . . . . وكان السلطان قصد ان تحمل على رأسهِ القبة والطير فنهوهُ الامراء عن « ذلك وقالوا لهُ ما هي عادة ان السلطان اذا خرج الى المطرية تحمل على رأسهِ القبة والطير « فرجع عن ذلك »

شوال سنة ٩٢٠

« ثم طلع الى الدهيشة[1] وعرض الصناجق السلطانية والقبة والطير وقد غير الطير الذهب « الذي كان فوق القبة وجعل مكانه هلال ذهب »

وفي ذي الحجة سنة ٩٢٠ وقع الهلال وانكسر: وقد ذكر المؤلف بعد ذلك ان الطير كان قد حصل لهُ مثل ذلك في عهد السلطان قايتباي

ر. ل. ديڤونشير

(١) من القاعات السلطانية التي كانت بالقلعة عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل في سنة ٧٤٥ هجرية

الميكروكسمس

اي العالم الصغير

العناصر والمواد التي يتركب منها جسد الانسان

قسم العلماء منذ قديم الايام كل الاشياء الموجودة فينا والخارجة عنا قسمين : دعوا القسم الاول « العالم الكبير » وهو يشمل كل الاجرام الفلكية السائرة في القبة الزرقاء وكرتنا هذه الارضية بما عليها من جماد ونبات وحيوان ناطق وغير ناطق. ودعوا القسم الثاني « العالم الصغير » Microcosmos وهو كل فرد منا نحن بني البشر ، بما فينا من القوى الميكانيكية والكياوية والحاسة والمدركة والمريدة . وجعلوا مدار بحثهم معرفة كنه هذا العالم الصغير واستقصاء العلل المسببة لما نشاهده فيه من الظواهر الطبيعية والافعال والانفعالات الحسية والعقلية والادبية ، وتتبع النواميس الضابطة لهذه الظواهر والافعال والانفعالات ، وتقدير الحقائق التي يمكننا الوصول اليها ، بالاستدلال على ما لا يقع تحت الحواس بما يقع تحتها

وقد ذهب العلماء في تعريف الانسان الى مذهبين . فقال الماديون ان كل ما نراه في هذا الكون من الاجسام الجامدة والنامية والحساسة متكوّن من المادة ومتحوّل عنها . وأنهُ لا يوجد فينا ، نحن البشر غير المادة التي نلمسها بايدينا ونتظرها باعيننا . وقال الروحيون : ان في الانسان روحاً او نفساً ممتازةً عن الجسد. وان مبدأ الحياة في العناصر الهيولية التي تكوّن جسد الانسان هي النفس صاحبة الادراك والارادة . فالجسد يتحول تحولاً مستمراً بعوامل التحليل والتركيب فيتجدد بين حين وآخر . اما النفس فهي الثابتة في الجسد ، تأبى التحليل والتركيب . وكلمة « انا » التي يطلقها الانسان على شخصه انما تعني النفس التي تحيي الجسد . وهي هي ، من حيث الجوهر ، في كل ادوار الحياة ، لا الجسد الذي يتجدد في كل دور من من ادوار الحياة . وقد قال الشاعر :

اقبل على النفس فاستكمل فضائلها   فانت بالنفس لا بالجسم انسان [1]

ولما كان البحث عن النفس بحثاً نظريًّا مداره الاستدلال بقوة الحواس على ما لا يقع تحت الحواس ، كما سبق القول ، وكان البحث عن الجسد بحثاً عمليًّا ، يقوم بتحليل العناصر الهيولية التي يتكوّن هو منها تحليلاً كياويًّا لا يقبل المماحكة والمغالطة . رأى عالم انكليزي

---

(١) من النوادر التي ينقلها التاريخ عن افلاطون الفيلسوف انه سئل يوماً عن تعريف الانسان فقال انه « حيوان ذو رجلين » (Animal Bipses) ولما لم يرق هذا التعريف واحداً من اتباعه جاءه يوماً في المدرسة بديك فالقى به الى الارض في حلبة الطلبة وقال « هوذا انسان افلاطون » (Ecce Homo Platonis)

ان يحلل جسد الانسان تحليلاً كيماويـًا دقيقاً ، ويصف هذا التحليل في مقالة ممتعة . ذكر في خاتمتها النتيجة التي توصل اليها فيما يختص بوجود النفس في الجسد فعجبت كيف اني درست العلوم الفلسفية في اعظم جامعة من الجامعات الدينية الاوربية ، ووضعت مقالات عديدة في البحث عن المادة والروح . نقلتها عني مجلة « الاجيال » المصورة المصرية سنة ١٨٩٧ وجريدة « الاحوال » المصرية سنة ١٩٢٠ . فلم انظر الى هذا البحث من الوجهة التي نظر اليها العالم الانكليزي

ولا يخفى ما لهذا البحث من الشأن العظيم . فكل منا يميل بدافع الفطرة الى معرفة ما يحيط به من الاشياء . حتى الطفل الصغير يحاول كسر اللعب المتحركة التي بين يديه ، ليكشف ما في باطنها ، ويطلع على سر حركتها . وقد جاء في المثل ان من جهل شيئاً عاداه . فماذا يا ترى تفيدنا معرفة الاشياء المحيطة بنا . ونحن نجهل احوال الجسد الذي نعيش فيه . ولا نعلم هل هو كل شيء فينا . أو هل فينا شيء يمتاز عنه ولا يفنى بفنائه . كانت هذه الخواطر تشغل بالي . واذا الخص مقالة العالم الانكليزي رغبةً في افادة الذين تهمهم معرفة ما هو اقرب اليهم والصق بهم . وهو الجسد الذي نحيا فيه ولا نموت بموته وهذا ملخص ما جاء في مقالة العالم الانكليزي :

لم يخطىء العالم الفسيولوجي الذي قال ان الانسان بيضة كبيرة دبت فيها نسمة الحياة . ذلك لان ١٢٠٠ بيضة تكفي بما فيها من العناصر المتنوعة . لتكوين رجل يزن ١٥٠ رطلاً

يتركب جسد الانسان من اربعة عشر عنصراً بسيطاً . خمسة منها غازات وهي : الاوكسجين والايدروجين والازوت والكلور [١] والفلور [٢] . والمقدار الموجود منها في انسان يزن ١٥٠ رطلاً تكفي لملء حوض يسع ١٦٠ متراً مكعباً من الغاز . وتسعة منها من الجوامد وهي : الكربون والكلسيوم والجير والفصفور والحديد والكبريت والصوديوم والبوتاسيوم والسيليسيوم والمغنيزيوم . وهذه الجوامد موجودة في كل حفنة من تراب الارض التي نطأها . ويوجد ايضاً في جسد اكثر الناس عناصر اخرى تدخل الجسم لعارض من العوارض الطارئة عليه مثل النحاس والرصاص والالومينيوم والمغنيزيا والزيبق والزرنيخ

واهم العناصر المكوّنة لجسد رجل يزن ١٥٠ رطلاً الاوكسجين المضغوط . ويبلغ ثقله نحو ١٠٦ ارطال . وهذه الكمية من الاوكسجين اذا زال ضغطها واخذت حجمها الطبيعي ساوت قدماً مربعاً من الواح الخشب طوله ٣٩٧ متراً . اي ما يزيد مرات كثيرة على حجم الانسان

اما مقدار الايدروجين وهو اخف الغازات فيبلغ حجمه في رجل يزن ١٥٠ رطلاً ١١٠ امتار مكعبة (اي ما يساوي منزلاً ارتفاعه ٣½ متر ومسطحه ٣٠ متراً) وثقله لا يقل عن ١٣½ رطل . وهذا المقدار من الايدروجين كاف لنفخ منطاد تفريغه ١١٠ امتار مكعبة فيطير في الجو بالحبال المربوطة به . ويدخل الازوت في جسد هذا الانسان بنسبة ١٥ جراماً للرطل

---

(١) الكلور (Chlorine) عنصر غازي ذو لون اصفر ضارب الى الخضرة ورائحة شديدة خانقة
(٢) الفلور (Fluorine) عنصر غازي لا لون له وهو من عوامل رد الفعل الكيماوي

الواحد . اي نحو ٤½ رطل . وحجم هذا المقدار يساوي عشرين مرة حجم الجسد . والحيز الذي يشغله الازوت في الجسم لا يزيد على بضعة سنتمترات . وبه يقوم عمل الدماغ وقوة العضلات

في جسد الانسان مقدار من الكربون يقدر بواحد وعشرين رطلاً ونصف رطل وهو كاف لصنع ٧٨٠ قلماً من اقلام الرصاص . وهذا العنصر يقوم مقام الوقود للجسم يولد فيه الحرارة وقوة الحركة

والعناصر التي ذكرناها هي مصدر النشاط الحيواني وقوام الحرارة والحركة اللتين تتحولان في الانسان الى قوة النظر في العينين . والهضم في المعدة . والتنفس في الرئتين . واللمس في الفم والاصابع . ومع ان هذه العناصر يبلغ مجموعها ١٤٥—١٤٦ رطلاً من ثقل الانسان الذي يزن ١٥٠ رطلاً . فالعناصر الاخرى السابق ذكرها مما لا غنى عنهُ لقوام الحياة . فلو لم يكن في الجسد رطلان من الكلسيوم ورطل ونصف من الفصفور لفقد الانسان ذراعيه وساقيه وجمجمته واسنانه . وعجز عن صنع الآلات وبناء المنازل . واضطر الى الزحف على الارض وأكل التراب. والامر الغريب هو وجود هذا المقدار القليل من الفصفور في الجسم وهو سم قتال يكفي لهلاك قرية بسكانها ولصنع ٨٠٦٤ علبة من الكبريت تحوي كل علبة ٦٠ عوداً

اما المقادير الموجودة في جسد الانسان من العناصر الاخرى فهي : ١٢٠ جراماً من الكلور و٩٠ جراماً من الصوديوم و٧٥ جراماً من الكبريت و٦٠ جراماً من الفلور و٣٠ جراماً من البوتاسيوم ونحو جرام من المغنيزيوم ونحو عشر الجرام من السيليسيوم . على ان هذه المقادير تختلف باختلاف الاشخاص وتختلف في الشخص الواحد باختلاف الزمان ثم انهُ يدخل في الجسد مقدار من الحديد يبلغ ثلاثة جرامات. وهذا المقدار يكفي لصنع اربعة او خمسة مسامير ضرورية لجمل الجسم كالبناء المرصوص ولو أزيلت هذه المسامير لسقط البناء وهلك الانسان

وجميع هذه العناصر ما عدا بعض آثار عرضية من الاوكسجين وبعض دقائق من الكربون تصل الى الرئتين بالتنفس . لا تستقر منفردة ، بل يمتزج بعضها ببعض امتزاج السوائل لتكوّن مركبات متنوعة . ولكل مركب منها عمل معين يقوم بهِ ثم يتحول الى آخر ابسط منه ، ليقوم هو ايضاً بعمل مخصوص لحفظ هذا المجموع الغريب الذي نسميه جسماً او جسداً . وهكذا تتحول هذه العناصر دواليك حتى يدركها التلاشي والفناء عند الموت

***

واهم هذه المركبات واغزرها في الجسد هو الماء المركب من جزئين من الايدروجين وجزء من الاوكسيجين . والمقدار الموجود منهُ في رجل يزن ١٥٠ رطلاً تبلغ ٩٠ — ٩٦ رطلاً ويملأ برميلاً يسع ٤٥ لتراً. ولولا الماء الموجود في الجسم لوقفت حركته . وعجزت اعضاؤه عن القيام بوظائفها . وهو الذي يحلل الطعام . ويرطب اغشية الفم والانف وباطن الجسم ويبردهُ بتبخر العرق المندفع من مسام الجسد ويحيط بالقلب والرئتين واعضاء البطن . فيقوم

مقام وسائد تتوسدها وتسكن اليها . ثم ان البروتوبلزما وهي مادة الحياة . موجودة بشكل ملايين من كريات موزعة تقريباً في كل الجسم ومتصل بعضها ببعض. فهذه الكريات لا تستطيع العيش خارج الماء وتقضي حياتها في الماء الجاري

ومن هذه المركبات الملح . وله شأن يذكر في تكوين الجسم . ومع ان المقدار الموجود منه في الجسم لا يزيد على ١٨٠ — ٢٠٠ جرام فهو ضروري لحياة جميع الاعضاء . فتراه في الدم والعضلات والعناصر الاخرى السائلة والجامدة. يساعد السائلة منها على نفوذ الاغشية الدقيقة وامتصاص الطعام الذي يتحول من الامعاء والمعدة الى دوران الدم. وعلى اختراق الدم الشرياني للانسجة

ثم ان للصودا وهو مزيج من الصوديوم والكربون والاوكسجين — شأناً مهمّاً في الجسم وهو تناول كل ذرة من ذرات الحامض الكربوني اينما وجدت . وتوصيلها الى الشعب وطردها الى الخارج. ولا يخفى ان كل عمل يقدم عليه الانسان يولّد قدراً من الحامض الكربوني. فكلما خفق القلب او اغمضت العين او تحركت الاصابع تولّد هذا الحامض الذي هو سم قتال فلولا طرد هذا الحامض من الجسم طرداً مستمراً بفعل الصودا لوقفت هذه الآلة البشرية وقوفاً هو الموت

ويوجد في الانسان ، ما عدا هذه المركبات غير العضوية ، مركبات عضوية منها الحوامض العضوية وهي قليلة . ولولا قلتها لذاب الجسم ذوبان السكر في الماء. ويتولد من مزيج الاملاح والحوامض والعناصر الاخرى مادة زلالية اشبه شيء ببياض البيض . تتكوّن منها الاجزاء الجامدة من العضلات والقلب والرئتين والدماغ والاعصاب والدم . وهي موجودة ايضاً في جميع اجزاء الجسم السائلة والجامدة . والذي يميزها عن المواد الاخرى وجود الازوت فيها

ويكوّن النشاء والشحم وقوداً يبقي الجسم منهُ جانباً لوقت الحاجة. ويستعمل الجانب الآخر استعمالاً مستمراً . ويتولد هذا الوقود من الاوكسيجين والايدروجين والكربون بنسب لا تختلف كثيراً عن نسب السكر. ثم ان مقداراً كبيراً من الشحم الذي نزدرده يتحول الى صابون بفعل شيء من القلي ويوجد في الامعاء خصوصاً لتأدية هذا العمل الذي يولّد في الوقت نفسه مقداراً من الجلسرين ويجعل المعدة كأنها معمل لصنع الصابون . اما النشاء فيتحول في الامعاء الى سكر ، متى امتزج بالماء . لان السكر انما هو مزيج من الماء والنشاء. وهو في الجسد بمقام النقود في جيب الانسان. لا يستقر فيه مدة طويلة وقلما يجتمع منه ما يملأ قدحاً. واذا احتاج الجسم الى ادخار شيء منهُ حوّله الى مادة لا تذوب في الماء اسمها « اينوزيت »[1] تستطيع البقاء مدة طويلة في الكبد والطحال والرئتين والعضلات وهي غزيرة في عضلات الكثيرين . ثم اننا نكتشف في الجسد بواسطة التحليل ، مركبات اخرى غير التي ذكرناها وهي: الكؤول أو الكحول Alcool في الدم والصفراء والعضلات والدماغ. والسمغ في الغدد اللعابية . والبيبسين (المهضمين)

(١) الاينوزيت (Inosite) سكر الاعصاب

الذي يسهل الهضم في المعدة . ونوع أو نوعان من الخميرة تشبه رغوة الجعة . ومادة تلون الشعر والعينين تسمى «بيجمنت» Pigment من اللفظة اللاتينية Pigmentum اي ملون
ان الطعام الذي يقتات به الانسان لا يتراكم في المعدة بعضه فوق بعض بل يتناوله عامل التحليل فيحوّل عناصره الى عناصر أبسط منها ليكوّن من هذه العناصر بعامل التركيب ، مادة الجسد . فأنواع المأكولات مثلاً التي يعدها الطاهي من اللحوم والطحال والكبد والقلب واللسان والمخ ومن اعضاء اخرى من الحيوان — يسهل على كل منا تمييزها لاختلاف مركباتها الظاهرة — يصنعها الجسم من تلقاء نفسه . فيختار المواد الاولى منها ومن الدم بالنسب الضرورية لكل نسيج من الانسجة ويحولها الى اعضاء الجسم. فيأخذ شيئاً من المركبات التي تحوي الكلسيوم والفصفور والاوكسجين والايدروجين والكربون ليكوّن هيكله الذي هو دعامة كل اعضائه . ويبلغ ثقل هيكل الرجل الذي يزن ١٥٠ رطلاً ٢١ رطلاً في حالته الاعتيادية. ويأخذ ايضاً من الدم مقادير محدودة من العناصر ليكون المجموع العضلي الذي يبلغ ثقله ٦٣ —٦٤ رطلاً في رجل يزن ١٥٠ رطلاً . ويأخذ من الدم الشحم جاهزاً فيبقيه منفرداً كمؤونة احتياطية للتغذية . وليس في الجسم من نسيج يماثل الشحم في اختلاف مقداره. فهو يختلف باختلاف احوال الصحة ونوع المعيشة والهواء وجهد العمل وكل ما يطرأ على الانسان من التغيرات الكبيرة . ويبلغ متوسط الثقل الموجود منهُ في رجل يزن ١٥٠ رطلاً ٣ ¾ — ٧ ½ رطل . وهذا المقدار يكفي لصنع دستات عديدة من الشمع . والدم نفسه يتكوّن في جسد الانسان نصفه من بعض الاعضاء ونصفهُ من البعض الآخر. ولم يدرك العلماء لهذا اليوم كيفية تركيبه ادراكاً وافياً .على ان كلاً منا يعرف هل الدم فيه كثير او قليل . واذا فقد الجسد لتراً من الدم اسرعت الاوعية الى تعويضهِ بلتر من الماء تأخذه من الانسجة وتمزجهُ بالعناصر الضرورية لحفظ نشاط الانسان وحياته . ومقدار الدم يختلف قليلاً في الشخص الواحد مع اختلافهِ بين الاشخاص. وهو بنسبة ١ ١/١٢ — ١ ١/١٤ من ثقل الانسان اي ١٠ ¾ — ١٢ ½ رطل. ويتكون ثقل بقية جسد الانسان من الكبد والرئتين والقلب والطحال والكرش والكلوتين والدماغ والاعصاب والجلد والشعر والاظفار ويوزن مجموعها ٤٥ — ٥٠ رطلاً

هذا هو ملخص ما جاء في مقالة العالم الانكليزي من ذكر العناصر التي تكوّن جسد الانسان ووصف عوامل التحليل والتركيب التي تفعل دواليك في هذه العناصر لتحويلها الى مركبات او مجموعات لكل منها وظيفة معينة يقوم بها لحفظ حياة هذا الكائن الغريب او العالم الصغير الذي نسميه « انساناً». والنتيجة التي استخلصها من هذا الوصف هي ان الكيماوي لم يرَ ولن يرى القوة الكامنة في الجسد والممتازة عنه في عمق الانبوب الذي يحلل فيه عناصر المادة ليطلع على سر تكوينها . ذلك لان تلك القوة لا تلمسها يد ولا تنظرها عين. وهي النفس التي خلقها الله سبحانه لتستقر في الجسد وتحيي موات المادة التي تكوّنه

يوسف شلحت

نيقولاي لنين

وضع غمالائيل برادفورد　　　　تلخيص اسماعيل مظهر



— ١ —

اسمهُ الحقيقي ڤلاديمير الياڤتش اوليانوف. ولد في سمبرسك بجنوبي روسيا سنة ١٨٧٠ من اسرة معتدلة الثروة ، بل تعد في الوف من الاسر ذوات اليسار . شقت طريقها الى طبقة الاشراف الوسطى من فئة الزراع . ولقد حامت احلامه خلال شبابه ثم تكوَّنت مطامعه في فتوتهِ ، من حادث مؤلم هزَّ اعماق نفسه ، هو قتل اخيه الاكبر سنة ١٨٨٧ لانه حاول اغتيال القيصر . ويقال أن هذا الحادث كان سبباً فيما رؤي بعد ذلك من حدة مزاجه وصلابته وسعيهِ الدائم المستمر في سبيل ان يقتلع من الارض اصول الاستبداد والمستبدين ، وان يقضي على الطغاة ويدك عروشهم الى الحضيض ، وان يولي المستضعفين والمنبوذين ملكوت الارض

كان هذا بالضرورة سبباً في ان يصبح من الدّ اعداء القيصر وحكومته ، كما كانت دعوته الى التحطيم والهدم في اصول الملكية الفردية والطغيان ، عاملاً على اضطهاده . اينما حل وحيثما كان وفي أية بقعة من بقاع القيصرية فروقب واسر وحبس ونفي الى سيبريا ثلاث سنوات ثم ظل يتسكع في نواحي اوربا كلها. على انهُ كان خلال كل هذه الاطوار دئباً على القول والعمل ، يجمع من حوله الرجال ويهيء الافكار لدعوتهِ القوية الجريئة . ولقد اخذ بضلع وافر من ثورة روسيا سنة ١٩٠٥ . ولا نبالغ اذا قلنا ان لنين كان له في تلك الثورة الاثر الاوفى والشأن الاول . وفي النهاية هيأت له الحرب العظمى

نيقولاي لنين

الفرصة الذهبية . فلما قام في روسيا نظام كرنسكي سنة ١٩١٧ عاد اليها ، وبقليل من المهارة مع كثير من حسن الحظ وسعد الطالع وجد نفسه يوماً على رأس الحكومة الروسية ، يسود سلطانهُ من ملايين البشر ما لم يسد نابوليون ولا القيصر ولا موسوليني . اما انتقاله بين يوم وليلة من حاله الاولى الى الثانية ، والفارق العظيم بينهما ، فلا يعبر عن مثل كلماته التي قالها لتروتسكي « ان الانتقال من حالة التشرد ومطاردة القوانين الى السلطة المطلقة ، امر فيهِ من الخشونة ما يجعلني اشعر بالاضطراب والدوار » . ثم رسم علامة الصليب امام وجهه !

ما هي العوامل التي دفعت لنين الى ان يسلك في الحياة هذه الطريق ؟ سؤال اختلف الناس في الاجابة عنهُ . فالمعجبون به يقولون انه لم تحركه شهوة نفسية ولا مطامع شخصية وانه نسي نفسه وانكرها في سبيل تحقيق غرض اسمى ومثل اعلى ، وانهُ لم يطلب المجد الدنيوي ولم ينشد القوة والسلطان كأن التاريخ لم يثبت مرة بعد اخرى ان الامعان في حب القوة والتهالك عليها ، قد يظهر ملابساً صورة الاستنكار لكل مظاهرها الخارجية . وليس في العالم من مطمع اوسع من ان تهدم الدنيا ثم تبنيها

***

قضى لنين اربعين عاماً من عمره يعد نفسه لسنوات ست ، من سنة ١٩١٨ الى يوم مصرعه . تلك التي كان فيها سيد روسيا . قضى الاربعين سنة الاولى في احلام وآمال — « ولا بد للانسان من اشياء يحلم بها » كما قال . قضاها يقرأ على الدوام ، وقد ينفق خمسة عشرة ساعة وعينه لا تفارق الكتاب ، وعقله لا يفتأ في تفكير ليقيم الفروض ويرسم الخطط لكل ما يحتمل ان يصادف طريقه من صعاب او عقبات او طوارىء . كانت حياة مليئة بالجهد المستمر . حياة تركزت بكل قواها حول غرض واحد وامل بعينه

واتصل بكتابات مركس . اما ماذا كان يحتمل ان يكون لنين بغير مركس ، فذلك ما لا يمكن التكهن بهِ . ولكن المحقق ان مركس هو الذي كوّن لنين من الناحية العقلية . لقد قضى ساعات طويلة مكبّاً بامعانٍ على مؤلفات مركس ، يدرسها ويستوعبها ليهضمها ، ثم يكتبها مرة اخرى بقلمه ، ولكن ليعدّل فيها بعض الشيء . ولا شك في ان المبدأ الذي تدور من حوله نظريات مركس ينحصر في الجلاد الدائم المستمر العنيف المجرد من كل معنى من معاني الشفقة والرحمة او محاسبة الضمير ، بين العامة واصحاب رؤوس الاموال . جلاد يجب ان يشهر وان تكون وسائله كل الوسائل الممكنة مشروعة وغير مشروعة ، حتى يتم النصر الاخير للايدي العاملة فيصبحوا السادة بعد ان كانوا العبيد . على ان في نظريات مركس الاجتماعية من ريح الغيبيات الالمانية قدراً يجعل من الممكن تفسيرها على وجوه عديدة ، حتى ان كثيراً من اتباعه يرون في نظرياته وجوهاً لا يراها لنين . ولكن الداعية الروسي كان يحب البساطة ، ونظريات

مركس مجردة عن الغيبيات وافقت مزاجه وتمشت مع مراميه في تكوين فلسفة جديدة للحياة وقواعد مثمرة في نظام الحكومة والادارة . فعلّم مركس وبشر بمركس وعاش في مركس ، وبأسرع مما يتصور الخيال وُهبَ الفرصة ، فمثّل دور مركس على مسرح الحياة الصحيحة ، لابساً من صوره صورة مسمومة ، كانت ولا شبهة تدهش استاذه اذا هو رآها رأي العين ، ان لم تربكه ، بل وترعبه

مما لا يمكن انكاره ان الهدم والتحطيم والتمزيق واقتلاع اصول ما ثبتت اصوله من الصفات الاصيلة في طبيعة لنين . ولما امتلك السلطة واصبح صاحب الامر ، انفرد بكل شيء واحتكم وطغى وتجبر ، بلا اي احساس بشفقة او رحمة . ولكنه لم يكن في هذا بعيداً عن اشباهه من الناس فانه كان كأمثاله يكره ان يقهر ، فأمّر نفسه بنفسه ، ولسان حاله يقول نفس عصام سوّدت عصاماً

لقد آمن كأستاذه بالثورة ، فاتخذها مبدأه وغرضه . ومن قبل لنين بمائة عام تخيل « توماس بين » Th. Paine شيئاً من تلك الثورة الخيالية المثالية ، ولكن لنين حاول ان يجعل من ذلك الخيال حقيقة واقعة . فبعد ان قلب روسيا رأساً على عقب ، حاول ان يقلب نظام اوربا واميركا وآسيا . وليس من المستحيل حتى الآن ان تثمر احلامه وتتحق آماله

غير اننا لا ننصفهُ اذا لم نقل بان الرجل فكّر في البناء كما فكر في الهدم . فانك بعد ان تهدم الدنيا وتمزق شمل النظام الرأسمالي العتيق وسياسة « البورجوى » ، عليك ان تفكر فيما يقوم مقامها ويحل محلها من النظم . وفي هذا فكّر لنين . فوضع القواعد المفصلة ، وكتب الوفاً من الصفحات ليشرح فيها ذلك النظام الذي تخيله ليكون اساساً لدكتاتورية « الصعاليك » كما سماهم على ورق النقد البلشفي ، بل واخذ يبين الاعاجيب التي يمكن ان تترتب على نظامه ذاك وما يجلب من خير على الانسان والانسانية . على انه لم يسلم من غيبيات ماركس وخيالياته . قال:—

« اننا اذ ندعو الى الاشتراكية ، انما ندعو اليها معتقدين انها لا بد من ان تنقلب الى صورة من صور الشيوعية ، التي يجب ان تنبذ كل حاجة الى استعمال القوة واخضاع الناس بعضهم لبعض ، وتسلط طائفة من طوائف المجتمع على سواها ، مادام الناس سوف يعتادون ان يروا النظام الاجتماعي قائماً من غير حاجة الى استعمال القوة أو وسائل القمع » — غير انه استدرك فقال ان الهدم له وسائله التي لا بدّ منها ، وان الهدم يجب ان يسبق البناء على اي حال

على هذا مضى لنين خلال الاربعين عاماً التي انفقها ليتكوّن ويستعد . وفي سنة ١٩١٨ تسنم الرجل عاتق القوة ، وما لبث بعد تسنمها حتى بان للعالم ان منظماً عظيماً ظهر على مسرح التاريخ الانساني . ولقد أبدى كثير من الكتّاب اقصى العجب في مقدار الفرق الذي ظهر بين لنين الخيالي الحالم في فجر حياته ، وبين لنين العامل المنفذ في كهولته . والمرجح ان لنين العامل المنفذ كان الرجل الحقيقي الكامن في لنين الخيالي الحالم ، وانه كان ينتظر سنوح الفرصة .

فلما فتح الباب عبره لنين الثاني ، تاركاً وراءه لنين الاول . فظهر لنين السياسي المحنك المجلوُ في ثوبه الصحيح . ظهر في ثوب الرجل المجرب الذي يجبُ ان يحتنك الرجال فيفرزهم ثم يغربلهم ثم ينتقيهم ليخرج منهم مجموعة متلائمة تخدم اغراضه . وان من العجب حقًّا ان يبدو لنين وهو في حدود الخمسين من عمره في ذلك الثوب القشيب ، من غير ان يعالج الحكم أو يجرب السلطان من قبل ذلك . ولكن يجب الآ ننسى ان تجارب يوليوس قيصر وكرومويل في الحياة كانت مثل تجارب داهية العصر الحديث . غير انك لا تنسى ان في لنين اجتمعت عدة صفات اهلتهُ لان يكون ما كان . كان شديد الثقة بنفسه . فيحاول ان يضع اخطر ما يقرر السياسيون موضع التنفيذ بنفسه ، ولكن لمبدئه لا لها . واذا فرض انه لم يكن ليضع كل ما يقرر عمله في نصاب الحق ، افكان في مقدور غيره ان يضع احسن مما وضع ، أو يحكم التدبير اكثر مما أحكم ؟ احب السلطة وعشق القوة لينفع بها اناساً وليضر بها آخرين . وهذا امرٌ تأباه النفوس الكريمة الهادئة ، ولا تجيزه . غير انهُ بجانب هذا كان متحققاً من انه ارتكب خطأ ، ولم يتوان مرة في ان يعترف باخطائه . كان يعرف انه عظيم وانه قوي وانه ذو سلطان بحيث استطاع ان يقف امام اتباعهِ ليقول لهم « ان الذي رأى انهُ سائر في طريق الغواية يجب ان يعود اعقابه . وان الذي بدأ عملاً ثم اتضح له انه مخطيء في وسيلة يجب ان يبدأ العمل من جديد مرة اخرى . وعملنا الذي نعمل الآن يجب ان يدرس عمليًّا . وحتى ندرسه على نور التجربة ، لا يحق لنا ان نؤمل اننا سوف نجتاز التجربة سالمين ، أو نؤمل اننا فزنا بحق في قيادة امتنا » — ولم يكد يفوه بهذه الكلمات حتى اخذ يهدم ما بنى ويحطم ما شيد ، واخذ ينفذ بلا تردد سياستهُ الاقتصادية الجديدة ، كما سماها ، والتي اعترف فيها بضرورة المزج بين النظام الرأسمالي المبغوض وبين الشيوعية الى حد ما والى زمان ما . وكان اخلاصه ، كما كان نشاطه واستغوائه لاتباعهِ ، صفات كفلت له ان يسير وراءه الناس حيثما سار

***

لا يبعد أن يكون اوفق محك لقياس العظمة في قدرة المرء على ان يخلق بين نفسه وبين الظروف القائمة من حوله . ولا شك في ان هذه القدرة كانت من اخص صفات لنين . قال مرة : « ان فن الحكم لا يمكن ان يستوعب من الكتب . جرب وارتكب اخطاء وادرس كيف تحكم » . وكان يقول بان الانسان يجب ان يحتك بالحياة ليبلو الحياة . قال — « ان مثل هذه الاشياء ، لا يمكن ان يجاب عنها جواباً شافياً الا من الحياة ذاتها »

من اجل هذه الاقوال رماهُ البعض بانهُ « انتهازي » — Opportunist — غير انهُ ابعد الناس عن ان يكون هذا . على ان يكون الانتهازي ذلك الرجل الذي يلقي بسمعهِ دائماً

الى الارض ليسترق منها الاسرار ويماشي الناس ابتغاء النفع ويرقب دائماً من اين سوف تهب الرياح ليفرد فيها اشرعتهُ ويسير ولكن لا يعلم إلى أين ؟ على الضد من هذا نجد لنين. نجد فيهِ «الحيوية» التي رأيناها في قيصر ونابليون ولكن ، تلك الحيوية التي تتحرك في ذاتها ولذاتها بعيدة عن التأثر بالفرص السانحة كيفما كانت ، وتمضي حادة البصر والبصيرة ، وتغير دائماً مجرى الحوادث في سبيل الوصول الى غرض اسمى يتخذ في الحياة هدفاً يسعى اليهِ

— ٢ —

مهما يكن من امر تلك الاحتمالات التي يلوكها بعض الكتاب والتي يوازنون فيها بين نجاح لنين واخفاقهِ ، فلا شك في ان الرجل قد رمى في كل حياتهِ الى غرض واحد انحصر في ان يقيم الحياة الانسانية على طراز مثالي جديد . ولا بد من ان يكون لرجل اراد ان يتم ما اتم لنين في معركة حامية الوطيس ، وسائله وسواعده من رجال ونساء . ولاجرم انهُ درس الرجال كما درس النساء . فان حياتهُ البوهيمية وتسكعهُ في انحاء اوربا مكّناه من ان يدرس كل الاوساط الاجتماعية ، وعوداهُ على ان لا يستوحش في اية طبقة من طبقات المجتمع . على ان كل هذا الدرس الواسع الذي استوعبهُ لنين من الحياة كان لغرض معين — لم يكن مجرد درس اكاديمي لاستيضاح الطرق التي تتمشى فيها القلوب وتخفق في شعابها الافئدة ، بل كان تصنيفاً كاملاً للرجال على قاعدة الاستفادة من مواهبهم بقدر ما يصل اليهِ مستطاع كل منهم ، وتسخيرهم جميعاً لخدمة الغرض الاسمى

ولقد كانت نتيجة هذا الدرس العميق ان لا تفوز الانسانية من هذا الداهية الاَّ بالاحتقار. قال « برترند رسل » وهو على بعد نظره عميق الفكرة كيّس « لقد ثبت في نفسي أنهُ يحتقر كثيراً من الناس ، وانهُ ارستوقراطي الرأي » . على انهُ لم يستثن من الناس اهل روسيا ، شأن البعض ممن يحتقرون العالم ويمجدون امهم زوراً . وقد يكون هنالك بعض المبالغة في قولهِ المأثور — « في مقابل كل بلشفي صادق نجد تسعة وثلاثين افاكاً وستين مغفلاً » . غير ان هذا الحكم ان عبّر عن شيء فانهُ انما يعبر عن مرارة التجربة في ظروف عديدة

والطُّرفة العجيبة في هذا تنحصر في التناقض الواقع بين احتقاره للانسانية عامة ولاهل روسيا خاصة ، وبين ان نظريته في الحكومة قد قامت على قدرة الجماهير في الحكم وذكائهم ومقدار ما يمكن ان تنتفع الانسانية بجهدهم . فمحور سياسته يقوم على ان الطبقات العاملة والجماهير عامة ، يجب ان يحكموا ، ليثبتوا في مواجهة الخاصة أن في مستطاعهم ان يحكموا وان حكمهم لا ينقصه الذكاء ، ولا تعوزه الامانة والمقدرة . كان يقول « زودوهم بالتجربة وعلموهم وعودوهم فضائل الاعتماد على النفس والنظام وهم يستطيعون ان يحلوا العقدة بأنفسهم . فاذا لم يستطيعوا حلها فلن يستطيع احد »

ومع هذا فان « بعضهم » يجب ان يرشدهم الى حل العقدة . وانهُ لمن الممتع حقاً ان تنعم النظر في الطريق التي رسمها « بعضهم » هذا ، فاذا بها تلك الآلة السياسية الهائلة التي حاول لنين ان يقيم قواعدها على ارض روسيا القيصرية . بدأت بأن تكون دكتاتورية « الصعاليك » وانت اذ تسمع اقواله او تقرأ ما خطت يراعته ، لا تشك في ان جمهور الذين يشغلون المصانع ويجوبون الحقول الواسعة هم الذين يحكمون ، وهم الذين يحركون دولاب الادارة من طريق جمعياتهم المنظمة على الشريعة الشيوعية ، وانهم يوجهونها الى خيرهم العام . ثم لا تلبث غير قليل اذا امعنت في النظر حتى ترى ان القوة المحركة انما تنحصر في يد الحزب الشيوعي ، وهو حزب اقلية اذا قيس بعدد النسمات في روسيا وجلهم لا يفقه من الامر شيئاً . وقد لا تعجب ان تعلم ان هذا الحزب لا يتجاوز عدد اعضائه نصف مليون من مائة مليون روسي . ثم لا يغرب عن بالك ان الوحي الذي يوحى بهِ الى هذا الحزب يلقى الى اعضائه من سماء عليا لا يتربع على عرشها الا بضعة ارواح موهوبة ، ويقف على هاماتهم نيقولاي لنين مشرفاً بهامة الجبار ذي البطش على ما يترامى تحت قدميه من بسطة القوة والغلبة والاستعلاء ، فيصبح هو « دكتاتورية الصعاليك » ولا احد ، بل ولا شيء ، غيره

غير ان الجماهير انما تتكوَّن من رجال ، ولذا يجب ان يعالجوا باعتبارهم افراداً اولاً . وهذه حقيقة لم يدركها احد بقدر ما ادركها لنين . فمنذ اول ساعة خرج منها الى ميدان الحياة العامة طفق يدرس الرجال والنساء وبواعثهم النفسية وشهواتهم وكفاياتهم . ولكن بفكرة ما يمكن ان يؤدوا من خدمة للغرض الاسمى الذي احتكم في كل اطراف حياته . وان كثيراً من مذكراته وتعليقاته لتظهرنا على مقدار ما بلغ اليه حكمه على الناس وعلى الطبقة البشرية من بعد النظر وصدق الحدس

ولقد فرق بين الطرق التي عالج بها الناس ، بقدر ما اختلفت طباعهم . فهذا يكفي لقيادته نظرة رضى ، وذاك يحتاج الى الاقناع وقوة البرهان ، لتقوده بالزمام . وغير هذا وذاك صنف عرف لنين انهُ لن يقاد الا بالامر الصارم . كان الالمانيون في عداء مع روسيا ، ولكنه اذا استطاع ان يستخدم نفوذهم لانقاذ روسيا ، فانهُ لا يتلكأ في [illegible] على ما كان في افراده من فساد ، استخدمهُ لنين واغراه بالمال ليؤيد قضية السوفيت ويعمل على انجاحها . ولكن قدرة لنين من هذه الوجهة لم تتجل بقدر ما تجلت في نجاحه بأن يوفق بين طبيعتين متناقضتين كطبيعة ستالين وتروتسكي ويصرفهما الى العمل معاً كما رام ، زمامهما في يده . ولقد اختلفا وتناقضا بمجرد ان افلت العنان من يد السائس الماهر

اما اعداؤه فقد كانوا موضع عنايتهِ اكثر مما كان اصدقاؤه . فقد حوطه منهم سياج اخذه ذات اليمين وذات الشمال . ولقد شطب لنين من قاموس سياسته كلمة « التسامح » . فانت

اذا لم تكن معهُ ، كنت ضده ، ولذا فهو ضدك وحرب عليك بكل ما اوتي من قوة فان تنازع البقاء بين الكافة والعامة ، مبدأ اخذ بخناقه منذ نشأته الاولى ، ولم يتركه ساعة واحدة. فالدنيا منقسمة في نظره الى معسكرين، وعلى معسكر الكافة تساقط غضبهُ واحتقاره كسفاً متراكمة . غير ان نقمته لم تبلغ من الشدة في اعدائه بقدر ما بلغت في معاملة من كانوا له اصدقاء يوماً ما. لقد خانوا القضية واختلفوا مع نيقولاي لنين . وكان هذا كافياً لان يعتقد لنين ان افتراسهم عاجلاً خير من معالجتهم ومحاولة اصلاحهم مرة اخرى

انهُ لم يكره فقط . بل احتقر في الغضب والنقمة. فاعتبر الذين يخالفونهُ في الرأي اكثر من خونة . لم تخدعهُ الكلمات ولا النظريات . ولذا تراه استعمل السلطة بمجرد أن اخذها في يده ، من غير ان يفكر في الرحمة ولا في الغفران ، لاعتقاده ، ان الملاينة والاغراء والاقناع ليست من الوسائل التي يمكن ان تنجح بها الثورة . لقد درس لنين نظريات « سورل — Sorel — في استخدام العنف ، فكان لهذا نتاجه واثره في حياته . قال مرة « هنالك ثوريون يعتقدون انهُ في مستطاعنا ان تنجح الثورة باستعمال الشفقة والحب . نعم ؟ في اية مدرسة تعلم هؤلاء ؟ وعلى اية وجهة يفهمون معنى الدكتاتورية ؟ وماذا يصيب الدكتاتورية اذا كان القائم على رأسها ضعيفاً مهزول الارادة » ؟ — فرمى بالرصاص وشنق وعذب وأثار حكم الارهاب بكل معانيهِ وفي اشنع صوره . كل هذا باسم المثل الاسمى !

ومما لا يبعد عن الواقع ان تكون هذه الدنيا في حاجة الى انقلاب يدك نظامها رأساً على عقب . والله يعلم ان الاجتماع الانساني في حاجة الى هذا . ولكن هل من الضروري ليكمل هذا ان تقوم وسائله على الكراهية والبغض والتعصب والانتقام ؟ على اية حال لم تكن هذه وسيلة عيسى . ولكن من المحتمل ان فكرة عيسى في الانسانية كانت اسمى من فكرة لنين

— ٣ —

هذا ما كان من امر الوسائل الانسانية التي استخدمها لنين وموقفه ازاءها في العمل على انجاح غرضه الاسمى . ولكن ماذا كان موقف الانسانية ازاء لنين ؟

لم يثبت التاريخ من نظرية أكثر مما اثبت نظرية « ان البغض يولد البغض » عرّف الجماهير بانك تبغضهم وتحتقرهم وتكرههم ، وهم لا يلبثون ان يردوا لك الصاع صاعين والكيل كيلين ، في نفس ما كلت لهم . يكيلون لك البغض بغضاً والاحتقار احتقاراً ، ولكن في صورة ابلغ ووحشية اشد . وها نحن نجد ان ما كتب ضده قد تجسم فيهِ من البغض والاحتقار اضعاف ما كال لنين لاعدائهِ من هذه التجارة

فانحداره من سلالة تترية كانت سبباً في حملة شعواء اظهر فيها الكتاب انهُ ممن لا يعنون

بالوسائل في سبيل الوصول الى الغرض ، ما دامت الوسائل مؤدية اليهِ . حتى لقد رماه بعض النقاد بما رمى بهِ هو الشعب الروسي فقالوا — « ان ما حدث في روسيا لم يكن سوى انتقال من عنف وحشي الى امتهان شديد»

وانك لتعجب اذ توازن بين ما يقول اصدقاؤه ومحبوه ، وبين ما يقول اعداؤه . يقول الاصدقاء بأنهُ رجل لين العريكة هادىء الطبع وانهُ نظر الى الغرض الذي رمى اليهِ من وجهة انسانية صرفة ، وانهُ لما كان مقيماً في سيبريا اختلط بالشعب ودرس احواله وتعرَّف متاعبه واسباب شقائه وحاجاته وضروراته ، وانهُ لما اصبح الحاكم بأمره لم يتوان لحظة واحدة في ان يضع هذه الاشياء موضع النظر والاعتبار . ويقول اعداؤهُ انهُ لم ينظر في الحياة الاَّ باعتبارها كمية حسابية او معادلة جبرية ، وان الشهوات الانسانية وما تقاسيه الجماهير من متاعب الحياة لا قيمة لها عنده في قياس الانسانية وانك لترى ان لنين لم يزن الحياة الفردية بأي ميزان ولم يدرك لها من قيمة

على انهُ مهما اختلف الاصدقاء والاعداء في كل ما تعلق بحياة هذا الرجل،فقد اتفقوا على امر واحد ، هو ان لنين كان ذا قدرة فائقة على التأثير في الاشخاص . وسواء كان هذا التأثير للخير ام للشر ، فذلك امر يمكن ان يختلف فيهِ . ولقد بلغ من سحره ان كثيراً من الذين كانوا يختلفون معهُ في الرأي والوسيلة . كثيراً ما كانوا يخدعون عن عقيدتهم بسحره فينفذون ما يلقي بهِ لنين في روعهم ، من غير ان يعرفوا ماذا يعملون . قال كاتب «ان من لم يحتك بلنين ولم يقرأ ما كتب ، لا يستطيع بحال من الاحوال ان يدرك اي اثر لهذا الرجل واية قوة تفرضها ارادته الحديدية على الناس ، والى اي حد بلغت سلطته العقلية على الذين يدرسونه . لقد اخذ لنين ، على عاتقه ان يقلب روسيا الاوربية حتى يصبح سافلها عاليها ، وماشاه الناس والرجال المحدودون وساعدوه في عمله بكل ما اوتوا من قوة الذكاء والكفاءة، كما يساعد اطفال صغار اباهم في عمل ما »

***

هذه صورة مقتضبة للرجل الذي اختفى وراء الحرب العالمية ليجني اول ثمراتها . ولئن لم يكن لتلك الحرب الضروس من اثر الاَّ تهيئة لنين لان يبرز الى الصفوف الاولى من جيش الانسانية اللجب ، لكفى بها ان تكون ذات اثر بالغ في تحويل مجرى الحياة الانسانية الى وجهة جديدة . اما الحكم على مقدار ما سوف ينتج عن هذا الاتجاه من خير أو ضرر ، فذلك امر مرهون على حكم الاقدار

كيف خلق الله المرأة

لتوفيق مفرج [1]

جاء في الاساطير القديمة ، حديث بديع ، جميل ، عن كيف خلق الله المرأة وهذا الحديث يفوق ببلاغتهِ ، ومعانيهِ ، قصة الخليقة بحسب نصوص التوراة

* * *

في البدء خلق اللهُ العالمَ والسموات والارض، ومافيها، وماعليها ، ثم خلق الرجل ولما جاء ليصنع المرأة وجد انهُ قد استنفد في صنع العالمَ والرجل جميع المواد والعناصر التي كانت لديه

فحزن الخالق واخذهُ سبات عميق

ولما استفاق عمد الى هذا العالمَ واستخلص منهُ المرأة كما يأتي

* * *

اخذ من القمر استدارتهُ، ومن البحر عمقهُ، ومن الامواج مدَّها وجزرها، ومن النجوم لمعانها ، ومن شعاع الشمس حرارتهُ ، ومن الندى قطراتهِ ، ومن الريح تقلبها وعدم ثباتها، ومن النبات ارتجافهُ وارتعاشهُ، ومن الورد لونهُ وعطرهُ، ومن الازهار تحملها ، ومن الاوراق خفتها ، ومن الاغصان تمايلها ، ومن حفيف الاشجار حنينها وانينها ، ومن النسيم لطفهُ ورقتهُ ، ومن الراح نشوتهُ ، ومن العسل طعمهُ ، ومن الذهب توهجهُ ، ومن الماس قساوتهُ ، ومن الحية حكمتها ، ومن الحرباء تلوّنها ، ومن الغزال شرودهُ ، ومن المهى عيونها ، ومن الارنب نفاره وحياءهُ ، ومن الطاووس خيلاءهُ وزهوه ، ومن الاسد شراستهُ وقوتهُ ، ومن الزمن خيانتهُ وغدرهُ ، ومن الثعلب مكره وروغانهُ ، ومن العقرب لدغتهُ، ومن اليمامة نغمتها ، ومن الببغاء هذيانها وكثرة كلامها

ثم جمع جميع هذه المواد وسكبها في بوتقة وصنع منها المرأة

واخذ الله المرأة واعطاها للرجل

* * *

وبعد اسبوع جاء الرجل الى الخالق قائلا

يا رب — ان المرأة التي اعطيتني قد سممت حياتي ووجودي

انها تتكلم بلا انقطاع

انها تبكي بلا سبب

(١) راجع باب مكتبة المقتطف

انها مستضعفة نحيفة ومطالبها لا حدّ لها
انها تشكو من اقل شيء
وتتألم من كل شيء
خذها وأرحني منها يا ربّ

* * *

وأخذ الله المرأة

* * *

وبعد اسبوع عاد الرجل الى الخالق قائلاً
يا رب — ان حياتي من دون المرأة اشبه بالوحدة والانفراد
كل العالم الذي اعطيتني اشبه بمنفى لي
انا تاعس من دون المرأة
اني اتذكر كيف كانت تغني لي وترقص امامي
كيف كانت تنظر اليّ بانعطاف من طرف مقلتها
كيف كانت تبتسم فتجدد نشاطي . وتضحك فتبدد همومي
كيف كانت تلاعبني
كيف كانت ترتمي بين ذراعي
كيف كانت تحبب اليّ الحياة
كيف كانت تخفف آلامي ، وتمنح لذةً لاحلامي
ارجعها اليّ يا رب

* * *

وأعاد الله المرأة الى الرجل

* * *

وبعد ثلاثة ايام رجع الرجل الى الخالق باكياً شاكياً
يا رب — انني لا افهم نفسي — لكنني متأكد ان المرأة تزعجني اكثر مما تريحني وتسرني
فغضب الخالق وقال — خذ المرأة ايها الرجل واذهب ولا تعد اليّ
وصاح الرجل — انني لا استطيع ان اعيش معها
فأجاب الرب — ولا تستطيع ان تعيش من دونها

* * *

وأخذ الرجل المرأة وهو يندب سوء حظه ويقول : — يا لشقائي انا لا استطيع ان اعيش مع المرأة . ولا استطيع ان اعيش من دونها !

بحث فى «الدبلوماسية»

العلاقات الدولية عامة — المعاهدات والاتفاقات — التمثيل السياسي والقنصلي

(١) العلاقات الدولية عامة

عرّف السر إرنست ساتو ، وهو من كبار الثقاة في العلاقات الدولية والدبلوماسية ، ما يسمى بالدبلوماسية Diplomacy[1] بقوله: انها «استعمال الذكاء والكياسة في ادارة العلاقات الرسمية بين الدول المستقلة متعدياً ذلك احياناً الى علاقاتها بالدول المستعمرة » ، وعلى ذلك فان بحثنا هذا ينطوي على دراسة هذه العلاقات متمثلة بالمعاهدات والاتفاقات والتمثيل السياسي والقنصلي

من المعلوم ان العلاقات بين الجمعيات البشرية التي كانت نواة الدول الحديثة قديمة جداً ، فان القبائل البسيطة الساذجة كانت — ولا تزال — تحدث بينها علاقات سلمية ومفاوضات بسيطة لحل الامور المشتركة بينها . . . وكثيراً ما كانت القبائل هذه تندب لذلك الاشخاص اللائقين من ذوي المقدرة والدهاء لقضاء هذه المهمات . ولقد كانت للعرب في جاهليتها بعض العلاقات من هذا القبيل فكثيراً ما كان يندب من صناديد العرب للمفاوضة بين قبيلتين لحل النزاع وحقن الدماء . والتاريخ العربي يذكر لنا ان « عمر بن الخطاب العدوي » الخليفة الثاني كان يدعى بـ « سفير قريش » في الجاهلية ، لان هذه القبيلة العربية كانت ترسله الى القبائل الاخرى للمفاوضة وحل المشكلات . . والتاريخ من جهة اخرى يؤكد لنا انه كان لقدماء المصريين واليونان سفراء يرسلون الى الامم الاخرى في مهمات دبلوماسية

الا ان هذه العلاقات ازدادت ونمت نمواً سريعاً على أثر تقدم البشر وتطور نظام عمرانهم واجتماعهم فنشأ ما نسميه اليوم بـ « القانون الدولي » و « الدبلوماسية الحديثة »

إن الدبلوماسية الحديثة ترجع الى التاريخ الذي نشأت فيه بعثات دائمة في القرن الخامس عشر الميلادي في ايطاليا للقيام بادارة العلاقات الدولية ، اذ ان القرون الوسطى لم تكن تخلو من وفود ، تقتصر مهمتها على زمن محدود وغاية معينة واحدة ، يقوم بها بعض رجال الدين او الاشراف ، وليس كذلك احد من المعتمدين الدبلوماسيين الذين ينتخبون من طبقة

---

(١) استعملت هذه الكلمة لاول مرة في انكلترا متأخراً نحو الى سنة ١٧٩٦ من قبل « برك » السياسي الكاتب الانكليزي المشهور — فالكلمة حديثة العهد ، لكن الاصول الدبلوماسية قديمة ...

دبلوماسية محترفة تقوم بتوثيق الروابط والعلاقات بين الدول بصورة فنية منتظمة . اما في العصر الحاضر فان العلاقات نمت نمواً سريعاً جداً فالسفراء والقناصل منتشرون في انحاء الكرة الارضية والمعاهدات تعقد بصورة سريعة والمؤتمرات الدولية تقرر مواثيق خطيرة . زد على كل ذلك « عصبة الامم » التي اصبح لها مقام ممتاز في العلاقات الدولية ، فهي نواة الدولة العالمية المتحدة التي يحلم بها بعض الكتاب[1] . نعم، انا لا انكر ما يدعيه بعض المفكرين من ان هذه العصبة انما هي في الوقت الحاضر « عصبة حكومات » وليست « عصبة امم » الا انني اعتقد ، برغم ذلك ، ان هذه المؤسسة خطوة خطيرة جداً في سبيل توثيق العلاقات بين امم الارض قاطبة . وهل يعجب القارىء الكريم اذا قلت له ان كثيراً من الروس النازحين عن بلادهم يحملون اليوم جوازات سفر عالمية اصدرتها لهم « عصبة الامم » هذه ، وهي فوق ذلك مؤتمر دولي دائم لمحاولة حل جميع المشكلات والقضايا التي تحدث بين الدول المنتمية اليها والمنتظمة في عضويتها

إما العوامل ذات الاثر في توثيق عرى العلاقات بين الدول فكثيرة بعضها رسمي وبعضها غير رسمي . واليك اهم هذه العوامل مضافاً اليها « عصبة الامم » المارة الذكر :

(١) محكمة العدل الدولية (٢) مؤسسة العمال الدولية (٣) اتحاد الطلبة الدولي في جنيف (٤) الالعاب الاولمبية (التي اعيدت عام ١٨٩٦) (٥) مؤسسة الشؤون الخارجية الملكية في لندن التي انشئت سنة ١٩٢٠ وغيرها ... ان هذه العلاقات تتخذ صبغة رسمية دائمة وتشتد وتقوى بالمعاهدات والاتفاقات والتمثيل السياسي والقنصلي ، فلنبحث في ذلك الآن :

(٢) المعاهدات والاتفاقات

ان المعاهدات والاتفاقات عقود بين دولتين او اكثر . والفرق الوحيد بين العقود الفردية والعقود الدولية هذه ينحصر في ان ليس ثمة قوة عدلية تسيطر على هذه الاخيرة الا عند وجود نص فيها . اما عقود الافراد فالمحاكم في الدول المختلفة هي التي تسيطر على سيرها في مجرى العدل والانصاف . وان كلمة « Treaty » المترجمة الى العربية بـ « معاهدة » كانت تستعمل قديماً للدلالة على معنى « المفاوضة » ولكنها اخذت تدل اخيراً على معنى « خاتمة المفاوضة » التي هي المعاهدة في الغالب . وفي الاصطلاح الدبلوماسي الحديث تستعمل كلمة « معاهدة » للدلالة على عقدٍ دوليٍ مهمٍ فقط : اما العقود التي تكون دونها خطراً ودرجة فتدعى الواحدة منها بـ « الاتفاق Convention »

---

(١) او على الاقل نواة الدولة الاوربية المتحدة التي دعا اليها السياسي الفرنسي المشهور (ارستيد بريان) ووصفها زميله هريو في كتابه The United of States Europe

اما المعاهدات فقديمة ومتاحف الغرب تحوي نصوص معاهدات مكتوبة على الحجارة من عصر التوراة والاغريق والرومان . وللعالم الأثري المشهور « برستد » مجموعة نفيسة لصور نصوص معاهدات قديمة جداً . والتاريخ الاسلامي حافل بالمعاهدات كما ان مؤرخي الاسلام لم يخلوا في بحث قواعد المعاهدات لديهم واصولها. والقلقشندي صاحب كتاب «صبح الاعشى» يفرد لنا ثلاثة ابواب من كتابه لبحث «الهدن[1]» و«عقود الصلح والفسوخ الواردة عليهما[2]» وهو فوق ذلك يذكر لنا امثلة عديدة منها ، وما يلزم الكاتب في تحرير اوضاعها وترتيب قوانينها واحكام عقدها ، فهو يبين لنا كيف تكون الهدن بين اهل الاسلام واهل الاديان الاخرى ، وكيف تكون عقود الصلح بين ملكين مسلمين وان كل متعاقد يأخذ نسخة ويضع التاريخ الهجري عليها كما ان المفاسخة تكون من جانب واحد ومن الجانبين . والذي يتأمل هذه القواعد الموضوعة للهدن وعقود الصلح والفسوخ يجد تشابهاً عظيماً بينها وبين ما يسير عليه واضعو المعاهدات في وقتنا الحاضر . وفي الامثلة التي يذكرها « القلقشندي » يجد المتأمل تفصيلاً دقيقاً لكل شيء يجوز حدوثه بين المتعاقدين ورعاياهما مما يخص الشرائع الخاصة والشرائع العامة . وفي غالب هذه المعاهدات تذكر اسماء المتعاقدين والمندوبين ثم يشهد الله على ما كتب ويضاف في بعض الاحيان ان المتعاقدين صافحوا بعضهم بعضاً عنواناً للسلام بينهم وانهم تبادلوا النسخ المسجلة ، كما ان العرف جرى على تعيين المكان الذي تعقد به المعاهدة وتتم فيه المفاوضات . . . وفي الغالب ايضاً تكتب النسخة الاصلية باللغة العربية . والمعاهدة الحجازية — اليمنية الاخيرة هي على طراز المعاهدات الاسلامية هذه تماماً . .

والمعاهدات والاتفاقات انواع عديدة منها :

(١) المعاهدات السياسية : ومن هذا النوع معاهدات التحالف والسلام والصداقة وحسن الجوار Bon Voisinage (٢) المعاهدات التجارية : كمعاهدات تجارة الرقيق والملاحة وما الى ذلك . . . (٣) المعاهدات الاجتماعية : كمعاهدات اتحاد البريد المعقودة سنة ١٨٧٤ م وغيرها (٤) معاهدات العدل المدنية : كمعاهدة حماية العلامات الفارقة المعقودة في باريس سنة ١٨٨٣ (٥) معاهدات الزواج : وهذه تعقد عند زواج فردين من اسرتين مالكتين

وتوضع المعاهدات في قالب يكاد يكون عاماً فالمواد الرئيسية في كل معاهدة تقريباً هي :—

(١) المقدمة (٢) اسماء والقاب المتعاقدين الساميين (٣) ملخص غاية المعاهدة (٤) اسماء والقاب المفوضين بالعقد نيابة عن المتعاقدين الساميين (٥) فقرة تتضمن ان المفوضين بعد ان تبادلا اوراق اعتمادهما فوجداها صحيحة وموافقة للاصول اتفقا على هذه المعاهدة (٦) المواد بالتفصيل ويبدأ بالاهم منها (٧) مادة تخصص وتعين زمن ومحل تبادل النسخ المصادق عليها

(١) ج ١٤ ص ٢ — ص ١٠٩ (٢) ج ١٣ ص ٣٢٧ — ص ٣٦٦

فيما بعد ومحل نشرها ووقته (٨) التاريخ والتواقيع والاختام

وتوضع نصوص المعاهدات التي تعقد بين دولتين اما بلغة الدولة التي لها المقام الاسمى او بلغة احدهما والثانية باللغة الفرنسية واما باللغة الفرنسية للنصين . ولقد كانت اللغة اللاتينية لغة رسمية للمعاهدات حتى القرن السادس عشر خلفت محاها اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر. ولكل من الفريقين المتعاقدين ان يحضر نصوص المعاهدة بلغته على ان تكون كلمات النص مستعملة بمعناها الطبيعي الواضح وله ان يضع اسم حكومته في الاول وله ان يمضي اولاً في محل الشرف : وهو الجهة اليسرى من الصفحة . ولقد جرت العادة ان تكتب الصفحة الاولى من كل معاهدة باليد وكذلك الصفحة الاخيرة ، ويجوز كتابة سائر الصفحات باليد ويجوز كذلك كتابتها على الآلة الكاتبة

وهناك معاهدات غير مكتوبة يقول عنها بطر Potter[1]« انها ليست الا تناقض في التعبير » فان من شروط المعاهدات ان تكون مكتوبة ومدونة ومسجلة في دائرة رسمية معترف بها كسكرتارية عصبة الامم مثلا وهي التي تقرر ان تقوم بعمل « كاتب عدل » Notary Public لتسجيل عقود الدول او معاهداتها كما نصت على ذلك المادة ١٨ من ميثاق عصبة الامم وهي: « ان كل معاهدة او اتفاقية تعقد بعد تصديق معاهدة «فرسايل» من قبل اية دولة من الدول المنتظمة في سلك عصبة الامم يجب ان تسجل في السكرتارية وعلى هذه ان تنشرها في اقرب وقت ...» وعلى ذلك فان سكرتارية عصبة الامم تنشر اكبر واهم مجموعة للمعاهدات في العالم لاطلاع الناس عليها[2]

ويلحق عادة بالمعاهدات ما نسميه بالبروتوكول Protocole وهو عادة جزء لا يتجزأ من المعاهدة ، وقد تلحق بالمعاهدات مذكرات يتبادلها المفوضون بالعقد لتوضيح بعض مواد المعاهدة وما الى ذلك

ويجب ان تقرر ان المعاهدة لا تتخذ صبغتها القانونية ولا يمكن تنفيذ بند من بنودها الا بعد تبادل نسخها وابرامها ولقد علمت ان المعاهدة التي شذت عن تلك القاعدة ، وهي الوحيدة في بابها ،هي معاهدة تعديل الحدود بين مصر وطرابلس حيث انهُ قد نفذت بنودها قبل ان يبرمها البرلمان المصري . وعلى ذكر ابرام المعاهدات من قبل البارلمانات تقول ان من نتائج الحرب العظمى ان تقرر عدم اعتبار المعاهدة نافذة قبل ابرامها من قبل الهيئات التشريعية للدول التي تعقدها

والمعاهدات اصبح لها شأن واسع النطاق في هذا القرن ، فانها تعقد لتأسيس مؤسسات

(١) This World of Nations page : 129.

(٢) ان هذه النشرات عن المعاهدات تصدر تحت عنوان Treaty Series of the League of Nations

دولية خطيرة كالمحاكم الدولية والمؤتمرات الدولية ومواثيق السلام وغير ذلك مما يزيد في توثيق عرى التقريب بين دول العالم فليس ميثاق عصبة الامم وهو معاهدة خطيرة ، في حد ذاته ، الا دستوراً عالمياً خطيراً ... وميثاق كيلوغ نوع آخر من المعاهدات التي كان لها شأن خطير في هذا القرن . زد على ذلك ان المعاهدات اخذت تتكاثر بسرعة هائلة تفوق اضعاف سرعتها في السنين الماضية . كما ان تغيراً خطيراً حدث في طبيعة المعاهدات فلم يبق « في كل معاهدة فارس وفرس » كما يقول « تليران » السياسي الفرنسي المشهور ، فان اطلاقه هذا يجوز تطبيقه على المعاهدات التي سبقت معاهدة « فرسايل » ، اما على المعاهدات التي تلتها فلا اظن ذلك ، فليس في اتفاقات « لوكارنو » الموقع عليها سنة ١٩٢٥ مثلاً — على ما اعتقد — فارس أو فرسان وفرس أو افراس !

وتفسير منطوق المعاهدات امر صعب وعسير جداً في الغالب ، ولقد فكر المشرعون في القانون الدولي وبعض رجال فلسفة السياسة مثل كنت Kent وويتن Wheaton وجروتيوس Grotius وفاتل Vattel وغيرهم في الموضوع ، وافرد « فاتل » فصلاً كاملاً في كتاب له[1] لهذا الموضوع وهو يتفق مع « شيشرون Cicero » في « ان الوعد يجب ان يؤخذ على الشيء الواضح منه وليس على الشيء الذي يقصد به » ، وهو يعتقد كذلك انه « لا يجوز تفسير ما لا يحتاج الى تفسير » في المعاهدات . ولم يتمخض بحث الذين ذكرتهم الا عن طريقين مهمين فقط لضمان عدم الانحراف في تفسير منطوق المعاهدات وهما : (١) ان المعاهدات يجب ان تكتب بلغة واضحة طبيعية و (٢) ان ينص في المعاهدة على احالة الاختلاف في تفسير منطوق بعض موادها الى سلطة عدلية دولية كمحكمة العدل الدولية في لاهاي مثلاً ، وذكر النص المعول عليه في المعاهدات

اما سلطة عقد المعاهدات لدولة ما فينص عليها عادة في قانونها الاساسي (الدستور) ففي الحكومة الملكية مثلاً لصاحب التاج ان يبرم المعاهدة بقانون يقرره البرلمان بعد مناقشة المعاهدة وابرامها منه وقد جرت على ذلك الدولة المصرية والدولة العراقية وغيرها من الدول الملكية الدستورية . ورئيس السلطة التنفيذية في الجمهوريات يصدق على المعاهدات بعد ابرامها من قبل البرلمان ايضاً

وتدير شؤون المعاهدات من تحضير وتبادل نسخ وما الى ذلك في الوزارات الخارجية دوائر خاصة تدعى بدوائر البروتوكول ، فالحكومة الفرنسية مثلاً لديها دائرة تدعى بـ « دائرة البروتوكول » Le Bureau du Protocole وهذه الدوائر تدير علاوة على شؤون المعاهدات مكاتبات اوراق الاعتماد وبراءات القناصل مما سوف يأتي ذكره في بحثنا عن الممثلين السياسيين والقناصل ، وكذلك الكتب التي يتبادلها رؤساء الحكومات . وفي انكلترا دائرة تقوم بمثل هذه الاعمال وتدعى Treaty Dep't of the Foreign Office

(١) « Le Droit des genson principes » وهو في ٣ مجلدات

(٣) التمثيل السياسي والقنصلي

إن الممثلين السياسيين رسلُ الدول يقومون بادارة الشؤون والمصالح السياسية لدولهم لدى الدول الاخرى . كان الممثلون السياسيون قديماً على درجة واحدة وهي درجة « سفير » Ambassador لكن ذلك تغير في الوقت الحاضر فانقسم هؤلاء الى اربع درجات هي :

(١) السفراء (٢) الوزراء المفوضون والمندوبون فوق العادة (٣) الوزراء المقيمون (٤) القائمون باعمال السفارة أو المفوضية Chargés dé Affaires

ولقد تم تقسيم الممثلين السياسيين على هذه الصورة في النظام الذي وضع في مؤتمر فينا (١٠ مارس سنة ١٨١٥ م) . ثم تقرر هذا النظام نهائياً بعد تغييرات طفيفة فيه في مؤتمر اكس لاشابل Aix - la - Chapelle في ٢١ نوفبر سنة ١٨١٨ م . ولقد كان الممثلون السياسيون قديماً ينتخبون من قبل رؤساء الحكومات على اساس مقدرتهم في المفاوضات فقط بصرف النظر عن منزلتهم ودرجتهم في الهيئة الاجتماعية ، فقد كان من بين السفراء قديماً من كان كاتباً بسيطاً أو جندياً أو تاجراً ويقال ان لويس الحادي عشر ارسل حلاقه الخاص في مهمة دبلوماسية !

ولكن مهمة انتخاب الممثلين في الوقت الحاضر من اصعب المهمات وادقها فان الممثل يجب ان يكون لائقاً لمنصبه كلَّ اللياقة مستجمعاً لكافة الصفات اللازمة للقيام بتمثيل حكومته في الطبع الهادىء والرزانة والصحة الجيدة والطلعة الوسيمة والذكاء الوقاد مع الدهاء والعفة والنزاهة . اما من جهة المعارف فعليه ان يكون واسع الاطلاع على القانون الدولي والاقتصاد السياسي والاحوال السياسية للمملكة التي سوف يمثل دولته فيها . والحكومات تميل غالباً الى ابقاء ممثليها السياسيين في الدول التي يمثلونها فيها لكي يزدادوا خبرة واطلاعاً ولما يقتضي للممثل من المدة الطويلة للاطلاع التام على احوال تلك الدولة ... كما ان كثيراً من الدول الكبرى كبريطانيا مثلاً قد وضعت قانوناً خاصاً لاحالة الممثلين السياسيين على المعاش ، وبموجبه لا يحال الممثل قبل بلوغه الـ ٧٠ من عمره وفي حالات كثيرة يبقى فيها الممثل الى اكثر من ذلك

وبريطانيا العظمى من الجهة الثانية لديها وزارة للخارجية تعتبر من ادق وزارات الدول الخارجية ادارة وانتظاماً . وهي تعتني اعتناء فائقاً بانتخاب رجال السلك الدبلوماسي فالذين يتقدمون الى دخول هذا السلك يشترط عليهم اجتياز امتحان تحريري خاص — بصرف النظر عما يحملونه من الشهادات العالية — وهذا الفحص تضع اسئلته وتنظر في اجوبته لجنة عليا مؤلفة من كبار اساتذة الجامعات الانكليزية ، ومن ثم تفحصهم فحصاً شفهياً لجنة اخرى مؤلفة من كبار الموظفين واعضاء مجلس النواب البريطاني وآخرين ممن لهم علاقة واختصاص بالموضوع

للدول ان ترسل ممثلين سياسيين يمثلونها لدى الدول الاخرى وفقاً للاصول المرعية . الا ان الدولة لها حق رفض قبول ممثل دولة اخرى لاي سبب كان . ولذلك فقد جرت العادة ان تسأل الدولة التي تريد تعيين ممثل ما الدولة الاخرى عن رأيها فيه قبل تعيينه . وعند قبول الممثل ووصوله المحل المعين حاملاً اوراق اعتماده تجري تقاليد واحتفالات تتفق ودرجته لا مجال لذكرها الآن . كما انه على اثر مباشرته مهام منصبه يكسب الحقوق والامتيازات الممنوحة للمثلين السياسيين . ومن هذه الامتيازات عدم امكان القبض عليهم او حبسهم حتى في حالة وقوع حرب بين الدولتين ، ولا اذكر الا حادثة واحدة تشذ عن هذه القاعدة واعني بها موقف الحكومة التركية القديمة ازاء سفراء الدول التي تحاربت معها عند ما حبستهم في « الابراج السبعة » المشهورة . وكذلك تعتبر مسكن الممثل واثاثهُ وأموالهُ داخل منطقته ملكاً لدولة الممثل نفسه . وعلى ذلك فلا يمكن القبض على هذه الاموال وحجزها او المطالبة باداء الضرائب عنها

ويلحق عادة بالممثلين السياسيين ملحقون Attachés يقومون ببعض الامور الخاصة كالملحق العسكري والملحق البحري والملحق التجاري وغيرهم وهم يؤلفون مع السكرتارية والممثل نفسه مايسمى بالهيئة الدبلوماسية Diplomatic Corp ورأس الهيئات الدبلوماسية للدول في دولة ما « عميد » هو عادة اقدمهم عهداً في تلك الدولة وهو الذي يتكلم باسم الممثلين السياسيين في المناسبات الرسمية

ومن المعلوم ان وزير الخارجية هو حلقة الاتصال بين حكومة وأخرى ومرجع جميع السفراء او القناصل

﴿ القناصل ﴾ موظفون معينون غالباً لحماية المصالح التجارية والاقتصادية لدولتهم في الدول الاخرى وتسهيل سبلها وتوسيع نطاقها

إن كلمة قنصل Consul تعني درجة واحدة من درجات التمثيل القنصلي ولكنها تستعمل احياناً للدلالة على الخدمة القنصلية بصورة عامة . والقناصل على درجات : (١) قنصل عام Consul-General (٢) قنصل Consul (٣) نائب قنصل Vice-Consul (٤) معتمد تجاري Commercial Agent وغير ذلك من الدرجات الفرعية الخاصة

إن اقدم القناصل عهداً هم الذين عينتهم كل من مدن جنوى وبيزا والبندقية وفلورنسة بين سنة ١٠٩٨ — سنة ١١٩٦ بعد الحروب الصليبية في موانىء ساحل الليڤانت والقسطنطينية وفلسطين وسوريا ومصر . ومهمة انتخاب القناصل لا تقل صعوبة ودقة عن مهمة انتخاب الممثلين السياسيين ، والشروط التي يجب ان تتوافر في الممثل القنصلي يجب ان لا تقلّ عن الشروط التي تتوافر في الممثل السياسي . وان اهم اعمال القنصل تقريرهُ الذي يرفعهُ الى وزارة

خارجية دولته باحثاً في الحالة الاقتصادية للدولة التي يمثل دولته فيها مقترحاً الطرق اللازمة لتوثيق العلاقات الاقتصادية بين الدولتين

والنمسا من الحكومات التي اعتنت اعتناء فائقاً منذ القدم بتدريب القناصل فلقد اسست الامبراطورة «ماريا تريزا» عاهلة امبراطورية النمسا والمجر المنقرضة ، في سنة ١٧٥٤ «اكادمية» لاعداد الموظفين للسلك الدبلوماسي وسميت بـ «الاكاديمية الشرقية» لشدة اهتمامها باعداد الموظفين في الدرجة الاولى للخدمة في الشرق . وكانت هذه الاكاديمية تعنى اعتناء فائقاً في تدريس اللغات الشرقية والتاريخ الشرقي

***

ان التطور الاقتصادي والتجاري والصناعي في القرن التاسع عشر اثر تأثيراً خطيراً في هذه المؤسسة فلقد تبدل اسمها في سنة ١٨٩٨ م فأصبح «الاكاديمية القنصلية» وأصبحت الغاية منها بوجه خاص اعداد موظفي السلك القنصلي في امبراطورية النمسا والمجر

ولقد اعادت الجمهورية النمساوية الحديثة هذه المؤسسة على ان تقبل فيها (٥٠) طالباً فقط من اي جنسية كانت (ومن كلا الجنسين) وأصبحت تدار من قبل دائرة الشؤون الخارجية في الجمهورية النمساوية رأساً . وهي تقبل تدريس بعض العلوم بعدة لغات حيّة

والدروس التي تدرس في الاكاديمية كثيرة اهمها الاقتصاد السياسي والجغرافية التجارية والتاريخ الدبلوماسي والقانون الدولي وعلم المالية والخدمة القنصلية وعلم الاجتماع وفن الدعاية الصحفية والصحافة واللغتان الالمانية والفرنسية وبعض اللغات الاخرى

ولا يجوز للقناصل ان يمارسوا اعمالهم قبل حصولهم على ما يسمى بالبراءة Exequatur اللازمة من قبل رئيس الدولة التي يمارسون اعمالهم فيها . وكثيراً ما تعين الحكومات قناصل فخريين لدى الحكومات الاخرى وتمنحهم لذلك رتباً واوسمة

فؤاد جميل
بيروت (الجامعة الاميركية) عضو البعثة العلمية العراقية

رجعنا الى الكتب الآتية في هذا البحث : —

(1) Treaties, their Making and Enforcement — Crandall.
(2) A Guide to Diplomatic Practice — Rt. Hon. Sir E. Satow.
(3) Diplomacy Old and New — George Young.
(4) This World of Nations — Potter.
(5) Diplomacy & the Study of International Relations—Heatley.

بحث تاريخي اجتماعي

تأثير انتشار الاوبئة في نفسية المجتمع

تعمل الكوارث الاجتماعية في نفسية الجماعات ما تعمله في نفسية الافراد . فهي تستثير اهواء الناس وتستفز هامن مكامنها ، وتظهر ما بطن من اخلاقهم وشعورهم بجلاء ووضوح ، فيصبح بعضهم مثالاً يحتذى في الاخلاص أو الوطنية ، ويخضع معظمهم للأهواء السيئة والصفات الرديئة . وهذه الصفات نفسها تبقى في الاوقات العادية خافية في مستقر النفس البشرية تخفيها عوامل التربية والوسط وروح المجاملة والعشرة

ففي وقت انتشار الطاعون على الخصوص ، سجّل المؤرخون في كتاباتهم التغيرات التي تطرأ على النفس البشرية ، والتي هي نتيجة طبيعية لاطلاق الافراد عنان اهوائهم امام الخطر الداهم . وهذه التغيرات كانت تعظم أو تقلُّ وفقاً لكثرة انتشار الوباء أو قلته. فعند ما يكون الوباء في اول انتشاره وضحاياه قلائل ،لا يهتم معظم السكان بالحالة . ولا يقلقون لها . بل ينكر حتى الاطباء انفسهم خطورتها ، ويتعامون عنه ويتحاشون ذكره أو الاشارة اليه . وعند ما يشتد المرض نوعاً ما وينذر بالشر ، يصرُّ بعض المكابرين ، على انه لم يصبح وباء . لانه لو كان كذلك ، لاهلك كل السكان ولم يبق على احد منهم . وهذا النحو من التفكير تم فعلاً أبان انتشار الطاعون في مرسيليا عام ١٧٢٠م. حيث كانوا يعللون المرض بمختلف العلل الغريبة وينسبونه الى قوم مخصوصين يدعونهم (ناشري الطاعون) Les sémeurs de peste .ومثال ذلك ما نقله الينا المؤرخ ثوسيديدس Thucydide ان الاعتقاد الذي كان سائداً هو ان (اعداء الشعب) كانوا يسممون الآبار التي يستقي منها الناس

ومما نقله المؤرخ ديون كاسيوس Deon Cassius الذي عاش في عهد الامبراطور (كومود) ان (ناشري الطاعون) كانوا يغرزون في اجسام المارة في الطرق العامة ابراً مسمومة ،تنشأ عنها الاصابة بالداء فالوفاة السريعة . وفي القرون الوسطى كان اليهود ومرضى الجذام Lépreux يتهمون علانية بتسميم الآبار، وكانوا لذلك يحرقون احياء. ومن ذلك انهُ لما انتشر الطاعون عام ١٣٢١ لم يستثن من هؤلاء سوى النساء الحوامل و(اطفالهن) ومع ذلك كان يزج بهن في السجون وتوشم اجسادهن بالحديد المحمى . وظل التخوف من (ناشري الطاعون) على اشده عدة قرون، وكانت ضحايا هذا التخوف عظيمة من اليهود ومرضى الجذام الذين كان ينسب اليهم ضمناً تركهم في منحنيات الشوارع لفافات من الورق بها صديد يحمل جراثيم الوباء وفي القرن السابع عشر تحوّل الاضطهاد عن هؤلاء الى الاجانب النازحين الى البلاد بدعوى

نشر المرض عمداً ، فكان يفتك بهم ويمثّل بأجسامهم شر تمثيل . ووصف « مزوني » Manzoni في قصته المسماة (Les fiancès) طرفاً من ذلك . ومما ذكره ابان انتشار الطاعون بمدينة ميلان عام ١٦٣٠م ان الخوف من الوباء بلغ من الاهالي حداً جنونياً حتى انهم كانوا يشكّون في ذوي قرباهم لان الاعتقاد كان سائداً ان بعضهم يريد الفتك بالبعض الآخر ليستولي على ثروته . فكانوا يهجرون بيوتهم هائمين على وجوههم وأصبح هذا من اقوى الاسباب في انحلال الاسرة في ذلك العهد . ولم يسلم الاطباء انفسهم من شك المرضى فيهم فكانوا اذا دعوا لعيادة مريض يهانون واحياناً يرجمون بالحجارة . وكان من المعتاد ايضاً اذا حل الوباء ببلد أن يطلب القوم من الآلهة ان يجمع الداء كله في شخص فيُعدّ لذلك في احتفال كبير ثم يفتك بهِ تطهيراً للبلد من الداء على زعمهم

اما رجال الدين فكانوا يرون في الطاعون مظهراً لغضب السماء فلكي يخففوا من وقعه كانوا يؤلفون مواكب دينية يسيرون فيها عراة الاقدام ، فكان ذلك يزيد في انتشار الداء بشكل ملموس عقب هذه المواكب مباشرة !! ومن هوس بعض الطوائف في ذلك الزمن سيرهم جوعاً في الشوارع العامة وهم يلطمون خدودهم ويضربون اجسادهم بسياط جلدية ، فتسيل منها الدماء غزيرة ، وكان ذلك على الخصوص ابان انتشار الطاعون الاسود في القرن الرابع عشر

وتسبب عن كثرة الموتى ، بساطة في اجراءات الدفن . ومما قاله توسيديوس Thucydide في هذا ان الناس كانوا لا يعنون بدفن موتاهم . فكانت الجثث تحرق اختصاراً للاجراءات . وكثيراً ما كان الناس يهربون من البيوت تاركين الجثث فيها حتى تنتن وتتصاعد منها روائح كريهة . وندرَ وجود من يحملون الموتى ، فعهد باجراءات الدفن حينئذٍ الى طبقة من طغام الناس يدخلون البيوت التي عليها شارة الموت لنهبها وسلبها واغتصاب من وجد فيها من النساء

وكان الناس لا يقدمون على السير في الطرقات الا لقضاء حاجة ماسة وكان يغلب سيرهم وسط الطريق ليتحاشوا ملامسة احد ، حاملين معهم عصاة طويلة يسمونها عصى القديس روش Saint Roch لابعاد الكلاب وغيرها من طريقهم . وكان القوم ينشدون في مختلف اللذات ماينسيهم الموت الذي يهددهم ووصف Thucydide تلك الحالة النفسية قال : —

(وافرط كل فرد في طلب اللذة بدون حساب وهمه الوحيد التمتع بها في كل فرصة وباي ثمن حيث قد أثر في اعصابهم رؤيتهم الاغنياء بينهم يموتون فجأة تاركين الثروات الطائلة . والفقراء المعوزون وقد اصابوا الغنى الفاحش بدون مجهود وعن طريق الميراث كانوا ينظرون الى الثروة والمتاع ومختلف اللذات كشيء لن يتسنى لهم التمتع بهِ طويلاً لان الموت يتهددهم بين دقيقة واخرى فسعوا الى اللذات الجسمانية سعياً ليتمتعوا باوفر قسط منها . وقلما فكر واحد منهم في السعي لتحقيق غاية شريفة لانهُ لم يكن يدري ان كان الاجل سيمتد بهِ الى وقت يتمتع فيهِ بنتائج مسعاه . واصبح الجمع بين اللذة والمصلحة ديدن الجميع . فلا يأبهون

لغضب الآلهة ولا لصرامة القوانين. ومنذ ان رأوا الموت يحصدهم حصداً انعدمت في قلوبهم صفة الرحمة والمؤاساة والاخلاق الفاضلة على انهم كانوا يشكون في امتداد ايامهم الى ان تقتص السلطات منهم لما اقترفوا من ذنوب واتوا من آثام . وبات كل فرد على بينة من مصيره القريب فكان في شاغل عن كل شيء منصرفاً الى قضاء شهواته حيث كانت ومهما كلفت)

وفي عصر النهضة أملت هذه النفسية تمسها — وهي التي كانت سائدة وقتئذ — على بعض الكتاب قصص بوكاتشو Boccacoe المشهورة في التاريخ وما يماثلها من القصص المبتذلة لما حوته من المناظر الشائنة التي يندى لها جبين الادب حياء

ومما قاله المؤرخان دورنتي وجفارل Duranty & Gaffarel يصفان تلك الحالة النفسية التي طغت على عقول سكان مرسليا في طاعون سنة ١٧٢٠ ما يأتي : —

(استولى الرعب وحب الاستمتاع السريع على الاهالي من كلا الجنسين مما دفعهم الى اتمام عقد الزواج بكل معداته في مدى اربع وعشرين ساعة على الاكثر . فكانت الارملة التي لم تمضي على وفاة قرينها ايام قلائل ، تعقد زواجاً ثانياً ، ولما تجف دموعها بعد . وكثيراً ما كان ينزع الموت من احضانها زوجها الثاني ، فلا تحجم عن اختيار شريك آخر لحياتها . وكانت هذه الظاهرة الاباحية اكثر وضوحاً وابلغ اثراً في الطبقة الدنية من السكان ، ممن آلت اليهم الثروة عفواً بطريق الميراث بعد فقر مدقع . ونسي سكان مرسليا كل شيء في العالم وذهلوا عن كل شيء الا عن الزواج والافراط في اللهو والتمادي في الشراب بشكل منقطع النظير . واستمر التزاوج على هذا النحو — بدون تمازج بين الطرفين — حتى انه في مدى خمس سنوات من تاريخ الطاعون ، بلغ عدد المواليد حداً اصبح تعداد السكان بعده معادلاً لما كان عليه قبل انتشار الطاعون . وأصبحت مرسليا ، في فترة قصيرة ، مدينة للجمال والفن والاستمتاع ، وبلغت مبانيها مبلغاً عظيماً من الاتساع وتفنن سكانها في ارتداء الملابس الفاخرة واقتناء الكماليات ، فكنت ترى المحال التجارية غاصة بهم ينفقون فيها عن سعة ، وكنت تشهد المراقص تقام في المنازل والطرق العامة والابتهاج شاملاً عاماً ، كأن الناس قد نسوا ما حل بهم من النكبات وعوامل الفناء . ويمكن القول اجمالاً أن هذه النفسية هي بعينها التي شوهدت عقب انتشار الكوليرا في مرسليا عام ١٨٨٥ م واغرق الناس بعدها في اللهو والمجون

وهذه الظاهرة تغلب عند حلول الكوارث الاجتماعية الخطيرة ، فأن حرب سنة ١٩١٤ أوجدت في نفوس الملايين من الجنود تعطشاً غريباً لجميع وسائل الاستمتاع . واستهتاراً فاحشاً بالشرائع والقوانين حتى بعد وقف القتال . كما حصل بعد حكم الارهاب في فرنسا وقيام حكومة الادارة على انقاض الاشلاء والدماء

ابراهيم مراد ديان
ليسانس في الحقوق من جامعة باريس



كيف تتصل لندن باكبر
مدن العالم اتصالا تلفونياً

المشهد الاول

في مكتب تحرير التيمس بلندن في يوم الجمعة ٧ يناير ١٩٢٧

جلس محرر التيمس في مكتبهِ بلندن واذا جرس التلفون يقرع في نحو الساعة الاولى والدقيقة الخمسين بعد الظهر . فرفع السمّاعة فسمع صوتاً يقول : انا ادولف اوكس صاحب جريدة التيمس النيويوركية . وكان المستر اوكس جالساً في مكتبهِ بنيويورك على نحو ثلاثة آلاف من الاميال وامامهُ صورة محرّر التيمس اللندنية لكي يرى الشخص الذي يخاطبهُ . وبعد ما تبادلا عبارات التحية والمجاملة المألوفة وصف صاحب التيمس النيويوركية ما في الولايات المتحدة الاميركية من ميل في الرأي العام الى اعادة النظر في مسألة ديون الحلفاء لاميركا . ثم وصف استنباطاً جديداً دعي بالصور المتحركة الناطقة فكانت هذه الرسالة وعدد كلماتها الانكليزية ٢٣٠ كلمة احدى الرسائل الصحافية الاولى التي ارسلت بالتلفون اللاسلكي بين لندن ونيويورك . وقد ردّ عليها محرر التيمس اللندنية بكلمة تناسب المقام

وكانت ادارة التيمس اللندنية قد ابرقت الى مكاتبها النيويوركي لكي يعدّ رسالة تحتوي على نحو ٦٠٠ كلمة يمليها على احدى الكاتبات بالتلفون اللاسلكي لتنشر في الجريدة وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين قرع جرس التلفون في ادارة التيمس اللندنية فاذا مراسلها في نيويورك يخاطبها فاملى على احدى كاتباتها رسالتين مجموع كلماتهما ٥٦٧ كلمة في ست دقائق وهو الوقت المحدّد للمخاطبة . وبعد ما اتمّ املاء الرسالتين سأل رؤساءهُ في لندن هل سمعوا كل كلمة فاه بها ودوّنوها او يلزم ان يرسل الرسالتين بالتلغراف حتى تصححا فقالوا « سمعنا كل كلمة على ما يرام » وانتهت المخاطبة . وفي اليوم نفسهِ جرت محادثة تلفونية بين صاحب جريدة « الورلد » النيويوركية ومحرر « الديلي اكسبرس » الانكليزية . وبين مدير شركة التلغرافات والتلفونات الاميركية ومدير مصلحة البريد الانكليزية



ارتقاء المخاطبات اللاسلكية
بين عواصم الدنيا وغرائبها

المشهد الثاني

في مرسى ليكهرست بالولايات المتحدة في ١٥ اكتوبر ١٩٢٨

البلون غراف زبلن محوّم فوق مرسى ليكهرست بعد ما اجتاز المسافة بين المانيا والولايات المتحدة في احوال تسترعي الانظار والاسماع وبعد ما لقي في طريقهِ من العواصف والمخاطر ما بعث في النفوس القلق والروع وبعد ما ابدى ربّانهُ وابن ربانهِ وملاحوهُ من البراعة والجرأة ما ينزل من تاريخ الطيران في صفحة المجد . وعلى الارض جمهور من المتفرجين يحصى بعشرات الالوف انقضى عليهم ساعات وهم ينتظرون قدوم ملك الفضاء وقد عيل صبرهم فجعلوا يتدافعون حتى تخطوا الحدود التي عيّنتها البوليس الاميركي . ولما اقترب البلون من الارض اندفع الجمهور كالتيار الجارف حتى كاد رجال الحفظ يعجزون عن صدّهم عن اذية البلون . واذ الجمهور كذلك انسلّ منهُ شابٌ وعدا الى دكان قريب من المطير . لان الثانية في نظرهِ كانت بمثابة دهر وهو مكاتب صحافي ديدنهُ السبق في نقل الانباء . ودخل الى غرفة من غرف التلفون العمومي يشرف من كوّتها على المطير . وطلب باللغة الانكليزية شاكراً لربهِ المامهُ بها ، ان يتصل في الحال بمكتب المخاطبات الطويلة المدى . فلما اتصل بهِ طلب ان يخاطب رقم S.N. ٦٨ برلين . وما انقضت عليهِ دقائق ست حتى سمع صوت زميل قديم لهُ يخاطبهُ من مكتب جرائد اولشتاين في برلين فهزّهُ الدهش والاعجاب حتى كاد ينسى غرض المحادثة . ولما افاق من حيرتهِ ودهشهِ املى على زميله وصفاً مسهباً لوصول الغراف زبلين الى ليكهرست ونزولهِ فيها سالماً والاستقبال العظيم الذي كان معدّاً له . ومن مكتب شركة اولشتاين في برلين وزعت هذه الانباء على اشهر مدن المانيا ولم تلبث ان ظهرت طبعات خاصة من صحفها تصف باسهاب حادثاً تمّ في اميركا قبل ربع ساعة وصفاً نُقلت كل كلمة من كلماتهِ شفاهاً وكان الحديث ينقل والبلون لا يزال آخذاً في النزول الى الارض

المشهد الثالث

القاهرة تخاطب لندن في يوم الثلاثاء ٢٤ مايو ١٩٣٢

تحدث وزير المواصلات في الحكومة المصرية من داره بالزمالك مع المدير العام لمصلحة البريد بلندن في الساعة السادسة من مساء الثلاثاء ٢٤ مايو الماضي وتلاه صاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء فحدث حافظ عفيفي باشا وزير مصر المفوض بلندن فكان الصوت واضحاً كلّ الوضوح بل كان اكثر وضوحاً منهُ بين متكلمين في مصر

وسوف يتاح لنا بعد ١٥ يونيو الجاري ان نجلس في مكتبنا بدار المقتطف ونمسك سماعة التلفون فنطلب من نشاء في لندن او منشستر او ادنبره ونتحدث اليهِ كأننا نخاطب صديقاً في القدس او الاسكندرية او الزيتون . هذا هو سحر العلم والاستنباط !

بين اميركا واوربا

افتتح الخط التلفوني اللاسلكي بين لندن ونيويورك في ٧ يناير سنة ١٩٢٧ وكان الناس لا يزالون في ريبة من صدق ما يدعيه المستنبطون حاسبين ان المخاطبات التلفونية اللاسلكية سحر الٰهي لا يكشف عن سره لابناء الارض . اما القائمون بالامر من رؤساء شركة التلغراف والتلفون الاميركية ومديري مصلحة البريد الانكليزي فكانوا يثقون كل الثقة بالنتائج التي اسفرت عنها مباحث العلماء والمهندسين وحسبوا ان غرابة الامر لا بدّ ان تبعث الناس على الدهش اولاً ثم على الاقبال على استعمال هذه الوسيلة الجديدة من وسائل المخاطبات

وقد صح فألهم . فان ٢٩٠٠ شخص في اميركا استعملوا هذا التلفون في السنة الاولى من انشائهِ . ثم اخذ العدد يزداد ازدياداً مطرداً حمل القائمين بأمره على تخفيض الاجور . فقد كان اجرة المخاطبة التي تستغرق ثلاث دقائق ١٥ جنيهاً مصريًّا في البدء تخفضت الى تسعة جنيهات . كذلك كان النجاح الذي صادفوه في هذا الضرب من التخاطب باعثاً لهم على توسيع نطاقهِ . فبعد ما كانت المخاطبات تجري بين نيويورك ولندن فقط اتسع نطاقها حتى صارت تشمل كل مدن الولايات المتحدة الاميركية وكندا والمكسيك وكوبا من جهة وكل مدن انكلترا الكبيرة وعواصم اوربا من جهة اخرى . وصار التخاطب بين شيكاغو وبرلين أو كوبنهاغن أو فينا او باريس امراً مألوفاً . وقراء المقتطف يذكرون ان الطيار لندبرغ تخاطب مع امهِ بعيد وصوله الى باريس طائراً من نيويورك وكانت هي في دترويت مدينة تبعد عن نيويورك نحو الف ميل . وقد وصف مدير التلفون في شركة التلفون والتلغراف الاميركية هذا الاتساع

فقال : ان في الولايات المتحدة الاميركية نحو تسعة عشر مليوناً من التلفونات وكل واحد صار يستطيع ان يتصل بأي تلفون من تلفونات العالم القديم وعددها نحو ثمانية وعشرين مليوناً!

وقد اتسع هذا النطاق حديثاً حتى شمل القسم الغربي من شمال افريقية — وقريباً يشمل مصر — ومدن اميركا الجنوبية كما عم منذ عهد قريب مدن استراليا

***

ايدري القارىء ما يعني كل هذا التقدم ؟ انك تستطيع ان تتخاطب وانت جالس في مكتبك أو دارك او ناديك مع من شئت سواء كان في لندن بانكلترا او بونس ايرس بالارجنتين او فينا بالنمسا او استوكهلم باسوج او سدني باستراليا او تونس بالجزائر . وكل هذه المخاطبات على جانب عظيم من الكتمان لان التلفونين اللاسلكي والسلكي يشتركان في ارسالها واذاعتها واستقبالها . فاذا التقطت الامواج الاثيرية سارت على سلك خاص يوصل الكلام الى سماعتك الخاصة وللكتمان جهاز خاص لا يزال امره سراً مكتوماً

كيف تجرى المخاطبات

هبك في شيكاغو وتريد ان تخاطب صديقاً او عميلاً لك في فندق سافوي بلندن. فتتناول سماعة تلفونك العادي وتطلب من عاملة التلفون التي تجيبك ان تصلك بالمكتب الخاص بالمخاطبات البعيدة فتقول للعاملة في هذا المكتب اريد ان اخاطب فلاناً في فندق سافوي بلندن. فتفتح الطريق التلفوني امامك الى نيويورك كما تفتح الطريق امامك عاملة التلفون بمصر حين تخاطب الاسكندرية او بيت المقدس . وحالما تعلم عاملة التلفون في نيويورك انك تود ان تخاطب لندن تحول صوتك الى القسم المختص بذلك في مكتب نيويورك ومنهُ ينتقل صوتك على اسلاك التلفون السلكي مسافة ٧٢ ميلاً الى المحطة اللاسلكية القائمة في مكان يدعى « رُكي بوينت » على مقربة من مدينة نيويورك . في هذه المحطة يقوَّى الصوت ويتحول الى امواج لاسلكية قوية بواسطة انابيب مفرغة معدة لذلك . ثم يبعث في الاسلاك الهوائية التي يبلغ طولها ميلان ومنها يذاع في الجو امواجاً لاسلكية تجتاز الفضاء بسرعة النور . اي بسرعة ١٨٦ الف ميل في الساعة . على ان هذه الامواج تضعف كثيراً في اجتيازها الفضاء بين اميركا وانكلترا ولكن ما يبقى منها تلتقطهُ الاسلاك الهوائية في محطة الاستقبال الانكليزية القائمة في بلدة كوبار بشمال اسكتلندا وهناك تقوَّى وتحول الامواج اللاسلكية الى تيار تلفوني سلكي عادي وترسل على الاسلاك العادية الى لندن . ومثل كل محادثة تلفونية عادية ينتقل الصوت الى صديقك في فندق سافوي

ولكن حين يردُّ عليك صديقك لا يتبع صوتهُ الطريق التي جاء عليها صوتك . ذلك انهُ متى رد عليك ينتقل صوتهُ الى السنترال اللندني ومنه لا يرجع الى كوبار حيث التُقِط صوتك بل يذهب الى سلك تلفوني عادي الى محطة قريبة من لندن تدعى محطة «رجبي» ومنها يذاع امواجاً لاسلكية كما اذيع صوت صديقك من محطة « ركي بوينت » وحين يصل صوتك الى اميركا تلتقطهُ محطة اخرى في بلدة هولتن بولاية ماين وهناك تقوى امواجهُ وتبعث الى نيويورك على سلك تلفوني طوله نحو ٦٠٠ ميل ومن نيويورك تنقل الى شيكاغو مثل كل محادثة تلفونية بعيدة المدى

فلدينا اذاً اربع محطات لاسلكية الاولى محطة ركي بوينت ومنها يرسل كلام الاميركي ومحطة كوبار باسكتلندا التي تلتقط هذا الكلام . ثم هناك محطة رجبي قرب لندن التي ترسل كلام المحدث من فندق سافوي الى اميركا فتلتقطه المحطة الاميركية التي في هولتن بماين

والغريب العجيب في امر هذه المحطات كلها انها بلغت من الدقة والانتظام والسرعة في اذاعة الكلام واستقباله حتى لتشعر وأنت تحدث شخصاً يبعد عنك الوف الاميال وتفصله عنك بحار وقارات كأنهُ على مقربة منك يحدثك من غرفة مجاورة

غرائب المحادثات

كان عدد الذين استعملوا التلفون اللاسلكي بين لندن ونيويورك يوم افتتاحه الاول ٣٥ شخصاً . ولكن هذا العدد قد تضاعف الآن منذ اتسع نطاق المخاطبات حتى صار يشمل اشهر مدن اوربا واميركا ومنذ خفضت اجورها واستنبطت طريقة لكتمانها . فمتوسط عدد الذين يستعملون هذه الطريقة من طرق المخاطبات كلَّ يوم سبعون شخصاً ، ستون فى المائة منهم يستعملونها لاغراض تجارية ومالية واربعون فى المائة لاغراض اجتماعية . وأول صفقة تجارية عقدت بالتلفون اللاسلكي كانت بين شركة انكليزية وشركة اميركية فاشترت الاولى من الثانية مقداراً كبيراً من الخشب

ولما ثبت ان هذه الوسيلة الجديدة من الوسائل التي يصح الاعتماد عليها اقبل الناس عليها اقبالاً عظيماً . فعقد مجلس الادارة في احدى الشركات البريطانية جلسة اصغى فيها الى خطبة خطبها رئيسهُ وهو جالس بمكتب في نيويورك . وعقدت احدى شركات البترول قرضاً قدره خمسة ملايين ريال لاحد فروعها وكانت الرسائل قد عجزت عن ازالة سوء التفاهم الذي نشأ فازالهُ حديث استغرق بضع دقائق . وعرف رجل بنيويورك ان صديقة لهُ عملت لها عملية في لندن فتكلم مع احد بائعي الازهار وطلب اليه ان يرسل اليها طاقة من الورد . واشترك المستر روزنباخ

الاميركي المشهور بجمع الكتب النادرة بواسطة احد عملائهِ في مزاد للكتب اقيم في لندن فكان هو يكلم عميلهُ من سريره بنيويورك وعميلهُ يزيد على المعروض ثمناً لكتاب قديم واخيراً دفع ثلاثة آلاف جنيه وفاز بهِ . وتكلم احد ناظمي الاغاني الذائعة مع مغنٍّ فاملى عليهِ اغنية جديدة نظمها ولحّنها فدفع اجرة المحادثة مائة وخمسين من الجنيهات . ولما شاع ان المس هلن ولز لاعبة التنس المشهورة قد عقدت خطبتها حادثها احد مكاتبي الجرائد الانكليزية من لندن وكانت هي في سان فرنسسكو فأيدت الخبر

واطول محادثة تلفونية بين لندن ونيويورك استغرقت خمساً وتسعين دقيقة بلغت أجرتها ٢٨٥ جنيهاً ويقال ان المستر دورانت أحد كبار المثرين الاميركيين ومن اكبر المساهمين في شركة جنرال موترز دفع في اسبوع واحد وهو مصطاف بانكلترا خمسة آلاف من الجنيهات اجرة لمحادثاته التلفونية مع نيويورك . وقد كان الغرض من هذه المحادثات الوقوف على حال السوق المالية في وول ستريت . وفي احد الايام ابتاع وهو جالس بسريره في فندق بلندن ما قيمته مليون ومائتي الف جنيه من الاسهم

***

وتدبير هذه المحادثات عمل شاق . هب ان رجلاً في نيويورك يريد ان يحدث سيدة في لندن في الساعة السادسة مساء بحسب وقت لندن . فعاملة التلفون في نيويورك تحادث عاملة لندن اولاً وتطلب اليها ان تتثبت ان هذه السيدة مستعدة لمخاطبة هذا الرجل في الساعة المعينة فتكلم العاملة السيدة بالتلفون وتخبرها بذلك . فاذا قبلت فبهِ . واذا تعذر عليها ذلك طلبت اليها ان تعين ميعاداً آخر وتخبر به عاملة نيويورك لترى هل هذا الميعاد يوافق المتكلم من نيويورك وهكذا . اذ لا يخفى ان نجاح هذه المحادثات لا يتم الا اذا خاطب الانسان من يريد مخاطبتهُ . فيقع على مكتبي التلفون عناء الجمع بين المتخاطبين على بعد الدار واختلاف الساعة بسبب اختلاف خطوط الطول

وكثيراً ما تضطر عاملات التلفون ان تتعقب الشخص المطلوب تعقب رجال البوليس السري وفي ذلك تحتاج الى أوفر نصيب من طول الاناة وسرعة الخاطر

فقد حدث مرة أن طلبت سيدة امريكية في لندن للتحدث مع سيدة اخرى من نيويورك فبحثت عاملة التلفون في الفندق الذي تقيم فيهِ هذه السيدة فقيل لها انها ذهبت تبتاع ما يلزم لها من شارع ريجنت . فاتصلت بكل مخزن من مخازن ريجنت ستريت المشهورة تسأل عنها حتى عثرت عليها وكانت تهم بدفع النقود ثمناً لما ابتاعتهُ فانتزعتها من مكانها وجعلتها تكلم نيويورك من غرفة تلفون في المحل عينهِ

وتعقبت عاملة أُخرى رجلاً من باريس الى انفرس الى مونت كارلو الى برلين. ولما عثرت على الفندق الذي قيل لها انه يقيم فيهِ في برلين طلبت ان تحدثهُ فقيل لها انهُ ذهب الى مطعم كذا لتناول العشاء فعثرت عليهِ هناك ودعتهُ الى التحدث مع رجل طلبهُ من فيلادلفيا. وطلب مرة اخرى رجل ظهر لدى البحث عنهُ في داره انهُ ذهب الى دار الاوبرا بكوفنت جاردن بلندن فبحثت عاملة التلفون عن رقم كرسيهِ ودعتهُ الى غرفة التلفون في دار الاوبرا نفسها فتكلم مع شيكاغو. وطلب مرة رجل آخر فبحث عنهُ في داره فلم يعثر عليهِ وبعد البحث عنهُ تعقبتهُ عاملة التلفون الى فوكستون وهو على وشك الابحار منها الى فرنسا فتكلم مع نيويورك وما كاد ينتهي حتى كانت السفينة قد اخذت تقلع من المرفإ فعدا حتى بلغها

***

منذ نحو سبعين سنة نقل سلك التلغراف الذي مدَّ في الاقيانوس الاتلنتيكي اول رسالة تلغرافية ارسلت من اوربا الى امريكا. وكانت من الملكة فكتوريا الى الرئيس بوكنان الاميركي وكانت كلماتها تسعين كلمة استغرق ارسالها نحو ساعة ونصف ساعة فصرَّح ريط احد زعماء الاحرار البريطانيين في ذلك العهد « ان السلك التلغرافي قد قرَّب العالم الجديد الى العالم القديم » . وانقضى على تلك الرسالة ١٨ سنة فاقيم معرض فلادلفيا سنة ١٨٧٨ فعرض فيهِ الكسندر غراهام بل تلفونهُ الاول وتكلم بهِ مع السر وليم طمسن (لورد كلفن بعدئذٍ) على مسافة قصيرة فدهش السر وليم لهذا الاستنباط العجيب بعد ما مرَّ بهِ اولاً مرَّ الكرام. ولكن السلك التلغرافي والتلفون العادي اجسام ترى وتلمس فما اعظم الدهشة التي تتولى الناس الآن وهم يتخاطبون على مسافة آلاف من الاميال من غير اسلاك في البحر أو على اعمدة في الهواء. بل وفي الامكان الآن ان يتحدث الرجل المسافر على باخرة في عرض البحر أو المنتطي منطاداً محلقاً في الفضاء الى رجل آخر جالس في مكتبهِ في احدى المدن

وادهى من ذلك ان الكومندر برد الرائد القطبي تمكن من أن يحلق بطيارتهِ فوق الاصقاع القطبية وفيما هو محلق بها تمكن من مخاطبة نيويورك مخاطبة تليفونية وهي على نحو ١٠ آلاف ميل منهُ. كل ذلك والاصوات تسمع واضحة ونبراتها جلية كل الجلاء. لقد اصبح انتقال الصوت سريعاً كانتقال النور وتفوقت الحقيقة على بنات الخيال. كنا بالامس نستعمل الاشارات للتفاهم وها نحن اليوم نتخاطب وغداً ننظر بعضنا بعضاً وجهاً لوجه. فماذا يفصل بين الناس بعدئذٍ وعجائب المواصلات والمخاطبات قد جعلتهم امة واحدة!

انطاكية ومشاهدها الفاتنة

... ولما استقرّ بنا النوى ، والقينا عصا التسيار في مدينة انطاكية عاصمة سوريا القديمة ، وانتظم شملنا في تلك الديار ، خرجنا ذات يوم الى شلالات « دفنه » لنستمتع بمشاهدها الرائعة عند طلوع الفجر

وغدونا مع الطير فاذا جوٌّ بارد يلفح الوجه وينسيك انك في اواسط يوليو ، ومضت السيارة بنا حتى بلغنا الشلالات فاذا ضاحية كأحسن ما نعرف من المصايف موقعاً ، يشرف عليها الجبل وتجري من تحتها الانهار ، ويتردد فيها هواء خفيف ولكنهُ ممتلىء حياة ونشاطاً ، فاذا انت اقدر ما تكون على الحركة ، واذا انت اقدر ما تكون على التفكير واشوق ما تكون اليه

حيث الضحى متساكب كطلى بكف مشعشع
والجو تملاه نسا لات البروق اللمع
والريح تحضن آخر النغمات حضن المرضع
وتقصف الاغصان شبه تقصف في اضلعي

وشلالات دفنه نزهة من النزه عند من يشوقهُ جمال الطبيعة ، فالمياه هنالك تنحدر من قمم الجبال مارة بين الصخور الدهرية ، والهيا كل الحجرية التي لم تستطع عناصر السماء ان تمحو نتأة من رؤوسها في جيل من الاجيال

ومضت ردحة من الزمن وانا مستلق على العشب المنضد المبسوط انظر في ذهول الى تلك الآكام الصخرية الراقدة في سفح جبل متشامخ نهض متفرعاً متسلسلاً . ولكنني لم البث ان استيقظت على اغاني الطير فوق الاغصان البعيدة ، فاستويت جالساً وعند ذلك بصرت بنفسي بين مياه تنساب من هنا وهناك بين الصخور ، تحيط بي آكام شاهقة تطاول الفضاء ، وانا في وادٍ يجري شرقاً وغرباً ، ممتلئاً نوراً ، نور الصباح الزاهر ومشرق الشمس الضاحية ، ثم لاحت لي وديان اخرى عظيمة كاختها ، ووراء المياه المنسابة المتدفقة ، وفي منحدر هناك وجدت طريقاً ضيقاً تتساقط عنده رشاشات الماء ، فعدلت اليه ومضيت فيه وبلغت بعده الى آكام اخرى معتزلة صغيرة ، فتسلقتها واذا بي في سفح منحدر فرعت عنده الاشجار ، وطالت الدوح ، وأينعت الاغصان ، فهبطت مولياً وجهي شطر الوادي ، اذ رأيتهُ قد تفتح على مراع ناضرة ، وقد وقفت الشمس المشرقة عن مواجهة الوادي ، وتبددت في جوف الفضاء اغنيات

الطير . يا لله ما أروع وما أبدع هذه المشاهد ! فالآكام والوديان مرعى انضر ازهر ، ريان منتعش ، تشرق فيهِ ازهار حلوة تدل على مهارة في الزرع ، وحذق غريب في الحرث والحصد ، وحول هذه الاودية اسوار عالية من الصخور ، وغدير تنساب مياههُ في قطع المرعى واجزاء الحقل ، وفي الربى العالية تمرح الماشية وترعى على مقربة من اعطان لها ومرابط

وكنت كيفما سرت وانّى اتجهت ارى جماعة من النساء والرجال وجلهم من سكان حلب وغيرها قصدوا الى هنا للاصطياف جلوساً وجثوماً على اكداس من العشب كأنهم يتقيلون في ابعد حدود المرعى وعلى مقربة منهم طائفة من اطفال الفلاحين وقوفاً متكاسلين ينتظرون البقشيش . ويمشون بعضهم في إثر بعض مشية رفيقة بطيئة وفي كل خطوة يتثاءبون كقوم اقاموا الليل سهراً وسمراً

وقد قضيت وصحبي النهار كله جرياً ووثباً في احضان تلك الطبيعة المشرقة الضاحكة ادور في جلال الربى والجبال ، وانقل عيني بين محاسن الكون ومباهيه ، واتأمل حمرة الشفق المترامية فوق الربى البعيدة ، والمراعي النضراء مرخياً العنان لخواطري ، مسترسلاً في تفكيري حتى اخذ الهواء يبرد والظلام يعم الكون . وعدنا بعد ذلك الى المدينة وكانت اشعة القمر الحلوة قد بدأت متلألئة في جلال ووقار وضياؤهُ المزهر الباهر قد غمر الربى والوديان

وبعد ان صرفت اسبوعاً كاملاً في انطاكية قمت برحلة الى « بتياس » فركبت سيارة أقلتني اليها بعد ان اجتازت في طريقها سهولاً منبسطة لا ينحط النظر على مشهد أروع منها ولا أبدع وبعد ان تسلقت جبالاً خضراء مزهرة ، يداعبها النسيم المعطر بشذي الرياحين ، تمتد على جانبيها سهول مترامية تتخللها جداول بهية المنظر

وتقوم بتياس على مرتفع الف وخمسمائة متر من البحر ، وترقد في ظل خمائل فاتنة على خرير الجداول المنسابة بين الربى والبساتين ، تكتنفها جبال لا تكاد العين تتبين قممها لشموخها ، وأمامها واد ممتد تقوم على اكتافهِ من الناحية المقابلة قرية « حاجي جبلي » مترامية بين غدران منسابة من هنا وهناك ، وقد استغرقت الطريق من انطاكية الى بتياس ساعة من الزمن

وفي بتياس فندق جميل الموقع . وقد رأيتهُ غاصاً بالمصطافين وجلهم من اهالي حلب الشهباء ، وفيها مقاه بديعة تشرف على الوديان والسهول ، وترقد في ظل اشجار ساجية ملتفة . وكان بين اصدقائي نفر من الادباء الظرفاء يميلون الى الغناء ويتعشقون قصائد شوقي التي ترنم بها الاستاذ عبد الوهاب ، فطلبنا الى صاحب المقهى — وهو ارمني — ان يسمعنا شيئاً من اغاني عبد الوهاب ففعل ، وكذلك طربنا في رؤوس الجبال وفي القرى الارمنية النائية بشعر شوقي ، وسمعنا عبد الوهاب ينشد على لسان المجنون « تلفتت ظبية الوادي . . » وسمعناه ينشد كذلك على لسان انطونيو « الحياة الحب والحب الحياة » وهكذا قضينا يومنا على خير ما يكون

وقد انسللنا الى ينبوع في اعلى الاكمة المقابلة يتفجر من شق صخرة عظيمة ، وشاهدنا

في مكان معتزل قصي الى يمين هذا الينبوع حيث النرجس البهي ، والزنبق المفراح ، بقايا كنيسة قديمة يرجع بناؤها الى عهد الرومانيين ، ولما اخذت الشمس تهوي في اعماق المغرب غادرنا بتياس الى انطاكية

ولما كان الغد قمنا الى قرية « خدرباك » وكان الصباح الزاهي ينشر في الكون، ويبسط كالملائكة اجنحته الهفهافة ، فبلغناها في ساعة ونصف ، وهي قرية جميلة قائمة على هضبة تمتد امتداداً مستطيلاً حتى تعترضها هضبة ثانية تقوم على اكتافها قرية « يوغون اولوق » وقد نزلنا عند ينبوع مياه غزيرة في منخفض من الارض عند مدخل خدرباك ، وهناك توسدنا العشب الاخضر المزهر الذي يحف بجوانب الينبوع ، وأخذنا نرتشف المياه العذبة الباردة ثم اكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً ، وعند الاصيل غادرنا خدرباك في ركب حافل الى السويدية فبلغناها في مدى عشرين دقيقة . والسويدية قرية كبيرة تحتوي على مزارع واسعة فيها الذ انواع الفاكهة ، وهي ممتازة بتربية دود القز وفيها معامل كبرى للحرير ، وبعد ان اقمنا فيها برهة قصيرة انحدرنا الى شاطىء البحر وجلسنا في مقهى صغير الى جانب مزار « الخضر » وهو مزار قديم يحج اليه طوائف الناس من القرى النائية وينذرون له النذور ويقدمون القرابين . واستطعنا هناك ان نشهد الشمس تسحب ذيولها الشفافة وراء الافق الارجواني منصتين الى هدير الامواج المتلاطمة الصخابة الداوية ، وهي تغسل اقدام « الجبل الاقرع » المشرف على سلسلة منتظمة من الاكمات الرمادية اللون

وفي المساء عدنا الى انطاكية مجتازين تلك المزارع الواسعة والخمائل الجميلة التي يتأرج منها عرف طيب كعرف اللبان

وبعد هدنة قصيرة الامد قمت في نفر من الاهل الى « اليايلا » وهي مزرعة بديعة تنهض على هضبات عالية تشرف على بسيط من الارض مكسو بالاعشاب السندسية ، وفيها ينبوع ماء عذب ينبجس من الصخر ، وقد استقبلنا في خمائل تلك المزرعة نفر من المعارف ، وبعد ان استرحنا طفنا بين المزارع النضرة وفي بهرة الحقول الصامتة الساكنة ، ثم عدنا نلتهم صنوف الطعام اللذيذ، ونحن جلوس الى مائدة مستطيلة تحت الاشجار الساجية

وعند الاصيل غادرنا « اليايلا » الى « الاوردو » فاجتزنا في طريقنا الصخرية غابات الصنوبر ،واحراج السرو والشربين يفوح منها شذى طيب يمتزج برائحة الصخور والتراب منصتين الى زقزقة العصافير ورجع اسراب القمري والحجال وهي تأوي الى اعشاشها وراء مكسر الصخور

وقد قضينا ليلتنا في « الاوردو » فوق سطح منزل من المنازل الممتازة لقوم كرام ، وشهدنا القمر بازغاً من وراء الجبال مشرقاً متهللاً ، هذا ونسمات الليل الفاترة العليلة تهب حاملة من مجامير الحقول والاودية رائحة عطرية زكية ،وشاهدنا في الصباح مراعي « الاوردو »

الخصيبة تنساب اليها الماشية وقد اخذ الراعي يترنم بمزماره الشجي ويرتل اناشيد قروية مطربة. على ان السيد « نوري » أبى الاّ ان نواصل السير في الطريق الجبلية المؤدية الى اللاذقية ففعلت على مضض ، وما كادت السيارة تبتعد بنا قليلاً حتى رأيت ان الحق في جانبهِ ، وان جولتنا في هذه الطريق الجبلية جولة رائعة ، فقد شاهدنا محاسن فاتنة ، لا تقع العين على اروع منها ولا أفتن ، فهذه مناظر الربى والآكام المزهرة ، والوديان السحيقة المخضرة ، وغابات الصنوبر وكروم الزيتون ، وحقول التوت ، وزرقة البحر الصافية التي تتراءى من بعيد ، والمغاور الصغيرة المنبثقة من اصلاب الصخور ، كل هذه المفاتن والمباهج كانت تبدو لنا في لمحة عين فلنتفت يمنة ويسرة مذهولين مأخوذين كاننا في حلم رائع جميل . على اننا ما عتمنا ان عدنا الى الاوردو لنجتمع بافراد عائلتنا الذين صحبونا في رحلتنا ونتناول معهم طعام الغداء

وعند الاصيل اخذنا نتسنم الروابي النضرة القائمة قبالة الاوردو ونستمتع بجمال الطبيعة الفاتنة ، ثم ركبنا سيارة اقلتنا الى كسب» بعد ان اجتزنا طريقاً وعرة تكتنفها من الجانبين آكام صخرية ، وقد لبثت السيارة نحو اربعين دقيقة تارة تنحدر وطوراً ترتفع نافذة من بين الربى والجبال ، منزلجة مع المنحدرات هاوية ، وتقوم قرية كسب على مرتفع الفي متر من البحر وهي ابدع قرى تلك الضاحية وأفخم مصايفها بلا منازع

وعند وصولنا الى كسب ترجلنا واخذنا نمشي في طرق ضيقة بين المزارع ، حتى وصلنا الى مرتفع يشرف على القمرية باكملها ، تنهض حوله كنيسة أثرية جميلة لاخوة القبر المقدس ، وقد طفنا ارجاء هذه الكنيسة بصحبة قسٍ اصبنا فيهِ رجلاً حديثاً ظريف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب ، وشهدنا ونحن نطوف بناء جيلاً لمدرسة توشك ان تتم ، واهل كسب كلهم من الارمن وهم اقوياء متعلمون . ولهم بعثات علمية يوفدونها كل عام الى بيروت وعينتاب ، وفلاحوها مهرة نشيطون ، وهم يعيشون كسائر اهل القرى المجاورة عيشةً سهلة دئبة ، لهم كل احوال السعادة والفضيلة كما نفهم نحن من هاتين الكلمتين ، فهم يعملون ولكنهم لا يحملون في العمل على انفسهم ولا يتعسفون ، عندهم طعامهم ولباسهم على قدر الحاجة وجهد الطاقة ، لهم ايام وفصول فيها يستريحون وفيها يتعبون

وقد دار بيني وبين قس الكنيسة حديث ابديت فيهِ دهشتي من اعتزال هذه الطائفة الكبيرة من الناس في هذا المعتزل القصي البعيد عن العالم المصطخب فقال : هذه المحاسن الفاتنة ، والمباهي الساحرة ، هذه الازاهر الجميلة ، هذه النرجسات ، وتلك الزنبقات ، والسماء وسحائبها الوطفاء ، ومغارب الشمس ومطالع الغزالة ، ومتألق النجوم ، ودري الكواكب ، لما يسحر ويفتن . فهل بالله رأيت عيشاً اطيب من هذا العيش ؟ ماذا في المدن الكبرى التى منها اتيت

غير الضجيج والجلبة والزحام والتناحر من اجل الحياة ومطالب العيش . ان الناس هنا يرون ان قريتهم هذه الهادئة الجميلة هي العالم بأسره ، أما الانسانية التي تعيش وراء هذه الجبال فهي عندهم خرافة !

لقد صدق والله هذا الشيخ ، هنا في بهرة الحقول الصامتة ، وفي وسط الخمائل النضرة ، وفي احضان الطبيعة المشرقة الضاحكة يحلو للمرء ان يعيش

عدت اسأل الشيخ : وكيف تقضي نهارك ؟

اجاب : « في رحلات هنا وهناك ، وسط الطبيعة الضاحكة ، حتى اذا عدت ادراجي عند المغيب منحدراً مقانصي المتجافية النائية اروح اقصُّ على زميلي القس . . . حديث يومي وخبري ويتلو علي هو وقائع نهاره ونبأه ، ويحدثني كيف ان يماماتنا تفقت البيض تحت اجنحتها ، وكم أعطت العنزة من لبانها ، وكم من السمكات اصطادت حبائلهُ ، ثم يأخذني فيريني ما جمع من اوراق الطحلبات واغصانها ، وما ركم من غثاء الاشجار ولحائها ، يختزنهُ قبل وفدة الشتاء وقرسة الزمهرير ، وما اقتطف من اب الغابة وفاكهتها ، وما شاك اصابعهُ الدامية من ابرها واشواكها ، وما مد ولوى من دوالي الكروم وعواسج اللباب ، فوق جوانب المغارة وجدرانها ، وما امسك من العصافير بمخادعتها بالحبوب ومداعبتها ، والظباء الجائعة يلقطها الحب بيده ويؤكلها ، لان كل شركائنا في عزلتنا ظباء الجبل واباها ، وعصافير الغابة واطيارها ، تتسابق عند رؤيتنا ، وتجتمع لمطلعنا ، وتطير على صوتنا ومشيئتنا ، ونحن نأكل ما نصيبه في نهارنا ، تحلو لنا الألبان وتوافه الطعام وتطيب ، ونلتهم بعدها غرائب الفاكهة ونوادر الثمر ، وحيناً نشرب ماءها ، ونوثر عليها عصيرها ، ونختزن للفصل المحتضر ما تجفف الشمس وتحفظ الزمن ، وينوه احدنا بفكرة اخيه ويصفق لمبتكره ، ويطفر لاملوحته ، نقتل المساء المتطاول في النادرة ، والضحكة الحلوة في اعقاب الضحكة ، وحيناً نشهد القمر في صميم الليل بازغاً متهللاً ، ساطعاً على صفحة الارض منبسطاً ، فنسجد فوق الصخر الأصم خاشعين ضارعين ، نستقبل مطلع ذلك النور ، ونتألق من ذلك الضياء ، نشكر لله اليوم الذي اعطانا ، ونحمد له الليلة التي وهبنا ، ونسأله الشمس تطلع علينا بالغد اهنيء والايام الحلوة الرغيدة

« كذلك نختم يومنا ، نمضي في سلام نهجع في رفق ، حتى يصدح صوت الذي يصحو قبل رفيقه مع نشائد القنبرة ، ويمتزج باغاني البلبل ، فيطرب اذن صاحبه ، ويوقظه من هجعته »

مددت يدي للقس الشيخ وهززت يده بحرارة واعجاب ، وعدت مع اهلي واصدقائي الى انطاكية مارين بين المزارع الخضراء موقنين ان عشاق الاصطياف سيكتشفون بعد قليل من الزمن في هذا الفردوس الارضي خير مصطاف . . .

نقولا شكري

بريان

تتمة مقالة اميل لدوغ

اخذت شهرة بريان العالمية في خدمة السلام تذيع من نحو خمس سنوات او ستّ فقط ، مع انهُ كان قد انقضى عليهِ خمسون سنة وهو يدعو الناس الى السلام والتساهل ونبذ التعصب القومي. ومع ذلك فليس هو مبدع ميثاق لوكارنو ولا خالق فكرة الاتحاد الاوربي. وانما كان في السياسة العالمية مثل اديصن في ميدان الاستنباط ، يتناول المسائل كما هي ويعالجها بحماسة نادرة وكثيرٍ من بعد النظر وسعة الخيال حتى اصبح اسمه مرادفاً « للسلام » . ذلك انهُ لما حذفت الضمانة الانكليزية الاميركية لسلامة فرنسا من معاهدة فرساي ، لشدة معارضة مجلس الامة الاميركي ، اخذ رجال السياسة في فرنسا ، وبريان في طليعتهم ، يسعون سعياً حثيثاً لابداع بدلٍ لها . فلما التأم مؤتمر « كان » سنة ١٩٢٢ حاول بريان ان يستميل بريطانيا لضمانة سلامة فرنسا لقاء تساهلٍ في موضوع التعويضات الحربية المطلوبة من المانيا ، فعارضهُ في ذلك بوانكاره معارضة شديدة ، فعاد الى باريس والقى خطبة في مجلس النواب محاولاً ان يسوّغ بها عملهُ ، وكان الصق اصدقائهِ بهِ لا يدرون هل يستقيل او لا يستقيل . وكان في اثناء القاء الخطبة يراقب النواب في روحاتهم وغدواتهم ، ويتبيّن نياتهم في ملامحهم ، ويصغي الى تصفيقهم الفاتر فانهى خطبتهُ بهذه العبارة المفاجئة : « كل هذا كان برنامجي . واذ ارى انهُ لم ينل موافقتكم فانني مستقيل »

ولما عاد فتقلّد زمام الحكم في سنة ١٩٢٥ وجد بين اوراق سلفهِ « هريو » وثيقة المانية كان قد مضى عليها شهور وفيها مشروع ميثاق بين المانيا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا تضمن بموجبهِ سلامة فرنسا والمانيا من اي هجوم على احداها . وكان الميثاق تامّاً من جميع وجوهه ، فاخذه الى لوكارنو واقنع الدول بقبولهِ . والطريقة التي جرى عليها في لوكارنو حديثاً وسلوكاً كسبت لهُ من جماهير الناس اسم « الفرنسي المسالم العظيم » . ولم يكن سبب فوزه الشعورُ الانساني الذي يساور المفاوضَ اذ يسمعهُ يقول « انا » في حين ان السر اوستن تشمبرلين لا يستطيع الاَّ ان يقول « حكومة جلالة الملك » بل كان عطفهُ وانطلاقهُ الصحيح من القيود التي تكبل العقل وتضيق افق النظر . ففي بلدة اسكونا التي اقطنها قال بريان مرة لمستشار الماني « انت الماني وانا فرنسي . وعلى ذلك فلا بد من اختلافنا . ولكنني استطيع ان اكون فرنسيًّا واوربيًّا محبًّا لصالح اوربا في آنٍ واحد . وانت تستطيع ان تكون المانيًّا واوربيًّا محبًّا لصالح اوربا في آنٍ واحد . ولا يصعب على اوربيين محبان صالح اوربا ان يتفقا »

لقد انقضى علينا نحن الكتّاب والشعراء الحمقى على ضفتي نهر الرين احدى عشرة سنة ونحن نقول الكلام نفسهُ فلم يجرؤ رجل من رجال السياسة على الاعراب عن شعورنا حتى فعل ذلك بريان . من ذلك اليوم ، اتسعت آفاق عطفهِ فلما عقد اتفاق لوكارنو ، اكتشف لغة جديدة اذ قال: «لقد تكلمنا لغة اوربية ، وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها » ولما عاد الى باريز حاملاً غصن السلام في يديهِ ، وخرجت باريس تستقبله قال لمن حوله على المحطة « لقد استعدتُ صباي » !

ألا يتضح كيف اقبل بريان ، وهو شيخ عدا الستين ، على فكرة السلام ، يكافح في سبيلها كفاح الاحداث المتحمسين لها المتعصبين في سبيلها ، كفاحاً لم يرَ اصدقاءه ُ ما عاثله في اي دور من ادوار حياتهِ السياسية ؟ انهُ بعد تنقلهِ السياسي بين الحكومات الفرنسية ، وبعد ما قضى ساعات وحيداً يقذف زورقهُ الصغير ويصيد الاسماك من الانهار والجداول ، ويبحث في قرارات ضميرهِ متأملاً ما صارت اليهِ احلام شبابهِ ، اكتشف اخيراً العبارة التي تتسق وحياتهُ ، وعزم ان يدافع عن الفكرة التي تحتويها بكل ما لهُ من المكانة ، في فرنسا ووراء حدودها ، عازماً ان يحقق ما كان يدعو اليهِ في صباه . اصغ اليهِ وقد ارتقى المنبر في مجلس الشيوخ يدافع عن سياستهِ في لوكارنو قال : — «ما هذا ؟ اخالدة هذه الحال ؟ اخالدة ! ايجب علينا ان نخاف دوماً نشوب حرب بين فرنسا والمانيا ؟ ايجب على هاتين الامتين ان تفكرا دوماً في السلاح والتسلّح ، سراً او جهاراً ؟ حروب جديدة — اهذا ما تدعونه مستقبلاً ؟ اذهبوا الى مدنكم ، وسيروا في شوارعها ، وزوروا الناس في بيوتهم ، وتحدثوا الى الفلاحين ، فكل انسان في كل مسلك من مسالك الحياة يطلب السلام »

ولما أُمضي اتفاق لوكارنو في لندن قرأ بريان ، والانفعال بادٍ في اساريره ، رسالة وردتهُ من والدة جاء فيها « اسمح لوالدة ان تتمنى لك خيراً . لانني الآن استطيع ان انظر الى اولادي من دون ان يعروني الهلع . واخيراً استطيع ان احبهم حباً يكملهُ التأكد من سلامتهم » . وتلا ذلك مناقشات في مجلس الشيوخ ولجانه فاضطر بريان الكسول المتراخي ان يقضي ٣٦ ساعة من دون انقطاع تقريباً ، يدافع عن نفسه . وفي صباح احد الايام ، اذ علم ان ثمة محاولة لقلب وزارتهِ اعتلى المنبر ، وقال : «لم انظر في حياتي نظرة الجزع الى ذلك الباب . اما اليوم فاني اتمسك بالسلطة بكل قواي . فاذا خذلتموني اليوم انزلتم بالبلاد كارثة » . فكان في صوتهِ رنة رسولٍ . وابرم المجلسان الاتفاق

فلما آن الاوان لانتظام المانيا في سلك جمعية الامم سنة ١٩٢٦ ظهرت في الصحف الوطنية الفرنسية مقالات كلها تهديد ووعيد لبريان . واذ كان نائماً في عربة القطار الذي اقلهُ الى جنيف ، حدث اصطدام فتكسر زجاج نافذة ، فظن الناس ان مجرماً يحاول اغتيال الرئيس ، ولكن القطار لم يقف ، وفي الصباح التالي ثبت ان بعض قضبان الحديد الناتئة من عربة شحن صدمت القطار وكسرت الزجاج . كل راكبي القطار خرجوا في ملابس نومهم مذعورين يسألون

ما الخبر الآن بريان ، فانه لما وصل الى جنيف سأل عما حدث بالامس . ذلك انهُ كان ذاهباً لتأدية رسالة خير، لايخشى فيها خوفاً ولا لوماً . وبعد بضعة ايام ، وقف على منبر جمعية الامم في جنيف وخطب قائلاً : « لقد قضينا على الحرب بيننا ونزعنا الوشاحات السود وازلنا بواعث الالم . ولن نسمح بعد اليوم بان يكون سفك الدماء حاكماً فاصلا في ما نختلف عليهِ. لنا الآن قاضٍ يحكم بالعدل . ابعدوا المدافع . افسحوا المجال للتفاهم والتحكيم والسلام »

وبعد بضعة أيام تناول بريان وشترزمان طعام الافطار في بلدة «تواري» على مقربة من جنيف فكانت كلمات بريان الساذجة وأخلاصةُ الجمّ لقضية السلام سبباً لنزول هذا الاجتماع البسيط بين الاجتماعات السياسية الخطيرة في تاريخ اوربا بعد الحرب . هنا اجتمع رجلان سياسيان من امتين متعاديتين ، فجملا يتحدثان كأنهما شاعران ملهمان محلقان فوق الغيوم ، يحاولان ان يقتنعا بان حسن النية وصفاءها يذللان كل العقبات. ومن الغريب ان ترى رجلين كبريان وشترزمان يختلفان نشأة وطبعاً اختلافهما مظهراً ووطناً ، يستطيعان ان يصلا الى تفاهم ما — وهو ما كان يحسب مستحيلاً . ولكن خيالهما حوّل كلاًّ منهما من سياسيّ عاديّ ورفعهما الى مستوى رجال السياسة البناة . فسرت ، على أثر اجتماعهما ، هزّة في شعوب ، اوربا ، اذ تبينت شعاعة من النور يبعثها في نفوس الناس ، خيال رجل فرد

بعيد ذلك عقد مؤتمر لمشوّهي رجال الحرب فاجتمع مندوبون من كل الامم في جنيف وقاموا بمظاهرة سلمية دعايةً للسلام ، فاقترب رجل اعمى واكتع من بريان وخاطبهُ قائلاً . «ياسيدي . لا تقف عند حدٍّ في عملك . ان اربعة ملايين من الرجال بكمٌ لايستطيعون الكلام. وانا هنا واقف اتكلم باسمهم . امضِ في عملك يا سيدي » . ولما سمعتُ بريان يروي هذه القصة ، رأيت الذكرى تبسط القتام على وجههِ ثم تلألأت عيناه بشراً وطفح وجههُ بالنور

وليس هنا مجال البحث في «عهد كيلوغ بريان» ومشروع «الولايات المتحدة الاوربية» وانما نريد ان نقول ان بريان كان السياسيَّ الاوربي الاول في المائة سنة الماضية الذي تجرأ وهو في منصب رسميّ ان يقول ماقاله بهِ من منبر جمعية الامم في خريف سنة ١٩٣٠ «ما زلت احمل تبعة شؤون بلادي ففرنسا لن تشهر حرباً » . فقامت عليه قيامة الصحف الوطنية المتطرفة تحاول خذله في مجلس النواب ولكن قوله هذا في نظري اشبه شيء بدرة من درر « مرقص اوريليوس » الامبراطور الفيلسوف

هل اراد بريان ان يكون رئيساً للجمهورية ؟ لما اشار عليهِ بعض اصدقائهِ بترشيح نفسهِ لا نتخاب الرآسة ، اعترضت ، طائفة كبيرة من احرار الفرنسيين لان فرنسا لم تنتخب للرآسة في خلال الستين سنة السابقة رجلاً سياسيًّا من الطبقة الاولى. اما الرئيس بريه — وهو من اقدر الرؤساء الذين تولوا المنصب في تلك الفترة — فتخلى عن المنصب قبل انتهاء المدة . واما بوانكاره فقال لدى خروجهِ من الاليزه « لقد اضعت سبع سنوات». لذلك لم يشأ الفرنسيون

ان يروا بريان السياسي العامل منزوياً في الاليزه معتزلاً السياسة السلمية المقترنة باسمهِ

ولكنهُ بعد ما رفض ان يتقدم لانتخاب الرآسة ، مال الى الاخذ بما سمعهُ من اصدقائهِ، لما رأوا ما اعترى نفوذه من الضعف في مجلس النواب فظنوا ان سبع سنوات في مرفإ الرآسة الامين تحفظهُ من مخاطر العاصفة التي ينذر بها الجوّ السياسي

ولم يخطر لاحد حينئذٍ ان يشك في امكان فوزه . ألم يكن اشهرَ الفرنسيين واحبَّهم الى الناس . ألم يشعر في مساعيهِ السلمية بأن الامة تؤيده من اقصاها الى اقصاها ؟ ماذا يستطيع محترفو السياسة ان يفعلوا في وجه تأييد كهذا التأييد ؟ لذلك اقتنع بريان بقول المريدين ولم تأخذه ريبة ما في انتخابهِ . ومع شدة معرفتهِ بالطبيعة البشرية ، وفهمهِ للتيارات السياسية في المجلس الفرنسي ، لم يدرك ان الغيرة منهُ كانت الباعث على ما وُجّه اليهِ من الطعن والثلب في الصحف. ولا تنسَ انَّ الشعب الفرنسي لا ينتخب الرئيس، بل النواب والشيوخ . وفي هذا يذكرنا بريان ببسمارك ، فان بسمارك لم يكن يعتقد قط ان امبراطوراً من اسرة هوهنزلورن كائناً من كان يبعدهُ عن كرسي الحكم وقد قضى ثلاثين سنة في خدمة بلاده وامبراطوره

فلما انتخب دومر بدا للناس الذين يرقبون فرنسا كأن فرصة سانحة لخدمة قضية السلم قد ضاعت . وكأن فرنسا قد خذلت « رسل السلام » فيها

على ان بريان لم يستقيل من منصبهِ كوزير للخارجية على أثر ظهور نتيجة الانتخاب ، لانه كان ينوي ان يذهب الى جنيف ليقرّع الالمان ، اخذاً بالثأر . لانه لو لم تعلن المانيا معاهدتها الجمركية مع النمسا قبيل انتخابات الرآسة الفرنسية لما تألب عليهِ اعداؤه هذا التألب . فاعلان هذه المعاهدة جاء خذلاناً لسياسة السلام التي جرى عليها ودعا اليها . فذهب الى جنيف وقضى على تلك المعاهدة وعاد الى باريس عود الظافر لكي يستقيل من منصبهِ ، ثم يتقدم في الانتخابات التالية ويخرج منها لابساً اكليل النصر . كانت الامة الفرنسية تتوقع منهُ هذا ، فاتفق زعماء احزاب اليسار على الدائرة التي يتقدم فيها للانتخاب . ولكنهُ غير رأيه فجأة ، وبين مساء الجمعة ومساء الاحد قرر ان يبقى في وزارة الخارجية فما حدث ؟

ذلك انهُ قبل الانتخاب لرآسة الجمهورية جاء الشيخ دومر — وكان احد المرشحين للمنصب — الى صديقهِ القديم بريان ، وسألهُ صراحة ان ينبئهُ عن موقفهِ في الانتخاب ، فاذا عزم بريان ان يتقدم للانتخاب تنحّى عنهُ دومر . فأنبأهُ بريان بالحقيقة — وكان حينئذ مصمماً على رفض التقدم للانتخاب . فلما غيَّر رأيهُ وضع صديقهُ في موقف حرج، لم يلبث ان ازداد حراجة بعد فوز دومر وخذل بريان . على ان الرئيس الجديد ، استدعى وزير خارجيتهِ، ومن دون ان يشير الى حديثهما السابق قال لهُ « والآن يجب ألاَّ تتخلى عني » . فقبل بريان ذلك مرغماً لان قبولهُ هذا عنى الاشتراك مع ألدّ خصومهِ في وزارة يرأسها لافال وكيل وزارتهِ سابقاً

الاخطل الصغير

او بشاره الخوري صاحب « البرق » البيروتية

لمحمود ابو الوفا

كانوا يطلقون على ابن هانئ الاندلسي أنهُ متنبي الغرب . فهل يؤذن لي الآن أن اطلق على الاخطل الصغير أنهُ شوقي لبنان. قال بعضهم لولده أي عظيم تريد أن تكونه يا بنيّ . فقال الولد اريد أن أكون مثلك . قال الوالد لقد كنت في مثل سنك هذه يا بني أطلب أن اكون مثل علي بن ابي طالب . وها هو الفرق بيني وبين ابن ابي طالب على ما تراه . فهل تحبُّ أن يكون الفرق بينك وبيني بمقدار ما بيني وبين ابن ابي طالب

وعلى هذا القياس فماذا عسى ان يكون المثل الأعلى للاخطل الصغير .لاشك انهُ كان عظيماً جدًّا ولكني ارجو ان لا اجانف الصواب اذا قلت ان المثل الأعلى للأخطل الصغير لم يكن سوى الأخطل الكبير فان هذا هو الرجل الذي يقال فيهِ بحق: « هو الشاعر من فرعه الى قدمه » وحسبك بشاعر نصراني ، يدعونهُ شاعر بني امية في زمن معاوية اعني في صدر الاسلام ثم حسبك منهُ بشاعر يشير لنا ابو العلاء المعري الى مكانته في الشعر وانت تعرف من هو ابو العلاء في نقد الشعر والبصر به فيقول المعري (ان السادات كانت تطرب على قوله)

أناخوا فجروا شاصيات [1] كأنها رجال من السودان لم يتسربلو

فصبوا عُقاراً في الاناء كأنها اذا لمحوها جذوة تتأكل

تدبُّ دبيباً في العظام كأنهُ دبيب نمال في نقا يتهيل

أزعم واثقاً أنني أدنى الى الحق ان المثل الأعلى للأخطل الصغير لم يكن الا هذا الروح الشعري العالي الذي أعجب بهِ السادات من امية حتى طربوا له وشربوا عليهِ واؤكد أنهُ لو لم يكن للاخطل الصغير هذا المثل الاعلى لما استقرَّ شعره على هذا الاسلوب النادر في هذا العصر الذي اذا شكى منه الادب فلن تكون شكاته الا ضعف الاساليب فيهِ . . . ان للاستاذ الخوري اسلوباً شعريًّا متفرداً بين اساليب الشعراء اللبنانيين تفرُّد اسلوب شوقي بين الشعراء

---

(١) زقاق الخمر كبيرة مثل القرب

المصريين فكلا الشاعرين في بيئته نسيج وحده كما يقولون . وكلاهما في جيله يمثل طبقة قائمة بذاتها فأنت حين تنظر الى شعره تراه كأنهُ يتهادى الى الاسماع في موكب من الأبهة والرونق والجمال فلا تملك نفسك دون التشبع منه والتوجه اليهِ ، وان كنت رأيت مثل هذا الموكب كثيراً ، وكثيراً جداً . ولا اظن الاستدلال على قرب هذين الشاعرين احدهما من الآخر يكلفك اكثر من الاطلاع على هذين النموذجين

قال شوقي بك في رثاء الزعيم زغلول باشا

كفنوا الشمس ومالوا بضحاها وانثنى الصبح عليها فبكاها

وقال الاخطل الصغير في رثاء الزعيم فوزي الغزي

كفنوا الشمس بريحان وورس يا لشمس آذنت من عبد شمس

فأنت ترى كيف يتواطأ استهلال الشاعرين في رثاء الزعيمين السياسيين فيستعملان الفاظاً واحدة ويذهبان في افق واحد تقريباً . كذلك يقول الاخطل الصغير في رثائهِ المؤثر البليغ لغبطة البطريرك الكبير ماري الياس الحويك

جبريل عند رتاجه متواضع ويسوع حول سريره يتهادى

ويقول شوقي بك في بعض مطالعه — جبريل هلل في السماء وكبر —

ويقول ايضاً في موكب استقبال ام المحسنين

واتركي فضل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الامين

وهكذا تجد الكثير من شعر هذين الشاعرين متفقاً في الفاظه واستعاراته وتشبيهاته توافقاً خليقاً ان يعقد له فصل قائم بذاته . صحيح ان بعض المتقدمين من النقاد كانوا يسمون هذا النوع من التوافق بين الشعراء (اخذاً) ويقصدون ان اللاحق اخذه من السابق وكانوا يرونهُ نوعاً من المحاكاة والتقليد . وربما غالى بعضهم فسماه سرقة ولكن التحقيق انهُ ليس كذلك فان الشاعر الذي يأخذ من غيره تقليداً او محاكاة ، لا يكون معتداً (بفنه) يعني ان ثقته بفنه ان لم تكن معدومة البتة فانها تكون ضعيفة . ولكن هذا الاخطل الصغير يرينا انهُ يثق بفنهِ ثقة لا حدّ لها فهو يقول في رثائهِ للبطريرك

اوحيد امتهِ تقىً وهداية هلاّ سمعت وحيدها انشادا

خلعت قصائده عليك عيونها وحبتك من ورق الخلود وسادا

بل ان الاخطل هنا في هذا المعنى اكثر من شوقي ذهاباً بنفسهِ واعتداداً بفنهِ فقد اكتفى شوقي حين قرر هذا المعنى ان يجعل شعره درجات للخالدين فقط فقال لام المحسنين

لا ترومي غير شعري موكباً ان شعري درجات الخالدين

اما صاحبنا الاخطل الصغير فقد ابى الاّ ان يجعل شعره هو المتصرف في هذا الخلود يحبو

بهِ من يشاء . ولعله يمنعهُ من يشاء ايضاً . ولا شك ان شاعراً يعتدّ بشعره كل هذا الاعتداد ويزهو بنفسه هذا الزهو لا يعقل ان يكون آخذاً من غيره ولا مقلداً له لان المقلد من اضعف الناس امام نفسه ولولا ذلك ما استعار قوة غيره. وبرهان آخر يجبُ الآن ان يذكر هو ان المقلد الذي يأخذ معاني غيره محاكاةً لا يمكن ان يكون اكثر من ناظم ويستحيل ان يكون شاعراً بالمعنى الصحيح لكلمة شاعر . لان من المستحيل على مقلد ان يفهم الشعر الا على انهُ هو الكلام المنظوم المقفى كما هو تعريفه في الكتب المدرسية الى الآن . ولكن الاخطل الصغير يعرفنا الشعر اعظم تعريف يطمئن اليه الشعراء الصادقون فهو يقول في قصيدته (عمر ونعم)

والشعر روح الله في شاعره ذلك يوحيه وهذا ينشر
الحكمة الغراء من اسمائه وعدن من اوطانه وعبقر
له على الآفاق فتح زاهر وفي عباب الماء فتح ازهر
يضيهما منـه خيال مارد ابو الفتوحات الذي لا يقهر

***

تعاق العلم على اسبابه خاق الطود وفاق الحجر

واذن فوقوع شاعر مثل الاخطل الصغير على الفاظ ومعاني شاعر سائر الشعر جوال القافية مثل شوقي بك لا يصح ولا يعقل ان يدخل في باب (الآخذ والمأخوذ) كما انهُ لا يصح ان يسمى ذلك تقليداً ومحاكاة . وانما هذه مسألة راجعة فيما اعتقد انا الى توافق الشاعرية في هذين الشاعرين . لكن الذي يجب ان يفهم على وجهه الصحيح ايضاً هو ان هاتين الشاعريتين المتوافقتين لا يلزم ان تكونا متساويتين الا في الاسلوب وما يتعلق بالاسلوب من الاستعارات والالفاظ . اما الانتاج الشعري وما يتعلق بهِ من الصور الشعرية والمذاهب الفنية وما الى ذلك من جميع مواهب الشاعر فلا يلزم ان تتفقا لأن الشاعرية شيء والشعر شيء آخر

وكثيراً ما نجد الاراضي الزراعية تكون متفقة مع اختها في المعدن تمام الاتفاق ولكن محصول هذه غير محصول تلك لذلك قد يكون الشاعر متفقاً مع الآخر في المزاج الشعري — الشاعرية — ولكن لكل منهما فنه في الشعر بل قد يكون لكل منهما في الشعر والحياة مذهب يخالف مذهب صاحبه . فهذا ابو الطيب المتنبي قد اشتهر بالحكمة حتى كان النقاد المتقدمون يخصونه بالحكمة ويخصون البحتري بالشعر فيقولون الحكيم هو المتنبي والشاعر هو البحتري . وكان ابن هانىء الاندلسي لم يشتهر الا بالاغراق ومع ذلك فان هذين الاثنين كانا متفقين في الشاعرية باجماع النقاد المتقدمين تقريباً . ولهذا التوافق في الشاعرية لا لغيره كان هؤلاء النقاد يطلقون على ابن هانىء لقب متنبي الغرب. فالمسألة ليست هي الشاعرية وحسب وليس فخر الشاعر ان يكون متفقاً في سمو الشاعرية مع اعظم شاعر ظهر على وجه الارض

فان الشاعرية لا تزيد في نظر الناقد عن كونها احدى الملكات الموهوبة التي قد يحسن صاحبها في استعمالها وقد يسيء . وانما فخر الشاعر الحقيقي هو فيما يكشفه للناس من الجوانب الخافية في الحياة . والناقد المنصف البصير هو الذي لا يطلّ على الشاعر الاّ من جهة مذهبه الشعري الاصلاحي ليعرف الى اي جهة يريد ان يسوق الحياة بحدائه أو غنائه وفي اي جهة يريد ان يتجه بها فان لم يكن للشاعر مذهب يدعو له ولا مثل اعلى يرمي اليه فان شعره لا يكون جديراً بالنقد بل هو في مذهبي لا يكون جديراً بان يعد في الشعراء الخالدين

***

والآن فنحن اذا سلطنا هذا المنظار الدقيق على شعر الاخطل الصغير فكيف نجده — انني هنا افضل ان اعطي الكلمة للاستاذ ميشال ذكور قال :

« الاخطل الصغير او بشاره الخوري مسميان لشخص واحد هو صاحب البرق الذي لا يجاريه شاعر عربي آخر في لبنان وسوريا بخياله وعذوبة الفاظه ورقة معانيه لانهُ لا ينظم الا مذيباً شيئاً من روحه الحساسة . . . » والحق ان كلام صاحب المعرض الغراء كله حق فانك تقرأ شعر الاخطل فتجد فيه ديباجة هي اشبه بديباجة شعر شوقي كما اسلفت القول كما تجد فيه روحاً وجدانية تترقرق كما تترقرق المياه الصافية بين الاعشاب والصخور فاذا انت من هذا المزيج الشعري امام شاعر لا هو في الشعراء الصناعيين ولا هو من الشعراء الوجدانيين ولكنه يرضي الوجدانيين والنفسيين واصحاب العواطف والاحساسات المشبوبة بمقدار كما يستطيع ان يرضي الديباجيين من اصحاب الصناعة والفن . وبعبارة اكثر صراحة نقرر ان الاخطل الصغير لم يضرب على قيثارة فوزي المعلوف ولا على مزهر القروي ولا على الخان جبران ولكنه سبح في مسابح مطران وايليا وامثال هؤلاء من الشعراء اللبنانيين المتمصرين ولا شك انه وفق في مذهبه الفني كل التوفيق وان التاريخ عندما يظهر كلمته النهائية في هؤلاء الشعراء الذين حملوا الوية تجديد الشعر العربي لسوف يضع اسمه في طليعتهم اما مذهبهُ الاصلاحي وصوره الشعرية فليس ادل عليه من هذه المناحي التي قصد اليها في قصائده الثلاث الريال المزيف التي يقول فيها : —

ويح الفقير فما تراه يلاقي سدت عليه منافذ الارزاق

عَلقُ المجاعة مصّ بعض دمائه وتعسف الحكام مصّ الباقي

وقصيدته التي جعل عنوانها «من مآسي الحرب الكبري» وهي التي يلخص لك غرضه من موضوعها في قوله يدعو الله عساه أن يستجيب له

واخلق الانسان خلقاً راقياً واقتل البغض به والكبرياء
واجعل الحب الهاً ثانياً واسجن المال ولا تنس الرياء
وليكن كل امتياز لاغياً يخرج الناس على حد سواء

ويقول منها ايضاً

مَنْ ترى يشرح لي ذنب الفقير او ترى يظهر لي فضل الغنى

. . . . . .

افهذي حكمة الله القدير لا . وجل الله عن ذا الغبن

. . . . . .

انما هذان مثل البذرتين بذرا في الارض حتى انبثقا
فكسا المقدور تين النبتتين هذه قبحاً وهذي رونقا

وايضاً قصيدة عروة وعفراء ، التي نلخص لك موضوع مأساتها في قوله

بينا الفتى في الشام يكدح للغنى كانت حبيبته تزف لثان
فتنت محاسنها «اثالة» وهو من «هُصَر» له سببان ملتزمان
نسب الدماء وفوقه نسب الغنى نسبان محبوبان محترمان
فأناله عفراء صفقة تاجر حسب البنات ملابساً وأواني

فانت ترى ان الشاعر في هذه القصائد الثلاث لا يحارب الا عدواً واحداً هو الفقر وهو في سبيل اجتذاب قرائه الى الوقوف في صفه والانتصار له على عدوه لا يفتأ يستعرض أمامهم مناظر الفقر في ابشع صوره وأفظع مآسيه فمرة يعرض الفقر في صورة شاب عذري الهوى حرم من حبيبته وحرمت منه حبيبته لا لشيء الا أنه فقير فتكون النتيجة موت الحبيبين معاً (عروة وعفراء) ومرة اخرى يعرض لك هذا الفقير والغني يغالبه حتى يغلبه في صورة آلام الام الطاهرة العفيفة التي ذهبت هي وبنتها الطفلة البريئة ضحية «الريال المزيف» . ومرة ثالثة يريك كيف يستطيع الغني الفاسق الغشوم ان يعبث بدماء العذارى الفقيرات . وهكذا لا يزال بك حتى تؤمن معه ان الفقر هو عنصر القبح هو الظلام . هو الشر . هو العدو الوحيد الذي يجب أن يقاتل في هذه الحياة . ولا ريب أن هذه هي فطرة الشاعر الذي ينظر الى جواهر الاشياء لا الى الاشياء وحسب . نظرة الشاعر الذي يرجع شعره الى ما وراء الحواس . ولا ريب ان هذا هو الشاعر العظيم

النقد الادبي — ٢

صور جديدة من الأدب العربي

بقلم الدكتور طه حسين

يذكر القراء المقالات التي نشرت في « المقتطف » بهذا العنوان في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ وقد عني صاحبها كامل كيلاني بجمعها وطبعها على حدة ونحن يسرنا ان نقدمها الى القراء بكلمة الدكتور طه حسين البليغة فيها : —

جميلة خصبة هذه الفكرة التي خطرت لصديقنا كامل كيلاني فأوحت إليه أن يتحدث — إلى الناس — فيما كان من تنافس وخصومة بين جماعة من العلماء والأدباء إبان العصر العباسي ، وفي مظهر بعينه من مظاهر هذا التنافس، هو ما يسميه الناس «مناظرة» بين هؤلاء العلماء والأدباء

جميلة خصبة هذه الفكرة لأنها تعرض — على جمهرة المستنيرين — ألواناً من الحياة العقلية العربية، ما كانوا ليلتفتوا اليها أو يفكروا فيها، لأنها مطوية عنهم في ثنايا الكتب وبطون الاسفار

وهي — على ذلك — زاهية جميلة قيمة ، فيها متعة للعقول وغذاء للقلوب وتقويم للاخلاق، وفيها — بعد هذا كله — إحياء لتاريخ الحركة العقلية عند المسلمين في عصر من اجمل عصورهم وأزهاها، وفيها — بعد هذا وذاك — جلاء لهذه المرآة الناصعة الصقيلة — مرآة التاريخ — التي تبين للمعاصرين أنهم ما يزالون يشبهون الذين سبقوهم في انحاء كثيرة — من سيرتهم — يتصل بعضها بالتفكير، ويتصل بعضها بالخلق، ويتصل بعضها بطريقة الملاءمة بين التفكير والخلق

فالذين يقرأون ما عرضه المؤلف — من مظاهر الخصومة — بين الهمذاني والخوارزمي ، وبين الكسائي وسيبويه ، وبين المتنبي وأبي فراس وابن خالويه والحاتمي ، وبين أبي العلاء وداعي الدعاة — لا يرون هؤلاء الناس وحدهم يختصمون ويتنافسون ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويظلم بعضهم بعضاً ، ثم ينتصف التاريخ للمظلوم من الظالم ، ويثأر للبريء ممن اعتدى عليه ، ولكنهم يرون أنفسهم في حياتهم هذه التي يحيونها ، والتي يأتمر فيها بعضهم ببعض ، ويجني فيها بعضهم على بعض ، يتخذون إلى ذلك — من الوسائل والاسباب — ما كان يتخذه القدماء ويفكرون فيه على نحو ما كان يفكر القدماء، ثم يظهرونه على نحو ما كان يظهره القدماء

فما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — همذاني يكيد للخوارزمي ويحكم الكيد ، وناس يخدعهم تملق المتملقين ولباقة اللبقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — كسائي يستظهر على سيبويه بجاه أولي السلطان والبأس ، ويعتز عليه بالمأجورين والمسترزقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم يتساقطون على قصور الملوك والامراء كما يتساقط الذباب ، فيكيدون فيها للعلماء والادباء والساسة وأهل الرأي ، ويبلغون — من ذلك — ما يريدون : كله أو بعضه

ثم ما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم زعموا انهم يدعون إلى الخير ، ويصدون عن الشر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهم — مع ذلك — يلقون الشباك ، ويعدّون الاشراك ، يصيدون بها المفكرين والباحثين كيداً لهم ، ونكاية بهم ، وعدواناً عليهم

* * *

كل أولئك احياء بيننا ، نراهم — في كل يوم — ويشقى بهم كرام الناس — في كل يوم — وينقدهم الناقدون ، ويمقتهم الماقتون

ولكنا نراهم — في صورتهم الصحيحة المرذولة — حين نقرأ كتاب كامل كيلاني ، لانا نراهم — على بعد الزمن وانقطاع الاسباب — وقد ذهبت الاحقاد ، وماتت الضغائن فيهم . فهم — كما يراهم التاريخ — لا يثيرون هذه الحفيظة التي يثيرها المعاصرون ، وقد وصلت — بيننا وبينهم — صلات المنافع والمضار ، فكان بيننا وبينهم — التعاون والتنافس

نعم ، ونحن نرى — في هذا الكتاب — ما لا نستطيع ان نراه الآن ، وما لم يستطع القدماء أن يروه ، وسيراه أبناؤنا من بعدنا ، وهو حكم التاريخ للمحسن ، وقضاءه على المسيء

* * *

قدمت — منذ أعوام — إلى الناس ، طبعة كامل كيلاني لرسالة الغفران ، بعد ان يسّرها وقرّبها إلى المستنيرين الذين يريدون ان يتأدبوا — دون ان يقفوا أنفسهم على العلم الخالص العسير

وكنت سعيداً شديد الاغتباط ، لأني رأيت هذه العناية — بأوساط المثقفين — تعجب الناس ، وتبلغ منهم ما أراد صاحبها . فتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتثير نشاط الفاتر

وقد راجت رسالة الغفران هذه — في مصر والشرق العربي — بل رأيت من المستشرقين في أوربا مَن يرضى عنها . ويعجب بها ، لأن صاحبها كان متواضعاً ، لا يدعي لنفسه أكثر من أنه يبذل جهداً صادقاً لتقريب العلم الى الذين قد لا يستطيعون أن يصلوا إليه وحدهم

وعلى هذا النحو ، يسرني أن أقدم — إلى القراء — هذا الكتاب اليسير القصير القيم الخصب الممتع في وقت واحد

* * *

كان من الحق على كامل — حين عرض لهذه الناحية من البحث — أن يصطنع خصلتين لابدّ منهما :

الأولى ، أن يكون سهلاً سمحاً ، ويسيراً قريباً ، لا يكلّف قارئه بحثاً ولكن يغريه بالبحث ، ولا يضطره إلى المراجعة ولكن يحبب إليه المراجعة

الثانية، أن يحرص على الانصاف ، ويأخذ به نفسه أخذاً شديداً ، فلا يظلم العلماء والأدباء، ولا يظلم القراء المحدثين فيفسد آراءهم في العلم والعلماء، والأدب والأدباء، لأن لهم علينا حق الأمانة والصدق

وإني لسعيد بأن أهديَ — الى كامل — أصدق التهنئة ، لأنه وفق إلى الخصلة الأولى كل التوفيق . فلقد قرأت كتابه — حين كان ينشر فصولاً في المقتطف — ثم قرأته أمس ، فلما بدأت القراءة لم أدعه حتى أتممته ، لم ينلني سأم ولا ملل ولا فتور، لأن ما في الكتاب — من الحياة — والحركة وخفة الروح — خليق أن يستبقي نشاطك موفوراً ، منذ تبدأ الكتاب إلى أن تتمه

أما الخصلة الثانية ، فقد تعوّدت مع أصدقائي جميعاً — ومع كامل خاصة — أن أكون صريحاً شديد الصراحة ، ولست أشك في ان الانصاف ظاهر في الكتاب ، يحسه القراء ، مهما تختلفْ طبقاتهم وتتفاوت حظوظهم من العلم ، ولكنْ في الكتاب شيئاً لا أدري ما هو — يشعرنا بأن شخصية المؤلف لم تستطع أن تستتر كل الاستتار ، بل أظهرت كثيراً من عواطفها وميولها ، وكأنها تريد — ولو في استحياء — أن تفرض علينا هذه العواطف والميول

* * *

أظنني عرفت هذا الشيء ، ففي كامل شباب شديد النشاط لا يخلو من حدة وعنف ، فهو — اذا اقتنع — لم يقتنع بعقله وحده ، وإنما اقتنع بعقله وقلبه وشعوره ، وفيه كرم يتجاوز به الإنصاف إلى الإسراف في الإنصاف ، فهو لا يكتفي بأن ينصف المظلوم — بالحكم له — بل يريد أن يعاقب الظالم بالإلحاح عليه وتشديد النكير

وما أرى أن الكسائي يستحق منه هذه الشدة المسرفة في القسوة ، فكان الكسائي ـ من الرواية والقراءة والنحو ـ يفرض علينا أن نكبره ونعرف له فضله

ومهما يجمع المجمعون على ان القول ما قال سيبويه ، فاني أحب ألاّ ننسى ان مذهب سيبويه واصحابه — في النحو — كان مذهب قياس وتعليل وان مذهب الكسائي واصحابه كان مذهب سماع وتقليد للعرب ، وأن لكل من المذهبين خطره وقيمته

كذلك كنت احب أن يرفق كامل بالحاتمي — كما رفق بابن خالويه — فكلاهما أسرف على المتنبي ، ولكنْ كاملاً ابتسم للنحوي وسخر من الاديب ، ومع ذلك فهذا الاديب خليق ان نبتسم له ، لأنهُ صور لنا — في سذاجة تشبه الغفلة — نوعاً من حياة الادباء في القرن الرابع تستحق ان نقف عنده ونفكر فيه

* * *

أثارت قراءة هذا الكتاب في نفسي هذه الخواطر ، وخواطر اخرى لا أجد — من الوقت — ما يسمح باثباتها ، وأحب الكتب ـ إليّ ـ ما يثير في نفسي الخواطر ، وينشطني للتفكير

فليكن موقع هذا الكتاب ـ من نفوس القراء جميعاً ـ كموقعه من نفسي . إذن يكون كامل قد ظفر ـ من التوفيق ـ بما اراد ، وبما هو اهل لان يظفر به

باب الزراعة والاقتصاد

تقدير ايجار الاطيان

اضطربت علاقة الملاك والمستأجرين بعضهم ببعض منذ رخصت أثمان الحاصلات الزراعية خصوصاً القطن — ولما كان تقدير ما يساويه الفدان من الايجار مثار الخلاف والاضطراب رأيت ان اعرض خلاصة اختباراتي في هذا الموضوع رجاء ان يكون فيها ما ينير السبيل لتقدير ايجار الاطيان تقديراً عادلاً مرتكزاً على قواعد معينة

(١) ـ التقدير على اساس الضريبة وظروف تقديرها والظروف الحالية

في سنة ١٨٩٥ شكلت الحكومة لجاناً من اعيان الزرّاع والموظفين تحت رآسة السير وليم ولكوكس لتقدير ايجارات الاطيان توطئة لتعديل الضرائب على مقتضاها فاتمت هذه اللجان عملها سنة ١٨٩٦ وكانت أعلى قيمة قدّرتها لاخصب فدان ٥٧٥ قرشاً واقصى ضريبة ضربتها عليهِ ١٦٤ قرشاً تساوي ٢٨،٦٤ ٪ من الايجار المقدر ثم يقل تقدير الايجار والضريبة تبعاً لدرجات الاطيان نزولاً بمقدار ٢٥ قرشاً من الايجار و٧ قروش من الضريبة في كل درجة الى ان تصير أدنى قيمة لادنى درجة ٥٠ قرشاً ايجاراً و١٤ قرشاً ضريبة

في ذلك الحين كان متوسط ثمن القنطار من القطن ٢٢٤ قرشاً في سنة ١٨٩٥ و ٢٠٢ في سنة ١٨٩٦ وكان يعتبر عند رجال الاقتصاد الزراعي ان ثمن الفدان يساوي قيمة ضريبتهِ ٥٠ ضعفاً او قيمة صافي ايجاره اي بعد خصم الضريبة ٢٠ ضعفاً وان ربح ٥ ٪ منهُ ربح حسن — ولكن بعد ان تحسنت وسائل الري والصرف والمواصلات والامن وتوزيع الضرائب وما اشبه مع ترقي الاحوال الاقتصادية عامة ـ زاد اليسر والرخاء وخصب الارض ومنتجاتها زيادة كبيرة فصار ثمن الفدان يقدر بقيمة ضريبتهِ ٧٠ ضعفاً فاكثر وبصافي الربح من ١٥ ضعفاً وصار هذا الربح لا يقل عن ٦ ٪ الى ٧ ٪ من ثمنهِ الزائد ـ واستمر التحسين في أثمان الحاصلات خصوصاً القطن ولا سيما في اثناء الحرب العالمية فاستمر ريع الارض وقيمتها في الارتفاع الى ان طفر ثمن القطن حتى بلغ ثمن القنطار بضعة واربعين جنيهاً وبيعت بعض الاطيان الزراعية بـ ٥٠٠

جنيه الفدان وبلغ ايجاره ٣٠ ـ ٤٠ جنيهاً ثم عادت الأثمان الى اقل مما كانت عليهِ اثناء الحرب وصار متوسط الايجار للارض الخصبة بمصلحة الاملاك الاميرية ١٦ جنيهاً ونصف جنيه الفدان في سنتي ١٩٢٧ و١٩٢٨ حيث كان متوسط ثمن قنطار القطن ٥٥٠ قرشاً بعد ان كان الايجار ٩ جنيهات ونصف ومتوسط ثمن القنطار ٣٧٢ قرشاً في سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ جاء في مذكرة وكيل وزارة المالية عن سياسة الحكومة القطنية انهُ اذا كانت الايجارات في مصلحة الاملاك (قد زادت الى هذا الحد مع ما هناك من انظمة كفيلة بتلافي ارهاق المستأجرين فانها في الدوائر «الزراعية» الخاصة قد بلغت حداً تاء تحت عبئهِ المستأجرون ـ الى ان يقول ـ وقد ارتفعت الفئات في بعض الاحيان الى ضعف ما كانت عليهِ قبل الحرب واصبحت في البعض الآخر تزيد عن ٦٠ ٪ الى ٨٠ ٪ ولما كانت اسعار القطن اليوم (اكتوبر سنة ١٩٣٠) قد اصبحت في مستوى اسعار قبل الحرب بالنسبة للسكلاريدس ودون تلك الاسعار بالنسبة للاشموني فقد أصبح من المتعين علاج مسألة الايجارات علاجاً يخفف تكاليف الانتاج ويرفع عن كاهل الفلاَّحين عبئاً اصبحت الاسعار الحالية لا تبرر إحتماله) اهـ. اما الآن ونحن نكتب هذه السطور فان ثمن القطن اقل بكثير عما كان عليهِ قبل الحرب اذ هو يتراوح بين ٩ ـ ١٠ ريالات او نحو جنيهين اي اقل مما كان عليهِ في اثناء تقدير الايجارات المشار اليهِ في فاتحة البحث

ان القطن كان (ولا يزال الى حد محدود) في مناطقه هو المعوَّل عليهِ في تسديد الايجار او معظمه اما أثمان الحبوب فانها الآن ـ والعبرة بما يبيعها بهِ الفلاح بيع المضطر لسداد جانب من الايجار في موسم انتاجها ـ اقل مما كانت عليهِ قبل الحرب واكثر قليلاً مما كانت عليهِ اثناء تعديل الضرائب. ولكن يقابل هذا ان أثمان الحاجيات الضرورية لمعيشة الفلاح وفلاحته قد زادت زيادة اكثر بكثير من زيادة ثمن الحبوب وهذه حقيقة يعرفها ويعانيها الملاَّك والمستأجرون معاً

ان التحسين الذي طرأ على خصب الارض ومنتجاتها بسبب الاصلاحات الآنفة الذكر وقدره مؤلف كتاب الاطيان والضرائب سنة ١٩٠٤ بـ ٥٠ ٪ قال (تم تقدير الايجارات قبل ان تشرع الحكومة في تعميم اصلاحات الري العظيمة بانشاء الترع والمصارف والسكك الزراعية وغيرها وقبل ان تؤسس الشركات المالية والزراعية والتجارية في طول البلاد وعرضها ولم تكن قد انبعثت في القطر روح النهضة الزراعية العظيمة المشاهدة الآن مما كان سبباً لزيادة ايجارات الاطيان بما لا ينقص الى الآن عن ٥٠ ٪ مما كان عليه منذ عشر سنوات» اهـ في ذلك الوقت كان ثمن قنطار القطن من ٢٨٠ — ٣٠٠ قرش وكانت سياسة الحكومة أو بالاحرى سياسة اللورد كرومر المالية متجهة نحو تخفيض الضرائب وانقاص عددها وتخفيض الرسوم الاخرى كالتسجيل واجرة السكة الحديد ووفرة النقود والثقة المالية فكان اليسر والرخاء وتناسق أثمان ما نبيعه ونشتريه معاً بخلاف ما صارت اليه وما لا تزال متجهة نحوه الحالة الآن ـ ولكن خصب

الارض وانتاجها — بصرف النظر عن الاثمان — يمكن ان تقدر زيادته الى الآن بـ ٤٠ ./. في الارض المتوسطة و ٨٠ ./. في الارض البحرية . فالارض المتوسطة التي تقدر ايجارها بـ ٣٥٠ قرشاً وضريبتها بـ ١٠٠ قرشاً يساوي ايجارها الآن (بفرض ان يكون ثمن القطن كما كان وقت التقدير ٢٢٤ قرشاً) ٥٠٠ قرش والارض البحرية التي قدر ايجارها بـ ٢٢٥ قرشاً وضريبتها بـ ٦٥ قرشاً يساوي ايجارها الآن ٤٠٠ قرش وهذا وذاك اذا لم تكن هناك ظروف خاصة ضد هذا التقدير كما سيجيء . اما الارض الجنوبية فسبيلها سبيل الارض المتوسطة أو اقل خصوصاً في الجهات التي أثر فيها ارتفاع مستوى النز — الماء الارضي — عما كان عليه قبلاً لقصور مشروعات الصرف عن بلوغ شأو مشروعات الري حتى ان بعضها قد اصابه ضرر — فمشروعات الري والصرف تكافأت في غير الجهات الجنوبية . وقصرت وسائل الصرف فيها عما اقتضتهُ زيادة مياه الري ولذلك (فان الارض الضعيفة جادت والارض الجيدة طَبَّلَتْ) كما يقول المستر ولككس في كتاب الري المصري

ومما يلاحظ ايضاً ان هناك جهات زاد خصبها وعمرانها عن المستوى العام لامتياز ملاَّكها وفلاحيها بالعناية بها وبحسن التدبير والاستفادة بالظروف الحسنة كما ان هناك جهات اخرى على ضدّ ذلك من كل وجه فليس بقليل ان نشاهد مزرعتين متجاورتين واحداهما استوفت شروط الخصب والنماء ريًّا وصرفاً وعمراناً وفلاحةً وحسن تدبير والاخرى دونها في كل ذلك ولهذا وذاك أثره في قيمة الارض وريعها

هذا وقد عادت البنوك العقارية الآن في تقدير قيمة الاطيان الى ما كان عليه الحال قبل بضع وثلاثين سنة فهذا بنك التسليف الزراعي قرر في قانونه ان ثمن الفدان لا يزيد عن مقدار ضريبته ٥٠ ضعفاً وان قيمة ما يسلف عليه لا يزيد عن ٦٠ ./. من الثمن وذلك بسبب رخص الحاصلات الزراعية وارتفاع اثمان المنتجات الصناعية التي يحتاج اليها الفلاح لمعيشته وفلاحته وحتى لا تسهل الاستدانة بمبالغ كبيرة تعود عاقبتها مريرة وهذه المرارة يتجرعها الملاك الآن من عواقب الاستدانة السابقة ولولاها لكانت الازمة بينهم وبين مستأجري ارضهم وبين البنوك ايضاً اخف مما هي الآن كثيراً . ورحم الله الدكتور صروف فقد قال منذ بضعة عشر سنة في بحث لهُ بعنوان الرخاء عام لولا الدين (ان الدين الذي سهلت البنوك سبيله للفلاحين سيكون سبباً لخرابهم) م ٣٧ ج ٧ من المقتطف

(٢) — التقدير على اساس ما تنتجه الارض ونصيب زارعها منه

جرى العرف الزراعي في الارض الرواتب الخصيبة كأرض الجهات الجنوبية ان لا يقل نصيب الزارع عن ٤٠ ./. من محصولها نظير فلاحته إياه من بدء تجهيز الارض للزراعة الى تخزين المحصول وقد اشرنا آنفاً الى ان البنوك العقارية تسلف على الاطيان بما لا يزيد عن ٦٠ ./.

من ثمنها كانها تراعي ان يكون ريع ان ٤٠ ./. الباقية لمصاريف فلاحتها فاذا كان ثمن ماينتجه الفدان من الزروع ١٠ جنيهات فلكلفة هذا الانتاج ٤ والباقي صافيه أو غلة الارض ـ اما في الارض الاقل خصباً كارض الجهات البحرية فان نصيب الفلاح ٥٠ ./. من محصولها ويعبر عن هذا في العرف بـ (فدان يخدم فدان) فاذا كان ثمن زروع فدانين مثلاً ١٢ جنيهاً فلفلاحتهما ٦ والباقي ٦ صافي ريعهما واذاً يكون ايجار الفدان ٣ جنيهات وانما زيد نصيب الزارع من هذه لقلة محصولها عن الارض الجنوبية فلذا كثر من فرق كلفة الفلاحة بين الارضين لان الارض البحرية اسهل رياً وأقل قبولاً لكثرة التسميد والحرث والعزق وأكثر مرافق من الارض الجنوبية في مجاري الري والصرف والسكك ولذلك فان الفلاح الذي يمكنهُ فلاحة فدانين في هذه الجنوبية يمكنه فلاحة ثلاثة افدنة من تلك البحرية

ان الفلاح يستغنى عن كل محصول القطن ولذلك فانهُ حينما كان يزرع في نصف الارض كان يعتبر ان قيمة قطن الفدان الواحد يوفي ايجاره وايجار الفدان الثاني الذي يزرع حبوباً وعلفاً للفلاح وماشيته انما كان ذلك مع ما اسلفنا انهُ في الجهات الجنوبية يكون نصيب الفلاح ٤٠ ./. لان ثمن القطن كان اغلى نسبيًّا من الحبوب فكان ريع الفدان منهُ اكثر من ريع الفدان منها وقد كان الفلاح المجتهد يستغل من فدان القطن خصوصاً في المواسم الحسنة ما يزيد عن الايجار زيادة يختص بها بينما الفلاح المهمل في المواسم الرديئة تعجز غلة فدان القطن عن سداد الايجار فيضطر المالك لاخذ مايمكنهُ اخذه من فدان الحبوب على ما في ذلك من الصعوبة ـ اما حينما كانت تحدد زراعة القطن بأقل من النصف كما هو حاصل الآن فلا بد لاستيفاء الايجار من اخذ جانب من الحبوب وقد كثرت عن قبل

(٣) ـ التقدير وأثمان الحاصلات

لكثرة تقلبات أثمان الحاصلات فانهُ عند الاتفاق على التأجير ـ اذا كانت الاسعار مرتفعة يخشى ان ترخص بعد فلا يستطيع المستأجر سداد الايجار واذا كانت رخيصة فمن المحتمل ان تزيد فيستفيد المستأجر وحده من الزيادة بينما في حالة الرخص وعجزه عن السداد تقع بعض الخسارة والتعب على المالك ـ ولما كان القطن هو المعول عليهِ في سداد الايجار او معظمه كما ابنا قبلاً وثمنهُ هو الاكثر عرضة للتقلب فيلاحظ في تقدير الايجار ان يكون على اساس السعر الرخيص فاذا غلا زاد الايجار ولذلك صورتان (الاولى) انهُ كلما غلا السعر ريالاً واحداً يزيد الايجار ٢ ./. وبعبارة اخرى كلما زاد سعر قنطار القطن جنيهاً زاد الايجار ١٠ ./. فاذا كان الاتفاق على ايجار الفدان ٥ جنيهات وثمن القنطار ٢٥٠ قرشاً وزاد الثمن الى ٣٠٠ قرش زيد الايجار ٥ ./. وهكذا. (الثانية) انهُ اذا زاد ثمن القطن يكون نصف الزيادة للمالك بحساب ان

المزروع قطناً يعطي مقداراً من القناطير يقدر بحسب درجة خصبه فاذا جاءت الزيادة في الثمن عن المتفق عليه ٥٠ قرشاً وكان المقرر ان محصول الفدان اربعة قناطير فجملة ثمنها جنيهان جنيه للمستأجر وجنيه للمالك علاوة على الايجار

وفي المزارع الواسعة التي يؤجر بعضها ويزرع البعض الآخر لحساب مالكها يفضل المالك الخبير لمناسبة تحديد زراعة القطن في ٢٥ ٪ و ٣٠ ٪ حسب المناطق ان يزيد المستأجرون زراعة القطن الى الثلث او النصف ويقللها هو فيستفيد فائدتين الاولى سهولة الحصول على الايجار (وقد ذكرنا قبل ميزة القطن في ذلك) والثاني الاقلال من زراعة القطن الكثيرة الكلفة الآن عليه كثرة لا تبررها اثمانه . اما عند الفلاح الصغير فتقل الكلفة الى ادنى حد ممكن كما يعرف الخبيرون بطبيعة العمل في المزارع الكبيرة والمزارع الصغيرة وذكرنا ذلك في مقالاتنا استغلال الارض المنشورة في المقتطف منذ بضعة عشرة سنة

وهناك من يحسب للمحاصيل كلها اثماناً معينة يربط الايجار بحسبها وعلى المستأجر ان يورد للمالك مقداراً منها يوازي الايجار وعلى المالك ان يقبل

(٤) — مناطق الارض وانواع زروعها واسعارها

يراعى في الارض العالية الفائقة الخصب كأرض الجهات الجنوبية ان افضل ما يجود فيها الحبوب ثم القطن فتأثير رخصه فيها اقل منه في غيرها لا سيما وان الضرائب الجمركية التي ضربتها الحكومة على واردات الحبوب الاجنبية وحالت دون كثرة ورودها — حفظت اثمان الحبوب في مستوى صار الآن اعلى نسبياً من ثمن القطن

وفي الجهات المتوسطة وهي الجهات التي تلي الجهات الجنوبية مثلاً ان افضل ما يجود فيها القطن ثم الحبوب ولذلك حينما كان ثمن القطن اعلى نسبة من ثمن الحبوب كان ريعها اعلى نسبياً من غيرها وليست كذلك الحال الآن

وفي الجهات الشمالية ان افضل ما يجود فيها القطن خصوصاً السكلاريدس وزروع المرعى واخيراً الحبوب وقد كانت خصوصاً اثناء الحرب العالمية لغلاء السكلاريدس الناتج منها حسنة الريع للغاية ويحسن الآن تربية مواشي اللبن والذبيح على زروع المرعى فيها واهمها البرسيم . والمناطق التي يصرح لها فيها بزراعة الارز يتحسن ريعها كثيراً بزراعته لا سيما وانها تصير اصلح للزروع التي تليه

هذا وقد سبق ان بحثنا مسألة التأجير من نواحيها الاخرى منذ بضعة عشر سنة في المقتطف

احمد الالفي

زراعي عملي

التعاون والاقتصاد الزراعي

لما رأينا ما للحركة التعاونية من الشان الخطير في مصر وما ينتظر لها من عظيم الاثر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية العامة افردنا هذا الباب لنشر مقالات ورسائل عن كل ما يهم الجمعيات التعاونية واعضاءها ويساعد على نشر التعاون وتقدمه . وقلم التحرير ينتهز هذه الفرصة ليعرب عن ترحيبه بنشر ما يرسله اليه اعضاء الجمعيات التعاونية من رسائل واخبار . وخير الكلام ما قل ودل

التعريفة الجمركية او طلسم الرخاء المزيف

بقلم و ل. كليتون — عن Cotton Trade Journal, International Edition, 1932

المقدمة والنقل الى العربية بقلم السيد احمد مراد البكري

انحصرت تركة الحرب العظمى في مقادير من الخامات والمنتجات لا قبل للعالم بتصريفها بدون احداث هزات عنيفة تداعت بسببها في كثير من الاحيان صروح اقتصادية في جميع بلاد العالم وكانت نواة لتلك الازمة العالمية التي لا نزال نعاني شدائدها ونقاسي من انواع عذابها ألواناً كثيرة — ففي كل بلد من بلاد العالم خيم ظلام الازمة وظهرت فيه اشباح العطلة وهبط مستوى المعيشة وفقدت الثقة في كل شيء حتى في المستقبل فالتجأ أولو الامر في معظم بلاد العالم الى نهج سياسة حماية الانتاج الاهلي برفع التعريفة الجمركية لمنع تدفق المنتجات الاجنبية الى داخل البلاد ومنافسة المنتجين الوطنيين في اسواقهم فقامت الحوائط الاقتصادية بين بلاد العالم ومنعت القوانين الاقتصادية من ان تفعل فعلها الطبيعي فتسبب عن ذلك رد فعل أشبه شيء بثورة بركانية لا تزال كل بلد من بلاد العالم هدفاً لقذائفها الملتهبة. وفي امريكا الآن كما هو الحال في البلدان الاخرى حزبان اقتصاديان أحدهما للتعريفة والآخر ضدها . ولما كانت مصر من بين البلاد التي تأثرت تجارة بعض منتجاتها كالقطن والبصل والبيض بما فرض عليها في امريكا من تعاريف باهظة ، فانهُ من البديهي ان يهمنا متابعة النضال القائم في تلك البلاد بين حزبي التعريفة . والمستر كليتون كاتب المقال الآتي من الحزب المضاد للتعريفة وهو شخصيًّا من كبار رجال المال والاعمال في تجارة القطن ، ولذلك فان آراءه واقتراحاته لها قيمتها العظيمة في بلاده

دئب دعاة سياسة الحماية الاميركيون خلال سنين طويلة على التبشير بأنجيلهم على اساس ان تلك السياسة تؤدي الى رفع كل من الاجور ومستوى المعيشة فاصبح العالم أجمع يصدق ما يبشرون به. وقد كانت النتيجة اننا اصدرنا تعريفة جمركية في ربيع سنة ١٩٣٠ تعد أعلى تعريفة عرفها العالم في اوقات السلم ولم نخجل من فرض رسوم بلغت في بعض الاصناف ٩٠٪ حتى ان جملة الرسوم القيمية والعينية بلغت في بعض الاصناف ١٥٠ ٪ !! وفي اتباع هذه السياسة لم يؤبه لأي انتقاد يوجه الى حكمة هؤلاء الدعاة ولا لتحذيرات ما يربي على الالف من كبار علماء

الاقتصاد الاميركيين » . ألم تكن تلك السياسة هي مصدر رخاء امريكا خلال سنوات عديدة ؟
اما أقوال اصحاب المصارف الدولية بان سياسة تخفيض مستورداتنا لا بدّ وان ينشأ عنها صعوبات في تحصيل ديوننا الاوربية فضلاً عن انها لا بد وان تقضي على تجارتنا الخارجية فكان رد دعاة الحماية عليها ينحصر في ان تجارتنا الخارجية لا توازي الا ١٠ ٪ من جملة تجارتنا وعلى اننا لابد ان نحافظ على ال ٩٠ ٪ ونترك ال ١٠ ٪ تحافظ على نفسها كيفما شاءت. وان هؤلاء الماليين لايدرون ما يقولون اذ ان باقي العالم في حاجة شديدة الى قطننا وقمحنا ومصنوعاتنا من سيارات وآلات الراديو وماكنات الخياطة والكتابة فهل هناك احد آخر يحسن صنع هذه الاشياء اكثر منا ؟ كما أن كلنا يعرف أن اوربا في حاجة الى شرائها منا وعليها ان تجد الطريقة التي تدفع بها ثمنها وعلى كل حال فاننا مصممون على ان لا نضيّع حق العامل الامريكي بتشجيع العامل الاجنبي الاقل اجرة منهُ لتمكين بعض اصحاب المصارف الدولية من تحصيل ديونهم الاجنبية فضلاً عن ان العامل الامريكي لا يعنيه من أمر هذه الديون شيء . وهنا ينتهي كلامهم
أما ما حدث بعد ذلك فلا حاجة الى ايراد تفصيلاته فان الحكاية المؤلمة معلومة لدى الجميع ولا تحتاج الى تكرار . فقد نقصت تجارتنا الخارجية المحتقرة بمقدار ٥٠ ٪ خلال التسعة الاشهر الاولى وذلك عما كانت عليه في المدة المقابلة من سنة ١٩٢٩ ، ونقصت صادراتنا وحدها بمقدار بليوني دولار (من غرائب الصدف أن هذا المقدار هو نفس العجز الذي ظهر في ميزانية الحكومة عن السنة المالية الحالية) وهذا القدر يساوي القيمة الكلية على أساس الاسعار الحالية للقطن والقمح والذرة والشعير والشوفان التي تنتجها امريكا مضافاً اليها بعض المحصولات التي تقل عنها شأناً. وهنا لا نعجب اذا رأينا موظفي الحكومة يعملون على تخفيف وقع هذه النتيجة أمام الجمهور.
وقد قيل لنا مراراً وتكراراً ان مستوى اجورنا العالي ليس الا نتيجة تعريفتنا وفي نظري أن حقيقة ذلك أن تعريفتنا هي نتيجة اجورنا العالية فقد كانت الاجور في الولايات المتحدة مرتفعة بكثير عنها في اوربا بمدة طويلة قبل ان نفكر في اول قانون للتعريفة اذ أن هذا القانون أصدر بصفة مؤقتة لتشجيع انشاء الصناعات في بلاد جديدة فلما دخل ضمن نظامنا السياسي أصبح عسيراً علينا انتزاعه
اما فكرة النظر الى تجارة وارداتنا كتشجيع — لا ينطوي على شيء من الوطنية — للعامل الاجنبي مقابل العامل الامريكي ففكرة غريبة حقاً اذ ان الطريقة الوحيدة المجدية لدفع أثمان بضائعنا المصدرة هي استيراد بضائع بدلاً عنها فكان من باب المنطق اعتبار هذه الاخيرة ثمناً للبضائع الاميركية التي يصنعها العامل الامريكي ويصرّفها في الخارج وهذا هو حقيقة الواقع . وقد قال مستر « البرت وجنس » رئيس مجلس ادارة بنك تشيس الوطني الآتي في صدد ذلك: — أنهُ مع صغر مقدار تجارتنا الخارجية المقدرة بـ ١٠ ٪ من جملة تجارتنا فانها لم تزل عظيمة حتى انهُ يتوقف عليها الفرق بين الرخاء والكساد ، فان كان من الممكن أن نمنع بواسطة التعريفة كل المستوردات

ما عدا تلك التي لا يمكننا انتاجها مثل البن والشاي والمطاط والحرير الخ . فانهُ لا مشاحة في أن قيمة صادراتنا يجب ان تساوي قيمة المستوردات فاذا زادت عنها واجهنا السؤال عن الطريقة التي سنحصل بها على فائدة الديون التي لنا — دع عنك أصول هذه الديون »

هذا وانهُ من الصعب التوحيد بين نظرية التعريفة الحالية ونشاط الشعب الامريكي وعبقريتهِ واستقلاله ولابد أن يكون المسئول عن بعث تلك السياسة الى الحياة هي الخرافة التي تقول بأهميتها الغير العادية لحياتنا الاقتصادية ، تلك الخرافة التي لا تزال تُلَقَّن لنا من المهد الى اللحد

واذا كانت تعريفتنا قد نجحت في شيء فانها نجحت في تركنا بدون أصدقاء بين أمم العالم وفي وضع كل محصول امريكي يراد تصريفه في الخارج تحت أشد الصعوبات والعراقيل ، وكانت سبباً في ايجاد صناعات طفيلية وجعلتنا ندفع ثمنين لكثير من الحاجات الضرورية ، تلك الحاجات التي كان يمكن لغيرنا انتاجها أحسن وأرخص منا وبذلك كان يمكننا اطلاق رؤوس أموالنا وعمالنا وبراعتنا في الادارة والتنظيم للعمل في تلك النواحي التي لا يضارعنا فيها أحد

وقد دعت هذه السياسة كثيراً من الامم الى رفع تعاريفها على البضائع الاميركية ، وربما انتظمت انجلترا عن قريب في صفوف اصحاب التعاريف العالية تدفعها الى ذلك رغبتها في الدفاع عن نفسها بعد انضمام كل الدول العظمى الى سياسة الحماية تلك السياسة التي لا بد وأن تؤدي الى تصدير رؤوس الاموال للخارج فيزداد الانتاج في الخارج ويقل في امريكا فتدعو الحاجة الى قفل وترك مصانع كثيرة فيها . وان كل امريكي مهما كانت طبقته ليشعر بتأثير تلك السياسة الذي يتطرق الى جميع مرافق البلاد فيرفع تكاليف المواد الاولية ويجعلنا ندفع هذا الفرق في شكل مستوى عال لأجور السكة الحديد والضرائب وأجور المساكن وكل ذلك له تأثيره في الزراع والزراعة ، فكان الاحرى بالحكومة أن تعمل على انقاص أسعار تلك الحاصلات التي يستهلكها الزراع بدلاً من أن تعمل على رفع أسعار تلك الأشياء التي يبيعونها والتي برهنت التجارب على أنها أخفقت فيها

وأخيراً لما كان الكل يعلم أن أمريكا يمكنها ان تغلب العالم في الانتاج الواسع النطاق ولما كانت هناك أسواق عظيمة — جار فتحها في افريقيا وجنوب امريكا وفي الهند والصين حيث يوجد الملايين من الناس الذين بدأوا يعرفون شيئاً عن معالم المدنية كالطرق الممهدة والسيارة والراديو الخ .— فان هناك ميدانٌ واسعٌ تفتحهُ لنا مخيلتنا لتصريف ادوات السكك الحديدية ولاستعمال براعتنا الهندسية ورؤوس اموالنا الا أنه ليكن معلوماً أن مقدار حظنا في هذه الاسواق يوازي القيمة التي نقبل دفعها في شكل بضائع فعلي ذلك يتعين علينا من الآن الاختيار بين تبوئنا مركزنا الطبيعي في مقدمة التجارة العالمية أو الانصراف الى تقوية الحائط الاقتصادي حول بلادنا هذا الحائط الذي تنزلق عليهِ تجارتنا الخارجية فتزيد تكاليف المعيشة ويهبط مستواها وتضعف حياتنا الاقتصادية في جميع نواحيها

مكتبة المقتطف

الرسائل الضائعة ورسائل اخرى

بقلم سامي الجريديني

طبع بمطبعة الهلال — صفحاته ١٠٨ قطع المقتطف — ثمنهُ ١٠ قروش

ليس باليسير على الكاتب الاوربي ان ينطق عن اهواء الاشخاص الشرقيين . وانه لصعب عسير على كاتب شرقي ان يرى من خلال النفس الغربية وان يستطيع الترجمة لأشخاص غربيين . تلك الصعوبة وذلك المرمى العسير المنال قد تحققا على يد الاستاذ سامي الجريديني . فقد وضع هذه الرسائل الضائعة على لسان فتاتين فرنسيتين احداها تسكن باريس والأخرى تعيش في لندن . واستطاع ان يعرب عن افكارها. وأن يصور بعض شؤونهما وما يعرض لهما من التجارب والآراء في فهم وعطف كبير

استطاع المؤلف أن يرى وجهة نظر كل فتاة من هاتين الفتاتين . وان يستكتبهما رسائل وآراء شائعة المنحى ، دقيقة الاسلوب ، فيها من البصر بالنفسيات ومعرفة الطبيعة البشرية ما يشهد للأستاذ الجريديني بالبراعة والمقدرة

ولو ان الأشخاص في هذه الرسائل ليس مما يقنع القارىء او يعطيه وهم الحقيقة الصائب فأن الآراء والنظريات والملاحظات العميقة التي اجراها على السنتهم ، صادقة شديدة الصدق عميقة الغور . ولا احسب ان المؤلف قصد الى غير ذلك ولم يكن غرضه القصصي المعهود

جرمين — سواء التي في لندن او في باريس — نموذج طيب للفتاة الفرنسية المهذبة وما يهجس في ضميرها من أماني أو يجول في خاطرها من شتيت الآراء ومختلف الافكار والنظريات

وخصلة اخرى في كتابة الاستاذ الجريديني لاحظناها أيضاً في كتابه خمسة في سيارة . هي أنه بارع الفكاهة ، شديد الأسر لا يكتب جملة ولا يخط سطراً الا كان دقيقاً فيما يقصد، ينحت اسلوبهُ نحتاً فيخرج من تحت يديهِ اشبه بعمل البنّاء الماهر . فكلماتهُ لا تزيد على معانيهِ بل ان معانيه ومقاصده تزدان بذلك القصد في التعبير الذي يكسب اسلوبهُ صرامة في جمال، وليناً في شدة . والمؤلف من هذه الناحية « يعرف كيف يكتب » كما يقول « ارنولد بنيت » عن بعض الكتّاب الذين ينقدهم

يزعم البعض ان مهنة المحاماة قد دفعت ببعض كبار كتابنا الى « المط » في التعبير وتراكم

الجمل الاعتراضية والشروح الاستدراكية وعدم التناسب ، وانتفاءصفات الاحكام والايجاز.
وما على أولئك القائلين الا ان يقرأوا الاستاذ الجريديني حين يكتب في الأدب مع انهُ
يحترف المحاماة . فانهُ اقام الحجة على ان المحامي الاديب يستطيع ان يكون فناناً « كلاسيكي »
النهج، ناصع التعبير، واضح الذهن ، متئد القلم ، متين القالب !

« وكتاب الرسائل الضائعة » . يقرب في موضوعه من كتاب المؤلف الاول « خمسة في
سيارة » . فهنا كهنالك : تحليل دقيق للنفسيات . وملاحظات صائبة عن الأمم . ووصف
جيد رائع وكتابة بادية الفكاهة والاحكام معاوية نور

سيد قريش

رواية تاريخية اجتماعية في ثلاثة اجزاء تبحث في حياة العرب السياسية والاجتماعية في العصر الجاهلي
الى ظهور سيد قريش محمد عليه الصلاة والسلام — في ٩٦٧ صفحة حسنة الطبع والورق

عقد الاستاذ رينهارت دوزى في كتابه « اسبانيا الاسلامية » عدة فصول ممتعة عن
الخلافات التي قامت بين العصبيات العربية بعد الاسلام واظهر باجلى بيان ان هذه الخلافات
موروثة عن الجاهلية حملها العرب معهم اينما كانوا وحيثما حلوا ، بل لقد تدرك بطريق لاشعوري
أن هذه المشادات كانت سبباً في تكوين احزاب سياسية او مدارس فقهية بعد الاسلام . ولقد
قضى الاستاذ دوزى يجمع مواد كتابه هذا نيفاً وعشرين عاماً حتى دعمه على اوثق المصادر
التي استطاع باحث مثله ان يقف عليها في مختلف دور الكتب الاوربية . فلا شك مطلقاً في
أن ما كتب دوزى ان لم يكن كاملاً ، فهو اقرب ما يمكن من الكمال

عقد هذا المؤلف فصله السادس في ذلك الكتاب في اليمنيين والمعدّيين وعدّد بعد ذلك
الاسباب التي كانت مثاراً للخلاف بين القبائل والافخاذ والبطون في كليهما ، وعقب على ذلك
بالكلام في الخوارج والشيعة واثبت ان الخلاف بينهما يرجع الى مشادات موروثة ثم تكلم في
الكلبيين والقيسيين في اسبانيا واثبت ان الخلاف بينهما كان سبباً في سقوط الاسلام في الاندلس

ولقد جرتني هذه الذكريات الى ما كتب السير وليم ميوَر في تاريخ محمد (صلعم) وعلى
الاخص ما اشار اليهِ من الخلاف بين الهاشميين والامويين في الجاهلية والاسلام . ولا ريبة
في ان الخلاف بينهما كان محوراً دار عليهِ تاريخ الاسلام قروناً عديدة

على انك اذا قرأت « سيد قريش » للاستاذ معروف الارناؤوط عضو المجمع العلمي العربي
في دمشق لا تلبث ان تقع على تاريخ صحيح أسبغ عليه الاستاذ ثوب القصص ، بقدر ما يحتاج
اليهِ التاريخ ليكون قصة تستهويك الى متابعة القراءة، من غير ان تخلي ذهنك من الوقائع التاريخية.
غير ان ابين ما تستبينه عن هذا التاريخ القصصي البديع ، تلك الخلافات التي قامت بين المناذرة
احلاف الفرس في العراق ، وبين الغساسنة احلاف الروم في سوريا . لان هذا الخلاف ليس الاّ

حلقة من حلقات كثيرة ظلت طوال ايام العرب تتواصل غير متدابرة ولا مفصومة

على ان هذا كلهُ لم يكن الا مقدمة لظهور محمد بن عبدالله ليربط بين كلمة العرب فتتحد وتلقى بكل قواها على امبراطوريتين مزّقت احداهما المطامع وهي امبراطورية كسرى، وافسدت الثانية الروح اللاهوتية واحتكامها في سياسة الامم وتقرير مصائر الشعوب وهي امبراطورية بيزنطية . بيد ان العجب العجاب ليس في هذا . بل العجب في ان العرب بعد ان يدوخوا العالم كله ويفتحوا المعمور من الارض ، لا يلهيهم هذا النصر المبين عن خلافاتهم الموروثة ولا تؤثر فيهم معجزة القرآن الا الى حين ، فيعودون دراكاً الى منافساتهم القديمة ،فتأكلهم وما حصدوا نيرانها المتلظية

ولم ينسَ الاستاذ مؤلف الرواية ان يذكرنا بورقة بن نوفل وسطيح وبحيرا الراهب وعلاقة هؤلاء الثلاثة بتاريخ نشأة النبي العربي العظيم . اما سطيح فليس لهُ من الاثر الا اثر التنبؤ بظهور نبي جديد بين العرب يجمع كلمتهم ويثأر للعرب من جيرانهم الفرس والروم. اما الاثر الذي تركه ورقة بن نوفل حكيم قريش وبحيرا راهب الشام ، فلا اظن انهُ ضئيل . والدليل على هذا مادي ثابت . فان كل الروايات التي ذكرت في القرآن عن عيسى او قل اهمّها قد اخذت من الكتب التي اعتبرتها الكنيسة الرومانية من الكتب المحذوفة فالمعجزة التي رواها القرآن مثلاً وفيها يتكلم عيسى عن نفسهِ بقوله « واني اصنع من الطين كهيأة الطير فأنفخ فيه فيكونُ طيراً بأمر الله »ورواية النخلة عندما وضعت مريم عيسى فقال لها «وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا» — الى غير ذلك كلها مسطورة في الكتب المحذوفة.فالرواية الاولى تجدها في اول انجيل توما ، والثانية في اول انجيل متّى المحذوف. وكلاهما اعتبر في الكنيسة الرومانية من الكتب المحذوفة . ولكن الواقع ان لهذه الكتب مدارس ايدتها في الشرق وعلى الاخص بعد انفصال اليعاقبة والنساطرة عن الكنيسة وانتشارهم في غرب آسيا وشمال جزيرة العرب وبثهم التعاليم التي خرجوا من اجلها على الكنيسة النصرانية . ولا يبعد مطلقاً ان يكون ورقة بن نوفل وبحيرا الراهب من رواة هذه الاحاديث.على ان الثابت تاريخيًّا ان ورقة بن نوفل كان من حكماء العرب ومن اعرفهم بتاريخ الاديان ومبادئها وانهُ من اقارب خديجة بنت خويلد اول زوجات النبي العربي وانهُ كان يساكنها ، وانهُ كان موضع سرها وموئلها عند طلب النصح والارشاد . بل كان ممن يسمع لهم في عكاظ وانهُ كان احد رجال الندوة المعروفين لا في قريش وحدها بل في جزيرة العرب من شمالها الى جنوبها

وأنت ان تصفحت تاريخ العرب يبادر الى ذهنك معنى الصحراء والجفوة والغلظة . فاذا قرأت سيد قريش وقفت على ما كان للعرب من ضلع فى المدنية وعلى الاخص فى العراق وفى الشام ، واستروحت شيئاً جديداً يوقفك على ان العرب لم يكونوا بعيدين عن المدنية

الاّ بنشأتهم الاولى فى جوف تلك الصحراء المترامية الاطراف وانهم كانوا على علم بما تأتي به المدنية من النظريات التي طمعوا فيها واستغلوها اوسع استغلال بعد ان جمعت كلمتهم على القرآن

والرواية من اولها الى آخرها عبارة عن قصة منسجمة مؤتلفة، ان نقصها من شيء فاضطراب فى الاسلوب يكفر عنه جمال الوضع وتآلف العناصر التي تكوّن هيكلها

ولقد مر بذاكرتي عند ما بدأت اقرأ هذه الرواية الممتعة كنلورث وايفانهو وعروس لمرمور للسير وولتر سكوت . فهذا احيا من تاريخ الايقوس في اشخاص فرسانهم ومؤلفنا العربي احيا من تاريخ العرب فى اشخاص النعمان بن المنذر والحارث بن جبلة وابن الايهم وعنترة العبسي والمنذر بن الحارث وقابوس بن النعمان . ونحن لدى الواقع احوج ما نكون الى القصص التاريخي . فان مفاتن اوربا كادت تخدعنا عن ميراثنا النبيل . ولا شك مطلقاً فى ان هذا الميراث الخالد اول ما يحرك فى النفوس النخوة القديمة ، وان فينا منها لبقية ، وان شئت فقل حشاشة تسوق بنفسها . فاذا فرخت هذه المجاجة مرة اخرى فلا اظن ان الغرب الاّ مطأطىء لها الرأس احتراماً

اسماعيل مظهر

آلام وأحلام

آلام وأحلام ... لفظتان شعريتان ، هما بحران من عالم الحياة تتقاذف فوق لجتيهما قلوب ويحويان من اسرار ذلك المعنى الكبير (الحياة) ما هو عميق لا يدرك فنظل واقفين امامهُ فى شوق الى ادراكه لا نحول عنه رغم المحاولات الضائعة ، وما هو بسيط العمق يدرك لكنهُ ساحرٌ يأخذنا فى محيطه فنصبح اسراراً والغازاً

وآلام وأحلام ... هو كتاب ، او هو صورة مصغرة لهذه الحياة . هو كتاب الفن الذي اتحف بهِ الادب العربي الاستاذ توفيق مفرّج فإذاهُ فى جبين العربية درة تتألق ، درة لامعة فى معانيه وألفاظه ، درة لامعة في اتقان طبعه وحسنه ، ولم ارَ في تاريخ الطباعة العربية سحراً يلمس الاّ في كتاب (شاعر في طيارة) لفقيد الادب المرحوم فوزي معلوف ، وكتاب « آلام وأحلام » الذي نتكلم عنهُ

هو مجموعة قصائد ومقالات من الشعر المنثور . او هو مجموعة من النغم السامي التقطها الاستاذ توفيق من سماء الالهام فأسمعها اهل الارض الذين يصك مسامعهم دويّ الآلات ورنين الذهب ، وعويل المنازعات المختلفة ... نشرها في المقتطف والهلال وبعض المجلات العربية والانكليزية في موضوعات مختلفة مثل : مصر . الحب حتى الموت . عواطف ام . راسم . يحيا ثعد . المثل الاعلى . على الارض السلام . على ضريح من احب . الى التي احب . . . . الخ

فقطعته «مصر» التي اقترحت مجلة الجرافيك ، التي تصدر في لندن عليه ان ينظمها هي احرى بأن تلقن فى مدارسنا لاطفالنا يحفظونها ككلمة عمرو بن العاص التي كتبها عن مصر فهي نشيد كما

قرأتهُ شعرت بعظمة تحملني على اجنحتها الى عوالم السمو التي عاش فيها اجدادنا وسنعيش فيها باذن الله

كذلك تلك القطعة التي تحمل الفاظها روحَ الحنان الخالص الذي لا تشوبهُ شائبة ، والتي وسمها بعنوان « الحب حتى الموت » فصوَّر فيها حنان الأم اجمل تصوير حتى لم اكد اتم قراءة هذه الجملة التي تخاطب بها الام خيال الموت وهي تتبعهُ فداء عن ولدها « سرْ ايها الخيال وأسرع فحياة الطفل رهينة الموت ، عجل لنصل الى ابواب الابدية قبل ان تُطلب حياة الطفل من ملاك سواك ، اسرع لكي تتمكن الأم من التضحية بنفسها فداء عن ابنها » لم اكد اتم قراءتها وأنا الى جانب امي حتى اخذت يدها فغمرتها بقبلات بارة انحدرت بعدها دمعتان من عينيَّ تجلت لي من خلالها تلك العظمة المقدسة التي جعلت المؤلف يهدي كتابه الى التي أحبها كثيراً ، الى امه . . . . . .

وظللت ألتهم بقية موضوعات الكتاب فكنت أشعر بلذة تغمرني وتحملني معها على اجنحة سحرية وأنا مأخوذ بسحرها ورقتها حتى اذا انتهيت أخذني سحر آخر ، وفتنةٌ أخرى هي جمال الكتاب

وما ازال اذكر تلك الوقفات الجميلة التي كنت اقفها عند ما أُتمُّ موضوعاً كأني أمام جدول ماسيٍّ بديع يجري في وسط مروج خضراء تحت ظل الشفق الاحمر الفتان

فأشكر الاستاذ مفرّج على إتحافهِ عشاق الادب بهذه الباقة الجميلة ، واستحلفهُ بتلك التي يحبها كثيراً ان لا يدع المشاغل المالية تحرمنا من تحفهِ ، وان لاتنسيهُ قراءهُ الذين سينتهون من قراءة هذا الكتاب لينتظروا منهُ غيرهُ وغيره

حسن كامل الصيرفي

وادي نطرون ورهبانه واديرته

Etude sur le Wadi Natroun, ses Moines et ses Couvents
Alexandrie 1931

لصاحب السمو الامير عمر طوسن ولع بالدراسات والابحاث التاريخية والاجتماعية وخصوصاً ما يتعلق منها بتاريخ مصر فتراه لا ينفك عن معالجة المخطوطات والمؤلفات من قديمة وحديثة ليستوضح منها ما غمض من تاريخ البلاد أو ليوجّه الانظار الى حقائق جديرة بالاعتبار . فبالامس اصدر كتابه عن مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن وهو ترجمة الكتاب الذي الفه سموه عن ذلك الموضوع باللغة الفرنسية وامامنا الآن بحث في « وادي نطرون » كتبه سموه بالفرنسية ايضاً

ترى اذا ما قلبت صفحات هذه الرسالة ان البحث يقسم الى ثلاثة اقسام فالاول يتعلق بجغرافية وادي النطرون الواقع على بعد ثمانين كيلومتراً عن القاهرة من طرفه الجنوبي الشرقي وعلى بعد خمسةٍ وثمانين كيلومتراً عن الاسكندرية من طرفه الشمالي الغربي . والقسم الثاني يتناول رهبان وادي نطرون قبل الفتح الاسلامي العربي وبعده . والثالث يبحث في اديرة وادي نطرون فيتناول الاديرة المختلفة ويروي اخبار مؤسسيها ويذكر التغيرات التي

طرأت عليها في مختلف العصور فيبين لنا ان هنالك اربعة اديرة في ذلك الوادي في الوقت الحاضر وهي عامرة ومأهولة وحولها انقاض ثلاثين من الاديرة التي كانت عامرة في مختلف العصور المسيحية السالفة

وانه ليعجبك في ابحاث سمو الامير الجليل تلك الدقة التي يجب ان ترافق كل بحث . فما تجده في كتاب مالية مصر من الرجوع الى المصادر الاصلية والاستناد الى اهم الثقات تراه في هذا البحث ايضاً . ولا يكتفي سموه بذلك بل تراه تارةً ينتقد ما ورد في بعض تلك الاصول والمراجع واخرى يستعملها للاستدلال على حقائق جديدة وحسبك ان تقرأ صفحة ٣١ من رسالته هذه عن كيفية اكتشافهِ لدير الانبا زخريا بين انقاض تلك الاديرة لتحقيق ذلك او ان تقرأ عن انتقاده لما ورد في المقريزي بان عدد الرهبان كان سبعين الفاً في ايام عمرو بن العاص ورجوعه الى ما رواهُ الذين عاشوا في القرن السادس واستنتاجه ان عدد الرهبان لم يكن اكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة بل اقل من ذلك

والرسالة محلاة بالصور الجلية الواضحة التي اخذها الدكتور بوي هوبير في اثناء الرحلتين التي قام بهما صحبة سمو الامير والاستاذ بريتشيا في ربيع عامي ١٩٣٠ و١٩٣١ . ونحن اذا ابدينا اعجابنا بمؤلفات صاحب السمو الامير عمر طوسن وبالابحاث التي يحمل نفسه مشقة القيام بها فاننا نفعل ذلك باسم البحث والعلم والحقيقة

رام الله (فلسطين) جورج حداد

كتاب الصحة والحياة

هذا كتاب مفيد . يجب ان يكون في كل بيت يتكلم اهله العربية ويقرأونها. وفائدتهُ آتية من ناحية جمعهِ لاهم الحقائق عن بناء الجسم ، ووظيفة كل عضو من اعضائهِ ، وتضمنهِ للارشادات اللازمة التي يجب على كل انسان ان يجري عليها للمحافظة على سلامة الاعضاء . وهذه المباحث تستغرق من فصولهِ خمسة عشر فصلاً تملأ ١٠٦ صفحات . اما فصولهُ الباقية وهي ٢٣ فصلاً تملأ ١٧٤ صفحة فقد خصصت لوصف الامراض التي يكثر تفشيها ، واماطة اللثام عن اساليب المعيشة الصحية ، وما يلزم من العلاجات الضرورية التي تدفع بها غوائل هذه الامراض

مؤلف هذا الكتاب يدعى الدكتور سلمون (Selmon) ولا ندري من هو ، وباية لغة الف كتابهُ اولاً ولكن ناشري الترجمة العربية يقولون انهُ صدر من نحو عشر سنوات فترجم الى عشرين لغة ولهجة مختلفة وذاع في الصين والهند واليابان وغيرها عدا ظهور خمس طبعات منهُ بالانكليزية . وانما الامر الذي يهمنا انهُ كتاب مفيد وان ترجمتهُ متينة العبارة، قريبة التناول ، وطبعهُ بالغ حداً بعيداً من الاتقان . فنسدي الشكر الى مترجمته « الزهرة » (اوليفيا عويضه) ولناشريهِ اعضاء « جمعية المطبوعات العربية ببيروت » ولطابعيه اصحاب مطبعة دار الايتام السورية في القدس الشريف

رسالة باريس — لبشر فارس

تآليف المستشرقين

تهافت التهافت لابن رشد

(المطبعة الكاثوليكية ببيروت)

Tahafot at tahafot — Beyrouth (Imprimerie Catholique)

ليس حديثي هنا عن مذهب ابن رشد فكلنا يعلم ان الرجل الف كتابه ليردّ على الغزالي ويدفع اقواله في « تهافت الفلاسفة » . وكلنا يعلم انه نهج في ذلك منهجاً سديداً اذ جعل يقلب مصنف الغزالي ظهراً لبطن فتارةً يسلم بصحة فقرة من فقره وطوراً يطعن في اخرى معتمداً في ذلك على شدة عارضته راجعاً الى منطقه القويم . وكتاب ابن رشد من اركان الحكمة العربية والدليل على ذلك ان الفرنجة أقبلوا عليه فنقلوه الى اللاتينية والعبرية منذ القرن الثاني عشر

على أن حديثي هنا عن كيفية ابراز هذا الكتاب . فاعلم ان الاب اليسوعي (بُويج) عني بنشره وذهب في التثبت والاستقصاء الى الغاية . ذلك بأنهُ اعتمد على عشر نسخ مخطوطة بعضها عربي وبعضها عبري وبعضها لاتيني فعارض بينها جميعاً ليستخلص منها الصحيح وينبذ الفاسد والموضوع . فجاءت طبعته خيراً من طبعة مصر

ثم ان الناشر عمد الى الاسلوب الحديث الذي يعمد اليه رجال دار الكتب في مصر فأشار الى النسخ في كل صفحة من صفحات الكتاب ليتدبّر القارىء عمله . ثم انه ترك الكتاب على شكلهِ ابتغاء المحافظة على الاصل فأبى أن يقسّمهُ الى اقسام يجعل لكل منها عنواناً يهتدي بهِ القارىء . غير انه جعل لكل فقرة رقماً ثم اثبت الرقم في أعلى الصفحة واضاف اليه مجمل الفقرة باللاتينية وكان جديراً بهِ ان يردفه بترجمة له عربية ثم انهُ جعل في نهاية الكتاب فهارس تقرّب منال فوائده : ففهرست للاسئلة وآخر لنصوص الغزالي التي يتدبرها ابن رشد وآخر لاسماء الاعلام وآخر لعناوين التصانيف وآخر لفقه اللغة ثم فهرست للاصطلاحات الفلسفية . وكان حقيقاً بالاستاذ ان يثبت في هذا الفهرست ما يرادف تلك الاصطلاحات باللغة الفرنسية وليس ذلك بالمتعذر عليهِ

وختاماً اني اخبرك وملء جوانحي الفرح أن الاستاذ بويج عاكف على ابراز اركان الحكمة العربية وهمه في ذلك الاستقصاء والتثبت . وعسى ان ينقلها الى الفرنسية فيطلع عليها طلاب

الفلسفة في الغرب ويفسحوا في تآليفهم وابحاثهم مكاناً لحكمة العرب تلك الحكمة التي عول عليها فحول المتكلمين الغربيين ايام العصور الوسطى مثل (دانس سكوت) Duns Scot ومارتوما St. Thomas d'Aquin وغيرهم

الشام في العصور الخوالي والعصور المتوسطة

La Syrie Antique et Médiévale Editions Geuthner, Paris.

ان الشام ظفرت بمظاهر المدنيات التي ما انفكت تقوم بالتتابع حواليها . والسبب في ذلك ان اهل تلك المدنيات غلبوها على امرها تارةً وانصرفوا اليها اخرى لطيب صعيدها وصلاح اقليمها فحلوا بها واقاموا . وان ننس لا ننس انها كانت طريق القوافل بين مصر وفارس وان سواحلها كانت تجمع جمًّا غفيراً من الاسيويين والافريقيين واوروبي الجنوب

ولم يكن الشاميون ليعرضوا عن الفن فانهم اقبلوا عليه وزادوا فيما انتهى الى ايديهم وحلّوه ثم انصرفوا الى البناء، بالحجر وافتنوا فيه واختصوا به . ثم ان ورعهم وولعهم بالدين صرفا هممهم الى مظاهر من الفن جديدة

ومما لا يخفى على الناس ان الفرنسيين لا يدخرون جهداً في التنقيب عن جمع تلك الآثار. وقد وفقوا الى عدة مكتشفات وهاهم اليوم يذيعون بين الخلق كتاباً ضخماً يدرجون في اطوائه صوراً فوتوغرافية لبنايات أثرية وبعض تماثيل وادوات فنية يقف عهدها عند الحروب الصليبية . الا ان الرهط الذين عنوا بابراز الكتاب اضافوا اليها قصرين احدهما بيت العظم في دمشق والآخر قصر بيت الدين بلبنان وقد رموا في ذلك الى ان يشيروا الى تأثير الفن اللبناني في هذا والفن التركي في ذاك

وفي هذا الكتاب آثار لفنون السومريين (الشمريين) والمصريين والحثيين والاشوريين والبابليين المتأخرين والفرس واليونان والرومان والروم والمسلمين والفرنجه . وعندي ان فن التزيين ملموس في التماثيل والادوات التي بعث بها المصريون الى الشاميين قديماً فحذا الشاميون حذوهم فيها . واما الابهة فمبسوطة على بنايات اليونان والرومان واما الدقة ففي الرسوم التي تعلو الجدران البيزنطية واما الجلال فستو على جنبات الجوامع واما العزة فقيمة في القلاع والمرابط التي شيدها الصليبيون

فمثل هذا الكتاب يعرض عليك من الوان الفن ما يسحر عينيك . الا اني كنت اود لواسهب مبرزوه في التعليق على الصور فيبسطون لنا فوق ما بسطوا من شرح ونقد لان الصور ليست بشيء اذا لم يكتنفها احاديث واخبار لاتقف عند الايماء

امثال مطوية لعجائز مراكش

Proverbes inédits des vieilles femmes marocaines

Edition Geuthner Paris

هذه مجموعة امثال يضربها اهل مراكش ولا سيما عجائزهم في دورهن . وترمي العجائز في ضربها الى تأديب بناتهن وكنائنهن وإمائهن وكثيراً ما تنم هذه الامثال على اختبار حق . وفيها حكم على شاكلة حكم اهل الجاهلية. على ان طائفة منها قريبة المنال لبساطة عبارتها على حين ان غيرها بعيدة المعنى بل مقفلة لغموض فيها أو لاشارتها الى حادث غاب بين طيات الزمان

وقد نقل هذه الامثال الى الفرنسية احد المترجمين الجزائريين المعهود اليهم في التراجم الرسمية . وقد فطن ان يعلق على كل مثل فيشرحه وربما عارضه بآية أو حديث أو بيت شعر أو حكمة بل ربما قابله بمثل فرنسي . ولكنه لم يوفق الاَّ قليلاً في المقابلة

ولأسق اليك بعض هذه الامثال :

« جا من برّا وعاد ما طرّا » والمعنى : غريب يحدثنا عن بلدنا

« خلى همو بالساس ومشا يحفر على دا الناس . أي خلف همه علانية وانطلق ينقب عن هموم الناس»

«فلس فى الجيب احسن من ميا بالغيب» ويقابله عندنا : عصفور فى اليد ولاعشرة عالشجره

« كل خنفوس عندمّو غزال » . ويقابله عندنا : الإرد فى عين أمه غزال

« نشم يدى ونشبع » . يقوله من أثرى ثم افتقر

«صنعه فعمى المؤذن اذا ما اذن يحنحن » . والمعنى أن عمي المؤذن لا ينفك يتنحنح اذا لم يؤذن . ويقابله فى امثال المولدين : العادة توأم الطبيعة (راجع الميداني ج ١ ص ٤٥٨ طبعة مصر)

* * *

هذا وليس اثبات هذه الامثال الدارجة لوناً من الوان اللهو بل ضرب من ضروب العلم الذي يسميه الفرنجة Folk-lore (معرفة الامم) . وهو فن يبحث عن احوال العامة واغانيهم وآدابهم . وبودي لو ينهض أحد من المصريين فيجمع امثالنا الحلوة الخفيفة الظل المملوءة سخراً ورشاقة فى آن . واني اذكر ان الاديب نجيب نجم كرم عرض لهذا العمل فألف كتاباً لسنة مضت عارض فيه بعض امثال مصرية بامثال سورية ولكن مؤلفه غير واف وان كان نفيساً

باب الاخبار العلمية

السكر ومكروب النزلة الصدرية

تلا الدكتور أُوزولد ايڤري (Avery) احد اطباء المستشفى التابع لمعهد ركفلر الطبي في مجمع كلية الجراحين الاميركي رسالة قد تكون فاتحة عهد جديد في مكافحة النزلة الصدرية وما اليها من الامراض التي يحدثها المكروب المعروف بالنوموكوك Pneumococcus . قال ان للنوموكوك غلافاً لايستطيع المكروب ان يغزو الجسم ويحدث فيهِ المرض مجرداً عنهُ ، اذ يسهل حينئذ على البلعمات Phagocytes ان تفتك بهِ . والراجح ان هذا الغلاف مكوَّن من صنف خاص من السكر يركبه المكروب نفسهُ . ولكل صنف من « النوموكوك » صنف خاص من السكر . وهذا الغلاف السكري ليس سامًّا — في الراجح — على مثال الغلاف السكري الذي يحيط بمكروب الدفتيريا ولكنه يعيق الشفاء او يمنعهُ لانه يحول دون وصول المواد المكافحة للمكروب في الدم الى البقع المصابة فيتعذر عليها مكافحة المكروب في موطنهِ

وقد وجد الدكتور ايڤري واعوانهُ ان الجسم لا يولد « انزيماً » يحلُّ هذا السكر المعقد التركيب وانما يوجد في بعض انواع التربة التي تكثر فيها المواد النباتية المنحلة كائنات دقيقة تولد « انزيماً » له هذا الفعل . وقد تناولوا فعلاً هذا الانزيم وحقنوا بهِ فئراناً مصابة بالنزلة الصدرية فشفيت . ووجدوا كذلك ان حقن الفئران بهذا الانزيم يقيها من فعل مكروبات النزلة الصدرية القائمة مع ان هذه المكروبات تميت في الحال فئراناً اخرى لم تحقن بهذا الانزيم . وفعل الانزيم حلُّ السكر الذي يتكون منهُ غلاف المكروب فيسهل على حماة الجسم مهاجمتهُ والفتك بهِ . فالشفاء اذاً رهن وجود هذا الانزيم ومقدرة الجسم الدفاع عن نفسهِ

سرعة الافاعي

الشائع ان الافاعي تمرُّ امام الناظر مرور البرق الخاطف . على ان الدكتور ولتر موزور (Mosauer) العالم بالحيوان والاستاذ بجامعة كاليفورنيا الاميركية استعمل ادق الوسائل في قياس سرعة الافاعي المختلفة فوجد ان اسرعها لايقطع اكثر من ميلين ونصف ميل في الساعة . وان ذيوع الاعتقاد بسرعتها العظيمة وهمٌ ذهني سببهُ خوف المشاهد والافعى معاً وتلوي الافعى في اثناء زحفها

قياس عوامل الوراثة

استعمل الاستاذ اوزولد بلاكوود الاستاذ في جامعة بتسبرج الاميركية اشعة اكس لقياس عوامل الوراثة فوجد ان طول العامل الواحد نحو ٨٠ انجستروماً (او ٣٢ جزءا من الف مايون جزء من البوصة)

أفعل مبيد للحشرات

« الروتنون » مادة فعالة في مكافحة الحشرات وابادتها تستخرج من جذور بعض النباتات الاستوائية في جزائر الهند الشرقية وجنوب اميركا . وقد جاء في انباء اميركا العلمية ان ثلاثة كيمائيين من وزارة الزراعة الاميركية فازوا بمعرفة تركيبها الكيمائي ، فاذا هي مركبة من ثلاثة عناصر : — الكربون والايدروجين والاكسجين بنسبة ٢٣ للاول و ٢٢ للثاني و ٦ للثالث . أما بناء ذرات هذه العناصر في الجزيء الواحد فمعقدٌ كل التعقيد . والغرض من عناية الكيمائيين بمعرفة البناء الكيمائي لاية مادة طبيعية هو استعمال هذه المعرفة في صنع المادة بالتركيب بنفقة اقل من نفقة استخراجها من مصادرها الطبيعية . والعلماء الذين كشفوا عن تركيب «الروتنون» الكيماوي معنيُّون الآن بدرس بعض مركبات يرجح انها تفضي الى مادة جديدة مماثلة للمادة الطبيعية وانما تفوقها في شدة فعلها

وقد تعلم البيض استعمال « الروتنون » من سكان جزائر الهند الشرقية وجنوب اميركا الاصليين ، اذ رأوهم يسمّون الاسماك بالنباتات التي تحتوي على هذه المادة ، ثم يأكلونها من دون ان يصابوا بفعل السم . فجرَّب بعضهم فعل النبات في الانسان مباشرة فوجد انهُ لا يسمّ الانسان قط ، فلما جرب فعلهُ بالحشرات وجد انهُ يفتك بها فتكاً ذريعاً

نظير جديد للنحاس

الرصاص الذي ينشأ من انحلال الراديوم يشبه الرصاص العادي في كل خواصهِ الطبيعية والكيمائية وانما يختلف عنهُ في وزنهِ الذري . وهذا هو « الايسوتوب » او « النظير » . وقد استنبطت طريقة في جامعة الاباما الاميركية اسمها الطريقة « المغناطيسية البصرية » Magneto - optic للبحث عن العناصر المجهولة ونظائر العناصر المختلفة . فاكتشف بها العنصران اللذان يقابلهما رقم ٨٥ و ٨٧ في جدول موزلي ودعيا «فرجينيوم» « والابامين » . وقد استعملت هذه الطريقة نفسها للبحث في نظائر النحاس فاكتشفَ بها نظير جديد له . والنحاس عنصر معدني وزنهُ الذري ٦٣٫٥٧ ولكن بحث الاستاذ استن الانكليزي المعروف « بابي النظائر » اثبت ان للنحاس نظيرين كلاًّ منهما يشبهُ النحاس في خواصهِ الطبيعية والكيمائية وانما يختلف عنهُ في الوزن الذري فاحدهما وزنهُ الذري ٦٥ والآخر ٦٣ . اما النظير الجديد وهو الثالث فلا يعلم عنهُ حتى كتابة هذه السطور اكثر من ان وزنهُ الذري اقل من ٦٣ ولعلَّهُ يكون ٦١ تحقيقاً لما تنبأ بهِ الاستاذ يوري Urey احد اساتذة جامعة كولومبيا

احوج ما يحتاج اليه العالم

يرى المستر اورفيل ريط احد مستنبطي الطيارة ان رخاء الانسانية يزيد بزيادة القوة المحركة ورخصها وعليهِ فاعظم المستنبطات التي يحتاج اليها الناس هو محرّك يحوّل الطاقة الكامنة في المادة الى قوة محركة او محرّك يستطيع ان يتناول القوة مباشرة من اشعة الشمس

ويظن الدكتور لي ده فرست مستنبط الانبوب المفرغ المستعمَل في المخاطبات اللاسلكية ، ان الاستنباط العظيم التالي هو التلفزة (الرؤية عن بعد) العملية الواسعة النطاق . ولكنهُ مع هذا يرى ان احوج ما نحتاج اليهِ مصادر لا تفنى من القوة الرخيصة الثمن فنستطيع ان نقلب بها احوال العمل والمعيشة واساليبهما

وعنده ان مصادر هذه القوة كائنة تحت قشرة الارض على عمق بضعة اميال من سطحها. وابناء الجيل القادم لن يحفروا المناجم في الارض لاستخراج الفحم والمعادن بل لاستخراج الحرارة بطريقة تمكننا مثلاً من ازال الماء الى الاعماق واخراجه بخاراً وبهذا البخار نولد القوة الكهربائية فنستعملها في تدفئة بيوتنا وتبريدها، وتنقية الهواء، وتسيير المركبات بل في كل شؤون المصانع والبيوت

ويرى الدكتور إليهو طمسن احد كبار المهندسين الكهربائيين في اميركا ان اعظم المستنبطات التي يحتاج اليها العمران هو طريقة لتحويل طاقة اشعاع الشمس الى تيار كهربائي عالي الضغط ، تحويلاً مباشراً

سرعة الضوء

اصدر المسيو غوري ده براي Gheury de Bray رسالة موضوعها سرعة الضوء سرد فيها كلّ التجارب التي جرّبت لقياسها من دومر (العالم الدنماركي الذي قاس سرعة الضوء برصد خسوف اقمار المشتري سنة ١٦٧٥) الى ميكلصن (العلامة الاميركي الذي توفي في العام الماضي) وقد اورد في رسالتهِ نتائج ٢١ تجربة جربت لهذا الغرض اولها تجربة فيزو Fizeau سنة ١٨٤٩ وآخرها تجربة ميكلصن التي اتمها قبيل وفاتهِ. وبعد البحث الدقيق قال ان التجارب التي يصح الاعتماد على نتائجها سبعٌ قسمها الى قسمين الاول التجارب التي جربت لقياس سرعة الضوء على مسافة لا تتجاوز اربعة كيلو مترات وهي

العالم	الشهر	السنة	السرعة بالكيلومترات
ميكلصن	٥	١٨٧٩	٢٩٩٫٩١٠
نيوكم	٧	١٨٨٢	٢٩٩٫٨٦٠
ميكلصن	٨	١٨٨٢	٢٩٩٫٨٥٣

ثم التجارب التي جربت لقياس سرعة الضوء على مسافة ٢٣ كيلو متراً او اكثر وهي

العالم	الشهر	السنة	السرعة بالكيلومترات
كورني هلمير	٨	١٨٧٤	٢٩٩٫٩٩٠
پروتان	٤	١٩٠٢	٢٩٩٫٩٠٦
ميكلصن	٦	١٩٢٤	٢٩٩٫٨٠٢
»	٠	١٩٢٦	٢٩٩٫٧٩٦

طريقة عجيبة لقتل المكروبات

الصوت امواج . وكلما ارتفع الصوت قصرت الامواج واسرع توالبها ولكن اذا قصرت الامواج عن حد معين عادت الاذن البشرية لا تحسها . على ان هذه الامواج نفسها لها فعل غريب في الاحياء . فالدكتور لسلي تشمبرس والدكتور نيوتن جاينز من اساتذة جامعة تكساس المسيحية قد اثبتا ان تعريض اللبن الى آلة خاصة تخرج امواجاً صوتية متناهية في القصر افضى الى قتل ٨٠ في المائة من البكتيريا التي في اللبن

وقد كان الاستاذ ود الاميركي من اوائل الذين عنوا بهذه المباحث. وقد لخصنا تجاربه في مقال اخاذ بغرابتهِ في مطلع مقتطف مايو سنة ١٩٢٧ ومن اهم الحقائق التي اثبتها انه كان يبحث في طريقة لتوليد امواج صوتية قصيرة سريعة لا تسمعها اذن الانسان فيستعملها لاكتشاف غواصات الاعداء وهي غائصة في الماء . واذ هو يجرب التجارب بهذه الامواج في حوض اتفق انهُ شاهد سمكة في الماء تتجه نحو المنطقة التي تخترقها الامواج ثم لم تلبث ان انتفضت وعامت على وجه الماء فاقدة الحياة . فد يده الى الماء ليعلم سبب ذلك فسحبها حالاً لانهُ لم يستطع ان يتحمل ما شعر بهِ من الالم الذي اخترق لحمه الى العظم وشعر كأن يده تنحل انحلالاً

ووالى ود تجاربهُ بعد الحرب فأثبت ان صغار السمك وزرعاً من الحيوان المكرسكوبي المعروف بالبراميسيوم تموت كلها اذا سلطت عليها هذه الاشعة . ثم اثبت انهُ اذا عرض دم الانسان اليها نقص عدد كرياتهِ الحمراء ولما جرب تجاربهُ في نبات السپيروجيرا وهو مائي يكثر في المادة الخضراء التي تغطي برك الماء الراكد قتلت خلايا النبات قتلاً . ولما بقيت الخلايا نحو خمس دقائق ونصف دقيقة معرضة لهذه الامواج باد منها العين والاثر ولما امتحن الماء بالمكرسكوب لم يجد من آثار الخلايا النباتية الاَّ خيوطاً دقيقة

علاج بسيط لتصلب الشرايين

يرى الدكتور بلش J. Plesch استاذ الطب الداخلي في جامعة برلين ان تصلب الشرايين ليس مرضاً بل وسيلة الطبيعة للدفاع عن الشرايين ومنع انفجارها وانهُ ليس حالة خاصةً بالمتقدمين بالسن وانهُ قابل للشفاء . والطريقة التي وصفها لعلاجهِ في مجلة اللانست الطبية ، تقوم اولاً على ازالة اسباب ضغط الدم العالي ولا يكون ذلك بتناول العقاقير التي ترخي الاوعية الدموية بل بالجري على نظام غذائي معين . وهذا النظام الغذائي اساسهُ الامتناع يوماً كل أسبوع وثلاثة اسابيع متوالية كلَّ سنة عن المآكل التي تحتوي على النتروجين (البروتينات) والملح (كلوريد الصوديوم) . يضاف الى ذلك وجوب المعيشة في الهواء الطلق والبعد عن كل همّ فكري

وتصلّب الشرايين نفسهُ مظهر من مظهر مرض يصيب بنية الانسان اذ تضعف العضلات

الناعمة وغيرها من الانسجة المرنة في جدران الاوعية الدموية عن مقاومة سير الدم فتعمد الطبيعة الى ترسيب الجير في جدران الشرايين حيث يشتدُّ ضغط الدم لتقوية هذه الجدران ومنع الانفجار الدموي . ويؤكد بلش ان تصلب الشرايين ليس خاصًّا بالمتقدمين في السن بل يصيب الاحداث كثيراً وينكر انهُ اذا ظهر لا بد من اطراد تقدمهِ وان شفاءه متعذر

آخر العناصر المجهولة

في رسالة بعث بها الاستاذ أليسُن احد علماء المعهد البوليتكنيك في ولاية الاباما الاميركية ، الى الجمعية الكيمائية الاميركية اعلن انهُ اكتشف آخر العناصر المجهولة وهما العنصران اللذان يقابلهما في جدول موزلي الرقمان ٨٥و٨٧ فدعا الاول « الابامين » نسبة الى الولاية الاباما التي يشتغل فيها ودعا الثاني «فرجينيوم» نسبة الى الولاية فرجينيا التي ولد فيها. ولا يخفى على قراء المقتطف ان العالم الروسي مندليف تنبأ ان العناصر المادية التي تتركب منها كل المواد المعروفة اثنان وتسعون عنصراً رتب المعروف منها في جدول يعرف في علم الكيمياء بالجدول الدوري Periodic Table وترك فيهِ مواقع العناصر المجهولة وتنبأ بصفاتها من موقعها وعلاقتها بالعناصر المجاورة لها. وقد اكتشف معظم هذه العناصر في اثناء حياة مندليف وبعد وفاتهِ ، وخصوصاً بعد ما اخرج موزلي جدولاً رتب فيهِ العناصر من ١ — ٩٢ بحسب اوزانها الذرية فاكتشف هفسي وكوستر عنصر الهفنيوم (رقم ٧٢) في كوبنهاغن عاصمة الدنمارك سنة ١٩٢٣ واكتشف نودك Noddack وتاك عنصري المزوريوم (٤٣) والرنيوم (٧٥) في برلين سنة ١٩٢٥ واكتشف هبكنز الاميركي عنصر الالينيوم (٦١) سنة ١٩٢٦ في جامعة الينوي الاميركية وكلهم جروا على طريقة موزلي في اكتشاف هذه العناصر (راجع مقالة موزلي كشاف خريطة العناصر مقتطف يونيو ويوليو ١٩٣١) . اما الدكتور أليسُن فقد اكتشف العنصرين الجديدين بطريقة ابدعها حديثاً ودعاها الطريقة المغنطيسية البصرية وهي اشدُّ احساساً من طريقة موزلي المبنية على اشعة اكس

القبة والطير

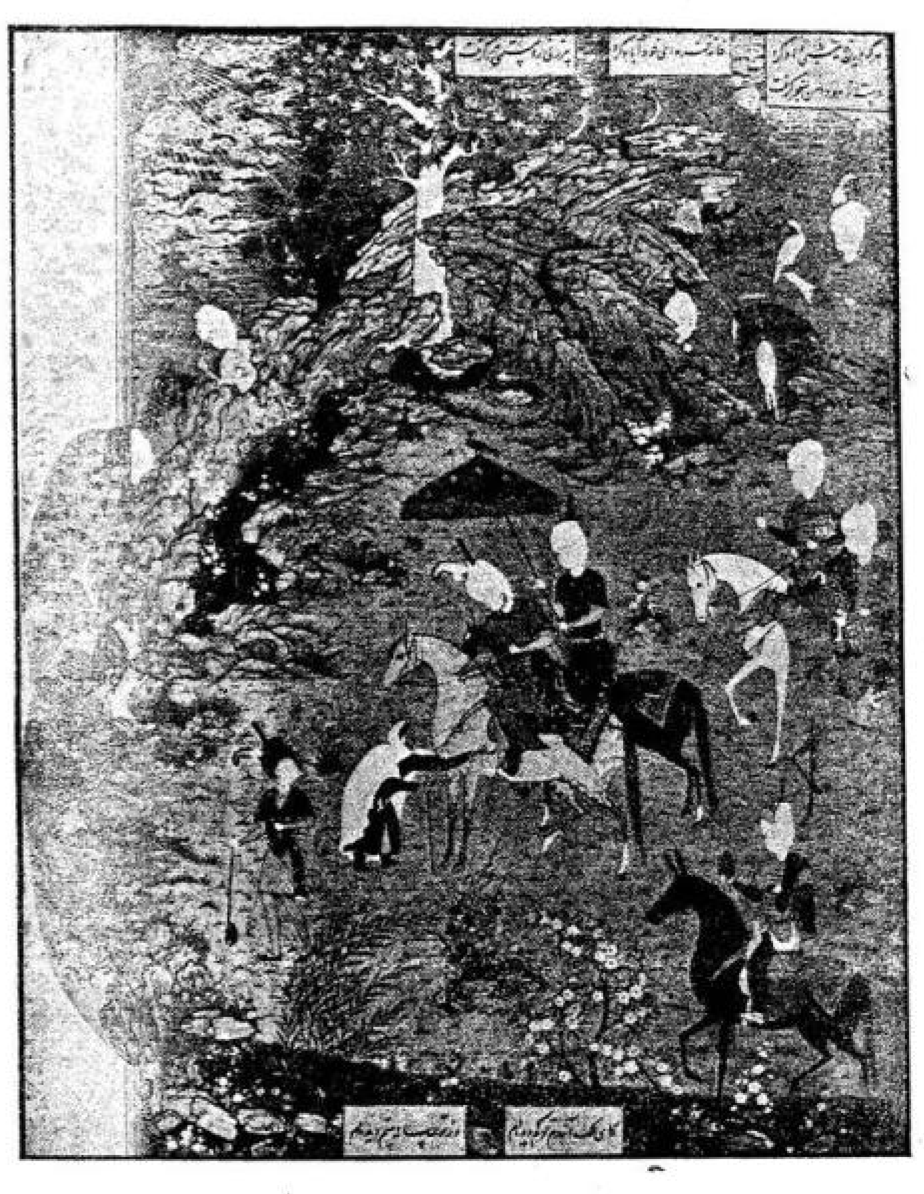
بعد نشر مقال القبة والطير جاءتنا من مدام دفونشير الكلمة الآتية :

جاءني ايضاً من جناب مسيو رابينو عن هذا الموضوع ان كتاب «كلستان» لسعدي بهِ فقرة تشير الى هذا الطير وقد عثر عليها في ترجمة هذا الكتاب للسر اردوين ارنولد ص ١٠ وهي بالمعنى الآتي « واذ لم يكن هناك الطائر « الحامي الذي يقوم على حراسة الملوك

« اتظن ان يكون هذا سبباً لتلمس « الناس السلامة تحت «اجنحة البوم »

وقد رأيت ان الحق مقالي بهذه التكملة فيما يتعلق بالبحث عن الاصل في اتخاذ هذا الطير من شعار الملك

وقد ورد في سياق الكلام عن الملك المؤيد في ذلك المقال ان اسمه « شيخو » والصواب «شيخ» كما لا يخفى على فطنة القارىء



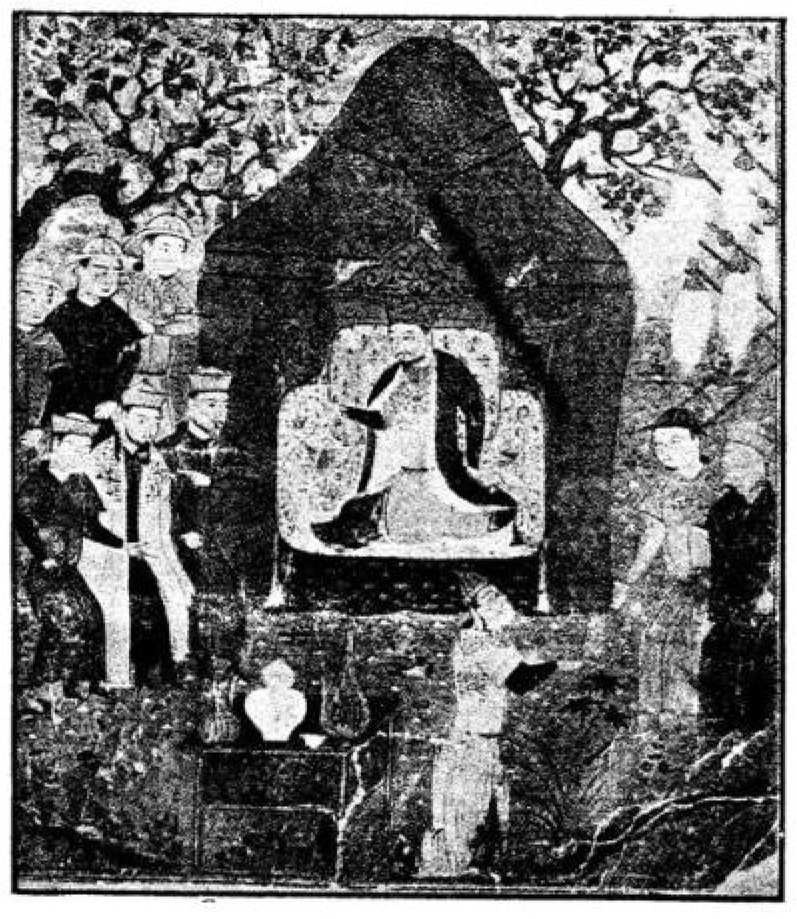
(ش ١) السلطان سنجر على فرسه يستمع لعجوز (المتحف البريطاني)



(شكل ٢) القبة والطير



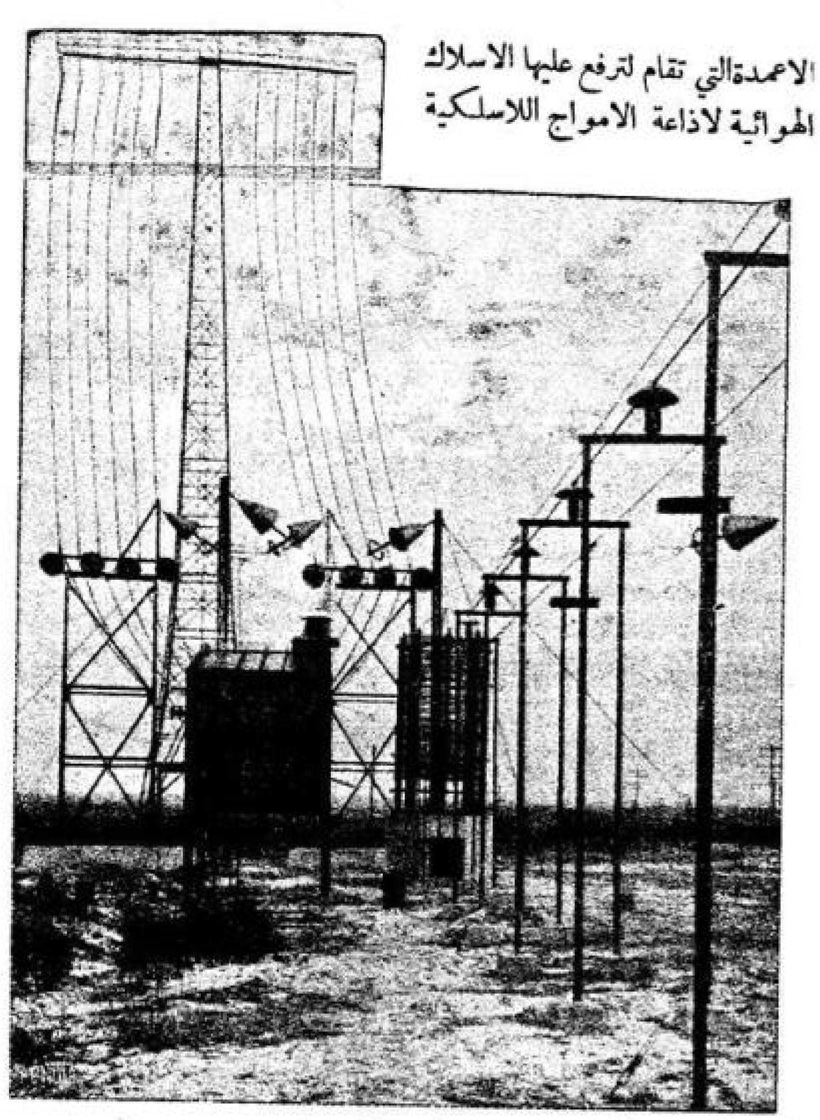
(شكل ٤) جنكيز خان



(ش ٣) تيمورتكين (الذي دعي فيما بعد جنكيز خان) على عرش صيني



(ش ٥) ارغون خان على عرشهِ

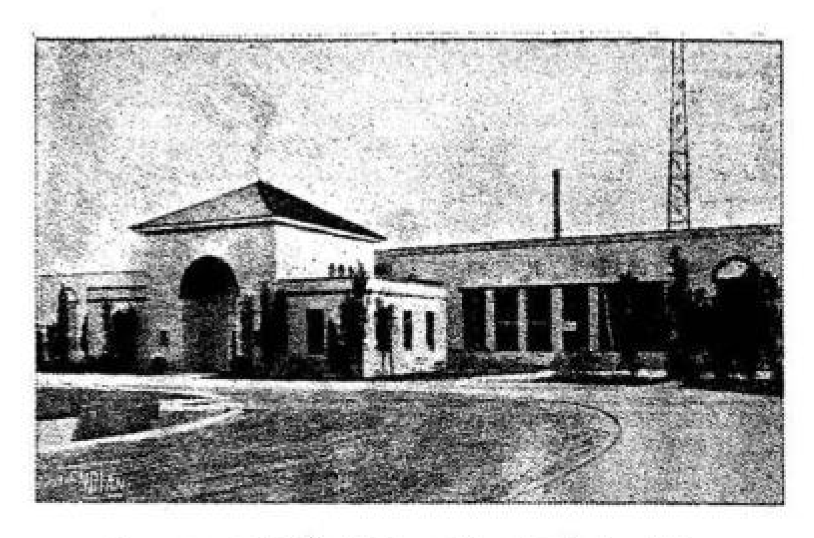


الاعمدة التي تقام لترفع عليها الاسلاك الهوائية لاذاعة الامواج اللاسلكية

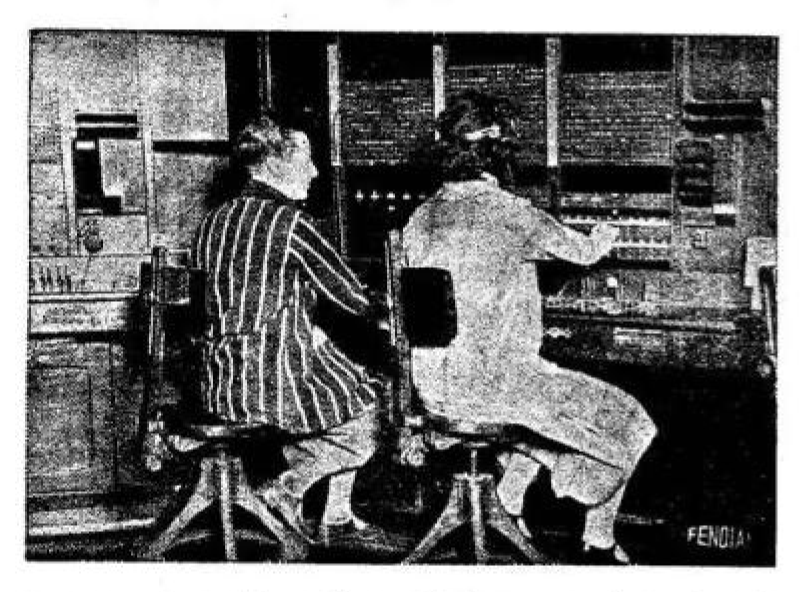
المحطة اللاسلكية المرسلة في رُكي بويَنت قرب نيويورك

مقتطف يونيو ١٩٣٢

امام الصفحة ٨٠



محطة ارسال المحادثات التليفونية اللاسلكية قرب نيويورك



مركز (سنترال) التليفون اللاسلكي في مكتب المحادثات البعيدة بلندن

مقتطف يونيو ١٩٣٢

امام الصفحة ٨١

جسر روماني على نهر العاصي عند مدخل انطاكية

بقايا من قناة الامبراطور الروماني تراجان وكانت تجري عليها مياه دفنه الى انطاكية

ناووس روماني محفوظ في دار الحكومة بانطاكية

غطاء الناووس قبل نقلهِ الى دار الحكومة

توفيق مفرج

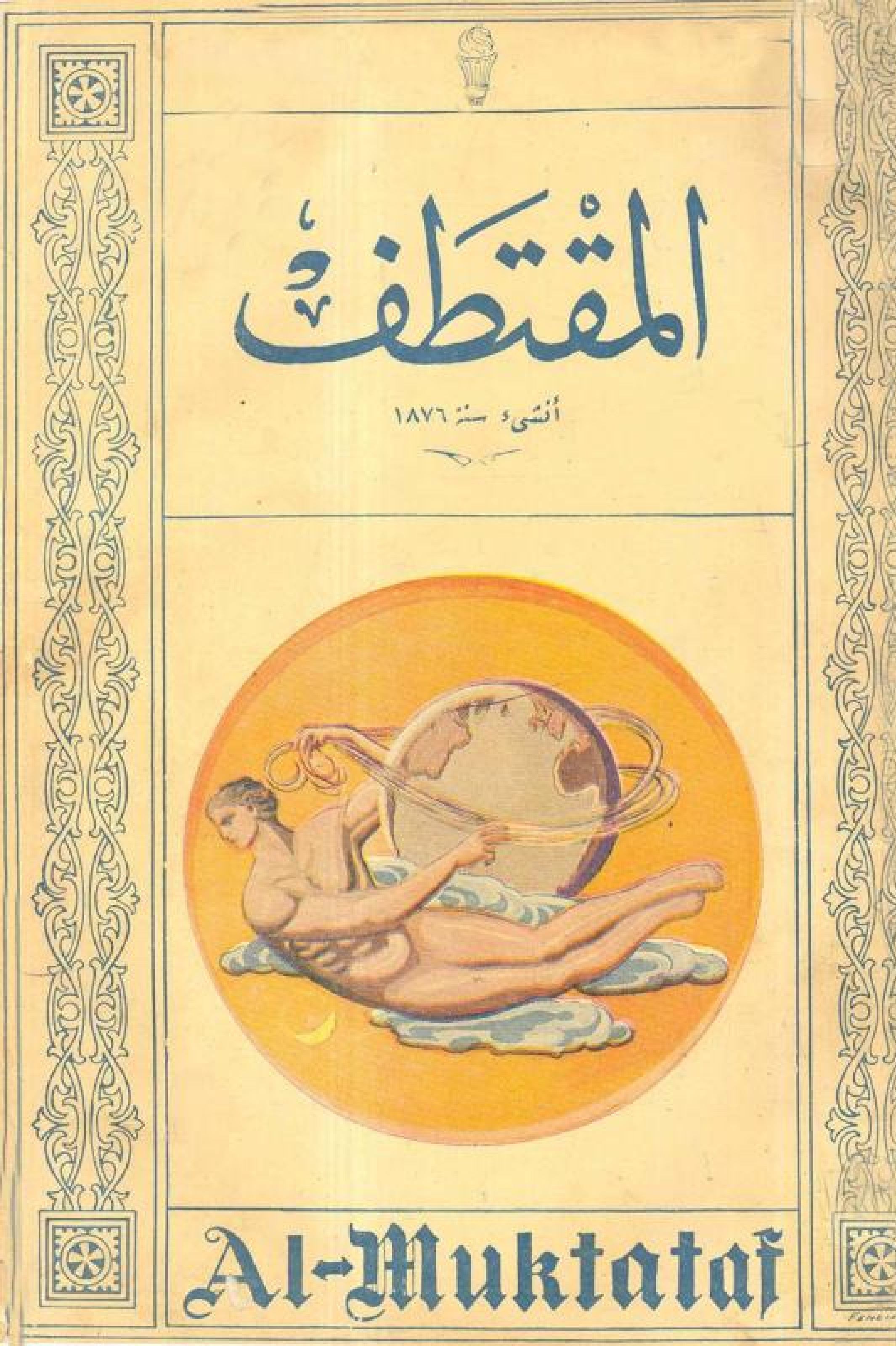
مؤلف كتاب « آلام واحلام »





الجزء الاول من المجلد الحادي والثمانين

صفحة


المقتطف
أنشئ سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf



المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثاني من المجلد الحادي والثمانين

١ يوليو سنة ١٩٣٢ — ٢٧ صفر سنة ١٣٥١

الفضاء بين النجوم

هل هو فراغٌ تامٌّ او فيه بقايا سديم كوني

تقدَّم علماء الفلك في العصر الحديث ،تقدماً عظيماً في قياس ابعاد النجوم ، ولكنهم لم يحصروا عنايتهم في قياسها بطريقة « زاوية الاختلاف » بل اعتمدوا على وسائل حديثة سبكترسكوبية واحصائية ، ثبتت صحة نتائجها باتفاقها والآراء الفلكية المسلَّم بها . فأسفر هذا البحث الشاق عن صورة جديدة للكون النجمي فاذا هو مجموعة من الوف ملايين النجوم منثورة في فضاءٍ رحبٍ شدَّ ما يسترعي انتباهك فيهِ فراغهُ العظيم . فانك اذا فرضت وجود اربعة من صغار الاسماك في المحيط الاتلنتي رسمت لنفسك صورة تبين رحابة الفضاء الكائن بين النجوم

ولقد كان من الراسخ في روع الباحثين ، من عهد غير قريب ، ان الفضاء الكائن بين النجوم ليس فراغاً تامًّا . فقد شاهد الراصدون ، ان اشعة الضوء الذي تمرُّ في رحاب الفضاء تتشتت ، وهذا التشتت لا يمكن ان يتمَّ اذا كان الفضاء مفرغاً فراغاً تامًّا من المادة ، ولا بدَّ ان يحتوي هنا وهناك على ذرة تائهة او الكترون شارد . والواقع ان الصور الفوتوغرافية التي صوّرت لمناطق مختلفة من الفضاء ، وخصوصاً مناطق المجرَّة ، تثبت وجود نواحٍ تملأها مادة غازية كثيفة تحجب ضوء النجوم التي وراءها فتمنع وصولهُ الينا بامتصاصهِ . وبعض هذه اللطخ الغازية ذو معالم وحدود واضحة ، وبعضها لا حدود لهُ ولكن كثافتهُ تقلُّ رويداً رويداً الى ان يندمج في ما نحسبهُ عادة الجلد الصافي الاديم

هذه المشاهدات تشير اشارة لا لبسَ فيها ولا ابهام الى احتمال وجود مادة منتشرة انتشاراً دقيقاً في رحاب الفضاء الذي بين النجوم

بسط ادنجتن Eddington اولاً هذا الرأي في خطبتهِ الباكرية (Bakerian) من نحو خمس سنوات واثبت بالادلة الراجحة ان الفضاء بين النجوم ليس مفرغاً بل هو «ممتلئ» مادةً . وليس المراد بلفظ « ممتلئ » هنا احتشاد المادة فيهِ حتى لا يسع شيئاً علاوة على ما فيهِ ، وانما يقصد معناها النسبي اي اننا لا نجد ناحية معينة في رحاب الفضاء مفرغة فراغاً تاماً من المادة ولو في ألطف حالاتها . بل ان في الفضاء من الذرات المنتشرة فيهِ ما يكفي لوجود ذرة واحدة في كل سنتمتر مكعب منهُ

هذا كان رأي ادنجتن وادلتهُ النظرية . وقد انقضت الآن خمس سنوات، اثبت الراصدون في اثنائها ، بالمشاهدة صحة هذا الرأي ، بل ان حديث التقدم في هذه الناحية من الطبيعيات الفلكية من افتن الاحاديث العلمية للب . والغريب ان هذا الاكتشاف نشأ — كطائفة كبيرة من المكتشفات — من مشاهدة شذوذ أو انحراف عن القاعدة العامة في اثناء بحث مسألة علمية أخرى

* * *

في علم الطبيعة مبدأ يعرف بمبدإِ دبلر (Doppler) مؤداهُ ان اقترابَ جسم يحدث صوتاً اليك في اثناء احداثهِ للصوت ، من شأنهِ ان يقصّر امواج الصوت ، وان ابتعاده من شأنهِ ان يطيلها . وعليه فاذا كنت واقفاً وكان قطار صافر متجهاً اليك قصرت امواج التصفير وارتفع صوتها . واذا كان مبتعداً عنك طالت امواج التصفير وخفت صوتها . وكان السر وليم هجنز (Huggins) الفلكي البريطاني ، يبحث في هذا الموضوع من نحو خمسين سنة، فخطر لهُ ان يطبق هذا المبدإ على امواج الضوء ويستعملهُ في قياس سرعة النجوم . فاذا كان نجم من النجوم مقترباً منا كان طول كل موجة من امواج الضوء الذي يشعهُ اقصر من طول امواج الضوء المماثل لهُ على الارض. فاذا حللنا ضوء النجم المقترب بالسبكترسكوب حادت الخطوط المظلمة الخاصة بالنجم الى جهة اللون البنفسجي . واما اذا كان النجم مبتعداً عنا فان الحيود يكون الى جهة اللون الاحمر . فمن معرفة جهة الحيود تعرف جهة سير النجم اقتراباً منا أو ابتعاداً عنا. ومن معرفة مقدار الحيود تعرف سرعتهُ . وقد طبقت هذه الطريقة في طائفة كبيرة من اشهر المراصد فقيست بها سرعة الوف من النجوم . واستعملت أخيراً في قياس سرعة السدم اللولبية التي خارج المجرّة فثبت ان بعضها يبتعد عنا بسرعة نحو ١٥ الف ميل في الثانية . وهذا مما حدا بالعلماء الى القول بان الكون آخذ في الاتساع كأنه فقاعة صابون ينفخ فيها

ولا بد هنا من كلمة عن الحل الطيفي قبل ان نبين كيف استعملت هذه الطريقة لاثبات رأي ادنجتن السابق الذكر

وضع كرشوف من نحو سبعين سنة اصول الحلّ الطيفي — السبكترسكوبي — وقدكان للآلة المعروفة بالسبكترسكوب اكبر أثر في توسيع معارفنا الفلكية في نصف القرن الأخير. وهذا لا ينفي وجوب استعمالها دائماً مع التلسكوب الذي يجمع الأشعة التي تحلّ بها. والمبدأ الذي تقوم عليه هذه الآلة هو ان النور اذا مرَّ في موشور انكسر انكساراً يختلف باختلاف طول موجته . اي ان امواج اللون الأحمر اقلّ انكساراً من امواج اللون الاصفر وامواج اللون الأصفر اقلّ انكساراً من امواج اللون البنفسجي . وهكذا نستطيع ان نحلُّ نور الشمس الابيض الى الالوان التي يتألف منها بامراره في موشور مثلث او قطعةزجاج مخططة طولاً وعرضاً بخطوط قريبة جداً بعضها الى بعض (grating)

وقد اثبت كرشوف ان للاجسام المنيرة طيوفاً مختلفة يستطاع تبويبها ثلاثاً : (الأول) يعرف بالطيف المستمرّ : وهو الحاصل من حلّ نور منبعث من اجسام صلدة متوهجة او سوائل او غازات مضغوطة ضغطاً عظيماً : (الثاني) يعرف بطيف الخطوط اللامعة او طيف الغازات وهو طيف النور المنبعث من غازات او ابخرة متوهجة مضغوطة ضغطاً متوسطاً او واطئاً : (الثالث) يعرف بطيف الخطوط المظلمة وهو طيف نور منبعث من مادة تستطيع ان تمتصّ جانباً من النور المنبعث منها . وبالثالث من هذه الطيوف فسّر كرشوف خطوط فرونهوفر في طيف نور الشمس التي كانت لا تزال سرّاً مغلقاً [1] .وباستعمال السبكترسكوب تمكن العلماء من معرفة حالة النجوم والسدم الطبيعية . فعرفوا مثلاً ان السديم الكبير الذي يظهر في الفضاء قرب كوكبة الجبّار غازيّ وان السديم قرب المرأة المسلسلة غير غازي

ولما كان معروفاً لدى العلماء ان كل عنصر من العناصر الكيماوية التي تتركب منها قشرة الأرض اذا توهج وحُلّ نورهُ ظهر في الطيف خط واحد — او اكثر — يتميز به عن غيره، استعملوا هذه الطريقة للكشف عن العناصر في الكواكب والسدم . وبتطبيقها على الشمس ثبت ان فيها تسعاً واربعين عنصراً من عناصر الارض الاثنين والتسعين . والواقع ان عنصر

---

(١) خطوط فرنهوفر . اذا حللنا نور الشمس بسبكترسكوب الى الوانه السبعة المرئية وجدنا في مناطق الالوان المختلفة خطوطاً سوداء دقيقة . هذه الخطوط راقبها اولا ولستن الانجليزي سنة ١٨٠٢ ثم عني بها فرونهوفر الالماني سنة ١٨١٤ واحصى نحو ٧٠ خط منها فنسبت اليه . وتعليلها ان كل غاز او بخار يمتص الامواج التي يطلقها اذا توهج فاذا حللنا طيف النور المنطلق من قطعة صوديوم محترقة وجدنا مثلا خطاً اسود في مكان معين في منطقة اللون الاصفر . هذا الخط يتميز به عنصر الصوديوم فاذا وجدنا في طيف الشمس خطاً في منطقة اللون الاصفر يتفق من كل الوجوه مع خط الصوديوم حكمنا ان في جو الشمس صوديوماً هكذا

الهليوم كشف عنهُ في الشمس قبل الكشف عنهُ بين عناصر الارض . فقد كشف عنهُ سنة ١٨٦٨ في لهب اخضر اللون من لهب الالسنة المندلعة من الشمس في اثناء الكسوف . ودعي «هليوم» نسبة الى اسم الشمس اليوناني « هليوس » وظل مجهولاً بين العناصر الارضية الى ان كشف عنهُ السر وليم رمزي سنة ١٨٩٥ وما يستخرج منهُ الآن يستعمل في الغالب لملء البلونات المسيَّرة لانهُ لا يلتهب كالايدروجين

وقد استعملت خطوط فرنهوفر حديثاً لمعرفة نسبة العناصر التي في الشمس بعضها الى بعض . وذلك بدرس عرض الخطوط التي تظهر في الطيف ونسبة عرض الواحد منها الى الآخر . ثم استعملت هذه الخطوط ايضاً لمعرفة شيء عن حركة الاجرام السموية فقد ثبت انهُ اذا كان الجرم السموي متجهاً نحونا فان حركة الخطوط في طيفهِ تتجهُ من الاحمر الى البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا فان حركة هذه الخطوط في طيفهِ تتجهُ من البنفسجي الى الاحمر . لان عدد الامواج التي تصلنا منهُ في الحالة الاولى آخذة في التزايد والقصر وفي الحالة الثانية آخذة في التناقص والطول . فاتجاه حركة هذه الخطوط وسرعتها تمكن العلماء من معرفة اتجاه الاجرام السماوية بالنسبة الى الارض وسرعتها . وبالجري على المبدإ ذاتهِ يستطاع الكشف عن النجوم المزدوجة واثبات دوران الارض حول محورها .

***

ومن اول الذين وجَّهوا عنايتهم الى هذا الموضوع الدكتور هارتمان احد علماء مرصد بوتسدام الالماني فلم يلبث ان صرَّح انهُ في اثناء درسهِ لخطيْ الكلسيوم في طيوف بعض النجوم وجد ظاهرة غريبة لا تتفق ومقتضيات مبدأ دبلر المذكور ذلك انهُ لاحظ ان خطيْ الكلسيوم لا يحيدان الى جهة اللون البنفسجي ولا الى جهة اللون الاحمر كما تحيد بقية خطوط الطيف ، وهذا من المفارقات ! فاذا كان نجم من النجوم يسير سيراً سريعاً نحونا فلا بدَّ من ان تحيد الخطوط في طيفهِ نحو اللون البنفسجي . واذا كان مبتعداً عنا فلا بدَّ من ان تحيد الى جهة اللون الاحمر . ومن الغريب ان هارتمان وجد ان كل خطوط الطيف تحيد الى احدى الجهتين الاَّ خطَّا الكلسيوم واحياناً خط الصوديوم

وما صرَّح هارتمان تصريحه المتقدم حتى عني الراصدون بتحقيق مشاهدتهِ فأيدوها بمشاهداتهم . ومن ثم اخذوا يقترحون النظريات لتعليلها

ولا يخفى ان الارض في اثناء سيرها في الفضاء تنقل معها غلافها الغازي المكون من غازات باردة وكذلك النجم ينقل معهُ في اثناء سيرهِ غلافاً من الغازات التي تحيط بكتلتهِ الغازية الشديدة الحموّ . فاذا انبثقت من داخل النجم اشعة ومرَّت في جوهِ الغازيّ الخارجيّ — البارد اذا قيست حرارتهُ بحرارة قلب النجم — واذا كان في هذا الجوّ الخارجي ذرات عنصر الكلسيوم

الموجبة الكهربائية ، ظهر خط الكلسيوم في طيف ضوء النجم مع خطوط العناصر الاخرى، وهو خط مظلم من خطوط فرونهوفر لانهُ حدث بالامتصاص . ولكنَّ الغريب ان خطوط الطيف الاخرى تحيد الى جهة الاحمر او جهة البنفسجي بحسب ابتعاد النجم او اقترابهُ ، واما خطَّا الكلسيوم لايحيدان ولذلك عُرفا هما وما ماثلهما «بالخطوط المستقرة» Stationary

ألا يجوز ان تكون ذرات الكلسيوم منتشرة في الفضاء بين النجوم وبهذا يعلل استقرار خطي الكلسيوم في طيوف النجوم ؟

وما منشأ هذا الكلسيوم الذي في الفضاء النجمي ؟

هل هو مادة منبعثة من النجوم الجبارة في اثناء سيرها في الفضاء ؟

او هو بقايا سديم كوني نشأت منهُ النجوم بالتجمع الجاذبي ؟

***

ولما تناول الدكتور ستروف Struve احد علماء مرصد يركز Yerkes الاميركي هذا البحث اثبت انهُ كلما زاد بعد النجم عن النظام الشمسي زاد ظهور الخطوط « المستقرة » في طيفه . وهذا يعلَّل بان الضوء مرَّ في مسافات شاسعة من السحاب الكوني المالئ للفضاء بين النجوم فزاد امتصاص هذا السحاب لضوء الكلسيوم فزاد ظهور خطيه في الطيف

ولم يلبث العلماء ان وجدوا انَّ هذه الخطوط تحيد الى احد طرفي الطيف ولكنَّ حيودها ضئيل جدًّا اذا قيس بحيود الخيوط الاخرى . لذلك عدلوا عن تسميتها بالخطوط المستقرة وقالوا انها خطوط ما بين النجوم interstellar

وجاء الاكتشاف المتوّج لهذه المباحث لما ثبت ان هذا الحيود الضئيل في خطي الكلسيوم وما يماثلها يمكن تعليله تعليلاً دقيقاً بافتراض ان المجرة تدور حول مركزها وهو ما اثبتتهُ المباحث الفلكية الاخرى (راجع مقالة « ما وراء المجرة » في مقتطف يناير ١٩٣٢)

ويرى الاستاذ ادنجتُن ان « بقايا السديم الكوني » المالئة رحاب الفضاء النجمي ليست كلسيوماً فقط او كلسيوماً وصوديوماً . ولكن احوال الرصد مكنتنا من مشاهدة خطوط هذين العنصرين قبل غيرهما . بل هو يذهب الى ان هذا السديم الكوني يحتوي على كل العناصر التي على الارض

اما كثافة بقايا « السديم الكوني » فواطئة جدًّا لا تزيد عن كثافة نفخة مدخَّن وقد تمددت حتى ملأَت فضاء سعتهُ الف ميل مكعب ! على ان رحاب الفضاء تفوق التصور في سعتها. وعليه فهذا الغاز المتناهي في اللطافة الذي يملأها تبلغ كتلتهُ نصف كتلة النجوم . فاذا سلمنا بهذا الرأي الجديد قلنا ان المادة الاصلية التي تكونت منها النجوم ، تحوَّل ثلثاها نجوماً وبقي الثلث الآخر مادة لطيفة منتشرة في رحاب الفضاء

حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا

وكيل الداخلية للشؤون الصحية

لمحة تاريخية

من اراد البحث في حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر وجب عليه ان يستعرض الحالة التي كانت عليها البلاد في العصور الغابرة حتى يمكنه ان يزن الحالة الحاضرة بالمقابلة بين العهدين ويقدر النشاط الصحي الحالي التقدير الصحيح مع مراعاة العادات القومية والامراض المحلية ودرجة المدنية في العصور المختلفة كما لا يغيب عن البال ان تقدم الصحة العامة لا يقاس بالنتائج التي أفضى اليها هذا التقدم فحسب بل بمقدار الاعمال التي كان من شأنها الوصول الى هذا القدر من التقدم

ان تقدم الصحة العامة يمشي جنباً الى جنب مع تقدم الطب ومع انتشار التعليم بين افراد الامة وفيها في نواحي حياتها المختلفة لان ارتفاع مستوى العناية بالحالة الصحية العامة لم يأت في الواقع الا من طريق تطبيق ما بلغته فروع الطب من النماء في الازمنة المختلفة ولهذا السبب استنسب رجال الصحة ان يطلقوا على فرع الطب الذي يعنى بالصحة العامة اسم « علم الطب الوقائي » لانه لا يقتصر على العناية بالملابسات التي تحيط بالانسان فقط كما يتبادر للفهم من تعريف مداه بعبارة (الصحة العامة) ، ولا المظاهر الاكلينيكية للمرض ووسائل الوقاية منه بل يشمل سبر غور التطورات التي تحدثها الاصابة بالمرض في جسم الانسان ومعرفة مدى قوة دفاع خلايا الجسم وسوائله ضد الامراض أي معرفة القوة الحقيقية للجيش المدافع عن الانسان. فهذا الفرع يجمع كل جهود فروع الطب التي عرفت منذ خلق الانسان حتى الآن ويوجهها لغاية واحدة في دائرة مداه الواسعة اما الغايات التي يرمي اليها دائماً مهما اختلفت الوسائل وتنوعت الطرائق فهي :

١ — تقوية بنية الفرد وبذلك تزداد قوة مقاومته للامراض وتعلو تبعاً لها كطريقة للعمل المنتج وهي بيت القصيد

٢ — الوقاية من الامراض باستئصال شأفة أسبابها أو قمعها ومنع انتشارها بامتلاك ناصيتها

٣ — اطالة العمر وتقليل الوفيات

وكل من تتبع تاريخ الطب الوقائي أو تاريخ الطب بصفة عامة رأى ان كل الابحاث والمشاهدات لا تتجه الى غير هذه الغايات سواء أكان السير اليها بطيئاً كما حصل في العصور السالفة أم سريعاً كما شاهدنا في القرنين الاخيرين ، وسواء أكان البحث متجهاً الى الوصول الى غاية واحدة

من هذه الغايات الثلاث أم الى اثنتين أم اليها كلها كما هو الحاصل في عصرنا الحاضر. ولقد قامت كل أمة من الامم القديمة والحديثة بنصيب في تقدم الصحة العامة وكان كل نصر جديد في تفهم طبيعة الامراض يعبّد السبيل لنصر آخر يليه بل ولفتح جديد حتى بلغنا الى التقدم الحالي وستستمر الفتوح بعون الله فتزداد المعرفة لاسرار الكون بالكشف عن حقائقها وفتح مغاليقها حتى انني لا اغالي لو قلت انه لو بحث احدنا بعد جيل أو اثنين لادهشه ، ما تكون عليه الحالة الصحية العامة من التقدم واذا أعاد الى مخيلته صورة ما كان يظنه المثل الاعلى لما يجب ان تكون عليه هذه الحالة في عصرنا الحاضر لرآها — بالمقابلة بما سيكون عليه العالم — رسماً فجاً من البساطة بمكان. ولكن أحفادنا لا يستطيعون على اي حال ان ينكروا انهُ لولا ما جادت به قرائح اجدادهم في عهدنا الحاضر بل وفي عهد اجدادنا لما تقدم العالم قيد خطوة بل لفنيت الدنيا ومن عليها بما انتابها من الشرور الاجتماعية وجوائح الامراض القتالة لانه لم يخل عصر من العصور من وباء فتاك أو غضبة تكشر فيها الطبيعة عن نابها ويبدو اثرها باحد مظاهر التدمير والتخريب كفيضان الانهار وثوران البراكين او زلزلة الارض ولا عاصم يومئذ للناس الا بمقاومة طغيان الطبيعة بيد العلم والعرفان

ومصر كانت اولى الامم التي عملت على رفع مستوى الطب والصحة العامة فهي اقدم امم الارض حضارة وعلماً ومنبت اول انتصار ناله الانسان على الامراض. ومن ناحية الصحة العامة كان قدماء المصريون يباهون بانهم اصح بني آدم وكان دأبهم الاخذ بكل حيطة ليتمتعوا بالصحة الجيدة ولذلك كانوا أمة تعنى باسباب البأس والالعاب الرياضية وشعارها « درهم وقاية خير من قنطار علاج » وكانوا يدرسون الطب في جامعات عين شمس ومنف وطيبة والاسكندرية حيث كانت مهبط العلم وقبلة طلابه وقد كرع موسى عليه السلام كؤوس العلم مترعة في جامعة عين شمس وتهذب بكل حكمة المصريين — وقد نقل اليونان علوم مصر الى بلادهم وقت ان كان المصريون يعرفون الكثير عن القبالة وعملية الختان وعلم الصحة والجذام والامراض الجلدية ويكفيهم فخراً ان أبقراط الملقب بأبي الطب من تلاميذهم وهو صاحب القول الحكيم «على الطبيب اذا اراد ان لا يخدع نفسه أو يخدع غيره ان يلم بما كان يعرفه من سبقوه » لان خير وساطة للتجديد في مختلف العلوم هي البناء على الاسس الصالحة من القديم

ان المقياس الاول لتقدم الصحة العامة هو النظافة العامة وقد كان قدماء المصريين كثيري الرعاية لذلك خصوصاً في اشخاصهم وهذا مما ادى الى ترقية عاداتهم وقد ذكر هيرودوتوس في كتابه الثاني ابان زيارته لمصر في القرن الخامس قبل الميلاد قوله «لا نزاع في ان المصريين هم اكثر تديناً من اي أمة اخرى ومن عاداتهم انهم يشربون في كؤوس من البرونز يغسلونها يوميًا وهذا لا يقوم به البعض فقط بل الكل على السواء وهم جد حريصين على ارتداء الملابس البيضاء المغسولة حديثاً وهم يختتنون مراعاة للنظافة التي هي شعارهم وهم يفضلونها على الظهور بالمظهر الحسن وكهنتهم

يحلقون جسمهم كله مرة كل ثلاثة ايام حتى لايعلق بأجسامهم القمل أو غير ذلك من الحشرات النجسة اثناء قيامهم بخدمة الآلهة وكذلك يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل »

وقد لاحظ هيرودوتوس ايضاً وجود البعوض بكثرة وكان المصريون يتقون شره بالصعود الى الابراج التي تعلو المناقع ليناموا بعيدين عن متناول البعوض الذي كانت تحول الرياح دون وصوله اليهم واما الذين كانوا يعيشون بقرب المناقع فانهم كانوا ينصبون اثناء الليل شبكات صيد الاسماك على فراشهم وكانوا يرحلون من تحتها للوصول الى الفراش منعاً لتسرب البعوض الى داخلها فالمصريون والحالة هذه هم اول من انتبهوا لمضار البعوض ولاتقاء ضرره بأبسط الوسائل

ومن الذين درسوا الطب بمصر وكان له القدح المعلى في وضع أسس الطب الوقائي جالينوس الذائع الصيت الذي كان تلميذاً للمصريين اذ رضع لبان العلم بجامعة الاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد واحاط بكل ماعرف عن الطب في وقتهِ ومما هو جدير بالذكر في هذا الموطن انهُ وان كان الفضل يرجع الى ابقراط في تقسيم اسباب الامراض الى انواعها تبعاً للفصول او المناخ اوالعوامل الخارجية او العوامل الشخصية كنوع الغذاء او العادات اوممارسة التمرينات الرياضية وهو صاحب المبدأ القائل بان فعل المرض يكون بالهجوم من جانبهِ ويقابله الدفاع من جانب الجسم اى انهُ الكاشف الاول لكفاية الطبيعة على الشفاء وان الطبيب الماهر هو الذي يدرس وسائل مقدرتنا هذه ثم يقلدها — وان كان ما تقدم كلهُ ينسب فضله الى ابقراط الا ان جالينوس كان اول من اعلن ملأ الاطباء ان علم وظائف الاعضاء هو دعامة الطب وقد جعله علماً قائماً بذاتهِ وجمع كل ما عرف عن الطب في زمنهِ وصقلهُ اسوة بابقراط واستمرت مؤلفاتهِ المرجع الاعلى للعلوم الطبية غرباً وشرقاً زهاء اربعة عشر قرناً وكان ينصح تلاميذه بزيارة جامعة الاسكندرية التي انشأها بطليموس الاول اذ هي موطن الدراسة الصحيحة لعظام الانسان .

وقد ظلت هذه الجامعة شمس العالم التي يستضيء الكل بنورها ومنبع العلم والعرفان الذي يرتوي منهُ كل طالب للحقيقة وذلك حتى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد ثم بدأت في الانحطاط الى أن ذهبت ريحها واندثرت في سنة ٦٤٠ ميلادية عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية وكانت العلوم الطبية قد اضمحلت بمصر قبل انتقالها الى اليونان بزمن وكان التشريح قد منع من سنة ٥٠٠ ميلادية فتفرق رجال العلم ايدي سبا وهاجروا الى بلاد الشام وفارس وليس من شك في ان الحالة الصحية قد اضمحلت في البلاد كذلك تبعاً لاضمحلال معاهد الطب الذي عدت على علومهِ فنون الشعوذة والدجل واصبح اثراً مشوهاً بعد اذ كان جنة قطوفها دانية وفيهما من كل فاكهة زوجان

ثم سطع على مصر نور الطب العربي في زمن ازدهاره في الفترة من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٠ ميلادية وقد ظهر بمصر في اوائل هذا العهد كتاب في الطب القبطي جمع بين دفتيهِ مائتي « وصفة » لامراض العيون والمعدة والرحم والبواسير والحبوب وامراض جلدية اخرى

وقد استفادت مصر كثيراً من الطب العربي وآوى الى ظلها الظليل واشتغل بالتأليف والتصنيف في اثناء هذه الفترة من تاريخها طائفة كبيرة من مشهوري الاطباء العرب كميمون الموسوي وابن العيني وابن الفارس والنباتي الشهير ابن البيطار الذي شغل بمصر وظيفة الصيدلي الاول التي تعادل الآن وظيفة مدير قسم الصيدليات وقد انشأ ابن طولون في سنة ٨٧٥ ميلادية اول مستشفى في ذلك العصر وعززه الملك كافور الاخشيدي بمستشفى غيره في سنة ٩٥٧ وكانت توجد دار اخرى للعلاج في مصر القديمة وفي سنة ١٠٠٥ اسس الحاكم دار الحكمة بالقاهرة وهي اشبهُ بجامعة منها بدار طب وكان الفاطميون قد بدأوا في تأسيس جامعة بالاسكندرية احياء لجامعتها القديمة كما اسس صلاح الدين مستشفى الناصري والنوري وقد اشتغل ابو صبيعة في المستشفى الاخير وكان الطب يدرس في هذه المستشفيات ثم القى عبد اللطيف البغدادي دروساً في الطب بالازهر في سنة ١١٩٣

ولا يمكن انكار ما قام بهِ الطب العربي في خدمة الصحة العامة لا في مصر وحدها بل وفي العالم اجمع فالعرب وان كان اغلب طبهم منقولاً عن طب جالينوس غير انهم ابتكروا الكثير ايضاً مما يخرج تعداده عن موضوع هذا البحث . ومن ابرز ابتكاراتهم تفريق الرازي بين الحصبة والجدري وتأسيسهم المستشفيات وابتداعهم الامتحانات والاجازات الطبية وتنظيمهم فن الصيدلة والكيمياء ومحافظتهم على ما ورثوه من العلوم الطبية عن اليونان. وخلاصة القول ان العرب هم واسطة الاتصال بين مدنية الاغريق ومدنية اوربا الحديثة وفضلهم على عصرنا الحاضر لا ينكر

ولقد كان من الطبيعي ان يرث المصريون عن العرب علومهم الطبية ولكن ارادت العناية الالهية ان يفتح العرب الاندلس وينتشر العلم العربي من هناك الى اوربا فيزدهر وينمو حتى يصل الى اوجه — كما اتى على مصر حين من الدهر لم تكن فيهِ شيئاً مذكوراً اظلمت فيهِ شمس العلم وافل نجم الطب وسادت الفوضى ألا وهو عصر المماليك ولقد شذَّ عنهم احدهم وهو السلطان قلاوون الذي انشأ البيمارستان الكبير في سنة ١٢٨٦ وحبس وقفاً للانفاق عليهِ وهو باقٍ حتى الآن وان كان قد خصص للعيون بعد ان كانت تعالج بهِ في اول انشائهِ كل الامراض ثم خصص للمجاذيب واستمرَّ هكذا حتى سنة ١٨٥٦ ميلادية . ولا ننسى مستشفى المؤيد الذي كان موجوداً حوالي ١٤٢٠ ميلادية . ولما استولى العثمانيون على مصر في سنة ١٥١٧ لم تكن حالة الطب او الصحة العامة باحسن منها في عهد المماليك وقد اجتاحت البلاد في العهدين جائحات من الاوبئة لا يتسع المجال لوصفها وكانت تترك تأكل في العباد كما تأكل النار الهشيم. وقد وصف المؤرخ المشهور الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ما شاهده اثناء انتشار وباء الطاعون الذي ابتدأ في اواخر شهر جمادى الاولى سنة ١٢٠٥ هجرية وذكر اهواله التي تشيب ناصية الوليد وقال ما يدل على انه لم يتحرك احد من اولي الامر لمكافحته وقد مات به ما لا يحصى

من الاطفال والشبان والجواري والعبيد والمماليك والاجناد والكشاف والامراء وامراء الالوف وتوفي من الصناجق نحو اثني عشر صنجقاً . وكان يخرج من بيت الامير في المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة ولم يبق للناس شغل الاّ الموت واسبابهُ فلا تجد الاّ مريضاً او ميتاً او عائداً او معزيًا او مشيعاً او راجعاً من صلاة جنازة او دفن ميت اومشغولاً في تجهيز متوف او باكياً على نفسه وهي تكاد تطير شعاعاً فرقاً من الموت وندر جداً من يشكو المرض ولا يموت . وندر ايضاً ظهور الطعن باجسام المرضى ولم يكن يشعر المريض بالحمى بل يكون جالساً فتأخذه رعدة من البرد فيتدثر ولا يفيق الاّ مخلطاً او يموت من نهاره او ثاني يوم وربما زادت فترة مرضه او نقصت عن ذلك وقد استمر فعل الطاعون الى اوائل رمضان ثم اضمحل شأنه ولم يقع بعد ذلك الاّ قليلاً نادراً ومات الاغا والوالي اثناء ذلك فولوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافهما فماتا ايضاً واتفق ان الميراث انتقل ثلاث مرات في جمعة واحدة

ثم اتى بعد ذلك عصر الفرنسيس بقيام نابليون الاول في سنة ١٧٩٨ بحملته على مصر . ويمكن اعتبار هذا الفتح مبدأً لتاريخ الصحة العامة بالبلاد كما يعتبرمبدأً تاريخها الحديث وقد اصطحب نابليون مائة من اعظم علماء فرنسا المجهزين بالكتب والآلات العلمية كما استحضر معهُ مطبعة عربية وقد ادخل الكثير من الاصلاحات الصحية العامة ككنس الشوارع ورشها في اوقات معينة ووضع مصباح على كل منزل وقام علماؤه ببحوث علمية قيمة وآثار مجمعهم العلمي لا زالت تذكر لهم بالفخر العظيم . وليس من شك في ان هذه الحملة كانت من الحوافز الهامة لادخال أسباب المدنية الغربية بمصر وكانت الخطوة الاولى في حكم المصريين لانفسهم وذلك بما انشأه نابليون بالبلاد من مجالس ولجان اسوة بما عمله في غيرها من الممالك مما كان السبب في غرس بذور الشعور بالكرامة الوطنية والاهلية وقد مهد حملةُ هذا السبيل لبزوغ نجم محمد علي الكبير منشىء مصر الحديثة الذي رفعتهُ مصر فرفعها واحبتهُ فاحبها

وقد قام اطباء الجيش الفرنسيين بابحاث قيمة حيث اصدر ديجنيت الطبيب الاول للجيش امراً الى اطبائه ان يقوموا بابحاث طبية وطبوغرافية لجميع الجهات التي يحلون بها .وانشأ نابليون ادارة تقوم بتنفيذ الاجراءات الصحية المتبعة في موانئ كثيرة بالبحر الابيض المتوسط

وقد وجه الاطباء عنايتهم الى الصحة العامة محافظة على جيشهم وقد داهمهم وباء طاعون شديد الوطأة علاوة على التهاب العيون الذي اصاب الكثيرين من رجال الجيش وقد اتخذ الاطباء احتياطات شديدة لقمع الوباء كحرق الامتعة وغيرها وقد كانت توجد في طول مدة وجود الحملة تقريباً ادارة صحية وانكان جل همها العناية بصحة الجيش وقدانشأ عدة مستشفيات عسكرية بالازبكية والجيزة وقصر العيني ودمياط ورشيد وغيرها كما قامت تلك الادارة بنشر الدعوة الصحية وخصوصاً ضد الجدري حيث طبعت نشرة عنهُ باللغة العربية ووزعت على كبار

الاعيان بواسطة الديوان الكبير وحتى على السيدات بواسطة السيدة نفيسة هانم زوجة مراد بك الكبير . وقد مات من رجال الحملة من يوم خروجها من فرنسا حتى نهاية السنة الثامنة (بالتوقيت الفرنسي الجديد المتبع وقتئذ) ٨٩١٥ توفي منهم بالطاعون ١٦٨٩

ومن المذكرات الطبية القيمة التي دونها الاطباء مذكرة للدكتور بروانت عن الرمد واخرى عن الدوسنتارية ومذكرة عن الرمد لسفارسي وعدة مذكرات عن الطاعون

وقد جاء في هذه المذكرات ان الامراض التي كانت منتشرة بمصر وقتئذ — علاوة على الطاعون والدوسنتاريا والحمى المتقطعة وامراض العيون والكساح والعمى والفتق — الحصوات البولية والقيلة المائية والصرع والحمى المعوية والجدري والاستسقاء . وقد قام رجال الحملة بعمل جداول عن الحالة الجوية بالقاهرة والاسكندرية . وقد يكون اول احصاء منظم لمتوفي القاهرة هو الذي عمل تحت اشراف ديجنيت حيث اجرى هذا الاحصاء من ٢٩ برومير من السنة السابعة حتى فندمير من السنة الثامنة بالتوقيت الفرنسي الجديد — واستنتج منهُ ما يأتي :

ان عدد النساء اكثر من عدد الرجال

ان وفيات الاطفال تحدث في الستة اسابيع الاولى من حياتهم وعلى العموم تكثر وفياتهم قبل بلوغهم سن تسعة اشهر

ان الجدري هو اكثر الامراض حصداً للاطفال . ويستخلص من احصاءات الطبيب المشار اليهِ التي عملها عن السنة الكاملة وهي السنة الثامنة (بحسب التوقيت الفرنسي الجديد المتبع وقتئذ) ان عدد الوفيات قد بلغ اثناءها بالقاهرة ٥٨٩٥ منهم ٣٥١٦ طفلاً و١٣٧٦ امرأة و١٠٠٣ رجال . وقد حول قصر العيني الى مستشفى كما ان نابليون امر بافتتاح مستشفى مدني بالازبكية يسع ٣٠٠ مريض وقد جلا الفرنسيون عن مصر في سنة ١٨٠١ وقدر جومار عدد سكان القطر في سنة ١٨٠٠ بـ ٢٤٦٠٢٠٠ نسمة ولكن حسب تقدير كلوت بك لا يتجاوز السكان المليونين

وجلاء الفرنسيين وعودة حكم العثمانيين لمصر وتسلط المماليك ثانية سنحت الفرصة لجلوس محمد علي على عرش مصر وتم بذلك خلاص البلاد على يديه من عصور الفوضى والمظالم وسار بها في سبيل الرقي الى ابعد شوط ونهض ضمن ما نهض بهِ بالشؤون الطبية والصحية

تولى محمد علي باشا الحكم وممارسة مهنة الطب في ايدي قوم جهلة يتناقل بعضهم عن بعض المعلومات الطبية المشوهة وكان بعضهم يلقب بالحكماء وهم يقومون بمعالجة الامراض الباطنية والبعض الآخر يمارس الجراحة ويلقب بالجراحين وكان على رأسهم جراحباشا — كما يوجد بجانب هؤلاء المجبرون والدايات . وكان جل اعتمادهم على بقايا الطب العربي وقال كلوت بك انه لما حضر الى مصر كان برأس المستشفيات حلاقون وقد أبعدوا بصعوبة حتى يحل مكانهم كلوت بك وزملاؤه فلما أوجد محمد علي جيشاً نظامياً بمصر استدعى كلوت بك في سنة ١٨٢٥ ليكون طبيباً

أول لهذا الجيش ويرجع اليه الفضل في اعادة تأليف مجلس الصحة وقد شكل من خمسة أعضاء من اطباء وجراحين وصيادلة برآسة كلوت بك وكان هذا المجلس يقدم المشورة لوزير الحربية في كل المسائل ذات العلاقة بالصحة وغيرها حيث لم تكن توجد وقتئذٍ ادارة صحية ثم انشئت فيما بعد ادارة طبية يرأسها مفتش عام وهذه الادارة تدير شؤون مستشفيات الجيش وصيدلياته حيث ألحق بهذه الادارة قسم للادوية وتبسيطاً لصرف الدواء وضعت فارماكوبيا بها بعض « الوصفات » واقرها مجلس الصحة واسست صيدلية مركزية بالقاهرة ومستودعات للادوية بالاسكندرية للقطر المصري وحلب وعكا للشام وجدة لبلاد العرب والخرطوم لسنار وكندية لكريت . وقد انشئ للبحرية المصرية مجلس صحة بالاسكندرية

وقد نشأ عن اتخاذ الوسائط المتقدمة انخفاض نسبة الوفيات بين رجال الجيش والبحرية وكان مستشفى ابي زعبل هو المثال الذي تحتذيه كل المستشفيات وقد اسست بهِ في سنة ١٨٢٧ مدرسة الطب وفرع للصيدلة فدرس للمرة الاولى في تاريخ مصر الحديث علم الصحة ثم انشئت مدرسة للولادة بهذا المستشفى ايضاً وتخرج في مدرسة الطب بعد خمس سنوات أربعون طبيباً ارسل منهم لباريس اثنا عشر طالباً حيث حصلوا على شهادة الدكتوراه من كلية باريس

ثم انتقلت مدرسة الطب والمستشفى الملحق بها الى سراي ابراهيم بك (وهو قصر العيني الحالي) حيث هما الآن وقد اصبح المستشفى يسع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ مريض وبالمدرسة ثلاثمائة تلميذ — وقد رخص ولي النعم بقبول مرضى من غير العسكريين كما ان مستشفى ابي زعبل خصص للنساء ومستشفى الازبكية لكل الامراض وكان ملحقاً بكل المدارس بالاقاليم جراحين مرخص لهم بمعالجة الاهالي ثم انشئت مدرسة للولادة بمستشفى قصر العيني

وقبل زمن محمد علي باشا كان الذين يقومون بمعالجة الحيوانات هم البيطارة فانشأ المسيو هامو بناء على رغبة محمد علي باشا مدرسة للطب البيطري برشيد ثم نقلت الى ابي زعبل حيث الحق بها مائة طالب وبعدئذٍ وجد انها بعيدة عن الحرس بشبرا فنقلت الى هناك لتكون على مقربة من الجيش الراكب واصبح فيها مائة وعشرون طالباً . ومما يجب ذكره ان كلوت بك هو الذي اشار باستعمال التطعيم ضد الجدري لمقاومة انتشار هذا المرض بالقطر المصري بعد ان كان يودي بحياة ستين الفاً من الاطفال كل عام او ثلث المواليد على رأي كلوت بك وقد قام هو وتلاميذه بمكافحة الكوليرا التي وفدت على مصر سنة ١٨٣٠ وبذلوا جهوداً طائلة في مقاومة طاعون سنة ١٨٣٥

فما تقدم نرى ان مصر الحديثة عرفت ما هي الصحة بعد ان وضع دعائمها محمد علي باشا وان كان الفرنسيون قد مارسوها قبله محافظة على جيوشهم ومن عهده استمرت في تقدم حتى عصرنا الحاضر . وقد بلغ عدد سكان مصر في نهاية عهد محمد علي باشا نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون وتعداد سكان القاهرة نحو ثلاثمائة الف نسمة [لها تتمة]

آراء وحقائق جديدة

في علوم الاحياء

للمستر مكوستن استاذ البيولوجيا في جامعة القاهرة الاميركية

لسنا نحاول هنا ان نستوفي البحث في الآراء الجديدة والحقائق التي كشفت حديثاً في علوم الاحياء . ففي سنة ١٩٣٠ اخرجت المطابع والمجلات نحواً من اربعين الف كتاب ومقال في الموضوع . وانما جلُّ ما نستطيعهُ ان نختار بعض الموضوعات ونعالجها — وهي بحكم الطبع اجمع ما تكون لعناية كاتب هذه السطور

ما هي الحياة

لقد جريت على توجيه هذا السؤال الى تلاميذي في علم الحيوان في مفتتح كل سنة . وفي كل فرقة اجد تلميذاً او تلميذين على الاقل يظنان انهما يملكان للحياة تحديداً وافياً . لان الامر سهلٌ في الظاهر ، ولكن الواقع انني اشك في امكان العثور على عالم بيولوجي يؤبه لهُ ، يحاول ان يضع تعريفاً « للحياة » لاننا لا نعرف ما هي ، رغم ما نعلمهُ من الحقائق الكثيرة عن الاحياء وتصرّفها . ولو كنا نملك الوقت ، للذَّ لنا ان نفحص هذه المادة الفاتنة للبّ التي يدعوها بروتوبلازم (او المادة الحياة ومعناها الاصلي المادة الاولية) مع عالم طبيعي بيولوجي مثل الدكتور هِل A. V. Hil او فسيولوجي كالاستاذ بايلس W. W. Baylis وان نتصوَّر ،كما يتصوَّران ، الافعال الطبيعية والكيمائية التي تقع فتحدث بوقوعها ظاهرات الحياة . وانما جلُّ ما نستطيع ان نقوله هو اننا جادون في توسيع نطاق ما نعلمهُ عن الظاهرات السطحية التي ينطوي عليها تحوُّل الطاقة الكامنة في الطعام الى طاقة حركة . وفي الوقت نفسه نرى الكيمائي جادًّا في درس جزيء البروتين المعقد التركيب وقد اسفر درسهُ عن ادلة قوية على ان شدَّة التعقيد في بنائهِ ذات صلة متينة بفقد الاستقرار في المادة الحية وهذا—أي فقد الاستقرار — متصلٌ بتغيرات كيمائية عديدة يسهل استحداثها في المادة الحية . واكثر الفسيولوجيين الآن يرون ان الحياة نوع من التوازن بين هذه الافعال الكيمائية والطبيعية المعقدة . وكل حافز Stimulus يُفقدُ البروتوبلازم هذا التوازن فيتصرف او يتغير لاعادتهِ وقد يحدث ان الحافز يكون قويًّا ، وفقد التوازن كبيراً ، فلا تستطاع استعادتهُ ، فنقول ، « ان الكائن قد مات » .واذن فانتم توافقون على اننا لا نزال بعيدين عن تعريف واف للحياة

ومن وجوه التقدم الجديرة بالعناية في هذا الميدان زيادة التدقيق في القياس . فقد استنبطت اداة خاصة تدعى « ترموبيل » لقياس الحرارة التي تطلقها العضلة في اثناء انقباضها الى اربعة اجزاء من مليون جزء من الدرجة بمقياس سنتغراد . وقد استحدثت كواشف كيمائية اثبتت ان سبب انقباض العضلة المباشر ليس تأكسد السكر في الخلايا كما كان يقال قبلاً ، وانما تتكوّن اولاً مادة تدعى « فوصفجين » ثم يحلّ محلّها توًّا الحامض اللبنيك اذ يتحوّل الفوصفجين الى المواد التي تركّب منها . ويلي ذلك تحوّل الحامض اللبنيك بالتأكسد الى ثاني اكسيد الكربون والماء . فاذا انت لهثت تعباً بعد عدوِ مائة متر فانت تحوّل في جسمك الحامض اللبنيك الى ثاني اكسيد الكربون والماء

التطور

ونريد ان نتحدث عن التطوّر من ناحيتين « حقيقة التطور » و « نظرية التطور »

لما بدأ الناس يظنون ، على اثر درسهم للآثار المتحجرة ، أن في نشوء الحيوانات والنباتات فعلَ تطوُّرٍ تدريجي قالوا ان النباتات والحيوانات نشأت بفعل التطور من احياء بسيطة ذات خلية واحدة . وهذا ما يعرف عند طائفة كبيرة من الناس « بنظرية التطوّر » الآن . ولكنهُ في عرف السواد من علماء الاحياء « حقيقة التطوّر » وهم لا يحسبونها « نظرية » فقط لان الادلة التي تؤيدها كثيرة مستمدّة من الجيولوجيا (طبقات الارض) والمورفولوجيا (شكل الاحياء) وعلم تفرق النباتات والحيوانات وعلم الاجنة ومن التجارب العملية في استحداث اصناف جديدة من النباتات والحيوانات الداجنة

اما ما يقصد الآن « بنظرية التطور » فهو في الواقع النظرية او النظريات المقترحة لتعليل بواعث التطور . وهذا هو المقصود اذ نذكر « نظرية داروين » او « نظرية لامارك » . وفي هذا الميدان لا يزال المجال لاختلاف الرأي متسعاً

القى الاستاذ بولتن Poulton خطبة الرآسة في قسم الحيوان في مجمع تقدم العلوم البريطاني في السنة الماضية — ولعلّها اهم خطبة في علم الحيوان تليت في انكلترا حديثاً — فقال فيها ان علماء الحيوان في رأيهِ قد اخذوا يرتدون الآن ، بعد تحوّل كبير في آرائهم مدى ٤٠ سنة ، الى نفس الموقف الذي وقفهُ داروين في الموضوع عند وفاته . ولعل الاستاذ بولتن لم يبعد كثيراً عن محجة الصواب في تقريره ولكن من الثابت اننا اشدُّ تبيناً من داروين لبعض المصاعب التي تعتور سبيل الباحث ، وقد اضيفت الى خلاصة البحث امور جديدة الآن . وقد لخص داروينُ القوى التي تفعل في تطوّر الأحياء كما يأتي : —

١ — اخلاف الاحياء لنسل كثير ، فلا يتسنى لطائفة كبيرة من النباتات والحيوانات التي

تولد من الغذاء والمكان ما يلزم لها لبلوغها مدى الحياة

٢ — هذا يفضي الى تنازع البقاء . وهذا بدوره يفضي الى

٣ — زوال الضعيف وبقاء القوي

٤ — وفي الوقت نفسه تظهر صفات جديدة . تساعد اصحابها على الفوز في معترك البقاء فيبقى صاحب الصفة — التباين variation — الجديدة وتورث الصفة نفسها للاجيال التي تليه

وثمة مدرسة من علماء الاحياء ، ومعظم رجالها من علماء الآثار المتحجرة ، يذهبون الى ان درسهم للآثار المتحجرة اسفر عن ان بعض التباينات التي ظهرت في بعض الحيوانات لم تفدها شيئاً بل على الضد كانت شديدة الضرر ، وهذه الصفات كافية بحسب رأي داروِن للقضاء على الاحياء التي تتصف بها. ورأي هؤلاء العلماء ان باعث التطور باعث داخلي في الكائن الحي نفسه يدفعهُ في خط مستقيم الى التحول والنشوء ، بصرف النظر عن بيئته. ولعلَّ اشهر رجال هذه المدرسة الاستاذ ازبورن الاميركي. ولكن قلَّ من علماء النبات والحيوان من يسلم بها

والمسألة الخطيرة التي نواجهها اليوم تدر حول البواعث على ظهور التباينات التي تورَّث . ولقد كان لدارون رأيٌ في الموضوع ، ولكنهُ لم يقنعه كل الاقناع . ولا هو يقنع علماء اليوم . فلنمرَّ به صارفين النظر عنهُ . فلما اكتشف مندل مكتشفاته الخطيرة في الوراثة بدا كأنه وضع بأيدينا مفتاحاً للسر ، ولكن ما زال علماء التناسل عاجزين عن فهم الموضوع فهماً وافياً

وقد كان المرحوم الاستاذ لوتسي الهولندي — الذي كان استاذاً لعلم التناسل genetics في كلية العلوم بمصر سنة ١٩٣١ — من زعماء القائلين بأن التحولات الفجائية mutation نتيجة التنغيل hybridation فتظهر الصفات الكامنة recessive . ورأيه هذا مبنيٌّ على تجارب خاصة قام فيها بتضريب اصناف مختلفة من النبات ، نقل مبدأها عن بوْر (Baur) الالماني الذي ضرب نوعين من نبات Antirrihinium فحصل على عشرات من الصفات الجديدة التي لم تشاهد في الاصلين قط . ولكن رأيه لا يفسر ظهور التحول الفجائي في صفة متغلبة اي انهُ لا يفسر كيف تظهر عوامل وراثية genes جديدة

والمقصود بالعوامل الوراثية تلك الوحدات الدقيقة التي تتألف منها الكروموسومات واشهر الباحثين في هذه الناحية هو الدكتور مورغن الاميركي واعوانه فانهم ربوا ملايين من ذباب الفاكهة (دروسوفيلا) وجاراهم الباحثون في مختلف بلدان العالم فعينوا نحو ٤٠٠ عامل وراثي في كروموسومات هذا النوع من الذباب . ولكن حتى مباحث هؤلاء عجزت عن اقامة الدليل على البواعث التي تبعث العوامل الوراثية الجديدة على الظهور

على ان الاستاذ مُلَر (Muller) احد اساتذة جامعة تكساس واحد تلاميذ مورغن

قد فتح باباً جديداً في هذا البحث باستحداث التحولات الفجائية في ذباب الفاكهة وغيرها باستعمال الاشعة السينية (اكس) فانه يوجه اشعةً سينية من قوة معينة الى الخلايا التناسلية وهي في دور خاص من ادوار انقسامها . فيزداد عدد التحولات الفجائية . ولكن كيف نعلم ان ظهور هذه التحولات ليس ناشئاً عن تلف او ضعف اصاب بعض العوامل في الكروموسومات بتصويب الاشعة اليها لا عن ظهور عوامل وراثية جديدة . واذن فلا يزال ميدان البحث والاكتشاف في موضوع التباين الوراثي واسع الجنبات

اليوجنية

لقد اشرنا الى ان الوف الالوف من ذباب الفاكهة ربيت لتستعمل في مباحث الوراثة ونزيد على ذلك ان مئات الالوف من الجنيهات انفقت في هذا السبيل ، فاذا سألنا ما قيمة هذه الحشرة من الناحية الاقتصادية وجدنا ان لا قيمة لها على الاطلاق . والواقع ان الانسان في نظرنا هو اهم الحيوانات التي على الارض ، واذن يهمنا ان نعرف ما كشف من اسرار الوراثة فيه . واذا قلبنا النظر في الحياة المصرية بدت لنا قلة العناية بموضوع الوراثة البشرية . ذلك انهُ اذا ذهب والدٌ يبحث عن عروس لابنه فما هو السؤال الاول الذي يوجههُ عن الفتاة التي ينتظر ان تصبح والدة لاحفاده . هل يسأل عن ذكائها او صحة بنيتها او عن كمال قدها وجمال صورتها ؟ يقال ان الفتى نفسه يسأل هل عيناها نجلاوان . وهذا سؤال معقول . ولكن ألا يغلب ان يعنى الوالد اولاً بثروة والد الفتاة دون الفتاة نفسها . وهو في هذا لا يختلف عن امثاله من الوالدين في مختلف انحاء الارض . فليس ثمة بلاد تعنى العناية الكافية بالزواج من ناحية اثره في تحسين السلالة او من ناحية اثر الاختيار الملائم في هناءة الاسرة ، التي لا ندحة عنها في تنشئة الصغار وتربيتهم

ولاريب في ان اهم البواعث على هذا الاهمال معرفتنا النزرة بشؤون الوراثة البشرية . ولكن لماذا نعنى بدرس الوراثة في ذباب الفاكهة هذا الدرس المسهب المدقق ونهمل درس الوراثة البشرية ؟ والجواب عن ذلك سهل . فعلم التناسل لم يولد الا في مطلع القرن العشرين والقسم الخاص منه المعروف باسم اليوجنية Eugenics لم يعنَ به الا من نحو جيل واحد فلم يتسنَّ للباحثين فيه ان تتناول مباحثهم الا جيلاً واحداً من البشر في حين ان هذه المدة كانت كافية لتربية مئات الاجيال من ذباب الفاكهة ودرس آثار الوراثة فيها . . وثمة صعوبة اخرى . فالعالم يستطيع ان يزاوج ذباب الفاكهة كما يشاء ولكن بماذا تجيب اذا جاءك عالمٌ يوجنيٌّ وقال لك « اريد ان تتزوج هذه المرأة المعتوهة العوراء وضعيفة البصر في عينها الاخرى لانني اريد ان ابحث في توريث هاتين الصفتين » !

فمن الواضح انهُ لا بد من انقضاء زمن طويل قبل ما يبلغ علمنا بالوراثة البشرية مبلغ علمنا بالوراثة في ذباب الفاكهة . ولكن لا تظنوا اننا لا نعلم شيئاً عن الوراثة البشرية ، او ان العلماء متقاعسون عن حلّ هذا المشكل . فلدينا منشآت مثل معامل دلتن بلندن التي يرأسها كارل بيرصن ومعهد كولدسبرنغز هاربر باميركا الذي يرأسهُ الدكتور دافنبورت ، ينفق العلماء فيهما كل وقتهم في درس هذا الموضوع . وفي موضوع الوراثة نكشف كثيراً من الحقائق بدرس الحيوانات الدنيا — ومنها ذباب الفاكهة — فتطلق هذه الحقائق الضوء على اسرار الوراثة البشرية . وكل الادلة تشير الى ان الوراثة البشرية تخضع للنواميس التي تخضع لها الوراثة في سائر الحيوانات

ومن نكد العالم ، ان الصفات البشرية التي تهمنا بوجهٍ خاص مثل الذكاء والصحة وغيرهما تسيطر عليها عوامل عديدة تجعل درس الوراثة معقداً كل التعقيد . ففي الجهاز العصبي نعلم مثلاً ان بعض النقائص مثل بعض انواع العته وضعف العقل والصرع صفات كامنة تورَّث بحسب ناموس مندل . ولكن يظهر ان لهذه الصفات انواعاً خاصة لا تورث قط . اضرب لكم مثلاً بطفل كان جاراً لنا سقط من سطح البيت فرجّ رأسهُ واسفرت الرجّة عن ضعف في عقلهِ . فالوراثة لا علاقة لها بهذا ، والامراض تسفر عادة عن مثل هذه النتيجة

* * *

يسأل الناس هل يمكن تحسين الجنس البشري باختيار اذكى الناس ومزاوجتهم . وقد تناول الباحثون هذا الموضوع تناولاً احصائيًّا فظهر ان الناس المتفوقين يغلب ان يكون لهم اولاد متفوقون . ولكن يستحيل علينا الآن ان نقرر اي جانب من هذا التفوق عائد الى الوراثة واي جانب منهُ عائد الى البيئة . اذ لا يخفى ان الطفل الذي ينشأ ويترعرع في بيت جاهٍ وعلمٍ فهو طفل بيئة متفوقة اذا قيست ببيئة طفل ينشأ في الاحياء الفقيرة

ونستطيع ان نمثّل على ذلك بتاريخ الكلب . فالكلب متسلسل من الذئب ولكن الجهاز العصبي في الكلب تحول بالتأصيل فبعضها يختص بصيد الثعالب وبعضها يستعمل لسوق القطعان وبعضها للجري وراء الطيور وبعضها يستعملهُ البوليس في الكشف عن الجرائم

فاذا كان الجهاز العصبي في الكلب قد تحول هذا التحول الكبير ، فمعقول ان نفرض ان مثل هذا التحول ممكن في جهاز الانسان العصبي . ولا نزال بعيدين كل البعد عن اجراء تجارب من هذا القبيل في الناس لاننا لا نتفق على اهم الصفات التي نرغب فيها في الانسان ، ولا بدَّ من ان نتعمق في درس الموضوع قبل ما نصبح على استعداد لترقية الجنس بالاختيار . ولكننا على كل حال متفقون على وجود نقائص في الجسم البشري نود ازالتها . فقد ازف الوقت مثلاً لمنع المعتوهين من التزاوج والتناسل

عدد النسل

الى هنا حصرنا الكلام في نوع النسل البشري، وعليهِ اريد الآن ان انتقل الى موضوع يهمني بوجهٍ خاص وهو « عدد النسل » او « مشكلة السكان ». انكم تذكرون ان احد الاركان التي تقوم عليها نظرية داروِن هو ميل الاحياء الى التكاثر تكاثراً سريعاً فيتعذر على نسلها وجود الغذاء الكافي اللازم لبلوغها ، وفي بعض الاحيان يتعذر وجود المكان الكافي لكل النسل ، فيندثر جانب من النسل في كلا الحالين

وهذه الزيادة في النسل اظهر ما تكون في الحيوانات الدنيا . ولعلكم تعلمون الارقام الكبيرة التي نبلغها اذا حسبنا عدد البكتيريا الذي يخلفهُ واحد منها في مدى ٢٤ ساعة من العيش في احوال ملائمة للنمو . ففي هذه الاحوال الملائمة ينقسم واحد بعض البكتيريا الى اثنين مرة كل نصف ساعة . فاذا مضى البكتيريوم الواحد ونسلهُ في الانقسام على هذا المنوال مدة ٢٤ ساعة بلغ نسلهُ بحسب تقدير ترانسو (Transceau) ٢٨١ مليون مليون ومع ذلك فان هذا النسل لا يملأ اكثر من زجاجة تسع نصف متر من الماء لشدة صغر هذه الاحياء. فاذا بدأنا اليوم التالي بنصف لتر منها اخلفت في آخر اليوم نسلاً يملأ ١٤٠ مليون مليون لتر او نحو ٣٢ ميلاً مكعباً . وفي آخر اليوم الثالث يصبح نسل البكتيريوم الواحد — اذا عاش كلهُ — ٣٣ الف ضعف حجم الكرة الارضية

ويقال ان انكليس النيل يضع ٥ ملايين بيضة دفعة واحدة . وهذا البيض يلقحهُ الذكر وعليهِ نقسم عدد البيض على اثنين لنعلم عدد النسل من الوالد الواحد . واذاً فكل انكليس يخلف ٢ ½ مليون انكليس . فاذا بلغت كلها سن البلوغ واخلف كل منها نسلاً بدورهِ ، فلا تمضي سنوات قلائل حتى يمتلىء البحر والنيل بحيوان الانكليس

او خذوا دودة القطن القرنفلية . يظن ان بضع حشرات من هذا الصنف افلتت من الاسكندرية سنة ١٩١٠ وتسرَّبت الى مزارع القطن . ولعلها كانت عشر حشرات او مائة . فلم يمضِ بضع سنوات حتى اكتسحت ملايين الملايين من هذه الدودة مزارع القطن في الوجهِ البحري

ولما كان الانسان اعلى الحيوانات ارتقاء ، تراه يخلف النسل اخلافاً بطيئاً ، ولكن اذا لاءمتهُ احوال المعيشة يستطيع ان يزيد نسلهُ بمتوسط ١٦٠٠ في المائة في مدى قرن واحد . ففي الولايات المتحدة مناطق كثيرة بلغت فيها زيادة السكان هذا المتوسط بالتناسل لا بالهجرة . والزيادة في سكان مصر الحديثة كانت كبيرة جداً ففي اول عهد محمد علي كان سكان مصر نحو ثلاثة ملايين وهم الآن ١٥ مليوناً اي ان الزيادة ٥٠٠ في المائة في نحو قرن وربع قرن من الزمان . واذكروا ان متوسط سكان مصر في اثناء اربعة آلاف او خمسة آلاف سنة سبقت عهد محمد علي كان ثلاثة ملايين نسمة تنقص او تزيد قليلاً

الخفيّ في الانسان يقوم على سياسته وتدبيره ويهديه الى المثل الاعلى . وهل يخلق العبقري إلاّ كالبرهان من الله لعباده على ان فيهم من يقدر على الذي هو اكمل والذي هو ابدع ، حتى لا ييأس العقل الانساني ولا ينخذل فيستمرّ دائباً في طلب الكمال والابداع اللذين لا نهاية لهما؟

فالاديب يشرف على هذه الدنيا من بصيرته فاذا وقائع الحياة في حذوٍ واحدٍ من النزاع والتناقض واذا هي دائبة في محق الشخصية الانسانية تاركةً كلَّ حيٍّ من الناس كأنهُ شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ، فاذا تلجلج ذلك في نفسه اتجهت هذه النفس العالية الى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة وقامت حارسة على ما ضيَّع الناس وسخّرت في ذلك تسخيراً لا تملك معهُ أن تأبى منهُ ولا يستوي لها أن تُغمض فيهِ، ونُقلت الانسانية كلها ووضعت على مجاز طريقها أين توجهت فتأكد الامر فيها ووُصِل بها وعلمت أنها من خالصة الله وأن رسالتها للعالم هي تقرير الحب للمتعادين ، وبسط الرحمة للمتنازعين وأن تجمع الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذتهِ وتصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها وتشرهم الحكمة وهي لا تتنازع في مناحيها. فالادب من هذه الناحية يشبه الدين كلاهما يعين الانسانية على الاستمرار في عملها وكلاهما قريبٌ من قريب ؛ غير ان الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى والادب يعرض لها ليجمع ويقابل ، والدين يوجه الانسان الى ربهِ والادب يوجههُ الى نفسهِ ، وذلك وحي الله الى الملَك الى نبي مختار وهذا وحي الله الى البصيرة الى انسان مختار

فان لم يكن للاديب مثلٌ أعلى يجهد في تحقيقهِ ويعمل في سبيله فهو اديب حالة من الحالات لا أديب عصر ولا اديب جيل . وبذلك وحده كان اهل المثل الاعلى في كل عصر هم الارقام الانسانية التي يلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته

ولا يخدعنك عن هذا ان ترى بعض العبقريين لا يؤتّى في ادبه او اكثره الاّ الى الرذائل يتغلغل فيها ويتملأ بها ويكون منها على ما ليس عليه احد الاّ السَّفلة والحشوة من طغام الناس ورعاعهم ، فان هذا واضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهي ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ، وكثيراً ما تكون الموعظة برذائلهم اقوى وأشد تأثيراً مما هي في الفضائل . بل هم عندي كبعض الاحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهي اقوى مما يأمر الامر على نحو ما يكون من قراءتك موعظةَ الفضيلة الادبية التي تأمرك ان تكون عفيفاً طاهراً ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلى المشوّه المتحطم الذي ينهاك بصورته ان تكون مثله . ولهذه الحقيقة القوية في اثرها — حقيقة الامر بالنهي — يعمد النوابغ في بعض ادبهم الى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه او الاحالة في الحادثة التي يصفونها فينتهي الراهب التقي في القصة ملحداً فاجراً وترتد المرأة البغيّ قديسة ويرجع الابن البر قاتلاً مجنوناً جنون الدم ، الى كثير مما يجري في هذا النسق كما

تراه لاناتول فرانس وشكسبير وغيرهما . وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر ولكنهُ اسلوب من الفن يقابله اسلوب من الخلق ليبدع اسلوباً من التأثير . وكل ذلك شاذ معدود ينبغي ان ينحصر ولا يتعدى لانهُ وصف لاحوال دقيقة طارئة على النفس لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها

والشرط في العبقري الذي تلك صفته وذلك ادبه ان يعلو بالرذيلة ... في اسلوبه ومعانيه آخذاً بغاية الصنعة متناهياً في حسن العبارة حتى يصبح وكأن الرذائل هي اختارت منهُ مفسّرها العبقري الشاذ الذي يكون في سمو فنه البياني هو وحده الطرفَ المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة ، فيصنع الالهام في هذا وفي هذا صنعه الفنيَّ بطريقة بديعة التأثير اصلها في اديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفي اديب الرذيلة مايقوده ويندفع اليه، كأن منهما انساناً صار ملكاً يكتب وانساناً عاد حيواناً يكتب ....

واذا انت ميّلت بين رذيلة الاديب العبقري في فنه ورذيلة الاديب الفسْل الذي يتشبه بهِ في التأليف والرأي والمتابعة والمذهب ، رأيت الواحدة من الاخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف : هذا دموعه المه وذاك دموعه المه وشعره. وفي كتابة هذه الطبقة من العبقريين خاصة يتحقق لك ان الاسلوب هو اساس الفن الادبي وان اللذة بهِ هي علامة الحياة فيه اذ لا ترى غير قطعة ادبية فنية شاهدُها من نفسها على انها باسلوبها ليست في الحقيقة الا نكتة نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها ، وانها على ذلك هي ايضاً مسئلة من مسائل الانسانية مطروحة للنظر والحل بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل

***

واللذة بالادب غير التلهي بهِ واتخاذه للعبث والبطالة فيجيء موضوعاً على ذلك فيخرج الى ان يكون ملهاةً وسخفاً ومضيَعةً . فان اللذة بهِ آتية من جمال اسلوبه وبلاغة معانيه وتناوله الكون والحياة بالاساليب الشعرية التي في النفس وهي الاصل في جمال الاسلوب ، ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ما ركب في طبيعة الحي إذ يحسُّ الذوقُ لذة الطعام مثلاً على ان يكون من فعلها الطبيعي استمراء التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها . اما التلهي فيجيء من سخف الادب وفراغ معانيه ومؤاتاته الشهوات الخسيسة والتماسهِ الجوانب الضيقة من الحياة وذلك حين لا يكون أدبَ الشعب ولا الانسانية بل أدب فئة بعينها واحوالها . فان أديب صناعته أو اديب جماعته غير أديب قومه وأديب عصره . احدهما الى حد محدود من الحياة والآخر عمل جامع مستمر متفنن لان عمله الادبي هو وجوده وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له اكتب

ومن الاصول الاجتماعية التي لا تتخلف انه اذا كانت الدولة للشعب كان الادب ادب الشعب

والراجح ان الزيادة في ارض مصر المزرعة ومصانعها يقابلهُ من زيادة السكان ما يترك الحالة على ما هي. ففي مصر اليوم ١٤٠ الف نسمة علاوة على ما كان فيها في السنة الماضية وهذه تحتاج الى مأكل وملبس (كان متوسط الزيادة السنوية في العشر السنوات الماضية ١ في المائة)

ومن الممتع ان نتصور ما تكون حالة مصر الآن لو خلف محمد علياً حاكم راجح العقل كسلفه نافذ البصيرة فقال «اذا بلغ سكان مصر خمسة ملايين فيجب ان يقفوا عن الزيادة. وحينئذٍ نمضي في بناء الخزانات والسدود وحفر الترع والمصارف.. ولكن سكان مصر يجب الاَّ يزيدوا عن خمسة ملايين». ترى لو قال ذلك ونفذه ماذا تكون حالة مصر الآن؟ في المقام الاول يكون متوسط نصيب كل فرد من افراد الامة المصرية من الارض ثلاثة اضعاف نصيبهِ الآن. ولا نغلو اذا قلنا ان الثروة العامة تكون ثلاثة اضعاف ما هي الآن. في هذه الحال يملك المصري ما يكفيهِ لبناء منزل صحيّ، ويصبح التعليم العام امراً ميسوراً، وتغدو عامة الشعب قادرة على شراء اشياء تتمناها الها اليوم. حينئذٍ يساوقون في رقيهم اسوج وسويسرا او البلجيك أو يفوقونها وهي بلدان سكان كل منها خمسة ملايين تقريباً

وقد تقولون ما فائدة الكلام في الموضوع؟ كيف نستطيع ان نسيطر على متوسط زيادة المواليد في شعبٍ ما؟ هو الله مدبر الامور! لقد وهبنا الله عقلاً نغير بهِ البيئة التي نعيش فيها احوال الاجتماع الانساني. هل ولدت بيبيت على ظهرك كصدفة البزّاقة او انت تبني بيتك بيديك! هل ولدت ببدلة تكسو عريك او انت استأجرت خيّاطاً ففصّل لك بدلة بحسب ذوقك؟ انظر الى مئات النواحي التي ادخلت فيها تحديلاً على بيئتك — وهي هي الفروق بينك وبين المتوحش

لا ريب في ان بعض الملاك يقولون بان كثرة الفلاحين تجعل اجورهم ارخص، ولكن لا بدَّ من حلول يوم يصبح فيهِ العامل الرخيص عاجزاً عن القيام بعمل يساوق اجرتهُ القليلة. ثم انهم سوف يرون ان خطر الثورة يزداد بتفشي الجوع. ومن الطبيعي ان يرغب الفلاحون في النسل — وفي الذكور منهم خاصة — لانهم يرغبون ان يعتزلوا العمل ويروا ابناءهم يحلّون محلّهم. ولكن ثمة كثيرون يقفون من المسألة موقف بستانيّ فقد سألتهُ من مدة كم ولد يرغب ان يكون له فقال «ولم تسأل. عا الله» فقلت ولكن افرض ان الله سألك كم ولد ترغب ان يكون لك فماذا تقول. فاجاب، وجوابهُ حملني على الدهشة اذ قال: «ولدين وبنت» وهذه الرغبة ينطوي عليها المثل السائر «خير الذرية ولدين وابنيّة»

ان هذه المشكلة، من الناحية البيولوجية، ليست مشكلة عسيرة. وانما الحائل الكبير الذي يقوم في سبيل حلها هو «المحافظة» الشديدة» ولكن «المحافظة» اليوم اقل من قبل. ثم ان مولاة هذا الموضوع بالدرس والبحث، وتثقيف العامة باصول الصحة، لا بد ان يتغلبا على كل الحوائل في عصرنا. وما نحتاج اليهِ الآن هو ان نستوضح المشكلة كما هي، وان نسعى سعياً جديًّا لتوضيحها للغير. فاذا شاءت مصر ان توالي سيرها على طريق التقدم، وجب على سكان البلاد الاَّ يزيدوا عما تحتمله مصادر الثروة الطبيعية في البلاد

توت عنخ امون (١)

مصر واصول الحضارة

للأستاذ الدكتور إليوث سمث

وجه اكتشاف اللورد كنارفن والمستر هوارد كارتر لمقبرة توت عنخ آمون انتباه العالم كله نحو مصر لأن هذا الاكتشاف يظهر ما قام به رجال الفن والصناعة من المصريين قروناً عديدة قبل ان يحاول الاغريق اي شيء مماثل في اي اتجاه . فيستحسن والحالة هذه ان نوجه التفات الناس الى شأن مصر في خلق العناصر التي تقوم عليها حضارة العالم ، ذلك لأنها تقدم بهذا الاكتشاف دليلاً جديداً على القانون الذي نشرحهُ في هذا الكتاب[1] وهو ان مصر اصل حضارة العالم وانها ظلت الملهم الاكبر لهذه الحضارة ثلاثين قرناً او تزيد

ولقد برهن هذا الاكتشاف الجديد للناس على اختلاف الوانهم ومشاربهم بل لأولئك الذين لم تكن تعنيهم مثل هذه الاشياء على ان مصر كانت في اواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد موطن حضارة عالية تمتاز الى جانب ما تمتاز به ، بالفن السامي والأثاث الدقيق واللباس الفاخر والترف التام في ادوات المنزل والطعام والزينة . وليس لأحد ان يظن انمظاهر الثقافة المادية والمعنوية ترتقي في مدخل اوروبا الساذجة من دون ان تستمدَّ من تلك الحضارة بعض التأثير بالذات او بالواسطة. ولما كان احد اغراض هذا الكتاب ان يسرد نصيب مصر واثرها في العصور الأولى في تلقيح اوروبا وآسيا بعناصر ثقافتها فان اكتشافات وادي الملوك ذات خطر لأنها تعرض علينا تطور صناعة الأثاث وعمل المنسوجات بل ومابة عنصر وعنصر من عناصر الثقافة التي ظهرت في اوروبا بعد ذلك بقرون ، هبةً جديدة من مصر للحضارة العامة

وفي الزمن الذي عاش فيهِ الفرعون توت عنخ آمون ومات كانت كل من كريت وسوريا قد بلغت حضارة عالية ، ومصر هي التي نبهتهما قبل ذلك بقرون حتى استطاعا نشر ثقافتهما الخاصة . وليس من شك في ان مصر كانت تتصل اتصالاً وثيقاً بكل من القطرين وليس من شك كذلك في انها كانت تستفيد من نتائج هذا الاتصال ، ولكن هذا لايدل على ان الصناعة العظيمة الظاهرة في الأثاث والحلي، وفي النحت والمنسوجات كانت اجنبية عن مصدر الالهام لأن كل هذه الفنون والصناعات اخترعت في مصر وكانت تمارس فيها آلافاً من السنين ، ولكن الصلات الأجنبية التي اشير اليها كانت بلا ريب الباعث لدخول عناصر جديدة مثال ذلك المركبة التي دخلت وقتذاك من سوريا كاحدى نتائج ذلك الاتصال

(١) فصل من كتاب (المصريون القدماء وأصول المدنية) الذي استأذنا المؤلف في نقله الى العربية

فلسفة الادب

مصطفى صادق الرافعي

اذا اعتبرت الخيالَ في الذكاء الانساني وأوَّليَّتَهُ دقّةَ النظر وحسنَ التميز لم تجده في الحقيقة الاّ تقليداً من النفس للألوهية بوسائل عاجزةٍ منقطعةٍ ، قادرةٍ على التصوُّر والوهم بمقدار عجزها عن الايجاد والتحقيق

وهذه النفس البشرية الآتيةُ من المجهول في اول حياتها، والراجعةُ اليه آخرَ حياتها، والممدَّدةُ في طريقه مدة حياتها ، لا يمكن أن يتقرر في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده فليس من حدوده مَنْفَذٌ ولا عنها مَحيص ، ولا ترضى طبيعتُها بما ينتهي فهي لا تتعاطى الموجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنهُ قد فُرِغ منهُ فما يُبْدَأ ، وتمَّ فما يزاد ، وخلدَ فما يتحوَّل ، ولا تزال تضربُ ظنَّها وتصرِّف وهمها في كل ما تراهُ أو يتلجلجُ في خاطرها ، فلا تبرح تتلمَّح في كل وجودٍ غيباً وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه وتجري دأباً على مجاريها الخيالية التي توثّق صلتها بالمجهول . فمن ثمَّ لا بد في امرها مع الموجود مما لا وجود له تتعلق بهِ وتسكن اليهِ ، وعلى ذلك لا بد في كل شيء مع المعاني التي له في الحق من المعاني التي له في الخيال ، وههنا موضع الادب والبيان في طبيعة النفس الانسانية فكلاهما طبيعيٌّ فيها كما ترى

واذا قيل الأدب فاعلم أنهُ لا بدَّ معهُ من البيان لان النفس تخلق فتصوِّر فتحسنُ الصورة، وانما يكونُ تمام التركيب في مَعرضهِ وجمال صورتهِ ورقة لمحاتهِ وفتنة اشارتهِ ،بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسهُ منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة اذا هي كانت وحدها قبل النضج شيئاً مسمًّى او متميّزاً فلن تكون بدونهِ شيئاً تامًّا ولا صحيحاً ،وما بُدٌّ من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها

وهذه مسئلة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيت في الثمرة ونضجها فان البيان صناعةُ الجمال في شيء جمالـه هو من فائدته وفائدته من جماله ،فاذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره وعاد باباً من الاستعمال بعد ان كان باباً من التأثير وصار الفرق بين حاليْـه كالفرق بين الفاكهة اذ هي باب من النبات وبين الفاكهة اذ هي باب من الخمر، ولهذا كان الاصل في الادب البيان والاسلوب في جميع لغات الفكر الانساني لانهُ كذلك في طبيعة النفس الانسانية

فالغرض الاول للادب المُبينِ ان يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها الى المجهول والى مجاز الحقيقة ، وأن يلقي الأسرار في الامور المكشوفة بما يتخيل فيها ، ويردَّ

القليل من الحياة كثيراً وافياً بما يضاعف من معانيه ، ويترك الماضيَ منها ثابتاً قارًّا بما يخلّد من وصفهِ ، ويجعل المؤلم منها لذًّا خفيفاً بما يبثُّ فيهِ من العاطفة ، والمملولَ ممتعاً حلواً بما يكشف فيهِ من الجمال والحكمة . ومدار ذلك كلهِ على إيتاء النفس لذةَ المجهول التي هي في نفسها لذةٌ مجهولة ايضاً ، فان هذه النفس طُلَعةٌ متقلبة لا تبتغي مجهولاً صرفاً ولا معلوماً صرفاً كأنها مدركة بفطرتها أن ليس في الكون صريح مطلق ولا خفي مطلق وانما تبتغي حالةً ملاءمة بين هذين يثور فيها قلق او يسكن منها قلق

وأشواقُ النفس هذه هي مادة الادب . فليس يكون أدباً الا اذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى ، او كان متصلاً بسر هذه الحياة فيكشف عنهُ او يومئ اليهِ من قريب ، أو غيّر لها هذه الحياة تغييراً يجيء طِباقاً لغرضها وأشواقها فانهُ كما يرحل الانسان من جوّ الى جوّ غيره ينقله الادب من حياتهِ التي لا تختلف الى حياة أخرى فيها شعورها ولذتها وإن لم يكن لها مكان ولا زمان ، حياة كملت فيها أشواق النفس لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف . ولَعَمري ما جاءت الجنة والنار في الأديان عبثاً فان خالق النفس بما ركبه فيها من العجائب ، لايحكم العقل أنهُ قد أتمّ خَلقَها الا بخلق الجنة والنار معها إذ هما الصورتان الدائمتان المكافئتان لاشواقها وآلامها الخالدة إذ هي استقامت مسدّدة أو انعكست حائلة

وقد صحّ عندي أن النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتُحسّ وحدةَ الشعور ووحدة الكمال الأسمى الا في ساعات وفترات تنسلُّ فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها الى « منطقة حياد » خارجة وراء الزمان والمكان ، فاذا هبطتها النفس فكأنما انتقلت الى الجنة واستترْ وَحيّت الخلد . وهذه المنطقة السحرية لا تكون الاَّ في أربعة: حبيبٌ فانهُ معشوق أُعطي قوة سحر النفس فهي تَنسى بهِ ، وصديق محبوب وفيّ أوتي قوة جذب النفس فهي تنسى عنده ، وقطعة أدبية آخذة فهي ساحرة كالحبيب أو جاذبة كالصديق ، ومنظر فنيّ رائع ففيهِ من كل شيء شيء

وهذه كلها تُنسي المرء زمنَه مدة تطول وتقصر ، وذلك فيها دليل على ان النفس الانسانية تُصيب منها أساليب روحية لاتصالها هنيهةً بالروح الأزلي في لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية . ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساس الفن على الاطلاق هو ثورة الخالد في الانسان على الفاني فيهِ ، وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير هو معنى الأدب وأسلوبهُ

ثم أن الاتساق والخير والحق والجمال — وهي التي تجعل للحياة الانسانية اسرارها — أمور غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأَثَرة والنزاع والشهوات . فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصفات الانسانية الجميلة

هذه الأمثال تساعدنا على توضيح طريقة الاتصال الثقافي وتفاعل الأخذ والعطاء الحادث من وقت ان بدأت الانسانية في خلق الحضارة لانهُ لا يوجد قوم ذوو ثقافة استطاعوا ان يتطوروا في عزلة تامة . والامم لا تتقدم في بيوت مائية مغلقة ، ونشر الثقافة من مكان الى مكان حدث خلال التاريخ العام للحضارة ، والاخذ والعطاء للمواد والافكار هما عاملا الحياة المؤثران في التقدم والرقي

واذا كانت مقبرة توت عنخ أمون خدمتنا لانها اضطرت الناس لتقدير الاعمال المصرية فيجب ان تساعدنا في اعداد عقولهم لادراك مقدار الدين الذي على الحضارة لمصر التي ولدتها وألهمتها في طفولتها وصباها . والاعمال الفنية التي اصطنعها البناؤون والحفارون والنجارون والنساجون وصناع الحلى والاحجار الكريمة والتي ظهرت في الادوات التي اكتشفت في مقبرة توت عنخ أمون لدليل جديد على ما ذهبنا اليهِ من ان مصر ام حضارة العالم لاننا نشاهد فيها صناعة الناس الذين ابتكروا الحضارة ونشروها . ولاريب في ان اعداد مومياء فرعون وترتيب ذلك الجهاز المتقن لحاجاته جميعاً يدلان في صراحة تشبه صراحة الاطفال على اصول العقائد المتأصلة وبعض الطقوس التي اقترضها العالم من مصر في احوال كثيرة دون ان يفهم أصولها أو معانيها لان الاقوام الذين أخذوا هذه العادات المصرية لم يكلفوا انفسهم مشقة البحث عن اسبابها ، وهكذا تظهر قيمة دراسة الآثار المصرية في انها تقدم الايضاح الصادق لآلاف الاشياء التي نعملها تحت تأثير التقاليد كل يوم بل كل ساعة من دون أن نعرف لماذا نعملها

في عهد توت عنخ أمون وفي عهد اسلافه وخلفائه الادنين كان هناك اتصال وثيق بين مصر وسوريا وكان هناك مصاهرة دائمة بين افراد الاسرتين المالكتين . وتوضح الاسانيد المكتوبة للاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة احدى طرائق الاختلاط الجنسي بين القطرين، وغرض هذا الكتاب بيان نتائج هذا الاختلاط في الفي سنة حتى ذلك العهد

واول سكان مصر — على قدر اكتشافنا — هم القوم الذين ادخلوا زراعة الشعير وابتكروا فن الري وصياغة الذهب وطريقة استخراج النحاس من خاماته ، ومن المحتمل ان يكونوا اول قوم استعملوا لبن الابقار كطعام انساني

على ان اثرهم في ابتكار القيمة الباقية للمعدن الذي لا قيمة له في الواقع ، ونعني بهِ الذهب لمن الاحداث الجسام في تاريخ العالم لانهُ ما ان اعطيت القيمة السحرية — كاكسير الحياة — لهذا المعدن الاصفر اللين السهل التناول وما ان صنعت منهُ التمائم البراقة الصافية حتى بعث شعور الناس بالجمال وحتى بحثوا عنهُ في كل مكان . . . ونتج عن ذلك ان اصبحت له قيمة عظيمة كانت المؤثر الاكبر في العالم من ذلك الحين

وقبل ان يصبح معدن الذهب واسطة التعامل بقرون أخذ الناس في البحث عنهُ واستخراجه حتى وصلوا الى ارلنده وساحل الذهب في الغرب وزمبابوى ومدغشقر في

الجنوب ، واليابان والفيليبين ومالانيزيا واميركا في الشرق ، فليس غريباً ان يصبح الذهب الباعث في نشر الحضارة في العالم كله لان كل محلة مُعدّن اصبحت مركز ثقافة اجنبية نبتت في قطر بعيد ، وليس غريباً ايضاً ان يصبح غواية الناس يدفعهم الى الجشع ويوقد بينهم نار المنازعات والحروب . وان مقابر توت عنخ آمون وغيره من الفراعنة تقدم درساً موضوعياً لنتائج مثل هذا الجشع الذي كان من القوة بحيث ان رعية أولئك الفراعنة الذين كانوا يعتبرون كالآلهة كانت تعتقد ان قبورهم تدنس اذا خلت من الذهب . وبهذا كان المصريون مسؤولين عن خلق تلك القيمة المفتعلة لهذا المعدن . كان الذهب في عهد توت عنخ آمون يغري اللصوص ، ومع انه لم يكن قد استعمل للتداول الا انه كان المادة التي تدفعها الامة جزية للاخرى ، تصنع منه الحلي كما كان يقدر لمزاياه السحرية كواهب الحياة وكرمز للام الكبرى « هاتور » و « هاتور » هي منتجة النسل وصاحبة الحياة ومعيدة الشباب للناس ، وهي الى جانب هذا (البقرة الالهية) واهبة اللبن متصلة بالقمر الذي كان يظن انه المسيطر على قوى اعطاء الحياة عند النساء . وكانت تمثل بصورة أخرى هي حبة الشعير

ولما ابتكر المصريون وسائل زراعة الشعير اصبح للشعير شأن كبير جداً لا باعتباره مادة رئيسية من مواد الطعام ولا باعتباره المادة التي تصنع منها الجعة الالهية « واهبة الحياة » ولكن لان الحبة كانت كالاصداف التي كانت تعتبر رمزاً للقوى المعطية للحياة عند النساء ولهذا كانت تعتبر حبة الشعير كواهبة الحياة لا بالمعنى الضيق للتغذية ولكن بالمعنى السحري الواسع كرمز للام الكبرى

وذاع صيت الذهب من ناحية السحر اولاً لانه كان يستعمل في صياغة التمائم المكونة من الاصداف ، وانما اعود لامثال هذه المسائل هنا لأوجه الالتفات لهذه الحقيقة وهي ان جميع المواد التي استعملت في التبادل كالاصداف وحبات الشعير والماشية والذهب كانت كلها رموزاً للام الكبرى ، وبالطبع عظمت قيمة هذه الاشياء المختلفة عندما نسبت لتلك الام وهكذا اصبحت لها صولة سحرية — وبهذا أمكن استعمالها في التعامل

وفي ايام توت عنخ آمون كان الشعير مستعملاً في مصر كلها وكانت حبات هذا النبات تعتبر مستودع المواد الحية التي على صورة « ام الحنطة » أو بعبارة اصح « ام الشعير » وكان يصور « اوزيريس » في مقابر اسلافه وخلفائه الادنين بحبات الشعير النابتة التي كانت توضع في غرفة الدفن لتعيد بالسحر الى الفرعون الميت قوى الام الكبرى المعطية للحياة كما اعطيت لحبات الشعير النابتة . وفي الفصل الثالث من هذا الكتاب عدت الى الاشكال المسماة « Steatopygons » في القبور القديمة بمصر والتي كان الغرض منها ان تعبر بحق عن فكرة تقديس الاصداف

« البقية في باب الاخبار العلمية »

عالمها الذي تكون طبيعية فيه وهو عالم اركانهُ الاتساق في المعاني التي يجري فيها ، والجمال في التعبير الذي يتأدى به ، والحق في الفكر الذي يقوم عليه ، والخير في الغرض الذي يساق له . ويكون في الأدب من النقص أو الكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة ولا معيار أدق منها اذ هي ست تعتبره بالنظر والرأي . ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً اليها الفن ، ويجيء التعبير مزيداً فيه الجمال ، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية ، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقها الموسيقي ، وتلبس الشهوات الانسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى الذي هو السر في ثورة الخالد من الانسان على الفاني والذي هو الغاية الاخيرة من الأدب والفن معاً ، وبهذا يهبك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارّة من خلال نفسك وتحس الأشياء كأنها انتقلت الى ذاتك من ذواتها . وذلك سر الاديب العبقري فانهُ لا يرى الرأي بالاعتقاب والاجتهاد كما يراه الناس وانما هو يحسُّ به فلا يقع له رأيه بالفكر بل يلهمهُ إلهاماً . وليس يؤاتيه الإلهام الاَّ من كون الاشياء تمرُّ فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر فيحس أثرها فيلهَم ما يلهم . ويحسبهُ الناس نافذاً بفكره من خلال الكون على حين ان حقائق الكون هي النافذة من خلاله

ولو أردت ان تعرّف الاديب من هو لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من ان تسميه الانسان الكوني وغيره هو الانسان فقط . ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الاشياء ومعانيها ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وافراحها إذ كانت فيه مع خاصية الانسان خاصية الكون الشامل . فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع انه منها ؛ وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والاسرار انه كذلك منها ، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه انه هو منها ، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حد له والاتساع الذي كل آخر فيه لشيء أولٌ فيه لشيء

وهو انسان يدله الجمال على نفسه ليدلَّ غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى وأضيف اليه في إحساسه قوة انشاء الاحساس في غيره ؛ فأساس عمله دائماً ان يزيد على كل فكرة صورةً لها ويزيد على كل صورة فكرةً فيها ، فهو يبدع المعاني للاشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ويبدع الاشكال للمعاني المجردة فيوجدها هي في الحياة ، فكأنهُ خلق ليتلق الحقيقة ويعطيها الناس ويزيدهم فيها الشعورَ بجمالها الفني . وبالادباء والعلماء تنمو معاني الحياة كأنما اوجدتهم الحكمة لتنتقل بهم الدنيا من حالة الى حالة . وكأن هذا الكون العظيم يمرّ في أدمغتهم ليحقق نفسه

ومشاركة العلماء للادباء توجب ان يتميز الاديب بالاسلوب البياني اذ هو كالطابع على العمل الفني وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الانسان الموهوب الذي جاءت من طريقه [1] ثم

(١) سنبسط الكلام على الاسلوب وفلسفته في كتابنا الجديد (اسرار الاعجاز) الذي تم به كتاب اعجاز القرآن

لان الاسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الادراك كأن الجمال يقول بالاسلوب : ان هذا هو عمل فلان

وفصلُ ما بين العالم والاديب ان العالم فكرة ولكن الأديب فكرةٌ وأسلوبُها . فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار اليهم جملة واحدة على حين يقال في كل اديب عبقريّ هذا هو هذا وحده. وعلم الاديب هو النفس الانسانية بأسرارها المتجهة الى الطبيعة ، والطبيعة باسرارها المتجهة الى النفس . ولذلك فوضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الاسرار

واذا رأى الناس هذه الانسانية تركيباً تامًّا قائماً بحقائقهِ واوصافهِ ، فالاديب العبقري لا يراها الا أجزاءا كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها وكأنما أمرُّها في (معمله) أو كأنَّ الله سبحانه دعاه ليرى فيها رأيه . . . وبذلك يجيءُ النابغُ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالمراجعة للنفس والطبيعة ، وبعضه كالموافقة واقرار الحكمة ، وأساسه على كل هذه الاحوال النقد ثم النقد ولا شيء غير النقد ، كأن القوة الازلية تقول لهذا المُلْهم : انت كلمتي فقل كلمتك

***

وترى الجمال حيث اصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ولكن الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس ، وههنا يتأله الادب فهو خالق الجمال في الذهن والممكّن للاسباب المعينة على ادراكه وتبيُّن صفاته ومعانيه ، وهو الذي يقدّر لهذا العالم قيمته الانسانية باضافة الصور الفكرية الجميلة اليهِ ومحاولته إظهارَ النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة وصولة الغريزة وغرارة الطبع الحيواني

واذا كان الامر في الادب على ذلك فباضطرارٍ أن تهذب فيهِ الحياة وتتأدب ، وأن يكون تسلطهُ على بواعث النفس دُرْبَةً لاصلاحها وإقامتها لا لإفسادها والانحراف بها الى الزيغ والضلالة ، وباضطرارٍ أن يكون الاديب مكلّفاً تصحيح النفس الانسانية ونفيَ التزوير عنها وإخلاصَها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ، ثم تصحيح الفكرة الانسانية في الوجود ونفي الوثنية عن هذه الفكرة والسموِّ بها الى فوق ثم الى فوق ودائماً الى فوق

وانما يكلّف الاديب ذلك لانهُ مستبصرٌ من خصائصهِ التميز وتقدُّمُ النظر وتسقُّطُ الإلهام ، ولان الاصل في عمله الفنيّ أن لا يبحث في الشيء نفسه ولكن في البديع منهُ ، وأن لا ينظر الى وجوده بل الى سره ، ولا يعنى بتركيبهِ بل بالجمال في تركيبه ، ولان مادة عمله أحوالُ الناس واخلاقهم وألوانُ معايشهم واحلامُهم ومذاهب أخيلتهم وافكارهم في معنى الفن وتفاوتُ إحساسهم بهِ وأسبابُ مغاويهم ومَرَاشدهم ، يسدّدُ على كل ذلك رأيه ويجيل فيهِ نظره ويخلطه في نفسه وينقذه من حواسه كأنما له في السرائر القبضُ والبسط وكأنهُ ولي الحكم على الجزء

مسألة السكان في مصر

فماذا يحدث اذا مضى سكان مصر يزيدون على مقتضى هذا المتوسط؟ يحدث ان يصبح سكان القطر بعد قرن وربع قرن (اي نحو سنة ٢٠٥٧) ٧٥ مليوناً وفي سنة ٢٢٥٧ يصبح سكانهُ مثل سكان العالم اليوم (اي نحو ٢٠٠٠ مليون). واذا فرضنا ان العرب، لما فتحوا مصر قتلوا كلَّ مَن فيها وتركوا من اتباعهم رجلاً وامرأةً وان الرجل والمرأة، ونسلهما زادوا بمتوسط ٥٠٠ في المائة في اثناء قرن وربع قرن بعد محمد علي، لبلغ سكان مصر الآن نحو ٤٥ مليوناً او ثلاثة اضعاف سكانها اليوم. قد يبدو ان الامر مستحيلاً. ولكن خذ قلماً وورقاً واعمل حسابك.

وغنيٌّ عن البيان ان الأحياء المذكورة في الامثلة المتقدمة لا يمكن ان تمضي متزايدة بأقصى سرعتها مدة طويلة. فثمة عوامل عديدة تبطيء الزيادة منها قلة الطعام، والازدحام، ووجود اعداء لها تغتذي بها. فنحن اذا ربينا مكروبات في عصيدة غذائية وجدنا انها تقف عن الزيادة قبل نفاد الغذاء، والبطء في تكاثرها سببهُ ازدحامها في الانبوب الذي يحتوي على العصيدة. كذلك دودة القطن القرنفلية لا تتكاثر تكاثراً مريعاً الآن مع ان كثيراً من لوز القطن يبقى سليماً، فبطء تكاثرها ليس سببهُ نفاد اللوز الذي تغتذي بهِ وانما احد اسبابهِ وجود حشرات تفتك بها

امامن حيث سكان مصر، فغنيٌّ عن البيان انهم لا يبلغون ٧٥ مليوناً في اواسط القرن المقبل (حوالي سنة ٢٠٥٧) فالقطر المصري لا يستطيع ان ينتج طعاماً لتغذيتهم، ثم اننا نعلم انهُ اذا قل الغذاء سهل تفشي الاوبئة. فمتوسط عمر الهولنديين في هولاندا مضاعف متوسط عمر الهنود لهذا السبب. والراجح ان كثرة وفيات الاطفال في مصر ناشئة عن الفقر. قد تقول ان الجهل افعل في كثرة وفيات الاطفال من الفقر، ولكن كيف نعلل قلة انتشار التعليم — قبل العصر الاخير — الا بشدة الفقر

وما سبب الفقر في مصر؟ لماذا نرى الامة الاميركية اغنى من الامة المصرية؟ قيل ان السبب هو الفرق بين سلالة الاميركيين وسلالة المصريين. حقاً انهُ لا يعقل ان نرمي المصريين بقول لا اساس لهُ من الحقيقة. وقيل انهُ فرق في الدين. ولكن هل المصري المسيحي اغنى من المصري المسلم. وقيل ان سببهُ اقليم القطر المصري. ولكن هل حال اقليم القطر المصري بين قدماء المصريين وانشاء اولى الحضارات؟ الفرق الواضح بين البلادين انك تجد في مصر ثلاثة اشخاص يتناولون رزقهم من فدان من الارض المزروعة في حين ان نصيب الواحد في امريكا من الارض المزروعة يبلغ نحو ثلاثة افدنة وثلث فدان، اما نصيبهُ من المراعي والغابات والمناجم والمصانع فأعظم من ذلك كثيراً

ولا ريب في ان تكاثر سكان مصر سوف يبطيء ولكن ماذا يبطئهُ؟ لعلنا نجد الجواب عن هذا السؤال في النظر الى الصين اكثر من النظر الى اي بلاد اخرى. فالظاهر ان الزيادة في سكان الصين ليست بكبيرة ان كان ثمة زيادة ما. ادرسوا تاريخها في القرون الحديثة تجدوا المجاعة

في أثر المجاعة. وهي الآن في نهاية مجاعة حصدت منها نحو عشرين مليوناً وفي بدء اخرى نتجت عن فيضان نهر اليانغ تسي. وسبب الفيضان ازدحام الناس على ضفاف النهر وتعديهم على ما هو في الواقع من ارض مجراه، فيحدث احياناً ان ارض المجرى الباقية لا تكفي لماء النهر فتطغى مياهه على الناس

على ان مصر في خطر من الوقوع فيما نسميه نصف مجاعة . وهذه حالة عادية في بلاد الهند فقد قيل ان ستين مليوناً من الهنود ينامون على الطوى كل ليلة . وهذا هو احد الاسباب التي تجعل متوسط العمر في الهند ٢٥ سنة بدلاً من ٦٠ سنة . وحيث يكون الناس في مثل هذه الحال من قلة الغذاء تفتك بهم الامراض فتحصد منهم اكثر مما يحصد الجوع . فاية زيادة في سكان مصر تقترب بها من حالة شبيهة بهذه الحالة . لا ريب انهُ اتى عليها حين من الدهر كانت في مثل هذه الحالة ، والا فلماذا كان سكان البلاد ثلاثة ملايين في بدء تاريخها الحديث؟

يقال ان المشكلة تحل بزيادة الارض التي تروى وببناء المصانع . ولا ريب في ان البلاد تحتاج الى ذلك اشد الحاجة ، ولكننا نرتاب في ان زيادة الارض الزراعية والمصانع تحل المشكلة حلاً نهائيًّا ، لان ماء النيل محدود ولا بدَّ ان يقف التوسع الزراعي عن طريق الري بماء النيل عند حدٍّ محدود . ثم ان للتوسع الصناعي حدوداً دقيقة

واذا اعاد التاريخ نفسهُ ، فاخشى ان لا يكون زيادة الاراضي المزروعة سبيلاً الى تحسين حالة الفلاح المصري . قابل صديق لي من بضعة اشهر السر وليم ولككس فقال له انهُ لا يظن ان عمله في انشاء خزان اصوان كان نعمة على الفلاح المصري . فلم يغضب السر وليم ولم يتجهم وجههُ بل قال : « كلاَّ . لم اكن نعمة بل لعنة » !

كيف نفسر هذا القول الغريب . اننا نجد بعض التعليل في مراقبة الفلاح في حياته اليومية . فانهُ لا يزال يسكن في خصٍّ من الطوب النيء الذي كان يسكنهُ في ايام محمد علي ولا يزال يزرع ويحصد كما كان يفعل حينئذ ولا يزال الى حد بعيد يأكل نفس الطعام ، مع اني اعتقد ان تحسيناً قد تم في هذه الناحية . اذن نجد ان احوال معيشته لم تتقدم . ولكن لماذا نقول ان الحالة الآن اسوأ مما كانت من نحو قرن من الزمان ؟

اليكم الجواب . من نحو اسبوع كنت احدث الدكتور بارلو Barlow احد اطباء معهد ركفلر المعني الآن ببحث مرض البلهارسيا في مصر من نواحيه المختلفة . كان قبيل حديثنا قد عاد من الوجه القبلي وهناك شاهد امراً إدًّا . ذلك ان مرض البلهارسيا كان منتشراً على احد ضفتي النهر دون الاخرى . فليس ثمة بلهارسيا — او هي قليلة الانتشار جدًّا — على الضفة التي لا يزال اهلها يستعملون طريقة ري الحياض . ولكنها كثيرة على الضفة الاخرى. فخزان اسوان الذي جعل الري على احدى الضفتين على مدار السنة ساعد على نشر البلهارسيا وما يلازمها من الالم ، ومع ذلك فان بناءه لم يسفر عنه تحسين معيشة الفلاح

في حياته وافكاره ومطامحه والوان عيشه ، وزخر الادب بذلك وتنوع وافتن وبنى على الحياة الاجتماعية . فان كانت الدولة لغير الشعب كان الادب أدب الحاكمين وبني على النفاق والمداهنة والمبالغات الصناعية والكذب والتلبيس ، ونضب الادب من ذلك وقلَّ وتكرر من صورة واحدة . وفي الاولى يتسع الاديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كل من حوله الى الاحساس بالكون ومجاليه واسراره في كل ما حوله . اما الثانية فلا يحسُّ فيها الا احوال نفسه وخليطه فيصبح ادبه اشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يملَّ بنفسه ذهابه ومجيئه

والعجب الذي لم يتنبه له احد الى اليوم من كل من درسوا الادب العربي قديماً وحديثاً انك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للادب في اسمى معانيه الا في اللغة العربية وحدها ولم يغفل عنه مع ذلك الا اهل هذه اللغة وحدهم

فاذا أردت الادب الذي يقرر الاسلوب شرطاً فيه ويأتي بقوة اللغة صورةً لقوة الطباع وبعظمة الاداء صورة لعظمة الاخلاق ، وبرقة البيان صورة لرقة النفس ، وبدقة التركيب المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة الى الحياة ، ويريك ان الكلام أمة من الالفاظ عاملة في حياة امة من الناس ضابطة لها المقاييس التاريخية محكِّمة لها الاوضاع الانسانية مشترطة فيها المثلَ الاعلى حاملة لها النور الالهي على الارض

واذا اردت الادب الذي ينشىء الامة انشاء سامياً ويدفعها الى المعالي دفعاً ويردها عن سفاسف الحياة ويوجهها بدقة الابرة المغناطيسية الى الآفاق الواسعة من الحياة ويسددها في اغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرر المحكم ؛ ويملأ سرائرها يقيناً ونفوسها حزماً وابصارها نظراً وعقولها حكمة وينفذ بها من مظاهر الكون الى اسرار الالوهية

اذا أردت الادب على كل هذه الوجوه من الاعتبار وجدت القرآن الحكيم قد وضع الاصل الحي في ذلك كله . وأعجب ما فيه انه جعل هذا الاصل مقدَّساً .وفرض هذا التقديس عقيدة واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير ، ومع ذلك كله لم يتنبه له الادباء ولم يحذوا بالادب حذوه وحسبوه ديناً فقط وذهبوا بادبهم الى العبث والمجون والنفاق كأنه ليس منهم الا بقايا تاريخ محتضر بالعلل القاتلة ذاهب الى الفناء الحتم

والقرآن بأسلوبه ومعانيه واغراضه لا يستخرج منه للادب الاَّ تعريف واحد: ان الادب هو السموُّ بضمير الامة

ولا يستخرج منه للاديب الا تعريف واحد : ان الاديب هو مَن كان لامته وللغتها في مواهب قلمه لقبٌ من القاب التاريخ

العلم والفلسفة والاخيلة الشعرية [1]

للامير مصطفى الشهابي

أشرتُ في المقالة التي عنوانها «هواجس في الانسان وحياته» وهي المنشورة في مقتطف نيسان «ابريل» من السنة الحاضرة الى ان العلماء (أو اصحاب الفلسفة اليقينية) لا يؤمنون بغير ما يمكن اثباتهُ بالطرائق العلمية من مختلف العلوم التي تقع تحت الحس او تدرك بدلائل عقلية راهنة. وهم يقدحون في اصحاب فلسفة ما وراء الطبيعة ويتهمونهم بأنهم اناس يرجمون بالغيب ويتيهون في بيداء من الاوهام ويتخبطون في خضم من التخيلات الفارغة عند ما يجزمون العلة والمعلول وقدم العالم أو حدوثه والأزل والأبد وكنه القضاء وشكلهُ وأسباب الوجود وغير ذلك من التصورات التي لا تُحس ولا يمكن للعقل السليم ان يبتها على الطرائق اليقينية. ويغالي بعضهم فيتّهم الفلاسفة المذكورين بأن كل ابحاثهم اخيلة شعرية لا تتعدى اذهانهم ولا يقوم دليل علمي على وجود مدلول هذه الأخيلة خارج اذهان هؤلاء الفلاسفة. ويستنتج العلماء المشار اليهم انهُ ما دام الأمر على ما ذكرنا فالأجدر ترك الابحاث الفلسفية واطراحها جانباً وعدم التعرض لها البتة

ويهب الفلاسفة في وجهِ العلماء قائلين: لقد آمنا بشرائعكم العلمية التي تريدوننا على الاكتفاء بها ولكن هذه الشرائع ليست كل شيء في هذا العالم ولا يمكنكم منع دماغنا عن تأمل هذا الكون واستقصاء احاجيهِ وعلاقتهِ بذلك الانسان الذي لا يفتأ يجالد في الحياة ويكافح وهو كثيراً ما يتألم وقليلاً ما يفرح وربما كُتب له النصر أحياناً لكنهُ من المتحتم عليهِ ان يهلك في النهاية مقهوراً مدحوراً. ثم ذلك العقل البشري أليس له حاجات طبيعية يجب فحصها، وذلك الفكر الجيّاش بالخواطر والأخيلة أليس من الضروري ان ننفذ الى اعماقهِ حيث نرى منتجاته فنفرز فيها السمين من الغث وارادتنا التي نتباهى بها أليس لها مطالب يجب إثباتها وتقديرها حق قدرها. وهذه الطبيعة التي نراها هل تسير بذاتها ام لها علة تسيّرها، واذا كان هنالك علة فهل هي مادة أو عقل أو شيء لا يمكن إدراكه؟ وهل للكون حدود في الفضاء أم لا، وهل له بداية ام هو ازلي اذ لا بد من أن يكون أحد الأمرين صحيحاً. وما هي ماهية الانسان ومن أين اتى والى أين يذهب وهل العالم مخيّر ام مسيّر بجبرية لا

(1) كتبت بعد تلاوة تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد ومستقبل فلسفة ما وراء الطبيعة لفويه Alfred Fouillée الفيلسوف الفرنسي والحركة الفكرية ضد العلوم اليقينية المنوية لفويه أيضاً والفرق بين الفرق للبغدادي

تتزحزح. وهل أمام العالم رقي ام هو يدور ابديًا على حاله ، وما الحركة العامة للكائنات وما الحكمة فيها. وهل القواعد الاخلاقية شريعة بشرية واجتماعية فحسب أم لها اساس في الطبيعة كلها

ويضيف الفلاسفة الى ذلك أن تأثير الفلسفة في حياة الناس الأخلاقية والاجتماعية أمر لا يمكن للرجل المستنير أن ينكره . ولا تكون سيرة الانسان واحدة اذا ما اعتقد بأن عالم المادة والحواس هو كل شيء أو اذا ما اعتقد بأن وراء ذلك حياة اعلى واتم واقرب من الحقيقة. ولا يكفي ان يلقي الانسان الحبل على غاربهِ ويقول « لا أدري » فاللاأدرية غير واردة لأنها تحكم بأن العقل البشري عاجز عن ادراك هذه الامور دون أن تناقش وتتوخى اثبات صحة هذا العجز أو عدم صحته . هذا ولكل عالم فلسفته حتى اينشتين نفسهُ فان العلم اليقيني لم يمنعهُ عن البحث في الفضاء — الزمن وهو من ابحاث الفلسفة لا من ابحاث العلوم اليقينية. والخلاصة ان الفلسفة تدوم ما دام للانسان دماغ يفكر في هذا العالم وفي غوامضهِ

عند ما يصل الفلاسفة في تبجحهم الى هذا الحد ينفد صبر العلماء فيقولون :

لو قصر الفلاسفة بحثهم على المدركات خاصةً وعلى ارتباط ذهننا بما لا يمكن ادراكه لسكتنا على مضض ولتركناهم يتناولون هذه الموضوعات التي قد تكون صحيحة او غير صحيحة . اما ان يعمدوا الى ما لا يمكن ادراكهُ كالعلة او الله مثلاً فيبتّوا بتًّا انهُ موجود او قابل الوجود او غير قابل الوجود او يمكن ان يكون على شكل ما أو لا يمكن ان يكون على شكل ما أو له صلة بالكائنات او لا صلة له بها او ان الكائنات صورة منهُ او انها ليست صورة منهُ فهذه امور لا يستطيع العقل البشري ان يجزمها والاجدر بالانسان اذا ما سئل اسئلة كهذه ان يسكت ويقول لا ادري او ان يجيب بلفظة «ربما » دون غيرها . وجزم الفلاسفة لما لا يمكن ادراكه يجعل العلماء يسخرون بهم لاننا نرى كل فيلسوف يقطع امراً مخالفاً لما قطعه رفيقه فأين هي الحقيقة يا ترى ؟ هذا يقول بقدم العالم وبكونه موجوداً مع الله ومساوقاً له وبأنَّ خلق العالم من القدم في دائرة الزمن اعتقاداً من الحماقة بمكان . فالعالم ازلي لا بدء له وهو لم توجده علة وذاك يقول بعكس ذلك اي بأن العالم مكوَّن ومحدث وعلى ذلك اصحاب الاديان . ومع هذا لو سألتهم الصحيح ان العالم خلق منذ نحو ٨٠٠٠ سنة اجابوك ان ذلك مخالف لقواعد العلم والفكر الاساسية لان الفكر لا يتصور ماهية العدم ولا كيفية خلق الكائن منهُ ولا السبب الذي حمل الاله على اتيان هذه الاعجوبة منذ ٨٠٠٠ سنة او اكثر او اقل . اما العلة التي كوَّنت هذا العالم فقد ذهبوا فيها كل مذهب فاليونان خاصة والرومان بعدهم جعلوا لكل شيء الهاً او اكثر وجعلوا لهذه الآلهة كل ما يمكن ان نتصوره من صفات بشرية فالآلهة لديهم تتحارب وتتخاتل وتتشاتم وتسمر للطرب وللالعاب وترتاد اماكن الريبة ومجالس الفساق فتسكر وتعربد وتتنازع الجميلات الحسان من إناث الآلهة الى آخر ما يمكن للناس ان يعملوه حتى السفلة منهم

وهذا جوبيتر (المشتري) اب الآلهة ورئيسها ورب السماء والارض أتدري بأي اعجوبة جاء الى هذا العالم ؟ لقد خرج من فم ابيه ساتورن وعدّ او نذر بأنهُ سيلتهم اولاده عقب ولادتهم ومنهم جوبيتر. فحزنت امرأته حزناً شديداً وفتقت لها قريحتها بعد لأي أن تضع حجراً مكان ابنها جوبيتر حتى اذا ما جاء الأب ليوفي بوعده التهمَ الحجر بدل الطفل . وكذا كان . لذلك نجا رئيس الآلهة جوبيتر من الموت الزؤام وادرك اباه فهوى به عن العرش ثم اخذ يفرق الكائنات على الآلهة لكنهُ لم يغفل عن حقوقه الشخصية فاحتفظ لنفسه بالسماء والارض معاً. ونظر الى ذوي القربى فبرّ بصلة الرحم وجعل اخاه نبتون إله البحر واخته سرس إلهة الزراعة وابنته ديانا إلهة الصيد وابنته مينرفا إلهة الحكمة والفنون . اما بناته التسع الملهمات الشعر للشعراء فقد جعلهن ربات الفنون والاعلاق النفيسة . فأعجب لهذا الاله القادر وسل نفسك ماذا كان يحل بالعالم لو ان والدة جوبيتر لم تضع حجراً مكانه بل تركت اباه يبتلعه وهو طفل في حجرها ...

ثم انظر الى فينوس الزهرة إلهة الجمال المولودة من زبد البحر ما اجملها وهي تخرج من بين الامواج ويدها تعقص شعرها فكم تمنت غادات اليونان ان يحاكينها بجمالها الساحر الفتان ولا تنس ذكر سرس إلهة الزراعة ولكن اذا كنت مثلي ذا صلة بالزراعة والنبات فلا تتردد واعبد من شئت ممن انعموا عليك من ارباب الزراعة الخالدين مثل اوزيريس المصريين ونينيب الكلدانيين وغيرهما

ولكن أليس من الغريب ان هذا الجيش من الآلهة لم يرض احدٌ منهم حتى اليوم بأن يتجلى امام احد من سكان هذه الارض الحيارى البائسين واين الجن والابالسة الذين طالما تغنى بوصفهم الشعراء وأُخيف بذكرهم الاطفال ولله در فيلسوف المعرة القائل :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت بهِ حسّاً يحسُّ لجنّيٍ ولا ملك

واذا نبا عقلك عن عبادة آلهة اليونان والرومان فعليك بآلهة المصريين الاقدمين فقد كانوا ايضاً عظماء لدى الناس مثل رع وايزيس واوزيريس وسائر الفراعنة وهم كثر . ويمكنك ان تعبد النيل وتجزم مثلهم ان ماءه ينزل من السماء ومع هذا لا تنس ان رواد ايامنا هذه قد كشفوا الغطاء عن منبعه وتبعوه حتى مصبه فاذا بهِ لا صلة له بالسماء البتة

وربما جال في خلدك أن تتخذ لك صنماً تعبده . لكنني أخشى أن يكون من عجين أو حلوى فتضطر الى أكله في مضطرب هذه الأزمة الاقتصادية كما فعل بعض العرب قبل الأسلام . واخشى أيضاً أن يصيبه ما أصاب صنم بني سليم وكان سادنه يسمى غاوي بن ظالم فبينما هو ذات يوم جالس بعيداً عنهُ اذا بثعلبانِ اقبلا وهما يشتدان فشغر كل منهما رجله وبال على الصنم فنظر اليهِ غاوي متأملاً وقال

ارب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب

وتمجّس إن شئت واعبد النار والنور أو عليك بالاله برهما واوجهه الثلاثة أو آمن بأقانيم النصارى أو بآله المسلمين الواحد الأحد أفتظن انك وصلت الى حيث تبتغي أي بلغت سدرة المنتهى فارتاح فكرك وخلا من هواجسه . انك ياصاح ما برحت امام مذاهب عدة في كل من هذه الديانات . وأنت تحار أيها اصدق . فاذا كنت مسلماً مثلاً اتكون من القدرية او المعتزلة او الجهمية او المشبّهة الى عشرات من الفرق التي يكذب دعاة كل منها اتباع الفرق السائرة. او كنت من المسيحيين فربما ضعت في معترك الفرق النصرانية. وبعد مهما يكن نوع اعتقادك بالعلة الاولى فاياك ان تجعل منها في حياتك سبباً للكره والنزاع والقسوة والا عدنا الى مثل مذابح « سان برتلمي » الوحشية ايام شارل التاسع في فرنسا او الى مثل فظائع الأزارقة من الخوارج في الأسلام الذين ظل القائد الكبير المهلب ابن ابي صفرة يحاربهم مع ابنائه تسع عشرة سنة

***

ومتى بلغ العلماء هذا الحد من التعرض لمذاهب الفلاسفة واللاهوتيين الذين يتناولون بابحاثهم ما لا يمكن ادراكه كالعلة الأولى مثلاً فيفصلونها على قدر عقولهم اوعلى قدر ما تبلغهُ اوهامهم يغضب الفلاسفة على العلماء ويقولون : متى كانت علومكم هي الحقيقة اليقينية بعينها. أليست العلوم مجموع شرائع ذهنية لحوادث الطبيعة نتصورها نحن كما نتصور الأبحاث الفلسفية. لا شك ان هذه الشرائع ترتكز على الحس والعقل وهي مضبوطة ضبطاً رياضيًّا في الغالب وتدعمها التجارب والوقائع الراهنة لكنها هي شيء والطبيعة نفسها شيء آخر . فالغاز مثلاً لا يتمدد بقانون ماريوط بل يتمدد بمؤثرات خفية لا يطلعنا القانون المذكور الا على نتائج عملها والا على حساباتنا الرياضية لهذه النتائج . ولذلك نرى ان الطبيعة والحقيقة الواقعية تجهل شرائعنا وارقامنا وطرائق تصوّرنا للطبيعة وتمثيلنا لها . وليست القوانين العلمية في النهاية سوى افكار تجول في خاطرنا كالافكار الفلسفية . وهذه الافكار شيء وعالم الطبيعة كما قلنا شيء آخر . ثم لنفرض اننا اتينا الى هذا العالم بعد ملايين من السنين واننا حللنا كل حوادث الطبيعة بقوانين لا تقبل الاخذ والرد أوضبطنا كل هذه القوانين بقانون أعلى يشملها جميعاً افتظنون ان دماغنا يكتفي بذلك ام هو يتساءل هل هذه الحوادث وقوانينها العلمية والقانون الاعلى لقوانينها هي كل شيء في هذا الكون وهلاّ يوجد شيء داخلها أو خارجها ؟

وبعد هذا كيف يطعن العلماء بالفلسفة متمثلين بمذاهب فلاسفة القرون الاولى والوسطى مع ان فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل كما ارتقت العلوم نفسها فصارت تؤخذ بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة

وبعد ان يسكت الفلاسفة ويشفوا غليلهم من العلماء يقوم الشعراء الخياليون متبرمين متضجرين من القيود الحسية والعقلية التي يتقيد بها الفريقان فيقولون . اما نحن ياسادتي فلنا الاخيلة الواسعة والتصورات التي لاحدَّ لها سواء اكان لها ظلٌ من الحقيقة املا . فنحن اذا شئنا ضربنا الآلهة بعضهم ببعض واوقفنا الافلاك عن الدوران ووحدنا الاضداد واعدمنا الموجودات وخلقنا ما اردنا من العدم . فان قلتم هذه اوهام سينمية لا تتعدى اذهاننا قلنا اثبتوا لنا ان العالم لا يصح ان يطلق عليه اسم السينما الاكبر . . . واثبتوا انهُ لايوجد وراء حواسنا الخمس اشياء يجب لادراكها ان يكون لنا غير هذه الحواس . . .

* * *

ومتى وصلت المهاترة الى هذا الحد يقوم رجل حكيم منصف وزن الامور بميزان العقل فيقول : لكل من العلوم والفلسفة والاوهام الشعرية حدود يجب ان تقف عندها . فالعلم اليقيني اليوم يتناول صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض بصرف النظر عن صلتها بالشخص الذي يحس ويفكر او صلتها بمجموع العالم . ولا يهتم في العلوم اليقينية الا لمعرفة ماهية الصلات التي تربط الاشياء الثابتة بعضها ببعض ولذلك يمكن في العلم ان يتطلع الانسان لمعرفة النتائج من المقدمات اي معرفة الحوادث التالية من التي سبقتها وادت الى حدوثها دونما حاجة الى معرفة الاسباب التي اوصلت الى ذلك اي الى حصول الحادث اللاحق من الحادث السابق . وتكون العلوم اليقينية ثابتة لانها تفرض باديء بدء صحة شيء ما دون الابتعاد عنهُ وتقف عند النتيجة الحاصلة دون ان تتعداها . والعلم اليقيني كما ترون صحيح بذاته لكنهُ لا يتناول سوى جزء من الاشياء الحقيقية عدا ان كل علم لا يتعدى الحدود التي رسمت له . فالميكانيكي مثلاً لا يهتم لغير الحركة والرياضي لغير الارقام والمسافات وهكذا . والعالم في نظر العلوم اليقينية كالمرآة المكسورة يتناول كل علم قطعة منها

اما الفلسفة فانها تجمع قطع هذه المرآة وتسعى لرؤية صورة الكون بها .فالفلسفة اذن هي التطلع لمعرفة الكون بمجموعه ومعرفة النفس التي تدركه . وهي ايضاً انتقاد العلوم وتحديدها واتمامها بافكار يتوخى بها تصوير وحدة الكون الحقيقية . والسؤالان العظيمان اللذان تتناولها الفلسفة هما كيف يمكن معرفة الاشياء وكيف تكون هذه الاشياء . ويجب انلا تتناول الفلسفة سوى المدركات وسوى علاقة ذهننا بما لايمكن ادراكه ولا ينبغي لها ان تجزم الامور في كل ما لا يمكن ادراكه ما دام العقل البشري غير قادر على بته

ويتضح من ذلك ان الفلسفة ترتكز منطقيًّا على الاستقراء وانها تتوخى جعل الحقائق ضمن المعقولات اما الاخيلة الشعرية فاوهام لا نحسها ولا نعقلها

قبيلة عربية

من اصل ايطالي

شغفت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات السائحين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى القرن الماضي على مصر وبلاد الشرق الادنى فقرأت منها الشيء الكثير ولا سيا ما كتبه السائحون الايطاليون امثال شريا كو دي أنكونا — وليوناردو فرسكو بالدي — وبيترو ديلا ڤاله — وجيوڤاني باتستا بلسوني دي بادوفا — وايبوديتو روزوليني دي بيزا وغيرهم الذين قصوا في مؤلفاتهم كثيراً من الاخبار الطريفة عن مصر وآثارها وأهلها من حضر وبدو وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وطبائعهم. وقد لفت نظري بنوع خاص ما كتبوه عن القبائل العربية الضاربة في صحراء ليبيا ولكن بعد كل ما اطلعت عليه من اخبار هذه القبائل لم يكن ليخطر ببالي ان احدى هذه القبائل الشهيرة بقوتها ومنعة جانبها وهي قبيلة «السناجرة» يجري في عروق ابنائها الدم الايطالي حتى كان الاسبوع الماضي عند ما ذهبت لزيارة صديقي العالم الكبير الاستاذ الدكتور جوڤاني كاپوڤيلا المدرس بالجامعة المصرية — في منزله ووجدت في يده مجلداً ضخماً هو مذكرات احدهؤلاء السائحين الايطاليين الذين زاروا مصر في القرن الماضي وهو العالم المهندس روبتي بريكتي Robecchi-Brichetti الذي وصل الى مصر في سنة ١٨٨٥ ميلادية وبقي فيها مدة وكان هو اول من قام من الاوربيين برحلة في واحة سيوه والجهات المجاورة لها وكانت رحلته بحجة الاستقصاء وجمع الاعشاب الطبية المفيدة في معالجة المرضى ولكن يظهر انهُ كان له غرض آخر لم يكن ليبوح به لاحد وهو البحث عن موميات الفراعنة المدفونة بالواحة لانهُ خاطر بحياته بالنزول في احدى مقابرها القديمة ونجح في استخراج عدد كبير من الموميات من بطونها وهي احسن ما وجد من هذا النوع وارسلها كلها الى ايطاليا حيث لا تزال موضع اعجاب السائحين والمتفرجين في متحف فلورنسا. وقد اعجب بها وشاد بذكرها الكاتب الايطالي الذائع الصيت باولو مونتجازا Paolo Montegazza ، ومات بريكيتي من عهد قريب بعد ان طبع مذكراته في سنة ١٩٠١ م عن رحلته «الى معبد آمون»

وبعد ان استقر بي المقام بمنزل الدكتور كابوڤيلا بادرني بسؤالي عما عساي ان اكون سمعت عن قبيلة السناجرة وعن منشئها ومؤسسها فقلت له لقد سمعت بها واظن انني سبق ان قرأت شيئاً عنها وكل ما اذكره انها من القبائل العظيمة الشأن التي تقيم في صحراء ليبيا في منطقة واسعة ممتدة على الحدود المصرية الطرابلسية عند ساحل البحر الابيض المتوسط من شرق مدينة طبرق حتى واحتي جغبوب وسيوه جنوباً وعندئذ قال لي الا تعلم ان هذه القبيلة من اصل ايطالي وانها تنسب الى رجل من مدينة شا كا Sciacca في جزيرة صقلية اسمه سينكييري ترينا كرزي Sinchieri الذي سماه العرب « سنجر » عند ما اسلم وأقام بينهم ولاسلام هذا الرجل قصة طريفة تقرأها في هذا الفصل وفتح لي المجلد وأشار لي الى فصل عنوانه « قبيلة عربية من اصل ايطالي » فلما قرأته آثرت نشره لطرافته وها هو بالحرف الواحد

« ٩ اغسطس

انتشر بسرعة البرق ذلك النبأ القائل بان نصرانياً أو اوروبياً حضر مع القافلة من مدينة الاسكندرية وذلك لانني عقب الفجر في الصباح الباكر ألفيت نفسي يحيط بي عدد كبير من الناس الذين حضروا لمشاهدتي ولقد كانت هذه أول ليلة انام فيها تحت خيمة حقيقية منذ ان بارحت مدينة الاسكندرية ونمت نوماً هادئاً لذيذاً لاني لم اعد افكر في السهر على امتعتي وأمنت من سطو اي انسان عليّ وذلك لانني نزلت ضيفاً على اسرة بدوية من كرام أسر قبيلة السناجرة ولست أدري هل كان سروري بشعوري بالراحة والطمأنينة أو هو الهواء الطلق النقي أو نسيم البحر القريب هو الذي قوّى عندي الشهية لتناول الطعام لانني بمجرد ان استيقظت من نومي وتناولت قهوتي شعرت بحاجة شديدة الى الاكل والتهمت صحناً كبيراً من الارز وبعض القوقع البحري الذي كنا جمعناه في اثناء الطريق في اليوم السابق

* * *

ويخيل اليّ انني حصلت على معلومات صحيحة طريفة عن قبيلة السناجرة وكل ما عرفته في هذا الشأن وصلني عن طريق شاب بدوي غاية في الادب واللطف اسمه حسن عبد المولى ذكي الفؤاد عذب الحديث يبلغ السابعة والعشرين من عمره تزوج من زمن ليس بالبعيد ولكنه سرعان ما افترق عن زوجته لعدم تلاؤم طباعهما . وقد تعلم هذا الشاب القراءة والكتابة منذ الحداثة في احدى مدارس السنوسيين في زاوية « رحم الغرب » وكان رفيقي في رحلتي من الاسكندرية الى هنا وقد جذبني طول الحديث بلطفه وادبه الجم حتى صرنا صديقين حميمين وبالامس لم يكد ينزل عن ظهر بعيره حتى دعاني الى خيمته وقدم لي ماء عذباً طيباً احضره من بئر قريبة

ذهبت بعد الظهر الى خيام البدو المتقدمين في السن من الرؤساء ذوي النفوذ والمكانة للتسليم عليهم ولكي اقدم لهم بعض لفافات التبغ ولكي استقي منهم بعض المعلومات الاكيدة عن قبيلتهم وقد أجمع كلهم على ان السناجرة يكونون شعبة كبيرة من البدو يزيد افرادها على العشرين الف نسمة وكل هؤلاء يرتبطون برابطة القرابة والمصاهرة بالقبائل الاخرى . وتمتاز قبيلة السناجرة باستقلالها المطلق فان رجالها يعيشون مغتبطين وسعداء في جبالهم ذات الطرق الملتوية المتشعبة التي لا يمكن ان يعرف منافذها سواهم ولم يعترفوا باية حكومة ولا باية سلطة حكومية عليهم ولم يخضعوا للتجنيد ولا يدفعون ضريبة أيا كانت ولا يتسامحون في اي قانون يخالف عقيدتهم وايمانهم الثابت كالصخور التي يعيشون بينها

* * *

والسناجرة مزارعون مهرة ورعاة اغنام لا مثيل لهم في تربية الماشية ولكنهم يعيشون مستقلين بعيدين عن اية مضايقة من اي نوع كانت ولذلك فليست لهم اية علاقات باحد قانعين برعاية اغنامهم ومواشيهم هنا وهناك ولا يزرعون من الاراضي الا بقدر ما هو ضروري لهم ولحاجاتهم وما اسعد الرجل الذي لا يعرف الحاجة لانه لا يعرف ما هو الحرمان مادام بطنه ممتلئاً مهما كان نوع الطعام الذي ا كله !

واني لاستطيع ان افهم سر الجفاء القائم بينهم وبين اولاد علي الذين هم اعظم القبائل في الصحراء الليبية والذين يبلغ عددهم نحو المائة الف نفس دون مبالغه وكلهم شجعان اقوياء محبون للقتال ولكنهم مع هذا خضعوا لسلطان الحكومة المصرية في عهد المغفور له محمد علي باشا عزيز مصر وكانوا يقدمون للجيش المصري حتى عهد المرحوم سعيد باشا عدداً كبيراً من الجنود البواسل وهـذا الجفاء الموجود بين القبيلتين الصديقتين يرجع الى علاقات اولاد علي بالحكومة

واذا كانت لاولاد علي السلطة والهيمنة على قلب الصحراء فان السناجرة يسيطرون على البحر وسواحله ولذلك فانهم يقدسون المثل السائر بينهم الذي يقول « طلعنا من البحر ودائماً في البحر »

وهم قبل ابتداء فصل الامطار يسرعون في حرث الارض وبذر الاذرة والفول والعدس والبصل والبطيخ والخيار وعلى الاخص الارز ثم بمجرد سقوط الامطار الاولى يهرعون جميعاً وتذهب كل اسرة من اسرهم للاقامة شهرين او ثلاثة اشهر في الجهة التي يرونها اخصب واكثر ملاءمة لهم من غيرها ثم يعودون فيما بعد الى نصب خيامهم في اماكنها الاولى لكي يتمتعوا بالمحصول الوافر الناتج من الارض المزرعة

ومنهم من يفضل البقاء او يختار جبالاً او سهولاً او اودية اخرى ولكن كلها على مقربة من البحر الذي هو اصل مبيتهم

ولقد استطعت ان اصل الى معلومات هامة عن قبيلة السناجرة استقيتها من اوثق المصادر واصدقها فان تاريخ هذه القبيلة يرجع الى ثلاثة قرون مضت عند ما خرج رجل من اهالي شاكا في جزيرة صقلية اسمهُ سينكيري ترينا كريزي Sinchieri Trinacrese كان يشتغل بصيد الاسماك في سفينة شراعية مع جماعة من رفاقهِ الى الساحل الافريقي لصيد الاسفنج والمرجان ولكن السفينة غرقت بكل من فيها ولم ينج منها سوى هذا الرجل الذي القت بهِ الامواج بالقرب من الشاطئ فالتقطهُ العرب وكان في حالة يرثى لها وأنقذوه من الغرق والهلاك

***

ولقد كان خوفه وهلعه منهم شديداً ولذلك فانهُ بقي عدة ايام دون ان يتفوه بكلمة واحدة بينما كان البدو يكرمون مثواه ويعاملونهُ احسن معاملة ويعتنون بهِ العناية كلها ولذلك فقد أسرتهُ هذه المعاملة الحسنة التي عامله بها العرب وذلك الاستقبال الودي الذي قابلوه بهِ فلم يُرِدْ مفارقتهم ولم يشأ العودة الى وطنه وآثر ان يقضي بقية عمره بين اولئك البدو الذين ردوا اليهِ حياته

ولكي يظهر لهم امتنانه واخلاصه ويؤكد لهم اعترافه بجميلهم ترك عقيدته الاصلية واعتنق دين الاسلام ثم تزوج فيما بعد من احدى بناتهم الجميلات وربما كان بقاؤه بين العرب واختياره هذه الحياة الجديدة وهذه العقيدة الجديدة راجعاً الى تعلقه وهيامه بتلك الفتاة الحسناء التي تزوج منها والتي كانت بدوية رائعة الجمال

ولا يزال العرب من ابناء هذه القبيلة يذكرون اسم سينكييري (سنجر) مؤسس قبيلتهم هذا بكثير من الاحترام والتبجيل وابناء هذه القبيلة اقوياء الابدان حسان الوجوه يكرمون الضيف وشجعان فخورون »

***

الى هنا انتهى ما كتبهُ بريكيتي ولعل عند سمو الامير الجليل عمر طوسون علم هذه القبيلة ولعلهُ عرف شيئاً عن تاريخها من اثر بحثه وتنقيبه في صحراء ليبيا ذلك البحث الذي ابان عنهُ في محاضرته النفيسة الاخيرة

طه فوزي

فوضى العالم ومسؤولية العلم

WORLD CHAOS : The Responsiblity of Science
by William McDougall

تلخيص وتعليق

الاستاذ وليم مكدوجال كاتب انجليزي نابه الذكر وباحث في الشؤون الاجتماعية ولي منصب استاذ علم النفس في اكبر الجامعات الانكليزية والاميركية . وله مذهبه الخاص في السيكولوجيا عامة وفي السيكولوجيا الاجتماعية خاصة فاذا تكلم أو كتب عن مسائل المجتمع ومعضلة الحضارة الاوربية فقد حق لنا ان نسمع له وان نعرف رأيه ومكانه من الصدق ، وحظه من العمق والصواب

ولقد تناولت الصحف الادبية هذا الكتاب حين ظهوره بشيء كثير من الاهتمام والعناية. وكتب عنه النقدة هناك بغير قليل من الجدل والمناقشة . لان المؤلف تناول فيه مسألة المسائل في الوقت الحاضر . وعرض لهذه الفوضى العالمية بذلك البحث اللامع فتغلغل الى لب الموضوع وجوهره ، وعرض كل ذلك بأسلوب واضح ، وحماسة بينة !

فليس شك ان العالم الآن يجتاز اعصب فترة في تاريخه . وان الحضارة الاوربية تهددها الاخطار من كل حدب وصوب . وان رجال الفكر يتوجسون شراً ان تكون هذه الازمة نهاية الحضارة الراهنة وارتداد العالم مئات الاعوام

فكل بحث يتناول هذه المشكلة ، وكل كتاب يعنى بهذه الفوضى ، هو بحث جدير بالنظر وكتاب يشعر العالم بانه في شديد الحاجة اليه !

فهذه الفوضى البادية في كل ميادين النشاط الانساني ، وهذا الخلل الظاهر في معظم النظم الاجتماعية ، وهذه الاخطار التي تحيق بالمدنية وتكاد تودي بالحضارة ، مما يهيب بكل كاتب وبكل باحث ان يدلي برأيه وان يقترح سبل الخلاص والنجاة

وقد رسم المؤلف صورة حالكة لحالة العالم اليوم ثم عزا هذا الحلك وتلك الفوضى التي نشهد ، والتي تهدد الحضارة بوشيك الدمار، الى طغيان العلوم الطبيعية على كل مرافق الحياة العامة ، وصور النشاط البشري ، طغياناً اصبحت معهُ هذه العلوم ووسائلها ونتائجها الآلية هي الكل في الكل . وعاد كل ما عداها صدى لها ، او نفاية لا يعتد بها ولا يحسب حسابها

وليس مكدوجال هو الباحث الوحيد الذي ينظر الى الحضارة الراهنة بعين التشاؤم والخوف ولاهو بالرجل الوحيد الذي يلاحظ مظاهر الدمار وبوادرهُ قوية الاندفاع ، غير بعيدة النتائج . بل هو واحد من رهط كتاب اجلاء، يشاطرونهُ الرأي ، ويشايعونهُ النظر ولا يبتسمون لدى رؤية المظاهر الكاذبة والتقدم الزائف !

غير ان الجديد الجدير بالعناية في هذا البحث ان المؤلف عزى هذه الفوضى — في قوة وبصورة واضحة — الى تقدم العلوم الطبيعية Physical Sciences تقدماً ليس في ميدان العلوم الاجتماعية ودراسة النفسيات ما يقابلهُ أو يقرب منه . فقرر — في غير تلكؤ أو شك او استثناء — ان العلوم الطبيعية ، وما يتبعها من النتائج العملية والمكتشفات الآلية ، هي المسؤولة اولاً ومباشرة عن هذا الاختلال في النظام العالمي ، الذي ابتدأت مظاهرهُ تبدو في النظم الاجتماعية والمصاعب السياسية والازمة الاقتصادية الحاضرة . فليس شك في ان العالم يشهد اليوم ازمة اقتصادية عنيفة لعله لم يشهد مثيلها من قبل ، وان مسائل السياسة العامة قد بلغت حداً من الخلل واختلاف الرأي وتعدد المذاهب لعلها لم تبلغهُ في يوم من الأيام مثل ما هي عليهِ اليوم من القوة والعنف

فضعف نظام الأسرة ، وانتشار الجريمة ، وتفشي الرشوة وما ماثلها من مظاهر النقص والخلل الاجتماعي في الحضارة الراهنة ، ما كل ذلك الا النتائج المباشرة لتقدم البحث العلمي ، واستفحال أمر الآلة الميكانيكية ، مما اصبحت معهُ الحياة الهادئة المطمئنة متعسرة صعبة ، أو هي بالفعل وفي واقع الامر ، معدومة !

يقول المؤلف ان الحضارة الراهنة ليست وليدة العلم الحديث كما يخيل الى البعض، وانما هي ترجع الى ما هو ابعد من العلم الحديث واكثر أيغالاً في التاريخ من « كوبيرنيكوس » Copernicus فهي ترجع الى الفلسفة الاغريقية ، والى القانون الروماني ، والى غير ذلك من المخلفات الماضية والتراث الأدبي القديم

والعالم لا يضطرب الآن ، ولا تختل نظمهُ لو انهُ لم ينسَ او يتناسى تلك الدعائم وذلك الاساس القديم . ونتج من ذلك أن أصبح البناء اثقل من ان يحتمله الأساس الذي أهمل أمره. وفي الوقت الذي نجد فيه أن احد جوانب هذا البناء قد تضخم و«استكرش» نجد الجانب الآخر ما زال هزيلاً نحيلاً . واذا تصور القارىء شكل بنيان أهمل أساسهُ ، وثقل سقفهُ ، وتضخم جانبٌ من جوانبهِ كملت عنده صورة الحضارة الراهنة كما تبدو لمكدوجال ، وكملت لمخيلتهِ صورة الأنهيار الذي لا بد أن يحصل !

فقد صرح الاستاذ رمزي ميور — وهو من الاحرار المجددين — في حديث له مع احدى الصحف « أن الحضارة الراهنة مهددة بالخراب ، اذا لم تتمخض الاعوام المقبلة عن

حرية واسعة للتجارة العالمية ، واذا لم تعمل انجلترا ضد هذا التيار الجنوني » !

وصرح « الديوك أوف نورثمبرلاند » — وهو الرجل المحافظ — بقوله « اننا على وشك أزمة كبرى في الشؤون العالمية . وان ليس في الدلائل الحاضرة ما يشير الى التقدم المضطرد ؟ وان الأمل في السلام العالمي لم يعد الا حلماً جميلاً . وكذلك الحال في شؤون الاجتماع والسياسة فقد دلت النظم الحاضرة على افلاسها وانها لم تعد صالحة للوقت الحاضر . وهذه الظاهرة التي نلمحها فى التاريخ الأدبي الحديث سيستفحل أمرها الى ان تقضي على البقية الباقية من النظم القائمة . والسبب في كل ذلك ان اي حضارة انما تقوم على أساس الدين والوطنية — وقد فقدت هذه الأشياء مكانها وسلطانها في العصر الحديث » !

ويتضح من هذا ان معظم الكتّاب ورجال العلم — على اختلاف مشاربهم وأحزابهم — يرون هذه الفوضى ويتوجسون شراً من دوام هذا الروح الخطر

يقول مكدوجال في تعزيز رأيه ان الانسان العصري قد اهتم بالعلوم الطبيعية ، فنالت هذه العلوم كل الحظوة عند الباحثين والعلماء ، وكل التشجيع من جانب الجمهور والرأي العام لأن فوائدها نفعية مادية ؛ فالآلة البخارية ، والطيارة والاتوموبيل ، ووسائل المواصلات الأخرى التي قربت المسافات وجعلت السفر من مكان الى آخر لذة ومتعة ، هي في واقع الامر النتيجة المباشرة لتقدم العلوم الطبيعية وازدهارها

والسينما والراديو ، والنور الكهربائي ، والفنوغراف واشباهها من آلات الترف ، وممدات النعيم هي الاخرى من ذخر العلوم الطبيعية وفيضها ومتاعها . فلماذا لا يقبل عليها الناس ويولونها العناية ويساعدون من يعمل في حقلها ويقوم بالتجارب والمباحث في ميدانها ، اذ جعلت لهم الحياة جنة تجري من تحتها الانهار !

فنحن نحترم العلوم الطبيعية هذا الاحترام الذي يقرب من العبادة في مظاهره ، ولا يختلف عن الايمان الديني في شيء لانها قد أذلت لنا الطبيعة ، ومكنتنا من خيراتها وجعلتنا السادة الحاكمين بامرنا ، نقول « كن فيكون » !

غير ان كل ذلك الترف ، وكل تلك الملذات ، قد ابتدأ ظلها يتقلص . واتضح — ولكن اخيراً — أن الصناعة وحدها ، وان الانتاج الفائض ، وان الآلة وسهولة المواصلات وما اليها ليست هي كل شيء في نظام العالم ليثبت العالم ، ويرفل الناس في حلل الرخاء والسلام والنعيم . لان هنالك عناصر وعوامل اجتماعية وانسانية لا يمكن ان تقوم حضارة ، او يعم رخاء ، أو تزدهر ثقافة ، او يستتب أمن ، أو يستقر نظام وتطمئن حياة ، من غير معرفتها والتوفر على درسها ، والعمل بمقتضى تلك المعرفة وذلك الدرس !

في هذا العصر الذي نرى فيه كل شيء يغري بالتبحر في العلوم الطبيعية ، نرى من عوامل

التنبيط ، وانصراف رجال البحث والذكاء عن ميدان العلوم الاجتماعية ، ما وقف معهُ كل بحث نزيه في حقيقة الانسان ، وعلوم المجتمع والحياة عامة

فالكنيسة مثلاً قد وقفت حجر عثرة امام اي بحث في التقاليد والمعتقدات ودرسها درساً حراً . ولم تسلم الجامعات ، وهي المعاهد الحرة ، من هذه العراقيل الرجعية. وحكم بذلك على علوم الاجتماع ان تبقى راكدة آسنة، واصبح درس الكواكب والالكترونات أهم عندنا بكثير واحق بعنايتنا من درس الانسان ، وهو «الدرس الحق» كما قال بوب في قصيدته المعروفة

يقول مكدوجال ما معناه : « اننا نعيش في عصر بلغت فيهِ الفوضى الاجتماعية اشدها . ومرجع هذه الفوضى ولا شك هو العلوم الطبيعية . فما علاج ذلك ؟ ! ... العلاج من داء العلم هو زيادة العلم ! ولكن اي علم ؟ ! ... عندنا الكفاية من العلوم الطبيعية وهي التي تحمل تبعة هذا الخراب . ولنفرض بأننا ازددنا بهذه العلوم عرفاناً ، وبها بصراً وتبحراً ، واكتشفنا المدهش الرائع في ميدانها . وجاءنا « اينشتين » آخر فبرهن على ان هذا الفضاء الذي نرى لا وجود له ، ولا حقيقة فيهِ . فهل ذلك العلم يا ترى يحل مشكلتنا الاجتماعية الحاضرة ، او يجعلنا ابصر بنظام الحكم ، واعلم بطبيعة الانسان ؟ ! »

فعالم السياسة يضطرب الآن وتتجاذبهُ قوى مختلفة ، وتتنازعه دوافع متباينة . ورجال السياسة يزعمون لنظمهم التي يقترحونها من الصدق والحق ما يجعلنا اشد ريبة واكثر شكاً في حقيقة اي نظام وصدق اية نظرية . وقيام النظم السياسية المختلفة من فاشيّة ودكتاتورية وديمقراطية وشيوعية الى آخر النظم السياسية الحاضرة هي الدلائل المادية على اننا لا نفهم شيئاً صحيحاً عن حقيقة النظام الاصلح . واننا نجهل هذا الانسان الذي نود ان نشرع له ، ونسن له القوانين ، ونفرض عليه الحقوق والواجبات جهلاً اقل ما يقال فيه انه لا يمكننا من الاضطلاع بهذه المهمة الخطرة

هل يستطيع الرجل السياسي الآن ان يطمئن الى نتائج بعينها من اسباب محدودة . وهل نحن نعرف الدوافع الانسانية واختلافها ، والظروف الخارجية وتشعُّبها مما يجعل نظاماً من الحكم ، أو اسلوباً من النظام ينجح في مكان وبين قبيل ، ولا يكون نصيبه مثل ذلك النجاح في مكان ثان ، وبين قبيل آخر ؟ !

وهل نحن نعرف حقيقة التباين ومداه بين الاجناس والافراد . وهل التشابه بين الاجناس البشرية اكثر ، أم ان وجوه الاختلاف اكثر وأظهر وابعد ؟ وهل اصلاح الفروق مستطاع عن طريق التربية والتثقيف ، ام ان لا اصلاح للنفوس ولا تدريب للطباع . وهل البشر يتفاوتون من حيث انتاج الحضارات والابقاء عليها ، ام ان كلهم في هذا الصدد قريب من قريب . وهل حصة التربية وانتشار سبل الصحة هي الآن كما يجب ان تكون ؟ !

وبالاختصار ما طبيعة علم الحياة ، وحقيقة « الانسان » وصحة النظم الاجتماعية ! ؟

اننا لانعلم من كل ذلك شيئاً يصح الركون اليه والاعتماد عليه . وهذا العلم — لو علمنا — هو وحده القدير على انتشالنا من هذه الوهدة التي تتردى فيها الانسانية اليوم !

وعلم الاقتصاد ، هل هو علم حقاً ؟ أيمكن عرفان النتائج المحتمة من المقدمات المقررة ؟ يكفي رداً على هذا السؤال وامثاله ان يطالع القارىء اي صحيفة عصرية تتناول الشؤون الاقتصادية فيجد من الاختلاف في الرأي ، والتبلبل في وجوه النظر ما يجيب عن سؤاله أشفى جواب !

ونحن لو كنا اعلم قليلاً بشؤون الاقتصاد والمعاملة لما وقعنا في هذه الازمة الطاحنة التي اختلفت الآراء وتعددت في أسبابها ، حتى أصبح كل شيء سبباً لها ، الاّ جهلنا بها !

بل ان هنالك مسائل اقتصادية أولية ، مثل الاساس الذهبي للعملة ، وقانون الطلب والعرض يختلف في شأنها هؤلاء (العلماء) الاجلاء ولا يعرفون وجه الصواب فيها

ومع كثرة احاديث الاقتصاديين هذه الايام عن « الدوافع والقوى » المجهولة ، وعن « الثقة » فالعالم ما زال ينفق ملايين الجنيهات في البحث عن الغازات السامة ومعدات الحروب ولا ينفق ربع ذلك المبلغ للتوفر على دراسة هذه « الثقة » مثلاً

وليس يبعد في ظننا ان بعضهم ينتظر من علماء الكيمياء ان يكتشفوا لنا محلولاً كيائياً تصبح « الثقة » بعد تناوله بين الافراد والجماعات مستوفاة مزدهرة . ثم ما هي طبيعة هذه « الدوافع والقوى » النفسانية التي كثر الحديث عنها في كتابات الاقتصاديين . اننا بلا شك في حاجة الى نور يضيء ظلماتها . ولن يكون ذلك على كل حال بدراسة المريخ والبحث عن معادلة الحامض الفنيك !

والسيكولوجيا : هذا العلم الحيوي الذي لا يمكن ان تقوم علوم الحياة والمجتمع على غير اساسه. ما حقيقته ؟ . . ان هذا العلم — ونسميه علماً من باب التجوز — ما زال مرتعاً خصباً لمختلف الآراء المتنافرة ، و متباين الاحكام والنظريات . وفي السيكولوجيا الحديثة من النظريات والفروض والمدارس الفكرية مما يخيل للقارىء معه ان هذا « الشيء » الذي نسميه انساناً قد يكون الهاً ، أو قد يكون آلة . أو قد لا يكون شيئاً من الاشياء على وجه الاطلاق ! ؟

هذه هي مجمل آراء المؤلف. وقد حاولنا تصويرها بأسلوب يقرب من أسلوبه ونسبغ عليها شيئاً من مرارة تهكمه وشدة حماسته ونكون امناء في نقل آرائه بعد كل ذلك . والرأي الذي يخرج به الانسان من كتابه هذا هو ان علوم الاقتصاد والتشريع والتاريخ والنفس والسياسة وخلافها من العلوم يجب ان تكون قبلة الباحثين والنبهاء اذا رغبنا في الابقاء على حضارتنا هذه وحفظ التوازن الضروري بين معلومات الأنسان . ذلك لأن هذه العلوم هي الأسس التي لا يمكن ان يقوم الرقي الآلي والصناعي الأعليها

غير اننا نلاحظ — ولو اننا نوافق المؤلف في النتائج التي توصل اليها والدعوة التي ينادي بها — ان الاستاذ مكدوجال في اعتقادنا قد فاته أن يشير الى اكثر الاسباب قوة ووضوحاً وصدقاً في تقدم العلوم الطبيعية ، وتخلف علوم الاجتماع . ويبدو لنا أن المنفعة المادية التي ذكرت ليست بأميز خواص العلوم الطبيعية ، وان كانت نتيجة من نتائجها . غير انها لم تكن الحافز الأول والمهم لدى العالم في معمله او الرياضي في مكتبهِ . بل ان هنالك من العلوم الطبيعية ، المزدهرة ما ليس فيها اي فوائد مادية مباشرة تنجم عنها أو يقبل عليها الجمهور لفائدتها، كأبحاث اينشتين مثلاً ودراسة الفلك وطبقات الارض الخ !

وعندنا ان السبب الأول والمهم في تقدم العلوم الطبيعية انما هو سبب طبيعي لا سبيل الى نكرانهِ او تخطيهِ وهو ان العلوم الطبيعية اسهل من العلوم الاجتماعية اذ ان البحث في العلم الطبيعي يرجع الى ملكات الانسان الأولية المشاعة . وان اسلوب البحث العلمي أسهل ووسائل التثبت والفحص فيهِ قريبة التناول. والباحث في العلوم الطبيعية لا يحتاج الى اكثر من الذكاء العادي الى جانب الملاحظة والفحص والتجربة والمثابرة — الاشياء التي يعتمد فيها على الحواس — والعلم الطبيعي في هذا المعنى لا يعنى الا بعالم المحسوسات ولا يهتم بالقيم الغامضة والدوافع المجهولة ، والسبح وراء التأملات والتخيلات وعالمهُ انما هو عالم المادة والمحسوسات وادواتهُ موجودة في « حيز الفضاء والزمن » . على خلاف علوم الاجتماع ودراسة الأنسان فأن حظ الحس فيها أقل وعالم القيم والفكر فيها اكثر ، ونصيب التخيل والذكاء أوسع . فنحن قد نتفق عموماً على وجود هذه الحروف والكلمات التي تكوّن هذا المقال. ثم نحلل هذه الصحيفة ومحتوياتها وعناصرها الكيمائية والطبيعية فنردُّ الورق والحبر الى اصلها والحروف والرسوم الى طبعها . ولكننا قل أن نتفق على قيمة هذا المقال او نفسية كاتبه او الدوافع التي دفعت بهِ الى تسطيره ، لأن مرد هذه الأشياء الى غير الحس والى غير المنطق الذي يسهل الاتفاق عليهِ بين معظم الناس

فارتقاء العلوم الطبيعية اذاً شيءٌ طبيعي لم يتعدَّ قانون البساطة والسهولة. وليس الغريب ان ترتقي العلوم الطبيعية اكثر من علوم الاجتماع . بل الغريب ان تنعكس المسألة . والعلوم الطبيعية مهما ارتقت تكاد تكون أولية — من هذه الوجهة — اذا قيست بالدين والفلسفة وعلم النفس مثلاً

فاذا نجم عن العلوم الطبيعية بعض الفوائد النفعية فليست هذ الفوائد بواعث تقدمها والاقبال عليها . وان كانت مما يشجع على البحث فيها والمضي في درسها

ولطالما ظننت، أن العلم الطبيعي — مهما طنطن الناس بعظمته — أوليٌّ في وسائله وفهمهِ اذا قيس بالدين في صميمهِ ولبابهِ

معاوية نور

المعنى التائه

أنتِ معنىً تائهٌ في ذات نفسي يا حياتي
كلما دققتُ فيهِ طوّحت بي خطراتي

***

كان قبل الحبِّ، قلبي، يتغنّى هائماً
في رياض طلع البدرُ عليها باسماً
وليالٍ رقدَ الكونُ عليها حالماً
تتراءى بسمةُ الثغر عليها دائماً
ثم طار القلبُ حيناً في وسيع الخلواتِ
وصداهُ لم يزلْ يُسمعُ حُلو النغماتِ...

***

لستُ أدري أين ولّى، حين ولى ومضى ؟!
هو في الأفقِ توارى، وتلاشى في الفضا
مثل لحظٍ بعثتهُ الغيدُ في ساعِ الرضا
أو كبرقٍ خطف الأبصارَ لما ومضا
واختفى عن مقلتي، قلبي، سريعَ النبضاتِ
وتلاشى الصوتُ في الآفاقِ الا الهمساتِ

***

همساتٌ كُنّ كالوحي سريعات التخفي
لم تكد تهبط حتى اسرعت في مثل خوف

وتلاشتْ ، وأنا ابحثُ عنها مثل طيفٍ فرِ
غير ان الزهر افشى سرَّها في طيب عرف
فذكا . واستشعرتْ رُوحي حديثَ الزهراتِ
فنشقتُ العِطرَ حتى اسكرتني نشقاتي

***

ثملتْ رُوحي قليلاً ، وغفت عيناي حِينا
فتعرَّت ذكرياتي عن جلابيب السنينا
ومضت ترقصُ أحلاماً تهزّ الحالمينا
وترامتْ فوق صدري فترفقتُ حنونا
في احتضاني جِسمها الرطْبَ ، وكانت قبلاتي
تسترُ الجسمَ المعرّى ، عن دنايا نظراتي . . .

***

مَن هي الحسناء؟ . . . ذكرى حبِّ رُوحي
نزلتْ من أوجها العالي لمعشوقٍ جريحِ
من هو المعشوقُ؟ . . . يا أحلامُ بوحي !
لم تَبُحْ احلامُ نومي ، ودنَتْ للذكرياتِ
فأفاقت ومضتْ عني ، وحلّت يقظاتي

***

واذا بالحُلم معنى تائهٌ في ذات نفسي
استمدُّ الوحيَ منهُ في خيالاتي وحسي
وإذا في راحة النفس ، وكونُ الله ممْسِ
هتفتْ رُوحي بقلبي فاذا بالقلب آتِ
واذا بالحُلمِ يبدو مُحيياً لي ذكرياتي

حسن كامل الصيرفي

نوابغ العرب في العلوم الرياضية

مع الاسف الشديد لم يكن لبعض علماء العرب حظ في البحث عن آثارهم والتنقيب عن منتجات قرائحهم ومعظم ذلك يرجع الى اهمالنا الاهمال الذي جعل البعض ينكر على العرب ملكة الأبتكار والذي جعل ايضاً فئة من علماء الفرنجة يأخذون بعض النظريات التي وضعها العرب ويدعونها لانفسهم. وقد كنا ذكرنا امثلة على ذلك في مقالات لنا سابقة في هذه المجلة. ومما لاشك فيه ان اهمالنا ايضاً كان عاملاً من العوامل التي جعلت تاريخ العلوم عند العرب غامضاً ومن ذلك نتج ان طائفة من اصحاب العقول الممتازة لم تَنَلْ نصيبها من التحليل وأصبح البحث عنها عسيراً ويحتاج الى جهد كبير لاسيما بعد ضياع بعض المخطوطات وتفرق الآخر في اوربا ولكن كل ذلك يجب ان لا يحول دون ذكر من نستطيع ان نكتب عنهُ ولو اسطراً قليلة، وأملنا ان يأتي اليوم الذي تتمكن فيهِ من ان نفي هذه الشخصيات حقها. ومن هؤلاء ابي كامل شجاع بن اسلم الحاسب المصري الذي ظهر في اوائل القرن الثالث عشر الهجري بين سنتي ٨٥٠ و ٩٣٠ م[1] وتاريخ حياتهِ غامض « وكان فاضل وقته وعالم زمانهِ وحاسب اوانهِ وله تلاميذ تخرجوا بعلمهِ »[2] وله عدة تآليف منها:

كتاب الجمع والتفريق[3] وهو كتاب يبحث في قواعد الأعمال الأربعة ولا سيما فيما يتعلق بالجمع والطرح. وكتاب الخطأين[4] الذي يبحث في اصول حل المسائل الحسابية بطريق الخطأين[5] ويقول كشف الظنون انهُ كتاب مفيد. وكتاب — كمال الجبر وتمامهُ والزيادة في اصوله — وكان يُعرف بكتاب الكامل ويقول كتاب آثار باقية « ان هذا الكتاب اول اثر لأبي كامل في الجبر وان المؤلف ادعى انهُ الف هذا الكتاب لا كمال نقصان كتاب محمد بن موسى الخوارزمي » وقد بيّن فيهِ ان للخوارزمي فضلاً في تقدم علم الجبر والمقابلة. وكتاب الوصايا بالجبر والمقابلة الذي يقول عنهُ كتاب كشف الظنون في الجزء الثاني ص ٢٧١ ما يلي « . . . . قال ابو كامل شجاع بن اسلم في كتاب الوصايا بالجبر والمقابلة الفت كتاباً معروفاً بكمال الجبر وتمامهِ والزيادة في اصوله والقيت الحجة في كتابي الثاني بالتقدمة والسبق في الجبر والمقابلة لمحمد بن موسى والرد على المحترف المعروف بابي بردة ينسب الى عبد الحميد الذي ذكر انهُ جده ولما بينت تقصيره وقلة معرفته بما ينسب الى جده رأيت ان اؤلف كتاباً في الوصايا بالجبر والمقابلة»

---

(١) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٢) ابن القفطي — كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١٤٣ (٣) ابن النديم — الفهرست — ٣٩٢ (٤) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢ (٥) صالح ذكي آثار باقية — ج ٢ ص ٢٥٤

وكتاب الجبر والمقابلة [١] ويقول عنهُ كشف الظنون في الجزء الثاني في ص ٢٧١ ما يلي « ولأبي كامل المذكور كتاب الجبر والمقابلة مجلد اوله . . . . ذكر انهُ كان كثير النظر في كتب العلماء بالحساب فرأى ان كتاب محمد بن موسى الخوارزمي المعروف بالجبر والمقابلة اصحها اصلاً واصدقها قياساً وكان مما يجب علينا من التقدمة والاقرار له بالمعرفة والفضل اذ كان السابق الى كتاب الجبر والمقابلة والمبتدي له والمخترع لما فيهِ من الاصول التي فتح الله لنا بها ما كان منغلقاً وقرَّب بها ما كان متباعداً وسهل بها ما كان معسراً ورأيت فيها مسائل ترك شرحها وايضاحها ففرعت منها مسائل كثيرة يخرج اكثرها الى غير الضروب الستة التي ذكرها الخوارزمي في كتابهِ فدعاني الى كشف ذلك وتبيينهِ فالفت كتاباً في الجبر والمقابلة ورسمت فيهِ بعض ما ذكره محمد بن موسى في كتابهِ وبينت شرحهُ واوضحت ما ترك الخوارزمي في ايضاحهِ وشرحهِ الخ » . وكتاب الوصايا بالجذور [٢] وكتاب الشامل الذي يبحث في الجبر «وهو من احسن الكتب فيه ومن احسن شروحهِ فيهِ شرح القرش » [٣] وقد يكون هذا الكتاب هو بعينهِ كتاب الجبر والمقابلة . وعلى كلّ فابو كامل قد اعتمد كثيراً على كتب الخوارزمي واوضح بعض القضايا التي لم يبحث فيها وكذلك اوضح في مؤلفاتهِ مسائل كثيرة حلها بطريقة مبتكرة لم يُسبق اليها . وله كتب اخرى ككتاب الكفاية وكتاب المساحة والهندسة وكتاب الطير وكتاب مفتاح الفلاح [٤] واشتهر ايضاً برسالتهِ في المخمس والمعشر وكذلك بكتبهِ في الجبر والحساب [٥] وهو وحيد عصره في حل المعادلات الجبرية وفي كيفية استعمالها لحل المسائل الهندسية [٦] ، ولقد كان ابو كامل المرجع لبعض علماء القرن الثالث عشر للميلاد وبرهن على ذلك كاربنسكي [٧]

ومنهم محمد بن حسن ابي جعفر الخازن الذي ظهر في اواخر القرن الرابع الهجري [٨] ومع الأسف لا يمكننا ان نكتب عنهُ كغيره من السابقين اذ ان المصادر التي بين ايدينا لا تفيه حقه ولا تكتب عن حياتهِ شيئاً يشفي الغليل فلا نجد مثلاً في كتاب الفهرست لابن النديم الا ما يلي « واسمه . . . . . وله من الكتب زيج الصفائح وكتاب المسائل العددية » . ويقال انهُ من الذين حلوا المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط [٩] اما كاجوري فيقول ان ابا جعفر اول عربي حل المعادلات التكعيبية هندسيًّا بواسطة قطوع المخروط . وبحث ابو جعفر في المثلثات وقد عرفت ذلك من كتاب شكل القطاع لنصير الدين الطوسي ففي ص ١١٥ من هذا الكتاب عند الكلام عن الشكل المغنى نجد ما يلي « برهان آخر — استعمله ابو الفضل التبريزي في شرح المجسطي وابو جعفر الخازن ايضاً

(١) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢ (٢) كاتب جلبي — كشف الظنون — ج ٢ ص ٣٠٦ (٣) كاتب جلبي — كشف الظنون — ج ١ ص ٣٨٩ (٤) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٩٢ (٥) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٦) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٧ (٧) كاجوري — تاريخ الرياضيات — ص ١٢١ (٨) صالح زكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٦٥ (٩) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٦

في مطالب جزؤية ميل الميول الجزؤية والمطالع في الكرة المستقيمة قبل ان اقامه هؤلاء الفضلاء مقام الشكل القطاع وتقريره على ما اورداه هكذا .... » وكذلك عند الكلام في فروع المغنى ولواحقها نجد فيه ما يلي « ... وبوجه آخر قد اورده ابو الفضل التبريزي وابو جعفر الخازن كل واحدمنهما في تفسيره للمجسطي شكلاً لمعرفة المطالع يتبين هذا البرهان منهُ وتقريره بان نعيد الشكل الذي اوردناه رواية عنهما للبرهان على المغنى........»[١]

ومن مؤلفاته عدا زيج الصفائح وكتاب المسائل العددية رسالة في الحساب وشرح للمقالة العاشرة من كتاب الاصول لاقليدس وهذا الشرح محفوظ في احدى مكاتب الاستانة

ومن الذين ظهروا في عصر المأمون احمد بن عبد الله حبش الحاسب المروزي وما يعرف عن حياته نادر [٢] فيقول كتاب الفهرست انه جاوز سن المائة

وقد قضى معظم اوقاته في المطالعة والبحث في كتب الاقدمين في مختلف الفروع ، وهو من الذين كتبوا كثيراً في الفلك وآلات الرصد[٣] . ويقال انه عمل اول جدول للظل وللظل تمام [٤] وهذا الجدول في احدى المخطوطات الموجودة الآن في برلين ويظهر ان حبش الحاسب استعمل القاطع ايضاً . وله عدة تآليف منها: ثلاثة ازياج ، اولها المؤلف على مذهب السند هند خالف فيه الفزاري والخوارزمي في عامة الاعمال واستعمالهِ لحركة اقبال البروج وادباره على رأي (ثاون) الاسكندراني واتضح له بها مواضع الكواكب في الطول [٥] وثانيها الزيج الممتحن « وهو اشهر ما له ، الفه بعد ان رجع الى معاناة الرصد وضمنه حركات الكواكب على ما يوجبه الامتحان في زمانه [٦] » ومما يدل على خطر هذا الزيج وفضل مؤلفه كون ابي الريحان البيروني في كتابين له دافع عن الزيج الممتحن [٧] ولقب حبش الحاسب بالحكيم حبش في كتابهِ الآثار الباقية عن القرون الخالية [٨] . وثالثها : الزيج الصغير المعروف بالشاه [٩] . ولهُ ايضاً كتاب الابعاد والاجرام وكتاب عمل الاسطرلاب ، وكتاب الرخائم والمقاييس وكتاب الدوائر الثلاث المماسة وكيفية الاوصال ، وكتاب عمل السطوح المبسوطة والقائمة والمائلة والمنحرفة [١٠] . ولقد لحظت ان للحبش ايضاً زيجين آخرين غير الثلاثة المذكورة — الزيج الدمشقي والزيج المأموني — وهذان الزيجان مذكوران في كتابي تاريخ الحكماء والفهرست ويقول كتاب — آثار باقية — ان هذين الزيجين قد يكونان كناية عن الزيج الممتحن [١١]

نابلس — فلسطين قدري حافظ طوقان

---

(١) نصير الدين الطوسي — شكل القطاع ص ١٢٣ (٢) صالح ذكي - آثار باقية — ج ١ ص ١٥٦
(٣) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ١٧٤ (٤) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ٢ ص ٦٢٠
(٥) صاعد الاندلسي — طبقات الامم — ص ٨٦ (٦) صاعد الاندلسي — طبقات الامم — ص ٨٦
(٧) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٧ (٨) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٧
(٩) صاعد الاندلسي — طبقات الامم — ص ٨٦ (١٠) ابن النديم — الفهرست — ص ٣٨٤
(١١) صالح ذكي — آثار باقية — ج ١ ص ١٥٧

العلم يكشف خفايا الجرائم

المكرسكوب

قُتِلَ « داوود وتر » من اهالي ولاية نيوجرزي الاميركية في ليلة من ليالي الشتاء. فكان مقتله سبباً للتذرع بالمجهر المكرسكوب الى فضح اسرار الجناية

وكان في الدار حينما قتل ربها، شاب في العشرين من عمره وهو ابن اخي القتيل، ومديرة شؤون الدار، وسائق سيارة، قضى عدة سنوات في خدمة ذلك الغني الارمل. وما بلغ الخبر اسماع الشرط حتى خفوا الى مكان الحادثة قصد تحقيقها فسألوا اهل الدار، الذين تقدم ذكرهم، عما يعرفونه بشأن الجريمة، فقرروا جميعاً أنهم قصدوا ليلتئذ الى مخادع نومهم مبكرين مغادرين ذلك الشيخ بجانب الموقد حيث كان يصطلي ويراجع حسابات دخله وخرجه وأنهم لم يسمعوا في تلك الليلة اصواتاً خارقة للعادة. وقالت مديرة شؤون الدار انها شاهدت في صباح ذلك اليوم سيدها صريعاً على مقعده ذي المسندين المغشى بقماش الكريتون [1] وقد حطم رأسه بمطرقة وجدت ملقاة بجانبه مضرجة بالدم

ثم نيط تحقيق الجناية بمخبر سريّ من الفنيين ففحص مقبض المطرقة فعثر فيه على قطرة دم جسيد [2] وذلك في الموضع الذي مسته ابهام كف الشخص الذي قبض على المطرقة. ودرس المخبر الفني مقبض المطرقة درساً مدققاً بالمجهر فلم يجد فيه آثار لاصابع السفاك لانه كان منقفزاً حينما اقترف الجريمة. وعندئذ طلب المخبر رؤية كل ما كان في الدار من القفافيز فأجاب سائق السيارة بأن قفازه كان قد اتلف بالامس من حامض اريق عليه من احدى بطاريات السيارة فنبذه قصيًّا فأصرَّ المخبر الفني على معاينته فلم يسع السائق الاَّ ارشاده الى الموضع الذي القاه فيه وهو ركام من رثيث الثياب كان مركوماً في مستودع السيارة، فشرع المخبر الفني يفتش ذلك الركام حتى عثر فيه على القفاز المنشود. ثم اخذه معه وعرضه للضياء متفرساً فيه فوضح له ان انملة ابهام القفاز اضحت كأنها هريئة من تأثير الحامض فيها

وخشي ان تجوز عليه تلك الخدعة المحبوكة فهرول الى معمله العلمي حاملاً بيديه القفاز والمطرقة حيث عرضهما لمجهر مزدوج قويّ فأتيح له في ثلاث دقائق الاهتداء الى شيء غريب اذ استطاع في اقل من ساعة الحصول على شريطين محتويين على صورتين فوتوغرافيتين

---

(١) القماش القطني المنقوش الذي يستعمل للستائر والمفروشات (٢) الجسيد — جسد الدم به لصق فهو جسد وجسيد وجاسد

ميكروسكوبيتين حلتا لغز الجريمة . اذ احتوي احد ذينك الشريطين على صورة مكبرة لبقعة دقيقة بيضية الشكل حيث يظهر منخفض خشبي على مقبض المطرقة . وظهر له ان الخراط لما خرط الخشب الذي اتخذمنهُ مقبض المطرقة كان قد مرّ على المنخفض من دون صقله . وبان في الشريط الآخر بقعة بيضية الشكل تماثل التي في الشريط الاول بيد انها ملأى بخطوط موجية الشكل تمثل صورة مكبرة لبصمة بُصمت في كف القفاز عند ما قبض القاتل على الاداة التي ارتكب بها الجناية . والواقع ان المطر كان قد نزل في ذلك الحين فبلل قفاز القاتل . وهذا سبب ظهور البصمة جيداً تحت المجهر . فجاء بالصورتين ووضع طرف احداهما فوق طرف الاخرى فظهرتا كأنهما مطبوعتان من شريط واحد فلم يجد السائق بدّاً من الاعتراف وهو أن سيده كان قد علم بالسرقات التي كان يسرقها منذ عدة سنوات فهدّده بابلاغ امره الى البوليس الا اذا ردّ كل المسروقات التي سرقها ، فاستاء جدّ الاستياء وجعل يفكّر في الانتقام . فتسلل خلف مقعدم بينما كانت العاصفة تعصف حول الدار ثم قتله بضربة واحدة . وكان السائق المجرم وقتئذٍ متقفزاً اكيلا تظهر بصمات أصابعه على مقبض المطرقة . ولكن من سوء حظه أن سقطت قطرة من دماء القتيل على أصبع قفازه فعمد الى ازالتها فغمسها في احد الاحماض متوخياً طمس معالم الجريمة ، فتمّ لهُ ما اراده وانما الى حين . لان الادلة الخفية التي اظهرها المجهر أوقعت ذلك المجرم في أحبولة العدل فاعترف

قال الكاتب الامريكي : — والذي ابلغني تفاصيل الحادث المدهش المتقدم ذكره مخبر فنيّ من صفوة المخبرين السرّيين الذين يعملون تحت إمرة معمل التحليل الكيماوي الخاص بالبحث عن الجرائم بالوسائل العلمية في مدينة شيكاغو بامريكا. ولقد سمعت بعشرات من النوادر التي استخدمت فيها المجاهر لاظهار خفاياها بفحص أشياء دقيقة جداً تتعذر رؤيتها بالعين المجردة

ومنها وقائع كانت البينة فيها على الأئمة الطغاة ، ذرات من الغبار والفلزات ، وحوادث لكبار مزوري الوثائق كان الدليل فيها عليهم تضاريس دقيقة جداً تظهر في المداد الجاف الذي استعمل في الكتابات القديمة وغيرها من وقائع شطار الجناة الذين استدل عليهم المخبرون الفنيون من خدش دقيق وُجد على سطح معدني لا تزيد سعته على جزء من ١٠٠٠٠ جزء من العقدة واخرى ضد القتلة حملة المسدسات كانت الادلة فيها شهادات صامتة شهدت بها نسالة ضئيلة !! فسجنوا ونالوا القصاص الحق

وبناء على ما تقدم ترى المخبر الفني العصري اذا ما تحفز لعمله ونظف عدسة مجهره ليفحص بها دقائق الاشياء للبحث عن المجرمين خلتَ ذلك المصباح وهو بين يديه مصباح علاء الدين[1] في كتاب الف ليلة وليلة العربي المشهور . وللمجاهر المزدوجة اعظم شأن في عالم الجرائم ودوائر

(١) مصباح في الاساطير : اذا ظفر به امرؤ ورغب في صفله فسه بيده ظهر له الجان قائلا « لبيك سيدي : ماذا تبغي »

التنقيب عن المجرمين في هذا العصر فيتمكن بها العلماء من فحص الغبار والشعر والوبر وفرز الجواهر الكاذبة ونقد النقود المزيفة . ويتيسر بالمجاهر دراسة انواع الكتابة خطية كانت او طباعةً او مكتوبة بالآلة الكاتبة ، درساً فنياً . ويُعتَمدُ على المجاهر ايضاً في استقراء بصمات الاصابع . وعليها كذلك المعوَّل في فن دراسة الآثار التي توجد على الرصاص المطلق

ومما يجدر ذكره أن العلماء لا ينون في استنباط الاجهزة العلمية التي تساعد المخبرين الفنيين الذين يعولون في اعمالهم على المجاهر . ومن هذا القبيل ان متجراً من متاجر ديترويت في الولايات المتحدة الامريكية عرض في السوق مجهراً مجهزاً ببطارية كهربائية تشعل مصباحاً ينير المجهر ليلاً كي يستعمل في التحقيقات الليلية . وان صانعاً من صناع مدينة نيويورك ايضاً قد اخترع مجهراً محتوياً على عدة مصابيح كهربائية صغيرة الحجم . وثمت ايضاً مجاهر قوية من الصنف الممكن طيه ونشره لتستعمل في الميادين . وآلات لمعارضة الاشياء بعضها ببعض ذات عدسات مزدوجة تظهر للدرس شيئين في آن واحد ، وهذه تصنع على احجام مختلفة . وهناك آلات اخرى مزدوجة تكبر الاشياء الدقيقة الى ١٢٠٠ ضعف اخترعت مندمجة بعضها في بعض لكي تستعمل بمثابة أدوات وقتية في المعامل العلمية عند اشتداد الحاجة اليها . فأصبحت اجهزة ذلك الفن تتراوح في الحجم بين آلات صغيرة يتسنى حملها في الجيب ولا يزيد جرمها على ربع الريال ، الى اجهزة ضخمة تبلغ هامة الانسان طولاً ويصل وزنها الى نصف طن

والذي اخترع هذا المجهر الضخم (الذي يسمى مجاسكوب) المستعمل في المعامل العلمية هو (لوقا . س . ماي) المشهور بكشف اسرار الجرائم بالوسائل العلمية . وهذا المجهر يكبر الجسم الى ٥٠٠٠ ضعف . فاذا اتفق لك زيارة مختبره العلمي في مدينة سيتل بولاية واشنطون استطعت رؤية عدسة ذلك المجهر الصقيلة وابصرت شعرة الانسان المكبرة تخلها عمود تليفون ، وذرة الغبار كأنها صخرة ضخمة . واصغر شرط الكتابة التي تخطها بيراعة فولاذية ، ممتدة كأنها شريط أسود عريض على سطح ابيض

هذا المجاسكوب هو الذي ذاعت شهرته منذ سنتين في الكشف عن جناية غامضة بالوسائل العلمية . وتفصيلها كما يلي : —

اضطر موظف من موظفي احد مناجم ولاية ايداهو الى الغياب عن داره ذات ليلة لانشغاله في عمل يتعلق بادارة المنجم وترك قرينته في الدار وحدها . وكانت تلك الليلة حالكة الظلام فأوجست الزوجة خيفة وباتت ساهرة حتى بُعيد الساعة الاولى بعد منتصف الليل فسمعت صريف أحد ابواب مخدعها يطرقه طارق فارتعدت فرائصها ثم سمعت هيمة المعتدي وهو يتلمس طريقهُ في غرفة خارج الغرفة التي كانت نائمة فيها حيث كان يُعَيِّثُ [1] في خزانة الملابس

---

(١) يعيث — يطلب شيئاً باليد من غير ان يبصره

وكانت تحتوي على ٦٠٠ ريال كان زوجها مزمعاً ايداعها في البنك صباح اليوم التالي . وما أيقنت من وجود اللص في الدار حتى اخذت تصرخ بأعلى صوتها مستغيثة بحفظة الامن والجيران

وحينئذ استحوذ الذعر على اللص وشرع في الهرب حاملاً غنيمته في احدى يديه فاتجه نحو النافذة وهو يظنها باباً مفتوحاً فخاب ظنه فاشعل ثقاباً لينير طريقه ، فما تبينهُ حتى لاذ بالفرار تحت جنح الليل قبل قدوم الجيران . ولما كانت تلك السيدة لم تلمح وجه اللص فلم يجد المحقق أي دليل يستدل به على الجاني لحفظ القضية لافتقاره الى البينة الكافية فرأى ولاة الامور الاستعانة بالمستر لوقا . س . ماي فلبي الطلب وتولى التحقيق

وكان اول سؤال وجهه الى ربة الدار المجنى عليها « اين أشعل اللص ثقابه ؟ » فاجابته قائلة « بجوار النافذة » . وكانت ربة الدار بناء على ارشاد الشرطة قد تركت كلّ شيء من الامتعة التي كانت في الغرفة التي وقعت فيها السرقة في تلك الليلة على حاله حتى يفحصه المخبر الفني . فلما دخل ذلك المخبر المشهور ، الحجرة رأى فيها كرسيين مائلين نحو الحائط بجوار النافذة ثم شاهد بجانب ذينك الكرسيين على أرض الغرفة ثلاثة عشر عود ثقاب لا عوداً واحداً كما كانت تزعم ربة الدار ! ! !

وجعل مخبرنا هذا ينقب عن الجاني فعلم انه في المساء السابق لحدوث السرقة كان ذلك الموظف رب الدار هو وصديق لهُ جاءهُ زائراً ، يدخنان بجانب النافذة ساعات طويلة حيث اشعلا في اثناء التدخين كثيراً من عيدان الثقاب . وكانا يرميا المستعمل منها تحت اقدامهم فسر المستر ماي بتلك العيدان الثلاثة عشر الصغيرة الحجم فالتقطها من ارض الغرفة وعني بجمعها في يده . وكان عند حسن ظنه فانه لما فحصها وجد اثنى عشر عوداً منها محتوية على خطوط مستطيلة اما العود الثالث عشر فكان مستديراً مثني الطرف . فأشار المخبر الى ذلك العود وقال « هذا هو ضالتي المنشودة » . وادار وجهه نحو مجهر قوي كان يحمله واخذ يدرس عود الثقاب الصغير الآنف الذكر فوجده ملوثاً بدقيقة من الشحم وذرة من تراب الفحم الحجري وذرة من خليط معدني مؤلف من برادة الحديد والنحاس الاصفر مما يستعمل في اللحم بالنحاس . ثم دقيقة من خيط طريف لا مثيل له في مجموعة المستر ماي الوافرة . فكانت هاتيك البينات العشر التي عثر عليها في ذلك العود الصغير كافية لارشاده الى المجرم — ذلك انه قصد الى المناجم السبعة المجاورة لمكان وقوع الحادثة ودخل غرفة الآلات البخارية في كل منها وفتشها فعلم ان احدى تلك الآلات كانت قد نسفت منها احدى رؤوس أساطينها وذلك في نهار اليوم الذي حدثت فيه السرقة فسأل قائلاً « أين البراد الذي رد ذلك الرأس الطائر من الاسطوانة بعيد لحمه بالنحاس ؟ » فجيء به في الحال فتفرس في اظفاره واخذ يخرج من تحتها ذرات تراب فحم حجري واخرى من برادة خليط الحديد والنحاس الاصفر . ثم جرد المخبر ذلك الصانع من ثياب العمل

التي كان يرتديها وقتئذ فابصر تحتها حلّة اخرى (بذلة) مصنوعة من نسيج غريب ذي شكل شاذ . ففتش جيوب تلك الحلة فوجد فيها بعضاً من الثقاب مستديرة الشكل مثنية الاطراف، ثم اخرج المخبر ذرات من وبر بطانة جيوب تلك الحلة فاذا هي مطابقة من كل الوجوه لقطعة الخيط الدقيقة التي وجدت عالقة بعود الثقاب الثالث عشر . وبناءً على تلك النتيجة التي المخبر الفني القبض على الصانع المشار اليه وقاده الى مكتب عمدة البلدة فلم يرَ السارق مفرًّا من اقراره بوزره وهو سائر في الطريق قبل وصولها الى مقر العمدة . وكان القبض على ذلك الجاني من المدهشات إذ اتيح للمخبر الفني اخراجه من وسط ٧٠٠ صانع من زملائه الذين يعملون في مناجم تلك البلدة بولاية ايداهو

ولما كانت ذرات التراب وغبار المعادن ذات فوائد جليلة في حل معضلات الجرائم لذلك ترى المعامل العلمية الخاصة بتحقيق الجنايات في أوروبا وامريكا تخص دراستها بفائق عنايتها . وهذا مما حمل الدكتور سيفرين ايكار الفرنسي المشهور بالتخصص في تحقيق الجنايات بالمجهر، على اعلان نجاحه الباهر في طريقة الاستدلال على صناعة أي شخص من ذرات الغبار التي توجد في جوف ساعته

ومثال ذلك ان ذرات الكربون توجد دائماً في بواطن ساعات الصناع، الذين يستخدمون في مستودعات السيارات ، وعمال الفحم الحجري كما توجد ذرات المعادن في ساعات المهندسين الميكانيكيين وذرات الطين الخزفي في ساعات البنائين . وتوجد ايضاً في بواطن ساعات الحلاقين دقائق من الشعر . وفي ساعات العازفين على الكمنجات ذرات من الراتينج (القلفونية)

وقد حذا حذوهم في تلك الدراسة المخبرون الفنيون في مدينة برلين عاصمة المانيا فتراهم يحللون أنواع الغبار الذي يتطاير من الصناعات المختلفة على ثياب الصناع فيعلق بها . وفي فرنسا مخبر فني قضى عدة أشهر يحلل ذرات الغبار التي توجد في حواجب عيون المجرمين . ومخبر آخر يدرس نماذج الغبار التي توجد لاصقة بصملاخ آذانهم . فلا غرو اذا اصبحت مجموعة انواع الغبار من معدات المعامل العلمية التي يستعين بها المخبرون الفنيون على مقابلة الاصناف بعضها ببعض. ولا مندوحة للقضاة عن التعويل على الشهادة البليغة التي تشهد بها تلك الذرات !!

قال الكاتب الاميركي : — دخلت احدى الحجر المودع فيها مجهر من مجاهر تحقيق الجنايات فقضيت ساعات عديدة في مشاهدة أولئك المخبرين الفنيين قائمين باعمالهم حيث رأيت طبقات من غبار نفض من حذاء مجرم وحلل ابتغاء الاستدلال على تنقلاته قبيل اعترافه بالجناية ، فوجدت فيها ذرات من الطين الخزفي واخرى من تراب زيتي ودقائق من الهشيم وهنامات من الحصى ملتصق بها نزر من التبن والبرسيم . فكانت تلك البينات بمثابة سجل لحركات المجرم مكن الخبير الفني من رسم الطريق التي سلكها محتذياً حذاءه آنف الذكر إذ ايقن الخبير ان

الجاني قد مشى على طريق مغشاة بالزيت فاجتاز حقلاً ذا طين خزفي ثم اخترق غابة ومن ثم سار على ضفة نهر حتى التقى عصا الترحال في هري من اهراء الغلال . وثبت ان هاتيك المعلومات ومثيلاتها في عشرات من القضايا كانت معواناً صادقاً لدحض مزاعم المجرمين بانهم لم يكونوا في أماكن الجرائم عند اقترافها وكافية لاثبات التهم عليهم

واليك واقعة خطيرة من وقائع مناهضة المجرمين وهي دراسة الخدوش والآثار التي تتركها السكاكين في الاشياء المختلفة فيتوسل المخبرون الفنيون الى ادراك كنهها بالمجاهر القوية

حدث من عهد ليس بعيداً ان ورد على احد اهالي اقاليم الغرب في الولايات المتحدة كتاب تهديد فباشر احد المخبرين الفنيين اقتفاء آثار مرسله فاستدل عليه بشيء تافه وهو آثار دقيقة جداً لمبراة « مطواة » وجدت على براية قلم رصاص. ذلك ان ذرة من البراية الخشبية كانت قد سقطت عرضاً في الظرف الذي غلفت به الرسالة قبيل ارسالها بالبريد الى ذلك الوجيه

فتناول الخبير الفني الصور المكبَّرة بالمجهر الخاصة بالخطوط الغائرة والبارزة التي وجدت في البُراية فاذا هي مطابقة جداً المطابقة للآثار التي تركتها مطواة عُثر عليها في جيب أحد المتهمين

أما اذا أُريدَ تسجيل الآثار التي تتركها السكاكين الكبيرة والفؤوس والبلط والقدُم فيتناول الخبير الفني ايَّة آلة حادة منها ويضربها في قالَب من شمع النحل فتؤثر شفرتها فيه التأثير المرغوب اذ تترك في القالب قطعاً عرضيًّا تظهر فيه صورة كاملة للخطوط الغائرة والبارزة التي تميز أية آلة قاطعة من سواها

ولكن الخدوش التي تحدث من الآلات القاطعة للخشب ليست هي وحدها الشواهد التي يستنير بها المخبر الفني في سبيله بل هناك بيِّنات أخرى جوهرية وهي التي توجد على سطوح المعادن . وفي هذا الصدد يقول الكاتب الاميركي : —

كنت ذات يوم أناقش الاميرالاي كلفن جودرد رئيس المعمل العلمي الخاص بالكشف عن الجنايات في مدينة شيكاغو في تلك الحالة من أحوال أعمالهم فقال : « لو كان لديك مبرد فبردت به شيئاً مرتين لوجدت الأثر الذي يحدث من البردة الاولى مختلفاً عنه في البردة الثانية » وهذا لامراء فيه . وجميع ذلك تراه عدسات المجهر الثاقبة حيث يظهر كل شيء مهما كان دقيقاً سواء في السرعة او الزاوية او الضغط . وكذلك كل آلة قاطعة ومدية تحدث الأثر الذي ينم عليها تماماً وتأييداً لما سبق نورد الحادثة الآتية التي وقعت في كاليفورنيا من عهد قريب

سطا لصان شاطران على الصناديق التي تودع فيها أجور المحادثات التليفونية الاوتوماتيكية في شوارع المدن الساحلية بكاليفورنيا فأخذا يكسران أقفالها ويسلبان ما فيها من الدراهم والدنانير فغنما من ذلك ثروة جزيلة . واستمرا في عملهما ستة اسابيع وكانا يفتحان الصناديق عنوةً بمقاطع ومفكات خاصة ثم يهربان قبل أن يتمكن الشرطة من ادراكهما. ثم قبض الشرطة

ذات ليلة على شابين في فندق من فنادق مدينة سيتل بولاية واشنطون ففتشا حجرة نومهما فعثرا تحت حشية السرير على مقاطع وآلات أخرى . فكانت تلك الأدوات هي الدليل الوحيد على اتهامهما . ولكنهُ دليل غير كاف لتأييد التهمة تأييداً تاماً. فاستعان ولاة الأمور بمخبر فنيّ فأخذ يفحص الآلات السابقة الذكر فعرض لمجهره الثاقب الخدوش التي وجدت على آخر صندوق نقود وقعت فيهِ السرقة والخدوش التي أحدثت بالآلات المضبوطة فثبت أنها تشبهُ بعضها بعضاً كل الشبهِ اذ بينت عدسات المجهر مائة أثر كبير الحجم في مساحة لا تزيد على ثمن بوصة. وكان بعضها قبل التكبير لا يزيد على جزء من ١٠٠٠٠ من البوصة المربعة فتأيدت التهمة عليهما فسجنا

واليك نادرة أخرى من نوادر الانتفاع بالمجاهر أبلغنيها الدكتور هرمان بنديسن وكان وقتئذٍ موظفاً منوطاً بهِ فحص اسباب الوفيات الفجائية ومناهضة الجرائم وهي كما يأتي : —

اشتهر منذ بضع سنين اخوان من افظع السفاحين إذ بلغ عدد الذين قتلاهم بمسدسيهما اثنى عشر رجلاً ، فأخذ الشرطة في البحث عنهما حتى قبضوا عليهما راكبين سيارة مأجورة في شارع متشيغان وطفقا يفتشونهما فتجهم لهم القاتلان ولكنهما لم يسعهما الا الاذعان للتفتيش . فلم يجدوا معهما شيئاً ولكنهم عثروا في السيارة على مسدسين من النوع الأوتوماتيكي محشوين مخبوءين خلف كرسي السيارة فاعتقلوهما متهمين بتهريب الاسلحة . فاصرَّ المتهمان على القول إنهما لا علاقة لهما مطلقاً بذينك المسدسين . ثم دافع عنهما محاميهما بأن طلب أمام المحكمة سجل عدّاد السيارة من الشركة التي تديرها . فاتضح بفحصهِ أن أحد عشر راكباً ركبوا السيارة نفسها في ذلك اليوم وعندئذٍ قال المحامي لا بدَّ أن أحد أولئك الركاب قد دسَّ المسدسين المشار اليهما في المركبة

وسألني الدكتور بنديسن قائلاً : « ليتَ شعري ماذا ترى في الوسيلة التي توسّلنا بها الى الصاق التهمة بذينك المجرمين رئيسي العصابة ؟؟ » فأجبتهُ من فوري قائلاً « لعلها بصمات الأصابع » فقال « كلاّ لم تكن البصمات واضحة وضوحاً يساعدنا على ذلك بيد أننا عثرنا في أثناء التفتيش على نسالة لاصقة بأنبوبي المسدسين من بطانتي جيبي الحلة التي حُملا فيهما فاحضرنا في الحال بنطلوني المتهمين وفتشنا جيوبهما حتى حصلنا منها على نداقة فقابلناها تحت المجهر بالنسالة التي وجدناها عالقة بالمسدسين فاتضح انهما من نوع واحد فاستنتجنا من ذلك ان المسدسين لذينك السفاكين بل عرفنا سلاح كل منهما بالذات »

ويوجد لدى المستر فرنك جومبرت الموظف في ادارة الأحكام المدنية في مدينة لوس انجيلس بكاليفورنيا مجموعة نماذج طريفة من الأوبار جمعها من أقطار العالم كافة وذلك توخياً لاطلاع المخبرين الفنيين عليها لكي تعاونهم على الاضطلاع بأعمالهم. ويقال ان تلك المجموعة مؤلفة مما يزيد على مائتي الف نوع من الوبر

وقد علمت أن العلماء كثيراً ما يلجؤون الى المجهر كي يمتحنوا به نسالة الأقمشة في القضايا الغريبة . ومن هذا القبيل ما حدث في مدينة من مدن الأقاليم الشرقية بالولايات المتحدة من عهد قريب حيث كان مندوب لشركة من شركات صنع الملابس، كلف عرض نماذج من مصنوعات الشركة على الجمهور ترويجاً لها ، وهي صدارات لا يؤثر فيها الرصاص اذا أطلق على لابسها ، أقام هذا الرجل دعوى على زوجته قصد تطليقها ومن سوء طالعه أنه هو نفسه لم يك لابساً صداراً من ذلك النوع حين وجوده في المحكمة فحدث أن دعاه القاضي للشهادة فنهض من بين النظارة في المحكمة . وما لبث أن نطق بالشهادة المطلوبة حتى وثبت زوجته من مكانها وانتزعت من مثبنتها[1] مسدساً كان مخبأ فيها وأطلقت منه طلقتين ناريين فطاش أولهما واخترق الثاني الجزء العلوي من رئة زوجها اليسرى فمزقه . ونقل المصاب الى المستشفى ليعالج حيث قضى أسبوعاً وكان يرجح شفاؤه ولكنه أصيب فجأة بالتهاب رئوي فتوفي مأسوفاً عليه

وجعل ذوو الشأن يتساءلون : هل حدث الالتهاب الرئوي من الطلق الناري؟؟ وعرضت القضية على المحكمة لتفصل فيها فندبت للتحقيق الخبراء الموثوق بعلمهم فقام هؤلاء بكشط باطن الجرح الذي اخترقته الرصاصة ثم عرضوا الكشاط[2] وفحصوه بالمجهر فرأوا نسالات من ثياب القتيل الخارجية قد نفذت الى صدره حاملة اليه الجراثيم التي سممت الجرح فكانت منشأ الوفاة . فحكمت المحكمة بتأييد تهمة القتل عمداً على القاتلة

وقصارى القول ان المجهر الدوار قد أصبح ذا شأن عظيم في حل معضلات الجنايات وذلك بامتحان الأوبار والخيوط والألياف حينما ينشق القماش أو يتمزق . لأن شقة القماش مهما بدت للعين المجردة منتظمة الحواشي فلا تحسبنها كذلك لأن عدسة المجهر تظهرها مضرسة . وقد يثبت ذلك جلياً حينما يُلَمّ شعثها فتتعاشق كما كانت

وفي كثير من القضايا يظهر المجهر التزوير على الوثائق ونحوها ويوضح ايضاً الغش الذي يرتكب في تقليد الاختام الشرعية وفي تزييف النقود . ومن النوادر التي كان للمجهر القدح المعلّى في فضح أسرارها ما يأتي :—

حدث في صباح يوم من أيام الخريف الماضي بعيد الساعة التاسعة أن لمح رهط من الناس رجلين وهما كيماوي مشهور ومعاون له ، كان حديث الخدمة عنده، يلجان معملاً صغيراً للتحليل الكيماوي حيث كان ذلك العالم يقوم بتجارب في السوائل الطيارة . وما انقضت ساعتان حتى سمع الجيران صوت انفجار هائل فتغلغلوا في الشارع مستطلعين الخبر فوجدوا النار مشتعلة في ذلك المعمل الكيماوي وألسنة اللهيب تندلع من نوافذه مشبعة بالمواد الكيماوية . ودمّر الحريق المعمل برمته قبل وصول وسائل الاسعاف . فلما أدركته فرقة المطافىء أخذ رجالها

(١) المثبنة — كيس تضع فيه المرأة مرآتها وغيرها وجمعها مثابن (٢) الجلد المكشوط

يشقون طريقهم في اطلال المعمل المتصاعد منها الدخان فعثروا في خلالها على جثة متفحمة فاستدلوا من آثار الثياب التي وجدوها تحتها ومن خاتم وجدوه في أصبع من أصابع اليد اليمنى أن المحترق هو العالم نفسهُ وأما معاونهُ فلم يوقف له على أثر

وشرع المحققون في التحقيق فتبيَّن لهم ان العالم السابق الذكر كان قد أمَّن حياته حديثاً في غير شركة على مبالغ كبيرة ثم عهدوا الى الدكتور شنيدر استطلاع مكنونات الكارثة فاستنتج مما قام به من المباحث التي اجراها في شعر القتيل ، اذ جاءه معاونه الفني بثلاث نثارات من شعر قذال [١] الكيماوي المحروق (حيث صين قذاله صيانة جزئية بحرام مبلل) ووافاه معاون آخر بسباطة [٢] من شعر العالم الكيماوي نزعها من فرجون شعر كان يستعمله في بيته قبيل الحادث ثم عورضت الشعور بعضها ببعض وهي تحت عدسات المجهر فظهر الاختلاف تواً ظهور الشمس في رائعة النهار وعند ذلك ثبت للدكتور شنيدر أن شعر العالم الكيماوي كان دقيقاً سبطاً مستديراً بينما السبد [٣] الذي نتف من رأس الرجل الذي وجد محترقاً كان قطر الشعرة فيه أكبر منهُ في شعر العالم الكيماوي وشكله بيضي مما يدل على ان شعر القتيل كان جعداً . وهذا مما يبين بلاشك لعيني الخبير الفني ان القتيل لم يكن هو العالم الكيماوي

وأعلنت الجرائد تلك الخفايا المهيجة للعواطف فاخذ القراء يتهافتون على قراءتها ولكنهم ما لبثوا ان بوغتوا بنبأ آخر لاسلكي من مدينة بورتلند في ولاية أوريجون وهو انتحار رجل غريب كان نزيلاً في فندق قريب من صميم المدينة وانه هو الكيماوي المفقود. وقد تحققت شخصيته باعترافهِ الذي كتبه بخط يده قبل اقدامه على الانتحار . وكان يقصد بتلك الجريمة الشيطانية التدليس على شركات التأمين وابتزاز أموالها

وتفصيل الحادثة ان الكيماوي احرق ليمسه المعاون عمداً وانه لم يستخدمه في العمل الاَّ لسبب واحد وهو مشابهته التامة له ليظفر بغايتهِ ثم انه البس الجثة ثيابه وخاتمه تمويهاً على الناس لكي تجوز عليهم الحيلة . وقد ارتكب تلك الجناية عقب اهراقهِ الايثروثاني كبريتور الكربون على فريسته ثم هرب دون ان يراه احد تاركاً تلك المواد الكيماوية المتصعدة تشتعل وتتفاعل بمضي الوقت . وما تجلت تلك الحقائق الباهرة في الحوادث التي اوردناها وغيرها حتى ثبت ثبوتاً قاطعاً بان المجهر خير معوان للخبير الفني في اظهار خفايا الاوزار وسلاح ماضٍ لمقاتلة اللصوص الفجار والمجرمين العتاة بالوسائل العلمية . فليتنا نستفيد من هذه المباحث القويمة المدهشة (نقلاً عن مجلة العلم العام الاميركية) عوض جندي

(١) القذال ما بين الاذنين من مؤخر الرأس (٢) السباطة ما سقط من الشعر اذا سرح
(٣) السبد القليل من الشعر

فلسفة التاريخ الاسلامي

في القرن السابع للهجرة

كان التاريخ الاسلامي من التواريخ المصابة بالجمود والتعصب ، فلم يمحص من الاكاذيب والتوليدات والخرافات ، ولم يتخلص من قيود الرواية الشعوبية والاسناد التعصبي ، ولم يتملص من سلطة دجاجلة الدين الا في عهود هي في تاريخ الاسلام كالشبابيك المنيرة لقرارات السجون الحالكة ، ولقصر هذه العهود المنيرة والموازنة بينها ، نظر المحققون الى تاريخنا الاسلامي نظرهم الى الآثار المهملة والابنية العتيقة المتداعية التي طالما استرمّت فلم يرمها أحد واستهدمت فلم تجدّد ، والحق في ناحيتهم لانهُ — على كونه تاريخنا — نرى فيهِ من الاضطراب والتناقض والاختلاق والمبالغات ما لا يسكت عليهِ الا جاهل ولا يؤمن بهِ الا دجال مخادع ، وحسبك دليلاً على ما ذكرنا ان بعض المنافقين كانوا يكذبون على رسول الله — ص — في حياتهِ فيسمع باكاذيبهم ويصعد المنبر ويعلن الناس بانها مكذوبة ، والاسلام حينئذٍ غض فتيّ والايمان شمس مشرقة والفرائض ثابتة الاعلام راسخة الصوى . ان كل تاريخ لامندوحة لاهله عن تفهم فلسفته ، ولابد لهم من فتنهِ في مصهار التمحيص كفتن الذهب المخلوط بغيره في البوتقة ، وان الفلسفة تساير حرية الدين وإباحة المعتقدات وعهد ترقي العقل ، وتخمد في عصور دجاجلة المتسلطين والسلاطين الجاهلين والشعوب المبتلاة بالتعصب الاعمى

إن قلة فلسفة التاريخ الاسلامي ناشئة من ان اسلافنا — على رأي جماعة — ناس كاملون كمالاً بشرياً فافعالهم كاملة صالحة بعد افعال انبيائهم — ان لم تكنها — فمن تعرض لها بتمحيص او نقد او تحليل كان ملحداً زنديقاً فيلسوفاً ، والفلسفة كانت عندهم ترادف الزندقة ، مع ان هؤلاء الجاهلين لو تتبعوا الاخبار تتبع ناقل عاقل لا جاهل لوجدوا ان اولئك الاسلاف الآدميين كثيراً ما غلطوا فاستدركوا غلطهم وطالما وهموا فوقفوا على اوهامهم وربما تاهوا فارشدوا الى لقم الطريق

ومما نستحسن ذكره ههنا انهُ قد جاء في الاخبار ان الامام علياً — ع — كان يتكلم مع جماعة فمرّ بهِ يهودي فقال لهُ « لو انك تعلمت الفلسفة — يا ابن ابي طالب — لكان يكون لك شأن من الشؤون » فقال له الامام علي « وما تعني بالفلسفة ؟ اليس من اعتدل طباعه صفا مزاجه ومن صفا مزاجه قوي أثر النفس فيهِ ومن قوي أثر النفس فيه سما إلى ما يرتقبه ومن سما الى ما يرتقبه فقد تخلق بالاخلاق النفسانية ومن تخلق بالاخلاق النفسانية فقد صار موجوداً بما هو انسان دون ان يكون موجوداً بما هو حيوان وقد دخل في الباب الملكي الصوري وليس له عن هذه

الغاية مصير » فقال اليهودي : « نطقت بالفلسفة جميعها في هذه الكلمات يا ابن ابي طالب[1] »
فهذه الحكاية سواء أكانت صحيحة ام مولدة تثبت عليهم جواز تعلم الفلسفة لان الذي يبتدع حديثاً لاستحسان شيء هو راض به مجيز له بداهةً

ولو تتبع منصف عاقل ضحايا الفلسفة والزندقة في تاريخ الاسلام لذابت نفسهُ أسفاً من اتخاذهم الدين وسيلة للتشفي والثأر وستر عيوب السياسة واشباع الطمع ومماشاة الجشع وطلب الدنيا والجاه ، ولا اترك القارىء وفي نفسه شيء مما قلت بل اذكر له بعض الحوادث الدالة على صحة الدعوى ، فقد نقل الجاحظ عن عبد الله بن ياسين : ان المهدي بن المنصور كان فيهِ غزل وشدة حب الخلوة بالنساء فبلغهُ جمال عن ابنة لكاتبه ابي عبيدالله فقال للخيزران : «استزيريها» فاستزارتها وجاءت اليها ، فقالت لها الخيزران : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلت الحمام وافاها المهديّ فبرزت له ولم تستتر عنهُ فقال لها : انا وليك فزوجيني نفسك ، فقالت انا أَمَتُكَ ، فتزوجها ونالمنها ، فلما انصرفت أخبرت إخوتها بما كان فقالوا : أَمسكي عنهُ ، فلما كان بعد مدّة قالوا لها : استزيري الخيزران ، فاستزارتها ، فلما صارت اليها قالت : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلتا معاً ما شعرت الخيزران الا ببني ابي عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم ، فقالوا لها . لو اردنا ان نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا ولكنا لا نَستَحِل فقالت: والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم ، فانصرفوا ، فلما رجعت الخيزران اخبرت المهدي بذلك فكان السبب في قتل المهدي لمحمد بن أبي عبيد الله على الزندقة

ولما استولى البويهيون على العراق وما اليه ازدهرت الفلسفة ازدهاراً عجيباً فنشأت رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء وغيرها وسبب ذلك المسامحة الدينية وتحرير العقول بل تجاوزت الفلسفة الى الشعراء كالمعري أبي العلاء الفيلسوف

والقرن الذي نريد الابانة عن فلسفة التاريخ الاسلامي فيه كان فاتحة عصور الحرية الدينية في الشرق فقد كثر فيهِ الفلاسفة على اختلاف تفلسفهم وبلغ أولو الامر فيه الى درجة رفيعة من العلم كأبي العباس أمير المؤمنين احمد الناصر لدين الله العباسي أعظم ساسة الخلفاء العباسيين ومجدد الدولة العباسية وخلافته من سنة « ٥٧٥ الى ٦٢٢ » هـ كان العلم فيها سامي المكانة عظيم الحفاوة وافر الاقبال واشهر من الفلاسفة في هذا القرن السابع « ٦٠٠ — ٧٠٠ » محمد بن سليمان بن قتلمش حاجب الناصر لدين الله الاكبر ، وسيف الدين ابو الحسن علي الآمدي ومعين الدين سالم بن بدران المعتزلي وجعفر القطاع الملقب بالسديد البغدادي والموفق عبد اللطيف البغدادي وفخر الدين محمد بن عمر الرازي وركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي ، والحسن بن الامير أبي علي بن نظام الملك الوزير ومحمد بن مبشر

(١) صحيفة الابرار « ج ١ ص ١٢٨ »

البغدادي والحسن بن محمد الاربلي الضرير الملقب عز الدين وعبد الحميد بن أبي الحديد المدائني وعلي بن يوسف القفطي وموسى بن ميمون اليهودي الاندلسي ونجم الدين النخجواني ونصير الدين محمد الطوسي شيخ الفلاسفة وموسى بن يونس العقيلي الموصلي وعز الدولة بن كمونة اليهودي صاحب الابحاث عن الملل الثلاث وكمال الدين حسن بن يحيي ، اما ابو جعفر يحيي بن محمد بن زيد العلوي نقيب البصرة فقد كان فريداً في فلسفة التاريخ ويليه في ذلك محمد بن سليمان بن قتلمش . والآن ننقل للقارىء شيئاً من فلسفته في التاريخ الاسلامي وكانت وفاته سنة « ٦٢٠ » هـ [1] « اعني وفاة محمد بن سليمان »

قال عبد الحميد بن ابي الحديد المدائني « حدثني جعفر بن مكي الحاجب — رحمه الله [2] — قال : سألت محمد بن سليمان حاجب الحجاب (وقد رأيت أنا محمد هذا وكانت لي به معرفة غير مستحكمة وكان ظريفاً اديباً وقد اشتغل بالرياضيات والفلسفة ولم يكن يتعصب لمذهب بعينه) قال جعفر : سألته عما عنده في امر علي وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم وكان ابو سفيان يحسد محمداً — ص — وحاربه ولم تزل الثنتان متباغضتين وان جمعتها المنافية ، ثم ان رسول الله — ص — زوّج علياً بابنته وزوّج عثمان بابنته الاخرى ، وكان اختصاص رسول الله لفاطمة اكثر من اختصاصه للبنت الاخرى وللثانية التي تزوّجها عثمان بعد وفاة الاولى ، واختصاصه ايضاً لعلي وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه اياه لنفسه اكثر واعظم من اختصاصه لعثمان، فنفس عثمان ذلك عليه فتباعد ما بين قلبيهما ، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الاختين من مباغضة أو مشاجرة أو كلام ينقل عن احداهما الى الاخرى فيتكدر قلبها على أختها ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين البعلين ايضاً — كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الاعصار — وقد قيل : ما قطع بين الاخوين كالزوجتين ، ثم اتفق ان علياً قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله — ص — فتأكد الشنآن ، واذا استوحش الانسان من صاحبه استوحش صاحبه منه ، ثم مات رسول الله — ص — فصبا الى علي جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ولا حضر في دار فاطمة مع من حضر من المتخلفين عن البيعة وكانت في نفس علي امور عن الخلافة لم يمكنه اظهارها في ايام ابي بكر وعمر لقوة عمر وشدته وانبساط يده ولسانه ، فلما قتل عمر وجعل الامر شورى بين الستة وعدل عبد الرحمن بها عن علي الى عثمان ، لم يملك نفسه علي ، فأظهر ما كان كامناً وأبدى ما كان مستوراً ولم يزل الامر يتزايد حتى اشري ما بينهما وتفاقم ، ومع ذلك فلم يكن علي لينكر من امره الا

(١) كتابنا « السنون الضائعة من الحوادث الجامعة » (٢) توفي سنة « ٦٣٩ » هـ كما في ص ١٤٨ من الحوادث الجامعة لعبد الرزاق بن الفوطي الذي قنا بطبعه حديثاً وكما في « ٥ : ٤٦ » من طبقات الشافعية الكبرى للسبكي وراجع شرح ابن ابي الحديد « ٢ : ٢٢٠ ، ٤٠١ » و « ٣ : ٣٨٢ »

منكراً ولا ينهاه الأ عما تقتضي الشريعة نهيه عنه وكان عثمان مستضعفاً في نفسه رخواً قليل الحزم واهي العقدة وسلم عنانه الى مروان يصرفه كيف شاء فالخلافة له في المعنى ولعثمان في الاسم فلما انتقض على عثمان امره استصرخ عليًّا ولاذ بهِ والقى زمام امره اليه فدافع عنه حيث لا ينفع الدفاع وذب عنه حين لا يغني الذب فقد كان الامر فسد فساداً لا يرجى صلاحه »

قال جعفر « فقلت له : أتقول ان عليًّا وَجد من خلافة عثمان أعظم مما وجد من خلافة ابي بكر وعمر ؟ فقال . كيف يكون ذلك وهو فرع لهما ولولاهما لم يصل الى الخلافة ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ولا تخطر له ببال ، ولكن ههنا امر يقتضي في عثمان زيادة المنافسة وهو اجتماعهما في النسب وكونهما من بني عبد مناف والانسان ينافس ابن عمه الادنى اكثر من منافسته الأبعد ويهون عليه من الابعد ما لا يهون عليه من الاقرب »

قال جعفر « فقلت له : فما تقول في هذا الاختلاف الواقع في امر الامامة من مبدأ الحال وما الذي تظنه اصله ومنبعه ؟ فقال : لا اعلم لهذا اصلاً الاّ امرين احدهما ان رسول الله — ص — اهمل امر الامامة فلم يصرح فيه بأحد بعينه وانما كان هناك رمز وايماء وكناية وتعريض لو اراد صاحبه ان يحتجَّ به وقت الاختلاف وحال المنازعة لم يقم منه صورة حجة تغني ولا دلالة تحسب وتكفي ولذلك لم يحتج علي يوم السقيفة بما ورد فيه لانه لم يكن نصًّا جليًّا يقطع العذر ويوجب الحجة وعادة الملوك اذا تمهد ملكهم وارادوا العقد لولد من اولادهم او ثقة من ثقاتهم : ان يصرحوا بذكره ويخطبوا باسمه على اعناق المنابر وبين فواصل الخطب ويكتبوا بذلك الى الآفاق البعيدة عنهم والاقطار النائية منهم ومن كان ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك بحيث تزول الشبهة في امره ويسقط الارتياب بحاله فليس امر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصير في مظنة الاشتباه واللبس ولعلَّهُ كان لرسول الله — ص — عذر في ذلك لا نعلمهُ نحن إما خشية من فساد الأمر وارجاف المنافقين وقولهم : إنها ليست بنبوة وانما هي ملك أوصى بهِ من بعده لذريتهِ وسلالتهِ ولما لم يكن أحد من تلك الذرية في تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصغر السن جعله لأبيهم ليكون في الحقيقة لزوجته التي هي ابنتهُ ولأولاده منها من بعده ، وأما ما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل العدل : أن الله — تعالى — علم أن المكلفين يكونون على ترك الامر مهملاً غير معين أقرب الى فعل الواجب وتجنب القبيح ، ولعل رسول الله — ص — لم يكن يعلم في مرضهِ انه يموت في ذلك المرض وكان يرجو البقاء فيمهد للأمامة قاعدة واضحة ومما يدل على ذلك : انهُ لما نوزع في احضار الدواة والكتف ليكتب لهم ما لا يضلون بعده غضب وقال : اخرجوا عني ، لم يجمعهم بعد الغضب ثانيةً ويعرفهم رشدهم ويهديهم الى مصالحهم ، بل ارجأ الأمر إرجاء من يرتقب الأفاقة وينتظر

العافية ، فبتلك الأقوال المحجمة والكنايات المحتملة والرموز المشتبهة مثل حديث خصف النعل ومنزلة هرون من موسى ومن كنت مولاه وهذا يعسوب الدين ولا فتى الا علي وأحب خلقك إليك وما جرى هذا المجرى مما لا يفصل الأمر ولا يقطع العذر ولا يسكت الخصم ولا يفحم المنازع وثبت الأنصار فادعتها ووثب بنو هاشم فادعوها وقال ابو بكر : بايعوا عمر او أبا عبيدة وقال العباس لعلي : امدد يدك لأبايعك ، وقال قوم ممن رعف به الدهر في ما بعد ولم يكن موجوداً حينئذ . إن الأمر كان للعباس لأنهُ العم الوارث وإن أبا بكر وعمر ظلماه وغصباه حقهُ ، فهذا أحدها . واما السبب الثاني للاختلاف فهو جعل عمر الأمر شورى في الستة ولم ينص على واحد بعينه إما منهم وإما من غيرهم فبقي في نفس كل واحد منهم أنهُ قد رشح للخلافة وأهل للملك والسلطنة فلم يزل ذلك في نفوسهم واذهانهم مصوراً بين اعينهم مرتسماً في خيالاتهم منازعة اليهِ نفوسهم طامحة نحوه عيونهم حتى كان من الشقاق بين علي وعثمان ما كان وحتى أفضى الأمر الى قتل عثمان وكان اعظم الأسباب في قتله طلحة وكان لا يشك ان الأمر له من بعده لوجوه منها : سابقتهُ ومنها : انهُ ابن عم لأبي بكر ، وكان لأبي بكر في نفوس اهل ذلك العصر منزلة عظيمة اعظم منها الآن ومنها : انهُ كان سمحاً جواداً ، وقد كان نازع عمر في حياة ابي بكر وأحب ان يفوض ابو بكر الأمر اليهِ من بعده ، فما زال يفتل في الذروة والغارب في أمر عثمان وينكر له القلوب ويكدر عليهِ النفوس ويغري أهل المدينة والأعراب واهل الأمصار بهِ وساعده الزبير ، وكان ايضاً يرجو الأمر لنفسهِ ، ولم يكن رجاؤهما هذا الأمر دون رجاء علي بل رجاؤهما كان اقوى لأن علياً دحضهُ الأولان واسقطاه وكسرا ناموسهُ بين الناس فصار نسياً منسياً ومات الأكثر ممن يعرف خصائصهُ التي كانت في ايام النبوة وفضله ونشأ قوم لا يعرفونهُ ولا يرونهُ إلا رجلاً من عرض المسلمين ولم يبق له مما يعتد بهِ الا انهُ ابن عم الرسول وزوج ابنتهِ وأبو سبطيه ونسي ما وراء ذلك كلهِ واتفق له من بغض قريش وانحرافها ما لم يتفق لأحد وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحب طلحة والزبير لان الأسباب الموجبة لبغضهم له لم تكن موجودة فيهما وكانا يتألفان قريشاً في اواخر ايام عثمان ويعدانهم بالعطاء والأفضال وهما عند انفسهما وعند الناس خليفتان بالقوة بالفعل لأن عمر نص عليهما وارتضاهما للخلافة وعمر متبع القول مرضي الفعال موفق مؤيد مطاع نافذ الحكم في حياتهِ وبعد وفاته ، فلما قتل عثمان ارادها طلحة وحرص عليها فلولا الأشتر وقوم معهُ من شجعان العرب جعلوها في علي لم تصل اليه ابداً ، فلما فاتت طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم على علي واخرجا « أم المؤمنين » معهما وقصدا العراق وأثارا الفتنة وكان من حرب الجمل ماقد علم وعرف ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين فان معاوية لم يكن ليفعل ما فعل لولا طمعه بما جرى في البصرة ثم اوهم اهل الشام ان علياً فسق بمحاربة ام المؤمنين ومحاربة المسلمين وانه قتل طلحة والزبير وهما من اهل الجنة

ومن يقتل مؤمناً من اهل الجنة فهو من اهل النار ، فهل كان الفساد المتولد في صفين الا فرعاً للفساد الكائن يوم الجمل ، ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ماجرى من الفساد والقبيح في ايام بني امية ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاً من فروع يوم الدار لان عبد الله كان يقول : ان عثمان لما ايقن بالقتل نص عليّ بالخلافة ولي بذلك شهود منهم مروان بن الحكم ، افلا ترى كيف تسلسلت هذه الامور فرعاً على اصل وغصناً من شجرة وجذوة من ضرام هكذا يدور بعضه على بعض وكله من الشورى في الستة واعجب من ذلك قول عمر — وقد قيل له : انك استعملت يزيد بن ابي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وابناء الطلقاء وتركت ان تستعمل علياً والعباس والزبير وطلحة — فقال : اما علي فأنبه من ذلك وأما هؤلاء النفر من قريش فاني اخاف ان ينتشروا في البلاد فيكثروا فيها الفساد ، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك ويدعيه كل واحد منهم لنفسه كيف لم يخف من جعلهم ستة متساوين في الشورى مرشحين للخلافة ؟ وقد روي ان الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان فسر بذلك فلما غابا عن عينه بكى فقال له الفضل بن الربيع : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا مقام جذل لا مقام حزن ؟ » فقال : « اما رأيت لعبهما ومودة بينهما اما والله ليتبدلن ذلك بغضاً وسيفاً وليختلس كل واحد منهما نفس صاحبه عن قريب فان الملك عقيم » وكان الرشيد قد عقد لهما الامر على ترتيب هذا بعد هذا فكيف من لم يرتبوا في الخلافة بل جعلوا فيها كأسنان المشط ؟ » قال عبد الحميد بن ابي الحديد : فقلت انا لجعفر هذا كله تحكيه عن محمد بن سليمان فما تقول انت فقال :

اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام [١] »

ونحن لم ننقل هذا ونحن مؤمنون بما جاء فيه وانما لنبين للقارىء كيف كانت فلسفة التاريخ الاسلامي في ذلك القرن السابع والى أي غاية بلغت من تحري الحقائق ورجع الحوادث الى اسبابها وكان في هذا العصر خروج التتر على الشرق الادنى فاستحوذوا عليه بحروب دونها الحروب العظمى ولكن الحرية الدينية زادت زيادة عظيمة مع حرية التمذهب والمذاهب فترقت الفلسفة في الشرق الادنى ، فالقاآن (الخاقان) قوبلاي مثلاً ، وهو سلطان المغول ، كان يحب الحكماء والفلاسفة والعلماء والمتدينين من سائر المذاهب والامم [٢] وفي ذلك العصر ألف كتاب « الآداب السلطانية » المعروف بالفخري وهو مبني على فلسفة التاريخ والاصول العلمية ومنهُ اقتبس المرحوم جرجي زيدان قواعد التأليف في التاريخ كما يظهر لكل عارف بأساليب التأليف التاريخي ، هذا ولا نرى في انفسنا حاجة الى ذكر مثال آخر لفلسفة التاريخ الاسلامي في هذا العصر لانّ في ما قدمنا احساباً وكفاية بالنسبة الى مواضع النشر بغداد مصطفى جواد

(١) السنون الضائعة في حوادث سنة « ٦٢٠ » (٢) مختصر الدول ص ٤٩١



القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

الاسرة الشيوعية

«الاسرة عند الشيوعيين» تبتديء فكرة التشيع في العلائق بين الذكر والانثى منذ ايام افلاطون ، ففي جمهوريته — وهي المدينة الفاضلة التي ذكرها الفارابي — ان السلع والنساء مشاعة في الامة ، وان المرأة يجب ان تشاطر الذكر العمل كما تشاطر الكلبة في القطيع الكلب حراسة الغنم . والمثل الاعلى الذي كان ينشده للمدينة الفاضلة السعيدة هو ان تكون جميع العلائق الشقية خاضعة لسلطة الدولة ومحصورة في اناس يتحلون ببعض الصفات من حيث اعمارهم واهليتهم في الابدان والاخلاق والعقول وهو ما يؤدي الى علم له مقام رفيع بين العلوم الاجتماعية الحاضرة وهو علم « اليوجنيكس » أو اصلاح النسل

وعسى الا يستغرب القراء موقف افلاطون شيخ حكماء اليونان في شيوعية النساء ولا موقف من تابعه من متطرفي الاشتراكيين في العصر الحاضر . فان رواد الاصلاح في الشؤون الشقية كما قال (سبارجو) و (ارنز)[1] قد سلكوا في معالجة قضية المرأة والرجل واحداً من سبيلين متناقضين كل التناقض، الواحد تحريم الاتصال بين الجنسين بتاتاً والثاني التشيع في النساء، ففي صدر النصرانية امتهنت المرأة وعدّ الزواج شراً مستطيراً ووصف بانه استسلام للطبيعة البهيمية وانهماك في الشؤون الحيوانية وان المثل الاعلى والكمال المنشود هو التبتل والرهبانية . على حين نرى طائفة (الشاكر) و(الوالدنسي) مثل (الانابابتست) و(الكماليين) وغيرهم من الطوائف المسيحية ينحون نحو التشيع في النساء كأن تعقد موضوع الزواج والعيوب العالقة بجميع طرائقه المنتشرة ارغمت الباحثين على هذا التناقض في الاجتهاد ، وكان من شأن الاشتراكية المتطرفة انها حينما عالجت هذا الموضوع ايدت فكرة التشيع لاسباب بديهية تتعلق برأس المال ، فالاسرة في نظر الاشتراكية متصلة اتصالاً وثيقاً بالتملك الخاص والميراث الاهلي بحيث يصعب الفصل بينها جميعاً ، فلا غرو ان يحسب الاشتراكيون المتطرفون كل زواج فردي او كل نظام عائلي مدعاة الى الانحلال والرجوع بالبشر الى سلطة الراسمالية التي هي في نظرهم علة العلل . والحرص على

(١) Elements of Socialism p. 241.

تخصيص الخلف بميراث السلف ظاهر في يومنا هذا حتى بين القبائل التي لا تعنى بالعرض كثيراً فقد كتب اليَّ السيد نصوح المحرسا من (الساحل الذهبي) في افريقيا الغربية عن بعض القبائل يقول « اما العرض فغير معروف عندهم واذا احب العبد احداً من البيض قدَّم له اخته او غيرها من اهله وذوي قرابته الاَّ امرأتهُ فانهُ يهتم لها لكن اذا تعدى عليها احد فانهُ يشكوه الى الحكومة ليحصل منهُ على صداقها ثم يتنازل عنها ، وبسبب هذا الاسترخاء الشقي اذا مات العبد خلّف جميع ثروتهِ لابن اختهِ لانهُ ليس واثقاً ان الولد الذي ولدتهُ امرأتهُ هو من صلبهِ ، اما ابن اختهِ فلا شك في نسبهِ مطلقاً ولهذا فهو الوارث الوحيد بين الاقارب »

واضاف الاشتراكيون الى حقدهم على التملك والميراث كرههم ان يروا الحكومة تاركة للافراد الحبل على الغارب يتزاوجون ويتوالدون من غير اشراف ولا قيد مما يعرّض الجنس البشري للانحطاط بسبب تزاوج المرضى والمعتوهين، والحروب والاوبئة والمجاعات بسبب تزايد النسل على وسائل المعيشة ومقوّمات الحياة

على ان اعلام الاشتراكية لم يحجموا عن الكيل للراسمالية الصاع بالصاع واتهامها بانها هي تنسخ الزواج وتهدم الاسرة . فالطلاق كما قال (سبارجو) و (ارنر) قد انتشر في النصرانية انتشاراً مريعاً حتى « لم يعد الزواج وضعاً امتن مما كان على عهد رومية في القرن الخامس . ونحن اذا اضفنا الى كثرة الطلاق انتشار البغاء اضطررنا الى القول ان الزواج الموحد لا يكاد يحسب الصفة البارزة التي تتصف بها علائقنا الشقية »(١)

ودلت الاحصاءات الرسمية التي ضبطت في الولايات المتحدة على ان عدد اذونات الطلاق بلغت في تلك البلاد في خلال عشرين سنة نهايتها سنة ١٩٠٦ زهاء ٩٤٥٦٢٥ يعني على معدل مائة وثلاثين طلاقاً في اليوم وقد وجد ان كل اربع عقود يتم الزواج فيها يفسخ واحد منها بالطلاق في كثير من الولايات ، ويمنح نحو الثلثين من اذون الطلاق للنساء بحجة الهجر والقسوة غالباً لكن هذه اعذار مصطنعة يتمحلها طلاب الطلاق من الجنسين ستراً للفضيحة والعار وليس في هذه الاحصاءات ما يدل على ان الغاية من الطلاق استبدال شريك بشريك آخر غالباً ، ومما يستوقف الانظار ويتطلب عناية الشرق كثيراً ان المقاضاة للحصول على الطلاق متى كانت نفقتها باهظة فلت من عزيمة طلابهِ وقللت من وقوعهِ . وهذا لعمر الحق يستحق انتباه المسؤولين في العالم العربي لانهُ اذا زيدت نفقات الطلاق في محاكمنا زيادة معقولة بحيث لا يجعل الطلاق ميزة يتمتع بها الاغنياء فقط فالروابط الزوجية تكون امتن واسس البيت تكون اقوى على مقاومة الزعازع العائلية والعواصف الشقية

(١) Elements of Socialism, p. 244

﴿ البغاء ﴾ : هو الخطر الآخر على الزواج والاسرة وان كان بعض اهل البحث قد ذهبوا الى ان البغاء الرسمي هو حصن لاهل العفاف او « صمام الامن » يفرج به الضغط الناشىء عن القوى البشرية الاندفاعية . وفي الاحصاءات التي اجريت في الولايات المتحدة في اوائل القرن العشرين ان عدد المومسات في تلك البلاد يناهز ثلاثمائة الف فيكون عدد الرجال الذين يحموهن لا يقل عن ثلاثة ملايين ومما لا شك فيه ابداً ان الاحوال بعد الحرب ساءت في هذا الموضوع اضعافاً مضاعفة وان هذا العدد العديد من النساء البغايا هو ضئيل جداً بالنسبة الى الوقت الحاضر وقد سمعت خطيباً مشهوراً في نيويورك في سنة ١٩٢٤ ينحو باللائمة على الحرب ويقول ان زيادة الفحش اتت الاميركيين من نزول جيوشهم في فرنسا وتعودهم عادات اهاليها . ولم يحجم الاشتراكيون عن اتهام الرأسمالية بانها علة العلل في هذا المرض الاجتماعي الخبيث . ففي كتاب « الاصول الاشتراكية »[1] انه لا مفر لنا من الاعتراف بأن الفقر هو من اهم البواعث على بيع الاعراض ، وان نسبة النساء من اهل الاجور الزهيدة اللاء يصرن فواحش هي نسبة عظيمة جداً ، وكلما اصيبت الاسواق التجارية بالغرار بعد الدرة أو بالكساد بعد الرواج ازداد عدد البغايا . والمحنة قوية جداً كما قال (برناردشو) على البنت الجميلة التي ترى انها اذا باعت قواها العقلية للخدمة في المكتب أو المصنع لا تربح عشر ما تربحهُ اذا هي باعت جمالها ففي تلك الحالة لا تحصل على غير الكفاف من العيش غالباً واما في هذه الحالة فقد تكون القصور والسيارات والبواخر والمصارف طوع بنانها

اضف الى ذلك ما تسببهُ الفاقة واكتظاظ السكان في الامكنة القذرة واختلاط البنات والصبيان في المعامل مع الاحداث والبالغين من الاسترخاء في الاخلاق والانحطاط في البنية

﴿ حملة الاشتراكية المتطرفة على الاسرة ﴾ : يقول الاشتراكيون ان حملتهم الشعواء ليست موجهة الى الزواج والاسرة بل الى سوء الاستعمال فيهما في عصر الرأسمالية فكل زواج لا يقوم على الحب بل يعقد لاجل المال او المكانة والجاه هو في نظرهم سفاح مستور مشروع يجب ابطاله مع سائر انواع الفحش . وفي البيان الشيوعي الذي اصدره (ماركس) و(انجلس) ان البغاء بانواعه ، البغاء الخاص والبغاء العام ، البغاء المشروع وبيوت الخنا كل ذلك يتلاشى في عصر الاشتراكية وزوال السلطة الرأسمالية ، حينئذٍ ينشأ في العالم جيل جديد بالغ راشد مؤلف كما يقول (انجلس)[2] من رجال لم تسنح لهم فرصة في العمر يشترون فيها بالمال او بغيره من الوسائل الاقتصادية استسلام المرأة لشهواتهم وجيل من النساء لم تسنح لهن فرصة في العمر

---

(١) Elements of Socialism, p. 246.

(٢) The Family Private Property & the State, Chap. III.

يستسلمن فيها لاي رجل لسبب من الاسباب غير الحب او يرفضن هذا الاستسلام لمن يحبهن خوفاً من العواقب الاقتصادية

وقصارى القول ان الاشتراكيين الافحاح يصرّون على القول انهم ليسوا اعداء الزواج ولا خصوم الاسرة بل هم اضداد ما تولده الرأسمالية فيهما من سوء الاستعمال

***

لكن الخطة التي سارت عليها حكومة السوفيت الروسية لا تدع مجالاً للشك في مذهب الشيوعية في القضية الشقية. ففي بلاد الروسيا اليوم لا يوجد — امام القانون — زواج او اسرة بالمعنى المفهوم ، وان وجدا فبقوة العادة والاستمرار ، لان المرأة التي تسجل اسمها في الحكومة انها زوجة زيد من الناس اليوم يحق لها بعد مدة معينة اذا شاءت ان تذهب الى دائرة الحكومة فتسجل اسمها انها زوجة بكر او خالد وما ينطبق على المرأة ينطبق على الرجل طبعاً ، والوجه الجديد في هذه الطريقة — وهو ما يختلف عن الطريقة القديمة المألوفة — هي المساواة التامة في الحرية والاختيار بين الرجل والمرأة

وعلاوة على ذلك لحكومة السوفيت قد فتحت مستوصفات عمومية في الحواضر الكبرى يؤمها الحوامل للاجهاض ، واعتبرت الاطفال بعد بلوغهم السنة الثانية من العمر ملكاً للدولة

ومما هو حري بالتدوين ان هذا الانقلاب المتطرف في الافكار لم يخل من تأثير في القضاء ولو كان في بلاد محافظة كالبلاد الانكليزية . فنذ اشهر قرأنا في البرقيات العمومية حديث الاجهاض وتجاوز القاضي عن المجهض وجاء في قضية الجندي (جون بلاس) وزوجته (جندلين رسل) وحبيبها الدكتور (شارل فردريك سيرل) وهي قضية طلاق بسبب هذا الحب ظهرت في المحاكم الانكليزية في شهر مارس الماضي ان قال الماضي المستر (ماكاردي) في الرد على المحامي عن الزوج ان السيدة (بلاس) حرّة يبيح القانون الانكليزي لها الخروج من المنزل متى شاءت وان المرأة المتزوجة لها اليوم مطلق الحرية في ترك زوجها متى شاءت . فلما اعترض المحامي بقوله ان القانون الانكليزي يبيح للرجل المتزوج ان يقول لزوجته « عليك ان تمكثي معي » اجابه القاضي مستنكراً « وهل تقصد ان تقول ان للزوج في الوقت الحاضر ان يغلق على زوجته باب غرفتها ويقول لها انه سيبقيها فيها ؟.... انك تسعى لتعزيز الرأي القائل اذا خرجت الزوجة لمأدبة عشاء او سافرت لتمضية نهاية الاسبوع مع صديقة لها رغم ارادة زوجها فان الضرر — بالمعنى القانوني — يقع لانها لم تحصل على موافقته ورضاه ؛ ولكن هذا يجعل المرأة المتزوجة اسيرة .... واذا كان هذا رأيك فانني لا ارى ما هي الحقوق التي تتمتع بها المرأة المتزوجة اليوم . . . . واذا كان البيت ملكاً للزوجة كما هو الحال في قضية السيدة

(بلاس) فلها ان تخرج منه لا الغرباء فقط بل زوجها ايضاً »

﴿ استقلال المرأة عند الاشتراكيين ﴾ : يراد باستقلال المرأة ان تحصل على رزقها بعرق جبينها خارج حلقة الاسرة الا في وقت حملها ووضعها وهو سنة كاملة يسلم الطفل في نهايتها الى روضة الاطفال ، حيث يهيأ الطعام في مطبخ عام ويتم التنظيف على ايدي اخصائيين وتعتني الممرضات والمعلمات بالاطفال منذ الشهر السادس من اعمارهم الى ان يذهبوا اما الى المدارس الكلية او الى دور العمل والصنعة ، والمطلوب ان يكون اليوم المدرسي مطابقاً لليوم العملي فيخرج الآباء والابناء من بيوتهم ويرجعون اليها في وقت واحد . والمطلوب بحسب هذا المنهاج تحرير المرأة من اتعاب الاسرة وتحقيق استقلالها عن الزوج باشتغالها للحصول على الكسب وهذا كله يؤدي في آخر الامر الى الحيلولة دون اجتماع افراد الاسرة الاجتماع الكافي الذي يقوي اواصر المحبة والعطف بينهم ثم الى ابطال البيوت الخاصة والمعيشة الاجتماعية العائلية

ويحتج انصار هذا المذهب لمذهبهم ببرهانين اثنين الواحد اقتصادي والآخر بيولوجي حيوي . اما الاقتصادي فما يزعمونه من التوفير الذي يتم بالمطابخ العمومية والخدمات المشتركة واما البيولوجي فما يظنونه من ان تعليق المرأة على الرجل في حياتها وشؤون معيشتها اكسبها هذا الضعف وجعلها شبيهة بالطفيليات مما لا نجد له شبيهاً في عالم الحيوان حيث الانثى مثل الذكر تحصل على رزقها بكدها وتقوم بأود اولادها بسعيها

***

بيد ان الخطأ في البرهان الاقتصادي هو ان التوفير الذي طنطن به الاشتراكيون امر مشكوك فيه كثيراً واما البرهان البيولوجي فجوابه ان المرأة لا تشبه الاناث في الحيوانات فهي لا تلد الاولاد وتتركهم وشأنهم بل تستمر في تربيتهم الى ان يعتمدوا على النفس وهذا ما يحتم عليها الالتجاء الى الرجل وطلب معونته

واذا كانت ثمة امرأة لم تخلق للزوجية والامومة فليس من الضروري كما قال الاستاذ (بايندر) ان تنزل الى ميدان الصراع العملي بل هنالك بعض صفات في مثل هذه المرأة يعزها المجتمع ويحتاج اليها وهي صفات لا تثمن بالمال . واذا ارادت سيدة من اهل المواهب ان تجرب مواهبها فلا بأس ان تطرق انواع الابواب التي فتحت امامها في العصر الحاضر ، فالآنسة (هرشل) والسيدة (سمرفيل) و (كونستانس) و (نادن) و (صوفيا كوالفسكي) هن في الرياضيات مثل (مدام كوري) في الطبيعيات وغيرها وغيرها في التاريخ والادب والفن والتعليم آيات محكمات

على ان مسألة النساء اللاء خلقن للزوجية والامومة وهن الاكثرية العظمى يجب ان تسوّى[1] (اولاً) بتقدير الامومة قدرها وطبع كلام الاستاذ (بايندر) في الاذهان وهو اذا كان المطلوب حفظ القوم وان يتمتعوا باسباب التقدم ، واذا كانت تنمية الشخصية هي الغاية الكبرى في الحياة ، واذا كانت هذه الغاية لا تتحقق الاَّ في الاسرة فالام هي الفرد اللازم في المجتمع وذلك لانها تحلى العالم بمنحة نادرة وعطية سنية مؤلفة من العناصر العامة على هيئة خاصة من الجمال النادر . (ثانياً) باهمال ذلك البحث السخيف عن أيهما اعظم شأناً المرأة ام الرجل وما يجر هذا البحث المبني على النظريات البالية من استياء فضليات النساء ، فالمرأة والرجل عنصران يتمم الواحد منهما الآخر في تكوين المجتمع كما يتمم الهيدروجين الاوكسيجين في تأليف الماء ولا يوجد كيماوي مهما كان سخيفاً يصرف قواه العقلية في المفاضلة بين هذين العنصرين . واذا كان الرجل رأس البيت فالمرأة قلبه ومن المحال ان يعيش مخلوق من غير هذين العضوين الجوهريين (ثالثاً) بتنظيم الموارد المالية تنظيماً يسمح للزوجة ان تنال قسطاً من ارباح زوجها كافياً . وغير نكيرانها في بعض الاحيان تستولى على جميع موارده او انها لا تنال شيئاً الاَّ اذا هو تفضل عليها وتكرم بما يعده منحة ،وهاتان طريقتان فاسدتان لان الرجل الذي يعيش (بخرجية) من زوجته لا يكتسب احترامها كثيراً والمرأة التي تعيش بالمنحة من زوجها ولا تستأمن على شيء هي كالطفل في نظره (رابعاً) بتزويد المرأة بالتربية العالية التي تؤهلها للاستقلال الاقتصادي قبل زواجها حتى لا تكون عبئاً على اهلها ولا تتواقع بسبب الحاجة على كل خطيب صادفتهُ ، وللامومة بعد الزواج حتى تؤدي الامانة التي خلقت لها في الدرجة الاولى

***

ويسرني ان انهي هذا المقال عن قضية المرأة والرجل بما ذهبت اليهِ السيدة (الن كي) وهي من اشهر من كتب في هذا الموضوع ، فقد ذهبت الى وجوب حصر الاعمال النسوية في منطقة معينة تنطبق كثيراً على روح كلامنا فهي تريد المرأة ان تنصرف بكليتها الى خدمة الحياة العائلية ولا تكتفي فقط بالرضى بقلة الخدم والحشم بل ان تطردهم من عندها لتوقف نفسها على خدمة ابنائها واقرب الناس اليها وان تكون الامومة قطب الدائرة في حياتها وان ينحصر عملها فيما ينمي ابناءها ويكسبهم قابلية وهكذا تصبح شخصية سامية ذات قوة ونفوذ باحترافها اهم حرفة اجتماعية تمارسها بالفهم والنباهة ، وتكون قد زوّدت العالم باهم ما يحتاج اليهِ — زودتهُ بالرجال والنساء الاصحاء النافذين الذين لا يعتمدون على شيء سوى انفسهم

(١) Major Social Problems p. 96.

العوامل الوراثية والغدد الصماء

للدكتور شريف عسيران

— ٢ —

﴿ الغدة الصعترية ﴾ — مركزها في الصدر وراء عظم القص وتمتد الى الرقبة طولها مقدار خمس سنتمترات وعرضها مقدار ٣،٧٥ سنتمتر وهي لا تبقى بعد السنة الثانية من العمر ثم تضمر وتضمحل ووظيفتها الحقيقية غير معلومة وقد نسبوا اليها تأثيراً في نمو الجسم بوجه خاص في نمو العظام ولكن ذلك لم يتحقق بعد

﴿ الغدتان اللتان فوق الكليتين ﴾ — مركزهما امام القسم الاعلى من الكلية لونهما اصفر وطول الواحدة منهما مقدار ٤—٥ سنتمترات ووزنها مقدار ست غرامات وهما مؤلفتان من طبقتين الطبقة النخاعية والطبقة القشرية ولكل طبقة افراز خاص ووظيفة خاصة ولهما تأثير عظيم في حياة الشخص واستئصالها يؤدي الى الموت. فالطبقة النخاعية تفرز مادة تسمى الادرنالين اوابينفرين ذات خواص مهمة في تنظيم حركة الجسم فالادرنالين يقوي ضربات القلب ويقلص الاوعية الدموية ولهذا يستعملونهُ كثيراً في نزف الدم وحين هبوط القلب أو البنج اوخلافه وقد عزوا اليه تأثيراً فعالاً في عواطفنا فحينما يغضب المرء او يخاف يكثر افرازه فتشتدُّ ضربات القلب ويزداد ارسال الدم الذي هو القوة المسعفة فيستعد المرء ان يحارب او ينهزم ويستمد قوة من زيادة الدم والادرنالين يدفع الكبد في حالات كهذه الى إمداد الجسم بالكليكوجين المخزون فيه ليجهز القوة اللازمة وحينما يتعب الانسان يزداد افراز الادرنالين وازدياده يحمل الكبد على زيادة تجهيز الكليكوجين الذي هو مصدر القوة . ولم تتحقق العلاقة بين افرازه والعواطف كالغضب والخوف والحرارة والبرودة فان الانسان حين يخجل يحمرُّ وجههُ بسبب ازدياد الدم وقد نسبوا هذا التأثير الى الادرنالين والادرنالين يستعمل كثيراً في الطب لنزف الدم ومع البنج الموضعي وفي احوال كثيرة لا مجال لذكرها

وقد نسبوا الى الافراز القشري تأثيراً كبيراً في صفات الجنس الثانوية كنمو الشعر ونوع الصوت وزعم بعض العلماء ان خلل هذا الافراز يؤدي الى تغيير الجنس فيقلب الذكر انثى والانثى ذكراً وينسبون نمو الشعر والشوارب واللحية في بعض النساء الى نقص هذا الافراز ويقولون ان خللهُ يؤدي ايضاً الى سرعة نضوج اعضاء التناسل فيجعل اعضاء تناسل الاولاد

الذين هم بين سن ٤ — ٦ من العمر يكتمل نموها . واغرب من ذكر من هذا القبيل توماس هول Thomas Hall الذي ولد بولنهام قرب كمبردج بانكلترا سنة ١٧٤١ ومات وعليه امارات الشيخوخة سنة ١٧٤٧ مع انهُ لم يكد يبلغ السادسة من عمره اصلع الرأس مجعد الوجه وقد كتب على قبره الكتابة الآتية « قف ايها السائح وتعجب واعلم ان هنا مدفون رفات توماس ابن توماس ومرغريت هول الذي بلغ الرجولة قبل السنة الاولى من العمر وكان طوله اربع اقدام قبل ان يصير عمره ثلاث سنوات وقد خص بقوة خارقة وتناسب باعضائهِ وصوت رنان ومات بسن السادسة كانهُ شيخ هرم » ويعزون هذا النضوج قبل الاوان الى الغدة الصنوبرية ايضاً

﴿ الغدة النخمية ﴾ — مركزها في قاعدة الدماغ وطولها بضعة ملمترات ووزنها مقدار ستين سنتغراماً وهي مؤلفة من فصين الفص الامامي والفص الخلفي ورغماً عن صغر حجمها ووزنها فان لها سيطرة عظيمة على الجسم ولكل من فصيها تأثير خاص فافراز الفص الخلفي يدعى البتوترين Pituitrin ولهذا الافراز خواص مهمة منها رفع الضغط الدموي وزيادة قوة عضلات الجسم خاصة اعضاء الهضم والتناسل وهو يستعمل بسبب هذه الخواص لتوقيف نزف الدم من الرحم ولاسراع الولادة لانه محرك لعضلات الرحم فيزيد تقلصها وقوتها ويستعمل ايضاً حين شلل الامعاء . والخواص التي ذكرناها تجعله مدراً للحليب والبول وهو يستعمل كثيراً في الطب حقناً تحت الجلد أو بشكل حب . اما افراز الفص الامامي فلم يستحضر بعد ولكن تأثيرهُ في الجسم عظيمٌ وقد وجدوا ان هناك علاقة بين انواع الغدد الصماء خاصة الغدة الدرقية والتي فوق الكلية وغدد التناسل ولم يتوصلوا بعد الى معرفة كنه تلك العلاقة فكما ان الغدة الدرقية والغدتان اللتان فوق الكلية تؤثران في نمو الجسم هكذا يفعل افراز الفص الامامي من هذه الغدة . فهذا الافراز يؤثر تأثيراً بيناً في نمو الجسم والتحولات الغذائية فاذا كان ناقصاً فان الجسم لا ينمو خاصة اعضاء التناسل وينشأ ما يسمونه الطفالة Infantilism اي بقاء الجسم في حالة الطفولة الى ما بعد البلوغ ويتأخر نمو الفرد جسداً وعقلاً ويرافق هذا النقص تراكم المواد الدهنية الذي يؤول الى السمن وكثيراً ما نرى اناساً قصار القامة ضعيفي النمو متضخمين سمناً وسبب هذه العلة نقص في خلاصة هذه الغدة . وقد جاء في عدد نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٢ من مجلة العلم العام أنهم اجروا تجارب على الصلع في كلية الطب بجامعة الينوي باميركا فوجدوا ان كثيراً من حوادث الصلع ناشئة عن نقص هذه الغدة وقد حقنوا رجلاً مصاباً بهذه العلة من سنة ١٩١٤ فنما شعره في اربعة اسابيع وقد ذكرت عدة حوادث لهذا الداء شفيت باستعمال حقن خلاصة هذه الغدة يومياً لعدة ايام وقد ذكر كاتب المقال المذكور شفاء عدة اشخاص مصابين بداء الصلع شفوا باستعمال خلاصة افراز الغدة النخمية

وزيادة افراز الفص الامامي من هذه الغدة يؤول الى المرض المعروف بالضخامة فاذا

حدث الافراط بالافراز قبل تعظُّم العظام اي في سن الحداثة يدعى Gigantism وحصوله بعد ذلك يدعى Acromegaly فتتضخم العظام خاصة عظام الاطراف تضخماً هائلاً وتطول القامة طولاً كثيراً واشهر ابطال هذا النوع من التضخم الناشيء عن هذه العلة تشارلس بيرن Charles Byrne الارلندي فان هيكلهُ العظمي معروض في معرض كلية الجراحين الملكية بلندن وقد ذكر السر ارثركيت العالم الانكليزي المشهور ان طوله ٧ اقدام و ٤ و ٨ البوصة وكان طوله في حياته ثماني اقدام وبوصتين . وقد حقنوا الجرذان بخلاصة هذه الغدة فنمت ضعف حجمها الاعتيادي

﴿ الغدة الصنوبرية ﴾ — ومركزها في قاعدة الدماغ ووظيفتها غير معلومة ويقولون انها كانت فيما مضى عيناً ثالثة في الحيوانات البرمائية (الامفيبية) ويوجد في زيلاندا الجديدة حرذون لا يزال حيًّا وله عين ثالثة في أعلى رأسه وقد نسبوا اليها تأثيراً في السيطرة على نمو اعضاء التناسل ففقدانها يجعل اعضاء التناسل تنمو بسرعة هائلة فتبلغ في الطفل الصغير حجم البالغ او ما يزيد عن ذلك ولم تحقق الاختبارات هذه النظرية

﴿ الغدد المشتركة ﴾ — الغدد المشتركة هي التي تفرز نوعين من الافراز خارجيًّا وداخليًّا فالخصيتان والمبيضان يفرزان الحيوانات المنوية والبيضات وقد بحثنا عنها مفصلاً ويفرزان علاوة عن ذلك افرازاً داخليًّا يذهب الى الدم رأساً ويؤثر تأثيراً محسوساً في نشوء صفات الجنس الثانوية وقدمرَّ ذكرها. فلو نزعنا من ذكر صغير اعضاءه التناسلية لم تظهر فيه صفات الذكورة الثانوية وكذلك اذا استئصلنا اعضاء الانثى التناسلية لم تظهر صفات الانوثة الثانوية وقد وجدوا في الحيوانات امراً غريباً وهو اننا اذا استأصلنا من انثى صغيرة جداً اعضاءها التناسلية لم تظهر فيها صفات الانوثة الثانوية بل تظهر فيما بعد صفات الذكورة والعكس بالعكس. وقد استنتجوا من ذلك انهُ لا يوجد حد فاصل بين الذكورة والانوثة كما يوجد فاصل بين الابيض والاسود وسنة ١٤٧٤ حاكموا ديكاً في بلدة بال بسويسرا لانهُ باض بيضةً فنسبوا اليهِ السحر وحرقوه في الساحة العامة وقد تمكن الدكتور Dr. Michael F. Guyee استاذ علم الحيوان بجامعة وسكنسن من ان يجعل الديك يبيض بيضة باستعمال طرق اصطناعية وكذلك جعل اسكار ردل من معهد كارنيجي ذكر حمام يبيض بيضة . وقد استندا في عملها الى الحقيقة الآتية ان جانباً صغيراً من الغدة التناسلية في ذكر العصافير انثى اي فيه خاصة من خواص الانثى ويكون عادة موجوداً بصورة غير فعالة فاذا استئصلنا معظم غدة الذكر التناسلية تلاشت صفات الذكورة ثم ينمو هذا الجزء اليسير من الانوثة ويجعل الذكر انثى والعكس بالعكس وبهذه الطريقة تمكن العلماء ان يجعلوا الديك يبيض بيضة وقد يحصل هذا المظهر بصورة طبيعية اي يضمر معظم غدة الذكر او الانثى التناسلية وينمو الجزء اليسير

المعاكس لتلك الصفة فينقلب الذكر انثى والانثى ذكراً ويسمى ذلك الانقلاب الجنسي الكامل ويقولون ان صفات الانوثة والذكورة درجات مختلفة تتراوح بين الزيادة والنقصان فتكون في بعض الافراد اكثر من مائة في المائة وفي آخرين اقل ولهذا نرى بعض الاشخاص متناهين في الانوثة او الذكورة ونشاهد عكس ذلك في غيرهم فكم من اناث يشبهن الرجال بصوتهن ونمو شعرهن الى غير ذلك وكم ذكور يشبهون الاناث ويعزى ذلك الى زيادة او نقص صفات الانوثة او الذكورة في اشخاص كهؤلاء

ان افرازات اعضاء التناسل الداخلية تؤثر في نمو الجسم والعقل فاستئصالها في الصغر يؤول الى تأخرهما وقد عزوا اليها قوة الانسان ونشاطهُ وبلوغهُ الشيخوخة وعلى هذا المبدأ جروا في تجديد الشباب فادعوا ان تلقيح الشيخ بغدة شاب يعيد اليهِ شبابه وقواه العقلية ويطيل حياتهُ واستعملوا لذلك غدد الشمبازي وهناك طريقتان الاولى عملية شتيناخ النمساوي وهي ان يربط القناة المنوية فينقطع الافراز الخارجي ويتقوى الافراز الداخلي فيعيد الى المرء قواه ونشاطهُ . والدكتور فرونوف الروسي يلقح القرد بغدة حيوان آخر بعد ان يستأصل الغدة الهرمة واكثر غدد الحيوانات استعمالاً غدد الشمبازي . فعمليات كهذه تعيد الى المرء بعض قواه الحيوية وتجدد نشاطهُ بعض التجديد ولقد بالغوا في تأثيرها مبالغة جعلتنا نحلم بالشباب الدائم بواسطة هذه العمليات ونعتقد اننا صرنا بمأمن من غائلة الشيخوخة ومما لا شك فيهِ ان لهذه الغدد تأثيراً كبيراً في شخصية الفرد وقد اثبتنا ما هو محقق علميًّا ولم نفسح مجالاً للمبالغات المبنية على الدعاية والغايات التجارية ولا تزال الاسرار تحيط بهذه الغدد ولا بد ان يكشفها العلم غداً او بعد غد وعلينا ان لا نعول الا على الحقائق العلمية المدعمة بالتجارب وقد نسبوا اختلاف اصناف البشر الى اختلاف افرازات هذه الغدد كما نسبوا اليها الشيء الكثير مما لا حاجة الى ذكره

بقي علينا غدة واحدة لم نذكرها وهي ان البنكرياس ومركزها خلف المعدة وهي التي تفرز العصارات الهضمية الى الامعاء الدقيقة وتفرز افرازاً داخليًّا اسمهُ الانسولين اكتشفهُ الكنديان بانتنغ ومكليود سنة ١٩٢٧ ويعالجون بهِ البول السكري وهو لا يشفيهِ الشفاء التام بل يكون المريض في مأمن منهُ طالما هو يستعمل الانسولين

ان العوامل الوراثية هي الاصل في منشأ هذه الغدد فاختلافها يختلف باختلاف العوامل ولكن العوامل تؤثر تأثيرها بواسطة افرازات هذه الغدد والفرق بين العوامل والافرازات الداخلية ان الاولى تحدث تأثيرها في ادوار الحياة الاولى والثانية في ادوار الحياة المتأخرة وهي الوسيط بين العوامل الوراثية وكثير من الصفات الناشئة عنها

الكوميديا الالهية

نشأتها وتطورها — الموازنة بين رؤيا يوحنا — ورحلة دع

الكوميديا الالهية علم على القصة الشعرية الخالدة التي نظمها دانتي عن رحلة تخيل انه رحلها في العالم الثاني وقد اخترت هذا الاسم عنواناً لهذا المقال لطرافته ومطابقته لموضوعه

لست أريد البحث في القصص التي تناول فيها كتابها وصف العالم الثاني من حيث ما فيها من ابداع في الوصف وقوة في التخيل ومتانة في الاسلوب وانما لي وجهة أخرى هي التحري عن أصل فكرة العروج الى العالم الثاني ووصفه والبحث عن منشأ هذا الخيال

سبق دانتي كثيرون من مواطنيه الى الموضوع ويظن انه أخذ عنهم الفكرة لكن يزعم بعض كتاب العرب ويشايعهم على ذلك فئة من المستشرقين ان مبدع هذا الخيال هو ابو العلاء بما جاء في رسالته الغفران من ذكر احوال العالم الثاني ووصف الجنة والنار ثم انتقلت الفكرة الى اوربا بعد ما احتك الافرنج بالمسلمين في الحروب الصليبية وترجموا علومهم وفلسفتهم الى لغاتهم حيث تأثر بها دانتي وغيره من كتاب الافرنج . لكن هذا الرأي ضعيف فانك لا تجد بين رؤيا دانتي ورسالة الغفران وجهاً للشبه الا في الموضوع اما في السياق فهما جد مختلفين فأبو العلاء يصف العالم الثاني على لسان صاحب له ويذكر مباحثته لأهل هذا العالم من الكتاب والشعراء المتقدمين في الأدب ونحوه وجل قصده من ذلك السخرية بهم ولم يعرض لأحوالهم من حيث ماهم فيه من شقاء او نعيم الا بالقدر الذي ينسجم مع هذا القصد . انظر حديثه مع الخنساء كيف يقول أنها أحبت ان تنظر الى اخيها صخر فاذا هو في الجحيم كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه فيقول لها اخوها اذ يراها لقد صح مزعمك في مشيراً الى قولها من قصيدة في رثائه :

وان صخراً لتأتم الهداة به　　كأنه علم في رأسه نار

وغاية ابو العلاء ان يوكس من شاعرية الخنساء بهذا البيت فصور لها أخاها بالهيئة التي تصفها كيف يكون

اما دانتي فيصف في سياق رؤيا تخيل انه رآها رحلة له في العالم الثاني واسهب في ذكر احوال اهله وما هم فيه من عذاب او نعيم وتناول في احاديثه معهم شتى المسائل من دينية وفلسفية واجتماعية التي كانت تشغل اهل زمانه وكشف في كل مسألة عن رأيه وكان هو من دعاة الاصلاح يدين بآراء حرة نفي بسببها من وطنه فلورنسا

وثم خلاف آخر بين رسالة الغفران ورؤيا دانتي ذلك ان رسالة الغفران تتناول الماضي اما رؤيا دانتي فهي تستغرق من الزمن أسبوعاً ابتداؤه اليوم الثامن من ابريل سنة ١٣٠٠ فما

وقع قبل هذا التاريخ فهو من الماضي وما وقع بعده فهو من الغيب وهو يرويه كنبوءة عن المستقبل

وعلى هذا يكون القول بان دانتي أخذ فكرة الكوميديا الالهية عن ابي العلاء غير قائم على سند قوي. وفي ظني ان دانتي انما اخذ الفكرة لرؤياه عن سفر الرؤيا وهو الكتاب المنسوب الى الرسول يوحنا صاحب الانجيل المسمّى باسمهِ . ووجوه الشبه بينهما التي تؤيد ذلك كثيرة فاولاً ان كليهما رؤيا وثانياً ان لكل من الكاتبين دليلين في رحلته يقودانه ويفسران له ماراه واحد للعالم السفلي والآخر للعالم العلوي فليوحنا قبل عروجه الى السماء دليل يصفهُ بانهُ شبه ابن انسان ولدانتي فرجيل وليوحنا دليل في السماء من الملائكة ولدانتي بياتريس وهي فتاة كان الشاعر يحبها ثم ماتت قبل ان يتزوجها فحزن عليها وخلدها في قصائده وجعل مقرها السماء . وثالثاً ان رؤيا يوحنا تتناول زمنين الماضي والمستقبل فما قاله شبه ابن الانسان يتعلق بالماضي وما سمعه من الملاك في السماء يتناول المستقبل وقد تقدم ان رؤيا دانتي هي كذلك تتناول زمنين

هذه هي الاوجه التي تجعلني اظن ان دانتي قد نسج رؤياه على منوال رؤيا يوحنا ثم اني أحسب ايضاً ان غير دانتي من كتاب الافرنج الذين نحوا هذا النحو وابا العلاء وسواه من كتّاب العرب الذين عرضوا لوصف الجنة والنار فيما حاكوا من قصص حول حديث المعراج قد تأثروا بهذا السفر كذلك على ان المجال لا يتسع الآن لعمل موازنة تثبت ذلك

لكن سفر الرؤيا ليس اقدم كتاب في موضوعه ولا ما يتضمنهُ من خيال اول خيال من نوعه فقد كان عند اسلافنا الاقدمين قبل يوحنا بآلاف السنين رحلة لرع اله الشمس كانوا يعرفونها باسم (آم دوات) اي ما يرى في العالم الثاني اذ كانت عقيدتهم ان السماء مرتكزة على جبلين احدهما غربي اسمهُ مانو والآخر شرقي اسمهُ باخو وان بها نهراً يخترقها من المغرب الى المشرق خلق صنواً لنهر النيل يوم خلقت الدنيا أعد لتجري عليهِ سفينة رع اله الشمس في رحلتها اليومية في عالم الظلمات . وهذا العالم ينقسم الى اثنى عشر منطقة بعدد ساعات الليل من وقت غروب الشمس الى شروقها . لكل منطقة باب عليهِ حارس لا يأذن لاحد باجتيازه الاَّ لمن يعرف اسمه . واخبار هذه الرحلة وما يتعلق بها من مناظر وأسماء سدنة الابواب منقوشة على جدران مقبرة سيتي الاول مساعدة للميت على اجتياز هذه المفازة الوعرة

ومما هو جدير بالملاحظة وهو مثار للدهشة ان سفر الرؤيا يشتمل على كثير من مشاهد هذه الرحلة كما ستتبين ذلك بعد من الموازنة بينهما

رؤيا يوحنا ورحلة رع

يقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الرابع «وللوقت صرت في الروح واذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد» . والعرش بهذا الوصف كثير الشبه بسفينة رع فكلاهما عليه جالس وكلاهما له زينة

حوله من خطوط مختلفة الوانها فقد جاء في وصف السفينة انها مزينة من الخارج في خطوط افقية بألوان الجمشت وهو حجر كريم لونه بنفسجي والزمرد ولونه اخضر مائل الى الزرقة واليشب ولونه اخضر لامع واللازورد وهو ازرق والذهب وهو اصفر ويتألف من مجموع هذه الالوان مايشبه قوس قزح . والسفينة رمز لقرص الشمس والالوان حولها تمثل الشفق وكان الاقدمون يضعونها في معابد أمون رع في قدس الاقداس ويتوجهون اليها بالعبادة . واغلب الظن ان عادة وضع الزوارق في المساجد واضرحة الاولياء هي بقية من عقائد الجدود ولم يمحها كر السنين ولا تغير الدين لاسيما وان احدها وهو الموجود في مسجد ابي الحجاج الاقصري القائم على اطلال معبد أمون له سمة سفينة رع بما يغشاه من الوان

ويقول صاحب الرؤيا بعد ذلك في الاصحاح نفسه « وامام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة ارواح الله وقدام العرش بحر زجاج شبه البلور وفي وسط العرش وحول العرش اربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدّام ومن وراء والحيوان الاول شبه أسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر

وفي الاسطورة شيء يقرب من هذا كثيراً وذلك في سياق وصف المنطقة السادسة المسماة منطقة المياه التي لا قرار لها حيث جاء فيه « وهناك اي على شاطىء النهر ثلاثة عروش تحرسها ثلاث حيات يندلع من افواهها لهيب نار وعلى العروش صور غريبة لن يصل الناس الى ادراك كنهها : على احدها رأس انسان وعلى الثاني جناح طائر وعلى الثالث كفل سبع

وفي الاصحاح الثالث عشر يقول صاحب الرؤيا « ثم وقفت على رمل البحر فرأيت وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونهِ عشرة تيجان وعلى رؤوسهِ اسم تجديف » وفي الفقرة العاشرة من هذا الأصحاح « واعطى اي الوحش ان يعطي روحاً لصورة الوحش»

في المنطقة السادسة الآنفة الذكر نظير لهذا الوحش واليك ما جاء في الاسطورة عنهُ : «هنا تعيش الحية العظيمة ذات الخمسة رؤوس وبين مطاويها يقف خابي رع اله البعث وعلى رأسهِ التاج وتحت قوائمهِ علامة الحياة التي تخول له ان يبعث الموتى وهو سوف يبعث رع ويرد اليهِ الحياة»

لا خلاف بين الروايتين الا في الأسماء فما يسميهِ يوحنا اسم تجديف وهذا اللفظ يكنى بهِ عند المسيحيين عما يعبد من دون الله هو في الأسطورة خابي رع وما يسميهِ صورة الوحش هو رع

ويقول صاحب الرؤيا في الأصحاح الحادي والعشرين « واما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الاوثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت » . وفي المنطقة الخامسة من الدوات المسماة الخبيئة بحيرة كهذه ماؤها حميم دائمة الغليان أعدت لاعداء رع والخازن عليها صلّ مجنح له ثلاثة رؤوس وبين اجنحتهِ يقف سقر Sokar وهو في هيئة رجل له رأس صقر وهو الذي يتولى تعذيب الخطاة . واني أرى بهذه المناسبة من مشابهة لفظة سقر العربية وهي علم على جهنم لاسم خازن النار في اعتقاد

الاقدمين على ما بينهما من علاقة معنوية ما يحدو الى الظن بان اصل اللفظ العربي هو ذلك الاسم المصري

ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح العشرين « ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معهُ مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو ابليس . والشيطان وقيده الف سنة وطرحهُ في الهاوية واغلق عليهِ وختم عليه لكي لا يضل الامم في ما بعد حتى تتم الالف السنة وبعد ذلك لا بد ان يحل زماناً يسيراً »

وفي الاسطورة حديث كهذا في سياق الكلام عن المنطقة السابعة المسماة الحفرة السرية حيث تقول : « يعيش في هذه المنطقة أبيب يلقي فيها الرعب ويملأها بالمخاوف . وهو تنين عظيم هائل فاغر فاه ليشرب ماء النهر حتى تتحطم السفينة ويهلك رع فتسود من ثمَّ على الارض قوات الظلام ويتقلص ظل الآلهة امام شوكة الخطية . على انه لا خوف على السفينة فان ايزيس الربة العظيمة محيية الموتى التي يدين لها الناس بالحب والعبادة واقفة في مقدمها باسطة ذراعيها تتمتم بكلمات القدرة

يعيش أبيب على شاطىء رملي في وسط النهر يزمجر فيرتج الدوات بصوته الاَّ ان ايزيس التي لا يعرف الرعب الى قلبها سبيلاً تظل رابطة الجأش تعزّم وتشير بيديها اشاراتها السحرية فيجمد التنين في مكانه ويعجز عن الحركة . عندئذ يهبط عليهِ من السفينة سلك وحرديسف فيوثقانه بالحبال ويثخنانه بالمدى وفي هذه الفترة بينما هو يتلوّى على الرمال في قيوده تتابع السفينة سيرها في أمان حتى اذا جاوزت السفينة هذه المنطقة عاد أبيب الى سابق شأنه ووقف لها بالمرصاد ليهاجمها كدأبه فيفعل به سلك وحرديسف ما فعلاهُ من قبل لان أبيب خالد لا يهلك بالمدى او يضار »

لا خلاف بين الروايتين الاَّ ما يقتضيه اختلاف العقائد من اختلاف الاسماء والسياق اما الجوهر فواحد فكلاهما يحدث عن حية قديمة والمراد هنا بالقدم الخلود يخشى منها على العالم ان تضله فتعتقل فترة من الزمن ثم تحل بعد ذلك . وفي الاصحاح الثاني عشر يقول صاحب الرؤيا « وظهرت آية اخرى في السماء هو ذا تنين عظيم احمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى رؤوسه سبعة تيجان وذنبه يجر ثلث نجوم السماء » . لهذا التنين نظير في المنطقة الحادية عشر المسماة فوهة الكهف وتحدث الاسطورة عنه فتقول : « هناك على الجانب الاقصى من النهر النجوم و « شيدو » بينها وهو في هيئة افعى قرمزية ارجوانية يتألف بدنها من عشرة نجوم »

ويقول صاحب الرؤيا في الاصحاح الحادي والعشرين « وذهب بي — اي الملك — الى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة اورشليم المقدسة نازلة من عند الله ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بلوري » ثم يزيدنا عنها بياناً بقوله « وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم الاساس الاول يشب الثاني ياقوت ازرق الثالث عقيق ابيض الرابع زمرد ذبابي الخامس جزع عقيقي السادس عقيق احمر السابع زبرجد الثامن زمرد سلقي التاسع ياقوت اصفر العاشر عقيق اخضر الحادي عشر اسمانجوني الثاني عشر جمشت »

تشبه هذه المدينة في زينتها وفي كونها تنزل من السماء عند جبل عال سفينة رع لدى مطلعها في الافق من المشرق عند جبل باخو وهي مزدانة بأبهى الالوان تتلألأ بالانوار

ثم يقول الرسول بعد ذلك « والمدينة لا تحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها لان مجد الله قد انارها » ويقول ايضاً « وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً » هوذا مسكن الله مع الناس وهو يسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الهاً لهم »

هذا الوصف لا ينطبق على شيء انطباقه على سفينة رع فانها بحسب اعتقاد الاقدمين مسكن آله الشمس وهو الذي ينيرها ومتى تظهر في الافق يصبح الاله مع الناس فترتفع من الارض الاصوات بتحيته وتلهج السن الخلق بتمجيده

يخلص لنا مما تقدم ان رحلة رع هي اقدم ما كتب في وصف العالم الثاني في سياق رحلة. وقد رأينا من وجوه الشبه بينها وبين رؤيا يوحنا ما يحمل على الظن بأن يوحنا كان يعرفها وتأثر بها. ولكي تتم الفائدة سأجتزىء من سيرة الرسول يوحنا بنبذة تبين كيف تهيأ له ان يعرف اساطير الاولين

يوحنا احد الحواريين اتخذ افسس مقراً له وهي بلد في آسيا الصغرى وانشأ يبشر بالدين الجديد في تلك البلاد وكانت تابعة لرومية فلما نما خبره الى الامبراطور وهو اذ ذاك دوميتيانوس وكان وثنياً ينطوي على اشد العداء للدين الجديد امر بنفيه في سنة ٩٥ للميلاد الى رومية ثم الى جزيرة بطمس حيث كتب الرؤيا. وقد قضى في النفي نحو سنتين لان دوميتيانوس قتل في سنة ٩٦ فعاد يوحنا في السنة التالية الى افسس حين كتب انجيله ورسائله. ومما هو جدير بالنظر انه في زمن هذا الامبراطور شيدت في العاصمة الرومانية المعابد لاوزيريس وكان يعرفه الرومان باسم سيرابيس والالهة ايزيس وهما من آلهة المصريين اذ يحدو ذلك الى الظن بأن الديانة المصرية كانت راسخة البنيان في تلك البلاد ويكون من المحتمل اذن ان يوحنا وهو في منفاه في ديار الوثنية قد ألم بطرف من اساطير الاولين ووقف على آرائهم في العالم الثاني فكتب رؤياه وهو متأثر بخيالهم وافكارهم نخالطها شيء من ذلك كما رأينا

ولما انتشرت المسيحية وبلغت الكنيسة الذروة من السلطان في القرون الوسطى تأثرت الفنون والآداب بالدين واصطبغت بصبغته اذ أنشأ الكتاب ورجال الفن منقادين بعاطفتهم الدينية او متزلفين لرجال الدين يستوحون القصص الدينية ويلتمسون منها مادة لهم. ومن المواضيع التي استرعت انتباه الادباء وحفزت خيالهم وصف العالم الثاني الذي جاء به سفر الرؤيا فاخذوا يحاكونه وينسجون على منواله. ومن ثم اصبحت الكتابة في هذا الموضوع عملاً فنياً لا يمت الى الدين بسبب

وبعد فهل ينصف الادباء حين يعرضون لدانتي أو غيره من كتّاب الكوميديا الالهية فيذكرون مصر وقد ثبت انها هي التي ابتدعت هذا الخيال ويعرفون لها فضل المتقدم؟ انا لنرجو ذلك وما هو بعزيز عليهم متى تجردوا من الغرض وكانوا كراماً

ناشد سيفين

قصة مصرية

مدينة الاحلام

للدكتور ناجي

— ١ —

في صباح يوم من ايام الشتاء كانت حارة علام بقرب شارع محمد علي قذرة مترا كمة الاوحال وكان البقال عبد الدايم يفتح حانوته وبائعة اللبن تقرع باب المنزل المجاور . ومرت بضع عربات كارّو . واخذ صاحب القهوة البلدي المواجهة للمنزل يصف كراسيه وموائده ويسعل سعالاً جافاً . وتبادل البقال عبد الدايم والمعلم سلام صاحب القهوة التحيات المعتادة وظلت بائعة اللبن تقرع الباب على غير فائدة . فصاح بها البقال «الجماعة عزّلوا» فتحركت ورقة «للايجار» المعلقة بالشرفة كأنما تثبت وجودها وتؤكد كلام عبد الدايم

ثم زادت الحركة بالحارة ونزل الصبية يجعلون من الوحل ميداناً ومن البرك ملاعب يسبحون فيها وجاء الباعة ينادون على بضاعتهم وجلس بعض النسوة على جانبي الطريق يبعن طعامهن القذر . ويجمعن الذباب وينشرن الاوبئة . واخيراً تمت صورة كاملة من صور تلك الحواري البائسة المنسية وكانت الشمس لم تبدد تماماً الضباب المخيم على ذلك الحي فكان الجو صافياً من ناحية وغائماً من ناحية اخرى ومهدداً بمطر جديد تعلو بهِ الاوحال وتتسع البرك

وماذا يهم ذلك اوحال او برك وغيم او صفاء وضنك مخيم او عدل شامل اذا طلع الصباح فتح عبد الدائم حانوته والمعلم سلام قهوته وجلست ام آمنه بائعة البرتقال بمشنتها فاذا انصرم النهار آبوا جميعاً الى مساكنهم المريعة ليعودوا في اليوم التالي وتجري الحياة مجراها في الرزق الضيق والبلاء الواسع

كان المعلم سلام يصيح بصبيه غاضباً ويلعن اليوم الذي جاء فيهِ الى القهوة ثم يتبع ذلك بسعاله الجاف والبقال عبد الدايم يزن رطلاً من الصابون ويحلف انهُ لا يوجد ادق من ميزانه ولا احسن من ذمته وكان الذباب يحتفل على مشنة ام آمنه فاذا دفعته قائلة «هش» جمع جموعه وعاد يغطي البرتقال الصغير الجاف المنقوط . كان يحدث هذا في حارة علام لما اقبلت عربة كارو تحمل امتعة ووقفت امام المنزل الخالي . فترك البقال الميزان وترك المعلم سلام صبيه وترك الذباب مشنة ام آمنه وانضم اليهِ بعض الصبية ومضوا في موكب ليروا من الساكن الجديد ولينظروا نظرة تقديرية الى الامتعة من صحاحير وحلل وكنبات وكراسي ودواليب

وفي الحق لم تكن تلك الامتعة دالة على الفاقة بل دالة بشكلها وصبغتها الحائلة على عز قديم وفقر جديد

وكان يرافق العربة شاب على دراجة وكنت ترى على بذلته وحذائه طابع الفقر ولكنك كنت تلمح في الياقة النظيفة والقميص الابيض وفي وضع الطربوش ورباط الرقبة رمز الاصل السليم وتؤمن بذلك وهو ينزل عن دراجته ويمضي الى الباب ليفتحه

لقد كان يمشي مشية الامير المخلوع وينظر الى الحي الفقير نظرة طويلة مستسلمة

صعد امين سليم سلم الدرج الخشبي في المنزل المكون من طابقين كلاهما خالٍ ولكنهُ اختار اعلاهما ونادى على الحوذي ان يحمل الامتعة ويضعها في ردهة الطابق الارضي فاستعان الرجل بزميله واخذوا يرا كمونها . فلما انهوا من عملهم اخذ امين يبحث في جيوبه عن الاجر — والرجل ينظر اليهِ نظرة النسر يريد ان ينقضّ ويعد نفسه للعراك ويتحفز لهُ

لقد كان الرجل متفقاً على اجر معلوم . ومع ذلك فهو من تلك الفئة السافلة المجرمة التي تضطرها الفاقة ان لا تحافظ على قول ولا تبقي على ميثاق . ومع ذلك فهي فئة تأسرها الضحكة الطيبة والكلمة الرقيقة وفيها كثير من الخلال الكريمة والنخوة والاريحية . وكان امين ذكيًّا يفهم ذلك اتم الفهم . فبسط اليه ضاحكاً ضحكته الوديعة ، كل « الفكه » التي في جيبه قائلاً « اللي انت عاوزه خده » فخجل الرجل النسر وتدلى منقاره في دلة وتوارت شراسته وا كتفى بأجر يزيد زيادة معقولة واخذه وانصرف . وبعد قليل جاءت عربة تحمل سيداً وسيدةً وخادماً .

وكان السيد شيخاً قارب السبعين ، يحمل وقار مجد سالف فوق وقار السنين ، فوق وقار الصبر الذي ارتسم في تجاعيد وجهه ، وكانت السيدة اقل منه سنًّا ، لا تزال تحتفظ بالبرقع الابيض ، وبمسحة من جمال ذاهب وبقية من كبرياء اناخت عليها السنون

اسرع الخادم وقرع الباب لهم ووقف امين على عتبته مرحّباً . وساعد الوالد والوالدة على النزول من العربة . فلما دخلوا المنزل ، وصعدوا الدرجة الخشبية اوشكت الشفاه ان تحتج ، ووقفت الدموع المكظومة على طرف المحاجر ذاهلة ، ثلاث غرف صغيرة واخرى في السطح ، ونوافذ بالية قديمة تطل على نوافذ مجاورة منغمسة في الذل والظلمة ، وتموج سطوحها بالنسوة هذه تنشر غسيلها ، وتلك تخاصم جارتها وتنشر لها ماضيها القذر

ولكن القلوب النبيلة ، شبيهة بأشعة الشمس فهي تنزل بالروضة الجميلة ، كما تحل بالارض الموحلة لا تتغير ولا تكون غير اشعة الشمس . ولكن الغمامة التي مرت على تلك القلوب الكريمة لم تلبث ان تبددت وعادت الاشعة الى الاشراق ، واخذ الجميع يتعاونون على تنظيف المنزل وترتيب الاثاث واختص امين نفسه بغرفة السطح فنقل اليها كتبه وسريره وادواته القليلة

***

بعد اسبوع جاء مستأجرون للطابق الارضي ، فوقفت عربة كارو تحمل امتعتهم ، وتلتها

عربة تحمل افراد العائلة ، وهم سيدة كهلة وفتاة رائعة الجمال وخادمة

كانت الساعة الخامسة مساء حين عاد امين متعباً يحمل كتبه ويحمل فوق منكبيه عبء رجولة مبكرة ولم يكن قد علم بعد بالجيران الجدد فلم يكد يصعد الدرج حتى خرجت الفتاة لترى القادم فصاحا في وقت واحد

— سنيه — امين

ولولا ان اطلت رؤوس الوالدين وهي تنظر بعيون مذهولة الى هذا التعارف الفجائي لرأينا عناق الشوق المكظوم واللهفة المستترة اعواماً لا تعد

— ٢ —

منذ عشرين سنة كانت شبرا الجميلة كالزمردة الصافية ، تزهو باليانع الاخضر ،والبساط الرائع الذي هو سحر مصر ، وفتنتها العتيدة التي جرت اليها الغزاة والأبطال متنوعين اجناساً ونحلاً . نعم شبرا الجميلة ، التي اكتظت اليوم بالمساكن المتلاصقة وافسدتها المدنية الجديدة ، ونزح اليها خلق كثيرون اشتروا تلك المروج البديعة وابتنوا بها مساكنهم الصغيرة المتقاربة ،كانت بساطاً واحداً قامت في وسطه هنا وهناك منازل اهلينا ، كحمامات بيضاء بسطت اجنحتها ، وهمت ان تطير الى ساقية او قناة او غدير،وكنا نعود من مدارسنا في غروب الشمس ، فنترك كراساتنا وكتبنا في بيوتنا ثم نسرع الى تلك المهاد حيث ربما صبانا ونما مع الغصون النامية ، وحيث تنسمنا الريح الرقيقة ، فجرى الشعر في دمنا ، والحب في ارواحنا ، والصفاء في طبائعنا ، ايام كنا نثب فراشات مع الفراشات الهاربة واشعة مع الاشعة الغاربة ، وما نزال كذلك حتى تخور قوانا فنرجع لنذاكر او ندعي اننا نذاكر ، فاذا كانت ليالي القمر تسللنا خلسة لنرى القمر يطلع على الحقول الساكنة والسواقي الحالمة . فنجلس عند الشجرة فاذا الشجرة تصغي والليل الجميل يرهف اذنهُ الى حديث اطفال يتبدد موجات في بحر ذلك السحر الرهيب سحر القمر والطفولة والمروج

في ليلة من ليالي رمضان التقى صديقنا امين سليم برفقائهِ تحت شجرة الجميز الكبيرة القريبة من الساقية وجلسوا يتنادرون وحديث الصبية لا يعدو المدرسة والمدرسين والامتحان فاذا خرج عن هاتهِ الدائرة فبعض المبالغة والادعاء والفخر والتشبه بالرجال واحياناً يكون سكون الليل وجمال القمر مغرياً باعترافات يتبادلونها همساً شأن الكبار . ففي الليلة التي نحن بصددها كان اكبرهم سناً يسخر من امين ويقول « بالكم امين ده اللي انتو شايفينه ساكت ده كل يوم وهو راجع من المدرسة يشتغل خدام لسنيه بنت شكري بك ويشيل لها الكتب بتاعتها » فضحكوا كلهم وصاحوا « حقيقي » فخجل ولم يجب وكان صمتهُ اعترافاً على ان الصبي كان في هذا القمر الناضر جاداً غير عابث وقد حزن لذيوع سره وجعلهِ موضوع دعابةٍ ولبثوا آجاً حتى انصرفوا كل الى منزلهِ

قبل هذه الليلة بشهرين وقفت الصبية الجميلة سنية امام باب المدرسة تنتظر الخادم . وكان يبدو في وجهها الناحل سحر وخيال وابهام كل ذلك في سمرة كسمرة الفجر وحمرة على الخدين كحمرة الشفق حمرة تزداد وضوحاً كلما لحظتها أعين الصبية الواقفين عمداً او عن غير عمد ويزيدها حلاوة وغرابة مريلة المدرسة الزرقاء والقبعة النظيفة السليمة الذوق ينساب من خلفها ضفيرتان من الشعر الاسود الحالك . وفي نفس الوقت خرج امين سليم من مدرسته في نفس الشارع ووقف امام باب المدرسة ينتظر الخادم . طال انتظارها لخادمها وطال انتظاره لخادمه فلم يأت هذا ولا ذاك فضجرت وضجر واعتزمت ان تعود وحدها على غير عادة واعتزم كذلك

ومشت الفتاة لا تلتفت يمنة ولا يسرة وتعمل بنصيحة امها « ما تكلميش حد »

وترك الفتى باب مدرسته مهرولاً وكان يرتدي بدلةً جميلة غالية الثمن ولكنه كان يبدو عليه الاهمال في ملبسه والتفكير في وجهه العصبي النحيل وكان الطريق الى المنزل يعترضه «مزلقان» وطالما راح القطار وجاء في «مناورة» ثقيلة وربما كنت مسرعاً الى موعد أو مدرسة فوجدت سلم « المزلقان » ينزل في سرعة ويحول دون مرورك ويبدأ القطار الثقيل في الغدو والرواح

ففي هذا اليوم كان الشارع مزدحماً بالباعة والعربات الكبيرة التي تحمل الحجارة والمزلقان قد نزل سلمه والقطار العجيب يروح ويغدو

وفي الساعة التي اختارها القدر وقفت سنيه امام المزلقان ووقف امين وجاء غلام يدفع عربة يد فمست يد سنيه فسقطت كتبها فتناولها امين ولم يعطها اياها بل وضعها الخبيث ساكناً في محفظته فعلت خدها حمرة الشفق وطغت على الحدود المألوفة واطرقت لا تدري ماذا تصنع بعد ذلك رفع سلم المزلقان واخذ الناس يتدفقون ويتزاحمون بالمناكب فتأد الصبي والصبية ثم جمعهما القدر في سبيل واحد وسارا صامتين زمناً لا حساب له حتى وقفت فجأة فادرك انه قد آن ان يفترقا فاخرج لها كتبها ثم عز عليه ان تمضي بدون ان يتعارفا فسأل

— اسمك ايه — سنيه شكري

— وانا امين سليم — في سنة ايه

— سنة رابعه — وانا كمان

— ساكنه فين — في شبرا شارع . . . .

قريب منا ياريتك تجي مرة في القمر نقعد تحت شجرة الجميز قرب الساقية . . . .

ولاح خيال خادمه من ناحية وخادمها من الناحية المقابلة فصمتا وابتعد وابتعدت. . . . . .

وصار يراها كل يوم فيتبادلان التحية بالنظر ويتمنيان لو ان الخادمين مرضا او غابا او اصابهما حادث

ثم انقطعت عن المجيء وصار الطريق مقفراً لا يطاق ومضى في ضوء القمر الى الشجرة التي تمنى ان يراها عندها مضى مراراً والحنين اليها يتسع في قلبه حتى صار ناراً آكلة . . . . . .

وذات ليلة ذهب في سرب من رفقائهِ الى حيث يتلاقون فرَّ بسرب من الفتيات يتحادثن عند باب منزل فطرق اذنهُ صوت يعرفهُ فتخلف عن اصحابهِ ووقف في ناحية يسترق السمع فسمع سنيه تقول (وكانت هي) همساً لصاحبة لها :— نعم التقط كتبي ووضعها في محفظتهِ وتمنى ان يلاقيني في ضوء القمر تحت شجرة الجميز عند الساقية . انهُ غير جميل ولكنهُ رقيق ومن عائلة كبيرة . . . . على انهُ قد نسيني بالطبع . . . . . .

خفق قلبهُ وانكمش في الظلمة الكثيفة . . واجابت دمعة حارة ان هذا غير صحيح

ثم سمع خطاها تبتعد وهو في الظلمة جامد في مكانهِ ثم ابتعدت خطاها عنهُ في الحياة .

واقبل الفقر يطحنهما متفرقين حتى التقيا في المنزل الحقير بحارة علام

— ٣ —

كان الليل هادئاً والقمر في السحب الصافية يلوح جليلاً في غربتهِ رائماً في حيرتهِ يبدو من خلال سحابةٍ ثم يستتر وراء اخرى وكان ينظر الى الدنيا بعين ملولة ويرى ان اهلها لا يستحقون ما يغدق عليهم من النور القدسي الجميل اذ بينما يشعّهُ عليهم من وجدانهِ وقلبهِ يغط بعضهم في النوم وبعضهم لا يفهمون انهُ يعلمهم السمو والنبل فيمضون الى اتيان لذة محرمة او منكر لايليق . نعم كان القمر في تلك الليلة يعتزم ان لايطلع على الدنيا واستتر وطال استتاره لولا ان اليد الخفية الجبارة دفعتهُ من وراء السحاب فطلع كارهاً وغمر نوره القاهرة وفاض على اعالي القصور كما فاض على السطوح الفقيرة في حارة علام — في تلك اللحظة فتح امين سليم النافذة وتنفس تنفساً طويلاً ونظر الى القمر نظرة مبهمة ثم عاد الى النافذة فاغلقها في ضجر وملال

واستوى امام مائدتهِ وجعل مصباحهُ قريباً من يسارهِ وفتح كتاباً ثم اغلقهُ واجال بصرهُ في الغرفة الفقيرة الاثاث . فهذا سريره الذي ينام عليهِ منذ عشر سنوات . تفككت اعمدتهُ وطالما اصلحها فعادت كما هي قبلَ اصلاحها ورضي بصريرها المزعج كلما حدثتهُ نفسهُ ان يستريح على فراشهِ وهذا هو الكرسي الطويل بجانب السرير وطالما اكتفى بالنوم عليهِ وتلك هي السجادة الوحيدة الباقية من فرش القصر الكبير وهذا هو رف الكتب قطعه عادية من الخشب مفروشة بالورق الملون المقصوص وذلك هو مصباحهُ الباهت النور مصباحه الثقيل الذي ينخفض نوره من نفسهِ ويحتاج الى يد تعليهِ كل آونة فاذا علا اندفع لسان من اللهب يهدد الزجاجة بالكسر والسقف « بالهباب »

في تلك الليلة كان امين يرتدي جلباباً خفيفاً ابيض وكان وجههُ شاحباً قلقاً وكان يفتح كتاباً ثم يغلقهُ ويضع نظارتهُ على عينهِ ثم يخلعها ويجلس على كرسيهِ قبل المائدة ثم يتركه ليجلس على حافة السرير ثم يترك حافة السرير ليجلس على الكرسي الطويل . واذ هو في ذلك القلق الغريب دق الباب دقاً خفيفاً فوثب مرتجفاً واسرع اليهِ وما لبث ان صاح هامساً

— سنيه — (بهمس وخوف) ايوه واقفل الباب عليهما في حرص وسرعة

وكان المصباح الملعون قد عاد نوره الى الانخفاض واصبحت الغرفة في شيء من الظلمة وترامت ظلال كثيرة على الحائط جعلت الغرفة كالمعبد المرهوب، وفي وسطه عابدان لا يتكلمان وانما تقول الظلمة ، وشعاع القمر الداخل من النافذة كاللص ، انهما لبثا متعانقين ، كالموجتين وجلبابها في البياض كرغوة الزبد. تخلصت سنية بلطف ، ووقفت بعيداً، وكان قوامها الممشوق ينتفض وشعرها المتهدل الجميل قد قارب وجهها فأزاحته بيدها البضة الناعمة ، ومضت الى الكرسي الطويل متهالكة وجلس امين على السجادة مسنداً رأسه الى ركبتيها، وصار يتكلمان همساً

— كم سنة ياسنيه والله ما نسيتك لحظة . شوفي افتقرنا وجينا في حارة في شارع محمد علي فسحت سنيه دمعة حارة ولم تجب ، فمضى قائلاً

— ودخلت التعليم العالي مجاناً بواسطة، وعلى ان اشتغل وانجح بسرعة، والا ماذا يصنع ابي المسكين ؟ فلم تجب سنيه، وامسكت برأسه ، وجعلت وجهه اليها تطيل التحديق فيه ثم قالت حزينة

— حالكم احسن من حالنا بكثير ، ابي مات ولم يترك لنا شيئاً تقريباً وصارت الحال تمشي من سيء الى اسوأ حتى جئنا ايضاً الى الحارة نفسها في شارع محمد علي . فذرف بدوره دمعة ولم يجب واستمر الصمت واخذت الذبالة في المصباح الملعون تنذر بظلمة كاملة واذا بمواء قطتين ذكر وانثى بالطبع يتحابان في ضوء القمر ويسران الطبيعة بتحقيق احلامها فضحكت سنية وامين معاً . همست « دي قطنا وقطتكم » ثم زمت شفتيها في خفة معبودة وقالت الا تذكر يا امين احلامك في شبرا وامانيك ان تتحاب في ضوء القمر ، لقد انعمت الدنيا بأمانيك على قطتينا، اجاب ! معلهش ياسنيه ادي احنا اتقابلنا ، وما دمت اراك فسأشتغل وأنجح ، ولا يلبث هذا الضنك ان يزول ، فصاحت فجأة كأنما رأت الضنك قد زال حقيقة

— وبعد ان يزول الضنك

— نتزوج

— وبعد ذلك

— يكون لنا اولاد

— وبعد ذلك

— نكون قد اقتصدنا مالا كافياً فنبني منزلاً خاصاً

— وامي وابوك وامك

— يكونون قد تقدموا في العمر فنسعد مشيبهم ونجعله كله رخاء

— وحبنا

— يزيد على السنين و ينميه من ناحيتينا اخلاصي واخلاصك وتسامحك وتسامحي

ثم همت ان تاتي سؤالاً جديداً ولكن غمامة عبرت فكرها فجأة ولاحت لها صورة لا تحبها فادرك ذلك امين فسألها فامتنعت عن الاجابة فألح فقالت

« واذا تعرض لنا زكي ابن خالتي »

فانتفض امين وتغيرت ملامحه وتركت رأسه ركبتيها ودار بعينه في الظلمة يبحث عن زكي ابن خالة سنيه زكي الثقيل بجسمه الضخم وسوالفه الكريهة وعينه الزجاجية وغناه الفاحش واللبانة التي يمضغها دائماً .... دائماً

تغير الفتى الوديع عند مرور تلك الصورة البشعة ، وقال اقتلهُ والويل لك اذا فكرت في ان تميلي اليهِ قالت « اميل اليه ! انت تهينني واذا ذكرت هذا ثانياً اخرج ولا اعود ابداً »

فاستعطفها وعاد يسند رأسه الى ركبتها

وطردا تلك الصورة الكريهة ، وعادا يكملان مدينة الاحلام ،واوشك الفجر ان يطلع على تلك المدينة التي جلسا يبنيانها معاً فوقف امين فجأة ، قائلاً

— سنيه

— نعم

— شايفه الفجر اللي قرّب يطلع

— ايوه شايفاه

— احلفي انك لي وحدي

— احلف

— هاتي فك

— فدت اليهِ شفة سحرية رطبة كالشليك الندي ثم انسلت الى غرفتها ، وهي تنزل السلم في بطء وحذر

***

وعاد ذلك اللقاء يتكرر ومدينة الاحلام تبنى مع الليل وتتبخر مع الفجر ، وامين يدأب ويرى امانيه تدنو ، حتى كان ذات صباح خارجاً بكتبه الى مدرسته فرأى زكي ابن خالة سنيه جالساً الى مائدة في قهوة المعلم سلام فعجب من تلك الجلسة المبكرة ، وكان شجاعاً ، يفضل مواجهة الامور ، فمضى الى غريمه تواً

صباح الخير يا سي زكي ايه اللي جابك الصبح بدري كده

— فاعتدل سي زكي في كرسيه ، بكبرياء وقحة وادار اللبانة في فمه القبيح ، وقال بلهجة ساخرة ، علشان ازور قرايبنا جيرانكم ، وصفق على الصبي ثم مد يده الى جيبه يرن النقود ويؤكد لامين من جديد انهُ غني وانهُ بهذا الغنى سيملك ابنة جيرانه . قال امين

— ولكن الزيارة تبقى بدري كده
— ده مش شغلك
— فثار الدم في وجه امين ، ولم يدر بالضبط ماذا حدث ، غير انه وجد القهوة ممتلئة بالناس ، ووجد سي زكي في وسطها والدم يسيل من انفه ، وهو يسب ويلعن ، ورأسه عار وسوالفه القبيحة ملوثة بالدم . والحقيقة ان امين من دون ان يدري ما هو صانع ، تناول كرسيًا فهرب سي زكي الى داخل القهوة فطار الكرسي وراءه ، وتبعهُ آخر بنفس السرعة ، فأصابتهُ رجله في انفهِ ، فلما رأى الدم هاجهُ ذلك كثيران الصراع في اسبانيا ،ووثب بجسمهِ الضخم على غريمهِ ، ولكن المعلم سلام كان قد جاء ، وجاء ناس آخرون فحالوا بينهما. وتهدد زكي وتوعد ، وقال « بكره تشوف » وجمع امين كتبه في كبرياء وانفة ، وانصرف بدون ان يردّ

***

قالت سنيه لامين في غرفته بعد ايام — اما علقه اللي أكلها زكي . تعرف انه دخل عندنا بعدها، وامي اكرمته وطيبت خاطره ومسحت له جرحه ووضعت له صبغة يود . امي المسكينة تراه غنيًا ، وتلاطفه لعله يتزوجني ، وهو يدخل بيتنا ويتقرب الينا لهذا الغرض، امس جاء عندنا وقال لامي ان الحكيم قال له ان عظمة انفه من فوق انكسرت وستترك عاهة مستديمة ، لان انفه تنخسف من اعلى وسيرفع قضية فضحك امين وقال لتزيد شكله قبحاً ، اما القضية فليرفعها عليَّ في اوربا . فسألت مدهوشة اوربا كيف !

قال اني نجحت في الامتحان الاخير كما تعلمين وسأسافر في بعثة ان شاء الله بعد اسبوع فضربت صدرها بيدها قائلة اتتركنا قال نعم — لكي اختبر القسم الذي اقسمته والفجر موشك الطلوع قالت وهي تجهش بالبكاء كن مطمئناً . واعتنقا وطال عناقهما ثم انسلت الى غرفتها وهي تنزل السلم في بطء وحذر

— ٤ —

لندن في ٧ ابريل سنة ١٩٢٨

حبيبتي سنيه — جلست وحدي في غرفتي قرب المدفأة اقرأ خطاباتك الجميلة خطاباتك التي ملأت حياتي املاً وأنستني غربتي وجعلت مني رجلاً . لقد كان خيالك الجميل واقسامنا كل ما اوشك الفجر ان يطلع ومدينة الاحلام التي شيدناها معاً كل تلك الصور كانت لا تبارح ناظري . نعم مرت سنون جهاد عنيف ولكني لم اكن اعبأ بها ولا ابالي بمتاعبها ما دمت في انتظاري وما دام امك وابي وامي بخير

آه يا سنيه ان لندن بحالها ، لندن العظيمة الضخمة لاتساوي ركناً من مدينة الاحلام وعلى

ذكر هاته المدينة السحرية اني اراك الآن في ركن منها يغمرهُ القمر وتنام الزهور آمنةً نعم اراك الى جانبي وامضي في تقبيلك بلا حساب حبيبك امين

القاهرة في ٢٥ مايو سنة ١٩٢٨

حبيبي امين : تسلمت خطابك وسرني أن اسمع انك في صحة جيدة اما نحن فقد ضاقت بنا الحال . شكراً للنقود التي ترسلها الينا مما تقتصده وانا نعلم ما يكلفك هذا من التقتير على نفسك وانت في بلاد غريبة . نعم ضاقت بنا الحال يا امين وتركنا جيرتكم الهنيئة ورحلنا الى منزل اقل ايجاراً وقبل ان ننتقل اليهِ صعدت في الليل الى معبدنا المقدس ووقفت عند باب غرفتك استعيد الماضي الجميل ومدينة الاحلام فتى تعود لتتم بناءها — متى . .

حبيبتك سنيه

ملحوظة — اكتب اليَّ على شباك بوستة الفجالة

لندن في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٨

حبيبتي سنية : اكتب اليك والفرح يملك عليَّ مشاعري واني لواثق ان الخبر الذي سأقصهُ عليك سيجعلك ترقصين من السرور . لقد نجحت واقبل عليَّ عميد الكلية يهنئني فقد جاء اسمي في قائمة الشرف

انا عائد يا سنية عائد بعد مضي اربع سنوات لا اعلم كيف صبرت على قضائها بعيداً عنكم اطوي البر والبحر بالفكر اليك واقبلك طويلاً حبيبك امين

٢ اكتوبر سنة ١٩٢٨

حبيبي امين — تسلمت خطابك الاخير من بوستة الفجالة وقرأته كثيراً وقبلته مراراً دامعة العين شديدة الشوق اليك . الدنيا فراغ شنيع بغيرك والايام لا معنى لها

عد للتي تحبك وتنتظرك سنيه

ملحوظة — اعذر اختصاري هذه المرة فاني لشدة الفرح بك لا ادري ماذا اكتب

***

في يوم ممطر كانت باخرة تقترب الى الشاطىء في ميناء الاسكندرية ووقف المنتظرون يترقبون العائدين ويلوحون بمناديلهم واقتربت الباخرة ببطء ثم وضع السلم وصعد ضابط الميناء ورجاله ثم سمح للركاب بالنزول فاسرع من بينهم شاب نعرفه يلبس قبعة ويحمل نظارة نزل السلم بسرعة وتلفت هنا وهناك فناداه الشخص الوحيد الذي ينتظره

— امين

— ابي

وكان عناق رائع حار ودموع

وبعد ان تم تفتيش الحقائب اقلتهما عربة الى القطار المسافر الى القاهرة وفي القطار علم امين ان امهُ مريضة بالروماتزم :

— مش قادره يابني وانا كمان الربو تاعبني قوي ومنذ اسبوعين كان عندي ورم في الرجلين والحكيم امر لي بالراحة ومنعني عن اللحوم والملح وكان جيراننا عائلة شكري بك يواسوننا ولكن الحالة ضاقت بهم فعزلوا الى منزل اقل ايجاراً

تخفق قلب امين واحس به يثقل وينحدر في صدره

— وزارونا مرتين بعدها والشقة والله فاضية لغاية دلوقتي

وانتقل الحديث الى اشياء اخرى وبلغا القاهرة ثم المنزل ووجد امين الدور الارضي خالياً فأحس بفراغ كفراغ المقابر وكانت والدتهُ في فراشها وقد اقعدها المرض وشحب لونها ولكن الأمل في لقاء ابنها جعل لعينيها بريقاً غريباً من الحياة وكأن قوة غير عادية وثبت فيها وهي تنتظره ثم وهي تضمهُ ثم وهي تبكي . . . .

واما غرفتهُ في السطح فلم يجدْ عليها شيء ولكنهُ حين فتحها هبَّ منها عبق الذكرى والقسم الغابر والمدينة السحرية

في صباح اليوم التالي اخذ يبحث ويسأل عن منزل شكري بك الجديد فلم يهتد وذهب الى بوستة الفجالة وكان قد ارسل اليها خطاباً كعادتهِ قديماً فلم يأت احد لتسلمهِ ولم يعلم من امرهم غير ان الفاقة الحت عليهم وهنا انقطع خيط البحث

ذات صباح كان بمديرية الجيزة لامر يخصهُ فمر بحديقة الحيوانات وخطر له ان يدخل . جلس على مقعد تجاه القرود خلف شجرة تواريهِ بعض الشيء

فمرت سيدة بادنة « بملاءة لف » ومعها طفلان وخلفهما رجل وكان الرجل ضخماً طويلاً وله سوالف كريهة وفي فمهِ لبانة

فذعر واحس بيد تقبض على حلقهِ وتنشب اظافرها فيهِ وهمَّ ان يصيح فلم يستطع وان يقوم فلم يقدر. سنية الجميلة الرشيقة تلبس ملايه لف وتصبح بادنة ويصير وجهها عادياً خشناً وتتزوج بمن؛ بالشخص البغيض الكريه الذي خسف انفهُ بالكرسي من اجلها. همَّ ان يقوم ثانياً وان يحتج فوقف بينهُ وبينهم شبح يصرخ في وجههِ قف فانا الذي اذللت هذه المرأة ومازلت اطحنها وامشي بها من حاجة الى حاجة حتى تزوجت غريمك . . . . والخطابات... انها خدعتك لصالحك . . . . الا تعرفني فصاح امين اجل اعرفك ايها الفقر وهذه آثار اظافرك في عنقي

وطأطأ رأسهُ وقد غفر للحبيبة المسكينة بينما الموكب العائلي يسير . ثم ثارت عاصفة من الغبار حجبت عن عينهِ الى الأبد مدينة الاحلام

الراهبة

[بعث الينا احد المعجبين بشعر الشاعر اللبناني البرازيلي الياس فرحات بقصيدته هذه وبمقطوعات اخرى من شعره على ذكر تمثيل ديوانه للطبع فاكتفينا بنشر القصيدة شاكرين ، موجهين الانظار الى هذا الشاعر الممتاز الذي عرفهُ قراء المقتطف من قبل في رباعياته راجع مقتطف ابريل ١٩٢٦ صفحة ٤٣٦]

اطلّت من الدير عند الضحى وفي ناظريها بريق الأسى
فتاة كأنَّ الالهَ براها ليجعلَها فتنة للنهى
ولكنها في صباح الحياة على وجنتيها شحوب المسا
رماها الزمان بهجر الحبيب فداوت ضلالَ الهوى بالهدى
تصلّي فتحسبها دميةً من العاجِ ساجدةً للدمى
وتلثم تلك الدمى بخشوعٍ فيوشكن يلثمنها من جوى
تحاول نسيان محبوبها وزهوَ الشباب وعزَّ الغنى
وأقسى من الحب كتمانهُ وانكى من الهجر فقدُ الرجا

* * *

ولما بدت شمس ذاك النهار بدت خارج الدير ذات التقى
تجمع من حوله ضمةً من الزهر تُهدى لفادي الورى
وبينا تسير على مهلها وتجمعها من هنا وهنا
وقد عانق الورد في كفها عناق الشقيق عناق الهوى

رأت زهرة في اعالي الجدار تداعبها نسمات الصبا
فأعجبها شكلُها المستطيل ولونٌ كقوس السحاب زها
وقد زاد في قدرها انها تعزُّ على من يريد الجنى
فحرك منظرُها نفسها وقالت بملء الحنان لها

***

اخية ! يهنيك هذا السموُّ وهذا البهاء وهذا الرضى
ولكن أما كان اشهى لديك جوار الازاهير بين الربى ؟
تحوم عليك بنات القفير وتسعى اليك صبايا القرى
وتسمعك الطير انشادها فنه الحجاز ومنه الصبا
فأنت تعيشين في عزلة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذى ؟ ؟

***

وفي الليل سارت الى خدرها وفي قلبها مثل نار الغضا
ولما نضت ثوبها لتنام تبين من حسنها ما اختفى
فمدت الى صدرها كفها وقد فتح الورد تحت الندى
وقال لها قائل صامت وكان الذي قيل رجع الصدى

***

وانت تعيشين في عزلة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذى ؟

على ذكر مؤتمر لوزانه

الازمة الاقتصادية العالمية

اسبابها وعلاجها

يقاسي العالم منذ بضع سنوات خلت ازمة اقتصادية لم يسبق ان وقع نظيرها في تاريخ الحضارة من حيث شدتها ونتائجها وبعد مداها. وقد بلغت اشدها في السنة الحالية اذ اجتاحت العالم بأجمعه فلم يبق بلد الا وتداعت اركانه الاقتصادية وحل فيه من الفواجع المالية الشيء الكثير مما خبرناه بأنفسنا وقرأنا عنه وحملت الاسلاك البرقية اخباره الينا

واتخذت كل امة تجاه هذا الخراب الداهم ما استطاعت من الاجراءات الاستثنائية كالحواجز الجمركية مثلاً وتدخل الحكومات مباشرة في شؤون الانتاج والتصريف ظناً منها انها بهذه الوسائل المستنبطة تحتفظ بمقامها المالي والاقتصادي فأحدثت هذه السياسة الافرادية شللاً في العلاقات التجارية بين مجموع الامم اذ اختلت من جرائها قاعدة العرض والطلب وفُقد التناسب بين الانتاج والاستهلاك . اجل ان هذه الوسائل عوضاً عن ان تخفف وطأة الازمة الاقتصادية زادتها تحرجاً فتفاقم الخطب وازداد البؤس بين الناس واصبح عدد العاطلين يعد بالملايين في كل بلاد حتى ان المدنية الحاضرة اصبحت اليوم مهددة بثورة اجتماعية لايعلم نتائجها الا الله

انتبه الرأسماليون الى خطورة الحالة فقاموا في الآونة الاخيرة يسعون وراء التفاهم في ما بين الدول ويحثون حكوماتهم لايجاد علاج شاف يضع حداً لهذه الازمة العمومية بالتضافر والتعاون معاً بدلاً من ان تسعى كل دولة منفردة عن غيرها اذ ادركوا ان حياة الفرد في حياة المجموع وان كيان الهيئة الاجتماعية الحاضرة متوقف على حفظ كيان كل امة اقتصادياً ومالياً . ولذلك رأينا الولايات المتحدة وهي التي اصرّت كل الاصرار منذ بضع سنوات على تنفيذ برنامج « يونغ » بحذافيره — رأيناها من تلقاء نفسها تمنح مدينيها مهلة سنة لاستيفاء الديون بشرط ان يمهلوا هم بدورهم المانيا سنة لدفع التعويضات الحربية . فالولايات المتحدة لم تخطُ هذه الخطوة الخطيرة — في الوقت الذي فيه تعاني هي نفسها اشد ازمة مالية عرفتها في تاريخها — كرامة للانكليز والافرنسيين ، بل لانها تيقنت من ان المانيا على شفير هوة الافلاس والفوضى فاذا لم تمهل زمناً تتنفس فيه الصعداء افلست حتماً ووقعت في احضان البولشفية وهذا اشد ما تخشاه الامم الديموقراطية اليوم

ولنفس السبب ايضاً نشطت فرنسا لنجدة المانيا فأقرضتها المال وسعت للتفاهم معها على

وضع معاهدة تجارية جديدة وهي التي ما فتئت تجاهر بانها لن تتنازل عن سنتيم واحد من الغرامة الحربية والتعويضات بموجب ما اقره برنامج « يونغ ». وقد رضيت انكلترا وفرنسا فوراً بالمهلة التي اقترحها الرئيس هوفر فانتعشت المانيا نوعاً وصدت عنها شبح الافلاس والفوضى الى حدٍ ما

ووافتنا الاخبار عن الاجتماعات المتتالية التي حصلت بين الوزراء الالمان والفرنسيين في باريس وبرلين ووشنطن . وهاهو ذا مؤتمر لوزان على الابواب . كل هذا مما يدل على شدة اهتمام الدول الاوروبية بمعالجة شؤون العالم الحالية . ولكنها — حتى الآن — كانت معالجة من قبيل « الترقيع » لا تنطوي على علاج ناجع لاستئصال الداء . فالعالم اليوم أشبه بعليل يقاسي الآلام المبرحة واطباؤه عاجزون عن معرفة حقيقة الداء ووصف الدواء اللازم لاستئصال العلة فاكتفوا باعطائه المخدرات لتسكين اوجاعه وقتيًّا بينما العلة تشتد حتى كاد المريض يدخل في طور النزع . وازاء هذه الحالة الخطرة قام علماء الاقتصاد في مختلف البلدان كل يدلي برأيه في اسباب الازمة الاقتصادية العالمية وعلاجها . فجاءت هذه الآراء متضاربة متباعدة كتبلبل الالسن في برج بابل

وفي ما يلي بعض هذه الآراء أثبتها بصورة مقتضبة ثم اعود الى بحث الموضوع من اساسه وللقارىء ان يرى مدى التباعد وشدة التناقض بين هذه الآراء

(١) الافراط في الانتاج (٢) النقص في الاستهلاك (٣) الاسعار العالية (٤) الضرائب الباهظة (٥) ديون الحرب (٦) تهريب الاموال من بعض البلدان (٧) احجام الرأسماليين عن تثمير اموالهم في مشاريع جديدة (٨) التوسع في منح الكريدتو لحد المبالغة (٩) تضييق دائرة الكريدتو (١٠) السخاء العظيم في الاسعاف العام (١١) نبذ المبادىء الاقتصادية القديمة الحرة (١٢) الاهمال التام في ادارة الشؤون الاقتصادية الحرة

واما العلاجات فهي ايضاً متعددة ومتضاربة اذ كل صاحب رأي يصف العلاج المطابق لرأيه واليك بعضها : (١) الرجوع الى المبادىء الاقتصادية الحرة (٢) خفض الاسعار (٣) خفض اسعار المصنوعات بالنسبة الى اسعار المواد الاولية (٤) رفع الاسعار (٥) زيادة المقدرة على الشراء (٦) توسيع نطاق الكريدتو والعمل على زيادة المقدرة على الشراء (٧) تخفيض الاجور (٨) اعادة الثقة المتبادلة بين الدول (٩) الاقلال من الانتاج على ان يكون بموجب خطة مرسومة راهنة (١٠) العمل على عدم هبوط الاسعار (١١) توزيع الذهب في العالم على اساس معقول وبطريقة حكيمة (١٢) ايجاد تفاهم بين المنتجين لضبط الانتاج على قدر المستهلك (١٣) الرجوع الى الفضة والذهب معاً كأساس للنقد عوضاً عن ان يبقى الذهب وحده اساساً للنقد كما هي الحال الآن . وهكذا الى ما لانهاية له . على ان بعض هذه العلاجات خطيرٌ جداً وربما اودى بحياة المريض . ومهما يكن من الامر فن المؤكد ان حسن هذه العلاجات لايمكن ان يكفي وحده لحل الازمة الاقتصادية العالمية

المخترعات والازمة

وقام في الآونة الاخيرة العالم الفرنسي الشهير المسيو برجريو — وهو من العلماء الذين ينزل عند رأيهم في الشؤون الاقتصادية — يقول ان السبب الاساسي لهذه الازمة العالمية هو استعمال المخترعات الحديثة في الصناعة دون ضابط ولا قيد مما يجبر اصحاب المصانع على تجديد الآلات ومعدّات مصانعهم تجديداً مستمرًّا . وعند ما يضطر صاحب المصنع الى ابدال آلات مصنعه التي لم يكن قد استهلك قيمتها بعد بآلات حديثة مجاراة للتقدم الصناعي الذي اوجدتهُ المخترعات الحديثة الجديدة فنتيجة ذلك خسارة من رأسماله لا تعوَّض. واذا لحقت الخسارة بمجموع رؤوس الاموال في العالم كما هي الحال الآن فانها تقلّل بما يعادلها من مقدرة اصحاب الرأسمال على المشترى وكذلك الاستغناء عن الايدي العاملة والاقتصاد في المواد الاولية الناتجان عن استعمال تلك المخترعات الحديثة يسببان البطالة بين طبقات العمال فتقل المقطوعية وتتراكم البضائع فتزول الثقة ومنها الكريدتو فيكثر الافلاس وتستحكم الازمة

ومن هذا يستخلص الاستاذ برجريو القاعدة الاقتصادية الآتية : « لا يجوز ادخال المخترعات الحديثة على الصناعة الاَّ اذا كانت الفائدة الناتجة عنها اكبر من الخسارة التي تسببها »

على ان هذه القاعدة التي يقول عنها الاستاذ برجريو انها المفتاح الوحيد لحل الازمة الاقتصادية العالمية ليست بالشيء المبتكر اذ انها القاعدة الاساسية التي مشت عليها الصناعة منذ نشأتها وهي حقيقة ثابتة لا يختلف فيها اثنان ويجدر بارباب الصناعة ان يتذكروها في وقت تعددت فيهِ المخترعات والمستحدثات تعدداً سريعاً يبعث على الدهشة . ومن رأي الاستاذ المذكور ان يؤلف ارباب الصناعة اي الرأسماليون نقابة من بينهم تمتلك كل مخترعٍ جديد وتشرف على طريقة استعماله بحيث لا يكون تطبيقه مغايراً للقاعدة المشار اليها آنفاً اي بعبارة اخرى يكون من شأن النقابة هذه ان تمنع الانقلابات والتطورات في الصناعة الناتجة عن المخترعات الحديثة الاَّ اذا كانت الحالة تستدعي ذلك حتى لا يسيء الناس استعمالها في غير اوانها فتأتي بالشر والنكبات بدل الخير المرجو منها

هذا ما ادلى بهِ الاستاذ برجريو ولكننا امام الحقيقة الراهنة لا يمكننا ان نسلم برأيه ونراه آخذاً بالنتائج دون الاسباب ورأيهُ هذا مع ما فيهِ من منطق وحقيقة لا يختلف عن غيره مما ذكر آنفاً اي انهُ لم يصب كبد الحقيقة من حيث الاسباب الاساسية للازمة العالمية بل اكتفى بمعالجة الاعراض الظاهرة بمخدر وقتي ومن وجهة واحدة لان معالجتهُ تنحصر فقط في وجوب الاقتصاد في كلفة الانتاج الصناعي . على ان ازمة الصناعة ليست سوى نقطة في بحر الازمة الاقتصادية العمومية والارتباكات المالية فهي نتيجة امرٍ واقع وليست من مسبباته فتزول متى تحسنت احوال العلم العمومية . وعلى سبيل المثال لدحض رأي الاستاذ المذكور نذكر صناعة

السينما التي لم تؤثر فيها الازمة العالمية لاقبال الناس على دور السينما فزهت وتقدمت تقدماً سريعاً مطرداً وما كانت المستنبطات الحديثة التي ادخلت عليها والاموال الكثيرة التي تنفق في سبيل اتقانها واشادة دورها الانيقة الرحبة لتؤخر سير تقدمها او تورطها في الازمة الآخذة الآن بخناق الصناعات الاخرى . هل يا ترى اذا توقف الجمهور عن ارتياد دور السينما يحجم اصحابها عن موالاة التحسين فيها حتى تتقي الازمة ؟ وهكذا قل عن كل صناعة أخرى بل عن كل تجارة بل عن الزراعة نفسها فانهُ متى احجمَ الجمهور عن الاستهلاك وقعت الازمة بلا محالة

ولكنَّ احجام الجمهور عن الاستهلاك او بعبارة اخرى قلة المشترى او ضعف المقدرة على المشترى ليس بحد ذاتهِ سبباً يصح السكوت عليهِ بل هو نتيجة مسببات اخرى نتناولها في ما يلي وهي التي اودت بالعالم الى هذه الازمة العمومية التي نكدت عيش الناس في جميع البلدان

ان الذين كانوا اطفالاً في سنة ١٩١٤ لا يمكنهم الآن ان يدركوا كنه الحالة بل هم ينظرون الى الازمة نظرهم الى لغز تعذَّر عليهم حلَّه وذلك لانهم عاشوا في زمن انقلب فيهِ كل شيء رأساً على عقب واصبح فيهِ الشواذ قاعدة يعملُ بها والقاعدة الاساسية شواذاً . اما الذين كانوا في سن الرشد والادراك عام ١٩١٤ — الذين عرفوا العالم اذ كان كل شيء في موضعه الطبيعي — هؤلاء لا يصعب عليهم ان يدركوا كنه الحالة ويحلّوا هذا اللغز الذي هو ليس بالحقيقة لغزاً

زيادة الضرائب

ان وراء هذه الازمات والمصائب اسباباً اساسية ظاهرة لمن يقابل الحاضر بالماضي اولها الزيادة الفادحة في النفقات العمومية والخصوصية زيادة لم يعرفها العالم في الماضي . ففي اثناء الخمس عشرة سنة الاخيرة بلغت الضرائب والنفقات العمومية في فرنسا وايطاليا والمانيا اربعة اضعاف ما كانت عليه سابقاً وفي سويسرا ثلاثة اضعافهِ وفي انكلترا واميركا نحو خمسة اضعافهِ . ومن غريب الامور ان المدنية الحاضرة تكاد لا تعير هذا المرض الاجتماعي القتال اقل اهتمام . كان من اصعب الصعاب فيما مضى على اية حكومة كانت حتى الاوتوقراطية منها فرض ضريبة جديدة ولو صغيرة على شعبها حتى ان معظم الثورات التي سجلها التاريخ ترجع اسبابها الاساسية الى زيادة الضرائب بل كانت بالحقيقة حرباً عليها . فكيف يمكننا ان نفسر الآن هذه الضرائب الفادحة التي فرضتها الحكومات على شعوبها في مدة الخمس عشرة سنة الاخيرة دون اقل مقاومة او تذمر ؟ لماذا سلَّمت الشعوب بهذا الاستبداد المالي عن طيبة خاطر حتى ان معظم الناس كان لا يعرف تماماً مدى فداحته وهو يدفع الضرائب الاميرية غير مبال بالارقام الهائلة التي وصلت اليها ؟

اننا نجد بعض التعليل لهذا اللغز الغامض في حالة التقدم واليسر التي وصل اليها العالم .

وما اليسر سوى كثرة المال . ولما كانت الضرائب تدفع بالمال فكلما كثر المال قلت وطأة الضرائب على دافعيها والعكس بالعكس اذ من الاسباب الاساسية التي كانت تهيب بالناس في سالف العصور الى الثورة والامتناع عن قبول الضرائب قلة النقد المتداول بين الايدي . بدأ عصر الذهب في سنة ١٨٤٨ لما اكتشفت معادن كاليفورنيا واوستراليا واخذ انتاج الذهب يزداد تدريجاً سنة بعد سنة حتى اصبح المال موفوراً وبعبارة اخرى اصبح العالم غنياً . وهكذا اخذت الحكومات تنفق من دون حساب وميزانيات نفقاتها تتزايد مع مرور السنين واعتاد الناس القيام بهذه النفقات عن طريق الضرائب دون ان يشعروا بتزايدها . الاَّ ان ازدياد المال بين الايدي كان اسرع من ازدياد الضرائب . وهكذا قد اعتادت امم الغرب في اثناء خمسين سنة تقريباً دفع ضرائب الحكومات ومواجهة زيادة النفقات عن رضى وقبول . وهذا امر طبيعي اذ من البديهي ان أسلم بدفع ضريبة عشرين غرشاً عند ما يكون دخلي مائة غرش بينما استصعب جداً وربما تعذر عليَّ دفع ضريبة عشرة غروش اذا كان دخلي فقط ثلاثين غرشاً

وزيادة النفقات والضرائب التي شهدناها منذ خمس عشرة سنة والتي بلغت اربعة وخمسة اضعاف ما كانت عليه قبل الحرب العالمية ليست الاَّ نتيجة طبيعية لزيادة النقد في العالم تلك الزيادة الفاحشة . ان الحرب العالمية قد كدست الذهب عند امم وحرمت امماً اخرى منهُ ولكن الامم التي اضطرتها الحرب الى انفاق ما كان لديها من الذهب او جانباً منه لم تشعر بضيق مالي في السنين القلائل التي تلت الحرب اذ ان تضخم النقد الورق قد اوجد اليسر والبحبوحة حتى في البلدان التي نكبت شرَّ النكبات في الحرب . تلك ظاهرة غريبة تبعث على الدهشة ولكن حقيقة الامر ان ذاك اليسر لم يكن الاَّ وهمياً لا اساس له . والاغرب من ذلك ان هذا اليسر الوهمي الذي تمتعت به الامم التي بليت بنكبات الحرب قد زاد في يسر الامم الاخرى التي تجمَّع الذهب عندها وكان غناها حقيقياً . وكأنَّ العالم قد اصابه شيء من الخبل من حالة اليسر ووفرة المال — هذا اليسر الذي كان نصفه حقيقياً ونصفه وهمياً — حتى اخذت الحكومات تنفق دون ما حساب وتزيد في الضرائب اضعاف الاضعاف والناس كالسكارى لا يعرفون للمال قيمة يدفعونه ويصرفونه ذات اليمين وذات الشمال غير حاسبين للغد حساباً

ولكن دوام الحال من المحال فما انقضت بضع سنوات حتى تبدَّل ذاك اليسر عسراً . قلت الارباح بل تضاءلت وخفضت المعاشات وعمَّ الكساد الزراعة والصناعة والتجارة وعجزت جميع الدول عن سد العجز في ميزانياتها . وجيش البطالة الذي بلغ الملايين اصبح عالة على المجموع . فكيف يمكن والحالة هذه ان يستمر الناس على دفع الضرائب الفادحة التي كما بينا سابقاً قد بلغت حداً قصياً . انها اليوم تثقل كاهلهم وكانوا بالامس لا يشعرون بعبأها . ومن اهم المشاكل التي تواجهها الشعوب اليوم هي مشكلة الضرائب وكيف يحمَّل هذا الحمل الثقيل دون ان نرزح تحته

التجارة مبادلة

لماذا لم تدرك اوربا في سنة ١٩١٩ انه بعد حرب لم تبق ولم تذر دامت اربع سنوات كان يجب عليها الاقتصاد الكلي مدة لا تقل عن عشر سنوات وانهُ كان يجب على الحكومات ان تكون قدوة للافراد في ذلك ؟ لماذا ونحن في عصر النور قد تعامينا عن هذه الحقيقة وناقضناها بكل ما اوتينا من قوة ؟ على انهُ يظهر ان التعامي عن الحقائق الجوهرية اصبح من امراضنا الاجتماعية في عصرنا الحاضر. وها هي معضلة التعويضات والديون الدولية التي تزداد تعقيداً سنة بعد سنة مثالٌ بليغ على هذا المرض القتال. نعم انه مرض قتال لان التعويضات الحربية والديون الدولية بحالتها الراهنة هي سبب آخر بلا شك لهذه الازمة الطاحنة والعجز عن حل معضلتها راجع لهذا التعامي بل لهذا الجهل. عجب عجاب كيف ان اوربا واميركا في هذا العصر الذي توصل فيه العلم الى نزع الحقيقة من قلب الزمان بل الى سبر غور المادة حتى اخضعها لمشيئته تجاهلتا قاعدة اساسية في علم الاقتصاد درستها انا عند ما كنت تلميذاً ودرسها قبلي ويدرسها بعدي ملايين التلاميذ في المدارس. تلك القاعدة الاساسية التي بني عليها علم الاقتصاد والتي لا يمكن تحويلها او الزيادة عليها او النقصان منها هي ثابتة بجوهرها كالقاعدة الحسابية التي تعطينا ٤ من جمع ٢ مع ٢ بلا مزيد ولا نقصان وهي ان التجارة مبادلة أو مقايضة بين متاع ومتاع أو خدمة وخدمة وان العملة ليست سوى رمز للاشياء المتبادلة. واما اذا كانت العملة ذهباً فانها هي ايضاً تصبح متاعاً خاصاً أو « بضاعة » تصح المقايضة بها مع بضاعة أخرى. واساس العملة هو الذهب وليس ورق النقد الاّ رمزاً للعملة الذهبية ومقياس قيمته ما يدعمه من الذهب. فاذا كان الورق النقدي لا يرتكز الى مبلغ من الذهب بنسبة ٤٠ بالماية على الاقل تعرض للهبوط بل كلما نقص مقدار الذهب الاحتياطي نقصت قيمة الورق النقدي وهذا ما وقع للمارك الالماني وللفرنك الفرنسي والفرنك الايطالي والليرة الانكليزية. ونحن اذا قلنا مبادلة وجب علينا الاّ ننسى ان المبادلة هي بالحقيقة بين بضاعة وبضاعة باعتبار ان الذهب اي النقد الذهبي هو ايضاً بضاعة من نوع خاص

فالبلاد التي لا تستخرج الذهب يتحتم عليها مشتراه من غيرها من البلدان التي تقتنيه وحيث ان البيع والمشترى هما بالحقيقة مقايضة يتحتم عليها دفع ثمنه بضاعة اي بعبارة تجارية معروفة عليها ان تصدر الى البلاد الاخرى بضاعة من انتاجها كي تستورد بقيمتها ذهباً

متى فهمنا هذه الحقيقة الراهنة تجلت امامنا معضلة التعويضات الحربية والديون الدولية التي يئن منها العالم اليوم والتي تعتبر من المسببات الاساسية لهذه الازمة الطاحنة ووقفنا مذهولين متسائلين لماذا تغاضت الامم عن هذه الحقيقة فزاد تغاضيها تعقيداً للازمة. لماذا لا تقر بصحة هذه القاعدة الاساسية فتعمل بموجبها عوضاً عن ان تناقضها هذه المناقضة العمياء ؟

فَتلَتْها مثل الرجل الذي امسك بالحية من ذيلها فلدغتهُ عوضاً عن ان يمسكها من عنقها ويهشم رأسها . وهنا لا بد لي من شرح هذه النقطة ولو بايجاز :

عند انتهاء الحرب فرض الحلفاء المنتصرون على المانيا المغلوبة غرامة حربية كبيرة سموها تعويضات عن الخراب الذي سببته الحرب لهم بصفتها معتدية عليهم. وتفرق الحلفاء بعد الصلح وكل منهم مدين للآخر والجميع مدينون لاميركا بمبالغ فاحشة . واذا كانت هذه التعويضات والديون الدولية لتستوفى تماماً وفي مواعيد استحقاقها استغرق ذلك مدة لا تقل عن خمسين سنة ووجب في خلالها على دول اوربا ان يدفع بعضها للبعض الآخر مبالغ كبيرة سنويًّا وان تبعث بقسم كبير من هذه المبالغ عبر الاطلانتيكي الى الولايات المتحدة . زد على ذلك ان الامم التي خرجت من الحرب وخزائنها طافحة بالمال كالولايات المتحدة والدول المحايدة اقرضت باقي الدول الاوربية والاميركية واوستراليا مبالغ كبيرة من المال على ان تتقاضاها اياها دفعات سنوية فأصبح العالم باسره مديناً بعضه لبعض على وجه لم يسبق لهُ مثيل من قبل . فاذا اخذنا بعين الاعتبار القاعدة الاقتصادية القائلة ان التجارة مقايضة وانه لا يمكن الحصول على المال الا لقاء بضاعة كان من الضروري ازالة الحواجز حتى تصبح هذه المقايضة سهلة لا يعترض سبيلها معترض وحتى تصبح المقايضة اي التجارة حرة طليقة من كل القيود بين الامم . فهل هذا ما فعلته الدول ؟ كلا انها عملت ما يناقضه على خط مستقيم

الحواجز الجمركية

هذه اميركا تتطلب من دول اوروبا استيفاء مالها بذمتها من الديون وفي الوقت نفسه تمنع بضائع اوروبا من دخول بلادها فكيف يستطيع المدين ان يفي دينه اذا حرمه الدائن من الوسيلة الوحيدة التي بها يمكنه وفاء الدين . ومن اغرب الامور ان اميركا ما زالت منذ الحرب تمد الحلفاء بالمال وهؤلاء من القروض الجديدة يسدّدون الديون القديمة. ومعنى ذلك ان اميركا تفي نفسها بنفسها . وهذه دول الحلفاء تتطلب من المانيا دفع التعويضات الحربية ولكنها بالوقت نفسهِ قد اقتفت أثر اميركا واقامت الحواجز الجمركية العالية على البضائع الالمانية في بلادها وفي مستعمراتها فحرمت المانيا الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من الحصول على المال لوفاء ديونها والقيام بتعهداتها . ثم ان الحلفاء اقتدوا ايضاً باميركا فقدموا الى المانيا قروضاً مالية كانت تساعدها على دفع اقساط التعويضات باوقاتها . فكان الحلفاء يدفعون باليمنى ويقبضون باليسرى . ان هذه لعمري مهزلة يجب ان يندى منها خجلاً جبين القرن العشرين

ولقد شعر العالم بعاقبة هذه المتناقضات وما الازمة الآخذة بخناقهِ اليوم وفقدان الثقة ووقوف دولاب الاشغال سوى نتيجة طبيعية لها . لقد فقدت الثقة تماماً فاصحاب الاموال يتمنعون عن تشغيل اموالهم بل هم يدفنونها خوفاً عليها من الضياع والمصارف قبضت يدها

بتاتاً عن التسليف والقطع وامست التجارة والصناعة والزراعة في جمود تام . ويعتبر الثقات الماليون ان الديون الدولية اصبحت جميعها متزعزعة غير ثابتة وان نصف العالم اليوم مهدد بالافلاس . لقد تجمّع الذهب في بلدانٍ معلومة وحرمت باقي البلدان منهُ ولكن ليس من الانصاف ان نلوم فرنسا واميركا مثلاً على ادخار الذهب وامتناعهما عن اخراجهِ بصفة قروض للغير اذ لا توجد دولة الآن يكون الدين مأموناً لديها . والواقع ان اميركا وفرنسا يرغبان جدًّا في تصريف الذهب المتراكم عندها — اذ لا فائدة لها من وفرته — لو وجدتا ضماناً كافياً لقروض جديدة. ان العوامل أو المسببات التي سقتها آنفاً كافيةً وحدها لان تنزل بالعالم شر النكبات والازمات المالية والاقتصادية فكيف بنا اذا اضفنا اليها عاملاً آخراً بعيد التأثير شديد الوطأة ، عاملاً مباشراً أجمع معظم الثقات الماليين والاقتصاديين على أنهُ اهم جميع العوامل التي اودت بالعالم الى هذه الازمة الطاحنة ألا وهو هبوط قيمة النقد الفضي

الذهب والفضة

ولقد تنبأ المستر مونتاجو نورمن حاكم بنك انكلترا في سنة ١٩٢٦ عن مستقبل الحالة التجارية والاقتصادية وتأثير هبوط قيمة الفضة فيها فجاءت الحوادث منذ ذلك الوقت مصداقاً لنبوءتهِ وهذا ما جاهر بهِ وقتئذ قال : — «ان التقلبات الفجائية صعوداً كبيراً وهبوطاً شديداً في قيمة النقد الفضي تؤثر مباشرة في قيمة الأشياء التي اساسها النقد الذهبي . وهذه التقلبات من شأنها بث الفوضى في المعاملات المالية والتجارية لأنها تفقد الثقة المعوَّل عليها في هذه المعاملات خصوصاً في الهند والصين حيث الفضة من سالف العصور الى يومنا هذا هي عملتهم الوحيدة التي درجوا عليها .فبنسبة هبوط قيمة النقد الفضي تنقص مقدرة ستمائة مليون من البشر على المشترى وهذا مما يؤدي حتماً الى هبوط قيمة البضائع والمصنوعات الاوربية والاميركية المعبَّر عنها بالذهب »

هذا ما قاله حاكم بنك انكلترا في سنة ١٩٢٦ اي نحو سنة بعد ما اقرَّت انكلترا رسميًّا اتخاذ الذهب وحده دون الفضة اساساً لنقدها وبذلك فقدت الفضة قيمتها النقدية كعملة ثابتة واصبحت عرضة للتقلبات اذ بفقدان تلك الميزة ميزة النقد الثابت فقدت الفضة قيمتها المعنوية واصبحت متاعاً كباقي الامتعة خاضعاً لقاعدة العرض والطلب . وكانت النتيجة ان تدهور الروبي الهندي الى حد لم يسبق له مثيل فقد كانت الليرة الانكليزية قبل ١٩٢٥ تعادل ١٦ روبيًّا فاصبحت بعد ذلك بمبلغ ٣٣ روبيًّا . وهكذا وبالنسبة نفسها سقطت قيمة النقد في الصين وايران وباقي بلدان آسيا التي يرتكز نقدها على الفضة . ومتى تذكرنا ان معظم صادرات اوربا واميركا الصناعية تستهلك في بلدان آسيا وعلى الاخص في الصين والهند لقاء المواد الاولية والغذائية التي تستوردها اوربا من هذه البلدان تبيَّن لنا جليًّا مقدار الاذى الذي حلَّ بتجارة الصادرات الاوربية والاميركية من جراء توقف الهند والصين وايران الخ

عن استيراد هذه البضائع الاّ الشيء القليل منها . فتكدست البضائع في اميركا واوربا وتدهورت اسعارها ولم يعد لها من مخرج للتصريف فخلت الازمة التي يقاسي العالم منها الامرّين.

والى القارىء ما قررتهُ لجنة ما كلان الدولية في هذا الشأن

« ان السبب الاساسي للازمة العالمية هو تدهور الاسعار تدهوراً هائلاً قاتلاً للتجارة والصناعة والزراعة كأنما كل ما على الارض من عقارات ومنقولات اصبح بخس الثمن لدرجة غير معقولة .وبناء عليه لا بد لحل هذه الازمة من ايجاد الوسائل الناجعة التي تؤول (اولاً) الى ارتفاع الاسعار الى مستوى اعلى جداً مما هي عليهِ الآن (وثانياً) الى تثبيتها على هذا المستوى ما امكن . ولا يكون ذلك ممكناً الاّ اذا تفهّم العالم الحقائق الآتية وعمل بموجبها

ان نزول الاسعار او هبوط قيم الاشياء هو بالحقيقة صعود في قيمة المعدن الذي تتقايض بهِ هذه الاشياء اي النقد الذهبي واذا قلنا هبطت الاسعار فكأننا بعبارة اخرى نعني ان قيمة الذهب قد ارتفعت .اذا عزّ الشيء ارتفعت قيمتهُ وعلى الضدّ اذا توفّر سقطت قيمتهُ. وحيث ان مقدار الذهب في العالم قد نقص كثيراً اذا قيس بالحاجة اليهِ فان قيمته قد ارتفعت هذا الارتفاع الهائل المعبّر عنهُ الآن بسقوط اثمان الاشياء وان لجنة ما كلان تعتبر انهُ في سنة ١٩٤٠ يصبح الذهب نادراً بالرغم من جميع الوسائل لتوزيعهِ في العالم حتى انهُ لا يعود كافياً للقيام بالغرض المطلوب منهُ كعملة يتداول الناس بها .فمن الضروري والحالة هذه ايجاد طريقة اخرى تقوم بحاجة التجارة او المقايضة الدولية

ان الصين والهند والمكسيك وايران تستعمل الفضة اساساً لنقدها فمن المحقق اذاً انهُ اذا ثبّت النقد الفضي على اساس نسبة ثابتة بينهُ وبين النقد الذهبي تصبح المعاملات التجارية مع هذه البلدان سهلة جداً وتزول جميع العراقيل . واذا صار من الممكن استيفاء الديون التجارية سواء بالنقد الذهبي او بالنقد الفضي على اساس نسبة ثابتة بينهما نشطت ولا شك التجارة بين الشرق والغرب وانعتقت من قيودها وعادت الى مجراها الطبيعي

ان الاعتراض الوحيد على هذه النظرية هو امكان الافراط في انتاج الفضة فيما لو عاد العالم واتخذه اساساً للنقد فيصبح عرضة للتقلبات والمضاربات فلا يعود يصلح عندئذٍ ان يكون نقداً ثابتاً . ولكن هذا الاعتراض فاسد من اساسه لان النسبة بين ما يستخرج من الفضة وما يستخرج من الذهب لم تتغير منذ اربعمائة سنة بل في اثناء الخمسين سنة الاخيرة كانت نسبة الفضة المستخرجة الى الذهب اقل من المعتاد . زد على ذلك انهُ عند ما ارتفعت قيمة الفضة الى اقصى حد ممكن لم تحصل زيادة في المقدار المستخرج منهُ بل بقي على النسبة نفسها — والمقادير التي تستخرج اليوم من المعادن اقل من المقادير المستهلكة سنويًّا . انما السبب الوحيد في سقوط قيمة الفضة في السنوات الاخيرة هو المبيع من جانب الحكومات لمقادير هائلة

من العملة الفضية التي فقدت قيمتها النقدية بعد تثبيت النقد الانكليزي على أساس الذهب سنة ١٩٢٥ . وهذا ما يحل بالذهب نفسه فيما لو فقد قيمته النقدية اي قيمته كعملة دارجة ثابتة

هنا وصلنا الى نتيجة حاسمة لا جدال فيها اذا عاد العالم واستعمل الفضة مع الذهب اساساً للنقد وهي سقوط قيمة النقد اجمالاً لوفرته وهذا معناه كما بينا آنفاً ارتفاع في اسعار الاشياء التي تشترى بهذا النقد وبعبارة اخرى تسقط قيمة النقد الذهبي بنسبة ارتفاع قيمة النقد الفضي وبنفس النسبة ترتفع قيم الاشياء التي اساسها النقد الذهبي. عندئذ يستطيع الهندي مثلاً ان يشتري الكمبيو الانجليزي كما كان في الماضي بسعر ١٦ روبية لليرة الانجليزية عوضاً عن ٣٣ روبية كما هي الحال اليوم فتزداد قوتهُ على المشترى وتعود اوربا واميركا الى تصدير بضائعها باسعار رابحة الى بلدان آسيا فتنتعش الصناعة ويقل عدد العاطلين وتعود التجارة بين الشرق والغرب الى مجراها الطبيعي. أفليس من الغباوة ان تتغاضى اليوم اوروبا عما يستهلكهُ سمّاية مليون من البشر ؟

اما النسبة الاساسية بين الفضة والذهب التي يجب تثبيت قيمة النقد الفضي عليها فان الطبيعة نفسها قد اوجدتها فا من ضرورة للتفتيش عنها. ان الطبيعة قد اوجدت لنا هذين المعدنين الذين استعملهما الناس معاً كنقد للتعامل منذ سالف العصور والطبيعة نفسها قد دلتنا على نسبة قيمة الواحد للآخر لانها تخرج لنا من الارض على معدل ١٦ اوقية فضة لكل اوقية ذهب . منذ الوف السنين من عهد الفينيقيين والمصريين والاشوريين حتى سنة ١٨٧٣ بعد المسيح عند ما تركت المانيا اساس النقد الفضي واعتمدت الذهب وحده اساساً لنقدها ثم تبعتها في ذلك امم اخرى — حتى تلك السنة كان مثقال الذهب يساوي ١٤ او ١٦ مثقالاً من الفضة — أما الآن فمثقال واحد من الذهب يساوي ٧٧ مثقالاً من الفضة . ناقض الناس الشرائع الطبيعية فانتقمت هذه الشرائع منهم . لعل خطورة الحالة والخطر الذي يهدد كيان المجتمع الآن والخوف من وقوع اوربا واميركا في براثن الشيوعية — لعل هذه الامور تهيب بالدول الكبرى الى التضامن معاً على قمع هذا الشر الداهم من جذوره وذلك

(اولاً) — بتخفيض الضرائب وتخفيفها عن كاهل الناس — وهذا ممكن اذا اقتصدت الحكومات في نفقاتها وعسى ان يكون مؤتمر نزع السلاح خطوة في هذا السبيل

(ثانياً) الغاء التعويضات الحربية والديون الدولية او اذا كان هذا مستحيلاً فالغاء الحواجز الكمركية بين البلدان عموماً وجميع العراقيل الموجودة الآن في طريق التجارة حتى تصبح التجارة حرة طليقة فيسهل وفاء الديون اذ يصبح التبادل في الاشياء محرراً من القيود الحالية

(ثالثاً) — الرجوع الى النقد الفضي ليدعم النقد الذهبي فتنتعش التجارة بين الشرق والغرب وبانتعاشها تنتعش الصناعة في اوروبا واميركا ويعود العمال الى المصانع والزراع الى الحقول ولا يعود اصحاب الرأسمال يخافون من ضياع اموالهم واتعابهم فتعود الثقة بين الناس كما كانت في الماضي

بيروت فؤاد نصار

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيما كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستختار على المطولة

الحضارة الغربية وانصاف اليهود

قرأت في مقتطف يونيو الاغر مقالاً ممتعاً لحضرة الاستاذ سامي الجريديني بحث فيه « ميزة الحضارة الغربية » بحثاً مستفيضاً معززاً بنظريات فقهية وادلة علمية يلمع بين قرائنها ضياء المنطق والصواب . وما زلت استلهم روح هذا البحث الجليل استلهام طالب يجتهد في ان يستفيد من اطروحة جمعت في سطورها القليلة خلاصة ما وصل اليهِ التطور الانساني للحضارة الغربية مستمتعاً بما اورد الكاتب الفاضل من امثلة ناهضة لا تقل عن كونها عنصراً حيًّا من عناصر الموضوع القيمة الى ان صدمت بدليل واحد بين تلك الادلة كان اشبه بصاعقة تطايرت شظاياها حمماً فوق رأس البحث السلس فشوَّه روحه . وقد خيم في افقه دخان فاحم يرمز الى غضب الحقيقة وثورتها على ما في هذا الدليل من شوائب تكاد تصفعها صفعاً !

اما هذا الدليل فهو حيث يقول (... يغضب اللبناني اذا جاوره ارمني واحب ان يدخل قوميته والفلسطيني تقوم قيامته اذ يرى الحضارة الحالية تنصف اليهود وتعدهم بشراً لهم ما لجميع البشر من حقوق وآمال ومطامح) !

المعروف والواقع ان مجلة المقتطف هي سجل للحقائق العلمية والتاريخية على تشعبها والثابت ان هذه المجلة هي المصباح الاول الذي انبثق منهُ نور حرية الفكر في ربوع هذا الشرق . وان ما يكتب فيها له من القيمة والخطر في ذاكرة التاريخ ما يحتلهُ الحقائق الراهنة الامر الذي يجعل المرور بهذا الدليل غير الموفق وصمة سوداء في جبين نهضة العرب القومية الكبرى لذلك استأذن اصحابها ان يسمحوا لي بمناقشة هذا الدليل المعوج نقاشاً هادئاً انصافاً للحقيقة والتاريخ

ليس بالمجهول ان العرب ثاروا على دولة الخلافة تخلصاً من العبودية وتحقيقاً لحريتهم واستقلالهم عملاً بالسنّة الطبيعية التي تفرض على كل شعب يفهم معاني الحياة ان يساهم بقسطهِ في توطيد دعائم الرخاء الانساني . وغني عن البيان ان شعباً ما لا يستطيع ان يقوم بهذه الفريضة الانسانية الاَّ اذا حطم قيود الاسر ودك اركان الرجعية وكوّن له شخصية عالمية

دعامتها السيادة والحرية . ومما لا شك فيه ان العرب لم يرتكبوا اثماً في جنوحهم الى هذا المطمح الانساني الشريف الاّ اذا عدّ المنافح عن كرامة الانسانية اثماً مجرماً !

ومن المهم ان يعرف العالم باسره ان العرب لا يضمرون لليهود عداء لمجرد كونهم يهوداً وان العرب لا يقاومون غارة اليهود على بلادهم سحقاً لاماني اليهود في حريتهم وخلاصهم الاّ ان الشر مهما تأدب الانسان في تعريفه يبقى شرّاً لذاته اذ ليس هنالك شر حسن وشر قبيح . ولسنا ندري اذا كانت معاني الحضارة الغربية تجيز لامة ان تسلب حقوقاً سياسية لامة اخرى بل لسنا ندري اذا كان يصح ان يسمى اغراء اليهود بقطر من الاقطار العربية لمطامع سياسية مغلوطة انصافاً لهم تتبرع به الحضارة الحالية . الاّ اننا نعلم علم اليقين ان تنازل شعب ما عن وطنه لشعب آخر ليس الاّ اعترافاً بافلاس مبادىء الحضارة وانهيار دعائم الحق والسلم ! ولعله من المفيد ان يسأل عن ميزة هذه الحضارة يوم قام كرمويل واترابه في بريطانيا وفرنسا واسبانيا وايطاليا يطاردون اليهود ويشنون عليهم الغارات بسيوف كانت تقطر دماً وتسطر شرائع تجعل من اليهود شعباً احط مرتبة من ان يستمتع بحقوق الانسان ايثاراً من خصائصه الشاذة وتخلصاً من اخطاره الجائحة ! !

اننا نؤكد لحضرة الكاتب المحترم ان اليهود لو كانوا يأتون الى فلسطين ليدخلوا القومية العربية لفتح لهم العرب الاذرع وضموهم الى صدورهم كما يضم المحب حبيبه ولكنهم آتون الينا ليفرضوا علينا جنسيتهم وآدابهم ومدنيتهم وسيادتهم ! انهم يعملون على استفكاك الاراضي من ايدي العرب وقد استطاعوا بطريقة (الباس الظلم ثياب القانون) ان ينتزعوا من ايدي العرب اخصب الاراضي مما نشأ عنه وجود ٢٨ الف عائلة بدون ارض وهذا ما قاله السر هوب سيمسون في تقريره الرسمي منذ عام واحد يوم انتدب رسمياً لدرس مشكلة الاراضي في فلسطين !

ان السر هوب سيمسون يقول بوجوب اقطاع هؤلاء العرب ارضاً من تلك التي اغتصبها اليهود والاّ فانهُ يتوقع محذوراً كبيراً اذ يعلن بصراحة احتمال تكرار الفتن والاضطرابات ! لان شذاذ الآفاق من اليهود قد اغتصبوا اللقمة من فم العرب كما اغتصبوا الارض والعمل . فماذا يكون مصير شعب لا ارض له يقتات منها ولا عمل له يدر عليه قوته اليومي ؟ أيسبح افراده الله بكرة وعشية على ما هم عليه من نعمة أم يستوحون ذهنية الفاقة والمجاعة ؟

ان فلسطين لن تكون للعرب واليهود معاً فاما ان تبقى عربية واما ان تتهوّد وهذا نزاع يكون الفصل فيه لانظمة لا قدرة لميزات الحضارة الغربية على الوقوف امامها او العمل على تغيير سير تياراتها . على ان نهاية هذا النزاع ستأتي وسط جلبة داوية تقع تبعتها على من يقامر بمقدرات الشعوب والامم من ابناء الحضارة الغربية هذه الحضارة التي نجد فيها ماهو جدير باحناء الرؤوس احتراماً كما نجد فيها ما يستعذب معهُ المرء فدى حياتهِ تخلصاً من شرورها وويلاتها !

فلسطين عيسى بندك صاحب جريدة صوت الشعب

الرد

قرأت رسالة الفاضل الفلسطيني العربي فرأيتهُ يفر من المبدأ السامي الذي وصفتهُ في رسالتي الى بحث سياسي ذي نزعة حزبية لا تليق بمن يود ان يتجرد من سياسة اليوم المادية القائمة على الانانية ويسمو الى سياسة الغد التي سيكون اهم اركانها ازالة الفوارق الجنسية بل الدينية

ولو عاد حضرتهُ الى قراءة رسالتي بامعان لرأى فيها الرد على روح ما يكتبهُ

فلا يولّد التعصب الاّ التعصب ولا يزيد في الحقد الاّ الاضطهاد . وانهُ لحريٌّ بمن يذهب مذهب حضرته في تأييد القوة والاستعانة على مذهبه بمحق الفتح ان يكون القويُّ القويُّ . واما والحالة كما نرى فما اجدرنا بالمسالمة ان لم يكن حبًّا بمبدإ فاخفاء للضعف سامي الجريديني

المادة والنور وآراء الاستاذ مشرفة

ان محاضرة رئيس التحرير عن رواية الالكترون وابطالها (مقتطف ينار ١٩٣٢) ،قد بعثت في نفسي اهتماماً دفعني الى ان اتحدث الى القراء عن المادة وعلاقتها بالنور . ولقد كفاني رئيس التحرير مئونة البحث وراء المادة ،اذ انتهى في محاضرته الى انها مؤلفة من ذرات ،وكل ذرة تحوي نواة ذات شحنة كهربائية موجبة تحيط بها الالكترونات ذات الشحن الكهربائية السالبة . وانهُ لجدير بي ان انير الموضوع اولاً حتى يتسنى للقارىء ان يراه ثم اعود الى مادته فأتم نسجها

اني وان بدأت بالنور فواجب ان اقول انه كان في المعتقد — وكان زعيم هذا المعتقد نيوتن — ان الضوء وهو يسير في خطوط مستقيمة ، لابد ان يفعل ذلك في ذرات نورية يبعثها الجسم المضيء الى شبكة العين فتحس الابصار . ولكن هذه النظرية لم تصمد طويلاً امام وابل الظواهر الطبيعية التي عجزت عن تفسيرها . فتحملت مسئولية التفسير نظرية اخرى هي نظرية الامواج التي تحدثنا ان الجسم المضيء يتذبذب في مكانه ويرسل امواجاً يحملها الاثير الى العين فتبصر

رغم ان نظرية الامواج كانت اكثر توفيقاً في تعليل المظاهر الطبيعية فانها لم تخل من عيوب الجأت العلماء الى اظهار النظرية الكمية لسد بعض النقص ، فذهبوا الى ان الضوء ينبعث متقطعاً في وحدات تدعى «كونتم» او «فوتون» ،ومثل الضوء في ذلك كمثل السيل المنهمر يرسل في قطرات ماء

اخشى ان يدور بخلد القارىء ان الضوء في هذا الحال يفقد طبيعته التموجية — فانه لا يفقدها — ولا اخالني مغالياً اذا قلت ان علماء القرن السابع عشر ، وقد اعتبروا الضوء جسيمات ، وان علماء القرن التاسع عشر وقد اعتبروهُ امواجاً ، كلاهما خاطىء او ان شئت كلاهما مصيب ، تفادياً للنزاع ، فتارة يظهر لنا بمظهر الذرات وطوراً يتصرف تصرف الامواج

لي ان اقف والقارىء هنيهة ، وقد ثبت ان النور جسيمات مضيئة متحركة مع احتفاظها بحالتها التموجية ،اقف واتساءل ،وقد قاسم النور الالكترون حالته : أليس من العدل ان يقاسم الالكترون

النور حاله فيصبحُ موجاً رغم احتفاظه بكيانه الجسيمي ... نعم لقد دلت التجارب العملية الحديثة على ان هذا هو الواقع العملي . حتى من الوجهة النظرية البحتة نرى ان الحزمة من الأمواج لا ينقصها شيء من الكفاءة في ان تخضع للقوانين الطبيعية بما لا يميزها عن الالكترون باعتبار انهُ جسيم . إذن يصل بنا البحث الحديث الى ان العالم امواج متلاطمة في امواج ، فالنور امواج والمادة امواج

جميل ان يكون النور من امواج والمادة من امواج ، ولكن اجمل من هذا ان تكون امواج النور هي عين امواج المادة ، وهذا المنحى من البحث هو لب حديثي الى القراء ، وإن كان اصعب ما في الموضوع من حديث . اذ يتناوبني عند الكتابة عنهُ جملة عواطف متنازعة فبينا قلمي ينقاد تيهاً وإعجاباً ان يكون صاحب هذا البحث استاذاً مصريًّا ووكيلاً لكلية العلوم، بلغ من انتصاره ان تواضعنا في تسميتهِ استاذ المادة والنور ، اذا بهِ يشمس انفة وألماً اذ يرى الغرب دون الشرق — وان قلت الغرب فأقصد علماءه — يتحدثون عن هذا البحث ويحمدونهُ في كتبهم ومجلاتهم . ولم اذهب بعيداً وبين يدي كتاب The Mytserious Universe لجينز وكتاب « Beyond Physics » لأليفر لودج اجد في كل تلخيصاً ممتعاً جعلني في حيرة ايهما افضل حتى عزمت ان ارجع الى اصل البحث وهو منشور في اعمال الجمعية الملكية بلندن في ديسمبر ١٩٢٩ تحت عنوان « المظهر المزدوج لكل من المادة والنور » وهو للاستاذ مشرفه واخرج تلخيصاً مستقلاً وان كنت اعتقد اعتقاداً جازماً انهُ سيكون اقل روعة من تلخيص هذين العالمين الكبيرين

بدأ بحثهُ بأن لعب بريشتهِ الرياضية الحاذقة في معادلة الحركة المنتظمة لسطح الالكترون وشكلها في صورة اخرى ، ونظر الى هذه الصورة وهو منطلق بسرعة الضوء فرآها وقد تحولت الى صورة موجة ضوئية ، واستنتج انهُ لا بد وهو بسرعتهِ هذه ان يرى الضوء مادة كما رأى المادة ضوءًا ، اعني كأنهُ يقول ان لا فرق بين المادة والنور غير السرعة ، فما المادة الا نور بطيء وما النور الا مادة سريعة

هذا هو البحث الاول وقد اهتزت له الدوائر العلمية ايما اهتزاز . اما البحث الثاني فهو لا يقل خطراً عن الاول ، وقد قرىء في نفس الجمعية ونشر في مجلتها في مايو سنة ١٩٣١

فرض فيه وجود مجهولين غامضين لا يعرف كنههما ، واثبت انهما لو ساعد احدهما الآخر لحكمنا انهما بروتون ذو شحنة موجبة، وان عاكس احدهما الآخر لذهبنا الى انهما الالكترون ذو الشحنة السالبة ، ولكن ان تعامدا — اعنى ان مشى كل في سبيله، لا يعاكس ولا يساعد رأيناهما نوراً

اذن نخرج من هذا البحث وذاك ، ونحن على يقين من ان النور من نوع المادة أو المادة من نوع النور ، لا يفرق بينهما غير اختلاف في السرعة والاتجاه . وهذان البحثان محاولة موفقة ناجحة في اظهار ما بين النور والمادة من علاقة نأمل ان يدعمهما بحث ثالث في القريب العاجل

محمود احمد الشربيني بكالوريوس في العلوم

باب الزراعة والاقتصاد

ترقية الزراعة ومنتجاتها

كتبتُ هذا البحث لمناسبة المناقشات البرلمانية حول وزارة الزراعة وأثرها في ترقية الانتاج الزراعي في اواخر مايو واوائل يونيو

الاسلوب العرفي والاسلوب العلمي في الزراعة المصرية

(١) للبلاد فلاحة اهتدى اليها الفلاحون بالاختبار جيلاً بعد جيل وتناولوها بالتهذيب والزيادة خلفاً عن سلف واستقر في عرفهم ما انتخلوه منها وتميز وعرف بالعرف الزراعي وبقواعده يستثمرون ملايين من الفدادين قبل ان توجد مدارس الزراعة ووزارتها وقد اعترف بصحته افاضل المهندسين والاداريين والزراعيين من الاجانب بعد ان حاولوا العدول عن بعض حقائقه او تعديلها فأرجعهم الاختبار العملي اليها — راجع اقوالهم في مقتطف سبتمبر سنة ١٩١٦ ص ٢٧٦ ضمن مقالنا استغلال الارض

هذا العرف او الاسلوب الحرفي لم يُدَوَّن منهُ الاَّ قليل من كثير ولذلك كنتُ ولا ازال اقول انه — لابدَّ لترقية الفلاحة من البدء من الاساس وهو عمل الفلاح فنجمعه ونهذبه — كذلك صنعت فرنسا في بدء نهضتها الزراعية

(٢) اما الاسلوب العلمي وهو ما يفيدنا اياه البحث على مناهج الاصول الحديثة فانه لا يزال « نَبتاً لم يبرض بعدُ — بأرض النبت اول ما يظهر منه » ففي سنة ١٩١٠ كان يعتبر الزراعيون الاجانب انه لا وجود له — راجع تقرير لجنة القطن في كتابي زراعة القطن الطبعة العربية بمطبعة المقطم سنة ١٩١١ — وقد ارتقت بعد ذلك مدرسة الزراعة بالجيزة الى مدرسة عليا وانشئت وزارة الزراعة ولكن تغلب الصبغة النظرية في الاولى والادارية في الثانية على المباحث الفنية عرفية كانت او علمية قصّر بهما عن العمل الجدي لترقية الفلاحة ومنتجاتها واضاع مجهودات بعض الفنيين ضياعاً ما كان يكون لو ان معرفتهم بشؤون الفلاحة والفلاحين العملية كانت غير قاصرة — راجع بمقتطف يوليو سنة ١٩١٨ انتقادنا لتجارب المستر كارترايت والمستر دوجن في ري القطن . وراجع بتقارير مجلس مباحث القطن مخطئة هذه التجارب

(٣) وفي مقطم ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٥ علقنا على النشرة الفنية لمجلس مباحث القطن عن تشريق الارض وبعد ان حبذنا ما يستحق التحبيذ فيها وراجعنا ما يستحق المراجعة منها قلنا من غير جع العرف الزراعي يطول ويلتوي الطريق على الباحثين العلميين فتصدر عنهم مزاعم يعرف الفلاح بطلانها فيقل ايمانه بأبحاثهم الاخرى . ولا تكون لهذه الابحاث قيمتها العملية الاّ اذا تناولها العارفون بالفلاحة العملية ودرسوها وهذبوها واستخلصوا منها ما يفيد الفلاح العملي فائدة حقيقية . اما النشرات الزراعية التى يكتبها علماء غير مشتغلين بالفلاحة العملية وغير عارفين بالعرف الزراعي معرفة كافية فان الفلاح لا يستفيد منها فيهملها لانها غريبة عنه وهذا هو السر في عدم استفادة كثيرين منها »

(٤) ولذلك كان مما اقترحت على لجنة اصلاح التعليم الزراعي منذ سنين ان يوجه التعليم في المدارس الزراعية وجهة عملية وان يتوقف اعطاء الدبلوم لمتخرجيها على قيامهم ببحث احد الموضوعات الزراعية العملية بحثاً وافياً . هذا ما اقترحته وبالاولى ان يكون اساتذتها ممن تكونوا تكويناً عمليّاً او كما قال مؤلف تطور الزراعة وارتقاؤها بألمانيا « نطلب ان كل استاذ يدرس علم الزراعة يجب عليه ان يثبت في الشغل العملي حسن ادارته الخ » ص ٨٤ من الترجمة العربية للاستاذ عصام ناصف

غيطان النماذج

(٥) الزروع المصرية وصناعاتها قسمان — قسم عام يشترك في معرفة فلاحته جمهور الفلاحين في كل المناطق كل منطقة وما يوافقها كزروع القطن والقمح والبرسيم والذرة وقسم خاص تنحصر معرفته في مناطق او جهات خاصة كبعض زروع الخضروات والفاكهة وتربية الطيور وصناعة الالبان الخ وفي كلا القسمين يتفاضل الفلاحون بعضهم عن بعض في معرفة حقائق كل زرع او كل صنفة واتقان العمل بها تبعاً لتفاضلهم في الخبرة والاجتهاد والقدرة والذكاء وقد انشأت الوزارة غيطان نماذج للزروع الاولى الاكثر شيوعاً ولا حاجة بالفلاحين اليها خصوصاً انهُ يوجد في كل قرية غيطان ممتازة باتقان الفلاحة وذكاء الانتاج وهذه الغيطان اكثر عدداً وأقرب مسافة لسائر الفلاحين من غيطان الوزارة المحدودة . لذلك كان الاجدر بالوزارة ان تقوم بانشاء محطات تجارب ونماذج لزروع القسم الثاني وصناعاته لاذاعتها بين جمهور الفلاحين فيتيسر لهم الانتفاع بها واحلالها بدل ما قل من زراعة القطن بدون بطء ولا تخبط وصعوبة كما هو حاصل الآن — لذلك اقترح العدول عن غيطان النماذج للزروع الشائعة وانشاء محطات تجارب ونماذج لسائر الزروع والصناعات الزراعية التي يحسن نشرها بين الفلاحين الآن لكل مديرية محطة على الاقل يختار لها ما هو اوفق لاقليمها من هذه الزروع والصناعات

الري

(٦) الاصل ان يكون الري تابعاً للزراعة لا ان تكون الزراعة تابعة للري ولكن الحال في مصر بالعكس لتقدم علم الري عن علم الزراعة كما يقول مؤلفا النشرة الفنية الآنفة الذكر ولعله لذلك كانت الاخطاء التي أضرَّت بخصب الارض وانتاجها ونذكر منها

(ا) قصور الصرف عن بلوغ شأو الري وقد تواترت المشاهدات والاقوال فيه من رجال الري والزراعة معاً . من ذلك رسالتان لشفيق باشا وزير الاشغال والزراعة السابق نُشرت احداهما بمجلة الفلاحة والاخرى بمقطم ١٨ دسمبر سنة ١٩٢٦

(ب) عمل مشروعات لاحياء ارض موات وإهمال ارض زراعية رواتب عامرة وانما ينقصها العناية باتمام وسائل ريها وصرفها . قلت في احدى مذكراتي الزراعية ان من العبث ان نرى كثيراً من الارض الزراعية مهملة او قليلة الريع لقصور ريها او صرفها ثم نعمل على إضافة ارض جديدة — ليست العبرة بكثرة الفدادين بل العبرة بما يمكن عمرانه واستغلاله كما ينبغي ولذلك فان الافضل الآن تدبير ما يلزم لاتقان ري وصرف الاطيان الزراعية الحالية وهي كثيرة لاسيما وان الكلفة فيها اقل والفائدة اقرب واكثر — راجع الجزء الثاني من كتاب علم الري لحسين سرّي بك ففيه احصائيات مفيدة في هذا الموضوع وقد نشرتها في المقتطف السنة الماضية ضمن ملخص عن مشروعات الري الكبرى

(ج) وجوب التبكير بالجفاف الشتوي عن اوانه المعتاد خصوصاً انهُ يتوفر معهُ الماء المخزون بخزان اصوان كما شرحنا ذلك بمقطم ٧ مايو سنة ١٩٢٢ ومقطم ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٩

(د) تمكين المزارعين من الانتفاع بمياه الفيضان الحمراء حتى لا تحرم منها الارض بينما هي تضيع هدراً في البحر الابيض المتوسط كما شرحت ذلك بمقطم ١٩ اغسطس ١٩٢٢

(ه) تمييز الجهات البحرية بالتبكير في طي الشراقي كما شرحت ذلك بمقطم ٢٨ مايو سنة ١٩١٧ الخ الخ الخ

(٧) — ان المثل الاعلى الذي نبتغيه في الري أن يتيسر وجود المياه حسب حاجة الارض والزرع فلا مناوبات طويلة يظمأ معها النبات ولا تحاريق — منسوب واطي للمياه — يكلفنا الروافع ولا حظر او تقييد يحول دون زراعة الارز زراعة بكبيرة أو تحرمهُ منطقة تحتاج اليهِ او يتأخر طي الشراقي للذرة عن موعده المناسب اويحول دون تنييل الارض في فصل الفيضان وأن تكون المصارف كافية لتجفيف التربة وتخفيض مستوى النز «الماء الارضي» وان يكون صرف الفيضان فيها بالراحة الخ الخ الخ

حالة الفلاح

(٨) يزعم البعض ان الفلاح كسول عن فلاحة ارضه كما ينبغي . كلاّ إنهُ مريض تضعفهُ البلهارسيا والانكلستوما والملاريا والانيميا وسوء التغذية والمسكن والملبس والمكيفات واشدُّها فتكاً بهِ الهروين وفصيلته الجهنمية ولا اكاد اذكر هذا الاّ واذكر معهُ إعتراضي على حظر زراعة الخشخاش (الافيون) الذي اقره البرلمان منذ بضع سنين فقد نشرتُ حينذاك رسالة بالمقطم قلت فيها انهُ لم توجد امة من الامم في كل زمان ومكان إلاّ ولها مكيّفات واقل هذه المكيفات شرًّا ما تعوّدتهُ فاذا حظرنا زراعة الافيون وهو زراعة وطنية حل محله الهروين وما اشبه وفضلاً عن انهُ اشد ضرراً فانهُ بضاعة اجنبية يذهب ثمنها من جيوبنا الى جيوب الاجانب وقد صح ما توقعته حتى ان رسل باشا حكمدار القاهرة راعهُ انتشار الهروين وشدة فتكه بالجمهور فاقترح اباحة تدخين الحشيش في مستعمرات خاصة فينصرف الجمهور عن الهروين اليهِ ولو عرف الحكمدار ما نعرف من احوال الفلاحين الاجتماعية والصحية وتقاليدهم العرفية لطلب اعادة زراعة الخشخاش — وبعض الشر اهون من بعض — والقارىء الذي يعرف أن باعالي الصعيد منطقةً لزراعة الخشخاش يرى انا لم نخرج بهذا الاستطراد عن موضوعنا — ترقية الانتاج الزراعي ! ! ! ونعود لتحسين حالة الفلاح الصحية فنقول انهُ تجب العناية بالاستكثار من المستشفيات الثابتة والمتنقلة لعلاجه وايجاد دعاية صحية شاملة واذاً يتعافى الفلاح فيقوى وينشط ويزيد إنتاجه

(٩) يزعمون ان الفلاح جاهل بفلاحته .كلاّ . إنهُ خُلْوٌ من المعارف الاولية التي تنير ذهنهُ وتصيّره خيراً مما هو فهماً وتمييزاً وإذاً يمكنهُ أن يرفع مستوى عمله في فلاحتهِ ومعيشته — فَلْنُعَلِّمْهُ القراءة والكتابة ومبادىء الصحة والحساب وقواعد الدين والآداب ولْنُحَبِّبْ اليهِ الفلاحة ونَقُصَّ عليهِ ما بلغهُ فلاحو البلاد المستنيرة في ترقيتها والاستفادة منها لا ان نَلْمِزَهُ بلفظ فلاح كانهُ من ألفاظ التحقير ! ! !

(١٠) ان ازدياد ريع الارض لا يتوقف الآن على شيء بقدر ما يتوقف على اصلاح حال الفلاح صحيًّا وادبيًّا كما اسلفنا وماليًّا ايضاً فَلْنُعاوِنْهُ على الحصول على افضل البزور والاسمدة والآلات والمواشي ايضاً وعلى بيع محصوله بالثمن المناسب في الوقت المناسب وعلى اتقان العمل بما يعرف ومعرفة ما يجهل من شؤون الفلاحة وصناعاتها حتى يزيد كسبهُ ومهارتهُ لا سيما وانهُ يشتغل هو وزوجتهُ واولاده فاذا تعدَّدت نواحي العمل استطاع كلٌّ منهم ان يأخذ بناحيةٍ من نواحيهِ — راجع مجلدات المقتطف سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ مقالاتنا « استغلال الارض — اركانهُ وكيفياتهُ » ففيها ابحاث مسهبة عن الفلاحين ومواضع القوة والضعف فيهم وما يحتاجون اليهِ لاصلاح احوالهم الادبية والزراعية — وفيها ايضاً ابحاث عن موضوع الفصل التالي

الملاك

(١١) اهمل كبار الملاك الوطنيين العناية بالفلاحة سواء كان بجهلهم أو عدم تعليم ابنائهم اياها او تفضيل الاقامة بالقاهرة او خدمة الحكومة على الاستقرار في مزارعهم او الاشراف على ادارتها والمثل الزراعي القديم يقول « الضيعة لصاحبها او في ظلك أعمر » او بسوء تقديرهم لموظفيها وكان لا يزال كثير منهم يحسب ان ادارة المزارع لا تستدعي ما تستدعيه الادارات الاخرى من ضروب الكفاآت الفنية والادبية على تفاوت بينهم في ذلك ففريق منهم على ان معرفة الفلاحة ليست شرطاً ضرورياً في مدير الزراعة كانه يمكن ان يحسن انسان ادارة شيء يجهله وفريق آخر على انه في معرفة الفلاحة وحدها الكفاية لادارة شؤونها بلا تقدير يؤبه به للكفاءات الادبية والاخلاقية التي يجب توفرها في كل من تعهد اليه مهام اي عمل كأن القواعد الفنية يصدر تدبيرها عن نفس عارفها مجرَّداً عن العوامل الاخرى كجودة النظر في تكييفها حسب المناسبات وتمييز متشابهاتها وتقدير ملابساتها والهمة والنزاهة في تطبيقها الخ الخ وكل ذلك من اسباب ضعف الانتاج الزراعي ومعلوم ان الاطيان المملوكة لكبار الملاك تبلغ نسبتها اكثر من ٤٠ ٪ من اطيان الاهالي

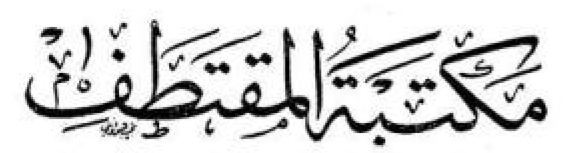
المعارف الزراعية

(١٣) هناك اهمال فاضح في نشر المعارف الزراعية ومغلقاتها ووضعها وضعاً يسهل استفادة الجمهور منها — ترى ذلك في اسلوب كثير من ابحاث وزارة الزراعة وغلاء اثمانها وفي عدم عناية الجرائد والمجلات بالابحاث الزراعية فانها تفضل عن نشر ابحاثها نشر كلمة من شوارد اللغة او حفلة وداع موظف او خلاف زوج وزوجة والادهى من ذلك نشر ما لا يفهم حتى لتكاد تكون قراءته طرداً كقراءته عكساً

***

وبعد فان ترقية فن الزراعة واذاعته وتكثير الانتاج الزراعي وتجويده لا يتوقف على مجهود وزارة الزراعة وحدَها فانها وان كان يجب ان تكون زعيمته الا انه لا بد من أن تتعاون معها مصلحتا الري والصحة ووزارتا المعارف والمالية وكبار الملاك وجمهور الفلاحين والصحافة .ولقد التزمت في مقالي هذا الاختصار التام فان مواضيعه وان وجهتها نحو غرض واحد هو الانتاج الزراعي فان كل واحد منها مستقل بذاته يقتضي ابحاثاً خاصة مسهبة

احمد الالفي



امراء الشعر العربي

في العصر العباسي

دراسات تحليلية لادب سبعة من اشهر شعراء العرب والجو الذي نشأوا فيهِ

تأليف انيس المقدسي — استاذ الادب العربي — في جامعة بيروت الاميركية

نحسب — ولا نغالي في حسباننا — هذا الكتاب من افضل الكتب الادبية التي اخرجتها المطابع العربية في بضع السنوات الاخيرة . فلشعراء العصر العباسي مكانة فريدة في تاريخ الادب العربي ويكفي ان نذكر الشعراء الذين اختارهم الاستاذ المقدسي موضوعاً لدراستهِ — ابو نواس وابو العتاهية وابو تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعرّي — ليكون ذلك مغرياً للباحثين والقراء بالعناية بهِ عناية خاصة . فاذا تصفحنا فصوله ورأينا سعة الاطلاع في ايراد الروايات المختلفة عن ائمة الناقدين والباحثين ، وصفاء الذهن في تحليلها وضرب الامثلة عليها، واتزان الحكم في ترجيح رأي على رأي او استنباط رأي جديد، عرفنا اننا لسنا امام كتاب عاديّ مما تقذفنا بهِ المطابع كل يوم . انهُ كتاب استاذ !

***

ولم يشأ الاستاذ المقدسي ان يفاجئ القارئ مفاجأة بدراسة الشعراء الذي امَّرهم على الشعر في العصر العباسي . بل عمد — وحسناً فعل — الى وصف العصر العباسي وصفاً مجملاً في نحو ٨٠ صفحة من الكتاب فتناول التنافس بين العناصر الجنسية ولاسيما تنافس العنصرين العربي والفارسي وضعف الخلافة وتجزؤها الى امارات مستقلة وأثر ذلك في شعر ذلك العصر

قال :— «وكان من نشوء هذه الدول في العالم الاسلامي ان الادب تحوّل عن بغداد الى مراكز اخرى فكان الخليفة الراضي الذي بويع سنة ٣٢٢ هـ آخر خليفة دوّن لهُ شعر وآخر خليفة كانت مراتبهُ وجوائزه وخدمهُ وحجّابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين (الفخري ٢٠٦) ومعنى ذلك ان العرش العباسي لم يعد الموئل الاكبر للادب والادباء وانه نشأ في الامارات المستقلة حواضر زاحمت بغداد في الشعر والعلم منها بلاط سيف الدولة في حلب وتلك الحلقة الادبية التي كانت تحيط بهِ مثل ابن خالويه وابن نباته وابي فراس والمتنبي والفارابي . . . وبلاط آل بويه ومن اتصل بهم كابن العميد والصابي والصاحب بن عباد . . . الخ وهذا التنافس على الادب

(بين امراء الامارات المختلفة) يفسّر لنا تلك الظاهرة التاريخية الغريبة — استمرار الادب العربي مع ضعف العرب وذهاب السيادة من ايديهم » —ومن اشهر رجال الادب والفكر في ذلك العصر ابن سينا الطبيب الفيلسوف والبيروني الفلكي والجوهري صاحب الصحاح وابن فارس اللغوي وابن دريد صاحب الجمهرة والمسعودي المؤرخ وابن مسكويه المؤرخ والفيلسوف وابن البيطار النباتي . اما المدن التي شاركت بغداد وزاحمتها فمنها مصر وحلب ودمشق وقرطبة واشبيلية والقيروان وخوارزم ونيسابور وبخارى

* * *

ثم فصّل تطور الحياة الاجتماعية العربية الذي بلغ اوجهُ في العصر العباسي بنشوء قومية عربية جديدة على أثر دخول شعوب البلدان التي فتحها المسلمون في حظيرة الدعوة الاسلامية ، وازدهار عمران بغداد وسواها من الحواضر ، واتساع الثروة وازدياد الترف ، وترعرع النهضة الفكرية العامة. ولكل من هذه الظاهرات الاجتماعية أثر بليغ في الشعر العربي

فنشوء القومية الجديدة مثلاً بالامتزاج والاختلاط والانضمام ادخل على اللغة العربية الفاظاً جديدة . ففي الشام كان الروم والسريان واليهود . وفي العراق الاراميون والفرس . وفي مصر الاقباط وسواهم في سوى ذلك —.... واكثر الالفاظ المقتبسة اما يونانية او فارسية. اما اليونانية فراجعة الى حياة اليونان العلمية والفلسفية — واما الالفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي—قال: «وقد تحرينا اكثر من مائة لفظة عربية فارسية الاصل فوجدنا اكثرها من باب المأكل والمشرب والملبس والفرش والملهى بين الادوات المنزلية والصناعية » وكلا الطائفتين من الالفاظ دليل على الناحية التي اختلط فيها العرب باليونان من جهة وبالفرس من جهة اخرى

وعلى هذا النحو يمضي المؤلف في درس الحياة الاجتماعية من ناحية أثرها في الادب والشعر ، ثم يتحول الى «مجاري الحركة الفكرية» مبيّناً ان المصادر الرئيسية هي اليونان وفارس والهند : قال : «ليس للحركة الفكرية في امة من الامم منبثق خاص تتدفق منه تدفق الينابيع من جوانب التلال . بل هي كسيول الاودية تمدها المياه القليلة المنحدرة من هنا وهناك فلا يلبث ان تصير عجاجة شديدة الشكيمة . كذلك حياة العرب الفكرية ، كثيرة الاصول متشعبة الروافد ، وهيهات ان نحاول الآن البحث عن كل اصل وكل رافد منها فانها متصلة بظلمات يتيه فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي»

وحبذا لو عني في هذا الباب في اثناء الكلام عن المصدر اليوناني بايضاح ان حركة الترجمة من اليونانية الى العربية لم تتم مباشرة ، وان معظم المؤلفات العربية التي تسند الى اصل يوناني انما نقلت عن ترجمات سريانية في الغالب . نعم انهُ اشار صفحة ٦٣ سطر ٦ الى ذلك ولكن الاشارة مجملة مبهمة لا تغني عن الايضاح

ما تقدم يرسم للقارىء صورة مجملة شديدة الايجاز للقسم الاول من الكتاب . اما القسم الثاني فيبدأ بفصل في خصائص الشعر العباسي تليه الفصول السبعة الخاصة بالشعراء الذي اختارهم موضوعاً لبحثه وقد مرَّ ذكرهم

في رأس الصفحة الثانية من هذا الفصل حكم للمؤلف يصحُّ ان يعتبر اساساً لبحثهِ . فبعد ان بيَّن ان الشعر نوعان رئيسيان وجداني وموضوعي — فالوجداني يدور على نفس الشاعر والموضوعي على شيء خارج من نفسهِ يقول : « وانت اذا رجعت الى معظم دواوين الشعر في العصر العباسي ثم دققت في المقاييس الأدبية التي وضعها علماء البلاغة ونقدة الشعر امثال الجرجاني والعسكري والامدي والثعالبي وقدامه والاصفهاني وابن الاثير واضرابهم رأيت ان التجدد في العصر العباسي لم يتعدَّ في الاغلب صناعة الشعر وانهُ منحصر في الوجداني منهُ وهو يظهر في ثلاثة مظاهر — رقة العبارة والتفنن في المعاني والتوفر على البديع اللفظي وقد يضاف اليهِ التوسع في المصطلحات اللفظية » . ثم يستثني من ذلك الناحية الروحية فيقول « على انهُ من الانصاف ان نقول ان الشعر المولّد يمثل لنا ايضاً تجدداً في الناحية الروحية من الشعر ناحية الزهد والورع والاصلاح » وقد عني بهذه الظاهرة عناية خاصة لدى البحث في شعر ابي العتاهية

ويلي ذلك شرح كلٍّ من هذه الظاهرات وضرب الامثال الكثيرة عليها من شعر ذلك العصر

* * *

الى هنا وقفنا الكلام على ثلث الكتاب الاول . اما طريقة دراستهِ لكلٍّ من الشعراء الذين اختارهم للامارة في العصر العباسي فقد تبيَّنها قراء المقتطف في الفصل المسهب الذي نشرناه في مقتطفي ابريل ومايو هذه السنة عن « ابو تمام » وقد خرج فيها على المألوف في ايراد سيرة الشاعر ونوادره الى تبين أثر حياته في شعره وفكره واستخراج الحقائق العامة التي يمتاز بها انتاجهُ الشعري

وقد يسأل البعض لمَ اختار المؤلف هؤلاء الشعراء دون غيرهم ؟ والجواب قولهُ . « يختلف الباحثون في من المقدَّم من شعراء العصر العباسي . ولا سبيل الآن الى البحث في اختلافاتهم والنظر في اسبابها فلكلٍّ نظره الخاص ولكل آراء يدعمها بحجج مقبولة . على اننا قد اخترنا لدراستنا سبعة هم بلا جدال اشهر المولدين . وقد يجدر بنا ان نضيف اليهم ابن الفارض ولكننا تركناه لرسالة خاصة تتناول عهده واسلوبهُ . وخصصنا هذا الكتاب بهؤلاء الشعراء الذين يمثلون في انفسهم وشعرهم حضارة العصر العباسي افضل تمثيل »

وقد عني المؤلف بذكر المصادر التي اعتمد عليها في دراسة كل شاعر في صفحة على حدة

في صدر كل رسالة ، وهي تشمل اهم المراجع التاريخية والادبية قديمة وحديثة . ولكنهُ لم يفرد هذه الصفحة — كما يفعل بعض المؤلفين — ليفرّ من تبعة الاسناد اليها اسناداً دقيقاً في المتن . فانت ترى اذ تقلب صفحات الكتاب ، هوامشها مشحونة بالاسناد الى المصادر التي اعتمد عليها. ثم انهُ الحق بكل فصل مختارات من شعر الشاعر

فالكتاب في الواقع ثلاثة — رسالة موجزة في العصر العباسي وسبعة فصول في سبعة من امراء الشعر فيهِ وديوان مختار من شعرهم

اشعة وظلال — الصناعات الزراعية

— ديوان — — مجلة —

قد يستغرب القارىء اذا قلنا لهُ ان صاحب المجموعة الشعرية الموسومة « اشعة وظلال » هو صاحب المجلة العلمية التي اسمها « الصناعات الزراعية » ولكن الدكتور ابو شادي قد عودنا مثل هذه الغرائب فقد اصدر في خلال بضع سنوات كتاباً طبيًّا ضخماً دعاه « الطبيب والمعمل » وديواناً ضخماً سمَّاه « الشفق الباكي » وكتاباً في « مبادىء النحالة » ومجلتين احداهما « مملكة النحل » والثانية « الدجاج » . وهو الى ذلك بكتيريولوجي يقع على عاتقهِ عبء جانب كبير من البحث البكتيريولوجي في مستشفى الامراض العفنة بالقاهرة

فنحن نرفع قبعتنا — على حدّ التعبير الانكليزي — او ننحني باحترام لصاحب هذا الذهن الفيَّاض يدعمهُ دأب يصحُّ ان يكون مضرب الامثال

* * *

اما « اشعة وظلال » فمجموعة من قصائد ابي شادي الحديثة في مطالب منوّعة. فمنها طائفة كان ينشر بعضها تحت عنوان « شعر التصوير » . وطريقتهُ فيها اختيار صورة رسَّام مشهور ووصف اغراضها في قصيدة عربية . وفي هذه القصائد كثير من المعاني الجديدة والصور الشعرية الفاتنة . ولكن القصائد في الغالب فاترة لا تثير النفس ، ولعلَّ ذلك سببهُ ان معظم الصور غربيٌّ يمثل نواحي من الحياة الغربية لا تسترعي عنايتنا ، ولعلَّ الشاعر في وضعها يستوحي عقلهُ اكثر مما يستوحي شعورهُ المتوهّج اعجاباً بها . وافضل من ذلك لو تصوَّر الشاعر صوراً ووصفها شعراً اذن لجاءت وليدة خيالهِ وشعوره وعقلهِ معاً ، فتتم لهُ بذلك عناصر الشعر السامي

ثم طائفة — وهي قليلة — من الشعر المترجم عن الانكليزية أو الفرنسية . وفي الحالين تفضل الترجمة النثرية على الشعرية . فللدكتور ابو شادي مذهب في الترجمة الادبية يقوم على

الترجمة الحرفية وهو واجب في النثر الادبي. ولكن اذا جئت تقيد الترجمة الحرفية بقيود الشعر العربي افضى الى ذلك الغموض ، وهو المسحة الغالبة على القصائد القليلة المترجمة

اما الطائفة الثالثة فتلمس فيها نفس الشاعر وقد ارسلت على سجيتها فيرتفع على اجنحتها الى مستوى الاجادة العالي. خذ مثلا قصيدتهُ التي ردَّ بها على الاستاذ النشار (صفحة ١٨ — ٢٢) فانها من عيون الشعر ، ويجب ان تقرأ كاملةً . والمقطوعة « دنياي » صفحة ٤٦

يا وجهها ان فيك الحسن مشتعلاً والعطف ممتثلاً والحب مجتمعا
يا ثغرها ان فيك النور مؤتلقاً والعشق محترقاً والسحر مطلعا
يا شَعرها ان فيك الموج مضطرباً والليل محتجباً والصبح ممتنعا
يا صدرها ان فيك الوعد منتهياً والعطف مزدهياً والبر متسعا
يا صوتها ان فيك الوحي منبثقاً والشعر مندفقاً والفن مبتدعا
روائع هي لي الدنيا بأكملها ولن اقيس بها خلداً وما جمعا

وقوله في قصيدة الوعود صفحة ٨٩

لتعبث بي الاقدار ما شاء حكمها فانّي لصبّار وان انا عانيتُ
وما خوفي الاعصار بعد هبوبهِ اذا انطفأ المصباح واندلق الزيت
واي جحيم بعد اخشى لهيبهُ اذا احترقت نفسي كما احترق البيت

وقوله في رثاء فوزي المعلوف

فالعبقرية لا محلٌ لكنها ابداً وليس جلالها لفناء
كل الجمال مطوّع لجمالها كل الوجود يخصّها بدعاء
تحيا وتفنى ، والحياة وضدها سيان في ملكوتها المتنائي

اما مجلة « الصناعات الزراعية » فاسمها دليل عليها وهي من المجلات التي تحتاج اليها مصر كل الحاجة . فمصر « ليست جديرة باستقلالها الاقتصادي فقط ، بل بتفوقها في الصناعات الزراعية تفوقاً يسمح لها بالتصدير والسيطرة على جانب غير قليل من الاسواق الخارجية . ولكن هذا لن يتحقق بغير الهمة الفعّالة والسعي المتواصل ونشدان الكمال في الانتاج والتصريف — وهذه هي رسالة المجلة . . . » نقلاً عن افتتاحية العدد الاول صفحة ٢

فنرحب بهذه المجلة المفيدة ونتمنى لها النجاح في خدمة البلاد

صور جديدة من الادب العربي

اطلع قرّاء المقتطف على فصول هذا الكتاب لما نشرت تباعاً في المقتطف ، وعلى مقدمة الدكتور طه حسين له ، التي نشرناها في مقتطف يونيو الماضي . فنشكر للمؤلف — كامل كيلاني — عنايته بجمعها في كتاب يجب ان يكون في خزانة كل اديب عربي

الخطرات[1]

كتاب أدب وأخلاق واجتماع بقلم الآنسة وداد سكاكيني

من يقرأ هذا الكتاب يرَ ان الآنسة وداد نموذج صالح من فتيات العرب الصالحات ، فهي تدعو الى التهذيب العام ، والى تهذيب الفتاة بوجه خاص ، على وجه يتفق مع مصلحة الامة والبلاد وآداب ارثنا الصالح . وقد جرت في ميادين من الادب والحكمة والاخلاق والتربية كانت فيها مجلية . وها انذا اعرض على القارىء الكريم نماذج قليلة من هذه المقالات:

ترى الآنسة الفاضلة — في مقال العظمة — ان العظمة الحق لا يجوز ان تقال الاَّ لنابغة له اثره الطيب في الحياة من رجال الاختراع والفن والفلسفة والادب وغيرهم ممن يترك في الناس اثراً له قيمته وله خطره ، وللناس جناه وفائدته

وترى — في مقال الادب العربي — انهُ لا يجحد فضل الآداب القديمة الاَّ كل جاهل بها ، اومتذوق منها ما لا يروي غلة . ولكنها تريد من ادباء اليوم ان لا يكونوا نسخة ممن تقدمهم من السلف ، بل يجب عليهم ان يكوّنوا ادباً يمثل اخلاقنا وحياتنا ، كما مثل من قبلهم اخلاقهم وحياتهم

وترى — في مقال الانانية — ان الانانية من الطبائع الانسانية ، فهي لا يمكن استئصالها لكن في الامكان تهذيبها حتى تكون معتدلة وحينئذٍ لا تكون بغيضاً ولا ممقوتة ، لانها والحالة هذه — من مقوّمات الحضارة والعمران والارتقاء

وترى — في مقال تطور المرأة — ان المرأة العربية كان لها مقامها الرفيع عند العرب في الجاهلية . واعتذرت للعربي الجاهلي عن قسوته احياناً ، وحملت ذلك منهُ على الحب الشديد لهذا الجنس . وما نرى هذا مما يغفر له سيئاته . وقد تناست الآنسة كثيراً من العادات السيئة التي كانت تحط من مقام المرأة في ذلك العصر ، حتى جاء الاسلام فضرب بكل تلك العادات الممقوتة وجوه اهلها ، ورفع المرأة على عرش الحرية الصحيحة ، واعطاها من الحقوق المشروعة ما تقصر عن بعضه امرأة اوروبة اليوم

وترى — في المقال نفسه — ان العرب ، بعد ان اختلطوا بغيرهم من الامم تسربت اليهم من اخلاقها ما لا يتفق والكرامة العربية ، وسرى من ذلك شيء الى المرأة العربية ، فتبدلت اخلاقها وانحطَّ مقامها فكل ما نراه بعد ذلك ، الى يومنا هذا من تأخر المرأة العربية ، لم يكن ارثاً عربيًّا ولا اسلاميًّا ، وانما هو آتٍ عن طريق غير عربية ولا اسلامية

ورأيها في المقال معتدل ، فهي تنقم على المرأة هذا الارث البالي ، وتريد منها ان تتجدد تجدداً يلائم روح العصر والبيئة بلا افراط ولا تفريط . وتنقم على من كسروا وكسرن قيود الحياء والشرائع ، اولئك الذين يريدون ان تنغمس المرأة في هذه المدنية الاوربية بلا قيود ولا

(١) من مقال للاستاذ الشيخ مصطفى الغلاييني

شرط . وترى ايها القارىء . الكريم ، هذا واضحاً ايضاً في مقال « اصلاح المرأة »

وترى الآنسة الفاضلة — في مقال الجرأة الادبية — ان هذه الجرأة ضرورية لكل مجتمع اذ لولاها لظل المجتمع في خموله وضلاله ، ولولا المصلحون في كل امة ، الذين يجأرون بالحق ويصدعون بالصدق، لم تقم لامة قائمة وضربت على ذلك مثلاً شيخنا الامام المرحوم « الشيخ محمداً عبده » ووصفت ما قام به من الاصلاح والدعوة الى النهوض والتجدد في سبيل الحق وصفاً صادقاً

واذا قرأت مقالها « ذكرى النبي » رأيت ما تحمله هذه الفتاة في قلبها من الشعور الديني الصادق الخالص من شوائب البدع والخرافات التي ألصقت بالاسلام وهو منها بريء .. ورأيت ما في نفسها من الاكبار والاجلال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . فقد وصفت ما قام به الرسول من جلائل الاعمال ، وكيف صبر في سبيل الدعوة الى الحق صبر الجبال على النوازل ، حتى بلغ ما يريد من هداية قومه

واني اجتزىء بما كشفت عنهُ من المقالات التي ذكرتها عن اظهار ما في المقالات الاخرى من روائع المعاني الجليلة ، حبًّا للاختصار ، لان ذلك يقتضي صفحات كثيرة لا يتسع لها صدر هذه الكلمة . وما على القارىء الكريم الاّ ان ينعم النظر في هذا الكتاب كله ، فيرى فيه من الموضوعات الجليلة المفيدة ما يدعوه الى نشره واذاعة فضل مؤلفته التي تستحق كل اكبار واجلال

الفرق الاسلامية

للاستاذ البشبيشي المدرس بدار العلوم

لعل ديناً من الأديان السماوية لم يرزق كثرة الفرق فيهِ كما رزق الدين الاسلامي ولقد كانت هذه الفرق المتعددة موضع سخط الجمهور من المسلمين ومحل المقاومة من الخلافة الاسلامية . الا انها بالرغم من ذلك استطاعت ان تكوّن حلقة من حلقات التفكير الاسلامي واستطاعت — على الرغم من اضطهاد الرؤساء — ان تكوّن لها انصاراً واتباعاً

ومن المحقق ان هذه الحركات الفكرية في الاسلام هي اثر من آثار اتصال المدنية الاسلامية بالفلسفة الاغريقية عن طريق السريان . والحكمة الهندية والديانة الفارسية

وحبذا لو تكلم مؤلف الفرق الاسلامية عن هذا الاتصال ورد هذه الآراء الى النبع الذي استقت منه فان بحثه يكون بذلك اتم واوفى

وكنا نود لو ان الاستاذ البشبيشي تكلم عن هذه الفرق من غير تعرض للرد عليها فمثل هذه الآراء لا يكفي للرد عليها بضعة سطور كما فعل المؤلف . الاّ اذا احب ان يثبت لنا انه من اهل السنّة . ويقول الاستاذ عن وحدة الوجود انه مذهب احدثه متأخرو الصوفية . والواقع انه مما قال به اوائلهم . واول من قال به ابو يزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١ هـ . الاّ ان كلام البسطامي في الحلول وهو الخطوة الاولى من وحدة الوجود . بهذه المناسبة نذكر ان جوته

شاعر المانيا العظيم كان حلوليًّا وله قصيدة يقول فيها

الله لا يرضيه هيمنةٌ فوق الطبيعة من اعاليها
الله يرضى ان يكون بها في ظاهر منها وخافيها
ان الطبيعة فيه ماثلة وكذا نراه ماثلاً فيها

وللشاعر « شلي » ابيات في مثل هذا المعنى

ان جمع هذه الفرق المتعددة في كتيب واحد لهو عمل يشكر عليه الاستاذ البشبيشي وهو يفيد كل مشتغل بتاريخ التفكير الاسلامي محمد عبد الغني حسن

تفسير الالفاظ الدخيلة

وضع القس طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني كتاباً مفيداً لعلماء اللغة جمع فيه ما عثر عليه من الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية وذكر اصلها بحروفه . بدأ سنة ١٩٠٩ يجمع شمل الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية والالفاظ الغريبة المنتشرة في الايطالية واخواتها من لغات اوربا ثم نشر ما اجتمع لديه . وفي سنة ١٩٢٢ نشر باللسان الايطالي الالفاظ العربية الفاشية في اللغة الايطالية وحدها.وفي اثناء بحثه عثر على الفاظ يسميها صاحب المعجم فارسية مع كونها يونانية واخرى يزعمها يونانية الاصل وفارسيتهُ ظاهرة . فحمله هذا على جمع نحو الف لفظ انسابت الى اللغة العربية قديماً وحديثاً من لغات مختلفة . ورغبةً في الضبط والوضوح رسم الالفاظ الفارسية والتركية والارامية والعبرانية بحروف عربية ووضعها بين قوسين . اما الكلمات اليونانية والاوربية فكتبها بأحرف لاتينية.ومن الالفاظ التي استرعت نظرنا

اثيل — يوناني esthlos معناه نزه الخلق وشريف

اقة — في اليونانية ogkos معناه وزن وثقل

بارجة — ايطالي fregata وهو اسم طائر مائي سميت تلك السفينة باسمه وقد بطل استعمالها الآن

باقة — فرنسي bouquet معناه ضمة زهر مرادفة طاقة من ريحان وزهر

بَبر — فارسي (ببر) يراد به نمر هندي

برج — يوناني Pyrgos معناه حصن

بنادورة (وهو الاسم العامي اللبناني لطماطم) ايطالي Pomodoro اي تفاح ذهبي مركب من Pomo تفاح و d'oro من ذهب واسمه في الاسبانية tomate و (منه طماطم)

تابوت عبراني (تِبَه) وهو صندوق خشب

جادة — فارسي (جاده) معناه الطريق العظيمة اي المفتوحة

جوخ — تركي (جوخه) وفي الفارسية (چوخا) وهو نسيج من صوف صفيق

وهكذا — وقد عني بنشره الشيخ يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بالفجالة

﴿ طريقة منسي ﴾ نشرة نصف شهرية يصدرها احمد افندي ابو الخضر منسي للطلبة المصريين وجميع الراغبين في تعلم اللغة الفرنسية. وشعارها من عرف لغة قوم فقد صار منهم. وعماده فيها تصوير الالفاظ الفرنسية للمبتدئين بحروف عربية رسماً دقيقاً طبقاً لقواعد وضعها وجرى عليها . وكل عدد منها يشتمل على صحيفة العبارات السهلة مع تصويرها وترجمتها. وصحيفة الحكايات القصيرة مع تصويرها وترجمتها كذلك. ثم صحيفة الاجرومية. وصحيفة المحادثات وصحيفة المطالعات وفيها مختارات طيبة من الصحف الفرنسية وكتب الادب الفرنسي . وجني الفائدة من هذه النشرة موقوف على اتقان الطريقة التي تصور بها الالفاظ الفرنسية بحروف عربية . فحبذا لو عني المؤلف بتنظيم فرق لتعليم الراغبين هذه الطريقة لكي يسهل عليهم الاستفادة من اعداد نشرته المتوالية

﴿ سلم اللسان ﴾ سلسلة كتب يتدرج فيها الطالب في درس قواعد اللغة العربية صرفها ونحوها وبيانها ، منتقلاً من المبادىء الى ما هو ارقى حتى يأتي على كل ما يحتاج اليه منها وهو سائر على اسلوب واحد وطريقة واحدة ولا يخفى ما في ذلك من توفير المشقة عنه وتسهيل الاستفادة عليه. وضعها العالم اللغوي جرجي شاهين عطيه في خمسة اجزاء :

الاربعة الاولى منها في الصرف والنحو والخامس في البيان . وقد بناها على خبرته الطويلة في التدريس مودعاً اياها كل ما دلته تلك الخبرة على شدة الحاجة اليه ، مراعياً حالة العصر ومقتضياته ، فلم يثبت فيها الا ما لا يمكن الاستغناء عنه من الآراء والتفاصيل ، ومتبعاً في ايراد القواعد احدث الاساليب وايسرها متناولاً ، ومعولاً فيها على الاكثار من التمرينات التي يتمكن بها الطلاب من تطبيق ما يدرسونه من القواعد في الاستعمال

﴿ كتاب الاغاني ﴾ اخرج القسم الادبي في دار الكتب المصرية الجزء الخامس من كتاب الاغاني تأليف ابي الفرج الاصبهاني في ٤٣٤ صفحة كبيرة ومائة صفحة من الفهارس للاعلام والقوافي والامم والقبائل والكتب والموضوعات. وغنيٌّ عن البيان ان هذا الجزء ككل ما تخرجه دار الكتب بالغ الغاية من اتقان الطبع وجودة الورق . وفي هامش كل صفحة تحقيقات ادبية ولغوية تجعل هذه الطبعة تحفة ادبية نفيسة

﴿ ذكرى الامير فؤاد ارسلان ﴾ كان الامير فؤاد من اعلام لبنان محتداً وعلماً ووطنية ففقدت الامة اللبنانية بفقده قطباً من اقطاب الوطنية الصحيحة والحرية السياسية في عهد الجمهورية اللبنانية . وهذا الكتاب يجمع ما قيل فيهِ — في مأتمهِ واحتفال ازاحة الستار عن تمثاله — من قصائد وخطب ومقالات آيتها كلها رسالة لابن عمه الامير شكيب ارسلان فانه صور فيها نفس الفقيد ومناقبه ابلغ تصوير

باب الاخبار العلمية

تحطيم الذرة واطلاق قوتها

حمل الينا البرق نبأ تحطيم الذرة في معمل كافندش بانكلترا ثم اطلعنا في ناتشر على وصف التجارب التي قام بها الدكتور كوكروفت Cockroft والدكتور ولطن Walton فاذا نتائجها اضافات جديدة لمباحث اللورد رذرفورد التي وصفنا اهمها في مقالنا «رواية الالكترون وابطالها» في مطلع هذه السنة . ذلك ان الدكتور كوكروفت وولطن وجدا انهُ اذا اطلق على ذرات الليثيوم (ووزنهُ الذري ٧) بروتونات وقد زيدت سرعتها بفعل ضغط كهربائي قدرهُ ٦٠٠ ڤولط حدث نوع جديد من تحطيم الذرة يصحبهُ انطلاق طاقة داخلية من رتبة ١٦ مليون ڤولط . والظاهر ان ذرة الليثيوم تجتذب اليها بروتوناً ثم تنحل الى دقيقتين من دقائق الفا، طاقة اندفاع كلٍّ منهما ثمانية ملايين ڤولط

ولما كان البروتون هو الدقيقة الموجبة الكهربائية في ذرة الايدروجين ، ودقيقة الفا هي نواة ذرة الهليوم (وهي مؤلفة من اربعة بروتونات وكهربين) صح ان نقول اذن، ان الليثيوم وهو اخف الفلزات (Metals) اطلق عليها الايدروجين فاتحدا ثم انحلاّ الى غاز الهليوم واذاً فالمادة تحولت من شكل الى شكل آخر . وثمة ماهو اهم من تحولها ، وهو ان الطاقة الكامنة في ذرة الليثيوم انطلقت مع دقيقتي الفا . والواقع ان طاقة انطلاق ذرتي الفا تعدل ١٦ مليون ڤولط ، مع ان الطاقة التي اطلقت بها البروتونات على ذرات الليثيوم لا تزيد على ٦٠٠ ڤولط .والسبب الذي يحول دون استعمال هذه الطريقة لتوليد الطاقة بتحويل المادة ان البروتون المنطلق لا يصيب ذرة الليثيوم ويحولها كما تقدم الاَّ بنسبة ١ الى بضعة ملايين

* * *

لقد حطمت الذرة من قبل . حطمها رذرفورد سنة ١٩١٩ اذ اطلق على ذرات النتروجين دقائق الفا المنبعثة من مواد مشعة فحصل على ذرات الايدروجين (راجع مقتطف يناير ١٩٣٢ص ٩ و١٠) وقبله كان الدكتور بكرل العالم الفرنسي قد راقب انحلال الاورانيوم الذاتي فاكتشف ظاهرة الاشعاع التي فتحت عهداً جديداً في درس بناء المادة . وقد ثبت بعد اكتشاف بكرل وبعد تجربة رذرفورد ان عناصر كثيرة اما تنحل انحلالا ذاتيا

كالاورانيوم — واشهرها الراديوم والبولونيوم وغيرها — او تنحل انحلالاً اصطناعياً على طريقة حل رذرفورد لذرات النتروجين

***

اما تجربة كوكروفت وولطن فلها وجه آخر . وهو ان هذا التحول في الذرة يصحبهُ انطلاق قدر كبير من الطاقة

ومع ذلك فان العالم بوث Bothe الالماني سبقهما الى هذا ايضاً . فلا يخفى على قراء المقتطف (يناير ١٩٣٢ صفحة ١١٨) انه اطلق دقائق الفا من عنصر مشع — البولونيوم — على ذرات البريليوم فتحولت بعض ذرات الى كربون وصحب تحولها انطلاق نوع جديد من الاشعاع متوسط في قوته وشدة نفوذه بين اشعة غما والاشعة الكونية . اي ان الطاقة التي صحبت تحول ذرة البريليوم الى كربون كانت اعظم قدراً من الطاقة التي انفقت في اطلاق دقائق الفا على ذرات البريليوم

ولقد حفزت هذه المباحث خيال الكتّاب الى تصوّر حلول عهد قريب يتم لنا فيهِ خلق قدر كبير من الطاقة من قدر صغير جدًّا ، وتحويل الرصاص الى ذهب . والواقع ان هذا قد يتحقق في المعامل العلمية تحقيقاً ضيق النطاق لان نسبة دقائق الفا التي تصيب ذرات البريليوم في تجربة بوث الى الدقائق تطلق بنسبة واحد الى ٥٠ اما هذه النسبة في تجارب كوكروفت وولطن فواحد الى بضعة ملايين . ومع ذلك لا بدَّ ان تسفر هذه التجارب عن شيء اكيد وهو زيادة معرفتنا ببناء قلب الذرّة

تصوير مواقع الحضارات القديمة من الجوّ

اتيح للمستر تشارلز برستد نجل المستشرق العلامة الدكتور جيمس برستد ان يطير فوق المواقع الاثرية التي يشتغل بنقبها علماء من قبل معهد الآثار الشرقية بجامعة شيكاغو ، فصوَّر بآلة سينمية مشاهد هذه المواقع في شريط طولهُ ١٢ الف قدم . ومما قالهُ في وصف رحلتهِ هذه انهُ طار من الرطبة الى بغداد في عاصفة رملية هوجاء حجبت عن انظار الطيار سطح الارض فكان يطير مهتدياً بالانباء اللاسلكية مستعيناً بها على تعيين موقع الطيارة فوق الصحراء خوف الضلال . ومع ان الكابتن اولي Olley سائق الطيارة لم يطر قبلاً فوق هذه البلاد تمكن من النزول في مطير بغداد كأنهُ يعرف المطير مغمض العينين . وفي الصباح التالي طارا فوق المنطقة العراقية التي تنقب فيها بعثة المعهد المذكور وهي على نحو خمسين ميلاً من بغداد ثم تقدما الى شيراز في بلاد فارس ولكن الغبار الكثيف اضطرَّهما الى الارتفاع بالطيارة الى علوّ ١٢ الف قدم قبل النزول في شيراز . هناك تركا طيارتهما وذهبا بالسيارة الى برسوبوليس عاصمة الامبراطورية الفارسية التي بناها داريوس العظيم حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . ثم غلبها الاسكندر ذو القرنين على امرها . وقد وصف المستر برستد آثار برسبوليس بقولهِ « انها اروع بقعة اثرية في العالم القديم عدا الاكروبليس في اثينا »

تصوير الكبد بأشعة اكس

استنبط الدكتور ولس ياتر Yater احد اساتذة مدرسة الطب في جامعة جورجتون الاميركية طريقة تمكنهُ من تصوير الكبد والطحال بأشعة اكس لتشخيص امراضهما. ذلك انهُ يستعمل محلولاً خاصًّا من اكسيد الثوريوم الثاني ويحقنه في الشرايين ثلاث مرات في ثلاثة ايام متوالية فيظهرا الكبد والطحال واضحين في صور اشعة اكس للاعضاء الداخلية، مع انهما لا يظهران فيها عادةً. وهذه الصور تمكن الاطباء من اكتشاف اي تضخم فيها او وجود اي سائل في التجويف البطني او آثار السرطان او الزهري في الكبد وهل اي تضخم في جانب الجسم الايسر سببه تضخم الطحال او تضخم او قرحة في اي عضو آخر

والمادة المستعملة في هذه الحقن مركبة من الثوريوم وهو عنصر فلزي ثقيل الوزن مشع كالراديوم. الاَّ ان مركبه المعروف باكسيد الثوريوم الثاني — وهو المستعمل حقناً في هذه الحالات — ليس مشعًّا ولا ينجم عنه اي ضرر من هذا القبيل. وكان الدكتور رادت Radt الالماني اول من بحث فيه بغية استعماله في تصوير الكبد والطحال وذلك سنة ١٩٢٨ ولما كان الحقن بهِ يدخل الى الجسم شيئاً غريباً عنه تمتصهُ بعض مواد الدم التي من شأنها تكتيل الاجسام الغريبة التي تدخل الجسم، ولما كانت هذه المواد كثيرة في الكبد والطحال فتجمّع هذا المركب الكثيف فيهما يجعل ظهورهما في صور اشعة اكس واضحاً

ولما كانت هذه المواد كثيرة كذلك في نخاع العظام فيمكن استعمال هذا المركب لتصوير عظام الجمجمة وتشخيص امراضها

الحمى المصطنعة تشفي من الربو

قرر جماعة من اطباء شيكاغو انهم عالجوا ٤٣ مصاباً بالازما (الربو) — وهو داء يصحبهُ ضيق النفس — بحمى اصطنعوها في اجسامهم بالتيار الكهربائي فخفت وطأة الداء عليهم. وظل ١٩ من ٤٣ مصاباً مدة طويلة بعد العلاج لا يصابون بنوبات الداء

وقد بنى اطباء شيكاغو هذا العلاج على الملاحظة الآتية: ذلك انهم وجدوا ان الحمى التي تحدثها في الجسم الاصابة بالحمى القرمزية أو النزلة الصدرية أو خرّاج تسفر عن تحسين موقت في حالة الربو اذا كان المصاب بالحمى مصاباً بهِ. لذلك استنبطوا كيساً يضعون فيهِ العليل بعد مسح جسمهِ بالزيت ولفه بالملايات ثم ترفع الحرارة داخل الكيس بالكهربائية الى درجة ١٠٤ فارنهيت وتحفظ على هذا المستوى ٨ ساعات تحت مراقبة الطبيب الدقيقة

ولا يخفى على قرّاء المقتطف ان الشلل العام الناشيء عن اصابة زهرية عولج بادخال الملاريا الى الجسم فشفت حرارتها العليل من الشلل ثم استعملت الكينا فشفي المريض من الملاريا، وان الباحثين في معامل الشركة الكهربائية العامة تناولوا هذا الموضوع بقصد احداث الحمى بالتيار الكهربائي لان السيطرة عليه اتم من السيطرة على داء الملاريا وكان بحثهم يبشر بالنجاح

تصوير عوامل الوراثة

الوراثة مستقرة في نواة الخلية بل في اجسام دقيقة فيها تدعى الكروموسومات وبعد البحث في اسرار الوراثة وعلاقة الكروموسومات بها اخرج العلاّمة الاميركي توماس هنت مورغن نظرية العوامل الوراثية (Genes) وملخصها ان كلّ كروموسوم مؤلف من عدة عوامل وراثية وان كل عامل فيها مختص بصفة من صفات الكائن الحي وان العوامل في الكروموسوم تصطف ازواجاً احدها اصلهُ من الام والمقابل لهُ اصلهُ من الاب

وكان علماء الاحياء يحسبون « العوامل الوراثية » وحدات نظرية كما حسبت الذّرات والكهارب اولاً . ولكنهم لم يتغاضوا عنها لانهم لم يجدوا تعليلاً لحقائق الوراثة المعروفة افضل من التعليل بها . ولكن الدكتور بلنغ (Belling) يعتقد انهُ اظهر العوامل الوراثية للعيان بالتصوير الفوتغرافي

والظاهر ان حجم الكروموسومات في نوى الخلايا يختلف باختلاف الخلايا . فبعضها كروموسوماته صغيرة جدًّا لا تصلح للتصوير بطريقة بلنغ الآن . وبعضها كروموسوماته كبيرة واشهر هذه الطائفة الثانية نباتات الفصيلة الزنبقية فاختار بلنغ احداها وصور نواتها بطريقتهِ الفوتغرافية الخاصة فكانت النتيجة الصورتين (امام صفحة الصورة التي في مقالة آراء وحقائق جديدة من هذا الجزء) وفيها ترى عقود الكروموسوم وفيها حباتها التي تمثل العوامل الوراثية وهي كالرسوم التي كانت ترسم قبل تصويرها

مصل ضد الروماتزم المستعصي

القى الدكتور بربنك احد مشهوري اطباء نيويورك بحثاً طريفاً امام الجمعية الطبية الاميركية قال فيهِ ان بحثهُ وبحث اعوانهِ عن اسباب الداء المؤلم المعروف بداء المفاصل اسفرا عن العثور على مواد في الدم تتي من بعض اصناف مكروبات الستربتوكوكس فقالوا ان هذه المواد لا يمكن ان تتكوَّن في الدم الاّ بفعل المكروب المحدث للداء . وعليهِ قرروا ان يبحثوا عن هذا المكروب في الدم . فاستخرجوا من الدم بطرق بكتيرلوجية خاصة بعض مكروبات الستربتوكوكس فوجدوا انها ليست من الصنف الفائر الفعال بل هي اليفة لطيفة كأنها اكتسبت المقدرة على المعيشة في الدم من دون استفزاز الجسم لمقاومتها مقاومة شديدة

فاستنبتوا هذه المكروبات المستخرجة من الدم وحقنوا بها ارانب فاصيبت بنفس اعراض داء المفاصل المستعصي التي يصاب بها الانسان . ثم امتحنوا ما اصاب انسجة جسمها من التغيير فوجدوه مطابقاً للتغيير الذي وقع في انسجة الجسم الانساني المصاب بهذا الداء. وسبب ذلك المكروبات التي ينقلها الدم من مركز عدوى كالاسنان أو اللوزتين الى المفاصل . ويرى الدكتور بربنك ان افعل وسيلة لمكافحة الداء هو اصطناع مصل والحقن بهِ لان ازالة الاسنان او اللوزتين لا تكفي في حالة الروماتزم المستعصي . فاذا كانت المكروبات مستقرة في المفصل — وهو الغالب — فازالة مركز العدوى لا تفيد الفائدة المطلوبة. ثم لا بدَّ

للمصاب من العناية بغذائهِ ورياضتهِ وتناول بعض المقويات وحفظ الامعاءِ — وهي مركز لانبثاث العدوى منهُ يلي الاسنان واللوزتين — في حالة طبيعية

جار جديد للارض

اكتشف الدكتور كارل رينموث Reinmuth الالماني في ٢٧ ابريل الماضي جرماً فلكيًّا صغيراً أثار عناية العلماء بهِ لانهُ من اغرب الاجرام التي في النظام الشمسي . فمدة دورانهِ حول الشمس سنتان وهي اقصر من مدة دوران اي مذنب معروف . يليهِ في ذلك مذنب انكي Encke اذ مدة دورانهِ ثلاث سنوات واربعة اشهر . ثم ان جرم رينموث قريب جدًّا من الارض يبعد عنها نحو ثمانية ملايين ميل وقد رصد منذ اكتشافهِ في مراصد هيدلبرج وهارڤرد ويركيز فثبت انهُ مرَّ في فلك الارض في ١٦ مايو على ثمانية ملايين ميل منها . والظاهر انهُ متوسط في شكلهِ بين النجيمات والمذنبات . وقطرهُ نحو ثلاثة اميال . فاذا صار على اقرب قربهِ الى الارض اصبح من القدر الثاني عشر ولا تستطاع رؤيتهُ حينئذٍ بالعين المجرَّدة . ولا يخفى ان النجيمة اروس اصبحت على ١٤ مليون ميل من الارض لما صارت على اقرب قربها اليها من نحو سنتين

فاذا كان نجيمة فهو اول نجيمة دخلت فلك الارض في اثناء سيرها حول الشمس . والحسابات الفلكية تدل على انهُ سوف يمرُّ في فلك الزهرة اذ تصبح على اقرب قربها الشمس

والعلماءُ مختلفون في طبيعتهِ . فهم يدعونهُ جرم رينموث الآن فاذا ثبت انهُ نجيمة او سيَّار صغير حق لمكتشفهِ ان يطلق عليهِ الاسم الذي يشاءُ . واذا ثبت انهُ مذنب دعي مذنب رينموث ١٩٣٢

اما الاستاذ جورج ڤان بيزبرويك Biesberoeck احد علماءِ مرصد يركيز الاميركي فيجزم انهُ نجيمة وان اكتشافهُ من اهم الاكتشافات الفلكية في العهد الاخير لا يفوقهُ الاَّ اكتشاف السيار التاسع بلوطو

الاشعة فوق البنفسجي والكساح

بحث الدكتور نودسُن (Knudson) احد اساتذة كلية الطب بجامعة الاتحاد في ألبَني في مقدار ما يحتاج اليهِ الجسم من الاشعة التي فوق اللون البنفسجي لكي يشفى من الكساح وجرَّب تجاربهُ في الفيران فوجد ان الجسم يحتاج الى قدرٍ اقل كثيراً من القدر الذي كان يُظنُّ لازماً لذلك

فقد وجد مثلاً في تجاربهِ ان القدر اللازم من هذه الاشعة لشفاء كساح فأرٍ يختلف باختلاف المساحة المعرضة من جسمهِ للضوء . فتعريض ما مساحتهُ ربع بوصة مربعة عشرين دقيقة كلَّ يوم في اثناء ثلاثة اسابيع يكفي . ويمكن الحصول على النتيجة نفسها من تعريض ما مساحتهُ بوصة مربعة مدة خمس دقائق كل يوم في اثناء ثلاثة اسابيع او ما مساحتهُ بوصتان مربعتان مدة دقيقتين ونصف دقيقة او ما مساحتهُ ثمن بوصة مربعة مدة اربعين دقيقة

توت عنخ امون

مصر واصول الحضارة

(تابع المنشور على الصفحة ١٤٦)

او حبات الشعير ونسبتها للام الكبرى وهي بالطبع تمثل المحاولات الاولى لتشخيص هذه الاشياء الطبيعية وتحويلها الى الشكل الانساني نرى في هذه الاشكال دور الانتقال في تحويل التميمة الى الاهة ، وهي المحاولات الاولى لتشخيص التميمة في شكل مادي

واذا كان الكنز الرائع الذي وجد في مقبرة توت عنخ آمون قد جعل العالم يقدر أثر المصريين الاقدمين في تاريخ الحضارة في سهولة اكثر مما لو كنا قضينا السنين في الدعاوي الجدية فان هناك حوادث اخرى تحدث الآن تؤيد التفسير العام لهذا الدليل

يكشف الاستاذ « جورج ريزنر » تاريخ « اتيوبيا » ويظهرنا للمرة الاولى على مقدار تسلط المصريين الاقدمين على السودان، وعلى الحضارة العالية التي نشرها المصريون حتى الجنوب الاقصى لوادي النيل ، ولهذه المكتشفات خطر خاص لقراء هذا الكتاب (المؤسس على عمل ذلك الاستاذ في مصر) لانها تقدم الايضاح النوعي لطرائق نشر الحضارة وبواعثها . وفي هذا الامتداد للتأثير المصري مارس المصريون هناك بعض العادات (مثل صناعة بناء الاهرام وبيع الضحية الانسانية) بعد ان كانت تمارس في مصر نفسها قبل ذلك بقرون وكانت بواعث ذلك التسلط في الحقيقة ان المصريين كانوا يحصلون من السودان على الراتنج والبخور والعاج والابنوس وجلود النمور وريش النعام والعبيد الزنوج الى غير هذا مما كانوا يعتبرونه اساسيًا لهم ، ولكن مناجم الذهب المنتشرة في الصحراء الشرقية من خط عرض مدينة طيبة حتى الحبشة جنوباً كانت اهم الاسباب لاحتلال السودان وبلاد النوبة

واصبح المصري الذي يشترك في استغلال الصحراء الشرقية حلقة من الحلقات الثقافية بين وادي النيل وحوض البحر الاحمر او قل في المكان الذي كان له اكبر شأن في تاريخ العالم القديم

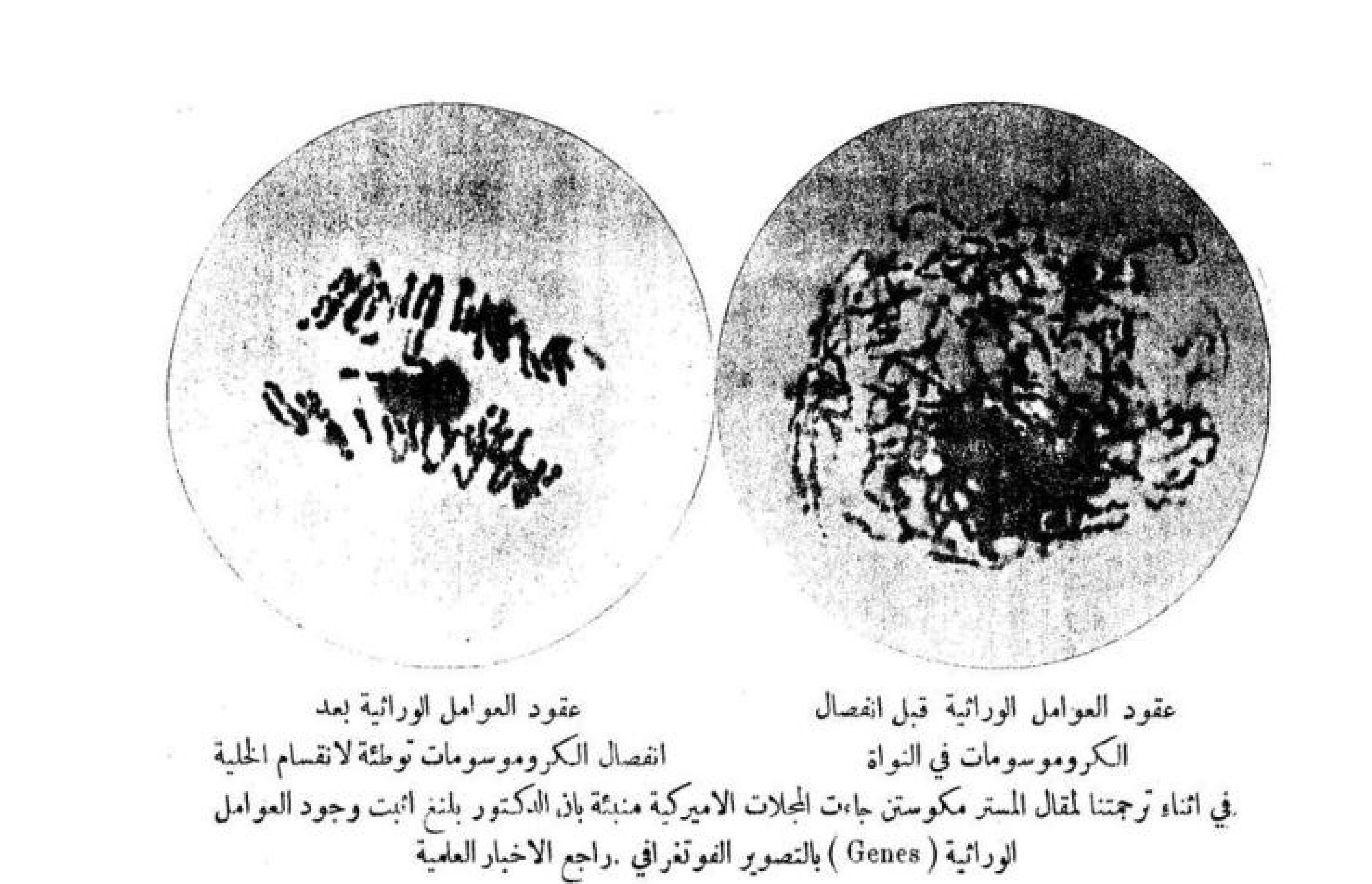
وهناك دليل آخر على ان المصريين وضعوا اسس المعرفة العلمية والتجربة العلمية فالاستاذ « جيمس هـ . برستد » الاستاذ في جامعة « شيكاغو » نشر حديثاً مقدمة ورقة بردي طيبة يرجع تاريخها الى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وهي تسكب ضوءاً جديداً على المعرفة العلمية في مصر القديمة . وكان الجميع يعرفون قدرة المصريين التجريبية ومهارتهم في تأليف التعاويذ السحرية ولكن الكثيرين كانوا يجهلون ان من احد عشر قرناً قبل طاليس « Thales » والمدرسة اليونانية كان في مصر رجال يقتفون طرائق علمية في المشاهدة والاستدلال العقلي كانت كالوحي أو التنزيل ، وعلى كل فالاكتشاف يتفق مع ما درسناه في مناحي البحث المختلفة

وكل هذا يدل على ان المصريين خلقوا الحضارة وابتكروا فنونها الاساسية واوجدوا عقائدها وقوانينها العلمية التي كانت التعبير المادي والعقلي لهم

عبد الحميد يونس



حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا
وكيل الداخلية للصحة وطبيب الاسرة المالكة الخاص



عقود العوامل الوراثية قبل انفصال
الكروموسومات في النواة

عقود العوامل الوراثية بعد
انفصال الكروموسومات توطئة لانقسام الخلية

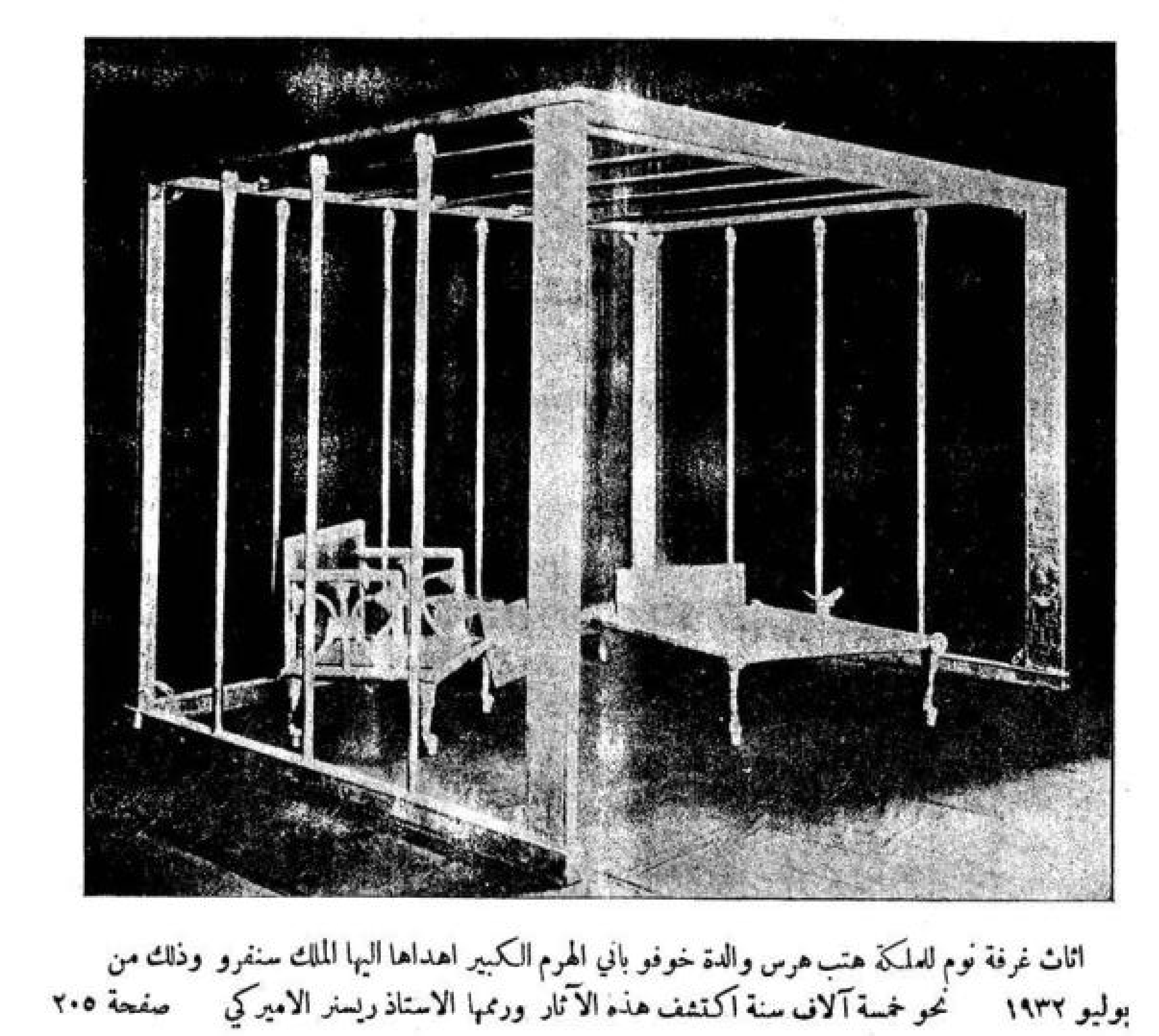
.في اثناء ترجمتنا لمقال المستر مكوستن جاءت المجلات الاميركية منبئة بان الدكتور بلنغ اثبت وجود العوامل الوراثية (Genes) بالتصوير الفوتغرافي .راجع الاخبار العلمية



تابوت توت عنخ آمون الذهبي وهو محفوظ في متحف القاهرة امام صفحة ١٤٨



الدكتور اليوث سمث صاحب الكتاب الذي نقل عنهُ هذا الفصل



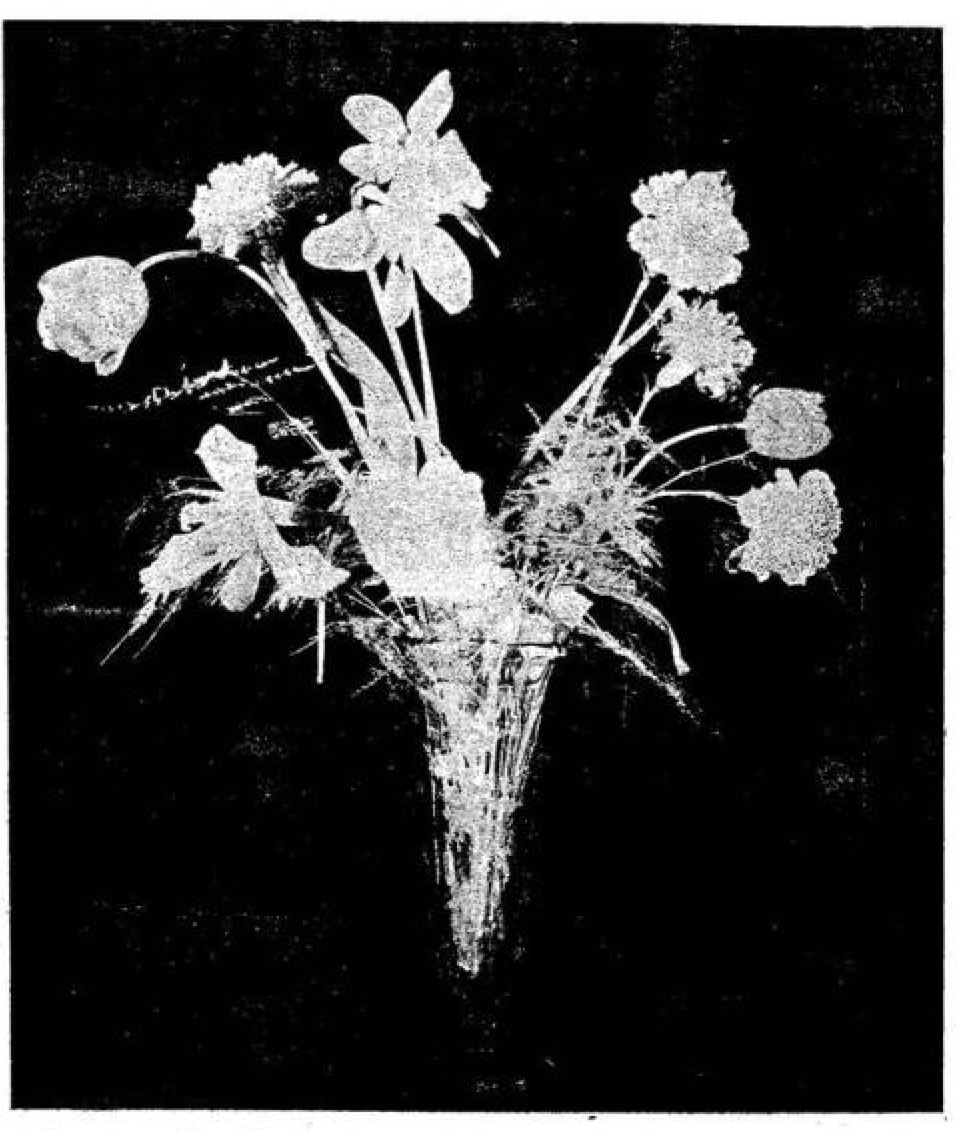
اثاث غرفة نوم للملكة هتب هرس والدة خوفو باني الهرم الكبير اهداها اليها الملك سنفرو وذلك من نحو خمسة آلاف سنة اكتشف هذه الآثار ورممها الاستاذ ريسنر الاميركي



صورة تمثل الحواجز الجمركية في اوروبا وذلك قبل ان رفعت انكلترا حواجزها من عهد قريب



الاستاذ توماس هنت مورغن
صاحب نظرية العوامل الوراثية (Genes) في الوراثة



ضمة ازهار وضعت في غرفة مظلمة ووجهت اليها امواج الاشعة التي تحت الاحمر ، فلم تتبينها العين البشرية وانما تبينتها عين الآلة المصورة الخاصة بذلك وصورتها

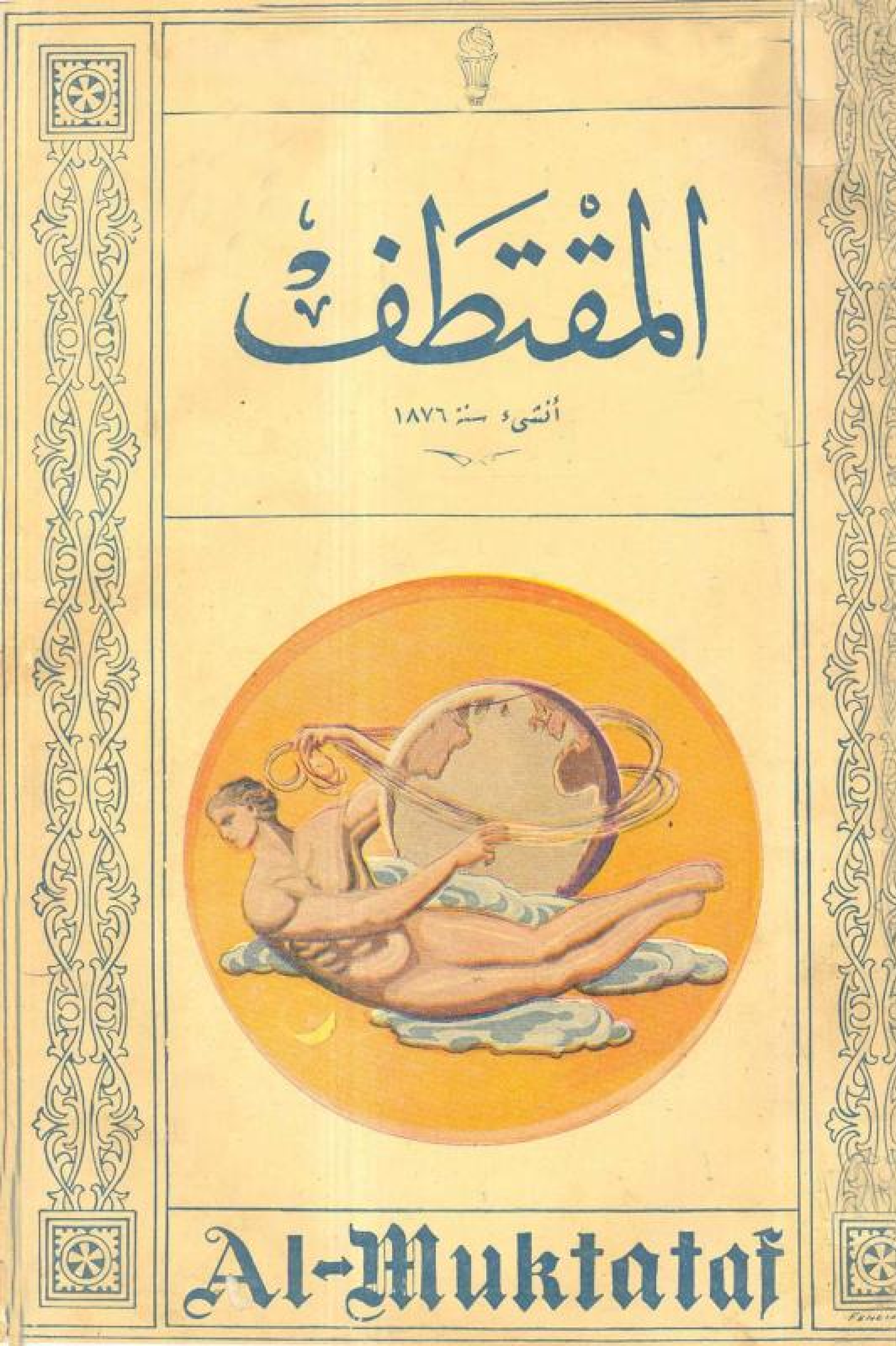




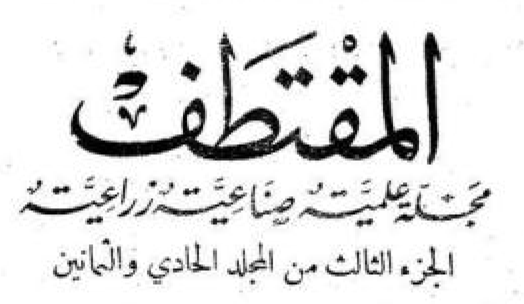
التصوير بالاشعة التي تحت الاحمر

تمثل الصورة العليا تمثال نصفياً وعلى جانبه مكواتان وقد صور تصويراً عاديا بضوء الشمس او بضوء المغنيزيوم . اما الصورة الثانية فالتمثال نفسه في غرفة مظلمة وانما أُحميت المكواتان فانبعث منها اشعة حرارة وهي الاشعة التي تحت الاحمر فأثرت في جهاز تصويري استنبط حديثا

الجزء الثاني من المجلد الحادي والثمانين


المقتطف
أنشئ سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf





مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد الحادي والثمانين

١ اكتوبر سنة ١٩٣٢ — ١ جمادى الثانية سنة ١٣٥١

القوى الكامنة في الذرة

الايدروجين وأصل العناصر

وزن الايدروجين الذرّي في اصطلاح الكيمياء واحدٌ وعند التدقيق واحد وسبعة وسبعون جزءا من عشرة آلاف جزء (١٫٠٠٧٧) وفي هذه الزيادة على الواحد اعظم مصدر للقوة اذا عرفنا كيف نطلقها ونستخدمها فنستعملها حينئذٍ لخير الناس او لضيرهم

ولتعليل هذه الزيادة يجب ان نلتفت الى مبادئ المذهب الذري . فاذا قلنا ان وزن الايدروجين واحد لم نفهم شيئاً عن حقيقة الواحد الاَّ اذا فهمنا ما هو القياس الذي بني عليهِ لان المقاييس نسبية

نشر دلتن الكيماوي مذهبهُ الذرّي سنة ١٨٠٣ وبعد ما مضى على نشرهِ نحو عشر سنوات لاحظ العالم الانكليزي بروت ان الاوزان الذرية للعناصر قريبة جداً من الاعداد الصحيحة حتى يصح القول بانها لم تحدث كذلك اتفاقاً وظن ان العناصر المختلفة مركبة من مقادير متباينة من الايدروجين بحسب اعدادها . وان الكسر الذي يظهر في اعداد بعضها يمكن تعليله

فاهتمَّ العلماءُ بهذا القول اولاً ثم اهملوهُ زمناً طويلاً لانهُ ظهر ان بين اوزان العناصر الذرية ما لا يستطاع جعلهُ عدداً صحيحاً بطريقة من الطرق العلمية المعروفة . واشهر هذه العناصر عنصر الكلور الذي وزنهُ الذري ٣٥ ½ فما من وسيلة علمية الاَّ واستخدمها العلماءُ لجعل وزنهِ الذري ٣٦ او ٣٥ تأييداً لقول بروت فلم يستطيعوا . ولو كان الكلور كالبوتاسيوم

الذي وزنهُ الذري ٣٩٫١ او كاليود الذي وزنهُ الذري ٢٦٫٩ لقالوا ان الفرق بين الوزن الذري والعدد الصحيح قليل وقد يكون سببهُ خللٌ في الموازين . وللكلور اشباه اهمها السلكون ووزنهُ الذري ٢٨٫٣ والمغنيسيوم ووزنهُ الذري ٢٤٫٣ لذلك اهمل مذهب بروت مع ما في اوزان سائر العناصر من الدلالة على صحتهِ

لكن الاهمال لم يقض عليهِ فصرَّح السر وليم كروكس في مجمع تقدم العلوم البريطاني الذي التأم في برمنغهام سنة ١٨٨٦ ان العناصر ليست موادَّ بسيطة كما يظنّ وان الاوزان الذرية ليست اعداداً محدودة فما اسمهُ مغنيسيوم قد لا تكون ذراتهُ من وزن واحد بل قد يكون مزيجاً من ذرات وزن بعضها الذري ٢٤ ووزن البعض الآخر ٢٥ او ٢٦ فيتكوَّن من اجتماعها عنصر وزنهُ الذري ٢٤٫٣ او نحو ذلك . وهذا يعني ان الاوزان الذرية كما تظهر بالامتحان ليست سوى ارقام تقريبية تدل على متوسط وزن الذرات في عنصر ما مع ان الوسائل الكيمائية المستخدمة لذلك كانت غاية في الدقة

ولا بدَّ من اقتباس العبارة التي ذكرها كروكس في هذا الصدد ونشرت قبل ان يتحقق قولهُ بسنوات كثيرة . قال :

«ارى انهُ اذا قلنا ان وزن الكلسيوم الذري ٤٠ عنينا ان اكثر ذرات الكلسيوم وزنها الذري ٤٠ ولكن قد يكون بينها جواهر اخرى كثيرة وزنها الذري ٤١ و٣٩ او ٤٢ و٣٨»

كان هذا القول حينئذٍ مجرد ظن او تكهن على انهُ ككثير من آراء السر وليم كروكس كان مبنيًا على المعية وزكانة فيهِ يجب احترامهما . وكان هذا الرأي حقيقاً بان يمتحن حين الادلاء بهِ لكن وسائل امتحانهِ لم تكن مستطاعة حينئذٍ والبحث عما تتركب منهُ العناصر اذا صحَّ القول بانها مركبة لا بسيطة لم يكن مما تتيسر معرفتهُ بالوسائل الكيمائية لان الاجزاء التي يتركب منها العنصر ذات خواصّ كيمائية متماثلة فلا تختلف الاَّ وزناً ذريًّا ، فلا يمكن تمييز بعضها من بعض . ولو لم تكن كذلك لفرَّق بينها الكيمائيون وحسبوها من عناصر مختلفة

وكان الاستاذ صُدي يبحث في الاشعاع فخطر لهُ انهُ توجد عناصر تتألف من ذرات تختلف وزناً ولكنها تتماثل في ما عدا ذلك اي ان خواصها الكيمائية واحدة وطيف نورها واحد فسمَّاها بالعناصر المتماكنة isotope —وترجمها المقتطف قبلاً بالنظائر— اي انها توجد في مكان واحد من جدول مندليف الدوري ولكنها تختلف وزناً ذريًّا . كان ذلك سنة ١٩١٠ . ثم استنبط الاستاذ طمسن (السر جوزف طمسن) اسلوباً في سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ لتحليل المواد باسلوب طبيعي في انبوب مفرغ يعرف باسلوب الاشعة الايجابية فاخذه الاستاذ أستن واتقنهُ واستعملهُ فاثبت قول كروكس واستنتاج صُدي . واعلنت هذه النتائج في مجمع تقدم العلوم البريطاني في برمنغهام سنة ١٩١٣ مع اثبات جديد للقول بأن الاوزان الذرية

اعداد صحيحة وان ما يظهر في بعضها من الكسر سببهُ امتزاج ذرات العنصر المتماكنة (النظائر) اي التي تختلف اوزانها وتتماثل خواصها وطيوفها

واثبت استن ايضاً ان الكلور الذي وزنهُ الجوهري ٣٥ر٥ وعند التدقيق ٣٥ و ٤٦ هو في الحقيقة مزيج من عنصرين مختلفين وزناً اي ان هذين العنصرين يشغلان مكاناً واحداً في جدول مندليف الدوري هو مكان الكلور ولكن وزن احدهما الذري ٣٥ والآخر ٣٧ وفي مزيجهما ٣ اجزاء من الاول وواحد من الثاني. كذلك أبان ان ذرة السلكون الذي وزنهُ الذري ٢٨ر٣ مزيج من ثلاث ذرات : ذرتين وزن كل منهما ٢٨ وذرة وزنها ٢٩

وليست كل العناصر امزجة كهذين العنصرين فوزن الكربون الذري ١٢ تماماً ووزن النتروجين ١٤ تماماً . اما جوهر المنغنيس فزيج من ثلاثة ذرات اوزانها ٢٤ و٢٥ و٢٦ والارغون مزيج من ذرات كثيرة وزن كل منها ٤٠ وذرات قليلة وزن كل منها ٣٦

***

ولكن الاساس الذي بنيت عليه هذه الارقام عددٌ صحيح وقد وضع تحكماً لعنصر بسيط التركيب هو الاكسجين فجعل ١٦ ومن ثم قيست بهِ سائر العناصر فجاء الكربون ١٢ تماماً والهليوم ٤ تماماً والغريب ان وزن الايدروجين الذري على هذا القياس ليس واحداً بل واحد وسبعة وسبعون جزءاً من عشرة آلاف جزء كما تقدم في صدر هذا الكلام

فكيف يصحُّ القول ان مذهب بروت قد تحقق او ان صحة المذهب القائل ببناء جميع العناصر من الايدروجين محتملَة

كل ما نستطيع ان نقوله الآن ان العناصر مؤلفة من دقائق نستطيع احصاءها واما مسألة بنائها من الايدروجين فما يجب البحث فيهِ

والبحث فيهِ يكون من وجهين الاول الوجهُ العملي والثاني الوجه النظري فلنبدأ بالاول لانهُ اسهلهما

من المقرر ان الذرة مؤلفة من نواة كثيفة تحيط بها كهارب خفيفة ومعظم الوزن الذري هو وزن النواة. حتى في الايدروجين الذي نواتهُ اخف النوى فان وزنها يزيد ١٨٥٠ ضعفاً على وزن الكهرب الذي يحيط بها . اما الاورانيوم وهو من اثقل العناصر فوزن نواته اكبر من وزن كل كهرب حول نواته ١٧٠٢٠٠ ضعف . ولذلك حينما يذكر الوزن الذري يقصد بهِ وزن النواة فاذا قلنا ان الذرة الواحدة من ذرات احد العناصر مؤلفة من الايدروجين فعلينا ان نثبت ان نواتهُ مؤلفة من الايدروجين

ان ذرة الايدروجين مؤلفة من نواة كهربائيتها ايجابية وفي المنطقة التي حولها كهرب سلبي . فاذا كانت نوى ذرات العناصر الاخرى مؤلفة من ايدروجين فيجب ان تكون

مركبة من نوى ذرات الايدروجين محشوكة حشكاً حتى تتكوّن النوى الثقيلة في العناصر الثقيلة

وقد كان علماء الطبيعة يعرفون ان النواة هنة صغيرة محشوكة مشحونة بالكهربائية الايجابية ولم يعرف عدا ذلك شيء عن صفاتها قبل ان استنبط السر ارنست رذرفرد اسلوباً لحلها ودرس بنائها . لم يستطع ان يحلها بالحرارة العالية ولا بالبرد الشديد ولا بالضغط لان هذه العوامل الطبيعية على قوتها لا تؤثر فيها بالغة شدتها ما بلغت. فاستنبط وسيلة استطاع بها ان يجعل نواة تصطدم باخرى فتمزقها . عرف بثاقب نظره ان الدقائق التي تنطلق من الراديوم بسرعة آلاف الاميال في الثانية يمكن استخدامها لهذا الغرض لكن النواة صغيرة جداً يندر ان تصاب. على ان الدقائق المنطلقة كثيرة والذرات التي صوّبت الدقائق اليها كثيرة كذلك فكانت لا بد ان يصطدم بعضها ببعض او واحدة منها بأخرى وكانت النتيجة انهُ حينما مُزّقت النواة بهذه الوسيلة خرج منها ايدروجين . والادلة على ذلك متوافرة فيما كتبهُ رذرفرد

فلدينا هنا دليل عملي يثبت وجود الايدروجين في النواة كالدليل على وجوده في الماء ولا يخفى ان الايدروجين يستطاع اخراجهُ من الماء بامرار تيار كهربائي فيهِ . على ان مقدار الايدروجين الخارج من الماء كبير جداً اذا قيس بالمقدار الذي يخرج من النواة كما في تجارب رذرفرد . لكن العلماء اعتادوا البحث في الذرات على صغرها والادلة التي اقامها رذرفرد على صحة مذهبهِ صحيحة في نظرهم وهي تثبت ان في النواة ايدروجيناً كما ذكرنا ولكنها لا تثبت ولا تنفي هل تتألف النواة من ايدروجين ممتزج بمادة اخرى او من ايدروجين صرف .

ولا بد من ان يسأل سائل: ماذا خرج من النواة عند تمزيقها غير الايدروجين. فنجيب ان ذرات الهليوم تنطلق من النواة ايضاً . ولكننا نعلم ان ذرات الهليوم موجودة ان لم يكن في كل العناصر ففي كثير منها هناك لانها تنطلق من نفسها في حالة الاشعاع من العناصر المشعة، فيظهر كأنّ كلّ شيء مؤلف من ايدروجين وهليوم

ننتقل الآن الى البحث فيما تتألف منهُ ذرات الهليوم . فوزن الهليوم الذري اربعة تماماً . فاذا كان وزن الايدروجين الذري واحداً لم يخامرنا شك — بناء على القول بأن كل العناصر مؤلفة من الايدروجين — في ان ذرة الهليوم مؤلفة من اربع ذرات ايدروجين محشوكة معاً . لكن وزن الذرة الواحد من الايدروجين ليس واحداً تماماً بل هو واحد وسبعة وسبعون جزءاً من عشرة آلاف جزء! فكيف يصح القول بان اربع ذرات منهُ تؤلف ذرة واحدة من الهليوم

هنا يصل الكلام بنا الى الوجه النظري في هذا البحث ولا بدّ من ذكر شيء عن المذهب الكهربائي في بناء المادة . فالعلماء اقرّوا الآن ان المادة مركبة تركيباً كهربائياً وان ما يسمّى «قوة استمرار» سببهُ شحنات كهربائية متحركة في حقل ممغنط وبالتالي« ان قوة الاستمرار

امر كهربائي او صفة من صفات الاثير وان هذه القوة او الوزن ليست ناتجة عن شيء في المادة نفسها بل ناتجة عن شيء يحيط بها . ووزن الشحنة الكهربائية سببهُ الاثير الذي تحركهُ معها في حركتها »

ذلك كلهُ كلام مبهم — وهو للسر اولفر الذي لا يزال الاثير في نظره اساس كل فهم للكون ومظاهره — لا نستطيع ان نبني عليهِ امراً عملياً والافضل ان نقول بان هذه القوة او هذا الوزن يعلَّل بالقوى الكهربائية المغنطيسية وان كل شحنة كهربائية لها وزن مرتبط بها وانهُ حين اجتماع الشحنات الكهربائية تجتمع اوزانها ايضاً

***

ولكن متى حشكت الشحنات الكهربائية معاً عدّل بعضها بعضاً الى درجة ما ، فيعدل الايجابيُّ منها السلبيَّ واذا استطعنا ان نحشكها معاً حتى يزول كل فارق مكاني بينها لاشت قوة الواحد منها قوة الآخر . وهذا محال على ما نعلم ولكننا نستطيع ان نقرب هذه الشحنات بعضها من بعض فيكاد يعدل بعضها بعضاً ويقل وزنها . فاذا فصل بين شحنتين كهربائيتين مسافة معيّنة كان وزنهما مضاعف وزن احداها. اما اذا حشكتهما تلاشى بعض وزنهما فيصير وزنهما اقل من مضاعف وزن احداها . فيظهر كأنَّ شيئاً من وزنهما قد تلاشى

قلنا انهُ اذا كانت نواة الهليوم مؤلفة من اربع ذرات ايدروجين فهذه الذرات يجب ان تكون محشوكة حشكاً . والحشك كما قدمنا يقلل الوزن فمجموع الذرات الاربع وهي محشوكة لا يزن اربعة اضعاف الشحنة الواحدة بل اقل من ذلك قليلاً اي ان المجموع لا يزن اربعة اضعاف ١٫٠٠٧٧ وهو الوزن الذري للايدروجين بل اربعة اضعاف واحد وهذا ما ينتظر حدوثه . وبهِ نستطيع ان نعلل ازالة الفرق بين وزن الايدروجين الذري لما يكون صرفاً وبين وزنهِ وهو داخل في بناء ذرات العناصر الأُخرى فهو في الاول ١٫٠٠٧٧ وفي الثانية واحد فقط . ولذلك فالهليوم قد يكون مؤلفاً من ذرات ايدروجين محشوكة حشكاً فيكون الايدروجين في هذه الحال وزنهُ الذري واحد لا ١٫٠٠٧٧

***

فيظهر مما تقدم كأن المادة قابلة للفناء والاَّ فأين ذهبت الأجزاء السبعة والسبعون من عشرة آلاف جزء من وزن الايدروجين الذري ؟ لكن المادة اذا فنيت او ظهر انها فنيت تترك اثراً وهذا ما يجب ان تنظر فيهِ الآن فاذا اختفت المادة فأي اثر تترك وراءها

هنا يدخل مذهب النسبية القائل ان القوة والمادة تتبادلان بطريقة من الطرق فاذا زالت المادة تولدت قوة واذا زالت القوة تولدت المادة. «وهذا امر لم نستطع ان نفعلهُ في معاملنا

العلمية بعد. وما من عالم استطاع ان يحوّل المادة الى طاقة او الطاقة الى مادة . وسيكون ذلك اليوم يوماً مشهوداً اذا تمّ لنا ذلك وأملنا معقود بأنهُ سيتم »

هنا نقف لنرى كيف نستطيع ان نفهم ذلك ونبحث عن رأي طبيعي نقدر ان نبنيه على هذا التحول او التبادل بين المادة والقوة . اما لدج فيرى ان هذا التبادل لا يتم الاّ بواسطة الاثير . فلقد ثبت ان الاثير مرتبط بسرعة عظيمة محدودة وهي سرعة انتقال الامواج او ايضاً سرعة النور. ويجب ان تتطلع الى الاثير المتحرك حركة زوبعية او رحوية بالسرعة المتقدم ذكرها كأساس لتعليل تركيب المادة . فحركة زوبعية في سائل تقارب الجماد في بنائها ويصير لها وجود خاص كما اثبت هلمنز ولورد كلفن . فاذا حدث ما اعاق هذه الحركة ضعفت قوتها فينتهي كونها مادة وتصير قوة

لكن القوة التي تتولد من شيء يدور او يتحرك بسرعة الضوء كبيرة جداً لأن القوة ترتبط بمربع السرعة فاذا تحركت ذرة غبار صغيرة بتلك السرعة ولدت قوة تنقل ما وزنهُ طن آلافاً من الاقدام. والقوة المتولدة من عشر الملغرام المتحرك بسرعة النور تساوي قوة سمائة طن هابطة من علو ميل

فاذا اختفى مقدار صغير من المادة المنظورة تولدت قوة كبيرة من ذلك الاختفاء كذلك حينما يحشك الايدروجين حتى يصير من حشكهِ هليوم لا يتعرض كل الايدروجين للفناء بل يفنى من كل جوهر منهُ ٠٠٧٧ر وهذا المقدار صغير جداً لكن ما يختفي حينما يصنع مقدار كبير من الهليوم كبير جداً حتى ليصبح مصدر قوة تخجل امامها بما عندنا من مصادر القوة الهائلة

لكن العلماء لم يستنبطوا حتى الآن اسلوباً يحشكون بهِ ذرات الايدروجين حتى تتألف من جواهر هليوم . ولا شك في ان ذلك حدث في مكان من الامكنة وعصر من العصور الخالية ولعلهُ حدث في داخل الكواكب على أساليب لا نفهمها الآن . فاذا صح ذلك فهذا تعليل يفسّر لنا ارتباط المادة بالقوة . ولعل هذا الارتباط سبب الحرارة العظيمة في النجوم . ولعلّ انطلاق قليل من هذه القوة سبب حركة النجوم السريعة .فهذه الاجرام الفلكية كلها تدور وكل جرم كبير منها حامٍ . ولا نستطيع تعليل هذه القوة العظيمة باحدى القوى المعروفة لدينا انما نستطيع تعليلها بما تقدم

فلذلك نرى ان مقدار القوة في الفضاء عظيم . وليس ثمة صعوبة في تعليلهِ بحسب ما تقدم . ومتى تسنى للبشر ان يطلقوا بعض القوة الكامنة في الجواهر على هذا السيار الصغير توصلوا الى قوة نتائجها تضر او تنفع وفقاً لاحوال العمران ونوازع النفس حينئذٍ

السرعة

بين الحيوان والانسان

يروي الاستاذ اندروز العالم والرحالة الاميركي انه كان سائراً بسيارته في صحراء جوبي فرأى امامهُ ظبياً فاغذَّ في السير للحاق بهِ فلما كانت سيارتهُ تقطع خمسين ميلاً في الساعة كان الظبي يعدو بسرعة ستين ميلاً ولم يلبث حتى اختفى عن بصره

وقد قيست سرعة ارنب (خرنق) فاذا هي خمسة وثلاثون ميلاً في الساعة . اما كلاب صيد الثعالب فتسير بسرعة اربعين ميلاً في الساعة ولكن الثعالب في اثناء الطراد تسبقها مسافة اميال قبل ان تخور. وقد ذكر بعض الرحالين ان الرنة (جنس من الايايل) يقطع خمسين ميلاً في الساعة اذا طارده مطارد

اما الطيور فاسرع من ذلك. فقد جاء حديثاً في انباء اميركا ان حمامة من حمام اميركا قطعت مسافة ٣٠٠ ميل بسرعة ٧١ ميلاً في الساعة. وفي اوربا نسرٌ يعرف بكاسر العظام. قيل ان احد ضباط سلاح الطيران البريطاني رأى وهو محلق بطيارته احد هذه النسور فلحق بهِ فظل النسر سابقاً الطيارة حتى بلغت سرعتها ١١٠ في الساعة ، وحينئذٍ كفَّ عن السباق ونكس رأسهِ وهوى

وأُخذت سنونوة من عشها في انفرس الى بلدة تبعد ١٤٨ ميلاً عن انفرس وأُطلق سراحها فكانت في عشها بعد انقضاء ساعة وثماني دقائق اي انها قطعت المسافة بمتوسط ١٣٤ ميلاً في الساعة . وانها لمن اسرار الخلق ان تجد طائراً صغيراً ضعيفاً كهذه السنونوة يستطيع ان يطير بقوتهِ العضلية الضئيلة هذا الطيران السريع !

واذا قيست عضلات الانسان بعضلات الحيوانات المتقدمة واشباهها بدا لنا ضعفنا. فنورمي المحضار الفنلندي المشهور عدا ميلاً واحداً في اربع دقائق وعشر ثوانٍ فكان سرعتهُ لا تعدو ١٤ ميلاً في الساعة. ولكن اذا اعتلى الانسان سنام الجمل قطع ١٦ ميلاً في الساعة واذا امتطى صهوة فرس قطع ٤٠ ميلاً في الساعة . اما سرعة الانسان في الماء فلا تعدو ميلين ونصف ميلٍ في الساعة مع ان الحوت الضخم الجثة يسير بسرعة عشرة اميال في الساعة والسلمون الفضي سمك يستطيع ان يفري الماء في فترات معينة بسرعة ١٧ ميلاً في الساعة . اما اذا تزحلق الانسان على سطح جليدي فقد تفوق سرعتهُ عشرين ميلاً في الساعة

على ان سرعة الانسان المستمدة من قوتهِ العضلية تكاد تكون زحفاً ازاء سرعتهِ التي تعتمد على عضلات ميكانيكية . فالماجر سيجريف بلغت سرعة سيارتهِ ٢٣١ ميلاً على ساحل فلوريدا وتلاهُ الكابتن كمبل فبلغت سرعة سيارته ٢٤٣ ميلاً . اما سرعة الطيارات في الهواء فاقصاها ٥١٤ ميلاً في الساعة بلغها الطيار ستينفورث باحدى الطيارات المائية الانكليزية التي صنعت لمسابقة كاس شنيدر

ان هذه السرعات العظيمة تبين ما يستطيعهُ الانسان لمحو المسافات وتنبئ بما قد تكون عليهِ سرعة المواصلات في المستقبل القريب !

تاريخ السرعة

كان تحقيق الانسان للسرعة الميكانيكية العظيمة تحقيقاً بطيئاً . فان الآلة البخارية استعملت مدة قرن كامل تقريباً في نزح المياه من المناجم قبلما خطر لاحدهم ان يستعملها في عربة فتسير العربة تدفعها قوة الآلة . وكانت السكك الحديدية اولاً تجرُّها الخيل ومضى عليها نحو قرنين قبلما استبدلت الخيل بالآلة البخارية . واول قطار صنع على هذا الطراز كان في ويلز سنة ١٨٠٤ فبلغت سرعتهُ خمسة اميال في الساعة . ثم انقضت خمس سنوات قبلما عنيت شركة من شركات سكك الحديد باستعمال الاسلوب الميكانيكي الجديد في دفع عرباتها

وكان الناس يوجسون خيفة من السرعة . فقد كتب احد الكتاب الانكليز مقالة في المجلة الربعية « Quarterly » قال فيها : « انهُ من المحال ان نزين للناس صنع قطارات سرعتها مضاعف سرعة العربات العمومية . وخيرٌ لاهل ولتش ان يسلموا بالانطلاق في صاروخ من الاستسلام الى آلة تسير بهذه السرعة »

وكانت مسألة السرعة من المسائل الخطيرة التي اثيرت لما طلبت شركة انكليزية من البرلمان اذناً في مد خطٍ سكة حديدية بين لفربول ومنشستر . وكان المهندس جورج ستيفنصن قد جرَّب القاطرة البخارية واسفرت تجاربهُ عن اقتناعهِ بتفوقها على العربات التي تجرها الخيل . ولكن رجال الفن في انكلترا حينئذٍ لم يقرّوه على ذلك الرأي فكتب ترِدجولد Tredgold في سنة ١٨٢٥ رسالة انكر فيها احتمال استنباط طريقة لنقل الناس تزيد سرعتها على عشرة اميال في الساعة . والقى لاردنر Lardner خطبة في لندن قال فيها « ان عربات هذه القطارات لا تستطيع ان تسير بالسرعة المذكورة فاذا حاولت ذلك وقفت جامدة في مكانها لان عجلاتها تدور حينئذٍ على محاورها وتظل حيث هي »

اما وقد قال رجال العلم كلمتهم فلا ريب فيما يقولهُ رجال الادارة ! فانهم ترددوا طويلاً في الترخيص بمد سكة حديدية يقودها ويرشدها « حَمَق » ستيفنصن . وقبلما مثل ستيفنصن امام لجنة البرلمان اشار عليهِ محامي الشركة بالاَّ يذكر سرعة لا تصدَّق كسرعة ٢٠ ميلاً في

الساعة لانهُ اذا فعل حكم المجلس عليهِ وحسبوه مجنوناً افلت من المستشفى . فلجم ستيفنصن خيالهُ ولسانهُ ولم يذكر الاَّ سرعة ١٢ ميلاً في الساعة ، ومع ذلك ظل اعضاء اللجنة البرلمانية يشكُّون في صحة عقلهِ واقترعوا ضدَّهُ . ولكن الشركة فازت بمرسوم تأسيسها بطريقة من الطرق . فاقنع ستيفنصن رجالها ان يسمحوا بتجربة القطار الحديدي — قاطرة فيها آلة بخارية تجر عربات وتسير على خط حديدي مزدوج — فعينت جائزة مالية قدرها ٥٠٠ جنيه تمنح لاي مخترع يستطيع قطارهُ ان يسير مسافة ٣٠ ميلاً بسرعة عشرة اميال في الساعة

وفي اكتوبر سنة ١٨٢٩ تمت هذه المباراة فحضرها عشرة آلاف متفرج وتبارت فيها قاطرات خمسة مخترعين احداها قاطرة ستيفنصن

وكانت قاطرة ستيفنصن تدعى « الروكت » اي الصاروخ وكانت تجرُّ وراءها قطاراً من العربات المحملة فبلغ متوسط سرعتها ١٥ ميلاً في الساعة . ثم فصل ستيفنصن القاطرة عن سائر القطار ليبين للجمهور ما تستطيعهُ وحدها . فسارت اولاً بسرعة عشرة اميال ثم بسرعة خمسة عشر ميلاً ثم زادت سرعتها رويداً رويداً الى عشرين فخمسة وعشرين فثلاثين فخمسة وثلاثين ميلاً فوقف الناس دهشين ثم انطلقت اكفهم بالتصفيق اذ رأوا القاطرة ولم تتبدد هباءً منثوراً كما قيل ولم تدُرْ عجلاتها حيث هي وها هو ذا المهندس يقفز منها معافىً لم تضرَّ بهِ السرعة

وللسكة الحديدية في الولايات المتحدة الاميركية تاريخ شبيه بتاريخها في انكلترا

السيارة والطيارة

ومن ثم اخذت سرعة القطارات تزداد رويداً رويداً بزيادة علم المهندسين وخبرتهم الى ان بلغت في احد القطارات الاميركية سنة ١٩٠١ مائة وعشرين ميلاً في الساعة فوق خط مستوٍ مستقيمٍ . اما قصب السرعة قبل الحرب مدى مسافة تزيد على خمسمائة ميل في طريق غير مستقيم او مستو فلقطار اميركي كذلك اذ قطع سنة ١٩٠٥ مسافة ٥٢٥ ميلاً في ٧ ساعات وخمسين دقيقة فكان متوسط سرعتهِ ٦٧ ميلاً في الساعة . وسرعة بعض القطارات الانكليزية الآن تفوق ذلك

ولما كانت الشركات تعنى بسلامة الركاب ورفاهتهم وتوفير النفقات عنايتها بالسرعة او اكثر عدلت عن السباق لزيادة سرعة قطاراتها من دون النظر الى ايّ اعتبار آخر . وقد كانت بعض الشركات الاميركية في مطلع هذا القرن تسيّر قطاراتها بين نيويورك وشيكاغو في ١٨ ساعة اما اليوم فانها لا تتعدى عشرين ساعة على الاقل

وكانت السيارة في مهدها اذ بلغ القطار اوجه — من ناحية السرعة — ففي سنة ١٩٠١ ربح هنري فورد سباقهُ الاول بسيارته المشهورة فكانت سرعته اقل قليلاً من ٤٥ ميلاً في الساعة . اما في اوربا فكانت سرعة السيارات تفوق سرعة فورد قليلاً . ولكن اصحاب السكك

الحديدية لم يروا في « عربة البنزين » ما يثير مخاوفهم . وفي سنة ١٩٠٣ نزل اسم فورد في صفحات الجرائد الاولى اذ بلغت سرعة سيارته تسعين ميلاً في الساعة. ومضى اصحاب المصانع في اتقان سياراتهم وزيادة سرعتها ففي سنة ١٩١٠ بلغت اقصى سرعة سيارة ١٤١ ميلاً في الساعة وفي ١٩٢٠ بلغت ١٥٦ ميلاً في الساعة وفي سنة ١٩٢٦ بلغت ١٧٠ ميلاً في الساعة وفي سنة ١٩٢٧ انطلق الماجر سيجريف بسيارته بسرعة ٢٠٠ ميل في الساعة وفي ١٩٢٨ بلغت سرعة كاي دُن ٢٠٧ اميال في الساعة وفي ١٩٢٩ اعاد سيجريف الكرة فبلغت سرعته ٢٣١ في الساعة وبعد وفاته تفوَّق عليهِ الكبتن مَلْكُمْ كَمبل اذ بلغت سرعته ٢٤٣ ميلاً في الساعة وهي اقصى سرعة مركبة تسير على سطح الارض — حتى الآن

على ان الانسان لم يكتف بالسير على سطح الارض او سطح الماء بل غزا مملكة النسر والعقاب وجاراها فيها بل وتفوَّق عليها

ففي ١٧ دسمبر ١٩٠٣ طار اورفيل ريط — لاول مرة في التاريخ — بطائرة اثقل من الهواء فقطع مسافة ١٢٠ قدماً في ١٢ ثانية اي ان متوسط سرعتهِ بلغ ستة اميال في الساعة او اكثر قليلاً . ولا ريب في ان اية عربة من عربات السفر التي كانت شائعة في القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع تستطيع ان تباري طيارة هذا متوسط سرعتها

ولكن افسح المجال للانسان وقد اخذ اجنحة الطير حتى يتعلم استعمالها ! ففي سنة ١٩٠٥ طار اورفيل ريط مسافة ١١ ميلاً بسرعة ٣٦ ميلاً في الساعة وفي ١٩٠٨ بسرعة ٤٠ ميلاً في الساعة

ثم قدم الصحافي الاميركي بنت — J. G. Bennett — كأساً للفائز في مباراة دولية للطيران فجرت المباراة في ريمز بفرنسا في شهر اغسطس سنة ١٩٠٩ ففاز فيها كرتس الاميركي وبلغ متوسط سرعته ٤٧ ميلاً في الساعة . ومن ثم اخذ متوسط سرعة الطيران يزداد زيادة تفوق ما يتوقع . ففي ١٩١٢ فاز فدرين الفرنسي بكأس بنت الدولية وبلغت سرعتهُ ١١٢ ميلاً في الساعة. ولما وضعت الحرب اوزارها واستؤنفت المباراة في الطيران فازت فرنسا بكأس بنت وكانت سرعة الفائز ١٧٠ ميلاً في الساعة

***

اما كأس شنيدر فاشهر من كأس بنت لدى قراء المقتطف . وجاك شنيدر من رجال الطيران والالعاب الرياضية عند الفرنسيين . صنع سنة ١٩١٢ كأساً من الذهب والفضة والبرونز قيمتها نحو الف جنيه وجعلها جائزة دولية يفوز بها المجلّي في سباق للطيارات المائية يقام كلَّ سنة او سنتين . ومن غرائب القدر ان شنيدر هذا مات فقيراً معدماً سنة ١٩٢٨ اذ كان المتنافسون ينفقون مئات الالوف من الجنيهات استعداداً لمحاولة الفوز بكأسه

والى القارئ بياناً مفصلاً باسماء الفائزين وسرعتهم

السنة	الاسم	الجنسية	السرعة بالاميال	السنة	الاسم	الجنسية	السرعة بالاميال
١٩١٣	بروفو	فرنسي	٤٥ر٧٥	١٩٢٥	دولتل	اميركي	٢٣٢ ر ٥٧
١٩١٤	بكستن	انكليزي	٧٦ر٧٥	١٩٢٦	ده برناردي	ايطالي	٢٤٦ ر ٤٩
١٩٢٠	بولونا	ايطالي	١٠٧ر١٢	١٩٢٧	وبستر	انكليزي	٢٨١ ر ٦٥
١٩٢١	ده بريغانتي	ايطالي	١١٥ر٨٤	١٩٢٩	آنشرلي	انكليزي	٣٢٨ ر ٦٣
١٩٢١	بيارد	انكليزي	١٤٥ر٦٢	١٩٣١	بوثمن	انكليزي	٣٤٠ ر ٠٨
١٩٢٣	رتنهوس	اميركي	١٧٧ر٣٨				

ولما كان شروط هذه المباراة ان الدولة التي تفوز بها ثلاث مرات متوالية تحرزها نهائياً فالكأس الآن ملك انكلترا. وبعد المباراة الاخيرة حاول الطيار الانكليزي ستينفورث ان يبلغ بطيارته البحرية اقصى سرعة بلغها الطيارون فطار اربع مرات فوق مسافة طولها ثلاثة كيلو مترات فبلغ متوسط سرعته ٤٠٨ اميال وبلغت سرعته في احد الاشواط ٤١٥ ميلاً في الساعة. وهذا اقصى ما استطاعه الانسان حتى الآن في ميدان « السرعة »

مستقبل السرعة

ما مستقبل السرعة ؟ هل بلغنا الحدّ الاقصى او لها حدود ابعد مما ذكر يستطيع الانسان بلوغها بالادوات الميكانيكية التي في متناوله وتحت سيطرته ؟

يرى السر ألان كوبهم الطيار البريطاني المشهور ان بلوغ سرعة ٣٠٠ ميل للطيارات التجارية امر سوف يتم في جيلنا . ويقول الاستاذ لو العالم والمستنبط الانكليزي ان سرعة المستقبل لا تنقص عن خمسمائة ميل . ويذهب بلريو اول من عبر بحر المانش بالطيّارة ان سرعة طيارات السباق سوف تبلغ « في عشر سنوات ٧٠٠ ميل في الساعة » . ويتناهى غيرهم فيذكر سرعة الف ميل في الساعة . فالمستر هُلَنْد (Holland) المهندس الذي بنى الطيارات المائية البريطانية التي فازت بكأس شنيدر يقول « ولست ارى ما يمنع ان تكون سرعة الطيّارة الفائزة سنة ١٩٥٠ الف ميل في الساعة »

***

والراجح ان مقاومة الهواء والفرك (او الاحتكاك) والقوة الطاردة من المركز هي الحوائل التي تحول عند تحقيق المهندسين ما يرونهُ حقيقة بعين خيالهم . والعالم او المستنبط الذي يقترب من اخضاع هذه الحوائل او تخطيها هو اول من يصل الى تحقيق سرعة الف ميل في الساعة

ان القوة الطاردة من المركز يمكنها ان تدمر السيّارة او الطيارة . فقد حسب احدعلماء الطبيعة انهُ لما كانت سرعة سيارة سيجريف ٢٠٠ ميل في الساعة كانت عجلاتها تدور ثلاثين دورة في الثانية الواحدة وكانت القوة الطاردة لدقائق العجلة من المركز تعدل ضغط اربعة اطنان. وزيادة سرعة السيارة تقتضي زيادة دوران العجلات وبالتالي زيادة القوة الطاردة حتى اذا بلغت السيارة سرعة معينة لم تستطع عندها جزيئات المادة ان تبقى متماسكة فتتطاير . وما يقال عن العجلات يقال عن محرك الطيارة ومراوحها

اما الفرك (او الاحتكاك) فظاهر فيما تنفقهُ السيارة من الزيت . ولكن المهندس العالم فقط يستطيع ان يقدّر ما تفقدهُ المحركات من قوتها لمقاومة الاحتكاك . فقوة المحركات في سيارة سيجريف كانت الف حصان تنفق قوة ١٠٠ حصان منها لمقاومة الفرك بين اجزائها فاذا زادت السرعة اصبح تزييت الآلة اكثر تعقيداً بما يصيب الزيت من التحول الكيمائي. وهذا يقتضي اضافة اسلوب جديد للتبريد لئلاَّ تزداد حرارة الآلة فينحلّ الزيت ويغدو لا يزيّتها . واداة التبريد تزيد ثقل الطيارة وتنقص القوة المستعملة في تسييرها

اما عدو السرعة الاكبر فهو مقاومة الهواء . فسيارة سيجريف كانت تنفق مائة حصان من قوتها لمقاومة الاحتكاك و ٥٠٠ للتغلب على مقاومة الهواء فلم يبق من القوة الاصلية الا ٤٠٠ حصان لتسيير السيارة

ان مقاومة الهواء غول القوة المسيّرة . فلنفترض ان امامك سيارة قوة آلتها عشرة احصنة تستطيع ان تسير بك سرعة ٣٠ ميلاً في الساعة . وانت تريد ان تسير بسرعة ٦٠ ميلاً فهل يكفي ان تجعل قوة آلة السيارة عشرين حصاناً ، اي هل يكفيك ان تضاعف القوة لتضاعف السرعة ؟ كلاَّ إذ قد وجد الباحثون ان القوة تختلف ككعب السرعة. فلكي تضاعف السرعة في طيارة يجب ان تزيد قوتها المحركة ثمانية اضعاف . فاذا كانت السيارة التي قوتها ١٠ احصنة تسير بسرعة ٣٠ ميلاً وجب ان تكون قوة السيارة التي تسير بسرعة ٦٠ ميلاً ٨٠٠ حصان — هذا اذا تساوت السيارتان في كل امر آخر عدا القوة

ولكن السيارت قلما تتساوى في كل امر . وهنا مجال الابداع لبناة السيارات والطيارات. فقد اجريت مباحث كثيرة لمعرفة اي شكل من الاشكال المادية يلقى اقلّ مقاومة من الهواء في اثناء سيره فيه .فوجد ايفل — المهندس الفرنسي باني برج ايفل بباريس — ان جسماً اسطوانيَّ الشكل مقدمهُ نصف كرة هو هذا الشكل . وقد قام المهندسون المحدثون بتجارب من هذا القبيل فبني على نتيجة مباحثهم علم stream-lining الحديث ويقصد بهِ بناء جسم السيارة — او الطيارة — وكل جزء ظاهر منها حتى يقاوم الهواء اقلّ مقاومة ممكنة

ولعلّ الطريقة المثلى للتغلب على مقاومة الهواء هي التحليق الى طبقات الهواء اللطيف .

فكثافة الهواء على ارتفاع عشرة اميال هي عشر كثافته على سطح البحر وكثافته على ارتفاع عشرين ميلاً جزء من مائة جزء من كثافته على سطح البحر . فالقوة التي تسير طيارة بسرعة ١٠٠ ميل او ١٢٥ ميلاً على ارتفاع الف قدم تستطيع ان تضاعف هذه السرعة على ارتفاع عشرة اميال مثلاً . ولكن طياراتنا تحتاج الى الهواء الكثيف. فهو كالماء للسفينة. واذاً فالطيران بسرعة ١٠٠٠ ميل في الساعة في طبقات الجوّ العليا يحتاج الى استعمال مبدإٍ آخر في الطيران — غير مبدإ مقاومة الهواء بسطحٍ منحنٍ — كمبدأ الصاروخ او السفن السهمية (١)

السرعة وجسم الانسان

هل يستطيع جسم الانسان ان يحتمل سرعة اعظم من سرعة كامبل بسيارته وستينفورث بطيارته ؟ انها لمسألة قديمة وجهت في ايام ستيفنصن وفي كل سنة اذ تقام مباريات السرعة توجَّهُ من جديد. ولعلّ افضل جواب عنها اننا كسكان السيّار المعروف بالارض نسير الآن في الفضاء معها بسرعة تفوق اقصى ما يتخيلهُ المهندسون . قال ادنجتن : الحركة لا تتعب احداً. فنحن الآن نسير مع الارض حول الشمس بسرعة ٢٠ ميلاً في الثانية. ونحن نسير مع النظام الشمسي بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية في خلال النظام المجرّي ومع النظام المجرّي بسرعة ٢٥ ميلاً في الثانية بين السدم اللولبية . فلو كانت الحركة تتعب لكنا متنا تعباً

ان جسم الانسان ودمهُ لا يستطيعان ان يحتملا حرارة تحت الصفر في طبقات الجوّ العليا ولا هو يستطيع ان يتنفس في هواء لطيف جدًّا . وعليهِ فكل طائرة سائرة في اعالي الجوِ لا بدَّ لها من ان تقل ركابها في حجرات محكمة الاقفال ضغط الجوّ فيها مثل ضغطهِ على سطح الارض وحرارتها مماثلة للحرارة الطبيعية التي اعتادوها

ولكن هل نرغب في زيادة السرعة ؟ ان نجاح البريد الجوي في كل البلدان يدل على رغبة الناس في سرعة النقل وخصوصاً نقل الاشياء الضرورية مثل الرسائل والعقاقير والامصال والجنود في ساعة الحاجة القصوى وغير ذلك . فطيارة تسير بسرعة الف ميل في الساعة تستطيع ان تقطع المسافة بين هليوبوليس وبغداد في نحو ساعة بدلاً من ان تستغرق نحو نهار

ثم هنالك الحلم الجريء الذي اعرب عنهُ العالم البريطاني هولدين (J.B.S.) وغيره وهو الخروج من منطقة جذب الارض الى الاجرام السماوية الاخرى

ما هي السرعة اللازمة للتغلب على قوة جذب الارض ؟ سبعة اميال في الثانية قرب سطح الارض ثم اقل من ذلك متى حلقت الطائرة في الفضاء . والقائمون على درس السفن السهمية يقولون ان توليد هذه السرعة مستطاع . . . ! !

(١) راجع مقالاتنا في المقتطف نوفمبر ١٩٢٨ ص ٢٤٩ ابريل ١٩٢٩ ص ٣٨١ مارس ١٩٣١ ص ٣٠٧

حافظ ابراهيم

لمصطفى صادق الرافعي

فرغتُ الآنَ من قراءة شعرحافظ بعد ان لم يَعُدْ حافظ بيننا الا شعرَهُ ونثرَهُ ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ في صفحة مما بين يديَّ الا وأحسستُ ان ذلك الشاعر العظيم يقول في بيانهِ الرائع وصناعته البديعة : انا هُنا

ولغةُ هذا الشعر المتدفقة بالحياة كأن كلماتها القويةَ عروقٌ في جسم حيّ متوثب — لم تخرج عن ان تكون هي العربية المُبينةَ في جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البياني ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كلـه من يكابر او يُماري في انها هي لغة حافظ وحده كأنهُ ارغم التاريخ ان يحتفظ بهِ في أجمل آثاره

وأنا اعرف في شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سأشير الى بعضها ، ولكني على ما اعرفهُ اجد هذا الشعر كالتيَّار يعُبُّ عُبابهُ لا يبالي ما تناثر منهُ وما ركد وما وقع في غير موقعه ، اذ كانت عظمته في اجتماع مادته لا في اجزاء منها وفي السرّ الذي يدفعها في كل موضع لا في المظهر الذي تكون بهِ في موضع دون موضع فهو ابداً يقول لمن يتصفح عليهِ او ينتقدهُ : انظر لما بقي

***

ترجع صداقتي لحافظ رحمهُ الله الى سنة ١٩٠٠ اول عهدي بالادب وطلبه وقد شهدتُ من يومئذ بناءه الادبي عالياً فعالياً الى الذروة التي انتهى اليها ، وأخلص لي ثقته وأصفاني مودته وكان تمكَّنَ من اخ كريم وله في نفسي مكان لم ينكره مذ عرفته ولم يضق بمحبته منذ اتسع لها وكنت واياه يرى احدنا الآخر من هذه اللغة كالجانبين لصورة واحدة لا يتهيأ في الطبيعة ان يختلفا والصورة بعدُ قائمة ولا ان يضطرب ما بينهما والصورة منهما على وزن وتقدير

ولـكن هذا لا يمنعني ان اقرر انهُ كان عندي اكبر من شعره — ولعله كذلك عند كل من خلطوه بأنفسهم — فانهُ يتعاظمك بنفسهِ القوية وبالمعنى الذي تحسُّهُ في العبقري ولا تدري ما هو . وذلك من سحر العبقريين وأثرهم في نفس من يتصل بهم فيتسقُ لهم امران من امرٍ واحد وحظّان بحظ ونصيبان بنصيب لان مع الاعجاب بآثارهم اعجاباً آخر بالقوة التي ابدعت هذه الآثار . ففي ذواتهم المحبوبة يستمر الاعجاب كالسائر على طريق لا موقف عليهِ

وفي آثارهم يكون الاعجاب في موقف قد انتهت الطريق بهِ فوقف على حد إن بَعُد وان قرب

لاجرم كان شاعرنا عبقريًا عجيب الصنعة قوي الالهام بليغ الأثر في عصره يشبه نحوًلا وقع في صورة من صور التاريخ ، ولكنهُ كذلك في مذاهب من الشعر دون غيرها فلم يكن معهُ من التمام في فنون الشعر ما يكون بهِ الشاعرَ التام او الاديبَ الكاملَ الأداة . وكم من مرة كلمتهُ في ذلك ونبهتهُ الى انهُ كالنمط الواحد وانهُ يجب ان يترسَّل شعرُهُ بين النفس الانسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة ، فاذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هي السياسة ولا ينبغي ان يكون شعره كلّه كشمس الصيف فان للربيع شمساً اجمل منها وأحبَّ كأنها مجتمعة من ازهاره وعطره ونسيمه

ولقد كان يفخر بأنهُ (الشاعر الاجتماعي) وهذا لقب ميزهُ بهِ صديقنا الاستاذ محمد كرد علي ايام كان في مصر قديماً فتعلَّق بهِ حافظ ورآه تعبيراً صحيحاً لما في نفسهِ وللملكة التي اختصَّ بها قال لي يوماً في سنة ١٩٠٣ : انا لا اعد شاعراً الاَّ من كان ينظم في الاجتماعيات . فقلت لهُ ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة إنك لا تعد الشاعر الاَّ من ينظم مقالات الجرائد . . . .

ولا بدَّ لي ان ابسط هذا المعنى في هذا الفصل فانهُ كان يخيَّل اليَّ دائماً ان شاعرنا (حافظ) خلق للتاريخ في اصل طبيعتهِ ثم زيدت فيهِ موهبة الشعر ليكون مؤرخاً حيَّ الوصف بليغ التأثير قوي التصرُّف ، ومن ثم جاء اكثر ما نظمهُ وأساسه التاريخ والسياسة وصحَّ له بهذا الاعتبار ان يقول انهُ الشاعر الاجتماعي ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر فاذا كان في المادة اجتماعي وسياسي فليس في الروح الاَّ الشاعر على اطلاقه . والاجتماعيات ليست كلَّ حقائق الحياة وهي بعد ذلك معان خاصة محصورة في زمنها ومكانها . على ان الحقائق ليست هي الشعر وانما الشعر تصويرها والاحساس بها في شكل حيّ تلبسهُ الحقيقة من النفس. فالشاعر الاجتماعي شاعر في حيِّز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه واذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فنًا اذ كان الفن انسانيًا وكان شاملاً عامًا . والمقاييس التي يطَّرد عليها الفن الادبي لا تكون في الزمن ولا في الموضع بل في النفس الانسانية التي لا تخص بوقت ولا مكان . فاذا لم يكن الشعر انسانيًا عامًا يولد لكل جيل من الناس فيجدهُ كأنما وضع لهُ وارتهن بأغراضهِ وحقائقهِ فهو شعر (كالاخبار المحلية) وهذا وجهُ الشبه بينه وبين ما اشرت اليهِ آنفاً من نظم مقالات الجرائد

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالاشياء التي نحن منها في الانسانية والطبيعة والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنهُ يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . . . فاذا مات اليوم ماتت الجريدة ثم تولد ثم تموت . وقد ادرك المتنبي سرَّ الشعر وانهُ قائم على تحويل الشعور الانساني الى معرفة انسانية تخلد شعره فلا يمكن ان يمحى من

العربية ما بقيت وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض والنقص وعلى ان المتنبي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحب ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى ، ولكن حكمته الانسانية ودقة اوصافه واقامته الفضائل والرذائل في كمالها الفني مقام تماثيل بارعة من الجمال، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الانسانية وباستمرار الذوق

ان هذا الكون مبني في نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه الا الله وحده ، ولكنهُ مبني في انفسنا من عمل الحواس ثم من التعليل والتفسير ، أما الحواس ففي كل حي لا تخلق بصناعة ولا عمل ، وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والاديب فكلاهما يُخلق لاتمام الخلق في الحقيقة وهي منزلة لا ادري كيف يمكن ان تمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعي او السياسي فترجع بهِ نمطاً واحداً مع ان الآثار الادبية وفي جملتها الشعر ان هي الا قوى الفكر والهام النفس وبصيرة الروح مسجلة كلها في بواعثها واسبابها من نفس عالية ممتازة ، وهذه القوى كثيرة التحول فيجب ضرورة ان تكون آثارها كثيرة التنوع . وتنوع الصور الفكرية في آثار الشاعر او الاديب ومجيئها متوافرة متتابعةً هو معيار أدبه وقياس نبوغه عالياً او نازلاً ومتبعاً او مبتكراً وفيما يضيء من نواحيهِ وما ينطفيء

على ان شاعرنا الاجتماعي (كما كان يحب ان يوصف رحمهُ الله) وان كان قد نفخ في روح الشعب أنفاساً الهية واحسن في وصف حوادثه وآلامهِ وعيوبه وأبلغ البيانَ في كل ذلك — فانهُ نزل في هذه المرتبة عن وضعه الصحيح فكان في منزلته بمكان الشرطي في الطريق يقف للجرائم والحوادث على حين ان مقامه الاجتماعي من الشعب مقام المعلم في مدرسته يجلس للطباع والاخلاق . ليس الشأن أن توجد في شعر الشاعر حوادث عصره اكثرها او أقلها فان فوق هذه منزلة اعلى منها وهي ان توجد حوادث النهضة بشعر الشاعر وأن يكون في شعره العنصر الناريُّ من اللغة الشعبية

على ان (حافظ) رحمه الله أدرك كل هذا في آخر عهده فكان يريد ان يميت ديوانه ويستخرج منه جزءاً صغيراً يختار فيهِ الف بيت ويسقط ما عداها وإن . . وإن كان فيهِ شعر اجتماعي . . . . ومع هذا النقص الذي بعثت عليه طبيعة الزمن وطبيعة الشاعر معاً فان تمام حافظ في مذهبهِ الاجتماعي الذي نبغ فيه جاء من وراء القوة وفوق الطاقة لا يجاريه فيهِ شاعر آخر بحيث دلَّ على ان النابغة قَدَر إلهي لا ينقص من عظمتهِ ان يكون حادثة واحدة تدوي دويّها في الدنيا . فهو مُيَسَّر منذ نشأتهِ لما خُلق لهُ من ذلك فأحكمتهُ المدرسة الحربية ثم قيّدهُ الجيش ثم تقاذفهُ السودان ثم قذف به الظلم ثم تولاه امام عصره الشيخ محمد عبده وهو كذلك في غاياتهِ الوعرة ومقاصده العمرانية ومعاناته للاصلاح — مدرسة حربية وجيش وفلاة . فلم يكن حافظ الا الصوت الانساني الذي أُعِدَّ بخصائصهِ للتعبير عن حوادث امتهِ وخصائصها،

وكأنه في نقلتهِ من السودان الى مصر قد انتقل من جيش يحارب الاقوام الاعداء لأمته الى جيش آخر يحارب المعاني الأعداء لامتهِ

* * *

ولد حافظ ابراهيم سنة ١٨٧١ وكان الكتاب الاول الذي هداه الى سر الادب العربي وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته هو كتاب الوسيلة الادبية للشيخ حسين المرصفي المطبوع في مصر لخمس وخمسين سنة ، ففي هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الادب العربي في عصوره المختلفة ودرس فوق البلاغة في اسمى ما يبلغ بها الذوق ووقف على أسرار تركيبها وعرف منه الطريقة التي نبغ بها البارودي وهي قراءته دواوين فحول الشعراء من العرب ومن بعدهم وحفظه الكثير منها ، فبنى شاعرنا من يومئذٍ قريحته على الحفظ ولم يزل يحفظ الى آخر عمره اذ كانت قريحته كآلة التصوير لا تُثبّته لشيء الاّ علقتهُ وهذا سبب من اسباب ضعف خياله ولكنه ردَّ عليهِ من القوة في اللغة ما تناهى فيهِ الى الغاية . واتفق لذلك العهد ان طبعت لزوميات المعري في مصر فتناولها حافظ واستظهر اكثرها فكانت باعث ميله ونزعته الى الشعر الاجتماعي . والفرق بين حافظ وبين المعري في الموهبة الفلسفية هو الذي نفذ بالمعري الى اسرار كثيرة ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوله يطير هناك ويقع

فقد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية فاستصعبت عليهِ اسرار واستغلقت أخرى من أسرار الخير والشر في الحياة ، والجمال والحسن في الخليقة ، والجلال والابداع في الكون والاقرار والشك في كل ذلك ، وقد بلغ المعري من هذا مبلغاً لا بأس بهِ الاّ انه لم يُصفَ كما تصفي الاشياء في عين مبصرة فخبط وخلط ووضع من اغراض نفسهِ المريضة على الصحيح والمريض جميعاً . وتابعهُ حافظ في طريقة أخرى سنشير اليها بعد

وفتن شاعرنا بما قرأ في «الوسيلة» من شعر البارودي فاصبح من يومئذٍ تلميذه وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة التأليف على نغم الالفاظ وأجراس الحروف ولكنه لم يدرك شأو البارودي في ذلك لان هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الادب ما لم يتفق لغيره في عصره وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدنيا في الف سنة من تاريخ البلاغة العربية ولذا انتقل عنه حافظ الى طريقة مسلم بن الوليد في التصنيع ولزمها الى آخر مدته

وابتدأ يعالج الشعر في السودان وينظم في جنس ما هو بسبيله من وصف الهم المستولي عليهِ من جميع جهاته اذ كان يتيماً فقيراً مشرَّداً ويرى نفسه شاعراً تصده الحياة عن منزلة الشاعر وعن أمكنة الشعر كالذي غُصِبَ ميراثه من عرش وملك ونُفي الى غير أرضه ووضعت روحه بازاء روح الفقر وقيل لها عدوٌّ ما من صداقته بُدٌّ

ثم جاء الى مصر واتصل بالامام الشيخ محمد عبده واستقال من الجيش وفرغ للادب

فبدأ من ثمَّ تكوينه الادبي المندمج المحكم . اما قبل ذلك الى سنة ١٩٠١ التي طبع فيها الجزء الاول من ديوانه فكان شعره قليلاً ظاهر التكلف واكثره يدل على طريقة مضطربة لم تستحكم وفكر لم ينضج وموهبة في التوليد الشعري بينها وبين الاستقلال أمد قريب

ودرس في مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٠٥ وهذا الامام رحمه الله كان من كل نواحيهِ رجلا فذًّا وكأنه نبي تأخر عن زمنه فأعطي الشريعة ولكن في عزيمته ووُهب الوحي ولكن في عقلهِ واتصل بالسر القدسي ولكن من قلبهِ . ولولا هو ولولا انه بهذه الخصائص لكان حافظ شاعراً من الطبقة الثانية فانه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التي جعلته يصيب الالهام من كل عظيم يعرفه وكان له من أثرها هذا الشعر المتين في وصف العظماء والعظائم وهو أحسن شعره

ولم يجد حافظ من قومهِ ما يجعله لسانهم حتى تنطقه بالوحي نفسيتهم التاريخية الكبرى، ولا تولاهُ ملك او امير يرغب في أدبه رغبة اديب ملك او اديب امير ليظهر منه عبقرية جديدة في التاريخ ، ولا عرف الحب الذي يجعل للشاعر من سحر الحبيب ما يجمع النفسية التاريخية والملكية معاً ويزيد عليهما . وهذه الثلاثة التي لم تتفق لحافظ هي التي لا ينبغ الشاعر نبوغاً يفرده ويميزه الا بواحد منها او باثنين او بها كلها . غير ان حافظ وجد في الامام ما هو اسمى من كل هؤلاء في النفس والجاذبية وعرف فيهِ من ذوق الادب والبلاغة ما لم يعرف شاعر في ملك ولا أمير . وقد حضر دروسه في المنطق واسرار البلاغة ودلائل الاعجاز وخرج منها بذوقه الدقيق واسلوبه المتمكن ، وحضر مجالسه وخرج منها بمواضيعه الاجتماعية واغراضه الوثابة ، وحضر نظرات عينيه وخرج منها بروحانية قوية هي التي تتضرم في شعره الى الأبد . فحافظ احدى حسنات الشيخ على العالم العربي وهو خطة من خططهِ في عملهِ للاصلاح الشرقي الاسلامي والنهضة المصرية الوطنية واحياء العربية وآدابها، واذا ذكرت حسنات الشيخ أو عُدَّت للتاريخ وجب ان يقال اصلح وفعل وفعل وفسَّر القرآن وأنشأ حافظ ابراهيم

ومضى شاعرنا موجَّهاً بفكرة الامام وروحه واستمرَّ في ذلك بعد موت الشيخ كما يستمر النهر اذا احتفر مجراه لا يستطيع أن يخرج عنه ما دام يجري الى مَقارِّهِ

* * *

وكان حافظ في بديعه وصناعته على مذهب مسلم بن الوليد كما قلنا وهو مثله ابطاءً في عمل الشعر وتلوُّماً على حوكهِ وانفراداً بكل لفظة منه وتقليباً للنظر فيما بين الكلمة والكلمة واعتبار كل بيت كالعروس لها مَعرض وحلية وزينة . فاذا عمل شعراً انبثت خواطره في كل وجه وذهب وراء الالفاظ والمعاني وترك هاجسه (العقل الباطن) يعمل عمله فيما التوى عليه او استصعب وهو واثق انه سينقاد ويتسهَّل بقوة ان لم تكن فيه الآن فستكون فيه . ثم

ينظم ما يتسمَّح إنجاءه في موضعه من القصيدة او في غير موضعه فلا يتبع فيها نسقاً بعينه وانما القصيدة عنده كلٌّ سيجتمع من بعد ، تتهيأ اجزاؤه متسقة ومبعثرة كما يجيء بها الالهام واسباب الاتفاق . فالقصيدة أولاً في أبياتها ثم تكون أبياتها فيها اي ثم ترتب الابيات وتنزَّل في منازلها ، ولا ينظم الا متغنياً يَرُوض الشعر بذلك لان النفس تتفتح للموسيقى فتسمح وتنقاد . وهو يتبع في ذلك طريقة معروفة ذكرها ابن حجة الحموي في كتابه خزانة الادب وهي من وصية ابي تمام البحتري وكان المتنبي يعمل عليها . وبالجملة فان حافظ يرتهن فكره بالقصيدة التي ينظمها ويتوفر عليها وعلى اسبابها لا كما يفرغ الشاعر للشعر ولكن كما يتوفر المؤلف العظيم على كتاب يؤلفه . وهو كذلك يبطيء في نثره اكثر مما يبطيء في الشعر ، دلّني بنفسه رحمهُ الله على صفحة في الجزء الثاني من ترجمة البؤساء وقال انه ترجمها في خمسة عشر يوماً[1]

وحضرتهُ مرة يترجم اسطراً من الجزء الاول (في قهوة الشيشة) يخطها في دفتر صغير دون حجم الكف فاجتمعت له ثلاثة اسطر في ثلاث ساعات وهذا لا يعيبهُ ما دام يريد قسط الفن وما دام يحاول أن يخرج الكلمات من عالمها الى عالمه هو المتموِّج من الالفاظ والعبارات بمثل الكواكب في الاستواء والجاذبية والشعاع والرونق والجمال

ويرى مع الصناعة ان يكون سبك شعره سبك البدوي المطبوع جزلاً سهلاً مشرقاً ممتلئاً متعادل الاجزاء والتقاسيم يرنّ رنيناً كأنما قذفت به سليقة أعرابي فصيح تحت ضوء كواكب البادية على بَرد الرمل في نسمات الليل حين تمتليء تلك النفس البدوية بحنين الحب او شوق الجمال او عظمة القوة . وهذا هو الاصل الذي اتبعهُ وقفني عليه هو بنفسه في سنة ١٩٠٢ وقرظني به في الجزء الاول من ديواني فقال

أنت والله كاتبٌ حضريٌّ إن عددناك شاعراً بدويًّا

ولو أنك أجريت شعر حافظ في أبلغ ما قاله المطبوعون من الأعراب وشعراء القرن الاول لالتأم به وزاد عليه في الصناعة وبعض المعنى . وقلَّ ان تجد في شعره كلمة ينبو بها مكانها الا الفاظاً قليلة كان يستكرهها يحسب انه يستطرف منها ويرى في غرابتها شيئاً جديداً وهذا من خطأ رأيه في الاسلوب لانهُ مع بلاغته كان ينقصهُ ان يكون فيلسوفاً في البلاغة . وانا أرى انه لو تمت لهُ الموهبة الفلسفية لما جاراه شاعر آخر ولكن الكمال عزيز في البشرية وقد عرفت رأيه في الاسلوب في سنة ١٩٠٦ اذ نشرت له مجلة الاقلام التي كان يصدرها صاحبنا الاديب جورج طنوس كلمات كان يريد ان يضمّنها كتابه (ليالي سطيح) اظهر فيها رأيه في الشعراء فقال في اسماعيل صبري : يقول الشعر لنفسه لا للناس . وفي شوقي : ارق الشعراء طبعاً

(١) لما اهدى الي هذا الجزء كنا قبل الظهر فلم يدعني حتى قرأته كله معه الى العصر وكتبت عنه في المقطم بعد ذلك

وأسماهم خيالاً . وفي مطران أسرعهم بديهةً واقدرهم ابتكاراً . وقال فيَّ «لم يكن مضى علي الاَّ ست سنين في طلب الادب : مكثار راقي الخيال بعيد الشوط في ميادين الأدب غير ناضج الاسلوب . فلما اجتمعت بهِ فاتحتهُ في ذلك وسألتهُ رأيه في الاسلوب الناضج فلم أر عنده طائلاً وكل ما قاله في ذلك ان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قرر ان البلاغة ليست في اللفظ ولا في المعنى ولكنها في الاسلوب . وعبد القاهر لم يقل هذا ولاقاله غيره فان الاسلوب عنده « طريقة مخصوصة في نسق الالفاظ بعضها على بعض لترتيب المعاني في النفس وتنزيلها » « وان المنزلة من حيّز المعاني دون الالفاظ وانها ليست لك حيث تسمع باذنك بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك »

وقد قررت له ان للالفاظ ما يشبه الألوان فليست كلها زرقاء ولا صفراء ولاحمراء . وربَّ لفظة رقيقة تقع ضعيفة في موضع فيكون ضعفها في موضعها ذاك هو كل بلاغتها وقوتها كفترة السكوت بين انغام الموسيقى هي في نفسها صمت لا قيمة له ولكنها في موضعها بين الانغام نغم آخر ذو تأثير بسكونه لا برنينه وهذا من روح الفن في الاسلوب

وأدرك شاعرنا من يومئذ ما سميته قوة الضعف ولعلَّ هذا هو السبب في ان طبعهُ رجع يعدل به الى التسهيل حتى انه لتقع في شعره ابيات متهافتة فيأتي بها ولا ينكرها . ولقيني مرة فانشدني قول الشاعر :

أنا لم أرزق محبتَها انما للعبد ما رُزقا

وجعل يُعجّبني من بلاغة قوله (لم أرزق) وانها مع ذلك ضعيفة مُبتَذَلة تجري في منطق كل عامي قات ولكن (محبتها) جعلتها كمحبتها . . . .

* * *

وضعف الموهبة الفلسفية في حافظ عوَّضه ناحيةً أخرى من اقوى القوة في الشعر وهي اهتداؤه الى حقيقة الغرض الذي ينظم فيهِ وتركه الحواشي والزيادات وانصراف قواه الى دقة الوصف حين يصف وتعويله على احساسهِ اكثر من تعويله على فكرهِ ، فزاد ذلك في رونق شعره ومائه ونحا به منحى المطبوعين فخرج يتدفق سلاسةً وحلاوةً ممتلئاً من صواب المعنى وبلاغة الأداء وقوة التأثير . وبهذا نبغ في الرثاء ووصف الفجائع نبوغاً انفرد بهِ حتى لأحسب أن هناك رُوحاً يمُده في هذه المواقف وأن الحقيقة تتبرج لهُ في هذه العظائم خاصة ليرى منها ما لا يراه غيره . وهو يتحد بالعظيم الذي يرثيه فيجيد فيمن يعرفهُ اجادة منقطعة النظير تتبين الفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة .وأحسبهُ يسأل روح العظيم الذي يصفهُ او يرثيه : أين المعنى الذي فيهِ حقيقتك وأين الحقيقة التي فيها معناك

والفلسفة الشعرية كلها أن يحل في الشاعر الملهم ذلك السرُّ الجميل الجاذبُ والمنجذبُ

معاً المستقر والمتحول جميعاً الباطن والظاهر في وقت ، فيكتنه الشاعر ما لا يدركه غيره فيقف على الجمال والحسن والرقة ويلهم الحكمة والبصيرة ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب ويؤتى التعبير عن كل ذلك في طريقة خاصة به هي أسلوبه وهذا لم يتفق على أتمّه وأحسنه في حافظ فقصَّر به في توليد المعاني المبتكرة ونزل به في الغزل ووصف الجمال . بيد أنهُ اتفق لهُ مثل هذا الجلال بعينه في (الجانب المتألم من شعره) اي الرثاء والشكوى ووصف الفجيعة ، ولو ذهبت تستعرض المراثي في الشعر العربي ومثّلت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم كالاستاذ الامام والبارودي ومصطفى كامل وثروت ، لراعك انك واجدٌ للشعراء ما هو اسمى من معانيه واقوى من خياله ولكنك لا تجد البتة ما هو افخم وادق مما جاء به في هذا الباب كأنهُ منفرد في العربية بهذه الخاصّة

وهذا المعري يقول :

ولولا قولك الخلاّق ربي ‌ ‌ ‌ لكان لنا بطلعتك افتتان

ويقول في شعر آخر

أسهب في وصفه علاك لنا ‌ ‌ ‌ حتى خشينا النفوس تعبدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين اذا قستهما بقول حافظ في رثاء الشيخ عبده :

فلا تنصبوا للناس تمثال (عبده) ‌ ‌ ‌ وان كان ذكرى حكمةٍ وثباتِ

فاني لأخشى ان يضلّوا فيومئوا ‌ ‌ ‌ الى نور هذا الوجه بالسَّجَدَاتِ

مع ان معنى حافظ مأخوذ منهما ولكن انظر كيف جاء به .ويقول المعري في رثاء ابيهِ

ولو حفروا في درّة ما رضيتُها ‌ ‌ ‌ لجسمك ابقاءً عليك من الدفنِ

ويقول في رثاء غيره :

واخبُواه الأكفانَ من ورَق المصـ ‌ ‌ ‌ ـحف كبراً عن أنفس الابرار

وهذان ايضاً كالصعاليك عند قول حافظ في البارودي :

لو أنصفوا اودعوه جوف لؤلؤة ‌ ‌ ‌ من كنز حكمتهِ لاجوفَ اخدودِ

وكفّنوه بدَرْج من صحيفته ‌ ‌ ‌ او واضح من قميص الصبح مقدودِ

مع ان حافظ ألمَّ بقول المعري . ومن بديع ما اتفق لهُ في قصيدة (الامتان تتصافحان) قوله يصف السوريين :

رادوا المناهلَ في الدنيا ولو وجدوا ‌ ‌ ‌ الى المجرّة ركْباً صاعداً ركبوا

او قيل في الشمس للراجين منتجعٌ ‌ ‌ ‌ مَدُّوا لها سبباً في الجوّ وانتدَبوا

فاقرأ هذين واقرأ بعدهما قول المتنبي في سيف الدولة

وَصولٌ الى المُستَصعَباتِ بخيلهِ ‌ ‌ ‌ فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا

فانك تجد بيت المتنبي صعلوكاً على بيتي حافظ مع انهُ المبتدع السابق

وأعجب ما عجبت له هذا البيت من شعر صاحبنا في مقطوعة يخاطب بها الامريكان نشرها في المقطم من ثلاث سنوات او نحوها . قال :

وتخذتم موج الاثير بريدا حين خلتم أن البروق كسالى

واتفق يومئذٍ أن كنت جالساً في زيارة الصديق الاستاذ فؤاد صرُّوف محرر المقتطف فجاء حافظ فلم يكد يصافحني حتى قال كيف ترى هذا البيت وتخذتم موج الاثير بريداً الخ فاثنيت عليهِ الذي يهوى وهنأتهُ بهذا المعنى واظهرت له ما شاء من الاعجاب ولكني أضمرت عجبي من حسن ما اتفق له، فان الجمال الشعري في البيت انما هو في استعارة الكسل للبروق وهذا بعينه من قول ابن نباتة السعدي في سيف الدولة :

وما تمهّل يوماً في ندًى وردًى الاَّ قضيتُ للمح البرق بالكسل

غير ان حافظ نقل المعنى الى حقهِ ومكّن له أحسن تمكين في صدر كلامهِ واتمّ جماله في قوله (حين خلتم) فاقتطع المعنى وانفرد بهِ وعاد معنى السعدي كالصعلوك على باب بيتهِ . وكانت هذه المقابلة في المقتطف آخر عهدي بحافظ فلم ارهُ من بعدها رحمهُ الله

وما مرَّ بك انما كان من صناعة الشاعر في غيرِ الجزء الاول من ديوانه بعد ان استفحل وتخرّج في مدرسة الامام ، اما في الجزء الاول فلهُ هو صعاليك . . . . كقوله في الخمر

خمرة قيل انهم عصروها من خدود الملاح في يوم عُرْسِ

فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم :

مُشَعْشَعَةٌ من كف ظبيٍ كأنما تناولها من خده فأدارها

وقول حافظ (عصروها من خدود الملاح) كلام من لم ينضج في البيان ولا الذوق لا يكاد يُتوهَّم معهُ الاَّ ان في خدود الملاح (خراجات) عصرت . . . . وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خده) فهي كلمة اكثر نعومة من ذلك الخد واجل نضرة

وقول حافظ في مدح الخديوي :

يا من تنافسُ في اوصافه كلمي تنافسَ العرَبِ الامجاد في النسب

فهو صعلوك على بيت ابي تمام

تَغَايَرَ الشعر فيهِ إذ سهرتُ لهُ حتى ظننتُ قوافيهِ ستقتتلُ

ولا نطيل الاستقصاء فانما نريد التمثيل حسْبُ

وكان الشاعر اول نشأته يأخذ في طريقة المعري الذي عمي عن الطبيعة فجعل يخلقها من فكره ومحفوظه بمبالغات كاذبة يُغرق فيها يحسبانهُ بذلك يعظم الحقائق فتخرج له الاخيلة الكبيرة وما يدري انهُ بهذا الغلوّ لا يجيء الاَّ بالاباطيل الكبيرة. . . . ولكن حافظ في

مزاجه وتركيبه ونشأته كان رجلاً مبنيًّا على الوضوح والقصد فلم يفلح في طريقة المعري ووضوحه كذلك باعده من الفلسفة وابهامها ومن الطبيعة والغازها ومن الغزل ووساوسه ، وهو الذي اداه الى الشغف بالحقيقة واستخلاصها في كل اغراضه التي أجاد فيها . ومن ثم خلا شعره او كأنهُ خلا . . . . . من أوصاف الطبيعة في جمالها بلغة الفكر المتأمل ومن اوصاف الجمال في سحره بلغة القلب العاشق

* * *

وانت فلا تحسبنّ الشاعر يجيد في الغزل والنسيب من انهُ شاعر يحسن الصنعة ويجيد الاسلوب فيكون غرضٌ من الشعر سبيلاً الى غرض وفن عوناً على فن وتكون رقة الالفاظ وهلهلة النسج وقلبي وكبدي ويا ليلة ويا قمراً ويا غزالاً .... واشباه ذلك غزلاً ونسيباً . كلاّ ثم كلاّ والثالثة . كلاّ ايضاً . . .

ان الغزل واوصاف الجمال موهبة في الشاعر او الكاتب تُسخَّر لها قوًى هي اشبه في معجزاتها بما سخّر لسليمان من قوى الجن والريح غير انها قوى آلام ولذات ووساوس . تلك عظمة في بعض النفوس الشاعرة كعظمة الملوك والابطال غير انها لا تكمل الا غائبة او مغلوبة فاذا انتصرت سقطت. فلا بد لها من تاريخ وحوادث ومزاج عصبي يُهيَّأ لها بروحانية شديدة الحسّ شديدة الفَوْرة ثائرة أبداً لا تهدأ الاّ على توليد معنى بديع في جمال من محبةٍ او خياله . ثم اذا هدأت بذلك أثارها انها هدأت فتعود الى التوليد فلا تزال تبتدع وتصف كأنها آلة تعبير تدور بقلب وعصب . هناك قوتان احداهما تؤتي الحب كما يصلح غراماً وعشقاً والاخرى فوق هذه تؤتي الحب كما يصلح فكراً وتعبيراً. والاولى تجعل صاحبها عاشقاً يحب ويدرك ليس غير ، والثانية تجعله محبّاً اعمله ان ينقل من لغة ما في نفسه الى ما حوله ومن لغة ما حوله الى ما في نفسه فهو مترجم النفس الى الطبيعة ومترجم الطبيعة الى النفس . والذي اعرفهُ ان حافظ لم يرزق لا هذه ولا تلك فلا طبيعة فيه للغزل وفلسفة الجمال . ثم ان التاريخ حصره في (الشاعر الاجتماعي) الذي اختار ان يمتاز به فهو في اكثر شعره كان ليس فيه شخص بل فيه شعب مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بهما ، اذ يعيش في معاناة الحرية لا في التأمل الجميل وفي اسباب القوة لا في اسباب الرقة ويريد ان يعمل ليوجد حقيقته قبل ان يعمل ليُبدع خيالهُ

ومع ذلك فقد جاء في ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليداً في فن يحسن التقليد الاّ فيه خاصة . عمل صدراً لقصيدة مدح بها الخديوي مطلعها :

كم تحت أذيال الظلام متيمٌ دامي الفؤاد وليله لا يعلمُ ....

وقلد ابن ابي ربيعة في حكاية حب لفقها تلفيقاً ظاهراً ثم زعم ان الحبيبة قالت له في آخرها:

فاذهب بسحرك قد عرفتك واقتصد .... فيما تزيّن للحسان وتوهمُ

وكلمة صاحبة إبن ابي ربيعة :

اهذا سحرك النسوان ؟ قد عرّفتني الخبرا

اهذا سحرك النسوان ؟ هذه كلمة لا تخرج الآ من فم حبيبته آية في الظرف وفيها تجاهلها وعرفانها وابتسامها واشراق وجنتيها وأكاد واشارى فيها تلك الجميلة وهي تدق بيدها على صدرها دقة الاستفهام المتدلل المتظاهر بالدهشة ليتهد فيهِ الكلام والمتكلم معاً، اما قول حبيبة حافظ الخشبية او الحجرية . . . . . اذهب . . قد .عرفتك واقتصد ....فهذا خليق ان يكون من فم قاض وهو ينصح المتهم بعد الامر بالافراج عنهُ . . . . أو مأمور قسم عند ضبط الحادثة

اكبر ظني ان روح حافظ نفسه هي التي اوحت اليَّ الآن هذه (النكتة) فانهُ رحمهُ الله كان آية في هذا الباب ولهُ من النوادر محفوظة ومخترعة ما لا يلحق فيهِ . ولو كان كاتباً على قدر ما كان شاعراً وزاول النقد واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة في التندُّر والتهكم مع ما أوتي من القوة في اللغة والبيان — لكانت النعمة قد تمت به على الادب العربي ولقلنا في شعره وكتابته وأدبهِ ما قال هو في الاستاذ الامام : فأطلعت نوراً من ثلاث جهات

وما دمنا قد ذكرنا النقد فن الوفاء للتاريخ الادبي ان نذكر مذهب شاعرنا فيهِ . فلم يكن عنده منهُ الاَّ ذوق الكلام وادراك النفرة والنبوة في الحرف والغلظ والجساءة في اللفظ والضعف والتهافت في التركيب ، ثم ما يجيش في الخاطر او يتلجلج في الفكر من ذوق المعنى وادراك كنهه والنفاذ الى آثار النفس الحية فيهِ . فكان النقد هو الحسُّ بالكلام كما تلمس الحار والبارد وما بينهما . ووصف لي مرة اسماعيل صبري باشا وأراد ان يبالغ في دقة تمييزه وحسن بصره بالشعر وادراكه دقائق المعاني فقال :

« ذوّاق يا مصطفى » ولم يزد

ومذهب الحسّ بالكلام هذا وان صلح ان يكون من بعض معاني النقد فلا يتهيأ ان يكون هو النقد بمعناه الفلسفي او الادبي وهو في جملة امره كقولك حسن حسن ورديء رديء.اما كيف كان حسناً او رديئاً وبماذا ولماذا فذلك ما لاسبيل اليهِ من مذهب(ذوّاق).... ولا وسيلة له الاَّ العلم المستفيض والاطلاع الواسع والحسُّ المرهف والقدرة المتمكنة مضافة كلها الى الادب البارع وفلسفته الدقيقة . ولا نعرف لحافظ كتابة في النقد البتة وقد كان حاول شيئاً من هذا في مقدمة كتابه (ليالي سطيح) فتناول بعض خصومه بكلمات رأى هو ان يمحوها بعد ان طبعت الكراسة الاولى فأسقطها وأعاد كتابة المقدمة وطبعها مرة ثانية وكانت عندي النسخة التي محاها وهذا ما لا اظنّ احداً يعرفهُ الآن . رحم الله شاعراً كان اصفى من الغمام وكان شعره كأنهُ البرق والرعد . . . .

حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر

لحضرة صاحب السعادة الدكتور شاهين باشا

وكيل الداخلية للشؤون الصحية

— ٢ —

سار ابناء واحفاد محمد علي الذين تولوا الحكم بعده على منواله وقطع كل منهم في هذا السبيل شوطاً يختلف عن الآخر تبعاً للموارد التي كانت لديه ووفقاً لمشورة الرجال الذين كانوا يعملون معه حتى اتى الخديوي اسماعيل باشا الذي امتاز عصره بالتجديد في كل النواحي الاجتماعية والمادية وقد تقدمت وفقاً لخططه الاصلاحية الشؤون الصحية تقدماً عظيماً لا سيما وان علم الصحة كان قد خطا خطوات واسعة في عصره مما كان خير معوان له على هذا التقدم

وما حلّ القرن العشرون حتى اصبح علم الصحة غير قاصر على مكافحة الاوبئة ومراقبة زيادة الوفيات وقيد المواليد بل تعدى ذلك الى الناحية الوقائية وابتدأت النهضة الصحية في مصر بالازدهار على ضوء التقدم الحديث للعلوم والفنون الطبيـة الذي انبثق فجره في اواخر القرن التاسع عشر لما اكتشفت جراثيم الامراض في الانسجة . وان ننس لا ننسى ما قام به باستور من العمل الخالد في اكتشافه اسباب التخمر في سنة ١٨٥٧ وابحاثه في الجراثيم في سنة ١٨٧٧ وفي الطعوم في السنتين من سنة ١٨٨٠ حتى ١٨٨٢ التي هي اساس الطب الحديث. هذا مع ما استنبطه كوخ من المزارع الصلبة والطرق المتقنة لتمييز الجراثيم وقد كان ذلك فتحاً عظيماً في الطب فتتابعت الاكتشافات الباهرة التي امتاز بها عصرنا من سنة ١٩٠٥ وفيها اكتشاف هنسن لباشلس الجذام ونيمر لميكروب السيلان وابرت وجانكي لباشلس الحمى التيفودية واجستن لبزور التقيح وكوخ لباشلس التدرن وباشلس الكوليرا بالقطر المصري وكلبس ولوفلر لباشلس الدفتريا وكتساتو ورسن لباشلس الطاعون ونيكولاير لباشلس التيتانوس واكتشف لافران في سنة ١٨٨٠ طفيلي الملاريا وهلمّ جراً حتى اتت سنة ١٩٠٥ فاكتشف شودن حلزونيّ الزهري ثم اكتشف ان لهذه الجراثيم سموماً تفعل في الجسم وعقب ذلك تحضير بهرنج وكتساتو مصلاً مضاداً للدفتريا وبهذه الاكتشافات الموفقة وصلنا الى معرفة حقيقة هامة وهي ان الجسم السليم اذا هاجمه مكروب قد يتأثر بفعل سمومه غير انه يمكن لخلاياه وسوائله ان تقوم بالدفاع عن الجسم باتلاف الميكروب وهضمه وهذا الدفاع يحصل بواسطة مواد مضادة بفعلها لفعل سم الميكروب. وقد سبق ذلك بسنتين كشف متشنكوف لفعل الكريات البيضاء في اتلاف الجراثيم وتلا ذلك اكتشافات عديدة كالتلبد

وغيره . ثم في سنة ١٩١٠ اعلن ارلخ اكتشافه لمركب ٦٠٦ الذي يقضي على طفيلي الزهري في جسم الانسان . فما تقدم بيانه نرى ان اول فعل باهر رفع من شأن علوم الطب وفروعها على اقوى الدعائم يرجع الفضل فيه الى باستور الكيماوي وكان ذلك في سنة ١٨٥٧ وكان الفضل في اتمام هذا العمل الباهر لكيماوي آخر وهو ارلخ . ولن تنسى الانسانية مهما كرت الدهور وتعاقبت العصور فضل هذين النابغين عليها

وقد اخذت مصر بنصيبها في تطبيق نتائج هذه المكتشفات لتحسين الحالة الصحية العامة بها لانه متى اكتشفت الجرثومة المسببة للمرض امكن مكافحته بالتغلب على هذه الجرثومة . وقد كان الدافع الى هذا التطبيق بمصر آتياً عن طريقين الاول رغبة اولي الامر في تمدين مصر والاخذ بالاساليب الاوروبية النافعة . والثاني تكرر حدوث الاوبئة بها بسبب وقوعها على حافة البركان كما يقول المثل الاوربي اشارة الى موقعها الجغرافي الذي جعلها على الدوام صلة الاتصال بين ممالك العالم . ومما يذكر في هذا الموطن مع الاغتباط أنهُ في اثناء نهضة مصر الصحية الحالية وفق بلهارس لاكتشاف ديدان البلهارسيا ولوس لطريق العدوى بها وبديدان الانكلستوما وانتهى الامر بالبحث في جميع النواحي الصحية والعمل على تحسينها وبالتالي لرفع مستوى الحياة الصحية لكل فرد من الافراد وللمجتمع المصري كله على اختلاف طبقاتهِ مما كان له اكبر الاثر في تمدين مصر . ولو كانت موارد البلاد المالية سمحت بتمشي مستوى الثقافة العامة مع رقي الصحة العامة خطوة خطوة لبلغت مصر من المدنية شأواً عظيماً ولاستفادت البلاد من الجهود الصحية أضعاف ما تستفيدهُ الآن اذ من البديهي انهُ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

فالحالة الصحية بالقطر المصري الآن مرضية فقد كانت نسبة الوفيات في سنة ١٨٨٨ تبلغ ٥٠٫٢ في الالف وفي سنة ١٨٨١ تبلغ ٥١٫٦ في الالف وكان عدد السكان ٦٨٢٩٦٠٠ بينما انخفضت نسبة الوفيات بالقطر في سنة ١٩٣٠ الى ٢٤٫٤ في الالف وهي اقل نسبة في الخمس والعشرين السنة الاخيرة وعدد سكان القطر الآن نحو الخمسة عشر مليوناً من الانفس

ثم ان زيادة نسبة المواليد عن نسبة الوفيات كانت قليلة بينما هي الآن عالية جداً ففي سنة ١٨٨٩ كانت نسبة المواليد في القاهرة مثلاً ٥٨٫٨ ونسبة الوفيات ٥١٫٦ لكل الف ساكن بينما في سنة ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد في القطر المصري ٤٤٫٤ ولم تتعد نسبة الوفيات ٢٥٫٤ والبون شاسع بين النسبتين وهذا دليل من اهم الادلة على تقدم الصحة العامة بلا نزاع . اما اذا لوحظ وجود قلة في نسبة المواليد فهذه القلة احد مظاهر المدنية التي تدعو الى الاقلال من تعدد الزوجات ومن الزواج المبكر لكثرة تكاليف الحياة الآن والرغبة في التقليل من النسل لتوفير العناية بالقليل منهُ ليشب الابناء اصحاء ويصيروا اعضاء نافعين في الهيئة الاجتماعية . ومع ذلك فيقابل قلة النسل قلة الوفيات بين المواليد فبعد ان كان يتوفى في السنوات من ١٩٠١ الى ١٩٠٥ : ٢٨٢ في كل الف مولود انخفض هذا العدد في سنه ١٩٣٠ الى ١٥١ وفاة لكل الف

مولود . . . واذا نظرنا الى هذه النسبة وجدناها عالية لو قرنت بما يقابلها ببعض الممالك الاخرى كانجلترا او فرنسا ولكن يخفف وطأتها ان نسبة المواليد بمصر اعلى كثيراً مما هي في هذه الممالك حتى ان عدد سكان مصر دائماً في ازدياد فعدد سكان مصر الآن خمسة امثاله في اول عهد نهضتها الحديثة أي في اول عصر محمد علي باشا

ومع ذلك فمسألة زيادة وفيات الاطفال بالقطر المصري هي من المسائل التي بحثت بحثاً مستفيضاً وقد بدىء بالعمل على مكافحتها بافعل الوسائل العملية اذ انشىء في كل عاصمة مديرية مركز لرعاية الطفل وحماية الامومة كما انشئت عدة مراكز بالقاهرة والاسكندرية وانشئت فروع بالمستشفيات العامة لمعالجة الاطفال ومراكز ومستشفيات متنقلة كما ألحقت دور للولادة بهذه المراكز ونظمت زيارات صحية بواسطة زائرات خصيصات لارشاد الحوامل والامهات في طرق العناية وتربية الطفل وغير ذلك من الوسائل الفعالة لمعالجة الامراض الوراثية وتحسين النسل. وقد ألمعنا الى اثر هذه الجهود في نقص نسبة الوفيات. ولا شك ان انتشار التعليم الالزامي بين طبقات الشعب سيكون خير معوان على الوصول الى تقليل وفيات الاطفال الى الحد الادنى

ولم يكن أثر الاهتمام بالطفل قاصراً على تقليل نسبة الوفيات بين الاطفال فقط بل المقصود به ايضاً انشاء جيل قوي البنية ذي كفاية للعمل المنتج يعيش الى اقصى مدى مستطاع ولقد ظهرت طلائع هذا الجيل وشواهد ذلك جلية في فتيان اليوم وفتياته . فأين شباب اليوم من شباب خمسين سنة مضت وخصوصاً شابات ذلك العهد اذ كن صفراوات هزيلات أو سمينات مترهلات . واما شبان اليوم وشاباته فممتلئون صحة وعافية اذ يعنى بصحتهم من يوم ولادتهم حتى يخرجوا الى معترك الحياة — واذا ازدادت عناية المصريين بممارسة الالعاب الرياضية رجوعاً منهم الى سنة اجدادهم من قبل أصبح مجيء هذا الجيل قريباً ولا شك فيه

ولا ازيد القارئ بياناً عما اتخذ ويتخذ الآن في مقاومة الاوبئة بل ومنعها فقد اصبحت بعض الامراض أثراً بعد عين كالجدري كما اصبح البعض الآخر يتقى بالحقن كالدفتريا والحميات المعوية او يقاوم بسهولة كالطاعون الذي كان الشبح المخيف بمصر كما سبق لنا بيانه في هذا المقال

هذا وقد نثرت معاهد العلاج في كل ناحية من نواحي القطر فلا يخلو الآن مركز من مستشفى ولا عاصمة مديرية من مستشفى عمومي كبير ولا قرية كبيرة من عيادة خارجية مع تيسير وسائل التشخيص بانشاء المعامل بكل انواعها وتزويدها بالاجهزة المختلفة وتوفير كل طرق المعالجة الحديثة بمعاهد العلاج حتى اصبح بالقطر المصرى الآن ٨١ مستشفى عمومياً

ولما كانت مصر منذ القدم موطناً لامراض كالبلهارسيا والانكلستوما وبعض امراض العيون كالرمد الحبيبي وهذه الامراض — علاوة على الملاريا التي فشت في بعض جهات القطر بسبب وجود المستنقعات التي نشأت على الاخص بسبب حفر حفر لاخذ التراب منها لصنع الآجر المستعمل في بناء المخازن بالقرى وعداعن الزهري والامراض الدرنية — تقلل من كفاية السكان

وتضعف قوة انتاجهم وتهد من كيان الامة بصفة عامة ، فقد وجهت اليها العناية بنوع خاص وانشئت المستشفيات والمستوصفات لمعالجتها وكذلك لمعالجة الجذام كما بذلت الجهود في عمل الابحاث الخاصة عنشئها وطرق معالجتها المعالجة الناجعة وخصوصاً الانكلستوما والبلهارسيا اللذان انشىء معهد خاص لعمل التجارب المتعلقة بمقاومتهما فضلاً عن نشر الدعوة ضد هذه الامراض نشراً مستمرًا بكل طرق الاذاعة المعروفة الآن

ولا يوجد برهان على تقدم المدنية وزيادة الرفاهية في بلد من البلاد اقطع في الدلالة من توفير المياه النقية الكافية للشرب وللاستعمال المنزلي ومنع تلوث المياه وتصريف الفضلات والعناية بالشوارع والطرق وصحة المساكن والتفتيش على المأكولات وتنظيم الاسواق والاضاءة والنظافة العامة

وقد قطعت مصر شوطاً كبيراً في هذه السبل اذ ان عدد المدن التي توجد بها اجهزة لترشيح المياه اصبح خمساً وثلاثين وعدد البلاد التي بها آبار ارتوازية قد بلغ حتى الآن واحداً وثلاثين وعدد سكان هذه المدن الذين ينتفعون الآن بالمياه النقية هم حوالي ربع سكان القطر المصري . اما امهات المدن الموجود بها مجارٍ عامة فهي حتى الآن ثمان وادارة هذه الاجهزة علاوة على العناية بالنظافة العامة موكولة للمجالس البلدية والمحلية والقروية المنظمة في معظم المدن والبلاد والقرى الكبيرة . وليس من شك في ان المساكن الآن احسن حالاً من التي وصفها المؤرخون وزائرو القطر المصري في القرنين الاخيرين وقد مهدت شوارع المدن الكبيرة وعبدت طرق عديدة وعمت الاضاءة بالكهرباء المدن والكثير من البلاد ونظمت اسواق كثيرة للمأكولات وعني الآن بغذاء الانسان بما يلقن للأم وهي حامل وهي والدة وبما يلقن للتلميذ بالمدارس عن التغذية الصحية وبما ينشر على الجمهور وما اتجهت اليه عناية ولاة الامور من المحافظة على نقاوة الطعام بالتشريع الخاص بذلك وبالتفتيش على اماكن تخزينه وبيعه وتحضيره فلا يمكن الآن فتح محل لبيع المأكولات الا بترخيص بعد تنفيذ مواصفات صحية خاصة . وبعد الترخيص يفتش الاطباء ومعاونوهم المتخرجون في معهد خاص على هذه الاماكن تفتيشاً دوريًا منتظماً لضمان سيرها على النظم الصحية

وبسبب نشوء عدة صناعات بالقطر المصري نبتت فكرة العناية بصحة العمال فابتدىء بسن تشريع لذلك وان كانت المصانع خاضعة للتفتيش الصحي منذ عهد النهضة الحديثة بالشؤون الصحية العامة . وقد ابتدىء ايضاً في اقامة مساكن صحية للعمال بالاسكندرية والقاهرة ولا شك في ان البلاد سائرة في سبيل نهضة موفقة في الشؤون الصناعية تستدعي عناية خاصة بالشؤون الصحية للعمال والمصانع

نتائج الجهود الصحية والطبية

ان التقدم المطرد للطب والتقدم الاجتماعي للجنس البشري مهدا السبيل لعدد جم من بني

الانسان لان يحيا حياة طيبة ومثمرة وكانت نتيجة الجهود السابق ايضاحها ان ازداد متوسط العمر وان الكثير من الامراض زال تقريباً من القطر المصري كالجدري والبعض قلَّ كالعور والعمى والملاريا ومضاعفات بعض الامراض كالبلهارسيا . فالبلهارسيا الجراحية صارت الآن أقل ثماني مرات مما كانت عليه في سنة ١٩٢٤ والحصوات البولية ثلاث مرات ونصف مرة والبواسير البولية انخفضت الى الثلث مما كانت عليه في سنة ١٩٢٥

وبالاختصار قد تيسر بوضع بزور أسس الحياة الصحية رفع مستوى صحة الافراد رفعاً يبدو للعيان وقد هبطت نسبة الوفيات الى عدد السكان نحو اربعين في المائة عما كانت عليه من من خمسين سنة مضت . وقد أصبح في متناول كل انسان من وقت طفولته التحصن ضد الكثير من الامراض كالجدري والدفتريا كما أبعد عنه خطر العدوى من امراض عديدة اخرى

ولكن بالرغم من هذه الجهود فانه لا يزال هناك معضلات صحية مصرية في حاجة الى الحل حتى يمكن مع التقدم الاجتماعي والصناعي المنتظر وتعميم التعليم الاجباري ان تصل المدنية الى ارقى مستواها في القطر المصري . وهذه المسائل هي موضع العناية الآن والبعض قد درس فعلاً والبعض الآخر لا يزال في طريق الدرس والمنتظر ان تحل جميع هذه المعضلات وقد أتينا على ذكر أهمها فيما يأتي : —

١ — معالجة نقص التغذية في بعض جهات القطر ٢ — معالجة مسألة ادمان المخدرات ٣ — العناية بالنسل باستئصال شأفة السموم وغيرها من العوامل التي تؤثر فيه بالوراثة وبذلك يقل عدد الاشخاص الذين لا فائدة منهم للبلد كضعاف العقول وغيرهم ٤ — العمل على تقليل عدد ذوي العاهات وعلى توفير وسائل التعليم ووسائل كسب العيش للموجودين منهم ٥ — توفير المياه النقية لكل سكان القطر على السواء من حضر وريف ٦ — تحسين حالة المساكن في المدن والقرى — وبحل هذه المعضلة يرتفع مستوى الصحة العامة الى درجة عالية جداً لان المسكن غير الصحي يدعو الى ضعف بنية السكان واضعاف قوة مقاومتهم للامراض فيكثر المرضى وذوو العاهات وترتفع نسبة الوفيات . والمسكن الرديء يدعو بطبيعته الى قذارة المساكن وقذارة ما يحيط بها وما يتبع ذلك من مرض ونقص في الكفاية ٧ — مقاومة البلهارسيا والانكلستوما لا بالمعالجة والوسائل الصحية العامة فقط بل بابادة الديدان المسببة لها في مواطنها والهمة مبذولة الى اقصى حد للوصول الى هذا الغرض الهام ٨ — القضاء على الرمد الحبيبي باكتشاف جرثومته . والبحث قائم بكل همة ونشاط لحل المعضلة التي استعصت على الحل منذ آلاف السنين وليس من شك في أن رفع مستوى الثقافة العامة بين الاهلين يساعد كثيراً على الوصول الى هذا الغرض ٩ — التصرف في الفضلات بتعميم المجاري في المدن وحل هذه المعضلة الهامة بالنسبة للقرى

ومتى وفقنا الى حل هذه المعضلات الصحية وقطعت البلاد شوطاً بعيداً في مضمار التقدم في مختلف نواحي المدنية تزدهر المدنية في مصر وتبلغ مثلها الاعلى فتعود البلاد سيرتها الاولى

الاحياء المشعة

بحث طريف في العلوم الحيوية الطبيعية

في سنة ١٩٢٣ اعلن العالم الروسي غورڤتش Gurvich انهُ وفق الى كشفٍ غريب. قال: اذا اخذ جذر بصلٍ (لا يزال متصلاً بالاصل) ووُجّه الى جانب جذر آخر اثر في نمو هذا الجذر تأثيراً غريباً. فان خلايا الجذر الثاني في الناحية المواجهة لجذر البصل الاول تصبح اسرع نمواً من الخلايا التي في الناحية المقابلة

فلقيت هذه الانباء في بادئ الامر أعراضاً وريباً في صحتها. فلما اعلن غورڤتش ان هذه التجارب تثبت لهُ وجود « قوة حيوية » تشع من نسيج الجذر زاد الاعراض واشتد الريب. ثم وجد بعد سنةٍ ان ما ينطلق من الجذر يخترق الكوارتز ولا يخترق الزجاج العادي — مما حملهُ على الظن بانها اشعة من قبيل الاشعة التي فوق البنفسجي التي تنفذ الكوارتز ولا تنفذ الزجاج. فنبذ قولهُ السابق بان ما يخرج من الجذر هو « قوة حيوية ». ولكن لما استعملت الالواح الفوتغرافية، الشديدة الاحساس بالاشعة التي فوق البنفسجي، لامتحان قولهِ لم تتأثر هذه الالواح على الاطلاق بما يخرج من جذر البصل. فتمادى المرتابون في ارتيابهم

على ان هذا الاخفاق لم يقعد غورڤتش وتلاميذهُ عن المضي في تجاربهم. فوجدوا ان اشياء اخرى غير جذر البصل تفعل هذا الفعل منها العضلات وادمغة الشراغيف Tad-poles ثم وجدوا ان مستنبتات الخميرة او البكتيريا افعل في الكشف عن هذه الاشعة من غيرها من الكائنات الحية فيسرع تكاثر الخلايا فيها اذا صوّبت اليها هذه الاشعة الخفية. ومن ثم اخذت الرسائل العلمية تنهال من معمل غورڤتش وتلاميذهِ فلما مضى على ذلك خمس سنوات جمعت النتائج التي اسفر عنها البحث وبوّبت ونشرت في كتاب. ودعيت هذه الاشعة بما معناه « الاشعة الباعثة على انقسام الخلايا Mitogenetic نسبة الى Mitosis وهو مرتبة من مراتب انقسام الخلايا. ولكن ارتياب الدوائر العلمية لم يتبدد لان الباحثين الذين جرّبوا تجارب غورڤتش اخفقوا في الحصول على نتائج مماثلة لنتائجهِ

ثم اخذ تيار المقاومة في الارتداد. وجاءت الانباء من المانيا اولاً ثمَّ من اميركا ان تجارب فريقٍ من الباحثين، كلٌّ منهم قام ببحثهِ على حدة، اسفرت عن تأييد اهم النتائج التي وصل اليها غورڤتش وتلاميذهُ. انهم وجدوا ان لا ريب في وجود هذه الاشعة، وان لها أثراً في استثارة نموّ الخلايا، وانها تعكس وتكسر كاشعة الضوء، وانها من طائفة الاشعة التي منها الاشعة فوق البنفسجية. ووجدوا كذلك ان الاشعة التي فوق البنفسجية المولَّدة بطرق

طبيعية — كالمصابيح المستعملة في معالجة الكساح مثلاً — ليس لها دائماً اثر في زيادة نمو الخلايا . واذا كان لها هذا الاثر فهي اشعة غير قوية وان الاشعة فوق البنفسجية التي لها اثر بيولوجي لا تفعل قط بلوح من الواح التصوير الضوئي (الفوتغرافي)

وهكذا حلّت المسألة فيما يتعلق باركانها بتعاون علوم الاحياء وعلوم الطبيعة . اما علوم الاحياء فكانت ممثلة في شخص غورفتش نفسه وأما علوم الطبيعة ففي شخص جوفه Goffi مدير معهد الطبيعة المجرّدة والمطبّقة في لننغراد

فمثلاً استنبطت طريقة كهربائية شديدة الاحساس ، تتبين وجود قدر ضئيل جداً من اشعة الضوء او الاشعة فوق البنفسجية . وبهذه الآلة استطاع الباحثون ان يبينوا ان الاثر البيولوجي المنطلق من جذير البصل او العضلة ، سببهُ اشعة من قبيل الاشعة فوق البنفسجية — ولكنها اقصر منها امواجاً — تنبعث في مقادير يعجز عن تبيّنها لوح التصوير الضوئي . فاذا حسبنا ان اقل قدر من هذه الاشعة يؤثر في لوح فوتغرافي (د) كان المقدار المنبعث من جذير او عضلة مما لهُ اثر في نمو الخلايا جزءاً من مليون جزء من (د)

ثم ظهر ان هذه الاشعة لها مكان في طيف الاشعة يتباين طول امواجهِ من ٢٠٠٠ الى ٢٣٠٠ انجستروم [1] . ولبيان ذلك نقول ان الاشعة المنظورة وغير المنظورة سلسلة متصلة الحلقات من الاشعة اللاسلكية اطولها ، الى الاشعة التي تحت الاحمر الى اشعة الضوء الى الاشعة التي تحت البنفسجي الى اشعة اكس واشعة غمّا والاشعة الكونية . فاذا كان عرض المنطقة التي تشغلها اشعة الضوء م فعرض المنطقة التي تشغلها هذه الاشعة البيولوجية ١/٧ م وأمواجها اقصر من امواج الاشعة التي فوق البنفسجي واطول من اشعة اكس

هاتان الحقيقتان مهدتا السبيل الى فهم جانب آخر من سرّ هذه الاشعة يدور حول السؤال التالي : لماذا لا تؤثر الاشعة التي فوق البنفسجي المنبعثة من الشمس او من مصدر صناعي — كمصباح القوس الكهربائي — في زيادة نماء الخلايا تأثير هذه الاشعة البيولوجية ؟

قلنا ان الاشعة البيولوجية تشغل نطاقاً ضيقاً في منطقة الاشعة فوق البنفسجية ولدى البحث ثبت ان الاشعة التي خارج هذا النطاق الضيق — وان تكن من قبيلها — لا تفعل فعلها في استثارة نمو الخلايا ، بل تفعل احياناً فعلاً مضاداً له اي انها توقف النمو او تؤخره . ولكن اذا فرضنا اننا حصلنا في الضوء الذي تبعثهُ الشمس او مصباح قوسي على امواج موافقة في طول امواجها لطول الاشعة البيولوجية لم يكن لها نفس الاثر البيولوجي . لان هذه الاشعة لا تفعل هذا الفعل الاّ اذا كان مصدرها غير شديد التوهج . فاذا كانت الامواج ذات الطول المعين صادرة من مصدر غير متوهج كعضلة او جذير كان فعلها الانمائي شديداً

(١) الانجستروم جزء من عشرة ملايين جزء من الملمتر

وقد توصل الباحثون الى هذه النتائج بالجمع بين اساليب البحث الطبيعي البيولوجي . فبدلاً من الاكتفاء بقطعة من جذير بصلة لقياس اثر هذه الاشعة في انماء الخلايا عمد جوفه Joffé الروسي الى مستنبتٍ بكتيريّ، واستعمله بدل جذير البصل . ذلك ان قياس نمو الخلايا في المستنبت اسهل منهُ في الجذير . ففي الجذير يجب ان نأخذ شرائح من الجهة المقابلة للاشعة والجهة البعيدة عنها ودرسها بالمكرسكوب لتعيين سرعة نمو الخلايا في الجهة المقابلة للاشعة بالنسبة الى سرعة نموها في الجهة الاخرى . اما في المستنبت البكتيري فتحقيق ذلك سهل المنال . فاذا صوبت شعاعة ضوء الى المستنبت فرقتها الكائنات البكتيرية يميناً ويساراً . ومقدار الضوء المتفرق يزداد بزيادة البكتيريا في المستنبت ويقل بقلتها . وهكذا استعمل جوفه قوة الضوء المتفرق مقياساً لفعل الاشعة الحيوية في انماء البكتيريا . وقد وجد غورفتش حديثاً ان الخلايا في دور معيّن من حياتها تستطيع ان تتناول الاشعة الحيوية التي تطلقها جذور البصل مثلاً ثم تطلقها اقوى مما تناولتها فكأنها جهاز التلفون الذي يضعّف امواجه في حديث بين بلدين بعيدين (Relay) والظاهر ان هذه الاشعة لا تنطلق الاّ من طبقة رقيقة سطحية من الخلايا في كائن ما . واذاً فليس لحيوان ذي بشرةٍ ان يطلقها لان بشرتهُ تمنع خروجها

ولهذه الاشعة احياناً آثار غريبة . فالاشعة المنطلقة من قلب سمكةٍ اذا صوّبت الى بيض قنفذ بحري (توتياء او رتسا) غير ملقح ، خطا هذا البيض الخطوة الاولى نحو التناسل العذري (اي التناسل من دون تزاوج Parthenogenesis) اما الاشعة الحيوية المنبثقة من البكتيريا فتجعل بيض البعوض المستكنّ ينقف قبل ميعاده واذا صوّبت الى بيض القنفذ البحري احدثت في بناء دعاميصه شذوذاً غريباً . وقد وجدت طائفة من الباحثين في العلوم البيولوجية ان الكائنات ذات الخلية الواحدة اسرع تكاثراً اذا كانت طوائف في قطرةٍ من السوائل المغذية منها اذا كان كلٌّ منها منفرداً في القطرة حتى ولو وضع في اكثر الاحوال مؤاتاة لنموه. ولعلنا نجد تعليل هذه الظاهرة في ان الاشعة الحيوية تنطلق من افراد الطائفة الواحدة فيحفز بعضها بعضاً الى النمو . ولعل الأثر نفسهُ يتمُّ في المراتب الاولى من نمو خلية ملقحة

ثم اثبت جوفه واعوانهُ ان اشعة مثل هذه الاشعة — نوعاً وقوة — تنطلق من مواد غير عضوية خارج الجسم في اثناء تفاعلها الكيمائي . وعليه فانطلاقها من جذور البصل وخلايا الخميرة او عضلات الفقاريات ليس صفة حيوية خاصة بل مصدرهُ افعال كيمائية معينة لامندوحة عنها للجسم الحيّ . فكأن هذه الاشعة نفاية من نفايات الحياة . ولكن الطبيعة لا تغفل عن استعمالها كما حدث في السمك الكهربائي والاحياء المضيئة. فان الكهربائية والضوء فيها نتيجة تفاعل في اجسام هذه الحيوانات فاستعملتها الطبيعة في ميدان التطور. ولعل الطبيعة تستعمل كذلك هذه الاشعة في اسراع انقسام الخلايا وتنسيق النماء

قلب راقصة

— ١ —

امسيت اشكو الضيق والأينا مستغرقاً في الفكر والسأم
فمضيت لا ادري الى اينا ومشيت حيث تجرني قدمي

فرأيت فيما ابصرت عيني ملهى أعدّ ليبهج الناسا
يجلون فيه فرائد الحسن ويباع فيه اللهو أجناسا

بغرائب الألوان مزدهر وتراه بالاضواء مغمورا
فقصدته عجلاً ، ولي بصر شبه الفراشة يعشق النورا

ودخلته اجتاز مزدحماً بالناس افواجاً وأفواجا
وأخوض بحراً بات ملتطماً بالخلق امواجاً وأمواجا

فقدوا حجاهم حينما طربوا ودووا دويّ البحر صخّابا
فاذا استقروا لحظة صخبوا لا يملكون النفس اعجابا

متوثبين يميل صفهم متطلع الأعناق يتقد
ومصفقين علت أكفهم فـوارة فكأنها الزبد

لِمَ لا اصيح كمثل صيحتهم لِمَ لا أجرب ما يجبونا
لِمَ لا أثور كمثل ثورتهم لِمَ لا أضجّ كما يضجونا

لِمَ لا تذوق كؤوسهم شفتي ان الحجى سمي وتدميري
في ذمة الشيطان فلسفتي ورزانتي ووقار تفكيري

يا قلب ضقت وها هنا سعة ومجال مختبل بأغلال
أتقـول اعمار مضيعـة ماذا صنعت بعمرك الغالي

أنظر ترى السيقان عارية وترى الخصور ضوامراً تغري
وترى عيون اللهو جارية فيها الحياة وأنت لا تدري

من هاته الحسناء يا عيني السحر ظللها وكللها
كالطير من غصن الى غصن وثابة وثب الفؤاد لها
فاذا تثنت فهي زنبقة رجراجة العطفين والكفل
واذا تأنت فهي زنبقة ضحاكة للعارض الهطل
وتراه حسناً غير كذاب لا ما يزيفهُ لك الضوء
وتزيد فتنتها باغراب حزن وراء الحسن مخبوء
ثم اختفت والجمع يرقبها ويلح «عودي» ليس يرحمها
هي متعة للحس يطلبها وأنا بروحي بت افهمها
ورأيتها في آخر الليل في فتية نصبوا لها شركا
يعلو سناها الحزن كالظل مسكينة تتكلف الضحكا
فمضيت تواً قلت «سيدتي» زنت المسارح أيما زين
هل تأذنين الآن ساحرتي تأكيد اعجابي بكأسين
فتمنعت وأنا ألحّ سدى بالقول أغريها وأنتظر
واستدركت قالت اراك غداً ان شئت اني اليوم اعتذر
وتحولت عني رفقتها ما بين منتظر ومرتقب
فتانة تغري بيسمتها وتحدّد الميعاد في ادب

— ٢ —

حان اللقاء بغادتي وأنا اخشى سراباً خادعاً منها
متلهفاً استبطىء الزمنا وأظلُّ اسأل ساعتي عنها
وأجيل عين الريبِ ملتفتا متطلعاً للناس حيرانا
وأقول ما يدريك اي فتى هي في ذراعيْ حبه الآنا
وهممت بعد اليأس ان امضي فاذا بها تختال عن بعدِ
ميزتها بشبابها الغض وبقدّها افديه من قدِّ
يا للقلوب لملتقى اثنين لا يدريان لأيما سبب
جمعتهما الدنيا غريبين فتآلفا في خلوة عجب

عجباً لقلب كان مطمعهُ طرباً فكان الامر بالعكس
وأشد ما في الكون اجمعهُ بين القلوب أواصر البؤس

من أنت يا من روحها اقتربت مني وخاطب دمعها روحي
صبَّته في كأسي وما سكبت فيه سوى أنّات مذبوح

عجباً لنا في لحظة صرنا متفاهمين بغير ما أمد
يا من لقيتك امس هل كنا روحين ممتزجين في الأبد

هاتي حديث السقم والوصب وصفي حقارة هذه الدنيا
اني رأيت أساك عن كثب ولمست كربك نابضاً حيّا

تجدين فكرك جد مبتعد والقوم نحو سناك دانونا
وترين حالك حال منفرد والناس كثر لا يُعَدّونا

وترين انك حيثما كنت ترضين خوّانين انذالا
يبغونهُ جسداً فان بعت بذلوا النضار، وأجزلوا المالا

يا حرّها من دمعة سالت من فاتك الالحاظ مكحول
وعذابها من وحشة طالت وحنين مجهول لمجهول

افنيت عيشك في تطلُّبه ويكاد يأكل روحك الملل
فاذا بدا من تعجبين بهِ وتصيح روحك انه الامل

اضنيت قلبك في تقربهِ ويروح يرخص دونه دمهُ
فاذا ظننت بأن ظفرت بهِ فازت بهِ من ليس تفهمهُ

سكتت وقد عجبت لخلوتنا طالت كأننا جدُّ عشاق
وأقول يا طرباً لنشوتنا صرعى المدامة والاسى الساقي

افديك باكية وجازعة قد لفها في ثوبه الغسق
ودّعتها شمساً مودعة ذهبت وعندي الجرح والشفق

تمضي وتجهل كيف اكبرها اذ تختفي في حالك الظلم
روحاً اذا أثمت يطهرها ناران : نار البؤس والالم

الدكتور ابراهيم ناجي



الحياة الاجتماعية في الحيرة

مقال مستل من كتاب « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

تأليف يوسف رزق الله غنيمة

وزير مالية العراق سابقاً

ليس من السهل الهين ان يقدم المؤرخ على وصف الحياة الاجتماعية ويصور بقلمه مناظر العيشة اليومية في بلد انطوت اخبارها منذ مئات من السنين ودالت دولتها قبل اربعة عشر قرناً وعبرت الايام بجحافل الخطوب على آثارها فعفت عمرانها ودرست معالم عزها ولم يرو لنا الرواة من انباء اجيالها الغابرة الا نتفاً مبعثرة بين مطاوي الشعر وثنايا النثر ولهذا تأتي ولا جرم هذه الصورة ناقصة مبتورة ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله

شؤون اجتماعية متنوعة

كانت تحية الملوك عندهم عم صباحاً وانعم صباحاً وابيت اللعن . وقد وردت هذه التحية في كثير من اخبارهم سواء كانت مجملة كما قال الحرث بن ظالم للنعمان بن المنذر لما دخل عليه في قصر ابن مقاتل [١] او منفردة انعم صباحاً لوحدها وابيت اللعن لوحدها والعبارة الاخيرة اخص بالملوك وقد جاءت في كثير من اشعارهم قال الذبياني يعتذر الى النعمان ويمدحه [٢]

أتاني ابيت اللعن انك لمتني   وتلك التي اهتمّ منها وانصبُ

ولما جاء الاسلام عوض هذه التحيات بين المسلمين بغيرها واكتفوا بقولهم « السلام عليكم »

وكان من عادة ملوك العرب ان تزاد خرزة في تاج الملك كلما مضت سنة من سني ملكه . وكان يقال لتلك الخرزات خرزات الملك ولما بلغت خرزات النعمان بن المنذر اربعين اشخصه كسرى ابرويز الى حضرته لهنات نقمها عليه ثم امر بقتله واياه عنى لبيد بن ربيعة بقوله :

رعى خرزات الملك عشرين حجة   وعشرين حتى قيد والشيب شامل [٣]

وكان ملوك الحيرة يهدون الى فرسان العرب الرماح كما يهدي اليوم الملوك الى القواد سيوفاً .

---

(١) الاغاني ١٠ : ٢٨   (٢) شعراء النصرانية ٦٥٥   (٣) الثعالبي : ثمار القلوب ١٤٤

فبعث النعمان بن المنذر باربعة رماح فاخذ ابو براء عامر بن مالك رمحاً وسلمة بن طارقة اللحام رمحاً (وهو جد الاخطل) وانس بن مدركة رمحاً وعمرو بن معديكرب رمحاً [١] . وكان المناذرة يقابلون الناس من وراء ستور تحجز بين الزائر والملك فكلما كان الوافد على الملك وضيعاً زاد عدد الستور حتى يبلغ سبعة وكلما زادت مكانته قل عددها حتى ان رفيعي المنزلة كانوا يقابلون الملك بلا ستر وربما حجزت هذه الستور الوافدين المصابين بالجذام فقط

وكانت الوفود تفد من قبائل العرب على المناذرة وكانوا يتخذون لهم عند انصرافهم مجلساً يطعمون فيه ويشربون وكان اذا وضع الشراب سُقي الملك فن بدىء به على اثره فهو افضل الوفد . وكانت القينة تقوم بالسقاية وتفضل من الوفد اشدهم فن ذلك ما نقله ابو عبيدة عن النعمان بن المنذر فقال قدم عليه وفود ربيعة ومضر بن نذار وكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة بسطام بن قيس والحوفزان بن شريك البكريان وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس ابن عيلان عامر بن مالك وعامر ابن الطفيل ومن تميم قيس بن عاصم والاقرع بن حابس فلما انتهوا الى النعمان اكرمهم وحباهم . واقام لهم مجلساً عند انصرافهم على عادته . فبعد ان سُقي الشراب قامت القينة تنظر الى النعمان من الذي يأمرها ان تسقيه اولاً وتفضله من الوفد فنظر في وجهها ساعة ثم اطرق ثم رفع رأسهُ وهو يقول :

فابدي بكأس ابن ذي الجدين بسطام ... سقي وفودك مما انت ساقيتي
حامي الذمار وعن اعراضها رامي ... اغر ينميه من شيبان ذو انف
تبدا الملوك بهم ايام ايامي ... قد كان قيس بن مسعود ووالده
وفي ربيعة في تعظيم اقوام ... فارضوا بما فعل النعمان في مضر
فارضوا بذلك او بوؤا بارغام [٢] ... هم الجماجم والاذناب غيرهم

وكانوا اذا ارادوا ان يقيموا عهداً يضعون اليد باليد قال الملك عمرو بن هند لعوف بن مُحَلّم لا اعفو عن مروان القرظ بن زنباع حتى يضع يده في يدي قال عوف يضع يده في يدك على ان تكون يدي بينهما . فاجابه عمرو بن هند على ذلك وهذه اليد الثالثة بمثابة وساطة وحكم عند وقوع الخلاف او كما تقول اليوم الاتفاق المثلث [٣] ومن عاداتهم اذا توسط الملك بين قبيلتين او اكثر لعقد صلح او ازالة ضغائن اخذ من كل قبيلة رهائن فتى التوى احد منهم محق صاحبه اقاد من الرهن [٤]

---

(١) الاغاني ٧ : ١٦١ (٢) العمدة ٢ : ١٧١ ولا بد من التنبيه هنا ان كثيراً من اشعار المفاخرة وضعها اناس من القبيلة على السنة الملوك او على السنة خصومهم لرفع شأن قبيلتهم بهذه الصورة . وتظهر مسحة الوضع والتلفيق على هذه الابيات ايضاً (٣) الميداني : في شرح مثل « اوفى من عوف بن محلم » ٢ : ٢٢٣ (٤) الاغاني ٩ : ١٧٢

الحرب

يجدر بنا هنا ان نبعث بنظرة الى حروبهم فقد كانوا يقسمون جيشهم ميمنةً وميسرةً وقلباً كما يقسم الجيش اليوم في تعبئته[١] وكان للنعمان بن المنذر خمس كتائب وهي :

١ : الرهائن فانهم كانوا خمسمائة رجل رهائن قبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة ثم يجيء بدلهم خمسمائة اخرى وينصرف اولئك الى احيائهم فكان الملك يغزو بهم ويوجههم في اموره ويحق لنا ان نسميهم نظراً الى هذا الوصف العسكر الخاص اما تبديلهم فكان يأتي للملك عند رأس كل سنة وذلك ايام الربيع وجوه العرب واصحاب الرهائن وقد سير لهما كلاً عنده وهم ذوو الآكال فيقيمون عنده شهراً ويأخذون آكالهم ويبدلون الرهائن وينصرفون الى حيائهم

٢ : الصنائع وهم بنو قيس وبنو تيم[٢] اللات ابني ثعلبة وكانوا خواصّ الملك لا يبرحون بابه ويسوغ لنا ان نسميهم حرس الشرف

٣ : الوضائع فانهم كانوا الف رجل من الفرس يضعهم ملك الملوك (اي الملك الساساني) بالحيرة نجدة لملك العرب وكانوا يقيمون سنة ثم يأتي بدلهم الف وينصرف اولئك

٤ : الاشاهب[٣] فهم اخوة ملك العرب وبنو عمه ومن يتبعهم من اعوانهم وسموا الاشاهب لانهم كانوا بيض الوجوه

٥ : دوسر فانها كانت اخشن كتائبه واشدها بطشاً ونكاية وكانوا من كل قبائل العرب واكثرهم من ربيعة سميت دوسراً اشتقاقاً من الدسر وهو الطعن بالثقل لثقل وطأتها[٤] .

وقد اتخذ الحيريون كل سلاح في الجاهلية من سيوف ورماح ونصال واقواسٍ وسهامٍ ودروعٍ وخوذٍ وادراق مما جاء وصفه في كتب اللغة والاشعار واخبار حروبهم[٥]

وفي ابان الفتح الاسلامي استعمل الحيريون الخزازيف ورموا بها المسلمين من القصر الابيض . وكان رأس القصر ممتلئاً رجالاً متعلقي المخالي يرمون بهذه الخزازيف وهي المداحي من الخزف[٦]

---

(١) الطبري ٢: ١٥٤ (٢) اخذنا وصف كتائب النعمان من مجمع الامثال للميداني ١: ٧٨ في مثل « ابطش من دوسر » ولكن ابن الاثير في كامله ١: ٢٦٨ يقول ان الوضائع كانوا شبه المشائخ من العرب ونظنه الاصح (٣) نرى الاشاهب مشتقة من الشهبا وهي الكتيبة التي بعثها ملك الفرس الى النعمان الاول اما تعليل العرب اسم الشهبا كما جاء في المتن فلا نظنه صحيحاً بل نذهب الى ان الكلمة فارسية مؤلفة من لفظين فارسيين وهما « شاه » بمعنى « الملك » و «باي» بمعنى القدم ومفادهما «موطأ الملك» (٤) وكذلك نقول في معنى « دوسر » فانها مؤلفة من « دو » ومعناها « اثنان » « وسر » ومعناها « رأس »
(٥) راجع المخصص لابن سيده ٦: ١٦ — ٩١ (٦) الطبري ٤: ١٢

ويظهر ان فرسانهم كانوا مسلحين بالسلاح الخفيف في محاربتهم الروم الى جنب الفرس[١] ومعظم وقائعهم كان اما انتصاراً للفرس او للغزو والسلب وعلى كل حال فانهُ ليس للفتح والتدويخ وتثبيت سيادتهم ومدّ ملكهم . وكانوا يرفعون شمعةً امام الملك في الحرب[٢] وكانت فدية الملك اذا اسر الف بعير ومثلها ديّة ابنه اذا قتل . وقد دفع سيار بن عمرو بن جابر الفزاري او اخوه الحارث للملك الاسود دية ابنه شرحبيل الف بعير[٣] وكانوا يرهنون القوس بالدية حتى يتم دفعها وفي ذلك قال شاعرهم :

ونحن رهنا القوس ثمة فوديت ... بألف على ظهر الفزاري اقرعا
بعشر مئين للملوك وفى بها ... ليحمد سيار بن عمرو فاسرعا[٤]

آن لنا بعد ان اثقلنا السمعَ بالحرب والضرب وقبضنا النفس بالكراع والسلاح والغزو ان نطرق موضوعاً يزيل الكربة ويسري الغمّة . واي موضوع احق بهذه المزية من البحث في

المرأة

تظهر لنا هذه المرأة معتزلة اجتماعات الرجال تتخمر وتأكل وحدها وقد توصلنا الى هذه الاستنتاجات من مرويات الشعراء والمؤرخين . قال النابغة الذبياني لما رأى المتجرّدة امرأة النعمان وقد سقط نصيفها وهو الخمار فاستترت بيدها وذراعها فكادت تستر وجهها لعبالتها

سقط النَّصيف ولم تُرِد اسقاطَه ... فتناولتهُ واتّقتْنا باليـد[٥]

ولمّا استزار عمرو بن هند ملك الحيرة عمرو بن كلثوم وامه دخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ودخلت امه ليلى على هند في قبة من جانب الرواق فاكل الرجال وحدهم واكلت النساء في قبتهنّ[٦]

ومن البراهين على صحة قولنا في تستر المرأة الحيرية ما جاء في ابيات لعدي ابن زيد :[٧]

بنات كرام لم يربن بضرة ... دُمى شرقات بالعبير روادعا
يسارقن من الأستار طرفاً مفتراً ... ويبرزن من فتق الخدور الاصابعا

وكانت الحيرية تميل الى الخضاب والطيب والكحل والتجمل والتزين وما اكثر حججنا على هذه الاقوال ومنها قول النابغة في المتجرّدة[٨]

بمخضبٍ رَخْص كأنَّ بنانه ... عَنَمٌ يَكادُ من اللطافة يُعقَد

(١) سايكس : تاريخ فارس بالانكليزية ١ : ٥٠٣ (٢) ابن الاثير ١ : ٢٢٥ (٣) الاغاني ١٠ : ٢٤ (٤) الاغاني ٣ : ٣١١ — ٣١٢ (٥) الاغاني ٩ : ١٧٥ (٦) الاغاني ٩ : ١٧٥ (٧) الاغاني ٢ : ٣٨ (٨) الاغاني ٩ : ١٥٧

ومن ذلك ما جاء في ابيات لعدي بن زيد [١]

يَنفح من اردانك المسك والهِنديُّ والغارُ ولُبنى قفوص

وقال عمرو بن معدي كرب في الكحل الحاري [٢]

كأن الاثمد الحاري منها يَسيفُ بحيث تبتدر الدموع

وأما تجملهنَّ وزينتهنَّ فقد جاء عنهما الشيء الكثير في الاشعار ومنها:

وحرّ الزبرجد في نظمه على واضح الليت زان العقودا
يفصل ياقوته درّه وكالجمر ابصرت فيه الفريدا [٣]

وقال عدي بن زيد [٤]

واحورَ العين مربوب له غُسَنٌ مُقلّد من نظام الدُّرّ تِقصارا

وقوله في قصيدة أخرى [٥]

زانهُنّ الشُّفوف ينضحنَ بالمسك وعيشٌ مُغانقٌ وحريرُ

وكقول النابغة في المتجرّدة [٦]

والنظم في سلك يزيّن نحرَها ذهبٌ توقّدُ كالشهاب الموقَدِ

وكقول النابغة ايضاً [٧]

ترائبٌ يستضيءُ الحليُ فيها كجمر النارِ بُذّر بالظلام
كأن الشذرَ والياقوت منها على جَيداءَ فاترة البُغام

ومما يدلّ على تزينهنّ بمختلف الحجارة الكريمة قول المرقش الاصغر في حبيبة فاطمة بنت المنذر:

تحلين ياقوتاً وشذراً وصيغةً وجزعاً ظفاريّاً ودرّاً توائما [٨]

وقول لقيط بن ذرارة: [٩]

فيهنّ اترجة نضح العبير بها تكسي ترائبها شذراً ومرجانا

وقد استعملت الحيريات الوذيلة وهي مرآة الفضة وقال المرقش الاصغر مشبهاً بها نعومة خدّ حبيبته فاطمة بنت المنذر:

أرتك بذات الضال منها معاصماً وخدّاً اسيلاً كالوذيلة ناعما [١٠]

وقد عرف العرب هذه المرايا ومن اسمائها عندهم السجنجل قال امرؤ القيس في معلقته [١١]

(١) شعراء النصرانية ٤٧٠ (٢) معجم البلدان مادة « حيرة » (٣) الاغاني ٢ : ١١٨
(٤) شعراء النصرانية ٤٦٩ (٥) كذلك ٤٤٥ (٦) كذلك ٦٤٣ (٧) كذلك ٧١٣
(٨) الاغاني ٥ : ١٨٥ (٩) الاغاني ١٩ : ١٣١ (١٠) كذلك ٥ : ١٨٤
(١١) شرح المعلقات ص ٢٢ الترائب ج تريبة وهي موضع القلادة للصدر

مهفهفة بيضاءُ غير مُفاضةٍ ترائبها مصقولة كالسجنجل

وكانت البنات يتزوجن وهنَّ حديثات السنّ . فزفت هند بنت النعمان بن المنذر ابن امرىء القيس الى عدي بن زيد ولها حينئذ احدى عشرة سنة [١] وكان عرب الحيرة شديدي التمسك بالنعرة القومية لا يريدون زواج بناتهم من الاعاجم حتى ان النعمان ملك الحيرة رفض كسرى لما طلب من بناته واخواته وبنات عمه واهله زوجات لأمراء البيت المالك من الساسانيين لأن العرب كانوا يتكرمون عن العجم [٢] وكانت بعض المؤسرات يتزوجن من شتى من الرجال [٣] وكان يقصد من المصاهرة بين رؤساء القبائل والملوك انقطاع الحرب وازالة الضغائن من بينهم ولهذه الغاية خطب الحرث بن ابي شمر جبلة بن الحرث الاعرج الغساني الى المنذر بن المنذر اللخمي ابنتهُ هنداً على ما رواه ابن الاثير [٤]

وكان تعدد الزوجات معروفاً بين اهل الحيرة ليس بين المجوس او من كان على دين الجاهلية بل حتى بين المسيحيين منهم . قال المطران ادي شير [٥] عن اصلاح الجاثليق مار آبا [٦] ان الشقاق بطل من الكنائس بهمة هذا الجاثليق غير ان الشرور المتولدة منه كانت باقية فان كثيراً من المسيحيين تراخت سيرتهم وضعف ايمانهم فاقتدوا بالمجوس واليهود والوثنيين وتزوجوا نظيرهم بامرأتين او بامرأة الاب او بعمتهم او بخالتهم او كنتهم او بامرأة اخيهم وهلمَّ جرّاً فأصدر مار آبا منشوراً عنوانه «تدبير الافعال الصالحة» حرّم فيه هذه الافعال [٧]

مآكل الحيريين

أما حياة الرجال في الحيرة فقد تطرقنا الى مهنهم وحرفهم في البحث في الصناعات وآلات الطرب والعزف والأغاني ولكن هناك مناحي أخرى من حياتهم نود معالجتها هنا . فانهم كانوا يقيمون الافراح في اعراسهم وينشدون الاغاني ويغنون الأصوات وكانوا يقولون عن مغنيهم حنين انهُ بطة اعراسهم [٨] وكانوا يقيمون الولائم والمآدب ويضعون طعاماً من السمك وما صيد من وحشها من ظباء وانعام وأرانب وحبارى وغيرها [٩] وكانوا يخبزون خبز الرقاق قال عدي بن زيد وهو بالشام يتشوق الى الحيرة [١٠] :

(١) الاغاني ٢: ٣٠ (٢) شعراء النصرانية ٤٦٩ (٣) الاغاني ١٦ : ٩٩ (٤) الكامل ١ : ٢٢٤ (٥) تاريخ كلدو اثور ٢ : ١٧٩ (٦) جاثليق المدائن من سنة ٥٤٠ — ٥٥٢ (٧) شابو : كتاب السنهودسات ٨٠ — ٨٥ (٨) الاغاني ٢: ١٢٠ (٩) الاغاني ٢: ١٢١ (١٠) الاغاني ٢: ١١٩

ليت شعري متى تخب بي النا قة بين السدير والصنين
محقباً ركوة وخبز رقاق وبقولاً وقطعة من نون

وجاء في اخبار وقعة اليس على الفرات ان خالد بن الوليد وقف على الطعام وقال المسلمين قد نفلتكموه فتعشى به المسلمون وجعل من لم ير الرقاق يقول ما هذه ازقاع البيض ... [١]
ومن مآكلهم المضيرة وهي اكلة تطبخ باللحم وقد أعدّها حنظلة الطائي وقدمها الى المنذر ابن ماء السماء عند ما اضافه في يوم كان يصيد فيه [٢]. ومنها الهلام بضم الهاء او فتحها [٣] طعام من لحم عجلة بجلدها او من لحم مهر وقيل من مرق السكباج المبرّد المصفّى من الدهن [٤]
ومنها ايضاً الأقط وهو الجبن المتخذ من اللبن الحامض . جاء في الاخبار كان لزيد بن عدي من العرب وظيفة موظفة في كل سنة مهران اشقران يجعلان له هلاماً والكمأة الرطبة في حينها واليابسة والأقط والأدم وسائر تجارات العرب [٥]

وعلى ذكر الكمأة نقول ان الحيريين كانوا ولعين بأكلها فيخرج الرجال والنساء والاولاد الى البرية لاجتنائها ويتهادونها رطبةً ويابسةً وقد جاء عن عمرو بن عدي انهُ خرج مع الصبيان لاجتناء الكمأة وكان الغلمان اذا اصابوا الكمأة الطيبة اكلوها واذا اصابها عمرو جناها ثم اقبلوا الى منازلهم يتعاودون وهو معهم يقدمهم ويقول مخاطباً خاله جذيمة الابرش :

هذا جنايَ وخيارهُ فيهِ إذ كل جان يده الى فيهِ [٦]

وجاء في اخبارهم [٧] ان امرأة كانت تجني الكمأة بأدنى مياه بني دارم فذهبت وأخبرت سيدهم درارة بن عدس باقبال بني عامر وعسكر النعمان في تلك الحرب المعروفة عند العرب بيوم رحرحان

والتمر من طيب مآكل الحيريين لا بل العراقيين طرًّا وقال شريح ابن اوس يهجو ابا المهوس الاسدي : [٨]

وعيرتنا تمر العراق وبره وزادك . . . . .

وعرفوا اكل الخبيص قال الفرزدق [٩]

تفيهق بالعراق ابو المثنى وعلم قومه أكل الخبيص

هذه نبذة موجزة في بعض مآكل الحيريين اتينا على بيانها وهناك طائفة كبيرة من المآكل كاللحوم المشوية لا سيا لحم الناقة والابل ومنها السويق والكوامخ وأنواع الحلواء كالفالوذق واللوزينج والزلابية والقطائف وغيرها فغيرها مما عرفه العرب عامة او مما أخذه

(١) الكامل لابن الاثير ٢ : ١٦٣ (٢) شعراء النصرانية ٨٩ (٣) اللسان والمحكم والتهذيب والتكملة (٤) تاج العروس (٥) الاغاني ٢ : ٢٧ (٦) الطبري ٢ : ٣٠ (٧) ابن الاثير ١ : ٢٣٢ (٨) كتاب الحيوان للجاحظ ١ : ١٢٩ (٩) كذلك ٥ : ٦٤

فريق منهم من الفرس او من غيرهم مما جاء ذكره في كتب اللغة او الاشعار [١]

ونزع الحيريون الى الترف والفروسة في آن واحد وأسر فتيان الحيرة مشهور قال الاصبهاني [٢] كان حنين غلاماً يحمل الفاكهة بالحيرة وكان لطيفاً في عمل التحيات فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان والمياسير واصحاب القيان والمطربين في الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قده وحلاوته وخفة روحه استحلوه وأقام عندهم وخف لهم فكان يسمع الغناء ويشتهيه ويصغي اليه ويستمعه ويطيل الاصغاء اليه حتى شدا منه اصوات فأسمعها الناس. وكان مياسير اهل الحيرة يتفننون في اتخاذ الاثاث النفيس والرياش الثمين فكانوا يتخذون بالرقم من الفرش اشياء طريفة [٣] ويتخذون اواني الذهب والفضة للاكل [٤] والقلالي للماء والاواني للخمر من صنع الحيرة نفسها ويخدمهم في مآدبهم الاحرار والعبيد ويحيون بالرياحين [٥]

ونام ذلك القوم على فرش الحرير فوق الاسرة المجللة بالكلل قال عدي بن زيد [٦]

ثانيات قطائف الخز والديـــباج فوق الخدود والانماط

وقال ايضاً [٧] :

بينما هم على الأسرّة والانمـــاط افضت الى التراب الجلود

وقال النابغة الذبياني [٨]

قامت تراءى بين سجفي كلة كالشمس يوم طلوعها بالاسعد

وكان من عاداتهم اتخاذ المجامر للبخور قبل النوم [٩] ويبخرون أجسادهم وشعور رؤوسهم ولحاهم [١٠] واستعملوا المسك والعنبر قال شاعرهم [١١]

تنفح بالمسك ذفاريهم وعنبر يقطبهُ القاطب

ويتباهون بتقديم الخمر الى الضيوف قال الشاعر في مدح المناذرة [١٢] وقهوة ناجودها سا كب

« الفصل تتمة »

---

(١) راجع المخصص ٤: ١٢٥ — ١٢٩ و ٥ : ١٠ و ١٤ و ٢٥ والعقد الفريد ٤ : ٢٩٢ وكتاب الحيوان للجاحظ والساق على الساق لفارس الشدياق ٩٢
(٢) الاغاني ٢: ١١٨
(٣) الاغاني ٢: ١٢١
(٤) الاغاني ٩: ١٦٥
(٥) الاغاني ٢: ١٢١
(٦) معجم البلدان مادة « ملطاط »
(٧) شعراء النصرانية ٤٧١
(٨) كذلك ص ٦٤٣
(٩) الاغاني ١٦ : ٩٩
(١٠) كذلك ١٩ : ١٣١
(١١) معجم البلدان مادة « ديرهند الكبرى » (١٢) كذلك

أثر الاساطير

في قصة خروج بني اسرائيل

لناشر سبقبعن

لم يكشف الى الآن في الآثار شيء عن بني اسرائيل الا لوحة عليها اسم منفتاح ذكر فيها بعد الاشادة بانتصاراته على الليبيين انه استأصل شأفة بني اسرائيل . وقد استنبط بعض علماء الآثار من ذلك ان هذا الفرعون هو الذي طردهم لكن يذهب آخرون الى ان هذه العبارة انما يقصد بها حرب انتصر فيها هذا الفرعون عليهم في بلادهم اي فلسطين ويخلصون من ذلك الى القول بان خروجهم كان قبل منفتاح بزمن طويل . ومن هؤلاء الاستاذ توماس روبنسون مدرس اللغات السامية بجامعة جنوب ويلز ومحرر الفصل الخاص بالخروج في دائرة المعارف البريطانية . فمن رأيه ويشاركه فيه على قوله كثير من العلماء ان بني اسرائيل هم اما قوم «خابيرو» احد الشعوب الاسيوية التي جاء ذكرها في اللوحات التي عثر عليها في اطلال المدينة التي شيدها خوناتون (اخناتون) من ملوك الاسرة الثامنة عشرة المعروفة الآن باسم تل العمارنة واما القوم الرحل الذين هاجموا فلسطين ابان اضمحلال هذه الاسرة . وبناء على هذا يكون الخروج حصل في اواسط حكمها اي في زمن تحوتمس الثالث او قريباً منه . بيد انا اذا رجعنا الى سفر الخروج وهو أهم المراجع التي لدينا واوفاها عن هذا الحادث وجدنا ما يرجح خروجهم في زمن منفتاح فقد جاء في الاصحاح الثاني عشر « فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس » وفي الاصحاح الاول ما يدل على ان بني اسرائيل قد سخروا في بناء هذه المدينة حيث قيل « فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم باثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم [١] ورعمسيس » وتسمية احدى المدينتين باسم رعمسيس شاهد على انها بنيت في زمن احد فراعنة الاسرة التاسعة عشرة الذين تسموا بهذا الاسم . والذي يؤخذ من الآثار ان الفرعون الذي كان يسخر سكان الدلتا حيث كانت اقامة بني اسرائيل في بناء مدن مخازن هو رعمسيس الثاني وقد

---

(١) مكانها الآن الاطلال المعروفة باسم تل المسخوطة (التثال) بمديرية الشرقية كما اثبته البروفسور نافيل بعد التنقيب فيها . سميت كذلك من وجود تمثال من حجر واحد لملك جالس بين الهين وتدل الكتابة التي في خلفه على ان هذا الملك هو رعمسيس الثاني . وهذه المدن كانت تعد لامداد الحاميات التي على الحدود بالقرن

اشار الى ذلك الاستاذ بدج في كتابهِ النيل . ويستفاد مما جاء في آخر الاصحاح الثاني انه مات قبل الخروج حيث قيل « وحدث في تلك الايام ان ملك مصر مات » ويدل السياق بعد ذلك على انهم اخرجوا في زمن خلفه . ونحن نعلم من سلسلة ملوك مصر ان خلف رعمسيس الثاني هو منفتاح

وتاريخ الاسرة التاسعة عشرة يؤيد هذا الاستنتاج فقد خلفت اسرة كان للساميين سكان غرب آسيا في زمنها نفوذ عظيم في مصر ، فجعلت سياستها على ما يقول الاستاذ بدج « مصر للمصريين » وأخذت على عاتقها تطهير البلاد من الاجانب الذين يمتّون الى هذا الجنس لانهم كانوا ينحازون اليهم في كل حرب بين مصر وبينهم فكان بقاؤهم خطراً على البلاد لهذا السبب . ويفهم مما جاء في الاصحاح الاول من سفر الخروج ان هؤلاء الاجانب هم بنو اسرائيل حيث قيل « ثم قام ملك جديد على مصر فقال لشعبهِ هو ذا بنو اسرائيل شعب اعظم واكثر منا هلمَّ نحتال لهم لئلاَّ ينموا فيكون اذا حدثت حرب انهم ينضمون الى اعدائنا »

والراجح ان بني اسرائيل وفدوا على مصر ابان حكم الهكسوس (الرعاة) ابتغاء الرزق في هذا البلد الطيب في ظل حكومة من ابناء جلدتهم فلما انتزعت الاسرة الثامنة عشرة الحكم من الهكسوس توجّس بنو اسرائيل شرًّا من الملوك الوطنيين فاضمروا لهم العداء ومالئوا عليهم الاعداء . فلما آل الامر الى منفتاح من ملوك الاسرة التاسعة عشرة وكان في حروب متواصلة مع الليبيين والاسيويين لم يرَ بدًّا من طردهم اتقاء لغدرهم وليأمن على سلطانهِ من دسائسهم . ولما لم يكن لهم وطن يمموا شطره ولا امة شقيقة توسع لهم من اكنافها حطوا رحالهم في برية سيناء وسرعان ما حنوا الى مصر وتاقوا الى خيراتها وتهافتت نفوسهم على معبوداتها واعيادها فانهم بعد شهر ونصف من طردهم على ما جاء في الاصحاح السادس والعشرين قالوا « ليتنا متنا في ارض مصر اذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع » وبعد ثلاثة شهور صنعوا تمثالاً وعيّدوا له . وكان ذلك نذيراً للزعماء بان الشعب اذا لم تحسن سياسته فسوف يتساقط على الامم المجاورة ويغرق في غمراتها ويتبدد . فأطمعوهم في ملك فلسطين بان ذكروا لهم انها وطن آبائهم الاولين وان الههم اخرجهم من مصر ليسكنهم تلك الارض التي تفيض عسلاً ولبناً تنشيطاً لقواهم المعنوية لعلهم يستنيمون الى الامل فيصبرون على ما هم فيه من شظف العيش . وسفر الخروج يصف باسهاب كيف ان الههم اخرجهم ليلاً بعد ما اهلك الابكار من الناس والبهائم

ومن عجيب ما يذكر في هذا المقام ان حادثة اهلاك الابكار التي يزعمون انها حدثت ليلة خروجهم تتفق مع احدى اساطير الاولين في موضوعها والآثار التي ترتبت عليها للذكرى وستتضح هذه المطابقة من الموازنة بينهما

خلاصة قصة اهلاك الابكار ان اله الاسرائيليين غضب على المصريين لانهم اضطهدوهم وساموهم سوء العذاب فاهلك أبكارهم دون شعبه وطريقة ذلك على ما جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر الخروج «هكذا يقول الرب : اني نحو نصف الليل اخرج في وسط مصر فيموت كل بكر» ويوصيهم لكي ينجوا من الهلاك بان يتخذ كل بيت شاة فيذبحوه في العشية ويأخذوا من الدم ويجعلوه على القائمتين والعتبة العليا من البيوت التي يأ كلونه فيها ليكون الدم علامة على بيوتهم فيراها الرب حين يضرب ارض مصر ويعبر عنها . ويؤخذ من الآية الثالثة والعشرين من الاصحاح الثاني عشر ان الهلاك منوط بمهلك يتبع الرب وهذا نصها «فان الرب يجتاز ليضرب المصريين فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب» وفي آخر الاصحاح «وكان في ذلك اليوم عينه ان الرب اخرج بني اسرائيل من ارض مصر»

اوصى بنو اسرائيل بعدة وصايا تذكاراً لهذا الحادث فاولاً : ان يجعلوا اليوم الذي نجوا فيه من الهلاك واخرجوا من مصر عيداً واليك ما جاء في الأصحاح الثاني عشر في هذا الصدد «ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب» . وثانياً . ان يجعلوا الشهر الذي يقع فيه هذا اليوم اول شهور السنة وهذا الشهر على ما جاء في الاصحاح الثالث عشر هو ابيب بحسب التقويم المصري القديم حيث قيل «اليوم انتم خارجون في شهر ابيب» اما الوصية بجعله رأس الشهور فواردة في الاصحاح الثاني عشر وهي «هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور هو لكم اول شهور السنة» . ثالثاً : ان يعتبروا الذبيحة التي ذبحت ليلة اهلاك الابكار ليجعلوا من دمها علامة لخلاصهم فريضة تمارس في مثل تلك الليلة من كل سنة وتسمى الفصح . وهذه اللفظة محرفة عن بصاح العبرية ومعناها اجتاز وعبر من قولهم ان المهلك اجتاز ارض مصر وعبر عن بيوتهم

اما الأسطورة المصرية وهي منقوشة على جدران احدى الغرف الجانبية بمقبرة سيتي الأول فتتلخص في ان المصريين تمرَّدوا على الههم رع وخرجوا عن طاعته واهانوا اسمه فغضب عليهم وارسل هاتور لتهلكهم جزاء لهم بما كفروا فاجتازت أرض مصر وأثخنت في اهلها تقتيلاً واذا رأى رع من السماء ما حلَّ بالناس استعظم النكبة واخذته بهم رحمة فأراد ان يخلصهم لكن كان يحول دون ذلك ان هاتور طبعت على حب الدماء حتى ليصعب ايقافها عند حد متى استثيرت لسفكها . فلجأ رع الى الحيلة لأنفاذ رحمته وذلك بأنه دعا رسلاً وخاطبهم بقوله اذهبوا الى جزيرة الفيلة واجلبوا من هناك الثمار الجالبة للنوم ولتكن أوبتكم قبل الفجر فذهب الرسل كما أمروا بسرعة العاصفة الى الجزيرة حيث الجنادل الصخرية تعترض مجرى النهر العظيم وحملوا الى هليوبوليس مدينة رع الثمار المطلوبة من ذات اللون القرمزي

وذات اللون الأرجواني وهي التي تعطي عصيراً احمر بلون الدم

وفي الوقت نفسه امر رع نساء هليوبوليس فطحن الشعير وصنعنهُ جعة ثم مزجنها بعصير الثمار الجالبة للنوم فكان من ذلك شراب احمر كالدم . وقد بلغ ما صنعنهُ بعجلة في تلك الليلة قبل الفجر سبعة آلاف مكيال . ثم ذهب رع في بطانة كبيرة من الآلهة الى هليوبوليس لفحص الشراب ولما الفاه شبيهاً جداً بالدم قال « سيكون هذا الشراب مخلص الانسان » ثم امر فأهريق الشراب عند الفجر قبل شروق الشمس في الحقول حيث وقعت المذبحة الى ارتفاع اربعة اشبار

وفي الصباح جاءت هاتور لاستئناف المذبحة ولما لم تجد خلقاً من اعداء رع لتبيدهم تلفتت يمنة ويسرة فاذا الأرض مترعة بما شبّهته انه دم الأعداء الذي اهدرت فضحكت ابتهاجاً برؤيته ثم انحنت وولغت فيه بشراهة حتى ثقل رأسها بفعل المسكر ونامت واصبحت عاجزة عن استئناف المذبحة فنجت البقية الباقية من الناس من الهلاك

عندئذ ناداها رع وخاطبها بقوله « ستعمل لأجلك من الثمار الجالبة للنوم كلما جاء العيد الكبير عيد رأس السنة اشربة عدد الكاهنات اللاتي يخدمنني » والى هذا اليوم كلما جاء عيد هاتور تجهز اشربة من الثمار الجالبة للنوم تذكاراً لخلاص جنس الأنسان من غضب الآلهة

والمفهوم من السياق ان المراد بالثمار الجالبة للنوم التي يصنع منها شراب شبيه بالدم هو العنب وعلى هذا يكون اسلافنا اول من اتخذوا الخمر رمزاً للدم وشربوه لذكرى الخلاص

وانت ترى ان القصتين في جوهرها متطابقتان ففي كليهما عصاة واله منتقم ينفذ من لدنه مهلكاً ليجري في الناس قضاءه وهو ذو رحمة يهلك فريقاً من الناس ويستحيي فريقاً بحيلة يوصي لنجاحها ان تتم بعجلة قبل الفجر . وفي كليهما اعتبر الشهر الذي حصل فيه الخلاص رأس الشهور واوصى ان يعمل فيه العيد كما اعتبرت الوسيلة التي حصل بها الخلاص فريضة تمارس في ذلك اليوم للذكرى

ومما يؤكد الموافقة بين القصتين علاوة على الأوجه التي ذكرت الحادثة الآتية وهي واردة في كل من الاسطورة وسفر الخروج في سياق وصف الضربات التي حاقت بالمصريين بسبب غضب الآله . فقد جاء في الأسطورة « ان النهر صار احمر وقد ظل يجري كذلك عدة ايام تباعاً . وكانت الارض مترعة بدم الناس وهاتور تخوض فيه وهي تجوب ارض مصر وتوغل فيها الى هيننسيتن فاصطبغت قدماها باللون الاحمر » وهيننسيتن بلدة مكانها الآن اهناسيا بمديرية بني سويف

وجاء في الأصحاح السابع من الخروج في الكلام عن احدى الضربات التي سبقت اهلاك الأبكار « فتحول الماء الذي في النهر دماً . . . . وكان الدم في كل ارض مصر »

ان ثبوت محاكاة قصة اهلاك الأبكار لأسطورة انتقام رع يجردها من قيمتها التاريخية ويقضي من ثمَّ على مزاعم بني اسرائيل عن الخروج التي يعلقونها عليها . وفي رأيي ان هذه القصة انما وضعت لتحويل عيد هاتور الى عيد قومي لبني اسرائيل بعد الذي ظهر من تعلقهم بهذا العيد وصاحبته . فقد قيل في الاصحاح التاسع عشر انهم في الشهر الثالث بعد طردهم نزلوا في برية سيناء وهناك بينما كان موسى يناجي ربه طلب الشعب من هرون ان يصنع تمثالاً فلما اتمه وقد قيل انه صنعه على صورة عجل بنى مذبحاً وقال غداً عيد للرب فبكروا من الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلسوا للأكل والشرب ثم قاموا للعب . اذ يلوح لي ان ذلك العيد الذي عيدوه كان عيد هاتور والذي يرجح عندي هذا الظن ان الشهر الذي صنع فيهِ التمثال وعيدوا وهو الثالث بعد أبيب الذي خرجوا فيهِ يوافق توت رأس الشهور المصرية الذي يقع فيهِ عيد هاتور . فان صح حدسي فيكون التمثال الذي صنعهُ هرون تمثال بقرة لاتمثال عجل لان البقرة هي رمز هاتور وكان يكنى بها عن العناية الربانية

وقد كان جديراً ببنى اسرائيل احتفالهم بهذا العيد ليس فقط لانهم ألفوه في مصر وقد كان اكبر اعيادها حتى انهُ ما تزال منهُ بقية في مصر الى ايامنا هي عيد شم النسيم (وسأفرد مقالاً لاثبات ذلك) بل لانهم كانوا في اشد الحاجة الى الزلفى الى رمز العناية الربانية بما مسهم في الصحراء من الضرّ وتملكهم من اليأس . بيد ان هذا العمل قد اسخط زعماءهم فعملوا منذ ذلك الحين على قطع كل صلة لهم بمصر اولاً : بابعادهم عن آلهة المصريين لكنهم فطنوا الى ان الطفرة في هذه الحالة ليست من الحكمة وان اصالة الرأي تقضي بمصانعة الشعب في دور الانتقال فاقتبسوا هذا العيد وادخلوه ضمن تقاليدهم وذلك بأنهم استبقوا المظاهر التي يتعلق بها الشعب ثم جعلوا للعيد مناسبة من تاريخهم لصبغه بصبغتهم القومية : وثانياً . بتنفيرهم من مصر وذلك بما ألقوا في روعهم انها كانت بيت عبوديتهم وان فراعنتها قد أذلوهم وساموهم سوء العذاب وقد بالغوا في ذلك اشد المبالغة وجاوزوا الحدّ في الهجاء حتى اصبح لفظ فرعون وهو لقب ملوك مصر الاقدمين عنواناً على الطغيان والجبروت

***

والآن وقد ارتفع الغطاء عن هذا الحادث واسفر وجه الحقيقة فيهِ واتضح ان بني اسرائيل كانوا البادئين بالعدوان بحيث لم يكن لمصر مندوحة عن طردهم حرصاً على سلامتها فاني اطمع ان يقرّ الحق في نصابه تبرئة لمصر من وصمة الظلم التي وصمت بها في صدد هذا الحادث ، وانصافاً لتلك البلاد القديمة التي وضعت للعالم اسس الحضارة واعلت منار الحكمة وفتحت ابواباً للمعرفة كانت من قبل موصدة



القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

الدولة والحكومة والرعية

الدولة والاسرة : مما يسهل على القارىء الاحاطة بمعنى الدولة ان يشبهها باقرب الاوضاع اليه واحز الاوساط المتصلة به — ان يشبهها بالبيت الذي نما فيه والاسرة التي ترعرع في احضانها. فالوالدان هما الحكومة والاولاد هم الرعية والعادات والتقاليد المتوارثة هي الدستور والبيت هو الوطن ومن مجموعهم تتألف الدولة الصغرى وهي الاسرة . وكما ان هنالك انواعاً من الادارة « العائلية » كذلك هنالك انواع من الادارة الحكومية : هنالك ابوان شديدا الوطأة ظالمان يأخذان ابناءهما اما القوة وربما سخراهم لمنفعتهما الخاصة فقط وهنالك حكومة ظالمة غاشمة تستثمر الرعية وتسخرها لاغراضها كما يسخر الفلاح الثيران لحراثة الارض . وفي مقابل ذلك نجد سلطة ابوية حكيمة تستخدم نفوذها لهداية الابناء والحصول على السعادة المنزلية كما نجد حكومة صالحة تتخذ من سلطانها ذريعة لاصلاح الدولة . وهنالك ايضاً اسرة متفككة الاوصال يتأكلها الحسد ويهدم كيانها البغض المتأصل في الاعضاء كما ان هنالك دولة مؤلفة من عناصر متنافرة لم تجمع بينها تربية صحيحة ، يدس بعضها لبعض ويتجسس بعضها على بعض ولم يتفق افرادها على شيء الا على السعي لهدمها والخلاص منها . وفي وسعنا ان نزيد في هذه الامثال حتى لا يبقى نوع من الانواع الاسرة او الدولة — النوع القديم او النوع الحديث ، الحر او المحافظ ، المقيد او الطليق ، الجاهل او العاقل — الا تناولناه بالمقابلة

الاقتصاد العام والتدبير المنزلي : وليس الشبه فيما تقدم من الكلام قاصراً على الوجهة الادارية السياسية فقط بل هنالك شبه عظيم في الشؤون الاقتصادية ايضاً بحيث يجوز لنا ان نقول ان ادارة الامور الاقتصادية في الدولة تماثل الادارة المنزلية فالتبذير والتقتير وبسط اليد وقبضها واضاعة الاموال سدى وسوء الاستعمال قصداً والجهل بالحصول على الموارد وطريقة

توزيعها هي في الاسرة كما هي في الدولة لكن العيار مختلف طبعاً لان الاسرة دولة صغرى والدولة اسرة كبرى

ومما يسترعي الانتباه ان هذا الاتصال الوثيق بين الاسرة والدولة لم يكن قائماً على الشبه فقط بل هو اتصال تدرجي نشوئي كما سيتبينهُ القارىء من كلامنا ، ويزيد في إحكام هذا الاتصال ان الفرد وهو طفل يتعلم في المجتمع العائلي معنى المعيشة والتآلف مع غيره وتكون القواعد التي مشّاه عليها والداه اول الدروس العملية التي تلقاها في الانقياد والطاعة الى الشريعة، اما ولعه باهله « الاكارم » وفخره باسرته «الشريفة» وبالتقاليد « المقدسة » التي ورثها « كابراً عن كابر » وتعلقه بالبيت « الرفيع » الذي سكنهُ وباولاد الجيران« النبلاء »الذين لعب معهم فكل ذلك يولد في نفسه شعور الاخلاص ، وقد عرف فوائد التعاون مع غيره معرفة عملية منذ ما سار مع افراد اسرتهِ في طلب الافراح والحصول على المسرات[1]

اصلاح الاسرة في العالم العربي : لا جرم ان اصلاح الاسرة في البلدان العربية الناشئة هو اهم توطئة للحصول على الحكومة الصالحة واقوى ضمان لامكان الاحتفاظ بالمجتمع على بنائهِ الحاضر من غير انقلاب خطير في اوضاعه والأسقط حق الاسرة الجاهلة في الاستمرار على استبدادها بالابناء واستقلالها بادارتهم والاشراف عليهم، وتكون الاشتراكية المتطرفة حينئذٍ على صواب في اصرارها على وجوب انقاذ الاطفال من براثن الآباء والامهات لان الدولة تكون صالحة على قدر الصلاح في ابنائها العاملين

اصل الدولة : كثير من الناس لا يفرقون بين الدولة والحكومة ، فالدولة هي جمع من الناس انتظموا بالفطرة لتحقيق مصلحة سياسية عامّة ينشدونها لمجتمعهم مباشرة ولافرادهم بالواسطة . ولكي يكون هذا الجمع دولة ذات سلطة بالمعنى المتعارف لا بدَّ له (اولاً) من اداة سياسية تدعى حكومة قوامها هيئة من الموظفين يدعون حكاماً (ثانياً) من مجموعة شرائع او قواعد مدوّنة او مستظهرة تعين حدود هذه السلطة العامة وطريقة تنفيذها

فالحكومة اذن هي القوة المتسلطة في المجتمع السياسي او هي الاداة التي تنفذ رغائب الدولة وسواء أ كان شكلها ملكيًا ام جمهوريًا ، نيابيًا ام استبداديًا فهي الاداة التي تمثل قوة الدولة، ولا تتغير هذه الحقائق ما لم تكن الحكومة مطية لتنفيذ رغائب اهل المصلحة من الجماعات الاخرى المعتدية ، وحينئذٍ تدعى حكومة الاجنبي القاهر ولو كانت في شكلها على احدث طراز في الديمقراطية،وقد رأينا دولة من هذا النوع لم ينفعها لا دستورها الضخم ولا مجلس نوابها الفخم ولا رئيس جمهوريتها لمّا محاها من الوجود بجرة قلم رشيقة مندوب

(1) Government & People, 282,

اجنبي ! ومن الزيادة في النكاية ان هذا المندوب نفسه فرض على مكلفيها منذ سنتين ديوناً اجنبية تبلغ الملايين من الجنيهات من غير ان يستشير واحداً من نوابها مما يخالف ابسط قواعد الاستقلال — يعني قاعدة « لا ضرائب من غير تمثيل » — ومع ذلك فالباحث يعرض نفسه للتهم اذا هو لم يقل عن هذا المال ما قاله رئيس هؤلاء النواب من انه ثمن الاستقلال الذي نالته بلاده على ايدي الفاتحين المنقذين !

وقد بدت بوادر الانتظام السياسي من حدوث اشراف سياسي عام وخضوع المنتظمين لقواعده منذ تألفت العترة الاولى وتكاثرت بالتوالد والتبني حتى صارت قبيلة ومنذ اخذ بعض الافراد فيها يخرجون مجتمعين بشكل سرايا تجوب الاطراف للصيد والقنص ، وهذا الاشراف السياسي والخضوع له امر لا بد منهُ لكل جماعة من الناس دخلوا في دور من التعاون والاشتراك ، واما الطريقة التي يتم بها فهي حدوث سلطان او هيئة معينة محدودة تدير شؤونه ويخضع الافراد للاوامر التي تصدرها

ويؤيد هذا الرأي من جعل لحمة النسب اساساً للانتظام الدولي الرئيس (ودرو ولسن) فقد جاء في كتابه (الدولة) قوله « يجب ان يكون تاريخ الحكومة في فجره واحداً عند جميع الشعوب الراقية ، وان تتجلى بوادره في النظام العائلي » واستدلَّ من الاحوال التي كانت عليها تلك الامم التاريخية المركزية على ان التنظيم الاجتماعي وما تولد منه من تأسيس الحكومات هو وليد القرابة وان الروابط الاولى التي بني عليها الاجتماع والدواعي الاصلية التي سمحت باحداث السلطة الحكومية هي في الاصل واحدة — هي لحمة النسب سواء أ كان هذا النسب صحيحاً ام ملفقاً [1]

﴿ نشوء الاوضاع الحكومية ﴾ : ولكي يحيط القارىء بالتدرج الحقوقي الشرعي الذي لازم الالتحام والتكاثر في الاقوام بطريق الاتحاد والتوالد والغزو والفتح نفرض له مثلاً من قبيلة كقبيلة (الرولا) النازلة باطراف سورية فهب ان هذه القبيلة البسيطة التي تمثل الاوضاع الحقوقية البدوية التي كانت في الاعصر الخالية تكاثرت بالتوالد والتبني والفتوحات الوضعية فنمت نمواً عظيماً حتى الجأها العوز وقلة الكلأ الى اكتساح المعمور فاستولت على (حوران) واستملكت الاملاك واستأسرت الاسرى ووضعت يدها على السائمة وسائر انواع الماشية ففي تلك الساعة تتغير الوضعة الشرعية التي عليها هذه القبيلة لان جميع الطوارىء التي طرأت تتطلب سنناً جديدة في معاملة المغلوبين وادارة شؤونهم وممتلكاتهم التي سلمت من النهب وحفظ الامن بينهم وتوزيع الكسب المسلوب منهم وتعيين العلاقات بين الغالب والمغلوب وغير ذلك من

(1) W. Wilson, The State, p. p. 2, 3, 13.

الضرورات الشرعية المستجدة التي عبر عنها المشترعون المتأخرون بقولهم « تتغير الاحكام بتغير الازمان » لا جرم ان شيخها (النوري بن شعلان) وهو السيد المطلق المطاع في القبيلة يضطر الى اتخاذ الاجراآت الادارية التي توافق هذه الطوارىء مع محافظته على عادات سلفه وتنفيذ التقاليد التي درجت عليها القبيلة فيصبح والحالة هذه كما قال « الموجز في علم الاجتماع[1] » عن زملائه الشيوخ مشترعاً يقضي في الشؤون لفض الخلافات وهذا يعني انه صار (القاضي الاكبر) في الجماعة . وعلاوة على ذلك فقد كان للشيخ الزعيم في الاقوام الابتدائية عمل اقتصادي بالاضافة الى منصب الحاكم الذي كان يشغله فلم يكن ممثل الآلهة وخليفتها على الارض فقط بل السيد المالك لرقاب النساء والاولاد والمستأمن على ممتلكات الجماعة وهكذا اجتمعت في قبضة يده في تلك الاعصر السحيقة الوظيفة الثلاثية الآتية : القضاء والتشريع والاجراء وهو السلطة التنفيذية

***

لا جرم اننا نرى في هذه النظم الاهلية الخالية التي قامت على صحة النسب تلك الوحدات المؤتلفة او الجماعات الاصلية التي تتألف منها اسس الدولة واركانها وذلك عندما يسكن افراد هذه الجماعات المدر ويتخذون الطين مقراً ثابتاً لهم ويصبحون غزاة فاتحين يملون ارادتهم على المغلوبين كما املى الغطغط ارادتهم على الحجازيين ولا نبالغ اذا نحن قلنا ان هذه العناصر الاجتماعية الجديدة الناشئة عن الهجرة والغلبة والكسب هي عناصرها المقام الاول في تنظيم الدولة . بل ان بعض العلماء امثال الاستاذ (كومونس) ذهبوا الى ان التملك الخاص هو الباعث الاول على تأسيس الدولة وان التطاحن بين الطبقات للحصول على ادارة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة واستثمارها افضى بالضرورة الى التسوية والخضوع للنظام، فالدولة بهذا المعنى تكونت قد اشرقت عند ما مدّ اول رجل يده الى المنافع العامة التي كانت مشاعة للجميع وادّعى انها أصبحت ملكه الخاص واخذ يتضارب ويحارب من اجلها

لكن القبائل متى استقرت ونمت وتكاثرت تأخذ قاعدة تنازع البقاء تعمل عملها فيها فتتلاشى قبائل وتتحد قبائل شأن كل صراع جدي بين الاحياء . ويجري الاتحاد غالباً على قاعدة استعباد الغالب لمغلوب واتخاذه خولاً وربما جرى على اساس الامتزاج السلمي الاختياري . وبديهي ان تنشأ من مثل هذه الاحوال والملابسات الشرائع التي تبين سلطة الفريق الواحد على الآخر وتدل على المطالب التي تقتضيها الطوارىء التي طرأت بعد الاتحاد بنوعيه السلمي والحربي

(1) Outline of Sociology, P. 165.

ايليا أبو ماضي الشاعر

لبثت أسبوعاً أطالع ديوان الجداول للشاعر ايليا ابو ماضي ، وإذ فرغت من درس قصائده هممتُ بكتابة مقالة فيها تلبيةً لطلب مجلة « المقتطف » ، إلاّ اني بحثت عن « الجداول » فلم أجده . وأغرقت في بحثي عنهُ من غير جدوى

وكنت إذ ذاك في أقصى الحاجة الى مراجعته وإعادة النظر في الملاحظات التي دوّنتها على هوامشه في اثناء المطالعة

وفي أحد الايام اذ انا منصرف الى كتابة مقالة جافّة سمعت خطيبتي تنشد في خدرها هذه الابيات ، وقد لحنتها على هوى نفسها تلحيناً جميلاً ساحراً :

أراد الله أن نعشق لما أوجد الحُسنا
وألقى الحبّ في قلبك إذ ألقاه في قلبي
مشيئتهُ ... وما كانت مشيئتهُ بلا معنى
فإن أحببتِ ما ذنبكِ أو أحببتُ ما ذنبي ؟

***

يريد الحبّ ان نضحك ، فلنضحك مع الفجرِ
وان نركض ، فلنركض مع الجدول والنهرِ
وان نهتف ، فلنهتف مع البلبل والقمري
فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث أو يجري ؟

فافلتتُ القلمَ من يدي وهرولت الى خطيبتي فألفيتها مستغرقة في تطريز قماشة ، وإذ وقع نظرها عليّ ابتدرتني بقولها : هل أنهيتَ مقالك الجافّ ؟

فقلت :لا ، ولكني سمعتك تهتفين مع البلبل فأسرعت اليك ... من اين جئت بهذه الابيات ؟

فأجابتني بلهجة رصينة : من ديوان الجداول لأبي ماضي

ثم ابتسمت ابتسامة عفرية وأردفت قائلة : ألا يروقك ان انشد غير صادراتك ؟

فقلت : لا تزالين تخطئين في فهمي . . . واين الجداول ؟
فأشارت بيدها الى سريرها وقالت : تحت المخدة
فضحكت بدلَ ان اغضب ، وضحكتُ في كثير من الغبطة إذ وجدت في هذه الصدفة خير ما استهلّ به الكلام على الشاعر ايليا ابو ماضي

* * *

قال الكاتب الفرنسي غاستون راجو : « إن الشاعر هو الذي يستطيع ان يخاطب الاشجار لدى هبوب النسيم عليها او البشر في ساعة حزنهم وآلامهم وهو الذي يفهم ما لا يفهمه الغير ويحرز جميع اللغات الرمزية المبهمة ، وهو الى ذلك الرجل الذي يحاول الصعود الى الله ، وما زال يجدّ في محاولتهِ هذه حتى يوشك الامتزاج بالذات العلياء أو يخيَّل اليه انه امتزج بها وصار رسولاً . »

كم خفضنا الجناح للجاهلينا وعذرناهمُ فما عذرونا
خبروهم يا أيها العاقلونا
إنما نحن معشر الشعراء يتجلّى سرّ النبوءة فينا

وايليا ابو ماضي هو في معظم قصائده ذلك الشاعر الممتزج بالطبيعة، المتصرّف بأسرارها وغوامضها الشاخص من وراء ذلك الى الخيال الاسمى، الى الذات العلياء ، الى الله ! على أن في شخوصه الى ذلك الخيال شيئاً من التشكك قد نستطيع معه ان ندرج الشاعر في عداد السفسطائيين ، أو ندرج ناحية من نواحيه فقط . لان للشاعر نواحي متعدّدة كما لمعظم الشعراء ، فهو تارة مؤمن وطوراً متشكك ، على انه لا ينحدر من هاتين الناحيتين الى الالحاد

جئتُ ، لا أعلم من ايـــن ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قـــدّامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً ان شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئت ؟ كيف أبصرتُ طريقي . . . .
لست أدري

ولقد تجلَّت الناحية السفسطائية من روح الشاعر في « طلاسمه » أو في « لاأدرياته » التي عمد فيها الى الشك في كل شيء ، على أنه جاوز في شكوكه الحدّ الذي وقف عنده الفلاسفة حتى أوشك أن ينكر ذاته او أنكرها . وليس في « طلاسم » الاستاذ ابو ماضي نظريات تستطيع أن تكتشف فيها مذهباً فلسفيًّا فطلاسمه مزيج من أسئلةٍ ما برحت منذ القديم الى اليوم تخرج على السنة الفلاسفة والمفكرين ، على انه عرف ان يذرّ عليها رشاشاً من الشاعرية الرائعة :

أتراني كنتُ يوماً نَغَماً في وَتَر

وأقصى رغبة صاحب «الجداول» في طلاسمه أن يكون شاعراً لا فيلسوفاً

***

وللشاعر ايليا ابو ماضي طريقة هو معها نسيج وحده ، فهو لا يلتزم الخيال المجرّد من الذهن كالعدد الكبير من شعرائنا في المهجر ، ولا يحجّر فكره بالافراط في الوضعيّات الذهنيّة كما هو شأن البعض من شعراء سوريا ولبنان ، بل هو في شعره بعيدُ مابين هؤلاء واولئك ، في الندر ما تجده لا يلتزم وحياً يتمسّك بالاحتكاك بالحقيقة ، فهو في كل ما يكتب — اذا استثنينا بعضَ قصائده وبعضُ الطلاسم منها — يصل ياقوتةَ الشاعرية بلؤلؤة الحقيقة السوداء ، على أنه يطلي شعره بقليل من الالوان ويعهره بكثير من الموسيقى

ولا يجمل بنا أن تنكر ان الشاعر أبا ماضي يرمي في شعره الى هدف فهو في المجتمع الانساني مصلح صارم ، وقد يمت من هذه الناحية الى الشاعر لافونتين الذي أنطق الاشجار والبهائم ليسمع الرجل ، ومن يطالع قصائده « الضفادع والنجوم » و«الطين» و «ابن الليل» وغيرها يتّضح له بأية نظرة ينظر الشاعر الى المجتمع ولا يبقَ مجال للشك في أن الثعلب والليث والبدر والضفادع والنجوم إنما هي نحن ، فمجتمعنا هذا ليس سوى كهفٍ للبهائم الشرسة أو المحتالة ، والويل لكلّ بهيمة ضعيفة أو مسالمة

واذا قرأت قصيدة « الطين » وهي أبلغ قصائد الشاعر المتمرّدة ، وقعت على فكرة اشتراكية وربما كانت شيوعية أيضاً ترمي الى الوقوف في وجهِ القوّة والاقوياء والأغنياء والمتسلطين وكل ما ادّعاه ويدّعيه المجتمع المتكبّر ، المجتمع الذاهب في مذاهب العجرفة المكتسبة من جهل الانسان ذاته الحقيقية :

نسي الطينُ ساعةً أنه طينٌ حقيرٌ فصال تيهاً وعربَدْ
وكسى الخزُّ جسمَهُ فتباهى وحوى المالَ كيسُهُ فتمرَّدْ

وإنك لتقع في هذه الطرفة الشعرية على كبرياء الشاعر ، تلك الكبرياء الجميلة ، وقد أُوتيت قوّة التعبير الساحر القاهر فتجسّدت في كل بيتٍ من أبيات القصيدة وراحت تُعمِل في المتكبرين من أبناء الطين مبضعها الجارح ، وما زالت تُعمِل فيهم هذا المبضع حتى استوى لها ما أرادت فأزلت الجبّار عن عرشه المزعوم وقالت له إنك من جنس غيرك وإن تكن متقلداً السيف وملتحفاً بالبردة الموشّاة :

يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمةٌ ولا أنت فرقد
أنتَ لم تصنع الحرير الذي تلـبس واللؤلؤ الذي تتقلّدْ

... أنت في البردة الموشاة مثلي في كسائي الرديم تشقى وتسعد
... ايها المزدهي، اذا مسك السقم ألا تشتكي ؟ ألا تتنهد ؟

أجل ، والاسكندر الذي دوّخ الأرض وافتتح الهند وفارس وقهر الفينيقيين في أعز أيامهم والذي شرب « خمرة الآلهة » ووزع كؤوسها على قوّاده مات كما يموت الدهماء ، لقد مات على أثر استحمامه في البحر وهو سكران . . .

***

عند ما انتهت الحرب العالمية سمعنا أصواتاً ساحرة تنحدر الينا من العالم الجديد ، ولم يكن لنا عهد بمثلها قبل ذلك الحين ، فشخص الشباب بأرواحهِ الى مصادر تلك النغمات وما لبث ان أخذ بجمالها الجديد وروعتها النادرة واذا بتلك النغمات تمتزج بأرواحه وتملك عليها مذاهبها واذا بأدبٍ صادق ينشأ على شواطىء بحر الروم كان من ثماره هذا التطور الذي نلمسه اليوم في أدب الشباب

أما تلك الأصوات الساحرة فكانت صادرة من قلوب جبران ، ونعيمه ، وعريضه ، وأيوب ، وابو ماضي وغيرهم . على ان نغمات شاعر « الجداول » تختلف عن نغمات إخوانه أدباء لبنان في المهجر التي توشك أن تكون على وتيرة واحدة على ما هي عليه من الصدق في العاطفة والاخلاص في الشعور . ففي شعر ايليا ابو ماضي وحدة في الندر ما تجدها في شعر غيره ، وبهذه الوحدة يمتاز شعر صاحب الجداول الذي يُعَدُّ بحقّ في طليعة شعراء هذا العصر

قلت إن ايليا ابو ماضي يرمي في شعره الى هدف ، فهو في كل قصيدة من قصائده يحوم حول فكرة يتخطّفها بما اوتيهِ من قوّة المنطق وصدق التصوّر حتى يقسر على الاقتناع بها كما يريد ، من غير أن يلهيك بكثرة الألوان والأصباغ كما هو شأن العدد الكبير من شعراء المهجر الذين يتعشقون جمال الكلمة الملوّنة فيأتونك بالصورة والموسيقى ويبهرونك بسحرها حتى لتكاد تنسى أنك أمام مفكّر ، وفي هذا جمالٌ رائعٌ على أنهُ فيهِ نقصاً يُحدرهُ عن مستوى الشاعرية الحقة . وعندي أن الشاعر العبقري هو من تجسّم في قلمه الثالوث الأكمل : الموسيقى والصورة والفكرة

وقد لا تجد بين الشعراء من قدّر لهُ أن يبرز لك صورة صادقة عن عصره كايليا ابو ماضي فهذا الشاعر يغمس ريشته بدم زمنه ويصوّر ، ولهذا تجده يعمد في كل ما يكتب الى استشعار الحقائق الواقعة فيرسم لك احزان الحياة وأشجانها وأفراحها وملذّاتها ثم يذهّبها بنور من انوار الخيال ، ولهذا ايضاً لا تجده يعمد الى التكلف في شواعره ، وقد يكون عاش بنفسهِ كل ما عبرّ عنهُ بقلمه ، ولن يستطيع أن يطلق هذه الصرخات :

قد يصير الشوكُ إكليلاً لملكٍ أو نبيّ
ويصير الوردُ في عثرِ وقرِ لصّ أو بغيّ
أيغار الشوكُ في الحقل من الزهر الجنيّ
أم ترى يحسبهُ أحقرَ منهُ ؟ . . .

أجل ، لن يستطيع أن يطلق هذه الصرخات إلاّ من مهرت الحياة جبينهُ باكليل من الشوك وإلاّ من ارتهُ بلاهة الاقدار زهر الحياة على صدور اللصوص والعاهرات !

لا مشاحة في أن الشاعر عرف مصائب الحياة ، وهذه المصائب اثر في شعره ، على أن روحهُ الجبارة تأبى عليهِ البكاء ، ولكنهُ كثيراً ما يعمد الى الانتقام من تلك المصائب فيظهر بمظهر العابث بالحياة الواقف على قمتها البيضاء ... فبينا نراه وقد سئم الحياة مع البشر وملّ حتى أحبابه وخلاّنه ، وبينا نراه متضجراً من المراوغين والدرّافين

ومن القبح في نقابٍ جميلٍ ومن الحسن تحت الف نقابٍ
ومن العابدين كل إلهٍ ومن الكافرين بالاربابِ

إذا بنا نسمعهُ يرجع الى كبريائهِ الجبّارة فيقول :

قد سقتنا الحياةُ كأساً دهاقا حسنت نكهةً وطابت مذاقا
وسقينا مما شربنا الرفاقا

ثم يتزيّد في كبريائهِ فيستطرد قائلاً :

لو سكنتم قصورنا بعض ساعه لنسيتم شهوركم والسنينا

ثم يتكلف ، انتقاماً من الحياة ، رؤية الناحية الجميلة منها فيقول :

والذي نفسه بغير جمالٍ لا يرى في الوجود شيئاً جميلا

وربما أراد بذلك أن يقول للبشر : « إنكم تدنّسون في نفوسكم صورة الانسانية النبيلة ! » على أن هذه النظرية صارمة قاسية وإلاّ لكانت نفس بيرون وبودلير في أبعد ما يكون من البشاعة ! وإلاّ لكان الشطر الكبير من نفس ابي ماضي بشعاً ايضاً ، وذلك ما لا نريد أن نسلّم بهِ فالشاعرية السامية تبسط اليهِ يدها الالهية وترفعهُ الى فردوس الكواكب الأزليّ فهو بدعة من بدع القلب والروح

بيروت الياس ابو شبكة

سر ناموس النور

فيما هو اعمق من الكهرب

لنقولا الحداد

صاحب مجلة السيدات والرجال

في احد اجزاء المقتطف الماضية مقالة ضافية عن عملية «ميكلصن — مورلي» التي اريد بها اعتبار سرعة الارض بالنسبة الى الاثير [1]. ولكن كانت نتيجة العملية بعد تجربتها مراراً في اوقات مختلفة خيبة وفشلاً . اي لم تكتشف بها سرعة الارض بالنسبة الى الاثير (ان كان ثمة اثير) بل اكتشف بها ناموس طبيعي لم يكن معروفاً من قبل وهو ان الاجسام (والاجرام ومن الجملة الارض وكل ما عليها) تتقلص في اتجاه مسيرها بنسبة ثابتة بين سرعتها وسرعة النور .ولتفسير هذا القول لابد من ايضاح كيفية خيبة العملية المذكورة

خطر لميكلصن ، وقد كان احد كبار علماء الطبيعة في اميركا وله اكتشافات عن اسرار النور، ومباحث دقيقة في قياس سرعته — خطر له خاطر وجيه جداً وهو ان شعاعة النور التي تسير باتجاه حركة الارض معها وضدها تكتسب مع سرعتها سرعة الارض اذا كانت سائرة ضدها . وتخسر من سرعتها سرعة الارض اذا كانت مجارية لها . واما الشعاعة التي تسير معامدة لخط سير الارض (او سير سطحها في دورانها) فلا تخسر ولا تكسب بقدر تلك . ولذلك اذا صدرت شعاعتان من مصدر ارضي واحد وانطلقتا الواحدة الى الشرق والاخرى الى الشمال في مسافتين متساويتين ثم انعكستا عن مرآتين وعادتا الى بؤرة واحدة فلا بد ان تعود الشعاعة الشمالية قبل الشعاعة الشرقية . واعدّ ميكلصن جهازاً دقيقاً مضبوطاً وكافلاً للحصول على هذه النتيجة التي يستطيع بها ان يعلم مقدار سرعة الارض بالنسبة الى الاثير الذي يظن انهُ ساكن . ولكن نتيجة تجربته جاءت مخالفة للمنتظر . فان الشعاعتين عادتا في وقت واحد كما لو كانت الارض ساكنة. ولكن الارض تدور حول الشمس بسرعة ٣٠ كيلو متراً في الثانية وهي سرعة كافية لان تجعل ميعاد عودة الشعاعتين مختلفاً ولا سيما لان الجهاز كان دقيقاً جداً يضبط ما هو ادق من هذا

تحير ميكلصن وسائر اهل العلم في عدم حدوث هذا الاختلاف المنتظر . وحاولوا ان يجدوا له تعليلاً . فما توفقوا الى تعليل مقنع ، الى ان قام فتزجرلد وزعم ان الارض (وكل

---

(١) وقد ورد الاثير في كتاب ابي الريحان البيروني الخوارزمي من خيوى منذ القرن الرابع للهجرة بلفظ الايثر (بتقديم الياء على الثاء) بمعنى الجلد او الفضاء . وهي معرب اللفظة اليونانية التي اوردها علماء اليونان القدماء بالمعنى نفسه

جسم عليها وجهاز ميكلصن نفسه) تتقلص في اتجاه سرعتها بقدر الفرق بين رحلتي الشعاعتين بحيث تعود الشعاعتان في وقت واحد . ثم قام لورنتز واستخرج بعملية رياضية مقدار هذا التقلص فكان هكذا :

$$م = \frac{م^{\prime}}{\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}} .$$

وهنا (م) ترمز الى مسافة رحلة الشعاعة الشرقية و (مَ) الى مسافة رحلة الشعاعة الشمالية و (ن) الى سرعة النور و (س) الى سرعة الارض . ومعنى ذلك ان الارض تتقلص الى ان تصير بقدر هذه العبارة

$$\frac{١}{\sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}}}$$

واعتبر اينشتين هذا التقلص سنَّة طبيعية وجعله قاعدة لمبدإ النسبية فبنى عليهِ كل مباحثه فيها. وقد قرأت عن عملية ميكلصن هذه في بضعة مؤلفات عن النسبية ، لأنهُ ما من مؤلف خلا منها . ولكني لم اجد في واحد منها تفسيراً لسبب هذا التقلص . ولذلك كان يلوح في ضميري هذا السؤال : ما هي علاقة سرعة النور بسرعة الاجسام حتى توجد بين الفريقين هذه النسبة. ولما قرأت كتاب ادنجتن «طبيعة العالم المادي» The Nature of the Physical World عثرت في الصفحة الرابعة منهُ على تفسير سبب التقلُّص واليك محصله : —

« ان بين الذرات (Atoms) مسافات بعيدة جدًّا (بالنسبة الى احجامها) ولكنها متساوية البعد . والذريرات تحافظ على هذا التباعد المحدود فيما بينها ، وعلى الحيز الذي تتحرك فيهِ . تحافظ على ذلك بتفاعل كهربائي فيما بينها ، منهُ قوات جاذبة ، ومنهُ حركات (قوات) اخرى مختلفة تحاول ان تبعد الذريرات بعضها عن بعض . وكلتا الطائفتين من القوات متوازنتان بحيث يبقى حيز الذريرة في سعة محدودة ويبقى بعده عن غيره في مسافة محدودة ايضاً . ذلك على افتراض ان الذريرة ساكنة . ولكن متى كانت متحركة (او متى شرعت تتسارع بحركتها، اي تعجل) تتغير القوات الكهربائية التي كانت تقيدها بالمسافات المحدودة فيما بينها لان تسارعها ينشيء امواجاً كهربائية مغنطيسية Electro-magnetic waves وهي نوع من القوات يختلف عن النوع الاول، فيختل توازنها السابق وينشأ لها توازن جديد — اه

فترى من فحوى كلام ادنجتن ان سر المسأله في التيار الكهربائي المغنطيسي الذي انشأتهُ سرعة الذريرة او تسارعها . وهو مطابق للرأي العلمي الذي جرى عليهِ اينشتين وزملاؤه. وهو ان الذريرة المسرعة تنشيء حولها جوًّا كهربائيًّا مغنطيسيًّا Electro-magnetic field وفي هذا الجو تتخذ الكهارب (Electrons) افلاكاً (Orbits) تدور فيها حول نواة

الذرة كما تدور السيارات حول الشمس في جو جاذبي Gravitational field — تدور بتأثير هذا الجو الذي يمنعها ان تشرد عن فلكها حول النواة . (انظر مطلع فصل الجاذبية في كتاب مبدأ النسبية لاينشتين) ولكن ادمجتن لم يفسر لنا سبب محافظة الذريرات على تباعد محدود فيما بينها وعلى الحيز الذي تتحرك فيه بحيث لا يقتحم بعضها على حيز البعض الآخر

وفي ظن هذا العاجز ان السبب هو ان الكهارب تتدافع لانها ذات كهربائية من جنس واحد (سلبية) فكهارب الذريرة الواحدة تصدّ كهارب الذريرة الاخرى فلا تدعها تتجاوز حدود جوها . وهكذا تبقى الذريرات Atoms على مسافات محدودة فيما بينها

اذاً ، التقلص الذي هو بيت القصيد في بحثنا هذا يحدث في نفس الجو الكهربائي المغنطيسي في كل ذريرة . اي ان هذا الجو نفسه يتقلص في اتجاه سير النواة ولا يتقلص في الاتجاه المعامد لهُ . وقد تبحَّر كاتب هذه السطور طويلا في هذه المسألة الى ان حلَّ لغزها حلاً طبيعيًّا وبرهنهُ رياضيًّا . فجاء البرهان مطابقاً تمام المطابقة لمعادلة لورنتز الآنف ذكرها . وبهذا الحل تفسَّر السؤال الذي سبق نصهُ : وهو : ما علاقة سرعة النور بسرعة الاجسام ؟

وقبل بسط البرهان الرياضي لا بد من شرح الحل الطبيعي فنقول : —

للنور سرعة ثابتة لا تتغير في زمان ولا في مكان وهي ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية . وكذلك لامواج الجو الكهربائي المغنطيسي سرعة ثابتة لاتتغير وهي (١٠)^{١٠}×٣ سنتيمتر في الثانية اي عشرة مضروبة بنفسها عشر مرات ثم بثلاثة . والحاصل يساوي ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سنتيمتر = ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر ، وهي نفس سرعة النور

(ليس هذا التساوي بين سرعة النور وسرعة الموجات الكهربائية المغنطيسية امراً بالمصادفة بل هو امر طبيعي . لانه ثبت ان النور ليس الاّ امواجاً كهربائية مغنطيسية)

ولما كانت سرعة امواج هذا الجو مساوية لسرعة النور فبالنتيجة المنطقية تكون النسبة بين سرعة النور وسرعة النواة كنفس النسبة بين سرعة امواج الجو الكهربائي المغنطيسي وسرعة النواة . فلندع النور ونبحث عن النسبة بين سرعة النواة وسرعة امواج جوها المذكور ولننظر كيف يظهر هذا الجو متقلصاً بسبب سير النواة فيه

لا يخفى ان اي نوع من الامواج (نور او كهرباء مغنطيسية او صوت او موجة ماء الخ) متى صدر لاتبقى لمصدره سلطة عليه البتة ، فتصبح الموجة مستقلة تمام الاستقلال عن مصدرها . فشعاعة النور متى صدرت عن اي مصدر (الشمس او المصباح) تستقل عن الجسم المنير ولا تبقى له سلطة عليها . كذلك الموجة الكهربائية المغنطيسية الخ

تصوَّر نواة الذريرة سائرة بسرعة كسرعة الارض مثلاً فتصدر حولها امواجاً كهربائية مغنطيسية تسير بسرعة مساوية لسرعة النور (٣٠٠٠٠٠ كيلومتر بالثانية) وتصبح النواة على

الاثر سابحة في هذه الامواج ويصبح الكهرب الذي يدور في فلكه (دائرته) حولها سابحاً مثلها كما يسبح القمر حول الارض في اثناء سيرها في الفضاء (حول الشمس)

تصوَّر النواة سائرة وهي تصدر حولها موجة اثر موجة . فكلما خطت خطوة الى الامام كانت اقرب الى قوس الموجة التي امامها وابعد عن قوسها التي وراءها . ولهذا السبب عينه تكون اقواس الامواج الامامية متقاربة واقواسها الخلفية متباعدة ، كما ترى في الشكل . يمكن القارىء ان يمتحن صحة هذا الامر بعملية بسيطة . قف عند حافة بركة صغيرة ساكنة ولا ريح تحرك سطحها . وخذ قصبة وضع في جوف طرفها ماء وسدها بقطنة سداً يؤذن للماء ان يقطر منها كل هنيهة قطرة على التوالي . ثم ابسط القصبة على مداها فوق البركة . فترى انه كلما سقطت قطرة منها الى الماء احدثت موجة مستديرة تتسع رويداً . وترى الامواج متوالية بعضها ضمن بعض . وترى ان السعة بين دوائرها متماثلة . ولكن حرك القصبة ببطء الى يمينك فترى ان دوائر الامواج الى يمينك اقرب بعضها الى بعض منها الى شمالك

ولا يخفى عليك ان الجو الكهربائي المغنطيسي الذي نحن بصدده انما هو هذه الامواج بعينها . وهو مشابه من كل قبيل للجو الجاذبي Gravitational field كما زعم فرادي وجاراه اينشتين وسائر علماء هذا العصر ولذلك تضعف قوة (جذب) هذا الجو بنسبة مربع البعد فيه عن النواة

اذاً ، لا نهاية لهذا الجو من الوجهة النظرية وانما فلك (Orbit) الكهرب الذي يرتسم فيه يعتبر حداً لحجم الذرية . فاذا قلنا « الذرية » (Atom) عنينا النواة والجو الكهربائي المغنطيسي الذي تصدره والمحيط الذي يدور فيه الكهرب . وبُعْد هذا المحيط عن النواة يكون بقدر فعل الجو على الكهرب (يضاف اليه فعل قوى اخرى خارجية قد تطرأ على الذرية — وللسير تجايمس تجينز بحثٌ ضافٍ بهذا الموضوع في كتابه « الكون حولنا »)

بعد هذا البيان نتخذ ذرية الهيدروجين مثلاً تسهيلاً للشرح لانها تحتوي على كهرب واحد، فهي ابسط الذريات

الرسم يمثل تمثيلاً خيالياً دوائر الامواج الكهربائية المغنطيسية (واذا تصورته كروياً امكنك تصور الامواج كروية ايضاً) منذ صدرت الموجة الاولى حين كانت النواة عند (ص) الى ان وصلت الى (ل) . ويمثل النسبة بين سرعة الامواج المذكورة وسرعة النواة قليلة جداً . وهي بالحقيقة اضعاف ذلك الوف المرات . فهي في النواة الارضية كنسبة ٣٠ الى ٣٠٠ الف . ولا يمكن تمثيل الحقيقة بالرسم بسبب هذا التباين العظيم بين السرعتين

كانت النواة عند (ص) : ففي مدة معينة (قل مثلاً جزء من الف من الثانية) سارت الى (د) وفي خلال ذلك صدرت منها عدة امواج . ولما كانت النواة عند (ص) صدرت الموجة الاولى منها

وفي مدة انتقالها الى (د) وصلت قوس الموجة الاولى الى (ب) امامها والقوس المقابلة لها الى (ط) وراءها

ولا يخفى ان كل موجة تتبعها موجة اخرى كلما خطت النواة خطوة . فامام النواة ووراءها صفوف موجات تكاد تكون غير متناهية . ولنفرض ان فلك الكهرب يحيط بقدر من الجو الكهربائي متوازن القوى حول النواة. فنود ان نعرف هل طول قطره الموازي لخط اتجاه النواة مساوٍ لطول قطره المعامد له ؟ هل ب ج = ح حَ والاَّ فأيهما اطول وهذه قضيتنا التي نحلها فيما يلي حلاً رياضياً

اذا رمزنا عن سرعة النواة بحرف (س) ، وعن سرعة الامواج الكهربائية المغنطيسية بحرف، (ن)، وعن المدة بحرف (ق)، وعن المسافة بحرف (م) ، امكننا ان نستخرج طول القطر (الشعاعين 2 Radii) الموازي لخط اتجاه النواة . ولا يخفى انهُ لما كانت الموجة الاولى سائرة الى الامام كانت النواة سائرة وراءها فتقصّر المسافة بينهما . ولذلك تطرح سرعة هذه من سرعة تلك في قياس الشعاع Radius الامامي (نصف القطر) . وكذلك لما كانت الموجة الخلفية منطلقة الى الوراء كانت النواة تبتعد عنها فتطيل المسافة بينهما . ولذلك لا بد من اضافة سرعة هذه الى تلك في قياس الشعاع (نصف القطر) الخلفي . اذاً طول القطر الموازي لاتجاه سرعة النواة يُعبَّر عنهُ بهذه المعادلة

ق = م / (ن — س) + م / (ن + س) بالجمع = (م ن + م س + م ن — م س) / ((ن — س) × (ن + س)) =

اذن — ن ق = ٢ م ن / (ن٢ — س٢) طول القطر الطولي كله

ونصفها : طول الشعاع فقط = م ن / (ن٢ — س٢) معادلة اولى

علينا الآن ان نبين نسبة هذا القطر الطولي الجاري لاتجاه سير النواة الى القطر العرضي المعامد له ح حَ

لما شرعت النواة تسير من (ص) الى (د) صدرت الموجة الاولى منها متجهة الى (ح) و(الى (حَ) ايضاً) وكلما انتقلت (ص) خطوة الى الامام تصدر منها موجة الى جهة ح (وحَ) وهكذا على التوالي الى ان وصلت الى (د) فكانت الموجة الاولى قد وصلت الى ح (وحَ) والموجة الاخيرة لا تزال حول (د) والامواج التي توالت بينهما متتابعة بينهما كما يمثلها الرسم كلها في مدة الرحلة. فاذا رسمت خطاً من الموجة الاخيرة عند (د) الى حيث صارت الموجة الاولى عند (ح) كان ذلك الخط (دح) او (دحَ) يمر في عدد من الامواج اكثر من عدد الامواج التي يمر بها الشعاع (صع) او (ص عَ) . وترى اذاً ان الخط (دح) هو وتر لمثلث قائم الزاوية مربعهُ يساوي مجموع مربعي

الضلعين (ص د) و(ص ح) حسب هندسة اقليدس

ولا يخفى ان مسافة الخط(ص د) = سرعة النواة مضروبة بالوقت[1] (المدة)=(س قَ)
ومسافة وتر المثلث (دح) تساوي سرعة الامواج المتتابعة مضروبة بالوقت = (ن قَ)
و (ص ح) هي طول نصف القطر المجهولة قيمته فنعبّر عنها بحرف مَ
فلنا اذاً من هذا المثلث هذه المعادلة

$$(\text{ن قَ})^2 = (\text{س قَ})^2 + \text{مَ}^2 \qquad \text{او} \qquad (\text{ن قَ})^2 - (\text{س قَ})^2 = \text{مَ}^2$$

$$\text{اي } \text{قَ}^2 (\text{ن}^2 - \text{س}^2) = \text{مَ}^2$$

$$\text{فاذاً } \text{قَ}^2 = \frac{\text{مَ}^2}{\text{ن}^2 - \text{س}^2} \qquad \text{وبالتجذير ق} = \frac{\text{مَ}}{\sqrt{\text{ن}^2 - \text{س}^2}} \qquad \text{معادلة ثانية}$$

في كلتا المعادلتين (ق = قَ) اي ان انتشار الامواج الى الامام والوراء والى الجانبين كان في مدة واحدة. اذاً المعادلة الاولى تساوي المعادلة الثانية هكذا : —

$$\frac{\text{م ن}}{(\text{ن}^2 - \text{س}^2)} = \frac{\text{مَ}}{\sqrt{\text{ن}^2 - \text{س}^2}} \quad \text{نضرب المعادلة بقيمة} \quad \sqrt{\text{ن}^2 - \text{س}^2}$$

$$\text{فلنا : } \text{مَ} = \frac{\text{م ن}}{\sqrt{\text{ن}^2 - \text{س}^2}}$$

تقسم الصورة والمخرج (وبالاصطلاح المصري البسط والمقام) على (ن) فلا تختل المعادلة

$$\text{فلنا مَ} = \frac{\frac{\text{م}}{\sqrt{\text{ن}^2 - \text{س}^2}}}{\text{ن}} \quad \text{او} = \frac{\text{م}}{\sqrt{\frac{\text{ن}^2 - \text{س}^2}{\text{ن}^2}}} \quad \text{او} = \frac{\text{م}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}}$$

وهي عباره لورنتز بعينها

يستفاد مما تقدَّم انهُ في اثناء سير الذرية الى الامام يكون محيط الجو الكهربائي المغنطيسي غير تام الاستدارة بل يكون قطره (ب ج) الموازي لاتجاه سير الذرية اقصر من قطره ح ح المعامد له فهو في الدائرة ب ح ج حَ وليس في ب ع ط ح ولا في ه ح ج حَ

واذا كانت الذرية تتقلص في اتجاه خط سيرها على هذا النحو و الذريات تحافظ على ابعاد مقررة فيما بينها فلا بد ان يعم هذا التقلُّص الجسم كله في اتجاه خط مسيره . ومقدار تقلصه يساوي مجموع تقلص صنفٍ من الذريات مواز لاتجاه مسيره

بقيت حكاية الاثير وماذا جرى له بعد تجربة ميكلصن فلها فصل آخر

شبرا نقولا الحداد

(١) حسب قاعدة الطبيعيات المسافة = معدل السرعة مضروباً بالوقت م = س ق

حرقة

لا تَرُعْ قلبيَ العميدَ إذا ضجَّ او قلِقْ
لا تَسَلْ عن شكاتهِ دَعْهُ بالله وانطلِقْ
لا تظنَّنَّ ما بهِ أثَرَ اللهوِ والحُمُقْ
أيَّ قلبٍ كمثل قلبِ الفتى فاتَهُ النَزَقْ
أذبَلَتْهُ الحياةُ طا غيةً فظَّةَ الخُلُقْ
وقديماً أتَتْهُ تفترُّ عن ثغرِ ائتلقْ
أضحكتهُ الضحى لِتُحْسِنَ إبكاءَهُ الغسقْ

باريس بشر فارس

ارتياد طبقات الهواء

رحلة بيكار الثانية — بلون رجنر المحلق

الهواء في نظر اهل العلم طبقات اقربها الى الارض طبقة تعرف بالتربوسفير اي المحيطة بالارض واقصى ارتفاعها نحو عشرة كيلو مترات (او ٦¼ ميل) وتليها طبقة (الستراتوسفير في هذه الطبقة تتكون الغيوم Cirrus وقد دعاها العرب الطخارير جمع طخرور فرأينا ان نطلق على طبقة الستراتوسفير اسم الطبقة الطخرورية من قبيل تسمية الشيء باسم جزء منهُ) واقصى علوها نحو ٣٠ كيلو متراً (او ١٨¾ الميل) ثم على ارتفاع خمسين كيلو متراً توجد (نهاراً) طبقة كنلي هيفيسيد وهي التي يفسر بها العلماء انتقال الامواج اللاسلكية حول الارض بانعكاسها بين سطح الارض وباطن هذه الطبقة . والمرجّح ان الجوّ وراء هذا الحدّ فراغ تقريباً كما يستدلُّ من ظهور اضواء الشفق . ولكن هنالك من يذهب الى ان نيازك شوهدت على هذا الارتفاع مما يدل على ان كثافة الهواء كافية لاحداث احتكاك يشعل هذه الرجم المنطلقة في الفضاء ويرى السر جيمز جينز ان آثار الهواء تمتدُّ الى ابعد من ذلك فوق سطح الارض . وقد قيست درجة الحرارة في الطبقتين المحيطة والطخرورية فهي واطئة جداً ثم ترتفع . واما حرارة الطبقات العليا فلا يعرف عنها شيء مؤكد

اما رفع جسم وزنهُ ثلث طن الى علو ١٦ الف متر او اكثر بواسطة بلون فليس امراً متعذراً لان من شاء ان ينفق في سبيل غرضهِ كل ما يجب انفاقهُ يفوز ببغيتهِ . أما إعداد بلون للارتفاع برجلين اثنين وادواتهما العلمية الى هذا العلو ، ثم تمهيد سبيل التنفس لهما والدفء والبحث العلمي والرجوع الى سطح الارض ، فأمر آخر . والاستاذ بيكار جدير بكل ثناء واعجاب لتحقيق ذلك كما اثبت في رحلتيهِ

فالبلون كيس يحتوي على ٢٨٠٠ متر مكعب من غاز الايدروجين على سطح الارض وهو خمس حجمهِ اذا بلغ اقصى انتفاخهِ . فاذا صار على ارتفاع ٥٦٠٠ متر قلَّ ضغط الهواء على خارج غلافهُ فيتمدد الغاز داخلهُ ويزيد حجمهُ الى ٥٦٠٠ متر مكعب وهو خمسا حجمهِ الصحيح فاذا بلغ ارتفاع ١٠ آلاف متر قلَّ ضغط الهواء كذلك فيتمدد الغاز ويصبح حجم البلون ١٠٠٠٠ متر مكعب ثم اذا صار على ارتفاع ١٥ الف متر بلغ البلون اقصى انتفاخهِ وصار حجم الغاز فيهِ ١٤ الف متر مكعب . ويكون البلون وهو على سطح الارض كمثري الشكل ثم يزداد كروية رويداً رويداً الى ان يصير كرة كاملة على ارتفاع نحو ١٥ الف متر

اما الكرة التي جلس فيها بيكار مع معاونهِ فمصنوعة من خليط من الالومنيوم والقصدير قطرها

متران ومعلقة بالبلون بحبال متينة . والهواء داخلها يجدد بواسطة اكسجين نقي يخرج خروجاً منتظماً من اسطوانتين خاصتين تحتويان عليهِ وكل منهما تحتوي على مقدار منهُ يكفي لحفظ هواء الغرفة طبيعيًّا مدى ثماني ساعات . وقد عمدا الى ذلك لأن الكرة مقفلة اقفالاً محكماً . فالهواء على الارتفاع الذي كان الاستاذ بيكار يبغي ان يصل اليهِ لطيف جدًّا لا يستطيع الانسان ان يتنفس فيهِ . والحرارة واطئة لا يحتملها الجسم البشري . واذاً فيجب ان تحيط العالِم المحلّق بجوٍّ كالجوّ الذي اعتاده . وكانت الكرة تحوي كذلك ادوات علمية كثيرة لقياس قوة الاشعة الكونية والحرارة والضوء وبخار الماء في الطبقة الطخرورية وغاز الحامض الكربونيك وغير ذلك من المسائل التي يتوق العلماء الى معرفتها . ويظهر انهُ في رحلتهِ الثانية وجَّه جلّ عنايتهِ الى قياس قوة الاشعة الكونية

غرض الرحلة العلمي

مضى الآن بضع سنوات وعلماء الطبيعة معنيّون بدرس نوع جديد من الاشعة تعرف آناً باشعة مِلِكن وآناً باشعة هس وآناً بالاشعة التي وراء اشعة غما وآناً بالاشعة الكونية وهو اشهر اسمائها نسبة الى مصدرها في فضاء الكون الرحيب . وليس هذا مجال البحث في هذه الاشعة [1] فنكتفي بان ننقل عن الاستاذ بيكار نفسهِ الباعث الذي يجعل قياس هذه الاشعة على مرتفعات عظيمة امراً جديراً بعناية العلماء

فالمشهور ان الغازات في حالتها الطبيعية لا توصل الكهربائية كما توصلها الاسلاك المعدنية اي انهُ لا يسهل على الكهربائية اجتياز مقدار من الغاز كما يسهل عليها اجتياز قطعة من النحاس. ولكن اذا صوبت بعض الاشعة الى الغاز الذي لا يوصل الكهربائية اصبح موصلاً كهربائيًّا ضعيفاً . ومن هذه الاشعة الاشعة التي وراء البنفسجي ، والاشعة السينية (اشعة رنتجن) ، والاشعة السالبة (الالكترونات) والاشعة المنطلقة من العناصر المشعة. ويعلَّل ذلك بان الاشعة تفصل من ذرات الغاز بعض كهاربها (الكتروناتها) فيصبح الجزء الباقي من الذرة وشحنتهُ الكهربائية شحنة موجبة (كانت الشحنة الكهربائية الموجبة والشحنة السالبة متعادلتين فلما نقص كهرب من الذرة اصبحت شحنة الجزء الباقي منها موجبة) وهو يعرف « بالأيون » والفعل «أيَّن وتأيَّن تعريباً». اما الكهارب المنفصلة فتصطدم بذرات كاملة وتلتصق ببعضها فتصبح الذرة التي التصق بها كهرب شاردٌ وشحنتها الكهربائية شحنة سالبة (زيادة الكهرب ذي الشحنة السالبة) فهي « أيون » كذلك . وهذا يجعل الغاز موصلاً للكهربائية لشدة حركة الدقائق المكهربة التي فيهِ . ومع ذلك فالغازات « المؤينة » اضعف جدًّا من الفلزات في ايصال الكهربائية

ولدى البحث وجد اننا اذا ازلنا من المنطقة المحيطة بغاز من الغازات كل مصدر من

(١) راجع المقتطف ج ٦٨ ص ١٦٢ وج ٧٢ ص ٣١٦ و ٧١٣ وج ٧٣ ص ٢٠

مصادر الاشعة التي « تؤينهُ » ظلّ موصلاً ضعيفاً للكهربائية فيتولد فيهِ في السنتمتر المكعب « ايون » واحد او « ايونان » في الثانية . ولكن اذا انزل الوعاء المحتوي على هذا الغاز الى عمق مائة متر من الماء النقي من شوائب المواد المشعة (وهي التجارب التي قام بها هس في المانيا وملكن في اميركا) اصبح الغاز لا يوصل الكهربائية على الاطلاق . اي انقطع تولد الايونات فيهِ وعلى الضدّ من ذلك اذا رفع الوعاء المحتوي على الغاز الى علو ٩ آلاف قدم فوق سطح البحر زادت قوتهُ على ايصال الكهربائية اي زاد تولُّد « الايونات » فيهِ

واذاً فثمة اشعة تصل الى سطح الارض من مصدر مجهول تفعل في هذا الغاز « فتؤينهُ » وتجعلهُ صالحاً لايصال الكهربائية بعض الايصال . هذه الاشعة اطلق عليها اسم « الاشعة الكونية » ونحن لا يصلنا الا جانب ضئيل منها لان الهواء يمتص الجانب الآخر

وقد دلت المباحث على ان هذه الاشعة اشدُّ نفوذاً من اشعة الراديوم . فلوح من الرصاص ثخانتهُ سنتمتر ونصف سنتمتر يضعف اشعة غمَّا — اذا نفذتهُ — الى نصف قوتها . واما الاشعة الكونية فتحتاج الى لوح من الرصاص ثخانتهُ ١٥ سنتمتراً ليضعفها الى نصف قوتها واقوى هذه الاشعة يحتاج الى لوح رصاصي ثخانته متر ونصف متر ليفعل فيهِ الفعل نفسهُ

ثم هنالك الناحية النظرية الفلسفية . كيف تتولد هذه الاشعة . ومن اين تجيء . هل هي كما يقول ملكن انباء من رحاب الكون بأن العناصر الثقيلة تتكون في الفضاء من ذرات الايدروجين وانهُ في اثناء تكونها يفنى جانب ضئيل من الايدروجين (راجع المقال الاول في هذا الجزء من المقتطف) فيتحول الى اشعاع شديد النفوذ ؟ او هي كما يقول معارضوه — الفلكي جينز وغيره — نتيجة لفناء المادة بتحوُّلها الى اشعاع ؟

ولما كان الهواء يمتصُّ جانباً كبيراً من هذه الاشعة فلا يصل الى الارض الاّ اليسير منها جعل الاستاذ بيكار غرضهُ قياس قوتها على مرتفع قريب من سطح الغلاف الهوائي . وعند العلوّ الذي بلغهُ في رحلته الثانية (١٦٥٠٠ متر فوق سطح البحر) يبلغ ضغط الهواء على الزئبق $\frac{1}{20}$ من ضغطهِ على سطح الارض اي ان مقدار الهواء تحتهُ كان تسعة اعشار الهواء وفوقهُ عشر فقط

وقد توسل الاستاذ رجنر Erich Regener الالماني الى تحقيق الغرض نفسهِ بارسال بلون لا يحتوي الاّ على آلات تدوّن من تلقاء نفسها قوة الاشعة الكونية في فترات منتظمة فبلغ بلونهُ هذا — في ١٣ اغسطس الماضي [1] الى ارتفاع نحو ٢٦ كيلو متراً او $\frac{1}{2}$ ١٧ الميل (في حين ان اعلى ما بلغ اليهِ الاستاذ بيكار عشرة اميال ونصف ميل) . وبعد ما ظل البلون محلقاً بضع ساعات نزل الى الارض في حراج فلزهيم قرب مدينة ستتغرات . ومن اغرب النتائج التي اسفر عنها البحث في الواحهِ الفوتغرافية المدونة ان قوة الاشعة الكونية تزيد زيادة مطردة الى نحو علو ١٣ كيلو متراً ثم تنقص . ولكن هذه النتيجة تحتاج الى تأييد

(١) كانت رحلة بيكار الاولى في ٢٧ مايو ١٩٣١ والثانية في ١٨ اغسطس ١٩٣٢

نشأة المسرح الاغريقي

أو العناصر التمثيلية الاولى عند الاغريق قبل القرن الخامس ق . م .

بقلم الدكتور علي عبد الواحد وافي (١)

لم يصل التمثيل عند الاغريق الى درجة النضوج والكمال التي بلغها في العصر الاتيكي (٥٠٠—٣٠٠ ق . م.) الا بعد ان قضى عهد طفولته الاولى في العصور السابقة وفي حضانة الدين اليوناني الذي تمخض عنه ، وتعهده حتى نما وترعرع ، وأبى الا ان يلازمه ملازمة الام الرءوم في كل اطوار حياته . فقد جرت عادة الاغريق ، منذ اقدم عصورهم ، ان يقيموا حفلات دينية لآلهتهم يحرصون فيها كل الحرص على اظهار تأثرهم بما ملأ حياة هذه الآلهة من خطوب، فيفرحون بما نالهم من نعيم ويحزنون لما اصابهم من شقاء . وأمثل طريق تخيلوها لاظهار مايسرهم او يحزنهم من حياة هذه الآلهة وما عرض لهم فيها انما هي محاكاتهم اياهم محاكاة مصحوبة بأغنيات تروي قصصهم وتفصل جليل اعمالهم وحقيرها . وبذلك تحقق قبل العصر الاتيكي، بفضل هذه الاعياد الدينية عنصران كبيران من عناصر التمثيل : المحاكاة وإثارة العاطفه

اشرب اليونان في قلوبهم حب هذه الاعياد ووُجّه نحوها أكبر قسط من عنايتهم ، وخاصة في المدن المقدسة حيث مقر كبار الآلهة وشهيري المعابد كقريط وديلوس ودلف وما اليها من الاماكن التي حبتها الاساطير بضياء ديني رفع من مكانتها وميزها بين سائر بلاد الاغريق

فحفلات دلف مثلاً ، كما وصفها لنا فلوطرخس ، كانت تشتمل على حلقات تمثيلية طويلة متعددة الفصول قريبة الشبه بالتمثيل التراجيدي[٢] ، لولا ما كان يعوز فصولها من التناسق وإحكام ربطها بعضها ببعض . كانت الاساطير تحدث اليونان مثلاً بأن « أبلـون » (إلـه الوحي ، والطب ، والموسيقى ، والماشية ، والنهار والشمس) لما وصل الى دلف قتل تنيناً بريّاً[٣] رمياً بالسهام ، وبعد ان تلوثت يداه بهذه الجريمة ذهب الى وادي « تمبي » ليتطهر من خطيئته ،ثم رجع الى دلف . . . . الى آخر ماجاء في هذه الخرافة . فكانوا ينتهزون فرصة حلول عيد « السبتريون » الذي كانوا يقيمونه لأبلون فيمثلون معركته مع الحية والحوادث التي نجمت عنها .وفي العيد المسمى « الهرواس » الذي كانوا يقيمونه «لسيميلية»

---

(١) ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة باريس ، استاذ التربية بدار العلوم العليا، والاخلاق بقسم التخصص بالازهر، وتاريخ الادب المسرحي بقاعة المحاضرات التمثيلية (٢) الرواية الفاجعة ، الحزنة ، المأساة (٣) Python وتعرف هذه الحية في السودان بالاصلة عن معجم الحيوان

محبوبة المشتري (الإله جوبيتر او زفس، ابو الآلهة ورئيسهم ، إله الارض والسماء والفصول والصواعق والسحاب والرعد . . .) وأم الإله « باخوس » ، كانوا يمثلون ما تقصه عليهم الخرافات من الامور المتعلقة بهيام المشتري بسيميلية وبموتها مصعوقة وبنشوء جنينها باخوس .
وكان ثمة ، غير هذين العيدين ، أعياد كثيرة يضيق بنا المقام عن حصرها بعضها محلي قاصر على اهل مدينة خاصة ، وبعضها عمومي تشترك فيه مقاطعة أو اكثر من المقاطعات الاغريقية

وقد شاطر الآلهة في هذا التقديس كثير من ابطال اليونان الاول الذين جاء ذكرهم في قصائد هوميروس والذين اكتسبوا على تقادم الزمن صفات قربتهم من الآلهة دون ان تفصلهم فصلاً تاماً عن البشر . فكانت كل مدينة ينتسب اليها بطل من هؤلاء الابطال تقيم له أعياداً شبيهة بالحفلات التي كانت تقام للآلهة انفسهم ، تمثل فيها حياته ويتغنى فيها بأقاصيص حروبه وانتصاراته واعماله الجليلة وما كان له من فضل على المقاطعة المحتفلة بذكراه . وقد كان لهذه الاعياد الوطنية في نشأة التمثيل أثر لا يقلُّ عن أثر الاعياد الدينية

غير ان إلٰهين اثنين قد اثرت اعيادهما في نشأة المسرح الاغريقي تأثيراً خاصاً لما كانت تشتمل عليه هذه الاعياد من محاكاتهما في حياتهما الحافلة بكثير من الحوادث المحزنة والسارة ولما كانت تثيره هذه المحاكاة في نفس الشعب من مختلف الانفعالات والعواطف من هيام ورعب وحزن وسرور وقسوة وحنان وابتهاج الظفر ومرارة الاخفاق .... وما الى ذلك من حركات الوجدان التي تعتبر إثارتها كما اشرنا الى ذلك فيما سبق ، عنصراً كبيراً من عناصر التمثيل ، وهذان الآلهان هما : « ديميتير » Déméter و « ديونيزوس » Dionysos

١ — أما « ديميتير » فهي إلٰهة الارض وقوى الطبيعة المنتجة ، تروي الاساطير أن « هاديس » (ملك جهنم وإله الموت) ، قد خطف بنتها « كورتي » فأثار ذلك شجونها ، وآلت ألا يهدأ لها مضجع أو تعثر عليها ، فطفقت تبحث عنها مبلبلة الخاطر ، فارغة الفؤاد ، تتقاذفها الطرق ، وتتبادلها الاصقاع ، كأنها موكلة بفضاء الارض تذرعهُ ، حتى ألقت عصاها بمدينة « الزيس » الواقعة في الشمال الغربي من أثينا ، حيث استقبلها ملكها « تريبتوليم » استقبالاً باهراً ، حفظتهُ له ، وكافأته عليهِ بأن علمتهُ فن الزراعة . . . إلى آخر ما جاء في هذه الاسطورة . فكانت تمثل في أعيادها كل هذه الحلقات الاليمة التي تألفت منها سلسلة حياتها ، وتسرد قصصها في أشعار غنائية لا يسع سامعيها إلاَّ مشاطرة هذه الأم البائسة آلامها ، ومقاسمتها قلقها وبلبلة خاطرها في أثناء بحثها الهائج العميق ، والحقد على ذلك الإله القاسي الذي حرمها فلذة كبدها وصيَّرها إلى تلك الحال ، والسرور عند ما يظهر في ظلمات حياتها وميض أمنية أو بارقة أمل . هذا إلى أن من ذلك التمثيل ومن هذه الأغنيات كانت تظهر صور مختلفة للطبيعة وما ينالها في فصول السنة على اختلافها من نضرة وبهجة حيناً ومن ذوى

وذبول حيناً آخر . وبذلك كانت تمتزج في نفوس الرائين والسامعين عاطفة الاجلال لنواميس الطبيعة ونظمها والاذعان لماتشاؤه مع انفعالات الاضطراب والاسى ، — والهدوء والسرور ... التي تثيرها قصة ديمتير نفسها . ومن خلال هذا كله تنبثق معان فلسفية وتعاليم دينية تتعلق بالانسان ومصيره وضعفه أمام قوة القضاء

٢ — ولكن هذه العبادة ، على ما فيها من جلال وجمال وفضل على التمثيل ، لم تبلغ الشأو الذي بلغتهُ في هذه النواحي عبادة ديونيزوس

تروى الاساطير أن ديونيزوس (إله الخمر) ، قد ماتت امه سيميلية ولما تتم مدة حمله ، بصاعقة أرسلها عليها حبيبها المشتري (جوبيتر او زفس) حين طلبت إليه أن يريها كل مظاهر قدرته ، وحينئذٍ انتقل الجنين ديونيزوس إلى فخذ والده حيث قضى بقية مدة الحمل ، فوضع بجبل « نيزا » حيث تولتهُ الآلهة المسماة العذارى (Nymphs) ، ثم تعلّم فنّ زراعة الكرم من الإله « سيلين » وينسب اليه ، فضلاً عن هذا ، عدة امور لاتقل صفاتها التمثيلية عن حوادث حمله وولادته وتربيته الاولى ، منها انهُ شخص الى الهند على رأس كتيبة حربية كللت أعمالها بالظفر ، ومنها انهُ اشترك مع والده في الحروب التي أعلنتها آلهة المجمع الاولمبي على الشياطين وانه قد ابدى في هذه الحروب شجاعة نادرة جعلت رئيس المجمع الاولمبي يعجب به ويهنئه ويعتمد عليه ، ومنها انه قد اختطفه يوماً القرصان (لصوص البحر) ولكنه انتقم لنفسه منهم شر انتقام ، ومنها انه أحب « أريادن » بنت « مينوس » (أحد ملوك قريط الخرافيين) وأشربت حبه في قلبها ، ومنها انه كان لا يسير إلا مع رفاق فرحين يتألفون غالباً من « الساتير » (وهم في الطبقة الدنيا من طبقات الآلهة لهم قرنان صغيران وسوق كسوق المعز ووجه كوجه الانسان وقامة كقامته ، ويحملون بأيديهم غالباً مزماراً وتارة كأساً وآونة عصا « السيلين ») ومنها ان الملك « ليكورغوس » قد طرده هو ورفاقه احتقاراً لهم وظنّاً منه انهم لا حول لهم ولا قوة ، ولكنه قد طاش سهمه فقد اذاقه ديونيزوس كؤوس العذاب جزاءً له على فعلته الشنيعة (وهذه الاسطورة الاخيرة كانت منتشرة على الاخص بين اهل تراقية) .... وغير ذلك من الامور التي يضيق المقام عن حصرها . فاذا كان لأعياد ديمتير ما رأيت من الأثر في نشأة المسرح الاغريقي ، مع ان القصة التي كانت يتغنى بها في هذه الاعياد لاتشتمل إلاَّ على عنصر واحد أو عنصرين : حزن الام على فقد بنتها وبلبلة خاطرها اثناء بحثها عنها ، فاذا عسى ان يكون أثر اعياد ديونيزوس وقد اشتملت قصته على هذه المفاجآت العديدة التي تقدم ذكر بعضها والتي من شأنها ألا تدع قوة من القوى العاقلة حتى تستحثها ولا مظهر من مظاهر الوجدان حتى تثيره ؟ !

يذهب اليوناني يوم عيد ديونيزوس ، يوم عيد الهه الذي يضمر له الحب كله ويعرف له اياديه البيضاء على خصب حقله ونتاج كرمه ، يذهب الى المكان المعدّ لاقامة الاحتفال وقد

ملكت عليه عاطفته الدينية كل مشاعره وجعلته قابلاً لان يتأثر بأدنى مؤثر ويثور لاقل الاشياء إثارة ويطير لبه لاضعف صوت موسيقي : فيسمع الجوقة تغني قصة الاله المحتفل به ، بادئة بحوادث حمله وما أصاب والدته المسكينة التي راحت ضحية حمقها وشكها في قدرة المشتري ، فيتملكه حزن عميق لا ينقذه منه إلاّ عاطفة اشد وطأً : عاطفة القلق على مصير ذلك الجنين الذي صعقت أمه ولما تتم مدة حمله . وبينا هو في ذلك الاضطراب النفسي إذ يقرع آذانه خبر انتقال ديونيزوس من بطن امه الى نخذ ابيه فتهدأ ثائرته ويشمله فرح مؤقت لا يلبث ان يختفي ليحل محله ازعاج آخر عند ما يصل المغنون في قصصهم الى حادثة خروجه، بعد ان تمت مدة حمله ، من هذا الفخذ الوثير ، الى قمة ذلك الجبل الموحش ، حيث لا أم تتعهده ، ولا حاضنة تقوم بشئونه ، ولا غذاء يقيم أوده ، ثم تبرق اسارير وجهه فرحاً عند ما يعلم ان الله قد قيض له « العذارى » واستبدله امهات بأم واحدة . وهكذا دواليك يظل قلبه ميداناً لشتى العواطف حتى يؤذن مؤذن ان قد انقضى العيد

هذا الى ان تلك الاغنيات كانت تتعرض لقوانين الطبيعة الخاضعة لها الكائنات الحية ، ولا سيما ما يتعلق منها باعمال الاله ديونيزوس ، فتصف تتابع الفصول وآثارها على اشجار الكرم التي يميتها الشتاء ، فتيبس جذوعها وتذوي ثمرتها وتتساقط اوراقها ، ثم يبعثها الربيع فتسري فيها عناصر الحياة قليلاً قليلاً حتى تعود اليها نضرتها الاولى كاملة غير منقوصة . وبذلك كان يمتزج في نفوس السامعين والرائين نوعان من العواطف: عواطف الحزن والسرور ، والاضطراب والهدوء ، والخوف والطمأنينة . . . . وعواطف الاجلال لسنن الطبيعة وإكبار أعمالها والاعتراف لها بالجميل

ومن هذه الاغنيات أيضاً كانت تظهر معان فلسفية دقيقة تمثل عمل الانسان وجهله اذ يحسب احياناً شقوة ما يكفل لهُ الهناءة ، ويسعى تارة الى حتفهِ بظلفهِ فيجلب على نفسهِ الوبال بالوسائل التي يخال انها تحقق له السعادة . فلم يكن اثر هذه الاعياد قاصراً على الوجدان والعاطفة بل كان يتعداها الى كثير من مظاهر التفكير

وكان يساعد على إظهار كل هذه العواطف والمعاني في نفوس المغنين وسامعيهم ما كانوا يلتجئون إليه من وسائل الاثارة الصناعية مستفيدين مما كان يبيحه الدين الاغريقي في اعياد ديونيزوس خاصة من الاغراق في المأكل والمشرب والاستمتاع بلذة الحياة المادية وكانوا يأكلون حتى التخمة ويشربون حتى الثمل وتميد بهم النشوة فيرقصون

وقصارى القول : إن عبادة ديونيزوس كانت اضخم العبادات ثروة في العناصر التمثيلية، فلا غرو ان ينسب اليها أكبر قسط من الفضل في تمهيد الطريق أمام المسرح الاغريقي وإعداد النفوس لتذوقه ، وأن تعتبر أجلّ فاتحة لتراجيديات العصر الاتيكي

الله في الحياة

تتباين العلوم بمادتها ومقدماتها وبالمعاني التي تنتهي اليها رغم الاسلوب العلمي الذي يوحد بينها ورغم نزعتها الحادة الى الحقيقة الصرفة . فجلاء فكرة الله ليس وقفاً على علم دون آخر ولكل علمٍ رسالتهُ الخاصة في الله ووصفهُ الخاص لتلك الناحية من الله التي يتصل بها . فلا بد من العرض لجميع العلوم سعياً وراء تكوين فكرة نزيهة غير مشوهة عن رسالة العلم الحديث في الله وطبيعتهِ

وقد تناولنا في مقالين سابقين الوجهة الرئيسية من رسالة العلم الطبيعي في الله . وهي تتلخص في اثبات الحرية والابداع في اقصى تركيب الكون ، اي في تصرف الكتروناته ، كما انها تعزو الى الله التفكير الرياضي الخالص لانها تدهش اذ تلمح الرياضيات متغلغلة في جميع ما طرقه العلم بعد من جوانب هذا الكون . واذا وقرنا ان الرياضيات ترمز الى منتهى القدرية والضبط اتضح لنا ان الطبيعيات الحديثة تنتهي فيما يختص بالله الى اسناد صفتين في الظاهر متناقضتين اليهِ ، اعني صفة الحرية وصفة القدرية . اما كيف السبيل الى التوفيق بين هاتين الصفتين في نفس الرسالة الواحدة فلا اخال احداً يستطيع الآن التكهن بهِ . لكننا نعتقد ان هذا التناقض ظاهري اكثر منهُ حقيقي ، وزائل اكثر منهُ دائم ، ولنا من حالة العلم الحالية غير الكاملة ، ومن حداثة هذا الضرب من التفكير عن الله ، ومن يقيننا بان الفكرة الكاملة لله لا تستخرج من جانب واحد من جوانب النشاط البشري بل تبزغ في انسجام رسالات الحياة جميعاً — لنا من كل هذا ما يجعلنا نؤمل ونعتقد اننا انما نحن الآن في طور فطري لحركة لن تلبث ان ترقى مع الزمن الى درجات الكمال

إن الكمال النظري لا يهبط بغتة من عليين بل يرتسم بحروف تختلف وضوحاً وغموضاً في افق النشاط البشري المتواصل . ومن الجهل الفاضح ان ننتظر كمالاً جاهزاً من حركة ذهنية هي بعدُ في الطور الاول الشديد المرونة . ولا تطلبُ الحقيقةُ التاريخيةُ منا في هذه الحال الا ان ننفذ ببصيرتنا الى ما تنطوي عليهِ هذه الحركة وقد تنكشف عنهُ . من اجل هذا لا يقلقنا كثيراً ان نرى في رسالة العلوم الطبيعية في الله شيئاً من التناقض والأثرة والعيب ، بل نحن نحوط هذه الرسالة صبراً واطمئناناً حتى تتكامل وتتفتح عن جميع متضمناتها . ويقيننا ان هذا التكامل قريب الحدوث

وهناك جانب ثانٍ من النشاط الذهني الحديث غير جانب العلوم الطبيعية يحاول اصحابهُ بطريقتهم الفذة ان يستثنوا معنىً من معانيه يستطيعون اسنادهُ الى الله . هذا هو جانب العلوم

الحيوية . فهذه العلوم لها رسالة خاصة في الله، وفي هذا المقال نحاول عرض هذه الرسالة ونقدها

عند ما نشأت الروح الحديثة في علوم الاحياء الفت نفسها تجاه تراث ضخم من العقيدة والنظرية ، وسرعان ما ايقنت انها تتعارض اسلوباً ونظرة مع هذا التراث الهائل ، فاخذت على عاتقها بادئ ذي بدء نقد هذه الكتلة النظرية من اساساتها . وحركة النقد هذه بلغت اشدّها في القرن التاسع العشر ولا تزال نشطة الى يومنا هذا

اما العيب الكبير الذي رأته الحركة العلمية الحديثة في علوم الاحياء العتيقة فهو أن هذه ترتكز في عقائدها وتصريحاتها على ثلاثة فروض يكفيها جميعاً قليل من النقد الحديث حتى تنكشف عن اسس جدّ واهنة . اولاً إن جلّ ما يُطلب الى العالم في دراسته الاحياء ان يصنفها جميعاً فيضع كل حيٍّ في بابه الخاص به . ثانياً ان الاحياء موجودات ثابتة ثبوت عناصر الكيمياء لا سبيل لايّ تغيير اليها . ثالثاً ان الشرط الأوحد لصحة نظرية حيوية ان يقتنع التفكير الخالص بأنها نظرية معقولة فيجب لذلك ان يؤيدها الواقع

اذا قابلنا هذه الفروض الثلاثة بالروح العلمية السائدة في علوم الاحياء الحالية ألفيناها اشد ما تكون مناقضة لهذه الروح . فالتصنيف لم تعد له القيمة التي تخيلها العلم العتيق وهو الآن على اية حال يستمدّ الهامه من مبادىء غير تلك التي تحكمت في التبويب السالف . فمثلاً كان التصنيف السابق يبني معظم نتائجه على التشابه في التركيب دون اعتبار وافرٍ لوظائف الاعضاء اما الآن فالوظيفة هي اهم ما يسترشد بهِ في التصنيف الحديث . كذلك البيئة الخارجية لم يعرها التصنيف القديم انتباهاً يذكر بينا هي الآن بتفاعلها مع الكائن الحيّ الفكرة الاساسية لمعنى كلمة «حيّ» . هكذا الامر فيما يختص بقيمة التصنيف العامة لأن العلم عاد لا يرى كما كان يرى فيما مضى قيمة كبرى لمجرّد تبويب حيٍّ ما في صفرٍ او جنسٍ خاص لانهُ شغل عن كل هذا باستيعاب تصرّف هذا الحيّ وتفاعله مع محيطه وطريقة نموّه والتعاون البديع بين اعضائهِ ومجموعة العوامل التي تؤثر في حياته . وما لم تفهم جميع هذه الاوجه حق الفهم سقط ما توخاه العلم من قيمة التصنيف لأنّ هذا يصبح اذ ذاك تصنيفاً تعسفيّاً لا يستند الاّ على الوجهة التركيبية الجامدة من الحيّ ، وهذه الوجهة مهما ظهرت هامة بحد ذاتها لاتعدو في الواقع عن ان تكون احدى اوجه الحيّ الكثيرة . فالنظرة الجديدة للحيّ ترى في تركيبه وسيلة لاغير، ترمي الى ابعد منها ، اي الى استكمال ذاك التوازن العضوي بينهُ وبين بيئته الذي لا يتكشف معناه كاملاً الاّ باعتبار الحيّ كاملاً متواصلاً منذ تكوينهِ الى نهايتهِ ، مندمجاً كذلك في تاريخ سلالتهِ ، موحداً في النهاية في تاريخ الحياة العام

والدعامة الثانية للتفكير العضوي العتيق هي ان الاحياء مخلوقات ثابتة لم يطرأ عليها تحوّل في التركيب والوظيفة منذ خلقها . ويكفي بصدد هذا المبدأ ان نقول ان النظرة الحديثة ترمي

الى عكسه تماماً اي الى الايمان الوثيق بان الاحياء كسواها من الموجودات قابلة للتطور في تركيبها وتصرفها وانها قد تطوَّرت فعلاً خلال تاريخها تبعاً لمقتضيات تفاعلها ببيئتها. هذه نظرية التطور العضوي، والعالِمُ الذي يرى من الشجاعة المنطقية بعد دراسته الاحياء ألاَّ يؤمن بها غيرُ معروف لحسن الحظ . ولا اعرف وسيلة لتعريف القارىء مقام هذه النظرية الحاليّ افضل من احالته الى المقالة النفيسة في صدر مقتطف يونيو الماضي عن « دارون ومذهبه »

والمبدأ الثالث الذي تضمنتهُ النظرة الحيوية العتيقة هو مصيبة مصائب التفكير القديم على اطلاقه وهو لا يزال الى يومنا هذا متحكماً في تفكير فريق غير قليل من علماء الاجتماع. هذا المبدأ هو الخلط بين الحقيقة الواقعية والكمال النظري . فكان يكفي لبرهان وقوع حقيقة ان تتمكن من اظهار هذه الحقيقة وهي جزء صحيح في تركيب منطقي . فمثلاً نود ان نعلّل ظاهرة ما يسمونه بالتنويم المغنطيسي . هذه الظاهرة تُحسب معللة تمام التعليل اذا قلتَ مثلاً ان التفكير تموُّج اثيري ينبعث من دماغ مفكّر في الوسط المحيط به ،فاذا وجد في هذا الوسط دماغٌ آخر موافق لدماغ الاول من حيث خصائصه الاشعاعية التقط هذه التموجات وفهمها . ولذلك فالمنوّم المغنطيسي يبعث بموجات تفكيره في الأثير المحيط به والوسيط ينفعل بهذا التموج ويفهمه كما تفهم ذاك التموج الهوائي الذي تنفعل به اذناك اعني الصوت . هذه كلها نظرية جدُّ معقولة لا ينقصها شيء من حيث البناء المنطقي . ولكن هل هي حقيقة واقعية؟ هل ثمة تفكير على الاطلاق ؟ واذا كان ثمة تفكير فهل هو في الواقع تموجات اثيرية ؟ وماذا نعني بالأثير هنا ؟ وهل يلتقط دماغٌ ما تفكيرَ دماغ آخر بحيث ينفذ الى معناه ؟ هذه كلها لم تعن النظرة العلمية العتيقة لانها خلطت بين المعقول والواقع . وقد بلغ هذا الخلطُ اوجَهُ في علوم الأحياء ، فما نظريات ارسطو وبوفون ولامارك وفيزمان وغيرهم الاَّ شواهد على هذا الخلط . وقد وقع دارون نفسه ، على شدَّة حذره ودقته ، في نفس هذا العيب فيما يتعلق بآرائه في الوراثة وسننها

يمتاز التفكير العلمي الحديث بانه فصل نهائيًا بين الواقع والمعقول وحدَّد لكلٍ نطاقاً خاصًا به من الحقيقة القصوى . فالمعقول بحث امكان الوجود والواقع بحث حقيقته . وقد يلوح الواقع في بادىء الأمر غير معقول لكن في الحقيقة كل واقع لا بدَّ وان يكون معقولاً كذلك . اما المعقول على اطلاقه فكثيراً ما لا صلة له بالواقع . والعلم بتصويره الحديث انما هو بحث الحقيقة الواقعية ، في حين ان المعقول تتناوله الفلسفة والرياضيات . وشروط غير شروط الواقع لكن الاثنين ينسجان في الخبرة البشرية العامة

هذه الاركان الثلاثة للنظرة العضوية القديمة كانت اول ما شغل العلم الحديث بنقدها . وعملية النقد هذه ليست غاية لذاتها بل الغرض منها تعبيد الطريق للبحث الحديث .

ولذلك فما ان استقر في ذهن العالِم العلميّ ان هذه الاركان فاسدة تتطلب نقداً واصلاحاً حتى وقع النقد والاصلاح بالفعل ونشأت الطريقة العضوية الحديثة باسلوبها التجريبي ونزعتها الجامعة ونشدانها الحقيقة الواقعية . ولكل اسلوب ونزعة ونشدان فلسفة خاصة اي مجموعة من الفروض والمعاني تنطوي عليها جميعاً . فما هي الفروض والمعاني التي تنطوي عليها النظرة الحديثة للحياة والأحياء ؟

تنطوي اولاً على هذا الذي اشرنا اليه عن الواقع والمعقول . إنّ الامر الواقع فيما يختص بالحياة أنها ناحية واحدة من الكون قد كان بمقدور ذلك النطاق الأوسع ، اعني نطاق المعقول ، ان يجعلها غير ما هي عليه الآن . فما نشاهده من سنن الحياة الاساسية ، كضرورة تركيب البروتوبلازم وسنن الوراثة وسنن النشوء والتنسيق العضوي ، كلٌّ هذه امورٌ واقعيَّة يجب تبيانُها وتعرُّفُها بما هي عليه بالضبط . لكن ليس ثمة ، من الوجهة السابقية ، اي اطلاق او ضرورة فلسفية لوقوع هذه الامور . فقد كان بالامكان وضمن حيّز المعقول ان تقوم في صلب هذا الوجود حياة غير هذه الحياة لها نفس المسوّغ الفلسفي الذي لهذه الحياة . واذن نستنتج من كل هذا ان ممكنات الوجود اكثر مما نستطيع التعبير عنهُ من واقعياته

هذا من حيث الممكنات المطلقة للوجود . وللوجود كذلك ممكنات نسبية لها روعتها وجلالها . ذلك ان هذا النظام الذي تتعرفهُ في الطبيعة الحالية لم يحقق بعد جميع ما يضمره هو من ممكنات وقيمَ ، وكل ما نشاهده في هذا الكون من نجوم وذرات وبشر ينزع الى ضروب من الوجود لا يمكننا التكهن بها الآن . ففي قدس هذا الوجود ترتع انظمة وعلاقات وتراكيب من الابداع والغنى بحيث تلوح وهي وجود جديد مستقلٌّ عن هذا الوجود الذي يضمرُها

خذ هذه الحياة مثلاً لذلك ، فتاريخها منذ ظهورها على هذا السيار حافل بما نحن بصدده من ممكنات هذا الكون . فالصفات التي بزغت في الحياة خلالَ تفتّحها التاريخي ابلغ شاهد على ما يكنّه النظام الكوني الحاليّ من وفرة وغنىً . فالتفاعل الحيويّ ، والذاكرة ، والاستفادة من الخبرة ، والغريزة ، والاغتباط بالصحة والقوة ، والعاطفة ، والشعور ، والتعليل ، والمعرفة ، والوعي ، والجودة الادبية ، والحبُّ — جميع هذه تمثل وفرة ما كان مضمَراً في نطفة الحياة الاولى وفي سنن هذا الكون . ولا اقصد بهذا ان بين هذه النطفة الاولى وهذه الصفات علاقةً سببيةً كاملة ، بمعنى السببية المألوف ، بل اعني ان تفاعل الحياة منذ نشأتها مع ذلك النظام الذي يحتضنها احتضاناً ، اي الطبيعة وسننها وحركاتها، هذا التفاعل الحيوي المستمرّ انتهى الى هذه الصفات . فالحياة توازن دقيق مع الكون ، وصفات الحياة أثر هذا التوازن الدقيق

وعند النقد والتأمل الدقيقين نستطيع ان نلمح في تتابع الصفات الحيوية الذي وقع بالفعل في التاريخ نظاماً عامّاً يطبع هذا التتابع بطابع مميّز له عن اي تتابع آخر. هذا النظام هو ما نعبّر عنه عادةً بلفظة « رقيّ » او « تقدّم ». وقاعدة هذا الرقي هي الانتقال العام من البسيط الى المركّب ومن العام الى الخاص ومن الوحدة والانفراد الى الاتحاد والائتلاف. اي ان الكون، بسننه وتركيبه، سمح لبزوغ سلسلة من الصفات الحيوية تتسق جميعاً في قاعدة عامة هي هذه القاعدة التقدمية التي وصفنا. فعند ما بزغ وعي الانسان او حبه او عاطفته او اجتماعيته لم تبزغ هذه جميعاً في عالم معاكس معادٍ لها لقيامها بل نشأت في محيط شديد العطف عليها متين الصداقة لها. او بالاحرى انها نشأت لان الكون اراد لها النشوء، اذا صحّ اسناد صفة الارادة البشرية الى الكون

نخلص من هذا الى تصريحين هامين، اولاً ان الحياة وليدة الكون، ثانياً ان الرقي في الحياة وليد الكون كذلك

والله في هذا التصوير يصبح ذاك التركيب في صلب الكون الذي سمح بالحياة وبالرقي فيها. ان الحياة حقيقة واقعية والرقي فيها حقيقة واقعية كذلك. من اجل هذا وجب وجود تركيب خاص للكون يسمح بوقوع هاتين الحقيقتين. هذا التركيب هو الله. والله اذن حقيقة واقعية لا سبيل البتة الى التشكيك في وجودها

الستَ تشاهد الحياة في نفسك وفي سواك؟ اليست تلوح لك وهي منتظمة في سلسلة تقدّمية متواصلة، من نقيق الضفدع الى موسيقى بيتهوفن؟ كيف امكن حدوث هاتين الظاهرتين، الحياة ورقيها؟ لا بدَّ وان توفّر في الكون تركيب خاص شدَّ ازرها ولم يكتف بأن جعل من وقوعها امراً ممكناً بل احدث هذا الوقوع فعلاً. هذا التركيب، هذه الخاصة الكونية: هذا الجانب من اجزاء الكون وحركاته، هو الله

هكذا تستوي فكرة الله في فلسفة الحياة. وعلى هذا المنوال يبني الكسندر ومورغن وهُوتِيَهد وويمان فلسفتهم المشتركة في الله. فالله في نظر هؤلاء حقيقة واقعية كهذا القلم او كانف كليوبطرا لان الحياة والرقيَّ فيها حقيقتان واقعيتان. وما لم نطعن بالحياة وبرقيها ونؤمن بانهما وهمٌ وسرابٌ تعذر علينا نكران وجود الله

اذا اضطررنا الى اطلاق لفظة تصف هذه النظرة الى الله فإنّا نميل الى استعمال عبارة « النظرة الزمنية » لله، لانها تستمد فكرة الله من تفتّح معاني الحياة مع الزمن، فهي ترى يد الله وتستشف اثره من البزوغ العضوي المستمر لان هذا البزوغ لا بد وان يقع في كون ذي تركيب خاص يسمح بحدوثه. والله ليس سوى هذا التركيب الذي يكفل بزوغ الحياة ورقيها

ونحن ننتهي الى النتيجة نفسها اذا تناولنا الماماً النزعة الجامعة الحديثة في دراسة الحياة

والاحياء .زعيم هذه النزعة العلامة الانجليزي الاستاذ هولداين . هذا العالم لا يرى اي معنى لفكرة الحيّ مجرّدة عن فكرة البيئة التي يتفاعل معها . فالانسان مثلاً ليس هيكلاً عظميًّا محشوًّا اعضاء وانسجة مربوطاً بعضلات وبشرة وكلى ، وليس هذه بوظائفها وعملياتها ، بل هو جميع هذه موحَّدة بيئتها . فالاكسجين وخصائصه جزء من فكرة « الانسان » ، كذلك الغذاء والحرارة والماء والسنن الكيماوية وقشرة هذه الارض والجاذبية وكل ما يمس الانسان مسًّا جوهريًّا . لانّ لا كيان للانسان البتة الاّ بتآزر هذه الجوانب من الطبيعة وتعاونها بعضها مع بعض . وعلى حدّ قول الاستاذ هولداين ان القول بان الرئتين تتنفسان الهواء لا يفوق صواباً القول بانّ الهواء يتنفس الرئتين .لان بين هذين الموجودين — الرئتين والهواء — صلة من الوثوق والدقة بحيث يستحيل الفصل بينهما . فالانسان تركيب طبيعي لا ينحصر في جسمهِ فحسب بل يمتد الى جميع عوامل بيئته لان من هذه جميعاً يبزغ الانسان حقيقة واقعية يغتبط لها الكون ويمكنها من الوجود والاستمرار

هذان المنوالان — المنوال الزمني والمنوال الجامعيّ — يستمدّان اسلوبهما في التفكير من علاقة الموجودات بعضها ببعض ومن تساندها بعضها الى بعض ، اي انهما يريان الوجود بكليته وهو جسمٌ واحدٌ محكم التنسيق مستدقٌ التأثر والاحساس يرنّ بجوانبهِ الاربعة لايّ تغير يقع فيهِ ويعين نوع هذا التغيُّر وقيمتهُ .المنوال الواحد يرسم هذه الصورة من دراسته تاريخ الحياة ،والمنوال الآخر يرسمها من اعتبار حقيقتها الحالية .والعبارة الواحدة التي توحّد بين هاتين النظرتين هي عبارة « النظرة العضوية » فالكون بموجبها كلٌّ ذو اعضاء ينفعل بها ويفعل فيها ويتسق اتساقاً يختلف كمالاً ونقصاً باختلاف انسجام هذه الاعضاء بعضها مع بعض

وسواء انظرنا الى الحياة وهي حقيقة حالية ام حقيقة تطورية نشأت وتكاملت مع الزمن ، فانّا امام نفس النتيجة وهي ان الحياة وليدة الكون لا قيام لها بدون « ارادته » . فالله هو تلك الحقيقة الكونية التي جعلت من الحياة امراً ممكناً والتي لم تكتف بمجرد هذا الامكان بل احالتهُ الى حقيقته الواقعية

***

ونحن نقرُّ ان هذا النحو من تشييد فكرة الله متين ليس باليسير نقدهُ او تبيان عيوبه . ذلك لانه يرتكن على حقيقة الحياة ووفرتها . وما قد يلوح لاول وهلة ضعفاً في هذه الفلسفة يبدو بعد النقد والتأمل قوة ومناعة . واعرف عدداً من الانتقادات يلجأ اليها التفكير التقليدي ويحسبها كفيلة بهدّ هذه الفلسفة ، لكنها جميعاً قائمة بالفعل على خطاءٍ في تفهم ما ترمي اليهِ ونحن لن نحاول هنا بحث هذه الانتقادات وتبيان اوجه الضعف فيها لكنا بدورنا نود ان نشرح بايجاز نقصاً لهذه الفلسفة نحسبهُ نقصاً حقيقيًّا

لئن ظهرت هذه الفلسفة وطيدة البنيان فهي برغم ذلك لا تعدو ان تكون تركيباً ذهنيًا مجرّداً قوامها التفكير الخالص بشأن الله . والله قبل ان يكون تفكيراً خالصاً يجب ان يكون خبرة داخلية تهتز بها جوارح النفس من اعماقها . في هذه الحال يعرف الله مباشرة وتقاس قيمة اية فلسفة بشأنه على ضوء هذه المعرفة المباشرة . فأما ان تقبع في ركنة وتحصر فكرك في امر وتستخرج منه فلسفة عامة فشيء واحدٌ، واما ان تتناول هذا الامر بالخبرة الغنية المباشرة شيء آخر . ومتى امتزج امر من الامور امتزاجاً وافياً في خبرة الانسان سهل تفهم اسراره الذهنية . لان الذهن عندئذٍ يستضيء بالخبرة الداخلية وينتفع بها ويتخذها محكاً لموضوعاته وتصريحاته

الخبرة الواقعية تُقدّم مادة غزيرة للتفكير، والذهن يرتّبها وينظمها ؛ فالذهن تنظيم الخبرة وتنسيقها واذا حصرت ذهنك في دائرة حركته شحّت نفسك وظهر تفكيرك باهتاً لا لون فيه ولا غنىً واقعيٌّ . كذلك اذا جعلت من حياتك انتقالاً مستمرًا من خبرة الى خبرة دون ان تنتحي بنفسك هنيهةً للتأمل في هذا الغنى الاختباري ولتنسيقه واستشفاف معناه تكون قد جنيت على كمال نفسك بتضحيتك جانبها الذهني الهام في سبيل جانبها الاختباري الهام ايضاً . هذان الجانبان يجب ان ينسجما ويتعاونا في الحياة الكاملة لان عمل الواحد خلق مادة التفكير وعمل الآخر تنسيق هذه المادة المعروضة . وفي نظرنا ان اهم ما ينقص فلسفة الله العضوية التشديدُ اللازمُ على الخبرة البشرية بشتّى الوانها . فالله حقيقة يجب ان يخفق القلب لها قبل ان يتناولها العقل بالنقد والتحليل . ومحالٌ ان يتعرّف العقل المجرّد جميع اسرار الله لان العقل المجرّد ليس بكل ما في الوجود . لكن لكل خبرةٍ دينية يجب ان ينتظم تفسير ذهني ينيرُها ويستخلص جميع معانيها وافتراضاتها

***

الدين اليوم في كل الارض بحاجة ماسة الى ثورة فكرية تتناول اسس التفكير فيهِ . واهم هذه الاسس حقيقة الله . فالبحث الجديد يجب ان يعرض لفكرة الله بالنقد الصريح والتحليل النزيه حتى يستقيم التفكير عن الله مع نزعات الحياة الجديدة ومراميها . ويقيننا ان ضرر اهمال الله لا يقل عن ضرر اساءة التفكير فيه ، لان فكرة الله تضمر اعظم ما عرفت البشرية من نعمٍ وخيراتٍ وقيم، ولان في تصويرها الصحيح خلاص البشرية الوحيد من عبودياتها واضطراباتها وشرورها . وويل دائم للبشرية ان هي اخطأت التفكير في الله . اما اذا عرفت السبيل الى التفكير العلمي الحديث بشأن الله وقيمته فابواب الخير والنعيم مفتوحة امامها . وشرطا هذا السبيل ان يؤخذ القلب بخبرة الله المباشرة والعقل بالتفكير المجرّد فيهِ . عندئذٍ تنفتح امام العقل والقلب ابواب لم تسمع بها اذنٌ ولم يحلم بها شاعر ، وعندئذ يعرف الانسان حقيقة معناه في الوجود

شارل مالك

موت عزرائيل

في الزمان المجهول، في كَنَف الغيـ   ب وحيث الرُّجْعَى ،وحيث المقرُّ
حيث تبدو الدنيا كأول عهدٍ   أنشئت فيه : بَلْقعاً لا يَسُرُّ
قد توارى سكانها وتخلَّوْا   فتساوى كوخٌ لديها وقصرُ
لا خرابٌ فيها فينعق بُومٌ   أو غصونٌ فيها فينشد طيرُ
لا رياضٌ فيها فترتاح نفسٌ   لا زهور فيها فينتشرُ عطرُ
قد توارت أنهارُها ، وتلاشي   كلُّ حُسْنٍ منها ، وغيب سحرُ
ليس فيها إنس يعيث وجِنٌّ   ليس فيها وحشٌ يجوب ونسرُ
ساحةٌ يخطر السكون عليها   لا دبيبٌ ، لا همسةٌ تستسرُّ
لا زمانٌ ساعاتهُ تتوالى   فتواري عصراً ، ليعقب عصرُ
أو نهارٌ يمضي ، ليعقب ليل   أو ظلامٌ يخفى ، ليطلع فجرُ
سكنت ريحها فليست تدوّي . . .   عالَمٌ مائتُ الطبيعةِ صِفرُ

***

نظرُ اللهُ للدُّنى فرآها   قد تلاشت آثارها فهي قفرُ
مثل رأسٍ في القبر ، كانت قديماً   مَهْدَ فكرٍ يغزو الدُّنى وهي سِرُّ
نام عنها شرٌّ تولَّد فيها   واختفى غيُّها وكان يغرُّ
وتولَّى منها بَنوها حيارى   لم يفدْهم جمعٌ هنالك وفرُ
أسلَمَتْهم للجهد والكدِّ حتى   أسلمتهم لراحةٍ هي أسرُ
أخرجتهم من ظلمةٍ فإذا هم   بعد حينٍ في ظلمةٍ هي شرُّ
أخرجتهم من ضيّقٍ فإذا هم   بعد حينٍ في عالمٍ هو قبرُ . . .
نظر اللهُ للدُّنى فرآها   ليس فيها إلا خيالٌ يمرُّ

«إيهِ .. عزريلَ : هل توارَوْا جميعاً وتلاشَوْا عن هذه ... واستقروا ؟
واستردّت افلاذها من رغبتهم ؟ . . . » « قد تلاشوا مولاي ، وانقضّ دهر ! »

* * *

« إيه .. عزريلَ ! حينُك الآن دانٍ فامضِ واجرعْ ما لستَ منهُ تفرّ »

* * *

فمضى خاشعاً وفي يده المنجلُ يهتزّ اهتزازةً هي ذعرُ
حائرَ الطرف في القفار كئيباً أتراهُ من موتهِ يقشعرُّ ... ! ؟
قد أذاق الموتَ الخلائقَ طرّاً فليذُقهُ ! ... فالموت حلوٌ ومرُّ
وترامى تفكيرهُ في نواحٍ كان يسعى فيها فيختتمُ أمرُ
خادعاً يهبط الثرى فإذا في قبضتيهِ : عُمْرٌ ، وعمرٌ ، وعمرُ
محزناً يبعث الأسى حيث حلّتْ قدماهُ فيختفي منهُ بشرُ
قد ترامى تفكيرهُ فإذاهُ مبصراً مسرحاً مرائيهِ كُثْرُ . . .
تلك أمٌّ ضمّتْ حشاشةَ قلبٍ بين صدرٍ يخفي الأسى ويُسِرُّ
قد تعالت أنفاسها دعواتٍ فإذا الموت بالحياة يمرُّ . . .
وكبيرٌ قد عاجلتهُ المنايا في فتاةٍ بالشيخ كانت تبرُّ
يرتجيها في آخر العمر كيما تتولى إغماضهُ فيقرُّ . . .
وفتاةٌ غال الردى بذويها فإذاها الى الشقاء تُجرُّ
وحبيبٌ يشتاق رؤية وجهٍ فإذا الوجه في الثرى مستقرُّ
وأزاهير في الكمائم راحت دون رَيْشٍ ، وفي الأزاهير عطرُ
وبلادٌ اصابها في زعيمٍ كان ترنو اليهِ إن هبَّ شرُّ . . .
وتوالت رُؤى ضحاياهُ تبدي صُوَرَ الهول وهو أسوَدُ نُكْرُ
كلُّ هذي الاشباح كانت سراعاً في خيال الموت الكئيب تمرُّ

* * *

ثم حان الوقتُ الذي ليس منهُ في محيط الاقدار يوماً مفرُّ
فدوَتْ صرخةٌ فمادت لها الأرضُ وطافت اصداؤها لا تقرُّ
ودوَتْ صرخةٌ فأسلم فيها ملك الموتِ رُوحَه تستقرُّ

حسن كامل الصيرفي

القاهرة تستولي على بغداد

محاولاتها وآثارها

كانت بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري معركة دول مختلفة وأجناس متباينة ومذاهب متعددة متعادية وسياسات متناقضة ، فالعباسيون وخليفتهم عبد الله القائم في سبيل إحياء عزهم ، والبويهيون وملكهم ابو نصر الرحيم في امر مريج وسياسة مضطربة ، والعرب وامراؤهم الكبار دبيس الاسدي ومهارش العقيلي وأمير خفاجه وغيرهم اولو سلطة ومرة عظيمتين في العراق ، والسلاجقة وملكهم طغرلبك في قصده الى بغداد والجند من اتراك وفرس وعرب في شغب مستطير مستمر ، والفتن المذهبية السنية والشيعية بين اهل بغداد حاملة اوزارها عظيم اوارها ، والناس من هذه البلايا والرزايا في ويل عظيم وعلى شفا هلاك متوقع وغلاء متكرر

وصلت الموجة السلجوقية الى بغداد واستحوذ عليها طغرلبك وتمهدت الطريقة السنية ببغداد وتضاءلت الشيعية وهي مذهب البويهيين المطرودين من بغداد، واستقر الخليفة عبد الله القائم بعد اضطرابه ٠

كان من امراء الاتراك في زمن الملك الرحيم « ابو الحارث ارسلان عبد الله البساسيري » مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة وكان الخليفة القائم يقدمه على جميع الاتراك وقلده الامور بأسرها وخطب له على منابر العراق وخوزستان فعظم امره وهابته الملوك ، وكان وزير القائم رئيس الرؤساء علي بن الحسين المعروف بابن المسلمة فوقع بينه وبين البساسيري شر فهرب البساسيري من بغداد وظهر للخليفة القائم تشيعه وانهُ عازم على قصد بغداد ونهب دار الخلافة بالجانب الشرقي منها والقبض عليه ، فاستنهض الخليفة اباطالب محمد بن ميكائيل طغرلبك وكان بالري من ايران واستعانه على البساسيري ورغبهُ في المجيء الى بغداد ، وهذا سبب استيلاء طغرلبك على بغداد سنة ٤٤٧ هـ [٢] وقد قدمنا ذكره والاشارة اليه

لما سمع البساسيري بانتحاء طغرلبك هرب الى الرحبة [٣] وكاتب صاحب مصر المستنصر بالله معد بن الظاهر لاعزاز دين الله العلوي الفاطمي « ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ » فأمده بالاموال

---

(١) الوفيات « ١ : ٦٥ » وتاريخ السيوطي ص ٤٢٨ (٢) الفخري ص ٢١٥ والسيوطي ص ٤٢٨

(٣) هي رحبة مالك بن طوق وهي بين الرقة وعانة على الفرات انشئت في عهد المأمون

والعدد وحينئذ نهد الى بغداد بجيش من الاتراك وغيرهم ، اما طغرلبك فانه ثار عليه اخوه ابراهيم حاكم بلاد الجبل المعروفة بالعراق العجمي وخطب لخليفة مصر في همذان واصفهان وغيرها وقطع خطبة القائم العباسي وليّ اخيه طغرلبك، وكان ارسلان البساسيري هو الذي كاتب اخا طغرل المذكور وحسن له الخلاف عليه واطمعه في الانتصاب منصبه اذا قهره ودحره، وبانصراف طغرلبك لحرب اخيه بقيت بغداد في يد وزيره عميد الملك [1] ابي نصر محمد بن منصور ، وكانت هذه الحال فرصة للبساسيري ، فانتهى بجيشه الى الانبار وزحف منها الى بغداد تحت الرايات البيض الفاطمية وملك الجانب الغربي منها ، ثم عقد جسراً وعبر الى الجانب الشرقي ونزل بازاء الزاهر وهو بستان جميل عظيم [2] وحارب جيش الخليفة ودخل بغداد، وبدخوله ابتدأ استيلاء القاهرة على بغداد وانفتح باب في السياسة لم يكن احد يجرأ على فتحه قبل البساسيري [3] ، وكان ذلك سنة ٤٥٠ هـ قال ابن الطقطقي في البساسيري وعن بغداد « تغلب البساسيري على بغداد ونهبها وقتل من بها وأخرج الخليفة فحبسه بقلعة الحديثة وكانت فتنة البساسيري فتنة عظيمة » ثم قال « ثم ظفر بابن المسلمة رئيس الرؤساء فنكل به ، فمن جملة ما فعل به انه حبسه ثم اخرجه مقيداً وعليه جبة صوف وطرطور من لبد احمر وفي رقبته مخنقة فيها جلود مقطعة شبيهة بالتعاويذ واركب حماراً وطيف به في المحال ووراءه من يضربه بجلد وينادي عليه ، ورئيس الرؤساء يقرأ « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » وشهره في بغداد ، فلما اجتاز بالكرخ نثر عليه اهل الكرخ المداسات الخلق وبصقوا في وجهه ووقف به بازاء دار الخلافة من الجانب الغربي ثم أعيد وقد نصبت له خشبة في باب خراسان (من ابواب مدينة المنصور) فانزل عن الحمار وخيط عليه جلد ثور سلخ في الحال وجعلت قرونه على رأسه ، وعلق بكلاب في حلقه واستبقى في الخشبة حيًّا الى ان مات من يومه [4] » اهـ . وقال ابن خلكان « واجتمع قريش (بن بدران العقيلي) مع ارسلان البساسيري المقدم ذكره على نهب دار الخلافة ثم ان الامام القائم بامر الله جرى على سجيته في الحلم وكتب الى السلطان طغرلبك المقدم ذكره في المحمدين ليرضى عنه . . . » وكان ارسلان هذا يعذب بالقنارة ويقتل بها [5] وهي معروفة عندنا اليوم بالعراق يستعملها القصابون فيعلقون بها الذبائح لها أسنة مربعة محددة معقوفة . وقوله « وعلق بكلاب في حلقه » يوضح صورة التعذيب بها . كان دخول البساسيري فرجة للشيعة ومحرراً لهم من ذلّ الاضطهاد والامتهان ومنهم اهل الكرخ وهم الذين نثروا التاسومات (الاحذية) على رئيس الرؤساء — كما تقدم —

---

(١) ترجمته في الوفيات « ٢ : ١٨٤ » (٢) ارض هذا البستان تشمل البلاط الفيصلي الحالي ببغداد وما حوله الى حد واسع (٣) خلاصة الذهب المسبوك ص ١٩٥ والفخري ص ٢١٧ والسيوطي ٤٢٨ والوفيات « ١ : ٦٥ » و « ٢ : ٢٢٣ » (٤) الفخري (ص ٢١٥ — ٧) (٥) الحوادث الجامعة في المائة السابعة ص ١٢٧ و ١٥٠ من نسختنا الخطية

الخطبة للفاطميين ببغداد

ابتدأت الخطبة للمستنصر الفاطمي في مساجد بغداد من سنة «٤٥٠» الى سنة «٤٥١» والجوامع المشهورة إذ ذاك : جامع المنصور بالجانب الغربي ببغداد ويسمى «جامع المدينة» ايضاً اي مدينة المنصور المدورة ، وجامع الخليفة المكتفي ويدعى «جامع القصر» قصر التاج ويعرف اليوم بجامع سوق الغزل ؛ وجامع المهدي بن المنصور ويسمى «جامع الرصافة» ايضاً بالجانب الشرقي من بغداد ولا أثر له اليوم ولا للرصافة فانها اصبحت بساتين ومزارع وبنى فيها على المهد الفيصلي« جامعة آل البيت » ثم عطلت، وزيد في الأذان « حي على خير العمل »[1] على حسب مقتضى المذهب الجعفري ، وقد أجبرت القاهرة بغداد على تحمل هذه التتمة في الاذان كما أجبر المغرب البلاد المصرية عليها عند استواء جوهر الصقلي فيها[2] ؛ وامر ارسلان ببناء مشهد الامامين علي الهادي والحسن العسكري في بلدة سامرا ، قال كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي الشافعي في حوادث سنة «٦٤٠» من كتابه «وفيها وقع حريق في مشهد سر من رأى فأتى على ضريحي علي الهادي والحسن العسكري — ٤ — فتقدم الخليفة المستنصر[3] بالله بعمارة المشهد المقدس والضريحين الشريفين واعادتهما الى اجل حالاتهما، وكان الضريحان مما امر بعمله ارسلان البساسيري فجعل النار سبباً لأزالة اسمه ! ! ![4] »

ظفر طغرل بك بأخيه ابراهيم فقتله ثم كاتب متولي «عانة» مهارش بن المجلي في رد الخليفة الى بغداد ورجع هو اليها ليخرج البساسيري منها فلما قرب عسكره منها هرب البساسيري الى واسط فلحقه الجيش وحاربوه فأسروه ثم قتلوه وبعثوا برأسه الى بغداد فطيف به في اسواقها وشوارعها ثم علق قبالة « باب النوبي »[5] وهو الباب الكبير من ابواب دار الخلافة بالجانب الشرقي وعنده يجلس الحاجب الاكبر للخليفة العباسي ، وكان مقتل البساسيري سنة «٤٥١»هـ فكانت مدة استيلاء القاهرة على بغداد والخطبة فيها للمستنصر الفاطمي سنة واحدة كما مر ثم عاد الخليفة القائم الى بغداد وانتعشت الخلافة العباسية بعد تلك الكبوة الشديدة[6] واخذ الخليفة يتتبع مخالفيه في المذهب فيضطهدهم ويشرد بهم

كتاب القائم لمحو سنة الفاطميين وغيرهم

كتب القائم الى نقيب الطالبيين بالبصرة السيد يحيى كتاباً صورته « شرف الله مقام الجانب الكريم السيد النقيب الشريف النسيب الحسيني ،بقية البيت النبوي، محب خليفة الامة ، عضده

(١) تاريخ السيوطي ص ٤٢٨ . (٢) الوفيات « ١ : ١٢٩ » (٣) هذا المستنصر العباسي لا الفاطمي والفاطمي اقدم منه بكثير (٤) الحوادث ص ٤٩ من النسخة المخطوطة (٥) بضم النون قال ابو عبيدة «اللوبة والنوبة بوزن الكوفة فيهما الحرة وهي حجارة سود ومنه قيل للاسود لوبي ونوبي » (٦) الوفيات « ١ : ٦٥ » والسيوطي ٤٢٨ — ٩

بنصرة السنّة،صالح الاولياء ، علم هُداة العلماء،لا زال عرفانهُ منيعاًوهداه متبعاً ، ما داخل الكلام كيت وكيت وتليت(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) نحن نجلك عن الوصايا إلاّ ما يتبرك بذكره ، ويسرّك إذا اشتملت على سرّه ،فأهلك أهلك،راقب الله ورسوله جدّك — ص — في ما أنت عنهُ من أمورهم مسؤول وارفق بهم فهم أولاد أمك وأبيك حيدرة والبتول ، وكف يد من علمت أنهُ استطال بشرفه فمدّ الى العناد يداً واعلم بان الشريف والمشروف سواء في الاسلام إلاّ من اعتدى ، وأن الاعمال محفوظة ثم معروضة بين يدي الله، فقدم في اليوم ما تفرح بهِ غداً ،وأزل البدع التي ينسب اليها أهل الغلو في ولائهم والعلو في ما يوجب الطعن على آبائهم لانهُ يعلم أن السلف الصالح — رض — كانوا منزهين عما يدعيه خلف السوء من افتراق ذات بينهم ويتعرض منهم اقوام لما يجرهم الى مصارع حينهم،فللشيعة عثرات لا تقال من اقوال لا تقال ، فسدّ هذا الباب سدّ لبيب واعمل في حسم موادهم عمل أريب ، وقم بنهيهم والسيف في يدك قيام خطيب ، وخوفهم من قوارعك مواقع كل سهم مصيب ، فما دعا « بحيّ على خير العمل » خير من الكتاب والسنة والاجماع فانظم في نادي قومك عليها عقود الاجماع ،ومن اعتزى الى اعتزال أو مال الى الزيدية في زيادة مقال وادعى في الأئمة الماضين ما لم يدعوه أو اقتفى في طرق الامامية بعض ما ابتدعوه ، او كذب في قول على صادقهم أو تكلم بما أراد على لسان ناطقهم ، وقال : إنه يلقى عنهم سرًّا حُشُوا على الامة ببلاغه ، وذادهم عن لذّة مساغه ، أو روى عن يوم السقيفة والجمل غير ما ورد اخبارا ، أو تمثل بقول عبد شمس : قد أوقدت لبني هاشم نارا ،أو تمسك من عقائد الباطن بظاهر أو قال: إن الذات القائمة بالمعنى تختلف في مظاهر ، أو تعلق له بأئمة الستر رجاء [1] ، أو انتظر مقيماً برضوى عنده عسل وماء[2] ،أو ربط على السرداب فرسه لمن يقود الخيل يقدمها اللواء ، وتلفت بوجهه يظن علياً — ك — في الغمام،أو تفلّت من عقال العقل في اشتراط العصمة في الامام، فمرفهم جميعاً أن هذا من فساد أذهانهم وسوء عقائد أديانهم ، فانهم عدلوا في التقرّب بأهل هذا البيت الشريف عن مطلوبهم ،وان قال قائل : إنهم طلبوا ، فقل لهم(كلاّ بل ران على قلوبهم ما كسبوا) وانظر في امور أنسابهم نظراً لا يدع مجالاً للريب ، ولا يستطيع معهُ أحد أن يدخل فيهم بغير نسب ،ولا يخرج منهم بغير سبب، وساوِ المتصرفين في اموالهم في كل حساب واحفظ لهم كل حسب وأنت أولى من أحسن لمن طعن في أسانيد الحديث الشريف او تأوّل فيهِ على غير مراد قائله — ص — تأديباً [3] ، وأرهم ما يوصلهم الى الله والى رسوله طريقاً قريباً،

(١) نوه بالخليفة هنا وعرض بالامامية الاثني عشرية الذين يقولون :-غاب الامام الثاني عشر محمد بن الحسن وسيظهر ويملأ الارض عدلا وهداية (٢) اشار الى الشيعة الكيسانية المختارية التي قيل إنها ادعت غياب محمد ابن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية في رضوى وانه سيعود (٣) اراد: أنك احق بتأديب هؤلاء المبتدعين تأديبا حسنا كاملا

وخلّ من علمت أنهُ قد مال عن الحق وأمال الى طريق الباطل فرقاً وطوى صدره على الغل وغلب من أجله على ما سبق من علم الله من تقديم من يقدم حنقاً ، وجاروا — وقد اوضحت لهم طريقته المثلى طرقا ، واردعهم إن تعرضوا في القدح لنضال نصال وامنعهم فان فرقهم كلها — وان كثرت — خابطة في ظلام ضلال ، وقدّم تقوى الله في كل عقد وحل ، واعمل بالشريعة الشريفة فانها السبب الموصول الحبل ، والله يرفعك في الزلفى الى اشرف محل ويمدّ لك رواق عز اذا ابرز له البرق خدّه خجل ، أو مدّ الغمام معهُ سرادقاته اضمحل [1]

وبعد دخول هولاكو بغداد سنة « ٦٥٦ » هـ واستيلائه على العراق صارت القاهرة ملجأ الاسلام الأعظم وملاذ العلماء والأمراء المضطهدين ومأمن الخائفين الهاربين فكان لها ومن صريح حقوقها أن تستولي على بغداد التي استئصلت منها الخلافة العباسيّة تلك الخلافة الدينيّة الرسميّة ، وأصبحت تراثاً لأبناء العبابسة ولا سيّما من التجأ منهم الى مصر التي كان يحكمها الأتراك مماليك الأيوبيّة وكان ذلك العهد عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس « ٦٥٩ — ٦٧٦ » هـ وكان على شيء هائل عظيم من القوة والسيطرة والعظمة واعداد الجنود والعتاد ، فالتجأ اليه « أبو القاسم أحمد بن محمد الظاهر بأمر الله العباسي » هرباً من سيوف التتر وكان معتقلاً ببغداد — على عادة الخلفاء في أقاربهم — فركب الظاهر للقائه ومعه القضاة وبقية أرباب الدولة فاشتق بسيره القاهرة ثم أثبت نسبه على يد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ثم بويع بالخلافة وذلك سنة « ٦٥٩ » هـ ونقش اسمه على السكة [2] وخطب له ولقب بلقب اخيه المنصور بن الظاهر وهو « المستنصر بالله » وتم امره وتثبت استخلافه الصُوري

ازداد طمع القاهرة في بغداد بهذا الخليفة العباسي وارث الخلافة العباسيّة وعزم الخليفة او اعزموه على التوجه الى العراق واتفق مع عزمه عزم صاحب الموصل الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ وأخيه علاء الدين بن بدر الدين صاحب سنجار والمغول اللائذين بالملك الظاهر من غدر التتار ، فجهز السلطان الخليفة وابني صاحب الموصل وغرم عليه وعليهم « مليون دينار » و « ٦٠ » الف درهم فنهد الخليفة بعسكره الى العراق ففتح الحديثة وهيت منه وكادت القاهرة تستولي على بغداد ولكن عسكر التتار أدركهم فصافّهم فقتل من جيش القاهرة جماعة كبيرة وذُهِبَ بالخليفة المستنصر بين سمع الأرض وبصرها ، قيل قُتِل وهو الظاهر ، وقيل : أضمرته البلاد ، وذلك في ثالث المحرم من سنة « ٦٦٠ » هـ وكان المقاتل له من

---

(١) صحاح الاخبار (ص ٧١ — ٢ — ٣) والنبث المصان

(٢) وجد احد العمال في ٥ مارس سنة ١٩٣٢ بارضدار من دور القاهرة قدرين مملوءتين من هذه النقود منها « ١٥٧ » نقدة ذهبية ، وقد قرأنا قطعة منها فوجدنا ما صورته « لا اله الا الله محمد رسول الله الذي ارسله بالهدى » وعلى الوجه التالي السلطان الملك الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس قسيم أمير المؤمنين» فهي مسكوكة بعد سنة « ٦٥٩ هـ »

التتار « قرابغا » نائب هولاكو ببغداد [1] ولم تهيء الاتفاقات للقاهرة الاستيلاء على بغداد هذه المرّة

كان العراقيون قد سمعوا بتجديد الخلافة العباسيّة ومنهم من علم بمهاجمة الخليفة لعسكر التتار ، فهوت أفئدتهم الى القاهرة وركنت نفسهم اليها ولا سيّما الناقين على التتار ، وانفتح للقاهرة طريق شرعي وسبب ثأري للاستيلاء على بغداد ورجعها الى خلفاء العباسيين ظاهراً وسلطنة المماليك حقيقة ، وأحسّ التتار بهذا الشعور في العراقيين وذلك الحزم والطوية من المصريين فطفقوا يؤاخذون الناس على الظنة ويعاقبون بالفتنة ويقتلون بالشبهة ويسرفون في العقوبة بأضعف الأدلة ، ففي سنة « ٦٧٧ » هـ أرسل السلطان « أباقا بن هولاكو » إزعاج والي العراق «علاء الدين عطا ملك الجويني» الى الأردو (المعسكر) مقر سلطنته لاستنطاقه عمّا نسب اليهِ من مكاتبة سلطان مصر الملك المنصور قلاوون الألفي في اطماعهِ في العراق والانتقاض على التتر وقبض على شرف الدين علي بن أميرك كاتب الانشاء ببغداد وطوّق بطوق من حديد وأشخص مع الوالي وقبض على حمزة التكريتي التاجر وطوّق وازعج معهما إلى الأردو ، وكان سبب هذه التهمة أن رجلاً من أهل بغداد يعرف بنجم الدين بن حسين ويلقب بالكيباية اتصل بخدمة شحنة بغداد « تتارقيا » التتري واتخذه لنفسه هو وابن بغا الشرابدار جاسوسين على والي العراق علاء الدين الجويني ، فاتفق احمد بن بغا الشرابدار ونجم الدين الكيباية على ان نسبا أكابر اهل بغداد الى مكاتبة سلطان مصر قلاوون المذكور باتفاق علاء الدين معهم وتحدث الكيباية بذلك عند الامراء والحكام فأحضروا والي العراق وصاحب الديوان علاء الدين المذكور وجماعة من الاكابر الذين نسبهم الى المكاتبة — وقد ذكرنا منهم شرف الدين علي بن أميرك والتاجر حمزه التكريتي — واستعاد الامراء كلام الكيباية ، فقال اشياء كثيرة ، فطولب بالبرهان على صحتها ، فلم يقدر على ذلك ، فلما شدّد عليهِ وضويق قال: إني كاذب في كل ما قلته والذي بعثني على الكلام نصرة الدين بن ارغش واخوه وولده ، فأحضروا وسئلوا عن ذلك ، فاعترفوا بهِ وقالوا : إن تتارقيا الشحنة وضع القائل على ما قاله فأمروا بحبس الجميع ، وأحضر أحمد بن بغا الشرابدار ، وسئل عن الحال فاعترف بها ، فسلم الى صاحب الديوان علاء الدين فأمر بحبسه فحبس اياماً ثم عملت له حجلة وسمّر عليها وجعل على رأسهِ مسخرة كان ببغداد يعرف بالموصلي يصفعهُ بنعل ويروّحهُ بها ثم يبول عليهِ والناس يجرّون الحجلة بالحبال في الاسواق والدروب في جانبي بغداد ،وكانوا يحبون صاحب الديوان،

(١) مختصر ابن الساعي لرجل من اهل القرن الثامن للهجرة ص ١٣٩ ومثله ما في ص ٤٨٩ من السيوطي وص ٤٩٢ من مختصر الدول وص ٨٥ من الاعلام باعلام بيت الله الحرام وص ١٨٣ من القرماني وص ١٢٧ ج ٢ من دول الاسلام

فأخذ يسب الصاحب ويبسط لسانه فيه ، فنفذ اليهِ من قال له : إن الصاحب قد عفا عنك وامر بتخليصك من الحديد على ان يقطع لسانك فان آثرت ذلك فاخرج لسانك لنقطعهُ ، فأخرجهُ فوضعوا فيهِ مسلّـه فنعهُ من الكلام هذا الشكل ، وما زالوا يعذبونهُ بجر الحجلة واضطرابها الى آخر النهار ، ثم قطع رأسهُ ووضع مكانه رأس معز بلحيته وطيف بهِ في بغداد واحرق العوام جثته ورفع رأسه على خشبة وطيف ايضاً بهِ ، ثم ان نصرة الدين بن أرغش المذكور احضر بدويًا واعطاه كتباً ملصقة وأشار اليهِ ان يقول. هذه سلمها اليّ صاحب الديوان علاء الدين ، فلما قال ذلك أخذ وحبس ، أما الكيباية فقال : إن الامير فخر الدين مفدي بن قشتمر كان ايضاً ، من جملة الجماعة الذين كاتبوا سلطان مصر فأحضر وسئل عن ذلك فانكر ، فوكّل بهِ ، ثم قال الكيباية : ان العدل جمال الدين احمد بن عصية هو كان يكتب عن مفدي ، فاحضر وسئل فانكر فوكل بهِ ، ثم إن الصاحب عرف صدق العدل جمال الدين وبراءة ساحته فافرج عنهُ وخلع عليهِ وقدم له مالاً ولم يزل الكيباية والبدوي في السجن الى ان اشخص علاء الدين الى أردو السلطان اباقا بن هولاكو فاخذهما صحبته ، وهناك استنطقوا الجميع عن هذه التهمة فظهر كذب المدعين وبراءة ساحة الصاحب ، فأمر أباقا خان بقتل الكيباية وأنفاذ يديهِ الى بغداد ورأسه الى بلاد الاناضول ونادوا في الاسواق «هذا جزاء من يقدم على عبيدنا المخلصين بالزور والالتباس ، «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» وسلم أصحاب الوالي علاء الدين معهُ وعزل تتارقيا مدير الشرطة ببغداد. وفي سنة «٦٩٢» هـ عزم الملك الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون الالفي سلطان مصر على المسير الى العراق وتجهز وعمل السلاسل ومروساً من القنب لأجل الجسر ثم برز من القاهرة الى الصالحية في آخر هذه السنة فافسد الامير بيدر بن كتبغا عليهِ الامراء منهم حسام الدين لاجين وكتبغا ، فقتلوه يوماً وهو يتصيد وشرقت القاهرة بهذه الشربة التي ذهبت لذتها بحسد هؤلاء الامراء ، ويظهر لنا ان الملك الاشرف قد استعد لهذه النهدة استعداداً عظيماً ، ففي سنة «٦٩٢» المذكورة وثب رجل على نقاجو امير المسلحة التتري بالعراق ، على رأس الجسر العضدي ببغداد وضربهُ بخنجر عدة ضربات فقتله بها واشتدَّ يعدو هارباً، فمدَّ له رجل اصبهاني رجله على الجسر فسقط، وقبض عليهِ فجعل يقول « فداء الملك الاشرف ، فداء الملك الاشرف» فسلم الى ابن نقاجو التتري فمثّل به وقطع أطرافه وهو حي ثم كسر ظهره فلم يستغث ولا تأوّه ثم قال لقاتله : يامخنث إنّـك لم تصنع شيئاً إلا وهو دون ما كان في نفسي فاصنع ما شئت فقتله وألقاه في المكان الذي قتل فيه أباه ، فقول هذا الرجل « فداء الملك الأشرف » يدل على أن الملك الأشرف صلاح الدين خليلاً أرسله الى العراق قبل جيشه ليغتال أمير المسلحة فيضطرب الأمن ويهتبل هو الفرصة للاستيلاء على بغداد

ومن ضحايا محاولات القاهرة للاستيلاء على بغداد « العدل نجم الدين يحيي بن عبدالعزيز الناسخ » فقد نسب اليه في سنة « ٦٦٩ » هـ مراسلة الملك الظاهر بيبرس في الاستيلاء على بغداد ، فحُبِس وقُرِّر فاعترف بذلك فأمر بقتله وكان على ما قيل فاضلاً ورعاً تقياً [١]

وفي آخر القرن الثامن للهجرة تهيأ للقاهرة أن تبسط سلطتها في بغداد وأن تضرب سكتها باسم سلطانها « برقوق بن أنص الجركسي » وتخطب له على منابرها وتعترف بسيادته، وجليّة ذلك ان سلطان العراق « أحمد بن أويس بن الشيخ حسن » التتري الجلايري من سلاطين « الشيخ حسنية » وسلطنته حدثت بين « سنة ٧٨٤ » هـ وسنة « ٨١٣ » هـ كان قد غزاه « تيمورلنك » سنة « ٧٩٥ » هـ وهو في بغداد فهرب على طريق مشهد الحسين بن علي — ع — بكربلا ثم وصل الى رحبة مالك بن طوق ثم تحوّل الى حلب ونزل الميدان فأكرمه نائبها وطالع السلطان « برقوق » بخبره فأذن له في دخول القاهرة في سنة «٧٩٦» هـ ووصل السلطان أحمد الى القاهرة في شهر ربيع الاول من السنة فتلقاه الأمراء وخرج اليه السلطان برقوق مسافة الى موضع كان فيه مصطبته ، فترجل له السلطان أحمد على بعد مئة سهم فأمر برقوق الامراء بالترجل ثم لما قرب منه قام له ونزل من المصطبة ومشى اليه فالتقاه، وأراد احمد ان يقبل يده فامتنع ، وطيب خاطره وأجلسه معهُ على دسته ثم خلع عليهِ وأركبهُ صحبته الى القلعة فأنزله في بيت (طغاتمر) على بركة الفيل ونزل جميع الامراء في خدمته ثم ارسل اليه السلطان برقوق مالاً كثيراً وقماشاً ومماليك لخدمته ، قيل : ان قيمة ذلك نحو عشرة آلاف دينار ذهباً ثم حضر الموكب السلطاني فاذن له في الجلوس ثم أركبه معه الى الجيزة للصيد وانتهى الامر به الى ان تزوج السلطان برقوق بنت اخيهِ «دوندي سلطان» وبنى عليها قريب السفر ثم تجهز برقوق للغزو وبقي احمد في القاهرة وبعد مدة طلب إجازة التوجه الى بغداد لخلوّها من تيمورلنك وكان فيها « الخواجه مسعود الخراساني » نائباً عنهُ ، فاستعد بجيش وقصد بغداد فهرب منها الخواجه مسعود المذكور ودخل السلطان احمد بغداد وضرب السكة باسم السلطان برقوق وخطب له — كما تقدم آنفاً — وبقيت بغداد في حماية القاهرة ورعايتها الى سنة «٨٠٣» هـ اذ رجع تيمور اليها وهرب السلطان احمد منها وترك فيها نائباً اسمهُ «فرج» فاستولى عليها تيمور [٢] وانقطت سلطة القاهرة بدخوله

فما بسطناه للقارئ يظهر له استيلاءات القاهرة على بغداد ومحاولاتها لتلك وآثار هذه المحاولة ، وللطافة هذا البحث أفردنا له هذا الفصل الذي يعد مستقلاً مستوجباً للعناية والالتفات والتحبير والاثبات

بغداد مصطفى جواد

---

(١) هذه الاخبار الاخيرة من الحوادث الجامعة في المائة السابعة (٢) التاريخ الغياثي المخطوط لعبد الله ابن فتح الله البغدادي

علاقة جوته بشلر

١٧٩٤ — ١٨٠٥

بعد ما تقابل الشاعران الكبيران لاول مرة سنة ١٧٧٩ في مدينة كارل شوله Karlschule عادا فتقابلا ثانية سنة ١٧٨٨ بمدينة رودلفشتادت Rudolfstadt ولكن بعد ما بينهما فان جوته كان قد نأى عن طريقته المعروفة بطريقة العواصف والاندفاع (Sturm & Drang) عقب سياحته في ايطاليا بينما كان شلر لا يزال عالقاً بها. لهذا لم يمل جوته لمؤلفات شلر في شبابه التي من هذا القبيل حتى ان كانت سنة ١٧٩٤ اذ تقابل الشاعران وتقرب احدهما الى الآخر وسرعان ما تمكنت عرى الصداقة بينهما تمكناً قل ان تجد لهُ مثيلاً في تاريخ الادب الالماني . وقد لبثا يتراسلان بكتب بينهما لا ينقطع ورودها ثم انهما كانا يتقابلان كل يوم تقريباً لما انتقل شلر الى ڤيمار سنة ١٧٩٩ وكانا يتبادلان الآراء بينهما ويشتركان في التفكير والتدبير لبعض آثارهما الشعرية كما كانا صريحين في انتقادهما وأحكامهما وكانا يتنافسان منافسة كلها النبل والشرف. وقد كانت طرق تفكيرهما متباينة فقد كان جوته من انصار مذهب الحقيقة وكان يبدأ بالخاص من الاشياء وينتهي الى العام منها بينما كنت ترى شلر من عشاق المثل الاعلى وكان يذهب في كتاباتهِ الى اقصى ذرى افكاره وكان ينزل من العام الى الخاص . وكانت طبيعة روحيهما اللينة تتكامل في النهاية على احسن ما يكون. وقد قال جوته معبراً عن ذلك تعبيراً خاصاً : انهما اتحدا اتحاد التكملة (اعني ان احدهما يكمل الآخر اي يتممه).وقد كان من بواكر تلك الصداقة ان اصدر شلر مجلة (die Horen) (أي آلهات فصول السنة) سنة ١٧٩٤ ودعا صديقه جوته للاشتراك معه في تحريرها فاخذ ينشر فيها ما كان قد انشده من قبل من (المراثي الرومانية) . ثم انضمت مجلة اخرى اليها واتحدت فيها وكان الغرض من اتحادهما ان يهذبا من ذوق الجمهور وان يرفعا من شأنهِ ولو ان النتيجة لم تحقق ذلك الغرض الذي قصدوا اليه .فقد صادفت الاشياء المبتذلة والساقطة استحساناً وقبولاً فاتفق الشاعران على ان يؤلفا محكمة لعقاب كل من اعتدى على الآداب (آداب اللغة) في عصرهما وكان جوته هو اول من فكر في ذلك وكان اول من نشر في المجلة ما نشر. وجدّا الشاعران في عملهما ونشرا في ذلك القصائد العديدة والقطع الكثيرة وفي نقدهما لكل تافه او قليل القيمة في الادب

وقد اثار عملهما هذا عاصفة هوجاء وعظم امر ذلك على خصومهما وكثرت الردود ولم تهدأ تلك العاصفة الاّ بعد زمن طويل. وبعدئذ اخذا في نشر أغانٍ جميلة وقصص شعرية بديعة نذكر منها (صبي الساحر) و (الحافر على الكنز) و (الزوجة من كورنت) و(الله) و(القاهرة) وكلها لجوته

وتباين مذهب الاثنين وعاد جوته لشعر المآسي وقصص الابطال والملاحم النظمية . فاتمّ في سنة ١٧٩٦ (ايام تعليم فلهلم مايستر) وهو عنوان رواية كان الشاعر قد بدأها قبل سياحته

في ايطاليا .على ان اشتغالهُ بكتابة القصص الروائية سنين متوالية الحق الضرر بالوحدة الفنية لمجموعها . وتراه يأتي على وصف النبيل ورقيق الحال كما يصف اصحاب كل الحرف المتباينة وصفاً يطابق الحقيقة والواقع . وتلحظ من قصصه ما كان عليهِ من معرفة كبيرة بشؤون الحياة وتجاريبها وتعمقه في فهم الفنون وتقصيها كما تلمح فيها كل قوانين فن المآسي التي راعاها شكسبير في (هاملت) . وكذلك عالج بعض اسس التربية والمسائل الدينية ثمَّ ان الجمعيات والفرق السرية التي كانت منتشرة في المانيا في ذلك الحين لم تسلم من تهكمهِ وسخريته وكذا تراه يعرض امامنا صورة واضحة كل الوضوح زاهية الالوان للحياة فترى في القصص الروائية سلسلة من صور الاخلاق والشخصيات التي قد اجاد رسمها وبيانها ايما اجادة

وفي سنة ١٧٩٧ اظهر مؤلفاً من خيرة ما كتب في دائرة الملاحم وقصص الابطال الحماسيين ونعني بذلك : Das liebtätige Gera gegen die Salzlbrugischen Emigranten ومعناها « احسان مدينة جيرا لمهاجري سلزبورج »

وهي قصة حدثت بين ابن اسرة ثرية سرية واحدى المهاجرات الافاقات . ومن تلك القصة اخذ مادته لملحمته الشعرية (هرمان ودوروتيا Hermann & Dorothea) وقد وصف فيها الشاعر حياة اسرة من صميم الالمان . ولكي يجعل لقصيدتهِ هذه مرجعاً هاماً جعل حوادثها الماضية كأنها حدثت في عصر الثورة الفرنسية وارجع اصول المهاجرين المطرودين من متبعي مذهب لوثر من سكان سالزبورج كأنهم من سكان الحدود الفرنسية . ويرفرف على كل القصة الروح الوطنية فيريك الطبيعة الالمانية والفضائل الالمانية والعادات الالمانية ويصورها لك تصويراً حسناً . ويسود القصيدة من اولها الى آخرها الوضوح التام وحب الحرية من كل المطاردين والمضطربين ثم اننا نرى فيها ما نرى في الحياة الصحيحة من وصف للمعيشة الالمانية وما يحدث فيها بين الابناء ووالديهم وكما نراها في المدن وبين اوساط الناس

ولما اتم تلك القصيدة الحماسية المذكورة ساح الشاعر سياحتهُ الثالثة في السنة عينها في سويسرا وكتب هناك قصيدة اويوفروزيني « Euphrosyne » وقد كتبها رثاءً وذكرى لاحدى ممثلات فيمار المعدودات وكانت قد توفيت في سن العشرين واسمها كريستيان نويمان Christiane Neumann وفي اثناء تلك السياحة بدأ يفكر في انشاد ملحمة جديدة يسميها « فيلهلم تل » ولكنه سرعان ما عدل عن فكرته وبينا كان شلر يخرج للناس كل يوم شيئاً جديداً من مؤلفاته في المآسي العظيمة في اواخر القرن الثامن عشر ومستهل القرن التالي كان جوته قليل الثمر نادر النشر والاذاعة عن مبتكرات فهمه وعصير ذهنه ولكنه كان قد اتم الجزء الاول من (فوست) وترجم من مؤلفات ڤولتير تمثيلية (محمد) وتنكرد (Tancred) لمسرح ڤيمار واتم الجزء الاول من (البنت الطبيعية Diee natürlich Tochter)

علي مظهر

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

علاقة فينيقية بمصر

— ١ —

اثباتها بحوادث التاريخ الى عهد الفتح العربي

اصل الرعاة

الرعاة (هيكسوس) اول حلقة من سلسلة العلاقات الوثيقة التي ربطت فينيقية بمصر من اقدم عصور التاريخ الى اليوم. وهم قوم ينتسبون الى السلالات الفينيقية الاولى وبعبارة اخرى هم اخلاط من البدو المتنقلين بين سورية وبلاد العرب ومعظمهم من الكنعانيين وهو مذهب ماريبت باشا . والرأي الراجح فيهم انهم من قبائل سامية وكنعانية جاءوا من ارض كنعان وسورية وبلاد العربية واجتازوا فلسطين الى مصر . والامة الحثية هي التي جمعتهم في عهدة واحدة فانضووا تحت رايتها وتولت قيادتهم . وقد وجدوا في هيكل سمنه «تاميس» صحيفة قديمة ترمز الى هذه العهدة . ووجدوا في منطقة قرنه من اعمال مصر صحيفة اخرى استدلوا من رسومها على ان الحثيين هم الذين قادوا الرعاة في غزوتهم لمصر السفلى . وهذا ما يجلو لنا السر في حصر الفراعنة لاعمالهم الحربية في ما يلي من الزمن في شمال سورية موطن الحثيين اذلالاً لهم وانتقاماً منهم

عصر الرعاة في مصر

اجتاح الرعاة مصر السفلى بين القرنين الحادي والعشرين والعشرين وانشأوا فيها دولة قوية حكمت ٥١١ سنة على قول يوسيفوس و٥١٨ على قول غيره من المؤرخين

وغزوة الرعاة لمصر كانت نتيجة طبيعية للانقلاب الذي احدثته في العالم القديم فتوحات الشعوب الاسيوية ولا سيما العيلاميين الذين ضايقوا الكنعانيين وسدوا عليهم منافذ الرزق ففرت بعض قبائل منهم من وجه الغزاة وما زالت تتنقل من مرحلة الى اخرى في طلب الاستعمار حتى وصلت الى مصر واوغلت في ارض الدلتا وبسطت سلطانها عليها

وقد اتهم بعض المؤرخين هؤلاء الرعاة بانهم ارتكبوا في غزوتهم هذه لمصر كثيراً من المظالم كسبي النساء والاطفال ودك الهياكل وحرق المدن غير ان هنالك من الادلة التاريخية ما يثبت انهم ابقوا على الهياكل والآثار ولم يدكوا او يحرقوا الا ما قضت عليهم ضرورة الفتح بدكه او حرقه من المدن والحصون بدليل انهم عثروا في «تانيس» المناوحة لدمياط وفي تل البسطة «بوبست» قرب الزقازيق بتماثيل وآثار لملوك تقدموا عصر الرعاة ولم يعبث هؤلاء بها

والرعاة انشأوا في مصر السفلى كثيراً من المدن نظير آفارى «مدينة المهاجرين او الهاربين» شرق السويس وكانت حصينة جداً ومدينتي تانيس وبوبست وكانتا عاصمتي ملكهم. واقاموا ابنية فخمة لا تزال آثارها شاخصة الى اليوم ونقشوا اخبارهم واسماءهم على هذه الابنية وعلى الآثار المصرية الاولى

* * *

وفي عصر الرعاة انشأ الفينيقيون في مصر السفلى كثيراً من المستعمرات التجارية كانوا يأتون اليها بسلعهم ومصنوعاتهم ويحملون تجارة مصر على سفنهم الى الاقطار الاسيوية. وامتدت متاجرهم على طول السواحل الافريقية المقابلة للساحل الاوربي من اطراف مصر شرقاً الى جبل طارق غرباً. واقتبس المصريون شيئاً كثيراً من اخلاقهم وعلومهم واخذوا عنهم صناعات كثيرة كانت ذائعة عندهم. وباتصال الفينيقيين بالمصريين في عصر الرعاة اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر الى فينيقية ولاسيما في ما يتعلق بالصناعات والدين والآداب

وفي عهد الرعاة هجر يعقوب حفيد ابراهيم الخليل حبرون في ارض الخليل مع عشيرته الى مصر حيث انضم الى ابنه يوسف كبير وزراء ابابي آخر ملوك الرعاة واشهرهم وكان اباً للشعب الاسرائيلي الذي اقام في مصر اربعة قرون

على ان اكتساح الرعاة لمصر السفلى وانصرافهم الى تعزيز دولتهم فيها ايقظ ملوك الصعيد الوطنيين من غفلتهم وما برحوا منذ ما رسخت قدم الغزاة في ارضهم يجاهدون في تعزيز مقامهم الى ان آنسوا من انفسهم القوة فهبوا لمناهضة الرعاة ووقعت الحرب بين الدولتين وطال اجلها ولا سيا الحرب الاخيرة التي ترجع الى اسباب دينية وقد ظلت سجالاً بين الدولتين اكثر من مائة عام حتى قام احمس الاول مؤسس الدولة الثامنة عشرة من دول الفراعنة فحاصر آفارى عاصمة الرعاة باربعمائة وثمانين الف مقاتل ولكنه عجز دونها فصالحهم على ان يجلوا عن مصر آمنين فخرجوا منها في مطلع القرن السابع عشر قبل الميلاد الى اليهودية ولم يستطيعوا تخطيها لان الاشوريين كانوا قد بسطوا سلطانهم على الديار الشامية وظل قوم من الرعاة في مصر الشرقية يحرثون الارض ولا سيا في القرى الواقعة حول بحيرة المنزلة. وبخروج الرعاة من مصر رسخت سلطة الفراعنة في سائر البلاد المصرية

عصر الفراعنة في فينيقية وسورية

لما اشتدّ ساعد المصريين واستتب لهم الامر في بلادهم تطالّت اعناقهم الى التوسع في الملك واخذوا يترصدون الرعاة غزاتهم في الامس ليثأروا لانفسهم منهم باكتساح بلادهم والانتفاع بثمار الفتح . وكانت سورية في ذلك الحين ميداناً يتبارى فيه ملوك الجزيرة الفراتية احرازاً لسيادة ممالكها الآمنة فكانت هذه المباراة باعثاً للفراعنة على التحفز لمنافسة الممالك الشرقية والقضاء على بابل والتسلط على هاتيك الاصقاع متوسلين بما شهدوا من التنافس بين ممالك سورية الصغيرة المتخاذلة وتهافتها على استنجادهم والتماس عونهم الى التعرض لشؤونها تظاهراً منهم بالتوفيق فيما بينها او برد غزاة المشرق عنها على نحو ما فعل الرومان وسواهم من طلاب الاستعمار بعد ذلك بحقبة من الدهر اذلالاً للامم الشرقية والتسلط عليها . وهكذا شهرت الدولة المصرية على آسيا حرباً عواناً وثبتت على مناوأة سورية ومنازعة الممالك الشرقية السيادة فيها خمسة قرون كاملة اي من القرن السابع عشر الى اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد حيث ابتدأ عصر الاستقلال الوطني في سورية

على ان الفاتحين المصريين قاسوا الشدائد في اخضاع ملوك سورية لما كان هؤلاء عليه من النزوع الفطري الى الاستقلال ومن اولئك الفاتحين من افنى سني ملكه في مقاتلة العصاة في سورية ورد الممالك الكنعانية الى طاعة مصر نظير طوطمس (تحوتمس) الثالث وساتي الاول ورعمسيس الثاني ورعمسيس الثالث. وقد تتبع الفاتحون في غزواتهم طريقاً واحداً فكانوا يجتازون بلاد كنعان الاصلية الى مدينة مجدّو الحصينة ومن هناك يجتازون الوهاد فوق بحيرة طبرية في جوار قدس « بحيرة الحولة » ومنابع الاردن عند مدينة لاييش ثم يسيرون في المضايق عند سفح حرمون الغربي ولبنان الشرقي ثم يمرون على وادي الليطاني الذي كان وقتئذ بحيرة كبيرة ثم على بعلبك فوادي العاصي الى ان يصلوا الى قدس الكبيرة وهي حمص وحماة ثم يدخلون في البادية سائرين الى قرقيسياء وهناك يعبرون الفرات الى الجزيرة الفراتية

اما مملكة صيدون فقد والتهم وحالفتهم واقتفت اثرها مملكتا بيروت وجبيل فحفظوا لها استقلالها الداخلي ولذلك فان معظم الضرر الذي نشأ عن غزوة مصر لسورية وما بين النهرين لحق البلاد الكنعانية والآرامية الواقعة بين مصر وآسية . ولم ينل فينيقية والمدن الساحلية منه في بادىء الامر الا القليل لان الفينيقيين والوا اولئك الفاتحين فتجنبوهم وسلكوا في غزواتهم طريق الشرق على نحو ما بيّنا في ما تقدم

وكان الفراعنة في غزواتهم يكتفون ببسط سيادتهم العليا على البلاد التي يفتتحونها في الديار السورية والاسيوية لعجزهم عن اخضاعها تماماً ولعدم توقهم من ثباتها على ولائهم

وقتاً طويلاً فيفرضون عليها خراجاً سنويًا ويجندون جماعة من اهلها ويربّون في مصر خلفاء ملوكها ويأخذون منها رهائن ويقيمون حاميات عسكرية في مدنها لئلا تخلع نيرهم وتمالىء عداتهم عليهم. وكانت حكومة البلاد الخاضعة لمصر مماثلة لحكومة الاقطاعات تتمتع باستقلالها الداخلي التام ويتولاها حاكم من اهلها يلقب بملك. وكان الفراعنة يحافظون على شرائعها الوطنية ويحترمون عادات اهلها وتقاليدهم ودياناتهم ويطلقون لها الحرية في مسالمتهم او ابرام معاهدة معهم يتبادل الفريقان بمقتضاها المنافع السياسية والتجارية والاقتصادية

حلف فينيقية ومصر

وقد اثبت المؤرخون انهُ كان بين فينيقية ومصر معاهدة تقضي على الفريقين بالتآزر والتعاون في الخطوب والملمات. فكانت صيدون عاصمة فينيقية لا تتعرض قط للفراعنة في غزواتهم للاقطار الاسيوية. وكان اسطول صيدون رهن اشارتهم لينجدهم في غزواتهم ويسير بجندهم لجباية الجزية من الجزر والاقاليم الساحلية ولها في مقابل ذلك تعزيز الاسطول بالجند المصري ومعدات الحرب. وقد اقام الصيدونيون على مسالمة الفراعنة حقبة طويلة من الدهر فسالموا الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ولاسيما في عهد طوطمس الثالث الذي انشأ عمارة بحرية عهد اليهم في قيادتها وتعهدها بالعناية اللازمة وهكذا في ولاية رعمسيس الاول مؤسس الدولة التاسعة عشرة وابنه ساتي الاول ورعمسيس الثاني. واستمرت الصلات مستحكمة الحلقات بين مصر وعاصمة فينيقية الى عهد الدولة السادسة والعشرين فان هذه الدولة استخدمت الصيدونيين في عماراتها البحرية لانها وجدتهم ابرع اهل زمانهم في فن الملاحة ولذلك لم يتعرض اولئك الغزاة بسوء لصيدون وهكذا لجبيل وبيروت اللتين حذتا حذوها في مسالمتهم خلافاً للممالك الكنعانية الاخرى فانها شايعت اعداء مصر من كلدان واشوريين ونصرتهم عليها

والنتيجة ان خضوع فينيقية لمصر لم يكن الا لتبادل المنافع السياسية والاقتصادية على ان يكون ملوك فينيقية سائدين في قومهم مستقلين في شؤونهم بمقتضى شرائعهم الخصوصية ولكنهم يعترفون بسيادة مصر ويؤدون للفراعنة الجزية وينجدونهم باساطيلهم. وهذا التحالف بين مصر وفينيقية من اكبر الادلة على ان الممالك الفينيقية كانت على ضيق مساحتها عزيزة الجانب وكان شأنها مع مصر من وجوه كثيرة شأن النظير مع نظيره

حروب الفراعنة في سورية

واهم الحروب التي اصلى الفراعنة نارها في سورية كانت مع الروتن وهم مزيج من اللوديين

والآراميين ومع الحثيين الشماليين وهم الذين قادوا عشائر الرعاة في غزوتهم لمصر . واول من حاربهم من الفاتحين المصريين طوطمس الاول الذي اقام على الفرات نصباً نقش عليهِ خبر فتحه لبلاد الحثيين . وطوطمس الثالث الذي افتتح من الممالك السورية ١١٩ مدينة نقشت اسماؤها على احد جدران الكرنك في الاقصر . وطوطمس الرابع وقد نقش خبر حملته عليهم على حجر وجدوه في هيكل امون في طيبة عاصمة الفراعنة . ثم قام رعمسيس الاول وهمَّ باخضاعهم ففشل ومع انه كان يترفع عن محالفة ملوك سورية عملاً بخطة سلفائهِ اضطره ما شهد من بطش الحثيين وقوتهم الى محالفتهم محالفة الند لنده كما جرى للذين تقدموه من الفراعنة مع الصيدونيين. ولما افضى تاج مصر الى ساتي الاول عاد الحثيون الى مناوأة مصر فزحف عليهم وفتح قادش « قدس » عاصمتهم ثم حالف ملكهم موتنار . غير ان هذه الحلفة لم يطل اجلها فخان موتنار العهد وقطع على المصريين طريق حلب والفرات بحيث باتت املاكهم محصورة في فلسطين وما جاورها من بلاد الاراميين والفينيقيين . وقد نقش اخبار غزواته لبلاد الشام في هيكل امون في الكرنك . وفي جملة آثار هذه الغزوات صورة تمثل اهل لامنون « اعالي لبنان » يقطعون خشب الارز والسرو لابنية الظافر وصورة اخرى تمثل مدينة قادش يحاصرها المصريون

***

ثم قام رعمسيس الثاني « سيزوستريس » بين اواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر فثارت فلسطين عليهِ باغراء الحثيين فزحف عليها وأخضعها ووصل الى بيروت فنقش صورتهُ على صخر عند مصب نهر الكلب تذكاراً لانتصاره هذا وفي ايامه كان الحثيون في ابان صولتهم واتسع نطاق املاكهم حتى تناول جميع الاقاليم الواقعة بين قادش واطراف آسية الصغرى جنوباً ولبنان والفرات شمالاً ووالتهم اقاليم سورية برمتها ما عدا صيداء وجبيل فانهما انحازتا الى جانب مصر . وقد كسروا رعمسيس ثم استظهر عليهم عند العاصي في معركة هائلة نقش خبرها في هيكل الكرنك واستمرت الحرب بينه وبينهم اربعة عشر عاماً ولم تخمد جذوتها الاَّ بمقتل ملكهم موتنار غيلة في احدى المعارك فخلفه اخوه كيتاسار وابرم مع المصريين عهدة نقشت على جدار في هيكل الكرنك وقد تعاهد فيها الملكان على التضافر والتعاون واعتبار الشعبين المصري والحثي متساويين في جميع الحقوق والمرافق . وحافظ المصريون والحثيون على هذه العهدة قرناً كاملاً . وبمقتضاها جعلت مدينة جبيل حدّاً فاصلاً بين املاك الدولتين فجعلت املاك مصر في الغرب والجنوب واملاك الحثيين في الشرق والشمال. وتزوج رعمسيس بنت كيتاسار الحثي وزاره هذا في مصر واقيم في مدينة طيبة عاصمة مصر حيث التقى المتحالفان نصب نقشت عليه صورتهما تتوسطهما صورة رعمسيس الحثية. ومن ذلك الحين توطدت العلاقات بين الشعبين المصري والحثي واخذ المصريون يستعملون في لغتهم

الفاظاً من فروع اللغة السريانية وانتقلت عبادة كثير من الآلهة السورية الفينيقية الى مصر ولا سيما عبادة بعل وعشتروت « الزهرة »

الفتح الاسرائيلي

تلا عصر الفراعنة في سورية وآسية فتح الاسرائيليين لارض الميعاد وطن آبائهم . خرجوا من مصر منهزمين بقيادة موسى من وجه رعمسيس الثاني الى برية سيناء وأوغلوا في الصحراء فتاهوا هناك اربعين سنة كانت في اثنائها قوى المصريين والحثيين قد خارت وملوا القتال فعقد الصلح في ما بينهم . ثم مات رعمسيس وخلفه ابنه منفتاح وفي عهده تم خروج بني اسرائيل من ارض مصر الى ارض الميعاد بعد ان اقاموا في ارض الفراعنة نيفاً واربعة قرون وافتتحوا ممالك الكنعانيين واستقروا في فلسطين واحجمت مصر عن انجاد هذه الممالك لاشفاقها ان ينالها اذًى في تعرضها لهم وهم لم يخرجوا منها الا بعد ان انزلوا بها البلاء الاعظم فرأى الفراعنة انهم في غنى عن تجشم المصاعب في الذود عن ارض كنعان ولا سيما ان الفاتحين لم يتخطوا حدود مملكة صيدون حليفة مصر ولم يجاوزوا الاردن الى المدائن الفينيقية التي امتنعت عليهم بغير ان تفتقر الى عون مصر حليفتها

توتر العلاقات بين مصر وفينيقية

وما انفكت المودة مستحكمة الحلقات بين مصر وفينيقية الى ان سقطت صيدون وافضت السيادة السياسية الى صور في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد . فهاج مجد صور مطامع الفراعنة ووقفوا لها بالمرصاد الى ان جلس على عرشها عبد عشتاروت في القرن العاشر فأغرى فرعون شيشق ابناء مرضعه الاربعة بقتله اضعافاً لشأن الفينيقيين بالانقسام الداخلي الذي يعقب عادة مثل هذا الانقلاب السياسي . واتخذ فرعون من جهة اخرى فرار يربعام الافرائيمي من وجه سليمان والتجائه اليه لايقاع الشقاق بين الاسرائيليين . وقد نجحت حيلته في الامرين وغزا فلسطين وافتتح اورشليم وانشقت مملكة اسرائيل الى شطرين مملكة يهوذا ومملكة اسرائيل وكانت بين المملكتين حروب طاحنة أثارت كوامن الطمع في نفوس الفاتحين من ملوك دمشق وفراعنة مصر وملوك اشور وبابل وفتحت عيونهم على ما يستطاع من الغنم في مثل هذا الانقسام وافضى الامر اخيراً الى وقوع مملكة اسرائيل تحت نير الاشوريين ومملكة يهوذا تحت نير الكلدان

وأما صور فبعد مقتل عشتاروت وجلوس ابن مرضعه على العرش نشبت فيها نار الفتن الاهلية فأوهنت قواها وشلّ اعصابها تنازع الزعماء السيادة فيها ولم تسترد ما كان لها من

المجد الطريف الآ في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حيث جلس بيكماليون على العرش وفرّت اخته ديدون الى افريقية بطائفة من اشراف المملكة وشيدت هناك مدينة قرطاجنة . وبفرار ديدون هذه توطد النظام الجديد في صور وأصبحت الكلمة النافذة للشعب بعد ان كانت للخاصة

العصر الاشوري

وتوالت على سورية وفلسطين حوادث كثيرة وقف المصريون بازائها وقفة الرقيب المحاذر لأن اشور كانت تسلطت على هاتيك البلاد ودانت لها مصر . وقد ارعبت اشور العالم القديم بالمظالم التي ارتكبتها في تغلبها على الشعوب الاسيوية ونسج ملوكها على منوال واحد في الاستمتاع بشقاء هذه الشعوب . على ان مصر ما برحت منذ رسوخ قدم اشور في الديار الشامية تكيد لها المكايد حتى اذا نجحت حيلتها في اثارة السوريين عليها هبّت لمقاسمتهم الغنيمة والآ اخلدت الى السكون وتلاهت بشؤونها الداخلية وحمت من التجأ اليها من ملوك فلسطين اثر غزوات الاشوريين لبلادهم

وكان الفينيقيون يضطرون احياناً الى ممالأة اشور على المصريين اشفاقاً من بطشها فانجدوا آسرحدون ثالث ابناء سنحاريب في حملته على مصر واخضاعه لها وانهزم ملكها ترهاقة احد ملوك الدولة الحبشية من وجهه وهكذا ابنه اشور بانيبال فانه لما غزا مصر وطرد الاحباش منها في منتصف القرن السابع اكره ملوك فينيقية وسورية على انجاده برجالهم

عصر الكلدان

ولما انقرضت دولة اشور قامت على انقاضها دولتا مادي وبابل واقتسمتا ممالكها فكانت سورية ومصر من نصيب نيوبلاصر البابلي . غير ان هذا الفاتح تشاغل عن الديار الشامية والمصرية بمعارضة الماديين حتى انس السوريون بضعفه فدانوا للمصريين وقام فرعون نيخو فاستقل ببلاده وحمل على سورية وفتح اشدود . وخلفه نيخو الثاني — وهو الذي ارسل بعثة فينيقية دارت حول القارة الافريقية — فزحف على الديار الشامية وبعد ان كسر ملك يهوذا وفتك بهِ عند مجدّو عقاباً له على ولائهِ لاشور استأنف الزحف الى فينيقية حليفة مصر في الامس فرحب بهِ الفينيقيون وأنجدوه برجالهم ووصل في غزوته هذه الى الفرات . غير انهُ ما كاد يستتب الامر لمصر في ديار الشام حتى زحف عليها نبوخذ نصر « بختنصر » وهزم المصريين وأجلاهم عنها ووطد سلطانه فيها . على ان هؤلاء عادوا الى دس الدسائس فيها

وحرضوا اليهود على خلع نير بابل فزحف بختنصر عليهم وكسرهم ثم اعاد الكرة على فلسطين وسبي من اهلها عدداً عظيماً الى بابل

ولما وقع النفور بين مادي وبابل واضطربت المملكتان تحين حفرع خليفة نيخو فرعون مصر الفرصة وعاد ينازع بابل سيادة سورية وتعاهد مع بعض ملوك فينيقية ويهوذا وعمون وموآب على خلع نيرها وزحف على صيداء وافتتحها واستخدم اسطول صور لافتتاح قبرس وسائر المدن الفينيقية فدهمهُ الفاتح البابلي وكسره تحت اسوار اورشليم وافتتحها وجلا ملكها صدقيا الى بابل . ثم حاصر صور ثلاث عشرة سنة فعجز دونها . ثم اعاد الكرة عليها في اواخر القرن السادس فتم له فتحها ودمرها . اما فرعون فكان قد تأهب لانجاد صور ولكن قبل ان يستكمل معدات النجدة وقعت في ايدي الكلدان . وخيل الى صور ان مصر احجمت عن مساعدتها عمداً خوفاً من الفاتح البابلي فاستاء اهلها ولذلك لما همت عمارة مصر باثارة الفينيقيين على الكلدان لم تتردد صور في نصرة البابليين على مصر . وعندنا ان الفينيقيين كانوا لا يزالون على ولاء مصر ولكنهم لم يتجرأوا على ممالأتها ضد بختنصر خوفاً من ان يحلَّ بهم ما حل باخوانهم الصوريين فانقلبوا على المصريين . ولكن اسطول مصر استظهر على اسطولهم وافتتح صيداء وارواد وغيرها من مدن فينيقية . غير ان ولاية مصر على سورية لم تستمر اكثر من اربع سنين فعاد بختنصر وافتتح سورية ومصر واخضعهما لبابل

عصر الفرس

وفي ولاية الفرس على سورية ظلَّ شأن المصريين في علاقتهم بملوكها وشعوبها كما كان لعهد الاشوريين والبابليين . وكان الفرس يستنجدون السوريين على المصريين فلا هم يجرؤون على معارضة فارس ومناصبتها العداء ولا يسعهم نبذ تقاليدهم الموروثة القاضية عليهم بموالاة المصريين ومناصرتهم فكان موقفهم بازاء تنازع مصر وفارس محفوفاً بالمخاطر

ذلك انه لما استحوذ قورش الفارسي على بابل دانت له فينيقية فصادقها واستعان بها على المصريين فجهزت له اسطولاً ضخماً لمحاربة مصر . وخلفه على اخضاعها ابنه قمبيز مستنجداً العمارة الفينيقية . وباتت السفن الفينيقية من اعظم قوى الدولة الفارسية تجري عليها المرتبات الضخمة وقد فازت بفتوحات كثيرة استعادت فيها مجد فينيقية وعظمتها

وفي ايام ارتحشستا الاول كان الاسطول اليوناني يغزو السواحل الفينيقية حيناً بعد حين انجاداً للمصريين على الفرس ولكن العامل الفارسي كسرهُ . ثم همت مصر باسترجاع سورية فتأهب الاسطول الفينيقي لصدّ غارة اسطولها فكفت عن التطاول . وفي ايام ارتحشستا الثالث ثارت العمالات الفارسية فاختلس فرعون نكتانبو فرصة الاضطراب وزحف على فلسطين وكسر الفرس .

وشاع نبأ انكسار الفرس في حرب المصريين فثار ملوك قبرس وفينيقية وثبتت فينيقية على المقاومة وانجدتها مصر بجيش من جندها بقيادة منتور الرودسي فزحف ملك الفرس على صيداء وافتتحها غرةً بمساعدة زعيم جند مصر وبسقوط صيداء عادت فينيقية الى طاعة الفرس . ثم زحف ارتحشتا على مصر لمعاقبتها وافتتحها وضمها الى مملكته . وما زالت كذلك الى ان إنتصر الاسكندر المقدوني على داريوس سنة ٣٣٤ ق.م وقضى على سيادة الفرس في الديار الشامية والمصرية وضم سورية الى فينيقية وجعلهما ايالة واحدة

عصر البطالسة والسلوقيين

وفي عصر البطالسة والسلوقيين خلفاء الاسكندر لم ينفك المصريون عن التعرض لشؤون سورية فتابعوا الخطة التي جروا عليها في عهد سلفائهم. وكانت فلسطين من نصيب بطليموس صاحب مصر وتعاقب البطالسة عليها الى بدء القرن الثالث.واما فينيقية فظلت تتنازعها ايدي الفاتحين من هؤلاء الملوك الى اجل طويل فكانت تارة تقع في ايدي السلوقيين واخرى في ايدي البطالسة اصحاب مصر الى ان تسنى للرومان التدخل في شئون سورية لالتجاء هنيبال بطل قرطاجنة اليها وهو الد عدو لهم . ولم يطل الزمن حتى وقعت الحرب بين الرومان والسوريين وانجلت عن فوز الرومان وفرضهم الجزية على ملك سورية . وبعد حين عادت رومية الى التحرش بسورية واستفزتها الى مناصبتها العداء — وفي اثناء ذلك كانت مصر تدس الدسائس في الديار الشامية اضعافاً لها ليتسنى لها الاستيلاء عليها.فاوعزت الى الاسكندر بالا ان يدعي العرش السلوقي ففعل وظفر به . ثم قام عليه ديمتريوس نيقانور وخلعه عن العرش بمساعدة مصر . واساء التصرف مع الشعب فنشبت ثورة في البلاد وبرز المكابيون بقيادة سمعان المكابي فصالوا واتوا اعمالاً عظيمة واستقلوا بالملك . وتلا ذلك قيام تريفون على انطيوخس الثامن وفتكه به واستبداده بالدولة وحدوث اضطراب عظيم ادى الى انقسام المملكة وتخاذل امرائها وزعماء اقوامها والسياسة الرومانية جارية في مجراها بكل دقة واحكام

ولما دخلت الدولة السلوقية في دور الاحتضار كان الضعف بلغ اشده من المملكة السورية فتحين الرومان الفرصة وجاء بومبايس سنة ٦٣ ق . م وافتتحها وجعلها ولاية رومانية . ثم اكتسح القطر المصري والحقهُ بالممالك الرومانية . فكانت مصر وسورية في عصر الرومان شقيقتين تتقاسمان البلوى وتشكوان عبر الزمان على السواء ولو ان هذا العصر كان في كلتيهما عصر رخاء واقبال من الوجهتين الاقتصادية والعلمية

بولس مسعد

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

الشاهنامه وترجمتها العربية

حضرة رئيس تحرير المقتطف المحترم

اطلعت على ترجمة الشاهنامه للفتح بن علي البنداري التي نشرها وعلّق عليها الحواشي الدكتور عبد الوهاب عزّام المدرس بالجامعة المصرية وصدّرها بمقدمة ثمينة مما دل على اطلاعه الواسع وادبهِ الجم . فلا شك ان العلماء والادباء يقدرون همتهُ القعساء ويشكرون لهُ مساعيهِ العظيمة في سدّ ثلمة في الآداب العربية وايقاف ابناءها على كنز من كنوز الآداب الفارسية طالما اشتاقوا الى زلاله

مررت على هذا الاثر النفيس فبدت لي بعض ملاحظات وتصويبات لهنات هيّنات لا يكاد يخلو منها كتاب من الكتب الكبيرة كالشهنامه فاستأذن الدكتور عزام نشرها تلمساً للحقيقة التي هي رائد كل نفس كبيرة فأقول

جاء في المدخل ص ٢٠ : « موسى القوريني » وصوابهُ « الخوريني » كما يلفظهُ الارمن. وكتبهُ الفرنسيون Moise de Chorène دوفال الآداب السريانية ص ٢٤٢ وكتبهُ الانكليز Moses of Chorene سايكس ١ : ٤٦٧

وفي ص ٨٠ من المدخل : الدولة الميدية: ترجمة Media الانكليزية او La Médie الفرنسية والمشهور الدولة المادية او الماذية

وفي الصحيفة عينها « الآثار الاسورية وكأني بالناشر الكريم يريد بالاسورية ترجمة Assyrian فقالت العرب في هذا المعنى الأثورية او الاشورية ولم ترد في كلامهم اسورية . وورد في ١ : ٧٨ : تعريب Malcoim ملكولم والحال يتبع في نقل الاسماء اللفظ وليس الحروف فوجب عليهِ القول استناداً الى هذه القاعدة « ملكم » كما قال في Moh' مول في الصحيفة عينها

وفي ٢ : ٧٤ : ذكر «مروثا اسقف العراق» جاء رسولاً يخبر ملك الفرس بولاية ثيودسيوس وأسند الرواية الى سايكس ١ ولم يذكر الصحيفة والصحيفة هي ٤٦٤ فنقول مروثا او ماروثا لم يكن اسقف العراق بل كان اسقف ميافارقين ولم تكن ميافارقين في يوم من الايام من العراق بل كانت من مدن بين النهرين Mesopotamia وعرفها العرب بالجزيرة والاصح «جزيرة اقور» كما جاء في معجم البلدان ومن امهات مدنها حرّان والرُّها والرقة ورأس عين ونصيبين وماردين وآمد وميافارقين والخابور الخ . والذي حَدَا بالدكتور الى قوله « مروثا اسقف العراق » عبارة سايكس Marutha, a Mesopotamian bishop فترجمة هذا النص هكذا : مروثا احد اساقفة بين النهرين (او الجزيرة) او ماروثا اسقف من الجزيرة او اسقف من بين النهرين

وفي حاشية ٢ : ١٠٥ اسماء جيل من الناس يدعون في مصر الغجر ويسمون في بلاد فارس اللورية وفي بلاد العرب الزط والعشرية . وقد غفل الناشر انهم يدعون ايضاً النَوَر ويقال لهم في العراق القرج والكاولية

وفي حاشية ٢: ١٠٦ قال : وقد ذُبح في كركا ؟ (كركوك) آلاف من المسيحيين يحتفل بذكرى شهادتهم حتى اليوم في كركوك (اسندها الى سايكس ١ : ٤٥٣) سهواً والصحيح ص ٤٧١ . وقد عرّب الدكتور عزّام اللفظ Karka طبقاً للحروف اللاتينية ولو لم يردف اسم هذه المدينة بكركوك لعسر على المطالع معرفتها لأن المؤرخين عرفوها باسم كرخا او كرخاد بيت سلوخ . وكذلك نقلها المؤرخون العرب . ويسرنا ان نذكر ان اللفظ « الكرخ » او « كرخ » اسم لمواضع عرفها العرب . وهو من هذا الاصل السرياني . ومنها جانب الكرخ في بغداد . وفي صفحة ٢ : ١٩٨ نقرأ هذه العبارة : « وقد اخطر في اوائل عهده البطريق الهرم سبراه شو (؟) الى مصاحبة جيشه ليباركه : قلنا الافصح ان يقول البطريك او البطريرك بمعنى Patriarche تمييزاً عن البطريق ترجمة Patricien . ومع هذا فاننا لا ننكر ان فريقاً من الكتّاب عرّب اللفظ الاول بالصورة التي عرّبها الناشر . غير ان المهم في هذا الموقف ان نضبط اسم هذا البطريرك الذي يدعوه ناشر الشاهنامه « سبرإ شو » فهو سبر يشوع وقد تولّى كرسي بطريركية المدائن ٥٩٦ — ٦٠٤ م وقد نتج هذا السهو من نقل الحروف اللاتينية Sabr Isho . وفي ٢ : ٢٣٥ = ثم استرده هرقل (اي عود الصليب الحقيقي) بعد وفاة ابرويز سنة ٥٢٨ كما يأتي (آه) قلنا جاء التاريخ ٥٢٨ مغلوطاً هنا وربما اراد الناشر سنة ٦٢٨ فشط بهِ القلم . وعلى ذكر عود الصليب نقول ان الدكتور عزام رجع اليهِ في ص ٢٥١ و٢٥٩ وقال احتفل هرقل برده في ١٤ سبتمبر ٦٢٩ فان صحّ هذا التاريخ فاسترجاع الصليب انما كان في عهد اردشير (اه)

يسرنا ان ننقل هنا عبارةً عن استرداد الصليب وردت في كتاب لابور الفرنسي النصرانية

في المملكة الفارسية» ص ٢٤٢ وهي: — ان فرائين Farrukhan الذي خلف شيرويه على عرش الاكاسرة رد الى هرقل الصليب الحقيقي مع هدايا نفيسة وذلك شكراً لهُ عن مساعدته او عن عطفه عليهِ في سبيل تبوئهِ العرش

وفي ٢ : ٢٣٦ كلام عن مريم وشيرين زوجتي كسرى برويز وعن اصلهما وتوحيدهما : فالارجح انهُ كان لكسرى برويز امرأتان مسيحيتان الواحدة مريم الروحية بنت الملك موريقي والاخرى شيرين الارامية من ميشان فبنى لكل منهما كنائس وبيعاً (راجع شير : تاريخ كلدو واثور ٢ : ٢١٤) وفي ٢ : ٢٣٧ :كان فرهاد المهندس الذي بنى لخسرو برويز طاق خسرو في تخت البستان (؟) رب كرمنشاه والقصر الذي في مشيطة (؟) على خمسة وعشرين ميلاً الى الشرق من المنتهى الشمالي للبحر الميت (اه)

قلنا في هذه العبارة غلطان اولهما ان البناء قرب كرمنشاه لا يسمَّى « تخت البستان » بل طاق بستان وقد صوَّر احد مشاهده سايكس ١ : ٥١٣ وكتاب تحت الصورة TAK-I-Bustan or Arch of the Garden وقد زرته سنة ١٩٢١ ووصفته وبحثت في تاريخه وصوَّرته في المقتطف (نوفمبر ١٩٢١) والغلط الثاني قصر مشيطة ؟ لا يهتدي المدقق الى ما يريده الدكتور عزام الاَّ بالحدس والتخمين . فلا شك انهُ اراد بقصر المشيطة قصر المشتَّى في بلاد موآب غربي وادي سرحان وقد وقع الناشر في هذا الغلط من نقل الحروف اللاتينية Mashita راجع عن هذا القصر مجلة المشرق ١ : ٤٨١ و٦٣١ ثم ٤ : ٧٦٥ و٥ : ٦٦٩ و٧ : ٣٩١ وسايكس ١ : ٥١١ ؟ و٥١٥ و٥٢٣ و ٢ : ٢٤٦ : وقد عرَّب الناشر اسم الامبراطور « Phocas » فوكاس والامبراطور « Maurice » « موريس » وكان جديراً بهِ ان يتبع في التعريب احد المؤرخين العرب كحمزة الاصفهاني او الطبري لئلاَّ يحدث صوراً جديدة لمثل هذه الاسماء الغريبة . فالاصفهاني والطبري قالا في « Maurice » موريقس او مريقيس وفي Phocas فوقاس وفوقا هناك غير هذه الملاحظات ضربت صفحاً عن ذكرها . ولكن كل ذلك ليس بشيءٍ تجاه فضل الدكتور عزام بابراز هذه الترجمة بثوبها القشيب وحواشيها ومقدمتها الفيَّاضة بالمعلومات النفيسة

(بغداد) ي . غنيمة

ثعلبان . . . مفرد او مثنى

قرأت في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٢ مقالا نفيساً للاستاذ العالم الامير مصطفى الشهابي عنوانه « العلم والفلسفة والأخيلة الشعرية » ولي ملاحظة بسيطة على نقطة في ذلك المقال، هي:

قال « . . . . . وربما جال في خلدك ان تتخذ لك صنماً تعبده ، ولكني اخشى ان يكون من عجين او حلوى فتضطر الى اكلهِ في مضطرب هذه الازمة الاقتصادية كما فعل العرب قبل الأسلام وأخشى ان يصيبهُ ما أصاب صنم بني سليم ، وكان سادنه يسمى غاوي بن ظالم فبينما

هو ذات يوم جالس بعيداً عنهُ اذا بثعلبان اقبلا وهما يشتدان فشغر كل منهما رجله وبال على الصنم فنظر اليهِ غاوي وقال

أربٌ يبول الثعلبان برأسهِ لقد ذلَّ من بالت عليهِ الثعالب »

فالاستاذ الشهابي يقول انهما كانا ثعلبين اثنين اقبلا ..... وهذا قول يخالفه ما ورد عن كبار أئمة اللغة فالذي روي عنهم وسمعناه من اساتذتنا في مجالس الادب انه ثُعلبان وبضم الثاء وهو مذكر الثعالب لا تثنية ثعلب . ويظهر ان الاستاذ قد اعتمد على ما ذكره الفيروزابادي صاحب القاموس ولكن صاحب القاموس اخطأ لانهُ ذهب الى انه مثنى وتخطئتهُ للجوهري — كعادته على رأي الاستاذ الجليل استاذنا احمد امين — غير صحيحة ، والصواب ما ذهب اليهِ الجوهري لان عدداً ليس بالقليل من أئمة اللغة ذهبوا الى ما قاله الجوهري منهم الكسائي وشارح القاموس ، وابن منظور ، والبغوي في معجمهِ ، وابن شاهين ، والاصفهاني صاحب دلائل النبوة ، والجاحظ ، والحافظ شرف الدين الدمياطي وغيرهم [١] من المحدثين كالاستاذ فريد وجدي ، والمعلم بطرس البستاني ولانعرف احداً ذهب الى ما يقوله الاستاذ الشهابي اللهمَّ الاَّ الهروي وصاحب القاموس وقد رد على الهروي ابو عثمان الجاحظ كما في دائرة معارف القرن العشرين ، وقد رد على الهروي ايضاً الحافظ ابن ناصر فقد ورد في تاج العروس ما نصهُ « وقال الحافظ ابن ناصر اخطأ الهروي في تفسيره ، وصحف في روايتهِ وانما الحديث ثعلبان بالضم مذكر الثعالب مفرد لا مثنى واهل اللغة يستشهدون بالبيت ارب يبول الخ . . . . للفرق بين الذكر والانثى كما قالوا في الافعوان والعقربان وحكى الزمخشري عن الجاحظ ان الرواية هي بضم الثاء . . . . »

وقد رد شارح القاموس ردًّا مطولاً قال فيه ان قول الفيروزابادي غيرصحيح والصواب ما قاله الجوهري نقلاً عن الكسائي والكسائي عمدة في هذا وثقة

اذن فما ذهب اليه القائلون بالتثنية غير صحيح منشأه الغفلة

وتتميماً للفائدة اقول ، ان الرواة مختلفون في صاحب هذا البيت فبعضهم يقول هو العباس بن مرداس وبعضهم يقول هو ابو ذر الغفاري وبعضهم يقول انه غاوي بن ظالم. ولهذا البيت رفيقان هما :

لقد خاب قوم املوك لشدة ارادوا نزالاً ان تكون تحارب

فلا انت تغني عن امور تواترت ولا انت دفاع اذا حل نائب

اربٌ . . . الخ

م . اسعد طلس

حلب (سورية) بكلية الآداب — الجامعة المصرية

(١) راجع شرح القاموس، ودائرة معارف القرن العشرين

مساعدات تاريخية

جاء في « ٤٣ : ٨١ » من المقتطف « كما اننا لا نعلم هل كان يومئذٍ في بغداد من كان يحسن قراءة وفهم رسالة كتبت باللاتينية او ان الخادم المذكور تولى هذا الامر بنفسه »

نقول : ورد في وفيات الاعيان لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ « ١ : ٣٧٧ » ما صورته « وجميع كتابات الامم من سكان الشرق والغرب اثنتا عشرة كتابة وهي : العربية والحميرية واليونانية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية والقبطية والبربرية والاندلسية والهندية والصينية ، فخمس منها اضمحلت وبطل استعمالها وذهب من يعرفها وهي الحميرية واليونانية والقبطية والبربرية والاندلسية ، وثلاث قد بقي استعمالها في بلادها وعدم من يعرفها في بلاد الاسلام وهي الرومية والهندية والصينية ، وحصلت اربع هي مستعملات في بلاد الاسلام وهي العربية والفارسية والسريانية [1] والعبرانية» فقد اراد بالرومية «اللاطينية» ولكون وفاة الخليفة المكتفي المبحوث عن معرفة اللاطينية على عهده ، حدثت في آخر القرن الثالث للهجرة ووفاة ابن خلكان في آخر القرن السابع للهجرة ، يترجح انهُ كان في بلاد الاسلام في القرن الثالث للهجرة من يعرف الرومية فالمدة بين العهدين قراب أربعة قرون ويؤيد هذا الرأي الرجيح قول ابن خلكان « وعدم من يعرفها في بلاد الاسلام » لانه اشارة الى عرفانها قبل عصره ، بل يحشر هذا الرأي محشر الحقائق ما ورد من اخبار رسالة الروم الى الخليفة المقتدر في الصلح والفداء سنة «٣٠٥» هـ وكان هو التالي في الخلافة للمكتفي ، قال ابو علي أحمد ابن محمد المعروف بمسكويه في «٥ : ٥٤ » من تجارب الامم عن رسولي ملك الروم « وكان معهما ابو عمر (عدي) بن عبد الباقي يترجم عنهما ولهما » وجاء في « ١ : ١٠٤ » من تاريخ ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي ما أصله « ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر فكفر له وقال الرسول لمؤنس الخادم ولنصر القشوري — وكانا يترجمان عن المقتدر — : لولا اني لا آمن ان يطالب صاحبكم بتقبيل البساط لقبلتهُ . . . » والظاهر ان الرسالة كانت باليونانية لا باللاتينية وكذلك الترجمة لان ملك القسطنطينية واهلها اذ ذاك من اليونان ، لكن حياة اللغة اليونانية في بلاد الاسلام — وقد ذكر موتها ابن خلكان — يدل على حياة اللغة اللاتينية التي عدم العارف لها في بلاد الاسلام على عهده وكانت معروفة قبله ، ونحن لا نشك في ان

---

(١) قال الدكتور « اسرائيل ولفنسون » في ص ١٤٧ من تاريخ اللغات السامية « وفي القرن الرابع عشر أخذت السريانية تفنى بسرعة بسبب تغلب الفتوح التترية بشكل لم يحفظ مثله التاريخ » وابن خلكان قد ذكر استعمال هذه اللغة في بلاد الاسلام على عهده وكان التتر اذ ذاك قد استولوا على ايران والعراق وآسية الصغرى واكبر سورية حتى وصلوا الى عين الجالوت — كما في مراصد الاطلاع — وكتبت السريانية على الجدران ببغداد في اول دخول التتر اياها

اللغة اليونانية في عهد المكتفي كانت أشيع من اللاتينية لان كثيراً من المسيحيين النساطرة أتقنوا اليونانية وترجموا جماعة من كتبها الى العربية — كما هو مشهور في تاريخ الثقافة الاسلامية — وكانت بعضها متداولة في زمن المكتفي

القبة والطير والمظلة

وورد في ص ٤٦ بحث قيم لذيذ في القبة والطير والمظلة فنقول : ذكر القبة ايضاً قطب الدين الحنفي في ص ٨٧ من الاعلام باعلام بيت الله الحرام قال في ذكره الجراكسة « وكانت تقع فتن وقتال ... الى ان يستقر الامر على واحد منهم فيركب في شعار السلطنة واصطلحوا على هيئة خاصة أخذوها عن الملوك الايوبية الاكراد وزادوا فيها ونقصوا وكان ذلك الوضع مقبولاً عندهم فان العرف يحسن ويقبح وان كان صورة مضحكة عند من لم يألفها .. فكان من شعار سلاطين الجراكسة عمامة ملفوفة بصبائغ مكانفة يجعلون في مقدمها ويمينها ويسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة في نفس الشاش يلبسها السلطان في مواكبه وديوانه ويلبس قفطاناً من فاخر الثياب يكون على كتفه اليمين طراز مزركش بالذهب وكذلك على كتفه اليسار ... ويحمل على رأس السلطان قبة لطيفة وفي وسط ذلك صورة طير صغير، يظل السلطان بتلك القبة التي يحملها على رأس السلطان أمير كبير وظيفته ان يصير سلطاناً بعد ذلك » . وذكر المظلة المعروفة عند الترك بالجتر ابن خلكان ايضاً قال في ترجمة المستنصر بالله الفاطمي « وكان المستنصر يستعير من ابن هبة الله صاحب ديوان الانشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته » وقال في موضع آخر بترجمة يعقوب بن كلس الوزير « وخرج العزيز وعليه حزن ظاهر وركب بغلته بغير مظلة وكانت عادته انه لا يركب الا بها وصلى عليه وبكى » [1]

وذكر الجتر ايضاً ابو الفضل كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي المؤرخ البغدادي قال في أخبار سنة «٦٩٤» هـ ما نصه «واما لاجين فانه دخل مصر ورفع البيسري الجتر على رأسه ولقب الملك المنصور [2] »

وورد في ص ٤٦ ايضاً « السلطان سنجر » ولم تشر السيدة المحققة مدام ديفونشير الى تاريخ هذا السلطان ولا ميزته عن اسميائه ، أهو سنجر الذي قال فيه أبو القاسم هبة الله بن الفضل المتوفي سنة « ٥٥٨ » :

تكريت تعجزنا ونحن بجهلنا ... نغفي لنأخذ ترمذاً من سنجر [3]

ام هو سنجر بن ملكشاه بن داود السلجوقي المتوفي سنة «٥٥٢» هـ [4] وذلك أوفق للحال ام هو سنجر آخر ؟

بغداد مصطفى جواد

(١) الوفيات « ٢ : ٢٢٣ ، ٥٠٤ » (٢) الحوادث الجامعة (٣) الوفيات « ٢ : ٣٢١ — ٣ » وابن الاثير « ١١ : ٧٧ » والفخري (ص ٢١) (٤) الوفيات « ١ : ٢٣٤ »

باب الزراعة والاقتصاد

المغفور له الامير كمال الدين حسين

في الجمعية الزراعية الملكية

لما فوجئت الجمعية الزراعية الملكية بنعي المغفور له رئيسها العظيم الامير كمال الدين حسين بادر اعضاء مجلس ادارتها ومديرها وموظفوها وعلى رأسهم جميعاً حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون نائب رئيس الجمعية برفع التعازي الى القصر الملكي والى صاحبة السمو السلطاني الاميرة كمال الدين والى اعضاء الاسرة العلوية الكريمة خارج القطر المصري وداخله واقفلت الجمعية مكاتبها ونكست اعلامها حداداً على فقيدها وفقيد الامة المصرية واجلت اجتماع لجنتها الادارية

ذلك ان الجمعية الزراعية الملكية قد فقدت بوفاته ركناً متين الدعائم كانت تستند اليهِ في جلائل شئونها منذ ولي امرها بعد ابيه مؤسسها ساكن الجنة المرحوم السلطان حسين كامل عند ما تبوأ عرش مصر في سنة ١٩١٥ فاقتفى الشبل النجيب أثر والده العظيم وسار على منواله في العمل على تحسين الاحوال الزراعية بالقطر المصري

اما اعمال الفقيد في الجمعية الزراعية فلا يكاد يحيط بها الحصر . فهو الذي انشأ متحف القطن بسراي الجمعية بالجزيرة ويعدُّ هذا المتحف فخراً للجمعية وللبلاد لا ينافس ولا يقوَّم من الوجهة العلمية اذ هو منقطع النظير في العالم اجمع وهو مدرسة جامعة لكل ما يهم الوقوف عليه من احوال القطن وتاريخه وزراعته وتجارته وصناعته . وقد بدىء به في سنة ١٩٢٣ فنسقت فيهِ المعروضات المختلفة ارق تنسيق من حيث روعة الوضع وسلامة الذوق وكان في اقبال الجماهير من كل طبقات الزراع والصناع والتجار وغيرهم على مشاهدته والاستفادة منه في المعرض الاخير ما دلَّ على ان مصر كانت في اشد الحاجة الى مثل هذا المتحف الفريد في بابهِ

وكان رحمهُ الله كلفاً بالمباحث العلمية البحتة يعنى بها كل العناية وفي عهد رآسته انتجت الجمعية قطن (المعرض) الذي اصبح الآن في مقدمة الاقطان الطويلة الشعرة التي يقبل عليها الغزالون ايما اقبال فازداد انتشاره بين الزراع في الوجه البحري ازدياداً مطرداً

وكان رحمهُ الله فوق ذلك يعمل على تقوية روح التنافس بين الزراع فخصص في كل سنة مداليتين ذهبيتين احداهما لاحدى مديريات الوجه البحري والاخرى لاحدى مديريات الوجه القبلي ليتبارى في نيلهما كبار الزراع الذين يتقدمون للمباراة تحت اشراف الجمعية الزراعية والغرض منهما التشجيع على تحسين الاحوال الزراعية بالقطر المصري ووضع سموه السلطاني شروط المباريات بنفسه وكان يشرف على اجراءات التحكيم واهداء المداليات لمستحقيها من كبار الزراع والدوائر منذ سنة ١٩٢٤ الى قبيل وفاته

وفي المعرض الزراعي الصناعي الاخير الذي اقيم في سنة ١٩٣١ اهدى سموه السلطاني اربع مداليات ذهبية الى الفائزين الذين عرضوا احسن انواع قطن المعرض والسكلاريدس واكرم الماشية للنتاج

وكان سموه قبل رآسته للجمعية رئيساً لقسم تربية الحيوانات بها منذ عهد الى الجمعية في سنة ١٩٠٨ في ادارة ذلك القسم بعد ان كان تحت اشراف لجنة تابعة لوزارة الداخلية وذلك لتحسين انواع الخيول والمواشي فعمد رحمهُ الله لشغفهِ وشدة عنايتهِ بتربية الماشية وعلى الاخص الخيول الاصيلة العربية الى اعادة الخيول الاصيلة التي اوجدها في مصر بعض أمراء الاسرة المالكة والمرحوم علي شريف باشا بعد ان كانت قد تسرَّبت الى خارج القطر وكادت تنقرض باذلاً في سبيل ذلك ما وسعهُ من خبرة ونفوذ .

وبعد الحصول عليها انشأ في الجمعية قسماً خاصًا لانتاج الخيول العربية واستكثارها وجمع بنفسهِ انساب الخيول العربية الاصيلة واعدَّ لها سجلاً خاصًا فاصبحت مجموعة الخيول في قسم تربية الحيوانات بالجمعية الزراعية اجود مجموعة للخيول العربية في العالم

وقد جعل سموه السلطاني مزارعه خير مثال للمقتدين بقدوته الحسنة فكان يعنى بجودة النوع في حاصلاته ويحصل على اثمان لاقطانه تكون في بعض الاحوال اعلى ما يتسنى الحصول عليه وله في تفتيش صفط خالد مجموعة ثمينة من الخيول والاغنام التي كان يوجه النظر الى تربيتها

ومن مآثر سموه السلطاني على الزراع ايام الحرب العالمية عند ما ساءت الاحوال المالية وارتفعت اثمان الاسمدة الكيماوية ارتفاعاً عظيماً بسبب الحاجة اليها وانقطاع الواردات منها ان الجمعية بأمره واشارته جارت الحالة المالية في ذلك الوقت العصيب بتخفيض اثمان الاسمدة وتحمل فرق السعر كواجب عليها تؤديه خدمةً للمزارعين

وكان رحمهُ الله ينفق من جيبهِ الخاص آلاف الجنيهات على البعثات العلمية التي توفدها الجمعية للتخصص في الخارج وعلى طبع المؤلفات الفنية التي لا تسمح ابواب الاعتمادات في ميزانية الجمعية بتدبير الاموال لها ولا غرو فانه كان نصير العلم والمباحث واكبر مشجع للقائمين بها اما المعارض الزراعية والصناعية فكان شديد الاهتمام بها ويرجع اليه الفضل في وضع

البرنامج لتنسيق ارض المعرض بالجزيرة وانسجام ابنيته وتناسب الاذواق في اوضاعها يشرف بنفسه على التنظيم بجملته ويضحي بوقته في الاطلاع على التفاصيل فكان النجاح الباهر حليف المعرضين اللذين اقيما في عهد رآسته للجمعية بالجزيرة سنة ١٩٢٦ و ١٩٣١ وبالنظر الى ما لقيا من الرعاية العليا التي تفضل بها عليهما حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك كان أثرهما عظيماً في ترقية الاحوال الزراعية والصناعية في القطر المصري

وكان الفقيد رحمهُ الله في كل ما يقوم به من امثال هذه الخدم الجليلة التي لا يحصرها العد يراعى ان لا يشهر له فضل او يذاع له اسم او تذكر له منقبة لا يطلب جزاء ولا يبتغي شكوراً

فلا شك في ان الجمعية الزراعية الملكية اول من يشعر بعظم الرزء وفداحة الخسارة في فقده تغمده الله برحمتهِ واسكنهُ فسيح جناتهِ

خطر اسود يهدد الفلاحين

أثر الشاي الاسود في صحة الفلاحين وقواهم

عن المقطم لكريم ثابت

لما زار المسيو موريس ديكوبرا الكاتب الروائي الفرنسوي الشهير هذا القطر سألتهُ في حديث دار معهُ ونشر في المقطم يومئذ عن اهم ما استوقف نظره في مصر فقال «اجتهاد الفلاح ونشاطه وتجلده على العمل» ثم استطرد الى ذكر أمور أخرى قال انها وقعت وقعاً عظيماً في نفسهِ

وقد أجمع العارفون على ان الفلاح المصري في طليعة فلاحي العالم لثلاثة اسباب جوهرية. الاول انه يقنع من الاجر بيسيره والثاني انه يكتفي من القوت بقليله والثالث ان عدد الساعات التي يمضيها في أرضه ليست محدودة. وكان أولئك العارفون يعزون نشاطه هذا الى تمتعهِ بصحة جيدة وباقليم ملائم لها بالرغم من رداءة مسكنهِ وربما كان لبساطة مأكله نصيب من تمتعه بتلك الصحة فانه يأكل الخبز والجبن واللبن والخضر في معظم الاحيان ولا يذوق اللحم الاَّ نادراً

غير ان بعض الكتَّاب المشتغلين بالشؤون الزراعية يكتبون من مدة عن تفشي عادة شرب الشاي بين الفلاحين وينبهون على ضررها وعواقبها لتأثيرها السيء في صحتهم وقواهم وقد نشر بعض هذا في المقطم ولكن ظهر الآن ان الحالة بلغت من الخطورة ما يقضي بمعالجتها بعلاج سريع فعال لتلافي ضررها وتدارك عواقبها فان العارفين اكدوا لنا في هذين اليومين ان الحالة لا تبعث على الاطمئنان فعلاً وان شرها سيتفاقم اذا دأبنا على مواجهتها بالتردد والتراخي اللذين واجهناها بهما حتى الآن

* * *

اجتمعت امس بحضرة صاحب العزة جلال فهيم بك وكيل وزارة الزراعة فحدثني عن هذا

الموضوع حديثاً مستفيضاً سأخصه للقراء هنا لما حواه من معلومات وبيانات جديرة بالبحث والتمحيص

قال حضرته : لا يخفى عليكم انه لما نشبت الحرب العظمى اخذت السلطة عدداً كبيراً من الفلاحين عمالاً فكان لهم القدح المعلى في المهام التي نيطت بهم فلما عادوا الى بلادهم كانوا قد الفوا شرب الشاي فاستمرّوا في شربهِ ونشروا هذه العادة بين اخوانهم فلم ينقض على ذلك زمان طويل حتى انتشر انتشاراً مريعاً وعم جميع طبقات الفلاحين فتراهم الآن يحملون معهم الى الحقل لوازم اعداد الشاي الى جانب آلاتهم ومعداتهم الزراعية . وغني عن البيان انهم يضيعون وقتاً طويلاً في اعداده وشربهِ ولو اقتصر الامر على ذلك لهان ولكنهم يشربون من الشاي ارداه ويغلونهُ الى ان يصبح لونه اسود تقريباً وهم يشربونه بهذه الكيفية عدة مرات في اليوم وقد يستغنون عن الطعام ولكنهم لا يستغنون عن الشاي وقد لا تجد عند الفلاح غلة لمأكلهِ ولكن لا بد ان تجد عنده الشاي والسكر

***

قال جلال بك : ومنذ ان انتشر الشاي بين الفلاحين على هذا المنوال بدأت قوى الفلاح تنحط فتضاءلت جهوده في الحقل وساءت صحته وكان لذلك تأثير وبيل في تناسلهِ واصبح لا يعمل في اليوم كله سوى جانب مما كان يعملهُ قبلاً بسبب ما اعتراه من وهن في قواه البدنية ونقص في ساعات العمل التي يعملها . وامامي هنا احصاء يستدل منه على مقدار الشاي الذي كان يستهلك في القطر من عشرين سنة والزيادة التي زادتها بعد الحرب العظمى فقد استهلكت مصر من الشاي في سنة ١٩١١ نحو ٨٩٥٧١٥ كيلو غراماً واستهلكت في سنة ١٩٢٠ نحو ١٦٢٣٠٩٢ كيلو غراماً واستهلكت في سنة ١٩٣١ نحو ٦٩٩١١٥٤ كيلو غراماً ومتوسط الزيادة في السنوات الاربع الاخيرة كان ٥٩١ في المائة عن مقطوعية ما قبل الحرب

***

وقد وضع قسم الطب البيطري بوزارة الزراعة مذكرة عن الشاي الاسود والمواد التي يتألف منها وتأثيرها في المرء وجاء في هذه المذكرة ان اهم تلك المواد الكافيين والتنين

« والكافيين جوهر سام شبه قلوي ينبه المجموع العصبي والعضلات ويزيل شعور التعب والميل الى النوم ويطيل في ضربات القلب ويرفع ضغط الدم ويعجل التنفس واذا اعطي بمقادير كبيرة يسبب اضطراباً في الاعصاب ويخفق القلب بشدة ثم يقف ويهبط ضغط الدم بعد ارتفاعهِ وتبطىء حركة التنفس بعد اسراعها»

« والتنين مادة سامة كاكثر الحوامض وهو يجفف الريق ويسبب العطش ويضعف حاسة

الذوق ويقلل من قوة العصارة المعدية مقداراً ونوعاً وينتج عسر الهضم ويقلل افراز الامعاء»

***

قال جلال بك : ويتضح مما تقدم ان للشاي مزايا ومضار من حيث تأثيره في صحة الانسان فاذا امكن شربه بمقادير معتدلة تفصل بينها فترات طويلة رجحت فوائده عيوبه غير ان الاعتدال في شربه غير مكفول والمشاهد انه يصبح عادة يتغلب فيها الافراط فتنتج اضراره وهي خفقان القلب وتصلب الشرايين وعسر الهضم والامساك المزمن . نعم انه ينبه الاعصاب ويزيل الشعور بالتعب ويزيد الرغبة في العمل ولكن هذا كله لا يدوم الا فترة قصيرة يعقبها ضعف في الاعصاب وفتور في العمل

***

ويرى جلال بك ان خير ما تصنع الحكومة لمعالجة هذه الحالة ان لا تسمح الا باستيراد الانواع الجيدة من الشاي وان تفرض ضريبة عالية عليه حتى يتعذر على الفلاح شربه

وعند وكيل وزارة الزراعة ان خطر الشاي اصبح اعظم من خطر الحشيش والكوكايين لان عدد الذين يدخنون الحشيش ويشمون الكوكايين محدود في حين ان شرب الشاي يكاد يشمل جميع الفلاحين

***

هذا موجز الحديث الذي افضى به جلال فهيم بك في هذا الموضوع الخطير رأيت ان اردده هنا عسى ان يلقى العناية التي يستحقها من الجهات المختصة فتتضافر على تدبير العلاج الناجع بلا تردد ولا توان فان الذي يرفع المصباح الاحمر هذه المرة هو وكيل وزارة الزراعة وهو بحكم منصبه وخبرته وبما له من صلة بالفلاحين من اعرف الناس بأحوالهم فاذا قال اليوم ان هنالك خطراً يهدد الفلاح وان هذا الخطر هو الشاي الاسود الذي يشربه وجب علينا ان نصدقه وتعين على الحكومة ان تعير انذاره ما هو جدير به من عناية واهتمام

اننا نردد صباحاً ومساءً ان الزراعة عماد ثروة مصر . والعارفون يقولون ان لصون هذه الثروة ثلاثة اركان اساسية اولها سلامة الفلاح من الامراض وثانيها المحافظة على خصب الاراضي وثالثها اتقان الري والصرف

ولكن ماذا تنفع المحافظة على خصب الاراضي وماذا ينفع اتقان الري والصرف اذا اضمحلت قوى الفلاح اي اذا انهار الركن الاساسي لصرح ثروة البلاد

فهل ننقذ الفلاح ام ندعه يذهب ضحية هذا الخطر الجديد — هذا الخطر القاتم — خطر الشاي الاسود

مكتبة المقتطف

ديوان ابن زيدون

رسائله ، اخباره ، شعر الملكين — شرح وضبط وتصنيف كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة — طبع مصطفى البابا الحلبي واولاده بمصر في ٥٢٠ صفحة تقريباً من الحجم الكبير

للادب الاندلسي — وخاصة الشعر — صلة قوية بالحركة التجديدية التي نلمسها الآن في الشعر العربي ، ولا أخال أديباً مجدداً لم يتذوق تلك الحلاوة التي يتميز بها هذا الادب ، أو لم ينهل من نبعهِ الصافي ، كما لا احسب أن أديباً من أنصار القديم لم تستهوهِ تلك الحلاوة ، أو لم يرتوِ ايضاً من ذلك النبع . وفي الحق أننا في أشد الحاجة الى دراسة الادب الاندلسي دراسة وافية نتعرف بها الوسائل التي سما بها ونهض ، وحَلاَ بها ورَقَّ

ولقد ظهر في ذلك الفردوس العربي المفقود أدباء نفحوا جوَّ الأدب طيباً ، وسموا الى مراتب الخلود . وابن زيدون يعتبر من هؤلاء في الطليعة ، فهو متفوق عليهم بعاطفتهِ القوية ، وقد ظل ديوانه محبوساً عنا لم يصلنا منهُ الاَّ اليسير يفيض رقة وعذوبة حتى تقدم كاملٌ كيلاني وزميله فأخرجا لنا تلك التحفة النادرة من مكمنها ، والدرة الساحرة من صدفها ، وجلَوَاها فتنة على فتنة

وان نظرة واحدة الى التهذيبات التي قاما بها في تصحيح ما لحق آثار هذا الشاعر النابغة من تحريف الناسخين لتبين عظم ذلك المجهود الذي بذل في سبيل إخراج الديوان على حقيقة ما كان . . . فقد ظللنا زماناً نردد عن اساتذتنا هذا البيت من نونيته المشهورة هكذا :

وبيت ملكٍ كأن الله أنشأهُ مسكاً ، وقد انشأ الله الورى طينا

حتى طلع علينا الديوان مصححاً فاذا البيت هكذا :

ربيب ملك كأن الله انشأه مسكاً ، وقدّر إنشاء الورى طينا

فظهرت الصورة جميلة ، والاسلوب متسقاً . وقد ذكر امثلة كثيرة من هذا التحريف

وكتب مقدمة طويلة عن ابن زيدون — حياته وشاعريته — وعقد منها فصلاً عن ملوك الطوائف ، وذيّل الديوان برسائل ابن زيدون وشعر الملكين — المعتضد والمعتمد — لصلتهما بالشاعر ، وأتى ببعض معارضات الشعراء لقصائده ، كما ذيّلهُ بأهم الدراسات التي كتبت في العصر الحديث عن ابن زيدون . . . .

وابن زيدون في اعتقادي — بالرغم من الزمن البعيد الفاصل بيننا وبينهُ — شاعر أحس عند قراءته انه يعيش بيننا الآن ، تظهر الجدة على شعره ، وتظل الوانه التي رسم بها تلك البدائع محتفظة بروائها

شاعر عاطفي يشبه من وجوه كثيرة الشاعرين الانجليزيين: شلي وبيرون، والشاعرين الفرنسيين: لامرتين وموسيه ... وإني لاحس بحرارة تلفحني كلما قرأت له مقطوعاته التي كتبها الى ولادة، وأجد تقارباً شديداً بين قصيدة «البحيرة» للامرتين وقصيدة ابن زيدون النونية التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وابن زيدون شاعر فنان ، . . الوانه الاخاذة وشعوره المتقد يغطيان في شعره العاطفي على صناعته اللفظية التي كان مغرماً بها فلا تظهر فيه ، وتصبح سحراً في السمع كما في مقطوعته الآتية:—

بيني وبينك ما لو شئتَ لم يضعِ   سرٌّ إذا ذاعت الاسرارُ لم يذعِ
يا بائعاً حظَّهُ مني ، ولو بُذِلَتْ   لي الحياة ، بحظ منهُ ، لم أبعِ
يكفيك أنك إن حمَّلتَ قلبيَ ما   لم تستطعهُ قلوب الناس، يستطعِ
ته أحتملْ ، واستطل أصبرْ ، وعزَّ أهُنْ   وولِّ أقبلْ ، وقُلْ أسمعْ ، ومُرْ أطعِ

وما خلد ابن زيدون إلاّ عاطفته ، وما قلّده تلك الزعامة الاّ انهُ كان يستمد من قلبه شعره ، ويصوغه من وجدانه . وإني لأهتف البيت من شعره فأظل أسمع صداه زمناً يتردد، ويخيّل اليَّ أن صدى صوت ابن زيدون ما يزال يرنُّ في جوف الليل هاتفاً :

يا ليل طُلْ لا اشتهي   —الا بوصلٍ— قِصَرَكْ
لو بات عندي قمري   ما بتُّ أرعى قمرَكْ

أو وداعه لولادة إذ يقول : —

ودَّعَ الصبرَ محبٌّ ودَّعَكْ   ذائعٌ من سرِّهِ ما استودعكْ

أو قصيدة الذكرى التي يقول فيها :

إني ذكرتكِ بالزَّهراء مشتاقا   والأفْقُ طلْقٌ ،ومرْأى الارض قد راقا

وارتفع واياهُ في عالم السموّ عند ما يقول :

سأقنع منكِ بلحظِ البصرْ   وارضى بتسليمك المختصرْ
ولا أتخطى التماسَ المنى   ولا أتعدى اختلاسَ النظرْ
أصونكِ من لحظات الظنو   نِ أُعليك عن خطرات الفكرْ
وأحذر من لحظات الرقيـ   ـب،وقديستدام الهوى بالحذرْ

أما قصيدتهُ التي كتبها وهو في السجن، وبعث بها الى صديقهِ الوزير الكاتب والتي يقول منها:

ما على ظني باسُ   يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر   ء على الآمال ياسُ
ولقد ينجيك إغفا   ل ، ويرديك احتراسُ

فهي لوعة خالدة اللهب ، وانَّة أبدية الصدى

على ان طلاوة ابن زيدون ورقتهُ لا تدفعان بشعره في المدح والرثاء الى الذروة التي تسمو بشعره اليها عاطفته ، فتظهر صناعته اللفظية وعليها من التكلف ما عليها . ولكن لحسن الحظ ان معظم شعر ابن زيدون آمال وآلام ، وتغريدات وتأوُّهات ، ستظل ثروة في الأدب العربي سامية القدر . وانها لخدمة عظيمة قدمها الاديبان الفاضلان الى الادب العربي باخراجهما هذا الديوان في الحلة القشيبة التي يستحقها ، ونشكرهما الاهتمام بالادب الاندلسي والعزم على إظهار تحفه وطرائفه

الصيرفي

حول ديوان الرصافي

لعلَّ ديوان الرصافي الذي طبع في بيروت اخيراً (مطبعة المعرض) يعد من اكبر الدواوين الشعرية الحديثة حجماً ان لم يكن هو اكبرها على الاطلاق ، ولا شك اننا نظلم هذا الديوان ظلماً قاتلاً اذا نظرناهُ على انهُ شعر كله ولكننا ننصفهُ الانصاف كلهُ اذا نظرناه على انهُ ديوان أدب وفلسفة ولغة وتاريخ وسياسة واجتماع . أما الشعر فلعلهُ أقل مواد هذا الديوان العظيم

ولعلك لو سألت الرصافي نفسهُ هل نظمت ديوانك بهذا الحجم الكبير على انه شعر خالص لاجاب : كلاَّ . ولكني أردته ان يكون صورة كاملة للعصر الذي أعيش فيه

ولا جدال في ان الرصافي قد وفق فيما اراده من ديوانه كل التوفيق ، فديوانه يعطيك اقرب صورة للحياة العربية في مدة الثلاثين سنة الماضية ،وهو يريك بوضوح في هذه الحقبة من السنين كيف كان الشرق العربي يعلو ويهبط بين قوتين متجاذبتين كلتاهما أقوى من الاخرى ونعني بهما قوتي المجددين والمحافظين سواء أكانت هذه المشادة في الآراء السياسية او الدينية او العلمية على حد سواء ، فديوان الرصافي يعطيك اوضح صورة للشرق العربي في هذه الحقبة التي تعد بحق اهم فترة من عصر النهضة والتجدد والانتقال

ولكن من الحق ان نقرر ان في نظم الرصافي جاذبية موسيقية وانه على ما فيه من صنعة فانهُ يبدو غير متكلف .فاذا كان هذا الديوان ليس مثالاً لتجديد الشعر فانه بدون شك مثال لتجديد النظم . وهو اذا لم يكن جميعه شعراً مطبوعاً فان جميعه نظم مطبوع . بل هو اذا لم يكن اكثره شعراً فنيًّا صرفاً فان اكثره حقائق وافكار وآراء اصلاحية من احسن ما وصل اليهِ علماء الاجتماع والعمران . انك في هذا الديوان تقرأ قصائد برمتها قد تبلغ القصيدة منها نحو السبعين بيتاً فلا تجد بيتاً واحداً من الشعر ولكنك لا تجد بيتاً واحداً خالياً من حقيقة علمية، أو فكرة فلسفية او رأي اجتماعي ، ذلك الى رنين موسيقي يجذبك جذباً الى اتمام قراءة القصيدة من قبل ان يلحقك شيء من السأم او من الملال . واليك مثال لما نقول من هذه الابيات وهي مطلع القصيدة الاولى للديوان . قال تحت عنوان مشهد الكائنات

جمالك يا وجه الفضاء عجيب وصدرك يأبى الانتهاء رحيب
وعينك في ام النجوم كبيرة تضيء على ان الضياء لهيب
ومازلت تغضيها فنخطيء قصدنا وتفتحها براقة فنصيب
فيحمر منها في الغديّة مطلع ويصفرّ منها في العشيّ مغيب

فأنت ترى ان هذا النظم رائع حقاً وانه ذو موسيقى تجتذب الاسماع وقد تسترق او تستهوى بعض الطباع ولكنك الى جانب ذلك اذا بحثت في هذه الابيات عن الشعر فانك لن تجده ، قل بربك اي انسان فوق هذه الارض لا يعرف ان جمال وجه الفضاء عجيب وان صدره رحيب وهل هذا الكلام الاّ كمثل قولهم السماء فوقنا والارض تحتنا واذا كان هذا الكلام قد وصل من التبذل الى هذا الحد فأي معنى شعري نجده فيه واي فضل للشاعر اذا نظمهُ ، وليت شعري اي فضل للشاعر اذا لم يسبق احساسه احساسات الناس جميعاً ليكشف لهم اسمى المعاني التي يزخر بها هذا الوجود. ثم ومثال آخر من النظم الرائع الذي تجده في ديوان الرصافي فتشعر في قراءته بشيء كثير من الموسيقية والروعة والجلال ولكنك مع كل هذا لا تجد فيه شيئاً اصلاً من الشعر يقول

الاّ يا قبوراً زرتها غير عارف بها ساكن الصحراء من ساكن القصر
لقد حار فكري في ذويك وانهُ ليحتار في مثوى ذويك اولو الفكر
فقلت وللاجداث كفي مشيرةٌ ألاَ ان هذا الشعر من اجمع الشعر

لا شك ان هذا النظم بديع حقاً ولكني أسألك هل تحس فيهِ بشيء من الحياة بل اسألك هل تحس فيهِ بشيء من الموت . اؤكد انك لن تحس فيهِ بشيء مطلقاً لانه لم يوجد فيهِ النبض مطلقاً لم يوجد فيهِ الشعر اصلاً على رغم ان الرصافي يثبت ان فيهِ شعراً وانه من اجمع الشعر اوكما قال ان هذا النوع من النظم الرائع الذي لا يحتوي الاّ على الرنين الموسيقي والسلاسة اللفظية قد ضخم دواوين الشعر العربي تضخيماً يجعلنا نترحم على المتنبي يوم عوَّذ سيف الدولة فقال

اعيذُها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ولست ادري اي حظ عظيم كان يبلغه الشعر العربي لو أن سادتنا اصحاب هذه الدواوين الضخام قد وفقوا بين شاعريتهم وبين مقدرتهم العجيبة على هذا النوع من هذا النظم العالي البديع

تكلم بشار ذات يوم في مجلسهِ فقال انا اشعر العرب فقيل له بماذا فقال لاني نظمت احدى عشر الف قصيدة فلو لم يكن لي في كل قصيدة الاّ بيت واحد لكنت اشعر العرب ويظهر ان شعراءنا لا يريد احد منهم ان يكون اقل من اشعر العرب ولكن لا بطريقة جديدة يبتدعها ولا بمعان غوالٍ يفترعها ولكن بنفس الطريقة القديمة التي جرى عليها صاحبنا اشعر العرب القديم بنظم آلاف القصائد ليبني منها آلاف او مئات ابيات

ومع اني لا اشك في ان الاستاذ الرصافي قد سبق الكثيرين من جيله الى فهم حقيقة الشعر الاّ انهُ لم يستطع ان يتحرر تماماً من سلطان هذه الطريقة التي تسود شعراء العرب حتى اصبح الجمهور وفي طليعته كثير من الادباء لا يعدون من كبار الشعراء الاّ المكثرين من النظامين

ولا أتردد في القول بأن الرصافي لو استطاع ان يقلل من النظم نوعاً ما لكان احد شعرائنا الذين نعد اسماءهم على اصابع اليدين

وليس ادلّ على صدق ما اذهب اليهِ من ان ادعو القارىء الى قراءة مقطوعاتهِ والمقارنة بينها وبين ما له من القصائد المطولات

واني اختتم هذه الكلمة بما ذكره لي رئيس تحرير هذه المجلة ، قبيل كتابة هذه السطور قال: « كنت اقرأ نقداً لاحدى روايات المؤلف الاميركي المشهور سنكلر لوس نائل جائزة نوبل بقلم كبير النقّاد الاميركيين المستر سيدلكانبي فأخذ على المستر لوس ان روايتهُ ليست مكتملة العناصر من ناحية الفن ولكن ليس من ينكر انها مثل معظم روايات لوس تاريخ اجتماعي للاميركيين في العصر الحديث . وليس من ينكر ان لسنكلر لوس المؤرخ الاجتماعي في رواياتهِ مقام ادبي قريب من الذروة ! »

وبعد فاذا لم يكن ديوان الرصافي مكتمل العناصر الشعرية فانهُ ولا ريب تاريخ اجتماعي للشرق الادنى في العصر الحديث . وليس هذا بالاثر اليسير

محمود ابو الوفا

الجاحظ معلم العقل والادب

بقلم شفيق جبري عضو المجمع العلمي العربي. عدد صفحات الكتاب ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط

« فاذا ظهرت الى هذه المحاضرات آثار الانفراد بالفكر وبالشعور دون الانسحاب على ذيل أحد ، فقد بلغت الغاية التي أتوخاها ، وسواء علي بعد هذا أكنت مصيباً في فكري وشعوري أم كنت مخطئاً فيهما »

شفيق جبري

بهذه الكلمات الواضحة الحكيمة يصدّر الاستاذ شفيق جبري كتابه النفيس أو على الأصح محاضراته الجديدة التي ألقاها على طلبة كلية الآداب في دمشق ، وفي هذا التصدير القصير يرى القارىء صورة واضحة المعالم دقيقة التفاصيل لمؤلف كتاب الجاحظ ، ولو أن كاتباً منصفاً يتوخى النزاهة والدقة والانصاف قرأ هذه المحاضرات من غير أن يقرأ هذا التصدير لكان اول ما يلاحظ على كاتبها ميله إلى الانفراد بالفكر وبعده الشديد عن التقليد الاعمى والجري على اساليب التعبير التي ألفها أكثر المؤلفين في هذا العصر حتى كادت تصبح (كليشيهات) محفوظة . ولو أن هذه هي كل ما في الكتاب من مزايا لألحقنا الاستاذ الفاضل مؤلف الكتاب بطائفة من غلاة المجددين لا يسر الاستاذ أن يحشر في زمرتها ، فان كثيراً من المجددين في هذا العصر يكرهون التقليد اكثر مما يكرههُ مؤلف الكتاب وينفرون منهُ أكثر من نفوره .

ماذا ، بل منهم من آلى على نفسه ان يعارض كل رأي قديم وينقض كل ما أجمع عليهِ القدماء بالحق وبالباطل رغبةً في اقناع الناس بأنهُ مبتكر غير مقلد ، حر غير مقيد ، لا ينسحب على ذيل أحد — على حد تعبير المؤلف — ولا يعبأ بعد ذلك أكان مصيباً في فكره ، وفي شعوره ، أم كان مخطئاً فيهما ، كما يقول الاستاذ شفيق ، ولكن شتان بين المذهبين ، وان كان اسلوب التعبير عنهما واحداً ، فان اولئك يتنكبون الجادة ، ولا يعبأون بالحقيقة ، ولا يُعَنُّون أنفسهم بالبحث عن المصادر وتمحيص المقدمات والوصول الى نتائج صحيحة يقرها العقل والمنطق . وليس يعنيهم ان يجهدوا البحث ويمحصوه بقدر ما يعنيهم ان يشتهروا بالطرافة والابتكار والبعد عن التقليد

اما الاستاذ شفيق فله مذهب آخر يخالف مذهب اولئك المسرفين كل المخالفة ، فهو يكره التقليد كل الكره ، ولكنه — الى ذلك — يحرص على الحقيقة كل الحرص ، وهو لا يندفع وراء رأي مشهور وعبارة مقررة محفوظة ، ولكنهُ — مع ذلك — يحرص على النصوص والاسانيد ويعتز بها كل الاعتزاز بعد أن يقرها عقله ويرضاها منطقه ، وبعد ان يضعها في بوتقة البحث ، وثمة يستشهد بها الاستاذ ليحق حقًّا او يزهق بها باطلاً ، فهو يستعمل كل أدوات البحث المشروعة ويدقق ويمحص ما شاءت له دقته وتمحيصه ، فاذا اصاب فقد أرضى نفسه ، وأرضى الحقيقة معه ، واذا أخطأ فقد بذل ما في وسعهِ ، ولم يأل جهداً في الوصول الى الصواب ، ثم هو لا يعنيه بعد ذلك أن يكون مصيباً في فكره وفي شعوره ، او مخطئاً فيهما كما يقول

هذه كلمة موجزة سريعة نكتبها للقارىء انصافاً لمؤلف الكتاب وهي — كما رأى القارىء — نقيصة في غيره ، ولكنها فضيلة فيه ، فقد كاد ينقسم الباحثون عندنا الى قسمين مغالين في الجمود ومغالين في التجديد أولئك لا يجرؤون على مخالفة القدماء والبعد عن آرائهم قيد شعرة ، وهؤلاء لا يطيقون صبراً على موافقة القدماء في اي شيء مهما أيدته النصوص التي لا سبيل الى المكابرة فيها رغبةً في الجدة والطرافة أو جرياً وراء نظريات خاطئة تلقفوها بلا روية ولا تمحيص عن الفرنجة

وقد تكاتفت فئة من افاضل الباحثين في السنين الاخيرة على درس الجاحظ والعناية بآثاره ، واذاعة فضائله ومزاياه الباهرة على الناس ، وهي جهود مشكورة ستعود بأحمد النتائج على الأدب العربي والبيان العربي ، وقد وفق الاستاذ شفيق في كثير من فصول الكتاب توفيقاً عجيباً جديراً بالاغتباط والثناء والاعجاب ، وليست تتسع هذه الكلمة الموجزة السريعة الى عرض آرائهِ المبثوثة في كتابه ومناقشتها وهو يقع في مائتين وخمسين صفحة ، فلنجتزىء بقوله في الفصل الذي كتبه عن تحقيق الجاحظ اذ يقول :

« فالجاحظ لم يفته فضل العيان والتجربة ، وان فاته في بعض الاحيان روح الترتيب في الذي عاينه ، او جرب فيه ، او فاتهُ خيال العالم ، وأعني بهذا الخيال قدرة العالم على التصميم ، وعلى الحزر والحدس لاستنباط القوانين العامة ، أو فاته التمكن من انشاء المقاييس العامية ، فقد نجد كثيراً من معارفه مبعثرة لا يجمعها نظام واحد

وكلما جرب وعاين فقد سمع : وكان في معرفة السماع شديد التثبت والتوثق ، ولقد ضم إلى هذه المذاهب كلها ، الى التجربة والعيان والسماع ، مذهباً آخر وهو العقل ، فقد جعل العقل دليلاً في مجامع أموره ، فما كان يصدق الا ما تثبته الادلة ، وتحققه الامتحان ، فالعقل في نظره انما هو الحجة في حكم الامور . وقوله :

« ولم يقتصر الجاحظ على مؤاخذة ارسطاطاليس بأنهُ لم يعتمد في تحقيقهِ على العيان والسماع والامتحان وانما عاب عليهِ في بعض الاحوال انهُ اذا تكلم على حيوان فانهُ لا يستوفي عجائب هذا الحيوان ، من هذا كلامه على الفيل :

« وما أعجب ما قرأت لصاحب الحيوان في كتاب المنطق ، وجدته وقد ذكر قصر عنقه ولم يذكر انقلاب لسانه ، وذلك أعجب ما فيهِ ، ولم ينظر في كم يضع ، ولا مقدار مدة حمله ، وكيف يخرج من بطن أمهِ نابت الاسنان . » الخ الخ

وقد عرض الاستاذ شفيق جبري الى كثير من النواحي الرائعة للجاحظ وأدبه وثقافته ، فذكر لنا كيف كان النقد قديماً في لغة العرب ثم تدرج في سبيلهِ الى الكمال ، وذكر لنا أول عهده بالجاحظ ، ونواحي الجاحظ ، ووطن الجاحظ ، وحياته ، وثقافته ، وحرية الفكر في عصره ، والزندقة في عهده ، وأثر الانقلاب الفكري في نفسهِ ، وأصوله في التحقيق ، واعتماده على التجربة والعيان ، واستعانته بالعقل ، ونقده العلمي ، وطريقته في الشك والتعليل ، ومذهب المعتزلة الجاحظية ، وشعور الجاحظ الديني ، ومذهبه في التفسير والتأويل ، وضحكه ، وتهكمه ، واسلوبهُ في النقد ، ورأيه في التوليد والشعر ، واهتمامه بالصنعة ، وطريقة تفكيره ، وروعة فنه

وبعد ، فقد أحسن الاستاذ شفيق جبري في كتابه « المتنبي » الذي عرضنا له بالنقد والتحليل في مقتطف العام الماضي كما احسن في كتابهِ الجاحظ ، وانا لجهوده الموفقة المحمودة القادمة لمنتظرون ، اكثر الله من امثاله ، وبارك الله في جهوده المثمرة الخصبة ، ولقد صدق الاستاذ الامام محمد عبده حين قال : « كل طعام يتناوله الصحيح ينقلب الى صحة ، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب الى مرض » فقد انتج الاستاذ شفيق جبري في محاضراته اشهى الثمار وخلف لنا في بحوثه اروع الآثار

***

فتح الاندلس : رواية تمثيلية شعرية

تأليف فؤاد الخطيب

طالعت هذه الرواية التمثيلية ، وعنيت بها خاصة لانها من قلم الاستاذ الخطيب ، ولشعر الخطيب عندي منزلة ممتازة . فقلت لعله يجيد في الرواية التمثيلية ، كما يجيد في الشعر . فهل حقاً اجاد فن الرواية ؟ وهل تثبت روايته اذا وازناها بغيرها من صنع اقطاب الفن ؟ وأين يكون مكانها بجانب روايات شوقي مثلاً وهي شبيهة بها كل الشبه ؟ الرواية تاريخية ملخصها ان القوط الذين حكموا الاندلس اساءوا الحكم وعاثوا في البلاد فساداً ، فاستغاث الشعب المظلوم بالعرب ، فأغاثوه ، وجاء طارق بن زياد البطل المشهور ، صاحب الخطبة التاريخية الفذة ، ارسله الامير البطل موسى بن نصير ، واخيراً تم للعرب الفتح ، وامتد سلطانهم حتى عمّ الاندلس بأجمعها: هذه هي الرواية يعرضها الاستاذ الخطيب في فصول ثلاثة ، هي اشبهُ بالعرض من اي شيء آخر ، ففي الفصل الاول ترى امراء العرب واحداً بعد واحد . وفي الفصل الثاني يعرض عليك المتآمرين بملك القوط ، وفي الثالث يعرض عليك لذريق في مجده وخلاعتهِ ، ثم يختم القصة بانتصار العرب ، وبقتل لذريق

يعرض عليك كل هذا في شعر رائع بليغ يصل الى القمة احياناً ، فعند ما يتكلم عن مجد العرب تسمع صليل السيوف ، وترى بعينيك نار المعمعة ، او عند ما يسمعك سعداً يشكو غرامهُ يرق الشعر حتى يصير جدولاً يسيل ! وسأورد امثلة من ذلك الشعر الرصين

اما الحبكة المسرحية ، اما العقدة ، والمفاجآت التي تبنى عليها الرواية فغير موجودة ، لم يعرها المؤلف اهتماماً ، لانهُ عني بالشعر ، وبالعرض التاريخي ، وبالمجد القديم يبعثهُ حيًّا ، فيروح يتخير المواقف له ويخلقها خلقاً ، ولقد يغرق في ذلك فيأتي بلا شيء . خذ مثلاً مؤامرة اليهود في الفصل الثاني ، فانهم يجتمعون ويتكلمون كثيراً ، يريدون ان يساعدوا العرب ، فيفكرون في السيوف عند العرب السيوف البتارة ، يفكرون في المال ، لانهم يهود ، العرب اغنياء ، اذن تنتهي المؤامرة بالدعوات ! والحق انك لتضحك ملء شدقيك حين تنتهي مؤامرة الاسرائيليين عند ذلك . ولكن الجميل في الرواية ، انهُ حين يريك لذريق في فجوره وفسقهِ ، لا يزال يحتفظ ببطولتهِ ، فتؤمن ان النفوس القوية مهما تطرق اليها الفساد ، تبقى فيها جوانب كثيرة من العظمة ، يتجنبها الفساد ويتهيبها !

ولنورد امثلة من الشعر البليغ الذي يروق ترديده السمع ويعذب

ما الذي كان على الظبي الأغنّ   بعد برح الهجر لو رفّه عني
انا لا ارجع عن عهد الهوى   ولئن كان الهوى صفقة غبن
صدق الباكي على احبابهِ   ايها الدمع على الشوق اعني !

ومن خطبة طارق :

اماكم الاعداء والبحر خلفكم — وليس لكم الاّ العزيمة والصبر
وانتم من الايتام اضيع موقفاً — بمأدبة القوم اللئام وهم كثر
كذلك يتم في الجزيرة انها — لمنزلكم بالعز او انها القبر !

ومن حوار بين الشيخ المتقاعد والشباب المتحمس ! :

تالله ما الموت الاّ العيش في ضعة — من يرض بالثوب نجعل ثوبهُ الكفنا
ان يعوز العرب في بنيان دولتهم — هدم الحياة بذلنا الروح والبدنا
وليجعلوا من بقايانا ومن دمنا — طيناً وماءً فيبنوا الملك والوطنا
يا سيدي الشيخ ان طأطأت ممتهناً — فهل يطأطيء كل الشعب ممتهنا

والشعر كلهُ من هذا الطراز العالي المشرق :

وبالجملة للمؤلف كل التهنئة ، فاذا كان هذا هو استهلاله فهي براعة كبيرة ! وانا لما تنتجهُ عبقريته في المستقبل لمنتظرون !

الدكتور ابراهيم ناجي

المطبوعات الجديدة

رأينا بعد اطالة النظر في موضوع المطبوعات العربية الجديدة ونقدها ان نختار كل شهر بضعة كتب ونعنى بالكتابة عنها كتابة وافية ينصفيها الكاتب والموضوع والقارىء معاً . وهذا ما تفعله المجلات الكبيرة في بلدان اوربا واميركا . فنحن نطالع مجلة نايتشر العلمية الاسبوعية فنطالع فيها مراجعات وافية لكتابين او ثلاثة كتب كل اسبوع ثم اشارة الى الكتب الاخرى او نبذ موجزة عنها

وقد حالت عنايتنا — في هذا العدد — بأربعة من اهم الكتب العربية التي ظهرت حديثاً دون العناية بكل الكتب العربية الجديدة التي ظهرت في خلال فصل الصيف واهديت الينا فنكتفي بذكرها الآن على ان نعود الى العناية ببعضها في اعداد تالية وهي :

اهدت الينا المطبعة العصرية بمصر — جريمة سلفستر بونار تأليف اناتول فرانس وترجمة نعمة عازار ولها مقدمة بقلم محمود ابو الوفا — ومريم المجدلية تأليف موريس مترلنك ترجمة الارشمندريت انطونيوس بشير — ومراقي النجاح بقلم الارشمندريت انطونيوس كذلك * ومطبعة التعاون بمصر العدد الاول من مجلة « ابولو » لصاحبها الدكتور ابوشادي وهي مجلة فنية لخدمة الشعر الحي * وعبد اللطيف الطيباوي بحثاً تاريخياً في جماعة اخوان الصفا * وادوار مرقص كتاب فن التعريب عن اللغة الفرنسية * ومجلة الحارس البيروتية كتاب اسماء البنات ومعانيها وعلاقاتها التاريخية واشهر نساء دعين بها * وعبد اللطيف النشار مجموعتين من قصص رابندرانات طاغور * والدكتور قدسي بحثاً المانياً في ادب محمود تيمور * ومجلة المشرق درس الرسالة الخاتمية بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الادب العربي في كلية القديس يوسف ببيروت * وادارة الهلال كتاب المسرح الجديد وهو مجموعة ملخصات لاشهر القصص المسرحية بقلم الاستاذ محمود كامل * مكتبة صادر ببيروت ترجمة رواية المثري النبيل لموليير بقلم الياس ابو شبكة — وقصتي عيد سيدة صيدنايا وفاجعة حب تأليف انطون سعاده وكتاب المذهب الطبي الجديد بقلم اسكندر زخور والدرة اليتيمة لابن المقفع ضبطها وعلق حواشيها جرجي شاهين عطية * والمكتبة العربية بدمشق رسالة الاحنف بن قيس ملخصة عن تاريخ ابن عساكر * ومطبعة دار الايتام بالقدس ترجمة رواية ناثان الحكيم تأليف الشاعر الالماني لسنج وترجمة الياس نصر الله الحداد * ومطبعة الطلبة بمصر كتاب تاريخ اللغات السامية بقلم محمود الطحلاوي * والاديب محمد قابيل قصة له موضوعها العزلة * ومطبعة العلوم بمصر ترجمة علي ابن أبي طالب بقلم الاستاذ احمد زكي صفوت * ومطبعة العرب بالقدس كتاب العراق تأليف السر نيجل دافدسون وترجمة عجاج نويهض وله مقدمة بقلم اسعد داغر * والمحامي انور شاؤل ببغداد ترجمة تمثيلية شريدان في ولم تل * ومطبعة بابيل بدمشق رواية لقيط الصحراء تأليف احمد تقي الدين !

باب الاخبار العلمية

بناء المادة الكهربائي

للسر الفرد يُورنغ

رئيس مجمع ترقية العلوم البريطاني ملخصاً من خطبة الرآسة فيه

في اواسط العقد الاخير من القرن الماضي بدأت نهضة عجيبة في علم الطبيعة كان مدارها « الذرة » ثم امتدت منها الى « النجوم » . ففي ١٨٩٥ كشف رنتجن الالماني الاشعة السينية (اشعة اكس) وفي السنة ١٨٩٦ كشف بكرل الفرنسي ظاهرة الاشعاع وفي السنة ١٨٩٧ كشف طمسن الانكليزي الكهرب (الالكترون) فبعثت هذه المكتشفات في اذهان الطبيعيين شعور الدهشة والحيرة ولكنها في الوقت نفسهِ دفعتهم الى ميادين جديدة من البحث والتجريب فهبوا الى تجهيز معاملهم بالادوات الموافقة لاساليب البحث الجديد فتلا ذلك تيار من المكتشفات الجديدة ولما ينقطع بعدُ . وقد انبئنا في الشهور الاخيرة انباءً جديرة بكل عنايتنا

واظنني اكون ملبيًّا مقتضى الحال اذا انا ذكرت اهمَّ ما تمَّ في هذه الناحية في نظري

اننا نعلم الآن بفضل المباحث التي قام بها طمسن ورذرفورد وبوهر ان الذرَّة مبنية بناءً شديد التعقيد من مادتين اساسيتين — هما الالكترونات وهي وحدات لا تجزأ من الكهربائية السالبة والبروتونات وهي وحدات لا تجزأ من الكهربائية الموجبة . فالمسألة في ظاهرها بسيطة فكانا نعدنا الى غرفة طفل وقد اعطي بين العابهِ طائفتين من الكعاب متساويتين عدداً وكلٌّ منهما مؤلفة من كعاب متماثلة ثم طلب اليهِ ان يبني هذا الكون المادي الرحيب المنوَّع بهما . انها كعاب لا تحطَّم ولا تتغيَّر . اما فيما يرتبط بشحنتها الكهربائية فشحنة الكعب في الطائفة الواحدة تعادل وتعدّل شحنة الكعب في الطائفة المقابلة . ومع ذلك ترى ان نصيب كلٍّ منهما من كتلة الذرة يختلف عن نصيب الآخر . فنصيب البروتون — لسبب ما زلنا نجهله — من كتلة الذرة يفوق نصيب الالكترون نحو ١٨٤٠ ضعفاً

وكل مادة مبنية من هاتين الطائفتين من الكعاب . فاذا وازنت بين مادتين مختلفتين وجدت الاختلاف بين خواصهما الكيمائية ناشئاً من الاختلاف في ترتيب الكعاب الموجبة والسالبة في بنائهما . وكل ذرَّة ، في حالتها الطبيعية السويَّة ، يجب ان تحتوي على اعداد متساوية من الكهارب والبروتونات

اما البروتونات فتجتمعة في قلب الذرّة مع بعض كهارب فيتألف من مجموعها كتلة صلبة كثيفة تعرف بالنواة . ومعظم وزن الذرة في نواتها ولكنها مع ذلك لا تشغل من حيّز الذرّة الاّ جزءاً يسيراً . اما الالكترونات التي في النواة فعملها ربط البروتونات بعضها ببعض . واما الالكترونات التي خارج النواة فتؤلف حولها منطقة اومناطق متوالية بعيدة بعداً نسبيًّا عن مركز الذرّة مما يجعل بناء الذرّة كثير الخواء . وقد تحدث انقلابات في هذا البناء بفعل العوامل الخارجية فيزول كهرب من الكهارب الخارجية فتصبح بقية الذرّة ذات شحنة كهربائية موجبة وهو التأيّن Ionization . ولكن الكهرب الشارد قد يعود او يحلّ غيرهُ محلهُ ، فاذا حدث هذا انطلق قدر قليل من الاشعاع . وقدر الاشعاع الذي ينطلق لدى انتقال الكترون من منطقته الى منطقة تالية يدعى «الفوتون» . والفوتون يتصرف آناً كدقيقة مادية وآناً كامواج . ولا بدَّ من التسليم الآن بذلك مع عجزنا عن التوفيق بينهما . و«الفوتون» له قدر معيَّن من الطاقة ويتذبذب تذبذباً معيَّناً . اما طاقتهُ فتوقفة على المنطقة حول النواة التي هبط منها والمنطقة التي هبط اليها . وهذا يعيّن سرعة تذبذبهِ . ومن الغريب ان سرعة تذبذب الالكترون تعدل طاقتهُ مقسومة على القيمة الطبيعية الثابتة التي اكتشفها بلانك الالماني ودعاها الكونتم . فالذرات في عنصر واحد متماثلة في مناطق الكتروناتها حول نواها . وهذه المناطق لها صلة وثيقة بالخطوط الطيفية الخاصة بالعنصر . اما ذرات العناصر الرزينة (الثقيلة) فمناطق الالكترونات حول نواها كثيرة ولذلك نرى خطوطها الطيفية متعددة

وما يجب ان نعلمهُ هو ان كل المادة مبنية من نوعين من الكهربائية — البروتونات والالكترونات مع ان الكهربائية كانت في نظر الباحثين الكهربائيين الأول صفة من صفات المادة لا غير . اما نحن فنحسبها — المادة نفسها — الشيء الاساسي الذي تبنى منهُ الذرات

اما اذا سألتم ما الكهربائية فلن تحصلوا على جواب الاّ انها شيء تجدوهُ في نوعين سالب وموجب والواحد منهما يجذب الآخر . ثم عرض الخطيب للنيوترون وتحطيم الذرة مما سوف نفصله في مقالتين على حدة

الزكام : بحث طريف فيه

مدى الزكام العادي ثلاثة ايام او اربعة . فالذين يشكون اصابتهم بالزكام « طول فصل الشتاء » انما يشكون اصابتهم بعدوى ثانوية تلازمهم بعد شفاء الزكام . هذا على الاقل ملخص رأي الدكتور سملي Smillie استاذ الصحة العامة في جامعة هارفرد . فقد اجرى الدكتور سملي مباحثهُ في الزكام في اربع جماعات من الناس احداها في الاباما بالولايات المتحدة الاميركية والثانية في لابرادور في شمال كندا الغربي والثالثة في جزيرة سبتسبرجن التي يطير منها الذين يحاولون الطيران الى القطب الشمالي والرابعة في احدى جزائر الاتلنتيكي النائية

في هذه الجماعات من الناس كان الاتصال بالعالم الخارجيّ قليلاً فاستطاع الدكتور سملي واعوانهُ ان يتتبعوا سيرَ الزكام من بدئهِ من دون مايعقـد التتبُّع . فوجدوا ان الزكام معدٍ وانهُ ينتشر باللمس والاختلاط . ففي جماعة سبتسبرجن لم يصب احد بزكام — من نوفمبر — لما اقلعت آخر سفينة منها — الى ابريل بعد وصول اول سفينة بيوم واحد . فالمعدّنون في تلك المستعمرة خمسمائة معدّنٍ يعيشون في بيوت دافئة رطبة ويخرجون منها كلَّ صباح الى عملهم في جوّ شديد البرد وريح هوجاء فيعملون في مناجم حيث الحرارة تهبط تحت درجة الجمد احياناً ثم يعودون الى بيوتهم الدافئة ليلاً . وهذه الاحوال في الرأي السائد مؤاتية كلَّ المؤاتاة للاصابة بالزكام ولكن هؤلاء المعدنين لم يصابوا بهِ

فلما وصلت السفينة الاولى من الخارج في ابريل فحص سملي واعوانهُ ركابها وملاحيها قبل نزولهم الى اليابسة فكان احدهم مصاباً بزكام شديد . وفي اليوم نفسهِ ذهب موزع البريد من سبتسبرجن الى السفينة واصيب بالزكام الاول . فلم تنقضي ٣٦ الى ٤٨ ساعة حتى اصيبت الجماعة بوافدة من الزكام . وما شاهدهُ الدكتور سملي في جماعة سبتسبرجن شاهده في الجماعات الثلاث الاخرى على بعد الدار بينها وتباين الاحوال . وانما وجد ان الزكام في البلدان الاستوائية اخف وطأة منهُ في البلدان الباردة ولا تعقبهُ عادة اختلاطات مثل اصابة تجاويف الانف او الاذن او الشُعب الرئوية او النزلة الصدرية . وهذه الاختلاطات — عدا النزلة الصدرية — تطول احياناً وتحسب انها الزكام نفسهُ

والزكام الواحد يطول ثلاثة ايام او اربعة . فاذا شفيتَ منهُ تماماً اصبحت ذا مناعة ضدَّ الزكام تدوم ثلاثة اشهر . اي اذا شفيت من زكامك شفاءً تاماً فلا تصاب بآخر قبل انقضاء مدة المناعة الموقتة وهي نحو ثلاثة اشهر . ولكن اذا اهملت الزكام نفسهُ فقد تصاب بعدوى ثانوية هي امتداد الزكام الاول فيبدو كأنك تصاب بزكامٍ تلو الآخر

ولم يعثر الدكتور سملي ولا اعوانهُ على مكروب يحدث الزكام وانما وجد غيره من الباحثين ان سبب الزكام Virus فيروس مرشّح . فاللقاح ضدّ الزكام لايصنع من هذا الفيروس وانما يصنع من الميكروبات التي تحدث العدوى الثانوية . فاللقاح لا يمنع زكاماً قط ولكنهُ من الوجهة النظرية على الاقل يستطيع ان يمنع العدوى الثانوية التي تنشأ من الزكام

الانسان النيندرتالي في فلسطين

اعلن الدكتور مكردي MacCurdy احد اساتذة جامعة يابل ، في اول الصيف ان بعثة المدرسة الاميركية للبحث السابق للتاريخ والمدرسة الأثرية البريطانية عثرت في كهف على مقربة من حيفا على اربعة هيا كل للانسان النيندرتالي يرجع عهدها الى قبل ٧٥ الف سنة . ويختلف انسان فلسطين النيندرتالي عن انسان اوربا النيندرتالي في ان ذقن الفلسطيني

ليست مرتدةً وجبهتهُ اعلى . ويتشابهان في بروز حجاجي العينين واسنان الفك الاعلى وقوة العضلات كما يتبين من درس العظام

ويذكر قراء المقتطف ان المستر تورڤيل پيتر الانكليزي عثر سنة ١٩٢٥ في كهف تبغة على مقربة من طبرية على جمجمة انسان نيندرتالي غير كاملة فلم تصلح اساساً للمقابلة بين اناس ذلك العصر في فلسطين واوربا

وجمجمة تبغة اول اثر للانسان النيندرتالي عثر عليهِ المنقبون في آسيا

الاشعة الكونية : تعليل جديد

ذهب الدكتور اسكندر دوڤيليه Danvillier احد اساتذة معهد العلوم العالية في باريس مذهباً جديداً في تعليل منشأ الاشعة الكونية ومصدرها فقال ان كهارب سريعة تنطلق من الشمس بسرعة تقارب سرعة الضوء تقريباً فتحدث لدى اصطدامها بذرات الهواء الاشعة التي نحسبها قادمة الينا من رحاب الكون . ومصدر هذه الكهارب البقع اللامعة على سطح الشمس lacunae حيث الحرارة تبلغ نحو سبعة آلاف درجة بميزان سنتغراد . فتنطلق الكهارب بسرعة غير عظيمة اولاً ثم تزداد سرعتها زيادة عظيمة اذ تمرُّ في جو الشمس الموجب . وجو الشمس المؤلف من عنصري الايدروجين والكلسيوم في الغالب موجب لأن الاشعة التي فوق البنفسجية المنطلقة من قلب الشمس تصدم ذرات هذين العنصرين فتطرد بعض كهاربها . والذرة اذا فقدت احد كهاربها اصبحت شحنتها موجبة ثم اذا اقتربت الكهارب من الارض انجذبت بفعلها المغناطيسي وتجمعت اقواساً ثم اذا دخلت طبقات الجو العليا اطارت من ذرات غازاته بعض كهاربها وهذه مصدر الضوء القطبي . فاذا قيست اقواس الاضواء القطبية امكن الوصول بعملية رياضية الى سرعة الكهارب الاولى المنطلقة من الشمس والتي جذبتها مغناطيسية الارض . والظاهر ان سرعتها لا تقلُّ الاً ٣٠ سنتمتراً عن سرعة الضوء في الثانية . واذاً فهي تصل الارض في بضع دقائق (يصل النور من الشمس الى الارض في ثماني دقائق وثلاث ثوانٍ) وآثار هذه الكهارب تحيط بالارض من كل النواحي فيبدو للباحث انها تأتينا من نواحي الفضاء على السواء . وقد حسب دوڤيليه طاقة هذه الكهارب فوجدها قريبة جداً من طاقة الاشعة الكونية ويرى من العبث البحث عن تعليل آخر لهذه الاشعة

تجديد العناية بسكنى الزهرة

للزهرة جو تسبح فيهِ غيوم تحجب سطحها عن الراصد الارضي . ويقدر عمق الهواء تحت هذه الطبقة باربعة آلاف قدم . ولكن اذا رصدت الزهرة وهي عابرة وجه الشمس — أي حين تتوسط بين الارض والشمس — بدت حولها هالة من الضوء ليست الاَّ اشعة الشمس وقد عكستها طبقة الغيوم التي تحيط بالزهرة

الى هذه الهالة وجَّه عالمان من علماء مرصد

جبل ولسن التلسكوب الكبير الذي فيهِ وغرضهما حلُّ الاشعة التي تحت الاحمر في ضوء هذه الهالة . فوجدا ان طيف هذه الاشعة تنقصها امواج يمتصها عادة غاز ثاني اكسيد الكربون . فحكما بان جوَّ الزهرة يحتوي على هذا الغاز . ولا يخفى ان البحث لمعرفة ما يحتوي عليهِ جوُّ الزهرة من مقومات الحياة — كالاكسجين وغاز ثاني اكسيد الكربون — لم يسفر قبل الآن عن نتيجة ما . فوجود غاز ثاني اكسيد الكربون — وهو من مقوِّمات الحياة النباتية لانهُ اساس ما تبنيهِ النباتات من النشاء والسكر وهو كذلك من نفايا الحياة النباتية والحيوانية لان الحيوانات والنباتات تفرزهُ على اثر تنفسها — باعث على تجديد عناية الباحثين في امكان وجود احياءٍ على سطح الزهرة وبوجه خاص لان درجة الحرارة على سطحها توافق الحياة كما نعرفها على الارض

الشفق القطبي المصطنع

صنع الاستاذ دوفيليه الفرنسي جهازاً يمكنهُ من توليد ضوءٍ في المعمل كالضوء القطبي المعروف «بالشفق القطبي» . ويؤيد في الوقت نفسهِ المذهب الذي علل بهِ الاشعة الكونية (راجع النبذة الرابعة في هذا الباب)

اخذ كرة مفرغة من الالومنيوم ووضع داخلها كرة مفرغة كذلك من حديد تحيط بها اسلاك موصلة للكهربائية لمغنطة الكرة الحديدية متى شاء . ثم وضع الكرتين في كرة كبيرة من الزجاج افرغت الاَّ من قليل من الهواء فضغط الهواء فيها يماثل ضغطهُ في طبقات الجوّ العليا حيث تظهر انوار الشفق القطبي ثم اطلقت في فضاء الكرة الزجاجية — حيث الهواء لطيف كل اللطف — كهارب بطيئة من مهبط (Cahodea) ضغطهُ ٢٠٠ فولط واجرى تياراً كهربائيًّا في الاسلاك التي تحيط بالكرة الحديدية . فلما انطلقت الكهارب في الهواء انحرفت بفعل مغنطيس الكرة الداخلية . وفي اثناء انطلاقها اصطدمت بذرات الهواء فاطلقت منها كهارب ثانوية احدثت اضواء شبيهة باضواء الشفق القطبي . بل كونت حلقة منيرة حول الكرة الداخلية شبيهة بالشفق القطبي الذي رآه العالم نوردنسكيولد (Nordenskjold) سنة ١٨٧٨ ووصفهُ . وتختلف اشكال الشفق باختلاف حقل الارض المغنطيسي

سرعة دوران الشمس

لعلماء الفلك طريقة في قياس سرعة دوران الشمس على محورها بقياس سرعة نقطة معينة في محيط قرصها ولا يبلغ الخطأ في هذه الطريقة زيادة أو نقصاً اكثر من واحد في المائة . وقد قيست سرعة نقطة في محيط قرصها مراراً بين سنة ١٩٠٠ و ١٩١١ فبلغت سرعتها نحو كيلومترين في الثانية . ثم قيست بين سنة ١٩١٥ — ١٩٢٩ فبلغت ١٫٩٢ من الكيلومتر في الثانية وابطأ سرعة قيست في هذه المدة ١٫٩٠ من الكيلومتر . وقد عني بقياسها حديثاً

الدكتور اڤرشد الانكليزي فبلغ متوسط السرعة ٢٫٠١٥ من الكيلومتر في الثانية وهو اكثر قليلاً من متوسط المقاييس بين ١٩٠٠ و ١٩١١ ولذلك يظن ان سرعة دوران الشمس حول محورها يزيد وينقص في مدد كل منها نحو ثلاثين سنة . كما يكثر ضوءها ويقلُّ في مدد كل منها ١١ سنة — وهي مدة الدورة الكلفية (sun-spot cycle)

بعض الماس يولد كهربائية

مما يدعو الى الدهشة ان بعض انواع الماس النادرة شفافة للاشعة التي تحت الاحمر والاشعة التي فوق البنفسجي شفوفها لامواج الضوء . وما هو ادعى من ذلك الى الدهشة ان هذه الانواع النادرة تولد تياراً كهربائياً اذا صوّبت اليها اشعة معينة . وقد صرح السر روبرت روبرتسن كيماوي الحكومة البريطانية انهُ امتحن ٢٥٠ نوعاً من الماس فلم يجد الاَّ خمسة تولد تياراً كهربائياً . وقد جرّب حديثاً تجربة بماسة منها في حفل من اعضاء الجمعية الملكية بلندن . فاخذ الماسة ووضعها بين قضيبين من الكربون وصوّب اليها اولاً شعاعاً من الاشعة التي فوق البنفسجية ثم شعاعاً من الاشعة تحت الحمراء وفي كلتا الحالتين ولدت الماسة تياراً كهربائياً حرف ابرة الغلفانومتر (مقياس كهربائي)

اقدم مدينة في العالم

عثر الباحثون في العراق على ما يحسبونهُ آثار اقدم مدينة في التاريخ عرفت حتى الآن. هذه المدينة تدعى تيب جورا (Tepe Gawra) وهي في شمال العراق ويرتدُّ تاريخها الى ٣٧٠٠ ق . م . والظاهر من كلام الدكتور سپيزر عليها — وهو رئيس بعثة جامعة بنسلفانيا والمدارس الاميركية للبحث الشرقي التي كشفت عنها — ان تخطيط مبانيها وشوارعها يبعث على الاعجاب ببنائها . ففي قلب المدينة كان ميدان فسيح والى شماله معبدان يتصلان بحمامات ومخازن . وقرب الميدان قلعة . والى الجنوب حيّ السكن . وفي احدى النواحي خزان كبير للماء عمقهُ مائة قدم لاستعمال مائه في ايام الحصار . وبناتها اول بناة في التاريخ — على ما نعلم — عرفوا بناء القناطر . فالكشف عن هذه المدينة يضيف جديداً الى تاريخ « فن العمارة »

وقد كانت آثار هذه المدينة مدفونة تحت ثماني طبقات متراكمة فوقها والظاهر ان الطبقة السادسة توازي في قدمها مدينة اور الكلدانيين اما الثامنة فتاريخها اقدم من ذلك بنحو خمسمائة سنة

اشعة الجسم الفتاكة

كشفت طائفة من علماء جامعة كورنل عن اشعة تنطلق من دم الانسان وانامله وانفهِ او تشعُّ من عينيهِ وتفتك بخلايا الخميرة وغيرها من الكائنات الدقيقة . وقد عنيَ الاستاذ اوتو ران Otto Rahn البكتيريولوجي بدرس هذه الاشعة من ناحية فعلها بالمكروبات فاسفر بحثهُ عن نتائج حملتهُ على المضي في البحث وحثّ الآخرين عليهِ

والاستاذ ران الماني تلقى علومه في المانيا وهو الآن استاذ البكتيريولوجيا في جامعة كورنل . فلما بسط نتائج تجاربه على المجمع الاميركي لترقية العلوم الملتئم في الصيف الماضي دهش العلماء لانها تعيد الى الذهن بعض المعتقدات القديمة بان الجسم البشري يؤثر أثراً ضاراً في ما يحيط بهِ

فمن تجاربهِ انهُ اخذ قدراً من الخميرة المستعملة في صنع الخبز فقتلت خلاياهُ بالاشعاع المنطلق من انامل شخص واحد في خمس دقائق . فلما وضع لوح من الكوارتز بين الانامل والخميرة انقضت ١٥ دقيقة قبلما فتكت اشعة الانامل بخلايا الخميرة

ثم قام بتجارب اثبتت لهُ ان اشعة شبيهة باشعة الانامل التي تقتل خلايا البكتيريا تنطلق من الانف والعينين . وان أثر الاشعة المنطلقة من العين تذكرنا بقول الاقدمين في «اصابة العين»

واحدث ما قام بهِ ران من التجارب يدل على ان هذه الاشعة لا تنطلق من صدر الانسان ولكنها تنطلق من الدم واللعاب . وانما تختلف قوتها باختلاف الشخص — وان المنطلق منها من انامل اليد اليمنى اقوى دائماً مما ينطلق منها من انامل اليسرى

اما طبيعة هذه الاشعة فلم تعرف بعد ولا يبعد ان تكون من قبيل الاشعة التي فوق البنفسجي ، فانها تخترق الكوارتز مثلها ، وتبقى فعالة بعد اختراقها لهُ

(راجع مقالة الاحياء المشعة في الصفحة ٢٨٢ من هذا الجزء من المقتطف)

املاح تؤخر الشيخوخة

يرى الدكتور فكتور لامير (La Mer) احد اساتذة جامعة قولوجيا ان املاح الكلسيوم والفصفور اذا أُخذت في مقادير معينة تطيل شباب الجسم وتؤخر الشيخوخة نحو عشرة في المائة . فمن يموت عادة في السبعين من العمر يعيش الى السابعة والسبعين اذا تناول ملح فصفات الكلسيوم — وهو الملح الذي يضاف الى ملح الطعام ليمنع تبللهُ بامتصاصهِ للرطوبة — ولكن لا بدَّ من تناول هذين العنصرين في نسبة معينة لان تناول العنصر الواحد دون الآخر ضارٌّ بالجسم . ومما يذكر في هذا الصدد النتيجة التي وصل اليها الدكتور مكلم (Mc Collum) استاذ التغذية في جامعة جنز هبكنز الاميركية وهو ان اسنان الفئران التي جرَّب تجاربهُ فيها يصيبها النخر اذا لم تتناول الفئران مقادير كافية من هذين العنصرين اللذين لا مندوحة عنهما لبناء العظام. والظاهر ان حاجة الاطفال اليهما هي ضعف حاجة الكبار اليهِ وان حاجة الامهات اليهما ثلاثة اضعاف حاجة الكبار

لقاح ضد التيفوس

وفقت طائفة من اطباء معهد الصحة الاميركي الى صنع لقاح يقي من الحمى التيفوسية المتوطنة في الولايات المتحدة الاميركية. وقد جرّب في خنازير الهند فوقاها من التيفوس ومتى اتقن صنعهُ يجرَّب في البشر ويرجح ان اول من يجربهُ الاطباء الذين استنبطوه

والحمى التيفوسية المتوطنة في الولايات المتحدة الاميركية تختلف عن الحمى التيفوسية التي تتفشى احياناً في اوربا . فالحمى الاميركية اخف وطأة على الجسم من الحمى الاوربية التي تميت المصاب في الغالب . والحمى الاميركية ينقل فيروسها برغوث متطفل على الجرذان . اما الاوربية فينقل فيروسها — وهو يختلف قليلاً عن فيروس الاميركية — القمل

الصداع وهرمون التناسل

الهرمون اسم يطلق في اللغات الاوربية على ما تفرزه الغدد الصماء . فمفرز البنكرياس الذي لا مندوحة عنهُ لوقاية الجسم من مرض البول السكري يدعى هرمون البنكرياس . ومفرز الغدة الدرقية اللازم للجسم لكي يحتفظ بحدود النمو الطبيعية يدعى هرمون الغدة الدرقية . والظاهر ان الهرمونات التي يفرزها مبيض المرأة لها اثر في علاج نوع اليم من الصداع يصحبهُ غثيان وقيء واحياناً زيغ النظر

وقد بعث الدكتور طمسن (A. P.) طبيب المستشفى العام للاطفال في مدينة برمنغهام برسالة الى مجلة اللانست الطبية ذكر فيها انهُ جرَّب هذا العلاج في عدة حالات فاسفرت تجربتهُ عن النجاح . وكان صداع الذين عالجهم شديداً ارغمهم على ملازمة الفراش نحو يومين واضطرَّ بعضهم الى استعمال المورفين حقناً فراراً من الألم . على انهم كانوا فيما عدا ذلك لا يشكون علةً ما يمكن ان تسبب الصداع

ويرى الدكتور طمسن من بحث اعراض المصابين انهُ قد توجد علاقة بينهُ وبين اضطراب الغدة النخمية وهي الغدة التي لها اثر قوي في عمل الغدد التناسلية . فلما عجزت وسائل معالجة الصداع العادية عن تخفيف آلامهم عمد الى حقنهم بهرمون المبيض ovarian follicular hormone تخف الم الصداع وزالت سائر الاعراض . ولما صورت جماجم هؤلاء المصابين بأشعة اكس ظهر تغير في المنخفض العظمي الذي يحتوي على الغدة النخمية . فهذا المنخفض مفتوح من اعلاه عادة فاذا تضخمت الغدة النخمية كما يحدث عند النساء في بعض الادوار لم تجد ما يعيقها

اما اذا كان اعلى المنخفض مسدوداً أو مسقوفاً لم تتمكن الغدة من التضخم فتضغط على بعض الاعصاب والاوعية الدموية فيحدث الصداع . اما الذين لا يصابون قط بهذا النوع من الصداع فقد ثبت ان منخفض الغدة النخمية ليس «مسقوفاً» في جماجمهم . وفي حالتين من الحالات التي درسها وجد ان الفتاة ورثت من امها الحالة العظمية المذكورة والصداع كذلك . وهذا مما يؤيد رأيهُ

اعتراف بفضل

نشرنا في مقتطف ابريل الماضي مقالة موضوعها «حول مؤتمر الموسيقى» لبشر فارس وامام الصفحة ٣٩٥ نشرنا ثلاث صور لآلات موسيقية عربية قديمة وفاتنا ان نذكر هناك انها من كتاب «ارث الاسلام» في المقال الذي كتبهُ عن «موسيقى العرب» الاستاذ هنري فارمر

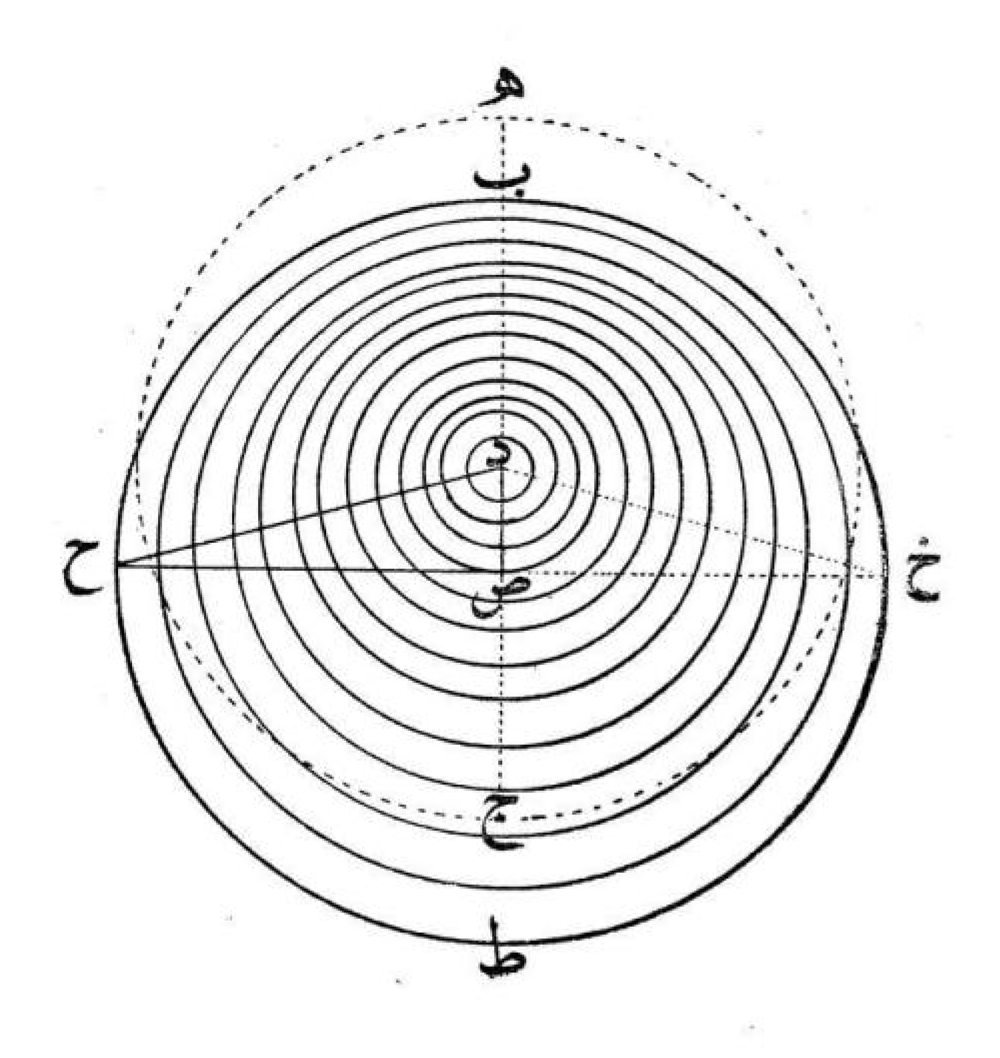


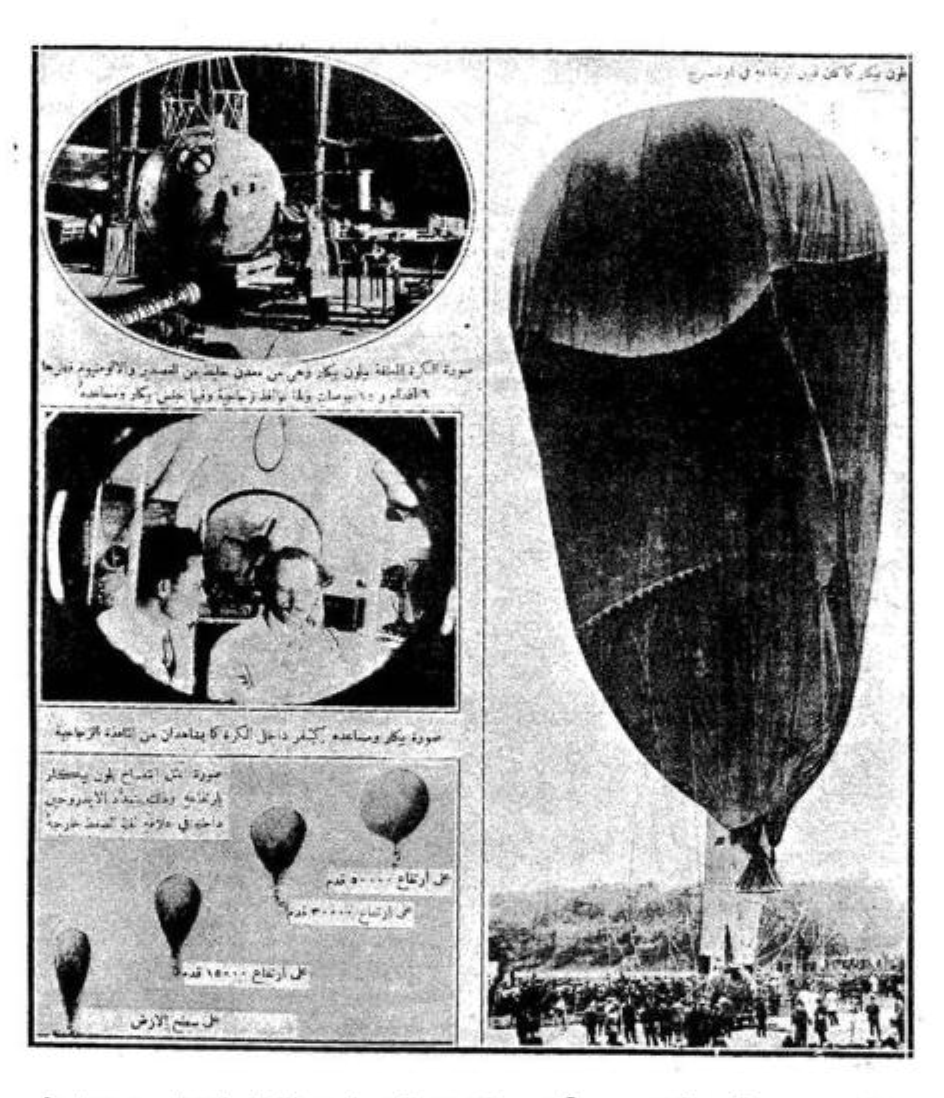
حافظ ابراهيم



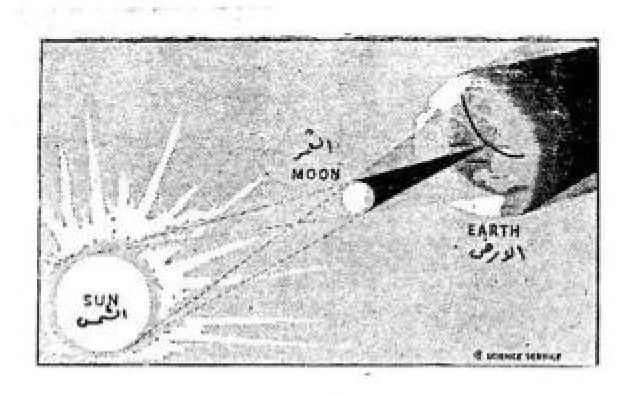
يوسف رزق الله غنيمة

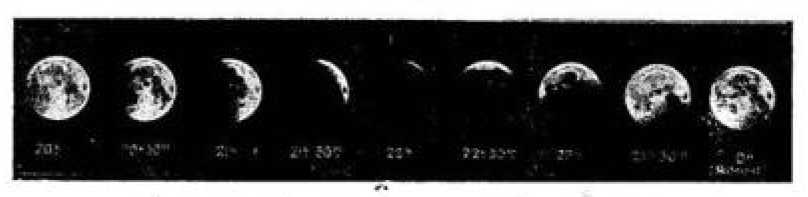
وزير مالية العراق سابقاً وصاحب كتاب « الحيرة: المدينة والمملكة العربية »
الذي نشرنا منه هذا الفصل


ه
ب
د
ح
ص
خ
ج
ط



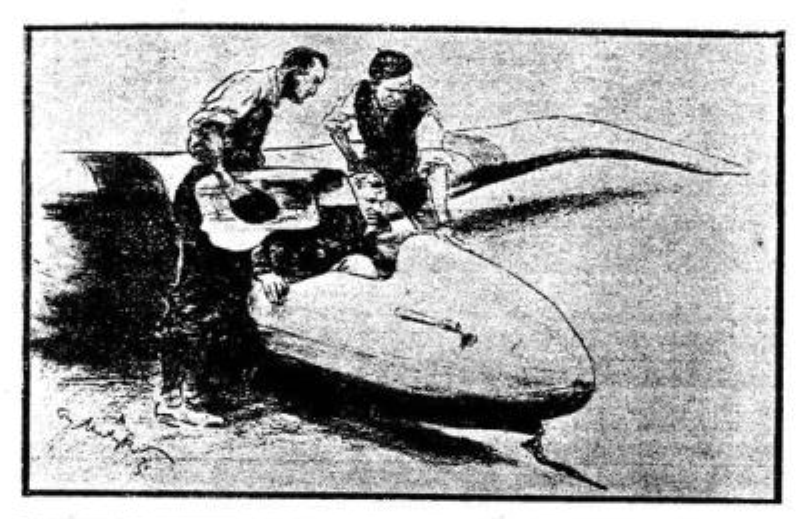
حقائق مصورة تمثل نواحي من تحليق الاستاذ بيكار Piccard الى ارتفاع عشرة اميال فوق سطح البحر في ١٧ مايو سنة ١٩٣١

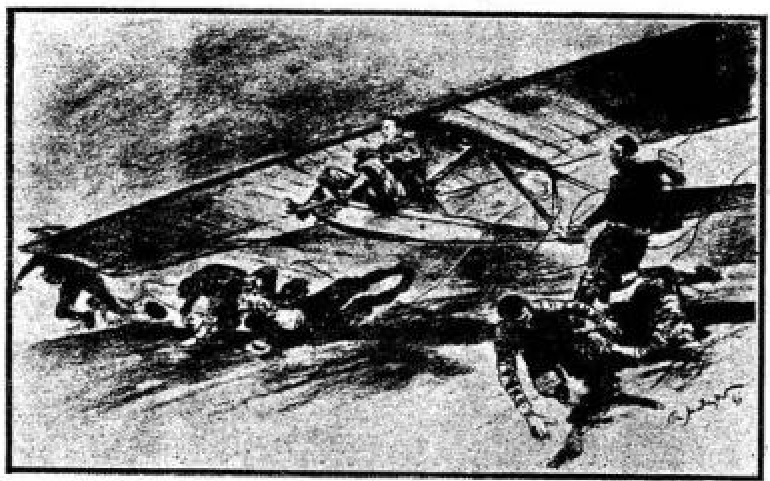




في الصورة العليا رسم يمثل كسوف الشمس الاخير (٣١ اغسطس) وقد شوهد كلياً في شمال اميركا من اعالي بكندا الى شمال الولايات المتحدة الغربي . والصورتان التاليتان تمثلان خسوف القمر في ١٤ سبتمبر الماضي

مقتطف اكتوبر ١٩٣٢ الاخبار العلمية



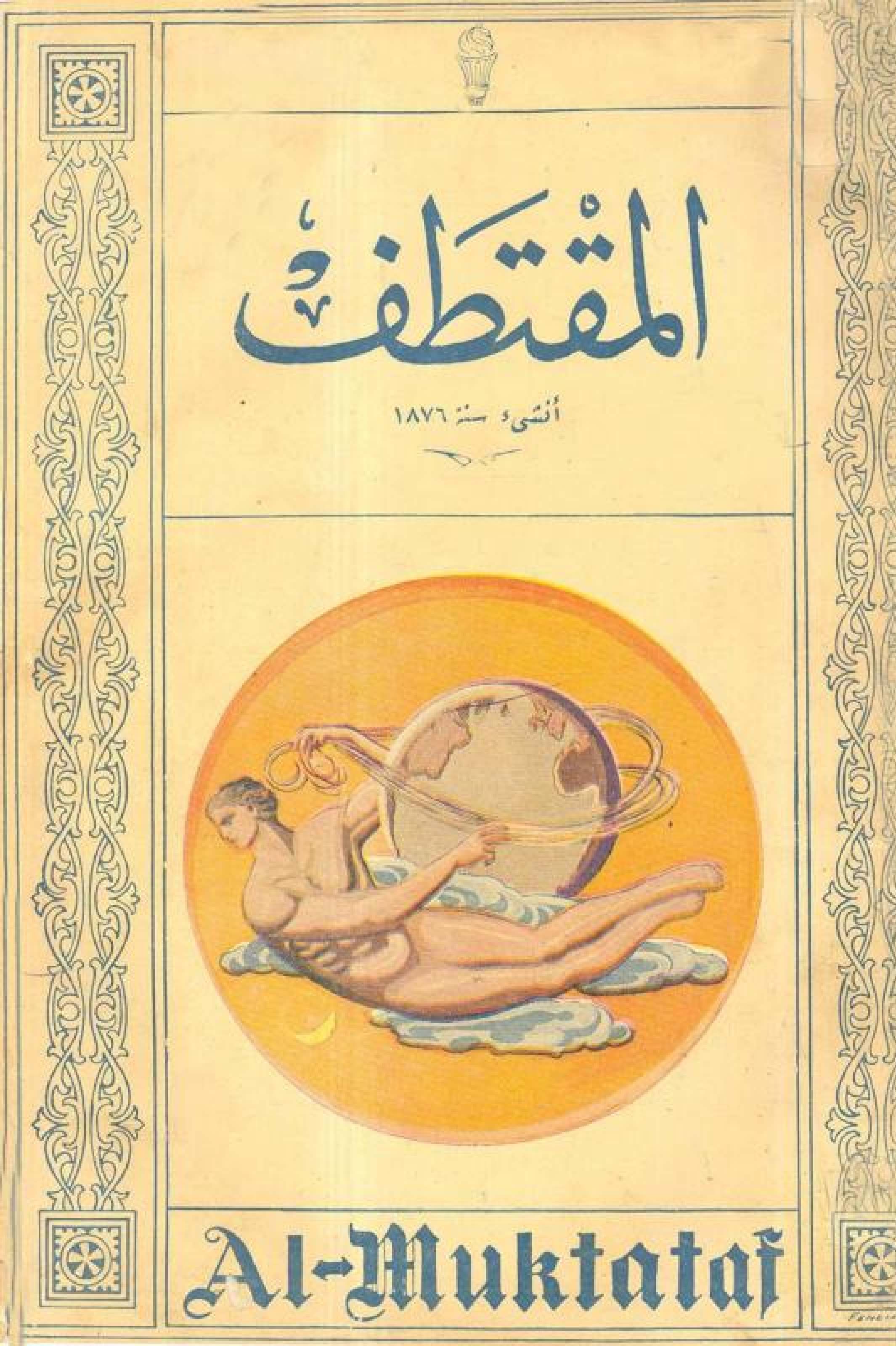


السابحات في الجو

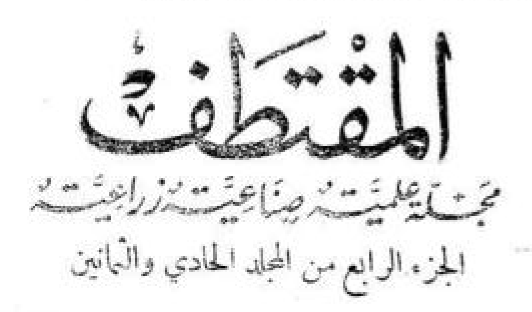
كتبنا قبلا عن الرياضة الجديدة وقوامها الطيران بطيارات لا محرك لها فيعتمد الطيار اولاً على جر الطيارة فوق سطح منحدر ثم يسبح في الجو مستعملا تيارات الهواء . وقد تمكن بعض هؤلاء الطيارين من البقاء نحو ١٥ ساعة في الجو . وهذه الصفحة يرى القارىء في اعلاها الطيار راكباً طيارته واثنان يدفعانها وفي اسفلها الطيارة وقد ارتفعت عن سطح الارض

الجزء الثالث من المجلد الحادي والثمانين

صفحة


المقتطف
أنشئ سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf





المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الرابع من المجلد الحادي والثمانين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٢ — ٢ رجب سنة ١٣٥١

تشتية الحيوانات وتصييفها

غرائب الطبيعة وعجائب المخلوقات

لا يخفى ان بعض الحيوانات كالادباب والخفافيش والسلاحف والارانب وغيرها تستكنُّ في الشتاء فتدخل مكاناً تأوي اليهِ وتبقى فيهِ زمناً لا تأكل ولا تشرب ولا تتحرك فاذا جاء الربيع خرجت من مشتاها سعياً وراء رزقها . فهذا السكون في الشتاء يسميهِ علماء الطبيعة (Hibernation) ومعناهُ بالعربية التشتية من قولهم شتَّى في المكان اي اقام فيهِ شتاء وبعض الحيوانات يكمن في الصيف كالحلازين والضفادع وبعض الاسماك في البلاد الحارَّة وهو ما يسميهِ الافرنج (Æstivation) اي التصييف من صيَّف في المكان اي اقام فيهِ صيفاً . وقد كانت التشتية معروفة عند العرب اشار اليها الجاحظ في كتاب الحيوان حيث قال « وجميع الحشرات والاحناش والعقارب وهذه الذبابات التي تعض وتلسع تكمن في الشتاء الاَّ النمل والذر والنحل فانها قد ادَّخرت ما يكفيها وليست كغيرها مما تثبت حياته مع ترك الطعم » . وقال الدميري في وصف الضب « ومن شأنهِ في الشتاء ان لا يخرج من جحرهِ وقد اشار الى ذلك امية بن ابي الصلت في قولهِ

يباري الريح تكرمة ومجداً اذا ما الضب اجحرهُ الشتاء »

أي إذا جاء الشتاء فلزم جحرهُ . وقال في وصف الدب وهو « يحب العزلة فاذا جاء الشتاء دخل وجاره الذي اتخذهُ في الغيران ولا يخرج حتى يطيب الهواء . . . . »

والحيوانات التي تشتي أو تصيف كثيرة جدًّا منها الخفافيش أي الوطاويط فانها إذا جاء

الشتاء اوت كهفاً او جوف شجرةٍ وتعلقت بمخالبها وادلت رؤوسها والتصقت بعضها ببعض وبقيت على ذلك الشتاء بطوله لا تتحرك مطلقاً وإذا نبهت قليلاً اخذت تتنفس رويداً رويداً ثم عادت إلى ما كانت عليهِ من السكون فاذا جاء الربيع خرجت من مكمنها وعادت إلى الحركة والطيران

ومنها الادباب فانها تشتي في اكثر الاماكن الباردة تدخل كهفاً فيسقط الثلج ويغطيهِ وهي داخل الكهف نائمة لا تأكل ولا تشرب وقيل إن اناثها تلد وترضع صغارها وهي في داخل الكهف ولا تغتذي بشيءٍ مطلقاً فاذا جاء الربيع خرجت من مشتاها سمينة قوية كأنَّ الصيام لم يؤثر فيها. على إن بعض الحيوانات كالمرموط وسنجاب الارض يخرج من مشتاهُ هزيلاً ضعيف القوى

ومنها القنفذ المعروف في الشام بكبابة الشوك فانهُ يدخل ثقباً في صخر او تحت جذور شجرة ويبقى زمناً لا يأكل ولا يتحرك . والزغبة وهي التي يسميها الانكليز (Dormouse) اي الفأرة النوامة تقيم شتاءً في عش طائر او تبني لها بيتاً من الطحلب او الريش وتكمن فيهِ عدة اشهر نائمة لا تتحرك. والارنب تندس تحت الثلج فيغطيها وتبقى كذلك عدة اشهر لا يصيبها مكروهٌ

وهذا السكون في زمن الشتاء او زمن الصيف ليس مقتصراً على الحيوانات اللبونة اي التي ترضع صغارها بل نراهُ في كثير غيرها من الحيوانات البرية والبحرية كالزحافات والاسماك لكنهُ غير معروف في الطيور . فالسلحفاة البرية تكمن زمناً في حفرة من الارض والسلحفاة النهرية تغوص في الطين على شواطىء البحيرات والانهار . والضفادع تفعل ذلك ايضاً في بعض الاماكن واحياناً يجف الطين في زمن القيظ فتبقى عدة اشهر في الطين الجاف على عمق عشرين قدماً او اكثر لا تغتذي بشيء ولا تتنفس ثم إذا جاء الشتاء خرجت من مكمنها . اخبرنا بعضهم انهُ كان يحفر بئراً في السودان في مكان تجتمع فيهِ المياه في زمن المطر فحفر الى عمق ٤٢ قدماً ولم يجد ماء ولكنهُ وجد ضفادع كثيرة على عمق ٢٠ قدماً إلى ٣٠ قدماً. والسمك الرئوي يصيّف اشهراً في زمن الجفاف فانهُ يغوص في الطين ويجف الطين حولهُ ويبقى في الطين الجاف إلى ان يأتي المطر وتفيض المياه وتملأ الغدران فيخرج من مكمنهِ ويعوم في الماء

واكبر الحلازين البرية تبقى زمناً طويلاً في الصيف بلا تغذية فالبزاق وهو نوع منها يختبئ في حفرة او نقرة ويجعل لفوهة بوقهِ غطاءً فيهِ ثقب صغير يتنفس منهُ ويبقى كذلك الصيف كلهُ إلى ان يقع المطر. والغطاء مصنوع من مادة يفرزها من فمهِ والغاية منهُ منع التبخر فتبقى الرطوبة في جسمه زمناً طويلاً ومتى شتّى البزّاق او صيّف لا يأكل شيئاً لذلك يقول العامة انهُ صائم

والفراش والعث وغيرها من الحشرات والهوام تكمن في الشتاء وبعضها يكمن زمناً طويلاً جدًّا قبل ان يصير حيواناً كاملاً كبعض انواع زيز الحصاد فانهُ يبقى بضع عشرة سنة تحت الارض وهو دعموص قبل ان يصير حيواناً كاملاً . اما النحل فكما قال الجاحظ لا يكمن في الشتاء بل على ضدّ ذلك فانهُ يحتاج إلى مقدار كبير من الغذاء في الاشهر الباردة وبقاؤهُ في الخلايا

لا يعدّ تشتية بالمعنى الذي يفهمهُ علماء الطبيعة لان الحيوانات التي تشتي لا تتناول غذاء مطلقاً في زمن التشتية او انها تأكل حيناً بعد آخر كالمرموط لكن ذلك ليس تشتية بالمعنى الحقيقي

ومتى شتّى حيوان او صيّف ضعفت فيهِ كل القوى الحيوية وانخفضت حرارتهُ كثيراً وقد تصل الى درجة من الانخفاض لا تزيد كثيراً عن حرارة ما يجاورهُ من الاجسام . وبعض الحيوانات التي تشتي تهيّء في آخر الصيف مقداراً من الطعام تدخرهُ الى زمن الشتاء لكن ذلك لا يكون تشتية بالمعنى الحقيقي فانهُ يراد بالتشتية ادّخار الدهن او الشحم في الجسم قبل الزمن الذي يستكنُّ فيهِ الحيوان فتى استكنّ نام نوماً طويلاً لا يتناول فيهِ طعاماً ما بل يستعيض عن ذلك بالاغتذاء بما ادخرهُ من الدهن في جسمهِ فاذا كان بهيمة اي من اكلة البقول صار في تشتيتهِ سبعاً او لاحماً اي من اكلة اللحوم لأن غذاءهُ يكون من لحمهِ فيحدث فيهِ بعض التغيير الفسيولوجي وتتغير الفضول التي يفرزها تغيراً يذكر وتصير مثل فضول السباع في تركيبها الكيماوي

والمشهور ان التشتية في الحيوان سببها البرد لكننا اذا انعمنا النظر وجدنا ان البرد وحدهُ ليس كافياً لذلك فان اكثر الباحثين قد وجدوا ان عرض الحيوانات للبرد الشديد في الصيف لا يجعلها تشتي . والتجارب التي من هذا القبيل متناقضة على ان اكثرها يثبت ما ذكر . ولا ريب ان قلة الغذاء قد تكون سبباً من اسباب التشتية فان الحيوانات التي تشتي اذا كثر الطعام عندها تؤخّر الزمن الذي تشتي فيه عادة لكن ذلك ليس مطرداً فان بعضها يشتي رغماً عن كثرة الطعام لديهِ

ومما يحسن ذكرهُ تأثير قلة الطعام في الانسان كما يحدث لفلاحي روسيا في سني الجدب فانهم اذا رأوا ان غلالهم لا تكفيهم الى آخر الشتاء احتاطوا لذلك وانقصوا طعامهم اليومي ولكي لا تخور قواهم قبل انتهاء الشتاء ناموا نوماً طويلاً فوق مواقدهم فلا يتحرك الواحد منهم ولا يقوم من فراشهِ الاّ لايقاد النار واكل كسرة من الخبز وشرب قليل من الماء ثم يعود الى فراشهِ وينام فان السكون والنوم الطويل يقللان انحلال الجسم والمقدار اللازم من الطعام لتغذيتهِ

والى القارىء بعض الظواهر الفسيولوجية في الحيوانات اللبونة متى كانت شتاة

التنفس . يقل التنفس كثيراً ويسير سيراً غير منتظم ثم تقف عضلات التنفس وقوفاً تامّاً ولا يعود الصدر يتحرك فيبقى التنفس قائماً بحركة القلب فقط فاذا انقبض دخل الهواء الى الرئتين واذا انبسط خرج منهما . فالارنبة مثلاً متى كانت مشتية تراها تتنفس تنفساً قليلاً ثم يقف نفسها تماماً نحو عشر دقائق ثم تعود الى التنفس وهلمّ جرًّا . وهي تتنفس عادة ثمانين مرة او اكثر في الدقيقة . ومن الغريب ان بعض هذه الحيوانات كالمرموط والخفاش اذا وضعا وهما في حالة التشتية في صندوق فيه مقدار كبير من الحامض الكربونيك لا يصيبهما سوء واذا وضع عصفور او جرذ في الصندوق نفسه مات حالاً مما يدل على ان الحيوانات متى كانت مشتية

لا تتناول الاَّ مقداراً يسيراً جداً من الاكسجين لشدة انخفاض القوى الحيوية فيها وللسبب نفسهِ لا ينبعث منها الاَّ مقدار قليل جداً من الحامض الكربونيك

الدورة الدموية . تضعف ضربات القلب كثيراً وينقص عددها ففي الخفاش والارغبة ينقص من مائة ضربة في الدقيقة الى ١٤ او ١٦ ضربة فقط . وقد فحص الدم الوريدي في الحيوانات المشتية فكان شريانيًّا اي احمر قانئاً . على ان بعض الباحثين وجدوا الدم في الاوعية وريديًّا اي ارجواني اللون

الهضم . يختلف الهضم باختلاف عادات الحيوان فالارغبة والمرموط وغيرهما من الحيوانات التي تشتي تدخر طعامها في اواخر الصيف فاذا اقبل الشتاء وكانت استيقظت حيناً بعد آخر واكلت قليلاً فلا بدَّ اذاً ان اعضاء الهضم فيها تعمل بعض العمل احياناً . وبعضها كالدب الاسود لا يأكل مطلقاً وهو مشتٍّ فيقف الهضم فيه وقوفاً تامًّا

وللكبد شأن كبير في زمن التشتية فتكون مخزناً يخزن فيه ما يسميه الفسيولوجيون بالغلوكوجين اي مولّد السكر وهو مادة مصدرها المواد النشائية فتحولها الكبد إلى سكر تفرغهُ في الاوعية الدموية فيسير مع الدم إلى الانسجة فتغتذي بهِ مثلما تغتذي به في اليقظة ايضاً

الجهاز العصبي والحرارة . يضعف تنبه الاعصاب كثيراً في الحيوانات المشتية لكنها تصير من هذا القبيل شبيهة بالحيوانات الباردة الدم[١] كالضفادع اي إن التنبه العصبي يبقى في عضلاتها مدة طويلة بعد فصلها عن الجسم . وتفقد الحيوانات الحارة الدم قوة ضبط حرارتها فتصير مثل الحيوانات الباردة الدم اي عوضاً عن ان تكون حرارتها منتظمة وعلى معدل واحد تصير مثل حرارة ما حولها فترتفع او تنخفض بارتفاع هذه الحرارة وانخفاضها ومتى اوقظت رفعت حرارتها حالاً إلى حالتها المعتادة

المناعة . وجد بعضهم إن الحيوانات المشتية تقاوم الامراض المعدية اشد المقاومة وإن مدة الحضانة تطول فيها ووجد آخرون إن بعضها يكون موقى من الامراض المكروبية متى كان مشتياً

الخلاصة إن التشتية سكون بعض الحيوانات سكوناً تامًّا تقف فيه اعمال اكثر الاعضاء حتى لقد قال بعضهم ان التنفس يقف وقوفاً تامًّا في التشتية الحقيقية لكن هذا القول مشكوك فيه . وهي تتدرج من النوم الطبيعي حيث تقف اعمال بعض الاعضاء إلى التشتية الحقيقية حيث تكون ظواهر الحياة في ادنى درجة من الضعف . ويظن إن السبات الذي يقع فيه دراويش الهندنوع من انواع التشتية . والتشتية لازمة لهذه الحيوانات ولولاها لانقرضت عن وجه الارض

---

(١) يراد بالحيوانات الباردة الدم الضفادع والسلاحف والعظاء وما اشبه وحرارتها بين الصفر والتسعين من مقياس فارنهيت وقلما ترتفع عن حرارة ما يحيط بها اما الحيوانات الحارة الدم كالانسان والطيور وما اشبه فتكون حرارتها اكثر من ذلك ولا تتغير بتغير الحرارة التي حولها بل تبقى على معدل واحد

شوقي

لمصطفى صادق الرافعي

هذا هو الرجل الذي يُخيل الي أن مصر اختارته دون أهلها جميعاً لتضع فيه رُوحها المتكلم ، فأوجبت له ما لم توجب لغيره وأعانته بما لم يتفق لسواه ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمة تريد أن تكون شاعرة لا على قدر رجل في نفسه، وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعري وأدبي .

شوقي . هذا هو الاسم الذي كان في الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع فقد طلعت في كل موضع ، ومتى ذُكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدل على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة . مترادفات لا في وضع اللغة ولكن في جلال اللغة

رجل عاش حتى تم وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر ودليل العبقرية على أن فيه السر المتحرك الذي لا يقف ولا يكل ولا يقطع نظام عمله كأن فيه حاسة نحلة في حديقة. ويكبر شعره كلما كبر الزمن فلم يتخلف عن دهره ولم يقع دون أبعد غاياته ، وكأنه مع الدهر على سياق واحد وكأن شعره تاريخ من الكلام يتطور أطواره في النمو فلم يجمد ولم ينتكس ، وبقي خيال صاحبه الى آخر عمره في تدبير السماء كعراض الغمامة سحابة كثير البرق ممتلئة ممطر ينصب من ناحية ويمتلىء من ناحية

والناس يُكتب عليهم الشباب والكهولة والهرم ولكن الاديب الحق يكتب عليه شباب وكهولة وشباب ، إذ كانت في قلبه الغايات الحية الشاعرة ما تنفك يلد بعضها بعضاً الى ما لا انقطاع له فانها ليست من حياة الشاعر التي خلقت في قلبه ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب

* * *

اقرر هذا في شوقي رحمه الله وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأماكن الغميزة في أدبه وشعره ، ولكن هذا الرجل انفلت من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها المتساير في الجو فأصبحت مصر به سيدة العالم العربي في الشعر وهي لم تذكر قديماً في الأدب الا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ولم يستفيض لها ذكر بنابغة ولا عبقري

وكانت كالمستجدية من تاريخ الحواضر في العالم حتى ان أبا محمد الملقب بولي الدولة صاحب ديوان الانشاء في مصر الظاهر بن المستنصر (وقدتو في سنة ٤٣١ هـ) وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار في السنة غير رسوم يستوفيها على كل ما يكتبه — سلم لرسول التجار الى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها فيستشيرهم في تخليد هذا الادب المصري بدار العلم ان استجادوه وارتضوه. كأن حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها في مكتبة بغداد قديماً يشبه في حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها في عصبة الامم....

وهذا أحمد بن علي الاسواني امام من أئمة الأدب في مصر توفي سنة ٥٦٢ هـ) وكان كاتباً شاعراً يجمع الى علوم الادب الفقه والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك — أراد أن يدوّن شعر المصريين فجمع من شعرهم (وشعر من طرأ عليهم) اربع مجلدات كأن الشعر المصري وحده الى آخر القرن السادس للهجرة في العهد الذي لم يكن ضاع فيه شيء من الكتب والدواوين لا يملأ اربع مجلدات ... على اختلافهم في مقدار المجلدة فقد تكون جزءاً لطيف الحجم والاسواني نفسهُ يبلغ ديوانهُ نحو مئة ورقة

واخوه الحسن المعروف بالمهذب الاسواني المتوفى سنة ٥٦١ قال العماد الكاتب انه لم يكن بمصر في زمنه أشعر منه وسارت له في الناس قصيدة سموها النوّاحة وصف فيها حنينه الى اخيه وقد رحل الى مكة وطالت غيبته بها وخيف عليه. فالرجل اشعر اهل مصر في زمنه وحادثة النواحة تجعله في هذا المعنى اشعر من نفسه على أنهُ مع هذا لم يقل الاّ من هذا:

يا ربعُ أين ترى الأحبة يمّموا هل أنجدوا من بعدنا ام أتهموا
رحلوا وفي القلب المعنّى بعدهم وجدٌ على مرّ الزمان مخيّمُ
وتعوّضتْ بالانس نفسي وحشة لا أوحشَ الله المنازل منهمُ . . . .

ولولا ابن الفارض والبهاء زهير وابن قلاقس الاسكندري وامثالهم وكلهم اصحاب دواوين صغيرة وليس في شعرهم الاّ طابع النيل اي الرقة والحلاوة ، لولا هؤلاء في المتقدمين لاجدب تاريخ الشعر في مصر . ولولا البارودي وصبري وحافظ في المتأخرين وكلهم كذلك اصحاب دواوين صغيرة لما ذكرت مصر بشعرها في العالم العربي . على ان كل هؤلاء وكل أولئك لم يستطيعوا ان يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ووضعه شوقي وحده

والعجب ان دواوين المجيدين من شعراء المصريين لا تكون الاّ صغيرة كأن طبيعة النيل تأخذ في المعاني كأخذها في المادة فلا فيض ولا خصب الاّ في وقت بعد اوقات وفي ثلاثة اشهر من كل اثني عشر شهراً . ومن جمال الفراشة ان تكون صغيرة وحسبها عند نفسها ان اجنحتها منقطة بالذهب وأنها هي نكتة من بديع الطبيعة

على انك واجدٌ في تاريخ الادب المصري عجيبة من عجائب الدنيا لا تذكر معها الالياذة ولا الانيادة ولا الشاهنامة ولا غيرها ولكنها عجيبة ملأتها روح الصحراء ان كانت تلك الدواوين الصغيرة من روح النيل، وهي قصيدة نظمها ابو رجاء الاسواني المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان شاعراً فقيهاً اديباً عالماً كما قالوا، وزعموا انه اقتصَّ في نظمه أخبار العالم وقصص الانبياء واحداً بعد واحد . قالوا وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك فقال ثلاثين ومائة الف بيت.... وما أشك ان هذا الرجل وقع له تاريخ الطبري وكتب السِيَر وقصص الاسرائيليات فنظمها متوناً متوناً .... وافنى عمره في ١٣٠ الف بيت حوَّلها التاريخ الى خبر مهمل في ثلاثة اسطر

***

كل شاعر مصري هو عندي جزء من جزء ولكن شوقي جزء من كلٍ ، والفرق بين الجزءين أن الاخير في قوتهِ وعظمته وعكنه واتساع شعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل . ولم يترك شاعر في مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقي وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه وذلك من الادلة على انه هو المختار لبلاده فساوى الممتازين من شعراء دهرهِ وارتفع عليهم بامور كثيرة هي رزق تاريخه من القوة المدبِّرة التي لا حيلة لاحد أن يأخذ منها ما لا تعطي او يزيد ما تنقص او ينقص ما تزيد . وقد حاولوا اسقاط شوقي مراراً فأراهم غباره ومضى متقدماً ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه ....ويري بها ان شوقي من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها في التاريخ بحرب ونصر وما هو بمنزلة شاعر وشعره

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ في نعمة الخديوي اسماعيل باشا ونثر له الخديوي الذهب وهو رضيع في قصةٍ ذكرها شوقي في مقدمة ديوانه القديم ثم كفله الخديوي توفيق باشا وعلمه وانفق عليه من سَعَة وأنزل نفسه منه منزلة اب غني كما يقول شوقي في مقدمتهِ ثم تولاه الخديوي عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول

شاعرُ العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ

واذا انت فسرت لقب شاعر الامير هذا بالامير نفسه في ذلك العهد خرج لك من التفسير شاعر مُرْهَفٌ مُعَانٌ باسباب كثيرة ليكون أداة سياسية في الشعب المصري تعمل لاحياء التاريخ في النفس المصرية وتبصيرها بعظمتها واقحامها في معارك زمنها وتهيئتها للمدافعة ، وتَصِلُ الشعر بالسياسة الدينية التي توجهتها الخلافة يومئذ لتضرب فكرة اوروبا في تقسيم الدولة بفكرة الجامعة الاسلامية . ولا يخرج لك شوقي من هذا التفسير على انه رجل في قدر نفسه بل في قدر أميره ذلك وكان ممتلئاً شباباً يغلي غلياناً ومُعِداً يومئذ لمطامح بعيدة مِلفقَة حشوها الديناميت السياسي....

كنت ذات مرة أكلم صديقي الكاتب العميق فرح انطون صاحب الجامعة وكان معجباً

بشوقي اعجاباً شديداً فقال لي إن شوقي الآن في أفق الملوك لا في أفق الشعراء. قلت كأنك نفيته من الملوك والشعراء معاً اذ لو خرج من هؤلاء لم يكن شيئاً ولو نفذ الى اولئك لم يعدُ شيئاً. انما الرجل في السياسة الملتوية التي تصله بالامير هو مرة كوزير الحربية ومرة كوزير المعارف

وهذه السياسة التي ارتاض بها شوقي ولابسها من اول عهده واتجه شعره في مذاهبها من الوطنية المصرية الى النزعة الفرعونية الى الجامعة الاسلامية فكانت بهذا سبب نبوغه ومادة مجده الشعري — هي بعينها مادة نقائصه فلقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها وتسخير الناس في ذلك بما وسعته قوته الى غيرة اشد من غيرة الحسناء تقشعرُّ كلُّ شعرة منها اذا جاءها الحسن بثانية . وهي غيرة وان كانت مذمومة في صلتهِ بالادباء الذين لدَّعوه بالجمر . . . ونحن منهم ، غير انها ممدوحة في موضعها من طبيعتهِ هو اذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظله ، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ونافس ذاته ايضاً ليجعل شوقي اشعر من شوقي. وعندي أن كل ما في هذا الرجل من المتناقضات فرجعه الى آثار تلك السياسة الملتوية التي ردَّت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة فجعلت تضطرب في وجوه من الحيل والاسباب مدبرةً مقبلةً مُتَنَهِّدَيةً في كل مجاهلها بابرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها في الطبيعة الاَّ أنف الثعلب المتجه دائماً الى رائحة الدجاج ....

ومؤرخ الادب الذي يريد أن يكتب عن شوقي لا يصنع شيئاً ان هو لم يذكر ان هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديوي توفيق والخديوي عباس لمصر كالدلتا بين فرعي النيل . وما اصابه المتنبي من سيف الدولة مما ابتعث قريحتهُ وراش اجنحته السماوية وأضفى ريشها وانتزَى بها على الغايات البعيدة في تاريخ الادب — أصاب شوقي من سمو الخديوي عباس اكثر منه فكان حقيقاً ان يساوي المتنبي أو يتقدمهُ ولكنه لم يبلغ منزلتهُ لان الخديوي لم يكن كسيف الدولة في معرفتهِ بالادب العربي ورغبته فيهِ .وسر المتنبي كان في ثلاثة اشياء: في جهازه العصبي العجيب الذي لا يقل في رأيي عما في دماغ شكسبير ، وفي ممدوحهِ الاديب الملك الذي ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائي من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية ، ثم في أفق عصره المتألق بنجوم الادب التي لايمكن ان يظهر بينها الاَّ ما هو في قدرها ولا يتميز فيها الاَّ ما هو اكبر منها ولا يتركها كالمنطفئة الاَّ شمس كشمس المتنبي تتفجر على الدنيا بمعجزاتها النورانية

ولقد والله كان هذا المتنبي كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء وهل أدل على ذلك من ان ابا اسحاق الصابي شيخ الكتاب في عصره يراسله أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم فيرسل اليه المتنبي : ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولكني ان مدحتك تنكر لك الوزير (يعني المهلَّبي) لاني لم أمدحه فان كنت لاتبالي هذا الحال فانا أجيبك ولا

أريد منك مالاً ولا من شعري عوضاً . فأين في دهرنا من تشمره عزة الادب مثل هذا الشعور ليأتي بالشعر من نفس مستيقنة ان الدنيا في انتظار كلمتها ؟

على ان شوقي لم يكن ينقصه باعتبار زمنه الا (الجمهور الشعري) وكل بلاء الشعر العربي أنهُ لا يجد هذا الجمهور ، فالشاعر بذلك منصرف الى معانٍ فردية من ممدوح عظيم او حبيب عظيم او سقوط عظيم .... حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قطع مبتورة من الكون داخلة في الحدود لابسة الثياب . ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه من الاحساس الا قدر نفسه لا قدر جمهوره والا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود فلا تجد في طبعه قوة الاحاطة والتبسُّط والشمول والتدقيق ولا تؤاتيه طبيعته ان يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها فاذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يوغل فيه واذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثهُ ولا يتقدم فيها نظره واذا نفسه تمرُّ على الكون مرَّا سريعاً واذا شعره مقطع قطعاً واذا آلامهُ وأفراحهُ أوصاف لا شعور وكلمات لا حقائق وظلٌّ طامس ملقى على الارض اذا قابلتهُ بتفاصيل الجسم الحي السائر على الارض

واجتمع لشوقي في ميراث دمه ومجاري اعراقه عنصر عربي وآخر تركي وثالث يوناني ورابع شركسي وهذه كثرة انسانية لا يأتي منها شاعر الا كان خليقاً ان يكون دولة من دول الشعر . والى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبي في عينيه كأن هذا دليل طبيعي على ان وراءها عينين للمعاني تزاحمان عيني البصر . وما لم يكن التركيب العصبي في الشاعر مهيأ للنبوغ فاعلم انهُ وقع من تقاسيم الدنيا في غير الشعر وليس في الطبيعة ولا في الصناعة قوة تجعل حنجرة البلبل في غير البلبل . ومع كل ما تقدم فقد أُعين شوقي على الشعر بفراغه له اربعاً واربعين سنة غير مشترك العمل ولا متقسم الخاطر على سعة في الرزق وبسطةٍ في الجاه وعلو في المنزلة ، وبين يديه دواوين الشعر العربي والاوروبي والتركي والفارسي . وان تنس فلا تنس ان شاعرنا هذا خص بنشاط الحياة وهو روح الشعر لا روح للشعر بدونه فسافر ورحل وتقلب في الارض وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة يتخللها ببصره ما بين الاندلس والاستانة وظهيرهُ على ذلك ماله وفراغهُ ، وانما قوة الشعر في مساقط الجو ففي كل جو جديد روح للشاعر جديدة ، والطبيعة كالناس هي في مكان بيضاء وفي مكان سوداء وهي في موضع نائمة تحلم وفي موضع قائمة تعمل وفي بلد هي كالانثى الجميلة وفي بلد هي كالرجل المصارع ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبي على أقواه وأشده الا إذا أطعمته مع صنوف الاطعمة اللذيذة المفيدة ألوان الهواء اللذيذ المفيد

وعندي انهُ لا أمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم في طبقة التحول من شعراء العالم الاَّ اذا أعيد تاريخ شوقي مهذباً منقحاً في رجل وهبه الله مواهبه ثم تهبهُ الحكومة المصرية مواهبها

* * *

والكتاب الاول الذي راض خيال شوقي وصقل طبعهُ وصحح نشأتهُ الادبية هو بعينهِ الذي كانت منه بصيرة حافظ وذكرناهُ في مقالنا عنه اي كتاب الوسيلة الادبية للمرصفي. وليس السر في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة فهذا كله كان في مصر قديماً ولم يغن شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقي . ولكن السر ما في الكتاب من شعر البارودي لانه معاصر والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب اذ كان الصواب وعلى خطإ ان كان الخطأ . وقد تصرَّمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره ثم لا يجيئون الاَّ بشعر الصناعة والتكلف ولا يُخالِدُ الجيلُ منهم الاَّ لما رأى في عصره ولا يستفتح غير الباب الذي فُتِح له . الى ان كان البارودي وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة لا يحسن منها شيئاً ، وجهله هذا هو كلُّ العلم الذي حوَّل الشعر من بعد فيا لها عجيبة من الحكمة وهي دليل على ان اعمال الناس ليست الا خضوعاً لقوانين نافذة على الناس . واكبَّ البارودي على ما أطاقه وهو الحفظ من شعر الفحول اذ لا يحتاج الحفظ الى غير القراءة ثم المعاناة والمزاولة ، وكانت فيهِ سليقة تخرجت مخرج مثلها في شعراء الجاهلية والصدر الاول من الحفظ والرواية وجاءت بذلك الشعر الجزل الذي نقله المرصفي بالهام من الله تعالى ليخرج بهِ للعربية حافظ وشوقي وغيرهما . فكل ما في الكتاب انهُ ينقل روح المعاصرة الى روح الاديب الناشيء فتبعثهُ هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء فاذا هو على ميزةٍ وبصيرة واذا هو على الطريق التي تنتهي بهِ الى ما في قوة نفسه ما دام فيهِ ذكاء وطبع . وبهذا ابتدأ شوقي وحافظ من موضع واحد وانتهى كلاهما الى طريقة غير طريقة الآخر والطريقتان معاً غير طريقة البارودي

تحول شوقي بهذا الشعر لا الى طريقة البارودي فانهُ لا يطيقها ولا تتهيأ في اسبابه وخاصة في اول عهده وكأن لغة البارودي فيها من لقبه اي فيها البارود .... ولكن تحوَّل نابغتنا كان عن طريقة معاصريه من امثال الليثي وابي النصر وغيرهما فترك الاحياء وانطلق وراء الموتى في دواوينهم التي كان من سعادته أن طبع الكثير منها في ذلك العهد كالمتنبي وابي تمام والبحتري والمعري ثم اهل الرقة اصحاب الطريقة الغرامية كابن الاحنف والبهاء زهير والشاب الظريف والتلعفري والحاجري ثم مشاهير المتأخرين كابن النحاس والامير منجك والشرقاوي . وقد حاول شوقي في اول أمره أن يجمع بين هذا كله فظهر في شعره تقليده وعمله في محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد مع السهولة والرقة وتكلف الغزل بالطبع المتدفق لا بالحب الصحيح

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون اكبر همي الاَّ البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه

وكيف ألمّ وكيف لحظ وكيف كان المعنى منتبهة له وهل ابدع ام قلد وهل هو شعر بالمعنى شعوراً تخالط نفسه وجاء منها ام نقله نقلاً لجاء من الكتب . وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه ويدقق النظرة في أسرار الاشياء ويحسن ان يستشف هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول الشعري ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها ، ام فكره استرسال وترجيم في الخيال واخذ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجملة هل هو ذاتية تمر فيها مخلوقات معانيه لتخلق فتكون لها مع الحياة في نفسها حياة من نفسه ام هو تبعية كالسمسار بين طرفين يكون بينهما وليس منهما ولا من احدهما ؟ في هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر ولا يؤديك الى هذا التاريخ الا ذلك المذهب اليه إن اطقته أما تاريخ الشاعر نفسه فما اسهله إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره وليس في تأريخ ما كان الا نقله كما كان

واذا عرضنا شوقي بتلك الطريقة رأيناه نابغة من أول أمره ففيه تلك الموهبة التي أسميها حاسة الجو إذ يتلمح بها النوابغ معاني ما وراء المنظور ويستنزلون بها من كل معنى معنى غيره أنظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ ٢٣ سنة على ما اظن وهي من شعره السائر :

خدعوها بقولهم حسناء   والغواني يغرهن الثناء
ما تراها تناست اسمي لما   كثرت في غرامها الاسماء
إن رأتني تميل عني كأن لم   تك بيني وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

دع غلطته في قوله (تميل عني) فان صوابها تمل إذ هي جواب إن الشرطية ولكن تأمل كيف استخرج معانيه ؛ وانا كنت دائماً وما أزال معجباً بالبيتين الثاني والرابع لا إكباراً لمعناهما فهما لا شيء عندي ولكن اعجاباً بموهبة شوقي في التوليد فانهُ اخذ البيت الثاني من قول ابي تمام

أتيتُ فؤادها أشكو اليهِ   فلم أخلص اليهِ من الزحام

فمرّ المعنى في ذهن شوقي كما يمر الهواء في روضة وجاء نسيماً يترقرق بعد ما كان كالريح السافية بترابها لان الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء لا بقلب امرأة يحبها . بل هو يجعل قلب المرأة شيئاً غريباً كأنهُ ليس عضواً في جسمها بل غرفة في بيتها . . . . وقد سبق شاعرنا ابا تمام بمراحل في ابداعه وذوقه ورقته

والبيت الرابع من قول الشاب الظريف

قف واستمع سيرة الصب الذي قتلوا   فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا   فرام صبراً فأعيا نيله فقضى

وهذه « فاءات » تجر الى القبر ونعوذ بالله منها .... ومما كنت أعيبه على شوقي ضعفهُ في فنون الادب فان المويلحي الكاتب الشهير انتقد في جريدته مصباح الشرق ابيات (خدعوها)

عند ظهور الشوقيات في سنة ١٨٩٩ فارتاع شوقي وتحمّل عليهِ ليمسك عن النقد مع ان كلام المويلحي لا يسقط ذبابة من ارتفاع نصف متر .... ومن مصيبة الادب عندنا بل من اكبر اسرار ضعفهِ ان شعراءنا لا طاقة لهم بالنقد وانهم يفرون منهُ فراراً ويعملون على تفاديه وانهم لا يحسنون غير الشعر فلا البارودي ولا صبري ولا حافظ ولا شوقي كان يحسن واحد منهم ان يدفع عن نفسه او يكتب فصلاً في النقد الأدبي او يحقق مسئلة في تاريخ الأدب

ومن معاني شوقي السائرة :

لك نصحي وما عليك جدالي آفةَ النصح أن يكون جدالا

وكرره في قصيدة أخرى فقال :

آفة النصح أن يكون جدالا وأذى النصح أن يكون جهارا

والبيتان من شعر صباه ايضاً وهما من قول ابن الرومي :

وفي النصح خيرٌ من نصيحٍ موادعٍ ولا خير فيهِ من نصيحٍ موائبِ

فصحح شوقي المعنى وابدل الموائبة بالجدال وذلك هو الذي عجز عنهُ ابن الرومي . ومن ابداعه في قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان

يكادون من ذعرٍ تفرُّ ديارهم وتنجو الرواسي لو حواهن مَشْعبُ

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى ويقضم بعض الارض بعضاً ويقضب

وهذا خيال بديع في الغاية جعل هزيمتهم كانها ليست من هول الترك بل من هول القيامة وهو مع ذلك مولّد من قول ابي تمام في وصف كرم ممدوحه أبي دلف

تكاد مغانيه تهشُّ عراصُها فتركبُ من شوقٍ الى كل راكبِ

فقاس شاعرنا على ذلك واذا كادت الدار تركب الى الراكب اليها من فرحها فهي تكاد تفرُّ مع المنهزم من ذعرها ولكن شوقي بنى فأحكم وسما على ابي تمام بالزيادة التي جاء بها في البيت الثاني

ومن احسن شعره في الغزل :

حَوَت الجمال فلو ذهبت تزيدها في الوهم حسناً ما استطعت مزيدا

وهو من قول القائل :

ذاتُ حسن لو استزادت من الحسن اليها لما أصابت مزيدا

غير ان شوقي قال لو ذهبت تزيدها في الوهم والشاعر قال لو استزادت هي فلو خلا بيت شوقي من كلمة (في الوهم) لما كان شيئاً ولكن هذه الكلمة حققت فيهِ المعنى الذي تقوم عليهِ كل فلسفة الجمال فان جمال الحبيب ليس شيئاً الاَّ المعاني التي هي في وهم محبهِ فالزيادة تكون من الوهم وهو بطبيعتهِ لا ينتهي فاذا لم تبق فيهِ زيادة في الحسن فما بعد ذلك حسن . وقد بسطنا هذا المعنى في صور كثيرة في كتبنا رسائل الاحزان والسحاب الاحمر واوراق الورد فانظره فيها

ومما يتمم ذلك البيت قول شوقي في قصيدة النفس

يا دُمية لايستزاد جمالها زيديه حسن المحسن المتبرع

وهذا المعنى يقع من نفسي موقعاً وله من اعجابي محل فهذه الزيادة التي فيه كزيادة العمر لو أمكنت وهي في موضعها كما ينقطع الحظ ثم يتصل وكما يستحيل الأمل ثم يتفق ويسهل . وقد علمتَ مأخذ الشطر الاول أما الثاني فهو من قول ابن الرومي

يا حسنَ الوجه لقد شِنتَهُ فاضمم الى حسنك احسانا

وفي القصيدة التي رثى بها ثروت باشا وهي من احسن شعره تجد من أبياتها هذا البيت النادر

وقد يموت كثير لا تحسّهمو كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا

وشوقي يعارض بهذه القصيدة ابا خالد ابن محمد المهلبي في داليّته التي رثى بها المتوكل وكان المهلبي حاضراً قتله هو والبحتري فرثاه كل منهما بقصيدة قالوا انها من اجود ما قيل في معناها وبيت شوقي مأخوذ من قول المهلبي

انا فقدناك حتى لا اصطبار لنا ومات قبلك أقوامٌ فما فُقدوا

اي لم يحسّ موتهم أحد ولكن البيت غير مستقيم لان الذي يموت فلا يفقد هو الخالد الذي كأنهُ لم يمت فاستخرج شوقي المعنى الصحيح وجعل العدم الذي هو آخر الوجود في الناس اول الوجود ووسطه وآخره في هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وجدوا

* * *

والى ما علمتَ من قوة هذه الشاعرية ودقتها فيما تتأتى له ومجيئها بالمعاني النادرة مستخرجةً استخراج الذهب مصقولة صقل الجوهر معدّلة بالفكر موزونةً بالمنطق — تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء وغرّةً كغرة الاحداث حتى لتحسب أن طفولة شوقي كثيراً ما تنبعث في شعره لاعبةً هازلة أو كأن للرجل شخصيتين كما يقول الاطباء فهما تتعاوران شعره كمالاً ونقصاً وعلوّاً ونزولاً او قل هي العربية واليونانية في ناحية من نفسهِ والتركية والشركسية في ناحية أخرى. لتلك الابتكار والبلاغة والمنطق ، ولهذه التهويل والمبالغة والخلط ، وشوقي هو بهما جميعاً تفتنهُ القوية منهما فيعجب بها إعجاب القوّة وتخدعه الضعيفة فيعجب بها اعجاب الرقة . كما أعجب ببيته الذي قالهُ في الحنين إلى الوطن من قصيدتهِ الاندلسية الشهيرة

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

وهذا البيت مما يتمثل به الشبان وكتاب الصحافة ولم يفطن أحد إلى فساده وسخافة معناه فان الخلد لا يكون خلداً الاّ بعد فناء الفاني من الانسان وطبائعه الارضية وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية . فكأن شوقي يقول: لو شغلت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا دول ولا أمم ولا حنين الى شيء من ذلك فاني على ذلك أحن إلى الوطن الذي لا

وجود لهُ في نفسي ولا في نفسهِ. . . . وهذا كله لغوٌ.... والمعنى يعد من قول ابن الرومي

وحبَّب أوطان الرجال اليهمو مآربُ قضَّاها الشباب هنا لكا

اذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمو عهود الصبي فيها فحنُّوا لذلكا

ومنازعة النفس هي الحنين ومعنى ابن الرومي وان كان صحيحاً غير انه لا يصلح لفلسفة الوطنية في زمننا

وان في شوقي عيبين يذهبان بكثير من حسناتهِ احدهما المبالغات التركية الفارسية مما تنزعه اليه تركيتهُ ولا مبالغة في الدنيا تقاربها كقول بعض شعرائهم ان النملة بزفرتها جففت الأبحر السبعة... وهو اغراق سخيف لا يأتي بخيال عجيب كما يتوهمون بل يأتي بهذيان عجيب. واذا كان الصدق يأنف من الكذب فان الكذب نفسه يأنف من هذا الاغراق. ومن هذه التركية في شوقي إضافات وهمية هي من تلك المبالغات كذيل الجمار من الحمار؛ قطعة فيهِ ودليل عليهِ وآخر لأوله ولا محل لها في ذوق البلاغة العربية كقوله

(عيسى الشعور) إذا مشى رد الشعوب الى الحياة

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليهِ

ولو زُلتَ غُيِّبَ (عمرو الامور) وأخلى المنابرَ سحبانُها

ويدخل في جنايات هذه التركية على شعره تكراره الاسماء المقدسة والاعلام التاريخية كيوشع وعيسى وموسى وخالد وبدر وسيناء وحاتم وكعب وغيرها مما هو شائع في نظمهِ ولا تجده اكثر ما تجده إلاَّ ثقيلاً مملولاً ولهذه الالفاظ عندنا فلسفة لا محل لها الآن فهي احياناً تكون السحر كله والبلاغة كلها على شرط أن يكون القلب هو الذي وضعها في موضعها وأن لا يضعها إلاَّ على هيأة قلبية فيكون كأنه وضع نفسه في الشعر ليخفق خفقانه الحيّ في بضعة الفاظ وهذا ما لم يحسنه شوقي. والعيب الثاني ان الفاظ شاعرنا لا يثبت اكثرها على النقد لضعفه في الصناعة البيانية ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه وإعتباره التهويل شعراً والمبالغة بلاغة وان فسدت بهما البلاغة والشعر. أنظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير

قالوا الحماية زالت قلتُ لا عجب قد كان باطلها فيكم هو العجبا

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزماً يقطع الذنبا

قلنا فاذا قطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقيةٌ ما ذنب او يد او رجل فان هذه البقية في لغة السياسة التي تنقد الالفاظ وحروفها ونقط حروفها.... لن تكون ذنباً ولا يداً ولا رجلاً بل هي (رأس الحماية) بعينهِ.... على ان شوقي انما عكس قول الشاعر

لا تقطعنْ ذنب الأفعى وترسلها ان كنت شهماً فأتبِعْ رأسها الذنبا

وهذا كلام على سياقهِ من العقل فما غناء قطع ذنب الأفعى اذا بقي رأسها وانما الافعى كلها هي هذا الرأس

ولقد ظهر لي من درس شوقي في ديوانه أمر عجبت له فاني رأيته يأخذ من ابي تمام والبحتري والمعري وابن الرومي وغيرهم فربما ساواهم وربما زاد عليهم حتى اذا جاء الى المتنبي وقع في البحر وأدركه الغرق لانهُ نشأ على رهبة منهُ كما تشير اليهِ عبارته في مقدمة ديوانهِ الاول . وقد وصف خيل الترك في قصيدة انقره بقوله :

والصبر فيها وفي فرسانها خلقٌ ... توارثوهُ اباً في الروع بعد أب

كما وُلدتم على أعرافها وُلدت ... في ساحة الحرب لا في باحة الرحَب

وشعره هذا كأنهُ يرتعد امام قول المتنبي :

اقبلتها غُررَ الجياد كأنما ... أيدي بني عمرانَ في جبهاتها

الثابتين فروسةً كجلودها ... في ظهرها ، والطعنُ في لباتها

فكأنها نُتجت قياماً تحتهم ... وكأنهم وُلدوا على صهواتها

فانظر أين صناعة من صناعة وأين شعرٌ من شعر . وقال في (صدى الحرب) يصف مدافع الدردنيل :

قذائفُ تخشى مهجة الشمس كلما ... علت مصعدات أنها لا تصوّبُ

اذا هبَّ حاميها على السفن انثنت ... وغانمها الناجي فكيف المخيّبُ ؟

وهذا الاستفهام (فكيف المخيب) استفهام مضحك لانهُ اذا كان الناجي غانماً فالمخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة . والكلمة الشعرية في هذا كله هي قوله (وغانمها الناجي) وهي كالهاربة تتوارى خوفاً من بيت أبي الطيب

أغرُّ أعداؤه اذا سلموا ... بالهرب استكبروا الذي فعلوا

فهذا هو الشعر لا ذاك . على اني اشهد ان في قصيدة (صدى الحرب) ابياتاً هي من اسمى الشعر وكأن شوقي رحمهُ الله كان ينظم هذه القصيدة من اعانه ومن دمهِ ومن كل مطامع دنياه وآخرته . يبتغي بها الشهرة الخالدة في الناس والمنزلة السامية عند الخديوي ونباهة الشأن عند الخليفة والثواب عند الله تعالى . ولو هو في اثناء عملها اسقط نصفها او اكثر لجاءت فريدة في الشعر العربي غير ان الحرص كان يخترهُ وكان طول عمره مفتوناً بشعرهِ فجاء في هذا الشعر بالطم والرم كما يقولون . وله كثير من الكلام الرذل الساقط بضعفه وتهافته ولولا تلك التركية الفارسية وضعفه البيانيّ لما رضي ان يكون ذلك في شعره . وليت شعري كيف غاب عن مثله ان التهويل والاغراق والاحالة مما يهجّن الشعر ويذهب بأثره في النفس ويحيله الى صناعة هي شر من الصناعة البديعية لان هذه تكون في الالفاظ والالفاظ تحتمل العبث البديعي ويخرج بها الامر الى ان تكون ضرباً من الرياضة كمعاناة بعض المسائل في الجبر والهندسة تركيباً وحلاً ، ولكن المعاني لا تحتمل ذلك اذ هي تفكير لا يلتوي الا فسد . والمعاني التي يأتي بها الشاعر يجب ان تكون فيها مزية بخاصتّها من الجمال والبيان وان تكون أخيلتها هي الحقائق التي أول مواضعها فوق حقائق البشر

ان الخيال الشعري يزيغ بالحقيقة في منطق الشاعر لا ليقلبها عن وضعها ويجيء بها ممسوخة مشوهة ولكن ليعتدل بها في أفهام الناس ويجعلها تامة في تأثيرها وتلك من معجزاته اذ كانت فيه قوة فوق القوة عملها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى

ولعلماء الادب العربي كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها. قالوا أعذب الشعر اكذبهُ يعنون إن قوام الشعر المبالغة والخيال ولا ينفذون إلى ماوراء ذلك وما وراءه الا الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها . وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذبٌ على الحواس الانسانية وإن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هي عمل شعريٌّ في الحقيقة اذ تنقل الشيء على غير ما هو في نفسه ليكون شيئاً في نفوسنا فيؤثر فيها أثره جمالاً وقبحاً وما بينهما. وما هي خمرة الشعر مثلاً ? هي رضاب الحبيبة . ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر لرأى .. رأى مستنقعاً صغيراً ....
ولو كان هذا المجهر اضعاف الاضعاف مما يجهر به لرأيت ذلك الرضاب يمج عجيجاً بالهوام والحشرات التي لا تخفى بنفسها ولكن أخفاها التدبير الالهي بأن جعل رتبتها في الوجود وراء النظر الانساني رحمةً من الله بالناس. فأعذب الشعر ما عمل في تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسرّ الحياة، ولهذا المعنى كان الشعراء النوابغ في كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع

ومن سخيف الاغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفى باشا كامل وهي ابيات يظن هو انه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الاغراب :

فلو أن أوطاناً تصوَّر هيكلاً	دفنوك بين جوانح الاوطان
او كان يحمل في الجوارح ميت	حملوك في الاسماع والاجفان
أو كان للذكر الحكيم بقيةٌ	لم تأت بعدُ رُثيت في القرآن

فهذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات . . . . وتصور انت ميتاً يحمل في الجوارح فيترمم فيها ويبلى .... وما زال الشاعر في ابياته يخرج من طامَّة إلى طامة . حتى قال رثيت في القرآن . ولو سئلت أنا إعراب (لو) في هذه الابيات لقلت انها حرف نقص وتلفيق وعجز....
وكيف يسوغ في الفرض أن تكون للقرآن بقية لم تنزل والله تعالى يقول فيه «اليوم أكملت لكم دينكم» .
والامر أمر دين قد تم وكتاب مقدس ختم ونبوَّة انقضت والشاعر ماض في غفلته لم يتنبه لشيء ولم يدر انه يفرض فرضاً يهدم الاسلام كله بل حسب أنه جاء بخيال وبلاغة فارسية . وشوقي في الحقيقة كامل كناقص وإن من معجزات هذا الشاعر أن يكون ناقصاً هذا النقص كله ويكمل

وفي الشوقيات صفحات تكاد تغرّد تغريداً وفيها صفحات أخرى تنقّ نقيق الضفادع .
وفي هذا الديوان عيوب لا نريد أن نقتصها فأن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه اذا ذهبنا نأتي بها ونشرح العلة فيها ونخرج الشواهد عليها . ولكن من عيوبه في التكرار ان له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية وهو هذا البيت:

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا

بل هذا البيت : وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان تولت مضوا على آثارها قدما

بل هو هذا : كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم امرهم حين تذهب

بل هو هذا البيت : ولا المصائب اذ يرمى الرجال بها بقاتلات اذا الاخلاق لم تصب

وقد تكرر (فيما قرأتهُ من ديوانه) ثلاث عشرة مرة فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذي جمل الشاعر يرقعهُ ثم يرقعهُ حتى ذهب الطيلسان وبقيت الرُّقع .... والبيت الاول من العَيْن النادر ولكن افسده في الباقي سوء ملكة الحرص في شوقي أو ضعف الحس البياني ، او ابتذاله الشعر في غير موضعه ، او وهن فكرته الفلسفية من جوانب كثيرة . وهذه الاربعة هي الابواب التي يقتحم منها النقد على شعر صاحبنا ولو هو كان قد حصَّنها بأضدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية الى اليوم ولكان عسى ان ينقل الشعر الى طور جديد في التاريخ. ولكن الفوضى وقعت في شوقي من اول امره فارسل الى اوربا لدرس الحقوق وكان الوجه ان يرسل لدرس الآداب والفلسفة ، وغامر في سياسة الارض وكان الحق ان يشتغل بسياسة السماء وتهالك في مادة الدنيا وكان الصواب ان يتهالك في معانيها

ان الفوضى ذاهبة بنا مذاهبها في الادب والشعر . فكل شاعر عندنا كمؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليه ان يمثلها وحده فهو يخرج على النظارة في ثياب الملك فيلقي كلاماً ملكياً ثم ينفتل فيجيء في ثوب القائد فيلقي كلاماً حربياً ثم ينقلب فيعود في هيأة التاجر فيلقي كلاماً سوقياً ثم يروغ فيرجع في مباذل الخادم ثم . . ثم . . ثم يتوارى فيظهر في جلدة بربري . . . . وهذه الفوضى التي اهملتها الحكومة واهملها الامراء والكبراء هي حقيقة مؤلمة ولكن هي الحقيقة

* * *

وشوقي على كل هذا هو شوقي اول من احتفى بتاريخ مصر من الشعراء وأول من توسع في نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات وهو صاحب الآيات البديعة في الوصف وهذه الناحية هي اقوى نواحيهِ . ولقد الهمتني قراءة البارع من شعره في اغراضهِ وفنونهِ المختلفة ان الله تعالى ينعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين في جمال ارواحهم وقوتها تجد الآدابُ لذتها فيهم وسموَّها بهم ، كأن الامر قياسٌ على ما يقع من عشق الناس لبعض المعاني فيكون في المعاني ما يعشقَ بعض الناس . ومتى بلغ عشق المعنى لانسان مبلغَ الاختصاص والوجد ظهر الفن ابدعَ ما يُرى كأن المعنى الادبي يتجمل ويتحبَّب ليستميل هذا الانسان الحاكم عليهِ حكمَ الحب

فيا مصر لقد مات شاعرك الذي كان يحاول ان يخرج بالجيل الحاضر الى الزمن الذي لم يأت بعد . فاذا جاء هذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابه العالية وذكرتِ مجد شعرك الماضي فليقل اساتذتك يومئذ : كان هذا الماضي شاعراً اسمهُ شوقي



القضايا الاجتماعية الكبرى
في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

بناء الدولة

العوامل النافذة في بناء الدولة : قد يشاء الباحث الاخلاقي ان يعلم ان انفذ البواعث اثراً في تأليف الدولة باعث اناني مزدوج مؤلف من عاملين اثنين جمع الثروة وحب التسلط على الناس. ولكن ماذا يفيد الاستياء وماذا تنفع الحوقلة ومعظم الاوضاع التي يباهي بها البشر كوضع الزواج الذي شرحناه يبتدىء حقيراً ذا مخبر مظلم ثم لا يلبث ان ينطبع بطابع الانسانية اللألاء؟ ويلوح لنا ان الاستئثار والطمع والخوف والشهوة والظلم والانانية وغير ذلك من البواعث الطبيعية كل ذلك كان له الشأن الخطير في تأسيس اوضاعنا الاجتماعية مادية كانت ام معنوية

وقد دلّ التاريخ على ان عامل جمع الثروة كالكسب الذي يكسبه الغزاة من ماشية وسائمة واماء وعبيد يؤول الى تقوية الروابط الحكومية وتأييد قوة الفاتحين ونفوذهم بالنظر الى ما تجلبه الدولة من المنافع المادية ناهيك بالحاجة التي يشعر بها سواد الناس الى النظام واجراء العدل في توزيع هذه المنافع — وهو وظيفة الحكومة طبعاً

ومن الامثال التي نضربها على ذلك ان الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز اليوم كان في بداءة القرن الحاضر لاجئاً الى الكويت بسيطاً عند اميره الشيخ مبارك بن الصباح لان آل الرشيد كانوا قد احتلوا مواطن آبائه واجداده وانتزعوا السلطة منهم وابن السعود هذا هو رجل شجاع ذو عزيمة صادقة وطموح وثاب فوطد النفس على العودة الى نجد واخراج آل الرشيد المغتصبين منه فدبر امره في ليل حتى تمكن من اغتيال عامل الرشيد في فراشه وبمساعدة كمين ابقاهُ خارج القصر تمكن من ترسيخ قدمه في البلاد ثم اخذ ملكه في التكامل والاتساع الى ان امتد الى البحر الاحمر غرباً وسورية والعراق شمالاً ولكن هذا الاتساع ما كان ليتم لولا المنافع التي جناها الغزاة الفاتحون من جنوده واعوانه . فزج هذه المنافع الاساسية بدعوة روحية جذابة كالدعوة الى التنزيه ومحاربة الشرك ولا سيما الاستيلاء على اموال المشركين جزاء لهم كل ذلك ألّف من همج النجديين خصوصاً ممن يدعون « غطغطاً » جيشاً لجباً متحمساً اكتسح هذه الاصقاع المترامية الاطراف ولم يتورع ان يطبق على الكثير

من سكانها قاعدة القتل العام — ولو على ابواب مكة — باسم التوحيد والتطهير من الشرك !
فالقارىء يرى من هذا المثال الملموس كيف ان الباعث الاول على تأسيس هذه المملكة المترامية الاطراف هو باعث طبيعي يرتكز على شعور بالثأر متأصل في العرب ، فلما ذر عليه القائمون به فلفلاً وبهاراً من دعوة اخلاقية خيالية كمالية صلح طعمه وصار لذيذاً حتى في افواه الآنفين المتأنقين ناهيك بالشرهين الشرسين . ولاحظت في المدد التي اقمتها في الصحراء ان كل دعوة كائنة ما كانت متى وضعت عليها التوابل الروحانية المقبلة وكان من ورائها نفع مادي تلاقي رواجاً عظيماً ولا سيما عند القبائل التي تشكو القلة وتعاني المحل . ولا نخطىء اذا نحن قلنا ان المؤمنين بمثل هذه الدعوة عن اخلاص طاهر لا تمازجه المنافع المادية هم الاقلية . واما سواد الناس فهم لا يدركون الكمال عادةً الا اذا كان مصاحباً طعمةً بالمنافع فلا يصلون لله مثلاً الا اذا اعتقدوا ان تحت السجادة في الدنيا ديناراً وهاجاً وفي الآخرة قصراً حافلاً بالحور العين

ويمكننا ان نضع القاعدة العامة الآتية عن الاقوام التي لا تزال على الطريقة الفطرية العمياء في نموها — يعني انها لم تدخل بعد في طور الارتقاء العالي الذي يكون التحول الاجتماعي فيه غاية يدركها الناس بعقولهم — وهذه القاعدة هي ان التابل الذي يذر على الباعث المادي الاصلي ليجعل طعمهُ لذيذاً هو مقياس ارتقاء الشعب الذي يذره . بل ان هذه القاعدة تنطبق على اي شعب كان ما دام سواده كرة تتقاذفها صوالج الدعايات المزوقة فتتلقفها ايدي اللاعبين

تأثير الدين في تأسيس الدولة : ومن العوامل المتجلية في تأسيس كيان الدولة العامل الديني منذ الاعصر القبلية الاولى الى اليوم فقد ايد الدين الاستقرار السياسي وساعد على حفظ النظام بما اتاه من تعضيد الشيخ الزعيم وتثبيت الفاتح العظيم وذلك للمصلحة التي توخاها من مقامهما الرفيع ولا يزال الملوك والقواد الى يومنا هذا حتى في ارقى البلدان الغربية مظهر عطف الاكليروس ومجلى تأييده . وزاد في سلطة الشيوخ والفاتحين في الاعصر السحيقة ان الكهنة كانوا يجمعون الى الخوف من الآلهة والفزع من الاصنام والارواح الخوف منهم . وقد مثل الشيخ الزعيم والفاتح العظيم سلطة هذه المعبودات في القرون الاولى كما مثلاها في القرون الوسطى فلم يكن الفرق كبيراً بين فرعون الرب الاعلى وشارلمان ظل الله على الارض. وبالانتقال من الوضع القبلي البسيط الى الوضع الدولي المعقد انتقل الدين من شكله المحلي الاهلي الى شكله القومي العام كما حدث عند الاسرائيليين اذ تغلب دين احد الاسباط على اديان الاسباط الاخرى فاكتسحها ومن ثم صار الدين اليهودي القومي ؛ وحينئذٍ انتقل (يهوه) من بقعته المحدودة الى مقامه الشامل — من صنم سبطي محلي لا يختلف كثيراً عن اللاة والعزى ومناة الى اله قدير يحكم على المشارق والمغارب

اشراك الآخرين في الحكم : وغني عن البيان ان اتساع القبيلة على الطريقة التي ذكرناها ادى الى رغبة الناس في الحصول على النظام والتمتع بالحماية تحقيقاً للمصلحة العامة لكن القيام بجميع الوظائف

التي يقتضيها هذا التحول يتعذر على اي فرد من الافراد ولو كان من الجبابرة فلو اصرّ (الشيخ النوري بن شعلان) في المثال المتقدم او اصرّ المرتزقة من اعوانهِ ممن يتمتعون بنواله مباشرة على ان يبقى هذا الامر جميعاً في قبضة يده لاختل النظام وتألب عليهِ الناس في الداخل والخارج. لاجرم انهُ مضطر الى اشراك غيره في الحكم من انتداب من يساعده في التشريع والقضاء والتنفيذ لان سياسة جمهور كبير من الناس والاشراف على اعماله ومعاملة افراده بالعدل هي كلها امور تدل على التعقد الذي طرأ مما لا يقوى الشيخ الزعيم على معالجته كما يعالج الوالد الشؤون العائلية فلا بد والحالة هذه من اختيار المنتدبين الصالحين للاعمال وهذا الانتداب يحدث تنوعاً مستمرًا في الوظائف الحكومية وهو تنوع يدل على طريقة تأليف الدولة

ومن اكبر البلايا التي اصيب بها الحسين بن علي ملك الحجاز وزعيم الثورة العربية طمعهُ في ان يبقى «شيخاً زعيماً في القبيلة» يتناول الاشياء كبيرها وصغيرها بقبضة يدهِ مما كان سبباً عظيماً في انهيار ملكه، وعسى ان يتعظ الآخرون من ملوك العرب ممن يجرون على طريقتهِ الهرمة العتيقة هذه اما بسائق الغفلة او بتحريض المرتزقة من حواليهم. وفي وسعنا وضع القاعدة الآتية وهي ان كل قطر متسع متشعب يبلغ بهِ الولع بالمحافظة الى درجة انهُ يحاول البقاء مقتصراً على سلطة «الشيخ الزعيم» او على السنة التي استنها بمفرده من غير اعتبار للطوارئ ولا اشراك غيره معهُ في الامر هو قطر رجعي يطلب العودة الى الاوضاع القبلية الاجتماعية البائدة

النظرية النشوئية في تعليل الدولة: كما تولدت الاسرة من سعي الرجل والمرأة لأن يعيشا معاً بالالفة والتعاون ويستولدا الاولاد ويحضناهم كذلك الدولة نشأت من سعي الناس لأن يعيشوا معاً متكاتفين متآلفين تحقيقاً لغايات مشتركة يطلبونها فلم تكن الدولة والحالة هذه بداية المجتمع الانساني ولا الغاية الاختيارية التي نشدها الانسان بمحض اختياره وبعد نظره بل هي احدى الوسائل المتأخرة التي توسل بها بفطرته وبطبيعتهِ للحصول على الهناء الاجتماعي وذلك بما استجد من نظام معين خضع له وهذا النظام هو النظام السياسي

فالدولة اذن هي فرع من فروع تلك الشجرة الاجتماعية الباسقة التي انبتت فروعاً اخرى من أوضاع خطيرة مثل وضع الزواج والاقتصاد والدين. وكما أن هذه الاوضاع متأصلة في المجتمع ومشتبكة بهِ اشتباك السدية باللحمة كذلك الدولة هي ظاهرة من ظواهره الجوهرية. ولا يظنن احد ان تعيين الزمن الذي بدأت فيهِ الجماهير بالخضوع للادارة السياسية والاشراف «الحكومي» العام هو أهون من تعيين الزمن الذي اتصل فيهِ الرجل بالمرأة لتأسيس الاسرة بل كلاهما حادث مع المجتمع وملازم له. وليست حاجة المجتمع الى التعاون والنظام والحماية العامة دون حاجته الى استيلاد الاولاد والاَّ لما اختلفت الجمعية البشرية كثيراً عن قطيع من الجواميس يرود المستنقعات في الهند او سرب من القردة يجوب الغابات في افريقيا



قبر شاعر

الى روح الشاعر فوزي المعلوف

[نظمت على أثر مطالعة الشاعر لقصيدة «على بساط الريح»]

رفَّتْ عليهِ مُورقاتُ الغُصُونْ   وحَفَّهُ العُشْبُ بنوّارِهِ

ذلك قبرٌ لم يشِدْهُ المَنونْ   بَلْ شادَهُ الشعرُ بآثارِهِ

بناه من لَبناتِ الفنونْ   وزانَهُ المجدُ بأحجارِهِ

ألقى بهِ الشاعرُ عِبءَ الشجونْ   وأوْدَعَ القلبَ بأسرارِهِ

وجاورتهُ نخلةٌ باسِقَهْ   تجثمُ في الوادي إلى جَنْبِهِ

كأنها الثاكلةُ الوامِقَهْ   تَقضي مَدى العمرِ إلى قُربِهِ

تئنُّ فيها النسمةُ الخافِقَهْ   كأنما تخفقُ عن قلبِهِ

وترسِلُ الأغنيَةَ الشائِقَهْ   هَتُوفَةً ظلَّتْ على حُبّهِ

وُيقبلُ الفجرُ الوضيء الأهاب يهفو على القبرِ بأضوائهِ
كأنما يَذْكرُ تحتَ التراب لؤلؤةً تزري بلألائهِ
إستلَّ منها الموتُ ذاك الشهاب غير شعاعٍ في الدجى تائهِ
يظلُّ يهفو فوقَ تلكَ الشعابِ يطوفُ بالينبوع من مائهِ

ويذهبُ النورُ ويأتي الظلامْ وتبزغُ الانجمُ في نسقِهِ
حيرى تجوبُ الليلَ كالمستهامْ أسهرهُ الثأرُ من شوقهِ
تبحثُ عن نجمٍ بتلكَ الرجامْ هوى بهِ المقدور عنْ أفقِهِ
أخٌ لها في الأرضِ ودَّ المُقامْ وآثرَ الغربَ على شرقهِ

ويطلِقُ الطيرُ نشيدَ الصباحْ بنغمةٍ تنبئ عن حُزنِهِ
يمدُّ فوقَ القبرِ منهُ الجناحْ ويرسلُ المنقارَ في ركنهِ
أفضى إلى الراقدِ فيهِ وباحْ بأنَّهُ الملهمُ من فنّهِ
فمِنْ قوافيهِ استمدَّ النواحْ ومن أغانيهِ صدى لحنهِ

وحين تمضي نسماتُ الخريفْ وتملأُ الارضَ رياحُ الشتاءْ
ويقبلُ الليلُ الرهيبُ المخيفْ فلا ترى نجماً ينيرُ السماءْ
هناك لا ظلٌّ عليهِ وريفْ يهفو ولا طيرٌ يثيرُ الغناءْ
يظللُ الارضَ الظلامُ الكثيفْ كأنها تُمسي بوادي الفناءْ

يا شاعراً ما جمعتني بهِ كواكبُ الليلِ وشمسُ النهارْ
لكنَّهُ الشرقُ وفي حبّهِ ينأى بنا الشوقُ وتدنو الديارْ
سكبتَ من شجوكَ في قلبهِ ومن مآقيكَ الدموعَ الغزارْ
فودَّ أنْ لو نمتَ في تربهِ ليشفيَ النفسَ بهذا الجوارْ

صوّر لي القبر الذي تنزل تخيل الشعر ووحي الشعور
جثث للقبر بما يجمل من صور الدنيا الفتون الغرور
قل لي بحق الموت ما يفعل بالشاعر الموت وتلك القبور
وهل وراء الموت ما نجهل من عالم الرجعى ويوم النشور

قد راعني موتك يا شاعري في ميعة العمر وفجر الشباب
وهزني ما فاض من خاطر كأن ينابيع البيان العذاب
ونفثات القلم الساحر في جو بك الافق وطي السحاب
ووقفة بالكوكب الحائر رأى بساط الريح يدنو فهاب

لكنه شعرك لما يزل يردد الكون أناشيده
شعر كصوت الوحي أنى نزل أرقص في الروض أماليده
وعلم الطير الهوى والغزل فأسمع الزهر أغاريده
وغنت الريح به في الجبل فحركت منه جلاميده

يا قبر لم تبصرك عيني ولا رأتك إلا في ثنايا الخيال
ملأت بالروع فؤاداً خلا إلا من الحب ونور الجمال
أوحيت لي سر الردى فانجلى عن عيني الشك وليل الضلال
غداً ستطوى القلب أيدي البلى ويقنص النجم عقاب الليال

وهكذا تمضي ليالي الحياة والقبر ما زال على حاله
دنيا من الوهم ودهر تراه يغرر القلب بآماله
يسخر من مبتسمات الشفاه وجارف الدمع وسياله
دهر على العالم دارت رحاه فلم تدع رسماً لأطلاله

علي محمود طه المهندس

ارز لبنان ومغارة قاديشا

للامير مصطفى الشهابي

لا يسمع الانسان باسم الارز الا وترتسم في ذهنه صورة فيها جمال واتساق وروعة وعظمة ، صورة شجرة من دهاقين الشجر وسادتها وسرحة من سراة الدوح وعيونها تفتنك بعلو ساقها الشاهق وبطول اغصانها المعترضة (الافقية) وبخضرة اوراقها الحائلة وبقيام ثمارها البيضية كالشموع اوكالقناديل على الاغصان فوق الورق . ولا عجب فالارز شجر الرب المنسوب الى اكرم فصيلة نباتية وهي الفصيلة الصنوبرية لأن فيها ملوك النبات كما ان في الفصيلة النخلية امراءها

ولكم تاقت النفس الى رؤية هذا الشجر المبارك في حرمه والى ولوج المغارة التي تتدفق منها مياه نهر قاديشا القدسية حتى اتاحت لي الايام فرصة انتهزتها في ١٢ آب (اغسطس) ١٩٣٢ فكتبت بعدها هذه الكلمات

الارز من اعظم اشجار الفصيلة الصنوبرية لكنهُ ليس انفعها ولا اكبرها قدًّا . فانواع الصنوبر اكثر انتشاراً منهُ واعمُّ نفعاً وكذا الشوح والعرعر والزاب وغيرها . وقلما يزيد علو الارزة على ٤٠ متراً على حين ان الشجرة الجبارة (وهي تدعى سكويا في كليفورنيا) يبلغ قدها ١٣٠ متراً في بلادها . وهي من الفصيلة نفسها

وللأرزة الصغيرة ساق ملساء تضرب الى اللون الرمادي اما المعمرة فلها ساق سمراء محزوزة اللحاء حزًّا غير عميق . ويكون لكل شجرة ساق واحدة في الغالب وعليها الفروع والاغصان لكنهُ قد يكون للأرزة ساقان او ثلاث سيقان احياناً تعلو صُعُداً على مقربة من الارض وربما اندغم بعضها ببعض اندغاماً جزئيًّا او كليًّا على طول الزمن . وقد شاهدنا كثيراً من اشجار الارز القديمة لكل منها جذعان او اكثر

وفروع الأرز قوية غليظة تمتد امتداداً افقيًّا الى بعيد وتقصر على التتابع كلما قربت من قمة الشجرة وينشأ عليها اغصان كثيفة عظيمة تغطيها الاوراق في جزئها الاعلى فيكون للشجرة شكل مخروطي او شبيه بالبيضي له في العين روعة وجمال . ويكون الورق اما متفرقاً على الغصن السنوي او مجتمعاً خصلاً على زنود اي غصينات طول كل منها سنتيمتر تقريباً . والشكل الثاني اعمُّ . وعدد الاوراق على كل زند ٣٠—٥٠ ورقة . وهذه دائمة ابرية الشكل خضراء حائلة رأسها قاس يكاد يكون شائكاً ويبلغ طولها سنتيمتراً الى سنتيمتر ونصف في معظم الاوراق التي قسناها

والزهرة وحيدة الجنس وكلا الزهرتين الذكرية والانثوية على شجرة واحدة . والازهرار في اواخر الصيف . وتسمى الزهرة هريرة في علم النبات . فالهريرة الذكرية غليظة اسطوانية متراصفة الفلوس اي العصفات وهي صغيرة لا يتجاوز طولها سنتيمترين او ثلاثة فيما شاهدناه منها وتقوم على غصينات فوق الورق . اما ثمرة الارز فهي من الثمار الصنوبرية (كوز) قست عدداً منها فبلغ متوسط طول الواحدة ٧ — ٩ سنتيمترات وقطرها ٤ — ٥ سنتيمترات . وهي تكاد تكون بيضية او اهليلجية تقوم على غصنين فوق الورق وتنضج في سنتين ولا تتفتح الأ في ثلاث سنين او اربع فتنتثر البزور وتبقى الثمرة على الاغصان . وقد شاهدت ثماراً في مختلف هذه الحالات . وبزرة الأرز مخينة راتينجية ذات زوايا يعلوها جناح مستطيل . وهي تشبه بزرة التنوب لكن غلاف بزرة الأرز (ويسمى الغدفة نباتيًّا) اكثر لمعاناً واشراقاً

ويستخرج البزر من الثمرة التي لم تتفتح على الشجرة بنقعها في الماء البارد يوماً او يوماً ونصفاً ثم توضع في الشمس فتنفصل العصفات بعضها عن بعض فتؤخذ البزور بسهولة. والبزرة المزروعة تنتش فيخرج مع السويق ثماني وريقات فلقية ويضرب الجذير في الارض الى غور بعيد . ويكون نمو الارزة بطيئاً جداً في السنين الخمس الأولى من حياتها ثم تزداد الشجرة نشاطاً ورسوخاً مع الزمن . ولا تتحمل الأرزة الصغيرة الظل ولا النقل من ارض الى ارض وكثيراً ما يتلفها النقل او يفقدها رأسها فتكف عن النمو الى فوق فيسوء مظهرها

وخشب الارز الخارجي تحت اللحاء ابيض اللون اما خشب القلب فاسمر وردي او اسمر الى صفرة . وخلاياه دقيقة متجانسة مرنة . ويحتوي الخشب على فجوات راتينجية متفرقة تجعل له رائحة خاصة زكية . ووزن الخشب النوعي ٨٠٦/٠ الى ٨٠٨/٠ ويختلف الخشب من حيث جودته بحسب المكان الذي عاشت شجرة الارز فيه فاذا كانت الشجرة نامية في ارض جبلية عالية بعيدة عن الاشجار السائرة يكون خشبها جيداً وجديراً بالشهرة التي نالت خشب الارز في سالف الزمان . اما اذا عاشت الشجرة في سهل ونمت بسرعة فان خشبها يكون رخواً اسفنجيًّا قليل الصلابة . وقد نُقل الارز الى فرنسا منذ قرنين والى انكلترا منذ قرنين ونصف تقريباً . وهو هنالك يحتمل هبوط الحرارة الى ٢٥ درجة تحت الصفر . ويرى الشجّارون وعلماء الحراج انهُ من اجمل الاشجار واروعها في حدائق التزيين لكنهم يرون ان في بلادهم اشجاراً كثيرة اصلح منهُ في الحراج من حيث استعمال خشبها وقيداً او استعماله في الصناعة

وللأرز ذكر في تاريخ كل الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام او غزتها . فسليمان الملك اشغل عشرة آلاف عامل في قطع شجر الارز والشوح من حراج لبنان لبناء هيكل اورشليم . وكان البابليون والآشوريون يستعملون خشب الارز في بناء هيا كلهم . واستعملهُ المصريون الاقدمون في صنع السفائن واثاث البيوت والجسور والتوابيت . وعثر احد علماء

الآثار اثناء التفتيش عن مخلفات الاشوريين على خشب الارز الذي كان هؤلاء يستعملونهُ منذ ثلاثة آلاف سنة ونيف فاذا بهِ لا يزال صلباً ومعطراً برائحة الراتينج المنعشة . وكان القدماء يعتقدون بأن الفساد لا يتطرق اليهِ ولذلك كانوا يصنعون منه اصناماً لآلهتهم كما كانوا يصفّحون بهِ جدران الهيا كل. واتسعت تجارة خشب الارز قديماً وعمت فوائده وصار الفراعنة وملوك العجم وبابل وآشور يتطلبون الخشب من حراج لبنان جزية على الناس

ومن المعروف ان لكل نبات مهداً اصليًا يعيش فيهِ وينتشر منهُ الى الأصقاع المجاورة لجبال لبنان وطن الأرز او هي من مواطنهِ الأصلية [١] . ولا شك ان تربة هذه الجبال وهواءها يلائمانه كل الملاءمة وانه كان قديماً اهم اشجار الحراج في ذلك الاقليم . ويتضح من آثار الأقدمين ان حراج لبنان كانت عظيمة الشأن في العصور الخالية وانها كانت تغطي معظم روابيه ووهاده وان اهم اشجارها الأرز والشوح والعرعر والزاب والسنديان والملول وغيرها . وكل هذه الأنواع مبذولة فيهِ اليوم الاّ الارز فان منه بقايا في بقاع قليلة وهي بشري والحدث (حدث الجبة) واهدن وسير وعين زحلتا ومعاصر الشوف والباروك حيث يسمى الأبهل

ارز بشرّي

اعظم حراج الأرز شأناً واقدمها سنًّا حرج بشرّي فهو الذي يطلقون عليهِ اسم « ارز لبنان » تعميماً وهو الذي صوروا احدى شجراتهِ على علم لبنان الحاضر وهو ايضاً الحرج الذي زرناه وكتبنا فيهِ هذه المقالة . ويقع هذا الحرج في جبل المكمل (يلفظونهُ بميمين مفتوحتين بينهما كاف ساكنة) الواقع شرقي طرابلس بين جبل العاقورة جنوباً وجبال عكار شمالاً . وجبل المكمل هذا هو الذي فيهِ اعلى قمم لبنان كقمة فم الميزاب وقرنة السودا وضهر القضيب . ولم اصعد في الجبل فوق الأرز الاّ قليلاً . ولم اصل الى هذه القمم ولذلك اضطررت في معرفة علوها فوق سطح البحر الى مراجعة ما لديَّ من المآخذ كخريطة لبنان التي رسمتها الحملة الفرنسية سنة ١٨٦٠ — ١٨٦١ وخريطة بلاد الشام التي صنعها ديوان المساحة في جيش الشرق الفرنسي سنة ١٩٢٨ وكتاب لبنان الذي الفهُ عدد من العلماء خلال الحرب الكبرى وطبع في بيروت سنة ١٣٣٤ رومية بهمة المتصرف اسماعيل حقي بك وغيرها فألفيت علو ضهر القضيب ٣٠٦٣ متراً وعلو فم الميزاب ٣٠٤٧ متراً وعلو قرنة السودا (هكذا يلفظها الأهالي ويجب كتابتها القرنة السوداء) ٣٠٨٨ متراً وهي اعلى قمة في بلاد الشام لان قمة صنين لا يزيد علوها على ٢٦٠٨ امتار وقمة جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً

(١) في الجزائر صنف من ارز لبنان يسمى ارز لبنان الاطلنطي (ومن النباتيين علماء يجعلونه نوعاً مستقلا) في حراج واسعة بولاية قسنطينة خاصة . وهو موجود ايضاً في جبال الريف من اعمال مراكش ويعرف باوراق اقصر من اوراق ارز لبنان وثمار اصغر . وفي جبال هملايا وجبال التبت شمالي الهند نوع يسمى ارز هملايا ربما بلغ ارتفاعه في بلاده ٦٠ — ٧٠ متراً . اوراقه اطول من اوراق ارز لبنان وثماره اكبر

وتقع حرجة ارز بشرّي في وسط الدائرة المتكونة من قمم جبل المكمل تلك الدائرة التي تنفتح في الجبهة الغربية حيث تتدفق مياه نهر قاديشا . وتعلو الحرجة ١٩٠٠ متر ونيف عن سطح البحر وفيها ٤٠٠ ارزة تقريباً كبيرة وصغيرة[1] . فاما كبيراتها ففيها جلال مسوّق الشجر العظام . ولقد قست ساق كبراها فبلغ محيطها نحو ١٦ متراً وعمرها اكثر من الفي سنة ويقول بعضهم انها تبلغ ٤٠٠٠ سنة من العمر لكنه لا يمكن معرفة سنها على وجه الضبط ولا على وجه التقريب . وشاهدت اربع ارزات مسنة محيط ساقها بين ١٢و١٣ متراً وعلوها نحو ٣٠ متراً وسنها اكثر من الف سنة في الغالب. اما باقي الاشجار فاقل ثخناً واقصر عمراً ومع هذا فهي هنالك منذ بضعة قرون إن لم تكن كلها فمعظمها . ولا تخلو الحرجة من اشجار فتية

ومما يستدعي النظر ان رحالة من الغربيين اسمهُ رولوف Raulovv ذكر في سنة ١٥٧٤ ان الاشجار الهرمة العظيمة الجذوع تبلغ ٢٦ شجرة عدًا . اما اليوم فهي لا تزيد على بضع شجرات كما ذكرت والباقي عملت به يد المحتطبين والجهال من سكان ذلك الجبل . وادرك المتصرف المعروف رستم باشا مكانة البقية الباقية من حرجة بشري فاحاط معظم اشجارها بسور من حجر وصرف عنها اذى الناس ثم عيّنت حكومة لبنان لها حارساً ودليلاً يطوف بالسياح وطالبي الفائدة . وعبدت الطريق بينها وبين بشري فصار من الصعب ان يقدم احد على قطع شجرة دون ان تدري الحكومة به فتعاقبهُ

والتطعيم الطبيعي امر مألوف في الحراج وفي اغصان الشجر المتجاورة . وهو ان يحتك غصن بغصن بفعل الهواء وضيق المكان فينحت لحاؤهما فتماس المادتان المولدتان الواقعتان بين الخشب واللحاء فيلتصق الغصنان ويغلظا مع الزمن . وقد شاهدت في ارز بشري اشجاراً متجاورة حصل في سوقها تطعيم طبيعي واخرى حصل في فروعها . ورأيت ارزة احترق ساقها وهي لا تزال حية لانها تستمد الغذاء من فرع شجرة مجاورة أنشبته[2] الطبيعة في الشجرة المحروقة فوق ساقها . وهنالك شجرة يسمونها ارزة لامارتين وهو الشاعر الفرنسي المشهور نقش اسمه واسم ابنته جوليا على ساقها ونقش التاريخ ايضاً فكان سنة ١٨٣٢ اي منذ قرن تماماً . وعلق شباب بشري لوحة على الشجرة تذكاراً لزيارة الشاعر المومأ اليه للارز

وهنالك ايضاً شجرة يسمونها ارزة الناسك وارزة الراهب وارزة الحبيس يزعمون ان ناسكاً كان يقيم في تجويف ساقها فيأكل من المن ويشرب من ماء في داخل الشجرة . ولعل هذا الماء الذي تلمساه يحصل من ذوب الثلج المتراكم في الساق او لعله من طل الشجرة اي نسغها وهو اقرب الى الذهن

(١) قرأت في احد كتب الاشجار القديمة ان القبطان الانكليزي المسمى اوليفر Oliver عد منها ٣٨٤ ارزة مختلفة العد في سنة ١٨٧٨ . وحاولت عدها فلما بلغت الرقم ٢٩٠ اخطأت العد فأحجمت لضيق الوقت

(٢) التطعيم والتركيب والانشاب بمعنى واحد

ولفتت نظري تربة الرابية التي فيها الارز والتربة التي تحتها فهي لاتشبه في علم الجيولوجية راسبات الحقبة الرابعية التي كوَّنتها الانهار والسيول بل هي قفّ اي حجارة كبيرة وصغيرة معظمها كاسي غاص بعضها ببعض مما يدل على انهُ كان يوجد في الحقبة الرابعية ركام جليدي مكان الارز Glacier وراجعت للتثبت من ذلك كتاب جيولوجية لبنان للعالم اليسوعي زوموفن احد اساتذة الجامعة اليسوعية في بيروت فاذا به يرجح هذا الرأي ترجيحاً لكنهُ يذكر ان معظم العلماء من الرواد على هذا الرأي مثل هوكر وفراس ولارته وطومسون وغيرهم اما جبل المكمل وكل الهضاب المحيطة بوادي قاديشا فهي جيولوجيًّا من الاراضي الطباشيرية التابعة للحقبة الثانية . وتكون الاراضي الطباشيرية على بضع طبقات لكل منها اسم وجميعها تتجلى في اعضاد الوادي العميق الذي حفره نهر قاديشا.وتراب هذه الطبقات كاسي الاَّ تراباً رمليًّا يسمونهُ رمل نوبيا شاهدناه بين بشري واهدن وبالقرب من حدث الجبة . وهو مبذول في انحاء لبنان.ولابد لمثلي ممن يأنسون بالنبات وحياته ان يتعرف الى الاعشاب الجبلية في حرجة الارز وحولها وهذه الاعشاب عديدة تنتسب الى فصائل مختلفة في ابان الازهار على حين اننا في آب (اغسطس) . فما عرفته منها النباتات الآتية :

بربريس	Berberis	عرق الطيّون	Inula viscosa
إيسَتِس	Isatis	انواع من الجُرَيس	Campanula
القرنفل القصير الورق	Dianthus brevifolis	انترسكس	Anthriscus
جبسوفيلا	Gypsophilla	سراستيوم	Cerastium
زهرة الرمال الاقرعية	Arenaria cassia	انواع من البنفسج بقرب اهدن الخ . . .	
الشين	Ononis		

مغارة قاديشا

هي المغارة التي تخرج منها مياه نهر قاديشا وهي في لحف جبل الارز فوق وادي قاديشا الشهير . ولفظة قاديشا هذه لفظة آرامية معناها المقدس توجد بهذا المعنى في كل اللغات السامية . ويظهر ان قداسة الوادي المذكور منبعثة من انهُ كان يقطن جماعة من النساك كهوفه ومغاوره . ويرى الانسان في تلك المغارة صورة جميلة لتأثير المياه الشديد في الصخور الكلسية فمياه قاديشا تحصل خاصة من ذوبان الثلج على قمم جبل المكمل وسفوحه لا من الامطار التي تهطل عليهِ . والدليل على ذلك ان الماء يشح في الشتاء واوائل الربيع لا في الصيف . ولقد شق الماء طريقاً في الصخور الكلسية على بعد مئات من الامتار فتكونت مغارة قاديشا.وسالت نقاط الماء في اماكن عدَّة من سقف المغارة وجوانبها فأفلت منها ما تحويه من الغاز الكربونيك فرسبت مذوبات كربونات الكلس فحصل منها مجموعة بديعة من الشموع الرواسب التي يسمونها

في علم الجيولوجية استلاغتيت واستلاغميت. وأنيرت المغارة بالكهرباء فصار لهذه الشموع منظر جميل ومهيب. ومن العجيب ان بعض الشموع الرواسب تشبه اناساً مشهورين في التاريخ فهذه فيكتوريا ملكة الانكليز وذاك السلطان عبد الحميد وذلك توت عنخ آمون بعينه وهلم جرا

وعندما يخرج الماء من المغارة ينصب في الوادي على شكل شلال رائع المنظر الى عمق ثلاثمائة متر تقريباً. لكن شركة قاديشا الوطنية للتنوير الكهربائي ضبطت قسماً من ماء النهر واسالته في قناة حفرتها في لحف الجبل على طول ٩٥٠ متراً ثم هوت به في انبوب عظيم الى قعر الوادي حيث بنت معملاً لتوليد الكهرباء

الخلاصة

جمال الجبال في القمم العمودية او المسنمة والمياه المتدفقة والمثالج البيضاء والوديان السحيقة والحراج الملتفة. وحظ لبنان من ذلك اقل من حظ جبال اوربا الشهيرة كجبال الالب وجبال البرانس. لكن لبنان يمتاز بسمائه الصافية طول الصيف وبقربه من سائر بلاد الشرق العربي وبلغة سكانه وهي العربية ويمتاز شمالي لبنان عن جهاته السائرة بالارز ومغارة قاديشا ووادي قاديشا الذي لم ار اروع منهُ في كل انحاء لبنان

وفي الارز فندق حديث فيه كل وسائل الراحة. ويبنون اليوم فندقاً كبيراً بقرب الارز على الرابية الواقعة فوق مغارة قاديشا في مكان مطل على الوادي وقراهُ. وربما تم بناؤه في السنة القادمة. وعبدت الطريق بين بشري والارز. وجرت مياه نبع شاغورة الى الارز وحواليه وأنيرت كل القرى المهمة بالكهرباء كأهدن وحصرون وبشري وغيرها. ومدَّت اسلاك الكهرباء الى الارز والى طرابلس حتى مقر شركة السمنت عند رأس الشقعة. ويمكن الذهاب من طرابلس الى الارز في طريقين معبدتين الاولى طريق الحدث وحصرون وبشري والارز. والثانية طريق زغرتة واهدن وبشري والارز وتكاد تكون المسافة واحدة في الطريقين (٦٠ — ٦٣ كيلو متراً) وكلاهما جميل ينتقل فيه المرء من الساحل وموزه، فالكورة وزيتونها، فالجبل المتوسط الارتفاع وتينه وعنبه وصنوبره وأبهره وبطمه فالجبال العالية وسنديانها ودفرانها وتنوبها وأرزها

ووسائل الراحة متوفرة في كل فنادق بشري وحصرون واهدن والارز. والقرى الثلاث الاولى تعلو اكثر من ١٤٠٠ متر عن سطح البحر. اما الارز فاكثر من ١٩٠٠ متر كما ذكرت ولذلك يمكن للانسان ان يتصور مبلغ نقاء الهواء وبرودته في الصيف. فميزان الحرارة عند ما كنا هنالك في آب (اغسطس) لم يزد على ٢٥ درجة في الفرط. وكان يهبط ليلاً الى ١٤ درجة وهذه هي حرارة الربيع في دمشق وحرارة الشتاء في مصر في كثير من ايام هذين الفصلين

قاهر البعوض

سيرة السر رُنَلْد رُسْ واعماله
Sir Ronald Ross

— ١ —

في اساطير البشر قصص ابطال حاربوا جبابرة مردة، واحاديث فرسان نازلوا تنانين مفترسة فرفعهم الناس الى مستوى الآلهة . وقصص مكافحتهم لها حافلة باروع الروايات وابعدها اثراً في نفس الانسان . وما زلنا حتى اليوم ، وقد انقضت عليها القرون ، وتبددت اشباح الجبابرة والمردة بفعل العلم والاستنباط، نقرأ هذه القصص صغاراً فنؤخذ بها ونجعل أبطالها الخياليين ابناء عالمنا الحقيقي ، ونطالعها كباراً — وقد تبددت اخيلة الصغار — فتملكنا نشوة الصور التي ابتدعها الذهن البشري وقد اخذ يتفتح عن ازاهير الفكر

على ان عصر الابطال لم ينقض . وفي قصص بعض العصريين منهم من الروعة والرواء ما يفوق كل اساطير القدماء وهذه قصة رجل فرد، من ابناء عصرنا، تغلب على عدو صغير، ولكنهُ عدوٌ فتاك ، ولولاه لكان ذلك العدوّ ماضياً الآن يفتك بالوف الوف الناس كلّ سنة

ذلك الرجل هو السر رونلد رُسْ . والعدوّ الذي قهرهُ هو البعوضة الناقلة لطفيلي الملاريا

ووجه الاختلاف بين رُسْ ، البطل العصري ، وابطال الاساطير الاقدمين ، ان اولئك عرفوا عدوّهم وما يتصف بهِ واين يوجد فكانوا على بيّنة مما يقدمون عليهِ . اما هو فكان عليهِ ان يكشف اولاً في اية صورة من الصور تختفي قوة هذا العدو ، واين يستطيع لقاءها، واية الاسلحة تفيد في مكافحتها والتغلب عليها. فاستغرق بحثهُ سنين من الدأب المضني ولكنهُ توّج في اغسطس سنة ١٨٩٧ بتاج الظفر ، اذ كشف رُسْ طفيلي ملاريا العصافير ، وهو مرض شديد الشبه بملاريا الناس، في معدة انثى من صنف من البعوض يدعى انوفيليس

جرّد رُسْ سلاحهُ ضدّ هذا العدوّ الذي لا يرى . اما قصة الحرب التي شنها ، وحديث الايمان الذي لا يقهر ، والجهد المضني الذي لا ينى ، فن اروع القصص في تاريخ الشعب البريطاني. كان امامهُ سبيل واحد وهو المضيّ في تشريح البعوض تحت عين المجهر الى ان يفوز بالعثور على طفيلي الملاريا في احداها وقد شرّح اكثر من الف بعوضة على ما يقال . كان هذا العمل يقتضي قوة عشرات من الجبابرة وصبر كثيرين من امثال أيوب . فقد كان محتوماً على رُسْ ان يشتغل في جوّ استوائي شديد الحرارة والرطوبة في كلكتة من دون ان يستعمل «مروحة الخيش» لان هواءها ينثر قطع البعوض الدقيقة التي على مائدته . وكان محتوماً عليهِ كذلك ان يقضي نحو ساعتين في تشريح كل بعوضة وفحصها في حين ان اخواتها كنّ يهاجمنهُ من

غير مهادنة . وكان الهنود — وهم على وشك ان يجنوا اعظم الفوائد من بحثهِ — ينظرون اليهِ شزراً ، ويظنونهُ ساحراً ، ويترددون في مدّ اصابعهم لوخزها واستخراج الدم منها بغية فحص كرياته ، مع انهُ كان ينفحهم بثلاث ربّيات لقاء كل وخزة

واخيراً في ٢١ اغسطس ١٨٩٧ لمح الجنديُّ الباسل العدوّ الفتاك الذي خرج لذبحهِ . في ذلك اليوم ، ابصر رُسْ على جدران غرفتهِ ببعوضةٍ من نوع لم يمتحنهُ قبلاً ، فقبض عليها فرحاً ، وكانت نوعاً خاصًّا من جنس الانوفيليس . ثم جاءهُ في ذلك اليوم نفسهِ ، احد جامعي البعوض بنحو ١٢ بعوضة من هذا النوع . فوضع البعوضات واحدة اثر واحدة على شريحة المكرسكوب وشرَّحها ، مكروناً مكروناً (المكرون هو جزء من الف جزء من المليمتر) ولكن لم يعثر بجديد يسترعي النظر ، فاقبل على الاخيرة ، ومرارة الاخفاق في عينيه

وهنا نترك الكلام لرُسْ يقصُّ نهاية بحثهِ الاخاذة قال :—

كان التشريح تاماً . ففحصت الانسجة بعناية . بعدما صارت معروفة لدي . باحثاً في كل مكرون بنفس اللهفة والعناية اللتين يبحث بهما في قصر خرب عن كنز مدفون . لا شيء — كلا ان هذه البعوضات الجديدة سوف تخيبني . لا بد من خطاء في النظرية . ولكن نسيج المعدة لم يفحص بعد . رأيته ملقى هناك فرغاً رخواً ، على شريحة زجاجية وهو امتداد فسيح ابيض من الخلايا كدار كبيرة مبلطة . كل خلية يجب ان تفحص بدقة . عمل نصف ساعة على الاقل . وكنت متعبا . فقلت وما الفائدة من البحث . واظن انني كنت قد فحصت اكثر من الف بعوضة قبل ذلك ولكن ملاك القدر وضع لحسن الحظ يده على رأسي . فرأيت امامي دائرة صافية قطرها نحو ١٢ مكروناً وكانت جلية جلاء غير عادي . والخلية اصغر من ان تكون خلية عادية في معدة بعوضة . فحدقت قليلا . ها هي خلية اخرى . تشابه الاولى كل الشبه . وكان الجو حاراً معتماً . واذكر انني فتحت حدقة الميكرسكوب لادخال قدر كاف من النور اليه ثم غيرت ضبط العدسة . في كل من هذه الخلايا رأيت مجموعة من حبيبات صغيرة سوداء كالحبر

كانت هذه الحبيبات طفيليات ملارية . وبعد يوم رآها وقد كبر حجمها . ومن ثمَّ ، تتبع طفيليّ الملاريا ، درجة درجة ، من معدة الانوفيليس ، الى ممصّه ، (وهو كالخرطوم) وبهِ يدخل الى مجرى الدم في الطيور اي في ما تلسعهُ البعوضة من الطيور

كان هذا اكتشافاً مجيداً ، وخالداً ، لانهُ مهد السبيل لمنع الملاريا ومعالجتها العلاج الناجع ولانهُ مكّن الاطباء والعلماء كذلك من مكافحة الامراض الاستوائية وغير الاستوائية بالجري على الخطة نفسها في البحث والمكافحة

وقد وصفهُ شاعر العرش البريطاني جون مايسفيلد بانهُ اعظم عمل قام بهِ الانسان في عصرنا

— ٢ —

ولد السر رونالد رُسْ في ألمورا بالولايات الهندية الشمالية الغربية عند سفح جبال حمالايا سنة ١٨٥٦ وهو اكبر ابناء الجنرال السر كامبل رُسْ . فلما كان في الثامنة من عمره بعث بهِ والداه الى انجلترا وعهدا بهِ الى عمٍ لهُ قاطن جزيرة وَيط فتلقى مبادىء العلم في مدرسة سبرنغهل في مدينة سوثمبتن وهي تناوح جزيرة ويط على شاطىء انكلترا الجنوبي . ويؤخذ من مذكراتهِ انهُ كان في حداثتهِ شديد الميل الى الهندسة والرياضيات والموسيقى . وقد ظلَّ شديد الميل اليها حتى قال مرة انهُ

ظن ان بحثهُ في انتقال الملاريا ومكافحتها ليس الاَّ فترةً في عملهِ الطبي الذي لم يقع من نفسهِ وقعاً عظيماً

وفي سنة ١٨٧٥ دخل مستشفى سانت برتولميو في لندن لدرس الطب فلما انقضت عليهِ اربع سنوات فاز بشهادة عضو في كلية الجراحين الملكية . ولكنهُ لم يكن في اثناء تلقي العلوم الطبية تلميذاً ممتازاً . بل كان لا يميل قط الى الدروس السريرية مما حملهُ على التفكير بالتحول الى درس الفنون . ولكن البحث المجهري كان الموضوع الوحيد ، بين الدروس الطبية ، الذي فتن لبّهُ

على ان والدهُ السر كامبل رُس كان جنديًّا ممتازاً ذا مقام رفيع في جيش الهند ، كما كان جدّهُ من قبله ، فكان الطريق ممهّداً امام رُنَلد للانتظام في سلك القسم الطبي في جيش الهند ، والمحافظة على تقاليد اسرتهِ ومقامها فيه . فانتظم فيهِ سنة ١٨٨١ ملبياً دعوة ابيهِ غير مدفوع بباعث نفسي خاصٍ . وتنقل في الهند من ميسور إلى بنغالور إلى مدراس إلى كوتّا إلى مولمِيْن في برما إلى جزيرة أندمان ، فكان يقوم بأعماله الطبية في كل منها خير قيام ولكن لم يبدُ عليهِ في أثناء ذلك كلهِ أي ميل خاص للبحث العلمي . فأهمل حتى ميله الشديد السابق إلى البحث المكرسكوبي . وقضى وقت فراغهِ بنظم الشعر ويدرس مسائل الرياضة العالية . وفي هذه الفترة تبينت لهُ علاقة وطيدة بين الموسيقى والرياضة . فجعل يكتب الرسائل الرياضية ويبعث بها الى المجلات الخاصة بها مع ما كان يناله من رفض نشرها . ونظم رواية شعرية عنوانها « ابن الاوقيانوس » . وقد نشرت هذه الرواية وغيرها من الفصول النثرية التي كتبها فأثنى النقّاد ثناء جمًّا على ما يبدو فيها من آثار الخيال الرائعة . واشتغاله بالرياضة والادب الموسيقي ، هوّن عليهِ البقاء في الهند قبل الرجوع إلى انكلترا في اجازته الاولى

وكان مجال العمل في ناحية الصحة العامة في الجيش الهندي متسعاً للعامل النشيط ، فلما اقترب موعد أجازتهِ الاولى عزم على البقاء في الجيش وان يقضي أجازته في انكلترا في درس موضوع الصحة العامة والحصول على شهادته (D. P. H.) التي كانت قد انشئت حديثاً في مدارس انكلترا

وفي سنة ١٨٩٠ عاد رُس الى الهند وقد تمكن من اصول علم البكتيريا فشغل منصب جراح مستشفى بنغالور . ومع ان عنايتهُ بالموضوعات الادبية والرياضية لم تني أكبّ بعد عودته على مطالعة المؤلفات الطبية ، فأدرك أثر علم البكتيريا ومقامهُ في مكافحة الامراض الاستوائية. فلما انقضت مدة عمله في بنغالور سنة ١٨٩٤ عاد الى انكلترا وعرض على الاستاذ كانثاك آراءهُ في اصل الملاريا فقدمهُ هذا الاستاذ الى باترك مانسُن Manson وهو امام الطب الاستوائي في ذلك العهد كان مانسن يعرف كل ما يعرف عن طفيليّات الملاريا[1] في ذلك العهد ، وكان ذكاؤه قد

(١) رأى لافران الفرنسي سنة ١٨٨٠ ، وهو في الجزائر حينئذ اجساما خيطية على جوانب خلايا الدم الحمرا في مريض مصاب بالملاريا ، وكانت تشبه الذنيبات وتتحرك داخل الخلايا وتحل محل المادة الملونة فيها . فقام في نفسه ان هذه الاجسام من النوع الطفيلي وانها هي سبب الملاريا ، وبعث باكتشافه هذا الى الاكادمية العلمية والاكادمية الطبية في باريس سنة ١٨٨٠ و١٨٨٢ كاتباً في ذلك رسالة موضوعها الملاريا مرض طفيلي ووصف الاجسام التي وجدها في دم المصابين بها

هداه الى القول بأن للبعوض شأناً في نقل الداء من انسان الى آخر . ولكن قوله هذا لم يكن حدساً من دون سند علمي . ذلك ان مانسن كان قد بحث في الصين في مرض يسببهُ طفيلي يدعى «فيلاريه بانكرفت» وهناك كشف عن ظاهرتين غريبتين في حياة هذا الطفيلي — وهما ظهوره في دم الانسان في الليل دون النهار وفقدانهُ غمدهُ اذا اخذت قطرة من الدم وبردت فكأنها تستعد لحياة اخرى . فسأل نفسهُ ما معنى كل هذا وهل له علاقة بأدوار حياة الطفيلي . وكان قد تحقق ان هذا المرض لا يعدّ باللمس والمخالطة ، وان لا بدّ لهُ من اسلوب دقيق يمكّن الطفيلي من الخروج من جسم الانسان . فحكم من هذه المقدمات على ان البعوض هو هذه الوسيلة في الغالب . فاذا مصّ البعوضة دم الانسان ، امتص الطفيليات كذلك ، فتعيش في البعوضة مدى حياتها ، ثم اذا ماتت البعوض اتصلت الطفيليات بالماء ثم تنتقل الى جسم الانسان . كذلك قال مانسن واتبع قولهُ بالاكباب على درس الملاريا في لندن فشاهد بعض ظواهر في طفيلي الملاريا حسبها ادواراً في حياته

افضى مانسن الى رُس بكل هذا ، وكان قد اصبح رُس بكتيريولوجيًّا بارعاً ، فاسترعى البحث كل عنايتهِ ، وبوجهٍ خاص لما ادرك ما ينطوي عليهِ كشفهُ لناقل طفيلي الملاريا من امكان مكافحة هذا الداء الوبيل . فقضى نحو سنتين يبحث على غير طائل . فشرَّح أكثر من الف بعوضة ، باحثاً في كل نسيج من أنسجتها عن الطفيلي المنشود . ولم يكن يعلم حينئذٍ ولا كان مانسن يعلم ، ان أنواعاً خاصة من جنس بعوض الانوفيليس تحمل هذه الطفيليات دون غيرها . ولكنهُ عثر اخيراً على نوع جديد من بعوض الانوفيليس ، فربّاهُ وغذّاهُ بدم مصاب بالملاريا وبعد انقضاء ايام على ذلك شرَّح نسيج المعدة فوجد فيهِ طفيلي الملاريا — وهو جسم دقيق ولكن عين الباحث البصيرة تبينت فيهِ الطفيلي الذي تبحث عنهُ ، لانهُ كان يحتوي على حبيبات من المادة الملونة التي تمتاز بها خلايا الدم الحمر . فتخطى بذلك عقبتين في آن واحد ، فكأنهُ اصاب عصفورين بحجر ، ذلك انهُ عرف في اي نسيج من انسجة جسم البعوض يعيش الطفيلي ، وثانياً عرف نوع البعوض الخاص الذي ينقله بين مئات الانواع والاجناس من البعوض

والظاهر انهُ يندر بين رجال الحكم في كل البلدان من يستطيع ان يقيم للبحث العلمي قيمة صحيحة ، فعيّن رُس ، وهو في مستهلّ النصر الكامل في مقاطعة خالية من الملاريا . ولكن مانسن انتصر له ، فنُقِل الى منصب لا يشغله فيهِ الا البحث العلمي . فتمكن في سنة ١٨٩٨ من نقل الملاريا من عصفور الى عصفور ولم يلبث أن تتبع تتبعاً علميًّا دقيقاً ادوار حياة الطفيلي من ممصّ البعوض الى دم العصفور الى معدة البعوض فالى الممص من جديد . ثم جرى علماء ايطاليا على طريقتهِ فأثبتوا في جسم الانسان ما كان قد اثبتهُ في اجسام العصافير . فلما عرض مانسن النتائج التي اسفرت عنها مباحث رُس على القسم الخاص بالامراض الاستوائية في مؤتمر الجمعية البريطانية الطبية في ادنبره سنة ١٨٩٨ احدثت أثراً عظيماً في نفوس الاعضاء فوقفوا مهللين

— ٣ —

ولكن الانسان لا يخلو من ضدٍّ او شانئٍ او حاسدٍ ولو كان في رأس الجبل . ففي السنوات الاخيرة من القرن الماضي وفي مطلع هذا القرن دار نزاع عنيف على السابق في اكتشاف ناقل الملاريا وتتبع ادوار حياتهِ . وعقد النصر مؤقتاً حينئذٍ ، لأطباء ايطاليا ، الذين ادعوا انهم سبقوا رُس . ولكن الانصاف حمل كوخ ولافران ولستر ومتشنكوف وأسلر سنة ١٩٠١ على اعادة التاج الى رأس مستحقهِ . ولما التأم مجمع تقدُّم العلوم البريطاني اقترح اللورد لستر توجيه الشكر الى رُس باسم المجمع فقال في اقتراحه « ان اكتشاف بعوض الملاريا وتتبع ادوار طفيليهِ يعود الفخر فيهما الى رُس وحده وما امتاز بهِ من براعة وحماسة ومثابرة » وفي سنة ١٩٠٢ وهب جائزة نوبل الطبية وكانت قيمتها حينئذٍ ٧٤٠٠ جنيه

وكان رُس مثالاً في الاعتراف لكل عامل بنصيبهِ . فكتب سنة ١٨٩٨ ما يأتي : « هذه المشاهدات تثبت نظرية انتقال الملاريا بالبعوض التي ابدعها الدكتور مانسن . ولا بدَّ لي في الختام من الاشارة الى مدى استفادتي بارشاده ومعاونته . فان نظريتهُ الالمعية عينت لي الطريق فما كان عليَّ الاَّ السير فيه »

بعد رجوعهِ من الهند سنة ١٨٩٩ عين مدرساً في مدرسة الطب الاستوائي بجامعة لفربول فظلَّ فيها ثلاث سنوات وراتبهُ السنوي لا يزيد على ٢٥٠ جنيهاً في السنة ! ثم فتح عيادة للاستشارة الطبية في لندن . ولكن زياراتهِ المتعاقبة الى سيراليون وجزائر مورشيوس وجزيرة قبرص والقطر المصري — جاء الاسماعيلية بدعوة من شركة قنال السويس لدرس الملاريا فيها — حالت دون نجاحهِ كطبيب مستشار نجاحاً ماليًّا . فمنح رتبة سر سنة ١٩١١ وجعل اصدقاؤه يفكرون في تشييد معهد للبحث الطبي الاستوائي يجعل هو مديرهُ . ولكن نشوب الحرب حال دون ذلك فعيّن عند نشوبها طبيباً مستشاراً في الامراض الاستوائية المرتبطة بالجيوش الهندية في اوربا . ثم ارسل الى الاسكندرية للبحث في الدوسنطاريا الاستوائية التي فشت في الدردنيل سنة ١٩١٧ ورقي الى رتبة كولونل سنة ١٩١٨ فلما وضعت الحرب اوزارها عاد الى ميدان العمل الحرّ واكبَّ من جديد على مباحثهِ وكتاباتهِ الادبية والرياضية

ولكن اصدقاءهُ لم يهملوا انشاء المعهد الخاص به فجمعوا لهُ المال وبنوهُ على اكمة بَتْني خارج لندن وافتتحهُ البرنس أف ويلز سنة ١٩٢٦ وفي السنة التالية رحل رُس الى بلدان الشرق فزار ملابار واسام وبرما ومدينة كلكتة حيث حضر حفلة ازاحة الستار عن نصب بني فيها تخليداً لاكتشافهِ العظيم . وفي سنة ١٩٢٩ بدأ اصدقاؤه يجمعون لهُ مبلغاً من المال قدره ١٥ الف جنيه ، على أثر عرضهِ اوراقهُ العلمية للبيع لما اشرف على الافلاس ، فابتاعت الليدي هوستن هذه الاوراق بالفي جنيه واهدتها الى معهد رُس

وكانت وفاتهُ في ١٦ سبتمبر الماضي في معهد رُس بعد مرض طويل

الحياة الاجتماعية في الحيرة

«مقال مستل من كتاب « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

تأليف يوسف رزق الله غنيمه

وزير مالية العراق سابقاً

— ٢ —

كان لحانات الحيرة شهرتها الطائرة يقصدها اهل التقصف واللهو من سكان المدن والبدو ولا بأس ان ننقل هنا بعض حوادثها للتفكهة والفائدة

قال المغيرة بن شعبة : كنت في ركب من قومي في طريق لنا الى الحيرة فقالوا لي قد اشتهينا الخمرة وما معنا الا درهم زائف فقلت هاتوه وهلموا بزقين فقالوا واما يكفيك لدرهم زائف زق واحد قلت اعطوني ما طلبت وخلاكم ذم ففعلوا وهم يهزؤن من قولي فصببت في احد الزقين شيئاً من ماء ثم جئت الى خمار فقلت له كل لي ملء هذا الزق فملأه فأخرجت الدرهم الزائف فأعطيته اياه فقال ان ثمن هذا الزق عشرون درهماً جياداً وهذا درهم زائف فقلت انا رجل بدوي وظننت ان هذا يصلح كما ترى فان صلح والا فخذ شرابك فاكتال مني ما كاله وبقي في زقي من الشراب بقدر ما كان فيه من الماء فافرغته في الزق الآخر وحملتهما على ظهري وخرجت فصببت في الزق الاول ماء ودخلت الى خمار آخر فقلت اني اريد ملء هذا الزق خمراً فانظر الى ما معي منه فان كان عندك مثله فاعطني فنظر اليه وانما اردت ان لا يسترب بي اذا رددت الخمر عليه فلما رآه قال عندي اجود منه قلت هات فاخرج الي شراباً فاكتلته في الزق الذي فيه الماء ثم دفعت اليه الدرهم الزائف فقال لي مثل قول صاحبه فقلت خذ خمرك فاخذ ما كال لي وهو يرى اني خلطته بالشراب الذي اريته اياه وخرجت فجعلته مع الخمر الاول ثم لم ازل افعل ذلك بكل خمار في الحيرة حتى ملأت زقي الاول وبعض الآخر ثم رجعت الى اصحابي فوضعت الزقين بين ايديهم ورددت درهمهم فقالوا ويحك اي شيء صنعت فحدثتهم فجعلوا يعجبون [1]

ومن الشعراء الذين ذكروا خمرة الحيرة والسكر فيها عبدالله بن ايوب التيمي احد الخلعاء الوصافين في الدولة العباسية قال [2]

هل الى سكرة بناحية الحيرة شنعاء يا قبيص سبيل
وابو التيجان في كفة القرعة والرأس فوقه اكليل

---

(١) الاغاني ١٤ : ١٣٥ (٢) كذلك ١٨ : ١١٩

وعرار كأنهُ بيذق الشطـرنج يفتنُ فيهِ قال وقيل

ومن نوادر الخمارين في الحيرة بعد الفتح ان الأقيشر شرب يوماً في بيت خمار في الحيرة فجاء شرطي من شرط الامير ليدخل عليهِ فغلق الباب دونهُ فناداهُ الشرطي اسقني نبيذاً وانت آمن فقال واللهِ ما آمنك ولكن هذا ثقبٌ في الباب فاجلس عنده وأنا اسقيك منهُ ثم وضع لهُ انبوباً من قصب في الثقب وصبَّ فيهِ نبيذاً من داخل والشرطي يشرب من خارج الباب حتى سكر فقال الأقيشر :

سأل الشرطي ان نسقيه فسقيناهُ بانبوب القصب
انما نشرب من اموالنا فسلوا الشرطي ماهذا الغضب[١]

ولع الحيريون بالصيد والقنص وخرج اليهِ ملوكهم وامراؤهم واشرافهم وشبابهم. وتروى الاخبار والاشعار الكثيرة في وصفهِ وحوادثهِ فاقتصرنا على الالماع اليهِ في هذا المقام للايجاز

ولا بدَّ لنا هنا من كلمةٍ عن القيافة التي اشتهر العرب بها وهي معرفة الانسان والحيوان من آثاره في الرمل او التراب[٢] وقد مارسها الحيريون وها نحن نورد حكايتين عنها اولهما ان امرأة مرثد بن سعد بن مالك شغفت بابن اخيهِ عمرو بن قمئة الشاعر المشهور وراودتهُ يوماً عن نفسهِ في غياب عمهِ فامتنع وارادت الايقاع بهِ عند عمهِ فكفأت جفنةً على اثر بن قمئة. ولما رجع عمه اخبرته ان رجلاً من قومهِ قريب القرابة جاء يستامها نفسها ولما سألها عنهُ اجابتهُ: أما انا فلا اسميه ولكن قم فافتقد اثره تحت الجفنة فلما رأى الأثر عرفه[٣]

والحكاية الثانية : ان المرقش الاصغر كان يهوى فاطمة بنت الملك المنذر صاحب الحيرة وكان لفاطمة قصر يحرسهُ الحرس وينثرون التراب حول قبتها ويجرُّون عليهِ ثوباً حين تمسي ولا يؤذن لاحد بالدخول عليها الا جارية لها تعرف ببنت عجلان . فحملت الجارية ليلة ما المرقش على ظهرها واخذتهُ الى سيدتها فلما اصبح الصباح بعث الملك بالقافة فنظروا وعادوا اليهِ فقالوا نظرنا اثر بنت عجلان وهي مثقلة . [٤] . والظاهر ان هذه الحكاية موضوعة ملفقة ولكن تدل دلالة اكيدة على القيافة والعمل بها في الحيرة

اعتقد اهل الحيرة بالخرافات والرواقي شأن الامم القديمة ولا تزال بقايا تلك العقائد عند اعرق الشعوب في المدنية الآن مما ورثوه من السلف وفي ذلك يقول عدي بن زيد[٥]

او تكن وجهة فتلك سبيل الناس لا تمنع الحتوفَ الرواقي

وقد تغلغلت هذه العقائد في الطب عندهم ومنها انهم كانوا يعتقدون ان دماء الملوك تشفي من الخبل[٦] والكلب[٧] والمحبة[٨] وقال المتلمس

(١) كذلك ١٠ : ٨٦ (٢) زيدان آداب اللغة العربية ١ : ١٨٩ (٣) الاغاني ١٦ : ١٥٨
(٤) كذلك ٥ : ١٨٤ (٥) شعراء النصرانية ٤٥٤ (٦) الاغاني ١٤ : ٧٢ (٧) الميداني مجمع الامثال ١ : ١٥٨ في مثل «خطب يسير في خطب كبير» (٨) الاغاني ١٤ : ٧٢

من الدارميين الذين دماؤهم شفاء من الداء المجبة والخبل

وقال المثقب العبدي [١] :

يا جريَّ الدمَّ مرَّ طعمهُ يبرؤ الكلب اذا عضَّ وهرّ

وعلى ذكر الطب نسرد على سبيل المثال بعض ما كانوا يطببون بهِ . يعالجون بالكي من كان يطعن من الغمّ أو يصعق بخبر أو حادث يفزعهُ [٢] ولا يزال أهل العراق يأخذون بهذه الوصفة حتى اليوم . وقد كان قسوس النصارى يتعاطون الطب في الحيرة قال أبو الفرج الأصفهاني بينما المتوكل الليثي بالحيرة رمد رمداً شديداً فمرَّ بهِ قس منهم فقال مالك ؟ قال رمدتُ — قال أنا أعالجك قال فافعل فذرَّه [٣] واستعمل اطباؤهم السعوط واللدود قال شاعرهم عدي بن زيد [٤] :

والاطباء بعدهم لحقوهم ضلَّ عنهم سعوطهم واللدود

وعالجوا الجرب في الابل بالطلاء بالقار ولا تزال هذه الوصفة عند عرب البادية حتى اليوم قال النابغة الذبياني مخاطباً النعمان في قصيدة [٥]

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطليٌّ بهِ القار أجربُ

ويجمل بنا أن نذكر هنا ان البيطرة كانت معروفة في الحيرة لمداواة الحيوانات قال الذبياني [٦]

شكَّ الفريصة بالمدرى فأنفذها طعن المبيطر إذ يشفي من العضد

وكانوا يداوون العُرَّ وهي قروح تخرج في عنق الفصيل بكيّ بعير آخر صحيح فيبرأ العليل بل قيل انهم كانوا يكوون الصحيح للمناعة لئلا يتعلق بهِ المرض وليس ليفيق العليل وفي ذلك يقول الذبياني [٧]

لكلفتني ذنبَ امرىءٍ وتركتهُ كذي العُرّ يكوى غيره وهو راتع

ومن عاداتهم انهم كانوا يجعلون الحلي والخلاخل في يدّ من تلدغهُ الأفعى ويسمون الملدوغ السليم تفاؤلاً . ويحركون تلك الحلي لئلا ينام فيدبّ السم فيهِ وقال بعض الأعراب إذا لدغ الرجل علقنا فيهِ الحلي سبعة ايام لتنفذعنهُ الحمة وإشارة إلى هذه العادة انشد النابغة الذبياني

يُسَهَّدُ من ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديهِ قعاقع [٨]

ومن عادة أشراف الحيريين انهم يرسلون أطفالهم للرضاعة والتربية إلى بيوت معارفهم أو من يعتمدون عليهِ من أخصائهم . وكانت هذه عادة العرب في غير الحيرة ايضاً ولا تزال قائمة

(١) شعراء النصرانية ٤٠٤ (٢) الميداني مجمع الامثال ١ : ١٥٨ في مثل « قد يفرط العير والمكواة في النار » (٣) ١١ : ٤٠ (٤) شعراء النصرانية ٤٧٢ (٥) كذلك ٦٥٦ (٦) كذلك ٦٦١ (٧) كذلك ٦٩٣ (٨) كذلك ٦٩٠

حتى اليوم عند بعضهم . ولما ملك المنذر جعل ابنهُ النعمان في حجر عديّ بن زيد[١] ووضع المنذر بن ماء السماء ابناً له اسمهُ مالك عند زرارة[٢] وترك الاسود بن المنذر ابنه شرحبيل عند سنان بن ابي حارثة المري لترضعه زوجه[٣]

لنقف قليلاً عند اولاد الحيريين ونرى العابهم وملاهيهم . نراهم يلعبون بالدوّامة وهو «المصراع» بلسان العراقيين اليوم تصحيف «المرصاع» الفصيح قال المتلمس[٤]

وتظلُّ في دوّامة م المولود يظلمها تحرّق[٥]

ومثلها لعبة الخذروف المنتشر يومئذ عند العرب وفيها يقول امرؤ القيس في معلقته

دريرٍ كخذروف الوليد امرَّه تتابع كفّيه بخيط مُوصَّل

والخذروف لعبة مستدرة يديرها الصبيان بخيط ادخل في ثقبه وفتل . ولعبوا بالكعاب على ما نراه حتى اليوم عند أولاد العراقيين وغيرهم فقد جاء ان المرقش كان يهوى ابنة عمه اسماء فذهب الى أحد الملوك وفي غيابه زوّجها عمه من رجل آخر نخبره اخوته عند عودته انها ماتت ودفنوا اعظام كبش في قبر وهمّوه انهُ قبرها فأخذ يزوره فبينما هو مضطجع ذات يوم وابنا اخيه يلعبان بكعبين لهما اذ اختصما في كعبٍ فقال أحدهما هذا كعبي اعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه وقالوا اذا جاء مرقش اخبرناه انهُ قبر اسماء . فاطلع المرقش على الخبر من قول الولد[٦] . .

وفي الحيرة العابٌ لعبها غير الاولاد منهم . نذكر الطَّبْنَ وقيل هي السُّدر قال المتلمس من قصيدة يهجو الملك عمرو بن هند[٧]

أعني الخوَلة والعموم فهم كالطّبْن ليس لبيته حُوَلُ

ومن العابهم الجمبرّى وهي لعبة للصبيان وهو أن يحمل الصبي بين اثنين على أيديهما ولا تزال هذه اللعبة حية بين اولاد العراقيين ويسمونها في بغداد « صندوق عالٍ» والبوصاء وهي لعبة لهم يأخذون عوداً في رأسه نار فيديرونهُ على رؤوسهم . وهذه موجودة في العراق ولكن اسمها غير معروف اليوم . و « الخُطة » يخط الصبيان دائرة ويقف فيه صبي ويحيطون به ليأخذونهُ . وهي باقية في بلاد الرافدين بهذا الاسم والوصف وربما سميت في اللغة الفصحى الحاجورة ايضاً . والزحلوفة تزلج الصبيان من فوق التلّ إلى أسفله. واللعبة مشهورة في العراق ويسميها بعضهم الزحلوقة. أما الحوالس فلعبة لهم بالحصى وأنشد الشاعر :

(١) شعراء النصرانية ٤١٦ (٢) الاغاني ١٩ : ١٢٨ (٣) ابن الاثير ١ : ٢٣٣ (٤) شعراء النصرانية ٣٤٦ (٥) الدوامة لعبة صبيان العرب يرمون بها على الارض بالخيط فتدوم اي تدور. يقول شاعرنا بهذا البيت لعمرو بن هند ملك الحيرة: لك هذه الدنيا وهذه القصور وانت اذا أخذ من ابنك دوامة تحرق اي تلتهب غضباً (٦) الاغاني ٥ : ١٨٠ (٧) شعراء النصرانية ٣٣٩ والمشرق

فأسلمني حلمي فبتُّ كأنني أخو خرق يُلهيه ضرب الحوالس

قلنا هذه اللعبة تسمى في الموصل « الحالوسة » وفي بغداد والشام « المنقلة » يلعب فيها اثنان يأخذ كل منهما ٤٩ حصاة أو ودعة أو خرزة ويوزعها كلٌّ منهما على سبع حفر محفورة في خشبة متقابلة ويأخذ كل في دوره محتويات احدى الحفر من الحصى ويلقي حصاة في كل حفرة من الاربع عشرة حفرة وهكذا يسير في توزيعه فاذا انتهى الى حفرة فارغة وألقى فيها حصاةً . يبدأ الآخر بتوزيع الحصى وإذا انتهى إلى حفرة صار فيها حصاتان أو أربعة حدى ربح هذه الحصى وما في الحفرة المتابلة

ومن العاب الحيريين المخراق وهو منديل أو نحوه يُلوَى فيضربُ به أو يُلفُّ فيفزع به وأنشد أبو علي :

أرقت له ذات العشاء كأنهُ مخاريقُ يُدعى وسطهُنَّ خريج

قلنا ولا تزال هذه اللعبة معروفة في بغداد يسميها صبيانهم باسم تركي « قره قامجي » معناه السوط الاسود

ومن ألعابهم المِقلاة والقُلة عودان يلعب بهما الصبيان فالعود الذي يضرب به هو المِقلاة والقُلة خفيفة الخشبة الصغيرة التي تنصب ويقال لها أيضاً المقلاء والقال وأنشد الشاعر

كأنَّ نزو فراخ الهام بينهم نزو القلات زهاها قال قالينا

وهذه اللعبة تعرف في العراق حتى اليوم ويسميها الصبيان والبغداديون « الشنطرة والبلبل » عوضاً عن المقلاء والقُلة[1]

كما انهم لعبوا بالنرد والشطرنج اللعبتين اللتين اخذهما العرب من العجم[2] وتعلموا لعبة الصولجان من العجم ايضاً[3]

وكان من عادة الحيريين اذا اراد الرجل منهم امراً نذر انه لا يشرب الخمر ولا يغسل او لا يأكل اللحم او لا يعمل ذلك كله حتى يتم له الامر[4]

ولهم عادات في الموت والمناحة . فكانوا يكفنون موتاهم ويحنطونهم وتقوم نادبة تندبهم[5] وقال عدي بن زيد في النائحة : [6] سأكسب مجداً او تقوم نوائح

وكانت المرأة عندهم اذا ناحت قائمة على زوجها علم انها لا تريد ان تتزوج بعده وهكذا فعلت عائشة بنت طلحة على زوجها الاخير عمر بن عبيد الله بن معمر[7]

ولا تثريب علينا ان مررنا بكم بطرق الحيرة وطفنا مجتمعاتها وسمعنا صور حلف القوم

---

(١) راجع المخصص لابن سيدة ١٣ : ١٦ — ١٩ والساق على الساق لفارس الشدياق ٨٧ للتوسع

(٢) الاغاني ٨ : ٩٥ (٣) شعراء النصرانية ٤٤١ (٤) الاغاني ١٠ : ٨٦ (٥) كذلك ١٩ : ٨٨

(٦) شعراء النصرانية : ٤٦٧ (٧) الاغاني ٢ : ١٣٣

بمقدساتهم ومعتقداتهم واقسامهم الدالة على نفسيتهم واديانهم فها اننا نسمع ملكهم المنذر يقسم لزيد بن عدي « حق سبد » وسبد صنم اهل الحيرة [١] وها اننا نسمع عبد المسيح المتلمس يحلف باللات والانصاب وهو يهجو عمرو بن المنذر فيقول [٢]

أطرَدْتَنِي حَذَرَ الهجاء ولا والـلات والانصـاب لا تَئِـلُ

ونسمع المنذر يقسم ايضاً باللات والعُزَّى ويقول بعدهلاك عدي بن زيد لما اراد اهل الحيرة اخذ الف ناقة كانوا قد اعطوه اياها يوم ولوه عليهم « لا واللات والعُزَّى »لا يؤخذ مما كان في يد زيد ثفروقٌ . [٣] وقد جمع شاعر الحيرة عدي بن زيد في قسمه بين مكة والصليب في قصيدة نظمها في سجنه يوم القاه فيه النعمان : [٤]

سَعَى الاعداء لا يألون شرًّا عليك وربِّ مكّة والصليب

وحلف عمرو بن عبد الجنّ بالعُزَّى وبالنسر وما يضحى عليهما من الضحايا وبقربان المسيح على الهيكل فقال : [٥]

اما ودماءٍ مائرات تخالها على قلة العزّى او النسر عندما

وما قدس الرهبان في كل هيكل أبيل الابيلين المسيح بن مريما

وجاء في حلف الاخطل القسم بمكة ومناسك الحج [٦]

اني حلفتُ برب الراقصات وما أضحى بمكّةَ من حجب وأستار

وبالهدايا التي احمرّت مذارعُها في يوم نسك وتشريف وتنحار

وما بزمزم من سمط محلّقةٍ وما بيثرب من عونٍ وأبكار

واقسم الاعشى ذا كراً يوم ذي قار قائلاً [٧]

حلفتُ بالملح والرماد وبالعُزَّى وباللات تسلم الحلقة

ومما يسترعي الانتباه في هذه الاقسام ان بعض هؤلاء الشعراء حلفوا بالاصنام والاوثان ومكة في الجاهلية اخذاً بعاداتهم القومية ليس الاّ كما يقال باللاتينية حتى في عهدنا بحق هركل « Mehercle » او بالايطالية بحق بخوس « Per Bacco » . [٨]

واقسمت هند بنت النعمان « بالصليب » لما رفضت المغيرة بن شعبة اذ جاءها خاطباً فقالت له « والصليب » لو علمتُ ان فيَّ خصلة من جمال او شباب رغّبتك فيّ لأجبتك ولكن اردت

---

(١) الاغاني ٢ : ٢٠ (٢) شعراء النصرانية ٣٣٩ (٣) شعراء النصرانية ٤٤٥
(٤) الاغاني ٢ : ٢٣ (٥) الطبري ٢ : ٣٤ ونسب الاب شيخو في كتابه النصرانية وآدابها ص ٤٠٤ البيت الاول للاخطل وذكر ص ١٩٠ ان البيت الثاني منسوب للاعشى وللاخطل ولابن عبدالجن
(٦) ديوان الاخطل ١١٩ (٧) الاغاني ٢٠ : ١٣٩ (٨) شيخو: النصرانية وآدابها ص ٤٠٤

ان تقول في المواسم ملكتَ مملكة النعمان ونكحت ابنته « فبحق معبودك » اهذا اردتَ . قال اي والله قالت فلا سبيل اليه فقام المغيرة وانصرف [١]

واقسم عدي بن مرينا قبل عهد هند بالصليب والمعمودية قال للاسود بن المنذر قد غشك عدي بن زيد «والصليب والمعمودية» [٢] ونسمع حنين ابن بلوع يقول ان صوت ابن سريج ما صنع « والصليب والقربان » الا في منزلنا وفي سرداب لجدي [٣] وعلى ذكر الحلفان بالقربان نقول ان العرب في الجاهلية سمت القربان الشبر وأقسم به عدي بن زيد [٤]

إذا أتاني نبأ من مُنعم لم أخُنه والذي اعطى الشبر

وحلف الأخطل هكذا « قدوس قدوس وحق الصليب» [٥] وحلف في محل آخر «والمسيح» [٦] كما حلف قبله جد حنين الحيري «فوحق المسيح» [٧] وكان يحلف نصارى الحيرة بالله قال عدي بن زيد [٨]

إنني « والله » فاقبل حلفي لأبيل [٩] كلما صلى جأر

وحلف قصير بن سعد للزباء يوم قصدها وهو أجدع قائلاً « ورب البشر» ما كان على ظهر الارض أنصح لخدمة جذيمة مني [١٠]

وكانوا يقسمون بكتاب الله فهذا زيد بن عدي النصراني يقول [١١]

ناشدتنا «بكتاب الله» حرمتنا ولم تكن بكتاب الله ترتفع

* * *

ومن عادة الحيريين للتوثيق من قسمهم انهم يحلفونه في البيعة وقد قام بهذا كل من عدي ابن زيد وعدي بن مرينا واليك رواية الاغاني [١٢] . . . وقام عدي بن زيد الى البيعة لحلف ان لا يهجو عدي بن مرينا ابداً ولا يبغيه غائلة أبداً فلما فرغ عدي ابن زيد قام عدي بن مرينا وحلف ...

نقف عند هذا الحد في موضوعنا راجين أن نتوفق الى الاسهاب فيه عند طبعنا كتابنا « الحيرة : المدينة والمملكة العربية »

بغداد يوسف غنيمة

(١) الاغاني ٢ : ٣١ (٢) كذلك ٢ : ٢٢ (٣) كذلك ٢ : ١٢١ (٤) شعراء النصرانية ٤٥٢ (٥) الاغاني ٨ : ٨١ (٦) كذلك ٨٢ (٧) كذلك ٢ : ١٢٢ (٨) شعراء النصرانية ٤٥٣ (٩) الابيل حبر النصارى وهوايضاً السيد المسيح (١٠) الاغاني ١٤ : ٧٢ (١١) شعراء النصرانية ٤٧٢ (١٢) ٢ : ١٢٢

مآثر الحضارة العربية

في العلم والعمران

في اقل من قرن واحد افتتح العرب كثيراً من البلدان حتى وصلوا الى اسوار الصين واصبحوا ذوي سيادة وسلطان ، وبعد ان استتبّ لهم الامر تحوّلت عنايتهم الى ناحية العلم فصرفوا اكثر همهم اليه وبقي اعتناؤهم به بارزاً رغم ما اعترى الخلافة العباسية من ضعف وانحلال . ولم تضعف النهضة العلمية رغم استقلال كثير من الامارات عن بغداد ، فعوضاً عن ان يكون لها مركز واحد صار لها مراكز عديدة في حواضر الامارات المستقلة . ولقد استطاع العرب في مدة وجيزة ان يترجموا كتب اليونان والفرس والهنود في مختلف العلوم ولم يكتفوا بالنقل فقط بل توسعوا في الابحاث العلمية واضافوا اليها اضافات خطيرة تعتبر اساساً من أساس الحضارة الاوربية القائمة الآن . (وهنا اشار الكاتب الماماً الى آثارهم في اللغة والدين والشعر)

كتب العرب كثيراً في التاريخ وبعضهم اجاد اجادة أثارت اعجاب المنصفين من علماء الغرب ، ولقد فاقت مؤلفاتهم فيه مؤلفات غيرهم من الامم ، واذا رجعنا الى كتاب كشف الظنون الذي يبحث في اسماء الكتب والفنون وجدنا فيه اكثر من (١٣٠٠) كتاب غير الشروح والاختصارات وما فقد منها في اثناء الانقلابات التي حدثت في العصر العباسي « ومن الكتب التاريخية ما هو مرتب احسن ترتيب باعتبار السنين كالطبري وابن الاثير وابي الفداء او باعتبار الامم او الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون او بحسب المدن او الملوك مما لا يحصى » [١] . وكان بعض المؤلفين بليغاً في كتاباته مجيداً في سبك عباراته دقيقاً في استنتاجه . ولقد ظهر في المسلمين مؤرخون اعترف لهم الغرب بعبقريتهم ولا تزال المعاهد العلمية الاوروبية وغيرها تستعين بكتبهم ، فابن خلدون ألّف تاريخه المشهور ورتبه على الدول كما اسلفنا وافاض في اخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقهُ اليه احد . ومن مميزات هذا التاريخ مقدمته التي يقول فيها احد علماء الافرنج « ان مقدمة ابن خلدون هي اساس فلسفة التاريخ وحجر الزاوية في هذا العلم » [٢] ويقول آخرون « انها مقدمة فلسفية لم ينسج احد على منوالها قبلها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة »

وللعرب فضل في علم الجغرافية وتقدمها فهم بعد ان نقلوا عن اليونان وغيرهم الكتب

---

(١) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٩٣ (٢) مجلة الكلية مجلد ١٤ ص ٨٨

الجغرافية وتوسعوا في مباحثها زادوا عليها ماشاهدوه في اثناء خوضهم البحار وارتيادهم الاقطار. ولقد صححوا كثيراً من اغاليط بطلميوس [١] وامتازوا على الرومان بكونهم عرفوا الصين وتوغلوا فيها وفي افريقيا ايضاً فدخلوا الصحراء الى بلاد السودان. ويمتاز العرب على الامم التي سبقتهم بكونهم استطاعوا ان يؤلفوا في الجغرافية ورسموا الخرائط ويبدعوا في ذلك وحسبهم فخراً انهم اول من عرف اصول الرسم على سطح الكرة واول من وجد بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار. واشهر جغرافيي العرب المسعودي والبيروني والادريسي وياقوت والمقريزي والقزويني وابن بطوطة. اما الادريسي فهو انبغ الذين ظهروا في القرن الثاني عشر للميلاد [٢]. وهو مؤلف كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وقد ألفه لروجر ملك صقلية ورتبه على الاقاليم السبعة واورد فيه اوصاف البلاد والممالك تفصيلاً ؛ وعمل لروجر خارطة على كرة مسطحة من الفضة [٣] ورسم عليها الاقاليم والاقطار التي كانت معروفة في زمانه. ولقد استرعى الادريسي انتباه علماء الفرنجة اكثر من غيره لانه كان حلقة الاتصال بين جغرافية الاسلام وجغرافية الافرنج، ويقول كتاب تراث الاسلام « ان طلب الملك روجر ملك صقلية عمل كتاب جغرافيا ورسم خرائط من عالم مسلم مما يدل على ان تفوق المسلمين العلمي كان معترفاً به في ذلك العهد » [٤]

يقول بعض الكتّاب ان العرب لم يكونوا غير نقلة ماهرين ولم يعرفوا من العلوم الا جانبها النظري وهذا القول يردده بعض الذين يدّعون العلم من الغربيين المتعصبين ويقلدهم في ذلك بعض المتعلمين منا، وهو قولٌ لاشك فيه خطأ وتحامل. فلقد ثبت حديثاً لدى الباحثين المنقبين المنصفين من علماء الغرب ان العرب كانوا مبدعين مخترعين اكثر منهم ناقلين في كثير من فروع المعرفة. ففي الطب بعد ان عكفوا على دراسة ما اخرجه اليونان والسريان والكلدان اصلحوا بعضه وزادوا عليه ويعترف كتاب تراث الاسلام « ان العرب زادوا على الطب اليوناني كثيراً وزياداتهم مبنية على التجربة اي انها كانت عملية » وهذا يردُّ رأي القائلين بان علوم العرب كانت نظرية مبنية على الاسلوب الفنيّ. وقد ظهر لهم فيه مؤلفات قيمة كالقانون لابن سينا وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي ولقد استفاد الافرنج من هذا الكتاب في نهضتهم الحديثة فائدة كبرى. وبقيت بعض المؤلفات الطبية العربية تدرس في جامعات اوروبا حتى القرن الثامن عشر للميلاد. والذين نبغوا في الطب عند العرب كثيرون وتصفحٌ بسيط لكتب طبقات الاطباء وتراجم الحكماء وكشف الظنون وغيرها تثبت ان الذين زاولوا الطب والصيدلة كثيرون جداً. وقد كان لهؤلاء نظام مخصوص يسيرون عليه ورئيس يمتحنهم ويجيز المقتدر منهم وبلغ عدد الاطباء في زمن المقتدر

(١) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٩٧ (٢) كتاب تراث الاسلام (Legacy of Islam) ص ٨٩ (٣) دائرة المعارف البريطانية مادة (Map) (٤) كتاب تراث الاسلام ص ٨٩

بالله في بغداد « ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلاً سوى من كان في خدمة السلطان »[١] ولم يقتصر النبوغ في الطب على الرجال فقط فلقد نبغ في النساء عدد غير قليل كاخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها اللتان كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء[٢]. والفحص الطبي عند العرب لايختلف كثيراً عما هو عليه الآن فقد كانوا يفحصون البول ويجسون النبض ، وانتقدوا كثيراً من آراء اطباء اليونان واصلحوها عدا ترتيبهم الكتب اليونانية وتعليقهم عليها . وهم (اي العرب) اول من استخدم المرقد — البنج — في الطب والكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم وهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المسلولين ووضعوا علاج اليرقان والهواء الاصفر واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزيف وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي[٣] وكذلك هم اول من كتب في الجذام[٤] وفي الحصبة والجدري والعلق واشكاله وخصائص كل منها . وكانوا يعالجون المرضى ويدرسون الطب في امكنة مخصوصة تسمى بيارستانات وهذه تخرج الاطباء كما يجري الآن في مدارس الطب وكانت على غاية ما يكون من النظام والترتيب اذ كانت مجهزة بكل الادوات الضرورية وبالخدم ومقسمة الى غرف كل واحدة لمرض من الامراض المعروفة عندهم . وبحث العرب في الجراحة واول من اهتم بها الرازي ، وممن برع في عمل اليد واجراء العمليات الجراحية واستعان بالآلات والادوات هو ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي[٥] . واشتغلوا في الصيدلة واشتغلوا بالعقاقير من الهند وغيرها من البلدان ، وتحقق لدى الافرنج ان العرب هم واضعو اسس فن الصيدلة[٦] واستطاعوا ان يستنبطوا انواعاً جديدة من العقاقير يدلنا على ذلك اسماؤها التي وضعها العرب والتي لا تزال على وضعها عند الغربيين . واكتشفوا في الكيمياء كثيراً من مركباتها وعرفوا عمليات التقطير والترشيح والتصعيد والتذويب والتبلور وتحضير الكحول واكتشفوا بعض الحوامض المعدنية والقلويات النباتية والمعدنية ،وكتبوا في ابطال الكيمياء القديمة . ويرجح لدى الباحثين ان العرب هم الذين ركبوا البارود ، ويقول ابن الاثير ان العرب استعملوا ادوية اذا طلي الخشب بها امتنع احتراقه . واشتهروا في صناعة الزجاج والتفنن فيها . ولا يفوتنا ان نذكر ان العرب برزوا في علم النبات واشتهر في هذا العلم ابن البيطار ورشيد الدين ابن الصوري الذي كان كثير التدقيق والبحث « فكان يستصحب معهُ مصوراً (عند بحثه عن الحشائش في منابتها) ومعهُ الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها فكان يتوجه الى المواضع

---

(١) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء — ج ١ ص ٢٢٢ (٢) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء — ج ٢ ص ٧٠ (٣) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٨٠ (٤) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء — ج ١ ص ١٨٣ (٥) الدكتور احمد عيسى — آلات الطب والجراحة عند العرب ص ٤ — ٥ (٦) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٨١

التي بها النبات . . . فيشاهده ويحققهُ ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقهِ واغصانه واصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها، ثم انهُ سلك ايضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك انهُ كان يري النبات للمصور في ابّان نباته وطراوته فيصوره ثم يريهِ اياه ايضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ثم يريه اياه ايضاً وقت ذواه ويبسهِ فيصوره فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليهِ في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه بهِ في الارض فيكون تحقيقهُ له اتم ومعرفته له ابين »[1] ولا أظن ان علماء النبات في هذا العصر اكثر دقةً في ابحاثهم العلمية من ابن الصوري

واشتغل العرب في علم الطبيعة (الفيزيكس) ولهم فيهِ ابحاث مبتكرة فبعد ان ترجموا كتب اليونان في هذا الفرع توسعوا فيهِ وزادوا عليهِ . ولقد استنبطوا طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الثقل النوعي واستعملوا موازين دقيقة حتى ان فرق الخطأ كان اقل في ٤٠٠٠٠ من الغرام. وبينوا أن الهواء يحدث ضغطاً من اسفل الى اعلى، وبحثوا في الجاذبية وقالوا بها[2] ولهم في الضوء نظريات وآراء لم يسبقهم احد اليها، ولقد توسعوا فيها كثيراً وصححوا آراء اليونان في بعض المباحث عدا الاضافات التي لولاها لما كان بحث الضوء على ما هو عليهِ الآن . ويقال ان كتاباتهم هذه هي التي اوحت اختراع النظارات[3] وكتبوا في العين وتشريحها[4]

واما في الموسيقى فقد زادوا وتراً خامساً زاده زرياب بالاندلس واستنبطوا الآلة المعروفة بالقانون والذي اخترعها الفارابي الفيلسوف وهو اول من ركّبها هذا التركيب[5] ولا تزال عليهِ الى الآن. ويقال ايضاً ان الفارابي اخترع آلة غريبة الشكل في بابها مؤلفة من عيدان يركبها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها، يحكى انهُ كان مرة في مجلس سيف الدولة فسأله هل تحسن صنعة الغناء؟ فقال نعم « ثم اخرج من وسطهِ خريطة ففتحها واخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر ثم ضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغيّر تركيبها وضرب عليها ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج[6] » . وفكروا في امكان الطيران وأول من فكر فيه عباس ابن فرناس، جاء في نفح الطيب « واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومدّ لهُ جناحين وطار في الجوّ مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخره ولم يدر ان الطائر انما يقع على زمكه ولم يعمل له ذنباً[7] »

ولنرجع الآن الى ما عمله العرب في الرياضيات والفلك فنقول بعد ان عكف العرب على

(١) ابن ابي اصيبعة — طبقات الاطباء — ج ٢ ص ٢١٩ (٢) الدكتور صروف — بسائط علم الفلك ص ٢٢ (٣) دائرة المعارف البريطانية مادة Light (٤) كاجوري — تاريخ الفيزيكس ص ٢٣
(٥) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ — ص ٧٧ (٦) ابن خلكان — وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٧
(٧) المقري — نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣١

دراسة ما كتبه اليونان والهنود في هذين الفرعين توسعوا فيهما وزادوا عليهما . في الحساب بحثوا في الأعداد وخواصها ، وهم اول من استعمل لفظة صفر لنفس المعنى الذي نستعمله نحن ، ويغلب الظن انهم وضعوا علامة الكسر العشري ، وينسب اليهم اكتشاف ميزان الجمع باسقاط التسعات [1] ، وهم الذين نقلوا الارقام الهندية ، قال الخوارزمي في احدى مؤلفاته ان الارقام وصلتنا عن طريق الهند [2] ، وعنهم (اي عن العرب) اخذ الافرنج (الارقام). اما في الجبر فللعرب الفضل الاكبر في تقدمه اذ لم يكن معروفاً تماماً عند اليونان . ويمكننا ان نقول دون تردد ان الجبر هو من موضوعات العرب . قال كاجوري ان العقل ليدهش عند ما يرى ما عمله العرب في الجبر . وهم اول من اطلق لفظة جبر على العلم المذكور ، وعنهم اخذها الافرنج ، ولقد اكتشفوا كثيراً من نظرياته التي نعرفها الآن ووصفوا حلولاً جبرية وهندسية لمعادلات ابتدعوها مختلفة التركيب وحلوا المعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة وفي حل القسم الاخير اجادوا جداً ولهم فيه ابتكارات هي محل اعجاب علماء الغرب . قال كاجوري « ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط من أعظم الاعمال التي قام بها العرب » [3] فيكونون بذلك قد سبقوا دكارات وبيكر ، وقد حلوا ايضاً بعض اوضاع للمعادلات ذات الدرجة الرابعة [4] ، ونشر محمد بن موسى الخوارزمي بأمر من المأمون كتاباً في الجبر والمقابلة وهو اول كتاب عربي ظهر في هذا العلم واشتهر هذا الكتاب كثيراً وطار اسمه في الآفاق وله شأن تاريخي كبير اذ كل ما الفهُ علماء الفرنجة في الجبر مبني على الكتاب المذكور الذي كان ايضاً اساساً لدراساتهم ومباحثهم الرياضية المختلفة . وأما في المثلثات فلقد تفننوا فيها كثيراً ولهم فيها باع طويلة جداً فهم اول من ادخل المماس في عداد النسب المثلثية [5] واليهم يرجع الفضل في اكتشاف قانون تناسب الجيوب وحسبهم فخراً انهم اول من اكتشف قانوناً عاماً لحل المثلثات الكروية وأول من عمل الجداول لنظير المماس والقاطع ونظيره . وعلى العموم فالعرب لم يتركوا زيادة لمستزيد في علم المثلثات ويعترف بذلك علماء الافرنج

واشتغل العرب في الفلك ولم يقفوا فيه عند النظريات بل خرجوا منها الى العمل والرصد ولقد اكتشفوا بعضاً من النظريات المهمة وابتنوا المراصد الكثيرة وأجروا فيها ارصاداً جليلة النفع . وظهر منهم عدد لا يستهان به من الفلكيين ومنهم من اعترف لهم الغرب بالعبقرية والتفوق حتى ان لالاند العالم الفلكي الفرنسي الشهير عدَّ البتاني من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله [6] .وقالوا باستدارة الارض وبدورتها على محورها [7] وعملوا

(١) كتاب تراث الاسلام ص ٣٩٤ (٢) سمث كاربنسكي — الارقام الهندية العربية ص ٥ (٣) كاجوري تاريخ الرياضيات — ص ١٠٧ (٤) كاجوري — تاريخ الرياضيات — ص ١٠٧ (٥) دائرة المعارف البريطانية مادة مثلثات Trigonometry ونصير الدين الطوسي — شكل القطاع ص ١٢٦ (٦) انظر مقالي مقتطف يناير سنة ١٩٣١ (٧) مجلة الكلية مجلد ١٤ ص ٢٧٠

الازياج العظيمة الفائدة وبينوا حركة نقطة الذنب للارض وأصلحوا قيمة الاعتدالين الصيفي والشتوي . وحسبوا قيمة ميل فلك البروج على فلك معدل النهار ومن الغريب ان حسابهم في قيمة هذا الميل دقيق جداً وقد اصابوا في رصدهم وحسابهم الى دقيقة واحدة (١) ونتائج حسابهم لبعد الشمس عن مركز الارض قريبة جداً مما وصل اليه العلماء الآن (٢) وقد اختلف علماء الغرب في اكتشاف بعض أنواع الخلل في حركة القمر الى تيخو براهي أو الى ابي الوفاء (٣) ولكن ظهر حديثاً ان اكتشاف هذا الخلل يرجع الى ابي الوفاء لا الى غيره (٤) وهم الذين اخترعوا الاسطرلاب وغيره من آلات الرصد ، واعتنوا كثيراً باتقان صنعها (٥) ، ووجدت في احدى الكتب الفلكية (بسائط علم الفلك) ان خمسين في المائة من اسماء النجوم الموجودة فيه من وضع العرب ومستعملة بلفظها العربي في اللغات الافرنجية ، وشدة ولوع العرب بهذا العلم جعل بعضهم «يصنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظرين فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود» (٦)

***

ولما اصبح العرب في سعة من العيش وصار لهم سلطان يمتد الى أكثر اقطار المعمور بدأ دور الترف عندهم فحلقوا في سماء الخيال ونبغوا في الشعر وبرعوا في الموسيقى وشيدوا الأبنية التي تحاكي الجنان بجمالها وبهائها والتي تبهر العقول بفخامتها وزخرفها والتي لها مميزات جعلت الفن الاسلامي في البناء يجمع بين التناسب والتناسق . ونظرة الى جوامع مصر القديمة والى جامع الاموي في دمشق وإلى قصور الأندلس ومعابدها تريك العظمة والاتقان والمتانة بأجلى معانيها . لا استطيع وصف الحمراء (كما يجب) ولكني قرأت عدة اوصاف لها وكل وصف يختلف عن الآخر ، وما الاختلاف على ما اعتقد الا نتيجة لما عليه القصر من عظمة الفن والجلال الهندسي . والحمراء اقسام اهمها ردهة الحكم ، حوش السباع ، حجرة بني سراج ، حوش الريحان ، ردهة السفراء ، وقد نقشت جدران كل منها بنقوش هي غاية في الابداع في جلال الفن وروعة المنظر ، وقد اعترف الغربيون بعجائب الحمراء وكثيراً ما وصفوه وغالوا في ذلك متأثرين بالفخامة ودقة الصنعة . ولقد اتخذ الافرنج لكثير من ابنيتهم العظيمة ومراسحهم الكبرى أسماء الهمبرا أي الحمراء والالكزاراي أي القصر (٧) وأصبحت كلمة الهمبرا عندهم تعني قصراً منيفاً بديعاً تكتنفهُ حدائق ذات أشجار باسقة منسقة أجمل تنسيق . وعلى كل فقصر الحمراء آية بينة على ما وصل اليهِ العرب من جاه ورفاهية . ويضيق الوقت عن وصف القصر الكبير بأشبيلية والزهراء والزاهرة وغيرها من القصور والدور التي في الاندلس . ويقال انهُ كان «في قصر

---

(١) اسماعيل مظهر — تاريخ الفكر العربي ص ٤٥ — ٤٦ (٢) اسماعيل مظهر — تاريخ الفكر العربي ص ٤٦ (٣) فانديك — كتاب علم الهيئة — ص ١٣٧ (٤) كاجوري — تاريخ الرياضيات ص ١٠٥ (٥) كتاب تراث الاسلام ص ٣٩٥ (٦) المقري — نفح الطيب — ج ٢ ص ٢٣١ (٧) مجلة الكلية مجلد ١٥ ص ٣٣٠

الزهراء كثير من الرخام الابيض والاخضر والوردي والجزّع ومائة وعشرون تمثالاً من الذهب الأحمر تمثل العقبان والغزلان والتماسيح والشواهين وكلها مرصعة بالجوهر يجري الماء من افواهها»[١]

هذه ابنيتهم كانت ولا تزال مرتعاً خصباً لقرائح الشعراء وميداناً واسعاً لجولات الادباء فلقد أجادوا وصف هاتيك الديار التي تمتاز على غيرها بقناطرها وقببها الشماء، ومآذنها ذوات القامات الهيفاء، ومقرنصاتها التي جعلت لتزيين تيجان العمدان، وحبكها الهندسية المملوءة خلاياها بنقوش الازهار وأوراق النباتات، وباطاراتها التي كثيراً ما كانت ترصع بكريم الاحجار، وبالالوان المختلفة التي تزيد في جمال البناء وعسايل المياه التي تعد من آيات فن المعجزات، وبالصور والنقوش الذهبية التي تظهر في قصورهم فتزيدها بهاء فوق بهاء

قيل في وصف بركة على حافاتها اسود تقذف المياه من افواهها وعليها نقوش وطيور:

وضراغم سكنت عرين رياسة تركت خرير الماء فيهِ زئيرا
فكأنما غشي النضار جسومها واذاب من افواهها البلورا
اسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما اقعت على ادبارها لتثورا

الى ان يقول: وبديعة الثمرات تعبر نحوها عيناي بحر عجائب مسحورا
شجرية ذهبية نزعت الى سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صوبحت اغصانها فكأنما قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها ان تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت جعلت تغرّد بالمياه صفيرا[٢]

هذا عدا ما بني في الشام والعراق وغيرها من البلدان الاسلامية من الابنية الفخمة التي هي وليدة حضارة عالية يفتخر بعض الافرنج بالانتماء اليها. يقول احد المهندسين الاسبان «انهُ يفتخر بالانتماء الى العصر العربي في اسبانيا» ويقول ايضاً في مكان آخر «اني ارى مسجد قرطبة هو انخر واعظم تحفة فنية في هذه البلاد (اسبانيا) ولست ادري هل له في العالم نظير» وهو الذي يقول «ان اعمال اري وتوزيع المياه التي قام بها العرب بالاندلس كانت تفوق حتى ما وصل اليهِ الفن في العصر الحديث»[٣] واشتهر العرب بالفلسفة ونبغ فيهم عدد كبير منهم الكندي وابن سينا وابن الهيثم وابن رشد وغيرهم ولا تزال الآراء الفلسفية لبعضهم موضع دراسة العلماء واهتمامهم

هذا قطرة من بحر الحضارة العربية الخضم ولا يتسع المجال لاكثر مما تقدم ومع ان

(١) مجلة السكاية ١٥ ص ٣٣٠ (٢) للمقري — نفح الطيب — ج ١ ص ٢٣٠ (٣) الفتح عدد ٢٩٢

الغربيين قد ضربوا بسهم وافر في البحث عن حضارة العرب فان نواحي عديدة منها لا تزال غامضة اذ لم يكن لها نصيب من البحث والتنقيب ، والذي اراهُ ان الغربيين كلما تقدموا في البحث عن مآثر العرب تجلى لهم فضل العرب في السبق الى كشف كثير من الآراء والابحاث العلمية . يقول احد علمائهم : من الغريب ان بعض ابتكارات واختراعات حسبناها من عملنا ثبت بعد قليل من البحث ان العرب سبقونا اليها . والغريب ان طائفة من مؤلفي الفرنجة انتحلت بعض الابحاث التي وضعها العرب لنفسها ، وآخرين لم يذكروا المصادر التي اعتمدوا عليها او نقلوا منها فكأنهم يدعونها لانفسهم . ومع كل هذا استطاع علماء العصر الحاضر المنصفون ان يدركوا شأن حضارة العرب اذا قيس بشأن حضارتهم التي ينعمون بها فاعترفوا بعلوّ كعبها وبما قدمتهُ من خدمات جلى للمدنية الحديثة . قال فلوريان « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيهِ بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلوم والفنون . ولا نبالغ اذا قلنا ان اوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية — تلك الخدمة التي كانت العامل الاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر » ولا شك ان الحضارة العربية هي حلقة الاتصال بين اليونان والحضارة الحالية فهم الذين حفظوا علوم اليونان وغيرهم من الضياع وهم الذين نقلوها ونقلوا معها اضافاتهم الكثيرة الى اوربا عن طريق الاسبان . واعترف كاجوري وسمث بفضل العرب على الرياضيات والفلك . ويقول البارون دي فو « ان الميراث العلمي الذي تركهُ اليونان لم يحسن الرومان القيام بهِ ، اما العرب فقد حفظوه واتقنوه . . . . فهم لم يكونوا حفظة وخزنة للعلوم فحسب ولكنهم توفروا على ترقيتها وتطبيقها باذلين الجهد في تحسينها وانمائها حتى سلموها للعصور الحديثة » . وقال الدكتور سارطون في خطاب القاهُ حديثاً في جامعة بيروت الاميركية « ان بعض الاوربيين يحاولون ان ينتقصوا من قدر العرب العلمي في القرون الوسطى وذلك بقولهم ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم اليونانية ولم يزيدوا عليها شيئاً . . هذا خطأ . . . واذا افترضنا ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم الاقدمين ، أليس في عملهم هذا خدمة كبيرة للعالم ؟ فلولا نقلهم لما تقدمت العلوم تقدمها الحاضر ولكنا حتى الآن في قرون وسطى »

والدكتور سارطون يعتقد ان الاخذ عن الغير يتلو الاكتشاف من حيث خطورة الشأن فالاكتشافات اذا لم تؤخذ وتستعمل فلا فائدة منها ، والذي يعرف كيف يعلّم ما اقتبسه من الغير هو (في نظره) مخترع ثانٍ « ولذلك فان العرب كانوا اعظم معلمين في العالم في القرون الوسطى لا سيما في القرون الثلاث الثامن والحادي عشر والثاني عشر للميلاد . . . . لم يكن نقل العرب للعلوم ميكانيكيًّا بل على الضدّ فيه روح وحياة ، ولم يقتصروا على نقل علوم اليونان فحسب بل استطاعوا ان يأخذوا عن الهنود وفي كثير من الحالات جمعوا بين الثقافتين الهندية واليونانية »

نابلس — فلسطين قدري حافظ طوقان

من الشعر الغربي

لتوماس هاردي

بعد الموت

القبر اروحُ لي مقيلاً والردى خيرٌ وفيهِ أعودُ أصلحَ حالا
قرٌ الذي اضناك طول لجاجهِ والجهدُ والتعبُ المعاود زالا

***

برق الحياة لقد خبا بوميضه وأخذت في الوادي ازهيب مكاني
وأنا الوفيّ اذا قدمتِ وجدتني رهن انتظارك لا أملّ زماني

شفاء الآلام

يا كم دعوت الوحيَ واستلهمتهُ شعراً خليقاً بالحبيب المجتبى !
أصف المحاجر والشفاه وسحرها والطبع والخلق الكريمَ الطيبا
فاذا اجتَنيَ الشقاه نظمته معنى سماويًا ولفظاً مُغربا
واذا طغا ألمي عزفتُ كأنهُ قيثارة رقّت كأنفاس الرّبى

ولذاك كم هدّأت سورة خاطري ونسيتُ ما اشقى الفؤاد وعذبا

حتى اذا ران الهدوء حسبتني بين المقابر موحشاً متهيبا

فأصيح يا لهفاً على ايامه من ذا يعيد عذابها المستعذبا !

هينرخ هينه

دعاء الراعي

يا ايها الحمَل الوديع انا الذي يحنو عليك انا الحبيب الراعي

كم ليلةٍ والرعب يمشي في الدجى والهول منتشر على الاصقاع

اغفيتَ في كنفي وفي ظل الكرى كالطفل في أمنٍ من الاوجاع

يا رب قد وهت العصا واستأثرت غِيَرُ الليالي بالقويّ الباع

يا رب ان تك قد اذنت بفرقة وحكمت للراعي بوشك زماع

فانظر الى الحمَل الوديع ووقّهِ شرّ النفوس وفتنة الاطماع

نضّر لهُ الدنيا ومُدّ ربيعها وانشره مؤتلقاً بكل شعاع

واجعل له الأيام ظلاًّ وارفاً وخرير انهارٍ وخصب مراعي

الدكتور ابراهيم ناجي

وبعد تحطيم الذرة ...؟

اطلاق قوتها الكامنة — تحويل العناصر — حجر الفلاسفة الجديد

منذ ما اثبت السر جوزف طمسن ان الذرة مركبة من دقائق، اصبح تحطيم الذرة موضوعاً يخلب لبَّ العلماء وقراء الروايات الاخاذة على السواء. وقد اهتم العلماء بهذا الموضوع لانهم علموا ان في داخل الذرة تكمن طاقة عظيمة. ولكن الباعث الاعظم على عنايتهم كان رغبتهم في الكشف عن اسرار البناء المادي. ففهم بناء الذرة يفضي الى فهم طبيعة الكهربائية وحركات الاجرام السموية، وقد يفضي اخيراً الى فهم لغز الاشعة الكونية

ولكن الناحية الاخاذة في موضوع تحطيم الذرة، هي الناحية التي استرعت عناية الجمهور فقد قيل للجمهور انهُ اذا تحطَّمت الذرَّة لم يدرِ احد ما يسفر عن تحطيمها — وهو صحيح. فتسرَّع الناس في الحكم المبني على هذه الاقوال وظنوا ان قوى هائلة تنطلق منها في لحظة، كما ينطلق الغاز من مادة متفجرة، فينشأ عن انطلاقها انقلاب عالمي. ومكث مكاتبو الصحف على ابواب العلماء ينتظرون الانباء، وكأنهم في فوهة بركان لا يدرون اي متى يثور. اما كتَّاب الروايات الباحثون عن استنباط غريب يعزونهُ الى ابطال رواياتهم فوجدوا في تحطيم الذرة مناط آمالهم، فذهب خيالهم في وصفهِ ووصف نتائجه كل مذهب

***

لقد حطمت الذرة فتمَّ للدكتور كوكروفت والدكتور ولطن — وهما من علماء معهد كافندش بجامعة كمبردج الذي يرأسهُ اللورد رذرفورد — تحقيق ما حاول العلماء تحقيقهُ منذ ما اكتشف الالكترون وقسيمهُ البروتون. ومع ذلك ما زلنا حيث نحن، لم يحدث انفجار مدمّر، ولا انطلقت قوى عظيمة لا نستطيع السيطرة عليها. فذاعت انباء هذا الاكتشاف كالنار في الهشيم، ولكنها لم تسحب في أثرها ذيلاً من التخريب والتدمير كما تنبأ المتنبئون

والواقع ان تحطيم الذرة أثر علمي عظيم. حققهُ هذان العالمان في معملهما، بادوات بسيطة، ما عجز عنهُ العلماء الالمان والاميركيون بقوى كهربائية عالية الضغط مستمدَّة من شرر البرق. انهما استعملا قوة كهربائية ضغطها يبلغ ١٢٠ الف ڤولط مع ان الاميركيين والالمان كانوا قد ذهبوا الى ان قوة كهربائية لا يقلُّ ضغطها عن عشرة ملايين ڤولط تعجز عن تحطيم الذرة

واذا قلنا ان عمل كوكروفت وولطن عمل علمي مجرَّد لم ينتقص قولنا من شأنهِ، مع ان الذرة

حطمت من قبل . ولا ننسى ان من بعض المباحث النظرية المجرّدة نشأت طائفة من اعظم المستنبطات واكبرها فائدة. فلما بدأ لورد رالية Rayleigh مباحثهُ التي افضت الى كشف الغازات النادرة في الهواء، كان يرمي من ورائها الى ضبط اخطاء طفيفة وجدها في نتائج تجاربهِ السابقة فدلّ القياس على وجود مقادير ضئيلة جداً من الغاز في الهواء ثم ثبت انها غازات الارجون والهليوم والنيون والكربتون والكزينون . والغازات الثلاثة الاولى كثيرة الاستعمال في الصناعة الآن . فالهليوم تملأ بهِ البلونات لانهُ خفيف ولا يشتعل . والنيون يستعمل في صنع المصابيح التي تضيء بضوء احمر فتستعمل في الاعلانات المضيئة وغيرها . والارجون تملأ بهِ المصابيح الكهربائية

وما تمَّ للغازات النادرة قد يتم للذرّة وقد حُقّق تحطيمها . فالعلماء يصورون لنا قدراً عظيماً من الطاقة كامناً فيها . والاستاذ اندريد العالم الطبيعي الكبير ، يقول ان الطاقة الذرية المنطلقة في اثناء صنع اوقية هليوم من غاز الايدروجين ، تجهزنا بقوة مليون حصان مدة سبع ساعات . ولكن القوة التي نحتاج اليها لكي نحطم ذرات الايدروجين توطئة لتحويلها اعظم من القوة التي تنطلق في التحويل

والى القارىء مثلاً آخر . . . . يوضع الماء في مرجل قاطرة فيحول بخاراً يدفع القاطرة . ولكن لابدَّ من استعمال قدرٍ من الطاقة — حرارة الفحم — لتحويل الماء الى بخار. فالوقود الذي يدفع القاطرة ليس البخار بل الفحم . كذلك البحر مصدر طاقة عظيمة ولكن لا بدَّ من تحويلها الى بخار — او طاقة ميكانيكية — قبل استعمالها

***

وهذا يصحُّ على الذرّة . فالذين يتنبأون بان طاقة عظيمة سوف تنطلق من الذرة اخطأوا في حسبانهم انهم يستطيعون اطلاق هذه القوة عفواً — اي من دون استعمال قوة اخرى لاطلاقها . قد نكشف في المستقبل ان الذرة مصدر قوة محركة — كقوة البخار . ولكننا نحتاج الآن الى استعمال مقدار من الطاقة في تحطيم الذرة اكبر من مقدار الطاقة المنطلقة منها بعد تحطيمها . ولنذكر بعض ارقام توضح ما تقدم وتؤيده

تتحطم الذرة باطلاق دقائق سريعة عليها منبعثة من انبوب شبيهٍ بانبوب اشعة اكس او انبوب الراديوم . ولكي تتحطم الذرة يجب ان تنطلق من الانبوب دقيقة تصيب نواة الذرة في الصميم، اذ لا يكفي ان تمسحها مسحاً . ولكن نواة الذرة دقيقة جداً اذا قيست بحجم الذرة نفسها . والذرة صغيرة جداً لم يتمكن عالم من رؤيتها باقوى المجاهر . فاحتمال انطلاق دقيقة صغيرة واصابتها نواة الذرة في الصميم احتمال بعيد جداً

والواقع ان ملايين من الدقائق تنطلق من الانبوب على ملايين من الذرّات . ونواميس الارجحية تقضي بان تصيب بعض الدقائق بعض الذرّات. وقد قدّر اللورد رذرفورد — وتأيد تقديره بالصور — ان دقيقة من ٥٠٠٠٠٠ دقيقة تصيب نواة ذرة . وهذا يعني اننا اذا اخذنا ربع جرام من النتروجين واردنا ان نحطم ذراته بالطريقة المتقدمة وجب ان نستعمل انبوباً يحتوي على جرام من الراديوم ، بتوجيه الراديوم الى النتروجين مدة سنة . ولا يخفى ان ثمن جرام راديوم الآن يبلغ نحو ٢٥ الف جنيه : واذاً فتحطيم الذرة باستعمال الراديوم كبير النفقة . فاذا استعملت الوسائل الكهربائية كانت النفقة اقل وانما احتاج الباحث الى قدر كبير من الطاقة ومع ذلك لا يفوز الاّ بتحطيم ذرة او بضع ذرات على الاكثر . وثمة فرق بين تحطيم بضع ذرات وتحطيم كمية كبيرة منها !

***

لتحطيم الذرة وجهان جديران بالعناية . الاول امكان اطلاق الطاقة الكامنة فيها. والثانية تحقيق ما تصوّره الكيمائيون الاقدمون من تحويل العناصر ، كتحويل الرصاص الى ذهب مثلاً . وكان العلماء في مطلع العصر العلمي الحديث يهزأون من اقوال الكيمائيين القدماء وما تخيلوه عن « حجر الفلاسفة » . ولكننا نعلم الآن ان ما حاولوا تحقيقهُ ليس مستحيلاً ، وان « حجر الفلاسفة » الذي يحوّل بلمسهِ السحري خبث المعادن الى ذهب ، قد يكون الكهربائية. بل يدعي بعضهم انهُ قد فاز بذلك ولكن المقادير التي تحولت اقل من ان ترى

فالمباحث التي بدأت من نحو ست وثلاثين سنة ، لما كشف السر جوزف طمسن الالكترون وتبعهُ رذرفورد باكتشاف البروتون وشدِك باكتشاف النيوترون ، اسفرت هذه المباحث الجديدة عن ان المادة مبنية من دقائق صغيرة يظن انها شحنات كهربائية . فشحنة الالكترون شحنة كهربائية سالبة . وشحنة البروتون شحنة كهربائية موجبة . والنيوترون لاشحنة كهربائية له . لان الكهربائية السالبة فيه تعدّل الكهربائية الموجبة . ولذلك دعي نيوترون اي «المتعادل». هذه الدقائق تجتمع ذرات والذرات هي لبنات هذا الكون العظيم . فاذا استطعنا ان نستفرد الدقائق التي تبنى منها المادة ، افلا نستطيع ان نستعملها في بناء ما نريد منها ؟ هذا هو الحلم الذي قرب تحقيقه بتحطيم الذرّة . اي ان العلماء يبغون ان يجزئوا ذرات الرصاص مثلاً الى الدقائق المبنية منها ثم يعيدون بناءها في شكل آخر ليصنعوا منها عنصراً نادراً كالذهب مثلاً . فكأنهم يملكون احجاراً وطيناً فيستطيعون ان يبنوا بها قصراً او سجناً او زريبة كلاب

ولكن المسألة لا تبلغ هذا المبلغ من السهولة ، للاسباب التي بيّناها . والمحاولات القديمة لم تصب كثيراً من النجاح . واذا كان احد العلماء قد حوّل ذرة او اخرى في المعمل —

وهو امر لم يثبت بعدُ — فالنجاح نجاح علمي مجرّد ، والمقدار الذي صنع من العنصرضئيل جدًّا لا يمكن تبيُّنهُ الاَّ بآلة الحل الطيفي (السبكترسكوب)

ولا ننسَ ان ذرات بعض العناصر تتحطم تحطماً مستمرًّا في حالتها الطبيعية . فاذا راقبت ميناء ساعتك المضيئة في غرفة مظلمة فأنت تشاهد ذرّات تتحطم . فذرات العناصر المشعة في تحطُّم مستمرّ . تنطلق منها دقائق وتتحوَّل الى ذرّات عناصر اخرى . اي انها تنحلّ . ومن نكد العلم انهُ لا يستطيع ان يغير هذا الانحلال اسراعاً ولا ابطاءً ، لا بالحرارة ولا بالبرد ولا بالضغط ولا بغيرها من الوسائل الطبيعية او الكيمائية على ما نعلم

فلما اكتشف الراديوم رأى العلماء رؤًى ، فتصوروا انفسهم وقد اخذوا بناصية القوة عن طريق تحطيم الذرّات . ذلك انهم وجدوا ان كتلة صغيرة من الرايوم ، تطلق في اثناء حياتها الطويلة طاقة تكفي لتسيير باخرة كبيرة بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة . ولكنهم خذلوا لما وجدوا انهم لا يستطيعون ان يسرعوا انطلاق القوة من الراديوم . فما ينطلق من الكتلة الصغيرة في مليون سنة مثلاً لا يمكن ان يطلق في ساعة او يوم او شهر . ضعهُ في الهواء السائل او في اتون حام ، فلا تتغير سرعة اطلاق طاقته . ولو انهم استطاعوا ان يفعلوا ما تصوروهُ لقلت عنايتنا بالفحم والزيت ونفادها . ولكانت مقادير الراديوم القليلة في العالم كافية لتجهيز ما نحتاج اليه من القوة المحركة . ولكن لو ... هذه وقفت في سبيلهم سدًّا منيعاً

على ان ثمة فرقاً كبير بين مراقبة الذرات تتحطم وتعيد بناءها من تلقاء ذاتها ، وبين تحطيمها واعادة بناءها بحسب ما نريد ؟ يقول الاستاذ لو العالم والمستنبط الانكليزي :—

ولا ريب في حلول يوم يتناول فيه العالم الالكترونات والبروتونات ويلعب بها كما يتناول الطفل الحجارة . قد لا يحلّ ذلك اليوم قبل جيل او اجيال ولكن لا ريب في انهُ آت . حينئذٍ يستطيع العالم ان يحذف من هنا بروتوناً او يلجم هناك نيوتروناً او يعيد هنالك ترتيب الالكترونات فيحصل على المادة التي يطلبها . وبعد ذلك لن يخامرنا خوف من نفاد اية مادة من مواد الصناعة لان في طاقة العالم حينئذٍ ان يحوّل الصخور الى ذهبٍ والتراب الى رصاص

ومن الخطإِ البالغ ان نحسب اننا نعرف كلّ ما يمكن معرفته عن الذرة . فالعلم بحثٌ حيٌّ ، ولا تقيمن الوزن لعالمٍ يدعي انهُ وقف على التعليل النهائي لاية ظاهرة من الظاهرات . وقد يسفر البحث عن ان كلاً من الدقائق التي تتركب منها الذرة — الالكترون والبروتون والنيوترون — بناء معقد . وليس الزمن الذي كان فيه العلماء يحسبون الذرة اصغر دقائق المادة التي لا تتجزأ ببعيد . فلو اتيح لدلتن ان يقرأ الآن كتاباً حديثاً في علم الطبيعة لدهش . وقد يشفق علينا حفدتنا اذ يقرأون عن محاولاتنا الضعيفة لتحطيم الذرة ومعارفنا الناقصة عن بنائها !

مولد المأساة

BIRTH OF TRAGEDY

وردتنا في اوائل الصيف مقالتان في موضوع قلما يطرقه أدباؤنا وهو الادب الاغريقي
فقدمنا مقالة نشأة المسرح الاغريقي (مقتطف اكتوبر ١٩٣٢) على مقالة مولد المأساة لانها
أعم وفهم الثانية بعد مطالعة الاولى أقرب منالا

اشتهر فردريك نيتشه الفيلسوف الالماني المعروف بموضوعين ، قتلهما بحثاً وتنقيباً ، هما الادب الاغريقي وفلسفة الاجتماع . استغرق تأليفه في القسم الاوَّل سبع سنين من حياته وتمتاز مؤلفاته في هذه المدة بصفتها الكلاسيكية الفلسفية الصبغة ومن اهم تلك المؤلفات واشهرها : مولد المأساة : طبع هذا الكتاب سنة ١٨٧٢ واضاف اليهِ مقدَّمة خطيرة سنة ١٨٨٦ تغلغل بهِ في ابحاث الادب الاغريقي ، وابرز من زواياها خبايا الحقائق في التاريخ وفي الفن . فجلَّى الاصول التي منها نشأت المأساة ، والاطوار التي تعاقبت عليها

الالهان : ديونيسيوس وابُلون

هنالك كلمتان هما مفتاح مؤلفات نيتشه الاغريقية ، وكثيراً ما تردَّدتا في كتاباته ، وفيهما الكشف عن اصل المأساة وهما ديونيسيوس وابُلون الاول اله الخمر والمرح ونزق الشباب . والثاني اله الفن والتعبُّد والترصُّن . والنسبة اليهما الديونيسيَّة والابلونيَّة . تمثِّل الاولى الهمة الوثَّابة في عالم الطرب والمرح ، عالم الموسيقى والاغاني والرقص والخلاعة والحركات المعربة عما انطوت عليهِ الاضالع من الانفعالات الغرامية والمجونية ، المتحكِّمة في النفس في شرخ الصبا . وتمثِّل الثانية جمال الجنس ونقاوته ورصانة الطلعة والوقار . شرحهما فوجيه في كتاب خاص قال :—

هنالك جنس أحبَّ الجمال والحياة دون ما سوى . واختصَّ بحبه الحياة والقوَّة والتفوُّق والمرح . يُدْعَى الاغراق في هذه الاشياء : النفس الديونيسية : لكن ذلك الجنس احبَّ ايضاً الجمال والطهارة والاتزان والتقوى . ذلك ما ندعوه : النفس الابُلونية

اقترنت هاتان الرغبتان في ادراك الاولمبيا . والاولمبيا مغنى الكائنات السامية المالكة القدرة والجمال ، المعتزَّة بتأكيد خلودها — بارادة الحياة — والخلود كلمة فقدت قوَّتها لكثرة التكرار . فهي تعني عدم الشبع من الحياة ، والرغبة في دوامها الى الابد . ولما كانت تلك الكائنات مسرورة ايضاً بالجميل ، وهي تتأكَّد جمالها ، وتروم دوامه كان الاولمبيّ ذلك الشخص الذي في نفسهِ كلتا الصفتين ، الديونيسية والابلونية . فالفن الابلوني مثال النظام والتعمق والارتكاز . والفن الديونيسي مثال الموسيقى المرتبكة ، مثال الانفعال . وقد عرفنا اتجاه كلٍ

منهما ضد اخيهِ. على انهما اقترنا اقتران الزوجين على ما فيهما من تضاد فوفّقا في انتاج انجب المواليد. فدّا بينهما جسراً هو فن المأساة. فالمعجزة الهيلينية زواجهما فولادتهما المأساة. وكيف ذلك؟ تشبه الابلونية بحلم الجمال، والديونيسية بحال السكر. فنرى في ابلون مثالاً الهيًا مجيداً. وصفهُ شوبنهور وصفاً شعريًا تصويريًا قال: — رعبة مخيفة تملك على المرء شواعره فتغادرهُ ذاهلاً جامداً كالصخر الاصم لاحسّ ولا انس. فيحسب الذهن في اوضح ظاهراته حالة استثنائية بازاء ما حصل في نفسه من الغيبة الساحرة التي بلغت عمق اعماق وجوده. اضف الى ذلك رعبة الذهول الفنيّ الناشىء عن الانفعال الحاصل في قرارة النفس. اذ يشعر الذاهل بفقدهِ وجودهُ الفردي المستقل فكأنهُ اصبح جزءًا من اللامتناهي. هذا هو موقف المرء امام ابلون

في غمرة هذا الاختبار الفريد تقع العين على الكائن الديونيسي الذي يمثل حالة السكر والثمول، الذي يستولي على العقل، اما بتأثير مجالي الربيع وظاهرات شواعر النفس للهيام، والثورة على الشذوذ والتفرد، او بتأثير المغيبات، كما روت لنا ذلك اشعار الاقدمين والمحدثين. فبهذا وبذلك تبعث النفس امواجاً من الحبور والبهاء فتستيقظ عواطف الديونيسي في غيبة تزول عندها الذات. بعد ما تبيَّن القارىء المراد بالديونيسية والابلونية يتقدَّم نيتشه لبسط الكلام في الموضوع. قال: —

كان الفن الاغريقي والتمدّن الاغريقي، على ما نعلم، ابلونيًا والهيًا. والمأساة عندهم قرينة الديانة ووليدتها. ادخل اليهم الفينيقيون ديونيسيوس اله الخمر. فضمّوا اليهِ باخس وغيره من الآلهة، مع ابلون اله الشمس واخته ديانا الاهة القمر. وكان خدامه (الكهان) يلبسون جلود الذبائح المقدمة له في الحفلات والاعياد. وهؤلاء هم الساتيريون — جمع ساتير — وساتير مخلوق خرافي عندهم نصفهُ انسان ونصفهُ تيس (ذكر في التوراة مع الاشارة الى ما كان يجري في تلك الحفلات الدينية من الرقص التمثيلي بجلود المعز. جاء في اشعياء ص ١٣ عدد ٢١: بل تربض هناك وحوش القفر، ويملأ البوم بيوتهم، وتسكن هناك بنات النعام، وترقص معز الوحش: فمعز الوحش ساتير الذي كان يمثله عباد باخس) اقول، كان الكاهن او صديقه يلبس جلد التيس مقنعاً كأنهُ يمثل «ساتير» ويرقص ويرنم منشداً اغاني باخس اله الخمر المعروف، وديونيسيوس زميله ومثيله. ويقال ان آلهة المأساة اربعة هم ديونيسيوس وباخس وابلون وديمتريوس. وان المأساة من اصل خمريات باخس. نشأ ذلك في نحو القرن السادس قبل المسيح. فيقف الشاعر على منصة عالية ليراه المحيطون بهِ، ويقف معهُ الكاهن او الزعيم. فيشرع في تلاوة الاغاني، او الالقاء، وزعيم المرنمين يتلقى منهُ ذلك في صورة محاورة تشتمل على اساطير الاولين والكائن في الوسط. والمرنمون يحيطون بهِ في شكل نصف دائرة تجاه

المذبح . وقد اضاف (ثيبس) القناع الى هذه الهيأة والمقصود منهُ اخفاء حقيقة الممثل عن العامة فكانوا يحسبون « ساتير » وممثله واحداً

بدأ هذا الطقس المقدس عندهم — على ما روى نيتشه — اورفيوس او بروميثيوس ، الذي سرق نار الآلهة من السماء ، وهبط بها الى الارض . فأضرم في صدور الاغريق تلك الجذوة التي اضرمت اوربا والعالم .وهي مثل نار (هورمزد) التي لا تطفأ . اقول : كان ذلك الفن الالهي الرصين يملأ فراغ النفس في العهد الدوري والابلوني والاتكي .فيقود الشعب الى مظاهر الورع والتعبد ومراسم الخشوع والتأدب . ففاجأه في المشهد ديونيسيوس الموسيقي المرح. اراد نيتشه ان يقول انه طرأ على المسرح الديني روح علمانية تخاطب نفوس الشبان بلا استئذان، فتخلب الالباب وتستلب اثمن ما ذخر في مخابىء الحياة . فراع العنصر الابلوني ذلك وحسب اصحابهُ لهُ أي حساب . هذا كان موقف الديونيسي والابلوني في مسرح باخس . وما عتم ان اقترنا اقتران الذكر والانثى فولدا الفن السامي ، وخمريات باخس ، والمأساة . هذه هي ذرية الـهي الفن . فقد توّج قرانهما بالامجاد بعد معارك طاحنة ختمت بميلاد انتيفون وكندرا. كان الوسط التاريخي والمسرحي مسقط رأس المأساة في حفلات باخس ، الذي ترى صورته في الآثار اليونانية طفلاً يلوذ بأمه او بالكرمة . وهو لا يريد ان يدرك من الحياة سوى معنى المرح والاستسلام البريء . وكان المرغون ينشدون الترانيم المنطوية على التسبيح والتعظيم والعامة يحسبون « ساتير » شخصاً حقيقيًّا .وذلك يعرب عن اميالهم الفطرية للحرية والقصوف ، وللرغبة في الحياة بحسب الفطرة ، على اكثر مما عناه جان جاك روسو لما ارسل نداءه الذي هزَّ بهِ اوربا قائلاً : عودوا الى الطبيعة :

استمال ممثلو « ساتير » ألباب الاغريق الذين كانوا يحبون ان يروا الآلـه في شخص الممثل المقنع . في وسط تلك الهيأة المسرحية بدأ فرينيخس المأساة . ومن ابطالها الاولين اسخيلس سنة ٥٢٥ ق . م. وصفوقليس سنة ٤٩٥ ق. م. ومن قبلهما ثيبس مستنبط القناع

كان هسيودس الشاعر اشد الابلونيين تطرفاً . ودونه في ذلك هوميروس الساذج (وكلمة ساذج هذه من مخرجات الشاعر شلر الالماني الشهير . ومعناها الاصلي على الفطرة) وكان ممثل العنصرين الابلوني والديونيسي ، ارخيلاوس الشاعر الغنائي . ثم تلاءمت الابلونية والديونيسية ، فجمعتا بين الطقس الديني ورغبة الانسان الفطرية في المرح والسرور . وليس الامر خيالاً عند الديونيسي . لانه كشاعر يرى التطبيق في اول مراتب الشأن . وهو يرمي الى تجلية حقيقة الحياة بآلامها وتقاليدها . والشعر اليوناني القديم يرمي الى الحقيقة دون الخيال. فأنشأ الشاعر الديونيسي يجلي هذه الحقيقة وهي نقطة تحوُّل في حياة المأساة . بها تخرج من طور الى طور . وقد حمي الوطيس بين اسخيلس وصفوقليس في اي التفسيرين اجدر بالاتباع

وآراء نيتشه ثقة في هذا الباب في اواخر القرن التاسع عشر . فأبان ان المأساة عنيت اولاً بديونيسيوس الذي ظهر في المسرح (اي اكثر من عنايتها بابلون)

تمام الانتقال

اجتمعت العناصر الآنفة الذكر ، الابلونية ، والديونيسية ، وحفلات باخس ، والتمثيل الديني، ورغبات العامة الفطرية ، وبقيت حلقة واحدة بها تتم ولادة المأساة. تلك الحلقة هي: تحويل التمثيل من آلهي الى انساني : ومن ديني الى علماني : والذي قام بهذه الحلقة هو يوريبيدس ، استاذ سقراط . هذا عرض اولاً على المسرح روايات تنطوي على احوال الحياة اليومية . فأخات الآلهة المسرح للناس . والبشر نفعيون اولاً وآخراً . فيؤثرون مصالح الحياة اليومية على شؤون الآلهة . فكان امراً طبيعيًّا التفاتهم الى التمثيل المسرحي العلماني، شأن التاريخ في كل ادواره، يبدأ في السماء وينتهي على الارض ، يبدأ في جنة عدن وينتهي في الشوك والحسك خارجاً . يبدأ في مقبّب الفلك بين الآلهة والالاهات وينتهي على ضفاف الانهار وفي الانجاد والاغوار. يبدأ في عالم الشعور والاحلام وينتهي في تقرير الواقعيات. ذلك ما حدث للمسرح بزعامة يوريبيدس . على ان التطور في الدرامة كما في غيرها من حلقات سلسلة الارتقاء لم يتم الا تدريجاً . ومع ان المأساة لم تصر ابلونية لا يمكننا حسبانها ديونيسية صرفةً . فهي طبيعة فنيَّة

جاء سقراط اثينا فاذهله اندفاع الناس وراء الحسيات بالحوافز الفطرية .وفي كلمة فطرة نلمس اتجاه سقراط ولباب فلسفته. ففند سقراط تلميذ يوريبيدس الفن الفاشي باثينا،كما فند الاخلاق والميول السائدة . وحيث اتجهت السقراطية تبينت نقص الاخلاق وسيادة الاوهام . فرأت من ذلك زيغ الاحوال وفسادها . ورسخ في نفس سقراط انه رسول الاصلاح العظيم . فدخل المعمعان اعزل،يدفع عن مصلحة الامة والفن لتحريرهما من فساد الشهوة والبطر

قال نيتشه : يسودنا التردُّد بديهة في امر سقراط . فن هو هذا الاعزل الذي يرمي الى قلب الصبغة الاغريقية ومن ابطالها : هوميرس وديونيسيوس واسخيلس وفيدياس وبيركليس وبيثا وبندار اسمى ابطال — الاغريق وابعدهم غوراً. افيستحق سقراط هذا اعجابنا ؟ويل ويل لك يا سقراط افقد حطّمت الفن الجميل بلكمة واحدة ولا يزال العالم مكبلاً بالثقافة السقراطية التي نقلتها الينا الثقافة من الاسكندرية. وآثار سقراط بادية في كل ما تمتد اليه ايدينا. وان من تصوَّر ذلك يصرخ قائلاً : — ما اعظم ديونيسيوس في وسطك ايها الجنس الهيليني : فيردُّ عليهِ شيخ توّج الشيب هامته : — بل قل ايها الاجني ما اعظم ما تحمّل هذا الجنس من الآلام حتى ابرز ذلك الجمال . ولكن اتبعني الى تمثيل المأساة ، وشاركني في التضحية في هيكلي ديونيسيوس وابلون

مصر — حنا خباز

مهاتما غاندي

— ٤ —

— طلب العلم في لندن —

غندي في السجن او خارجه قوة تحاذر . فني بلاد يكثر فيها الجوع ، يقام لصومه وزن كبير . فتتحرك طبقات الهندوس وتهتز الامبراطورية البريطانية وتردد اصداءه وانباءه صحف العالم في الشرق والغرب . ولايخفى ان غندي نقل الى سجن يونا ، بعد استئنافه للعصيان المدني ، على اثر انتهاء مؤتمر الدائرة المستديرة في يناير الماضي . ينام فيه في الفضاء ويستيقظ في الساعة الرابعة كل صباح ليقوم بفروض الصلاة ، ثم يمشي نحو ساعتين في حظيرة لا يزيد طولها على مائة ذراع ثم يغزل القطن ثم يطالع

وماذا يطالع غندي في سجنه ؟ لقد قرأنا في احدى صحف الغرب انه قرأ في خلال العام الماضي التوراة والانجيل — طبعة الملك جايمس — والقرآن . ثم كتباً مختارة لرسكن الانكليزي وتولستوي الروسي وثورو الاميركي

ويقال ان حكومة الهند عينت نحو عشرين غرشاً لتنفق على طعامه وما يحتاج اليه في السجن ولكنه لا يكلفها اكثر من خمسة قروش لانه لا يتناول الا العنب ولبن الماعز

وكنا قد نشرنا في مقتطف ابريل ومايو ويونيو ثلاثة فصول في طفولة غندي وحداثته تلخيصاً عن الكتاب الذي كتب فيه سيرته بالاشتراك مع المستر اندروز الانكليزي . وهذا فصل رابع يصف فيه حياته في انكلترا في اثناء طلب العلم فيها جدير بان يطالعه كل شاب يطلب العلم في انكلترا او غيرها

زار دكتور « مهتا » حجرتي وتفقد محتوياتها ، ثم هزّ رأسهُ علامة على عدم الرضا عنها ثم قال « هذا المكان لا يليق . إننا لا نهبط لندن للدرس ، بقدر ما نهبطها لممارسة الحياة والعادات الانجليزية ، ولهذا يجب عليك ان تعيش في اسرة . ولكن قبل ان تتقدم على هذا اظن انهُ يحسُنَ بي أن اعهد بك لاحد اصدقائي لتدرس الحياة وتمرن عليها »

ولقد قبلت هذا الاقتراح بكل شكران ، وانتقلت توًّا الى سكن ذلك الصديق . وكان هذا الصديق مثال الرأفة والتيقظ ، فعاملني معاملة الأخ وأخذ يعلّمني اصول السلوك الانجليزي . على ان غذائي اصبح مسألة معضلة . وكنت لا استسيغ الخضر المسلوقة من غير توابل . وتحيَّرت ربة البيت فيما يمكن أن تجهز لي من غذاء . وكنا نتناول عصيدة القرطم للافطار فكانت كافية ، ولكنيّ كنت اشعر بالجوع في وجبتي الظهر والمساء . وحاول صديقي الذي عهد بي اليه دكتور « مهتا » أن يغريني بأكل اللحم ، ولكني كنت اذكر له عهدي الذي عاهدت عليهِ امّي ، واظل صامتاً . اما وجبتا الظهر والمساء فقد

اعتدنا ان نتناول فيهما الاسفناخ والخبز والمربى . وكانت شهيتي غالباً ما تقوى ، ولكني كنت اخجل من ان اطلب اكثر من قطعتين او ثلاث قطع من الخبز ، معتقداً انهُ ليس من حسن الذوق أو الادب في شيء ان افعل غير هذا . وكنا لا نتناول اللبن في غير الصباح . ولقد امتعض صديقي يوماً من هذه الحال فقال لي بصراحة : « لو أنك كنت اخي ، اذن لامرتك بالاسراع في حزم امتعتك . ما هي قيمة عهد تعاهد عليهِ أمَّا غير مثقفة جاهلة بمجرى الاحوال هنا . ان عهدك هذا ليس عهداً على الاطلاق . انهُ لا يعتبر عهداً صحيحاً امام محكمة قضائية . وصبرك على الاخذ بمثل هذا الوعد ليس اكثر من خيال ووهم فارغ . وعكوفك عليهِ لا يعود عليك بأية فائدة هنا . انك اعترفت انك اكلت اللحم . وتذوقتهُ . ففعلت هذا في وقت لم يكن اكل اللحم فيهِ ضرورياً ، وتمتنع عنهُ في وقت تدعوك الحاجة اليهِ » . ولكني ظللت صلباً ولم تلن قناتي

وكثيراً ما كان يستمر هذا الصديق في سرد براهينهِ ، ولكن كان عندي قوة سالبة استقرت في نفسي اواجههُ بها كلما لجَّ في الكلام والتدليل على صحة رأيهِ . وكان كلما امعن في محاوراتهِ ، امعنت في عنادي . وكنت اصلي لله كل يوم ليحميني ، فحماني . ولم يكن عندي اية فكرة بيّنة في الله . بل كان مجرد إيمان اثر اثره . اما هذا الايمان فقد غرستهُ في نفسي مربيتي

عثرت خلال تجوالي في المدينة على مطعم للنباتيين في شارع فرنجدون . وكان لمجرد وقوع نظري عليهِ هزة فرح في نفسي كتلك الهزات التي يشعر بها الأطفال لدى عثورهم على شيء تعلقت بهِ قلوبهم الطاهرة . ورأيت قبل ان ادخل المطعم ومن وراء الزجاج ، كتباً عرضت للبيع ومن بينها كتاب « صولت » الذي عنوانهُ « الدعوة للحياة النباتية » فاشتريتهُ بشلن واحد ودلفت تواً الى حجرة الطعام . وهنالك تناولت اول وجبةٍ ارضتني منذ هبطت أرض انجلترا ، وشعرت بان الله ساعدني وأخذ بيدي

قرأت كتاب « صولت » من ألفهِ الى يائهِ ، فأثر فيَّ كل تأثير ولما قرأتهُ ، اصبحت نباتياً بالاختيار ، واني لأبارك ذلك اليوم الذي عاهدت فيهِ أمي على ذلك العهد . ولقد كنت امتنع من قبل عن اكل اللحم احتراماً للصدق والعهد الذي قطعتهُ لامي ، ولكني كنت أرغب من كل قلبي في ان يصبح كل هندي من اكلة اللحوم . وكنت اتطلع الى حلول الوقت الذي اكون فيهِ واحداً منهم أعالج الأمر بحرية وجهر وادعو غيري اليهِ . ولكنَّ اختياري الآن مال بي الى ناحية الحياة النباتية والتبشير بها اضحى كل همّي

وظهر لي ان الملابس التي قدمت بها من « بومباي » لا توافق ذوق المجتمع الانجليزي فبدلتها بملابس أوصيت عليها في مخازن الجيش والبحرية . واشتريت قبعة حريرية كلفتني تسعة عشر شلناً . ولم اكتف بهذا فانفقت عشرة جنيهات على بذلة للسهرة اوصيت عليها في

محل « بيوند ستريت » وكتبت لاخي ليرسل اليَّ سلسلة ذهبية . ورأيت انهُ ليس من حسن الذوق ان البس رباط رقبة مربوط ، فتعلمت كيف اربط رباط الرقبة بعد مرانة عليهِ . ولم اعتد في الهند النظر في المرآة ، بل كانت المرآة من ادوات الترف لا انظر فيها الاَّ في اليوم الذي يزورنا فيهِ حلاق الاسرة . اما في لندن فكنت اقضي كل يوم عشرة دقائق امام مرآة كبيرة ، انظر فيها كيف أعدل رباط رقبتي وامشط شعري على طريقة مألوفة ولم يكن شعري ناعماً فكانت تقوم في صبيحة كل يوم معركة مع المشط والفرشاة حتى يستقيم وتسفر المعركة عن توليفهِ بطريقة منتظمة . وكنت في كل فترة اخلع فيها القبعة او اضعها فوق رأسي ، تمر يدي على شعري بطريقة اوتوماتيكية لاصلح شعري واحفظ نظامه

وكل هذا ايضاً لم يكن كافياً. فبدأت اوجه انتباهي الى تفاصيل اخرى . فرضت اني اذا عكفت عليها استطعت ان اخرج من نفسي سيداً كريماً (جنتلمان) على الطراز الانجليزي . وقيل لي انهُ من الضروري ان اتلقى دروساً في الرقص واللغة الفرنسية وفن الالقاء . فصممت على ان ادرس الرقص في معهد ، ودفعت ثلاثة جنيهات اجراً على دورة لتعلم الرقص مداها ثلاثة أسابيع. وكنت احتاج الى ستة أسابيع لاعرف كيف أرقص ولكني وجدت اني عاجز عن أن اقوم بحركات متزنة مؤتلفة ، لاني لم اكن استطيع ان اتبع توقيع البيانة ، فيستحيل عليَّ ان أوفق بين حركة اقدامي وتقسيم التوقيع . ولكن ماذا أفعل ؟ تروي اسطورة ان ناسكاً احتفظ بهرة في منسكه ليقاوم الفئران ، ثم ببقرة لتغذي الهرة بلبنها ، ثم برجل ليخدم البقرة ، وهكذا . ولا ريبة في ان مطامعي اخذت تتكاثر ويتبع بعضها بعضاً ، مثل الناسك . ففكرت في أن اتعلم العزف على الكمان حتى أعوّد اذني على أنغام الموسيقى الغربية وتوقيعاتها. فاشتريت كماناً بثلاثة جنيهات واضفت الى الجنيهات الثلاثة مبلغاً من المال اجراً لمعلمة ، واخذت ابحث عن معلم ثالث ليعلمني فن الالقاء ، ودفعت لهُ جنيهاً لأبدأ عليهِ درسي وامرني بان اشتري كتاب « بل » — Bell — في فن الالقاء ، فاشتريتهُ غير وانٍ

غير ان كتاب « بل » هذا كان اول شيءٍ قرع « الناقوس »[1] في أذني فصحوت من هذه الغفوة النفسية . قلت في نفسي « انك سوف لا تقضي عمرك في انجلترا ، فما الفائدة في تعلم فن الالقاء »؟ والآن « هل من الممكن أن أصبح بتعلم الرقص جنتلماناً » ؟ والكمان عجزت عن تعلمها حتى في الهند . وما دمت في طور التلمذة ، فيجب عليَّ ان اعكف على دروسي فاذا أهلت بي اخلاقي لان تخرج مني جنتلماناً فهذا خير من كل ما عداه . وعلى هذا اوجبت على نفسي أن اترك كل هذه الاشياء

اكتنفتني هذه الافكار ومثيلاتها ، وكتبتها في خطاب ارسلت بهِ الى معلم فن الالقاء

(١) بين كلمة « بل » وهو اسم مؤلف الكتاب وكلمة ناقوس جناس ، لان الناقوس في الانجليزية اسمه « بل »

راجياً ان يعفيني من اتمام دروسي . ثم ارسلت بخطاب آخر الى معلم الرقص ، وذهبت بنفسي الى معلمة الكمان ، لاعتذر اليها ولاقول لها بانها تستطيع ان تتصرف في الآلة الموسيقية باي ثمن يمكن الحصول عليه . كانت مخلصة ودودة ، فاخذت اظهر لها كيف أني تبينت اخيراً اني اتبع املاً خاطئاً ، فشجعتني على ان اتابع ما صممت عليه من تغيير خطتي تغييراً كلياً . ولقد استمرَّ ولعي بهذه الاشياء ثلاثة اشهر . اما المحافظة على هندامي فقد استمرَّ سنين عديدة ولكني رجعت على كل حال تلميذاً ، بعد أن تخليت عن افتتاني هذا

وليس من حق احد ان يظن أن تجاربي في تعلم الرقص وامثاله من الاشياء كان طوراً من اطوار الانغماس في الملذات قطعتهُ في حياتي . فاني حتى في اثناء ولعي بهذه الاشياء ، كنت مالكاً لكل قوى نفسي ، ولم يتحرر طور افتتاني بهذه الخيالات من تأمل عميق كنت اقع صريعه الفينة بعد الفينة . وكنت اقيد حسابي فلا اهمل ذكر المليم والدانق الذي أصرفهُ . وبدأت اناقش نفسي في نفقاتي ، فاستبان لي انهُ من الضروري ان اقتصد . وعلى هذا صممت على ان أختزل نفقات حياتي الى النصف . فقد استبان لي من مناقشة الحساب أن ابواباً كثيرة تذهب أجوراً . ووجدت من جهة اخرى ان معيشتي في وسط اسرة يستدعي ان ادفع حسابي كل اسبوع . فأقلعت عن عادة التحبب الى افراد الاسرة بدعوتهم الى الطعام ، كما رفضت ان اقبل دعواتهم اذا انصرفوا الى النزهة او اللهو . وكل هذا كان يستدعي زيادة في النفقات . فاذا كانت رفيقتك في النزهة سيدة وجب عليك ان تقوم بكل النفقات . وظهر لي ايضاً ان الاكل خارج المنزل كان اسرافاً ، لان كل الوجبات التي لا اتناولها في المنزل لا تنقص من الحساب الاسبوعي شيئاً . ولماذا لا اوفر على نفسي كل هذه الابواب ؟

صممت على ان اؤجر حجراً مستقلة ، بدل ان اعيش مع اسرة ، وبذلك اتمكن من الاختلاف من مكان الى آخر على مقتضى طبيعة اعمالي التي اقوم بها ، فاكسب تجربة وعلماً . فانتقيت الغرف التي اجرتها بحيث كانت لا تبعد عن محل عملي اكثر من نصف ساعة مشياً على القدم ، وكذلك اخذت اقتصد في الاجور التي أنفقها . وكنت قبل ذلك لا انتقل من مكان الى آخر الاّ راكباً ، قائلاً انني استطيع ان اقتصد من الوقت ما اقضيه في النزهة ماشياً . اما الترتيب الجديد فكان نزهة واقتصاداً ، إذ استطعت ان اقتصد اجور الانتقال وان اقطع كل يوم ثمانية او عشرة اميال سعياً على قدميَّ . ولقد أفادتني عادة المشي فوائد جلى ، فحفظتني من الامراض طيلة مقامي في انجلترا ، واكسبتني قوة في البدن وشدة في الاصلاب

حدث بعد هذا بقليل ان قرأت كتباً في الحياة البسيطة ، سارعت بعدها الى ترك حجراتي واستأجرت بدلاً منها حجرة واحدة مهيأة بمدفأة ، ومضيت اجهز افطاري بنفسي وفي حجرتي ، ولم يكن يشغلني هذا اكثر من عشرين دقيقة ، اذ لم يكن لي من حظ في وجبة الصباح اكثر

من عصيدة القرطم وماء ساخن للكاكاو . وبهذا استطعت ان اعيش بشلن وثلاثة بنسات كل يوم . وكان هذا الوقت وقت اكباب على الدرس وافتتان به . ولقد وفرت عليّ هذه الحياة البسيطة كثيراً من وقتي ، فاجتزت الامتحان . على ان هذا الاقتصاد لم يجعل حياتي جافة كما يخيل الى البعض . بل على الضد من هذا ، فان التغيير الذي ادخلتهُ على نمط حياتي اكسبني ألفة شملت حياتي النفسية والجسمية . بيد أن الطريقة التي اتبعتها كانت تلائم موارد اسرتي ، فضلاً عن أنها كانت اقرب للاستقامة ، فعمَّ نفسي بذلك فرح لا يوصف

منذ اربعين سنة خلون لم يكن في لندن من الطلاب الهنود سوى عدد ضئيل . وكانت العادة ان يعيش هؤلاء عيش العزوبة ولو كانوا متزوجين . ذلك لانه يشترط في طلاب المدارس والجامعات ان يكونوا غير متزوجين ، لانهم يعتقدون هنالك ان حياة الطلب والدرس لا تتفق مع الزواج . وكانت لنا هذه العادة في الهند خلال الازمان القديمة ، ولكنا استبدلناها في العصور الحديثة بتزاوج الاطفال ، وهي عادة غير معروفة في انجلترا . وكثيراً ما كانت تعلو حمرة الخجل وجوه شباب الهند عندما يضطرون الى الاعتراف بانهم متزوجون . ولقد اخذتني عدوى هذه العادة فقيدت اسمي أعزبا ، على الرغم من اني كنت متزوجاً ولي ابن . ولكني لم أكن سعيداً بان اشعر اني خادعت وراءيت . ولكن خجلي وصمتي وتكتمي ، كل هذه الاشياء حملتني عن ان أدلف الى اعماق اشد غوراً

كنت مرة في صحبة اسرة من « فنتور » امضي اجازتي . والعادة في مثل هذه الاسر ان تصحب الفتاة بنت صاحبة البيت ضيوف اهلها للنزهة والتريض . فاصطحبتني الفتاة يوماً الى تلال جميلة هادئة تحيط ببلدة « فنتور » ولست ممن يتئدون في المشي ، ولكن رفيقتي كانت اسرع مني خطواً ، فجرتني وراءها واخذت تثرثر طيلة الوقت . وكنت اجيب على ثرثرتها المرة بعد المرة بكلمة «نعم» او «لا» ، وفي بعض الاحيان بكلمة «نعم.ما اجمل هذا او ذاك». وكانت كأنها طير يطير ، وظللت أفكر متى نعود الى المنزل بعد ان ضربنا في المسير وبلغنا قمة تل . ولكننا لم نكد نعتلي القمة حتى اخذت افكر كيف نهبط مرة اخرى . وعلى الرغم من حذائها العالي الكعب ، فان هذه السيدة التي كادت تتجاوز من العمر الخامسة بعد العشرين ،هبطت من فوق التل كأنها سهم زل عن كبد القوس . اما انا فكنت في حيرة الخجل أجاهد لاهبط ذلك المرتقى الوعر . ووقفت هي تبتسم وتشجعني وتعرض عليَّ ان تأتي لنجدتي . وبكل ما يمكن ان يتصور ذهني من الصعوبة اخذت اعالج الامر فأتساند مرة وأزحف على ركبتي اخرى حتى استطعت ان اهبط الى سفح التل ، فصاحت بملء فيها « برافو » . ولكن ضحكاتها اوقعتني في خجل مرير لا استطيع وصفه

غير اني لم استطع ان افلت من غير إضرار . لان الله اراد ان يخلصني من مرطان الكذب والبهتان

ذهبت مرة الى « برينْتُن » ؛ وقابلت هناك أرملة عجوزاً معتدلة الثروة . حدث هذا خلال السنة الاولى من اقامتي في انجلترا . وكان جدول الطعام في الفندق مكتوباً بالفرنسية التي لا اعرف منها الا القليل . وجلست الى المائدة التي جلست اليها هذه الارملة . وقد لحظت اني غريب واني مرتبك ، فسارعت الى مساعدتي . بادرتني قائلة : « يظهر انك غريب وانك مرتبك . لماذا لم تطلب شيئاً ما » ؟ فشكرتها وابنت لها عن الصعوبة التي تعترضني لاني لا استطيع ان اميز بين الوان الطعام وأيها يتفق وخطة النباتيين لاني لا اعرف الفرنسية الاّ جهداً فقالت : « اسمح لي ان اساعدك . سأوضح لك الالوان وارشدك الى ما تأكل » . وكانت هذه بادرة علاقة استحالت الى صداقة استمرت طوال مقامي في انجلترا وزمناً طويلاً بعدها . واعطتني عنوانها في لندن ودعتني الى الغداء في بيتها كل يوم احد ، فكانت تحتفي بي وتقدمني الى فتيات وتحملني على الاشتباك معهن في الحديث. وكان من بينهن على الاخص سيدة فتية كانت تقيم معها ، وغالب ما كانت تتركنا معاً في وحدة شاملة

شعرت اولاً بان الامر شاق متعب . فكنت لا استطيع ان ابدأ حديثاً ، ولا اقدر على ان اشترك في فكاهته . ولكن هذه السيدة الفتية قادتني الى الطريق ورسمت لي الخطة . وبدأت اتعلم. ومع مرور الزمن بدأت اتشوق الى يوم الاحد من كل اسبوع ، واخذت أميل الى التحدث الى صديقتي الشابة

واخذت الارملة العجوز تمد اطراف شباكها يوماً بعد يوم .كانت تظهر الاهتمام بمقابلاتنا. وليس من البعيد انها كانت تختط من حولنا خطة تحاول تنفيذها . فتولتني حيرة مزعجة . كيف اقوى على ان اخبر ربة البيت باني متزوج ؟ غير اني تمنيت لو اني اخبرتها . اذن رأت ان من الصعب عقد خطبة بيننا . ولكن الوقت لم يكن قد فات بعد . ورأيت ان اعلان الحق كفيل بان يوفر عليّ تعساً اكبر من التعس الذي اشعر بهِ . وبهذه الفكرة كتبت لربة البيت خطاباً جاء فيهِ :

«لقد شملني عطفك منذ ان تقابلنا في برينْتُن لاول مرة ، حتى انك عنيت بي كما تعنى الام بابنها ، وفكرت في ان اتزوج ، واخذت تقدمينني لفتيات لأعقد معهن يوماً اواصر الالفة والصداقة . ولاني لا ارغب في ان تتمادى الامور الى أبعد مما وصلت الآن ، اصارحك باني لم اكن خليقاً بعطفك هذا . كان من الواجب عليَّ ان اعرفك منذ بدأت زياراتي لمنزلك اني متزوج . فقد عرفت ان طلبة العلم من الهنود يخفون في انجلترا امر زواجهم ، فتابعتهم في هذا . واني لآسف لاني اضطررت لان اخفي عنك الحقيقة طوال هذه المدة . ولكني الآن مغتبط لان الله قد أمدني بشجاعة حملتني على ان اقول الحق وان اصارحك به . فهل لك ان تغفري لي ؟ واني لأوكد لك باني لم اتجاوز حد الآداب مع السيدة التي تفضلت بان قدمتني

لها . فاني اعرف الحدود التي يجب ان اقف عندها . اما انت ،فلانك كنت جاهلة امر زواجي، فقد رغبت في ان تتم خطبتنا . ومن اجل اني رغبت في ان لا تتجاوز الامور حدها الذي بلغت اليهِ ، رأيت واجباً عليَّ ان اطلعك على الحقيقة

« اما اذا وصلك هذا وكان شعورك باني كنت غير خليق بان اوجد تحت سقفك وفي ضيافتك ، فاني أؤكد لك بان ذلك يسوؤني كل الاساءة . ان لك في عنقي ديناً لا يوفيه عرفان الجميل والشكران جزاء ما اظهرت نحوي من العطف والحنو . فاذا رأيت بعد هذا أن لا تطرحيني واني جدير بكرمك الذي سوف لا آلو جهداً في أن اجعله من نصيبي ، فلا شك في اني اكون سعيداً ، واعتبر ان هذه خاطرة اخرى من خاطرات حنوك وعطفك »

كتبت هذا الخطاب مرات لانقحهُ مرة بعد اخرى . ولكن على كل حال حمل عن كاهلي عبئاً كنت اشعر بثقل وطأته . وفي عودة البريد وصلني الرد فكان فيهِ ما يلي :

« وصلني خطابك الذي عبرَّ عن اخلاصك . ولقد اغتبط بهِ كلانا ، كما اضحكنا كثيراً . فان الحقيقة التي اخفيتها عنا وتعتقد أنك أجرمت في اخفائها يمكن العفو عنها . ولكنك احسنت في انك اوقفتنا على حقيقة حالك . وان دعوتي لك ما تزال جارية كما كانت ، وانا لفي انتظارك يوم الاحد المقبل وتتشوق الى سماع رواية زواجك وانت طفل لعلنا نسرُّ ونضحك بعض الشيء ونسري عن انفسنا على حسابك . ولست في حاجة لان أؤكد لك ان صداقتي لم تمس من جراء هذا الحادث »

بهذا طهرت نفسي من سرطان الكذب والبهتان . وما ونيت منذ ذلك الحين ان اتكلم عن زواجي كلما سنحت فرصة للكلام فيهِ

قبل ان تنتهي سنتي الثانية في انجلترا ، بدأت علاقتي باخوين من الآخذين بمبدإ الثيوصوفية — theosophism — وكان كلاهما غير متزوج : وتكلما معي عن اسفار « الغيتا » — The Gita — وكانا في ذلك الوقت مكبين على قراءة ترجمة سير « أدوين ارنولد» لكتابنا المسمى « الاغنية السماوية» ودعياني لان اقرأ الاصل معهما . فشعرت بالخجل لاني لم اكن قد قرأت« الاغنية السماوية» لا في اللغة السنسكريتية ولا في اللغة الجوجراتية . فاضطررت لان اصارحهما باني لم اقرأ « الغيتا » ، ولكني اقرأه معهما بسرور ، وان معرفتي بالسنسكريتية ان كانت « لجة » ناقصة ، فقد املت ان افهم الاصل بحيث استطيع ان اعرف اين عجزت الترجمة عن التعبير عن المعنى . وبهذا بدأت اقرأ « الغيتا » معهما . ولقد اثر فيَّ جانب من الفصل الثاني تأثيراً لا ينسى ، وعلى الاخص المقطوعة الآتية :

« اذا عكف الانسان على حاجات البدن ، فهنالك يبدأ الميل اليها ،ومن الميل تتولد الرغبة ومن الرغبة تتولد نيران الشهوة المفترسة . والشهوة تولد الطيش والتهور .وبذلك تخون الانسان

الذاكرة ، فيقضي على الاغراض النبيلة ، ويتقوض بناء العقل ، فيفنى الغرض والعقل والانسان »

ولقد ظهر لي ان الكتاب لا يقدر بثمن . وهذه الفكرة التي كونتها في اسفار « الغيتا » ما تزال حتى اليوم تنمو وتتطور في نفسي ، حتى اني لاعتبرها اليوم اسمى كتاب يعرفنا الحق . ولقد امدني هذا الكتاب باكبر المساعدات في اشد ساعات محنتي حلكة وقرأت بعد ذلك كل الترجمات الانجليزية التي ظهرت لهذه الاسفار ، فرأيت ان ترجمة سير أدوين ارنولد احكمها وأصفاها . فقد حافظ على الاصل ، مع انهُ صقلها فكانت بعيدة عن روح الترجمة . وعلى الرغم من اني قرأت « الغيتا » مع هذين الصديقين ، فاني لن ادعي اني درستها اذ ذاك . ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ بدأت اصحب « الغيتا » اذ جعلتهُ كتابي اليومي

ارشداني بعد ذلك الى كتاب آخر بقلم سير « ادوين ارنولد » عنوانهُ « نور آسيا » . وكنت لا اعرف ان للمستر « ارنولد » كتاباً آخر غير « الاغنية السماوية » . فقرأت ذلك الكتاب بلذة واكباب لم اجدهما حتى في قراءة الغيتا . وما فتحت الكتاب حتى اختلبني فلم استطع ان القيَهُ من يدي . وصحبتهما بعد ذلك الى محفل « بلافاتسكي » وقدَّماني الى مدام « بلافاتسكي » ومسز « بزانت » . وكانت مسز بزانت قد انتمت الى الجمعية التيوصوفية حديثاً ، فتتبعت بكل عناية حديث اعتناقها لهذا المذهب . ونصح لي الصديقان ان انتمي للجمعية ، ولكني رفضت بأدب قائلاً « إنَّ معرفتي بحقائق ديني غير تامة ، ولهذا لا أريد ان اتصل باي جماعة دينية » . واذكر اني قرأت بارشادهما كتاب مدام « بلافاتسكي » « مفتاح التيوصوفية » . ولقد كان من اثر قراءتي لهذا الكتاب ما حملني على ان اقرأ كتباً اخرى عن الهندوكية ، خرجت منها بفكرة كاملة في تحامل المبشرين على الدين الهندوكي ، اذ يزعمون انهُ مدخول بالخرافات والأساطير

في ذلك الوقت قابلت نصرانياً مستقيم الفكر في « مانشستر » في فندق خاص بالنباتيين . فتكلمنا في الدين النصراني . واطلعتهُ على ما ثبت في ذهني من اعمال المبشرين في راجكوت . فتألم مما سمع وقال « انا من النباتيين ولا اشرب الخمر . وكثير من النصارى يأكلون اللحم ويعاقرون بنت الحان . ولكن كلا الأمرين غير مسموح بهِ في الاناجيل . ارجوك ان تقرأ « الكتاب المقدس » . فقبلت نصحهُ واعطاني نسخة . ويخيل اليَّ ، بقدر ما تسمح بذلك ذاكرتي ، انهُ كان يبيع الكتب المقدسة ، واني اشتريت منهُ نسخة تحتوي على خرائط وفهارس للكلمات وغير ذلك من وسائل المساعدة على مطالعة الكتاب . واخذت اطالعهُ ، ولكني عجزت عن ان اتم قراءة العهد القديم . قرأت سفر التكوين . اما الفصول التي تتلوه فقد بعثت بالنعاس الى جفوني فتثاقلت واخذني الاغفاء . غير اني حملت نفسي على متابعة القراءة لا استطيع ان اقول اني قرأت الكتاب ، فتصفحت الاسفار الاخرى بصعوبة ، وباقل

ما يمكن ان تتصور من اللذة او القدرة على النهم . وكرهت ان اقرأ سفر العدد

اما العهد الجديد فقد اثر في نفسي تأثيراً مخالفاً كل المخالفة لهذا ، وعلى الأخص «موعظة الجبل » فانها وجدت طريقاً مباشراً الى قلبي . ولقد اخذت اوازن بينها وبين الغيتا ، وتخلقت بقول عيسى « لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ايضاً . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء» . وكان تأثيره في نفسي بالغاً لا يقاوم . وزين لي عقلي الصغير أن أوحد بين الغيتا ونور آسيا وموعظة الجبل

وكان من اثر مطالعاتي هذه ان ولعت بقراءة سير اصحاب الاديان الاخرى. وأرشدني صديقي الى كتاب كارليل « الابطال وعبادة البطولة » وقرأت الفصل الذي عقده في « البطل في صورة نبي » وعرفت منهُ عن نبي الاسلام العظمة البالغة والشجاعة النادرة وعيشة التقشف والصلابة

وما عدا هذه المطالعات التي دارت حول الدين ، لم اقرأ شيئاً ، لان ميعاد الامتحان كان قد قرب وبذلت كل جهدي في الاكباب على الدرس . ولكن اتجه فكري الى ضرورة ان أقرأ عن الدين اكثر مما قرأت في كتب الدين وان المّ بكل الاديان العظمى

وكيف استطيع ان اعرف شيئاً عن الالحاد وانكار وجود الله بجانب هذا ؟ ان كل هندي يعرف اسم « برادلو » — Bradlaugh — والحاده . فقرأت في الالحاد كتاباً نسيت اسمه ، لانهُ لم يترك اي أثر في نفسي ، وكنت اذ ذاك قد اقتحمت مفازة الالحاد. وكانت مسز «بزانت» في ذلك الحين قد انتقلت من الالحاد الى الالوهية ، فقوّى هذا الحادث عندي الزهد في الالحاد، بعد ان قرأت كتابها « كيف اصبحت ثيوصوفية » ؟

***

في ذلك الحين مات « برادلو » ودفن في مدفن « بروكوود » . ولقد شهدتُ الجنازة ، كما شهدها كل هندي مقيم في لندن . وكان فيها قليل من رجال الدين ليقوموا بآخر واجباتهم نحو الراحل . وعند عودتنا اضطررنا ان ننتظر في محطة السكة الحديدية مقدم القطار ، فتقدم احد زعماء الالحاد من احد رجال الدين وسأله : « أتعتقد يا سيدي في وجود الله » ؟ فاجابه الرجل « أفعل » مخفضاً من صوته . فاجابهُ الملحد وعلى فمه ابتسامة الواثق من نفسه . « أتسلم ايضاً ان محيط كرة الارض ٢٤٠٠٠ ميل ؟ اتوسل اليك ان تعرفني ما هو حجم إلهك وأين هو ؟ »

« نعم . لو اننا عرفناه حقاً ، إذن لعرفنا ان مثواه في قلبينا معاً »

— « لا تهزأ بي كما تهزأ بطفل » — قال الملحد هذه الكلمات وفي عينيه نظرة المنتصر الظافر . ولكن رجل الدين احتفظ ازاء هذه النظرة بصمت مهيب

وكان لهذا الحديث اثر في نفسي زادني بغضاً في الالحاد وزهداً فيه

هبط انجلترا في ذلك الوقت هندي معروف هو « نارايان همشاندرا » وكنت سمعت عنهُ ككاتب. وكنا اول ما تلاقينا في منزل مس « مانتنج » وهي من اعضاء الجمعية الهندية الوطنية. واعتدت أن ألزم الصمت التام كلما زرت بيتها فلا اتكلم الاّ اذا كُلّمت. فقدمتني الى « همشاندرا » ولم يكن يعرف الانجليزية. بل كان هندامه عجيباً. بنطلون غليظ صفيق. ومعطف كثير الثنايا متسخ رمادي اللون، مقصوص على الطريقة « الباريسية »، ثم انهُ كان بلا زيق وبلا رباط للرقبة. وعلى رأسهِ قلنسوة من صوف يتدلى منها زر كبير، وعلى صدره تترسل لحيه كثة طويلة. كان ضئيلاً قصيراً. وشابت وجهه المستدير ندوب الجدري، واستوى في وسط ذلك الوجه انف ليس بالدقيق ولا بالغليظ. ومثل هذا الشخص الغريب بملبسه هذا، كان مرشحاً لان يزحم جماعات لندن المعروفة باناقتها

كنا نتقابل كل يوم. واتضح لي ان هنالك توافقاً كثيراً بين ما يجول في رأسينا من الافكار وما نعتزم من العمل. وكلانا كان نباتيًّا. وغالب ما كنا نتعاطى طعام الظهر معاً. وكنت في ذلك الوقت اعيش بسبعة عشر شلناً في الاسبوع واطهي طعامي بنفسي. وكنت اختلف الى حجره آونة بعد أخرى، كما كان يختلف هو الى حجرتي. وكنت اطهي على الطريقة الانكليزية، ولم يكن يلتذ الاّ بالطهي على الطريقة الهندية. كنت اصنع شوربا الجزر وكان يرني لذوقي. وعثر مرة على قليل من العدس فطبخهُ وحضر بهِ الى سكني. فأكلت منهُ بشوق وشغف ومنذ ذلك اليوم كنا نتبادل ما نطهي. كنت اذهب اليهِ بالواني النادرة، وكان يحضر اليّ بالوانهِ

كان اسم الكردينال « مانتنج » على كل لسان. وكان اعتصاب عمال احواض السفن قد قضى عليهِ باسرع ما تصور انسان بفضل مساعي « جون برنز » والكردينال « مانتنج ». وحدثت « نارايان همشاندرا » عن شكر « دزرائيلي » ومدحهِ بساطة الكردينال: فقال « اذن فلا بد لي من ان ارى ذلك الحكيم »

« انهُ رجل عظيم القدر، فكيف تتوقع ان تقابلهُ » ؟

« ولماذا. اني اعرف كيف يكون ذلك. سأجعلك تكتب لهُ نيابة عني فتقول له اني مؤلف واني اريد ان اهنئهُ شخصيًّا بعملهِ الانساني، واني ساصحبك معي كترجم لاني لا اعرف الانجليزية »

فكتبت خطاباً بهذا المعنى. وبعد يومين او ثلاثة وصلتنا بطاقة من الكردينال مانتنج محدداً لنا موعداً. فذهبنا اليهِ معاً. اما انا فارتديت بزة الزيارات. وبقي « نارايان همشاندرا » كما هو بمعطفهِ المعروف وبنطلونه الذي وصفت. وحاولت ان اهزأ بهِ، ولكنهُ ضحك مني قائلاً:

« انتم معشر المتمدنين جبناء. ان العظماء لا يعنون بمظاهر الاشخاص. انهم ينظرون في القلوب »

ودخلنا قصر الكردينال . وما إن اخذنا مجلسنا حتى دخل علينا « جنتلمان » نحيف طويل القامة وسلم علينا يداً بيد . . وهنا بدأ « نارايان همشاندرا » مقولته :

«لا اريد ان اضيع عليك وقتك .فقد سمعت عنك كثيراً وشعرت واجباً عليّ ان احضر اليك لاشكرك على ما فعلت من خير للمضربين . ومن عادتي ان ازور حكماء الدين . ولهذا اضطررت ان ازعجك بزيارتي » وكان يتكلم باللغة الجوجراتية ، وانا اترجم الى الانكليزية

فرد عليه الكردينال قائلاً : « اني لمسرور بزيارتك . وآمل ان تكون اقامتك في لندن مواتية وان تتمكن من الاتصال بالقوم هنا . وليباركك الله » ولما اتم هذه الكلمات وقف وودعنا

زارني « نارايان همشاندرا » مرة في قميص ودوقيه [1] كما نلبس في الهند . ولم تكد ربة البيت تفتح الباب اذ قرعهُ حتى ارتدت اليّ مفزوعة :— «رجل بهِ مس يريد ان يراك » —

فسارعت الى الباب وكم كانت دهشتي عند ما رأيت همشاندرا على هذه الصورة وفي هذا الزي . فأُخِذتُ . غير ان وجهه لم ينم عن شيء ، اللهم الاّ على تلك الابتسامة الهادئة التي عُوِّدناها منهُ

« ولكن الم يهزأ بك الاطفال في الطريق » ؟

«نعم فعلوا . فلما اهملتهم سكتوا »

وذهب نارايان همشاندرا الى باريس بعد ان اقام في لندن بضعة اشهر . وبدأ يتعلم الفرنسية وحاول ان يترجم منها كتباً . وكنت اعرف من الفرنسوية قدراً مكنني من مراجعة ترجمتهِ ، فأعطانيها لاطالعها. وسرعان ما استبان لي انها لم تكن ترجمة بل مادة جديدة

وأخيراً صمم على ان يزور اميركا . وبكل صعوبة استطاع ان يحصل على تذكرة سفر في الدرجة الرابعة . ولما كان في اميركا حوكم لانهُ قليل الاحتشام في ملبسهِ ، لانهُ خرج يوماً في قميص ودوقيه . واذكر انهُ بُرِّىء من هذه التهمة

كان من السهل عليّ ان ازاول مهنة المحاماة في انكلترا . ولكن المرانة كانت غير ميسورة المنال . كنت قد درست القانون كمادة اساسية ،ولكني لم ادرس كيف اتابع الاجراء القانوني. درست مبادىء القانون ، غير اني لم ادرس كيف اطبقها في مزاولة مهنتي

كانت الشكوك تمزق احشائي تمزيقاً خلال درس القانون . فأطلعت بعض اصدقائي على ما ارى من هموم . واقترح احدهم ان الجأ الى « دباباي نايوروجي » في طلب العون والنصيحة. وكنت اشعر بأنهُ ليس من حقي في شيء ان ازعج مثل هذا الرجل العظيم واشغله بنفسي ،

---

(١) عبارة عن قطعة طويلة من قماش القطن ، تطوى حول الوسط وتغطي الجزء الاسفل من الجسم

على الرغم من اني كنت احمل اليه كتاب توصية من الهند . وما فاتني يوماً أن احضر خطاباً ازمع القاءه ، بل كنت اذهب الى المكان واصغى اليه من ركن في الحجرة كنت آوي اليه ، ثم انصرف بعد ان اشبع سمعي وبصري . ومن اجل ان يكون اكثر احتكاكاً بالطلبة اسس جمعية . واعتدت ان احضر اجتماعاته وكنت اسر كل السرور بما ارى من اشفاقه على الطلبة ومن احترامهم له . وعلى مدى الزمان استجمعت شجاعتي وقدمت له كتاب التوصية. فابتدرني بقوله « يمكنك ان تحضر اليّ لتتلقى نصائحي في اي وقت تشاء» ولكني لم احاول ان انتفع قط من وعده هذا بشيء

ولقد نسيت الآن ان كان صديقي هذا بعينه هو الذي قدمني الى مستر« فردريك بنكت» — Mr-Frederick Pincutt — كان من حزب المحافظين، ولكن عطفه على الطلبة الهنود كان صافياً ومن غير شائبة . ولقد سأله كثير من الطلبة النصح والمساعدة ، وسألته بدوري ان احظى بموعد ، فلم يبخل به . ولن انس ما اعيش هذه المحاورة . فلقد رحّب بي كصديق وهزأ بتشاؤمي قائلاً : « كن على يقين من انهُ ليس بشيء غير عاديّ ان يصبح الانسان محامياً ذا مرانة وحصافة . فالامانة والعمل كافيان لان يجعلاه يعيش . وليست كل القضايا مرتبكة الاجزاء كما تتوهم . ولكن عرفني ما هي معلوماتك العامة ومطالعاتك »

فلما اطلعته على مقدار معرفتي ، وهي ضئيلة ، رأيت انهُ امتعض . ولكن امتعاضه لم يستقم اكثر من دقيقة وسرعان ما اشرق وجهه بابتسامة مرضية وقال :

« لقد فهمت السر في اضطرابك . ان معلوماتك العامة ضعيفة . انك قليل الخبرة بالدنيا. والدليل انك لم تقرأ حتى تاريخ بلادك . ان المحامي يجب ان يدرس الطبيعة البشرية ، وواجب على كل هندي ان يُلِمَّ بتاريخ الهند . وليس لهذا من علاقة بمزاولة مهنة المحاماة . ولكن ينبغي لك ان تعرف هذا . واتضح لي انك لم تقرأ شيئاً مما كتب « كاي » او « ملِسون » عن تاريخ العصيان في الهند . الجأ الى هذا في الحال ثم اقرأ كتاباً او كتابين في الطبيعة البشرية »

شعرت باني مدين باكبر دين لذلك الصديق الذي أمدني بهذه المساعدة القيمة . على ان نصيحة « بنكت » ان كانت لم تفدني فائدة مباشرة ، فاني استعضت بصداقتهِ عما خيل اليَّ ان انال من فائدة بنصحهِ . وان وجهه الغُر البسوم ما يزال حياً في مخيلتي ، وما زلت اعتقد ان الكفاية العليا ليست ضرورية لكي يكون الانسان محامياً ناجحاً في الحياة . فالامانة والاكباب على العمل يكفيان . ومذ كان لي في الحياة نصيب من هاتين الصفتين شعرت باني حققت قوله

فلما اجتزت الاختبار النهائي في القانون ، انقضت مدة اقامتي في انجلترا

اسماعيل مظهر

الجريمة والعبقرية



اذا درسنا المجرمين والعبقريين والنابغين من رجال العلم والتأليف والفن ، الذي تمتلىء باسمائهم سجلات الخلود العالمية، من الناحيتين العقلية والجسمانية ، وجدنا ان العبقري لا يختلف كثيراً عن المجرم الذي يلقى في غياهب السجن ويحبس عن المجتمع درءاً لشروره وآثامه . فهل هناك علاقة بين الجريمة والعبقرية ؟ وهل العبقري يميل لأقتراف الجرائم واجتراح المساوي اكثر من غيره ؟

لنأت اولاً على تعريف الجريمة ، وماذا نريد بها

اختلف علماء الاجرام (Criminologist) في تعريف الجريمة ، فقال بعضهم : « انها عمل مخالف لانظمة المجتمع » وعرفها آخرون بقولهم : « ان يعيش الانسان حياة مخالفاً نظام السلوك والآداب المعترف به من بقية افراد المجتمع » وقال غيرهم : « ان الجريمة اي عمل سواء أكان اهمالاً او ارتكاباً يجازي به القانون لفائدة المجتمع » او قول بعضهم : « شذوذ عن احكام الشريعة والآداب » . فترى ان ثمة اختلاف ظاهر في التعاريف المذكورة ، وليس بالامر اليسير تعريف الجريمة تعريفاً دقيقاً . واذاً فما كان يعتبر جريمة في السابق لا يعتبر كذلك الآن ، وعلى الضد من ذلك فقد تحسب عملاً ما جريمة الآن ولكنه لم يكن في نظر الاقدمين كذلك . فان الشعوذة كان يعتبر محترفها مجرماً ولكنها الآن ليست كذلك . والرقيق الذي كان في الماضي عملاً يرتزق منه اناس كثيرون اصبح الآن يعد جريمة اجتماعية لا تغتفر ويطارد صاحبها . وقد يُعَدُّ نوع من الاعمال جرماً عند امة ولكن عند غيرها قد يحسب عملاً شريفاً

يقول لومبروزو (Lombroso) : « ان المجرم نوع خاص ، يقف وسطاً بين العته والوحشية » .

اما « ونزلاف » العالم النفسي فيقول في كتابه « الانسان العقلي »[1] ما يلي : « ان المجرم يمثل نوعاً آخر من النمو المتوقف (اي العاطل) . وليس المجرم شخصاً بسيطاً ، ومجرماً عرضياً ، وانما هو انسان لا يفرق بين واجباته وحقوق الآخرين . وتنقصه حاسة الاخلاق واما قوة ادراكه فضعيفة بوجه عام ؛ وهو قليل الشعور بحاسة الالم بوجه خاص ، ولذا كان قاسياً عديم الشفقة . ومن صفات المجرم ايضاً الكسل ؛ وهو معجب بنفسه ، لا يندم على ما يقترف من آثام واجرام ، شديد الولع بالمنبهات ، والقمار ، والفسق ، والدعارة ، مهمل للديانة ،

(١) ص (٢٦٠) "The Mental Man" by G. G. Wenzlaff

كاره للانسانية .وعلاوة على ذلك فهو خبيث ،قليل الذكاء ، وميزاته الفراسية (physiognomic) واضحة ظاهرة كميزاته العقلية »

هذا ما يقوله ورلاف عن تعريفه للمجرم . فهو يصفه باوصاف نراها متفشية بصورة عامة بين مختلف طبقات الناس . وقد خالفه لومبروزو العالم الايطالي المشهور ، الذي ظل علماء الاجرام مدى جيل يعتبرون كتبه من اهم ما الف من نوعها في العلوم النفسية ، ومن جملتها كتاباه «الرجل العبقري» و «الرجل المجرم» .فان لومبروزو يغرق اغراقاً في بحثه واستدلاله على تبيُّن الاجرام من القسمات والجوارح ، وما يميز ذلك من خواص وحقائق . ويعتقد لومبروزو: «ان للمجرمين شذوذاً في القوى الجسمانية والعصبية والعقلية اكثر من شذوذ غير المجرمين وان هذا الشذوذ سببهُ اما انحطاط وتقهقر (في القوى العقلية) ، واما رجوع او ردة لمرض وراثي في العائلة »[١] . وقد اشتهر قبل لومبروزو بمدة طويلة في البحث في الاجرام العالم الطبيعي النمساوي (فرنز جوزيف غال) Franz Joseph Gall وقد كان بحاثة مشهوراً في العلوم المتعلقة بدراسة الجمجمة والدماغ وتلافيفه ، فأخذ بالنظرية الآتية وهي : « ان الميول الاجرامية غريزية في الغالب ، ويمكن ان تُكشف وتظهر بدراسة تركيب الجمجمة »[٢]

ثم ان الدكتور غورنغ Dr. Goring يذكر في كتابه « المجرم الانكليزي » ١٩١٣ ، بعد بحث واستقصاء عظيمين ان من النتائج التي توصل اليها النتيجة الآتية:— « لا يوجد هناك ما يصح ان يطلق عليه نوع المجرم الطبيعي » .ان هذه النتيجة التي توصل اليها العالم المذكور قد وافقه عليها جميع علماء الاجرام ، وقد زاد على ذلك فقال انه لا يوجد نوع يطلق عليه «المجرم العقلي» .وقد ظهر الآن ان الجريمة مظهر متشعب من مظاهر الحياة الاجتماعية للطباع والعادات الخطرة الموبوءة ، كالفقر المدقع ، وانتشار الاوبئة والامراض ، واختلال القوى العقلية»[٣]

لقد عرفنا الجريمة والمجرم ، فلنأت الآن على تعريف العبقرية ، فما هي ،وما علاقتها بالجريمة؟

العبقرية موهبة ، وشذوذ في النمو العقلي ، تنحو بصاحبها للتفوق على اقرانهِ في عمل مشترك ، واظهار مقدرة فائقة في ناحية من نواحي الحياة ، يقصر بقية الناس عن اللحاق بهِ ومجاراته فيها ، فاذا قلنا ان فلاناً شاعر عبقري مثلاً فانا نقصد بذلك أنهُ نابغ في فنهِ (الشعر) متفوق بهِ على زملائهِ في هذا الفن ، من ذلك شكسبير ودانتي وغيرهما ، وانهُ (اتى بما لم تستطعهُ الاوائل) على حد قول المعري . . .

والعبقرية تنشأ على الغالب ، من خلل في خلايا الدماغ وتوتر في الاعصاب ، وقد تحدث

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة . مجلد ١٤ . ص ٣٤٥

(٢) » » » » ، » » » . » ٦ . ص ٧٢٠

(٣) George W. Kirchwey in the Encyclopaedia Britannica vol 6 p. 720-21

بسبب البيئة والوراثة ، واعراض كثيرة تتوالى على الانسان في مختلف ادوار حياته . وللامراض ايضاً أثر قويّ في العبقرية ، وخصوصاً ما كان منها مزمناً كالسل وغيره . وكثيراً ما قيل ان العبقرية تنشأ من الامراض . ولقد قضى كثير من العبقريين ، كالشاعر الانكليزي كيتس والروائي الروسي تشيخوف والكاتب الانكليزي ستفنسون ضحية هذا الداء الوبيل (السل)

وقد جاء في محاضرة الدكتور برسون [١] Dr. A. Vere Pearson الطبيب في مستشفى مندسلي ما يلي : —

« كثيراً ما نسب العلماء البواعث المثيرة للعبقرية الى مرض السل . ولكني احسب ان هؤلاء قد افرطوا جدًّا فيما نسبوه اليهِ . ومما لا ريب فيهِ انهُ يحدث هيجان واضطراب في بعض اعراض مرض السل الرئوي ، وثمة شعور بقصر الحياة ، ولكن هذا الشعور لا يسلم بهِ العقل الواعي . ان الشعور بقصر الحياة والهيجان المضطرب الناشئين عن هذا المرض المزمن ، وخصوصاً في ادواره الشديدة ، قد يكونان كباعث قوي ومنبه للانتاج والابتكار ، ولا سيما عند المؤلفين ، الذين يتمكنون من دون كبير عناء جسماني ، من اظهار آثارهم ونبوغهم »

يتلخص معنا من هذا ان المرض ليس شرطاً من شروط العبقرية ، وانما هو عارض طارىء لا يلبث ان يزول ، اما العبقرية فاذا وُجدتْ ، فهي موجودة اصلاً ، ولكن المرض قد يزيدها تأججاً واضطراماً

هذا وبعد ان اتينا على تعريف الجريمة والعبقرية فلنبحث الآن في العلاقة بينهما ، وهل يكون المجرم عبقريًّا ، والعبقري مجرماً ؟ ؟ اننا نرى العبقري غريباً في افكاره وأطوار حياتهِ ، متصفاً بصفات شاذة ، اكثر ما يتصف بها المجانين والمجرمون . وثمة تقارب ظاهر بين المجرم والمجنون والعبقري ، والصفات والعادات التي يتصف بها هؤلاء الثلاثة ، لا نقول انها واحدة ، ولكنها قريبة مشتركة ، ويمكننا ان نعد هؤلاء ثواراً على الهيئة الاجتماعية وهم ابعد ما يكونون عنها وعن الانسان العادي . فالعبقري تتمثل فيهِ الروح الاجرامية الثائرة بمظاهرها المختلفة ، ويتأجج في نفسهِ البغض نحو المجتمع الذي لا ينفك يثيره ويهيجهُ وهو في خصام دائم معهُ ، تتنازع صدره الاطماع والمنافع ، وتثيره الانظمة والقوانين فيكاد يحطمها ، ويسعى جهده لتبديلها وتغيير معالمها . فأوجه الشبه بين العبقري والمجرم انهما مشتركان في صفات عدة ، كالانفعال الشديد الهدّام ، والثورة المضطرمة والبغض المتأجج ، والحنق الدائم ، والخيال الوثّاب ، وغير ذلك . اما الشواهد الدالة على تقارب ذهني المجرم والعبقري فكثيرة في التاريخ

---

(١) راجع عدد آب (اغسطس) سنة ١٩٣٢ من مجلة "Journal of State Magazine"

يقول هنري رودس في كتابهِ « المجرم والعبقري »[١] ما يأتي : —

« إنَّ العبقرية أكبر اعداء المجتمع . والمجتمع يعمل لهدم العبقري وهلاكه اولاً ثم يتخذ آراءهُ الاجرامية ويتبعها : فالعبقري يضر المجتمع ويهدمهُ احياناً كثيرة . وقد جعل نابوليون من اوربا مذبحاً ومجزرةً . اما لنين فقد ترك روسيا جائعة دامية . وقد قيل ان فولتير يحمل تبعة الثورة الفرنسية وهو مسببها ، فقد قوَّض بقلمهِ الحاد ، دعائم النظام في فرنسا ، ومهَّد بذلك السبيل للثورة . ولكن من الخطأ ان نعتبر العبقرية مضرة ، او نافعة ، فقد تكون هذه او تلك . . . »

فالعبقرية نتيجة حالة غير طبيعية في العقل البشري ، وهي بثورانها ضد المجتمع تدور في دائرة ، وكثيراً ما ترى لها مخرجاً في الرجل المجرم . ومن امثلة الطبيعة الثائرة « اوغست سترينبرغ » الكاتب القصصي السويدي . فقد تجمعت فيهِ صفات كثيرة ومواهب عديدة ، فكان مؤلفاً مسرحيًّا وكاتباً روائيًّا ، وعالماً نباتيًّا ، وكيمائيًّا ، ومن العجيب انهُ تعلم اللغة الصينية وهو لم يزر قط بلاد الصين ! وقد كان يحتقر ما تواضع عليهِ المجتمع من مقاييس السلوك والآداب ، ويكره ما ائتلف عليهِ الناس من قواعد الاخلاق وأنظمتها . وقد أُتهم بالتجديف ، وكتبهُ مشحونة بالآراء الثورية ضد المجتمع ، حتى انهُ في بدء حياته ظهرت فيهِ بوادر عديدة للأجرام . وكان ريشيليو غير شريف في الاساليب والطرق التي سلكها لجمع المال . وبدأت حياته بالتزوير ولما اعطيت له ورقة عماده الكنائسية بواسطة وثائق مزورة ، وضع فيها اسمهُ في سجل العماد بدلاً من اسم اخيهِ . ويقول رودس المذكور آنفاً : « ان جرائم ريشيليو سبب قوي في ظهور عبقريته ، وان ريشيليو المجرم هو الذي كان عظيماً . واما بقية مواهبه فكانت عادية ، بل حقيرة »

اما (ادجر ألن بو) الشاعر الاميركي فكان (عبقريًّا — مجرماً) بمعنى الكلمة ، فكان دائم النزاع والنفور من المجتمع ، وقصصهُ اجرامية حافلة بحوادث المجرمين ووقائعهم . ويصف (بو) المجرم وصفاً لا يصفه بهِ غير المجرم . واما اسكار وايلد فحياتهُ وسجنه تظهرهُ للملاَ مجرماً كبقية المجرمين ، لا يختلف عنهم في شيءٍ . ولعلَّ من قرأ كتابه « من الاعماق » De Profundis الذي ترجم للغة العربية ، يعرف ماذا قاسى وكيف عاش وايلد في السجن مع زملائه العاديين !

فبين العبقرية والجريمة اذاً ، اتصال وثيق ، ولكن ليس شرطاً ان يكون العبقري مجرماً او ان يكون المجرم عبقريًّا .. وانما هي فلتات الطبيعة وشذوذها ، تجعل من الانسان تارةً عبقريًّا يحلق في سماء الخلود ، واخرى مجرماً يعيش وراء القضبان في ظلام السجون ! . . .

حلب : سورية فؤاد عينتابي

(١) "Genius & Criminal : a Stuty in Rebellion" by Henry T. F. Rhodes

شيخوخة جوته
١٨٠٥ – ١٨٣٢
للدكتور علي مظهر

لحق الاسى والجزع بجوته عندما فقد نده في الشعر والادب وزعامتهما ونعني بذلك شلر الشاعر المنكر الذي قضى وهو في ربيع الحياة وتخليداً لذكراه وقياماً بالواجب نحو صديقه الراحل نظم له قصيدة سماها (النشيد الختامي للاجراس) وعاش جوته بعد شلر سبعاً وعشرين سنة كان فيها مثال الجد والنشاط في جميع ابواب العلوم والآداب فكنت تراه احياناً يدرس البصريات ونظريات الالوان وعلم تركيب عظام الهيكل الفقري وعلم طبقات الارض وعلم الافلاك والكواكب والتغيرات التي تطرأ على النبات وغير ذلك من الامور النافعة المفيدة . اما الشعر فكان حظه من قرضه في اثنائها اقل مما سبق

وكان اول مؤلفاته الممتعة روايته القصصية التي اسماها Die Wahlverwandschaften (القربى المختارة) التي اظهرها للناس سنة ١٨٠٩ . وقد اراد ان يبين في تلك الرواية ان سعادة الحياة تتبدد بمجرد انفصام عرى الآداب الفاضلة. وقد خطر له هذا الخاطر عند ما فكر في مسألة الزواج الذي قال عنهُ انهُ هو مبدأ الحضارة وذروتها وانهُ اقدس عقد يعقد لا انفصام له اذ ان عروته وثقى . وان الزواج يكون مقروناً بالسعادة ويكون زواجاً حقيقياً اذا ما امتزج فيهِ الحب الطبيعي غير المتكلف باحترام الآداب ومراعاتها . ولنذكر ملخصاً لتلك القصة :

عاش ادوارد وشارلوتي عيشة زوجية سعيدة ناعمي البال كما كان يظهر عليهما وبقيت لهما تلك السعادة وذلك الهناء حتى ان دعت الزوج هوبتمان واوتيلي في ضيعة لها بالريف وبمجرد ما حدث ذلك الاتصال بدأت (المعركة) وكانت شارلوتي امرأة حازمة خيرة امكنها ان تتفادى بكل ما اوتيت من قوة ما كان القلب بهِ يتحدث والنفس اليهِ تميل وان تقوم بواجبها كزوجة طيبة بارة وكذلك كان هوبتمان فقد كان رجلاً صلداً يعرف ان يضبط نفسه وان يراعي قانون الآداب الفاضلة وان يتغلب على حبه فيكبح جماحه . اما اوتيلي فكانت طفلة بطبيعتها لا تقدر ان تحكم عواطفها وميولها ولا ان تقاومها وكان ادوارد زير نساء من غواياته يعيش ويحيا وكان ارضاء ملذاته اكثر الاشياء التي تهمهُ وتشغله في هذا الوجود بل قل انهُ كان يعتبر غايتهُ من هذا العالم ووجوده فيهِ انما كان للافساد لا للاصلاح لهذا كان يعيش ولهذا وجد ولم يكن له من عمل آخر غير البحث والتنقيب عن الغواية والملذات فلم يتمكن هو ولا تمكنت هي من ضبط عواطفهما وتبعا غواية الشيطان وضلالته فعكر صفو تلك الحياة التي كانت من

قبل وكفرا بحتفهما عن آثامهما وانهما كهما لحرمة الآداب

ولما انتهى جوته من كتابة تلك القصة الروائية اراد ان يكتب قصته هو وان يصور للناس حياته وان يخط لهم تاريخها بنفسهِ فأخرج للناس كتاباً نفيساً عنوانه (من حياتي — شعر وحقيقة) وقد اظهر من هذا المؤلف سنة ١٨١١ الجزء الاول ثم ضم اليهِ جزءين آخرين بعدئذ فاتى فيهما على وصف حياتهِ كما كان القدماء يكتبون وكيف كان يعيش وجاء بذكر هفواتهِ ومساعيهِ ومحاولاتهِ وكيف تكوّنت عنده الشاعرية وقد اجاد في وصف ذلك ايما اجادة ولكن مما يؤسف له انهُ وصف حياتهُ الى السادسة والعشرين من عمره والى ان اقام في ڤيمار فقط وتجد شيئاً من التتمة في اوصاف رحلتهِ في ايطاليا ورحلتهِ الثالثة الى بلاد سويسرا ووصفهِ لحملة في فرنسا وحصار ماينز وفي كراساتهِ اليومية والسنوية

ولما ان كانت حروب الاستقلال والحرية المعروفة عند الالمان ودع جوته تلك الحياة الثائرة العاصفة وولّى وجهه شطر الشرق فبدأ يدرس اللغة العربية والفارسية واخذ يترجم عن هذه اللغات بعض اشعارها احياناً او ينظم من عنده ويلبس قريضه ثياباً شرقية وقد جمع تلك الاشعار بعدئذ في سفر اسماه : ديوان الشرق والغرب (Der westoestliche Diwan) وظهرت تلك المجموعة الشعرية سنة ١٨١٩ اما زوليخا (Suleika) التي يذكرها في ديوانه هذا فهي السيدة ماريانه فون ڤيلمير Mariane v. Willmer واصلها من فرنكفورت (ولدت سنة ١٧٨٤ وتوفيت سنة ١٨٦٠) . ويؤخذ مما ذكره عنها في بعض قصائده ما كانت عليهِ تلك السيدة من سجايا فاضلة ونبل وشرف . وقد بدأ جوته صحبتهُ لها سنة ١٨١٥ . ومع ان الشاعر لم يشترك في حركات الالمان الوطنية حينئذ ولكنهُ حيّى تحرير المانيا من نير الفرنسيين بروايتهِ التمثيلية (يقظة ﭘيمينيدس Des Epimenides Erwachen) التي مثلت في برلين يوم ٣٠ مارس سنة ١٨١٥

وكانت رغبة الشاعر الشيخ او شيخ الشعراء ان يتم مؤلفيْن كان قد بدأ بهما واشتغل بهما طويلاً فاظهر في سنة ١٨٢١ (سني تجوال فلهلم مايستر) وهو عبارة عن سلسلة من القصص عالج فيها تربية الانسان الخلقية الدينية وفيها آراء في التربية واجتماع الطبقات الوسطى وحياة رجال الادارة والسياسة وغيرها من القصص والنوادر

ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره (١٨٣١) اتم جوته رواية (فاوست) التي اشتغل في اعدادها ستين عاماً . وكان اول ما بدأ كتابتهُ فيها لما عاد من ليبتزج الى منزل والديهِ في فرنكفورت وكان يشغل نفسهُ بدراسة الكيمياء اثناء نقاهته ثم عثر على كتاب شعبي قديم للدكتور فاوست فأثرت الافكار التي وجدها فيهِ تأثيراً كبيراً وما زالت تلك الامور وغيرها تملك عليهِ نفسهُ ومشاعره حتى بدأ في كتابتها سنة ١٧٧٤

ثم اخذ جوته يزيد في روايتهِ كل حين وصار يزيد في مجموعها ويضيف الى مناظرها مناظر

جديدة ويبدّل ويغير فتراه يكتب بعض المناظر في اثناء سياحته الاولى في بلاد سويسرا وكذلك لما كان في ايطاليا واشتغل قليلاً بها لما كان في روما سنة ١٧٨٨ وما زال يكتب فيها كما خطرت له اشياء جديدة حتى تم الجزء الاول وظهر سنة ١٨٠٨ اما الجزء الثاني فقد ابتدأ في كتابته وهو في سن الشيخوخة مع انهُ اشتغل بجزء صغير من قبل ذلك وترى جوته سنة ١٨٠٠ وهو يتبادل الرأي مع نده ورصيفه شلر لوضع خطة للجزء الثاني من (فاوست) وقد قرأ اوله على شلر في سبتمبر سنة ١٨٠٠ ولبث سنين لا يعمل فيهِ ثم عاد يعمل فيهِ حتى ظهر سنة ١٨٣٢ عقب وفاة الشاعر الكبير . وترى من هذا ان هذا العمل الكبير شغل حياة الشاعر كلها تقريباً او بمعنى آخر انه شغل نفسهُ طيلة حياتهِ الشعرية بهذا الاثر النفيس الذي تجد فيهِ عناصر من كل درجات النشوء المختلفة التي مرَّ بها جوته كما انهُ يمكنك دراسة حياة الشاعر العقلية برمتها في طيات الخرافة القديمة . وبينما تراه يصف فيها اموراً حدثت له اثناء حياته الطويلة اذ تراهُ يجعل من الاشياء الجامدة او الامور الشخصية اموراً واشياء عامة للانسانية ولذا فانك لست بمستعرض صورة من صور عصره ولكن صورة من صور الدنيا والانسانية بأسرها . وترى فيها مناظر شتى منها ما هو محبوب ولطيف ورقيق واخرى كلها الشياطين والفظاعة والبشاعة ويريك صوراً شتى من اعمال البشر واوصاف الناس وافكارهم

وأول ما عني بهِ ما يثور في النفس من حروب عنيفة كالحرب التي تنشب بين العقيدة والعلم وبين طبيعة الملاذ البشرية وطبيعة العقل والحكمة . وقد افتتح جوته الاقصوصة بذلك المطلع على طريقة اهالي القرون الوسطى وما كانوا يتخيلونهُ من اسرار ومعجزات . فتراهُ يرجع الى كتاب ايوب في ذلك اذ يظهر الشيطان امام الله فيسألهُ الله عن ايوب فيجيبهُ الشيطان انهُ يراهن الله على ان ايوب قد عصاه لما حلَّ بهِ من فاقة وبؤس . كذلكم فعل جوته اذ يظهر الشيطان امام الله فيسأله عن (فاوست) وهل يعرفه فيسأل ميفيستوفوليس الشيطانُ اللهَ الرحمنَ الرحيمَ عما يرغب ان يراهن بهِ اذا ما جعله يضل السبيل وهنا سار جوته على منوال ما جاء بالتوراة اذ سمح الله للشيطان بأن يسعى لضلال ايوب . كذلك قال الله للشيطان ان يسعى لتضليل فاوست فقال الشيطان ما من شيء عسير عليه وانه سوف يضله سواء السبيل

وبعدئذ ترى فوست وهو رجل يعمل في غرفته منكبًّا على عمله يبحث وينقب ويدرس ولكنه لم يكن يقنع في نفسه بما ناله من دراسة وعلم كما كان يأمل حتى السحر الذي عني بهِ ووقف له وقته ونفسه لم يصل الى اصل الوجود ومنشأه وكاد يأسه من ذلك يبلغ بهِ الى الانتحار بأن يشرب ما كان بكأس السموم ليريح نفسه من قيود الجسم التي تعوقه من التغلغل في باطن الطبيعة وتحول بينه وبين حقيقة الاشياء . وبينا هو يرفع الكأس السامة ليشرب منها اذا باجراس البيعة تقرع واغنية عيد الفصح تملأ الفضاء . فأعادت تلك الانغام ذكرى طفولته العذبة وذكرى

ايامه الاولى التي قضاها وهو طفل صغير فرجع عن عزمه ثم كاد يتغلب عليهِ اليأس من جديد واخذ يزمجر واصبح في قبضة الشيطان

وسار فاوست مع تلميذه وامين سره (Fumulus) المدعو فاجنر يروّحان عن النفس واذا بالشيطان الشرير قد اتخذ هيئة كلب يبصبص بذنبه وينظر الى فاوست نظرة كلها ملق فعطف عليهِ واخذه معهُ الى منزله وهناك عرف الحقيقة فاخذ يقرأ عليهِ آيات سحره وتعاويذه و (تعازيمه) فلم يؤثر كل ذلك فيهِ ثم انقلب الحيوان واصبح في هيئة تلميذ على اهبة السفر ولما سأله فوست عن حاله اجاب بانهُ (الروح الذي ينفي — اي يجيب بالنفي — دائماً) وقال لهُ انه سوف يعلم حقيقته بعدئذٍ حين يسعى لمزج الحسن والجميل والحقيقة والطهارة بالقاذورات ظاهره حسن وكله لباقة ومهارة ونبل وداخله حب الذات واللؤم والسفالة. ثم انهُ وعد فاوست بالسعادة وراحة الضمير في هذا العالم اذا ما اسلم اليهِ نفسهُ ويظل العهد قائماً بينهما حتى يحصل فاوست على طمأنينته وراحة ضميره . وتم الاتفاق بينهما فاراد ميفستوفوليس ان يقود فاوست ويطلعهُ على ما بهذه الدنيا الواسعة الارجاء من مباهج وعظمة ومسرات . ثم اخذ الشيطان فاوست وطاف بهِ على عالم الملذات الحية من اماكن لهو ومتاع واكل وشراب مما لذ وطاب ولم يؤثر كل ذلك في الدكتور وعندها اطلعهُ الشيطان على مرآة مسحورة فرأى بها اجمل صور رآها في حياته لامرأة وناوله شراباً ساحراً حرك فيهِ حب الملاذ والشهوات. وسار في المدينة فرأى (جريتشن Grétchen) احدى النساء الجميلات وهي التي عنى جوته بوصفها فتحركت اطاعهُ وغلبت عليهِ شهواته وطلب من الشيطان المساعدة والعون ومال الرجل الى البنت لما رأى فيها من طهارة وعفاف واحبها حباً جماً . وقارب فاوست ان يحقق آماله وان يظفر بالبنت زوجاً له وهذا ما كان اليهِ يصبو الاَّ ان الشيطان قد تغلب ونجح في تأثيره فقد اظهر لهُ صورة مشوهة من نفس جريتشن . ولشدة تعلقها بفاوست ضلت عن طريقها الى العفاف بحسن نيتها وعندها بدأ الشيطان يجد وينحدر بها في هاوية الشقاء والبؤس وماتت امها لانها شربت شراباً مسموماً كان فاوست قد نصح البنت بتعاطيه ثم مات اخوها قالتين من يد فاوست وكان يحرس منزلها ليلاً واخذ يلعن اخته. وجعل الشيطان يضل فاوست ويجعله يسفك الدماء لكيلا يفلت من يده ويظل تابعاً له . وما زال ذلك الشيطان اللعين يمس الاثنين فيتخبطان ويقعان في حبائله ومكائده . وترى الآنسة قد حملت وقتلت طفلها واستولى عليها الجنون وزجت في اعماق السجون فذبل عودها وهزل جسمها ووقفت بين يدي العدالة لتكفر بالموت عن سيئاتها . وعندها اشتد غضب فاوست على الشيطان اذ انهُ اخفى عنهُ كل ذلك واراد التملص منهُ والخلاص ولات حين مناص فقد استولى عليهِ اليأس وجعله يتمسك بهِ لكي يساعده على تخليص جريتشن من السجن والقيود . وتمكن فاوست من اقتحام السجن ليخلص محبوبته المسكينة ولكنها

راجعت ولم تأمن على نفسها . وقدمت للمحكمة الجنائية العليا فرأى رئيس القضاة ان يعفو عنها بعد ان توسلت هي اليهِ وظل فاوست في رعاية الشيطان ورهين ارشاداته . والى هنا ينتهي القسم الاول من فوست وفيهِ ترى ان فاوست قد طاف بكل ناحية من نواحي العلم والعرفان ولكنهُ لم يشف غليله وانهُ ذاق كل انواع الملذات والمسرات ولكنهُ لم يرض ضميره وظل اكثر التصاقاً بالشيطان من ذي قبل . وفي القسم الاول من تلك المأساة ترى العقدة تعقد وفي القسم الثاني منها ترى حلها

فاذا ما جئنا الى القسم الثاني رأينا فاوست في رعاية الشيطان في بلاط احد القياصرة الذين ساء ملكهم وفسد نظام امورهم قد تحكمت بملكه القوة وعم الظلم والجبروت وارتفع العدل وندر في السوق المثور عليهِ واكل الناس الاموال بينهم بالباطل وكثرت الرشوة واصبحت الخزائن اخوى من جيب الموظف آخر الشهر وازدادت ديون الدولة . وعندئذٍ تقدم الشيطان في زمن العسر والحاجة وافهم الناس انهُ رجل الدنيا وواحدها وانهُ يعرف امثل الطرق للخروج بالدولة من هذا المأزق الحرج وذلك باختراعه للعملة الورقية (بنك نوت) واخذ فاوست يضارب في المسائل المالية فاحبهُ البلاط والناس ومالوا اليهِ ثم انعكست معهُ الآية وساء عمله هذا فعدل عنهُ الى سواه واخذ يبحث عن اعلى مثال للجمال حتى عرف هيلينا Helene اخيراً وتجد هذا في قصة فاوست القديمة قبل جوته ولكن الشاعر الكبير قد جعلها وفق طلبتهِ وحاجته وجعل فاوست يبني بهلينا Helena ويرزق منها بولد اسماه Euphorion (اويفوريون) وحيي فاوست حياة شعرية وتنقل بين فنون الشعر ونواحيه وجاء الى شاطئ البحر وسكنه واصلح من شأن الارض حوله وجعلها خصبة مثمرة معمورة بالسكان وارسل الاساطيل التجارية الى البلاد الاخرى وجملة القول انهُ اوجد لنفسهِ عملاً كبير النفع كثير الخير للآخرين جعله يشعر بالراحة والطمأنينة في شيخوخته تلك الطمأنينة التي طالما جد وراءها ثم يموت فاوست وقد رضي الله عنهُ في خاتمته

اذا نظرنا الى قسمي فوست من حيث قيمتهما الشعرية رأينا القسم الاول يفضل الثاني ويتفوق عليهِ . فترى الشاعر يصف لك في الاول الحياة صافية اشخاصها يتكلمون ويعملون بينا تراه في الثاني يكثر من الاستعارات والتشابيه والاشارات وفي الاول ترى (جريتشن) انسانية يجري الدم في عروقها ذات تقى وفهم طفلة طاهرة لطيفة المعشر ظريفة الحركات بينما تراه يعني بهلينا في القسم الثاني الشعر القديم الذي كان للاغريق والرومان من قبل . وكان جوته يعلم انه قد اخفى اشياء كثيرة في القسم الثاني وجعلها مبهمة مستورة حتى ان الايضاحات والتفاسير العديدة والشروح المختلفة لا تجعلها واضحة مفهومة للكثيرين

ولما انتهى جوته من كتابة (فاوست) شعر كأن عبئاً ثقيلاً قد رفع عن عاتقه وكان يقول انهُ اتم عمله وواجبه كشاعر . ومات جوته في ڤيمار في الثاني والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٣٢ بعد ان مرض اياماً قليلة ودفن في مدفن الامراء في تلك المدينة الشعرية الخالدة اللطيفة



الحياة والكهربائية

هل هما من معدن واحد

قال أحد الكتّاب ان علم الطبيعة أخذ يضمُّ تحت جناحيه سائر العلوم . ومما لا ريب فيه ان طائفة كبيرة من العلوم المختصة بناحية معينة من البحث اخذت تستمدُّ من علم الطبيعة ما يمكنها من درس الظاهرات الخاصة بها ، فأصبحت وكأنها أقسام من علم الطبيعة . فعلم الكيمياء حيث يتناول الاركان يدعى الآن « علم الكيمياء الطبيعية » ومن اشق الأمور على الباحث تعيين الحد الفاصل بين الطبيعة والكيمياء الطبيعية . وثمة علم الفلك الطبيعي (Astrophysics) وعلم الجيولوجية الطبيعية (Geophysics) . وقد أخذ أصحاب علم المحيطات (الاوقيانوغرافيا) يرون في علم الطبيعة وسائل لحلّ مسائل كانوا يحسبونها حيوية من قبل . أما علماء الاحياء في بحثهم عن بناء المادة الحية فيسألون نفوسهم ، ألا يستطيعون ان يرجعوا بنواميسها إلى نواميس حركة الالكترونات والبروتونات والايونات

إن إمتداد علم الطبيعة إلى الكيمياء والجيولوجية والفلك أمر معقول . وأما تعديه على علوم الأحياء فغير معقول لأول وهلة . إذ يصعب علينا أن نتصور الخلية الحية ، التي تنطوي على دماغ كدماغ نيوتن ، أو يد كيد رفائيل ، وكأنها آلة مركبة من ذرّات . ولكن منذ ما ركّب الكيميائي الالماني وهلر مادة « اليوريا » ضعف القول بوجود قوة حيوية تدخل على المادة فتجعلها حيةً . وفوز العلماء المحدثين بصنع خلايا تتصرف من بعض الوجوه كتصرف الخلايا الحية ، يقوي الامل الذي بنى عليه أحد العلماء القول بأن صنع المادة الحية في المعمل قد لا يتأخر . فعلماء الاحياء يشدّون مطاياهم الآن إلى غاية عظيمة — هي فهم الأفعال الحية

ما سرُّ الحياة ؟ . . . ولكن أجب أولاً لماذا تنقسم الخلية إلى خليتين ، فلعلّك تجد في الجواب عن السؤال الاصغر جواب السؤال الاكبر

خذ خلية ملقحة من خلايا القنفذ البحري (الرتسا أو التوتياء) ودعها تنقسم إلى خليتين ثم خذ كلاً من الخليتين وضعها في إناء على حدة ترَها وقد نمت إلى قنفذ بحري كامل الاعضاء. أو دع الخليتين تنقسمان إلى أربع خلايا أو إلى ثماني خلايا ثم خذ كلاً من هذه الخلايا وضعها في إناء على حدة تنمُ قنفذاً بحريًا كاملاً . فلماذا تنمو كل خلية ، إذا فصلت عن غيرها ، قنفذاً بحريًا كاملاً ، ولكنها لا تفعل ذلك إذا بقيت واحدة من طائفة من الخلايا ؟ وما الطريقة التي تعلم بها الخلية المفصولة ان عملية تخليد الحياة تقع على عاتقها فتنمو قنفذاً بحريًا كاملاً ؟

أو اقطع الغصن الرأسيّ من شجرة الشوح. فلا تلبث حتى ترى أحد أغصانها الجانبية وقد انتصب وحلّ محلّ الغصن الرأسي المقطوع. فجماعة الخلايا التي تتألف منها الشجرة، تتصرف كأنها تعرف ان غصنها الرأسي قد قطع. فلماذا تتصرف هذا التصرف؟ وكيف تعرف ان غصنها الرأسي قد قطع؟ فليس للشجرة ولا لبيضة القنفذ البحري اعصاب: فما هي وسيلتها الى فعل ما تفعلان

ان تعاون الخلايا والتنسيق بين افعالها مسألة حيوية قديمة حافلة بالاسرار. وطالما استرعت عناية الباحثين وليس ما يلي الا خلاصة لبعض النتائج الحديثة في هذا الميدان

كان الدكتور لُنْد E. J. Lund استاذ علوم الاحياء في جامعة تكساس، يشتغل في معمل علم الحيوان بجامعة جونز هبكنز سنة ١٩١٤ وكان يجري تجاربهُ على حيوان مجهريّ (مكرسكوبي) يطفو في الماء يدعى البرساريا Bursaria. ولهذا الحيوان اهداب شعرية يحركها فيحدث في الماء تيارات تتجه الى ناحية فمهِ وهي طريقة تستعملها الحيوانات المفردة الخلية لالتقاط دقائق الغذاء من الماء. ومن غريب ما رآهُ ان هذا الحيوان، يكوّن في بعض الاحيان، فماً في مؤخر جسمهِ اي في الطرف المقابل للطرف الذي فيهِ فمهُ العاديّ. ثم يغيّر حركة نصف الاهداب التي تغطي جسمهُ فيحدث في ناحيةٍ تيارات مائية تتجه الى فمهِ الواحد، وفي الناحية الاخرى تيارات مضادة تتجهُ الى فمهِ الثاني. ثم لا يلبث ان ينشطر الحيوان الواحد الى اثنين، لكلّ منها فم، وينفصل احدهما عن الآخر، ويعيش كلٌّ منهما عيشة مستقلة. ولكنهُ شاهد في بعض الاحوال ان احد الشطرين، ينمو رويداً رويداً قبل الانفصال ثم يزول، كأنَّ النصف الآخر قد قوي عليهِ وابتلعهُ. فلما حاول الدكتور لُنْد ان يعلّل هذا التحوُّل في تصرف الحيوان — كتحوُّل الذنب الى فم، وابتلاع النصف الواحد للنصف الآخر — تذكَّر ما يفعلهُ حيوان آخر، وحيد الخلية اذ يوجَّهُ اليهِ تيار كهربائيّ

ذلك الحيوان يدعى البراميسيوم — وهو ابسط تركيباً من البرساريا — ومؤلف من خلية بيضية مستطيلة تغطيها اهداب تتحرك لتحدث في الماء تيارات تتجهُ الى فم الخلية لتجهزها بدقائق الغذاء. وكان بعض الباحثين — قبل لُنْد — قد بينوا انهُ اذا وُجّه تيار كهربائي دقيق الى البراميسيوم اثّر في حركة اهدابهِ تأثيراً يختلف باختلاف اتجاه التيّار. فاذا كان التيار متجهاً من رأس البراميسيوم الى ذنبهِ، تغير اتجاهُ حركة الاهداب في النصف المؤخر فتحدث تيارات مائية متجهة الى ناحية الذنب كأنَّ الذنب فمٌ تجب تغذيتهُ، ولكن اذا عكس اتجاهُ التيار بعد ذلك عكست حركة الاهداب في نصفي الخلية

فبعدما اجرى الدكتور لُنْد مباحث وتجارب كثيرة من هذا القبيل، ثبت لهُ أثر التيار الكهربائي في الخلايا في اثناء نموّها. فعرف انهُ يستطيع ان يوقف النموّ او يعيقهُ او يغير اتجاههُ باستعمال التيار الكهربائي. بل تمكن في خلايا بعض الحشائش البحرية من ان يعيّن اتجاه

النمو كما يشاء فوجد انهُ اذا تُرك الخلايا الملقحة من دون ان يتعرَّض لها بتيار كهربائي، نمت منها أعشاب نمواً مشوشاً في نواحٍ مختلفة ، فهذه الى اليمين وتلك الى اليسار وأخرى بين الاتجاهين . ولكن اذا وضعت الخلايا الملقحة في مسير تيار كهربائي انتظم اتجاهُ نموّها . وتحوّل الجانب الموجّه إلى القطب الموجب إلى جذرٍ دائماً . ولما وجد ان للتيار هذا الأثر الواضح في نموّ الخلايا ، سأل نفسهُ ، أليس للكهربائية ايُّ أثر في نموها السويّ . ألا تولد هذه الاحياء كهربائية في اثناء نموها ؟ واذا كانت تولد كهربائية في اثناء النمو ، فهل يشابه تأثير هذه الكهربائية في نموها تأثير التيّار الكهربائي الموجّه اليها من الخارج ؟ أليس لهذه القوة الكهربائية أثرٌ في نماء الاحياء وتنوع خلاياها واعضائها من رأسٍ وذنب وجذر وغصن

عرف من قبل ان للعضلات والاعصاب صفات كهربائية ، لان فعلها يصحبهُ اطلاق قوة كهربائية . كذلك عرف ان السمك الحسّاس والاسماك الكهربائية تطلق قوة كهربائية اذا لمست، ولكن اطلاقها للكهربائية متقطّع كأنهُ اطلاق القوة الكهربائية من جرّة ليْدن. اي ليس ما ينطلق منها تياراً كهربائيًّا مستمرًّا. وظاهرة الكهربائية الحيوانية مسلَّم بها منذ ما اثبت غلفني العالم الكهربائي ذلك في الضفدع في اوائل القرن الماضي

ولكن الباحث الالماني « بفْ » كشف في سنة ١٨٥٤ ظاهرة كهربائية اخرى في الاحياء تختلف عن الظاهرة السابقة الذكر . ذلك انهُ اثبت وجود تيار كهربائي مستمرّ من رأس الجذر الى اجزاء النبات العليا . ثم اعاد العالمان مُلَر هنلنجنغ وماثيوز — كلٌّ على حدة — تجارب «بف» فأيّدا النتائج التي وصل اليها . فلما بدأ لُنْد مباحثهُ بدأها بدرس التيارات الكهربائية المستمرة في النباتات والحيوانات، فقضى في جامعة منسوتا والمعمل البيولوجي في بيوجت سوْند وجامعة تكساس اثنتي عشرة سنة يوالي التجربة والبحث وصل في نهايتها الى النتائج الآتية

١ — في النباتات والحيوانات تيارات كهربائية مستمرة مما يبين ان الكهربائية ملازمة للحياة

٢ — تتولد هذه التيارات في الخلايا الحية في كل كائن فكأن كل خلية بطرية كهربائية صغيرة

٣ — تختلف الخلايا في مقدرتها على توليد الكهربائية ، فهي على اعظمها في الخلايا الناشئة ثم تضعف في الخلايا الهرمة ثم تزول بتاتاً في الخلايا الميتة

٤ — قوة التيارات التي تولدها الخلايا توازي قوة التيارات الكهربائية المستعملة في التجارب المذكورة آنفاً

٥ — ان هذه المقدرة على توليد الكهربائية توليداً مستمرًّا صفة عامة من صفات المادة الحيّة

فهل يأتي التحوُّل على الحياة والنماء وفقاً للتحوُّل في ما تولده الخلية من الكهربائية ؟ هل التقدم في السن والموت نتيجة لضعف هذه القوة او ظاهرة تصاحبها ، فكأن الخلية لدى موتها بطرية كهربائية قد فرغت ؟ هذه مسائل تبدو للذهن لدى الاطلاع على نتائج هذا البحث الطريف

البارون سلاتين باشا

بقلم من عرفهُ وصحبهُ في اعمالهِ واسفارهِ

لما قامت ثورة المهدي في السودان واستفحل أمرها ثارت قبائل الغرب في جهات دارفور حيث كان سلاتين باشا مديراً عامًّا فكان له معها مواقع حامية ذكرها في كتابهِ وقد بلغت على ما أذكر ٢٧ موقعة كان الفوز له في أكثرها وذلك بحسن تدريبه العسكري وقوة ابتكاره لانهُ تلقى العلوم العسكرية في فينا وكان ضابطاً في جيشها العامل . لكن انتصارات المهدي على جنود الحكومة في كردوفان وجهات أخرى من السودان لا سيما على حملة الجنرال هكس باشا وحصار الخرطوم كان من شأنها أن تؤثر تأثيراً سيئاً جدًّا في أفكار جنوده الذين كانوا يتحينون الفرص لترك حصونهم والانضمام الى المهدي باسلحتهم وذخائرهم وكانوا ينسبون انخذالهم في بعض المواقع — مع انهم كانوا يكبدون الاعداء خسائر فادحة تزيد عن خسائرهم كثيراً — الى كون قائدهم مسيحيًّا . فرأى سلاتين باشا ان السهم الوحيد الذي بقي في كنانتهِ للاحتفاظ باخلاص جيشهِ الى ان يتسنى للحكومة القضاء على حركة المهدي هو ان يعتنق الدين الاسلامي بحضور القاضي والمفتي وضباط الجيش ثم استعرض الجنود واعلن لهم اسلامه فهتفوا له طويلاً ووعدوا ان يخلصوا للحكومة وله في القول والفعل . فكان لذلك بعض الاثر . ولما لم يبق لديه الاَّ عدد قليل من الجنود قد برَّح بها الجوع وفتكت الحميات ونفدت ذخائرها اضطرَّ الى ان يسلم الى قائد جيش المهدي خالد زجل وكان وكيلا للمديرية تحت رآسة سلاتين باشا . وكان سلاتين يعرف ان وكيل مديريته من اقارب المهدي وانه على اتصال به فلم يرَ للتخلص منه ومن دسائسه سوى انفاذه الى المهدي لكي يراقب الامور ويخبره عما يجري لكنه عند وصوله الى معسكر المهدي انضم اليه قالباً وقالباً وصار من اشد اعوانه واكبر انصاره فجعلهُ اميراً وانفذه مع جيش كبير الى دارفور للاستيلاء عليها . وقد ذكر لي سلاتين باشا ان امرَّ ايام حياته كان يوم اضطراره ان يسلم ويخضع الى من كان احد موظفيه ولكنه ابرم معهُ اتفاقاً حفظ بهِ حياة رجاله وحرمة نسائهم وبناتهم

وقد صحب سلاتين باشا جيش المهدي في اثناء حصار الخرطوم وفي تلك الآونة اوجسوا منه خيفة ان يهرب وينضم الى جيش غردون باشا لانه راسل غردون بذلك فعلاً ولم يتلقَّ منه ردًّا

فألقوا القبض عليه بامر الخليفة واثقلوه بالاغلال والقيود ووضعوا في رجله « مكية » ثقيلة جعلته لا يستطيع النهوض او السير على قدميهِ وأظنهُ اخذ هذه المكية بعد فتح الخرطوم الى بيتهِ في فينا لكي يريها لاصدقاءه ومعارفه ويحافظ على ذكر ملازمتها اياهُ في سجنه ! !

ولما سقطت الخرطوم في ايدي الدراويش وقتل بطلها العظيم غردون باشا اتوا الى سلاتين باشا في سجنهِ برأس ذلك البطل وقالوا له انظر اليس هذا رأس خالك الكافر الذي كنت تحاول الفرار للانضمام اليه . فنظر سلاتين باشا إلى ذلك الرأس هلِعاً وكاد ان يغمى عليه لكنه تمالك روعه واظهر تجلداً لا يستطيعه الاَّ من كان له من قوة الارادة وضبط النفس ما لهُ وقال لهم « ان صاحب تلك الرأس لم يكن الاَّ جنديًا باسلاً مات شريفاً في سبيل القيام بواجبه»

وبقي سلاتين باشا سجيناً في السايرِ (اسم سجن الدراويش) يقاسي من العذاب وشظف العيش ما ترتعد له الفرائص الى ان أخرجهُ الخليفة والحقهُ بخدمتهِ « ملازماً للفروة » وكان يقف في بابهِ ليلَ نهار ويقوم بالصلوات الخمس من دون انقطاع حتى لا يتسنى لهُ فرصة للفرار

بعد موت المهدي تسلم الخليفة عبد الله التعايشي زمام الحكم المطلق فشدد الرقابة على سلاتين باشا وكان يعتز امام عربان التعايشة وقبائل الغرب البقارة ان الحاكم الذي كان يسيطر عليهم اصبح اسيراً في قبضة يده

وقد روى لي سلاتين باشا ان الخليفة لما كان يستعرض جيوشه التي كانت تملأ السهل والجبل كان يقف تحت رايته الزرقاء فتمر امامه الجنود (جيوش المهدية) هاتفين مهللين مكبرين ثم يأخذ بعض الفرسان الممتازين بالانقضاض على الراية التي كان الخليفة تحتها ويهز السيف او الرمح فوق رأسهِ ويتكنى اي يتفاخر . وكان سلاتين باشا في باديء الامر يجري وراء الخليفة حافي القدمين متحملاً حرارة الارض المحرقة في ايام الصيف حتى ان قدميهِ تشققتا وصارتا كخف الجمل ولكنه كان يتجلد واضعاً نصب عينيهِ الفرار والحرية . واخيراً صرح له الخليفة ان يمتطي جواداً ويسير في ركابه وفي احد الايام إذ كان الفرسان يقومون بالعابهم الحربية ويظهر كل منهم ما يستطيبه من ضروب الفروسية التفت الخليفة الى سلاتين باشا وسألهُ (منادياً لهُ باسم عبد القادر) لماذا لا يبدي امام اخوانه انصار الدين ما يمتاز به من المهارة في ركوب الخيل ويفاخر باعماله مثلهم فقال له حبًا وكرامة يا خليفة المهدي . ثم كرَّ بجواده ولعب على ظهره العاباً دهش لها الخليفة وفرسانه ثم انقضَّ على راية الخليفة وهزَّ سيفه فوق رأسه وقال « انا المصيبة المعلقة بسبيبة (شعرة الفرس) اذا انقطعت السبيبة حلت المصيبة » . فابتسم الخليفة واثنى على مهارتهِ واخلاصه في نصرة المهدية وسأله قائلاً من اين تعلمت ياعبد القادر هذه الاقوال الحماسية فاجاب انه تعلمها من العرب الذين عاش اليهم زمناً طويلاً . فقال الخليفة بارك الله فيك وفي مروءتك . ولما تمكن سلاتين باشا من الفرار قال الخليفة لرجال مجلسه الخاص

ان السببية قد قطعت كما قال ذلك (الكونفر سلاتين) وقد صدق في ذلك لان فرار سلاتين باشا من السودان كان له الشأن الاول في تقرير امر الحملة لاسترجاع السودان من ايدي الدراويش

وكان الخليفة شديد الحرص على سلاتين باشا والاحتفاظ به وكان يقيم عليه الارصاد ويبثُّ الجواسيس لتنسم اخباره ومعرفة كل حركة وسكنة من اعماله وكثيراً ما كانت الاخبار التي كان يتلقاها الخليفة محشوة بالاكاذيب والترهات فكان عند سماعها يستدعي سلاتين باشا اليه ويسأله أن يخبره بالحقيقة ولا يكتم عنهُ شيئاً فكان سلاتين باشا يتظاهر بثقل السمع حتى يكون له متسع من الوقت للتفكير بما يجيب مستفيداً من الدقائق القليلة التي تلزم لاعادة سرد تلك التهمة . وبقيت تلك العادة متسلطة عليهِ إلى ما بعد فرارهِ فلما قابل الملكة فكتوريا كان يستعيدها القول إذا تكلمت فسألتهُ هل في سمعهِ وقر فقص عليها كيف ان هذه العادة تمكنت منهُ مدة أسره وكانت وسيلة مكنتهُ من تسويغ اعماله لدى الخليفة في مواقف كثيرة كان الموت أو السجن أقرب اليهِ من حبل الوريد فأعجبت جلالتها بسعة حيلتهِ وشدة دهائه وبعد نظره

وقد حدثني رحمهُ الله انهُ كان في مدة أسره يطلب كل سنة من الخليفة أجازة ثلاثة أيام يقضيها في بيته لتناول دواء خاص تعوَّد تناولهُ مدة حياته حفظاً لصحته . فكان الخليفة يأذن له بذلك انما كان يحيطهُ بالجواسيس والارصاد خوف فراره . ولكنهُ في السنوات الاخيرة خفَّف كثيراً من شدة هذه المراقبة وفي السنة التي تمكن فيها سلاتين باشا من الهرب من أم درمان بناءً على الاجراءات التي أعدت لهربه بواسطة مدير المخابرات العسكرية (الميرالاي ونجت بك وقتئذ) ومؤازرة قنصل جنرال حكومة النمسا والمرحومين ملحم بك شكور ونعوم بك شقير والقس يوسف اوهرولدر (الذي تمكن قبله من الفرار من أم درمان مع راهبتين) طلب سلاتين باشا هذه الاجازة السنوية من الخليفة فسمح له بها كالعادة وهذا مكنهُ من اكتساب الوقت الكافي لاجتياز ما يزيد عن ١٣٠ ميلاً مع أدلائهِ في ٢٤ ساعة فوصل إلى جبل الجلف بالقرب من بربر وهنا اضطرَّ أن يبقى مختبئاً في مغاور الجبل إلى ان اعدوا له مطايا أخرى عبر بها نهر النيل وسار في عتمور أبو حمد إلى أن وصل إلى المراث وكان فيها نقطة للحكومة من عربان العبابدة الموالين للحكومة ومنها ذهب إلى اصوان حيث قابله هنتر بك (هنتر باشا) ومتشل بك وغيرهم من الضباط الانكليز في الجيش المصري

وأذكر انني كنت حينئذٍ رئيساً لفرع مكتب المخابرات العسكرية في سواكن وقبل وصول سلاتين باشا إلى الديار المصرية بنحو ١٨ يوماً جاءني تاجر من أهل بربر كنت أساعده في أعماله واستخدمهُ في التحري عن شؤون السودان والسؤال عن أمور كانت تعهد إليَّ بها ادارة المخابرات في مصر . وقد جاء خاصة ليعلمني بفرار سلاتين باشا من أم درمان

فطيرت هذه البشرى في الحال على جناح البرق الى مخابرات مصر فلم ألبث حتى وردني الرد بالاستفهام هل الخبر مما يستحق أن يركن اليهِ وعن الطريق التي سلكها سلاتين حتى إذا كان قد اتخذ طريق بربر الى سواكن ترسل الحكومة قوة راكبة من الهجانة للاستيلاء على نقطة كوكريب التي كان يتولى الدفاع عنها كتيبة من الهدندوه تسهيلاً لفراره . فأجبت باسم المحافظ ان النبأ حقيقي لان الرجل الذي جاء بهِ من اعوان المخابرات وانهُ قد شاهد الهجانة الذين أرسلهم الخليفة في أثره وانهُ قد اجتاز مسافة تقرب من ٣٠٠ ميل في ثلاثة أيام ليتصل بأسرع ما يمكن . وان الطريق الذي سلكه سلاتين لابد ان يكون نفس الطريق الذي سلكهُ القس يوسف اوهروالدر والراهبتان من قبله وهو عتمور أبو حمد لان الطريق بين بربر وسواكن مأهولة بقبائل الهدندوه لا سيما وان عثمان دجنه وأعوانهُ يرابطون في جميع الجهات وان سلاتين باشا أحرص من أن يستهدف لمثل هذه الأخطار

وعند وصول سلاتين باشا إلى اصوان ورد تلغراف من مدير المخابرات العسكرية بمصر إلى حاكم سواكن لويد باشا يزف اليهِ هذه البشرى ويثني على إدارة المخابرات في سواكن التي سبق خبرُها الهاربَ

وقد ذكر لي سلاتين باشا في أحاديثه انهُ عند ما كان مديراً عامًّا لدارفور وكان إذ ذاك فتى في بدء عهد الشباب أن أحد معاونيه (وكان متقدماً في السن اشيب الناصية) كان كلما رأى رئيسه رأياً أو أمر أمراً في شأن من الشؤون أن يعارضهُ بحجة انهُ أكبر منهُ سنًّا وأنهُ أعرف منهُ بأمور الحياة. فقال له سلاتين باشا يوماً وهل تظن يا هذا ان التقدم في السن يعد حجة لعلو كعب الانسان في الشؤون الادارية والسياسية وهذا الطاهي في بيتي أكبر مني ومنك سنًّا . فوجم الرجل وعلم ان رئيسه الشاب ليس ممن يسهل التسلط على ارادتهم

وقد عرفت سلاتين باشا في مواقف عديدة فرأيت من اصالة رأيه في الأمور وسعة مداركه ما يحتاج إلى أكثر من مقال واحد . وقد كان ممن لا يسهل تحويلهم الى ما يخالف رأيهم بوجه من الوجوه الاَّ بالحق والاقناع . ولكنهُ يذعن للصواب إذا أمكن اقناعه به . اضف الى ذلك انهُ كان قوي الحجة شديد البرهان سريع الخاطر

وقد حدَّثني يوماً ان جلالة الملك ادوارد السابع دعاه مرة إلى ليلة ساهرة في قصر بكنغهام فذهب بملابس السهرة السوداء ولما التقى بجلالة الملك قرأه السلام لكن الملك اعرض عنهُ وبعد برهة عاد اليه وسأله لماذا لم يرتد ثوبه العسكري ويتقلد جميع اوسمته فأجابه أن ذلك لم يذكر في الدعوة التي تلقاها من القصر فقال له الملك ان أوامره الدائمة في شأنهِ تقضي بانهُ اذا دعي إلى القصر لسهرة أو لمأدبة وجب ان يكون بلباسه العسكري متقلداً جميع أوسمته ومدالياته الحربية . وقد قال لي انهُ منذ تلك الليلة لم يكن يظهر في القصر الملكي الاَّ بلباسه العسكري

وأوسمته فكان يظهر مثل شجرة عيد الميلاد ...! ولما زار سمو عباس حلمي باشا الخديوي السابق الخرطوم أقيمت له حفلة استقبال في قصر الحاكم بالخرطوم حضرها كبار رجال الحكومة والضباط العسكريين والموظفين والعمد والمشايخ والاعيان وقبل الحفلة بقليل ذهبت إلى بيته لاخذ قراره في أمر خطير فوجدته منهمكاً في وضع أوسمته على ثوبه العسكري . ولما رآني قال لي انني يا ابراهيم أشتغل منذ أكثر من ساعة في ما تراني منهمكاً به فقلت له يا سعادة الباشا اعطني هذه الاوسمة التي تبهر الابصار فلا اسمعك مثل هذه الشكوى المرّة فابتسم وقال لي انني لما كنت في سنك لم يكن لي الا القليل جداً منها وها انت الآن تتقلدعدداً لا بأس بهِ اذا نظرنا الى صغر سنك فضحكت وضحك هو لانهُ ادرك ما كان يدور بخاطري

وقد كان للمرحوم سلاتين باشا رعاية خاصة لدى الملكة فكتوريا ولدى الملك ادوارد وكان هذا احياناً يصطحبهُ في زياراتهِ الخاصة عند ما يذهب الى ماريتباد او كرلسباد للاستشفاء بمياههما المعدنية

زرت مرة سلاتين باشا في مصيفهِ الجميل القائم على بحيرة ترونكرخن وكان المرحوم مبروك باشا فهمي رفيقي في هذه الزيارة فعرفنا عائلة انكليزية توطنت في تلك الجهة منذ زمن طويل تدعى عائلة هاسوال وقد كان احد أبنائها مديراً لمصلحة التنظيم بمصر ويعرفهُ كثيرون . وقد ذكر لي سلاتين باشا ان عمة المستر هاسوال المذكور وكانت دائماً تلح عليهِ ان يساعدها في المثول بين يدي جلالة الملك إذا تمكن يوماً وان يستعطفهُ لان يعرج بقريتهم في اثناء سفره إلى المنتجعات المائية وكانت تقول له أن أقصى أمانيها أن ترى جلالته قبل وفاتها. فانتهز سلاتين باشا فرصة سانحة وأخبر الملك ادورد بحديث هذه العائلة الانكليزية مولداً والنمسوية تبعة وذكر له شيئاً عن الامنية العظيمة التي كانت تلك السيدة لا تفتر عن المجاهرة بها . فعين جلالته موعداً يمر فيهِ بتلك الجهة ويقف بقطاره في تلك المحطة وأمر سلاتين باشا أن يبرق بذلك الى هذه العائلة والى اخواته الثلاث ففعل وعند وصول القطار كان الجميع ينتظرونهُ في المحطة فنزل الملك من القطار مع شدة الامطار المنهمرة وصافح الجميع. ولما رأت السيدة الطاعنة في السن الملك هتفت باعلى صوتها قائلةً الآن تنطلق عبدتك يا رب السلام لان عيناي قد ابصرتا خلاصك (إشارة لما قاله سمعان الشيخ عند ما رأى المسيح طفلاً)

ومما قصهُ عليَّ انهُ أصيب في احدى المواقع التي جرت في دارفور برصاصة في منتصف عقدة بنصر يده اليمنى كسرتها فطلب من احد ضباطهِ ان يقطع تلك العقدة لكن الضابط تردد في تنفيذ الامر واظهر الجزع فتناول السكين من يده وقبض على الاصبع المكسورة بنواجذه. وقطعها بنفسهِ وقد صحبت سلاتين باشا في كل اسفاره في جميع انحاء السودان مدة طويلة فلم أر أصلب منهُ عوداً ولا اكثر صبراً وجلداً على احتمال المشقات وكثيراً ما كنا نضطر اذا اقتضت الحال ان

نسير مسافة تقرب من مائة ميل في اليوم على ظهور الهجن

ثم اني درست حياة سلاتين باشا درساً دقيقاً في حله وترحاله فعرفت فيهِ الذكاء وسرعة الخاطر ومكارم الاخلاق والابتعاد عن الاساءة للغير ولا أذكر إنهُ سعى في ايذاء احدٍ من الذين أعتدوا عليهِ أيام اسره وكان يساعد كل من التجأ اليهِ بكل وسيلة تصل اليها يده وكثيراً ما كان يحسن إلى أشخاص وأسر اخنى عليها الدهر ويجود بمال من جيبه الخاص بعد نفاد جميع المبالغ المرصودة لمثل هذه الغايات في ميزانيـة مكتبه وميزانية قلم المخابرات وميزانية الحاكم العام . وما رأيتهُ يوماً يخيّب رجاء انسان إذا رأى وجهاً لمساعدته . وكان يقول لي ان السياسة التي كان يسير عليها الحاكم العام ويناصره هو فيها بكل ما في وسعهِ لهي السياسة التي بلغت بالسودان في مدة قصيرة الى ما وصل اليهِ من الارتقاء . وقد صدق وايم الحق من وضع رسم اللورد كتشنر ورسم الجنرال ونجت باشا ورسم سلاطين باشا في اطار واحد وكتب تحتها The three Makers of the Sudan أي الرجال الثلاثة الذين شيدوا معالم المدنية في السودان

وقد كان سلاتين باشا في اثناء اقامته في الخرطوم مفتشاً عاماً للسودان ، مقصد جميع السياح والصيادين الاجانب الذين كانوا يحضرون الى السودان افواجاً كل سنة في فصل الشتاء وفصل الربيع التي لا تسقط في اثنائهما الامطار ، فكان يمدّهم جميعاً بما في طاقتهِ ، وكان يقيم الولائم ثلاثة ايام او أربعة في الاسبوع لمن يكون منهم في الخرطوم في اثناء فصل السياحة فكانوا يدهشون لاحاديثه الطلية وملحهِ العذبة التي طرب لها الملوك والامراء فسرّهم استدعاؤه الى قصورهم وإلى حفلات ولائمهم ومراقصهم

وقد ذكر لي أنهُ أعطى يوماً كريمات الملكة الكسندرا رسمهُ فقالت له الملكة مازحة انها تجده كغيره من الرجال لا يروقهُ سوى إرضاء الشابات فقال لها معتذراً ان كريماتها قدمن رسومهن لهُ وطلبن رسمهُ ففعل فابتسمت الملكة ولم تفتْها النكتة فقدمت لهُ رسمها الكريم موقعاً عليهِ منها وكان للباشا كل الفخر أن يحذو حذوها

وقد كان لسلاتين باشا كما عرفت منهُ الفخر العظيم يوماً ان يرقص مع جلالة الملكة الكسندره بناءً على اشارة جلالة الملك ادورد وذلك لكي يرقص محاذياً لجلالتهِ لما افتتح الرقص مع جلالة ملكة اليابان التي كانت في ضيافتهِ فجاء هذا دليلٌ على ما كان لسلاتين باشا من المكانة والالتفات في قصر أعظم ملوك العالم

وكان لسلاتين باشا يد في الانتصار على جيوش الخليفة في موقعة أم درمان الشهيرة لانهُ أرسل سرّاً إلى بعض أصدقائهِ الاوفياء في أم درمان ممن كان يضمهم بلاط الخليفة وكانوا أعضاء في مجلسهِ الخاص يحثّهم على أن يشيروا على الخليفة بأن لا يهاجم الجيش المصري ليلاً في كرري بل ينتظر الى الصباح لان الانوار الكشافة الكهربائية التي تطلقها السفن الحربية تكشف

رجال جيشهِ وتبهر ابصارهم فلا يرون شيئاً مما حولهم فتفتك بهم المدافع والرشاشات فتكاً ذريعاً وان يشيروا بالتريث إلى بزوغ الفجر فيكر عليهم بخيله ورجله ويبيدهم عن آخرهم ثم يعود إلى أم درمان ليصلي صلاة العصر في الجامع طبقاً لما جاء في نبوة المهدي قبل موتهِ إذ قال ان جند الحكومة سيباد عن بكرة ابيهِ في كرري . وكرري هو المحل الذي جرت فيهِ موقعة أم درمان التي اعادت سلطة الحكومة إلى بلاد حلت بها الفوضى وعم الظلم والخراب مدة طويلة من الزمن. ولو أن الخليفة هجم على جنود الحكومة بجيشهِ اللجب ليلا لكانت خسائر الجيش اعظم على ما يقولهُ الخبيرون

ولما نشبت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ كان سلاتين باشا بالاجازة في النمسا . وقد تم زواجه في بدئها بالبارونة رامبورغ فارسل اليهِ حاكم السودان العام وصديقهُ الحميم ونجت باشا ان يوافيهُ الى مصر لكنهُ لم يفعل لان جنسيتهُ ومركزه الادبي والاجتماعي حالا دون ذلك على انهُ ذهب الى الامبراطور وأخبره انهُ يتحتم عليهِ كنمسوي مخلص لامته وبلاده ان يخدم وطنه خدمة صادقة لكنهُ لا يسمح لنفسه ان يستل السيف لمحاربة امة يحترمها وتربطهُ بملكها وأعاظم رجالها اواصر الصداقة فأجابهُ الامبراطور وكان فرنسوى جوزيف انه يعلم ذلك واستمهلهُ الى الغد حتى يتسنى له ان يستشير رجال وزارته . وفي اليوم الثاني دعاهُ اليه واخبره انهُ قرر تعيينه مديراً لجمعية الصليب الاحمر فقام بواجبه نحو امتهِ ونحو الدول المحاربة بما يرضي ضمير كل محب للانسانية . وأذكر ان بعثة الصليب الاحمر التي كانت برآسة الدكتور خريستوفرسن — وكان هذا من زملاء سلاتين باشا لما كان مديراً لمصلحة الصحة العمومية في الخرطوم — عند ما وقعت في أسر القائد النمسوي عند انتصاره على جيش الجبل الاسود أتوا بها إلى فينا فقابلها سلاتين باشا بكل حفاوة واحترام على المحطة وقدم لجميع أفرادها هدايا من الحلويات والاشياء التي كان الحصول عليها أيام الحرب متعذراً ثم سعى باطلاق سراحهم جميعاً وترحيلهم إلى البلاد المحايدة . وهذه وغيرها من الخدمات الانسانية التي كان يقوم بها سلاتين باشا نحو الحلفاء من دون الاضرار بمصلحة حكومته وأمته كان لها أبلغ وقع لدى حكومات الحلفاء فحمل ذلك حكومة انكلترا على أن لا تمس رتبه وأوسمته الانكليزية. ولم يكن للخبر الذي نشرته بعض الجرائد انهُ أعاد أوسمته إلى انكلترا عند وقوع الحرب أدنى أثر من الصحة كما عرفت منهُ بالذات . وقد جاملتهُ الحكومة المصرية فأعطته كل ما كان متجمعاً له من المعاش مدة الحرب وكافأتهُ حكومة السودان لما وضعت الحرب اوزارها بمبلغ من المال

وكان لهُ يدٌ في مساعي الصلح الابتدائية بين الدول الاوربية فكان لشهرته العظيمة ولحسن صلاته الودية مع ملوك اوربا ووزرائها اكبر أثر في تسهيل مهمة مفاوضات الصلح كما عرفتهُ منهُ

حيفا ابرهيم ديمتري

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

علاقة فينيقية بمصر

— ٢ —

أثباتها بحوادث التاريخ من الفتح العربي الى العهد الحديث

الفتح العربي

اذا صرفنا النظر عن العصر البيزنطي ولم نتبسط في الكلام عنهُ لخلوه من ادلة تاريخية بارزة على اشتراك مصر وسورية في امر هام او تعاونهما على درء شر مستطير وما شاكل ذلك من وجوه الاتحاد والتآزر فلا يسعنا الاغضاء عما قام بينهما من الصلات الوثيقة في عصر العرب. فان التاريخ طافح بالشواهد والبينات على ان هذا العصر اعاد العلاقات بين البلادين الى احسن مما كانت عليهِ في عهد الفراعنة. ذلك انهُ لما تقلص نفوذ الدولة البيزنطية او الدولة الشرقية من سورية وافضت السلطة فيها الى العرب المسلمين في القرن السابع للمسيح عادت صلات المودة فاستحكمت بين الديار الشامية والمصرية باتصال سيادة الفاتحين الى مصر على يد عمرو بن العاص[١]. وقد كان عصر العرب في القطرين في ولاية بني امية وبني العباس عصر فلاح واقبال ولو انهُ لم يخلُ من شوائب شوهت شيئاً من محاسنهِ. وبلغ الرقي الادبي العلمي في سورية شأواً بعيداً في أيام هارون الرشيد أعظم خلفاء العباسيين وانتشرت دور العلم ومعاهد التربية في ولايتهِ انتشاراً كبيراً ولاسيما في دمشق، ورسخت آداب الفاتحين والعلوم التي تلقنوها من علماء السريان واليونان في القطرين السوري والمصري وتأصلت عاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم عند السوريين والمصريين على السواء وما زال هذا شأنها الى اليوم. فانك ترى الى الآن في اخلاق الشعبين وعاداتهما وعلاقات الافراد والجماعات احدهم بالآخر مسحة عربية بحت لا تكاد تختلف في شيء عنها في ابان عصر العرب مع ان الدول الفاتحة التي تعاقبت على حكم البلادين بعد الفتح العربي ولاسيما الاتراك على اختلاف دولهم وتفاوت نزعاتهم السياسية واساليبهم الاستعمارية أفرغت جهدها في التمتع بجميع حقوق الفتح على منوال يؤدي حتماً إلى حرمان البلادين من طابعهما العربي

---

(١) أنشأنا حديثاً رواية تمثيلية بسطنا فيها حكاية فتح العرب لمصر على أسلوب جديد توخينا فيه اظهار الفضائل العربية التي تجلت على أتمها في حكم العرب للممالك الشرقية

ولما نقل مركز الخلافة الى بغداد قامت في الديار الشامية فتن شديدة تلتها ازمة طويلة الاجل انحلت عن استقلال امراء البلاد وعزلتها بالحكم ولم يبقَ للخلافة رأي في شؤون بلادهم السياسية فكانوا يجلون مقامها بما لا يخرج عن الطاعة الاسمية . وأصبحت سورية من جراء هذا الانقلاب كريشة في مهبّ الريح تارة تضم إلى مصر كولاية خاصة بها وطوراً يقوم على حكومتها ملوك اكفاء يستقلون في شؤونها

عصر الدول الثانوية

وفي مقدمة الفاتحين الذين اغتصبوا ولاية الديار الشامية أثر تلك الفتن احمد بن طولون صاحب مصر في القرن الثامن . ثم قامت دولة الاخشيديين في القرن العاشر . ثم دولة بني حمدان في الموصل . ثم دولة القرامطة فعاثت في البلاد فساداً . ثم قامت المنازعات بين امراء سورية وعمالها على السيادة فيها فتحين الروم الفرصة واسترجعوها . ثم قامت دولة الفاطميين في مصر في منتصف القرن الرابع للهجرة واستولت على ديار الشام وعادت العلاقات السياسية بين مصر وسورية الى ماكانت عليه في العصور السابقة . وقام الحاكم بامر الله ينشر دعوته في الديار فنشبت في البلاد ثورة فكرية تخللتها فتن شوّهت صفحة الفاطميين . ثم قامت دولة الاتراك السلجوقيين في القرن الحادي عشر فاكتسحت سورية وعادت الفتن والمنازعات تمزقها وظهرت دولة بني عقيل المردشيين في الشمال ثم عصابات السفاحين المعروفين بالاسمعيلية فعاثت في البلاد كثيراً وانقسمت على يدها دولة السلاجقة إلى قسمين قسم في حلب وقسم في دمشق

عصر الصليبيين

وفي عصر الصليبيين تجددت العلاقات بين مصر وسورية . وحاول بعض ملوك الافرنج فتح مصر على عهد الملك الصالح بن الكامل وخلفائه ولكنهم لم يقووا على ترسيخ قدمهم فيها وأكرهوا على الجلاء عنها بعد وقوع لويس التاسع ملك فرنسا في الاسر . ثم قام نور الدين الزنكي صاحب دمشق ففتح مصر على يد قائده الناصر صلاح الدين الايوبي الكردي في أواخر القرن الثاني عشر وقطع دابر الفاطميين منها . ثم استبد صلاح الدين بالحكم وفتح ديار الشام وواقع الافرنج وكسرهم في معارك كثيرة واليه يرجع معظم الفضل في تقويض اركان سلطانهم في المشرق

وفي اواسط القرن الثالث عشر ظهر أهل خوارزم وهم من القبائل التي فرت من أمام جنكزخان في زحفه على بلاد الشام وفتحه لها واستقروا في شمال سوريا بايعاز المصريين لانجادهم حين الحاجة . ثم تفاقم امرهم واجتاحوا الديار السورية حتى بلغوا أورشليم وغلبوا الافرنج على أمرهم وحصروهم في منطقة ضيقة في بلاد الجنوب

دول المماليك

ثم قامت دولة المماليك البحرية أو الكردية في منتصف القرن الثالث عشر واستولت على مصر وسورية وقضت على دولة الأيوبيين . وفي اثناء ذلك ظهرت دولة التتر أو المغول فاستحوذت على سورية وطردت المماليك منها ثم عاد المماليك فاسترجعوها على يد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار الذي دانت لصولجانه بلاد الشام بأسرها . ثم استردَّ المغول سورية في آخر القرن الثالث عشر في عهد تيمور لنك الذي غزا دمشق وأجلى صناعها ولاسيما صناع الاسلحة الدمشقية المشهورة إلى بلاده (سنة ١٤٠٠ م) . ثم قامت دولة الجراكسة المعروفة بدولة المماليك البرجية على حكم مصر وسورية في أواخر القرن الرابع عشر وظلتا في حيازتها إلى الربع الأول من القرن السادس عشر حيث أفضى تاج آل عثمان في الدولة التركية إلى السلطان سليم الأول الفاتح الشهير

الفتح العثماني

ما كاد السلطان سليم يفرغ من قتال الفرس ويستتب له الامر في ولاياته البلقانية والاوربية حتى طمحت نفسهُ إلى فتح الديار الشامية والمصرية وكان ما آل اليهِ هذان القطران الشقيقان في عهد المماليك من الضعف والانحطاط باعثاً له على استصغار شأنهما والتعجيل في اجتياحهما ولا سيما انهُ شعر بعدم انتظام أمور المماليك فيها وعجزهم عن الاحتفاظ بسيادتهم فيها فزحف على سورية بجيش عظيم (١٥١٦ — ١٥١٧) واكتسحها وتابع زحفه إلى مصر فتملكها بعد أن ظفر بجيش الجراكسة ونكل به واستأسر الملك طومان باي وشنقه وبه انقرضت دولة المماليك. على أن الغازي ترك لامراء سوريا شيئاً من الاستقلال وأقر أكثرهم في ولاياتهم واقطاعاتهم بعد ان فرض عليهم جزية قليلة وترك للمماليك في مصر بيكاتهم الاربعة والعشرين وهي الاقطاعات التي كانوا يحكمونها بأمر ملوكهم وأطلق عليها اسم سناجق مكتفياً بإبطال سيادتهم العليا في وادي النيل وتخلى له المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر عن الخلافة العربية وبايعهُ شريف مكة وبذلك دانت الامة العربية لصولجانه

وعلى الاجمال فان الفترة التي انقضت بين الفتح العربي والفتح العثماني في الديار المصرية والشامية نغصت عيش الشعبين المصري والسوري لما توالى عليهما فيها من الرزايا والنكبات التي صرفت الناس عن أرزاقهم الى الاحتيال على تخفيف عبء المظالم التي حلت بهم بالتزلف الى الحكام ووقف كل ما هو عزيز لديهم من شرف وروح ومال على مشيئتهم وأهوائهم فكانت هذه الفترة أكثر العصور المظلمة شؤماً على البلادين

وقد ظهر الأتراك العثمانيون عند استيلائهم على الديار الشامية والمصرية بمظهر الخلفاء الاولين فأجروا العدل بين الناس وأقاموا دعائم سلطانهم على اساس الحلم والانصاف فأقالوا البلاد من عثرتها وانتشلوها من وهدة الخراب والانحطاط التي كانت دول الاكراد والمماليك والمغول قذفت بها اليها . لكنهم بعد انقضاء زمن الفتح وانبساط رواق سلطانهم في هاتيك الديار ظهر عجزهم عن مجاراة الخلفاء الاولين وفقدوا تلك الاخلاق السامية التي تخلقوا بها عند الفتح لانهم لم يألفوها في قصور السلاطين الذين تقدموهم وشادوا مجد دولتهم على أسنة الرماح وشذار السيوف ذاهلين عما ينبغي لارباب التيجان ان يتحلوا به من الفضائل الرائعة ليتمكنوا من اقامة أركان الدولة على اساس صحيح لا تقوى عليه صروف الدهر وكوارث الايام . فجار لذلك السلاطين وجار عمالهم في القطرين الشقيقين وهم في شغل عنهم يتلاهون ببهرجة الملك فرجعا القهقرى وغرقا في لجة عميقة من الضنك والشقاء . وحال اعتساف الحكام ووشاياتهم بعضهم بالبعض الآخر وتحاسد الزعماء وتنابذهم وتنافرهم دون سد ثلمتهما واصلاح ما فسد من امورهما

وفي ايام السلطان سليم الثالث حمل نابليون بونابرت على مصر ثم اجتازها الى سورية سنة ١٧٩٩ فاخضع احمد الجزار والي عكاء وفتح بعض مدن فلسطين ثم قفل راجعاً الى مصر ففرنسا وعاقد الاتراك على السلم مكرهاً

عهد ابراهيم باشا في سورية

وفي ايام السلطان محمود (١٨٠٨ — ١٨٣٩) انفرجت الازمة السياسية في البلاد وشعر الاهلون في مصر وسورية بشيء من اليسر والهناء . غير ان ظهور الوهابيين في جزيرة العرب افسد الامر على البلاد . وكان الحكم في مصر افضى الى محمد علي بموافقة الدولة العثمانية وكان هذا الفاتح العظيم منذ ما تبوأ عرش الامارة المصرية يرمي الى التوسع في الملك وانشاء سلطنة واسعة الاطراف تليق بعظمته ولم تر الدولة اقدر منه على خضد شوكة الوهابيين فحقق ظنها به وتغنى على هؤلاء القوم قضاء مبرماً . وحدث ان عبدالله باشا بن احمد الجزار والي عكاء خرج عن طاعة الدولة فعهدت الى محمد علي في تأديبه واعادته الى طاعتها فارسل ابنه ابرهيم باشا الى عكاء سنة ١٨٣٢ فحاصرها وفتحها بمساعدة الامير بشير شهاب الكبير حاكم لبنان مع رجاله اللبنانيين وكافأ صاحب مصر امير لبنان بان خوله الحق في تسمية الحكام المحليين في جميع انحاء سورية ولبنان . ولم يقتصر الفاتح المصري على اخضاع العاصي بل اوغل بجنده في البلاد الشامية واستولى على دمشق وصادق اللبنانيين فكانوا له عوناً على الاتراك ردحاً من الزمن عملاً بالاتفاق السرّي الذي عقد بين والده وبين الامير بشير يوم زاره في مصر . ثم انقلب فريق من اللبنانيين

عليه لعدة اسباب اهمها اقدامه على نزع سلاحهم وارهاقهم بالضرائب فقاتلهم واوغل في بلادهم ثم سار الى حمص وبيلان وافتتحها . وبعد سنة واحدة لاجتيازه حدود مصر دخلت بلاد الشام باسرها في حيازته واقر حكومة والده فيها واستأنف الزحف على الاستانة لفتحها . فاشفقت اوربا من بطشه على سلامة السلطنة واختلال التوازن الدولي فاتفقت انجلترا والنمسا وبروسيا وروسيا على اخراجه عنوة من ارض الدولة . وبعد ان امنت الدول جانب فرنسا التي كانت تؤيد امير مصر ارسلت الى سورية حملة دولية مختلطة غلبته على امره بمساعدة ثوار لبنان . وفي استيلاء الاميرال بابيه الانجليزي على حصن عكاء تم جلاء الجند المصري عن ديار الشام على اسلوب فني مدهش اعجب به اعظم رجال الحرب في اوربا ورجوعها الى الدولة العثمانية بعد ان قامت مصر على حكمها ثمانية اعوام

ولقد اشتهرت حكومة ابرهيم باشا في سورية ولبنان بالعدل والانصاف . وما زال السوريون واللبنانيون الى اليوم يتناقلون اخبار هذا الفاتح العظيم ويتحدثون بما تجلى في بلادهم من آيات عدله وشجاعته ومروءته . وهم مجمعون على انه فاتح عظيم ومن اكبر رجال القرن التاسع عشر

بعد فتنة ١٨٦٠

بعد الفتنة التي اثارها رجال الدولة العثمانية سنة ١٨٦٠ في لبنان وسورية تطرق الضعف الى البلاد الشامية فهجرها كثيرون من اهلها الى الخارج التماساً للحرية والهناء . وادرك الاهلون ما هم مستهدفون له من الاخطار في قعودهم عن الاخذ باسباب الرقي الصحيح وكان ان اتبلت على البلاد الرسالات الاوربية الدينية فانشأت مدارس كثيرة ونشط الاهلون من عقالهم ونسجوا على منوالها فاكثروا من دور العلم . وما هي الا فترة من الزمن حتى غصت البلاد بالمتعلمين من ابنائها ولا سيا لبنان حيث استقر اكثر الرسالات فقصد فريق كبير منهم الى الديار المصرية في مدات متقاطعة فاختصتهم الاسرة العلوية الشريفة بالتفاتها السامي وقربت نوابغهم ونشطت علماءهم وكتابهم فكانوا من اعظم دعائم الحركة الفكرية في وادي النيل ولم تدخر وسيلة لمساعدتهم على تعزيز مقامهم في هذه البلاد حاذية حذو مؤسسها العظيم الذي كان اول من فكر في اتخاذ اللبنانيين وبعض السوريين عوناً لاخوانهم المصريين وشركاء لهم في تأسيس نهضة مصر الحديثة على قاعدة تبادل المنفعة بين القطرين الشقيقين . وبذلك استطاع هؤلاء المهاجرون ان ينشئوا في وادي النيل وحدة قومية تغبطهم عليها سائر الجاليات غربية كانت او شرقية وان يعيشوا مع اخوانهم المصريين اشقاء متآزرين في السراء والضراء

الزيتون بولس مسعد

باب شؤون المرأة
وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

ارشادات صحية لربات المنازل

للدكتور محمد زكي شافعي

السكرتير الفني بمصلحة الصحة العمومية

ربة المنزل الحازمة والمالكة لناصية وظيفتها في الحياة هي نعمة عظيمة من أنعم الله وملاك رحمة واسعاد أرسلها إلى عباده لتخفف من لوعة ما يعانيه بنو الانسان في طريق الحياة المملوء بالاشواك . ربة المنزل الجديرة بهذه المهمة السامية والرسالة المقدسة لها أعظم شأنٍ في مستقبل قرينها وأولادها فهي الرأس المدبر والقوة المنفذة في مملكتها الصغيرة بل هي الاساس الذي تبنى عليهِ دعائم تقدم القطر اذ هو يتكوَّن من مجموعة هذه الممالك الصغيرة فاذا اختلَّ توازن احداها عاق ذلك تقدم القطر في ناحية من نواحيهِ فتأثرت بقية النواحي — ولا تظنوا إن في هذا القول أي مبالغة . فربة المنزل بسبب اهمالها قد تنتج ابناء ضعاف الصحة يصبحون عالة على الامة بسبب عدم كفايتهم للعمل أو أولاداً لاخلاق لهم يكونون شرًّا عليها ومعاول هدم في بنيانها اذ أن الامم الاخلاق — ألا ترون أيها السادة ان ربة المنزل اذا حادت عن الطريق السوي قد تكون سبباً في تلف زوجها وفي ذلك الطامة الكبرى بل قد تكون مثالاً سيئاً لغيرها فتقوض في من تتسرب اليهم عدواها دعائم هناءتهم وبالتالي تصبح معولاً من معاول الدمار في كيان الامة

ربة المنزل — أيها السادة — هي المسيطرة الاولى على الصحة العامة هي مفتاح الصحة لنا جميعاً أفراداً وجماعات ولذلك شغلنا وشغلت الامم الاخرى بالعناية بها جنيناً وطفلاً وفتاة وعروساً وأمًّا وكهلة وشيخة — لخطورة هذا الموضوع هي التي دعتني لان أحاضركم هذا المساء في الارشادات الصحية اللازمة لربات المنازل وأرجو ان لا يجول بخاطر أحد منكم ان

ما سأذكره قاصر على الاناث دون الذكور بل العلم بهالزام علينا معشر الرجال لان الجنس اللطيف مهما دفعه الماضي الذي اصبح الآن مصدر ألمنا — ماضي حياته في أسرنا واستعبادنا — مهما دفعه الى الانتقام من الجنس النشيط فاننا يجب ان نشعر على الدوام بأننا ملزمون باعداد وسائل الرفاهية والغبطة لشريكة حياتنا وكفى انها من جنس أمنا — هذه المخلوقة التي تحوطها هالة من النور والتقديس وتصدر عن صوتها الحنون أعذب نغمات الموسيقى السحرية لابنائها وفي بسماتها اقوى الآمال وفي لثماتها أرق درجات الحنان وفي احضانها نستمتع بغاية الهدوء والاطمئنان ومتى أحسسنا بلمس يدها لاجسامنا شعرنا بدبيب الحياة وبالصحة تجري في عروقنا ومنها نأخذ النصح الخالص وبرضائها علينا تذلل أمامنا الصعاب فهي اذا أرادت ازالت من ناموس الحياة كلمة «المستحيل» وقضت — ولا رادّ لقضائها — وقالت وكان القول ما قالت — وجماع القول ان الام هي روح المحبة المتغلغلة في أعماق القوة أو بمعنى آخر هي أسمى مظاهر العقل البار وهذه هي ارق مرتبة من مراتب الانسانية

اني أقصد بالارشادات الصحية — أيها السادة — كل ما يدعو للعناية بصحة المرأة ولتجديدها ولصونها فاننا تعلم جميعاً ما عليه جسم المرأة من الدقة ونعلم ايضاً ما له من الوظائف الهامة وما يتحمله في سبيل ذلك من المشاق ولذلك هو في حاجة قصوى الى العناية به محافظة على رونقه وبهائه وعلى ضمان قيامه بوظائفه على الوجه الا كمل . فالمرأة كالشجرة التي لا تثمر ثماراً طيبة الا ان كانت سليمة فان أصابها العطب أثمرت ثمراً فجًّا أو تعذر عليها الاثمار فأصبحت عقيماً ولذلك فانني سأتتبع خطواتها من يوم دخولها في مضمار الحياة العملية المنزلية لان المجال لا يتسع لتتبع حياتها العملية خارج المنزل — ولنترك ذلك لفرصة أخرى

أيها السادة

تبدأ الفتاة حياتها الزوجية الجديدة وقد تكون ملمة بعض الالمام بمبادىء الصحة وربما تجتهد في تطبيقها على منزلها وحياتها الجديدة أو تهملها وقد تكون معلوماتها خاطئة وفي الغالب ترجع سبب ذلك الى تشرب أفكارها بما يلقيه الوسط في روعها من المبادىء غير الصحيحة فتنساق في الاخذ بها حرصاً على اتباع ما يقال له « المودة »

ان «المودة» — أيها السادة — لم تترك بيتاً لم تدخله ولم تترك سيدة لم تحترق بنيرانها الاّ من عصم ربك وقليل ما هم — يبدأ أثر «المودة» السيء من وقت بدء السيدة لحياتها الزوجية. ينشأ هذا الشر المستطير من اليوم الاول من ايام هذه الحياة المقدسة مع انه على هذا البدء يتوقف تمتع السيدة بصحة جيدة في معظم الباقي من حياتها وعليه يتوقف قيامها باحسن واقدس ما يجب عليها وهو الامومة

كنا فيما مضى نعيب على «المودة» ضيق الثوب والمشد وما ماثلهما ونخشى اثرهما في إضعاف النسل ولكننا والحمد لله قد خلصنا من هذه الرزايا بفضل الميل العام الى الرياضة البدنية اذ ان الثياب الضيقة تعوق السيدة عن اداء ما تتطلبهُ هذه الرياضة ولكن لعنة المودة لا تزال تتبع السيدة اينما سارت اذ حلت بدل الثياب الضيقة الملابس الفضفاضة والطويلة التي لازلنا نرى البعض من السيدات يلبسنها في الطرقات العامة فيكنسنها بذيولهن وبذلك تبلى الثياب بسرعة فضلاً عما تحمله الذيول من الجراثيم التي تنتقل معها الى المنزل . ولا شك ان مثل هذه الثياب لا تصلح الاَّ لمن لا ينتقلن من مكان الى آخر الاَّ وهن راكبات فضلاً عن انها لا ترتدى الاَّ في السهرات. ونحمد الله ان اكثر سيداتنا غير هاويات للسهرات — وان كانت عدوى «المودة» تكاد تهدم فروق الموارد المالية التي يجب ان تراعى بين الغنية والفقيرة اذ السيدة المتوسطة الحال تحاول التشبه في ملابسها بالسيدة الغنية فتختل ميزانيـة زوجها ويرفرف على المنزل شبح الخراب والشقاء

وهناك ايضاً «مودة» اخرى خطرها يعود على الامة مباشرة وهي «مودة» الاقلال من النسل فان الفتاة تجعل همها الوحيد من بدء السنة الاولى لحياتها الزوجية ان تترك وشأنها بغير نسل لكي تصيب من متع الحياة اوفر نصيب قبل ان تقيد حركاتها وسكناتها الاطفال ، ولكي تحافظ على بهاء منظرها وتنتحل هي وقرينها الاعذار لذلك واهمها ان نفقات المعيشة اصبحت كثيرة فلا يقدران على تحمل نفقات مولودها مجبران على انباته نباتاً حسناً واحاطته بجميع أسباب المناعة وقد تستعمل لمنع النسل طرقاً ضارة كلها وربما تسبب للسيدة العقم المستديم او امراضاً نسائية عديدة او امراضاً عصبية أو نفسية يتعذر الخلاص منها بسهولة .وفي بعض الاحيان قد تصل القسوة بالام الى قتل الطفل وهو جنين في بطنها ويكفي للتدليل على شناعة هذا العمل أن نصف الام بالكلمة التي تتفق وفظاعة عملها أي بوصف القاتلة . والسيدة التي لا تحب النسل هي في الواقع أقل من الحيوان الضاري احساساً وشعوراً بل هي امرأة خرجت عن طبيعتها واظهرت عواطف لا تتفق والغرائز البشرية لان حب النسل والتناسل غريزة في كل انثى في المملكة الحيوانية على الاطلاق — والتناسل للمرأة التي تتصف بالامومة الكاملة هو كالغذاء والهواء اللازمين لحياتها لان رسالتها في الحياة هي اقامة النسل وحفظ الجنس ولا بد لها من ان تلبي داعي خالقها والاَّ كانت متعدية لطورها معطلة لحياتها فتحيا حياة لا معنى لها اذ انها بلا غرض سوى ارضاء الغرائز الحيوانية الزائلة — أما الروح فتقصد دائماً الى الخلود لا بالاقتصار على الحياة الاخرى بعد الموت بل بالخلود في هذه الحياة الدنيا أيضاً وما هذا الخلود الاَّ ان نظل احياء في اولادنا واحفادنا الجديرين بان يحملوا اسماءنا . هذه هي مهمتنا في الحياة

قد يقال ان الفقر يأتي في اثر الاطفال وأنا أقول إن السعادة في التناسل والنسل . وقد

توجد هذه السعادة في اكواخ الفقراء حيث توجد القناعة في حين ان التعاسة قد تهيمن على قصور الاغنياء . ان مظاهر السعادة التي تشاهد أحياناً في هذه القصور قد تكون مظاهر خادعة وقد يكون في بعض هذه القصور من الشقاء وعدم الهناءة ما لا يخطر ببال ولا سيما اذا كان القصر لا يزينه طفل ويملأه سروراً وحبوراً لان نعمتين من اعظم نعم الله على الجنس اللطيف تتمناهما كل فتاة هما « الصحة والاطفال » فاذا حرمت منهما ذات مال فلا ينفعها مالها ولا جاهها لاستخلاص السعادة مما يحيط بها « لها تتمة »

احاديث صحية وطبية

للدكتور شخاشيري

مقام الطبيب من صحة الجمهور

لا جدال في ان مقام الطبيب من صحة الجمهور خطير وعلى جانب كبير من الشأن فهو خطير بحكم صناعته التي يمارسها بين عامة الناس وخاصتهم وخطير بما ينشأ عن هذه الصناعة من تعارف وروابط بينه وبين افراد الجمهور فضلاً عن الفوائد المشتركة التي يحس بها هو ومن يتصل بهم على السواء. فتجده يدأب في فنه على صيانة حيوية الأمة والزيادة من نضارتها والدفاع عن كيانها ويرفع بمهارته وحسن سياسته وبمقدار ما يسديه من خدمات مقامهُ الفني والاجتماعي الى المستوى الذي يجب ان يكون فيه محترم الشخصية موفور الكرامة فيعيش في سعة وطمأنينة لا هموم تساوره ولا منازع اقتصادية تصرفه عن متابعة الدرس والتغذي بالمعارف والعلوم الحديثة والاختبارات المستجدة . ومن الحكمة وسداد الرأي ان تضمن له وسائل المعيشة الكريمة والظهور بصورة محترمة تتفق وكرامة الفن الذي نصب نفسه له. وفي ذلك تتوفر جهوده على العناية بصحة الجمهور الذين هم في الواقع جزء من ذلك الجمهور. ومع هذه الاعتبارات الملموسة الأثر ترى صلة الطبيب بالجمهور ضعيفة متراخية الاوصال على غير ما يجب ان تكون عليه من تلاؤم وتقرب . فانك ترى بعض الجماعات حتى في اوقات اليسر والرخاء لا تنال من الرعاية الطبية لا عن طريق المعالجة ولا عن طريق الوقاية القدر الذي تستحقه . وترى من الناحية الاخرى اطباء عديدين على استعداد فني كبير من غير عمل وفي حالة عسر شديد . وكذلك تشاهد مرضى كثيرين بحالة بؤس وشقاء ولا سيما في هذه الاوقات العصيبة يطلبون التداوي ويتلمسون الدواء فلا يجدون لا هذا ولا ذاك وهم في حال

لا يقوون على دفع تكاليف المعالجة كما يجب فيظلون عرضة للامراض . في حين ان طائفة من الاطباء تشتغل في استمرار وخصوصاً في العيادات المجانية مقابل أجر ضئيل . وهذا التناقض غير مقتصر على مصر وغير مصر من بلاد الشرق بل تجد امثاله في اوربا واميركا وكل مكان . وقد وصل سوء الحال في اميركا إلى حد الخوف من انقطاع عدد كبير من الاطباء عن مزاولة صناعتهم وفي اوربا يتحدثون بان العيادات الخصوصية ستبطل وتعود لا وجود لها مما جعل موضوع مقام الطبيب من الصحة العامة في غاية الخطورة . وقد تألفت لجنة في العام الماضي في الولايات المتحدة لدرس تكاليف العناية الطبية من نواحيها المختلفة وأسباب هذا التناقض الموجود في علاقة الطبيب بالجمهور وازالته . ويظهر ان منشأ هذا التناقض هو تقدم العلوم الفنية واقبال الاطباء على التخصص بها والتوفر على فروعها وتيقظ الحكومات لمساعدة الجمهور وتوزيع الفوائد الطبية على افراده في حدود طاقتها . وأقرب شاهد ماثل امامنا حكومة مصر ومنشآتها الجديدة من عيادات وملاجيء ومستشفيات فانها تضيق على الطبيب مجال عمله الحر في عيادته الخاصة وترغمه على اتخاذ وسائل تحط من كرامته [illegible] من مقامه الاجتماعي. وهو في حال لا يكفيه ان يكون متتبعاً لخطوات العلم فقط ملماً بأبحاث العلماء في مختلف الفروع الطبية واقفاً على الخطوات الحديثة في التشخيص والمعالجة والوقاية بل عليه ان يعتبر المريض الذي يتداوى على يديه جزءاً هاماً من جسم الامة لا فرداً مستقلاً عنها وان ما يصيب الجزء من مرض وعلة يتأثر له الجسم ويكون السبب في ضعفه والنيل من قوته والباعث على فنائه واضمحلاله

الحكومات الاوربية وسياستها الطبية

يعنى الاوربيون اشد عناية بتوسيع نطاق المعالجة الطبية إلى اقصى مدى يخوله العلم لانها في نظرهم اساس ينبني عليه قوام صحتهم وبقدر ما يكون هذا الاساس سليماً من الوهن تكون اعمالهم سليمة ومنتجة . وعليه فهم ينظرون إلى الطبيب كما ينظر إلى المحارب في خطوط الدفاع عن كيان امته فعليه تقع التبعة في دفع غوائل الادواء عنهم والقضاء على مسبباتها بالوسائل العلمية الحديثة . وأهم اركان الدفاع عن الصحة العمومية ومكافحة الاوبئة والامراض الوافدة التشخيص الباكر وان النجاح في التغلب عليها يتوقف على صحة ذلك التشخيص وسرعته . ومقام الطبيب الحر اليوم يختلف عما كان عليه سابقاً فهو بعد توزيع العناية الطبية على افراد الامة فقيرها وغنيها سواء امام امرين لا ثالث لهما فاما ان ينضم إلى الحكومات او الجمعيات ويشتغل بأجر محدود وأما ان يبقى معرضاً في أعماله الحرة الى المنافسة الشديدة ويتقبل مصيرها وما تؤول اليه نتيجة هذا الكفاح القائم بينه وبينها بالرضى ومن غير تذمر

التأمين ضد الامراض

وقد استقر الرأي العام في اوربا واميركا على محاربة الادواء كجماعة منظمة لا كفرد وانشأوا لذلك جمعيات التأمين ضد الامراض ورأوا الحاجة ماسة الى العناية بالعمال وغير العمال ووقايتهم من الامراض ومعالجة من يصاب بها منهم مقابل قدر صغير من المال يدفعونهُ كل شهر من اجورهم. وقد سرى هذا الرأي وعم طبقات العمال وتطور وجعلوا له نظاماً وقيدوا المنضم اليهِ بشروط كما فرضوا غرامة على من يخرج عليه من الاعضاء . وكانت المانيا اول من قرر الاخذ بنصرته سنة ١٨٨٣ وانتشر نظام التأمين على صحة العامل بعد الحرب الكبرى في اوربا واميركا وامتد الى ابعد من اوربا واميركا وكان على صورتين اجباري واختياري . فالتأمين الاجباري متبع في المانيا والنمسا ونروج ولكسمبرج والمجر وبريطانيا ويوغسلافيا وروسيا واوربا المتوسطة وفرنسا وهولندا واليابان وتشكوسلوفاكيا والبرتغال وبولونيا واليونان . وجميع هذه الممالك توجب على كل مشتغل بصناعة معلومة وكل من لا يتعدى ايراده مبلغاً معيناً ان ينضم الى المؤمنين على صحتهم او بالحري الى الجمعيات التي تجمع المال بالتقسيط وتنفقه عند الحاجة على المرضى . وهو اختياري في الارجنتين واسبانيا والدنمرك وسويسرا وبلجيكا وفنلندا واسوج وهذه الامم لا ترغم احداً على التأمين على صحته ولكن الحكومة تشجع المؤمنين بالاعانات حيناً وبالمكافئات حيناً آخر . ويظهر من الاحصاء الرسمي العام ان اوربا ماعدا اسبانيا وايطاليا لا يزال نظام التأمين فيها غير شامل لكل الامراض اي ان المؤمن له الحق ان يتداوى من الامراض المعدية وليس له هذا الحق في احوال التداوي بالجراحة فهو مكلف ان يدفع عن هذه الوسيلة عند ما تدعو الحاجة اليها . والغاية التي ترمي اليها تلك الامم هي ان يتآزر المجموع على حمل اعباء المرض لكي لا يقضى على الفرد بسبب المرض او بسبب توقفه عن العمل او عجزه عن دفع نفقات المعالجة . وكانت نتيجة هذا التآزر والاقبال على التأمين ان تضاعفت العناية الطبية بسواد الامة وازداد عمل الاطباء وتحسن ايرادهم وقل تفشي الامراض بينهم . وتدل الاحصاءات على ان ثلاثة اخماس الشعب الالماني منضم الى هذا النظام البديع وله الحق في المعالجة الطبية عند الحاجة اليها مجاناً . وان ثلاثين الف طبيب او ثمانين في المائة من مجموع اطباء تلك الامة قائمون على خدمة هذا النظام يمارسون صناعتهم في ظله الوارف ولولاه لضاقت بهم الدنيا على رحبها ودبَّ اليأس في قلوبهم وقنطوا من الحصول على معايشهم . وعدد المؤمَّن عليهم في بريطانيا العظمى بلغ سبعة عشر مليون عامل . وفي تشكوسلوفاكيا نصف سكانها مؤمن على صحتهم ويعتني بهم نحو خمسة آلاف طبيب من مجموع ٧٣٠٠ طبيب وقد بلغ ايرادهم سنة ١٩٢٧ نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات . وعدد المؤمَّنين في

الدانمرك نحو ٦٦ في المائة من مجموع السكان ومعدل نسائهم بين ١٤ و٦٣ . ومعظم العمال في هولندا مؤمّن عليهم. وفي بلجيكا ٥٠ في المائة من الاهالي مؤمنون و٢٥ في المائة من المجر و٨٠ في المائة من شعب بودابست . وأما في بولونيا فلم يتجاوز معدل المؤمّنين من شعبها ١٦ في المائة. وفي يوغسلافيا ٢ ١/٣ في المائة وهذا يدل على ان معدل المؤمّنين ينقص في البلاد الزراعية عنه في غيرهذه ما عدا الدانمرك . ويقوم بهذا التأمين الجمعيات المؤلفة من العمال وممثلي الموظفين وهم احرار في شؤونهم. وتجمع الاموال من المشتركين ومن الاعضاء الامناء والحكومة تساعد بالتبرع

وفوائد التأمين عديدة وتختلف في بلاد عن أخرى وهي ماليـة وفنية وليس في نظـام التـأمين ما يبيح هذه الفوائد لغير المؤمنين الا ان الفوائد الطبية تشمل اهل المشتركين . والفائدة المالية هي ان يدفع للمريض المؤمن مدة مرضه ما يعادل نصف أجره والفائدة الطبية هي ان ينال المريض من الطبيب المعالج العناية الطبية في حدود مرسومة ، ما خلا بريطانيا فالمعالجة غير مقيدة بشروط الأزمن المعالجة ، ومع ذلك فالمريض المؤمن على صحته يتداوى مدة طويلة ويدفع الى عائلته ما يقوم بمعيشتها مدة مرضه . وفي المانيا ينال العامل المؤمن في حال المرض المساعدة المـالية والمعالجة الطبية في جميع صورها واحتياجاتها كاجراء عملية جراحية والمعالجة الطبية في المصحات والمستشفيات والاشعة ومعالجة الاسنان والادوية ويدفع قيمة معينة للحامل عن المدة التي تضطر فيها الى الانقطاع عن العمل مع العناية بها قبل الولادة وفي اثناء الولادة وبعدها ويدفع لها اجر المولد وأجر الممرضة التي تعتني بها وبمولودها . وقد بلغ عدد الامهات سنة ١٩٢٥ اللواتي تلنَ هذه المعاونة نحو ٨٥٠ الف امرأة وهو نحو ثلثي الوالدات تلك السنة

كان أثر هذا النظام الواسع النطاق ان زاد زيادة عظيمة في عمل المستشفيات وغيرها من المعاهد الطبية وكان شبه دعاية للاعمال الطبية وكذلك كان أثره في تقرير اجور الاطباء وتعيينهم في المراكز المزدحمة بالعمال ظاهراً . وقد دعت جمعية الامم في العام الماضي الى عقد مؤتمر دولي ليدرس شؤون الصحة العـامة في الارياف والقرى ومعرفة ما يحتـاج اليهِ كل قسم منها من الاطباء بحيث ينال الجميع العناية الطبية على التساوي . ولهذا النظام ثلاث فوائد عامة فالاولى اجتماعية فانه يصون كرامة العائلة من مذلة الفقر في اثناء مرض عائلها والثانية طبية بحيث يساعد المريض على التداوي واسترداد قوته بالادوية والارشادات والتمريض والثالثة الوقاية فهو يضمن للحامل جميع اسباب الصحة والرفاهية قبل الولادة وفي اثنائها وبعدها وفي مدة الرضاعة فضلاً عن الوسائل التي تتخذ ضد انتشار الامراض المعدية كالسل والزهري وغيرها . ولا يخفى على فطنة احد ما ينطوي عليه هذا النظام من فوائد بعيدة المدى في استقرار صحة الفرد على قاعدة منظمة ومعيشة مرتبة وشعور مطمئنة وهو ولاشك اقوى العوامل على حفظ الصحة ووقايتها من عدوى الامراض

المانيا تشكو كثرة الاطباء

نشرت احدى المجلات الطبية رسالة عن كثرة الاطباء في المانيا قالت يحتاج طالب الطب في المانيا الى سبع سنوات دراسة بما فيها مدة الامتحانات وسنة تمرين والى سبعين الف مارك او نحو ٣٣٣٢ جنيهاً ولكي يكون الطبيب المتخرج مطمئن البال الى ايجاد عمل يقوم بتكاليف المعيشة عليه ان يهتم بالحصول على مركز في جمعية العناية بالمرضى لان ايراد العمل الحر في حكم العدم وللجمعية المذكورة شروط لقبول الاطباء منها ان يعتني كل طبيب بعدد من المرضى لا يقل ولا يزيد على ستمائة مريض . ولما كانت هذه النسبة قد تعادلت فقبول اطباء جدد اصبح غير متيسر الا في احوال ملء المراكز الخالية بسبب اجازات عادية او مرضية وان على المتطوع ان يقضي ثلاث سنوات بصفة مساعد قبل ان يعيَّن تعييناً رسميًّا . وعدد المساعدين لا يزال ناقصاً عن المطلوب ومعنى هذا ان طالب الالتحاق مستعد ان يشتغل كمساعد من غير مقابل الى ان يخلو مركز ومع ان الاجر على معالجة المريض المؤمن على صحته ضئيل جدًّا فيكاد يكون من المستحيل على الطبيب المتخرج حديثاً ان يجد في العمل الحر ما يصرفهُ عن الاهتمام بمثل ذلك المركز وقبول ما فرضت له الجمعية من شروط . والمراكز في المصالح الاخرى قليلة جدًّا وخلوها نادر . وصناعة الطب وحاجة البلاد الى معونتها على رأي بعض الثقاة الخبيرين لا تدعو الى أكثر من الف ومائة الى الف ومائتي متخرج في السنة وان كل زيادة على هذا العدد تقلل من كرامة الفن بما ينشأ عنهُ من المحاولات والتنافس جرياً على سنة تنازع البقاء

وهذا من دون شك ينال من شهرة الاطباء القدماء المعروفين . وفضلاً عن ذلك فعدد الطلبة المنضمين الى كليات الطب قد فاق في السنين الاخيرة أضعاف ما تحتاج اليهِ البلاد . فبلغ في سنة (١٩٢٨–١٩٢٩) ٣٣٥٠ طالباً وفي سنة (١٩٢٩–١٩٣٠) ٣٧٩٥ وفي سنة (١٩٣٠–١٩٣١) ٤٢٦٧ طالباً ومن هذه الارقام يتضح لك ان الزيادة في مدى ثلاث سنوات قد بلغت ٧٨٠٠ طبيب لا تحس البلاد بحاجة الى معونتهم الفنية. وهذه الزيادة مستمرة في صعود وعدد من لا يكفيهم دخل عياداتهم يتضاعف كل سنة ويعدون بالآلاف . ومما تقدم فأنت ترى ان الشعب الالماني مهدد بخطر انحلال اخلاق طائفة كبيرة من ارقى عناصره علماً وخلقاً وهذه الحقيقة تدعو الى الاسراع في اتخاذ الوسائل اللازمة لملافاته قبل استفحاله وأنجع طريقة هي ان تفرض على الطالب شروطاً مرهقة لا يقبل الاخذ بها الا من كان على استعداد في ظروفهِ ومواهبه ونحن نأسف اشد الاسف على تقييد العلم بشروط ولاسيما في امة راقية كالمانيا

الدكتور شخاشيري

باب الزراعة والاقتصاد

في الانتاج الزراعي

كتبت هذا البحث على أثر ما قرأته للجنة البرلمانية في موضوعه منذ شهور

متوسط محصول الفدان من القطن الاشموني بالجهات الجنوبية ٥٠ر٤ قنطار — حيث يباع قبل الحلج — ومتوسط ثمنها ونفقات انتاجها بالمزارع الكبيرة قبل سنتين اي في سنة ١٩٢٩ المتداخلة في سنة ١٩٣٠ والآن

الثمن بالقروش	سعر القنطار	النفقات	
١٨٠٠	٤٠٠	٦٥٠ مصاريف زراعية بما فيها تطهير المساقي واجرة الخفر	قبل سنتين
		٢٥٠ ضرائب ورسوم اميرية ومصاريف ادارة زراعية ٥٠ قرشاً	
		٩٠٠	
١١٢٥	٢٥٠	٦٠٠ مصاريف الخ	الآن
بعجز ٥ر٣٧ ٪		٢٣٠ ضرائب الخ والنقص في مصاريف الادارة لا في الضرائب	
		٨٣٠	

ومتوسط محصول الفدان من القطن السكلاريدس بالجهات البحرية ٣ قناطير ومتوسط ثمنها ونفقاتها كما يلي :

الثمن بالقروش	سعر القنطار	النفقات	
١٦٥٠	٥٥٠	٦٣٠ مصاريف الخ	قبل سنتين
		١٧٠ ضرائب الخ	
		٨٠٠	
٩٠٠	٣٠٠	٥٧٠ مصاريف الخ	الآن
بعجز ٥ر٤٥ ٪		١٥٠ ضرائب الخ والنقص في مصاريف الادارة	
		٧٢٠	

ملحوظة : راجع مذكرة سياسة الحكومة القطنية للاستئناس وما سيذكر بعد

واذاً فالربح كما يلي بالقروش :

قبل سنتين	الآن	العجز الآن
٩٠٠	٢٩٥	٦٧ر٣ ٪ بالجهات الجنوبية
٨٥٠	١٨٠	٧٩ ٪ بالجهات الشمالية

ومتوسط محصول الفدان من القمح ٦ ارادب و٦ احمال تبن بالجهات الجنوبية و٣½ ارادب و٣ احمال بالجهات الشمالية ومتوسط الثمن والنفقات كما يلي :

في الجهات الجنوبية

الثمن	السعر	النفقات	
١٠٢٠	١٥٠ الاردب	٤٣٠ مصاريف الخ	قبل سنتين
	٢٠ الحمل	١٦٥ ضرائب الخ	
		٥٩٥	
٦٦٠	١٠٠ الاردب	٣٤٥ مصاريف الخ	الآن
	١٠ الحمل	١٥٥ ضرائب والعجز في المصاريف الادارية	
		٥٠٠	

في الجهات الشمالية

الثمن	السعر	النفقات	
٥٨٥	١٥٠ الاردب	٣٧٠ مصاريف الخ	قبل سنتين
	٢٠ الحمل	١١٠ ضرائب الخ	
		٤٨٠	
٣٨٠	١٠٠ الاردب	٣٠٠ مصاريف الخ	الآن
	١٠ الحمل	١٠٠ ضرائب الخ	
		٤٠٠	

واذاً فالربح كما يلي

قبل سنتين	الآن	الفرق
٤٢٥	١٦٠	عجز ٦٢ ٪ بالجهات الجنوبية
١٠٥	والآن خسارة ٢٠ قرشاً	بالجهات الشمالية

وبما انه في المزارع الواسعة لا يستطيعون عادة زراعة الارض كلها زراعة نيلية لحسابهم تزيد نفقاتها في الجملة عن ايراد ما يزرع منها زيادة تأكل الربح الطفيف الذي قد يكون الآن

من زراعة القطن الصيفي وزراعة القمح الشتوي وقد اقتصرنا على ذكر انتاجهما ونفقاته دون سائر الزروع اذ الغرض التمثيل لا الاستقصاء فضلاً عن انهما اهم الزروع

وتزيد النفقة حينما يكون الري كله او اكثره بالآلة ويزيد الانتاج في الارض الفائقة الخصب — واذا كانت الارض اقل من المتوسط انتاجاً لسوء ظروفها الزراعية او الادارية فان الخسارة تكون في كل زرعة كما هو الحال الآن في كثير من المزارع الكبيرة في هذا الرخص إلاّ انهُ في الغالب يجمع الملك في استغلال ارضهِ بين ذراعتها لحسابهِ والتأجير قطاعي لصغار الفلاحين فتتجزأ الارض الى مزارع صغيرة ومن هنا يكون له ربح بقدر ما يكون من التأجير وموافقته للظروف بدون افراط ولا تفريط

في المزارع الصغيرة حيث يستغلها زراعها بانفسهم واولادهم وحيث ينتفعون من ماشية فلاحتها انتفاعات اخرى تقل نفقات الانتاج الى النهاية الصغرى واذاً يكون منهُ ربح هو في الغالب نتيجة عمل الفلاح واولاده يأخذه وهو كزارع لا كأجير

***

منذ شهور استشارني احد موظفي الحكومة وهو مستأجر واخوته ارضاً بجوار ارضهم لاحد الملاك — فيما يصنع لاقناعه بقبول ايجار معقول فكتبتُ له مذكرة بالقواعد التي يصح الرجوع اليها في تقدير الايجار تقديراً معتدلاً وقد أثمرت هذه الوسيلة وجاء عندي هذا الموظف شاكراً فشجعني هذا على التوسع في تلك المذكرة ونشرها في مجلة المقتطف «عدد يونيو الماضي»

منذ شهور سألني احد المشتغلين بالادارة الزراعية عما كان يجري قبلُ وسعر القطن رخيص في استغلال الارض بربح فأجبتهُ باجمال أبينهُ فيما يلي

حينما كان ريع انواع الحاصلات الزراعية قطنية كانت او حبوبية او علفاً متماثلاً وكانت اثمانها واثمان المصنوعات أهلية كانت او اجنبية متناسبة وكانت الضرائب والرسوم متجهة الى التقليل والتخفيف وكانت احوال الفلاح مستقرة منسجمة وكان هناك مبادىء نهضة عامة زراعياً ومالياً واجتماعياً يسودها الاطمئنان الى الحاضر وحسن الامل في المستقبل — حينذاك وكان ذلك منذ بضع وثلاثين سنة كانت زروع العلف كالبرسيم والفول وأثرها الفعال في تخصيب الارض وفي تسهيل تربية المواشي — وكان عدد هذه سواء كانت للعمل او للانتفاع بالبانها ولحومها — وبالتالي كان السماد العضوي الناتج من ذرائبها وكان أثرها في فلاحة الارض وتموين الاسواق المحلية باللحوم والالبان والاكتفاء بها عن الواردات الاجنبية — وكان الاعتماد في فلاحة الارض باتفار تعطى لها اطيان نظير اجرتها — كل ذلك كان اكثر من الحاصل الآن ولذلك كان هناك تناسب بين انتاج الارض ونفقاته وبالتالي كان هناك ربح مرضي (راجع

مقتطف يونيو سنة ١٩٣٢ ص ١٠٢) يقوم بحاجة الممالك القائم البعيد عن الدين والاسراف اذ لا ترف ولا دين الاّ قليلاً في حدود خاصة

ولكن لما غلا سعر القطن وصار الربح منهُ اكثر من ربح سائر المزروعات زادت زراعته وقلت زراعة الحبوب والعلف وعددالمواشي وبالتالي كثر استيراد الحبوب والاسمدة المعدنية (الكيماوية) ومواد العلف ومنتجات الالبان واللحوم والآلات الزراعية باثمان عالية عما كانت وكثرت الحاجة للانفار لفلاحة الارض واعتمد في استكرائها على النقود لوفرتها ومع كل ذلك كان الربح من القطن كافياً لموازنة الاحوال الاقتصادية ولكن كان بعض الزراعيين والاقتصاديين يتوجسون حذراً من الاندفاع في التوسع في زراعة القطن واهمال ما عداه وكتبت في ذلك بحثاً مسهباً بجريدة المؤيد سنة ١٩٠٥ وأعدت نشره بكتابي زراعة القطن سنة ١٩١٠ ولكن استمرار الارتفاع في ثمن القطن أغرى الزراع بالاستمرار في زيادة زراعته والاعتماد عليه وحده والاستدانة للاسراف ومشترى الاطيان باثمان عالية مقسّط اقساطاً الى ان كان هذا الكساد الذي فاجأنا منذ سنتين كساد ثمن القطن والمنتجات الزراعية وبقاء الغلاء في المصنوعات والواردات الاجنبية والديون ففقد التناسب بين الانتاج ونفقاته وبين كسب الزارع وحاجاته وديونه

* * *

وفيما يختص بموضوعنا فقد رجع الزراع الى الاقلال من زراعة القطن والاكثار من زراعة الحبوب والعلف وتربية المواشي الخ واخذ بعضهم في الاعتماد في استكراه الانفار للفلاحة باعطائهم اطياناً بدل النقود ولكن لا تزال الضرائب والرسوم الحكومية على ما صارت اليه من الزيادة حتى ضريبة القطن التي ضربت عليه وثمنه فوق الاربعين جنيهاً للقنطار ولا تزال اثمان الواردات الاجنبية غالية ولا تزال الديون وقد كانت تعتبر منذ سنتين جزءاً من قيمة الاطيان فصارت الآن ضعف ثمنها او اكثر وصار ريع الارض لا يفي بربا الدين هذا مصداق لقول القرآن الحكيم « يمحق الله الربا ويربي الصدقات » ورحم الله الدكتور صروف اذ يقول (لولا الدين لكنا في رخاء)

* * *

ملاحظة — كان ثمن قنطار القطن في سنة ١٩٢٨ سكالاريدس واشموني اعلى منه في سنة ١٩٢٩ ببضعة ريالات ولكنا اكتفينا بجعل المقارنة بين هذه وما يليها لانه لو بقي سعر سعر القطن كما كان في سنة ١٩٢٩ ما كانت هذه الازمة الشديدة

احمد الالفي

مكتبة المقتطف

ميزان الاكوان ودولاب الزمان

ظهر في هذه الآونة كتاب بهذا العنوان قلما نرى له نداً في عالم المطبوعات العربية في عام حتى ولا في بضعة اعوام . وهو كتاب قيم في فلسفة الكون بقلم الدكتور ابراهيم شبلي الصليبي اللبناني . وقد اشتمل على احدث النظريات العلمية وبعضها من مبتكرات المؤلف . اقول قلما نرى له نداً في لغتنا لأن انفس المؤلفات العربية التي صدرت في هذا العصر الى الآن يندر ان تتجاوز دائرة الادب العربي والتاريخ العربي. وهيهات ان نرى مؤلفاً في موضوع علمي حديث الآراء طريف النظريات عصري الحقائق الطبيعية

لذلك طالعت الكتاب الذي نحن بصدده بشوق عسى ان اجد فيهِ كل جديد عن فلسفة الكون . وقد وجدت كثيراً واستفدت كثيراً وأثنيت على المؤلف وشكرت تحفتهُ للعربية

توخَّى المؤلف تعليل كثير من الظاهرات الكونية والحركات الفلكية جاعلاً اولية ابحاثه ان الكون شيئان هما الوجود والحركة (ولعله يعني الوجود المادي) وان ميدان الكون ظرفان هما المكان والزمان . فكانت هذه الاولية السمط الذي انتظمت فيهِ حلقات بحوثهِ في «الجوهر الفرد» الذي اصطلحنا اخيراً على تسميته بالذريرة، وفي الأثير الذي يتحرك فيهِ الجوهر الفرد ومجموعاته من اجرام وأجسام وفي طبائع حركاتها

ثم فصل اسباب تلك الظاهرات فشرح اولاً كيفية نشوء النظام الشمسي وما نجم عنهُ من اعراض وما تناوبه من حالات ككلف الشمس وأهليلجية افلاك السيارات وتداول قوتي الجذب والدفع وتعاقب الحركات المختلفة في ذلك النظام وتباين افلاك السيارات وميلها وسبب دورانها في محاورها ونشوء الاقمار الخ

ثم تبسَّط فيما نجم عن اختلاف الحركات ومن تمايل سطح خط الاستواء على سطح دائرة البروج الى غير ذلك من اسباب المدّ والجذر وتعاقب الادوار الجليدية على الارض. وما اقتضاه ذلك من تعاقب ادوار العمران ورقي الانسان الى غير ذلك من المباحث التي تتسلسل تسلسلاً انيقاً يستهوي القارىء

وبعد ان استغرقت هذه المباحث نحو نصف الكتاب عكف المؤلف على اثبات وجود

الاثير وايضاح انهُ سبب الجاذبية والامواج النورانية والكهرباء الى غير ذلك جاعلاً هذا الاثير علة لكل ظاهرة كونية وطبيعية ومن جملتها الحياة والعقل والاجتماع والاخلاق الخ

فيما تقدم كفاية لبيان ماهية هذا السفر النفيس للقارىء . ومنهُ يفهم قيمتهُ وشأنهُ في عالم العلم . وقد لاحظت ان كثيراً من النظريات المبسوطة في هذا الكتاب انما هي من مبتكرات المؤلف . وفي بعضها يخالف نظريات غيره من علماء العصر . ولذلك تحتمل النقد والمناقشة من اهل العلم او تحتمل الاستزادة من الايضاح والتفسير من قبل طلاب العلم ككاتب هذه السطور

ومن امثلة ذلك قوله في مطلع الفصل الاول ان الشمس تسير في الفضاء في خط مستقيم الى جهة معلومة بسرعة ١٣ ميلاً في الثانية نحو السماك الرامح . وبناء على ذلك يستنتج انها لا بد ان تصطدم يوماً بجرم من الاجرام

والظاهر من قولهِ هذا انهُ يقصر فعل السير على الشمس وحدها . وكأن السماك الرامح ثابت في مكانهِ . ولكن الارصاد الفلكية المختلفة اظهرت ان جميع الاجرام متحركة حتى السماك الرامح نفسه متحرك ايضاً . (ويحتمل ان يكون هو المقبل الى الشمس) وانها جميعها متساوقة كأنها تدور حول محور ولو وهمي . فاذا كان السماك الرامح في جانب من دائرة كون المجرة التي هي عالمنا الخاص والشمس في جانب آخر وهما يتراءيان الآن كأنهما يتقاربان ، في حين ، ولو بعد ملايين السنين ، سيتراءيان متباعدين . وهكذا الامر مع سائر الاجرام . ولذلك يندر الاصطدام . ويغلب ان تكون الشمس ناجية منهُ . فليس اكيداً ان سبب اشتعال الشمس اصطدام قديم . وجميع النجوم او معظمها مشتعلة . فهل اشتعلت كلها من جرَّاء اصطدامات ؟ اذاً الاصطدام امر كثير الحدوث بين ملايين الاجرام ولا بدَّ ان يرى منهُ كل يوم او كل عام او بضعة اعوام . وقد قدَّر الاستاذ ادنجتن احتمال اصطدام شمسنا باخرى فاذا هو كنسبة واحد إلى مائة مليون

ومن اقوالهِ ان من نتائج الاصطدام انفتال كل من الجرمين المتصادمين بحيث يجعل كلاً منهما يدور على محوره لان كلاً منهما كان قبل الصدمة يسير في خط يميل على خط مسير الآخر . وهنا تجاهل حضرتهُ فعل الجاذبية مع انهُ قرره في بدء الحديث . ولذلك مهما كان خطَّا مسير الجرمين مائلين ، ومهما كانت سرعتهما ، فكلما تقاربا اشتدت قوة التجاذب الى ان تتغلب على الحركة الاستمرارية Inertia فينقضُّ كلٌّ منهما على الآخر انقضاضاً سمتيًّا Vertical ولذلك لا يحدث الانفتال الذي علَّل به الدوران على المحور

ولو كان المقتطف يأذن بمزيد البحث لذكرت امثلة اخرى . على اني اعجب جدًّا بتعليل حضرته لنشوء النظام الشمسي وان كان يخالف الرأي الحديث الذي ارتآه السير جاينس جينز وأذعن لهُ جانب من العلماء . فضلاً عن انهُ يحتاج الى براهين اسدَّ . وكذلك اعجب بتعليله اهليلجية افلاك

السيارات وان كان سببها الاساسي محل النظر . وأعجب اكثر بتعليله لتعاقب الادوار الجليدية على الارض

ان اهم ما يسترعي نظر المطلع الدارس تفسير حضرته لنظرية الاثير واثباته لوجوده . وقد تبحرت في مباحثه جيداً فما وجدته يسند تفسيره الى امتحانات واختبارات معملية او رصدية وانما هو وصف الاثير بأنهُ جسم متّصل ، لا مسامّ فيه ، تام السيولة ، لا يقبل التمدُّد ولا الانضغاط ، ولا يتأثر بالحرارة ، مالىء كل فراغ في الكون حتى مسامّ المادة . مترجرج من كل جهة طرداً وعكساً بسرعة فائقة . ولكنهُ لم يعطنا برهاناً دامغاً على ان الاثير كذلك بل كأنهُ يطلب من القارىء ان يسلم بوجوده بهذه الصفات تسليماً اعمى. ثم يبني تعليله للجاذبية وغيرها من نور وكهرباء واشعاع على هذه الاوصاف . فبناء البرهان على شيء غير مبرهن هو كالبناء في الهواء . والاّ لجاز ان نفرض اي شيء بلا برهان ونبني عليه ما نشاء من المزاعم

والذي نعلمهُ ان الاثير فُرِضَ فرضاً لتعليل الانتقال في الحيز كانتقال النور . وكان فرضاً جميلاً لارتياح العقل الى تعليل سير النور بيوم زعموا ان النور حركة تحتاج الى شيء يتحرك . ولكن لما ثبت انهُ مادة كهربائية مغنطيسية تنتقل بلا وسيط اصبح الاثير مستغنىً عنهُ فوضع على الرف الى ان يُحتاج اليه فيستدعى ثانية

الى الآن لم يقم برهان عمليّ على وجود الاثير . وقد اطلعت على كتاب «الاثير والحقيقة» تأليف زعيم الاثيريين السير اوليفر لدج واطلعت ايضاً على مقالة في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الاخيرة سنة ١٩٢٩ فما وجدت برهاناً امتحانيّاً في العمل يثبت وجود الاثير بالصفات التي وصف بها . بل ان عملية ميكلصن — مورلي التي ذكرت في المقتطف غير مرة عجزت عن اثبات وجوده . لذلك لا يستطاع قبول تعليل جناب الدكتور صليبي للجاذبية بصدم الاثير للجرمين المتجاذبين لان الاثير لا يزال فرضاً بلا برهان حسي

واصرار جناب الدكتور على وجود الاثير وكونه علة لكل حركة حمله على شجب نظرية الكهرب Electron في حين ان المعمل اثبت وجوده وقاس حجمه ووزنهُ وسرعتهُ وشحنتهُ الكهربائية . فكيف نستطيع ان نجحد الكهرب المبرهن بالمعمل ونسلم بالاثير الذي لا يزال فرضاً

ثم انهُ جحد النسبية مع انها ناموس رياضي لا يمكن شجبه . وما هي زعم لفرض شيء طبيعي . قد نقبل من جناب الدكتور جحده لنظريتي النسبية والكهرب اذا كان عنده برهان عملي ينقضهما . ولكنهُ اذا كان يقتصر على التهكم والسخرية في جحدهما فلا نظن اهل العلم يحسبون قيمة لهذا الجحد . فحبذا لو نزّه حضرة الدكتور كتابه القيم عن هذا التجريح . وحبذا لو يغتفر لهذا العاجز الذي لا يدعي الاّ التلمذة لاهل العلم تعرُّضه لهذه النقط المحتملة الاعتراض

شبرا نقولا الحداد

المحرر — سيصدر في العدد القادم مقال ضافٍ للكاتب عن الاثير والنور . فنوجه الانظار اليهِ

ادب الجاحظ

تأليف حسن السندوبي — طبع بالمطبعة الرحمانية — صفحاته ٢٤٧

نال الجاحظ من عناية الكتاب في هذا العهد ما لم ينلهُ اديب او عالم آخر من علماء العرب وادبائهم . و لا غرو فقد قيل ان الفيلسوف ثابت بن قرّة الصابىء الحرّاني قال « ما احسدُ الامة العربية الا على ثلاثة انفس اولهم عمر بن الخطاب والثاني الحسن بن الحسن البصري (وهو من شيوخ المعتزلة) والثالث ابو عثمان الجاحظ » . وقال ابن العميد « كُتُب الجاحظ تعلم العقل اولاً والادب ثانياً » وقال كذلك « ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة انفس اما الفقه .... واما الكلام .... واما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى ابي عثمان الجاحظ » . وقال ياقوت — بعد ما ذكر ان ابن الاخشيد اقام بعرفات ينادي : يرحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي لابي عثمان الجاحظ على اي وجهٍ كان — « وحسبك بها فضيلة لابي عثمان ان يكون مثل ابن الاخشيد ، وهو هو في معرفة علوم الحكمة وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادي عليها بعرفات والبيت الحرام ... » وقال ابو القاسم الاسكافي « استظهاري على البلاغة بثلاثة : القرآن وكلام الجاحظ ، وشعر البحتري » . وجعل ابن دريد « كتب الجاحظ من متنزهات القلوب » لما ذكرت امامهُ متنزهات الدنيا او متنزهات العيون كما دعاها

وقد اطلعنا في خلال الشهرين الماضيين على كتابين من الكتب الحديثة في الجاحظ الاول كتاب شفيق جبري — وقد ذكرناه في مقتطف اكتوبر الماضي — والثاني الكتاب الذي بين ايدينا الآن . وعلمنا ان خليل مردم بك وضع كتاباً في الجاحظ كذلك ولكننا لم نره

وعندنا بعد مطالعة كتابي السندوبي وجبري ان الاول عني بايراد سيرة الجاحظ وآرائهِ فانت تخرج منهُ بصورة واضحة (انظر الصورة) لشكلهِ وتعليمهِ ورزقهِ وبسطة جاههِ ومقامهِ الادبي ورأيهِ في المعتزلة والكتب التي صنفها والمؤلفات التي نسبت اليه . وعني الثاني عناية بدرس ادب الجاحظ وطريقتهِ في البحث والتحقيق والنقد وتحليل شعوره الديني ونواحي ادبهِ من الضحك الى التهكم الى الصنعة الى الفن وغير ذلك . فاذا استعملنا التعبير الغربي قلنا ان الاول تاريخ خارجي للجاحظ والثاني تاريخ داخلي . وكل منهما مكمل للآخر

***

وقد حقق المؤلف مولد الجاحظ فرأى ان يعتمد النص الذي جاء بهِ الجاحظ قال (صفحة ٢٠)

نقله الينا ياقوت في معجمه فقد روى انهُ قال : انا اسنُّ من ابي نواس بسنة ولدت في اول سنة ١٥ هـ (٧٦٧ م) وولد في آخرها» وليس بعد هذا — في رأي المؤلف — نصٌّ يعتدُّ به

ثم اظهرنا في الفصل الثالث على صورة من اساليب التعليم في ذلك العصر قال :

«فقد كان الرجل يبعث بولده الى كتاب الحي فيتعلم فيهِ مبادىء القراءة والكتابة، ويشدو شيئاً من قواعد النحو والصرف ، ويتناول طرفاً من اصول الحساب ، ثم يستظهر كتاب الله الكريم استظهاراً تامًّا مجوّداً مرتلاً ، وهو في خلال ذلك يتردد مع اترابه على القاص فيسمع منهُ احداث الفتوح ، وانباء المعارك ، وأخبار الابطال ، ومقاتل الفرسان ، ومفاخرات الشجعان ، وسير الغزاة والفاتحين ، ممزوجاً ذلك بالمواعظ والعبر وايراد احوال الصالحين وأطوار الزهاد والنساك والمتقين . وبعد ان يأخذ من كل طرف من هذه المعلومات نصيبهُ الكافي يولي وجهه شطر حلقات الدرس بالمساجد العامة ، والمعاهد الجامعة، والمدارس الخاصة فيقوم من حلقة الفقيه إلى حلقة المحدث ، ومن مجلس اللغوي الى سارية النسابة، ومن حضرة الاخباري الى دارة المتكلم ، ومن معهد المنطقي الى مجمع الفلسفي ، ومن محفل الاديب الى قاعة المهندس ، ومن بين يدي المفسر الى حظيرة الاصولي ، ومن غرفة الراوية الى بيت الشاعر ، ومن ديوان الكاتب الى صاحب النجوم ، ومن الاسطرلابي الى الجغرافي ، ومن مشهد الموسيقار الى مقعد المغني ، ومن عند الزمار الى دكانة الوتار . الصبيان والبنات في ذلك سواء ، وان كانت الغالبية في الصبيان دون اخواتهم . حتى السجون ، فقد كان لاهلها حظ من التعليم وكان لهم معلمون يدخلون اليهم في اوقات معينة »

***

وقد تلقى الجاحظ علومهُ على شيوخ البصرة والكوفة وممن أخذ عنهم علومهُ الاصمعيُّ وابو زيد الانصاري وابو الحسن الاخفش وممن تلقى عليه العلم المبرّد صاحب الكامل

ويقال انهُ كان وهو في دور الطلب يعاني الاتجار في الخبز والسمك بسَيْحان (نهر بالبصرة) وسواء اصحّ هذا الخبر ام لم يصحَّ فقد درج الجاحظ في بحبوبة من اليسر والرخاء واتسعت موارد رزقه . . . . فلا عجب ان يعلو على امثاله فضلاً وفهماً ، وان يقدم للغة العربية هذه المصنفات التي وضعها في كل ضربٍ من ضروب العلم وفنٍّ من فنون الآداب على كثرتها وجليل شأنها. فان العطايا والنُّهى تفتح اللُّها، على شريطة الاستعداد الفطري والكفاية الظاهرة (ملخصاً من الفصل الرابع) وقد أشار مصطفى صادق الرافعي الى ذلك في مقالته عن شوقي (في هذا الجزء)

***

ومما اعرض لهُ المؤلف ولم يدعمهُ باسناد قولهُ ان الجاحظ أتى مصر قال (صفحة ٧١)

ووقعتُ في كتاب الحيوان على انهُ وفد مصر واقام بها زمناً واجرى بها اختبارات فيما عثر عليهِ من حيوانها » وحبذا الحال لو أشار الى الفقرة التي نُعِرّ فيها على ذلك او يحصّل ذلك من معناها . ولكنهُ كان شديد الحذر لما ذكر ان الجاحظ كان يلمُّ بالفارسية — قال اجل ليس هناك نصٌّ صريح يملأ يد الباحث في هذا الشأن ولكن هناك من العبارات والالفاظ ما يدفع الى استنباط هذا الرأي . . . وقال كذلك بعد ما ذكر شاهداً على قوله . . . فمسألة عرفان الجاحظ باللغةالفارسية تستنبط بالقوة من خلال سطور كتبهِ ولا تؤخذ بالنص

ونرى انهُ كان شديد القسوة لما بيّن ان كتاب « التاج » ليس من مؤلفات الجاحظ (١٤٥ — ١٥٢) فبعد ما اورد نص تقدمة صدَّر بها الجاحظ كتاباً لهُ ونص تقدمة « التاج » وهما موجهتان الى رجل واحد قال: « فأيُّ امرىءٍ لهُ مسكة من عقل او اثارة من الذوق او بقية من ادب أو لبابة من فضلٍ ، يستطيع ان يقول ان كاتب تلك التقدمة هو كاتب هذه » . ولعلَّ بلاغة العبارة سافتهُ في تيار وقعها فانساق

وفي الكتاب فصل مسهب احصيت فيه كل مؤلفات الجاحظ والمؤلفات التي نسبت اليه وفصلان بسط فيهما مذهب المعتزلة ورأي الجاحظ فيهِ ، وفصول اخرى تحتوي على نوادره ومختارات من نثرهِ وشعرهِ

وفي حواشي الصفحات ترجمات موجزة للاعلام الذين ورد ذكرهم في المتن

***

نقول ويا ليت المؤلف توسع في بعض الفصول توسعاً ينقع الغلة كالفصلين اللذين افردهما لمعارف الجاحظ واحاطتهِ وتحقيقهِ للعلم فانهما شديدا الايجاز . ولكنهُ قد يفعل ذلك لدى نشره كتاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين »

الصاحب ابن عباد

ورثة هذا اللسان العربي هم الآن أقلُّ خلَفٍ شوقاً إلى نشر التاريخ المطوي لمن سلف من آبائهم ، وأبعدهم عن معاناة المشقة في استقصاء أخبار من غبر من علمائهم وائمتهم وهداتهم ومن فتح ومن قاد ومن حكم ومن استوزر من أسلافهم ، فلذلك نكّبوا التاريخ العربي إذ لم يعرفوه ، ورُكّتْ أساليبهم إذ كان الادب العربي على جانبي التاريخ العربي وفي طريقهِ ومن بين يديه ومن خلفه . ولا عجب فقد كانت البلاغة لعهدهم هي ميزان الرجال ، ومقياس العقل ، وقسطاس الحكمة . وما عق هذا الخلف أبوّة من غبر من أسلافهِ إلاَّ لأسباب أخذت عليه

طريقةُ ،ولو ان جلها ليس مما يبرر هذا العقوق أو يُعذر منه

ولقد انتدب لمداواة هذا العقوق رجال من الادباء والشعراء فبذلوا ولم يضنوا ،وأخرجوا في رجال الادب والتاريخ كتباً تعرف الناس بهم وبأدبهم وأخلاقهم وفضائلهم وما سوّغوا من الحكمة ، وما رزقوا من الفضل . فمن ذلك ما كتب الاديب الجليل « خليل مردم بك » عن «الجاحظ » و «ابن المقفع» و «ابن العميد » و « الصاحب ابن عباد » . والثلاثة الاولى من كتبه قد نشرت من أشهر وتداولها الناس . ونشر حديثاً كتابه عن «الصاحب ابن عباد» فاستوفى ترجمته ما استطاع ، وجمع شتات ما وصل الينا من اخباره ، ثم ابدى في ذلك من صواب الرأي والدقة والتوثق قبل الحكم ما يشهد بأمانته وعدله . وفي الكتاب من رسائل «الصاحب» ومن شعره ما لم ينشر مستقلاً بعد

وأسلوب كتابه هذا ،هو الاسلوب الجيد في عرض التراجم التي يقصد من كتابتها تعريف الناشئين بمن مضى من أسلافهم ، حتى لا يقفوا منهم موقف الجهل اذا ما عرض ذكرهم في حديث أو كتاب . على انهُ لايمكن ان يقال إن هذا الكتاب هو أوسع ما يكتب عن الصاحب، فان أكثر ما كتب هو وما ألّف ، او ما كتب عنه أو قيل فيه ، قد استبد به الضياع . ولا يبعد ان يطلعنا القدر يوماً ما على أثر من آثار الصاحب أو آثار من عرض لذكره والكلام عنه يبدل الحكم عليه او ينقص منه او يزيد فيه

***

واهم أبواب كتاب «الصاحب ابن عباد» هو القول في «اسلوبه وخصائصه» من ص ١٢٩ — ١٥٧ قد وفق المؤلف في الكلام عن الاسلوب ولم يُوف خصائص الاسلوب حقها حتى تستطيع بعد ان تقرأه ان تعرف ما يميز اسلوب «الصاحب» من اسلوب استاذه «ابن العميد» على ان للمؤلف عذراً بيناً في هذا فان آثار «الصاحب» و «ابن العميد» قد ضاعت ولم يبق الاّ اقلها مما لا يعين على التحديد والحصر والابانة عن مواضع التمييز . والكلام على خصائص اساليب الكتاب من امثال الصاحب وابن العميد هو اهم ما يكتب عنهم واجداه على العربية وطلابها الاّ انه فيما نرى اشقها وابعدها مطلباً ، ولن يوفق اليه الاّ من استكمل العُدَّة وتهيأ له الطبع الرقيق والبصر النافذ وواتته الاسباب بظهور جزء من الكتب الضائعة والمغمورة واعانه العلم المستفيض بأخبار الكتّاب واخبار عصورهم ومن سبقهم ممن أخذوا عنه او نهلوا منه . واما بعد ، فان كتاب خليل مردم بك عن الصاحب هو من احسن ما يعرّف الناس بلسان من الالسنة البليغة ووزير من الوزراء النابهين في القرن الرابع للهجرة

محمود محمد شاكر

خالتي
وقصص أخرى

وكيل البريد
وقصص أخرى

لشاعر الهند : رابندرانات طاغور
نقلها الى العربية عبد اللطيف النشار

لاسم « طاغور » رنين جميل في أذني ، ولاشعاره وقصصهِ وآرائهِ مكان وسيع من قلبي. وما قرأت له شيئاً إلاَّ أحسست في نهايتهِ اني ارتفعت الى عالم بعيد من النور والقداسة اجتذبني اليهِ في رفق ولين ، وغمرني بالاحلام والاماني ، وحملني على اجنحة هادئة الرفيف

فهو الكأس الإلهية التي تسقي العالم في عصره المادي خمراً روحية الكرمة والعصير

وهو الناي الذي يجتذب أصداء الخلود من عالمها فيرددها على أسماع الفانين الهالكين

ولطاغور أسلوب مزدهر الالفاظ ، ألاّق المعاني ، سامي التفكير ، حلو النفس والرنين

ولقد عرف له العالم الغربي هذا فترجم كثيراً من مؤلفاته ، وعرفنا نحن هذا الينبوع الصافي فخففنا اليهِ ، واغترفنا ما قدّر لنا ان نغترف منهُ . والكتيبان اللذان نحن بصددهما هما مجموعة من قصصهِ نقلها الى لغتنا الاديب عبد اللطيف النشار

إلاَّ انني قرأتهما فأحسست ان ألوان طاغور الفتانة قد تلاشت ، وكأن الناقل الفاضل قد أحسَّ بذلك من قبل فاحتاط اليهِ بقوله : « ولست أزعم أنني أدّيتهُ في لغتنا كما أداه ذلك بأن معاني الشعر (ومثله القصة) تُنتقل في سهولة ، أما الضوء وأما اللون فلا ينقلان في الترجمة »

واذا كان هذا عذراً من الناقل يظنهُ رادّاً عنهُ نقد أمثالي فهو عذر ضعيف — وخاصة منهُ هو — فالاديب النشار شاعر له من الألوان ما يمكن ان يؤلف منها ألواناً تقرّب الينا روح طاغور في كتابته

على ان الضوء واللون شيئان غير الروح ، فهما في إمكان الشاعر والرسام نقلهما عن غيرهما أما الروح فهي سرٌّ في نفس كل إنسان تعطى بقدر ، وتوهب بنسب مختلفة

كما أني لا أفهم معنى لان ينقل الأديب النشار أغنية ريفية في قصة « خالتي » باللغة العامية . . . ألأنها ريفية ؟ وما علاقة اللغة العامية المصرية بريف الهند ؟ وهل اذا كتب أديب غربي عن ريف مصر وضع اللهجة الريفية في كتابتهِ ؟

أم اراد أن يصوغها في لغة بسيطة فلم يجد إلاَّ الاسلوب الدارج ، وكان أدبهُ وشاعريته وروحه كفيلة بأن تنقل هذه الاغنية عربية اللهجة سمحة الاسلوب ساذجة اللفظ

على ان ذلك لا ينقص من قدر مجهوده الذي نودُّ ان لا يقف بهِ عند حد في نقل زهرات الآداب من لغاتها الى لغتنا وهو حريص على خدمتها

حسن كامل الصيرفي

جماعة اخوان الصفا

لعبد اللطيف الطيباوي

اخوان الصفا وخلان الوفا هؤلاء جماعة من العلماء الذين اتسموا بما كان معروفاً في إقليمهم من صنوف العلوم وضروب المعارف ، وقد تآلفوا فيما بينهم بعد ان فشا في العالم الاسلامي نقل فلسفة اليونان وحكمة الهند وآداب الفرس ، وذلك في منتصف القرن الرابع للهجرة . رأى هؤلاء الجماعة ما أصاب الناس من الفساد في الخلق والرأي والمعتقد ، ورأوا ما اصاب اهل العلم والنظر وحملة الآراء والفكر من الاضطهاد والتنكيل والتشريد وتسليط العامة عليهم ففزعوا الى ما بين جنوبهم من ضمائر صافية وإلى ما في قلوبهم من رحمة على المجتمع ورأفة ، وحسبوا انهُ لا صلاح للناس إلا بصلاح النفوس ولا صلاح للنفوس إلاّ بالفلسفة ممتزجة بالشريعة ، او بالشريعة معتمدة على الفلسفة . فأجمعوا امرهم على ان يحتجبوا عن الانظار ويبعثوا في الناس أشعة علومهم ومعارفهم بواسطة رسائل يكتبونها ويثبتونها في الوراقين وباعة الكتب وناسخيها ، وقد نشروا من ذلك احدى وخمسين رسالة (وان شئت فقل : مجلة علمية)

وظلَّ امرهم مخفيًّا ورسائلهم معروفة متداولة الى ان كانت سنة ٣٧٣ هجرية حيث كان ابو حيان التوحيدي في حضرة الوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة ملك بغداد في عهد الطائع لله العباس فسأل الوزير ابا حيان في كلام كان سمعهُ من زيد بن رفاعة — وقد كان من الجماعة بلا شك وكان مع هذا من خاصة الوزير ومن اكابر جلسائه — فأخبره ابو حيان بشأنهم وأنبأه بما يتلجلج في صدورهم وأطلعهُ على اسلوبهم في بث تعاليمهم وذكر له ان زيد بن رفاعة « لا ينسب الى شيء ولا يعرف برهط ، لجيشانهِ بكل شيء وغليانه بكل باب ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانهِ وسطوته بلسانهِ ، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً وصادف بها جماعة لاصناف العلم وأنواع الصناعة منهم ابو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي وأبو الحسن علي بن هرون الزنجاني ، وأبو احمد المهرجاني ، والعوفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله الخ »

في هذه الجماعة وضع الشاب النجيب عبد اللطيف افندي الطيباوي خريج كلية الآداب والعلوم بالجامعة الاميركية ببيروت رسالة حاول فيها التعريف بشأن افرادها من هو الرأس المدبر لها وهل كاتب رسائل اخوان الصفا رجل واحد أو عدة رجال . وقد دل بهذه الرسالة انهُ شغوف بالبحث محب للتنقيب متجه نحو عرفان حقائق الاشياء على وجهها . وهو وان لم يبلغ في هذه الرسالة الغاية التي يتوخاها أهل البحث والتمحيص فإنا نرجو له بلوغ هذه الغاية في بحوثهِ الآتية فان استعداده الظاهر من خلال رسالته يبشر بهذه النتيجة المنتظرة

باب الأخبار العلمية

مؤتمر الطلبة الشرقيين

ان موقف الطالب الشرقي موقف غريب معقد ، فهو بين حضارة غربية مادية لا توائم طبيعة نفسه ونوع نزعاته ، ولكنها حضارة غالبة صبغت كل شيء بلونها وكسبت الظفر في كل الميادين فهو مضطر ان يصطنعها. وبين حضارة شرقية جليلة ليس في مبادئها شيء من هذه السمة الذي تتسم به الحضارة الغربية ، فيوم ان كانت لها السيادة كانت تبسط النور حيث حلّت ولم تكن آثارها الثكنات والمعسكرات تترك حيث سارت بل كانت المعاهد والجامعات والتقدم العلمي والروحي والفكري . ولكن هذه الحضارة الشرقية ركدت مياهها ، وجمدت حتى فقدت بعض عناصر الحياة فيها ثم زادها ضعفاً ابتعاد الشرقيين عن الشرق وتراميهم على الغرب وفقد الصلة بين نفوس الشرقيين وتاريخهم . والطالب الشرقي اذ يستقبل عهد الشباب ، عهد الحماسة والايمان والعمل لا يدري الى اي متجه يتجه ويحس بنفسه كشرقي يجب عليه الاعتداد بشرقيته وكانسان يجب ان يأخذ بأسباب التفوق والنجاح مضطرباً حائراً لا يعرف كيف يوفق بين ما يرجوه وبين ما يجب عليه . على ان هذه الحالة اذا تركت دون علاج تفاقت واستفحل شرها لان الشرقيين الذين يأخذون عن الغرب كل شيء يفقدون ثقتهم بأنفسهم فيسعون مقلدين محتذين وتضعف فيهم ملكات الابتكار والابداع . ولان الشرقيين الذين لا يأخذون عن الغرب لا توائيهم الحضارة الشرقية في نهوض . فما الوسيلة اذن لعلاج هذه الحالة ؟

العلاج فيما يخيل لبعض المفكرين ان العناصر الحية في الشرق يجب اولاً ان تجتمع ، وان تنظم علاقاتها بعضها ببعض. ولهذا الاجتماع آثاره الجليلة . ذلك لان اجتماع العناصر الحية في الشرق — ونعني الطلبة الشبان — يقرب الشرقيين من الشرق ، لان الطلبة في هذا الشرق لا يقصدون الا الغرب ولا يتعاونون الاّ مع الغربيين ولا يزورون الا اوربا واميركا فان اجتمعوا مع اخوانهم وهم في شبابهم ، اتجه تفكيرهم اتجاهاً جديداً . ولان الشباب في الشرق يرنو الى النهوض ويبغي العمل ، فاذا اجتمع بعضهُ مع بعض احسَّ ان في الشرق حياة وشعر ان هذه الرغبة في النهوض التي يحسها في بلاده وفي الشرق بوجه عام ، هي رغبة شاملة تعم الشرق كله فيزداد قدره في عينه فتعود ثقتهُ بالشرق إليهِ وبهذه الثقة

يستطيع ان ينزل الى ميدان الحياة بسلاح جديد: سلاح الاعتداد والاعتزاز

لهذا نبتت فكرة مؤتمر الطلبة الشرقيين ليضم الطلبة من جميع بلاد الشرق على اختلاف ألوانهم وأديانهم وجنسياتهم . على ان يكون اجتماعاً دورياً يعقد كل عام في عاصمة من عواصم الشرق . حتى يكون لكل أمة في هذا الشرق فرصة عرض جهودها امام شباب النهضة فتتاح لشباب الشرق فرصة دراسة الشرق كله والتعرف عليه . والمؤتمر انما ينعقد لا شك سيحمل بزور الحياة لان اجتماع مائة شاب لغرض واحد وقد جاؤوا من بلادهم للبحث والاستقراء والتعرف سيفتح الاذهان والنفوس للاخوة التي تربط الشرق كما ان بحوثهم ومناقشاتهم في المؤتمر وقراراتهم ستفتح ابواب البحث والجدل والدرس للكتاب والمفكرين

وهذا المؤتمر سيكون بطبيعة الحال أبعد ما يكون عن السياسة والمنازعات الدينية ، والواقع ان علة هذا الشرق في خلافاته الطائفية والمذهبية والسياسية هذه الخلافات التي تسبب التوزع والتخاذل والتي تذهب بالجهود فيما لا يفيد ولا يجدي . ولعل هذه خدمة جديدة يقدمها المؤتمر للشرق . فيجمع البوذي والهندوكي والمسلم والمسيحي معاً في صعيد واحد ، ويرسم لهم جميعاً مثلاً أعلى مشتركاً تتجه اليه الجهود ويسعى لتحقيقه الشباب

وسينعقد المؤتمر في شهر فبراير القادم بعد ان نظمت له دعاية في البلاد الشرقية كلها . وبعد ان كونت لجان له تعمل باسمه في هذه البلاد وتذيع دعوته وتوضح فكرته . على ان هذه الدعاية نفسها ستأخذ صوراً مختلفة حتى ينعقد المؤتمر

وستسعى اللجنة المركزية التحضيرية للمؤتمر في مصر ، للحصول على امتيازات كثيرة لاعضاء المؤتمر من شركات النقل والملاحة ولدى مصالح السكك الحديدية حتى يكون باب السياحة والتنقل مفتوحاً للطلبة الشرقيين دائماً ، وحتى تكون وسائل هذه السياحة مذللة ممهدة . وهذه اللجنة تستطيع أن تظفر بالكثير لانها تتكون من سعادة علي باشا ابراهيم نائب مدير الجامعة ومن الدكتور منصور فهمي ، والاستاذ احمد امين والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور عبد الرازق السنهوري ، والدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور احمد زكي ، والدكتور خليل عبد الخالق وكلهم من كبار أساتذة الجامعة . والى جانب هذه اللجنة لجنة من الطلاب تضم جميع جنسيات الشرق . فهي في اجتماعاتها عصبة امم شرقية صغيرة وقد انتجت اجتماعات هذه اللجنة وجهودها حتى أصبح اسم مؤتمر الطلبة معروفاً في سومطره وجاوه والهند والصين وفارس ، بالقدر الذي هو معروف به في مصر وسوريا والعراق

وسيدوم اجتماع المؤتمر ٦ أيام يبحث في خلالها الموضوعات الآتية ١ — انشاء صحيفة للطلبة الشرقيين تكون دورية وتكتب باكثر من لغة شرقية ٢ — تنظيم ألعاب اولمبية دورية

شرقية تشبه الالعاب الاولمبية الاوربية ٣ — اتحاد اندية للطلبة الشرقيين في جميع بلاد الشرق ٤ — انتخاب يوم يسمى عيد الطلبة الشرقيين يحتفل به في جميع البلاد الشرقية احتفالاً شرقياً خاصاً ٥ — وضع برنامج خلقي اجتماعي يسير عليه الطلبة الشرقيون في بلادهم

وسيزور اعضاؤهُ متاحف مصر وآثارها ومعاهدها ويلقي عليهم كبار الاساتذة محاضرات في نواحٍ من العلم والادب مختلفة . وعقب انتهاء ايام المؤتمر ستنظم رحلة للاعضاء في صعيد مصر فينزلون في عواصم المديريات كلها حتى يصلوا اسوان فيقيمون هناك يوماً او اكثر ويعيشون معاً عيشة كشافية بسيطة ثم يعودون الى القاهرة

مباحث جديدة في الاشعة الكونية

يعلم قراء المقتطف ان الاشعة الكونية ظاهرة طبيعية استرعت عناية العلماء في العهد الاخير . وقد والينا الكتابة في كل طريف عنها من سنة ١٩٢٦ الى الآن . وأحدث تلخيص لما عرف عنها نشرناه في مقالة «ارتياد طبقات الجو العليا» في مقتطف اكتوبر الماضي صفحة ٣١٧—٣١٩ وقد قلنا في نهاية تلك المقالة ان العلماء ينتظرون نتائج رحلة الاستاذ بيكار بفارغ الصبر

وقد انشأ الاستاذ بيكار في جريدة التيمس (٨ اكتوبر) مقالاً لخص فيهِ نتائج الارصاد التي قام بها في هذه الناحية فقال انهُ حاول درس الاشعة الكونية من ناحيتين: الاولى تحقيق الاختلاف في قوة الاشعة باختلاف الارتفاع . والثانية : تحقيق الاختلاف في قوتها باختلاف الاتجاه

اما نتائج البحث في الناحية الاولى فتتفق مع نتائج الاستاذ رجنر Regener وهي ان قوة الاشعة الكونية تزداد بالارتفاع ثم تقل زيادتها رويداً رويداً الى ان تصبح ثابتة فوق ارتفاع معيَّن . اما البحث في الناحية الثانية فأسفر عن ان الاشعة الكونية لا تكثر في اتجاه معين دون آخر

وليس الاستاذ بيكار بمنفرد بين العلماء في درس هذه الاشعة . فالاستاذ ملِكن الاميركي ما زال يوالي البحث فيها . كذلك الاستاذ كولهرستر وهو من اوائل الذين كشفوا عنها . وكان ملكن قد ابان ان الاشعة الكونية لا تكثر فوق منطقة معينة على سطح الارض دون اخرى ولكنَّ الاستاذ كُمْبْطُنْ الاميركي نظم رحلة علمية طوق بها الارض من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب لامتحان نتائج ملكن وقياس قوة هذه الاشعة في بلدان مختلفة فأسفر بحثهُ عن وجود اختلاف في قوتها في مناطق مختلفة وخصوصاً في الاشعة الضعيفة منها . وقد بعث برسالة الى المجلة الطبيعية (اول سبتمبر ١٩٣٢) قال فيها ان هناك ارتباطاً بين قوة الاشعة الكونية واتجاه مغناطيسية الارض . فهي اقوى في نواحي القطبين المغناطيسيين منها في نواحٍ اخرى . وقد

ايدهُ في ذلك العالمان كلاي وبرلاج في رحلة رحلاها من امستردام بهولنده الى بتافيا بجزيرة جاوه لقياس قوة الاشعة في مسير الباخرة التي استقلاها. وهذا منتظر اذا كانت الاشعة الكونية من تيارات من الدقائق المكهربة السريعة لا من امواج قصيرة من قبيل امواج الاشعة السينية (X rays) ولكن اقصر منها . وثمة مباحث اخرى تدور حول هذا الموضوع الاخير ، ويبدو منها ان الاتجاه الآن الى حسبانها دقائق مكهربة سريعة — كهارب او بروتونات — وهو مخالف لما كان يراهُ الاستاذ ملكن

اثمن المواد

اتخذت امم الارض الذهب قاعدة للمعاملات التجارية . لذلك اذا اراد احد ان يعرب عن قيمة مادة ما قال «تعدل وزنها ذهباً» فاذا حاولنا ان نعين اغلى المواد وجب ان نحصر بحثنا في المواد التي تشرى وتباع في الاسواق الحرّة ، صارفين النظر عن الاشياء التي تستمد قيمتها من قدمها او طابعها الفني اوعلاقتها بالعلم كالتحف والآثار والصور والكتب النادرة وطوابع البريد والآلات العلمية المفردة

فاذا سرنا على ذلك وجدنا مواد كثيرة تعدل «اكثر من وزنها ذهباً». ففي الاحوال العادية يبلغ ثمن البلاتين ثلاثة اضعاف الذهب وزناً بوزن . أما عنصر الاريديوم فيبلغ ثمنهُ ١٥ ضعف ثمن الذهب . وأما الماس فثمنهُ يختلف باختلاف حجم الماسة ولونها وصفائها . فاذا اتخذنا سعر ثمانين جنيهاً للقيراط الواحد بلغ ثمن الاوقية نحو ١٢ الف جنيه . يقابل ذلك ٨ جنيهات لاوقية من البلاتين . فثمن الماس يفوق ثمن البلاتين ١٢٥٠٠ ضعف ويفوق ثمن الذهب نحو ٣٠٠٠٠ ضعف . ومن غرائب الازمة الاقتصادية الحالية ان سعر الماس كان اكثر ثباتاً من غيره من المواد الكمالية . فسعر البلاتين قد هبط سعره خمسون في المائة وأما سعر الماس فلم يهبط سوى ١٠ في المائة

ولكن اغلى المواد التي تشرى وتباع هو عنصر الراديوم وما يحلُّ محله مثل المزوثوريوم . فقد انقضت سنون وسعر الملغرام الواحد من الراديوم يتباين من عشرين جنيهاً الى ٢٥ جنيهاً . فلما اكتشفت مناجم الراديوم في بلاد الكنغو البلجيكية هبط سعر الملغرام الى ١٤ جنيهاً . والراجح ان هبوطهُ الى هذا الحدّ كان يقصد به مزاحمة مستخرجيه في الاقطار الاخرى. فسعر الاوقية يبلغ نحو ٤٠٠ الف جنيه فكأن ثمن الراديوم يفوق ثمن الذهب ١٠٠٠٠٠ ضعف وزناً بوزن . يليه في ذلك المزوثوريوم وثمن الاوقية منهُ نحو ٣٠٠ الف جنيه

الحرير الصناعي من الخيزران

تجرب التجارب في الهند الآن لصنع الحرير الصناعي من الخيزران



فقيد الشعر العربي

احمد شوقي بك

توفاه الله في فجر

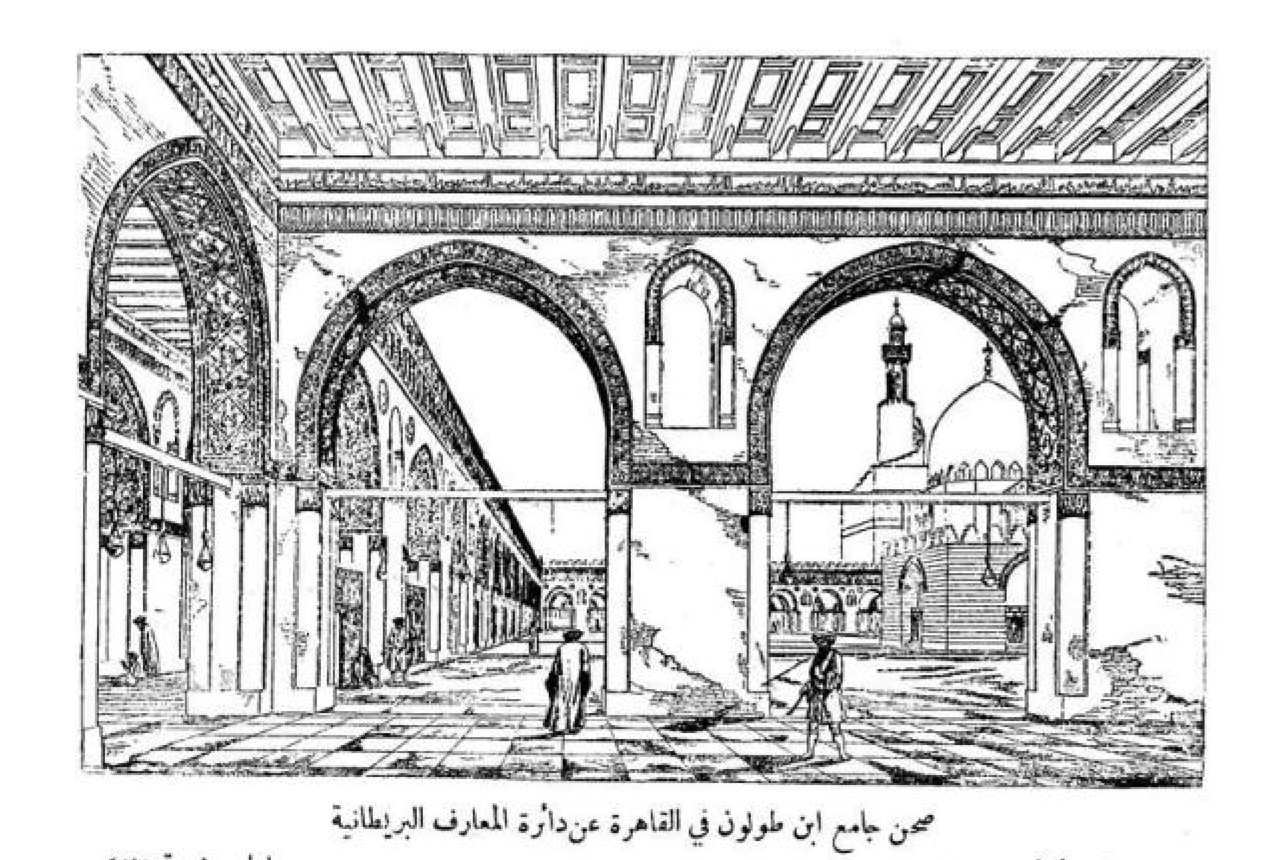
١٤ اكتوبر ١٩٣٢

عن اللطائف المصورة



السر رُنلد رُس

Sir Ronald Ross

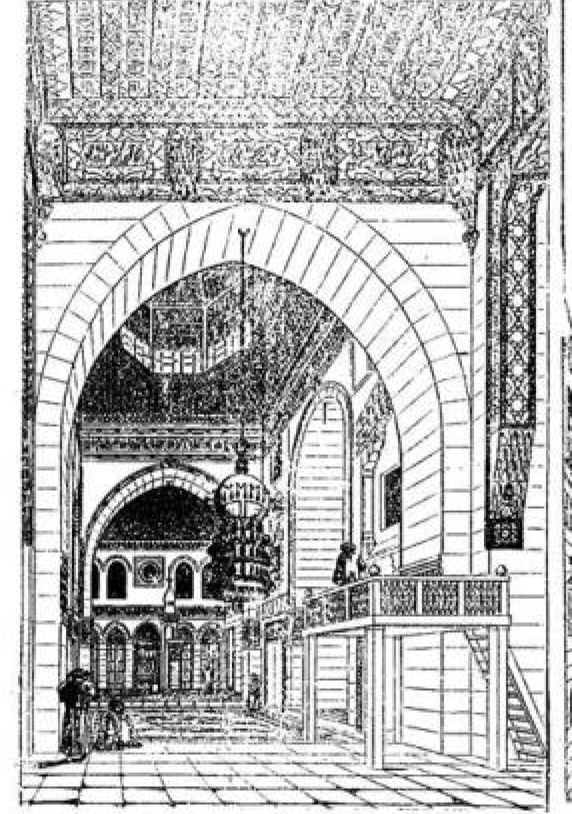


صحن جامع ابن طولون في القاهرة عن دائرة المعارف البريطانية



جامع قايتباي في القاهرة من الخارج

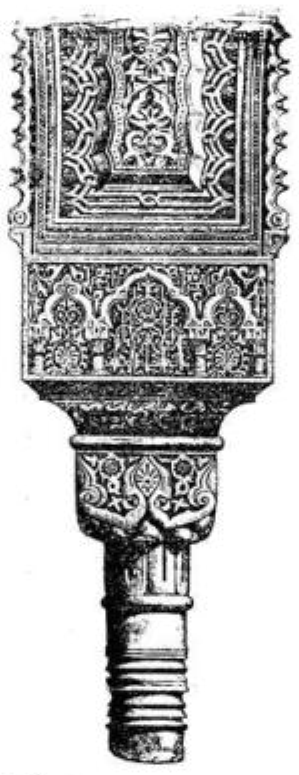
مقتطف نوفمبر ١٩٣٢



جامع قايتباي في القاهرة من الداخل

امام صفحة ٤٢٥





أثران من روائع الفن الاسلامي في الحمراء
الى يمين الناظر أثر من ردهة ابن سراج والثاني من حوش الاسود



البارون سلاتين باشا



ابو عثمان الجاحظ

كما تخيله مؤلف هذا الكتاب ورسم بارشادو

زلزلة اليونان

حدثت زلزلة في بلاد اليونان في ٢٦ سبتمبر الماضي دمرت قرى كثيرة في خلقيديقة وكان مركزها في بحر ايجه على مقربة من شواطئ اليونان حيث يلتقي خط العرض ٣٩ بخط الطول الشرقي ٢٤ وقد دونت آثارها وآثار ما تلاها من الهزات في ادوات رصد الزلازل بالولايات المتحدة الاميركية

ويظن ان زلزلة من هذا القبيل كانت السبب في تدمير الحضارة الزاهرة التي نشأت في جزيرة كريت من نحو ثلاثة آلاف سنة ، ذلك ان كنوسُس عاصمة كريت القديمة زالت من الوجود فجأة في سنة ١٢٠٠ ق. م على ان اطلال هياكلها ومبانيها تشير الى ان زلزالاً كان سبب التدمير الذي حل بها. ولعل فعل الزلزال في تدمير المباني وقتل الناس بلغ درجة لم يتمكن معها الاحياء من ترميم المباني المدمرة واعادة حضارة المدينة سيرتها الاولى. ومن ثمَّ توالى عليها القرصان والملاحون من مدن السواحل المناوحة والمجاورة فلم يستطع ابناء الجزيرة من صدّهم عن النهب

نجيمة جديدة

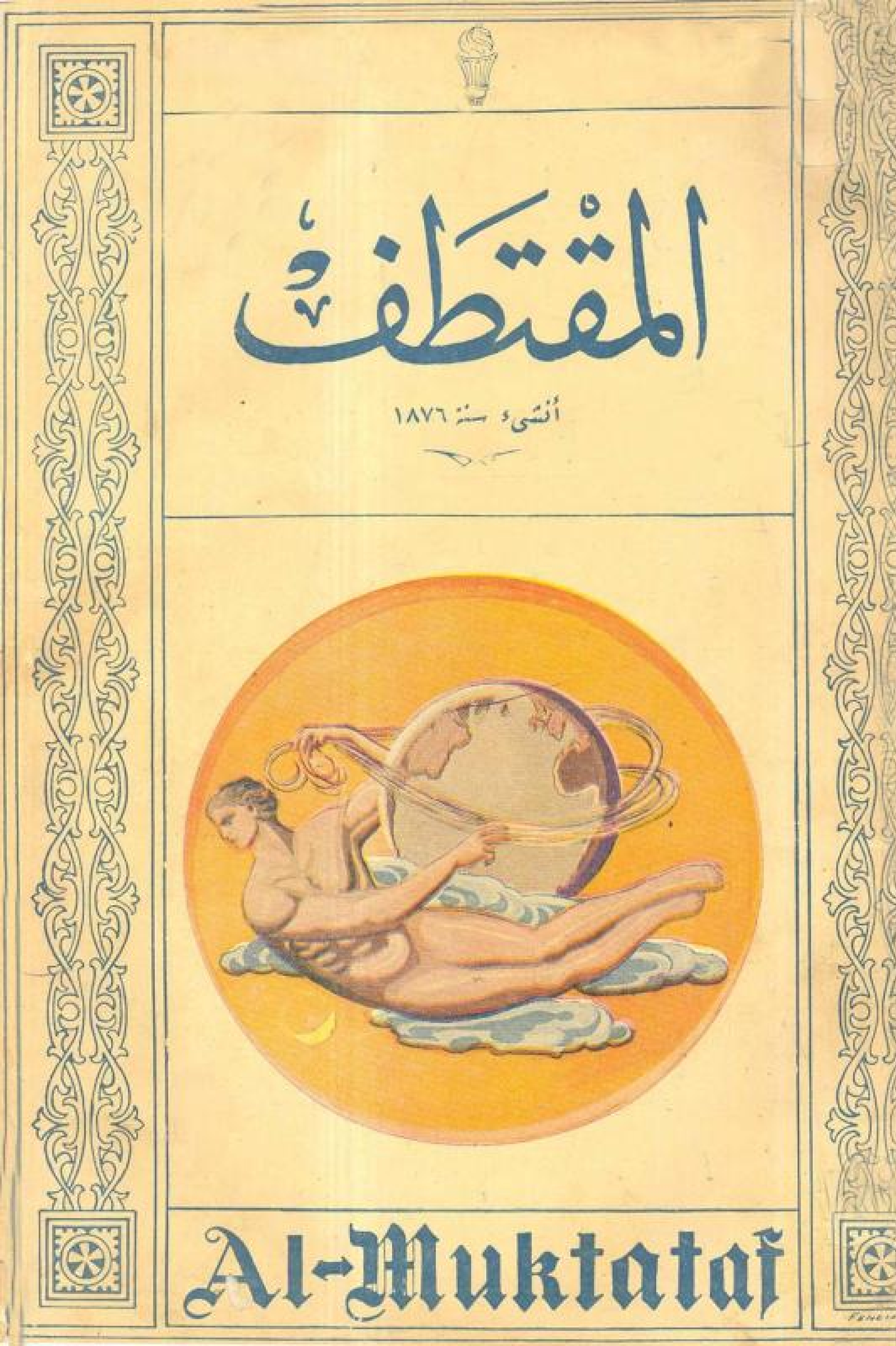
اكتشف عالمان احدهما اميركي والآخر روسي نجيمة جديدة لا يزيد قطرها على عشرة اميال وتكمل دورتها حول الشمس في ٢٫٠٢٣ من السنة فهي ثالثة النجيمات في سرعة دورانها حول الشمس . والنجيمات كما لا يخفى هي اجسام فلكية صغيرة تدور حول الشمس بين فلكي المريخ والمشتري ويقال أنها بقايا سيّار تهشم ويبلغ عددها ١٥٠٠ نجيمة

بكتيريا تعيش ٢٢ سنة

بين سنة ١٩٠٣ و ١٩١١ زرع الاستاذ ويت (Waite) احد اساتذة جامعة نبراسكا الاميركية طوائف من ضرب خاص من البكتيريا في مادة مغذية ثم وضعها في انابيب وختم الانابيب ثم توفي الاستاذ ويت ولم تفتح الانابيب الا من عهد قريب فتحها الاستاذ ومبر ديكن (Deacon) واجرى عليها تجارب منوعة فوجدها لا تزال حية

تعليل زيادة اصابات السرطان

الباحثون في الاحصائيات الطبية مجمعون على ان اصابات السرطان في ازدياد مطرد. وتعليل ذلك ان الناس الذين يبلغون الآن بفضل وسائل الصحة العامة والطب الوقائي السن الذي يتعرض فيه الانسان للسرطان هم اكثر من الذين كانوا يبلغون هذا السن من قبل. وثانياً كانت طائفة كبيرة من الناس الذين يبلغون سن السرطان يموتون بامراض اخرى كالنزلة الصدرية وغيرها. ولكن نسبة وفياتهم الآن بهذه الامراض اقل جدا مما كانت قبلاً . فتعرضهم للاصابة بالسرطان يصبح مضاعفاً . وعليه فنقص الاصابات بالامراض العامة في الحداثة والشباب والكهولة يصحبهُ زيادة في اصابات السرطان


المقتطف
أنشىء سنة ١٨٧٦
Al-Muktataf

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الحادي والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٢ — ٣ شعبان سنة ١٣٥١

الاضداد في الطبيعة

العقل الانساني مولع بالمفاضلة . فيتجشم الناس مشاق الاسفار ليروا اعلى الجبال او اكبر المباني أو اروع مشاهد الغروب او اقدم الآثار أو للاجتماع باعظم المعاصرين . الا يذكر كل قارىءٍ شعوره لما قيل لهُ في صغره بانه سوف يرى اضخم الفيلة أو اصغر الاقزام أو اقوى المصارعين . ثم اذا قرأنا الصحف اعجبنا اشدَّ الاعجاب بما تَرويهِ عن اسطع المنائر التي تبلغ قوة ضوئها ملايين من الشموع واصغر المصابيح الكهربائية حتى ليستطيع الجرَّاح ادخالها من ثقب دقيق الى جمجمة الرأس في اثناء عملية جراحية واطول الجسور وادق الاسلاك واضخم البلونات واسرع السفن وما الى ذلك . ان الاشياء العادية لا تسترعي انتباهنا ولكنها اذ شذَّت عن المستوى العادي نبهت فينا عناية خاصة بها

والطبيعة اغدقت على الانسان هباتها متباينة الصفات والخواص ، فمهَّد العلم للانسان سبيل تعديل هذه الخواص وجعلها ملائمة لاغراضهِ . فاذا كان صانع الساعات يطلب زنبلكاً شديد المرونة همَّهُ ان يعرف ما هي العناصر او المركَّبات التي يستطيع ان يستخدمها لصنع هذا الزنبلك وكيف يعالجها لتتصف بالصفات المطلوبة . كذلك المهندس الذي يطلب كرات دقيقةً لمحاور العجلات ، والطبيب الذي يبحث عن علاج لمريض . كلهم يطلب افضل ما يمكن لتأدية غرضهِ . واذن فرغبتنا الفطرية في المفاضلة بين الاشياء تذكيها مطالب الحضارة . والبحث في الاضداد — في اصغر الاشياء واكبرها ، أثقلها وأخفها ، اغلاها وارخصها ، اكثرها قابلية للمدّ والانطراق ،

اعلى درجات درجات الحرارة وادناها ، ليس الغرض منهُ ا كفاء الميل الفطري فقط بل هو من امتع ما يعنى به الباحثون وتفسح لهُ المجلات العلمية صفحاتها[1]

ما اثقل المواد

لابدَّ من التدقيق في الاجابة عن هذا السؤال لان المواد الثقيلة في الطبيعة كثيرة والفروق بينها دقيقة . ولا ريب في ان اثقل المواد يجب ان يكون من الجوامد ، لان الجوامد، تحتوي عادة على المادة في اكثف حالاتها . فثمة صخور ومعادن كثيرة مشهورة بثقلها ولكن يندر بينها ما يزيد وزن بوصة مكعبة منهُ سبعة اضعاف عن وزن بوصة مكعبة من الماء[2] ولكن الفلزات (metals) التي يزيد وزنها النوعي عن ١٠ كثيرة ولا تقل عن ١٧ فلزاً . وقد جرت العامة على قولها « اثقل من الرصاص » اذا شاءت ان تصف جسماً ما بالثقل العظيم ، لان العامة خبرت ثقل الرصاص النوعي في كثير من معاملاتها اليومية . ولكن الرصاص يبعد عن ان يكون اثقل الفلزات . فالذهب والزئبق والبلاتين والتنتالوم والتاليوم والثوريوم والتنغستن والاورانيوم تفوقهُ جميعاً في وزنها النوعي . وفي اختيار اثقل هذه الفلزات ، يجب ان نعنى عناية خاصة بتحضير النماذج المستعملة اساساً للمقابلة . فالذهب اذا نقي في فراغ كان وزنهُ النوعي ١٨٫٨٨ ولكنهُ اذا مُدَّ بعد احمائهِ بالنار وسقيهِ بالماء اصبح ١٩٫٢٦ . كذلك الذهب الزهر وزنهُ النوعي ١٩٫٣ ولكنهُ اذا كان مطرَّقاً اصبح ١٩٫٣٣ . واذن فالمقابلة يجب ان تتم بين نماذج حضّرت بطريقة واحدة . واثقل الفلزات التي يتناولها الناس عادة هو عنصر البلاتين ويتباين وزنهُ النوعي من ٢٠٫٩ الى ٢١٫٧ ويشبههُ في ذلك الاسميوم والاريديوم وهما من الفلزات غير المشهورة . وكلاهما اثقل من البلاتين قليلاً . فوزن الاسميوم النوعي يتباين من ٢١٫٣ الى ٢٤ فاذا كان في اكثف ما يكون عليهِ كان اثقل المواد على سطح الارض

ما اخف المواد

لقد بحثنا عن اثقل المواد بين المعادن والفلزات فيجب ان نبحث عن اخفها بين الغازات لانها تحتوي على المادة في الطف اشكالها . تقول العامة « اخف من الريشة » ولكن خفة الريشة اذا قيست بخفة بعض الغازات كانت كبعض المعادن ازاء الماء . ولا يخفى ان الريشة اثقل من الهواء ، ومهما يضرب بها المثل في الشعر العربي بعدم الاستقرار ، فلا بدَّ ان تهبط الى الارض.

---

(١) هذه المقالة مبنية على بحث مسهب في المجلة العلمية الاميركية (٢) تعرف هذه الصفة بالثقل النوعي او الوزن النوعي . وهو النسبة بين وزن جسم من حجم معين ووزن جسم من الماء من الحجم عينه . فاذا قيل هذه المادة يبلغ ثقلها النوعي ١٠ عني ان مقداراً منها يزن عشرة اضعاف مقدار يماثله من الماء

ولكن بعض الغازات اخف من الهواء فاذا اطلقت فيهِ ارتفعت بدلاً من ان تهبط الى سطح الارض ، وقد جرى العلماء لدى الكلام في الغازات على المقابلة بين مقدار من الغاز بمقدار مثله من الهواء . وكل غاز اخف الهواء تكون كثافتهُ اقل من ١ لان هذا الرقم هو الممثل لكثافة الهواء . فالاسيتلين والامونيا واكسيد الكربون الاول والنيون والنتروجين والهليوم اخف من الهواء . اما الثلاثة الاولى فركبات . واما الثلاثة الاخيرة فعناصر . وتبلغ كثافة عنصر الهليوم ١٣٨ر٠ فهي اقل من سبْع كثافة الهواء . ومع ان الهليوم خفيف جداً لا يمكننا بحال من الاحوال ان نحسبهُ اخف المواد على سطح الارض . ذلك اننا اذا اخذنا لتراً من الايدروجين ووزناهُ واخذنا لتراً من الهليوم ووزناهُ وجدنا ان وزن الايدروجين نحو نصف وزن الهليوم . فيصحُّ ان نحسب الايدروجين اخف المواد التي نتناولها . ولكن لا يصحُّ ان نقول انهُ اخف المواد على سطح الارض لان المشتغلين بالاشعة المولّدة للكهارب في فراغ الانابيب العلمية يتناولون تيارات من الكهارب ، وهذه التيارات لابد ان تكون اخف من الايدروجين لان كل الكترون ليس الاَّ جزءًا من ذرة الايدروجين

وقد طبق ما عرف عن اخف العناصر تطبيقاً عمليًا في شؤون الملاحة الجوية . فتملأُ البلونات — مثل البلون غراف تسبلين — بالايدروجين تارة وبالهليوم اخرى . وقوة الايدروجين على رفع الاجسام عن سطح الارض غريبة . فالانسان لا يستطيع ان يرفع نفسهُ اكثر من ست اقدام ونصف قدم في الهواء . وهو الرقم القياسي في القفز العالي . ومع ذلك لا بد لهُ من قوة عضلية ومرانة وخفة لبلوغهِ . والذين بلغوهُ قلائل . اما الايدروجين فيرفع جسماً ثقيلاً عن الارض . فاذا ملأْت بلوناً بما وزنهُ رطل من الايدروجين رفع ثقلاً وزنه ١٤ رطلاً . ولكنهُ شديد الالتهاب ، لذلك يمنع التدخين في البلون غراف تسبلن في اثناء الطيران وعلى مقربة منه في حظيرتهِ . ومردُّ طائفة كبيرة من الكوارث التي أصابت البلونات الى شدة التهاب الايدروجين . اما الهليوم فاثقل وزناً من الايدروجين ولكنه لا يلتهب . وقد كانت اكبر مصادره — حتى عهد قريب — في الولايات المتحدة الاميركية فاستعملتهُ حكومتها في ملء بلوناتها الحربية ومنعت اصدارهُ من بلادها

ما اقسى المواد

لا بد من تعريف « القساوة » ثم البحث عن اسلوب لقياسها ، قبل البحث عن المواد المتصفة بها . فاذا قال احد المهندسين ان هذا الفلز أو ذاك قاسٍ فقد يفسّر قولهُ بمعانٍ كثيرة . فاذا قال ان كرات العجلات في هذه الماكنة مصنوعة من فلزّ صلب عنى انها

وهي مزيتة لا تتآكل بسرعة في اثناء دوران العجلة وفرك السطوح المعدنية الملامسة لها ، واذا اشار الى الصلب الذي تصنع منهُ الخطوط الحديدية بانهُ صلب قاسٍ قصد انهُ لا يتآكل بسرعة من سير العجلات عليهِ من دون تزييتهِ . واذا تكلم عن قساوة الفلزات في آلةٍ معدة لتحطيم الحجارة عنى مقاومتها « للهرش » في اثناء هذا العمل . فاذا وصف بالقساوة فلزاً معداً للقطع عنى بذلك مقدار ما يلقاهُ الصانع من الصعوبة في قطعهِ . وكل واحدة من هذه الصفات تختلف عن الاخرى وكلها تعرف باسم عام هو القساوة (Hardness)

فاختيار وسيلة لقياس قساوة المواد للموازنة بينها يكاد يكون متعذراً . ولكن المهندسين جروا على تعريف القساوة بمقدار ما تحدثهُ آلة مقساة تقسية خاصة في مادةٍ ما اذا ضغطت عليها ضغطاً معيناً . وطريقة « برينل » تستعمل كرة من الصلب قطرها عشرة مليمترات . فتوضع تحتها المادة التي يراد قياس قساوتها وتضغط هذه الكرة عليها ضغطاً معيناً ثم ينظر في ما احدثتهُ الكرة في المادة من اثر . وقد يستعمل بدل الكرة مخروط صغير من الصلب او مطرقة ذات وزن معين تهبط من علوٍ معيّن ثم يقاس مقدار ارتدادها . وغير ذلك . وهذه الوسائل كلها تمكن الباحثين من الموازنة بين قساوة المواد المختلفة بالمعنى الخاص بها دون غيره . لانهُ قد تكون المادة قاسية جداً ولكنها قابلة للانكسار فاذا ضغط عليها المخروط الفولاذي او سقطت عليها المطرقة تشعثت او تحطمت

اما المعدّن فتهمّهُ الموازنة بين قساوة المعادن (Minerals) ولذلك يستعمل سكيناً او مبرداً مصنوعاً من مادة قاسية فيخدش المعادن بقوة معينة ثم يقيس الخدش وبذلك يوازن بين قساوة المواد المختلفة

واقسى المعادن في الطبيعة هي الماس فالياقوت الازرق فالياقوت الاصفر فالكوارتز

***

ولكن ثمة امكان صنع مواد اقسى من الماس . فدرجات الحرارة العالية التي يمكن بلوغها في الاتاتين الكهربائية مهدت السبيل لصنع مواد قاسية جداً وهي مركبة في الغالب من عناصر الكربون والسليكون والبورون وبعض الفلزات واشهر هذه المواد « الكربورندم » وهو كاربيند السليكون ويصنع باحماء مزيج من الكربون والسليكون في أتّون كهربائي على درجة عالية من الحرارة . وقساوتهُ تكاد تساوي قساوة الماس . ويستعمل في الصناعة لصقل الادوات المعدنية والفلزية القاسية . وقد صنعت مركبات السليكون والكربون والبورون من عناصر الالومنيوم والكلسيوم والفناديوم والتيتانيوم والزركونيوم والموليبدينوم والتنغستن والتنتالوم والكروميوم فجاءت شديدة القساوة . وثمة مركّب « كربيند البورون » فقد قيل انهُ يصلح لصقل الماس . والمرجح ان صنع مادة اقسى من الماس لم يحقق بعدُ

والماس مشهورٌ على انهُ من الحجارة الكريمة . ولكن نصف ما يستخرج منهُ من المناجم يستعمل في الصناعة في صقل الاجزاء الفلزية في الآلات الدقيقة كالساعات والمقاييس العلمية . ثم ان غبار الماس يستعمل في قطع الحجارة الكريمة وصقلها . واشهر البلدان التي يستخرج الماس منها بلاد جنوب افريقية اذ يستخرج من مناجمها ٩٥ في المائة من الماس المستخرج في العالم . اما اكبر حجارة الماس التي وجدت فهو ماسة كولينان وكان وزنها لما وجدت ٣١٠٦ قراريط وماسة كوهي نور ووزنها الآن بعد صقلها مائة قيراط

ما اكثر المواد قبولاً للمدّ

مدَّ الحبل ومدَّ بهِ مطلهُ . والمدُّ في علم المعادن قابلية الفلز لان يُمَدَّ او يسحب سلكاً طويلاً . ويكاد يلازم هذه الصفة قابلية الفلز للانطراق رقوقاً

وهاتان الصفتان تمتاز بهما الفلزات . وفي تعيين ايها اشد قبولاً للمدّ والانطراق يجب ان نراعي صفاء الفلز من الشوائب وطريقة تحضيره . فوجود شوائب في الفلز يجعله اشد قبولاً للتكسُّر . ولنا في عنصر التنغستن ابلغ مثلٍ على ذلك ، وهو الفلزُ الذي تصنع منهُ اسلاك المصابيح الكهربائية . فلما حاول الباحثون صنع اسلاك المصابيح منهُ ، وجدوه يتكسر بين ايديهم فلا يستطيعون مدَّهُ اسلاكاً . ولكن لما حضر تحضيراً صفاهُ من الشوائب ، وعولج بالنار معالجة خاصة ، اصبح يسهل مدّهُ اسلاكاً دقيقة كما ترى في المصابيح لذلك يعتقد العلماء ان الفلزات التي تحسب قاسية متكسرة تصبح مرنة قابلة للمدّ والطرق اذا صفّيت من شوائبها وحضّرت التحضير الموافق لها

وقد يحدثُ احياناً ان وجود بعض الشوائب يجعل الفلز اشدّ مرونة منهُ اذ خلا منها . فالحديد المطرّق مثلٌ يضرب بين الفلزات في الطراوة والقساوة والمرونة وقابلية المدّ . وذلك لانهُ يحتوي على مقدار معين من الكربون والفصفور مع ان هذه الشوائب في الحديد تجعله قاسياً وقابلاً للتكسر بوجهٍ عام

ومن المجمع عليهِ الآن ان الذهب فالفضة فالنحاس اكثر الفلزات قبولاً للمدّ والطرق ويليها القصدير والبلاتين والرصاص والزنك الحامي

فالذهب ينزل من هذه القائمة في الرأس ، لانهُ مدّت منهُ اسلاك دقيقة لا ترى الاّ بالمجهر . ويقال ان غراماً من الذهب مدَّ سلكاً طولهُ ٣٠٠٠ متر . فاذا صحّ ذلك فاوقية الذهب تمدُّ سلكاً طولهُ خمسون ميلاً . وقد طرق الذهب اوراقاً رقيقة حتى ان ١٥٠٠ ورقة منهُ لا تزيد كثافتها على كثافة صفحة من المقتطف ، فاذا جمعنا منها ٣٠٠٠٠٠ ورقة لم يزد علوها عن بوصة

واحدة . واذا اخذنا اوقية من الذهب وطرقناها كما تقدم بلغت مساحتها ١٨٩ ميلاً مربعاً . اما الورق الذهبي المستعمل في التجارة في صناعة التجليد والتذهيب فيحتوي على ٢ في المائة من النحاس و٢ في المائة من الفضة . والغرض من اضافة هذين العنصرين تحسين اللون وتقوية الورق حتى يستطاع تناولهُ في الاعمال من دون تفتيتهِ

اما عنصر التنغستن فيباري الذهب في ذلك ولكنهُ لا يساويهِ . فقد حضر حديثاً خالياً من كل شائبة وعولج بالنار فامكن مدَّهُ سلكاً قطرهُ خمسة اجزاءٍ من الف جزءٍ من المليمتر او ١/١٢ من ثخن شعرة الانسان واثخن قليلاً من ادق اسلاك الذهب . وقد تسفر موالاة البحث في التنغستن عن امكان مدّه اسلاكاً ادق من اسلاك الذهب

ما اعلى درجات الحرارة

ونقصد هنا اعلى درجات الحرارة التي بلغها الانسان بوسائلهِ الصناعية . والطريقة العادية التي يجري عليها الانسان لتوليد درجات الحرارة العالية هي اشعال وقيدٍ جامد مثل الفحم او « الكوك » (وهو الفحم الحجري الذي طار غازهُ منهُ) في الهواء . واستعمال هذه الطريقة تمكننا من توليد حرارةٍ تبلغ نحو ٧٠٠ درجة بميزان سنتغراد (مئوية) وهي كافية لصهر القصدير والرصاص والزنك . وقد تولّد حرارة تبلغ ١٢٠٠ درجة مئوية اذا استعمل تيار جاف وهي كافية لصهر النيكل والحديد . فاذا اردنا ان نولد حرارة اعلى مما تقدم سحق الوقيد ثم ادخل الى الاتون في تيار من الهواء فيتكوَّن من دقائق الوقيد وجزيئات الهواء مزيج يولّد لدى احتراقهِ حرارة درجتها ١٦٠٠ مئوية وهذا الاتون يستعمل في صنع الاسمنت . فاذا شئنا المزيد ابدلنا الهواء في مزيج الوقيد والهواء بغاز الاكسجين فنجتنب فعل نتروجين الهواء الذي لا يشتعل وتبلغ الحرارة نحو ٢٠٠٠ درجة مئوية . فاذا استعمل غاز مشتعل مع الاكسجين كالايدروجين مثلاً تولدت حرارة هي اعلى حرارة نستطيع توليدها من وقيد مشتعل . وتبلغ ٢٨٠٠ درجة مئوية . وقد استنبطت حديثاً وسيلة لتجزيء غاز الايدروجين واستعماله مجزءاً في توليد الحرارة فولدت حرارة بلغت ٣٨٠٠ درجة . وهذه الحرارة كافية لصهر أو تبخير كل مادة ارضية معروفة الاَّ الكربون والمادة الصناعية الجديدة وهي كربيد التنتالوم

وقد شاع حديثاً استعمال الاتون الكهربائي . ومبدؤُهُ تحويل الطاقة الكهربائية الى حرارة بامرار تيارها في مادة مقاومة له . فاذا لفَّ سلك حول قضيب فلزي وأُمرَّ تيار كهربائيٌّ في السلك تولدت حرارة تبقى آخذةً في الارتفاع حتى تبلغ درجة يلين عندها الفلز . فاذا استعملت اخلاط النيكل والكروم أمكن الحصول على حرارة تبلغ درجة ١٠٠٠ بميزان سنتغراد . واذا

استعمل سلك مصنوع من عنصر المولبديوم او التنغستن بلغت ١٦٠٠°. وثمة نوع آخر من الاتاتين الكهربائية مبنيّ على استعمال مبدإ النور القوسي فيمرُّ التيار الكهربائي في انبوب يحتوي على حبيبات من الكربون وهي شديدة المقاومة لمرور التيار فترتفع الحرارة حتى لقد تبلغ درجة ٣٥٠٠ الى ٣٦٠٠ درجة مئوية وفي هذه الاتاتين تصنع مادة الكربورندم التي ذكرناها في المواد القاسية. ولكن يؤخذ على هذه الطريقة عجزنا عن السيطرة عليها وتباين درجات الحرارة في احوال متماثلة. وهناك انواع اخرى من الاتاتين الكهربائية نضرب عنها صفحاً

وقد حاول بعض العلماء من عهد قريب ان يجمعوا حرارة الشمس في نقطة معينة باستعمال عدسات ومرايا مختلفة وقد بلغت اعلى درجات الحرارة التي بلغوها بهذه الطريقه ٣٠٠٠ درجة مئوية. وقد يسفر البحث في هذه الناحية في بضع السنوات المقبلة عن بلوغ درجات من الحرارة اعلى جداً مما بلغناهُ حتى الآن

اما قياس الحرارة في درجاتها العالية فمسألة ذات شأن. فنحن قد اعتدنا استعمال الميزان الزئبقي (ميزان الحرارة الذي يستعمله الاطباء في قياس حرارة المرضى او ما هو مبنيٌّ على مثاله) لما ثبت لنا من صحة الاعتماد عليهِ. ولكن اذا بلغت الحرارة ٥٠٠ درجة مئوية وجب البحث عن مقياس آخر. وقد عمد الطبيعيون الى الغازات فانهم يعلمون انها تتمدد تمدُّداً معيناً محدوداً بارتفاع حرارتها فبنوا على هذا المبدأ مقاييس غازية لقياس درجات الحرارة. وقد تملأ الانابيب المستعملة لهذا الغرض بالايدروجين او الهليوم او النتروجين او الارجون ثم يعين ارتفاع الحرارة بمقدار زيادة ضغط الغاز اي بمقدار تمدده. والظاهر انها بسيطة التركيب دقيقة القياس وسهلة التناول

وقد صنعت مقاييس كهربائية ولكنها معقدة التركيب ويحتاج العامل الى براعة خاصة لكي يحسن استعمالها. ومع ذلك فهذه الطرق كلّها لا تصلح لقياس اعلى درجات الحرارة. لانهُ اذا زادت درجة الحرارة عن ١٧٧٤ درجة مئوية — وهي درجة انصهار البلاتين — اصبحت كل هذه المقاييس المبنية من مواد اقل صلابة من البلاتين، لا تصلح لانها تلين وقد تصهر قبل بلوغ هذه الدرجة

لذلك بنوا مقاييس تعرف « بالمقاييس الضوئية » ولا نستطيع ان نتبسط في وصفها هنا انما المبدأ الذي تقوم عليهِ هو انهُ كلما ارتفعت الحرارة تغير لون الاشعة المنبعثة منها، أي تغير طول امواجها. فاذا تبيَّنا اللون او قسنا طول الاشعة استطعنا تقدير درجة الحرارة التي انبعثت منها هذه الاشعة. على ان اعلى درجات الحرارة التي بلغها الانسان باستعمال اصناف الوقيد المختلفة وبناء الاتاتين الكهربائية، ليست شيئاً يذكر ازاء حرارة الشمس اذ يقدر علماء الفلك الطبيعي (Astrophysics) حرارتها بـ ٤٠٠٠٠٠٠٠ درجة مئوية!

ما ادنى درجات البرد

ان توليد درجات البرد الشديد يقوم على ازالة حرارة الاجسام بوسائل مختلفة . وأشهر هذه الوسائل هي المستعملة في صنع (الجلاته او الدندرمة) اذ يؤخذ المزيج الذي يراد تجميده ويوضع في وعاء من الالومنيوم مثلا يحيط به وعاء خشبي آخر اكبر منهُ وبين جداري الوعائين يوضع مزيج من الجمد (الجليد) والملح . والجمد في ذوبانه يمتص كثيراً من الحرارة . ولما كان المعدن اكثر ايصالاً للحرارة من الخشب ، فالجليد يمتص من المزيج في الوعاء المعدني اكثر مما يمتصهُ من الهواء خارج الوعاء الخشبي . ويمكن الهبوط بالحرارة ، بهذه الطريقة ، الى ٢٠ أو ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر . فاذا استعمل ثاني اكسيد الكربون الثاني المتجمد بدلاً من جمد الماء بلغت البرودة ٥٠ تحت الصفر ، واذا صبَّ سائل طيار على جمد اكسيد الكربون الثاني هبطت الحرارة الى ٧٧ تحت الصفر

ثم هناك طريقة اخرى لتوليد برد اقوى من البرد المولَّد بالطريقة المذكورة سابقاً . ذلك ان بعض الغازات يؤخذ ويضغط ضغطاً شديداً ، ثم يبرَّد الغاز المضغوط باحدى الطرق المذكورة آنفاً ، ثم يرفع الضغط فجأة ، فتتمدَّد الغازات وفي تمددها تمتصُّ حرارة . فاذا احيطت الانابيب التي يتمدد الغاز فيها فجأة بسائل ما امتصَّ الغاز الحرارة من السائل فتهبط حرارة السائل هبوطاً عظيماً وهي الطريقة المستعملة لصنع الثلج الصناعي — وهو في الواقع ليس ثلجاً وانما هو جمد او جليد

فاذا رتبت الانابيب التي يضغط فيها الغاز بشكل دوائر متمركزة ، وفتح اولاً صمَّام دقيق ليخرج منهُ مقدار ضئيل من الغاز لكي يتمدَّد ، ثم قفل الصمام ، تمدَّد ذلك الغاز وفي اثناء تمدده يمتص الحرارة من باقي الغاز الذي لم يتمدد . ثم يفتح الصمام ثانية ويخرج مقدار آخر فيتمدد ويمتص الحرارة في اثناء تمدده من الغاز الباقي ، وهكذا رويداً رويداً الى ان يبقى مقدار قليل من الغاز وقد هبطت حرارته حتى اصبح سائلاً . وهكذا تسيل الغازات . ومختلف الغازات تسيل على درجات مختلفة من البرودة . فالاكسجين السائل اذا بلغت حرارته ١٨٢٫٥ تحت الصفر تحول غازاً والنتروجين السائل اذا بلغت حرارته ١٩٥٫٨ تحت الصفر تحوَّل غازاً والايدروجين السائل اذا بلغ ٢٥٢٫٧ تحت الصفر تحول غازاً — وهو ما يعرف بدرجة الغليان لسائل الغاز . فاذا غلت هذه السوائل تحت ضغط عظيم زاد بردها وقد تتحول الى جوامد . فدرجة غليان الهليوم السائل ٢٦٨٫٩ تحت الصفر ودرجة ذوبان الهليوم الجامد ٢٧٢٫٢ تحت الصفر . وهي ادنى درجات البرد التي بلغ اليها العلماء

خبز الذرة والحلبة (١)

للدكتور علي حسن

الاستاذ المساعد للفسيولوجيا في كلية الطب

يصيب بعض اهالي القطر المصري مرض يعرف طبيًّا بالبلاجرا ويميز هذا المرض بطفح يظهر على اجزاء الجسم المعرضة للشمس كاليدين والقدمين والوجه والرقبة وتلبكات معدية معوية مصحوبة باسهالات تنتج ضعفاً شديداً وهزالاً مميتاً في بعض الاحوال وقد تتأثر حالة المريض العقلية فيصاب بجنون لا يقتصر خطره على المريض نفسه بل قد يمس بعض اهله او عارفيه لانه نوع من الجنون تصحبه في كثير من الحالات رغبة في القتل مبعثها في الغالب سوء ظن المريض في اقرب الناس اليه فقد يخيل اليهِ عقله المشوش انما يصيبه من الاسهال والضعف نتيجة لاعمالٍ سحرية أو لان امه او زوجته تدس له السم في طعامهِ للتخلص منه إمّا لطول مرضه أو لان زوجته تميل لرجل آخر فهي لذلك تحاول اماتته لتصبح حرة قادرة على الزواج من جديد بمن تحب. وقد يقتل زوجته او رجلاً من اهلهِ أو اصدقائه وتكون الغيرة هي الدافع له على ارتكاب هذا الجرم لان هذا المرض يقعده عن اداء وظيفته الزوجية وشعوره بعجزه هذا يبعث في عقلهِ السقيم شكوكاً من جهة سلوك زوجته ومن تختلط بهم عادة من الرجال. فالبلاجرا في الغالب تميت مرضاها موتاً بطيئاً او تقودهم الى مستشفى المجاذيب وقد يقضي المريض باقي ايامه هناك ان كان متهماً بجريمة وذلك رغم ما يطرأ على حالتهِ من التحسن او الشفاء خوفاً من عودة المرض اليهِ

اتجهت الجهود في ايطاليا وفرنسا واسبانيا ورومانيا والولايات المتحدة اخيراً حيث يكثر هذا المرض ايضاً الى دراسة اسبابه تمهيداً لمقاومته مقاومة فعالة وقد اجمع الكل تقريباً على انه مرض يصيب عادة فقراء الفلاحين والعمال في القرى لانه يكثر بين الطبقات الفقيرة في الريف. اما متيسري الحال من الفلاحين وساكني المدن فلا يصابون به الا فيما ندر

وبعد تخبط طويل اتجهت الآراء الى اتهام الذرة بانها تسببه لان المرض يكثر في الممالك التي تزرع الذرة وتأكلها ودلل البعض على صحة هذا الاتهام بان المرض لم يكن معروفاً في اوربا قبل بدء زراعة الذرة فيها والذرة كما تعلمون نبات ورد الينا من امريكا وانتشرت زراعته في الدنيا القديمة من اواخر القرن الثامن عشر الى وقتنا هذا

(١) لا يصدر هذا الجزء من المقتطف وتتداوله ايدي قرائه الا ويكون كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية قد خرج من المطبعة محتوياً على محاضرات المؤتمر الثالث الذي عقد برآسة الدكتور محمد شاهين باشا. وقد اخترنا هذه المحاضرة المفيدة منها لتنشر في المقتطف. وعندنا ان قراء المقتطف لا يستغنون عن هذا الكتاب النفيس

ولاظهار العلاقة بين الذرة والبلاجرا حاول علماء ايطاليا اقامة الدليل على ان البلاجرا هي حالة تسمم بطيء ناتجة من اكل الذرة الفاسدة وذلك لان حبوب الذرة عرضة للفساد ولنمو بعض الفطريات عليها خصوصاً اذا لم يعتن بتجفيف الحبوب بعد ضمها او اذا ضمت قبل تمام نضجها. وان هذه الفطريات تفرز سموماً اذا اكلت مع الذرة أصيب آكلها بالبلاجرا — الاَّ ان هذه النظرية التي وجدت كثيراً من المعضدين اهملت لضعف الادلة التي قدمت للبرهان على صحتها واستبدلت بنظرية أخرى تدور حول الذرة ايضاً. وهذه النظرية الاخرى تقول بان البلاجرا مرض ينشأ من الاعتماد على الذرة في الغذاء لان زلاليات الذرة من نوع رديء من الوجهة الغذائية — وهنا يحسن بي ان اوجّه نظركم الى بعض حقائق اثبتها علم التغذية منها ان الانسان يحتاج يوميًّا الى مقدار من المواد الزلالية يتأثر مقدارها بعوامل كثيرة منها السن والنوع والوظيفة ومصدر المادة الزلالية ذاته — وان المواد الزلالية موجودة في لحوم الحيوانات والحاصلات الحيوانية كاللبن والبيض وتوجد ايضاً في النباتات من خضروات وفواكه وحبوب خصوصاً في بزور الفصيلة البقلية ففي العدس والحلبة مثلاً حوالي ٢٥ في المائة زلاليات اما اللحم الاحمر ففيه ٢٠ في المائة فقط وان الزلاليات الحيوانية اكفأ من الوجهة الغذائية اي من وجهة قدرتها على تقديم المركبات اللازمة للاصلاح وللبناء من الزلاليات النباتية. ولاضرب لذلك مثلاً: اذا اعطينا فريقين من الحيوانات غذاءين متشابهين الاَّ في نوع الزلاليات التي بها كأن يحتوي غذاء الفريق الاول على عشرين في المائة من زلاليات مستخرجة من اللبن ويعطى الفريق الآخر مقداراً مساوياً لها من مواد زلالية مستخرجة من القمح فان الفريق الاول ينمو ويتوالد بشكل طبيعي اما الفريق الآخر فيكون نموه وتوالده ضعيفاً ضعفاً بيّناً

ولكن النمو والتوالد يتحسن في الفريق الثاني اذا اضيفت الى زلاليات القمح زلاليات اخرى من اصل نباتي آخر ومعنى ذلك انهُ بينما تنمو الحيوانات وتتوالد جيداً اذا اعطيت غذاء فيهِ زلاليات من اصل حيواني واحد كاللحم أو البيض أو اللبن فانها لا تنمو ما يقرب من هذا النمو اذا إغتذت بزلاليات نباتية الاَّ اذا زيدت الزلاليات النباتية في الغذاء وتعدَّدت مصادرها وحسن اختيارها

ومسألة تعدد المصادر فيما يختص بالمواد الزلالية النباتية مسألة خطيرة جدًّا من الوجهة الغذائية لان مقدار الزلاليات في الغذاء مسألة ثانوية ازاء نوعها وقد عرفنا السبب. والواقع انهُ اذا أردنا أن نعيش على غذاء نباتي محض وجب علينا أن نعدد أصنافه والاَّ نقتصر على ألوان قليلة لنضمن حصولنا على كفايتنا الغذائية من الزلاليات. ويحسن بنا دائماً اتباع هذه السياسة أي سياسة تعدد أصناف الغذاء في كل حال لان الزلاليات ليست بالمادة الغذائية الوحيدة المعرضة للنقص بل هناك مواد اخرى كالفيتامين مثلاً وخطر نقصها في الغذاء شديد لان الحرمان منها مدة طويلة يحدث امراضاً خطرة

نستطيع الآن ان نفهم كيف نشأت النظرية الثانية التي تربط البلاجرا بتناول غذاء عماده الذرة كما هو حاصل في البلاد التي تزرع الذرة بكثرة — فقد بيّنا ان زلاليات القمح اقل كفاءة من الوجهة الغذائية من زلاليات اللبن — ونحن اذا قابلنا بين القمح والذرة من الوجهة الغذائية بنفس الطريقة وجدنا ان نمو الحيوانات اذا تغذت بالذرة يقل عن نموها اذا تغذت بالقمح الاّ ان الفرق في النمو في هذه الحالة قليل. ولقد اظهرت الابحاث بان احد زلاليات الذرة وهو يوازي خمسين في المائة من مجموع زلاليات ينقصهُ عاملان مهمان من الوجهة الغذائيـة ولقد استعمل هذا الاكتشاف لتعزيز النظرية الثانية رغم ان زلاليات الذرة الباقية تعوض هذا النقص الى حد كبير

شكّ الكثيرون في صحة هذه النظرية لاستحالة تطبيقها على جميع الحالات فقد شوهدت حالات بلاجرا في بلاد لا تعرف الذرة ولا تدخلهُ في طعامها قط كما ان البلاجرا قد تصيب اشخاصاً يحتوي غذاؤهم على زلاليات من اصل حيواني اي من نوع جيد غذائيًا

ومع ان هذه الاعتراضات كانت سبباً في تعديل النظرية تعديلاً لم يؤثر كثيراً في أساسها الاّ ان النظرية بعد التعديل لم تعد تعتبر الذرة العامل الوحيد في احداث البلاجرا وسلم القائلون بها بامكان حدوث البلاجرا بعد تناول غذاء ليس للذرة اثر فيه ولكنهم قالوا ان القيمة الغذائية زلاليات هذه الاغذية الخالية من الذرة اذا قدرت وجدت تقل عن رقم مخصوص اصطلحوا عليهِ

لقد اطلت عليكم ولكن كان لا بدَّ لي من هذه المقدمة الطويلة لكي نتمشى معاً في بحث الموضوع الاساسي الذي اخترته لهذه الليلة

يظهر لنا لاول وهلة أن هذه النظرية تفسر حدوث البلاجرا بالقطر المصري لان طائفة كبيرة من فلاحي القطر وهم حوالى اربعة اخماس السكان يصنعون خبزهم من الذرة الشامية او الذرة الرفيعة وان حالتهم الاقتصادية لا تسمح لهم بتنويع طعامهم ولا باختياره من اصناف مشهورة بجودة زلالياتها . واذا علمنا أن متوسط دخل الفلاح في السنة لا يزيد عن خمسة عشر جنيهاً يصرف منها على غذائهِ وملبسهِ وباقي مطالبهِ استطعنا أن نفهم لمَ يبيع الفلاح بيض دجاجه ولبن ماشيته بدل ان يأكلهـا هو واهله . وإذا استثنينا الاحوال النادرة التي يوسع فيها الفلاح على نفسه بشراء قليل من اللحم وجدنا انهُ يعيش على النباتات ولا يختار الاّ الرخيص منها . من هذا نرى اذاً ان احوال الفلاح الغذائية وتعرضهُ للاصابة بالبلاجرا تعزز هذه النظرية . ولكن يخيل اليَّ ان هذا التعزيز ظاهري فقط فالقيمة الغذائية في خبز الفلاح باعتباره عماد غذائه يجب ان تحملنا على الريب في صحة هذه النظرية إذا أمكنا أن نثبت بانها تفوق القيمة الغذائية لخبز المدن المصنوع من القمح

ان تفضيل دقيق القمح في صنع الخبز لم ينشأ عن امتيازه على غيره من الحبوب المستعملة في عمل الخبز لان بعض الحبوب كالشوفان مثلاً المستعملة الى وقتنا هذا لصنع الخبز في المانيا

وبلاد بحر البلطيق تمتاز عن القمح من الوجهة الغذائية الاَّ انها لم تنتشر انتشار القمح في انحاء العالم كاساس لصنع الخبز الجيد اقصد خبزاً جيداً من وجهة الصناعة فقط

ولكن هذا التفضيل ناشئ عن احتواء دقيق القمح على مواد زلالية اذا مزجت بالماء اعطتنا عجينة شديدة اللزوجة تشبه المطاط وهذه الخاصة هي أساس الصفات الخاصة برغيف القمح والتي تظهر لنا بوضوح في الرغيف الافرنكي — وهي القوام الاسفنجي والوزن الخفيف بالنسبة لحجمه وهي صفات لا تتوافر في رغيف مصنوع من دقيق آخر — يضاف الى ذلك امكان الحصول من القمح على رغيف يمتاز بشدة بياضه — لا شك في ان القوام الاسفنجي يجعل الرغيف اسهل هضماً وبياضه يحببهُ الى الجمهور ولكن هل يدري الجمهور اي ثمن يدفع للحصول على هذه النتيجة هل يعلم ان العمليات الكثيرة التي يمر فيها القمح ليعطينا اجود الارغفة شكلاً تزيل من دقيقه كثيراً من موادهِ الغذائية من زلاليات وفيتامين وزيت واملاح

ولكني اؤكد لكم بناء على تجارب اجراها باحثون مختلفون في ممالك متعددة أن انقى الارغفة وانصعها بياضاً اقلها قيمة من الوجهة الغذائية ومعنى ذلك ان الرغيف العادي أجود من الوجهة الغذائية من الرغيف الخاص وان الرغيف المصنوع من الحبة كلها اجود من الاثنين ولذا نرى الجيش المصري يتبع في تجهيز خبزه الطريقة الأخيرة اي أن القمح يطحن ويؤخذ الدقيق كما هو لعمل الخبز واني وان اعترفت بان منظر رغيف الجيش لا يسر كثيراً الاَّ أنهُ في الواقع يفضل من الوجهة الغذائية ما سواه

توافقون حضراتكم على أنهُ في سبيل الحصول على رغيف لطيف شكلاً وقواماً نعرض القمح لعمليات تقلل من قيمتهِ الغذائية أو بمعنى آخر تقرب قيمته الغذائية الى الذرة والفرق بينهما كما قدمنا قليل في الاصل ولكن هل يتعرض الذرة لمثل هذه العمليات — لا — أنهُ لا يتعرض لذلك لسببين رئيسيين . أولاً أن أغلب أنواع الذرة المستعملة في عمل الخبز بيضاء من الاصل فضلاً عن أن آكلي خبز الذرة لا يعملون عادة للحصول على رغيف ابيض . ثانياً أنهُ من الصعب عملياً الحصول على رغيف أبيض من الذرة لان الذرة لا تعطينا دقيقاً له نعومة دقيق القمح ومن هذا نرى أن قيمة الذرة الغذائية لا تتعرض للنقص في اثناء تجهيز الحبة لعمل الخبز

وعلاوة على ذلك وهو بيت القصيد ان الفلاحين في مصر يضيفون الى الذرة قليلاً من الحلبة فخبزهم اغلبهُ مكوَّن من مزيج من ذرة وحلبة ومن النادر ان نرى خبزاً مصنوعاً من الذرة فقط . واضافة الحلبة الى الذرة في صنع الخبز هي ضرورة عملية لان زلاليات الذرة لا تعطينا اذا مزجت بالماء عجينة لزجة كما هو الحاصل في القمح وهذا النقص هو السبب في استحالة الحصول من الذرة على رغيف اسفنجي خفيف فعجينة الذرة الخالصة ليست متماسكة واذا اريد عمل ارغفة منها تعذر ذلك الاَّ اذا كانت في شكل كتل تخرج من الفرن صماء ثقيلة

قد تؤكل بسهولة وهي طازجة اما اذا تركت مدة تعذّر مضغها وازدرادها

فاضافة الحلبة هي لمجرد الحصول على عجينة لزجة لان الحلبة تحتوي على مادة شديدة اللزوجة وهي لشدة لزوجتها استعملها صانعو الاحذية في اثناء الحرب العظمى في لصق الطبقات الداخلية لنعل الحذاء وذلك لانقطاع المادة المستعملة عادة لهذا الغرض وقد تستعمل البامية الناشفة في صنع خبز الذرة بدل الحلبة وهي طريقة يلجأ اليها الفقراء اذا تعذر عليهم الحصول على الحلبة

هنا ميزة اخرى لخبز الذرة والحلبة اذ بينما زلاليات خبز القمح ترجع كلها الى اصل واحد هو القمح فزلاليات خبز الذرة والحلبة من اصلين وهذا كما قدمت عامل مهم من الوجهة الغذائية . قد يقول البعض ان مقدار الحلبة الذي تضاف الى الذرة لا يتعدى نسبة قليلة هي حوالي اربعة في المائة وهي لذلك لا تؤثر تأثيراً محسوساً في قيمة الخبز غذائيًّا ولكن لنذكر اولاً بأن الحلبة غنية بموادها الزلالية اذ فيها ما يقرب من ٢٥ في المائة منها وان هذا المقدار القليل يعطينا فعلاً رغيفاً يفوق من الوجهة الغذائية رغيف القمح

ولقد تيسر لي اثبات ذلك عمليًّا بواسطة تجارب غذائية — اشرت اليها في مقالي السابق بالمؤتمر الاول لهذا المجمع — اجريت هذه التجارب على حيوانات لمدة ستة اشهر ومنها ظهر أن نمو الحيوانات وتوالدها اذا اغتذت بالذرة مضافاً اليها الحلبة كان احسن منه اذا اغتذت بالقمح وظهر أن النمو يكون ممتازاً حتى ولو انزلت نسبة الحلبة الى اثنين في المائة فقط

خرجت من هذه التجارب بنتيجتي الاولى وهي ان الرغيف المصنوع من الذرة والحلبة اجود من الناحية الغذائية من رغيف القمح. والثانية هي اني بدأت اشك في وجود علاقة بين المواد الزلالية التي في الغذاء وبين البلاجرا . والواقع انهُ ظهرت في اميركا من عهد قريب ابحاث تشير الى ان البلاجرا نتيجة لنقص فيتامين خاص في الغذاء اطلق عليه اسم الفيتامين الواقي ضد البلاجرا

اريد في النهاية ان اعرض على حضراتكم اقتراحاً تشجعني الأزمة الحالية على تقديمه. انتم تعلمون بأن الذرة رخيصة الثمن اذا قيست بالقمح اذ بينما سعر اردب الذرة اليوم حوالي ٦٥ قرشاً فسعر القمح ١٤٠ قرشاً ففكروا فيما يمكن توفيره اذا صنعنا خبزاً مركباً من :

٥٠ ٪ ذرة ٤٧ ٪ قمح ٣ ٪ حلبة

يكون الوفر اعتماداً على هذه الاسعار حوالي ٢٥ ٪ اما مميزات هذا الخبز فهي :

(١) قيمته الغذائية احسن من قيمة خبز القمح (٢) وثمنهُ ارخص من ثمن خبز القمح ولخبز الذرة فائدة في تنظيم الامعاء فأنتم على ما اظن تعلمون بأن الذرة مُلَيِّن الى حد ما وذلك لانها تترك في الامعاء فضلات كثيرة تنبهها للعمل وعليهِ تكون مصلحة المصابين بالامساك المزمن في استعمال مثل هذا الخبز. تضاف إلى ذلك ميزة اخرى وهي انها سهلة المضغ ويظهر ذلك على الخصوص اذا اكل الرغيف بعد خبزه بيوم على الاقل

عيد ميلاد

في الجحيم

للاستاذ عباس محمود العقاد

دخل شقي الجحيم فحسبوه مولوداً جديداً في ذلك العالم القديم ، ومضى عليه العام فاحتفل بعيد ميلاده ، وقال لاترابه وأنداده :

صُفّوا الموائد واملأوا الأكوابا ... وادعوا الصحاب، وبشروا الأحبابا
قولوا مضى عام ليوم هبوطه ... هذا الجحيم ، فقرَّ فيهِ وطابا
وبلا المقام فراح يحمد شرَّ ما ... فيهِ ، وآدب[1] باسمهِ ايدابا
هذا الجحيم أحبُّ لي من عالمٍ ... ما كان لي الاَّ رجاءً خابا
الشرُّ ثمة كان شراً كاسمهِ ... والخير كان كما علمت سرابا
يشقى بنوهُ ليعمروهُ ، ويجشموا ... فيهِ الشقاء ليرجعوه خرابا
لا يعرفون الحق ان سمعوا بهِ ... الاَّ ليلقوا في الحقوق عذابا
أهونْ بصابٍ في الجحيم اذوقهُ ... قد كان ثمة كل شيء صابا
قد كنت اشربهُ بعينيَّ تارةً ... وفي المرير ، وساء ذاك شرابا
ولربَّ وجه يومذاك شهدتهُ ... فكأنَّ سمًّا في العيون انسابا
وجهُ اللئيم اذا استهلَّ ومثلهُ ... وجهُ الكريم اذا اضمحلَّ وذابا
ورضى الظلوم وحيرة المظلوم في ... بلواهُ يطرق كل يوم بابا

* * *

يا صحب حيوا النار في ويلاتها ... واحثوا على ذاك التراب ترابا
ماكان من حُسنٍ هناك فجهده ... ان يخدع الابصار والألبابا
او كان من فضل فتلك حبالةٌ ... للبؤس تضني البائسين طلابا
يا صحب هاتوا من علاقها لنا ... وادعوا الأحبة ، واشربوا الأنخابا
من عاش عاماً في الجحيم فلا اشتهى ... ابداً الى ذاك الجوار مآبا

(١) آدب اي اقام مأدبة او وليمة

دراسة علماء الغرب

لمذهب الصوفية

محاضرة الاستاذ المستر اربري مدرس التصوف بجامعة كمبردج بانكلترا وتلميذ الاستاذ نكولسن المستشرق المعروف واستاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج القاها بنادي الشبان المسلمين بالقاهرة بدعوة من جماعة النشر والترجمة وعربها السيد محمد الغنيمي التفتازاني شيخ السادة الغنيمية الصوفية بمصر

امتاز القرن التاسع عشر في الغرب بالتطور السريع الذي ظهر في الأخذ بطرق التحليل العلمى . وازدياد علم الناس ازدياداً هامًّا بالظواهر الطبيعية يضاف الى هذا ما بدا من ضعف في الاعتقاد بالمذاهب والعقائد الدينية القويمة . تلك العقائد التي ظلت موضع التقدير والاحترام على مرّ الأزمان وكرّ الأعوام . ولما أثبت لنا علم طبقات الارض ما لم نكن نتصوره أو نحلم به عن كرتنا الارضية وما عمرته من دهور وأحقاب . وكشف لنا علم الفلك عن ذلك الفضاء اللانهائي . وذلك الزمن الذي حار في حسبانه الانسان . والذي لا يعد ما سجله التاريخ منهُ الا بمقدار لحظة او كلمح البصر . لما أثبت العلم كل هذا . هوى نجم الدين . وضعفت العقائد . وكاد يطغى على العالم سيل المادية الجارف . فيكتسح في سبيله جميع الآراء الفلسفية والدينية — غير أنهُ في بداءة القرن الحاضر أخذت هذه الحركة الفكرية في التراجع . وبدأ يحل محلها الايمان بالله . والاعتقاد بان هذا الكون لم يخلق عبثاً . وفي الوقت نفسه ظهرت هناك بوادر تدل على الرغبة في البحث وراء الحقيقة في الديانات الاخرى . واشتدت هذه الرغبة حتى فاقت نظيرتها في الغرب وبوجهٍ خاص فيما يتعلق بالناحية الصوفية من هذه الديانات . فانها استرعت اهتمام فريق من الناس طفقوا يبحثون في حياة وسير عظماء الدينيين من رجال ونساء . ليستخلصوا من حياتهم وسيرهم الدليل المباشر على صحة ما اتبع هؤلاء الناس من مِلل وارتضوه من عقائد . هم أدرى بها وأعلم . هذا إلى أن وقعت الحرب العظمى فجاءت دافعاً جديداً للبحث عن الحقيقة . إذ كانت تلك الوحشية . والمأساة الصادعة التي تمثلت في هذه الجزرة البشرية أشد ما تكون باعثاً على أن يتطلب الناس الخلاص والاطمئنان بالالتجاء الى قوة روحية تفوق قوى البشر وتسيطر عليها

ولم تعالج دراسة الصوفية بالحماسة العظيمة أو الدقة في البحث بمثل ما عولجت بهِ في أيامنا هذه . على أن الاحوال الحاضرة هي خير فرصة ملاءمة لتقدم هذه الدراسة والسير بها إلى الأمام — وليس الغرض من هذه العجالة الا وضع ملخص وجيز للعمل الذي قام بهِ حتى الآن جماعة العلماء الاوربيين . وبيان خطتهم التي اتبعوها في تناولهم لمذهب الصوفية

وأول رسالة هامة ظهرت في اوربا عن الصوفية هي رسالة (نولك) التي نشرت باللاتينية سنة ١٨٢١ — ويعتبر هذا الكتاب الآن أثراً قديماً . غير انهُ لا يزال موضع اللذة لقارئهِ. وفي سنة ١٨٦٧ — نشر (ادوارد بلمار) استاذ اللغة العربية بجامعة كمبردج وأحد مترجمي القرآن الى اللغة الانكليزية كتابهُ الصغير الذي سماه (الصوفية الشرقية) . وقد كتب فون كرامر عن الصوفية كتابة مختصرة في مؤلفه (Die Von Islam) وكذلك (جولزهر) في كتابه القيم (الدراسة المحمدية) ثم ضمن كتابه (Unrenchen Islam) معلوماته الهامة في الموضوع . أما (ف. ج. و. جب) الذي خسر العالم بموته السابق لاوانه اكبر عالم محقق مدقق . فقد رسم لنا في سفره الجليل (تاريخ الشعر العثماني) حدود الصوفية . ووضح لنا معالمها التي تنير السبيل . كما اشار الى الصوفية في مناحيها المختلفة العلاّمة (ف. ج. برون) في كتابه القيم (تاريخ الادب الفارسي) . كذلك كتب عن الصوفية العلامتان (د. ب. مكدونالد) و (ي. س. مارجليوث) الاول في كتابه (نمو الدين الاسلامي) والثاني في (الاسلام في بدء ظهوره) — ومن ثمَّ بقي على الاستاذ (نكلسون) ان يأخذ على عاتقه بعد ذلك التوفر على الصوفية وجعلها الموضوع الاساسي لبحوثه

ولد الاستاذ (نكلسون) الذي يشغل الآن كرسي اللغة العربية بجامعة كمبردج في سنة ١٨٦٨ . وقد عكف وهو يجاور في كمبردج على دراسة المؤلفات الاغريقية واللاتينية الشهيرة فتفوَّق فيها . وكان لهذه الثقافة العالية أثرها الذي لا يقدَّر . فلما وجه عنايته الى دراسة اللغة العربية والفارسية تمكن منهما كل التمكن . ففي سنة ١٨٩٨ وضع مؤلفه الاول (مختارات نظمية من ديوان الشمس التبريزي) وفي مقدمة هذا الكتاب أثار بحثاً في منشأ الصوفية . وهو موضوع لم تحل عقدته الى الآن . وقد دحض نظريتين . احداهما ما يمكن ان يعبر عنها بالنظرية الايرانية . لانها تعتبر فارس في جاهليتها (اي قبل ظهور الاسلام) هي المهد الروحي للصوفية ومبعث وحيها . والنظرية الثانية تعزو مثل هذا الى الديانات الهندية — اما الاستاذ (نكلسون) فانهُ وجد في الفلسفة الاغريقية ما يبعثهُ على الاعتقاد بأنها مصدر كثير من الآراء الصوفية. وقد عمل على نشر هذه النظرية بعد ذلك (ونزوك) و(اندريا) الاول في ترجمته كتاب اليمامة تأليف (بارهبريوس) والثاني في رسالته الجميلة (الشخصية المحمدية) ومما نشره الاستاذ (نكلسون) عن الصوفية رسالة دقيقة عنوانها « الصوفية في الاسلام» شملت الموضوع برمته وكان لها الحظ الوافر لدى جمهرة القراء . ثم كتابه « بحوث في الصوفية الاسلامية » ومحاضرات تتناول نظرية الشخصية في التصوف ومقالات متعددة في دوائر المعارف والصحف . وقد كتب مقالاً شائقاً عن الصوفية في « تراث الاسلام » الذي نشر في العام الماضي . ثم هذَّب او ترجم الكتب العربية والفارسية الآتية . كتاب اللمعة للسراج وكشف المحجوب

للحجويري وترجمان الاشواق لابن العربي وتذكرة الاوليا للعطار والمثنوي لجلال الدين الرومي

وكذلك يعد الاستاذ (لويس ماسينيون) في الغرب حجة في الصوفية . وكانت مباحثه تدور حول سيرة (منصور الحلاج) وشخصيته وآرائه . ويعتبر المؤلف الذي نشره خير مجموعة زادت من علمنا عن الصوفية ومناحيها المختلفة . وقد بلغت مباحثه ذروتها بظهور اهم مؤلفاته وهو كتاب « الحلاج شهيد الصوفية الاسلامية » في سنة ١٩٢٢ .وكان قد نشر قبل ذلك مؤلفيه «الطواسين» الذي ظهر سنة ١٩١٣ و «اربعة الاصول غير المنشورة الخاصة بتاريخ حياة الحلاج » الذي ظهر سنة ١٩١٤ . وفي سنة ١٩٢٢ ايضاً نشر مقالة عن مصادر الكتب الفنية الجامعة للصوفية الاسلامية . وفي هذين الكتابين بحث بحثاً مستفيضاً في تاريخ تطور الصوفية . وخطأ النظريات الاغريقية والايرانية والهندية التي اشرنا اليها آنفاً. وأكد لنا ان اساس الآراء الصوفية وتعاليمها هو القرآن . وفي سنة ١٩٢٩ نشر (ماسينيون) «مجموعة الاصول الصوفية» وفي العام الماضي «مقتطفات من « ديوان الحلاج»

ويجدر بنا ان نذكر المجهود الذي قام به المستشرق الاسباني (آسين بلاسيوس) فقد نشر في العام المنسلخ نبذته الجليلة عن المذهب الفلسفي لابن العربي . ولما كان في كتابه هذا قد استقصى اثر الآراء الاسلامية في دانتي . فقد خرج هذا السفر كتاباً قيماً غنيًّا بمعلوماته . ثم هناك الآنسة (مرغريت سمث) وهي كاتبة دخلت في هذا الميدان حديثاً ويرجى منها كثيراً فكتابها عن رابعة العدوية يعتبر آية العلم والابداع . ثم لما ظهر كتابها المعنون «بحوث في الصوفية الشرقية والغربية » طار صيتها كل مطار

ولا يزال هناك متسع كبير للعمل اذ من المرغوب فيه على الخصوص ان تطبع النصوص الصحيحة لما كتبهُ جماعة الصوفيين الاوائل امثال (الجنيد) و (الترمذي) و (المحاسبي) وعندها فقط تصبح الدراسة العلمية لتاريخ الصوفية في متناول الطالب العادي الذي لا يستطيع الالتجاء الى دور الكتب الاجنبية بسبب قصر وقته او ضيق ذات يده

اما المطبعة المصرية التي قامت حتى الآن بخدمات جليلة للجمهور بما اخرجته من اشهر تصانيف الادب العربي فانها تستطيع ان تأخذ على عاتقها مسألة هذه المؤلفات

على انهُ مما لا نزاع فيهِ ان التفقه في الدين الاسلامي والتمكن من دراسة القرآن الدراسة الوافية هي خير عدة لكل من اراد ان يتبحر في الصوفية ويلم بأطرافها

والنهضة العلمية التي تخطو الآن في مصر خطواتها السريعة . ستتمخض بلا مراء عن علماء اكفاء لا تعوزهم الرغبة في متابعة البحث الذي قام بهِ جماعة العلماء الغربيين في الصوفية وهم بلا شك سيذللون كثيراً من الصعاب التي لا تزال بحاجة الى من يكشف عنها النقاب . وفي تضامن المعارف الشرقية مع طرق التحليل العلمي الغربي. ما يكفل الوصول الى ابهر النتائج واثبتها

القراءة المفيدة [1]

قيل ارسل احد الخلفاء يطلب احد العلماء ليسامره . فلما جاءه الرسول وجده جالساً وحواليه الكتب يقرأ فيها . فقال له ان أمير المؤمنين يستدعيك . فقال قل له : عندي قوم من الحكماء احادثهم . فاذا فرغت منهم حضرت . فلما عاد الخادم الى الخليفة وافضى اليه بذلك قال : ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده . قال والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده احد . قال فأحضره الساعة كيف كان . فلما حضر العالم قال له الخليفة من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك فانشد :

لنا جلساء لا نمل حديثهم ألباء مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا

فان قلت اموات فلم تعد امرهم وان قلت احياء فلست مفندا

وقال شيشرون الخطيب الروماني المفوّه : الكتب غذاء الشباب وبهجة الشيخوخة . هي الزينة في ايام الاقبال والرجاء والملجأ في الساعات السود . رفاق لا نملهم في الليل او في اثناء السفر او في الريف . وقال شكسبير على لسان احد ابطاله : هذه مكتبتي واية دوقية تساويها . وقال اولفر غولد سمث : اذا قرأت كتاباً نفيساً للمرة الاولى شعرت انني كسبت صديقاً جديداً . فاذا قرأته ثانية شعرت باني اقابل صديقاً قديماً . وقال بيتشر الواعظ الاميركي الشهير : ان مكتبة تتعهدها كل سنة باضافة شيء اليها ناحية نبيلة من حياة كل انسان . ويجب على الانسان ان يقتني كتباً . فالمكتبة الخاصة ليست من كماليات الحياة بل من الضرورات التي لا يستغنى عنها . وقال جون رسكن : الحياة قصيرة وساعاتها الهادئة نادرة فلا تضيعها سدى في قراءة كتاب سخيف . اما الكتب النفيسة فيجب ان تكون في كل بلاد متمدينة في متناول كل انسان

ولو شئت لمضيت اعدد اقوال العلماء والحكماء والشعراء والفلاسفة في مقام الكتاب من الحضارة بوجه عام ومن الثقافة الفردية بوجه خاص وما في القراءة من النشوة دونها نشوة الراح والفائدة التي لا توزن بالدرهم والدينار

والواقع ان القراءة سياحة العقل بين آثار الفكر الانساني . فهي آناً في رياض من هذه الآثار فواحة العبير — هنا الاشعار الغنائية والقصص التي لا تبلي جدتها السنون . وهي آناً بين امجاد كأنها اطلال الحضارات القديمة ضخمة كالكرنك راسخة كالاهرام — هنا الملاحم الشعرية وكتب التاريخ والحكمة والعلم يتلمس فيها الانسان اشعة النور من خلال الظلمات المطبقة على الذهن

---

(١) خطبة لاسلكية اذاعها رئيس تحرير هذه المجلة من محطة راديو مصر في ٨ نوفبر الماضي

الانساني . وهي آناً آخر في معترك العزائم والارادات والمطامع والعواطف — هنا سير العظام والعظيمات من الناس وما تخلل سطور حياتهم من دموع وآهات وطمع وطموح وحبّ وانتقام. فانت في كل هذا كأن مواكب الانسانية تمرُّ امامك وقد لبست من النثر والشعر حلة الجمال الاسنى

وحبُّ القراءة ثمرة الثقافة الصحيحة بل هي مقياسها الذي لا يخطىء . وقد قال احد الحكماء قل لي ما تقرأ من الكتب أقل لك مَنْ أنت

لماذا تقرأ

قد يقرأ الانسان ليوسع نطاق خبرته . فالحياة قصيرة محدودة وفي قرارة النفس نزوع الى التملّص من قيودها وحدودها ، فنعمد إلى ميادين الخيال ومروج الفكر ، نجول في جنباتها لنجني منها ادب الذاهبين ومعرفتهم وحكمتهم . ثم ان بعض الناس يقرأ مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فلا يقرّ له قرارٌ إلاّ باستكشاف الاسرار واستجلاء الخفايا . ومنهم من يقرأ رواية او قصيدة او رسالة لانهُ في اثناء قراءتها يسبغ عليها لوناً من شعوره فيحسُّ أن ثمة صلة بين صور هذه الرواية وصور خياله واعية او غير واعية ، فكأنهُ عائش في عالمها ؛ وهذه ناحية من نواحي ملكة الابداع او التوليد لان الذي يطالع على هذه الطريقة يحسُّ في الغالب احساساً خاصّاً بهِ ، او يصل الى نتائج غير النتائج التي يقصد اليها الكاتب ، فكأن القراءة حافز نفسي يحفزهُ الى الكشف عن الاحاسيس والآراء الكامنة فيهِ كالجمر تحت الرماد

وبعضهم يقرأ ليفرّ من عالم الحقيقة الى عالم الخيال ، وغيرهُ على الضدّ من ذلك يقرأ ليرهف احساسهُ بما يقع حولهُ ويصقلُ حكمهُ في حوادث يومهِ. وثمة طائفة تقرأ لان الحركة والمغامرة والاقدام والنضال في ما تطالعهُ تستهويها . تقابلها طائفة اخرى تنأى في مطالعتها عن ميادين العمل العنيف ، الى سهول التأمل الهادىء الرصين

وقد يؤخذ قارىءٌ ما بسيَر الرجال . ويفتتنُ آخر بسيرة الحياة خلال العصور من النطفة الاولى الى يومنا هذا . وقد يعنى احدهم بصور العاطفة ولا يهتم غيرهُ الاّ بارتقاء الفكر . وقد يرى احد القراء ان عصراً ما ، ليس الا مسرحاً للرجال والنساء الذين ظهروا فيهِ وبرزوا وانهم في نظرهِ جلُّ ما يستحق العناية والدرس . ولكن رجلاً آخر قد يرى ان الشخصيات الكبيرة ليست الاّ طريقة من الطرق التي يفصح بها عصر من العصور عن ذات نفسهِ. وقد يرغب الواحد في الاسلوب البليغ الجزل ، ويتجاهلهُ آخر لان عنايتهُ موجّهة إلى تبيُّن البراعة في تحليل الاشخاص وترتيب الوقائع وسرد الادلة مثلاً

هذه طائفة قليلة من البواعث التي تبعثنا على المطالعة . وهي تختلف باختلاف الناس ، بل هي تختلف في الانسان الواحد باختلاف ساعات النهار والحالة العقلية والنفسية السائدة في ساعة ما . والباعث السائد في ساعة القراءة هو الذي يعيّن موضوعها واليهِ يكون مردُّ الاختيار

الغرض من اقتناء الكتب

والواقع اننا نقتني الكتب لغرض من ثلاثة اغراض بوجه عام . يقتنيها بعض الناس للزينة . فهم يعلمون قيمة العلم ، وان العلماء والحكماء لهم صدر النادي من اقدم العصور إلى يومنا هذا ، وان المؤلفات النفيسة تأتي بعد الكتب المنزلة في اعتبار الناس واحترامهم ، فيرون ان اقتناء الكتب من ادوات الزينة والمباهاة التي يزدان بها البيت ، ويغالي بعضهم في ذلك فيحتم ان تجلّد تجليداً فاخراً لتسبغ هي والستائر الحريرية الكثيفة والصحاف الخزفية القديمة والادوات الفضية الثمينة ، على البيت صفة المحتد النبيل والحاضر الكريم . وقد قرأت ان احد أثرياء الاميركيين بنى قصراً فخماً ، والقصر لا يكون كاملاً في نظره من دون غرفة خاصة بالكتب . فأمر المهندس بتوجيه العناية الخاصة الى تلك الغرفة فلما تمّ بناء القصر ، أخذ الثريّ يجمع من الكتب النفيسة ما كان أجودها طبعاً وأغلاها ورقاً وأفخرها تجليداً وجاء بيته وأمر برصف الكتب على الرفوف ، فوجد ان عرض الكتب أكبر من عمق الرفوف فتظهر فيها الكتب بارزة كأنها قذى في العين . فعرض عليه المهندس ان يزيد عمق الرفوف ولو تأخر اعداد هذه الغرفة فأبى الثريّ وقال انهُ يفضّل ان تقطع مقدار بوصة من الكتب وتترك الرفوف كما هي

قد تكون هذه القصة نادرة « كاريكاتورية » موضوعة لبيان التطرف والمغالاة في اقتناء الكتب للزينة فقط . وان الثريّ لم يحفل بالكتب وانما حفل بمنظرها وجلودها الفاخرة المذهبة

ولكنني أؤكد لكم انني اذا دخلت داراً مهما تكن صغيرة، ولم اجد فيها كتاباً او مجلة، تدلّ على حياة النفس في تلك الدار، شعرت انني في ارض قفر خال من الخضرة والماء ، فاسأل نفسي كيف يقضي اصحاب هذا البيت ساعة من ساعات الفراغ . ومع ذلك افضل بيتاً خالياً من الكتب على بيت يباهي بها ولا يقرأها . فاصحاب البيت الاول على الاقل يتصفون بالصراحة بان القراءة لا تهمهم واما اصحاب البيت الثاني فيرغبون في المباهاة بصفة لا يتصفون بها ، وهو من عيوب الخلق

ويقتنيها بعضهم اداة للعمل كالمشرط للجرّاح ، والزاوية للمهندس . ويغلب ان تكون الكتب التي من هذا القبيل كتباً فنية . فالطبيب يجب ان يقتني الكتب الطبية الحديثة والمجلات الطبية السائرة في الفرع الذي انقطع لهُ ، وعليهِ ان يدمن مطالعتها ليجاري سير الاكتشاف والاستنباط . وهذه المطالعة امانة في عنقهِ للجمهور الذي يعهد اليه في كشف غمة المرض بالتشخيص الصحيح والعلاج الموفق . فالكتب الطبية اداة من ادوات عملهِ كالمشرط والمجهر . وعلى المحامي ان يقتني كتب القانون والتاريخ وعلم النفس التي يرجع اليها ويستشهد باقوال شرّاحها للوقوف على حكمة السابقين قضاة واساتذة ومحامين . ولكن الكتب التي من هذا القبيل لا تخلق الرجل ، وانما هي تمكّنهُ من العمل

ولا بدَّ لكل بيت من ان يضم بين جدرانه كتباً من هذا القبيل، ويجب علينا ان نعلم ابناءنا تناولها . ولا بدَّ لكل بيت من ان يحتوي على مصوَّر جغرافي ومعجم صغير ودائرة معارف مبسطة وكتب في الاوليات والمبادئ . فاذا كان حديث اليوم يدور حول حرب في البلقان جلس الاولاد الى والدهم فيفتح امامهم المصوَّر الجغرافي ويريهم اين تقع الاستانة وبلاد اليونان وبلاد البلغار ومضايق الدردنيل . واذا عرضت للولد القارئ في صحيفة لفظة لم يدرك معناها هداه والده ، او هدته والدته ، الى المعجم ليبحث عن معناها فيه ، واذا جاء ذكر رجل من مشهوري رجال السياسة او العلم ، فتح دائرة المعارف او ما يقابلها للبحث عن عصر الرجل وآثاره . ان مطالعة نصف ساعة بهذه الطريقة ، تعلم الولد ، من الجغرافية او اللغة أو التاريخ اكثر مما يتعلمهُ خلال ايام في دراسة الكتب المعيَّنة له في المدرسة ، فهو ينفر من هذه لانها تمثل في نظره ما يجب عليه لا ما يتوق اليهِ ويرغب فيهِ من تلقاء نفسهِ

وقد تقتنى الكتب ، كما تمكّن اواصر الصداقة مع الصحاب ورحم الله شوقي حيث قال:

انا من بدّل بالكتب الصحابا لم اجد لي وافياً الاَّ الكتابا

اتيحت لي زيارة احدى كليّات البنات في اميركا سنة ١٩٢٤ وقد خصصت الكلية احد مبانيها داراً للكتب . وفي هذه الدار غرفتان استرعتا نظري الاولى عاطلة من الزينة نظمت في باحتها رفوف الكتب والموائد والكراسي من الخشب الصلب . وفيها تجد الطالبات مكبّات على البحث والموازنة والتحقيق، يعددن فيها دروسهن او امتحاناتهن او رسائلهن . وكل العيون متجهات إلى العمل الخاص الذي يشغل الذهن، فلا تكاد ترتفع عينان لرؤية الداخل . وثمة غرفة اخرى فيها الطنافس الوثيرة ، ورفوف الكتب قريبة المنال، وفي الموقد نار مشبوبة. هنا تجلس الفتيات وقد مضت فترة العمل والبحث، ينصتن الى اصوات تتحدث معهن من خلال السطور في صفحات الكتب الخالدة. الكتب في الغرفة الاولى تستعمل ادوات للعمل . وأما الكتب في الغرفة الثانية فتتخذ اصحاباً، يرشدون بحكمتهم ، ويؤدبون بآدابهم، ويحفزون الملكات بعرض صور الانسانية في احوالها المتباينة، وهي تسير، آناً تقدم وآناً تتعثر ، في طريقها نحو المثل الاعلى

وهنيئاً للبيت الذي لا يخلو من كتب هذه صفتها ! يؤوب الرجل من عمله الجاهد ، أو تخلد السيدة الى راحتها بعد جهد النهار المضني ، فيجلس في كرسي مريح والى يساره مصباح متألق ، فيختار من الكتب ، الصديق الذي يلائم حالتهُ النفسية الخاصة . فقد يختار ديوان المتنبي فيقرأ فيهِ قصيدة من قصائده الخالدات يرى في خلالها عثير الحرب وبريق الاسنة وصليل السيوف ويسمع عبارات الفخر ، أو مجلداً من الاغاني في طبعتها الجديدة التي اخرجتها دار الكتب ، فيطالع من نوادر الاقدمين وآدابهم ما يروق النفس ويبهج الخاطر . أو قد يختار قطعة من كارليل ، فيرتد بها على أجنحة الخيال الى عهد الثورة الفرنسية ، أو صفحة

من برستد ينفذ منها الى امجاد الممالك المصرية القديمة، اورواية لاناتول فرانس فيجد فيها الحكمة النادرة والنقد اللاذع في نثر مشمشي كالحجور المنتقة ، او نسخة من كتاب علمي بليغ فيتعرّب الى اسرار الاحياء وطبائعها او يرود مع أحد اساطين العلم رحاب الفضاء

كيف تقرأ

النظام هو اساس القراءة المفيدة . والقراءة المفيدة ركناها الاستزادة أو الاستلهام . فاذا كنت ترمي إلى الاستزادة أي إلى توسيع نطاق معارفك بالاطلاع على مباحث الكتاب والعلماء والفلاسفة وجب أن تجري على الطريقة الآتية : خذ كتاباً يروقك . واقرأه على مهل . وبعد أن تأتي على فصل فيه ، أو على فقرةٍ من فصل ، اطبق كتابك ، واغمض عينيك ، وحاول أن تلخص في ذهنك ما فهمتهُ من معنى ما قرأت . واذا كان لك غرض خاص من المطالعة ، فيجب أن تدوّن ما فهمت . ثم سرْ في مطالعة الكتاب على هذا النمط . ثم اترك الكتاب سنة أو سنتين او عشر سنوات — فأعمار الكتب الخالدة لا تقاس بالسنين — واعد الكرة عليهِ . تجد ان فهمك له قد تحوّل بتحول نظرك إلى الحياة وتفتح مغاليق ذهنك واتساع نطاق خبرتك . فاذ فعلت ذلك ، فقد اضفت إلى حكمتك حكمة رجل آخر . وأذكرُ ان حكيماً اميركيًا قال انهُ أخذ أحد مؤلفات كارليل وهو في العشرين فقرأه وخرج منهُ صفر اليدين فأعاد الكرة عليهِ وهو في الخامسة والثلاثين ، فبدا له فيهِ من المعاني ما أسبغ على الكتاب حلة الاعظام . وكان وهو يروي لي هذه الحكاية ، في الخامسة والخمسين من العمر ، يقضي ساعات الفراغ في مطالعة ذلك الكتاب للمرة الثالثة . وقد قرأت بعض الفصول في كتاب امرسن «ممثلو الرجال» عشر مرات على الاقل . وكلما شعرت بتعب او مرارة او خيبة اعود اليهِ فاقرأ رسالتهُ في « منافع الرجال العظام » Uses of Great Men

اما القراءة للاستلهام فسرُّها ان عبارة واحدة في فصل لكاتب ، او صورة فردة او رأياً سيق في معرض الكلام ، قد يحفزك الى التفكير والتصوّر ، فتصرف النظر عما تقرأ حيناً لكي تسترسل مع صور خيالك او افكارك المتداعية . وفي هذه الحال يصح ان تدوّن على هامش الكتاب هذه الصور أو الافكار الشاردة ، لان اقتناصها بعد مرورها في تيار الوعي متعذر

واحذر تعوُّد قراءة النُتَف . فقد شاعت في هذا العصر ، عصر السرعة ، صحف ومجلات تجمع من العلم والادب والتاريخ نتفاً يتسلى بها القراء فيكتفون بها عن قراءة المقالات الوافية والكتب الممتعة التي تقتضي مطالعتها حصر الفكر وكدَّ الذهن . اما قارئ النتف فيتسلى بها مهلة ما يقرأها ثم ينساها في الغالب ، وهو يظن انهُ وعى العلم والادب والتاريخ باطلاعهِ عليها

واذا واظب على ذلك ضعفت ذاكرته وخلطت بين الحقائق خلطاً شائناً

***

وقد كنت اودُّ ان اتناول موضوع ماذا تقرأ . ولكنني اخشى الاطالة فينالكم السأم ، فتوصدون دوني آذانكم اللاقطة وابقى هنا وحدي « اتكلم في الهواء » او كما يقول المثل الغربي « اصرخ في وادٍ »

على أن المسألة التي لا استطيع التجاوز عنها هي النقص المعيب في المكتبة العربية وفي استطاعتنا تلافيه . ذلك ان علماء الغرب وكبار كتّابه لا يأنفون من الاشتراك مع اصحاب بيوت النشر في وضع سلاسل من الكتب التي تتناول اصول المعرفة البشرية باسلوب قريب التناول فتخرجها بيوت النشر في طبعات رخيصة الثمن يسهل على كل راغب اقتناؤها والتمتع بما تحتوي عليه من درر العرفان . واذ اشرتُ في بدء كلمتي الى المصوّر الجغرافي ودائرة المعارف وما اليها من الكتب التي يجب ان تكون في كل بيت فعلت وفي النفس حسرة لان بعض ما اريده من هذه الكتب غير متاح لنا الآن بالشكل الذي يغري بالقراءة ويحببها الى الصغار

ولكن الامر ليس متعذراً . فعندنا في نواحي العلم والادب والفلسفة رجال يستطيعون ان يضعوا — تأليفاً واقتباساً وترجمة — هذه الكتب على ما نريدها

ولكن الناشرين ومن يتصل بهم من الكتّاب يشكون عدم الاقبال على ما ينشر من الكتب ، اقبالاً يغري الناشر والمؤلف على السواء بالاقدام على التوسع في التأليف والنشر وهي شكوى صحيحة الى حدٍّ بعيد[1] . اذ يندر بين الكتب العربية كتاب يطبع منهُ ثلاثة آلاف نسخة وتنفد في سنة او سنتين او ثلاث سنوات — استثني من ذلك الكتب المدرسية فان الطلاّب يبتاعونها للدراسة — ومع ذلك فالاقوام الناطقة باللغة العربية يبلغون سبعين مليوناً وتسري في عروق ابنائهم ثورة تدفعهم الى طلب العلم والاستزادة من الحكمة ، والمدارس تخرج كلَّ سنة الوفاً من الطلاّب المطلعين على اصول العلم والتاريخ والادب. فلماذا لا يقرأون ؟ ولست اطلق هذا الحكم عليهم جميعاً فانني اعرف ان طائفة ممتازة منهم تقرأ وتحسن اختيار الكتب والصحف التي تقرأها . ولكن جلّهم لا يقرأ ما يجب عليه ان يقرأ . والا لما كنا نشهد هذا الركود في ميدان التأليف. والواقع ان المسألة خطيرة كلَّ الخطورة تتصل بالاركان التي يقوم عليها التعليم وهل يؤتي الثمار المطلوبة او لا يؤتيها

ولا يخفى ان الشيء الثمين الاساسي في العلم والتعليم انما هو الانطباع بروح العلم واسلوبه. وتشرُّب الطالب حب البحث عن الحقائق والاستزادة منها . وحفز ملكات العقل الى النشاط الذي يمكن الرجل من تكوين رأي مستقل أو ابداع شيء جديد. وواضح ان الاكتفاء بالكتب الدراسية ليس السبيل القويم المفضي الى هذه الغاية النبيلة ، التي لا مندوحة عنها في كل تعليم سليم وارتقاء صحيح

---

(١) لا ريب ان الناشرين لم يتوسلوا بكل ما يصح التوسل به لطبع الكتب النفيسة وترويجها وهذا يستحق بحثاً على حدة

واری ان وزارة معارفنا الجليلة تملك علاج هذا الضعف في ناحية من أهم نواحيه

وقد انعمت النظر في طريقة هذا العلاج ، فرأيت ان اقترح على وزارتنا الجليلة تعيين لجنة من بعض رجال الوزارة وبعض الادباء والنقاد المعروفين بحصافة الرأي واستقلاله لاختيار اثني عشر كتاباً كل سنة — او أكثر أو اقل — من نفيس المطبوعات العربية الحديثة تفرض مطالعة ستة منها على مدرسي المدارس باشراف الناظر ، والستة الاخرى تفرض مطالعتها على طلبة الفرق المتقدمة في المدارس الثانوية في فرقها باشراف المدرسين

وليس هذا العمل بدعةً . فقد جرت جامعات الغرب على تكوين حلقات للطلاّب والاساتذة ، تجتمع اجتماعات دورية . وهي من الوسائل الفعالة لاحكام الصلة بين المدرسين وتيارات الفكر الحديث من ناحية ولتثبيت عادة القراءة المفيدة في الموضوعات الخارجة عن نظام الدراسة في نفوس الطلاّب . ولنفرض ان الحلقة ستة من المدرسين — او الطلاّب — تجتمع مرةً في الاسبوع او مرة في الاسبوعين . فيفرض على احد اعضائها ان يقرأ كتاباً معيناً فيقرأه ويلخصهُ في رسالة يتلوها في الاجتماع المعيَّن له . وفي الاجتماع التالي يفعل مدرس آخر ما فعلهُ زميلهُ ولكن في كتاب آخر . وبعد تلاوة الرسالة يتناقش الحاضرون في موضوعاتها ومعانيها ويتحاورون وهذه الطريقة تحفز ملكات التفكير والنقد العلمي المنزه الى النشاط . ثم هي تغنيهم عن وجوب الاتفاق منفردين على بعض الكتب التي يرغبون في مطالعتها ولكن غلاء ثمنها يحول دون اقتنائهم لها . فاذا تمكنت وزارة المعارف الجليلة من وضع نظام مبني على مثل هذه المبادىء فانها تؤدي لنشر الثقافة الصحيحة خدمة جلّى

فاولاً — تحكم الصلة بين المدرسين ومؤلفي اللغة العربية المعاصرين

وثانياً — تخلق في نفوس الطلاّب رغبة في القراءة المفيدة التي لا معنى للثقافة من دونها

وثالثاً — يشجع المؤلفون والمترجمون على اتقان ما يكتبون وينشرون اذ يعرفون ان كتبهم قد تختار للمطالعة والمناقشة في الاجتماعات المدرسية المذكورة

رابعاً — تخلق لنا جيلاً يتوق إلى القراءة المفيدة ويقبل عليها . وهذا من أقوى البواعث للمفكر على التفكير ، وللمؤلف على التأليف ، وللناشر على النشر

وكل هذا لا يكلف الوزارة أكثر من ثلاثة آلاف جنيه في السنة أو أربعة آلاف على الاكثر . لانهُ إذا افترضنا انها قررت ان تبتاع من كل كتاب تختارهُ اللجنة الفي نسخة — لتوزعها على المدارس — بلغ عدد النسخ التي تبتاعها ٢٤ الف نسخة متوسط ثمن النسخة منها قد لا يزيد على ١٥ غرشاً — فالمبلغ لا يزيد على ٣٦٠٠ جنيه . وهي تنفق اضعاف هذا المبلغ في اعانة المعاهد والمدارس والجمعيات ، فاحرِ بها ان تنفقهُ في سبيل تشجيع التأليف وتربية ملكة القراءة المفيدة في نفوس الشبان والشابات



مكانة الشعر في كيان الامم

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

رغبنا الى الدكتور شهبندر في كتابة فصل يكون بمثابة مقدمة للمجموعة التي ننشرها في هذا العدد عن شوقي وحافظ فتحفنا بهذا المقال الادبي الاجتماعي البليغ

الكلمة

ان اليوم الذي اطلق فيهِ البشر على الاشياء والاجناس اسماء هو يوم سجلوا فيهِ تاريخ انتقالهم من صف العجماوات ودخولهم في المرتبة الانسانية . وشأن هذه الكلمات التي ندعوها اسماء شأن في الامم مقدس خطير حتى ان النصرانية تقول عن «الكلمة» بلسان يوحنا (انها كانت في البدء) . ذلك لانها وجدت مع الفكر المجرد الازلي الذي لا يحيط بهِ ادراك ولا يحصره وعي ، فهي الاصل وكل شيء سواها «عرض» . وتشبه «الكلمة» بهذا المعنى «الفكرة» في حكمة افلاطون لان الفكرة المجردة عنده هي الحقيقة الدائمة وما عداها صورة منسوخة . لكن الافكار يعبر عنها بالكلام ايضاً فلا غرو ان تكون «الكلمة» هي الحقيقة الخالدة بقدر انطباقها على الواقع . وفي الاسلام ان الله خلق آدم من التراب ، فلو تركه وشأنهُ ما اختلف عن سائر المخلوقات الحية في شيء ولكنهُ اعتنى بهِ عناية خاصة فوضعهُ في مدرسة الالفة والاجتماع حيث علمه الاسماء كلها فلما اتقنها وبرع فيها نال شهادة الكفاءة الانسانية فاذن لهُ بموجبها ان يمارس صناعة الابوّة البشرية ، ومن احقّ بها منهُ يا ترى وقد اصبح قادراً بالأنات والآهات على بيان الآلام التي يعانيها وبالكلمات المنسجمة على الافصاح عن اعمق الاسرار التي تختلج في صدره

ولو كتب على هذا البشر ان ينشأ ويتدرّج بطريق النظر بالعين فقط من غير اذن يسمع بها ولسان ينطق بهِ فماذا تكون حاله ؟ انهُ يكون كالصم البكم الذين نشاهدهم من حين الى آخر فيما بيننا بل هو اضعف منهم وأدنى مرتبة ، ذلك لان هؤلاء قد استفادوا عرضاً من ارتقاء البشر حولهم بما حصلوا عليهِ من الخصائص التي اكتسبوها بطريق الاذن واللسان

ولا مراء ان الصمّ البكم احد نظراً وأدق لمساً وذوقاً وأقدر على فهم الحركات وقراءة اسارير الوجه وحفظ الذكريات الاّ انهم حسبهم ان يفقدوا المعاني الادبية التي يؤديها الكلام ليفقدوا معها كل ميزات الثقافة الرفيعة ، واللغة شمس مشرقة على الآفاق لكن الاذن الصماء كالعين العمياء لا ترى نورها الساطع

لولا «الكلمة» التي نطق بها هذا المخلوق المنتصب على رجليهِ اسماً للاشياء التي رآها لكان مستواهُ العقلي على قدر المستوى الرياضي في القبائل الابتدائية المعاصرة التي لا تعرف للاعداد ارقاماً لتجمع بها او تطرح و تضرب او تقسم ، فكما انهُ لا مجال بينها للحساب والجبر والهندسة وما تفرَّع منها من العلوم الرياضية العالية كذلك لا مجال بين الصمّ البكم للادب والموسيقى والعلوم وما تفرع منها . اولئك لا يملكون الواحد القياسي في الرياضيات وهو الرقم ؛ وهؤلاء لا يملكون الواحد القياسي في الادراك وهو الكلمة

الشعر والكلمة

فاذا كان هذا شأن اول « كلمة» نطق بها الانسان فيهمنا كثيراً ان نعرف كيف تيسر له ذلك ، وكيف توصل الى ربط الاصوات بالافكار ولصق الاسماء بالمسميات حتى صار قادراً على التفكير الادراكي بطريق المبتدأ والخبر . وان الشاعر ليطرب كثيراً ان يعلم ان للمواقف الشعرية والمعاني الشعرية والاوزان الشعرية القدح المعلى في استيحاء هذه « الكلمة » التي كانت فصل الخطاب بين دورين جوهريين في حياتنا البشرية

يعتقد الذين أخصوا في اللغات وتتبعوا اصولها بأن الاعياد والمراقص والمآتم والمخاطر والمجازر وسائر العادات والمواقف الشعرية المؤدية الى الافراح والاتراح الاجتماعية خصوصاً الصياح الجوقي المشترك كجؤار الثيران المجتمعة ، هذا كله المصدر الدافع الى النطق . ومتى كان الصوت الجوقي صادراً عن انفعالات نفسية — كالهتاف او الصراخ في حالة التهيج — يتخذ شكلاً موزوناً ويتكرَّر على اصول متناسبة . وبعض الحيوانات لا يقتصر على فهم ما يؤمر بهِ فقط « كتعال» و « نم » و « كل » بل يصيح بما يشبهُ « الوصفة » ينادي بها الفرد فتجيب عليها الجماعة «بالردة» . وهذا الافصاح عن الشعور بالاصوات النبرية البسيطة يشترك فيهِ كثير من اصناف الحيوان وقد تدرَّج في الانسان في أول الامر غالباً من صراخ او جؤار فطري الى غناء جوقي مشترك ثم الى كلام مقطع صريح [1] والراجح ان كثيراً من هذه الاصوات الجوقية المحولة الى غناء بسيط كان في اول الامر حكاية اصوات حيوانات وأشخاص يحكيها الجوق مجتمعاً ويقلد اعمال اصحابها بالاشارات وبالرقص «البنتوميمي» الصامت. وهكذا متى اقترنت بعض الاصوات بأشياء بعينها او بجنسٍ منها اقتراناً متلازماً متكرراً بحيث يصير هذا الاقتران عادة ماثلة في النفس فان مجرد ذكر هذه الاصوات يعيد الى الذهن صورة تلك الاشياء اما بمفردها او بجنسها الجامع — والصورة الجنسية هذه هي عماد الادراك الانساني . ويعدّ هذا التلازم او الاقتران المعنوي العلامة القطعية على توطد اركان النطق اذن فالبواعث الحافزة الى الاجتماع والمؤدية الى الافراح والاتراح وما اليها من المواقف

(1) Elements of Sociology, Giddings, p 240

الشعرية الهائجة قد زودت البشر بأسباب النطق وسلحتهم بأمضى سلاح شقوا به الطريق من الظلمة إلى النور ؛ ذلك انهم بحصولهم على النطق « قد حصلوا على : مخل ارخميدس) في رفع حياتهم الاجتماعية إلى مستوى جديد في التركيب والكمال »[1]

القصائد الاولى

واذا كان النطق الاوّل شبيهاً بالشعر في النبرة والوزن فهل من سبيل يا ترى الى معرفة « القصائد » التي تلاها الاوائل قبلما اهتدوا إلى فن التدوين ؟ وما هي الموضوعات التي تناولوها بقصائدهم ؟ وان درس الاقوام الابتدائية المعاصرة وتتبع القصص التي يسمعها الاطفال المتمدنون في احضان امهاتهم حتى في لب البلدان المتمدنة كل ذلك يجيز لنا القول بان الانسان الاول نطق بالاوزان وان تكن غير مقفاة ، وتناولت « قصائده » أخبار الظفر بالحيوانات وخوفها من الشرك الذي وقعت فيه وسعيها للخلاص منهُ وارتعاشها عند الذبح مع حكاية اصواتها من شهيق ونهيق وخوار وعواء وزئير وغير ذلك مما يؤلف جزءاً ضافياً من معاجم الامم وتناولت هذه القصائد فيما تناولتهُ اخبار الاعياد والولائم المقامة على لحوم هذه الحيوانات وما تؤدي اليهِ من مرح وبطر ، وشملت احاديث اختطاف النساء وعشرتها والبكاء على المفقودين من رفقاء الصيد والقنص والراحلين من الاخوان والابناء الاعزاء ، وكان فيها الشيء الكثير من اغاني الرقص التقليدي واغاني الرقص الروحي تقرباً من الآلهة واسترضاء لها وتمجيداً لاعمالها واستجداء لكرمها ، وقد ورث هؤلاء الاوائل ابناءهم أديانهم وعقائدهم وتقاليدهم وحكمهم وخرافاتهم وآدابهم في بطون هذا الكلام الموزون الذي ساعد الثقافة الاولى مساعدة الكتابة والطبع في الاعصر اللاحقة وذلك بسبب سهولة حفظه ونقله وتلاوته فكان اشبه شيء بموسوعات مطبوعة تخاطفتها الايدي وتناقلتها الالسن قبل ظهور (جوتنبرج) ومطبعته في اوائل القرن الخامس عشر

وغني عن البيان ان هذه الموضوعات التي تناولتها قصائدهم هي اسس الموضوعات التي نباهي بها اليوم ونفتخر ان تتناولها قصائدنا ، وعليها اقامت أوضاعنا من حروب وانتصارات واعراس ومآتم واديان وعبادات وتقاليد وشعائر وملوك وأرباب

ولامراء ان قصائدهم كانت طافحة بما انطبع في لباب الانسان من الالم المفجع الذي اصابه من الدّ اعدائه وهو اخوه الانسان فكان فيها روعة الشعر الحيّ الذي نشاهده في عصرنا في القصائد التي تعالج انانية البشر وما انطوت عليهِ قلوبهم من اللؤم والاذى . لا جرم ان قصيدة تليت او كتبت منذ الف او الفين من السنين تقرأ اليوم كانها كتبت بالامس لان موضوعها حيّ يتصل باعماق الحياة الانسانية

(1) Outline of Sociology, p. 59

الذاكرة والشعر القديم

وفي الحق اننا ونحن في القرن العشرين ما زلنا نتغذّى بادب ما قبل التاريخ ، فاولادنا في طفولتهم وهو سن الانطباع الثابت يسمعون اقاصيص الغيلان والمردة والجان واخبار العمالقة والابطال واوصاف القوى المحجبة وما لها من اسرار وحديث ادب السلوك وحسن المعاشرة وهم في حجر امهاتهم على الفرش الوثيرة بصورة لا تختلف كثيراً عن مثلها لما كانت الامهات يفترشنَ القش ويلتحفنَ الجلود في الكهوف والغابات ، وعلينا ان نذكر دائماً ان مثل هذه الاخبار الشعرية المتصلة بالحياة المنفعلة الاولى وما فيها من المواقف المضطربة الهائجة لا تزول من النفوس بل وجد أهل التتبع والاستقصاء مثلاً ان الطوائف الامية الجاهلة النازلة بالاصقاع الجبلية المنقطعة في ولايتي (كنتكي) و (تنسي) من الولايات المتحدة يرددون بعض القصائد الطويلة التي أثرت في عقولهم والتي وصلت اليهم بطريق العنعنة من قصص شعرية قديمة حملها اجدادهم معهم الى تلك البلاد من انكلترة منذ ما فروا بدينهم من الاضطهادات . ولما قوبلت هذه القصائد بالكتب التي دونت فيها النصوص الشعرية الاصلية في اواخر القرون الوسطى وجدت سليمة في جوهرها ولم تصب الاّ بعطل طفيف في انتقالها على الالسنة والشفاه وسفرها من القلب الى القلب

***

ولا شك ان مثل هذا الدور الحفظي المتوقف على قوة الذاكرة في الشعوب الامية القديمة تناول كنوزنا الادبية الثمينة احقاباً قبل ان يتيسر تدوينها ، فقد استيقظت هذه الشعوب على بلابل الشعر تغرّد في فجر المدنية فلم يكن لديها وسيلة تدوّن بها هذا الغناء الفتان سوى طبعه على صحائف القلوب وترديده على الالسنة في الاعياد الخالية كما تدار اسطوانات الحاكي في الحفلات والمقاهي اليوم وحسبي أن أذكر أسماء هذه اللآلئ الادبية الثمينة التي انارت الظلمة في العصر القديم ليعرف القارئ منها شدة نفوذ الادب ولاسيما الشعر في تكوين الامم والتحكم بسيرتها ، «فالالياذة» «والاوديسة» لهوميروس و «الاعمال والايام» لهزيود واغاني «الفيدا» عند الهندوكيين والاجزاء الشعرية من العهد القديم ، ثم ما ظهر بعد ذلك من الطرائف النادرة في جزيرة العرب في العصرين الجاهلي والاسلامي قبل التدوين واتخاذ العظام وسعف النخل وورق البردى اداة للكتابة ، ان هذه الكنوز الادبية الغالية التي هي تراثنا الروحي الخالد يدلنا مجرد ذكرها على سلطان الشعر على الامم المتنوعة من اليونان والرومان وابناء عمومتهم الهنود الآريين الى اليهود الساميين ومن دان بالعهد القديم من الامم النصرانية فالعرب وسائر من دان بالاسلام في المشارق والمغارب

الشعر العربي

ومع كل التحريف والتلفيق والدس الذي انزلهُ القصصيون والرواة بالشعر الجاهلي فهو بالاجمال مرآة صافية يتجلى فيها مجتمع تلك العصور السحيقة وقد قام بوظيفته في تثبيت الحياة العربية وتأييد الاخلاق الفطرية السليمة ليس في الجزيرة فقط بل في جميع الاقطار التي استولت عليها الجيوش العربية وانتصبت فيها المنابر وارتفعت المآذن. وانك وانت في بلاد الهند أو في القرم أو في التركستان الصينية مثلاً لترى في سيرة الافراد وفي مقاييسهم الاخلاقية ما يعيد إلى ذاكرتك الشيء الكثير من اخبار الحجاز في جاهليته دع عنك ما فعله الادب العربي الاسلامي بواسطة الدين من المعجزات في هذا المضمار

ومما يستوقف الانظار ان نخبة من اساتذة الجامعة الاميركية في بيروت قامت منذ حين بدرس بعض الشؤون الاجتماعية في الشرق الادنى ولا سيما في سورية فرأت الفضائل الآتية ماثلة في اهله وهي (١) الاباء أو عزة النفس (٢) الوفاء (٣) قرى الضيف (٤) الميل الفطري للدين (٥) العطف والمواساة (٦) الاهتمام بالاعراض وما للمرأة من ميزة خاصة. فمن يقرأ كتيباً في الادب العربي الصميم يا ترى جاهلياً كان هذا الادب أم اسلامياً ولا يرى هذه الخصال ظاهرة فيه ظهور الشمس في رابعة النهار؟ ولعمري ان المرء ليستطيع ان ينسلخ من جلده ولا يستطيع ان ينسلخ من تأثير العقل الاجتماعي الادبي حواليه، وما نحن في الواقع الا سمك يعوم في لجة هذا البحر الذي يحيط بنا من كل جانب، ولأهون على المرء ان ينكر فعل الاجواء والاهواء والانهار والجبال والوهاد والوديان في جسم المرء من ان ينكر فعل الادب في عقله

ويلوح لي ان الجزء العقلي الممزوج في الشعر بالجزء الادبي يكسبهُ تفوقاً ظاهراً على سائر الفنون الجميلة، ولئن كان التصوير تمثيلاً بالخطوط والالوان، والموسيقى تمثيلاً بالانغام والالحان فالشعر تمثيل بالقوافي والاوزان. فالتصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق

قال (ثيودور وطس) «ليس في مقدور احد ان يخط كلمة واحدة في الشعر ما لم يولد من جديد — ما لم يهبط من الملأ الاعلى مرة ثانية

«ثم ما هو الفرق بين الشاعر والناثر؟ افلا يجوز للكاتب ان يتحلى بشيء آخر غير الشعر؟ ألا يكون محارباً ايضاً كما كان اسكيلوس، وتاجراً كشكسبير، ونديم الملوك كتشوسر، وفيلسوفاً خليطاً كغوته؟ بيد انه في اللحظة التي تحل عليه فيها الشاعرية يتعرّى من تلك الكسى الدنيوية التي اكتسى بها منذ سنين، فيزول من نفسه جميع ما للدنيا من علم وانانية واستخفاف وطموح، ويصبح طفلاً ملهماً من جديد باذنين مطبقتين في النغم على تلك الهمسات التي تهب من (العصر الذهبي) — لما كانت السعادة باسطة جناحيها على هذا الانسان المتعب — فينتشر اريجها المنعش في هذه الارض الفاسدة ويطهرها من الارجاس»

ولعلماء التربية والاجتماع اهتمام خاص بتاريخ الادب وذلك لانهم يرون فيهِ ميداناً متسعاً لنشر التربية الاجتماعية والتثقيف الفني ، والادب مرآة تتجلى فيها صورة المجتمع ، وتكون هذه الصورة على احدث طراز ، لان الادب يتوقف في شكلهِ ومادتهِ على الاحوال الاجتماعية المستجدة ، فالشعراء هم اشعر الناس بالطوارىء وقلوبهم اوتار حسّاسة ما اسرعها إلى الاهتزاز برجات الانقلاب والثورة ، وكما ان الشعر صورة الشاعر كذلك الشاعر صورة المجتمع ، بل الشاعر كما قال الاستاذ (بايندر) [1] نقطة الإحتراق تلتقي فيهِ جميع الاشعة المنتشرة من الحياة الاجتماعية المضيئة حواليهِ فيكسبها شكلاً فنياً وبياناً انفطياً بما تحلت بهِ شخصيته من الميزات وسواء أكان الشعر غنائياً أم قصصياً ، ارشادياً هجوياً أم تمثيلياً فنجاحه في التأثير في قلوب الناس يتوقف على الاحوال الاجتماعية التي يعيشون تحت سمائها

والشعر العربي هو مثل الغناء العربي طافح بالحزن والاسى والتوجع والبكاء لانه لا يردد فقط مظالم الانسان من سلب ونهب وانتهاك حرمة وازهاق نفس بل يردد ايضاً مظالم الطبيعة من امراض فتاكة وسيول جارفة ورياح سامة ومجاعات قتالة وما اكثرها في بلاد العرب . والواقع أن الجزيرة العربية طبيعة خاصّة في شدة التأثير في النفس واستخراج اللآلي الشعرية من اعماق الصدور . فالكواكب المتلألئة في سمائها الصافية الاديم استوقفت انظار البدو من اقدم الازمان وجذبتهم حتى كادوا يطيرون اليها من غير جناح ، والبوادي الجرداء القاحلة المنتشرة في ارجائها تـعـد ساكنيها لرؤية الجمال الحي في كل برعمة على اية شجرة كانت من الشجر في الواحة ولو كانت شجر الشوك والبلان . ومعاطشها اليابسة المحرقة تولد في الصادىء عند وروده الماء لذة لا يذوقها المتنعمون بالينابيع والانهار . وحدث لي في أواخر سنة ١٩١٥— إذ كان الاتحاديون يتتبعون أثري —انني قطعت البادية الموحشة من (تدمر) الى قرب (الميادين) وانا اعيش على الماء الآسن الاجن الذي كان يزيد في غلتي فلما نزلت الفرات وذقت مصة من مائه العذب صحت باعلى صوتي « الكوثر . . الكوثر . . . وهذه جنات عدن تجري من تحتها الانهار » . ثم ان الهجرة الشاسعة وطي البيد الواسعة والابتعاد عن المنازل في الغزوات وطلب الكلأ مع رؤية الاطلال والمعالم والآثار وما تحدثهُ في النفس من الذكريات الماضية والايام الخالية كل ذلك من البواعث الشعرية الخاصة بالجزيرة . وكذلك المنقطع الخائف الجائع الصادي متى وجد بيتاً من الشعر نزل بهِ واهلاً امن بهم تجلّى له الكرم « الحاتمي » باجلى مظاهره فسد البلغة يومئذٍ — ناهيك بمقر الناقة — يفعل في نفسه ما لا تفعله الولائم في القصور ، وباب الحرم يسدل عليه ليحميهِ من مطارديه امنع لديه من مدافع الحصون على حدود الدول . وقصارى القول ان مثل هذه البيئة البسيطة الجافة وما فيها من شظف العيش تبرز المعاني الشعرية بثوبها القشيب وهو ثوب الطبيعة الفتان

(1) Major Social Problems, p. 302

فقر الغرب في الشعراء اليوم : يعلل بعض الباحثين فقر الامم الغربية في الشعراء ورغبتها عن الشعر بالمدنية المادية التي تغوص فيها الى مفرق الرأس ، وعندهم ان وسائل النقل الحديثة وانتشار الاباحية وزوال ذاك البرقع الجذاب عن وجه الانسانية واشتغال الدول بالشؤون الاقتصادية والسياسية وانهماك الافراد في تحصيل القوت الضروري والخلاصة زوال الاحوال الروائية عن ظهر الكرة الارضية كل ذلك من العوامل التي ذهبت برشاقة النظم وقضت على دولة الشعر ، حتى ان جائزة كبيرة عرضت منذ امد قريب في فرنسا للمجلّي في حلبة الشعر فلم يتسابق للحصول عليها احد . ولكن من حسن الحظ ان الناظمين اذا قلوا فان المستمعين ما زالوا عند حسن الظن بهم ، وفي عقيدتي ان ليس الشاعر من نظم الشعر ولا الموسيقي من وقّع الالحان ، بل قد يكون المرء شاعراً وموسيقياً بالفهم والطرب ، ذاك فنان ايجابي وهذا فنان سلبي . والمظنون ان هذه الفترة التي نعانيها في الزهد بالشعر هي فترة موقتة او سحابة صيف لا تلبث ان تنقشع وذلك عند ما نألف محيطنا الجديد المزدحم بالحوادث والسكان فتعود الينا غرائزنا المنفعلة الاولى وتثور فينا مراجل الاضطراب وتسترجع هذه الدنيا السمجة جوها الروائي الجذّاب

الشعر والثورة

وقد لا نبتعد عن الصواب كثيراً اذا نحن قلنا ان هذه الانقلابات الاقتصادية المادية التي نعانيها في هذا العصر ليست بمعزل عن الشعر بتاتاً بل قد يكون الشعر بمعناه السيكولوجي من ادعى دواعيها ، وسبب ذلك ان هذه الحياة العقلية التي تولد وتدب وتدرج في احضانها هي التي يطلق عليها في الاصطلاح العلمي اسم « العقل الاجتماعي » وهذا العقل المتصرف في حركاتنا وسكناتنا لولا اللغة وما انطوت عليه من الادب الرائع ما كان له سلطان على قلوبنا وهو بواسطة ما يحدثهُ في الافراد من رأي مشترك يسمى « الرأي العام » يولد الثورة ويغذيها ولكن لا شيء اهون على الباحث من اظهار العلاقة المتينة بين المواقف الشعرية والتأثير في « الرأي العام » . فكم من مظلمة ناح من اجلها الشعراء فأغضبت الرأي العام وهاجته ولم تنطفىء جذوة هذا الغضب إلاَّ بالثورة . والجمعيات التي مثلت اخطر الادوار في سياسة الامم هي التي عرفت كيف تحرك الرأي العام بما تبثهُ من الدعايات الشعرية المهيجة وربما استغلت الحادثة الواحدة الطارئة عرضاً فأحدثت بسببها الانقلاب المنشود

وقد ذهب (اوغست كونت) في فلسفته الحسية الى ان « الفكرة » هي التي تدفع الى العمل ، ولكن الفكرة الجامدة الخالية من الروح — الفكرة الباردة المجردة — لا تستطيع ان تعمل عملاً مباشراً بل لا بدَّ لها من ان تكون فكرة منفعلة هائجة اولاً ومتزينة بالادب ومتحلية بالشعر لتستحوذ على ارادة الناس ، وان قول تلك البدوية لاهلها في قصيدة تشتكي

بها على الاعداء الذين أسروها أنهم « ضربوا موضع المفة مني بالعصا » ، ونداء تلك الحضرية مستجيرة بالخليفة في بغداد بقولها « وامعتصماه » وبيت الشعر الذي قاله المتنبي

« لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم »

ان هذه الاقوال الهائجة وأمثالها احدثت في العالم العربي من الاضطرابات اضعاف اضعاف ما عمله اقليدس بهندسته وبقراط بامزجته ونيوتن بجاذبيته وروتتجن باشعته ، وقد رأيت المجاهدين من بني معروف في الثورة السورية الاخيرة يقتحمون مدافع الفرنسيين بصدورهم وهم يصيحون بأعلى اصواتهم مذكرين الجنرال غاملان بوقائعهم الماضية

« ممدوحْ وسامي قبلك خرجوا من السويده »

ثم ما هي كلمات « حرية » و« مساواة » و« اخاء » وغيرها من الكلمات الحية التي قلبت وجه الارض وغطته بالدماء ؟ أليست كلها احتجاجاً شعريًّا صادراً من اعماق القلب على الاستعباد والظلم والأثرة المغرقة ؟ وهل هنالك موقف يهيج كامن الالم اكثر مما ان يرى الانسان اخاه الانسان مكبلاً بالاصفاد ومداساً بالاقدام ومساقاً للاستثمار كما تساق الغنم للذبح ! ان هذه المواقف الشعرية المؤلمة تعمل اليوم في الشرق ما عملته فكرة « الحقوق الطبيعية » في الثورتين الكبيرتين الاميركية والفرنسية

وبديهي ان تكون الافكار حافزة الى العمل ودافعة إلى الاضطراب بقدر ما فيها من عناصر الانفعال والتهيج لان ما يفور من القلب كما قال الشاعر (وردورث) يسيل إلى القلب ، وما دام التصوير والموسيقى والشعر هي الوسائط المعبرة عن اسمى الشعور والمفصحة عن ادق الانطباعات المنقوشة على صفحات الصدور — ما دامت هذه الفنون الجميلة مجلى تأثرنا من الطبيعة المحيطة بنا من كل جانب بافراحها واتراحها فهي القوة الاجتماعية الدافعة في المقام الاول . ولئن كان آدم البشر الحقيقي كما قال (منصن) هو اول من عمل آلة استعان بها نسله على مكافحة الطبيعة فان حواءهم الحقيقية هي اول من علمت ابناءها اغنية من الشعر ايقظت بها ارواحهم الخاملة ، وكما ان خلايا اجسامنا مؤلفة من العناصر المادية التي تحيط بنا كذلك « خلايا » عقولنا مؤلفة من الحياة العقلية التي اوجدناها ونحن تنمو في وسطها واننا لنستدر الهامنا منها كما يستدر الطفل اللبن من ثدي أمه

ولقد اجاد (مونتسكيو) كل الاجادة عندما وصف التفاعل السياسي بين الدولة والافراد بقوله « في طفولية الامم يربي الرجل الدولة ، ولكن في رشدها تربي الدولة الرجل » وكذلك الحال في التفاعل الادبي الروحي ، ففي الحياة الابتدائية تربي العقول دولة الادب ولكن في الحياة الراقية تربي دولة الادب العقول ، لانها تربي الشعراء والادباء والعلماء والحكماء جميعاً ، ونحن أبناء محيطنا العقلي كما نحن أبناء محيطنا المادي

شوقي او الشاعر

للاستاذ سامي الجريديني

نزل الهلالُ عن السماء فليتها طويت وعمَّ العالمين ظلام

وقد يُودي القدرُ بالهلال فتزول معالمه وتضيع آثار مادتهِ فينا ويبدلنا الله اقماراً خيراً منهُ او نكتفي بالشمس . وأما هلالنا الروحي الذي ودّع العالم بالأمس فلن ينزل عن سمائهِ ما دام في كتب الادب أثر للغة العرب

ولقد طالما جال في الخاطر عند ما كان يدور البحث بين الادباء على الشعر العربي وعلى شاعرية شوقي وغيره ان نبدي رأينا في الشعر وفي منزلة شوقي منهُ ثم نحجم خوف التهمة لاننا نرى ان الكتابة في مثل هذا الموضوع يجب ان تسمو عن الشخصيات وان تساق خدمة للادب العربي خالصة لوجه الله

* * *

ليس لاحد من الناس ان يُسمَّى شاعراً الاّ اذا كان نابغة شعر . وقد قلنا نابغة شعر قاصدين — فالناس قد جعلوا الشعر مبتذلاً . منهم لشر ما ينظمون . ومعظمهم لسوء ما يقدرون ولفضيحة ما يطلقون من الالقاب على الناظمين . قلنا نابغة شعر ولولا ما قدمنا لكان حتماً علينا ان نقول «الشاعر» وكفى . لأن كل شاعر نابغة ولا يعكس واذا قلنا الشاعر فقد قلنا شيئاً كثيراً

فهل كان شوقي شاعراً . وهل كان نابغة ؟ وما هو الشعر والشاعر ؟ وما هو النبوغ ؟ ان استطعنا ان نقرب فهم هاتين الكلمتين الى الاذهان فقد عرّفنا الشعر وعرفنا مكانة شوقي منهُ

* * *

ليس الشعر كلاماً مقفى موزوناً . ان هو الاّ وحيٌ يوحى يهبط على الشاعر فاذا بهِ صاحب رسالة يؤديها . يغنيها بالعربية مرة وبالاعجمية اخرى على وزن وقافية هنا وعلى غير هذا الوزن وعلى غير هذه القافية هناك . أرأيت الى هذا المصوّر يخطىء في الاوضاع التشريحية لاعضاء الوجه او يضيع النسبة بينها . ان فعل ذلك فليس هو من التصوير في شيء وكان شأنهُ شأن كل الاطفال يعبثون بالقلم والورق . ولكنهُ ان اكتفى بالقواعد التشريحية وبالاوضاع

الطبيعية للاعضاء لما زادت قيمته عني وعنك ايها القارىء الكريم ان كنتَ مثلي لا تكاد تحسن رسمَ خط مستقيم

لا ليس المصور مفتنناً اذا هو اهمل الاصول وضرب بالقواعد عرض الحائط . وليس هو بالعبقري ان قال هذا حسبي

يجب ان يسبغ على القواعد والاصول روحاً تعطي العيون الحاظاً تعبر في الصورة عما في ضميره . ويلبس الوجه معنىً ليس في الاصول والقواعد بل في نفسه وفي نفسه هو دون سواه . فيبرز لنا الجمال ، نعجب بهِ ونحسبه من بسائط الاشياء التي في متناول ايدينا ولكنا لا نستطيع ان نحاكيه — كذلك الشاعر . وعند ما قلنا ان الشعر ليس بالكلام المقفى الموزون لم نقصد الى الاباحية في اللغة او الفوضى في قواعدها ولم نرمِ الى فتح الباب على مصراعيه يدخله كل ناظم لا يملك من حطام الادب الا كلاماً مرصوصاً موزوناً ذا قوافٍ يضرب باللغة وقواعدها واصول الكتابة فيها عرض الحائط ، يستر جهله وتفضح الجرائد غفلته بدعوى «الشعر العصري» او «الادب الجديد» وما الى ذلك من سقط المتاع

لا . ان لم يكن الشاعر متبحراً في اللغة متضلعاً من القواعد فليس بشاعر . ان لم تكن لغته اللغة الفصحى فليس بشاعر . ولكنه ليس بالشاعر ايضاً ان اكتفى بالقواعد والاصول لغة وبياناً وبديعاً — لا . لن يكون من «الشاعر» في شيء ان قال هذا حسبي . فهذه كلها اثواب واعضاء جسم عار . أما الروح التي تنفخ في الجسد الحياة فتجعل الرجل يتألم ويحزن ويفرح ويفتخر ويطرب ويغنّي فهذه هي روح الشاعر . وهذه الروح مخلوقة فيه توحي اليهِ ان غنِّ فيغني مدفوعاً بسليقته مسوقاً بطبيعته يكمل من فطرتها بالدرس ويهذّب من بداوتها بالملاحظة. فانهُ ان كان «مدفوعاً الى السقم السقيم» ومضطراً الى ركوب الاسنّة الخاطرُ فمفطور على الشعر الشاعر يضرب على قيثارتهِ لانهُ مقدَّر له ان ينشد ويقول الشعر لانهُ محتم عليهِ ان يقوله

قرأت من زمن ليس بالقصير مقالاً لأديب ينعى فيهِ على العصر الحالي خلوّه من الشعراء المبرزين وينسب الامر الى طغيان الروح المادية والى تفوق العلوم التحليلية على الخيال والعواطف. وهذا رأي قال بهِ كتّاب كثيرون فيما مضى ثم عاد زعيمهم — وهو افرنجي — فأنكره وأقرّ بخطأه . فلا شك ان العلم الطبيعي تقدم كثيراً ولا يزال يسرع في تقدمه ولا شك ان الروح المادية قد قويت وطغت واشتد سلطانها فهل في هذا مساس بالشعر ؟ وهل من علاقة بين هذا الامر وذاك ؟

السعي وراء الماديات والاستمتاع بما يغدقه توفر الامور المادية على الناس كان منذ الازل وسيبقى الى الابد . ولكن صورتهُ تختلف ومبلغهُ يتغير وشكله يتحول ويتبدل فلا يبقى على حال واحدة . والعلم الطبيعي الآن مثل «العلوم» التي تقدمته من كلامية وفقهية ولغوية

وفلسفية يمشي في طريق ويمشي الشعر في طريق آخر. فليس لهذا سلطان على ذاك وليست مملكة العلم والمادة مما يطغى على مملكة الشعر والفن . فالانسان في تاريخه ليس خاضعاً لاحكام العقل والمنطق او للعلوم الطبيعية التي تريك ان الواحد والواحد اثنان بل يخضع لعواطفه ايضاً

فكل منا رجلان او لكل رجل صفتان واحدة تريه ما وصل اليهِ العلم الطبيعي من الاستكشاف والتفنن في تذليل القوى المحيطة بهِ فتهيء له كل اسباب راحته المادية، وواحدة تقف حائرة مذهولة تسأل قائلةً وما بعد هذا ؟ وهل في هذا راحتي ؟ بل تأبى مكرهةً ان تقنع بما هو تحت نظرها وتمدُّ خيالها الى ما وراء الطبيعة فتخلق لنفسها ما تشاء . ذلك ان اشباع الروح شيء واشباع الجسد شيء آخر . وذلك ان في كيان البشرية تشوقاً الى الراحة النفسية وتعطشاً الى الجمال لم يجده في العلوم الطبيعية حتى الآن تحاول ان يخلقهُ من العاطفة ومن هتاف الوجدان الداخلي . ذاك مسرح تلعب فيه العلوم الطبيعية ادوارها وهذا مسرح يغني فيهِ الفن ادواره ، ولن يلتقي هذا بذاك

الشاعر يوقظ فينا كل ما في النفس من آمال ومن شعور والعالم يرسم لنا قواعد ما يقع تحت الحواس الشاعر يوقد فينا جذوة التصور فينير عواطفنا بكلامهِ كما يوقدها وينيرها المصور بريشتهِ والوانهِ

فالقول اذاً بان العصر العلمي او المادي يقف في سبيل الفن قول لا يستند الى الحقيقة وليس له ما يسوِّغه من ماض او حاضر . فالمادة كانت قد طغت منذ ونيف الف سنة وكانت « علوم » ذلك العصر قوية اخذ بها الناس ودرسوها فلم تمنع تلك المادة ذلك العصر ان يخرج لنا المتنبي ونبوغه في فنه — كما ان هذا العصر لم يستطع بمادته وعلمه ان يحول بيننا وبين شوقي ونبوغه في فنه

ليست غاية الشاعر ان يحلل ويضع المقدمات يتبعها بالنتائج انما غايتهُ ان يخلق لنا صورةً تامةً تتمثل لنا بشراً سويًّا مرةً وعاطفةً مرةً اخرى واملاً ومطمحاً مرات عديدة

ليس الشاعر بالكيمائي او بالعالم التجريبي او التحليلي وليس بالمنطيقي . انما هو مصور ينقل لنا بالكلام ما يضعهُ المصور في اللوح بالالوان. بل هو ابلغ منهُ اذ تكفي جملة واحدة يقولها حتى تثير في انفسنا صورة ذهنية قد لا تكون مشابهة للحقيقة ولكنها تؤدي المعنى الذي رمى اليهِ الشاعر

خذ امرؤ القيس يصور لنا الليل فيقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليَّ بانواع الهموم ليبتلي
فقلتُ له لما تمطى بصلبهِ   وأردف اعجازاً وناء بكلكل

فلو أراد الفيلسوف أو العالم التحليلي ان يشرح الصورة شرحاً تحليليًّا لقال ان ليل أمرىء القيس غريب فهو يبدأ موجاً وهذا الموج كالستور المرخية ثم ينتهي فرساً يتمطط وتزداد مآخيرهُ امتداداً ويبعد صدرهُ . ولا أرى امرؤ القيس الاَّ غبيًّا .واما كافة الناس فيقرأون

البيتين فتبدو لهم من خلال هذه الالفاظ صورة ليل بهيم مخيف طويل . وهذا كل ما أراده الشاعر
بل خذ اعظم شعراء العالم مثلاً
فلو أراد مبتدىء في الكتابة ان يصف لنا البخيل لكتب في البخل وقبحه واسبابه ونتائجه وتأثيره في الناس وفي البخيل نفسه كتابة لا تدع زيادة لمستزيد في كل مقومات البخل وفي كل آثاره في المجتمع الانساني ولكنه لا يعطينا صورة البخيل
واما شكسبير فينطق « شيلوك » ويجعله يشكو ويطلب ويغضب ويرجو فاذا بالبخيل قد تمثل لنا انساناً . وانطق « اوتلو » بالحب وبالحرب فتجسدت لنا الغيرة . وهكذا يخلق لنا ناساً يتكلمون ويمشون ويأكلون ويشربون فتتمثل لنا صور الخديعة والعقوق والتردد والتضحية والمكر فلا تميّز الصورة عن الاسم الذي سمّى شكسبير رجلَهُ به
ولكنه لم يعطَ لغير شكسبير ان يكون عالميًّا لان الصور التي رسمها لنا هي هي في كل زمان وفي كل بلد وفي كل قوم . فالحسد والغيرة والبخل والعقوق لا تتغير مهما تغيّر في ابن آدم ومهما تغير في الاقليم ومهما تغيّر في الزمن
أما الشعراء الآخرون — ومنهم شوقي — فاكتفوا بصور أخرى ، بصور هي آمال الشعوب التي نطقوا بلغتها وعواطفهم متمثلة في احزانهم وآلامهم وافراحهم ومفاخرهم فكانوا في عداد الملهمين
والنبوغ والعبقرية ما هما ؟ النابغة في عرفنا رجل يظهر في عصر من العصور وكأنهُ تمثل ماضيَهُ كله وضمه في نفسهِ وصوّر جيلهُ الحاضر جامعاً ضمير قومه كلهم في جسد واحد وقلب واحد . فهو المثال القومي على ارقى درجاته يرى كلُّ فرد آماله وشعوره وعواطفه متجليةً فيه فينظر كما بمرآة إلى أعماق نفسهِ فيراها كما هي . فان حاول هو ابراز الصورة لا يستطيع فينقاد إلى المعبر عنها ويستسلم له . ويسمو النابغة عن المستوى العادي ولكنه في الواقع ونفس الامر مثال لكل ما في هذا المستوى من محاولةٍ إلى التطلع إلى فوق والسير إلى الامام . فهل كان شوقي هذا الرجل ؟
تعال معي أيها القارىء الكريم اريكهُ
ليس الاسلام ديناً فحسب بل ملكاً ضخماً وامبراطورية مترامية الاطراف لا تغرب الشمس عنها سلطان قام — مثل كل سلطان — بالسيف وبالسياسة وبكفاءة اعلام بارزين
فاذا كان الرومانيُّ في ابان الامبراطورية الرومانية يكتفي في حلبة الفخر بقوله انا روماني فيجمع في نفسهِ كل عظمة الامبراطورية ، كذلك يحق لكل مسلم وامبراطوريتهُ في أوجها ان يفخر بالاسلام ويزدهي وينشد في حب الاسلام
وما كان شوقي بالشاعر النابغة لو انه — وهو مسلم — انساهُ وحيهُ مثل هذا الفخر والحب والاخلاص في خدمة الاسلام

ما كان يجدر بنا ان نعدّه في النوابغ لو لم يتجمع في قوله كلُّ ما في ماضي الاسلام من عز دنيوي ولو لم يتمثل الاسلام فيرث تراث الاجداد وينظر — وهو في الثلاثين والاربعين من عمره — دولة الاسلام لا تزال في سطوة لا بأس بها، تهاجمها دول اوربا من اليمين ومن اليسار فتصمد لهم تارة بالسيف وأخرى بالسياسة حتى كانت الحرب مع اليونان وفوزها الباهر عليهم فيجمع روح الملايين من المسلمين في قصيدتهِ « بسيفك يعلو الحقُّ والحق اغلب » يخاطب امير المؤمنين

إذ صحّ تعريفنا النابغة انه هو الذي يعبر عن شعور قومه فينشد لفظاً ما يخالج اعماق نفوسهم فكراً فهو هو النابغة إذ يتغنى ببطش الترك وقوة الترك وتضحية الترك في سبيل نصر الاسلام

فاذا عاب عليهِ بعضهم قوله « وارمينيا ثكلى وحوران اشيب » لانه لا يليق بامبراطورية عظيمة ان تقتّل من رعاياها وتكسر من كبرياء ابنائها، كان على خطإٍ مبين فشوقي لم ينطق بلسان الرجل تملك عليهِ مشاعرَهُ التقوى والمحبة وفعل الخير، بل نطق بلسان امبراطورية تأبى ان يهاجمها العدو من الخارج ومن الداخل . فاذا ما جاءت حرب البلقان وخيل إلى الناس ان الاسلام قد زال عن البلقان تجلت عبقريتهُ فعبر مرة أخرى عن ضمير الاسلام اذ صاح « يا أخت اندلسٍ عليك سلام » بل يقف والرأي العام الاسلامي على لسانهِ يغلظ القول لسبط نبيّ المسلمين شريف مكة اذ اضطهد حجاج البيت وأساء اليهم ويستعدي عليهِ أميرَ المؤمنين في استانبول ويقول لهُ « ادبْهُ ادبْ ... الاشريف عليها أم لك العلمُ ». وهو النابغة ايضاً اذ يأخذ مثل قومهِ الاعلى فيصيغهُ حكمةً قد لا تكون في ضمير كل احد منهم ولكنها ضمير الاسلام الحق فيذكر المسيحية ويقول فيها وفي سيدها ما لم يؤثر باحسن منهُ الاّ في القرآن

وكانت الحرب العظمى وتخلّى الاتراك عن الخلافة وداول الله الايام بين الناس وطغى على العالم كله روح الوطنية فانكمش شوقي ثمّ عاد نابغةً آخر يعبر عن عواطف قومه ومطمحهم ومثلهم الاعلى بشعر يتغنى فيهِ بالوطنية فيعود إلى مصر ينقب عن ماضيها فيحييهِ وينشر حاضرها

« وطني ان شغلت بالخلد عنه نازعتني اليهِ في الخلد نفسي »

ودع عنك التمسك بالتقديم والتأخير في تاريخ شعره فنحن نصوره صورةً مستقلة عن الوقت . كما اننا نصوره كما هو فوق الاحزاب وفي معزل عنها لانه ملك الجميع فلا ينطقه الله الاّ بما يصح ان يقولهُ الجميع

بل كيف لا يكون النابغة الذي عرّفنا وهو ان طربنا غنينا بشعره أو فرحنا انشدنا شعره أو رثينا رجعنا الى شعره أو افتخرنا زهونا بشعره أو اردنا الحكمة نتخذها مثلاً سائراً استشهدنا بشعره

« رواة قصايدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق »

فاذا كان هذا الذي تغلغل في حياتنا الادبية إلى اعماقها والتصق بكل عواطفنا وجوارحنا

وكان سفيراً مفوضاً مطلق الرأي من لدنا امام الاهة الشعر — إذا كان هذا ليس بالشاعر النابغة فاين هو ذلك الشاعر ؟

***

ان الخطأ الذي وقع فيه الذين وزنوا شوقي بالميزان فوجدوه ناقصاً لا يغتفر لمن ينصب نفسهُ حكماً ناقداً للشعراء. ذلك انهم لم ينظروا اليهِ كشاعر عربي فقاسوه بمقياس البيئة العربية قديمها وحديثها او بمعيار الشعر العربي ما هو جديد منه وما طال عليهِ التقدم بل تأثروا بالنقد الافرنجي للشعر الافرنجي فاخذوا نظر الافرنج الى شعرائهم وطبقوا مذاهبهم على شوقي

وليس هذا من العدل في شيء

فالشعر الافرنجي شيء والشعر العربي شيء آخر . الادب العربي شيء والادب الانجليزي شيء آخر والادب الالماني آخر وهكذا. فثمة رجل ذو ملامح واخلاق وتاريخ ولغة تجعلنا ندعوه انجليزياً . وثمة رجلٌ مثله ولكنه ذو ملامح واخلاق ولغة وتاريخ آخرين ندعوهُ افرنسياً

كذلك ثمة رجل آخر مثلهما ذو تاريخ ولغة واخلاق تجعلهُ عربياً . فلا يصح قياس هذا بذاك . ولا اخذ قاعدة ما عند ذاك لتطبيقها على ما عند هذا . إذا أردنا ان نحكم حكماً صحيحاً على شوقي فالواجب ان نأخذه شاعراً عربياً والشاعر العربي ليس بشاعر ان لم يؤثر فيهِ تاريخه ولغته وبيئتهُ . فما لهُ وللاوساط الاخرى واللغات الاخرى التي تنتج شاعراً ليس بينه وبين شاعرنا مشابهة

انه أعطي للقليلين — لقليلين لا يكادون يعدون على اصابع اليد الواحدة — ان يكونوا شعراء عالميين ونحن لا نعرف الآ شكسبيراً شاعراً عالمياً وأما نوابغ الشعر الآخرون فحليون. فكم من شاعرٍ فحلٍ انجليزي لا يعرف الافرنسيون عنه شيئاً ولو نقل الى لغتهم لما استساغوه ولكنه شاعر في نظر الانجليز يعبر عن ضمير امتهم وينطق بشعورها وآمالها ومطامحها

كذلك شوقي . فاننا عند ما نقيم انفسنا مقام الحكم الذي ترضى حكومته كان حتماً علينا ان نرى هل قال بلسان قومه وهل ترجم آمالهم وشعورهم وهل احزنهم إذا رثى وأطربهم إذا طرب وساق شعره مثلاً إذا نطق . هذا هو المحك للحكم على شاعرٍ في كل آن وفي كل زمان

انه من الضلال ان نطمع في جعل شوقي شاعراً عالمياً فليس هو كذلك ولكنه شاعر العربية وشاعر الاسلام وكفى بذلك مقاماً يجعلهُ في المقام الاول بين الشعراء . وسيان عندنا بعد ذلك وافق الحكم قاعدة نقد الشعر الافرنجي أم لم يوافق

ولسنا من الذين يقسمون الادب إلى قديمٍ أو تقليدي وجديدٍ أو محدث حتى نحكم على شوقي لا . اننا لا نؤمن بهذا المذهب فلنفسر ما نرمي اليه

انه إذا قام فينا رجل اليوم وأخذ في الشعر مذهباً كمذهب الشعراء منذ ونيف خمسة

قرون فليس بشاعر، أو مذهبهم في صدر الاسلام فليس بشاعر، أو مذهبهم في الجاهلية فليس بشاعر . ذلك لانه لبث ابن ذلك الزمن ونسي حاضر عصره وما فيه من اختلاف في الشعور والعواطف والآمال والمرامي عن العصور الاولى . انه لم يرق فيتكيف بالاحوال وبالمحيط فلا يستطيع ان يكون لسان جيله وترجمان بيئته فلا يتسنى له ان يكون شاعراً وان كان في عداد كبار الناظمين

وكذلك لو قام فينا اليوم رجل ينظم الشعر ناسياً ان هناك في صميم العربية شعراء دعوهم جاهليين ودعوهم اسلاميين وان هناك شعراء نظموا منذ الف سنة ومنذ خمسمائة سنة وانه غير مقيد بشيء من تقاليدهم واسلوبهم وتاريخهم فليس بشاعر

فالشعر — مثل كل الفنون الجميلة ومثل كل شيء في الطبيعة — ذو اصول تمتد إلى ابعد ما للشاعر من نسب فاذا انكرها لم يعد ابناً لها

والشاعر العربي اليوم ليس الا ابناً يرث مما سرى في دم اجداده منذ اول يوم أُنطق فيه بالشعر حتى الآن . فاذا لم يتمثل هذا الميراث ويضمه إلى بيئته الحاضرة ويمزجه بعصره الجاري فليس باهل ان ينطق بلسانهم ويترجم عن آمالهم

وما الادب في كل قوم وفي كل بلد الا تاريخ اول اديب منذ بدء الادب الى يومنا هذا

ارأيت الى مدرسة انكليزية لا يبدأون في درس الادب فيها منذ ايام «تشوسر» نازلين الى «سبنسر» «فشكسبير» «فملتون» «فتنسون» حتى الآن

أم رأيت مدرسة افرنسية لا يرجعون بك فيها الى ايام انقسام الشعراء فئتين مختلفتين ويتدرجون خطوة خطوة حتى هذه الايام . ام رأيت اخرى عربية لا يبدأون في تدريس الادب فيها منذ اوائل الجاهلية وشعراء النصرانية حتى الآن ؟ فالماضي جزء لا ينفصل عنا وانما للحاضر خلق يميزه عن ذلك الماضي ولكنه لا يفصله عنهُ . فالشاعر الخليق بالاسم هو من جمع الماضي كله مخبوءاً في دمه ونطق بكل ما في حاضره من عواطف وتصورات. ولا اظن منصفاً يرى في شوقي غير هذا الشاعر

كذلك اخطأ الذين اخذوا بيتاً لشوقي من هنا وآخر من هناك فقالوا لك انهُ قصر في هذا عن المتنبي وأخذ المعنى عنهُ ولم يبلغ شأو البحتري في ذاك التركيب والتوى عليهِ القصد وانهُ في هذا البيت خالف المألوف فبالغ وانهُ في ذاك خرج على المنطق وعلى اللغة فلم يوفق

وما هكذا يكون النقد . واني ازعم ان النابغة لا يكون خليقاً بهذا الاسم ان لم يخالف المألوف ويضرب في بعض الاحايين بالاصول اللغوية عرض الحائط مبالغةً في تأدية المعنى او امعاناً في اتقان الصورة التي يثيرها لفظه في ذهنك. وليس النابغة الا رجلاً ارتفع عن المستوى ولكنه ليس بكامل — ومن آيات فنه انهُ يخطىء ولكن خطأه في قوله يزيد القول حسناً

ويزيدك بهِ اعجاباً وله محبة لخفة روحه وسلامة ذوقه

وانهم يقولون لك في كتب الادب الانكليزي انهُ لم يخالف القواعد اللغوية عظيمٌ مخالفة شكسبير لها . ولكنهُ مات فترك لغتهُ اغنى اللغات تراثاً وزاد في معجمها الالوف من الالفاظ ووضع شعرها في اعلى الطبقات

بل نبالغ نحن الآخرين ونقول انهُ اذا لم يخطيء الرجل الفذ فليس بحبيب الى قلبك واذا كان كلهُ كمالاً في كمال حيل بينك وبين جاذبيته وبقي جافاً تيبس عروقه وتذهب في الهواء ولا غثُّ القول وتكراره فالنبوغ في الانسان هو الكفاءة لتمثيل جيله وعصره وترجمة ما عبرنا عنهُ بضميرها . فاذا فعل ذلك فهو الزعيم المقدم مهما اخطأ وسرعان ما يغفر لهُ موته جميع هفواته . افلا ترى ان النوابغ لا تذكر لهم السيئات مهما تعددت نخلدوا والى رجال الكمال اللفظي او الكمال الجسدي جلسوا على الرف فملاهم الصدأ وأكلهم العث . ذلك ان الروح يحيي اما الجسد فيميت . واننا نقرر في غير وجل انهُ ما اقفر ادبنا العربي شيء مثل خلوه من النقد الحقيقي . ذلك النقد الذي يتناول الروح والمعنى والصورة الجلية والاثر الباقي ويهمل القشور . فانظر الى التاريخ العربي في الأدب انهُ منزل آهل بعظماء الاشخاص لو كانوا افرنجاً لرأيت المجلدات تكتب عن كل واحد منهم . بل انظر الى تاريخ الاسلام السياسي فلن تجد في اي امة اعجمية ما تراه فيه من كثرة الفحول المبرزين

فكم من كتاب تقرأه في اللغات الافرنجية عن نابليون وعن شارلمان وعن ولنتون وعن شكسبير وعن جوته وعن فولتير وهكذا إلى ما لا نهاية له

ولكنك ماذا تقرأ في العربية عن عمر ابن ابي ربيعة وعن الاخطل وعن ابي نواس وعن المتنبي وعن خالد ابن الوليد وعن معاوية وعن الحجاج وعن زياد ابن ابيه وعن ابي مسلم وعن صقر قريش : ذلك اننا عندنا المادة وانما ينقصنا الروح

فينا الكثير من امثال غليوم الثاني وبيرون وفوشه ولكن ليس فينا « نيكلسون » و« ستراشي » و « اندره موروى » و « اميل لودفيج » و « ستيفان زفايك »

***

شيء آخر يتناوله النقاد أو الذين يترجمون أديباً شاعراً كان أم كاتباً فيقولون لك هذا مبتكر وهذا ينقصه الابتكار وذاك أخذ المعنى عن ذلك الشاعر أو قلد فيهِ هذا الكاتب

ان صغار المخلوقات في الادب تنسب إلى نفسها شيئاً تقتبسته من الغير أو تقلد وتنقل وتدعي الالهام

هذا فريق لا يليق ذكره أو الاهتمام بامره فليس هو من الادب في شيء

ولكننا نعني شعراءنا وكتابنا الذين ثبتوا على الزمن فاصبحنا وهم قادة الادب فينا

ترى هل الابتكار من مزاياهم وهل في الادب الحقيقي ابتكار — ليست دولة الادب من مملكة العلوم الطبيعية . فالاختراع والاكتشاف ملازمان العلم التجريبي او التحليلي لا ينفصلان عنهُ لانهُ شيئيّ . اما الادب فنفسي واحكام النفس معلقة بصاحبها اما كفرد او كأمة وما نفسية شعب من الشعوب الاَّ هذه الصورة التي يرسمها لنا الشاعر اما خُلقاً او املاً او حبّاً او حزناً وما هذه النفسية الاَّ نفسيته هو ضمّ فيها نفسية جيلهِ فصفّاها واختصرها وهذبها وارسلها قولاً مأثوراً

لذلك كان الابتكار في الادب معدوماً . فالادب عن قدماء اليونان يكاد يكون هو الادب عند الاوربيين الآن مع هذا الاختلاف البيّن في اللغات وفي طرق التعبير . الروايات التمثيلية التي تملأ الادب الاوربي مستمدة من الروايات اليونانية مهما غيّر القوم من لغة ومهما بدّلوا في اشخاص . لان الروح الادبية تكاد تكون واحدة — أما الاسلوب فلا يعدّ ولا يحصى

فالاديب الاوربي المتغذي بكل هذا الماضي من الادب لا يمكنهُ ان يتجرد عنهُ ويبتكر . وماذا يبتكر ؟ انهُ يغير في الاسلوب وفي بيان اللغة ولكن روح الادب الاصلي هو هو

فاذا كان الادب العربي ميراثاً لكل ناطق بالضاد فكيف يكون الاديب اليوم اديباً ان لم يتناول ميراثه فيستغلّهُ . وهل يجدر بشاعرنا اليوم ان يتجرد عن كل الشعر العربي منذ فجر العربية حتى الآن ويتملص مما خالط قلبه وعقله من مادةٍ تلقاها عنهُ وينطق او يفكر او يشعر بغير ما آل اليهِ

لا . انهُ ان فعل فليس بشاعرٍ عربي

وأديبنا اليوم هو اديبنا البارحة انما تمشّى مع هذا العصر وتكيّف وتحوّل وبقي الاصل كما هو . فالقول عن نقد الشعر بان شوقي أخذ هذا المعنى عن شاعر قديم حيث قال هذا كذا وقال ذاك كذا فقول لا يؤيده تاريخ الادب في كل الامم وليس نقداً بالمعنى المعروف

* * *

ولقد عرّجنا على الكثير والقليل من مواطن القول ولم نتمّ صورة شوقي بعد

قلنا ان النابغة في عرفنا بشر يسمو عن المستوى العادي ولكنهُ ليس الهاً لتساق اليهِ الصلوات والمدائح وينزّه عن الخطإ

فاذا احببنا ان نشبههُ بشيءٍ فلعله بآلهة اليونان اشبه — آلهة نسبوا اليها اشياء عظيمة ولكنهم جعلوا في طينتها خُلقاً بشريّاً ضعيفاً فكانت تعلو عن الناس في شيء وتسفل اليهم في شيءٍ آخر ، فجعلوا لها محبة البشر وحسدهم وجميع ما فيهم من ميول ليست مجردة عن الهوى في معظم الاحيان . وشوقي — في نظرنا — لا يكون النابغة الذي نحاول ان نصف ان لم يحمل نقصاً يشاركه فيهِ الكثيرون من الناس ولكنهم لا يشاركونهُ كل شيءٍ آخر

ذلك تعلقهُ بالسلطان — نعني « الوظيفة »

فقد كانت امنية شوقي منذ ما بلغ اشدَّه ان يكون في ركاب الحاكم — امنية تشفع لهُ فيها شرقيته التي لا يهنأ لها عيش الاَّ في ظل « الحكومة » ويشفع لهُ فيها نسبه وقد كان يمتُّ الى اصول هبطت مصر حاكمةً او في معية الحاكمين . ولكنها مُنىً لا تليق بعبقريته وحالة لا يطيقها النبوغ

اننا نضع الشاعر فوق العروش وعلى ظهور الحاكمين ونأبى له قفصاً ولو كان من الذهب الابريز

اننا نعجب بشوقي وتأخذنا هزة الفخر والطرب عندما تتلو آياته يعتز بالاسلام ولكننا تعافه انفسنا اذ يأتمُّ « بعبد الحميد الثاني » ويضربهُ لنا مثلاً ومعياراً لعظمة الخلافة ونغضُّ الطرف خجلاً اذ يثني بتابع ذلك الخليفة « عباس الثاني » فيقيمه ثانياً في المجد والكرامة

ليست القصور ولا دور الحكم بالمرتع الخصب لعبقرية الشاعر . انهُ طير النيل ولسان العربية وروح الاسلام . فالفضاء والحرية بهِ خليقان

وإذا فهمنا المتنبي يخلّد سيف الدولة فذلك لانه كان يمثل في تلك العصور كما كانوا يعظمونهُ في الرجل من بطولةٍ وكرمٍ وحَسَبٍ وتقديرٍ للشعر . أما وحال ابطال شوقي غير حال سيف الدولة فاي عذر لهُ

إننا نستقل فيهِ ما كان يصبو اليهِ من لقب « شاعر الامير » ونغتفرها له إذ يقول شاكياً لذلك الامير :

« أليس من العزّ الممنع ان ترى أمير القوافي في رحابك جاثيا »

ونفضل عليهِ الاخطل وايامه غير ايام شوقي وبطش بني أمية غير بطش عباس الثاني إذ تلعب برأسهِ نشوة الخمر فتأخذهُ العزة بالاثم ويقول

إذا ما نديمي علّني ثمَّ علّني ثلاث زجاجاتٍ لهنَّ هديرُ
خرجتُ اجرُّ الذيل تيهاً كأنني عليك أمير المؤمنين أميرُ

ولكنها هفوة وقع فيها قبله غير واحد من النوابغ فما جعلوا القاعدة مثالاً يصح ان يحتذى وما اغتفرت لهم الاَّ لما أولوهُ للامم التي نطقوا بلسانها من فضل يثبت على الدهور

***

وكانت الحرب العظمى فنفي شوقي واعتزل الاهل والوطن وأبت العناية البارة بابنائها العبقريين الاَّ ان تكون في خدمتهِ . فليس للرجال العظام من مطهرٍ وحافزٍ وملهمٍ مثل العزلة . وما أدى نبي رسالته قبل ان يعتزل الناس زمناً — فكان الوحدة رفعته الى مستوى نفسه فجلس يناجيها ويستوحيها خير ما نظم . فعاد الينا بعد الاعتزال وقد تجرَّد لتصوير الجمال النفسي فقال في الاندلس العربية وفي فراعنة مصر وفي جبال لبنان وأودية الشام ما يجعله في عداد الخالدين

وكأنه شعر بدنو ساعة الرحيل وخاطبته الاهة الشعر قائلة انت ابني الحبيب وبك قد سررت فاتمم لي فرحي . انهم ينعون على الادب العربي خلوه من الشعر التمثيلي وان شاعرنا يلتزم وزناً واحداً في قافية واحدة في قصيدة واحدة فلا يلبث ان يتشكى كميته الجري فيسقط وما هكذا ادب الافرنج

قم ارني انك النابغة الحق تقمصت روح عصره فيه فرأى من حوله ميدان التمثيل قد رحب بعد ضيق واتسعت مسارحه لغير الروايات الافرنجية تُنقل ولايحسن نقلها او تمثيلها فنهض واذا به يضيف الى الادب العربي سفراً من ابلغ اسفاره . وعندنا ان هذا الضرب من الشعر قد فتح ابواب الادب العالمي لابناء العرب على مصاريعه

فاليونان والرومان وابناؤهم اوربيو اليوم ما بلغوا الذروة في الادب الا من هذا الباب — فحسب شوقي انه مهّد الطريق وانارها وعسى ان يلهم الله من يرى هذا النور فيتمُّ ما بدأ به شاعرنا العظيم

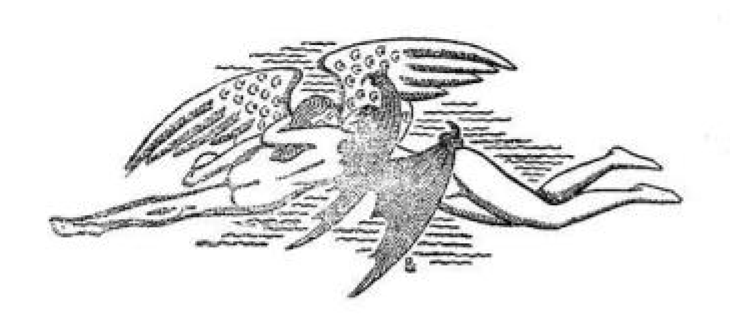
فمجال الشاعرية بل مجال الادب الخليق بالاسم هو هنا . فالصور متوفرة وما على الفنان الا ان يبرزها أما خلقا — وما اكثر صور الاخلاق — أو حكمةً أو عاطفةً أو غناءً يثير الشجون

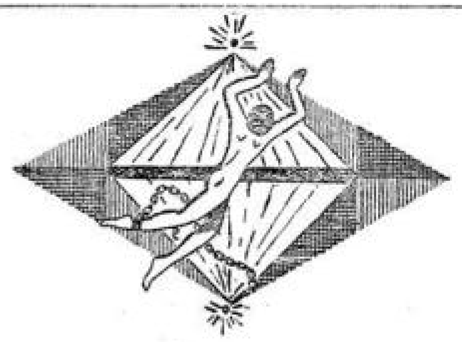
* * *

على اننا نعترف باننا لم نقرأ كل روايات شوقي التمثيلية وان نقد مثل هذا الفن يقتضي وقتاً طويلاً للتمحيص والموازنة حتى تعرف منزلة شوقي منه

ولكنه — كما قدمنا — يكفيه انه دلنا على الطريق وقادنا إلى حيث يمتنع الاقدام ويكره الاحجام فمثل شوقي لا يُبكى — فانهُ فينا ومنا مهما بقينا . انهُ منار يهدي واستاذ يرشد — موضع فخر الانفس ومحط آمال العواطف

سلام عليهِ يوم عاش فينا شاعراً وسلام عليهِ يومَ هو في الخالدين شاعر





موت الشاعر

لعلي محمود طه المهندس

مالوا بمصباح البيان صباحا ... ومشوا به في الذاهبين رواحا

ومضوا به إلا شعاعاً لم يزل ... في الأرض مؤتلق السنى وضاحا

تهفو النجوم إلى سناه وتغتدي ... نشوى كأن من الأشعة راحا

وعلى جوانب أرضها وسمائها ... شفق تقلده السماء وشاحا

هذا شعاع العبقرية لم يزل ... يولي الحياة طلاقة وسماحا

قدر الخلود له وبارك أفقه ... رب أراد به هدى وصلاحا

أجرى البيان على لسان نبيه ... غدقاً من السحر المبين قراحا

وحبا به الشعراء من ألحانه ... فشدوا بألسنة الطيور فصاحا

لما مشى في الأرض فجر صخرها ... ماء ونضرها ربى وبطاحا

وأنار في شرف السماء نجومها ... فتلون من آياته الألواحا

فكأنما الدنيا ضحى وكأنما ... في كل داجية نرى مصباحا

***

قل لابن هانئ لاذوت لك كرمة ... فقد الربيع هزارها الصداحا

قد كنت في أمس نزيل رحابها ... فنزلت أشرف ما أبلغ ساحا

ألقى وأسمع عبقرياً ملهماً ... طلق المحيا ماجداً مسماحا

يولي النفوس بشاشة وينيلها ... أدباً ويسقيها الوداد صراحا

أنست زماناً بالبيان وأهله ... حتى تبدل أنسها أتراحا

وقفت بي الدنيا على جنباتها ... فرأيت حزناً واستمعت نواحا

وشَهِدْتُ ظِلَّ الموتِ فوقَ ظِلالِها ... يَغْشَى الرُّبَى وَيُجَلِّلُ الأَدْواحا
وجَمَتْ وكانتْ بالطُّيورِ شَوادِياً ... تَسْتَقْبِلُ الإمساءَ والإصْباحا
وذَوَتْ أزاهِرُها ونُفِّرَ طَيْرُها ... يَنْزو ويَقْطُر أدْمُعاً وجِراحا
يَبكي من الصَّدْرِ الوُرودَ لجَدْوَلٍ ... كمْ عَبَّ من دفَّاقِهِ وامْتاحا
لمَّا نُعيتَ لها تَزَايَلَ حُسْنُها ... وصَغَا الرَّبيعُ بوجهِهِ وأشاحا
سِيَّانِ بعْدَكَ يابنَ هانِئَ دَهْرُها ... يَسري نَسيماً أم يَهُبُّ رِياحا

***

قُمْ وابْكِ لِلشِّعْرِ النُّبوغَ وقُلْ لَهُ ... أمضَى زَمانُ النابِغينَ وَرَاحا ؟
واهْتِفْ بِصَوْمَعَةِ البَيانِ فقدْ خَلا ... عهدُ الرِّسالةِ بالقَريضِ وطَاحا
ولَّى بِسِرِّ العَبْقَريَّةِ شَاعِرٌ ... اللهُ هيَّأهُ لنا وأتاحا
لمْ تَسْعَدِ الفُصْحَى بِمِثْلِ يَراعِهِ ... يوماً ولا لَقِيَ الخَيالُ جَناحا
شِعْرٌ حوَى الدُّنيا ونَسَّقَ حُسْنَها ... صُوراً ومثَّلها مُنىً وطِماحا
يَسْتَلْهِمُ الأكوانَ وحيَ جَمالِها ... حتَّى لَيَنْطِقُ وحيُها إفْصاحا
ويُزيحُ عن ماضي العُصُورِ سِتارَها ... فترَى بِها الغادينَ والرُّوَّاحا
هوَ مثلُ هذا الطَّيرِ في صَدَحاتِهِ ... والزَّهْرِ لُطْفاً والعَبيرِ نَفاحا
وأراهُ كالبَحْرِ الخِضَمِّ عُبابُهُ ... يُعْيِي مَداهُ الخائِضَ السَّبَّاحا
ويظُنُّهُ المَلَّاحُ طوعَ شِراعِهِ ... فيرُدُّ عن غَمَراتِهِ المَلَّاحا
يُهْدي ، اذا هدأ ، الثَّرَى أصْدافَهُ ... واذا تَمَرَّدَ ، ذَرَّهُ اللَمَّاحا
وأراهُ حينَ يرقُّ عاطِرَ نَسْمَةٍ ... واذا قَسَا فالعاصفَ المُجْتاحا
شِعرٌ يشِفُّ عنْ الحَياةِ وَداعةً ... ويَؤُجُّ منها ثورةً وكِفاحا
ويُبينُ من غَضَبِ النُّفوسِ وصَفْوِها ... مِثْلَ الحياةِ كآبةً ومِراحا
ويَفيضُ من نَبْعِ القُلوبِ فآنَةً ... ماءً ، وآناً جاحِماً لَفّاحا
والشِّعْرُ مِرآةُ الحياةِ ولَمْ يَزَلْ ... يَجْلُو الرُّؤَى ويُصَوِّرُ الأشباحا
والشِّعْرُ من أدبِ النُّفوسِ ولن تَرَى ... من دُونِهِ هَدْياً ولا إصلاحا
ولقدْ تذَوَّقْتُ الحياةَ فلَمْ أجِدْ ... كالشِّعْرِ رِيّاً للنفوسِ وراحا

***

قلْ للكنانةِ عن رِمائِكِ أقْصِري ... فلقدْ فقدْتِ الرَّامِيَ النَضَّاحا
صيَّادَ أسْرابِ الجَمالِ اذا رَنا ... جاءتهُ ما عرفَتْ لديهِ جِماحا

يدني القصيّ من الشّوارد لفظُهُ ويروضُ منها النّافرَ المراحا
من كلّ معنىً بالروائع حافلٍ يُجلى كما تجلى الشُّموسُ صباحا
وقصيدةٍ كالرّوض باكره الحيا فاهتزّ ريحاناً، ورفّ أقاحا
منْ للطبيعة يستزيدُ جمالها غُرراً كآيات الكتاب وِضاحا
ذهبَ الذي غنّى خمائل روضها حتّى مددنَ الى النسيم الرّاحا
المرقصُ الزّهرات فوق غصونها والمستخفُّ عبيرَها الفوّاحا
والمُسْعِدُ الأيكاتِ منهُ بملهمٍ كانتْ به الجنّاتُ قبلُ شِحاحا
أوحى لهُ المرحَ الوجودُ فصاغهُ شدْواً، وعلّمهُ النُّواحَ فناحا
لمّا جلا سرّ الحياةِ لقلبِهِ أفضى بأسرار القلوب وباحا
سُبْحانَ من أهدى الخيالَ يراعهُ وهدى لهُ الإبداعَ والإسْجاحا
فتسمّعوه فلمْ يزلْ من شعرهِ شادٍ يهُزُّ بسحرهِ الأرواحا

***

يا نازحاً عنّا نزلتَ بعالمٍ تلقى الأحبةَ فيهِ والنُّزّاحا
فاحللْ بجنّاتِ الخلودِ وروّ من عينِ النّعيم فؤادكَ المُلتاحا
واملأْ من الزّهر المنوّرِ والجنى كفّيْكَ واطرحْ عنْكَ الفدّاحا
سترى الرّسولَ على مُمطرٍ روضها يهدي إليكَ ببابها المِفتاحا
يسعى (بحسّانٍ) إليكَ وأنّما وضّاحٌ من فجرِ النّبوة لاحا
يختالُ في بُرْديّةٍ من بُردةٍ حاكَ القريضُ خيوطها أمداحا
يشتاقُ من ميلادهِ شوقيّةً اللهُ كانَ لِمسْكِها النفّاحا
فاشرحْ هواكَ لهُ وبثّ لواعجاً كانتْ لهنّ دموعكَ الشّرّاحا
أبلغْ إلى (صبري) التحيّةَ والهوى عنّا وحيِّ جبينَه الوضّاحا
وامسحْ دموعكَ عن أسرّةِ (حافظٍ) فلقد لقيتَ بقربهِ الأفراحا
وتساقَ أقداحَ المسرّةِ معْهما فلكمْ ملأتَ بدمعكَ الأقداحا
واذكرْ على الارضِ الشقيّةِ رفقةً باتوا عليكَ يقلّبونَ الرّاحا
في عالمٍ ما زالَ في غلوائهِ ومُنِيَ على رثّ الحطام تلاحى
أشرقْ بوجهكَ في غياهبِ ليلهِ يخلعْ دجاهُ اذا جبينُكَ لاحا
وأضئْ على شطِّ الحياةِ منارةً وأطلعْ بكلّ دجيّةٍ مصباحا
ونمِ الغداةَ وحسبُ روحكَ أنْ ترى من نورِ مجدِكَ هذه الأوضاحا

حول حافظ وشوقي

وأثرهما في احياء الشعر العربي

لاسماعيل مظهر

عاش حافظ وشوقي في عصر انتقال كثر فيه الكلام في الجديد والقديم، وانتحى فيه النقد الادبي مناحي جديدة، واتخذ معايير حديثة غير تلك التي عكف عليها ادباؤنا، وسلك طرقاً متشعبة كانت نتاجاً للتوسع في المعرفة ولتأثير الاساليب العلمية الحديثة في النقد الادبي. وعلى كثر ما تكلمنا في القديم والحديث، وفي النقد، لم نستطع حتى اليوم ان نحدد العلاقة بينهما او ان نميز بين ما نعني بالحديث والقديم، ولم نتمكن، بعد من ان نضع لاصطلاح التجديد حدوداً محددة ومقاييس معينة نهتدي بها في ادبنا الجديد على ما يقولون. وأنت تقرأ في الادب القديم شعراً لم يشق لهُ المجددون غباراً حتى اليوم، كما تقرأ في الشعر الحديث قطعاً وقصائد يعاف القديم والحديث معاً ان تنسب الى الشعر، بل هي بتراتيل المعابد اشبه منها بالشعر الذي يقتحم بنا ابواب الحياة كما يقول هيكل. لهذا ارجع الى اختيار قطعة من الشعر القديم في الوصف نتخذها اساساً للبحث الذي نريد ان نمضي فيه علّنا نخلص من ذلك الى نتيجة يحسن الركون اليها في تحديد معايير النقد وفي التفريق بين معقولي الحديث والقديم. وهي قطعة في وصف فيل قالها ابو الحسن الجوهري واليك هي، ثم احكم أهي الى الحديث اقرب ام الى القديم : —

فيل كرضوى حين يلـ ... بس من رقاق الغيم بُردا
مثل الغمامة ملّئت ... اكنافها برقاً ورعدا
رأس كقلة شاهق ... كسيت من الخيلاء جلدا
فتراه من فرط الدلا ... ل مصعراً للناس خدّا
يزهى بخرطوم كمثـ ... ـل الصولجان يرد ردّا
يسطو بساريتي لجـ ... ـين يحطمان الصخر هدّا
اذناه مروحتان اسـ ... ـندتا الى الفودين عقدا
عيناه غائرتان ضيـ ... ـقتا لجمع الضوء عمدا

فكٌّ كفوّهة الخلـ يج يلوك طول الدهر حقدا
تلقاه من بُعدٍ فتحـ سبه غماماً قد تبدّى
متناً كبنيان الخو رنق ماثلاً في الدهر كدّا
ذنباً كمثل السوط يضـ رب حوله ساقاً وزندا
يخطو على مثل أعمد ة الخباء اذا تصدّى
او مثل اميال نضد ن من الصخور الصم نضدا
متململاً فكأنهُ متطلباً ما لا يؤدّى
متلفعاً بالكبرياء كأنهُ ملك مفدّى
اذكى من الانسان حـ تى لو رأى خللاً لسدّا

فقد تخيّل بعض الادباء وان شئت فقل جلهم ، وكان تخيلهم خطأ ، ان كل قايم وكل ما ينسج على منوال القديم لا يمت الى نهضة الأدب الجديدة بسبب ولا يتصل معها بفكرة او اسلوب ، وان كل ما يخرج الأدب الحديث من الآثار لا يكون جديداً « ناهضاً » الا اذا تنكب طريق الأدب القديم وخالف اساليبه . وهذا في الواقع هو المحور الذي دار من حوله النقد في تصور القديم والحديث والحقيقة أن بين كل قديم وكل حديث اسباباً لا تقطع وعرى لا تفصم او تفصم عروة الأدب في مجموعهِ . وأنت ان اردت ان تقف على السبب الذي يرجع اليهِ ما يخرج الادب الجديد من آثار تبلغ نهاية السخف حيناً وغاية مايصل اليه التفريط في توخي الأساليب المنتقاة حيناً آخر ، فلا تذهب بعيداً واعرف ان السبب ينحصر في انك لم تدرس القديم دراسة وافية ولم تستوعب اساليبه العليا، ولم تقف على نواحيه الكثيرة وطرائقه ومعاييره اللغوية والأسلوبية . وكذلك اذا اردت ان تعرف السبب في اننا لا نستسيغ القديم بكليته فاعرف ان سبب ذلك هو اختلاف الاوضاع الاجتماعية وتشعب نواحي المعرفة والمخترعات والمكتشفات وتباين الذوق وترامي حدود التصور الى آفاق لم يبلغها القدماء . على ان الخطأ يأتي من ناحية واحدة هي اننا لا نتخذ من مجموع هذه الحالات مقياساً يقف عنده حكمنا على القديم والحديث . أما اذا حاولت ان تنكر هذه الحقائق فهذه قطعة قديمة نريد ان يبين لنا اديب ما فيها من ريحة القديم الذي يعافه الحديث . فاذا استطاع فنحن اول المؤمنين بأننا فيما نذهب اليهِ على خطإٍ وانا بعيدون عن الصواب

اما ما نريد ان نستطرد اليهِ ، ونتخذ فيهِ هذه القطعة شاهداً ، فتحديد أمرين احدهما فلسفي والآخر ادبي ، لهما اقوى الاواصر باعتبارات تقوم اليوم في الادب العصري . اما الاعتبار الاول فذو علاقة بمعايير النقد الادبي . فان اكثر الناقدين يتوخون النظر الى الكمال في نقد المؤلفات والآثار الادبية التي يتناولونها . وهم اذ يعجزون عن ان يجدوا لفكرة الكمال

معياراً صحيحاً ، ينظرون دائماً الى المثل العليا في الشعر او النثر ويقيسون عليها الآثار التي ينتقدونها ، فيذهبون في الغلو او القسوة في النقد ابعد مذهب . على ان اتخاذ المثل العليا في المنتجات الادبية معياراً للنقد ، ان كان ضرورة عقلية تقسرنا عليها اذواقنا وتحملنا عليها مطالعاتنا ، الاّ ان الناقدين يجب ان لا يذهبوا في تقدمهم الى الحد الاقصى من القياس على المثل العليا ، بل يجب أن يتخذوا معياراً اكثر من هذا تسامحاً واقرب الى التجاوز ، ليمكن ان ينتج النقد نتاجاً وأن يصفو من كثير مما ينتابهُ من مظاهر التحامل والمفاضلة التي كثيراً ما يلجأ النقاد اليها مجزاً وجرياً وراء اساليب النقد القديمة . اما ذلك المعيار فينحصر في أن يكون النقد مقصوراً على قياس النسبة بين الآثار المنقودة وبين المثل العليا . فاذا توخى النقاد ذلك استقام النقد وخلص من كثير من المغالاة التي تلابس النقد في العصر الحاضر . وهذا يذكرني بفكرة بثها الاديب « مكس نورداو » في احد مؤلفاتهِ اذ قضى بأنّ ادراك الحقائق نسبي ، وان هذه القاعدة عامة تنصرف على كل ضروب المعرفة الانسانية من علم وادب وفن . ومثّل على ذلك بعدد من المكفوفين اخذوا يصفون فيلاً ، فادرك كل منهم من الفيل بقدر ما احسَّ من الجزء الذي وضع يدهُ عليهِ . فالذي امسك برأسه قال انهُ « كقلة شاهق » والذي قبض على خرطومه قال انهُ « كمثل الصولجان » والذي لمس اذنهُ قال انهُ « كمروحة اسندت الى الفودين عقدا » ومن وضع يده في فمه قال إنهُ « كفوهة الخليج » ومن امسك بذنبهِ قال انهُ « كمثل السوط يضرب حوله ساقاً وزنداً » ومن احسَّ قوائمه قال إنهُ « كاعمدة الخباء » . وهكذا فالكل مصيبون ولكن بقدر ما وقع تحت حسهم منهُ ، ولكن الحقيقة خفيت عليهم اجمعين . وهذا مثل النقاد في كل ضروب المعرفة الانسانية . فاذا راعينا ذلك خلصنا بالنقد الى الناحية التي تنقذنا من كثير من فوضى الادب في هذه الايام

اما الاعتبار الثاني فيتعلق بفكرة التجديد وتحديد العلاقة بين القديم والحديث والمعيار الذي يجب ان يقوم في دوائر الادب العليا ليكون اساساً لادراك العلاقة بينهما والتفريق بين هذين المعقولين . ولا نريد ان نذهب في هذا الامر مذهباً غير مقرر ، بل نعود الى مبدإ قرره في انجلترا الاستاذ « جلبرت مَري G. Murray » استاذ اللغة اليونانية في جامعة اكسفورد في كتابهِ « نشوء شعر الملاحم عند اليونان The Rise of the Greek Epic » ونكتفي بتلخيص ما ذهب اليهِ لعلنا بعد النقد نقبله كتصور يمكن ان يحدد العلاقة الادبية التي تقوم بين القديم والحديث : قال الاستاذ «مري» في ص ٢٣ — ٢٨ من طبعة اكسفورد سنة ١١١ ما ملخصهُ :

يقرر الاستاذ « مري » أن اوربا وقعت تحت آصار الآداب القديمة حيناً من الدهر . وان الاساليب الاغريقية قد بلغت حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، كما ان الاساليب الرومانية قد بلغت خلال الفترة التي تقدمت ميلاد المسيح والفترة التي تلت ميلاده ، اقصى مبلغ من كمال الوضع

وانتقاء السياق وسيولة المعاني وسبك القوالب الكلامية في الشعر والنثر ، وأن هذه الاساليب قد اتخذت مثلاً عليا حاول ان ينسج عليها الكتاب والشعراء ، كما اتخذها النقاد اساساً يقيسون عليه اقدار الكتاب والشعراء فكان الدنو من هذه الاساليب او البعد عنها ، اصبح المعيار الاصيل للنقد الادبي

ثم يقول إن اغريق العهد الاول ورومان العهد الثاني ، قد استطاعوا ان يخرجوا من صور الادب ما لم يستطع اخلافهم خلال الف كاملة من السنين ، وان ادباء عصر الانحطاط كانوا يشعرون بهذه الحقيقة شعوراً كاملاً . ويعتقد الاستاذ مري ان هذه الحقيقة فيما يختص بالادب بيّنة لا تحتاج الى دليل ، ولذلك ذهب يدلّل عليها من فروع المعرفة الاخرى كالطب مثلاً الذي ظل حتى عصر النهضة الاوروبية واقفاً عند الحدود التي وصل اليها جالينوس وابقراط ومضى في تدليله على هذه الحقيقة حتى وصل الى التاريخ ، فقضى بأن اي مؤرخ يحاول الآن ان يتخذ اسلوب ثوقيديدس « Thucydides » اليوناني اماماً له في تدوين التاريخ او شرح حوادثه ، وان كل قصصي يحاول ان يحذو حذو « اسخولس » انما يشعر وشيكاً بانه عاجز عن مجاراة الاساليب القديمة ، لانها لدى الحقيقة ليست مثلاً تحتذى في الاسلوب الادبي ، من حيث الجمال أو السداد . غير اننا إذا أردنا ان نفهم ما هو « الاسلوب » وآمنّا بان الاسلوب هو « الشكل » الذي يعبر عنه بالقالب الكلامي ، وان الشكل يتضمن « الروح » لان لكل اسلوب روحاً خاصة تستمد منه روح الكاتب ، استطعنا بعد هذا ان نعرف الحقيقة وان نفقه تصور القديم فقهاً كاملاً . فان ما نعني بالقديم ينحصر في عدد من المؤلفات تضمنت من الحيوية ما جعل الناس يستسيغونها ويشعرون بنفع من قراءتها ، في حين ان غيرها من الكتب التي عاصرتها قد عجزت عن ان تبعث في الناس نفس هذا الشعور ، وفقدت كل قيمتها الادبية أو العلمية أو الفلسفية . ينبغي ان يكون في الكتاب الذي يحفظ قيمته الفي سنة والانسانية على اختلاف شعوبها مقبلة على قراءته والانتفاع به ولا تزال تطلب منهُ المزيد ، سرٌّ غير معروف ولا مدرك . والانسان بطبعهِ يميل إلى استجلاء هذا السر أو الوقوف على حقيقة الباعث الذي يحفظ لذلك المؤلف قيمته فيجعلها ثابتة على الزمان . وهذا في الواقع هو السبب الذي يحملنا على ان ندرس القديم في الادب والفلسفة والفنون . اما السبب في بقاء هذه المؤلفات على الدهر ، فيرجع إلى ان الشكل أو القالب ، ثم الروح التي يحملها الاسلوب ، تعيشان اكثر مما تعيش المادة . ومحصل هذا ان هنالك صفات تجعل الآثار الادبية تعيش ولا تموت . والذي يعيش ندعوه نحن قديماً (كلاسيك)

هذا ملخص رأي ذلك الاديب الكبير . والخطأ الذي نقع فيهِ انما ينحصر في اننا لم نميز بين القديم الخالد والقديم الفاني . ولم نفرّق بين القديم ذا الروح والقديم الميت . بل أطلقنا القديم اطلاقاً تناول كل ما وصل الينا عن القدماء ، وحاولنا ان نفلت بأساليبنا منه جميعاً من غير تمييز بين مراتب القديم ومن غير ان نكوّن تصوراً يحدد اصطلاح القديم تحديداً يهدينا

السبيل السوي في الانتاج أو النقد. والحقيقة اننا يجب ان نعتقد ان القديم روح تبعث في الجديد حياة تكمن في تضاعيفه، إنما يسبغ عليها الاسلوب الجديد ثوباً جديداً فيظهر هذا وتختفي تلك. فاذا اضفنا إلى هذا ما ذهبنا اليه من قبل انّ للادب حياة تنظم الطبيعة حلقاتها في سلسلة متواصلة على مرّ العصور، لم نجد بداً من ان نقول بان القديم والحديث اصطلاحان يربطان بين طرفي حقيقة واحدة، وان حاجة الادب اليهما ضرورة لا يستطيع ان يتخلى عنها طرفا الادب، ونعني بهم دعاة القديم ودعاة الجديد

***

تعاصر حافظ وشوقي في هذا العصر، الذي لا يخرج عن انه عصر انتقال وتطور. عصر لم تتميز فيه المعقولات الادبية، ولم تحدد فيه التصورات ولا الاصطلاحات، ولم يتخذ فيه النقد معايير قيمة يصح السكون اليها في تقدير الآثار الادبية أو الشخصيات. لهذا نجد ان من افدح الظلم ان نمضي في نقدها من غير ان نقدر الاحوال التي احاطت بهما وجعلتهما يتراوحان بين كفتي ميزان تشيلان أو ترجحان على مقتضى ظروف لم تمكنهما يوماً من ان يكونا فيها حكمين أو بالاحرى زعيمين يتحملان مسؤولية الزعامة بما يترتب عليها أو ينتج عنها من الآثار. ولقد ظلم حافظ، كما ظلم شوقي، حيّين، ولسوف يظلمان ميتين، بما خلعنا عليهما من الالقاب، لو علما الحقيقة أو علما ما سوف يترتب عليها لنبذاها ولرضيا ان يعيشا غير متوجين بها. وما قولنا شاعر النيل في احدهما، وأمير الشعراء في الثاني، الا مجرد تفريط في البذل وافراط في الغلو، سوف يحمّلانهما ما لا يجب ان يحملا من مسؤوليات النقد الذي لم يخلص شيء في هذا الوجود من سلطانهِ الثابت. وأول ما يخطر على ذهننا ازاء ذلك سؤال طبيعي. فاذا كان شاعر النيل وامير الشعراء، قد عاشا في طور انتقال وتطور، فاي أثر تركا في حركة الانتقال وأي غذاء ذهني أو مذهبي غذيّا به حركة التطور؟

لقد كانا في الوطنية كلاً على السياسيين أو الوطنيين. كان شاعر النيل كلاً على مصطفى كامل وكان أمير الشعراء كَلاً على الخديو. وتراوح كل منهما بين الكفتين على غير أساس من الفكرة أو الايمان أو قيادة ناحية بعينها من نواحي السياسة أو الوطنية بثها في شعره. بل ان كلّ ما اخرجا في السياسة من الآثار لم يتعدّ ان يكون نواحاً على الماضي أو بكاء على الحاضر أو مثلاً يضرب للعظة. اما ان يكون لهما أثر في تكوين الفكرة السياسية أو زعامة ناحية منها، فتلك دعوى لا نظن ان ناقداً يستطيع ان يدعيها لاحدهما أو ان احدهما كان يستطيع ان يدعيها لنفسه

في العشرين السنة الاخيرة كان شوقي وحافظ في أوجهما الاعلى. وفي العشرين السنة الاخيرة شهدت مصر أول بوادر الاتصال بحرية الفكر في العلم والفلسفة. فيها خرجت الصحافة على تقاليدها القديمة وخرج المفكرون على الاساليب التي ورثوها عن القدماء. فيها ترجمت كتب علمية كان مجرد ذكر اسمها أو اسم مؤلفها تجديفاً وكفراً، وفيها هوجمت التقاليد العتيقة

بعنف وشدة في بعض النواحي ، فلم يتحرك الشاعران ، وكأنهما في غور من كهف الزمان ، بل لم يحرك حافظ الا اسم ارسطوطاليس عند ما نشر الاستاذ لطفي بك السيد ترجمة كتابه الاخلاق ، وارسطوطاليس كما نعلم جميعاً كان سنادة الكنائس والشيع في نصرانية العصور الوسطى ، وسنادة اصحاب المذاهب في صدر الاسلام، وعلى تتالي عصور عديدة . بل لانذهب بعيداً اذا قلنا ان حافظاً لم يحركه ارسطوطاليس ولا كتابه في الاخلاق ، بل حركته علاقة الصداقة والود ورابطة الحزبية مع مترجم الكتاب . وان هذا لأدخل في التدليل على ان شاعر النيل وأمير الشعراء ، كلاهما كان بعيداً عن ان يمدَّ حركة التحرير الفكري ببيت واحد من الشعر ، وكذلك موقف شوقي ازاء ارسطوطاليس وترجمته لايختلف كثيراً عن موقف حافظ

وكانت امامهما الطبيعة عطرة فياحة ، عبقة وضاحة . كان امامهما الانسان بما فيه من اسرار ومخايل وحقائق، فلا نظرا في الطبيعة ولا شديا بالانسان، فكأنهما قد انكرا في شعرهما الحياة : حياة الطبيعة ، وحياة ابنها الثائر . وكانت امامهما مشكلات مصر الاجتماعية التي تطورت بتطور الفكر والاتصال بالمدنية الغربية الحديثة . كانت امامهما مشكلة المرأة وحرية التعليم ونظام الطبقات وعلى رأسها جميعاً مشكلة الفلاح الاجتماعية . أكل التطفل الاجتماعي في مصر عظم الفلاح ولحمه ومصَّ دمه الزكيّ، وحطت عليه الامراض بأنواعها وانتابته النوائب والكوارث وناء عليه الفقر وعملت فيه الخصاصة ، ولا يزال حتى اليوم يعاني من آثار ذلك الخراب والدمار والجوع . كل هذا والشاعران في شغل بالرثاء والنواح على الكثيرين ممن يحتملون اكبر مسؤولية فيما وصلت اليه حالة الفلاح من الانحطاط في هذا العصر

وكان امامهما بعد كل ذلك مختلف ابواب الحياة مادية وعقلية . فهل ارضيا الفن ام نصرا الدعوة الى العلم الصرف أم اخذا بيد الفلسفة ؟ ليس شيء من هذا بواقع في حياة شاعرينا العظيمين . وان دعوى تحاول نقض هذا لا تحتمل النقد ساعة واحدة

اذن فماذا كان الاثر الذي تركاه في حياة مصر والشرق ؟ كانا الجسر الذي عبر عليه الادب من القدماء الى ابناء الزمان الحاضر ؛ احييا سنة الاسلاف وسارا بها الى الاخلاف في صورة لاتختلف كثيراً عن الصورة التي طبع بها اسلافنا الشعر ، ولاتقرب قيد انملة من مثاليات الاعصر الحديثة

ولقد كان فرقهما من التعرض للشؤون الاجتماعية التي لها صلة بالدين عظيماً حتى انك لن تقع في شعرهما على بادرة تدل على تعبير عن دعوة لاصلاح حال الزوجية والقضاء على تعدد الزوجات او زواج الاطفال او نظام الحالات الشخصية التي ظل يحتكم فيها شرع الائمة حتى عصرنا هذا الا قليلاً . هذا في حين ان الشعر أداة قوية وفأس باترة تقطع في اصول الاشياء حسنة وقبيحة ، بقدر ما تقطع كل ادوات الادب الاخرى مجتمعة

هذا في النواحي الاجتماعية . فهل كان لهما أثر ثابت في تغيير أساليب الشعر ومناهجه القديمة

أو صبه في قوالب جديدة لم يألفها القدماء ؟ وهل نهضا بالشعر فخلاَّ وثاقه من معاييره المتيقة ؟

***

للشعر القديم اساليبه ومعاييره ومثالياته . كما ان له حدوده التي لم يخرج عنها أو يكون قد افلت من ذلك الاطار الذي وضعهُ القدماء للشعر ليكون شعراً ذا قيمة ووزن قياساً على ما تكوَّن في اذهانهم من تصورات هي بحكم الحالات الاجتماعية وضيق افق المعرفة وعدم تحيز اسلوب الفكر الحر ، غاية ما استطاع القدماء أن يكوّنوا من معايير الشعر وغيره من مختلف المعلومات والفنون . ولقد تكوَّنت شاعرية حافظ وشوقي من الاكباب على نماذج القدماء ، فقد نهلا من اساليب شعراء العصر العباسي ومن اساليب شعراء الاندلس قدراً كبيراً صبغ شعرهما بصبغة قديمة تسمع فيها رنات شعرية نعثر بها في دواوين شعراء الصدر الاول من المخضرمين وفخامة الالفاظ التي امتاز بها كثير منهم ، ممزوجة بكثير من رقة الاندلسيين ، حتى في الرثاء وهو يملأُ نصف ديوان حافظ وثلث ديوان شوقي ، فانك تجدهما قد اكبّا على الاسلوب القديم وذكر صفات الميت والطعن في خصومهِ او خصوم الشاعر ، وعلى الجملة تستطيع ان تقول انهما لم يفلتا من القيود التي قيد بها القدماء الشعر . اما اكبر ميزة امتاز بها الشعر القديم فارتباطهُ بالارضيات ، سواء في الوصف ام في الخيال ، ولم يتعال قط الى المثُل الآلهية العليا ، التي امتاز بها كثير من الشعراء المحدثين في الشرق والغرب . ولقد عكف القدماء على الاكثار من ذكر الحسيات ، سواء في ذلك الشعر الذي ندعوه جاهليّاً ، ام الشعر الذي ندعوه شعر ما بعد الاسلام ، فان اروع ما في معلقة امرىء القيس او الاعشى خلاعة شنيعة ، واكثر ما في شعر زهير حِكَم كالتي تجري على ألسنة الوفود اذا مثلت امام الملوك صيغت شعراً ، وكلها ممسوسة بالحسيات والشهوات ، وعلى الجملة بكل ماهو ارضيٌّ دون ما هو سماوي . اذن نقضي بان شاعرينا قد عكفا على اساليب القدماء صياغة وموضوعاً ومكانتهما تنحصر في انهما احييا الشعر في عصر اتخذتهما فيه الطبيعة حلقتين من حلقاتها الحية لتعبر من فوقهما جسر الزمان وتسل من طريقهما بين الاسلاف والاخلاف . لم يحدثا من انقلاب جديد لا في الاسلوب ولا في الفكر ، ولم يحاولا ان يدرسا الحالات القائمة من حولهما لا في الناحية الاجتماعية ولا في الناحية العلمية او الفلسفية . اما ما حاولا في هذه الناحية فلا يخرج عن انهُ خرج في شعرهما مكدوداً مهزولاً ، شأن من يرى الاشباح عن بعد كبير ، فحاول ان يصفها ويميز تفاصيلها ، ولكنهُ لا يصف الاَّ اشباحاً تتخايل له في نهاية الافق العريض

***

ذهبت من قبل في الشعر مذهباً مؤداه ان العرب عرَّفوا الشعر بانهُ الكلام الموزون المقفَّى اي الكلام الذي يجري على بحر من بحور الشعر الموضوعة ، وينتهي بقافية واحدة ، وعندهم

اذ كل ما يجري هذا المجرى من الكلام شعر . والحقيقة ان هذا التعريف الذي ينصرف على اكثر ما قاله العرب من الكلام الموزون المقفى أبعد الاشياء عن تعريف الشعر. فقد يكون كلام موزون مقفى وبينه وبين الشعر بعد ما بين الموت والحياة من الفروق ، وقد يكون كلام منثور يمتّ الى الشعر بأقرب الاسباب . اذن فالوزن والقافية لا يكوّنان الشعر ، بل على الضد من ذلك يستعين الشعر بالوزن والقافية لتكون له تلك الانغام الموسيقية التي تميز الشعر عن بقية ضروب الكلام . واذن تكون الشاعرية اصلٌ اداتها الوزن والقافية ، على الضد مما ذهب اليه العرب من القول ، بأن الوزن والقافية اصل اداتهما الشاعرية . واذا جارينا العرب على تعريفهم فقد وسعنا حدود الشعر ، ولكن قتلنا الشاعرية . واذن وجب ان نضع تعريفاً للشعر هو عندي ما قال بهِ الاستاذ «كرتهوب» استاذ الشعر في اكسفورد ومن كبار الادباء والمؤلفين ، وهو ان «الشعر عبارة عن الهام يصدر عن شاعر موهوب . اما مصدر ذلك الالهام فأمر يعدو حدود البحث والانتقاد » . وانما تزيد الشاعرية او تنقص بمقياس حده الاوسط مقدرة الناقد على تتبع مصدر الالهام في الشاعر ، فاذا استطاع النقد ان يصل الى عمق يعرف عنده مصدر الالهام ، فالشاعرية ناقصة غير كاملة ، واذا عجز النقد عن ان يصل اليه ، فالشاعرية قريبة من الكمال . وانت تنظر في ديوان من دواوين الشعر فيستوقفك بيت او ابيات انت تشعر بأن الشاعر نفسه لم يدر كيف صب معناه في ذلك القالب من الكلم واللغة ، وتشعر بأن المعنى والتصوير من صنع الالهام لا من قوة الصناعة . من صنع الطبع لا من التطبع . وانما تقاس شاعرية الشاعر بقدر ما في شعره من أثر هذا الالهام . وعلى هذا لا يبعد ان يكون الشعر عبارة عن تعبير عن الوجدانيات بالماديات من طريق الالهام . لا من طريق الصناعة ولا التكلف . ولا شك عندي في ان هذا المذهب ينقص من مجموع ما يعتبر شعراً في كل لغات العالم ، لا في اللغة العربية وحدها . ونحن لو اردنا ان نستخلص الشعر الحقيقي من دواوين الشعراء ، لقل الشعر قلة لا نتصورها ، ولكن نكون قد فزنا بالشعر الذي يؤثر في النفوس ويقوي مشاعرها ويحفز عزيمتها ويهذبها ويزكيها ويخلق فيها الاخيلة الجديدة ويحرك القلوب ، ونكون قد خرجنا من الشعر بأثرة التهذيبي ونكون قد فصلنا بين الشعر الوجداني الصحيح والنظم ، وفرقنا بين معقولين من معقولات الادب ، لكل منهما مركزه وخطره من مستحدثات العقل الانساني . ولن تقع في العالم كله على ديوان يزيد فيه الشعر الصحيح على الشعر المنظوم اي يزيد فيهِ الالهام على الصناعة . وشاعرانا لا يعدوان هذه القاعدة . ولكن قد يتفاضلان في شيء واحد . فان ما في شعر شوقي من الوجدانيات يرجح ما في شعر حافظ وما في شعر حافظ من جزالة لفظ وقوة سبك يزيد ولا شبهة على ما في شعر شوقي

وانت لا تنكر ان الوجدان اكثر ما ينطلق مع الرثاء . واكثر ما يأتي بهِ شاعرانا ،

لا ينطلق من الوجدان وانما ينطلق من الارض السابعة . فرثية شوقي الاول في مصطفى كامل هي بذاتها قصيدته التي سماها شهيد الحق ، مع اعتبار فوارق الزمان والظروف . واليك نتفاً منها

إلامَ الخلف بينكمو إلاما وهذي الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما
واين الفوز ؟ لا مصر استقرّت على حالٍ ، ولا السودان داما ؟
واين ذهبتمو بالحق لما ركبتم في قضيته الظلاما
لقد صارت لكم حكماً وغنماً وكان شعارها الموت الزؤاما

الى ان يقول: شهيد الحق قم تره يتيماً بارض ضُيّعت فيها اليتامى
اقام على السّفاه بها غريباً ومرّ على القلوب فما اقاما
سقمت فلم تبت نفسي بخير كأنّ مبهجة الوطن السقاما
ولم ارَ مثل نعشك اذ تهادى فغطّى الارض وانتظم الاناما

وتجري القصيدة كلها هذا المجرى . وعندي ان هذا الرثاء نظم لا يخرج عن انهُ كلام محبوس في قوافٍ وأوزان . وإذا أردت ان ندلك على هذا فاقرأ مرثية شاعرنا علي محمود طه في فوزي المعلوف لترى الفارق بين شعر الصناعة وشعر الوجدان :

رفّت عليهِ مورقات الغصون وحفّهُ العشب بنواره
ذاك قبر لم يشده المنون بل شاده الشعر بآثاره
بناه من لبنات الفنون وزانهُ المجد باحجاره
التي بهِ الشاعر عبءْ الشجون واودع القلب باسراره (١)

قابل الآن بين الارض السابعة التي تخرج منها مرثية شوقي والسماء السابعة التي يهبط منها خيال المرثية الثانية . ان في الاولى نظماً وصناعة ، اما في الثانية ففيها الوجدان والقلب . في الاولى الحضيض وفي الثانية العلاء . وان كان في هذا دليل على صحة ما نذهب اليهِ من معايير الشعر ونقده ، ففيهِ دلالة اخرى على ان الشعر العربي قد ولد ميلاداً جديداً . اخذ يخاطب السماء بعد ان كان يخاطب الارض ، ورفع رأسه إلى قمة العلاء ، بعد ان كان مطأطأ الرأس الى الحضيض ، ولا يكاد يرى ما تحت قدميهِ

في الاولى يخاطب شوقي الجماهير والسياسيين والملوك . وفي الثانية يخاطب الشاعر الشعر وآلهته والموت وسلطانه والفن وعظمته وشجون القلب وجارف الدمع وسياله :

« ودهر على العالم دارت رحاه فلم تدع رسماً لاطلاله »

تستطيع أن تصيغ كل ما في القصيدة الاولى نثراً فلا يخرج عن كلام الجرائد الذي تقرأه كل يوم ولا تشعر بانك تجهد نفسك في الصياغة ولا في اخراج المعنى . اما اذا حاولت ذلك

(١) نشرت هذه القصيدة في مقتطف نوفمبر ١٩٣٢

في المرثية الثانية ، فانت مكدود الوجدان ثائر النفس ، تختلف على روحك الآثار وتلابسك حالات لست تدريها . وهذا هو الشعر ، وما دونه النظم والصناعة

تتكوَّن صناعة النظم من عناصر يمكنك ان تحصيها ، وفي مقدورك ان تحدّدها. تتكوَّن من الاوزان والقوافي والموسيقى واللفظ والمعنى وروح الشعر . اما «الشعر» فممَّ يتكون ؟ انما يتخذ الشعر هذه العناصر أدوات يستعين بها على أن يبرز مصوغاً في قوالب هي الصناعة الشعرية اما الشعر فليس من هذه القوالب في شيء . أنهُ « جوهر » عرضهُ الصناعة ، وأنت اينا بحثت عن الجوهر لتدركه بحواسك فانك عاجز ما لم تستعن بوجدانك وروحك ، لا بحسك وحده. فاذا وقفت على الشعر الصحيح رأيت انهُ ليس الوزن ولا القافية ولا اللفظ ولا المعنى ولا الموسيقى ، انما هو شيء غير هذه جميعاً . مثلك لو أخذت قطعة من المادة بين يديك وحاولت على قول القدماء ان تميز فيها بين الجوهر والاعراض. فليس الجوهر هو الثقل ولا اللون ولا الطول ولا العرض ولا الصورة ولا أي شيء مما يجري مجرى الاعراض المحمولة في الجواهر. اما الجوهر فاين هو؟ هو موجود ادراكاً ، لان الاعراض محمولة فيه . امّا وجوده حسّاً، فذلك ما ليس في مستطاعنا ان نصل اليه. اما اذا ادركت هذا ، فانت مفرق اذن بين «الشعر» ، وبين صناعة النظم.

***

طوى الشعر العربي صفحته مرتين ، ونشرها مرتين خلال تاريخ اللغة العربية . بظهور الاسلام طوى الشعر العربي صفحتهُ الجاهلية ونشر صفحتهُ الاسلامية الاولى، ثم طوى صفحتهُ هذه بسقوط الدولة العربية عن عرش الخلافة وظلت مطوية حتى هذا العصر الذي قدر لحافظ وشوقي ان يكونا الرائدين اللذين يفتحانها مرة أخرى. على ان هذا الحكم يظهر جائراً اذا لم نبين عما نقصد من ان حافظاً وشوقي كانا رائدي الشعر الذي يفتحان صفحته بعد ان طويت هذه القرون الطوال

بعد ان سقطت الاندلس وخرجت من يد العرب ، طغى على الشعر العربي روحان متناقضان احداها دنيوية وأخرى أخروية . طغت على فئة من الشعراء روح الاستجداء بالشعر يتخذونه وسيلة لقضاء الحاجات الدنيوية ، وعكف اهل الاسلام على الفقه وعلى العلوم الاسلامية يتخذونها سلوى عن خروج الحكم من ايديهم وسقوط دولتهم . وشملت فئة اخرى روح التصوف فكان منهم شعراء غلب عليهم التصوف وروح التفقه في الدين من طريق غيبي ، فكانوا يتخذون الشعر طريقاً الى بث روحهم والى الغاز الشعر ليتوجهوا بهِ الى الطريق الاعلى ، ولكن في قوالب دنيوية، ومثلهم ابن الفارض، لاني لا اذكر من اهل الباطن وغالبهم عالج الشعر، ليكون وسيلة لتأدية رسالته من فاته من حيث الدنو من روح الشعر بقدر ما قرب اترابه من روح التفقه . اضف الى هذا اثر العجمة الذي اذاعه الخارجون عن السليقة العربية في ابواب الادب العربي ، وزد الى هذا وذاك اغراض السياسة عليها اللعنة ، فان السياسة خلال كل العصور ما

أبرزت من أثر ثابت اللهم الا إفساد ما أنبتت روح المجتمع من الامجاد ، وما اشادت روح المجتمع الانساني من شيء الا وكان طعمة لمفاسد السياسة. واذكر بجانب كل هذا نظام القطائع الذي وقعت تحت عبئه اكثر ممالك الاسلام ، بما فيه من روح الاستبداد والاستعباد واحتكام الجهل ذي القوة ، بالعلم ذي الضعف والاستكانة ، وطلب العالم والاديب والفيلسوف رزقه من افراد جهلاء وان كانوا امراء ، ومن جماعات اشد من هؤلاء جهلاً ، و

تلك المصيبة انست ما تقدمها وما لها مع طول الدهر نسيان

ولقد ارخى ذلك الليل البهيم سدوله على جوانب العالم العربي من العراق الى مراكش ومن شمال سورية الى مصر ، وعصفت بالعروبة الروح المغولية فأتت على كل ما فيه من صور الادب ، ولم تترك فيه قائماً ولا صعيداً ، ولم يفلت من أثر تخريبها الا بضعة الآثار التي نجدها اليوم بين ايدينا من مخلفات العرب والمستعربين ، تلك المخلفات التي نجت من ذلك السد العظيم الذي اقامهُ هولاكو على نهر دجلة بمجلدات المكتبة العربية في بغداد . واي زمان استعجم فيه أهل البربر وسوريا كرهاً في الروح المغولية ، وانت اليوم تشعر في كثير من مجامع سوريا انك في قطعة من فرنسا ، وانك في جزائر واق الواق اذا هبطت تونس والجزائر او مراكش ، وكنت تشعر وانت في مصر انك في حلقة اذكار عاشت فيها كل التقاليد الدخيلة على الاسلام والعروبة ، ولم يبق من اسس المجد الذي اقامته الدولات العربية إلا كتاب الدواوين محبوسين في اقفاص من استبداد الامراء وارادتهم ، مكرهين على ان يعيشوا بعيدين عن التأثير في اهل زمانهم ، او ان يحيوا من الادب العربي ما دارت عليه رحى المغول في كل انحاء العالم العربي فتركته خرائب واطلالا

وعجز القدر عن ان يضيف إلى تلك السلسلة التي تصل دائماً بين ماضي الانسانية وحاضرها حلقات جديدة من ابناء آدم وحواء قروناً ، استطاع بعدها ان يضيف اليها حلقتين هما حافظ وشوقي ، فوصل بهما بين ماضي الادب العربي وحاضره ، واحيا بهما روح العروبة الصحيحة بعد ان عدت تلك العاديات عليها . وفي هذا يتكوّن كل ما يمكن ان نعزو اليهما من عظمة خالدة

اما الموازنة بينهما فلا نستطيع ان نقول فيها الا ان كلاً منهما يمتاز بناحية خاصة ، وان لشوقي المنزلة الاولى على كل حال . ولو اننا أردنا ان نستطرد إلى نقد شعرهما اذن لضاقت المقتطف عن ان تسع ما نكتب ، وانا لنبقي على ذلك لفرص أخرى عسى ان تتاح لنا

ولقد اختتم الشعر العربي بموت الشاعرين العظيمين عهداً وفتح عهداً ، ولا اغالي اذا قلت ان الشعر العربي سوف يفوق فيه كل الصور التي تتالت عليه منذ فجر التاريخ الى اليوم . سيغزو الشعر العربي نواحي الطبيعة وابواب الحياة ، ويؤثر في المجتمع ذلك التأثير الثابت الذي لن يحدثه الا الشعر ، غير مشوب بأرجاس الذات والتهالك على الارضيات

حافظ واللغة العربية

للشيخ عبد القادر المغربي (١)

الفجيعة في حافظ هي فجيعة اللغة العربية فيه ولم ينشأ المجمع العلمي الا لخدمة هذه اللغة. والحرص على ارضائها : فاذا بكت اللغة بكى المجمع . واذا صاحت اللغة : واثكلاه واوحيداه صاح المجمع صياحها : واثكلاه واوحيداه ! وهذه لغة الضاد في موت (حافظ) اقامت مأتماً عاماً شمل بلاد العرب كلها : من طنجة الى السليمانية : تبكي في مأتمها هذا حافظاً وتندبه

«لُبنان (٢) يبكيه وتبكي الضاد من حلب الى الفيحا الى صنعاء »

وان اجتماعنا هذا صورة مصغرة للمأتم الكبير الذي اقامته اللغة لتأبين حافظ. وأقوالنا في هذه الحفلة انما هي صدى ندبها وعويلها :

« لقد (٣) رزئت امُّ اللغات وحيدها فان لم تكنه فالأب البرّ والجدّا »
« مشت تتلوّى خلف نعشك كلما دعا باسمها الداعي اجدّ لها وجدا »
« فلما بلغتَ القبر خرّت لوجهها تضجّ وتشكو من تباريحها الجهدا »

حافظ ايها السادة هو الشاعرُ الشاعر . وهو فوق ذلك لُغويٌّ وأخباري

أما كونهُ شاعراً فأمر لايجهله احد . ومن يجهل ان «حافظاً» كان اذا قال شعراً لا يلبث أن تتناقله الافواه . وتتلمظ بحلاوته الشفاه ؟ . شعرُ حافظ يمتزج بالعاطفة فيولّد فيها رقة الشعور . ويمتزج بالنفس فيولد فيها ذوق اللغة . ويمتزج باللسان فيغرس فيه ملكة الفصاحة مدارسة كتب الأدب . واستظهار الفصيح من نوادر اللغة، لايمنح النفسَ واللسان ملكة الفصاحة بقدر ما يمنحها شعرٌ كشعر حافظ : نقيُّ اللفظ منسجمُ الأسلوب مشرق الديباجة يعبر عن خوالج النفس الوطنية الثائرة فيحفزها نحو مطامحها العظمى . وينير امامها الطريق الى مثلها الاعلى . شعر حافظ كالمصباح يمشي نورهُ بين ايدي ابناء امتهِ . فيهديهم الطريق . لا بعيداً عنهم يمشي وحده . ويتركهم في ظلمات لايبصرون . شعرٌ مثل شعر «حافظ» يحيي لغتنا ويحقق قوميتنا ويثبت اقدامنا في اوطاننا . كان (حافظ) رحمهُ الله يقول الشعر لخدمة أمته . لا لخدمة شهرته . وإن فتىً عربيًا او فتاة عربية تحفظ من شعر حافظ قصيدة (غادة اليابان) او قصيدة

« خرج الغواني يحتججـــن وبت ارقب جمعهنه »

فتستفيد منهما ملكةً في اللغة الفصحى . وحميةً في حب الوطن . اكثر من مئة قصيدة غامضة المعنى .

---

(١) من محاضرته في حفلة تأبين حافظ في المجمع العلمي العربي بدمشق وقد نشرت في مجلته
(٢) من مرثية احمد شوقي في حافظ (٣) من مرثية احمد محرم في حافظ

اعجمية الأسلوب . ولولا اني اتكلم عن (حافظ) من ناحيته اللغوية لسردتُ لكم شواهد تؤيد ماذكرت على ان احداً منكم قلما يجهل ذلك من امره . ومعظمكم يستظهر الكثير الطيب من شعره

نحن معشر العرب اصبحنا منذ سنين نهاجم في عقائدنا وفي تقاليدنا وسائر اوضاع اجتماعنا ولم تخلُ لغتنا المحبوبة من هذه المهاجمة العنيفة ايضاً . لم تخلُ من تنينٍ هائل يوائبها . ويحاول القضاء عليها . ذلك التنينُ هو فكرةٌ مشؤومة ترمي الى احياء اللغة العامية وإماتة اللغة الفصحى . ها هي اللغة العربية في حدود سنة (١٩٠٠) اي منذ ثلاثين سنة تقف على ضفاف النيل . شاحبة اللون . مرتجفة الاعضاء والهةً ذاهلة . تندب نفسها . وتشكو مصابها :

« يا ويح أهليَ أبلى تحت أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائي »

داؤها ايها السادة هو ماخامر نفوس أبنائها من زهدهم فيها . وانصرافهم عنها إلى غيرها من اللغات الاجنبية . والى نصرة الفكرة المشؤومة : فكرة إحياء اللغة العامية

تلك الفكرة الممثلة في أحد دهاة الانكليز (المستر ويلمور)

هبط (المستر ويلمور) مصر في ذلك الحين . وقام بدعاية واسعة النطاق للغة العامية المصرية . وخطب في الموضوع وكتب . وحاور وناظر . وألّف كتاباً نشره على المصريين . يدعوهم إلى فكرتهِ . ويقنعهم بصحة رأيهِ . ومما يؤسف لهُ أن يجد (ويلمور) أنصاراً لهُ من الشعوبيين . شايعوه على رأيهِ . وأقاموا ضجةً في القطر المصري اهتزت لها البلاد العربية قاطبة . وكادت تكون لويلمور ولأشياعهِ الغلبة لو لم تصدمهم نهضة حُماة اللغة الفصحى . وفي طليعتهم فقيدنا بالامس (حافظ ابراهيم) فيرفع صوته في وسط تلك الضجة . منشداً قصيدتهُ الخالدة على لسان اللغة الفصحى : تخاطب ابناءها وتسألهم إغاثتها . فتقول :

أيطربكم من جانب الغرب ناعبٌ ينادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تزجرون الطير يوماً علمتمو بما تحتهُ من فرقةٍ وشتات

ثم تلوم الصحف على خوضها في هذا الموضوع فتقول :

أرى كل يوم في الجرائد مزلقاً من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتّاب في مصر ضجةً فأعلم أن الصائحين نُعاتي

ثم تحضهم على الاخذ بالحزم في دفع الضر عنها :

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإنْ عزّ الدواءُ أُساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي

ثم ذكرتهم بجدودهم أبطال الجزيرة الذين كانوا يغارون عليها :

سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً يَعزُّ عليهـا أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظتهُ لهنّ بقلبٍ دائم الحسرات

وعاتبتهم على ميلهم الى اللغة العامية الممزوجة بالالفاظ الافرنجية

أيهجرني قومي عفا الله عنهمو ... الى لغةٍ لم تتصل برواةِ
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعةً ... مشكلة الألوان مختلفات

وعادت اللغة الفصحى إلى وصف مزاياها والتساؤل لماذا عقها بنوها . وهي لم تقصر في خدمة دينهم وحضارتهم . فقالت :

وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً ... وما ضقتُ عن آيٍ بهِ وعظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق اسماءٍ لمخترعات
أنا البحرُ في أحشائهِ الدرّ كامنٌ ... فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي

ثم عيرت ابناءها بالغربيين الذين عزّوا لما عزّت لغاتهم فقالت :

أرى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً ... وكم عزّ اقوامٌ بعزّ لغاتِ
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فياليتكم تأتون بالكلماتِ

ثم ختمت شكواها بتقديم إنذار مخيف الى الكتّاب الحسني الظن بلغات الافرنج وآداب الافرنج فقالت :

الى معشر الكتّاب والجمع حافلٌ ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعثُ الميتَ في البلى ... وتنبتُ في تلك الرموس رفاتي
وإما مماتٌ لا قيامة بعده ... مماتٌ لعمري لم يقس بمماتِ

كانت هذه القصيدة من شعر (حافظٍ) من أمضى الاسلحة التي شهرت في وجه (المستر ويلمور) فأخفقت دعوته . وطويت رايته . ونكص على عقبيهِ إلى بلاده . وكأن أمير الشعراء (احمد شوقي بك) يشير إلى هذا الموقف المحمود الذي وقفه (حافظ) في وجه دعوة (ويلمور) فقال في رثائهِ لهُ :

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... وإمام من نجلت من البلغاءِ
ما زلتَ تهتفُ بالفصيح وفضله ... حتى حميتَ أمانة القدماءِ

وكما حنق (حافظ) على (ويلمور) حنق أيضاً على المستر (بلنت) الانكليزي الذي اشتهر في الدفاع عن القضية المصرية ضدّ قومه الانكليز : فان هذا الرجل كان يرفع من شأن القصص العربية السخيفة العبارة ويقول عن قصة (بني هلال) انها نوع من القصص المسمى (إبيك) وانها إلياذةٌ عربيةٌ صغيرة فما كان قوله هذا ليسُرّ (حافظاً) بل كان يحسبهُ خدعةً ودعوة إلى اللغة العامية

ثم إن فوز (حافظٍ) في هذه المعارك نشّطه إلى متابعة العمل في نصرة اللغة . فاستمرّ يحيي فصيحها . وينثر الدرّ من كلمها إلى آخر نسمةٍ من حياتهِ . بل كان في مجالسهِ . وبين طلاب الادب المطيفين به — كأنه (استاذٌ سيّار) يصحح أغلاطهم . ويرشدهم الى الفصيح من القول . والصحيح من الاساليب . اما مقدرة حافظ اللغوية العملية فتتجلى لنا في الالفاظ الفصيحة التي كان يودعها قصائده ومصنفاته . وقد شهد له بهذه المقدرة (الشيخ ابراهيم اليازجي) : فقد كان يستجيد ذوق حافظ في اللغة . واختيار فصيح كلماتها . قال الشيخ عبد العزيز البشري

« إن (حافظاً) لا يرى جلال الشعر وبهاءه في التعلق بدقائق المعاني : لان هذه المعاني تقع للدهماء والعامة . وانما جلال الشعر وبهاؤه في اشراق الديباجة . ونصاعة القول »

وقال خليل بك مطران : « لحافظ غرام باللفظ لا يقلّ عن الغرام بالمعنى: وهو يؤثر البيت الذي جاد لفظهُ على البيت الذي جاد معناه . فاذا فاته الابتكار في تصور المعنى. لا يفوته الابتكار في تصويره باجزل الالفاظ . وأبلغ الاساليب » . إذن يمكننا القول بان (حافظاً) كان لغوياً من الوجهة العملية التطبيقية كما كان لغوياً من الوجهة العاطفية القومية

وكثيرون من نقاد الادب المعاصرين حمدوا الله على أن كان أسلوب (حافظ) في شعره غير أسلوبه في نثره . فقد كان رحمهُ الله يتأنق في شعره مع مراعاة السهولة والسلاسة . اما في نثره فأمره على العكس . كان يتأنق فيه وينضب نفسه في انتقاء كلماته . لكنهُ لم يوفق الى جعله سهلاً سلساً . فلم يعد نثره مقبولاً الا لدى الخاصة وجهابذة الادب

على أن بعضهم مهّد لحافظ طريق العذر : كالاستاذ لطفي جمعه فانهُ قال :

« ان (حافظاً) على كلٍّ قد احسن الى قراء العربية وكتابها : وذلك لانهُ أنعش أسلوب الكتابة . وحفز الهمم للبحث عن الألفاظ الجزلة . وأثر في كتابة الصحف أثراً نافعاً »

ثم إن عناية (حافظ) باستعمال غريب اللغة كان على اشده في ترجمة (البؤساء) فلم يُرض ذلك أنصار الادب الحديث . وإنما أرضى انصار الأدب القديم كالشيخ محمد عبده فانه رحمه الله كان يعجب بكتابة حافظٍ وما تضمنته من الالفاظ الجزلة وكان يقول : « ان كان بؤس حافظٍ هو الذي أدى إلى استخراج كتاب البؤساء فندعو الله ان يزيده بؤساً حتى يزيدنا من هذا الادب الجميل »

ولا غرو ان يرحب مجمعنا العلمي بنثر (حافظ) كما رحب به الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . لاننا معشر أعضاء المجمع أول ما يهمنا من الآثار الأدبية ان تكون لغتها صحيحة وان تستوعب من روائع كلمات اللغة ما كاد يميته الجهل . ويطمس عليهِ شيطان الشعوبية

واللغات كما تنمو باضافة كلمات أجنبية اليها تنمو بأحياء القديم الفصيح من كلماتها . وقد تفطن (حافظ) إلى هذا فأودع مصنفاته الكثير الطيب من تلك الكلمات. وان كتابه (الاقتصاد السياسي) الذي ألفه أو ترجمه (مع صديقه خليل بك مطران) ليثقف الطلاب على هذا العلم . ويقرر لهم قواعده لكنه أودعه من (الالفاظ الكتابية) ماجعله كتاب أدب ولغة . أكثر مما هو كتاب علم واقتصاد .

وكذلك شأنه في كتابه (سطيح) الذي تقد فيه أحوال المصريين وأفرغ حوادثه في قالب قصة نسب روايتها الى من سماه (سطيحاً) . فالكتاب إذن رواية قصصية وكان ينبغي ان تستجمع شرائط القصة وليس من شرائطها أن تكون بهذه الاساليب الفخمة. وأن تحتوي هذ القدر من الالفاظ الجزلة

وهذا كتابه (البؤساء) الذي نقل فيه إلى العربية بؤساء (ڤيكتور هيغو) . وڤيكتور هيغو جعل أبطال بؤسائه من طبقات مختلفة . وجعل كل بطل منهم يتكلم باللهجة التي اعتادتها طبقته . فالسوقي العامي مثلاً لا يتكلم بلغة العالم الأديب . ولا العكس . وطريقة (هيغو) هذه مطابقة للمبدإ

الذي قرّره أديب العرب الأكبر (الجاحظ) في كتابه الحيوان : من أن الواجب في نقل عبارات السوقة وألفاظ العامة أن تروى كما هي اي مغلوطة ملحونة والأذهب رونقها وضعف تأثيرها

وشاعرنا (حافظ) رحمهُ الله كان كلفهُ بفصيح اللغة وجزل ألفاظها يحمله على أن يترجم كلام السوقة من أبطال البؤساء بعبارة فخمة الالفاظ لا ينطق بها عادة الا الفصحاء

فالبنّاء الذي يبني رصيف الشارع اذا أراد أن يتكلم هل ينطق بكلمات (تيامن ثم تياسر) و (ركب المحجة) و (ما أخلقك يا فلان بكذا) . هكذا (حافظ) ترجم لنا كلام البنّاء الافرنسي . ووصف لنا فرساً بأنهُ (سحير . عصلب . أهنع . أدكّ . مفتوح اللبان) و(فلان لبث معلّقاً بخيط من الاجل تحت شق مقصّ الفناء) ... الى غير ذلك مما حمله ولوعه به على استعماله في غير مواطنه . مواطن هذه الكلمات كتب الادب و (المقامات) . لا القصص والروايات . فحافظ بهذا الاعتبار خلق لغويًّا كاتباً . بل كاتباً مقاماتيًّا قديماً . لا كاتباً روائيًّا حديثاً . اما هو في الشعر فعلى العكس : اذ كان لا يستعمل غريب اللغة بكثرة تدل على شرهه وحرصه . فمن ثم لم يكن لغويًّا في شعره . كما كان لغويًّا في نثره . ولكن هذا الشره الى غريب اللغة في النثر إن كان ساء اقواماً فانهُ لم يكن ليسوء مجمعنا العلميّ الذي يحرص على ان تحيى اللغة العربية بإحياء الفصيح من كلماتها. والقديم الرائع من تعابيرها . لذلك كانت فجيعة المجامع اللغوية بحافظ من جهة لغته ونثره تعادل بل تفوق فجيعة الامة العربية به من جهة نظمه وشعره

***

وصفنا لكم (حافظاً) العضو في مجامع اللغة والادب أما (حافظ) العضو في مجالس الانس والطرب فاليكم طرفاً مما يتسع له المقام :

يظهر أن أهل (حافظ) تنبأوا يوم ولادته بأن سيكون مولودهم كثير الحفظ لاخبار العرب وأشعارهم ومستملح نوادرهم فسمّوه (حافظاً) . روى اصدقاء (حافظ) انهُ كان يعمل على وضع مصنف في المرقص من شعر العرب: يختار فيه لكل شاعر بيتاً من اروع ابياته وقد جمع مواد ذلك الكتاب . حتى بلغ نصفه . فاختار لبعض الشعراء مثلاً قوله :

ولا بدّ لي من جهلة في وصاله فهل من كريم أودع الحلم عنده

واختار لغيره غيره وهكذا . وان اتساع (حافظ) في حفظ بليغ اشعار العرب على هذه الصورة أثر فيه ذوقاً في اللغة العربية . فكان انق الشعراء المعاصرين عبارة . وأصحهم تركيباً. وأكثرهم تدقيقاً في اختيار الفصيح الرائع من الالفاظ . وليس هذا فقط بل إن حفظه لاخبار العرب جعله نديماً ظريفاً : غير مملول المجلس . ولا مأجوم الحديث

وقد استحسن الدكتور (زكي مبارك) ان نطلق على (حافظ) ومن كان على شاكلته من حفّاظ اخبار العرب — كلمة (محدّث) قال . وهو الذي يسميه الافرنسيون Causeur وانا

لا اوافق الدكتور على ما قال: لان لقب (المحدّث) غلب في لغة الاسلام على راوي احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وان في آدابنا العربية كلمة اخرى احق بالقبول وأجدر وهي كلمة (أخباري) نسبة الى التبحر في الاخبار والاتساع في الرواية

وقد كان (الجاحظ) اكبر (اخباري) قام في الاسلام. وبعده المسعودي والمحسّن التنوخي صاحب نشوار المحاضرة وغيرهم كثيرون. وسمي (الجاحظ) هذا العلم (علم الخبر) وأُثر عنه انه قال (علم الخبر هو علم الملوك). وعلى هذا يمكننا ان نقول: ان حافظاً كان اكبر المعاصرين في (علم الملوك) عندنا. كما كان (اناتول فرانس) اكبر استاذ في هذا العلم عند الافرنسيين. وكان (حافظٌ) رحمهُ الله يعرف من نفسهِ التفوق في هذا العلم: استأذن يوماً على المغفور له (سعد زغلول) وكتب اليهِ هذين البيتين:

قل للرئيس جزاه الله صالحةً بأن شاعره بالباب ينتظر
إن شاء حدَّثهُ او شاء اتحفه بكلِّ نادرة تُروى وتبتكر

وقد اتفقت كلمة من ترجم لحافظ كما اتفقت كلمة فضلاء دمشق الذين حضروا مجالسه في زيارته الاخيرة لبلدهم — انهُ ابرع اخباريٍّ واظرف نديم عرفوه في حياتهم. ولولا وقار (مأتم التأبين) لروينا لحضراتكم شيئاً من ملحهِ الادبية مما يدل على شدة ذكائه. وقوة حفظه

***

على انني مهما اغفلت ذكر خبرٍ من اخبار حفظه. لا احب ان يفوتني ذكر خبر مستغرب اتفق له مرة في نسيانه: ذلك انَّ (حافظاً) يحفظ اخبار الاولين والآخرين ويروي ما يحفظهُ بكل دقةٍ وتثبّت. ولكنهُ مع هذا ذهل مرةً عن خبر (قصر الجزيرة) الذي كان للخديوي اسماعيل ثم اتخذ فندقاً لكبار السياح ثم صار قصراً لآل لطف الله — فروى لنا (حافظ) ان هذا القصر اصبح (بستان حيوان). وذلك قوله من قصيدة[1] وصف فيها ذلك القصر:

كنت بالامس جنة الحور يا قصـ ـر فأصبحت جنة الحيوان

ولعمري ان نسيان (حافظ) لخبر هذين القصرين اللذين هما على مرمى سهم من نظراتهِ. وطالما لمحهما في غدواتهِ وروحاتهِ — أمرٌ مستغربٌ جداً نرويه في غرائب أخباره بعد مماته. كما كان رحمه الله يروي غرائب أخبار من كان قبله في حياتهِ. وهذا النسيان من (حافظ) يشبه ما روى عن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده انه استأذن يوماً على بعض إخوانه. فسأله الحاجب عن اسمهِ. فأطرق يتذكر

رحم الله (الشيخ عبده) ورحم (حافظاً). وهل ترون الزمان. أيها الاخوان. يخلف علينا مثلهما في العلماء والشعراء؟ إن فعل نكن حقاً من السعداء

(١) هذه القصيدة منشورة في ديوان حافظ المطبوع سنة (١٩٠٧) ولم أجدها في ديوانه الذي طبع سنة (١٩٢٢)

الشهب

الشهاب ما يرى في الليل كأنهُ كوكب انقضَّ من ناحية في السماء واختفى في ناحية اخرى. وقد اصطلح الذين كتبوا في علم الفلك الحديث بالعربية[1] على ان النيزك شهاب كبير ينقضُّ كالشهب ولكنهُ ينفجر ويسمع لانفجاره صوت شديد ثم يختفي . والرُجُم شهب او نيازك تصل الى الارض كحجارة معدنية مفردها رَجْمٌ

ومنظر الشهب المنقضة من اروع المشاهد الطبيعية وأبقاها اثراً في النفس . قال الدكتور نمر في المقالة المشار اليها في الهامش: « فلن ننسى هولَ ليلةٍ شهدناها ايام الصبوة وقد انقضَّت شهبها حتى غصَّت بها الآفاق وانبهرت بسناها الآماق . وكان الرجال يهللون ويكبرون والنساء راخيات الشعور ينادين بالويل والاطفال تضجُّ والمدينة في هرج ومرج كأن الأرض خربت وكواكب السماء تساقطت . والذي يعتري العامة الآن كان يعتري الناس من قديم الزمان ولذلك علقوا حدوث هذه الحوادث بأنباءٍ لها وقع وشأن . روى مؤرخو العرب ان ليلة وفاة الخليفة ابرهيم بن محمد في شهر اكتوبر سنة ٩٠٢ للمسيح انقضَّت كواكب السماء حتى استنار بها الفضاء وخيل للناس ان عيون السماء تبكي على الخليفة نجوماً . وروى المؤرخون الفرنسيون ان شهب السماء انقضَّت انقضاضاً عظيماً في ٢٥ ابريل سنة ١٠٩٥ حتى كأنها منهمل المطر او متناثر البرَد فتطيَّروا بها وخافوا من انقلاب عظيم في النصرانية .... »

ووصف السر روبرت بول Ball الفلكي الانكليزي وابل الشهب المنقضة في ١٣ و ١٤ نوفمبر سنة ١٨٦٦ قال ما ترجمته: كان الليل حالكاً لغياب القمر والسماء صافية وامتازت الشهب المنقضة بكثرتها وشدة تألقها . في تلك الليلة المشهودة كنت اقوم بعملي العادي وهو رصد السدم بمنظار رُس العاكس . وكنت اعلم ان علماء الفلك تنبأوا بانقضاض وابل من الشهب ولكنني لم اكن اتوقع ذلك المشهد الرائع الذي رأيت . وكانت الساعة نحو العاشرة اذ سمعت من احد مساعديَّ صوتاً حوَّلني من المنظار الى قبة السماء فرأيت شهاباً منقضاً تاركاً وراءهُ خطاً طويلاً من الضياء ثم تلاهُ آخر ثم جعلت الشهب تنقضُّ جماعات فدلَّ ذلك على ان تنبؤ العلماء قد صح او كاد . . . ولبثنا ساعتين او ثلاثاً نتمتع بمشهد لن يمحى من ذاكرتي . وزاد عدد الشهب المنقضة حتى اصبحنا لا ندري لكثرتها في أية ناحية نراقبها فكانت تارة تنقضُّ فوق رؤوسنا وطوراً الى اليسار او الى اليمين . ولكنها كانت كلها منبعثة من نقطة عند الافق . فلما تقدم

---

(١) الدكتور فارس نمر في مقالة عنوانها «الشهب والنيازك والرجم» في مقتطف مارس ١٨٨٤ صفحة ٣٥٥ وكتاب الظواهر الجوية في الباب التاسع والدكتور صروف في بسائط علم الفلك صفحة ٧٤

الليل وارتفعت كوكبة الاسد فوق الافق الشرقي ، ورأينا مساري الشهب صادرة منها »

ووصف احد الكتّاب وابل الشهب الذي شوهد في شمال اميركا الشمالية في ٩ فبراير سنة ١٩١٣ قال ما خلاصتهُ : «ظهر بغتة في الشمال الغربي جسم ناري احمر واصفر ذهبي له ذنب فسار الهوينا في خطٍّ افقي الى ان بلغ اقصى الجنوب وغاب عن الابصار . ولم يكد يغيب حتى ظهر مجموع من الاجسام النارية اقتفت اثره ، وسارت سيره كأنها سرب من المركبات النارية ، مؤلفٌ من اجسام مجموعة مثنى وثلاث ورباع . ولكل منها ذيل يجرّهُ وراءهُ . ولما غاب ظهر مجموع ثالث . والغريب بطء سيرها [1] — لبعدها — وانتظامها مثنى وثلاث ورباع . ولما مرَّ نصفها ظهر جسم كبير جدًّا . . . فلما غاب آخرها سُمِعت خمسة اصوات او ستة كالرعد آتية من الشمال الغربي» . ويرى الدكتور فشر احد علماء مرصد هارفرد ان مشهد هذا الوابل اروع مشاهد الشهب التي وُصفت

﴿ حجمها ﴾ الشهب اجسام مادية مظلمة منثورة في رحاب الفضاء او تدور في افلاك معينة حول الشمس ، تلتقي بها الارض في مسيرها حول الشمس بسرعة ١٨ ميلاً ونصف ميل في الثانية . ومعظم هذه الاجسام دقيق الحجم لا يزيد عن الرمل الدقيق او رشاش البنادق او الحصى الصغير . فاذا دخلت جوَّ الارض وهي سائرة بسرعة كسرعة الارض او تفوقها ، اصطدمت بالغلاف الهوائي ، فتخفُّ سرعتها ، وتتحوَّل طاقة حركتها الى طاقة حرارة — تتباين حرارة هذه الاجسام اذ تتألف من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ درجة سنتغرادٍ — فلا تلبث ان تضيء . فهي اذاً لا تضيء الاَّ بعد ان تدخل جوَّ الارض على نحو سبعين ميلاً فوق سطحها وتختفي في الغالب ، بعد ان تنفد مادتها ، على خمسين ميلاً ، بعد مسير يبلغ طولهُ نحو ٣٥ ميلاً — لانها لا تنقضّ في خطٍّ عمودي — وقد قدَّر الاستاذ شابلي مدير مرصد جامعة هارفرد ان نحو عشرة ملايين من هذه الاجسام تدخل جوَّ الارض كلَّ يوم ، ولكننا لا نرى منها الاَّ طائفة قليلة ولو استعملنا المنظار ، لان بعضها ضئيل النور جدًّا . على ان بعض هذه الاجسام كبير الحجم لا يتلاشى في اثناء تألقهِ لدى مروره في الهواء فيصل الى سطح الارض ويصدمها صدمة عنيفة يحدث فيها غوراً كبيراً وهي الرُجُم كما مرَّ

ففي ولاية اريزونا غور يقال لهُ غور الشيطان يبلغ قطرهُ ٤٠٠٠ قدم وعمقهُ ٦٠٠ قدم وهو يشبه فوهة بركان ويقال انهُ نشأ من انقضاض رجمٍ ضخم في العصور السابقة للتاريخ ولا يعلم ما يقاربهُ في العصور الحديثة . وانما انقضَّ رجمٌ في سيبيريا سنة ١٩٠٨ يقال انهُ أحدث ريحاً حارَّة في اثناء انقضاضهِ ذوت لها الاشجار في البقعة المجاورة لمكان وقوعهِ . ولما كان ثلاثة ارباع سطح الارض مغموراً بالماء فالمرجح ان كثيراً من الرُجُم يقع في البحار ويغوص إلى اغوارها

(١) قدر الدكتور تشانت سرعتها بستة اميال في الثانية اي ٢١٦٠٠ في الساعة وهي سرعة عظيمة انما بدت بطيئة للمراقب على سطح الارض اذا قيست بسرعة الشهب العادية لانها مرت في طبقات الجو العليا

ويقال ان القومندور بيري — مكتشف القطب الشمالي سنة ١٩٠٩ — كان في سنة ١٨٩٤ يقضي الشتاء في جرينلندا فسار به بعض رجال الاسكيمو ليروهُ «قطع الحديد الضخمة». فعرف بيري انها بقايا ثلاثة رُجُم كبيرة. ولكنهُ لم يجد ما يمكنهُ من معرفة تاريخ انقضاضها وانما نقل اليهِ بالسماع انها انقضَّت نحو مائة سنة قبل ذلك. وكان رجال الاسكيمو يدعونها «الكلب» «والمرأة» و«الخيمة» وفقاً لشكلها. وعاد بيري في السنة التالية لنقلها ففاز بنقل الكلب والمرأة بعد ما لقي الامرَّين. واما الخيمة فاستعصت على رجاله حتى كانت سنة ١٩٠٣ ففاز بنقلها فلما وزنت بلغت ٣٦ طناً ونصف طن، وهي محفوظة في متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك

﴿ مادتها ﴾ ان الرجم التي نقلت الى متاحف التاريخ الطبيعي — كرُجُم بيري — مركبة من صخور مبلورة او حديد او من مزيجهما. ولكن هل الشهب الصغيرة التي تتلاشى قبل وصولها الى الارض مركبة من صخور مبلورة وحديد كذلك؟ ان الاجابة عن هذا السؤال لا تجيءُ الاَّ عن طريق السبكترسكوب (آلة الحلّ الطيفي) على شريطة ان يقام التلسكوب ويوجَّهُ الى الشهاب المنقضّ، لكي يصوّر طيف نورهِ. ولكن هذا متعذّر لان الشهاب ينقض فجأة ولا يلبث منقضاً الاَّ لمحة من الزمان لا تكفي لتوجيه السبكترسكوب اليهِ. وقد تمكن بعض الفلكيين من تصوير شهاب منقض في اثناء تصويرهم لطيوف النجوم، وانما اختلط طيف الشهاب بطيوف النجوم، فتعذر عليهم تبين الواحد من الآخر. وفي سنة ١٩٢٤ فاز العالمان الالمانيان هاس Haas وشواسمان Schwassmann بتصوير طيف شهاب منقض فتبيّن فيهِ خطّي عنصر الكلسيوم المعروفين بحرفي H, K وخطوط عنصر الحديد. وحديد الرجم يكون عادة خليطاً من الحديد والنيكل وعناصر اخرى. ولم يسفر البحث في بناء الشهب عن وجود اي عنصر جديد فيها غير موجود على الارض

(اصلها) ذهب بعض العلماء إلى ان الشهب اجسام انطلقت من براكين القمر قبلما خمدت ولكن علماء الفلك لا يأخذون بهذا الرأي الآن. ويرى غيرهم انها بقايا سيّار تهشم او هي مخلّفات من المادة التي تكوّنت منها الارض. ثم ان بعضهم يقول انها اجزاء من ذوات الاذناب وعلى ذلك جلّة علماء الفلك الآن. فقد كشف الباحثون ان طائفة كبيرة من الشهب تسير في افلاك معينة حول الشمس وان هذه الافلاك تتفق في كثير من الاحيان مع افلاك بعض المذنبات. فالشهب التي انقضَّت سنة ١٨٨٥ من بقايا مذنب بيلا Biela الذي اكتشفهُ القبطان بيلا النمسوي سنة ١٨٢٦ فلما ظهر هذا المذنب سنة ١٨٤٥ انشطر قطعتين تباعدتا ولما ظهر سنة ١٨٥٢ كان البعد بين شطريه قد زاد فلما حان ظهورها سنة ١٨٧٢ انقضت الشهب انقضاضاً عظيماً من المكان الذي كان ينتظر ظهورها فيهِ فترجح ان جانباً منهُ تمزق أو تفرقت دقائقهُ فسهل جذبها واحترقت من احتكاكها بجو الارض. ومع ذلك يبقى عدد من الشهب لا نستطيع تعليلهُ بما تقدَّم اي انها ليست من اجرام المجموعة الشمسية. وقد اثبت البحث انها اتصلت بنا من اعماق الفضاء. ذلك ان

كل جسم لا تزيد سرعتهُ على ٢٦ ميلاً في الثانية لا يستطيع ان يفلت من جذب الشمس فيسير في فلك اهليلجي — تزيد استطالتهُ أو تقل بحسب سرعتهِ — حول الشمس . فاذا دخل جوَّنا جسم تزيد سرعتهُ عن ٢٦ ميلاً في الثانية ثبت لنا انهُ قادم من خارج المجموعة الشمسية . وقد قيست سرعة بعض الشهب ففاقت ٢٦ ميلاً في الثانية وبلغت سرعة بعضها ٧٥ ميلاً في الثانية

﴿ وابل الشهب ﴾ وثمة احيان لا تنقضُّ الشهب مفردة متفرقة بل تنقضُّ كوابل . وقد قصَّ فون همبولدت (Humboldt) العالم الطبيعي الالماني في اسفارهِ انهُ استيقظ في فجر ١٢ نوفمبر سنة ١٧٩٩ ليرى وابل الشهب فقضى اربع ساعات يشاهد الشهب تنقض من الشمال إلى الجنوب فوق الافق الشرقي بعضها كبير كالقمر وبعضها في حجم المشتري . فكانت تترك وراءها خطوطاً من الضياء وكان بعضها ينفجر . وفي ١٢ نوفمبر سنة ١٨٣٣ شوهد وابل من الشهب في الولايات المتحدة الاميركية فاشار حينئذٍ العالمان الاميركيان اولمستد Denison Olmstead وتوينِنغ A. C. Twining إلى انهما شاهدا الشهب تنبعث من ناحية كوكبة الاسد . فكان ذلك حافزاً للعلماء إلى البحث وجعلوا ينقبون في المؤلفات القديمة ليطلعوا على وصف انقضاض الشهب في العصور الماضية . فوضع الاستاذ نيوتن احد اساتذة جامعة يايل جدولاً يبدأ سنة ٩٠٢ — وهي السنة التي اشار اليها الدكتور نمر لدى ذكر انقضاض الشهب يوم وفاة الخليفة ابرهيم بن محمد — فتبين لهُ ان انقضاض وابل الشهب من كوكبة الاسد يقع مرة كل ٣٣ سنة ، وتنبأ بان الوابل التالي يقع في ١٣ نوفمبر ١٨٦٦ — وهو الوابل الذي وصفهُ السر روبرت بول

فثبت من بحث الاستاذ نيوتن امران : الاول ترجيح وجود منطقة من الشهب تدور حول الشمس وتقترب من الارض في كل نوفمبر . وان الارض تخترقها مرَّة كل ثلاثٍ وثلاثين سنة في الشهر عينهِ وهذا تعليل ان وابل الشهب الاسدية Leonids نسبة إلى كوكبة الاسد لا تُرى منقضة كوابل الاَّ مرة كلَّ ثلاثٍ وثلاثين سنة في شهر نوفمبر . ولكن هذا لا يمنع ان نرى بعض الشهب الاسدية كل سنة في نوفمبر اذ تقترب الارض من هذه المنطقة

ولما حان ميعاد وابل الشهب الاسدية سنة ١٨٩٩ لم تنقض كما كان ينتظر وظنَّ ان السيارات الخارجية جذبت الشهب فكانت بعيدة عن الارض لما مرَّت الارض في منطقتها

وتنسب شهب الوابل إلى الكوكبة التي تنقضُّ منها فالشهب الاسدية تنقضُّ من كوكبة الاسد حوالي ١٣ نوفمبر وشهب المرأة المسلسلة Andromedids تنقض من كوكبة المرأة المسلسلة Andromeda حوالي ٢٧ نوفمبر والشهب الفرساوسية تنقض من صورة فرساوس Perseus في ١١ يوليو و ٢٠ اغسطس وشهب التنين Draconids تنقضُّ من كوكبة التنين Draco في ٢ يناير وشهب اللورا (السلياق) Lyrids تنقض من كوكبة اللورا Lyra في ٢٠ ابريل وشهب الدلو Aquarids تنقضُّ من كوكبة الدلو Aquarius في ٦ مايو و ٢٨ يوليو وشهب الجبار Orionids تنقض من كوكبة الجبار Orion في ١٠ و ٢٤ اكتوبر

الشخصية

من الناحية الفسيولوجية

للدكتور ابرهيم ناجي

« الشخصية » — ما هي الشخصية ؟ ! ان مشكلة الشخصية عند الفلاسفة تدور على حقيقة وجود الذات ، وهل هناك شيء ثابت يسمى الذات او الروح او النفس ؟ فوليم جيمس يشير الى ما يسميه تيار الوعي ويقول ان تجارب المرء الخاصة ، في سبيل ذلك المجرى ، تتوحد في احساس يُشعر بما يسمى بالذاتية Selfhood والفلاسفة الحديثون امثال مير مجتون وبرنجل باتيسون ، وبرادلي ، يؤمنون بحقيقة الذات ، ويبرهنون على ذلك في بحوث طويلة ، وينقسمون مذاهب لها مريدون واشياع

ومن الوجهة الاجتماعية ، يعرف العالم لوران Laurent الشخصية بانها صفة التفرد ، والنزعة الخاصة originality ، ولستَ ذا شخصية مطلقاً حتى يكون لك اسلوبك الخاص ، فان كنت اديباً ، فلا يهم أن تقرأ أو تلاحظ ، أو تنقد ، وانما المهم أن يكون لك تفكيرك الخاص واسلوبك الذي تتفرد به وتتميز ، وان كنت سياسياً ، او زعيماً وطنياً فالمثل الاعلى هو غاندي فله طريقته الخاصة في الدعوة ، وفي النضال ، وهو متفرد بمغزله ، وعريه ، وشكله ، وقد تفرد اخيراً باسلوبه في الموت !

على ان الذي نحن بصدده الليلة ، والذي يهمنا من الناحية العملية هو وجهة نظر الاستاذ ماريون وتعريفه للشخصية بانها مرادفة للارادة المتحررة ، الارادة التي خلصت من العقبات ، والمناقضات التي تعترضها في افق العقل ، وتكبلها : الارادة التي تحررت بعد الموازنة ، والتمحيص ، وتقليب الرأي : الارادة المتزنة الهادئة الواثقة ، الماضية الى غرضها في اطمئنان وعظمة ، الارادة المتحررة لا الرغبات ، ولا الميول ، فما الرغبات والميول إلاَّ سحب قلقة مضطربة غير ثابتة ، ملازمة للغرائز ، وما هي الاَّ غمامة تتلبد في افق الروح ، ولا تمطرها !

الارادة المرادفة للشخصية ، المرادفة للشعور بالذات ، والكرامة ، والقوة ، هي غرض المربين ، وعماد الذين يسعون في تكوين امة من الامم وانشاء جيل قوي العزيمة متين الخلق نريد ان نكوّن شخصيات قوية ، مع الاعتراف بأن المواهب الخارقة غير متاحة لكل فرد ، وانها شعل الهية من السماء تختار افراداً دون افراد غير اننا بدرسنا للعوامل المكونة للشخصيات

(١) من محاضرة القيت في جمعية الشبان المسيحية في القاهرة وقد تناول ابرهيم المصري الموضوع من الناحية النفسية ونشر بحثه في البلاغ .

القوية وفهم الاسرار التي ادت الى بروزها ، والاشياء التي تضعفها او تكبلها او تلاشيها ، نستطيع ان نفهم الجوانب الخفية في النفس ، ونغوص في اغوارها السحيقة للبحث عن كنوز مختبئة ، فنسمو بأنفسنا وبغيرنا ونبني اجيالاً قوية كاملة

اما العوامل النفسية في بناء الشخصية وقوتها ، فلي ان اذكر منها فقط ما يتعلق ببحثي ، فأقول ان ذوي الشخصيات البارزة تفردوا فيما تفردوا به بأنهم درسوا انفسهم ، ودرسوا انفس الناس ، وانتهوا من المقارنة ، على نور الاخلاص التام ، والتحرر الكامل من الغرور الى رأي ، الى طريقة ينتهجونها في سبيل الكمال . والواقع ان درس النفس من اشق الامور فأغلب الناس ذوي الشخصيات العادية مفتونون بأنفسهم متحيزون لصفاتهم ، يضفون عليها الواناً من العظمة ليست لها . ولذلك يقفون عند حد ولا يتقدمون ابداً بينما الآخرون يبحثون في اغوار المنجم عن الماس ، فيبرزونهُ ويصقلونهُ ، حتى يصير خاطفاً للابصار ، ويتعهدون احسن ما فيهم كما يتعهد البستاني اجمل اشجاره بالري والتشذيب ، وبينما هم في ذلك الصقل النفسي ، يمشون نحو الكمال والتفرد ، يكون لذلك اثره في وجوههم ومشيتهم وحديثهم واشاراتهم

وانا لا نعلم على وجه من الدقة كيف تطبع الروح الجسد على هذا النمط ، ولكن الواقع اننا لا نكشف انفسنا بكلماتنا بل على الضد من ذلك نتكلم لنسدل قناعاً على حقيقتنا ، وعند ما نشير او نمشي ، او نأتي بحركة ما على غير قصد ، نكشف اخفى ما في طبائعنا ، والاستاذ فانس على حق حين يسمي الجسد مرآة الشخصية ، ويريك في كتابه البديع[1] كل دقائق الشخصية في تلك المرآة

﴿ فمشية ﴾ الشخص مثلاً تدل على مقدار الارادة والقوة الحيوية وضبط النفس وهي تضع الانسان في مكانه في الهيئة الاجتماعية وتدل على جنسه وعلى حرفته وقليلاً ما تخطيء ، فالجندي الذي ترك الجيش مثلاً نستطيع ان نميزه مهما تكلف غير مشيته على ان المشية مع ذلك لا تدلُّ على قوة الذهن في شخص من الاشخاص

﴿ الصوت ﴾ الصوت لا يهم علوه ولا انخفاضه في الدلالة على الشخصية ولكن العلماء المحدثين يعنون بشيء واحد ، ويسترعون انتباهنا له ، فيقولون انه بصرف النظر عن دلالة الصوت على ابناء امة من الامم واستحالة التقليد مهما طالت اقامة شخص غريب بين قوم ليسوا بقومه ومهما تعلم لغتهم واتقنها — كل هذا يقولون انه لا يدل على شخصية الانسان دلالة رنين الصوت الموسيقي the timber, instrumental sound of the speakers voice, فقلما تجتمع بضع نبرات une فتحدث لحناً حزيناً أو مفرحاً فاننا لو ارهفنا السمع قليلاً ، وعودنا آذاننا بالمرانة ، أمكننا ان نصيب في الحكم على كثير من الناس . مثلاً ، عرفت من عهد قريب رجلاً يتحدث بنغمة مختنقة متزنة بلا رنين ، وعند ما يحاول ان يقنعني تتغير

(١) Mirror of Personality

النغمة إلى صوتٍ جاف كصوت الصلب ، وعلى الاطلاق كان يخيم الغموض والابهام على كل هذا ، فلم اكن مطمئناً اليهِ ، واستنتجت على الفور انه رجلٌ ذو روح مختنقة جافة مبهمة كحالة صوته وقد صدق ظني فيما بعد . كذلك تعرفت إلى آخر صوته كرنين النحاس فاذا بمعاملاته لاصحابه — على ثقافتهِ وسعة علمهِ — لها هي الاخرى هذا الرنين وعنفه

وثالث تعرفت اليهِ ، وكان لصوته رنة الناي الحنون ، فتبين لي بعد معاشرتي اياه ، ما استقر في اعماق روحه من الرقة ، والذوق الفني ، وحب الجمال ، والاحساس بهِ

والخلاصة أننا بمرانةٍ قليلةٍ لا نخطىء تقدير الشخصية من نبرات الصوت

﴿ الايدي ﴾ اما اليدان فقد قرأت كتاباً للكاتب النمسوي المشهور ستيفان زفيج يدعى ٢٤ ساعة في حياة امرأة ، اجاد فيهِ وصف ، شخصيات الناس من ايديهم دون النظر في وجوههم ، واراه في ذلك مصيباً كل الصواب فان اليد تدل على شخصية صاحبها في احدى حالات ثلاث وهي ساكنة ، أو وهي تشير ، أو وهي تصافح . اما الحالة الاولى فاهم ما فيها الزاوية التي بين الاصابع مجتمعة ، والمعصم . فقد ترى يداً تشابه يد القرد ، واخرى كمخلب الطير المفترس ، وثالثة لا تراها حتى تشعر بالقسوة الكامنة في صاحبها وغيرها تدلك على نبل الاصل ولا يمكن ان تخطىء مهما تقلب الزمان بصاحبها . اما الحالة الثانية وهي الاشارة فتدل بوضوح على مبلغ الاحساس والرشاقة ، والثقافة ، والعصبية

اما المصافحة فهي اوضح من كل هذا ، فهذا يصافحك من قلبهِ وهذا يدعك تصافحهُ ، وذاك يزج في يدك حربة لا يداً وآخر يفلت يده بسرعة .... فلمسة اليد البسيطة للذي يدقق تكشف اغواراً سحيقة من الروح لا يدري صاحبها انه مزق سترها ، بهذه المصافحة من دون ان يشعر

اما الجمجمة ، من تركيب الرأس والفك والعينين ، فهي بلا شك المرآة التي لا جدال في صحتها وصدقها . ولا سبيل إلى الاستفاضة اليوم فان الموضوع مغرٍ بالتوسع فيهِ ولكني أقول عن الرأس ان الشائع ان الاذكياء هم كبار الرؤوس وهذا ليس بصحيح دائماً ، وان بروز الجبهة ايضاً دليل الذكاء وهذا ليس بصحيح دائماً وانما الصحيح ان الخط الممتد من الحاجب إلى مؤخر العنق في الاذكياء يكون مقوساً تقويساً كافياً ومتناسباً[1] وحافظاً لنسبة معقولة بينهُ وبين الخط الواصل بين الاذنين ، اما الناس ذوو الرؤوس المسطحة المضغوطة فليسوا على شيء من التفرد ولا الذكاء . اما من جهة العينين فقرب احداهما من الاخرى يدل على ضيق الذهن والخسة بعكس العيون البعيدة في الوجه الفسيح ، فهي تدل على العبقرية او على شبهها وهو الجنون ولعل اهم ما في العين هو الالق . البريق . النور الذي تشعه ، ويدل على الصحة والحيوية ، والقوة ، والعصبية ، والاحساس بالحياة ، وما هو مضحك وغريب فيها

(1) Having a good sweep and symmetry

اما الفك ، فهناك الفك المنيف الدال على الوحشية ، كفك الغورلا ، والمتوسط القوة الذي لو تكلم لقال اني قوي وقادر على التغلب على اي عقبة كائنة صعوبتها ما كانت ، والفك المنتهي الى ذقن شوهاء ، مدفونة في العنق، تدل على تشوه خلقي بل على شخصية ضعيفة عاجزة

ان هذا الموضوع الشائق موضوع مميزات الجسد ودلالتها على الشخصية لا ينتهي واني لاشعر اني امشي وراءه فهو يصرف عنايتي عن سواه من الامور التي اود بسطها الليلة

قلت ان الارادة القوية والشعور بالذات والكرامة غرض التربية فاذا صرفت النظر عن الناحية الروحية قلنا اننا نحتاج في تربية الشخصية الى سلامة الدم وسلامة الاعصاب وسلامة الغدد الصماء

﴿ سلامة الدم ﴾ نظرة واحدة ايها السادة الى مواطنينا الفلاحين تحزن وتبكي ، اذا لبثوا في القرى اصيبوا بالبلهارسيا والانكلستوما التي تسبب فقر الدم ، فيصاب المخ ضمن اعضاء الجسد ، فتضعف قواه ويبلد الذهن ، واذا انتقلوا الى المدن بهرتهم بملاهيها، وضجيجها ونسائها فتتلقفهم الامراض السرية وهم لا يعرفون عنها شيئاً ، فتنتقل الى دماء ابنائهم وتكمن فيها حتى اذا كبر الشاب شعر بأعراض مبهمة ذهنية ، او جسدية ، فاذا تنبه طبيبه الى تحليل الدم وجد انهُ يحمل نصيبه من جهل ابيه ، وقد لا يفطن الطبيب لكنهِ المرض . فيتغلغل في الجسم ويسري الى المجموع العصبي فينفث فيه سمه ويهدّم الشاب في الوقت الذي ننتظر منهُ كمال الشخصية ونضوجها ! هل نريد شخصيات قوية مستقلة النزعة ، علينا ان نعنى بفلاحينا ونحافظ على سلامة دمائهم ، ولا ننكل عن محاربة ادوائهم

﴿ سلامة الاعصاب ﴾ نظرة اخرى الى المدن تحزن وتبكي . كلكم تسمعون عن ويلات المخدرات . ان المخدرات تهدم المجموع العصبي وتبيد الارادة ابادة . اي الشخصيات تكونون في شباب خائر القوى محطم الاعصاب ! اي شخصيات تكونون من هشيم تذروه الرياح ومن حطام مؤذن بالرواح ! تريدون شخصيات قوية انقذوا الشباب من آفته

﴿ الغدد الصماء ﴾ هنا اصل الى اهم الابحاث الجديدة . الى علاقة الشخصية بناحية كانت خافية ، فالقى عليها البحث الجديد ايّ نور قوي كشاف !

تسمعون ايها السادة عن الغدد الصماء ، فما هي؟ هي غدد تفرز افرازاً يتصل بالدم مباشرة ، يسمى الهورمون Hormone وتتعاون الغدد معاً في حفظ توازن الصحة والخلق، والذي يهمنا اليوم : الغدة الدرقية ومركزها تحت الحنجرة، وغدة فوق الكلى، والغدة النخامية ، وهي في الجمجمة ، والخصيتان في الرجل والمبيضان في المرأة. هذه كلها تتعاون معاً وقد تتعارض مفرزاتها كما تتعارض مجاذيف القارب ، ولكنها تؤدي كلها الى غرض واحد ، وتتآزر تآزراً قوياً مع المجموع العصبي في حفظ توازن الجسم ، ولا يمكن ان يختل افراز واحدة منها من دون ان يختل الآخر ، واذا اختل نظامها اصيب المجموع العصبي بضعف ظاهر ، ومن هنا أثرها في الشخصية

ومن العجيب الذي كشفته الحرب ان الجنود الذي يصابون بما يسمونهُ صدمة القنابل ، يصابون بالنوراستنيا ، ويعقب ذلك اختلال في افراز الغدة الدرقية ، وصاحبتها غدة فوق الكلى ، وتتورمان ويزيد افرازها ، وينقص افراز الخصيتين ، ويحدث ضعف تناسلي . فغدة فوق الكلى هي غدة الخوف والقلق ؛ فاذا ازداد هذان ازداد افرازها ومرضت ، وتبعتها صديقتها الغدة الدرقية ، فاذا رأينا رجلاً كهذا رأينا رجلاً سريع دقات القلب ، مرتجف الاطراف ، نحيلاً ، غزير العرق

اما عكسه ، الذي يقل فيه افراز الغدة الدرقية قلة مرضية وهو الذي اريد ان اتناوله اليوم في بحثي ، فطراز ترونهُ كثيراً ، وهو طراز الشخصية البليدة الكسولة ، فاذا كان طفلاً صاح به ابوه كل ساعة وهو لا يدري ما علته — يدعوه الى الدرس ، وتضربه امه وتلقبهُ بالبليد — وما ذنب المسكين ، واذا كان رجلاً فهو بطيء الفهم ، قليل الجلد ، كثير النسيان ، يتكلم فيما لا فائدة فيهِ ، ولا يتحدث عن نفسه بشيء ، ولا يستطيع صب الفكر او الجهد على عمل ما ولا يعتمد عليهِ في شيء ويكسوهُ الشحم في امكنة خاصة ، فاذا كان رجلاً وجدت لهُ سنام فوق ظهره كسنام الجمال واذا كانت سيدة اكتنز الشحم في الردفين ومعظم الرجال يصابون بالصلع الباكر والشيب ، وسقوط شعر الحاجب ، وتكون حرارتهم دائماً تحت المتوسط الطبيعي . يجب ان نميز هؤلاء الاشخاص ، ولا نتهمهم بضياع الشخصية بلا مسوّغ فانهم يتحسنون بالعلاج اذا تناولوا خلاصة الغدد باشارة الطبيب

واخيراً هل لكل الامراض تأثير هادم للشخصية وهل كل ما يهدم الجسد يهدم الشخصية ؟ ان الواقع ان الشخصية اذا تم تكوينها ، لا يؤثر فيها المرض ولكن يحول دون تكوينها إذا لم يكن قد تم فعلاً . على ان هناك مرضاً واحداً له تأثير غريب في الحيوية ، ذلك هو السل . اني اوجه انظاركم ايها السادة إلى العيون الواسعة البراقة الجميلة ، في المسلولين ، وإلى صفاء ذهنهم وجمال نفوسهم ، واذكر لكم ان الشاعر شيلر كان مريضاً بالسل ، ولكن ذلك المرض العجيب زاد ذهنه صفاء ، وعبقريته حدة . ثم ان توكسين السل منبه للقلب . منبه للمجموع العصبي . منبه للمجموع التناسلي ، يبعث الامل . ورحم الله شوقي حين قال

الى الحياة سكنت وهي مصارعٌ وإلى الاماني يسكن المسلول !

ولكن ذلك التنبه يتلاشى مع الاسف في وسط الدمار المريع الذي يحدثهُ المرض في طغيانهِ واذكر لكم ايضاً ان الشاعر كيتس مرض بالسل ومات بعد سنتين من مرضهِ انتج في خلالهما جلّ انتاجه الخالد

﴿ ختام ﴾ والآن كلمة اخيرة ! ان غاندي ، يضرب لنا مثلاً بصيامه ، في ان قهر الجسد ، الى حدٍ محدود مساعد على تقوية الروح ، معظم للشخصية ، بينما الاسترسال في الاعتناء بالجسد وتدليله هادم للشخصية مضعف لارادتنا

اننا لا نستطيع ان نكون كلنا غاندي ولكن امامنا المثل السامي فلنسر على منواله والسلام

سنة سرعة النور

في نظرية النسبية

النور والاثير — سرعة النور — استقلالها عن مصدر النور — ماذا حلّ محل الاثير

لنقولا الحداد

النور والاثير

لو نجحت عملية (ميكلصن — مورلي) التي شرحناها في المقال المنشور في مقتطف اكتوبر الماضي، اي لو ظهر فرق بين رحلتي الشعاعتين في الوقت والمسافة كما كان منتظراً، لحسبوها برهاناً دامغاً على وجود الاثير . وثمَّة يتيسر لهم ان يستخرجوا سرعة الارض بالنسبة اليه وهي تمخر فيهِ . ولكن خيبة العملية وتعليلها بتقلص الارض في اتجاه حركتها تركا الاثير كما كان فرضاً بلا برهان لان نتيجتهــا لم تنف وجوده وليس فيها شيء يناقض وجوده حتى « نظرية التقلّص » لا تناقض وجوده ولا تنفيهِ . الاثير فرض كوسيلة لانتقـال النور ، والعملية المشار اليها لا تثبت الاستغناء عن هذه الوسيلة . وانما شيءٌ آخر يثبت هـذا الاستغناء سنذكره فيما بعد

ولو لم تتدارك «نظرية التقلص » حيرة اهل العلم في فشل العملية لما وجد العلماء تعليلاً لها الاَّ وجود الاثير باعتبار ان طبقةً منهُ ملازمة لسطح الارض كملازمة طبقة الهواء له. وفي هذه الطبقة الاثيرية سارت شعاعتا جهاز ميكلصن كما يسير القطار وكل جسم متحرك على سطح الارض ، وكما تسير الطيارة في طبقة هواء الارض ، فلا يكون لسرعة الارض حساب في سرعة الاجسام المتحركة على سطحها وفي جوّها ، كما ان الماشي على ظهر السفينة لا يحسب لسرعة السفينة حساباً مع سرعتهِ . وما رجحت نظرية التقلص على نظرية ملازمة طبقة الاثير لسطح الارض الاَّ لان هذه النظرية اضعف جدّاً من نظرية التقلص بسبب ان الاثير مفروض انه لطيف جدّاً جدّاً فلا يعقل ان سطح الارض يجرُّ معهُ طبقة منهُ ، الاَّ اذا كان الاثير خاضعاً لسلطة جاذبية الارض كخضوع طبقة الهواء لها . وهذا الفرض ضعيف ايضاً لافتراض ان طبيعة الاثير مختلفة كل الاختلاف عن طبيعة المادة والاَّ لامكن اكتشافه وتحقق وجوده لاشتراكه حينئذٍ بنواميس المادة او ببعضها

ثم ان ما يرجح نظرية التقلص هو البرهان الذي بسطناه في المقال السابق على اقتحام نواة الذرة (Atom) في جوها الكهربائي المغنطيسي واستخرجنا منه قيمة تقلص هذا الجو بعبارة رياضية . واما اذا كانت ثمة نظرية تقضي على نظرية الاثير او على الاقل تغني العلم عنها فهي نظرية ان النور ليس الاً موجات كهربائية مغنطيسية تسير في جو جاذبي. وليس هنا محل لبسط هذه النظرية التي يسلم بها علماء هذا العصر جميعاً . وفحواها إن النور نوع من انواع التشعع العديدة التي تصدرامواجاً (وما هي الاَّ حطام الكهارب المندثرة المنحلة فكأنها ابسط صور المادة) ولذلك تنتشر في الفضاء بلا واسطة . لانها ليست حركة امواج في شيء متموّج بل هي الشيء المتموج نفسه . ولذلك يستغنى بها عن الاثير . هذه نظرية اهل العلم الآن

سرعة النور

كان من نتائج عملية ميكلصن تحقيق ان النور سرعة ثابتة لا تتغير اي لا تزيد ولا تقل بل هي على وتيرة واحدة في كل مكان وكل زمان والى اي جهة ولا سلطة لعوامل القوة عليها من هذا القبيل . فهي على سطح الارض وعلى سطح اي جرم وفي كل خلاء بين الاجرام على حدّ سواء. ثم ان الاشعة تنتشر الى جميع الجهات بالتساوي. وليس لمصدر النور سلطة على النور ولا سرعة النور مستمدّة من مصدره ولا مصدره يكسبه سرعة مع سرعته ولا هو خاضع لنواميس الحركة والقوة أي لا يدخل تحت قانون الاستمرارية Inertia والمسارعة Acceleration

ولذلك لولا تقلص الجسم المتحرك في اتجاه حركته كالارض مثلاً لظهر لنا ان شعاعة النور الواردة من الشرق تبلغ الينا قبل الشعاعة الواردة من الشمال أو الجنوب وبالاحرى قبل الواردة من الغرب لاننا نستقبل تلك بسرعة ٣٠ كيلو متراً في الثانية ونذبر عن الشعاعة الغربية بسرعة ٣٠ كيلو متراً . ولكن السرعة الارضية (وكل سرعة جرمية) تحدث تقلصاً في الجرم يقابل هذا الفرق بين سرعة النور وسرعة الجرم بحيث لا يظهر لنا فرق في سرعة النور من أي جهة جاء حتى يتراءى لنا كأنَّ الارض ثابتة لا تتحرك بسرعة ٣٠ كيلو متراً . وانما يظهر هذا الفرق بين سرعة الارض وسرعة النور لشخص يقيم خارج الارض . لو كان شخص في الشمس يستطيع أن يرقب حركة الارض والنور العابر على سطحها لرأى أي نقطة من سطح الارض تستقبل رأس لمعة نور شرقية قبل موعد وصولها بثلاثين كيلو متراً في الثانية أي أن سرعة النور تصبح عند تلك النقطة ٣٠٠ الف الاَّ ٣٠ كيلو متراً

بعد هذا البيان يفهم القارئ أن استقرار سرعة النور على حالة واحدة الى جميع الجهات لا يراد به أن سرعة الارض لا يحسب حسابها إذا كانت الارض مقبلة (أو مدبرة) إلى النور الوارد من أي جرم بل يراد به أن سرعة الارض لا يحسب حسابها مع سرعة النور بالنسبة لاهل

الارض الذين وهم على سطح الارض مشتركون معها في سرعتها كما ان المقيمين في السفينة الماخرة لا يحسبون حساب سرعتها مع سرعة شخص ماشٍ على ظهر السفينة لان السفينة بالنسبة اليهم وإلى ذلك الماشي على ظهرها تعتبر كانها راسية وانما هي تعتبر سائرة بالنسبة الى البحر والشط . وانما يحسب حساب سرعة الارض مع سرعة النور بالنسبة لاي جرم آخر خارج عن الارض ولا شركة له بحركتها . فساكن المريخ مثلاً لا بدّ ان يدخل حساب سرعة الارض مع سرعة النور في حالتي اقبال الارض أو أدبارها عن اتجاه النور بل نحن سكان الارض متى شئنا أن نحسب سرعة الارض بالنسبة إلى سرعة أي نجم آخر بيننا وبينهُ تباعد أو تقارب فلا بد أن ندخل سرعة أرضنا في حساب سرعة النور الوارد الينا من ذلك النجم لان حركة ذلك النجم غير مشتركة مع حركة الارض

ومن ذلك يتضح أن مسافة المرآة الشرقية في جهاز ميكلصن لم تقصر بالنسبة إلى غيرها من موجودات الارض لان كل ما على الارض متقلص مثلها فبقيت نسبة المسافات بينها واحدة لم تتغيَّر . لذلك لا نستطيع تمييز ذلك التقلص . وانما مسافة المرآة الشرقية قصرت بالنسبة إلى الشمس (أي إلى مَنْ في الشمس يراقب ما يحدث على الارض — على افتراض المستحيل) . وما اكتشفنا هذا التقلص بالرغم من اختفائهِ عنا وكتمان الطبيعة له عن ملاحظتنا إلاَّ بواسطة عملية ميكلصن . أي أن رجوع الشعاعتين معاً بالرغم من اختلاف مسافتيهما كان كاشفاً لحدوث ذلك التقلُّص

فعملية ميكلصن التي فشلت في اكتشاف علاقة الارض بالاثير نجحت نجاحاً عظيماً في اكتشاف ظاهرة طبيعية خطيرة الشأن بُنيت عليها نظرية النسبية وهي ظاهرة تقلص الجسم المتحرك في اتجاه حركته

***

قد يسأل القارئ : لو استطاع ميكلصن أن يقيس مسافة كل من المرآتين بعد أن يغير وضعهما فهل كان ممكناً أن يكتشف إن احداها صارت أقصر مسافة من الاخرى او أقصر مما كانت ؟ نجيب : هب أن ميكلصن يستطيع بطريقة عجيبة أن يجد مقياساً لضبط هذا الفرق الزهيد فالمقياس نفسه يتقلص ايضاً متى قاس بهِ المسافة شرقاً غرباً ويعود إلى طوله الاول متى قاس المسافة جنوباً شمالاً . ولذلك يستحيل عليهِ وهو على الارض ان يختبر الفرق بين المسافتين . وانما يختبره شخص ليس على الارض اذا كان في إمكانه أن يرصد أشياء الارض ويضبط أقيستها . فما من وسيلة لاكتشاف هذا التقلص الاَّ نتيجة عملية ميكلصن التي خالفت المنتظر من وصول احدى الشعاعتين قبل الاخرى

ولا يخفى على القارىء ان مقدار هذا التقلص زهيد جداً لزهادة سرعة الارض بالنسبة إلى سرعة النور فلا يمكن أن تلاحظهُ عين. وإذا شاء القارىء ان يعلم كم يتقلص قطر الارض الذي هو في اتجاه سيرها فليبدل الارقام بالحروف في عبارة لورنتز التي استخرجناها في المقال السابق هكذا

$$١ - \sqrt{١ - \frac{س^٢}{ن^٢}} = ١ - \sqrt{\frac{(٣٠)^٢}{(٣٠٠٠٠٠)^٢}}$$

والنتيجة بعد التحويل من كيلو مترات الى قراريط هي قيراطان ونصف. هذا على اعتبار ان الرقم (١) في المعادلة يعبر عن طول قطر الارض

ولكي يقصر قطر الارض حتى يصير نصفهُ يجب ان تكون سرعة الارض نحو ١٦١٠٠٠ كيلو متر . يمكن استخراج ذلك اذا ضربت عبارة لورنتز بنصف . ولو بلغت سرعة الارض أو أي جرم إلى حد سرعة النور أي ٣٠٠ الف كيلو متر لتلاشت الارض من الوجود. ولتحقيق ذلك رياضيًّا اجعل س = ن في عبارة لورنتز فتراها بعد البسط = صفراً . ولذلك يستحيل ان توجد سرعة تساوي سرعة النور او تفوقها . فاذاً سرعة النور أعظم سرعة في الوجود ولا تفوقها سرعة . وهذه خاصة اخرى للنور ليست لغيره من الاجسام . ولان النور متناهي السرعة وثابت السرعة صلح مقياساً للابعاد السحيقة . فاصطلح الفلكيون على قياس ابعاد الاجرام بالمسافات التي يقطعها النور في الثانية او الدقيقة او الساعة او اليوم او العام الخ فيقال ان الجرم الفلاني يبعد عنا كذا ساعات او اياماً او سنين من سني النور

استقلال سرعة النور عن سرعة مصدره

من النواميس الطبيعية ان الجسم المتحرك يمنح سرعتهُ لكل جسم مرتكز عليهِ اومتعلق بهِ . فاذا كنت في قطار او في الترام وهو يسير بسرعة كذا في الثانية وعمد السائق إلى توقيفهِ اندفع جسمك إلى الامام لانهُ لا يزال مكتسباً سرعة القطار فيندفع بقوة استمرار السرعة التي كانت للقطار . واذا كانت على ارض القطار بطيخة مثلاً تدحرجت الى الامام للسبب نفسه . واذا كنت في سيارة تسير بسرعة ١٥ متراً في الثانية مثلاً واطلقت من مسدس قذيفة بسرعة ١٠٠ متر في الثانية إلى الامام انقذفت الرصاصة بسرعة ١١٥ اذ تضاف اليها سرعة السيارة التي كانت ممنوحة لها قبل انطلاقها . واذا اطلقت الرصاصة الى الوراء انقذفت بسرعة ٨٥ متراً إذ

تنقص من سرعتها سرعة السيارة التي كانت ممنوحة لها (إلى الامام لا الى الوراء) قبل انطلاقها

تكاد تكون هذه السنة الطبيعية غريزة في ذهن الانسان إذ ترى الغلام مثلاً وهو يقذف من يده قذيفة كحجر او كرة إلى ابعد مدى يستطيعه — تراه يركض الى الامام مسافة ثم يقذف القذيفة وهو راكض لكي يزيدها سرعة على السرعة التي ينشئها عضل يده عند القذف

بمقتضى هذه السنة نفسها تسمع صفير القطار او دويّه وهو مقبل عليك اقوى مما تسمعهُ وهو مدبر عنك لان امواجه الامامية تكتسب مع سرعتها سرعة القطار ولان القطار منحها سرعتهُ إلى الامام لا الى الوراء . لهذا السبب عينهِ تكون امواج الصوت الامامية متقاربة بعضها الى بعض والامواج الخلفية متباعدة على نحو ما شرحناه في المقال السابق .

فهل النور خاضع لهذه السنة ؟ أي هل يكتسب مع سرعتهِ سرعة الجسم الذي صدر منهُ ؟ ام هو مستقلٌّ عنهُ فلا يأخذ من سرعته في مسيره الى الامام (بخط اتجاه الجسم المنير) ولا يخسر من سرعته في مسيره الى الوراء (عكس اتجاه الجسم المنير) ؟

اذا كان النور يكتسب من الجسم المنير الذي اصدره سرعته كما يكتسب الصوت سرعة القطار والرصاصة سرعة السيارة في المثالين السابقين فحينئذٍ تنحل قضية عملية ميكلصن بتعليل آخر غير تعليل التقلّص — تعليل افضل وأصح منهُ لانهُ بسبب هذا الناموس (ناموس منح السرعة) لا بدّ ان تعود الشعاعتان في وقت واحد لانهما صادرتان من مصدر ارضي او تحت حكم مصدر ارضي وسائرتان في حيز ارضي فشأنهما كشأن شخصين يسيران على ظهر سفينة الواحد الى مقدمها والآخر الى جنبها — يسيران مسافتين متساويتين بسرعة واحدة ثم يعودان فيلتقيان حيث افترقا . سواء كانت السفينة راسية او ماخرة لأنهُ لا شأن لحركة السفينة بسرعتهما ما داما لا يخرجان منها بل هما باقيان فيها . كذلك لا شأن لسرعة الارض بشعاعتين صدرتا من مصباح على الارض الواحدة في اتجاه سير الارض والاخرى في اتجاه معامد له ثم عادتا عن مرآتين متساويتي البعد فلا بد ان تتلاقى الشعاعتان عند مصدرهما في وقت واحد هذا اذا فرضنا أن النور يكتسب مع سرعته سرعة مصدره

***

ربما كان بعض القراء يستصعب التسليم بأن القذيفة المنطلقة من جرم الى اي جهة فوق ذلك الجرم تكون سرعتها واحدة ما دامت حركتها مقصورة على سطح ذلك الجرم كأن لا شأن لسرعته مع سرعتها . مع ان « ناموس منح السرعة » هو سبب هذه النتيجة فاذا كان القارىء يشك في ذلك فنضرب له مثلاً

تصوَّر سفينة طويلة (٦٠ متراً) تمخر البحر بسرعة مترين في الثانية مثلاً . وعلى ظهرها في منتصف المسافة بين مقدمها ومؤخرها شخص اطلق في وقت واحد رصاصتين

بسرعة ١٠ امتار في الثانية الواحدة الى هدف في المقدم والاخرى الى هدف في المؤخر . فهل تبلغ احداها الى هدفها قبل الاخرى ام تصيبان الهدفين في وقت واحد ؟ والجواب انهما تصيبان الهدفين في وقت واحد. ولو كان المجال يتسع لعملية رياضية لانجلى هذا الجواب للقارىء كل الجلاء ، ولوجد ان الوقت الذي تستغرقهُ الرصاصتان في رحلتيهما هو ٣ ثوان. ولامتحان صحة هذه النتيجة نقول : في ٣ ثوان تقطع السفينة ٣×٢ = ٦ امتار والرصاصة الاولى تقطع ٣ × (١٠ + ٢) = ٣٦ سرعتها مع سرعة السفينة والرصاصة الثانية تقطع ٣ × (١٠—٢) = ٢٤ سرعتها الا سرعة السفينة. فالفرق بين مسافتي الرصاصتين في الجو هو ١٢ متراً نصفه كان مقدار ابتعاد الهدف عن الرصاصة الاولى في اثناء العملية . والنصف الآخر مقدار اقتراب الهدف الآخر نحو الرصاصة الثانية. ولهذا اصابت الرصاصتان الهدفين في وقت واحد فتراءى لمطلقهما انهما قطعتا مسافتين متساويتين في وقت واحد . ذلك حقيقي بالنسبة اليه ولكن بالنسبة لشخص آخر يراقب التجربة على الرصيف ليس الامر كذلك

* * *

لنفرض ان الهدفين على حافة الرصيف والمسافة بينهما تساوي طول السفينة تماماً اي ٦٠ متراً . وفي منتصف هذه المسافة شخص على الرصيف يراقب . ثم نفرض ان السفينة مرت محاذية للرصيف . فلما صار الشخص ذو المسدسين تجاه موقف الشخص الذي على الرصيف اطلق الرصاصتين على الهدفين . فاذا كان هذا الرقيب يستطيع ضبط موعد اصابة الرصاصتين للهدفين رأى ان الرصاصة المطلقة الى الهدف المقابل للمقدم اصابته قبل ان تصيب الاخرى هدفها، لان الاولى مكتسبة سرعة السفينة مع سرعتها والهدف ثابت لا يسير مع السفينة فبلغت اليهِ في ثانيتين ونصف واما الاخرى فكانت تخسر من سرعتها سرعة السفينة فبلغت الى هدفها في ٤ ثوانٍ ونصف

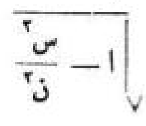
وحاصل هذا الشرح ان «ناموس منح السرعة» الذي نحن بصدده يعدل الفرق الذي تحدثهُ سرعة الجرم المتحرك بين مسافتي قذيفتين تُقذفان من نقطة عليهِ الى اي جهتين فتقطع القذيفتان مسافتين متعادلتين في وقت واحد . ولذلك نرى ان قنبلة المدفع كيفما توجهت قطعت نفس المسافة بالنسبة الى سطح الارض لا بالنسبة الى الفضاء (ان كان في الفضاء جسم ثابت ينسب اليهِ) ولولا ان الارض تكسب القنبلة سرعتها اذا سايرتها وتختلس منها بقدر سرعتها اذا عاكستها سيراً ، لكانت القنبلة التي تسير بسرعة تضاهي سرعة الارض على محورها (نحو ⅓ ميل في الثانية) اذا انقذفت الى الشرق تمادى مضاعف مداها واذا انطلقت الى الغرب سقطت امام فم المدفع

هل ينطبق ناموس منح السرعة على النور ؟

بناءً على هذا الناموس الطبيعي اي ان الجسم المنطلق عن جرم آخر ينطلق بسرعة واحدة الى جميع الجهات (اللهمَّ ضمن سطح هذا الجرم) سواءٌ اكان الجسم الذي ينطلق عنهُ ساكناً او متحركاً ، وانما الفرق في السرعة بين انقذافهِ مع اتجاه الجرم وانقذافه ضده او الى جانبهِ يظهر لرقيب خارج عن ذلك السطح غير متحرك بحركتهِ — بناءً على هذا الناموس زعم العالم الطبيعي السويسري ريتز ان النور الصادر من مصدر ارضي (كما في جهاز ميكلصن) لا بد ان يسير الى كل الجهات بسرعة واحدة كسير القنبلة على سطح الارض الى اي جهة بسرعة واحدة وكسير الرصاصتين على ظهر السفينة . ولذلك في رأيهِ فشلت عملية ميكلصن في استكشاف سرعة الارض في بحر الاثير . ويستحيل ان تستكشف باي عملية أخرى ايضاً للسبب عينهِ

فان صحت نظرية ريتز هذه تسقط نظرية فتزجرلد (تقلص الارض في اتجـاه حركتها) . وبسقوط هذه تسقط « نظرية النسبية » برمتهـا لانها مبنية على نظرية استقلال سرعة النور عن سرعة مصدره. ولكن العلاّمة الفلكي الهولاندي دي ستر De Sitter برهن برصد النجوم المزدوجة ان سرعة انتشار النور لا يمكن ان تتوقف على سرعة الجرم الذي يبعث النور . وقد اعتمد العلماء على هذه الحقيقة لانهم وجدوا مؤيدات كثيرة لها . وثبت لهم ان اشعة النور تمتاز باستقلالها في سرعتها عن سرعة اي جرم تصدر منه .ليس لمصدرها تأثير عليها .فنظرية ريتز ساقطة

ولايضاح الفرق بين سرعة النور وسرعة الرصاصة في السفينة او القنبلة على سطح الارض نقول : اننا ونحن على الارض لا نحسب حساباً لسرعة الارض مع سرعة الاجسام التي عليها لانها (اي الارض) بسيرها تسترد من الجسم المتحرك عليها السرعة التي منحتها اياه ولكننا نحسب حساب سرعتها مع سرعة النور لانها لا تمنح النور شيئاً من سرعتها . فاذا عبرت شعاعة نور على سطح الارض مع اتجاه سير الارض طرحنا سرعتنا من سرعة النور واذا عبرت معاكسة لخط مسير الارض أضفنا سرعتنا الى سرعتهِ .وانما نحسب في الحالتين حساب تقلص الارض



$$\sqrt{1 - \frac{س^2}{ن^2}}$$

فتتعدل المسافتان لوقت واحد

فاذا كنا نرى ان اشعة النور تقطع على سطح الارض مسافات متعادلة إلى جميع الجهات فليس ذلك لان سرعة الارض سقطت من الحساب بل لان تقلّص الارض عوَّض الفروق

التي نحسبها لسرعة الارض . فكأن التقلص قام مقام منح السرعة

اذاً ، ناموس سرعة النور يختلف عن ناموس سرعة الاجسام ويمتاز عليه بهذا الاستقلال . واستقلاله هذا جعل النسبية مبدأ او ناموساً قائماً بذاته أيضاً . ولذلك لم يبق بدٌّ من مراعاة عبارة لورنتز المذكورة آنفاً في كل معادلة من معادلات الميكانيكيات تصحيحاً لها . ولايضاح ذلك فصل آخر

ماذا حل محل الاثير

هذا الموضوع يستلزم كلمة موجزة جداً في موضوع الجاذبية وهي اهم نقطة في «النسبية الخاصة» . فسّر فارادي الجاذبية بانها جوٌّ ينشرهُ الجسم حوله . ولهذا الجو خاصة تجعل جسماً آخر ينجذب إلى الجسم الاول كما هي الحال بين الشمس وسياراتها مثلاً ، أو بين الارض والقمر . وقد فرض فارادي هذا الفرض لازالة ما علق في الاذهان من ان الجسم الواحد يجذب الآخر ، لان الجذب عن بعد بغير واسطة غير معقول . ففرض له الجو الجاذبي . فالذي يجذب القمر والحجر إلى الارض ليس الارض نفسها وانما الجو الجاذبي الذي نشرته الارض حولها يدفع القمر او الحجر نحوها . فالارض انشأت الجو حولها . والجو تولّى وظيفة الجذب او حركة الانجذاب . فالارض لا تجذب الحجر بل هو ينجذب اليها بواسطة الجو الجاذبي

يستفاد مما تقدم ان فكرة استحالة الفعل عن بعد بغير واسطة حملت فرادي ان يفترض هذا الجو لكي يتخلص من المستحيل في امر واقع (الجذب عن بعد) . فاذاً الجو الجاذبي مجرد فرض فقط لتسهيل حل ذلك اللغز اي لغز الانتقال او الفعل عن بعد بلا واسطة . فلما اكتشف مكسويل ان النور امواج كهربائية مغنطيسية قال العلماء استغنينا عن الاثير . ولكنهم ما لبثوا ان فرضوا الجو الجاذبي بدل الاثير ليكون واسطة لنقل الامواج الكهربائية المغنطيسية ومنها امواج النور كما يكون واسطة لنقل فعل الجذب او الانجذاب . اذن ، ما استغنوا عن فرض حتى اضطروا الى فرض آخر بدله مثله . فكأنهم ابدلوا الاسم فقط فجعلوا لفظ «الجو الجاذبي» بدل لفظ «الاثير» . وليس الجو الجاذبي حقيقة اثبت من الاثير بل هو شيء مفروض كما ان الاثير شيء مفروض . ولا يزال مثله حقيقة مجهولة

على ان الجو الجاذبي يختلف عن الاثير بكونه غير مالئ الفضاء على نمط واحد بل تتفاوت حدّته بتفاوت الابعاد عن الجسم المحدثه . فكأنهم باختلاق هذا الجو قد نقحوا نظرية فرض الوسيط بين الفاعل والمفعول بهِ — الجاذب والمجذوب او المموّج والمتموّج او وسيلة الموج . فهو اذاً وسيط على كل حال سواء اسُمّيَ اثيراً اوجواً جاذبياً . وبهذا الفرض الجديد اصبح الاثير اقرب إلى المادة منه الى الروح الاثيرية او الاثير الروحاني

شبرا — مصر نقولا الحداد

وجودي

لأحمد محرم

وُجودي ، لَستَ لي ، فلمن تكونُ ؟ أسرٌّ أنتَ عن نَفسي مَصونُ
يُصيبُ حقائقَ الأشياء عِلمي وتعصِفُ بي حواليْكَ الظُنونُ
أمِنْ نفسي على نفسي غِطاءٌ ؟ فكيفَ أنا ؟ أشكٌّ أم يقينُ ؟

***

وُجودي ، ما عرفتُكَ غيرَ معنىً تغلغلَ في الخفاء ، فما يَبينُ
غَريقٌ في الظَلام ، ولا مَغاصٌ ولا جِسرٌ يُلاذُ بهِ أمينُ
أُقيمَ عليهِ سُورٌ مِن عُبابٍ تَضِلُّ على جوانبِه السُفنُ
أُطِلُّ ، ويَضرِبُ التيّارُ وَجهي فأينَ أنا ؟ أحُرٌّ أمْ سَجينُ ؟

***

وجودي ، أينَ أنتَ ؟ ألا سَبيلٌ اليْكَ ، فيَهدأُ العاني الحزينُ ؟
ومَنْ أنا في بَني الدُنيا ؟ وَما لي وللدُنيا ، وما وَعثُ القرونُ ؟
أتشغلني الحياةُ بكلِّ حَيٍّ وتولِعُني بمَنْ طَوتِ المنونْ ؟
أُريدُ هوادةً ، وتثورُ حولي هُمومٌ ، ما لعاصفِها سُكونُ
وتَسلُبُني خُطوبُ الدهرِ نفسي فما خَطبي ؟ أحيٌّ أمْ دَفينُ ؟

***

وجُودي ، ما وَجَدتُكَ غيرَ خصمٍ تَلينُ قُوى الخُصومِ ولا يَلينُ
قَرينٌ مُضرَّجٌ لا بُدَّ منهُ إذا ما رابَني ، فمَضى القرينُ
تُطيلُ عَداوتي ، وأنا المُعادي وتَهدِمُ قُوّتي ، وأنا المُعينُ
أُريدُ الصَمتَ أستبقيكَ جُهدي وتُنطِقُني الحوادثُ والشؤونُ
وما لي أرقُبُ العُقبى فأشقى ؟ وَما العُقبى ؟ أجِدٌّ أمْ مُجونُ ؟

***

وُجودي ، ما الوُجودُ ، وَما وَراثي ؟ إذا عَدَتِ النَوى ، ومضى الرَهينُ ؟

رأيْتُ المرْءَ لا يُغنيهِ عقلٌ ولا يَهْديهِ في الأحْياء دِينُ
سألتُ العِلمَ كلَّ فتىً عليمٍ فلا سَمْحٌ أفادَ ، ولا ضَنينُ
وما تُغْنِي الشرُوحُ ، وإنْ تَناهتْ إذا استَعْصتْ على العقلِ المتونُ
وما العُقلاءُ إلاّ في ضَلالٍ إذا استَولى على الدُّنيا الجُنونُ

***

دِيارَ الشرقِ ، هلْ بكِ من قَطينٍ ؟ دَعيني ، ما الدِّيارُ وما القطينُ ؟
ظَمِئْتُ ، وفي الأدَبُ المصفّى وضِعْتُ ، وفي يَدي الكنزُ الثمينُ
ظَلمْتُ أبي ونَفسي إنّ مِثْلي لَغالٍ في النّوابغِ لا يهُونُ
كَريمٌ تَدفَعُ الأخلاقُ عَنهُ ويمنعُ رُكْنَهُ الأدَبُ الحصِينُ
أقولُ فَيُفْزِعُ الشُّعَراءَ صَوْتي وما أنا في بَني وَطَني ظَنينُ
لِرَبّي ما عَمِلْتُ وَعِنْدَ قَوْمي دُيوني ، حِينَ تُلْتَمَسُ الدُّيونُ
أمِنْ أدَبي تَبيتُ الطَّيرُ تَبكي ؟ فَما أدْري ؟ أشَدْوٌ أمْ رَنينُ ؟

***

وُجودي،أَيْنَ كُنْتَ؟وليتَ شِعري؟ على طُولِ المقامِ ، مَتى تَبينُ ؟
لَئِنْ أعجَبْتَني فرَضيتُ حيناً لذلكَ ما جَنى الرّأيُ الغَبينُ ؟
كَبِرْتُ وَما عَرِفْتُ مَكانَ نَفْسي فَما أدْرِي أشَيْخٌ أمْ جَنينُ ؟

***

وُجُودي ، حانَ مَوعِدُ كلّ صادٍ وأبطَأ موعدي ، فتى يحينُ ؟
نهاني عَنْ حِياضِ السُّوءِ علمي بِما يَصِمُ الرِّجالَ ، وما يَزينُ
أَشُدُّ على الفُنونِ يَدي ، وإني لَفي زَمَنٍ جَهالَتُهُ فُنونُ
يَصُونُ الحرُّ مُهْجَتَهُ فَيَبقى ويُهْلِكُ نَفْسَهُ الضَّرِعُ المهينُ
رأيْتُ العِزَّ أجمعَ في يَراعٍ يَصونُ جَلالَهُ خُلُقٌ مَتينُ

وما يبقى الهزبر بغير ناب ولو أن السحاب له عرين

***

سل (الهرم) المخلد بعد (خوفو) أيضرع للخطوب ويستكين ؟
خصيم الدهر تستعصي ذراه على ما كان منه ، وما يكون
يزلزل زاحف الأحداث منه وقور في زلازلها رزين
فتى الدولات ، يلهمها هداها ويوقظها إذا غفت العيون
وينهى المالكين ، فلا غرور إذا قهروا الشعوب ، ولا فتون
نصيح لا يغش ، ولا يداجي وقاض لا يضل ، ولا يخون
زها نبت الممالك في ثراه وطاح على جوانبه الدرين [1]
مشيع نعشها ، إن كان موت وإن يك مولد ، فهو الشبين [2]
ثرى دارت عليه رحى الليالي فما وقفت ، ولا انقطع الطحين
حمى (فرعون) دمر كل عال وهيب بناؤه العالي المكين
أمأذنة الخلود يطل منها على الدنيا إذا نزل الأذين ؟
تمر به العصور ، فمستثير يحاذر أن يراه ، ومستبين
بناء العبقرية في صباها بناه شبابها الأبق الفطين
تدين له الصواعق ، وهو راس بمصطدم الصواعق ، لا يدين
تشكت طول صحبته الليالي ومل جواره الرصد الكمين

***

وجودي ، أنت لي ولكل حر خدين جلالة ، نعم الخدين
حنين ما رأيت ، ولا خلود خلود ما بنيت ، ولا حنين
إذا عز السبيل على أناس فأنت إمامهم ، وأنا الضمين

احمد محرم

---

(١) الدرين ما اسود وقدم من النبات

(٢) الشبين من يقوم بخدمة العريس في العرس ، والاسم متقارب

المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمة وزير مالية العراق سابقاً

هو المنذر الثالث ابن امرىء القيس سمي ابن ماء السماء بلقب امهِ ماء السماء ذلك اللقب الذي غلب على اسمها لجمالها وحسنها [١] او لكرمها ورقة طبعها [٢] وقيل سميت بهِ نسبة إلى السماوة وكانت تدعى بماء فسمتها العرب ماء السماء [٣] وقيل كان اسمها ماوية او مارية بنت عوف ابن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط [٤] ويقال بل هي رُبيعة اخت كليب والمهلهل التغلبيين [٥] وروى بعضهم ان المنذر لقب ماء السماء لجوده وسخائهِ كما يملأ قطر الغيث الارض . وعرف المنذر بذي القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره [٦]

لحكم هذا الملك عهدان تتخللهما فترة فالعهد الاول في زمن قباذ وهو بدء ملكه في الحيرة تولّى عرشها بعد وفاة أبيهِ سنة ٥١٤ وهي السنة السادسة والعشرون من حكم قباذ وعلى ذكر قباذ نقول انهُ تزيّن بتاج الاكاسرة سنة ٤٨٨ وفي سنة ٤٩٦ طرده جاماسب وحكم دولة الساسانيين. وعاد قباذ ثانية إلى الحكم سنة ٤٩٨ وماكان لقباذ من استيلاء جاماسب على دولتهِ حدث للمنذر الثالث . فانّ الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي استولى على الحيرة بمعاونة قباذ وطرد المنذر الثالث في سنة ٥٢٩ وبقي عليها حتى سنة ٥٣١ وفي هذه السنة طرد كسرى انوشروان الحارث بن عمرو الكندي واعاد المنذر الى حكم الحيرة وبقي عليها حتى وفاته سنة ٥٦٣ وهذا هو عهد حكمه الثاني [٧]

قبل ان نأتي على تاريخ الحيرة في عهد المنذر بن ماء السماء لنقل كلمة في خلق هذا الملك :

---

(١) حمزة الاصفهاني ٧٠ (٢) شيخو : النصرانية وآدابها ٨٨ (٣) معجم البلدان مادة سماوة قال ياقوت ان ماء السماء هي ام النعمان . اما السماوة فهي بادية بين الكوفة والشام قفرى . وقال السكري السماوة مادة لكلب (٤) الطبري ٢ : ٩٢ وحمزة الاصفهاني ٧٠ ذكر الطبري اسمها مارية والاصفهاني ماوية (٥) النصرانية وآدابها ٨٨ (٦) الطبري ٢ : ٩٢ (٧) ابو الفداء ١ : ٧٤ ويجعل كوسن دي برسفال بدء حكم ابن ماء السماء سنة ٥١٣ ونهايته سنة ٥٦٢

كان المنذر قوي الشكيمة لا يستميله الوعد ولا يلويه الوعيد يخوض غمارات الموت غير هيابٍ ولا وجل وينزل معامع القتال ثابت الجأش كالاسد الضرغام فيلقي الرعب في قلوب أعدائهِ وتنهزم فلول جيوشهم مولّية الادبار هلعة لان الرجل كان ظالماً عاتياً فتاكاً يسفك الدماء مدراراً لاشباع اطماعه ونفسه الوثابة وإرضاءً لواهمته الحادة الخيال وكان يظهر بين الفينة والفينة جواداً كريماً تعفّ عن نفسه الشرّ شأن الرجال الذين يقضون ايامهم في اضطراب وقلق . فيتجلى في اخلاقهم مظهران متشاكسان مظهر القسوة ومظهر العطف على البشرية المتألمة

***

في بدء مُلك المنذر كان قباذ ملك الفرس قد عقد الصلح مع الهياطلة بعد حروب دامت بين الفرس والهياطلة عشر سنوات (٥٠٣ — ٥١٣) فاتيح له آنئذٍ ان يوجّه انظاره إلى علاقاته بالروم لأنّ الروم كانوا قد استفادوا من انهماك الفرس بحرب الهياطلة فتقدموا من التخوم الفارسية وعززوا حصونهم في مدينة دارا ولم يصغ الانبراطور انسطاس إلى الاعتراضات التي بعث بها اليهِ قباذ على لسان وفد اوفده اليهِ وتابع يوسطنوس الاول Justin I (٥١٨ — ٥٢٧) سياسة سلفهِ العدائية تجاه الفرس . وقصارى القول توترت العلاقات بين الدولتين واشتعلت نار الحرب بينهما في ارمينية الفارسية [١]

وكان الانبراطور يوسطنوس الاول يخطب ودّ المنذر بن ماء السماء ويحاول ان يعقد معهُ معاهدة صلح وولاء . فأرسل اليهِ وفداً في هذه المطاوي للمفاوضة يخبرنا احد كتبة السريان شمعون اسقف ارشم أنهُ في ٢٠ كانون الثاني (يناير) سنة ٥٢٤ غادر مدينة الحيرة مع القس ابراهام الذي كان قد اوفده الامبراطور يوسطنوس الاول إلى المنذر ملك العرب ليفاوضهُ في عقد معاهدة صلح فالتقى الوفد بالمنذر في رملة Ramla [٢]

نجهل الدواعي التي حدتْ بالانبراطور إلى إرسال هذا الوفد في ذلك التاريخ وغزوات المنذر بلاد الروم كانت بعد ذلك التاريخ على ما نحدس الاّ اننا نرتئي أن يوسطنوس أراد أن يتحالف مع ملك الحيرة ليأمن حدود برية الشام في زمن كانت علاقاته بالفرس غير مرضية والحرب على قاب قوسين او اندلعت نيرانها في ارمينية الفارسية

ومما يذكرهُ لنا شمعون الارشمي في رسالته هذه انهم (اي هو والقس ابراهام وجرجس او سرجيس اسقف الرصافة) [٣] علموا آنئذٍ أن المنذر أخذ رسالة من ذي نؤاس الحميري ملك اليمن اليهودي يستحثهُ فيها على اضطهاد النصارى وقتلهم في الحيرة كما فعل هو

(١) Sykes : His. of Persia : I:480-481 (٢) Duval : Litt. Syriaque 148-151

(٣) السمعاني المكتبة الشرقية ١: ٣٦٤ طبعت رسالة شمعون الارشمي بالسريانية وترجمت الى اليونانية والايطالية

بنصارى نجران [١] فأثر كلام ملك اليمن في المنذر وأراد أن يمتحن ايمان المتنصرين من جيشه فدعا قوماً منهم وعرض عليهم جحود ايمانهم فقام احد ضباطه فقال له : « ان تنصرنا قد سبق جلوسك على عرش المناذرة فهيهات أن تقنعنا بالعدول عن ديننا وعلى كل ان كان رفقائي لا يثبتون في مذهبهم فاني لا أجحده مطلقاً ولست أخاف العذاب ولا الموت كما تحققت ذلك لما رأيتني في وقائع الحروب اذا لم يك سيفي اقصر من سيف سواي » فلما سمع المنذر كلامه عرف انهُ لا يستفيد شيئاً فعدل عن قصده وترك كلاً من جنوده يتبع دينه [٢] . وفي سنة ٥٢٨ كانت الحرب سجالاً بين الروم والفرس وكان جيش الروم بقيادة بلساريوس Belisarius في خسائر فرأى الملك يوسطنيانوس Justinian (٥٢٧—٥٦٧) خليفة يوسطنوس الاول تقوية جيشه فقواه . وكان الجيش الفارسي بقيادة فروز مهران يتقدم الى دارا [٣] ونرى في هذه التضاعيف المنذر بن ماء السماء يغزو الحارث بن ابي شمر ملك غسان وينتصر عليه ويغنم الغنائم الكثيرة والمال الوافر ويمعن في اجتياح سورية ويتقدم الى انطاكية ويستولي عليها ويقدم الى الالاهة العزّى ضحايا بشرية اربعمائة راهبة كما ذكره الكتبة السريان وسلب ونهب وقتل وألقى الرعب في القلوب [٤]

لم يطل الأمد على المنذر في حكمه بعد هذه الموقعة بل قام عليه الحارث بن حجر آكل المرار الكندي [٥] وطرده من الحيرة واستولى عليها بمؤازرة كسرى قباذ لانهُ شايعه في المزدكية مذهب مزدك بن بامداذان الزنديق الذي ظهر في ايام قباذ المذكور فوالاه قباذ المذكور ودان بالمزدكية الآمرة الناس بالتساوي في الاموال والاشتراك في النساء أي مذهب الشيوعية [٦] وكان المنذر قد رفض المزدكية فاغتاظ منهُ قباذ ونقم عليهِ [٧] . وقال حمزة الاصفهاني [٨] في هذا الموضوع . فضعف ملك العرب لان مادة قوة ملوك العرب كانت من جهة ملوك الفرس فعندها ملكت بكر بن وائل عليها الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار فهرب المنذر من دار مملكته الحيرة ومضى حتى نزل إلى الجرساء الكلبي وأقام عنده وكانت هذه الحوادث نحو سنة ٥٢٩ . ثم أن أمرأ القيس الثالث [٩] (والد المنذر بن ماء السماء) كان يغزو قبائل ربيعة فينكي بهم

(١) راجع عن هذا الاضطهاد الطبري ٢ : ١٠٥ وابن الاثير ١ : ١٧١ (٢) شيخو : النصرانية وآدابها ٨٩ (3) Sykes : His. of Pers ia I:481 (٤) تاريخ ميخائيل الكبير طبعة شابو ٢ : ١٧٨ وتاريخ زكريا الخطيب طبعة لندن ٣ : ٢٤٤ (٥) قال القلقشندي : في كتابه نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ٣٣١ كندة قبيلة من كهلان وكندا هذا ابوهم واسمه ثور وانما سمي كندة لانه كند اباه اي كفر نعمته وكندة هذا هو ابن اخي جذام ولخم وعاملة وبلاد كندة باليمن وكان لكندة هؤلاء ملك بالحجاز واليمن ومنهم امرؤ القيس الشاعر المشهور . آه . وكانت كندة قبل ان يملك حجر عليهم بغير ملك يأكل القوي الضعيف فسدد امورهم وساسهم احسن سياسة وانتزع من اللخميين ارضهم (٥٠٣ م) ثم ملك بعده ابنه عمرو المقصور ثم استخلفه الحارث وعظم شأنه حتى ولاه قباذ على العراق زمناً (٦) ابو الفداء ١ : ٧١ (٧) ابن الاثير ١ : ١٧٥ (٨) كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ٧١ (٩) يذكر الاصفهاني اسمه امرء القيس البدء ونظنه غلطا والاصح الثالث

ومنهم أصاب ماء السماء وكانت امرأة أبي حوط الحطائر ثم أنهُ ترك الحزم في غزوة من غزواتهِ فثارت بهِ بكر بن وائل فهزموا رجاله وأسروه فبقيت تلك العداوة في نفوس بكر بن وائل إلى أن وهى امر الملك قباذ فعندها ارسلت بكر إلى الحارث بن عمرو الكندي فملكوه وحشدوا له ونهضوا معهُ حتى أخذ الملك ودانت له العرب [1]

بقي الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ملكاً على الحيرة حتى مات قباذ وتولّى تاج الاكاسرة كسرى أنو شروان العادل سنة ٥٣١ وانتقض على مزدك فقتله وقتل اشياعه شر قتلة وطهّر البلاد من الزندقة وبلغهُ أن الحارث آكل المرار دان بالزندقة وحامى الزنادقة بمعنى أن المزدكيين الذين طاردهم كسرى وخشوا قصاصه هربوا ملتجئين إلى الحارث في الحيرة فبعث كسرى إلى المنذر بن ماء السماء من اشخصه اليهِ فقواه برجال من الاساورة وردّه إلى الحيرة ملكاً [2] وكان الحارث يومئذٍ في الانبار فبلغهُ الامر فخرج هارباً في صحابته وولده فمرّ بالثوية وتبعهُ المنذر بالخيل من تغلب واياد وبهر فلحق بارض كلب ونجا وانتهبوا ماله وهجائنه وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار فقدموا بهم إلى المنذر [3] فأمر المنذر بقتلهم بجفر الاملاك في ديار بني مرينا العباديين بين دير هند الكبرى والكوفة فقتلوا . ورثاهم امرؤ القيس الشاعر الذائع الصيت وهو حفيد الحارث آكل المرار وكان مع هؤلاء الذين قبضت عليهم تغلب من بني قومه وهو أفلت واليك مرثيته [4]

ألا يا عينُ بكّي لي شنينا	وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوكاً من بني حجر بن عمرو	يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة اصيبوا	ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسلٍ	ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم	وتنتزع الحواجب والعيونا [5]

وفي هذه الموقعة يقول عمرو بن كلثوم في معلقتهِ [6]

---

(١) يفهم من رواية الاصفهاني ان احتلال الحارث الكندي الحيرة كان بالرغم عن قباذ ويؤيد هذه الرواية ما جاء في تاريخ الطبري ٢ : ٨٦ ان الحارث بن عمرو بن حجر الكندي ملك الحيرة بموازرة خاله تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب ابن تبع الاقرن (٢) حمزة الاصفهاني ٧١ (٣) ابن الاثير ١ : ١٧٥ (٤) الاغاني ٨ : ٦٢ وشعراء النصرانية ٧

(٥) وجاء في معجم البلدان في مادة (دير بني مرينا) وفي شعراء النصرانية ص ٥٧ ان امرأ القيس قال هذا الشعر في وقعة يختلف وصفها عما جاء في الاغاني كما اثبتنا في النص اعلاه وهو ان قيس بن سلمة حفيد الحارث آكل المرار اغار على المنذر فهزمه حتى ادخله الخورنق ومعه ابناه قابوس وعمرو ولم يكن ولد له يومئذ المنذر ابن المنذر فمكث المنذر ذو القرنين وهو ابن ماء السماء حولا ثم اغار عليهم بذات الشقوق فأصاب منهم اثني عشر شاباً من بني حجر بن عمرو كانوا يتصيدون وكان معهم امرؤ القيس الشاعر ولكنه أفلت وقدم المنذر في الحيرة بالفتية فحبسهم بالقصر الابيض شهرين ثم ارسل اليهم ان يؤتى بهم فخشي ان لا يؤتى بهم حتى يؤخذوا من رسله فأرسلوا اليهم ان أضربوا اعناقهم حتى ما اتاكم الرسول فأتاهم الرسول وهم عند الجفر فضربوا اعناقهم به

(٦) الاغاني ٨ : ٦٢

فآبوا بالنّهاب وبالسَّبايا وأُبنا بالملوك مصفدينا

كان الحارث آكل المرار قد فرّق ولده في قبائل العرب فملّك ابنه حجراً على بني أسد وغطفان وملك ابنهُ شرحبيل (قبل يوم الكلاب) على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة وطوائف من بني دارم بن تميم والرباب وملك ابنه معديكرب على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم ابن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية وملك ابنه عبدالله على عبد القيس وملك ابنه سلمة على قيس [1] فكان المنذر بن ماء السماء يتحين الفرص للانتقام من اعقاب الحارث فوقع خلاف بين ابني الحارث شرحبيل وسلمة آلت الى حرب وقتال وبعد وقائع دامية في يوم الكلاب التجأ أحدهم سلمة ببني تغلب فاخرجت تغلب سلمة من بينهم فلجأ الى بكر بن وائل فلما صار عند بكر اذعنت له وحشدت عليهِ وقالوا لا يملكنا غيرك فبعث اليهم المنذر يدعوهم الى طاعته فأبوا ذلك فحلف المنذر ليسيرنَّ اليهم فان ظفر بهم فليذبحنهم على قلة جبل اوارة حتى يبلغ الدم الحضيض وسار اليهم بجموعهم فالتقوا باوارة فاقتتلوا اقتتالاً شديداً وانجلت الواقعة عن هزيمة بكر واسر يزيد بن شرحبيل الكندي فأمر المنذر بقتله . وقُتل في المعركة بشر كثير واسر المنذر من بكر اسرى كثيرة فأمر بهم فذبحوا على جبل اوارة فجعل الدم يجمد فقيل له ابيت اللعن لو ذبحت كل بكري على وجه لارض لم يبلغ دماؤهم الحضيض ولكن لو صببت عليهِ الماء ففعل فسال الدم الى الحضيض وأمر بالنساء ان يحرقنَ بالنار فتشفع رجل من قيس فأطلقهنَّ المنذر واشتهرت هذه الموقعة عند العرب بيوم اوارة الاول [2]

لا نعلم متى حدثت موقعة يوم اوارة . هل بعد عودة المنذر الى حكم الحيرة توّاً أو بعد غزوته سورية للمرة الثانية في عهد كسرى انو شروان كما سيجيء ذكرها . وبعد زوال ملك الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار قال امرؤ القيس يرثي ملك جده ويصف تباريح الزمان:

أبعد الحارث الملك بن عمْرٍو له مُلْكُ العراق الى عمانِ
مجاورةً بني شمَجى بن جرْمٍ هواناً ما اتيح من الهوانِ
ويَمنحُها بنو شمجى بن جرم مَعيزَهمُ حنانك ذا الحنانِ [3]

وبقي المنذر بن ماء السماء يطارد آل آكل المرار ويبطش بهم وهم يهابونهُ . ومنهم امرؤ القيس الشاعر الطائر الشهرة . فلبثوا عهداً عند الحرث بن شهاب حتى بعث اليهِ المنذر مائة من رجاله يوعده بالحرب ان لم يسلم اليهِ بني آكل المرار فأسلمهم ونجا امرؤ القيس . فخرج على وجهه وأقبل على فرسه الشقراء لاجئاً الى ابن عمته عمرو بن المنذر بن ماء السماء . لان ام عمرو هند بنت عمرو بن حجر بن آكل المرار وذلك بعد قتل ابيه واعمامه وتفرق اهل بيته وكان عمرو يومئذ خليفة لابيه المنذر ببقة وهي بين الانبار وهيت فدحه وذكرصهره ورحمه

(١) الاغاني ٦٢ : ٦٣ (٢) ابن الاثير ١ : ٢٢٨ (٣) شعراء النصرانية ٦٧

وانهُ قد تعلق بحباله ولجأ اليهِ فأجاره عمرو ومكث عنده زماناً ثم بلغ المنذر مكانه عنده فطلبه وانذره عمرو . فهرب الى هانيء بن مسعود بن عامر احد رؤساء بني شيبان فلم يجره وقال له انا في دين الملك فأتى سعد بن ضباب الايادي سيد قومه فأجاره [١]

وذكر مؤرخو الروم مثل ننوز وبروكوب وغيرهما ان امرء القيس وهم يسمونهُ قيساً قبل وروده على القيصر يوستنيانوس اوفد اليهِ وفداً يطلب منهُ النجدة على بني اسد وعلى المنذر ملك العراق [٢]

ذكر سايكس [٣] ان في سنة ٥٣١ اتخذت التدابير في بلاد فارس لاجتياح سورية بمحالفة العرب بامرة المنذر بعد ان اخفقت مفاوضة الصلح مع الروم الاَّ ان القائد الساهر بلساريوس وقف على هذا الخبر وسير عساكره سيراً حثيثاً وجعله حائلاً بين الغزاة وانطاكية . ولما فشل الجيش الفارسي في تحقيق جُلّ مقصدهم انجلوا عن البلاد الرومية وكان في نية القائد الرومي ان يفسح لهم المجال في جلائهم هذا الاَّ ان عسكره ضجَّ صاخباً وأراد ان يطارد الفرس فوافقهم مُرغماً ولكنهم خسروا وتحرَّج موقفهم ولم يتمكن قائدهم من الخلاص من هذه الورطة الاَّ بمهارة عسكرية . وكانت هذه آخر موقعة من الحروب وجاء خبر موت قباذ آنئذ فكفَّ الجيش الفارسي وانجلى

يفهم من رواية سايكس ان في أُخريات أيام قباذ كان المنذر في رأس العرب الذين نصروا الفرس في هذه الحرب مع ان مؤرخي العرب ذكروا ان المنذر كان على غير وئام مع قباذ وان الحارث آكل المرار كان قد اغتصب ملك الحيرة بمؤازرة قباذ نفسه كما مرَّ بنا قبيل هذا . فان صحت رواية سايكس هذه فلا نجد لتعليلها سبيلاً الاَّ ان العلائق بين المنذر وقباذ كانت قد بدأت بالتحسن وكان ملك الفرس محتاجاً الى المنذر وكان المنذر يرجو خيراً من التقرب من خسرو قباذ وربما كان يطمع في الغزو . ومع هذا فان بعض المؤرخين يروون ان زحف المنذر على سورية في هذه السنة عينها ٥٣١ كان نجدةً لكسرى أنو شروان وليس لقباذ والواقع ان في هذه السنة مات قباذ وملك انو شروان وعقد يوسطنيانوس معاهدة صلح مع الفرس [٣] لانهُ كان يرمي الى ايجاد صلات سلم في الشرق ليتسع له مجال الحرب والفتح في ايطالية وافريقية ولم يدخل اسم المنذر في هذه المعاهدة

لم يدم الصلح طويلاً بين انوشروان ويوسطنيانوس اذ ساء انوشروان أخبار النصر الذي ناله الروم في افريقية وايطالية فاوعز الى عامله المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة أن يغزو سورية وكان آنئذٍ اختلاف بينهُ وبين الحارث بن جبلة الغسَّاني في ملكية طريق الماشية في جنوبي تدمر يدَّعي المنذر انها من مملكته وينازعهُ في ذلك ملك غسَّان فاهتبل المنذر هذه الفرصة وحارب الحارث وانتصر أنوشروان للمنذر وانتصر الروم للحارث فثارت الحرب بين الدولتين وغزا انوشروان سورية وآسية الصغرى (ستأتي البقية)

(١) الاغاني ٨ : ٦٧ (٢) شعراء النصرانية ٣٥ (3) Sykes : His. of Persia 1 : 482

علم الجغرافية الاجتماعية
والاتجاهات الحديثة في الجغرافية

الاتجاهات الحديثة

كانت الجغرافية في نظر القدماء تشمل كل العلوم التي تتناول الارض وما عليها من الاحياء. يقابلها في عرفهم الفلك للاجرام الفلكية والرياضة للارقام والفلسفة للعقل . ولكن فروع العلم التي كانت تنطوي عليها الجغرافية اخذت تنفصل عنها إذ جعل رجال الاختصاص يوجهون الى مباحثهم الخاصة عناية خاصة ، فنشأت علوم الطبيعة والكيمياء والجولوجية والجغرافية الطبيعية وغيرها . وإذاً فيصحُّ ان تقول ان الجغرافية « أم العلوم »

واشتدَّ الاتجاه إلى التخصص في القرن التاسع عشر ، فظنَّ بعضهم انهُ لم يبق للجغرافية الآ الاهتمام بمواقع البلدان وتجارتها . والواقع ان معظم ما كان يدرس في فرع الجغرافية في النصف الاخير من القرن التاسع عشر لم يخرج عن تعيين المواقع وذكر حاصلات البلدان . ومعظم الذين تعلموا الجغرافية في ذلك العهد ، أو على تلك الطريقة ، لا يدركون قيمة الجغرافية في نظر العلم الحديث ، وقد يبدو لهم ان ينتقصوا من مكانتها

ولا ريب في ان علم الجغرافية خسر خسارة كبيرة لما انفصل عنهُ علماء من الطبقة الاولى تلبية لباعث الاختصاص فصاروا يحسبون في عداد الجولوجيين والانثربولوجيين والاقليميين (Climatologists) وفقدت من مكانتها بانفصال هؤلاء عنها حتى كادت الجامعات الاميركية لا تعنى بتدريس الجغرافية على أنها علم مستقل، او بتخصيص اساتذة لها بين اساتذة العلوم الاخرى

ولكن ما لبثت هذه الغيمة ان انقشعت وتحولت دوائر العلم إلى الاعتراف بنشأة الجغرافية كعلم مستقل ، في المانيا اولاً ثم في فرنسا ثم في انكلترا والولايات المتحدة الاميركية . وهي الآن تدرس في كل الجامعات ولاساتذتها مقام لا يفوقهُ مقام الاساتذة في العلوم الاخرى . وقد فازت الجغرافية بهذه المكانة ، لان كبار المربين اعترفوا بانها تتناول ميداناً من المعرفة جديراً بكل عناية ولكنها تحوَّلت عما كانت عليه . فالجغرافية الآن لا تقتصر على تعيين مواقع البلدان وذكر حاصلاتها . بل اتجهت الى ثلاث نواحٍ هي : الجغرافية الانسانية والجغرافية الاقتصادية والجغرافية المحلية والتاريخية

اما توزيع النباتات والحيوانات الجغرافي فصُرِف النظر عنهُ لان علماء الاحياء يرونهُ من اختصاصهم ، ولان علماء الجغرافية يريدون ان يقصروا مباحثهم على أثر البيئة في حياة الناس وميدان البحث الجغرافي — أي أثر البيئة في طبيعة الناس وتوزعهم على سطح الارض واعمالهم

وصناعاتهم — يجعلها في مكان بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . لذلك تراها في المدارس والجامعات الفرنسية وبعض جامعات اميركا — مشيغن وكليفورنية — في عداد العلوم الاجتماعية . اما في المانيا وبعض جامعات اميركا — برنستن وكورنل — فتحسب في عداد العلوم الطبيعية . واما في جامعة شيكاغو فتراها قد ذكرت في عداد العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء

ومما يبعث على الدهشة انك لا تكاد تقع على ذكر الجغرافية في دائرة معارف العلوم الاجتماعية التي تنشر الآن في بضعة مجلدات. ولعلَّ تأخر علماء الاجتماع عن اقامة الوزن الصحيح للجغرافية بين العلوم الاجتماعية ناشئ عن ان الجغرافية الاجتماعية نفسها لم تبلغ بعد درجة وافية من النمو

ولما كانت الجغرافية الاجتماعية تعتمد على التاريخ والاجتماع والاقتصاد في جمع الحقائق اللازمة لها ، فلا يستغرب تأخر نموّها . على ان المراقبين لنموّها يرون فيها ، إذا بلغت اشدّها ، علماً ذا فائدة اجتماعية كبيرة . وما يلي من هذه المقالة بيان موجز لاغراضها وحدودها

الجغرافية الاجتماعية : ميدانها واساليبها

الجغرافية الاجتماعية تتناول أثر البيئة في جماعات كبيرة من الناس دون الافراد والجماعات القليلة كالأسر . وتعنى بوجهٍ خاص بالتحوُّل الذي يصيب المُثُل الاجتماعية في بلدان مختلفة وما أثر البيئة في هذا التحوُّل . واذاً فتنقل مراكز الحضارة وقيام الامم والجماعات وانحطاطها من المباحث التي تستدعي عناية الجغرافيين الاجتماعيين كلَّ الاستدعاء . وإذا قصر الجغرافي الاجتماعي بحثهُ على بلاد واحدة تناول بحثهُ أثر البيئة في ما يجدهُ بين مناطق البلاد من الاختلاف في كفاءة التعليم ، والصحة الاجتماعية ، والاجرام ، والأثر في سياسة البلاد ، والحضارة بوجهٍ عام . ومن افتن ابواب هذا البحث للب ، الموازنة بين ما تنجبهُ المناطق المختلفة من الزعماء

فالجغرافية الاجتماعية تضمُّ نواحي من مختلف فروع الجغرافية العامة . فهي تأخذ من الجغرافية الاقتصادية أثر الثروة ومصادرها في الحياة الاجتماعية ومثلها ولكنها لا تتناول الا لماماً وجوه الجغرافية الاقتصادية بالمعنى المألوف . وتتناول من الجغرافية المحلية الموازنة بين المناطق المختلفة في بلادٍ ما ، في شكل سطح الارض ، وحالة التربة والاقاليم ، ولكنها تعنى بوجهٍ خاص بناحيةٍ يهملها الجغرافي المحلي Regional Geographer هي ناحية عدد الزعماء الذين تنجبهم مقاطعة ما ، وعدد السكان الذين يملكون بيوتاً ، وانتشار التعليم والامية ونسبة السكان في المدن إلى السكان في الريف وأثر ذلك في المثل الاجتماعية ومحاولة ربط نسبة الامية والمواليد والاجرام بالفروق الجغرافية بين المناطق

اما في الجغرافية التاريخية فالجغرافي الاجتماعي لا يوجه عناية كبيرة إلى العلاقة بين الجو وشكل سطح الارض أو بين حالة التربة ونتائج المعارك التاريخية وما عقد على أثرها من معاهدات

السلام . وانما هو يعنى عناية خاصة بالبواعث الجغرافية التي كانت ذات أثر في نهوض الامم وانحطاطها، وفوز السلالات أو تنعضها وتلاشيها، وتغيُّر المثل الاجتماعية الذي يصحب هجرة السلالات من بلاد إلى بلاد، وانتشار اللغات والعقائد السياسية ، وطرق الانتفاع بمصادر الثروة الطبيعية

وليست الجغرافية السياسية الاَّ ناحية من الجغرافية الاجتماعية ولكن الجغرافيّ الاجتماعي يترك للمختص بالجغرافية السياسية درس الحدود بين البلدان ومواقع العواصم وغير ذلك

في النبذة المتقدمة المامة بميدان الجغرافية الاجتماعية . اما اغراضها الاساسية فهي الانتفاع بما يعرف من البيئة وأثرها لفهم طبائع الشعوب وعاداتها واعمالها

ولذلك ثلاثة اساليب : الاول ان نتناول شعبين من اصل واحد ونشأة واحدة ولكن احدهما هجر بلاده الاصلية الى بلاد اخرى ثم نوازن بين طبائعهما وعاداتهما ومثلهما ، ونحاول تعليل ذلك بأثر البيئة الجديدة في الشعب المهاجر . والثاني ان نتخذ بيئتين مماثلتين في اكثر نواحيها ولكنهما مختلفتان في بعض النواحي ثم نحاول ان نكشف أثر هذا الاختلاف في اجتماع الشعبين اللذين يقطنونهما . والثالث ان نتناول اوضاعاً اجتماعية معينة مثل مقام المرأة او احوال الصحة الاجتماعية وندرسها في بيئات مختلفة محاولين ان نربطها بصفة خاصة من صفات البيئة اذا كان ذلك ممكناً . فالجغرافي الاجتماعي مثلاً يحاول ان يتبيَّن هل إنجاب الزعماء العظام مرتبط ايَّ ارتباط بنوع خاص من الاقليم كالاقليم البارد الشديد التقلب . اما وقد بينا اتساع ميدان البحث وتعقيده فلا عجب ان نجد الجغرافية الاجتماعية لا تزال تحبو على طريق النماء . ومع ذلك تمكن اعلام الباحثين فيها — مثل ألزورث هنتنغتن [1] والاستاذ ستيفن فشر استاذ الجغرافية في جامعة انديانا وصاحب هذا المقال — من وضع طائفة من النظريات يصح ان تتخذ اساساً للبحث

نظريات الجغرافية الاجتماعية

١ — ترتقي الحضارة ارتقاء سريعاً حيث تكون احوال الاقليم مؤاتية . فاذا نقلت بزور الحضارة الى اقليم غير مؤاتٍ ، انحطت الاَّ اذا جدّدت بهجرة أقوام من بلدان ذات اقليم مؤاتٍ . فاذا شاءت الشعوب القاطنة في بلدٍ مؤاتي الاقليم ، ان تنشر الحضارة وتعززها في بلاد غير مؤاتية الاقليم ، وجب عليهم الاَّ يكتفوا بارسال الزعماء والاغنياء لدى افتتاح البلاد بل يجب امداد البلاد بجماعات تجدّد حياة الحضارة فيها جيلاً بعد جيل

٢ — تحول التربة الخصبة أو الاحوال المؤاتية لسهولة العيش دون تعزيز الدمقراطية . ففي بلدان من هذا القبيل تتجمع الارض — وغيرها من اشكال الثروة — في ايدي افراد قلائل في حين ان سواد الامة يبقى في حالة فقر وانحطاط . اما في البلدان التي ليست خصبة التربة ، فالميل اقوى إلى التساوي — مساواة نسبية — بين طوائف الامة في الثروة والتعليم والسلطان

(١) صاحب مقالة « علم التنجيم الجديد » راجع مقتطف يناير وفبراير ١٩٣١

٣ — ان الحاصلات الطبيعية التي يسهل استخراجها من بطن الارض كالنفط والفحم والذهب هي من عوامل الدمار الاجتماعي في الجماعة التي تستخرجها ويجب ان تحسب في الموازنة الاجتماعية في ناحية الدين لا في ناحية مصادرة الثروة

٤ — ان استعمال مصادر الثروة الطبيعية تتوقف على صفات الشعب وبوجه خاص على نشاطهم الطبيعي وبراعتهم الميكانيكية ، اكثر من توقفها على قرب مصادر الثروة من المناطق الآهلة . فمعظم الفحم والنفط مثلاً يستعمل في اماكن تبعد كثيراً عن مناجم الفحم وآبار النفط . وعلى الضد من ذلك نجد ان استعمال الفحم والنفط حيث يستنبطان نادر الا اذا كان على مقربة من اماكن استنباطها جماعة متصفة بالنشاط والبراعة الميكانيكية والصناعية

٥ — ان جانباً ضئيلاً جداً من سطح الكرة الارضية ينجب عدداً كبيراً من الزعماء بالنسبة إلى عدد السكان . وذلك لان الاستفادة من مواهب الزعماء يقتضي وجود شعب يقدر المواهب قدرها ويعنى بتشجيع المبتكرين . ومعظم شعوب الارض لايستطيعون تشجيع النوابغ مادياً وأدبياً لتأخرها الاقتصادي . ولكن ثمة بقاع يتعذر فيها كسب الرزق ولكنها تنجب زعماء اذا كانت أحوال البيئة الاجتماعية مؤاتية لانجابهم وإذا كانت البلدان المجاورة في حاجة إلى هؤلاء الزعماء

٦ — وتندر البلدان التي توجه فيها بيئة اجتماعية كاملة . لان عنصراً او آخر من عناصر البيئة الاجتماعية الصالحة مفقود في هذه البيئة او تلك . واهم هذه العناصر موقع جغرافي حسن يمتاز في ما يمتاز به بجو بارد متقلب حافز للنشاط الجسدي والعقلي ، ولكنهُ على جانب من الدفء والرطوبة في بعض فصول السنة حتى يصلح للزراعة . ولابدّ كذلك من سلالة سليمة من ناحية الوراثة ، واسباب تسهل تبادل الافكار

٧ — في المدن تباين بين طوائف السكان اكثر من التباين الذي نجدهُ بين سكان ريف فسيح ليس في جواره مدن وذلك لان الفرص التي تتاح في المدن لطلاب العمل اكثر تبايناً من الفرص التي تتاح في الريف

٨ — الفروق في المثل الاجتماعية في مدينة ما او في حي من مدينة فروق في الغالب وهي تختلف باختلاف الاقبال على الحي ، ووسائل المواصلات التي تربطهُ بالاحياء الاخرى ، وصفات زعمائهِ وهذه الاختلافات تتم بواسطة انتخاب اجتماعي فيقطن ابناء الامة الواحدة في حي واحد او احياء متجاورة

٩ — يقوى الانتخاب الاجتماعي بارتقاء اسباب المواصلات . في المناطق التي تكثر المهجرة اليها نجد متوسط الحماسة والنشاط الذهني والتفاؤل عالياً جداً . كذلك نجد اصحاب المواهب التجارية المالية متجمعين في مراكز التجارة والمال ، واصحاب المواهب العقلية في جوار الجامعات ومراكز التعليم ، والتشاؤم سائداً في المناطق التي اخذت تفقد سكانها كما في المناطق الزراعية

١٠ — ليس ثمة منطقة كاملة من حيث هي بيئة اجتماعية ومهما تتوافر فيها العناصر اللازمة لابدّ لها من سدّ ما ينقصها بما يرد اليها من غيرها . وكل وسيلة تمكن هذا التبادل تفيد فائدة اجتماعية كبيرة . واذاً فضرب الضرائب على اسباب المواصلات المختلفة ضار من الناحية الاجتماعية

انقضى النهار

ترجمة قصيدة للشاعر الاميركي لونغفلو

لقد انقضى النهار وأخذ الظلام يهوي من اجنحة الليل
كريشة سقطت من جناح عقاب في اثناء الطيران
ارى انوار القرية تتلألأ من خلال المطر والضباب
فيستولي عليَّ شعور أسى لا تستطيع نفسي أن تصدَّهُ
شعور أسى وتوق لا يمتُّ الى الألم بصلة
ولـكنهُ لا يشبهُ الحزن الاَّ كما يشبه الضباب المطر
اقرأي لي قصيدة ، أو أغنية ساذجة صادرة من صميم القلب
تسكّن اضطرابي وتبدّد أفكار النهار
لا تقرأي لي من شعر الفطاحل ، ولا من المنشدين السمويين
الذين يسمع صدى خطواتهم العاتية في اروقة الزمان
لأن أفكارهم المنيفة ، مثل ايقاع الموسيقى الحربية
تبعث في الحياة حب النضال والجهاد ، وأنا الليلة اتوق الى الراحة
اقرأي لي من شاعر متواضعٍ ، تفجَّرت أغانيه من قلبه
كما تنهمر الشآبيب من غيم الصيف أو الدموع من الاجفان
من شاعر ظلَّ في ايام العمل والكفاح وليالي الاضطراب
يسمع في قرارة نفسه موسيقى الالحان العجيبة
أغاني يقرُّ الى هدوئها نبض العناء الذي لا يستقر
فتجيء كالطمأنينة التي تتبع الصلاة
ثم اقرأي لي من كتاب ثمين الشعر الذي تختارينهُ
وأضيفي الى روعة قوافي الشاعر روعة صوتك الرخيم
اذاً يصبح الليل حافلاً باصداء الموسيقى ، فتطوي متاعبُ النهار
خيمها ، كما تفعل العرب ، وتتسلل في سكينة الظلام

حفني بك ناصف

تاريخ حياته

هو محمد الحفني ابن الشيخ اسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف ، كان أبوهُ من أهل العلم وتوفي قبل ولادة ابنه بشهرين أو ثلاثة . ولد المترجم ببركة الحج[1] في ٥ محرم سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٦ سبتمبر ١٨٥٥ م ، وما ترعرع حتى دفع الى كتاب البلدة فتعلم الخط وحفظ القرآن جميعه

ولما كان فقيه المكتب يفرط في ضرب تلاميذه ، وكان هو منذ نشأته يأبى الضيم وينزع إلى الحرية والعلم — وقد بقي كذلك حتى وفاته — فقد هرب إلى الازهر فمكث فيهِ عشر سنين متتابعة ، جوّد القرآن في الاولى منها وحفظ المتون المعتاد حفظها ، وتعلم في التسع الباقية فقه الشافعي والصرف والنحو وعلوم البلاغة والعروض والقافية والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث ، وحصل على إجازة برواية الحديث من الشيخ الأشموني. على أنهُ لم يقنع بدراسة هذه العلوم المدرسية ، فأخذ يتعلم خارج الازهر علم الميقات ومبادىء الفلسفة والانشاء والشعر والأدب وغير ذلك ، وسافر في غضون تلك المدة إلى الحجاز والشام للحج وزيارة المشاهد المقدسة

وذاعت شهرته في الازهر بالنحو والشعر ، وأصبح — بطريقة غير رسمية — يعلّم بهِ شرح ابن عقيل على الألفية ، وكان نوابغ الطلبة يسألونهُ في النحو عمّا شاؤوا فلم يعجز عن الجواب مرة واحدة ، اما في الشعر فقد كان لقصائده القدح المعلى في كل الحفلات الأدبية التي كانت تقام في بعض أروقة الازهر فيتبارى فيها شعراؤه من كل صوب ، وكان الازهريون يستكثرون عليهِ تلك القصائد ويظنون أنهُ قد يكون سرقها من الدواوين القديمة ، فاقترح عليهم أشعرهم في ذلك الوقت — فضيلة الشيخ عبد الرحمن قرّاعة — أن يساجله في شعر حدد موضوعه واختار بحره وقافيته فساجله على مشهد من الطلبة حتى صنعا اكثر من مائة بيت في أقل من ساعة ، ومن ذلك الوقت آمن الجميع بشاعريته وأخذ طلاب الشعر من الازهريين يلتفون حوله ويعرضون عليهِ قصائدهم فيزيد فيها أو ينقص

وكان يود أن يقضي حياته في الازهر بين تعلم وتعليم ، ولكن مدرسة دار العلوم كانت قد انشئت في ذلك الوقت ففضل أن ينتظم فيها حتى لا تفوته علومها الحديثة ، وقد كان مستوى التعليم في تلك المدرسة أرقى مما هو الآن ، فامتحن مع مائة وخمسين طالباً من أنبه الازهريين

---

(١) سميت ببركة الحج لانها كانت محط رحال الحمل قبيل سفره الى الحجاز كل عام ، وربما وقع الاختيار عليها لانها كانت على حدود الجزء المعمور من الدلتا ، وقد أدى عدد كبير من أهلها فريضة الحج ، وأهم مزروعاتها البلح (البركاوي)

قُبيل منهم اربعة عشر كان هو أولهم ، ولم يزل حافظاً لهذه الأولية حتى تخرج من المدرسة بعد سنوات أربع تعلم فيها فقه أبي حنيفة والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافية والطبيعة والكيمياء ووظائف الاعضاء والهيئة ومبادىء اللغة الفرنسية ، وذلك زيادة على التوسع في العلوم التي كان يدرسها من قبل

وفي تلك الاثناء كانت الثورة العرابية قد نشبت فقام بنصيبه فيها بالخطابة والدعاية السياسية وانتظم في سلك المتطوعين وبقي شهراً في قشلاق عابدين تدرَّب فيهِ على الرماية وبعض فنون الجندية ، وكان يجيد السباحة والغطس إلى حد غير مألوف بين الازهريين

وأول منصبٍ تولاهُ بعد خروجهِ من المدرسة تعليم الخرس والعميان ، فتيسر لهُ في ثلاث سنين أن جعل الخرس يكتبون كل ما يريدون من المعاني ويفهمون ما يكتبهُ الناس لهم : فقامت الكتابة عندهم مكان الكلام والسمع وتيسر لهُ تعليم الكبار من العميان الألفية كلها ورسالة الفضالي في التوحيد ومنظومة الشيخ أحمد قاسم في علم الميقات ، وقد نبغ منهم الشيخ مصطفى الفلكي الميقاتي ، وكان المترجم كلما حاول الانتقال من هذه المدرسة وقف في طريقهِ المفتش أنسي بك خوفاً على المدرسة أن تقف حركتها

ثم انتقل كاتباً خصوصيًّا (سكرتيراً) لشفيق بك منصور وكان هذا ميالاً للتأليف والتصنيف ولكنهُ لم يكن يعرف من علوم اللغة العربية ما يمكنهُ من ذلك ، فساعده المترجم من حيث اللغة والمادة ، كما ساعد غيره في وضع عدة كتب وترجمة اخرى

وانتخب مع الشيخ حمزة فتح الله ومحمود بك رشاد للوفود الى مؤتمر المستشرقين في مدينة فينا تحت رآسة ارتين باشا ، وقدم كل من الثلاثة بحثاً علميًّا ، فلم يقبل في محاضر جلسات المؤتمر ولم يطبع في مجموعته سوى رسالته هو (مميزات لغات العرب)

ولما استعفى شفيق بك من عمل النيابة انتقل المترجم إلى مدرسة الحقوق معلماً للانشاء القضائي والانشاء العام والبلاغة والمنطق وآداب المناظرة ، وقد مكث في تلك المدرسة خمس سنوات نبغ على يديه فيها أشهر المنشئين والمترافعين والمترجمين والشعراء [1]

وقد كلفتهُ وزارة المعارف في تلك المدة تأليف كتب سهلة يتعلم التلاميذ فيها قواعد النحو والصرف والبلاغة ، تغنيهم عن تلك المطولات الخالية من التبويب والتي لا تلائم اذهان الطلبة بحال ، فألف كتباً خمسة جرى عليها العمل من ذلك الوقت الى الآن ، وتعلم بها الوف الناشئين في مصر وغيرها. وكانت مصلحة المساحة ترجع اليهِ لتصحيح اسماء البلدان في اطالسها

ثم نقل إلى القضاء الاهلي ومكث فيهِ عشرين سنة كان فيها ضماناً للعدل والانصاف ومثالاً للصبر

(١) نذكر منهم مصطفى كامل وقد أتم دراسته بتولوز ، وطه حسين وعبد الهادي الجندي وأحمد شوقي وأحمد لطفي السيد وأحمد زكي وعبد الخالق ثروت واسماعيل صدقي وتوفيق نسيم وطلعت حرب وأحمد زكي أبو السعود

والجلد وعنوانًا للنزاهة والشجاعة ولا يزال أهل البلاد التي تولى القضاء فيها يتحدثون بأنصافه ودقة بحثه

وكان في خلال تلك المدة قد فكر مع غيره في إنقاذ التعليم من التردي في الهوة التي تدفعه اليها الاستعمارية البريطانية بقصرها مهمته على تخريج الموظفين دون انشاء ثقافة حقيقية ، وقد رأى هو وزملاؤه ان يبدأوا سعيهم بانشاء الجامعة المصرية واخذوا في الدعوة الى هذا المشروع . وادرك الانجليز خطورة الفكرة فعملوا من ناحيتهم كل ما يستطيعون لمنع انشاء الجامعة ، فأوحوا إلى صنائعهم ان يطبلوا ويزمروا بالدعوة الى نشر التعليم الاولي كي يضيع بين ضجيجهم صوت الداعين الى انشاء الجامعة ، وعين سعد باشا زغلول اذ ذاك وزيراً فاستقال من عضوية مجلس ادارة الجامعة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦ ونقل المترجم من مصر الى قنا في ابريل سنة ١٩٠٨ ليتخلصوا من نشاطه وكفاءته

ومع ذلك ظل المترجم وزملاؤه (ومنهم علي علوي باشا ومحمد بك فريد ، وقد طلب اليه مجلس الادارة ان يتنحى عن العمل في لجنة الجامعة نظراً لتطرف لونه السياسي فقبل ، وعبد العزيز جاويش بك وقاسم امين بك وعبد العزيز فهمي باشا) ينادون بانشاء الجامعة المصرية ويجوبون البلاد ويخطبون في الناس ويجمعون الاموال من نقد وعقار ووقف، وكلل عملهم في النهاية بالنجاح وان يكن نجاحاً محدوداً ، فانشئت الجامعة ولـكن الدراسة فيها كانت مقتصرة على الحقوق والآداب . واختير المترجم بعد ذلك لتعليم الادب العربي وتاريخه ، فدرسه سنتين مع اشتغاله بالقضاء ، ووضع خلال تلك المدة ثلاثة اجزاء من كتاب الادب العربي ضمنه ابحاثاً لم تكن مطروقة من قبل ، وسافر بعد ذلك الى مؤتمر المستشرقين في اثينا وقدم لهم من المباحث ما فاز بتقديرهم واعجابهم

واصدر وهو وكيل بمحكمة طنطا على محب باشا مدير الغربية اذ ذاك ، حكماً مدنيًّا له حيثيات توجب محاكمة المدير جنائيًّا ، وكان من اثر مثل هذه الاحكام ان بقي في طنطا بضع سنوات بدون ارتقاء في المنصب او ازدياد في المرتب ، وحدث ان احيل الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية الى المعاش ، فاتجهت الانظار الى المترجم وألحت عليه وزارة المعارف في قبول ذلك المنصب فوافق في النهاية ، على ان صوت الوشاة حال دون ترقيه ، فلم يزد مرتبه قرشاً واحداً في السنوات الثلاث التي قضاها في المعارف

وكان يوجّه اكبر عنايته في تلك المدة الى تنقية اللغة العربية من الالفاظ العامية والدخيلة ووضع اصطلاحات صحيحة للعلوم التي كانت تدرس باللغة الاجنبية ثم تقرر تدريسها بالعربية ، وتنقيح مناهج اللغة العربية ووضع كتب جديدة للمطالعة واخرى في مادة اللغة نفسها، ولكن ذلك لم يتيسر له كله فقد رأت الوزارة ان الطواف اليومي في المدارس اهم عمل يقوم به المفتشون

وكان في ادوار حياته كلها يميل الى الاندية الادبية ، فقد كان وكيلاً لجمعية الاعتدال

التي انشأها اصحاب المقتطف في اول وفودهم على مصر لمحاربة الخمر وحث الناس على الاعتصام بالآداب القويمة ، وكان لها من الشأن ما لا يدركه القارىء الآن نظراً لضآلة شأن اكثر الجمعيات التي تعمل الآن لتحقيق مثل هذا الغرض، وأسس في قنا نادياً يدعو الى الاخلاق الفاضلة كانت تلقى فيه المحاضرات كل اسبوع ؛ وكان اكبر العاملين في نادي طنطا وقد القى فيه بعض محاضرات قيمة ، وانشأ في القاهرة نادي دار العلوم للمباحث اللغوية والآداب العربية، وقد سار النادي خطوات واسعة في سبيل اصلاح اللغة ولولا الاشاعات التي دارت (قُبيل الحرب) عن سعد زغلول باشا في آخر وزارته واتهام النادي بأنهُ متشيع له لأخرج هذا النادي كتباً جمة وقواميس مستحدثة . وقد كان المترجم من اوائل الذين فكروا في انشاء مجمع لغوي ، وقد تكوَّن هذا المجمع فعلاً وعقد بضع جلسات في دار الكتب المصرية ، ولكن الاحوال حالت دون استمراره ونموّه . وكان المترجم يعني بتثقيف أولاده وبناته وبوجهٍ خاص كبراهم ملك ، وهي أول سيدة مصرية طالبت برد حقوق المرأة باعتدال .وقد أصبحت بعد زواجها واقامتها بالفيوم توقع قصائدها ومقالاتها في الصحف باسم « باحثة البادية » . ثمَّ ختم اعماله العلمية بذلك العمل الضخم الا وهو تصحيح رسم المصحف العثماني .ولكي يدرك القارىء شيئاً عن قيمة ذلك العمل ومابذل في سبيل اتمامه من الجهد والتضحية أرى ذكر الادوار التي مرَّ عليها:—

كان الخديوي السابق عباس حلمي يلحن في قراءة القرءان . وسأل مرة هل ثمة ما يمنع طبع المصاحف بحسب قواعد الاملاء الحديثة ، فلما آنس بعض كبار علماء الازهر من سموّه رغبة في تنفيذ ذلك الرأي ، سارعوا إلى تحبيذه والافتاء بجوازه وتفضيله ، وانفرد المترجم أول الامر بالمعارضة في ذلك مراعاة لاصول القراءات وخوفاً ان تتعدد المصاحف في شتى البلاد الاسلامية فيجر ذلك إلى تفكيك روابط الالفة التي يوثقها القرءان بين افراد المسلمين على اختلاف شعوبهم ونحلهم . ثم اقتنع بعض الفضلاء بهذا الرأي فناصروه فانتصر

وقد ادى النقاش في درسهم خط المصحف على النمط الذي كتب به اول مرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، الى تبين اخطاء في رسم الحروف وقد اخذت تتكرر وتزداد بتوالي الطبع من ذلك العهد حتى ما بعد الحرب ، فوجب العودة الى الصواب . وقد اسند هذا العمل الى اشد المتحمسين له كما هي العادة . وكان المترجم اذ ذاك مفتشاً اولاً للغة العربية بوزارة المعارف ، فكان يقوم به الى جانب عمله الرسمي ، وكان يعاونه الاستاذان احمد الاسكندري ومصطفى العناني، وكانوا يقطنون ثلاثتهم حلوان فكانوا يجتمعون بمنزلنا هناك

ثم جاءت الحرب العظمى ١٩١٤ بويلاتها فعمدت الحكومة المصرية في ذلك الحين الى الاقتصاد المعكوس فتبرعت للجيش الانكليزي بثلاثة ملايين من الجنيهات وتخلت له عن اجر الانتقال في السكك الحديدية وسنت قانوناً تحيل بمقتضاهُ الى المعاش كل موظف بلغ الستين من عمره ، ولم يطبق

هذا القانون على اصفياء الحكومة حينئذ بل طبق على المغضوب عليهم ذوي الشخصيات البارزة الذين لا تلين في الحق قناتهم ولا يطأطئون رؤوسهم للمتظاهرين بالسيادة والسلطان.

وصدر القانون المذكور فأصرَّ عدلي باشا يكن وزير المعارف على تنفيذه فيما يختص بأحالة المترجم على المعاش رغم معرفة الوزير ان ذلك التنفيذ يهدد مشروع تصحيح رسم المصحف بالقضاء عليه

وما تحرر المترجم من قيود منصبه حتى تفتحت امامه سبل الرزق فعرض عليه بعض رؤساء الحكومة ان يعيدوا اصدار جريدة المؤيد ويسندوا اليه رآسة تحريرها مقابل الف جنيه ينقدها سنويًا — وهو مبلغ غير قليل باعتبار قوة الشراء في ذلك العهد — فرفض هذا العرض نفوراً من التورط في مناصرة سياسة الحكومة وما يحف بها ، ورغبة في التفرغ لاتمام مشروع المصحف (وقد عرضت رآسة التحرير بعد ذلك على المرحوم محمود بك رشاد فرفضها هو الآخر) . وعرض عليه بعض المحامين ان يشترك واياهم في فتح مكتب للمحاماة فرفض وعرض عليه منصب رئيسي في ادارة التعليم بأحدى الجمعيات الخيرية الكبيرة فرفض ، وبلغ من اكبابه على تصحيح رسم المصحف ان لم يبق له وقت يجمع فيه اشعاره وازجاله ونثره وأبحاثه ورسائله ومقاماته ويرتبها في كتب يشرف على طبعها بنفسه كما يفعل غيره من الادباء والشعراء ، وقد كانت كل هذه الاعمال خليقة بأن تدر عليه بعض المال فضلاً عن قيمتها الادبية

وقلَّ دخله بعد احالته على المعاش فأنزل مستوى معيشته كثيراً . وكان يعرف انه لن يعيش اكثر من بضع سنوات أخرى فلم يدفعه ذلك الى العمل لكسب بضعة آلاف من الجنيهات يتركها لاسرته الكبيرة ، بل زادته هذه المعرفة اكباباً على تصحيح رسم المصحف ، وقد نجح في اتمامه وأصلح بنفسه آخر مسودات المطبعة ؛ ثم كأنه شعر ان مهمته قد انتهت فأسلم نفسه للموت بعد أشهر قليلة قضاها في المرض والاحزان

وقد كانت الحكومة سخية . . . في تقدير المكافأة التي صرفتها لورثته على هذ العمل الذي استغرق من وقته ست سنوات (اذ ان العمل فيه بدا قبل احالته على المعاش) والذي تخلى في سبيله عن بضعة آلاف من الجنيهات كان يستطيع ان يكسبها من اشتغاله بشيء آخر . أتدري بكم قدرت مجهوده ؟ بمائة جنيه أي بمعدل ١٣٠ قرشاً في الشهر . هذا هو الاجر الذي دفعته الحكومة مقابل ذلك العمل الضخم الذي تربح منه مئات الوف من الجنيهات والذي تذيع به دعايتها في طول البلاد الاسلامية وعرضها . هذا ما دفعته الحكومة لمصلح رسم القرءان . وهي التي دفعت بضعة آلاف من الجنيهات لمدرس انجليزي لانه الّف كتاباً صغيراً في الجغرافيا . . ولكنك تفتح المصحف فتجد في آخره ان هذا العمل قد تم في عهد الحكومة وعلى نفقة الحكومة وبناء على رغبة الحكومة . صدق من قال . رُبَّ ساعٍ لقاعد

عصام الدين حفني ناصف

صورة قلمية

ملك الخشب:

نحن اليوم نعيش في عصر عملي يتطلب النشاط والدأب والعمل على النماء المادي، ويقتضي الاستقلال الصناعي والتجاري، لان حياة الامم أصبحت الآن في الاسواق، وفي ايدي القائمين بها، والتاجر الكبير في هذه الايام درجة من درجات المقياس الذي يعلو أو يهبط بحياة الامة التي هو منها، وقد يستطيع السياسي الآن ان يقلب شأناً من شؤون الحياة الأهلية في شعبه، ولكن التاجر هو الذي يستطيع وحده ان يقف في وجهه ويحول بينهُ وبين مآربهِ، وهم يقولون أن المانيا لم تستطع أن تثير الحرب الكبرى الأ بعد ان سبرت غور تجارها وماليها واهل العمل والقوة الصناعية فيها؛ إذ كان هؤلاء هم جيوب الامة وهم خزائنها، وهم كل ذخائرها واسلحتها، والامة التي تكثر منهم، وتزيد لنفسها في عدادهم، هي الامة التي تتسلح باكبر الأسلحة في معركة الحياة

والناس اليوم يستبشعون الحرب الكبرى ويستنكرون بلاءها؛ لكثرة الدماء التي سفكت في ميادينها، والثروات العظيمة التي ضاعت في سبيلها، ولكن الحرب كانت قائمة قبل ان تنشب المعركة في الميدان؛ غير انها لم تكن حرباً يلبس لها الناس الاردية العسكرية ويحشدون لها المدافع والذخائر الحربية، وانما كانت حرباً قائمة في الحوانيت، وفوق المكاتب، وفي بيوتات التجارة والمال، وكان يتدرع اهلها فيها باسلحة أدق من المدفع، وأحذق من القنبلة، فلما سئمت الامم هذه الحرب التجارية الخفية الصامتة، انطلقت تثير حرباً ضاجة غير خافية، وكان التجار وأهل العمل والمال هم الذين يملكون إنهاءها أو إطالة عمرها

وقد كان نابوليون يقول ساخراً من الانجليز انهم شعب من اصحاب الحوانيت، فأكبرها الانجليز منهُ وعدّوها مديحاً لهم، ثم لم يستطع نابوليون المزهوّ العظيم ان يغلق حانوتاً واحداً منها

ونحن شعب أولي في كل ما يتعلق بالعمل، لاننا لا نزال بعد في دور الطفولة الاجتماعية، ولا يزال يعوزنا النشاط العملي الذي نستطيع بهِ ان نكافح القوة التجارية التي يطالعنا بها الاجنبي في الاسواق المالية، ولسنا نملك المواهب التي تجعل التاجر الاوروبي المثل الاعلى في التجارة لاننا لا نستطيع ان نجاريهم في التجارة من ناحيتها النفسية، فالتجارة من الاعمال التي لا غناء لها عن تعرف اسرار النفوس ونزعاتها، ونواحي التأثير فيها واساليب اقناعها وارضائها. ومن هنا أصبح التاجر الوطني الذي ينجح في وسطنا هذا، ويزكو متجره، لا بدّ ان يكون رجلا ذا ارادة قوية، ومن اكبر العارفين بعلم النفس لانهُ لم ينهزم في السوق التجارية الممتلئة بجبابرة

تجار الغرب ودهاته ، وعرف كيف يقاوم العوامل الاهلية العديدة التي تحول دون النجاح

وبعد ، لعلني اذا سوّدت هذه الصفحة اديت عملاً جليل الفائدة يعود بالنفع على الناس ولكن هذا النفع الذي يتأتى من عظة بليغة أو درس في الاجتماع اسوقهُ الى الناس لا يكون اعظم أثراً من مشروع للحياة يشترك فيهِ الناس بايديهم وعقولهم واموالهم للاستحواذ على منافذ جديدة يتسع بها نطاق التجارة الوطنية والاقتصاد وتنمو الثروة الاهلية .

ان الحياة المادية ذات العواقب الملموسة لا تنتخب في الغالب رجالها من بين رجال التفكير ، لان مهمة نشر المعرفة وتفهم الآراء تخلد اربابها ولكنها مع جليل أثرها في الانسانية لا تستطيع ان تنافس في مضمار الحياة المادية ، تلك المهمة التي يؤديها للعمران اولئك الذين سخروا البحار وسيطروا على الاركان القصية في العالم لغرض التضامن الاقتصادي والمالي . اما المثل الذي نريد ان نسوقهُ إلى الناس فقد شئنا ان نتخيره من بين رجال التجارة العصاميين الذين كانت لهم مواهبهم الفكرية والادبية ومزاياهم الشخصية مصدر استرشاد ونجاح في حياة العمل

كان اسعد باسيلي اول ظهوره في الحياة العملية اديباً سليم التفكير ، وللأدب تأثير قوي في النفس حتى لا يستطيع المشتغل بهِ ان يتخلى عنهُ الى حرفة اخرى ، ولعل اشتغاله بالادب كان نتيجة شعوره القوي بانهُ خلق لرآسة عمل واسع وان من حقهِ ان يعرب عن آرائه وان يرشد وان يتولى توضيح النقاط الغامضة فيما يلحظهُ ويسمعهُ من احوال الناس واحاديثهم ، فلم يكن الادب سبيله الى الحياة وانما كانت ارادته وقوة شخصيته وذكاؤه رأس نجاحه

فانت ترى أن هذا الرجل القدوة بين رجال الاعمال عندما اراد ان يضع اساس مجده المادي كان يعيش بذهنية رجل بحاثة قوي الميل الى الاشتغال بالدراسات الفلسفية العالية . وفي وسع الذين يميلون الى مراجعة الابحاث العلمية التي كانت تنشر في أبان النهضة الاخيرة لهدم القديم ولبثِّ الآراء والمبادئ الجديدة وعلى الاخص في مجلة « الجامعة » التي تولى إصدارها الكاتب الاجتماعي الكبير فرح انطون : نقول في وسع هؤلاء ان يطلعوا على نخبة قيمة من الموضوعات الفلسفية التي كان المترجم يعلن فيها وقتئذٍ رأيهُ في « العلم والدين » وما إلى ذلك من الآراء الجريئة التي كان يجاري فيها مذهب الفيلسوف سبنسر ومذاهب غيره من الفلاسفة ويبني على احكامهم ونعتقد انهُ لو خيِّر وقتئذٍ ان يكون ذلك البحاثة المشتغل بالمباحث العالية لما كان اقل توفيقاً . وربما كان نجاحهُ يعود على الجيل بنتائج اجلّ من نجاح الكثيرين من المعاصرين

اذاً لم يسلك اسعد باسيلي سبيل العمل المادي إذ ذاك بعقلية محدودة كسائر المشتغلين بالتجارة . وتخليه عن سبيل العلم والادب انما يرجع إلى مذهبه الوضعي وعقيدته التي لا تؤمن الا بالحقائق الملموسة

على ان مذهبه الوضعي باعتباره من رجال الاعمال لم يحل دون تدينه وصدق ايمانه وهو ممن يرون « ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض وان هناك حقيقة

اساسية قام عليها بنيان الاديان ». ثم انظر اليهِ يقول في ختام فصل ممتع منشور في الجزء الاول من السنة الثالثة من مجلة الجامعة بعنوان « اتجاه العقل إلى ما وراء حدود العلم »

« وهنالك ملاحظة أخرى لا ينبغي ان نضرب عنها صفحاً وهي ان العلم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز عن ان يروي كل الارواء ظمأ العقل البشري إلى المعرفة . فمهما امعنا في الاكتشاف العلمي فانه يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن أصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من هذا السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم أشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنه الا أنهُ يزيد نقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب ويلزم عن هذا ان يوجد على الدوام طريقان ينتجهما الفكر البشري وهما العلم والدين

« اذن فالعقل سيشتغل في الاستقبال كما يشتغل في الحال ليس فقط بالبحث عن الحوادث الوضعية وعلائقها بعضها ببعض بل بشيء لا يستطاع اثباته بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بد من افتراض وجوده عند النظر إلى الحوادث واعتبار علائقها بعضها ببعض . وينتج عن هذا انه ما دام العلم وحده لا يستطيع ان يشغل جميع القوى الانسانية وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً إلى ما وراء حدود العلم ، فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار »

هذا نموذج للذهن المبدع الذي سلك بهِ اسعد باسيلي سبيل العمل المادي ، ولما تخلى نهائياً عن الاشتغال بالدراسات الادبية والعلمية وأقبل على تجارة الخشب احرز في الزمن القصير مركزاً وثقة واتساعاً في الاعمال لا يتوفر لغيره في الزمن الطويل . وظلَّ يشق طريقهُ بين الصفوف حتى سيطر على سوق الخشب وتراجعت إلى الوراء جميع البيوت التجارية التي كانت تدعي احتكاره ، واستولى نهائياً على هذه التجارة كما يستولي القائد المحنك على الميدان الواسع قطعة قطعة ، وكان في ذلك موفقاً دائم النجاح فأصبح صاحب الكلمة العليا في سوق الخشب ، وربما قامت وارداته منه مقام الضعف من واردات سائر التجار . وحسبنا ان نعترف باننا لا نستطيع الاشارة اليهِ دون ان نلقبه بملك الخشب ، ونستطيع ان نقول ان البيئة تحدد المطامع ؛ فلو ان اسعد باسيلي كان في اميركا لأحرز بحق هذا اللقب وكانت دوائره ومكاتبه تضيق عنها ناطحات السحاب كسائر بيوت التجارة الاميركية التي تتحدث عنها الصحف إلى الجماهير في العالم فيصيب الانسان لشدة ما يعتريه من الدهشة لقراءتها ذهول كالذي يستولي على بعض من تفاجئهم الانباء الخارقة

وبعد ، فقد تمتد الطريق وتطول امام الذين يبتغون الوصول إلى الغاية ، ولكن الذين لا يكلُّون ولا يقفون يخلفون من ورائهم خطاً مستقيماً هو سبيل النجاح في الحياة ، هو الخط نفسه الذي يخلفه البطل بين الصفوف دليل جهاده المقرون بالفوز ، وهو الخط الذي يتركه في التربة محراث المزارع مبشراً بالانتاج

قلنا ان الطريق تمتد وتطول امام الذين يبتغون الوصول إلى الغاية ، ونضيف إلى ذلك ان

رأس النجاح الاقدام . وفي امثال الاميركيين المعاصرين ان فرضاً على المرء ان يخاطر وان عاقبة هذه المخاطرة محمودة لانها تعلم الجرأة . والتاجر الجريء موفور النجاح لان لا جرأة بلا بصيرة

واسعد باسيلي قد شق طريق المجد باقدامه وشجاعته وهو قدوة صالحة لمن يبغي ان يسلك سبيل التجارة أو الاقتصاد . وهو يجمع إلى مواهبه وصفاته الممتازة حبًّا للخير وللانسانية ، ويرى في الاحسان وسيلة تقوى بها ارادته في العمل. وحياة الضمير في دائرة العمل المادي اقوى منها في سائر الاعمال الاخرى . وانت إذا تصفحت بنظرك شخصية اسعد باسيلي الكبيرة ، ولحظت ميله إلى التفكير ، وكرهه لطرق الاعلان عن نفسهِ وعن اعماله الكثيرة في سبيل الخير ، اقتنعت بان انوار المدينة العظيمة تبدو للساري كالبصيص

وأسعد باسيلي اليوم في حدود الستين ، وقد ولد في مدينة طرابلس الشام من ابوين صالحين ، وكان لوالده مقام كبير بين التجار ومقام ممتاز في طائفتهِ اذ كان رئيساً لجمعيتها الخيرية ، وقد ورث الابن عن والده مواهب الذكاء والنشاط والاستقامة والشرف ، والاستقامة والشرف هما العنصران اللذان لا تنهض الاخلاق الطيبة الاَّ بهما . وهو بعد ذلك قطع الحياة عملاً وصلاحاً وبرًّا يحمل في قلبهِ جميع المبادىء النبيلة فهو ليس تاجراً فحسب لا يحفل الاَّ بالشؤون المالية ولا يعنى الاَّ بمسائل التجارة ومهامها ، بل هو لا يألو جهداً في اكتساب قلوب الذين طحنتهم الحياة ، وقتلتهم مناكد العيش

وقد استطاع ان يقف من تجار الأخشاب في الطليعة ، ويشق طريقه الى الذروة ، عاملاً بمبادىء النظام والترتيب والادارة الحسنة التي يشرف عليها بنفسهِ ، فارتفعت شهرتهُ وطال اسمهُ حتى عين وكيلاً للغرفة التجارية المصرية لمدينة الاسكندرية ، فما لبث قليلاً حتى احلهُ الاعضاء المحل الاول فيها ، وعرضت عليهِ رآستها فأبى قانعاً بالوكالة لاسباب لا يجهلها كثيرون من القائمين على تدبير الغرفة ، وتستمد الغرفة منهُ انضج آرائها ، وتسلم اليه قيادها في كل الشؤون ، وهو فوق ذلك عضو من الاعضاء المحلفين بمحكمة الاسكندرية التجارية ، وأكبر شخصية محترمة منتقفة في الجمعية الخيرية للسوريين الارثوذكس ، وهو بعد متوقد الذهن ، ثاقب الرأي ، جم الاطلاع لا تفوته من شؤون التجارة والعلم والادب بادرة ، لانهُ درس وطالع كثيراً فهو لذلك يعد بحق من اكبر الشخصيات البارزة في هذا البلد

وأخيراً ، ان اسعد باسيلي عصامي قبل كل شيء ، والعصاميون في هذا البلد قليل ، لان العصر لا يعين على العصامية ، ولا يساعد على انتاجها ، وانما يجتهد في مكافحتها وخذلانها ، والناس جبلوا على ان يكونوا حرباً لكل من يريد ان يسمو عليهم قوة وعملاً ، وارادة واستقلالاً . فاذا رأيت يوماً عصاميًّا بينهم ، فاعلم انهُ استطاع ان يهزم العصر بأسلحة اشد من اسلحته وعرف كيف يتخلص من ضروب الكفاح والعداء التي حشدها الجيل لمقاومته

الاسكندرية نقولا شكري

باب شؤون المرأة وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

ارشادات صحية لربات المنازل

للدكتور محمد زكي شافعي
السكرتير الفني بمصلحة الصحة العمومية

— ٢ —

من المسائل التي وجهت اليها العناية مؤخراً وهي ذات شأنٍ كبير لربة المنزل في هذا الدور من حياتها الزوجية — العناية بالجهاز التناسلي. ومما يؤسف له أنهُ لا يوجد الاَّ القليلات من الزوجات اللاتي لا يرددن الشكوى من هذه الناحية. أما العناية بهذا الجهاز فأمر تدعو اليهِ ضرورة تزويد اول منزل للطفل بكافة الوسائل الصحية ويدعو اليهِ ايضاً ما لهذا الجهاز من التأثير العام في صحة المرأة حتى انهُ يعتبر أهم معيار لحالتها من الصحة او الاعتلال

وتبدأ العناية الجدية بهذا الجهاز من يوم أن يبدأ الطمث في الظهور وما الطمث الاَّ ظاهرة طبيعية اريد بها استدامة المحافظة على الرحم غضاً نظيفاً ومستعداً لقبول الجنين. وهذه الظاهرة هي من أهم حوادث تاريخ حياة الفتاة لانها الحد الفاصل بين الطفولة ومظاهر الانوثة ومن وقتها ينمو جسمها نمواً سريعاً وتتسع مداركها العقلية ولذلك يقال لها «ادركت» ويكمل نموها بعد هذه الظاهرة بثماني سنوات او عشر سنوات أي في السن ما بين العشرين والخامسة والعشرين. ورأيي أن هذه هي أوفق سن للزواج

ويستمر الطمث بعد البلوغ مدة ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة تقريباً حيث تبلغ المرأة سن اليأس ويجب الابتعاد اثناء الطمث عن الرياضة او الاعمال العنيفة وتجنب شرب المثلجات والاستحمام في البحر والاستحمام بالماء البارد او غسل الاقدام بها — وتمتنع السيدة بتاتاً عن

الاستحمام عند ما يكون الافراز تاماً ولا بد لها من استشارة الطبيب عن حدوث اي نقص او تغير في حالة الطمث او عند امتناعه او الشعور بأي ألم في خلاله لان الالم قد يكون عرضاً لمرض يمكن تلافيه في اوله ويستعصي متى ازمن. وقد لاحظنا أن الكثير من السيدات يتحملن هذا الالم ويستهنّ به حتى يمر الدور — شأنهن في كل ما يصادفهن من متاعب الحياة ولكن هذه الخطة ليست من الحكمة في شيء وعليهنّ ايضاً ان يتجنبنَ البرد او السهر في أثناء هذا الدور

ولا أوصي بالنظافة العامة او الخاصة لان هذه امرها بديهي والجسم مثل كل شيء آخر يحتاج الى تكرار النظافة لان قطعة الاثاث مثلاً اذا نظفت امكن حفظها من الاتساخ بتخطيتها بينما الجسم لا ينفع معهُ هذا الاحتياط لانهُ دائم الافراز لمادة دهنية من مسام دقيقة حتى ولو لازمنا الفراش . ومن هذه المسام تخرج بعض فضلات الجسم التي تلحق بهِ الضرر لو بقيت فيهِ .واذا لم نتداركه بتنظيف الجلد سدت هذه المسام التي قيل عنها بحق انها منافذ الصحة واذا سدت بالاقذار كانت مصدر خطر على الصحة ويكفي من ضرر سدها ان الجسم لو خدش تسربت اليهِ من الخدش بعض الجراثيم التي تحملها هذه الاقذار وقد تكون سبباً في تسمم الجسم تسمماً عاماً كما ان سدّ هذه المنافذ يعرض الانسان الى الاصابة بالبرد والنزلات ويؤدى الى ضعف مقاومة الانسان للامراض الاخرى

هذا فيما يتعلق بالنظافة العامة واما النظافة الخاصة فيكفي فيها الغسل في الصباح والمساء بالماء الساخن والصابون والحذر من استعمال المحاقن فقد تكون سبباً لاستيطان بعض الجراثيم في الجهاز التناسلي مما ينشأ عنه الالتهاب المزمن وأجد نفسي مقيداً بحكم التقاليد لعدم الاسترسال في هذا الموضوع وإن كان من المباحث الحيوية التي يجب على الفتاة أن تعلم كل شيء عنها لان كل ما تعانيه معظم السيدات ناشئ عن الجهل بهذه الامور وهذا الجهل ناشيء عن الخجل من السؤال عما يجهلن واعتبار البحث في الشؤون التناسلية خدشاً للآداب .
وكنت اودّ لو أفضي اليكم بمعلومات جمة تفيد الزوجين وتزيل الكثير من أسباب الشقاء وتدعو إلى ان يرفرف الهناء على بيوتنا ولكن لنترك ذلك لمن يأتون بعدنا فقد يكونون أقدر منا على ذكر الحقائق ومجابهتها مهما كانت — ولا حيلة لجيلنا الحاضر الا أن يردد قوله تعالى « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » إلى ان تتيح درجة التطور لحفدتنا ان يتمشوا مع ضرورات التطور العملية

* * *

ومما يسرّ له الانسان أن ربات المنازل يتمتعن الآن بنصيبهن من الحرية في الحياة اكثر مما

كانت عليه جداتنا ولكنهن وان كن يعنين وهن فتيات بالالعاب الرياضية الا أنهن — كربّات منازل — لا يمارسنها الا نادراً . ولا أقصد بهذا القول اننا نخلق أمة رياضية بين طرفة عين وانتباهتها أو ان مثلي سيعيش حتى يرى في كل بيت من بيوت أعيان الريف ملعب «تنس» وفي كل حي من أحياء المدن نادياً لشتى الالعاب تقصده ربات المنازل في أوقات الفراغ للترويض — غير أني أريد ان يتأصل في نفوس السيدات حب الرياضة لذاتها فلا يغفلن عن ممارستها كما نشاهد احياناً من ان بعض الفتيات يولعن قبل الزواج بالعزف على المعزف ثم لا تلمسه أصابعهن بتاتاً بعد الشهر الاول من الزواج . انني أعني ان ينشأ جيل قوي من أمهات قويات البنية . أما اقل أنواع الرياضة كلفة وأنفعها فهو المشي ولا سيما في جو بلادنا طوال السنة ولا اقصد بالمشي — أيها السادة — التبختر بل أقصد المشي السريع الذي يسبب اعتدال القامة بما يحدثه من تمديد الصدر واعتدال الظهر وحفظ الكتفين دواماً الى الخلف . مثل هذا المشي يقوي العضلات وينشط الهضم حتى ان من يتعود المشي يمكنه هضم أي غذاء . وهو يلين الامعاء ولذلك فانه أشد فائدة من اي نوع من الحبوب الملينة . المشي يضيء البشرة بأبهج الالوان ويورد الوجنات ويجعل العيون تلمع لمعانها الساحر وهو بالاختصار من أهم الوسائل المؤدية للحصول على الجمال الذي تعتبره كل فتاة أغلى ما تملك . وهو يستعصي عليها بكل الطرق الصناعية ولكنه يأتي اليها طائعاً متى توفرت لديها الصحة هذا ولا يمنعها الحمل من ممارسة المشي باعتدال

ويجب في جميع الاحوال أن تكون الرياضة في الهواء الطلق لان استنشاق الهواء النقي ينقي الدم ويمده بالاوكسجين الضروري للحياة كما ان ضوء الشمس من ألزم الضرورات لحفظ الصحة وجدير بي ان أذكر هنا ان الغرض من المشي الحركة المطردة ولذلك لا يعتبر الوقوف رياضة وكلنا مجربون ان من يقف طويلاً يشعر بالتعب والقلق لان الجسم لم تركب في طبيعته القدرة على الوقوف مدة طويلة ولذلك فان الوقوف الطويل يسبب تمدد الاوردة في الاطراف السفلى وغيرها عند الانسان . ولكن الطيور التي خلقت للوقوف الطويل كالنعامة ومالك الحزين وأبي قردان خلت أرجلها من العضلات والاوعية الدموية ولم تترك الا من العظام والاوتار

ان المشي فضلاً عن تنشيطه للدورة الدموية وتقويته للعضلات يدفىء الجسم شتاء ويدعو الى افراز الكثير من العضلات فلا تشكو السيدة من آلام المفاصل او العضلات التي كثرت الشكوى منها الآن بسبب سهولة المواصلات للغني والفقير على السواء فلا تجد انساناً يخطو بضع خطوات بل الكل يفضلون المركبات الكهربائية والحافلات مع ان الحركة لازمة لكل كائن حي فالدنيا وكل شيء في الكون في حركة دائمة والجسم كالماء اذا وقف ركد وأسن

ولا علاج للعصبيات والعصبيين او للمترهلات او للمتبرمات بالحياة احسن او اوفق من المشي بغير افراط ولاسيما للضعيفات

وعلى ذكر العصبيات أذكر أنهن انواع . ولكن اكثر الانواع ذيوعاً واتعبها المصابات بالهستيريا فان هذا المرض يظهر لصاحبته انها مصابة بشتى الامراض ومتألمه بأي نوع من الالم كآلام المفاصل والاسنان والاعصاب والعضلات والتهاب الزائدة الدودية وحويصلة المرارة وقرح المعدة والتهاب الامعاء وبالاختصار كل الامراض ولهذا المرض أسباب عديدة اهمها بالنسبة للمتزوجات كثرة الحمل او كثرة الاجهاض والطمث الغزير وكل ما يدعو الى الضعف العام سواء كان بسبب جثماني كالانيميا أو بسبب عقلي أو نفسي او للعقم وهذا السبب الاخير قد يكون اهم الاسباب بمصر . والهستيريا مرض قابل للبرء وعلاجه نفساني

ومن الاسباب الداعية لنهاكة الاعصاب السهر الطويل والمواظبة على السينما التي تعرض فيها الروايات المزعجة والحياة الغير الصحية والمعيشة في دور أو غرف لا تتوافر فيها شروط التهوية

التهوية — ايها السادة — واقصد بذلك تهوية غرف النوم لأن التهوية بصفة عامة أصبح الكثيرون يعرفون ضرورتها للمنازل — يجب على ربة المنزل ان تترك جميع منافذ المنزل مفتوحة طوال الليل صيفاً ولا تغلق نهاراً الا اذا كان الجو حاراً ومتى خفت الحرارة تفتح المنافذ ثانياً وفي شتاء بلادنا يمكن تعود النوم بعيداً عن تيار الهواء مع ترك احدى النوافذ مفتوحة ولكن من لا يطيق ذلك يمكنهُ ان يغلق درف المنافذ الخشبية فقط أو يترك الجزء الاعلى منها مفتوحاً

انهُ من الغفلة ان ينام الانسان في غرفة غير مهواة لانهُ يستنشق طوال الليل سماً زعافاً وهو ما تخرجه الرئتان اثناء النوم . ولم يسمع بأن التهوية الصحيحة ادت الى اصابة اي انسان بالبرد وهو نائم . والواقع انهُ لا يمكن للانسان ان ينام نوماً هادئاً في غرفة رديئة التهوية بل يكون نومه مضطرباً لا يفيد الجسم كثيراً من الراحة لانهُ يكون في الحقيقة مخدراً بسم الهواء الفاسد — فالردهة التي نحن فيها الآن لو لم تكن مجهزة بجميع الوسائل الحديثة للتهوية فان أي خطيب مهما بلغ موضوعه من البهجة ومهما كانت مقدرته الخطابية لايقاظ مشاعركم يعجز عن استرعاء سمعكم لانكم كنتم تشعرون بالكسل والتراخي والقلق وثقل الرأس

ايها السادة

ما اسعد الحياة وما اجملها اذا شعر الانسان لدى عودته من متاعب يومه الى منزله — بالغة ما بلغت متاعبه — اذا شعر بانشراح الصدر والسكينة وملأت خياشيمه الرائحة الطبيعية للهواء النقي غير المزيف بأي رائحة صناعية مهما كانت عطرة . وأشرقت عليهِ شمس السعادة من سماء شريكة حياته المتمتعة بالصحة المزدانة بالعقل المدبر والخلق العظيم — ليس من شك في ان هذه هي زينة الحياة الدنيا والنعيم بكل معانيه

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف . ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف بأغلاطه أعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

نقد شوقي

حضرة الفاضل الاستاذ فؤاد صرُّوف

تحية واحتراماً . وبعد فقد قال الاديب مصطفى الرافعي في فصل له عن شوقي بالمقتطف الاخير : « دع غلطتهُ في قوله — تميل عني — فان صوابها تمل اذ هي جواب ان الشرطية »

هكذا قال الاديب الرافعي معقباً على بيت شوقي :

ان رأتني تميل عني كأن لم تك بيني وبينها اشياء

والذين يعرفون النحو يعلمون ان الخطأ انما هو في تصحيح الرافعي لا في البيت المنتقد لان رفع جواب الشرط المسبوق بفعل ماضٍ صحيح مستحسن كجزم الجواب على السواء لم يخطئهُ أحد قط من علماء اللغة والنحاة . واشار الاديب الرافعي الى البيت الآتي :

عيسى الشعور اذا مشى رد الشعوب الى الحياة

وظن ان « الشعور » هنا زائدة من قبيل الامور في البيت الآخر :

ولو زلت غُيّب عمرو الامو ر وأخلى المنابر سحبانها

والصواب ان « عيسى الشعور » في البيت السابق من تشبيه الاضافة المعروف في البلاغة وليس ثمة حشو ولا اقحام في تركيب الكلمات ، فالبيت معناه ان الشعور اذا مضى في الشعوب ردها الى الحياة كما كان عيسى يحيي الموتى . ومثل هذا ان يقال : « خمر الريق » في تشبيه الريق بالخمر على الاضافة ، او يقال : « موت الغباء » في تشبيه الغباء بالموت على هذا المعنى . اما ما عدا ذلك من المآخذ في مقال الاديب الرافعي فلا أرى ان اناقشهُ فيهِ عباس محمود العقاد

الجاحظ في مصر

تفضل المقتطف فكتب كلمة عن كتابنا « ادب الجاحظ » في عدده الصادر في نوفمبر الماضي دل فيها محرره الفاضل على ما انطبع عليهِ من أدب فائق وخلق كريم . وقد أشار إلى قولنا في هذا الكتاب (ص ٧٩) : ووقعت في كتاب على أنه (أي الجاحظ) وفد على مصر وأقام بها زمناً وأجرى بها اختبارات فيما عثر عليهِ من حيوانها » وقال : وحبذا الحال لو أشار إلى الفقرة

التي نص فيها على ذلك أو يحصل ذلك من معناها . ومن قبل قد أبدى هذه الملاحظة في جريدة البلاغ صديقنا الفاضل الدكتور زكي مبارك ؛ غير انني إذ ذاك لم أرَ وجها للمناقشة في أمر غير محتمل لها ولا سيما في الصحف السيارة . فلما تفضل حضرة المفضال محرر المقتطف بهذه الإشارة رأيت من الواجب ابانة هذه المسألة وانارة الطريق اليها

كتب كثير من أصحاب الاخبار ان الجاحظ صحب صديقه العظيم الفتح بن خاقان في رحلته إلى الشام وزار بها كثيراً من المدن ، وقد أشار الجاحظ إلى هذه الرحلة في بعض كتبه ولا سيما كتاب الحيوان منها . وكما أشار إلى هذه الرحلة أشار كذلك إلى وفوده على مصر في كتابه الحيوان أيضاً . فقد قال في ص ٥ ج ٤ من كتاب الحيوان « كنت بعجت بطن عقرب إذ إذ كنت بمصر فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو أرزة » (حرره أبو بكر السروكني) وقد كان وجود هذا الاسم بازاء عبارة الجاحظ مثاراً للشك في وفوده على مصر ، أما أنا فلست أرى لهذا الشك من معنى يصل به الى النفي المطلق . وعندي أن أبا بكر السروكني هذا لم يكن الا رجلاً من المشتغلين بنسخ الكتب وقد وقع له كتاب الحيوان منسوخاً بقلم رجل قبله فأخذ في نسخه حتى وصل الى هذه الجملة فلعله رأى تحريفاً من الناسخ السابق فأقامه ثم كتب على الهامش وحرّره ابو بكر السروكني ، وقد بحثت عن تعريف لهذا السروكني فلم أقف له على أثر ، ولهذا فأنا أرجح وفود الجاحظ الى مصر كما أرجح أن السروكني لم يكن أكثر من ناسخ للكتاب

حسن السندوبي

ترجمة الشاهنامه

سيدي الفاضل رئيس تحرير المقتطف

اقدم خالص التحية . وبعد فقد اطلعت في مقتطف اكتوبر في باب المراسلة والمناظرة على كلمة العالم الفاضل يوسف غنيمه وزير مالية العراق قبلاً راقني فيها ادب النقد ، وراعتني سعة العلم . واني ابادر الى شكره والاعتراف بفضله في التنبيه الى ما رآه من تحريف او خطإ في بعض الاسماء التي ذكرت في حواشي الترجمة العربية للشاهنامه

بعض هذه المآخذ من سقطات الطباعة مثل «الآثار الآسورية» بالسين لا بالشين . وقد ذكرت في مواضع اخرى من الكتاب بالشين على صوابها . ومثل جعل استرداد هرقل الصليب من الفرس « سنة ٥٢٨ » مكان سنة ٦٢٨ . وبقية المآخذ التي ذكرها الناقد الفاضل جاءت غلطاً مني او اختياراً لصيغة من صيغ مختلفة . واني اعترف بأن رأي الناقد في ترجيح صيغة على اخرى اسدّ من رأيي وسأتبعه حين يعاد طبع الكتاب

ثم اكرر شكري وثنائي لحضرة العالم الفاضل آملاً ان يزيدنا من نقده . وأرجو ان تتفضلوا بقبول احترامي

الجامعة المصرية — عبد الوهاب عزام



رسالة باريس — لبشر فارس

كتب في الادب الفرنسي

في الشعر الفاجر

Edition Le Trianon

1. La Poésie priabique

لم يعرض ناقد قط للبحث في الشعر القائم على الفسق . ومما يعجب له أن قاضياً باريسيًّا رفيع المكان أقبل على هذا البحث فلم يحفل بأقاويل الناس . وقد نبّه القراء في المقدمة انه خلع عذار الحياء راضياً من دون ان يبرز صفحة الوقاحة . فإنْ هو الاَّ ناقد جامع للتاريخ والاخلاق وعلم النفس

وليس الشعر الذي يتدبره في هذا الكتاب بالنسيب فالبعد بين النوعين شاسع . فبينما النسيب يقوم على المغازلة والتشبيب بالمعشوقة في عبارات رقيقةواسلوب ظريف اذ ذاك الشعر يقوم على الناحية الجثمانية من الحب ولا يعبأ الاَّ بالاحساسات

على ان ذلك الشعر ليس بالغريب عن ادبنا.فدواوين العرب لا تخلو من الفجور وان خطر لك ان تثبت قولي فعليك بالفرزدق وابي نواس وابن الرومي . الا ان هذا الجانب من الشعر العربي يختلف في العرض عن ذلك الشعر من حيث ان اصحاب هذا كانوا يجلّون الفجور فيترنم الناس باشعارهم وينشدونها في المحافل والمواكب ولربما اخذتهم العزة بالإثم فجعلوا تلك القصائد صلوات يتقربون بها الى اله يسمونه (فـللوس) . الاَّ ان ذلك لم يكن الاَّ في العصور الخوالي ايام اليونان والرومان . واما في العصور المتوسطة فلم ينظم ذلك الشعر الاَّ لهواً ودعاية

سيرة أبي

2. La vie de mon pèr

ان اول من خص عن دخلات المزارعين الفرنسيين رجل يقال لهُ Restif de la Bretonne ولهذا الرجل الذي عاصر ڤولتير وروسو مائتان وخمسون مجلداً . ومما يؤسف عليه أن جلّها

ليس بشيء . فلم يبق من تآليف الرجل الاّ بضعة كتب منها الكتاب الذي قرأت عنوانهُ لساعتك على أن صاحبه ذهب فيه الى البحث عن اخلاق القرويين فبسط حياتهم الساذجة وعواطفهم المخلصة واحساساتهم المحدودة وشعورهم النقي وعقيدتهم الخالصة وقناعتهم ووداعتهم وهو في ذلك نافذ العين بعيد النظر . ومن اجل ذلك قيل له الخفاش . وقد كان يقول ان « سيرة ابي » مؤلف سماوي ثم صرح أنه لم يقرأه قط الاّ بكى . وكان معاصروه يقدمونه . وكان فيمن أعجب به (شيلر) الشاعر الالماني . إلا ان صاحبنا كان متفاوت الاسلوب فله تارةً عبارة بليغة مشرقة المعاني وطوراً غث مختلّ الاداء . وكان فوق ذلك يعتمد على سرعة قلمه فكثيراً ما زلّ

قصة سلامبو

Salambo—Editions Mornay, Paris

إن قصة (سلامبو) لفلوبير الذي حدثتك عنهُ قبلاً تسوق لنا حروب اهل قرطجنة وتستند اليها لتعقد لنا حوادث شتى تدور حول قائد الجيش القرطجني وابنته وحول قواد الجيوش البربرية والليبيين الناصبين الحرب لقرطجنة . وموضوع القصة حادث تاريخي لا يجهله احد إلاّ ان اسلوبها كأنهُ الوشي الفارسي . ومن اجل ذلك اعرض عن الموضوع لاحدثك عن الاسلوب

إن (فلوبير) عزم ان يبرز قصته في البيئة التي جعلها لها فلم يبلغ ما في نفسهِ الاّ بعد طول عناء لانه لم يدخر جهداً في الفحص عن ماضي قرطجنة . وعلماء التاريخ والملل والآثار مجمعون على انه لم يترك واردة ولا شاردة الاّ اثبتها في (سلامبو) . ومما لا ريب فيه ان الرجل دسّ في قصته ضروب الخرافات الاسيوية ونواحي الدين الفنيقي . فأشار الى عزّة الآله بآل وذكر النزاع الذي كان بين العنصر المذكر والعنصر المؤنث وذلك النزاع الذي عليه قامت العقائد حين ذاك . ثم مثل الحب تمثيلاً حقيقياً بالشرف اذ جعله عنيفاً صليباً شهوانياً مع لطف ورقة

ثم ان الرجل ذهب في التحليل مذهباً بعيداً فصوّر الشرق القديم مع ما ضمّ بين جنباته من عجائب فطابق بين الآلهة المجردة والاصنام التي لا يعبدها الاّ شعب فطري وبين الخرافات المضحكة والعقائد الرفيعة وبين العواطف البربرية والشعور الدقيق وبين صنوف الفسق وضروب التخشن . ثم بسط كيف كان يحارب القوم فوصف آلال الحرب وانواع الحصار والنزال والبراز ثم اشار الى غلاظة اكبادهم وقسوة قلوبهم وخشونة جوانبهم متى شمروا للحرب

ولقد افرغ (فلوبير) هذا التحليل في قالب الفصاحة وبلغ به حدّ الاعجاز اذ ساق الشيء الكثير في جلباب الفن المشرق

حج البيت

Le Pélerinage de la Meque—Edition Rieder, Paris

ان صاحب هذا الكتاب المراقب العام لمجلس الصحة البحرية في مصر واسمه دوجيه Duguet . فهو أهل ان يؤلف في شأن الحجاج لطول اختلاطه بهم وخصه عنهم ولا سيما انه يميل اليهم ويعظم عملهم لاخلاصهم في تقوى الله وحبهم له

وقد قسم الرجل الكتاب الى قسمين احدهما موقوف على الناحية الدينية والآخر على الناحية الطبية . اما الاولى فلا حاجة لنا ان نعرض لها ففائدتها منصرفة الى الافرنج لانهم يجهلون في الغالب شعائر الحج الاسلامي وقراء المقتطف لا يجهلونها فيما اظن . واما الناحية الثانية فلا بد ان نقف عليها لاستقامة بحثها وغزارته

يبدأ صاحب الكتاب بالاشارة الى سبب انتشار الكوليرا والحمى وغيرها في الحجاج من حين الى حين . ثم يذكر ان الاوباء قد تفشت فيهم اربعين مرة من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٩١٢ على ان وباء سنة ١٨٩٣ كان اثقلها وطأة . ثم يعرض الرجل ما حاولته الامم منذ ذلك الحين في اتقاء الاوباء ودفعها فيذكر الاجتماعات التي عقدتها تارة في البندقية وطوراً في باريس ثم المفاوضات التي جرت بين الدول الاوربية وبين حكومة القسطنطينية فيبرز لنا تركيا في جلبابها البالي اذ يخبرنا كيف كانت تحول بين الدول وبين مساعيها حتى انقادت لهم سنة ١٩٠٠ فشيد سدّ طور . وأما حديث الرجل عن شؤون الصحة في الحج الحالي فما يبسط الآمال في قلوب الناس . فهذي جدّه تنقلب شيئاً فشيئاً الى بلد نظيف وهذي مصالح الصحة تنتشر انتشاراً في مكة وبجانبها رشّ الطرق وبناء خزان عظيم للماء العذب واختطاط ثلاثة سبل الى عرفة . والفضل في ذلك راجع الى عناية الوهابيين بالشؤون الصحية واهتمام الدول الاسلامية امثال مصر والشام والعراق بسلامة رعاياها وتداخل الاوربيين تارةً ليشرفوا على اهل مستعمراتهم وطوراً ليتقوا تفشي الاوباء في انحاء المعمور

بيت الاجداد

La Maison des Aïeules — Edition Floury Paris

حدثتك من زمن عن (لوتي) Loti قصاصاً وبسطت لك ما كان بين جنبيه من السأم وكيف كان يرغب في اللذات وينقاد الى الشهوات . على انهُ اتفق لي اليوم ان اقرأ قصتين له انكرته فيهما . وهاتان القصتان تقعان في بضع صفحات واظن (لوتي) الفهما لاهياً فلم يكن الغرض الذي قصد اليهِ في تأليفهما مثل الغرض الذي رمى اليهِ في جميع ما صنف . الا انهُ لا يجدر بنا ان ننظر فيهما نظرنا في القصص عامةً لانهما بعيدتان كل البعد عن فن القصص ولك ان تفصل في ذلك

إن (لوتي) يحدثنا في القصة الاولى عن منزل تعاقبت السنون عليه أقام بهِ اجداده زماناً ثم باعوه . فلما اثرى (لوتي) سعى في استرداد المنزل حتى اشتراه . ولم يعتم ان رحل اليه في يوم شديد المطر . على ان تلك الرحلة موضوع القصة . ولا تحسبنّ ان (لوتي) ذهب في وصف الرحلة مذهب مفتنٍ لا مذهب وصّاف فانهُ يحدثنا عنها في سذاجة ويعمد في حديثهِ الى اسلوب داني القطوف لا كلفة فيه ولا تأنق . وكأن ذكرى صباه المتمثلة في جنبات ذلك المنزل أثرت فيه الى حد ذهل عنده صنعة الادب فانطلق يكتب معتمداً على شعوره . والشعور يؤدي المعاني والصور في ديباجة ليس لسهولتها غاية

وفي القصة الثانية يذكر لنا (لوتي) كيف صنعت له وصيفته «عروسة» ايام طفولتهِ وكيف عُلّق العروسة ولازمها حتى ملّها فأودعها خزانةً كان يجمع فيها لعبه المختلفة . على انك ترى ان القصتين لا شأن لهما . وكأني بك تعتقد عليَّ السخر منك والتهاون بك ويشهد الله اني ما سقت اليك هذا الحديث الا لتعلم ان الفرنسيين يعنون بتآليف كتابهم المتفوقين وان لم تكن جليلة وعندي ان هاتين القصتين لا يقبل عليهما الا الاطفال وان قرأها الرجال لا يطمئنوا اليهما ولا يفرحوا بهما الا اذا مثلتا لهما ايام طفولتهم وصباهم وفي مثل هذا التذكار كثير هناء وبعض السلوى

قصص انجليزية منقولة الى الفرنسية

Collection du Paon Blanc -- Édition Redièr, Paris

ان بحثنا هنا عن كاتبين من الانجليز . اما الأول فيقال له (كُنْراد) Conrad وهو بولوني المنشأ . والغريب في أمره انه يعمد أحياناً إلى أسلوب في التعبير يختلف عن الاسلوب الانجليزي قليلاً أو كثيراً . ومن اجل هذا ترى طائفةً من نقاد الادب يأبون ان ينزلوه منزلة الكاتب القدير

على ان كُنْراد أراد ان يجعل قصصه كمثل ملحمةٍ متصلة السلك ولكنه لم يقوَ على ان يحكم نواحيها ويلائم بين أطرافها . فجاء تأليفه مضطرباً مختلاً . الاّ ان الرجل فطن للامر فحاول ان يصلح ما فسد في مصنفاته فاعتمد على اساليب فيها من التكلف والاعتساف ما فيها

غير ان (لكُنْراد) قصصاً قصيرة لا اختلال فيها ولا اضطراب والسبب في ذلك ان الرجل لا يعمل فكره فيها ليناسب بين رقعة ملحمةٍ عديدة النواحي بل يرسل الكلام ارسالاً وفي هذه القصص قصة عنوانها شباب Jeunesse وموضوعها رحلة سفينةٍ تضم بين جوانبها فتى غربيًّا لا يبلغ إلى شواطىء الشرق حتى تتغير طبيعته . ثم إن في هذه القصص قصة عنوانها قلب الظلمات Coeur des Ténèbres وليس موضوعها الاّ النضال الذي بين التقدم الغربي وبين بربرية القبائل المقيمة بآسيا . والقصتان قائمتان على الخبرة اليومية . الاّ ان الثانية تعتمد على الاخبار لتنطلق في التفكير المجرَّد فتذيع بعض الآراء وتكشف عن دقائق العواطف

وأما الكاتب الثاني فيدعى (مومَم) Somerset Maugham وهو من خير كتّاب اليوم في

انجلترا ومن أبعدهم صيتاً . وما اظن كاتباً مسرحيًّا يقوى على مزاحمته فان رواياته لا تنفكُّ تمثل في انجلترا ويقال ان مثلها في الرواج مثل روايات شكسبير والله اعلم

ولسنا نعرض هنا لتأليف (موم) المسرحي فأنا نبحث في كتاب له عنوانه الأرخبيل ذو النساء الساحرات L'archipel aux Sirènes . وغرض (موم) من القصص التي جمعها في هذا الكتاب الفحص عن تأثير اقليم جزائر الباسيفيك في الغربيين .وهذه القصص الغاية في البحث النفساني الذي يخلص الى السرائر والخفايا وينقب عن الاسباب البعيدة . على ان (موم) كأنه يبالغ في قصصه فكثيراً ما يخيل اليك انه يصف مشاهد لم يقع عليها بصره ويسوق اخباراً لم يظفر بها سمعه والحقيقة ان (موم) يحدثنا عن بلد هيهات ان نتصوره وعن قوم يشق علينا ان نتعرف طبائعهم

صيادو اللآلئ

Pêcheurs de Perles - Edition Albin Michel Paris

كأني المح الى عقد من اللؤلؤ يزين جيدك فدعيني اسوق اليك يا سيدتي القارئة هذا السؤال : اتعلمين ما ثمن هذا العقد ؟ اني لأرجو منك ألاَّ تجاوبي على سؤالي من فورك بل سماع سماع:

لقد رحل صحافي فرنسي يقال له Albert Landre الى البحرين ارادة ان يشاهد صيد اللؤلؤ فيها وها هو عاد الى باريس واذاع بين الناس مشاهداته فألف كتاباً لا يقرأه احد الاَّ يغتمّ :

ان في البحرين جماعة من العرب والسودان والصوماليين يغوصون في البحر ليصطادوا اللآلئ . وكلما غاصوا عادوا واضلاعهم تريد ان تنقصف والدم ينصبّ من خياشيمهم وآذانهم ولم يلبثوا بعد الغوص الطويل ان يدركهم الصمم ويصيبهم العمى ويخامر قلوبهم داء عياء . ثم ان الشيخوخة تدهمهم وهم ابناء ثلاثين سنة واما صرعة الموت فتنزل بهم والله لم يبلغهم الاربعين وقد ابيت ان ابسط لك كيف تهدد انواع الاسماك الغوّاصين خشية ان يروعك حديثي وحسبك ما اخبرتك به كي تعلمي ما ثمن العقد الذي يزين جيدك .فاذكري اولئك الغواصين من حين الى حين وارثي لهم !

مأساة الدردنيل

La Tragédie des Dardanelles — Edition Grasset, Paris

من ذا الذي نسي مأساة الدردنيل ايام الحرب الكبرى ؟ فهذا الكتاب يذكرنا اياها :

افلتت درّاعتان المانيتان من الاسطول الفرنسي في شهر اغسطس سنة ١٩١٤ وانطلقتا الى القسطنطينية تحول بين الروسيا وبين الحلفاء . وتباطأت الانجليز في مطاردتهما ولم تقصد اليهما الا في شهر مارس سنة ١٩١٥ فلم تهجم الاَّ على حائط ممدَّد ثابت . ولما عزم الحلفاء على الشرّ العنيف ارسلوا الى البرّ جيشهم فقتّل تقتيلاً ثم انهم حاولوا شرّاً آخر فخابوا خيبتهم الأولى وما زالوا يقاومون الاتراك والعطش يجهدهم والحر ينهك قواهم حتى انصرفوا والفشل حليفهم من بعد ما ضحوا بمائة الف جندي .وليس هذا الكتاب موقوفاً على سرد الحوادث الحربية ولكنه يعرض للسياسة ويبحث عما صنع القواد والساسة امثال غورو وتشرتشل ولورد كتشنر

مجلة ابولو

للشعر والنقد الادبي في كل بلاد اصابت قسطاً وافراً من الارتقاء الفكري والفني مجلة أو اكثر تنشر المختار من ثمرات القرائح فتكون الصلة بين جمهور القراء وجمهور الشعراء. وتفتح صفحاتها في باب خاص لنقد الشعر ، فتصقل من ذوق القراء بما يبينهُ النقاد من حسنات الشعر ومساويهِ وما يرسمونهُ من أثر للنزعات الخاصة التي ينفرد بها كل جيل من الادب عن كل جيل سواه . ولسنا في حاجة إلى تعديد هذه المجلات ، انما نكتفي بذكر المجلات الثلاث المعروفة باسم «عطارد» Mercury التي تصدر في نيويورك ولندن وباريس

والشعر العربي الآن في أشد الحاجة الى مثل هذه المجلة . فالمجلات الشهرية تضيق دون نشر كل مختار من ثمرات القرائح ، فتكتفي بالنزر . والصحف اليومية أنشئت لنشر الانباء المحلية والعالمية اولاً وقراؤها يتناولونها في الغالب للاطلاع على هذه الانباء ، وقلما تتاح لهم مطالعتها مطالعة روية وأناة، لان العصر عصر سرعة واندفاع ، ولا ينتهي القارىء الواحد من مطالعة صحيفة واحدة في طريقهِ الى المكتب صباحاً ، حتى تصدر الاخرى مساء وفيها انباء جديدة لا بد له من قراءتها اذ شاء الالمام باحوال العالم . فالصحف اليومية بطبيعتها الخاصة لا تصلح لنشر الشعر . وما نشر منهُ في صحفنا العربية متفاوت الطبقات ، اختلط فيهِ احياناً كثيرة نابل الشعر بحابلهِ

لذلك كان لا بد للشعر العربي من مجلة خاصة بهِ ، تكون في آنٍ واحدٍ رسول الشعراء الى مريدي الشعر من ابناء العربية في كل الاقطار — وهم كثر — وعيناً واقفة للادباء بالمرصاد، تقول لمن يجيد اجدت وتبين موضع الاجادة والاحسان ، وتقول لمن يشطُّ شططت وتشير في رفق واقناع الى مكان الشطط والزلل . فتقوّم بذلك ما التوى في اذهاننا من فهم لمعاني الشعر السامية ، وتصحح من موازين الادب ما اختلّ

واننا نرى ان اشدّ ما نحتاج اليهِ الآن ، في حياتنا الادبية ، النقد المنصف النزيه الصادر عن تمكّن وفهم لاصول الادب واساليبهِ وصلتهِ بالحياة

ونظن ان كل ذلك خطر للدكتور ابو شادي ، قبلما اقدم على اخراج مجلتهِ « ابولو » «للنهوض بالشعر العربي وخدمة رجالهِ والدفاع عن كرامتهم وتوجيه مجهوداتهم توجيهاً فنياً سامياً» وقد صدر من «ابولو» حتى الآن ثلاثة اعداد، والرابع وشيك الظهور ، تبينا في خلال صفحاتها، رغم ما حوتهُ من غث الشعر وسمينهِ ، انها سائرة في سبيل الغاية التي يجب ان تكون غايتها ، وهي تحبب الشعر إلى الجمهور ، ونشر المختار منهُ بصرف النظر عن اسم الشاعر ولقبهِ ، ونقد اساليب الشعر ومعانيه لتقويم معاييره في اذهان خاصة القراء وعامتهم على السواء

وقد انشأ الدكتور ابو شادي « جمعية ابولو » فضمت طائفة من اكبر الشعراء المعاصرين وكان شوقي رحمهُ الله اول رئيس لها ، فاختير خليل مطران خلفاً لهُ . ومن اعضائها احمد محرم والدكتور ناجي وعلي محمود طه وحسن كامل الصيرفي ومحمود ابو الوفا وغيرهم من كبار الشعراء والكتّاب

امام المجلة سبيلان : الاول ارضاء كل من يبعث بشعر اليها فتنشره فيرضى عنها ويكون داعية لها فتروج وتذيع وهو السبيل السهل . واما الآخر فاختيار الجيد من الشعر فقط وصرف النظر عن الباقي، فتغضب بذلك كثيرين . وهو السبيل الوعر . ولكن المجلة اذا سلكتهُ انصفت الادب الصحيح وتقدمت نحو غرضها السامي

وان ما نعرفهُ عن ايمان منشئها بمكانة الشعر السامية في العمران ، وتقدير رئيس جمعيتها وجميع اعضائها وجرأتهم في الحق يحملنا على الاعتقاد ان مجلة ابولو سالكة السبيل الوعر «ولا بد دون الشهد من ابر النحل »

مشكلات التربية في مصر

تأليف علي حسن الحاكم — طبع بمطبعة خضير بمصر — صفحاته ١٢٩ قطع وسط

مشكلات التربية في مصر هي لبّ المشكلات القومية . فالتمشي مع تحقيق الآمال السياسية واستثمار خصب الارض بالوسائل الحديثة في الصناعة والزراعة ، وتشغيل العاطلين من المتعلمين، وتحسين الصحة العامة ، ورفع مستوى المعيشة في الريف ، كل ذلك يرتدّ الى التربية — وهي اعداد المتعلم للحياة — ما غرض التربية الذي نرمي اليه وما الوسائل التي نتوسل بها لتحقيق الغرض؟ ويزيد هذه المشكلات تعقيداً اننا نقيم في بقعة يلتقي عندها الخافقان ، فحضارة الشرق من من ناحية وحضارة الغرب من ناحية، تمتُّ الى الاولى بصلة الحنين والتاريخ والتقاليد ، وتجتاحنا الثانية بعلومها وفنونها واسلحتها وملاهيها . فهل نرمي في التربية الى تخريج مصري غربيّ كابناء الغرب ، او نرمي الى تخريج مصريّ شرقيّ .... اي هل نقتبس حضارة الغرب كما هي ، او نأخذ بأساليب الحضارة الشرقية معرضين عن الحضارة الغربية

اذا وضح المثل الاعلى للجيل الذي نريد ان ننشئهُ هان الجواب عن هذه المسائل . وقد وضع مؤلف الكتاب في هذا الموضوع فصلاً من ابلغ واحكم ما قرأنا ومما قالهُ :

« حقاً إن النظرة السطحية لتحكم لأول وهلة بان المدنية الغربية بأنظمتها الاقتصادية والاجتماعية قد كسبت اليوم وربحت الموقعة . فالامم الشرقية ان لم تكن قد حكمت فعلاً بالسلاح فقد حكمت في الواقع بتغلغل كل ما هو غربي في الصميم من الحياة المادية والعقلية والاجتماعية

« لذلك نجد مع الأسف ان سبيل الثقافة الغربية قد طغى على الشرق بقوة لا تدانيها قوة الجيوش والاساطيل والطائرات وأسلحتها الفاتكة . هي غزوة أشد خطراً وفعلاً من الغزوات

الحربية لسلطانها الثابت على الجماعات والافراد وتحويل طابع الحياة من لون الى لون مختلف كل الاختلاف

«فهل يصح ان نقف أمام هذا الانقلاب مستسلمين الى سطوته وسحره ؟ وهل تلك غايتنا التي فيها الفائدة والسعادة ؟ ان بذلك الاستسلام تفقد كل أمة شرقية صفاتها الخاصة على مر الايام . وسوف يأتي يوم غير بعيد لا نرى فيه الشرق وميزاته إلاَّ لماما في بطون الكتب وآثاراً في المتاحف

«ولكن هناك ظاهرة أخذت تشق طريقها بهدوء ووقار بين جلبة المدنية الحديثة . تلك هي الفلسفة الشرقية القديمة وروحها الخاص إذ قد أخذت المدنية الغربية تحفر قبرها بيدها وبدأت المدنية الشرقية تتحرر من كابوس نيرها لا على اصوات المدافع وصليل السيوف بل على قيثارة هادئة تناجيها من اعماق الماضي الشرقي البعيد بانغام قديمة كلها حنان ورفق . فأصبحت ترى العظمة الغربية في عواصم اوربا وامريكا تكلل بالغار جبين تاغور شاعر الهند وفيلسوفها في جلبابهِ الفياض ووقاره وعظمتها الروحية . اي تمجده في عقر دارها . واصبحت تسمع بالموانئ وهي تزخر ، والطرق وهي تفيض بجيوش حافلة اوربية لتحظى بنظرة من غاندي العاري الذي غزا اوربا بعظمة نفسه المطمئنة الوادعة وإيمانه الراسخ المتين

ثم قال : ولتشترك ريشتا الثقافتين في صنع صورة مثلنا الاعلى بحيث تظل مشكاة الماضي القديم هادية لنا في طريق الاخذ بكل ما هو غربي . . . . . . واذا تناولنا التربية في ذلك المحيط القومي الامثل فلنجعل مثلها الاعلى خليطاً من العظمتين ، ولنرم الى مصري قوي في جسمهِ ناضج كلَّ النضوج في ملكاته . صلب في عزيمته . متين في خلقهِ، مرن في تصرفهِ نفاذ ببصرهِ مؤمن بالله وبالفضيلة نزاع الى الخير والمعروف ، ولنتخير من نظام التربية الغربية ما ينهض بنا من غير اصطدام بتقاليدنا وفلسفتنا وادياننا »

ثم يتناول المؤلف بهذه الروح العالية ، والبصر النافذ ، والاسلوب السهل ، شؤون التربية في البيت والمدرسة على اختلافها ، وفيها كلها يصوغ من معرفتهِ الدقيقة وخبرتهِ الواسعة آراء حكيمة تجمع بين صحة النظر وامكان التطبيق فهي جديرة بكل عناية . وعندنا ان هذا الكتاب يجب ان يطلع عليهِ كل مشتغل بالتعليم والتربية في القطر المصري . بل كل مضطلع بالشؤون العامة . وليس وجوب الاطلاع على كتاب وضعهُ مدرّس حطة من مقام الوزير او المدير او غيره من اصحاب المناصب الكبيرة ، « فمدرس المستقبل سوف يكون اكبر الموظفين شأناً في الدولة » كما يقول الاستاذ جاكس . ومدرّس اليوم اذا احسن الفهم واخلص القول — كما فعل صاحب هذا الكتاب — خليق بان تُسترعي آراؤه كلَّ اهتمام . وقديماً قال ولنغتن القائد البريطاني : كسبت معركة واترلو في باحات ايتُن وهارو (وهما مدرستان من اشهر مدارس الانكليز) ومغزى هذا القول لا يحتاج الى زيادة بيان

جريمة سلفستر بونار

تأليف اناتول فرانس — ترجمة نعيمه حازار — نشرتها المطبعة العصرية بمصر — صفحاتها ٣١١ قطع وسط

الذين يحسنون اللغة الفرنسية من غير ابنائها يرون في كتابة اناتول فرانس مثالاً لابدع ما امتازت بهِ تلك اللغة واسلسهِ . ومن المحتمل انهُ لم يقم منشىءٌ فرنسي من خمسين سنة الى الآن ولقي من الاعجاب بهِ والاهتمام بامرهِ اكثر مما لقي اناتول فرانس . وهذا الاعجاب والاهتمام غير محصورين في فرنسا بل اشتركت فيهما بلدان كثيرة وترجمت مؤلفاتهُ الى غير لغة واحدة

وقد احترمهُ بعضهم احتراماً فائقاً حتى كادوا يعبدونهُ لانهم حسبوهُ ابلغ منشىءٍ في اللغة الفرنسية في العصر الحاضر فقال الناقد جول لمِتر « ان انشاء هذا الرجل عين الكمال في حسن الديباجة وغاية ما وصل اليهِ النبوغ اللاتيني » والاعجاب بانشائهِ عام لسلاستهِ وانسجامهِ وما فيهِ من الظرف والتنوع والدقة والنقد اللاذع الجريء . وانتقصهُ بعضهم حاسباً اياهُ مفسداً لاخلاق الشبان وانهُ من اساتذة الفوضى الذين قاموا في فرنسا بعد رينان واكثرهم تضليلاً

على انهُ مهما تختلف الآراء في مقامهِ كمعلّم للنشء لا يختلف اثنان في سموّ مقامهِ كاديب ومنشىءٍ ومؤلف روائي

ومن اول الروايات التي نشرها هذه الرواية — سنة ١٨٨١ — ويقول بعضهم انها ابلغ ما كتب فاحلتها الاكادمية الفرنسية في اعلى مقام وتوّجتها . وهي قصة بل قصتان تدوران حول شخص واحد اسمهُ سلفستر بونار وهو فيلسوف من اعضاء اكادمية التدوين كان عزباً غريب الاطوار شديد الذكاء كثير التهكم يطيل الالقاء في كل الموضوعات بكلام رقيق منسجم غاية في الدقة والظرف واللين فكأنهُ اناتول فرانس نفسهُ كما ودَّ ان يكون بعد ثلاثين سنة او كما كان قد صار فعلاً . ويذهب احد النقاد « الى ان كثيراً من كتب اناتول فرانس قد يفقد في الاجيال المقبلة بعض ما له من المعزّة في النفوس ولكن كتاب « سلفستر بونار » يبقى مقروءًا الى ابعد العصور التالية لما فيهِ من التهكم الجميل والعلم الواسع من غير غرور والرقة البسّامة والغرام بكل ما هو سام جميل في الانسان والطبيعة

فنشكر لمترجمهِ عنايتهُ بنقلهِ الى اللغة العربية . ونقول اننا عهدنا الى احد الادباء المنزَّهين عن الغرض بالمقابلة بين الترجمة والاصل فاشاد بامانة النقل ودقتهِ

وقد وضع الشاعر محمود ابو الوفا مقدمة بليغة للقصة على أثر معاونتهِ الناشر في تهذيبها

فخر ابي فراس وابي الطيب

رسالة وضعها الاديب عبد الغني باجقني وتقدم بها لاجتياز امتحان شهادة الآداب العليا في الجامعة السورية بدمشق الشام . وقد اجاد الكاتب في الموازنة بين الشاعرين في اساليب الفخر وتعليل ذلك تعليلاً يقرهُ التاريخ ويرتضيه الذوق الادبي . وتطلب الرسالة من مكتبة الشرق بدمشق

مطبوعات جديدة

﴿طبقات الارض﴾ هذا كتاب مدرسي وضعهُ رئيس تحرير هذه المجلة وفقاً للمنهج الذي اقرته وزارة المعارف العمومية للسنة الثالثة الثانوية جاء فيهِ على مبادىء علم الجولوجية فبسط أولاً بناء الكرة الارضية ثم الافعال التي تنتابها خارجية وداخلية فتغيّر من معالم سطحها مثل الرياح والامطار والانهار والامواج والبراكين والزلازل وما إلى ذلك وختمهُ بفصلٍ موجز في الجولوجية التاريخية وعمر الارض والحقب التي توالت على اشكال الحياة على سطحها والانسان في خلال العصور الجليدية. والكتاب في ١٨٠ صفحة تحتوي على رسوم كثيرة وثمنهُ ٥ قروش صاغ

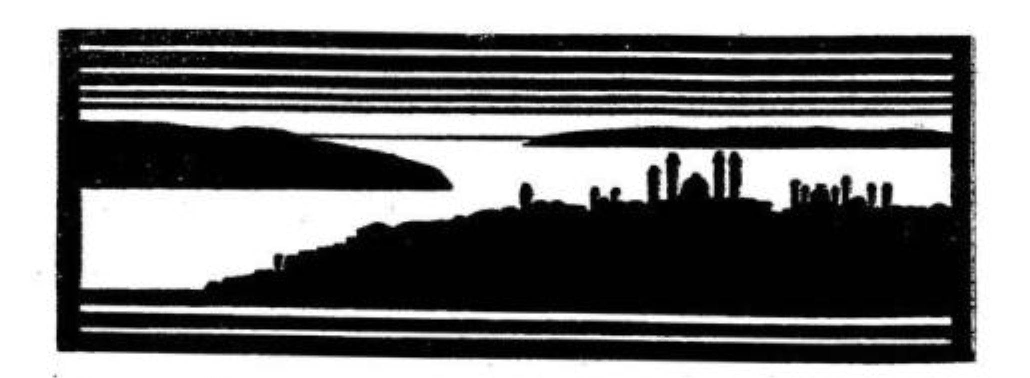
﴿مبادىء علم النبات﴾ وضع الكاتبان العالمان محمود مصطفى الدمياطي والدكتور خربوش كتاباً موجزاً في مبادىء علم النبات يشتمل على مقرّر السنة الاولى للمدارس الثانوية طبقاً لمنهج وزارة المعارف. وكلاهما من المشتغلين بهذا العلم نظراً وعملاً وتدريساً فكتابهما يجب ان يكون عوناً كبيراً للطلاب على تفهم مبادىء هذا العلم الجليل الذي يمتُّ الى الزراعة باقوى صلةٍ. والكتاب موضح بعشرات الرسوم التي تقرب معانيهُ الى القرّاء فليس في صفحاتهِ غامض الا وهو مجلو بهذه الرسوم. ومما يثلج الصدر ان الفاظ هذا العلم كتبت كلها باللغة العربية فلا يستطيع مكاتب التيمس ان يقول بتعذر وضع أي كتاب علمي باللغة العربية كما فعل

﴿التربية بالقصص﴾ عني حامد القصبي المهندس في تنظيم القاهرة باخراج طبعة جديدة من كتابهِ «التربية بالقصص» وهو من خير الكتب التي تعطى للصغار لمطالعتها فيتعلمون الاسلوب العربي الجزل، والفضائل التي تروى عن رجال الشرق والغرب. وغني عن البيان ان «التربية بالقصص» من افضل الوسائل في تثبيت المعاني الادبية المجردة في نفوس الصغار. وهذه الطبعة مضبوطة بالشكل الكامل ومزينة بصور كثيرة ترغب الصغار في القراءة

﴿الطفل الشاذ﴾ احمد عطية الله، مؤلف هذا الكتاب من شباننا الذين لا يكلّون عن البحث والتأليف والنشر. بل انهُ غامر بماله الخاص في نشر «دائرة معارف التربية» في حين ان كثيرين من اصحاب الاموال لا يهمهم ان يبذلوا في هذا السبيل قرشاً واحداً. وآخر مؤلفاتهِ بحث نفسي في الطفل الشاذ وتربيتهِ. وقد قسمهُ الى اربعة اقسام عامة هي: — معنى الشذوذ. الشذوذ الجسمي. الشذوذ العقلي. الشذوذ الخلقي. وأجمل تحت كل موضوع ما يقال فيهِ من الناحية النفسية النظرية والناحية العملية. فيحسن ان تقتنيه ربّات الأُسر المتعلمات لأن فيهِ من الحقائق والارشادات ما يمكنهن من الاضطلاع بتربية الصغار على افضل وجهٍ. والكتاب على صغر حجمهِ مفيد كل الفائدة. وثمنهُ قرشان

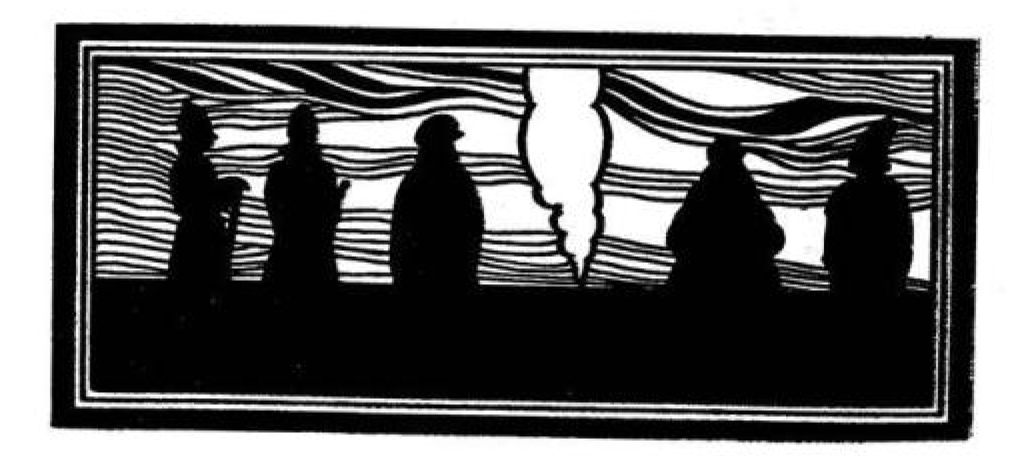
الجزء الخامس من المجلد الحادي والثمانين

فهرس المجلد الحادي والثمانين



الى روحي

حافظ وشوقي



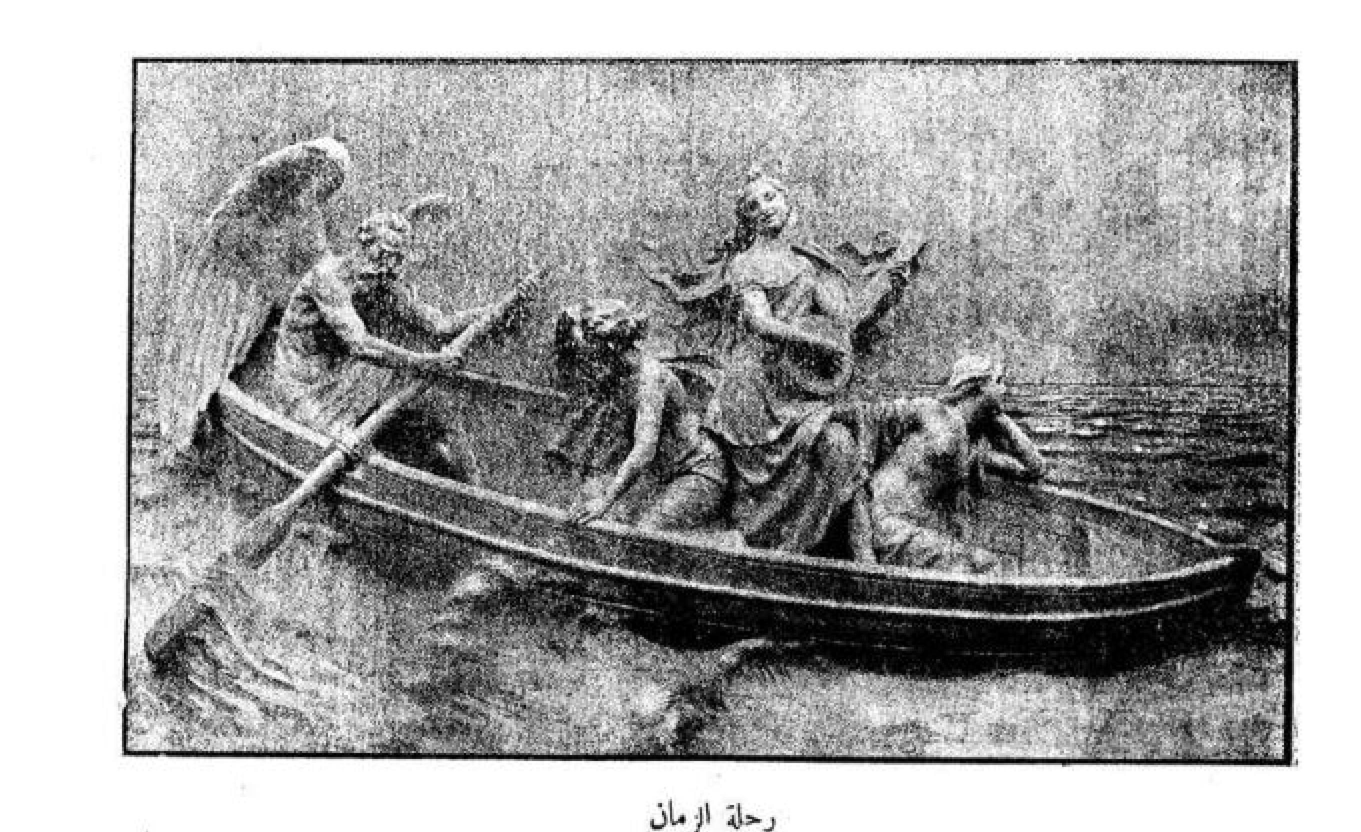


صورة رمزية عنوانها « آفاق الشعر الواسعة »



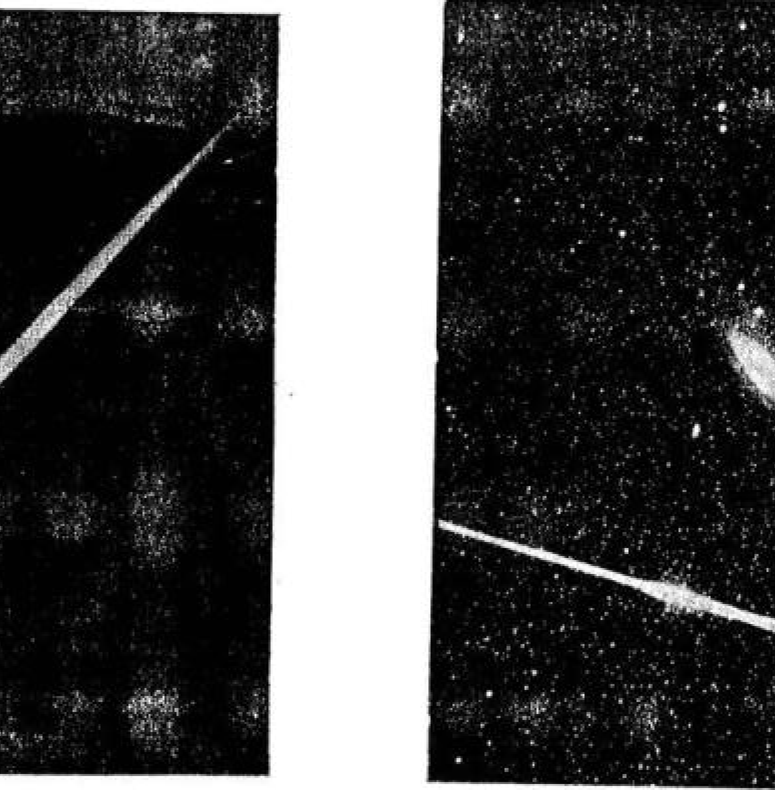
الاهة الشعر الغنائي

لوحة في مكتبة الكنغرس بوشنطن تمثل الاهة الشعر الغنائي في الوسط ووصيفاتها من اليسار الى اليمين يمثلن المرح فالجمال فالشهوة فالحنو فالحقيقة فالاخلاص وهي عناصر الشعر الغنائي في نظر المصور



رحلة الزمان

يمثل الزمان شيخ مجنح ممسك بمجذاف القارب — ثم امرأة تنظر الامام فهي تمثل الرجاء (المستقبل) ثم أخرى تضرب على آلة موسيقية تمثل الطرب (الحاضر) وثالثة مسندة رأسها بذراعها تستعيد الذكريات فهي تمثل الذاكرة (الماضي).



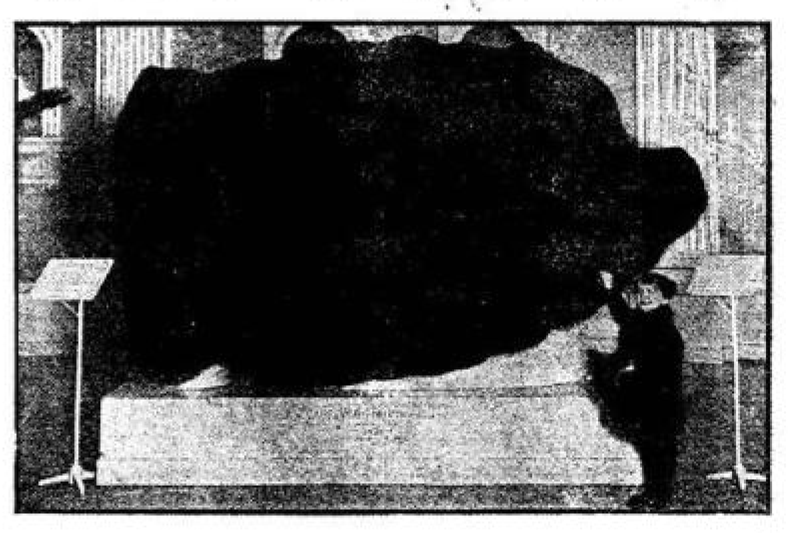
نيزك وهو الشهاب الذي ينفجر ويسمع لانفجاره دوي

شهاب اجتاز لوحة التصوير في خمس دقيقة

امام صفحة ٥٦٧



اكبر الرجم التي وجدت في اميركا . طولهُ عشر اقدام وعلوه ست اقدام ونصف قدم وثخانتهُ اربع اقدام وثلاث بوصات ووزنهُ ٣١٫١٠٧ ارطال انكليزية



أحد الرجم التي نقلها بيري من جرينلندا الى متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك، وقد وقف جنبها صبي عمره ١٣ سنة لبيان حجمها



حفني ناصف رحمه الله



اسعد باسيلي

النجمة امام العنوان تشير الى ان المقالة مصورة